مجموع مؤلفات الشيخ العلامة

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله ١٣٠٧ - ١٣٧٦ هـ

يطبع كاملاً لأول مرة

المجلد الثاني

التفسير

الطبعة الثالثة

طبعة مزيدة ومنقحة

بها فهارس علمية عامة وكشاف خاص بالمسائل

دار الميمان

مجموع مؤلفات الشيخ العلامة

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله ١٣٠٧ - ١٣٧٦هـ

٢

© دار الميمان للنشر والتوزيع، ١٤٤٣هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
السعدي، الشيخ عبد الرحمن بن ناصر
مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي./
الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي - ط٣.- الرياض، ١٤٤٣هـ
٣٠ مج.
ردمك: ٧-٠٠-٨٣٧٨-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
١-٠٢-٨٣٧٨-٦٠٣-٩٧٨ (ج٢)
١- الإسلام - مجموعات أ. العنوان
ديوي ٢١٠,٨ ١٤٣٣/٨٣٩٠

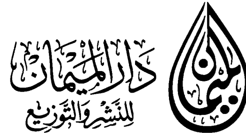
رقم الإيداع: ١٤٣٣/٨٣٩٠
ردمك: ٧-٠٠-٨٣٧٨-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
١-٠٢-٨٣٧٨-٦٠٣-٩٧٨ (ج٢)

© جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولــى ١٤٣٢هجري - ٢٠١١م
الطبعة الثانية ١٤٣٦هجري - ٢٠١٥م
الطبعة الثالثة ١٤٤٤هجري - ٢٠٢٢م

حقوق الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لدار الميمان بموجب الاتفاق بين الدار وورثة المؤلف فلا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو تخزينه أو تسجيله بأي وسيلة، أو تصويره أو ترجمته دون موافقة خطية مسبقة من الناشر.

جمعه ورتبه وصففه وحققه وضبطه على أصوله وصنع فهارسه وكشافاته
قسم تحقيق التراث والنشر العلمي
دار الميمان للنشر والتوزيع



واتساب: 07111 48 55 966+
Info@DarAlMaiman.com
www.DarAlMaiman.com
DarAlMaiman

مجموع مؤلفات الشيخ العلامة

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله ١٣٠٧ - ١٣٧٦هـ

(يطبع كاملاً لأول مرة)

إشراف ومتابعة وتنسيق

محمد بن عبد الرحمن السعدي رحمه الله — مساعد بن عبد الله السعدي

سليمان بن عبد الله الميمان — أيمن بن عبد الرحمن الحنيحن

المجلد الثاني

التفسير

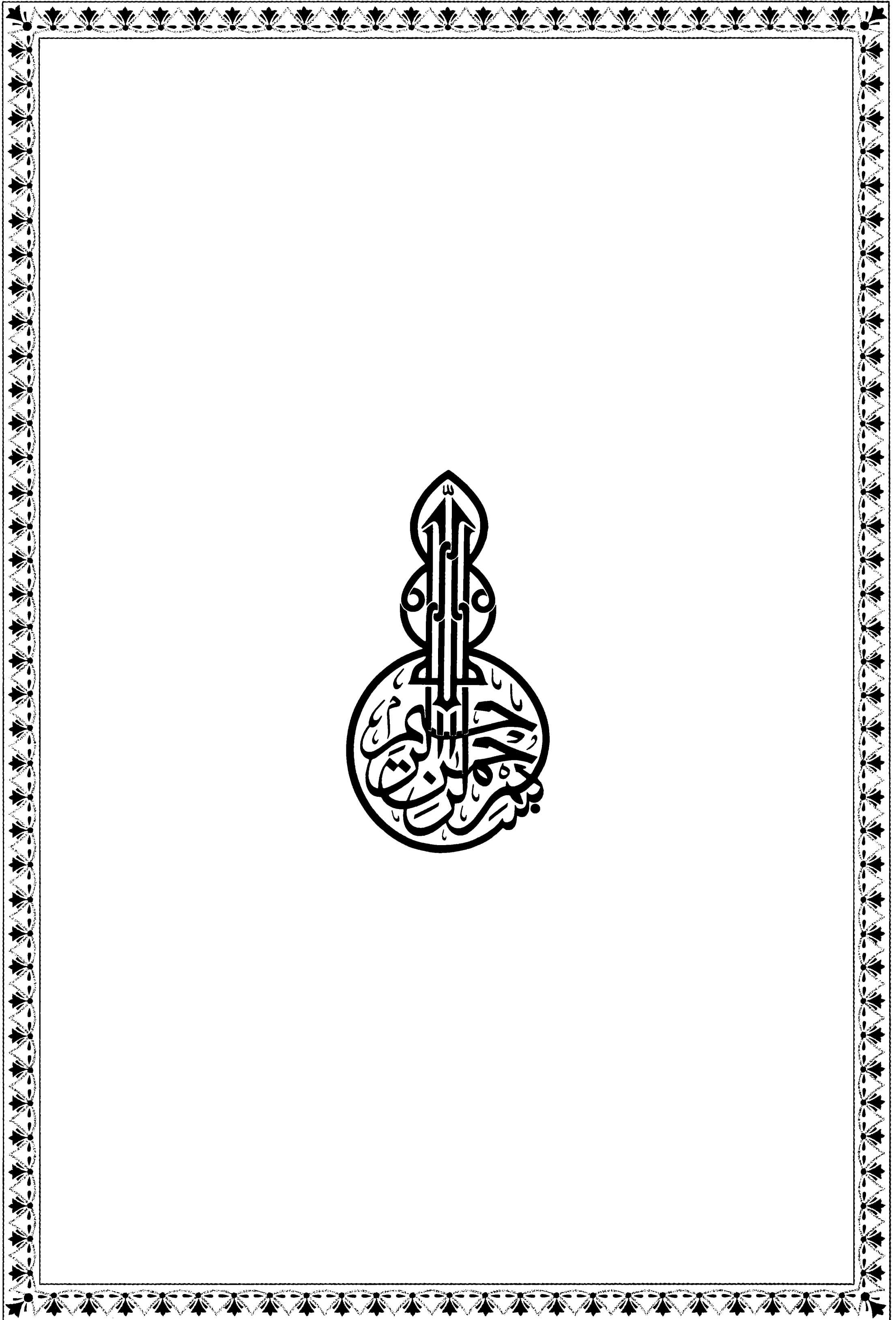
الطبعة الثالثة

طبعة مزيدة ومنقحة

بها فهارس علمية عامة وكشاف خاص بالمسائل

دار الميمان للنشر والتوزيع

السعودية - الرياض


بسم الله الرحمن الرحيم

مجموع مؤلفات ابن سعدي (١)

تيسير الكريم الرحمن

في تفسير كلام المنان

تأليف

الشيخ العلامة

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله

إضاءات من أقوال العلماء
في
تيسير الكريم الرحمن

«تفسير شيخنا عبد الرحمن بن ناصر السعدي من أحسن التفاسير؛ حيث كان له ميزات كثيرة:

- منها سهولة العبارة ووضوحها..
- ومنها تجنب الحشو والتطويل..
- ومنها تجنب ذكر الخلاف إلا أن يكون الخلاف قويًّا تدعو الحاجة إلى ذكره.
- ومنها السير على منهج السلف في آيات الصفات.. فهو عمدة في تقرير العقيدة.
- ومنها دقة الاستنباط فيما تدل عليه الآيات من الفوائد والأحكام والحكم.
- ومنها أنه كتاب تفسير وتربية على الأخلاق الفاضلة».

فضيلة الشيخ

محمد الصالح العثيمين

رحمه الله

تفســير جيد، وله أقوال جيدة مــع أن مراجعتي له قليلة، لكن في حدود اطلاعــي عليه تبين لي أنه متحرر الرأي والنظر بضوابط الشرع، وليس عنده جمود أو تعصب.

الشيخ

محمد ناصر الدين الألباني

رحمه الله

جاء هذا التفسـير سهل العبارة، واضح الإشارة، وصاغه على نمط بديع بعبارات قريبة لا خفاء فيها ولا غمـوض، فهو يعتني بإيضـاح المعنى المقصود من الآية بكلام مختصر مفيد، مسـتوعب لجميع ما تضمنته الآية؛ من معنى أو حكم، سـواء مـن منطوقها أو مفهومها، دون إطالة أو اسـتطراد أو ذكر قصص أو إسرائيليات، أو حكاية أقوال تخرج عن المقصود.

فضيلة الشيخ

عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل

رحمه الله



تفسـير مأمون جارٍ على طريقة السـلف؛ يجمع خلاصة الأثر الصحيح والفهم السليم بسياق سهل مختصر، فهو تذكرة للمنتهي، وتبصرة للمبتدي... ضمن - رحمه الله تعالى - تفسـيره كثيرًا من جلائل المعاني ودقائق الاستنباط من آيات الذكر الحكيم والقرآن المجيد.

فضيلة الشيخ

بكر بن عبد الله أبو زيد

رحمه الله



مقدمة التحقيق

الحمد لله الذي أنـزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، وأحاط بكل شـيءٍ علمًا، وأحصى كل شـيءٍ عددًا، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين، نبيِّنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى كل من تمسَّك بهديه، واستن بسنته، واقتفى أثره إلى يوم الدين.

أما بعد:

فالتفسـير وعلوم القرآن من المنشـورات التي تتصدر قائمة دار الميمان، كإحدى المسـالك التي سـلكتها الدار لنشر الثقافة الإسلامية بتنوعها عبر مختلف القنوات العلمية، وتعميق تواصل المسلمين بكتاب ربهم.

وقد قدّمتِ الدار في هذا الصدد العديد من المصنفات التي تقوم على خدمة كتاب الله والتي جمعت بين التراث والمعاصرة؛ فقد قدّمت من كتب التراث كتاب **أسـباب نزول القرآن للواحدي**، كما قدّمت مـن الكتب المعاصرة كتاب **العلم الأعجمي في القرآن مفسـرا بالقرآن مـن إعجاز القرآن في أعجمي القرآن وجه في إعجاز القرآن جديد**.

ولا تتسـع هذه المقدمة الموجزة للكلام على هذا التفسـير القيم، إلا أننا نحيل القارئ على دراسة بعنوان: **الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي مفسرًا**، لعبد الله بن سابح بن صالح الطيار.

كما قُدمت أكثر من دراسـة عن الشـيخ السـعدي تبين لنا إلى أي مدى نال الشـيخ السـعدي - رحمه الله - مكانة عالية من خلال مـا قدم من مصنفات ومؤلفات امتلأت بالأفكار القيمة التي كانت مجالًا فسيحًا للدارسين من بعده يَرْتَعُونَ فيه ويرتوون منه.

والشـيخ السعدي - كما قيل -: «له اليد الطولى في علم التفسير؛ حيث ألف تفسيره العظيم «تيسير الكريم الرحمن»، وكان يمليه إملاء من غير أن يكون معه وقتئذ كتاب في التفسير ولا غيره، بل كان يقرأ مع طلابه القرآن الكريم، وفي أثناء القراءة يفسـره لهم، ويبين لهم معانيه ووجوه إعجازه، ويستنبط لهم منه فرائد الفوائد، حتى إن من يستمع إليه يود لو أنه استمر في تفسير الآيات؛ وذلك بفضل ما آتاه الله من

فصاحة لسان، وجزالة لفظ، وقوة بيان، وتوسع في عرض القصص، ودقة في استنباط الحكم التشريعية التي تخاطب العقل وتلجمه بلجام الإقناع السريع».

نسأل الله تعالى أن يرحمه رحمة واسعة، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



قصة التفسير

للشـيخ عبد الرحمن بن ناصر السـعدي - رحمه الله - عناية فائقة بكتـاب الله، عز وجل، حَفِظه وعلَّمه وفسَّـره وأظْهر فوائدَه وقواعدَه الحسـان، فخرجـتْ لنا مؤلفاتٌ عديدةٌ فـي هذا الفن طُبعت ونشرت، ومنها كتابه المشهور وتفسيره المعروف «**تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**» الذي طبع طبعات متكررة، وكان له نصيب من عناية الباحثين والمحققين الأكاديميين.

وتعود قصة نشـر هذا التفسـير إلى النسخة التي أرسـلها الشـيخ عبد الرحمن إلى الشيخ الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب المطبعة السـلفية بالقاهرة، سـنة ١٣٧٤ هـ؛ لتكون النسخة المعتمدة للطباعة، وكانت بواسـطة تلميذه الشـيخ عبد الله بن محمد العوهلي، والوجيه محمد حسن نصيف، وهو في ثمان مجلدات.

وما زالت النسـخ الأصلية لجميع المجلدات في عهدة أحفاد الشـيخ محب الدين الخطيب، وقد حاول بعض تلاميذ الشـيخ وبعض محبيه الحصول عليها واسـترجاعها، ولم يتم لهم ذلك، ولم تنفع المحاولات.

وقد كتب الشيخ ابن سعدي - رحمه الله - تفسيره بخط يده، وبمعاونة بعض طلابه فوقع في ثمانية مجلـدات، ولم يرغب في طباعته إلا بعد إلحاح طلابه ومحبيه فوافق على طباعة الجزء الخامس الذي يبدأ من تفسير سورة الكهف إلى آخر النمل.

فبعث الشـيخ رحمه الله إلى - وجيه الحجاز ومحب العلم والعلماء، فقد اشتهر بسعيه في طباعة الكتب النافعة - الشـيخ محمد بن حسـن نصيف رحمه الله برسالة مدونة في خاتمة المجلد الخامس من تفسـيره «تيسـير الكريم الرحمن» مؤرخة في ٣١/ ٢/ ١٣٧٤ هـ. بواسطة ونسـخ ابنه محمد بن عبد الرحمن السعدي. وهذا نصها[1]:

---

(١) مدونة في خاتمة المجلد الخامس من نسخة الأصل، مؤرخة في ٣٠/ ٢/ ١٣٧٤ هـ.

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة محترم المقام الشيخ محمد نصيف حفظه الله آمين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

سـبق جواب كتابكم الذي آمل وصوله، ثم إننا نكلفكم حيث أرسـلت لكم تفسيرنا الكبير المجلد الخامس، منه وقع النظر على الاقتصار على طبعه فجعلنا له مقدمة وختمناه بأصول وكليات من أصول وكليات التفسير، ونريد أن يطبع منه خمسة آلاف نسخة، وأحببت أن يكون الاختيار لجنابكم في اختيار من يتولى طبعه؛ إما محب الدين الخطيب، أو الشـيخ حامد، أو من ترجح وتحثه على العناية التامة فيه، ولو زاد علينا المصرف، وقد وصيت الشـيخ: عبد الله المحمد العوهلي يسـلم لكم كل الذي تطلبون لأجل طبعه، وأرجو الله أن يثيبكم الثواب الجزيل، ويشـكر مسـاعيك ويجزيـك عنا أفضل الجزاء، فأنت - طال عمرك - عوض النفس في كل شيء.

والله الموفق والسلام

محمد عبد الرحمن الناصر السعدي



بين يدي التفسير

لقد اتفقت كلمة العلماء والدارسين على أنه تفسير «سهل العبارة، يجمع بين بيان المعنى المقصود، والغوص في أسرار التشريع، بعيد عن تعقيدات الألفاظ والإسهاب في بيان الأحكام»[1].

الهدف من التفسير:

أما فيما يتصل بالغرض الأول الذي من أجله صنَّف الشـيخ هذا التفسير، فقد أبان الشيخ عن ذلك في افتتاحية التفسـير قائلا: «وقد كثرت تفاسـير الأئمة رحمهم الله لكتاب الله؛ فمـن مُطوِّل خارج في أكثر بحوثه عن المقصود، ومن مقصِّر، يقتصر على حـلِّ بعض الألفاظ اللغوية، بقطع النظر عن المراد، وكان الذي ينبغي في ذلك، أن يجعل المعنى هو المقصود، واللفظ وسـيلة إليـه.. ولما منَّ الباري عليَّ وعلى إخواني بالاشتغال بكتابه العزيز بحسب الحال اللائقة بنا أحببتُ أنْ أرسم من تفسير كتاب الله ما تيسر، وما منَّ به الله علينا، ليكون تذكرة للمحصِّلين، وآلة للمستبصرين، ومعونة للسالكين، ولأقيده خوفَ الضياع، ولم يكن قصدي في ذلك إلا أن يكون المعنى هو المقصود، ولم أشتغل في حلِّ الألفاظ والعقود، للمعنى الذي ذكرت، ولأنّ المفسرين قد كفوا من بعدهم، فجزاهم الله عن المسلمين خيرا»[2].

ويقول الشـيخ في موضع آخر: «فينظر في سياق الكلام، وما سـيق لأجله، ويقابل بينه وبين نظيره في موضع آخر؛ ويعرف أنه سـيق لهداية الخلق كلهم، عالمهم وجاهلهم، حضريهم وبدويهم، فالنظر لسـياق الآيات مع العلم بأحوال الرسول وسـيرته مع أصحابه وأعدائه وقت نزوله، من أعظم ما يعين على معرفته وفهم المراد منه، خصوصا إذا انضم إلى ذلك معرفة علوم العربية على اختلاف أنواعها.

فمن وفق لذلك، لم يبق عليه إلا الإقبال على تدبره وتفهمه وكثرة التفكر في ألفاظه ومعانيه ولوازمها، وما تتضمنه، وما تدل عليه منطوقا ومفهوما، فإذا بذل وسـعه في ذلك، فالرب أكرم من عبده، فلا بد أن يفتح عليه من علومه أمورا لا تدخل تحت كسبه»[3].

---

(١) د/ عبد الله الطيار، صفحات من حياة علامة القصيم الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله، ص ٢٨.

(٢) تيسير الكلام الرحمن، ص٧٨ من هذا المجلد

(٣) تيسير الكلام الرحمن، ص٧٨ من هذا المجلد

طريقته في التفسير:

انتهج الشيخ السهولة والتيسير وعدم التشعب في مسالك المتكلمين والفقهاء، بل أراد لتفسيره أن يكون سهل العبارة قريب المأخذ، واضح البيان بعرض حسن؛ حيث انطلق - رحمه الله - في تفسيره هذا من القرآن نفسه والسنة المشرفة وأقوال علماء خير القرون، بأسلوب ممتع شيق، وعبارة سهلة مبسطة، وأسلوب قريب.

وقد أوضح - رحمه الله - طريقته في التفسير قائلا: «اعلم أن طريقتي في هذا التفسير أني أذكر عند كل آية ما يحضرني من معانيها، ولا أكتفي بذكر ما يتعلق بالمواضع السابقة عن ذكر ما تعلق بالمواضع اللاحقة؛ لأن الله وصف هذا الكتاب أنه (مثاني) تثنى فيه الأخبار، والقصص، والأحكام، وجميع المواضيع النافعة، لحكم عظيمة، وأمر بتدبره جميعه؛ لما في ذلك من زيادة العلوم والمعارف، وصلاح الظاهر والباطن، وإصلاح الأمور كلها»[1].

مميزات التفسير:

ومن خلال رحلتنا مع هذا التفسير ومعايشتنا لتجليات شيخنا، وجدنا أنه يمتاز بعدة مزايا أهمها:

١- أسلوبه علمي رصين، ومنهجه مرتب للأفكار والمعلومات.

٢- بيانه رائق، سلس العبارة، مشرق الديباجة.

٣- كما جاء الكتاب في حجم متوسط بين التفاسير المطولة، لا يمل منه القارئ ولا يستطيله، رغم ما حواه من معلومات قيمة، وما عالجه من قضايا شائكة.

٤- توجيهه إلى المسلم المعاصر بلغته المباشرة وأسلوبه الأخّاذ، فجاء التفسير جامعًا بين ما أفاده الشيخ من علوم من السابقين، وبين ما يُفهم ويحرك الحاضرين والمعاصرين، وقد أظهر الشيخ - رحمه الله- معرفة عميقة بالقرآن، وقدرة رائعة على إيصال المعنى إلى ذهن القارئ بأيسر عبارة وأوجز أسلوب، وأوضح بيان.

٥- الاهتمام بدراسة التناسب في السور القرآنية والإثبات بالحجة والبرهان أن السورة الواحدة من القرآن إنما هي كالبناء المتماسك لا يمكن أن تنزع منه لبنة واحدة دون أن يتداعى ويفسد نظامه.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٧٥ من هذا المجلد.

ومن المميزات أيضا[1]:

٦- اختصاره واقتصاره على تفسير الآيات وبيان معانيها بأسلوب سهل واضح لا تعقيد فيه ولا التواء.

٧- بعده عن الإغراق في المباحث اللغوية والتعقيدات النحوية التي تذهب بجمال التفسير وبهائه.

٨- خلوّه من الإسرائيليات التي امتلأت بها كثير من كتب التفاسير.

٩- اعتناؤه بأمر العقيدة اعتناءً بالغا، فتميزت مباحثه العقدية بوضوح العبارة وسهولتها، وهدم الحجج التي يرسلها الخصوم بسائر الأدلة لتتضح الصورة في ذهن القارئ.

١٠- كما امتاز كذلك بقلة الإسهاب في ذكر الأحكام، فجاء التفسير عارضا للحكم مقرونا بالدليل، وهو ما تمس حاجة المسلم المعاصر له.

١١- أبدع الشيخ - رحمه الله- في عرض قصص الأنبياء واستنباط الفوائد منها.

إننا نؤكد أن الله سبحانه وتعالى أعطى هذه الأمة في قرنها الثالث عشر الهجري واحدًا من رجالها الذين سعوا نحو فهم للقرآن وتفسيره بصورة عصرية، فجاء هذا التفسير جامعًا بين الأصالة والمعاصرة.

فالكتاب كلّه مميزات وجميل في طرحه واستيعابه واختصاره، وعندما عقدنا العزم على إعادة نشره ضمن هذا المجموع من مؤلفات الشيخ - لا سيما في هذه الطبعة المزيدة المنقحة - آثرناه بمزيد من التدقيق، والتحقيق ومقابلة نسخه واعتماد أصل منها وفق قواعد التحقيق العلمي، فجاءت طبعتنا بحمد الله ومنه:

١- معتمدةً على نسختين للمخطوط.

٢- ذكر فروق النُّسخ، وذلك يجعل للقارئ فرصة التخيُّر والاجتهاد، فيما لو رأى أن ما اختاره المحققون ليس مما يحالفه الصواب، على أننا لم نَنْسَقْ وراء إثبات جميع الفروق لسببين:

الأول منهما: أن غالب هذه الفروق ليست جوهرية ولا مؤثرة في المعنى؛ لذا فقد اقتصرنا في إثبات الفروق على الجوهري منها إلا قليلا.

---

(١) د/ عبد الله الطيار، صفحات من حياة علامة القصيم الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله، ص ٦٤ وما بعدها.

والثاني: عدم إثقال التفسـير بالفروق التي لا قيمة لها، خصوصا بعدما قطعنا شوطا كبيرا في المقابلة، وأدركنا أن غالب هذه الفروق ليس له كبير فائدة.

٣- تخريج الأحاديث، وبعض الآثار تخريجًا موجزًا، وهو مع وجازته يفيد في عملية البحث العلمي، ويقرِّب المعلومة لمن يريد أن يتوسع في التخريج.

٤- شرح المفردات الغريبة التي تحتاج إلى شرح.

ومن حيث العموم فالحواشـي لم تكن مثقلة بما لا يفيد، وهذا من محاسن التحقيق من هذه الجهة.

٥- ضبط ما أشكل من النص من ذلك ما هو بضبط المؤلف نفسه، ومنه ما هو من ضبطنا.

٦- مقدمة هامة تبين: أهميـة هذا الكتاب وقيمته ومكانته بين كتب المصنف وغيره، مع بيان منهج المؤلف فيه، ومنهج التحقيق.

٧- عمل فهـارس علمية تفصيلية شـاملة لمحتواه، ضمت إلى فهـارس الكتاب العامة في المجلد السابع والعشرين من هذه الموسوعة.

٨- أدرجنا القرآن الكريم كله ليستطيع القارئ الربط بين التفسير وبين موضعه في المصحف الشريف.



وصف النسختين المعتمدتين في التحقيق

المخطوطة الأولى:

وهي النســخة التي اعتمدناها أصلًا في التحقيق، وأشرنا إليها برمز الأصل في الحواشي، وهي التي أرسلها الشيخ عبد الرحمن السعدي إلى **الشيخ الأستاذ محب الدين الخطيب** صاحب المطبعة السلفية بالقاهرة، سنة ١٣٧٤ هـ؛ لتكون النسخة المعتمدة للطباعة، على نحو ما سبقت إليه الإشارة.

توصيف النسخة:

المجلد الأول: تم نســخه في ٩/ ٣/ ١٣٤٣ هـ بخط الشـيخ وخط أحد تلاميــذه وعدد صفحاته ١٢٦ صفحة ويتراوح عدد الأسطر في بعض المجلدات من ٢٣ سطرًا إلى ٣٣ سطرًا.

وقد كتب الشيخ في غلاف المجلد الأول تنبيهًا فقال(١):

(اعلم أن طريقتي في هذا التفســير أني أذكر عند كل آية ما يَحضُرني مــن معانيها، ولا أكتفي بذكر ما تعلق بالمواضع السابقة عن ذكر ما تعلق بالمواضع اللاحقة؛ لأن الله وصف هذا الكتاب أنه (مثاني) تثنى فيه الأخبار والقصص والأحكام وجميــع المواضيع النافعة لحكم عظيمة وأمر بتدبره جميعه لما في ذلك من زيادة العلوم والمعارف وصلاح الظاهر والباطن وإصلاح الأمور كلها)

المجلد الثاني: تم نســخه في ٢٥/ ٦/ ١٣٤٥ هـ بخط تلميذه الشـيخ علي الحسن البريكان وعدد صفحاته ١٧٧ صفحة.

المجلد الثالث: تم نســخه في ٢١/ ٤/ ١٣٤٧ هـ بخط الشـيخ وخط أحد تلاميذه وعدد صفحاته ١٥٢ صفحة.

المجلد الرابع: تم نســخه في ٢٧/ ٥/ ١٣٤٤ هـ بخط تلميذه الشيخ سليمان المحمد البسام وعدد صفحاته ١١٣ صفحة.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٧٥ من هذا المجلد.

المجلد الخامس: وهو أول مجلد طلب الشـيخ البدء في صفه وطباعته وإرساله إلى المملكة. وفي صفحته الأولى الرسالة المرسلة في ٣١[1]/ ٢/ ١٣٧٤هـ من الشيخ عبد الر حمن إلى الشيخ الوجيه محمد حسـن نصيف في جدة وفي مقدمته رغبته - رحمه الله - في طباعة تفسـير سـهل وغير مطول تم نسخه في ٢٢/ ٩/ ١٣٤٣هـ من خط مؤلفه في ٢٩/ ١٢/ ١٣٤٦هـ وعدد صفحاته ٢١٢ صفحة.

المجلد السادس: تم نسخه في ٦/ ١٠/ ١٣٤٣هـ بخط الشيخ وعدد صفحاته ١٥٤ صفحة.

المجلد السابع: تم نسخه في ١٣/ ١٢/ ١٣٤٥هـ بخط تلميذه الشيخ سليمان حمد عبد الله البسام وعدد صفحاته ١٢٢ صفحة.

المجلد الثامن: تم نسخه في ٧/ ٨/ ١٣٤٥ هـ بخط الشيخ وعدد صفحاته ٢٠٠ صفحة.

ومجموع صفحات التفسير الكلية ١٢٥٦ صفحة بعدد أسطر ٣٧٦٨٠ سطرًا تقريبًا بمعدل ٣٠ سطرًا في كل صفحة

وهذه المخطوطة الأولى منسوخة من المخطوطة الثانية.

المخطوطة الثانية[2]:

وهي مخطوطة التفسـير التي كتبها رحمه الله أول مرة وهـي التي أعارها عبد الله بن عبد الرحمن السعدي بعد وفاة والده **للشيخ محمد بن صالح العثيمين** وفيها بخط الشيخ محمد على جميع المجلدات كتب: (عارية عندي من قبل عبد الله السـعدي ابن المؤلف) رحمهم الله جميعا، وهي الموجودة الآن في مكتبة ومقتنيات الشيخ محمد بمؤسسة الشيخ ابن عثيمين بعنيزة.

المجلد الأول: قال الشيخ ابن سعدي في طرة المجلد الأول: «شرعت في هذا التفسير المبارك غرة شهر ذي الحجة سنة ١٣٤٢ هـ أرجو الله أن يتمه بنعمته».

وقد كتب على غلافه «المجلد الأول من تيسـير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، من منن الله على عبده، وابن عبده، وابن أمته: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي».

وعلق على التسمية بقوله فوق اسـم الكتاب: «هذه التسمية مأخوذة من قوله: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ وقوله: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾».

---

(١) كذا في المخطوط.

(٢) وقد رمزنا لها بالرمز (ع).

وفي آخره كتب «تم السفر الأول من هذا التفسير المبارك بيسر من الله وإعانة فله الحمد والشكر والثناء وأسأله المزيد من فضله وكرمه وإحسانه ويليه المجلد الثاني وذلك في ٢٩/ ٣/ ١٣٤٣هـ. بقلم جامعه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي غفر الله له ولوالديه وإخوانه المسلمين والحمد لله رب العالمين».

وفيه بين الشيخ في غلاف المجلد الأول أن تسميته بهذا الاسم **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان** مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾[١].

ومن قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾[٢].

وبلغ عدد صفحات المجلد ١٥٠ صفحة.

المجلد الثاني: أوله تفسير آية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾[٣]. ولم يؤرخ الشيخ تاريخ إتمامه وهو بخطه رحمه الله وعدد صفحاته ١٩٢ صفحة.

المجلد الثالث: أوله سورة الأعراف ولم يؤرخ الشيخ تاريخ إتمامه وهو بخطه رحمه الله وعدد صفحاته ٢١٤ صفحة.

المجلد الرابع: أوله سورة يوسف وهو بخطه رحمه الله وكان تمامه في ٧/ ٥/ ١٣٤٤ هـ وعدد صفحاته ١٢٩ صفحة.

المجلد الخامس: أوله سورة الكهف وهو بخطه رحمه الله وكان تمامه في ٢٢/ ٩/ ١٣٤٣ هـ وعدد صفحاته ٢٢٩ صفحة.

المجلد السادس: أوله سورة القصص وهو بخط محمد بن منصور بن إبراهيم الزامل وكان تمامه في ٢٤/ ٧/ ١٣٤٣ هـ وعدد صفحاته ١٤٢ صفحة.

المجلد السابع: أوله سورة ص ولم يؤرخ الشيخ تاريخ إتمامه وهو بخطه رحمه الله وعدد صفحاته ١٥٣ صفحة.

المجلد الثامن: أوله سورة الحجرات وهو بخطه رحمه الله وكان تمامه في ١٦/ ٢/ ١٣٤٤هـ وعدد صفحاته ١٤٦ صفحة.

---

(١) سورة القمر، الآية: ١٧.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٣٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٣٠.

المجلد التاسع: أوله سورة هل أتى على الإنسان وهو بخطه رحمه الله وكان تمامه في ١/ ٣/ ١٣٤٤هـ وعدد صفحاته ٥٠ صفحة.

وبلغ مجموع صفحات المخطوطة الثانية ١٤٠٥ صفحة بعدد أسطر ٣٩٣٤٠ سطرًا تقريبًا بمعدل ٢٨ سطرًا في كل صفحة.

وقد ذكر الشيخ عبد الله العبد الرحمن البسام في كتابه علماء نجد عندما ترجم للشيخ ناصر بن سعود الشويمي (١٢٨٥هـ- ١٣٤٩هـ) فقال: «وقد عرف علماء عصره له سعة الاطلاع وطول الباع في العلم، فعلامة القصيم الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي لما شرع في تصنيف كتابه (تفسير القرآن) صار يراجعه ويعرضه عليه، ليأخذ رأيه فيه»[(١)].

منهج التحقيق:

يتحدد هذا المنهج بداية في جمع ما أمكن جمعه من نسخ المخطوط، ثم دراستها؛ لاتخاذ أصل وفق معايير التحقيق المعروفة.

وقد تمت خطوات التحقيق على النحو التالي:

١- اعتماد النسخة السلفية أصلا في التحقيق، فلم نجاوزها إلى غيرها إلا إذا لم نجد لما فيها مخرجا؛ وذلك لأن الشيخ رحمه الله راجعها، وكذلك راجعها الشيخ محمد بن سليمان البسام، رحمهما الله.

٢- مقابلة النص المطبوع من التفسير على النسختين السابق توصيفهما.

٣- إثبات الفروق المهمة فقط، حتى يتثنى للقارئ الاطلاع على ما أنتجته المقابلات من فروق جوهرية مؤثرة.

٤- استدراك ما سها عنه الناسخ، مراعيًا إثبات الفروق، ووضع الزيادات بين معكوفين، والتنبيه على ذلك في الحاشية، وكذلك الكلمات التي لم تكن واضحة بالمخطوط، والتي أثبتها اجتهادًا.

٥- ضبط المتن ويشتمل على ضبط الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وسائر الكلام بنية وإعرابًا.

---

(١) علماء نجد خلال ثمانية قرون (٦/ ٣٦٠).

٦- الاهتمام بعلامات الترقيم مع ضبط النص.

٧- عزو الآيات القرآنية إلى أماكنها في المصحف الشريف.

٨- تخريج الأحاديث والآثار تخريجا موجزا.

٩- تجنب ما أقحمه بعض المحققين من النصوص وليست من التفسير، ونعني بذلك طبعة الشيخ محمد زهري النجار، التي لاحظنا فيها اختلاف كثير من النصوص عما في المخطوطتين المعتمدتين في التحقيق.

وبعد...

فإننا نرجو الله تعالى أن نكون قد وفقنا في قراءة هذا الكتاب، وأن نكون قد أديناه كما أراده مؤلفه.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



نماذج للمخطوطتين المعتمدين في التحقيق

المجلد الأول من تيسير الكريم المنان
في تفسير القرآن لمعلقه الفقير إلى الله
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
غفر الله له ولوالديه ولجميع
المسلمين

تنبيه

اعلم أن طريقتي في هذا التفسير أني أذكر عند كل آية ما يحضرني من معانيها، ولا أكتفي بذكر ما تعلق بالمواضع السابقة عن ذكر ما تعلق بالمواضع اللاحقة؛ لأن الله وصف هذا الكتاب أنه "مثاني" تثنى فيه الأخبار والقصص والأحكام وجميع المواضيع النافعة لحكم عظيمة، وأمر بتدبره جميعه لما في ذلك من زيادة العلوم والمعارف، وصلاح الظاهر والباطن، وإصلاح الأمور كلها

صورة غلاف الجزء الأول من النسخة التي أرسلها الشيخ عبد الرحمن إلى الشيخ الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب المطبعة السلفية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل على عبده الفرقان الفارق بين الحلال والحرام والسعداء
والأشقياء والحق والباطل وجعله برحمته هدى للناس عموما وللمتقين
خصوصا من ضلال الكفر والمعاصي والجهل إلى نور الإيمان والتقوى والعلم.
وأنزله شفاء للصدور من أمراض الشبهات والشهوات ويحصل به اليقين
والعلم في المطالب العاليات. وشفاء للأبدان من أمراضها وعللها وآلامها
وأسقامها. وأخبر أنه لا ريب فيه ولا شك بوجه من الوجوه وذلك لاشتماله
على الحق العظيم في أخباره وأوامره ونواهيه. وأنزله مباركا فيه الخير الكثير
والعلم الغزير والأسرار البديعة والمطالب الرفيعة فكل بركة وسعادة
تنال في الدنيا والآخرة فسببها الاهتداء به واتباعه وأخبر أنه مصدق
ومهيمن على الكتب السابقة فما شهد له فهو الحق وما رده فهو المردود
لأنه تضمنها وزاد عليها وقال تعالى فيه {يهدي به الله من اتبع رضوانه
سبل السلام} فهو هاد لدار السلام مبين لطريق الوصول إليها وحاث
عليها كاشف عن الطرق الموصلة إلى دار الآلام ومحذر عنها وقال تعالى مخبرا
عن كتابه {كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير} فبين آياته أكمل تبيين
وأتقنها أي إتقان وفصلها بتمييز الحق من الباطل والرشد من الضلال
تفصيلا كاشفا للبس لكونه صادرا من حكيم خبير فلا يخبر إلا بالصدق
والحق واليقين ولا يأمر إلا بالعدل والإحسان والبر ولا ينهى إلا عن
المضار الدينية والدنيوية. وأقسم تعالى بالقرآن ووصفه بأنه مجيد والمجد
سعة الأوصاف وعظمتها وذلك لسعة معاني القرآن وعظمتها. ووصفه
بأنه ذو الذكر أي يتذكر به العلوم الإلهية والأخلاق الجميلة والأعمال
الصالحة ويتعظ به من يخشى. وقال تعالى {إنا أنزلناه قرآنا عربيا
لعلكم تعقلون} أي أنزله بهذا اللسان لنعقله ونفهمه وأمرنا بتدبره
والتفكر فيه والاستنباط لعلومه وما ذاك إلا لأن تدبره مفتاح كل خير
محصل

صورة الصفحة الأولى من الجزء الأول من النسخة التي أرسلها الشيخ عبد الرحمن إلى الشيخ الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب المطبعة السلفية

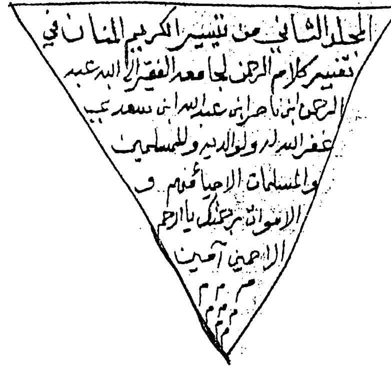
لما بين شدة عداوتهم وشرح ما هم عليه من الصفات الخبيثة أمر عباده المؤمنين بالصبر ولزوم التقوى وأنهم
إذا قاموا بذلك فلن يضرهم كيدهم شيئا فإن الله محيط بهم وبأعمالهم ومكائدهم التي يكيدونكم فنبه
وقد وعد من اتقاه وصبر أنهم لا يضرهم شيئا فلا تشكوا في حصول ذلك (وإذ غدوت من أهلك تبوئ
المؤمنين مقاعد للقتال) وذلك يوم أحد حين خرج صلى الله عليه وسلم بالمسلمين حين وصل المشركون بجمعهم
إلى قريب من أحد فنزل النبي صلى الله عليه وسلم منازلهم ورتبهم في مقاعدهم ونظمهم تنظيما عجيبا يدل على كمال رأيه
وبراعته الكاملة في معرفة السياسة كما كان كاملا في كل المقامات (والله سميع عليم) لا يخفى عليه شيء (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا)

(إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا) وهم بنو سلمة وبنو حارثة كما تسولها البارئ لطفه ورعاية وتوفيقه
(والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون) فإنهما إذا كان الله وليهما كفاهم ذلك عنهم وعصمهم من وقوع ما يضرهم في دينهم
ودنياهم وفي هذه الآية وبحثها وجوب التوكل وأنه على حسب إيمان العبد يكون توكله والتوكل هو اعتماد
العبد على ربه في حصول منافعه ودفع مضاره. فلما ذكر حالهم في أحد وما جرى عليهم من المصيبة أخذ فيها
تذكيرهم بنصره ونعمته عليهم ببدر ليكونوا شاكرين لربهم وليخفف هذا هذا فقال (ولقد نصركم الله ببدر
وأنتم أذلة) في عددكم وعددكم فكنتم ثلاثمائة وبضعة عشر قليلة ظهورنا لهم سلاح وأعداؤكم نحوا من
الألف في كمال العدة والسلاح (فاتقوا الله لعلكم تشكرون) الذي أنعم عليكم بنصره (إذ تقول للمؤمنين
ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم
من فورهم هذا) أي من حملتهم هذه لا بعد الرجوع (يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) أي معلمين بعلامة الشجعان
واختلف الناس هل كان هذا الإمداد حصل فيه الملائكة مباشرة للقتال كما قاله بعضهم أو إنه للتثبيت
للقلوب المؤمنين وإلقاء الرعب في قلوب المشركين كما قاله آخرون (وما جعله الله إلا بشرى
لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) وفي هذه أن الأسباب لا يعتمد عليها العبد
بل يعتمد على الله وإنما الأسباب وتوفرها فيها طمأنينة للقلوب وثبات على الخير (ليقطع طرفا من الذين
كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين) أي نصركم الله بهذا النصر ليقطع طرفا من الكفار
أو ينقلبوا بغيظهم لم ينالوا خيرا كما رجعهم يوم الخندق بعدما كانوا قد أتوا على حرد قادرين
(ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون) لما أصيب صلى الله عليه وسلم يوم
أحد وكسرت رباعيته وشج رأسه جعل يقول (كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم وكسروا رباعيته)
فأنزل الله تعالى هذه الآية وبين أن الأمر كله لله وأن الرسول صلى الله عليه وسلم ليس له من الأمر شيء لأنه عبد
من عبيد الله والجميع تحت عبودية ربهم مدبرون لا يدبرون وهؤلاء الذين دعوت عليهم يا أيها الرسول
أو استبعدت فلاحهم وهدايتهم إن شاء الله تاب عليهم ووفقهم للدخول في الإسلام وقد فعل فإن أكثر أولئك
هداهم الله فأسلموا وإن شاء الله عذبهم فإنهم ظالمون مستحقون لعقوبات الله وعذابه (ولله ما في
السموات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم) يخبر تعالى أنه هو المتفرد
في العالم العلوي والسفلي وأنه يغفر لمن يشاء فيغفر له ويخذل من يشاء فيعذبه وأن مغفرته
صفته اللازمة كمال المغفرة والرحمة ورحمته مقتضية لها والخلق ...
ورحمته وأمر بالأسباب الموجبة للرحمة فقال (وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون)

تم الجزء الأول من تيسير الكريم الرحمن في تفسير القرآن بخط مؤلفه عبد الرحمن الناصر السعدي سنة ١٣٤٩ في ربيع الأول
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم ويليه الجزء الثاني أوله يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا

صورة الصفحة الأخيرة من الجزء الأول من النسخة التي أرسلها الشيخ عبد الرحمن إلى الشيخ الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب المطبعة السلفية

في ملك عبد الرحمن الناصر
السعدي


الجلد الثاني من تيسير الكريم المنان في
تفسير كلام الرحمن لجامعه الفقير إلى الله عبد
الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين
والمسلمات الأحياء منهم و
الأموات برحمتك يا أرحم
الراحمين آمين

صورة غلاف الجزء الثاني من النسخة التي أرسلها الشيخ عبد الرحمن إلى
الشيخ الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب المطبعة السلفية

٢

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين وعليه نتوكل رب يسر وأعن يا كريم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا قال تعالى

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون . واتقوا النار التي أعدت للكافرين . وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون . وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين . والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴾

تقدم في مقدمة هذا التفسير أن العبد ينبغي له مراعاة الأوامر والنواهي في نفسه وفي غيره وأن الله تعالى إذا أمره بأمر وجب عليه أولا أن يعرف حده وما هو الذي أمر به ليتمكن بذلك من امتثاله فإذا عرف ذلك اجتهد واستعان بالله على امتثاله في نفسه وفي غيره بحسب قدرته وإمكانه وكذلك إذا نهي عن أمر عرف حده وما يدخل فيه وما لا يدخل ثم اجتهد واستعان بربه في تركه وأن هذا ينبغي مراعاته في جميع الأوامر الإلهية والنواهي وهذه الآيات الكريمات قد اشتملت على أوامر وخصال من خصال الخير أمر الله بها وحث على فعلها وأخبر عن جزاء أهلها وعلى نواهي حث على تركها ولعل الحكمة والله أعلم في إدخال هذه الآيات أثناء قصة أحد أنه قد تقدم أن الله تعالى وعد عباده المؤمنين أنهم إذا صبروا واتقوا نصرهم على أعدائهم وخذل الأعداء عنهم كما في قوله تعالى ﴿ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا ﴾ ثم قال ﴿ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم ﴾ الآيات فكأن النفوس اشتاقت إلى معرفة خصال التقوى التي يحصل بها النصر والفلاح والسعادة فذكر الله في هذه الآيات أهم خصال التقوى التي إذا قام العبد بها فقيامه بغيرها من باب أولى وأحرى ويدل على ما قلنا أن الله ذكر لفظ التقوى في هذه الآيات ثلاث مرات مرة مطلقة وهي قوله ﴿ أعدت للمتقين ﴾ ومرتين مقيدتين فقال ﴿ واتقوا الله ﴾ ﴿ واتقوا النار ﴾ فقوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ كل ما في القرآن من قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ افعلوا كذا أو اتركوا كذا يدل على أن الإيمان هو السبب الداعي والموجب لامتثال ذلك الأمر واجتناب ذلك النهي لأن الإيمان هو التصديق الكامل

بما

١٧٧

وينبغي لي أن أتخذ غيره مربياً ومدبراً والله رب كل شيء، فالخلق كلهم داخلون تحت
ربوبيته منقادون لأمره فتعين علي وعلى غيري أن يتخذ الله رباً ويرضى به
وأن لا يتعلق بأحد من المربوبين الفقراء العاجزين. ثم رغب ورهب بذكر الجزاء
فقال: ﴿ولا تكسب كل نفس﴾ من خير وشر ﴿إلا عليها﴾ كما قال تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه
ومن أساء فعليها﴾ ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ بل كل عليه وزر نفسه وإن كان أحد قد
تسبب في ضلال غيره ووزره فإن عليه وزر التسبب من غير أن ينقص من وزر
المباشر شيء ﴿ثم إلى ربكم مرجعكم﴾ يوم القيامة ﴿فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ من خير وشر ويجازيكم
على ذلك أوفى الجزاء ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ أي يخلف بعضكم بعضاً واستخلفكم
الله في الأرض وسخر لكم جميع ما فيها وابتلاكم لينظر كيف تعملون ﴿ورفع بعضكم فوق بعض
درجات﴾ في القوة والعافية والرزق والخلق والخُلق ﴿ليبلوكم فيما آتاكم﴾ فتتفاوت أعمالكم
﴿إن ربك سريع العقاب﴾ لمن عصاه وكذب بآياته ﴿وإنه لغفور رحيم﴾ لمن آمن به وعمل صالحاً
وتاب من الموبقات. آخر تفسير سورة الأنعام. فلله الحمد والثناء وصلى الله على محمد وعلى
آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين. وكان الفراغ من كتابتي يوم الجمعة موافق خمس وعشرين
من جمادى الآخرة ١٣٤٥ ~~[illegible]~~ بقلم الفقير إلى ربه المنان علي الحسن
العلي الحسن البركات وقد نسختها من نسخة المؤلف غفر الله له وأثابه على ذلك الثواب الجزيل
وجزاه الله عنا وعن جميع المسلمين أفضل الجزاء في دار الجزاء وأدخله الله برحمته فسيح الجنان
ووقانا وإياه عذاب النار بفضله وكرمه إنه قريب مجيب وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله
وصحبه أجمعين آمين ثم آمين يا رب العالمين

بلغ مقابلة على أصله

(تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) ج٢ ص٥٩

صورة الصفحة الأخيرة من الجزء الثاني من النسخة التي أرسلها الشيخ عبد الرحمن إلى الشيخ الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب المطبعة السلفية

المجلد الثالث من تيسير الرحمن في تفسير القرآن
لجامعه الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر
ابن سعدي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين
وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين وسلم تسليما
كثيرا إلى يوم الدين

تيسير الكريم الرحمن

تأليف

علامة القصيم

عبد الرحمن بن ناصر

الجزء الثالث

في تفسير سورة الأعراف والأنفال والتوبة

١٣٧٦

المطبعة السلفية

صورة غلاف الجزء الثالث من النسخة التي أرسلها الشيخ عبد الرحمن إلى
الشيخ الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب المطبعة السلفية

الصحائف الأول من هذا الجزء [illegible] الأمر الثاني [illegible] عند تصحيحها

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الأعراف مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿المص كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى
للمؤمنين اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون
وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون فما كان دعواهم إذ جاءهم
بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين
فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين﴾ يقول تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم مبينا له عظمة
القرآن ﴿كتاب أنزل إليك﴾ أي كتاب جليل حوى كل ما يحتاج إليه العباد وجميع المطالب الإلهية والمقاصد
الشرعية محكما مفصلا ﴿فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ أي ضيق وشك واشتباه بل لتعلم أنه تنزيل
من حكيم حميد وأنه أصدق الكلام ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ وأنه أصدق
الكلام فلينشرح له صدرك ولتطمئن به نفسك ولتصدع بأوامره ونواهيه ولا تخش لائما ومعارضا
﴿لتنذر به﴾ الخلق وتعظهم وتذكرهم فتقوم الحجة على المعاندين ﴿وليكون ذكرى للمؤمنين﴾ كما قال
تعالى ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ يتذكرون به الصراط المستقيم وأعماله الظاهرة
والباطنة وما يحول بين العبد وبين سلوكه ثم خاطب الله العباد وألفتهم إلى الكتاب فقال
﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم﴾ أي الكتاب الذي أريد إنزاله لأجلكم وهو ﴿من ربكم﴾ الذي يريد أن يتم
تربيته لكم فأنزل عليكم هذا الكتاب الذي إن اتبعتموه كملت تربيتكم وتمت عليكم النعمة
وهديتم لأحسن الأعمال والأخلاق ومعاليها ﴿ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾ أي تتولونهم وتتبعون
أهواءهم وتتركون لأجلها الحق ﴿قليلا ما تذكرون﴾ فلو تذكرتم وعرفتم المصلحة لما آثرتم الضار
على النافع والعدو على الولي ثم حذرهم عقوباته للأمم الذين كذبوا ما جاءتهم به رسلهم لئلا
يشابهوهم فقال ﴿وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا﴾ أي عذابنا الشديد ﴿بياتا أو هم قائلون﴾
أي في حين غفلتهم وعلى غرتهم غافلون لم يخطر الهلاك على قلوبهم فحين جاءهم العذاب لم يدفعوه
عن أنفسهم ولا أغنت عنهم آلهتهم التي كانوا يرجونهم ولا أنكروا ما كانوا يفعلونه من الظلم
والمعاصي ﴿فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين﴾ كما قال تعالى ﴿وكم قصمنا
من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها
يركضون لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون قالوا يا ويلنا
إنا كنا ظالمين فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين﴾ وقوله ﴿فلنسألن الذين أرسل
إليهم﴾ أي لنسألن الأمم الذين أرسل الله إليهم المرسلين عما أجابوا
رسلهم ﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾ ﴿ولنسألن المرسلين﴾ عن تبليغهم
لرسالات ربهم وعما أجابتهم به أممهم ﴿فلنقصن عليهم﴾ أي على الخلق كلهم ما عملوا بعلم منه
تعالى

صورة الصفحة الأولى من الجزء الثالث من النسخة التي أرسلها الشيخ عبد الرحمن إلى الشيخ الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب المطبعة السلفية

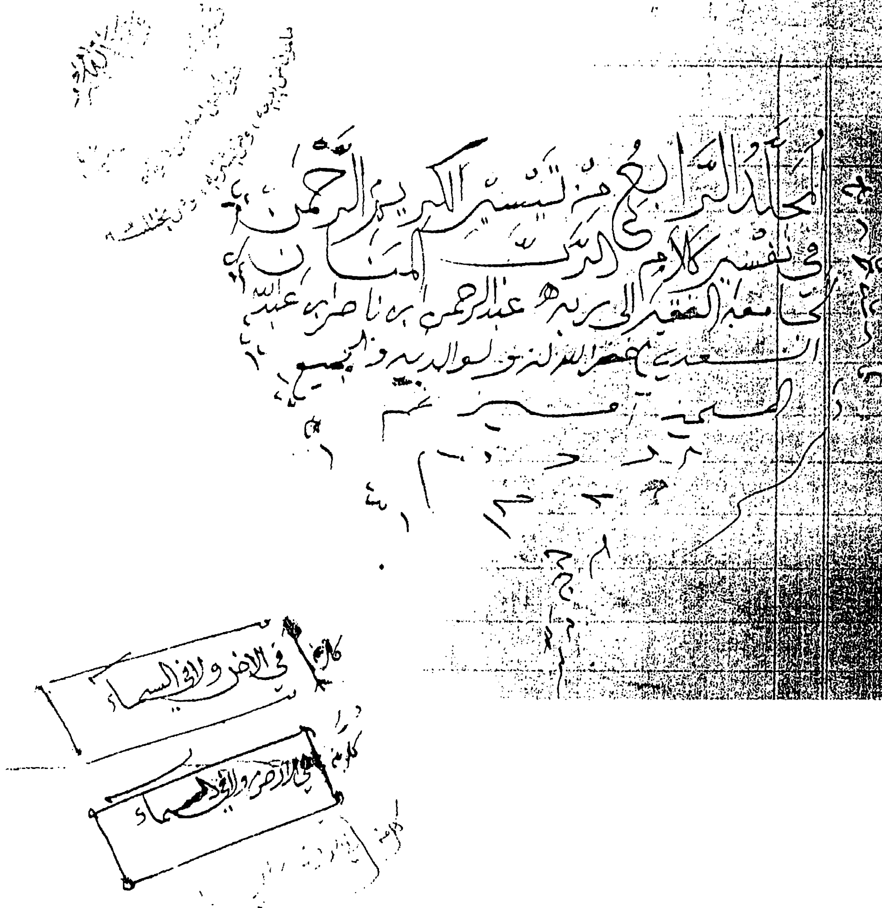
١٥٢

حكمته أن خلقهم ليكون منهم السعداء والأشقياء والمتفقون والمختلفون والفريق الذي هدى الله والفريق الذين حقت عليهم الضلالة ليتبين للعباد عدله وحكمته ولِيَظهر ما كمن في الطباع البشرية من الخير والشر ولتقوم سوق الجهاد والعبادات التي لا تتم ولا تستقيم إلا بالامتحان والابتلاء ولأنه (تمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) فلا بد أن ييسر للنار أهلا يعملون بأعمالها الموصلة إليها (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون) لما ذكر في هذه السورة من أخبار الأنبياء ما ذكر ذكر الحكمة في ذكر ذلك فقال (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك) أي قلبك ليطمئن ويثبت ويصبر كما صبر أولو العزم من الرسل فإن النفوس تأنس بالاقتداء وتنشط على الأعمال وتريد المنافسة لغيرها ويتأيد الحق بذكر شواهده وكثرة من قام به (وجاءك في هذه السورة الحق) اليقين فلا شك فيه بوجه من الوجوه فالعلم بذلك من العلم بالحق الذي هو أكبر فضائل النفوس (وموعظة وذكرى للمؤمنين) أي يتعظون به فيرتدعون عن الأمور المكروهة ويتذكرون الأمور المحبوبة لله فيفعلونها وأما من ليس من أهل الإيمان فلا تنفعهم المواعظ وأنواع التذكير ولهذا قال (وقل للذين لا يؤمنون) بعد ما قامت عليهم الآيات (اعملوا على مكانتكم) أي حالتكم التي أنتم عليها (إنا عاملون) على ما كنا عليه (وانتظروا) ما يحل بنا (إنا منتظرون) ما يحل بكم وقد فصل الله بين الفريقين وأرى عباده نصره لعباده المؤمنين وقمعه لأعداء الله المكذبين (ولله غيب السموات والأرض) أي ما غاب فيهما من الخفايا والأمور الغيبية (وإليه يرجع الأمر كله) من الأعمال والعمال فيميز الخبيث من الطيب (فاعبده وتوكل عليه) أي قم بعبادته وهي جميع ما أمر الله به مما تقدر عليه وتوكل على الله في ذلك (وما ربك بغافل عما تعملون) من الخير والشر بل قد أحاط علمه بذلك وجرى به قلمه وسيجري عليه حكمه وجزاؤه

تم تفسير سورة هود والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وسلم

وكان الفراغ من نسخه في يوم السبت في ١٢ من شهر ربيع الآخر ١٣٤٤

صورة الصفحة الأخيرة من الجزء الثالث من النسخة التي أرسلها الشيخ عبد الرحمن إلى الشيخ الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب المطبعة السلفية



صورة غلاف الجزء الرابع من النسخة التي أرسلها الشيخ عبد الرحمن إلى الشيخ الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب المطبعة السلفية

111

٣

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة يوسف ~~بن يعقوب~~ عليه ~~الصلاة و~~ السلام وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

{الر تلك آيات الكتاب المبين إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون نحن نقص
عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين}
يخبر تعالى أن آيات القرآن هي آيات الكتاب المبين أي البين الواضحة ألفاظه ومعانيه
ومن بيانه وإيضاحه أنه أنزله باللسان العربي أشرف الألسنة وأبينها وكل هذا الإيضاح
والتبيين لعلكم تعقلون أي لتعقلوا حدوده وأصوله وفروعه وأوامره ونواهيه فإذا
عقلتم ذلك بإيقانكم واتصفت قلوبكم بمعرفتها أثمر ذلك عمل الجوارح والانقياد إليه
ولعلكم تعقلون أي تزداد عقولكم بتكرر المعاني الشريفة العالية على أذهانكم
فتنتقلون من حال إلى أحوال أعلى منها وأكمل نحن نقص عليك أحسن القصص وذلك لصدقها
وسلاسة عباراتها ورونق معانيها بما أوحينا إليك هذا القرآن أي بما اشتمل عليه هذا القرآن
الذي أوحيناه إليك وفضلناك به على سائر الأنبياء وذاك محض منة من الله وإحسان وإن
كنت من قبله لمن الغافلين أي ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان قبل أن يوحي الله إليك ولكن
جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا ولما مدح ما اشتمل عليه هذا القرآن من القصص
وأنها أحسن القصص على الإطلاق فلا يوجد من القصص في شيء من الكتب مثل هذا
القرآن ذكر قصة يوسف وأبيه وإخوته القصة العجيبة الحسنة فقال:
{إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين
قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين
وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل
يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم} واعلم أن
الله ذكر أنه يقص على رسوله أحسن القصص في هذا الكتاب ثم ذكر هذه القصة وبسطها
وذكر ما جرى فيها فعلم بذلك أنها قصة تامة كاملة حسنة فمن أراد أن يكملها أو يحسنها
بما يذكر في الإسرائيليات التي لا يعرف لها سند ولا ناقل وأغلبها كذب فهو مستدرك على
الله ومكمل لشيء يزعم أنه ناقص وحسبك بأمر ينتهي إلى هذا الحد قبحا فإن تضاعيف
هذه السورة قد ملئت في كثير من التفاسير من الأكاذيب والأمور الشنيعة المناقضة لما قصه الله تعالى
بشيء كثير فعلى العبد أن يفهم عن الله ما قصه ويدع ما سوى ذلك مما ليس عن النبي صلى الله عليه وسلم
ينقل فقوله تعالى: {إذ قال يوسف لأبيه} يعقوب بن إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام

بن إسحق

صورة الصفحة الأولى من الجزء الرابع من النسخة التي أرسلها الشيخ عبد الرحمن إلى
الشيخ الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب المطبعة السلفية

مكث أي على مهل ليتدبروه ويتفكروا في معانيه ويستخرجوا علومه (ونزلناه تنزيلا) أي شيئا
فشيئا مفرقا في ثلاث وعشرين سنة (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) فإذا
تبين أنه الحق الذي لا شك فيه ولا ريب بوجه من الوجوه (قل) لمن كذب به وأعرض عنه (آمنوا به
أو لا تؤمنوا) فليس لله حاجة فيكم ولستم بضاريه شيئا وإنما ضرر ذلك عليكم فإن لله عبادا غيركم
وهم الذين آتاهم الله العلم النافع (إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا) أي يتأثرون به غاية التأثر
ويخضعون له (ويقولون سبحان ربنا) عما لا يليق بجلاله مما نسبه إليه المشركون (إن كان وعد ربنا)
بالبعث والجزاء بالأعمال (لمفعولا) لا خلف فيه ولا شك (ويخرون للأذقان) أي على وجوههم (يبكون ويزيدهم)
القرآن (خشوعا) وهؤلاء كالذين من الله عليهم من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وغيره ممن أسلم
في وقت النبي صلى الله عليه وسلم وبعد ذلك (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله
الأسماء الحسنى ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا وقل الحمد لله الذي
لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا) يقول تعالى لعباده
(ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) أي أيهما شئتم (أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى) أي ليس له اسم غير
حسن حتى ينهى عن دعائه به أي اسم دعوتموه به حصل به المقصود والذي ينبغي أن يدعى
في كل مطلوب مما يناسب ذلك الاسم (ولا تجهر بصلاتك) أي قراءتك (ولا تخافت بها) فإن في كل من
الأمرين محذورا أما الجهر فإن المشركين المكذبين به إذا سمعوه سبوه وسبوا من جاء به
وأما المخافتة فإنه لا يحصل المقصود لمن أراد استماعه مع الإخفاء (وابتغ بين ذلك) أي بين الجهر
والإخفات (سبيلا) أي تتوسط فيما بينهما (وقل الحمد لله) الذي له الكمال والثناء والحمد والمجد من جميع
الوجوه المنزه عن كل آفة ونقص (الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك) بل الملك كله لله
الواحد القهار فالعالم العلوي والسفلي كلهم مملوكون لله ليس لأحد من الملك شيء (ولم يكن له ولي من
الذل) أي لا يتولى أحدا من خلقه ليتعزز به ويعاونه فإنه الغني الحميد الذي لا يحتاج إلى أحد
من المخلوقات في الأرض ولا في السموات ولكنه يتخذ أولياء إحسانا منه إليهم ورحمة بهم (الله ولي
الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور) (وكبره تكبيرا) أي عظمه وأجله بالإخبار بأوصافه العظيمة
وبالثناء عليه بأسمائه الحسنى وبتمجيده بأفعاله المقدسة وبتعظيمه وإجلاله بعبادته وحده
لا شريك له وإخلاص الدين كله له. تم تفسير سورة الإسراء
ولله الحمد والمنة والثناء الحسن على يد جامعه عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين وصلى الله على محمد وسلم تسليما كثيرا وذلك في جمادى
الأولى [illegible] ونقلته من خط المؤلف [illegible] الفقير إلى ربه سليمان [illegible] غفر الله له ولوالديه
ولجميع المسلمين آمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين آمين [illegible]

صورة الصفحة الأخيرة من الجزء الرابع من النسخة التي أرسلها الشيخ عبد الرحمن إلى الشيخ الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب المطبعة السلفية

فهرست الجزء الخامس من تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان

بسم الله الرحمن الرحيم ٢٣/٢/٧٤

حضرة محترم المقام الشيخ محمد نصيف حفظه الله آمين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته سبق جواب كتابكم الآمل وصوله ثم لنا [illegible] ارسلت لكم تفسيرنا الكبير المجلد الخامس منه وقع النظر على الاقتصار على طبعه فجعلنا له مقدمه وختمناه باصول وكليات من اصول وكليات التفسير ونريد أن يطبع منه خمسة الآف نسخة واحببت يكون الاختيار لجنابكم في اختيار من يتولى طبعه إما محب الدين الخطيب او الشيخ حامد أو من ترجح وتحثه على العناية التامة فيه ولو زاد علينا المصرف وقد وصينا الشيخ عبد الله الحمد الموصل يسلم لكم كل الذي تطلبون لأجل طبعه وأرجو الله أن يثيبكم الثواب الجزيل ويشكر مساعيك ويجزيك عنا افضل الجزاء فإن اطال عمرك عوض النفس في كل شيء والله الموفق والسلام

(محمد عبد الرحمن الناصر السعدي)
"السعدي"

وتحث الطابع على طبع خاتمة الاصول وكليات التفسير للحاجة الشديدة اليها

صورة غلاف الجزء الخامس من النسخة التي أرسلها الشيخ عبد الرحمن إلى الشيخ الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب المطبعة السلفية

المجلد الخامس من تيسير الكريم الرحمن
في تفسير كلام المنان للشيخ
الإمام العالم العلامة
شيخنا عبد الرحمن الناصر
ابن سعدي
غفر الله له
آمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وصلى الله وسلم على محمد وآله وصحبه أما بعد فلما كان علم التفسير للقرآن أشرف العلوم على الإطلاق
وأجلها وأحقها بتحقيق معانيه وتفهم مبانيه لكونه تنزيلا من حكيم حميد أنزله هدى ورحمة
للعباد وتبيانا لكل شيء وتفصيلا لكل ما يحتاجونه في دينهم ودنياهم وآخرتهم وكان من خاصة
علم القرآن أن فهم بعضه وطائفة منه يعين على فهم جميعه لأن القرآن من أوله إلى آخره يدور
على تقرير الأصول النافعة والحقائق والشرائع الكبار والأحكام الحسنة والعقائد الصحيحة
ويحث العباد على كل خير ويحذرهم من كل شر ويعيد تقرير هذه الأمور ويبديها بأساليب
متنوعة ويصرفها بمناسبة في غاية اليسر والسهولة والإحكام والحسن الذي لا مزيد عليه
وقد كان علي السؤال من كثير من الأصحاب في نشر تفسيرنا هذا جميعه والحوا لما يرونه من
الفائدة الكبيرة فاعتذرت بأن ذلك يصعب جدا لأنه مبسوط وأيضا في هذه الأوقات
قلت رغبات الناس في الكتب المطولة فلذلك أجبتهم على حاجتهم لنشر بعض ما طلبوا
وهو الاقتصار على جزء واحد من أجزاء هذا التفسير ووقع الاختيار على الجزء الأوسط
من سورة الكهف إلى آخر النمل فما لا يحصل جميعه لا يترك جميعه وأرجو الله
وأسأله أن يجعل ذلك خالصا لوجهه نافعا لنا ولإخواننا وأن يمدنا بمعونته
وعنايته وتوفيقه إنه جواد كريم رؤوف رحيم وأتبعته بكليات وأصول
من كليات التفسير استدركت ما لعله يفوت القارئ في هذه الجزء
لأن الأصول والكليات تبنى عليها الفروع والجزئيات [illegible]
من النفع والفائدة لا يخفى [illegible]
وهو حسبنا ونعم الوكيل

صورة الصفحة الأولى من الجزء الخامس من النسخة التي أرسلها الشيخ عبد الرحمن
إلى الشيخ الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب المطبعة السلفية

227

٢١٢

(ذو الجلال والإكرام) أي ذو العظمة والكبرياء وذو الرحمة والجود والإحسان العام والخاص
المكرم لأوليائه وأصفيائه الذين يجلونه ويعظمونه ويحبونه (الودود) الذي يحب
أنبياءه ورسله وأتباعهم ويحبونه فهو أحب إليهم من كل شيء قد امتلأت قلوبهم من
محبته ولهجت ألسنتهم بالثناء عليه وانجذبت أفئدتهم إليه ودًّا وإخلاصًا وإنابة من
جميع الوجوه (الفتاح) الذي يحكم بين عباده بأحكامه الشرعية وأحكامه القدرية
وأحكام الجزاء الذي فتح بلطفه بصائر الصادقين وفتح قلوبهم لمعرفته ومحبته والإنابة إليه
وفتح لعباده أبواب الرحمة والأرزاق المتنوعة وسبب لهم الأسباب التي ينالون بها خير الدنيا والآخرة
(ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده) (الرزاق) لجميع عباده
فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ورزقه لعباده نوعان رزق عام شمل البر والفاجر والأولين
والآخرين ورزق خاص وهو رزق القلوب وتغذيتها بالعلم والإيمان والرزق الحلال الذي
يعين على صلاح الدين وهذا خاص بالمؤمنين على مراتبهم منه بحسب ما تقتضيه حكمته ورحمته
(الحكم العدل) الذي يحكم بين عباده في الدنيا والآخرة بعدله وقسطه فلا يظلم مثقال
ذرة ولا يحمل أحدًا وزر أحد ولا يجازي العبد بأكثر من ذنبه ويؤدي الحقوق إلى أهلها
فلا يدع صاحب حق إلا وصل إليه حقه وهو العدل في تدبيره وتقديره (إن ربي على صراط مستقيم)
(جامع الناس) ليوم لا ريب فيه وجامع أعمالهم وأرزاقهم فلا يترك منها صغيرة ولا
كبيرة إلا أحصاها وجامع ما تفرق واستحال من الأموات الأولين والآخرين بكمال
قدرته وسعة علمه (الحي القيوم) كامل الحياة والقائم بنفسه القيوم لأهل السموات
والأرض القائم بتدبيرهم وأرزاقهم وجميع أحوالهم فالحي الجامع لصفات الذات
والقيوم الجامع لصفات الأفعال (النور) نور السموات والأرض الذي نور قلوب
العارفين بمعرفته والإيمان به ونور أفئدتهم بهدايته وهو الذي أنار السموات والأرض
بالأنوار التي وضعها وحجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه
بصره من خلقه (بديع السموات والأرض) أي خالقهما ومبدعهما في غاية ما يكون
من الحسن والخلق البديع والنظام العجيب المحكم (القابض الباسط) يقبض الأرزاق
والأرواح ويبسط الأرزاق والقلوب وذلك تبع لحكمته ورحمته (المعطي المانع) لا مانع
لما أعطى ولا معطي لما منع فجميع المصالح والمنافع منه تطلب وإليه يرغب فيها وهو الذي يعطيها
لمن يشاء ويمنعها من يشاء بحكمته ورحمته (الشهيد) أي المطلع على جميع الأشياء سمع جميع
الأصوات خفيها وجليها وأبصر جميع الموجودات دقيقها وجليلها صغيرها وكبيرها وأحاط
علمه بكل شيء الذي شهد لعباده بما عملوه وعلى عباده بما عملوه (المبدئ المعيد) قال تعالى
(وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده) ابتدأ خلقهم ليبلوهم أيهم أحسن عملًا ثم يعيدهم ليجزي
الذين

(في الهامش: أول صحيح ... وهو رزق الأبدان)

صورة الصفحة الأخيرة من الجزء الخامس من النسخة التي أرسلها الشيخ عبد الرحمن
إلى الشيخ الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب المطبعة السلفية

السادس
المجلد السادس من تيسير الكريم الرحمن
في تفسير كلام المنان من منّ الله
على عبده وابن عبده وابن أمته
عبد الرحمن بن ناصر
عبد الله بن سعدي

صورة غلاف الجزء السادس من النسخة التي أرسلها الشيخ عبد الرحمن إلى الشيخ الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب المطبعة السلفية

٢

تفسير سورة القصص وهي مكية

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون إلى آخر القصة)

(تلك) الآيات المستحقة للتعظيم والتفخيم (آيات الكتاب المبين) لكل أمر يحتاج إليه العباد من معرفة ربهم ومعرفة حقوقه ومعرفة أوليائه وأعدائه ومعرفة وقائعه وأيامه ومعرفة ثواب الأعمال وجزاء العمال فهذا القرآن قد بينها غاية التبيين وجلاها للعباد ووضحها ومن جملة ما أبان قصة موسى وفرعون فإنه أبداها وأعادها في عدة مواضع وبسطها في هذا الموضع فقال (نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق) فإن نبأهما غريب وخبرهما عجيب (لقوم يؤمنون) فإليهم يساق الخطاب ويوجه الكلام حيث إن معهم من الإيمان ما يقبلون به على تدبر ذلك وتلقيه بالقبول والاهتداء بمواقع العبر ويزدادون به إيمانا ويقينا وخيرا إلى خيرهم وأما من عداهم فلا يستفيدون منه إلا إقامة الحجة عليهم وصانه الله عنهم وجعل بينهم وبينه حجابا أن يفقهوه. فأول هذه القصة (إن فرعون علا في الأرض) في ملكه وسلطانه وجنوده وجبروته فصار من أهل العلو فيها لا من الأعلين فيها (وجعل أهلها شيعا) أي طوائف متفرقة يتصرف فيهم بشهوته وينفذ فيهم ما أراد من قهره وسطوته (يستضعف طائفة منهم) وتلك الطائفة هم بنو إسرائيل الذين فضلهم الله على العالمين الذي ينبغي له أن يكرمهم ويجلهم ولكنه استضعفهم بحيث إنه رأى أنهم لا منعة لهم تمنعهم مما أراده فيهم فصار لا يبالي بهم ولا يهتم بشأنهم وبلغت به الحال إلى أنه (يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم) خوفا من أن يكثروا فيغمروه في بلاده ويصير لهم الملك (إنه كان من المفسدين) الذين لا قصد لهم في صلاح الدين ولا صلاح الدنيا وهذا من إفساده في الأرض (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض) بأن نزيل عنهم مواد الاستضعاف ونهلك من قاومهم ونخذل من ناوأهم (ونجعلهم أئمة) في الدين وذلك لا يحصل مع الاستضعاف بل لا بد من تمكين في الأرض وقدرة تامة (ونجعلهم الوارثين) للأرض الذين لهم العاقبة في الدنيا قبل الآخرة (ونمكن لهم في الأرض) فهذه الأمور كلها قد تعلقت بها إرادة الله وجرت بها مشيئته (وكذلك نريد أن نري فرعون وهامان) وزيره (وجنودهما) التي بها صالوا وجالوا وعلوا وبغوا (منهم) من هذه الطائفة المستضعفة (ما كانوا يحذرون) من إخراجهم من ديارهم ولذلك كانوا يسعون في قمعهم وكسر شوكتهم وتقتيل أبنائهم الذين هم محل ذلك فكل هذا قد أراده الله وإذا أراد أمرا سهل أسبابه ونهج طرقه وهذا الأمر كذلك فإنه قدر وأجرى من الأسباب التي لم يشعر بها لا أولياؤه ولا أعداؤه ما هو سبب موصل إلى هذا المقصود فأول ذلك

لما

صورة الصفحة الأولى من الجزء السادس من النسخة التي أرسلها الشيخ عبد الرحمن إلى الشيخ الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب المطبعة السلفية

﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون سبحان الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين﴾
أي جعل هؤلاء المشركون بالله بينه وبين الجنة نسبا حيث زعموا أن الملائكة بنات الله وأن أمهاتهم سروات
الجن والحال أن الجنة قد علمت أنهم محضرون بين يدي الله ليجازيهم عبادا أذلاء فلو كان بينهم وبينه نسب لم يكونوا كذلك
﴿سبحان الله﴾ الملك العظيم الكامل الحليم عما يصفه به المشركون من كل وصف أوجبه كفرهم وشركهم ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾
فإنه نزه نفسه عما وصفه غيرهم لأنهم لم يصفوه إلا بما يليق بجلاله وبذلك كانوا مخلصين ﴿فإنكم وما تعبدون
ما أنتم عليه بفاتنين إلا من هو صال الجحيم﴾ أي إنكم أيها المشركون ومن عبدتموه مع الله لا تقدرون أن تفتنوا
وتضلوا أحدا إلا من قضى الله أنه من أهل الجحيم فينفذ فيه القضاء الإلهي والمقصود من هذا بيان عجزهم
وعجز آلهتهم عن إضلال أحد وبيان كمال قدرة الله تعالى أي فلا تطمعوا بإضلال عباد الله المخلصين وحزبه
﴿وما منا إلا له مقام معلوم وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون﴾ هذا فيه بيان براءة الملائكة عليهم السلام
عما قاله فيهم المشركون وأنهم عباد الله لا يعصونه طرفة عين فما منهم من أحد إلا له مقام وتدبير قد أمره الله به
لا يتعداه ولا يتجاوزه وليس لهم من الأمر شيء ﴿وإنا لنحن الصافون﴾ في طاعة الله وخدمته ﴿وإنا لنحن المسبحون﴾ لله عما لا
يليق به فكيف مع هذا يصلحون أن يكونوا شركاء لله تعالى الله ﴿وإن كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكرا من الأولين
لكنا عباد الله المخلصين فكفروا به فسوف يعلمون ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن
جندنا لهم الغالبون فتول عنهم حتى حين﴾ إلى آخر السورة يخبر تعالى أن هؤلاء المشركين يظهرون التمني ويقولون
لو جاءنا من الذكر ما جاء الأولين لأخلصنا لله العبادة بل لكنا المخلصين على الحقيقة وهم كذبة في
ذلك فقد جاءهم أفضل الكتب فكفروا به فعلم أنهم متمردون على الحق ﴿فسوف يعلمون﴾ العذاب حين يقع بهم ولا
يحسبوا أيضا أنهم في الدنيا غالبون بل قد سبقت كلمة الله التي لا مرد لها ولا مخالف لها لعباده المرسلين
وجنده المفلحين أنهم الغالبون لغيرهم المنصورون من ربهم نصرا عزيزا يتمكنون فيه من إقامة دينهم
وهذه بشارة عظيمة لمن اتصف بأنه من جند الله بأن كانت أحواله مستقيمة وقاتل من أمر بقتالهم أنه غالب منصور
ثم أمر رسوله بالإعراض عمن عاندوا ولم يقبلوا الحق وأنه ما بقي إلا انتظار ما يحل بهم من العذاب ولهذا قال
﴿وأبصرهم فسوف يبصرون﴾ من يحل به النكال فإنه سيحل بهم ﴿فإذا نزل بساحتهم﴾ أي نزل عليهم وقريبا منهم ﴿فساء
صباح المنذرين﴾ لأنه صباح الشر والعقوبة والاستئصال ثم كرر الأمر بالتولي عنهم وتهديدهم بوقوع
العذاب ولما ذكر في هذه السورة كثيرا من أقوالهم الشنيعة التي وصفوه بها نزه نفسه عنها
فقال ﴿سبحان ربك﴾ أي تنزه وتعالى ﴿رب العزة﴾ أي الذي عز فقهر كل شيء واعتز عن كل سوء يصفونه
به ﴿وسلام على المرسلين﴾ لسلامتهم من الذنوب والآفات وسلامة ما وصفوا به فاطر الأرض
والسموات ﴿والحمد لله رب العالمين﴾ الألف واللام للاستغراق فجميع أنواع الحمد من الصفات
الكاملة العظيمة والأفعال التي ربى بها العالمين وأدر عليهم فيها النعم وصرف عنهم بها النقم ودبرهم
تعالى في حركاتهم وسكونهم وفي جميع أحوالهم كلها لله تعالى فهو المقدس عن النقص المحمود بكل كمال
المحبوب المعظم ورسله سالمون مسلم عليهم ومن اتبعهم في ذلك له السلامة في الدنيا والآخرة
وأعداؤه لهم الهلاك والعطب في الدنيا والآخرة تم تفسير سورة الصافات في 7 شوال سنة ١٣٤٣ على يد جامعه
وكاتبه عبد الرحمن بن ناصر السعدي وصلى الله على محمد وسلم تسليما والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

صورة الصفحة الأخيرة من الجزء السادس من النسخة التي أرسلها الشيخ عبد الرحمن
إلى الشيخ الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب المطبعة السلفية

المجلد السابع من تيسير الكريم المنان في
تفسير آيات القرآن
لجامعه عبد الرحمن بن ناصر
...
غفر الله له ولوالديه
ولجميع المسلمين

صورة غلاف الجزء السابع من النسخة التي أرسلها الشيخ عبد الرحمن إلى الشيخ الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب المطبعة السلفية

بسم الله الرحمن الرحيم تفسير سورة ص وهي مكية

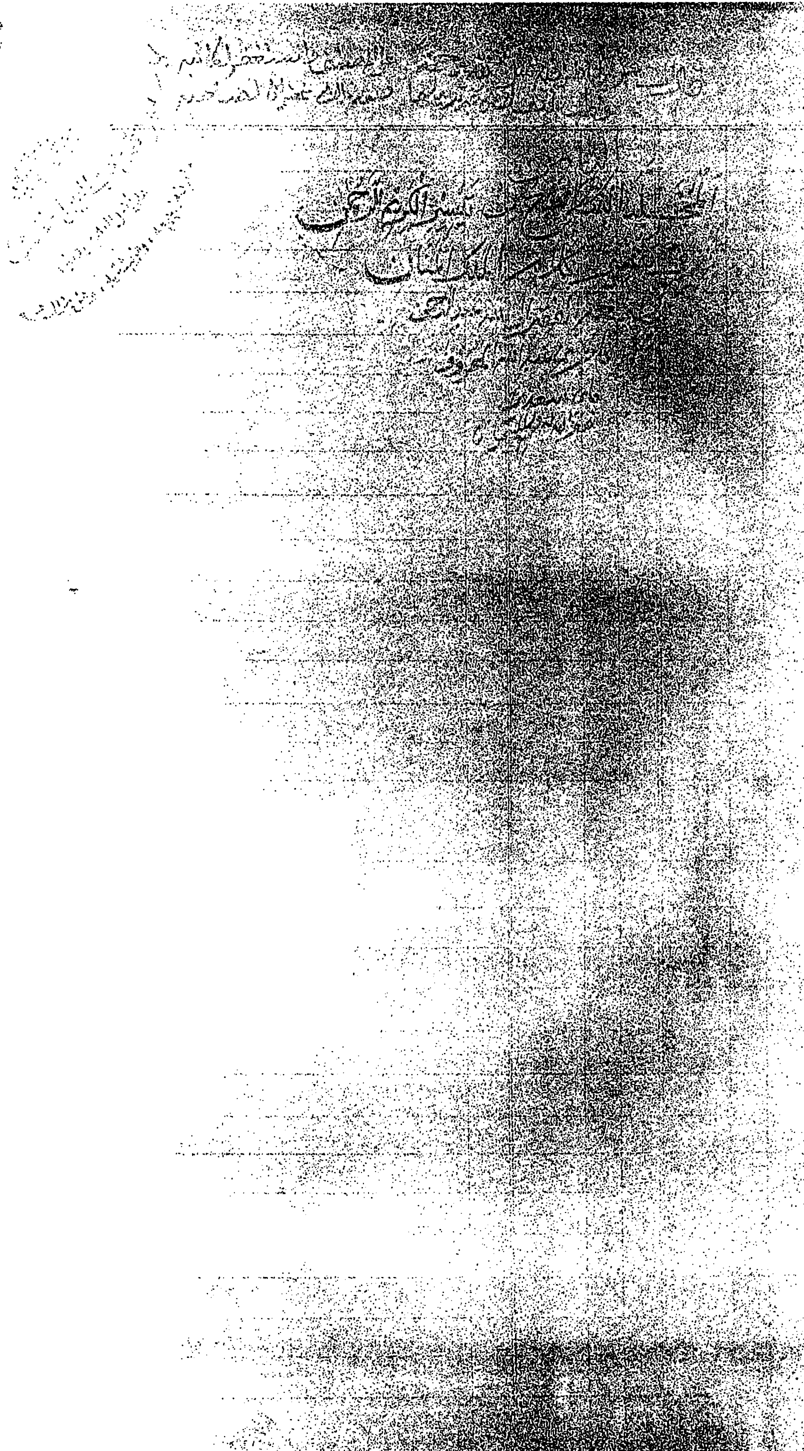
(ص والقرآن ذي الذكر بل الذين كفروا في عزة وشقاق، كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا و
لات حين مناص وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب
أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا
على آلهتكم إن هذا لشيء يراد ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق
أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكري بل لما يذوقوا عذاب أم عندهم خزائن
رحمة ربك العزيز الوهاب أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فليرتقوا في الأسباب
جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب) هذا بيان من الله تعالى لحال القرآن وحال المكذبين
به معه ومع من جاء به فقال (ص والقرآن ذي الذكر) أي ذي القدر العظيم والشرف المذكر
للعباد كل ما يحتاجون إليه من العلم بأسماء الله وصفاته وأفعاله ومن العلم بأحكام الله
الشرعية ومن العلم بأحكام المعاد والجزاء فهو مذكر لهم في أصول دينهم وفروعه وهنا لا يحتاج
إلى ذكر المقسم عليه فإن حقيقة الأمر أن المقسم به وعليه شيء واحد وهو هذا القرآن
الموصوف بهذا الوصف الجليل فإذا كان القرآن بهذا الوصف علم ضرورة العباد إليه فوق كل
ضرورة وكان الواجب عليهم تلقيه بالإيمان والتصديق والإقبال على استخراج ما يتذكر به
منه فهدى الله من هدى لهذا وأبى الكافرون به وبمن أنزله وصار معهم (عزة وشقاق) عزة
وامتناع عن الإيمان به واستكبار وشقاق له أي مشاقة ومخاصمة في رده وإبطاله
وفي القدح بمن جاء به فتوعدهم بإهلاك القرون الماضية المكذبة بالرسل وأنهم حين جاءهم
الهلاك نادوا واستغاثوا في صرف العذاب عنهم ولات حين مناص أي وليس الوقت
وقت خلاص مما وقعوا فيه ولا فرج لما أصابهم فليحذر هؤلاء أن يدوموا على عزتهم وشقاقهم
فيصيبهم ما أصابهم (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم) أي عجب هؤلاء المكذبون في أمر ليس محل
عجب أن جاءهم منذر منهم ليتمكنوا من التلقي عنه وليعرفوه حق المعرفة ولأنه من قومهم
فلا تأخذهم النخوة القومية عن اتباعه فهذا مما يوجب الشكر عليهم وتمام الانقياد له
ولكنهم عكسوا القضية فتعجبوا تعجب إنكار وقالوا من كفرهم وظلمهم (هذا ساحر
كذاب) وذنبه عندهم أنه (أجعل الآلهة إلها واحدا) أي كيف ينهى عن اتخاذ الشركاء والأنداد
ويأمر بإخلاص العبادة لله وحده (إن هذا) الذي جاء به (لشيء عجاب) أي يقضي منه العجب
لبطلانه وفساده (وانطلق الملأ منهم) المقبول قولهم محرضين قومهم على التمسك بما هم
عليه من الشرك (أن امشوا واصبروا على آلهتكم) أي استمروا عليها وجاهدوا نفوسكم
في الصبر عليها وعلى عبادتها ولا يردكم عنها راد ولا يصدنكم عن عبادتها صاد (إن هذا)
الذي جاء به محمد من النهي عن عبادتها (لشيء يراد) أي يقصد أي له قصد ونية غير صالحة
في ذلك وهذه شبهة لا تروج إلا على السفهاء فإن من دعا إلى قول حق أو غير حق
لا يرد قوله بالقدح في نيته فنيته وعمله له وإنما يرد بمقابلته بما يبطله ويفسده من الحجج
والبراهين وهم قصدهم أن محمدا ما دعاكم إلى ما دعاكم إلا ليرأس فيكم ويكون معظما

صورة الصفحة الأولى من الجزء السابع من النسخة التي أرسلها الشيخ عبد الرحمن إلى الشيخ الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب المطبعة السلفية

١٢٣

حتى كان بعضهم يقتل بعضاً غماً، ثم جاءت نسوة مؤمنات فأنزل الله عز وجل: ﴿إذا جاءكم المؤمنات
مهاجرات﴾ حتى بلغ ﴿بعصم الكوافر﴾ فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا عنده في الشرك فتزوج إحداهما
معاوية والأخرى صفوان بن أمية، ثم رجع إلى المدينة وفي مرجعه أنزل الله عليه ﴿إنا فتحنا لك فتحاً
مبيناً﴾ إلى آخرها فقال عمر: أفتح هو يا رسول الله؟ فقال: نعم. فقال الصحابة: هنيئاً لك يا رسول الله،
فما لنا؟ فأنزل الله عز وجل ﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين﴾ الآية. انتهى تفسير
وهذا آخر تفسير سورة الفتح ولله الحمد، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه. نقلته من
خط المفسر رحمه الله وعفا عنه، وكان الفراغ من كتابته في ١٣ ذي الحجة ١٣٤٥ وصلى الله على نبينا
محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين آمين. بقلم الفقير إلى ربه سليمان
ابن حمد العبد الله البسام غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين وصلى الله على محمد وعلى آله
وصحبه أجمعين وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

صورة الصفحة الأخيرة من الجزء السابع من النسخة التي أرسلها الشيخ عبد الرحمن إلى الشيخ الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب المطبعة السلفية



صورة غلاف الجزء الثامن من النسخة التي أرسلها الشيخ عبد الرحمن إلى الشيخ الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب المطبعة السلفية

صورة الصفحة الأولى من الجزء الثامن من النسخة التي أرسلها الشيخ عبد الرحمن إلى الشيخ الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب المطبعة السلفية

فقال: {ومن شر غاسق إذا وقب} أي: من شر ما يكون في الليل حين يغشى الناس
وينتشر فيه كثير من الأرواح الشريرة والحيوانات المؤذية {ومن شر النفاثات
في العقد} أي: ومن شر السواحر اللاتي يستعن على سحرهن بالنفث في العقد التي يعقدنها
على السحر {ومن شر حاسد إذا حسد} والحاسد هو الذي يحب زوال النعمة عن المحسود
فيسعى في زوالها بما يقدر عليه من الأسباب فاحتيج إلى الاستعاذة بالله من شره
وإبطال كيده ويدخل في الحاسد العاين لأنه لا تصدر العين إلا من حاسد شرير الطبع
خبيث النفس فهذه السورة تضمنت الاستعاذة من جميع أنواع الشرور عموماً وخصوصاً
ودلت على أن السحر له حقيقة يخشى من ضرره ويستعاذ بالله منه ومن أهله

تفسير سورة الناس وهي مدنية مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

{قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس
في صدور الناس من الجنة والناس} وهذه السورة مشتملة على الاستعاذة برب
الناس ومالكهم وإلههم من الشيطان الذي هو أصل الشرور كلها ومادتها الذي من فتنته
وشره أنه يوسوس في صدور الناس فيحسن لهم الشر ويريهم إياه في صورة حسنة
وينشط إرادتهم لفعله ويثبطهم عن الخير ويريهم إياه في صورة غير صورته وهو دائماً
بهذه الحال يوسوس ثم يخنس أي يتأخر عن الوسوسة إذا ذكر العبد ربه واستعان على
دفعه فينبغي له أن يستعين ويستعيذ ويعتصم بربوبية الله للناس كلهم وأن الخلق كلهم
داخلون تحت الربوبية والملك فكل دابة هو آخذ بناصيتها وبالإلهية التي خلقهم لأجلها
فلا تتم لهم إلا بدفع شر عدوهم الذي يريد أن يقتطعهم عنها ويحول بينهم وبينها ويريد أن
يجعلهم من حزبه ليكونوا من أصحاب السعير والوسواس كما يكون من الجن يكون من الإنس
ولهذا قال {من الجنة والناس} والحمد لله رب العالمين أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً
ونسأله تعالى أن يتم نعمته وأن يعفو عنا ذنوباً لنا حالت بيننا وبين كثير من بركاته
وخطايا وشهوات ذهبت بقلوبنا عن تدبر آياته ونرجوه ونأمل منه أن لا يحرمنا خير
ما عنده بشر ما عندنا فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ولا يقنط من رحمته إلا الضالون
وصلى الله وسلم على رسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين صلاة وسلاماً دائمين متواصلين
أبد الأوقات والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات تم تفسير كتاب الله بعونه وحسن توفيقه
على يد جامعه ومحرره الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله المعروف بابن سعدي وقع الفراغ
في ١ شعبان سنة ١٣٤٥ ربنا تقبل منا واعف عنا إنك أنت الغفور الرحيم

صورة الصفحة الأخيرة من الجزء الثامن من النسخة التي أرسلها الشيخ عبد الرحمن
إلى الشيخ الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب المطبعة السلفية

المجلد الأول من تيسير الكريم الرحمن
في تفسير كلام المنان من من الله
على عبده وابن عبده وابن أمته
عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله
ابن سعدي

عارية عندي من قبل عبد الله السعدي

صورة غلاف الجزء الأول من نسخة عنيزة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل على عبده الفرقان الفارق بين الحلال والحرام والسعداء والأشقياء والحق والباطل
وجعله برحمته هدى للناس عموما وللمتقين خصوصا من ضلال الكفر والمعاصي والجهل إلى نور الإيمان والتقوى
والعلم، وأنزله شفاء للصدور من أمراض الشبهات والشهوات ويحصل به اليقين والعلم في المطالب
العاليات، وشفاء للأبدان من أمراضها وعللها وآلامها وأسقامها، وأخبر أنه لا ريب فيه ولا شك بوجه
من الوجوه وذلك لاشتماله على الحق العظيم في أخباره وأوامره ونواهيه، وأخبر أنه مبارك فيه الخير الكثير
والعلم الغزير والأسرار البديعة والمطالب الرفيعة فكل بركة وسعادة تنال في الدنيا والآخرة فسببها
الاهتداء به واتباعه، وأخبر أنه مصدق ومهيمن على الكتب السابقة فما شهد له فهو الحق وما رده فهو مردود
لأنه تضمنها وزاد عليها، وقال تعالى يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام فهو هاد إلى دار السلام
مبين لطريق الوصول إليها كاشف عن الطريق الموصلة إلى دار الآلام ومحذر عنها، وقال تعالى مخبرا عن كتابه — ودال عليها
كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير فبين أن آياته أحكم تبيين وأتقنها أي إتقان وفصلها بتبيين — [illegible]
الحق من الباطل والرشد من الضلال بتفصيل تام وأنه من عند حكيم خبير فلا يخبر إلا بالصدق والحق واليقين ولا يأمر
إلا بالعدل والإحسان والبر ولا ينهى إلا عن المضار الدينية والدنيوية، وأقسم تعالى بالقرآن ووصفه بأنه
مجيد والمجد سعة الأوصاف وعظمتها، ووصفه بأنه ذو الذكر أي يتذكر به العلوم الإلهية والأخلاق — [illegible]
الجميلة والأعمال الصالحة ويتعظ به من يخشى، وقال تعالى إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون فأنزله بهذا
اللسان لنعقله ونتفهمه، وأمرنا بتدبره والتفكر فيه والاستنباط لعلومه وما ذاك إلا لأن تدبره مفتاح
كل خير محصل للعلوم والأسرار، فلله الحمد والشكر والثناء الذي جعل كتابه هدى وشفاء ورحمة ونورا وتبصرة
وتذكرة وبركة وهدى وبشرى للمسلمين، فإذا علم هذا علم افتقار كل مكلف لمعرفة معانيه والاهتداء
بها وكان حقيقا بالعبد أن يبذل جهده ويستفرغ وسعه في تعلمه وتفهمه بأقرب الطرق الموصلة إلى ذلك
وقد كثرت تفاسير الأئمة رحمهم الله لكتاب الله فمن مطول خارج في أكثر بحوثه عن المقصود ومن مقتصر يقتصر — [illegible]
على حل بعض الألفاظ اللغوية [illegible] وكان الذي ينبغي في ذلك أن يجعل المعنى هو المقصود واللفظ
وسيلة إليه فينظر في سياق الكلام وما سيق لأجله ويقابل بينه وبين نظيره في موضع آخر ويعرف أنه سيق
لهداية الخلق كلهم عالمهم وجاهلهم حضريهم وبدويهم، فالنظر لسياق الآيات مع العلم بأحوال الرسول وسيرته
مع أصحابه وأعدائه وقت نزوله من أعظم ما يعين على معرفته وفهم المراد منه خصوصا إذا انضم إلى ذلك معرفة
علوم العربية على اختلاف أنواعها فمن وفق لذلك لم يبق عليه إلا الإقبال على تدبره وتفهمه وكثرة التفكر في
ألفاظه ومعانيه ولوازمها وما تتضمنه وما تدل عليه منطوقا ومفهوما فإذا بذل وسعه في ذلك فالرب أكرم من عبده — ومعانيه
فلا بد أن يفتح عليه من علومه أمورا لا تدخل تحت كسبه، ولما منّ الباري علي وعلى إخواني بالاشتغال
بكتابه العزيز بحسب الحال اللائقة أحببت أن أرسم من تفسير كتاب الله ما تيسر وما من به علينا
ليكون تذكرة للمحصلين وآلة للمستبصرين ومعونة للسالكين ولأقيده خوف الضياع ولم يكن قصدي
في ذلك إلا أن يكون المعنى هو المقصود ولم أشتغل في حل الألفاظ والعقود للمعنى الذي ذكرت
ولأن المفسرين قد كفوا من بعدهم فجزاهم الله عن المسلمين خيرا والله أرجو وعليه أعتمد

ا ا يسر

صورة الصفحة الأولى من الجزء الأول من نسخة عنيزة

١٥٠

وعميم احسانه فقال والله غفور رحيم ففيها اعظم بشارة بان رحمته غلبت
غضبه ومغفرته غلبت مؤاخذته فالاية فيها الاخبار عن حالة الخلق وان منهم
من يغفر الله له ومنهم من يعذبه فلم يختمها باسمين احدهما دال على الرحمة والثاني دال
على النقمة بل ختمها باسمين كلاهما يدل على الرحمة فله تعالى رحمة واحسان سيرحم بها
عباده لا تخطر ببال البشر ولا يدركها وصف فنسأله تعالى ان يتغمدنا ويدخلنا
برحمته في عباده الصالحين تم الجزء الاول من هذا التفسير المبارك بلغ
بيسر من الله واعانته فله الحمد والشكر والثناء واساله المزيد من فضله وكرمه
واحسانه ويليه الجزء الثاني اوله قوله الباري جل جلاله يا ايها الذين امنوا
لا تاكلوا الربا اضعافا مضاعفة الاية وذلك في يوم تسع وعشرين من شهر ربيع
الاول من سنة ١٣٤٣ ثلاث واربعين وثلثمائة والف من الهجرة النبوية
وصلى الله على محمد وسلم تسليما كثيرا بقلم جامعه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله
السعدي غفر الله له ولوالديه واخوانه المسلمين والحمد لله رب العالمين

صورة الصفحة الأخيرة من الجزء الأول من نسخة عنيزة

المجلد الثاني من تيسير الكريم المنان وهو في تفسير
كلام الرحمن لجامعه الفقير إلى الله عبد الرحمن
ابن ناصر بن عبد الله بن محمد سعدي عفا الله له
ولوالديه وللمسلمين آمين

أوله يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا إلخ

صورة غلاف الجزء الثاني من نسخة عنيزة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا
من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا
شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً قال تعالى

يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون
واتقوا النار التي أعدت للكافرين وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون
وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين
ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب
المحسنين والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم
ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أولئك جزاؤهم
مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين

تقدم في مقدمة هذا التفسير أن العبد ينبغي له مراعاة الأوامر والنواهي في نفسه وفي غيره
وأن الله تعالى إذا أمره بأمر وجب عليه أولاً أن يعرف حده وما هو الذي أمر به ليتمكن
بذلك من امتثاله فإذا عرف ذلك اجتهد واستعان بالله على امتثاله في نفسه وفي غيره
بحسب قدرته وإمكانه وكذلك إذا نهي عن أمر عرف حده وما يدخل فيه وما لا يدخل
ثم اجتهد واستعان بربه في تركه وأن هذا ينبغي مراعاته في جميع الأوامر الإلهية
والنواهي وهذه الآيات الكريمات قد اشتملت على أوامر وخصال من خصال الخير أمر الله
وحث على فعلها وأخبر عن جزاء أهلها وعلى نواهي حث على تركها ولعل الحكمة والله أعلم
في إدخال هذه الآيات أثناء قصة أحد أنه قد تقدم أن الله تعالى وعد عباده المؤمنين
أنهم إذا صبروا واتقوا نصرهم على أعدائهم وخذل الأعداء عنهم كما في قوله وإن تصبروا
وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا ثم قال وإن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا
يمددكم ربكم الآيات فكأن النفوس اشتاقت إلى معرفة خصال التقوى التي يحصل
بها النصر والفلاح والسعادة فذكر الله في هذه الآيات أهم خصال التقوى التي
إذا قام العبد بها فقيامه بغيرها من باب أولى وأحرى ويدل على ما قلنا
أن الله ذكر لفظ التقوى في هذه الآيات ثلاث مرات مرة مطلقة وهي قوله أعدت
للمتقين ومرتين مقيدتين فقال واتقوا الله واتقوا النار فقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا
كل ما في القرآن من قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا افعلوا كذا أو اتركوا كذا يدل على أن الإيمان
هو السبب الداعي والموجب لامتثال ذلك الأمر واجتناب ذلك النهي لأن الإيمان
هو التصديق الكامل بما يجب التصديق به المستلزم لأعمال الجوارح فنهاهم عن
أكل الربا أضعافا مضاعفة وذلك هو ما اعتاده أهل الجاهلية ومن لا يبالي
بالأوامر الشرعية من أنه إذا حل الدين على المعسر ولم يحصل منه شيء قالوا له
إما أن تقضي ما عليك من الدين وإما أن نزيد في المدة ويزيد ما في ذمتك
فيضطر الفقير ويستدفع غريمه ويلتزم ذلك اغتناما لراحته الحاضرة

صورة الصفحة الأولى من الجزء الثاني من نسخة عنيزة

ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهذا من تمام عدله تعالى وإحسانه وأنه لا يظلم مثقال
ذرة ولهذا قال وهم لا يظلمون (قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم
حنيفا وما كان من المشركين قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين
لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين قل أغير الله أبغي ربا وهو رب كل شيء ولا
تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون
وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم إن ربك
سريع العقاب وإنه لغفور رحيم) يأمر تعالى نبيه صلى الله عليه أن يقول ويعلن بما هو
عليه من الهداية إلى الصراط المستقيم الدين المعتدل المتضمن للعقائد النافعة والأعمال الصالحة
والأمر بكل حسن والنهي عن كل قبيح الذي عليه الأنبياء والمرسلون خصوصا إمام الحنفاء ووالد
من بعث من بعد موته من الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام وهو الدين الحنيف المائل
عن كل دين غير مستقيم من أديان أهل الانحراف كاليهود والنصارى والمشركين وهذا عموم
ثم خصص من ذلك أشرف العبادات فقال قل إن صلاتي ونسكي أي ذبحي وذلك لشرف
هاتين العبادتين وفضلهما ودلالتهما على محبة الله تعالى وإخلاص الدين له والتقرب إليه بالقلب
واللسان والجوارح وبالذبح الذي هو بذل ما تحبه النفس من المال لما هو أحب إليها وهو الله تعالى
ومن أخلص في صلاته ونسكه استلزم ذلك إخلاصه لله في سائر أعماله وقوله ومحياي
ومماتي أي ما آتيه في حياتي وما يجريه الله علي وما يقدر علي في مماتي الجميع لله رب
العالمين لا شريك له في العبادة كما أنه ليس له شريك في الملك والتدبير وليس هذا الإخلاص
لله ابتداعا مني وبدعا أتيته من تلقاء نفسي بل بذلك أمرت أمرا حتما لا أخرج من
التبعة إلا بامتثاله وأنا أول المسلمين من هذه الأمة قل أغير الله من المخلوقين أبغي
ربا أي يحسن ذلك ويليق بي أن أتخذ غيره مربيا ومدبرا والله رب كل شيء فالخلق كلهم
داخلون تحت ربوبيته منقادون لأمره فتعين علي وعلى غيري أن يتخذ الله ربا
ويرضى به وأن لا يتعلق بأحد من المربوبين الفقراء العاجزين ثم رغب ورهب بذكر الجزاء
فقال ولا تكسب كل نفس من خير أو شر إلا عليها كما قال تعالى من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء
فعليها ولا تزر وازرة وزر أخرى بل كل عليه وزر نفسه وإن كان أحد قد تسبب في ضلال
غيره ووزره فإن عليه وزر التسبب من غير أن ينقص من وزر المباشر شيء ثم إلى ربكم مرجعكم
يوم القيامة فينبئكم بما كنتم تعملون من خير وشر ويجازيكم على ذلك أوفى الجزاء وهو الذي جعلكم
خلائف الأرض أي يخلف بعضكم بعضا واستخلفكم الله في الأرض وسخر لكم جميع ما فيها وابتلاكم
لينظر كيف تعملون ورفع بعضكم فوق بعض درجات في القوة والعافية والرزق والخلق والخلق
ليبلوكم فيما آتاكم فتفاوتت أعمالكم إن ربك سريع العقاب لمن عصاه وكذب بآياته وإنه لغفور
رحيم لمن آمن به وعمل صالحا وتاب من الموبقات) آخر تفسير سورة الأنعام ويليه الجزء الثالث

صورة الصفحة الأخيرة من الجزء الثاني من نسخة عنيزة

المجلد الثالث من تيسير الرحمن في تفسير القرآن
لجامعه الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر
آل سعدي

في ملك عبد الرحمن بن سعدي

عارية عندي من قبل عبد [illegible]

أول سورة الأعراف

صورة غلاف الجزء الثالث من نسخة عنيزة

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الأعراف مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

(المص كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين) يقول تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم مبينا له عظمة القرآن كتاب أنزل إليك أي كتاب جليل حوى كل ما يحتاج إليه العباد وجميع المطالب الإلهية والمقاصد الشرعية محكما مفصلا فلا يكن في صدرك حرج منه أي ضيق وشك واشتباه بل لتعلم أنه تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد وأنه أصدق الكلام فلينشرح له صدرك ولتطمئن به نفسك ولتصدع بأوامره ونواهيه ولا تخش لائما ومعارضا لتنذر به الخلق فتعظهم وتذكرهم فتقوم الحجة على المعاندين وليكون ذكرى للمؤمنين كما قال تعالى فذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين يتذكرون به الصراط المستقيم وأعماله الظاهرة والباطنة وما يحول بين العبد وبين سلوكه ثم خاطب الله العباد وألفتهم إلى الكتاب فقال اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم أي الكتاب الذي أريد إنزاله لأجلكم وهو من ربكم الذي يريد أن يتم تربيته لكم فأنزل عليكم هذا الكتاب الذي إن اتبعتموه كملت تربيتكم وتمت عليكم النعمة وهديتم لأحسن الأعمال والأخلاق ومعاليها ولا تتبعوا من دونه أولياء أي تتولونهم وتتبعون أهواءهم وتتركون لأجلها الحق قليلا ما تذكرون فلو تذكرتم وعرفتم المصلحة لما آثرتم الضار على النافع والعدو على الولي ثم حذرهم عقوباته للأمم الذين كذبوا ما جاءتهم به رسلهم لئلا يشابهوهم فقال

٢١٤

لما ذكر في هذه السورة من أخبار الأنبياء ما ذكر ذكر الحكمة في ذكر ذلك فقال وكلا نقص عليك
من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك أي قلبك ليطمئن ويثبت ويصبر كما صبر أولو العزم
من الرسل فإن النفوس تأنس بالاقتداء وتنشط على الأعمال وتريد المنافسة لغيرها
ويتأيد الحق بذكر شواهده وكثرة من قام به وجاءك في هذه السورة الحق اليقين فلا شك
فيه بوجه من الوجوه فالعلم بذلك من العلم بالحق الذي هو أكبر فضائل النفوس وموعظة
وذكرى للمؤمنين أي يتعظون به فيرتدعون عن الأمور المكروهة ويتذكرون الأمور المحبوبة
لله فيفعلونها وأما من ليس من أهل الإيمان فلا تنفعهم المواعظ وأنواع التذكير ولهذا قال
وقل للذين لا يؤمنون بعد ما قامت عليهم الآيات اعملوا على مكانتكم أي حالتكم التي أنتم عليها
إنا عاملون على ما كنا عليه وانتظروا ما يحل بنا إنا منتظرون ما يحل بكم وقد فصل الله
بين الفريقين وأرى عباده نصره لعباده المؤمنين وقمعه أعداءه المكذبين ولله غيب
السموات والأرض أي ما غاب فيهما من الخفايا والأمور الغيبية وإليه يرجع الأمر كله
من الأعمال والعمال فيميز الخبيث من الطيب فاعبده وتوكل عليه أي قم بعبادته وهي جميع
ما أمر الله به مما تقدر عليه وتوكل على الله في ذلك وما ربك بغافل عما تعملون من الخير والشر
بل قد أحاط علمه بذلك وجرى به قلمه وسيجري عليه حكمه وجزاؤه تم تفسير سورة هود
والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وسلم

صورة الصفحة الأخيرة من الجزء الثالث من نسخة عنيزة

المجلد الرابع من تيسير الكريم الرحمن
في تفسير كلام الرب المنان
لجامعه الفقير إلى الله عبد الرحمن
ابن ناصر السعدي
غفر الله له و
لوالديه
ولجميع
المسلمين
آمين

[illegible]

ملك عبد الرحمن الناصر السعدي

عارية عندي من قبل عبد الله السعدي

صورة غلاف الجزء الرابع من نسخة عنيزة

٢

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة يوسف بن يعقوب عليهما الصلاة والسلام وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

(الر تلك آيات الكتاب المبين إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون نحن نقص عليك أحسن
القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين) يخبر تعالى أن آيات القرآن هي آيات
الكتاب المبين أي البين الواضحة ألفاظه ومعانيه ومن بيانه وإيضاحه أنه أنزله باللسان العربي
أشرف الألسنة وأبينها وكان هذا الإيضاح والتبيين لعلكم تعقلون أي لتعقلوا حدوده وأصوله
وفروعه وأوامره ونواهيه فإذا عقلتم ذلك بإيقانكم واتصفت قلوبكم بمعرفتها أثمر ذلك عمل الجوارح
والانقياد إليه ولعلكم تعقلون أي تزداد عقولكم بتكرر المعاني الشريفة العالية على أذهانكم فتنتقلوا
من حال إلى أحوال أعلى منها وأكمل نحن نقص عليك أحسن القصص وذلك لصدقها وسلاسة
عبارتها ورونق معانيها بما أوحينا إليك هذا القرآن أي بما اشتمل عليه هذا القرآن الذي أوحيناه
إليك وفضلناك به على سائر الأنبياء وذلك محض منة من الله وإحسان وإن كنت من قبله لمن الغافلين
أي ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان قبل أن يوحي الله إليك ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء
من عبادنا ولما مدح ما اشتمل عليه هذا القرآن من القصص وأنها أحسن القصص على الإطلاق
فلا يوجد من القصص في شيء من الكتب مثل هذا القرآن ذكر قصة يوسف وأبيه وإخوته
القصة العجيبة الحسنة فقال (إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس
والقمر رأيتهم لي ساجدين قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان
للإنسان عدو مبين وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى
آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك حكيم عليم) واعلم أن الله ذكر أنه
يقص على رسوله أحسن القصص في هذا الكتاب ثم ذكر هذه القصة وبسطها وذكر ما جرى فيها
فعلم بذلك أنها قصة تامة كاملة حسنة فمن أراد أن يكملها أو يحسنها بما يذكر في الإسرائيليات
التي لا يعرف لها سند ولا ناقل وأغلبها كذب فهو مستدرك على الله ومكمل لشيء يزعم أنه ناقص
وحسبك بأمر ينتهي إلى هذا الحد قبحا فإن تضاعيف هذه السورة قد ملئت من الأكاذيب [في كثير من التفاسير صح]
والأمور الشنيعة المنافية لما قصه الله تعالى بشيء كثير فعلى العبد أن يفهم عن الله ما قصه ويدع
ما سوى ذلك مما ليس عن النبي صلى الله عليه وسلم ينقل فقوله تعالى إذ قال يوسف
لأبيه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام يا أبت إني رأيت أحد عشر
كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين فكانت هذه الرؤيا مقدمة لما وصل إليه يوسف
عليه السلام من الارتفاع في الدنيا والآخرة وهكذا إذا أراد الله أمرا من الأمور العظام قدم بين
يديه مقدمة توطئة له وتسهيلا لأمره واستعدادا لما يرد على العبد من المشاق

لطفا

صورة الصفحة الأولى من الجزء الرابع من نسخة عنيزة

١٢٩

الكمال والثناء والحمد من جميع الوجوه المنزه عن كل آفة ونقص الذي لم يتخذ
ولداً ولم يكن له شريك في الملك بل الملك كله لله الواحد القهار فالعالم العلوي
والسفلي كلهم مملوكون لله ليس لأحد من الملك شيء ولم يكن له ولي من الذل
أي لا يتولى أحداً من خلقه ليتعزز به ويعاونه فإنه الغني الحميد الذي
لا يحتاج إلى أحد من المخلوقات في الأرض ولا في السموات ولكنه يتخذ أولياء
إحساناً منه إليهم ورحمة بهم الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور
وكبره تكبيراً أي عظمه وأجله بالإخبار بأوصافه العظيمة وبالثناء عليه
بأسمائه الحسنى وبتمجيده بأفعاله المقدسة وبتعظيمه وإجلاله
بعبادته وحده لا شريك له وإخلاص الدين كله له تم تفسير سورة الإسراء
ولله الحمد والمنة والثناء الحسن على يد جامعه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله
بلغ
ابن سعدي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين وصلى الله على محمد وسلم تسليماً
وذلك في ١ جمادى الأولى ١٣٤٤

صورة الصفحة الأخيرة من الجزء الرابع من نسخة عنيزة

المجلد الخامس من تيسير الكريم الرحمن
في تفسير كلام المنان لجامعه
الفقير إلى الله عبد الرحمن
ابن ناصر السعدي

غفر الله له ما تقدم من ذنبه
وما تأخر وللمسلمين آمين

عارية عندي من قبل عبد الله السعدي

صورة غلاف الجزء الخامس من نسخة عنيزة

٣

بسم الله الرحمن الرحيم تفسير سورة الكهف وهي مكية

(الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين
الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ما لهم به من علم
ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا
بهذا الحديث أسفا) الحمد لله هو الثناء عليه بصفاته التي هي كلها صفات كمال وبنعمه الظاهرة والباطنة
الدينية والدنيوية وأجل نعمه على الإطلاق إنزاله الكتاب العظيم على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم
فحمد نفسه وفي ضمنه إرشاد العباد ليحمدوه على إرسال الرسول إليهم وإنزال الكتاب عليهم ثم وصف هذا الكتاب
بوصفين مشتملين على أنه الكامل من جميع الوجوه وهما نفي العوج عنه وإثبات أنه قيم مستقيم فنفي العوج
يقتضي أنه ليس في أخباره كذب ولا في أوامره ونواهيه ظلم ولا عبث وإثبات الاستقامة يقتضي أنه لا يخبر
ولا يأمر إلا بأجل الإخبارات وهي الأخبار التي تملأ القلوب معرفة وإيمانا وعقلا كالإخبار بأسماء الله وصفاته
وأفعاله ومنها الغيوب المتقدمة والمتأخرة وأن أوامره ونواهيه تزكي النفوس وتطهرها وتنميها
وتكملها لاشتمالها على كمال العدل والقسط والإخلاص والعبودية لله رب العالمين وحده لا شريك له وحقيق
بكتاب موصوف بما ذكر أن يحمد الله نفسه على إنزاله وأن يتمدح إلى عباده به وقوله لينذر بأسا شديدا من
لدنه أي لينذر بهذا القرآن الكريم عقابه الذي عنده أي قدره وقضاه على من خالف أمره وهذا يشمل
عقاب الدنيا وعقاب الآخرة وهذا أيضا من نعمه أن خوف عباده وأنذرهم ما يضرهم ويهلكهم كما قال تعالى
لما ذكر في هذا القرآن وصف النار قال ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون فمن رحمته بعباده أن قيض
العقوبات الغليظة على من خالف أمره وبينها لهم وبين لهم الأسباب الموصلة إليها ويبشر المؤمنين
الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا أي وأنزل الله على عبده الكتاب ليبشر المؤمنين به وبرسله
وكتبه الذين كمل إيمانهم فأوجب لهم عمل الصالحات وهي الأعمال الصالحة من واجب ومستحب التي جمعت
الإخلاص والمتابعة أن لهم أجرا حسنا وهو الثواب الذي رتبه الله على الإيمان والعمل الصالح وأعظمه وأجله
الفوز برضى الله ودخول الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وفي وصفه
بالحسن دلالة على أنه لا مكدر فيه ولا منغص بوجه من الوجوه إذ لو وجد فيه شيء من ذلك لم يكن حسنه
تاما ومع ذلك فهذا الأجر الحسن ماكثين فيه أبدا لا يزول عنهم ولا يزولون عنه بل نعيمهم في كل وقت
متزايد وفي ذكر التبشير ما يقتضي ذكر الأعمال الموجبة للمبشر به وهو أن هذا القرآن قد اشتمل على كل
عمل صالح موصل لما تستبشر به النفوس وتفرح به الأرواح وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا
من اليهود والنصارى والمشركين الذين قالوا هذه المقالة الشنيعة فإنهم لم يقولوها عن علم ولا يقين
لا علم منهم ولا علم من آبائهم الذين قلدوهم واتبعوهم بل إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس
كبرت كلمة تخرج من أفواههم أي عظمت شناعتها واشتدت عقوبتها وأي شناعة أعظم من وصفه
باتخاذ الولد الذي يقتضي نقصه ومشاركة غيره له في خصائص الربوبية والإلهية والكذب
عليه فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ولهذا قال هنا إن يقولون إلا كذبا أي كذبا محضا ما فيه

من الصدق

صورة الصفحة الأولى من الجزء الخامس من نسخة عنيزة

٢٢٩

لتهتدوا به وتقتدوا وتعلموا الفاظه ومعانيه فهذا الذي علي وقد اديته فمن اهتدى فانما
يهتدي لنفسه نفعه يعود عليه وثمرته عائدة اليه ومن ضل فقل انما انا من المنذرين
وليس بيدي من الهداية شيء وقل الحمد لله الذي له الحمد في الاولى والاخرة ومن جميع
الخلق خصوصا اهل الاختصاص والصفوة من عباده فان الذي ينبغي ان يقع منهم من الحمد
والثناء على ربهم اعظم مما يقع من غيرهم لرفعة درجاتهم وكمال قربهم منه وكثرة خيراته عليهم
سيريكم اياته فتعرفونها معرفة تدلكم على الحق والباطل فلا بد ان يريكم من اياته
ما تستنيرون به في الظلمات ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة
وما ربك بغافل عما تعملون بل قد علم ما انتم عليه من الاعمال والاحوال وعلم مقدار جزاء
تلك الاعمال وسيحكم بينكم حكما تحمدونه عليه ولا يكون لكم حجة بوجه من الوجوه عليه تم تفسير
سورة النمل بفضل الله واعانته وتيسيره ونسأله تعالى ان لا تزال الطافه ومعونته
مستمرة علينا وواصلة منه الينا فهو اكرم الاكرمين وخير الراحمين وموصل المنقطعين
ومجيب السائلين ميسر الامور العسيرة وفاتح ابواب بركاته ومجزل في جميع الاوقات
هباته ميسر القران للمتذكرين ومسهل طرقه وابوابه للمقبلين ومهدها لذكره
خزائنه وخيراته للمتفكرين والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد واله وصحبه وسلم
على يد جامعه وممليه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي غفر الله له ولوالديه
ولجميع المسلمين وذلك في ٢٢ رمضان سنة ١٣٤٣

صورة الصفحة الأخيرة من الجزء الخامس من نسخة عنيزة

الجزء السادس من تيسير الكريم الرحمن
في تفسير كلام المنان من منّ
الله على الفقير إلى الله المعيد
المبدي عبده وابن
عبده وابن أمته
عبد الرحمن بن
ناصر بن عبد الله
ابن سعدي
غفر الله
له
آمين

أوله سورة القصص

صورة غلاف الجزء السادس من نسخة عنيزة

تفسير سورة القصص وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

(طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون لقوم يؤمنون إلى آخر
القصة) تلك الآيات المستحقة للتعظيم والتفخيم آيات الكتاب المبين لكل أمر يحتاج إليه العباد
من معرفة ربهم ومعرفة حقوقه ومعرفة أوليائه وأعدائه ومعرفة وقائعه وأيامه ومعرفة
ثواب الأعمال وجزاء العمال فهذا القرآن قد بينها غاية التبيين وجلاها للعباد ووضحها
من جملة ما أبان قصة موسى وفرعون فإنه أبداها وأعادها في عدة مواضع وبسطها
في هذا الموضع فقال نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون فإن نبأهما غريب وخبرهما عجيب
لقوم يؤمنون فإليهم يساق الخطاب ويوجه الكلام حيث إن معهم من الإيمان ما يقبلون به
على تدبر ذلك وتلقيه بالقبول والاهتداء بمواقع العبر ويزدادون إيمانا ويقينا وخيرا
إلى خيرهم وأما من عداهم فلا يستفيدون منه إلا إقامة الحجة عليهم وصانه الله
عنهم وجعل بينهم وبينه حجابا أن يفقهوه فأول هذه القصة إن فرعون علا في الأرض
في ملكه وسلطانه وجنوده وجبروته فصار من أهل العلو فيها لا من الأعلين فيها وجعل
أهلها شيعا أي طوائف متفرقة يتصرف فيهم بشهوته وينفذ فيهم ما أراد من قهره وسطوته
يستضعف طائفة منهم وتلك الطائفة هم بنوا إسرائيل الذين فضلهم الله على العالمين الذي
له أن يكرمهم ويجلهم ولكنه استضعفهم بحيث إنه رأى أنهم لا منعة لهم تمنعهم مما أراده
فيهم فصار لا يبالي بهم ولا يهتم بشأنهم وبلغت به الحال إلى أنه يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم
خوفا من أن يكثروا فيغمروه في بلاده ويصير لهم الملك إنه كان من المفسدين الذين لا قصد لهم
في صلاح الدين ولا صلاح الدنيا وهذا من إفساده في الأرض ونريد أن نمن على الذين
استضعفوا في الأرض بأن نزيل عنهم مواد الاستضعاف ونهلك من قاومهم ونخذل من
ناواهم ونجعلهم أئمة في الدين وذلك لا يحصل مع الاستضعاف بل لا بد من تمكين في الأرض
وقدرة تامة ونجعلهم الوارثين للأرض الذين لهم العاقبة في الدنيا قبل الآخرة ونمكن لهم
في الأرض فهذه الأمور كلها قد تعلقت بها إرادة الله وجرت بها مشيئته وكذلك
وكذلك نريد أن نري فرعون وهامان وزيره وجنودهما التي بها صالوا وجالوا وعلوا وبغوا
منهم أي من هذه الطائفة المستضعفة ما كانوا يحذرون من إخراجهم من ديارهم
ولذلك كانوا يسعون في قمعهم وكسر شوكتهم وتقتيل أبنائهم الذين هم محل ذلك
فكل هذا قد أراده الله وإذا أراد أمرا سهل أسبابه ونهج طرقه وهذا الأمر كذلك
فإنه قدر وأجرى من الأسباب التي لم يشعر بها لا أولياؤه ولا أعداؤه ما هو سبب
موصل إلى هذا المقصود فأول ذلك لما أوجد الله رسوله موسى الذي جعل استنقاذ هذا
الشعب الإسرائيلي على يديه وبسببه وكان في وقت تلك المخافة العظيمة =
التي

صورة الصفحة الأولى من الجزء السادس من نسخة عنيزة

١٤٢

إنهم الغالبون لغيرهم المنصورون من ربهم نصراً عزيزاً يتمكنون فيه من اقامة دينهم وهذه بشارة عظيمة لمن اتصف بانه من جند الله بان كانت احواله مستقيمة وقاتل من امر بقتالهم انه غالب منصور ثم امر رسوله بالاعراض عمن عاندوا ولم يقبلوا الحق وانه ما بقي الا انتظار ما يحل بهم من العذاب ولهذا قال وابصرهم فسوف يبصرون من يحل به النكال فانه سيحل بهم فاذا نزل بساحتهم اي نزل عليهم وقريباً منهم فساء صباح المنذرين لانه صباح الشر والعقوبة والاستئصال ثم كرر الامر بالتولي عنهم وتهديدهم بوقوع العذاب ولما ذكر في هذه السورة كثيراً من اقوالهم الشنيعة التي وصفوه بها نزه نفسه عنها فقال سبحان ربك اي تنزه وتعالى رب العزة الذي عز فقهر كل شيء واعتز عن كل سوء يصفونه به وسلام على المرسلين لسلامتهم من الذنوب والآفات وسلامة ما وصفوا به فاطر الارض والسموات والحمد لله رب العالمين الالف واللام للاستغراق فجميع انواع الحمد من الصفات الكاملة العظيمة والافعال التي ربى بها العالمين وادر عليهم فيها النعم وصرف عنهم بها النقم ودبرهم تعالى في حركاتهم وسكونهم وفي جميع احوالهم كلها لله تعالى فهو المقدس عن النقص المحمود بكل كمال المحبوب المعظم ورسله سالمون مسلم عليهم ومن اتبعهم في ذلك له السلامة في الدنيا والآخرة تم تفسير سورة الصافات في ٢٥ رجب ١٣٤٥

تم المجلد السادس من تفسير الشيخ
عبد الرحمن الناصر العبد الله بن سعدي
غفر الله له ورحمه وذلك في اربع
وعشرين من رجب سنة
الف وثلاثمائة وخمس
واربعين بقلم الفقير الى ربه
محمد بن منصور بن ابراهيم
نقل على خط
مؤلفه وجامعه
شيخنا الشيخ
عبد الرحمن
جزاه الله
خيراً آمين
تم
وصلى الله على نبيه وسلم

صورة الصفحة الأخيرة من الجزء السادس من نسخة عنيزة

المجلد السابع من تيسير الكريم الرحمان
في تفسير كلام المنان من منّ الله
على عبده وابن عبده وابن امته
عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله
ابن سعدي

أوله سورة ص

عارية عندي من قبل عبد الله السعدي
ابن المؤلف

صورة غلاف الجزء السابع من نسخة عنيزة

بسم الله الرحمن الرحيم تفسير سورة ص وهي مكية

(ص والقرآن ذي الذكر بل الذين كفروا في عزة وشقاق كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا
ولات حين مناص وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة إلها
واحدا إن هذا لشيء عجاب وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد ما سمعنا
بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكري بل لما
يذوقوا عذاب أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب أم لهم ملك السموات والأرض وما
بينهما فليرتقوا في الأسباب جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب) هذا بيان من الله تعالى لحال
القرآن وحال المكذبين به معه ومع من جاء به فقال ص والقرآن ذي الذكر أي ذي القدر العظيم
والشرف المذكر للعباد كل ما يحتاجون إليه من العلم بأسماء الله وصفاته وأفعاله ومن العلم
بأحكام الله الشرعية ومن العلم بأحكام المعاد والجزاء فهو مذكر لهم في أصول دينهم وفروعه
وهنا لا يحتاج إلى ذكر المقسم عليه فإن حقيقة الأمر المقسم به وعليه شيء واحد وهو هذا القرآن الموصوف
بهذا الوصف الجليل فإذا كان القرآن بهذا الوصف علم ضرورة العباد إليه فوق كل ضرورة وكان
الواجب عليهم تلقيه بالإيمان والتصديق والإقبال على استخراج ما يتذكر به منه فهدى الله من
هدى لهذا وأبى الكافرون به وبمن أنزله وصار معهم عزة وشقاق عزة وامتناع عن
الإيمان به واستكبار وشقاق له أي مشاقة ومخاصمة في رده وإبطاله وفي القدح بمن جاء به
فتوعدهم بإهلاك القرون الماضية المكذبة بالرسل وأنهم حين جاءهم الهلاك نادوا واستغاثوا
في صرف العذاب عنهم ولات حين مناص أي وليس الوقت وقت خلاص مما وقعوا فيه
ولا فرج لما أصابهم فليحذر هؤلاء أن يدوموا على عزتهم وشقاقهم فيصيبهم ما أصابهم
وعجبوا أن جاءهم منذر منهم أي عجب هؤلاء المكذبون في أمر ليس محل عجب أن جاءهم
منذر منهم ليتمكنوا من التلقي عنه وليعرفوه حق المعرفة ولأنه من قومهم فلا تأخذهم
النخوة القومية عن اتباعه فهذا مما يوجب الشكر عليهم وتمام الانقياد له ولكنهم عكسوا
القضية فتعجبوا تعجب إنكار وقالوا من كفرهم وظلمهم هذا ساحر كذاب وذنبه عندهم
أنه جعل الآلهة إلها واحدا أي كيف ينهى عن اتخاذ الشركاء والأنداد ويأمر بإخلاص
العبادة لله وحده إن هذا الذي جاء به لشيء عجاب أي يقضي منه العجب لبطلانه
وفساده وانطلق الملأ منهم المقبول قولهم محرضين قومهم على التمسك بما هم عليه من
الشرك أن امشوا واصبروا على آلهتكم أي استمروا عليها وجاهدوا نفوسكم في الصبر
عليها وعلى عبادتها ولا يردكم عنها راد ولا يصدنكم عن عبادتها صاد إن هذا
الذي

صورة الصفحة الأولى من الجزء السابع من نسخة عنيزة

١٥٣

نبي الله قال بلى قال ألسنا على الحق وعدونا على الباطل قال بلى فقلت علام نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبين أعدائنا فقال إني رسول الله وهو ناصري ولست أعصيه قلت أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به قال بلى أفأخبرتك أنك تأتيه العام قلت لا قال فإنك آتيه ومطوف به قال فأتيت أبا بكر فقلت له كما قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ورد علي أبو بكر كما رد علي رسول الله صلى الله عليه وسلم سواء وزاد فاستمسك بغرزه حتى تموت فوالله إنه لعلى الحق قال عمر فعملت لذلك أعمالا فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قوموا فانحروا ثم احلقوا فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات فلما لم يقم منهم أحد قام فدخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس فقالت يا رسول الله أتحب ذلك اخرج ثم لا تكلم أحدا كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك فقام فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما ثم جاءته نسوة مؤمنات فأنزل الله عز وجل إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات حتى بلغ بعصم الكوافر فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك فتزوج إحداهما معاوية والأخرى صفوان بن أمية ثم رجعوا إلى المدينة وفي مرجعه أنزل الله عليه إنا فتحنا لك فتحا مبينا إلى آخرها فقال عمر أفتح هو يا رسول الله فقال نعم فقال الصحابة هنيئا لك يا رسول الله فما لنا فأنزل الله عز وجل هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين الآية بلغ

انتهى هنا آخر تفسير سورة الفتح ولله الحمد والمنة ثم

صورة الصفحة الأخيرة من الجزء السابع من نسخة عنيزة

الثامن

المجلد السابع من تيسير الكريم الرحمن
في تفسير كلام المنان من الله عليٰ
عبده وابن عبده وابن أمته عبد الرحمن
بن ناصر بن عبد الله بن سعدي

عارية عندي من قبل عبد الله السعدي

أوله سورة الحجرات

الثامن

صورة غلاف الجزء الثامن من نسخة عنيزة

١

(بسم الله الرحمن الرحيم) تفسير سورة الحجرات وهي مدنية

(يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم يا أيها
الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط
أعمالكم وأنتم لا تشعرون إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى
لهم مغفرة وأجر عظيم) هذا متضمن للأدب ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم والتعظيم له مع الله
واحترامه وإكرامه فأمر عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان بالله وبرسوله من امتثال أوامر الله
واجتناب نواهيه وأن يكونوا ماشين خلف أوامر الله متبعين لسنة رسول الله في جميع أمورهم
ولا يتقدموا بين يدي الله ورسوله ولا يقولوا حتى يقول ولا يأمروا حتى يأمر فإن هذا حقيقة
الأدب الواجب مع الله ورسوله وهو عنوان سعادة العبد وفلاحه وبفواته تفوته السعادة
الأبدية والنعيم السرمدي وفي هذا النهي عن تقديم قول غير الرسول صلى الله عليه وسلم على قوله عموما
فإنه متى استبانت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجب اتباعها وتقديمها على غيرها كائنا ما كان
ثم أمر بتقواه عموما وهي كما قال طلق بن حبيب أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله
وأن تترك معصية الله على نور من الله تخشى عقاب الله وقوله إن الله سميع أي لجميع الأصوات في جميع
الأوقات في خفي المواضع والجهات عليم بالظواهر والبواطن والسوابق واللواحق والواجبات
والمستحيلات والممكنات وفي ذكر الاسمين الكريمين بعد النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله
والأمر بتقواه حث على امتثال تلك الأوامر الحسنة والآداب المستحسنة وترهيب عن عدم الامتثال
ثم قال تعالى يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول وهذا فوق صوته
أدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطابه أي لا يرفع المخاطب له صوته معه ولا يجهر له بالقول
بل يغض الصوت ويخاطبه بأدب ولين وتعظيم وتكريم وإجلال وإعظام ولا يكون الرسول كأحدهم
بل يميزوه في خطابهم كما تميز عن غيره في وجوب حقه على الأمة ووجوب الإيمان به والحب الذي
لا يتم الإيمان إلا به فإن في عدم القيام بذلك محذورا وخشية أن يحبط عمل العبد وهو لا يشعر
كما أن الأدب معه من أسباب قبول الأعمال ثم مدح من غض صوته عند رسول الله صلى
الله عليه وسلم بأن الله امتحن قلوبهم للتقوى أي ابتلاها واختبرها فظهرت نتيجة ذلك
بأن صلحت قلوبهم للتقوى ثم وعدهم المغفرة لذنوبهم المتضمنة لزوال الشر والمكروه والأجر العظيم
الذي لا يعلم وصفه إلا الله تعالى وفي وجود المحبوب وفي هذا دليل على أن الله يمتحن القلوب الأجر العظيم
بالأمر والنهي والمحن فمن لازم أمر الله واتبع رضاه وسارع إلى ذكره وقدمه على هواه تمحض
وتمحص للتقوى وصار قلبه صالحا لها ومن لم يكن كذلك علم أنه لا يصلح للتقوى (إن الذين
ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم والله غفور رحيم) لكان خيرا لهم

ثم إلى

صورة الصفحة الأولى من الجزء الثامن من نسخة عنيزة

تغيرت وجوههم وعبست. كلا إذا بلغت التراقي وقيل من راق وظن أنه الفراق
والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى
ثم ذهب إلى أهله يتمطى أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى أيحسب الإنسان أن يترك سدى
ألم يك نطفة من مني يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس
ذلك بقادر على أن يحيي الموتى يعظ تعالى عباده بذكر حال المحتضر عند السياق وأنه إذا
بلغت روحه التراقي وهي العظام المكتنفة لثغرة النحر فحينئذ يشتد الكرب ويطلب
كل وسيلة وسبب يظن أن يحصل به الشفاء والراحة ولهذا قال وقيل من راق أي من يرقيه
من الرقية لأنهم انقطعت آمالهم من الأسباب العادية فلم يبق إلا الأسباب الإلهية ولكن القضاء
والقدر إذا حتم وجاء فلا مرد له وظن أنه الفراق للدنيا والتفت الساق بالساق أي اجتمعت
الشدائد والتفت وعظم الأمر وصعب الكرب وآن أن تخرج الروح التي ألفت البدن ولم تزل
معه فتساق إلى الله تعالى حتى يجازيها بأعمالها ويقررها بفعالها فهذا الزجر يسوق
القلوب إلى ما فيه نجاتها ويزجرها عما فيه هلاكها ولكن المعاند الذي لا تنفع فيه الآيات
لا يزال مستمرا على بغيه وكفره وعناده فلا صدق أي لا آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله
واليوم الآخر والقدر خيره وشره ولا صلى ولكن كذب بالحق في مقابلة التصديق وتولى
عن الأمر والنهي هذا وهو مطمئن قلبه غير خائف من ربه بل يذهب إلى أهله يتمطى أي
ليس على باله شيء توعده بقوله أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى وهذه كلمات وعيد
كررها لتكرير وعيده ثم ذكر الإنسان بخلقه الأول فقال أيحسب الإنسان أن يترك سدى أي
معطلا لا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب هذا حسبان باطل وظن بالله بغير ما يليق
بحكمته ألم يك نطفة من مني يمنى ثم كان بعد المني علقة أي دما فخلق الله منها الحيوان
وسواه أي أتقنه وأحكمه فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك الذي خلق الإنسان
بهذه الأطوار المختلفة أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير
تم تفسير سورة القيامة ولله الحمد والمنة في ١٦ صفر ١٣٤٤

صورة الصفحة الأخيرة من الجزء الثامن من نسخة عنيزة

التاسع
المجلد الثامن من تيسير رحيم الرحمن في تفسير القرآن
لجامعه الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر بن
عبد الله بن ناصر السعدي غفر الله له
ولوالديه وللمسلمين آمين

التاسع

صورة غلاف الجزء التاسع من نسخة عنيزة

١

تفسير سورة هل اتى على الانسان وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

(هل اتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا انا خلقنا الانسان من نطفة
امشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا)
ذكر الله في هذه السورة الكريمة اول حالة الانسان ومبتداها ومتوسطها ومنتهاها
فذكر انه مر عليه دهر طويل وهو الذي قبل وجوده وهو معدوم بل ليس مذكورا
ثم لما اراد الله تعالى خلقه خلق ادم من طين ثم جعل نسله متسلسلا من نطفة امشاج
اي ماء مهين مستقذر نبتليه بذلك لنعلم هل يرى حالة الاولى ويتفطن لها ام
ينساها وتغره نفسه فانشاه الله وخلق له القوى الباطنة والظاهرة كالسمع والبصر
وسائر الاعضاء فاتمها له وجعلها سالمة يتمكن بها من تحصيل مقاصده ثم ارسل اليه
الرسل وانزل عليه الكتب وهداه الطريق الموصلة الى الله ورغبه فيها واخبره بما له
عند الوصول الى الله ثم اخبره بالطريق الموصلة الى الهلاك ورهبه منها واخبره بما له اذا
سلكها وابتلاه بذلك فانقسم الناس الى شاكر لنعمة الله عليه قائم بما حمله الله من
حقوقه والى كفور لنعمة الله عليه انعم الله عليه بالنعم الدينية والدنيوية فردها
وكفر بربه وسلك الطريق الموصلة الى الهلاك ثم ذكر تعالى حال الفريقين عند الجزاء
فقال (انا اعتدنا للكافرين سلاسل واغلالا وسعيرا ان الابرار يشربون من
كاس كان مزاجها كافورا الى اخر الثواب) اي انا هيانا وارصدنا لمن كفر بالله
وكذب رسله وتجرا على المعاصي سلاسل في نار جهنم كما قال تعالى ثم في سلسلة — الاثيم الى جح
ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه واغلالا تغل بها اعناقهم ويوثقون بها وسعيرا
اي نارا تستعر بها اجسامهم وتحرق بها ابدانهم كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا
غيرها ليذوقوا العذاب وهذا العذاب دائم لهم ابدا مخلدون فيه سرمدا واما
الابرار وهم الذين برت قلوبهم بما فيها من محبة الله ومعرفته والاخلاق الجميلة
فبرت جوارحهم واستعملوها باعمال البر اخبر انهم يشربون من كاس اي
شراب لذيذ من خمر قد مزج بكافور اي خلط بكافور ليبرده ويكسر حدته
وهذا الكافور قد سلم من كل مكدر ومنغص موجود في كافور الدنيا فان
الافة الموجودة في الاسماء التي ذكر الله انها في الجنة وهي في الدنيا تعدم في
الاخرة كما قال تعالى في سدر مخضود وطلح منضود وازواج مطهرة لهم دار
السلام عند ربهم وفيها ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين عينا يشرب

صورة الصفحة التاسعة من الجزء الثامن من نسخة عنيزة

-٥-

من جميع أنواع الشر عموما وخصوصا ودلت على أن السحر له حقيقة يخشى من ضرره ويستعاذ بالله منه

تفسير سورة الناس وهي مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

(قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس) وهذه السورة مشتملة على الاستعاذة برب الناس ومالكهم وإلههم من الشيطان الذي هو أصل الشرور كلها ومادتها الذي من فتنته وشره أنه يوسوس في صدور الناس فيحسن الشر ويريهم إياه في صورة حسنة وينشط إرادتهم لفعله ويقبح لهم الخير ويثبطهم عنه ويريهم إياه في صورة غير صورته وهو دائما بهذه الحال يوسوس ويخنس أي يتأخر إذا ذكر العبد ربه واستعان به على دفعه فينبغي له أن يستعين ويعتصم بربوبية الله للناس كلهم وأن الخلق كلهم داخلون تحت الربوبية والملك فكل دابة هو آخذ بناصيتها وبالوهيته التي خلقهم لأجلها فلا تتم لهم إلا بدفع شر عدوهم الذي يريد أن يقتطعهم عنها ويحول بينهم وبينها ويريد أن يجعلهم من حزبه ليكونوا من أصحاب السعير والوسواس كما يكون من الجن يكون من الإنس ولهذا قال من الجنة والناس والحمد لله رب العالمين أولا وآخرا وظاهرا وباطنا ونسأله أن يتم نعمته وأن يعفو عنا ذنوبا حالت بيننا وبين كثير من بركاته وخطايا وشهوات ذهبت بقلوبنا عن تدبر آياته ونرجوه ونأمل منه أن لا يحرمنا خير ما عنده بشر ما عندنا فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ولا يقنط من رحمته إلا القوم الضالون وصلى الله وسلم على رسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين صلاة وسلاما دائمين متواصلين أبد الأوقات والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات تم تفسير كتاب الله تعالى بعونه وحسن توفيقه على يد جامعه وكاتبه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله المعروف بابن سعدي غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين وذلك في غرة ربيع الأول من سنة الأربع والأربعين وثلاثمائة والألف من هجرة محمد صلى الله عليه وسلم

صورة الصفحة الأخيرة من الجزء التاسع من نسخة عنيزة

تنبيه

اعلم أن طريقتي في هذا التفسير: أني أذكر عند كل آية ما يحضرني من معانيها، ولا أكتفي بذكر ما تعلق بالمواضع السابقة عن ذكر ما تعلق بالمواضع اللاحقة؛ لأن الله وصف هذا الكتاب أنه «مثاني» تثنى فيه الأخبار والقصص والأحكام وجميع المواضيع النافعة لحكم عظيمة، وأمر بتدبره جميعه لما في ذلك من زيادة العلوم والمعارف، وصلاح الظاهر والباطن، وإصلاح الأمور كلها.



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل على عبده الفرقان الفارق بين الحلال والحرام، والسعداء والأشقياء، والحق والباطل، وجعله برحمته هدًى - للناس عمومًا، وللمتقين خصوصًا - من ضلال الكفر والمعاصي والجهل، إلى نور الإيمان والتقوى والعلم. وأنزله شفاء للصدور من أمراض الشبهات والشهوات، ويحصل به اليقين والعلم في المطالب العاليات، وشفاء للأبدان من أمراضها وعللها وآلامها وأسقامها. وأخبر أنه لا ريب فيه ولا شك بوجه من الوجوه، وذلك لاشتماله على الحق العظيم في أخباره وأوامره ونواهيه، وأنزله مباركًا، فيه الخير الكثير، والعلم الغزير، والأسرار البديعة، والمطالب الرفيعة. فكل بركة وسعادة تنال في الدنيا والآخرة، فسببها الاهتداء به واتباعه. وأخبر أنه مصدق ومهيمن على الكتب السابقة، فما شهد له فهو الحق، وما رده فهو المردود؛ لأنه تضمنها وزاد عليها، وقال تعالى فيه: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [المائدة: ١٦]، فهو هادٍ لدار السلام، مبين لطريق الوصول إليها وحاث عليها، كاشف عن الطريق الموصلة إلى دار الآلام ومحذر عنها. وقال تعالى مخبرًا عنه: ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود: ١]. فبين آياته أكمل تبيين، وأتقنها أي إتقان، وفصلها بتمييز[1] الحق من الباطل، والرشد من الضلال، تفصيلاً كاشفًا للبس؛ لكونه صادرًا من حكيم خبير، فلا يخبر إلا بالصدق والحق واليقين، ولا يأمر إلا بالعدل والإحسان والبر، ولا ينهى إلا عن المضار الدينية والدنيوية.

وأقسم تعالى بالقرآن ووصفه بأنه (مجيد)؛ والمجد: سعة الأوصاف وعظمتها، وذلك لسعة معاني القرآن وعظمتها. ووصفه بأنه (ذو الذكر)؛ أي: يتذكر به العلوم الإلهية والأخلاق الجميلة والأعمال الصالحة، ويتعظ به من يخشى. وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢]، وأنزله بهذا اللسان لنعقله ونفهمه، وأمرنا بتدبره، والتفكر فيه، والاستنباط لعلومه، وما ذاك إلا لأن تدبره مفتاح كل خير، محصل للعلوم والأسرار. فلله الحمد والشكر والثناء، على أن[2] جعل كتابه هدًى

---

(١) ع: «بتبيين».

(٢) عبارة: «على أن» وردت في ط، ع: «الذي».

وشــفاءً ورحمةً، ونورًا وتبصرةً وتذكرةً وعبرةً، وبركةً وهدًى وبشــرى للمسلمين. فإذا علم هذا؛ علم افتقار كل مكلف لمعرفة معانيه والاهتداء بها، وكان حقيقًا بالعبد أن يبذل جهده ويســتفرغ وســعه في تعلمه وتفهمه بأقرب الطرق الموصلة إلى ذلك. وقد كثرت تفاسير الأئمة - رحمهم الله - لكتاب الله؛ فمــن مطول خارج في أكثر بحوثه عن المقصود، ومن مقتصــر يقتصر على حل بعض الألفاظ اللغوية بقطع النظر عن المراد. وكان الذي ينبغي في ذلك أن يجعل المعنى هو المقصود، واللفظ وســيلة إليه، فينظر في سياق الكلام وما سيق لأجله، ويقابل بينه وبين نظيره في موضع آخر، ويعرف أنه سيق لهداية الخلق كلهم عالمهم وجاهلهم، حضريهم وبدويهم. فالنظر لســياق الآيات، مع العلم بأحوال الرسول وســيرته مع أصحابه وأعدائه وقت نزوله، من أعظم ما يعين على معرفته وفهم المراد منه، خصوصًا إذا انضــم إلى ذلك معرفة علوم العربية على اختلاف أنواعها. فمن وفق لذلك لم يبق عليه إلا الإقبال على تدبــره وتفهمه، وكثرة التفكر في ألفاظه ومعانيه ولوازمها، وما تتضمنه، وما تدل عليه منطوقًا ومفهومًا. فإذا بذل وســعه في ذلــك فالرب أكرم من عبده؛ فلا بد أن يفتح عليه مــن علومه أمورًا لا تدخل تحت كسبه. ولما مَنَّ الباري علي وعلى إخواني بالاشتغال بكتابه العزيز بحسب الحال اللائقة بنا، أحببت أن أرســم من تفسير كتاب الله ما تيسر وما منَّ به الله علينا؛ ليكون تذكرة للمحصلين، وآلة للمستبصرين، ومعونة للسالكين، ولأقيده خوف الضياع. ولم يكن قصدي في ذلك إلا أن يكون المعنى هو المقصود، ولم أشتغل في حل الألفاظ والعقود للمعنى الذي ذكرت. ولأن المفسرين قد كفوا من بعدهم، فجزاهم الله عن المسلمين خيرًا، والله أرجو وعليه أعتمد أن ييسر ما قصدت، ويذلل ما أردت، فإنه إن لم ييسره الله؛ فلا سبيل إلى حصوله، وإن لم يعن عليه؛ فلا طريق إلى نيل العبد مأموله.

وأسأله - تعالى - أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به النفع العميم، إنه جواد كريم.

اللهم صل على محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.



فوائد مهمة
تتعلق بتفسير القرآن من بدائع الفوائد
لابن القيم رحمه الله تعالى

قال:

فصل

النكرة في سياق النفي تعم، مستفاد من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، وفي الاستفهام من قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، وفي الشرط من قوله: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ [مريم: ٢٦]، ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ [التوبة: ٦]. وفي النهي من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ [الحجر: ٦٥]. وفي سياق الإثبات بعموم العلة والمقتضى، كقوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١٤]، وإذا أضيف إليها (كل) نحو ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١]، ومن عمومها بعموم المقتضى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧].

فصل

ويستفاد عموم المفرد المحلى باللام من قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢]، وقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ﴾ [النبأ: ٤٠]، وعموم المفرد المضاف من قوله: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ [التحريم: ١٢]، (وكتابه)؛ قرأ أهل البصرة وحفص: ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ على الجمع، وقرأ الآخرون: (وكتابه) على التوحيد، وقوله: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩]، والمراد جميع الكتب التي أحصيت فيها أعمالهم.

وعموم الجمع المحلى باللام من قوله: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ [المرسلات: ١١]، وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] إلى آخرها، والمضاف من قوله: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وعموم أدوات الشرط من قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]، وقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧]، وقوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقوله: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [النساء: ٧٨]، وقوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟

وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ [البقرة: ١٤٤]، وقوله: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ [الأنعام: ٦٨]، وقوله: ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام: ٥٤]، هذا إذا كان الجواب طلبًا مثل هاتين الآيتين، فإن كان خبرًا ماضيًا لم يلزم العموم؛ كقوله: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ [الجمعة: ١١]، ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ [المنافقون: ١]، وإن كان مستقبلًا فأكثر موارده للعموم[1]؛ كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ [المطففين: ٣]، وقوله: ﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ [المطففين: ٣٠]، وقوله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الصافات: ٣٥]، وقد لا يعم، كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ [المنافقون: ٤].

فصل

ويستفاد كون الأمر المطلق للوجوب من ذمه لمن خالفه، وتسميته إياه عاصيًا، وترتيبه عليه العقاب العاجل أو الآجل. ويستفاد كون النهي للتحريم من ذمه لمن ارتكبه، وتسميته عاصيًا، وترتيبه العقاب على فعله.

ويستفاد الوجوب بالأمر تارة، وبالتصريح بالإيجاب والفرض والكتب، ولفظة على، ولفظة حق على العباد وعلى المؤمنين.

ويستفاد التحريم من النهي، والتصريح بالتحريم والحظر، والوعيد على الفعل، وذم الفاعل، وإيجاب الكفارة بالفعل، وقوله: (لا ينبغي): فإنها في لغة القرآن والرسول للمنع عقلًا وشرعًا، ولفظة (ما كان لهم كذا وكذا) (ولم يكن لهم)، وترتيب الحد على الفعل، ولفظة (لا يحل) و(لا يصلح)، ووصف الفعل بأنه فساد، وأنه من تزيين الشيطان وعمله، وأن الله تعالى لا يحبه ولا يرضاه لعباده، ولا يزكي فاعله، ولا يكلمه، ولا ينظر إليه، ونحو ذلك.

وتستفاد الإباحة من الإذن والتخيير، والأمر بعد الحظر، ونفي الجناح والحرج والإثم والمؤاخذة، والإخبار بأنه يعفو عنه، والإقرار على فعله في زمن الوحي، وبالإنكار على من حرم الشيء، والإخبار بأنه خلق لنا كذا وجعله لنا، وامتنانه علينا به وإخباره عن فعل من قبلنا غير ذام لهم عليه، فإن اقترن بإخباره مدح دل على رجحانه استحبابًا أو وجوبًا.

فصل

وكل فعل عظمه الله ورسوله أو مدحه أو مدح فاعله لأجله، أو فرح به، أو أحبه، أو أحب فاعله،

---

(١) عبارة: «فأكثر موارده للعموم» وردت في ط: «فالتزموا رد».

أو رضي به، أو رضي عن فاعله، أو وصفه بالطيب، أو البركة، أو الحسن، أو نصبه سببًا لمحبته أو لثواب عاجل أو آجل، أو نصبه سببًا لذكره لعبده، أو لشكره له، أو لهدايته إياه، أو لإرضاء فاعله، أو وصف فاعله بالطيب، أو وصف الفعل بأنه معروف، أو نفي الحزن والخوف عن فاعله، أو وعده بالأمن، أو نصبه سببًا لولايته، أو أخبر عن دعاء الرسل بحصوله، أو وصفه بكونه قربة، أو أقسم به أو بفاعله كالقسم بخيل المجاهدين وإثارتها، أو ضحك الرب جل جلاله عن فاعله، أو عجبه به؛ فهو دليل على مشروعيته المشتركة بين الوجوب والندب.

فصل

وكل فعل طلب الشارع تركه أو ذم فاعله، أو عيب عليه أو مقت فاعله أو لعنه، أو نفى محبته إياه أو محبة فاعله أو نفى الرضا به أو الرضا عن فاعله، أو شبه فاعله بالبهائم أو الشياطين أو جعله مانعًا من الهدى أو وصفه بسوء أو كراهة أو استعاذ الأنبياء منه أو أبغضوه، أو جعل سببًا لنفي الفلاح أو لعذاب عاجل أو آجل أو لذم أو لوم أو ضلالة أو معصية، أو وصفه بخبث[1] أو رجس أو نجس، أو بكونه فسقًا أو إثمًا أو سببًا لإثم أو رجس أو لعن أو غضب أو زوال نعمة أو حلول نقمة أو حد من الحدود أو قسوة أو خزي أو ارتهان نفس، أو لعداوة الله أو محاربته أو الاستهزاء به وسخريته، أو جعله سببًا لنسيانه لفاعله، أو وصف نفسه بالصبر عليه أو الحلم عنه أو الصفح، أو دعا إلى التوبة منه، أو وصف فاعله بخبث أو احتقار، أو نسبه إلى الشيطان وتزيينه أو تولي الشيطان لفاعله، أو وصفه بصفة ذم مثل كونه ظلمًا أو بغيًا أو عدوانًا أو إثمًا، أو تبرأ الأنبياء منه أو من فاعله، أو شكوا إلى الله من فاعله، أو جاهروا فاعله بالعداوة، أو نصب سببًا لخيبة فاعله عاجلًا، أو آجلًا، أو رتب عليه حرمان الجنة، أو وصف فاعله بأنه عدو لله أو الله عدوه، أو أعلم فاعله بحرب من الله ورسوله، أو حمل فاعله إثم غيره، أو قيل فيه لا ينبغي هذا أو لا يصلح، أو أمر بالتقوى عند السؤال عنه، أو أمر بفعل يضاده، أو هجر فاعله، أو تلاعن فاعلوه في الآخرة، أو تبرأ بعضهم من بعض، أو وصف فاعله بالضلالة، أو أنه ليس من الله في شيء، أو أنه ليس من الرسول وأصحابه، أو قرن بمحرم ظاهر التحريم في الحكم والخبر عنه[2] بخبر واحد، أو جعل اجتنابه سببًا للفلاح، أو جعل سببًا لإيقاع العداوة والبغضاء بين المسلمين، أو قيل لفاعله: هل أنت منته، أو نهى الأنبياء عن الدعاء لفاعله، أو رتب عليه إبعاد أو طرد أو لفظة قتل من فعله، أو قاتل الله من فعله، أو أخبر أن فاعله لا يكلمه الله يوم القيامة ولا ينظر إليه ولا يزكيه، أو أن الله لا يصلح عمله ولا يهدي كيده، أو أن فاعله لا يفلح ولا يكون يوم القيامة من الشهداء

(١) في الأصل: «بالخبث»، والمثبت من بدائع الفوائد.

(٢) ع، وبدائع الفوائد: «عنهما».

ولا من الشفعاء، أو أن الله يغار من فعله، أو نبه على وجه المفسدة فيه، أو أخبر أنه لا يقبل من فاعله صرفًا ولا عدلًا، أو أخبر أن من فعله قيض له الشيطان فهو له قرين، أو جعل الفعل سببًا لإزاغة الله[1] قلب فاعله أو صرفه عن آياته وفهم آلائه، أو سؤال الله سبحانه عن علة الفعل: لِمَ فعل؟ نحو: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ﴾ [آل عمران: ٩٩]، ﴿لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [آل عمران: ٧١]. ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ﴾ [ص: ٧٥]. ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]. ما لم يقترن به جواب من المسئول[2]؛ فإذا قرن به جواب كان بحسب جوابه، فهذا ونحوه يدل على المنع من الفعل، ودلالته على التحريم أطرد من دلالته على مجرد الكراهة. وأما لفظة: يكرهه الله ورسوله أو مكروه. فأكثر ما يستعمل في المحرم، وقد يستعمل في كراهة التنزيه. وأما لفظة: وأما أنا فلا أفعل. فالمتحقق[3] منه الكراهة؛ كقوله: «**أما أنا فلا آكل متكئًا**»[4]. وأما لفظة: ما يكون لك، وما يكون لنا، فاطرد استعمالها في المحرم نحو ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣]. ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾ [الأعراف: ٨٩]. ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦].

فصل

وتستفاد الإباحة من لفظ الإحلال، ورفع الجناح والإذن والعفو وإن شئت فافعل وإن شئت فلا تفعل، ومن الامتنان بما في الأعيان من المنافع وما يتعلق بها من الأفعال، نحو: ﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾ [النحل: ٨٠]. ونحو: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]. ومن السكوت عن التحريم، ومن الإقرار على الفعل في زمن الوحي.

فائدة التعجب كما يدل على محبة الله تعالى للفعل، نحو «عجب ربك من شاب ليست له صبوة»[5]. ونحوه قد يدل على بغض الفعل؛ كقوله: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ﴾ [الرعد: ٥]. وقوله: ﴿بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢]. وقوله: ﴿وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥ﴾ [آل عمران: ١٠١]. وقد يدل على امتناع الحكم وعدم حسنه؛ كقوله: ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٧]. ويدل على حسن المنع منه قدرًا وأنه لا يليق به فعله؛ كقوله تعالى: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾ [آل عمران: ٨٦].

---

(١) ليست في الأصل، والمثبت من بدائع الفوائد.

(٢) في الأصل: «السؤال»، والمثبت من بدائع الفوائد.

(٣) في الأصل: «فالمحقق»، والمثبت من بدائع الفوائد.

(٤) البخاري (٥٣٩٨).

(٥) أحمد (٤/ ١٥١)، وأبو يعلى (١٧٤٩).

فائدة

نفي التساوي في كتاب الله قد يأتي بين الفعلين؛ كقوله - تعالى -: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [التوبة: ١٩] الآية. وقد يأتي بين الفاعلين؛ كقوله: ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [النساء: ٩٥]. وقد يأتي بين الجزاءين؛ كقوله: ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾ [الحشر: ٢٠]. وقد جمع الله بين الثلاثة في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴾ [فاطر: ١٩، ٢٠] الآيات.

فائدة

في ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور: التذكير والوعظ، والحث والزجر، والاعتبار والتقرير وتقريب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس بحيث يكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس، وتأتي أمثال القرآن مشتملة على: بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر.

فائدة

السياق يرشد إلى بيان المجمل وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته، فانظر إلى قوله: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [الدخان: ٤٩]. كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير.

فائدة

إخبار الرب عن المحسوس الواقع له عدة فوائد:

منها: أن يكون توطئة وتقدمة لإبطال ما بعده.

ومنها: أن يكون موعظة وتذكرة.

ومنها: أن يكون شاهدًا على ما أخبر به من توحيده وصدق رسوله وإحياء الموتى.

ومنها: أن يذكر في معرض الامتنان.

ومنها: أن يذكر في معرض اللوم والتوبيخ.

ومنها: أن يذكر في معرض المدح والذم.

ومنها: أن يذكر في معرض الإخبار عن اطلاع الرب عليه. وغير ذلك من الفوائد.

انتهى كلامه رحمه الله، وهو في غاية النفاسة والاشتمال على كثير من القواعد والضوابط المتعلقة بتفسير القرآن؛ فجزاه الله خيرًا.

قلت: وقد اشتمل القرآن على عدة علوم قد ثنيت فيه وأعيدت:

فمنها: ضرب الأمثال، وقد ذكر ابن القيم فيما تقدم فوائدها.

ومنها: ذكر صفات أهل السعادة والشقاوة، وفي ذلك فوائد عديدة:

منها: أن الأوصاف التي يوصف بها أهل الخير تدل على محبة الله ورضاه، وأنها محمودة.

والصفات التي يوصف بها أهل الشر تدل على بغض الله لها وأنها مذمومة.

ومنها: ما يكرم الله به أولياءه من الثناء الحسن بين عباده فهو ثواب معجل، ويهين به أعداءه من الأوصاف القبيحة فيكون عقابًا معجلًا.

ومنها: أن فيه حثًّا للنفوس على الاقتداء بأهل الخير ومنافستهم، وتنشيط العمال على الأعمال ببيان من عملها من أولياء الله، وفيه الترهيب عن[1] أفعال أهل الشر وتبغيض المعاصي التي أثرت مع عامليها ما أثرت.

ومنها: الاعتبار بصفات أهل الخير والشر، وأن من فعل مثل فعلهم؛ ناله ما نالهم.

وقد حث تعالى على الاعتبار في غير موضع من كتابه، وحقيقته: العبور من شيء إلى شيء وقياس الشيء على نظيره.

ومنها: أن العبد إذا نظر[2] إلى أعمال أهل الخير وعجزه عن القيام بها أوجب له ذلك الإزراء على نفسه واحتقارها، وهذا هو عين صلاحه، كما أن رؤيته نفسه بعين الإعجاب والتكبر هو عين فساده، إلى غير ذلك من الفوائد.

ومنها: ذكر صفات الله وأسمائه وأفعاله وتقديسه عن النقائص، وفي ذلك فوائد عظيمة:

منها: أن هذا العلم - وهو العلم المتعلق بالله تعالى - أشرف العلوم وأجلها على الإطلاق، فالاشتغال بفهمه والبحث التام عنه اشتغال بأعلى المطالب، وحصوله للعبد من أشرف المواهب.

---

(١) ط: «من».

(٢) عبارة: «إذا نظر» وردت في ع: «رأى».

ومنها: أن معرفة الله تعالى تدعو إلى محبته وخشيته وخوفه ورجائه وإخلاص العمل له، وهذا عين سعادة العبد، ولا سبيل إلى معرفة الله إلا بمعرفة أسمائه وصفاته والتفقه في فهم معانيها، وقد اشتمل القرآن من ذلك على ما لم يشتمل عليه غيره من تفاصيل ذلك وتوضيحها والتعرف بها إلى عباده وتعريفهم لنفسه كي يعرفوه.

ومنها: أن الله خلق الخلق ليعرفوه ويعبدوه وهذا هو الغاية المطلوبة منهم.

فالاشتغال بذلك اشتغال بما خلق له العبد، وتركه وتضييعه إهمال لما خلق له، وقبيح بعبد لم تزل نعم الله عليه متواترة، وفضله عليه عظيم من كل وجه أن يكون جاهلًا بربه معرضًا عن معرفته.

ومنها: أن أحد أركان الإيمان بل أفضلها وأصلها؛ الإيمان بالله، وليس الإيمان مجرد قوله: «آمنت بالله». من غير معرفة بربه، بل حقيقة الإيمان: أن يعرف الرب الذي يؤمن به ويبذل جهده في معرفة أسمائه وصفاته حتى يبلغ درجة اليقين. وبحسب معرفته بربه، يكون إيمانه، فكلما ازداد معرفة بربه؛ ازداد إيمانه، وكلما نقص؛ نقص. وأقرب طريق يوصله إلى ذلك تدبر صفاته وأسمائه من القرآن، والطريق في ذلك[1] إذا مر به اسم من أسماء الله أن يثبت له ذلك المعنى وكماله وعمومه وينزهه عما يضاد ذلك.

ومنها: أن العلم به تعالى أصل الأشياء كلها، حتى إن العارف به حقيقة المعرفة يستدل بما عرف من صفاته وأفعاله على ما يفعله وعلى ما يشرعه من الأحكام؛ لأنه لا يفعل إلا ما هو مقتضى أسمائه وصفاته، فأفعاله دائرة بين العدل والفضل والحكمة.

وكذلك لا يشرع ما يشرعه من الأحكام إلا على حسب ما اقتضاه حمده وحكمته وفضله وعدله، فأخباره كلها حق وصدق، وأوامره ونواهيه عدل وحكمة، وهذا العلم أعظم وأشهر من أن ينبه عليه لوضوحه.

وكيف يصح في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل[2]

ومنها: ذكر الأنبياء والمرسلين وما أرسلوا به وما جرى لهم مع أممهم، وفي ذلك عدة فوائد:

منها: أن من تمام الإيمان بهم معرفتهم بصفاتهم وسيرهم وأحوالهم، وكلما كان المؤمن بذلك أعرف كان أعظم إيمانًا بهم ومحبة لهم وتعظيمًا لهم وتعزيزًا وتوقيرًا.

---

(١) بعده في ع: «أنه».

(٢) البيت للمتنبي، في ديوانه مع شرح العكبري ٣/ ٩٢.

ومنها: أن من بعض حقوقهم علينا - خصوصًا النبي محمدًا ﷺ - معرفتهم ومحبتهم محبة صادقة، ولا سبيل لذلك إلا بمعرفة أحوالهم.

ومنها: أن معرفة الأنبياء موجبة لشكر الله تعالى على ما من به على المؤمنين، إذ بعث فيهم رسولًا منهم، يزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة بعد أن كانوا في ضلال مبين.

ومنها: أن الرسل هم المربون للمؤمنين الذين ما نال المؤمنون مثقال ذرة من الخير ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر إلا على أيديهم وبسببهم، فقبيح بالمؤمن أن يجهل حالة مربيه ومزكيه ومعلمه، وإذا كان من المستنكر جهل الإنسان بحال أبويه ومباعدته لذلك فكيف بحالة الرسول الذي هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو أبوهم الحقيقي الذي حقه مقدم على سائر الحقوق بعد حق الله تعالى.

ومنها: أن في معرفة ما جرى لهم وجرى عليهم تُحَصِّل للمؤمنين[1] الأسوة والقدوة، ويخف عنهم[2] كثير من المقلقات والمزعجات؛ لأنها مهما بلغت من الثقل والشدة فلا تصل إلى بعض ما جرى على الأنبياء، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١]. ومن أعظم الاقتداء بهم الاقتداء بتعليماتهم، وكيفية إلقاء العلم على حسب مراتب الخلق، والصبر على التعليم، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن. وبهذا وأمثاله كان العلماء ورثة الأنبياء.

ومن فوائد معرفة الرسول ﷺ معرفة الآيات القرآنية المنزلة عليه، وفهم المعنى والمراد منها موقوف على معرفة أحوال الرسول، وسيرته مع قومه، وأصحابه وغيرهم من الناس، فإن الأزمنة والأمكنة والأشخاص تختلف اختلافًا كثيرًا؛ فلو أراد الإنسان أن يصرف همه لمعرفة معاني القرآن من دون معرفة منه لذلك؛ لحصل من الغلط على الله وعلى رسوله وعلى مراد الله من كلامه شيء كثير، وهذا إنما يعرفه من عرف كيف كثر حمل مراد الله ورسوله على العرف الحادث فوقع الخلل الكثير[3].

وغير ذلك من الفوائد المفيدة والنتائج السديدة.

ومن علوم القرآن: الأمر والنهي الموجه لهذه الأمة وغيرها، وهذا هو المقصود منهم، وفي معرفة ذلك عدة فوائد:

---

(١) ع، ط: «للمؤمن».

(٢) عبارة: «ويخف عنهم» وردت في ع، ط: «وتخف عنه».

(٣) عبارة: «كيف كثر حمل مراد الله ورسوله على العرف الحادث فوقع الخلل الكثير» وردت في ع: «ما في أكثر التفاسير من الأغلاط القبيحة التي ينزه عنها كلام الله».

منها: أن الله تعالــى حث على معرفة حدود ما أنزل على رســوله، وذم من لم يعرف ذلك؛ ومن أعظم ما يجب معرفة حدوده: الأوامر والنواهي التي كلفنا بها، وألزمنا بالقيام بها وتعلمها وتعليمها، ولا سـبيل إلى امتثالها أو اجتنابها إلا بمعرفتها، ليتأتى فعلها أو تركها، وذلك أن المكلف إذا أمر بأمر وجـب عليه أولًا معرفة ما هو الذي أمر به، وما يدخل به وما لا يدخل، فإذا عرف ذلك اسـتعان بالله واجتهد في امتثاله بحسـب القدرة والإمكان، وكذلـك إذا نهي عن أمر من الأمور وجب عليه معرفة ذلك المنهي وحقيقته، ثم يبذل جهده مسـتعينًا بربه على تركه امتثالًا لأمر الله واجتنابًا لنهيه، وامتثال الأمـر واجتناب النهي كل منهما واجب، وما لا يتـم الواجب إلا به فهو واجب، فعرفت أن العلم بها قبل العمل، ومتقدم عليه.

ومنهـا: أن الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يمكن حصولها وتحصيلها إلا بعد معرفة الخير ليدعو له، ومعرفة المعروف ليأمر به، ومعرفة المنكر لينهى عنه، والقرآن مشتمل على ذلك أعظم اشتمال، ومتضمن له أكمل تضمن.

ومن علوم القرآن: أحوال اليوم الآخر، وهو ما يكون بعد الموت مما أخبر به الله في كتابه أو أخبر به رسوله من أحوال الموت والقبر والموقف والجنة والنار، وفي العلم بذلك فوائد كثيرة:

منها: أن الإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان الستة التي لا يصح الإيمان بدونها، وكلما ازدادت معرفته بتفاصيله ازداد إيمان العبد به[1].

ومنها: أن معرفة ذلك[2] حقيقة المعرفة؛ يفتح للإنسـان باب الخوف والرجاء اللذين إن خلا القلب منهما؛ خرب كل الخراب، وإن عمر بهما؛ أوجب له الخوف الانكفاف عن المعاصي، والرجاء تيسـير الطاعة وتسـهيلها، ولا يتم ذلك إلا بمعرفـة تفاصيل الأمور التي يخاف منهـا وتحذر: كأحوال القبر وشـدته، وأحوال الموقف الهائلة، وصفات النار المفظعة، وبمعرفة تفاصيل الجنة وما فيها من النعيم المقيم والحبرة والسرور، ونعيم القلب والروح والبدن؛ فيحدث بسبب ذلك الاشتياق الداعي للاجتهاد في السعي للمحبوب المطلوب بكل ما يقدر عليه.

ومنهـا: أنه يعرف بذلك فضـل الله وعدله في المجازاة على الأعمال الصالحة والسـيئة الموجب لكمـال حمده والثناء عليه بما هو أهله، وعلى قدر علم العبـد بتفاصيل الثواب والعقاب يعرف بذلك فضل الله وعدله وحكمته.

---

(١) عبارة: «إيمان العبد به» وردت في ع: «إيمانه».

(٢) عبارة: «معرفة ذلك» وردت في ع: «العلم بذلك».

ومن علوم القرآن: مجادلة المبطلين، ودفع شبه الظالمين، وإقامة البراهين العقلية الموافقة للأدلة النقلية، وهذا الفن من علوم القرآن من خواص العلماء الربانيين والجهابذة الراسخين والعقلاء المستبصرين.

وقد اشتمل القرآن من الأدلة العقلية والقواطع البرهانية ما لو جمع ما عند جميع المتكلمين من حق لكان بالنسبة إليه كنقرة عصفور بالنسبة لماء البحر. ذلك بأن القرآن هو الحق.

وقد اشتمل على الحق والصدق والعدل والميزان العادل والقسط والصلاح والفلاح، فإن ذكر التوحيد والشرك، وأمر بالأول ونهى عن الثاني أقام من البراهين القاطعة على صحة التوحيد وحسنه وتعينه طريقًا للنجاة، وقبح الشرك وبطلانه وكونه هو الطريق للهلاك؛ ما يجعل ذلك للبصيرة كالشمس في نحر الظهيرة.

وإن أمر بالأوامر الشرعية وحث على الآداب ومكارم الأخلاق رأيته ينبه العقول النيرة على ما اشتملت عليه من المصالح الضرورية، التي يحتاجونها في معاشهم ومعادهم ما يجزم بأنه لا أحسن منها، وأن حكمته تقتضي الأمر بها أشد اقتضاء.

وإن نهى عن المحارم والقبائح والخبائث أخبر بما في ضمنها من الفساد والضرر والشر الحاصل بتناولها، وأن نعمة الله عليهم بتحريمها عليهم وتنزيههم عنها وتكريمهم وتعلية أقدارهم عن التلبس بها فوق كل نعمة، فالمأمورات مشتملة على الصلاح، والمحرمات مشتملة على المفاسد.

وإن شرع في الحجاج للمبطلين وتزييف شبه المشبهين وبطلان مذاهب الضالين، فقل ما شئت من إحقاق حق، ودمغ باطل، وإرشاد ضال، وإقامة الحجة على المعاند، وبيان أن الباطل لا يقوم لأقل شيء من الحق، بل هو على اسمه باطل لا حقيقة له، إن هي إلا أسماء يسمون بها الباطل، إذا جردت تبينت هباء منثورًا، ورأيته يسوق البراهين العقلية بأوضح عبارة وأوجزها وأسلمها من الاعتراض والنقض والخفاء؛ فيجمع بين الدليل العقلي والنقلي في كلمة واحدة إيجازًا غير مخل بالمطلوب، وتارة يفصل ذلك ويسرد من البراهين ما يكفي بعضه بالبيان. فلله الحمد والشكر.

فهذه مقدمة نافعة - إن شاء الله - ينبغي استقراؤها في كل مواردها، والتنبيه لكل ما يرد من هذه المطالب على وجه التفصيل، فمن استعملها في كل ما يرد عليه من الآيات؛ انتفع بها نفعًا عظيمًا، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.



أصول وكليات
من أصول التفسير وكلياته
لا يستغني عنها المفسر للقرآن[1]

النكرة في سياق النفي، أو سياق النهي، أو الاستفهام، أو سياق الشرط، تعم، وكذلك المفرد المضاف يعم. وأمثلة ذلك كثيرة: فمتى وجدت نكرة واقعة بعد المذكورات أو وجدت مفردًا مضافًا إلى معرفة، فأثبت جميع ما دخل في ذلك اللفظ، ولا تعتبر سبب النزول وحده، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وينبغي أن تنزل جميع الحوادث والأفعال الواقعة، والتي لا تزال تحدث على العمومات القرآنية؛ فبذلك تعرف أن القرآن تبيان لكل شيء، وأنه لا يحدث حادث ولا يستجد أمر من الأمور إلا وفي القرآن بيانه وتوضيحه.

ومن أصوله: أن الألف واللام الداخلة على الأوصاف، وعلى أسماء الأجناس، تفيد استغراق جميع ما دخلت عليه من المعاني.

ومن كليات القرآن: أنه يدعو إلى توحيد الله ومعرفته، بذكر أسماء الله وأوصافه وأفعاله الدالة على تفرده بالوحدانية وأوصاف الكمال، وإلى أنه الحق، وعبادته هي الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل. ويبين نقص كل ما عبد من دون الله من جميع الوجوه.

ويدعو إلى صحة ما جاء به الرسول محمد ﷺ وصدقه ببيان إحكامه، وتمامه وصدق إخباراته كلها، وحسن أحكامه، ويبين ما كان عليه الرسول ﷺ من الكمال البشري الذي لا يلحقه فيه أحد من الأولين والآخرين، ويتحداهم بأن يأتوا بمثل ما جاء به إن كانوا صادقين، ويقرر ذلك بشهادته تعالى بقوله وفعله وإقراره إياه، وتصديقه له بالحجة والبرهان وبالنصر والظهور وبشهادة أهل العلم المنصفين، ويقابل بين ما جاء به من الحق في أخباره وأحكامه وبين ما كان عليه أعداؤه والمكذبون به من الكذب في أخبارهم والباطل في أحكامهم، كما يقرر ذلك بالمعجزات المتنوعة.

---

(١) هذه الأصول طبعت في آخر الجزء الخامس مما نشر في حياة الشيخ من التفسير، وقد رأينا إدراجها في مقدمة التفسير.

ويقرر الله المعاد بذكر كمال قدرته، وخلقه للسماوات والأرض اللتين هما أكبر من خلق الناس، وبأن الذي بدأ الخلق قادر على إعادته من باب أولى، وبأن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى.

ويذكر أيضًا أيامه في الأمم ووقوع المثلات التي شاهدها الناس في الدنيا وأنها نموذج من جزاء الآخرة.

ويدعو جميع المبطلين، من الكفار والمشركين، والملحدين بذكر محاسن الدين، وأنه يهدي للتي هي أقوم في عقائده وأخلاقه وأعماله، وبيان ما لله من العظمة والربوبية والنعم العظيمة، وأن من تفرد بالكمال المطلق والنعم كلها هو الذي لا تصلح العبادة إلا له، وأن ما عليه المبطلون إذا ميز وحقق وجد شرًّا وباطلًا، وعواقبه وخيمة.

ومن أصول التفسير: إذا فهمت ما دلت عليه الآيات الكريمة من المعاني مطابقة وتضمنًا؛ فاعلم أن لوازم هذه المعاني وما لا تتم إلا به؛ وشروطها وتوابعها تابعة لذلك المعنى، فما لا يتم الخبر إلا به فهو تابع للخبر، وما لا يتم الحكم إلا به؛ فهو تابع للحكم.

وأن الآيات التي يفهم منها التعارض والتناقض ليس فيها تناقض ولا تعارض، بل يجب حمل كل منها على الحالة المناسبة اللائقة بها، وأن حذف المتعلقات من مفعولات وغيرها يدل على تعميم المعنى؛ لأن هذا من أعظم فوائد الحذف، وأنه لا يجوز حذف ما لا يدل عليه السياق اللفظي أو القرينة الحالية.

كما أن الأحكام المقيدة بشروط أو صفات تدل على أن تلك القيود لا بد منها في ثبوت الحكم.

إذا أمر الله بشيء كان ناهيًا عن ضده، وإذا نهى عن شيء كان آمرًا بضده، وإذا أثنى على نفسه بنفي شيء من النقائص كان إثباتًا للكمال المنافي لذلك النقص، وكذلك إذا أثنى على رسله وأوليائه ونزههم عن شيء من النقائص فهو مدح لهم بما يضاد ذلك النقص، ومثله نفي النقائص عن دار النعيم؛ يدل على إثبات ضد ذلك.

ومن الكليات: أنه إذا وضح الحق وظهر ظهورًا جليًّا لم يبق للمجادلات العلمية والمعارضات العملية محل، بل تبطل المعارضات وتضمحل المجادلات.

ما نفاه القرآن؛ فإما أن يكون غير موجود، أو أنه موجود، ولكنه غير مفيد ولا نافع.

الموهوم لا يدفع المعلوم، والمجهول لا يعارض المحقق؛ وما بعد الحق إلا الضلال.

ذكر الله في القرآن الإيمان والعمل الصالح في مواضع كثيرة، رتب عليهما من الجزاء العاجل والآجل والآثار الحميدة شيئًا كثيرًا، فالإيمان: هو التصديق الجازم بما أمر الله ورسوله بالتصديق به المتضمن لأعمال الجوارح، والعمل الصالح: هو القيام بحقوق الله وحقوق عباده.

وكذلك أمر الله بالتقوى ومدح المتقين، ورتب على التقوى حصول الخيرات وزوال المكروهات، والتقوى الكاملة امتثال أمر الله وأمر رسوله واجتناب نهيهما وتصديق خبرهما.

وإذا جمع الله بين التقوى والبر ونحوه كانت التقوى اسمًا لتوقي جميع المعاصي، والبر اسما لفعل الخيرات. وإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر.

وذكر الله الهدى المطلوب في مواضع كثيرة، وأثنى على المهتدين وأخبر أن الهدى بيده، وأمرنا بطلبه منه وبالسعي في كل سبب يحصل الهدى، وذلك شامل لهداية العلم والعمل، فالمهتدي من عرف الحق وعمل به، وضده الغي والضلال، فمن عرف الحق ولم يعمل به؛ فهو الغاوي، ومن جهل الحق؛ فهو الضال.

أمر الله بالإحسان وأثنى على المحسنين، وذكر ثوابهم المتنوع في آيات كثيرة. وحقيقة الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك، وأن تبذل ما تستطيعه من النفع المالي والبدني والقولي إلى المخلوقين.

وأمر بالإصلاح وأثنى على المصلحين، وأخبر أنه لا يضيع ثوابهم وأجرهم، والإصلاح هو: أن تسعى في إصلاح عقائد الناس، وأخلاقهم، وجميع أحوالهم، بحيث تكون على غاية ما يمكن من الصلاح، وأيضًا يشمل إصلاح الأمور الدينية والأمور الدنيوية، وإصلاح الأفراد والجماعات.

وضد هذا الفساد. والإفساد قد نهى عنه، وذم المفسدين وذكر عقوباتهم المتعددة، وأخبر أنه لا يصلح أعمالهم الدينية والدنيوية.

أثنى الله على اليقين وعلى الموقنين، وأنهم هم المنتفعون بالآيات القرآنية والآيات الأفقية. واليقين أخص من العلم؛ فهو: العلم الراسخ المثمر للعمل والطمأنينة.

أمر الله بالصبر وأثنى على الصابرين، وذكر جزاءهم العاجل والآجل في عدة آيات نحو تسعين موضعًا، وهو يشمل أنواعه الثلاثة: الصبر على طاعة الله حتى يؤديها كاملة من جميع الوجوه، والصبر عن محارم الله حتى ينهى نفسه الأمارة بالسوء عنها، والصبر على أقدار الله المؤلمة؛ فيتلقاها بصبر وتسليم غير متسخط في قلبه ولا بدنه ولا لسانه.

وكذلك أثنى الله على الشكر وذكر ثواب الشاكرين، وأخبر أنهم أرفع الخلق في الدنيا والآخرة. وحقيقة الشكر هو: الاعتراف بجميع نعم الله، والثناء على الله بها، والاستعانة بها على طاعة المنعم.

وذكر الله الخوف والخشية في مواضع كثيرة، أمر به وأثنى على أهله، وذكر ثوابهم وأنهم المنتفعون بالآيات التاركون للمحرمات.

وحقيقة الخوف والخشية: أن يخاف العبد مقامه بين يدي الله، ومقامه عليه؛ فينهى نفسه بهذا الخوف عن كل ما حرم الله.

والرجاء: أن يرجو العبد رحمة الله العامة ورحمته الخاصة به، فيرجو قبول ما تفضل الله عليه به من الطاعات وغفران ما تاب منه من الزلات، ويعلق رجاءه بربه في كل حالة من أحواله.

وذكر الله الإنابة في مواضع كثيرة وأثنى على المنيبين وأمر بالإنابة إليه، وحقيقة الإنابة: انجذاب القلب إلى الله في كل حالة من أحواله ينيب إلى ربه عند النعماء بشكره، وعند الضراء بالتضرع إليه، وعند مطالب النفوس الكثيرة بكثرة دعائه في جميع مهماته، وينيب إلى ربه باللهج بذكره في كل وقت. والإنابة أيضًا: الرجوع إلى الله بالتوبة من جميع المعاصي، والرجوع إليه في جميع أعماله وأقواله؛ فيعرضها على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فتكون الأعمال والأقوال موزونة بميزان الشرع.

أمر تعالى بالإخلاص، وأثنى على المخلصين وأخبر أنه لا يقبل إلا العمل الخالص. وحقيقة الإخلاص أن يقصد العامل بعمله وجه الله وحده وثوابه. وضده الرياء والعمل للأغراض النفسية.

نهى الله عن التكبر وذم الكبر والمتكبرين، وأخبر عن عقوباتهم العاجلة والآجلة.

والتكبر هو: رد الحق واحتقار الخلق. وضد ذلك التواضع فقد أمر به وأثنى على أهله وذكر ثوابهم، فهو قبول الحق ممن قاله، وألا يحتقر الخلق بل يرى فضلهم، ويحب لهم ما يحب لنفسه.

العدل هو: أداء حقوق الله وحقوق العباد، والظلم: عكسه، فهو يشمل ظلم العبد لنفسه بالمعاصي والشرك وظلم العباد في دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

الصدق هو: استواء الظاهر والباطن في الاستقامة على الصراط المستقيم، والكذب بخلاف ذلك.

حدود الله هي: محارمه، وهي التي يقول فيها: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧]. ويراد بها: ما أباحه الله، وحلله، وقدره، وفرضه، فيقول فيها: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩].

الأمانة هي: الأمور التي يؤتمن عليها العبد؛ فيشمل ذلك أداء حقوق الله وخصوصًا الخفية، وحقوق خلقه كذلك.

العهود والعقود يدخل فيها التي بينه وبين الله وهو: القيام بعبادة الله مخلصًا له الدين، والتي بينه وبين العباد من المعاملات ونحوها.

الحكمة والقوام: فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي.

والإسراف والتبذير: مجاوزة الحد في الإنفاق. والتقتير والبخل عكسه: التقصير في النفقات الواجبة.

المعروف: اسم جامع لكل ما عرف حسنه ونفعه شرعًا وعقلًا، والمنكر عكسه.

الاستقامة: لزوم طاعة الله وطاعة رسوله على الدوام.

مرض **القلب هو اعتلاله**، وهو نوعان: مرض شكوك في الحق، ومرض شهوة للأمور المحرمة.

النفاق: إظهار الخير وإبطان الشر؛ فيدخل فيه النفاق الاعتقادي، والنفاق العملي.

القرآن كله محكم، وأحكمت آياته من جهة موافقتها للحكمة، وأن أخباره أعلى درجات الصدق، وأحكامه في غاية الحسن، وكله متشابه من جهة اتفاقه في البلاغة، والحسن، وتصديق بعضه لبعض، وكمال اتفاقه، ومنه محكم ومتشابه من جهة أن متشابهه: ما كان فيه إجمال أو احتمال لبعض المعاني، ومحكمه واضح مبين صريح في معناه، إذا رد إليه المتشابه اتفق الجميع واستقامت معانيه.

معية الله التي ذكرها في كتابه نوعان:

- معية العلم والإحاطة وهي: المعية العامة، فإنه مع عباده أينما كانوا.
- ومعية خاصة وهي: معيته مع خواص خلقه بالنصرة واللطف والتأييد.

الدعاء والدعوة، يشمل دعاء العبادة، فيدخل فيه كل عبادة أمر الله بها ورسوله، ودعاء المسألة وهو: سؤال الله جلب المنافع ودفع المضار.

الطيبات: اسم جامع لكل طيب نافع من العقائد والأخلاق والأعمال والمآكل والمشارب والمكاسب. والخبيث ضد ذلك. وقد يراد بالخبيث: الرديء وبالطيب: الخيار؛ كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

النفقة: تشمل النفقة الواجبة كالزكاة والكفارة ونفقة النفس والعائلة والمماليك، والنفقة المستحبة كالنفقة في جميع طرق الخير.

التوكل على الله والاستعانة به: قد أمر الله بها، وأثنى على المتوكلين في آيات كثيرة، وحقيقة ذلك: قوة اعتماد القلب على الله في جلب المصالح ودفع المضار الدينية والدنيوية، مع الثقة به في حصول ذلك.

العقل: الذي مدحه الله وأثنى على أهله، وأخبر أنهم هم المنتفعون بالآيات، هو: الذي يفهم ويعقل الحقائق النافعة ويعمل بها، ويعقل صاحبه عن الأمور الضارة، ولذلك قيل له: حجر ولب ونهى؛ لأنه يحجر صاحبه، وينهاه عما يضره.

العلم: هو معرفة الهدى بدليله، فهو معرفة المسائل النافعة المطلوبة، ومعرفة أدلتها وطرقها التي تهدي إليها. والعلم النافع هو: العلم بالحق والعمل به، وضده الجهل.

لفظ «الأمة» في القرآن على أربعة أوجه: يراد به الطائفة من الناس، وهو الغالب، ويراد به: المدة، ويراد به: الدين والملة، ويراد به: الإمام في الخير.

لفظ «استوى» في القرآن على ثلاثة أوجه:

- إن عدي بعلى كان معناه العلو والارتفاع ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].
- وإن عدي بإلى؛ فمعناه قصد؛ كقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩].
- وإن لم يعد بشيء؛ فمعناه كمل كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص: ١٤].

التوبة: ورد في آيات كثيرة الأمر بها، ومدح التائبين وثوابهم، وهي: الرجوع عما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا إلى ما يحبه الله ظاهرًا وباطنًا.

الصراط المستقيم الذي أمر الله بلزومه وأثنى على المستقيمين عليه هو: الطريق المعتدل الموصل إلى رضوان الله وثوابه، وهو متابعة النبي ﷺ في أقواله وأفعاله وكل أحواله.

الذكر لله الذي أمر به، وأثنى على الذاكرين، وذكر جزاءهم العاجل والآجل هو: عند الإطلاق يشمل جميع ما يقرب إلى الله من عقيدة، أو فكر نافع، أو خلق جميل، أو عمل قلبي، أو بدني، أو ثناء على الله، أو تسبيح ونحوه، أو تعلم أحكام الشرع الأصولية والفروعية، أو ما يعين على ذلك، فكله داخل في ذكر الله.

فصل

وقد تكرر كثير من أسماء الله الحسنى في القرآن بحسب المناسبات، والحاجة داعية إلى التنبيه إلى معانيها الجامعة فنقول:

قد تكرر اسم الرب في آيات كثيرة، فالرب هو المربي جميع عباده بالتدبير وأصناف النعم، وأخص من هذا تربيته لأصفيائه بإصلاح قلوبهم وأرواحهم وأخلاقهم؛ ولهذا كثر دعاؤهم له بهذا الاسم الجليل، لأنهم يطلبون منه هذه التربية الخاصة.

الله هو المألوه المعبود ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، لما اتصف به من صفات الألوهية التي هي صفات الكمال.

الملك، المالك، الذي له الملك فهو الموصوف بصفة الملك، وهي صفات العظمة والكبرياء والقهر والتدبير، الذي له التصرف المطلق في الخلق والأمر والجزاء، وله جميع العالم العلوي والسفلي، كلهم عبيد ومماليك ومضطرون إليه.

الواحد، الأحد: وهو الذي توحد بجميع الكمالات، بحيث لا يشاركه فيها مشارك.

ويجب على العبيد توحيده عقدًا وقولًا وعملًا، بأن يعترفوا بكماله المطلق، وتفرده بالوحدانية، ويفردوه بأنواع العبادة.

الصمد: وهو الذي تقصده الخلائق كلها في جميع حاجاتها، وضروراتها وأحوالها؛ لما له من الكمال المطلق في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله.

العليم، الخبير: وهو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والإسرار والإعلان، وبالواجبات والمستحيلات والممكنات، وبالعالم العلوي والسفلي، وبالماضي والحاضر والمستقبل؛ فلا يخفى عليه شيء من الأشياء.

الحكيم: وهو الذي له الحكمة العليا في خلقه، وأمره الذي أحسن كل شيء خلقه ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. فلا يخلق شيئًا عبثًا ولا يشرع شيئًا سدًى، الذي له الحكم في الأولى والآخرة، وله الأحكام الثلاثة لا يشاركه فيها مشارك: فيحكم بين عباده في شرعه، وفي قدره، وجزائه، والحكمة: وضع الأشياء مواضعها وتنزيلها منازلها.

الرحمن، الرحيم، البر، الكريم، الجواد، الرءوف، الوهاب هذه الأسماء تتقارب معانيها، وتدل كلها على اتصاف الرب بالرحمة والبر والجود والكرم، وعلى سعة رحمته ومواهبه التي عم بها جميع الوجود بحسب ما تقتضيه حكمته، وخص المؤمنين منها بالنصيب الأوفر والحظ الأكمل، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] الآية. والنعم والإحسان كله من آثار رحمته وجوده وكرمه، وخيرات الدنيا والآخرة كلها من آثار رحمته.

السميع: لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات.

البصير: الذي يبصر كل شيء وإن دق وصغر، فيبصر دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، ويبصر ما تحت الأرضين السبع كما يبصر ما فوق السماوات السبع، وأيضًا سميع بصير بمن يستحق الجزاء بحسب حكمته، والمعنى الأخير يرجع إلى الحكمة.

الحميد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فله من الأسماء أحسنها ومن الصفات أكملها، ومن الأفعال أتمها وأحسنها؛ فإن أفعاله تعالى دائرة بين الفضل والعدل.

المجيد، الكبير، العظيم، الجليل: وهو الموصوف بصفات المجد والكبرياء، والعظمة والجلال، الذي هو أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وأجل وأعلى، وله التعظيم والإجلال في قلوب أوليائه وأصفيائه، قد ملئت قلوبهم من تعظيمه وإجلاله والخضوع له والتذلل لكبريائه.

العفو، الغفور، الغفار: الذي لم يزل ولا يزال بالعفو معروفًا، وبالغفران والصفح عن عباده موصوفًا، كل أحد مضطر إلى عفوه ومغفرته كما هو مضطر إلى رحمته وكرمه، وقد وعد بالمغفرة والعفو لمن أتى بأسبابها، قال تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴾ [طه: ٨٢].

التواب: الذي لم يزل يتوب على التائبين، ويغفر ذنوب المنيبين، فكل من تاب إلى الله توبة نصوحًا تاب الله عليه، فهو التائب على التائبين: أولًا بتوفيقهم للتوبة والإقبال بقلوبهم إليه، وهو التائب عليهم بعد توبتهم قبولًا لها، وعفوًا عن خطاياهم.

القدوس، السلام: أي: المعظم المنزه عن صفات النقص كلها، وأن يماثله أحد من الخلق، فهو المتنزه عن جميع العيوب، والمتنزه عن أن يقاربه أو يماثله أحد في شيء من الكمال ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٌ ﴾ [الشورى: ١١]. ﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴾ [الإخلاص: ٤]. ﴿ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥]. ﴿ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ [البقرة: ٢٢]. فالقدوس كالسلام ينفيان كل نقص من جميع الوجوه، ويتضمنان الكمال المطلق من جميع الوجوه، لأن النقص إذا انتفى ثبت الكمال كله.

العلي، الأعلى: وهو الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه: علو الذات، وعلو القدر والصفات، وعلو القهر، فهو الذي على العرش استوى، وعلى الملك احتوى، وبجميع صفات العظمة والكبرياء والجلال والجمال وغاية الكمال اتصف، وإليه فيها المنتهى.

العزيز: الذي له العزة كلها: عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع؛ فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات، وقهر جميع الموجودات، ودانت له الخليقة، وخضعت لعظمته.

القوي، المتين: هو في معنى العزيز.

الجبار: هـو بمعنى العلي الأعلى، وبمعنـى القهار، وبمعنى الرءوف الجابر للقلوب المنكسـرة، وللضعيف العاجز ولمن لاذ به ولجأ إليه.

المتكبر: عن السوء والنقص والعيوب، لعظمته وكبريائه.

الخالق، البارئ، المصور: الذي خلق جميع الموجودات، وبرأها وسواها بحكمته وصورها بحمده وحكمته، وهو لم يزل ولا يزال على هذا الوصف العظيم.

المؤمن: الذي أثنى على نفسـه بصفات الكمال، وبكمال الجلال والجمال، الذي أرسـل رسـله، وأنزل كتبه بالآيات والبراهين، وصدق رسله بكل آية وبرهان يدل على صدقهم، وصحة ما جاءوا به.

المهيمن: المطلع على خفايا الأمور، وخبايا الصدور، الذي أحاط بكل شيء علمًا.

القدير: كامل القدرة، بقدرته أوجد الموجودات، وبقدرته دبرها، وبقدرته سواها وأحكمها، وبقدرته يحيي ويميت، ويبعث العباد للجزاء، ويجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، الذي إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون، وبقدرته يقلب القلوب ويصرفها على ما يشاء ويريد.

اللطيف: الذي أحاط علمه بالسـرائر والخفايا، وأدرك الخبايا والبواطن والأمور الدقيقة، اللطيف بعبـاده المؤمنين، الموصـل إليهم مصالحهم بلطفه وإحسـانه من طرق لا يشـعرون بها، فهو بمعنى «الخبير» وبمعنى« الرءوف».

الحسيب: هو العليم بعباده، كافي المتوكلين، المجازي لعباده بالخير والشر بحسب حكمته، وعلمه بدقيق أعمالهم وجليلها.

الرقيب: المطلع على ما أكنته الصدور، القائم على كل نفس بما كسـبت، الذي حفظ المخلوقات، وأجراها على أحسن نظام وأكمل تدبير.

الحفيظ: الذي حفظ مـا خلقه، وأحاط علمه بما أوجده، وحفظ أوليـاءه من وقوعهم في الذنوب والهلكات، ولطف بهم في الحركات والسكنات، وأحصى على العباد أعمالهم وجزاءها.

المحيط: بكل شيء علمًا وقدرة ورحمة وقهرًا.

القهار: لكل شيء، الذي خضعت له المخلوقات، وذلت لعزته وقوته وكمال اقتداره.

المقيت: الذي أوصل إلى كل موجود ما به يقتات، وأوصل إليها أرزاقها وصرفها كيف يشاء بحكمته وحمده.

الوكيل: المتولي لتدبير خلقه بعلمه وكمال قدرته وشمول حكمته، الذي تولى أولياءه فيسرهم لليسرى وجنبهم العسرى وكفاهم الأمور؛ فمن اتخذه وكيلًا كفاه. ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ذو الجلال والإكرام: أي: ذو العظمة والكبرياء، وذو الرحمة والجود والإحسان العام والخاص، المكرم لأوليائه وأصفيائه، الذين يجلونه ويعظمونه ويحبونه.

الودود: الذي يحب أنبياءه ورسله وأتباعهم ويحبونه، فهو أحب إليهم من كل شيء، قد امتلأت قلوبهم من محبته، ولهجت ألسنتهم بالثناء عليه، وانجذبت أفئدتهم إليه ودا وإخلاصًا وإنابة من جميع الوجوه.

الفتاح: الذي يحكم بين عباده بأحكامه الشرعية، وأحكامه القدرية، وأحكام الجزاء، الذي فتح بلطفه بصائر الصادقين، وفتح قلوبهم لمعرفته ومحبته والإنابة إليه، وفتح لعباده أبواب الرحمة والأرزاق المتنوعة، وسبب لهم الأسباب التي ينالون بها خير الدنيا والآخرة ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢].

الرزاق: لجميع عباده فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها. ورزقه لعباده نوعان: رزق عام شمل البر والفاجر والأولين والآخرين وهو رزق الأبدان، ورزق خاص وهو رزق القلوب وتغذيتها بالعلم والإيمان، والرزق الحلال الذي يعين على صلاح الدين، وهذا خاص بالمؤمنين على مراتبهم منه بحسب ما تقتضيه حكمته ورحمته.

الحكم، العدل: الذي يحكم بين عباده في الدنيا والآخرة بعدله وقسطه؛ فلا يظلم مثقال ذرة، ولا يحمل أحدًا وزر أحد، ولا يجازي العبد بأكثر من ذنبه، ويؤدي الحقوق إلى أهلها، فلا يدع صاحب حق إلا أوصل إليه حقه، وهو العدل في تدبيره وتقديره ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

جامع الناس ليوم لا ريب فيه، وجامع أعمالهم وأرزاقهم فلا يترك منها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وجامع ما تفرق واستحال من الأموات الأولين والآخرين بكمال قدرته وسعة علمه.

الحي، القيوم: كامل الحياة، والقائم بنفسه، القيوم لأهل السماوات والأرض، القائم بتدبيرهم وأرزاقهم وجميع أحوالهم، فالحي الجامع لصفات الذات، والقيوم الجامع لصفات الأفعال.

النور: نور السماوات والأرض، الذي نور قلوب العارفين بمعرفته والإيمان به، ونور أفئدتهم بهدايته، وهو الذي أنار السماوات والأرض بالأنوار التي وضعها، وحجابه النور لو كشفه لأحرقت

سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه[1].

بديع السماوات والأرض: أي: خالقهما ومبدعهما في غاية ما يكون من الحسن، والخلق البديع، والنظام العجيب المحكم.

القابض، الباسط: يقبض الأرزاق والأرواح، ويبسط الأرزاق والقلوب، وذلك تبع لحكمته ورحمته.

المعطي، المانع: لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، فجميع المصالح والمنافع منه تطلب وإليه يرغب فيها، وهو الذي يعطيها لمن يشاء، ويمنعها من يشاء بحكمته ورحمته.

الشهيد: أي: المطلع على جميع الأشياء، سمع جميع الأصوات خفيها وجليها، وأبصر جميع الموجودات دقيقها وجليلها، صغيرها وكبيرها، وأحاط علمه بكل شيء، الذي شهد لعباده وعلى عباده بما عملوه.

المبدئ، المعيد: قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: ٢٧]. ابتدأ خلقهم؛ ليبلوهم أيهم أحسن عملًا، ثم يعيدهم؛ ليجزي الذين أحسنوا بالحسنى، ويجزي المسيئين بإساءتهم، وكذلك هو الذي يبدأ إيجاد المخلوقات شيئًا فشيئًا، ثم يعيدها كل وقت.

الفعال لما يريد: وهذا من كمال قوته ونفوذ مشيئته وقدرته؛ أن كل أمر يريده يفعله بلا ممانع ولا معارض، وليس له ظهير ولا عوين على أي أمر يكون، بل إذا أراد شيئًا قال له: كن؛ فيكون، ومع أنه الفعال لما يريد، فإرادته تابعة لحكمته وحمده؛ فهو موصوف بكمال القدرة ونفوذ المشيئة، وموصوف بشمول الحكمة لكل ما فعله ويفعله.

الغني، المغني: فهو الغني بذاته الذي له الغنى التام المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات، لكماله وكمال صفاته؛ فلا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه، ولا يمكن أن يكون إلا غنيًّا؛ لأن غناه من لوازم ذاته، كما لا يكون إلا خالقًا قادرًا رازقًا محسنًا؛ فلا يحتاج إلى أحد بوجه من الوجوه؛ فهو الغني الذي بيده خزائن السماوات والأرض وخزائن الدنيا والآخرة، المغني جميع خلقه غنى عامًّا، والمغني لخواص خلقه بما أفاض على قلوبهم من المعارف الربانية والحقائق الإيمانية.

الحليم: الذي يدر على خلقه النعم الظاهرة والباطنة مع معاصيهم وكثرة زلاتهم، فيحلم عن مقابلة العاصين بعصيانهم، ويستعتبهم كي يتوبوا، ويمهلهم كي ينيبوا.

---

(١) مسلم (١٧٩).

الشاكر، الشـكور: الذي يشـكر القليل من العمل، ويغفر الكثير من الزلل، ويضاعف للمخلصين أعمالهم بغير حساب، ويشكر الشاكرين، ويذكر من ذكره، ومن تقرب إليه بشيء من الأعمال الصالحة؛ تقرب الله منه أكثر.

القريب، المجيب: أي: هو تعالـى القريب من كل أحد. وقربه تعالى نوعان: قرب عام من كل أحد بعلمه وخبرته ومراقبته ومشـاهدته وإحاطته، وقرب خاص من عابديه وسائليه ومحبيه، تقرب لا تدرك له حقيقة، وإنما تعلم آثاره من لطفه بعبده وعنايته به وتوفيقه وتسديده.

ومن آثاره: الإجابة للداعين والإنابة للعابدين؛ فهو المجيب إجابة عامة للداعين، مهما كانوا، وأينما كانوا، وعلى أي حال كانوا كما وعدهم بهذا الوعد المطلق؛ وهو المجيب إجابة خاصة للمستجيبين له المنقادين لشرعه، وهو المجيب أيضًا للمضطرين، ومن انقطع رجاؤهم من المخلوقين، وقوي تعلقهم به طمعًا ورجاء وخوفًا.

الكافـي عباده جميع مـا يحتاجونه ويضطرون إليه، الكافي كفاية خاصـة، من آمن به وتوكل عليه، واستمد منه حوائج دينه ودنياه.

الأول والآخر والظاهر والباطن: قد فسـرها النبي ﷺ تفسـيرًا جامعًا واضحًا؛ فقال: «**أنت الأول؛ فليس قبلك شيء، وأنت الآخر، فليس بعدك شـيء، وأنت الظاهر؛ فليس فوقك شيء، وأنت الباطن، فليس دونك شيء**»[(١)].

الواسـع الصفات والنعوت ومتعلقاتها بحيث لا يحصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، واسع العظمة والسلطان والملك، واسع الفضل والإحسان، عظيم الجود والكرم.

الهادي، الرشـيد: أي: الذي يهدي ويرشـد عباده إلى جميع المنافع وإلـى دفع المضار، ويعلمهم ما لا يعلمون، ويهديهم هداية التوفيق والتسـديد، ويلهمهم التقوى، ويجعل قلوبهم منيبة إليه، منقادة لأمره، وللرشـيد معنى، بمعنى (الحكيم). فهو الرشـيد: في أقواله وأفعاله، وشرائعه كلها خير ورشد وحكمة، ومخلوقاته مشتملة على الرشد.

الحق في ذاتـه وصفاته، فهو واجب الوجـود، كامل الصفات والنعوت، وجـوده من لوازم ذاته، ولا وجود لشيء من الأشـياء إلا به، فهو الذي لم يزل ولا يزال بالجلال والجمال والكمال موصوفًا، ولـم يزل ولا يزال بالإحسان معروفًا. فقوله حق، وفعله حق، ولقاؤه حق، ورسله حق، وكتبه حق، ودينه هو الحق، وعبادته وحده لا شريك له هي الحق، وكل شيء ينسب إليه فهو حق؛ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ

(١) مسلم (٢٧١٣).

ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [الحج: ٦٢]. ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩]. ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ [يونس: ٣٢]. ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١].

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم إلى يوم الدين.

قال ذلك وكتبه العبد الفقير إلى ربه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر السعدي - غفر الله له ولوالديه ومشايخه وأحبابه وجميع المسلمين - آمين.



تفسير سورة[1] الفاتحة

وهي مكية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ٧ ﴾.

(١) ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ أي: أبتدئ بكل اسم لله تعالى؛ لأن لفظ «اسم» مفرد مضاف، فيعم جميع الأسماء الحسنى[2].

﴿ اللَّهِ ﴾: هو المألوه المعبود المستحق لإفراده بالعبادة، لما اتصف به من صفات الألوهية، وهي: صفات الكمال.

﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ١ ﴾: اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي، وكتبها للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله؛ فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة، ومن عداهم فله[3] نصيب منها.

واعلم: أن من القواعد المتفق عليها بين سلف الأمة وأئمتها الإيمان بأسماء الله وصفاته وأحكام الصفات، فيؤمنون مثلًا بأنه رحمن رحيم ذو الرحمة التي اتصف بها، المتعلقة بالمرحوم، فالنعم كلها أثر من آثار رحمته، وهكذا في سائر الأسماء.

يقال في العليم: إنه عليم ذو علم يعلم به كل شيء، قدير ذو قدرة يقدر على كل شيء.

(٢) ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ هو[4]: الثناء على الله بصفات الكمال، وبأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل، فله الحمد الكامل بجميع الوجوه. ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢ ﴾ الرب: هو المربي جميع العالمين، وهم من سوى الله بخلقه لهم، وإعداده لهم الآلات، وإنعامه عليهم بالنعم العظيمة، التي لو فقدوها لم يمكن لهم البقاء، فما بهم من نعمة فمنه تعالى.

(١) سقطت من ع.
(٢) سقطت من ع.
(٣) ع: «فلهم».
(٤) سقطت من ع.

سُورَةُ الفَاتِحَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ١
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢
الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ٤
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥ اهْدِنَا
الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ
عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ
وَلَا الضَّالِّينَ ٧

وَآيَاتُهَا سَبْعٌ

وتربيته تعالى لخلقه نوعان: عامة وخاصة: **فالعامة هي**: خلقه للمخلوقين ورزقهم وهدايتهم لما فيه مصالحهم التي فيها بقاؤهم في الدنيا، **والخاصة**: تربيته لأوليائه، فيربيهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكملهم[5]، ويدفع عنهم الصوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه.

وحقيقتها: تربية التوفيق لكل خير، والعصمة من كل شر، ولعل هذا المعنى[6] هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب، فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة؛ فدل قوله: ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢ ﴾ على انفراده بالخلق، والتدبير، والنعم، وكمال غناه، وتمام فقر العالمين إليه بكل وجه واعتبار.

(٤) ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ٤ ﴾ المالك: هو من اتصف بصفة الملك التي من آثارها أنه يأمر وينهى، ويثيب ويعاقب، ويتصرف بمماليكه بجميع أنواع التصرفات.

(٥) ع: «ويكمله لهم».
(٦) سقطت من ع.

وأضاف الملك ليوم الدين، وهو يوم القيامة، يوم يدان الناس فيه بأعمالهم خيرها وشرها؛ لأن في ذلك اليوم يظهر للخلق تمام الظهور كمال ملكه وعدله وحكمته، وانقطاع أملاك الخلائق، حتى إنه[1] يستوي في ذلك اليوم الملوك والرعايا والعبيد والأحرار، كلهم مذعنون لعظمته، خاضعون لعزته، منتظرون لمجازاته، راجون ثوابه، خائفون من عقابه، فلذلك خصه بالذكر، وإلا فهو المالك ليوم الدين وغيره من الأيام.

(٥) وقوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾؛ أي: نخصك وحدك بالعبادة والاستعانة، لأن تقديم المعمول يفيد الحصر، وهو إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه؛ فكأنه يقول: نعبدك، ولا نعبد غيرك، ونستعين بك، ولا نستعين بغيرك، وتقديم العبادة على الاستعانة من باب تقديم العام على الخاص، واهتمامًا بتقديم حقه تعالى على حق عبده.

والعبادة: اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، والاستعانة هي: الاعتماد على الله تعالى في جلب المنافع ودفع المضار، مع الثقة به في تحصيل ذلك.

والقيام بعبادة الله والاستعانة به هو الوسيلة للسعادة الأبدية والنجاة من جميع الشرور، فلا سبيل إلى النجاة إلا بالقيام بهما، وإنما تكون العبادة عبادةً إذا كانت مأخوذة عن رسول الله ﷺ، مقصودًا بها وجه الله، فبهذين الأمرين تكون عبادة، وذكر الاستعانة بعد العبادة مع دخولها فيها؛ لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى؛ فإنه إن لم يعنه الله لم يحصل له ما يريده من فعل الأوامر واجتناب النواهي.

ثم قال تعالى:

(٦) ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾؛ أي: دلنا وأرشدنا، ووفقنا إلى الصراط المستقيم، وهو الطريق الواضح الموصل إلى الله وإلى جنته، وهو معرفة الحق والعمل به، فاهدنا إلى الصراط، واهدنا في الصراط، فالهداية إلى الصراط لزوم دين الإسلام وترك ما سواه من الأديان، والهداية في الصراط تشمل الهداية لجميع التفاصيل الدينية علمًا وعملًا؛ فهذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها للعبد؛ ولهذا وجب على الإنسان أن يدعو الله به في كل ركعة من صلاته لضرورته إلى ذلك؛ وهذا الصراط المستقيم هو:

(٧) ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ﴿ غَيْرِ ﴾ صراط ﴿ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ الذين عرفوا الحق وتركوه كاليهود ونحوهم، وغير صراط ﴿ الضَّالِّينَ ۝٧ ﴾ الذين تركوا الحق على جهل وضلال كالنصارى ونحوهم.

فهذه السورة على إيجازها قد احتوت على ما لم تحتو عليه سورة من سور القرآن، فتضمنت أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية يؤخذ من قوله: ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ ﴾، وتوحيد الإلهية، وهو إفراد الله بالعبادة يؤخذ من لفظ ﴿ اللَّهِ ﴾ ومن قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾، وتوحيد الأسماء والصفات، وهو إثبات صفات الكمال لله تعالى التي أثبتها لنفسه وأثبتها له رسوله من غير تعطيل ولا تمثيل ولا تشبيه، وقد دل على ذلك لفظ ﴿ الْحَمْدُ ﴾ كما تقدم.

وتضمنت إثبات النبوة في قوله: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾؛ لأن ذلك ممتنع بدون الرسالة.

وإثبات الجزاء على الأعمال في قوله: ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤ ﴾ وأن الجزاء يكون بالعدل؛ لأن الدين معناه الجزاء بالعدل.

وتضمنت إثبات القدر، وأن العبد فاعل حقيقة خلافًا للقدرية والجبرية.

بل تضمنت الرد على جميع أهل البدع والضلال في قوله: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾؛ لأنه معرفة الحق والعمل به. وكل مبتدع وضال فهو مخالف لذلك.

وتضمنت إخلاص الدين لله تعالى عبادة واستعانة في قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾. فالحمد لله رب العالمين.



(١) سقطت من ع.

تفسير سورة البقرة

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥ ﴾.

تقدم الكلام على البسملة.

(١) وأما الحروف المقطعة في أوائل السورة؛ فالأسلم فيها السكوت عن التعرض لمعناها من غير مستند شرعي، مع الجزم بأن الله تعالى لم ينزلها عبثًا، بل لحكمة لا نعلمها.

(٢) وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾؛ أي: هذا الكتاب العظيم، الذي هو الكتاب على الحقيقة، المشتمل على ما لم تشتمل عليه كتب المتقدمين[1] من العلم العظيم والحق المبين؛ فهو ﴿ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ ﴾ ولا شك بوجه من الوجوه، ونفي الريب عنه يستلزم ضده إذ ضد الريب والشك اليقين، فهذا الكتاب مشتمل على علم اليقين المزيل للشك والريب.

وهذه قاعدة مفيدة أن النفي المقصود به المدح لا بد أن يكون متضمنًا لضده وهو الكمال؛ لأن النفي عدم، والعدم المحض لا مدح فيه، فلما اشتمل على اليقين وكانت الهداية لا تحصل إلا باليقين؛ قال: ﴿ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ﴾ والهدى: ما تحصل به الهداية من الضلالة والشبه، وما به الهداية إلى سلوك الطرق النافعة.

وقال: ﴿ هُدٗى ﴾ وحذف المعمول، فلم يقل: هدى للمصلحة الفلانية ولا للشيء الفلاني؛ لإرادة العموم وأنه هدى لجميع مصالح الدارين، فهو مرشد للعباد في المسائل الأصولية والفروعية، ومبين للحق من الباطل والصحيح من الضعيف، ومبين لهم كيف يسلكون الطرق النافعة لهم في دنياهم وأخراهم. وقال في موضع آخر: ﴿ هُدٗى لِّلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٨٥] فعمم، وفي هذا الموضع وغيره:

(١) زاد بعده في ط: «والمتأخرين»، وقد كُشط عليها في الأصل.

سُورَةُ البَقَرَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥

وَآيَاتُهَا مِائَتَانِ وَثَمَانُونَ وَسِتٌّ

﴿ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ﴾؛ لأنه في نفسه هدى لجميع الناس[2]، فالأشقياء لم يرفعوا به رأسًا ولم يقبلوا هدى الله، فقامت عليهم به الحجة، ولم ينتفعوا به لشقائهم.

وأما المتقون الذين أتوا بالسبب الأكبر لحصول الهداية وهو التقوى التي حقيقتها: اتخاذ ما يقي سخط الله وعذابه بامتثال أوامره، واجتناب النواهي، فاهتدوا به، وانتفعوا غاية الانتفاع، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾ [الأنفال: ٢٩]. فالمتقون هم المنتفعون بالآيات القرآنية والآيات الكونية.

ولأن الهداية نوعان: هداية البيان، وهداية التوفيق، فالمتقون حصلت لهم الهدايتان، وغيرهم لم تحصل لهم هداية التوفيق، وهداية البيان بدون توفيق للعمل بها ليست هداية حقيقية تامة.

ثم وصف المتقين بالعقائد والأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة لتضمن التقوى لذلك فقال:

(٢) ع: «الخلق».

 ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ حقيقة الإيمان هو التصديق التام بما أخبرت به الرسل، المتضمن لانقياد الجوارح، وليس الشأن في الإيمان بالأشياء المشاهدة بالحس، فإنه لا يتميز بها المسلم من الكافر، إنما الشأن في الإيمان بالغيب الذي لم نره ولم نشاهده، وإنما نؤمن به لخبر الله وخبر رسوله.

فهذا الإيمان الذي يميز به المسلم من الكافر؛ لأنه تصديق مجرد لله ورسله، فالمؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به، أو أخبر به رسوله سواء شاهده أو لم يشاهده، وسواء فهمه وعقله، أو لم يهتد إليه عقله وفهمه، بخلاف الزنادقة المكذبين بالأمور الغيبية؛ لأن عقولهم القاصرة المقصرة لم تهتد إليها فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه؛ ففسدت عقولهم، ومرجت أحلامهم، وزكت عقول المؤمنين المصدقين المهتدين بهدى الله.

ويدخل في الإيمان بالغيب الإيمان بجميع[1] ما أخبر الله به من الغيوب الماضية والمستقبلة، وأحوال الآخرة وحقائق أوصاف الله وكيفيتها، وما أخبرت به الرسل من ذلك، فيؤمنون بصفات الله ووجودها، ويتيقنونها وإن لم يفهموا كيفيتها.

ثم قال: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لم يقل: يفعلون الصلاة، أو يأتون بالصلاة؛ لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة، فإقامة الصلاة إقامتها ظاهرًا؛ بإتمام أركانها وواجباتها وشروطها، وإقامتها باطنًا[2]؛ بإقامة روحها وهو حضور القلب فيها وتدبر ما يقول ويفعله منها، فهذه الصلاة هي التي قال الله فيها: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وهي التي يترتب عليها الثواب، فلا ثواب للعبد[3] من صلاته إلا ما عقل منها، ويدخل في الصلاة فرائضها ونوافلها.

ثم قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣﴾ يدخل فيه النفقات الواجبة؛ كالزكاة، والنفقة على الزوجات والأقارب والمماليك ونحو ذلك، والنفقات المستحبة بجميع طرق الخير، ولم يذكر المنفق عليه لكثرة أسبابه وتنوع أهله، ولأن النفقة من حيث هي قربة إلى الله، وأتى بـ (مِن) الدالة على التبعيض؛ لينبههم أنه لم يرد منهم إلا جزءًا يسيرًا من أموالهم غير ضار لهم، ولا مثقل، بل ينتفعون هم بإنفاقه، وينتفع به إخوانهم، وفي قوله: ﴿رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ إشارة إلى أن هذه الأموال التي بين أيديكم ليست حاصلة بقوتكم وملككم، وإنما هي رزق الله الذي خولكم وأنعم به عليكم، فكما أنعم عليكم وفضلكم على كثير من عباده فاشكروه بإخراج بعض ما أنعم به عليكم، وواسوا إخوانكم المعدمين.

وكثيرًا ما يجمع تعالى بين الصلاة والزكاة في القرآن؛ لأن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة والنفقة متضمنة للإحسان على عبيده؛ فعنوان سعادة العبد إخلاصه للمعبود وسعيه في نفع الخلق، كما أن عنوان شقاوة العبد عدم هذين الأمرين منه، فلا إخلاص ولا إحسان.

(٤) ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ وهو: القرآن والسنة، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [النساء: ١١٣] فالمتقون يؤمنون بجميع ما جاء به الرسول ولا يفرقون بين بعض ما أنزل إليه، فيؤمنون ببعضه، ولا يؤمنون ببعضه؛ إما بجحده، أو تأويله على غير مراد الله ورسوله، كما يفعل ذلك من يفعله من المبتدعة الذين يؤولون النصوص الدالة على خلاف قولهم بما حاصله عدم التصديق بمعناها وإن صدقوا بلفظها، فلم يؤمنوا بها إيمانًا حقيقيًّا. وقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ يشمل الإيمان بجميع الكتب[4] السابقة، ويتضمن الإيمان بالكتب الإيمان بالرسل وبما اشتملت عليه، خصوصًا التوراة والإنجيل والزبور، وهذه خاصية المؤمنين يؤمنون بالكتب[5] السماوية كلها وبجميع الرسل؛ فلا يفرقون بين أحد منهم.

ثم قال: ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤﴾ والآخرة: اسم لما يكون بعد الموت، وخصه بالذكر بعد العموم؛ لأن الإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان؛ ولأنه أعظم باعث على الرغبة والرهبة والعمل، واليقين هو: العلم التام، الذي ليس فيه أدنى شك، الموجب للعمل.

(٥) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الموصوفون بتلك الصفات الحميدة ﴿عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ﴾؛ أي: على هدى عظيم؛ لأن التنكير للتعظيم، وأي هداية أعظم من تلك الصفات المذكورة المتضمنة للعقيدة الصحيحة والأعمال المستقيمة؟! وهل الهداية في الحقيقة إلا هدايتهم، وما سواها مما خالفها فهي ضلالة؟! وأتى بـ (على) في هذا الموضع الدالة على

(١) عبارة: «الإيمان بجميع» وردت في ع: «جميع».
(٢) عبارة: «وإقامتها باطنًا» وردت في ع: «وباطنها».
(٣) ع: «للإنسان».

(٤) عبارة: «بجميع الكتب» وردت في ع: «بالكتب».
(٥) ع: «بجميع الكتب».

الاستعلاء، وفي الضلالة يأتي بـ(في) كما في قوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ: ٢٤]؛ لأن صاحب الهدى مستعلٍ بالهدى مرتفع به، وصاحب الضلال منغمس فيه محتقر.

ثم قال: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ والفلاح هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، حصر الفلاح فيهم؛ لأنه لا سبيل إلى الفلاح إلا بسلوك سبيلهم، وما عدا تلك السبيل فهي سبل الشقاء والهلاك والخسار التي تفضي بسالكها إلى الهلاك؛ فلهذا لما ذكر صفات المؤمنين حقًّا ذكر صفات الكفار المظهرين لكفرهم المعاندين للرسول فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

﴿٦﴾ يخبر تعالى أن: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أي: اتصفوا بالكفر وانصبغوا به، وصار وصفًا لهم لازمًا لا يردعهم عنه رادع، ولا ينجع فيهم وعظ؛ أنهم مستمرون على كفرهم، فـ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾. وحقيقة الكفر هو الجحود لما جاء به الرسول أو جحد بعضه، فهؤلاء الكفار لا تفيدهم الدعوة إلا إقامة الحجة عليهم، وكأن في هذا قطعًا لطمع الرسول ﷺ في إيمانهم، وأنك لا تأس عليهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات.

ثم ذكر الموانع المانعة لهم من الإيمان، فقال:

﴿٧﴾ ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾؛ أي: طبع عليها بطابع لا يدخلها الإيمان ولا ينفذ فيها؛ فلا يعون ما ينفعهم ولا يسمعون ما يفيدهم ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ﴾؛ أي: غشاء وغطاء وأكنة تمنعها عن النظر الذي ينفعهم، وهذه طرق العلم والخير قد سدت عليهم، فلا مطمع فيهم ولا خير يرجى عندهم، وإنما منعوا ذلك وسدت عنهم أبواب الإيمان بسبب كفرهم وجحودهم ومعاندتهم بعدما تبين لهم الحق، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠] وهذا عقاب عاجل، ثم ذكر العقاب الآجل فقال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ وهو عذاب النار، وسخط الجبار المستمر الدائم.

ثم قال تعالى في وصف المنافقين الذين ظاهرهم الإسلام وباطنهم الكفر:

الجزء الأول — سورة البقرة

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

٣

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾

﴿٨﴾، ﴿٩﴾ واعلم: أن النفاق هو إظهار الخير وإبطان الشر، ويدخل في هذا التعريف النفاق الاعتقادي والنفاق العملي؛ فالنفاق العملي كالذي ذكر النبي ﷺ في قوله: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**»؛ وفي رواية: «**وإذا خاصم فجر**»[(١)].

وأما النفاق الاعتقادي المخرج عن دائرة الإسلام؛ فهو الذي وصف الله به المنافقين في هذه السورة وغيرها، ولم يكن النفاق موجودًا قبل هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة ولا بعد الهجرة[(٢)]، حتى[(٣)] كانت وقعة بدر وأظهر الله

(١) البخاري (٣٣)، مسلم (٥٩).
(٢) ع: «أن هاجر».
(٣) ع: «فلما».

المؤمنين وأعزهم؛ فذل من في المدينة ممن لم يسلم، فأظهر الإسلام بعضهم خوفًا ومخادعة؛ ولتحقن دماؤهم وتسلم أموالهم، فكانوا بين أظهر المسلمين، في الظاهر أنهم منهم، وفي الحقيقة ليسوا منهم.

فمن لطف الله بالمؤمنين أن جلا أحوالهم، ووصفهم بأوصاف يتميزون بها لئلا يغتر بهم المؤمنون، ولينقمعوا أيضًا عن كثير من فجورهم، قال تعالى: ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [التوبة: ٦٤]؛ فوصفهم الله بأصل النفاق فقال: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) ﴾؛ فإنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم فأكذبهم الله بقوله: ﴿ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) ﴾؛ لأن الإيمان الحقيقي ما تواطأ عليه القلب واللسان، وإنما هذا مخادعة لله ولعباده المؤمنين، والمخادعة: أن يظهر المخادع لمن يخادعه شيئًا، ويبطن خلافه لكي يتمكن من مقصوده ممن يخادع، فهؤلاء المنافقون سلكوا مع الله وعباده هذا المسلك؛ فعاد خداعهم على أنفسهم، وهذا من العجائب؛ لأن المخادع إما أن ينتج خداعه ويحصل له مقصوده[1] أو يسلم لا له ولا عليه، وهؤلاء عاد خداعهم على أنفسهم، فكأنهم يعملون ما يعملون من المكر لإهلاك أنفسهم وإضرارها وكيدها؛ لأن الله لا يتضرر بخداعهم شيئًا، وعباده المؤمنون[2] لا يضرهم كيدهم شيئًا، فلا يضر المؤمنين أن أظهر المنافقون الإيمان؛ فسلمت بذلك أموالهم، وحقنت دماؤهم، وصار كيدهم في نحورهم، وحصل لهم بذلك الخزي والفضيحة في الدنيا، والحزن المستمر بسبب ما يحصل للمؤمنين من القوة والنصرة، ثم في الآخرة لهم العذاب الأليم الموجع المفجع بسبب كذبهم وكفرهم وفجورهم، والحال أنهم من جهلهم وحماقتهم لا يشعرون بذلك.

(١٠) وقوله: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾؛ المراد بالمرض هنا: مرض الشك، والشبهات، والنفاق، وذلك أن القلب يعرض له مرضان يخرجانه عن صحته واعتداله: مرض الشبهات الباطلة، ومرض الشهوات المردية. فالكفر والنفاق والشكوك والبدع كلها من مرض الشبهات، والزنا ومحبة الفواحش والمعاصي وفعلها من مرض الشهوات؛ كما قال تعالى: ﴿ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب: ٣٢]؛ وهو شهوة الزنا، والمعافى

(١) عبارة: «له مقصوده» وردت في ع: «ما يريد».
(٢) ط: «المؤمنين».

من عوفي من هذين المرضين، فحصل له اليقين والإيمان والصبر عن كل معصية، فرفل في أثواب العافية.

وفي قوله عن المنافقين:

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾؛ بيان لحكمته تعالى في تقدير المعاصي على العاصين، وأنه بسبب ذنوبهم السابقة يبتليهم بالمعاصي اللاحقة الموجبة لعقوباتها، كما قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ[3] فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ [التوبة: ١٢٥] فعقوبة المعصية المعصية بعدها، كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها؛ قال تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ [مريم: ٧٦].

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ (١٢) ﴾

(١١) أي: إذا نهي هؤلاء المنافقون عن الإفساد في الأرض، وهو العمل بالكفر والمعاصي، ومنه إظهار سرائر المؤمنين لعدوهم وموالاتهم للكافرين: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) ﴾؛ فجمعوا بين العمل بالفساد في الأرض وإظهار أنه ليس بإفساد، بل هو إصلاح قلبًا للحقائق، وجمعًا بين فعل الباطل واعتقاده حقًّا، وهؤلاء[4] أعظم جناية ممن يعمل بالمعاصي[5] مع اعتقاد تحريمها[6]، فهذا أقرب للسلامة وأرجى لرجوعه، ولما كان في قولهم: ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) ﴾. حصر للإصلاح في جانبهم - وفي ضمنه أن المؤمنين ليسوا من أهل الإصلاح - قلب الله عليهم دعواهم بقوله:

(١٢) ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴾ فإنه لا أعظم إفسادًا ممن كفر بآيات الله، وصد عن سبيل الله، وخادع الله وأولياءه، ووالى المحاربين لله ورسوله، وزعم مع هذا[7] أن هذا إصلاح، فهل بعد هذا الفساد فساد؟! ولكن

(٣) في الأصل: «رجس».
(٤) ع: «وهذا».
(٥) ع: «بالمعصية».
(٦) ع: «أنها معصية».
(٧) ع: «ذلك».

لا يعلمون علمًا ينفعهم، وإن كانوا قد علموا بذلك علمًا تقوم به عليهم حجة الله، وإنما كان العمل بالمعاصي[١] في الأرض إفسادًا؛ لأنه سبب لفساد[٢] ما على وجه الأرض من الحبوب والثمار والأشجار والنبات، لما يحصل فيها من الآفات التي سببها[٣] المعاصي، ولأن الإصلاح في الأرض أن تعمر بطاعة الله والإيمان به، لهذا خلق الله الخلق وأسكنهم الأرض[٤] وأدر عليهم الأرزاق؛ ليستعينوا بها على طاعته وعبادته، فإذا عمل فيها بضده كان سعيًا فيها بالفساد وإخرابًا لها عما خلقت له.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

﴿١٣﴾ أي: إذا قيل للمنافقين آمنوا كما آمن الناس، أي: كإيمان الصحابة رضي الله عنهم وهو: الإيمان بالقلب واللسان، قالوا بزعمهم الباطل: أنؤمن كما آمن السفهاء؟! يعنون - قبحهم الله - الصحابة رضي الله عنهم؛ لزعمهم أن سفههم أوجب لهم الإيمان، وترك الأوطان، ومعاداة الكفار، والعقل عندهم يقتضي ضد ذلك، فنسبوهم إلى السفه، وفي ضمن ذلك أنهم هم العقلاء أرباب الحجا والنهى؛ فرد الله ذلك عليهم وأخبر أنهم هم السفهاء على الحقيقة؛ لأن حقيقة السفه جهل الإنسان بمصالح نفسه، وسعيه فيما يضرها، وهذه الصفة منطبقة عليهم، وصادقة عليهم كما أن العقل والحجا معرفة الإنسان بمصالح نفسه والسعي فيما ينفعه وفي دفع ما يضره، وهذه الصفة منطبقة على الصحابة و[٥]المؤمنين[٦]؛ فالعبرة بالأوصاف والبرهان، لا بالدعاوى المجردة والأقوال الفارغة[٧].

﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

﴿١٤﴾ هذا من قولهم بألسنتهم ما ليس في قلوبهم؛ وذلك أنهم إذا اجتمعوا بالمؤمنين أظهروا أنهم على طريقتهم، وأنهم معهم، فإذا خلوا إلى شياطينهم - أي كبرائهم ورؤسائهم بالشر[٨] - قالوا: إنا معكم في الحقيقة، وإنما نحن مستهزئون بالمؤمنين بإظهارنا لهم أننا على طريقتهم، فهذه حالهم الباطنة والظاهرة، ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ [فاطر: ٤٣].

﴿١٥﴾ قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾؛ وهذا جزاء لهم على استهزائهم بعباده، فمن استهزائه بهم أن زين لهم ما كانوا فيه من الشقاء، والأحوال[٩] الخبيثة حتى ظنوا أنهم مع المؤمنين لما لم يسلط الله المؤمنين عليهم، ومن استهزائه بهم يوم القيامة: أنه يعطيهم مع المؤمنين نورًا ظاهرًا، فإذا مشى المؤمنون بنورهم طفئ نور المنافقين وبقوا في الظلمة بعد النور متحيرين، فما أعظم اليأس بعد الطمع ﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ ﴾ الآية [الحديد: ١٤].

قوله: ﴿ وَيَمُدُّهُمْ ﴾؛ أي: يزيدهم ﴿ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ ﴾؛ أي: فجورهم وكفرهم، ﴿ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾؛ أي: حائرون مترددون، وهذا من استهزائه تعالى بهم.

ثم قال تعالى كاشفًا عن حقيقة أحوالهم:

﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

﴿١٦﴾ ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ﴾؛ أي: المنافقون الموصوفون بتلك الصفات ﴿ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾؛ أي: رغبوا في الضلالة[١٠] رغبة المشتري في السلعة، التي - من رغبته فيها - يبذل فيها الأموال النفيسة، وهذا من أحسن الأمثلة، فإنه جعل الضلالة التي هي غاية الشر كالسلعة، وجعل الهدى الذي هو غاية الصلاح بمنزلة الثمن، فبذلوا الهدى رغبة عنه في الضلالة رغبة فيها، فهذه تجارتهم؛ فبئس التجارة، وهذه صفقتهم؛ فبئست الصفقة[١١].

وإذا كان من يبذل[١٢] دينارًا في مقابلة درهم خاسرًا فكيف من بذل جوهرة وأخذ عنها درهمًا، فكيف من بذل الهدى في مقابلة الضلالة، واختار الشقاء على السعادة، ورغب في

---

(١) ليس في الأصل.
(٢) عبارة: «سبب لفساد» وردت في ع: «يتضمن فساد».
(٣) عبارة: «التي سببها» وردت في ع: «بسبب».
(٤) ع، ط: «في الأرض».
(٥) عبارة: «الصحابة و» سقطت من: ع.
(٦) زاد بعده في ع: «وصادقة عليهم».
(٧) زاد بعده في ع: «ثم قال تعالى».

(٨) ع: «في الشر».
(٩) ع: «الحال».
(١٠) عبارة: «في الضلالة» وردت في ع: «بالضلالة»
(١١) عبارة: «وهذه صفقتهم؛ فبئست الصفقة» وردت في ع: «وبئس الصفقة صفقتهم».
(١٢) ع: «بذل».

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ
ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ
بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ
ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ
حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ
أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ
وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ
وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ
ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ
بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا
فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟
ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾

٤

سافل الأمور وترك عاليها(١)؟! فما ربحت تجارته بل خسر فيها أعظم خسارة، أولئك ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر: ١٥]. وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾؛ تحقيق لضلالهم وأنهم لم يحصل لهم من الهداية شيء، فهذه أوصافهم القبيحة، ثم ذكر مثلهم الكاشف لها غاية الكشف، فقال:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

(١) عبارة «وترك عاليها» وردت في ع: «عن أعاليها».

﴿١٧﴾ أي: مثلهم المطابق لما كانوا عليه كمثل الذي استوقد نارًا أي: كان في ظلمة عظيمة، وحاجة إلى النار شديدة فاستوقدها من غيره، ولم تكن عنده معدة، بل هي خارجة عنه، فلما أضاءت النار ما حوله، ونظر المحل الذي هو فيه وما فيه من المخاوف، وأمنها وانتفع بتلك النار، وقرت بها عينه، وظن أنه قادر عليها، فبينما هو كذلك، إذ ذهب الله بنوره؛ فزال عنه النور وذهب معه السرور، وبقي في الظلمة العظيمة والنار المحرقة؛ فذهب ما فيها من الإشراق وبقي ما فيها من الإحراق، فبقي في ظلمات متعددة: ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة المطر، والظلمة الحاصلة بعد النور، فكيف يكون حال هذا الموصوف؟ فكذلك هؤلاء المنافقون استوقدوا نار الإيمان من المؤمنين ولم تكن صفة لهم، فاستضاءوا بها مؤقتًا وانتفعوا؛ فحقنت بذلك دماؤهم، وسلمت أموالهم، وحصل لهم نوع من الأمن في الدنيا، فبينما هم كذلك إذ هجم عليهم الموت؛ فسلبهم الانتفاع بذلك النور، وحصل لهم كل هم وغم وعذاب، وحصل لهم ظلمة القبر، وظلمة الكفر، وظلمة النفاق، وظلمة المعاصي على اختلاف أنواعها، وبعد ذلك ظلمة النار وبئس القرار؛ فلهذا قال تعالى عنهم:

﴿١٨﴾ ﴿صُمٌّۢ﴾؛ أي: عن سماع الخير ﴿بُكْمٌ﴾، أي: عن النطق به ﴿عُمْىٌ﴾ عن رؤية الحق ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾؛ لأنهم تركوا الحق بعد أن عرفوه؛ فلا يرجعون إليه، بخلاف من ترك الحق عن جهل وضلال؛ فإنه لا يعقل، وهو أقرب رجوعًا منهم.

﴿١٩﴾ ثم قال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ يعني: أو مثلهم كصيب(٢) أي: كصاحب صيب(٣) وهو: المطر الذي يصوب؛ أي: ينزل بكثرة ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ﴾؛ ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة المطر، وفيه (رعد)؛ وهو: الصوت الذي يسمع من السحاب وفيه (برق)؛ وهو الضوء اللامع المشاهد من السحاب.

﴿٢٠﴾ ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم﴾؛ البرق في تلك الظلمات ﴿مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾؛ أي: وقفوا، فهكذا حالة(٤) المنافقين إذا سمعوا القرآن، وأوامره ونواهيه، ووعده

(٢) عبارة: «يعني: أو مثلهم كصيب» ليس في الأصل، ط.
(٣) زاد بعده في ع: «من السماء».
(٤) ع: «حال».

ووعيـده؛ جعلـوا أصابعهم فـي آذانهم، وأعرضـوا عن أمره ونهيه، ووعده ووعيده؛ فيروعهم وعيده، وتزعجهم وعوده، فهـم يعرضـون عنهـا غايـة مـا يمكنهـم، ويكرهونهـا كراهة صاحـب الصيـب الـذي يسـمع الرعـد فيجعـل أصابعـه في أذنيه خشـية المـوت، فهذا ربما حصلت[١] له السـلامة، وأما المنافقـون فأنـى لهم السـلامة وهـو تعالى محيـط بهم قدرة وعلمًا، فلا يفوتونه ولا يعجزونه، بل يحفظ عليهم أعمالهم ويجازيهم عليها أتم الجزاء.

ولمـا كانـوا مبتليـن بالصمـم والبكـم والعمـى المعنوي، ومسـدودة عليهـم طرق الإيمان قـال تعالـى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾؛ أي الحسية، ففيـه تخويـف لهـم وتحذير مـن العقوبة الدنيويـة؛ ليحـذروا فيرتدعوا عن بعـض شـرهم ونفاقهـم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٠﴾؛ فلا يعجزه شـيء، ومن قدرته أنه إذا شـاء شـيئًا فعله من غير ممانع ولا معارض.

وفـي هذه الآيـة وما أشـبهها رد على القدريـة القائلين بأن أفعالهـم غيـر داخلـة في قـدرة اللـه تعالـى؛ لأن أفعالهم من جملـة الأشـياء الداخلـة فـي قولـه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٠﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾

۝٢١ هـذا أمر عـام لجميع[٢] الناس بأمر عـام، وهو العبادة الجامعـة لامتثال أوامر اللـه واجتناب نواهيه وتصديق خبره، فأمرهـم تعالى بما خلقهم لـه، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]؛ ثـم اسـتدل علـى وجوب عبادته وحده بأنه ربكـم الذي رباكم بأصناف النعم، فخلقكم بعد العدم، وخلق الذين من قبلكم.

۝٢٢ وأنعـم عليكم بالنعـم الظاهرة والباطنـة، فجعل لكم الأرض فراشًـا تسـتقرون عليها، وتنتفعـون بالأبنية والزراعة والحراثـة، والسـلوك مـن محـل إلى محـل، وغيـر ذلك من وجوه[٣] الانتفاع بها، وجعل السـماء بناء لمسـكنكم، وأودع فيها من المنافع ما هو من ضروراتكم وحاجاتكم كالشـمس والقمـر والنجـوم ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ والسـماء[٤]: كل مـا علا فوقك فهو سـماء، ولهذا قال المفسـرون: المراد بالسـماء ههنا السـحاب، فأنزل منه تعالـى ماء ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾؛ كالحبـوب والثمـار مـن نخيـل وفواكـه وزروع وغيرهـا ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾؛ بـه ترتزقـون وتتقوتـون وتعيشـون وتتفكهـون[٥]، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾؛ أي: أشـباهًا ونظـراء مـن المخلوقيـن؛ فتعبدونهـم[٦] كمـا تعبـدون الله، وتحبونهم[٧] كما تحبونه[٨]، وهم مثلكم مخلوقون مرزوقون مدبرون، لا يملكون مثقال ذرة في الأرض، ولا في السـماء، ولا ينفعونكـم ولا يضرون ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾؛ أن الله ليـس له شـريك، ولا نظيـر لا في الخلـق والـرزق والتدبير، ولا في الألوهية والكمال[٩]، فكيف تعبدون معه آلهة أخرى مع علمكم بذلك؟ هذا من أعجب العجب وأسفه السفه.

وهـذه الآيـة جمعت بين الأمـر بعبادة الله وحـده، والنهي عن عبادة ما سـواه، وبيان الدليل الباهـر على وجوب عبادته وبطلان عبادة ما سواه، وهو ذكر[١٠] توحيد الربوبية المتضمن انفـراده بالخلق والرزق والتدبير، فـإذا كان كل أحد مقرًّا بأنه ليس له شريك بذلك[١١] فكذلك؛ فليكن الإقرار بأن الله ليس له شـريك في عبادته، وهذا أوضح دليل عقلي على وحدانية الباري تعالى وبطلان الشرك.

وقولـه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١﴾؛ يحتمـل أن المعنى أنكم إذا عبدتـم اللـه وحـده اتقيتم بذلك سـخطه وعذابـه؛ لأنكم أتيتم بالسـبب الدافع لذلـك، ويحتمل أن يكون المعنى أنكم إذا عبدتم الله صرتم من المتقين الموصوفين بالتقوى، وكلا المعنييـن صحيح، وهما متلازمان، فمـن أتى بالعبادة كاملة؛ كان مـن المتقين، ومـن كان من المتقين؛ حصلـت له النجاة من عذاب الله، وسخطه[١٢].

(١) عبارة: «ربما حصلت» وردت في ع: «تمكن».
(٢) ع: «لكل».
(٣) ع: «أنواع».
(٤) بعده في الأصل، ط: «هو».
(٥) الأصل، ط: «وتفكهون».
(٦) ط: «فتعبدوهم».
(٧) ط: «وتحبوهم».
(٨) ع: «تحبون الله».
(٩) عبارة: «الألوهية والكمال» وردت في ع: «العبادة».
(١٠) سقط من: ع.
(١١) ع: «في ذلك».
(١٢) زاد بعده في ع: «ثم قال تعالى».

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿٢٣﴾ وهـذا دليل عقلي على صدق رسـول الله ﷺ وصحة مـا جـاء به فقـال: وإن كنتـم - يا معشـر المعاندين للرسـول الرادين دعوته الزاعمين كذبه - في شـك، واشـتباه مما نزلنا علـى عبدنـا، هل هـو حق أو غيـره؟ فههنـا أمر نَصَـفٌ[١] فيه الفيصلـة بينكـم وبينه، وهو: أنه بشـر مثلكـم ليس من جنس آخـر[٢]، وأنتـم تعرفونـه منذ نشـأ بينكـم لا يكتـب ولا يقرأ، فأتاكـم بكتـاب أخبركـم[٣] أنه من عنـد الله، وقلتـم أنتم: إنه تقولـه وافتـراه، فـإن كان الأمر كما تقولون؛ فأتوا بسـورة من مثله، واسـتعينوا بمن تقدرون عليه من أعوانكم وشهدائكم، فـإن هذا أمر يسير عليكـم، خصوصًـا وأنتم أهـل الفصاحة والخطابـة والعداوة العظيمة للرسـول، فإن جئتم بسـورة من مثله؛ فهو كما زعمتم، وإن لم تأتوا بسـورة من مثله وعجزتم غاية العجز[٤]؛ فهذه آية كبرى ودليل واضح جلي على صدقه وصـدق مـا جاء بـه؛ فيتعين عليكـم اتباعه، واتقـاء النار التي بلغـت في الحرارة العظيمـة والشـدة، أن كان وقودها الناس والحجارة، ليسـت كنار الدنيا التي إنما تتقد بالحطب، وهذه النار الموصوفة معدة ومهيأة للكافرين بالله ورسله؛ فاحذروا الكفر برسوله بعدما تبين لكم أنه رسول الله.

وهـذه الآيـة ونحوها يسـمونها: آيـات[٥] التحـدي، وهو: تعجيـز الخلـق عـن أن يأتـوا بمثل هـذا القـرآن أو يعارضوه بوجـه، قـال تعالـى: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٨]؛ وكيف يقدر المخلوق من تراب أن يكـون كلامـه ككلام رب الأربـاب، أم كيف يقـدر الفقير الناقـص من جميع[٦] الوجوه أن يأتـي بكلام ككلام الكامل، الـذي لـه الكمـال المطلـق، والغنـى الواسـع مـن جميـع[٧] الوجوه؟! هذا ليس في الإمكان ولا في قدرة الإنسـان، وكل من له أدنى ذوق ومعرفة بأنواع الكلام، إذا وزن هذا القرآن[٨] بغيره من كلام البلغاء، ظهر له الفرق العظيم.

وفـي قولـه: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ[٩] ﴾؛ إلـى آخـره، دليل على أن الذي يرجى له الهداية من الضلالة هو الشـاك الحائـر، الذي لم يعـرف الحق من الضلالة، فهـذا الذي إذا بيـن له الحـق فهـو[١٠] حـري باتباعـه[١١] إن كان صادقًا في طلـب الحق، وأما المعاند الذي يعـرف الحق ويتركه، فهذا لا يمكـن رجوعه؛ لأنه تـرك الحق بعدما تبين له، ولم يتركه عن جهل فلا حيلة فيه، وكذلك الشاك الذي ليس بصادق[١٢] في طلـب الحق، بل هو مُعرِضٌ غيـر مجتهد بطلبه فهذا في الغالب لا يوفق.

وفـي وصف الرسـول بالعبودية في هذا المقـام العظيم دليل علـى أن أعظـم أوصافـه ﷺ قيامه بالعبودية التـي لا يلحقه فيها أحـد مـن الأوليـن والآخرين، كمـا وصفـه بالعبودية فـي مقام الإسراء فقال: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ [الإسراء: ١]؛ وفي مقـام الإنزال فقـال: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ [الفرقان: ١].

﴿٢٤﴾ وفـي قولـه: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾؛ ونحوهـا مـن الآيـات دليل لمذهب أهل السنة والجماعـة أن الجنة والنار مخلوقتان، خلافًا للمعتزلة.

وفيهـا أيضًـا: أن الموحديـن وإن ارتكبـوا بعـض الكبائـر لا يخلـدون في النار؛ لأنه قال: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾؛ فلو كان عصـاة الموحدين يخلدون فيها لـم تكن معدة للكافرين وحدهـم، خلافًـا للخـوارج والمعتزلة، وفيهـا دلالة على أن العذاب مسـتحق بأسـبابه، وهو الكفر وأنواع المعاصي على اختلافها.

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا

(١) أمر نَصَفٌ، أي: أمر عدل. تاج العروس (ن ص ف).
(٢) عبـارة: «مـن جنـس آخـر» وردت فـي ع: «بأفصحكم ولا بأعلمكم».
(٣) ع، وط: «زعم».
(٤) زاد فـي ع، ط: «ولـن تأتوا بسـورة من مثله، ولكن هـذا التقييم على وجه الإنصاف والتنزل معكم».
(٥) الأصل، ط: «آية».
(٦) ع: «كل».
(٧) ع: «كل».
(٨) ع، ط: «القرآن العظيم».
(٩) الأصل، ع: «شك».
(١٠) ليس في الأصل، ط.
(١١) ع، ط: «بالتوفيق».
(١٢) عبارة: «الذي ليس بصادق» وردت في ع: «غير الصادق».

قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿٢٥﴾ لما ذكر جزاء الكافرين ذكر جزاء المؤمنين أهل الأعمال الصالحات كما هي طريقته تعالى في كتابه[1] يجمع بين الترغيب والترهيب؛ ليكون العبد راغبًا راهبًا خائفًا راجيًا فقال: ﴿وَبَشِّرِ﴾؛ أي: أيها الرسول، ومن قام مقامك ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ بقلوبهم ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ بجوارحهم؛ فصدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة، ووصفت أعمال الخير بالصالحات؛ لأن بها تصلح أحوال العبد، وأمور دينه ودنياه، وحياته الدنيوية والأخروية، ويزول بها عنه فساد الأحوال؛ فيكون بذلك من الصالحين الذين يصلحون لمجاورة الرحمن في جنته فبشرهم ﴿أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ﴾؛ أي: بساتين جامعة للأشجار العجيبة والثمار الأنيقة والظل المديد والأغصان والأفنان، وبذلك صارت جنة يجتن بها داخلها وينعم فيها ساكنها ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ أي: أنهار الماء واللبن والعسل والخمر يفجرونها كيف شاءوا، ويصرفونها أين أرادوا، وتسقى[2] منها تلك الأشجار؛ فتنبت أصناف الثمار ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُ﴾؛ أي: هذا من جنسه وعلى وصفه، كلها متشابهة في الحسن واللذة ليس فيها ثمرة خاسة، وليس لهم وقت خال من اللذة؛ فهم دائمًا متلذذون بأكلها، وقوله: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗا﴾؛ قيل: متشابهًا في الاسم مختلفًا في الطعم، وقيل: متشابهًا في اللون مختلفًا في الاسم، وقيل: يشبه بعضه بعضًا في الحسن واللذة والفكاهة، ولعل هذا هو الصحيح[3].

ثم لما ذكر مسكنهم، وأقواتهم من الطعام والشراب، وفواكههم ذكر أزواجهم؛ فوصفهن بأكمل وصف وأوجزه وأوضحه؛ فقال: ﴿وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ﴾؛ فلم يقل مطهرة من العيب الفلاني؛ ليشمل جميع أنواع التطهير، فهن مطهرات الأخلاق، مطهرات الخلق، مطهرات اللسان، مطهرات الأبصار، فأخلاقهن أنهن عرب متحببات إلى أزواجهن بالخلق الحسن وحسن التبعل والأدب القولي والفعلي، ومطهر خَلْقُهُنَّ من الحيض والنفاس والمني والبول والغائط والمخاط والبصاق والرائحة الكريهة،

(١) ع: «القرآن».
(٢) ع: «وتشرب».
(٣) الأصل، ط: «أحسن».

الجزء الأول — سورة البقرة

وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ۞إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٩﴾

٥

ومطهرات الخَلْق أيضًا بكمال الجمال؛ فليس فيهن عيب ولا دمامة خلق، بل هن خيرات حسان، مطهرات اللسان والطرف، قاصرات طرفهن على أزواجهن، وقاصرات ألسنتهن عن كل كلام قبيح.

ففي هذه الآية الكريمة ذكر المبشِّر والمبشَّر والمبشَّر به والسبب الموصل لهذه البشارة؛ فالمبشِّر هو: الرسول ﷺ ومن قام مقامه من أمته، والمبشَّر هم: المؤمنون العاملون الصالحات، والمبشَّر به هي: الجنات الموصوفات بتلك الصفات، والسبب الموصل لذلك، هو: الإيمان والعمل الصالح، فلا سبيل إلى الوصول إلى هذه البشارة إلا بهما، وهذا أعظم بشارة حاصلة على يد أفضل الخلق بأفضل الأسباب، وفيه استحباب بشارة المؤمنين وتنشيطهم على الأعمال بذكر جزائها وثمراتها؛ فإنها بذلك تخف وتسهل، وأعظم بشرى حاصلة للإنسان توفيقه للإيمان والعمل الصالح، فذلك أول البشارة وأصلها، ومن بعده البشرى عند الموت، ومن بعده الوصول إلى هذا النعيم المقيم. نسأل الله

من فضله[1].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا الْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿٢٦﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾؛ أي: أيَّ مثل كان ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾؛ لاشتمال الأمثال على الحكمة وإيضاح الحق، والله لا يستحيي من الحق، وكأن في هذا جوابًا لمن أنكر ضرب الأمثال في الأشياء الحقيرة، واعترض على الله في ذلك؛ فليس في ذلك محل اعتراض، بل هو من تعليم الله لعباده ورحمته بهم، فيجب أن تتلقى بالقبول والشكر، ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾؛ فيفهمونها[2] ويتفكرون فيها، فإن علموا ما اشتملت عليه على وجه التفصيل ازداد بذلك علمهم وإيمانهم، وإلا علموا أنها حق، وما اشتملت عليه حق، وإن خفي عليهم وجه الحق فيها، لعلمهم بأن الله لم يضربها عبثًا، بل لحكمة بالغة ونعمة سابغة، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾؛ فيعترضون ويتحيرون فيزدادون كفرًا إلى كفرهم كما ازداد المؤمنون إيمانًا على إيمانهم؛ ولهذا قال: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾؛ فهذه حال المؤمنين والكافرين عند نزول الآيات القرآنية، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]؛ فلا أعظم نعمة على العباد من نزول الآيات القرآنية، ومع هذا تكون لقوم محنة وحيرة وضلالة وزيادة شر إلى شرهم، ولقوم منحة ورحمة وزيادة خير إلى خيرهم، فسبحان من فاوت بين عباده، وانفرد بالهداية والإضلال.

ثم ذكر حكمته وعدله في إضلاله من يضل وأن ذلك عدل منه تعالى[3]؛ فقال: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا الْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾؛ أي: الخارجين عن طاعة الله المعاندين لرسل الله الذين صار الفسق وصفهم؛ فلا يبغون به بدلًا، فاقتضت حكمته تعالى إضلالهم؛ لعدم صلاحيتهم للهدى، كما اقتضى فضله وحكمته هداية من اتصف بالإيمان وتحلى بالأعمال الصالحة.

والفسق نوعان: نوع مخرج من الدين وهو الفسق المقتضي للخروج من الإيمان كالمذكور في هذه الآية ونحوها، ونوع غير مخرج من الإيمان كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا﴾؛ الآية [الحجرات: ٦].

ثم وصف الفاسقين فقال:

﴿٢٧﴾ ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾؛ وهذا يعم العهد الذي بينهم وبين ربهم، والذي بينهم وبين الخلق، الذي أكده عليهم بالمواثيق الثقيلة والإلزامات، فلا يبالون بتلك المواثيق، بل ينقضونها، ويتركون أوامره، ويرتكبون نواهيه، وينقضون العهود التي بينهم وبين الخلق[4] ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾؛ وهذا يدخل فيه أشياء كثيرة، فإن الله أمرنا أن نصل ما بيننا وبينه بالإيمان به والقيام بعبوديته، وما بيننا وبين رسوله بالإيمان به ومحبته وتعزيره والقيام بحقوقه، وما بيننا وبين الوالدين والأقارب والأصحاب وسائر الخلق بالقيام بحقوقهم التي أمر الله أن نصلها؛ فأما المؤمنون فوصلوا ما أمر الله به أن يوصل من هذه الحقوق، وقاموا بها أتم القيام، وأما الفاسقون فقطعوها ونبذوها وراء ظهورهم معتاضين عنها بالفسق والقطيعة والعمل بالمعاصي، وهو الإفساد في الأرض، ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾؛ أي: من هذه صفته ﴿هُمُ الْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾؛ في الدنيا والآخرة، فحصر الخسارة فيهم؛ لأن خسرانهم عام في كل أحوالهم ليس لهم نوع من الربح؛ لأن كل عمل صالح شرطه الإيمان، فمن لا إيمان له لا عمل له، وهذا الخسار هو: خسار الكفر، وأما الخسار الذي قد يكون كفرًا وقد يكون معصية وقد يكون تفريطًا في ترك مستحب، المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾ [العصر: ٢]؛ فهذا عام لكل مخلوق إلا من اتصف بالإيمان والعمل الصالح

(١) عبارة: «نسأل الله من فضله» وردت في ع: «فنسأل الله أن يجعلنا منهم».
(٢) ع: «فيتفهمونها».
(٣) عبارة: «وأن ذلك عدل منه تعالى» ليست في الأصل، ط.
(٤) ع: «عباده».

والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وحقيقته فوات الخير الذي كان العبد بصدد تحصيله وهو تحت إمكانه.

ثم قال تعالى:

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿٢٨﴾ هذا استفهام بمعنى التعجب والتوبيخ والإنكار؛ أي: كيف يحصل منكم الكفر بالله الذي خلقكم من العدم، وأنعم عليكم بأصناف النعم، ثم يميتكم عند استكمال آجالكم، ويجازيكم في القبور، ثم يحييكم بعد البعث والنشور، ثم إليه ترجعون فيجازيكم الجزاء الأوفى، فإذا كنتم في تصرفه وتدبيره وبره وتحت أوامره الدينية، ومن بعد[١] ذلك تحت دينه الجزائي أفيليق بكم أن تكفروا به؟ وهل هذا إلا جهل عظيم وسفه كبير[٢]؟! بل الذي يليق بكم أن تتقوه وتشكروه، وتؤمنوا به، وتخافوا عذابه، وترجوا ثوابه.

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾.

﴿٢٩﴾ أي: خلق لكم برًّا بكم ورحمة جميع ما على الأرض للانتفاع والاستمتاع والاعتبار.

وفي هذه الآية الكريمة[٣] دليل على أن الأصل في الأشياء الإباحة والطهارة؛ لأنها سيقت في معرض الامتنان، يخرج بذلك الخبائث فإن تحريمها أيضًا يؤخذ من فحوى الآية، وبيان[٤] المقصود منها، وأنه خلقها لنفعنا، فما فيه ضرر؛ فهو خارج من ذلك، ومن تمام نعمته منعنا من الخبائث تنزيهًا لنا؛ وقوله:

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾.

«استوى»: ترد في القرآن على ثلاثة معان: فتارة لا تعدى بالحرف فيكون معناها: الكمال والتمام، كما في قوله عن موسى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ﴾ [القصص: ١٤]؛ وتارة تكون بمعنى علا وارتفع، وذلك إذا عديت بـ(على) كقوله تعالى: ﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾[٥] [طه: ٥]؛ ﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ﴾ [الزخرف: ١٣]؛ وتارة تكون بمعنى قصد كما إذا عديت بـ(إلى) كما في هذه الآية، أي: لما خلق تعالى الأرض قصد إلى خلق السماوات فسواهن سبع سماوات فخلقها وأحكمها وأتقنها ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾، فـ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ [سبأ: ٢]، و﴿ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [النحل: ١٩]، ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ﴾ [طه: ٧].

وكثيرًا ما يقرن بين خلقه للخلق[٦] وإثبات علمه كما في هذه الآية وكما في قوله تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك: ١٤]؛ لأن خلقه للمخلوقات أدل دليل على علمه وحكمته وقدرته.

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿٣٠﴾ هذا شروع في ابتداء خلق آدم عليه السلام أبي البشر وفضله، وأن الله تعالى حين أراد خلقه أخبر الملائكة بذلك، وأن الله مستخلفه في الأرض، فقالت الملائكة عليهم السلام: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ بالمعاصي ﴿ وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾، وهذا تخصيص بعد تعميم؛ لبيان شدة مفسدة القتل، وهذا بحسب ظنهم أن الخليفة المجعول في الأرض سيحدث منه ذلك، فنزهوا الباري عن ذلك وعظموه، وأخبروا أنهم قائمون بعبادة الله على وجه خال من المفسدة فقالوا: ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾؛ أي: ننزهك التنزيه اللائق بحمدك وجلالك ﴿ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾؛ يحتمل أن معناها ونقدسك؛ فتكون اللام مفيدة للتخصيص والإخلاص، ويحتمل أن يكون:

(١) عبارة: «ومن بعد» وردت في الأصل، ط: «وبعد».
(٢) عبارة: «وسفه كبير» وردت في ع: «وحماقة وسفه».
(٣) ع: «العظيمة».
(٤) ع: «ومعرفة».
(٥) عبارة: «كقوله تعالى: ﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾» وردت = في ع: «كما في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾».
(٦) ليس في الأصل، ط.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً
قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ
نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ
٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ
فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٣١ قَالُواْ
سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ
٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ
أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا
تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ٣٣ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ
لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ
٣٤ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا
حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥
فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ٣٦
فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧

ونقدس لك أنفسنا؛ أي: نطهرها بالأخلاق الجميلة؛ كمحبة الله، وخشيته، وتعظيمه، ونطهرها من الأخلاق الرذيلة ﴿قَالَ﴾؛ الله[١] للملائكة: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ﴾؛ من هذا الخليفة ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٠﴾؛ لأن كلامكم بحسب ما ظننتم، وأنا عالم بالظواهر والسرائر، وأعلم أن الخير الحاصل بخلق هذا الخليفة أضعاف أضعاف ما في ضمن ذلك من الشر، فلو لم يكن في ذلك، إلا أن الله تعالى أراد أن يجتبي منهم الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، ولتظهر آياته للخلق[٢]، ويحصل من العبوديات التي لم تكن تحصل بدون خلق هذا الخليفة كالجهاد وغيره، وليظهر ما كمن في غرائز المكلفين[٣] من الخير والشر بالامتحان، وليتبين عدوه من وليه وحزبه من حربه، وليظهر ما كمن في نفس إبليس من الشر الذي انطوى عليه واتصف به، فهذه حكم عظيمة يكفي بعضها في ذلك.

ثم لما كان قول الملائكة عليهم السلام فيه إشارة إلى فضلهم على الخليفة الذي يجعله الله في الأرض، أراد الله تعالى أن يبين لهم من فضل آدم ما يعرفون به فضله، وكمال حكمة الله وعلمه.

٣١ فعلَّم ﴿ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾؛ أي: أسماء الأشياء وما[٤] هو مسمى بها، فعلمه الاسم والمسمى؛ أي: الألفاظ والمعاني حتى المصغر من الأسماء والمكبر؛ كالقصعة والقصيعة[٥]، ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾؛ أي: عرض المسميات ﴿عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾؛ امتحانًا لهم هل يعرفونها أم لا ﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٣١﴾؛ في قولكم وظنكم أنكم أفضل من هذا الخليفة.

٣٢ ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ﴾؛ أي ننزهك عن الاعتراض منا عليك، ومخالفة أمرك ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾؛ بوجه من الوجوه، ﴿إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾؛ إياه فضلًا منك وجودًا ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ٣٢﴾؛ العليم الذي أحاط علمًا بكل شيء، فلا يغيب عنه ولا يعزب مثقال ذرة في السماوات والأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر. الحكيم: من له الحكمة التامة التي لا يخرج عنها مخلوق ولا يشذ عنها مأمور، فما خلق شيئًا إلا لحكمة، ولا أمر بشيء إلا لحكمة، والحكمة وضع الشيء في موضعه اللائق به.

فأقروا واعترفوا بعلم الله وحكمته وقصورهم عن معرفة أدنى شيء، واعترافهم بفضل الله عليهم وتعليمه إياهم ما لا يعلمون.

٣٣ فحينئذ قال الله: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾؛ أي: أسماء المسميات التي عرضها الله على الملائكة؛ فعجزوا عنها ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾؛ تبين للملائكة فضل آدم عليهم، وحكمة الباري وعلمه في استخلاف هذا الخليفة ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهو ما غاب عنا فلم نشاهده، فإذا كان عالمًا بالغيب، فالشهادة من باب أولى ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾؛ أي: تظهرون ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ٣٣﴾.

٣٤ ثم أمرهم تعالى بالسجود لآدم إكرامًا له وتعظيمًا وعبودية لله تعالى؛ فامتثلوا أمر الله، وبادروا كلهم بالسجود،

(١) ع: «تعالى».
(٢) ع: «لخلقه».
(٣) ع: «بني آدم».

(٤) ع، ط: «ومن».
(٥) عبارة: «المصغر من الأسماء والمكبر؛ كالقصعة والقصيعة» وردت في ع: «المكبر من الأسماء كالقصعة والمصغر كالقصيعة».

﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ﴾ امتنع عن السجود، واستكبر عن أمر الله، وعلى آدم قال: ﴿ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ٦١﴾ [الإسراء: ٦١] وهذا الإباء منه، والاستكبار نتيجة الكفر الذي هو منطو عليه، فتبينت حينئذ عداوته لله ولآدم وكفره واستكباره.

وفي هذه الآيات من العبر والآيات إثبات الكلام لله تعالى، وأنه لم يزل متكلمًا يقول ما شاء، ويتكلم بما شاء وأنه عليم حكيم، وفيه أن العبد إذا خفيت عليه حكمة الله في بعض المخلوقات، والمأمورات؛ فالواجب عليه التسليم واتهام عقله والإقرار لله بالحكمة؛ وفيه اعتناء الله بشأن الملائكة وإحسانه بهم بتعليمهم ما جهلوا، وتنبيههم على ما لم يعلموه.

وفيه فضيلة العلم من وجوه:

منها: أن الله تعرف لملائكته بعلمه وحكمته.

ومنها: أن الله عرفهم فضل آدم بالعلم، وأنه أفضل صفة تكون في العبد.

ومنها: أن الله أمرهم بالسجود لآدم إكرامًا له لمَّا بان فضل علمه.

ومنها: أن الامتحان للغير إذا عجزوا عما امتحنوا به، ثم عرفه صاحب الفضيلة فهو أكمل مما عرفه ابتداء.

ومنها: الاعتبار بحال أبوي الإنس والجن وبيان فضل آدم وأفضال الله عليه وعداوة إبليس له، إلى غير ذلك من العبر.

﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٣٦﴾

(٣٥) لما خلق الله آدم وفضله، أتم نعمته عليه بأن خلق منه زوجة؛ ليسكن إليها ويستأنس بها، وأمرهما بسكنى الجنة والأكل منها رغدًا؛ أي: واسعًا هنيئًا ﴿حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾؛ أي: من أصناف الثمار والفواكه، وقال الله له: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ١١٩﴾ [طه: ١١٨، ١١٩]، ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾؛ نوع من أنواع شجر الجنة الله أعلم بها، وإنما نهاهما عنها امتحانًا وابتلاء أو لحكمة غير معلومة لنا، ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥﴾؛ دل على أن النهي للتحريم؛ لأنه عليه الظلم؛ فلم يزل عدوهما يوسوس لهما ويزين لهما تناول ما نهيا عنه حتى أزلهما أي حملهما على الزلل بتزيينه ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ [الأعراف: ٢١]؛ بالله ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١﴾ [الأعراف: ٢١].

(٣٦) فاغترا به وأطاعاه؛ فأخرجهما مما كانا فيه من النعيم، والرغد، وأهبطوا إلى دار التعب والنصب والمجاهدة ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾؛ أي: آدم وذريته أعداء لإبليس وذريته.

ومن المعلوم أن العدو يجد ويجتهد في ضرر عدوه وإيصال الشر إليه بكل طريق وحرمانه الخير بكل طريق، ففي ضمن هذا تحذير بني آدم من الشيطان كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾ [فاطر: ٦] ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ٥٠﴾ [الكهف: ٥٠] ثم ذكر منتهى الإهباط إلى الأرض[1] فقال: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ﴾؛ أي: مسكن وقرار ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٣٦﴾؛ انقضاء آجالكم ثم تنتقلون منها للدار التي خلقتم لها وخلقت لكم، ففيها أن مدة هذه الحياة مؤقتة عارضة ليست مسكنًا حقيقيًّا، وإنما هي معبر يتزود منها لتلك الدار، ولا تعمر للاستقرار.

(٣٧) ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ﴾؛ أي: تلقف وتلقن وألهمه الله ﴿مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ﴾؛ وهي قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾؛ الآية [الأعراف: ٢٣]؛ فاعترف بذنبه، وسأل الله مغفرته ﴿فَتَابَ﴾؛ الله، ﴿عَلَيۡهِ﴾؛ ورحمه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾؛ لمن تاب إليه وأناب.

وتوبته نوعان: توفيقه أولًا. ثم قبوله للتوبة إذا اجتمعت شروطها ثانيًا.

﴿ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾؛ بعباده، ومن رحمته بهم أن وفقهم للتوبة وعفا عنهم وصفح.

﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٩﴾.

(١) عبارة: «إلى الأرض» ليست في الأصل، ط.

قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ
هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا
وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)
يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي
أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ
مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي
ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ
وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا
الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ۞ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ
وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤)
وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ
(٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)
يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ
عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا
يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨)

(٣٨) كرر الإهباط؛ ليرتب عليه ما ذكر، وهو قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾؛ أي: أي وقت وزمان جاءكم مني يا معشر الثقلين هدى؛ أي: رسول وكتاب يهديكم لما يقربكم مني، ويدنيكم من رضائي ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ منكم؛ بأن آمن برسلي، وكتبي واهتدى بهم، وذلك بتصديق جميع أخبار الرسل والكتب والامتثال للأمر والاجتناب للنهي، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨)﴾؛ وفي الآية الأخرى، ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣)﴾ [طه: ١٢٣].

فرتب على اتباع هداه أربعة أشياء:

نفي الخوف والحزن والفرق بينهما: أن المكروه إن كان قد مضى أحدث الحزن، وإن كان منتظرًا أحدث الخوف، فنفاهما عمن اتبع الهدى[1] وإذا انتفيا حصل ضدهما وهو الأمن التام.

(٣٩) وكذلك: نفي الضلال والشقاء عمن اتبع هداه، وإذا انتفيا ثبت ضدهما، وهو الهدى والسعادة، فمن اتبع هداه حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخروية والهدى وانتفى عنه كل مكروه من الخوف والحزن والضلال والشقاء؛ فحصل له المرغوب واندفع عنه المرهوب، وهذا عكس من لم يتبع هداه فكفر به وكذب بآياته؛ فأولئك أصحاب النار، أي: الملازمون لها ملازمة الصاحب لصاحبه، والغريم لغريمه ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)﴾ لا يخرجون منها ولا يفتَّر عنهم العذاب ولا هم ينصرون.

وفي هذه الآيات، وما أشبهها انقسام الخلق من الجن والإنس إلى أهل السعادة، وأهل الشقاوة، وفيها صفات الفريقين والأعمال الموجبة لذلك، وأن الجن كالإنس في الثواب والعقاب، كما أنهم مثلهم في الأمر والنهي.

ثم شرع تعالى يذكر بني إسرائيل نعمه عليهم وإحسانه فقال:

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)﴾

(٤٠) ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾؛ المراد بإسرائيل: يعقوب عليه السلام، والخطاب مع فرق بني إسرائيل، الذين بالمدينة وما حولها ويدخل فيهم من أتى بعدهم، فأمرهم بأمر عام فقال: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾؛ وهو يشمل سائر النعم التي سيذكر في هذه السورة بعضها، والمراد بذكرها بالقلب اعترافًا، وباللسان ثناءً، وبالجوارح باستعمالها فيما يحبه ويرضيه ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾؛ وهو ما عهده إليهم من الإيمان به، وبرسله، وإقامة شرعه ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾؛ وهو المجازاة على ذلك، والمراد بذلك ما ذكره الله في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي﴾؛ إلى قوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢)﴾ [المائدة: ١٢]؛ ثم أمرهم بالسبب الحامل لهم على الوفاء بعهده، وهو الرهبة منه تعالى، وخشيته وحده، فإن من خشيه أوجبت له خشيته امتثال أمره، واجتناب نهيه، ثم أمرهم بالأمر الخاص الذي لا يتم إيمانهم ولا يصح إلا به فقال:

(١) ع: «هداه».

﴿٤١﴾ ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ﴾؛ وهو: القرآن الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ، فأمرهم بالإيمان به واتباعه، ويستلزم ذلك، الإيمان بمن أنزل عليه، وذكر الداعي لإيمانهم به[1]، فقال: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾؛ أي: موافقًا له لا مخالفًا ولا مناقضًا، فإذا كان موافقًا لما معكم من الكتب غير مخالف لها فلا مانع لكم من الإيمان به؛ لأنه جاء بما جاءت به المرسلون، فأنتم أولى من آمن به وصدق به؛ لكونكم أهل الكتب والعلم.

وأيضًا فإن في قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾؛ إشارة إلى أنكم إن لم تؤمنوا به عاد ذلك عليكم بتكذيب ما معكم؛ لأن ما جاء به هو الذي جاء به موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء، فتكذيبكم له تكذيب لما معكم.

وأيضًا فإن في الكتب التي بأيديكم صفة هذا النبي الذي جاء بهذا القرآن، والبشارة به، فإن لم تؤمنوا به؛ كذبتم ببعض ما أنزل إليكم، ومن كذب ببعض ما أنزل إليه؛ فقد كذب بجميعه، كما أن من كفر برسول؛ فقد كذب الرسل جميعهم، فلما أمرهم بالإيمان به نهاهم، وحذرهم عن ضده وهو الكفر به فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾؛ أي: بالرسول والقرآن، و[2] قوله: ﴿أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾؛ أبلغ من قوله ولا تكفروا به؛ لأنهم إذا كانوا أول كافر به كان فيه مبادرتهم إلى الكفر[3] عكس ما ينبغي منهم، وصار عليهم إثمهم وإثم من اقتدى بهم من بعدهم.

ثم ذكر المانع لهم من الإيمان وهو اختيار العرض الأدنى على السعادة الأبدية فقال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾؛ وهو ما يحصل لهم من المناصب والمآكل التي يتوهمون انقطاعها إن آمنوا بالله ورسوله، فاشتروها بآيات الله واستحبوها وآثروها ﴿وَإِيَّٰىَ﴾؛ أي: لا غيري، ﴿فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾؛ فإنكم إذا اتقيتم الله وحده أوجبت لكم تقواه تقديم الإيمان بآياته على الثمن القليل، كما أنكم إذا اخترتم الثمن القليل؛ فهو دليل على ترحل التقوى من قلوبكم، ثم قال:

﴿٤٢﴾ ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟﴾؛ أي: تخلطوا ﴿ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾؛ فنهاهم عن شيئين، عن خلط الحق بالباطل وكتمان الحق؛ لأن المقصود من أهل الكتب والعلم تمييز الحق[4] وإظهار الحق، ليهتدي بذلك المهتدون، ويرجع الضالون وتقوم الحجة على المعاندين؛ لأن الله فصل آياته وأوضح بيناته؛ ليميز الحق من الباطل، ولتستبين سبيل المهتدين من سبيل المجرمين، فمن عمل بهذا من أهل العلم؛ فهو من خلفاء الرسل وهداة الأمم، ومن لبس الحق بالباطل فلم يميز هذا من هذا مع علمه بذلك، وكتم الحق الذي يعلمه وأمر بإظهاره؛ فهو من دعاة جهنم؛ لأن الناس لا يقتدون في أمر دينهم بغير علمائهم، فاختاروا لأنفسكم إحدى الحالتين.

﴿٤٣﴾ ثم قال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: ظاهرًا وباطنًا ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ مستحقيها، ﴿وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾؛ أي: صلوا مع المصلين، فإنكم إذا فعلتم ذلك مع الإيمان برسل الله وآيات الله، فقد جمعتم بين الأعمال الظاهرة والباطنة، وبين الإخلاص للمعبود والإحسان إلى عبيده، وبين العبادات القلبية والبدنية والمالية، وقوله: ﴿وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾؛ أي: صلوا مع المصلين، ففيه، الأمر بالجماعة للصلاة، ووجوبها، وفيه، أن الركوع ركن من أركان الصلاة، لأنه عبر عن الصلاة بالركوع، والتعبير عن العبادة بجزئها يدل على فرضيته فيها.

﴿٤٤﴾ ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾؛ أي: بالإيمان والخير، ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: تتركونها عن أمرها بذلك والحال، ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾؛ وسمي العقل عقلًا؛ لأنه يعقل به ما ينفعه من الخير، وينعقل به عما يضره، وذلك أن العقل يحث صاحبه أن يكون أول فاعل لما يأمر به، وأول تارك لما ينهى عنه، فمن أمر غيره بالخير ولم يفعله أو نهاه عن الشر فلم يتركه دل على عدم عقله وجهله، خصوصًا إذا كان عالمًا بذلك، قد قامت عليه الحجة، وهذه الآية وإن كانت نزلت في سبب بني إسرائيل، فهي عامة لكل أحد لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف: ٢، ٣]؛ وليس في الآية أن الإنسان إذا لم يقم بما أمر به أنه يترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ لأنها دلت على التوبيخ بالنسبة إلى الواجبين، وإلا فمن المعلوم أن على الإنسان واجبين: أمر غيره ونهيه، وأمر نفسه ونهيها، فترك أحدهما لا يكون رخصة في ترك

(١) ليست في الأصل، ط.
(٢) ع، ط: «وفي».
(٣) زاد في ع، ط: «به».
(٤) زاد في ع، ط: «من الباطل».

الآخر، فإن الكمال أن يقوم الإنسان بالواجبين، والنقص الكامل أن يتركهما، وأما قيامه بأحدهما دون الآخر فليس في رتبة الأول وهو دون الأخير، وأيضًا فإن النفوس مجبولة على عدم الانقياد لمن يخالف قوله فعله، فاقتداؤهم بالأفعال أبلغ من اقتدائهم بالأقوال المجردة.

﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى
ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ
رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ
وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن
نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ
يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿٤٥﴾ أمرهم الله أن يستعينوا في أمورهم كلها ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾ بجميع أنواعه، وهو الصبر على طاعة الله حتى يؤديها، والصبر عن معصية الله حتى يتركها، والصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها، فبالصبر وحبس النفس على ما أمر الله بالصبر عليه معونة عظيمة على كل أمر من الأمور، ومن يتصبر يصبره الله، وكذلك الصلاة التي هي ميزان الإيمان، وتنهى عن الفحشاء والمنكر يستعان بها على كل أمر من الأمور، ﴿وَإِنَّهَا﴾؛ أي: الصلاة، ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾؛ أي: شاقة ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾؛ فإنها سهلة عليهم خفيفة؛ لأن الخشوع وخشية الله ورجاء ما عنده يوجب له فعلها منشرحًا صدره لترقبه للثواب وخشيته من العقاب، بخلاف من لم يكن كذلك، فإنه لا داعي له يدعوه إليها، وإذا فعلها صارت من أثقل الأشياء عليه.

والخشوع: هو خضوع القلب وطمأنينته وسكونه لله تعالى وانكساره بين يديه ذلًا وافتقارًا وإيمانًا به وبلقائه، ولهذا قال:

﴿٤٦﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾؛ أي يستيقنون ﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾؛ فيجازيهم بأعمالهم، ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾؛ فهذا الذي خفف عليهم العبادات وأوجب لهم التسلي في المصيبات ونفس عنهم الكربات وزجرهم عن فعل السيئات، فهؤلاء لهم النعيم المقيم في الغرفات العاليات، وأما من لم يؤمن بلقاء ربه كانت الصلاة وغيرها من العبادات من أشق شيء عليه.

﴿٤٧﴾ ثم: كرر على بني إسرائيل التذكير بنعمته وعظًا لهم وتحذيرًا وحثًا.

﴿٤٨﴾ وخوفهم بيوم القيامة الذي: ﴿لَّا تَجْزِى﴾؛ فيه أي لا تغني ﴿نَفْسٌ﴾؛ ولو كانت من الأنفس الكريمة؛ كالأنبياء والصالحين ﴿عَن نَّفْسٍ﴾؛ ولو كانت من العشيرة الأقربين ﴿شَيْـًٔا﴾ لا كبيرًا ولا صغيرًا، وإنما ينفع الإنسان عمله الذي قدمه ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا﴾؛ أي: النفس، ﴿شَفَٰعَةٌ﴾؛ لأحد بدون إذن الله ورضاه عن المشفوع له، ولا يرضى من العمل إلا ما أريد به وجهه وكان على السبيل والسنة، ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾؛ أي فداء ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض جميعًا ومثله معه لافتدوا به من عذاب الله ولا يقبل منهم ذلك، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾؛ أي: يدفع عنهم المكروه، فنفى الانتفاع من الخلق بوجه من الوجوه، فقوله: ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ هذا في تحصيل المنافع، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ هذا في دفع المضار، فهذا النفي للأمر المستقبل(١) به النافع، ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ هذا نفي للنفع الذي يطلب ممن يملكه بعوض، كالعدل أو بغيره كالشفاعة؛ فهذا يوجب للعبد أن ينقطع قلبه من التعلق بالمخلوقين؛ لعلمه أنهم لا يملكون له مثقال ذرة من النفع، وأن يعلقه بالله الذي يجلب المنافع ويدفع المضار فيعبده وحده لا شريك له، ويستعينه على عبادته.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ
يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن
رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ
ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً
ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا
عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا
مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ
لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ
فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ
فَتَابَ عَلَيْكُمْۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ
لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ
وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ
وَٱلسَّلْوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن
كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

(١) ع: «المستقل».

(٤٩) - (٥٤) هذا: شروع في تعداد نعمه على بني إسرائيل على وجه التفصيل فقال: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: من فرعون وملئه وجنوده، وكانوا قبل ذلك ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾؛ أي: يولونهم ويستعملونهم ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾؛ أي: أشده بأن كانوا ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾؛ خشية نموكم، ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾؛ أي: فلا يقتلونهن فأنتم بين قتيل ومذلل بالأعمال الشاقة مستحيٍ على وجه المنة عليه والاستعلاء عليه فهذا غاية الإهانة، فمَنَّ الله عليهم بالنجاة التامة، وإغراق عدوهم، وهم ينظرون لتقر أعينهم ﴿وَفِى ذَٰلِكُم﴾؛ أي: الإنجاء ﴿بَلَآءٌ﴾؛ أي: إحسان ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩)﴾؛ فهذا مما يوجب عليكم الشكر والقيام بأوامره.

ثم ذكر منته عليهم بوعده لموسى أربعين ليلة؛ لينزل عليهم التوراة المتضمنة للنعم العظيمة والمصالح العميمة، ثم إنهم لم يصبروا قبل استكمال الميعاد حتى عبدوا العجل من بعده؛ أي ذهابه ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ (٥١)﴾؛ عالمون بظلمكم، قد قامت عليكم الحجة، فهو أعظم جرمًا، وأكبر إثمًا.

ثم إنه أمركم بالتوبة على لسان نبيه موسى بأن يقتل بعضكم بعضًا؛ فعفا الله عنكم بسبب ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢)﴾؛ الله.

(٥٥) ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾؛ وهذا غاية الجرأة[1] على الله وعلى رسوله، ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾؛ إما الموت أو الغشية العظيمة ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٠)﴾؛ وقوع ذلك كلٌّ ينظر إلى صاحبه.

(٥٦) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦)﴾؛ ثم ذكر نعمته عليهم في التيه والبرية الخالية من الظلال وسعة الأرزاق فقال:

(٥٧) ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ﴾؛ وهو: اسم جامع لكل رزق[2] يحصل بلا تعب، ومنه الزنجبيل والكمأة، والخبز، وغير ذلك، ﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾؛ طائر صغير يقال له: السماني طيب اللحم؛ فكان ينزل عليهم من المن والسلوى ما يكفيهم ويقيتهم ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾؛ أي: رزقًا لا يحصل نظيره لأهل المدن المترفهين، فلم

(١) ع: «الظلم والجرأة».
(٢) زاد في ع، ط: «حسن».

وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ
يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ
مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ
وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٠) وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ
أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ
(٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢)
وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣)
وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم
بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ
خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ
(٥٤) وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً
فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ
بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ
ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا
رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)

يشكروا هذه النعمة[3]، واستمروا على قساوة القلوب وكثرة الذنوب ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾؛ يعني بتلك الأفعال المخالفة لأوامرنا، لأن الله لا تضره معصية العاصين، كما لا تنفعه طاعات الطائعين ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)﴾؛ فيعود ضرره عليهم.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ (٥٩)﴾

(٥٨) وهذا أيضًا من نعمته عليهم بعد معصيتهم إياه، فأمرهم بدخول قرية تكون لهم عزًّا ووطنًا ومسكنًا، ويحصل لهم فيها الرزق الرغد، وأن يكون دخولهم على وجه خاضعين لله فيه بالفعل، وهو دخول الباب سجدًا، أي: خاضعين

(٣) ع: «النعم».

وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا
وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ
وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا
غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ
لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ
ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟
وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾
وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ
يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا
وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ
بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ
وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ
ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

ذليلين، وبالقول وهو أن يقولوا: ﴿حِطَّةٌ﴾؛ أي: أن يحط عنهم خطاياهم بسؤالهم إياه مغفرته، ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾؛ بسؤالكم المغفرة ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾؛ بأعمالهم أي: جزاء عاجلًا وآجلًا.

﴿٥٩﴾ ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾؛ منهم، ولم يقل: فبدلوا؛ لأنهم لم يكونوا كلهم بدلوا ﴿قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾؛ فقالوا: بدل حطة، حبة في حنطة، استهانة بأمر الله، واستهزاء، وإذا بدلوا القول مع خفته فتبديلهم للفعل من باب أولى وأحرى، ولهذا دخلوا يزحفون على أدبارهم، ولما كان هذا الطغيان أكبر سبب لوقوع عقوبة الله بهم قال: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾؛ منهم ﴿رِجْزًا﴾؛ أي: عذابًا ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ بسبب فسقهم وبغيهم.

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿٦٠﴾ ﴿ٱسْتَسْقَىٰ﴾؛ أي: طلب لهم ماء يشربون منه ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾؛ إما حجر مخصوص معلوم عنده، وإما اسم جنس؛ ﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾؛ وقبائل بني إسرائيل اثنتا عشرة قبيلة، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾؛ منهم ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾؛ أي: محلهم الذي يشربون عليه من هذه الأعين، فلا يزاحم بعضهم بعضًا، بل يشربونه متهنئين لا متكدرين، ولهذا قال: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: الذي آتاكم من غير سعي ولا تعب ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: تخربوا على وجه الإفساد.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾

﴿٦١﴾ أي: واذكروا ﴿إِذْ قُلْتُمْ﴾ لموسى على وجه التملل لنعم الله، والاحتقار لها ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾؛ أي: جنس من الطعام وإن كان كما تقدم أنواعًا لكنها لا تتغير ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا﴾؛ أي: نباتها الذي ليس بشجر يقوم على ساقه ﴿وَقِثَّآئِهَا﴾؛ وهو الخيار ﴿وَفُومِهَا﴾؛ أي: ثومها، والعدس والبصل معروف، قال لهم موسى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ﴾؛ وهو الأطعمة المذكورة ﴿بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾؛ وهو المن والسلوى، فهذا غير لائق بكم، فإن هذه الأطعمة التي طلبتم، أي مصر هبطتموه وجدتموها، وأما طعامكم الذي مَنَّ الله به عليكم فهو خير الأطعمة وأشرفها فكيف تطلبون به بدلًا؟

ولما كان الذي جرى منهم فيه أكبر دليل على قلة صبرهم، واحتقارهم لأوامر الله ونعمه جازاهم من جنس عملهم فقال: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾؛ التي تشاهد على ظاهر أبدانهم ﴿وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾؛ بقلوبهم فلم تكن أنفسهم عزيزة، ولا لهم همم عالية بل أنفسهم أنفس مهينة، وهممهم أردأ الهمم ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لم تكن غنيمتهم التي رجعوا بها وفازوا إلا أن رجعوا بسخطه عليهم؛ فبئس الغنيمة

غنيمتهم، وبئس الحالة حالتهم ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ الذي استحقوا به غضبه ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ الدالات على الحق الموضحة لهم، فلما كفروا بها عاقبهم بغضبه عليهم وبما كانوا يقتلون النبيين بغير الحق؛ وقوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ زيادة شناعة، وإلا فمن المعلوم أن قتل النبيين لا يكون بحق، لكن لئلا يظن جهلهم وعدم علمهم ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ﴾؛ بأن ارتكبوا معاصي الله ﴿وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾؛ على عباد الله؛ فإن المعاصي يجر بعضها بعضًا، فالغفلة ينشأ عنها الذنب الصغير، ثم ينشأ عنه الذنب الكبير، ثم ينشأ عنها أنواع البدع والكفر وغير ذلك، فنسأل الله العافية من كل بلاء.

واعلم أن الخطاب في هذه الآيات لأمة بني إسرائيل الذين كانوا موجودين وقت نزول القرآن، وهذه الأفعال المذكورة خوطبوا بها وهي فعل أسلافهم، ونسبت لهم لفوائد عديدة.

منها: أنهم كانوا يتمدحون، ويزكون أنفسهم، ويزعمون فضلهم على محمد ومن آمن به؛ فبين الله من أحوال سلفهم التي قد تقررت عندهم ما يبين به لكل واحد[1] منهم أنهم ليسوا من أهل الصبر، ومكارم الأخلاق، ومعالي الأعمال، فإذا كانت هذه حالة سلفهم – مع أن المظنة أنهم أولى وأرفع حالة ممن بعدهم – فكيف الظن بالمخاطبين؟!

ومنها: أن نعمة الله على المتقدمين منهم نعمة واصلة إلى المتأخرين، والنعمة على الآباء نعمة على الأبناء، فخوطبوا بها، لأنها نعم تشملهم وتعمهم.

ومنها: أن الخطاب لهم بأفعال غيرهم مما يدل على أن الأمة المجتمعة على دين تتكافل وتتساعد على مصالحها، حتى كأن متقدمهم ومتأخرهم في وقت واحد، وكأن الحادث من بعضهم حادث من الجميع؛ لأن ما يعمله بعضهم من الخير يعود بمصلحة الجميع، وما يعمله من الشر يعود بضرر الجميع.

ومنها: أن أفعالهم أكثرها لم ينكروها، والراضي بالمعصية شريك للعاصي، إلى غير ذلك من الحكم التي لا يعلمها إلا الله.

ثم قال تعالى حاكمًا بين الفرق الكتابية:

(١) ع: «أحد».

الجزء الأول — سورة البقرة

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ
مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ
عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ
أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم
بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ
بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ
ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ
فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا
بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ
مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا
هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ
ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ
وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾
قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ
إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾

١٠

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾

﴿٦٢﴾ وهذا الحكم على أهل الكتاب خاصة، لأن الصابئين الصحيح: أنهم من جملة فرق النصارى، فأخبر الله أن المؤمنين من هذه الأمة واليهود والنصارى والصابئين من آمن بالله[2] واليوم الآخر وصدقوا رسلهم، فإن لهم الأجر العظيم، والأمن، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وأما من كفر منهم بالله ورسله واليوم الآخر، فهو بضد هذه الحال؛ فعليه الخوف والحزن.

والصحيح: أن هذا الحكم بين هذه الطوائف من حيث هم لا بالنسبة إلى الإيمان بمحمد، فإن هذا إخبار عنهم قبل بعثة محمد، وإن هذا مضمون أحوالهم، وهذه طريقة القرآن إذا وقع في بعض النفوس – عند سياق الآيات – بعض الأوهام، فلا بد أن تجد ما يزيل ذلك الوهم؛ لأنه تنزيل من

(٢) ع: «منهم بالله».

يعلم الأشياء قبل وجودها، ومَن رحمته وسعت كل شيء، وذلك - والله أعلم - أنه لما ذكر بني إسرائيل وذمهم وذكر معاصيهم وقبائحهم ربما وقع في بعض النفوس أنهم كلهم يشملهم الذم، فأراد الباري تعالى أن يبين من لا[1] يلحقه الذم منهم بوصفه، ولما كان أيضًا ذكر بني إسرائيل خاصة يوهم الاختصاص بهم، ذكر تعالى حكمًا عامًّا يشمل الطوائف كلها؛ ليتضح الحق ويزول التوهم والإشكال، فسبحان من أودع في كتابه ما يبهر عقول العالمين.

ثم عاد تبارك وتعالى يوبخ بني إسرائيل بما فعل سلفهم:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿٦٣﴾ أي: واذكروا إذ ﴿أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ ﴾؛ وهو العهد الثقيل المؤكد بالتخويف لهم برفع الطور فوقهم وقيل لهم: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم ﴾؛ من التوراة ﴿بِقُوَّةٍ ﴾؛ أي بجد واجتهاد، وصبر على أوامر الله ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ ﴾؛ أي: ما في كتابكم بأن تتلوه وتتعلموه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾؛ عذاب الله وسخطه، أو لتكونوا من أهل التقوى.

﴿٦٤﴾ فبعد هذا التأكيد البليغ ﴿تَوَلَّيْتُم ﴾؛ وأعرضتم وكان ذلك موجبًا لأن يحل بكم أعظم العقوبات، ولكن لولا ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿٦٥﴾ أي: ولقد تقرر عندكم حالة، ﴿ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾؛ وهم الذين ذكر الله قصتهم مبسوطة في سورة الأعراف في قوله: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ الآيات [الأعراف، الآيات من ١٦٣-١٦٦]؛ فأوجب لهم هذا الذنب العظيم أن غضب الله عليهم، وجعلهم ﴿قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ ﴾؛ حقيرين ذليلين، وجعل الله هذه العقوبة:

(١) ع: «لم».

﴿٦٦﴾ ﴿نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا ﴾؛ أي: لمن حضرها من الأمم، وبلغه خبرها ممن هو في وقتهم ﴿وَمَا خَلْفَهَا ﴾؛ أي: من بعدها[2] فتقوم على العباد حجة الله، وليرتدعوا عن معاصيه، ولكنها لا تكون موعظة نافعة إلا للمتقين، وأما من عداهم فلا ينتفعون بالآيات.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿٦٧﴾ أي: واذكروا ما جرى لكم مع موسى حين قتلتم قتيلًا؛ فادارأتم فيه، أي: تدافعتم واختلفتم في قاتله حتى تفاقم الأمر بينكم، وكاد - لولا تبيين الله لكم - يحدث بينكم شر كبير، فقال لكم موسى في تبيين القاتل: اذبحوا بقرة، وكان من الواجب المبادرة إلى امتثال أمره، وعدم الاعتراض عليه، ولكنهم أبوا إلا الاعتراض فقالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾؛ فقال نبي الله: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾؛ فإن الجاهل هو الذي يتكلم بالكلام الذي لا فائدة فيه وهو الذي يستهزئ بالناس، وأما العاقل فيرى أن من أكبر العيوب المزرية بالدين والعقل استهزاءه بمن هو آدمي مثله. وإن كان قد فضل عليه فتفضيله يقتضي منه الشكر لربه والرحمة

(٢) ع: «بعدهم».

قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ
إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ
تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ
ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ
قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾
فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ
ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ
فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ
مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ
مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ
﴿٧٤﴾ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ
يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا
وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ
ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾

لعباده: فلما قال لهم موسى ذلك علموا أن ذلك صدق، فقالوا:

﴿٦٨﴾ ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾؛ أي ما سنها ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ﴾؛ أي: كبيرة، ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾؛ أي: صغيرة، ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾؛ واتركوا التشديد والتعنت.

﴿٦٩﴾ ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾؛ أي: شديد، ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾؛ من حسنها.

﴿٧٠﴾ ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾؛ فلم نهتد إلى ما تريد، ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿٧١﴾ ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾؛ أي: مذللة بالعمل ﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾؛ بالحراثة ﴿وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾؛ أي: ليست بسانية، ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾؛ من العيوب أو من العمل ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾؛ أي: لا لون فيها غير لونها الموصوف المتقدم، ﴿قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالبيان الواضح، وهذا من جهلهم، وإلا فقد جاءهم بالحق أول مرة، فلو أنهم اعترضوا أي بقرة لحصل المقصود، ولكنهم شددوا بكثرة الأسئلة؛ فشدد الله عليهم، ولو لم يقولوا إن شاء الله لم يهتدوا أيضًا إليها، ﴿فَذَبَحُوهَا﴾؛ أي: البقرة التي وصفت بتلك الصفات، ﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾؛ بسبب التعنت الذي جرى منهم.

﴿٧٢﴾، ﴿٧٣﴾ فلما ذبحوها قلنا لهم اضربوا القتيل ببعضها، أي: بعضو منها، إما بعضو معين أو أي عضو منها فليس في تعيينه فائدة؛ فضربوه ببعضها؛ فأحياه الله، وأخرج ما كانوا يكتمون؛ فأخبر بقاتله، وكان في إحيائه - وهم يشاهدون - ما يدل على إحياء الله الموتى، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾؛ فتنزجرون عمَّا يضركم.

﴿٧٤﴾ ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾؛ أي: اشتدت وغلظت فلم تؤثر فيها الموعظة ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: من بعد ما أنعم الله عليكم بالنعم العظيمة وأراكم الآيات، ولم يكن ينبغي أن تقسو قلوبكم؛ لأن ما شاهدتم مما يوجب رقة القلب وانقياده، ثم وصف قسوتها بأنها ﴿كَٱلْحِجَارَةِ﴾ التي هي أشد قسوة من الحديد، لأن الحديد والرصاص إذا أذيب في النار ذاب بخلاف الأحجار، وقوله: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾؛ أي: أنها لا تقصر عن قساوة الأحجار، وليست (أو) بمعنى (بل).

ثم ذكر فضيلة الأحجار على قلوبهم فقال: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾، فبهذه الأمور فضلت قلوبكم. ثم توعدهم تعالى أشد الوعيد فقال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾، بل هو عالم بها حافظ لصغيرها وكبيرها، وسيجازيكم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

واعلم أن كثيرًا من المفسرين - رحمهم الله - قد أكثروا في حشو تفاسيرهم من قصص بني إسرائيل، ونزلوا عليها الآيات القرآنية، وجعلوها تفسيرًا لكتاب الله، محتجين بقوله ﷺ: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»[1].

والذي أرى أنه وإن جاز نقل أحاديثهم على وجه تكون مفردة غير مقرونة ولا منزلة على كتاب الله، فإنه

(١) البخاري (٣٤٦١).

أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾
وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ
إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ
ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ
فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ
﴿٧٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ
أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ
عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً
وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ
فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ
أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ
إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟
لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ
تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

١٢

لا يجوز جعلها تفسيرًا لكتاب الله قطعًا إذا لم تصح عن رسول الله ﷺ، وذلك أن مرتبتها كما قال ﷺ: **«لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم»**(١)، فإذا كانت مرتبتها أن تكون مشكوكًا فيها، وكان من المعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن القرآن يجب الإيمان به والقطع بألفاظه ومعانيه، فلا يجوز أن تجعل تلك القصص المنقولة بالروايات المجهولة التي يغلب على الظن كذبها، أو كذب أكثرها - معاني لكتاب الله مقطوعًا بها، ولا يستريب بهذا أحد، ولكن بسبب الغفلة عن هذا حصل ما حصل، والله الموفق.

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾.

(٧٥) هـذا قطع لأطماع المؤمنين من إيمان أهل الكتاب؛ أي فلا تطمعوا في إيمانهم، وأخلاقهم(٢) لا تقتضي الطمع فيهم؛ فإنهم كانوا يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه وعلموه، فيضعون له معاني ما أرادها الله؛ ليوهموا الناس أنها من عند الله، وما هي من عند الله، فإذا كانت هذه(٣) حالهم في كتابهم الذي يرونه شرفهم ودينهم يصدون به الناس عن سبيل الله، فكيف يرجى منهم إيمان لكم؟! فهذا من أبعد الأشياء.

(٧٦) ثم ذكر حال منافقي أهل الكتاب، فقال: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾، فأظهروا لهم الإيمان قولًا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ فلم يكن عندهم أحد من غير أهل دينهم قال بعضهم لبعض: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: أتظهرون لهم الإيمان وتخبرونهم أنكم مثلهم فيكون ذلك حجة لهم عليكم؟ يقولون إنهم قد أقروا بأن ما نحن عليه حق وما هم عليه باطل، فيحتجون عليكم بذلك عند ربكم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾؛ أي: أفلا يكون لكم عقل فتتركون ما هو حجة عليكم؟

(٧٧) هذا يقوله بعضهم لبعض: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾، فهم وإن أسروا ما يعتقدونه فيما بينهم، وزعموا أنهم بإسرارهم لا يتطرق عليهم حجة للمؤمنين؛ فإن هذا غلط منهم وجهل كبير؛ فإن الله يعلم سرهم وعلنهم؛ فيظهر لعباده ما هم عليه.

(٧٨) ﴿وَمِنْهُمْ﴾؛ أي: من أهل الكتاب ﴿أُمِّيُّونَ﴾؛ أي: عوام، وليسوا من أهل العلم ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾؛ أي: ليس لهم حظ من كتاب الله إلا التلاوة فقط، وليس عندهم خبر بما عند الأولين الذين يعلمون حق المعرفة حالهم، وهؤلاء إنما معهم ظنون وتقاليد لأهل العلم منهم.

فذكر في هذه الآيات علماءهم وعوامهم ومنافقيهم ومن لم ينافق منهم، فالعلماء منهم متمسكون بما هم عليه من

(١) البخاري (٤٤٨٥).

(٢) ع: «وحالتهم».
(٣) ليس في الأصل.

الضـلال، والعوام مقلدون لهم، لا بصيرة عندهم؛ فلا مطمع لكم في الطائفتين.

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿٧٩﴾ توعـد تعالـى المحرفيـن للكتـاب الذيـن يقولـون لتحريفهـم ومـا يكتبـون ﴿ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾، وهـذا فيـه إظهـار الباطـل وكتم الحـق، وإنما فعلـوا ذلك مـع علمهم، ﴿ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾، والدنيـا كلهـا مـن أولهـا إلى آخرهـا ثمن قليل، فجعلوا باطلهم شـركًا يصطادون به ما في أيدي الناس.

فظلموهـم مـن وجهين: مـن جهة تلبيس دينهـم عليهم، ومـن جهة أخـذ أموالهم بغير حق، بل بأبطـل الباطل، وذلك أعظم ممن يأخذها غصبًا وسـرقة ونحوهما، ولهذا توعدهم بهذيـن الأمرين، فقـال: ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾؛ أي من التحريـف والباطل ﴿ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾؛ مـن الأموال، والويل: شـدة العذاب والحسـرة، وفي ضمنها الوعيد الشديد.

قـال شيـخ الإسـلام لمـا ذكـر هـذه الآيـات مـن قولـه: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ ﴾ إلـى ﴿ يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾: «فـإن اللـه ذم الذين يحرفـون الكلم عن مواضعه، وهو متناول لمن حمل الكتاب والسنة على ما أصله من البدع الباطلة، وذم الذين لا يعلمون الكتـاب إلا أمانـي وهـو متنـاول لمن تـرك تدبر القـرآن ولم يعلـم إلا مجرد تـلاوة حروفه، ومتناول لمن كتـب كتابًا بيده مخالفًـا لكتـاب الله لينال به دنيا وقال: إنـه من عند الله، مثل أن يقول: هذا هو الشرع والدين، وهذا معنى الكتاب والسنة، وهذا معقول السـلف والأئمة، وهذا هو أصـول الدين الذي يجـب اعتقـاده علـى الأعيـان أو الكفايـة[١]، ومتنـاول لمـن كتـم ما عنده مـن الكتاب والسـنة، لئلا يحتج بـه مخالفه في الحق الـذي يقوله، وهذه الأمور كثيرة جـدًّا في أهل الأهواء جملـة، كالرافضة[٢]، وتفصيـلًا مثل كثير من المنتسـبين إلى الفقهاء...» انتهى.

(١) الأصل: «والكفاية».
(٢) زاد في ط: «والجهمية ونحوهم من أهل الأهواء والكلام وفي أهل الأهواء».

﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿٨٠﴾ ذكـر أفعالهـم القبيحـة، ثـم ذكـر - مـع هـذا - أنهم يزكون أنفسـهم، ويشهدون لها بالنجاة من عذاب الله والفوز بثوابه، وأنهم لن تمسهـم النار إلا أيامًا معدودة؛ أي قليلة تعد بالأصابع، فجمعوا بين الإساءة والأمن، ولما كان هذا مجرد دعـوى رد تعالى عليهم فقال: ﴿ قُلْ ﴾؛ لهم يا أيها الرسـول، ﴿ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا ﴾؛ أي: بالإيمـان بـه وبرسـله وبطاعتـه، فهذا الوعد الموجب لنجـاة صاحبه الذي لا يتغير ولا يتبـدل ﴿ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾؟ فأخبـر تعالـى أن صـدق دعواهم متوقف[٣] علـى أحد هذين الأمرين اللذين لا ثالث لهما:

إمـا أن يكونوا قـد اتخذوا عند الله عهـدًا؛ فتكون دعواهم صحيحة.

وإمـا أن يكونـوا متقولين عليـه؛ فتكون كاذبـة فيكون أبلغ لخزيهـم وعذابهـم، وقـد علم مـن حالهـم أنهم لـم يتخذوا عند اللـه عهدًا لتكذيبهم كثيرًا مـن الأنبياء حتى وصلت بهم الحـال إلـى أن قتلـوا طائفة منهـم، ولنكولهم عـن طاعة الله ونقضهـم المواثيـق، فتعيـن بذلك أنهـم متقولـون مختلقون قائلـون عليـه ما لا يعلمـون، والقول عليه بـلا علم من أعظم المحرمات وأشنع القبيحات.

ثم ذكر تعالى حكمًا عامًّا لكل أحد، يدخل فيه بنو إسرائيل وغيرهـم، وهـو الحكـم الـذي لا حكـم غيره، لا أمانيهـم ودعاويهـم بصفـة الهالكين والناجين فقـال: ﴿ بَلَىٰ ﴾؛ أي: ليس الأمر كما ذكرتم، فإنه قول لا حقيقة له، ولكن:

﴿٨١﴾ ﴿ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً ﴾؛ وهو نكرة في سـياق الشرط؛ فيعـم الشـرك فما دونـه، والمراد به الشـرك هنا بدليـل قوله: ﴿ وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ ﴾؛ أي: أحاطـت بعاملهـا فلم تدع لـه منفـذًا، وهـذا لا يكون إلا الشـرك، فـإن من معـه الإيمان

(٣) ع، ط: «متوقفة».

لا تحيط به خطيئته، ﴿فَأُولَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١﴾؛ وقد احتج بها الخوارج على كفر صاحب المعصية، وهي حجة عليهم كما ترى، فإنها ظاهرة في الشرك، وهكذا كل مبطل يحتج بآية أو حديث صحيح على قوله الباطل؛ فلا بد أن يكون فيما احتج به حجة عليه.

٨٢ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ ولا تكون الأعمال صالحة إلا بشرطين: أن تكون خالصة لوجه الله، متبعًا بها سنة رسوله.

فحاصل هاتين الآيتين أن أهل النجاة والفوز هم[1] أهل الإيمان والعمل الصالح، والهالكون أهل النار المشركون بالله الكافرون به.

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ٨٣﴾.

٨٣ فهذه الشرائع من أصول الدين التي أمر الله بها في كل شريعة لاشتمالها على المصالح العامة في كل زمان ومكان؛ فلا يدخلها نسخ، كأصل الدين، ولهذا أمرنا الله بها في قوله: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾؛ إلى آخر الآية [النساء: ٣٦].

فقوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ هذا من قسوتهم أن كل أمر أمروا به استعصوا، فلا يقبلونه إلا بالأيمان الغليظة والعهود الموثقة ﴿لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ هذا أمر بعبادة الله وحده ونهي عن الشرك به، وهذا أصل الدين، فلا تقبل الأعمال كلها إن لم يكن هذا أساسها، فهذا حق الله تعالى على عباده، ثم قال: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا﴾؛ أي أحسنوا بالوالدين إحسانًا، وهذا يعم كل إحسان قولي وفعلي مما هو إحسان إليهم، وفيه النهي عن الإساءة إلى الوالدين أو عدم الإحسان والإساءة؛ لأن الواجب الإحسان، والأمر بالشيء نهي عن ضده، وللإحسان ضدان: الإساءة وهي أعظم جرمًا، وترك الإحسان بدون إساءة، وهذا محرم لكن لا يجب أن يلحق بالأول.

(١) ساقط من ع، ط.

وكذا يقال في صلة الأقارب واليتامى والمساكين، وتفاصيل الإحسان لا تنحصر بالعد، بل تكون بالحد كما تقدم. ثم أمر بالإحسان إلى الناس عمومًا فقال: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾؛ ومن القول الحسن أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وتعليمهم العلم وبذل السلام والبشاشة وغير ذلك من كل كلام طيب، ولما كان الإنسان لا يسع الناس بماله أمر بأمر يقدر به على الإحسان إلى كل مخلوق وهو الإحسان بالقول، فيكون في ضمن ذلك النهي عن الكلام القبيح للناس حتى للكفار، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]؛ ومن أدب الإنسان الذي أدب الله به عباده أن يكون الإنسان نزيهًا في أقواله وأفعاله، غير فاحش ولا بذيء ولا مشاتم[2] ولا مخاصم، بل يكون حسن الخلق واسع الحلم، مجاملًا لكل أحد، صبورًا على ما يناله من أذى الخلق امتثالًا لأمر الله ورجاءً لثوابه.

ثم أمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة لما تقدم أن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة متضمنة للإحسان إلى العبيد، ثم بعد هذا الأمر لكم بهذه الأوامر الحسنة التي إذا نظر إليها البصير العاقل عرف أن من إحسان الله إلى[3] عباده أن أمرهم بها وتفضل بها عليهم وأخذ المواثيق عليكم، ﴿تَوَلَّيۡتُمۡ﴾؛ على وجه الإعراض؛ لأن المتولي قد يتولى وله نية رجوع إلى ما تولى عنه، وهؤلاء ليس لهم رغبة ولا رجوع في هذه الأوامر، فنعوذ بالله من الخذلان. وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ﴾؛ هذا استثناء؛ لئلا يوهم أنهم تولوا كلهم، فأخبر أن قليلًا منهم عصمهم الله وثبتهم.

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٨٤ ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا

(٢) في الأصل، ط: «شاتم».
(٣) ط: «على».

تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

﴿٨٤﴾، ﴿٨٥﴾ وهذا الفعل المذكور في هذه الآية فعل للذين كانوا في زمن الوحي بالمدينة؛ وذلك أن الأوس والخزرج - وهم الأنصار - كانوا قبل مبعث النبي ﷺ مشركين، وكانوا يقتتلون على عادة الجاهلية، فنزلت عليهم الفرق الثلاث من فرق اليهود: بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع، فكل فرقة منهم حالفت فرقة من أهل المدينة، فكانوا إذا اقتتلوا أعان اليهودي حليفه على مقاتليه الذين تعينهم الفرقة الأخرى من اليهود، فيقتل اليهودي اليهودي، ويخرجه من دياره إذا حصل جلاء ونهب، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها، وكان قد حصل أسارى بين الطائفتين فدى بعضهم بعضًا، والأمور الثلاثة كلها قد فرضت عليهم: ففرض عليهم ألّا يسفك بعضهم دم بعض، ولا يخرج بعضهم بعضًا من ديارهم[1]، وإذا وجدوا أسيرًا منهم وجب عليهم فداؤه، فعملوا بالأخير وتركوا الأولين، فأنكر الله عليهم ذلك فقال: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ وهو فداء الأسير ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾؛ وهو القتل والإخراج، وفيها أكبر[2] دليل على أن الإيمان يقتضي فعل الأوامر واجتناب النواهي، وأن المأمورات من الإيمان. قال تعالى: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ وقد وقع ذلك فأخزاهم الله، وسلط رسوله عليهم فقتل من قتل، وسبى من سبى منهم، وأجلى من أجلى، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾؛ أي: أعظمه، ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾؛ ثم أخبر تعالى عن السبب الذي أوجب لهم الكفر ببعض الكتاب والإيمان ببعضه، فقال:

﴿٨٦﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾؛ توهموا أنهم إن لم يعينوا حلفاءهم حصل لهم عار فاختاروا النار على العار، فلهذا قال: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾؛ بل هو باق على شدته، ولا يحصل لهم راحة بوقت من الأوقات ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾؛ أي: يدفع عنهم مكروه.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا

(١) عبارة: «من ديارهم» ساقطة من ع، ط.

(٢) زيادة من: ع.

الجزء الأول — سورة البقرة

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

١٣

جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿٨٧﴾ يمتن تعالى على بني إسرائيل أن أرسل إليهم كليمه موسى وآتاه التوراة، ثم تابع من بعده بالرسل الذين يحكمون بالتوراة، إلى أن ختم أنبياءهم بعيسى عليهم السلام، وآتاه من الآيات البينات ما يؤمن على مثله البشر ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾؛ أي: قواه الله بروح القدس، قال أكثر المفسرين: إنه جبريل عليه السلام، وقيل: إنه الإيمان الذي يؤيد الله به عباده، ثم مع هذه النعم التي لا يقدر قدرها لما أتوكم ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾، عن الإيمان بهم، ﴿فَفَرِيقًا﴾، منهم، ﴿كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾، فقدمتم الهوى على الهدى وآثرتم الدنيا على الآخرة، وفيها من التوبيخ والتشديد ما لا يخفى.

﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟
مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم
مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾
بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ
ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ
فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ
﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ
أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا
لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ
ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾
وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟
مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا
وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ
بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾

﴿٨٨﴾ أي: اعتذروا عن الإيمان لما دعوتهم إليه يا أيها الرسول بأن قلوبهم غلف أي عليها غلاف وأغطية فلا تفقه ما تقول، يعني فيكون لهم - بزعمهم - عذر لعدم العلم، وهذا كذب منهم، فلهذا قال تعالى: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾؛ أي: أنهم مطرودون ملعونون بسبب كفرهم؛ فقليلًا المؤمن منهم، أو قليلًا إيمانهم، وكفرهم هو الكثير.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿٨٩﴾، ﴿٩٠﴾ أي: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ على يد أفضل الخلق وخاتم الأنبياء، المشتمل على تصديق ما معهم من التوراة، وقد علموا به، وتيقنوه حتى إنهم كانوا إذا[1] وقع بينهم وبين المشركين في الجاهلية حروب استنصروا بهذا النبي وتوعدوهم بخروجه، وأنهم يقاتلون المشركين معه، فلما جاءهم هذا الكتاب والنبي الذي عرفوا؛ كفروا به بغيًا وحسدًا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، فلعنهم الله وغضب عليهم غضبًا بعد غضب؛ لكثرة كفرهم وتوالي شكهم وشركهم، ولهم في الآخرة عذاب مهين أي: مؤلم موجع، وهو صلي الجحيم وفوت النعيم المقيم، فبئس الحال حالهم، وبئس ما استعاضوا واستبدلوا من الإيمان بالله وكتبه ورسله، الكفر به وبكتبه وبرسله مع علمهم وتيقنهم، فيكون أعظم لعذابهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿٩١﴾ أي: وإذا أمر اليهود بالإيمان بما أنزل الله على رسوله وهو القرآن استكبروا وعتوا و ﴿قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾؛ أي: بما سواه من الكتب، مع أن الواجب أن يؤمنوا[2] بما أنزل الله مطلقًا سواء أنزل عليهم أو على غيرهم، وهذا هو الإيمان النافع، الإيمان بما أنزل الله على جميع رسل الله، وأما التفريق بين الرسل والكتب وزعم الإيمان ببعضها دون بعض فهذا ليس بإيمان، بل هو الكفر بعينه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ

(١) عبارة: «حتى إنهم كانوا إذا» وردت في الأصل، ط: «على أنهم إذا كان».

(٢) ع: «يؤمن».

سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١]؛ ولهذا رد عليهم تبارك وتعالى هنا ردًّا شافيًا، وألزمهم إلزامًا لا محيد لهم عنه فرد عليهم بكفرهم بالقرآن بأمرين فقال: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾، فإذا كان هو الحق في جميع ما اشتمل عليه من الإخبارات والأوامر والنواهي وهو من عند ربهم؛ فالكفر به بعد ذلك كفر بالله وكفر بالحق الذي أنزله.

ثم قال: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾؛ أي: موافقًا له في كل ما دل عليه من الحق ومهيمنًا عليه، فلمَ تؤمنون بما أنزل عليكم وتكفرون بنظيره، هل هذا إلا تعصب واتباع للهوى لا للهدى؟ وأيضًا فإن كون القرآن مصدقًا لما معهم يقتضي أنه حجة لهم على صدق ما في أيديهم من الكتب، فلا سبيل لهم إلى إثباتها إلا به، فإذا كفروا به وجحدوه صاروا بمنزلة من ادعى دعوى بحجة وبينة ليس له غيرها، ولا تتم دعواه إلا بسلامة بينته، ثم يأتي هو لبينته وحجته فيقدح فيها ويكذب بها، أليس هذا من الحماقة والجنون؟! فكان كفرهم بالقرآن كفرًا بما في أيديهم ونقضًا له. ثم نقض عليهم تعالى دعواهم الإيمان بما أنزل إليهم بقوله: ﴿قُلْ﴾؛ لهم ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿٩٢﴾ ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: بالأدلة الواضحات المبينة للحق ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾؛ أي: بعد مجيئه ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾؛ في ذلك ليس لكم عذر.

﴿٩٣﴾ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟﴾؛ أي: سماع قبول وطاعة واستجابة، ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾؛ أي: صارت هذه حالتهم ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾؛ أي: صبغ حب العجل وحب عبادته في قلوبهم وشربها بسبب كفرهم ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾؛ أي: أنتم تدعون الإيمان وتتمدحون بالدين الحق وأنتم قتلتم أنبياء الله واتخذتم العجل إلهًا من دون الله لما غاب عنكم موسى نبي الله، ولم تقبلوا أوامره ونواهيه إلا بعد التهديد ورفع الطور فوقكم، فالتزمتم بالقول ونقضتم بالفعل، فما هذا الإيمان الذي ادعيتم؟! وما هذا الدين؟! فإن كان هذا إيمانًا على زعمكم، فبئس الإيمان الداعي صاحبه إلى الطغيان والكفر برسل الله وكثرة العصيان، وقد عهد أن الإيمان الصحيح يأمر صاحبه بكل خير وينهاه عن كل شر، فوضح بهذا كذبهم وتبين تناقضهم.

الجزء الأول — سورة البقرة

قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

١٥

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿٩٤﴾ أي: قل لهم على وجه تصحيح دعواهم، ﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾، يعني الجنة ﴿خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾، كما زعمتم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى، وأن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة فإن كنتم صادقين في هذه[1] الدعوى ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ وهذا نوع مباهلة بينهم وبين رسول الله ﷺ، وليس بعد هذا الإلجاء والمضايقة لهم بعد العناد منهم إلا أحد أمرين: إما أن يؤمنوا بالله ورسوله، وإما أن يباهلوا على ما هم عليه بأمر

(١) ع، ط: «بهذه».

يسير عليهم، وهو تمني الموت الذي يوصلهم إلى الدار التي هي خالصة لهم، فامتنعوا عن ذلك؛ فعلم كل أحد أنهم في غاية المعاندة والمحادة لله ورسوله مع علمهم بذلك، ولهذا قال تعالى:

(٩٥) ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، من الكفر والمعاصي؛ لأنهم يعلمون أنه طريق لهم إلى المجازاة بأعمالهم الخبيثة، فالموت أكره شيء إليهم، وهم أحرص على الحياة من كل أحد من الناس حتى من المشركين الذين لا يؤمنون بأحد من الرسل والكتب. ثم ذكر شدة محبتهم الدنيا فقال:

(٩٦) ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾؛ وهذا: أبلغ ما يكون من الحرص؛ تمنوا حالة هي من المحالات، والحال أنهم لو عمروا العمر المذكور لم يغن عنهم شيئًا، ولا دفع عنهم من العذاب شيئًا، ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦)﴾، تهديد لهم على المجازاة بأعمالهم.

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ (٩٨)﴾.

(٩٧)، (٩٨) أي: قل لهؤلاء اليهود الذين زعموا أن الذي منعهم من الإيمان أن وليك جبريل عليه السلام. ولو كان غيره من ملائكة الله لآمنوا بك وصدقوا: إن هذا الزعم منكم تناقض وتهافت وتكبر على الله، فإن جبريل عليه السلام هو الذي نزل بالقرآن من عند الله على قلبك، وهو الذي ينزل على الأنبياء قبلك، والله هو الذي أمره وأرسله بذلك، فهو رسول محض، مع أن هذا الكتاب الذي نزل به جبريل مصدقًا لما تقدمه من الكتب غير مخالف لها ولا مناقض، وفيه الهداية التامة من أنواع الضلالات، والبشارة بالخير الدنيوي والأخروي لمن آمن به، فالعداوة لجبريل الموصوف بذلك كفر بالله وآياته وعداوة لله ولرسله وملائكته، فإن عداوتهم لجبريل لا لذاته، بل لما ينزل به من عند الله من الحق على رسل الله، فيتضمن الكفر والعداوة للذي أنزله وأرسله والذي أرسل به، والذي أرسل إليه، فهذا وجه ذلك.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩)﴾.

(٩٩) يقول لنبيه ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾؛ تحصل بها الهداية لمن استهدى وإقامة الحجة على من عاند، وهي في الوضوح والدلالة على الحق قد بلغت مبلغًا عظيمًا، ووصلت إلى حالة لا يمتنع من قبولها إلا من فسق عن أمر الله وخرج عن طاعة الله، واستكبر غاية التكبر.

﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠)﴾.

(١٠٠) وهذا فيه التعجب من كثرة معاهداتهم وعدم صبرهم على الوفاء بها؛ فـ(كلما) تفيد التكرار، فكلما وجد العهد ترتب عليه النقض، ما السبب في ذلك؟ السبب أن أكثرهم لا يؤمنون، فعدم إيمانهم هو الذي أوجب لهم نقض العهود، ولو صدق إيمانهم لكانوا مثل من قال الله فيهم: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣)﴾.

(١٠١) أي: ولما جاءهم هذا الرسول الكريم بالكتاب العظيم بالحق الموافق لما معهم، وكانوا يزعمون أنهم متمسكون بكتابهم، فلما كفروا بهذا الرسول وبما جاء به ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ﴾؛ الذي أنزل إليهم، أي: طرحوه رغبة عنه ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾، وهذا أبلغ في الإعراض، كأنهم في فعلهم هذا من الجاهلين وهم يعلمون صدقه وحقيقة ما جاء به، تبين بهذا أن هذا الفريق من أهل الكتاب لم يبق في أيديهم شيء حيث لم يؤمنوا بهذا الرسول، فصار كفرهم به كفرًا بكتابهم من حيث لا يشعرون.

وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

ولما كان من العوائد القدرية والحكمة الإلهية أن من ترك ما ينفعه وأمكنه الانتفاع به ولم ينتفع؛ ابتلي بالاشتغال بما يضره، فمن ترك عبادة الرحمن؛ ابتلي بعبادة الأوثان، ومن ترك محبة الله وخوفه ورجاءه؛ ابتلي بمحبة غير الله وخوفه ورجائه، ومن لم ينفق ماله في طاعة الله أنفقه في طاعة الشيطان، ومن ترك الذل لربه؛ ابتلي بالذل للعبيد، ومن ترك الحق؛ ابتلي بالباطل.

﴿١٠٢﴾، ﴿١٠٣﴾ كذلك: هؤلاء اليهود لما نبذوا كتاب الله اتبعوا ما تتلو الشياطين، وتختلق من السحر على ملك سليمان؛ حيث أخرجت الشياطين للناس السحر، وزعموا أن سليمان عليه السلام كان يستعمله وبه حصل له الملك العظيم، وهم كذبة في ذلك فلم يستعمله سليمان، بل نزهه الصادق في قيله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾؛ أي: بتعلم السحر فلم يتعلمه، ﴿وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾، في ذلك ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾، من إضلالهم وحرصهم على إغواء بني آدم، وكذلك اتبع اليهود السحر الذي أنزل على الملكين الكائنين بأرض بابل من أرض العراق، أنزل عليهما السحر امتحانًا وابتلاءً من الله لعباده فيعلمانهم السحر، ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ﴾؛ ينصحاه و﴿يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾؛ أي: لا تتعلم السحر؛ فإنه كفر، فينهيانه عن السحر ويخبرانه عن مرتبته، فتعليم الشياطين للسحر على وجه التدليس والإضلال، ونسبته وترويجه إلى من برأه الله منه وهو سليمان عليه السلام، وتعليم الملكين امتحانًا مع نصحهما؛ لئلا يكون لهم حجة، فهؤلاء اليهود يتبعون السحر الذي تعلمه الشياطين والسحر الذي يعلمه الملكان، فتركوا علم الأنبياء والمرسلين وأقبلوا على علم الشياطين، وكل يصبو إلى ما يناسبه.

ثم ذكر مفاسد السحر فقال: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾؛ مع أن محبة الزوجين لا تقاس بمحبة غيرهما، لأن الله قال في حقهما: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]؛ وفي هذا دليل على أن السحر له حقيقة، وأنه يضر بإذن الله؛ أي: بإرادة الله. والإذن نوعان: إذن قدري: وهو المتعلق بمشيئة الله كما في هذه الآية، وإذن شرعي كما في قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾؛ وفي هذه الآية وما أشبهها أن الأسباب مهما بلغت في قوة التأثير فإنها تابعة للقضاء والقدر ليست مستقلة في التأثير، ولم يخالف في هذا الأصل أحد من فرق الأمة غير القدرية في أفعال العباد زعموا: أنها مستقلة غير تابعة للمشيئة، فأخرجوها عن قدرة الله، فخالفوا كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة والتابعين.

ثم ذكر أن علم السحر مضرة محضة، ليس فيه منفعة لا دينية ولا دنيوية، كما يوجد بعض المنافع الدنيوية في بعض المعاصي، كما قال تعالى في الخمر والميسر: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]؛ فهذا السحر مضرة محضة، فليس له داع أصلًا، فالمنهيات كلها إما مضرة محضة أو شرها أكبر من خيرها، كما أن المأمورات إما مصلحة محضة أو خيرها أكثر من شرها.

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾؛ أي: اليهود، ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾؛ أي: رغب في السحر رغبة المشتري في السلعة، ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾؛ أي: نصيب بل هو موجب للعقوبة، فلم يكن فعلهم إياه جهلًا ولكنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾؛ علمًا يثمر العمل ما فعلوه.

۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ
أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ
مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن
وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ
كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ
فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ
ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا
مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟
وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ
﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم
مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ
﴿١١٠﴾ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ
تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ
فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا
وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ
وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ
وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ
ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

﴿١٠٤﴾ كان المسلمون يقولون حين خطابهم للرسول عند تعلمهم أمر الدين: ﴿ رَٰعِنَا ﴾؛ أي: راع أحوالنا فيقصدون بها معنى صحيحًا، وكان اليهود يريدون بها معنى فاسدًا، فانتهزوا الفرصة فصاروا يخاطبون الرسول بذلك ويقصدون المعنى الفاسد، فنهى الله المؤمنين عن هذه الكلمة سدًّا لهذا الباب، ففيه النهي عن الجائز إذا كان وسيلة إلى محرم، وفيه الأدب واستعمال الألفاظ التي لا تحتمل إلا الحسن وعدم الفحش وترك الألفاظ القبيحة أو التي فيها نوع تشويش واحتمال لأمر غير لائق، فأمرهم بلفظة لا تحتمل إلا الحسن فقال: ﴿ وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا ﴾؛ فإنها كافية يحصل بها المقصود من غير محذور، ﴿ وَٱسْمَعُوا۟ ﴾؛ لم يذكر المسموع ليعم ما أمر باستماعه فيدخل فيه سماع القرآن وسماع السنة التي هي الحكمة لفظًا ومعنى واستجابة ففيه الأدب والطاعة، ثم توعد الكافرين بالعذاب المؤلم الموجع.

﴿١٠٥﴾ وأخبر عن عداوة اليهود والمشركين للمؤمنين أنهم ما يودون، ﴿ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ ﴾؛ أي: لا قليلًا ولا كثيرًا، ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾؛ حسدًا منهم وبغضًا لكم أن يختصكم بفضله فإنه، ﴿ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ﴾ ومن فضله عليكم إنزال الكتاب على رسولكم؛ ليزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون، فله الحمد والمنة.

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ
أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ
مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن
وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

﴿١٠٦﴾ النسخ هو النقل، فحقيقة النسخ نقل المكلفين من حكم مشروع إلى حكم آخر أو إلى إسقاطه، وكان اليهود ينكرون النسخ ويزعمون أنه لا يجوز، وهو مذكور عندهم في التوراة، فإنكارهم له كفر وهوى محض، فأخبر الله تعالى عن حكمته في النسخ، فقال: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾؛ أي: ننسها العباد فنزيلها من قلوبهم، ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ ﴾؛ وأنفع لكم، ﴿ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾؛ فدل على أن النسخ لا يكون لأقل مصلحة لكم من الأول؛ لأن فضله تعالى يزداد، خصوصًا على هذه الأمة التي سهل عليها دينها غاية التسهيل، وأخبر أن من قدح في النسخ فقد قدح في ملكه وقدرته فقال: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾.

﴿١٠٧﴾ ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾؛ فإذا كان مالكًا لكم متصرفًا فيكم تصرف المالك البر الرحيم في أقداره وأوامره ونواهيه، فكما أنه لا حجر عليه في تقدير ما يقدره على عباده من أنواع التقادير، كذلك لا يعترض عليه فيما يشرعه لعباده من الأحكام، فالعبد مدبر مسخر تحت أوامر ربه الدينية والقدرية فما له والاعتراض، وهو أيضًا ولي عباده ونصيرهم، فيتولاهم في تحصيل منافعهم، وينصرهم في دفع مضارهم، فمن ولايته لهم أن يشرع لهم من الأحكام ما تقتضيه حكمته ورحمته بهم.

ومن تأمل ما وقع في القرآن والسنة من النسخ عرف بذلك حكمة الله، ورحمته عباده، وإيصالهم إلى مصالحهم من حيث لا يشعرون بلطفه.

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ ﴾.

﴿١٠٨﴾ ينهى الله المؤمنين أو اليهود بأن يسألوا رسولهم، ﴿ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾؛ والمراد بذلك أسئلة التعنت والاعتراض، كما قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [النساء: ١٥٣]؛ وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ [المائدة: ١٠١]؛ فهذه ونحوها هي المنهي عنها.

وأما سؤال الاسترشاد والتعلم فهذا محمود قد أمر الله به، كما قال تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النحل: ٤٣]؛ ويقرهم[1] عليه كما في قوله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ﴾ [البقرة: ٢١٩]؛ ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٢٠]؛ ونحو ذلك. ولما كانت المسائل المنهي عنها مذمومة قد تصل بصاحبها إلى الكفر قال: ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

﴿١٠٩﴾ ثم أخبر عن حسد كثير من أهل الكتاب وأنهم بلغت بهم الحال أنهم ودوا ﴿ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا ﴾؛ وسعوا في ذلك، وعملوا[2] المكايد، وكيدهم راجع عليهم كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [آل عمران: ٧٢]؛ وهذا من حسدهم الصادر من عند أنفسهم، فأمرهم الله بمقابلة من أساء إليهم[3] بالعفو عنهم والصفح حتى يأتي الله بأمره، ثم بعد ذلك أتى الله بأمره إياهم بالجهاد، فشفى الله أنفس المؤمنين منهم، فقتلوا من قتلوا واسترقُّوا من استرقُّوا، وأجلوا من أجلوا، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

﴿١١٠﴾ ثم أمرهم الله بالاشتغال بالوقت الحاضر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وفعل كل القربات، ووعدهم أنهم مهما فعلوا من خير فإنه لا يضيع عند الله بل يجدونه عنده وافرًا موفرًا قد حفظه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾.

﴿١١١﴾ أي: قال اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، فحكموا لأنفسهم بالجنة وحدهم، وهذا مجرد أماني غير مقبولة إلا بحجة وبرهان فأتوا بها إن كنتم صادقين، وهكذا كل من ادعى دعوى لا بد أن يقيم البرهان على صحة دعواه، وإلا فلو قلبت عليه دعواه وادعى مدع عكس ما ادعى بلا برهان لكان لا فرق بينهما، فالبرهان هو الذي يصدق الدعاوي أو يكذبها، ولما لم يكن بأيديهم برهان علم كذبهم بتلك الدعوى.

﴿١١٢﴾ ثم ذكر تعالى البرهان الجلي العام لكل أحد فقال: ﴿ بَلَىٰ ﴾؛ أي: ليس بأمانيكم ودعاويكم ولكن ﴿ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾؛ أي: أخلص لله أعماله متوجهًا إليه بقلبه، ﴿ وَهُوَ ﴾؛ مع إخلاصه ﴿ مُحْسِنٌ ﴾؛ في عبادة ربه بأن عبده بشرعه فأولئك هم أهل الجنة وحدهم، فلهم أجرهم عند ربهم؛ وهو الجنة بما اشتملت عليه من النعيم، ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾؛ فحصل لهم المرغوب ونجوا من المرهوب، ويفهم منها أن من ليس كذلك فهو من أهل النار الهالكين، فلا نجاة إلا لأهل الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول.

(١) ع: «ويقررهم».
(٢) ع: «وأعملوا».
(٣) زاد في ع، ط: «غاية الإساءة».

وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ
لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ
ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ
فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١١٣ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ
ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ
لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ
وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١٤ وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ
فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ١١٥
وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ
وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ
قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ
قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ
بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ١١٩

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١١٣﴾.

(١١٣) وذلك أنه بلغ بأهل الكتاب الهوى والحسد إلى أن بعضهم ضلل بعضًا، وكفر بعضهم بعضًا كما فعل الأميون من مشركي العرب وغيرهم، فكل فرقة تضلل الفرقة الأخرى، ويحكم الله في الآخرة بين المختلفين بحكمه العدل الذي أخبر به عباده، فإنه لا فوز ولا نجاة إلا لمن صدق جميع الأنبياء والمرسلين، وامتثل أوامر ربه، واجتنب نواهيه، ومن عداهم فهو هالك.

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١٤﴾.

(١١٤) أي: لا أحد أظلم وأشد جرمًا ممن منع مساجد الله عن ذكر الله فيها وإقامة الصلاة وغيرها من الطاعات[١]، ﴿وَسَعَىٰ﴾؛ أي: اجتهد وبذل وسعه، ﴿فِي خَرَابِهَآ﴾؛ الحسي والمعنوي، فالخراب الحسي: هدمها وتخريبها وتقذيرها، والخراب المعنوي: منع الذاكرين لاسم الله فيها، وهذا عام لكل من اتصف بهذه الصفة فيدخل في ذلك أصحاب الفيل وقريش حين صدوا رسول الله عنها عام الحديبية، والنصارى حين أخربوا بيت المقدس، وغيرهم من أنواع الظلمة الساعين في خرابها محادة لله ومشاقة، فجازاهم الله بأن منعهم دخولها شرعًا وقدرًا إلا خائفين ذليلين، فلما أخافوا عباد الله أخافهم الله، فالمشركون الذين صدوا رسوله لم يلبث رسول الله ﷺ إلا يسيرًا حتى أذن الله له في فتح مكة ومنع المشركين من قربان بيته فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾ [التوبة: ٢٨]؛ وأصحاب الفيل قد ذكر الله ما جرى عليهم، والنصارى سلط الله عليهم المؤمنين فأجلوهم[٢]، وهكذا كل من اتصف بوصفهم فلا بد أن يناله قسطه، وهذا من الآيات العظيمة أخبر بها الباري قبل وقوعها فوقعت كما أخبر، واستدل العلماء بالآية الكريمة على أنه لا يجوز تمكين الكفار من دخول المساجد ﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ﴾؛ أي: فضيحة؛ كما تقدم ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١٤﴾؛ وإذا كان لا أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، فلا أعظم إيمانًا ممن سعى في عمارة المساجد بالعمارة الحسية والمعنوية؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [التوبة: ١٨]؛ بل قد أمر الله تعالى برفع بيوته وتعظيمها وتكريمها فقال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ [النور: ٣٦].

وللمساجد أحكام كثيرة يرجع حاصلها إلى مضمون هذه الآيات الكريمة.

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ١١٥﴾.

(١١٥) أي: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُ﴾؛ خصهما بالذكر لأنهما محل الآيات العظيمة في مطالع الأنوار ومغاربها، فإذا

(١) ع، ط: «أنواع الطاعات».
(٢) بعده في ع، ط: «عنه».

كان مالكًا لها كان مالكًا لكل الجهات ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾؛ وجوهكم من الجهات إذا كان توليكم إياها بأمره، إما أن يأمركم باستقبال الكعبة بعد أن كنتم مأمورين باستقبال بيت المقدس، أو تؤمرون بالصلاة في السفر على الراحلة ونحوها، فإن القبلة حيثما توجه العبد، أو تشتبه القبلة فيتحرى الصلاة إليها، ثم يتبين له الخطأ أو يكون معذورًا بصلب أو مرض ونحو ذلك، فهذه الأمور إما أن يكون العبد فيها معذورًا أو مأمورًا.

وبكل حال فما استقبل جهة من الجهات خارجة عن ملك ربه ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾؛ فيه إثبات الوجه لله تعالى على الوجه اللائق به تعالى، وأن لله وجهًا لا تشبهه الوجوه، وهو تعالى واسع الفضل والصفات عظيمها عليم بسرائركم ونياتكم، فمن سعته وعلمه وسع لكم الأمر، وقبل منكم المأمور، فله الحمد والشكر.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿١١٦﴾ ﴿وَقَالُوا﴾؛ أي: اليهود والنصارى والمشركون وكل من قال ذلك، ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾؛ فنسبوه إلى ما لا يليق بجلاله وأساءوا كل الإساءة وظلموا أنفسهم، وهو تعالى صابر على ذلك منهم، قد حلم عليهم، وعافاهم، ورزقهم مع تنقصهم إياه ﴿سُبْحَانَهُ﴾؛ أي: تنزه وتقدس عن كل ما وصفه به المشركون والظالمون مما لا يليق بجلاله، فسبحان من له الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه، ومع رده لقولهم أقام الحجة والبرهان على تنزيهه عن ذلك فقال: ﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: جميعهم ملكه وعبيده يتصرف فيهم تصرف المالك بالمماليك، وهم قانتون له مسخرون تحت تدبيره، فإذا كانوا كلهم عبيده مفتقرين إليه، وهو غني عنهم فكيف يكون منهم أحد يكون له ولدًا، والولد لا بد أن يكون من جنس والده لأنه جزء منه، والله تعالى المالك القاهر وأنتم المملوكون المقهورون وهو الغني وأنتم الفقراء، فكيف مع هذا يكون له ولد؟ هذا من أبطل الباطل وأسمجه.

والقنوت نوعان: قنوت عام، وهو قنوت الخلق كلهم تحت تدبير الخالق، وخاص، وهو قنوت العبادة. فالنوع الأول كما في هذه الآية، والنوع الثاني كما في قوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة: ٢٣٨]. ثم قال:

﴿١١٧﴾ ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: خالقهما على وجه قد أتقنهما وأحسنهما على غير مثال سبق، ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾؛ فلا يستعصي عليه ولا يمتنع منه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿١١٨﴾ أي: قال الجهلة من أهل الكتاب وغيرهم: هلا يكلمنا الله كما كلم الرسل، ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾؛ يعنون آيات الاقتراح التي يقترحونها بعقولهم الفاسدة وآرائهم الكاسدة التي تجرءوا بها على الخالق واستكبروا على رسله كقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ [النساء: ١٥٣]؛ الآية. وقالوا: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾(١) الآيات [الفرقان: ٧، ٨]، وقوله: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ الآيات [الإسراء: ٩٠].

فهذا دأبهم مع رسلهم يطلبون آيات التعنت لا آيات الاسترشاد، ولم يكن قصدهم تبيُّن(٢) الحق؛ فإن الرسل قد جاءوا من الآيات بما يؤمن على مثله البشر، ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾؛ فكل موقن فقد عرف من آيات الله الباهرة وبراهينه الظاهرة ما حصل له به اليقين، واندفع عنه كل شك وريب.

ثم ذكر تعالى بعض آية موجزة مختصرة جامعة للآيات الدالة على صدقه ﷺ وصحة ما جاء به فقال:

﴿١١٩﴾ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾؛ فهذا مشتمل على الآيات التي جاء بها، وهي ترجع إلى ثلاثة أمور:

---

(١) حدث تداخل بين الآيات في الأصل، ع، فكتب مكان: «يأكل منها» «من نخيل وعنب».
(٢) ط: «تبيين».

وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ
هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ
مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ
الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ
فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي
أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا
لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا
شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ۞ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ
فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا
يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ
وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ
السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ
أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ
فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾

الأول في نفس إرساله، والثاني في سيرته وهديه ودله، والثالث في معرفة ما جاء به من القرآن والسنة. فالأول والثاني قد دخلا في قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾؛ والثالث دخل في قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾.

وبيان **الأمر الأول**: وهو - نفس إرساله - أنه قد علم حالة أهل الأرض قبل بعثته ﷺ وما كانوا عليه من عبادة الأوثان والنيران والصلبان، وتبديلهم للأديان حتى كانوا في ظلمة من الكفر قد عمتهم وشملتهم، إلا بقايا من أهل الكتاب قد انقرضوا قبيل البعثة، وقد علم أن الله تعالى لم يخلق خلقه سدًى ولم يتركهم هملًا، لأنه حكيم عليم قدير رحيم، فمن حكمته ورحمته بعباده أن أرسل إليهم هذا الرسول العظيم يأمرهم بعبادة الرحمن وحده لا شريك له، فبمجرد رسالته يعرف العاقل صدقه، وهو آية كبيرة على أنه رسول الله.

وأما الثاني: فمن عرف النبي ﷺ معرفة تامة، وعرف سيرته وهديه قبل البعثة ونشوءه على أكمل الخصال، ثم من بعد ذلك قد ازدادت مكارمه وأخلاقه العظيمة الباهرة للناظرين، فمن عرفها وسبر أحواله عرف أنها لا تكون إلا أخلاق الأنبياء الكاملين؛ لأنه[1] تعالى جعل الأوصاف أكبر دليل على معرفة أصحابها وصدقهم وكذبهم.

وأما الثالث: فهو معرفة ما جاء به ﷺ من الشرع العظيم والقرآن الكريم المشتمل على الإخبارات الصادقة والأوامر الحسنة والنهي عن كل قبيح، والمعجزات الباهرة، فجميع الآيات تدخل في هذه الثلاثة.

قوله: ﴿بَشِيرًا﴾، أي: لمن أطاعك بالسعادة الدنيوية والأخروية، ﴿وَنَذِيرًا﴾؛ لمن عصاك بالشقاوة والهلاك الدنيوي والأخروي، ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾، أي: لست مسئولًا عنهم، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب.

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿١٢٠﴾ يخبر تعالى رسوله أنه لا يرضى منه اليهود ولا النصارى إلا باتباعه دينهم؛ لأنهم دعاة إلى الدين الذي هم عليه و[2] يزعمون أنه الهدى، فقل لهم: ﴿إِنَّ هُدَى اللَّهِ﴾؛ الذي أرسلت به ﴿هُوَ الْهُدَىٰ﴾؛ وأما ما أنتم عليه فهو الهوى بدليل قوله: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾؛ فهذا فيه النهي العظيم عن اتباع أهواء اليهود والنصارى والتشبه بهم بما يختص به دينهم.

والخطاب وإن كان لرسول الله ﷺ، فإن أمته داخلة في ذلك؛ لأن الاعتبار بعموم المعنى لا بخصوص المخاطب، كما أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ثم قال[3]:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

(١) ع: «لأن الله».
(٢) ليس في الأصل، ط.
(٣) بعده في ع: «تعالى».

(١٢١) يخبر تعالى أن الذين آتاهم الكتاب ومنَّ عليهم به منَّةً مطلقةً أنهم ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾؛ أي: يتبعونه حق اتباعه، والتلاوة: الاتباع، فيحلون حلاله، ويحرمون حرامه، ويعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، وهؤلاء هم السعداء من أهل الكتاب الذين عرفوا نعمة الله وشكروها، وآمنوا بكل الرسل ولم يفرقوا بين أحد منهم، فهؤلاء هم المؤمنون حقًّا لا من قال منهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾، ولهذا توعدهم بقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (١٢١)﴾.

(١٢٢)، (١٢٣) وقد تقدم تفسير الآية التي بعدها.

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ (١٢٤) وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ (١٢٥)﴾.

(١٢٤) يخبر تعالى عن عبده وخليله إبراهيم عليه السلام المتفق على إمامته وجلالته، الذي كل من طوائف أهل الكتاب تدعيه، بل وكذلك المشركون - أن الله ابتلاه وامتحنه بكلمات أي بأوامر ونواهٍ كما هي عادة الله في ابتلائه لعباده ليتبين الكاذب الذي لا يثبت عند الابتلاء والامتحان من الصادق، الذي ترتفع درجته، ويزيد قدره، ويزكو عمله ويخلص ذهبه، وكان من أجلِّهم في هذا المقام الخليل عليه السلام، فأتم ما ابتلاه الله به وأكمله ووفاه، فشكر الله له ذلك، ولم يزل الله شكورًا فقال: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾؛ أي: يقتدون بك في الهدي ويمشون خلفك إلى سعادتهم الأبدية، ويحصل لك الثناء الدائم والأجر الجزيل والتعظيم من كل أحد.

وهذه - لعمر الله - أفضل درجة تنافس فيها المتنافسون، وأعلى مقام شمر إليه العاملون، وأكمل حالة حصلها أولو العزم من المرسلين وأتباعهم من كل صديق متبع لهم، داع إلى الله وإلى سبيله، فلما اغتبط إبراهيم بهذا المقام، وأدرك هذا، طلب ذلك لذريته لتعلو درجته ودرجة ذريته، وهذا أيضًا من إمامته ونصحه لعباد الله ومحبته أن يكثر فيهم المرشدون، فلله عظمة هذه الهمم العالية والمقامات السامية.

فأجابه الرحيم اللطيف وأخبر بالمانع من نيل هذا المقام فقال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ (١٢٤)﴾؛ أي: لا ينال الإمامة في الدين من ظلم نفسه وضرها وحط قدرها لمنافاة الظلم لهذا المقام، فإنه مقام آلته الصبر واليقين، ونتيجته أن يكون صاحبه على جانب عظيم من الإيمان والأعمال الصالحة، والأخلاق الجميلة، والشمائل السديدة، والمحبة التامة، والخشية، والإنابة، فأين الظلم وهذا المقام؟ ودل مفهوم الآية أن غير الظالم سينال الإمامة، ولكن مع إتيانه بأسبابها.

(١٢٥) ثم ذكر تعالى أنموذجًا باقيًا دالًّا على إمامة إبراهيم وهو: هذا البيت الحرام الذي جعل قصده ركنًا من أركان الإسلام حاطًّا للذنوب والآثام، وفيه من آثار الخليل وذريته ما عرف به إمامته وتذكرت به حالته فقال: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾؛ أي: مرجعًا يثوبون إليه بحصول منافعهم الدينية والدنيوية، يترددون إليه ولا يقضون منه وطرًا، وجعله أمنًا؛ يأمن به كل أحد حتى الوحش وحتى الجمادات كالأشجار، ولهذا كانوا في الجاهلية - على شركهم - يحترمونه أشد الاحترام ويجد أحدهم قاتل أبيه في الحرم فلا يهيجه، فلما جاء الإسلام زاده حرمة وتعظيمًا وتشريفًا وتكريمًا، ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾؛ يحتمل أن يكون المراد بذلك المقام المعروف الذي قد جعل الآن مقابل باب الكعبة، وأن المراد بهذا ركعتا الطواف يستحب أن تكونا خلف مقام إبراهيم وعليه جمهور المفسرين، ويحتمل أن يكون المقام مفردًا مضافًا فيعم جميع مقامات إبراهيم في الحج، وهي المشاعر كلها من الطواف والسعي والوقوف بعرفة ومزدلفة ورمي الجمار والنحر وغير ذلك من أفعال الحج، فيكون معنى قوله: ﴿مُصَلًّى﴾؛ أي: معبدًا، أي اقتدوا به في شعائر الحج، ولعل هذا المعنى أولى لدخول المعنى الأول فيه واحتمال اللفظ له.

﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾؛ أي: أوحينا إليهما وأمرناهما بتطهير بيت الله من الشرك والكفر والمعاصي ومن الرجس والنجاسات والأقذار ليكون ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾؛ فيه ﴿وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ (١٢٥)﴾؛ أي: المصلين، قدم الطواف لاختصاصه بالمسجد الحرام، ثم الاعتكاف لأن من شرطه المسجد مطلقًا، ثم الصلاة مع أنها أفضل لهذا المعنى، وأضاف الباري البيت إليه لفوائد:

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ
مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ
لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ
إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا
مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ
وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن
مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا
وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ
قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ
وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا
وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ
ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ
إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا
وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا
مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

منها: أن ذلك يقتضي شدة اهتمام إبراهيم وإسماعيل بتطهيره لكونه بيت الله فيبذلان جهدهما، ويستفرغان وسعهما في ذلك.

ومنها: أن الإضافة تقتضي التشريف والإكرام، ففي ضمنها أمر عباده بتعظيمه وتكريمه.

ومنها: أن هذه الإضافة هي السبب الجالب للقلوب إليه.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾.

﴿١٢٦﴾ أي: وإذ دعا إبراهيم لهذا البيت أن يجعله الله بلدًا آمنًا ويرزق أهله من أنواع الثمرات، ثم قيد عليه السلام هذا الدعاء للمؤمنين تأدبًا مع الله إذ كان دعاؤه الأول فيه الإطلاق، فجاء الجواب فيه مقيدًا بغير الظالم، فلما دعا لهم بالرزق وقيده بالمؤمن وكان رزق الله شاملًا للمؤمن والكافر والعاصي والطائع قال تعالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾؛ أي: أرزقهم كلهم مسلمهم وكافرهم، أما المسلم فيستعين بالرزق على عبادة الله ثم ينتقل منه إلى نعيم الجنة، وأما الكافر فيتمتع فيها قليلًا، ﴿ ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ ﴾؛ أي: ألجئه وأخرجه مكرهًا ﴿ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾.

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾.

﴿١٢٧﴾ أي: واذكر إبراهيم وإسماعيل في حالة رفعهما القواعد من البيت (الأساس) واستمرارهما على هذا العمل العظيم، وكيف كانت حالهما من الخوف والرجاء حتى إنهما مع هذا العمل دعوا الله أن يتقبل منهما عملهما حتى يجعل[1] فيه النفع العميم.

﴿١٢٨﴾ ودعوا لأنفسهما وذريتهما بالإسلام الذي حقيقته خضوع القلب وانقياده لربه المتضمن لانقياد الجوارح ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾؛ أي: علمناها على وجه الإراءة والمشاهدة ليكون أبلغ، يحتمل أن يكون المراد بالمناسك أعمال الحج كلها كما يدل عليه السياق والمقام، ويحتمل أن يكون المراد ما هو أعم من ذلك وهو الدين كله والعبادات كلها كما يدل عليه عموم اللفظ، لأن النسك التعبد، ولكن غلب على متعبدات الحج تغليبًا عرفيًّا، فيكون حاصل دعائهما يرجع إلى التوفيق للعلم النافع والعمل الصالح.

ولما كان العبد مَهْمَا كان لا بد أن يعتريه التقصير ويحتاج إلى التوبة قالا: ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

﴿١٢٩﴾ ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ ﴾؛ أي: في ذريتنا ﴿ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾؛ ليكون أرفع لدرجتهما ولينقادوا له وليعرفوه حقيقة المعرفة ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ ﴾؛ لفظًا وحفظًا وتحفيظًا، ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾؛ معنى ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾؛ بالتربية على الأعمال الصالحة والتبري من الأعمال الردية التي لا تزكو النفس[2] معها، ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ﴾؛ أي: القاهر لكل شيء الذي لا يمتنع على قوته شيء ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾؛

(١) ع: «يحصل».
(٢) ع: «النفوس».

الذي يضع الأشياء مواضعها، فبعزتك وحكمتك ابعث فيهم هذا الرسول.

فاستجاب الله لهما؛ فبعث الله هذا الرسول الكريم الذي رحم الله به ذريتهما خاصة وسائر الخلق عامة، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**أنا دعوة أبي إبراهيم**»(١).

ولما عظم الله إبراهيم هذا التعظيم وأخبر عن صفاته الكاملة قال تعالى:

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾.

(١٣٠) أي: ما يرغب ﴿ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾؛ بعد ما عرف من فضله، ﴿ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾؛ أي: جهلها وامتهنها ورضي لها بالدون وباعها بصفقة المغبون، كما أنه لا أرشد وأكمل ممن رغب في ملة إبراهيم، ثم أخبر عن حالته في الدنيا والآخرة فقال: ﴿ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾؛ أي: اخترناه ووفقناه للأعمال التي صار بها من المصطفين الأخيار، ﴿ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾؛ الذين لهم أعلى الدرجات.

(١٣١) ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ ﴾؛ امتثالًا لربه ﴿ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾؛ إخلاصًا وتوحيدًا ومحبة وإنابة فكان التوحيد لله نعته، ثم ورثه في ذريته ووصاهم به، وجعلها كلمة باقية في عقبه، وتوارثت فيهم حتى وصلت ليعقوب فوصى بها بنيه.

فأنتم - يا بني يعقوب - قد وصاكم أبوكم بالخصوص فيجب عليكم كمال الانقياد، واتباع خاتم الأنبياء. قال:

(١٣٢) ﴿ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ ﴾؛ أي: اختاره، وتخيره لكم رحمة بكم وإحسانًا إليكم، فقوموا به، واتصفوا بشرائعه، وانصبغوا بأخلاقه حتى تستمروا على ذلك فلا يأتيكم الموت إلا وأنتم عليه، لأن من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه.

(١٣٣) ولما كان اليهود يزعمون أنهم على ملة إبراهيم ومن بعده يعقوب قال تعالى منكرًا عليهم: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ ﴾؛ أي: حضورًا ﴿ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ ﴾؛ أي: مقدماته وأسبابه فقال لبنيه على وجه الاختبار ولتقر عينه في حياته بامتثالهم ما وصاهم به: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ﴾؛ فأجابوه بما قرت به عينه فقالوا: ﴿ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ﴾؛ فلا نشرك به شيئًا ولا نعدل به أحدًا(٢) ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾؛ فجمعوا بين التوحيد والعمل، ومن المعلوم أنهم لم يحضروا يعقوب، لأنهم لم يوجدوا بعد، فإذا لم يحضروا، فقد أخبر الله عنه أنه وصى بنيه بالحنيفية لا باليهودية، ثم قال تعالى:

(١٣٤) ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾؛ أي: مضت ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ﴾؛ أي: كل له عمله، وكل سيجازى بما فعله، لا يؤاخذ أحد بذنب أحد، ولا ينفع أحدًا إلا إيمانه وتقواه، فاشتغالكم بهم وادعاؤكم أنكم على ملتهم، والرضا بمجرد القول أمر فارغ لا حقيقة له، بل الواجب عليكم أن تنظروا حالتكم التي أنتم عليها، هل تصلح للنجاة أم لا؟

﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ ﴾.

(١٣٥) أي: دعا كلٌّ من اليهود والنصارى المسلمين إلى الدخول في دينهم زاعمين أنهم هم المهتدون وغيرهم ضال، قل(٣) له مجيبًا جوابًا شافيًا: ﴿ بَلْ ﴾ نتبع ﴿ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ﴾؛ أي: مقبلًا على الله معرضًا عما سواه قائمًا بالتوحيد تاركًا للشرك والتنديد، فهذا الذي في اتباعه الهداية وفي الإعراض عن ملته الكفر والغواية.

﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾.

---

(١) أحمد (٢٢٢٦١).

(٢) ليس في الأصل، ط.

(٣) في الأصل: «قال».

وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ
حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ
أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ
وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ
مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾
فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا
هُمْ فِى شِقَاقٍۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ
﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةًۖ وَنَحْنُ لَهُۥ
عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ
وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ
تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ
وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ
بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ
وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

﴿١٣٦﴾ هذه الآية الكريمة قد اشتملت على جميع ما يجب الإيمان به. واعلم أن الإيمان الذي هو تصديق القلب التام بهذه الأصول، وإقراره المتضمن لأعمال القلوب والجوارح، وهو - بهذا الاعتبار - يدخل فيه الإسلام وتدخل فيه الأعمال الصالحة كلها، فهي من الإيمان وأثر من آثاره، فحيث أطلق الإيمان دخل فيه ما ذكر، وكذلك الإسلام إذا أطلق دخل فيه الإيمان، فإذا قرن بينهما كان الإيمان اسمًا لما في القلب من الإقرار والتصديق، والإسلام اسمًا للأعمال الظاهرة. وكذلك إذا جمع بين الإيمان والأعمال الصالحة.

فقوله تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ﴾؛ أي: بألسنتكم متواطئة عليها قلوبكم، وهذا هو القول التام المترتب عليه الثواب والجزاء، فكما أن النطق باللسان بدون اعتقاد القلب نفاق وكفر، فالقول الخالي من العمل عمل القلب عديم التأثير قليل الفائدة، وإن كان العبد يؤجر عليه إذا كان خيرًا ومعه أصل الإيمان، لكن فرق بين القول المجرد والمقترن به عمل القلب.

وفي قوله ﴿ قُولُوٓاْ ﴾؛ إشارة إلى الإعلان بالعقيدة والصدع بها والدعوة لها، إذ هي أصل الدين وأساسه، وفي قوله ﴿ ءَامَنَّا ﴾؛ ونحوه مما فيه صدور الفعل منسوبًا إلى جميع الأمة إشارة إلى أنه يجب على الأمة الاعتصام بحبل الله جميعًا والحث على الائتلاف حتى يكون داعيهم واحدًا وعملهم متحدًا، وفي ضمنه النهي عن الافتراق. وفيه أن المؤمنين كالجسد الواحد.

وفي قوله: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ إلخ دلالة على جواز إضافة الإنسان إلى نفسه الإيمان على وجه التقييد، بل على وجوب ذلك، بخلاف قوله: أنا مؤمن ونحوه فإنه لا يقال إلا مقرونًا بالاستثناء بالمشيئة لما فيه من تزكية النفس والشهادة على نفسه بالإيمان، فقوله: ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾؛ أي: بأنه واجب الوجود[1] واحد أحد متصف بكل صفة كمال، منزه عن كل نقص وعيب، مستحق لإفراده بالعبادة كلها وعدم الإشراك به في شيء منها بوجه من الوجوه.

﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾؛ يشمل القرآن والسنة لقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [النساء: ١١٣]؛ فيدخل فيه الإيمان بما تضمنه كتاب الله وسنة رسوله من صفات الباري وصفات رسله واليوم الآخر والغيوب الماضية والمستقبلة، والإيمان بما تضمنه ذلك من الأحكام الشرعية الأمرية وأحكام الجزاء وغير ذلك ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾؛ إلى آخر الآية، فيه الإيمان بجميع الكتب المنزلة على جميع الأنبياء، والإيمان بالأنبياء عمومًا، وخصوصًا ما نص عليه في الآية لشرفهم ولإتيانهم بالشرائع الكبار، فالواجب في الإيمان بالأنبياء والكتب أن يؤمن بهم على وجه العموم والشمول، ثم ما عرف منهم بالتفصيل وجب الإيمان به مفصلًا.

وقوله: ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾؛ أي: بل نؤمن بهم كلهم، هذه خاصية المسلمين التي انفردوا بها عن كل من يدعي أنه على دين، فاليهود والنصارى والصابئون وغيرهم وإن زعموا أنهم يؤمنون بما يؤمنون به من الرسل والكتب، فإنهم يكفرون بغيره فيفرقون بين الرسل والكتب، بعضها يؤمنون به وبعضها يكفرون به، وينقض تكذيبهم تصديقهم، فإن الرسول الذي زعموا أنهم قد آمنوا به قد صدق سائر الرسل وخصوصًا محمدًا ﷺ، فإذا كذبوا محمدًا فقد كذبوا رسولهم فيما أخبرهم به فيكون كفرًا برسولهم، وفي قوله:

(١) عبارة: «واجب الوجود» وردت في ع: «موجود».

﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾. دلالة على أن عطية الدين هي العطية الحقيقية المتصلة بالسعادة الدنيوية والأخروية، لم يأمرنا أن نؤمن بما أوتي الأنبياء من الملك والمال ونحو ذلك، بل أمرنا أن نؤمن بما أعطوا من الكتب والشرائع، وفيه أن الأنبياء مبلغون عن الله ووسائط بين الله وبين خلقه في تبليغ دينه، ليس لهم من الأمر شيء.

وفي قوله: ﴿مِن رَّبِّهِمۡ﴾؛ إشارة إلى أنه من كمال ربوبيته لعباده أن ينزل عليهم الكتب ويرسل إليهم الرسل، فلا تقتضي ربوبيته تركهم سدًى ولا هملًا، وإذا كان ما أوتي النبيون إنما هو من ربهم ففيه الفرق بين الأنبياء وبين من يدعي النبوة، وأنه يحصل الفرق بينهم بمجرد معرفة ما يدعون إليه، فالرسل لا يدعون إلا لخير ولا ينهون إلا عن كل شر، وكل واحد منهم يصدق الآخر ويشهد له بالحق من غير تخالف ولا تناقض لكونه من عند ربهم، ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ [النساء: ٨٢]؛ وهذا بخلاف من ادعى النبوة فلا بد أن يتناقضوا في أخبارهم وأوامرهم ونواهيهم كما يعلم ذلك من سبر أحوال الجميع وعرف ما يدعون إليه، فلما بين تعالى جميع ما يؤمن به عمومًا وخصوصًا، وكان القول لا يغني عن العمل قال: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾؛ أي: خاضعون لعظمته منقادون لعبادته بباطننا وظاهرنا مخلصون له العبادة، بدليل تقديم المعمول وهو ﴿لَهُۥ﴾؛ على العامل وهو ﴿مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾.

فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على إيجازها واختصارها على أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

واشتملت على الإيمان بجميع الرسل وجميع الكتب، وعلى التخصيص الدال على الفضل بعد التعميم، وعلى التصديق بالقلب واللسان والجوارح والإخلاص لله في ذلك، وعلى الفرق بين الرسل الصادقين ومن ادعى النبوة من الكاذبين، وعلى تعليم الباري عباده كيف يقولون، ورحمته وإحسانه عليهم بالنعم الدينية المتصلة بسعادة الدنيا والآخرة. فسبحان من جعل كتابه تبيانًا لكل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون.

﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣٧﴾.

١٣٧ أي: فإن آمن أهل الكتاب بمثل ما آمنتم به يا معشر المؤمنين من جميع الرسل، وجميع الكتب الذين أول من دخل فيهم وأولى خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ، والقرآن، وأسلموا لله وحده ولم يفرقوا بين أحد من الرسل(١)، ﴿فَقَدِ ٱهۡتَدَواْ﴾؛ للصراط المستقيم الموصل لجنات النعيم؛ أي فلا سبيل لهم إلى الهداية إلا بهذا الإيمان، لا كما زعموا بقولهم: ﴿كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ﴾ فزعموا أن الهداية خاصة بما كانوا عليه.

والهدى: هو العلم بالحق والعمل به، وضده الضلال عن العلم، والضلال عن العمل بعد العلم وهو الشقاق الذي كانوا عليه لما تولوا وأعرضوا، فالمشاق هو الذي يكون في شق والله ورسوله في شق، ويلزم من المشاقة المحادة والعداوة البليغة التي من لوازمها بذل ما يقدرون عليه من أذية الرسول، فلهذا وعد الله رسوله أن يكفيه إياهم لأنه ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لجميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات. ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بما بين أيديهم وما خلفهم بالغيب والشهادة بالظواهر والبواطن، فإذا كان كذلك كفاك الله شرهم، وقد أنجز الله لرسوله وعده، وسلطه عليهم حتى قتل بعضهم، وسبى بعضهم، وأجلى بعضهم، وشردهم كل مشرد، ففيه معجزة من معجزات القرآن، وهو الإخبار بالشيء قبل وقوعه فوقع طبق ما أخبر.

﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ١٣٨﴾.

١٣٨ أي: الزموا صبغة الله وهو دينه، وقوموا به قيامًا تامًّا بجميع أعماله الظاهرة والباطنة وجميع عقائده في جميع الأوقات حتى يكون لكم صبغة وصفة من صفاتكم، فإذا كان صفة من صفاتكم أوجب ذلك لكم الانقياد لأوامره طوعًا واختيارًا ومحبة، وصار الدين طبيعة لكم بمنزلة الصبغ التام للثوب الذي صار له صفة، فحصلت لكم السعادة الدنيوية والأخروية لحث الدين على مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ومعالي الأمور.

فلهذا قال على سبيل التعجب المتقرر للعقول الزكية؛ ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗ﴾؛ أي: لا أحسن صبغة من صبغته، وإذا أردت أن تعرف نموذجًا يبين لك الفرق بين

(١) ع: «رسل الله».

صبغة الله وبين غيرها من الصبغ فقس الشيء بضده، فكيف ترى في عبد آمن بربه إيمانًا صحيحًا أثر معه خضوع القلب وانقياد الجوارح، فلم يزل يتحلى بكل وصف حسن وفعل جميل وخلق كامل ونعت جليل، ويتخلى من[1] كل وصف قبيح ورذيلة وعيب، فوصفه الصدق في قوله وفعله، والصبر والحلم والعفة والشجاعة والإحسان القولي والفعلي ومحبة الله وخشيته وخوفه ورجاؤه، فحاله الإخلاص للمعبود والإحسان لعبيده، فقسه بعبد كفر بربه وشرد عنه وأقبل على غيره من المخلوقين فاتصف بالصفات القبيحة من الكفر والشرك والكذب والخيانة والمكر والخداع وعدم العفة والإساءة إلى الخلق في أقواله وأفعاله، فلا إخلاص للمعبود ولا إحسان إلى عبيده؛ فإنه يظهر لك الفرق العظيم بينهما، ويتبين لك أنه لا أحسن[2] من صبغة الله، وفي ضمنه أنه لا أقبح صبغة ممن انصبغ بغير دينه.

وفي قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ۝١٣٨﴾؛ بيان لهذه الصبغة، وهي القيام بهذين الأصلين الإخلاص والمتابعة؛ لأن العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، ولا تكون كذلك حتى يشرعها الله على لسان رسوله. والإخلاص: أن يقصد العبد وجه الله وحده في تلك الأعمال، فتقديم المعمول يؤذن بالحصر، وقال: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ۝١٣٨﴾؛ فوصفهم باسم الفاعل الدال على الثبوت والاستقرار؛ ليدل على اتصافهم بذلك[3].

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ۝١٣٩﴾.

۝١٣٩ المحاجة: هي المجادلة بين اثنين فأكثر تتعلق في المسائل الخلافية حتى يكون كل من الخصمين يريد نصرة قوله وإبطال قول خصمه، فكل واحد منهما يجتهد في إقامة الحجة على ذلك، والمطلوب منها أن تكون بالتي هي أحسن بأقرب طريق يرد الضال إلى الحق، ويقيم الحجة على المعاند، ويوضح الحق، ويبين الباطل، فإن خرجت عن هذه الأمور كانت مماراة ومخاصمة لا خير فيها، وأحدثت من الشر ما أحدثت، فكان أهل الكتاب يزعمون أنهم أولى بالله من المسلمين، وهذا مجرد دعوى تفتقر إلى برهان

(١) ط: «عن».
(٢) زاد في ع، ط: «صبغة».
(٣) زاد في ع، ط: «وكونه صار صبغةً لهم ملازمًا».

ودليل، فإذا كان رب الجميع واحدًا ليس ربًّا لكم دوننا، وكل منا ومنكم له عمله، فاستوينا نحن وأنتم[4] بذلك، فهذا لا يوجب أن يكون أحد الفريقين أولى بالله من غيره؛ لأن التفريق مع الاشتراك في الشيء من غير فرق مؤثر دعوى باطلة، وتفريق بين متماثلين ومكابرة ظاهرة، وإنما يحصل التفضيل بإخلاص الأعمال الصالحة لله وحده، وهذه الحالة وصف المؤمنين وحدهم فتعين أنهم أولى بالله من غيرهم، لأن الإخلاص هو الطريق إلى الخلاص.

فهذا هو الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان بالأوصاف الحقيقية التي يسلمها أهل العقول، ولا ينازع فيها إلا كل مكابر جهول، ففي هذه الآية إرشاد لطيف لطريق المحاجة، وأن الأمور مبنية على الجمع بين المتماثلين، والفرق بين المختلفين.

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝١٤٠﴾.

۝١٤٠ وهذه دعوى أخرى منهم ومحاجة في رسل الله زعموا أنهم أولى بهؤلاء الرسل المذكورين من المسلمين؛ فرد الله عليهم بقوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾؛ فالله يقول: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٦٧﴾ [آل عمران: ٦٧]؛ وهم يقولون بل كان يهوديًّا أو نصرانيًّا، فإما أن يكونوا هم الصادقين العالمين أو يكون الله تعالى هو الصادق العالم بذلك، فأحد الأمرين متعين لا محالة، وصورة الجواب مبهم وهو في غاية الوضوح والبيان، حتى إنه من وضوحه لم يحتج أن يقول بل الله أعلم وهو أصدق، ونحو ذلك لانجلائه لكل أحد، كما إذا قيل الليل أنور أم النهار؟ والنار أحر أم الماء؟ والشرك أحسن أم التوحيد؟ ونحو ذلك، وهذا يعرفه كل من له أدنى عقل حتى إنهم بأنفسهم يعرفون ذلك ويعرفون أن إبراهيم وغيره من الأنبياء لم يكونوا هودًا ولا نصارى، فكتموا هذا العلم وهذه الشهادة، فلهذا كان ظلمهم أعظم الظلم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ فهي شهادة عندهم مودعة من الله لا من الخلق فيقتضي الاهتمام

(٤) ع: «وإياكم».

بإقامتها، فكتموها وأظهروا ضدها، جمعوا بين كتم الحق وعدم النطق به وإظهار الباطل والدعوة إليه، أليس هذا أعظم الظلم؟ بلى والله وسيعاقبهم عليه أشد العقوبة، فلهذا قال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٠﴾؛ بل قد أحصى أعمالهم وعدها وادخر لهم جزاءها، فبئس الجزاء جزاؤهم، وبئست النار مثوى للظالمين.

وهذه طريقة القرآن في ذكر العلم والقدرة عقب الآيات المتضمنة للأعمال التي يجازى عليها، فيفيد ذلك الوعد والوعيد والترغيب والترهيب، ويفيد أيضًا ذكر الأسماء الحسنى بعد الأحكام أن الأمر الديني والجزائي أثر من آثارها وموجب من موجباتها وهي مقتضية له. ثم قال تعالى:

﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤١﴾.

(١٤١) تقدم تفسيرها وكررها لقطع التعلق بالمخلوقين، وأن المعول عليه ما اتصف به الإنسان لا عمل أسلافه وآبائه، فالنفع الحقيقي بالأعمال لا بالانتساب المجرد للرجال.

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾.

(١٤٢) قد اشتملت الآية الأولى على معجزة وتسلية وتطمين قلوب المؤمنين واعتراض، وجوابه من ثلاثة أوجه وصفة المعترض وصفة المُسَلِّم لحكم الله دينه[1]، فأخبر تعالى أنه سيعترض السفهاء من الناس وهم الذين لا يعرفون مصالح أنفسهم، بل يضيعونها ويبيعونها بأبخس ثمن وهم اليهود والنصارى ومن[2] أشبههم من المعترضين على أحكام الله وشرائعه، وذلك أن المسلمين كانوا مأمورين باستقبال بيت المقدس مدة مقامهم بمكة ثم بعد الهجرة إلى المدينة نحو سنة ونصف لما لله تعالى في ذلك من الحكم التي سيشير إلى بعضها، وكانت حكمته تقتضي أمرهم باستقبال الكعبة فأخبرهم أنه لا بد أن يقول السفهاء من الناس: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَا﴾؛ وهي استقبال بيت المقدس أي: أي شيء صرفهم عنه؟ وفي ذلك الاعتراض على حكم الله

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ
عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ
مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ
شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا
جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ
مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ
هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ
لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ
فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ
ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ
أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ
عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٤٤ وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ
ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم
بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ
مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥﴾

وشرعه وفضله وإحسانه، فسلاهم وأخبر بوقوعه وأنه إنما يقع ممن اتصف بالسفه قليل العقل والحلم والديانة، فلا تبالوا بهم؛ إذ قد علم مصدر هذا الكلام، فالعاقل لا يبالي باعتراض السفيه ولا يلقي له ذهنه.

ودلت الآية على أنه لا يعترض على أحكام الله إلا سفيه جاهل معاند، وأما الرشيد المؤمن العاقل فيتلقى أحكام ربه بالقبول والانقياد والتسليم كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٣٦]؛ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾ [النساء: ٦٥]؛ الآية ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾ [النور: ٥١]؛ وقد كان في قولة السفهاء ما يغني عن رد قولهم وعدم المبالاة به، ولكنه تعالى مع هذا لم يترك هذه الشبهة حتى أزالها وكشفها مما سيعرض لبعض القلوب من الاعتراض فقال تعالى: ﴿قُل﴾؛ لهم مجيبًا: ﴿لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢﴾؛

---

(١) ع، ط: «ودينه».
(٢) في الأصل: «ومن».

أي: فإذا كان المشرق والمغرب ملكًا لله ليس جهة من الجهات خارجة من[1] ملكه ومع هذا يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ومنه هدايتكم إلى هذه القبلة التي هي من ملة أبيكم إبراهيم فلأي شيء يعترض المعترض بتوليتكم قبلة داخلة تحت ملك الله؟ لم تستقبلوا جهة ليست ملكًا له فهذا يوجب التسليم لأمره بمجرد ذلك، فكيف وهو من فضل الله عليكم وهدايته وإحسانه أن هداكم لذلك، فالمعترض عليكم معترض على فضل الله حسدًا لكم وبغيًا.

ولما كان قوله: ﴿يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾؛ مطلقًا والمطلق يحمل على المقيد فإن الهداية والضلال لهما أسباب أوجبتها حكمة الله وعدله وقد أخبر في غير موضع من كتابه بأسباب الهداية التي إذا أتى بها العبد حصل له الهدى كما قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦]؛ ذكر في هذه الآية السبب الموجب لهداية هذه الأمة مطلقًا بجميع أنواع الهداية ومنة الله عليها فقال:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ ﴿١٤٣﴾؛ أي: عدلًا خيارًا وما عدا الوسط فأطراف داخلة تحت الخطر فجعل الله هذه الأمة وسطًا في كل أمور الدين:

وسطًا في الأنبياء بين من غلا فيهم كالنصارى، وبين من جفاهم كاليهود بأن آمنوا بهم كلهم على الوجه اللائق بذلك.

ووسطًا في الشريعة لا تشديدات اليهود وآصارهم ولا تهاون النصارى.

وفي باب الطهارة والمطاعم لا كاليهود الذين لا تصح لهم صلاة إلا في بيعهم وكنائسهم، ولا يطهرهم الماء من النجاسات، وقد حرمت عليهم طيبات عقوبة لهم، ولا كالنصارى الذين لا ينجسون شيئًا، ولا يحرمون شيئًا، بل أباحوا ما دب ودرج. بل طهارتهم أكمل طهارة وأتمها.

وأباح الله لهم الطيبات من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح وحرم عليهم الخبائث من ذلك، فلهذه الأمة من الدين أكمله ومن الأخلاق أجلها ومن الأعمال أفضلها ووهبهم الله من العلم والحلم والعدل والإحسان ما لم يهبه لأمة سواهم، فلذلك كانوا ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾؛ كاملين[2]

(١) ع، ط: «عن».
(٢) سقط من: ع.

معتدلين[3] ليكونوا ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾؛ بسبب عدالتهم وحكمهم بالقسط يحكمون على الناس من سائر أهل الأديان ولا يحكم عليهم غيرهم، فما شهدت له هذه الأمة بالقبول فهو مقبول، وما شهدت له بالرد فهو مردود.

فإن قيل: كيف يقبل حكمهم على غيرهم والحال أن كل مختصمين غير مقبول قول بعضهم على بعض؟!

قيل: إنما لم يقبل قول أحد المتخاصمين لوجود التهمة، فأما إذا انتفت التهمة وحصلت العدالة التامة كما في هذه الأمة فإنما المقصود الحكم بالعدل والحق، وشرط ذلك العلم والعدل وهما موجودان في هذه الأمة فقبل قولها، فإن شك شاك في فضلها وطلب مزكيًا لها فهو أكمل الخلق نبيهم ﷺ، فلهذا قال تعالى: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾؛ ومن شهادة هذه الأمة على غيرهم أنه إذا كان يوم القيامة وسأل الله المرسلين عن تبليغهم والأمم المكذبة عن ذلك وأنكروا أن الأنبياء بلغتهم استشهد[4] الأنبياء بهذه الأمة، وزكاها نبيها.

وفي الآية دليل على أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة، وأنهم معصومون عن الخطأ لإطلاق قوله: ﴿وَسَطًا﴾؛ فلو قدر اتفاقهم على الخطأ لم يكونوا وسطًا إلا في بعض الأمور[5]، وفيها اشتراط العدالة في الحكم والشهادة والفتيا ونحو ذلك.

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا﴾؛ وهي: استقبال بيت المقدس أولًا، ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾؛ أي: علمًا يتعلق به الثواب والعقاب، وإلا فهو تعالى عالم بكل الأمور قبل وجودها، ولكن هذا العلم لا يعلق عليه ثوابًا ولا عقابًا لتمام عدله وإقامة الحجة على عباده، بل إذا وجدت أعمالهم ترتب عليها الثواب والعقاب، أي شرعنا تلك القبلة لنعلم ونمتحن

(٣) ليست في الأصل، ع.
(٤) ع: «استشهدت».
(٥) كتب في هامش ع، وأدرج في ط: «ولقوله: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ يقتضي أنهم إذا شهدوا على حكم أن الله أحله أو حرمه أو أوجبه، فإنها معصومة في ذلك».

﴿مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾؛ ويؤمن به فيتبعه على كل حال لأنه عبد مأمور مدبر، ولأنه قد أخبرت الكتب المتقدمة أنه يستقبل الكعبة فالمنصف الذي مقصوده الحق مما يزيده ذلك إيمانًا وطاعة للرسول، وأما من انقلب على عقبيه وأعرض عن الحق واتبع هواه فإنه يزداد كفرًا إلى كفره وحيرة إلى حيرته ويدلي بالحجة الباطلة المبنية على شبهة لا حقيقة لها ﴿وَإِن كَانَتْ﴾؛ أي: صرفك عنها ﴿لَكَبِيرَةً﴾؛ أي: شاقة ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾؛ فعرفوا بذلك نعمة الله عليهم وشكروا وأقروا له بالإحسان حيث وجههم إلى هذا البيت العظيم الذي فضله على سائر بقاع الأرض وجعل قصده ركنًا من أركان الإسلام وهادمًا للذنوب والآثام، فلهذا خف عليهم ذلك وشق على من سواهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾؛ أي: ما ينبغي له ولا يليق به تعالى بل هي من الممتنعات عليه، فأخبر أنه ممتنع عليه ومستحيل أن يضيع إيمانكم، وفي هذا بشارة عظيمة لمن منَّ الله عليهم بالإسلام والإيمان بأن الله سيحفظ عليهم إيمانهم فلا يضيعه، وحفظه نوعان: حفظ عن الضياع والبطلان بعصمته لهم عن كل مفسد ومزيل له ومنقص من المحن المقلقة والأهواء الصادة، وحفظ بتنميته لهم وتوفيقهم لما يزداد به إيمانهم ويتم به إيقانهم، فكما ابتدأكم بأن هداكم للإيمان فسيحفظه لكم ويتم نعمته بتنميته وتنمية أجره وثوابه وحفظه من كل مكدر، بل إذا وجدت المحن التي المقصود منها تبيين المؤمن الصادق من الكاذب فإنها تمحص المؤمنين وتظهر صدقهم، وكأن في هذا احترازًا عما قد يقال إن قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾؛ قد يكون سببًا لترك بعض المؤمنين إيمانهم فدفع هذا الوهم بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾؛ بتقديره لهذه المحنة أو غيرها، ودخل في ذلك من مات من المؤمنين قبل تحويل الكعبة فإن الله لا يضيع إيمانهم لكونهم امتثلوا أمر الله وطاعة رسوله في وقتها، وطاعة الله امتثال أمره في كل وقت بحسب ذلك. وفي هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان تدخل فيه أعمال الجوارح.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾؛ أي: شديد الرحمة بهم عظيمها، فمن رأفته ورحمته بهم أن يتم عليهم نعمته التي ابتدأهم بها، وأن ميز عنهم من دخل في الإيمان بلسانه دون قلبه، وأن امتحنهم امتحانًا زاد به إيمانهم وارتفعت به درجتهم، وأن وجههم إلى أشرف البيوت وأجلها.

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾.

﴿١٤٤﴾ يقول الله لنبيه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي كثرة تردده في جميع جهاته شوقًا وانتظارًا لنزول الوحي باستقبال الكعبة، وقال: ﴿وَجْهِكَ﴾؛ ولم يقل بصرك لزيادة اهتمامه، ولأن تقليب الوجه مستلزم لتقليب البصر، ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾؛ أي: نوجهك لولايتنا إياك، ﴿قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾؛ أي: تحبها، وهي الكعبة، وفي هذا بيان لفضله وشرفه ﷺ، حيث إن الله تعالى يسارع في رضاه. ثم صرح له باستقبالها فقال: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾؛ والوجه: ما أقبل من بدن الإنسان ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾؛ أي: من بر وبحر، شرق وغرب، جنوب وشمال، ﴿فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾؛ أي: جهته، ففيها اشتراط استقبال الكعبة للصلوات كلها فرضها ونفلها، وأنه إن أمكن استقبال عينها وإلا فيكفي شطرها وجهتها، وأن الالتفات بالبدن مبطل للصلاة؛ لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده.

ولما ذكر تعالى - فيما تقدم - المعترضين على ذلك من أهل الكتاب وغيرهم وذكر جوابهم، ذكر هنا أن أهل الكتاب والعلماء(١) منهم يعلمون أنك في ذلك على حق واضح(٢) لما يجدونه في كتبهم فيعترضون عنادًا وبغيًا، فإذا كانوا يعلمون بخطئهم فلا تبالوا بذلك، فإن الإنسان إنما يغمه اعتراض من اعترض عليه إذا كان الأمر مشتبهًا وكان ممكنًا أن يكون معه صواب، فأما إذا تيقن أن الصواب والحق مع المعترض عليه وأن المعترض معاند عارف ببطلان قوله فإنه لا محل للمبالاة، بل ينتظر بالمعترض العقوبة الدنيوية والأخروية فلهذا قال تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾؛ بل يحفظ عليهم أعمالهم ويجازيهم عليها، وفيها وعيد للمعترضين وتسلية للمؤمنين.

(١) ع، ط: «العلم».
(٢) ع: «وأمر».

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾.

﴿١٤٥﴾ كان النبي ﷺ من كمال حرصه على هداية الخلق يبذل[1] غاية ما يقدر عليه من النصيحة ويتلطف بهدايتهم، ويحزن إذا لم ينقادوا لأمر الله، فكان من الكفار من تمرد عن أمر الله واستكبر على رسل الله وترك الهدى عمدًا وعدوانًا فمنهم اليهود والنصارى أهل الكتاب الأول الذين كفروا بمحمد ﷺ عن يقين لا عن جهل؛ فلهذا أخبره الله تعالى أنك لئن[2] ﴿ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ ﴾؛ أي: بكل برهان ودليل يوضح قولك ويبين ما تدعو إليه، ﴿ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ﴾؛ أي: ما تبعوك؛ لأن اتباع القبلة دليل على اتباعه، ولأن السبب هو شأن القبلة، وإنما كان الأمر كذلك لأنهم معاندون عرفوا الحق وتركوه، فالآيات[3] ينتفع بها من يتطلب الحق وهو مشتبه عليه؛ فتوضح له الآيات البينات، وأما من جزم بعدم اتباع الحق فلا حيلة فيه، وأيضًا فإن اختلافهم فيما بينهم حاصل، وبعضهم غير تابع قبلة بعض، فليس بغريب منهم مع ذلك ألَّا يتبعوا قبلتك يا محمد وهم الأعداء حقيقة الحسدة. وقوله: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾؛ أبلغ من قوله ولا تتبع؛ لأن ذلك يتضمن أنه ﷺ، اتصف بمخالفتهم، فلا يمكن وقوع ذلك منه، ولم يقل: ولو أتوا بكل آية؛ لأنهم لا دليل لهم على قولهم، وكذلك إذا تبين الحق بأدلته اليقينية لم يلزم الإتيان بأجوبة الشبه الواردة عليه؛ لأنه لا حد لها، ولأنه يعلم بطلانها للعلم بأن كل ما نافى الحق الواضح فهو باطل، فيكون حل الشبه من باب التبرع.

﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم ﴾؛ إنما قال: أهواءهم ولم يقل: دينهم؛ لأن ما هم عليه مجرد أهواء[4] نفس، حتى هم في قلوبهم يعلمون أنه ليس بدين، ومن ترك الدين اتبع الهوى ولا محالة، قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الجاثية: ٢٣]، ﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾؛ بأنك على الحق وهم على الباطل، ﴿ إِنَّكَ إِذًا ﴾؛ أي: إن اتبعتهم، فهذا احتراز لئلا تنفصل هذه الجملة عما قبلها ولو في الأفهام

(١) زاد في ع، ط: «لهم».
(٢) ع، ط: «لو». وقد ضبب عليها المؤلف.
(٣) زاد في ع، ط: «تفيد و».
(٤) ع، ط: «أهوية».

﴿ لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾؛ أي: داخل فيهم ومندرج في جملتهم، وأي ظلم أعظم من ظلم من علم الحق والباطل؟ فآثر الباطل على الحق، وهذا وإن كان الخطاب له ﷺ، فإن أمته داخلة في ذلك؛ وأيضًا فإذا كان هو ﷺ، لو فعل ذلك - وحاشاه - صار ظالمًا مع علو مرتبته وكثرة إحسانه[5] فغيره من باب أولى وأحرى. ثم قال تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾.

﴿١٤٦﴾ يخبر تعالى أن أهل الكتاب قد تقرر عندهم وعرفوا أن محمدًا رسول الله، وأن ما جاء به حق وصدق، وتيقنوا ذلك كما تيقنوا أبناءهم بحيث لا يشتبهون[6] بغيرهم، فمعرفتهم بمحمد ﷺ، وصلت إلى حد لا يشكون فيه ولا يمترون. لكن فريقًا منهم وهم أكثرهم الذين كفروا به كتموا هذه الشهادة مع تيقنها وهم يعلمون، ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ وفي ضمن ذلك تسلية للرسول والمؤمنين وتحذير لهم من شرهم وشبههم، وفريق منهم لم يكتموا الحق وهم يعلمون، فمنهم من آمن به، ومنهم من كفر به جهلًا.

فالعالم عليه إظهار الحق وتبيينه وتزيينه بكل ما يقدر عليه من عبارة وبرهان ومثال وغير ذلك، وإبطال الباطل وتمييزه عن الحق وتشيينه وتقبيحه للنفوس بكل طريق مؤد لذلك، فهؤلاء الكاتمون عكسوا الأمر فانعكست أحوالهم.

﴿١٤٧﴾ ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾؛ أي: هذا الحق الذي هو أحق أن يسمى حقًّا من كل شيء لما اشتمل عليه من المطالب العالية والأوامر الحسنة وتزكية النفوس وحثها على تحصيل مصالحها ودفع مفاسدها لصدوره من ربك الذي من جملة تربيته لك أن أنزل عليك هذا القرآن الذي فيه تربية العقول والنفوس وجميع المصالح، ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾؛ أي: فلا يحصل لك أدنى شك وريبة فيه، بل تفكر فيه وتأمل حتى تصل بذلك إلى اليقين، لأن التفكر فيه لا محالة دافع للشك موصل لليقين.

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾.

(٥) ع: «حسناته».
(٦) زاد في ع، ط: «عليهم».

(١٤٨) أي: كل أهل دين وملة له وجهة يتوجه إليها في عبادته، وليس الشأن في استقبال القبلة فإنه من الشرائع التي تتغير بها الأزمنة والأحوال ويدخلها النسخ والنقل من جهة إلى جهة، ولكن الشأن كل الشأن في امتثال طاعة الله والتقرب إليه وطلب الزلفى عنده، فهذا هو عنوان السعادة ومنشور الولاية، وهو الذي إذا لم تتصف به النفوس حصلت لها خسارة الدنيا والآخرة، كما أنها إذا اتصفت به فهي الرابحة على الحقيقة، وهذا أمر متفق عليه في جميع الشرائع، وهو الذي خلق الله له الخلق وأمرهم به، والأمر بالاستباق إلى الخيرات قدر زائد على الأمر بفعل الخيرات، فإن الاستباق إليها يتضمن فعلها وتكميلها وإيقاعها على أكمل الأحوال والمبادرة إليها، ومن سبق في الدنيا إلى الخيرات فهو السابق في الآخرة إلى الجنات، فالسابقون أعلى الخلق درجة، والخيرات تشمل جميع الفرائض والنوافل من صلاة وصيام وزكاة وحج وعمرة وجهاد ونفع متعد وقاصر، ولما كان أقوى ما يحث النفوس على المسارعة إلى الخير وينشطها ما رتب الله عليها من الثواب قال: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨)﴾؛ فيجمعكم ليوم القيامة بقدرته، فيجازي كل عامل بعمله؛ ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى (٣١)﴾ [النجم: ٣١].

ويستدل بهذه الآية الشريفة على الإتيان بكل فضيلة يتصف بها العمل، كالصلاة في أول وقتها، والمبادرة إلى إبراء الذمة من الصيام والحج والعمرة وإخراج الزكاة، والإتيان بسنن العبادات وآدابها، فلله ما أجمعها وأنفعها من آية.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠)﴾.

(١٤٩) أي: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾؛ في أسفارك وغيرها وهذا للعموم، ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾؛ أي: جهته. ثم خاطب الأمة عمومًا فقال:

(١٥٠) ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾؛ وقال:

الجزء الثاني — سورة البقرة

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ (١٤٧) وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠) كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ (١٥١) فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٥٣)

٢٣

﴿وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾؛ أكده بـ (إن)، واللام لئلا يقع لأحد فيه أدنى شبهة، ولئلا يظن أنه على سبيل التشهي لا الامتثال، ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩)﴾؛ بل هو مطلع عليكم في جميع أحوالكم فتأدبوا معه وراقبوه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، فإن أعمالكم غير مغفول عنها بل مجازون عليها أتم الجزاء إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر، وقال هنا: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾؛ أي: شرعنا لكم استقبال الكعبة المشرفة لينقطع عنكم احتجاج الناس من أهل الكتاب والمشركين، فإنه لو بقي مستقبلًا لبيت المقدس لتوجهت عليه الحجة، فإن أهل الكتاب يجدون في كتابهم أن قبلته المستقرة هي الكعبة البيت الحرام، والمشركين يرون أن من مفاخرهم هذا البيت العظيم، وأنه من ملة إبراهيم، وأنه إذا لم يستقبله محمد ﷺ، توجهت نحوه حججهم، وقالوا: كيف يدعي أنه على ملة إبراهيم وهو من ذريته وقد ترك استقبال قبلته؟ فباستقبال الكعبة[1] قامت الحجة على أهل الكتاب والمشركين وانقطعت حججهم عليه، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ

(١) في الأصل، ط: «القبلة».

﴿ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾(١)؛ أي: من احتج منهم بحجة هو ظالم فيها وليس لها مستند إلا اتباع الهوى والظلم؛ فهذا لا سبيل إلى إقناعه والاحتجاج عليه، وكذلك لا معنى لجعل الشبهة التي يوردونها على سبيل الاحتجاج محلًا يؤبه لها ولا يلقى لها بال، فلهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾؛ لأن حجتهم باطلة، والباطل كاسمه مخذول، مخذول صاحبه، وهذا بخلاف صاحب الحق فإن للحق صولة وعزًّا يوجب خشية من هو معه، وأمر تعالى بخشيته التي هي رأس(٢) كل خير، فمن لم يخش الله؛ لم ينكف عن معصيته، ولم يمتثل أمره.

وكان صرف المسلمين إلى الكعبة مما حصلت فيها فتنة كبيرة أشاعها أهل الكتاب والمنافقون والمشركون وأكثروا فيها من الكلام والشبه، فلهذا بسطها الله تعالى، وبينها أكمل بيان، وأكدها بأنواع من التأكيدات التي تضمنتها هذه الآيات.

منها: الأمر بها ثلاث مرات مع كفاية المرة الواحدة.

ومنها: أن المعهود أن الأمر إما أن يكون للرسول فتدخل فيه الأمة(٣) أو للأمة عمومًا، وفي هذه الآية أمر فيها الرسول بالخصوص في قوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾؛ والأمة عمومًا في قوله: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾.

ومنها: أنه رد فيه جميع الاحتجاجات الباطلة التي أوردها أهل العناد وأبطلها شبهة شبهة كما تقدم توضيحها.

ومنها: أنه قطع الأطماع من اتباع الرسول قبلة أهل الكتاب.

ومنها: قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾؛ فمجرد إخبار الصادق العظيم كافٍ شافٍ، ولكن مع هذا قال: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

ومنها: أنه أخبر وهو العالم بالخفيات أن أهل الكتاب متقرر عندهم صحة هذا الأمر، ولكنهم يكتمون هذه الشهادة مع العلم.

ولما كان توليته لنا إلى استقبال القبلة نعمة عظيمة وكان لطفه بهذه الأمة ورحمته لم يزل يتزايد وكلما شرع لهم شريعة فهي نعمة عظيمة قال: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾؛ فأصل النعمة الهداية لدينه بإرسال رسوله وإنزال كتابه، ثم بعد ذلك النعم المتممات لهذا الأصل لا تعد كثرة ولا تحصر منذ بعث الله رسوله إلى أن قرب رحيله من الدنيا وقد أعطاه الله من الأحوال والنعم وأعطى أمته ما أتم به نعمته عليه وعليهم وأنزل الله عليه ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]؛ فلله الحمد على فضله الذي لا نبلغ له عدًّا فضلًا عن القيام بشكره، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾؛ أي: تعلمون الحق وتعملون به، فالله تبارك وتعالى من رحمته بالعباد قد يسر لهم أسباب الهداية غاية التيسير ونبههم على سلوك طرقها وبينها لهم أتم تبيين حتى إن من جملة ذلك أنه يقيض للحق المعاندين له فيجادلون فيه فيتضح بذلك الحق وتظهر آياته وأعلامه، ويتضح بطلان الباطل وأنه لا حقيقة له، ولولا قيامه في مقابلة الحق لربما لم يتبين حاله لأكثر الخلق وبضدها تتبين الأشياء، فلولا الليل ما عرف فضل النهار، ولولا القبيح ما عرف فضل الحسن، ولولا الظلمة ما عرف منفعة النور، ولولا الباطل ما اتضح الحق اتضاحًا ظاهرًا. فلله الحمد على ذلك.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾.

﴿١٥١﴾ يقول تعالى: إن إنعامنا عليكم باستقبال الكعبة وإتمامها بالشرائع والنعم المتممة ليس ذلك ببدع من إحساننا ولا بأوله، بل أنعمنا عليكم بأصول النعم ومتمماتها فأبلغها إرسالنا إليكم هذا الرسول الكريم منكم تعرفون نسبه وصدقه وأمانته وكماله ونصحه ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾؛ وهذا يعم الآيات القرآنية وغيرها، فهو يتلو عليكم الآيات المبينة للحق من الباطل والهدى من الضلال التي دلتكم أولًا على توحيد الله وكماله ثم على صدق رسوله ووجوب الإيمان به ثم على جميع ما أخبر به من المعاد والغيوب، حتى حصل لكم الهداية التامة والعلم اليقيني ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾؛ أي: يطهر أخلاقكم ونفوسكم بتربيتها على الأخلاق الجميلة، وتنزيهها عن الأخلاق الرذيلة، وذلك كتزكيتهم من الشرك إلى التوحيد ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق، ومن الخيانة إلى الأمانة، ومن الكبر إلى التواضع،

(١) مكان هذه الآية في ع، ط: «إلا من ظلم منهم».
(٢) ع: «أصل».
(٣) زاد في ع، ط: «تبعًا».

ومن سوء الخلق إلى حسن الخلق، ومن التباغض والتهاجر والتقاطع إلى التحاب والتواصل والتوادد وغير ذلك من أنواع التزكية ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: القرآن ألفاظه ومعانيه ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾؛ قيل هي السنة، وقيل: الحكمة معرفة أسرار الشريعة والفقه فيها وتنزيل الأمور منازلها، فيكون على هذا تعليم السنة داخلًا في تعليم الكتاب؛ لأن السنة تبين القرآن وتفسره وتعبر عنه ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾؛ لأنهم كانوا قبل بعثته في ضلال مبين لا علم ولا عمل، فكل علم أو عمل نالته هذه الأمة فعلى يده ﷺ، وبسببه كان.

فهذه النعم هي أصول النعم على الإطلاق، وهي أكبر نعم ينعم بها على عباده؛ فوظيفتهم شكر الله عليها والقيام بها، فلهذا قال تعالى:

﴿١٥٢﴾ ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾؛ فأمر تعالى بذكره، ووعد عليه أفضل جزاء، وهو ذكره لمن ذكره كما قال تعالى على لسان رسوله: «**من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم**»(١). وذكر الله تعالى أفضله ما تواطأ عليه القلب واللسان وهو(٢) الذي يثمر معرفة الله ومحبته وكثرة ثوابه، والذكر هو رأس الشكر فلهذا أمر به خصوصًا ثم من بعده أمر بالشكر عمومًا فقال: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِى﴾؛ أي: على ما أنعمت عليكم بهذه النعم ودفعت عنكم صنوف النقم، والشكر يكون بالقلب إقرارًا بالنعم واعترافًا، وباللسان ذكرًا وثناءً، وبالجوارح طاعةً لله وانقيادًا لأمره واجتنابًا لنهيه، فالشكر فيه بقاء النعمة الموجودة وزيادة في النعم المفقودة، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]. وفي الإتيان بالأمر بالشكر بعد النعم الدينية من العلم وتزكية الأخلاق والتوفيق للأعمال بيان أنها أكبر النعم، بل هي النعم الحقيقية التي تدوم إذا زال غيرها، وأنه ينبغي لمن وفقوا لعلم أو عمل أن يشكروا الله على ذلك ليزيدهم من فضله وليندفع عنهم الإعجاب فيشتغلوا بالشكر، ولما كان الشكر ضده الكفر نهى عن ضده فقال: ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾؛ المراد بالكفر ههنا ما يقابل الشكر، فهو كفر النعم وجحدها وعدم القيام بها.

ويحتمل أن يكون المعنى عامًّا فيكون الكفر أنواعًا كثيرة أعظمه الكفر بالله، ثم أنواع المعاصي على اختلاف أنواعها وأجناسها من الشرك فما دونه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾.

﴿١٥٣﴾ أمر الله تعالى المؤمنين بالاستعانة على أمورهم الدينية والدنيوية ﴿بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾؛ فالصبر هو حبس النفس وكفها على ما تكره، فهو ثلاثة أقسام:

صبرها على طاعة الله حتى تؤديها، وعن معصية الله حتى تتركها، وعلى أقدار الله المؤلمة فلا تتسخطها.

فالصبر هو المعونة العظيمة على كل أمر، فلا سبيل لغير الصابر أن يدرك مطلوبه، خصوصًا الطاعات الشاقة المستمرة فإنها مفتقرة أشد الافتقار إلى تحمل الصبر وتجرع المرارة الشاقة، فإذا لازم صاحبها الصبر فاز بالنجاح، وإن رده المكروه والمشقة عن الصبر والملازمة عليها لم يدرك شيئًا وحصل على الحرمان، وكذلك المعصية التي تشتد دواعي النفس ونوازعها إليها وهي في محل قدرة العبد، فهذه لا يمكن تركها إلا بصبر عظيم وكف لدواعي قلبه ونوازعها لله تعالى واستعانة بالله على العصمة منها فإنها من الفتن الكبار، وكذلك البلاء الشاق خصوصًا إن استمر، فهذا تضعف معه القوى النفسانية والجسدية ويوجد مقتضاها وهو التسخط إن لم يقاومها صاحبها بالصبر لله والتوكل عليه واللجأ إليه والافتقار على الدوام، فعلمت أن الصبر محتاج إليه العبد، بل مضطر في كل حالة من أحواله، فلهذا أمر الله تعالى به وأخبر أنه ﴿مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾؛ أي: مع من كان الصبر لهم خلقًا وصفة وملكة بمعونته وتوفيقه وتسديده فهانت عليهم بذلك المشاق والمكاره وسهل عليهم كل عظيم وزالت عنهم كل صعوبة، وهذه معية خاصة تقتضي محبته ومعونته ونصره وقربه وهذه منقبة عظيمة للصابرين فلو لم يكن للصابرين فضيلة إلا أنهم فازوا بهذه المعية من الله لكفى بها فضلًا وشرفًا، وأما المعية العامة فهي معية العلم والقدرة كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] وهذه عامة للخلق.

وأمر تعالى بالاستعانة بالصلاة؛ لأن الصلاة هي عماد الدين ونور المؤمنين، وهي الصلة بين العبد وبين ربه، فإذا كانت صلاة العبد صلاة كاملة مجتمعًا فيها ما يلزم فيها

(١) البخاري (٧٤٠٥)، مسلم (٢٦٧٥).
(٢) ع، ط: «وهو الذكر».

وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن
لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ
وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ
﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ
﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ
هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ۞ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ
فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ
بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ
يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ
لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ
﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ
عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ
كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ
﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ
﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾

وما يسن، وحصل فيها حضور القلب الذي هو لبها، فصار العبد إذا دخل فيها استشعر دخوله على ربه ووقوفه بين يديه موقف العبد الخادم المتأدب مستحضرًا لكل ما يقوله وما يفعله مستغرقًا بمناجاة ربه ودعائه، لا جرم أن هذه الصلاة من أكبر المعونة على جميع الأمور، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولأن هذا الحضور الذي يكون في الصلاة يوجب للعبد في قلبه وصفًا وداعيًا يدعوه إلى امتثال أوامر ربه واجتناب نواهيه، هذه هي الصلاة التي أمر الله أن نستعين بها على كل شيء.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

﴿١٥٤﴾ لما ذكر تبارك وتعالى الأمر بالاستعانة بالصبر على جميع الأحوال[1] ذكر نموذجًا مما يستعان بالصبر عليه وهو الجهاد في سبيله وهو أفضل الطاعات البدنية وأشقها على النفوس لمشقته في نفسه ولكونه مؤديًا للقتل وعدم الحياة التي إنما يرغب الراغبون في هذه الدنيا لحصول الحياة ولوازمها، فكل ما يتصرفون به فإنه سعي لها ودفع لما يضادها.

ومن المعلوم أن المحبوب لا يتركه العاقل إلا لمحبوب أعلى منه وأعظم، فأخبر تعالى أن من قتل في سبيله بأن قاتل في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا ودينه الظاهر، لا لغير ذلك من الأغراض فإنه لم تفته الحياة المحبوبة، بل حصل له حياة أعظم وأكمل مما تظنون وتحسبون، فالشهداء ﴿أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١]؛ فهل أعظم من هذه الحياة المتضمنة للقرب من الله تعالى وتمتعهم برزقه البدني في المأكولات والمشروبات اللذيذة والرزق الروحي وهو الفرح وهو الاستبشار وزوال كل خوف وحزن، وهذه حياة برزخية أكمل من الحياة الدنيا، بل قد أخبر النبي ﷺ أن أرواح الشهداء في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل معلقة بالعرش.

وفي هذه الآية أعظم حث على الجهاد في سبيل الله وملازمة الصبر عليه، فلو شعر العباد بما للمقتولين في سبيل الله من الثواب لم يتخلف عنه أحد، ولكن عدم العلم اليقيني التام هو الذي فتر العزائم وزاد نوم النائم وأفات الأجور العظيمة والغنائم، لم لا يكون كذلك والله تعالى قد ﴿اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١]؛ فوالله لو كان للإنسان ألف نفس تذهب نفسًا فنفسًا في سبيل الله لم يكن عظيمًا في جانب هذا الأجر العظيم.

ولهذا لا يتمنى الشهداء بعدما عاينوا من ثواب الله وحسن جزائه إلا أن يردوا إلى الدنيا؛ حتى يقتلوا في سبيله مرة بعد مرة.

وفي الآية دليل على نعيم البرزخ وعذابه كما تكاثرت بذلك النصوص.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم

(١) ع: «الأمور».

﴿مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾.

١٥٥ أخبر تعالى أنه لا بد أن يبتلي عباده بالمحن ليتبين الصادق من الكاذب والجازع من الصابر، وهذه سنته تعالى في عباده، لأن السراء لو استمرت لأهل الإيمان ولم يحصل معها محنة لحصل الاختلاط الذي هو فساد، وحكمة الله تقتضي تمييز أهل الخير من أهل الشر، هذه فائدة المحن لا إزالة ما مع المؤمنين من الإيمان ولا ردهم عن دينهم، فما كان الله ليضيع إيمان المؤمنين. فأخبر في هذه الآية أنه سيبتلي عباده، ﴿بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ﴾؛ من الأعداء، ﴿وَٱلۡجُوعِ﴾؛ أي: بشيء يسير منهما لأنه لو ابتلاهم بالخوف كله أو الجوع لهلكوا، والمحن تمحص لا تهلك، ﴿وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ﴾؛ وهذا يشمل جميع النقص المعتري للأموال من جوائح سماوية وغرق وضياع وأخذ الظلمة للأموال من الملوك الظلمة وقطاع الطريق وغير ذلك ﴿وَٱلۡأَنفُسِ﴾؛ أي: ذهاب الأحباب من الأولاد والأقارب والأصحاب، ومن أنواع الأمراض في بدن العبد أو بدن من يحبه، ﴿وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾؛ أي: الحبوب وثمار النخيل والأشجار كلها والخضر ببرد أو بَرَدٍ أو حرق أو آفة سماوية من جراد[1] ونحوه، فهذه الأمور لا بد أن تقع؛ لأن العليم الخبير أخبر بها فوقعت كما أخبر، فإذا وقعت انقسم الناس قسمين: جازعين وصابرين.

فالجازع حصلت له المصيبتان، فوات المحبوب وهو وجود هذه المصيبة، وفوات ما هو أعظم منها وهو الأجر بامتثال أمر الله بالصبر؛ ففاز بالخسارة والحرمان ونقص ما معه من الإيمان، وفاته الصبر والرضا والشكران، وحصل له السخط الدال على شدة النقصان.

وأما من وفقه الله للصبر عند وجود هذه المصائب فحبس نفسه عن التسخط قولًا وفعلًا واحتسب أجرها عند الله، وعلم أن ما يدركه من الأجر بصبره أعظم من المصيبة التي حصلت له، بل المصيبة تكون نعمة في حقه؛ لأنها صارت طريقًا لحصول ما هو خير له وأنفع منها، فقد امتثل أمر الله وفاز بالثواب، فلهذا قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥﴾؛ أي: بشرهم بأنهم يوفون أجرهم بغير حساب، فالصابرون هم الذين فازوا بالبشارة العظيمة والمنحة الجسيمة، ثم وصفهم بقوله:

(١) ع: «جند».

١٥٦ ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٌ﴾؛ وهي كل ما يؤلم القلب أو البدن أو كليهما مما تقدم ذكره، ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ﴾؛ أي: مملوكون لله مدبرون تحت أمره وتصريفه؛ فليس لنا من أنفسنا وأموالنا شيء، فإذا ابتلانا بشيء منها فقد تصرف أرحم الراحمين بمماليكه وأموالهم فلا اعتراض عليه، بل من كمال عبودية العبد علمه بأن وقوع البلية من المالك الحكيم الذي هو أرحم بعبده من نفسه، فيوجب له ذلك الرضا عن الله والشكر له على تدبيره لما هو خير لعبده وإن لم يشعر بذلك، ومع أننا مملوكون لله فإنا إليه راجعون يوم المعاد، فمجاز كل عامل بعمله، فإن صبرنا واحتسبنا وجدنا أجرنا موفرًا عنده، وإن جزعنا وسخطنا لم يكن حظنا إلا السخط وفوات الأجر، فكون العبد لله وراجعًا[2] إليه من أقوى أسباب الصبر.

١٥٧ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ الموصوفون بالصبر المذكور ﴿عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾؛ أي: ثناء وتنويه بحالهم، ﴿وَرَحۡمَةٌ﴾؛ عظيمة، ومن رحمته إياهم أن وفقهم للصبر الذي ينالون به كمال الأجر ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾؛ الذين عرفوا الحق، وهو في هذا الموضع علمهم بأنهم لله وأنهم إليه راجعون، وعملوا به وهو هنا صبرهم لله، ودلت هذه الآية على أن من لم يصبر فله ضد ما لهم فحصل له الذم من الله والعقوبة والضلال والخسار، فما أعظم الفرق بين الفريقين، وما أقل تعب الصابرين وأعظم عناء الجازعين.

فقد اشتملت هاتان الآيتان على توطين النفوس على المصائب قبل وقوعها لتخف وتسهل إذا وقعت، وبيان ما تقابل به إذا وقعت وهو الصبر، وبيان ما يعين على الصبر وما للصابرين من الأجر. ويعلم حال غير الصابر بضد حالة الصابر، وأن هذا الابتلاء والامتحان سنة الله التي قد خلت، ولن تجد لسنة الله تبديلًا وبيان أنواع المصائب.

﴿۞إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨﴾.

١٥٨ يخبر تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ﴾؛ وهما معروفان ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أعلام دينه الظاهرة التي تعبد الله بها عباده، وإذا كانا من شعائر الله فقد أمر الله بتعظيم شعائره

(٢) في الأصل، ع: «وراجع».

فقال: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج: ٣٢]؛ فدل مجموع النصين أنهما من شعائر الله، وأن تعظيم شعائره من تقوى القلوب، والتقوى واجبة على كل مكلف، وذلك يدل على أن السعي بهما فرض لازم للحج والعمرة كما عليه الجمهور، ودلت عليه الأحاديث النبوية، وفعله النبي ﷺ، وقال: «خذوا عني مناسككم»(١).

﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾؛ هذا دفع لوهم من توهم وتحرج من المسلمين عن الطواف بينهما؛ لكونهما في الجاهلية تعبد عندهما الأصنام، فنفى تعالى الجناح لدفع هذا الوهم، لا لأنه غير لازم، ودل تقييد نفي الجناح فيمن تطوف بهما في الحج والعمرة أنه لا يتطوع بالسعي مفردًا إلا مع انضمامه لحج أو عمرة، بخلاف الطواف بالبيت؛ فإنه يشرع مع العمرة والحج وهو عبادة مفردة.

فأما السعي والوقوف بعرفة ومزدلفة ورمي الجمار فإنها تتبع النسك، فلو فعلت غير تابعة للنسك كانت بدعة، لأن البدعة نوعان: نوع يتعبد لله بعبادة لم يشرعها أصلًا، ونوع يتعبد له بعبادة قد شرعها على صفة مخصوصة، فتفعل على غير تلك الصفة وهذا منه.

وقوله: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ﴾؛ أي: فعل طاعة مخلصًا بها لله تعالى ﴿خَيْرًا﴾؛ من حج وعمرة وطواف وصلاة وصوم وغير ذلك، فهو خير له؛ فدل هذا على أنه كلما ازداد العبد من طاعة الله ازداد خيره وكماله ودرجته عند الله لزيادة إيمانه، ودل تقييد التطوع بالخير أن من تطوع بالبدع التي لم يشرعها الله ولا رسوله أنه لا يحصل له إلا العناء، وليس بخير له، بل قد يكون شرًّا له إن كان متعمدًا عالمًا لعدم مشروعية العمل.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾؛ الشاكر والشكور من أسماء الله تعالى الذي يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه العظيم من الأجر الذي إذا قام عبده بأوامره وامتثل طاعته أعانه على ذلك، وأثنى عليه ومدحه وجازاه في قلبه نورًا وإيمانًا وسعة وفي بدنه قوة ونشاطًا، وفي جميع أحواله زيادة بركة ونماء، وفي أعماله زيادة توفيق، ثم بعد ذلك يقدم على الثواب الآجل عند ربه كاملًا موفرًا لم تنقصه هذه الأمور، ومن شكره لعبده أن من ترك شيئًا لله أعاضه الله خيرًا منه، ومن تقرب منه شبرًا تقرب منه ذراعًا، ومن تقرب منه ذراعًا تقرب منه باعًا، ومن أتاه يمشي أتاه هرولة، ومن عامله ربح عليه أضعافًا مضاعفة، ومع أنه شاكر فهو عليم بمن يستحق الثواب الكامل بحسب نيته وإيمانه وتقواه ممن ليس كذلك، عليم بأعمال العباد فلا يضيعها، بل يجدونها أوفر ما كانت على حسب نياتهم التي اطلع عليها العليم الحكيم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾.

﴿١٥٩﴾ هذه الآية وإن كانت نازلة في أهل الكتاب وما كتموا من شأن الرسول ﷺ وصفاته، فإن حكمها عام لكل من اتصف بكتمان ما أنزل الله ﴿مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ الدالات على الحق المظهرات له ﴿وَٱلْهُدَىٰ﴾؛ وهو العلم الذي تحصل به الهداية إلى الصراط المستقيم، ويتبين به طريق أهل النعيم من طريق أهل الجحيم، فإن الله أخذ الميثاق على أهل العلم بأن يبينوا للناس ما مَنَّ الله به عليهم من علم الكتاب ولا يكتموه، فمن نبذ ذلك وجمع بين المفسدتين: كتم ما أنزل الله، والغش لعباد الله فأولئك ﴿يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يبعدهم ويطردهم عن قربه ورحمته ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾؛ وهم جميع الخليقة، فتقع عليهم اللعنة من جميع الخليقة لسعيهم في غش الخلق وفساد أديانهم وإبعادهم من رحمة الله، فجوزوا من جنس عملهم، كما أن معلم الناس الخير يصلي الله عليه وملائكته حتى الحوت في جوف الماء لسعيه في مصلحة الخلق وإصلاح أديانهم، وقربهم من رحمة الله، فجوزي من جنس عمله.

فالكاتم لما أنزله الله مضاد لأمر الله مشاق لله، يبين الله الآيات للناس ويوضحها، وهذا يسعى في طمسها وإخفائها، فهذا عليه هذا الوعيد الشديد.

﴿١٦٠﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾؛ أي: رجعوا عما هم عليه من الذنوب ندمًا وإقلاعًا وعزمًا على عدم المعاودة

(١) مسلم (١٢٩٧).

﴿وَأَصْلَحُواْ﴾؛ ما فسد من أعمالهم؛ فلا يكفي ترك القبيح حتى يحصل فعل الحسن، ولا يكفي ذلك في الكاتم أيضًا حتى يبين ما كتمه ويبدي ضد ما أخفى فهذا يتوب الله عليه لأن توبة الله غير محجوب عنها، فمن أتى بسبب التوبة تاب الله عليه لأنه ﴿التَّوَّابُ﴾؛ أي: الرجاع على عباده بالعفو والصفح بعد الذنب إذا تابوا وبالإحسان والنعم بعد المنع إذا رجعوا ﴿الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾؛ الذي اتصف بالرحمة العظيمة التي وسعت كل شيء، ومن رحمته أن وفقهم للتوبة والإنابة فتابوا وأنابوا ثم رحمهم بأن قبل ذلك منهم لطفًا وكرمًا، هذا حكم التائب من الذنب.

﴿١٦١﴾ وأما من كفر واستمر على كفره حتى مات لم يرجع إلى ربه ولم ينب إليه ولم يتب عن قريب فأولئك ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾﴾؛ لأنه لما صار كفرهم وصفًا ثابتًا صارت اللعنة عليهم وصفًا ثابتًا لا تزول؛ لأن الحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا.

﴿١٦٢﴾ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: في اللعنة أو في العذاب وهما[1] متلازمان ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾؛ بل عذابهم دائم شديد مستمر ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾؛ أي: يمهلون لأن وقت الإمهال وهو الدنيا قد مضى، ولم يبق لهم عذر فيعتذرون.

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾

﴿١٦٣﴾ يخبر تعالى وهو أصدق القائلين أنه ﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾؛ أي: متوحد منفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله؛ فليس له شريك في ذاته ولا سمي له ولا كفو له ولا مثل ولا نظير ولا خالق ولا مدبر غيره، فإذا كان كذلك فهو المستحق لأن يؤله ويعبد بجميع أنواع العبادة، ولا يشرك به أحد من خلقه؛ لأنه ﴿الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ المتصف بالرحمة العظيمة التي لا يماثلها رحمة أحد فقد وسعت كل شيء وعمت كل حي، فبرحمته وجدت المخلوقات وبرحمته حصلت لها أنواع الكمالات، وبرحمته اندفع عنها كل نقمة، وبرحمته عرَّف عباده نفسه بصفاته وآلائه، وبين لهم كل ما يحتاجون إليه من مصالح دينهم ودنياهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب، فإذا علم أن ما بالعباد من نعمة فمن الله وأن أحدًا من المخلوقين لا ينفع أحدًا، علم أن الله هو المستحق لجميع أنواع العبادة، وأن يفرد بالمحبة والخوف والرجاء والتعظيم والتوكل وغير ذلك من أنواع الطاعات، وأن من أظلم الظلم وأقبح القبيح أن يعدل عن عبادته إلى عبادة العبيد وأن يشرك المخلوقين[2] من تراب برب الأرباب أو يعبد المخلوق المدبر العاجز من جميع الوجوه مع الخالق المدبر القادر القوي الذي قد قهر كل شيء، ودان له كل شيء.

ففي هذه الآية إثبات وحدانية الباري وإلهيته وتقريرها بنفيها عن غيره من المخلوقين، وبيان أصل الدليل على ذلك وهو إثبات رحمته التي من آثارها وجود جميع النعم واندفاع جميع النقم، فهذا دليل إجمالي على وحدانيته تعالى.

ثم ذكر الأدلة التفصيلية فقال:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾.

﴿١٦٤﴾ أخبر تعالى أن في هذه المخلوقات العظيمة آيات؛ أي: أدلة على وحدانية الباري وإلهيته وعظيم سلطانه ورحمته وسائر صفاته، ولكنها ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾؛ أي: لمن لهم عقول يعملونها فيما خلقت له، فعلى حسب ما من الله على عبده من العقل ينتفع بالآيات ويعرفها بعقله وفكره وتدبره، ففي ﴿خَلْقِ السَّمَاوَاتِ﴾؛ في ارتفاعها واتساعها وإحكامها وإتقانها، وما جعل الله فيها من الشمس والقمر والنجوم وتنظيمها لمصالح العباد، وفي خلق الأرض؛ مهادًا للخلق يمكنهم القرار عليها والانتفاع بما عليها والاعتبار، ما يدل ذلك على انفراد الله تعالى بالخلق والتدبير وبيان قدرته العظيمة التي بها خلقها، وحكمته التي بها أتقنها وأحسنها ونظمها، وعلمه ورحمته التي بها أودع ما أودع من منافع الخلق ومصالحهم وضروراتهم وحاجاتهم، وفي ذلك أبلغ الدليل على كماله واستحقاقه أن يفرد بالعبادة لانفراده بالخلق والتدبير والقيام بشئون عباده.

وفي اختلاف الليل والنهار؛ وهو تعاقبهما على الدوام إذا ذهب أحدهما خلفه الآخر، وفي اختلافهما في الحر والبرد

(١) ع: «والمعنيان».

(٢) ع: «المخلوق».

إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ
وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا
مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ
بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ
ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ
ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾
إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ
وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ
لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ
أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ
خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم
بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾

والتوسط، وفي الطول والقصر والتوسط، وما ينشأ عن ذلك من الفصول التي بها انتظام مصالح بني آدم وحيواناتهم، وجميع ما على وجه الأرض من أشجار ونوابت، كل ذلك بانتظام وتدبير وتسخير تنبهر له العقول، وتعجز عن إدراكه من الرجال الفحول ما يدل ذلك على قدرة مصرفها وعلمه وحكمته ورحمته الواسعة ولطفه الشامل وتصريفه وتدبيره الذي تفرد به وعظمته وعظمة ملكه وسلطانه، مما يوجب أن يُؤَلَّه ويعبد ويفرد بالمحبة والتعظيم والخوف والرجاء وبذل الجهد في محابه ومراضيه.

وفي الفلك ﴿ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ﴾ وهي السفن والمراكب ونحوها مما ألهم الله عباده صنعتها، وخلق لهم من الآلات الداخلية والخارجية ما أقدرهم عليها، ثم سخر لها هذا البحر العظيم والرياح التي تحملها بما فيها من الركاب والأموال والبضائع التي هي من منافع الناس وبما تقوم مصالحهم وتنتظم معايشهم، فمن الذي ألهمهم صنعتها وأقدرهم عليها وخلق لهم من الآلات ما به يعملونها؟ أم من الذي سخر لها البحر تجري فيه بإذنه وتسخيره والرياح؟ أم من الذي خلق للمراكب البرية والبحرية النار والمعادن المعينة على حملها وحمل ما فيها من الأموال؟ فهل هذه الأمور حصلت اتفاقًا أم استقل بعملها هذا المخلوق الضعيف العاجز الذي خرج من بطن أمه لا علم له ولا قدرة، ثم خلق له ربه القدرة وعلمه ما يشاء تعليمه، أم المسخر لذلك رب واحد حكيم عليم لا يعجزه شيء، ولا يمتنع عليه شيء؟ بل الأشياء قد دانت لربوبيته، واستكانت لعظمته، وخضعت لجبروته.

وغاية العبد الضعيف أن جعله الله جزءًا من أجزاء الأسباب التي بها وجدت هذه الأمور العظام، فهذا يدل على رحمة الله وعنايته بخلقه، وذلك يوجب أن تكون المحبة كلها له والخوف والرجاء وجميع الطاعة والذل والتعظيم ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ﴾؛ وهو المطر النازل من السحاب ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ فأظهرت من أنواع الأقوات وأصناف النبات ما هو من ضرورات الخلائق التي لا يعيشون بدونها، أليس ذلك دليلًا على قدرة من أنزله وأخرج به ما أخرج ورحمته ولطفه بعباده وقيامه بمصالحهم وشدة افتقارهم وضرورتهم إليه من كل وجه؟ أما يوجب ذلك أن يكون هو معبودهم وإلههم؟ أليس ذلك دليلًا على إحياء الموتى ومجازاتهم بأعمالهم؟

﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾؛ أي في الأرض ﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾؛ أي: نشر في أقطار الأرض من الدواب المتنوعة ما هو دليل على قدرته وعظمته ووحدانيته وسلطانه العظيم، وسخرها للناس ينتفعون بها بجميع وجوه الانتفاع: فمنها ما يأكلون من لحمه ويشربون من دره، ومنها ما يركبون، ومنها ما هو ساع في مصالحهم وحراستهم، ومنها ما يعتبر به، ومنها أنه بث فيها من كل دابة فإنه سبحانه هو القائم بأرزاقهم المتكفل بأقواتهم، فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها.

وفي تصريف ﴿ٱلرِّيَٰحِ﴾؛ باردة وحارة وجنوبًا وشمالًا وشرقًا ودبورًا وبين ذلك، وتارة تثير السحاب، وتارة تؤلف بينه، وتارة تلقحه، وتارة تدره، وتارة تمزقه، وتزيل ضرره، وتارة تكون رحمة، وتارة ترسل بالعذاب، فمن الذي صرفها هذا التصريف وأودع فيها من منافع العباد ما لا يستغنون عنه، وسخرها ليعيش فيها جميع الحيوانات وتصلح الأبدان والأشجار والحبوب والنوابت إلا العزيز الحكيم الرحيم

اللطيف بعباده المستحق لكل ذل وخضوع ومحبة وإنابة وعبادة، وفي تسخير السحاب بين السماء والأرض على خفته ولطافته يحمل الماء الكثير فيسوقه الله إلى حيث شاء فيحيي به البلاد والعباد ويروي التلول والوهاد وينزله على الخلق وقت حاجتهم إليه، فإذا كان يضرهم كثرته أمسكه عنهم فينزله رحمة ولطفًا ويصرفه عناية وعطفًا، فما أعظم سلطانه وأغزر إحسانه وألطف امتنانه، أليس من القبيح بالعباد أن يتمتعوا برزقه ويعيشوا ببره وهم يستعينون بذلك على مساخطه ومعاصيه؟ أليس ذلك دليلًا على حلمه وصبره وعفوه وصفحه وعظيم[1] لطفه؟ فله الحمد أولاً وآخرًا وباطنًا وظاهرًا.

والحاصل أنه كلما تدبر العاقل في هذه المخلوقات، وتغلغل فكره في بدائع المبتدعات، وازداد تأمله للصنعة وما أودع فيها من لطائف البر والحكمة علم بذلك أنها خلقت للحق وبالحق، وأنها صحائف آيات وكتب دلالات على ما أخبر به الله عن نفسه ووحدانيته، وما أخبرت به الرسل من اليوم الآخر، وأنها مسخرات ليس لها تدبير ولا استعصاء على مدبرها ومصرفها، فتعرف أن العالم العلوي والسفلي كلهم إليه مفتقرون وإليه صامدون، وأنه الغني بالذات عن جميع المخلوقات فلا إله إلا الله، ولا رب سواه.

ثم قال تعالى:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾.

﴿١٦٥﴾ - ﴿١٦٧﴾ ما أحسن اتصال هذه الآية بالتي[2] قبلها، فإنه تعالى لما بين وحدانيته وأدلتها القاطعة وبراهينها الساطعة الموصلة إلى علم اليقين المُزيلة لكل شك ذكر هنا أن ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ مع هذا البيان التام ﴿مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾[3] لله؛ أي: نظراء ومثلاء يساويهم في الله بالعبادة والمحبة والتعظيم والطاعة، ومن كان بهذه الحالة - بعد إقامة الحجة وبيان التوحيد - علم أنه معاند لله، مشاق له، أو معرض عن تدبر آياته، والتفكر في مخلوقاته فليس له أدنى عذر في ذلك، بل قد حقت عليه كلمة العذاب، وهؤلاء الذين يتخذون الأنداد مع الله لا يسوونهم بالله في الخلق والرزق والتدبير، وإنما يسوونهم به في العبادة فيعبدونهم ليقربوهم إليه، وفي قوله ﴿يَتَّخِذُ﴾ دليل على أنه ليس لله ند، وإنما المشركون جعلوا بعض المخلوقات أندادًا له تسمية مجردة ولفظًا فارغًا من المعنى؛ كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ [الرعد: ٣٣]؛ ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ [النجم: ٢٣].

فالمخلوق ليس ندًّا لله؛ لأن الله هو الخالق وغيره مخلوق، والرب الرازق ومن عداه مرزوق، والله هو الغني وأنتم الفقراء وهو الكامل من كل الوجوه، والعبيد ناقصون من جميع الوجوه، والله هو النافع الضار، والمخلوق ليس له من النفع والضر والأمر شيء، فعلم علمًا يقينًا[4] بطلان قول من اتخذ من دون الله آلهة وأندادًا سواء كان ملكًا أو نبيًّا أو صالحًا أو صنمًا أو غير ذلك، وأن الله هو المستحق للمحبة الكاملة والذل التام، فلهذا مدح الله المؤمنين بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾؛ أي: من أهل الأنداد لأندادهم، لأنهم أخلصوا محبتهم له وهؤلاء أشركوا بها، ولأنهم أحبوا من يستحق المحبة على الحقيقة، الذي محبته هي عين صلاح العبد وسعادته وفوزه. والمشركون أحبوا من لا يستحق من الحب شيئًا ومحبته عين شقاء العبد وفساده وتشتت أمره.

فلهذا توعدهم الله بقوله: ﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ﴾؛ باتخاذ الأنداد والانقياد لغير رب العباد وظلموا الخلق بصدهم عن سبيل الله وسعيهم فيما يضرهم ﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾؛ أي: يوم القيامة عيانًا بأبصارهم ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾؛ أي: لعلموا علمًا جازمًا أن القوة والقدرة لله كلها، وأن أندادهم ليس فيها من القوة شيء، فتبين لهم في ذلك اليوم ضعفها وعجزها لا كما اشتبه عليهم في الدنيا، وظنوا أن لها من الأمر شيئًا وأنها تقربهم إليه وتوصلهم إليه

(١) ع: «وعميم».
(٢) ع: «بما».
(٣) ع، ط: «من يتخذ من المخلوقين أندادًا».
(٤) ع: «يقينيا».

فخاب ظنهم، وبطل سعيهم، وحق عليهم شدة العذاب ولم تدفع عنهم أندادهم شيئًا، ولم تغن عنهم مثقال ذرة من النفع، بل يحصل لهم الضرر منها من حيث ظنوا نفعها.

وتبرأ المتبعون من التابعين، وتقطعت بينهم الوُصَل التي كانت في الدنيا؛ لأنها كانت لغير الله وعلى غير أمر الله، ومتعلقة بالباطل الذي لا حقيقة له فاضمحلت أعمالهم، وتلاشت أحوالهم، وتبين لهم أنهم كانوا كاذبين، وأن أعمالهم التي يؤملون نفعها وحصول نتيجتها انقلبت عليهم حسرة وندامة، وأنهم خالدون في النار لا يخرجون منها أبدًا، فهل بعد هذا الخسران خسران؟ ذلك بأنهم اتبعوا الباطل فعملوا العمل الباطل ورجوا غير مرجو وتعلقوا بغير متعلق، فبطلت الأعمال ببطلان متعلقها، ولما بطلت وقعت الحسرة بما فاتهم من الأمل فيها فضرتهم غاية الضرر، وهذا بخلاف من تعلق بالله الملك الحق المبين، وأخلص العمل لوجهه، ورجا نفعه فهذا قد وضع الحق في موضعه، فكانت أعماله حقًا لتعلقها بالحق، ففاز بنتيجة عمله ووجد جزاءه عند ربه غير منقطع كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾﴾ [محمد: ١-٣].

وحينئذ يتمنى التابعون أن يُرَدّوا إلى الدنيا فيتبرءوا من متبوعِهم[1] بأن يتركوا الشرك بالله ويقبلوا على إخلاص العمل لله، وهيهات، فات الأمر وليس الوقت وقت إمهال وإنظار، ومع هذا فهم كذبة؛ فلو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وإنما هو قول يقولونه وأماني يتمنونها حنقًا وغيظًا على المتبوعين لما تبرءوا منهم والذنب ذنبهم؛ فرأس المتبوعين على الشر إبليس ومع هذا يقول لأتباعه: ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

﴿١٦٨﴾ هذا خطاب للناس كلهم مؤمنهم وكافرهم، فامتن عليهم بأن أمرهم أن يأكلوا من جميع ما في الأرض من حبوب وثمار وفواكه وحيوانات حالة كونها ﴿حَلَٰلًا﴾؛ أي: محللًا لكم تناوله ليس بغصب ولا سرقة ولا محصلًا بمعاملة محرمة أو على وجه محرم أو معينًا على محرم. ﴿طَيِّبًا﴾؛ أي: ليس بخبيث كالميتة والدم ولحم الخنزير والخبائث كلها. ففي هذه الآية دليل على أن الأصل في الأعيان الإباحة أكلًا وانتفاعًا، وأن المحرم نوعان: إما محرم لذاته وهو الخبيث الذي هو ضد الطيب، وإما محرم لما عرض له وهو المحرم لتعلق حق الله أو حق عباده به، وهو ضد الحلال.

وفيه دليل على أن الأكل بقدر ما يقيم البنية واجب يأثم تاركه لظاهر الأمر، ولمَّا أمرهم باتباع ما أمرهم به - إذ هو عين صلاحهم - نهاهم عن اتباع ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾؛ أي: طرقه التي يأمر بها، وهي جميع المعاصي من كفر وفسوق وظلم، ويدخل في ذلك تحريم السوائب والحام ونحو ذلك، ويدخل فيه[2] تناول المأكولات المحرمة.

﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾؛ أي: ظاهر العداوة فلا يريد بأمركم إلا غشكم وأن تكونوا من أصحاب السعير، فلم يكتف ربنا بنهينا عن اتباع خطواته حتى أخبرنا - وهو أصدق القائلين - بعداوته الداعية للحذر منه، ثم لم يكتف بذلك حتى أخبرنا بتفصيل ما يأمر به، وأنه أقبح الأشياء، وأعظمها مفسدة، فقال:

﴿١٦٩﴾ ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ﴾؛ أي: الشر الذي يسوء صاحبه، فيدخل في ذلك جميع المعاصي فيكون قوله: ﴿وَٱلْفَحْشَآءِ﴾؛ من باب عطف الخاص على العام؛ لأن الفحشاء من المعاصي ما تناهى قبحه كالزنا وشرب الخمر والقتل والقذف والبخل ونحو ذلك مما يستفحشه من له عقل ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾؛ فيدخل في ذلك القول على الله بلا علم في شرعه وقدره، فمن وصف الله بغير ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، أو نفى عنه ما أثبته لنفسه، أو أثبت له ما نفاه عن نفسه؛ فقد قال على الله بلا علم، ومن زعم أن لله ندًا وأوثانًا تُقرِّب عَبْدَها[3] من الله

(١) ع، ط: «متبوعيهم».

(٢) ع، ط: «فيه أيضًا».
(٣) ع، ط: «من عبدها».

فقد قال على الله تعالى بلا علم، ومن قال: إن الله أحل كذا، أو حرم كذا، أو أمر بكذا، أو نهى عن كذا بغير بصيرة، فقد قال على الله بلا علم، ومن قال: إن الله خلق هذا الصنف من المخلوقات للعلة الفلانية بلا برهان له بذلك؛ فقد قال على الله بلا علم.

ومن أعظم القول على الله بلا علم أن يتأول المتأول كلامه أو كلام رسوله على معانٍ اصطلح عليها طائفة من طوائف الضلال، ثم يقول: إن الله أرادها، فالقول على الله بلا علم من أكبر المحرمات وأشملها وأكبر طرق الشيطان التي يدعو إليها، فهذه طرق الشيطان التي يدعو إليها هو وجنوده، ويبذلون مكرهم وخداعهم على إغواء الخلق بما يقدرون عليه، وأما الله تعالى فإنه يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي.

فلينظر العبد نفسه مع أي الداعيين هو ومن أي الحزبين؟ أتتبع داعي الله الذي يريد لك الخير والسعادة الدنيوية والأخروية، الذي كل الفلاح بطاعته، وكل الفوز في خدمته، وجميع الأرباح في معاملة المنعم بالنعم الظاهرة والباطنة، الذي لا يأمر إلا بالخير، ولا ينهى إلا عن الشر، أم تتبع داعي الشيطان الذي هو عدو الإنسان الذي يريد لك الشر، ويسعى بجهده على إهلاكك في الدنيا والآخرة، الذي كل الشر في طاعته وكل الخسران في ولايته، الذي[1] لا يأمر إلا بشر، ولا ينهى إلا عن خير؟!

ثم أخبر تعالى عن حال المشركين إذا أمروا باتباع ما أنزل الله على رسوله مما تقدم وصفه رغبوا عن ذلك وقالوا:

(١٧٠) ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ فاكتفوا بتقليد الآباء، وزهدوا في الإيمان بالأنبياء، ومع هذا فآباؤهم أجهل الناس وأشدهم ضلالًا. وهذه شبهة لرد الحق واهية، فهذا دليل على إعراضهم عن الحق ورغبتهم عنه وعدم إنصافهم، فلو هدوا لرشدهم وحسن قصدهم لكان الحق هو القصد، ومن جعل الحق قصده، ووازن بينه وبين غيره، تبين له الحق قطعًا واتبعه إن كان منصفًا. ثم قال تعالى:

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١) ﴾.

(١) في الأصل، ط: «والذي».

سُورَةُ البَقَرَةِ — الجُزْءُ الثَّانِي

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠) وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٧٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُوْلَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ (١٧٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ (١٧٦)

٢٦

(١٧١) لما بين تعالى عدم انقيادهم لما جاءت به الرسل وردهم لذلك بالتقليد وعلم[2] من ذلك أنهم غير قابلين للحق ولا مستجيبين له، بل كان معلومًا لكل أحد أنهم لن يزولوا عن عنادهم، أخبر تعالى أن مثلهم عند دعاء الداعي لهم إلى الإيمان كمثل البهائم التي ينعق لها راعيها وليس لها علم بما يقول داعيها ومناديها، فهم يسمعون مجرد الصوت الذي تقوم به عليهم الحجة، ولكنهم لا يفقهونه فقهًا ينفعهم، فلهذا كانوا صمًّا لا يسمعون الحق سماع فهم وقبول، عميًا لا ينظرون نظر اعتبار، بكمًا فلا ينطقون بما فيه خير لهم، والسبب الموجب لذلك كله أنه ليس لهم عقل صحيح، بل هم أسفه السفهاء وأجهل الجهلاء. فهل يستريب العاقل أن من دعي إلى الرشاد، وذيد عن الفساد، ونهي عن اقتحام العذاب، وأمر بما فيه صلاحه وفلاحه وفوزه ونعيمه، فعصى الناصح، وتولى عن أمر ربه، واقتحم النار على بصيرة، واتبع الباطل ونبذ الحق أن هذا ليس له مسكة من عقل، وأنه لو اتصف بالمكر والخديعة والدهاء فإنه من أسفه السفهاء.

(٢) ع، ط: «علم».

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾.

﴿١٧٢﴾ هـذا أمـر للمؤمنيـن خاصة بعـد الأمر العـام، وذلك أنهـم هم المنتفعـون على الحقيقة بالأوامر والنواهي بسـبب إيمانهـم، فأمرهم بأكل الطيبات من الرزق والشـكر لله على إنعامه باسـتعمالها بطاعتـه والتقوي بها على مـا يوصل إليه، فأمرهـم بما أمر به المرسـلين في قولـه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾ [المؤمنون: ٥١]؛ فالشـكر في هذه الآيـة هـو العمل الصالـح، وهنا لم يقل حـلالًا؛ لأن المؤمن أبـاح الله له الطيبـات من الـرزق خالصـة من التبعـة، ولأن إيمانـه يحجـزه عن تنـاول ما ليس له. وقولـه: ﴿ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾؛ أي: فاشـكروه فـدل علـى أن من لم يشـكر الله لم يعبده وحده، كما أن من شـكره فقد عبده وأتى بمـا أمـر به، ويـدل أيضًـا علـى أن أكل الطيب سـبب للعمل الصالح وقبوله.

والأمـر بالشـكر عقيـب النعـم، لأن الشـكر يحفـظ النعم الموجـودة، ويجلب النعم المفقودة، كما أن الكفر ينفر النعم المفقودة، ويزيل النعم الموجودة.

﴿١٧٣﴾ ولما ذكر تعالى إباحـة الطيبات ذكر تحريم الخبائث فقـال: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ ﴾؛ وهـي: مـا مات بغير تذكية شـرعية؛ لأن الميتـة خبيثة مضرة لرداءتها في نفسـها، ولأن الأغلـب أن تكـون عن مـرض فيكـون زيادة مرض[1]، واسـتثنى الشـارع من هذا العموم ميتة الجراد وسمك البحر فإنه حلال طيب ﴿ وَٱلدَّمَ ﴾؛ أي: المسفوح كما قيد في الآية الأخرى ﴿ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي ذبح لغير الله كالذي يذبـح للأصنـام والأوثان مـن الأحجـار والقبـور ونحوها، وهـذا المذكـور غيـر حاصـر للمحرمـات، وجـيء بـه لبيان أجناس الخبائث المدلول عليها بمفهوم قوله: ﴿ طَيِّبَٰتِ ﴾؛ فعمـوم المحرمـات تسـتفاد مـن الآيـة السـابقة مـن قولـه: ﴿ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا ﴾؛ كمـا تقـدم وإنما حرم علينا هـذه الخبائث ونحوهـا لطفًـا بنـا وتنزيهًـا عـن المضـر، ومع هـذا ﴿ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ ﴾؛ أي ألجـئ إلى المحرم بجوع وعدم أو إكراه ﴿ غَيۡرَ بَاغٖ ﴾؛ أي: غيـر طالـب للمحـرم مـع قدرته علـى الحلال أو مـع عـدم جوعـه ﴿ وَلَا عَادٖ ﴾؛ أي: متجـاوز الحـد فـي تنـاول ما أبيح لـه اضطرارًا، فمن اضطر وهـو غير قادر على الحـلال، وأكل بقـدر الضرورة فلا يزيـد عليها ﴿ فَلَآ إِثۡمَ ﴾؛ أي: جناح ﴿ عَلَيۡهِ ﴾؛ وإذا ارتفع الإثم رجع الأمر إلى ما كان عليه، والإنسان بهذه الحالة مأمور بالأكل، بل منهي أن يلقي بيده إلى التهلكة وأن يقتل نفسه، فيجب إذًا عليه الأكل ويأثم إن تـرك الأكل حتى مات فيكون قاتلًا لنفسـه، وهذه الإباحة والتوسـعة مـن رحمتـه تعالـى بعبـاده، فلهذا ختمهـا بهذين الاسمين الكريمين المناسـبين غاية المناسبة فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾.

ولما كان الحل مشـروطًا بهذين الشرطين، وكان الإنسان فـي هـذه الحالـة ربمـا لا يسـتقصي تمـام الاسـتقصاء فـي تحقيقهـا، أخبـر تعالى أنـه غفور، فيغفـر له ما أخطأ فيه في هذه الحال خصوصًا، وقد غلبته الضرورة، وأذهبت حواسه المشقة.

وفي هذه الآية دليل على القاعدة المشـهورة «الضرورات تبيـح المحظـورات»، فـكل محظـور اضطر له الإنسـان فقد أباحـه لـه الملك الرحمـن، فله الحمـد والشـكر أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿١٧٦﴾ ﴾.

﴿١٧٤﴾، ﴿١٧٥﴾ هـذا وعيـد شـديد لمن كتم مـا أنـزل الله على رسـله مـن العلم الذي أخذ اللـه الميثاق على أهلـه أن يبينوه للنـاس ولا يكتموه، فمن تعوض عنـه بالحطام الدنيوي ونبذ أمـر اللـه فأولئـك ﴿ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ ﴾؛ لأن هـذا الثمـن الذي اكتسـبوه إنما حصل لهم بأقبح المكاسـب وأعظـم المحرمـات، فـكان جزاؤهـم مـن جنـس عملهـم، ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾؛ بـل قـد سـخط عليهـم

(١) ع، ط: «ضرر».

وأعرض عنهم، فهذا أعظم عليهم من عذاب النار، ﴿ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾؛ أي: لا يطهرهم من الأخلاق الرذيلة، وليس لهم أعمال تصلح للمدح والرضا والجزاء عليها، وإنما لم يزكهم لأنهم فعلوا أسباب عدم التزكية التي أعظم أسبابها العمل بكتاب الله والاهتداء به والدعوة إليه، فهؤلاء نبذوا كتاب الله وأعرضوا عنه واختاروا الضلالة على الهدى والعذاب على المغفرة، فهؤلاء لا يصلح لهم إلا النار، فكيف يصبرون عليها؟ وأنى لهم الجلد عليها؟

(١٧٦) ﴿ ذَٰلِكَ ﴾؛ المذكور وهو مجازاته بالعدل ومنعه أسباب الهداية ممن أباها واختار سواها ﴿ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾؛ ومن الحق مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وأيضًا ففي قوله: ﴿ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾؛ ما يدل على أن الله أنزله لهداية خلقه وتبيين الحق من الباطل والهدى من الضلال، فمن صرفه عن مقصوده فهو حقيق بأن يجازى بأعظم العقوبة، ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (١٧٦) ﴾؛ أي: وإن الذين اختلفوا في الكتاب فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه، والذين حرفوه وصرفوه على أهوائهم ومراداتهم ﴿ لَفِي شِقَاقٍ ﴾؛ أي: محادة ﴿ بَعِيدٍ (١٧٦) ﴾؛ من الحق، لأنهم قد خالفوا الكتاب الذي جاء بالحق الموجب للاتفاق وعدم التناقض، فمرج أمرهم، وكثر شقاقهم، وترتب على ذلك افتراقهم، بخلاف أهل الكتاب الذين آمنوا به، وحكموه في كل شيء، فإنهم اتفقوا، وارتفقوا بالمحبة والاجتماع عليه.

وقد تضمنت هذه الآيات الوعيد للكاتمين لما أنزل الله، المؤثرين عليه عرض الدنيا بالعذاب والسخط، وأن الله لا يطهرهم بالتوفيق ولا بالمغفرة. وذكر السبب في ذلك بإيثارهم الضلالة على الهدى، فترتب على ذلك اختيار العذاب على المغفرة، ثم توجع لهم بشدة صبرهم على النار لعملهم بالأسباب التي يعلمون أنها موصلة لها، وأن الكتاب مشتمل على الحق الموجب للاتفاق عليه وعدم الافتراق، وأن كل من خالفه فهو في غاية البعد عن الحق والمنازعة والمخاصمة. والله أعلم.

﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ

الجزء الثاني — سورة البقرة

۞ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ
الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ
وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ
الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا
وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ
صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ
عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ۖ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ
بِالْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ
إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ اعْتَدَىٰ
بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ
يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩) كُتِبَ عَلَيْكُمْ
إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ
وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠) فَمَن بَدَّلَهُ
بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١)

٢٧

وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧) ﴾.

(١٧٧) يقول تعالى: ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾؛ أي: ليس هذا هو البر المقصود من العباد فيكون كثرة البحث فيه والجدال من العناء الذي ليس تحته إلا الشقاق والخلاف، وهذا نظير قوله ﷺ: **«ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»**، ونحو ذلك، ﴿ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ﴾؛ أي: بأنه إله واحد موصوف بكل صفة كمال منزه عن كل نقص ﴿ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾؛ وهو كل ما أخبر الله به في كتابه أو أخبر به الرسول مما يكون بعد الموت ﴿ وَالْمَلَائِكَةِ ﴾؛ الذين وصفهم الله لنا في كتابه ووصفهم رسوله ﷺ، ﴿ وَالْكِتَابِ ﴾؛ أي: جنس الكتب التي أنزلها الله على رسله وأعظمها القرآن فيؤمن بما تضمنه من الأخبار والأحكام. ﴿ وَالنَّبِيِّينَ ﴾؛ عمومًا، خصوصًا خاتمهم

وأفضلهم محمد ﷺ ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ﴾؛ وهو كل ما يتمول الإنسان من مال قليلًا كان أو كثيرًا أي أعطى المال ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾؛ أي: حب المال بين به أن المال محبوب للنفوس فلا يكاد يخرجه العبد، فمن أخرجه مع حبه له تقربًا إلى الله تعالى كان هذا برهانًا لإيمانه، ومن إيتاء المال على حبه أن يتصدق وهو صحيح شحيح يأمل الغنى ويخشى الفقر، وكذلك إذا كانت الصدقة عن قلة كان أفضل لأنه في هذه الحال يحب إمساكه لما يتوهمه من العدم والفقر، وكذلك إخراج النفيس من المال وما يحبه من ماله كما قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]؛ فكل هؤلاء ممن آتى المال على حبه.

ثم ذكر المنفق عليهم وهم أولى الناس ببرك وإحسانك من ﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[١]؛ الذين تتوجع لمصابهم وتفرح بسرورهم الذين يتناصرون ويتعاقلون، فمن أحسن البر وأوفقه تعاهد الأقارب بالإحسان المالي والقولي على حسب قربهم وحاجتهم، و[٢]﴿ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾؛ الذين لا كاسب لهم وليس لهم قوة يستغنون بها، وهذا من رحمته تعالى بالعباد الدالة على أنه تعالى أرحم بهم من الوالد بولده، فالله قد أوصى العباد وفرض عليهم في أموالهم الإحسان إلى من فُقِد آباؤهم ليصيروا كمن لم يفقد والديه، ولأن الجزاء من جنس العمل فمن رحم يتيم غيره رُحِم يتيمه.

﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾؛ وهم الذين أسكتتهم الحاجة وأذلهم الفقر فلهم حق على الأغنياء بما يدفع مسكنتهم أو يخففها بما يقدرون عليه وبما يتيسر. ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ وهو الغريب المنقطع به في غير بلده. فحث الله عباده على إعطائه من المال ما يعينه على سفره لكونه مظنة الحاجة وكثرة المصارف، فعلى من أنعم الله عليه بوطنه وراحته وخوله من نعمته أن يرحم أخاه الغريب الذي بهذه الصفة على حسب استطاعته ولو بتزويده أو إعطائه آلة لسفره أو دفع ما ينوبه من المظالم وغيرها. ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾؛ أي: الذين تعرض لهم حاجة من الحوائج توجب السؤال، كمن ابتلي بأرش جناية أو ضريبة عليه من ولاة الأمور، أو يسأل الناس لتعمير المصالح العامة كالمساجد والمدارس والقناطر ونحو ذلك فهذا له حق وإن كان غنيًّا. ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾؛

(١) ع، ط: «الأقارب».
(٢) ع، ط: «ومن».

فيدخل فيه العتق والإعانة عليه وبذل مال للمكاتب ليوفي سيده، وفداء الأسرى عند الكفار أو عند الظلمة.

﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ قد تقدم مرارًا أن الله تعالى يقرن بين الصلاة والزكاة لكونهما أفضل العبادات، وأكمل القربات؛ عبادات قلبية وبدنية ومالية، وبهما يوزن الإيمان ويعرف ما مع صاحبه من الإيقان، ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾؛ والعهد هو الالتزام بإلزام الله أو إلزام العبد لنفسه فدخل في ذلك حقوق الله كلها، لكون الله ألزم بها عباده والتزموها، ودخلوا تحت عهدتها ووجب عليهم أداؤها، وحقوق العباد التي أوجبها الله عليهم والحقوق التي التزمها العبد كالأيمان والنذور ونحو ذلك.

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ﴾؛ أي: الفقر لأن الفقير يحتاج إلى الصبر من وجوه كثيرة لكونه يحصل له من الآلام القلبية والبدنية المستمرة ما لا يحصل لغيره، فإن تنعم الأغنياء بما لا يقدر عليه تألم وإن جاع أو جاعت عياله تألم، وإن أكل طعامًا غير موافق لهواه تألم، وإن عري أو كاد تألم، وإن نظر إلى ما بين يديه وما يتوهمه من المستقبل الذي يستعد له تألم، وإن أصابه البرد الذي لا يقدر على دفعه تألم، فكل هذه ونحوها مصائب يؤمر بالصبر عليها والاحتساب ورجاء الثواب من الله عليها ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾؛ أي: المرض على اختلاف أنواعه من حمى وقروح ورياح ووجع عضو حتى الضرس والإصبع ونحو ذلك فإنه يحتاج إلى الصبر على ذلك، لأن النفس تضعف والبدن يألم وذلك في غاية المشقة على النفوس، خصوصًا مع تطاول ذلك، فإنه يؤمر بالصبر احتسابًا لثواب الله تعالى ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾؛ أي: وقت القتال للأعداء المأمور بقتالهم، لأن الجلاد يشق غاية المشقة على النفس ويجزع الإنسان من القتل أو الجراح أو الأسر، فاحتيج إلى الصبر في ذلك احتسابًا ورجاء لثواب الله تعالى الذي منه النصر والمعونة التي وعدها الصابرين.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾؛ أي: المتصفون بما ذكر من العقائد الحسنة والأعمال التي هي آثار الإيمان وبرهانه ونوره والأخلاق التي هي جمال الإنسان وحقيقة الإنسانية فأولئك هم[٣] ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾؛ في إيمانهم لأن أعمالهم صدقت إيمانهم ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾؛ لأنهم تركوا المحظور وفعلوا المأمور، لأن هذه الأمور مشتملة على كل خصال الخير

(٣) ليست في الأصل، ط.

تضمنًا ولزومًا لأن الوفاء بالعهد يدخل فيه الدين كله، ولأن العبادات المنصوص عليها في هذه الآية أكبر العبادات، ومن قام بها كان بما سواها أقوم، فهؤلاء هم الأبرار الصادقون المتقون.

وقد علم ما رتب الله على هذه الأمور الثلاثة من الثواب الدنيوي والأخروي مما لا يمكن تفصيله في مثل هذا الموضع.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾.

﴿١٧٨﴾ يَمْتَنُّ تعالى على عباده المؤمنين بأنه فرض عليهم ﴿ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ﴾؛ أي: المساواة فيه، وأن يقتل القاتل على الصفة التي قتل عليها المقتول، إقامة للعدل والقسط بين العباد، وتوجيه الخطاب لعموم المؤمنين فيه دليل على أنه يجب عليهم كلهم حتى أولياء القاتل حتى القاتل بنفسه إعانة ولي المقتول إذا طلب القصاص، وتمكينه من القاتل، وأنه لا يجوز لهم أن يحولوا بين هذا الحد، ويمنعوا الولي من الاقتصاص كما عليه عادة الجاهلية ومن أشبههم من إيواء المحدثين.

ثم بين تفصيل ذلك فقال: ﴿ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ ﴾؛ يدخل بمنطوقها الذكر بالذكر، والأنثى بالأنثى؛ والأنثى بالذكر والذكر بالأنثى، فيكون منطوقها مقدمًا على مفهوم قوله: الأنثى بالأنثى مع دلالة السنة على أن الذكر يقتل بالأنثى، وخرج من عموم هذا الأبوان وإن علوا فلا يقتلان بالولد لورود السنة بذلك مع أن في قوله: ﴿ ٱلۡقِصَاصُ ﴾؛ ما يدل على أنه ليس من العدل أن يقتل الوالد بولده، ولأن ما في قلب الوالد من الشفقة والرحمة ما يمنعه من القتل لولده إلا بسبب اختلال في عقله أو أذية شديدة جدًّا من الولد له، وخرج من العموم أيضًا الكافر بالسنة مع أن الآية في خطاب المؤمنين خاصة، وأيضًا فليس من العدل أن يقتل ولي الله بعدوه، ﴿ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ ﴾؛ ذكرًا كان أو أنثى تساوت قيمهما أو اختلفت، ودل بمفهومها على أن الحر لا يقتل بالعبد لكونه غير مساوٍ له، ﴿ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰ ﴾؛ أخذ بمفهومها بعض أهل العلم فلم يجز قتل الرجل بالمرأة، وتقدم وجه ذلك.

وفي هذه الآية دليل على أن الأصل وجوب القود في القتل وأن الدية بدل عنه، فلهذا قال: ﴿ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ ﴾؛ أي: عفا ولي المقتول عن القاتل إلى الدية أو عفا بعض الأولياء فإنه يسقط القصاص وتجب الدية وتكون الخيرة في القود واختيار الدية إلى الولي، فإذا عفا عنه، وجب على الولي؛ أي ولي المقتول أن يتبع القاتل، ﴿ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾؛ من غير أن يشق عليه ولا يحمله ما لا يطيق، بل يحسن الاقتضاء والطلب ولا يحرجه. وعلى القاتل أداء ﴿ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖ ﴾؛ من غير مطل ولا نقص ولا إساءة فعلية أو قولية، فهل جزاء الإحسان إليه بالعفو إلا الإحسان بحسن القضاء، وهذا مأمور به في كل ما ثبت في ذمم الناس للإنسان، مأمور من له الحق بالاتباع بالمعروف، ومن عليه الحق بالأداء بالإحسان، وفي قوله: ﴿ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ ﴾؛ ترقيق وحث على العفو إلى الدية وأحسن من ذلك العفو مجانًا.

وفي قوله: ﴿ أَخِيهِ ﴾؛ دليل على أن القاتل لا يكفر لأن المراد بالأخوة هنا أخوة الإيمان فلم يخرج بالقتل منها ومن باب أولى أن سائر المعاصي التي هي دون الكفر لا يكفر بها فاعلها وإنما ينقص بذلك إيمانه، وإذا عفا أولياء المقتول أو عفا بعضهم احتقن دم القاتل وصار معصومًا منهم ومن غيرهم، ولهذا قال: ﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ﴾؛ أي: بعد العفو، ﴿ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ ﴾؛ أي في الآخرة، وأما قتله وعدمه فيؤخذ مما تقدم لأنه قتل مكافئًا له فيجب قتله بذلك، وأما من فسر العذاب الأليم بالقتل، وأن الآية تدل على أنه يتعين قتله ولا يجوز العفو عنه، وبذلك قال بعض العلماء، والصحيح الأول لأن جنايته لا تزيد على جناية غيره.

ثم بين تعالى حكمته العظيمة في مشروعية القصاص فقال:

﴿١٧٩﴾ ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ ﴾؛ أي: تنحقن بذلك الدماء وتنقمع به الأشقياء، لأن من عرف أنه مقتول إذا قتل لا يكاد يصدر منه القتل، وإذا رئي القاتل مقتولًا انذعر بذلك غيره وانزجر، فلو كانت عقوبة القاتل غير القتل لم يحصل انكفاف الشر الذي يحصل بالقتل، وهكذا سائر الحدود الشرعية فيها من النكاية والانزجار ما يدل على حكمة الحكيم الغفار. ونكر الحياة لإفادة التعظيم والتكثير، ولما كان هذا الحكم

لا يعرف حقيقته إلا أهل العقول الكاملة والألباب الثقيلة خصهم بالخطاب دون غيرهم، وهذا يدل على أن الله تعالى يحب من عباده أن يعملوا أفكارهم وعقولهم في تدبر ما في أحكامه من الحكم والمصالح الدالة على كماله وكمال حكمته وحمده وعدله ورحمته الواسعة، وأن من كان بهذه المثابة فقد استحق المدح بأنه من ذوي الألباب الذين وجه إليهم الخطاب وناداهم رب الأرباب، وكفى بذلك فضلًا وشرفًا لقوم يعقلون.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾؛ وذلك أن من عرف ربه، وعرف ما في دينه وشرعه من الأسرار العظيمة والحكم البديعة والآيات الرفيعة أوجب له ذلك أن ينقاد لأمر الله، ويعظم معاصيه فيتركها؛ فيستحق بذلك أن يكون من المتقين.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾.

﴿١٨٠﴾ أي: فرض الله عليكم يا معشر المؤمنين ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾؛ أي: أسبابه كالمرض المشرف على الهلاك وحضور أسباب المهالك وكان قد ﴿تَرَكَ خَيْرًا﴾؛ وهو المال الكثير عرفًا فعليه أن يوصي لوالديه وأقرب الناس إليه بالمعروف على قدر حاله من غير سرف ولا اقتصار على الأبعد دون الأقرب، بل يرتبهم على القرب والحاجة ولهذا أتى فيه بأفعل التفضيل، وقوله: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾؛ دل على وجوب ذلك، لأن الحق هو الثابت، وقد جعله الله من موجبات التقوى.

واعلم أن جمهور المفسرين يرون أن هذه الآية منسوخة بآية المواريث، وبعضهم يرى أنها في الوالدين والأقربين غير الوارثين، مع أنه لم يدل على التخصيص بذلك دليل، والأحسن في هذا أن يقال: إن هذه الوصية للوالدين والأقربين مجملة ردها الله تعالى إلى العرف الجاري، ثم إن الله تعالى قدر للوالدين الوارثين وغيرهما من الأقارب الوارثين هذا المعروف في آيات المواريث بعد أن كان مجملًا، وبقي الحكم فيمن لم يرثوا من الوالدين الممنوعين من الإرث وغيرهما ممن حجب بشخص أو وصف، فإن الإنسان مأمور بالوصية لهؤلاء وهم أحق الناس ببره، وهذا القول تتفق عليه الأمة، ويحصل به الجمع بين القولين المتقدمين، لأن كلا من القائلين بهما كل منهم لحظ ملحظًا واختلف المورد، فبهذا الجمع يحصل الاتفاق والجمع بين الآيات، فإنه[1] مهما أمكن الجمع كان أحسن من ادعاء النسخ الذي لم يدل عليه دليل صحيح.

ولما كان الموصي قد يمتنع من الوصية لما يتوهمه أن من بعده قد يبدل ما وصى به قال تعالى:

﴿١٨١﴾، ﴿١٨٢﴾ ﴿فَمَن بَدَّلَهُ﴾؛ أي: الإيصاء للمذكورين أو غيرهم ﴿بَعْدَمَا سَمِعَهُ﴾؛ أي[2]: بعد ما عقله وعرف طرقه وتنفيذه ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾؛ وإلا فالموصي وقع أجره على الله، وإنما الإثم على المبدل المغير ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾؛ يسمع سائر الأصوات ومنه سماعه لمقالة الموصي ووصيته فينبغي له أن يراقب من يسمعه ويراه وألَّا يجور في وصيته، ﴿عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾؛ بنيته وعليم بعمل الموصى إليه، فإذا اجتهد الموصي، وعلم الله من نيته ذلك أثابه ولو أخطأ، وفيه التحذير للموصى إليه من التبديل، فإن الله عليم به مطلع على فعله[3] فليحذر من الله، هذا حكم الوصية العادلة، وأما الوصية التي فيها حيف وجنف وإثم فينبغي لمن حضر الموصي وقت الوصية بها أن ينصحه بما هو الأحسن والأعدل، وأن ينهاه عن الجور والجنف وهو الميل بها عن خطأ من غير تعمد، والإثم وهو التعمد لذلك، فإن لم يفعل ذلك فينبغي له أن يصلح بين الموصى إليهم ويتوصل إلى العدل بينهم على وجه التراضي والمصالحة ووعظهم بتبرئة ذمة ميتهم، فهذا قد فعل معروفًا عظيمًا، وليس عليه إثم كما على مبدل الوصية الجائزة ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾؛ أي: يغفر جميع الزلات ويصفح عن التبعات لمن تاب إليه، ومنه مغفرته لمن غض من نفسه وترك بعض حقه لأخيه، لأن من سامح سامحه الله، غفور لميتهم الجائر في وصيته إذا احتسبوا بمسامحة بعضهم بعضًا لأجل براءة ذمته، ﴿رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾؛ بعباده حيث شرع لهم كل أمر به يتراحمون ويتعاطفون.

---

(١) ع: «لأنه».
(٢) ع: «يعني».
(٣) ع، ط: «ما فعله».

فدلت هذه الآيات على الحث على الوصية وعلى بيان من هي له وعلى وعيد المبدل للوصية العادلة والترغيب في الإصلاح في الوصية الجائرة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾.

﴿١٨٣﴾ يخبر تعالى بما منَّ الله به على عباده بأنه فرض عليهم الصيام كما فرضه على الأمم السابقة؛ لأنه من الشرائع والأوامر التي هي مصلحة للخلق في كل زمان، وفيه تنشيط لهذه الأمة بأنه ينبغي لكم أن تنافسوا غيركم في تكميل الأعمال والمسارعة إلى صالح الخصال، وأنه ليس من الأمور الثقيلة التي اختصصتم بها.

ثم ذكر تعالى حكمته في مشروعية الصيام فقال: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾؛ فإن الصيام من أكبر أسباب التقوى؛ لأن فيه امتثال أمر الله واجتناب نهيه، فمما اشتمل عليه من التقوى أن الصائم يترك ما حرم الله عليه من الأكل والشرب والجماع ونحوها التي تميل إليها نفسه متقربًا بذلك إلى الله راجيًا بتركها ثوابه، فهذا من التقوى، ومنها: أن الصائم يدرب نفسه على مراقبة الله تعالى فيترك ما تهوى نفسه مع قدرته عليه لعلمه باطلاع الله عليه، ومنها: أن الصيام يضيق مجاري الشيطان فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم فبالصيام يضعف نفوذه وتقل منه المعاصي، ومنها: أن الصائم في الغالب تكثر طاعته والطاعات من خصال التقوى، ومنها: أن الغني إذا ذاق ألم الجوع أوجب له ذلك مواساة الفقراء المعدمين. وهذا من خصال التقوى.

الجزء الثاني — سورة البقرة

فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

٢٨

﴿١٨٤﴾ ولما ذكر أنه فرض عليهم الصيام أخبر أنه: ﴿ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖ ﴾ أي: قليلة في غاية السهولة ثم سهل تسهيلًا آخر فقال: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾؛ وذلك للمشقة في الغالب رخص الله لهما في الفطر، ولما كان لا بد من حصول مصلحة الصيام لكل مؤمن أمرهما أن يقضياه في أيام أخر إذا زال المرض وانقضى السفر وحصلت الراحة، وفي قوله: ﴿فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ ﴾؛ فيه دليل على أنه يقضي عدد أيام رمضان كاملًا كان أو ناقصًا وعلى أنه يجوز أن يقضي أيامًا قصيرة باردة عن أيام طويلة حارة كالعكس، وقوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ ﴾؛ أي: يطيقون الصيام ﴿فِدۡيَةٞ ﴾؛ عن كل يوم يفطرونه ﴿طَعَامُ مِسۡكِينٖ ﴾؛ وهذا في ابتداء فرض الصيام لما كانوا غير معتادين للصيام وكان فرضه حتمًا فيه مشقة عليهم درجهم الرب الحكيم بأسهل طريق، وخيَّر المطيق للصوم بين أن يصوم وهو أفضل أو يطعم ولهذا قال: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ﴾؛ ثم بعد ذلك جعل الصيام حتمًا على المطيق، وغير المطيق يفطر ويقضيه في أيام أخر، وقيل: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ ﴾؛ أي

يتكلفونه، ويشق عليهم مشقة غير محتملة كالشيخ الكبير، فدية عن كل يوم مسكين، وهذا هو الصحيح.

(١٨٥) ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾؛ أي: الصوم المفروض عليكم هو شهر رمضان الشهر العظيم الذي قد حصل لكم فيه من الله الفضل العظيم، وهو القرآن الكريم المشتمل على الهداية لمصالحكم الدينية والدنيوية وتبيين الحق بأوضح بيان، والفرقان بين الحق والباطل والهدى والضلال وأهل السعادة وأهل الشقاوة، فحقيق بشهر هذا فضله، وهذا إحسان الله عليكم فيه، أن يكون موسمًا للعباد مفروضًا فيه الصيام، فلما قرره وبين فضيلته وحكمة الله تعالى في تخصيصه قال: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾؛ هذا فيه تعيين الصيام على القادر الصحيح الحاضر، ولما كان النسخ للتخيير بين الصيام والفداء خاصة، أعاد الرخصة للمريض والمسافر لئلا يتوهم أن الرخصة أيضًا منسوخة فقال: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾؛ أي: يريد الله تعالى أن ييسر عليكم الطرق الموصلة إلى رضوانه أعظم تيسير ويسهلها أبلغ[١] تسهيل، ولهذا كان جميع ما أمر الله به عباده في غاية السهولة في أصله، وإذا حصلت بعض العوارض الموجبة لثقله سهله تسهيلًا آخر؛ إما بإسقاطه أو تخفيفه بأنواع التخفيفات، وهذه جملة لا يمكن تفصيلها، لأن تفاصيلها جميع الشرعيات، ويدخل فيها جميع الرخص والتخفيفات.

﴿ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ ﴾؛ وهذا - والله أعلم - لئلا يتوهم متوهم أن صيام رمضان يحصل المقصود منه ببعضه، رفع[٢] هذا الوهم بالأمر بتكميل عدته، ويشكر الله تعالى عند إتمامه على توفيقه وتسهيله وتبيينه لعباده وبالتكبير عند انقضائه، ويدخل في ذلك التكبير عند رؤية هلال شوال إلى فراغ خطبة العيد.

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦) ﴾.

(١٨٦) هذا جواب سؤال. سأل النبي ﷺ بعض أصحابه فقالوا: يا رسول الله، أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟

(١) ع: «أشد».
(٢) ع: «دفع».

فنزل ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾؛ لأنه تعالى الرقيب الشهيد المطلع على السر وأخفى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور فهو قريب أيضًا من داعيه بالإجابة، ولهذا قال: ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾؛ [والدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة.

والقرب نوعان: قرب بعلمه من كل خلقه، وقرب من عابديه وداعيه بالإجابة والمعونة والتوفيق][٣].

فمن دعا ربه بقلب حاضر ودعاء مشروع ولم يمنع مانع من إجابة الدعاء كأكل الحرام ونحوه فإن الله قد وعده بالإجابة، وخصوصًا إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء وهي الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيه القولية والفعلية والإيمان به الموجب للاستجابة، فلهذا قال: ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦) ﴾؛ أي: يحصل لهم الرشد الذي هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة ويزول عنهم الغي المنافي للإيمان والأعمال الصالحة، ولأن الإيمان بالله والاستجابة لأمره سبب لحصول العلم كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال: ٢٩]. ثم قال تعالى:

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧) ﴾.

(١٨٧) كان في أول فرض الصيام يحرم على المسلمين الأكل والشرب والجماع في الليل بعد النوم، فحصلت المشقة لبعضهم، فخفف الله تعالى عنهم ذلك وأباح في ليالي الصيام كلها الأكل والشرب والجماع، سواء نام أو لم ينم، لكونهم يختانون أنفسهم بترك بعض ما أمروا به، ﴿ فَتَابَ ﴾؛ الله ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾؛ بأن وسع لكم أمرًا كان لولا توسعته موجبًا للإثم، ﴿ وَعَفَا عَنكُمْ ﴾؛ ما سلف من التخون

(٣) ما بين المعكوفين في حاشية ع ولم يشر له في المتن.

﴿ فَٱلْـَٔـٰنَ ﴾؛ بعد هذه الرخصة والسعة من الله ﴿ بَٰشِرُوهُنَّ ﴾؛ وطئًا وقبلة ولمسًا وغير ذلك ﴿ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾؛ أي: انووا في مباشرتكم لزوجاتكم التقرب إلى الله تعالى، والمقصود الأعظم من الوطء، وهو حصول الذرية وإعفاف فرجه وفرج زوجته، وحصول مقاصد النكاح، ومما كتب الله لكم ليلة القدر الموافقة لليالي صيام رمضان، فلا ينبغي لكم أن تشتغلوا بهذه اللذة عنها وتضيعوها، فاللذة مدركة وليلة القدر إذا فاتت لم تدرك.

﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾؛ هذا غاية للأكل والشرب والجماع، وفيه أنه إذا أكل ونحوه شاكًّا في طلوع الفجر فلا بأس عليه، وفيه دليل على استحباب السحور للأمر، وأنه يستحب تأخيره، أخذًا من معنى رخصة الله وتسهيله على العباد، وفيه أيضًا دليل على أنه يجوز أن يدركه الفجر وهو جنب من الجماع قبل أن يغتسل، ويصح صيامه؛ لأن لازم إباحة الجماع إلى طلوع الفجر، أن يدركه الفجر وهو جنب، ولازم الحق حق ﴿ ثُمَّ ﴾؛ إذا طلع الفجر ﴿ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ ﴾؛ أي: الإمساك عن المفطرات ﴿ إِلَى ٱلَّيْلِ ﴾؛ وهو غروب الشمس، ولما كان إباحة الوطء في ليالي الصيام ليست إباحة عامة لكل أحد، فإن المعتكف لا يحل له ذلك استثناه بقوله: ﴿ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ ﴾؛ أي: وأنتم متصفون بذلك.

ودلت الآية على مشروعية الاعتكاف وهو لزوم المسجد لطاعة الله تعالى وانقطاعًا إليه، وأن الاعتكاف لا يصح إلا في مسجد، ويستفاد من تعريف المساجد أنها المساجد المعروفة عندهم، وهي التي تقام فيها الصلوات الخمس، وفيه أن الوطء من مفسدات الاعتكاف.

تلك المذكورات وهي تحريم الأكل والشرب والجماع ونحوه، من المفطرات في الصيام، وتحريم الفطر على غير المعذور، وتحريم الوطء على المعتكف، ونحو ذلك من المحرمات ﴿ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾؛ التي حدها لعباده ونهاهم عنها فقال: ﴿ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾؛ أبلغ من قوله فلا تفعلوها؛ لأن القربان يشمل النهي عن فعل المحرم بنفسه، والنهي عن وسائله الموصلة إليه.

والعبد مأمور بترك المحرمات والبعد منها غاية ما يمكنه، وترك كل سبب يدعو إليها، وأما الأوامر فيقول الله فيها: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ فينهى عن مجاوزتها

سورة البقرة — الجزء الثاني

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٔـٰنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾

٢٩

﴿ كَذَٰلِكَ ﴾؛ أي: بين الله لعباده الأحكام السابقة أتم تبيين، وأوضحها لهم أكمل إيضاح ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٧]؛ فإنهم إذا بان لهم الحق اتبعوه، وإذا تبين لهم الباطل اجتنبوه، فإن الإنسان قد يفعل المحرم، على وجه الجهل بأنه محرم ولو علم تحريمه لم يفعله، فإذا بين الله للناس آياته؛ لم يبق لهم عذر ولا حجة، فكان ذلك سببًا للتقوى.

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾.

﴿١٨٨﴾ أي: ولا تأخذوا أموالكم أي: أموال غيركم، أضافها[1] إليهم؛ لأنه ينبغي للمسلم أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويحترم ماله كما يحترم ماله، ولأن أكله لمال غيره يجرئ غيره على أكل ماله عند القدرة، ولما كان أكلها نوعين: نوعًا بحق ونوعًا بباطل، وكان المحرم إنما هو أكلها بالباطل قيده

(١) في الأصل، ط: «أضافه».

تعالى بذلك، ويدخل بذلك أكلها على وجه الغصب والسرقة والخيانة في وديعة أو عارية أو نحو ذلك، ويدخل فيه أيضًا أخذها على وجه المعاوضة بمعاوضة محرمة، كعقود الربا والقمار كلها فإنها من أكل المال بالباطل، لأنه ليس في مقابلة عوض مباح، ويدخل في ذلك أخذها بسبب غش في البيع والشراء والإجارة ونحوها، ويدخل في ذلك استعمال الأجراء وأكل أجرتهم، وكذلك أخذهم أجرة على عمل لم يقوموا بواجبه، ويدخل في ذلك أخذ الأجرة على العبادات والقربات التي لا تصح حتى يقصد بها وجه الله تعالى، ويدخل في ذلك الأخذ من الزكوات والصدقات والأوقاف والوصايا، لمن ليس له حق منها أو فوق حقه، فكل هذا ونحوه من أكل المال بالباطل، فلا يحل ذلك بوجه من الوجوه حتى ولو حصل فيه النزاع و[1] الارتفاع إلى حاكم الشرع، وأدلى من يريد أكلها بالباطل بحجة غلبت حجة المحق، وحكم له الحاكم بذلك، فإن حكم الحاكم لا يبيح محرمًا ولا يحلل حرامًا، إنما يحكم على نحو مما يسمع، وإلا فحقائق الأمور باقية، فليس في حكم الحاكم للمبطل راحة ولا شبهة ولا استراحة، فمن أدلى إلى الحاكم بحجة باطلة، وحكم له بذلك فإنه لا يحل له، ويكون آكلًا لمال غيره بالباطل والإثم، وهو عالم بذلك فيكون أبلغ في عقوبته وأشد في نكاله.

وعلى هذا؛ فالوكيل إذا علم أن موكله مبطل في دعواه لم يحل له أن يخاصم عن الخائن كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء: ١٠٥].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾.

﴿١٨٩﴾ فقوله[2] تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾؛ - جمع هلال - ما فائدتها وحكمتها أو عن ذاتها؟ ﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: جعلها الله تعالى بلطفه ورحمته على هذا التدبير، يبدو الهلال ضعيفًا في أول الشهر، ثم يتزايد إلى نصفه، ثم يشرع في النقص إلى كماله، وهكذا ليعرف الناس بذلك مواقيت عباداتهم؛ من الصيام وأوقات الزكاة والكفارات وأوقات الحج، ولما كان الحج يقع في أشهر معلومات، ويستغرق أوقاتًا كثيرة قال: ﴿وَٱلْحَجِّ﴾؛ وكذلك تعرف بذلك أوقات الديون المؤجلات، ومدة الإجارات ومدة العدد والحمل، وغير ذلك مما هو من حاجات الخلق، فجعله تعالى حسابًا يعرفه كل أحد من صغير وكبير وعالم وجاهل، فلو كان الحساب بالسنة الشمسية لم يعرفه إلا النادر من الناس.

﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾؛ وهذا كما كان الأنصار وغيرهم من العرب إذا أحرموا لم يدخلوا البيوت من أبوابها؛ تعبدًا بذلك وظنًّا أنه بر، فأخبر تعالى أنه ليس من البر؛ لأن الله تعالى لم يشرعه لهم، وكل من تعبد بعبادة لم يشرعها الله ولا رسوله فهو متعبد ببدعة، وأمرهم أن يأتوا البيوت من أبوابها؛ لما فيه من السهولة عليهم التي هي قاعدة من قواعد الشرع.

ويستفاد من إشارة الآية أنه ينبغي في كل أمر من الأمور أن يأتيه الإنسان من الطريق السهل القريب الذي قد جعل له موصلًا، فالآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ينبغي أن ينظر في حالة المأمور، ويستعمل معه الرفق والسياسة التي بها يحصل المقصود أو بعضه، والمتعلم والمعلم ينبغي أن يسلك أقرب طريق وأسهله يحصل به مقصوده، وهكذا كل من حاول أمرًا من الأمور، وأتاه من أبوابه، وثابر عليه فلا بد أن يحصل له المقصود بعون الملك المعبود.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ هذا هو البر الذي أمر الله به، وهو لزوم تقواه على الدوام بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، فإنه سبب للفلاح الذي هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، فمن لم يتق الله تعالى لم يكن له سبيل إلى الفلاح، ومن اتقاه فاز بالفلاح والنجاح.

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾.

﴿١٩٠﴾ هذه الآيات تتضمن الأمر بالقتال في سبيل الله، وهذا كان بعد الهجرة إلى المدينة، لما قوي المسلمون

(١) بعده في ع: «حصل».
(٢) ع: «يقول».

للقتال أمرهم الله به بعدما كانوا مأمورين بكف أيديهم، وفي تخصيص القتال ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ حث على الإخلاص ونهي عن الاقتتال في الفتن بين المسلمين، ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾؛ أي: الذين هم مستعدون لقتالكم، وهم المكلفون الرجال غير الشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال.

والنهي عن الاعتداء يشمل أنواع الاعتداء كلها من قتل من لا يقاتل من النساء والمجانين والأطفال والرهبان ونحوهم، والتمثيل بالقتلى وقتل الحيوانات وقطع الأشجار ونحوها، لغير مصلحة تعود للمسلمين، ومن الاعتداء مقاتلة من تقبل منهم الجزية، إذا بذلوها، فإن ذلك لا يجوز.

(١٩١)، (١٩٢) ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾؛ هذا أمر بقتالهم أينما وجدوا في كل وقت وفي كل زمان قتال مدافعة وقتال مهاجمة، ثم استثنى من هذا العموم قتالهم ﴿عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾؛ وأنه لا يجوز إلا أن يبدءوا بالقتال فإنهم يقاتلون جزاء لهم على اعتدائهم، وهذا مستمر في كل وقت حتى ينتهوا عن كفرهم فيسلموا، فإن الله يتوب عليهم ولو حصل منهم ما حصل من الكفر بالله والشرك في المسجد الحرام وصد الرسول والمؤمنين عنه، وهذا من رحمته وكرمه بعباده. ولما كان القتال عند المسجد الحرام يتوهم أنه مفسدة في هذا البلد الحرام أخبر تعالى أن المفسدة بالفتنة عنده بالشرك والصد عن دينه أشد من مفسدة القتل، فليس عليكم أيها المسلمون حرج في قتالهم.

ويستدل في هذه الآية على القاعدة المشهورة، وهي أنه يرتكب أخف المفسدتين لدفع أعلاهما.

(١٩٣) ثم ذكر تعالى المقصود من القتال في سبيله، وأنه ليس المقصود به سفك دماء الكفار وأخذ أموالهم، ولكن المقصود به أن ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ تعالى، فيظهر دين الله تعالى على سائر الأديان، ويدفع كل ما يعارضه من الشرك وغيره وهو المراد بالفتنة، فإذا حصل هذا المقصود فلا قتل ولا قتال. ﴿فَإِنِ انتَهَوْا﴾؛ عن قتالكم عند المسجد الحرام، ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣)﴾؛ أي: فليس عليهم منكم اعتداء إلا من ظلم منهم؛ فإنه يستحق المعاقبة بقدر ظلمه.

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤)﴾.

الجزء الثاني — سورة البقرة

وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤) وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوا ۛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥) وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦)

٣٠

(١٩٤) يقول تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ يحتمل أن يكون المراد به ما وقع من صد المشركين للنبي ﷺ وأصحابه عام الحديبية عن الدخول لمكة وقاضوهم على دخولها من قابل، وكان الصد والقضاء في شهر حرام وهو ذو القعدة فيكون هذا بهذا، فيكون فيه تطييب لقلوب الصحابة بتمام نسكهم وكماله، ويحتمل أن يكون المعنى: إنكم إن قاتلتموهم في الشهر الحرام، فقد قاتلوكم فيه وهم المعتدون، فليس عليكم في ذلك حرج، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾؛ من باب عطف العام على الخاص، أي: كل شيء يحترم من شهر حرام أو بلد حرام أو إحرام، أو ما هو أعم من ذلك جميع ما أمر الشرع باحترامه، فمن تجرأ عليها فإنه يقتص منه: فمن قاتل في الشهر الحرام قوتل، ومن هتك البلد الحرام أخذ منه الحد ولم يكن له حرمة، ومن قتل مكافئًا له قتل به، ومن جرحه، أو قطع عضوًا منه اقتص منه، ومن أخذ مال غيره المحترم؛ أخذ منه بدله، ولكن هل لصاحب الحق أن يأخذ من ماله بقدر حقه أم لا؟ خلاف بين العلماء، الراجح من ذلك أنه إن

كان سبب الحق ظاهرًا كالضيف إذا لم يقره غيره، والزوجة والقريب إذا امتنع من تجب عليه النفقة من الإنفاق عليه، فإنه يجوز أخذه من ماله، وإن كان السبب خفيًّا كمن جحد دَيْنَ غيره أو خانه في وديعة أو سرق منه ونحو ذلك، فإنه لا يجوز له أن يأخذ من ماله مقابلة له جمعًا بين الأدلة، ولهذا قال تعالى توكيدًا وتقوية لما تقدم: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾؛ هذا تفسير لصفة المقاصة وأنها هي المماثلة في مقابلة المعتدي.

ولما كانت النفوس - في الغالب - لا تقف على حدها إذا رخص لها في المعاقبة لطلبها التشفي، أمر تعالى بلزوم تقواه التي هي الوقوف عند حدوده وعدم تجاوزها وأخبر تعالى أنه ﴿مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾؛ أي: بالعون والنصر والتأييد والتوفيق، ومن كان الله معه حصل له السعادة الأبدية، ومن لم يلزم التقوى تخلى عنه وليه، وخذله فوكله إلى نفسه، فصار هلاكه أقرب إليه من حبل الوريد.

﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾.

﴿١٩٥﴾ يأمر تعالى عباده بالنفقة في سبيله، وهو إخراج الأموال في الطرق الموصلة إلى الله، وهي كل طرق الخير من صدقة على مسكين أو قريب أو إنفاق على من تجب مؤنته، وأعظم ذلك وأول ما دخل في ذلك الإنفاق في الجهاد في سبيل الله، فإن النفقة فيه جهاد بالمال وهو فرض كالجهاد بالبدن، وفيها من المصالح العظيمة الإعانة على تقوية المسلمين وتوهين[1] الشرك وأهله وعلى إقامة دين الله وإعزازه، فالجهاد في سبيل الله لا يقوم إلا على ساق النفقة، فالنفقة له كالروح لا يمكن وجوده بدونها، وفي ترك الإنفاق في سبيل الله إبطال للجهاد وتسليط للأعداء، وشدة تكالبهم، فيكون قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾؛ كالتعليل لذلك.

والإلقاء باليد إلى التهلكة يرجع إلى أمرين: ترك ما أمر به العبد إذا كان تركه موجبًا أو مقاربًا لهلاك البدن أو الروح، وفعل ما هو سبب موصل إلى تلف النفس أو الروح فيدخل تحت ذلك أمور كثيرة، فمن ذلك ترك الجهاد في سبيل الله، أو النفقة فيه الموجب لتسلط الأعداء، ومن ذلك تغرير الإنسان بنفسه في مقاتلة أو سفر مخوف أو محل مسبعة أو حيات، أو يصعد شجرًا أو بنيانًا خطرًا، أو يدخل تحت شيء فيه خطر ونحو ذلك، فهذا ونحوه ممن ألقى بيده إلى التهلكة، ومن الإلقاء باليد إلى التهلكة[2] الإقامة على معاصي الله واليأس من التوبة، ومنها ترك ما أمر الله به من الفرائض التي تركُها هلاك للروح والدين.

ولما كانت النفقة في سبيل الله نوعًا من أنواع الإحسان أمر بالإحسان عمومًا فقال: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾؛ وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان؛ لأنه لم يقيده بشيء دون شيء، فيدخل فيه الإحسان بالمال كما تقدم، ويدخل فيه الإحسان بالجاه بالشفاعات ونحو ذلك، ويدخل في ذلك الإحسان بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعليم العلم النافع، ويدخل في ذلك قضاء حوائج الناس من تفريج كرباتهم، وإزالة شدائدهم[3] وعيادة مرضاهم وتشييع جنائزهم وإرشاد ضالهم وإعانة من يعمل عملًا، والعمل لمن لا يحسن العمل، ونحو ذلك مما هو من الإحسان الذي أمر الله به، ويدخل في الإحسان أيضًا الإحسان في عبادة الله تعالى، وهو كما ذكر النبي ﷺ: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[4]، فمن اتصف بهذه الصفات كان من الذين قال الله فيهم: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]؛ وكان الله معه يسدده ويرشده ويعينه على كل أموره.

ولما فرغ تعالى من ذكر أحكام الصيام والجهاد ذكر أحكام الحج فقال:

﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾.

﴿١٩٦﴾ يستدل بقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ﴾؛ على أمور: **أحدها**: وجوب الحج والعمرة وفرضيتهما. **الثاني**:

(١) ع، ط: «وعلى توهية».

(٢) عبارة: «الإلقاء باليد إلى التهلكة» وردت في الأصل، ط: «ذلك».
(٣) ع، ط: «شداتهم».
(٤) مسلم (٨).

وجوب إتمامهما بأركانهما وواجباتهما التي قد دل عليها فعل النبي ﷺ، وقوله: «خذوا عني مناسككم». **الثالث**: أن فيه حجة لمن قال بوجوب العمرة. **الرابع**: أن الحج والعمرة يجب إتمامهما بالشروع فيهما ولو كانا نفلًا. **الخامس**: الأمر بإتقانهما وإحسانهما، وهذا قدر زائد على فعل ما يلزم لهما. **السادس**: فيه الأمر بإخلاصهما ﴿لِلَّهِ﴾ تعالى. **السابع**: أنه لا يخرج المحرم بهما بشيء من الأشياء حتى يكملهما، إلا بما استثناه الله وهو الحصر، فلهذا قال: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾؛ أي: منعتم من الوصول إلى البيت لتكميلهما بمرض أو ضلالة أو عدوٍّ، ونحو ذلك من أنواع الحصر الذي هو المنع ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾؛ أي: فاذبحوا ما استيسر من الهدي، وهو سبع بدنة أو سبع بقرة أو شاة يذبحها المحصر، ويحلق، ويحل من إحرامه بسبب الحصر، كما فعل النبي ﷺ، وأصحابه لما صدهم المشركون عام الحديبية، فإن لم يجد الهدي فليصم بدله عشرة أيام كما في المتمتع ثم يحل.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾؛ وهذا من محظورات الإحرام إزالة الشعر بحلق أو غيره؛ لأن المعنى واحد من الرأس أو من البدن، لأن المقصود من ذلك حصول الشعث، والمنع من الترفه بإزالته وهو موجود في بقية الشعر، وقاس كثير من العلماء على إزالة الشعر تقليم الأظفار بجامع الترفه، ويستمر المنع مما ذكر حتى يبلغ الهدي محله وهو يوم النحر، والأفضل أن يكون الحلق بعد النحر كما تدل عليه الآية.

ويستدل بهذه الآية على أن المتمتع إذا ساق الهدي لم يتحلل من عمرته قبل يوم النحر، فإذا طاف وسعى للعمرة أحرم بالحج، ولم يكن له إحلال بسبب سوق الهدي، وإنما منع تبارك وتعالى من ذلك لما فيه من الذل والخضوع لله والانكسار له والتواضع الذي هو عين مصلحة العبد، وليس عليه في ذلك من ضرر؛ فإذا حصل الضرر بأن كان به أذى من مرض ينتفع بحلق رأسه له أو قروح أو قمل ونحو ذلك، فإنه يحل له أن يحلق رأسه، ولكن يكون عليه فدية من صيام ثلاثة أيام، أو إطعام[1] ستة مساكين، أو نسك ما يجزئ في أضحية فهو مخير، والنسك أفضل فالصدقة فالصيام، ومثل هذا، كل ما كان في معنى ذلك من تقليم الأظفار أو تغطية الرأس أو لبس المخيط أو الطيب[2]؛ فإنه يجوز عند الضرورة مع وجوب الفدية المذكورة؛ لأن القصد من الجميع إزالة ما به يترفه.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ﴾؛ أي: بأن قدرتم على البيت من غير مانع عدو وغيره ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾؛ بأن توصل بها إليه، وانتفع بتمتعه بعد الفراغ منها ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾؛ أي فعليه ما تيسر من الهدي، وهو ما يجزئ في أضحية، وهذا دم نسك مقابلة لحصول النسكين له في سفرة واحدة، ولإنعام الله عليه بحصول الانتفاع بالمتعة بعد فراغ العمرة وقبل الشروع في الحج، ومثلها القران لحصول النسكين له، ويدل مفهوم الآية على أن المفرد للحج ليس عليه هدي، ودلت الآية على جواز بل فضيلة المتعة وعلى جواز فعلها في أشهر الحج ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾؛ أي الهدي أو ثمنه ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾؛ أول جوازها من حين الإحرام بالعمرة، وآخرها ثلاثة أيام بعد النحر، أيام رمي الجمار والمبيت بمنى، ولكن الأفضل منها أن يصوم السابع والثامن والتاسع ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾؛ أي: فرغتم من أعمال الحج، فيجوز فعلها في مكة، وفي الطريق، وعند وصوله إلى أهله. ذلك المذكور من وجوب الهدي على المتمتع ﴿لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾؛ بأن كان بعيدًا عنه[3] مسافة قصر فأكثر أو بعيدًا عنه عرفًا[4]، فهذا الذي يجب عليه الهدي لحصول النسكين له في سفر واحد، وأما من كان أهله من حاضري المسجد الحرام، فليس عليه هدي لعدم الموجب لذلك.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ أي: في جميع أموركم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ومن ذلك امتثالكم لهذه المأمورات واجتناب هذه المحظورات المذكورة في هذه الآية ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾؛ أي: لمن عصاه، وهذا هو الموجب للتقوى، فإن من خاف عقاب الله انكف عما يوجب العقاب، كما أن من رجا ثواب الله عمل لما يوصله إلى الثواب، ومن[5] لم يخف العقاب، ولم يرج الثواب اقتحم المحارم، وتجرأ على ترك الواجبات.

---

(١) ع: «صدقة على».

(٢) ع: «التطيب».

(٣) في الأصل، ع: «عند».

(٤) في الأصل: «عند عرفات».

(٥) ع، ط: «وأما من».

الجزء الثاني — سورة البقرة

ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ
وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ
يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ
يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن
تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ
عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ
وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ
لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ
ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾
فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ
ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن
يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ
خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا
حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾

٣١

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾.

﴿١٩٧﴾ يخبر تعالى أن الحج واقع في أشـهر معلومات؛ عند المخاطبين مشـهورات بحيث لا تحتاج إلى تخصيص، كما احتـاج الصيام إلى تعيين شـهره، وكما بيـن تعالى أوقات الصلوات الخمس، وأما الحج فقد كان من ملة إبراهيم التي لم تزل مسـتمرة في ذريته معروفة بينهم. والمراد بالأشـهر المعلومات عند الجمهور[1]: شـوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجـة، فهي التي يقع فيها الإحرام بالحج غالبًا ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾؛ أي: أحـرم به؛ لأن الشـروع فيه يصيره فرضًا، ولو كان نفلًا.

واستدل بهذه الآية الشـافعي ومن تابعه على أنه لا يجوز الإحرام بالحج قبل أشهره، قلت: لو قيل: إن فيها دلالة لقول الجمهور بصحة الإحرام بالحج قبل أشهره. لكان قريبًا، فإن قولـه: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾؛ دليل على أن الفرض قد يقع في الأشـهر المذكورة، وقد لا يقـع فيها وإلا لم يقيده، وقولـه: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾؛ أي: يجـب أن تعظموا الإحـرام بالحج وخصوصًـا الواقع في أشـهره، وتصونوه عن كل ما يفسـده أو ينقصه من الرفث: وهـو الجماع، ومقدماتـه الفعلية والقوليـة، خصوصًا عند النسـاء بحضرتهن، والفسوق: وهو جميع المعاصي، ومنها محظورات الإحـرام، والجدال: وهو الممـاراة والمنازعة والمخاصمة، لكونها تثير الشـر وتوقع العداوة، والمقصود من الحج الذل والانكسـار لله والتقـرب إليه بما أمكن من القربـات والتنزه عن مقارفة السـيئات، فإنـه بذلك يكون مبرورًا، والمبرور ليس له جزاء إلا الجنة، وهذه الأشياء وإن كانت ممنوعة في كل مكان وزمـان، فإنه يتغلظ المنع عنها في الحج.

واعلـم أنه لا يتم التقرب إلى اللـه بترك المعاصي حتى يفعـل الأوامر، ولهذا قال تعالـى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾؛ أتـى بـ(من) لتنصيـص العموم، فكل خير وقربة وعبادة داخل في ذلـك، أي: فإن الله به عليم، وهذا يتضمـن غاية الحث على أفعال الخيـر خصوصًا في تلك البقاع الشريفة والحرمات المنيفة، فإنه ينبغي تدارك ما أمكن تداركه فيهـا من صلاة وصيام وصدقة وطواف وإحسـان قولي وفعلي، ثم أمر تعالى بالتزود لهذا السفر المبارك؛ فإن التزود فيه الاسـتغناء عن المخلوقين، والكف عن أموالهم سؤالًا واستشرافًا، وفي الإكثار منه نفع، وإعانة للمسافرين، وزيادة قربة لـرب العالمين، وهذا الزاد الـذي المراد منه إقامة البنية بُلغةٌ ومتاع، وأما الزاد الحقيقي المسـتمر نفعه لصاحبه في دنيـاه وأخراه فهو زاد التقـوى؛ الذي هو زاد إلـى دار القرار، وهو الموصل لأكمل لذة وأجل نعيم دائمًا أبدًا، ومن ترك هذا الـزاد فهو المنقطع به، الذي هو عرضة لكل شـر وممنوع من الوصول إلى دار المتقين، فهذا مدح للتقوى، ثم أمر بهـا أولي الألباب فقال: ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾؛ أي: يا أهل العقول الرزينة، اتقوا ربكم، الـذي تقواه أعظم مـا تأمر به العقـول، وتركها دليل على الجهل وفساد الرأي.

(١) ع: «جمهور العلماء».

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ﴾.

﴿١٩٨﴾ لما أمر تعالى بالتقوى أخبر تعالى أن ابتغاء فضل الله بالتكسب في مواسم الحج وغيره ليس فيه حرج إذا لم يشغل عما يجب إذا كان المقصود هو الحج، وكان الكسب حلالًا منسوبًا إلى فضل الله؛ لا منسوبًا إلى حذق العبد والوقوف مع السبب ونسيان المسبب، فإن هذا هو الحرج بعينه، وفي قوله: ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ﴾؛ دلالة على أمور:

أحدها: الوقوف بعرفة، وأنه كان معروفًا أنه ركن من أركان الحج، فالإفاضة من عرفات لا تكون إلا بعد الوقوف.

الثاني: الأمر بذكر الله عند المشعر الحرام وهو المزدلفة، وذلك أيضًا معروف يكون ليلة النحر بائتًا بها، وبعد صلاة الفجر يقف في المزدلفة داعيًا حتى يسفر جدًّا، ويدخل في ذكر الله عنده إيقاع الفرائض والنوافل فيه.

الثالث: أن الوقوف بمزدلفة متأخر عن الوقوف بعرفة كما تدل عليه الفاء والترتيب.

الرابع والخامس: أن عرفات ومزدلفة كلاهما من مشاعر الحج المقصود فعلها وإظهارها.

السادس: أن مزدلفة في الحرم كما قيده بالحرام.

السابع: أن عرفة في الحل كما هو مفهوم التقييد بمزدلفة.

﴿ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ﴾؛ أي اذكروا الله تعالى كما من عليكم بالهداية بعد الضلال، وكما علمكم ما لم تكونوا تعلمون. فهذه من أكبر النعم التي يجب شكرها ومقابلتها بذكر المنعم بالقلب واللسان.

﴿١٩٩﴾ ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾؛ أي: ثم أفيضوا من مزدلفة من حيث أفاض الناس من لدن إبراهيم عليه السلام إلى الآن، والمقصود من هذه الإفاضة كان معروفًا عندهم، وهو رمي الجمار، وذبح الهدايا، والطواف والسعي والمبيت بمنى ليالي التشريق، وتكميل باقي المناسك. ولما كانت هذه الإفاضة يقصد بها ما ذكر والمذكورات آخر المناسك، أمر تعالى عند الفراغ منها باستغفاره والإكثار من ذكره، فالاستغفار للخلل الواقع من العبد في أداء عبادته وتقصيره فيها، وذكر الله شكر الله على إنعامه عليه بالتوفيق لهذه العبادة العظيمة والمنة الجسيمة، وهكذا ينبغي للعبد كلما فرغ من عبادة أن يستغفر الله عن التقصير، ويشكره على التوفيق، لا كمن يرى أنه قد أكمل العبادة، ومن بها على ربه، وجعلت له محلًّا ومنزلة رفيعة، فهذا حقيق بالمقت ورد العمل، كما أن الأول حقيق بالقبول والتوفيق لأعمال أخر.

﴿٢٠٠﴾ - ﴿٢٠٢﴾ ثم أخبر تعالى عن أحوال الخلق، وأن الجميع يسألونه مطالبهم، ويستدفعونه ما يضرهم، ولكن مقاصدهم تختلف، فمنهم ﴿ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا ﴾؛ أي: يسأله من مطالب الدنيا ما هو من شهواته، وليس له في الآخرة من نصيب لرغبته عنها، وقصر همته على الدنيا، ومنهم من يدعو الله لمصلحة الدارين، ويفتقر إليه في مهمات دينه ودنياه، وكل من هؤلاء وهؤلاء لهم نصيب من كسبهم وعملهم، وسيجازيهم تعالى على حسب أعمالهم وهماتهم ونياتهم جزاءً دائرًا بين العدل والفضل، يحمد عليه أكمل حمد وأتمه.

وفي هذه الآية دليل على أن الله يجيب دعوة كل داع مسلمًا أو كافرًا أو فاسقًا، ولكن ليست إجابته دعاء من دعاه دليلًا على محبته له وقربه منه إلا في مطالب الآخرة ومهمات الدين، والحسنة المطلوبة في الدنيا يدخل فيها كل ما يحسن وقعه عند العبد من رزق هني واسع حلال، وزوجة صالحة، وولد تقر به العين، وراحة، وعلم نافع، وعمل صالح، ونحو ذلك من المطالب المحبوبة والمباحة، وحسنة الآخرة هي السلامة من العقوبات في القبر والموقف والنار، وحصول

۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي
يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ
وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ
ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ
عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ
فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ
لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ
بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ
ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ
رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ
فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ
إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ
مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
﴿٢٠٩﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ
وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٢١٠﴾

رضا الله، والفوز بالنعيم المقيم، والقرب من الرب الرحيم، فصار هذا الدعاء أجمع دعاء وأكمله وأولاه بالإيثار، ولهذا كان النبي ﷺ يكثر من الدعاء به[١] والحث عليه.

﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

﴿٢٠٣﴾ يأمر تعالى بذكره في الأيام المعدودات، وهي أيام التشريق الثلاثة بعد العيد لمزيتها وشرفها، وكون بقية[٢] المناسك تفعل بها، ولكون الناس أضيافًا لله فيها، ولهذا حرم صيامها، فللذكر فيها مزية ليست لغيرها، ولهذا قال النبي ﷺ: **«أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله»**[٣]، ويدخل في ذكر الله فيها ذكره عند رمي الجمار، وعند الذبح، والذكر المقيد عقب الفرائض، بل قال بعض العلماء: إنه يستحب فيها التكبير المطلق كالعشر وليس ببعيد ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾؛ أي: خرج من منى، ونفر منها قبل غروب شمس اليوم الثاني ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ﴾؛ بأن بات بها ليلة الثالث، ورمى من الغد ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾؛ وهذا تخفيف من الله تعالى على عباده في إباحة كلا الأمرين، ولكن من المعلوم أنه إذا أبيح كلا الأمرين، فالتأخر أفضل؛ لأنه أكثر عبادة. ولما كان نفي الحرج قد يفهم منه نفي الحرج في ذلك المذكور وفي غيره، والحاصل أن الحرج منفي عن المتقدم والمتأخر فقط، قيده بقوله: ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾؛ أي: اتقى الله في جميع أموره وأحوال الحج، فمن اتقى الله في كل شيء، حصل له نفي الحرج في كل شيء، ومن اتقاه في شيء دون شيء كان الجزاء من جنس العمل ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ بامتثال أوامره، واجتناب معاصيه ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾؛ فمجازيكم بأعمالكم، فمن اتقاه وجد جزاء التقوى عنده، ومن لم يتقه عاقبه أشد العقوبة، فالعلم بالجزاء من أعظم الدواعي لتقوى الله، فلهذا حث تعالى على العلم بذلك.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾.

﴿٢٠٤﴾ لما أمر تعالى بالإكثار من ذكره، وخصوصًا في الأوقات الفاضلة الذي هو خير ومصلحة وبر أخبر تعالى بحال من يتكلم بلسانه، ويخالف فعله قوله، فالكلام إما أن يرفع الإنسان أو يخفضه فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ أي: إذا تكلم راق كلامه السامع، وإذا نطق ظننته يتكلم بكلام نافع، ويؤكد ما يقول بأنه ﴿وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ﴾؛ بأن يخبر أن الله يعلم أن ما في قلبه موافق لما نطق به، وهو كاذب في ذلك لأنه يخالف قوله فعله، فلو كان صادقًا لتوافق القول والفعل كحال المؤمن غير المنافق، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾؛ أي: إذا خاصمته، وجدت فيه من اللدد والصعوبة والتعصب وما يترتب على ذلك ما هو من مقابح الصفات، ليس كأخلاق المؤمنين؛ الذين جعلوا السهولة مركبهم والانقياد للحق وظيفتهم والسماحة سجيتهم.

(١) البخاري (٦٣٨٩)، مسلم (٢٦٩٠).
(٢) بعده في ع: «أحكام».
(٣) مسلم (١١٤١).

(٢٠٥) ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ ﴾؛ هذا الذي يعجبك قوله إذا حضر عندك ﴿ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا ﴾؛ أي: يجتهد على أعمال المعاصي التي هي إفساد في الأرض فيهلك بسبب ذلك ﴿ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ﴾؛ فالزروع والثمار والمواشي تتلف، وتنقص، وتقل بركتها بسبب العمل في المعاصي، ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ (٢٠٥) ﴾؛ فإذا كان لا يحب الفساد فهو يبغض العبد المفسد في الأرض غاية البغض، وإن قال بلسانه قولًا حسنًا.

ففي هذه الآية دليل على أن الأقوال التي تصدر من الأشخاص ليست دليلًا على صدق ولا كذب ولا بر ولا فجور، حتى يوجد العمل المصدق لها، المزكي لها، وأنه ينبغي اختبار أحوال الشهود والمحق والمبطل من الناس بسبر[1] أعمالهم، والنظر لقرائن أحوالهم، وألا يغتر بتمويههم وتزكيتهم أنفسهم، ثم ذكر أن هذا المفسد في الأرض بمعاصي الله إذا أمر بتقوى الله تكبر وأنف.

(٢٠٦) ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ﴾؛ فيجمع بين العمل بالمعاصي والتكبر على الناصحين ﴿ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ﴾؛ التي هي دار العاصين والمتكبرين ﴿ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ (٢٠٦) ﴾؛ أي المستقر والمسكن، عذاب دائم، وهم لا ينقطع، ويأس مستمر، لا يخفف عنهم العذاب ولا يرجون الثواب، جزاءً لجناياتهم ومقابلة لأعمالهم، فعياذًا بالله من أحوالهم[2].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٠٨) فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩) ﴾.

(٢٠٨) هذا أمر من الله تعالى للمؤمنين أن يدخلوا ﴿ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾؛ أي: في جميع شرائع الدين، ولا يتركوا منها شيئًا، وألَّا يكونوا ممن اتخذ إلهه هواه؛ إن وافق الأمر المشروع هواه فعله، وإن خالفه تركه، بل الواجب أن يكون الهوى تبعًا للدين، وأن يفعل كل ما يقدر عليه من أفعال الخير، وما يعجز عنه يلتزمه، وينويه فيدركه بنيته، ولما كان الدخول في السلم كافة لا يمكن ولا يتصور إلا بمخالفة طرق الشيطان قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾؛ أي: في العمل بمعاصي الله، ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٠٨) ﴾؛ والعدو المبين لا يأمر إلا بالسوء والفحشاء وما به الضرر عليكم، ولما كان العبد لا بد أن يقع منه خلل وزلل قال تعالى:

(٢٠٩) ﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾؛ أي: على علم ويقين، ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩) ﴾، وفيه من الوعيد الشديد والتخويف ما يوجب ترك الزلل، فإن العزيز القاهر[3] الحكيم إذا عصاه العاصي، قهره بقوته، وعذبه بمقتضى حكمته، فإن من حكمته تعذيب العصاة والجناة.

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ (٢١٠) ﴾.

(٢١٠) وهذا فيه من الوعيد الشديد والتهديد ما تنخلع له القلوب، يقول تعالى: هل ينتظر الساعون في الفساد في الأرض، المتبعون لخطوات الشيطان، النابذون لأمر الله إلا يوم الجزاء بالأعمال، الذي قد حشي من الأهوال والشدائد والفظائع ما يقلقل قلوب الظالمين، ويحق به الجزاء السيئ على المفسدين، وذلك أن الله تعالى يطوي السماوات والأرض، وتنتثر الكواكب، وتكور الشمس والقمر، وتنزل الملائكة الكرام فتحيط بالخلائق، وينزل الباري تبارك وتعالى ﴿ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ﴾ ليفصل بين عباده بالقضاء العدل، فتوضع الموازين، وتنشر الدواوين، وتبيض وجوه أهل السعادة، وتسود وجوه أهل الشقاوة، ويتميز أهل الخير من أهل الشر، وكل يجازى بعمله، فهنالك يعض الظالم على يديه إذا علم حقيقة ما هو عليه.

(١) في الأصل، ط: «ببر».
(٢) زاد بعده في ع، ط تفسير الآية ٢٠٧ فورد في هذه الزيادة: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ (٢٠٧) ﴾. قال الشيخ محمد البسام فيما نقحه من مؤلفات الشيخ السعدي: «هذه الزيادة عن تفسير المؤلف من محمد زهري النجار، ولم ينسبها لنفسه، بل أدرجها وكأنها من كلام المؤلف» [هؤلاء هم الموفقون الذين باعوا أنفسهم، وأرخصوها، وبذلوها طلبًا لمرضاة الله، ورجاءً لثوابه، فهم بذلوا الثمن للمليء الوفي، الرءوف بالعباد، الذي من رأفته ورحمته أن وفقهم لذلك، وقد وعد الوفاء بذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [التوبة: ١١١] إلى آخر الآية. وفي هذه الآية أخبر أنهم اشتروا أنفسهم وبذلوها، وأخبر برأفته الموجبة لتحصيل ما طلبوا، وبذل ما به رغبوا، فلا تسأل بعد هذا عما يحصل لهم من الكريم، وما ينالهم من الفوز والتكريم].
(٣) في الأصل، ط: «المقام».

سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ
ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ
كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ
ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ
﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ
وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ
فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ
مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ
صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا
يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ
وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ
أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴿٢١٤﴾ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ
مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ
وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٢١٥﴾

وهذه الآية وما أشبهها دليل لمذهب أهل السنة والجماعة المثبتين للصفات الاختيارية؛ كالاستواء، والنزول، والمجيء، ونحو ذلك من الصفات التي أخبر بها تعالى عن نفسه، أو أخبر بها عنه رسوله ﷺ، فيثبتونها على وجه يليق بجلال الله وعظمته من غير تشبيه ولا تحريف، خلافًا للمعطلة على اختلاف أنواعهم؛ من الجهمية والمعتزلة والأشعرية ونحوهم، ممن ينفي هذه الصفات، ويتأول لأجلها الآيات بتأويلات ما أنزل الله عليها من سلطان، بل حقيقتها القدح في بيان الله وبيان رسوله، والزعم بأن كلامهم هو الذي تحصل به الهداية في هذا الباب، فهؤلاء ليس معهم دليل نقلي؛ بل ولا دليل عقلي.

أما النقلي فقد اعترفوا أن النصوص الواردة في الكتاب والسنة ظاهرها؛ بل صريحها دال على مذهب أهل السنة والجماعة، وأنها تحتاج لدلالتها على مذهبهم الباطل أن تخرج عن ظاهرها ويزاد فيها وينقص، وهذا كما ترى لا يرتضيه من في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

وأما العقل فليس في العقل ما يدل على نفي هذه الصفات، بل العقل دل على أن الفاعل أكمل من الذي لا يقدر على الفعل، وأن فعله تعالى المتعلق بنفسه والمتعلق بخلقه هو كمال، فإن زعموا أن إثباتها يدل على التشبيه بخلقه، قيل لهم: الكلام على الصفات يتبع الكلام على الذات، فكما أن لله ذاتًا لا تشبهها الذوات فلله صفات لا تشبهها الصفات، فصفاته تبع لذاته، وصفات خلقه تبع لذواتهم، فليس في إثباتها ما يقتضي التشبيه بوجه، ويقال أيضًا لمن أثبت بعض الصفات، ونفى بعضًا، أو أثبت الأسماء دون الصفات: إما أن تثبت الجميع كما أثبته الله لنفسه، وأثبته رسوله، وإما أن تنفي الجميع، وتكون منكرًا لرب العالمين. وأما إثباتك بعض ذلك ونفيك لبعضه فهذا تناقض، ففرق بين ما أثبته وبين ما نفيته، ولن تجد إلى الفرق سبيلًا. فإن قلت: ما أثبته لا يقتضي تشبيهًا، قال لك أهل السنة: والإثبات لما نفيته لا يقتضي تشبيهًا، فإن قلت: لا أعقل من الذي نفيته إلا التشبيه، قال لك النفاة: ونحن لا نعقل من الذي أثبته إلا التشبيه، فما أجبت به النفاة أجابك به أهل السنة لما نفيته.

والحاصل أن من نفى شيئًا، وأثبت شيئًا مما دل الكتاب والسنة على إثباته فهو متناقض؛ لا يثبت له دليل شرعي ولا عقلي، بل قد خالف المعقول والمنقول.

﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾.

﴿٢١١﴾ يقول تعالى: ﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖ﴾، تدل على الحق وعلى صدق الرسل فتيقنوها، وعرفوها، فلم يقوموا بشكر هذه النعمة التي تقتضي القيام بها، بل كفروا بها، وبدلوا نعمة الله كفرًا؛ فلهذا استحقوا أن ينزل الله عليهم عقابه، ويحرمهم من ثوابه، وسمى الله تعالى كفر النعمة تبديلًا لها؛ لأن من أنعم الله عليه نعمة دينية أو دنيوية فلم يشكرها، ولم يقم بواجبها اضمحلت عنه، وذهبت وتبدلت بالكفر والمعاصي، فصار الكفر بدل النعمة، وأما من شكر الله تعالى، وقام بحقها فإنها تثبت، وتستمر، ويزيده الله منها.

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢١٢﴾﴾.

﴿٢١٢﴾ يخبر تعالى أن الذين كفروا بالله وبآياته ورسله، ولم ينقادوا لشرعه أنهم زينت لهم الحياة الدنيا، فزينت في أعينهم وقلوبهم، فرضوا بها، واطمأنوا بها، فصارت أهواؤهم وإراداتهم وأعمالهم كلها لها، فأقبلوا عليها، وأكبوا على تحصيلها، وعظموها، وعظموا من شاركهم في صنيعهم، واحتقروا المؤمنين، واستهزءوا بهم، وقالوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣]، وهذا من ضعف عقولهم ونظرهم القاصر، فإن الدنيا دار ابتلاء وامتحان، وسيحصل الشقاء فيها لأهل الإيمان والكفران، بل المؤمن في الدنيا وإن ناله مكروه فإنه يصبر ويحتسب، فيخفف الله عنه بإيمانه وصبره ما لا يكون لغيره، وإنما الشأن كل الشأن والتفضيل الحقيقي في الدار الباقية، فلهذا قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ فيكون المتقون في أعلى الدرجات متمتعين بأنواع النعيم والسرور والبهجة والحبور، والكفار تحتهم في أسفل الدركات، معذبين بأنواع العذاب والإهانة والشقاء السرمدي الذي لا منتهى له، ففي هذه الآية تسلية للمؤمنين، ونعي على الكافرين، ولما كانت الأرزاق الدنيوية والأخروية لا تحصل إلا بتقدير الله، ولن تنال إلا بمشيئة الله قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢١٢﴾﴾؛ فالرزق الدنيوي يحصل للمؤمن والكافر، وأما رزق القلوب من العلم والإيمان ومحبة الله وخشيته ورجائه ونحو ذلك فلا يعطيها إلا من يحبه.

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾.

﴿٢١٣﴾ أي[1]: كان الناس - مجتمعين على الكفر والضلال والشقاء ليس لهم نور ولا إيمان، فرحمهم الله تعالى بإرسال الرسل إليهم ﴿مُبَشِّرِينَ﴾؛ من أطاع الله بثمرات الطاعات من الرزق والقوة في البدن والقلب والحياة الطيبة، وأعلى ذلك الفوز برضوان الله والجنة ﴿وَمُنذِرِينَ﴾؛ من عصى الله بثمرات المعصية من حرمان الرزق والضعف والإهانة والحياة الضيقة، وأشد ذلك سخط الله والنار، ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ وأنزل الكتب عليهم بالحق؛ وهو الإخبارات الصادقة والأوامر العادلة.

فكل ما اشتملت عليه الكتب الإلهية[2] فهو حق يفصل بين المختلفين في الأصول والفروع، وهذا هو الواجب عند الاختلاف والتنازع أن يرد الاختلاف إلى الله وإلى رسوله، ولولا أن في كتابه وسنة رسوله فصل النزاع لما أمر بالرد إليهما، ولما ذكر نعمته العظيمة بإنزال الكتب على أهل الكتاب، وكان هذا يقتضي اتفاقهم عليها واجتماعهم فأخبر تعالى أنهم بغى بعضهم على بعض، وحصل النزاع والخصام وكثرة الاختلاف، فاختلفوا في الكتاب الذي ينبغي أن يكونوا أولى الناس بالاجتماع عليه، وذلك من بعد ما علموه وتيقنوه بالآيات البينات والأدلة القاطعات، وضلوا بذلك ضلالًا بعيدًا، وهدى الله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ من هذه الأمة ﴿لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾؛ فكل ما اختلف فيه أهل الكتاب، وأخطئوا فيه الحق والصواب، هدى الله للحق فيه هذه الأمة ﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾؛ تعالى وتيسيره لهم ورحمته.

﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾؛ فعم الخلق تعالى بالدعوة إلى الصراط المستقيم عدلًا منه تعالى وإقامة حجة على الخلق؛ لئلا يقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير، وهدى - بفضله ورحمته وإعانته ولطفه - من شاء من عباده، فهذا فضله وإحسانه، وذاك عدله وحكمته تبارك وتعالى.

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴿٢١٤﴾﴾.

﴿٢١٤﴾ يخبر تبارك وتعالى أنه لا بد أن يمتحن عباده بالسراء والضراء والمشقة كما فعل بمن قبلهم، فهي سنته الجارية التي لا تتغير ولا تتبدل، أن من قام بدينه وشرعه لا بد أن يبتليه، فإن صبر على أمر الله، ولم يبال بالمكاره الواقفة في سبيله، فهو الصادق الذي قد نال من السعادة كمالها ومن السيادة آلتها، ومن جعل فتنة الناس كعذاب

(١) زاد في ع، ط: «أي: كانوا مجتمعين على الهدى، وذلك عشرة قرون بعد نوح عليه السلام، فلما اختلفوا في الدين، فكفر فريق منهم، وبقي الفريق الآخر على الهدى، وحصل النزاع، بعث الله الرسل؛ ليفصلوا بين الخلائق، ويقيموا الحجة عليهم، وقيل: بل كانوا».

(٢) ساقط من ع، ط.

الله، بأن صدته المكاره عما هو بصدده، وثنته المحن عن مقصده، فهو الكاذب في دعوى الإيمان، فإنه ليس الإيمان بالتحلي والتمني ومجرد الدعاوي؛ حتى تصدقه الأعمال أو تكذبه، فقد جرى على الأمم الأقدمين ما ذكر الله عنهم ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾؛ أي: الفقر والأمراض في أبدانهم ﴿وَزُلْزِلُوا۟﴾؛ بأنواع المخاوف من التهديد بالقتل والنفي، وأخذ الأموال، وقتل الأحبة، وأنواع المضار، حتى وصلت بهم الحال، وآل بهم الزلزال إلى أن استبطئوا نصر الله مع يقينهم به، ولكن لشدة الأمر وضيقه يقول[1] ﴿ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾؛ فلما كان الفرج عند الشدة، وكلما ضاق الأمر اتسع قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾؛ فهكذا كل من قام بالحق فإنه يمتحن، فكلما اشتدت عليه وصعبت إذا صابر وثابر على ما هو عليه؛ انقلبت المحنة في حقه منحة، والمشقات راحات، وأعقبه ذلك الانتصار على الأعداء وشفاء ما في قلبه من الداء.

وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢]؛ وقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ١-٣]؛ فعند الامتحان يكرم المرء أو يهان.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾.

﴿٢١٥﴾ أي: يسألونك عن النفقة وهذا يعم السؤال عن المنفق والمنفق عليه، فأجابهم عنها فقال: ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾؛ أي: مال قليل أو كثير فأولى الناس به وأحقهم بالتقديم أعظمهم حقًّا عليك، وهم الوالدان الواجب برهما والمحرم عقوقهما، ومن أعظم برهما النفقة عليهما، ومن أعظم العقوق ترك الإنفاق عليهما، ولهذا كانت النفقة عليهما واجبة على الولد الموسر، ومن بعد الوالدين الأقربون على اختلاف طبقاتهم، الأقرب فالأقرب، على حسب القرب والحاجة، فالإنفاق عليهم صدقة وصلة ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾؛ وهم الصغار الذين لا كاسب لهم فهم في مظنة الحاجة، لعدم قيامهم بمصالح أنفسهم وفقد الكاسب، فوصى الله بهم العباد رحمة منه بهم ولطفًا ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾؛ وهم أهل الحاجات وأرباب الضرورات الذين أسكنتهم الحاجة، فينفق عليهم لدفع حاجاتهم وإغنائهم ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ﴾؛ أي: الغريب المنقطع به في غير بلده، فيعان على سفره بالنفقة التي توصله إلى مقصده.

ولما خصص الله تعالى هؤلاء الأصناف لشدة الحاجة، عمم تعالى فقال: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾؛ من صدقة على هؤلاء وغيرهم، بل ومن جميع أنواع الطاعات والقربات؛ لأنها تدخل في اسم الخير ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾؛ فيجازيكم عليه، ويحفظه لكم كل على حسب نيته وإخلاصه، وكثرة نفقته وقلتها، وشدة الحاجة إليها، وعظم وقعها ونفعها.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾.

﴿٢١٦﴾ هذه الآية فيها فرض القتال في سبيل الله بعدما كان المؤمنون مأمورين بتركه لضعفهم وعدم احتمالهم لذلك، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، وكثر المسلمون، وقووا أمرهم الله تعالى بالقتال، وأخبر أنه مكروه للنفوس، لما فيه من التعب والمشقة وحصول أنواع المخاوف والتعرض للمتالف، ومع هذا فهو خير محض لما فيه من الثواب العظيم والتحرز من العقاب الأليم والنصر على الأعداء والظفر بالغنائم، وغير ذلك مما هو مرب على ما فيه من الكراهة ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾؛ وذلك مثل القعود عن الجهاد لطلب الراحة فإنه شر؛ لأنه يعقب الخذلان، وتسلط الأعداء على الإسلام وأهله، وحصول الذل والهوان، وفوات الأجر العظيم، وحصول العقاب.

وهذه الآيات عامة مطردة في أن أفعال الخير التي تكرهها النفوس لما فيها من المشقة أنها خير بلا شك، وأن أفعال الشر التي تحبها النفوس لما تتوهمه فيها من الراحة واللذة فهي شر بلا شك، وأما أحوال الدنيا فليس الأمر مطردًا، ولكن الغالب على العبد المؤمن أنه إذا أحب أمرًا من الأمور فقيض الله له من الأسباب ما يصرفه عنه أنه خير

(١) ع، ط: «قال».

لـه، فالأوفق له في ذلك أن يشكر الله، ويعتقد[1] الخير في الواقع، لأنه يعلم أن الله تعالى أرحم بالعبد من نفسه، وأقدر على مصلحة عبده منه، وأعلم بمصلحته منه كما قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦ ﴾؛ فاللائق بكم أن تتمشوا مع أقداره سواء سرتكم أو ساءتكم.

ولما كان الأمر بالقتال لو لم يقيد؛ لشمل الأشهر الحرم وغيرها، استثنى تعالى القتال في الأشهر الحرم فقال:

﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢١٧ ﴾.

(٢١٧) الجمهور على أن تحريم القتال في الأشهر الحرم منسوخ بالأمر بقتال المشركين حيثما وجدوا. وقال بعض المفسرين: إنه لم ينسخ لأن المطلق محمول على المقيد، وهذه الآية مقيدة لعموم الأمر بالقتال مطلقًا، ولأن من جملة مزية الأشهر الحرم، بل أكبر مزاياها تحريم القتال فيها، وهذا إنما هو في قتال الابتداء وأما قتال الدفع فإنه يجوز في الأشهر الحرم كما يجوز في البلد الحرام.

ولما كانت هذه الآية نازلة بسبب ما حصل لسرية عبد الله ابن جحش وقتلهم عمرو بن الحضرمي وأخذهم أموالهم - وكان ذلك على ما قيل في شهر رجب - عيرهم المشركون بالقتال بالأشهر الحرم وكانوا في تعييرهم ظالمين؛ إذ فيهم من القبائح ما بعضه أعظم مما عيروا به المسلمين، قال تعالى في بيان ما فيهم: ﴿ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: صد المشركين من يريد الإيمان بالله وبرسوله وفتنتهم من آمن به وسعيهم في ردهم عن دينهم وكفرهم الحاصل في الشهر الحرام والبلد الحرام الذي هو بمجرده كاف في الشر، فكيف وقد كان في شهر حرام وبلد حرام ﴿ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ ﴾؛ أي: أهل المسجد الحرام وهم النبي ﷺ، وأصحابه لأنهم أحق به من المشركين وهم عماره على الحقيقة فأخرجوهم ﴿ مِنۡهُ ﴾؛ ولم يمكنوهم من الوصول إليه، مع أن هذا البيت سواء

(١) ع: «ويجعل».

كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢١٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨ ۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢١٩

٣٤

العاكف فيه والباد، فهذه الأمور كل واحد منها ﴿ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِ ﴾؛ في الشهر الحرام فكيف وقد اجتمعت فيهم فعلم أنهم فسقة ظلمة في تعييرهم المؤمنين.

ثم أخبر تعالى أنهم لن يزالوا يقاتلون المؤمنين، وليس غرضهم في أموالهم وقتلهم وإنما غرضهم أن يرجعوهم عن دينهم ويكونوا كفارًا بعد إيمانهم حتى يكونوا من أصحاب السعير، فهم باذلون قدرتهم في ذلك ساعون بما أمكنهم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. وهذا الوصف عام لكل الكفار لا يزالون يقاتلون غيرهم حتى يردوهم عن دينهم، وخصوصًا أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين بذلوا الجمعيات، ونشروا الدعاة، وبثوا الأطباء، وبنوا المدارس لجذب الأمم إلى دينهم، وتدخيلهم عليهم كل ما يمكنهم من الشبه التي تشككهم في دينهم، ولكن المرجو من الله تعالى الذي من على المؤمنين بالإسلام، واختار لهم دينه القيم، وأكمل لهم دينه أن يتم عليهم نعمته بالقيام به أتم قيام، وأن يخذل كل من أراد أن يطفئ نوره، ويجعل

كيدهم في نحورهم، وينصر دينه، ويعلي كلمته وتكون هذه الآية صادقة على هؤلاء الموجودين من الكفار كما صدقت على من قبلهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٦]؛ ثم أخبر تعالى أن من ارتد عن الإسلام بأن اختار عليه الكفر واستمر على ذلك حتى مات كافرًا ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۖ ﴾؛ لعدم وجود شرطها وهو الإسلام ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾.

ودلت الآية بمفهومها أن من ارتد ثم عاد إلى الإسلام أنه يرجع إليه عمله[1]، وكذلك من تاب من المعاصي فإنها تعود إليه أعماله المتقدمة.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾.

﴿٢١٨﴾ هذه الأعمال الثلاثة هي عنوان السعادة وقطب رحى العبودية، وبها يعرف ما مع الإنسان من الربح والخسران، فأما الإيمان فلا تسأل عن فضيلته وكيف تسأل عن شيء هو الفاصل بين أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأهل الجنة من أهل النار، وهو الذي إذا كان مع العبد قبلت أعمال الخير منه، وإذا عدم منه لم يقبل له صرف ولا عدل، ولا فرض ولا نفل، وأما الهجرة فهي مفارقة المحبوب المألوف؛ لرضا الله تعالى فيترك المهاجر وطنه وأمواله وأهله وخلانه؛ تقربًا إلى الله ونصرة لدينه، وأما الجهاد فهو بذل الجهد في مقارعة الأعداء، والسعي التام في نصرة دين الله وقمع دين الشيطان، وهو ذروة الأعمال الصالحة وجزاؤه أفضل الجزاء، وهو السبب الأكبر لتوسيع دائرة الإسلام، وخذلان عباد الأصنام وأمن المسلمين على أنفسهم وأموالهم وأولادهم، فمن قام بهذه الأعمال الثلاثة على لأوائها ومشقتها، كان لغيرها أشد قيامًا به وتكميلًا، فحقيق بهؤلاء أن يكونوا هم الراجين[2] رحمة الله لأنهم أتوا بالسبب الموجب للرحمة، وفي هذا دليل على أن الرجاء لا يكون إلا بعد القيام بأسباب السعادة، وأما الرجاء المقارن للكسل وعدم القيام بالأسباب فهذا عجز وتمن وغرور، وهو دال على ضعف همة صاحبه، ونقص عقله، بمنزلة من يرجو وجود الولد بلا نكاح، ووجود الغلة بلا بذر وسقي ونحو ذلك.

(١) ع، ط: «الذي قبل ردته».
(٢) ع، ط: «الراجون».

وفي قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ ﴾؛ إشارة إلى أن العبد ولو أتى من الأعمال بما أتى به لا ينبغي له أن يعتمد عليها ويعول عليها، بل يرجو رحمة ربه ويرجو قبول أعماله ومغفرة ذنوبه وستر عيوبه، ولهذا قال: ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ ﴾؛ أي: لمن تاب توبة نصوحًا، ﴿ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾؛ وسعت رحمته كل شيء وعم جوده وإحسانه كل حي، وفي هذا دليل على أن من قام بهذه الأعمال المذكورة حصل له مغفرة الله، إذ الحسنات يذهبن السيئات، وحصلت له رحمة الله، وإذا حصلت له المغفرة اندفعت عنه عقوبات الدنيا والآخرة التي هي آثار الذنوب التي قد غفرت، واضمحلت آثارها، وإذا حصلت له الرحمة حصل على كل خير في الدنيا والآخرة، بل أعمالهم المذكورة من رحمة الله بهم، فلولا توفيقه إياهم لم يريدوها، ولولا إقدارهم عليها لم يقدروا عليها، ولولا إحسانه لم يتمها ويقبلها منهم، فله الفضل أولًا وآخرًا وهو الذي منَّ بالسبب والمسبب، ثم قال تعالى:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾.

﴿٢١٩﴾ أي: يسألك يا أيها الرسول المؤمنون عن أحكام الخمر والميسر، وقد كانا مستعملين في الجاهلية وأول الإسلام، فكأنه وقع فيهما إشكال، فلهذا سألوا عن حكمهما، فأمر الله تعالى نبيه أن يبين لهم منافعهما ومضارهما ليكون ذلك مقدمة لتحريمهما وتحتيم تركهما، فأخبر أن إثمهما ومضارهما وما يصدر عنهما من ذهاب العقل والمال والصد عن ذكر الله وعن الصلاة والعداوة والبغضاء أكبر مما يظنونه من نفعهما من كسب المال بالتجارة بالخمر وتحصيله بالقمار والطرب للنفوس عند تعاطيهما، وكان هذا البيان زاجرًا للنفوس عنهما؛ لأن العاقل يرجح ما ترجحت مصلحته، ويجتنب ما ترجحت مضرته، ولكن لما كانوا قد ألفوهما، وصعب التحتيم بتركهما أول وهلة؛ قدم هذه الآية مقدمة للتحريم الذي ذكره في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ إلى قوله: ﴿ مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١]، وهذا من لطفه ورحمته وحكمته، ولهذا لما نزلت قال عمر رضي الله عنه: انتهينا انتهينا[3].

(٣) أبو داود (٣٦٧٠)، الترمذي (٣٠٤٩).

فأما الخمر فهو كل مسكر خامر العقل وغطاه من أي نوع كان، وأما الميسر فهو كل المغالبات التي يكون فيها عوض من الطرفين من النرد والشطرنج وكل مغالبة قولية أو فعلية بعوض، سوى مسابقة الخيل والإبل والسهام؛ فإنها مباحة لكونها معينة على الجهاد؛ فلهذا رخص فيها الشارع.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

وهذا سؤال عن مقدار ما ينفقونه من أموالهم، فيسر الله لهم الأمر وأمرهم أن ينفقوا العفو، وهو المتيسر من أموالهم الذي لا تتعلق به حاجتهم وضرورتهم، وهذا يرجع إلى كل أحد بحسبه من غني وفقير ومتوسط، كل له قدرة على إنفاق ما عفا من ماله ولو شق تمرة، ولهذا أمر الله رسوله ﷺ، أن يأخذ العفو من أخلاق الناس وصدقاتهم، ولا يكلفهم ما يشق عليهم؛ ذلك بأن الله تعالى لم يأمرنا بما أمرنا به حاجة منه لنا أو تكليفًا لنا بما يشق، بل أمرنا بما فيه سعادتنا وما يسهل علينا وما به النفع لنا ولإخواننا فيستحق على ذلك أتم الحمد.

ولما بين تعالى هذا البيان الشافي وأطلع العباد على أسرار شرعه قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾؛ أي: الدالات على الحق المحصلات للعلم النافع والفرقان، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾؛ أي: لكي تستعملوا أفكاركم في أسرار شرعه، وتعرفوا أن أوامره فيها مصالح الدنيا والآخرة، وأيضًا لكي تتفكروا في الدنيا وسرعة انقضائها فترفضوها، وفي الآخرة وبقائها، وأنها دار الجزاء فتعمروها.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾.

(٢٢٠) لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ١٠]؛ شق ذلك على المسلمين وعزلوا طعامهم عن طعام اليتامى خوفًا على أنفسهم من تناولها ولو في هذه الحالة التي جرت العادة بالمشاركة فيها، وسألوا النبي ﷺ، عن ذلك، فأخبرهم تعالى أن المقصود إصلاح أموال اليتامى بحفظها وصيانتها والاتجار فيها، وأن خلطتهم

فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾

إياهم في طعام وغيره جائز على وجه لا يضر باليتامى؛ لأنهم إخوانكم ومن شأن الأخ مخالطة أخيه، والمرجع في ذلك إلى النية والعمل، فمن علم الله من نيته أنه مصلح لليتيم وليس له طمع في ماله فلو دخل عليه شيء من غير قصد لم يكن عليه بأس، ومن علم الله من نيته أن قصده بالمخالطة التوصل إلى أكلها وتناولها فذلك الذي حرج وأثم، والوسائل لها أحكام المقاصد.

وفي هذه الآية دليل على جواز أنواع المخالطات في المآكل والمشارب والعقود وغيرها، وهذه الرخصة لطف من الله تعالى وإحسان وتوسعة على المؤمنين وإلا، فلو ﴿شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾؛ أي: شق عليكم بعدم الرخصة بذلك فحرجتم وشق عليكم وأثمتم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾؛ أي: له القوة الكاملة والقهر لكل شيء ولكنه مع ذلك ﴿حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾؛ لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته الكاملة وعنايته التامة فعزته لا تنافي حكمته فلا يقال: إنه ما شاء فعل وافق الحكمة أو خالفها، بل يقال: إن أفعاله وكذلك أحكامه تابعة لحكمته

فلا يخلق شيئًا عبثًا بل لا بد له من حكمة عرفناها أم لم نعرفها، وكذلك لم يشرع لعباده شيئًا مجردًا عن الحكمة، فلا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة أو راجحة ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة خالصة أو راجحة لتمام حكمته ورحمته.

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾.

﴿٢٢١﴾ أي: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟﴾؛ النساء، ﴿ٱلْمُشْرِكَـٰتِ﴾؛ ما دمن على شركهن ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾؛ لأن المؤمنة ولو بلغت من الدمامة ما بلغت خير من المشركة ولو بلغت من الحسن ما بلغت، وهذه عامة في جميع النساء المشركات، وخصصتها آية المائدة في إباحة نساء أهل الكتاب كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [المائدة: ٥]؛ ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾؛ وهذا عام لا تخصيص فيه، ثم ذكر تعالى الحكمة في تحريم نكاح المسلم أو المسلمة لمن خالفهما في الدين فقال: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾؛ أي: في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، فمخالطتهم على خطر منهم، والخطر ليس من الأخطار الدنيوية إنما هو الشقاء الأبدي.

ويستفاد من تعليل الآية النهي عن مخالطة كل مشرك ومبتدع؛ لأنه إذا لم يجز التزوج مع أن فيه مصالح كثيرة؛ فالخلطة المجردة من باب أولى وخصوصًا الخلطة التي فيها ارتفاع المشرك ونحوه على المسلم كالخدمة ونحوها.

وفي قوله: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ دليل على اعتبار الولي في النكاح ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ﴾؛ أي: يدعو عباده لتحصيل الجنة والمغفرة التي من آثارها دفع العقوبات؛ وذلك بالدعوة إلى أسبابها[1] من الأعمال الصالحة والتوبة النصوح والعلم النافع والعمل الصالح، ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ﴾؛ أي: أحكامه وحكمها ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾؛ فيوجب لهم ذلك التذكر لما نسوه وعلم ما جهلوه والامتثال لما ضيعوه. ثم قال تعالى:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَـٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾.

﴿٢٢٢﴾ يخبر تعالى عن سؤالهم عن المحيض وهل تكون المرأة بحالها بعد الحيض كما كانت قبل ذلك أم تجتنب مطلقًا كما يفعله اليهود؟ فأخبر تعالى أن الحيض أذى، وإذا كان أذى فمن الحكمة أن يمنع الله تعالى عباده عن الأذى وحده، ولهذا قال: ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾؛ أي: مكان الحيض وهو الوطء في الفرج خاصة فهذا المحرم إجماعًا، وتخصيص الاعتزال في المحيض يدل على أن مباشرة الحائض وملامستها في غير الوطء في الفرج جائز، لكن قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾؛ يدل على ترك المباشرة فيما قرب من الفرج - وذلك فيما بين السرة والركبة - ينبغي تركه كما كان النبي ﷺ، إذا أراد أن يباشر امرأته وهي حائض أمرها أن تتزر فيباشرها، وحد هذا الاعتزال وعدم القربان للحيض ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾؛ أي: ينقطع دمهن، فإذا انقطع الدم زال المنع الموجود وقت جريانه، الذي كان لحله شرطان: انقطاع الدم والاغتسال منه، فلما انقطع الدم زال الشرط الأول وبقي الثاني فلهذا قال: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾؛ أي: اغتسلن، ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: في القبل لا في الدبر لأنه محل الحرث، وفيه دليل على وجوب الاغتسال للحائض وأن انقطاع الدم شرط لصحته، ولما كان هذا المنع لطفًا منه تعالى بعباده وصيانة عن الأذى، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾؛ أي: من ذنوبهم على الدوام، ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾؛ أي: المتنزهين عن الآثام، وهذا يشمل التطهر الحسي من الأنجاس والأحداث، ففيه مشروعية الطهارة مطلقًا؛ لأن الله تعالى يحب المتصف بها، ولهذا كانت الطهارة مطلقًا شرطًا لصحة الصلاة والطواف وجواز مس المصحف، ويشمل التطهر المعنوي عن الأخلاق الرذيلة والصفات القبيحة والأفعال الخسيسة.

﴿٢٢٣﴾ ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾؛ مقبلة ومدبرة غير أنه لا يكون إلا في القبل لكونه موضع الحرث وهو الموضع الذي يكون منه الولد، وفيه دليل على تحريم

(١) ع: «أسبابهما».

الوطء في الدبر؛ لأن الله لم يبح إتيان المرأة إلا في الموضع الذي منه الحرث. وقد تكاثرت الأحاديث عن النبي ﷺ في تحريم ذلك ولعن فاعله. ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: من التقرب إلى الله بفعل الخيرات، ومن ذلك أن يباشر الرجل امرأته ويجامعها على وجه القربة والاحتساب وعلى رجاء تحصيل الذرية الذين ينفع الله بهم. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: في جميع أحوالكم كونوا ملازمين لتقوى الله مستعينين على ذلك بعلمكم، ﴿أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾؛ ومجازيكم على أعمالكم الصالحة وغيرها[1]، ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾؛ لم يذكر المبشَّر به ليدل على العموم وأن لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وكل خير واندفاع كل ضير رتب على الإيمان فهو داخل في هذه البشارة، وفيها محبة الله للمؤمنين ومحبة ما يسرهم واستحباب تنشيطهم وتشويقهم بما أعد الله لهم من الجزاء الدنيوي والأخروي.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾.

﴿٢٢٤﴾ المقصود من اليمين والقسم تعظيم المقسم به وتأكيد المقسم عليه. وكان الله تعالى قد أمر بحفظ الأيمان وكان مقتضى ذلك حفظها في كل شيء، ولكن الله تعالى استثنى من ذلك إذا كان البر باليمين يتضمن ترك ما هو أحب إليه فنهى عباده أن يجعلوا أيمانهم عرضة أي مانعة وحائلة عن أن يبروا أي يفعلوا خيرًا أو[2] يتقوا شرًّا أو[3] يصلحوا بين الناس، فمن حلف على ترك واجب وجب حنثه وحرم إقامته على يمينه، ومن حلف على ترك مستحب استحب له الحنث، ومن حلف على فعل محرم وجب الحنث، أو على فعل مكروه استحب الحنث. وأما المباح فينبغي فيه حفظ اليمين عن الحنث.

ويستدل بهذه الآية على القاعدة المشهورة أنه إذا تزاحمت المصالح قدم أهمها، فهنا تتميم اليمين مصلحة، وامتثال أوامر الله في هذه الأشياء مصلحة أكبر من ذلك، فقدمت لذلك. ثم ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين فقال: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾؛ أي: لجميع الأصوات، ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾؛ بالمقاصد والنيات، ومنه سماعه لأقوال الحالفين وعلمه بمقاصدهم

(١) زاد في ع، ط: «ثم قال».
(٢) الأصل، ط: «و».
(٣) الأصل، ط: «و».

الجزء الثاني — سورة البقرة

لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

٣٦

هل هي خير أم شر، وفي ضمن ذلك التحذير من مجازاته، وأن أعمالكم ونياتكم قد استقر علمها عنده. ثم قال تعالى:

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾.

﴿٢٢٥﴾ أي: لا يؤاخذكم بما يجري على ألسنتكم من الأيمان اللاغية التي يتكلم بها العبد، من غير قصد منه، ولا كسب قلب، ولكنها جرت على لسانه، كقول الرجل في عرض كلامه: لا والله وبلى والله، وكحلفه على أمر ماض يظن صدق نفسه، وإنما المؤاخذة على ما قصده القلب، وفي هذا دليل على اعتبار المقاصد في الأقوال كما هي معتبرة في الأفعال، والله غفور لمن تاب إليه، حليم بمن عصاه حيث لم يعاجله بالعقوبة، بل حلم عنه، وستر، وصفح مع قدرته عليه وكونه بين يديه.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾.

(٢٢٦) وهذا من الأيمان الخاصة بالزوجة في أمر خاص وهو حلف الزوج[1] على ترك وطء زوجته مطلقًا أو مقيدًا بأقل من أربعة أشهر أو أكثر، فمن آلى من زوجته خاصة فإن كان لدون أربعة أشهر فهذا مثل سائر الأيمان إن حنث كفر وإن أتم يمينه فلا شيء عليه، وليس لزوجته عليه سبيل؛ لأنه ملكه أربعة أشهر، وإن كان أبدًا أو مدة تزيد على أربعة أشهر ضربت له مدة أربعة أشهر من يمينه إذا طلبت زوجته ذلك؛ لأنه حق لها، فإذا تمت أمر بالفيئة وهو الوطء، فإن وطئ فلا شيء عليه إلا كفارة اليمين، وإن امتنع أجبر على الطلاق، فإن امتنع طلق عليه الحاكم ولكن الفيئة والرجوع إلى زوجته أحب إلى الله تعالى، ولهذا قال: ﴿فَإِن فَآءُو﴾؛ أي: رجعوا إلى ما حلفوا على تركه وهو الوطء، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾؛ يغفر لهم ما حصل منهم من الحلف بسبب رجوعهم ﴿رَّحِيمٌ (٢٢٦)﴾؛ حيث جعل لأيمانهم كفارة وتحلة ولم يجعلها لازمة لهم غير قابلة للانفكاك، ورحيم بهم أيضًا حيث فاءوا إلى زوجاتهم وحنوا عليهن ورحموهن.

(٢٢٧) ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ﴾؛ أي امتنعوا من الفيئة فكان ذلك دليلًا على رغبتهم عنهن وعدم إرادتهم لأزواجهم، وهذا لا يكون إلا عزمًا على الطلاق فإن حصل هذا الحق الواجب منه مباشرة وإلا أجبره الحاكم عليه أو قام به ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧)﴾؛ فيه وعيد وتهديد لمن يحلف هذا الحلف ويقصد بذلك المضارة والمشاقة.

ويستدل بهذه الآية على أن الإيلاء خاص بالزوجة لقوله: ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ﴾، وعلى وجوب الوطء في كل أربعة أشهر مرة؛ لأنه بعد الأربعة يجبر إما على الوطء أو على الطلاق، ولا يكون ذلك إلا لتركه واجبًا.

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨)﴾.

(٢٢٨) أي: النساء اللاتي طلقهن أزواجهن ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾؛ أي: ينتظرن ويعتددن مدة ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾؛ أي: حيض أو أطهار على اختلاف العلماء في المراد بذلك مع أن الصحيح أن القرء الحيض، ولهذه العدة عدة حكم منها العلم ببراءة الرحم إذا تكررت عليها ثلاثة الأقراء علم أنه ليس في رحمها حمل فلا يفضي إلى اختلاط الأنساب، ولهذا أوجب تعالى عليهن الإخبار عما خلق الله في أرحامهن؛ وحرم عليهن كتمان ذلك من حمل أو حيض، لأن كتمان ذلك يفضي إلى مفاسد كثيرة فكتمان الحمل موجب أن تلحقه بغير من هو له رغبة فيه أو استعجالًا لانقضاء العدة فإذا ألحقته بغير أبيه حصل من قطع الرحم والإرث واحتجاب محارمه وأقاربه عنه، وربما تزوج ذوات محارمه وحصل في مقابلة ذلك إلحاقه بغير أبيه وثبوت توابع ذلك من الإرث منه وله، ومن جعل أقارب الملحق به أقارب له وفي ذلك من الشر والفساد ما لا يعلمه إلا رب العباد، ولو لم يكن في ذلك إلا إقامتها مع من نكاحها باطل في حقه، وفيه الإصرار على الكبيرة العظيمة وهي الزنا لكفى بذلك شرًّا.

وأما كتمان الحيض فإن استعجلت فأخبرت به وهي كاذبة ففيه من انقطاع حق الزوج عنها وإباحتها لغيره وما يتفرع عن ذلك من الشر كما ذكرنا، وإن كذبت وأخبرت بعدم وجود الحيض لتطول العدة فتأخذ منه نفقة غير واجبة عليه بل هي سحت عليها محرمة من جهتين: من كونها لا تستحقه، ومن كونها نسبته إلى حكم الشرع وهي كاذبة، وربما راجعها بعد انقضاء العدة فيكون ذلك سفاحًا لكونها أجنبية منه، فلهذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾.

فصدور الكتمان منهن دليل على عدم إيمانهن بالله واليوم الآخر وإلا فلو آمنَّ بالله واليوم الآخر وعرفن أنهن مجزيات عن أعمالهن لم يصدر منهن شيء من ذلك، وفي ذلك دليل على قبول خبر المرأة عما تخبر به عن نفسها من الأمر الذي لا يطلع عليه غيرها كالحمل والحيض ونحوهما.

ثم قال تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾؛ أي: لأزواجهن ما دامت متربصة في تلك العدة أن يردوهن إلى نكاحهن ﴿إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا﴾؛ أي: رغبة وألفة ومودة، ومفهوم الآية أنهم إن لم يريدوا الإصلاح فليسوا بأحق بردهن، فلا يحل لهم أن يراجعوهن لقصد المضارة لها وتطويل العدة عليها، وهل يملك ذلك مع هذا القصد؟ فيه قولان:

الجمهور: على أنه يملك ذلك مع التحريم، والصحيح: أنه إذا لم يرد الإصلاح لا يملك ذلك كما هو ظاهر الآية

(١) الأصل، ط: «الرجل».

الكريمـة، وهذه حكمة أخرى في هذا التربص، وهي أنه ربما أن زوجهـا نـدم على فراقه لها فجعلت له هـذه المدة ليتروى بهـا ويقطـع نظره، وهـذا يدل علـى محبته تعالـى للألفة بين الزوجين وكراهته للفراق، كما قال النبي ﷺ: «**أبغض الحلال إلـى الله الطلاق**»[1]، وهـذا خاص فـي الطلاق الرجعي، وأما الطلاق البائن فليس البعل بأحق برجعتها، بل إن تراضيا على التراجع فلا بد من عقد جديد مجتمع الشروط.

ثـم قـال تعالـى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: وللنساء على بعولتهن من الحقوق واللوازم مثل الذي عليهن لأزواجهن من الحقوق اللازمة والمستحبة، ومرجع الحقوق بين الزوجين يرجع[2] إلى المعروف، وهو العادة الجارية في ذلـك البلـد وذلـك الزمان مـن مثلهـا لمثلـه، ويختلف ذلك باختلاف الأزمنة والأمكنة والأحوال والأشخاص والعوائد، وفي هذا دليل على أن النفقة والكسـوة والمعاشرة والمسكن وكذلـك الـوطء الكل يرجـع إلـى المعروف، فهـذا موجب العقـد المطلق، وأما مع الشـرط فعلى شـرطهما، إلا شـرطًا أحل حرامًا أو حرم حلالًا.

﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾؛ أي: رفعة ورياسة وزيادة حق عليهـا، كمـا قـال تعالـى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]. ومنصب النبوة والقضاء والإمامة الصغرى والكبرى وسـائر الولايـات مختص[3] بالرجال، ولـه ضعفـا ما لها فـي كثير مـن الأمور كالميراث ونحوه ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾؛ أي: له العزة القاهرة والسلطان العظيـم الـذي دانـت له جميـع الأشياء، ولكنه مـع عزته حكيم في تصرفه.

ويخـرج مـن عموم هـذه الآيـة الحوامـل فعدتهـن وضع الحمـل، واللاتـي لم يدخـل بهن فليـس لهن عـدة، والإماء فعدتهـن حيضتـان كما هو قـول الصحابة رضي الله عنهم، وسياق الآية يدل على أن المراد بها الحرة.

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٍۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾.

﴿٢٢٩﴾ كان الطلاق في الجاهلية واستمر أول الإسلام يطلق الرجـل زوجته بلا نهايـة، فكان إذا أراد مضارتهـا طلقها فإذا شـارفت انقضـاء عدتهـا راجعهـا ثم طلقهـا وصنـع بها مثل ذلـك أبدًا، فيحصـل عليها من الضرر ما الله بـه عليم. فأخبر تعالـى أن الطلاق؛ أي: الذي تحصل به الرجعة، ﴿مَرَّتَانِ﴾؛ ليتمكن الزوج إن لم يرد المضارة من ارتجاعها ويراجع رأيه فـي هذه المدة، وأما ما فوقها فليس محلًا لذلك؛ لأن من زاد علـى الثنتيـن فإما متجرئ علـى المحرم أو ليس لـه رغبة في إمساكها بل قصده المضارة، فلهذا أمر تعالى الزوج أن يمسك زوجته ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾؛ أي: عشـرة حسنة ويجري مجرى أمثاله مـع زوجاتهـم، وهذا هو الأرجـح، وإلا يسـرحها ويفارقها، ﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾؛ ومن الإحسان ألَّا يأخذ على فراقه لها شيئًا من مالها لأنه ظلم وأخذ للمال في غير مقابلة بشيء، فلهذا قال: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾؛ وهـي المخالعة بالمعروف بأن كرهت الزوجة زوجها لخَلْقه أو خُلُقه أو نقص دينه، وخافت ألَّا تطيع اللـه فيـه ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾؛ لأنـه عوض لتحصيل مقصودها مـن الفرقة، وفي هذا مشـروعية الخلع إذا وجدت هـذه الحكمة ﴿تِلْكَ﴾؛ أي: ما تقدم من الأحكام الشـرعية، ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أحكامه التـي شـرعها لكم وأمـر بالوقوف معهـا ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾، وأي ظلـم أعظـم ممـن اقتحـم الحلال وتعدى منه إلى الحرام فلم يسعه ما أحل الله؟

والظلم ثلاثة أقسام:

ظلـم العبد فيما بينه وبين الله، وظلم العبد الأكبر الذي هو الشرك، وظلم العبد فيما بينه وبين الخلق.

فالشـرك لا يغفره اللـه إلا بالتوبة، وحقـوق العباد لا يترك الله منها شـيئًا، والظلم الذي بين العبد وربه فيما دون الشرك تحت المشيئة والحكمة.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ

(١) أبو داود (٢١٧٨)، ابن ماجه (٢٠١٨).
(٢) ليست في الأصل، ط.
(٣) ليست في الأصل.

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ
سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ۚ وَمَن يَفْعَلْ
ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُوا۟
نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ
يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾
وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ
أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ
مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُۗ وَٱللَّهُ
يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ
حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ
وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ
وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَۗ
فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَاۗ وَإِنْ
أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ
ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ ﴾.

﴿٢٣٠﴾ يقول تعالى: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا ﴾؛ أي: الطلقة الثالثة ﴿ فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ﴾؛ أي: نكاحًا صحيحًا ويطأها، لأن النكاح الشرعي لا يكون إلا صحيحًا ويدخل فيه العقد والوطء وهذا بالاتفاق، ويتعين[1] أن يكون نكاح الثاني نكاح رغبة، فإن قصد به تحليلها للأول فليس بنكاح ولا يفيد التحليل، ولا يفيد وطء السيد لأنه ليس بزوج، فإذا تزوجها الثاني راغبًا، ووطأها، ثم فارقها وانقضت عدتها ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ ﴾؛ أي: على الزوج الأول والزوجة ﴿ أَن يَتَرَاجَعَآ ﴾؛ أي: يجددا عقدًا جديدًا بينهما لإضافته التراجع إليهما، فدل على اعتبار التراضي، ولكن يشترط في التراجع أن يظنا ﴿ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾؛ بأن يقوم كل منهما بحق صاحبه، وذلك

(١) ع: «ويشترط».

إذا ندما على عشرتهما السابقة الموجبة للفراق، وعزما أن يبدلاها بعشرة حسنة، فهنا لا جناح عليهما في التراجع.

ومفهوم الآية الكريمة أنهما إن لم يظنا أن يقيما حدود الله بأن غلب على ظنهما أن الحال السابقة باقية والعشرة السيئة غير زائلة أن عليهما في ذلك جناحًا، لأن جميع الأمور إن لم يقم فيها أمر الله ويسلك بها طاعته لم يحل الإقدام عليها، وفي هذا دلالة على أنه ينبغي للإنسان إذا أراد أن يدخل في أمر من الأمور، خصوصًا الولايات الصغار والكبار، أن ينظر[2] في نفسه، فإن رأى من نفسه قوة على ذلك ووثق بها أقدم وإلا أحجم.

ولما بين تعالى هذه الأحكام العظيمة قال: ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: شرائعه التي حددها وبينها ووضحها، ﴿ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ ﴾؛ لأنهم هم المتفعون بها النافعون لغيرهم، وفي هذا من فضيلة أهل العلم ما لا يخفى، لأن الله تعالى جعل تبيينه لحدوده خاصًّا بهم وأنهم المقصودون بذلك، وفيه أن الله تعالى يحب من عباده معرفة حدود ما أنزل على رسوله والتفقه بها.

﴿٢٣١﴾ ثم قال تعالى: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾؛ أي: طلاقًا رجعيًّا بواحدة أو ثِنْتَين[3] ﴿ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾؛ أي: قاربن انقضاء عدتهن ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾؛ أي: إما أن تراجعوهن ونيتكم القيام بحقوقهن، أو تتركوهن بلا رجعة ولا إضرار، ولهذا قال: ﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا ﴾؛ أي: مضارة بهن ﴿ لِّتَعْتَدُوا۟ ﴾ في فعلكم هذا الحلال إلى الحرام، فالحلال الإمساك بالمعروف والحرام المضارة، ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾، ولو كان الحق يعود للمخلوق فالضرر عائد إلى من أراد الضرار، ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ﴾، لما بين تعالى حدوده غاية التبيين، وكان المقصود العلم بها والعمل والوقوف معها وعدم مجاوزتها، لأنه تعالى لم ينزلها عبثًا بل أنزلها بالحق والصدق والجد، نهى عن اتخاذها هزوًا، أي: لعبًا بها، وهو التجري عليها وعدم الامتثال لواجبها، مثل: استعمال المضارة في الإمساك أو الفراق أو كثرة الطلاق أو جمع الثلاث، والله من رحمته جعل له واحدة بعد واحدة رفقًا به، وسعيًا في مصلحته.

(٢) عبارة: «أن ينظر» وردت في ع: «نظر».
(٣) ط: «اثنتين».

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾؛ عمومًا باللسان حمدًا وثناء، وبالقلب اعترافًا وإقرارًا، وبالأركان بصرفها في طاعة الله ﴿ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ ﴾؛ أي: السنة، اللذين بين لكم بهما طرق الخير، ورغبكم فيها، وطرق الشر، وحذركم إياها، وعرفكم نفسه ووقائعه في أوليائه وأعدائه، وعلمكم ما لم تكونوا تعلمون، وقيل: المراد بالحكمة أسرار الشريعة، فالكتاب فيه الحكم، والحكمة فيها بيان حكمة الله في أوامره ونواهيه، وكلا المعنيين صحيح، ولهذا قال: ﴿ يَعِظُكُم بِهِ ﴾؛ أي: بما أنزل عليكم، وهذا مما يقوي أن المراد بالحكمة أسرار الشريعة؛ لأن الموعظة ببيان الحكم والحكمة والترغيب أو الترهيب، فالحكم[1] به يزول الجهل، والحكمة مع الترغيب يوجب الرغبة، والحكمة مع الترهيب يوجب الرهبة ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ في جميع أموركم ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ ﴾؛ فلهذا بين لكم هذه الأحكام بغاية الإتقان والإحكام التي هي جارية مع المصالح في كل زمان ومكان، فله الحمد والمنة.

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ﴾.

﴿٢٣٢﴾ هذا خطاب لأولياء المرأة المطلقة دون الثلاث إذا خرجت من العدة وأراد زوجها أن ينكحها ورضيت بذلك، فلا يجوز لوليها من أب وغيره أن يعضلها، أي: يمنعها من التزوج به حنقًا عليه وغضبًا واشمئزازًا لما فعل من الطلاق الأول، وذكر أن من كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فإيمانه يمنعه من العضل، ﴿ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾؛ وأطيب مما يظن الولي أن عدم تزويجه هو الرأي واللائق، وأنه يقابل بطلاقه الأول بعدم تزويجه كما هو عادة المترفعين المتكبرين، فإن كان يظن أن المصلحة في عدم تزويجه فالله ﴿ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ﴾؛ فامتثلوا أمر من هو عالم بمصالحكم، مريد لها، قادر عليها، ميسر لها من الوجه الذي تعرفون وغيره.

وفي هذه الآية دليل على أنه لا بد من الولي في النكاح؛ لأنه نهى الأولياء عن العضل، ولا ينهاهم إلا عن أمر هو تحت تدبيرهم ولهم فيه حق. ثم قال تعالى:

(١) ط: «فبالحكم».

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ۚ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ ﴾.

﴿٢٣٣﴾ هذا خبر بمعنى الأمر تنزيلًا له منزلة المتقرر الذي لا يحتاج إلى أمر بأن ﴿ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ ﴾؛ ولما كان الحول يطلق على الكامل وعلى معظم الحول قال: ﴿ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾؛ فإذا تم للرضيع حولان فقد تم رضاعه وصار اللبن بعد ذلك بمنزلة سائر الأغذية، فلهذا كان الرضاع بعد الحولين غير معتبر لا يحرم. ويؤخذ من هذا النص ومن قوله تعالى: ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ [الأحقاف: ١٥]؛ أن أقل مدة الحمل ستة أشهر وأنه يمكن وجود الولد بها ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ ﴾؛ أي: الأب، ﴿ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾؛ وهذا شامل لما إذا كانت في حباله أو مطلقة، فإن على الأب رزقها؛ أي: نفقتها وكسوتها وهي الأجرة للرضاع، ودل هذا على أنها إذا كانت في حباله لا يجب لها أجرة غير النفقة والكسوة وكل بحسب حاله، فلهذا قال: ﴿ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾؛ فلا يكلف الفقير أن ينفق نفقة الغني ولا من لم يجد شيئًا بالنفقة حتى يجد. ﴿ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ﴾؛ أي: لا يحل أن تضار الوالدة بسبب ولدها؛ إما أن تمنع من إرضاعه أو لا تعطى ما يجب لها من النفقة والكسوة أو الأجرة ﴿ وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ﴾؛ بأن تمتنع من إرضاعه على وجه المضارة[2]، أو تطلب زيادة عن الواجب ونحو ذلك من أنواع الضرر، ودل قوله: ﴿ مَوْلُودٌ لَّهُ ﴾؛ أن الولد لأبيه؛ لأنه موهوب له ولأنه من كسبه، فلذلك جاز له الأخذ من ماله رضي أو لم يرض، بخلاف الأم.

وقوله: ﴿ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ﴾؛ أي: على وارث الطفل إذا عدم الأب، وكان الطفل ليس له مال مثل ما على الأب من النفقة للمرضع والكسوة، فدل على وجوب نفقة الأقارب المعسرين على القريب الوارث الموسر، ﴿ فَإِنْ أَرَادَا ﴾؛ أي:

(٢) زاد في ع، ط: «له».

وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ
أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ
﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ
أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ
وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ
وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ
وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟
أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ
مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ
قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ
﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ
لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟
ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ
وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

الأبوان، ﴿فِصَالًا﴾؛ أي: فطام الصبي قبل الحولين، ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا﴾؛ بأن يكونا راضيين، ﴿وَتَشَاوُرٍ﴾؛ فيما بينهما هل هو مصلحة للصبي أم لا؟ فإن كان مصلحة ورضيا ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾؛ في فطامه قبل الحولين، فدلت الآية بمفهومها على أنه إن رضي أحدهما دون الآخر أو لم يكن مصلحة للطفل أنه لا يجوز فطامه. وقوله: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ﴾؛ أي: تطلبوا لهم المراضع غير أمهاتهم على غير وجه المضارة، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: للمرضعات، والله بما تعملون بصير؛ فمجازيكم على ذلك بالخير والشر.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾

﴿٢٣٤﴾ أي: إذا توفي الزوج مكثت زوجته متربصة أربعة أشهر وعشرة أيام وجوبًا، والحكمة في ذلك ليتبين الحمل في مدة الأربعة الأشهر[1] ويتحرك في ابتدائه في الشهر الخامس، وهذا العام مخصوص بالحوامل، فإن عدتهن بوضع الحمل، وكذلك الأمة عدتها على النصف من عدة الحرة شهران وخمسة أيام. وقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾؛ أي: انقضت عدتهن، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ﴾؛ أي: من مراجعتها للزينة والطيب، ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: على وجه غير محرم ولا مكروه، وفي هذا وجوب الإحداد مدة العدة على المتوفى عنها زوجها دون غيرها من المطلقات والمفارقات وهو مجمع عليه بين العلماء، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾؛ أي: عالم بأعمالكم ظاهرها وباطنها جليها وخفيها فمجازيكم عليها، وفي خطابه للأولياء بقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ﴾؛ دليل على أن الولي ينظر على المرأة ويمنعها مما لا يجوز فعله، ويجبرها على ما يجب وأنه مخاطب بذلك واجب عليه.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾.

﴿٢٣٥﴾ هذا حكم المعتدة من وفاة أو المبانة في الحياة، فيحرم على غير مبينها أن يصرح لها في الخطبة، وهو المراد بقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾؛ وأما التعريض فقد أسقط تعالى فيه الجناح، والفرق بينهما أن التصريح لا يحتمل غير النكاح فلهذا حرم خوفًا من استعجالها وكذبها في انقضاء عدتها رغبة في النكاح، ففيه دلالة على منع وسائل المحرم وقضاء لحق زوجها الأول بعدم مواعدتها لغيره مدة عدتها، وأما التعريض وهو الذي يحتمل النكاح وغيره فهو جائز للبائن كأن يقول[2]: إني أريد التزوج وإني أحب أن تشاوريني عند انقضاء عدتك ونحو ذلك، فهذا جائز لأنه ليس بمنزلة الصريح، وفي النفوس داع قوي إليه، وكذا إضمار الإنسان في نفسه أن يتزوج من هي في عدتها إذا انقضت، ولهذا قال: ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾؛ هذا التفصيل كله في مقدمات العقد، وأما عقد النكاح فلا يحل، ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾؛ أي: تنقضي العدة.

(١) ساقط من ع، ط.
(٢) زاد في ع، ط: «له».

﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ ﴾؛ أي: فانووا الخير ولا تنووا الشر خوفًا من عقابه ورجاء لثوابه، ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ ﴾؛ لمن صدرت منه الذنوب فتاب منها، ورجع إلى ربه، ﴿ حَلِيمٞ ﴿٢٣٥﴾ ﴾؛ حيث لم يعاجل العاصين على معاصيهم مع قدرته عليهم.

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ ﴾.

﴿٢٣٦﴾ أي: ليس عليكم - يا معشر الأزواج - جناح وإثم بتطليق النساء قبل المسيس وفرض المهر، وإن كان في ذلك كسر لها فإنه ينجبر بالمتعة فعليكم أن تمتعوهن؛ بأن تعطوهن شيئًا من المال جبرًا لخواطرهن. ﴿ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ ﴾؛ أي: المعسر، ﴿ قَدَرُهُۥ ﴾؛ وهذا يرجع إلى العرف وأنه يختلف باختلاف الأحوال، ولهذا قال: ﴿ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾؛ فهذا حق واجب ﴿ عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ ﴾؛ ليس لهم أن يبخسوهن، فكما تسببوا لتشوفهن واشتياقهن وتعلق قلوبهن، ثم لم يعطوهن ما رغبن فيه فعليهم في مقابلة ذلك المتعة.

فلله ما أحسن هذا الحكم الإلهي وأدله على حكمة شارعه ورحمته! ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون؟! فهذا حكم المطلقات قبل المسيس وقبل فرض المهر، ثم ذكر حكم المفروض لهن فقال:

﴿ وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ ﴾.

﴿٢٣٧﴾ أي: إذا طلقتم النساء قبل المسيس وبعد فرض المهر فللمطلقات من المهر المفروض نصفه ولكم نصفه، هذا هو الواجب ما لم يدخله عفو ومسامحة بأن تعفو عن نصفها لزوجها إذا كان يصح عفوها، ﴿ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِ ﴾؛ وهو الزوج على الصحيح لأنه الذي بيده حل عقدته، ولأن الولي لا يصح أن يعفو عما وجب للمرأة لكونه غير مالك ولا وكيل، وقيل: إنه الأب وهو الذي يدل عليه لفظ الآية الكريمة[1].

ثم رغب في العفو وأن من عفا كان أقرب لتقواه لكونه إحسانًا موجبًا لشرح الصدر، ولكون الإنسان لا ينبغي أن يهمل نفسه من الإحسان والمعروف، وينسى الفضل الذي هو أعلى درجات المعاملة، لأن معاملة الناس فيما بينهم على درجتين: إما عدل وإنصاف واجب، وهو أخذ الواجب وإعطاء الواجب، وإما فضل وإحسان، وهو إعطاء ما ليس بواجب والتسامح في الحقوق والغض مما في النفس، فلا ينبغي للإنسان أن ينسى هذه الدرجة ولو في بعض الأوقات، وخصوصًا لمن بينك وبينه معاملة أو مخالطة، فإن الله مجاز المحسنين بالفضل والكرم، ولهذا قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ ﴾. ثم قال تعالى:

﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ ﴾.

﴿٢٣٨﴾ يأمر تعالى بالمحافظة ﴿ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ ﴾؛ عمومًا وعلى الصلاة الوسطى؛ وهي العصر خصوصًا، والمحافظة عليها أداؤها بوقتها وشروطها وأركانها وخشوعها وجميع ما لها من واجب ومستحب. وبالمحافظة على الصلوات تحصل المحافظة على سائر العبادات وتفيد النهي عن الفحشاء والمنكر، خصوصًا إذا أكملها كما أمر بقوله: ﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ ﴾؛ أي: ذليلين مخلصين[2] خاشعين، فإن القنوت دوام الطاعة مع الخشوع[3].

﴿٢٣٩﴾ وقوله: ﴿ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ ﴾؛ حذف المتعلق ليعم الخوف من العدو والسبع وفوات ما يتضرر العبد بفوته فصلوا رجالًا؛ ماشين على أرجلكم، ﴿ أَوۡ رُكۡبَانٗا ﴾؛ على الخيل والإبل وسائر المركوبات، وفي هذه الحال لا يلزمه الاستقبال. فهذه صفة صلاة المعذور بالخوف، فإذا حصل الأمن صلى صلاة كاملة ويدخل في قوله: ﴿ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ﴾؛ تكميل الصلوات، ويدخل فيه أيضًا

---

(١) علق الشيخ رحمه الله في ع على هذا فقال: «هذا بحسب = ما ظهر لي وقت كتابتي لهذا الموضع ثم بعد ذلك تبين لي أن القول بأن الذي بيده عقدة النكاح هو الولي الأقرب، وهذا الرأي هو الأصح لمساعدة اللفظة له والمعنى كما هو ظاهر للمتدبر».

(٢) سقط من: ع.

(٣) من هنا بدأ الاختلاف بين الأصل وع، وسينتهي عند الآية: ١٣٠ من سورة آل عمران وهي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗ ﴾ الآية. وقد التزمنا الأصل في إثبات النص.

حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ
قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ
فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ
﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً
لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن
مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ
بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ
ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ
إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ
فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى
ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾
وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾
مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا
كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

الإكثار من ذكر الله شكرًا له على نعمة الأمن وعلى نعمة التعليم لما فيه سعادة العبد.

وفي الآية الكريمة فضيلة العلم، وأن على من علمه الله ما لم يكن يعلم الإكثار من ذكر الله، وفيه الإشعار أيضًا أن الإكثار من ذكره سبب لتعليم علوم أخر؛ لأن الشكر مقرون بالمزيد. ثم قال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾.

﴿٢٤٠﴾ اشتهر عند كثير من المفسرين أن هذه الآية الكريمة نسختها الآية التي قبلها وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾؛ وأن الأمر كان على الزوجة أن تتربص حولًا كاملًا ثم نسخ بأربعة أشهر وعشر، ويجيبون عن تقدم الآية الناسخة أن ذلك تقدم في الوضع لا في النزول؛ لأن شرط الناسخ أن يتأخر عن المنسوخ، وهذا القول لا دليل عليه، ومن تأمل الآيتين اتضح له أن القول الآخر في الآية هو الصواب، وأن الآية الأولى في وجوب التربص أربعة أشهر وعشرًا على وجه التحتيم على المرأة، وأما في هذه الآية فإنها وصية لأهل الميت أن يبقوا زوجة ميتهم عندهم حولًا كاملًا جبرًا لخاطرها وبرًّا بميتهم، ولهذا قال: ﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم﴾؛ أي: وصية من الله لأهل الميت أن يستوصوا بزوجته ويمتعوها ولا يخرجوها، فإن رغبت أقامت في وصيتها وإن أحبت الخروج فلا حرج عليها، ولهذا قال: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ﴾؛ أي: من التجمل واللباس، لكن الشرط أن يكون بالمعروف الذي لا يخرجها عن حدود الدين والاعتبار. وختم الآية بهذين الاسمين العظيمين الدالين على كمال العزة وكمال الحكمة، لأن هذه أحكام صدرت عن عزته، ودلت على كمال حكمته حيث وضعها في مواضعها اللائقة بها.

﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾.

﴿٢٤١﴾، ﴿٢٤٢﴾ لمَّا بين في الآية السابقة إمتاع المفارقة بالموت ذكر هنا أن كل مطلقة لها[1] على زوجها أن يمتعها ويعطيها ما يناسب حاله وحالها وأنه حق إنما يقوم به المتقون، فهو من خصال التقوى الواجبة أو المستحبة، فإن كانت المرأة لم يسم لها صداق وطلقها قبل الدخول فتقدم أنه يجب عليه بحسب يساره وإعساره، وإن كان مسمى لها فمتاعها نصف المسمى، وإن كانت مدخولًا بها صارت المتعة مستحبة في قول جمهور العلماء ومن العلماء من أوجب ذلك استدلالًا بقوله: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾؛ والأصل في الحق أنه واجب خصوصًا وقد أضافه إلى المتقين، وأصل التقوى واجبة، فلما بين تعالى هذه الأحكام الجليلة بين الزوجين؛ أثنى على أحكامه، وعلى بيانه لها وتوضيحه، وموافقتها للعقول السليمة، وأن القصد من بيانه لعباده أن يعقلوا عنه ما بينه فيعقلونها حفظًا وفهمًا وعملًا بها، فإن ذلك من تمام عقلها.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ إِنَّ

(١) الأصل: «فلها».

ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ ﴾.

﴿٢٤٣﴾ أي: ألم تسمع بهذه القصة العجيبة الجارية على من قبلكم من بني إسرائيل حيث حل الوباء بديارهم فخرجوا بهذه الكثرة فرارًا من الموت فلم ينجهم الفرار ولا أغنى عنهم من وقوع ما كانوا يحذرون، فعاملهم بنقيض مقصودهم وأماتهم الله عن آخرهم، ثم تفضل عليهم فأحياهم إما بدعوة نبي كما قاله كثير من المفسرين وإما بغير ذلك، ولكن ذلك بفضله وإحسانه وهو لا يزال فضله على الناس، وذلك موجب لشكرهم لنعم الله بالاعتراف بها وصرفها في مرضاة الله، ومع ذلك فأكثر الناس قد قصروا بواجب الشكر.

وفي هذه القصة عبرة بأنه على كل شيء قدير، وذلك آية محسوسة على البعث؛ فإن هذه القصة معروفة منقولة نقلًا متواترًا عند بني إسرائيل ومن اتصل بهم، ولهذا أتى بها تعالى بأسلوب الأمر الذي قد تقرر عند المخاطبين، ويحتمل أن هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم خوفًا من الأعداء وجبنًا عن لقائهم، ويؤيد هذا أن الله ذكر بعدها الأمر بالقتال وأخبر عن بني إسرائيل أنهم كانوا مخرجين من ديارهم وأبنائهم، وعلى الاحتمالين فإن فيها ترغيبًا في الجهاد وترهيبًا من التقاعد عنه، وأن ذلك لا يغني عن الموت شيئًا ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾.

﴿٢٤٤﴾، ﴿٢٤٥﴾ جمع الله بين الأمر بالقتال في سبيله بالمال والبدن؛ لأن الجهاد لا يقوم إلا بالأمرين، وحث على الإخلاص فيه بأن يقاتل العبد لتكون كلمة الله هي العليا فإن الله ﴿سَمِيعٌ﴾؛ للأقوال وإن خفيت ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ ﴾؛ بما تحتوي عليه القلوب من النيات الصالحة وضدها. وأيضًا فإنه إذا علم المجاهد في سبيله أن الله سميع عليم، هان عليه ذلك وعلم أنه يرى بعينه ما يتحمل المتحملون من أجله، وأنه لا بد أن يمدهم بعونه ولطفه.

وتأمل هذا الحث اللطيف على النفقة، وأن المنفق قد أقرض الله المليء الكريم ووعده المضاعفة الكثيرة كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦١]؛ ولما كان المانع الأكبر من الإنفاق خوف الإملاق أخبر تعالى أن الغنى والفقر بيد الله، وأنه يقبض الرزق على من يشاء ويبسطه على من يشاء، فلا يتأخر من يريد الإنفاق خوف الفقر، ولا يظن أنه ضائع، بل مرجع العباد كلهم إلى الله فيجد المنفقون والعاملون أجرهم عنده مدخرًا أحوج ما يكونون إليه، ويكون له من الوقع العظيم ما لا يمكن التعبير عنه.

والمراد بالقرض الحسن هو ما جمع أوصاف الحسن من النية الصالحة وسماحة النفس بالنفقة ووقوعها في محلها، وألّا يتبعها المنفق منًّا ولا أذًى ولا مبطلًا ومنقصًا.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى آخر القصة(١).

﴿٢٤٦﴾، ﴿٢٤٧﴾ يقص الله تعالى هذه القصة على الأمة ليعتبروا وليرغبوا في الجهاد ولا ينكلوا عنه، فإن الصابرين صارت لهم العواقب الحميدة في الدنيا والآخرة، والناكلين خسروا الأمرين، فأخبر تعالى أن أهل الرأي من بني إسرائيل وأصحاب الكلمة النافذة تراودوا في شأن الجهاد واتفقوا على أن يطلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكًا لينقطع النزاع بتعيينه وتحصل الطاعة التامة ولا يبقى لقائل مقال، وأن نبيهم خشي أن طلبهم هذا مجرد كلام لا فعل معه، فأجابوا نبيهم بالعزم الجازم وأنهم التزموا ذلك التزامًا تامًّا، وأن القتال متعين عليهم حيث كان وسيلة لاسترجاع ديارهم ورجوعهم إلى مقرهم ووطنهم، وأنه عين لهم نبيهم طالوت ملكًا يقودهم في هذا الأمر الذي لا بد له من قائد يحسن القيادة، وأنهم استغربوا تعيينه لطالوت وثَمَّ من هو أحق منه بيتًا وأكثر مالًا، فأجابهم نبيهم: إن الله اختاره عليكم بما آتاه الله من قوة العلم بالسياسة وقوة الجسم، اللذين هما آلة الشجاعة والنجدة وحسن التدبير، وأن الملك ليس بكثرة المال، ولا بكون صاحبه ممن كان الملك والسيادة في بيوتهم، فالله يؤتي ملكه من يشاء.

(١) أكمل الآيات في المطبوع إلى الآية: ٢٥٢. والتزمنا ما ورد في الأصل.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟
لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ
هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ
قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا
مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟
إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ
لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ
قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ
مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ
عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ
يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾
وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ
ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا
تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

ثم لم يكتف ذلك النبي الكريم بإقناعهم[1] بما ذكره من كفاءة طالوت واجتماع الصفات المطلوبة فيه حتى قال لهم:

(٢٤٨) ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾؛ وكان هذا التابوت قد استولت عليه الأعداء، فلم يكتفوا بالصفات المعنوية في طالوت ولا بتعيين الله له على لسان نبيهم حتى يؤيد ذلك هذه المعجزة، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾؛ فحينئذ سلموا وانقادوا. فلما ترأس فيهم طالوت وجندهم ورتبهم وفصل بهم إلى قتال عدوهم، وكان قد رأى منهم من ضعف العزائم والهمم ما يحتاج إلى تمييز الصابر من الناكل فقال:

(٢٤٩)، (٢٥٠) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾؛ تمرون عليه وقت حاجة إلى الماء، ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى﴾؛ أي لا يتبعني؛ لأن ذلك برهان على قلة صبره ووفور جزعه ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾؛ لصدقه وصبره، ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾؛ أي: فإنه مسامح فيها. فلما وصلوا إلى ذلك النهر وكانوا محتاجين إلى الماء شربوا كلهم منه ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾؛ فإنهم صبروا ولم يشربوا ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟﴾؛ أي: الناكلون أو الذين عبروا ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾؛ فإن كان القائلون هم الناكلين فهذا قول يبررون به نكولهم، وإن كان القائلون هم الذين عبروا مع طالوت فإنه حصل معهم نوع استضعاف لأنفسهم، ولكن شجعهم على الثبات والإقدام أهل الإيمان الكامل حيث قالوا: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾؛ بعونه وتأييده ونصره فثبتوا وصبروا لقتال عدوهم جالوت وجنوده.

(٢٥١) ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ﴾؛ ﷺ، ﴿جَالُوتَ﴾؛ وحصل بذلك الفتح والنصر على عدوهم ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: داود ﴿ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾؛ النبوة والعلوم النافعة، وآتاه الله الحكمة وفصل الخطاب. ثم بين تعالى فائدة الجهاد فقال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾؛ باستيلاء الكفرة والفجار وأهل الشر والفساد ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾؛ حيث لطف بالمؤمنين ودافع عنهم وعن دينهم بما شرعه وبما قدره. فلما بين هذه القصة قال لرسوله ﷺ:

(٢٥٢) ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾؛ ومن جملة الأدلة على رسالته هذه القصة حيث أخبر بها وحيًا من الله مطابقًا للواقع.

وفي هذه القصة عبر كثيرة للأمة:

منها: فضيلة الجهاد في سبيله وفوائده وثمراته، وأنه السبب الوحيد في حفظ الدين وحفظ الأوطان وحفظ الأبدان والأموال، وأن المجاهدين ولو شقت عليهم الأمور فإن عواقبهم حميدة، كما أن الناكلين ولو استراحوا قليلًا فإنهم سيتعبون طويلًا.

ومنها: الانتداب لرياسة من فيه كفاءة، وأن الكفاءة ترجع إلى أمرين: إلى العلم الذي هو علم السياسة والتدبير، وإلى القوة التي ينفذ بها الحق، وأن من اجتمع فيه الأمران فهو أحق من غيره.

(١) ط: «بتقنيعهم».

ومنها: الاستدلال بهذه القصة على ما قاله العلماء أنه ينبغي للأمير للجيوش أن يتفقدها عند فصولها؛ فيمنع من لا يصلح للقتال من رجال وخيل وركاب، لضعفه أو ضعف صبره أو لتخذيله أو خوف الضرر بصحبته، فإن هذا القسم ضرر محض على الناس.

ومنها: أنه ينبغي عند حضور البأس تقوية المجاهدين وتشجيعهم وحثهم على القوة الإيمانية والاتكال الكامل على الله والاعتماد عليه، وسؤال الله التثبيت والإعانة على الصبر والنصر على الأعداء.

ومنها: أن العزم على القتال والجهاد غير حقيقته، فقد يعزم الإنسان ولكن عند حضوره تنحل عزيمته، ولهذا كان[١] من دعاء النبي ﷺ: «**أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد**»[٢]، فهؤلاء الذين عزموا على القتال وأتوا بكلام يدل على العزم المصمم لما جاء الوقت نكص أكثرهم، ويشبه هذا قوله ﷺ: «**وأسألك الرضا بعد القضاء**»[٣]؛ لأن الرضا بعد وقوع القضاء المكروه للنفوس هو الرضا الحقيقي.

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾.

(٢٥٣) يخبر الباري أنه فاوت بين الرسل في الفضائل الجليلة والتخصيصات الجميلة، بحسب ما مَنَّ الله به عليهم وقاموا به من الإيمان الكامل واليقين الراسخ والأخلاق العالية والآداب السامية والدعوة والتعليم والنفع العميم، فمنهم من اتخذه خليلًا، ومنهم من كلمه تكليمًا، ومنهم من رفعه فوق الخلائق درجات، وجميعهم لا سبيل لأحد من البشر إلى الوصول إلى فضلهم الشامخ. وخص عيسى ابن مريم أنه آتاه البينات الدالة على أنه رسول الله حقًّا وعبده صدقًا وأن ما جاء به من عند الله كله حق، فجعله يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله وكلم الناس في المهد صبيًّا وأيده

الجزء الثاني — سورة البقرة

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

٤١

بروح القدس، أي: بروح الإيمان، فجعل روحانيته فائقةً روحانية غيره، فحصل له بذلك القوة والتأييد، وإن كان أصل التأييد بهذه الروح عامًّا لكل مؤمن بحسب إيمانه كما قال: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]؛ لكن ما لعيسى أعظم مما لغيره لهذا خصه الله بالذكر، وقيل: إن روح القدس هنا جبريل، أيده الله بإعانته ومؤازرته لكن المعنى هو الأول. ولما أخبر عن كمال الرسل وما أعطاهم من الفضل والخصائص وأن دينهم واحد ودعوتهم إلى الخير واحدة، وكان موجب ذلك ومقتضاه أن تجتمع الأمم على تصديقهم والانقياد لهم لما آتاهم من البينات التي على مثلها يؤمن البشر، لكن أكثرهم انحرفوا عن الصراط المستقيم، ووقع الاختلاف بين الأمم فمنهم من آمن ومنهم من كفر ووقع لأجل ذلك الاقتتال، الذي هو موجب الاختلاف والتعادي، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فما اختلفوا، ولو شاء الله أيضًا بعدما وقع الاختلاف الموجب للاقتتال ما اقتتلوا، ولكن حكمته اقتضت جريان الأمور على هذا النظام بحسب الأسباب.

(١) ساقط من ط.
(٢) أحمد (١٧١١٤)، الترمذي (٣٤٠٧).
(٣) أحمد (٢١٦٦٦)، الحاكم (١/ ٥١٦، ٥١٧).

تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ
وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ
وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ
مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟
فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟
مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا
شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا
فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ
أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا
شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا
وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ
مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ
ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

٤٢

ففي هذه الآية أكبر شاهد على أنه تعالى يتصرف في جميع الأسباب المقتضية لمسبباتها، وأنه إن شاء أبقاها وإن شاء منعها، وكل ذلك تبع لحكمته وحده؛ فإنه فعال لما يريد، فليس لإرادته ومشيئته ممانع ولا معارض ولا معاون.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾.

﴿٢٥٤﴾ يحث الله المؤمنين على النفقات في جميع طرق الخير، لأن حذف المعمول يفيد التعميم، ويذكرهم نعمته عليهم بأنه هو الذي رزقهم ونوع عليهم النعم، وأنه لم يأمرهم بإخراج جميع ما في أيديهم، بل أتى بـ(من) الدالة على التبعيض، فهذا مما يدعوهم إلى الإنفاق، ومما يدعوهم أيضًا إخبارهم أن هذه النفقات مدخرة عند الله في يوم لا تفيد فيه المعاوضات بالبيع ونحوه ولا التبرعات ولا الشفاعات فكل أحد يقول ما قدمت لحياتي، فتنقطع الأسباب كلها إلا الأسباب المتعلقة بطاعة الله والإيمان به ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]. ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سبأ: ٣٧]، ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ [المزمل: ٢٠]. ثم قال تعالى: ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾؛ وذلك لأن الله خلقهم لعبادته، ورزقهم، وعافاهم، ليستعينوا بذلك على طاعته، فخرجوا عما خلقهم الله له، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا، واستعانوا بنعمه على الكفر والفسوق والعصيان، فلم يبقوا للعدل موضعًا، فلهذا حصر الظلم المطلق فيهم.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾.

﴿٢٥٥﴾ أخبر ﷺ أن هذه الآية أعظم آيات القرآن[1] لما احتوت عليه من معاني التوحيد والعظمة وسعة الصفات للباري تعالى، فأخبر أنه ﴿ ٱللَّهُ ﴾؛ الذي له جميع معاني الألوهية، وأنه لا يستحق الألوهية والعبودية إلا هو، فألوهية غيره وعبادة غيره باطلة، وأنه ﴿ ٱلْحَىُّ ﴾ الذي له جميع معاني الحياة الكاملة من السمع والبصر والقدرة والإرادة وغيرها من الصفات الذاتية، كما أن ﴿ ٱلْقَيُّومُ ﴾؛ تدخل فيه جميع صفات الأفعال؛ لأنه القيوم الذي قام بنفسه واستغنى عن جميع مخلوقاته وقام بجميع الموجودات فأوجدها وأبقاها وأمدها بجميع ما تحتاج إليه في وجودها وبقائها. ومن كمال حياته وقيوميته أنه ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ ﴾؛ أي: نعاس ﴿ وَلَا نَوْمٌ ﴾؛ لأن السنة والنوم إنما يعرضان للمخلوق الذي يعتريه الضعف والعجز والانحلال، ولا يعرضان لذي العظمة والكبرياء والجلال، وأخبر أنه مالك جميع ما في السماوات والأرض، فكلهم عبيد لله مماليك، لا يخرج أحد منهم عن هذا الطور ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [مريم: ٩٣]؛ فهو المالك لجميع الممالك، وهو الذي له صفات الملك والتصرف والسلطان والكبرياء، ومن تمام ملكه أنه لا ﴿ يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ ﴾؛ أحد ﴿ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾؛ فكل الوجهاء والشفعاء عبيد له مماليك لا يقدمون على شفاعة حتى يأذن لهم ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) مسلم (٨١٠).

وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الزمر: ٤٤]؛ والله لا يأذن لأحد أن يشفع إلا فيمن ارتضى ولا يرتضي إلا توحيده واتباع رسله، فمن لم يتصف بهذا فليس له في الشفاعة نصيب. ثم أخبر عن علمه الواسع المحيط، وأنه يعلم ما بين أيدي الخلائق من الأمور المستقبلة التي لا نهاية لها ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾؛ من الأمور الماضية التي لا حد لها، وأنه لا تخفى عليه خافية ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾ [غافر: ١٩]؛ وأن الخلق لا يحيط أحد بشيء من علم الله ومعلوماته ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ منها، وهو ما أطلعهم عليه من الأمور الشرعية والقدرية، وهو جزء يسير جدًّا مضمحل في علوم الباري ومعلوماته كما قال أعلم الخلق به وهم الرسل والملائكة: ﴿ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾ [البقرة: ٣٢]؛ ثم أخبر عن عظمته وجلاله وأن كرسيه وسع السماوات والأرض، وأنه قد حفظهما ومن فيهما من العوالم بالأسباب والنظامات التي جعلها الله في المخلوقات، ومع ذلك فلا يئوده، أي: يثقله حفظهما لكمال عظمته واقتداره وسعة حكمته في أحكامه ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ﴾؛ بذاته على جميع مخلوقاته، وهو العلي بعظمة صفاته، وهو العلي الذي قهر المخلوقات، ودانت له الموجودات، وخضعت له الصعاب، وذلت له الرقاب ﴿ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾؛ الجامع لجميع صفات العظمة والكبرياء والمجد والبهاء، الذي تحبه القلوب، وتعظمه الأرواح، ويعرف العارفون أن عظمة كل شيء وإن جلت عن الصفة فإنها مضمحلة في جانب عظمة العلي العظيم. فآية احتوت على هذه المعاني التي هي أجل المعاني يحق أن تكون أعظم آيات القرآن، ويحق لمن قرأها متدبرًا متفهمًا أن يمتلئ قلبه من اليقين والعرفان والإيمان، وأن يكون محفوظًا بذلك من شرور الشيطان.

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾.

﴿٢٥٦﴾ هذا بيان لكمال هذا الدين الإسلامي، وأنه لكمال براهينه، واتضاح آياته وكونه هو دين العقل والعلم ودين الفطرة والحكمة ودين الصلاح والإصلاح ودين الحق والرشد، فلكماله وقبول الفِطَر له لا يحتاج إلى الإكراه عليه، لأن الإكراه إنما يقع على ما تنفر عنه القلوب، ويتنافى مع الحقيقة والحق، أو لما تخفى براهينه وآياته، وإلا فمن جاءه هذا الدين ورده ولم يقبله فإنه لعناده؛ فإنه ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ فلم يبق لأحد عذر ولا حجة إذا رده ولم يقبله.

ولا منافاة بين هذا المعنى وبين الآيات الكثيرة الموجبة للجهاد، فإن الله أمر بالقتال ليكون الدين كله لله، ولدفع اعتداء المعتدين على الدين، وأجمع المسلمون على أن الجهاد ماض مع البر والفاجر، وأنه من الفروض المستمرة؛ الجهاد القولي والجهاد الفعلي، فمن[1] ظن من المفسرين أن هذه الآية تنافي آيات الجهاد فجزم بأنها منسوخة فقوله ضعيف لفظًا ومعنى، كما هو واضح بين لمن تدبر الآية الكريمة كما نبهنا عليه.

ثم ذكر الله انقسام الناس إلى قسمين: قسم آمن بالله وحده لا شريك له وكفر بالطاغوت - وهو كل ما ينافي الإيمان بالله من الشرك وغيره - فهذا قد ﴿ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ التي ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ﴾، بل هو مستقيم على الدين الصحيح حتى يصل به إلى الله وإلى دار كرامته. ويؤخذ القسم الثاني من مفهوم الآية أن من لم يؤمن بالله بل كفر به وآمن بالطاغوت فإنه هالك هلاكًا أبديًّا ومعذب عذابًا سرمديًّا. وقوله ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾؛ أي: لجميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، وسميع لدعاء الداعين وخضوع المتضرعين. ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾؛ بما أكنته الصدور، وما خفي من خفايا الأمور، فيجازي كل أحد بحسب ما يعلمه من نياته وعمله.

﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾.

﴿٢٥٧﴾ هذه الآية مترتبة على الآية التي قبلها، فالسابقة هي الأساس وهذه هي الثمرة. فأخبر تعالى أن الذين آمنوا بالله وصدقوا إيمانهم بالقيام بواجبات الإيمان وترك كل ما ينافيه أنه وليهم يتولاهم بولايته الخاصة، ويتولى تربيتهم، فيخرجهم من ظلمات الجهل والكفر والمعاصي والغفلة والإعراض إلى نور العلم واليقين والإيمان والطاعة والإقبال الكامل على ربهم، وينور قلوبهم بما يقذفه فيها من نور الوحي والإيمان، وييسرهم لليسرى، ويجنبهم العسرى، وأما الذين كفروا فإنهم لما تولوا غير وليهم، ولاهم الله ما

(١) ط: «ومن».

ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ
ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ٢٥٧ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ
أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ
وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي
بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي
كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥٨ أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ
عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ
بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ
قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ
فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ
حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى
ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا
تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٥٩

تولوا لأنفسهم، وخذلهم، ووكلهم إلى رعاية من تولاهم ممن ليس عنده نفع ولا ضر، فأضلوهم، وأشقوهم، وحرموهم هداية العلم النافع والعمل الصالح، وحرموهم السعادة، وصارت النار مثواهم خالدين فيها مخلدين. اللهم تولنا فيمن توليت.

﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥٨ ﴾.

(٢٥٨) يقص الله علينا من أنباء الرسل والسالفين ما به تتبين الحقائق، وتقوم البراهين المتنوعة على التوحيد، فأخبر تعالى عن خليله إبراهيم ﷺ، حيث حاج هذا الملك الجبار، وهو نمرذ[1] البابلي المعطل المنكر لرب العالمين، وانتدب لمقاومة إبراهيم الخليل ومحاجته في هذا الأمر الذي لا يقبل شكًّا ولا إشكالًا ولا ريبًا، وهو توحيد الله وربوبيته الذي هو أجلى الأمور وأوضحها. ولكن هذا الجبار غره ملكه وأطغاه حتى وصلت به الحال إلى أن نفاه، وحاج إبراهيم الرسول العظيم الذي أعطاه الله من العلم واليقين ما لم يعط أحدًا من الرسل سوى محمد ﷺ، فقال إبراهيم مناظرًا له: ﴿ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ ﴾؛ أي: هو المنفرد بالخلق والتدبير والإحياء والإماتة، فذكر من هذا الجنس أظهرها وهو الإحياء والإماتة، فقال ذلك الجبار مباهتًا: ﴿ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ ﴾؛ وعنى بذلك أني أقتل من أردت قتله وأستبقي من أردت استبقاءه، ومن المعلوم أن هذا تمويه وتزوير وَحَيْدَةٌ[2] عن المقصود، وأن المقصود أن الله تعالى هو الذي تفرد بإيجاد الحياة في المعدومات وردها على الأموات، وأنه هو الذي يميت العباد والحيوانات بآجالها بأسباب ربطها وبغير أسباب.

فلما رآه الخليل مموهًا تمويهًا ربما راج على الهمج الرعاع قال إبراهيم ملزمًا له بتصديق قوله إن كان كما يزعم: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ﴾؛ أي: وقف وانقطعت حجته، واضمحلت شبهته.

وليس هذا من الخليل انتقالًا من دليل إلى آخر، وإنما هو إلزام لنمرود بطرد دليله إن كان صادقًا وأتى بهذا الذي لا يقبل الترويج والتزوير والتمويه، فجميع الأدلة السمعية والعقلية والفطرية قد قامت شاهدة بتوحيد الله معترفة بانفراده بالخلق والتدبير، وأن من هذا شأنه لا يستحق العبادة إلا هو، وجميع الرسل متفقون على هذا الأصل العظيم، ولم ينكره إلا معاند مكابر مماثل لهذا الجبار العنيد، فهذا من أدلة التوحيد، ثم ذكر أدلة كمال القدرة والبعث والجزاء فقال:

﴿ أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٥٩ وَإِذۡ

(١) ط: «نمرود». قال في لسان العرب ٣/ ٥١٦: «نمرذ: نمروذ، = ملك معروف».
(٢) ساقط من ط.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِيۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًاۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًاۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِيۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًاۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾.

(٢٥٩) هذان دليلان عظيمان محسوسان في الدنيا قبل الآخرة على البعث والجزاء؛ واحد أجراه الله على يد رجل شاك في البعث على الصحيح كما تدل عليه الآية الكريمة، والآخر على يد خليله إبراهيم، كما أجرى دليل التوحيد السابق على يده. فهذا الرجل مر على قرية قد دمرت تدميرًا وخوت على عروشها قد مات أهلها وخربت عمارتها، فقال على وجه الشك والاستبعاد: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؟ أي: ذلك بعيد وهي في هذه الحال، يعني وغيرها مثلها بحسب ما قام بقلبه تلك الساعة، فأراد الله رحمته ورحمة الناس حيث أماته الله مائة عام، وكان معه حمار فأماته معه، ومعه طعام وشراب فأبقاهما الله بحالهما كل هذه المدد الطويلة. فلما مضت الأعوام المائة بعثه الله فقال: ﴿كَمْ لَبِثْتَۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾؛ وذلك بحسب ما ظنه، فقال الله: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ﴾؛ والظاهر أن هذه المجاوبة على يد بعض الأنبياء الكرام.

ومن تمام رحمة الله به وبالناس أنه أراه الآية عيانًا ليقتنع بها، فبعدما عرف أنه ميت قد أحياه الله قيل له: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾؛ أي: لم يتغير في هذه المدد الطويلة. وذلك من آيات قدرة الله؛ فإن الطعام والشراب خصوصًا ما ذكره المفسرون أنه فاكهة وعصير لا يلبث أن يتغير، وهذا قد حفظه الله مائة عام وقيل له: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾؛ فإذا هو قد تمزق وتفرق وصار عظامًا نخرة، ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾؛ أي: نرفع بعضها إلى بعض ونصل بعضها ببعض بعدما تفرقت وتمزقت ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا﴾؛ بعد الالتئام ﴿لَحْمًا﴾؛ ثم نعيد فيه الحياة ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾؛ رأيَ عين لا يقبل الريب بوجه من الوجوه ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾؛ فاعترف بقدرة الله على كل شيء وصار آية للناس، لأنهم قد عرفوا موته وموت حماره وعرفوا قضيته ثم شاهدوا هذه الآية الكبرى. هذا هو الصواب في هذا الرجل.

وأما قول كثير من المفسرين: إن هذا الرجل مؤمن أو نبي من الأنبياء إما عزير أو غيره وأن قوله: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ يعني: كيف تعمر هذه القرية بعد أن كانت خرابًا؟ وأن الله أماته ليريه ما يعيد لهذه القرية من عمارتها بالخلق وأنها عمرت في هذه المدة وتراجع الناس إليها وصارت عامرة بعد أن كانت دامرة، فهذا لا يدل عليه اللفظ، بل ينافيه، ولا يدل عليه المعنى، فأي آية وبرهان برجوع البلدان الدامرة إلى العمارة، وهذه لم تزل تشاهد تعمر قرى ومساكن، وتخرب أخرى، وإنما الآية العظيمة في إحيائه بعد موته وإحياء حماره وإبقاء طعامه وشرابه لم يتعفن ولم يتغير، ثم قوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾؛ صريح في أنه لم يتبين له إلا بعدما شاهد هذه الحال الدالة على كمال قدرته عيانًا.

(٢٦٠) وأما البرهان الآخر فإن إبراهيم قال طالبًا من الله أن يريه كيف يحيي الموتى فقال الله له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾؛ ليزيل الشبهة عن خليله، ﴿قَالَ﴾؛ إبراهيم: ﴿بَلَىٰ﴾؛ يا رب قد آمنت أنك على كل شيء قدير، وأنك تحيي الموتى وتجازي العباد، ولكن أريد أن يطمئن قلبي وأصل إلى درجة عين

اليقين، فأجاب الله دعوته كرامة له ورحمة بالعباد، ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾؛ ولم يبين أي الطيور هي فالآية حاصلة بأي نوع منها وهو المقصود، ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾؛ أي: ضمهن واذبحهن ومزقهن ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾؛ ففعل ذلك وفرق أجزاءهن على الجبال التي حوله ودعاهن بأسمائهن فأقبلن إليه أي سريعات، لأن السعي السرعة، وليس المراد أنهن جئن على قوائمهن، وإنما جئن طائرات على أكمل ما يكون من الحياة، وخص الطيور بذلك لأن إحياءهن أكمل وأوضح من غيرهن، وأيضًا أزال في هذا كل وهم ربما يعرض للنفوس المبطلة، فجعلهن متعددات أربعة، ومزقهن جميعًا، وجعلهن على رءوس الجبال، ليكون ذلك ظاهرًا علنًا يشاهد من قرب ومن بعد، وأنه نحاهن عنه كثيرًا لئلا يظن أن يكون عاملًا حيلة من الحيل، وأيضًا أمره أن يدعوهن فجئن مسرعات، فصارت هذه الآية أكبر برهان على كمال عزة الله وحكمته.

وفيه تنبيه على أن البعث فيه يظهر للعباد كمال عزة الله وحكمته وعظمته وسعة سلطانه وتمام عدله وفضله.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾.

﴿٢٦١﴾ هذا حث عظيم من الله لعباده في إنفاق أموالهم في سبيله، وهو طريقه الموصل إليه، فيدخل في هذا إنفاقه في ترقية العلوم النافعة، وفي الاستعداد للجهاد في سبيله، وفي تجهز المجاهدين وتجهيزهم، وفي جميع المشاريع الخيرية النافعة للمسلمين، ويلي ذلك الإنفاق على المحتاجين والفقراء والمساكين، وقد يجتمع الأمران فيكون في النفقة دفع الحاجات والإعانة على الخير والطاعات، فهذه النفقات مضاعفة هذه المضاعفة بسبعمائة إلى أضعاف أكثر من ذلك، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾؛ وذلك بحسب ما يقوم بقلب المنفق من الإيمان والإخلاص التام وفي ثمرات نفقته ونفعها، فإن بعض طرق الخيرات يترتب على الإنفاق فيها منافع متسلسلة ومصالح متنوعة فكان الجزاء من جنس العمل.

﴿٢٦٢﴾ ثم أيضًا ذكر ثوابًا آخر للمنفقين أموالهم في سبيله نفقة صادرة مستوفية لشروطها منتفية موانعها، فلا يتبعون المنفق عليه منًّا منهم عليه وتعدادًا للنعم وأذية له قولية أو فعلية، فهؤلاء ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ بحسب ما يعلمه منهم وبحسب نفقاتهم ونفعها وبفضله الذي لا تناله ولا تصل إليه صدقاتهم، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾؛ فنفى عنهم المكروه الماضي بنفي الحزن، والمستقبل بنفي الخوف عليهم، فقد حصل لهم المحبوب واندفع عنهم المكروه.

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾.

﴿٢٦٣﴾ ذكر الله أربع مراتب للإحسان:

المرتبة العليا: النفقة الصادرة عن نية صالحة ولم يتبعها المنفق منًّا ولا أذى.

ثم يليها قول المعروف وهو الإحسان القولي بجميع وجوهه الذي فيه سرور المسلم، والاعتذار من السائل إذا لم يوافق عنده شيئًا، وغير ذلك من أقوال المعروف.

والثالثة: الإحسان بالعفو والمغفرة عمن أساء إليك بقول أو فعل.

وهذان أفضل من الرابعة وخير منها وهي: التي يتبعها المتصدق الأذى للمعطي؛ لأنه كدر إحسانه وفعل خيرًا وشرًّا.

فالخير المحض وإن كان مفضولًا خير من الخير الذي يخالطه شرٌّ وإن كان فاضلًا، وفي هذا التحذير العظيم لمن يؤذي من تصدق عليه كما يفعله أهل اللؤم والحمق والجهل، ﴿وَٱللَّهُ﴾؛ تعالى ﴿غَنِىٌّ﴾؛ عن صدقاتهم وعن جميع عباده ﴿حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾؛ مع كمال غناه وسعة عطاياه يحلم عن العاصين، ولا يعاجلهم بالعقوبة بل يعافيهم، ويرزقهم، ويدر عليهم خيره، وهم مبارزون له بالمعاصي.

ثم نهى أشد النهي عن المن والأذى وضرب لذلك مثلًا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ

وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا
كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ
يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا
مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ
أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا
تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ
مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن
كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ
إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ
ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ ﴾.

(٢٦٤) - (٢٦٦) ضرب الله في هذه الآيات ثلاثة أمثلة: للمنفق ابتغاء وجهه ولم يتبع نفقته منًّا ولا أذى، ولمن أتبعها منًّا وأذى، وللمرائي.

فأما الأول: فإنه لما كانت نفقته مقبولة مضاعفة، لصدورها عن الإيمان والإخلاص التام ﴿ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ ﴾؛ أي: ينفقون وهم ثابتون على وجه السماحة والصدق فمثل هذا العمل، ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ ﴾؛ وهو المكان المرتفع لأنه يتبين للرياح والشمس، والماء فيها غزير، فإن لم يصبها ذلك الوابل الغزير، حصل لها طل كاف لطيب منبتها وحسن أرضها وحصول جميع الأسباب الموفرة لنموها وازدهارها وإثمارها، ولهذا آتت ﴿ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ ﴾؛ أي: متضاعفًا، وهذه الجنة التي على هذا الوصف هي أعلى ما يطلبه الناس، فهذا العمل الفاضل بأعلى المنازل.

وأما من أنفق لله ثم أتبع نفقته منًّا وأذى، أو عمل عملًا فأتى بمبطل لذلك العمل فهذا مثله مثال صاحب هذه الجنة، لكن سلط عليها ﴿ إِعۡصَارٞ ﴾؛ وهو الريح الشديدة ﴿ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡ ﴾؛ وله ذرية ضعفاء وهو ضعيف قد أصابه الكبر، فهذه الحال من أفظع الأحوال، ولهذا صدر هذا المثل بقوله: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ ﴾؛ إلى آخرها بالاستفهام المتقرر عند المخاطبين فظاعته، فإن تلفها دفعة واحدة بعد زهاء أشجارها وإيناع ثمارها مصيبة كبرى، ثم حصول هذه الفاجعة وصاحبها كبير قد ضعف عن العمل وله ذرية ضعفاء لا مساعدة منهم له ومؤنتهم عليه فاجعة أخرى، فصار صاحب هذا المثل الذي عمل لله ثم أبطل عمله بمناف له

الجزء الثالث   سورة البقرة

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ
وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ
فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ
وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ
لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ
فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ
فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ
لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا
لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم
بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ
﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ
وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٦٨﴾
يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ
أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾

٤٥

يشبه حال صاحب الجنة التي جرى عليها ما جرى حين اشتدت ضرورته إليها.

المثل الثالث: الذي يرائي الناس، وليس معه إيمان بالله ولا احتساب لثوابه حيث شبه قلبه بالصفوان وهو الحجر الأملس عليه تراب يظن الرائي أنه إذا أصابه المطر أنبت كما تنبت الأراضي الطيبة، ولكنه كالحجر الذي أصابه الوابل الشديد فأذهب ما عليه من التراب وتركه صلدًا، وهذا مثل مطابق لقلب المرائي الذي ليس فيه إيمان، بل هو قاس لا يلين ولا يخشع، فهذا أعماله ونفقاته لا أصل لها تؤسس عليه ولا غاية لها تنتهي إليه، بل ما عمله فهو باطل لعدم شرطه.

والذي قبله بطل بعد وجود الشرط لوجود المانع، والأول مقبول مضاعف لوجود شرطه الذي هو الإيمان والإخلاص والثبات وانتفاء الموانع المفسدة. وهذه الأمثال الثلاثة تنطبق على جميع العاملين، فليزن العبد نفسه وغيره بهذه الموازين العادلة والأمثال المطابقة ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ ﴾.

﴿٢٦٧﴾، ﴿٢٦٨﴾ يحث الباري عباده على الإنفاق مما كسبوا في التجارات، ومما أخرج لهم من الأرض من الحبوب والثمار، وهذا يشمل زكاة النقدين والعروض كلها المعدة للبيع والشراء والخارج من الأرض من الحبوب والثمار. ويدخل في عمومها الفرض والنفل، وأمر تعالى أن يقصدوا الطيب منها ولا يقصدوا الخبيث وهو الرديء الدون يجعلونه لله، ولو بذله لهم من لهم حق عليه لم يرتضوه، ولم يقبلوه إلا على وجه المغاضاة والإغماض، فالواجب إخراج الوسط من هذه الأشياء، والكمال إخراج العالي، والممنوع إخراج الرديء فإن هذا لا يجزي عن الواجب، ولا يحصل فيه الثواب التام في المندوب.

﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾؛ فهو غني عن جميع المخلوقين، وهو الغني عن نفقات المنفقين وعن طاعات الطائعين، وإنما أمرهم بها وحثهم عليها لنفعهم ومحض فضله وكرمه عليهم، ومع كمال غناه وسعة عطاياه فهو الحميد فيما يشرعه لعباده من الأحكام الموصلة لهم إلى دار السلام، وحميد في أفعاله التي لا تخرج عن الفضل والعدل والحكمة، وحميد الأوصاف لأن أوصافه كلها محاسن وكمالات لا يبلغ العباد كنهها ولا يدركون وصفها. فلما حثهم على الإنفاق النافع نهاهم عن الإمساك الضار، وبين لهم أنهم بين داعيين: داعي الرحمن يدعوهم إلى الخير ويعدهم عليه الخير والفضل والثواب العاجل والآجل وإخلاف ما أنفقوا، وداعي الشيطان الذي يحثهم على الإمساك، ويخوفهم إن أنفقوا أن يفتقروا.

فمن كان مجيبًا لداعي الرحمن، وأنفق مما رزقه الله فليبشر بمغفرة الذنوب وحصول كل مطلوب، ومن كان مجيبًا لداعي الشيطان فإنه إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير، فليختر العبد أي الأمرين أليق به.

وختم الآية بأنه ﴿ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ ﴾؛ أي واسع الصفات كثير الهبات، عليم بمن يستحق المضاعفة من العاملين، وعليم بمن هو أهل فيوفقه لفعل الخيرات، وترك المنكرات.

﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾.

﴿٢٦٩﴾ لما ذكر أحوال المنفقين للأموال، وأن الله أعطاهم، ومَنَّ عليهم بالأموال التي يدركون بها النفقات في الطرق الخيرية، وينالون بها المقامات السنية، ذكر ما هو أفضل من ذلك وهو أنه يعطي الحكمة من يشاء من عباده، ومن أراد بهم خيرًا من خلقه، والحكمة هي العلوم النافعة والمعارف الصائبة والعقول المسددة والألباب الرزينة وإصابة الصواب في الأقوال والأفعال، وهذا أفضل العطايا وأجل الهبات، ولهذا قال: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾؛ لأنه خرج من ظلمة الجهالات إلى نور الهدى، ومن حمق الانحراف في الأقوال والأفعال إلى إصابة الصواب فيها وحصول السداد، ولأنه كمل نفسه بهذا الخير العظيم واستعد لنفع الخلق أعظم نفع في دينهم ودنياهم، وجميع الأمور لا تصلح إلا بالحكمة التي هي وضع الأشياء مواضعها وتنزيل الأمور منازلها، والإقدام في محل الإقدام، والإحجام في موضع الإحجام.

ولكن ما يتذكر هذا الأمر العظيم وما يعرف قدر هذا العطاء الجسيم ﴿ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾؛ وهم أهل العقول الوافية والأحلام الكاملة، فهم الذين يعرفون النافع فيعملونه والضار فيتركونه، وهذان الأمران وهما بذل النفقات المالية وبذل الحكمة العلمية أفضل ما تقرب به المتقربون إلى الله وأعلى ما وصلوا به إلى أجل الكرامات، وهما اللذان ذكرهما النبي ﷺ بقوله: **«لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يعلمها الناس»**[1].

﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ﴾.

(١) البخاري (٧٣)، مسلم (٨١٦).

وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾.

﴿٢٧٣﴾ يعني أنه ينبغي أن تتحروا بصدقاتكم الفقراء الذين حبسوا أنفسهم في سبيل الله وعلى طاعته، وليس لهم إرادة في الاكتساب أو ليس لهم قدرة عليه وهم يتعففون، إذا رآهم الجاهل ظن أنهم أغنياء ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾؛ فهم لا يسألون بالكلية وإن سألوا اضطرارًا لم يلحفوا في السؤال، فهذا الصنف من الفقراء أفضل ما وضعت فيهم النفقات لدفع حاجتهم وإعانة لهم على مقصدهم وطريق الخير وشكرًا لهم على ما اتصفوا به من الصبر والنظر إلى الخالق لا إلى الخلق، ومع ذلك فالإنفاق في طرق الإحسان

﴿٢٧٠﴾، ﴿٢٧١﴾ يخبر تعالى أنه مهما أنفق المنفقون أو تصدق المتصدقون أو نذر الناذرون فإن الله يعلم ذلك. ومضمون الإخبار بعلمه يدل على الجزاء وأن الله لا يضيع عنده مثقال ذرة، ويعلم ما صدرت عنه من نيات صالحة أو سيئة، وأن الظالمين الذين يمنعون ما أوجب الله عليهم، أو يقتحمون ما حرم عليهم، ليس لهم من دونه أنصار ينصرونهم ويمنعونهم. وأنه لا بد أن تقع بهم العقوبات، وأخبر أن الصدقة إن أبداها المتصدق فهي خير، وإن أخفاها وسلمها للفقير كان أفضل، لأن الإخفاء على الفقير إحسان آخر، وأيضًا فإنه يدل على قوة الإخلاص. وأحد السبعة الذين يظلهم الله في ظله من تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، وفي قوله: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ فائدة لطيفة، وهو أن إخفاءها خير من إظهارها إذا أعطيت الفقير.

فأما إذا صرفت في مشروع خيري لم يكن في الآية ما يدل على فضيلة إخفائها، بل هنا قواعد الشرع تدل على مراعاة المصلحة، فربما كان الإظهار خيرًا لحصول الأسوة والاقتداء وتنشيط النفوس على أعمال الخير.

وقوله: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾؛ في هذا أن الصدقات يجتمع فيها الأمران: حصول الخير وهو كثرة الحسنات والثواب والأجر، ودفع الشر والبلاء الدنيوي والأخروي بتكفير السيئات ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾؛ فيجازي كلًّا بعمله بحسب حكمته.

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾.

﴿٢٧٢﴾ أي: إنما عليك أيها الرسول البلاغ وحث الناس على الخير وزجرهم عن الشر، وأما الهداية فبيد الله تعالى.

ويخبر عن المؤمنين حقًّا أنهم لا ينفقون إلا لطلب مرضاة ربهم واحتساب ثوابه؛ لأن إيمانهم يدعوهم إلى ذلك، فهذا خير وتزكية للمؤمنين، ويتضمن التذكير لهم بالإخلاص، وكرر علمه تعالى بنفقاتهم لإعلامهم أنه لا يضيع عنده ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠].

الجزء الثالث | سورة البقرة

ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي
يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ
مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ
مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ
فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧٥ يَمۡحَقُ
ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ٢٧٦
إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ
وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ
وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ
فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ
أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٩ وَإِن كَانَ
ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ
إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٨٠ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى
ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١

٤٧

وعلى المحاويج حيثما كانوا فإنه خير وأجر وثواب عند الله ولهذا قال:

(٢٧٤) ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٤ ﴾؛ فإن الله يظلهم بظله يوم لا ظل إلا ظله، وإن الله ينيلهم الخيرات ويدفع عنهم الأحزان والمخاوف والكريهات. وقوله: ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾؛ أي: كل أحد منهم بحسب حاله، وتخصيص ذلك بأنه عند ربهم يدل على شرف هذه الحال ووقوعها في الموقع الأكبر كما في الحديث الصحيح **«إن العبد ليتصدق بالتمرة من كسب طيب فيتقبلها الجبار بيده فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل العظيم»**[1].

﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧٥ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ٢٧٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٩ وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٨٠ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١ ﴾.

(٢٧٥) لما ذكر الله حالة المنفقين وما لهم من الله من الخيرات وما يكفر عنهم من الذنوب والخطيئات ذكر الظالمين أهل الربا والمعاملات الخبيثة، وأخبر أنهم يجازون بحسب أعمالهم، فكما كانوا في الدنيا في طلب المكاسب الخبيثة كالمجانين عوقبوا في البرزخ والقيامة أنهم لا يقومون من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشورهم ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ﴾؛ أي: من الجنون والصرع وذلك عقوبة وخزي وفضيحة لهم وجزاء لهم على مراباتهم ومجاهرتهم بقولهم: ﴿إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾؛ فجمعوا - بجراءتهم - بين ما أحل الله وبين ما حرم الله واستباحوا بذلك الربا. ثم عرض تعالى التوبة على المرابين وغيرهم فقال: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ بيان مقرون به الوعد والوعيد ﴿فَٱنتَهَىٰ﴾؛ عما كان يتعاطاه من الربا ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾؛ مما تجرأ عليه وتاب منه ﴿وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ فيما يستقبل من زمانه فإن استمر على توبته، فالله لا يضيع أجر المحسنين.

﴿وَمَنۡ عَادَ﴾؛ بعد بيان الله وتذكيره وتوعده لأكل الربا ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧٥﴾؛ في هذا أن الربا موجب لدخول النار والخلود فيها، وذلك لشناعته ما لم يمنع من الخلود مانع الإيمان، وهذا من جملة الأحكام التي تتوقف على وجود شروطها وانتفاء موانعها؛ وليس فيها حجة للخوارج كغيرها من آيات الوعيد، فالواجب أن تصدق جميع نصوص الكتاب والسنة فيؤمن العبد بما تواترت به

(١) البخاري (١٤١٠، ٧٤٣٠)، مسلم (١٠١٤).

النصوص من خروج من في قلبه أدنى مثقال حبة خردل من الإيمان من النار، ومن استحقاق هذه الموبقات لدخول النار إن لم يتب منها.

(٢٧٦) ثم أخبر تعالى أنه يمحق مكاسب المرابين ويربي صدقات المنفقين، عكس ما يتبادر لأذهان كثير من الخلق أن الإنفاق ينقص المال وأن الربا يزيده، فإن مادة الرزق وحصول ثمراته من الله تعالى، وما عند الله لا ينال إلا بطاعته وامتثال أمره، فالمتجرئ على الربا يعاقبه بنقيض مقصوده، وهذا مشاهد بالتجربة ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا (١٢٢)﴾ [النساء: ١٢٢]. ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦)﴾؛ وهو الذي كفر نعمة الله، وجحد منة ربه وأثم بإصراره على معاصيه.

ومفهوم الآية أن الله يحب من كان شكورًا على النعماء تائبًا من المآثم والذنوب. ثم أدخل هذه الآية بين آيات الربا وهي قوله:

(٢٧٧) - (٢٧٩) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ الآية لبيان أن أكبر الأسباب لاجتناب ما حرم الله من المكاسب الربوية تكميل الإيمان وحقوقه، خصوصًا إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والزكاة إحسان إلى الخلق ينافي تعاطي الربا الذي هو ظلم لهم وإساءة عليهم، ثم وجه الخطاب للمؤمنين وأمرهم أن يتقوه ويذروا ما بقي من معاملات الربا التي كانوا يتعاطونها قبل ذلك، وأنهم إن لم يفعلوا ذلك فإنهم محاربون لله ورسوله، وهذا من أعظم ما يدل على شناعة الربا حيث جعل المصر عليه محاربًا لله ورسوله، ثم قال: ﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾؛ يعني من المعاملات الربوية ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ﴾ الناس بأخذ الربا ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩)﴾ ببخسكم رءوس أموالكم، فكل من تاب من الربا فإن كانت معاملات سالفة فله ما سلف وأمره منظور فيه، وإن كانت معاملات موجودة وجب عليه أن يقتصر على رأس ماله، فإن أخذ زيادة فقد تجرأ على الربا. وفي هذه الآية بيان لحكمة الربا، وأنه يتضمن الظلم للمحتاجين بأخذ الزيادة وتضاعف الربا عليهم وهو واجب إنظارهم، ولهذا قال:

(٢٨٠)، (٢٨١) ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾؛ أي: وإن كان الذي عليه الدين معسرًا لا يقدر على الوفاء وجب على غريمه أن ينظره إلى ميسرة، وهو يجب عليه إذا حصل له وفاء بأي طريق مباح أن يوفي ما عليه، وإن تصدق عليه غريمه بإسقاط الدين كله أو بعضه فهو خير له، ويهون على العبد التزام الأمور الشرعية واجتناب المعاملات الربوية والإحسان إلى المعسرين؛ علمه بأن له يومًا يرجع فيه إلى الله ويوفيه عمله ولا يظلمه مثقال ذرة. كما ختم هذه الآية بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١)﴾؛ ثم قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣)﴾.

(٢٨٢) احتوت هذه الآية على إرشاد الباري عباده في معاملاتهم إلى حفظ حقوقهم بالطرق النافعة والإصلاحات التي لا يقترح العقلاء أعلى ولا أكمل منها، فإن فيها فوائد كثيرة:

منها: جواز المعاملات في الديون سواء كانت ديون سلم أو شراء مؤجلًا ثمنه فكله جائز، لأن الله أخبر به عن المؤمنين، وما أخبر به عن المؤمنين فإنه من مقتضيات الإيمان، وقد أقرهم عليه الملك الديان.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى
فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ
كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ
ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ
فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ
أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ
مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ
مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ
إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ
أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ
عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ
تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ
أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ
وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ
ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٨٢

ومنها: وجوب تسمية الأجل في جميع المداينات وحلول الإجارات.

ومنها: أنه إذا كان الأجل مجهولًا فإنه لا يحل؛ لأنه غرر وخطر فيدخل في الميسر.

ومنها: أمره تعالى بكتابة الديون، وهذا الأمر قد يجب إذا وجب حفظ الحق كالذي للعبد عليه ولاية، كأموال اليتامى والأوقاف والوكلاء والأمناء، وقد يقارب الوجوب كما إذا كان الحق متمحضًا للعبد فقد يقوى الوجوب وقد يقوى الاستحباب، بحسب الأحوال المقتضية لذلك، وعلى كل حال فالكتابة من أعظم ما تحفظ به هذه المعاملات المؤجلة لكثرة النسيان ولوقوع المغالطات، وللاحتراز من الخونة الذين لا يخشون الله تعالى.

ومنها: أمره تعالى للكاتب أن يكتب بين المتعاملين بالعدل؛ فلا يميل مع أحدهما لقرابة ولا غيرها ولا على أحدهما لعداوة ونحوها.

ومنها: أن الكتابة بين المتعاملين من أفضل الأعمال ومن الإحسان إليهما، وفيها حفظ حقوقهما وبراءة ذممهما كما أمره الله بذلك فليحتسب الكاتب بين الناس هذه الأمور ليحظى بثوابها.

ومنها: أن الكاتب لا بد أن يكون عارفًا بالعدل معروفًا بالعدل، لأنه إذا لم يكن عارفًا بالعدل لم يتمكن منه، وإذا لم يكن معتبرًا، عدلًا عند الناس، رضيًّا، لم تكن كتابته معتبرة، ولا حاصلًا بها المقصود الذي هو حفظ الحقوق.

ومنها: أن من تمام الكتابة والعدل فيها أن يحسن الكاتب الإنشاء والألفاظ المعتبرة في كل معاملة بحسبها، وللعرف في هذا المقام اعتبار عظيم.

ومنها: أن الكتابة من نعم الله على العباد التي لا تستقيم أمورهم الدينية ولا الدنيوية إلا بها، وأن من علمه الله الكتابة فقد تفضل عليه بفضل عظيم، فمن تمام شكره لنعمة الله تعالى أن يقضي بكتابته حاجات العباد ولا يمتنع من الكتابة، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾.

ومنها: أن الذي يكتبه الكاتب هو اعتراف من عليه الحق إذا كان يحسن التعبير عن الحق الذي عليه، فإن كان لا يحسن ذلك لصغره أو سفهه أو جنونه أو خرسه أو عدم استطاعته، أملى عنه وليه، وقام وليه في ذلك مقامه.

ومنها: أن الاعتراف من أعظم الطرق التي تثبت بها الحقوق حيث أمر الله تعالى أن يكتب الكاتب ما أملى عليه من عليه الحق.

ومنها: ثبوت الولاية على القاصرين من الصغار والمجانين والسفهاء ونحوهم.

ومنها: أن الولي يقوم مقام موليه في جميع اعترافاته المتعلقة بحقوقه.

ومنها: أن من أمنته في معاملة وفوضته فيها فقوله في ذلك مقبول وهو نائب منابك، لأنه إذا كان الولي على القاصرين ينوب منابهم، فالذي وليته باختيارك وفوضت إليه الأمر أولى بالقبول واعتبار قوله وتقديمه على قولك عند الاختلاف.

ومنها: أنه يجب على الذي عليه الحق إذا أملى على الكاتب أن يتقي الله ولا يبخس الحق الذي عليه فلا ينقصه في قدره ولا في وصفه ولا في شرط من شروطه أو قيد من

قيوده، بل عليه أن يعترف بكل ما عليه من متعلقات الحق كما يجب ذلك إذا كان الحق على غيره له، فمن لم يفعل ذلك فهو من المطففين الباخسين.

ومنها: وجوب الاعتراف بالحقوق الجلية والحقوق الخفية وأن ذلك من أعظم خصال التقوى، كما أن ترك الاعتراف بها من نواقض التقوى ونواقصها.

ومنها: الإرشاد إلى الإشهاد في البيع فإن كانت في المداينات فحكمها حكم الكتابة كما تقدم، لأن الكتابة هي كتابة الشهادة، وإن كان البيع بيعًا حاضرًا فينبغي الإشهاد فيه ولا حرج فيه بترك الكتابة لكثرته وحصول المشقة فيه.

ومنها: الإرشاد إلى إشهاد رجلين عدلين فإن لم يمكن أو تعذر أو تعسر فرجل وامرأتان، وذلك شامل لجميع المعاملات، بيوع الإدارة، وبيوع الديون وتوابعها من الشروط والوثائق وغيرها. وإذا قيل قد ثبت أنه ﷺ قضى بالشاهد الواحد مع اليمين[1]، والآية الكريمة ليس فيها إلا شهادة رجلين أو رجل وامرأتين، قيل: الآية الكريمة فيها إرشاد الباري عباده إلى حفظ حقوقهم ولهذا أتى فيها بأكمل الطرق وأقواها، وليس فيها ما ينافي ما ذكره النبي ﷺ من الحكم بالشاهد واليمين، فباب حفظ الحقوق في ابتداء الأمر يرشد فيه العبد إلى الاحتراز والتحفظ التام، وباب الحكم بين المتنازعين ينظر فيه إلى المرجحات والبينات بحسب حالها.

ومنها: أن شهادة المرأتين قائمة مقام الرجل الواحد في الحقوق الدنيوية وأما في الأمور الدينية كالرواية والفتوى فإن المرأة فيه تقوم مقام الرجل، والفرق ظاهر بين البابين.

ومنها: الإرشاد إلى الحكمة في كون شهادة المرأتين عن شهادة الرجل وأنه لضعف ذاكرة المرأة غالبًا وقوة حافظة الرجل.

ومنها: أن الشاهد لو نسي شهادته فذكره الشاهد الآخر فذكر، أنه لا يضر ذلك النسيان إذا زال بالتذكير لقوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾؛ ومن باب أولى إذا نسي الشاهد ثم ذكر من دون تذكير، فإن الشهادة مدارها على العلم واليقين.

ومنها: أن الشهادة لا بد أن تكون عن علم ويقين لا عن شك، فمتى صار عند الشاهد ريب في شهادته ولو غلب على ظنه لم يحل له أن يشهد إلا بما يعلم.

ومنها: أن الشاهد ليس له أن يمتنع إذا دعي للشهادة سواء دعي للتحمل أو للأداء وأن القيام بالشهادة من أفضل الأعمال الصالحة كما أمر الله بها وأخبر عن نفعها ومصالحها.

ومنها: أنه لا يحل الإضرار بالكاتب ولا بالشهيد بأن يدعيا في وقت أو حالة تضرهما. وكما أنه نهي لأهل الحقوق والمتعاملين أن يضاروا الشهود والكتاب فإنه أيضًا نهي للكاتب والشهيد أن يضار المتعاملين أو أحدهما. وفي هذا أيضًا أن الشاهد والكاتب إذا حصل عليهما ضرر في الكتابة والشهادة أنه يسقط عنهما الوجوب.

وفيها: التنبيه على أن جميع المحسنين الفاعلين للمعروف لا يحل إضرارهم وتحميلهم ما لا يطيقون، فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ وكذلك على من أحسن وفعل معروفًا أن يتمم إحسانه بترك الإضرار القولي والفعلي بمن أوقع به المعروف، فإن الإحسان لا يتم إلا بذلك.

ومنها: أنه لا يجوز أخذ الأجرة على الكتابة والشهادة حيث وجبت لأنه حق أوجبه الله على الكاتب والشهيد، ولأنه من مضارة المتعاملين.

ومنها: التنبيه على المصالح والفوائد المترتبة على العمل بهذه الإرشادات الجليلة وأن فيها حفظ الحقوق والعدل وقطع التنازع والسلامة من النسيان والذهول ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾؛ وهذه مصالح ضرورية للعباد.

ومنها: أن تعلم الكتابة من الأمور الدينية، لأنها وسيلة إلى حفظ الدين والدنيا وسبب للإحسان.

ومنها: أن من خصه الله بنعمة من النعم يحتاج الناس إليها فمن تمام شكر هذه النعمة أن يعود بها على عباد الله وأن يقضي بها حاجاتهم لتعليل الله النهي عن الامتناع عن الكتابة بتذكير الكاتب بقوله: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾؛ ومع هذا فمن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته.

ومنها: أن الإضرار بالشهود والكتاب فسوق بالإنسان، فإن الفسوق هو الخروج عن طاعة الله إلى معصيته، وهو

---

(١) مسلم (١٧١٢).

وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ
فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ
ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ
ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ
يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ
وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ
إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ
وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُواْ سَمِعْنَا
وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ
ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ
رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ
عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا
تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ
أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

يزيد وينقص ويتبعض، ولهذا لم يقل فأنتم فساق أو فاسقون بل قال: ﴿ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ﴾؛ فبقدر خروج العبد عن طاعة ربه فإنه يحصل به من الفسوق بحسب ذلك، واستدل بقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾؛ أن تقوى الله وسيلة إلى حصول العلم، وأوضح من هذا قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال: ٢٩]؛ أي: علمًا تفرقون به بين الحقائق والحق والباطل.

ومنها: أنه كما أنه من العلم النافع تعليم الأمور الدينية المتعلقة بالعبادات فمنه أيضًا تعليم الأمور الدنيوية المتعلقة بالمعاملات، فإن الله تعالى حفظ على العباد أمور دينهم ودنياهم، وكتابه العظيم فيه تبيان كل شيء.

ومنها: مشروعية الوثيقة بالحقوق وهي الرهون والضمانات التي تكفل للعبد حصول حقه سواء عامل برًّا أو فاجرًا، أمينًا أو خائنًا، فكم في الوثائق من حفظ حقوق وانقطاع منازعات.

ومنها: أن تمام الوثيقة في الرهن أن يكون مقبوضًا، ولا يدل ذلك على أنه لا يصح الرهن إلا بالقبض، بل التقييد بكون الرهن مقبوضًا يدل على أنه قد يكون مقبوضًا تحصل به الثقة التامة وقد لا يكون مقبوضًا فيكون ناقصًا.

ومنها: أنه يستدل بقوله:

﴿٢٨٣﴾ ﴿ فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ﴾؛ أنه إذا اختلف الراهن والمرتهن في مقدار الدين الذي به الرهن أن القول قول المرتهن صاحب الحق لأن الله جعل الرهن وثيقة به فلولا أنه يقبل قوله في ذلك لم تحصل به الوثيقة لعدم الكتابة والشهود.

ومنها: أنه يجوز التعامل بغير وثيقة ولا شهود لقوله: ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ ﴾؛ ولكن في هذه الحال يحتاج إلى التقوى والخوف من الله وإلا فصاحب الحق مخاطر في حقه ولهذا أمر الله في هذه الحال من عليه الحق أن يتقي الله ويؤدي أمانته.

ومنها: أن من ائتمنه معامله فقد عمل معه معروفًا عظيمًا ورضي بدينه وأمانته فيتأكد على من عليه الحق أداء الأمانة من الجهتين: أداء لحق الله وامتثالًا لأمره، ووفاء بحق صاحبه الذي رضي بأمانته ووثق به.

ومنها: تحريم كتم الشهادة وأن كاتمها قد أثم قلبه الذي هو ملك الأعضاء، وذلك لأن كتمها كالشهادة بالباطل والزور فيها ضياع الحقوق وفساد المعاملات والإثم المتكرر في حقه وحق من عليه الحق. وأما تقييد الرهن بالسفر مع أنه يجوز حضرًا وسفرًا فللحاجة إليه لعدم الكاتب والشهيد. وختم الآية بأنه عليم بكل ما يعمله العباد كالترغيب لهم في المعاملات الحسنة والترهيب من المعاملات السيئة.

﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ﴾.

﴿٢٨٤﴾ يخبر تعالى بعموم ملكه لأهل السماء والأرض وإحاطة علمه بما أبداه العباد وما أخفوه في أنفسهم، وأنه سيحاسبهم به ﴿ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ وهو المنيب إلى ربه الأواب إليه، ﴿ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٥]؛ ﴿ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ وهو المصر على المعاصي في باطنه وظاهره، وهذه الآية لا تنافي الأحاديث الواردة في العفو عما حدث به العبد

نفسه ما لم يعمل أو يتكلم، فتلك الخطرات التي تتحدث بها النفوس التي لا يتصف بها العبد ولا يصمم عليها، وأما هنا فهي العزائم المصممة والأوصاف الثابتة في النفوس، أوصاف الخير وأوصاف الشر، ولهذا قال: ﴿مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: استقر فيها وثبت من العزائم والأوصاف. وأخبر أنه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾؛ فمن تمام قدرته محاسبة الخلائق وإيصال ما يستحقونه من الثواب والعقاب.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

﴿٢٨٥﴾، ﴿٢٨٦﴾ ثبت عنه ﷺ أن من قرأ هاتين الآيتين في ليلته[1] كفتاه[2]؛ أي: من جميع الشرور، وذلك لما احتوتا عليه من المعاني الجليلة، فإن الله أمر في أول هذه السورة الناس بالإيمان بجميع أصوله في قوله: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦]؛ الآية، وأخبر في هذه الآية أن الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين آمنوا بهذه الأصول العظيمة وبجميع الرسل وجميع الكتب، ولم يصنعوا صنيع من آمن ببعض وكفر ببعض كحالة المنحرفين من أهل الأديان المنحرفة. وفي قرن المؤمنين بالرسول ﷺ والإخبار عنهم جميعًا بخبر واحد شرف عظيم للمؤمنين، وفيه أنه ﷺ مشارك للأمة في توجه الخطاب الشرعي له وقيامه التام به وأنه فاق المؤمنين، بل فاق جميع المرسلين في القيام بالإيمان وحقوقه.

وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾؛ هذا التزام من المؤمنين عام لجميع ما جاء به النبي ﷺ من الكتاب والسنة، وأنهم سمعوه سماع قبول وإذعان وانقياد. ومضمون ذلك تضرعهم إلى الله في طلب الإعانة على القيام به وأن الله يغفر لهم ما قصروا فيه من الواجبات وما ارتكبوه من المحرمات، وكذلك تضرعوا إلى الله في هذه الأدعية النافعة، والله تعالى قد أجاب دعاءهم على لسان نبيه ﷺ فقال: «**قد فعلت**»[3].

فهذه الدعوات مقبولة من مجموع المؤمنين قطعًا ومن أفرادهم إذا لم يمنع من ذلك مانع في الأفراد، وذلك أن الله رفع عنهم المؤاخذة في الخطأ والنسيان وأن الله سهل عليهم شرعه غاية التسهيل، ولم يحملهم من المشاق والآصار والأغلال ما حمله على من قبلهم، ولم يحملهم فوق طاقتهم، وقد غفر لهم ورحمهم ونصرهم على القوم الكافرين. فنسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته وبما من به علينا من التزام دينه أن يحقق لنا ذلك وأن ينجز لنا ما وعدنا على لسان نبيه، وأن يصلح أحوال المؤمنين.

ويؤخذ من هذا قاعدة التيسير ونفي الحرج في أمور الدين كلها، وقاعدة العفو عن النسيان والخطأ في العبادات وفي حقوق الله تعالى، وكذلك في حقوق الخلق من جهة رفع المأثم وتوجيه الذم، وأما وجوب ضمان المتلفات خطأ أو نسيانًا في النفوس والأموال فإنه مرتب على الإتلاف بغير حق، وذلك شامل لحالة الخطأ والنسيان والعمد.

تم تفسير سورة البقرة. ولله الحمد والثناء. وصلى الله على محمد وسلم.

(١) ط: «ليلة».
(٢) البخاري (٥٠٥١)، مسلم (٨٠٧).
(٣) مسلم (١٢٦).

سُورَةُ آلِ عِمۡرَانَ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ
بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن
قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ
عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ
شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ
فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ
ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ
وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ
مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ
وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ
إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ
لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ
ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٩﴾

تفسير سورة آل عمران

وهي مدنية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾.

(١) ﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾؛ من الحروف التي لا يعلم معناها إلا الله.

(٢) فأخبر تعالى أنه ﴿ٱلۡحَيُّ﴾؛ كامل الحياة ﴿ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾﴾؛ القائم بنفسه المقيم لأحوال خلقه، وقد أقام أحوالهم الدينية وأحوالهم الدنيوية والقدرية، فأنزل على رسوله محمد ﷺ الكتاب بالحق الذي لا ريب فيه وهو مشتمل على الحق.

(٣)، (٤) ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾؛ من الكتب أي شهد بما شهدت به ووافقها وصدق من جاء بها من المرسلين. وكذلك أنزل ﴿ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ﴾ هذا الكتاب، ﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾؛ وأكمل الرسالة وختمها بمحمد ﷺ وكتابه العظيم الذي هدى الله به الخلق من الضلالات واستنقذهم به من الجهالات، وفرق به بين الحق والباطل والسعادة والشقاوة، والصراط المستقيم وطرق الجحيم، فالذين آمنوا به، واهتدوا حصل لهم به الخير الكثير والثواب العاجل والآجل و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ التي بينها في كتابه وعلى لسان رسوله ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾؛ ممن عصاه.

(٥)، (٦) ومن تمام قيوميته تعالى أن علمه محيط بالخلائق ﴿لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾﴾؛ حتى ما في بطون الحوامل فهو ﴿ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾؛ من ذكر وأنثى وكامل الخلق وناقصه متنقلين في أطوار خلقته وبديع حكمته، فمن هذا شأنه مع عباده واعتناؤه العظيم بأحوالهم من حين أنشأهم إلى منتهى أمورهم لا مشارك له في ذلك فيتعين أنه لا يستحق العبادة إلا هو ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾؛ الذي قهر الخلائق بقوته، واعتز عن أن يوصف بنقص، أو ينعت بذم. ﴿ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾؛ في خلقه وشرعه.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾.

(٧) يخبر تعالى عن عظمته وكمال قيوميته أنه هو الذي تفرد بإنزال هذا الكتاب العظيم، الذي لم يوجد، ولن يوجد له نظير أو مقارب في هدايته وبلاغته وإعجازه وإصلاحه للخلق، وأن هذا الكتاب يحتوي على المحكم الواضح المعاني، البين الذي لا يشتبه بغيره، ومنه آيات متشابهات تحتمل بعض المعاني، ولا يتعين منها واحد من الاحتمالين

بمجردها حتى تضم إلى المحكم، فالذين في قلوبهم مرض وزيغ وانحراف لسوء قصدهم يتبعون المتشابه منه؛ فيستدلون به على مقالاتهم الباطلة، وآرائهم الزائفة، طلبًا للفتنة وتحريفًا لكتابه، وتأويلًا له على مشاربهم ومذاهبهم ليضلوا ويضلوا.

وأما أهل العلم الراسخون فيه الذين وصل العلم واليقين إلى أفئدتهم، فأثمر لهم العمل والمعارف فيعلمون أن القرآن كله من عند الله وأنه كله حق محكمه ومتشابهه، وأن الحق لا يتناقض ولا يختلف، فلعلمهم أن المحكمات معناها في غاية الصراحة والبيان، يردون إليها المشتبه الذي تحصل فيه الحيرة لناقص العلم وناقص المعرفة، فيردون المتشابه إلى المحكم فيعود كله محكمًا ويقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ﴾؛ للأمور النافعة والعلوم الصائبة ﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ⑦﴾؛ أي: أهل العقول الرزينة، ففي هذا دليل على أن هذا من علامة أولي الألباب وأن اتباع المتشابه من أوصاف أهل الآراء السقيمة والعقول الواهية والقصود السيئة.

وقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؛ إن أريد بالتأويل معرفة عاقبة الأمور وما تنتهي وتئول إليه تعين الوقوف على ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ حيث هو تعالى المتفرد بالتأويل بهذا المعنى، وإن أريد بالتأويل معنى التفسير ومعرفة معنى الكلام كان العطف أولى؛ فيكون هذا مدحًا للراسخين في العلم، أنهم يعلمون كيف ينزلون نصوص الكتاب والسنة محكمها ومتشابهها.

ولما كان المقام مقام انقسام إلى منحرفين ومستقيمين دعوا الله تعالى أن يثبتهم على الإيمان فقالوا:

⑧ ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾؛ أي: لا تملها عن الحق إلى الباطل ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ تصلح بها أحوالنا؛ ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ⑧﴾؛ أي: كثير الفضل والهبات. وهذه الآية تصلح مثالًا للطريقة التي يتعين سلوكها في المتشابهات، وذلك أن الله تعالى ذكر عن الراسخين أنهم يسألونه ألَّا يزيغ قلوبهم بعد إذ هداهم؛ وقد أخبر في آيات أخر الأسباب التي بها تزيغ قلوب أهل الانحراف وأن ذلك بسبب كسبهم كقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]؛ ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾؛ ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]؛ فالعبد إذا تولى عن ربه، ووالى عدوه، ورأى الحق فصدف عنه ورأى الباطل فاختاره ولاه الله ما تولى لنفسه، وأزاغ قلبه عقوبة له على زيغه، وما ظلمه الله ولكنه ظلم نفسه، فلا يلم إلا نفسه الأمارة بالسوء. والله أعلم.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ⑨﴾.

⑨ هذا من تتمة كلام الراسخين في العلم، وهو يتضمن الإقرار بالبعث والجزاء واليقين التام، وأن الله لا بد أن يوقع ما وعد به، وذلك يستلزم موجبه ومقتضاه من العمل والاستعداد لذلك اليوم، فإن الإيمان بالبعث والجزاء أصل صلاح القلوب، وأصل الرغبة في الخير والرهبة من الشر اللذين هما أساس الخيرات.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ⑩ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ⑪﴾.

⑩، ⑪ لما ذكر يوم القيامة، ذكر أن جميع من كفر بالله، وكذب رسل الله لا بد أن يدخلوا النار ويصلَوْها، وأن أموالهم وأولادهم لن تغني عنهم شيئًا من عذاب الله، وأنه سيجري عليهم في الدنيا من الأخذات والعقوبات ما جرى على فرعون وسائر الأمم المكذبة بآيات الله، أخذهم الله بذنوبهم؛ وعجل لهم العقوبات الدنيوية متصلة بالعقوبات الأخروية ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ⑪﴾؛ فإياكم أن تستهونوا بعقابه فيهون عليكم الإقامة على الكفر والتكذيب.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ⑫ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ⑬﴾.

⑫، ⑬ وهذا خبر وبشرى للمؤمنين، وتخويف للكافرين أنهم لا بد أن يغلبوا في هذه الدنيا، وقد وقع كما أخبر الله فغلبوا غلبة لم يكن لها مثيل ولا نظير، وجعل الله تعالى ما وقع في بدر من آياته الدالة على صدق رسوله، وأنه هو على الحق، وأعداؤه على الباطل؛ حيث التقت فئتان فئة

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم
مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأۡبِ ءَالِ
فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ
وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ
وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدۡ كَانَ
لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ وَٱللَّهُ
يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي
ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ
وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ
وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ
ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلۡ
أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ
تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ
وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿١٥﴾

المؤمنين لا يبلغون إلا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا مع قلة عُدَدِهم، وفئة الكافرين يناهزون الألف مع استعدادهم التام في السلاح وغيره، فأيد الله المؤمنين بنصره فهزموهم بإذن الله. ففي هذا عبرة لأهل البصائر، فلولا أن هذا هو الحق الذي إذا قابل الباطل أزهقه، واضمحل الباطل لكان بحسب الأسباب الحسية الأمر بالعكس.

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿١٤﴾ أخبر تعالى في هاتين الآيتين عن حالة الناس في إيثار الدنيا على الآخرة، وبين التفاوت العظيم والفرق الجسيم بين الدارين، فأخبر أن الناس زينت لهم هذه الأمور فرمقوها بالأبصار، واستحلوها بالقلوب، وعكفت على لذاتها النفوس، كل طائفة من الناس تميل إلى نوع من هذه الأنواع، قد جعلوها هي أكبر همهم ومبلغ علمهم، وهي مع هذا متاع قليل منقض في مدة يسيرة، فهذا ﴿ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿١٥﴾ ثم أخبر عن ذلك بأن المتقين لله القائمين بعبوديته لهم خير من هذه اللذات، فلهم أصناف الخيرات والنعيم المقيم، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ولهم رضوان الله الذي هو أكبر من كل شيء، ولهم الأزواج المطهرة من كل آفة ونقص، جميلات الأخلاق كاملات الخلائق، لأن النفي يستلزم ضده، فتطهيرها من الآفات مستلزم لوصفها بالكمالات.

﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿١٥﴾ ﴾؛ فييسر كلًّا منهم لما خلق له، أما أهل السعادة فييسرهم للعمل لهذه الدار الباقية، ويأخذون من هذه الحياة الدنيا ما يعينهم على عبادة الله وطاعته، وأما أهل الشقاوة والإعراض فيقيضهم لعمل أهل الشقاوة، ويرضون بالحياة الدنيا، ويطمئنون بها، ويتخذونها قرارًا.

﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿١٦﴾ أي: هؤلاء الراسخون في العلم أهل العلم والإيمان يتوسلون إلى ربهم بإيمانهم لمغفرة ذنوبهم ووقايتهم عذاب النار، وهذا من الوسائل التي يحبها الله أن يتوسل العبد إلى ربه بما مَنَّ به عليه من الإيمان والأعمال الصالحة إلى تكميل نعم الله عليه بحصول الثواب الكامل واندفاع العقاب.

﴿١٧﴾ ثم وصفهم بأجمل الصفات: بالصبر الذي هو حبس النفوس على ما يحبه الله طلبًا لمرضاته، يصبرون على طاعة الله ويصبرون عن معاصيه ويصبرون على أقداره المؤلمة، وبالصدق بالأقوال والأحوال وهو استواء الظاهر والباطن وصدق العزيمة على سلوك الصراط المستقيم، وبالقنوت الذي هو دوام الطاعة مع مصاحبة الخشوع والخضوع، وبالنفقات في سبل الخيرات وعلى الفقراء وأهل الحاجات، وبالاستغفار خصوصًا وقت الأسحار، فإنهم مدوا الصلاة إلى وقت السحر؛ فجلسوا يستغفرون الله تعالى.

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾.

(١٨) هذه أجل الشهادات الصادرة من الملك العظيم، ومن الملائكة، وأهل العلم على أجل مشهود عليه وهو توحيد الله وقيامه بالقسط، وذلك يتضمن الشهادة على جميع الشرع وجميع أحكام الجزاء، فإن الشرع والدين أصله وقاعدته توحيد الله وإفراده بالعبودية والاعتراف بانفراده بصفات العظمة والكبرياء والمجد والعز والقدرة والجلال، وبنعوت الجود والبر والرحمة والإحسان والجمال، وبكماله المطلق الذي لا يحصي أحد من الخلق أن يحيطوا بشيء منه أو يبلغوه أو يصلوا إلى الثناء عليه، والعبادات الشرعية والمعاملات وتوابعها والأمر والنهي كله عدل وقسط لا ظلم فيه ولا جور بوجه من الوجوه، بل هو في غاية الحكمة والإحكام، والجزاء على الأعمال الصالحة والسيئة كله قسط وعدل، ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةًۖ قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ [الأنعام: ١٩]؛ فتوحيد الله ودينه وجزاؤه قد ثبت ثبوتًا لا ريب فيه وهو أعظم الحقائق وأوضحها، وقد أقام الله على ذلك من البراهين والأدلة ما لا يمكن إحصاؤه وعده.

وفي هذه الآية فضيلة العلم والعلماء؛ لأن الله خصهم بالذكر من دون البشر، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وجعل شهادتهم من أكبر الأدلة والبراهين على توحيده ودينه وجزائه، وأنه يجب على المكلفين قبول هذه الشهادة العادلة الصادقة، وفي ضمن ذلك تعديلهم، وأن الخلق تبع لهم وأنهم هم الأئمة والمتبوعون، وفي هذا من الفضل والشرف وعلو المكانة ما لا يقادر قدره.

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾.

(١٩) يخبر تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي الدين الذي لا دين لله سواه ولا مقبول غيره هو ﴿ٱلْإِسْلَٰمُ﴾؛ وهو الانقياد لله وحده ظاهرًا وباطنًا بما شرعه على ألسنة رسله، قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥]؛ فمن دان بغير دين الإسلام فهو لم يدن لله حقيقة؛ لأنه لم يسلك الطريق الذي شرعه على ألسنة رسله.

الجزء الثالث — سورة آل عمران

ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا
عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ
وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ
ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ
ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ
بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ
ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ
وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ
ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا
عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ
ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ
فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾

٥٢

ثم أخبر تعالى أن أهل الكتاب يعلمون ذلك، وإنما اختلفوا فانحرفوا عنه عنادًا وبغيًا. وإلا فقد جاءهم العلم المقتضي لعدم الاختلاف الموجب للزوم الدين الحقيقي، ثم لما جاءهم محمد ﷺ عرفوه حق المعرفة، ولكن الحسد والبغي والكفر بآيات الله هي التي صدتهم عن اتباع الحق ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾؛ أي: فلينتظروا ذلك فإنه آت وسيجزيهم الله بما كانوا يعملون.

﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾.

(٢٠) لما بين أن الدين الحقيقي عنده الإسلام، وكان أهل الكتاب قد شافهوا النبي ﷺ بالمجادلة، وقامت عليهم الحجة فعاندوها، أمره الله تعالى عند ذلك أن يقول ويعلن أنه قد أسلم وجهه أي ظاهره وباطنه لله، وأن من اتبعه كذلك قد وافقوه على هذا الإذعان الخالص، وأن يقول للناس

الجزء الثالث سورة آل عمران

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ
ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ
فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ
لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ
مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ
مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ
فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ
وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾
لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن
يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ
تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ
إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

٥٣

كلهم من أهل الكتاب والأميين أي الذين ليس لهم كتاب من العرب وغيرهم: إن أسلمتم فأنتم على الطريق المستقيم والهدى والحق، وإن توليتم فحسابكم على الله، وأنا ليس علي إلا البلاغ، وقد أبلغتكم وأقمت عليكم الحجة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿٢١﴾، ﴿٢٢﴾ أي: الذين جمعوا بين هذه الشرور: الكفر بآيات الله، وتكذيب رسل الله، والجناية العظيمة على أعظم الخلق حقًا على الخلق وهم الرسل وأئمة الهدى، الذين يأمرون الناس بالقسط الذي اتفقت عليه الأديان والعقول، فهؤلاء قد ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾؛ واستحقوا العذاب الأليم، وليس لهم ناصر من عذاب الله ولا منقذ من عقوبته.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿٢٣﴾ - ﴿٢٥﴾ أي: ألا تنظر وتعجب من هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ و﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾؛ الذي يصدق ما أنزله على رسله ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾؛ عن اتباع الحق، فكأنه قيل: لأي داع دعاهم إلى هذا الإعراض وهم أحق بالاتباع وأعرفهم بحقية[1] ما جاء به محمد ﷺ؟ فذكر لذلك سببين:

أمنهم وشهادتهم الباطلة لأنفسهم بالنجاة، وأن النار لا تمسهم إلا أيامًا معدودة حددوها بحسب أهوائهم الفاسدة، كأن تدبير الملك راجع إليهم حيث قالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]؛ ومن المعلوم أن هذه أمانيُّ باطلة شرعًا وعقلًا.

والسبب الثاني: أنهم لما كذبوا بآيات الله، وافتروا عليه زين لهم الشيطان سوء عملهم، واغتروا بذلك وتراءى لهم أنه الحق عقوبة لهم على إعراضهم عن الحق، فهؤلاء كيف يكون حالهم إذا جمعهم الله يوم القيامة، ووفَّى العاملين ما عملوا وجرى عدل الله في عباده؟ فهنالك لا تسأل عما يصلون إليه من العقاب وما يفوتهم من الخير والثواب، وذلك بما كسبت أيديهم، وما ربك بظلام للعبيد.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿٢٦﴾، ﴿٢٧﴾ يأمر تعالى نبيه ﷺ أصلًا وغيره تبعًا أن يقول عن ربه معلنًا بتفرده بتصريف الأمور، وتدبير العالم العلوي والسفلي، واستحقاقه باختصاصه بالملك المطلق والتصريف المحكم، وأنه يؤتي الملك من يشاء، وينزع

(١) ط: «بحقيقة».

الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، فليس الأمر بأماني أهل الكتاب ولا غيرهم، بل الأمر أمر الله، والتدبير له، فليس له معارض في تدبيره، ولا معاون في تقديره، وأنه كما أنه المتصرف بمداولة الأيام بين الناس فهو المتصرف بنفس الزمان: يولج النهار في الليل ويولج الليل في النهار؛ أي: يدخل هذا على هذا ويحل هذا محل هذا، ويزيد في هذا ما ينقص من هذا ليقيم بذلك مصالح خلقه، ويخرج الحي من الميت كما يخرج الزروع والأشجار المتنوعة من بذورها والمؤمن من الكافر والميت من الحي، كما يخرج الحبوب والنوى والزروع والأشجار والبيضة من الطائر، فهو الذي يخرج المتضادات بعضها من بعض، وقد انقادت له جميع العناصر.

وقوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُ﴾؛ أي: الخير كله منك ولا يأتي بالحسنات والخيرات إلا الله، وأما الشر فإنه لا يضاف إلى الله تعالى لا وصفًا ولا اسمًا ولا فعلًا، ولكنه يدخل في مفعولاته ويندرج في قضائه وقدره، فالخير والشر كله داخل في القضاء والقدر فلا يقع في ملكه إلا ما شاءه، ولكن الشر لا يضاف إلى الله، فلا يقال: بيدك الخير والشر، بل يقال: بيدك الخير كما قاله الله وقاله رسوله، وأما استدراك بعض المفسرين حيث قال: وكذلك الشر بيد الله فإنه وهم محض، ملحظهم حيث ظنوا أن تخصيص الخير بالذكر ينافي قضاءه وقدره العام، وجوابه ما فصلناه.

وقوله: ﴿وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢٧﴾﴾؛ وقد ذكر الله في غير هذه الآية الأسباب التي ينال بها رزقه كقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٢﴾ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]؛ فعلى العباد ألّا يطلبوا الرزق إلا من الله، ويسعوا فيه بالأسباب التي يسرها الله وأباحها.

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿٢٨﴾ هذا نهي من الله وتحذير للمؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين، فإن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، والله وليهم ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ التولي، ﴿فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ﴾؛ أي: فهو بريء من الله، والله بريء منه كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ [المائدة: ٥١]؛ وقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ﴾؛ أي: إلا أن تخافوا على أنفسكم في إبداء العداوة للكافرين فلكم في هذه الحال الرخصة في المسالمة والمهادنة لا في التولي الذي هو محبة القلب الذي تتبعه النصرة، ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾؛ أي: فخافوه واخشوه وقدموا خشيته على خشية الناس؛ فإنه هو الذي يتولى شئون العباد، وقد أخذ بنواصيهم وإليه يرجعون وسيصيرون إليه، فيجازي من قدم خوفه ورجاءه على غيره بالثواب الجزيل، ويعاقب الكافرين ومن تولاهم بالعذاب الوبيل.

﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٩﴾ يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿٢٩﴾، ﴿٣٠﴾ يخبر تعالى بإحاطة علمه بما في الصدور سواء أخفاه العباد أو أبدوه، كما أن علمه محيط بكل شيء في السماء والأرض فلا تخفى عليه خافية، ومع إحاطة علمه فهو العظيم القدير على كل شيء الذي لا يمتنع عن إرادته موجود. ولما ذكر لهم من عظمته وسعة أوصافه ما يوجب للعباد أن يراقبوه في كل أحوالهم، ذكر لهم أيضًا داعيًا آخر إلى مراقبته وتقواه، وهو أنهم كلهم صائرون إليه، وأعمالهم حينئذ من خير وشر محضرة، فحينئذ يغتبط أهل الخير بما قدموه لأنفسهم، ويتحسر أهل الشر إذا وجدوا ما عملوه محضرًا، ويودون أن بينهم وبينه أمدًا بعيدًا.

فإذا عرف العبد أنه ساع إلى ربه وكادح في هذه الحياة، وأنه لا بد أن يلاقي ربه ويلاقي سعيه أوجب له أخذ الحذر والتوقي من الأعمال التي توجب الفضيحة والعقوبة، والاستعداد بالأعمال الصالحة التي توجب السعادة والمثوبة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾؛ وذلك بما يبدي لكم من أوصاف عظمته وكمال عدله وشدة نكاله، ومع شدة عقابه فإنه رءوف رحيم، ومن رأفته ورحمته أنه خوف العباد، وزجرهم عن الغي والفساد، كما قال تعالى لما ذكر العقوبات: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ [الزمر: ١٦]؛ فرأفته ورحمته سهلت لهم الطرق

يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ
مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ
ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٣٠ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ
فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ
٣١ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ
ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٢ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ
وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ
مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥ فَلَمَّا
وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ
وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ
وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ
حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا
زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ
قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ٣٧

التي ينالون بها الخيرات، ورأفته ورحمته حذرتهم من الطرق التي تفضي بهم إلى المكروهات.

فنسأله تعالى أن يتمم علينا إحسانه بسلوك الصراط المستقيم والسلامة من الطرق التي تفضي بسالكها إلى الجحيم.

﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٢ ﴾.

(٣١)، (٣٢) هذه الآية هي الميزان التي يعرف بها من أحب الله حقيقة ومن ادعى ذلك دعوى مجردة؛ فعلامة محبة الله اتباع محمد ﷺ الذي جعل متابعته وجميع ما يدعو إليه طريقًا إلى محبته ورضوانه، فلا تنال محبة الله ورضوانه وثوابه إلا بتصديق ما جاء به الرسول من الكتاب والسنة وامتثال أمرهما واجتناب نهيهما، فمن فعل ذلك أحبه الله وجازاه جزاء المحبين، وغفر له ذنوبه وستر عليه عيوبه، فكأنه قيل: ومع ذلك فما حقيقة اتباع الرسول وصفتها؟ فأجاب بقوله: ﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾؛ بامتثال الأمر واجتناب النهي وتصديق الخبر ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ ﴾؛ عن ذلك؛ فهذا هو الكفر، والله ﴿ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٢ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤ ﴾ إلى آخر القصة.

(٣٣) - (٥٧) لله تعالى من عباده أصفياء يصطفيهم ويختارهم ويمن عليهم بالفضائل العالية والنعوت السامية والعلوم النافعة والأعمال الصالحة والخصائص المتنوعة، فذكر هذه البيوت الكبار وما احتوت عليه من كُمَّل الرجال الذين حازوا أوصاف الكمال، وأن الفضل والخير تسلسل في ذراريِّهم، وشمل ذكورهم ونساءهم، وهذا من أجل منّه وأفضل مواقع جوده وكرمه ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤ ﴾؛ يعلم من يستحق الفضل والتفضيل فيضع فضله حيث اقتضت حكمته. فلما قرر عظمة هذه البيوت ذكر قصة مريم وابنها عيسى ﷺ وكيف تسلسلا من هذه البيوت الفاضلة، وكيف تنقلت بهما الأحوال من ابتداء أمرهما إلى آخره، وأن امرأة عمران قالت متضرعة إلى ربها متقربة إليه بهذه القربة التي يحبها، التي فيها تعظيم بيته وملازمة طاعته: ﴿ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا ﴾؛ أي خادمًا لبيت العبادة المشحون بالمتعبدين ﴿ فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓ ﴾؛ هذا العمل أي اجعله مؤسسًا على الإيمان والإخلاص مثمرًا للخير والثواب ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰ ﴾؛ كأن في هذا الكلام نوع تضرع منها وانكسار نفس، حيث كان نذرها بناءً على أنه يكون ذكرًا يحصل منه من القوة والخدمة والقيام بذلك ما يحصل من أهل القوة، والأنثى بخلاف ذلك، فجبر الله قلبها وتقبل الله نذرها، وصارت هذه الأنثى أكمل وأتم من كثير من الذكور، بل من أكثرهم، وحصل بها من المقاصد أعظم مما يحصل بالذكر، ولهذا قال: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا ﴾؛ أي: ربيت تربية عجيبة دينية أخلاقية أدبية، كملت بها أحوالها، وصلحت بها أقوالها وأفعالها، ونما فيها كمالها، ويسر الله لها زكريا كافلًا، وهذا من منة الله على العبد أن يجعل من يتولى تربيته من الكاملين المصلحين.

ثـم إن الله تعالـى أكرم مريم وزكريا حيث يسـر لمريم من الـرزق الحاصـل بلا كـد ولا تعـب، وإنما هو كرامـة أكرمها اللـه بـه، إذ ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾؛ وهـو محـل العبـادة وفيـه إشـارة إلى كثرة صلاتهـا وملازمتهـا لمحرابها ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾؛ هنيئًـا معدًّا قـال: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾؛ فلمـا رأى زكريـا هـذه الحال والبـر واللطف من اللـه بها، ذكره أن يسـأل اللـه تعالى حصول الولـد علي حين اليـأس منه فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾؛ اسمه أي: الكلمة التي من الله عيسى ابن مريم، فكانت بشـارته بهذا النبي الكريم تتضمن البشـارة بعيسـى ابن مريم والتصديق له والشـهادة له بالرسـالة، فهذه الكلمة من الله كلمة شـريفة اختص الله بها عيسى ابن مريم، وإلا فهـي من جملة كلماته التي أوجـد بها المخلوقات، كما قـال تعالـى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩].

وقوله: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾؛ أي: هذا المبشر به وهو يحيى سيد من فضلاء الرسـل وكرامهم، والحصـور، قيل: هو الذي لا يولد له ولا شهوة له في النساء، وقيل: هو الذي عصم وحفظ من الذنوب والشـهوات الضارة، وهذا أليق المعنيين، ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾؛ الذين بلغـوا في الصلاح ذروته العالية، ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾؛ فهـذان مانعان فمن أي طريـق يا رب يحصل لي ذلك مـع ما ينافـي ذلـك ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾﴾؛ فإنه كما اقتضت حكمته جريان الأمور بأسبابها المعروفة، فإنه قد يخرق ذلك لأنه الفعال لما يريد، الذي قد انقادت الأسباب لقدرته، ونفذت فيها مشـيئته وإرادتـه، فلا يتعاصى على قدرته شـيء من الأسـباب ولو بلغـت في القوة مـا بلغت ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾؛ ليحصل السرور والاستبشار وإن كنت يا رب متيقنًا مما أخبرتـني به ولكن النفس تفرح، ويطمئن القلب إلى مقدمـات الرحمـة واللطـف، ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾؛ وفـي هـذه المـدة اذكر ﴿رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾﴾؛ أول النهـار وآخـره، فمنع من الكلام في هذه المدة، فكان في هذا مناسـبة لحصول الولد مـن بيـن الشـيخ الكبيـر والمـرأة العاقـر، وكونه لا يقـدر على مخاطبة الآدميين ولسـانه منطلق بذكر الله وتسبيحه آية أخرى،

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ۖ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾

فحينئـذ حصل له الفرح والاستبشـار، وشـكر اللـه، وأكثر من الذكر والتسبيح بالعشايا والإبكار.

وكان هذا المولود من بركات مريم بنت عمران على زكريا، فـإن ما مَـنَّ الله به عليها من ذلك الـرزق الهني الذي يحصل بغير حساب ذكره وهيجه على التضرع والسؤال، والله تعالى هو المتفضل بالسـبب والمسـبب، ولكنه يقدر أمورًا محبوبة علـى يد من يحبه ليرفع الله قدره ويعظم أجره، ثم عاد تعالى إلى ذكر مريم وأنها بلغت في العبادة والكمـال مبلغًا عظيمًا فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾؛ أي: اختـارك ووهـب لـك من الصفـات الجليلـة والأخلاق الجميلة ﴿وَطَهَّرَكِ﴾؛ من الأخـلاق الرذيلة ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾؛ ولهـذا قـال ﷺ: **«كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النسـاء إلا مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحـم وخديجـة بنت خويلـد، وفضل عائشـة على النسـاء كفضـل الثريد على سـائر الطعـام»**[1]، فنادتهـا الملائكة عن

(١) البخاري (٣٧٦٩)، مسلم (٢٤٣١).

وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾
قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ
ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾
وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾
وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ
أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ
فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ
وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ
فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾
وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم
بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ
فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ
هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ
ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ
أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٥٢﴾

أمر الله لها بذلك لتغتبط بنعم الله وتشكر الله، وتقوم بحقوقه، وتشتغل بخدمته، ولهذا قال الملائكة: ﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ ﴾؛ أي: أكثري من الطاعة والخضوع والخشوع لربك وأديمي ذلك ﴿وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾؛ أي: صلي مع المصلين فقامت بكل ما أمرت به وبرزت وفاقت في كمالها.

ولما كانت هذه القصة وغيرها من أكبر الأدلة على رسالة محمد ﷺ حيث أخبر بها مفصلة محققة لا زيادة فيها ولا نقص، وما ذاك إلا لأنه وحي من الله العزيز الحكيم لا بتعلم من الناس قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ ﴾؛ حيث جاءت بها أمها فاختصموا أيهم يكفلها لأنها بنت إمامهم ومقدمهم، وكلهم يريد الخير والأجر من الله حتى وصلت بهم الخصومة إلى أن اقترعوا عليها فألقوا أقلامهم مقترعين، فأصابت القرعة زكريا رحمة من الله به وبها.

فأنت - يا أيها الرسول - لم تحضر تلك الحالة لتعرفها فتقصها على الناس، وإنما الله نبأك بها، وهذا هو المقصود الأعظم من سياق القصص أنه يحصل بها العبرة، وأعظم العبر والاستدلال بها على التوحيد والرسالة والبعث وغيرها من الأصول الكبار ﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾؛ أي: له الوجاهة والجاه العظيم في الدنيا والآخرة عند الخلق، ومع ذلك فهو عند الله من المقربين الذين هم أقرب الخلائق إلى الله وأعلاهم درجة، وهذه بشارة لا يشبهها شيء من البشارات، ومن تمام هذه البشارة أنه يكلم الناس في المهد؛ فيكون تكليمه آية من آيات الله ورحمة منه بأمه وبالخلق، وكذلك يكلمهم ﴿وَكَهۡلٗا ﴾؛ أي: في حال كهولته، وهذا تكليم النبوة والدعوة والإرشاد، فكلامه في المهد فيه آيات وبراهين على صدقه ونبوته وبراءة أمه مما يظن بها من الظنون السيئة، وكلامه في كهولته فيه نفعه العظيم للخلق وكونه واسطة بينهم وبين ربهم في وحيه وتبليغ دينه وشرعه، ومع ذلك فهو من الصالحين؛ الذين أصلح الله قلوبهم بمعرفته وحبه، وألسنتهم بالثناء عليه وذكره، وجوارحهم بطاعته وخدمته ﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ ﴾؛ وهذا هو من الأمور المستغربة ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ ﴾؛ ليعلم العباد أنه على كل شيء قدير، وأنه لا ممانع لإرادته ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾؛ أي: جنس الكتب السابقة، والحكم بين الناس ويعطيه النبوة ويجعله رسولًا إلى بني إسرائيل؛ ويؤيده بالآيات البينات والأدلة القاهرة حيث قال: ﴿أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾؛ تدلكم أني رسول الله حقًا، وذلك ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ ﴾؛ وهو ممسوح العينين الذي فقد بصره وعيناه ﴿وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾؛ المذكور ﴿لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ ﴾؛ فأيده الله بجنسين من الآيات والبراهين الخوارق المستغربة التي لا يمكن لغير الأنبياء الإتيان بها، والرسالة والدعوة والدين الذي جاء به وأنه دين التوراة ودين الأنبياء السابقين، وهذا أكبر الأدلة على صدق الصادقين، فإنه لو كان من الكاذبين لخالف ما جاءت به الرسل ولناقضهم في أصولهم وفروعهم، فعلم بذلك أنه

رسول الله وأن ما جاء به حق لا ريب فيه، وأيضًا فقوله: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: ولأخفف عنكم بعض الآصار والأغلال ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝٥٠ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾؛ وهذا ما يدعو إليه جميع الرسل عبادة الله وحده لا شريك له وطاعتهم، وهذا هو الصراط المستقيم الذي من سلكه أوصله إلى جنات النعيم.

فحينئذ اختلفت أحزاب بني إسرائيل في عيسى؛ فمنهم من آمن به واتبعه، ومنهم من كفر به وكذبه ورمى أمه بالفاحشة كاليهود ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾؛ والاتفاق على رد دعوته ﴿قَالَ﴾؛ نادبًا لبني إسرائيل على مؤازرته: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾؛ أي: الأنصار: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝٥٢﴾؛ وهذا من منة الله عليهم وعلى عيسى، حيث ألهم هؤلاء الحواريين الإيمان به والانقياد لطاعته والنصرة لرسوله ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾؛ وهذا التزام تام للإيمان بكل ما أنزل الله ولطاعة رسوله ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٣﴾؛ لك بالوحدانية ولنبيك بالرسالة ولدينك بالحق والصدق. وأما من أحس عيسى منهم الكفر وهم جمهور بني إسرائيل فإنهم ﴿مَكَرُوا۟﴾؛ بعيسى ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾؛ بهم ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٥٤﴾؛ فاتفقوا على قتله وصلبه، وشبه لهم شبه عيسى فقبضوا على من شبه لهم به، وقال الله لعيسى: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ فرفعه الله إليه، وطهره من الذين كفروا، وصلبوا من قتلوه، ظانين أنه عيسى، وباءوا بالإثم العظيم.

وسينزل عيسى ابن مريم في آخر هذه الأمة حكمًا عدلًا يقتل الخنزير ويكسر الصليب ويتبع ما جاء به محمد ﷺ، ويعلم الكاذبون غرورهم وخداعهم وأنهم مغرورون مخدوعون. وقوله: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ المراد بمن اتبعه الطائفة التي آمنت به ونصرهم الله على من انحرف عن دينه، ثم لما جاءت أمة محمد ﷺ كانوا هم أتباعه حقًا فأيدهم الله[١] ونصرهم على الكفار كلهم، وأظهرهم بالدين الذي جاءهم به محمد ﷺ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥] الآية. ولكن حكمة الله عادلة؛ فإنها اقتضت أن من تمسك بالدين نصره الله[٢] النصر المبين، وأن

(١) ساقط من ط.
(٢) ساقط من ط.

الجزء الثالث — سورة آل عمران

رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ
ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٣ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ
ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٥٤ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ
إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ
فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ
فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٥٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا
لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٥٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٧
ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ۝٥٨ إِنَّ
مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ
لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠
فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ
أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ
ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦١

٥٧

من ترك أمره ونهيه ونبذ شرعه وتجرأ على معاصيه أن يعاقبه ويسلط عليه الأعداء. والله عزيز حكيم.

قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٥٥﴾ قلت[٣]: ثم بين ما يفعله بهم فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٥٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٧﴾. وهذا الجزاء عام لكل من اتصف بهذه الأوصاف من جميع أهل الأديان السابقة. ثم لما بعث سيد المرسلين وخاتم النبيين، ونسخت رسالته الرسالات كلها، ونسخ دينه جميع الأديان صار المتمسك بغير هذا الدين من الهالكين. وقوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ۝٥٨﴾.

۝٥٨ أي: هذا القرآن العظيم الذي فيه نبأ الأولين والآخرين والأنبياء والمرسلين هو آيات الله البينات، وهو الذي يذكر

(٣) ساقط من ط.

الجزء الثالث — سورة آل عمران

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾
قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا
بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا
مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ
إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ
عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ
لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ
حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ
بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ
وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ
ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾

٥٨

العباد كل ما يحتاجونه، وهو الحكيم المحكم صادق الأخبار، حسن الأحكام.

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴾.

﴿٥٩﴾ - ﴿٦٢﴾ لما ذكر قصة مريم وعيسى ونبأهما الحق، وأنه عبد أنعم الله عليه، وأن من زعم أن فيه شيئًا من الإلهية فقد كذب على الله، وكذب جميع أنبيائه وكذب عيسى ﷺ فإن الشبهة التي عرضت لمن اتخذه إلهًا شبهة باطلة، فلو كان لها وجه صحيح لكان آدم أحق منه؛ فإنه خلق من دون أم ولا أب، ومع ذلك فاتفق البشر كلهم على أنه عبد من عباد الله، فدعوى إلهية عيسى بكونه خلق من أم بلا أب دعوى من أبطل الدعاوى، وهذا هو الحق الذي لا ريب فيه أن عيسى كما قال عن نفسه: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ [المائدة: ١١٧]؛ وكان قد قدم على النبي ﷺ وفد نصارى نجران[1]، وقد تصلبوا على باطلهم بعدما أقام عليهم النبي ﷺ البراهين بأن عيسى عبد الله ورسوله حيث زعموا إلهيته، فوصلت به وبهم الحال إلى أن أمره الله تعالى أن يباهلهم فإنه قد اتضح لهم الحق ولكن العناد والتعصب منعاهم منه، فدعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة بأن يحضر هو وأهله وأبناؤه، وهم يحضرون بأهلهم وأبنائهم ثم يدعون الله تعالى أن ينزل عقوبته ولعنته على الكاذبين، فتشاوروا هل يجيبونه إلى ذلك، فاتفق رأيهم ألَّا يجيبوه؛ لأنهم عرفوا أنه نبي الله حقًّا، وأنهم إن باهلوه هلكوا هم وأولادهم وأهلوهم فصالحوه وبذلوا له الجزية، وطلبوا منه الموادعة والمهادنة فأجابهم ﷺ ولم يحرجهم؛ لأنه حصل المقصود من وضوح الحق، وتبين عنادهم حيث صمموا على الامتناع عن المباهلة، وذلك يبرهن على أنهم كانوا ظالمين.

ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾؛ أي: الذي لا ريب فيه، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الذي قهر بقدرته وقوته جميع الموجودات وأذعنت له سكان الأرض والسماوات، ومع ذلك فهو ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴾؛ الذي يضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿٦٤﴾ هذه الآية الكريمة كان النبي ﷺ يكتب بها إلى ملوك أهل الكتاب. وكان يقرأ أحيانًا في الركعة الأولى من سنة الفجر ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٣٦] الآية؛ ويقرأ بها في الركعة الآخرة من سنة الصبح لاشتمالها على الدعوة إلى دين واحد، قد اتفقت عليه الأنبياء والمرسلون، واحتوت على توحيد الإلهية المبني على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن يعتقد أن البشر وجميع الخلق كلهم في طور البشرية لا يستحق

(١) البخاري (٤٢٨٠)، مسلم (٢٤٢٠).

منهم أحد شيئًا من خصائص الربوبية ولا من نعوت الإلهية، فإن انقاد أهل الكتاب وغيرهم إلى هذا فقد اهتدوا ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)﴾؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١)﴾ [الكافرون: ١]؛ إلى آخرها.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨)﴾.

(٦٥) - (٦٨) كانت الأديان كلها اليهود والنصارى والمشركون وكذلك المسلمون كلهم يدعون أنهم على ملة إبراهيم، فأخبر الله تعالى أن أولى الناس به محمد ﷺ وأتباعه وأتباع الخليل قبل محمد ﷺ، وأما اليهود والنصارى والمشركون فإبراهيم بريء منهم ومن ولايتهم؛ لأن دينه الحنيفية السمحة التي فيها الإيمان بجميع الرسل وجميع الكتب، وهذه خصيصة المسلمين، وأما دعوى اليهود والنصارى أنهم على ملة إبراهيم فقد علم أن اليهودية والنصرانية التي هم يدعون أنهم عليها لم تؤسس إلا بعد الخليل، فكيف يحاجون في هذا الأمر الذي يعلم به كذبهم وافتراؤهم، فهب أنهم حاجوا فيما لهم به علم فكيف يحاجون في هذه الحالة؟! فهذا قبل أن ينظر ما احتوى عليه قولهم من البطلان ليعلم فساد دعواهم، وفي هذه الآية دليل على أنه لا يحل للإنسان أن يقول أو يجادل فيما لا علم له به. وقوله: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨)﴾؛ فكلما قوي إيمان العبد تولاه الله بلطفه، ويسره لليسرى وجنبه العسرى.

﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١) وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤)﴾.

سورة آل عمران — الجزء الثالث

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١) وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤) ۞ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦) إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧)

٥٩

(٦٩) - (٧٤) هذا من منة الله على هذه الأمة، حيث أخبرهم بمكر أعدائهم من أهل الكتاب، وأنهم من حرصهم على إضلال المؤمنين ينوعون المكرات الخبيثة فقالت طائفة منهم: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ﴾؛ أي: أوله وارجعوا عن دينهم آخر النهار؛ فإنهم إذا رأوكم راجعين وهم يعتقدون فيكم العلم استرابوا بدينهم وقالوا: لولا أنهم رأوا فيه ما لا يعجبهم ولا يوافق الكتب السابقة لم يرجعوا، هذا مكرهم والله تعالى هو الذي يهدي من يشاء وهو الذي بيده الفضل يختص به من يشاء، فخصكم يا هذه الأمة بما لم يخص به غيركم، ولم يدر هؤلاء الماكرون أن دين الله حق إذا وصلت حقيقته إلى القلوب لم يزدد صاحبه على طول المدى إلا إيمانًا ويقينًا، ولم تزده الشبه إلا تمسكًا بدينه وحمدًا لله وثناء عليه حيث منَّ به عليه. وقولهم: ﴿أَن

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ
مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ
مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨) مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن
دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ
وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ
وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (٨٠)
وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ
وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ
بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ
قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٨١)
فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ (٨٢)
أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣)

يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾؛ يعني أن الذي حملهم على هذه الأعمال المنكرة الحسد والبغي وخشية الاحتجاج عليهم، كما قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ [البقرة: ١٠٩] الآية.

﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ (٧٦) ﴾.

(٧٥) يخبر تعالى عن أهل الكتاب أن منهم طائفة أمناء بحيث لو أمنته على قناطير من النقود وهي المال الكثير يؤده إليك، ومنهم طائفة خونة يخونك في أقل القليل، ومع هذه الخيانة الشنيعة فإنهم يتأولون بالأعذار الباطلة فيقولون: ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ ﴾؛ أي: ليس علينا جناح إذا خناهم واستبحنا أموالهم، لأنهم لا حرمة لهم، قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾؛ أن عليهم أشد الحرج، فجمعوا بين الخيانة وبين احتقار العرب وبين الكذب على الله، وهم يعلمون ذلك، ليسوا كمن فعل ذلك جهلًا وضلالًا.

(٧٦) ثم قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ ﴾؛ أي: ليس الأمر كما قالوا. ﴿ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ ﴾؛ أي: قام بحقوق الله وحقوق خلقه فإن هذا هو المتقي والله يحبه، أي: ومن كان بخلاف ذلك فلم يف بعهده وعقوده التي بينه وبين الخلق ولا قام بتقوى الله، فإن الله يمقته، وسيجازيه على ذلك أعظم النكال.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧) ﴾.

(٧٧) أي: إن الذين يشترون الدنيا بالدين فيختارون الحطام القليل من الدنيا ويتوسلون إليها بالأيمان الكاذبة والعهود المنكوثة فهؤلاء لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم؛ أي: قد حق عليهم سخط الله ووجب عليهم عقابه، وحرموا ثوابه، ومنعوا من التزكية، وهي التطهير. بل يردون القيامة وهم[1] متلوثون بالجرائم، متدنسون بالذنوب العظائم.

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨) ﴾.

(٧٨) أي: وإن من أهل الكتاب فريقًا هم محرفون لكتاب الله ﴿ يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾؛ وهذا يشمل التحريف اللفظي والتحريف المعنوي، ثم هم مع هذا التحريف الشنيع، يوهمون أنه من الكتاب وهم كذبة في ذلك ويصرحون بالكذب على الله، وهم يعلمون حالهم وسوء مغبتهم.

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟

(١) ساقط من ط.

رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾
وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ
بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿٧٩﴾، ﴿٨٠﴾ أي: يمتنع ويستحيل كل الاستحالة لبشر مَنَّ الله عليه بالوحي والكتاب والنبوة وأعطاه الحكم الشرعي، أن يأمر الناس بعبادته ولا بعبادة النبيين والملائكة واتخاذهم أربابًا، لأن هذا هو الكفر، فكيف وقد بعث بالإسلام المنافي للكفر من كل وجه فكيف يأمر بضده؟ هذا من الممتنع لأن حاله وما هو عليه وما مَنَّ الله به عليه من الفضائل والخصائص تقتضي العبودية الكاملة والخضوع التام لله الواحد القهار، وهذا جواب لوفد نجران حين تمادى بهم الغرور ووصلت بهم الحال والكبر أن قالوا: أتأمرنا يا محمد أن نعبدك؟! حين أمرهم بعبادة الله وطاعته، فبين الباري انتفاء ما قالوا، وأن كلامهم وكلام أمثالهم في هذا ظاهر البطلان.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ
وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ
وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟
أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ
بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿٨١﴾، ﴿٨٢﴾ هذا إخبار منه تعالى أنه أخذ عهد النبيين وميثاقهم كلهم بسبب ما أعطاهم، وما من به عليهم من الكتاب والحكمة المقتضي للقيام التام بحق الله وتوفيته، أنه إن جاءهم رسول مصدق لما معهم بعث بما بعثوا به من التوحيد والحق والقسط والأصول التي اتفقت عليها الشرائع أنهم يؤمنون به وينصرونه، فأقروا على ذلك، واعترفوا، والتزموا، وأشهدهم، وشهد عليهم، وتوعد من خالف هذا الميثاق.

وهذا أمر عام بين الأنبياء أن جميعهم طريقهم واحد وأن دعوة كل واحد منهم قد اتفقوا وتعاقدوا عليها، وعموم ذلك أنه أخذ على جميعهم الميثاق بالإيمان والنصرة لمحمد ﷺ، فمن ادعى أنه من أتباعهم فهذا دينهم الذي أخذه الله عليهم وأقروا به واعترفوا، فمن تولى عن اتباع محمد ممن يزعم أنه من أتباعهم فإنه فاسق خارج عن طاعة الله مكذب للرسول الذي يزعم أنه من أتباعه مخالف لطريقه، وفي هذا إقامة الحجة والبرهان على كل من لم يؤمن بمحمد ﷺ من أهل

قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ
وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ
مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ
دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾
كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟
أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ
وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ
عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ
بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ
وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ
كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ
ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٩١﴾

الكتب والأديان، وأنه لا يمكنهم الإيمان برسلهم الذين يزعمون أنهم أتباعهم حتى يؤمنوا بإمامهم وخاتمهم ﷺ.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾
قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ
وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ
مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ
دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿٨٣﴾ - ﴿٨٥﴾ قد تقدم في سورة البقرة أن هذه الأصول التي هي أصول الإيمان التي أمر الله بها هذه الأمة قد اتفقت عليها الكتب والرسل، وأنها هي الغرض الموجه لكل أحد وأنها هي الدين والإسلام الحقيقي، وأن من ابتغى غيرها فعمله مردود وليس له دين يعول عليه، فمن زهد عنه ورغب عنه فأين يذهب؟ إلى عبادة الأشجار والأحجار والنيران،

لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ
فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ
ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ
﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا
وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى
بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ
إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ
مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٩٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ
عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ
بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ
فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾

أو إلى اتخاذ الأحبار والرهبان والصلبان، أو إلى التعطيل لرب العالمين، أو إلى الأديان الباطلة التي هي من وحي الشياطين؟ وهؤلاء كلهم في الآخرة من الخاسرين.

﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ ﴾.

﴿٨٦﴾ - ﴿٨٨﴾ يعني أنه يبعد كل البعد أن يهدي الله قومًا عرفوا الإيمان، ودخلوا فيه وشهدوا أن الرسول حق ثم ارتدوا على أعقابهم ناكصين ناكثين، لأنهم عرفوا الحق فرفضوه، ولأن من هذه الحالة وصفه فإن الله يعاقبه بالانتكاس وانقلاب القلب جزاء له إذ عرف الحق فتركه، والباطل فآثره فولاه الله ما تولى لنفسه، فهؤلاء عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين؛ خالدين في اللعنة والعذاب ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾﴾؛ إذا جاءهم أمر الله، لأن الله عمرهم ما يتذكر فيه ما تذكر، وجاءهم النذير.

﴿٨٩﴾ - ﴿٩١﴾ ثم إنه تعالى استثنى من هذا الوعيد التائبين من كفرهم وذنوبهم، المصلحين لعيوبهم فإن الله يغفر لهم ما قدموه ويعفو عنهم ما أسلفوه، ولكن من كفر وأصر على كفره، ولم يزدد إلا كفرًا حتى مات على كفره، فهؤلاء هم الضالون عن طريق الهدى السالكون لطريق الشقاء، وقد استحقوا بهذا العذاب الأليم، فليس لهم ناصر من عذاب الله ولو بذلوا ملء الأرض ذهبًا ليفتدوا به لم ينفعهم شيئًا. فعياذًا بالله من الكفر وفروعه.

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴾.

﴿٩٢﴾ يعني ﴿لَن تَنَالُواْ﴾ وتدركوا ﴿ٱلْبِرَّ﴾، الذي هو اسم جامع للخيرات وهو: الطريق الموصل إلى الجنة ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ من أطيب أموالكم وأزكاها، فإن النفقة من الطيب المحبوب للنفوس من أكبر الأدلة على سماحة النفس واتصافها بمكارم الأخلاق ورحمتها ورقتها، ومن أدل الدلائل على محبة الله وتقديم محبته على محبة الأموال التي جبلت النفوس على قوة التعلق بها، فمن آثر محبة الله على محبة نفسه فقد بلغ الذروة العليا من الكمال، وكذلك من أنفق الطيبات وأحسن إلى عباد الله أحسن الله إليه ووفقه أعمالًا وأخلاقًا لا تحصل بدون هذه الحالة. وأيضًا فمن قام بهذه النفقة على هذا الوجه كان قيامه ببقية الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة من طريق الأولى والأحرى، ومع أن النفقة من الطيبات هي أكمل الحالات، فمهما أنفق العبد من نفقة قليلة أو كثيرة من طيب أو غيره ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾، وسيجزي كل منفق بحسب عمله، سيجزيه في الدنيا بالخلف العاجل وفي الآخرة بالنعيم الآجل.

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُواْ

بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤) ﴾.

(٩٣)، (٩٤) من جملة الأمور التي قدح فيها اليهود بنبوة عيسى ومحمد ﷺ أنهم زعموا أن النسخ باطل، وأنه لا يمكن أن يأتي نبي يخالف النبي الذي قبله. فكذبهم الله بأمر يعرفونه، فإنهم يعترفون بأن جميع الطعام قبل نزول التوراة كان حلالًا لبني إسرائيل إلا أشياء يسيرة، حرمها إسرائيل وهو يعقوب عليه السلام على نفسه ومنعها إياه لمرض أصابه، ثم إن التوراة فيها من التحريمات التي نسخت ما كان حلًّا قبل ذلك شيء كثير. قل لهم إن أنكروا ذلك: ﴿ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) ﴾؛ بزعمكم أنه لا نسخ ولا تحليل ولا تحريم. وهذا من أبلغ الحجج أن يحتج على الإنسان بأمر يقوله ويعترف به ولا ينكره، فإن انقاد للحق فهو الواجب، وإن أبى ولم ينقد بعد هذا البيان تبين كذبه وافتراؤه وظلمه وبطلان ما هو عليه، وهو الواقع من اليهود.

﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥) ﴾.

(٩٥) أي: قل صدق الله في كل ما قاله ومن أصدق من الله قيلًا وحديثًا؟ وقد بين في هذه الآيات من الأدلة على صحة رسالة محمد ﷺ وبراهين دعوته وبطلان ما عليه المنحرفون من أهل الكتاب الذين كذبوا رسوله وردوا دعوته، فقد صدق الله في ذلك وأقنع عباده على ذلك ببراهين وحجج تتصدع لها الجبال وتخضع لها الرجال، فتعين عند ذلك على الناس كلهم اتباع ملة إبراهيم من توحيد الله وحده لا شريك له، وتصديق كل رسول أرسله الله، وكل كتاب أنزله والإعراض عن الأديان الباطلة المنحرفة، فإن إبراهيم كان معرضًا عن كل ما يخالف التوحيد متبرئًا من الشرك وأهله.

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧) ﴾.

(٩٦)، (٩٧) يخبر تعالى بعظمة بيته الحرام، وأنه أول البيوت التي وضعها الله في الأرض لعبادته وإقامة ذكره، وأنه فيه من البركات وأنواع الهدايات وتنوع المصالح والمنافع للعالمين شيء كثير وفضل غزير، وأن فيه آيات بينات تذكر بمقامات إبراهيم الخليل وتنقلاته في الحج، ومن بعده تذكر بمقامات سيد الرسل وإمامهم، وفيه الأمن الذي من دخله كان آمنًا قدرًا مؤمنًا شرعًا ودينًا.

فلما احتوى على هذه الأمور التي هذه مجملاتها وتكثر تفصيلاتها، أوجب الله حجه على المكلفين المستطيعين إليه سبيلًا، وهو الذي يقدر على الوصول إليه بأي مركوب يناسبه وزاد يتزوده، ولهذا أتى بهذا اللفظ الذي يمكنه تطبيقه على جميع المركوبات الحادثة والتي ستحدث، وهذا من آيات القرآن حيث كانت أحكامه صالحة لكل زمان وكل حال ولا يمكن الصلاح التام بدونها. فمن أذعن لذلك وقام به فهو من المهتدين المؤمنين، ومن كفر فلم يلتزم حج بيته فهو خارج عن الدين، ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧) ﴾.

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) ﴾.

(٩٨)، (٩٩) لما أقام - فيما تقدم - الحجج على أهل الكتاب مع أنهم قبل ذلك يعرفون النبي ﷺ، كما يعرفون أبناءهم، وبّخ المعاندين منهم بكفرهم بآيات الله وصدهم الخلق عن سبيل الله؛ لأن عوامهم تبع لعلمائهم، والله تعالى يعلم أحوالهم وسيجازيهم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١) ﴾.

(١٠٠)، (١٠١) لما أقام الحجج على أهل الكتاب ووبخهم بكفرهم وعنادهم، حذر عباده المؤمنين عن الاغترار بهم، وبين لهم أن هذا الفريق منهم حريصون على إضراركم وردكم إلى الكفر بعد الإيمان، ولكن ولله الحمد أنتم يا معشر المؤمنين، بعدما من الله عليكم بالدين ورأيتم آياته ومحاسنه ومناقبه وفضائله، وفيكم رسول الله الذي أرشدكم

وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ
رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٠١﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم
مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ
وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ
فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ
فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ
﴿١٠٣﴾ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ
وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا
تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ
وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٥﴾ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ
وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ
فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ
وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ
ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾

إلى جميع مصالحكم، واعتصمتم بالله وبحبله الذي هو دينه يستحيل أن يردوكم عن دينكم، لأن الدين الذي بني على هذه الأصول والدعائم الثابتة الأساس، المشرقة الأنوار تنجذب إليه الأفئدة، ويأخذ بمجامع القلوب، ويوصل العباد إلى أجل غاية وأفضل مطلوب.

﴿ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ ﴾؛ أي: يتوكل عليه ويحتمي بحماه ﴿ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٠١﴾ ﴾؛ وهذا فيه الحث على الاعتصام به وأنه السبيل إلى السلامة والهداية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

﴿١٠٢﴾ - ﴿١٠٥﴾ هذه الآيات فيها حث الله عباده المؤمنين أن يقوموا بشكر نعمه العظيمة بأن يتقوه حق تقواه، وأن يقوموا بطاعته وترك معصيته مخلصين له بذلك، وأن يقيموا دينهم ويستمسكوا بحبله الذي أوصله إليهم، وجعله السبب بينهم وبينه وهو دينه وكتابه، والاجتماع على ذلك وعدم التفرق، وأن يستديموا ذلك إلى الممات.

وذكرهم ما هم عليه قبل هذه النعمة وهو أنهم كانوا أعداء متفرقين فجمعهم بهذا الدين وألف بين قلوبهم وجعلهم إخوانًا، وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم من الشقاء، ونهج بهم طريق السعادة؛ لذلك بين ﴿ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾؛ إلى شكر الله والتمسك بحبله. وأمرهم بتتميم هذه الحالة، والسبب الأقوى الذي يتمكنون به من إقامة دينهم بأن يتصدى منهم طائفة يحصل فيها الكفاية ﴿ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ ﴾؛ وهو الدين: أصوله وفروعه وشرائعه ﴿ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾؛ وهو ما عرف حسنه شرعًا وعقلًا ﴿ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾؛ وهو ما عرف قبحه شرعًا وعقلًا ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾؛ المدركون لكل مطلوب الناجون من كل مرهوب، ويدخل في هذه الطائفة أهل العلم والتعليم والمتصدون للخطابة ووعظ الناس عمومًا وخصوصًا والمحتسبون، الذين يقومون بإلزام الناس بإقامة الصلوات وإيتاء الزكاة والقيام بشرائع الدين، وينهونهم عن المنكرات.

فكل من دعا الناس إلى خير على وجه العموم أو على وجه الخصوص، أو قام بنصيحة عامة أو خاصة فإنه داخل في هذه الآية الكريمة.

ثم نهاهم عن سلوك مسلك المتفرقين الذين جاءهم الدين والبينات الموجب لقيامهم به واجتماعهم، فتفرقوا واختلفوا وصاروا شيعًا، ولم يصدر ذلك عن جهل وضلال، وإنما صدر عن علم وقصد سيئ وبغي من بعضهم على بعض، ولهذا قال: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٥﴾ ﴾؛ ثم بين متى يكون هذا العذاب العظيم ويمسهم هذا العذاب الأليم فقال:

﴿ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ

تَكۡفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

(١٠٦)، (١٠٧) يخبر تعالى بتفاوت الخلق يوم القيامة في السعادة والشقاوة، وأنه تبيض وجوه أهل السعادة، الذين آمنوا بالله، وصدقوا رسله وامتثلوا أمره واجتنبوا نهيه، وأن الله تعالى يدخلهم الجنات ويفيض عليهم أنواع الكرامات وهم فيها خالدون، وتسود وجوه أهل الشقاوة الذين كذبوا رسله وعصوا أمره وفرقوا دينهم شيعًا وأنهم يوبخون فيقال: ﴿أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾؛ فكيف اخترتم الكفر على الإيمان ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾.

(١٠٨) يثني تعالى على ما قصه على نبيه من آياته التي حصل بها الفرقان بين الحق والباطل وبين أولياء الله وأعدائه، وما أعده لهؤلاء من الثواب وللآخرين من العقاب، وأن ذلك مقتضى فضله وعدله وحكمته، وأنه لم يظلم عباده ولم ينقصهم من أعمالهم أو يعذب أحدًا بغير ذنبه أو يحمل عليه وزر غيره. ولما ذكر أن له الأمر والشرع ذكر أن له تمام الملك والتصرف والسلطان فقال:

(١٠٩) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾؛ فيجازي المحسنين بإحسانهم والمسيئين بعصيانهم، وكثيرًا ما يذكر الله أحكامه الثلاثة مجتمعة يبين لعباده أنه الحاكم المطلق فله الأحكام القدرية والأحكام الشرعية والأحكام الجزائية، فهو الحاكم بين عباده في الدنيا والآخرة، ومن سواه من المخلوقات محكوم عليها ليس لها من الأمر شيء.

﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾.

(١١٠)، (١١١) هذا تفضيل من الله لهذه الأمة بهذه الأسباب، التي تميزوا بها وفاقوا بها سائر الأمم، وأنهم

الجزء الرابع — سورة آل عمران

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ
﴿١٠٩﴾ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ
وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ
أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ
وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ
وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتۡ
عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ
وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ
حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ۞ لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ
مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ
وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ
وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ
فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفۡعَلُواْ
مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

٦٤

خير الناس للناس نصحًا ومحبة للخير ودعوة وتعليمًا وإرشادًا وأمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر وجمعًا بين تكميل الخلق والسعي في منافعهم بحسب الإمكان، وبين تكميل النفس بالإيمان بالله والقيام بحقوق الإيمان، وأن أهل الكتاب لو آمنوا بمثل ما آمنتم به لاهتدوا وكان خيرًا لهم ولكن لم يؤمن منهم إلا القليل، وأما الكثير فهم فاسقون خارجون عن طاعة الله وطاعة رسوله محاربون للمؤمنين ساعون في إضرارهم بكل مقدورهم، ومع ذلك فلن يضروا المؤمنين إلا أذى باللسان، وإلا فلو قاتلوهم لولوا الأدبار ثم لا ينصرون. وقد وقع ما أخبر الله به، فإنهم لما قاتلوا المسلمين ولوا الأدبار ونصر الله المسلمين عليهم.

﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم
مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦)
مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا
صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا
ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا
وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي
صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨)
هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ
وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ
مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩)
إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا
بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا
إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠) وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ
تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١)

(١١٢) هذا إخبار من الله تعالى أن اليهود ضربت عليهم الذلة فهم خائفون أينما ثقفوا، ولا يؤمنهم شيء إلا معاهدة وسبب يأمنون به، يرضخون لأحكام الإسلام ويعترفون بالجزية أو بحبل ﴿مِّنَ النَّاسِ﴾؛ أي: إذا كانوا تحت ولاية غيرهم ونظارتهم كما شوهد حالهم سابقًا ولاحقًا، فإنهم لم يتمكنوا في الوقت الأخير من الملك المؤقت في فلسطين إلا بنصر الدول الكبرى وتمهيدهم لهم كل سبب ﴿وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾؛ أي: قد غضب الله عليهم وعاقبهم بالذلة والمسكنة، والسبب في ذلك كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، أي: ليس ذلك عن جهل وإنما هو بغي وعناد، تلك العقوبات المتنوعة عليهم ﴿بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢)﴾؛ فالله تعالى لم يظلمهم ويعاقبهم بغير ذنب، وإنما الذي أجراه عليهم بسبب بغيهم وعدوانهم وكفرهم وتكذيبهم للرسل وجناياتهم الفظيعة.

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥)﴾.

(١١٣)، (١١٤) لما ذكر الله المنحرفين من أهل الكتاب بين حالة المستقيمين منهم، وأنه منهم أمة مقيمون لأصول الدين وفروعه ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ وهو الخير كله، وينهون عن المنكر وهو جميع الشر، كما قال تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩)﴾ [الأعراف: ١٥٩]؛ ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾؛ والمسارعة إلى الخيرات قدر زائد على مجرد فعلها، فهو وصف لهم بفعل الخيرات والمبادرة إليها وتكميلها بكل ما تتم به من واجب ومستحب.

(١١٥) ثم بين تعالى أن كل ما فعلوه من خير قليل أو كثير فإن الله تعالى سيقبله حيث كان صادرًا عن إيمان وإخلاص، ﴿فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾؛ يعني لن ينكر ما عملوه ولن يهدر ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥)﴾؛ وهم الذين قاموا بالخيرات وتركوا المحرمات لقصد رضا الله وطلب ثوابه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧)﴾.

(١١٦)، (١١٧) بين تعالى أن الكفار الذين كفروا بآيات الله وكذبوا رسله أنه لا ينقذهم من عذاب الله منقذ ولا ينفعهم نافع ولا يشفع لهم عند الله شافع، وأن أموالهم وأولادهم التي كانوا يعدونها للشدائد والمكاره لا تفيدهم شيئًا، وأن نفقاتهم التي أنفقوها في الدنيا لنصر باطلهم ستضمحل، وأن مثلها كمثل؛ حرث أصابته ريح شديدة ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾؛ أي: برد شديد أو نار محرقة فأهلكت ذلك الحرث وذلك بظلمهم فلم يظلمهم الله، ويعاقبهم بغير ذنب، وإنما ظلموا أنفسهم. وهذه كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

﴿١١٨﴾، ﴿١١٩﴾ هـذا تحذيـر مـن الله لعبـاده عن ولايـة الكفار واتخاذهـم بطانـة أو خصيصـة وأصدقـاء، يسـرون إليهـم ويفضـون لهـم بأسـرار المؤمنين، فوضـح لعبـاده المؤمنين الأمـور الموجبـة للبـراءة مـن اتخاذهـم بطانـة، بأنهـم ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ أي هم[1] حريصون غير مقصرين في إيصال الضرر بكم، وقد بدت البغضاء من كلامهم وفلتات ألسـنتهم ومـا تخفيـه صدورهم من البغضـاء والعـداوة ﴿أَكْبَرُ﴾ مما ظهر لكم من أقوالهم وأفعالهم، فإن كانت لكم فهوم وعقول فقـد وضح الله لكم أمرهـم، وأيضًا فمـا الموجب لمحبتهم واتخاذهـم أوليـاء وبطانـة، وقـد تعلمـون منهـم الانحراف العظيـم في الديـن وفي مقابلة إحسـانكم؟ فأنتم مستقيمون علـى أديـان الرسـل تؤمنون بكل رسـول أرسـله اللـه وبكل كتاب أنزله الله، وهم يكفرون بأجل الكتب وأشرف الرسل، وأنتـم تبذلون لهم من الشـفقة والمحبة ما لا يكافئونكم على أقـل القليـل منـه، فكيـف تحبونهم وهـم لا يحبونكـم وهم يداهنونكم وينافقونكم، فإذا لقوكم ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ﴾ مـع بنـي جنسـهم ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ﴾ مـن شـدة الغيظ والبغـض لكـم ولدينكم، قال تعالـى: ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ﴾؛ أي: سترون من عز الإسلام وذل الكفر ما يسوءكم، وتموتون بغيظكـم فلن تدركوا شـفاء ذلك بما تقصـدون ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾؛ فلذلـك بين لعبـاده المؤمنين ما تنطوي عليه صدور أعداء الدين من الكفار والمنافقين.

﴿١٢٠﴾ ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾؛ عـز ونصـر وعافيـة وخيـر ﴿تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾؛ مـن إدالـة العـدو أو حصول بعـض المصائـب الدنيويـة ﴿يَفْرَحُواْ بِهَا﴾؛ وهـذا وصـف العدو الشديدة عداوته. لما بين تعالى شدة عداوتهم، وشرح ما هم عليـه من الصفات الخبيثة أمر عبـاده المؤمنين بالصبر ولـزوم التقـوى، وأنهـم إذا قامـوا بذلـك فلـن يضرهـم كيد أعدائهم شـيئًا، فإن اللـه محيط بهم وبأعمالهـم وبمكائدهم التـي يكيدونكم فيها، وقـد وعدكم عند القيـام بالتقوى أنهم لا يضرونكم شيئًا فلا تشكوا في حصول ذلك.

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ إلى آخر القصة.

﴿١٢١﴾ وذلـك يـوم أحد حيـن خـرج ﷺ بالمسـلمين، حين وصـل المشـركون بجمعهم إلى قريب مـن أحد، فنزلهم ﷺ منازلهـم، ورتبهم في مقاعدهم، ونظمهم تنظيمًا عجيبًا، يدل علـى كمال رأيـه وبراعته الكاملـة في فنون[2] السياسـة، كما كان كامـلًا فـي كل المقامـات، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾؛ لا يخفى عليه شيء من أموركم.

﴿١٢٢﴾ ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾؛ وهـم بنـو سلمة وبنو حارثة لكن تولاهما الباري بلطفه ورعايته وتوفيقه، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾؛ فإنهـم إذا توكلـوا عليـه كفاهـم وأعانهـم وعصمهـم مـن وقـوع مـا يضرهـم فـي دينهم ودنياهم.

وفي هـذه الآية ونحوها وجوب التوكل وأنه على حسـب إيمـان العبد يكون توكله، والتوكل: هو اعتماد العبد على ربه في حصول منافعه ودفع مضاره.

فلمـا ذكر حالهـم في أحد وما جـرى عليهم مـن المصيبة أدخـل فيها تذكيرهم بنصره ونعمته عليهـم يوم بدر؛ ليكونوا شاكرين لربهم وليخفف هذا هذا، فقال:

﴿١٢٣﴾ وإذ ﴿نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾؛ فـي عَددكـم وعُددكـم، فكانـوا ثلاثمائة وبضعة عشـر في قلة ظهـر ورثاثة سـلاح، وأعداؤهم يناهزون الألف في كمال العدة والسـلاح ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾؛ الـذي أنعـم عليكـم بنصره.

﴿١٢٤﴾ ﴿إِذْ تَقُولُ﴾ مبشـرًا ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ مثبتًـا لجنانهـم: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

(١) ساقط من ط.

(٢) ط: «علوم».

إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى
ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ
أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ
أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ
مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ
هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ
﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا
ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا
مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ
مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ
﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ
وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ
﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

﴿١٢٥﴾ ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾؛ أي: من حملتهم هذه بهذا الوجه.

﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾؛ أي: معلمين علامة الشجعان. واختلف الناس هل كان هذا الإمداد حصل فيه من الملائكة مباشرة للقتال، كما قاله بعضهم أو أن ذلك تثبيت من الله لعباده المؤمنين، وإلقاء الرعب في قلوب المشركين كما قاله كثير من المفسرين ويدل عليه قوله:

﴿١٢٦﴾ ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾، وفي هذا أن الأسباب لا يعتمد عليها العبد بل يعتمد على الله، وإنما الأسباب وتوفرها فيها طمأنينة للقلوب وثبات على الخير.

﴿١٢٧﴾ ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾؛ أي: نصر الله لعباده المؤمنين لا يعدو أن يكون قطعًا لطرف من الكفار، أو ينقلبوا بغيظهم لم ينالوا خيرًا، كما أرجعهم يوم الخندق بعدما كانوا قد أتوا على حرد قادرين أرجعهم الله بغيظهم خائبين.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

﴿١٢٨﴾ لما أصيب ﷺ يوم أحد وكسرت رباعيته وشج رأسه جعل يقول: «**كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم وكسروا رباعيته؟!**»[(١)]؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية، وبين أن الأمر كله لله وأن الرسول ﷺ ليس له من الأمر شيء، لأنه عبد من عبيد الله والجميع تحت عبودية ربهم مدبَّرون لا مدبِّرون، وهؤلاء الذين دعوت عليهم أيها الرسول أو استبعدت فلاحهم وهدايتهم إن شاء الله تاب عليهم ووفقهم للدخول في الإسلام، وقد فعل، فإن أكثر أولئك هداهم الله فأسلموا، وإن شاء الله عذبهم؛ فإنهم ظالمون مستحقون لعقوبات الله وعذابه.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿١٢٩﴾ يخبر تعالى أنه هو المتصرف في العالم العلوي والسفلي، وأنه يتوب على من يشاء فيغفر له ويخذل من يشاء فيعذبه، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾ فمن صفته اللازمة كمال المغفرة والرحمة ووجود مقتضياتها في الخلق والأمر؛ يغفر للتائبين ويرحم من قام بالأسباب الموجبة للرحمة، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [آل عمران: ١٣٢].

تم الجزء / المجلد الأول من تيسير الرحيم الرحمن في تفسير القرآن بخط مؤلفه عبد الرحمن الناصر بن سعدي ٩ ربيع الأول سنة ١٣٤٣ غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم ويليه المجلد الثاني... أوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾[(٢)].

---

(١) البخاري معلقًا (باب ليس لك من الأمر شيء...)، «الفتح» (٧/ ٣٦٥)، ووصله مسلم (١٧٩١).

(٢) بعده يبدأ المجلد الثاني بتجزئة المؤلف رحمه الله وقد كتب على طرة هذا الجزء: المجلد الثاني من تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن لجامعه الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي غفر الله له ولوالديه وللمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات برحمتك يا أرحم الراحمين. آمين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه نستعين وعليه نتوكل رب ويسر وأعن يا كريم.

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾.

﴿١٣٠﴾ تقدم في مقدمة هذا التفسير: أن العبد ينبغي له مراعاة الأوامر والنواهي في نفسه وفي غيره، وأن الله تعالى إذا أمره بأمر وجب عليه أولًا أن يعرف حده وما هو الذي أمر به ليتمكن بذلك من امتثاله، فإذا عرف ذلك اجتهد واستعان بالله على امتثاله في نفسه وفي غيره بحسب قدرته وإمكانه. وكذلك إذا نُهي عن أمر عرف حده وما يدخل فيه وما لا يدخل، ثم اجتهد واستعان بربه في تركه. وأن هذا ينبغي مراعاته في جميع الأوامر الإلهية والنواهي. وهذه الآيات الكريمات قد اشتملت على أوامر وخصال من خصال الخير، أمر الله بها وحث على فعلها، وأخبر عن جزاء أهلها، وعلى نواهٍ حث على تركها.

ولعل الحكمة - والله أعلم - في إدخال هذه الآيات أثناء قصة أحد أنه قد تقدم أن الله تعالى وعد عباده المؤمنين أنهم إذا صبروا واتقوا نصرهم على أعدائهم وخذل الأعداء عنهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، ثم قال: ﴿إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم ﴾ [آل عمران: ١٢٥] الآيات. فكأن النفوس اشتاقت إلى معرفة خصال التقوى التي يحصل بها النصر والفلاح والسعادة، فذكر الله في هذه الآيات أهم خصال التقوى التي إذا قام العبد بها، فقيامه بغيرها من باب أولى وأحرى.

ويدل على ما قلنا أن الله ذكر لفظ التقوى في هذه الآيات ثلاث مرات، مرة مطلقة، وهي قوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾، ومرتين مقيدتين فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ﴾.

فقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ كل ما في القرآن من قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا افعلوا كذا أو اتركوا كذا يدل على أن الإيمان هو السبب الداعي والموجب لامتثال ذلك الأمر واجتناب ذلك النهي، لأن الإيمان هو التصديق الكامل بما يجب التصديق به المستلزم لأعمال الجوارح، فنهاهم عن أكل الربا أضعافًا مضاعفة، وذلك هو ما اعتاده أهل الجاهلية ومن لا يبالي بالأوامر الشرعية، من أنه إذا حل الدَّين على المعسر ولم يحصل منه شيء، قالوا له: إما أن تقضي ما عليك من الدين، وإما أن نزيد في المدة ونزيد ما في ذمتك فيضطر الفقير ويستدفع غريمه ويلتزم ذلك اغتنامًا لراحته الحاضرة فيزداد بذلك ما في ذمته أضعافًا مضاعفة من غير نفع وانتفاع. ففي قوله: ﴿أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ﴾؛ تنبيه على شدة شناعته بكثرته وتنبيه لحكمة تحريمه، وأن تحريم الربا حكمته أن الله منع منه لما فيه من الظلم، وذلك أن الله أوجب إنظار المعسر وبقاء ما في ذمته من غير زيادة، فإلزامه بما فوق ذلك ظلم متضاعف، فيتعين على المؤمن المتقي تركه وعدم قربانه؛ لأن تركه من موجبات التقوى، والفلاح متوقف على التقوى، فلهذا قال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾.

﴿١٣١﴾ ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾، بترك ما يوجب دخولها من الكفر والمعاصي على اختلاف درجاتها، فإن المعاصي كلها وخصوصًا المعاصي الكبار تجر إلى الكفر، بل هي من خصال الكفر الذي أعد الله النار لأهله، فترك المعاصي ينجي من النار ويقي من سخط الجبار، وأفعال الخير والطاعة توجب رضا الرحمن ودخول الجنان وحصول الرحمة، ولهذا قال:

۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا
ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ
فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ
عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا
فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ
لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ
مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ
مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ
فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ
فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ
١٣٧ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ١٣٨
وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ
١٣٩ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ
وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠

(١٣٢) ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾، بفعل الأوامر امتثالًا واجتناب النواهي ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢﴾، فطاعة الله وطاعة رسوله من أسباب حصول الرحمة، كما قال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] الآيات.

(١٣٣) ثم أمرهم تعالى بالمسارعة إلى مغفرته وإدراك جنته التي عرضها السماوات والأرض، فكيف بطولها التي أعدها الله للمتقين؟! فهم أهلها، وأعمال التقوى هي الموصلة إليها.

(١٣٤) ثم وصف المتقين وأعمالهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾؛ أي: في حال عسرهم ويسرهم إن أيسروا أكثروا من النفقة، وإن أعسروا لم يحتقروا من المعروف شيئًا ولو قل، ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾: أي: إذا حصل لهم من غيرهم أذية توجب غيظهم، وهو امتلاء قلوبهم من الحنق الموجب للانتقام بالقول والفعل. هؤلاء لا يعملون بمقتضى الطباع البشرية، بل يكظمون ما في القلوب من الغيظ، ويصبرون عن مقابلة المسيء إليهم.

﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾، يدخل في العفو عن الناس العفو عن كل من أساء إليك بقول أو فعل، والعفو أبلغ من الكظم، لأن العفو ترك المؤاخذة مع السماحة عن المسيء، وهذا إنما يكون ممن تحلى بالأخلاق الجميلة وتخلى عن الأخلاق الرذيلة، وممن تاجر مع الله وعفا عن عباد الله رحمة بهم وإحسانًا إليهم، وكراهة لحصول الشر عليهم، وليعفو الله عنه ويكون أجره على ربه الكريم لا على العبد الفقير، كما قال تعالى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

ثم ذكر حالة أعم من غيرها وأحسن وأعلى وأجل، وهي الإحسان، فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾، والإحسان نوعان: الإحسان في عبادة الخالق والإحسان إلى المخلوق.

فالإحسان في عبادة الخالق فسرها النبي ﷺ بقوله: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[(١)].

وأما الإحسان إلى المخلوق فهو إيصال النفع الديني والدنيوي إليهم ودفع الشر الديني والدنيوي عنهم، فيدخل في ذلك أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وتعليم جاهلهم ووعظ غافلهم والنصيحة لعامتهم وخاصتهم، والسعي في جمع كلمتهم وإيصال الصدقات والنفقات الواجبة والمستحبة إليهم على اختلاف أحوالهم وتباين أوصافهم، فيدخل في ذلك بذل الندى وكف الأذى واحتمال الأذى، كما وصف الله به المتقين في هذه الآيات، فمن قام بهذه الأمور فقد قام بحق الله وحق عبيده.

ثم ذكر اعتذارهم لربهم من جناياتهم وذنوبهم فقال:

(١٣٥) ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾؛ أي: صدر منهم[(٢)] أعمال سيئة كبيرة أو ما دون ذلك، بادروا إلى التوبة والاستغفار، وذكروا ربهم وما توعد به العاصين، ووعد به المتقين فسألوه المغفرة لذنوبهم، والستر لعيوبهم، مع إقلاعهم عنها وندمهم عليها، فلهذا قال: ﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥﴾.

(١٣٦) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ الموصوفون بتلك الصفات ﴿جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ تزيل عنهم كل محذور، ﴿وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي

(١) البخاري (٥٠)، مسلم (٨).
(٢) بعده في ع: «من معاصٍ».

مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ فيها من النعيم المقيم والبهجة والسرور والبهاء والخير والسرور والقصور والمنازل الأنيقة العاليات والأشجار المثمرة البهية والأنهار الجاريات في تلك المساكن الطيبات، ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ لا يحولون عنها ولا يبغون بها بدلًا ولا يغير ما هم فيه من النعيم ﴿ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ عملوا لله قليلًا فأجروا كثيرًا، فعند الصباح يحمَد القومُ السُّرى، وعند الجزاء يجد العامل أجره كاملًا موفرًا.

وهذه الآيات الكريمات من أدلة أهل السنة والجماعة، على أن الأعمال تدخل في الإيمان خلافًا للمرجئة، ووجه الدلالة إنما يتم بذكر الآية التي في سورة الحديد نظير هذه الآيات وهي قوله: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ﴾ [الحديد: ٢١]، فلم يذكر فيها إلا لفظ الإيمان به وبرسله، وهنا قال: ﴿ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾، ثم وصف المتقين بهذه الأعمال المالية والبدنية، فدل على أن هؤلاء المتقين الموصوفين[1] بهذه الصفات هم أولئك المؤمنون، ثم قال تعالى:

﴿ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾.

﴿١٣٧﴾ وهذه الآيات الكريمات، وما بعدها في قصة أحد، يعزي تعالى عباده المؤمنين، ويسليهم ويخبرهم أنه مضى قبلهم أجيال وأمم كثيرة امتحنوا، وابتلي المؤمنون منهم بقتال الكافرين، فلم يزالوا في مداولة ومجاولة حتى جعل الله العاقبة للمتقين والنصر لعباده المؤمنين، وآخر الأمر حصلت الدولة على المكذبين وخذلهم الله بنصر رسله وأتباعهم، ﴿ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ بأبدانكم وقلوبكم ﴿ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾، فإنكم لا تجدونهم إلا معذبين بأنواع العقوبات الدنيوية، قد خوت ديارهم وتبين لكل أحد خسارهم، وذهب عزهم وملكهم وزال بذخهم وفخرهم، أفليس في هذا أعظم دليل وأكبر شاهد على صدق ما جاءت به الرسل، وحكمة الله التي يمتحن بها عباده ليبلوهم ويتبين صادقهم من كاذبهم؟ ولهذا قال تعالى:

﴿١٣٨﴾ ﴿ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ ﴾؛ أي: دلالة ظاهرة تبين للناس الحق من الباطل، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، وهو الإشارة إلى ما أوقع الله بالمكذبين، ﴿ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾، لأنهم هم المنتفعون بالآيات، فتهديهم إلى سبيل الرشاد وتعظهم وتزجرهم عن طريق الغي، وأما باقي الناس فهي بيان لهم تقوم به[2] عليهم الحجة من الله ليهلك من هلك عن بينة، ويحتمل أن الإشارة في قوله: ﴿ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ ﴾، للقرآن العظيم والذكر الحكيم وأنه بيان للناس عمومًا، وهدى وموعظة للمتقين خصوصًا، وكلا المعنيين حق.

﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ ﴾.

﴿١٣٩﴾ يقول تعالى مشجعًا لعباده المؤمنين ومقويًا لعزائمهم ومنهضًا لهممهم: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ ﴾؛ أي: ولا تهنوا وتضعفوا في أبدانكم، ولا تحزنوا في قلوبكم عندما أصابتكم المصيبة، وابتليتم بهذه البلوى، فإن الحزن في القلوب والوهن على الأبدان زيادة مصيبة عليكم، وعون لعدوكم عليكم، بل شجعوا قلوبكم وصبروها وادفعوا عنها الحزن وتصلبوا على قتال عدوكم، وذكر تعالى أنه لا ينبغي ولا يليق بهم الوهن والحزن وهم الأعلون في الإيمان، ورجاء نصر الله وثوابه، فالمؤمن المبتغي[3] ما وعده الله من الثواب الدنيوي والأخروي لا ينبغي له[4] ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾.

ثم سلاهم بما حصل لهم من الهزيمة، وبين الحكم العظيمة المترتبة على ذلك فقال:

﴿١٤٠﴾ ﴿ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ ﴾، فأنتم وهم قد تساويتم في القرح، ولكنكم ترجون من الله ما لا يرجون كما قال تعالى: ﴿ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ ﴾ [النساء: ١٠٤].

---

(١) ط: «هم الموصوفون».

(٢) ساقط من ع، ط.
(٣) ع: «المتيقن».
(٤) ع: «منه».

الجزء الرابع — سورة آل عمران

وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

٦٨

ومن الحكم في ذلك أن هذه الدار يعطي الله منها المؤمن والكافر والبر والفاجر فيداول الله الأيام بين الناس: يوم لهذه الطائفة ويوم للطائفة الأخرى، لأن هـذه الدار الدنيا منقضية فانية، وهذا بخلاف الدار الآخرة؛ فإنها خالصة للذين آمنوا.

﴿ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، هـذا أيضًا مـن الحكم أنـه يبتلي اللـه عبـاده بالهزيمة والابتـلاء ليتبيـن المؤمن من المنافـق، لأنه لو استمر النصر للمؤمنين في جميع الوقائع لدخـل فـي الإسـلام مـن لا يريـده، فـإذا حصـل فـي بعض الوقائع بعض أنواع الابتلاء تبين المؤمن حقيقة الذي يرغب في الإسلام في الضراء والسـراء واليسـر والعسر ممن ليس كذلك، ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَ ﴾.

وهـذا أيضًا مـن بعض الحكم، لأن الشـهادة عنـد الله من أرفـع المنـازل، ولا سـبيل لنيلهـا إلا بما يحصل مـن وجود أسـبابها، فهذا من رحمته بعبـاده المؤمنين، أن قيض لهم من الأسباب ما تكرهـه النفوس، لينيلهم ما يحبـون من المنازل العالية والنعيم المقيم.

﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾، الذيـن ظلمـوا أنفسـهم وتقاعـدوا عـن القتـال فـي سبيله، وكأن فـي هـذا تعريضًـا بـذم المنافقيـن وأنهـم مبغوضـون للـه، ولهـذا ثبطهـم عـن القتـال فـي سـبيله: ﴿ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [التوبة: ٤٦].

﴿١٤١﴾ ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، وهذا أيضًا من الحكم أن اللـه يمحص بذلـك المؤمنين من ذنوبهـم وعيوبهم، يدل ذلـك على أن الشـهادة والقتال في سـبيل اللـه تكفر الذنوب وتزيل العيوب، وليمحص الله أيضًا المؤمنين من غيرهم من المنافقين فيتخلصون منهم ويعرفون المؤمن من المنافق.

ومـن الحكـم أيضًا أنه يقـدر ذلك ليمحـق الكافرين، أي: ليكـون سـببًا لمحقهـم واسـتئصالهم بالعقوبـة، فإنهـم إذا انتصـروا بغـوا وازدادوا طغيانـًا إلـى طغيانهـم يسـتحقون به المعاجلة بالعقوبة رحمة بعباده المؤمنين. ثم قال تعالى:

﴿١٤٢﴾ ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾، هـذا اسـتفهام إنكاري، أي: لا تظنوا ولا يخطر ببالكم أن تدخلوا الجنة من دون مشـقة واحتمال المكاره في سبيل الله، وابتغاء مرضاته، فإن الجنة أعلى المطالب وأفضل ما به يتنافس المتنافسـون، وكلما عظم المطلوب عظمت وسيلته والعمل الموصل إليه، فـلا يوصل إلى الراحـة إلا بترك الراحة ولا يـدرك النعيم إلا بتـرك النعيم، ولكن مكاره الدنيا التي تصيب العبد في سـبيل اللـه عند توطيـن النفس لها وتمرينها عليهـا ومعرفة ما تؤول إليـه تنقلب عند أربـاب البصائر منحًا يسـرون بها ولا يبالون بهـا، وذلك فضل الله يؤتيه من يشـاء، ثم وبخهم تعالى على عدم صبرهم بأمر كانوا يتمنونه ويودون حصوله، فقال:

﴿١٤٣﴾ ﴿ وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ ﴾، وذلـك أن كثيـرًا من الصحابة رضـي الله عنهم ممن فاته بدر، يتمنون أن يحضرهـم اللـه مشـهدًا يبذلـون فيـه جهدهـم، قـال اللـه تعالـى لهم: ﴿ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ ﴾؛[1] مـا تمنيتم بأعينكم ﴿ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ ﴾، فمـا بالكم وتـرك الصبر؟ هـذه حالة لا تليق ولا تحسـن، خصوصًـا لمـن تمنى ذلك وحصل لـه ما تمنى، فإن الواجب عليه بذل الجهد واستفراغ الوسع في ذلك. وفي

(١) زاد بعده في ع، ط: «أي: رأيتم».

هذه الآية دليل على أنه لا يكره تمني الشهادة. ووجه الدلالة أن الله تعالى أقرهم على أمنيتهم، ولم ينكر عليهم، وإنما أنكر عليهم عدم العمل بمقتضاها والله أعلم. ثم قال تعالى:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى الشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾.

﴿١٤٤﴾ يقول تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾؛ أي: ليس ببدع من الرسل، بل هو من جنس الرسل الذين قبله، وظيفتهم تبليغ رسالة ربهم وتنفيذ أوامره ليسوا بمخلدين، وليس بقاؤهم شرطًا في امتثال أوامر الله، بل الواجب على الأمم عبادة ربهم في كل وقت وبكل حال، ولهذا قال: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾؛ بترك ما جاءكم به من إيمان أو جهاد أو غير ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْـًٔا ﴾، إنما يضر نفسه، وإلا فالله تعالى غني عنه، وسيقيم دينه، ويعز عباده المؤمنين.

فلما وبخ تعالى من انقلب على عقبيه، مدح من ثبت مع رسوله، وامتثل أمر ربه فقال: ﴿وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾، والشكر لا يكون إلا بالقيام بعبودية الله تعالى في كل حال. وفي هذه الآية الكريمة إرشاد من الله تعالى لعباده أن يكونوا بحالة لا يزعزعهم عن إيمانهم أو عن بعض لوازمه فقد رئيس ولو عظُم، وما ذاك إلا بالاستعداد في كل أمر من أمور الدين بعدة أناس من أهل الكفاءة فيه إذا فقد أحدهم قام به غيره، وأن يكون عموم المؤمنين قصدهم إقامة دين الله والجهاد عنه بحسب الإمكان، لا يكون لهم قصد في رئيس دون رئيس، فبهذه الحال يستتب لهم أمرهم، وتستقيم أمورهم.

وفي هذه الآية أيضًا أعظم دليل على فضيلة الصديق الأكبر أبي بكر وأصحابه الذين قاتلوا المرتدين بعد رسول الله ﷺ؛ لأنهم هم سادات الشاكرين.

﴿١٤٥﴾ ثم أخبر تعالى أن النفوس جميعها معلقة بآجالها بإذن الله وقدره وقضائه، فمن حتم عليه بالقدر أن يموت مات ولو بغير سبب، ومن أراد بقاءه فلو وقع[1] من الأسباب كل سبب لم يضره ذلك قبل بلوغ أجله، وذلك أن الله قضاه وقدره وكتبه إلى أجل مسمى ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾ عنه[2] ﴿سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [يونس: ٤٩]. ثم أخبر تعالى أنه يعطي الناس من ثواب الدنيا والآخرة ما تعلقت به إراداتهم[3]، فقال: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ﴾، قال الله تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الإسراء: ٢١]. ﴿وَسَنَجْزِى الشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾، ولم يذكر جزاءهم ليدل ذلك على كثرته وعظمته، وليعلم أن الجزاء على قدر الشكر قلة وكثرة وحسنًا.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾.

﴿١٤٦﴾ هذا تسلية للمؤمنين وحث على الاقتداء بهم والفعل كفعلهم، وأن هذا أمر قد كان متقدمًا لم تزل سنة الله جارية بذلك، فقال: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ ﴾؛ أي: وكم من نبي ﴿ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾؛ أي: جماعات كثيرون من أتباعهم الذين قد ربتهم الأنبياء بالإيمان والأعمال الصالحة فأصابهم قتل وجراح وغير ذلك، ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ﴾؛ أي: ما ضعفت قلوبهم، ولا وهنت أبدانهم، ولا استكانوا؛ أي: ذلوا لعدوهم، بل صبروا وثبتوا وشجعوا أنفسهم، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾.

﴿١٤٧﴾ ثم ذكر قولهم واستنصارهم لربهم فقال: ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ ﴾؛ أي: في تلك المواطن الصعبة ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا ﴾، والإسراف هو: مجاوزة الحد إلى ما حرم، علموا أن الذنوب والإسراف من أعظم أسباب الخذلان وأن التخلي منها من أسباب النصر، فسألوا ربهم مغفرتها. ثم إنهم لم يتكلوا على ما بذلوا جهدهم به

(١) ع: «أتى».
(٢) ساقط من ط.
(٣) ط: «إرادتهم».

الجزء الرابع	سورة آل عمران

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ١٤٩
بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ١٥٠ سَنُلْقِى
فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ
مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ
مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ١٥١ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ
وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ
وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم
مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم
مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ
وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ
١٥٢ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ
وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَـٰبَكُمْ
غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ
وَلَا مَآ أَصَـٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ١٥٣

٦٩

مـن الصبر، بل اعتمدوا على الله، وسـألوه أن يثبت أقدامهم عند ملاقاة الأعـداء الكافرين، وأن ينصرهم عليهم، فجمعوا بيـن الصبر وتـرك ضـده، والتوبة والاستغفار والاستنصار بربهـم، لا جرم أن الله نصرهم، وجعل لهم العاقبة في الدنيا والآخرة ولهذا قال:

(١٤٨) ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا ﴾ من النصر والظفر والغنيمة ﴿ وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ وهـو الفـوز برضـا ربهـم والنعيـم المقيم الذي قد سـلم من جميع المنكدات، وما ذاك إلا أنهم أحسنوا له الأعمـال فجازاهم بأحسـن الجزاء، فلهـذا قال: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ (١٤٨) ﴾ في عبادة الخالق ومعاملة الخلق، ومـن الإحسـان أن يفعـل عنـد جهاد الأعـداء كفعـل هؤلاء المؤمنين[١]. ثم قال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ (١٤٩) بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ (١٥٠) سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ (١٥١) ﴾.

(١٤٩) وهـذا نهي من الله للمؤمنيـن، أن يطيعوا الكافرين من المنافقيـن والمشـركين فإنهم إذا أطاعوهم لـم يريدوا لهم إلا الشر، وهو[٢] ردهم إلى الكفر الذي عاقبته الخيبة والخسران.

(١٥٠) ثم أخبر أنه مولاهم وناصرهم، ففيه إخبار لهم بذلك وبشـارة، بأنه يتولـى أمورهـم بلطفـه ويعصمهـم مـن أنواع الشـرور، وفي ضمن ذلك الحث لهم على اتخاذه وحده وليًّا وناصرًا من دون كل أحد.

(١٥١) فمـن ولايتـه ونصـره لهم أنـه وعدهم أنه سـيلقي في قلـوب أعدائهم مـن الكافرين الرعب، وهـو الخوف العظيم الذي يمنعهم من كثير من مقاصدهم، وقد فعل تعالى، وذلك أن المشـركين بعدما انصرفوا من وقعة أحد تشـاوروا بينهم، وقالـوا: كيف ننصرف بعد أن قتلنا منهـم من قتلنا وهزمناهم ولما نستأصلهم؟ فهمُّوا بذلك، فألقى الله الرعب في قلوبهم فانصرفوا خائبين.

ولا شك أن هذا من أعظم النصر، لأنه قد تقدم أن نصر الله لعبـاده المؤمنيـن لا يخرج عن أحد أمرين: إمـا أن يقطع طرفًا ممـن[٣] كفـروا أو يكبتهم فينقلبـوا خائبين، وهذا مـن الثاني. ثـم ذكر السـبب الموجب لإلقـاء الرعب في قلـوب الكافرين فقـال: ﴿ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ﴾؛ أي: ذلك بسـبب ما اتخذوا من دونه من الأنداد والأصنام التي اتخذوها على حسب أهوائهم وإراداتهم الفاسدة من غير حجة ولا برهـان، وانقطعوا من ولاية الواحـد الرحمن، فمن ثم كان المشـرك مرعوبًا من المؤمنين لا يعتمد على ركن وثيق، وليس لـه ملجـأ عند كل شـدة وضيق، هـذا حاله فـي الدنيـا وأما في الآخرة فأشـد وأعظم، ولهذا قال: ﴿ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ﴾؛ أي: مستقرهم الذي يأوون إليه وليس لهـم عنها خروج ﴿ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ (١٥١) ﴾، بسـبب ظلمهـم وعدوانهـم؛ صارت النار مثواهم.

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ

(١) ع: «الموصفين».

(٢) الأصل، ط: «وهم قصدهم».
(٣) ع: «من الذين».

وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾.

﴿١٥٢﴾ أي: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ ﴾ بالنصر فنصركم عليهم حتى ولَّوْكم أكتافهم، وطفقتم فيهم قتلًا حتى صرتم سببًا لأنفسكم وعونًا لأعدائكم عليكم، فلما حصل منكم الفشل وهو الضعف والخور ﴿ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ الذي فيه ترك أمر الله بالائتلاف وعدم الاختلاف، فاختلفتم؛ فمن قائل: نقيم في مركزنا الذي جعلنا فيه النبي ﷺ، ومن قائل: ما مقامنا فيه وقد انهزم العدو ولم يبق محذور، فعصيتم الرسول وتركتم أمره، من بعد ما أراكم الله ما تحبون، وهو انخذال أعدائكم، لأن الواجب على من أنعم الله عليه بما أحب أعظم من غيره، فالواجب في هذه الحال خصوصًا وفي غيرها عمومًا امتثال أمر الله ورسوله، ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا ﴾؛ وهم الذين أوجب لهم ذلك ما أوجب، ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾؛ وهم الذين لزموا أمر رسول الله. وثبتوا حيث أمروا، ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ ﴾؛ أي: بعدما وجدت هذه الأمور منكم، صرف الله وجوهكم عنهم، فصار الوجه لعدوكم ابتلاء من الله لكم وامتحانًا، ليتبين المؤمن من الكافر والطائع من العاصي، وليكفر الله عنكم بهذه المصيبة ما صدر منكم، فلهذا قال: ﴿ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾؛ أي: ذو فضل عظيم عليهم، حيث مَنَّ عليهم بالإسلام، وهداهم لشرائعه، وعفا عنهم سيئاتهم، وأثابهم على مصيباتهم، ومن فضله على المؤمنين أنه لا يقدر عليهم خيرًا ولا مصيبةً إلا كان خيرًا لهم، إن أصابتهم سراء فشكروا، جازاهم جزاء الشاكرين، وإن أصابتهم ضراء فصبروا، جازاهم جزاء الصابرين.

﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾.

﴿١٥٣﴾ يذكرهم تعالى حالهم في وقت انهزامهم عن القتال، ويعاتبهم على ذلك فقال: ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ ﴾؛ أي: تجدون في الهرب ﴿ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ ﴾؛ أي: لا يلوي أحد منكم على أحد ولا ينظر إليه، بل ليس لكم هم إلا الفرار والنجاء عن القتال، والحال أنه ليس عليكم خطر كبير، إذ لستم آخر الناس مما يلي الأعداء ويباشر الهيجاء، بل الرسول ﴿ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ ﴾؛ أي: مما يلي القوم يقول: «إلي عباد الله»، فلم تلتفتوا إليه ولا عرجتم عليه، فالفرار نفسه موجب للوم، ودعوة الرسول الموجبة لتقديمه على النفس أعظم لومًا بتخلفكم عنها ﴿ فَأَثَٰبَكُمْ ﴾؛ أي: جازاكم على فعلكم ﴿ غَمًّۢا بِغَمٍّ ﴾؛ أي: غمًّا يتبعه غم؛ غم بفوات النصر وفوات الغنيمة، وغم بانهزامكم، وغم أنساكم كل غم وهو سماعكم أن محمدًا ﷺ قد قتل.

ولكن الله بلطفه وحسن نظره لعباده جعل اجتماع هذه الأمور لعباده المؤمنين خيرًا لهم فقال: ﴿ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾؛ من النصر والظفر، ﴿ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ﴾؛ من الهزيمة والقتل والجراح إذا تحققتم أن الرسول ﷺ لم يقتل، هانت عليكم تلك المصيبات، واغتبطتم بوجوده المسلي عن كل مصيبة ومحنة، فلله ما في ضمن البلايا والمحن من الأسرار والحكم، وكل هذا صادر عن علمه وكمال خبرته بأعمالكم وظواهركم وبواطنكم، ولهذا قال: ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾، ويحتمل أن معنى قوله: ﴿ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ﴾؛ يعني: أنه قدر ذلك الغم والمصيبة عليكم، لكي تتوطن نفوسكم وتمرنوا على الصبر على المصيبات، ويخف عليكم تحمل المشقات.

﴿١٥٤﴾ ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ ﴾، الذي أصابكم، ﴿ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ﴾، ولا شك أن هذا رحمة بهم وإحسان وتثبيت لقلوبهم وزيادة طمأنينة، لأن الخائف لا

ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً
مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ
ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ
قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ
يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ
فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ
وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ
يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا
كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا
ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا
قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ
وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾

٧٠

يأتيه النعاس، لما في قلبه من الخوف، فإذا زال الخوف عن القلب أمكن أن يأتيه النعاس، وهذه الطائفة التي أنعم الله عليها بالنعاس، هم المؤمنون الذين ليس لهم همٌّ[1] إلا إقامة دين الله ورضا الله ورسوله ومصلحة إخوانهم المسلمين، وأما الطائفة الأخرى الذين ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾، فليس لهم هم في غيرها لنفاقهم أو ضعف إيمانهم، فلهذا لم يصبهم من النعاس ما أصاب غيرهم، ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾؟ وهذا استفهام إنكاري، أي: ما لنا من الأمر - أي: النصر والظهور - شيء، فأساءوا الظن بربهم وبدينه ونبيه، وظنوا أن الله لا يتم أمر رسوله، وأن هذه الهزيمة هي الفيصلة والقاضية على دين الله.

قال الله في جوابهم: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾، الأمر يشمل الأمر القدري والأمر الشرعي، فجميع الأشياء بقضاء الله وقدره، وعاقبتها النصر والظفر لأوليائه وأهل طاعته وإن جرى عليهم ما جرى، ﴿يُخْفُونَ﴾ يعني المنافقين ﴿فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾، ثم بين الأمر الذي يخفونه فقال: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾؛ أي: لو كان لنا في هذه الواقعة رأي ومشورة ﴿مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾، وهذا إنكار منهم، وتكذيب بقدر الله، وتسفيه منهم لرأي رسول الله ورأي أصحابه، وتزكية منهم لأنفسهم، فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ﴾ التي هي أبعد شيء عن مظان القتل ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾، فالأسباب وإن عظمت إنما تنفع إذا لم يعارضها القدر والقضاء، فإذا عارضها القدر لم تنفع شيئًا، بل لا بد أن يمضي الله ما كتب في اللوح المحفوظ من الموت والحياة ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾؛ أي: يختبر ما فيها من نفاق وإيمان وضعف إيمان، ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ من وساوس الشيطان وما تأثر عنها من الصفات غير الحميدة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾؛ أي: بما فيها وما أكنته، فاقتضى علمه وحكمته أن قدر من الأسباب ما به تظهر مخبآت الصدور وسرائر الأمور. ثم قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾.

﴿١٥٥﴾ يخبر تعالى عن حال الذين انهزموا يوم أحد، وما الذي أوجب لهم الفرار وأنه من تسويل الشيطان، وأنه تسلط عليهم ببعض ذنوبهم، فهم الذين أدخلوه على أنفسهم ومكّنوه بما فعلوا من المعاصي لأنها مركبه ومدخله، فلو اعتصموا بطاعة ربهم لما كان له عليهم من سلطان، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، ثم أخبر أنه عفا عنهم بعدما فعلوا ما يوجب المؤاخذة، وإلا فلو آخذهم لاستأصلهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ للمذنبين الخطائين بما يوفقهم له من التوبة والاستغفار والمصائب المكفرة ﴿حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ لا يعاجل من عصاه، بل يستأني به ويدعوه إلى الإنابة إليه والإقبال عليه، ثم إن تاب وأناب قبل منه، وصيره كأنه لم يجر منه ذنب، ولم يصدر عنه عيب. فلله الحمد على إحسانه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ

(١) ساقط من ط.

وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ
ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿١٥٧﴾
وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾.

﴿١٥٦﴾ ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يشابهوا الكافرين، الذين لا يؤمنون بربهم ولا بقضائه وقدره من المنافقين وغيرهم، ينهاهم عن مشابهتهم في كل شيء، وفي هذا الأمر الخاص وهم[1] أنهم يقولون لإخوانهم في الدين أو في النسب ﴿إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: سافروا للتجارة ﴿أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى﴾؛ أي: غزاة ثم جرى عليهم قتل أو موت يعارضون القدر ويقولون: ﴿لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ وهذا كذب منهم، فقد قال تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡ﴾، ولكن هذا التكذيب لم يفدهم، إلا أن الله يجعل هذا القول وهذه العقيدة حسرة في قلوبهم، فتزداد مصيبتهم، وأما المؤمنون[2] فإنهم يعلمون أن ذلك بقدر الله فيؤمنون ويسلمون فيهدي الله قلوبهم ويثبتها ويخفف بذلك عنهم المصيبة، قال الله ردًّا عليهم: ﴿وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾؛ أي: هو المتفرد بذلك فلا يغني حذر عن قدر، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١٥٦﴾﴾؛ فيجازيكم بأعمالكم وتكذيبكم.

﴿١٥٧﴾ ثم أخبر تعالى أن القتل في سبيله أو الموت فيه، ليس فيه نقص ولا محذور، وإنما هو مما ينبغي أن يتنافس فيه المتنافسون، لأنه سبب مفض وموصل إلى مغفرة الله ورحمته، وذلك خير مما يجمع أهل الدنيا من دنياهم.

﴿١٥٨﴾ وأن الخلق أيضًا إذا ماتوا، أو قتلوا بأي حالة كانت، فإنما مرجعهم إلى الله ومآلهم إليه، فيجازي كلًّا بعمله، فأين الفرار إلا إلى الله، وما للخلق عاصم إلا الاعتصام بحبل الله.

﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾.

﴿١٥٩﴾ أي: برحمة الله لك ولأصحابك، مَنَّ الله عليك أن ألنت لهم جانبك وخفضت لهم جناحك، وترققت عليهم،

الجزء الرابع | سورة آل عمران

وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ
ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ
فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ
فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ
فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ
بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن
يَغُلَّۚ وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ
نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ
ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ
﴿١٦٢﴾ هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿١٦٣﴾
لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ
يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ
وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾
أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ
قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾

٧١

وحسنت لهم خلقك، فاجتمعوا عليك، وأحبوك وامتثلوا أمرك، ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا﴾؛ أي: سيئ الخلق ﴿غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ﴾؛ أي: قاسيه، ﴿لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ لأن هذا ينفرهم ويبغضهم لمن قام به هذا الخلق السيئ، فالأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين تجذب الناس إلى دين الله وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس عن الدين وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص. فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول، فكيف بغيره؟! أليس من أوجب الواجبات وأهم المهمات الاقتداء بأخلاقه الكريمة، ومعاملة الناس بما كان[3] يعاملهم به ﷺ، من اللين وحسن الخلق والتأليف؟ امتثالًا لأمر الله وجذبًا لعباد الله لدين الله؟

ثم أمره[4] الله تعالى بأن يعفو عنهم ما صدر منهم من التقصير في حقه ﷺ ويستغفر لهم في التقصير في حق الله فيجمع بين العفو والإحسان، ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾؛

(١) ع: «وهو».
(٢) بعده في ع: «بالله».

(٣) ساقط من ع، ط.
(٤) في الأصل، ط: «أمر».

أي: الأمور التي تحتاج إلى استشارة ونظر وفكر، فإن في الاستشارة من الفوائد والمصالح الدينية والدنيوية ما لا يمكن حصره:

منها: أن المشاورة من العبادات المتقرب بها إلى الله.

ومنها: أن فيها تسميحًا لخواطرهم وإزالة لما يصير في القلوب عند الحوادث، فإن من له الأمر على الناس إذا جمع أهل الرأي والفضل، وشاورهم في حادثة من الحوادث، اطمأنت نفوسهم وأحبوه وعلموا أنه ليس يستبد عليهم، وإنما ينظر إلى المصلحة الكلية العامة للجميع، فبذلوا جهدهم ومقدورهم في طاعته لعلمهم بسعيه في مصالح العموم، بخلاف من ليس كذلك فإنهم لا يكادون يحبونه محبة صادقة ولا يطيعونه، وإن أطاعوه فطاعة غير تامة.

ومنها: أن في الاستشارة تنور الأفكار بسبب إعمالها فيما وضعت له، فصار في ذلك زيادة للعقول.

ومنها: ما تنتجه الاستشارة من الرأي المصيب، فإن المشاور لا يكاد يخطئ في فعله، وإن أخطأ أو لم يتم له مطلوب فليس بملوم.

فإذا كان الله يقول لرسوله ﷺ - وهو أكمل الناس عقلًا وأغزرهم علمًا وأفضلهم رأيًا -: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾، فكيف بغيره؟ ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾؛ أي: على أمر من الأمور بعد الاستشارة فيه إن كان يحتاج إلى استشارة ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: اعتمد على حول الله وقوته متبرئًا من حولك وقوتك، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ عليه اللاجئين إليه.

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

﴿١٦٠﴾ أي: إن يمددكم الله بنصره ومعونته ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾، فلو اجتمع عليكم من في أقطارها وما عندهم من العَدد والعُدد؛ لأن الله لا مغالب له، وقد قهر العباد وأخذ بنواصيهم، فلا تتحرك دابة إلا بإذنه، ولا تسكن إلا بإذنه، ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ ويكلكم إلى أنفسكم ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾، فلا بد أن تنخذلوا ولو أعانكم جميع الخلق، وقد[1] ضمن ذلك الأمر بالاستنصار بالله والاعتماد عليه والبراءة من الحول والقوة، ولهذا قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾، وتقدم المعمول يؤذن بالحصر، أي: على الله توكلوا لا على غيره، لأنه قد علم أنه هو الناصر وحده، فالاعتماد عليه توحيد محصل للمقصود، والاعتماد على غيره شرك غير نافع لصاحبه بل ضار، وفي هذه الآية الأمر بالتوكل على الله وحده، وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾.

﴿١٦١﴾ الغلول: هو الكتمان من الغنيمة والخيانة في كل مال يتولاه الإنسان وهو محرم إجماعًا، بل هو من الكبائر كما تدل عليه هذه الآية الكريمة وغيرها من النصوص، فأخبر الله تعالى أنه ما ينبغي ولا يليق بنبي أن يغل، لأن الغلول - كما علمت - من أعظم الذنوب وشر العيوب.

وقد صان الله تعالى أنبياءه عن كل ما يدنسهم ويقدح فيهم، وجعلهم أفضل العالمين أخلاقًا وأطهرهم نفوسًا، وأزكاهم وأطيبهم، ونزههم عن كل عيب، وجعلهم محل رسالته ومعدن حكمته، ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فبمجرد علم العبد بالواحد منهم يجزم بسلامتهم من كل أمر يقدح فيهم، ولا يحتاج إلى دليل على فساد[2] ما قيل فيهم من أعدائهم، لأن معرفته بنبوتهم تستلزم دفع[3] ذلك، ولذلك أتى بصيغة يمتنع معها وجود الفعل منهم فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ﴾؛ أي: يمتنع ذلك ويستحيل على من اختارهم الله لنبوته. ثم ذكر الوعيد على من غل فقال: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: يأت به حامله على ظهره؛ حيوانًا كان أو متاعًا أو غير ذلك يعذب به يوم القيامة ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾؛ الغال وغيره كل يوفى أجره ووزره على مقدار كسبه ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾؛ أي: لا يُزادُ[4] في سيئاتهم ولا يهضمون شيئًا من حسناتهم.

---

(١) ع، ط: «وفي».
(٢) ساقط من ع، ط.
(٣) ع: «مستلزم لدفع»، ط: «مستلزمة لدفع».
(٤) ط: «يزداد».

وتأمل حسن هذا الاحتراز في هذه الآية الكريمة لما ذكر عقوبة الغال، وأنه يأتي يوم القيامة بما غله، ولما أراد أن يذكر توفيته وجزاءه وكان اقتصاره على الغال يوهم بالمفهوم أن غيره من أنواع العاملين قد لا يوفون، أتى بلفظ عام جامع له ولغيره.

﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾.

﴿١٦٢﴾، ﴿١٦٣﴾ يخبر تعالى أنه لا يستوي من كان قصده رضوان ربه والعمل على ما يرضيه كمن ليس كذلك ممن هو مكب على المعاصي مسخط لربه، هذان لا يستويان في حكم الله وحكمة الله وفي فِطَرِ عباد الله ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ ﴾ [السجدة: ١٨]؛ لهذا قال هنا: ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: كل هؤلاء متفاوتون في درجاتهم ومنازلهم بحسب تفاوتهم في أعمالهم.

فالمتبعون لرضوان الله يسعون في نيل الدرجات العاليات والمنازل والغرفات، فيعطيهم الله من فضله وجوده على قدر أعمالهم، والمتبعون لمساخط الله يسعون في النزول في الدركات إلى أسفل سافلين كل على حسب عمله، والله بصير بأعمالهم لا يخفى عليه منها شيء، بل قد علمها وأثبتها في اللوح المحفوظ ووكل ملائكته الأمناء الكرام أن يكتبوها ويحفظوها ويضبطوها.

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾.

﴿١٦٤﴾ هذه المنة التي امتن الله بها على عباده أكبر النعم بل أصلها، وهي الامتنان عليهم بهذا الرسول الكريم الذي أنقذهم الله به من الضلالة، وعصمهم به من الهلكة فقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾؛ يعرفون نسبه وحاله ولسانه من قومهم وقبيلتهم ناصحًا لهم مشفقًا عليهم يتلو عليهم آيات الله؛ يعلمهم ألفاظها ومعانيها ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾؛ من الشرك والمعاصي والرذائل وسائر مساوئ الأخلاق ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾؛ إما جنس الكتاب الذي هو القرآن فيكون قوله: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾؛ المراد به الآيات الكونية، أو المراد بالكتاب هنا الكتابة فيكون قد امتن عليهم بتعليم الكتاب والكتابة التي بها تدرك العلوم وتحفظ ﴿ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾؛ هي: السنة التي هي شقيقة القرآن، أو وضع الأشياء مواضعها ومعرفة أسرار الشريعة فجمع لهم بين تعليم الأحكام وما به تنفذ الأحكام وما به تدرك فوائدها وثمراتها ففاقوا بهذه الأمور العظيمة جميع المخلوقين، وكانوا من العلماء الربانيين ﴿ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ ﴾؛ بعثة هذا الرسول ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾؛ لا يعرفون الطريق الموصل إلى ربهم، ولا ما يزكي النفوس، ويطهرها، بل ما يزين لهم جهلهم فعلوه، ولو ناقض ذلك عقول العالمين!

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾.

﴿١٦٥﴾ هذا تسلية من الله تعالى لعباده المؤمنين حين أصابهم ما أصابهم يوم أحد وقتل منهم نحو سبعين، فقال الله: إنكم ﴿ قَدْ أَصَبْتُم ﴾؛ من المشركين ﴿ مِّثْلَيْهَا ﴾[1]؛ فقتلتم سبعين من كبارهم وأسرتم سبعين، فليهن الأمر ولتخف المصيبة عليكم مع أنكم لا تستوون أنتم وهم، فإن قتلاكم في الجنة وقتلاهم في النار، ﴿ قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ﴾؛ أي: من أين أصابنا ما أصابنا وهزمنا؟ ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾؛ حين تنازعتم وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، فعودوا على أنفسكم باللوم واحذروا من الأسباب المردية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾؛ فإياكم وسوء الظن بالله، فإنه قادر على نصركم، ولكن له أتم الحكمة في ابتلائكم ومصيبتكم ﴿ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ [محمد: ٤].

(١) زاد في ع، ط: «يوم بدر».

وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ
١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ
أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ
يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ
فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ
وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ
ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٦٨ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي
سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩ فَرِحِينَ
بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ
بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٧٠
۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٧١ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ
أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ١٧٢
ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ
فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣

(١٦٦)، (١٦٧) ثم أخبر أن ما أصابهم يوم التقى الجمعان: جمع المسلمين وجمع المشركين في أحد من القتل والهزيمة، أنه بإذنه وقضائه وقدره، لا مرد له ولا بد من وقوعه، والأمر القدري إذا نفذ لم يبق إلا التسليم له وأنه قدره لحكم عظيمة وفوائد جسيمة، وأنه ليتبين بذلك المؤمن من المنافق الذين لما أمروا بالقتال ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ذبًّا عن دين الله وحماية له وطلبًا لمرضاة الله، ﴿أَوِ ٱدۡفَعُواْ﴾ عن محارمكم وبلدكم إن لم تكن لكم نية صالحة، فأبوا ذلك واعتذروا بأن: ﴿قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡ﴾؛ أي: لو نعلم أنكم يصير بينكم وبينهم قتال لاتبعناكم، وهم كذبة في هذا، قد علموا وتيقنوا، وعلم كل أحد أن هؤلاء المشركين قد ملئوا من الحنق والغيظ على المؤمنين بما أصابوا منهم، وأنهم قد بذلوا أموالهم وجمعوا ما يقدرون عليه من الرجال والعُدد، وأقبلوا في جيش عظيم قاصدين المؤمنين في بلدهم متحرقين على قتالهم، فمن كانت هذه حالهم كيف يتصور أنه[1] لا يصير بينهم وبين المؤمنين قتال؟! خصوصًا وقد خرج المسلمون من المدينة وبرزوا لهم، هذا من المستحيل، ولكن المنافقين ظنوا أن هذا العذر يروج على المؤمنين، قال تعالى: ﴿هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ﴾؛ أي: في تلك الحال التي تركوا فيها الخروج مع المؤمنين ﴿أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾، وهذه خاصة المنافقين يظهرون بكلامهم وفعالهم ما يبطنون ضده في قلوبهم وسرائرهم، ومنه قولهم: ﴿لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡ﴾، فإنهم قد علموا وقوع القتال. ويستدل بهذه الآية على قاعدة ارتكاب أخف المفسدتين لدفع أعلاهما وفعل أدنى المصلحتين للعجز عن أعلاهما؛ لأن المنافقين أمروا أن يقاتلوا للدين، فإن لم يفعلوا فللمدافعة عن العيال والأوطان ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ (١٦٧)﴾، فيبديه لعباده المؤمنين، ويعاقبهم عليه.

(١٦٨) ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾؛ أي: جمعوا بين التخلف عن الجهاد وبين الاعتراض والتكذيب بقضاء الله وقدره، قال الله ردًّا عليهم: ﴿قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ﴾؛ أي: ادفعوا ﴿عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (١٦٨)﴾، أنهم لو أطاعوكم ما قتلوا، لا تقدرون على ذلك ولا تستطيعونه. وفي هذه الآيات دليل على أن العبد قد يكون فيه خصلة كفر وخصلة إيمان، وقد يكون إلى إحداهما أقرب منه إلى الأخرى.

﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ (١٧٠) يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (١٧١)﴾.

(١٦٩) هذه الآيات الكريمات فيها فضل[2] الشهداء وكرامتهم، وما من الله عليهم به من فضله وإحسانه، وفي ضمنها تسلية الأحياء عن قتلاهم وتعزيتهم وتنشيطهم للقتال في سبيل الله والتعرض للشهادة فقال: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في جهاد أعداء الدين قاصدين بذلك إعلاء كلمة الله، ﴿أَمۡوَٰتَۢا﴾؛ أي: لا يخطر ببالك وحسبانك أنهم ماتوا، وفقدوا، وذهبت عنهم لذة الحياة الدنيا والتمتع بزهرتها، الذي يحذر من فواته من جبن عن

(١) ع: «أنهم».

(٢) ع: «فضيلة».

القتال وزهد في الشهادة، ﴿بَلۡ﴾ قد حصل لهم أعظم مما يتنافس فيه المتنافسون، فهم ﴿أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ في دار كرامته، ولفظ: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾، يقتضي علو درجتهم وقربهم من ربهم، ﴿يُرۡزَقُونَ (١٦٩)﴾ من أنواع النعيم الذي لا يعلم وصفه إلا من أنعم به عليهم.

(١٧٠) ومع هذا ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾؛ أي: مغتبطين بذلك وقد قرت به عيونهم وفرحت به نفوسهم، وذلك لحسنه وكثرته وعظمته وكمال اللذة في الوصول إليه وعدم المنغص، فجمع الله لهم بين نعيم البدن بالرزق ونعيم القلب والروح بالفرح بما آتاهم من فضله، فتم لهم النعيم والسرور وجعلوا يستبشرون ﴿بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾؛ أي: يبشر بعضهم بعضًا بوصول إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم وأنهم سينالون ما نالوا ﴿أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ (١٧٠)﴾؛ أي: يستبشرون بزوال المحذور عنهم وعن إخوانهم المستلزم كمال السرور.

(١٧١) ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ﴾ أي: يهنئ بعضهم بعضًا بأعظم مهنأ به وهو نعمة ربهم وفضله وإحسانه ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (١٧١)﴾؛ بل ينميه ويشكره، ويزيده من فضله ما لا يصل إليه سعيهم.

وفي هذه الآيات إثبات نعيم البرزخ، وأن الشهداء في أعلى مكان عند ربهم، وفيه تلاقي أرواح أهل الخير، وزيارة بعضهم بعضًا، وتبشير بعضهم بعضًا.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ (١٧٣) فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (١٧٥)﴾.

(١٧٢)، (١٧٣) لما رجع النبي ﷺ من أحد إلى المدينة وسمع أن أبا سفيان ومن معه من المشركين قد هموا بالرجوع إلى المدينة ندب أصحابه إلى الخروج، فخرجوا على ما بهم من الجراح استجابة لله ولرسوله وطاعة لله ولرسوله،

فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ
رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ
يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (١٧٥)
وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ
شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ
عَظِيمٌ (١٧٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ
ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (١٧٧) وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ
أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ
وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ (١٧٨) مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ
أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ
عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ
وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ (١٧٩) وَلَا
يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا
لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ
وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ (١٨٠)

فوصلوا إلى حمراء الأسد[1]، وجاءهم من جاءهم وقال لهم: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ﴾؛ وهموا باستئصالكم تخويفًا لهم وترهيبًا، فلم يزدهم ذلك إلا إيمانًا بالله واتكالًا عليه ﴿وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾؛ أي: كافينا كل ما أهمنا ﴿وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ (١٧٣)﴾؛ المفوض إليه تدبير عباده والقائم بمصالحهم.

(١٧٤) ﴿فَٱنقَلَبُواْ﴾؛ أي: رجعوا ﴿بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾، وجاء الخبر المشركين: أن الرسول وأصحابه قد خرجوا إليكم وندم من تخلف منهم، فألقى الله الرعب في قلوبهم واستمروا راجعين إلى مكة، ورجع المؤمنون بنعمة من الله وفضل حيث منَّ عليهم بالتوفيق للخروج بهذه الحالة والاتكال على ربهم، ثم إنه قد كتب لهم أجر غزاة تامة، فبسبب إحسانهم بطاعة ربهم وتقواهم عن معصيتهم لهم أجر عظيم، وهذا فضل الله عليهم.

(١) البخاري (٤٠٧٧، ٤٥٦٣).

(١٧٥) ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ ﴾؛ أي: إن ترهيب من رهب من المشركين - وقال: إنهم ﴿ جَمَعُواْ لَكُمۡ ﴾ - داع من دعاة الشيطان يخوف[1] أولياءه الذين عدم إيمانهم أو ضعف، ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (١٧٥) ﴾؛ أي: فلا تخافوا المشركين أولياء الشيطان فإن نواصيهم بيد الله لا يتصرفون إلا بقدره، بل خافوا الله الذي ينصر أولياءه الخائفين منه، المستجيبين لدعوته.

وفي هذه الآية وجوب الخوف من الله وحده وأنه من لوازم الإيمان، فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من الله، والخوف المحمود ما حجز العبد عن محارم الله.

﴿ وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (١٧٧) ﴾.

(١٧٦) كان النبي ﷺ حريصًا على الخلق مجتهدًا في هدايتهم، وكان يحزن إذا لم يهتدوا، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ ﴾ من شدة رغبتهم فيه وحرصهم عليه ﴿ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا ﴾ فالله ناصر دينه ومؤيد رسوله ومنفذ أمره من دونهم، فلا تبالهم ولا تحفل بهم، إنما يضرون ويسعون في ضرر أنفسهم بفوات الإيمان في الدنيا، وحصول العذاب الأليم في الأخرى، من هوانهم على الله وسقوطهم من عينه وإرادته ألَّا يجعل لهم نصيبًا في الآخرة من ثوابه؛ خذلهم فلم يوفقهم لما وفق إليه أولياءه، ومن أراد به خيرًا عدلًا منه وحكمة، لعلمه بأنهم غير زاكين على الهدى ولا قابلين للرشاد لفساد أخلاقهم وسوء قصدهم.

(١٧٧) ثم أخبر أن الذين اختاروا الكفر على الإيمان ورغبوا فيه رغبة من بذل ما يحب من المال في شراء ما يحب من السلع ﴿ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا ﴾، بل ضرر فعلهم يعود على أنفسهم، ولهذا قال: ﴿ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (١٧٧) ﴾، وكيف يضرون الله شيئًا؟! وهم قد زهدوا أشد الزهد في الإيمان ورغبوا كل الرغبة بالكفر بالرحمن فالله غني عنهم، وقد قيض لدينه من عباده الأبرار الأزكياء سواهم وأعد له ممن ارتضاه لنصرته أهل البصائر والعقول، وذوي الألباب من الرجال الفحول، قال الله تعالى: ﴿ قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا (١٠٧) ﴾ [الإسراء: ١٠٧] الآيات.

(١) زاد في ع، ط: «بها».

﴿ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ[2] (١٧٨) ﴾.

(١٧٨) أي: ولا يظن الذين كفروا بربهم، ونابذوا دينه، وحاربوا رسوله أن تركنا إياهم في هذه الحياة الدنيا، وعدم استئصالنا لهم وإملاءنا لهم خير لأنفسهم ومحبة منا لهم، كلا ليس الأمر كما زعموا، وإنما ذلك لشر يريده الله بهم وزيادة عذاب وعقوبة إلى عذابهم، ولهذا قال: ﴿ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ (١٧٨) ﴾، فالله تعالى يملي للظالم حتى يزداد طغيانه، ويترادف كفرانه ثم يأخذه[3] أخذ عزيز مقتدر، فليحذر الظالمون من الإمهال، ولا يظنوا أن يفوتوا الكبير المتعال.

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ (١٧٩) ﴾.

(١٧٩) أي: ما كان في حكمة الله أن يترك المؤمنين على ما أنتم عليه من الاختلاط وعدم التميز، حتى يميز الخبيث من الطيب، والمؤمن من المنافق، والصادق من الكاذب، ولم يكن في حكمته أيضًا أن يطلع عباده على الغيب الذي يعلمه من عباده، فاقتضت حكمته الباهرة أن يبتلي عباده، ويفتنهم بما به يتميز الخبيث من الطيب من أنواع الابتلاء والامتحان، فأرسل الله رسله وأمر بطاعتهم والانقياد لهم والإيمان بهم، ووعدهم على الإيمان والتقوى الأجر العظيم، فانقسم الناس بحسب اتباعهم للرسل قسمين: مطيعين وعاصين، ومؤمنين ومنافقين، ومسلمين وكافرين، ليرتب على ذلك الثواب والعقاب، وليظهر عدله وفضله وحكمته لخلقه.

﴿ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ (١٨٠) ﴾.

(٢) كتبت سهوًا: «أليم» وكذلك في الموضع التالي.
(٣) ع، ط: «حتى إذا أخذه أخذه».

(١٨٠) أي: ولا يظن الذين يبخلون؛ أي: يمنعون ما عندهم مما آتاهم الله من فضله من المال والجاه والعلم وغير ذلك، مما منحهم الله وأحسن إليهم به، وأمرهم ببذل ما لا يضرهم منه لعباده فبخلوا بذلك، وأمسكوه وضنوا به على عباد الله، وظنوا أنه خير لهم، بل هو شر لهم في دينهم ودنياهم وعاجلهم وآجلهم، ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ أي يجعل ما بخلوا به طوقًا في أعناقهم يعذبون به كما ورد في الحديث الصحيح: «**إن البخيل يمثل له ماله يوم القيامة شجاعًا أقرع له زبيبتان يأخذ بلهزمته يقول: أنا مالك، أنا كنزك**»[1]، وتلا رسول الله ﷺ مصداق ذلك هذه الآية، فهؤلاء حسبوا أن بخلهم نافعهم ومجد عليهم فانقلب عليهم الأمر، وصار من أعظم مضارهم وسبب عقابهم.

﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: هو تعالى مالك الملك وترد جميع الأملاك إلى مالكها وينقلب العباد من الدنيا ما معهم درهم ولا دينار ولا غير ذلك من المال. قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠)﴾ [مريم: ٤٠]، وتأمل كيف ذكر السبب الابتدائي والسبب الغائي، الموجب كل واحد منهما ألَّا يبخل العبد بما أعطاه الله.

أخبر أولًا أن الذي عنده وفي يده فضل من الله ونعمة ليس ملكًا للعبد، بل لولا فضل الله عليه وإحسانه لم يصل إليه منه شيء. فمنعه ذلك منع لفضل الله وإحسانه، ولأن إحسانه موجب للإحسان إلى عبيده، كما قال تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧]، فمن تحقق أن ما بيده هو فضل من الله لم يمنع الفضل الذي لا يضره بل ينفعه في قلبه وماله وزيادة إيمانه وحفظه من الآفات.

ثم ذكر ثانيًا أن هذا الذي بيد العباد، كله يرجع[2] إلى الله ويرثه[3] تعالى وهو خير الوارثين، فلا معنى للبخل بشيء هو زائل عنك، منتقل إلى غيرك.

ثم ذكر ثالثًا السبب الجزائي فقال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠)﴾، فإذا كان خبيرًا بأعمالكم جميعها ويستلزم ذلك الجزاء الحسن على الخيرات والعقوبات على الشر لم يتخلف من في قلبه مثقال ذرة من إيمان عن الإنفاق الذي يجزي به الثواب ولا يرضى بالإمساك الذي به العقاب.

(١) البخاري (١٤٠٣، ٤٥٦٥).
(٢) ع، ط: «كلها ترجع».
(٣) ع، ط: «ويرثها».

لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (١٨١) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ (١٨٢) ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٨٣) فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ (١٨٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ (١٨٥) ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ (١٨٦)

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (١٨١) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ (١٨٢)﴾.

(١٨١) يخبر تعالى عن قول هؤلاء المتمردين الذين قالوا أقبح المقالة وأشنعها وأسمجها، فأخبر أنه قد سمع ما قالوه، وأنه سيكتبه ويحفظه مع أفعالهم الشنيعة وهو قتلهم الأنبياء الناصحين، وأنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة وأنه يقال لهم بدل قولهم إن الله فقير ونحن أغنياء: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (١٨١)﴾؛ المحرق النافذ من البدن إلى الأفئدة، وأن عذابهم ليس ظلمًا من الله لهم فإنه ﴿لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ (١٨٢)﴾؛ فإنه منزه عن ذلك.

(١٨٢) وإنما ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ﴾ أيديهم من المخازي والقبائح التي أوجبت استحقاقهم العذاب وحرمانهم الثواب. وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت في قوم من اليهود تكلموا بذلك، وذكروا منهم فنحاص بن عازوراء من

رؤساء علماء اليهود في المدينة، وأنه لما سمع قول الله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥]، ﴿وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [الحديد: ١٨]، قال على وجه التكبر والتجرهم هذه المقالة قبحه الله، فذكرها الله عنهم، وأخبر أنه ليس ببدع من شنائعهم، بل قد سبق لهم من الشنائع ما هو نظير ذلك وهو قتلهم الأنبياء بغير حق، هذا القيد يراد به أنهم تجرءوا على قتلهم مع علمهم بشناعته لا جهلًا وضلالًا بل تمردًا وعنادًا.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾.

﴿١٨٣﴾ يخبر تعالى عن حال هؤلاء المفترين القائلين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ﴾؛ أي: تقدم إلينا وأوصى ألَّا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار فجمعوا بين الكذب على الله وحصر آية الرسل بما قالوه من هذا الإفك المبين، وأنهم إن لم يؤمنوا برسول لم يأتهم بقربان تأكله النار فهم في ذلك مطيعون لربهم ملتزمون عهده، وقد علم أن كل رسول يرسله الله يؤيده من الآيات والبراهين ما على مثله آمن البشر، ولم يقصرها على ما قالوه، ومع هذا فقد قالوا إفكًا لم يلتزموه وباطلًا لم يعملوا به، ولهذا أمر الله رسوله أن يقول لهم: ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الدالات على صدقهم ﴿وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ بأن أتاكم بقربان تأكله النار ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾؛ أي: في دعواكم[1] الإيمان برسول يأتيكم[2] بقربان تأكله النار، فقد تبين بهذا كذبهم وعنادهم وتناقضهم.

﴿١٨٤﴾ ثم سلَّى رسوله ﷺ فقال: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾؛ أي: هذه عادة الظالمين ودأبهم الكفر بالله وتكذيب رسل الله، وليس تكذيبهم لرسل الله عن قصور بما أتوا به أو عدم تبين حجة، بل قد ﴿جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: الحجج العقلية والبراهين النقلية ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾؛ أي: الكتب المزبورة المنزلة من السماء التي لا يمكن أن يأتي بها غير الرسل، ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ للأحكام الشرعية وبيان ما اشتملت عليه من المحاسن العقلية، ومنير أيضًا للأخبار الصادقة، فإذا كان هذا عادتهم في عدم الإيمان بالرسل الذين هذا وصفهم فلا يحزنك أمرهم ولا يهمنك شأنهم، ثم قال تعالى:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾.

﴿١٨٥﴾ هذه الآية الكريمة فيها التزهيد في الدنيا بفنائها وعدم بقائها وأنها متاع الغرور، تفتن بزخرفها وتخدع بغرورها وتغر بمحاسنها، ثم هي منتقِلة ومنتقَل عنها إلى دار القرار التي توفى فيها النفوس ما عملت في هذه الدار من خير وشر ﴿فَمَن زُحْزِحَ﴾؛ أي: أخرج ﴿عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾؛ أي: حصل له الفوز العظيم بالنجاة من العذاب الأليم والوصول إلى جنات النعيم التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ومفهوم الآية: أن من لم يزحزح عن النار، ولم يدخل الجنة فإنه لم يفز، بل قد شقي الشقاء الأبدي، وابتلي بالعذاب السرمدي.

وفي هذه الآية إشارة لطيفة إلى نعيم البرزخ وعذابه، وأن العاملين يجزون فيه بعض الجزاء مما عملوه ويقدم لهم أنموذج مما أسلفوه، يفهم هذا من قوله: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: توفية الأعمال التامة إنما يكون يوم القيامة، وأما ما دون ذلك فيكون في البرزخ، بل قد يكون قبل ذلك في الدنيا كقوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١].

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾.

﴿١٨٦﴾ يخبر تعالى ويخاطب المؤمنين أنهم سيبتلون في أموالهم من النفقات الواجبة والمستحبة، ومن التعريض لإتلافها في سبيل الله، وفي أنفسهم من التكليف بأعباء التكاليف الثقيلة على كثير من الناس كالجهاد في سبيل الله، والتعرض فيه للتعب والقتل والأسر والجراح، وكالأمراض

(١) ع: «دعواهم».
(٢) ع: «يأتي».

التي تصيبه في نفسه أو فيمن يحب، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب قبلكم ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ﴾ من الطعن فيكم وفي دينكم وكتابكم ورسولكم. وفي إخباره لعباده المؤمنين بذلك عدة فوائد:

منها: أن حكمته تعالى تقتضي ذلك ليتميز المؤمن الصادق من غيره.

ومنها: أنه تعالى يقدر عليهم هذه الأمور لما يريده بهم من الخير ليعلي درجاتهم ويكفر من سيئاتهم وليزداد بذلك إيمانهم ويتم به إيقانهم، فإنه إذا أخبرهم بذلك ووقع كما أخبر، ﴿ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢٢].

ومنها: أنه أخبرهم بذلك لتتوطن نفوسهم على وقوع ذلك والصبر عليه إذا وقع؛ لأنهم قد استعدوا لوقوعه فيهون عليهم حمله وتخف عليهم مؤنته ويلجئون إلى الصبر والتقوى، ولهذا قال: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ ﴾؛ أي: إن تصبروا على ما نالكم في أموالكم وأنفسكم من الابتلاء والامتحان وعلى أذية الظالمين وتتقوا الله في ذلك الصبر؛ بأن تنووا به وجه الله والتقرب إليه ولم تتعدوا في صبركم الحد الشرعي من الصبر في موضع لا يحل لكم فيه الاحتمال، بل وظيفتكم فيه الانتقام من أعداء الله.

﴿ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾؛ أي: من الأمور التي يعزم عليها وينافس فيها ولا يوفق لها إلا أهل العزائم والهمم العالية، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فصلت: ٣٥].

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ ﴾.

﴿١٨٧﴾ الميثاق: هو العهد الثقيل المؤكد، وهذا الميثاق أخذه الله تعالى على كل من أعطاه الله الكتب، وعلمه العلم أن يبين للناس ما يحتاجون إليه مما علمه الله ولا يكتمهم ذلك ويبخل عليهم به، خصوصًا إذا سألوه أو وقع ما يوجب ذلك، فإن كل من عنده علم يجب عليه في تلك الحال أن

الجزء الرابع — سورة آل عمران

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ
وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا
قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ
بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم
بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى
خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ
لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا
وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾
رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ
أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ
ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا
سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا
عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾

٧٥

يبينه ويوضح الحق من الباطل. فأما الموفقون فقاموا بهذا أتم القيام وعلموا الناس مما علمهم الله ابتغاء مرضاة ربهم وشفقة على الخلق وخوفًا من إثم الكتمان. وأما الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى ومن شابههم فنبذوا هذه العهود والمواثيق وراء ظهورهم فلم يعبئوا بها فكتموا الحق وأظهروا الباطل تجرؤًا على محارم الله وتهاونًا بحقوقه تعالى وحقوق الخلق واشتروا بذلك الكتمان ﴿ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ وهو ما يحصل لهم إن حصل من بعض الرياسات والأموال الحقيرة من سفلتهم المتبعين أهواءهم المقدمين شهواتهم على الحق ﴿ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ لأنه أخس العوض والذي رغبوا عنه وهو بيان الحق الذي فيه السعادة الأبدية والمصالح الدينية والدنيوية أعظم المطالب وأجلها، فلم يختاروا الدني الخسيس ويتركوا العالي النفيس إلا لسوء حظهم وهوانهم وكونهم لا يصلحون لغير ما خلقوا له. ثم قال تعالى:

﴿١٨٨﴾ ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ ﴾؛ أي: من القبائح والباطل القولي والفعلي ﴿ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ

يَفۡعَلُواْ﴾؛ أي: بالخير الذي لم يفعلوه والحق الذي لم يقولوه، فجمعوا بين فعل الشر وقوله والفرح بذلك ومحبة أن يحمدوا على فعل الخير الذي ما فعلوه، ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾؛ أي: بمحل نجوة منه وسلامة، بل قد استحقوه وسيصيرون إليه، ولهذا قال: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨٨﴾.

ويدخل في هذه الآية الكريمة أهل الكتاب الذين فرحوا بما عندهم من العلم ولم ينقادوا للرسول، وزعموا أنهم هم المحقون في حالهم ومقالهم، وكذلك كل من ابتدع بدعة قولية أو فعلية، وفرح بها، ودعا إليها، وزعم أنه محق وغيره مبطل كما هو الواقع من أهل البدع.

ودلت الآية بمفهومها على أن من أحب أن يحمد ويثنى عليه بما فعله من الخير واتباع الحق إذا لم يكن قصده بذلك الرياء والسمعة أنه غير مذموم، بل هذا من الأمور المطلوبة التي أخبر الله أنه يجزي بها المحسنين في[1] الأعمال والأقوال، وأنه جازى بها خواص خلقه وسألوها منه كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤﴾ [الشعراء: ٨٤]، وقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٩ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٠﴾ [الصافات: ٧٩، ٨٠]، وقد قال عباد الرحمن: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤﴾ [الفرقان: ٧٤]، وهي من نعم الباري على عبده ومننه التي تحتاج إلى شكر.

﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٨٩﴾.

١٨٩ أي: هو المالك للسماوات والأرض وما فيهما من سائر أصناف الخلق، المتصرف فيهم بكمال القدرة وبديع الصنعة، فلا يمتنع عليه منهم أحد، ولا يعجزه أحد.

﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ
لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا
وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا
مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ رَبَّنَآ إِنَّكَ
مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢
رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ
فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا
مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا
يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ١٩٤﴾.

(١) ع، ط: «له».

١٩٠ يخبر تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠﴾، وفي ضمن ذلك حث العباد على التفكر فيها والتبصر بآياتها وتدبر خلقها. وأبهم قوله: ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾، ولم يقل على المطلب الفلاني إشارة لكثرتها وعمومها، وذلك لأن فيها من الآيات العجيبة ما يبهر الناظرين ويقنع المتفكرين ويجذب أفئدة الصادقين وينبه العقول النيرة على جميع المطالب الإلهية، فأما تفصيل ما اشتملت عليه فلا يمكن مخلوقًا أن يحصره ويحيط ببعضه، وفي الجملة فما فيها من العظمة والسعة وانتظام السير والحركة يدل على عظمة خالقها وعظمة سلطانه وشمول قدرته، وما فيها من الإحكام والإتقان وبديع الصنع ولطائف الفعل يدل على حكمة الله ووضعه الأشياء مواضعها وسعة علمه، وما فيها من المنافع للخلق يدل على سعة رحمة الله وعموم فضله وشمول بره ووجوب شكره، وكل ذلك يدل على تعلق القلب بخالقها ومبدعها وبذل الجهد في مرضاته، وألَّا يشرك به سواه ممن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وخص الله بالآيات أولي الألباب وهم أهل العقول؛ لأنهم هم المنتفعون بها الناظرون إليها بعقولهم لا بأبصارهم.

١٩١ ثم وصف أولي الألباب بأنهم: ﴿يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ في جميع أحوالهم ﴿قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾، وهذا يشمل جميع أنواع الذكر بالقول والقلب، ويدخل في ذلك الصلاة قائمًا، فإن لم يستطع فقاعدًا، فإن لم يستطع فعلى جنب، وأنهم يتفكرون ﴿فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: ليستدلوا بها على المقصود منها، ودل هذا على أن التفكر عبادة من صفات أولياء الله العارفين، فإذا تفكروا بها عرفوا أن الله لم يخلقها عبثًا فيقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ﴾ عن كل ما لا يليق بجلالك، بالحق وللحق، بل خلقتها[2] مشتملة على الحق ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾، بأن تعصمنا من السيئات وتوفقنا للأعمال الصالحات لننال بذلك النجاة من النار. ويتضمن ذلك سؤال الجنة لأنهم إذا وقاهم الله عذاب النار حصلت لهم الجنة، ولكن لما قام الخوف بقلوبهم، دعوا الله بأهم الأمور عندهم:

(٢) عبارة: «بالحق وللحق، بل خلقتها» وردت في ع، ط: «بل خلقتها بالحق وللحق».

فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن
ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ
مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ
عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا
ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥
لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ
ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ
رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا
نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ١٩٨ وَإِنَّ مِنۡ
أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ
أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا
قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ
سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ
وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠

سُورَةُ النِّسَاءِ — مدنية ٤ — آياتها ١٧٦

٧٦

(١٩٢) ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ﴾؛ أي: لحصوله على السخط من الله ومن ملائكته وأوليائه ووقوع الفضيحة التي لا نجاة منها ولا منقذ منها، ولهذا قال: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢﴾ ينقذونهم من عذابه، وفيه دلالة على أنهم دخلوها بظلمهم.

(١٩٣) ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ﴾ وهو محمد ﷺ؛ يدعو الناس إليه ويرغبهم فيه في أصوله وفروعه ﴿فَـَٔامَنَّاۚ﴾؛ أي: أجبناه مبادرة وسارعنا إليه. وفي هذا إخبار منهم بمنة الله عليهم وتبجح بنعمته وتوسل إليه بذلك أن يغفر ذنوبهم ويكفر سيئاتهم؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات. والذي مَنَّ عليهم بالإيمان يَمُنُّ[1] عليهم بالأمان التام، ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣﴾، يتضمن هذا الدعاء التوفيق لفعل الخير وترك الشر الذي به يكون العبد من الأبرار والاستمرار عليه والثبات إلى الممات.

(١٩٤) ولما ذكروا توفيق الله إياهم للإيمان وتوسلهم به إلى تمام النعمة، سألوه الثواب على ذلك، وأن ينجز لهم ما وعدهم به على ألسنة رسله من النصر والظهور في الدنيا، ومن الفوز برضوان الله وجنته في الآخرة، فإنه تعالى لا يخلف الميعاد، فأجاب الله دعاءهم وقبل تضرعهم فلهذا قال:

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥﴾.

(١٩٥) أي: أجاب الله دعاءهم دعاء العبادة ودعاء الطلب وقال: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ﴾ فالجميع سيلقون ثواب أعمالهم كاملًا موفرًا، ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ﴾[2] أي: كلكم على حد سواء في الثواب والعقاب، ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾ فجمعوا بين الإيمان والهجرة ومفارقة المحبوبات من الأوطان والأموال طلبًا لمرضاة ربهم وجاهدوا في سبيل الله ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾ الذي يعطي عبده الثواب الجزيل على العمل القليل، ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥﴾، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فمن أراد ذلك فليطلبه من الله بطاعته والتقرب إليه بما يقدر عليه العبد.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ١٩٨﴾.

(١٩٦) وهذه الآية المقصود منها التسلية عما يحصل للذين كفروا من متاع الدنيا وتنعمهم فيها، وتقلبهم في البلاد بأنواع التجارات والمكاسب واللذات وأنواع العز والغلبة في بعض الأوقات، فإن هذا كله:

(١٩٧) ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾ ليس له ثبوت ولا بقاء، بل يتمتعون به قليلًا ويعذبون عليه طويلًا، هذه أعلى حالة تكون للكافر، وقد رأيت ما تؤول إليه.

---
(١) ع، ط: «سيمن».
(٢) عبارة: «﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ﴾» ليس في الأصل، ط.

(١٩٨) وأما المتقون لربهم المؤمنون به فمع ما يحصل لهم من عز الدنيا ونعيمها ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ فلو قدر أنهم في دار الدنيا قد حصل لهم كل بؤس وشدة وعناء ومشقة، لكان هذا بالنسبة إلى النعيم المقيم والعيش السليم والسرور والحبور والبهجة نزرًا يسيرًا ومنحة في صورة محنة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ (١٩٨)﴾ وهم الذين برت قلوبهم فبرت أقوالهم وأفعالهم فأثابهم البر الرحيم من بره أجرًا عظيمًا وعطاءً جسيمًا وفوزًا دائمًا.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ (١٩٩) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)﴾.

(١٩٩) أي: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ طائفة موفقة للخير يؤمنون بالله ويؤمنون بما ﴿أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾، وهذا الإيمان النافع لا كمن يؤمن ببعض الرسل والكتب ويكفر ببعض، ولهذا لما كان إيمانهم عامًّا حقيقيًّا صار نافعًا فأحدث لهم خشية الله وخضوعهم لجلاله الموجب للانقياد لأوامره ونواهيه والوقوف عند حدوده، وهؤلاء أهل الكتاب والعلم على الحقيقة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، ومن تمام خشيتهم لله أنهم ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، فلا يقدمون الدنيا على الدين كما فعل أهل الانحراف الذين يكتمون ما أنزل الله ويشترون به ثمنًا قليلًا، وأما هؤلاء فعرفوا الأمر على الحقيقة وعلموا أن من أعظم الخسران الرضا بالدون عن الدين، والوقوف مع بعض حظوظ النفس السفلية وترك الحق الذي هو أكبر حظ وفوز في الدنيا والآخرة، فآثروا الحق وبينوه ودعوا إليه، وحذروا عن الباطل، فأثابهم الله على ذلك بأن وعدهم الأجر الجزيل والثواب الجميل، وأخبرهم بقربه وأنه ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ (٢٠٢)﴾ فلا يستبطئون ما وعدهم الله، لأن ما هو آت محقق حصوله فهو قريب.

(٢٠٠) ثم حض المؤمنين على ما يوصلهم إلى الفلاح، وهو الفوز بالسعادة[1] والنجاح، وأن الطريق الموصل إلى ذلك لزوم الصبر: الذي هو حبس النفس على ما تكرهه من ترك المعاصي ومن الصبر على المصائب وعلى الأوامر الثقيلة على النفوس، فأمرهم بالصبر على جميع ذلك. والمصابرة: هي الملازمة والاستمرار على ذلك على الدوام، ومقاومة الأعداء في جميع الأحوال. والمرابطة: وهو لزوم المحل الذي يخاف من وصول العدو منه وأن يراقبوا أعداءهم ويمنعوهم من الوصول إلى مقاصدهم، لعلهم يفلحون: يفوزون بالمحبوب الديني والدنيوي والأخروي وينجون من المكروه كذلك. فعلم من هذا أنه لا سبيل إلى الفلاح بدون الصبر والمصابرة والمرابطة المذكورات، فلم يفلح من أفلح إلا بها ولم يفت أحدًا الفلاح إلا بالإخلال بها أو ببعضها.

والله الموفق ولا حول ولا قوة إلا به.

تم تفسير سورة آل عمران. والحمد لله على نعمته ونسأله تمام النعمة.

تم المجلد الأول من «تيسير الرحيم الرحمن في تفسير القرآن» عن نسخة مؤلفه العلامة الجليل الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ويليه المجلد الثاني وأوله تفسير سورة النساء، والحمد لله رب العالمين.



(١) ع: «والسعادة».

تفسير سورة النساء

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وصلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا:

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾.

(١) افتتح تعالى هذه السورة بالأمر بتقواه والحث على عبادته والأمر بصلة الأرحام والحث على ذلك، وبيَّن السبب الداعي الموجب لكل من ذلك، وأن الموجب لتقواه: أنه ربكم الذي خلقكم ورزقكم ورباكم بنعمه العظيمة التي من جملتها خلقكم ﴿مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ ليناسبها فيسكن إليها وتتم بذلك النعمة ويحصل به السرور؛ وكذلك من الموجب الداعي لتقواه تساؤلكم به وتعظيمكم، حتى إنكم إذا أردتم قضاء حاجاتكم ومآربكم؛ توسلتم لها[1] بالسؤال بالله[2]، فيقول من يريد ذلك لغيره: أسألك بالله أن تفعل الأمر الفلاني؛ لعلمه بما قام في قلبه من تعظيم الله الداعي ألَّا يرد من سأله بالله؛ فكما عظمتموه بذلك؛ فلتعظموه بعبادته وتقواه. وكذلك الإخبار بأنه رقيب؛ أي: مطلع على العباد في حال حركاتهم وسكونهم وسرهم وعلنهم وجميع الأحوال مراقبًا لهم فيها، مما يوجب مراقبته وشدة الحياء منه بلزوم تقواه؛ وفي الإخبار بأنه خلقهم من نفس واحدة، وأنه بثهم في أقطار الأرض مع رجوعهم إلى أصل واحد ليعطف بعضهم على بعض، ويرقق بعضهم على بعض.

وقرن الأمر بتقواه بالأمر ببر الأرحام والنهي عن قطيعتها ليؤكد هذا الحق، وأنه كما يلزم القيام بحق الله كذلك يجب

الجزء الرابع — سورة النساء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ٢ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ٣ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٥ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٦

٧٧

القيام بحقوق الخلق، خصوصًا الأقربين منهم، بل القيام بحقوقهم هو من حق الله الذي أمر[3] به. وتأمل كيف افتتح هذه السورة بالأمر بالتقوى، وصلة الأرحام، والأزواج عمومًا، ثم بعد ذلك فصل هذه الأمور أتم تفصيل من أول السورة إلى آخرها؛ فكأنها مبنية على هذه الأمور المذكورة، مفصلة لما أجمل منها، موضحة لما أبهم.

وفي قوله: ﴿وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾: تنبيه على مراعاة حق الأزواج والزوجات والقيام به؛ لكون الزوجات مخلوقات من الأزواج؛ فبينهم وبينهن أقرب نسب وأشد اتصال وأوثق[4] علاقة.

وقوله تعالى:

﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ٢﴾.

---

(١) في الأصل، ع: «بها».
(٢) ليس في الأصل.
(٣) زاد في ع، ط: «الله».
(٤) ع: «وأقرب».

 هذا أول ما أوصى به من حقوق الخلق في هذه السورة، وهم اليتامى الذين فقدوا آباءهم الكافلين لهم، وهم صغار ضعاف، لا يقومون بمصالحهم، فأمر الرءوف الرحيم عباده أن يحسنوا إليهم، وألَّا يقربوا أموالهم إلا بالتي هي أحسن، وأن يؤتوهم أموالهم إذا بلغوا ورشدوا كاملةً موفرةً، وألَّا يتبدلوا الخبيث الذي هو أكل مال اليتيم بغير حق ﴿بِالطَّيِّبِ﴾ وهو الحلال الذي ما فيه حرج ولا تبعة ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾؛ أي: مع أموالكم، ففيه تنبيه لقبح أكل مالهم بهذه الحالة، التي هي[1] قد استغنى بها الإنسان بما جعل الله له من الرزق في ماله؛ فمن تجرأ على هذه الحالة فقد أتى ﴿حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾؛ أي: إثمًا عظيمًا ووزرًا جسيمًا.

ومن استبدال الخبيث بالطيب أن يأخذ الولي من مال اليتيم النفيس ويجعل بدله من ماله الخسيس.

وفيه الولاية على اليتيم؛ لأن من لازم إيتاء اليتيم ماله ثبوت ولاية المؤتي على ماله. وفيه الأمر بإصلاح مال اليتيم؛ لأن تمام إيتائه ماله حفظه والقيام به بما يصلحه وينميه وعدم تعريضه للمخاوف والأخطار.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾﴾.

﴿٣﴾ أي: وإن خفتم ألا تعدلوا في يتامى النساء اللاتي تحت حجوركم وولايتكم، وخفتم ألَّا تقوموا بحقهن لعدم محبتكم إياهن، فاعدلوا إلى غيرهن وانكحوا ﴿مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾؛ أي: ما وقع عليهن اختياركم من ذوات الدين والمال والجمال والحسب والنسب وغير ذلك من الصفات الداعية لنكاحهن؛ فاختاروا على نظركم، ومن أحسن ما يختار من ذلك صفة الدين؛ كما قال النبي ﷺ: «**تنكح المرأة لأربع: لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها؛ فاظفر بذات الدين تربت يمينك**»[2]. وفي هذه الآية أنه ينبغي للإنسان أن يختار قبل النكاح، بل قد[3] أباح له الشارع النظر إلى من يريد تزوجها؛ ليكون على بصيرة من أمره.

(١) سقط من ع.
(٢) البخاري (٥٠٩٠)، أحمد (١١٧٦٥).
(٣) ع: «وقد».

ثم ذكر العدد الذي أباحه من النساء، فقال: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾، أي: من أحب أن يأخذ ثنتين فليفعل، أو ثلاثًا فليفعل، أو أربعًا؛ فليفعل، ولا يزيد عليها؛ لأن الآية سيقت لبيان الامتنان، فلا يجوز الزيادة على غير ما سمى الله تعالى إجماعًا؛ وذلك لأن الرجل قد لا تندفع شهوته بالواحدة، فأبيح له واحدة بعد واحدة، حتى يبلغ[4] أربعًا؛ لأن في الأربع غنيةً لكل أحد إلا ما ندر، ومع هذا فإنما يباح له ذلك إذا أمن على نفسه الجور والظلم ووثق بالقيام بحقوقهن؛ فإن خاف شيئًا من هذا فليقتصر على واحدة أو على ملك يمينه؛ فإنه لا يجب عليه القسم في ملك اليمين، ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: الاقتصار على واحدة أو ما ملكت اليمين ﴿أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾﴾؛ أي: تظلموا، وفي هذا أن تعرض العبد للأمر الذي يخاف منه الجور والظلم وعدم القيام بالواجب ولو كان مباحًا؛ أنه لا ينبغي له أن يتعرض له، بل يلزم السعة والعافية؛ فإن العافية خير ما أعطي العبد.

﴿٤﴾ ولما كان كثير من الناس يظلمون النساء ويهضمونهن حقوقهن، خصوصًا الصداق الذي يكون شيئًا كثيرًا ودفعةً واحدةً يشق دفعه للزوجة؛ أمرهم وحثهم على إيتاء النساء ﴿صَدُقَٰتِهِنَّ﴾، أي: مهورهن ﴿نِحْلَةً﴾؛ أي: عن طيب نفس وحال طمأنينة؛ فلا تمطلوهن أو تبخسوا منه شيئًا، وفيه أن المهر يدفع إلى المرأة إذا كانت مكلفةً، وأنها تملكه بالعقد؛ لأنه أضافه إليها، والإضافة تقتضي التمليك؛ ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ﴾؛ أي: من الصداق ﴿نَفْسًا﴾؛ بأن سمحن لكم عن رضا واختيار بإسقاط شيء منه أو تأخيره أو المعاوضة عنه؛ ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾﴾؛ أي: لا حرج عليكم في ذلك ولا تبعة. وفيه دليل على أن للمرأة التصرف في مالها ولو بالتبرع إذا كانت رشيدةً؛ فإن لم تكن كذلك فليس لعطيتها حكم، وأنه ليس لوليها من الصداق شيء غير ما طابت به. وفي قوله: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾: دليل على أن نكاح الخبيثة غير مأمور به، بل منهي عنه كالمشركة وكالفاجرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢١]، وقال: ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ [النور: ٣].

وقوله تعالى:

﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾﴾.

(٤) الأصل: «تبلغ».

(٥) السفهاء: جمع سفيه، وهو من لا يحسن التصرف في المال: إما لعدم عقله كالمجنون والمعتوه ونحوهما، وإما لعدم رشده؛ كالصغير وغير الرشيد، فنهى الله الأولياء أن يؤتوا هؤلاء أموالهم خشية إفسادها وإتلافها؛ لأن الله جعل الأموال قيامًا لعباده في مصالح دينهم ودنياهم، وهؤلاء لا يحسنون القيام عليها وحفظها، فأمر الله الولي ألَّا يؤتيهم إياها، بل يرزقهم منها ويكسوهم ويبذل منها ما يتعلق بضروراتهم وحاجاتهم الدينية والدنيوية، وأن يقولوا لهم قولًا معروفًا؛ بأن يعدوهم إذا طلبوها أنهم سيدفعونها لهم بعد رشدهم ونحو ذلك، ويلطفوا لهم في الأقوال جبرًا لخواطرهم.

وفي إضافته تعالى الأموال إلى الأولياء إشارة إلى أنه يجب عليهم أن يعملوا في أموال السفهاء ما يفعلونه في أموالهم من الحفظ والتصرف وعدم التعريض للأخطار.

وفي الآية دليل على أن نفقة المجنون والصغير والسفيه في مالهم إذا كان لهم مال، لقوله: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ﴾.

وفيه دليل على أن قول الولي مقبول فيما يدعيه من النفقة الممكنة والكسوة؛ لأن الله جعله مؤتمنًا على مالهم، فلزم قبول قول الأمين.

﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا (٦)﴾.

(٦) الابتلاء هو: الاختبار والامتحان، وذلك بأن يدفع لليتيم المقارب للرشد الممكن رشده شيء من ماله، ويتصرف فيه التصرف اللائق بحاله، فيتبين بذلك رشده من سفهه؛ فإن استمر غير محسن للتصرف؛ لم يدفع إليه ماله، بل هو باق على سفهه، ولو بلغ عمرًا كثيرًا؛ فإن تبين رشده وصلاحه في ماله وبلغ النكاح؛ ﴿فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ كاملة موفرة، ﴿وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا﴾؛ أي: مجاوزة للحد الحلال الذي أباحه الله لكم من أموالكم إلى الحرام الذي حرمه الله عليكم من أموالهم؛ ﴿وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْ﴾، أي: ولا تأكلوها في حال صغرهم التي لا يمكنهم فيها أخذها منكم، ولا منعكم من أكلها تبادرون بذلك أن يكبروا فيأخذوها منكم ويمنعوكم منها، وهذا من الأمور الواقعة من كثير من

سُورَةُ النِّسَاءِ — الجُزْءُ الرَّابِعُ

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ
مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ أَوۡ كَثُرَۚ نَصِيبٗا
مَّفۡرُوضٗا (٧) وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ
وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا
(٨) وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا
خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا (٩)
إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي
بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا (١٠) يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ
فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ
فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا
ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن
كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ
فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي
بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ
نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا (١١)

٧٨

الأولياء الذين ليس عندهم خوف من الله ولا رحمة ومحبة للمولى عليهم، يرون هذه الحال حال فرصة، فيغتنمونها ويتعجلون ما حرم الله عليهم، فنهى الله تعالى عن هذه الحالة بخصوصها.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ أَوۡ كَثُرَۚ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا (٧)﴾.

(٧) كان العرب في الجاهلية من جبروتهم وقسوتهم لا يورثون الضعفاء كالنساء والصبيان، ويجعلون الميراث للرجال الأقوياء؛ لأنهم - بزعمهم - أهل الحرب والقتال والنهب والسلب، فأراد الرب الرحيم الحكيم أن يشرع لعباده شرعًا يستوي فيه رجالهم ونساؤهم وأقوياؤهم وضعفاؤهم، وقدم بين يدي ذلك أمرًا مجملًا لتتوطن على ذلك النفوس فيأتي التفصيل بعد الإجمال قد تشوقت له النفوس وزالت الوحشة التي منشؤها العادات القبيحة، فقال: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ﴾؛ أي: قسط وحصة، ﴿مِّمَّا تَرَكَ﴾؛ أي: خلف،

﴿ٱلْوَٰلِدَانِ﴾؛ أي: الأب والأم، ﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾؛ عموم بعد خصوص، ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾، فكأنه قيل: هل ذلك النصيب راجع إلى العرف والعادة وأن يرضخوا لهم ما يشاءون أو شيئًا مقدرًا؟ فقال تعالى: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝٧﴾؛ أي: قد قدره العليم الحكيم. وسيأتي إن شاء الله تقدير ذلك. وأيضًا؛ فهنا توهم آخر: لعل أحدًا يتوهم أن النساء والولدان ليس لهم نصيب إلا من المال الكثير، فأزال ذلك بقوله: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾؛ فتبارك الله أحسن الحاكمين.

﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُولُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٨﴾.

۝٨ وهذا من أحكام الله الحسنة الجليلة الجابرة للقلوب، فقال: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ﴾؛ أي: قسمة المواريث، ﴿أُولُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ﴾؛ أي: الأقارب غير الوارثين بقرينة قوله: ﴿ٱلْقِسْمَةَ﴾؛ لأن الوارثين من المقسوم عليهم، ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ﴾؛ أي: المستحقون من الفقراء؛ ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾؛ أي: أعطوهم ما تيسر من هذا المال الذي جاءكم بغير كد ولا تعب ولا عناء ولا نصب؛ فإن نفوسهم متشوفة إليه وقلوبهم متطلعة؛ فاجبروا خواطرهم بما لا يضركم وهو نافعهم. ويؤخذ من المعنى أن كل من له تطلع وتشوف إلى ما حضر بين يدي الإنسان ينبغي له أن يعطيه منه ما تيسر؛ كما كان النبي ﷺ يقول: «**إذا جاء أحدكم خادمه بطعامه؛ فليجلسه معه؛ فإن لم يجلسه معه؛ فليناوله لقمة أو لقمتين**»[1]، أو كما قال. وكان الصحابة رضي الله عنهم إذا بدأت باكورة أشجارهم؛ أتوا بها رسول الله ﷺ، فبرك عليها، ونظر إلى أصغر وليد عنده، فأعطاه ذلك[2]؛ علمًا منه بشدة تشوفه لذلك، وهذا كله مع إمكان الإعطاء؛ فإن لم يمكن ذلك لكونه حق سفهاء أو ثم أهم من ذلك؛ فليقولوا لهم ﴿قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٨﴾؛ يردونهم ردًا جميلًا بقول حسن غير فاحش ولا قبيح.

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠﴾.

(١) البخاري (٥٤٦٠)، مسلم (١٦٦٣).
(٢) مسلم (١٣٧٣).

۝٩ قيل: إن هذا خطاب لمن يحضر من حضره الموت، وأجنف في وصيته أن يأمره بالعدل في وصيته والمساواة فيها؛ بدليل قوله: ﴿وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩﴾؛ أي: سدادًا موافقًا للقسط والمعروف، وأنهم يأمرون من يريد الوصية على أولاده بما يحبون معاملة أولادهم بعدهم. وقيل: إن المراد بذلك أولياء السفهاء من المجانين والصغار والضعاف أن يعاملوهم في مصالحهم الدينية والدنيوية بما يحبون أن يعامل به من بعدهم من ذريتهم الضعاف؛ ﴿فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: في ولايتهم لغيرهم؛ أي: يعاملونهم بما فيه تقوى الله من عدم إهانتهم والقيام عليهم وإلزامهم لتقوى الله.

۝١٠ ولما أمرهم بذلك زجرهم عن أكل أموال اليتامى وتوعد على ذلك أشد العذاب، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾؛ أي: بغير حق، وهذا القيد يخرج به ما تقدم من جواز الأكل للفقير بالمعروف، ومن جواز خلط طعامهم بطعام اليتامى؛ فمن أكلها ظلمًا؛ فإنما ﴿يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾؛ أي: فإن الذي أكلوه نار تتأجج في أجوافهم، وهم الذين أدخلوه[3] في بطونهم، ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠﴾؛ أي: نارًا محرقة متوقدة. وهذا أعظم وعيد ورد في الذنوب يدل على شناعة أكل أموال اليتامى وقبحها وأنها موجبة لدخول النار، فدل ذلك أنها من أكبر الكبائر، نسأل الله العافية.

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١١ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ

(٣) ع: «أدخلوها».

كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

هذه الآيات والآية التي هي آخر السورة هن آيات المواريث المتضمنة لها؛ فإنها مع حديث عبد الله بن عباس الثابت في **صحيح البخاري**: «**ألحقوا الفرائض بأهلها؛ فما بقي؛ فلأولى رجل ذكر**»(١): مشتملات على جل أحكام الفرائض، بل على جميعها كما سترى ذلك إلا ميراث الجدات؛ فإنه غير مذكور في ذلك، لكنه قد ثبت في «**السنن**»(٢) عن المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة: أن النبي ﷺ أعطى الجدة السدس. مع إجماع العلماء على ذلك.

﴿١١﴾ فقوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ﴾؛ أي: أولادكم يا معشر الوالدين عندكم ودائع قد وصاكم الله عليهم لتقوموا بمصالحهم الدينية والدنيوية، فتعلموهم وتؤدبوهم وتكفوهم عن المفاسد وتأمروهم بطاعة الله وملازمة التقوى على الدوام؛ كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم: ٦]؛ فالأولاد عند والديهم موصًى بهم؛ فإما أن يقوموا بتلك الوصية فلهم جزيل الثواب، وإما أن يضيعوها فيستحقوا بذلك الوعيد والعقاب. وهذا مما يدل على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالدين، حيث أوصى الوالدين مع كمال شفقتهم عليهم.

ثم ذكر كيفية إرثهم، فقال: ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾؛ أي: الأولاد للصلب والأولاد للابن، للذكر مثل حظ الأنثيين إن لم يكن معهم صاحب فرض، أو ما أبقت الفروض يقتسمونه كذلك، وقد أجمع العلماء على ذلك، وأنه مع وجود أولاد الصلب فالميراث لهم، وليس لأولاد الابن شيء؛ حيث كان أولاد الصلب ذكورًا وإناثًا. هذا مع اجتماع الذكور والإناث. وهنا حالتان: انفراد الذكور. وسيأتي حكمها، وانفراد الإناث. وقد ذكره بقوله: ﴿ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ ﴾؛ أي: بنات صلب أو بنات ابن ثلاثًا فأكثر؛ ﴿ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً ﴾؛ أي: بنتًا أو بنت ابن؛ ﴿ فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ﴾. وهذا إجماع.

بقي أن يقال: من أين يستفاد أن للابنتين الثنتين الثلثين بعد الإجماع على ذلك؟ فالجواب: أنه يستفاد من قوله: ﴿ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ﴾؛ فمفهوم ذلك أنه إن زادت على الواحدة انتقل الفرض عن النصف، ولا ثَمَّ بعده إلا الثلثان. وأيضًا؛ فقوله: ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾: إذا خلف ابنًا وبنتًا؛ فإن الابن له الثلثان، وقد أخبر الله أنه مثل حظ الأنثيين، فدل ذلك على أن للبنتين الثلثين. وأيضًا؛ فإن البنت إذا أخذت الثلث مع أخيها وهو أزيد ضررًا عليها من أختها، فأخذها له مع أختها من باب أولى وأحرى. وأيضًا؛ فإن قوله تعالى في الأختين: ﴿ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ﴾ [النساء: ١٧٦]: نص في الأختين الثنتين؛ فإذا كان الأختان الثنتان مع بعدهما يأخذان الثلثين؛ فالابنتان مع قربهما من باب أولى وأحرى. وقد أعطى النبي ﷺ ابنتي سعد الثلثين؛ كما في **الصحيح**.

بقي أن يقال: فما الفائدة في قوله: ﴿ فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ ﴾؟ قيل: الفائدة في ذلك والله أعلم: أنه ليعلم أن الفرض الذي هو الثلثان لا يزيد بزيادتهن على الثنتين، بل من الثنتين فصاعدًا.

ودلت الآية الكريمة أنه إذا وجد بنت صلب واحدة وبنت ابن أو بنات ابن؛ فإن لبنت الصلب النصف، ويبقى من الثلثين اللذين فرضهما الله للبنات أو بنات الابن السدس، فيعطى بنت الابن أو بنات الابن، ولهذا يسمى هذا السدس تكملة الثلثين. ومثل ذلك بنت الابن مع بنات الابن اللاتي أنزل منها. وتدل الآية أنه متى استغرق البنات أو بنات الابن الثلثين: أنه يسقط من دونهن من بنات الابن؛ لأن الله لم يفرض لهن إلا الثلثين، وقد تم؛ فلو لم يسقطن لزم من ذلك أن يفرض لهن أزيد من الثلثين، وهو خلاف النص. وكل هذه الأحكام مجمع عليها بين العلماء، ولله الحمد.

ودل قوله: ﴿ مِمَّا تَرَكَ ﴾: أن الوارثين يرثون كل ما خلف الميت من عقار وأثاث وذهب وفضة وغير ذلك، حتى الدية التي لم تجب إلا بعد موته، وحتى الديون التي في الذمة.

ثم ذكر ميراث الأبوين، فقال: ﴿ وَلِأَبَوَيْهِ ﴾؛ أي: أبوه وأمه، ﴿ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾؛ أي: ولد صلب أو ولد ابن ذكرًا كان أو أنثى واحدًا أو متعددًا: فأما الأم؛ فلا تزيد على السدس مع أحد من الأولاد، وأما

(١) البخاري (٦٧٣٧)، مسلم (١٦١٥).
(٢) أبو داود (٢٨٩٤)، الترمذي (٢١٠١).

الأب؛ فمع الذكور منهم لا يستحق أزيد من السدس؛ فإن كان الولد أنثى أو إناثًا، ولم يبق بعد الفرض شيء؛ كأبوين وابنتين؛ لم يبق له تعصيب، وإن بقي بعد فرض البنت أو البنات شيء؛ أخذ الأب السدس فرضًا والباقي تعصيبًا؛ لأننا ألحقنا الفروض بأهلها؛ فما بقي؛ فلأولى رجل ذكر، وهو أولى من الأخ والعم وغيرهما. ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾؛ أي: والباقي للأب؛ لأنه أضاف المال إلى الأب والأم إضافة واحدة، ثم قدر نصيب الأم، فدل ذلك على أن الباقي للأب، وعلم من ذلك أن الأب مع عدم الأولاد لا فرض له، بل يرث تعصيبًا المال كله، أو ما أبقت الفروض.

لكن لو وجد مع الأبوين أحد الزوجين - ويعبر عنهما بالعُمريَّتين - فإن الزوج أو الزوجة يأخذ فرضه، ثم تأخذ الأم ثلث الباقي والأب الباقي، وقد دل على ذلك قوله: ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾؛ أي: ثلث ما ورثه الأبوان، وهو في هاتين الصورتين: إما سدس في زوج وأم وأب، وإما ربع في زوجة وأم وأب، فلم تدل الآية على إرث الأم ثلث المال كاملًا مع عدم الأولاد حتى يقال: إن هاتين الصورتين قد استثنيتا من هذا. ويوضح ذلك أن الذي يأخذه الزوج أو الزوجة بمنزلة ما يأخذه الغرماء، فيكون من رأس المال، والباقي بين الأبوين. ولأنا لو أعطينا الأم ثلث المال؛ لزم زيادتها على الأب في مسألة الزوج أو أخذ الأب في مسألة الزوجة زيادة عنها نصف السدس، وهذا لا نظير له؛ فإن المعهود مساواتها للأب أو أخذه ضعف ما تأخذه الأم.

﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾: أشقاء أو لأب أو لأم ذكورًا كانوا أو إناثًا وارثين أو محجوبين بالأب أو الجد. لكن قد يقال: ليس ظاهر قوله: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾: شاملًا لغير الوارثين، بدليل عدم تناولها للمحجوب بالنصف؛ فعلى هذا لا يحجبها عن الثلث من الإخوة إلا الإخوة الوارثون. ويؤيده أن الحكمة في حجبهم لها عن الثلث لأجل أن يتوفر لهم شيء من المال، وهو معدوم. والله أعلم. ولكن بشرط كونهم اثنين فأكثر.

ويشكل على ذلك إتيان لفظ الإخوة بلفظ الجمع. وأجيب عن ذلك بأن المقصود مجرد التعدد لا الجمع، ويصدق ذلك باثنين، وقد يطلق الجمع ويراد به الاثنان؛ كما في قوله تعالى عن داود وسليمان: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأنبياء: ٧٨]. وقال في الإخوة للأم: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ﴾: فأطلق لفظ الجمع، والمراد به اثنان فأكثر بالإجماع. فعلى هذا؛ لو خلف أمًّا وأبًا وإخوة؛ كان للأم السدس والباقي للأب، فحجبوها عن الثلث مع حجب الأب إياهم؛ إلا على الاحتمال الآخر؛ فإن للأم الثلث والباقي للأب[1].

ثم قال تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾؛ أي: هذه الفروض والأنصباء والمواريث، إنما ترد وتستحق بعد نزع الديون التي على الميت لله أو للآدميين، وبعد الوصايا التي قد أوصى الميت بها بعد موته؛ فالباقي عن ذلك هو التركة التي يستحقها[2] الورثة. وقدم الوصية مع أنها مؤخرة عن الدين للاهتمام بشأنها لكون إخراجها شاقًّا على الورثة، وإلا فالديون مقدمة عليها، وتكون من رأس المال، وأما الوصية فإنها تصح من الثلث فأقل للأجنبي الذي هو غير وارث، وأما غير ذلك فلا ينفذ إلا بإجازة الورثة.

قال تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾؛ فلو رد تقدير الإرث إلى عقولكم واختياركم؛ لحصل من الضرر ما الله به عليم؛ لنقص العقول وعدم معرفتها بما هو اللائق الأحسن في كل زمان ومكان، فلا يدرون أي الأولاد أو الوالدين أنفع لهم وأقرب لحصول مقاصدهم الدينية والدنيوية.

﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾؛ أي: فرضها الله الذي قد أحاط بكل شيء علمًا وأحكم ما شرعه وقدر ما قدره على أحسن تقدير، لا تستطيع العقول أن تقترح مثل أحكامه الصالحة الموافقة لكل زمان ومكان وحال.

﴿١٢﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ﴾ أيها الأزواج ﴿نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾، ويدخل في مسمى الولد

(١) علق في حاشية ع على هذا فقال: «وعند شيخ الإسلام إذا كان الإخوة غير وارثين فإنهم لا يحجبون الأم نقصانًا».
(٢) ع، ط: «الذي يستحقه».

المشروط وجوده أو عدمه ولد الصلب، أو ولد الابن، الذكر والأنثى، الواحد والمتعدد، الذي من الزوج أو من غيره، ويخرج عنه ولد البنات إجماعًا.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾؛ أي: من أم؛ كما هي في بعض القراءات، وأجمع العلماء على أن المراد بالإخوة هنا الإخوة للأم؛ فإذا كان يورث كلالة؛ أي: ليس للميت والد ولا ولد؛ أي: لا أب ولا جد ولا ابن ولا ابن ابن ولا بنت ولا بنت ابن وإن نزلوا، وهذه هي الكلالة كما فسرها بذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقد حصل على ذلك الاتفاق ولله الحمد، ﴿فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا﴾؛ أي؛ من الأخ والأخت ﴿ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾؛ أي: من واحد؛ ﴿فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ﴾؛ أي: لا يزيدون على الثلث ولو زادوا عن اثنين. ودل قوله: ﴿فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ﴾: أن ذكرهم وأنثاهم سواء؛ لأن لفظ الشريك[1] يقتضي التسوية. ودل لفظ (الكلالة) على أن الفروع وإن نزلوا، والأصول الذكور وإن علوا، يسقطون أولاد الأم؛ لأن الله لم يورثهم إلا في الكلالة؛ فلو لم يكن يورث كلالة لم يرثوا منه شيئًا اتفاقًا. ودل قوله: ﴿فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ﴾: أن الإخوة الأشقاء يسقطون في المسألة المسماة بالحمارية، وهي زوج وأم وإخوة لأم وإخوة أشقاء: للزوج النصف، وللأم السدس، وللإخوة للأم الثلث، ويسقط الأشقاء لأن الله أضاف الثلث للإخوة من الأم؛ فلو شاركهم الأشقاء؛ لكان جمعًا لما فرق الله حكمه. وأيضًا؛ فإن الإخوة للأم أصحاب فروض والأشقاء عصبات، وقد قال النبي ﷺ: «**ألحقوا الفرائض بأهلها؛ فما بقي فلأولى رجل ذكر**».

وأهل الفروض هم الذين قدر الله أنصباءهم؛ ففي هذه المسألة لا يبقى بعدهم شيء، فيسقط الأشقاء، وهذا هو الصواب في ذلك.

وأما ميراث الإخوة والأخوات الأشقاء أو لأب؛ فمذكور في قوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ [النساء: ١٧٦] الآية؛ فالأخت الواحدة شقيقة أو لأب لها النصف، والثنتان لهما الثلثان، والشقيقة الواحدة مع الأخت للأب أو الأخوات تأخذ النصف والباقي من الثلثين للأخت أو أخوات الأب وهو

(١) ع: «التشريك».

الجزء الرابع سورة النساء

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾

٧٩

السدس تكملة الثلثين، وإذا استغرقت الشقيقات الثلثين؛ تسقط الأخوات للأب، كما تقدم في البنات وبنات الابن، وإن كان الإخوة رجالًا ونساء؛ فللذكر مثل حظ الأنثيين.

فإن قيل: فهل يستفاد حكم ميراث القاتل والرقيق والمخالف في الدين والمبعض والخنثى والجد مع الإخوة لغير أم والعول والرد وذوي الأرحام وبقية العصبة والأخوات لغير أم مع البنات أو بنات الابن من القرآن أم لا؟ قيل: نعم فيه تنبيهات وإشارات دقيقة يعسر فهمها على غير المتأمل تدل على جميع المذكورات:

فأما القاتل والمخالف في الدين؛ فيعرف أنهما غير وارثين من بيان الحكمة الإلهية في توزيع المال على الورثة بحسب قربهم ونفعهم الديني والدنيوي، وقد أشار تعالى إلى هذه الحكمة بقوله: ﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾، وقد علم أن القاتل قد سعى لموروثه بأعظم الضرر، فلا ينتهض ما فيه من موجب الإرث أن يقاوم ضرر القتل الذي هو ضد النفع الذي رتب عليه الإرث، فعلم من ذلك أن القتل أكبر مانع

يمنع الميراث ويقطع الرحم الذي قال الله فيه: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥]، مع أنه قد استقرت القاعدة الشرعية: أن من استعجل شيئًا قبل أوانه؛ عوقب بحرمانه.

وبهذا ونحوه يعرف أن المخالف لدين الموروث لا إرث له، وذلك أنه قد تعارض الموجب الذي هو اتصال النسب الموجب للإرث والمانع الذي هو المخالفة في الدين الموجبة للمباينة من كل وجه، فقوي المانع، ومنع موجب الإرث الذي هو النسب، فلم يعمل الموجب لقيام المانع. يوضح ذلك أن الله تعالى قد جعل حقوق المسلمين أولى من حقوق الأقارب الكفار الدنيوية؛ فإذا مات المسلم انتقل ماله إلى من هو أولى وأحق به، فيكون قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾: إذا اتفقت أديانهم، وأما مع تباينهم؛ فالأخوة الدينية مقدمة على الأخوة النسبية المجردة.

قال ابن القيم في «جلاء الأفهام»: «وتأمل هذا المعنى في آية المواريث وتعليقه سبحانه التوارث فيها بلفظ الزوجة دون المرأة؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ﴾: إيذانًا بأن هذا التوارث إنما وقع بالزوجية المقتضية للتشاكل والتناسب، والمؤمن والكافر لا تشاكل بينهما ولا تناسب، فلا يقع بينهما التوارث، وأسرار مفردات القرآن ومركباته فوق عقول العالمين[1]». انتهى.

وأما الرقيق؛ فإنه لا يرث ولا يورث: أما كونه لا يورث فواضح؛ لأنه ليس له مال يورث عنه، بل كل ما معه فهو لسيده. وأما كونه لا يرث؛ فلأنه لا يملك؛ فإنه لو ملك لكان لسيده، وهو أجنبي من الميت، فيكون مثل قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ﴾ ﴿فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾.... ونحوها لمن يتأتى منه التملك، وأما الرقيق؛ فلا يتأتى منه ذلك، فعلم أنه لا ميراث له.

وأما من بعضه حر وبعضه رقيق؛ فإنه تتبعض أحكامه؛ فما فيه من الحرية يستحق بها ما رتبه الله في المواريث؛ لكون ما فيه من الحرية قابلًا للتملك، وما فيه من الرق فليس بقابل لذلك؛ فإذًا يكون المبعض يرث ويورث ويحجب بقدر ما فيه من الحرية، وإذا كان العبد يكون محمودًا ومذمومًا، مثابًا ومعاقبًا بقدر ما فيه من موجبات ذلك؛ فهذا كذلك.

وأما الخنثى؛ فلا يخلو إما أن يكون واضحًا ذكوريته أو أنوثيته أو مشكلًا؛ فإن كان واضحًا؛ فالأمر فيه واضح: إن كان ذكرًا؛ فله حكم الذكور، ويشمله النص الوارد فيهم، وإن كانت أنثى؛ فلها حكم الإناث، ويشملها النص الوارد فيهن. وإن كان مشكلًا؛ فإن كان الذكر والأنثى لا يختلف إرثهما - كالإخوة للأم - فالأمر فيه واضح، وإن كان يختلف إرثه بتقدير ذكوريته وبتقدير أنوثيته، ولم يبق لنا طريق إلى العلم بذلك لم نعطه أكثر التقديرين لاحتمال ظلم من معه من الورثة، ولم نعطه الأقل لاحتمال ظلمنا له، فوجب التوسط بين الأمرين وسلوك أعدل الطريقين، قال تعالى: ﴿ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]؛ فليس لنا طريق إلى العدل في مثل هذا أكثر من هذا الطريق المذكور، و﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]؛ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

وأما ميراث الجد مع الإخوة الأشقاء أو لأب، وهل يرثون معه أم لا؟ فقد دل كتاب الله على قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وأن الجد يحجب الإخوة أشقاء أو لأب أو لأم كما يحجبهم الأب، وبيان ذلك أن الجد أب في غير موضع من القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة: ١٣٣] الآية، وقال يوسف عليه السلام: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٣٨]، فسمى الله الجد وجد الأب أبًا، فدل ذلك على أن الجد بمنزلة الأب، يرث ما يرثه الأب، ويحجب من يحجبه، وإذا كان العلماء قد أجمعوا على أن الجد حكمه حكم الأب عند عدمه في ميراثه مع الأولاد وغيرهم من بني[2] الإخوة والأعمام وبنيهم وسائر أحكام المواريث؛ فينبغي أيضًا أن يكون حكمه حكمه في حجب الإخوة لغير أم، وإذا كان ابن الأب بمنزلة ابن الصلب؛ فلم لا يكون الجد بمنزلة الأب؟ وإذا كان جد الأب مع ابن الأخ قد اتفق العلماء على أنه يحجبه؛ فلم لا يحجب جد الميت أخاه؟ فليس مع من يورث الإخوة مع الجد نص ولا إشارة ولا تنبيه ولا قياس صحيح.

وأما مسائل العول فإنه يستفاد حكمها من القرآن، وذلك أن الله تعالى قد فرض وقدر لأهل المواريث أنصباء، وهم بين حالتين: إما أن يحجب بعضهم بعضًا، أو لا؛ فإن حجب بعضهم بعضًا؛ فالمحجوب ساقط لا يزاحم

(١) في الأصل: «العاقلين».

(٢) ط: «بين».

ولا يستحق شيئًا، وإن لم يحجب بعضهم بعضًا؛ فلا يخلو: إما ألَّا تستغرق الفروض التركة، أو تستغرقها من غير زيادة ولا نقص، أو تزيد الفروض على التركة؛ ففي الحالتين الأوليين كلٌّ يأخذ فرضه كاملًا، وفي الحالة الأخيرة، وهي ما إذا زادت الفروض على التركة؛ فلا يخلو من حالين:

إما أن ننقص بعض الورثة عن فرضه الذي فرضه الله له ونكمل للباقين منهم فروضهم، وهذا ترجيح بغير مرجح، وليس نقصان أحدهم بأولى من الآخر، فتعينت الحال الثانية، وهو أننا نعطي كل واحد منهم نصيبه بقدر الإمكان، ونحاصص بينهم؛ كديون الغرماء الزائدة على مال الغريم، ولا طريق موصل إلى ذلك إلا بالعول، فعلم من هذا أن العول في الفرائض قد بينه الله في كتابه.

وبعكس هذه الطريقة بعينها يعلم الرد؛ فإن أهل الفروض إذا لم تستغرق فروضهم التركة، وبقي شيء ليس له مستحق من عاصب قريب ولا بعيد؛ فإن رده على أحدهم ترجيح بغير مرجح، وإعطاءه غيرهم ممن ليس بقريب للميت جنف وميل ومعارضة لقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[الأنفال: ٧٥]، فتعين أن يرد على أهل الفروض بقدر فروضهم، ولما كان الزوجان ليسا من القرابة؛ لم يستحقا الزيادة على فرضهم[١] المقدر عند القائلين بعدم الرد عليهم[٢]، وأما على القول الصحيح أن حكم الزوجين حكم باقي الورثة في الرد؛ فالدليل المذكور شامل للجميع كما شملهم دليل العول[٣].

وبهذا يعلم أيضًا ميراث ذوي الأرحام؛ فإن الميت إذا لم يخلف صاحب فرض ولا عاصبًا، وبقي الأمر دائرًا بين كون ماله يكون لبيت المال لمنافع الأجانب وبين كون ماله يرجع إلى أقربائه المدلين بالورثة المجمع عليهم؛ تعين الثاني، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، فصرفه لغيرهم ترك لمن هو أولى من غيره، فتعين توريث ذوي الأرحام، وإذا تعين توريثهم؛ فقد علم أنه ليس لهم نصيب مقدر بأعيانهم في كتاب الله، وأن بينهم وبين الميت وسائط صاروا بسببها من الأقارب، فينزلون منزلة من أدلوا به من تلك الوسائط. والله أعلم.

وأما ميراث بقية العصبة؛ كالبنوة والأخوة وبنيهم والأعمام وبنيهم... إلخ؛ فإن النبي ﷺ قال: «**ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي؛ فلأولى رجل ذكر**»، وقال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: ٣٣]؛ فإذا ألحقنا الفروض بأهلها ولم يبق شيء لم يستحق العاصب شيئًا، وإن بقي شيء أخذه أَوْلَى العصبة بحسب جهاتهم ودرجاتهم؛ فإن جهات العصوبة خمس: البنوة، ثم الأبوة، ثم الأخوة وبنوهم، ثم العمومة وبنوهم، ثم الولاء، ويقدم منهم الأقرب جهة؛ فإن كانوا في جهة واحدة فالأقرب منزلة فإن كانوا بمنزلة واحدة؛ فالأقوى، وهو الشقيق؛ فإن تساووا من كل وجه اشتركوا والله أعلم.

وأما كون الأخوات لغير أم مع البنات أو بنات الابن عصبات يأخذن ما فضل عن فروضهن؛ فلأنه ليس في القرآن ما يدل على أن الأخوات يسقطن بالبنات، فإذا كان الأمر كذلك، وبقي شيء بعد أخذ البنات فرضهن؛ فإنه يعطى للأخوات ولا يعدل عنهن إلى عصبة أبعد منهن كابن الأخ والعم ومن هو أبعد منهم. والله أعلم.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٣﴾ أي: تلك التفاصيل التي ذكرها في المواريث حدود الله التي يجب الوقوف معها، وعدم مجاوزتها ولا القصور عنها، وفي ذلك دليل على أن الوصية للوارث منسوخة بتقديره تعالى أنصباء الوارثين. ثم قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾[٤]؛ فالوصية للوارث بزيادة على حقه

(١) ط: «فرضهما».
(٢) ط: «عليهما».
(٣) عبارة: «عند القائلين بعدم الرد عليهم، وأما على القول الصحيح أن حكم الزوجين حكم باقي الورثة في الرد؛ فالدليل المذكور شامل للجميع كما شملهم دليل العول» وردت في ع: «وهذا عند من لا يورث الزوجين بالرد وهم جمهور القائلين بالرد، فعلى هذا يكون علة الرد كونه صاحب فرض قريبًا، وعلى القول الآخر أن الزوجين كغيرهما من ذوي الفروض يرد عليهما فكما ينقصان بالعول فإنهما يزادان بالرد كغيرهما فالعلة على هذا كونه وارثًا صاحب فرض، فهذا هو الظاهر من دلالة الكتاب والسنة والقياس الصحيح، والله أعلم».

(٤) كذا أثبتها الشيخ، وهي جزء من الآية ٢٢٩ من سورة البقرة، وعليها شرح الشيخ، فأبقينا عليها كما هي.

وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ
عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي
ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا
(١٥) وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا
وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا
(١٦) إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ
ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ
ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا (١٧) وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ
يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ
قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ
أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا (١٨) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ
لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ
مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ
أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا (١٩)

يدخل في هذا التعدي مع قوله ﷺ: «**لا وصية لوارث**»[١]. ثم ذكر طاعة الله ورسوله ومعصيتهما عمومًا؛ ليدخل في العموم لزوم حدوده في الفرائض أو ترك ذلك، فقال: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾: بامتثال أمرهما الذي أعظمه طاعتهما في التوحيد ثم الأوامر على اختلاف درجاتها، واجتناب نهيهما الذي أعظمه الشرك بالله ثم المعاصي على اختلاف طبقاتها. ﴿ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ﴾: فمن أدى الأوامر واجتنب النواهي؛ فلا بد له من دخول الجنة والنجاة من النار. ﴿ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ (١٣) ﴾: الذي حصل به النجاة من سخطه وعذابه والفوز بثوابه ورضوانه بالنعيم المقيم الذي لا يصفه الواصفون.

(١٤) ﴿ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ إلخ، ويدخل في اسم المعصية الكفر فما دونه من المعاصي؛ فلا يكون فيها شبهة للخوارج القائلين بكفر أهل المعاصي؛ فإن الله تعالى رتب دخول الجنة على طاعته وطاعة رسوله، ورتب دخول النار على معصيته ومعصية رسوله؛ فمن أطاعه طاعة تامة دخل الجنة بلا عذاب، ومن عصى الله ورسوله معصية تامة يدخل فيها الشرك فما دونه دخل النار وخلد فيها، ومن اجتمع فيه معصية وطاعة؛ كان فيه من موجب الثواب والعقاب بحسب ما فيه من الطاعة والمعصية.

وقد دلت النصوص المتواترة على أن الموحدين الذين معهم طاعة التوحيد غير مخلدين في النار؛ فما معهم من التوحيد مانع لهم من الخلود فيها.

﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا (١٥) وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا (١٦) ﴾.

(١٥) أي: النساء اللاتي ﴿ يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ ﴾؛ أي: الزنا، فوصفها بالفاحشة لشناعتها وقبحها. ﴿ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡ ﴾؛ أي: من رجالكم المؤمنين العدول. ﴿ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ ﴾؛ أي: احبسوهن عن الخروج الموجب للريبة، وأيضًا؛ فإن الحبس من جملة العقوبات. ﴿ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ ﴾؛ أي: هذا منتهى الحبس. ﴿ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا (١٥) ﴾؛ أي: طريقًا غير الحبس في البيوت.

فهذه الآية ليست منسوخة؛ فإنما هي مغياة إلى ذلك الوقت، فكان الأمر في أول الإسلام كذلك، حتى جعل الله لهن سبيلًا، وهو رجم المحصن وجلد غير المحصن.

(١٦) وكذلك اللذان ﴿ يَأۡتِيَٰنِهَا ﴾؛ أي: الفاحشة ﴿ مِنكُمۡ ﴾: من الرجال والنساء. ﴿ فَـَٔاذُوهُمَا ﴾: بالقول والتوبيخ والتعيير والضرب الرادع عن هذه الفاحشة. فعلى هذا يكون الرجال إذا فعلوا الفاحشة يؤذون والنساء يحبسن ويؤذين؛ فالحبس غايته إلى الموت، والأذية نهايتها إلى التوبة والإصلاح. ولهذا قال: ﴿ فَإِن تَابَا ﴾؛ أي: رجعا عن الذنب الذي فعلاه وندما عليه وعزما على[٢] ألَّا يعودا، ﴿ وَأَصۡلَحَا ﴾: العمل الدال على صدق التوبة. ﴿ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآ ﴾؛ أي: عن أذاهما. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا (١٦) ﴾؛ أي: كثير

(١) أحمد (١٧٦٦٣)، أبو داود (٣٥٦٥).

(٢) ليس في الأصل، ط.

التوبة على المذنبين الخطائين، عظيم الرحمة والإحسان الذي من إحسانه وفقهم للتوبة، وقبلها منهم، وسامحهم عمَّا صدر منهم.

ويؤخذ من هاتين الآيتين أن بينة الزنا لا بد أن تكون أربعة رجال مؤمنين، ومن باب أولى وأحرى اشتراط عدالتهم؛ لأن الله تعالى شدد في أمر هذه الفاحشة سترًا لعباده، حتى إنه لا يقبل فيها النساء منفردات ولا مع الرجل ولا مع[1] دون أربعة، ولا بد من التصريح بالشهادة كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة وتومئ إليه هذه الآية: لما قال: ﴿فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾؛ لم يكتف بذلك، حتى قال: ﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾؛ أي: لا بد من شهادة صريحة عن أمر يشاهد عيانًا من غير تعريض ولا كناية.

ويؤخذ منهما أن الأذية بالقول والفعل والحبس قد شرعه الله تعزيرًا لجنس المعصية الذي[2] يحصل به الزجر.

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٧﴾، ﴿١٨﴾ توبة الله على عباده نوعان: توفيق منه للتوبة، وقبول لها بعد وجودها من العبد. فأخبر هنا أن التوبة المستحقة على الله حقًّا أحقه على نفسه كرمًا منه وجودًا لمن عمل ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾؛ أي: المعاصي ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾؛ أي: جهالة منه لعاقبتها وإيجابها لسخط الله وعقابه، وجهل منه لنظر الله ومراقبته له، وجهل منه بما تئول إليه من نقص الإيمان أو انعدامه؛ فكل عاص لله فهو جاهل بهذا الاعتبار وإن كان عالمًا بالتحريم، بل العلم بالتحريم شرط لكونها معصيةً معاقبًا عليها. ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾: يحتمل أن يكون المعنى: ثم يتوبون قبل معاينة الموت؛ فإن الله يقبل توبة العبد إذا تاب قبل معاينة الموت والعذاب قطعًا، وأما بعد حضور الموت؛ فلا يقبل من العاصين توبة ولا من الكفار رجوع؛ كما قال تعالى عن فرعون: فلما ﴿أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ الآية [يونس: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥]، وقال هنا: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ أي: المعاصي فيما دون الكفر. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ﴾ فأولئك ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾، وذلك أن التوبة في هذه الحال توبة اضطرار لا تنفع صاحبها، إنما تنفع توبة الاختيار.

ويحتمل[3] أن يكون معنى قوله: ﴿مِن قَرِيبٍ﴾؛ أي: قريب من فعلهم للذنب الموجب للتوبة، فيكون المعنى: أن من بادر إلى الإقلاع من حين صدور الذنب وأناب إلى الله وندم عليه فإن الله يتوب عليه؛ بخلاف من استمر على ذنوبه[4] وأصر على عيوبه حتى صارت فيه صفات راسخة؛ فإنه يعسر عليه إيجاد التوبة التامة، والغالب أنه لا يوفق للتوبة ولا ييسر لأسبابها؛ كالذي يعمل السوء على علم تام[5] ويقين وتهاون[6] بنظر الله إليه؛ فإنه يسد على نفسه باب الرحمة. نعم؛ قد يوفق الله عبده المصر على الذنوب عن عمد ويقين للتوبة النافعة[7] التي يمحو بها ما سلف من سيئاته وما تقدم من جناياته، ولكن الرحمة والتوفيق للأول أقرب، ولهذا ختم الآية الأولى بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾؛ فمن علمه أنه يعلم صادق التوبة وكاذبها، فيجازي كلًّا منهما بحسب ما يستحق بحكمته، ومن حكمته أنه يوفق من اقتضت حكمته ورحمته توفيقه للتوبة، ويخذل من اقتضت حكمته وعدله عدم توفيقه. والله أعلم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا

(١) ع: «ما».
(٢) ع، ط: «التي».

(٣) علق في حاشية ع على هذا فقال: «ويؤيد هذا الاحتمال أن الله قال: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ ...﴾ إلى آخره، ولم يقل: إنما يتوب الله، وبين اللفظين فرق ظاهر».
(٤) الأصل، ط: «ذنبه».
(٥) الأصل، ط: «قائم».
(٦) الأصل، ط: «متهاون».
(٧) ع: «التامة».

وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ وَأُمَّهَـٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَـٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾

كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿١٩﴾ كانوا في الجاهلية إذا مات أحدهم عن زوجته؛ رأى قريبه كأخيه وابن عمه ونحوهما - أنه أحق بزوجته من كل أحد، وحماها عن غيره، أحبت أو كرهت؛ فإن أحبها تزوجها على صداق يحبه دونها، وإن لم يرضها عضلها فلا يزوجها إلا من يختاره هو، وربما امتنع من تزويجها حتى تبذل له شيئًا من ميراث قريبه أو من صداقها. وكان الرجل أيضًا يعضل زوجته التي يكون يكرهها ليذهب ببعض ما آتاها. فنهى الله المؤمنين عن جميع هذه الأحوال إلا حالتين: إذا رضيت واختارت نكاح قريب زوجها الأول كما هو مفهوم قوله: ﴿كَرْهًا﴾. وإذا أتين بفاحشة مبينة كالزنا والكلام الفاحش وأذيتها لزوجها؛ فإنه في هذه الحال يجوز له أن يعضلها عقوبةً لها على فعلها، لتفتدي منه إذا كان عضلًا بالعدل.

ثم قال: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: وهذا يشمل المعاشرة القولية والفعلية، فعلى الزوج أن يعاشر زوجته بالمعروف من الصحبة الجميلة وكف الأذى وبذل الإحسان وحسن المعاملة، ويدخل في ذلك النفقة والكسوة ونحوهما، فيجب على الزوج لزوجته المعروف من مثله لمثلها في ذلك الزمان والمكان، وهذا يتفاوت بتفاوت الأحوال. ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾؛ أي: ينبغي لكم أيها الأزواج أن تمسكوا زوجاتكم مع الكراهة لهن؛ فإن في ذلك خيرًا كثيرًا: من ذلك امتثال أمر الله وقبول وصيته التي فيها سعادة الدنيا والآخرة. ومنها: أن إجباره نفسه مع عدم محبته لها فيه مجاهدة النفس والتخلق بالأخلاق الجميلة، وربما أن الكراهة تزول وتخلفها المحبة كما هو الواقع في ذلك، وربما رزق منها ولدًا صالحًا، نفع والديه في الدنيا والآخرة.

﴿٢٠﴾ وهذا كله مع الإمكان في الإمساك وعدم المحذور، فإن كان لا بد من الفراق وليس للإمساك محل؛ فليس الإمساك بلازم، بل متى ﴿أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾؛ أي: تطليق زوجة وتزوج أخرى؛ أي: فلا جناح عليكم في ذلك ولا حرج، ولكن إذا آتيتم ﴿إِحْدَىٰهُنَّ﴾؛ أي: المفارقة أو التي تزوجها ﴿قِنطَارًا﴾؛ أي: مالًا كثيرًا. ﴿فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾، بل وفروه لهن ولا تمطلوا بهن.

وفي هذه الآية دلالة على عدم تحريم كثرة المهر، مع أن الأفضل واللائق الاقتداء بالنبي ﷺ في تخفيف المهر، ووجه الدلالة أن الله أخبر عن أمر يقع منهم ولم ينكره عليهم، فدل على عدم تحريمه.

لكن قد ينهى عن كثرة الصداق إذا تضمن مفسدة دينية وعدم مصلحة تقاوم. ثم قال: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾؛ فإن هذا لا يحل، ولو تحيلتم عليه بأنواع الحيل؛ فإن إثمه واضح.

﴿٢١﴾ وقد بين تعالى حكمة ذلك بقوله: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾، وبيان ذلك أن الزوجة قبل عقد النكاح محرمة على الزوج، ولم ترض بحلها له إلا بذلك المهر الذي يدفعه

لها؛ فإذا دخل بها وأفضى إليها وباشرها المباشرة التي كانت حرامًا قبل ذلك والتي لم ترض ببذلها إلا بذلك العوض؛ فإنه قد استوفى المعوض، فثبت عليه العوض؛ فكيف يستوفي المعوض ثم بعد ذلك يرجع على العوض؟ هذا من أعظم الظلم والجور، وكذلك أخذ الله على الأزواج ميثاقًا غليظًا بالعقد والقيام بحقوقها. ثم قال تعالى:

﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿٢٢﴾ أي: لا تتزوجوا من النساء ما تزوجهن آباؤكم؛ أي: الأب وإن علا. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾؛ أي: أمرًا قبيحًا يفحش ويعظم قبحه. ﴿وَمَقْتًا﴾: من الله لكم، ومن الخلق، بل يمقت بسبب ذلك الابن أباه والأب ابنه مع الأمر ببره. ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: بئس الطريق طريقًا لمن سلكه؛ لأن هذا من عوائد الجاهلية التي جاء الإسلام بالتنزه عنها والبراءة منها.

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةًۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

هذه الآيات الكريمات مشتملات على المحرمات بالنسب والمحرمات بالرضاع والمحرمات بالصهر والمحرمات بالجمع وعلى المحللات من النساء.

﴿٢٣﴾ فأما المحرمات في النسب؛ فهن السبع اللاتي ذكرهن الله: الأم: يدخل فيها كل من لها عليك ولادة وإن بعدت. ويدخل في البنت كل من لك عليها ولادة. والأخوات الشقيقات أو لأب أو لأم. والعمة: كل أخت لأبيك أو لجدك وإن علا. والخالة: كل أخت لأمك أو جدتك وإن علت وارثة أم لا. وبنات الأخ وبنات الأخت؛ أي: وإن نزلت. فهؤلاء هن المحرمات من النسب بإجماع العلماء؛ كما هو نص الآية الكريمة، وما عداهن؛ فيدخل في قوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾، وذلك كبنت العمة والعم وبنت الخال والخالة.

وأما المحرمات بالرضاع؛ فقد ذكر الله منهن الأم والأخت، وفي ذلك تحريم الأم، مع أن اللبن ليس لها، إنما هو لصاحب اللبن، دل بتنبيهه على أن صاحب اللبن يكون أبًا للمرتضع؛ فإذا ثبتت الأبوة والأمومة ثبت ما هو فرع عنهما؛ كأخوتهما وأصولهما وفروعهما، وقال النبي ﷺ: «**يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب**»[1]، فينتشر التحريم من جهة المرضعة ومن له اللبن كما ينتشر في الأقارب وفي الطفل المرتضع إلى ذريته فقط، لكن بشرط أن يكون الرضاع خمس رضعات في الحولين؛ كما بينت السنة.

وأما المحرمات بالصهر؛ فهن أربع: حلائل الآباء وإن علوا، وحلائل الأبناء وإن نزلوا وارثين أو محجوبين، وأمهات الزوجة وإن علون؛ فهؤلاء الثلاث يحرمن بمجرد العقد، والرابعة الربيبة، وهي بنت زوجته وإن نزلت؛ فهذه لا تحرم حتى يدخل بزوجته؛ كما قال هنا: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ الآية. وقد قال الجمهور: إن قوله: ﴿ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم﴾: قيد خرج بمخرج الغالب لا مفهوم له؛ فإن الربيبة تحرم ولو لم تكن في حجره، ولكن للتقييد بذلك فائدتان: إحداهما: [فيه] التنبيه على الحكمة في تحريم الربيبة، وأنها كانت بمنزلة البنت؛ فمن المستقبح إباحتها. والثانية: فيه دلالة على جواز الخلوة بالربيبة، وأنها بمنزلة من هي في حجره من بناته ونحوهن. والله أعلم.

وأما المحرمات بالجمع؛ فقد ذكر الله الجمع بين الأختين وحرمه، وحرم النبي ﷺ الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها؛ فكل امرأتين بينهما رحم محرم، لو قدر إحداهما

(١) البخاري (٢٦٤٥)، مسلم (١٤٤٧).

۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾

ذكرًا والأخرى أنثى حرمت عليه؛ فإنه يحرم الجمع بينهما، وذلك لما في ذلك من أسباب التقاطع بين الأرحام.

﴿٢٤﴾ ومن المحرمات في النكاح ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾؛ أي: ذوات الأزواج؛ فإنه يحرم نكاحهن ما دمن في ذمة الزوج حتى تطلق وتنقضي عدتها؛ ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾؛ أي: بالسبي؛ فإذا سبيت الكافرة ذات الزوج؛ حلت للمسلمين بعد أن تستبرأ، وأما إذا بيعت الأمة المزوجة أو وهبت؛ فإنه لا ينفسخ نكاحها؛ لأن المالك الثاني نزل منزلة الأول، ولقصة بريرة حين خيرها النبي ﷺ.

وقوله: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: الزموه واهتدوا به؛ فإن فيه الشفاء والنور، وفيه تفصيل الحلال من الحرام.

ودخل في قوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾: كل ما لم يذكر في هذه الآية؛ فإنه حلال طيب؛ فالحرام محصور، والحلال ليس له حد ولا حصر؛ لطفًا من الله ورحمة وتيسيرًا للعباد. وقوله: ﴿أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم﴾؛ أي: تطلبوا من وقع عليه نظركم واختياركم من اللاتي أباحهن الله لكم حالة كونكم ﴿مُّحْصِنِينَ﴾؛ أي: مستعفين عن الزنا ومعفين نساءكم. ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾: والسفح: سفح الماء في الحلال والحرام؛ فإن الفاعل لذلك لا يحصن زوجته؛ لكونه وضع شهوته في الحرام، فتضعف داعيته للحلال، فلا يبقى محصنًا لزوجته. وفيها دلالة على أنه لا يزوج غير العفيف؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ [النور: ٣].

﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ﴾؛ أي: من تزوجتموها. ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾؛ أي: الأجور في مقابلة الاستمتاع، ولهذا إذا دخل الزوج بزوجته؛ تقرر عليه صداقها ﴿فَرِيضَةً﴾؛ أي: إتيانكم إياهن أجورهن فرض فرضه الله عليكم، ليس بمنزلة التبرع الذي إن شاء أمضاه وإن شاء رده، أو معنى قوله: ﴿فَرِيضَةً﴾؛ أي: مقدرة، قد قدرتموها، فوجبت عليكم؛ فلا تنقصوا منها شيئًا. ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾؛ أي: بزيادة من الزوج أو إسقاط من الزوجة عن رضا وطيب نفس. هذا قول كثير من المفسرين. وقال كثير منهم: إنها نزلت في متعة النساء التي كانت حلالًا في أول الإسلام، ثم حرمها النبي ﷺ، وأنه يؤمر بتوقيتها وأجرها، ثم إذا انقضى الأمد الذي بينهما، فتراضيا بعد الفريضة؛ فلا حرج عليهما. والله أعلم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾؛ أي: كامل العلم واسعه، كامل الحكمة؛ فمن علمه وحكمته شرع لكم هذه الشرائع، وحد لكم هذه الحدود الفاصلة بين الحلال والحرام. ثم قال تعالى:

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿٢٥﴾ أي: ومن لم يستطع الطول الذي هو المهر لنكاح المحصنات؛ أي: الحرائر المؤمنات، وخاف على نفسه العنت؛ أي: الزنا والمشقة الكثيرة؛ فيجوز له نكاح الإماء

المملوكات المؤمنات، وهذا بحسب ما يظهر، وإلا فالله أعلم بالمؤمن الصادق من غيره؛ فأمور الدنيا مبنية على ظواهر الأمور، وأحكام الآخرة مبنية على ما في البواطن. ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ﴾؛ أي: المملوكات ﴿بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾؛ أي: سيدهن واحدًا أو متعددًا. ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: ولو كن إماءً؛ فإنه كما يجب المهر للحرة؛ فكذلك يجب للأمة، ولكن لا يجوز نكاح الإماء إلا إذا كن ﴿مُحْصَنَٰتٍ﴾؛ أي: عفيفات عن الزنا، ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾؛ أي: زانيات علانية، ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾؛ أي: أخلاء في السر.

فالحاصل أنه لا يجوز للحر المسلم نكاح أمة إلا بأربعة شروط ذكرها الله: إيمانهن، والعفة ظاهرًا وباطنًا، وعدم استطاعة طول الحرة، وخوف العنت؛ فإذا تمت هذه الشروط؛ جاز له نكاحهن، ومع هذا فالصبر عن نكاحهن أفضل؛ لما فيه من تعريض الأولاد للرق، ولما فيه من الدناءة والعيب، وهذا إذا أمكن الصبر؛ فإن لم يمكن الصبر عن المحرم إلا بنكاحهن وجب ذلك، ولهذا قال: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

وقوله: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾؛ أي: تزوجن أو أسلمن؛ أي: الإماء. ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾؛ أي: الحرائر ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾. وذلك الذي يمكن تنصيفه وهو الجلد، فيكون عليهن خمسون جلدةً، وأما الرجم فليس على الإماء رجم؛ لأنه لا يتنصف؛ فعلى القول الأول: إذا لم يتزوجن فليس عليهن حد، إنما عليهن تعزير يردعهن عن فعل الفاحشة. وعلى القول الثاني: إن الإماء غير المسلمات إذا فعلن فاحشةً أيضًا عزرن.

وختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين: الغفور والرحيم؛ لكون هذه الأحكام رحمة بالعباد وكرمًا وإحسانًا إليهم، فلم يضيق عليهم، بل وسع غاية السعة. ولعل في ذكر المغفرة بعد ذكر الحد إشارة إلى أن الحدود كفارات يغفر الله بها ذنوب عباده كما ورد بذلك الحديث.

وحكم العبد الذكر في الحد المذكور حكم الأمة لعدم الفارق بينهما.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿٢٦﴾ يخبر تعالى بمنته العظيمة ومنحته الجسيمة وحسن تربيته لعباده المؤمنين وسهولة دينه، فقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾؛ أي: جميع ما تحتاجون إلى بيانه من الحق والباطل والحلال والحرام. ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾؛ أي: الذين أنعم الله عليهم من النبيين وأتباعهم في سيرهم الحميدة وأفعالهم السديدة وشمائلهم الكاملة وتوفيقهم التام؛ فلذلك نفذ ما أراده، ووضح لكم، وبين بيانًا كما بين لمن قبلكم، وهداكم هدايةً عظيمة في العلم والعمل.

﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: يلطف بكم في أحوالكم وما شرعه لكم، حتى تتمكنوا من الوقوف على ما حده الله والاكتفاء بما أحله، فتقل ذنوبكم بسبب ما يسر الله عليكم؛ فهذا من توبته على عباده، ومن توبته عليهم أنهم إذا أذنبوا فتح لهم أبواب الرحمة، وأوزع قلوبهم الإنابة إليه والتذلل بين يديه، ثم يتوب عليهم بقبول ما وفقهم له؛ فله الحمد والشكر على ذلك. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾؛ أي: كامل العلم واسعه، كامل الحكمة؛ فمن علمه أن علمكم ما لم تكونوا تعلمون، ومنها هذه الأشياء والحدود. ومن حكمته أنه يتوب على من اقتضت حكمته ورحمته التوبة عليه، ويخذل من اقتضت حكمته وعدله أنه لا يصلح للتوبة.

﴿٢٧﴾ وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: توبةً تلم شعثكم وتجمع متفرقكم وتقرب بعيدكم. ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾؛ أي: يميلون معها حيث مالت، ويقدمونها على ما فيه رضا محبوبهم ويعبدون أهواءهم من أصناف الكفرة والعاصين المقدمين لأهوائهم على طاعة ربهم؛ فهؤلاء يريدون ﴿أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾؛ أي: أن تنحرفوا عن الصراط المستقيم إلى صراط المغضوب عليهم والضالين، يريدون أن يصرفوكم عن طاعة الرحمن إلى طاعة الشيطان، وعن التزام حدود من السعادة كلها في امتثال أوامره إلى من الشقاوة كلها في اتباعه؛ فإذا عرفتم أن الله تعالى يأمركم بما فيه صلاحكم وفلاحكم وسعادتكم،

وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ
عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن
تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا
وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ
يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ
عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾
وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ
نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ
وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ
عَلِيمٗا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ
وَٱلۡأَقۡرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ
نَصِيبَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾

وأن هؤلاء المتبعين لشهواتهم[1] يأمرونكم بما فيه غاية الخسار والشقاء؛ فاختاروا لأنفسكم أولى الداعيين وتخيروا أحسن الطريقتين.

﴿٢٨﴾ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡ﴾؛ أي: بسهولة ما أمركم به وما نهاكم عنه، ثم مع حصول المشقة في بعض الشرائع أباح لكم ما تقتضيه حاجتكم كالميتة والدم ونحوهما للمضطر، وكتزوج الأمة للحر بتلك الشروط السابقة، وذلك لرحمته التامة وإحسانه الشامل وعلمه وحكمته بضعف الإنسان من جميع الوجوه؛ ضعف البنية وضعف الإرادة وضعف العزيمة وضعف الإيمان وضعف الصبر فناسب ذلك أن يخفف الله عنه ما يضعف عنه، وما لا يطيقه إيمانه وصبره وقوته.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾.

(١) ع، ط: «شهواتهم».

﴿٢٩﴾ ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل، وهذا يشمل أكلها بالغصوب والسرقات وأخذها بالقمار والمكاسب الرديئة، بل لعله يدخل في ذلك أكل مال نفسك على وجه البطر والإسراف؛ لأن هذا من الباطل، وليس من الحق. ثم إنه لما حرم أكلها بالباطل أباح لهم أكلها بالتجارات والمكاسب الخالية من الموانع المشتملة على الشروط من التراضي وغيره.

﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾؛ أي: لا يقتل بعضكم بعضًا، ولا يقتل الإنسان نفسه، ويدخل في ذلك الإلقاء بالنفس إلى التهلكة وفعل الأخطار المفضية إلى التلف والهلاك؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٢٩﴾﴾: ومن رحمته أن صان نفوسكم وأموالكم ونهاكم عن إضاعتها وإتلافها، ورتب على ذلك ما رتبه من الحدود. وتأمل هذا الإيجاز والجمع في قوله: ﴿لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم﴾ ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾؛ كيف شمل أموال غيرك[2] ومال نفسك وقتل نفسك وقتل غيرك بعبارة أخصر من قوله: لا يأكل بعضكم مال بعض ولا يقتل بعضكم بعضًا؛ مع قصور هذه العبارة على مال الغير ونفس الغير، مع أن إضافة الأموال والأنفس إلى عموم المؤمنين فيه دلالة على أن المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ومصالحهم[3] كالجسد الواحد؛ حيث كان الإيمان يجمعهم على مصالحهم الدينية والدنيوية.

ولما نهى عن أكل الأموال بالباطل التي فيها غاية الضرر عليهم، على الآكل ومن أخذ ماله أباح لهم ما فيه مصلحتهم من أنواع المكاسب والتجارات وأنواع الحرف والإجارات، فقال: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡ﴾؛ أي: فإنها مباحة لكم. وشرط التراضي مع كونها تجارةً لدلالة أنه يشترط أن يكون العقد غير عقد ربًا، لأن الربا ليس من التجارة، بل مخالف لمقصودها، وأنه لا بد أن يرضى كل من المتعاقدين ويأتي به اختيارًا، ومن تمام الرضا أن يكون المعقود عليه معلومًا؛ لأنه إذا لم يكن كذلك لا يتصور الرضا مقدورًا على تسليمه؛ لأن غير المقدور عليه شبيه ببيع القمار؛ فبيع الغرر بجميع أنواعه خال من الرضا فلا ينفذ عقده. وفيها

(٢) بعده في ع: «وأنفسهم».
(٣) ع: «ومصائبهم».

أنه تنعقد العقود بما دل عليها من قول أو فعل؛ لأن الله شرط الرضا، فبأي طريق حصل الرضا انعقد به العقد.

ثم ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝٢٩﴾: ومن رحمته أن عصم دماءكم وأموالكم، وصانها، ونهاكم عن انتهاكها.

﴿٣٠﴾ ثم قال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: أكل الأموال بالباطل وقتل النفوس. ﴿عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا﴾؛ أي: لا جهلًا ونسيانًا ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾؛ أي: عظيمة كما يفيده التنكير. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝٣٠﴾.

﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ۝٣١﴾.

﴿٣١﴾ وهذا من فضل الله وإحسانه على عباده المؤمنين، وعدهم أنهم إذا اجتنبوا كبائر المنهيات غفر لهم جميع الذنوب والسيئات، وأدخلهم مدخلًا كريمًا كثير الخير، وهو الجنة المشتملة على ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ويدخل في اجتناب الكبائر فعل الفرائض التي يكون تاركها مرتكبًا كبيرةً؛ كالصلوات الخمس والجمعة ورمضان؛ كما قال النبي ﷺ: **«الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن، ما اجتنبت الكبائر»**[1].

وأحسن ما حُدَّت به الكبائر: أن الكبيرة ما فيه حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة أو نفي إيمان أو ترتيب لعنة أو غضب عليه.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ۝٣٢﴾.

﴿٣٢﴾ ينهى تعالى المؤمنين عن أن يتمنى بعضهم ما فضل الله به غيره من الأمور الممكنة وغير الممكنة؛ فلا تتمنى النساء خصائص[2] الرجال التي بها فضلهم على النساء، ولا صاحب الفقر والنقص حالة الغني والكامل تمنيًا مجردًا؛ لأن هذا هو الحسد بعينه؛ تمني نعمة الله على غيرك أن تكون لك ويسلب إياها، ولأنه يقتضي السخط على قدر الله، والإخلاد إلى الكسل، والأماني الباطلة التي لا يقترن بها عمل ولا كسب، وإنما المحمود أمران: أن يسعى العبد على حسب قدرته بما ينفعه من مصالحه الدينية والدنيوية، ويسأل الله تعالى من فضله؛ فلا يتكل على نفسه ولا على غير ربه، ولهذا قال تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟﴾؛ أي: من أعمالهم المنتجة للمطلوب. ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾؛ فكل منهم لا يناله غير ما كسبه وتعب فيه. ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾؛ أي: من جميع مصالحكم في الدين والدنيا؛ فهذا كمال العبد وعنوان سعادته، لا من يترك العمل أو يتكل على نفسه غير مفتقر لربه أو يجمع بين الأمرين؛ فإن هذا مخذول خاسر. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ۝٣٢﴾: فيعطي من يعلمه أهلًا لذلك، ويمنع من يعلمه غير مستحق.

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ۝٣٣﴾.

﴿٣٣﴾ أي: ﴿وَلِكُلٍّ﴾: من الناس ﴿جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ﴾؛ أي: يتولونه ويتولاهم بالتعزز والنصرة والمعاونة على الأمور، ﴿مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾: وهذا يشمل سائر الأقارب من الأصول والفروع والحواشي، هؤلاء الموالي من القرابة. ثم ذكر نوعًا آخر من الموالي، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾؛ أي: حالفتموهم بما عقدتم معهم من عقد المحالفة على النصرة والمساعدة والاشتراك بالأموال وغير ذلك، وكل هذا من نعم الله على عباده؛ حيث كان الموالي يتعاونون بما لا يقدر عليه بعضهم مفردًا. قال تعالى: ﴿فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾؛ أي: آتوا الموالي نصيبهم الذي يجب القيام به من النصرة والمعاونة والمساعدة على غير معصية الله والميراث للأقارب الأدنين من الموالي. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ۝٣٣﴾؛ أي: مطلعًا على كل شيء بعلمه لجميع الأمور وبصره لحركات عباده وسمعه لجميع أصواتهم.

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ

(١) مسلم (٢٣٣).
(٢) ع: «حالة».

ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾

﴿قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

﴿٣٤﴾ يخبر تعالى أن ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾؛ أي: قوامون عليهن بإلزامهن بحقوق الله تعالى من المحافظة على فرائضه وكفهن عن المفاسد، والرجال عليهم أن يلزموهن بذلك، وقوامون عليهن أيضًا بالإنفاق عليهن والكسوة والمسكن. ثم ذكر السبب الموجب لقيام الرجال على النساء، فقال: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾؛ أي: بسبب فضل الرجال على النساء وإفضالهم عليهن؛ فتفضيل الرجال على النساء من وجوه متعددة: من كون الولايات مختصة بالرجال، والنبوة، والرسالة، واختصاصهم بكثير من العبادات كالجهاد والأعياد والجمع، وبما خصهم الله به من العقل والرزانة والصبر والجلد الذي ليس للنساء مثله، وكذلك خصهم بالنفقات على الزوجات، بل وكثير من النفقات يختص بها الرجال ويتميزون عن النساء، ولعل هذا سر قوله: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ﴾، وحذف المفعول؛ ليدل على عموم النفقة، فعلم من هذا كله أن الرجل كالوالي والسيد لامرأته، وهي عنده عانية أسيرة خادمة، فوظيفته أن يقوم بما استرعاه الله به، ووظيفتها القيام بطاعة ربها وطاعة زوجها؛ فلهذا قال: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ﴾؛ أي: مطيعات لله تعالى، ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾؛ أي: مطيعات لأزواجهن حتى في الغيب، تحفظ بعلها بنفسها وماله، وذلك بحفظ الله لهن وتوفيقه لهن لا من أنفسهن؛ فإن النفس أمارة بالسوء، ولكن من توكل على الله؛ كفاه ما أهمه من أمر دينه ودنياه.

ثم قال: ﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾؛ أي: ارتفاعهن عن طاعة أزواجهن؛ بأن تعصيه بالقول أو الفعل، فإنه يؤدبها بالأسهل فالأسهل. ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾؛ أي: ببيان حكم الله في طاعة الزوج ومعصيته، والترغيب في الطاعة، والترهيب من المعصية[1]، فإن انتهت فذلك المطلوب، وإلا فيهجرها الزوج في المضجع؛ بألَّا يضاجعها ولا يجامعها بمقدار ما يحصل به المقصود، وإلا ضربها ضربًا غير مبرح؛ فإن حصل المقصود بواحد من هذه الأمور وأطعنكم؛ ﴿فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾؛ أي: فقد حصل لكم ما تحبون فاتركوا معاتبتها على الأمور الماضية والتنقيب عن العيوب التي يضر ذكرها، ويحدث بسببه الشر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾؛ أي: له العلو المطلق بجميع الوجوه والاعتبارات؛ علو الذات وعلو القدر، وعلو القهر. الكبير: الذي لا أكبر منه ولا أجل ولا أعظم، كبير الذات والصفات.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٣٥﴾ أي: وإن خفتم الشقاق بين الزوجين والمباعدة والمجانبة حتى يكون كل منهما في شق؛ ﴿فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾؛ أي: رجلين مكلفين مسلمين عدلين عاقلين، يعرفان ما بين الزوجين، ويعرفان الجمع والتفريق، وهذا مستفاد من لفظ الحكم؛ لأنه لا يصلح حكمًا

(١) ع: «معصيته».

إلا من اتصف بتلك الصفات، فينظران ما ينقم كل منهما على صاحبه، ثم يلزمان كلًّا منهما ما يجب؛ فإن لم يستطع أحدهما ذلك قنعا الزوج الآخر بالرضا بما تيسر من الرزق والخلق، ومهما أمكنهما الجمع والإصلاح فلا يعدلا عنه، فإن وصلت الحال إلى أنه لا يمكن اجتماعهما وإصلاحهما إلا على وجه المعاداة والمقاطعة ومعصية الله، ورأيا أن التفريق بينهما أصلح؛ فرقا بينهما، ولا يشترط رضا الزوج كما يدل عليه أن الله سماهما حكمين، والحكم يحكم، وإن لم يرض المحكوم عليه، ولهذا قال: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ﴾؛ أي: بسبب الرأي الميمون والكلام الذي يجذب القلوب ويؤلف بين القرينين. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا ٣٥﴾؛ أي: عالمًا بجميع الظواهر والبواطن، مطلعًا على خفايا الأمور وأسرارها؛ فمن علمه وخبره أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة والشرائع الجميلة.

﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٣٧ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ٣٨﴾.

٣٦، ٣٧ يأمر تعالى عباده بعبادته وحده لا شريك له، وهو الدخول تحت رق عبوديته والانقياد لأوامره ونواهيه؛ محبةً وذلًّا وإخلاصًا له في جميع العبادات الظاهرة والباطنة، وينهى عن الشرك به شيئًا؛ لا شركًا أصغر، ولا أكبر، لا ملكًا، ولا نبيًّا، ولا وليًّا، ولا غيرهم من المخلوقين الذين لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، بل الواجب المتعين إخلاص العبادة لمن له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وله التدبير الكامل الذي لا يشركه ولا يعينه عليه أحد.

ثم بعدما أمر بعبادته والقيام بحقه أمر بالقيام بحقوق العباد الأقرب فالأقرب، فقال: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾؛ أي: أحسنوا إليهم بالقول الكريم والخطاب اللطيف والفعل الجميل، بطاعة أمرهما واجتناب نهيهما، والإنفاق عليهما، وإكرام من له تعلق بهما، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا بهما. وللإحسان ضدان الإساءة وعدم الإحسان، وكلاهما منهي عنه. ﴿وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ أيضًا إحسانًا، ويشمل ذلك جميع الأقارب، قربوا أو بعدوا، بأن يحسن إليهم بالقول والفعل، وألَّا يقطع رحمه بقوله أو فعله. ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾؛ أي: الذين فُقِد آباؤهم[1] وهم صغار، فلهم حق على المسلمين، سواء كانوا أقارب أو غيرهم، بكفالتهم وبرهم وجبر خواطرهم وتأديبهم وتربيتهم أحسن تربية في مصالح دينهم ودنياهم. ﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾: وهم الذين أسكنتهم الحاجة والفقر، فلم يحصلوا على كفايتهم ولا كفاية من يمونون، فأمر الله تعالى بالإحسان إليهم بسد خلتهم وبدفع فاقتهم والحض على ذلك والقيام بما يمكن منه. ﴿وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾؛ أي: الجار القريب الذي له حقان؛ حق الجوار وحق القرابة؛ فله على جاره حق وإحسان راجع إلى العرف. وكذلك ﴿وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ﴾؛ أي: الذي ليس له قرابة، وكلما كان الجار أقرب بابًا كان آكد حقًّا، فينبغي للجار أن يتعاهد جاره بالهدية والصدقة والدعوة واللطافة بالأقوال والأفعال وعدم أذيته بقول أو فعل. ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ﴾: قيل: الرفيق في السفر، وقيل: الزوجة، وقيل: الصاحب مطلقًا، ولعله أولى؛ فإنه يشمل الصاحب في الحضر والسفر ويشمل الزوجة؛ فعلى الصاحب لصاحبه حق زائد على مجرد إسلامه، من مساعدته على أمور دينه ودنياه، والنصح له، والوفاء معه في اليسر والعسر والمنشط والمكره، وأن يحب له ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، وكلما زادت الصحبة تأكد الحق وزاد. ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: وهو الغريب الذي احتاج في بلد الغربة أو لم يحتج؛ فله حق على المسلمين لشدة حاجته وكونه في غير وطنه بتبليغه إلى مقصوده أو بعض مقصوده وبإكرامه وتأنيسه. ﴿وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾؛ أي: من الآدميين والبهائم، بالقيام بكفايتهم وعدم تحميلهم ما يشق عليهم، وإعانتهم على ما تحملوه وتأديبهم لما فيه مصلحتهم؛ فمن قام بهذه المأمورات فهو الخاضع لربه، المتواضع لعباد الله، المنقاد لأمر الله وشرعه، الذي يستحق الثواب الجزيل والثناء الجميل، ومن لم يقم بذلك فإنه عبد معرض عن ربه، غير منقاد لأوامره، ولا متواضع للخلق، بل هو متكبر على عباد الله، معجب بنفسه، فخور

(١) ط: «فقدوا آباءهم».

وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ
بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ
قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟
مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ
وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ
ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى
سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ
أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً
فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ
ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ
ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾

بقوله. ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا﴾؛ أي: معجبًا بنفسه متكبرًا على الخلق، ﴿فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾؛ يثني على نفسه ويمدحها على وجه الفخر والبطر على عباد الله؛ فهؤلاء ما بهم من الاختيال والفخر يمنعهم من القيام بالحقوق، ولهذا ذمهم بذلك[1] بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾؛ أي: يمنعون ما عليهم من الحقوق الواجبة، ﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾: بأقوالهم وأفعالهم، ﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾؛ أي: من العلم الذي يهتدي به الضالون ويسترشد به الجاهلون، فيكتمونه عنهم، ويظهرون لهم من الباطل ما يحول بينهم وبين الحق، فجمعوا بين البخل بالمال والبخل بالعلم وبين السعي في خسارة أنفسهم وخسارة غيرهم، وهذه هي صفات الكافرين؛ فلهذا قال تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾؛ أي: كما تكبروا على عباد الله، ومنعوا حقوقه، وتسببوا في منع غيرهم من البخل وعدم الاهتداء أهانهم بالعذاب الأليم والخزي الدائم؛ فعياذًا بك اللهم من كل سوء.

(١) ليس في الأصل، ط.

﴿٣٨﴾ ثم أخبر عن النفقة الصادرة عن رياء وسمعة وعدم إيمان به، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: ليروهم ويمدحوهم ويعظموهم. ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾؛ أي: ليس إنفاقهم صادرًا عن إخلاص وإيمان بالله ورجاء ثوابه؛ أي: فهذا من خطوات الشيطان وأعماله، التي يدعو حزبه إليها ليكونوا من أصحاب السعير، وصدرت منهم بسبب مقارنته لهم وأزهم إليها؛ فلهذا قال: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾﴾؛ أي: بئس المقارن والصاحب الذي يريد إهلاك من قارنه ويسعى فيه أشد السعي؛ فكما أن من بخل بما آتاه الله وكتم ما من به الله عليه عاص آثم مخالف لربه؛ فكذلك من أنفق وتعبد لغير الله؛ فإنه آثم عاص لربه مستوجب للعقوبة؛ لأن الله إنما أمر بطاعته وامتثال أمره على وجه الإخلاص؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]؛ فهذا العمل المقبول الذي يستحق صاحبه المدح والثواب؛ فلهذا حث تعالى عليه بقوله:

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾.

﴿٣٩﴾ أي: أي شيء عليهم وأي حرج ومشقة تلحقهم لو حصل منهم الإيمان بالله الذي هو الإخلاص وأنفقوا من أموالهم التي رزقهم الله وأنعم بها عليهم، فجمعوا بين الإخلاص والإنفاق، ولما كان الإخلاص سرًّا بين العبد وبين ربه لا يطلع عليه إلا الله؛ أخبر تعالى بعلمه بجميع الأحوال، فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾.

﴿٤٠﴾ يخبر تعالى عن كمال عدله وفضله وتنزهه عما يضاد ذلك من الظلم القليل والكثير، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾؛ أي: ينقصها من حسنات عبده أو يزيدها في سيئاته؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]. ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾؛ أي: إلى عشر أمثالها، إلى

أكثر من ذلك، بحسب حالها ونفعها وحال صاحبها إخلاصًا ومحبةً وكمالًا. ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾؛ أي: زيادة على ثواب العمل بنفسه من التوفيق لأعمال أخر وإعطاء البر الكثير والخير الغزير.

(٤١) ثم قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ۝٤١﴾؛ أي: كيف تكون تلك الأحوال؟ وكيف يكون ذلك الحكم العظيم الذي جمع أن من حكم به كامل العلم، كامل العدل، كامل الحكمة بشهادة أزكى الخلق، وهم الرسل على أممهم مع إقرار المحكوم عليه؟ فهذا والله الحكم الذي هو أعم الأحكام وأعدلها وأعظمها، وهناك يبقى المحكوم عليهم مقرين له بكمال الفضل والعدل والحمد والثناء، وهنالك يسعد أقوام بالفوز والفلاح والعز والنجاح، ويشقى أقوام بالخزي والفضيحة والعذاب المهين.

(٤٢) ولهذا قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ﴾؛ أي: جمعوا بين الكفر بالله وبرسوله ومعصية الرسول، ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ﴾؛ أي: تبتلعهم ويكونون ترابًا وعدمًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ۝٤٠﴾ [النبأ: ٤٠]. ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ۝٤٢﴾؛ أي: بل يعترفون[(١)] له بما عملوا و﴿تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢٤ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ﴾، جزاءهم ﴿الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ۝٢٥﴾ [النور: ٢٤، ٢٥]. فأما ما ورد من أن الكفار يكتمون كفرهم وجحودهم؛ فإن ذلك يكون في بعض مواضع القيامة حين يظنون أن جحودهم ينفعهم[(٢)] من عذاب الله؛ فإذا عرفوا الحقائق وشهدت عليهم جوارحهم، حينئذ ينجلي الأمر، ولا يبقى للكتمان موضع ولا نفع ولا فائدة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ۝٤٣﴾.

(١) ع، ط: «يقرون».
(٢) ع: «مغن عنهم».

(٤٣) ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يقربوا الصلاة وهم سكارى حتى يعلموا ما يقولون، وهذا شامل لقربان مواضع الصلاة كالمسجد؛ فإنه لا يمكن السكران من دخوله، وشامل لنفس الصلاة؛ فإنه لا يجوز للسكران صلاة ولا عبادة لاختلاط عقله وعدم علمه بما يقول، ولهذا حدد تعالى ذلك وغياه إلى وجود العلم بما يقول السكران.

وهذه الآية الكريمة منسوخة بتحريم الخمر مطلقًا؛ فإن الخمر في أول الأمر كان غير محرم، ثم إن الله تعالى عرض لعباده بتحريمه بقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، ثم إنه تعالى نهاهم عن الخمر عند حضور الصلاة كما في هذه الآية، ثم إنه تعالى حرمه على الإطلاق في جميع الأوقات في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ الآية [المائدة: ٩٠]. ومع هذا؛ فإنه يشتد تحريمه وقت حضور الصلاة؛ لتضمنه هذه المفسدة العظيمة بعدم حصول مقصود الصلاة الذي هو روحها ولبها، وهو الخشوع وحضور القلب؛ فإن الخمر يسكر القلب، ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة.

ويؤخذ من المعنى منع الدخول في الصلاة في حال النعاس المفرط الذي لا يشعر صاحبه بما يقول ويفعل، بل لعل فيه إشارة إلى أنه ينبغي لمن أراد الصلاة أن يقطع عنه كل شاغل يشغل فكره؛ كمدافعة الأخبثين والتوق لطعام ونحوه؛ كما ورد في ذلك الحديث الصحيح[(٣)].

ثم قال: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾؛ أي: لا تقربوا الصلاة حالة كون أحدكم جنبًا إلا في هذه الحال، وهو عابر السبيل؛ أي: تمرون في المسجد ولا تمكثون فيه. ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾؛ أي: فإذا اغتسلتم؛ فهو غاية المنع من قربان الصلاة للجنب، فيحل للجنب المرور في المسجد فقط.

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾: فأباح التيمم للمريض مطلقًا مع وجود الماء وعدمه، والعلة المرض الذي يشق معه استعمال الماء، وكذلك السفر؛ فإنه مظنة فقد الماء؛ فإذا فقده المسافر أو وجد ما يتعلق بحاجته من شرب ونحوه جاز له التيمم، وكذلك إذا أحدث الإنسان ببول أو

(٣) مسلم (٥٦٠).

غائط أو ملامسة النساء؛ فإنه يباح له التيمم إذا لم يجد الماء حضرًا وسفرًا؛ كما يدل على ذلك عموم الآية. والحاصل أن الله تعالى أباح التيمم في حالتين: حال عدم الماء، وهذا مطلقًا في الحضر والسفر. وحال المشقة باستعماله بمرض ونحوه.

واختلف المفسرون في معنى قوله: ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾: هل المراد بذلك الجماع؟ فتكون الآية نصًّا في جواز التيمم للجنب كما تكاثرت بذلك الأحاديث الصحيحة، أو المراد بذلك مجرد اللمس باليد، ويقيد ذلك بما إذا كان مظنة خروج المذي، وهو المس الذي يكون لشهوة، فتكون الآية دالةً على نقض الوضوء بذلك. واستدل الفقهاء بقوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾: بوجوب طلب الماء عند دخول الوقت؛ قالوا: لأنه لا يقال: لم يجد لمن لم يطلب، بل لا يكون ذلك إلا بعد الطلب. واستدل بذلك أيضًا على أن الماء المتغير بشيء من الطاهرات يجوز بل يتعين التطهر به لدخوله في قوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾، وهذا ماء. ونوزع في ذلك بأنه ماء غير مطلق، وفي ذلك نظر.

وفي هذه الآية الكريمة: مشروعية هذا الحكم العظيم الذي امتن به الله على هذه الأمة، وهو مشروعية التيمم، وقد أجمع على ذلك العلماء، ولله الحمد.

وأن التيمم يكون بالصعيد الطيب، وهو كل ما تصاعد على وجه الأرض، سواء كان له غبار أم لا، ويحتمل أن يختص ذلك بذي الغبار؛ لأن الله قال: ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم﴾ منه، وما لا غبار له لا يمسح به. وقوله: ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ منه: هذا محل المسح في التيمم: الوجه جميعه واليدين إلى الكوعين؛ كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة، ويستحب أن يكون ذلك بضربة واحدة؛ كما دل على ذلك حديث عمار، وفيه أن تيمم الجنب كتيمم غيره بالوجه واليدين.

فائدة: اعلم أن قواعد الطب تدور على ثلاث قواعد: حفظ الصحة عن المؤذيات، والاستفراغ منها، والحمية عنها. وقد نبه تعالى عليها في كتابه العزيز: أما حفظ الصحة والحمية عن المؤذي؛ فقد أمر بالأكل والشرب وعدم الإسراف في ذلك، وأباح للمسافر والمريض الفطر حفظًا لصحتهما باستعمال ما يصلح البدن على وجه العدل، وحماية للمريض عما يضره. وأما استفراغ المؤذي؛ فقد أباح تعالى للمحرم المتأذي برأسه أن يحلقه لإزالة الأبخرة المحتقنة فيه؛ ففيه تنبيه على استفراغ ما هو أولى منها من البول والغائط والقيء والمني والدم وغير ذلك. نبه على ذلك ابن القيم رحمه الله تعالى.

وفي الآية وجوب تعميم مسح الوجه واليدين، وأنه يجوز التيمم، ولو لم يضق الوقت، وأنه لا يخاطب بطلب الماء إلا بعد وجود سبب الوجوب. والله أعلم.

ثم ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾؛ أي: كثير العفو والمغفرة لعباده المؤمنين بتيسير ما أمرهم به وتسهيله غاية التسهيل بحيث لا يشق على العبد امتثاله فيحرج بذلك، ومن عفوه ومغفرته أن رحم هذه الأمة بشرع طهارة التراب بدل الماء عند تعذر استعماله، ومن عفوه ومغفرته أن فتح للمذنبين باب التوبة والإنابة ودعاهم إليه ووعدهم بمغفرة ذنوبهم، ومن عفوه ومغفرته أن المؤمن لو أتاه بقراب الأرض خطايا ثم لقيه لا يشرك به شيئًا لأتاه بقرابها مغفرةً.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَـٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾.

﴿٤٤﴾ هذا ذم لمن ﴿أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾، وفي ضمنه تحذير عباده عن الاغترار بهم والوقوع في شراكهم، فأخبر أنهم في أنفسهم ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ﴾؛ أي: يحبونها محبةً عظيمةً ويؤثرونها إيثار من يبذل المال الكثير في طلب ما يحبه، فيؤثرون الضلال على الهدى والكفر على الإيمان والشقاء على السعادة، ومع هذا يريدون أن تضلوا السبيل؛ فهم حريصون على إضلالكم غاية الحرص، باذلون جهدهم في ذلك، ولكن لما كان الله ولي عباده المؤمنين وناصرهم؛ بين لهم ما اشتملوا عليه من الضلال والإضلال.

﴿٤٥﴾ ولهذا قال: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾؛ أي: يتولى أحوال عباده، ويلطف بهم في جميع أمورهم، وييسر لهم ما به سعادتهم وفلاحهم، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾: ينصرهم

على أعدائهم، ويبين لهم ما يحذرون منهم، ويعينهم عليهم؛ فولايته تعالى فيها حصول الخير، ونصره فيه زوال الشر.

(٤٦) ثم بين كيفية ضلالهم وعنادهم وإيثارهم الباطل على الحق، فقال: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾؛ أي: اليهود، وهم علماء الضلال منهم، ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾: إما بتغيير اللفظ أو المعنى أو هما جميعًا؛ فمن تحريفهم تنزيل الصفات التي ذكرت في كتبهم التي لا تنطبق ولا تصدق إلا على محمد ﷺ على أنه غير مراد بها ولا مقصود بها، بل أريد بها غيره، وكتمانهم ذلك؛ فهذا حالهم في العلم شر حال، قلبوا فيه الحقائق، ونزلوا الحق على الباطل، وجحدوا لذلك الحق. وأما حالهم في العمل والانقياد؛ فإنهم يقولون ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾؛ أي: سمعنا قولك وعصينا أمرك، وهذا غاية الكفر والعناد والشرود عن الانقياد، وكذلك يخاطبون الرسول ﷺ بأقبح خطاب وأبعده عن الأدب، فيقولون: اسمع غير مسمع؛ قصدهم: اسمع منا غير مسمع ما تحب، بل مسمع ما تكره.

﴿وَرَٰعِنَا﴾: قصدهم بذلك الرعونة بالعيب القبيح، ويظنون أن اللفظ لما كان محتملًا لغير ما أرادوا من الأمور؛ أنه يروج على الله وعلى رسوله، فتوصلوا بذلك اللفظ الذي يلوون به ألسنتهم إلى الطعن في الدين والعيب للرسول، ويصرحون بذلك فيما بينهم؛ فلهذا قال: ﴿لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾. ثم أرشدهم إلى ما هو خير لهم من ذلك، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾: وذلك لما تضمنه هذا الكلام من حسن الخطاب والأدب اللائق في مخاطبة الرسول والدخول تحت طاعة الله والانقياد لأمره وحسن التلطف في طلبهم العلم بسماع سؤالهم والاعتناء بأمرهم؛ فهذا هو الذي ينبغي لهم سلوكه، ولكن لما كانت طبائعهم غير زكية أعرضوا عن ذلك، وطردهم الله بكفرهم وعنادهم، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (٤٦)﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا (٤٧)﴾.

(٤٧) يأمر تعالى أهل الكتاب من اليهود والنصارى أن يؤمنوا بالرسول محمد ﷺ وما أنزل الله عليه من القرآن

الجزء الخامس — سورة النساء

وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا (٤٥) مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (٤٦) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا (٤٧) إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨) أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٤٩) ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا (٥٠) أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا (٥١)

٨٦

العظيم المهيمن على غيره من الكتب السابقة الذي صدقها؛ فإنها أخبرت به، فلما وقع المخبر به كان تصديقًا لذلك الخبر. وأيضًا فإنهم إن لم يؤمنوا بهذا القرآن فإنهم لم يؤمنوا بما في أيديهم من الكتب؛ لأن كتب الله يصدق بعضها بعضًا، ويوافق بعضها بعضًا؛ فدعوى الإيمان ببعضها دون بعض دعوى باطلة لا يمكن صدقها.

وفي قوله: ﴿ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾: حث لهم، وأنهم ينبغي أن يكونوا قبل غيرهم مبادرين إليه بسبب ما أنعم الله عليهم به من العلم والكتاب الذي يوجب أن يكون ما عليهم أعظم من غيرهم، ولهذا توعدهم على عدم الإيمان، فقال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾: وهذا جزاء من جنس ما عملوا؛ كما تركوا الحق وآثروا الباطل وقلبوا الحقائق فجعلوا الباطل حقًّا والحق باطلًا، فجوزوا من جنس ذلك بطمس وجوههم كما طمسوا الحق، وردها على أدبارها بأن تجعل في أقفائهم، وهذا أشنع ما يكون. ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾: بأن يطردهم

من رحمته ويعاقبهم بجعلهم قردة؛ كما فعل بإخوانهم الذين اعتدوا في السبت ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥)﴾ [البقرة: ٦٥]. ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٤٧)﴾. كقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢)﴾ [يس: ٨٢].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨)﴾.

(٤٨) يخبر تعالى أنه لا يغفر لمن أشرك به أحدًا من المخلوقين ويغفر ما دون ذلك[1] من الذنوب صغائرها وكبائرها، وذلك عند مشيئته مغفرة ذلك إذا اقتضت حكمته مغفرته؛ فالذنوب التي دون الشرك قد جعل الله لمغفرتها أسبابًا كثيرة؛ كالحسنات الماحية والمصائب المكفرة في الدنيا والبرزخ ويوم القيامة، وكدعاء المؤمنين بعضهم لبعض، وبشفاعة الشافعين، ومن دون[2] ذلك كله رحمته التي أحق بها أهل الإيمان والتوحيد، وهذا بخلاف الشرك؛ فإن المشرك قد سد على نفسه أبواب المغفرة، وأغلق دونه أبواب الرحمة؛ فلا تنفعه الطاعات من دون التوحيد، ولا تفيده المصائب شيئًا، وما لهم يوم القيامة ﴿مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١)﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨)﴾؛ أي: افترى جرمًا كبيرًا، وأي ظلم أعظم ممن سوّى المخلوق من تراب، الناقص من جميع الوجوه، الفقير بذاته من كل وجه، الذي لا يملك لنفسه - فضلًا عمن عبده - نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا بالخالق لكل شيء، الكامل من جميع الوجوه، الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، الذي بيده النفع والضر والعطاء والمنع، الذي ما من نعمة بالمخلوقين إلا فمنه تعالى؛ فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟! ولهذا حتم على صاحبه بالخلود بالعذاب وحرمان الثواب: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢].

وهذه الآية الكريمة في حق غير التائب، وأما التائب فإنه يغفر له الشرك فما دونه؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]؛ أي: لمن تاب إليه وأناب.

(١) ع: «الشرك».
(٢) ع، ط: «فوق».

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٤٩) انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا (٥٠)﴾.

(٤٩) هذا تعجب من الله لعباده وتوبيخ للذين يزكون أنفسهم من اليهود والنصارى ومن نحا نحوهم من كل من زكى نفسه بأمر ليس فيه، وذلك أن اليهود والنصارى يقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]، ويقولون: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١١١]: وهذا مجرد دعوى لا برهان عليها، وإنما البرهان ما أخبر به في القرآن في قوله: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢)﴾، فهؤلاء هم الذين زكاهم الله، ولهذا قال هنا: ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾؛ أي: بالإيمان والعمل الصالح، بالتخلي عن الأخلاق الرذيلة والتحلي بالصفات الجميلة، وأما هؤلاء فهم وإن زكوا أنفسهم بزعمهم أنهم على شيء وأن الثواب لهم وحدهم؛ فإنهم كذبة في ذلك، ليس لهم من خصال الزاكين نصيب بسبب ظلمهم وكفرهم لا بظلم من الله لهم، ولهذا قال: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٤٩)﴾، وهذا لتحقيق العموم؛ أي: لا يظلمون شيئًا، ولا مقدار الفتيل الذي في شق النواة أو الذي يفتل من وسخ اليد وغيرها.

(٥٠) قال تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾؛ أي: بتزكيتهم أنفسهم؛ لأن هذا من أعظم الافتراء على الله؛ لأن مضمون تزكيتهم لأنفسهم الإخبار بأن الله جعل ما هم عليه حقًّا وما عليه المؤمنون المسلمون باطلًا، وهذا أعظم الكذب وقلب الحقائق بجعل الحق باطلًا والباطل حقًّا، ولهذا قال: ﴿وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا (٥٠)﴾؛ أي: ظاهرًا بينًا موجبًا للعقوبة البليغة والعذاب الأليم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٥٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا
غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا (٥٦)
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي
مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ
وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا (٥٧) ﴾.

(٥١) وهذا من قبائح اليهود وحسدهم للنبي ﷺ والمؤمنين؛ أن أخلاقهم الرذيلة وطبعهم الخبيث حملهم على ترك الإيمان بالله ورسوله والتعوض عنه بالإيمان بالجبت والطاغوت، وهو الإيمان بكل عبادة لغير الله أو حكم بغير شرع الله، فدخل في ذلك السحر والكهانة وعبادة غير الله وطاعة الشيطان، كل هذا من الجبت والطاغوت، وكذلك حملهم الكفر والحسد على أن فضلوا طريقة الكافرين بالله عبدة الأصنام على طريق المؤمنين، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ أي: لأجلهم تملقًا لهم ومداهنةً وبغضًا للإيمان: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا (٥١)﴾؛ أي: طريقًا؛ فما أسمجهم وأشد عنادهم وأقل عقولهم! كيف سلكوا هذا المسلك الوخيم والوادي الذميم؟! هل ظنوا أن هذا يروج على أحد من العقلاء أو يدخل عقل أحد من الجهلاء؟! فهل يفضل دين قام على عبادة الأصنام والأوثان، واستقام على تحريم الطيبات وإباحة الخبائث وإحلال كثير من المحرمات، وإقامة الظلم بين الخلق وتسوية الخالق بالمخلوقين، والكفر بالله ورسله وكتبه على دين قام على عبادة الرحمن، والإخلاص لله في السر والإعلان، والكفر بما يعبد من دونه من الأوثان والأنداد والكاذبين، وعلى صلة الأرحام والإحسان إلى جميع الخلق حتى البهائم، وإقامة العدل والقسط بين الناس وتحريم كل خبيث وظلم، ومصدق[1] في جميع الأقوال والأعمال؟! فهل هذا إلا من الهذيان؟! وصاحب هذا القول إما من أجهل الناس وأضعفهم عقلًا، وإما من أعظمهم عنادًا وتمردًا ومراغمة للحق، وهذا هو الواقع.

(٥٢) ولهذا قال تعالى عنهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: طردهم عن رحمته وأحل عليهم نقمته. ﴿وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا (٥٢)﴾؛ أي: يتولاه ويقوم بمصالحه ويحفظه عن المكاره، وهذا غاية الخذلان.

(١) ع: «والصدق».

الجزء الخامس — سورة النساء

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا (٥٢)
أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا (٥٣) أَمۡ
يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ
ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا (٥٤)
فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا
(٥٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ
جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ
كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا (٥٦) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ
لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا (٥٧) ۞ إِنَّ
ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ
ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا
بَصِيرٗا (٥٨) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي
ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ
تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا (٥٩)

٨٧

(٥٣) ﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ﴾؛ أي: فيفضلون من شاءوا على من شاءوا بمجرد أهوائهم، فيكونون شركاء لله في تدبير المملكة؛ فلو كانوا كذلك لشحوا وبخلوا أشد البخل. ولهذا قال: ﴿فَإِذٗا﴾؛ أي: لو كان لهم نصيب من الملك ﴿لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا (٥٣)﴾؛ أي: شيئًا، ولا قليلًا. وهذا وصف لهم بشدة البخل على تقدير وجود ملكهم المشارك لملك الله، وأخرج هذا مخرج الاستفهام المتقرر إنكاره عند كل أحد.

(٥٤) ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾؛ أي: هل الحامل لهم على قولهم كونهم شركاء لله فيفضلون من شاءوا؟ أم الحامل لهم على ذلك الحسد للرسول وللمؤمنين على ما آتاهم الله من فضله؟ وذلك ليس ببدع ولا غريب على فضل الله؛ ﴿فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا (٥٤)﴾، وذلك ما أنعم الله به على إبراهيم وذريته من النبوة والكتاب والملك الذي أعطاه من أعطاه من أنبيائه؛ كداود وسليمان، فإنعامه لم يزل مستمرًّا على عباده المؤمنين؛ فكيف ينكرون إنعامه بالنبوة والنصر

والملك لمحمد ﷺ أفضل الخلق وأجلهم وأعظمهم معرفةً بالله وأخشاهم له؟!

(٥٥) ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾؛ أي: بمحمد ﷺ فنال بذلك السعادة الدنيوية والفلاح الأخروي، ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾؛ عنادًا وبغيًا وحسدًا، فحصل لهم من شقاء الدنيا ومصائبها ما هو بعض آثار معاصيهم، ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ۝٥٥﴾: تسعر على من كفر بالله، وجحد نبوة أنبيائه من اليهود والنصارى وغيرهم من أصناف الكفرة.

(٥٦) ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾؛ أي: عظيمة الوقود شديدة الحرارة، ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾؛ أي: احترقت، ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾؛ أي: ليبلغ العذاب منهم كل مبلغ، وكما تكرر منهم الكفر والعناد؛ وصار وصفًا لهم وسجيةً؛ كرر عليهم العذاب جزاء وفاقًا، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٥٦﴾؛ أي: له العزة العظيمة والحكمة في خلقه وأمره وثوابه وعقابه.

(٥٧) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: بالله وما أوجب الإيمان به، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: من الواجبات والمستحبات، ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾؛ أي: من الأخلاق الرذيلة والخلق الذميم ومما يكون من نساء الدنيا من كل دنس وعيب، ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ۝٥٧﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٥٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٥٩﴾.

(٥٨) الأمانات كل ما اؤتمن عليه الإنسان وأُمِرَ بالقيام به، فأمر الله عباده بأدائها؛ أي: كاملة موفرة لا منقوصة ولا مبخوسةً ولا ممطولًا بها، ويدخل في ذلك أمانات الولايات والأموال والأسرار والمأمورات التي لا يطلع عليها إلا الله. وقد ذكر الفقهاء أن من اؤتمن أمانة وجب عليه حفظها في حرز مثلها؛ قالوا: لأنه لا يمكن أداؤها إلا بحفظها، فوجب ذلك. وفي قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾: دلالة على أنها لا تدفع وتؤدى لغير المؤتمن، ووكيله بمنزلته؛ فلو دفعها لغير ربها لم يكن مؤديًا لها.

﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾: وهذا يشمل الحكم بينهم في الدماء والأموال والأعراض؛ القليل من ذلك والكثير، على القريب والبعيد، والبر والفاجر، والولي والعدو. والمراد بالعدل الذي أمر الله بالحكم به هو ما شرعه الله على لسان رسوله من الحدود والأحكام، وهذا يستلزم معرفة العدل ليحكم به، ولما كانت هذه أوامر حسنةً عادلةً قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٥٨﴾: وهذا مدح من الله لأوامره ونواهيه؛ لاشتمالها على مصالح الدارين ودفع مضارهما؛ لأن شارعهما[1] السميع البصير الذي لا تخفى عليه خافية ويعلم من مصالح العباد ما لا يعلمون.

(٥٩) ثم أمر بطاعته وطاعة رسوله؛ وذلك بامتثال أمرهما الواجب والمستحب واجتناب نهيهما، وأمر بطاعة أولي الأمر، وهم الولاة على الناس من الأمراء والحكام والمفتين؛ فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم إلا بطاعتهم والانقياد لهم؛ طاعةً لله ورغبةً فيما عنده، ولكن بشرط ألَّا يأمروا بمعصية الله؛ فإن أمروا بذلك فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. ولعل هذا هو السر في حذف الفعل عند الأمر بطاعتهم وذكره مع طاعة الرسول؛ فإن الرسول لا يأمر إلا بطاعة الله، ومن يطعه فقد أطاع الله، وأما أولو الأمر فشرط الأمر بطاعتهم ألَّا يكون معصيةً.

ثم أمر برد كل ما تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه إلى الله وإلى الرسول؛ أي: إلى كتاب الله وسنة رسوله؛ فإن فيهما الفصل في جميع المسائل الخلافية: إما بصريحهما أو عمومهما أو إيماء أو تنبيه أو مفهوم أو عموم معنى يقاس عليه ما أشبهه؛ لأن كتاب الله وسنة رسوله عليهما بناء الدين، ولا يستقيم الإيمان إلا بهما؛ فالرد إليهما شرط في الإيمان؛ فلهذا قال: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾: فدل ذلك على أن من لم يرد إليهما مسائل النزاع فليس بمؤمن حقيقةً، بل مؤمن بالطاغوت؛ كما ذكر في الآية بعدها. ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: الرد إلى الله ورسوله، ﴿خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٥٩﴾؛ فإن حكم الله ورسوله أحسن الأحكام وأعدلها وأصلحها للناس في أمر دينهم ودنياهم وعاقبتهم.

(١) ع، ط: «شارعها».

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿٦٠﴾، ﴿٦١﴾ يعجِّب تعالى عباده من حالة المنافقين الذين يزعمون أنهم آمنوا[1] بما جاء به الرسول وبما قبله، ومع هذا ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ﴾، وهو كل من حكم بغير شرع الله فهو طاغوت، والحال أنهم قد ﴿ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ ﴾؛ فكيف يجتمع هذا والإيمان؟! فإن الإيمان يقتضي الانقياد لشرع الله وتحكيمه في كل أمر من الأمور، فمن زعم أنه مؤمن واختار حكم الطاغوت على حكم الله فهو كاذب في ذلك، وهذا من إضلال الشيطان إياهم، ولهذا قال: ﴿ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ ﴾ عن الحق.

﴿٦٢﴾ ﴿ فَكَيْفَ ﴾ يكون حال هؤلاء الضالين ﴿ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ من المعاصي، ومنها تحكيم الطاغوت، ﴿ ثُمَّ جَاءُوكَ ﴾ متعذرين[2] لما صدر منهم، ويحلفون[3]: ﴿ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ ﴾؛ أي: ما قصدنا في ذلك إلا الإحسان إلى المتخاصمين والتوفيق بينهم، وهم كذبة في ذلك؛ فإن الإحسان كل الإحسان تحكيم الله ورسوله، ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المائدة: ٥٠].

﴿٦٣﴾ ولهذا قال: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾؛ أي: من النفاق والقصد السيئ؛ ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾؛ أي: لا تبال بهم ولا تقابلهم على ما فعلوه واقترفوه، ﴿ وَعِظْهُمْ ﴾؛ أي: بين لهم حكم الله تعالى مع الترغيب في الانقياد لله والترهيب من تركه، ﴿ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ ﴾؛ أي: انصحهم سرًّا بينك وبينهم؛ فإنه

(١) ع، ط: «مؤمنون».
(٢) ط: «معتذرين»، وتعذر عن الذنب: تنصل منه واحتج لنفسه. الوسيط (ع ذ ر).
(٣) ع، ط: «ويقولون».

الجزء الخامس — سورة النساء

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ
وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ
وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ
ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ
اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ
صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا
قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا
إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا
فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي
أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا
لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ
جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ
لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ
حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا
فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

٨٨

أنجح لحصول المقصود، وبالغ في زجرهم وقمعهم عما كانوا عليه. وفي هذا دليل على أن مقترف المعاصي وإن أُعرض عنه فإنه ينصح سرًّا ويبالغ في وعظه بما يظن حصول المقصود به.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾.

﴿٦٤﴾ يخبر تعالى خبرًا في ضمنه الأمر والحث على طاعة الرسول والانقياد له، وأن الغاية من إرسال الرسل أن يكونوا مطاعين ينقاد لهم المرسل إليهم في جميع ما أمروا به ونهوا عنه، وأن يكونوا معظمين تعظيم المطاع من المطيع[4]،

(٤) عبارة: «من المطيع» وردت في ع، ط: «للمطيع».

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن
دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ
بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن
لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾
وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم
مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ
أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ
بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ
فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ
فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ
شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن
لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ
فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ
يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَاتِلْ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾

وفي هذا إثبات عصمة الرسل فيما يبلغونه عن الله وفيما يأمرون به وينهون عنه؛ لأن الله أمر بطاعتهم مطلقًا؛ فلولا أنهم معصومون لا يشرعون ما هو خطأ؛ لما أمر بذلك مطلقًا. وقوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾؛ أي: الطاعة من المطيع صادرة بقضاء الله وقدره؛ ففيه إثبات القضاء والقدر، والحث على الاستعانة بالله، وبيان أنه لا يمكن الإنسان إن لم يعنه الله أن يطيع الرسول.

ثم أخبر عن كرمه العظيم وجوده ودعوته لمن اقترف السيئات أن يعترفوا ويتوبوا ويستغفروا الله، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ﴾؛ أي: معترفين بذنوبهم باخعين بها. ﴿فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾؛ أي: لتاب عليهم بمغفرته ظلمهم، ورحمهم بقبول التوبة والتوفيق لها والثواب عليها. وهذا المجيء إلى الرسول ﷺ مختص بحياته؛ لأن السياق يدل على ذلك؛ لكون الاستغفار من الرسول لا يكون إلا في حياته، وأما بعد موته فإنه لا يطلب منه شيء، بل ذلك شرك.

﴿٦٥﴾ ثم أقسم تعالى بنفسه الكريمة أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله فيما شجر بينهم؛ أي: في كل شيء يحصل فيه اختلاف؛ بخلاف مسائل الإجماع فإنها لا تكون إلا مستندةً للكتاب والسنة، ثم لا يكفي هذا التحكيم حتى ينتفي الحرج من قلوبهم والضيق. وكونهم يحكمونه على وجه الإغماض، ثم لا يكفي هذا التحكيم حتى يسلموا لحكمه تسليمًا بانشراح صدر وطمأنينة نفس وانقياد بالظاهر والباطن؛ فالتحكيم في مقام الإسلام، وانتفاء الحرج في مقام الإيمان، والتسليم في مقام الإحسان؛ فمن استكمل هذه المراتب وكملها؛ فقد استكمل مراتب الدين كلها، ومن ترك هذا التحكيم(١) المذكور غير ملتزم له؛ فهو كافر، ومن تركه مع التزامه؛ فله حكم أمثاله من العاصين.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾.

﴿٦٦﴾ يخبر تعالى أنه لو كتب على عباده الأوامر الشاقة على النفوس؛ من قتل النفوس والخروج من الديار لم يفعله إلا القليل منهم والنادر؛ فليحمدوا ربهم وليشكروه على تيسير ما أمرهم به من الأوامر التي تسهل على كل أحد ولا يشق فعلها، وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي أن يلحظ العبد ضد ما هو فيه من المكروهات؛ لتخف عليه العبادات، ويزداد حمدًا وشكرًا لربه.

ثم أخبر أنهم لو ﴿فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾؛ أي: ما وظف عليهم في كل وقت بحسبه، فبذلوا هممهم، ووفروا نفوسهم للقيام به وتكميله، ولم تطمح نفوسهم لما لم يصلوا إليه، ولم يكونوا بصدده، وهذا هو الذي ينبغي للعبد أن ينظر إلى الحالة التي يلزمه القيام بها، فيكملها، ثم يتدرج شيئًا فشيئًا، حتى يصل إلى ما قدر له من العلم والعمل في أمر الدين والدنيا، وهذا بخلاف من طمحت نفسه إلى أمر لم يصل إليه ولم يؤمر به بعد؛ فإنه لا يكاد يصل إلى ذلك بسبب تفريق الهمة وحصول الكسل وعدم النشاط، ثم رتب ما يحصل لهم على فعل ما يوعظون به، وهو أربعة أمور:

(١) عبارة: «هذا التحكيم» وردت في ع: «ذلك».

أحدها: الخيرية في قوله: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾؛ أي: لكانوا من الأخيار المتصفين بأوصافهم من أفعال الخير التي أمروا بها؛ أي: وانتفى عنهم بذلك صفة الأشرار؛ لأن ثبوت الشيء يستلزم نفي ضده.

الثاني: حصول التثبيت والثبات وزيادته؛ فإن الله يثبت الذين آمنوا بسبب ما قاموا به من الإيمان الذي هو القيام بما وعظوا به، فيثبتهم في الحياة الدنيا عند ورود الفتن في الأوامر والنواهي والمصائب، فيحصل لهم ثبات يوفقون لفعل الأوامر وترك الزواجر التي تقتضي النفس فعلها وعند حلول المصائب التي يكرهها العبد، فيوفق للتثبيت بالتوفيق للصبر أو للرضا أو للشكر، فينزل عليه معونة من الله للقيام بذلك، ويحصل لهم الثبات على الدين عند الموت وفي القبر. وأيضًا فإن العبد القائم بما أمر به لا يزال يتمرن على الأوامر الشرعية حتى يألفها ويشتاق إليها وإلى أمثالها فيكون ذلك معونةً له على الثبات على الطاعات.

(٦٧) **الثالث**: قوله: ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾﴾؛ أي: في العاجل والآجل، الذي يكون للروح والقلب والبدن، ومن النعيم المقيم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

(٦٨) **الرابع**: الهداية إلى صراط مستقيم، وهذا عموم بعد خصوص؛ لشرف الهداية إلى الصراط المستقيم، من كونها متضمنةً للعلم بالحق ومحبته وإيثاره والعمل به وتوقف السعادة والفلاح على ذلك؛ فمن هدي إلى صراط مستقيم؛ فقد وفق لكل خير، واندفع عنه كل شر وضير.

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾.

(٦٩) أي: كل من أطاع الله ورسوله على حسب حاله، وقدر الواجب عليه؛ من ذكر وأنثى، وصغير وكبير ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾؛ أي: النعمة العظيمة التي تقتضي الكمال والفلاح والسعادة. ﴿مِّنَ النَّبِيِّينَ﴾: الذين فضلهم الله بوحيه واختصهم بتفضيلهم بإرسالهم إلى الخلق ودعوتهم إلى الله تعالى. ﴿وَالصِّدِّيقِينَ﴾: وهم الذين كمل تصديقهم بما جاءت به الرسل، فعلموا الحق وصدقوه بيقينهم، وبالقيام به قولًا وعملًا وحالًا ودعوةً إلى الله. ﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾: الذين قاتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، فقتلوا. ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾: الذين صلح ظاهرهم وباطنهم، فصلحت أعمالهم؛ فكل من أطاع الله تعالى كان مع هؤلاء وفي صحبتهم. ﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾: بالاجتماع بهم في جنات النعيم والأنس بقربهم في جوار رب العالمين.

(٧٠) ﴿ذَٰلِكَ الْفَضْلُ﴾: الذي نالوه ﴿مِنَ اللَّهِ﴾: فهو الذي وفقهم لذلك وأعانهم عليه، وأعطاهم من الثواب ما لا تبلغه أعمالهم. ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾: يعلم أحوال عباده ومن يستحق منهم الثواب الجزيل بما قام به من الأعمال الصالحة التي تواطأ عليها القلب والجوارح.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾.

(٧١) يأمر تعالى عباده المؤمنين بأخذ حذرهم من أعدائهم الكافرين، وهذا يشمل الأخذ بجميع الأسباب التي بها يستعان على قتالهم ويستدفع مكرهم وقوتهم؛ من استعمال الحصون والخنادق، وتعلم الرمي والركوب، وتعلم الصناعات التي تعين على ذلك، وما به يعرف مداخلهم ومخارجهم ومكرهم، والنفير في سبيل الله، ولهذا قال: ﴿فَانفِرُوا ثُبَاتٍ﴾؛ أي: متفرقين؛ بأن تنفر سرية أو جيش ويقيم غيرهم، ﴿أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾﴾، وكل هذا تبع للمصلحة والنكاية والراحة للمسلمين في دينهم. وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

(٧٢) ثم أخبر عن ضعفاء الإيمان المتكاسلين عن الجهاد فقال: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ﴾؛ أي: أيها المؤمنون، ﴿لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾؛ أي: يتثاقل عن الجهاد في سبيل الله ضعفًا وخورًا وجبنًا. هذا الصحيح، وقيل: معناه ليبطئن غيره؛ أي: يزهده عن القتال، وهؤلاء هم المنافقون، ولكن الأول أولى لوجهين:

أحدهما: قوله: ﴿مِنكُمْ﴾، والخطاب للمؤمنين.

والثاني: قوله في آخر الآية: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾؛ فإن الكفار من المشركين والمنافقين قد قطع الله بينهم وبين المؤمنين المودة.

وأيضًا؛ فإن هذا هو الواقع؛ فإن المؤمنين على قسمين: صادقون في إيمانهم أوجب لهم ذلك كمال التصديق والجهاد. وضعفاء دخلوا في الإسلام فصار معهم إيمان ضعيف لا يقوى على الجهاد؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤] إلى آخر الآيات.

ثم ذكر غايات هؤلاء المتثاقلين ونهاية مقاصدهم، وأن معظم قصدهم الدنيا وحطامها، فقال: ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾؛ أي: هزيمة وقتل وظفر الأعداء عليكم في بعض الأحوال لما لله في ذلك من الحكم، ﴿قَالَ﴾ ذلك المتخلف: ﴿قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾﴾: رأى من ضعف عقله وإيمانه أن التقاعد عن الجهاد الذي فيه تلك المصيبة نعمة، ولم يدر أن النعمة الحقيقية هي التوفيق لهذه الطاعة الكبيرة التي بها يقوى الإيمان ويسلم بها العبد من العقوبة والخسران، ويحصل له فيها عظيم الثواب ورضا الكريم الوهاب، وأما القعود فإنه وإن استراح قليلًا فإنه يعقبه تعب طويل وآلام عظيمة، ويفوته ما يحصل للمجاهدين.

﴿٧٣﴾ ثم قال: ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: نصر وغنيمة، ﴿لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾؛ أي: يتمنى أنه حاضر لينال من المغانم، ليس له رغبة ولا قصد في غير ذلك، كأنه ليس منكم يا معشر المؤمنين، ولا بينكم وبينه المودة الإيمانية التي من مقتضاها أن المؤمنين مشتركون في جميع مصالحهم ودفع مضارهم، يفرحون بحصولها ولو على يد غيرهم من إخوانهم المؤمنين ويألمون بفقدها ويسعون جميعًا في كل أمر يصلحون به دينهم ودنياهم، فهذا الذي يتمنى الدنيا فقط ليست معه الروح الإيمانية المذكورة.

﴿٧٤﴾ ومن لطف الله بعباده ألَّا يقطع عنهم رحمته، ولا يغلق عنهم أبوابها، بل من حصل على[1] غير ما يليق أمره ودعاه إلى جبر نقصه وتكميل نفسه، فلهذا أمر هؤلاء بالإخلاص والخروج في سبيله، فقال: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾؛ هذا أحد الأقوال في هذه الآية وهو أصحها، وقيل: إن معناه فليقاتل في سبيل الله المؤمنون الكاملو الإيمان الصادقون في إيمانهم ﴿ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾؛ أي: يبيعون الدنيا رغبةً عنها بالآخرة رغبةً فيها؛ فإن هؤلاء هم الذين يوجه إليهم الخطاب؛ لأنهم الذين قد أعدوا أنفسهم ووطنوها على جهاد الأعداء؛ لما معهم من الإيمان التام المقتضي لذلك، وأما أولئك المتثاقلون؛ فلا يُعْبأ بهم خرجوا أو قعدوا، فيكون هذا نظير قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧] إلى آخر الآيات، وقوله: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنعام: ٨٩].

وقيل: إن معنى الآية: فليقاتل المقاتل والمجاهد للكفار الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة، فيكون على هذا الوجه. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في محل نصب على المفعولية، ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: بأن يكون جهادًا قد أمر الله به ورسوله، ويكون العبد مخلصًا لله فيه قاصدًا وجه الله، ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾: زيادةً في إيمانه ودينه وغنيمةً وثناءً حسنًا وثوابَ المجاهدين في سبيل الله الذين أعد الله لهم في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾.

﴿٧٥﴾ هذا حث من الله لعباده المؤمنين وتهييج لهم على القتال في سبيله، وأن ذلك قد تعين عليهم وتوجه اللوم العظيم عليهم بتركه، فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ والحال أن المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلًا، ومع هذا فقد نالهم أعظم الظلم من أعدائهم؛ فهم يدعون الله أن يخرجهم من هذه القرية الظالم أهلها لأنفسهم بالكفر والشرك، وللمؤمنين بالأذى والصد عن سبيل الله، ومنعهم من الدعوة لدينهم والهجرة، ويدعون الله أن يجعل لهم وليًّا ونصيرًا يستنقذهم من هذه القرية الظالم أهلها، فصار جهادكم على هذا الوجه من باب القتال والذب عن عيلاتكم وأولادكم ومحارمكم لا من باب الجهاد

(١) ع: «منه».

الـذي هو الطمع في الكفـار؛ فإنـه وإن كان فيه فضل عظيم ويلام المتخلف عنه أعظم اللوم فالجهاد الذي فيه استنقاذ المستضعفين منكم أعظم أجرًا وأكبر فائدةً بحيث يكون من باب دفع الأعداء.

ثم قال:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾.

﴿٧٦﴾ هـذا إخبار من اللـه بأن المؤمنين يقاتلون في سبيله، ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ الذي هو الشيطان. في ضمن ذلك عدة فوائد:

منها: أنه بحسـب إيمـان العبد يكون جهاده في سـبيل الله وإخلاصه ومتابعته، فالجهاد في سـبيل اللـه من آثار الإيمان ومقتضياتـه ولوازمـه؛ كما أن القتال في سبيل الطاغوت من شعب الكفر ومقتضياته.

ومنها: أن الذي يقاتل في سـبيل الله ينبغي له ويحسـن منه من الصبر والجلد ما لا يقوم به غيره؛ فإذا كان أولياء الشيطان يصبرون ويقاتلون وهم على باطل؛ فأهل الحق أولى بذلك؛ كمـا قـال تعالى في هـذا المعنـى: ﴿ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَ ﴾ الآيـة [النساء: ١٠٤].

ومنهـا: أن الـذي يقاتل في سبيل الله معتمـدًا على ركن وثيق، وهو الحق والتوكل على الله؛ فصاحب القوة والركن الوثيـق يطلـب منه من الصبر والثبات والنشـاط ما لا يطلب ممن يقاتل عـن الباطل الذي لا حقيقة له ولا عاقبة حميدة؛ فلهـذا قـال تعالـى: ﴿ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾؛ والكيـد سـلوك الطرق الخفيـة في ضرر العـدو؛ فالشـيطان وإن بلـغ مكـره مهما بلـغ فإنه فـي غاية الضعف الذي لا يقوم لأدنى شـيء مـن الحق ولا لكيد الله لعباده المؤمنين.

﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ

الجزء الخامس — سورة النساء

وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٧٩﴾

٩٠

ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖ ﴾.

﴿٧٧﴾ كان المسـلمون إذ كانـوا بمكـة مأموريـن بالصـلاة والـزكاة؛ أي: مواسـاة الفقـراء، لا الـزكاة المعروفـة ذات النُّصُب والشـروط؛ فإنها لم تفرض إلا بالمدينة، ولم يؤمروا بجهاد الأعداء لعدة فوائد:

منها: أن من حكمة الباري تعالى أن يشـرع لعباده الشـرائع علـى وجـه لا يشـق عليهم، ويبـدأ بالأهم فالأهم والأسـهل فالأسهل.

ومنهـا: أنه لو فرض عليهم القتال مع قلة عددهم وعُددهم وكثرة أعدائهم؛ لأدى ذلك إلى اضمحلال الإسلام، فَرُوعِيَ جانـب المصلحـة العظمـى على ما دونهـا. ولغيـر ذلك من الحكم.

وكان بعض المؤمنين يودون أن لو فرض عليهم القتال في تلـك الحال غير اللائق فيها ذلك، وإنما اللائق فيها القيام بما

أمروا به في ذلك الوقت من التوحيد والصلاة والزكاة ونحو ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾، فلما هاجروا إلى المدينة وقوي الإسلام؛ كتب عليهم القتال في وقته المناسب لذلك، فقال فريق من الذين يستعجلون القتال قبل ذلك خوفًا من الناس وضعفًا وخورًا: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾؟ وفي هذا تضجرهم واعتراضهم على الله، وكان الذي ينبغي لهم ضد هذه الحال؛ التسليم لأمر الله والصبر على أوامره، فعكسوا الأمر المطلوب منهم، فقالوا: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾؛ أي: هلَّا أخرت فرض القتال مدةً متأخرةً عن الوقت الحاضر، وهذه الحال كثيرًا ما تعرض لمن هو غير رزين واستعجل في الأمور قبل وقتها؛ فالغالب عليه أنه لا يصبر عليها وقت حلولها ولا ينوء بحملها، بل يكون قليل الصبر.

ثم إن الله وعظهم عن هذه الحال التي فيها التخلف عن القتال، فقال: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾. أي: التمتع بلذات الدنيا وراحتها قليل، فتحمل الأثقال في طاعة الله في المدة القصيرة مما يسهل على النفوس ويخف عليها؛ لأنها إذا علمت أن المشقة التي تنالها لا يطول لُبثها هان عليها ذلك فكيف إذا وازنت بين الدنيا والآخرة، وأن الآخرة خير منها في ذاتها ولذاتها وزمانها؛ فذاتها كما ذكر النبي ﷺ في الحديث الثابت عنه: «**إن موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها**»[(١)]، ولذاتها صافية عن المكدرات، بل كل ما خطر بالبال أو دار في الفكر من تصور لذة فلذة الجنة فوق ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، وقال الله على لسان نبيه[(٢)]: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**».

وأما لذات الدنيا؛ فإنها مشوبة بأنواع التنغيص الذي لو قوبل بين لذاتها وما يقترن بها من أنواع الآلام والهموم والغموم لم يكن لذلك نسبة بوجه من الوجوه. وأما زمانها؛ فإن الدنيا منقضية وعمر الإنسان بالنسبة إلى الدنيا شيء يسير، وأما الآخرة؛ فإنها دائمة النعيم، وأهلها خالدون فيها؛ فإذا فكر العاقل في هاتين الدارين، وتصور حقيقتهما حق التصور عرف ما هو أحق بالإيثار والسعي له والاجتهاد لطلبه، ولهذا قال: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ أي: اتقى الشرك وسائر المحرمات. ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾. أي: فسعيكم للدار الآخرة ستجدونه كاملًا موفرًا غير منقوص منه شيء.

﴿٧٨﴾ ثم أخبر أنه لا يغني حذر عن قدر، وأن القاعد لا يدفع عنه قعوده شيئًا، فقال: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: في أي زمان وأي مكان. ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ أي: قصور منيعة ومنازل رفيعة. وكل هذا حث على الجهاد في سبيل الله؛ تارةً بالترغيب في فضله وثوابه، وتارةً بالترهيب من عقوبة تركه، وتارةً بالإخبار أنه لا ينفع القاعدين قعودهم، وتارةً بتسهيل الطريق في ذلك وقصرها.

ثم قال:

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن الذين لا يعلمون، المعرضين عما جاءت به الرسل، المعارضين لهم أنهم إذا جاءتهم حسنة؛ أي: خِصب وكثرة أموال وتوفر أولاد وصحة قالوا: ﴿هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، وأنهم إن أصابتهم سيئة؛ أي: جدب وفقر ومرض وموت أولاد وأحباب؛ قالوا: ﴿هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾؛ أي: بسبب ما جئتنا به يا محمد! تطيروا برسول الله ﷺ كما تطير أمثالهم برسل الله؛ كما أخبر الله عن قوم فرعون أنهم إذا[(٣)] ﴿جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٣١]، وقال قوم صالح: ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ [النمل: ٤٧]، وقال قوم يس لرسلهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ الآية [يس: ١٨]، فلما تشابهت قلوبهم بالكفر؛ تشابهت أقوالهم وأفعالهم[(٤)]، وهكذا كل من نسب حصول الشر أو زوال الخير لما جاءت به الرسل أو لبعضه؛ فهو داخل في هذا الذم الوخيم. قال الله في جوابهم: ﴿قُلْ كُلٌّ﴾ أي: من الحسنة والسيئة والخير والشر، ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: بقضائه وقدره وخلقه. ﴿فَمَالِ

(١) البخاري (٣٢٥٠).
(٢) البخاري (٣٢٤٤)، مسلم (٢٨٢٤).
(٣) ع، ط: «قالوا لموسى فإذا».
(٤) ع: «وأعمالهم».

مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾

﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ ﴾ أي: الصادر منهم تلك المقالة الباطلة، ﴿ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ ﴾؛ أي: لا يفهمون حديثًا بالكلية ولا يقربون من فهمه أو لا يفهمون منه إلا فهمًا ضعيفًا. وعلى كل فهو ذم لهم وتوبيخ على عدم فهمهم وفقههم عن الله وعن رسوله، وذلك بسبب كفرهم وإعراضهم.

وفي ضمن ذلك مدح من يفهم عن الله وعن رسوله، والحث على ذلك وعلى الأسباب المعينة على ذلك من الإقبال على كلامهما، وتدبره وسلوك الطرق الموصلة إليه؛ فلو فقهوا عن الله لعلموا أن الخير والشر والحسنات والسيئات كلها بقضاء الله وقدره، لا يخرج منها شيء عن ذلك، وأن الرسل عليهم الصلاة والسلام لا يكونون سببًا لشر يحدث - لا[1] هم ولا ما جاءوا به - لأنهم بعثوا بمصالح[2] الدنيا والآخرة والدين.

﴿٧٩﴾ ثم قال تعالى: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ ﴾؛ أي: في الدين والدنيا ﴿ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾: هو الذي مَنَّ بها ويسرها بتيسير أسبابها، ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ ﴾: في الدين والدنيا ﴿ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾؛ أي: بذنوبك وكسبك وما يعفو الله عنه أكثر؛ فالله تعالى قد فتح لعباده أبواب إحسانه وأمرهم بالدخول لبره وفضله، وأخبرهم أن المعاصي مانعة من فضله؛ فإذا فعلها العبد فلا يلومن إلا نفسه؛ فإنه المانع لنفسه عن وصول فضل الله وبره.

ثم أخبر عن عموم رسالة رسوله محمد ﷺ، فقال: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾: على أنك رسول الله حقًّا بما أيدك بنصره والمعجزات الباهرة والبراهين الساطعة؛ فهي أكبر شهادة على الإطلاق؛ كما قال تعالى: ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٩]؛ فإذا علم أن الله تعالى كامل العلم، تام القدرة، عظيم الحكمة وقد أيد الله رسوله بما أيده ونصره نصرًا عظيمًا؛ تيقن بذلك أنه رسول الله، وإلا فلو تقوَّل عليه بعض الأقاويل؛ لأخذ منه باليمين ثم لقطع منه الوتين.

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿٨٠﴾ أي: كل من أطاع رسول الله في أوامره ونواهيه؛ ﴿ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ تعالى؛ لكونه لا يأمر ولا ينهى إلا بأمر الله وشرعه ووحيه وتنزيله، وفي هذا عصمة الرسول ﷺ؛ لأن الله أمر بطاعته مطلقًا؛ فلولا أنه معصوم في كل ما يبلغ عن الله لم يأمر بطاعته مطلقًا ويمدح على ذلك، وهذا من الحقوق المشتركة؛ فإن الحقوق ثلاثة: حق لله تعالى لا يكون لأحد من الخلق، وهو عبادة الله والرغبة إليه وتوابع ذلك؛ وقسم مختص بالرسول، وهو التعزير والتوقير والنصرة. وقسم مشترك، وهو الإيمان بالله ورسوله ومحبتهما وطاعتهما؛ كما جمع الله بين هذه الحقوق في قوله: ﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ [الفتح: ٩]؛ فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله، وله من الثواب والخير ما رتب على طاعة الله. ﴿ وَمَن تَوَلَّىٰ ﴾: عن طاعة الله ورسوله؛ فإنه لا يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئًا. ﴿ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ

(١) ساقط من ع، ط.
(٢) ع: «بصلاح».

عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴿٨٠﴾﴾؛ أي: تحفظ أعمالهم وأحوالهم، بل أرسلناك مبلغًا ومبينًا وناصحًا، وقد أديت وظيفتك ووجب أجرك على الله، سواء اهتدوا أم لم يهتدوا؛ كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴿٢١﴾ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ الآية [الغاشية: ٢١، ٢٢].

﴿٨١﴾ ولا بد أن تكون طاعة الله ورسوله ظاهرًا وباطنًا في الحضرة والمغيب، فأما من يظهر في الحضرة الطاعة والالتزام؛ فإذا خلا بنفسه أو أبناء جنسه ترك الطاعة وأقبل على ضدها؛ فإن الطاعة التي أظهرها غير نافعة ولا مفيدة، وقد أشبه من قال الله فيهم: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ﴾؛ أي: يظهرون الطاعة إذا كانوا عندك؛ ﴿فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ﴾؛ أي: خرجوا وخلوا في حالة لا يُطَّلَعُ فيها عليهم، ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُ﴾؛ أي: بيتوا ودبروا غير طاعتك، ولا ثم إلا المعصية. وفي قوله: ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُ﴾: دليل على أن الأمر الذي استقروا عليه غير الطاعة؛ لأن التبييت تدبير الأمر ليلًا على وجه يستقر عليه الرأي. ثم توعدهم على ما فعلوا، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾؛ أي: يحفظه عليهم وسيجازيهم عليه أتم الجزاء؛ ففيه وعيد لهم. ثم أمر رسوله بمقابلتهم بالإعراض وعدم التعنيف؛ فإنهم لا يضرونه شيئًا إذا توكل على الله واستعان به في نصر دينه وإقامة شرعه، ولهذا قال: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴿٨٢﴾﴾.

﴿٨٢﴾ يأمر تعالى بتدبر كتابه، وهو التأمل في معانيه وتحديق الفكر فيه وفي مبادئه وعواقبه ولوازم ذلك؛ فإن في تدبر كتاب الله مفتاحًا للعلوم والمعارف، وبه يُسْتَنْتَجُ كل خير وتستخرج منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب وترسخ شجرته؛ فإنه يعرِّف بالرب المعبود وما له من صفات الكمال، وما ينزه عنه من سمات النقص، ويعرِّف الطريق الموصلة إليه، وصفة أهلها، وما لهم عند القدوم عليه، ويعرِّف العدو الذي هو العدو على الحقيقة، والطريق الموصلة إلى العذاب، وصفة أهلها، وما لهم عند وجود أسباب العقاب. وكلما ازداد العبد تأملًا فيه؛ ازداد علمًا وعملًا وبصيرةً، لذلك أمر الله بذلك وحث عليه وأخبر أنه هو المقصود بإنزال القرآن؛ كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]؛ وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤].

ومن فوائد التدبر لكتاب الله أنه بذلك يصل العبد إلى درجة اليقين والعلم بأنه كلام الله؛ لأنه يراه يصدق بعضه بعضًا، ويوافق بعضه بعضًا، فترى الحِكَمَ والقصة والأخبار[1] تعاد في القرآن في عدة مواضع، كلها متوافقة متصادقة، لا ينقض بعضها بعضًا؛ فبذلك يعلم كمال القرآن، وأنه من عند من أحاط علمه بجميع الأمور؛ فلذلك قال تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴿٨٢﴾﴾؛ أي: فلما كان من عند الله لم يكن فيه اختلاف أصلًا.

﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٣﴾﴾.

﴿٨٣﴾ هذا تأديب من الله لعباده عن فعلهم هذا غير اللائق، وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة والمصالح العامة ما يتعلق بالأمن وسرور المؤمنين أو بالخوف الذي فيه مصيبة عليهم أن يتثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردونه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم؛ أهل الرأي والعلم والنصح والعقل والرزانة الذين يعرفون الأمور ويعرفون المصالح وضدها، فإن رأوا في إذاعته مصلحة ونشاطًا للمؤمنين وسرورًا لهم وتحرزًا من أعدائهم فعلوا ذلك، وإن رأوا أنه ليس[2] فيه مصلحة، أو فيه مصلحة ولكن مضرته تزيد على مصلحته لم يذيعوه. ولهذا قال: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾؛ أي: يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة وعلومهم الرشيدة.

وفي هذا دليل لقاعدة أدبية، وهي أنه إذا حصل بحث في أمر من الأمور ينبغي أن يولى من هو أهل لذلك، ويجعل إلى أهله، ولا يتقدم بين أيديهم؛ فإنه أقرب إلى الصواب وأحرى للسلامة من الخطأ.

وفيه النهي عن العجلة والتسرع لنشر الأمور من حين سماعها، والأمر بالتأمل قبل الكلام والنظر فيه؛ هل هو مصلحة فيقدم عليه الإنسان أم لا فيحجم عنه؟

(١) ع، ط: «الإخبارات».
(٢) عبارة: «أنه ليس» وردت في الأصل: «ما».

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾؛ أي: في توفيقكم وتأديبكم وتعليمكم ما لم تكونوا تعلمون، ﴿لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾؛ لأن الإنسان بطبعه ظالم جاهل فلا تأمره نفسه إلا بالشر؛ فإذا لجأ إلى ربه، واعتصم به، واجتهد في ذلك؛ لطف به ربه، ووفقه لكل خير، وعصمه من الشيطان الرجيم.

﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾.

﴿٨٤﴾ هذه الحالة أفضل أحوال العبد؛ أن يجتهد في نفسه على امتثال أمر الله من الجهاد وغيره، ويحرض غيره عليه، وقد يعدم في العبد الأمران أو أحدهما؛ فلهذا قال[1] لرسوله: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾؛ أي: ليس لك[2] قدرة على غير نفسك، فلن تكلف بفعل غيرك. ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على القتال، وهذا يشمل كل أمر يحصل به نشاط المؤمنين وقوة قلوبهم؛ من تقويتهم، والإخبار بضعف الأعداء وفشلهم، وبما أعد الله للمقاتلين من الثواب، وما على المتخلفين من العقاب؛ فهذا وأمثاله كله يدخل في التحريض على القتال. ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: بقتالكم في سبيل الله وتحريض بعضكم بعضًا. ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا﴾؛ أي: قوة وعزة، ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾: بالمذنب في نفسه وتنكيلًا لغيره؛ فلو شاء تعالى لانتصر من الكفار بقوته، ولم يجعل لهم باقيةً، ولكن من حكمته يبلو بعض عباده ببعض؛ ليقوم سوق الجهاد، ويحصل الإيمان النافع؛ إيمان الاختيار لا إيمان الاضطرار والقهر الذي لا يفيد شيئًا.

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾.

﴿٨٥﴾ المراد بالشفاعة هنا المعاونة على أمر من الأمور؛ فمن شفَّع غيره وقام معه على أمر من أمور الخير، ومنه الشفاعة للمظلومين لمن ظلمهم كان له نصيب من شفاعته بحسب سعيه وعمله ونفعه، ولا ينقص من أجر الأصيل أو المباشر شيء، ومن عاون غيره على أمر من الشر كان عليه كفل من الإثم بحسب ما قام به وعاون عليه. ففي هذا الحث العظيم على التعاون على البر والتقوى، والزجر العظيم عن التعاون على الإثم والعدوان. وقرر ذلك بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾؛ أي: شاهدًا حفيظًا حسيبًا على هذه الأعمال، فيجازي كلًّا ما يستحقه.

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾.

﴿٨٦﴾ التحية: هي اللفظ الصادر من أحد المتلاقيين على وجه الإكرام والدعاء وما يقترن بذلك اللفظ من البشاشة ونحوها، وأعلى أنواع التحية ما ورد به الشرع من السلام ابتداءً وردًّا، فأمر تعالى المؤمنين أنهم إذا حيوا بأي تحية كانت أن يردوها بأحسن منها لفظًا وبشاشةً أو مثلها في ذلك، ومفهوم ذلك النهي عن عدم الرد بالكلية أو ردها بدونها. ويؤخذ من الآية الكريمة الحث على ابتداء السلام والتحية من وجهين:

أحدهما: أن الله أمر بردها بأحسن منها أو مثلها، وذلك يستلزم أن التحية مطلوبة شرعًا.

والثاني: ما يستفاد من أفعل التفضيل، وهو أحسن، الدال على مشاركة التحية وردها بالحسن؛ كما هو الأصل في ذلك.

ويستثنى من عموم الآية الكريمة من حيَّا بحال غير مأمور بها؛ كعلى مشتغل بقراءة أو استماع خطبة أو مُصلٍّ ونحو ذلك؛ فإنه لا يطلب إجابة تحيته، وكذلك يستثنى من ذلك من أمر الشارع بهجره وعدم تحيته، وهو العاصي غير التائب، الذي يرتدع بالهجر؛ فإنه يهجر ولا يحيا ولا ترد تحيته، وذلك لمعارضة المصلحة الكبرى، ويدخل في رد التحية كل تحية اعتادها الناس، وهي غير محظورة شرعًا؛ فإنه مأمور بردها أو أحسن منها. ثم أوعد تعالى وتوعد على فعل الحسنات والسيئات بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾: فيحفظ على العباد أعمالهم حسنها وسيئها، صغيرها وكبيرها، ثم يجازيهم بما اقتضاه فضله وعدله وحكمه المحمود.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾.

(١) بعده في ع، ط: «الله».
(٢) ع، ط: «عليك».

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ
وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾ ۞ فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ
فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ
أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوۡ
تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ
حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ
حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾
إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ
حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ
ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ
وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴿٩٠﴾
سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ كُلَّ
مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ
ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ
ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿٩١﴾

٩٢

﴿٨٧﴾ يخبر تعالى عن انفراده بالوحدانية، وأنه لا معبود ولا مألوه إلا هو لكماله في ذاته وأوصافه، ولكونه المنفرد بالخلق والتدبير والنعم الظاهرة والباطنة، وذلك يستلزم الأمر بعبادته والتقرب إليه بجميع أنواع العبودية؛ لكونه المستحق لذلك وحده، والمجازي للعباد بما قاموا به من عبوديته أو تركوه منها، ولذلك أقسم على وقوع محل الجزاء، وهو يوم القيامة، فقال: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾؛ أي: أولكم وآخركم، في مقام واحد، ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾؛ أي: لا شك ولا شبهة بوجه من الوجوه بالدليل العقلي والدليل السمعي.

فالدليل العقلي ما نشاهده من إحياء الأرض بعد موتها، ومن وجود النشأة الأولى التي وقوع الثانية أولى منها بالإمكان، ومن الحكمة التي يجزم بأن الله لم يخلق خلقه عبثًا يحيون ثم يموتون.

وأما الدليل السمعي؛ فهو إخبار أصدق الصادقين بذلك، بل إقسامه عليه، ولهذا قال: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾﴾، كذلك أمر رسوله ﷺ أن يقسم عليه في غير موضع من القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧﴾﴾ [التغابن: ٧].

وفي قوله: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾﴾، ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء: ١٢٢]: إخبار بأن حديثه وأخباره وأقواله في أعلى مراتب الصدق، بل أعلاها، فكل ما قيل في العقائد والعلوم والأعمال مما يناقض ما أخبر الله به فهو باطل لمناقضته للخبر الصادق اليقين، فلا يمكن أن يكون حقًّا.

﴿فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿٩١﴾﴾.

﴿٨٨﴾، ﴿٨٩﴾ المراد بالمنافقين المذكورين في هذه الآيات، المنافقون المظهرون إسلامهم ولم يهاجروا مع كفرهم، وكان قد وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم فيهم اشتباه؛ فبعضهم تحرج عن قتالهم وقطع موالاتهم بسبب ما أظهروه من الإيمان، وبعضهم علم أحوالهم بقرائن أفعالهم فحكم بكفرهم، فأخبر[1] الله تعالى أنه لا ينبغي لكم أن تشتبهوا فيهم ولا تشكوا، بل أمرهم واضح غير مشكل، إنهم منافقون، قد تكرر كفرهم وودوا مع ذلك كفركم وأن تكونوا مثلهم؛ فإذا تحققتم ذلك منهم؛ ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾؛ وهذا يستلزم عدم محبتهم؛ لأن الولاية فرع المحبة، ويستلزم أيضًا بغضهم وعداوتهم؛ لأن النهي عن الشيء أمر بضده، وهذا الأمر موقت بهجرتهم؛ فإذا هاجروا جرى عليهم

(١) ع، ط: «فأخبرهم».

مـا جرى على المسـلمين؛ كما كان النبي ﷺ يجري أحكام الإسـلام لكل[1] من كان معه وهاجر إليه، وسـواء كان مؤمنًا حقيقةً أو ظاهر الإيمان، وأنهـم إن لـم يهاجروا وتولوا عنها؛ ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾؛ أي: فـي أي وقت وأي محل كان، وهذا من جملة الأدلة الدالة على نسخ القتال في الأشهر الحرم؛ كما هو قول جمهور العلماء، والمنازعون يقولون: هذه نصوص مطلقة محمولة على تقييد التحريم في الأشهر الحرم.

(٩٠) ثـم إن اللـه استثنى من قتـال هـؤلاء المنافقين ثلاث فرق:

فرقتين أمر بتركهم وحتم على ذلك:

إحداهما: من يصل إلى قـوم بينهم وبين المسـلمين عهد وميثـاق بترك القتـال، فينضم إليهـم، فيكون لـه حكمهم في حقن الدم والمال.

والفرقـة الثانيـة: قـوم ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾؛ أي: بقوا لا تسمح أنفسهم بقتالكم ولا بقتال قومهم، وأحبوا ترك قتال الفريقين؛ فهؤلاء أيضًا أمر بتركهم، وذكـر الحكمة في ذلك بقولـه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾؛ فإن الأمور الممكنة ثلاثة أقسـام: إما أن يكونوا معكـم ويقاتلوا أعداءكم، وهذا متعذر من هؤلاء، فدار الأمر بيـن قتالكم مع قومهم، وبين ترك قتـال الفريقين، وهو أهون الأمريـن عليكـم، والله قادر على تسـليطهم عليكـم؛ فاقبلوا العافيـة واحمدوا ربكم الذي كف أيديهـم عنكم مع التمكن مـن ذلـك؛ فهـؤلاء إن اعتزلوكـم ﴿فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (٩٠)﴾.

(٩١) **الفرقـة الثالثـة**: قوم يريـدون مصلحة أنفسـهم، بقطع النظر عـن احترامكم، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ﴾؛ أي: من هؤلاء المنافقين. ﴿يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾؛ أي: خوفًا منكم، ﴿وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾؛ أي: لا يزالـون مقيمين علـى كفرهم ونفاقهم، وكلما عـرض لهم عـارض من عـوارض الفتـن أعماهم ونكسـهم على رءوسـهم وازداد كفرهم ونفاقهـم، وهؤلاء في الصورة كالفرقـة الثانية، وفـي الحقيقة مخالفة لها؛ فـإن الفرقة الثانية تركوا قتال المؤمنين احترامًا لهم لا خوفًا على أنفسـهم، وأما هـذه الفرقـة فتركوه خوفًـا لا احترامًـا، بل لو وجـدوا فرصةً فـي قتال المؤمنيـن؛ فإنهم سـيقدمون لانتهازهـا؛ فهؤلاء إن لـم يتبيـن منهـم، ويتضـح اتضاحًا عظيمًـا اعتـزال المؤمنين وتـرك قتالهـم فإنهم يقاتلـون، ولهذا قـال: ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾؛ أي: المسـالمة والموادعـة، ﴿وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا (٩١)﴾؛ أي: حجةً بينةً واضحةً؛ لكونهـم معتدين ظالمين لكـم تاركين للمسـالمة فلا يلوموا إلا أنفسهم.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٩٢)﴾.

(٩٢) هـذه الصيغة من صيغ الامتناع، أي: يمتنع ويسـتحيل أن يصدر من مؤمن قتل مؤمن؛ أي: متعمدًا.

وفي هـذا الإخبار بشـدة تحريمـه وأنه مناف للإيمان أشـد منافـاة، وإنمـا يصدر ذلك إمـا من كافر أو من فاسـق قد نقص إيمانـه نقصًـا عظيمًا ويخشـى عليه مـا هو أكبر مـن ذلك؛ فإن الإيمان الصحيح يمنع المؤمن من قتل أخيه الذي قد عقد الله بينه وبينـه الأخوة الإيمانية التي مـن مقتضاها محبته وموالاته وإزالة ما يعرض لأخيه من الأذى، وأي أذًى أشـد من القتل؟! وهـذا يصدقـه قولـه ﷺ: «**لا ترجعوا بعـدي كفارًا يضـرب بعضكـم رقاب بعض**»[2]، فعلـم أن القتل مـن الكفر العملي، وأكبر الكبائر بعد الشرك بالله.

ولمـا كان قولـه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾: لفظًا عامًّا لجميع الأحوال، وأنه لا يصدر منه قتل أخيه بوجه من الوجوه؛ استثنى تعالى قتل الخطأ، فقال: ﴿إِلَّا خَطَأً﴾؛ فـإن المخطئ الذي لا يقصـد القتل غير آثم ولا متجرئ على محارم الله، ولكنه لما كان قد فعل فعلًا شنيعًا وصورته كافية فـي قبحـه وإن لم يقصده أمـر تعالى بالكفـارة والدية، فقال:

(١) الأصل: «فكل».

(٢) البخاري (٦٨٦٨)، مسلم (٦٦).

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ
مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ
أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ
مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ
إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ
فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ
ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا
مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ
ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟
لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ
عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ
كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ
فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

٩٣

﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا﴾: سواء كان القاتل ذكرًا أو أنثى، حرًّا أو عبدًا، صغيرًا أو كبيرًا، عاقلًا أو مجنونًا، مسلمًا أو كافرًا؛ كما يفيده لفظ «مَن» الدالة على العموم، وهذا من أسرار الإتيان بـ«مَنْ» في هذا الموضع؛ فإن سياق الكلام يقتضي أنه يقول: فإن قتله، ولكن هذا لفظ لا يشمل ما تشمله «من»، وسواء كان المقتول ذكرًا أو أنثى، صغيرًا أو كبيرًا؛ كما يفيده التنكير في سياق الشرط؛ فإن على القاتل تحرير رقبة مؤمنة: كفارةً لذلك، تكون في ماله، ويشمل ذلك الصغير والكبير، والذكر والأنثى، والصحيح والمعيب في قول بعض العلماء، ولكن الحكمة تقتضي ألَّا يجزئ عتق المعيب في الكفارة؛ لأن المقصود بالعتق نفع العتيق وملكه منافع نفسه؛ فإذا كان يضيع بعتقه، وبقاؤه في الرق أنفع له؛ فإنه لا يجزئ عتقه، مع أن في قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ ما يدل على ذلك؛ فإن التحرير تخليص من استحقت منافعه لغيره أن تكون له؛ فإذا لم يكن فيه منافع لم يتصور وجود التحرير، فتأمل ذلك فإنه واضح.

وأما الدية؛ فإنها تجب على عاقلة القاتل في الخطأ وشبه العمد. ﴿مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾: جبرًا لقلوبهم. والمراد بـ﴿أَهْلِهِۦٓ﴾ هنا هم ورثته؛ فإن الورثة يرثون ما ترك الميت، فالدية داخلة فيما ترك، وللدية تفاصيل كثيرة مذكورة في كتب الفقه. وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾؛ أي: يتصدق ورثة القتيل بالعفو عن الدية؛ فإنها تسقط، وفي ذلك حث لهم على العفو؛ لأن الله سماها صدقةً، والصدقة مطلوبة في كل وقت. ﴿فَإِن كَانَ﴾ المقتول ﴿مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾؛ أي: من كفار حربيين، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾؛ أي: وليس عليكم لأهله دية؛ لعدم احترامهم في دمائهم وأموالهم. ﴿وَإِن كَانَ﴾: المقتول ﴿مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾، وذلك لاحترام أهله بما لهم من العهد والميثاق. ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾: الرقبة ولا ثمنها؛ بأن كان معسرًا بذلك، ليس عنده ما يفضل عن مؤنته وحوائجه الأصلية شيء يفي بالرقبة. ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾؛ أي: لا يفطر بينهما من غير عذر؛ فإن أفطر لعذر فإن العذر لا يقطع التتابع؛ كالمرض والحيض ونحوهما، وإن كان لغير عذر؛ انقطع التتابع، ووجب عليه استئناف الصوم، ﴿تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: هذه الكفارة[1] التي أوجبها الله على القاتل توبةً من الله على عباده ورحمةً بهم وتكفيرًا لما عساه أن يحصل منهم من تقصير وعدم احتراز كما هو الواقع كثيرًا للقاتل خطأً.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾؛ أي: كامل العلم كامل الحكمة، لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، في أي وقت كان وأي محل كان، ولا يخرج عن حكمته من المخلوقات والشرائع شيء، بل كل ما خلقه وشرعه فهو متضمن لغاية الحكمة.

ومن علمه وحكمته أن أوجب على القاتل كفارةً مناسبةً لما صدر منه؛ فإنه تسبب لإعدام نفس محترمة، وأخرجها من الوجود إلى العدم، فناسب أن يعتق رقبةً ويخرجها من رق العبودية للخلق إلى الحرية التامة؛ فإن لم يجد هذه الرقبة صام شهرين متتابعين، فأخرج نفسه من رق الشهوات واللذات الحسية القاطعة للعبد عن سعادته الأبدية إلى التعبد لله تعالى بتركها تقربًا إلى الله، ومدها تعالى بهذه المدة

(١) الأصل، ط: «الكفارات».

الكثيرة الشاقة في عددها ووجوب التتابع فيها، ولم يشرع الإطعام في هذا الموضع[١] لعدم المناسبة؛ بخلاف الظهار؛ كما سيأتي إن شاء الله تعالى. ومن حكمته أن أوجب في القتل الدية، ولو كان خطأً؛ لتكون رادعةً وكافةً عن كثير من القتل باستعمال الأسباب العاصمة عن ذلك. ومن حكمته أن أوجبت على العاقلة في قتل الخطأ بإجماع العلماء؛ لكون القاتل لم يذنب، فيشق عليه أن يحمل هذه الدية الباهظة، فناسب أن يقوم بذلك من بينه وبينهم المعاونة والمناصرة والمساعدة على تحصيل المصالح وكف المفاسد، ولعل ذلك من أسباب منعهم لمن يعقلون عنه من القتل حذار تحميلهم، ويخف عليهم بسبب توزيعه عليهم بقدر أحوالهم وطاقتهم، وخففت أيضًا بتأجيلها عليهم ثلاث سنين. ومن حكمته وعلمه أن جبر أهل القتيل عن مصيبتهم بالدية التي أوجبها على أولياء القاتل.

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾.

(٩٣) تقدم أن الله أخبر أنه لا يصدر قتل المؤمن من المؤمن، وأن القتل من الكفر العملي، وذكر هنا وعيد القاتل عمدًا وعيدًا ترجف له القلوب وتنصدع له الأفئدة وينزعج منه أولو العقول، فلم يرد في أنواع الكبائر أعظم من هذا الوعيد، بل ولا مثله، ألا وهو الإخبار بأن جزاءه جهنم؛ أي: فهذا الذنب العظيم قد انتهض وحده أن يجازي صاحبه بجهنم بما فيها من العذاب العظيم والخزي المهين وسخط الجبار وفوات الفوز والفلاح وحصول الخيبة والخسار؛ فعياذًا بالله من كل سبب يبعد عن رحمته.

وهذا الوعيد له حكم أمثاله من نصوص الوعيد على بعض الكبائر والمعاصي بالخلود في النار أو حرمان الجنة. وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في تأويلها، مع اتفاقهم على بطلان قول الخوارج والمعتزلة الذين يخلدونهم في النار ولو كانوا موحدين، والصواب في تأويلها ما قاله الإمام المحقق شمس الدين ابن القيم رحمه الله في **المدارج**[٢]؛ فإنه قال بعدما ذكر تأويلات الأئمة في ذلك وانتقدها، فقال:

وقالت فرقة: إن هذه النصوص وأمثالها مما ذكر فيه المقتضي للعقوبة، ولا يلزم من وجود مقتضى الحكم وجوده؛ فإن الحكم إنما يتم بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه، وغاية هذه النصوص الإعلام بأن كذا سبب للعقوبة ومقتضٍ لها، وقد قام الدليل على ذكر الموانع؛ فبعضها بالإجماع وبعضها بالنص؛ فالتوبة مانع بالإجماع، والتوحيد مانع بالنصوص المتواترة التي لا مدفع لها، والحسنات العظيمة الماحية مانعة، والمصائب الكبار المكفرة مانعة، وإقامة الحدود في الدنيا مانع بالنص، ولا سبيل إلى تعطيل هذه النصوص، فلا بد من إعمال النصوص من الجانبين، ومن هنا قامت الموازنة بين الحسنات والسيئات اعتبارًا لمقتضى العقاب ومانعه وإعمالًا لأرجحها. قالوا: وعلى هذا بناء مصالح الدارين ومفاسدهما، وعلى هذا بناء الأحكام الشرعية والأحكام القدرية، وهو مقتضى الحكمة السارية في الوجود، وبه ارتباط الأسباب ومسبباتها خلقًا وأمرًا، وقد جعل الله سبحانه لكل ضد ضدًّا يدافعه ويقاومه ويكون الحكم للأغلب منهما؛ فالقوة مقتضية للصحة، والعافية وفساد الأخلاط وبغيها مانع من عمل الطبيعة، وفعل القوة والحكم للغالب منهما، وكذلك قوى الأدوية والأمراض، والعبد يكون فيه مقتضٍ للصحة ومقتضٍ للعطب، وأحدهما يمنع كمال تأثير الآخر ويقاومه؛ فإذا ترجح عليه وقهره كان التأثير له، ومن هنا يعلم انقسام الخلق إلى من يدخل الجنة ولا يدخل النار وعكسه، ومن يدخل النار ثم يخرج منها ويكون مكثه فيها بحسب ما فيه من مقتضى المكث في سرعة الخروج وبطئه، ومن له بصيرة منورة يرى بها كل ما أخبر الله به في كتابه من أمر المعاد وتفاصيله، حتى كأنه يشاهده رأي العين، ويعلم أن هذا مقتضى إلهيته سبحانه وربوبيته وعزته وحكمته، وأنه يستحيل عليه خلاف ذلك، ونسبة ذلك إليه نسبة ما لا يليق به إليه، فيكون نسبة ذلك إلى بصيرته كنسبة الشمس والنجوم إلى بصره، وهذا يقين الإيمان، وهو الذي يحرق السيئات كما تحرق النار الحطب، وصاحب هذا المقام من الإيمان يستحيل إصراره على السيئات وإن وقعت منه وكثرت؛ فإن ما معه من نور الإيمان يأمره بتجديد التوبة كل وقت بالرجوع إلى الله في عدد أنفاسه، وهذا من أحب الخلق إلى الله. انتهى كلامه قدس الله روحه وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيرًا.

(١) عبارة: «هذا الموضع» وردت في الأصل، ط: «هذه المواضع».
(٢) (١/٣٩٦).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٩٤﴾ ﴾.

﴿٩٤﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين إذا خرجوا جهادًا في سبيله وابتغاء مرضاته أن يتبينوا ويتثبتوا في جميع أمورهم المشتبهة؛ فإن الأمور قسمان: واضحة وغير واضحة؛ فالواضحة البينة لا تحتاج إلى تثبت وتبين؛ لأن ذلك تحصيل حاصل. وأما الأمور المشكلة غير الواضحة؛ فإن الإنسان يحتاج إلى التثبت فيها والتبين؛ ليعرف هل يقدم عليها أم لا؛ فإن التثبت في هذه الأمور يحصل فيه من الفوائد الكثيرة والكف عن شرور[1] عظيمة؛ فإن[2] به يعرف دين العبد وعقله ورزانته؛ بخلاف المستعجل للأمور في بدايتها[3] قبل أن يتبين له حكمها؛ فإن ذلك يؤدي إلى ما لا ينبغي؛ كما جرى لهؤلاء الذين عاتبهم الله في الآية لما لم يتثبتوا وقتلوا من سلم عليهم وكان معه غنيمة له أو مال غيره؛ ظنًّا أنه يستكفي بذلك قتلهم، وكان هذا خطأً في نفس الأمر؛ فلهذا عاتبهم بقوله: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞ ﴾؛ أي: فلا يحملنكم العرض الفاني القليل على ارتكاب ما لا ينبغي، فيفوتكم ما عند الله من الثواب الجزيل الباقي؛ فما عند الله خير وأبقى. وفي هذا إشارة إلى أن العبد ينبغي له إذا رأى دواعي نفسه مائلة إلى حالة له فيها هوى وهي مضرة له؛ أن يذكِّرها ما أعد الله لمن نهى نفسه عن هواها، وقدم مرضاة الله على رضا نفسه؛ فإن في ذلك ترغيبًا للنفس في امتثال أمر الله، وإن شق ذلك عليها.

ثم قال تعالى مذكرًا لهم بحالهم الأولى قبل هدايتهم إلى الإسلام: ﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ ﴾؛ أي: فكما هداكم بعد ضلالكم؛ فكذلك يهدي غيركم، وكما أن الهداية حصلت لكم شيئًا فشيئًا؛ فكذلك غيركم؛ فنظر الكامل لحاله الأولى الناقصة ومعاملته لمن كان على مثلها بمقتضى ما يعرف من حاله الأولى ودعائه له بالحكمة والموعظة الحسنة من أكبر الأسباب لنفعه وانتفاعه، ولهذا أعاد الأمر بالتبين، فقال: ﴿ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾؛ فإذا كان من خرج للجهاد في سبيل الله ومجاهدة أعداء الله واستعد بأنواع الاستعداد للإيقاع بهم مأمورًا بالتبين لمن ألقى إليه السلام، وكانت القرينة قويةً في أنه إنما سلم تعوذًا من القتل وخوفًا على نفسه؛ فإن ذلك يدل على الأمر بالتبين والتثبت في كل الأحوال التي يقع فيها نوع اشتباه، فيتثبت فيها العبد، حتى يتضح له الأمر، ويتبين[4] الرشد والصواب.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٩٤﴾ ﴾: فيجازي كلا ما عمله ونواه بحسب ما علمه من أحوال عباده ونياتهم.

﴿ لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾.

﴿٩٥﴾، ﴿٩٦﴾ أي: لا يستوي من جاهد من المؤمنين بنفسه وماله ومن لم يخرج للجهاد ولم يقاتل أعداء الله؛ ففيه الحث على الخروج للجهاد والترغيب في ذلك والترهيب من التكاسل والقعود عنه من غير عذر، وأما أهل الضرر كالمريض والأعمى والأعرج والذي لا يجد ما يتجهز به؛ فإنهم ليسوا بمنزلة القاعدين من غير عذر؛ فمن كان من أولي الضرر راضيًا بقعوده، لا ينوي الخروج في سبيل الله لولا وجود المانع ولا يحدث نفسه بذلك؛ فإنه بمنزلة القاعد لغير عذر، ومن كان عازمًا على الخروج في سبيل الله لولا وجود المانع يتمنى ذلك ويحدث به نفسه؛ فإنه بمنزلة من خرج للجهاد؛ لأن النية الجازمة إذا اقترن بها مقدورها من القول أو الفعل، ينزل صاحبها منزلة الفاعل.

ثم صرح تعالى بتفضيل المجاهدين على القاعدين بالدرجة؛ أي: الرفعة، وهذا تفضيل على وجه الإجمال، ثم صرح بذلك على وجه التفصيل، ووعدهم بالمغفرة الصادرة من ربهم والرحمة التي تشتمل على حصول كل خير واندفاع كل شر، والدرجات التي فصلها النبي ﷺ بالحديث الثابت

(١) ع، ط: «الشرور».
(٢) ع، ط: «ما».
(٣) الأصل: «بداوتها»، ع: «بدواتها».
(٤) ع، ط: «ويبين».

عنه في الصحيحين: «إن في الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله»[1]. وهذا الثواب الذي رتبه الله على الجهاد نظير الذي في سورة الصف في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ (١٠) تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (١١) يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ (١٢)﴾ [الصف: ١٠-١٢] إلى آخر السورة.

وتأمل حسن هذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها؛ فإنه نفى التسوية أولًا بين المجاهد وغيره، ثم صرح بتفضيل المجاهد على القاعد بدرجة، ثم انتقل إلى تفضيله بالمغفرة والرحمة والدرجات. وهذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها عند التفضيل والمدح أو النزول من حالة إلى ما دونها عند القدح والذم أحسن لفظًا وأوقع في النفس، وكذلك إذا فضل تعالى شيئًا على شيء، وكل منهما له فضل؛ احترز بذكر الفضل الجامع للأمرين؛ لئلا يتوهم أحد ذم المفضل عليه؛ كما قال هنا: ﴿وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، وكما قال تعالى في الآيات المذكورة في الصف في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (١٣)﴾ [الصف: ١٣]، وكما في قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَ﴾ [الحديد: ١٠]؛ أي: ممن لم يكن كذلك، ثم قال: ﴿وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، وكما قال تعالى: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾ [الأنبياء: ٧٩]. فينبغي لمن بحث في التفضيل بين الأشخاص والطوائف والأعمال أن يتفطن لهذه النكتة، وكذلك لو تكلم في ذم الأشخاص والمقالات؛ ذكر ما تجتمع فيه عند تفضيل بعضها على بعض؛ لئلا يتوهم أن المفضل قد حصل له الكمال؛ كما إذا قيل: النصارى خير من المجوس؛ فليقل مع ذلك: وكل منهما كافر. والقتل أشنع من الزنا، وكل منهما معصية كبيرة، حرمها الله ورسوله، وزجر عنها.

ولما وعد المجاهدين بالمغفرة والرحمة الصادرين عن اسميه الكريمين الغفور الرحيم؛ ختم هذه الآية بهما، فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا (٩٦)﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا (٩٨) فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا (٩٩)﴾.

(١) البخاري (٢٧٩٠)، مسلم (١٨٨٤).

الجزء الخامس — سورة النساء

لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ
فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ
وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ
ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا (٩٥) دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ
وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا (٩٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ
ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ
قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ
جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ
وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا (٩٨)
فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا (٩٩)
۞وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ
وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ
فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا (١٠٠) وَإِذَا ضَرَبۡتُمۡ
فِي ٱلۡأَرۡضِ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَقۡصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنۡ خِفۡتُمۡ
أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا (١٠١)

٩٤

(٩٧) هذا الوعيد الشديد لمن ترك الهجرة مع قدرته عليها حتى مات؛ فإن الملائكة الذين يقبضون روحه يوبخونه بهذا التوبيخ العظيم، ويقولون لهم: ﴿فِيمَ كُنتُمۡ﴾؛ أي: على أي حال كنتم؟ وبأي شيء تميزتم عن المشركين؟ بل كثرتم سوادهم، وربما ظاهرتموهم على المؤمنين، وفاتكم الخير الكثير والجهاد مع رسوله والكون مع المسلمين ومعاونتهم على أعدائهم. ﴿قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: ضعفاء مقهورين مظلومين ليس لنا قدرة على الهجرة، وهم غير صادقين في ذلك؛ لأن الله وبخهم وتوعدهم، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، واستثنى المستضعفين حقيقة، ولهذا قالت لهم الملائكة: ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾؟ وهذا استفهام تقرير؛ أي: قد تقرر عند كل أحد أن أرض الله واسعة؛ فحيثما كان العبد في محل لا يتمكن فيه

من إظهار دينه؛ فإن له متسعًا وفسحةً من الأرض يتمكن فيها من عبادة الله؛ كما قال تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥٦]. قال الله عن هؤلاء الذين لا عذر لهم: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾. وهذا كما تقدم فيه ذكر بيان السبب الموجب؛ فقد يترتب عليه مقتضاه مع اجتماع شروطه وانتفاء موانعه، وقد يمنع من ذلك مانع.

وفي الآية دليل على أن الهجرة من أكبر الواجبات، وتركها من المحرمات، بل من أكبر الكبائر. وفي الآية دليل على أن كل من توفي فقد استكمل واستوفى ما قدر له من الرزق والأجل والعمل، وذلك مأخوذ من لفظ التوفي؛ فإنه يدل على ذلك؛ لأنه لو بقي عليه شيء من ذلك؛ لم يكن متوفيًا. وفيه الإيمان بالملائكة ومدحهم؛ لأن الله ساق ذلك الخطاب لهم على وجه التقرير والاستحسان منهم وموافقته لمحله.

﴿٩٨﴾، ﴿٩٩﴾ ثم استثنى المستضعفين على الحقيقة الذين لا قدرة لهم على الهجرة بوجه من الوجوه ﴿ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ﴿٩٨﴾ ﴾؛ فهؤلاء قال الله فيهم: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا ﴿٩٩﴾ ﴾، و﴿ عَسَى ﴾ ونحوها واجب وقوعها من الله تعالى بمقتضى كرمه وإحسانه. وفي الترجية بالثواب لمن عمل بعض الأعمال فائدة، وهو أنه قد لا يوفيه حق توفيته، ولا يعمله على الوجه اللائق الذي ينبغي، بل يكون مقصرًا، فلا يستحق ذلك الثواب، والله أعلم.

وفي الآية الكريمة دليل على أن من عجز عن المأمور من واجب وغيره؛ فإنه معذور؛ كما قال تعالى في العاجزين عن الجهاد: ﴿ لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ ﴾ [النور: ٦١]، وقال في عموم الأوامر: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر؛ فأتوا منه ما استطعتم»[1]. ولكن لا يعذر الإنسان إلا إذا بذل جهده، وانسدت عليه أبواب الحيل؛ لقوله: ﴿ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ ﴾.

وفي الآية تنبيه على أن الدليل في الحج والعمرة، ونحوهما مما يحتاج إلى سفر من شروط الاستطاعة.

(١) البخاري (٧٢٨٨)، مسلم (١٣٣٧).

﴿ وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٠٠﴾ ﴾.

﴿١٠٠﴾ هذا في بيان الحث على الهجرة والترغيب وبيان ما فيها من المصالح، فوعد الصادق في وعده أن من هاجر في سبيله ابتغاء مرضاته أنه يجد مراغمًا في الأرض وسعة؛ فالمراغم مشتمل على مصالح الدين، والسعة على مصالح الدنيا، وذلك أن كثيرًا من الناس يتوهم أن في الهجرة شتاتًا بعد الألفة، وفقرًا بعد الغنى، وذلًا بعد العز، وشدة بعد الرخاء، والأمر ليس كذلك؛ فإن المؤمن ما دام بين أظهر المشركين؛ فدينه في غاية النقص؛ لا في العبادات القاصرة عليه كالصلاة ونحوها، ولا في العبادات المتعدية كالجهاد بالقول والفعل وتوابع ذلك؛ لعدم تمكنه من ذلك، وهو بصدد أن يفتن عن دينه، خصوصًا إن كان مستضعفًا؛ فإذا هاجر في سبيل الله؛ تمكن من إقامة دين الله وجهاد أعداء الله ومراغمتهم؛ فإن المراغمة اسم جامع لكل ما يحصل به إغاظة لأعداء الله من قول وفعل وكذلك يحصل له سعة في رزقه، وقد وقع كما أخبر الله تعالى.

واعتبر ذلك بالصحابة رضي الله عنهم؛ فإنهم لما هاجروا في سبيل الله وتركوا ديارهم وأولادهم وأموالهم لله؛ كمل بذلك إيمانهم، وحصل لهم من الإيمان التام والجهاد العظيم والنصر لدين الله ما كانوا به أئمة لمن بعدهم، وكذلك حصل لهم مما يترتب على ذلك من الفتوحات والغنائم ما كانوا به أغنى الناس، وهكذا كل من فعل فعلهم؛ حصل له ما حصل لهم إلى يوم القيامة.

ثم قال: ﴿ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾؛ أي: قاصدًا ربه ورضاه ومحبته لرسوله ونصرًا لدين الله لا لغير ذلك من المقاصد. ﴿ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ ﴾: بقتل أو غيره، ﴿ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾؛ أي: فقد حصل له أجر المهاجر الذي أدرك مقصوده بضمان الله تعالى، وذلك لأنه نوى وجزم وحصل منه ابتداء وشروع في العمل؛ فمن رحمة الله به وبأمثاله أن أعطاهم أجرهم كاملًا، ولو لم يكملوا العمل، وغفر لهم ما حصل منهم من التقصير في الهجرة وغيرها، ولهذا ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين، فقال: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٠٠﴾ ﴾: يغفر للمؤمنين ما اقترفوه من الخطيئات، خصوصًا التائبين المنيبين إلى ربهم، رحيمًا بجميع الخلق

رحمةً أوجدتهم وعافتهم ورزقتهم من المال والبنين والقوة وغير ذلك، رحيمًا بالمؤمنين؛ حيث وفقهم للإيمان، وعلمهم من العلم ما يحصل به الإيقان، ويسر لهم أسباب السعادة والفلاح، وما به يدركون غاية الأرباح، وسيرون من رحمته وكرمه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. فنسأل الله ألَّا يحرمنا خيره بشر ما عندنا.

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ ﴾.

﴿١٠١﴾ هاتان الآيتان: أصل في رخصة القصر وصلاة الخوف، يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي: في السفر، وظاهر الآية أنه يقتضي الترخص في أي سفر كان، ولو كان سفر معصية؛ كما هو مذهب أبي حنيفة رحمه الله، وخالف في ذلك الجمهور، وهم الأئمة الثلاثة وغيرهم، فلم يجوزوا الترخيص في سفر المعصية؛ تخصيصًا للآية بالمعنى والمناسبة؛ فإن الرخصة سهولة من الله لعباده إذا سافروا أن يقصروا ويفطروا، والعاصي بسفره لا يناسب حاله التخفيف.

وقوله: ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾؛ أي: لا حرج ولا إثم عليكم في ذلك. ولا ينافي ذلك كون القصر هو الأفضل؛ لأن نفي الحرج إزالة لبعض الوهم الواقع في كثير من النفوس، بل ولا ينافي الوجوب؛ كما تقدم ذلك في سورة البقرة في قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٥٨] إلى آخر الآية، وإزالة الوهم في هذا الموضع ظاهرة؛ لأن الصلاة قد تقرر عند المسلمين وجوبها على هذه الصفة التامة، ولا يزيل هذا عن نفوس أكثرهم إلا بذكر ما ينافيه. ويدل على أفضلية القصر على الإتمام أمران: **أحدهما**: ملازمة النبي ﷺ على القصر في جميع أسفاره.

والثاني: أن هذا من باب التوسعة والترخيص والرحمة بالعباد، والله تعالى يحب أن تؤتى رخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته.

وقوله: ﴿أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾، ولم يقل: أن تقصروا الصلاة: فيه فائدتان: **إحداهما**: أنه لو قال: أن تقصروا الصلاة؛ لكان القصر غير منضبط بحد من الحدود، فربما ظن أنه لو قصر معظم الصلاة وجعلها ركعةً واحدةً؛ لأجزأ؛ فإتيانه بقوله: ﴿مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾؛ ليدل ذلك على أن القصر محدود مضبوط مرجوع فيه إلى ما تقرر من فعل النبي ﷺ وأصحابه. **الثانية**: أن ﴿مِنَ ﴾ تفيد التبعيض؛ ليعلم بذلك أن القصر لبعض الصلوات المفروضات لا جميعها؛ فإن الفجر والمغرب لا يقصران، وإنما الذي يقصر الصلاة الرباعية من أربع إلى ركعتين.

فإذا تقرر أن القصر في السفر رخصة؛ فاعلم أن المفسرين قد اختلفوا في هذا القيد، وهو قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾، الذي يدل ظاهره أن القصر لا يجوز إلا بوجود الأمرين كليهما السفر مع الخوف، ويرجع حاصل اختلافهم إلى أنه هل المراد بقوله: ﴿أَن تَقْصُرُوا۟ ﴾: قصر العدد فقط أو قصر العدد والصفة؟ فالإشكال إنما يكون على الوجه الأول. وقد أشكل هذا على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حتى سأل عنه النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! ما لنا نقصر الصلاة وقد أمنا؟ أي: والله يقول: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾. فقال رسول الله ﷺ: «**صدقة تصدق الله بها عليكم؛ فاقبلوا صدقته**»[1]. أو كما قال. فعلى هذا يكون هذا القيد أتى به نظرًا لغالب الحال التي كان النبي ﷺ وأصحابه عليها؛ فإن غالب أسفاره أسفار جهاد.

وفيه فائدة أخرى: وهي بيان الحكمة والمصلحة في مشروعية رخصة القصر؛ فبين في هذه الآية أنهى ما يتصور من المشقة المناسبة للرخصة، وهي اجتماع السفر والخوف، ولا يستلزم ذلك ألَّا يقصر مع السفر وحده الذي هو مظنة المشقة. وأما على الوجه الثاني، وهو أن المراد بالقصر[2] قصر العدد والصفة؛ فإن القيد على بابه؛ فإذا وجد السفر والخوف؛ جاز قصر العدد وقصر الصفة، وإذا وجد السفر وحده جاز قصر العدد فقط، أو الخوف وحده جاز قصر الصفة.

---

(١) مسلم (٦٨٦).
(٢) زاد في ع، ط: «هنا».

وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُواْ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾

﴿١٠٢﴾ ولذلك أتى بصفة صلاة الخوف بعدها بقوله: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: صليت بهم صلاةً تقيمها وتتم ما يجب فيها ويلزم فعلهم ما ينبغي لك ولهم فعله، ثم فسر ذلك بقوله: ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾؛ أي: وطائفة قائمة بإزاء العدو؛ كما يدل على ذلك ما يأتي. ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ﴾؛ أي: الذين معك؛ أي: أكملوا صلاتهم، وعبر عن الصلاة بالسجود؛ ليدل على فضل السجود وأنه ركن من أركانها، بل هو أعظم أركانها، ﴿فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ﴾: وهم الطائفة الذين قاموا إزاء العدو، ﴿فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾: ودل ذلك على أن الإمام يبقى بعد انصراف الطائفة الأولى منتظرًا للطائفة الثانية؛ فإذا حضروا صلى بهم ما بقي من صلاته، ثم جلس ينتظرهم حتى يكملوا صلاتهم، ثم يسلم بهم. وهذا أحد الوجوه في صلاة الخوف؛ فإنها صحت عن النبي ﷺ من وجوه كثيرة كلها جائزة.

وهذه الآية تدل على أن صلاة الجماعة فرض عين من وجهين:

أحدهما: أن الله تعالى أمر بها في هذه الحالة الشديدة وقت اشتداد الخوف من الأعداء وحذر مهاجمتهم؛ فإذا أوجبها في هذه الحالة الشديدة، فإيجابها في حالة الطمأنينة والأمن من باب أولى وأحرى.

والثاني: أن المصلين صلاة الخوف يتركون فيها كثيرًا من الشروط واللوازم، ويعفى فيها عن كثير من الأفعال المبطلة في غيرها، وما ذاك إلا لتأكد وجوب الجماعة؛ لأنه لا تعارض بين واجب ومستحب؛ فلولا وجوب الجماعة؛ لم تترك هذه الأمور اللازمة لأجلها.

وتدل الآية الكريمة على أن الأولى والأفضل أن يصلوا بإمام واحد ولو تضمن ذلك الإخلال بشيء لا يخل به لو صلوها بعدة أئمة، وذلك لأجل اجتماع كلمة المسلمين واتفاقهم وعدم تفرق كلمتهم، وليكون ذلك أوقع هيبةً في قلوب أعدائهم.

وأمر تعالى بأخذ السلاح والحذر في صلاة الخوف، وهذا وإن كان فيه حركة واشتغال عن بعض أحوال الصلاة؛ فإن فيه مصلحةً راجحةً، وهو الجمع بين الصلاة والجهاد والحذر من الأعداء الحريصين غاية الحرص على الإيقاع بالمسلمين والميل عليهم وعلى أمتعتهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾.

ثم إن الله عذر من له عذر من مرض أو مطر أن يضع سلاحه، ولكن مع أخذ الحذر، فقال: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾، ومن العذاب المهين ما أمر الله به حزبه المؤمنين وأنصار دينه الموحدين من قتلهم وقتالهم حيثما ثقفوهم، ويأخذوهم، ويحصروهم، ويقعدوا لهم كل مرصد، ويحذروهم في جميع الأحوال، ولا يغفلوا عنهم خشية أن ينال الكفار بعض مطلوبهم فيهم؛ فلله أعظم حمد وثناء على ما من به على المؤمنين وأيدهم بمعونته وتعاليمه التي لو سلكوها على وجه الكمال؛ لم تهزم لهم راية، ولم يظهر عليهم عدو في وقت من الأوقات.

و[1]قوله: ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾: يدل

(١) ع: «وفي».

على أن هذه الطائفة تكمل جميع صلاتها قبل ذهابهم إلى موضع الحارسين، وأن الرسول ﷺ يثبت منتظرًا للطائفة الأخرى قبل السلام؛ لأنه أولًا ذكر أن الطائفة تقوم معه، فأخبر عن مصاحبتهم له، ثم أضاف الفعل بعد إليهم دون الرسول، فدل ذلك على ما ذكرناه.

وفي قوله ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ﴾: دليل على أن الطائفة الأولى قد صلوا، وأن جميع صلاة الطائفة الثانية تكون مع الإمام حقيقةً في ركعتهم الأولى وحكمًا في ركعتهم الأخيرة، فيستلزم ذلك انتظار الإمام إياهم حتى يكملوا صلاتهم، ثم يسلم بهم. وهذا ظاهر للمتأمل.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿١٠٣﴾ أي: فإذا فرغتم من صلاتكم صلاة الخوف وغيرها؛ فاذكروا الله في جميع أحوالكم وهيئاتكم، ولكن خصت صلاة الخوف بذلك لفوائد:

منها: أن القلب صلاحه وفلاحه وسعادته بالإنابة إلى الله تعالى في المحبة وامتلاء القلب من ذكره والثناء عليه، وأعظم ما يحصل به هذا المقصود الصلاة التي حقيقتها أنها صلة بين العبد وبين ربه.

ومنها: أن فيها من حقائق الإيمان ومعارف الإيقان ما أوجب أن يفرضها الله على عباده كل يوم وليلة، ومن المعلوم أن صلاة الخوف لا تحصل فيها هذه المقاصد الحميدة بسبب اشتغال القلب والبدن، والخوف، فأمر بجبرها بالذكر بعدها.

ومنها: أن الخوف يوجب قلق[١] القلب وخوفه، وهو[٢] مظنة لضعفه، وإذا ضعف القلب ضعف البدن عن مقاومة العدو. والذكر لله والإكثار منه من أعظم مقويات القلب.

ومنها: أن الذكر لله تعالى مع الصبر والثبات سبب للفلاح والظفر بالأعداء؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ

(١) ع، ط: «من قلق».
(٢) ع، ط: «ما هو».

تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: ٤٥]، فأمر بالإكثار منه في هذه الحال، إلى غير ذلك من الحِكم.

وقوله: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: إذا أمنتم من الخوف واطمأنت قلوبكم وأبدانكم؛ فأتموا صلاتكم على الوجه الأكمل ظاهرًا وباطنًا بأركانها وشروطها وخشوعها وسائر مكملاتها. ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾؛ أي: مفروضًا في وقته. فدل ذلك على فرضيتها وأن لها وقتًا لا تصح إلا به، وهو هذه الأوقات التي قد تقررت عند المسلمين صغيرهم وكبيرهم، عالمهم وجاهلهم، وأخذوا ذلك عن نبيهم محمد ﷺ بقوله: «صلوا كما رأيتموني أصلي»[٣].

ودل قوله: ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: على أن الصلاة ميزان الإيمان، وعلى حسب إيمان العبد تكون صلاته وتتم وتكمل. ويدل ذلك على أن الكفار - وإن كانوا ملتزمين لأحكام المسلمين كأهل الذمة - أنهم لا يخاطبون بفروع الدين كالصلاة، ولا يؤمرون بها، بل ولا تصح منهم ما داموا على كفرهم، وإن كانوا يعاقبون عليها وعلى سائر الأحكام في الآخرة.

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿١٠٤﴾ أي: لا تضعفوا ولا تكسلوا في ابتغاء عدوكم من الكفار؛ أي: في جهادهم والمرابطة على ذلك؛ فإن وهن القلب مستدع لوهن البدن، وذلك يضعف عن مقاومة الأعداء، بل كونوا أقوياء نشيطين في قتالهم. ثم ذكر ما يقوي قلوب المؤمنين، فذكر شيئين:

الأول: أن ما يصيبكم من الألم والتعب والجراح ونحو ذلك؛ فإنه يصيب أعداءكم، فليس من المروءة الإنسانية والشهامة الإسلامية أن تكونوا أضعف منهم وأنتم وهم[٤] قد تساويتم فيما يوجب ذلك؛ لأن العادة الجارية أنه لا يضعف إلا من توالت عليه الآلام، وانتصر عليه الأعداء على الدوام، لا من يدال له[٥] مرةً ويدال عليه أخرى.

(٣) البخاري (٦٠٠٨).
(٤) ع: «وإياهم».
(٥) ساقط من ع، ط.

الأمر الثاني: أنكم ترجون من الله ما لا يرجون، فترجون الفوز بثوابه والنجاة من عقابه، بل خواص المؤمنين لهم مقاصد عالية وآمال رفيعة من نصر دين الله وإقامة شرعه واتساع دائرة الإسلام وهداية الضالين وقمع أعداء الدين؛ فهذه الأمور توجب للمؤمن المصدق زيادة القوة وتضاعف النشاط والشجاعة التامة؛ لأن من يقاتل ويصبر على نيل عزه الدنيوي إن ناله ليس كمن يقاتل لنيل السعادة الدنيوية والأخروية والفوز برضوان الله وجنته؛ فسبحان من فاوت بين العباد وفرق بينهم بعلمه وحكمته، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾: كامل العلم كامل الحكمة.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾.

﴿١٠٥﴾ يخبر تعالى أنه أنزل على عبده ورسوله الكتاب بالحق؛ أي: محفوظًا في إنزاله من الشياطين أن يتطرق إليه منهم باطل، بل نزل بالحق ومشتملًا أيضًا على الحق؛ فأخباره صدق وأوامره ونواهيه عدل، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وأخبر أنه أنزله ليحكم بين الناس، وفي الآية الأخرى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، فيحتمل أن هذه الآية في الحكم بين الناس في مسائل النزاع والاختلاف، وتلك في تبيين جميع الدين وأصوله وفروعه. ويحتمل أن الآيتين كليهما معناهما واحد، فيكون الحكم بين الناس هنا يشمل الحكم بينهم في الدماء والأعراض والأموال وسائر الحقوق وفي العقائد وفي جميع مسائل الأحكام. وقوله: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾، أي: لا بهواك بل بما علمك الله وألهمك كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٣، ٤]. وفي هذا دليل على عصمته ﷺ فيما يبلغ عن الله من جميع الأحكام وغيرها، وأنه يشترط في الحَكَم[1] العلم والعدل؛ لقوله: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾، ولم يقل: بما رأيت. ورتب أيضًا الحكم بين الناس على معرفة الكتاب.

ولما أمر الله بالحكم بين الناس المتضمن للعدل والقسط؛ نهاه عن الجور والظلم الذي هو ضد العدل، فقال: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾؛ أي: لا تخاصم عمن عرفت خيانته من مدع ما ليس له أو منكر حقًّا عليه سواء علم ذلك أو ظنه. ففي هذا دليل على تحريم الخصومة في باطل، والنيابة عن المبطل في الخصومات الدينية والحقوق الدنيوية، ويدل مفهوم الآية على جواز الدخول في نيابة الخصومة لمن لم يُعْرف منه ظلم.

﴿١٠٦﴾ ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾: مما صدر منك إن صدر. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾؛ أي: يغفر الذنب العظيم لمن استغفره، وتاب إليه وأناب، ويوفقه للعمل الصالح بعد ذلك الموجب لثوابه وزوال عقابه.

﴿١٠٧﴾ ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾: الاختيان والخيانة بمعنى الجناية والظلم والإثم، وهذا يشمل النهي عن المجادلة عمَّن أذنب وتوجه عليه عقوبة من حد أو تعزير؛ فإنه لا يجادل عنه بدفع ما صدر منه من الخيانة أو بدفع ما ترتب على ذلك من العقوبة الشرعية. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾؛ أي: كثير الخيانة والإثم، وإذا انتفى الحب؛ ثبت ضده، وهو البغض، وهذا كالتعليل للنهي المتقدم.

﴿١٠٨﴾ ثم ذكر عن هؤلاء الخائنين أنهم ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾: وهذا من ضعف الإيمان ونقصان اليقين أن تكون مخافة الخلق عندهم أعظم من مخافة الله

(١) ع: «الحاكم».

فيحرصون بالطرق المباحة والمحرمة على عدم الفضيحة عند الناس، وهم مع ذلك قد بارزوا الله بالعظائم، ولم يبالوا بنظره واطلاعه عليهم، وهو معهم بالعلم في جميع أحوالهم، خصوصًا في حال تبييتهم ما لا يرضيه من القول من تبرئة الجاني ورمي البريء بالجناية والسعي في ذلك للرسول ﷺ ليفعل ما بيتوه؛ فقد جمعوا بين عدة جنايات، ولم يراقبوا رب الأرض والسماوات المطلع على سرائرهم وضمائرهم، ولهذا توعدهم تعالى بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ۝١٠٨﴾؛ أي: قد أحاط بذلك علمًا، ومع هذا لم يعاجلهم بالعقوبة، بل استأنى بهم، وعرض عليهم التوبة، وحذرهم من الإصرار على ذنبهم الموجب للعقوبة البليغة.

۝١٠٩ ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۝١٠٩﴾؛ أي: هبكم جادلتم عنهم في هذه الحياة الدنيا ودفع عنهم جدالكم بعض ما يحذرون من العار والفضيحة عند الخلق؛ فماذا يغني عنهم وينفعهم؟! ومن يجادل الله عنهم يوم القيامة حين تتوجه عليهم الحجة وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون؟! ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ۝٢٥﴾ [النور: ٢٥]؛ فمن يجادل عنهم من يعلم السر وأخفى ومن أقام عليهم من الشهود ما لا يمكن معه الإنكار؟

وفي هذه الآية الإرشاد إلى المقابلة بين ما يتوهم من مصالح الدنيا المترتبة على ترك أوامر الله أو فعل مناهيه وبين ما يفوت من ثواب الآخرة أو يحصل من عقوباتها، فيقول من أمرته نفسه بترك أمر الله: ها أنت تركت أمره كسلًا وتفريطًا؛ فما النفع الذي انتفعت به؟ وماذا فاتك من ثواب الآخرة؟ وماذا ترتب على هذا الترك من الشقاء والحرمان والخيبة والخسران؟ وكذلك إذا دعته نفسه إلى ما تشتهيه من الشهوات المحرمة؛ قال لها: هَبْكِ فعلت ما اشتهيت؛ فإن لذته تنقضي ويعقبها من الهموم والغموم والحسرات وفوات الثواب وحصول العقاب ما بعضه يكفي العاقل في الإحجام عنها، وهذا من أعظم ما ينفع العبد تدبره، وهو خاصة العقل الحقيقي؛ بخلاف من يدعي العقل وليس كذلك؛ فإنه بجهله وظلمه يؤثر اللذة الحاضرة والراحة الراهنة، ولو ترتب عليها ما ترتب. والله المستعان.

سُورَةُ النِّسَاءِ — الجُزْءُ الخَامِسُ

وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝١٠٦ وَلَا تُجَٰدِلْ
عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ
خَوَّانًا أَثِيمًا ۝١٠٧ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ
مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ۝١٠٨ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ
عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۝١٠٩ وَمَن يَعْمَلْ
سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا
رَّحِيمًا ۝١١٠ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١١١ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا
ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۝١١٢ وَلَوْلَا
فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن
يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن
شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ
مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ۝١١٣

٩٦

۝١١٠ ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝١١٠﴾؛ أي: من تجرأ على المعاصي واقتحم على الإثم، ثم استغفر الله استغفارًا تامًّا يستلزم الإقرار بالذنب والندم عليه والإقلاع والعزم على ألَّا يعود؛ فهذا قد وعده من لا يخلف الميعاد بالمغفرة والرحمة، فيغفر له ما صدر منه من الذنب، ويزيل عنه ما ترتب عليه من النقص والعيب، ويعيد إليه ما تقدم من الأعمال الصالحة، ويوفقه فيما يستقبله من عمره، ولا يجعل ذنبه حائلًا عن توفيقه؛ لأنه قد غفره، وإذا غفره؛ غفر ما يترتب عليه.

واعلم أن عمل السوء عند الإطلاق يشمل سائر المعاصي الصغيرة والكبيرة، وسمي سوءًا لكونه يسوء عامله بعقوبته، ولكونه في نفسه سيئًا غير حسن، وكذلك ظلم النفس عند الإطلاق يشمل ظلمها بالشرك فما دونه، ولكن عند اقتران أحدهما بالآخر قد يفسر كل واحد منهما بما يناسبه، فيفسر عمل السوء هنا بالظلم الذي يسوء الناس، وهو ظلمهم في

دمائهم وأموالهم وأعراضهم، ويفسر ظلم النفس بالظلم والمعاصي التي بين الله وبين عبده، وسمي ظلم النفس ظلمًا؛ لأن نفس العبد ليست ملكًا له يتصرف فيها بما يشاء، وإنما هي ملك لله تعالى، قد جعلها أمانةً عند العبد، وأمره أن يقيمها على طريق العدل بإلزامها للصراط المستقيم علمًا وعملًا، فيسعى في تعليمها ما أمر به، ويسعى في العمل بما يجب، فسعيه في غير هذا الطريق ظلم لنفسه وخيانة وعدول بها عن العدل الذي ضده الجور والظلم.

(١١١) ثم قال: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾: وهذا يشمل كل ما يؤثم من صغير وكبير؛ فمن كسب سيئةً؛ فإن عقوبتها الدنيوية والأخروية على نفسه لا تتعداها إلى غيرها، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، لكن إذا ظهرت السيئات فلم تنكر؛ عمت عقوبتها وشمل إثمها؛ فلا تخرج أيضًا عن حكم هذه الآية الكريمة؛ لأن من ترك الإنكار الواجب؛ فقد كسب سيئةً، وفي هذا بيان عدل الله وحكمته أنه لا يعاقب أحدًا بذنب أحد، ولا يعاقب أحدًا أكثر من العقوبة الناشئة عن ذنبه، ولهذا قال: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١) ﴾؛ أي: له العلم الكامل والحكمة التامة، ومن علمه وحكمته أنه يعلم الذنب وما صدر منه والسبب الداعي لفعله والعقوبة المترتبة على فعله، ويعلم حالة المذنب أنه إن صدر منه الذنب بغلبة دواعي نفسه الأمارة بالسوء مع إنابته إلى ربه في كثير من أوقاته: أنه سيغفر له ويوفقه للتوبة، وإن صدر منه بتجرئه على المحارم استخفافًا بنظر ربه وتهاونًا بعقابه؛ فإن هذا بعيد من المغفرة بعيد من التوفيق للتوبة.

(١١٢) ثم قال: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً ﴾؛ أي: ذنبًا كبيرًا، ﴿ أَوْ إِثْمًا ﴾: ما دون ذلك، ﴿ ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ ﴾؛ أي: يتهم بذنبه ﴿ بَرِيٓـًٔا ﴾ من ذلك الذنب وإن كان مذنبًا. ﴿ فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (١١٢) ﴾؛ أي: فقد حمل فوق ظهره بهتًا للبريء وإثمًا ظاهرًا بينًا. وهذا يدل على أن ذلك من كبائر الذنوب وموبقاتها؛ فإنه قد جمع عدة مفاسد: كسب الخطيئة والإثم، ثم رمي من لم يفعلها بفعلها، ثم الكذب الشنيع بتبرئة نفسه واتهام البريء، ثم ما يترتب على ذلك من العقوبة الدنيوية تندفع عمَّن وجبت عليه وتقام على من لا يستحقها، ثم ما يترتب على ذلك أيضًا من كلام الناس في البريء، إلى غير ذلك من المفاسد التي نسأل الله العافية منها ومن كل شر.

(١١٣) ثم ذكر منته على رسوله بحفظه وعصمته ممن أراد أن يضله، فقال: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ ﴾: وذلك أن هذه الآيات الكريمات قد ذكر المفسرون أن سبب نزولها أن أهل بيت سرقوا في المدينة، فلما اطلع على سرقتهم؛ خافوا الفضيحة، وأخذوا سرقتهم، فرموها ببيت من هو بريء من ذلك، واستعان السارق بقومه أن يأتوا رسول الله ﷺ ويطلبوا منه أن يبرئ صاحبهم على رءوس الناس، وقالوا: إنه لم يسرق وإنما الذي سرق من وجدت السرقة ببيته وهو البريء، فهمَّ رسول الله ﷺ أن يبرئ صاحبهم، فأنزل الله هذه الآيات تذكيرًا وتبيينًا لتلك الواقعة وتحذيرًا للرسول ﷺ من المخاصمة عن الخائنين؛ فإن المخاصمة عن المبطل من الضلال؛ فإن الضلال نوعان: ضلال في العلم وهو الجهل بالحق، وضلال في العمل وهو العمل بغير ما يجب؛ فحفظ الله رسوله عن هذا النوع من الضلال كما حفظه عن الضلال في الأعمال، وأخبر أن كيدهم ومكرهم يعود على أنفسهم كحالة كل ماكر، فقال: ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ﴾؛ لكون ذلك المكر وذلك التحيل لم يحصل لهم فيه مقصودهم ولم يحصل لهم إلا الخيبة والحرمان والإثم والخسران، وهذه نعمة كبيرة على رسوله ﷺ، تتضمن النعمة بالعمل، وهو التوفيق لفعل ما يجب والعصمة له عن كل محرم، ثم ذكر نعمته عليه بالعلم، فقال: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾؛ أي: أنزل عليك هذا القرآن العظيم والذكر الحكيم الذي فيه تبيان كل شيء وعلم الأولين والآخرين.

والحكمة إما السنة التي قد قال فيها بعض السلف: إن السنة تنزل عليه كما ينزل القرآن، وإما معرفة أسرار الشريعة الزائدة على معرفة أحكامها وتنزيل الأشياء منازلها وترتيب كل شيء بحسبه. ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾: وهذا يشمل جميع ما علمه الله تعالى؛ فإنه ﷺ كما وصفه الله قبل النبوة بقوله: ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ [الشورى: ٥٢]، ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ (٧) ﴾ [الضحى: ٧]، ثم لم يزل يوحي الله إليه ويعلمه ويكمله حتى ارتقى مقامًا من العلم يتعذر وصوله على الأولين والآخرين، فكان أعلم الخلق على الإطلاق وأجمعهم لصفات الكمال وأكملهم فيها، ولهذا قال: ﴿ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣) ﴾؛ ففضله على الرسول محمد ﷺ أعظم من فضله على كل

الخلق[1]، وأجناس الفضل الذي قد فضله الله به لا يمكن استقصاؤها[2] ولا يتيسر إحصاؤها.

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾.

﴿١١٤﴾ أي: لا خير في كثير مما يتناجى به الناس ويتخاطبون، وإذا لم يكن فيه خير؛ فإما لا فائدة فيه؛ كفضول الكلام المباح، وإما شر ومضرة محضة؛ كالكلام المحرم بجميع أنواعه. ثم استثنى تعالى فقال: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾: من مال أو علم أو أي نفع كان، بل لعله يدخل فيه العبادات القاصرة؛ كالتسبيح والتحميد ونحوه؛ كما قال النبي ﷺ: «**إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة....**»[3] الحديث. ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾: وهو الإحسان والطاعة وكل ما عرف في الشرع والعقل حسنه، وإذا أطلق الأمر بالمعروف من غير أن يقرن بالنهي عن المنكر؛ دخل فيه النهي عن المنكر؛ وذلك لأن ترك المنهيات من المعروف، وأيضًا لا يتم فعل الخير إلا بترك الشر، وأما عند الاقتران؛ فيفسر المعروف بفعل المأمور والمنكر بترك المنهي.

﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾: والإصلاح لا يكون إلا بين متنازعين متخاصمين، والنزاع والخصام والتغاضب يوجب من الشر والفرقة ما لا يمكن حصره؛ فلذلك حث الشارع على الإصلاح بين الناس في الدماء والأموال والأعراض، بل وفي الأديان؛ كما قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ الآية [الحجرات: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨]، والساعي في الإصلاح بين الناس أفضل من القانت بالصلاة والصيام والصدقة، والمصلح لا بد أن يصلح الله سعيه وعمله؛ كما أن الساعي في الإفساد لا يصلح الله عمله ولا يتم له مقصوده؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ

(١) ع: «مخلوق».
(٢) ع، ط: «استقصاؤه».
(٣) مسلم (١٠٠٦).

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾

الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [يونس: ٨١]؛ فهذه الأشياء حيثما فعلت؛ فهي خير؛ كما دل على ذلك الاستثناء، ولكن كمال الأجر وتمامه بحسب النية والإخلاص. ولهذا قال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾؛ فلهذا ينبغي للعبد أن يقصد وجه الله تعالى ويخلص العمل لله في كل وقت وفي كل جزء من أجزاء الخير؛ ليحصل له بذلك الأجر العظيم، وليتعود الإخلاص، فيكون من المخلصين. وليتم له الأجر، سواء تم مقصوده أم لا؛ لأن النية حصلت، واقترن بها ما يمكن من العمل.

﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾.

﴿١١٥﴾ أي: ومن يخالف الرسول ﷺ ويعانده فيما جاء به، ﴿مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ﴾: بالدلائل القرآنية والبراهين النبوية، ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: وسبيلهم هو طريقهم

في عقائدهم وأعمالهم، ﴿ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ ﴾؛ أي: نتركه وما اختاره لنفسه ونخذله؛ فلا نوفقه للخير؛ لكونه رأى الحق وعلمه وتركه؛ فجزاؤه من الله عدلًا أن يبقيه في ضلاله حائرًا ويزداد ضلالًا إلى ضلاله؛ كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام: ١١٠].

ويدل مفهومها على أن من لم يشاقق الرسول ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾؛ بأن كان قصده وجه الله واتباع رسوله ولزوم جماعة المسلمين، ثم صدر منه من الذنوب أو الهم بها ما هو من مقتضيات النفوس وغلبات الطباع؛ فإن الله لا يوليه نفسه وشيطانه، بل يتداركه بلطفه ويمن عليه بحفظه ويعصمه من السوء؛ كما قال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يوسف: ٢٤]؛ أي: بسبب إخلاصه صرفنا عنه السوء، وكذلك كل مخلص؛ كما يدل عليه عموم التعليل، وقوله: ﴿ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ﴾؛ أي: نعذبه فيها عذابًا عظيمًا. ﴿ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾؛ أي: مرجعًا له ومآلًا.

﴿١١٦﴾ وهذا الوعيد المترتب على الشقاق ومخالفة المؤمنين مراتب لا يحصيها إلا الله بحسب حالة الذنب صغرًا وكبرًا؛ فمنه ما يخلد في النار ويوجب جميع الخذلان، ومنه ما هو دون ذلك؛ فلعل الآية الثانية كالتفصيل لهذا المطلق، وهو أن الشرك لا يغفره الله تعالى؛ لتضمنه القدح في رب العالمين وفي وحدانيته، وتسوية المخلوق الذي لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا بمن هو مالك النفع والضر، الذي ما من نعمة إلا منه، ولا يدفع النقم إلا هو، الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه والغنى التام بجميع وجوه الاعتبارات؛ فمن أعظم الظلم وأبعد الضلال عدم إخلاص العبادة لمن هذا شأنه وعظمته، وصرف شيء منها للمخلوق الذي ليس له من صفات الكمال شيء ولا له من صفات الغنى شيء، بل ليس له إلا العدم، عدم الوجود وعدم الكمال وعدم الغنى، والفقر من جميع الوجوه. وأما ما دون الشرك من الذنوب والمعاصي؛ فهو تحت المشيئة: إن شاء الله غفره برحمته وحكمته، وإن شاء عذب عليه وعاقب بعدله وحكمته.

وقد استدل بهذه الآية الكريمة على أن إجماع هذه الأمة حجة، وأنها معصومة من الخطأ، ووجه ذلك أن الله توعد من خالف سبيل المؤمنين بالخذلان والنار، وسبيل المؤمنين مفرد مضاف يشمل سائر ما المؤمنون عليه من العقائد والأعمال؛ فإذا اتفقوا على إيجاب شيء أو استحبابه أو تحريمه أو كراهته أو إباحته؛ فهذا سبيلهم، فمن خالفهم في شيء من ذلك بعد انعقاد إجماعهم عليه؛ فقد اتبع غير سبيلهم.

ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ووجه الدلالة منها أن الله تعالى أخبر أن المؤمنين من هذه الأمة لا يأمرون إلا بالمعروف؛ فإذا اتفقوا على إيجاب شيء أو استحبابه؛ فهو مما أمروا به، فيتعين بنص الآية أن يكون معروفًا، ولا شيء بعد المعروف غير المنكر، وكذلك إذا اتفقوا على النهي عن شيء؛ فهو مما نهوا عنه، فلا يكون إلا منكرًا.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فأخبر تعالى أن هذه الأمة جعلها الله وسطًا؛ أي: عدلًا خيارًا؛ ليكونوا شهداء على الناس؛ أي: في كل شيء؛ فإذا شهدوا على حكم بأن الله أمر به أو نهى عنه أو أباحه؛ فإن شهادتهم معصومة؛ لكونهم عالمين بما شهدوا به عادلين في شهادتهم؛ فلو كان الأمر بخلاف ذلك؛ لم يكونوا عادلين في شهادتهم ولا عالمين بها.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [النساء: ٥٩]؛ يفهم منها أن ما لم يتنازعوا فيه، بل اتفقوا عليه أنهم غير مأمورين برده إلى الكتاب والسنة، وذلك لا يكون إلا موافقًا للكتاب والسنة، فلا يكون مخالفًا.

فهذه الأدلة ونحوها تفيد القطع أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة.

ولهذا بين الله قبح ضلال المشركين بقوله:

﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ ﴾.

(١١٧)، (١١٨) أي: ما يدعو هؤلاء المشركون من دون الله إلا إناثًا؛ أي: أوثانًا وأصنامًا مسميات بأسماء الإناث؛ كالعزى ومناة ونحوهما. ومن المعلوم أن الاسم دال على المسمى؛ فإذا كانت أسماؤها أسماءً مؤنثة ناقصةً؛ دل ذلك على نقص المسميات بتلك الأسماء وفقدها لصفات الكمال؛ كما أخبر الله تعالى في غير موضع من كتابه أنها لا تخلق ولا ترزق ولا تدفع عن عابديها، بل ولا عن نفسها نفعًا ولا ضرًّا ولا تنصر أنفسها ممن يريدها بسوء، وليس لها أسماع ولا أبصار ولا أفئدة؛ فكيف يعبد من هذا وصفه ويترك الإخلاص لمن له الأسماء الحسنى، والصفات العليا، والحمد والكمال والمجد والجلال والعز والجمال والرحمة والبر والإحسان والانفراد بالخلق والتدبير والحكمة العظيمة في الأمر والتقدير؛ هل هذا إلا من أقبح القبيح الدال على نقص صاحبه وبلوغه من الخسة والدناءة أدنى ما يتصوره متصور أو يصفه واصف؟! ومع هذا فعبادتهم إنما صورتها فقط لهذه الأوثان الناقصة، وبالحقيقة ما عبدوا غير الشيطان الذي هو عدوهم، الذي يريد إهلاكهم، ويسعى في ذلك بكل ما يقدر عليه، الذي هو في غاية البعد من الله، لعنه الله وأبعده عن رحمته؛ فكما أبعده الله من رحمته، يسعى في إبعاد العباد عن رحمة الله، ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: ٦].

ولهذا أخبر الله عن سعيه في إغواء العباد، وتزيين الشر لهم، والفساد، وأنه قال لربه مقسمًا: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾﴾؛ أي: مقدرًا، علم اللعين أنه لا يقدر على إغواء جميع عباد الله، وأن عباد الله المخلصين ليس له عليهم سلطان، وإنما سلطانه على من تولاه وآثر طاعته على طاعة مولاه. وأقسم في موضع آخر ليغوينهم ﴿أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠]؛ فهذا الذي ظنه الخبيث، وجزم به، أخبر الله تعالى بوقوعه بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [سبأ: ٢٠].

(١١٩) وهذا النصيب المفروض الذي أقسم ليتخذه منهم[١]؛ ذكر ما يريده بهم، وما يقصده لهم بقوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾؛ أي: عن الصراط المستقيم ضلالًا في العلم وضلالًا في العمل، ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾؛ أي: مع الإضلال لأمنينهم أن ينالوا ما ناله المهتدون، وهذا هو الغرور بعينه، فلم يقتصر على مجرد إضلالهم، حتى زين لهم ما هم فيه من الضلال، وهذا زيادة شر إلى شرهم؛ حيث عملوا أعمال أهل النار الموجبة للعقوبة، وحسبوا أنها موجبة للجنة. واعْتَبِرْ ذلك باليهود والنصارى ونحوهم؛ فإنهم كما حكى الله عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ [البقرة: ١١١]، ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ الآية [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]. وقال تعالى عن المنافقين: إنهم يقولون يوم القيامة للمؤمنين: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾ [الحديد: ١٤].

وقوله: ﴿وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾؛ أي: بتقطيع آذانها، وذلك كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، فنبه ببعض ذلك على جميعه، وهذا نوع من الإضلال يقتضي تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله، ويلتحق بذلك من الاعتقادات الفاسدة والأحكام الجائرة ما هو من أكبر الإضلال. ﴿وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ وهذا يتناول[٢] الخلقة الظاهرة بالوشم والوشر والنمص والتفلج للحسن، ونحو ذلك مما أغواهم به الشيطان، فغيروا خلقة الرحمن، وذلك يتضمن التسخط من خلقته، والقدح في حكمته واعتقاد أن ما يصنعونه بأيديهم أحسن من خلقة الرحمن، وعدم الرضا بتقديره وتدبيره، ويتناول أيضًا تغيير الخلقة الباطنة؛ فإن الله تعالى خلق عباده حنفاء، مفطورين على قبول الحق وإيثاره، فجاءتهم الشياطين، فاجتالتهم عن هذا الخلق الجميل، وزينت لهم الشر والشرك والكفر والفسوق والعصيان؛ فإن كل مولود يولد على الفطرة، ولكن أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ونحو ذلك مما يغيرون به ما فطر الله عليه العباد من توحيده وحبه ومعرفته، فافترستهم الشياطين في هذا الموضع افتراس السبع والذئاب للغنم المنفردة، لولا لطف الله وكرمه بعباده المخلصين؛ لجرى عليهم ما جرى على هؤلاء المفتونين، وهذا الذي جرى عليهم من توليهم عن ربهم وفاطرهم وتوليهم لعدوهم المريد لهم الشر من كل وجه، فخسروا الدنيا والآخرة، ورجعوا بالخيبة والصفقة الخاسرة، ولهذا

(١) عبارة: «ليتخذه منهم» وردت في ع: «الله أنهم يتخذوهم»، ط: «الله أنه يتخذهم».

(٢) زاد في ع، ط: «تغيير».

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ
جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ
ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ١٢٢ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ
وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ
وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٢٣ وَمَن
يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ
فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ١٢٤ وَمَنۡ
أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ
مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ١٢٥ وَلِلَّهِ مَا
فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ
مُّحِيطٗا ١٢٦ وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ
فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ
ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ
وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ
بِٱلۡقِسۡطِۚ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا ١٢٧

قال: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ١١٩﴾. وأي خسار أبين وأعظم ممن خسر دينه ودنياه وأوبقته معاصيه وخطاياه فحصل له الشقاء الأبدي وفاته النعيم السرمدي؟! كما أن من تولى مولاه، وآثر رضاه، ربح كل الربح، وأفلح كل الفلاح، وفاز بسعادة الدارين، وأصبح قرير العين. اللهم[1] فلا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، اللهم! تولنا فيمن توليت، وعافنا فيمن عافيت.

١٢٠ ثم قال: ﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡ﴾؛ أي: يعد الشيطان من يسعى في إضلالهم، والوعد يشمل حتى الوعيد؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ﴾ [البقرة: ٢٦٨]؛ فإنه يعدهم إذا أنفقوا في سبيل الله؛ افتقروا، ويخوفهم إذا جاهدوا بالقتل وغيره؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ الآية [آل عمران: ١٧٥]. ويخوفهم عند إيثار مرضاة الله بكل ما يمكن وما لا يمكن مما يدخله في عقولهم حتى يكسلوا عن فعل الخير، وكذلك يمنيهم الأماني الباطلة التي هي عند التحقيق كالسراب الذي لا حقيقة له، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ١٢٠﴾.

١٢١ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ﴾؛ أي: من انقاد للشيطان وأعرض عن ربه وصار من أتباع إبليس وحزبه مستقرهم النار، ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا ١٢١﴾؛ أي: مخلصًا ولا ملجأ، بل هم خالدون فيها أبد الآباد.

ولما بين مآل الأشقياء أولياء الشيطان؛ ذكر مآل السعداء أوليائه فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ١٢٢﴾.

١٢٢ أي: ﴿ءَامَنُواْ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره على الوجه الذي أمروا به علمًا وتصديقًا وإقرارًا. ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: الناشئة عن الإيمان، وهذا يشمل سائر المأمورات من واجب ومستحب؛ الذي على القلب، والذي على اللسان، والذي على بقية الجوارح؛ كل له من الثواب المرتب على ذلك بحسب حاله ومقامه وتكميله للإيمان والعمل الصالح، ويقويه[2] ما رتب على ذلك بحسب ما أخل به من الإيمان والعمل، وذلك بحسب ما علم من حكمة الله ورحمته، وكذلك وعده الصادق الذي يعرف من تتبع كتاب الله وسنة رسوله، ولهذا ذكر الثواب المرتب على ذلك بقوله: ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؛ من أنواع المآكل والمشارب اللذيذة، والمناظر العجيبة، والأزواج الحسنة، والقصور والغرف المزخرفة، والأشجار المتدلية، والفواكه المستغربة، والأصوات الشجية، والنعم السابغة، وتزاور الإخوان وتذكرهم ما كان منهم في رياض الجنان، وأعلى من ذلك[3] وأجل؛ رضوان الله عليهم وتمتع الأرواح بقربه، والعيون برؤيته، والأسماع بخطابه الذي ينسيهم كل نعيم وسرور، ولولا الثبات من الله لهم؛ لطاروا وماتوا من الفرح والحبور؛ فلله ما أحلى ذلك النعيم! وما أعلى

(١) ساقط من ع، ط.

(٢) ع، ط: «ويفوته».
(٣) بعده في ع، ط: «كله».

ما أنالهم الرب الكريم! وما حصل لهم من كل خير وبهجة لا يصفه الواصفون! وتمام ذلك وكماله الخلود الدائم في تلك المنازل العاليات.

ولهذا قال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾: فصدق الله العظيم الذي بلغ قوله وحديثه في الصدق أعلى ما يكون، ولهذا لما كان كلامه صدقًا، وخبره صدقًا[١]؛ كان ما يدل عليه مطابقةً وتضمنًا وملازمةً؛ كل ذلك مراد من كلامه، وكذلك كلام رسوله ﷺ؛ لكونه لا يخبر إلا بأمره ولا ينطق إلا عن وحيه.

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾.

﴿١٢٣﴾ أي: ﴿لَّيْسَ﴾ الأمر والنجاة والتزكية ﴿بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، والأماني أحاديث النفس المجردة عن العمل المقترن بها دعوى مجردة، لو عورضت بمثلها؛ لكانت من جنسها، وهذا عام في كل أمر؛ فكيف بأمر الإيمان والسعادة الأبدية؛ فإن أماني أهل الكتاب قد أخبر الله بها أنهم قالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ [البقرة: ١١١]، وغيرهم ممن ليس ينتسب لكتاب ولا رسول من باب أولى وأحرى، وكذلك أدخل الله في ذلك من ينتسب إلى الإسلام لكمال العدل والإنصاف؛ فإن مجرد الانتساب إلى أي دين كان لا يفيد شيئًا إن لم يأت الإنسان ببرهان على صحة دعواه؛ فالأعمال تصدق الدعوى أو تكذبها. ولهذا قال تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾: وهذا شامل لجميع العاملين؛ لأن السوء شامل لأي ذنب[٢] كان من صغائر الذنوب وكبائرها، وشامل أيضًا لكل جزاء؛ قليل أو كثير، دنيوي أو أخروي، والناس في هذا المقام درجات لا يعلمها إلا الله؛ فمستقل ومستكثر؛ فمن كان عمله كله سوءًا، وذلك لا يكون إلا كافرًا؛ فإذا مات من دون توبة؛ جوزي بالخلود في العذاب الأليم، ومن كان عمله صالحًا وهو مستقيم في غالب أحواله، وإنما يصدر منه أحيانًا[٣] بعض الذنوب الصغار، فما يصيبه من الهم والغم والأذى وبعض الآلام في بدنه، أو قلبه، أو حبيبه، أو ماله ونحو ذلك؛ فإنها مكفرات للذنوب[٤] لطفًا من الله[٥] بعباده.

وبين هذين الحالين مراتب كثيرة، وهذا الجزاء على عمل السوء العام مخصوص في غير التائبين؛ فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له؛ كما دلت على ذلك النصوص.

وقوله: ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾: لإزالة بعض ما لعله يتوهم أن من استحق المجازاة على عمله قد يكون له ولي أو ناصر أو شافع يدفع عنه ما استحقه، فأخبر تعالى بانتفاء ذلك، فليس له ولي يحصل له المطلوب ولا نصير يدفع عنه المرهوب؛ إلا ربه ومليكه.

﴿١٢٤﴾ ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾. دخل في ذلك سائر الأعمال القلبية والبدنية، ودخل أيضًا كل عامل؛ من إنس أو جن، صغير أو كبير، ذكر أو أنثى. ولهذا قال: ﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ وهذا شرط لجميع الأعمال، لا تكون صالحةً ولا تقبل ولا يترتب عليها الثواب ولا يندفع بها العقاب إلا بالإيمان؛ فالأعمال بدون الإيمان كأغصان شجرة قطع أصلها، وكبناء بني على موج الماء؛ فالإيمان هو الأصل والأساس والقاعدة الذي يبنى عليه[٦] كل شيء، وهذا القيد ينبغي التفطن له في كل عمل مطلق؛ فإنه مقيد به. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾؛ أي: الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾: المشتملة على ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾؛ أي: لا قليلًا ولا كثيرًا مما عملوه من الخير، بل يجدونه كاملًا موفرًا مضاعفًا أضعافًا كثيرة.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾.

﴿١٢٥﴾ أي: لا أحد أحسن من دين من جمع بين الإخلاص للمعبود، وهو إسلام الوجه لله الدال على استسلام القلب، وتوجهه وإنابته وإخلاصه وتوجه الوجه وسائر الأعضاء لله.

(١) ع: «حقًا».
(٢) ع: «سوء».
(٣) ع: «بعض الأحيان».
(٤) بعده في ع، ط: «وهي مما يجزى به على عمله، قيضها الله». وقد ضبب عليها في الأصل.
(٥) ساقط من ع، ط.
(٦) ع، ط: «التي يبنى عليها».

﴿وَهُوَ﴾: مع هذا الإخلاص والاستسلام ﴿مُحْسِنٌ﴾؛ أي: متبع لشريعة الله التي أرسل الله[1] بها رسله وأنزل كتبه وجعلها طريقًا لخواص خلقه وأتباعهم، ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾؛ أي: دينه وشرعه ﴿حَنِيفًا﴾؛ أي: مائلًا عن الشرك إلى التوحيد وعن التوجه للخلق إلى الإقبال على الخالق، ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾: والخُلَّةُ أعلى أنواع المحبة، وهذه المرتبة حصلت للخليلين محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وأما المحبة من الله؛ فهي لعموم المؤمنين، وإنما اتخذ الله إبراهيم خليلًا؛ لأنه وفى بما أمر به، وقام بما ابتلي به، فجعله الله إمامًا للناس، واتخذه خليلًا، ونوه بذكره في العالمين.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾.

﴿١٢٦﴾ وهذه الآية الكريمة فيها بيان إحاطة الله تعالى بجميع الأشياء، فأخبر أنه له ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: الجميع ملكه وعبيده؛ فهم المملوكون وهو المالك المتفرد بتدبيرهم، وقد أحاط علمه بجميع المعلومات، وبصره بجميع المبصرات وسمعه بجميع المسموعات ونفذت مشيئته وقدرته بجميع الموجودات ووسعت رحمته أهل الأرض والسماوات، وقهر بعزه وقهره كل مخلوق، ودانت له جميع الأشياء.

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿١٢٧﴾ الاستفتاء طلب السائل من المسئول بيان الحكم الشرعي في ذلك المسئول عنه، فأخبر عن المؤمنين أنهم يستفتون الرسول ﷺ في حكم النساء المتعلق بهم، فتولى الله هذه الفتوى بنفسه، فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾؛ فاعملوا على ما أفتاكم به في جميع شئون النساء من القيام بحقوقهن وترك ظلمهن عمومًا وخصوصًا، وهذا أمر عام يشمل جميع ما شرع الله أمرًا ونهيًا في حق النساء الزوجات وغيرهن الصغار والكبار، ثم خص بعد التعميم الوصية بالضعاف من اليتامى والولدان اهتمامًا بهم وزجرًا عن التفريط في حقوقهم، فقال: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾؛ أي: ويفتيكم أيضًا بما يتلى عليكم في الكتاب في شأن اليتامى من النساء، ﴿ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾: وهذا إخبار عن الحالة الموجودة الواقعة في ذلك الوقت؛ فإن اليتيمة إذا كانت تحت ولاية الرجل؛ بخسها حقها، وظلمها؛ إما بأكل مالها الذي لها، أو بعضه، أو منعها من التزوج؛ لينتفع بمالها خوفًا من استخراجه من يده إن زوَّجها، أو يأخذ من صهرها[2] الذي تتزوج به بشرط أو غيره، هذا إذا كان راغبًا عنها، أو يرغب فيها وهي ذات جمال ومال ولا يقسط في مهرها، بل يعطيها دون ما تستحق؛ فكل هذا ظلم يدخل تحت هذا النص، ولهذا قال: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾؛ أي: ترغبون عن نكاحهن أو في نكاحهن كما ذكرنا تمثيله.

﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾؛ أي: ويفتيكم في المستضعفين من الولدان الصغار أن تعطوهم حقهم من الميراث وغيره، وألَّا تستولوا على أموالهم على وجه الظلم والاستبداد، ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾؛ أي: بالعدل التام، وهذا يشمل القيام عليهم بإلزامهم أمر الله وما أوجبه على عباده، فيكون الأولياء مكلفين بذلك يلزمونهم بما أوجبه الله، ويشمل القيام عليهم في مصالحهم الدنيوية بتنمية أموالهم وطلب الأحظ لهم فيها وألَّا يقربوها إلا بالتي هي أحسن، وكذلك لا يحابون فيهم صديقًا ولا غيره في تزوج وغيره على وجه الهضم لحقوقهم، وهذا من رحمته تعالى بعباده؛ حيث حث غاية الحث على القيام بمصالح من لا يقوم بمصلحة نفسه لضعفه وفقد أبيه.

ثم حث على الإحسان عمومًا، فقال: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾: لليتامى ولغيرهم، سواء كان الخير متعديًا أو لازمًا، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾؛ أي: قد أحاط علمه بعمل العاملين للخير، قلةً وكثرةً، حسنًا وضده، فيجازي كلًّا بحسب عمله.

﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾.

(١) سقط من ع.

(٢) ع، ط: «مهرها».

(١٢٨) أي: إذا خافت المرأة نشوز زوجها؛ أي: ترفعه عنها وعدم رغبته فيها وإعراضه عنها؛ فالأحسن في هذه الحالة ﴿أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾؛ بأن تُستسمح[1] المرأة عن بعض حقوقها اللازمة لزوجها على وجه تبقى مع زوجها؛ إما أن ترضى بأقل من الواجب لها من النفقة أو الكسوة أو المسكن أو القسم؛ بأن تسقط حقها منه أو تهب يومها وليلتها لزوجها أو لضرتها؛ فإذا اتفقا على هذه الحالة؛ فلا جناح ولا بأس عليهما فيها، لا عليها ولا على الزوج، فيجوز حينئذ لزوجها البقاء معها على هذه الحال، وهي خير من الفرقة، ولهذا قال: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾.

ويؤخذ من عموم هذا اللفظ والمعنى أن الصلح بين من بينهما حق أو منازعة في جميع الأشياء أنه خير من استقصاء كل منهما على كل حقه لما فيها من الإصلاح وبقاء الألفة والاتصاف بصفة السماح، وهو جائز في جميع الأشياء؛ إلا إذا أحل حرامًا أو حرم حلالًا؛ فإنه لا يكون صلحًا، وإنما يكون جورًا، واعلم أن كل حكم من الأحكام لا يتم ولا يكمل إلا بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه؛ فمن ذلك هذا الحكم الكبير الذي هو الصلح، فذكر تعالى المقتضي لذلك، ونبه على أنه خير، والخير كل عاقل يطلبه ويرغب فيه؛ فإن كان مع ذلك قد أمر الله به وحث عليه؛ ازداد المؤمن طلبًا له ورغبةً فيه، وذكر المانع بقوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾؛ أي: جبلت النفوس على الشح، وهو عدم الرغبة في بذل ما على الإنسان، والحرص على الحق الذي له؛ فالنفوس مجبولة على ذلك طبعًا؛ أي: فينبغي لكم أن تحرصوا على قلع هذا الخلق الدنيء من نفوسكم، وتستبدلوا به ضده، وهو السماحة، وهو بذل الحق الذي عليك، والاقتناع ببعض الحق الذي لك؛ فمتى وفق الإنسان لهذا الخلق الحسن؛ سهل حينئذ عليه الصلح بينه وبين خصمه ومعامله، وتسهلت الطريق للوصول إلى المطلوب؛ بخلاف من لم يجتهد في إزالة الشح من نفسه؛ فإنه يعسر عليه الصلح والموافقة؛ لأنه لا يرضيه إلا جميع ما له، ولا يرضى أن يؤدي ما عليه؛ فإن كان خصمه مثله، اشتد الأمر.

ثم قال: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا﴾؛ أي: تحسنوا في عبادة الخالق؛ بأن يعبد العبد ربه كأنه يراه؛ فإن لم يكن يراه؛ فإنه يراه، وتحسنوا إلى المخلوقين بجميع طرق الإحسان

(١) ع، ط: «تسمح».

سورة النساء — الجزء الخامس

وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٢٨) وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٢٩) وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (١٣٠) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٣٢) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا (١٣٣) مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (١٣٤)

٩٩

من نفع بمال أو علم أو جاه أو غير ذلك، وتتقوا الله بفعل جميع المأمورات وترك جميع المحظورات، أو تحسنوا بفعل المأمور وتتقوا بترك المحظور؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٢٨)﴾: قد أحاط به علمًا وخبرًا بظاهره وباطنه فيحفظه لكم ويجازيكم عليه أتم الجزاء.

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٢٩)﴾.

(١٢٩) يخبر تعالى أن الأزواج لا يستطيعون وليس في قدرتهم العدل التام بين النساء؛ وذلك لأن العدل يستلزم وجود المحبة على السواء، والداعي على السواء، والميل في القلب إليهن على السواء، ثم العمل بمقتضى ذلك، وهذا متعذر غير ممكن؛ فلذلك عفا الله عما لا يستطيع[2] ونهى عما هو ممكن بقوله: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾؛ أي: لا تميلوا ميلًا كثيرًا بحيث

(٢) ع، ط: «يستطاع».

لا تؤدون حقوقهن الواجبة، بل افعلوا ما هو باستطاعتكم من العدل؛ فالنفقة والكسوة والقسم ونحوها عليكم أن تعدلوا بينهن فيها؛ بخلاف الحب والوطء ونحو ذلك؛ فإن الزوجة إذا ترك زوجها ما يجب لها؛ صارت كالمعلقة التي لا زوج لها فتستريح وتستعد للتزوج، ولا ذات زوج يقوم بحقوقها. ﴿وَإِن تُصۡلِحُواْ﴾ ما بينكم وبين زوجاتكم بإجبار أنفسكم على فعل ما لا تهواه النفس احتسابًا وقيامًا بحق الزوجة، وتصلحوا أيضًا فيما بينكم وبين الناس، وتصلحوا أيضًا بين الناس فيما تنازعوا فيه، وهذا يستلزم الحث على كل طريق يوصل إلى الصلح مطلقًا كما تقدم. ﴿وَتَتَّقُواْ﴾: الله بفعل المأمور وترك المحظور والصبر على المقدور، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٢٩﴾: يغفر ما صدر منكم من الذنوب والتقصير في الحق الواجب، ويرحمكم كما عطفتم على أزواجكم ورحمتموهن.

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمٗا ١٣٠﴾.

١٣٠ هذه الحالة الثالثة بين الزوجين إذا تعذر الاتفاق؛ فإنه لا بأس بالفراق، فقال: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا﴾؛ أي: بطلاق أو فسخ أو خلع أو غير ذلك، ﴿يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا﴾: من الزوجين ﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾؛ أي: من فضله وإحسانه الواسع الشامل، فيغني الزوج بزوجة خير له منها، ويغنيها من فضله، وإن انقطع نصيبها من زوجها؛ فإن رزقها على المتكفل بأرزاق جميع الخلق، القائم بمصالحهم، ولعل الله يرزقها زوجًا خيرًا منه. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا﴾؛ أي: كثير الفضل واسع الرحمة، وصلت رحمته وإحسانه إلى حيث وصل إليه علمه، ولكنه مع ذلك ﴿حَكِيمٗا ١٣٠﴾؛ أي: يعطي بحكمته ويمنع لحكمته؛ فإذا اقتضت حكمته منع بعض عباده من إحسانه بسبب من العبد لا يستحق معه الإحسان؛ حرمه عدلًا وحكمة.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدٗا ١٣١ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ١٣٢﴾.

١٣١، ١٣٢ يخبر تعالى عن عموم ملكه العظيم الواسع المستلزم تدبيره بجميع أنواع التدبير وتصرفه بأنواع التصريف قدرًا وشرعًا؛ فتصرفه الشرعي أن وصى الأولين والآخرين أهل الكتب السابقة واللاحقة بالتقوى المتضمنة للأمر والنهي وتشريع الأحكام والمجازاة لمن قام بهذه الوصية بالثواب والمعاقبة لمن أهملها وضيعها بأليم العذاب، ولهذا قال: ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ﴾: بأن تتركوا تقوى الله وتشركوا بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانًا؛ فإنكم لا تضرون بذلك إلا أنفسكم، ولا تضرون الله شيئًا، ولا تنقصون ملكه، وله عبيد خير منكم وأعظم وأكثر، مطيعون له خاضعون لأمره، ولهذا رتب على ذلك قوله: ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدٗا ١٣١﴾: له الجود الكامل والإحسان الشامل الصادر من خزائن رحمته التي لا ينقصها الإنفاق ولا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، لو اجتمع أهل السماوات وأهل الأرض أولهم وآخرهم، فسأل كل واحد منهم ما بلغت أمانيه، ما نقص من ملكه شيئًا، ذلك بأنه جواد واجد ماجد، عطاؤه كلام، وعذابه كلام، إنما أمره لشيء إذا أراد أن يقول له كن فيكون، ومن تمام غناه أنه كامل الأوصاف؛ إذ لو كان فيه نقص بوجه من الوجوه؛ لكان فيه نوع افتقار إلى ذلك الكمال، بل له كل صفة كمال، ومن تلك الصفة كمالها.

ومن تمام غناه أنه لم يتخذ صاحبةً ولا ولدًا ولا شريكًا في ملكه ولا ظهيرًا ولا معاونًا له على شيء من تدابير ملكه، ومن كمال غناه افتقار العالم العلوي والسفلي في جميع أحوالهم وشئونهم إليه وسؤالهم إياه جميع حوائجهم الدقيقة والجليلة، فقام تعالى بتلك المطالب والأسئلة، وأغناهم وأقناهم ومَنَّ عليهم بلطفه وهداهم.

وأما الحميد؛ فهو من أسماء الله تعالى الجليلة، الدال على أنه هو المستحق لكل حمد ومحبة وثناء وإكرام، وذلك لما اتصف به من صفات الحمد التي هي صفة الجمال والجلال، ولما أنعم به على خلقه من النعم الجزال؛ فهو المحمود على كل حال.

وما أحسن اقتران هذين الاسمين الكريمين: الغني الحميد؛ فإنه غني محمود؛ فله كمال من غناه وكمال من حمده وكمال من اقتران أحدهما بالآخر، ثم كرر إحاطة ملكه لما في السماوات والأرض، وأنه على كل شيء وكيل؛ أي: عالم قائم بتدبير الأشياء على وجه الحكمة؛ فإن ذلك من تمام الوكالة؛ فإن الوكالة تستلزم العلم بما هو وكيل عليه،

والقـوة والقدرة على تنفيذه وتدبيره، وكون ذلك التدبير على وجـه الحكمة والمصلحـة؛ فما نقص من ذلـك؛ فهو لنقص بالوكيل[1]، والله تعالى منزه عن كل نقص.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾.

﴿١٣٣﴾ أي: هـو الغنـي الحميـد الـذي لـه القـدرة الكاملـة والمشيئة النافـذة فيكـم. ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾: غيركـم هم أطـوع لله منكم وخير منكم. وفـي هذا تهديد للناس على إقامتهم على كفرهم وإعراضهم عـن ربهم؛ فـإن الله لا يعبأ بهم شـيئًا إن لم يطيعـوه، ولكنه يمهل ويملي ولا يهمل.

﴿١٣٤﴾ ثم أخبر أن من كانت همته وإرادته دنية غير متجاوزة ثـواب الدنيا، وليس له إرادة في الآخرة؛ فإنه قد قصر سـعيه ونظـره، ومـع ذلك؛ فـلا يحصل له مـن ثواب الدنيا سـوى مـا كتـب الله لـه منها؛ فإنـه تعالى هـو المالك لكل شـيء، الـذي عنـده ثواب الدنيا والآخـرة، فليطلبا منه ويسـتعان به عليهمـا؛ فإنـه لا ينال ما عنده إلا بطاعتـه، ولا تدرك الأمور الدينيـة والدنيويـة إلا بالاسـتعانة بـه والافتقـار إليـه علـى الدوام، وله الحكمة تعالى في توفيق من يوفقه وخذلان من يخذلـه وفي عطائه ومنعـه، ولهذا قـال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾.

ثم قال تعالى:

﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾.

﴿١٣٥﴾ يأمـر تعالـى عبـاده المؤمنيـن أن يكونـوا ﴿قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾، والقـوام صيغـة مبالغـة؛ أي: كونوا في كل أحوالكم قائمين بالقسط الذي هو العدل في حقوق الله وحقوق عباده؛ فالقسط في حقوق الله ألَّا يستعان بنعمه على معصيته، بل تصرف في طاعته، والقسـط في حقوق الآدميين أن تـؤدي جميـع الحقوق التي عليك كما تطلـب حقوقك، فتؤدي النفقات الواجبة والديون وتعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به من الأخلاق والمكافأة وغير ذلك.

ومن أعظم أنواع القسط القسـط في المقالات والقائلين؛ فلا يحكم لأحد القولين أو أحد المتنازعين لانتسـابه أو ميله لأحدهمـا، بل يجعل وجهته العدل بينهما، ومن القسـط أداء الشـهادة التي عندك على أي وجه كان، حتى على الأحباب، بل علـى النفس، ولهذا قـال: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾؛ أي: فلا تراعوا الغني لغناه ولا الفقير بزعمكم رحمة له، بل اشهدوا بالحق على من كان. والقيام بالقسط من أعظم الأمور وأدل على دين القائم به وورعه ومقامه في الإسـلام، فيتعيـن علـى مـن نصح نفسـه وأراد نجاتهـا أن يهتـم له غاية الاهتمـام، وأن يجعلـه نصب عينيه ومحـل إرادته، وأن يزيل عن نفسـه كل مانـع وعائق يعوقه عن إرادة القسـط أو العمل بـه، وأعظـم عائق لذلك اتباع الهوى، ولهذا نبـه تعالى على إزالـة هذا المانـع بقولـه: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾؛

(١) ط: «الوكيل».

أي: فلا تتبعوا شهوات أنفسكم المعارضة للحق؛ فإنكم إن اتبعتموها؛ عدلتم عن الصواب ولم توفقوا للعدل؛ فإن الهوى إما أن يعمي بصيرة صاحبه حتى يرى الحق باطلًا والباطل حقًّا، وإما أن يعرف الحق ويتركه لأجل هواه؛ فمن سلم من هوى نفسه؛ وفق للحق وهدي إلى الصراط المستقيم.

ولما بين أن الواجب القيام بالقسط؛ نهى عما يضاد ذلك، وهو لي اللسان عن الحق في الشهادات وغيرها، وتحريف النطق عن الصواب المقصود من كل وجه أو من بعض الوجوه، ويدخل في ذلك تحريف الشهادة وعدم تكميلها أو تأويل الشاهد على أمر آخر؛ فإن هذا من اللي؛ لأنه الانحراف عن الحق. ﴿أَوْ تُعْرِضُواْ﴾؛ أي: تتركوا القسط المنوط بكم كترك الشاهد لشهادته وترك الحاكم لحكمه الذي يجب عليه القيام به.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾؛ أي: محيطًا بما فعلتم، يعلم أعمالكم خفيها وجليها، وفي هذا تهديد شديد للذي يلوي أو يعرض، ومن باب أولى وأحرى الذي يحكم بالباطل أو يشهد بالزور؛ لأنه أعظم جرمًا؛ لأن الأَوَّلَيْنِ تركا الحق، وهذا ترك الحق، وقام بالباطل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾.

﴿١٣٦﴾ اعلم أن الأمر إما أن يوجه إلى من لم يدخل في الشيء ولم يتصف بشيء منه؛ فهذا يكون أمرًا له في الدخول فيه، وذلك كأمر من ليس بمؤمن بالإيمان؛ كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ [النساء: ٤٧] الآية، وإما أن يوجه إلى من دخل في الشيء؛ فهذا يكون أمره ليصحح ما وجد منه ويحصل ما لم يوجد، ومنه ما ذكره الله في هذه الآية من أمر المؤمنين بالإيمان؛ فإن ذلك يقتضي أمرهم بما يصحح إيمانهم من الإخلاص والصدق وتجنب المفسدات والتوبة من جميع المنقصات، ويقتضي أيضًا الأمر بما لم يوجد من المؤمن من علوم الإيمان وأعماله؛ فإنه كلما وصل إليه نص وفهم معناه واعتقده؛ فإن ذلك من الإيمان المأمور به، وكذلك سائر الأعمال الظاهرة والباطنة، كلها من الإيمان؛ كما دلت على ذلك النصوص الكثيرة وأجمع عليه سلف الأمة، ثم الاستمرار على ذلك والثبات عليه إلى الممات؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وأمر هنا بالإيمان به وبرسله وبالقرآن وبالكتب المتقدمة؛ فهذا كله من الإيمان الواجب الذي لا يكون العبد مؤمنًا إلا به، إجمالًا فيما لم يصل إليه تفصيله، وتفصيلًا فيما علم من ذلك بالتفصيل؛ فمن آمن هذا الإيمان المأمور به؛ فقد اهتدى وأنجح.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾: وأي ضلال أبعد من ضلال من ترك طريق الهدى المستقيم وسلك الطريق الموصلة له إلى العذاب الأليم؟! واعلم أن الكفر بشيء من هذه الأمور المذكورة[1] كالكفر بجميعها؛ لتلازمها وامتناع وجود الإيمان ببعضها دون بعض.

ثم قال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾﴾.

﴿١٣٧﴾ أي: من تكرر منه الكفر بعد الإيمان؛ فاهتدى ثم ضل، وأبصر ثم عمي، وآمن ثم كفر، واستمر على كفره وازداد منه؛ فإنه بعيد من التوفيق والهداية لأقوم الطريق، وبعيد من المغفرة لكونه أتى بأعظم مانع يمنعه من حصولها؛ فإن كفره يكون عقوبة وطبعًا لا يزول؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

ودلت الآية أنهم إن لم يزدادوا كفرًا، بل رجعوا إلى الإيمان، وتركوا ما هم عليه من الكفران؛ فإن الله يغفر لهم، ولو تكررت منهم الردة، وإذا كان هذا الحكم في الكفر؛ فغيره من المعاصي التي دونها من باب أولى؛ أن العبد لو تكررت منه ثم عاد إلى التوبة؛ عاد الله له بالمغفرة.

﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾.

(١) عبارة: «الأمور المذكورة» وردت في ع: «المذكورات».

(١٣٨)، (١٣٩) البشارة تستعمل في الخير، وتستعمل في الشر بقيد؛ كما في هذه الآية. يقول تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾؛ أي: الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر بأقبح بشارة وأسوئها، وهو العذاب الأليم، وذلك بسبب محبتهم الكفار وموالاتهم ونصرتهم وتركهم لموالاة المؤمنين؛ فأي شيء حملهم على ذلك؟! أيبتغون عندهم العزة؟! وهذا هو الواقع من أحوال المنافقين، ساء ظنهم بالله، وضعف يقينهم بنصر الله لعباده المؤمنين، ولحظوا بعض الأسباب التي عند الكافرين، وقصر نظرهم عما وراء ذلك، فاتخذوا الكافرين أولياء يتعززون بهم ويستنصرون، والحال أن العزة لله جميعًا؛ فإن نواصي العباد بيده ومشيئته نافذة فيهم، وقد تكفل بنصر دينه وعباده المؤمنين، ولو تخلل ذلك بعض الامتحان لعباده المؤمنين وإدالة العدو عليهم إدالةً غير مستمرة؛ فإن العاقبة والاستقرار للمؤمنين.

وفي هذه الآية الترهيب العظيم من موالاة الكافرين وترك موالاة المؤمنين، وأن ذلك من صفات المنافقين، وأن الإيمان يقتضي محبة المؤمنين وموالاتهم وبغض الكافرين وعداوتهم.

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١) ﴾.

(١٤٠) أي: وقد بين الله لكم فيما أنزل عليكم حُكمه الشرعي عند حضور مجالس الكفر والمعاصي، ﴿ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا ﴾؛ أي: يستهان بها، وذلك أن الواجب على كل مكلف في آيات الله الإيمان بها وتعظيمها وإجلالها وتفخيمها، وهذا المقصود بإنزالها، وهو الذي خلق الله الخلق لأجله؛ فضد الإيمان الكفر بها، وضد تعظيمها الاستهزاء بها واحتقارها، ويدخل في ذلك مجادلة الكفار والمنافقين لإبطال آيات الله ونصر كفرهم، وكذلك المبتدعون على اختلاف أنواعهم؛ فإن احتجاجهم على باطلهم يتضمن الاستهانة بآيات الله؛ لأنها لا تدل إلا على الحق ولا تستلزم إلا صدقًا، بل وكذلك يدخل فيه حضور مجالس المعاصي والفسوق التي يستهان فيها بأوامر الله ونواهيه، وتقتحم حدوده التي حدها لعباده. ومنتهى هذا النهي عن القعود معهم ﴿ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ﴾؛ أي: غير الكفر بآيات الله والاستهزاء بها. ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا ﴾؛ أي: إن قعدتم معهم في الحال المذكورة ﴿ مِّثْلُهُمْ ﴾: لأنكم رضيتم بكفرهم واستهزائهم، والراضي بالمعصية كالفاعل لها، والحاصل أن من حضر مجلسًا يعصى الله به؛ فإنه يتعين عليه الإنكار عليهم مع القدرة أو القيام مع عدمها.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) ﴾؛ كما اجتمعوا على الكفر والموالاة، ولا ينفع المنافقين[1] مجرد كونهم في الظاهر مع المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ [الحديد: ١٣] إلى آخر الآيات.

(١٤١) ثم ذكر تحقيق موالاة المنافقين للكافرين ومعاداتهم للمؤمنين، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ ﴾؛ أي: ينتظرون الحالة التي تصيرون عليها، وتنتهون إليها من خير أو شر، قد أعدوا لكل حالة جوابًا بحسب نفاقهم؛ ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾؛ فيظهرون أنهم مع المؤمنين ظاهرًا وباطنًا؛ ليسلموا من القدح والطعن عليهم وليشركوهم في الغنيمة والفيء وليتنصروا بهم. ﴿ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ ﴾ ولم يقل: فتح؛ لأنه لا يحصل لهم فتح يكون مبدأ لنصرتهم المستمرة، بل غاية ما يكون أن يكون لهم نصيب غير مستقر حكمة من الله؛ فإذا كان ذلك؛ ﴿ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ ﴾؛ أي: نستولي عليكم ﴿ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾؛ أي: يتصنعون عندهم بكف أيديهم عنهم مع القدرة، ومنعهم من المؤمنين بجميع وجوه المنع من تفنيدهم وتزهيدهم في القتال ومظاهرة الأعداء عليهم وغير ذلك مما هو معروف منهم. ﴿ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾: فيجازي المؤمنين ظاهرًا وباطنًا بالجنة، ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات.

﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١) ﴾؛ أي: تسلطًا واستيلاءً عليهم، بل لا تزال طائفة من المؤمنين على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، ولا

(١) ع: «الكافرين».

ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ﴿١٤٧﴾

يزال الله يحدث من أسباب النصر للمؤمنين ودفع تسليط الكافرين ما هو مشهود بالعيان، حتى إن بعض المسلمين الذين تحكمهم الطوائف الكافرة قد بقوا محترمين، لا يتعرضون لأديانهم ولا يكونون مستصغرين عندهم، بل لهم العز التام من الله، فلله الحمد أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا.

﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿١٤٣﴾﴾.

﴿١٤٢﴾ يخبر تعالى عن المنافقين بما كانوا عليه من قبيح الصفات وشنائع السمات، وأن طريقتهم مخادعة الله تعالى؛ أي: بما أظهروه من الإيمان، وأبطنوه من الكفران؛ ظنوا أنه يروج على الله ولا يعلمه ولا يبديه لعباده، والحال أن الله خادعهم؛ فمجرد وجود هذه الحال منهم ومشيهم عليها خداع لأنفسهم، وأي خداع أعظم ممن يسعى سعيًا يعود عليه بالهوان والذل والحرمان، ويدل بمجرده على نقص عقل صاحبه؛ حيث جمع بين المعصية ورآها حسنةً وظنها من العقل والمكر؟! فلله ما يصنع الجهل والخذلان بصاحبه! ومن خداعه لهم يوم القيامة ما ذكره الله في قوله: ﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗاۖ فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ﴾ [الحديد: ١٣، ١٤] إلى آخر الآيات. ومن صفاتهم أنهم إذا ﴿قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ - إن قاموا - التي هي أكبر الطاعات العملية ﴿قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾: متثاقلين لها متبرمين من فعلها، والكسل لا يكون إلا من فقد الرغبة من قلوبهم؛ فلولا أن قلوبهم فارغة من الرغبة إلى الله وإلى ما عنده عادمة للإيمان؛ لم يصدر منهم الكسل. ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: هذا الذي انطوت عليه سرائرهم، وهذا مصدر أعمالهم، مراءاة الناس، يقصدون رؤية الناس وتعظيمهم، واحترامهم، ولا يخلصون لله؛ فلهذا لا ﴿يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٤٢﴾﴾؛ لامتلاء قلوبهم من الرياء؛ فإن ذكر الله تعالى وملازمته لا يكون إلا من مؤمن ممتلئ قلبه بمحبة الله وعظمته.

﴿١٤٣﴾ ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾؛ أي: مترددين بين فريق المؤمنين وفريق الكافرين، فلا من المؤمنين ظاهرًا وباطنًا ولا من الكافرين ظاهرًا وباطنًا، أعطوا باطنهم للكافرين وظاهرهم للمؤمنين، وهذا أعظم ضلال يقدر، ولهذا قال: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿١٤٣﴾﴾؛ أي: لن تجد طريقًا لهدايته ولا وسيلة لترك غوايته؛ لأنه انغلق عنه باب الرحمة، وصار بدله كل نقمة؛ فهذه الأوصاف المذمومة تدل بتنبيهها على أن المؤمنين متصفون بضدها من الصدق ظاهرًا وباطنًا والإخلاص، وأنهم لا يجهل ما عندهم، ونشاطهم في صلاتهم وعباداتهم وكثرة ذكرهم لله تعالى، وأنهم قد هداهم الله ووفقهم للصراط المستقيم، فليعرض العاقل نفسه على هذين الأمرين، وليختر أيهما أولى به، والله المستعان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾.

﴿١٤٤﴾ لما ذكر أن من صفات المنافقين اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين؛ نهى عباده المؤمنين أن يتصفوا بهذه الحالة القبيحة، وأن يشابهوا المنافقين؛ فإن ذلك

موجب لأن ﴿تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾؛ أي: حجة واضحة على عقوبتكم؛ فإنه قد أنذرنا وحذرنا منها، وأخبرنا بما فيها من المفاسد؛ فسلوكها بعد هذا موجب للعقاب. وفي هذه الآية دليل على كمال عدل الله، وأن الله لا يعذب أحدًا قبل قيام الحجة عليه. وفيها التحذير من المعاصي؛ فإن فاعلها يجعل لله عليه سلطانًا مبينًا.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾.

﴿١٤٥﴾ يخبر تعالى عن مآل المنافقين أنهم في أسفل الدركات من العذاب وأشر الحالات من العقاب؛ فهم تحت سائر الكفار؛ لأنهم شاركوهم بالكفر بالله ومعاداة رسله، وزادوا عليهم المكر والخديعة والتمكن من كثير من أنواع العداوة للمؤمنين على وجه لا يشعر به ولا يحس، ورتبوا على ذلك جريان أحكام الإسلام عليهم واستحقاق ما لا يستحقونه؛ فبذلك ونحوه استحقوا أشد العذاب، وليس لهم منقذ من عذابه ولا ناصر يدفع عنهم بعض عقابه.

﴿١٤٦﴾ وهذا عام لكل منافق؛ إلا مَنْ مَنَّ الله عليهم بالتوبة من السيئات. ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾: له الظواهر والبواطن. واعتصموا به والتجئوا إليه في جلب منافعهم ودفع المضار عنهم، ﴿وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ﴾: الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان ﴿لِلَّهِ﴾: فقصدوا وجه الله بأعمالهم الظاهرة والباطنة، وسلموا من الرياء والنفاق؛ فمن اتصف بهذه الصفات ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: في الدنيا والبرزخ ويوم القيامة. ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾: لا يعلم كنهه إلا الله، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وتأمل كيف خص الاعتصام والإخلاص بالذكر مع دخولهما في قوله: ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾؛ لأن الاعتصام والإخلاص من جملة الإصلاح؛ لشدة الحاجة إليهما، خصوصًا في هذا المقام الحرج، الذي تمكن من القلوب النفاق، فلا يزيله إلا شدة الاعتصام بالله ودوام اللجأ والافتقار إليه في دفعه، وكون الإخلاص مناف كل المنافاة للنفاق، فذكرهما لفضلهما وتوقف الأعمال الظاهرة والباطنة عليهما ولشدة الحاجة في هذا المقام إليهما.

وتأمل كيف لما ذكر أن هؤلاء مع المؤمنين لم يقل: (وسوف يؤتيهم أجرًا عظيمًا)، مع أن السياق فيهم، بل قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾؛ لأن هذه القاعدة الشريفة لم يزل الله يبدئ فيها ويعيد إذا كان السياق في بعض الجزئيات، وأراد أن يُرتِّبَ[1] عليه ثوابًا أو عقابًا، وكان ذلك مشتركًا بينه وبين الجنس الداخل فيه؛ رتب الثواب في مقابلة الحكم العام الذي تندرج تحته تلك القضية وغيرها، ولئلا يتوهم اختصاص الحكم بالأمر الجزئي؛ فهذا من أسرار القرآن البديعة؛ فالتائب من المنافقين مع المؤمنين وله ثوابهم.

﴿١٤٧﴾ ثم أخبر تعالى عن كمال غناه وسعة حلمه ورحمته وإحسانه، فقال: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾. والحال أن الله شاكر عليم، يعطي المتحملين لأجله الأثقال، الدائبين في الأعمال - جزيل الثواب وواسع الإحسان، ومن ترك شيئًا لله أعطاه الله خيرًا منه، ومع هذا يعلم ظاهركم وباطنكم وأعمالكم وما تصدر عنه من إخلاص وصدق وضد ذلك، وهو يريد منكم التوبة والإنابة والرجوع إليه؛ فإذا أنبتم إليه؛ فأي شيء يفعل بعذابكم؟! فإنه لا يتشفى بعذابكم ولا ينتفع بعقابكم، بل العاصي لا يضر إلا نفسه؛ كما أن عمل المطيع لنفسه، والشكر هو خضوع القلب، واعترافه بنعمة الله، وثناء اللسان على المشكور، وعمل الجوارح بطاعته، وألَّا يستعين بنعمه على معاصيه.

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾.

﴿١٤٨﴾ يخبر تعالى أنه لا يحب الجهر بالسوء من القول؛ أي: يبغض ذلك ويمقته ويعاقب عليه، ويشمل ذلك جميع الأقوال السيئة التي تسوء وتحزن؛ كالشتم والقذف والسب ونحو ذلك؛ فإن ذلك كله من المنهي عنه الذي يبغضه الله، ويدل مفهومها أنه يحب الحسن من القول؛ كالذكر والكلام الطيب اللين. وقوله: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾؛ أي: فإنه يجوز له أن يدعو على من ظلمه ويشتكي منه ويجهر بالسوء لمن جهر له به من غير أن يكذب عليه ولا يزيد على مظلمته ولا يتعدى

(١) ط: «يترتب».

۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن
سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ
بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ
وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ
أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ
حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ
يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ يَسْـَٔلُكَ
أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟
مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ
ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ
ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾
وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا
وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾

بشتمه غير ظالمه، ومع ذلك فعفوه وعدم مقابلته أولى؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾.

ولما كانت الآية قد اشتملت على الكلام السيئ والحسن والمباح؛ أخبر تعالى أنه سميع، فيسمع أقوالكم؛ فاحذروا أن تتكلموا بما يغضب ربكم فيعاقبكم[1]، وفيه أيضًا ترغيب على القول الحسن. عليم بنياتكم ومصدر أقوالكم.

﴿١٤٩﴾ ثم قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾: وهذا يشمل كل خير قولي وفعلي، ظاهر وباطن من واجب ومستحب، ﴿أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ﴾؛ أي: عمن ساءكم في أبدانكم وأموالكم وأعراضكم فتسمحوا عنه؛ فإن الجزاء من جنس العمل فمن عفا لله؛ عفا الله عنه. ومن أحسن؛ أحسن الله إليه، فلهذا قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾؛ أي: يعفو عن زلات عباده وذنوبهم العظيمة، فيسدل عليهم ستره، ثم يعاملهم بعفوه التام الصادر عن قدرته.

وفي هذه الآية إرشاد إلى التفقه في معاني أسماء الله وصفاته، وأن الخلق والأمر صادر عنها، وهي مقتضية له ولهذا يعلل الأحكام بالأسماء الحسنى كما في هذه الآية، لما ذكر عمل الخير والعفو عن المسيء، رتب على ذلك بأن أحالنا على معرفة أسمائه، وأن ذلك يغنينا عن ذكر ثوابها الخاص.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾.

﴿١٥٠﴾ هنا قسمان قد وضحا لكل أحد: مؤمن بالله وبرسله كلهم وكتبه، وكافر بذلك كله. وبقي قسم ثالث: وهو الذي يزعم أنه يؤمن ببعض الرسل دون بعض، وأن هذا سبيل ينجيه من عذاب الله، إن هذا إلا مجرد أماني؛ فإن هؤلاء يريدون التفريق بين الله وبين رسله؛ فإن من تولى الله حقيقة؛ تولى جميع رسله؛ لأن ذلك من تمام توليه، ومن عادى أحدًا من رسله؛ فقد عادى الله وعادى جميع رسله، كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ٩٨] الآيات، وكذلك من كفر برسول؛ فقد كفر بجميع الرسل، بل بالرسول الذي يزعم أنه به مؤمن.

﴿١٥١﴾، ﴿١٥٢﴾ ولهذا قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾، وذلك لئلا يُتوهم أن مرتبتهم متوسطة بين الإيمان والكفر. ووجه كونهم كافرين حتى بما زعموا الإيمان به؛ أن كل دليل دلهم على الإيمان بمن آمنوا به موجود هو أو مثله أو ما فوقه للنبي الذي كفروا به، وكل شبهة يزعمون أنهم يقدحون بها في النبي الذي كفروا به موجود مثلها أو أعظم منها فيمن آمنوا به، فلم يبق بعد ذلك إلا التشهي والهوى ومجرد الدعوى التي يمكن كل أحد أن يقابلها بمثلها. ولما ذكر أن هؤلاء هم الكافرون حقًّا؛ ذكر عقابًا شاملًا لهم ولكل كافر، فقال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾؛ كما تكبروا عن الإيمان بالله؛ أهانهم بالعذاب الأليم المخزي. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾. وهذا يتضمن الإيمان بكل ما

---

(١) زاد في ع، ط: «على ذلك».

أخبر الله به عن نفسه وبكل ما جاءت به الرسل من الأخبار والأحكام، ولم يفرقوا بين أحد منهم[1]، بل آمنوا بهم كلهم؛ فهذا الإيمان الحقيقي واليقين المبني على البرهان.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾؛ أي: جزاء إيمانهم وما ترتب عليه من عمل صالح وقول حسن وخلق جميل؛ كل على حسب حاله، ولعل هذا هو السر في إضافة الأجور إليهم. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ١٥٢﴾: يغفر السيئات، ويتقبل الحسنات.

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ١٥٣ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ١٥٤ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ١٥٥ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ١٥٦ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ١٥٧ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٥٨ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ١٥٩ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ١٦٠ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٦١﴾.

(١٥٣) - (١٥٨) هذا السؤال الصادر من أهل الكتاب للرسول محمد ﷺ على وجه العناد والاقتراح، وجعلهم هذا السؤال يتوقف عليه تصديقهم أو تكذيبهم، وهو أنهم سألوه أن ينزل عليهم القرآن جملةً واحدةً كما نزلت التوراة والإنجيل، وهذا غاية الظلم منهم[2]؛ فإن الرسول بشر عبد مدبر ليس في يده من الأمر شيء، بل الأمر كله لله، وهو

الجزء السادس — سورة النساء

فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ١٥٥ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ١٥٦ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ١٥٧ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٥٨ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ١٥٩ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ١٦٠ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٦١ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ١٦٢

١٠٣

الذي يرسل وينزل ما يشاء على عباده؛ كما قال تعالى عن الرسول لما ذكر الآيات التي فيها اقتراح المشركين على محمد: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ٩٣﴾ [الإسراء: ٩٣]؛ وكذلك جعلهم الفارق بين الحق والباطل مجرد إنزال الكتاب جملةً أو مفرقًا - مجرد دعوى لا دليل عليها، ولا مناسبة بل ولا شبهة؛ فمن أين يوجد في نبوة أحد من الأنبياء أن الرسول الذي يأتيكم بكتاب نزل مفرقًا؛ فلا تؤمنوا به ولا تصدقوه؟! بل نزول هذا القرآن مفرقًا بحسب الأحوال مما يدل على عظمته واعتناء الله بمن أنزل عليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ٣٢ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ٣٣﴾ [الفرقان: ٣٢، ٣٣].

فلما ذكر اعتراضهم الفاسد؛ أخبر أنه ليس بغريب من أمرهم، بل سبق لهم من المقدمات القبيحة ما هو أعظم مما سلكوا مع الرسول الذي يزعمون أنهم آمنوا به؛ من سؤالهم

(١) ع، ط: «من رسله».
(٢) زاد في ع، ط: «والجهل».

له رؤية الله عيانًا، واتخاذهم العجل إلهًا يعبدونه من بعدما رأوا من الآيات بأبصارهم ما لم يره غيرهم، ومن امتناعهم من قبول أحكام كتابهم، وهو التوراة حتى رفع الطور من فوق رءوسهم، وهددوا أنهم إن لم يؤمنوا أسقط عليهم فقبلوا ذلك على وجه الإغماض والإيمان الشبيه بالإيمان الضروري، ومن امتناعهم من دخول أبواب القرية التي أمروا بدخولها سجدًا مستغفرين فخالفوا القول والفعل، ومن اعتداء من اعتدى منهم في السبت فعاقبهم الله تلك العقوبة الشنيعة، وبأخذ الميثاق الغليظ عليهم فنبذوه وراء ظهورهم وكفروا بآيات الله وقتلوا رسله بغير حق، ومن قولهم إنهم قتلوا المسيح عيسى وصلبوه، والحال أنهم ما قتلوه وما صلبوه بل شبه لهم غيره. فقتلوا غيره وصلبوه، وادعائهم أن قلوبهم غلف لا تفقه ما تقول لهم ولا تفهمه، وبصدهم الناس عن سبيل الله فصدوهم عن الحق، ودعوهم إلى ما هم عليه من الضلال والغي، وبأخذهم السحت والربا مع نهي الله لهم عنه والتشديد فيه؛ فالذين فعلوا هذه الأفاعيل لا يستنكر عليهم أن يسألوا الرسول محمدًا أن ينزل عليهم كتابًا من السماء.

وهذه الطريقة من أحسن الطرق لمحاجة الخصم المبطل، وهو أنه إذا صدر منه من الاعتراض الباطل ما جعله شبهةً له ولغيره في رد الحق أن يبيِّن من حاله الخبيثة وأفعاله الشنيعة ما هو من أقبح ما صدر منه؛ ليعلم كل أحد أن هذا الاعتراض من ذلك الوادي الخسيس، وأن له مقدمات يجعل هذا معها. وكذلك كل اعتراض يعترضون به على نبوة محمد ﷺ يمكن أن يقابل بمثله أو ما هو أقوى منه في نبوة من يدعون إيمانهم به؛ ليكتفي بذلك شرهم وينقمع باطلهم، وكل حجة سلكوها في تقريرهم لنبوة من آمنوا به؛ فإنها ونظيرها وما هو أقوى منها دالة ومقررة لنبوة محمد ﷺ.

ولما كان المراد من تعديد ما عدد الله من قبائحهم هذه المقابلة؛ لم يبسطها في هذا الموضع، بل أشار إليها وأحال على مواضعها، وقد بسطها في غير هذا الموضع في المحل اللائق ببسطها.

(١٥٩) وقوله: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾: يحتمل أن الضمير هنا في قوله: ﴿ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ يعود إلى أهل الكتاب، فيكون على هذا كل كتابي يحضره الموت ويعاين الأمر حقيقة؛ فإنه يؤمن بعيسى عليه السلام، ولكنه إيمان لا ينفع؛ إيمان اضطرار، فيكون مضمون هذا التهديد لهم والوعيد ألَّا يستمروا على هذه الحال التي سيندمون عليها قبل مماتهم؛ فكيف يكون حالهم يوم حشرهم وقيامهم؟! ويحتمل أن الضمير في قوله: ﴿ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾. راجع إلى عيسى عليه السلام، فيكون المعنى: وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بالمسيح عليه السلام قبل موت المسيح؛ وذلك يكون عند اقتراب الساعة وظهور علاماتها الكبار؛ فإنها تكاثرت الأحاديث الصحيحة في نزوله عليه السلام في آخر هذه الأمة؛ يقتل الدجال، ويضع الجزية، ويؤمن به أهل الكتاب مع المؤمنين ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾: يكون عيسى عليهم شهيدًا يشهد عليهم بأعمالهم، وهل هي موافقة لشرع الله أم لا؟ وحينئذ لا يشهد إلا ببطلان كل ما هم عليه مما هو مخالف لشريعة القرآن، ولما دعاهم إليه محمد ﷺ علمنا بذلك لعلمنا بكمال عدالة المسيح عليه السلام وصدقه، وأنه لا يشهد إلا بالحق، إلا أن ما جاء به محمد ﷺ هو الحق وما عداه فهو ضلال وباطل.

(١٦٠)، (١٦١) ثم أخبر تعالى أنه حرم على أهل الكتاب كثيرًا من الطيبات التي كانت حلالًا عليهم، وهذا تحريم عقوبة، بسبب ظلمهم واعتدائهم وصدهم الناس عن سبيل الله ومنعهم إياهم من الهدى وبأخذهم الربا وقد نهوا عنه، فمنعوا المحتاجين ممن يبايعونه عن العدل، فعاقبهم الله من جنس فعلهم، فمنعهم من كثير من الطيبات التي كانوا بصدد حلها لكونها طيبة. وأما التحريم الذي على هذه الأمة؛ فإنه تحريم تنزيهًا[1] لهم عن الخبائث التي تضرهم في دينهم ودنياهم.

﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا (١٦٢) ﴾.

(١٦٢) لما ذكر معايب أهل الكتاب؛ ذكر الممدوحين منهم، فقال: ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾؛ أي: الذين ثبت العلم في قلوبهم ورسخ الإيقان في أفئدتهم، فأثمر لهم الإيمان التام العام، ﴿ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾: وأثمر لهم الأعمال الصالحة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة اللذين هما أفضل

(١) في ع، ط: «تنزيه».

الأعمال، وقد اشتملتا على الإخلاص للمعبود والإحسان إلى العبيد، وآمنوا باليوم الآخر، فخافوا الوعيد ورجوا الوعد، ﴿أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾؛ لأنهم جمعوا بين العلم والإيمان والعمل الصالح والإيمان بالكتب والرسل السابقة واللاحقة.

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾.

﴿١٦٣﴾ يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله من الشرع العظيم والأخبار الصادقة ما[1] أوحى إلى هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وفي هذا عدة فوائد: منها: أن محمدًا ﷺ ليس ببدع من الرسل، بل أرسل الله قبله من المرسلين العدد الكثير والجم الغفير؛ فاستغراب رسالته لا وجه له إلا الجهل أو العناد.

ومنها: أنه أوحى إليه كما أوحى إليهم من الأصول والعدل الذي اتفقوا عليه، وأن بعضهم يصدق بعضًا، ويوافق بعضهم بعضًا.

ومنها: أنه من جنس هؤلاء الرسل؛ فليعتبره المعتبر بإخوانه المرسلين؛ فدعوته دعوتهم، وأخلاقهم متفقة، ومصدرهم واحد، وغايتهم واحدة، فلم يقرنه بالمجهولين ولا بالكذابين ولا بالملوك الظالمين.

ومنها: أن في ذكر هؤلاء الرسل وتعدادهم من التنويه بهم والثناء الصادق عليهم وشرح أحوالهم مما يزداد به المؤمن إيمانًا بهم ومحبة لهم واقتداءً بهديهم واستنانًا بسنتهم ومعرفةً بحقوقهم، ويكون ذلك مصداقًا لقوله: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الصافات: ٧٩]، ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الصافات: ١٠٩]، ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الصافات: ١٢٠]، ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾

(١) ع: «كما».

۞ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾

إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [الصافات: ١٣٠، ١٣١]؛ فكل محسن له من الثناء الحسن بين الأنام بحسب إحسانه، والرسل خصوصًا هؤلاء المسمون في المرتبة العليا من الإحسان.

ولما ذكر اشتراكهم بوحيه؛ ذكر تخصيص بعضهم، فذكر أنه آتى داود الزبور، وهو الكتاب المعروف المزبور، الذي خص الله به داود عليه السلام لفضله وشرفه، وأنه كلم موسى تكليمًا؛ أي: مشافهةً منه إليه لا بواسطة، حتى اشتهر بهذا عند العالمين، فيقال: موسى كليم الرحمن.

﴿١٦٤﴾ وذكر أن الرسل منهم من قصه الله على رسوله، ومنهم من لم يقصصه عليه، وهذا يدل على كثرتهم.

﴿١٦٥﴾ وأن الله أرسلهم مبشرين لمن أطاع الله واتبعهم بالسعادة الدنيوية والأخروية، ومنذرين من عصى الله وخالفهم بشقاوة الدارين؛ ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾، فيقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير، قل: قد جاءكم بشير ونذير، فلم يبق للخلق على الله حجة؛ لإرساله

الرسل تترى؛ يبينون لهم أمر دينهم ومراضي ربهم ومساخطه وطرق الجنة وطرق النار؛ فمن كفر منهم بعد ذلك، فلا يلومن إلا نفسه، وهذا من كمال عزته تعالى وحكمته؛ أن أرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب، وذلك أيضًا من فضله وإحسانه؛ حيث كان الناس مضطرين إلى الأنبياء أعظم ضرورة تقدر، فأزال هذا الاضطرار؛ فله الحمد والشكر، ونسأله كما ابتدأ علينا نعمته بإرسالهم أن يتمها بالتوفيق لسلوك طريقهم؛ إنه جواد كريم.

﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ ﴾.

﴿١٦٦﴾ لما ذكر أن الله أوحى إلى رسوله محمد ﷺ كما أوحى إلى إخوانه من المرسلين؛ أخبر هنا بشهادته تعالى على رسالته وصحة ما جاء به. و﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ﴾: يحتمل أن يكون المراد: أنزله مشتملًا على علمه؛ أي: فيه من العلوم الإلهية والأحكام الشرعية والأخبار الغيبية ما هو من علم الله تعالى الذي علم به عباده، ويحتمل أن يكون المراد: أنزله صادرًا عن علمه، ويكون في ذلك إشارة وتنبيه على وجه شهادته، وأن المعنى إذا كان تعالى أنزل هذا القرآن المشتمل على الأوامر والنواهي، وهو يعلم ذلك، ويعلم حالة الذي أنزله عليه، وأنه دعا الناس إليه؛ فمن أجابه وصدقه؛ كان وليه، ومن كذبه وعاداه؛ كان عدوه، واستباح ماله ودمه، والله تعالى يمكنه ويوالي نصره ويجيب دعواته ويخذل أعداءه وينصر أولياءه؛ فهل توجد شهادة أعظم من هذه الشهادة وأكبر؟! ولا يمكن القدح في هذه الشهادة إلا بعد القدح بعلم الله وقدرته وحكمته. وإخباره تعالى بشهادة الملائكة على ما أنزل على رسوله؛ لكمال إيمانهم ولجلالة هذا المشهود عليه؛ فإن الأمور العظيمة لا يستشهد عليها إلا الخواص؛ كما قال تعالى في الشهادة على التوحيد: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨]، ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [النساء: ٧٩].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ ﴾.

﴿١٦٧﴾ لما أخبر عن رسالة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وأخبر برسالة خاتمهم محمد، وشهد بها وشهدت ملائكته؛ لزم من ذلك ثبوت الأمر المقرر والمشهود به، فوجب تصديقهم والإيمان بهم واتباعهم، ثم توعد من كفر بهم، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: جمعوا بين الكفر بأنفسهم وصدهم الناس عن سبيل الله، وهؤلاء هم أئمة الكفر ودعاة الضلال، ﴿ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ ﴾، وأي ضلال أعظم من ضلال من ضل بنفسه وأضل غيره؛ فباء بالإثمين ورجع بالخسارتين وفاتته الهدايتان؟!

﴿١٦٨﴾، ﴿١٦٩﴾ ولهذا قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ ﴾: وهذا الظلم هو زيادة على كفرهم، وإلا؛ فالكفر عند إطلاق الظلم يدخل فيه، والمراد بالظلم هنا: أعمال الكفر والاستغراق فيه؛ فهؤلاء بعيدون من المغفرة والهداية للصراط المستقيم، ولهذا قال: ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ ﴾، وإنما تعذرت المغفرة لهم والهداية لأنهم استمروا في طغيانهم وازدادوا في كفرهم[1] فطبع على قلوبهم وانسدت عليهم طرق الهداية بما كسبوا وما ربك بظلام للعبيد. ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ ﴾؛ أي: لا يبالي الله بهم ولا يعبأ؛ لأنهم لا يصلحون للخير، ولا يليق بهم إلا الحالة التي اختاروها لأنفسهم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ ﴾.

﴿١٧٠﴾ يأمر تعالى جميع الناس أن يؤمنوا بعبده ورسوله محمد ﷺ، وذكر السبب الموجب للإيمان به والفائدة من الإيمان به، والمضرة من عدم الإيمان به.

فالسبب الموجب هو إخباره بأنه جاءهم بالحق؛ أي: فمجيئه نفسه حق وما جاء به من الشرع حق؛ فإن العاقل يعرف أن بقاء الخلق في جهلهم يعمهون وفي كفرهم يترددون والرسالة قد انقطعت عنهم غير لائق بحكمة الله ورحمته؛ فمن حكمته ورحمته العظيمة نفس إرسال الرسول إليهم ليعرفهم الهدى من الضلال والغي من الرشد؛ فمجرد النظر في رسالته دليل قاطع على صحة نبوته، وكذلك النظر إلى ما جاء به من الشرع العظيم والصراط المستقيم؛ فإن فيه من

(١) ع: «كفرانهم».

الإخبار بالغيوب الماضية والمستقبلة والخبر عن الله وعن اليوم الآخر - ما لا يعرفه إلا بالوحي والرسالة وما فيه من الأمر بكل خير وصلاح ورشد وعدل وإحسان وصدق وبر وصلة وحسن خلق، ومن النهي عن الشر والفساد والبغي والظلم وسوء الخلق والكذب والعقوق، مما يقطع به أنه من عند الله، وكلما ازداد به العبد بصيرةً؛ ازداد إيمانه ويقينه؛ فهذا السبب الداعي للإيمان.

وأما الفائدة في الإيمان؛ فأخبر أنه خير ﴿لَّكُمْ﴾، والخير ضد الشر؛ فالإيمان خير للمؤمنين في أبدانهم وقلوبهم وأرواحهم ودنياهم وأخراهم، وذلك لما يترتب عليه من المصالح والفوائد؛ فكل ثواب عاجل وآجل فمن ثمرات الإيمان؛ فالنصر والهدى والعلم والعمل الصالح والسرور والأفراح والجنة وما اشتملت عليه من النعيم كل ذلك سبب عن الإيمان؛ كما أن الشقاء الدنيوي والأخروي من عدم الإيمان أو نقصه.

وأما مضرة عدم الإيمان به ﷺ؛ فيعرف بضد ما يترتب على الإيمان به وأن العبد لا يضر إلا نفسه، والله تعالى غني عنه لا تضره معصية العاصين، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: الجميع خلقه وملكه وتحت تدبيره وتصريفه. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾: بكل شيء ﴿حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾: في خلقه وأمره؛ فهو العليم بمن يستحق الهداية والغواية، الحكيم في وضع الهداية والغواية موضعهما.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾.

﴿١٧١﴾ ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو في الدين، وهو مجاوزة الحد والقدر المشروع إلى ما ليس بمشروع، وذلك كقول النصارى في غلوهم بعيسى عليه السلام ورفعه عن مقام النبوة والرسالة إلى مقام الربوبية الذي لا يليق بغير الله؛ فكما أن التقصير والتفريط من المنهيات؛ فالغلو كذلك، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾، وهذا الكلام يتضمن ثلاثة أشياء: أمرين منهي عنهما، وهما قول

الجزء السادس — سورة النساء

يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾

١٠٥

الكذب على الله والقول بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه ورسله. والثالث: مأمور به، وهو قول الحق في هذه الأمور.

ولما كانت هذه قاعدةً عامةً كليةً، وكان السياق في شأن عيسى عليه السلام نص على قول الحق فيه المخالف لطريقة اليهودية والنصرانية، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: غاية المسيح عليه السلام ومنتهى ما يصل إليه من مراتب الكمال أعلى حالة تكون للمخلوقين، وهي درجة الرسالة، التي هي أعلى الدرجات وأجل المثوبات، وأنه كلمته ﴿أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾؛ أي: كلمة تكلم الله بها، فكان بها عيسى، ولم يكن تلك الكلمة، وإنما كان بها، وهذا من باب إضافة التشريف والتكريم، وكذلك قوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾؛ أي: من الأرواح التي خلقها وكملها بالصفات الفاضلة والأخلاق الكاملة، أرسل الله روحه جبريل عليه السلام، فنفخ في فرج مريم عليها السلام، فحملت بإذن الله بعيسى عليه السلام، فلما بين حقيقة عيسى عليه السلام؛

أمر أهل الكتاب بالإيمان به وبرسله، ونهاهم أن يجعلوا الله ثالث ثلاثة؛ أحدهم عيسى والثاني مريم؛ فهذه مقالة النصارى قبحهم الله، فأمرهم أن ينتهوا، وأخبر أن ذلك خير لهم؛ لأنه الذي يتعين أنه سبيل النجاة وما سواه فهو طرق[١] الهلاك. ثم نزه نفسه عن الشريك والولد، فقال: ﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾؛ أي: هو المنفرد بالألوهية الذي لا تنبغي العبادة إلا له. ﴿ سُبْحَٰنَهُۥٓ ﴾؛ أي: تنزه وتقدس، ﴿ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾؛ لأن ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾؛ فالكل مملوكون له مفتقرون إليه؛ فمحال أن يكون له شريك منهم أو ولد.

ولما أخبر أنه المالك للعالم العلوي والسفلي أخبر أنه قائم بمصالحهم الدنيوية والأخروية، وحافظها ومجازيهم[٢] عليها تعالى:

﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ ﴾.

﴿١٧٢﴾ لما ذكر تعالى غلو النصارى في عيسى عليه السلام، وذكر أنه عبده ورسوله؛ ذكر هنا أنه لا يستنكف عن عبادته ربه؛ أي: لا يمتنع عنها رغبةً عنها، لا هو ﴿ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾، فنزههم عن الاستنكاف، وتنزيههم عن الاستكبار من باب أولى، ونفي الشيء فيه إثبات ضده؛ أي: فعيسى والملائكة المقربون قد رغبوا في عبادة ربهم وأحبوها وسعوا فيها بما يليق بأحوالهم، فأوجب لهم ذلك الشرف العظيم والفوز العظيم، فلم يستنكفوا أن يكونوا عبيدًا لربوبيته ولا لإلهيته، بل يرون افتقارهم لذلك فوق كل افتقار. ولا يظن رفع عيسى أو غيره من الخلق فوق مرتبته التي أنزله الله فيها وترفعه عن العبادة كمالًا، بل هو النقص بعينه، وهو محل الذم والعقاب، ولهذا قال: ﴿ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ ﴾؛ أي: فسيحشر الخلق كلهم إليه المستنكفين والمستكبرين وعباده المؤمنين، فيحكم بينهم بحكمه العدل وجزائه الفصل.

﴿١٧٣﴾ ثم فصل حكمه فيهم، فقال: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾؛ أي: جمعوا بين الإيمان المأمور به وعمل الصالحات من واجبات ومستحبات من حقوق الله وحقوق عباده، ﴿ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾؛ أي: الأجور التي رتبها على الأعمال كل بحسب إيمانه وعمله، ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾: من الثواب الذي لم تنله أعمالهم ولم تصل إليه أفعالهم ولم يخطر على قلوبهم، ودخل في ذلك كل ما في الجنة من المآكل والمشارب والمناكح والمناظر والسرور ونعيم القلب والروح ونعيم البدن، بل يدخل في ذلك كل خير ديني ودنيوي رتب على الإيمان والعمل الصالح. ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾؛ أي: عن عبادة الله تعالى، ﴿ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾، وهو سخط الله وغضبه والنار الموقدة التي تطلع على الأفئدة، ﴿ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ ﴾؛ أي: لا يجدون أحدًا من الخلق يتولاهم فيحصل لهم المطلوب، ولا من ينصرهم فيدفع عنهم المرهوب، بل قد تخلى عنهم أرحم الراحمين وتركهم في عذابهم خالدين، وما حكم به تعالى؛ فلا راد لحكمه ولا مغير لقضائه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾.

﴿١٧٤﴾ يمتن تعالى على سائر الناس بما أوصل إليهم من البراهين القاطعة والأنوار الساطعة، ويقيم عليهم الحجة، ويوضح لهم المحجة، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾؛ أي: حجج قاطعة على الحق تبينه وتوضحه وتبين ضده، وهذا يشمل الأدلة العقلية والنقلية، الآيات الأفقية والنفسية، ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]، وفي قوله: ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾: ما يدل على شرف هذا البرهان وعظمته؛ حيث كان من ربكم الذي رباكم التربية الدينية والدنيوية؛ فمن تربيته لكم التي يحمد عليها، ويشكر أن أوصل إليكم البينات ليهديكم بها إلى الصراط المستقيم والوصول إلى جنات النعيم. ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾، وهو هذا القرآن

(١) ع: «طريق».
(٢) الأصل: «ومجازيها».

العظيم، الذي قد اشتمل على علوم الأولين والآخرين والأخبار الصادقة النافعة والأمر بكل عدل وإحسان وخير، والنهي عن كل ظلم وشر؛ فالناس في ظلمة إن لم يستضيئوا بأنواره، وفي شقاء عظيم إن لم يقتبسوا من خيره.

﴿١٧٥﴾ ولكن انقسم الناس بحسب الإيمان بالقرآن والانتفاع به قسمين: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: اعترفوا بوجوده واتصافه بكل وصف كامل وتنزيهه من كل نقص وعيب، ﴿وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ﴾؛ أي: لجئوا إلى الله واعتمدوا عليه وتبرءوا من حولهم وقوتهم واستعانوا بربهم، ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾؛ أي: فسيتغمدهم بالرحمة الخاصة فيوفقهم للخيرات ويجزل لهم المثوبات ويدفع عنهم البليات والمكروهات. ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾؛ أي: يوفقهم للعلم والعمل؛ معرفة الحق والعمل به؛ أي: ومن لم يؤمن بالله، ويعتصم به، ويتمسك بكتابه؛ منعهم من رحمته، وحرمهم من فضله، وخلى بينهم وبين أنفسهم، فلم يهتدوا، بل ضلوا ضلالًا مبينًا؛ عقوبةً لهم على تركهم الإيمان، فحصلت لهم الخيبة والحرمان. نسأله تعالى العفو والعافية والمعافاة.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾.

﴿١٧٦﴾ أخبر تعالى أن الناس استفتوا رسوله ﷺ؛ أي: في الكلالة؛ بدليل قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾، وهي الميت يموت وليس له ولد صلب ولا ولد ابن ولا أب ولا جد، ولهذا قال: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾، أي: لا ذكر ولا أنثى، لا ولد صلب ولا ولد ابن، وكذلك ليس له والد؛ بدليل أنه ورَّث فيه الإخوة والأخوات، بالإجماع لا يرثون مع الوالد؛ فإذا هلك وليس له ولد ولا والد. ﴿وَلَهُۥٓ أُخْتٌ﴾؛ أي: شقيقة أو لأب لا لأم؛ فإنه قد تقدم حكمها. ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾؛ أي: نصف متروكات أخيها من نقود وعقار وأثاث وغير ذلك، وذلك من بعد الدَّيْن والوصية؛ كما تقدم. ﴿وَهُوَ﴾؛ أي: أخوها الشقيق أو الذي للأب، ﴿يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾، ولم يقدر له إرثًا لأنه عاصب فيأخذ مالها كله إن لم يكن صاحب فرض ولا عاصب يشاركه أو ما

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾

سورة المائدة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾

أبقت الفروض. ﴿فَإِن كَانَتَا﴾؛ أي: الأختان، ﴿ٱثْنَتَيْنِ﴾؛ أي: فما فوق ﴿فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً﴾؛ أي: اجتمع الذكور من الإخوة لغير أم مع الإناث، ﴿فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾: فيسقط فرض الإناث ويعصبهن إخوتهن. ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾؛ أي: يبين لكم أحكامه التي تحتاجونها ويوضحها ويشرحها لكم فضلًا منه وإحسانًا لكي تهتدوا ببيانه وتعملوا[1] بأحكامه، ولئلا تضلوا عن الصراط المستقيم بسبب جهلكم وعدم علمكم. ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾؛ أي: عالم بالغيب والشهادة والأمور الماضية والمستقبلة، ويعلم حاجتكم إلى بيانه وتعليمه، فيعلمكم من علمه الذي ينفعكم على الدوام في جميع الأزمنة والأمكنة.

آخر تفسير سورة النساء. فلله الحمد والشكر.

(١) الأصل: «وتعلموا».

تفسير سورة المائدة

وهي مدنية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١﴾.

۝١ هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان بالوفاء بالعقود؛ أي: بإكمالها وإتمامها وعدم نقضها ونقصها، وهذا شامل للعقود التي بين العبد وبين ربه من التزام عبوديته؛ والقيام بها أتم قيام، وعدم الانتقاص من حقوقها شيئًا، والتي بينه وبين الرسول بطاعته واتباعه، والتي بينه وبين الوالدين والأقارب ببرهم وصلتهم وعدم قطيعتهم، والتي بينه وبين أصحابه من القيام بحقوق الصحبة في الغنى والفقر واليسر والعسر، والتي بينه وبين الخلق من عقود المعاملات كالبيع والإجارة ونحوهما، وعقود التبرعات كالهبة ونحوها، بل والقيام بحقوق المسلمين التي عقدها الله بينهم في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات: ١٠]، بالتناصر[1] على الحق والتعاون عليه والتآلف بين المسلمين وعدم التقاطع؛ فهذا الأمر شامل لأصول الدين وفروعه؛ فكلها داخلة في العقود التي أمر الله بالقيام بها[2].

ثم قال ممتنا على عباده: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم﴾؛ أي: لأجلكم، رحمة بكم، ﴿بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾: من الإبل والبقر والغنم، بل ربما دخل في ذلك الوحشي منها والظباء وحمر الوحش ونحوها من الصيود. واستدل بعض الصحابة بهذه الآية على إباحة الجنين، الذي يموت في بطن أمه بعدما تذبح. ﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾: تحريمه منها في قوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ﴾ إلى آخر الآية؛ فإن هذه المذكورات وإن كانت من بهيمة الأنعام؛ فإنها محرمة.

ولما كانت إباحة بهيمة الأنعام عامة في جميع الأحوال والأوقات؛ استثنى منها الصيد في حال الإحرام، فقال:

(١) الأصل: «بل التناصر».
(٢) زاد بعده في ع، ط: «ويستدل بهذه الآية أن الأصل في العقود والشروط الإباحة، وأنها تنعقد بما دل عليها من قول أو فعل لإطلاقها».

﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌ﴾؛ أي: أحلت لكم بهيمة الأنعام في كل حال؛ إلا حيث كنتم متصفين بأنكم غير محلي الصيد وأنتم حرم؛ أي: متجرئون على قتله في حال الإحرام؛ فإن ذلك لا يحل لكم إذا كان صيدًا؛ كالظباء ونحوه، والصيد هو الحيوان المأكول المتوحش. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١﴾؛ أي: فمهما أراده تعالى؛ حكم به حكمًا موافقًا لحكمته؛ كما أمركم بالوفاء بالعقود؛ لحصول مصالحكم ودفع المضار عنكم، وأحل لكم بهيمة الأنعام رحمةً بكم، وحرم عليكم ما استثنى منها من ذوات العوارض من الميتة ونحوها صونًا لكم واحترامًا، ومن صيد الإحرام احترامًا للإحرام وإعظامًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٢﴾.

۝٢ يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: محرماته التي أمركم بتعظيمها وعدم فعلها؛ فالنهي يشمل النهي عن فعلها والنهي عن اعتقاد حلها؛ فهو يشمل النهي عن فعل القبيح وعن اعتقاده، ويدخل في ذلك النهي عن محرمات الإحرام ومحرمات الحرم، ويدخل في ذلك ما نص عليه بقوله: ﴿وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾؛ أي: لا تنتهكوه بالقتال فيه وغيره من أنواع الظلم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡ﴾ [التوبة: ٣٦].

والجمهور من العلماء على أن القتال في الأشهر الحرم منسوخ بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التوبة: ٥]، وغير ذلك من العمومات التي فيها الأمر بقتال الكفار مطلقًا والوعيد في التخلف عن قتالهم مطلقًا، وبأن النبي ﷺ قاتل أهل الطائف في ذي القعدة، وهو من الأشهر الحرم.

وقال آخرون: إن النهي عن القتال في الأشهر الحرم غير منسوخ لهذه الآية وغيرها مما فيه النهي عن ذلك بخصوصه،

وحملوا النصوص المطلقة الواردة على ذلك وقالوا: المطلق يحمل على المقيد. وفصل بعضهم فقال: لا يجوز ابتداء القتال في الأشهر الحرم، وأما استدامته وتكميله إذا كان أوله في غيرها؛ فإنه يجوز، وحملوا قتال النبي ﷺ لأهل الطائف على ذلك؛ لأن أول قتالهم في حنين في شوال.

وكل هذا في القتال الذي ليس المقصود منه الدفع، فأما قتال الدفع إذا ابتدأ الكفار المسلمين بالقتال؛ فإنه يجوز للمسلمين القتال دفعًا عن أنفسهم في الشهر الحرام وغيره بإجماع العلماء.

وقوله: ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾؛ أي: ولا تحلوا الهدي الذي يهدى إلى بيت الله في حج أو عمرة أو غيرهما من نعم وغيرها؛ فلا تصدوه عن الوصول إلى محله، ولا تأخذوه بسرقة أو غيرها، ولا تقصروا به أو تحملوه ما لا يطيق خوفًا من تلفه قبل وصوله إلى محله، بل عظموه وعظموا من جاء به. ﴿وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾: هذا نوع خاص من أنواع الهدي، وهو الهدي الذي يفتل له قلائد أو عُرًى، فيجعل في أعناقه؛ إظهارًا لشعائر الله، وحملًا للناس على الاقتداء، وتعليمًا لهم للسنة، وليعرف أنه هدي فيَحْرُم[1]، ولهذا كان تقليد الهدي من السنن والشعائر المسنونة.

﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾؛ أي: قاصدين له، ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾؛ أي: من قصد هذا البيت الحرام، وقصده فضل الله بالتجارة والمكاسب المباحة، أو قصده رضوان الله بحجه وعمرته والطواف به والصلاة وغيرها من أنواع العبادات؛ فلا تتعرضوا له بسوء ولا تهينوه، بل أكرموه وعظموا الوافدين الزائرين لبيت ربكم. ودخل في هذا الأمر الأمر بتأمين الطرق الموصلة إلى بيت الله، وجعل القاصدين له مطمئنين مستريحين غير خائفين على أنفسهم من القتل فما دونه ولا على أموالهم من المكس والنهب ونحو ذلك. وهذه الآية الكريمة مخصوصة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨]؛ فالمشرك لا يمكن من الدخول إلى الحرم. والتخصيص في هذه الآية بالنهي عن التعرض لمن قصد البيت ابتغاء فضل الله أو رضوانه يدل على أن من قصده ليلحد فيه بالمعاصي؛ فإن من تمام احترام الحرم صد من هذه حاله عن الإفساد ببيت الله؛ كما

(١) ع، ط: «فيحترم».

قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج: ٢٥].

ولما نهاهم عن الصيد في حال الإحرام؛ قال: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ﴾؛ أي: إذا حللتم من الإحرام بالحج والعمرة[2]، حل لكم الاصطياد، وزال ذلك التحريم، والأمر بعد التحريم يرد الأشياء إلى ما كانت عليه من قبل.

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ﴾؛ أي: لا يحملنكم بغض قوم وعداوتهم واعتداؤهم عليكم حيث صدوكم عن المسجد على الاعتداء عليهم طلبًا للاشتفاء منهم؛ فإن العبد عليه أن يلتزم أمر الله ويسلك طريق العدل، ولو جني عليه أو ظلم واعتدي عليه؛ فلا يحل له أن يكذب على من كذب عليه أو يخون من خانه.

﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾؛ أي: ليعن بعضكم بعضًا على البر، وهو اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال الظاهرة والباطنة من حقوق الله وحقوق الآدميين، والتقوى في هذا الموضع اسم جامع لترك كل ما يكرهه الله ورسوله من الأعمال الظاهرة والباطنة، وكل خصلة من خصال الخير المأمور بفعلها، أو خصلة من خصال الشر المأمور بتركها؛ فإن العبد مأمور بفعلها بنفسه وبمعاونة غيره عليها من إخوانه المؤمنين بكل قول يبعث عليها وينشِّط لها وبكل فعل كذلك. ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ﴾: وهو التجرؤ على المعاصي التي يأثم صاحبها ويُجرَّم[3]، ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾: وهو التعدي على الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم؛ فكل معصية وظلم يجب على العبد كف نفسه عنه، ثم إعانة غيره على تركه.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾: على من عصاه وتجرأ على محارمه؛ فاحذروا المحارم؛ لئلا يحل بكم عقابه العاجل والآجل.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾.

(٢) زاد في ع، ط: «وخرجتم من الحرم».
(٣) ع، ط: «ويحرج».

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ
بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ
ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟
بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ
فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ
عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى
مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾
يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم
مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ
عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ
﴿٤﴾ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ
لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ
مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ
مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ
بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾

(٣) هـذا الـذي حولنـا اللـه عليـه فـي قولـه: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾. واعلـم أن اللـه تبـارك وتعالـى لا يحـرم مـا يحرم إلا صيانـةً لعبـاده وحمايـةً لهـم مـن الضـرر الموجـود فـي المحرمـات، وقـد يبين للعبـاد ذلك وقـد لا يبيـن، فأخبر أنه حرم الميتة، والمراد بالميتة ما فقدت حياته بغير ذكاة شرعية؛ فإنهـا تَحْرُمُ لضررها، وهـو احتقان الدم فـي جوفها ولحمها المضر بآكلها، وكثيرًا ما تموت بعلة تكون سببًا لهلاكها فتضر بالآكل، ويستثنى من ذلك ميتة الجراد والسمك؛ فإنه حلال، ﴿وَٱلدَّمُ﴾؛ أي: المسفوح؛ كما قيد في الآية الأخرى، ﴿وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾: وذلك شـامل لجميع أجزائـه، وإنما نص الله عليه من بين سـائر الخبائث من السباع؛ لأن طائفة من أهل الكتاب مـن النصارى يزعمون أن الله أحله لهم؛ أي: فلا تغتروا بهم، بـل هو محرم من جملة الخبائـث، ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾؛ أي: ذكر عليه اسـم غير الله من الأصنام والأولياء والكواكب وغيـر ذلك مـن المخلوقين؛ فكمـا أن ذكر اللـه تعالى يطيب الذبيحة؛ فذكر اسم غيره عليها يفيدها خبثًا معنويًّا؛ لأنه شرك بالله تعالى، ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾؛ أي: الميتة بخنق بيد أو حبل أو إدخالها رأسـها بشـيء ضيق فتعجز عن إخراجه حتى تموت، ﴿وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾؛ أي: الميتة بسبب الضرب بعصا أو حصى أو خشبة أو هدم شيء عليها بقصد أو بغير قصد، ﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾؛ أي: الساقطة من علو؛ كجبل أو جدار أو سطح ونحوه فتموت بذلـك، ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾: وهـي التـي تنطحها غيرهـا فتموت، ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾: مـن ذئب أو أسـد أو نمـر أو من الطيور التي تفترس الصيود؛ فإنها إذا ماتت بسـبب أكل السـبع؛ فإنها لا تحـل. وقولـه: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾: راجع لهذه المسـائل من منخنقة وموقوذة ومتردية ونطيحة وأكيلة سبع إذا ذكيت وفيها حياة مسـتقرة لتتحقق الذكاة فيها. ولهـذا قال الفقهاء: لو أبان السـبع أو غيره حشـوتها أو قطع حلقومها؛ كان وجود حياتها كعدمهـا؛ لعدم فائدة الـذكاة فيها. وبعضهم لـم يعتبر فيها إلا وجـود الحياة؛ فإذا ذكاها وفيهـا حياة؛ حلت، ولو كانت مبانة الحشوة، وهو ظاهر الآية الكريمة.

﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾؛ أي: وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام، ومعنى الاستقسام طلب ما يقسم لكم ويقدر بها، وهي قداح ثلاثة كانت تستعمل فـي الجاهلية، مكتوب على أحدهـا افعـل، وعلى الثانـي لا تفعل، والثالـث غُفْلٌ لا كتابة فيه؛ فإذا هم أحدهم بسـفر أو عـرس أو نحوهما؛ أجال تلك القداح المتساوية في الجرم، ثم أخرج واحدًا منها؛ فإن خرج المكتـوب عليـه افعل؛ مضى فـي أمره، وإن ظهـر المكتوب عليه لا تفعل؛ لم يفعل ولم يمض في شـأنه، وإن ظهر الآخر الذي لا شيء عليه؛ أعادها حتى يخرج أحد القدحين فيعمل بـه، فحرمـه اللـه عليهم الـذي في هـذه الصورة وما يشـبهه، وعوضهم عنه بالاستخارة لربهم في جميع أمورهم.

﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾: الإشـارة لـكل مـا تقدم مـن المحرمات التـي حرمها اللـه صيانةً لعبـاده وأنها فسـق؛ أي: خروج عن طاعته إلى طاعة الشيطان.

ثم امتن على عباده بقوله:

﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

واليـوم المشـار إليه يوم عرفة؛ إذ أتم اللـه دينه ونصر عبده ورسـوله وانخـذل أهـل الشـرك انخـذالًا بليغًا بعدمـا كانوا

حريصين على رد المؤمنين عن دينهم طامعين في ذلك، فلما رأوا عز الإسلام وانتصاره وظهوره؛ يئسوا كل اليأس من المؤمنين أن يرجعوا إلى دينهم، وصاروا يخافون منهم ويخشون، ولهذا في هذه السنة التي حج فيها النبي ﷺ سنة عشر حجة الوداع لم يحج فيها مشرك ولم يطف بالبيت عريان. ولهذا قال: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾؛ أي: فلا تخشوا المشركين واخشوا الله الذي نصركم عليهم وخذلهم ورد كيدهم في نحورهم. ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾؛ بتمام النصر وتكميل الشرائع الظاهرة والباطنة الأصول والفروع.

ولهذا كان الكتاب والسنة كافيين كل الكفاية في أحكام الدين وأصوله وفروعه؛ فكل متكلف يزعم أنه لا بد للناس في معرفة عقائدهم وأحكامهم إلى علوم غير علم الكتاب والسنة من علم الكلام وغيره؛ فهو جاهل مبطل في دعواه، قد زعم أن الدين لا يكمل إلا بما قاله ودعا إليه، وهذا من أعظم الظلم والتجهيل لله ولرسوله، ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾: الظاهرة والباطنة، ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾؛ أي: اخترته واصطفيته لكم دينًا كما ارتضيتكم له؛ فقوموا به شكرًا لربكم واحمدوا الذي من عليكم بأفضل الأديان وأشرفها وأكملها، ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾؛ أي: ألجأته الضرورة إلى أكل شيء من المحرمات السابقة في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ ﴿فِى مَخْمَصَةٍ﴾؛ أي: مجاعة، ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ﴾؛ أي: مائل ﴿لِّإِثْمٍ﴾: بألَّا يأكل حتى يضطر، ولا يزيد في الأكل على كفايته. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ③﴾؛ حيث أباح له الأكل في هذه الحال، ورحمه بما يقيم به بنيته من غير نقص يلحقه في دينه.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ④﴾.

④ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾: من الأطعمة، ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾: وهي كل ما فيه نفع أو لذة من غير ضرر بالبدن ولا بالعقل، فدخل في ذلك جميع الحبوب والثمار التي في القرى والبراري، ودخل في ذلك جميع حيوانات البحر وجميع حيوانات البر؛ إلا ما استثناه الشارع كالسباع والخبائث منها. ولهذا دلت الآية بمفهومها على تحريم الخبائث؛ كما صرح به في قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾؛ أي: وأحل لكم ما علمتم من الجوارح... إلى آخر الآية.

دلت هذه الآية على أمور:

أحدها: لطف الله بعباده ورحمته لهم؛ حيث وسع عليهم طرق الحلال، وأباح لهم ما لم يذكوه مما صادته الجوارح، والمراد بالجوارح الكلاب والفهود والصقر ونحو ذلك مما يصيد بنابه أو بمخلبه.

الثاني: أنه يشترط أن تكون معلمة بما يعد في العرف تعليمًا؛ بأن يسترسل إذا أرسل، وينزجر إذا زجر، وإذا أمسك لم يأكل، ولهذا قال: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: أمسكن من الصيد لأجلكم، وما أكل منه الجارح؛ فإنه لا يعلم أنه أمسكه على صاحبه، ولعله أن يكون أمسكه على نفسه.

الثالث: اشتراط أن يجرحه الكلب أو الطير ونحوهما؛ لقوله: ﴿مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾؛ مع ما تقدم من تحريم المنخنقة؛ فلو خنقه الكلب أو غيره أو قتله بثقله؛ لم يبح، هذا بناء على أن الجوارح اللاتي يجرحن الصيد بأنيابها أو مخالبها، والمشهور أن الجوارح بمعنى الكواسب؛ أي: المحصلات للصيد والمدركات له، فلا يكون فيها على هذا دلالة. والله أعلم.

الرابع: جواز اقتناء كلب الصيد؛ كما ورد في الحديث الصحيح، مع أن اقتناء الكلب محرم؛ لأن من لازم إباحة صيده وتعليمه جواز اقتنائه.

الخامس: طهارة ما أصابه فم الكلب من الصيد؛ لأن الله أباحه ولم يذكر له غسلًا، فدل على طهارته.

السادس: فيه فضيلة العلم، وأن الجارح المعلم بسبب العلم يباح صيده، والجاهل بالتعليم لا يباح صيده.

السابع: أن الاشتغال بتعليم الكلب أو الطير أو نحوهما ليس مذمومًا وليس من العبث والباطل، بل هو أمر مقصود؛ لأنه وسيلة لحل صيده والانتفاع به.

الثامن: فيه حجة لمن أباح بيع كلب الصيد؛ قال: لأنه قد لا يحصل له إلا بذلك.

التاسع: فيه اشتراط التسمية عند إرسال الجارح، وأنه إن لم يسم الله متعمدًا؛ لم يبح ما قتل الجارح.

العاشر: أنه يجوز أكل ما صاده الجارح، سواء قتله الجارح أم لا، وأنه إن أدركه صاحبه وفيه حياة مستقرة؛ فإنه لا يباح إلا بها.

ثم حث تعالى على تقواه وحذر من إتيان الحساب في يوم القيامة، وأن ذلك أمر قد دنا واقترب، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝٤﴾.

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝٥﴾

۝٥ كرر تعالى إحلال الطيبات لبيان الامتنان، ودعوةً للعباد إلى شكره والإكثار من ذكره؛ حيث أباح لهم ما تدعوهم الحاجة إليه، ويحصل لهم الانتفاع به من الطيبات.

﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾؛ أي: ذبائح اليهود والنصارى حلال لكم يا معشر المسلمين دون باقي الكفار؛ فإن ذبائحهم لا تحل للمسلمين، وذلك لأن أهل الكتاب ينتسبون إلى الأنبياء والكتب، وقد اتفق الرسل كلهم على تحريم الذبح لغير الله؛ لأنه شرك؛ فاليهود والنصارى يتدينون بتحريم الذبح لغير الله؛ فلذلك أبيحت ذبائحهم دون غيرهم. والدليل على أن المراد بطعامهم ذبائحهم: أن الطعام الذي ليس من الذبائح؛ كالحبوب والثمار، ليس لأهل الكتاب فيه خصوصية، بل يباح ذلك، ولو كان من طعام غيرهم. وأيضًا؛ فإنه أضاف الطعام إليهم، فدل ذلك على أنه كان طعامًا بسبب ذبحهم، ولا يقال: إن ذلك للتمليك، وأن المراد الطعام الذي يملكون؛ لأن هذا لا يباح على وجه الغصب ولا من المسلمين. ﴿وَطَعَامُكُمْ﴾: أيها المسلمون، ﴿حِلٌّ لَهُمْ﴾؛ أي: يحل لكم أن تطعموهم إياه.

وأحل لكم المحصنات؛ أي: الحرائر العفيفات ﴿مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾؛ والحرائر العفيفات ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾؛ أي: من اليهود والنصارى، وهذا مخصص لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢١]، ومفهوم الآية أن الأرقاء من المؤمنات لا يباح نكاحهن للأحرار وهو كذلك، وأما الكتابيات فعلى كل حال لا يحن ولا يجوز نكاحهن للأحرار مطلقًا؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء: ٢٥]. وأما المسلمات إذا كن رقيقات؛ فإنه لا يجوز للأحرار نكاحهن إلا بشرطين: عدم الطول، وخوف العنت. وأما الفاجرات غير العفيفات عن الزنا؛ فلا يباح نكاحهن، سواء كن مسلمات أو كتابيات حتى يتبن؛ لقوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ [النور: ٣] الآية. وقوله: ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾؛ أي: أبحنا لكم نكاحهن إذا أعطيتموهن مهورهن؛ فمن عزم على ألَّا يؤتيها مهرها؛ فإنها لا تحل له، وأمر بإيتائها إذا كانت رشيدةً تصلح للإيتاء، وإلا أعطاه الزوج لوليها، وإضافة الأجور إليهن دليل على أن المرأة تملك جميع مهرها، وليس لأحد منه شيء؛ إلا ما سمحت به لزوجها أو وليها أو غيرهما. ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾؛ أي: حالة كونكم أيها الأزواج محصنين لنسائكم بسبب حفظكم لفروجكم عن غيرهن، ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾؛ أي: زانين مع كل أحد، ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾: وهو الزنا مع العشيقات؛ لأن الزناة في الجاهلية منهم من يزني مع مَنْ كان؛ فهذا المسافح، ومنهم من يزني مع خدنه ومحبه؛ فأخبر الله تعالى أن ذلك كله ينافي العفة، وأن شرط التزوج أن يكون الرجل عفيفًا عن الزنا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾؛ أي: ومن كفر بالله تعالى وما يجب الإيمان به من كتبه ورسله أو شيء من الشرائع؛ فقد حبط عمله؛ بشرط أن يموت على كفره؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٧]. ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝٥﴾؛ أي: الذين خسروا أنفسهم وأموالهم وأهليهم يوم القيامة، وحصلوا على الشقاوة الأبدية.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ

لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾.

(٦) هذه آية عظيمة قد اشتملت على أحكام كثيرة نذكر منها ما يسره الله وسهله:

أحدها: أن هذه المذكورات فيها امتثالها والعمل بها من لوازم الإيمان الذي لا يتم إلا به؛ لأنه صدرها بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ إلى آخرها؛ أي: يا أيها الذين آمنوا، اعملوا بمقتضى إيمانكم بما شرعناه لكم.

الثاني: الأمر بالقيام بالصلاة؛ لقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾.

الثالث: الأمر بالنية للصلاة؛ لقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾؛ أي: بقصدها ونيتها.

الرابع: اشتراط الطهارة لصحة الصلاة؛ لأن الله أمر بها عند القيام إليها، والأصل في الأمر الوجوب.

الخامس: أن الطهارة لا تجب بدخول الوقت، وإنما تجب عند إرادة الصلاة.

السادس: أن كل ما يطلق عليه اسم الصلاة من الفرض والنفل وفرض الكفاية وصلاة الجنازة تشترط له الطهارة، حتى السجود المجرد عند كثير من العلماء؛ كسجود التلاوة والشكر.

السابع: الأمر بغسل الوجه، وهو ما تحصل به المواجهة من منابت شعر الرأس المعتاد إلى ما انحدر من اللحيين والذقن طولًا ومن الأذن إلى الأذن عرضًا، ويدخل فيه المضمضة والاستنشاق بالسنة، ويدخل فيه الشعور التي فيه، لكن إن كانت خفيفة؛ فلا بد من إيصال الماء إلى البشرة، وإن كانت كثيفةً؛ اكتفي بظاهرها.

الثامن: الأمر بغسل اليدين، وأن حدهما إلى المرفقين، و﴿إِلَى ﴾ كما قال جمهور المفسرين بمعنى مع؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ﴾ [النساء: ٢]، ولأن الواجب لا يتم إلا بغسل جميع المرفق.

التاسع: الأمر بمسح الرأس.

العاشر: أنه يجب مسح جميعه؛ لأن الباء ليست للتبعيض، وإنما هي للملاصقة، وأنه يعم المسح بجميع الرأس.

الجزء السادس — سورة المائدة

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ
وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ
وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْۚ
وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ
أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا
فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ
لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ
وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾
وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم
بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ
ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ
شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ
أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ
ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾

١٠٨

الحادي عشر: أنه يكفي المسح كيفما كان بيديه أو إحداهما أو خرقة أو خشبة أو نحوهما؛ لأن الله أطلق المسح، ولم يقيده بصفة، فدل ذلك على إطلاقه.

الثاني عشر: أن الواجب المسح؛ فلو غسل رأسه ولم يُمِرَّ يده عليه؛ لم يكف؛ لأنه لم يأت بما أمر الله به.

الثالث عشر: الأمر بغسل الرجلين إلى الكعبين، ويقال فيهما ما يقال في اليدين.

الرابع عشر: فيها الرد على الرافضة على قراءة الجمهور بالنصب، وأنه لا يجوز مسحهما ما دامتا مكشوفتين.

الخامس عشر: فيه الإشارة إلى مسح الخفين على قراءة الجر في ﴿وَأَرْجُلَكُمْ ﴾، وتكون كل من القراءتين محمولةً على معنًى؛ فعلى قراءة النصب فيها غسلهما إن كانتا مكشوفتين، وعلى قراءة الجر فيها مسحهما إذا كانتا مستورتين بالخف.

السادس عشر: الأمر بالترتيب في الوضوء؛ لأن الله تعالى ذكرها مرتبةً؛ ولأنه أدخل ممسوحًا - وهو الرأس - بين مغسولين، ولا يعلم لذلك فائدة غير الترتيب.

السابع عشر: أن الترتيب مخصوص بالأعضاء الأربعة المسميات في هذه الآية، وأما الترتيب بين المضمضة والاستنشاق والوجه أو بين اليمنى واليسرى من اليدين والرجلين؛ فإن ذلك غير واجب، بل يستحب تقديم المضمضة والاستنشاق على غسل الوجه، وتقديم اليمنى على اليسرى من اليدين والرجلين، وتقديم مسح الرأس على مسح الأذنين.

الثامن عشر: الأمر بتجديد الوضوء عند كل صلاة؛ لتوجد صورة المأمور.

التاسع عشر: الأمر بالغسل من الجنابة.

العشرون: أنه يجب تعميم الغسل للبدن؛ لأن الله أضاف التطهر للبدن ولم يخصصه بشيء دون شيء.

الحادي والعشرون: الأمر بغسل ظاهر الشعر وباطنه في الجنابة.

الثاني والعشرون: أنه يندرج الحدث الأصغر في الحدث الأكبر، ويكفي من هما عليه أن ينوي ثم يعمم بدنه؛ لأن الله لم يذكر إلا التطهر، ولم يذكر أنه يعيد الوضوء.

الثالث والعشرون: أن الجنب يصدق على من أنزل المني يقظةً أو منامًا أو جامع ولو لم ينزل.

الرابع والعشرون: أن من ذكر أنه احتلم ولم يجد بللًا؛ فإنه لا غسل عليه؛ لأنه لم تتحقق منه الجنابة.

الخامس والعشرون: ذكر منة الله تعالى على العباد بمشروعيته التيمم.

السادس والعشرون: أن من أسباب جواز التيمم وجود المرض الذي يضره غسله بالماء فيجوز له التيمم.

السابع والعشرون[1]: أن من جملة أسباب جوازه؛ السفر والإتيان من البول والغائط إذا عدم الماء؛ فالمرض يجوز التيمم مع وجود الماء لحصول التضرر به، وباقيها يجوزه العدم للماء، ولو كان في الحضر.

الثامن والعشرون: أن الخارج من السبيلين من بول وغائط ينقض الوضوء.

التاسع والعشرون: استدل بها من قال: لا ينقض الوضوء إلا هذان الأمران؛ فلا ينتقض بلمس الفرج ولا بغيره.

الثلاثون: استحباب التكنية عما يستقذر التلفظ به؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾.

الحادي والثلاثون: أن لمس المرأة بلذة وشهوة ناقض للوضوء.

الثاني والثلاثون: اشتراط عدم الماء لصحة التيمم.

الثالث والثلاثون: أنه مع وجود الماء ولو في الصلاة يبطل التيمم؛ لأن الله إنما أباحه مع عدم الماء.

الرابع والثلاثون: أنه إذا دخل الوقت وليس معه ماء؛ فإنه يلزمه طلبه في رحله وفيما قرب منه؛ لأنه لا يقال: لم يجد لمن لم يطلب.

الخامس والثلاثون: أن من وجد ماء لا يكفي بعض طهارته؛ فإنه يلزمه استعماله ثم يتيمم بعد ذلك.

السادس والثلاثون: أن الماء المتغير بالطاهرات مقدم على التيمم؛ أي: يكون طهورًا؛ لأن الماء المتغير ماء، فيدخل في قوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً﴾.

السابع والثلاثون: أنه لا بد من نية التيمم؛ لقوله: ﴿فَتَيَمَّمُوا۟﴾؛ أي: اقصدوا.

الثامن والثلاثون: أنه يكفي التيمم بكل ما تصاعد على وجه الأرض من تراب وغيره، فيكون على هذا قوله: ﴿فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾: إما من باب التغليب وأن الغالب أن يكون له غبار يمسح منه ويعلق بالوجه واليدين، وإما أن يكون إرشادًا للأفضل، وأنه إذا أمكن التراب الذي فيه غبار فهو أولى.

التاسع والثلاثون: أنه لا يصح التيمم بالتراب النجس؛ لأنه لا يكون طيبًا، بل خبيثًا.

الأربعون: أنه يُمْسَحُ في التيمم الوجهُ واليدان فقط دون بقية الأعضاء.

(١) حدث سهو في الترقيم بدءًا من هذا الرقم حيث تكرر في الأصل، ع: «السادس والعشرون» وعليه فقد أثر هذا السهو في الترقيم بعده، ولكنا التزمنا الصواب بناء على هذا التنبيه.

الحادي والأربعون: أن قوله: ﴿بِوُجُوهِكُمْ﴾: شامل لجميع الوجه، وأنه يعمه بالمسح.

إلا أنه معفو عن إدخال التراب في الفم والأنف وفيما تحت الشعور ولو خفيفة.

الثاني والأربعون: أن اليدين تمسحان إلى الكوعين فقط، لأن اليدين عند الإطلاق كذلك؛ فلو كان يشترط إيصال المسح إلى الذراعين؛ لقيده الله بذلك؛ كما قيده في الوضوء.

الثالث والأربعون: أن الآية عامة في جواز التيمم لجميع الأحداث كلها؛ الحدث الأكبر والأصغر، بل ونجاسة البدن؛ لأن الله جعلها بدلًا عن طهارة الماء، وأطلق في الآية، فلم يقيد. وقد يقال: إن نجاسة البدن لا تدخل في حكم التيمم؛ لأن السياق في الأحداث، وهو قول جمهور العلماء.

الرابع والأربعون: أن محل التيمم في الحدث الأصغر والأكبر واحد، وهو الوجه واليدان.

الخامس والأربعون: أنه لو نوى من عليه حدثان التيمم عنهما؛ فإنه يجزئ؛ أخذًا من عموم الآية وإطلاقها.

السادس والأربعون: أنه يكفي المسح بأي شيء كان بيده أو غيرها؛ لأن الله قال: ﴿فَامْسَحُوا﴾، ولم يذكر الممسوح به، فدل على جوازه بكل شيء.

السابع والأربعون: اشتراط الترتيب في طهارة التيمم كما يُشْتَرَطُ ذلك في الوضوء، ولأن الله بدأ بمسح الوجه قبل مسح اليدين.

الثامن والأربعون: أن الله تعالى فيما شرعه لنا من الأحكام لم يجعل علينا في ذلك من حرج ولا مشقة ولا عسر، وإنما هو رحمة منه بعباده ليطهرهم وليتم نعمته عليهم، وهذا هو.

التاسع والأربعون: أن طهارة الظاهر بالماء والتراب تكميل لطهارة الباطن بالتوحيد والتوبة النصوح.

الخمسون: أن طهارة التيمم وإن لم يكن فيها نظافة وطهارة تُدْرَكُ بالحس والمشاهدة؛ فإن فيها طهارةً معنويةً ناشئةً عن امتثال أمر الله تعالى.

الحادي والخمسون: أنه ينبغي للعبد أن يتدبر الحِكَمَ والأسرار في شرائع الله في الطهارة وغيرها؛ ليزداد معرفةً وعلمًا ويزداد شكرًا لله ومحبةً له على ما شرع من الأحكام التي توصل العبد إلى المنازل العالية الرفيعة.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾.

﴿٧﴾ يأمر تعالى عباده بذكر نعمه الدينية والدنيوية بقلوبهم وألسنتهم؛ فإن في استدامة ذكرها داعيًا لشكر الله تعالى ومحبته وامتلاء القلب من إحسانه، وفيه زوال للعجب من النفس بالنعم الدينية وزيادة لفضل الله وإحسانه ﴿وَمِيثَاقَهُ﴾؛ أي: واذكروا ميثاقه ﴿الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ﴾؛ أي: عهده الذي أخذه عليكم، وليس المراد بذلك أنهم لفظوا ونطقوا بالعهد والميثاق، وإنما المراد بذلك أنهم بإيمانهم بالله ورسوله قد التزموا طاعتهما، ولهذا قال: ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾؛ أي: سمعنا ما دعوتنا به من آياتك القرآنية والكونية سمع فهم وإذعان وانقياد، وأطعنا ما أمرتنا به بالامتثال وما نهيتنا عنه بالاجتناب، وهذا شامل لجميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة، وأن المؤمنين يذكرون في ذلك عهد الله وميثاقه عليهم وتكون منهم على بال، ويحرصون على أداء ما أمروا به كاملًا غير ناقص، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: في جميع أحوالكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾؛ أي: ما تنطوي عليه من الأفكار والأسرار والخواطر؛ فاحذروا أن يطلع من قلوبكم على أمر لا يرضاه أو يصدر منكم ما يكرهه، واعمروا قلوبكم بمعرفته ومحبته والنصح لعباده؛ فإنكم إن كنتم كذلك غفر لكم السيئات، وضاعف لكم الحسنات لعلمه بصلاح قلوبكم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾

﴿٨﴾ أي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: بما أمروا بالإيمان به، قوموا بلازم إيمانكم، بأن تكونوا ﴿قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾: بأن تنشط للقيام بالقسط حركاتكم الظاهرة والباطنة، وأن يكون ذلك القيام لله وحده لا لغرض من الأغراض الدنيوية، وأن تكونوا قاصدين للقسط الذي هو العدل، لا الإفراط ولا التفريط في أقوالكم ولا أفعالكم،

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣﴾

وقوموا بذلك على القريب والبعيد والصديق والعدو. ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾؛ أي: يحملنكـم ﴿شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ﴾. أي: بغضهـم ﴿عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْ﴾؛ كما يفعله من لا عدل عنده ولا قسـط، بل كما تشهدون لوليكم؛ فاشهدوا عليه، وكما تشهدون على عدوكم؛ فاشـهدوا له، ولـو كان كافرًا أو مبتدعًـا؛ فإنه يجب العدل فيه وقبول ما يأتي به من الحق[1]؛ لا لأنه قاله، ولا يرد الحق لأجل قولـه؛ فإن هذا ظلم للحق. ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾؛ أي: كلمـا حرصتـم علـى العـدل واجتهدتـم في العمـل بـه؛ كان ذلك أقرب لتقـوى قلوبكم؛ فـإن تم العدل؛ كملـت التقـوى، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾﴾؛ فمجازيكم بأعمالكم خيرها وشرها، صغيرها وكبيرها جزاءً عاجلًا وآجلًا.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٠﴾﴾.

(١) زاد في ع، ط: «لأنه حق».

﴿٩﴾ أي: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ - الـذي لا يخلـف الميعـاد، وهو أصـدق القائلين - المؤمنين به وبكتبه ورسـله واليوم الآخر، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: من واجبات ومستحبات بالمغفرة لذنوبهـم بالعفو عنهـا وعن عواقبهـا وبالأجـر العظيم الذي لا يعلـم عظمـه إلا الله تعالـى؛ ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧].

﴿١٠﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: الدالـة علـى الحـق المبيـن، فكذبـوا بهـا بعدمـا أبانـت الحقائـق. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٠﴾﴾: الملازمون لها ملازمة الصاحب لصاحبه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿١١﴾ يذكِّـر تعالى عباده المؤمنيـن بنعمه العظيمة، ويحثهم على تذكرها بالقلب واللسـان، وأنهم كما أنهم يعدون قتلهم لأعدائهـم وأخـذ أموالهم وبلادهم وسـبيهم نعمـةً؛ فليعدوا أيضًـا إنعامـه عليهـم بكـف أيديهـم عنهـم ورد كيدهـم فـي نحورهـم نعمـةً؛ فـإن[2] الأعداء قـد هموا بأمـر، وظنوا أنهم قـادرون عليه؛ فإذا لم يدركوا بالمؤمنين مقصودهم فهو نصر من الله لعباده المؤمنين؛ ينبغي لهم أن يشكروا الله على ذلك ويعبدوه ويذكروه، وهذا يشمل كل من هم بالمؤمنين بشر من كافر ومنافق وباغ، كف الله شـره عن المسـلمين؛ فإنه داخل في هذه الآية. ثم أمرهم بما يستعينون به على الانتصار على عدوهـم وعلى جميـع أمورهـم، فقـال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾﴾؛ أي: يعتمدوا عليه في جلب مصالحهم الدينيـة والدنيوية، ويتبرءوا مـن حولهم وقوتهم، ويثقوا بالله تعالى في حصول ما يحبون، وعلى حسب إيمان العبد يكون توكله، وهو من واجبات القلب المتفق عليها.

﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ

(٢) ع، ط: «فإنهم».

عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿١٢﴾ يخبر تعالى أنه أخذ على بني إسرائيل الميثاق الثقيل المؤكد، وذكر صفة الميثاق وأجرهم إن قاموا به وإثمهم إن لم يقوموا به، ثم ذكر أنهم ما قاموا به، وذكر ما عاقبهم به، فقال: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾؛ أي: عهدهم المؤكد الغليظ، ﴿ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾؛ أي: رئيسًا وعريفًا على من تحته؛ ليكون ناظرًا عليهم حاثًّا لهم على القيام بما أمروا به مطالبًا يدعوهم، ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ ﴾: للنقباء الذين تحملوا من الأعباء ما تحملوا: ﴿ إِنِّى مَعَكُمْ ﴾؛ أي: بالعون والنصر؛ فإن المعونة بقدر المؤنة. ثم ذكر ما واثقهم عليه فقال: ﴿ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾: ظاهرًا وباطنًا بالإتيان بما يلزم وينبغي فيها والمداومة على ذلك، ﴿ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾: لمستحقيها، ﴿ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى ﴾: جميعهم، الذين أفضلهم وأكملهم محمد ﷺ. ﴿ وَعَزَّرْتُمُوهُمْ ﴾؛ أي: عظمتموهم، وأديتم ما يجب لهم من الاحترام والطاعة، ﴿ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾: وهو الصدقة والإحسان الصادر عن الصدق والإخلاص وطيب المكسب؛ فإذا قمتم بذلك ﴿ لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾: فجمع لهم بين حصول المحبوب بالجنة وما فيها من النعيم واندفاع المكروه بتكفير السيئات ودفع ما يترتب عليها من العقوبات. ﴿ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾: العهد والميثاق المؤكد بالأيمان والالتزامات، المقرون بالترغيب بذكر ثوابه، ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ ﴾؛ أي: عن عمد وعلم، فيستحق ما يستحقه الضالون من حرمان الثواب وحصول العقاب.

﴿١٣﴾ فكأنه قيل: ليت شعري! ماذا فعلوا؟ وهل وفوا بما عاهدوا الله عليه أم نكثوا؟ فبين أنهم نقضوا ذلك، فقال: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ ﴾؛ أي: بسببه عاقبناهم بعدة عقوبات:

الأولى: أنا ﴿ لَعَنَّٰهُمْ ﴾؛ أي: طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا، حيث أغلقوا على أنفسهم أبواب الرحمة، ولم يقوموا بالعهد الذي أخذ عليهم، الذي هو سببها الأعظم.

الثانية: قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾؛ أي: غليظة لا تجدي فيها المواعظ ولا تنفعها الآيات والنذر؛ فلا يرغبهم تشويق ولا يزعجهم تخويف، وهذا من أعظم العقوبات على العبد؛ أن يكون قلبه بهذه الصفة التي لا يفيده الهدى والخير إلا شرًّا.

الثالثة: أنهم ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾؛ أي: ابتلوا بالتغيير والتبديل، فيجعلون للكلم الذي أراد الله له[1] معنًى غير ما أراده الله ولا رسوله.

الرابعة: أنهم نسوا ﴿ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾؛ فإنهم ذكروا بالتوراة وبما أنزل الله على موسى فنسوا حظًّا منه، وهذا شامل لنسيان علمه، وأنهم نسوه وضاع عنهم ولم يوجد كثير مما أنساهم الله إياه عقوبةً منه لهم، وشامل لنسيان العمل الذي هو الترك، فلم يوفقوا للقيام بما أمروا به. ويستدل بهذا على أهل الكتاب بإنكارهم بعض الذي قد ذكر في كتابهم أو وقع في زمانهم أنه مما نسوه.

الخامسة: الخيانة المستمرة التي لا ﴿ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ ﴾؛ أي: خيانتهم[2] لله ولعباده المؤمنين. ومن أعظم الخيانة منهم كتمهم عمَّن يعظهم ويحسن فيهم الظن الحق، وإبقاؤهم على كفرهم؛ فهذه خيانة عظيمة.

وهذه الخصال الذميمة حاصلة لكل من اتصف بصفاتهم، فكل من لم يقم بما أمر الله به وأخذ به عليه الالتزام؛ كان له نصيب من اللعنة، وقسوة القلب، والابتلاء بتحريف الكلم، وأنه لا يوفق للصواب، ونسيان حظ مما ذكر به، وأنه لا بد أن يبتلى بالخيانة، نسأل الله العافية.

وسمى الله تعالى ما ذكروا به حظًّا؛ لأنه هو أعظم الحظوظ، وما عداه؛ فإنما هي حظوظ دنيوية؛ كما قال تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ [القصص: ٧٩]، وقال في الحظ النافع: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فصلت: ٣٥].

(١) ساقط من ع، ط.
(٢) ع، ط: «خيانة».

وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ
فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ
وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ
بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ
قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا
كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن
كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ
مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ
سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى
ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ
﴿١٦﴾ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ
ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ
أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي
ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ
وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾

وقولـه: ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡ﴾؛ أي: فإنهـم وفـوا بمـا عاهدوا اللـه عليـه، فوفقهـم وهداهـم للصراط المستقيم، ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡ﴾؛ أي: لا تؤاخذهـم بما يصدر منهم من الأذى الذي يقتضي أن يعفى عنهم، واصفح فإن ذلك من الإحسـان، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾: والإحسان هـو أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك، وفي حق المخلوقين بذل النفع الديني والدنيوي لهم.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٤﴾ أي: وكمـا أخذنـا مـن[1] اليهـود العهـد والميثـاق؛ فكذلـك أخذنا مـن ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾ لعيسـى ابـن مريم، وزكوا أنفسـهم بالإيمان بالله ورسـله، وما جاءوا به ونقضوا العهد، ﴿فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ نسيانًا علميًّـا ونسـيانًا عمليًّـا، ﴿فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: سـلطنا بعضهـم على بعض، وصار بينهـم من الشـرور والإحن مـا يقتضي بغض بعضهـم بعضًا ومعـاداة بعضهـم بعضًا إلى يـوم القيامة، وهذا أمر مشـاهد؛ فإن النصارى لم يزالوا ولا يزالون في بغض وعداوة وشقاق، ﴿وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾: فيعاقبهم عليه.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾﴾.

﴿١٥﴾ لمـا ذكـر تعالى مـا أخذه اللـه على أهـل الكتاب من اليهـود والنصارى، وأنهم نقضوا ذلك إلا قليلًا منهم؛ أمرهم جميعًـا أن يؤمنـوا بمحمـد ﷺ، واحتـج عليهـم بآيـة قاطعة دالـة علـى صحة نبوته، وهي أنـه يبين لهم كثيـرًا مما يخفون عـن النـاس، حتى عن العوام مـن أهل ملتهم؛ فـإذا كانوا هم المشـار إليهـم في العلم ولا علـم عند أحد فـي ذلك الوقت إلا مـا عندهـم؛ فالحريص على العلم لا سـبيل له إلى إدراكه إلا منهـم؛ فإتيان الرسـول ﷺ بهذا القـرآن العظيم الذي بين بـه ما كانـوا يتكاتمونه بينهم، وهو أمـي لا يقرأ ولا يكتب من أدل الدلائـل علـى القطع برسـالته، وذلك مثـل صفة محمد فـي كتبهـم، ووجود البشـائر به فـي كتبهم، وبيان آيـة الرجم ونحـو ذلـك، ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾؛ أي: يتـرك بيـان ما لا تقتضيه الحكمة.

﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ﴾: وهو القرآن يستضاء بـه فـي ظلمـات الجهالـة وعمايـة الضلالـة، ﴿وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾﴾: لـكل مـا يحتاج الخلق إليه مـن أمور دينهم ودنياهـم؛ مـن العلم باللـه وأسـمائه وصفاتـه وأفعاله، ومن العلم بأحكامه الشرعية وأحكامه الجزائية.

﴿١٦﴾ ثـم ذكر من الذي يهتدي بهذا القرآن، وما هو السبب - الـذي من العبد - لحصول ذلك، فقال: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ

(١) ع، ط: «على».

مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾؛ أي: يهدي من اجتهد وحرص على بلوغ مرضاة الله وصار قصده حسنًا سبل السلام التي يسلم صاحبها من العذاب وتوصله إلى دار السلام، وهو العلم بالحق والعمل به إجمالًا وتفصيلًا. ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ظلمات الكفر والبدعة والمعصية والجهل والغفلة، ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ نور الإيمان والسنة والطاعة والعلم والذكر، وكل هذه من الهداية بإذن الله الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾.

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٧﴾ لما ذكر تعالى أخذ الميثاق على أهل الكتابين وأنهم لم يقوموا به بل نقضوه؛ ذكر أقوالهم الشنيعة، فذكر قول النصارى، القول الذي ما قاله أحد غيرهم، بأن الله هو المسيح ابن مريم، ووجه شبهتهم أنه ولد من غير أب، فاعتقدوا فيه هذا الاعتقاد الباطل، مع أن حواء نظيره، خلقت بلا أم، وآدم أولى منه خلق بلا أب ولا أم؛ فهلا ادعوا فيهما الإلهية كما ادعوها في المسيح! فدل على أن قولهم اتباع هوى من غير برهان ولا شبهة، فرد الله عليهم بأدلة عقلية واضحة، فقال: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾؛ فإذا كان المذكورون لا امتناع عندهم يمنعهم لو أراد الله أن يهلكهم ولا قدرة لهم على ذلك؛ دل على بطلان إلهية من لا يمتنع من الإهلاك ولا في قوته شيء من الفكاك. ومن الأدلة أن لله وحده ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، يتصرف فيهن بحكمه الكوني والشرعي والجزائي، وهم مملوكون مدبرون؛ فهل يليق أن يكون المملوك العبد الفقير إلهًا معبودًا غنيًّا من كل

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾

وجه؟! هذا من أعظم المحال، ولا وجه لاستغرابهم لخلق المسيح عيسى ابن مريم من غير أب؛ فإن الله ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾: إن شاء من أب وأم كسائر بني آدم، وإن شاء من أب بلا أم كحواء، وإن شاء من أم بلا أب كعيسى، وإن شاء من غير أب ولا أم كآدم؛ فنوع خليقته تعالى بمشيئته النافذة التي لا يستعصي عليها شيء، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿١٨﴾ ومن مقالات اليهود والنصارى أن كلًّا منهما ادعى دعوى باطلة يزكون بها أنفسهم؛ بأن قال كل منهما: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾، والابن في لغتهم هو الحبيب، ولم يريدوا البنوة الحقيقية؛ فإن هذا ليس من مذهبهم؛ إلا مذهب النصارى في المسيح. قال الله ردًّا عليهم حيث ادعوا بلا برهان: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾: فلو كنتم أحبابه؛ ما عذبكم؛ لكون الله لا يحب إلا من قام بمراضيه. ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾: تجري عليكم أحكام العدل والفضل، ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾: إذا أتوا بأسباب

المغفرة أو أسباب العذاب، ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ١٨﴾؛ أي: فأي شيء خصكم بهذه الفضيلة وأنتم من جملة المماليك ومن جملة من يرجع إلى الله في الدار الآخرة فيجازيكم بأعمالكم.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٩﴾.

(١٩) يدعو تبارك وتعالى أهل الكتاب بسبب ما من عليهم من كتابه أن يؤمنوا برسوله محمد ﷺ ويشكروا الله تعالى الذي أرسله إليهم ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ وشدة حاجة إليه وهذا مما يدعو إلى الإيمان به وأنه يبين لهم جميع المطالب الإلهية والأحكام الشرعية، وقد قطع الله بذلك حجتهم؛ لئلا يقولوا: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾: يبشر بالثواب العاجل والآجل وبالأعمال الموجبة لذلك وصفة العاملين بها، وينذر بالعقاب العاجل والآجل بالأعمال الموجبة لذلك وصفة العاملين بها. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٩﴾: انقادت الأشياء طوعًا وإذعانًا لقدرته؛ فلا يستعصي عليه شيء منها، ومن قدرته أن أرسل الرسل وأنزل الكتب، وأنه يثيب من أطاعهم، ويعاقب من عصاهم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢٠ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ٢١ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ٢٢ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ٢٣ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَاۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِىۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ٢٥ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ أَرْبَعِينَ سَنَةًۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ٢٦﴾.

(٢٠) لما امتن الله على موسى وقومه بنجاتهم من فرعون وقومه وأسرهم واستعبادهم؛ ذهبوا قاصدين لأوطانهم ومساكنهم، وهي بيت المقدس وما حواليه، وقاربوا وصول بيت المقدس، وكان الله قد فرض عليهم جهاد عدوهم ليخرجوه من ديارهم، فوعظهم موسى عليه السلام وذكرهم ليقووا[1] على الجهاد، فقال: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: بقلوبكم وألسنتكم؛ فإن ذكرها داع إلى محبته تعالى ومنشط على العبادة، ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾: يدعونكم إلى الهدى ويحذرونكم من الردى، ويحثونكم على سعادتكم الأبدية، ويعلمونكم ما لم تكونوا تعلمون، ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾: تملكون أمركم بحيث إنه زال عنكم استعباد عدوكم لكم فكنتم تملكون أمركم، وتتمكنون من إقامة دينكم، ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾: من النعم الدينية والدنيوية ﴿مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢٠﴾: فإنهم - في ذلك الزمان - خيرة الخلق وأكرمهم على الله، وقد أنعم عليهم بنعم ما كانت لغيرهم، فذكرهم بالنعم الدينية والدنيوية، الداعي ذلك لإيمانهم وثباته، وثباتهم على الجهاد وإقدامهم عليه.

(٢١) ولهذا قال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾؛ أي: المطهرة ﴿ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾: فأخبرهم خبرًا تطمئن به أنفسهم إن كانوا مؤمنين مصدقين بخبر الله، وأنه قد كتب الله لهم دخولها وانتصارهم على عدوهم، ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا۟﴾؛ أي: ترجعوا ﴿عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ٢١﴾: قد خسرتم دنياكم بما فاتكم من النصر على الأعداء وفتح بلادكم، وآخرتكم بما فاتكم من الثواب وما استحققتم بمعصيتكم من العقاب.

(٢٢) فقالوا قولًا يدل على ضعف قلوبهم وخور نفوسهم وعدم اهتمامهم بأمر الله ورسوله: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾: شديدي القوة والشجاعة؛ أي: فهذا من الموانع لنا من دخولها، ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ٢٢﴾: وهذا من الجبن وقلة اليقين، و إلا؛ فلو كان معهم رشدهم؛ لعلموا أنهم كلهم من بني آدم، وأن القوي من أعانه الله بقوة من عنده؛ فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، ولعلموا أنهم سينصرون عليهم إذ وعدهم الله بذلك وعدًا خاصا.

(١) ع، ط: «ليقدموا».

﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ الله تعالى؛ مشجعين لقومهم، منهضين لهم على قتال عدوهم واحتلال بلادهم ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾: بالتوفيق وكلمة الحق في هذا الموطن المحتاج إلى مثل كلامهم، وأنعم عليهم بالصبر واليقين، ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ ﴾؛ أي: ليس بينكم وبين نصركم عليهم إلا أن تجزموا عليهم وتدخلوا عليهم الباب؛ فإذا دخلتموه عليهم؛ فإنهم سينهزمون. ثم أمراهم بعدة هي أقوى العدد، فقالا: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾: فإن في التوكل على الله، وخصوصًا في هذا الموطن، تيسيرًا للأمر ونصرًا على الأعداء. ودل هذا على وجوب التوكل، وعلى أنه بحسب إيمان العبد يكون توكله.

﴿٢٤﴾ فلم ينجع فيهم هذا الكلام، ولا نفع فيهم الملام، فقالوا قول الأذلين: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾: فما أشنع هذا الكلام منهم، ومواجهتهم لنبيهم فيه في هذا المقام الحرج الضيق، الذي قد دعت الحاجة والضرورة إلى نصرة نبيهم وإعزاز أنفسهم! وبهذا وأمثاله يظهر التفاوت بين سائر الأمم وأمة محمد ﷺ؛ حيث قال الصحابة لرسول الله ﷺ حين شاورهم في القتال يوم بدر، مع أنه لم يحتم عليهم: يا رسول الله! لو خضت بنا هذا البحر؛ لخضناه معك، ولو بلغت بنا برك الغماد؛ ما تخلف عنك أحد، ولا نقول كما قال قوم موسى لموسى اذهب: ﴿أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون من بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن يسارك[1].

﴿٢٥﴾ فلما رأى موسى عليه السلام عتوهم عليه؛ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ﴾؛ أي: فلا يدان لنا بقتالهم ولست بجبار على هؤلاء، ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾؛ أي: احكم بيننا وبينهم بأن تنزل فيهم من العقوبة ما اقتضته حكمتك. ودل ذلك على أن قولهم وفعلهم من الكبائر العظيمة الموجبة للفسق.

﴿٢٦﴾ ﴿قَالَ ﴾ الله مجيبًا لدعوة موسى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي: إن من

(١) البخاري (٣٩٥٢).

قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ ﴿٣١﴾

عقوبتهم أن نحرم عليهم دخول هذه القرية التي كتبها الله لهم مدة أربعين سنةً، وتلك المدة أيضًا يتيهون في الأرض، لا يهتدون إلى طريق ولا يبقون مطمئنين. وهذه عقوبة دنيوية؛ لعل الله تعالى كفر بها عنهم ودفع عنهم عقوبةً أعظم منها. وفي هذا دليل على أن العقوبة على الذنب قد تكون بزوال نعمة موجودة أو دفع نعمة قد انعقد سبب وجودها، أو تأخرها إلى وقت آخر، ولعل الحكمة في هذه المدة أن يموت أكثر هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة الصادرة عن قلوب لا صبر فيها ولا ثبات، بل قد ألفت الاستعباد لعدوها ولم تكن لها همم ترقيها إلى ما فيه ارتقاؤها وعلوها، ولتظهر ناشئة جديدة تتربى عقولهم على طلب قهر الأعداء وعدم الاستعباد والذل المانع من السعادة. ولما علم الله تعالى أن عبده موسى في غاية الرحمة على الخلق خصوصًا قومه، وأنه ربما رق لهم واحتملته الشفقة على الحزن عليهم في هذه العقوبة أو الدعاء لهم بزوالها، مع أن الله قد حتمها؛ قال: ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾؛ أي: لا تأسف عليهم ولا تحزن؛ فإنهم قد فسقوا، وفسقهم اقتضى وقوع ما نزل بهم لا ظلمًا منا.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿٢٧﴾ أي: قص على الناس وأخبرهم بالقضية التي جرت على ابني آدم بالحق تلاوة يعتبر بها المعتبرون صدقًا لا كذبًا وجدًّا لا لعبًا. والظاهر أن ابني آدم هما ابناه لصلبه؛ كما يدل عليه ظاهر الآية والسياق، وهو قول جمهور المفسرين؛ أي: اتل عليهم نبأهما في حال تقريبهما للقربان الذي أداهما إلى الحال المذكورة، ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾؛ أي: أخرج كل منهما شيئًا من ماله لقصد التقرب إلى الله، ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾: بأن علم ذلك بخبر من السماء أو بالعادة السابقة في الأمم أن علامة تقبل الله للقربان أن تنزل نار من السماء فتحرقه. ﴿قَالَ﴾ الابن الذي لم يتقبل منه للآخر حسدًا وبغيًا: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ فقال له الآخر مترفقًا له في ذلك: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾؛ فأي ذنب لي وجناية توجب لك أن تقتلني إلا أني اتقيت الله تعالى الذي تقواه واجبة علي وعليك وعلى كل أحد. وأصح الأقوال في تفسير ﴿الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ هنا؛ أي: المتقين لله في ذلك العمل؛ بأن يكون عملهم خالصًا لوجه الله، متبعين فيه لسنة رسول الله ﷺ.

﴿٢٨﴾ ثم قال له مخبرًا أنه لا يريد أن يتعرض لقتله لا ابتداءً ولا مدافعةً، فقال: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾، وليس ذلك جبنًا مني ولا عجزًا، وإنما ذلك لأني ﴿أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾، والخائف لله لا يقوم[1] على الذنوب، خصوصًا الذنوب الكبار. وفي هذا تخويف لمن يريد القتل، وأنه ينبغي لك أن تتقي الله وتخافه.

(١) ع، ط: «يقدم».

﴿٢٩﴾ ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ﴾؛ أي: ترجع ﴿بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾؛ أي: إنه إذا دار الأمر بين أن أكون قاتلًا أو تقتلني؛ فإني أوثر أن تقتلني فتبوء بالوزرين، ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾: دل هذا على أن القتل من كبائر الذنوب، وأنه موجب لدخول النار.

﴿٣٠﴾ فلم يرتدع ذلك الجاني، ولم ينزجر، ولم يزل يعزم نفسه ويجزمها، حتى طوعت له قتل أخيه الذي يقتضي الشرع والطبع احترامه، ﴿فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾: دنياهم وآخرتهم، وأصبح قد سن هذه السنة لكل قاتل، ومن سن سنةً سيئةً؛ فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، ولهذا ورد في الحديث الصحيح: أنه «**ما من نفس تقتل؛ إلا كان على ابن**[2] **آدم الأول شطر من دمها؛ لأنه أول من سن القتل**»[3].

﴿٣١﴾ فلما قتل أخاه؛ لم يدر كيف يصنع به؛ لأنه أول ميت مات من بني آدم، ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: يثيرها ليدفن غرابًا آخر ميتًا. ﴿لِيُرِيَهُ﴾: بذلك ﴿كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾؛ أي: بدنه؛ لأن بدن الميت يكون عورةً، ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾﴾: وهكذا عاقبة المعاصي الندامة والخسارة.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿٣٢﴾ يقول تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ﴾: الذي ذكرناه في قصة ابني آدم وقتل أحدهما أخاه وسنه القتل لمن بعده وأن القتل عاقبته وخيمة وخسار في الدنيا والآخرة؛ ﴿كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: أهل الكتب السماوية ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: بغير حق ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾؛ لأنه ليس معه داع يدعوه إلى التبيين وأنه لا يقدم على القتل إلا بحق، فلما تجرأ على قتل النفس التي لم تستحق القتل؛ علم أنه لا فرق عنده بين هذا المقتول وبين غيره، وإنما ذلك بحسب ما تدعوه إليه نفسه الأمارة

(٢) الأصل: «ابني».
(٣) البخاري (٣٣٣٥)، مسلم (١٦٧٧).

مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾

بالسوء، فتجرؤه على قتله كأنه قتل الناس جميعًا، وكذلك من أحيا نفسًا؛ أي: استبقى أحدًا فلم يقتله مع دعاء نفسه له إلى قتله، فمنعه خوف الله تعالى من قتله؛ فهذا كأنه أحيا الناس جميعًا؛ لأن ما معه من الخوف يمنعه من قتل من لا يستحق القتل. ودلت الآية على أن القتل يجوز بأحد أمرين: إما أن يقتل نفسًا بغير حق متعمدًا في ذلك؛ فإنه يحل قتله إن كان مكلفًا مكافئًا ليس بوالد للمقتول، وإما أن يكون مفسدًا في الأرض بإفساده لأديان الناس أو أبدانهم أو أموالهم؛ كالكفار المرتدين والمحاربين والدعاة إلى البدع الذين لا ينكف شرهم إلا بالقتل، وكذلك قطاع الطريق ونحوهم ممن يصول على الناس لقتلهم أو أخذ أموالهم. ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: التي لا يبقى معها حجة لأحد، ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾؛ أي: من الناس ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾: البيان القاطع للحجة، الموجب للاستقامة في الأرض ﴿لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾: في العمل بالمعاصي ومخالفة الرسل الذين جاءوا بالبينات والحجج.

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿٣٣﴾ المحاربون لله ورسوله هم الذين بارزوه بالعداوة وأفسدوا في الأرض بالكفر والقتل وأخذ الأموال وإخافة السبل، والمشهور أن هذه الآية الكريمة في أحكام قطاع الطريق الذين يعرضون للناس في القرى والبوادي فيغصبونهم أموالهم ويقتلونهم ويخيفونهم، فيمتنع الناس من سلوك الطريق التي هم بها، فتنقطع بذلك. فأخبر الله أن جزاءهم ونكالهم عند إقامة الحد عليهم أن يفعل بهم واحد من هذه الأمور.

واختلف المفسرون هل ذلك على التخيير، وأن كل قاطع طريق يفعل به الإمام أو نائبه ما رآه المصلحة من هذه الأمور المذكورة، وهذا ظاهر اللفظ، أو أن عقوبتهم تكون بحسب جرائمهم؛ فكل جريمة لها قسط يقابلها؛ كما تدل عليه الآية بحكمتها وموافقتها لحكمة الله تعالى، وأنهم إن قتلوا وأخذوا مالًا؛ تحتم قتلهم وصلبهم، حتى يشتهروا ويختزوا ويرتدع غيرهم، وإن قتلوا ولم يأخذوا مالًا؛ تحتم قتلهم فقط، وإن أخذوا مالًا ولم يقتلوا؛ تحتم أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف؛ اليد اليمنى، والرجل اليسرى، وإن أخافوا الناس، ولم يقتلوا، ولا أخذوا مالًا؛ نفوا من الأرض، فلا يتركون يأوون في بلد حتى تظهر توبتهم. وهذا قول ابن عباس رضي الله عنه وكثير من الأئمة على اختلاف في بعض التفاصيل. ﴿ذَٰلِكَ﴾ النكال ﴿لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: فضيحة وعار، ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾: فدل هذا أن قطع الطريق من أعظم الذنوب، موجب لفضيحة الدنيا وعذاب الآخرة، وأن فاعله محارب لله ولرسوله. وإذا كان هذا شأن عظم هذه الجريمة؛ علم أن تطهير الأرض من المفسدين وتأمين السبل والطرق عن القتل وأخذ الأموال وإخافة الناس من أعظم الحسنات وأجل الطاعات، وأنه إصلاح في الأرض؛ كما أن ضده إفساد في الأرض.

يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا
وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ
أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ
عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ
وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ
لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ
قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ
هَادُواْ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ
ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ
يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ
وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا
أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى
ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

﴿٣٤﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: من هؤلاء المحاربين. ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾؛ أي: فيسقط عنه ما كان لله من تحتم القتل والصلب والقطع والنفي ومن حق الآدمي أيضًا إن كان المحارب كافرًا ثم أسلم؛ فإن كان المحارب مسلمًا فإن حق الآدمي لا يسقط عنه من القتل وأخذ المال، ودل مفهوم الآية على أن توبة المحارب بعد القدرة عليه أنها لا تسقط عنه شيئًا، والحكمة في ذلك ظاهرة، وإذا كانت التوبة قبل القدرة عليه تمنع من إقامة الحد في الحرابة؛ فغيرها من الحدود إذا تاب من فعلها قبل القدرة عليه من باب أولى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٣٥﴾ هذا أمر من الله لعباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان من تقوى الله والحذر من سخطه وغضبه، وذلك بأن يجتهد العبد ويبذل غاية ما يمكنه من المقدور في اجتناب ما يسخطه الله من معاصي القلب واللسان والجوارح الظاهرة والباطنة، ويستعين بالله على تركها لينجو بذلك من سخط الله وعذابه. ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾؛ أي: القرب منه والحظوة لديه والحب له، وذلك بأداء فرائضه القلبية كالحب له وفيه، والخوف والرجاء والإنابة والتوكل، والبدنية كالزكاة والحج، والمركبة من ذلك كالصلاة ونحوها من أنواع القراءة والذكر، ومن أنواع الإحسان إلى الخلق بالمال والعلم والجاه والبدن والنصح لعباد الله؛ فكل هذه الأعمال تقرب إلى الله، ولا يزال العبد يتقرب بها إلى الله حتى يحبه؛ فإذا أحبه؛ كان سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ويستجيب الله له الدعاء.

ثم خص تبارك وتعالى من العبادات المقربة إليه الجهاد في سبيله، وهو بذل الجهد في قتال الكافرين بالمال والنفس والرأي واللسان والسعي في نصر دين الله بكل ما يقدر عليه العبد؛ لأن هذا النوع من أجل الطاعات وأفضل القربات، ولأن من قام به؛ فهو على القيام بغيره أحرى وأولى، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾: إذا اتقيتم الله بترك المعاصي، وابتغيتم الوسيلة إلى الله بفعل الطاعات، وجاهدتم في سبيله ابتغاء مرضاته. والفلاح هو الفوز والظفر بكل مطلوب مرغوب والنجاة من كل مرهوب؛ فحقيقته السعادة الأبدية والنعيم المقيم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿٣٦﴾، ﴿٣٧﴾ يخبر تعالى عن شناعة حال الكافرين بالله يوم القيامة وما لهم من العذاب[1] الفظيع، وأنهم لو افتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهبًا، ومثله معه ما تقبل منهم ولا أفاد؛ لأن محل الافتداء قد فات ولم يبق إلا العذاب الأليم الموجع الدائم الذي لا يخرجون منه أبدًا، بل هم ماكثون فيه سرمدًا.

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ

(١) عبارة: «وما لهم من العذاب» وردت في ع، ط: «ومآلهم».

رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

﴿٣٨﴾ السارق: هو من أخذ مال غيره المحترم خفية بغير رضاه، وهو من كبائر الذنوب الموجبة لترتب العقوبة الشنيعة، وهو قطع اليد اليمنى؛ كما هو في قراءة بعض الصحابة، وحد اليد عند الإطلاق من الكوع؛ فإذا سرق؛ قطعت يده من الكوع وحسمت في زيت لتنسد العروق فيقف الدم. ولكن السنة قيدت عموم هذه الآية من عدة أوجه: منها الحرز؛ فإنه لا بد أن تكون السرقة من حرز، وحرز كل مال ما يحفظ به عادة؛ فلو سرق من غير حرز؛ فلا قطع عليه. ومنها: أنه لا بد أن يكون المسروق نصابًا، وهو ربع دينار أو ثلاثة دراهم أو ما يساوي أحدهما؛ فلو سرق دون ذلك فلا قطع عليه، ولعل هذا يؤخذ من لفظ السرقة ومعناها؛ فإن لفظ السرقة أخذ الشيء على وجه لا يمكن الاحتراز منه، وذلك أن يكون المال محرزًا؛ فلو كان غير محرز؛ لم يكن ذلك سرقة شرعية.

ومن الحكمة أيضًا ألَّا تقطع اليد في الشيء النزر التافه، فلما كان لا بد من التقدير؛ كان التقدير الشرعي مخصصًا للكتاب. والحكمة في قطع اليد في السرقة: أن ذلك حفظ للأموال واحتياط لها وليقطع العضو الذي صدرت منه الجناية. فإن عاد السارق؛ قطعت رجله اليسرى، فإن عاد؛ فقيل: تقطع يده اليسرى ثم رجله اليمنى. وقيل: يحبس حتى يموت.

وقوله: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا﴾؛ أي: ذلك القطع جزاء للسارق بما سرقه من أموال الناس ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: تنكيلًا وترهيبًا للسارق ولغيره؛ ليرتدع السراق إذا علموا أنهم سيقطعون إذا سرقوا. ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾؛ أي: عز وحكم فقطع السارق.

﴿٣٩﴾ ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾: فيغفر لمن تاب، فترك الذنوب، وأصلح الأعمال والعيوب.

﴿٤٠﴾ وذلك أن الله له ملك السماوات والأرض؛ يتصرف فيهما بما شاء من التصاريف القدرية والشرعية والمغفرة والعقوبة؛ بحسب ما اقتضته حكمته ورحمته الواسعة ومغفرته.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿٤١﴾ كان الرسول ﷺ من شدة حرصه على الخلق يشتد حزنه لمن يظهر الإيمان ثم يرجع إلى الكفر، فأرشده الله تعالى إلى أنه لا يأسى ولا يحزن على أمثال هؤلاء؛ فإن هؤلاء لا في العير ولا في النفير؛ إن حضروا؛ لم ينفعوا، وإن غابوا؛ لم يفقدوا، ولهذا قال مبينًا للسبب الموجب لعدم الحزن عليهم، فقال: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾؛ فإن الذين يؤسى ويحزن عليهم من كان معدودًا من المؤمنين، وهم المؤمنون ظاهرًا وباطنًا، وحاشا لله أن يرجع هؤلاء عن دينهم ويرتدوا؛ فإن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب؛ لم يعدل به صاحبه غيره ولم يبغ به بدلًا. ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾؛ أي: اليهود، ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾؛ أي: مستجيبون ومقلدون لرؤسائهم المبني أمرهم على الكذب والضلال والغي. وهؤلاء الرؤساء المتبوعون ﴿لَمْ يَأْتُوكَ﴾، بل أعرضوا عنك وفرحوا بما عندهم من الباطل. ﴿يُحَرِّفُونَ

سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ
فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن
يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ
ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ
وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا
هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ
هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ
ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ
وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم
بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ
فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ
بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ
قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن
لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾

ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ﴾؛ أي: يجلبون معاني[1] للألفاظ ما أرادها الله، ولا قصدها؛ لإضلال الخلق ولدفع الحق؛ فهؤلاء المنقادون للدعاة إلى الضلال المتبعين للمحال الذين يأتون بكل كذب لا عقول لهم ولا همم؛ فلا تبال أيضًا إذا لم يتبعوك؛ لأنهم في غاية النقص، والناقص لا يؤبه له ولا يبالى به. ﴿ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ﴾؛ أي: هذا قولهم عند محاكمتهم إليك، لا قصد لهم إلا اتباع الهوى، يقول بعضهم لبعض: إن حكم لكم محمد بهذا الحكم الذي يوافق هواكم؛ فاقبلوا حكمه، وإن لم يحكم لكم به؛ فاحذروا أن تتابعوه على ذلك، وهذا فتنة واتباع ما تهوى الأنفس. ﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾؛ كقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦]، ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾؛ أي: فلذلك صدر منهم ما صدر.

فدل ذلك على أن من كان مقصوده بالتحاكم إلى الحكم الشرعي اتباع هواه، وأنه إن حكم له رضي، وإن لم يحكم له سخط؛ فإن ذلك من عدم طهارة قلبه؛ كما أن من حاكم وتحاكم إلى الشرع، ورضي به وافق هواه أو خالفه؛ فإنه من طهارة القلب، ودل على أن طهارة القلب سبب لكل خير، وهو أكبر داع إلى كل قول رشيد وعمل سديد. ﴿ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ﴾؛ أي: فضيحة وعار، ﴿ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾: هو النار وسخط الجبار.

﴿٤٢﴾ ﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾: والسمع ههنا سمع استجابة؛ أي: من قلة دينهم وعقلهم أن استجابوا لمن دعاهم إلى القول الكذب، ﴿ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ﴾؛ أي: المال الحرام بما يأخذونه على سفلتهم وعوامهم من المعلومات والرواتب التي بغير الحق، فجمعوا بين اتباع الكذب وأكل الحرام. ﴿ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾؛ فأنت مخير في ذلك، وليست هذه منسوخة؛ فإنه عند تحاكم هذا الصنف إليه يخير بين أن يحكم بينهم أو يعرض عن الحكم بينهم؛ بسبب أنه لا قصد لهم في الحكم الشرعي إلا أن يكون موافقًا لأهوائهم.

وعلى هذا؛ فكل مستفت ومتحاكم إلى عالم يعلم من حاله أنه إن حكم عليه لم يرض؛ لم يجب الحكم ولا الإفتاء لهم؛ فإن حكم بينهم؛ وجب أن يحكم بالقسط. ولهذا قال: ﴿ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾: حتى ولو كانوا ظلمةً وأعداءً؛ فلا يمنعك ذلك من العدل في الحكم بينهم: وفي هذا بيان فضيلة العدل والقسط في الحكم بين الناس، وأن الله تعالى يحبه.

﴿٤٣﴾ ثم قال متعجبًا منهم: ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾؛ فإنهم لو كانوا مؤمنين عاملين بما يقتضيه الإيمان ويوجبه؛ لم يصدفوا عن حكم الله الذي في التوراة التي بين أيديهم إلا لعلهم أن يجدوا عندك ما يوافق أهواءهم، وحين حكمت بينهم بحكم الله الموافق لما عندهم أيضًا؛ لم يرضوا بذلك، بل أعرضوا عنه، فلم يرتضوه أيضًا. قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾: الذين هذا صنيعهم، بمؤمنين؛ أي: ليس هذا دأب المؤمنين، وليسوا حريين بالإيمان؛ لأنهم جعلوا آلهتهم أهواءهم، وجعلوا أحكام الإيمان تابعةً لأهوائهم.

(١) عبارة: «﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ﴾؛ أي: يجلبون معاني» وردت في ع، ط: «وهو تحريف الكلم عن مواضعه؛ أي: جلب معانٍ».

﴿٤٤﴾ ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾: على موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام ﴿فِيهَا هُدٗى﴾: يهدي إلى الإيمان والحق ويعصم من الضلالة، ﴿وَنُورٞ﴾ يستضاء به في ظلم الجهل والحيرة والشكوك والشبهات والشهوات؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء: ٤٨]، ﴿يَحۡكُمُ بِهَا﴾ - بين الذين هادوا؛ أي: اليهود، في القضايا والفتاوى - ﴿ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ﴾ لله وانقادوا لأوامره، الذين إسلامهم أعظم من إسلام غيرهم، وهم صفوة الله من العباد؛ فإذا كان هؤلاء النبيون الكرام والسادة للأنام، قد اقتدوا بها، وائتموا، ومشوا خلفها؛ فما الذي منع هؤلاء الأراذل من اليهود من الاقتداء بها؟! وما الذي أوجب لهم أن ينبذوا أشرف ما فيها من الإيمان بمحمد ﷺ الذي لا يقبل عمل ظاهر وباطن إلا بتلك العقيدة؟! هل لهم إمام في ذلك؟! نعم؛ لهم أئمة دأبهم التحريف وإقامة رياستهم ومناصبهم بين الناس والتأكل بكتمان الحق وإظهار الباطل، أولئك أئمة الضلال الذين يدعون إلى النار. وقوله: ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ﴾؛ أي: وكذلك يحكم بالتوراة للذين هادوا أئمة الدين من الربانيين؛ أي: العلماء العاملين المعلمين، الذين يربون الناس بأحسن تربية، ويسلكون معهم مسلك الأنبياء المشفقين، والأحبار؛ أي: العلماء الكبار الذين يقتدى بأقوالهم وترمق آثارهم ولهم لسان الصدق بين أممهم.

وذلك الحكم الصادر منهم الموافق للحق ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَ﴾؛ أي: بسبب أن الله استحفظهم على كتابه، وجعلهم أمناء عليه، وهو أمانة عندهم، أوجب عليهم حفظه من الزيادة والنقصان والكتمان وتعليمه لمن لا يعلمه، وهم شهداء عليه بحيث إنهم المرجوع إليهم فيه وفيما اشتبه على الناس منه؛ فالله تعالى قد حمَّل أهل العلم ما لم يحمله الجهال، فيجب عليهم القيام بأعباء ما حملوا، وألَّا يقتدوا بالجهال في الإخلاد إلى البطالة والكسل، وألَّا يقتصروا على مجرد العبادات القاصرة من أنواع الذكر والصلاة والزكاة والحج والصوم ونحو ذلك من الأمور التي إذا قام بها غير أهل العلم؛ سلموا ونجوا، وأما أهل العلم؛ فكما أنهم مطالبون بالقيام بما عليهم أنفسهم فإنهم مطالبون أن يعلموا الناس، وينبهوهم على ما يحتاجون إليه من أمور دينهم، خصوصًا الأمور الأصولية، والتي يكثر وقوعها، وألَّا يخشوا الناس، بل يخشون ربهم، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾؛ فتكتموا الحق، وتظهروا الباطل لأجل متاع الدنيا القليل.

وهذه الآفات إذا سلم منها العالم؛ فهو من توفيقه وسعادته؛ بأن يكون همه الاجتهاد في العلم والتعليم، ويعلم أن الله قد استحفظه بما أودعه من العلم واستشهده عليه، وأن يكون خائفًا من ربه، ولا يمنعه خوف الناس وخشيتهم من القيام بما هو لازم له، وألَّا يؤثر الدنيا على الدين؛ كما أن علامة شقاوة العالم أن يكون مخلدًا للبطالة، غير قائم بما أمر به، ولا مبالٍ بما استحفظ عليه، قد أهمله وأضاعه، قد باع الدين بالدنيا، قد ارتشى في أحكامه، وأخذ المال على فتاويه، ولم يُعَلِّم عباد الله إلا بأجرة وجعالة؛ فهذا قد مَنَّ الله عليه بمنة عظيمة كَفَرَها، ودفع حظًّا جسيمًا حُرِمَ[1] منه غيره، فنسألك اللهم علمًا نافعًا وعملًا متقبلًا، وأن ترزقنا العفو والعافية من كل بلاء يا كريم.

﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: من الحق المبين، وحكم بالباطل الذي يعلمه لغرض من أغراضه الفاسدة؛ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾: فالحكم بغير ما أنزل الله، من أعمال أهل الكفر، وقد يكون كفرًا يَنْقُل عن الملة، وذلك إذا اعتقد حله وجوازه، وقد يكون كبيرةً من كبائر الذنوب، ومن أعمال الكفر؛ قد استحق مَنْ فعله العذاب الشديد.

﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿٤٥﴾ هذه الأحكام من جملة الأحكام التي في التوراة، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار؛ فإن الله أوجب عليهم أن النفس إذا قَتَلت تُقتل بالنفس بشرط العمد والمكافأة، والعين تقلع بالعين، والأذن تؤخذ بالأذن، والسن يُنزع بالسن، ومثل هذه ما أشبهها من الأطراف التي يمكن الاقتصاص منها بدون حيف. ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞ﴾: والاقتصاص أن يفعل به كما فعل؛ فمن جرح غيره عمدًا؛ اقتص من الجارح جرحًا مثل جرحه للمجروح حدًّا وموضعًا وطولًا

(١) ع، ط: «محرومًا».

وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

وعرضًا وعمقًا. وليعلم أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه، ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ﴾؛ أي: بالقصاص في النفس ومـا دونها من الأطراف والجروح؛ بـأن عفا عمن جنى وثبت له الحق قبله، ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾؛ أي: كفارة للجاني؛ لأن الآدمي عفا عن حقه، والله تعالى أحق وأولى بالعفو عن حقه، وكفارة أيضًا عـن العافي؛ فإنه كما عفا عمن جنى عليه أو على من يتعلق به؛ فإن الله يعفو عن زلاته وجناياته.

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾: قال ابن عباس: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسـق دون فسق؛ فهو ظلم أكبر عند استحلاله، وعظيمة كبيرة عند فعله غير مستحل له.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿٤٦﴾ أي: وأتبعنـا هـؤلاء الأنبيـاء والمرسـلين الذين يحكمون بالتوراة بعبدنا ورسولنا عيسى ابن مريم، روح الله وكلمته التي ألقاها إلى مريـم، بعثه الله مصدقًا لما بين يديه من التوراة؛ فهو شاهد لموسى ولما جاء به من التوراة بالحق والصدق، ومؤيد لدعوته، وحاكم بشـريعته، وموافق له في أكثر الأمور الشـرعية، وقد يكون عيسى عليه السلام أخف في بعض الأحكام؛ كما قال تعالى عنه: إنه قال لبني إسرائيل: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾: الكتاب العظيم المتمم للتوراة، ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾: يهـدي إلى الصراط المسـتقيم، ويبين الحق مـن الباطـل، ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾: بتثبيتها والشـهادة لها والموافقة. ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾: فإنهم الذين ينتفعون بالهدى ويتعظون بالمواعظ ويرتدعون عما لا يليق.

﴿٤٧﴾ ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾؛ أي: يلزمهم التقيد بكتابهم، ولا يجوز لهم العدول عنه، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿٤٨﴾ يقـول تعالـى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: الذي هو القرآن العظيـم، أفضل الكتب وأجلهـا، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: إنـزالًا بالحق ومشـتملًا على الحـق في أخبـاره وأوامره ونواهيـه، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: لأنـه شهد للكتب السالفة[1]، ووافقها، وطابقت أخباره أخبارها، وشرائعه الكبار شرائعها، وأخبرت به، فصار وجوده مصداقًا

(١) عبارة: «الكتب السالفة» وردت في ع، ط: «لها».

لخبرها، ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾؛ أي: مشتملًا على ما اشتملت عليه الكتب السابقة، وزيادة في المطالب الإلهية والأخلاق النفسية؛ فهو الكتاب الذي تتبع كل حق، جاءت به الكتب فأمر به، وحث عليه، وأكثر من الطرق الموصلة إليه، وهو الكتاب الذي فيه نبأ السابقين واللاحقين، وهو الكتاب الذي فيه الحكم والحكمة والأحكام، الذي عرضت عليه الكتب السابقة؛ فما شهد له بالصدق؛ فهو المقبول، وما شهد له بالرد؛ فهو مردود قد دخله التحريف والتبديل، وإلا؛ فلو كان من عند الله لم يخالفه.

﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ ﴾: من الحكم الشرعي الذي أنزله الله عليك، ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾؛ أي: لا تجعل اتباع أهوائهم الفاسدة المعارضة للحق بدلًا عما جاءك من الحق، فتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ ﴾ أيها الأمم: ﴿ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾؛ أي: سبيلًا وسنة، وهذه الشرائع التي تختلف باختلاف الأمم، هي التي تتغير بحسب تغير الأزمنة والأحوال، وكلها ترجع إلى العدل في وقت شرعتها، وأما الأصول الكبار التي هي مصلحة وحكمة في كل زمان؛ فإنها لا تختلف، فتشرع في جميع الشرائع، ﴿ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾: تبعًا لشريعة واحدة، لا يختلف متأخرها ولا متقدمها. ﴿ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾: فيختبركم وينظر كيف تعملون، ويبتلي كل أمة بحسب ما تقتضيه حكمته، ويؤتي كل أحد ما يليق به، وليحصل التنافس بين الأمم؛ فكل أمة تحرص على سبق غيرها. ولهذا قال: ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾؛ أي: بادروا إليها وأكملوها؛ فإن الخيرات الشاملة لكل فرض ومستحب من حقوق الله وحقوق عباده لا يصير فاعلها سابقًا لغيره مستوليًا على الأمر إلا بأمرين: المبادرة إليها، وانتهاز الفرصة حين يجيء وقتها ويعرض عارضها، والاجتهاد في أدائها كاملة على الوجه المأمور به.

ويستدل بهذه الآية على المبادرة لأداء الصلاة وغيرها في أول وقتها، وعلى أنه ينبغي ألَّا يقتصر العبد على مجرد ما يجزئ في الصلاة وغيرها من العبادات من الأمور الواجبة، بل ينبغي أن يأتي بالمستحبات التي يقدر عليها لتتم وتكمل ويحصل بها السبق. ﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾: الأمم السابقة واللاحقة، كلهم سيجمعهم الله ليوم لا ريب فيه، ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾: من الشرائع والأعمال، فيثيب أهل الحق والعمل الصالح، ويعاقب أهل الباطل والعمل السيئ.

﴿٤٩﴾ ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ ﴾: هذه الآية هي التي قيل: إنها ناسخة لقوله: ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾، والصحيح أنها ليست بناسخة، وأن تلك الآية تدل على أنه ﷺ مخير بين الحكم بينهم وبين عدمه، وذلك لعدم قصدهم بالتحاكم للحق. وهذه الآية تدل على أنه إذا حكم؛ فإنه يحكم بينهم بما أنزل الله من الكتاب والسنة، وهو القسط الذي تقدم أن الله قال: ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ﴾. ودل هذا على بيان القسط، وأن مادته هو ما شرعه الله من الأحكام؛ فإنها المشتملة على غاية العدل والقسط، وما خالف ذلك فهو جور وظلم، ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾: كرر النهي عن اتباع أهوائهم لشدة التحذير منها، ولأن ذلك في مقام الحكم والفتوى، وهو أوسع، وهذا في مقام الحكم وحده، وكلاهما يلزم فيه ألَّا يتبع أهواءهم المخالفة للحق. ولهذا قال: ﴿ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾؛ أي: إياك والاغترار بهم وأن يفتنوك فيصدوك عن بعض ما أنزل الله إليك، فصار اتباع أهوائهم سببًا موصلًا إلى ترك الحق الواجب، والغرض اتباعه، ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾: عن اتباعك واتباع الحق، ﴿ فَاعْلَمْ ﴾: أن ذلك عقوبة عليهم، و﴿ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾، فإن للذنوب عقوبات عاجلة وآجلة، ومن أعظم العقوبات أن يبتلى العبد ويزين له ترك اتباع الرسول، وذلك لفسقه، ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾؛ أي: طبيعتهم الفسق والخروج عن طاعة الله واتباع رسوله.

﴿٥٠﴾ ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾؛ أي: أفيطلبون بتوليهم وإعراضهم عنك حكم الجاهلية؟ وهو كل حكم خالف ما أنزل الله على رسوله؛ فلا ثم إلا حكم الله ورسوله أو حكم الجاهلية؛ فمن أعرض عن الأول؛ ابتلي بالثاني المبني على الجهل والظلم والغي، ولهذا أضافه الله للجاهلية، وأما حكم الله تعالى؛ فمبني على العلم والعدل والقسط والنور والهدى. ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾: فالموقن هو الذي يعرف الفرق بين الحكمين ويميز بإيقانه ما في حكم الله من الحسن والبهاء، وأنه يتعين عقلًا وشرعًا اتباعه، واليقين هو العلم التام الموجب للعمل.

۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ
يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ
مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾
وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ
إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ
وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ
وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ
يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ
ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿٥١﴾ يرشد تعالى عباده المؤمنين حين بين لهم أحوال اليهود والنصارى وصفاتهم غير الحسنة ألّا يتخذوهم أولياء؛ فإن بعضهم ﴿أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾: يتناصرون فيما بينهم، ويكونون يدًا على من سواهم؛ فأنتم لا تتخذوهم أولياء؛ فإنهم الأعداء على الحقيقة، ولا يبالون بضركم، بل لا يدخرون من مجهودهم شيئًا على إضلالكم؛ فلا يتولاهم إلا من هو مثلهم. ولهذا قال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾؛ لأن التولي التام يوجب الانتقال إلى دينهم، والتولي القليل يدعو إلى الكثير، ثم يتدرج شيئًا فشيئًا، حتى يكون العبد منهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾؛ أي: الذين وصفهم الظلم، وإليه يرجعون، وعليه يعولون؛ فلو جئتهم بكل آية؛ ما تبعوك، ولا انقادوا لك.

﴿٥٢﴾ ولما نهى الله المؤمنين عن توليهم؛ أخبر أن ممن يدعي الإيمان طائفة تواليهم فقال: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ أي: شك ونفاق وضعف إيمان يقولون: إن تولينا إياهم للحاجة؛ فإننا ﴿نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾؛ أي: تكون الدائرة لليهود والنصارى؛ فإذا كانت الدائرة لهم؛ فإذًا لنا معهم يد يكافئوننا عنها، وهذا سوء ظن منهم بالإسلام. قال تعالى رادًّا لظنهم السيئ: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ﴾: الذي يعز الله به الإسلام على اليهود والنصارى، ويقهرهم المسلمون، ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾: ييأس به المنافقون من ظفر الكافرين من اليهود وغيرهم، ﴿فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ﴾؛ أي: أضمروا ﴿فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾: على ما كان منهم، وضرهم بلا نفع حصل لهم، فحصل الفتح الذي نصر الله به الإسلام والمسلمين، وأذل به الكفر والكافرين، فندموا وحصل لهم من الغم ما الله به عليم.

﴿٥٣﴾ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ متعجبين من حال هؤلاء الذين في قلوبهم مرض: ﴿أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾؛ أي: حلفوا، وأكدوا حلفهم، وغلظوه بأنواع التأكيدات، إنهم لمعكم في الإيمان وما يلزمه من النصرة والمحبة والموالاة؛ ظهر ما أضمروه، وتبين ما أسروه، وصار كيدهم الذي كادوه، وظنهم الذي ظنوه بالإسلام وأهله باطلًا، فبطل كيدهم، فـ﴿حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ﴾: في الدنيا، ﴿فَأَصْبَحُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾: حيث فاتهم مقصودهم، وحضرهم الشقاء والعذاب.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿٥٤﴾ يخبر تعالى أنه الغني عن العالمين، وأنه من يرتد عن دينه؛ فلن يضر الله شيئًا، وإنما يضر نفسه، وأن لله عبادًا مخلصين ورجالًا صادقين قد تكفل الرحمن الرحيم بهدايتهم ووعد بالإتيان بهم، وأنهم أكمل الخلق أوصافًا وأقواهم نفوسًا وأحسنهم أخلاقًا:

أجـل صفاتهـم أن اللـه ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾؛ فـإن محبة الله للعبـد هي أجل نعمة أنعم بها عليه وأفضل فضيلة تفضل الله بها عليه، وإذا أحب الله عبدًا؛ يسـر له الأسـباب، وهون عليه كل عسير، ووفقـه لفعل الخيـرات وترك المنكـرات، وأقبل بقلـوب عباده إليه بالمحبـة والوداد. ومن لـوازم محبة العبد لربـه أنـه لا بد أن يتصف بمتابعة الرسـول ﷺ ظاهـرًا وباطنًا فـي أقواله وأعماله وجميـع أحواله؛ كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمـران: ٣١]، كـمـا أن مـن لوازم محبة الله للعبـد أن يكثر العبد من التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل؛ كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح عن الله: «**وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليـه، ولا يـزال عبدي يتقرب إلـي بالنوافل حتـى أحبه؛ فإذا أحببته؛ كنت سـمعه الذي يسـمع به، وبصره الـذي يبصر به، ويـده التي يبطش بها. ورجله التي يمشـي بها، ولئن سـألني؛ لأعطينه، ولئن استعاذني؛ لأعيذنه**»[١].

ومن لوازم محبة الله معرفته تعالى والإكثار من ذكره؛ فإن المحبـة بدون معرفة بالله ناقصـة جدًّا، بل غير موجودة، وإن وجـدت دعواها، ومن أحب الله؛ أكثر مـن ذكره، وإذا أحب اللـه عبـدًا؛ قبل منه اليسـير مـن العمـل، وغفر لـه الكثير من الزلل.

ومـن صفاتهـم أنهـم: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾؛ فهـم للمؤمنيـن أذلة من محبتهـم لهم ونصحهم لهم ولينهم ورفقهم ورأفتهم ورحمتهم بهم وسهولة جانبهم وقـرب الشـيء الـذي يطلـب منهـم، وعلـى الكافريـن بالله المعاندين لآياته المكذبين لرسله أعزة، قد اجتمعت هممهم وعزائمهـم علـى معاداتهـم، وبذلـوا جهدهم في كل سـبب يحصـل به الانتصـار عليهم: قـال تعالـى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفـال: ٦٠]. وقـال تعالى: ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩]؛ فالغلظة الشديدة[٢] على أعداء الله مما يقرب العبد إلى الله ويوافق العبد ربه في سخطه عليهم، ولا تمنع الغلظة عليهم والشدة دعوتهم إلى الدين الإسلامي بالتي هي أحسن، فتجتمع الغلظة عليهم واللين في دعوتهم، وكلا الأمرين من مصلحتهم، ونفعه عائد إليهم.

﴿ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾: بأموالهـم وأنفسـهم، بأقوالهم وأفعالهـم. ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾: بـل يقدمون رضا ربهم والخـوف من لومه على لوم المخلوقين، وهذا يدل على قوة هممهم وعزائمهم؛ فإن ضعيف القلب ضعيف الهمة، تنتقض عزيمتـه عند لـوم اللائمين، وتفتـر قوته عند عـذل العاذلين، وفي قلوبهم تعبد لغير الله، بحسب ما فيها من مراعاة الخلق، وتقديـم رضاهم ولومهم على أمر الله؛ فلا يسـلم القلب من التعبد لغير الله، حتى لا يخاف في الله لومة لائم.

ولمـا مدحهـم تعالـى بمـا مـن بـه عليهـم مـن الصفـات الجميلة[٣] والمناقب العالية المستلزمة لما لم يذكر من أفعال الخيـر؛ أخبر أن هذا من فضله عليهم وإحسـانه؛ لئلا يعجبوا بأنفسـهم، وليشـكروا الذي مـن عليهم بذلـك؛ ليزيدهم من فضله، وليعلم غيرهم أن فضل الله تعالى ليس عليه حجاب، فقـال: ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾؛ أي: واسع الفضل والإحسان، جزيل المنن، قد عمت رحمته كل شيء، ويوسع على أوليائه من فضله ما لا يكون لغيرهم، ولكنـه عليـم بمن يسـتحق الفضل فيعطيه؛ فاللـه أعلم حيث يجعل رسالته أصلًا وفرعًا.

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿٥٥﴾ لمـا نهـى عـن ولايـة الكفـار مـن اليهـود والنصارى وغيرهـم، وذكـر مـآل توليهـم أنـه الخسـران المبيـن؛ أخبر تعالـى من يجب ويتعين توليه، وذكـر فائدة ذلك ومصلحته، فقـال: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾؛ فولاية اللـه تدرك بالإيمان والتقـوى؛ فـكل من كان مؤمنًـا تقيًّا؛ كان لله وليًّـا، ومن كان لله وليًّا؛ فهو ولي لرسوله، ومن تولى الله ورسوله؛ كان تمام ذلك تولـي من تولاه، وهـم المؤمنون الذين قامـوا بالإيمان ظاهرًا وباطنًا، وأخلصوا للمعبود بإقامتهم الصلاة بشـروطها وفروضهـا ومكملاتها، وأحسـنوا للخلق، وبذلـوا الزكاة من أموالهم لمستحقيها منهم. وقوله: ﴿ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾؛ أي: خاضعـون لله ذليلون. فأداة الحصر في قوله: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾: تـدل على أنه يجـب قصر الولاية على المذكورين والتبري من ولاية غيرهم.

---

(١) البخاري (٦٥٠٢).
(٢) ع: «والشدة».
(٣) ع: «الجليلة».

وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ
لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا
بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ
هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ
عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ
مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا
وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ
﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ
ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ
وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟
يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟
بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا
مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ
وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ
وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾

١١٨

(٥٦) ثم ذكر فائدة هذه الولاية، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾؛ أي: فإنه من الحزب المضافين إلى الله إضافة عبودية وولاية، وحزبه هم الغالبون، الذين لهم العاقبة في الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧٣]، وهذه بشارة عظيمة لمن قام بأمر الله وصار من حزبه وجنده أن له الغلبة، وإن أديل عليه في بعض الأحيان لحكمة يريدها الله تعالى؛ فآخر أمره الغلبة والانتصار، ومن أصدق من الله قيلًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

(٥٧)، (٥٨) ينهى عباده المؤمنين عن اتخاذ أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن سائر الكفار أولياء، يحبونهم ويتولونهم، ويبدون لهم أسرار المؤمنين، ويعاونونهم على بعض أمورهم التي تضر الإسلام والمسلمين، وأن ما معهم من الإيمان يوجب عليهم ترك موالاتهم، ويحثهم على معاداتهم، وكذلك التزامهم لتقوى الله التي هي امتثال أوامره واجتناب زواجره مما يدعوهم إلى معاداتهم، وكذلك ما كان عليه المشركون والكفار المخالفون للمسلمين من قدحهم في دين المسلمين، واتخاذهم إياه هزوًا ولعبًا واحتقاره واستصغاره، خصوصًا الصلاة التي هي أظهر شعائر المسلمين وأجل عباداتهم، إنهم إذا نادوا إليها؛ اتخذوها هزوًا ولعبًا، وذلك لعدم عقلهم ولجهلهم العظيم، و إلا؛ فلو كان لهم عقول، لخضعوا لها، ولعلموا أنها أكبر من جميع الفضائل التي تتصف بها النفوس؛ فإذا علمتم أيها المؤمنون حال الكفار وشدة معاداتهم لكم ولدينكم؛ فمن لم يعادهم بعد هذا؛ دل على أن الإسلام عنده رخيص، وأنه لا يبالي بمن قدح فيه أو قدح بالكفر والضلال، وأنه ليس عنده من المروءة والإنسانية شيء؛ فكيف تدعي لنفسك دينًا قيمًا وأنه الدين الحق وما سواه باطل وترضى بموالاة من اتخذه هزوًا ولعبًا وسخر به وبأهله من أهل الجهل والحمق؟! وهذا فيه من التهييج على عداوتهم ما هو معلوم لكل من له أدنى مفهوم.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

(٥٩) أي: ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ ملزمًا لهم: إن دين الإسلام هو الدين الحق، وإن قدحهم فيه قدح بأمر ينبغي المدح عليه، ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾؛ أي: هل لنا[1] من العيب إلا إيماننا بالله وبكتبه السابقة واللاحقة وبأنبيائه المتقدمين والمتأخرين؟! وبأننا نجزم أن من لم يؤمن كهذا الإيمان؛ فإنه كافر فاسق؛ فهل تنقمون منا بهذا

(١) بعده في ع: «عندكم».

الـذي هـو أوجـب الواجبات علـى جميع المكلفيـن؟! ومع هذا؛ فأكثركم ﴿فَٰسِقُونَ ۝٥٩﴾؛ أي: خارجون عن طاعة الله متجرئون على معاصيه؛ فأولى لكم أيها الفاسقون السكوت؛ فلو كان عيبكم لنا[1] وأنتم سالمون من الفسق وهيهات ذلك؛ لكان الشر أخف من قدحكم فينا مع فسقكم.

۝٦٠ ولما كان قدحهم في المؤمنين يقتضي أنهم يعتقدون أنهـم على شـر؛ قـال تعالى: ﴿قُلْ﴾ لهـم مخبرًا عن شـناعة ما كانـوا عليـه: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾: الـذي نقمتم فيه علينا مع التنزل معكم، ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: أبعده عن رحمته، ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾: وعاقبه في الدنيا والآخرة، ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾: وهـو الشـيطان، وكل ما عبد مـن دون اللـه فهـو طاغـوت. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المذكـورون بهذه الخصـال القبيحـة ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾: من المؤمنيـن الذين رحمة اللـه قريـب منهـم، ورضـي اللـه عنهـم، وأثابهـم فـي الدنيا والآخـرة؛ لأنهـم أخلصـوا لـه الدين، وهـذا النـوع من باب اسـتعمال أفعل التفضيل في غير بابه، وكذلك قوله: ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۝٦٠﴾؛ أي: وأبعد عن قصد السبيل.

۝٦١ ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾: نفاقًـا ومكـرًا، وهـم قـد ﴿وَقَد دَّخَلُواْ﴾ مشـتملين ﴿بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ﴾؛ فمدخلهـم ومخرجهم بالكفر، وهم يزعمـون أنهم مؤمنون؛ فهل أشـر من هـؤلاء وأقبح حالًا منهـم؟! ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ۝٦١﴾: فيجازيهم بأعمالهم خيرها وشرها.

۝٦٢ ثم استمر تعالـى يعدد معايبهـم[2] انتصـارًا لقدحهم فـي عبـاده المؤمنيـن، فقـال: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾؛ أي: مـن اليهـود، ﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾؛ أي: يحرصـون ويبـادرون المعاصي المتعلقة في حق الخالق والعدوان على المخلوقيـن. ﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾: الذي هـو الحرام، فلم يكتـف بمجـرد الإخبار أنهـم يفعلون ذلك، حتـى أخبر أنهم يسـارعون، وهـذا يـدل علـى خبثهم وشرهم وأن أنفسـهم مجبولـة علـى حـب المعاصـي والظلـم، هـذا وهـم يدعون لأنفسـهم المقامـات العاليـة، ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٦٢﴾: وهذا في غاية الذم لهم والقدح فيهم.

۝٦٣ ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾؛ أي: هـلا ينهاهم العلماء المتصدون لنفع الناس الذيـن مَنَّ الله عليهـم بالعلم والحكمة عـن المعاصي، التي تصـدر منهم، ليزول ما عندهم من الجهـل، وتقوم حجة الله عليهم، فإن العلماء عليهم أمر الناس ونهيهم، وأن يبينوا لهم الطريق الشـرعي، ويرغبوهم في الخير، ويرهبوهم من الشر. ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ۝٦٣﴾.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٦٤ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٦٥ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ۝٦٦﴾.

۝٦٤ يخبـر تعالـى عـن مقالـة اليهـود الشـنيعة وعقيدتهم الفظيعـة، فقـال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾؛ أي: عـن الخير والإحسـان والبـر! ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾: وهـذا دعـاء عليهم بجنس مقالتهم؛ فإن كلامهـم متضمن لوصف الله الكريـم بالبخل وعدم الإحسـان، فجازاهم بأن كان هذا الوصـف منطبقًا عليهم؛ فكانوا أبخل الناس وأقلهم إحسـانًا وأسـوأهم ظنًّا باللـه وأبعدهم عـن رحمته التي وسـعت كل شـيء وملأت أقطار العالم العلوي والسـفلي، ولهـذا قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾: لا حجـر عليـه ولا مانع يمنعـه ممـا أراد؛ فإنه تعالى قد بسـط فضله وإحسانه الديني والدنيـوي، وأمـر العبـاد أن يتعرضـوا لنفحات جـوده، وألَّا يسـدوا على أنفسهم أبواب إحسانه بمعاصيهم، فيده سحاء الليـل والنهـار، وخيره فـي جميـع الأوقـات مـدرار؛ يفرج كربًا، ويزيل غمًّا، ويغني فقيرًا، ويفك أسـيرًا، ويجبر كسيرًا، ويجيـب سـائلًا، ويعطي فقيـرًا عائلًا، ويجيـب المضطرين، ويستجيب للسـائلين، وينعم على من لم يسـأله، ويعافي من طلـب العافية، ولا يحرم من خيره عاصيًـا، بل خيره يرتع فيه البـر والفاجر ويجود علـى أوليائه بالتوفيـق لصالح الأعمال ثـم يحمدهـم عليها ويضيفهـا إليهم وهي من جـوده ويثيبهم عليهـا مـن الثـواب العاجـل والآجل مـا لا يدركـه الوصف

(١) ليس في الأصل، ط.
(٢) ع: «معاتبهم».

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ
سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا
التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ
فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ
سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ
مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ
مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَا أَهْلَ
الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ
وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ
إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ
﴿٦٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى
مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي
إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا
لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾

ولا يخطر على بال العبد، ويلطف بهم في جميع أمورهم، ويوصل إليهم من الإحسان، ويدفع عنهم من النقم ما لا يشعرون بكثير منه؛ فسبحان مَنْ كل النعم التي بالعباد منه وإليه يجأرون في دفع المكاره، وتبارك من لا يحصي أحد ثناءً عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وتعالى من لا يخلو العباد من كرمه طرفة عين، بل ولا وجود لهم ولا بقاء إلا بجوده، وقبح الله من استغنى بجهله عن ربه ونسبه إلى ما لا يليق بجلاله، بل لو عامل الله اليهود القائلين تلك المقالة ونحوهم ممن حاله كحالهم ببعض قولهم؛ لهلكوا وشقوا في دنياهم، ولكنهم يقولون تلك الأقوال، وهو تعالى يحلم عنهم، ويصفح، ويمهلهم، ولا يهملهم.

وقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾: وهذا من[1] أعظم العقوبات على العبد: أن يكون الذكر الذي أنزله الله على رسوله، الذي فيه حياة القلب والروح وسعادة الدنيا والآخرة وفلاح الدارين، الذي هو أكبر منة امتنَّ الله بها على عباده، توجب عليهم المبادرة إلى قبولها والاستسلام لله بها وشكرًا لله عليها، أن تكون لمثل هذا زيادة غي إلى غيه وطغيان إلى طغيانه وكفر إلى كفره، وذلك بسبب إعراضه عنها ورده لها ومعاندته إياها ومعارضته لها بالشبه الباطلة.

﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾: فلا يتآلفون ولا يتناصرون ولا يتفقون على حالة فيها مصلحتهم، بل لم يزالوا متباغضين في قلوبهم متعادين بأفعالهم إلى يوم القيامة، ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ﴾: ليكيدوا بها الإسلام وأهله وأبدوا وأعادوا وأجلبوا بخيلهم ورجلهم، ﴿أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾: بخذلانهم وتفرق جنودهم وانتصار المسلمين عليهم، ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾؛ أي: يجتهدون ويجدون ولكن بالفساد في الأرض؛ بعمل المعاصي والدعوة إلى دينهم الباطل والتعويق عن الدخول في الإسلام، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾: بل يبغضهم أشد البغض، وسيجازيهم على ذلك.

﴿٦٥﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾﴾: وهذا من كرمه وجوده؛ حيث ذكر قبائح أهل الكتاب ومعايبهم وأقوالهم الباطلة؛ دعاهم إلى التوبة، وأنهم لو آمنوا بالله وملائكته وجميع كتبه وجميع رسله واتقوا المعاصي؛ لكفر عنهم سيئاتهم، ولو كانت ما كانت، ولأدخلهم جنات النعيم التي فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين.

﴿٦٦﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: قاموا بأوامرهما[2] كما ندبهم الله وحثهم، ومن إقامتهما الإيمان بما دعيا إليه من الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن؛ فلو قاموا بهذه النعمة العظيمة التي أنزلها ربهم إليهم؛ أي: لأجلهم وللاعتناء بهم؛ ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾؛ أي: لأدر الله عليهم الرزق ولأمطر عليهم السماء وأنبت لهم الأرض؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]. ﴿مِنْهُمْ﴾؛ أي: من أهل الكتاب ﴿أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾؛ أي: عاملة بالتوراة والإنجيل عملًا غير قوي ولا نشيط. ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾؛ أي: والمسيء منهم الكثير، وأما السابقون منهم؛ فقليل ما هم.

(١) ساقط من ع، ط.

(٢) زاد في ع، ط: «ونواهيهما».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧﴾.

(٦٧) هذا أمر من الله لرسوله محمد ﷺ بأعظم الأوامر وأجلها، وهو التبليغ لما أنزل الله إليه، ويدخل في هذا كل أمر تلقته الأمة عنه ﷺ من العقائد والأعمال والأقوال والأحكام الشرعية والمطالب الإلهية، فبلّغ ﷺ أكمل تبليغ، ودعا وأنذر وبشر وسيَّر[1]، وعلم الجهال الأميين حتى صاروا من العلماء الربانيين، وبلغ بقوله وفعله وكتبه ورسله، فلم يبق خير إلا دل أمته عليه، ولا شر إلا حذرها عنه، وشهد له بالتبليغ أفاضل الأمة من الصحابة فمن بعدهم من أئمة الدين ورجال المسلمين. ﴿وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ﴾؛ أي: لم تبلغ ما أنزل إليك من ربك، ﴿فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾؛ أي: فما امتثلت أمره، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾: هذه حماية وعصمة من الله لرسوله من الناس، وأنه ينبغي أن يكون حرصك على التعليم والتبليغ، ولا يثنيك عنه خوف من المخلوقين؛ فإن نواصيهم بيد الله، وقد تكفل بعصمتك، فأنت إنما عليك البلاغ المبين؛ فمن اهتدى فلنفسه، وأما الكافرون الذين لا قصد لهم إلا اتباع أهوائهم؛ فإن الله لا يهديهم، ولا يوفقهم للخير بسبب كفرهم.

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٨﴾.

(٦٨) أي: قل لأهل الكتاب مناديًا على ضلالهم ومعلنًا بباطلهم: ﴿لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ﴾: من الأمور الدينية؛ فإنكم لا بالقرآن ومحمد آمنتم، ولا بنبيكم وكتابكم صدقتم، ولا بحق تمسكتم، ولا على أصل اعتمدتم. ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾؛ أي: تجعلوهما قائمين بالإيمان بهما واتباعهما والتمسك بكل ما يدعوان إليه، وتقيموا ما ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، الذي رباكم، وأنعم عليكم، وجعل أجل إنعامه إنزال الكتب إليكم؛ فالواجب عليكم أن تقوموا بشكر الله، وتلتزموا أحكام الله، وتقوموا بما حملتم من أمانة الله وعهده، ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٨﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٩﴾.

(٦٩) يخبر تعالى عن أهل الكتاب من أهل القرآن والتوراة والإنجيل أن سعادتهم ونجاتهم في طريق واحد وأصل واحد، وهو الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح؛ فمن آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا؛ فله النجاة ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه من الأمور المخوفة ولا هم يحزنون على ما خلفوا منها. وهذا الحكم المذكور يشمل سائر الأزمنة.

﴿لَقَدۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ رُسُلٗاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُهُمۡ فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ ٧٠ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ٧١﴾.

(٧٠) يقول تعالى: ﴿لَقَدۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: عهدهم الثقيل بالإيمان بالله والقيام بواجباته التي تقدم الكلام عليها في قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗا﴾ [المائدة: ١٢] إلى آخر الآيات، ﴿وَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ رُسُلٗا﴾: يتوالون عليهم بالدعوة ويتعاهدونهم بالإرشاد، ولكن ذلك لم ينجع فيهم ولم يفد. ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُهُمۡ﴾ من الحق كذبوه وعاندوه، وعاملوه أقبح المعاملة، ﴿فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ ٧٠﴾.

(٧١) ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾؛ أي: ظنوا أن معصيتهم وتكذيبهم لا يجر عليهم عذابًا ولا عقوبة، واستمروا على باطلهم، ﴿فَعَمُواْ وَصَمُّواْ﴾: عن الحق. ﴿ثُمَّ﴾: نعشهم، و﴿تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ حين تابوا إليه وأنابوا. ﴿ثُمَّ﴾ لم يستمروا على ذلك حتى انقلب أكثرهم إلى الحال القبيحة؛ حيث ﴿عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ﴾: بهذا الوصف، والقليل استمروا على توبتهم وإيمانهم. ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ٧١﴾: فيجازي كل عامل بعمله إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر.

﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي

(١) ع، ط: «ويسر».

وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ
عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا
يَعۡمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ
ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ
ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ
ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾
لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ
إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ
إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٤﴾
مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ
ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ
ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ
يُؤۡفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا
يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٧٦﴾

وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿٧٢﴾ يخبر تعالى عن كفر النصارى بقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾: بشبهة أنه خرج من أم بلا أب وخالف المعهود من الخلقة الإلهية، والحال أنه عليه الصلاة والسلام قد كذبهم في هذه الدعوى وقال لهم: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡ﴾: فأثبت لنفسه العبودية التامة ولربه الربوبية الشاملة لكل مخلوق. ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾: أحدًا من المخلوقين لا عيسى ولا غيره، ﴿فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾: وذلك لأنه سوى الخلق بالخالق، وصرف ما خلقه الله له، وهو العبادة الخالصة لغير من هي له، فاستحق أن يخلد في النار. ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾﴾: ينقذونهم من عذاب الله، أو يدفعون عنهم بعض ما نزل بهم.

﴿٧٣﴾ ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾: وهذا من أقوال النصارى المنصورة عندهم، زعموا أن الله ثالث ثلاثة؛ الله، وعيسى، ومريم! تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا، وهذا أكبر دليل على قلة عقول النصارى؛ كيف قبلوا هذه المقالة الشنعاء والعقيدة القبيحة؟! كيف اشتبه عليهم الخالق بالمخلوق؟! كيف خفي عليهم رب العالمين؟! قال تعالى رادًّا عليهم وعلى أشباههم: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾: متصف بكل صفة كمال، منزه عن كل نقص، منفرد بالخلق والتدبير، ما بالخلق من نعمة إلا منه؛ فكيف يجعل معه إله غيره، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا. ثم توعدهم بقوله: ﴿وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿٧٤﴾ ثم دعاهم إلى التوبة عما صدر منهم، وبين أنه يقبل التوبة عن عباده، فقال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: يرجعون إلى ما يحبه ويرضاه من الإقرار لله بالتوحيد، وبأن عيسى عبد الله ورسوله، وعما كانوا يقولونه ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥ﴾ عمَّا صدر منهم، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٤﴾﴾؛ أي: يغفر ذنوب التائبين، ولو بلغت عنان السماء، ويرحمهم بقبول توبتهم وتبديل سيئاتهم حسنات، وصدر دعوتهم إلى التوبة بالعرض الذي هو في غاية اللطف واللين في قوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

﴿٧٥﴾ ثم ذكر حقيقة المسيح وأمه الذي هو الحق، فقال: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾؛ أي: هذا غايته ومنتهى أمره؛ أنه من عباد الله المرسلين، الذين ليس لهم من الأمر ولا من التشريع إلا ما أرسلهم به الله، وهو من جنس الرسل قبله، لا مزية له عليهم تخرجه عن البشرية إلى مرتبة الربوبية. ﴿وَأُمُّهُۥ﴾ مريم ﴿صِدِّيقَةٞ﴾؛ أي: هذا أيضًا غايتها أن كانت من الصديقين الذين هم أعلى الخلق رتبة بعد الأنبياء، والصديقية هي

العلم النافع المثمر لليقين والعمل الصالح، وهذا دليل على أن مريم لم تكن نبية، بل أعلى أحوالها الصديقية، وكفى بذلك فضلًا وشرفًا، وكذلك سائر النساء، لم يكن منهن نبية؛ لأن الله تعالى جعل النبوة في أكمل الصنفين؛ في الرجال؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ [يوسف: ١٠٩]؛ فإذا كان عيسى عليه السلام من جنس الأنبياء والرسل من قبله، وأمه صديقة؛ فلأي شيء اتخذهما النصارى إلهين مع الله!

وقوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾: دليل ظاهر على أنهما عبدان فقيران محتاجان كما يحتاج بنو آدم إلى الطعام والشراب؛ فلو كانا إلهين؛ لاستغنيا عن الطعام والشراب، ولم يحتاجا إلى شيء؛ فإن الإله هو الغني الحميد. ولما بين تعالى البرهان؛ قال: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ الموضحة للحق الكاشفة لليقين، ومع هذا لا تفيد فيهم شيئًا، بل لا يزالون على إفكهم وكذبهم وافترائهم، وذلك ظلم وعناد منهم.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿٧٦﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ لهم أيها الرسول: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: من المخلوقين الفقراء المحتاجين، من ﴿لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾: وتدعون من انفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع، ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾: لجميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾: بالظواهر والبواطن والغيب والشهادة والأمور الماضية والمستقبلة؛ فالكامل تعالى الذي هذه أوصافه هو الذي يستحق أن يفرد بجميع أنواع العبادة، ويخلص له الدين.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾.

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾

﴿٧٧﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: لا تتجاوزوا، وتتعدوا، الحق إلى الباطل، وذلك كقولهم في المسيح ما تقدم حكايته عنهم، وكغلوهم في بعض المشايخ متبعين ﴿أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: تقدم ضلالهم، ﴿وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾: من الناس بدعوتهم إياهم إلى الدين الذي هم عليه، ﴿وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾؛ أي: قصد الطريق، فجمعوا بين الضلال والإضلال، وهؤلاء هم أئمة الضلال الذين حذر الله عنهم وعن اتباع أهوائهم المردية وآرائهم المضلة.

﴿٧٨﴾ ثم قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: طردوا وأبعدوا عن رحمة الله، ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾؛ أي: بشهادتهما وإقرارهما بأن الحجة قد قامت عليهم وعاندوها. ﴿ذَٰلِكَ﴾: الكفر واللعن

﴿بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ۝٧٨﴾؛ أي: بعصيانهم لله وظلمهم لعباد الله صار سببًا لكفرهم وبعدهم عن رحمة الله؛ فإن للذنوب والظلم عقوبات.

٧٩ ومن معاصيهم التي أحلت بهم المثلات وأوقعت بهم العقوبات أنهم ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾؛ أي: كانوا يفعلون المنكر ولا ينهى بعضهم بعضًا، فيشترك بذلك المباشر وغيره، الذي سكت عن النهي عن المنكر مع قدرته على ذلك، وذلك يدل على تهاونهم بأمر الله، وأن معصيته خفيفة عليهم؛ فلو كان لديهم تعظيم لربهم؛ لغاروا لمحارمه، ولغضبوا لغضبه.

وإنما كان السكوت عن المنكر مع القدرة موجبًا للعقوبة لما فيه من المفاسد العظيمة:

منها: أن مجرد السكوت فعل معصية، وإن لم يباشرها الساكت؛ فإنه كما يجب اجتناب المعصية؛ فإنه يجب الإنكار على من فعل المعصية.

ومنها: ما تقدم أنه يدل على التهاون بالمعاصي وقلة الاكتراث بها.

ومنها: أن ذلك يُجرئ العصاة والفسقة على الإكثار من المعاصي إذا لم يردعوا عنها، فيزداد الشر وتعظم المصيبة الدينية والدنيوية، ويكون لهم الشوكة والظهور، ثم بعد ذلك يضعف أهل الخير عن مقاومة أهل الشر، حتى لا يقدرون على ما كانوا يقدرون عليه أولًا.

ومنها: أن بترك[1] الإنكار للمنكر يندرس العلم ويكثر الجهل؛ فإن المعصية مع تكررها وصدورها من كثير من الأشخاص وعدم إنكار أهل الدين والعلم لها يظن أنها ليست بمعصية، وربما ظن الجاهل أنها عبادة مستحسنة، وأي مفسدة أعظم من اعتقاد ما حرم الله حلالًا وانقلاب الحقائق على النفوس ورؤية الباطل حقًّا؟!

ومنها: أن بالسكوت على معصية العاصين ربما تزينت المعصية في صدور الناس، واقتدى بعضهم ببعض؛ فالإنسان مولع بالاقتداء بأضرابه وبني جنسه... ومنها ومنها...

فلما كان السكوت عن الإنكار بهذه المثابة؛ نص الله تعالى أن بني إسرائيل الكفار منهم لعنهم بمعاصيهم واعتدائهم، وخص من ذلك هذا المنكر العظيم: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝٧٩﴾.

٨٠ ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: بالمحبة والموالاة والنصرة، ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾: البضاعة الكاسدة والصفقة الخاسرة، وهي سخط الله الذي يسخط لسخطه كل شيء والخلود الدائم في العذاب العظيم؛ فقد ظلمتهم أنفسهم حيث قدمت لهم هذا النزل غير الكريم، وقد ظلموا أنفسهم إذ فوتوها النعيم المقيم.

٨١ ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾؛ فإن الإيمان بالله وبالنبي وما أنزل إليه يوجب على العبد موالاة ربه وموالاة أوليائه ومعاداة من كفر به وعاداه وأوضع في معاصيه؛ فشرط ولاية الله والإيمان به ألَّا يتخذ أعداء الله أولياء، وهؤلاء لم يوجد منهم الشرط، فدل على انتفاء المشروط. ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ۝٨١﴾؛ أي: خارجون عن طاعة الله والإيمان به وبالنبي، ومن فسقهم موالاة أعداء الله.

ثم قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٨٢ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ۝٨٣ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ۝٨٤ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ۝٨٥ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۝٨٦﴾.

٨٢ يقول تعالى في بيان أقرب الطائفتين إلى المسلمين وإلى ولايتهم ومحبتهم وأبعدهم من ذلك: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾: فهؤلاء الطائفتان على الإطلاق أعظم الناس معاداة للإسلام والمسلمين وأكثرهم سعيًا في إيصال الضرر إليهم، وذلك لشدة بغضهم لهم بغيًا وحسدًا وعنادًا وكفرًا. ﴿وَلَتَجِدَنَّ

(١) ع، ط: «في ترك».

﴿أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ﴾:
وذكر تعالى لذلك عدة أسباب:

منها: أن فيهم[1] ﴿قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾؛ أي: علماء متزهدين وعبادًا في الصوامع متعبدين، والعلم مع الزهد وكذلك العبادة مما يلطف القلب، ويرققه، ويزيل عنه ما فيه من الجفاء والغلظة؛ فلذلك لا يوجد فيهم غلظة اليهود وشدة المشركين.

ومنها: أنهم ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢)﴾؛ أي: ليس فيهم تكبر ولا عتو عن الانقياد للحق، وذلك موجب لقربهم من المسلمين ومن محبتهم؛ فإن المتواضع أقرب إلى الخير من المستكبر.

(٨٣) **ومنها: أنهم إذا** ﴿سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ محمد ﷺ؛ أثر ذلك في قلوبهم وخشعوا له وفاضت أعينهم بحسب[2] ما سمعوا من الحق الذي تيقنوه؛ فلذلك آمنوا وأقروا به، فقالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ (٨٣)﴾: وهم أمة محمد ﷺ؛ يشهدون لله بالتوحيد، ولرسله بالرسالة وصحة ما جاءوا به، ويشهدون على الأمم السابقة بالتصديق والتكذيب، وهم عدول، شهادتهم مقبولة؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

(٨٤) فكأنهم ليموا على إيمانهم ومسارعتهم فيه، فقالوا: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّـٰلِحِينَ (٨٤)﴾؛ أي: وما الذي يمنعنا من الإيمان بالله؛ والحال أنه قد جاءنا الحق من ربنا الذي لا يقبل الشك والريب، ونحن إذا آمنا واتبعنا الحق طمعنا أن يدخلنا الله الجنة مع القوم الصالحين؛ فأي مانع يمنعنا؟! أليس ذلك موجبًا للمسارعة والانقياد للإيمان وعدم التخلف عنه؟!

(٨٥) قال الله تعالى: ﴿فَأَثَـٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟﴾؛ أي: بما تفوهوا به من الإيمان ونطقوا به من التصديق بالحق ﴿جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ (٨٥)﴾. وهذه الآيات نزلت في النصارى الذين آمنوا بمحمد ﷺ كالنجاشي وغيره ممن آمن منهم، وكذلك لا يزال يوجد فيهم من يختار دين الإسلام، ويتبين له بطلان

الجُزْءُ السَّابِعُ — سُورَةُ المَائِدَةِ

وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّـٰلِحِينَ (٨٤) فَأَثَـٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ (٨٦) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ (٨٨) لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩)

١٢٢

ما كانوا عليه وهم أقرب من اليهود والمشركين إلى دين الإسلام.

(٨٦) ولما ذكر ثواب المحسنين؛ ذكر عقاب المسيئين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ (٨٦)﴾؛ لأنهم كفروا بالله وكذبوا بآياته المبينة للحق.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ (٨٨)﴾.

(٨٧) يقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾: من المطاعم والمشارب؛ فإنها نعم أنعم الله بها عليكم؛ فاحمدوه إذ أحلها لكم واشكروه، ولا تردوا نعمته بكفرها، أو عدم قبولها، أو اعتقاد تحريمها،

(١) في الأصل: «منهم»، وأشار في الحاشية أن في (ب): «فيهم».
(٢) ع: «بسبب».

فتجمعوا[1] بذلك بين قول الكذب على الله وكفر النعمة، واعتقاد الحلال الطيب حرامًا خبيثًا؛ فإن هذا من الاعتداء، والله قد نهى عن الاعتداء، فقال: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾، بل يبغضهم ويمقتهم، ويعاقبهم على ذلك.

﴿٨٨﴾ ثم أمر بضد ما عليه المشركون الذين يحرمون ما أحل الله فقال: ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾؛ أي: كلوا من رزقه الذي ساقه إليكم بما يسره من الأسباب إذا كان حلالًا لا سرقةً ولا غصبًا ولا غير ذلك من أنواع الأموال التي تؤخذ بغير حق، وكان أيضًا طيبًا، وهو الذي لا خبث فيه، فخرج بذلك الخبيث من السباع والخبائث. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: في امتثال أوامره واجتناب نواهيه، ﴿ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾؛ فإن إيمانكم بالله يوجب عليكم تقواه ومراعاة حقه؛ فإنه لا يتم إلا بذلك.

ودلت الآية الكريمة على أنه إذا حرم حلالًا عليه من طعام وشراب وسُرِّية وأمة ونحو ذلك؛ فإنه لا يكون حرامًا بتحريمه، لكن لو فعله؛ فعليه كفارة يمين؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ الآية [التحريم: ١]؛ إلا أن تحريم الزوجة فيه كفارة ظهار، ويدخل في هذه الآية أنه لا ينبغي للإنسان أن يتجنب الطيبات ويحرمها على نفسه، بل يتناولها مستعينًا بها على طاعة ربه.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿٨٩﴾ أي: في أيمانكم التي صدرت على وجه اللغو، وهي الأيمان التي حلف بها المقسم من غير نية ولا قصد، أو عقدها يظن صدق نفسه، فبان بخلاف ذلك، ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾؛ أي: بما عزمتم عليه وعقدت عليه قلوبكم؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ﴾؛ أي: كفارة الأيمان[2] التي عقدتموها بقصدكم: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾، وذلك الإطعام ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾؛ أي: كسوة عشرة مساكين، والكسوة هي التي تجزئ في الصلاة، ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ مؤمنة؛ كما قيدت في غير هذا الموضع؛ فمتى فعل واحدًا من هذه الثلاثة؛ فقد انحلت يمينه. ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ واحدًا من هذه الثلاثة، ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ﴾: المذكور ﴿كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾: تكفرها وتمحوها وتمنع من الإثم، ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾: عن الحلف بالله كاذبًا وعن كثرة الأيمان، واحفظوها إذا حلفتم عن الحنث فيها؛ إلا إذا كان الحنث خيرًا؛ فتمام الحفظ أن يفعل الخير، ولا يكون يمينه عرضةً لذلك الخير.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾: المبينة للحلال من الحرام، الموضحة للأحكام. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾: الله؛ حيث علمكم ما لم تكونوا تعلمون؛ فعلى العبد شكر الله تعالى على ما مَنَّ به عليه من معرفة الأحكام الشرعية وتبيينها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿٩٠﴾، ﴿٩١﴾ يذم تعالى هذه الأشياء القبيحة، ويخبر أنها من عمل الشيطان، وأنها رجس؛ ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾؛ أي: اتركوه، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾؛ فإن الفلاح لا يتم إلا بترك ما حرم الله، خصوصًا هذه الفواحش المذكورة، وهي الخمر، وهي كل ما خامر العقل؛ أي: غطاه بسكره، والميسر، وهو جميع المغالبات التي فيها عوض من الجانبين؛ كالمراهنة ونحوها، والأنصاب، وهي[3] الأصنام والأنداد ونحوها مما ينصب ويعبد من دون الله، والأزلام التي يستقسمون بها. فهذه الأربعة نهى الله عنها، وزجر، وأخبر عن مفاسدها الداعية إلى تركها واجتنابها:

فمنها: أنها رجس؛ أي: نجس، خبث معنى، وإن لم تكن نجسة حسًّا، والأمور الخبيثة مما ينبغي اجتنابها وعدم التدنس بأوضارها.

ومنها: أنها من عمل الشيطان الذي هو أعدى الأعداء للإنسان، ومن المعلوم أن العدو يحذر منه وتحذر مصايده

(١) ع، ط: «فتجمعون».
(٢) ط: «اليمين».
(٣) ع: «التي هي».

وأعماله، خصوصًا الأعمال التي يعملها ليوقع فيها عدوه؛ فإنها فيها هلاكه؛ فالحزم كل الحزم البعد عن عمل العدو المبين، والحذر منها، والخوف من الوقوع فيها.

ومنها: أنه لا يمكن الفلاح للعبد إلا باجتنابها؛ فإن الفلاح هو الفوز بالمطلوب المحبوب والنجاة من المرهوب، وهذه الأمور مانعة من الفلاح ومعوقة له.

ومنها: أن هذه موجبة للعداوة والبغضاء بين الناس، والشيطان حريص على بثها، خصوصًا الخمر والميسر؛ ليوقع بين المؤمنين العداوة والبغضاء فإن في الخمر من انقلاب العقل وذهاب حجاه ما يدعو إلى البغضاء بينه وبين إخوانه المؤمنين، خصوصًا إذا اقترن بذلك من الأسباب[١] ما هو من لوازم شارب الخمر؛ فإنه ربما أوصل إلى القتل، وما في الميسر من غلبة أحدهما للآخر وأخذ ماله الكثير في غير مقابلة ما هو من أكبر الأسباب للعداوة والبغضاء.

ومنها: أن هذه الأشياء تصد القلب وتبعد[٢] البدن عن ذكر الله وعن الصلاة اللذين خلق لهما العبد وبهما سعادته؛ فالخمر والميسر يصدانه عن ذلك أعظم صد، ويشتغل قلبه ويذهل لبه في الاشتغال بهما، حتى يمضي عليه مدة طويلة وهو لا يدري أين هو؛ فأي معصية أعظم وأقبح من معصية تدنس صاحبها، وتجعله من أهل الخبث، وتوقعه في أعمال الشيطان وشباكه فينقاد له كما تنقاد البهيمة الذليلة لراعيها، وتحول بين العبد وبين فلاحه، وتوقع العداوة والبغضاء بين المؤمنين، وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة؛ فهل فوق هذه المفاسد شيء أكبر منها؟!

ولهذا عرض تعالى على العقول السليمة النهي عنها عرضًا بقوله: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١) ﴾؛ لأن العاقل إذا نظر إلى بعض تلك المفاسد؛ انزجر عنها، وكفت نفسه، ولم يحتج إلى وعظ كثير ولا زجر بليغ.

﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ (٩٢) ﴾.

(٩٢) طاعة الله وطاعة رسوله واحدة؛ فمن أطاع الله فقد أطاع الرسول، ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله، وذلك شامل للقيام بما أمر الله به ورسوله من الأعمال والأقوال

(١) ع، ط: «السباب».
(٢) ع، ط: «ويتبعه».

الجزء السابع — سورة المائدة

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١) وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ (٩٢) لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ (٩٣) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ (٩٥)

١٢٣

الظاهرة والباطنة، الواجبة والمستحبة، المتعلقة بحقوق الله وحقوق خلقه، والانتهاء عما نهى الله ورسوله عنه كذلك، وهذا الأمر أعم الأوامر؛ فإنه كما ترى يدخل فيه كل أمر ونهي ظاهر وباطن. وقوله: ﴿ وَٱحْذَرُوا۟ ﴾؛ أي: من معصية الله ومعصية رسوله؛ فإن في ذلك الشر والخسران المبين. ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾: عما أمرتم به ونهيتم عنه، ﴿ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ (٩٢) ﴾: وقد أدى ذلك؛ فإن اهتديتم فلأنفسكم، وإن أسأتم فعليها، والله هو الذي يحاسبكم، والرسول قد أدى ما عليه، وما حمل به.

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ (٩٣) ﴾.

(٩٣) لما نزل تحريم الخمر والنهي الأكيد والتشديد فيه؛ تمنى أناس من المؤمنين أن يعلموا حال إخوانهم الذين ماتوا على الإسلام قبل تحريم الخمر وهم يشربونها، فأنزل الله هذه الآية، وأخبر تعالى أنه ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ﴾؛ أي: حرج وإثم ﴿فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾: من الخمر والميسر قبل تحريمهما. ولما كان نفي الجناح يشمل المذكورات وغيرها؛ قيد ذلك بقوله: ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: بشرط أنهم تاركون للمعاصي مؤمنون بالله إيمانًا صحيحًا موجبًا لهم عمل الصالحات، ثم استمروا على ذلك، وإلا فقد يتصف العبد بذلك في وقت دون آخر، فلا يكفي حتى يكون كذلك، حتى يأتيه أجله ويدوم على إحسانه؛ فإن الله يحب المحسنين في عبادة الخالق، المحسنين في نفع العبيد. ويدخل في هذه الآية الكريمة من طعم المحرم أو فعل غيره بعد التحريم ثم اعترف بذنبه، وتاب إلى الله، واتقى[1]، وعمل صالحًا؛ فإن الله يغفر له، ويرتفع عنه الإثم في ذلك.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٩٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ٩٥ أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِۖ وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٩٦﴾.

﴿٩٤﴾ هذا من منن الله على عباده أن أخبرهم بما سيفعل قضاءً وقدرًا ليطيعوه ويقدموا على بصيرة ويهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: لا بد أن يختبر الله إيمانكم، ﴿لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ﴾؛ أي: شيء غير كثير، فتكون محنةً يسيرةً؛ تخفيفًا منه تعالى ولطفًا، وذلك الصيد الذي يبتليكم الله به ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ﴾؛ أي: تتمكنون من صيده؛ ليتم بذلك الابتلاء؛ لا غير مقدور عليه بيد ولا رمح فلا يبقى للابتلاء فائدة. ثم ذكر الحكمة في ذلك الابتلاء، فقال: ﴿لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ﴾: علمًا ظاهرًا للخلق يترتب عليه الثواب والعقاب، ﴿مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ﴾: فيكف عما نهى الله عنه، مع قدرته عليه وتمكنه، فيثيبه الثواب الجزيل، ممن لا يخافه بالغيب، فلا يرتدع عن معصية تعرض له، فيصطاد ما تمكن منه. ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ﴾: منكم بعد ذلك البيان الذي قطع الحجج وأوضح السبيل، ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٩٤﴾؛ أي: مؤلم موجع، لا يقدر على وصفه إلا الله؛ لأنه لا عذر لذلك المعتدي، والاعتبار بمن يخافه بالغيب وعدم حضور الناس عنده، وأما إظهار مخافة الله عند الناس؛ فقد يكون ذلك لأجل مخافة الناس، فلا يثاب على ذلك.

﴿٩٥﴾ ثم صرح بالنهي عن قتل الصيد في حال الإحرام، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞ﴾؛ أي: محرمون في الحج والعمرة، والنهي عن قتله يشمل النهي عن مقدمات القتل وعن المشاركة في القتل والدلالة عليه والإعانة على قتله، حتى إن من تمام ذلك أنه ينهى المحرم عن أكل ما قتل أو صيد لأجله، وهذا كله تعظيم لهذا النسك العظيم؛ أنه يحرم على المحرم قتل وصيد ما كان حلالًا له قبل الإحرام. وقوله: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا﴾؛ أي: قتل صيدًا عمدًا، فعليه جزاء ﴿مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾؛ أي: الإبل أو البقر أو الغنم، فينظر ما يشبهه[2] من ذلك، فيجب عليه مثله، يذبحه ويتصدق به، والاعتبار بالمماثلة[3]، ﴿يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾؛ أي: عدلان يعرفان الحكم ووجه الشبه؛ كما فعل الصحابة رضي الله عنهم؛ حيث قضوا بالحمامة شاة، وفي النعامة بدنة، وفي بقر الوحش على اختلاف أنواعه بقرة، وهكذا كل ما يشبه شيئًا من النعم؛ ففيه مثله، فإن لم يشبه شيئًا؛ ففيه قيمته كما هو القاعدة في المتلفات، وذلك الهدي لا بد أن يكون ﴿هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ﴾؛ أي: يذبح في الحرم، ﴿أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾؛ أي: كفارة ذلك الجزاء[4] طعام مساكين؛ أي: يجعل مقابلة المثل من النعم طعام يطعم المساكين. قال كثير من العلماء: يقوَّم الجزاء، فيشترى بقيمته طعام، فيطعم كل مسكين مُدَّ بُرٍّ أو نصف صاع من غيره، ﴿أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ﴾ الطعام ﴿صِيَامٗا﴾؛ أي: يصوم عن إطعام كل مسكين يومًا، ﴿لِّيَذُوقَ﴾ بإيجاب الجزاء المذكور عليه وبال أمره، ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ﴾ بعد ذلك ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ٩٥﴾.

وإنما نص الله على المتعمد لقتل الصيد، مع أن الجزاء يلزم المتعمد والمخطئ كما هو القاعدة الشرعية: أن المتلف

(١) بعده في ع، ط: «وآمن».

(٢) ع، ط: «يشبه شيئًا».
(٣) بعده في ع: «أن».
(٤) الأصل، ع: «الجزائي».

للنفوس والأموال المحترمة؛ فإنه يضمنها على أي حال كان إذا كان إتلافه بغير حق؛ لأن الله رتب عليه الجزاء والعقوبة والانتقام، وهذا للمتعمد، وأما المخطئ؛ فليس عليه عقوبة، إنما عليه الجزاء. [هذا قول جمهور العلماء، والصحيح ما صرحت به الآية: أنه لا جزاء على غير المتعمد؛ كما لا إثم عليه][1].

﴿٩٦﴾ ولما كان الصيد يشمل الصيد البري والبحري؛ استثنى تعالى الصيد البحري، فقال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ﴾؛ أي: أحل لكم في حال إحرامكم ﴿صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾: وهو الحي من حيواناته، ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾: وهو الميت منها، فدل ذلك على حل ميتة البحر، ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾؛ أي: الفائدة في إباحته لكم أنه لأجل انتفاعكم وانتفاع رفقتكم الذين يسيرون معكم، ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾: ويؤخذ من لفظ الصيد أنه لا بد أن يكون وحشيًّا؛ لأن الإنسي ليس بصيد، ومأكولًا؛ فإن غير المأكول لا يصاد ولا يطلق عليه اسم الصيد. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾؛ أي: اتقوه بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه، واستعينوا على تقواه بعلمكم أنكم إليه تحشرون، فيجازيكم؛ هل قمتم بتقواه فيثيبكم الثواب الجزيل، أم لم تقوموا فيعاقبكم؟

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿٩٧﴾ يخبر تعالى أنه جعل ﴿ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾: يقوم بالقيام بتعظيمه دينهم ودنياهم؛ فبذلك يتم إسلامهم، وبه تحط أوزارهم، وتحصل لهم بقصده العطايا الجزيلة والإحسان الكثير، وبسببه تنفق الأموال وتقتحم من أجله الأهوال، ويجتمع فيه من كل فج عميق جميع

(١) ما بين المعقوفين ورد في ع: «هذا جواب الجمهور عن هذا القيد الذي ذكره الله وطائفة من أهل العلم يرون تخصيص الجزاء بالمتعمد وهو ظاهر الآية، والفرق بين هذا وبين التضمين في الخطأ في النفوس والأموال أن هذا الموضع الحق فيه لله، فكما لا إثم لا جزاء لا في نفوس الآدميين وأموالهم».

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ
عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ
قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟
أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ
شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا
تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ
وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟
عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ
ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ
سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾
مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾

أجناس المسلمين، فيتعارفون، ويستعين بعضهم ببعض، ويتشاورون على المصالح العامة، وتنعقد بينهم الروابط في مصالحهم الدينية والدنيوية؛ قال تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الحج: ٢٨]: ومن أجل كون البيت قيامًا للناس قال من قال من العلماء: إن حج بيت الله فرض كفاية في كل سنة؛ فلو ترك الناس حجه؛ لأثم كل قادر، بل لو ترك الناس حجه؛ لزال ما به قوامهم وقامت القيامة. وقوله: ﴿وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾؛ أي: وكذلك جعل الهدي والقلائد التي هي أشرف أنواع الهدي قيامًا للناس ينتفعون بهما، ويثابون عليهما. ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾: فمن علمه أن جعل لكم هذا البيت الحرام لما يعلمه من مصالحكم الدينية والدنيوية.

﴿٩٨﴾ ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾؛ أي: ليكن هذان العلمان موجودين في

قلوبكم على وجه الجزم واليقين؛ تعلمون أنه شديد العقاب العاجل والآجل على من عصاه، وأنه غفور رحيم لمن تاب إليه وأطاعه، فيثمر لكم هذا العلم الخوف من عقابه والرجاء لمغفرته وثوابه، وتعملون على ما يقتضيه الخوف والرجاء.

(٩٩) ثم قال تعالى: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾: وقد بلغ كما أمر وقام بوظيفته وما سوى ذلك؛ فليس له من الأمر شيء. ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٩٩) ﴾: فيجازيكم بما يعلمه تعالى منكم.

﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠٠) ﴾.

(١٠٠) أي: ﴿ قُل ﴾ للناس محذرًا عن الشر ومرغبًا في الخير: ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ ﴾: من كل شيء؛ فلا يستوي الإيمان والكفر، ولا الطاعة والمعصية، ولا أهل الجنة وأهل النار، ولا الأعمال الخبيثة والأعمال الطيبة، ولا المال الحرام بالمال الحلال، ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾: فإنه لا ينفع صاحبه شيئًا، بل يضره في دينه ودنياه، ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠٠) ﴾: فأمر أولي الألباب؛ أي: أهل العقول الوافية والآراء الكاملة؛ فإن الله تعالى يوجه إليهم الخطاب، وهم الذين يؤبه لهم ويرجى أن يكون فيهم خير، ثم أخبر أن الفلاح متوقف على التقوى التي هي موافقة الله في أمره ونهيه؛ فمن اتقاه؛ أفلح كل الفلاح، ومن ترك تقواه؛ حصل له الخسران، وفاتته الأرباح.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ (١٠٢) ﴾.

(١٠١) ينهى عباده المؤمنين عن سؤال الأشياء التي إذا بينت لهم ساءتهم وأحزنتهم، وذلك كسؤال بعض المسلمين لرسول الله ﷺ عن آبائهم وعن حالهم في الجنة أو النار، فهذا ربما أنه لو بين للسائل؛ لم يكن له فيه خير، وكسؤالهم للأمور غير الواقعة، وكالسؤال الذي يترتب عليه تشديدات في الشرع ربما أحرجت الأمة، وكالسؤال عما لا يعني؛ فهذه الأسئلة وما أشبهها هي المنهي عنها، وأما السؤال الذي لا يترتب عليه شيء من ذلك؛ فهو مأمور به؛ كما قال تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) ﴾ [النحل: ٤٣]. ﴿ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾؛ أي: وإذا وافق سؤالكم محله، فسألتم عنها حين ينزل عليكم القرآن، فتسألون عن آية أشكلت أو حكم خفي وجهه عليكم في وقت يمكن فيه نزول الوحي من السماء، ﴿ تُبْدَ لَكُمْ ﴾؛ أي: تبين لكم وتظهر، وإلا؛ فاسكتوا عما سكت الله عنه. ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ﴾؛ أي: سكت معافيًا لعباده منها؛ فكل ما سكت الله عنه؛ فهو مما أباحه وعفا عنه. ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) ﴾؛ أي: لم يزل بالمغفرة موصوفًا وبالحلم والإحسان معروفًا، فتعرضوا لمغفرته وإحسانه، واطلبوه من رحمته ورضوانه.

(١٠٢) وهذه المسائل التي نهيتم عنها، ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ﴾؛ أي: جنسها وشبهها سؤال تعنت لا استرشاد، فلما بينت لهم وجاءتهم، ﴿ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ (١٠٢) ﴾؛ كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «ما نهيتكم عنه؛ فاجتنبوه، وما أمرتكم به؛ فأتوا منه ما استطعتم؛ فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم»[1].

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٠٤) ﴾.

(١٠٣) هذا ذم للمشركين الذين شرعوا في الدين ما لم يأذن به الله وحرموا ما أحله الله، فجعلوا بآرائهم الفاسدة شيئًا من مواشيهم محرمًا على حسب اصطلاحاتهم التي عارضت ما أنزل الله، فقال: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ ﴾: وهي ناقة يشقون أذنها ثم يحرمون ركوبها ويرونها محترمة، ﴿ وَلَا سَآئِبَةٍ ﴾: وهي ناقة أو بقرة أو شاة إذا بلغت شيئًا اصطلحوا عليه؛ سيبوها فلا تركب ولا يحمل عليها ولا تؤكل، وبعضهم ينذر شيئًا من ماله يجعله سائبةً، ﴿ وَلَا حَامٍ ﴾؛ أي: جمل يحمى ظهره عن الركوب والحمل إذا وصل إلى حالة معروفة بينهم؛ فكل هذه مما جعلها المشركون محرمةً بغير دليل ولا برهان، وإنما ذلك افتراء على الله وصادرة من جهلهم وعدم عقلهم. ولهذا قال: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٣) ﴾: فلا نقل فيها ولا عقل.

(١) البخاري (٧٢٨٨)، مسلم (١٣٣٧).

(١٠٤) ومع هذا؛ فقد أعجبوا بآرائهم التي بنيت على الجهالة والظلم؛ فإذا دعوا ﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾: أعرضوا فلم يقبلوا، و﴿قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾: من الدين، ولو كان غير سديد ولا دينًا ينجي من عذاب الله، ولو كان في آبائهم كفاية ومعرفة ودراية؛ لهان الأمر، ولكن آباءهم لا يعقلون شيئًا؛ أي: ليس عندهم من المعقول شيء ولا من العلم والهدى شيء؛ فتبًّا لمن قلد من لا علم عنده صحيح ولا عقل رجيح، وترك اتباع ما أنزل الله واتباع رسله الذي يملأ القلوب علمًا وإيمانًا وهدًى وإيقانًا.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) ﴾.

(١٠٥) يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾؛ أي: اجتهدوا في إصلاحها وكمالها وإلزامها سلوك الصراط المستقيم؛ فإنكم إذا صلحتم؛ لا يضركم من ضل عن الصراط المستقيم ولم يهتد إلى الدين القويم، وإنما يضر نفسه. ولا يدل هذا على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يضر العبد تركهما وإهمالهما؛ فإنه لا يتم هداه إلا بالإتيان بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، نعم؛ إذا كان عاجزًا عن إنكار المنكر بيده ولسانه وأنكره بقلبه؛ فإنه لا يضره ضلال غيره. وقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾؛ أي: مآلكم يوم القيامة واجتماعكم بين يدي الله تعالى، ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)﴾: من خير وشر.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ (١٠٦) فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٠٧) ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ (١٠٨) ﴾

الجزء السابع — سورة المائدة

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٠٤) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ (١٠٦) فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٠٧) ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ (١٠٨)

١٢٥

(١٠٦) يخبر تعالى خبرًا متضمنًا للأمر بإشهاد اثنين على الوصية إذا حضر الإنسان مقدمات الموت وعلائمه، فينبغي له أن يكتب وصيته، ويشهد عليها اثنين ذوي عدل ممن يعتبر شهادتهما، ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾؛ أي: من غير أهل دينكم من اليهود أو النصارى أو غيرهم، وذلك عند الحاجة والضرورة وعدم غيرهما من المسلمين ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: سافرتم فيها، ﴿فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾؛ أي: فأشهدوهما، ولم يأمر بإشهادهما إلا لأن قولهما في تلك الحال مقبول، ويؤكد عليهما بأن يحبسا ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾: التي يعظمونها، ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾: أنهما صدقا وما غيرا ولا بدّلا هذا، ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾: في شهادتهما؛ فإن صدقتموهما[1]؛ فلا حاجة إلى القسم بذلك. ويقولان: ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِۦ﴾؛ أي: بأيماننا ﴿ثَمَنًا﴾: بأن نكذب فيها لأجل عرض من الدنيا، ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾: فلا نراعيه لأجل قربه منا، ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾: بل نؤديها على ما سمعناها، ﴿إِنَّآ إِذًا﴾؛ أي: إن كتمناها ﴿لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ (١٠٦)﴾.

(١) ط: «صدقتموها».

(١٠٧) ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ﴾؛ أي: الشاهدين ﴿ ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا ﴾: بأن وجد من القرائن ما يدل على كذبهما وأنهما خانا، ﴿ فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ ﴾؛ أي: فليقم رجلان من أولياء الميت، وليكونا من أقرب الأولياء إليه، ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا ﴾؛ أي: أنهما كذبا وغيرا وخانا. ﴿ وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ (١٠٧) ﴾؛ أي: إن ظلمنا، واعتدينا، وشهدنا بغير الحق.

(١٠٨) قال الله تعالى في بيان حكمة تلك الشهادة وتأكيدها وردها على أولياء الميت حين تظهر من الشاهدين الخيانة: ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ ﴾؛ أي: أقرب ﴿ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ ﴾: حين تؤكد عليهما تلك التأكيدات ﴿ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ﴾؛ أي: ألَّا تقبل أيمانهم ثم ترد على أولياء الميت ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ (١٠٨) ﴾: أي: الذين وصفهم الفسق؛ فلا يريدون الهدى والقصد إلى الصراط المستقيم.

وحاصل هذا أن الميت إذا حضره الموت في سفر ونحوه مما هو مظنة قلة الشهود المعتبرين: أنه ينبغي أن يوصي بشاهدين مسلمين عدلين؛ فإن لم يجد إلا شاهدين كافرين؛ جاز أن يوصي إليهما، ولكن لأجل كفرهما؛ فإن الأولياء إذا ارتابوا بهما؛ فإنهم يحلفونهما بعد الصلاة أنهما ما خانا ولا كذبا ولا غيرا ولا بدلا، فيبرآن بذلك من حق يتوجه إليهما؛ فإن لم يصدقوهما ووجدوا قرينةً تدل على كذب الشاهدين؛ فإن شاء أولياء الميت؛ فليقم منهم اثنان، فيقسمان بالله لشهادتهما أحق من شهادة الشاهدين الأولين، وأنهما خانا وكذبا، فيستحقون منهما ما يدعون.

وهذه الآيات الكريمة نزلت في قصة تميم الداري وعدي بن بَدَّاء المشهورة[1]، حين أوصى لهما العدوي. والله أعلم.

ويستدل بالآيات الكريمات على عدة أحكام:

منها: أن الوصية مشروعةٌ، وأنه ينبغي لمن حضره الموت أن يوصي.

ومنها: أنها معتبرة ولو كان الإنسان وصل إلى مقدمات الموت وعلاماته ما دام عقله ثابتًا.

(١) البخاري (٢٧٨٠).

ومنها: أن شهادة الوصية لا بد فيها من اثنين عدلين.

ومنها: أن شهادة الكافرين في هذه الوصية ونحوها مقبولة لوجود الضرورة. وهذا مذهب الإمام أحمد. وزعم كثير من أهل العلم أن هذا الحكم منسوخ، وهذه دعوى لا دليل عليها.

ومنها: أنه ربما استفيد من تلميح الحكم ومعناه، أن شهادة الكفار عند عدم غيرهم حتى في غير هذه المسألة مقبولة؛ كما ذهب إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية.

ومنها: جواز سفر المسلم مع الكافر إذا لم يكن محذور.

ومنها: جواز السفر للتجارة.

ومنها: أن الشاهدين إذا ارتيب منهما، ولم تبد قرينة تدل على خيانتهما، وأراد الأولياء أن يؤكدوا عليهم اليمين، ويحبسوهما من بعد الصلاة، فيقسمان بصفة ما ذكر الله تعالى.

ومنها: أنه إذا لم تحصل تهمة ولا ريب؛ لم يكن حاجة إلى حبسهما وتأكيد اليمين عليهما.

ومنها: تعظيم أمر الشهادة؛ حيث أضافها تعالى إلى نفسه، وأنه يجب الاعتناء بها والقيام بها بالقسط.

ومنها: أنه يجوز امتحان الشاهدين عند الريبة منهما وتفريقهما لينظر عن شهادتهما.

ومنها: أنه إذا وجدت القرائن الدالة على كذب الوصيين في هذه المسألة؛ قام اثنان من أولياء الميت، فأقسما بالله أن أيماننا أصدق من أيمانهما ولقد خانا وكذبا، ثم يدفع إليهما ما ادعياه، وتكون القرينة مع أيمانهما قائمة مقام البينة.

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ (١٠٩) إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١١٠) ﴾.

(١٠٩) يخبر تعالى عن يوم القيامة وما فيه من الأهوال العظام، وأن الله يجمع به جميع الرسل، فيسألهم: ﴿ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾؛ أي: ماذا أجابتكم به أممكم؟ ﴿ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ ﴾: وإنما العلم لك يا ربنا؛ فأنت أعلم منا. ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ (١٠٩) ﴾؛ أي: تعلم الأمور الغائبة والحاضرة.

(١١٠) ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ ﴾؛ أي: اذكرها بقلبك ولسانك، وقم بواجبها شكرًا لربك، حيث أنعم عليك نعمًا ما أنعم بها على غيرك، ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾؛ أي: إذ قويتك بالروح والوحي الذي طهرك وزكاك وصار لك قوة على القيام بأمر الله والدعوة إلى سبيله. وقيل: إن المراد بروح القدس جبريل عليه السلام، وإن الله أعانه به وبملازمته له وتثبيته في المواطن المشقة، ﴿ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾: المراد بالتكليم هنا غير التكليم المعهود الذي هو مجرد الكلام، وإنما المراد بذلك التكليم الذي ينتفع به المتكلم والمخاطب، وهو الدعوة إلى الله، ولعيسى عليه السلام من ذلك ما لإخوانه من أولي العزم من المرسلين من التكليم في حال الكهولة بالرسالة والدعوة إلى الخير والنهي عن الشر، وامتاز عنهم بأنه كلم الناس في المهد، فقال: ﴿ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) ﴾ الآية [مريم: ٣٠، ٣١].

﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾؛ فالكتاب: يشمل الكتب السابقة، وخصوصًا التوراة؛ فإنه من أعلم أنبياء بني إسرائيل بعد موسى بها، ويشمل الإنجيل الذي أنزله الله عليه. والحكمة: هي معرفة أسرار الشرع وفوائده وحكمه وحسن الدعوة والتعليم ومراعاة ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي. ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ ﴾؛ أي: طيرًا مصورًا لا روح فيه، ﴿ فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ ﴾: الذي لا بصر له ولا عين، ﴿ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ﴾: فهذه آيات بينات ومعجزات باهرات يعجز عنها الأطباء وغيرهم أيد الله بها عيسى وقوى بها دعوته. ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ ﴾؛ لما جاءهم الحق مؤيدًا بالبينات الموجبة للإيمان به: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١١٠) ﴾: وهموا بعيسى أن يقتلوه وسعوا في ذلك فكف الله أيديهم عنه، وحفظه منهم، وعصمه.

۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ
لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ (١٠٩) إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ
ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ
ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ
ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ
مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا
بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ
ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ
جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ
مُّبِينٌ (١١٠) وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِي
وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١) إِذْ قَالَ
ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن
يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا
وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (١١٣)

فهذه منن امتن الله بها على عبده ورسوله عيسى ابن مريم ودعاه إلى شكرها والقيام بها، فقام بها عليه الصلاة(١)، أتم القيام، وصبر كما صبر إخوانه من أولي العزم.

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١) إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ (١١٤) قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ (١١٥) وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ

(١) ط: «السلام»، وليس ذلك سقطًا، وإنما طريق لبعض القدماء يكتفون فيها بالصلاة دون التسليم. تدريب الراوي ٢/ ٧٦.

قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ
خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ
مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾
وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى
وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ
أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى
نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا
قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ
عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ
عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ
وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ
يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ
خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾
لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾

مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

﴿١١١﴾ - ﴿١٢٠﴾ أي: واذكر نعمتي عليك إذ يسرت لك أتباعًا وأعوانًا، فأوحيت إلى الحواريين؛ أي: ألهمتهم وأوزعت قلوبهم الإيمان بي وبرسولي، أو أوحيت إليهم على لسانك؛ أي: أمرتهم بالوحي الذي جاءك من عند الله، فأجابوا لذلك وانقادوا وقالوا: ﴿ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾، فجمعوا بين الإسلام الظاهر والانقياد بالأعمال الصالحة والإيمان الباطن المخرج لصاحبه من النفاق ومن ضعف الإيمان. والحواريون هم الأنصار؛ ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٤].

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: مائدة فيها طعام، وهذا ليس منهم عن شك في قدرة الله واستطاعته على ذلك وإنما ذلك من باب العرض والأدب منهم، ولما كان سؤال آيات الاقتراح منافيًا للانقياد للحق وكان هذا الكلام الصادر من الحواريين ربما أوهم ذلك؛ وعظهم عيسى عليه السلام فقال: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾؛ فإن المؤمن يحمله ما معه من الإيمان على ملازمة التقوى، وأن ينقاد لأمر الله، ولا يطلب من آيات الاقتراح التي لا يدري ما يكون بعدها.

فأخبر الحواريون أنهم ليس مقصودهم هذا المعنى، وإنما لهم مقاصد صالحة ولأجل الحاجة إلى ذلك، فقالوا: ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾: وهذا دليل على أنهم محتاجون لها، ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾: بالإيمان حين نرى الآيات العيانية، حتى يكون الإيمان عين اليقين[1]؛ كما سأل الخليل عليه الصلاة والسلام ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠]: فالعبد محتاج إلى زيادة العلم واليقين والإيمان كل وقت، ولهذا قال: ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾؛ أي: نعلم صدق ما جئت به أنه حق وصدق، ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾: فتكون مصلحة لمن بعدنا، نشهدها لك، فتقوم الحجة، ويحصل زيادة البرهان بذلك.

فلما سمع عيسى عليه الصلاة والسلام ذلك وعلم مقصودهم؛ أجابهم إلى طلبهم في ذلك، فقال: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ﴾؛ أي: يكون وقت نزولها عيدًا وموسمًا يتذكر به هذه الآية العظيمة، فتحفظ ولا تنسى على مرور الأوقات وتكرر السنين؛ كما جعل الله تعالى أعياد المسلمين

(١) زاد في ع، ط: «كما كان قبل ذلك علم اليقين».

ومناسكهم مذكرة[1] لآياته، ومنبهة[2] على سنن المرسلين وطرقهم القويمة وفضله وإحسانه عليهم، ﴿وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾؛ أي: اجعلها لنا رزقًا. فسأل عيسى عليه السلام نزولها وأن تكون لهاتين المصلحتين: مصلحة الدين بأن تكون آيةً باقيةً، ومصلحة الدنيا، وهي أن تكون رزقًا.

﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾: لأنه شاهد الآية الباهرة وكفر عنادًا وظلمًا، فاستحق العذاب الأليم والعقاب الشديد.

واعلم أن الله تعالى وعد أنه سينزلها، وتوعدهم إن كفروا بهذا الوعيد، ولم يذكر أنه أنزلها: فيحتمل أنه لم ينزلها بسبب أنهم لم يختاروا ذلك، ويدل على ذلك أنه لم يذكر في الإنجيل الذي بأيدي النصارى ولا له وجود. ويحتمل أنها نزلت كما وعد الله، وأنه لا يخلف الميعاد، ويكون عدم ذكرها في الأناجيل التي بأيديهم من الحظ الذي ذكروا به فنسوه، أو أنه لم يذكر في الإنجيل أصلًا، وإنما ذلك كان متوارثًا بينهم، ينقله الخلف عن السلف، فاكتفى الله بذلك عن ذكره في الإنجيل، ويدل على هذا المعنى قوله: ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾. والله أعلم بحقيقة الحال.

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: وهذا توبيخ للنصارى الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة! فيقول الله هذا الكلام لعيسى، فيتبرأ عيسى، ويقول: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾: عن هذا الكلام القبيح وعما لا يليق بك، ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾؛ أي: ما ينبغي لي ولا يليق أن أقول شيئًا ليس من أوصافي ولا من حقوقي؛ فإنه ليس أحد من المخلوقين؛ لا الملائكة المقربون، ولا الأنبياء المرسلون، ولا غيرهم له حق ولا استحقاق لمقام الإلهية، وإنما الجميع عباد مدبرون وخلق مسخرون وفقراء عاجزون. ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾: فأنت أعلم بما صدر مني لأنك وأنت علام الغيوب، وهذا من كمال أدب المسيح عليه الصلاة والسلام في خطابه لربه، فلم يقل عليه السلام: لم أقل شيئًا من ذلك، وإنما أخبر بكلام ينفي عن نفسه أن يقول كل مقالة تنافي منصبه الشريف، وأن هذا من الأمور المحالة، ونزه ربه عن ذلك أتم تنزيه، ورد العلم إلى عالم الغيب والشهادة.

ثم صرح بذكر ما أمر به بني إسرائيل، فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾: فأنا عبد متبع لأمرك لا متجرئ على عظمتك، ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾؛ أي: ما أمرتهم إلا بعبادة الله وحده وإخلاص الدين له المتضمن للنهي عن اتخاذي وأمي إلهين من دون الله وبيان أني عبد مربوب؛ فكما أنه ربكم فهو ربي، ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾: أشهد على من قام بهذا الأمر ممن لم يقم به. ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: المطلع على سرائرهم وضمائرهم، ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾: علمًا وسمعًا وبصرًا؛ فعلمك قد أحاط بالمعلومات وسمعك بالمسموعات وبصرك بالمبصرات؛ فأنت الذي تجازي عبادك بما تعلمه فيهم من خير وشر.

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾: وأنت أرحم بهم من أنفسهم وأعلم بأحوالهم؛ فلولا أنهم عباد متمردون؛ لم تعذبهم، ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: فمغفرتك صادرة عن تمام عزة وقدرة، لا كمن يغفر ويعفو عن عجز وعدم قدرة، ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾: حيث كان من مقتضى حكمتك أن تغفر لمن أتى بأسباب المغفرة.

﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾ مبينًا لحال عباده يوم القيامة ومَن الفائز منهم ومَن الهالك ومن الشقي ومن السعيد: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾: والصادقون هم الذين استقامت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم على الصراط المستقيم والهدي القويم؛ فيوم القيامة يجدون ثمرة ذلك الصدق إذا أحلهم الله في مقعد صدق عند مليك مقتدر. ولهذا قال: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾، والكاذبون بضدهم سيجدون ضرر كذبهم وافترائهم وثمرة أعمالهم الفاسدة.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾: لأنه الخالق لهما والمدبر لذلك بحكمه القدري وحكمه الشرعي وحكمه الجزائي. ولهذا قال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾: فلا يعجزه شيء بل جميع الأشياء منقادة لمشيئته ومسخرة بأمره.

تم تفسير سورة المائدة بفضل من الله وإحسان.

والحمد لله رب العالمين.



---

(١) ع، ط: «مذكرًا».
(٢) ع، ط: «ومنبهًا».

سُورَةُ الأَنْعَامِ — آياتها ١٦٥ — ترتيبها ٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ
وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى
خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ
تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ
وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ
ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ
لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ
يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ
نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ
تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا
ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ
لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ
عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾

تفسير سورة الأنعام

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ ﴾.

﴿١﴾ هذا إخبار عن حمده والثناء عليه بصفات الكمال ونعوت العظمة والجلال عمومًا وعلى هذه المذكورات خصوصًا؛ فحمد نفسه على خلقه السماوات والأرض الدالة على كمال قدرته وسعة علمه ورحمته وعموم حكمته وانفراده بالخلق والتدبير، وعلى جعله الظلمات والنور، وذلك شامل للحسي من ذلك؛ كالليل والنهار والشمس والقمر، والمعنوي؛ كظلمات الجهل والشك والشرك والمعصية والغفلة ونور العلم والإيمان واليقين والطاعة، وهذا كله يدل دلالة قاطعة أنه تعالى هو المستحق للعبادة وإخلاص الدين له، ومع هذا الدليل ووضوح البرهان: ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾؛ أي: يعدلون به سواه؛ يسوونهم به في العبادة والتعظيم، مع أنهم لم يساووا الله في شيء من الكمال، وهم فقراء عاجزون ناقصون من كل وجه.

﴿٢﴾ ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ﴾: وذلك بخلق مادتكم وأبيكم آدم عليه السلام. ﴿ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ﴾؛ أي: ضرب لمدة إقامتكم في هذه الدار أجلًا تتمتعون به، وتمتحنون، وتبتلون بما يرسل إليهم به رسله؛ ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود: ٧]، ويعمركم، ما يتذكر فيه من تذكر. ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ﴾: وهي الدار الآخرة التي ينتقل العباد إليها من هذه الدار، فيجازيهم بأعمالهم من خير وشر، ﴿ ثُمَّ ﴾: مع هذا البيان التام وقطع الحجة ﴿ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ ﴾؛ أي: تشكون في وعد الله ووعيده ووقوع الجزاء يوم القيامة.

وذكر الله الظلمات بالجمع لكثرة موادها وتنوع طرقها، ووحد النور لكون الصراط الموصلة إلى الله واحدةً لا تعدد فيها، وهي الصراط المتضمنة للعلم بالحق والعمل به؛ كما قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿٣﴾ أي: وهو المألوه المعبود، ﴿ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ﴾: فأهل السماء والأرض متعبدون لربهم خاضعون لعظمته مستكينون لعزه وجلاله؛ الملائكة المقربون والأنبياء والمرسلون والصديقون والشهداء والصالحون. وهو تعالى ﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾: فاحذروا معاصيه وارغبوا في الأعمال التي تقربكم منه، وتدنيكم من رحمته، واحذروا من كل عمل يبعدكم منه ومن رحمته.

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم

﴿مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ٦﴾.

(٤) هذا إخبار منه تعالى عن إعراض المشركين وشدة تكذيبهم وعداوتهم، وأنهم لا تنفع فيهم الآيات حتى تحل بهم المثلات، فقال: ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾: الدالة على الحق دلالة قاطعة، الداعية لهم إلى اتباعه وقبوله، ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ٤﴾: لا يلقون لها بالًا ولا يصغون لها سمعًا، قد انصرفت قلوبهم إلى غيرها، وولوها أدبارهم.

(٥) ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾: والحق حقه أن يتبع ويشكر الله على تيسيره لهم وإتيانهم به، فقابلوه بضد ما يجب مقابلته به، فاستحقوا العقاب الشديد. ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٥﴾؛ أي: فسوف يرون ما استهزءوا به أنه الحق والصدق، ويبين الله للمكذبين كذبهم وافتراءهم، وكانوا يستهزئون بالبعث والجنة والنار؛ فإذا كان يوم القيامة؛ قيل للمكذبين: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤﴾ [الطور: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٨ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ٣٩﴾ [النحل: ٣٨، ٣٩].

(٦) ثم أمرهم أن يعتبروا بالأمم السابقة[1]، فقال: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ﴾؛ أي: كم تتابع إهلاكنا للأمم المكذبين وأمهلناهم قبل ذلك الإهلاك بأن ﴿مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن﴾: لهؤلاء من الأموال والبنين والرفاهية، ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ﴾: تنبت لهم بذلك ما شاء الله من زروع وثمار يتمتعون بها ويتناولون منها ما يشتهون، فلم يشكروا الله على نعمه، بل أقبلوا على الشهوات، وألهتهم اللذات[2]، فجاءتهم رسلهم بالبينات، فلم يصدقوها، بل ردوها وكذبوها، فأهلكهم الله بذنوبهم، وأنشأ من بعدهم قرنًا آخرين؛ فهذه سنة الله ودأبه في الأمم السابقين واللاحقين؛ فاعتبروا بمن قص الله عليكم نبأهم.

﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ٩﴾.

(٧) هذا إخبار من الله لرسوله عن شدة عناد الكافرين، وأنه ليس تكذيبهم لقصور فيما جئتهم به ولا لجهل منهم بذلك، وإنما ذلك ظلم وبغي لا حيلة لكم فيه، فقال: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ﴾: وتيقنوه، ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾: ظلمًا وعدوًا[3]: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧﴾؛ فأي بينة أعظم من هذه البينة، وهذا قولهم الشنيع فيها؛ حيث كابروا المحسوس الذي لا يمكن من له أدنى مسكة من عقل دفعه؟!

(٨) ﴿وَقَالُواْ﴾ أيضًا تعنتًا مبنيًّا على الجهل وعدم العلم بالمعقول: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾؛ أي: هلَّا أنزل مع محمد ملك يعاونه ويساعده على ما هو عليه؛ بزعمهم أنه بشر وأن رسالة الله لا تكون إلا على أيدي الملائكة. قال الله في بيان رحمته ولطفه بعباده حيث أرسل إليهم بشرًا منهم يكون الإيمان بما جاء به عن علم وبصيرة وغيب: ﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا﴾: برسالتنا؛ لكان الإيمان لا يصدر عن معرفة بالحق، ولكان إيمانًا بالشهادة الذي لا ينفع شيئًا وحده، هذا إن آمنوا، والغالب أنهم لا يؤمنون بهذه الحالة، فلو[4] لم يؤمنوا؛ ﴿لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾: بتعجيل الهلاك عليهم وعدم إنظارهم؛ لأن هذه سنة الله فيمن طلب الآيات المقترحة فلم يؤمن بها؛ فإرسال الرسول البشري إليهم بالآيات البينات التي يعلم الله أنها أصلح للعباد وأرفق بهم مع إمهال الله للكافرين والمكذبين خير لهم وأنفع، فطلبهم لإنزال الملك شر لهم لو كانوا يعلمون.

(٩) ومع ذلك؛ فالملك لو أنزل عليهم وأرسل؛ لم يطيقوا التلقي عنه ولا احتملوا ذلك ولا أطاقته قواهم الفانية، ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا﴾: لأن الحكمة لا تقتضي سوى ذلك، ﴿وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ٩﴾؛ أي: ولكان الأمر مختلطًا عليهم وملبوسًا، وذلك بسبب ما لبسوه على أنفسهم؛ فإنهم بنوا أمرهم على هذه القاعدة التي فيها اللبس وعدم بيان الحق، فلما جاءهم الحق بطرقه الصحيحة وقواعده التي هي قواعده؛ لم يكن ذلك هدايةً لهم إذا اهتدى

(١) ع: «السالفة».
(٢) ع، ط: «أنواع اللذات».
(٣) ع، ط: «وعلوًّا».
(٤) ع، ط: «فإذا».

وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا
يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ
بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾
قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ
كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ
لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ
﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ
﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ
وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا
تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ
رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ
رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ
فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾

بذلك غيرهم، والذنب ذنبهم؛ حيث أغلقوا على أنفسهم باب الهدى، وفتحوا أبواب الضلال.

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿١٠﴾ يقول تعالى مسليًا لرسوله ومصبرًا، ومتهددًا أعداءه ومتوعدًا: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾: لما جاءوا أممهم بالبينات؛ كذبوهم واستهزءوا بهم وبما جاءوا به، فأهلكهم الله بذلك الكفر والتكذيب، ووفى لهم من العذاب أكمل نصيب، ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾: فاحذروا أيها المكذبون أن تستمروا على تكذيبكم، فيصيبكم ما أصابهم.

﴿١١﴾ فإن شككتم في ذلك أو ارتبتم؛ فـ﴿ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾؛ فلن تجدوا إلا قومًا مهلكين، وأممًا في المثلات تالفين، قد أوحشت منهم المنازل، وعدم من تلك الربوع كل متمتع بالسرور نازل، أبادهم الملك الجبار، وكان نبؤهم عبرةً لأولي الأبصار. وهذا السير المأمور به سير القلوب والأبدان الذي يتولد منه الاعتبار، وأما مجرد النظر من غير اعتبار؛ فإن ذلك لا يفيد شيئًا.

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿١٢﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ قُلْ ﴾ لهؤلاء المشركين مقررًا لهم وملزمًا بالتوحيد: ﴿لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي: من الخالق لذلك المالك له المتصرف فيه؟ ﴿ قُل ﴾ لهم: ﴿لِّلَّهِ﴾، وهم مقرون بذلك لا ينكرونه، أفلا حين اعترفوا بانفراد الله بالملك والتدبير أن يعترفوا له بالإخلاص والتوحيد؟! وقوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾؛ أي: العالم العلوي والسفلي تحت ملكه وتدبيره، وهو تعالى قد بسط عليهم رحمته وإحسانه، وتغمدهم برحمته وامتنانه، وكتب على نفسه كتابًا: أن رحمته تغلب غضبه، وأن العطاء أحب إليه من المنع، وأن الله قد فتح لجميع العباد أبواب الرحمة إن لم يغلقوا عليهم أبوابها بذنوبهم، ودعاهم إليها إن لم تمنعهم من طلبها معاصيهم وعيوبهم. وقوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: وهذا قسم منه، وهو أصدق المخبرين، وقد أقام على ذلك من الحجج[1] والبراهين ما يجعله حق اليقين، ولكن أبى الظالمون إلا جحودًا، وأنكروا قدرة الله على بعث الخلائق، فأوضعوا في معاصيه، وتجرءوا على الكفر به، فخسروا دنياهم وأخراهم، ولهذا قال: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ

(١) بعده في ع: «البينة».

فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾
قُلْ أَىُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا
ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ
ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا
تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ
أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

اعلم أن هذه السورة الكريمة قد اشتملت على تقرير التوحيد بكل دليل عقلي ونقلي، بل كادت أن تكون كلها في شأن التوحيد ومجادلة المشركين بالله المكذبين لرسوله؛ فهذه الآيات ذكر الله فيها ما يتبين به الهدى، وينقمع به الشرك:

﴿١٣﴾ فذكر أن له تعالى ﴿ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾، وذلك هو المخلوقات كلها من آدميها وجنها وملائكتها وحيواناتها وجماداتها؛ فالكل خلق مدبرون وعبيد مسخرون لربهم العظيم القاهر المالك؛ فهل يصح في عقل ونقل أن يعبد من هؤلاء المماليك الذي لا نفع عنده ولا ضر ويترك الإخلاص للخالق المدبر المالك الضار النافع؟! أم العقول السليمة والفطر المستقيمة تدعو إلى إخلاص العبادة والحب والخوف والرجاء لله رب العالمين؟ ﴿ ٱلسَّمِيعُ ﴾: لجميع الأصوات على اختلاف اللغات بتفنن الحاجات. ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾: بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، المطلع على الظواهر والبواطن.

﴿١٤﴾ ﴿ قُلْ ﴾ لهؤلاء المشركين بالله: ﴿ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾: من هؤلاء المخلوقات العاجزة يتولاني وينصرني؛ فلا أتخذ من دونه تعالى وليًّا؛ لأنه ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي: خالقهما ومدبرهما، ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾؛ أي: وهو الرازق لجميع الخلق من غير حاجة منه تعالى إليهم؛ فكيف يليق أن أتخذ وليًّا غير الخالق الرازق الغني الحميد؟! ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾: لله بالتوحيد وانقاد له بالطاعة؛ لأني أولى من غيري بامتثال أوامر ربي، ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ ﴾؛ أي: ونهيت أيضًا عن أن أكون من المشركين؛ لا في اعتقادهم، ولا في مجالستهم، ولا في الاجتماع بهم؛ فهذا أفرض الفروض علي وأوجب الواجبات.

﴿١٥﴾ ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾: فإن المعصية في الشرك توجب الخلود في النار وسخط الجبار.

﴿١٦﴾ وذلك اليوم هو اليوم الذي يخاف عذابه ويحذر عقابه؛ لأنه من صرف عنه العذاب يومئذ فهو المرحوم، ومن نجا فيه فهو الفائز حقًّا؛ كما أن من لم ينج منه؛ فهو الهالك الشقي.

﴿١٧﴾ ومن أدلة توحيده أنه تعالى المنفرد بكشف الضراء وجلب الخير والسراء، ولهذا قال: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ ﴾: من فقر أو مرض أو عسر أو غم أو هم أو نحوه، ﴿ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾: فإذا كان وحده النافع الضار؛ فهو الذي يستحق أن يفرد بالعبودية والإلهية.

﴿١٨﴾ ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾: فلا يتصرف منهم متصرف ولا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلا بمشيئته، وليس للملوك وغيرهم الخروج عن ملكه وسلطانه، بل هم مدبرون مقهورون؛ فإذا كان هو القاهر وغيره مقهورًا؛ كان هو المستحق للعبادة. ﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ﴾: فيما أمر به ونهى، وأثاب وعاقب، وفيما خلق وقدر، ﴿ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾: المطلع على السرائر والضمائر وخفايا الأمور، وهذا كله من أدلة التوحيد.

﴿١٩﴾ ﴿ قُلْ ﴾ لهم لما بينا لهم الهدى وأوضحنا لهم المسالك: ﴿ أَىُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ﴾: على هذا الأصل العظيم، ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ أكبر شهادةً؛ فهو ﴿ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾؛ فلا أعظم منه شهادةً ولا أكبر، وهو يشهد لي بإقراره وفعله، فيقرني على ما قلت لكم؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦]؛ فالله حكيم قدير، فلا يليق بحكمته وقدرته أن يقر كاذبًا عليه، زاعمًا أن الله أرسله ولم يرسله، وأن الله أمره بدعوة الخلق ولم يأمره، وأن الله أباح له دماء من خالفه وأموالهم ونساءهم وهو مع ذلك يصدقه بإقراره وبفعله، فيؤيده على ما قال بالمعجزات الباهرة والآيات الظاهرة، وينصره ويخذل من خالفه وعاداه؛ فأي شهادة أكبر من هذه الشهادة؟! وقوله: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾؛ أي: وأوحى الله إلي هذا القرآن الكريم لمنفعتكم ومصلحتكم؛ لأنذركم به من العقاب الأليم، والنذارة إنما تكون بذكر ما ينذرهم به من الترغيب والترهيب وببيان الأعمال والأقوال الظاهرة

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا
ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ
ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا
تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ
أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ
﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ
ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ
رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ
عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ
لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ
إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن
يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ
فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾

والباطنة التي من قام بها فقد قبل النذارة؛ فهذا القرآن فيه النذارة لكم أيها المخاطبون وكل من بلغه القرآن إلى يوم القيامة؛ فإن فيه بيان كل ما يحتاج إليه من المطالب الإلهية.

لما بين تعالى شهادته التي هي أكبر الشهادات على توحيده؛ قال: قل لهؤلاء المعارضين لخبر الله والمكذبين لرسله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾؛ أي: إن شهدوا؛ فلا تشهد معهم، فوازن بين شهادة أصدق القائلين ورب العالمين، وشهادة أزكى الخلق المؤيدة بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة على توحيد الله وحده لا شريك له، وشهادة أهل الشرك الذين مرجت عقولهم وأديانهم وفسدت آراؤهم وأخلاقهم وأضحكوا على أنفسهم العقلاء، بل خالفت شهادتهم فطرهم وتناقضت أقوالهم على إثبات أن مع الله آلهةً أخرى مع أنه لا يقوم على ما خالفوه أدنى شبهة فضلًا عن الحجج، واختر لنفسك أي الشهادتين إن كنت تعقل، ونحن نختار لأنفسنا ما اختاره الله لنبيه الذي أمرنا الله بالاقتداء به فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾؛ أي: منفرد لا يستحق العبودية والإلهية سواه كما أنه المنفرد بالخلق والتدبير. ﴿وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ به من الأوثان والأنداد وكل ما أشرك به مع الله. فهذا حقيقة التوحيد: إثبات الإلهية لله، ونفيها عما عداه.

﴿٢٠﴾ لما بين شهادته وشهادة رسوله على التوحيد وشهادة المشركين الذين لا علم لديهم على ضده؛ ذكر أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾؛ أي: يعرفون صحة التوحيد، ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾؛ أي: لا شك عندهم فيه بوجه؛ كما أنهم لا يشتبهون بأولادهم، خصوصًا البنين الملازمين في الغالب لآبائهم، ويحتمل أن الضمير عائد إلى الرسول محمد ﷺ، وأن أهل الكتاب لا يشتبهون بصحة رسالته ولا يمترون بها لما عندهم من البشارات به ونعوته التي تنطبق عليه ولا تصلح لغيره، والمعنيان متلازمان. قوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾؛ أي: فوتوها ما خلقت له من الإيمان والتوحيد وحرموها الفضل من الملك المجيد، ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾: فإذا لم يوجد الإيمان منهم؛ فلا تسأل عن الخسار والشر الذي يحصل لهم.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿٢١﴾ أي: لا أعظم ظلمًا وعنادًا ممن كان فيه أحد الوصفين؛ فكيف لو اجتمعا: افتراء الكذب على الله، أو التكذيب بآياته التي جاءت بها المرسلون؟! فإن هذا أظلم الناس، والظالم لا يفلح أبدًا، ويدخل في هذا كل من كذب على الله بادعاء الشريك له والعوين، أو زعم أنه ينبغي أن يعبد غيره، أو اتخذ له صاحبةً أو ولدًا، وكل من رد الحق الذي جاءت به الرسل أو من قام مقامهم.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿٢٢﴾ يخبر تعالى عن مآل أهل الشرك يوم القيامة، وأنهم يسألون ويوبخون فيقال لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: إن الله ليس له شريك، وإنما ذلك على وجه الزعم منهم والافتراء.

(٢٣) ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾؛ أي: لم يكن جوابهم حين يفتنون ويختبرون بذلك السؤال إلا إنكارهم لشركهم وحلفهم أنهم ما كانوا مشركين.

(٢٤) ﴿انظُرْ﴾: متعجبًا منهم ومن أحوالهم، ﴿كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: كذبوا كذبًا عاد بالخسار على أنفسهم وضرهم - والله - غاية الضرر، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤)﴾: من الشركاء الذين زعموهم مع الله، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥)﴾.

(٢٥) أي: ومن هؤلاء المشركين قوم يحملهم بعض الأوقات بعض الدواعي إلى الاستماع لما تقول، ولكنه استماع خال من قصد الحق واتباعه، ولهذا لا ينتفعون بذلك الاستماع لعدم إرادتهم للخير. ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾؛ أي: أغطيةً وأغشيةً لئلا يفقهوا كلام الله، فصان كلامه عن أمثال هؤلاء. ﴿وَفِي آذَانِهِمْ﴾: جعلنا ﴿وَقْرًا﴾؛ أي: صممًا، فلا يستمعون ما ينفعهم، ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾: وهذا غاية الظلم والعناد: أن الآيات البينات الدالة على الحق لا ينقادون لها ولا يصدقون بها، بل يجادلون الحق بالباطل(١) ليدحضوه به(٢)، ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥)﴾؛ أي: مأخوذ من صحف الأولين المسطورة التي ليست عن الله ولا عن رسله، وهذا من كفرهم، وإلا؛ فكيف يكون هذا الكتاب الحاوي لأنباء السابقين واللاحقين والحقائق التي جاءت بها الأنبياء والمرسلون والحق والقسط والعدل التام من كل وجه أساطير الأولين؟!

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٢٦)﴾.

(٢٦) ﴿وَهُمْ﴾؛ أي: المشركون بالله المكذبون لرسوله يجمعون بين الضلال والإضلال؛ ينهون الناس عن اتباع الحق، ويحذرونهم منه، ويبعدون بأنفسهم عنه، ولن

بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ
وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ
بِمَبْعُوثِينَ (٢٩) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا
بِالْحَقِّ ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ
(٣٠) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ
بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ
عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٣١) وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا
لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
(٣٢) قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ
وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ
رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ
وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ
(٣٤) وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ
نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ۚ وَلَوْ شَاءَ
اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥)

يضروا الله ولا عباده المؤمنين بفعلهم هذا شيئًا. ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٢٦)﴾: بذلك.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩)﴾.

(٢٧) يقول تعالى مخبرًا عن حال المشركين يوم القيامة وإحضارهم النار: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾: ليوبخوا ويقرّعوا؛ لرأيت أمرًا هائلًا وحالًا مفظعة، ولرأيتهم كيف أقروا على أنفسهم بالكفر والفسوق، وتمنوا أن لو يردوا إلى الدنيا، ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧)﴾.

(٢٨) ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾: فإنهم كانوا يخفون في أنفسهم أنهم كانوا كاذبين، ويبدو في قلوبهم في كثير من الأوقات، ولكن الأغراض الفاسدة صدتهم عن

(١) عبارة: «الحق بالباطل» وردت في ع: «بالباطل الحق».
(٢) ساقط من ع، ط.

ذلك وصدفت قلوبهم عن الخير، وهم كذبة في هذه الأمنية، وإنما قصدهم أن يدفعوا بها عن أنفسهم العذاب. فلو ﴿ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿٢٩﴾ ﴿ وَقَالُوٓا ﴾ منكرين للبعث: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا ﴾؛ أي: ما حقيقة الحال والأمر وما المقصود من إيجادنا إلا الحياة الدنيا وحدها، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿٣٠﴾ أي: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ ﴾ الكافرين ﴿ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾؛ لرأيت أمرًا عظيمًا وهولًا جسيمًا، ﴿ قَالَ ﴾ لهم موبخًا ومقرّعًا: ﴿ أَلَيْسَ هَٰذَا ﴾ الذي ترون من العذاب ﴿ بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾: فأقروا واعترفوا حيث لا ينفعهم ذلك، ﴿ قَالَ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿٣١﴾ أي: قد خاب وخسر وحرم الخير كله من كذب بلقاء الله، فأوجب له هذا التكذيب الاجتراء على المحرمات واقتراف الموبقات، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ ﴾: وهم على أقبح حال وأسوئه، فأظهروا غاية الندم، و﴿ قَالُوا يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾: ولكن هذا تحسر ذهب وقته، ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ ﴾: فإن وزرهم وزر يثقلهم ولا يقدرون على التخلص منه، ولهذا خلدوا في النار، واستحقوا التأبيد في غضب الجبار.

﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿٣٢﴾ هذه حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة: أما حقيقة الدنيا؛ فإنها لعب ولهو، لعب في الأبدان، ولهو في القلوب؛ فالقلوب لها والهة، والنفوس لها عاشقة، والهموم فيها متعلقة، والاشتغال بها كلعب الصبيان. وأما الآخرة؛ فإنها ﴿ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾؛ في ذاتها وصفاتها، وبقائها ودوامها، ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾ [الزخرف: ٧١]؛ من نعيم القلوب والأرواح، وكثرة السرور والأفراح، ولكنها ليست لكل أحد، وإنما هي للمتقين، الذين يفعلون أوامر الله، ويتركون نواهيه وزواجره، ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾؛ أي: أفلا يكون لكم عقول بها تدركون أي الدارين أحق بالإيثار؟!

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿٣٣﴾ أي: قد نعلم أن الذي يقول المكذبون فيك يحزنك ويسوءك، ولم نأمرك بما أمرناك به من الصبر إلا لتحصل لك المنازل العالية، والأحوال الغالية؛ فلا تظن أن قولهم صادر عن اشتباه في أمرك وشك فيك؛ ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾: لأنهم يعرفون صدقك ومدخلك ومخرجك وجميع أحوالك، حتى إنهم كانوا يسمونه قبل بعثته الأمين، ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾؛ أي: فإن تكذيبهم لآيات الله التي جعلها الله على يديك.

﴿٣٤﴾ ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ﴾: فاصبر كما صبروا؛ تظفر كما ظفروا، ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾؛ ما به يثبت فؤادك، ويطمئن به قلبك.

﴿٣٥﴾ ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾؛ أي: شق عليك من حرصك عليهم ومحبتك لإيمانهم؛ فابذل وسعك في ذلك؛ فليس في مقدورك أن تهدي من لم يرد الله هدايته. ﴿ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ﴾؛ أي: فافعل ذلك؛ فإنه لا يفيدهم شيئًا، وهذا قطع لطمعه في هدايته أشباه هؤلاء المعاندين، ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾: ولكن حكمته تعالى اقتضت أنهم يبقون على الضلال، ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾: الذين لا يعرفون حقائق الأمور ولا ينزلونها على منازلها.

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ
يُرْجَعُونَ ٣٦ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ
قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٣٧ وَمَا
مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ
مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ٣٨
وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ
يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٣٩ قُلْ
أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ
تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٤٠ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا
تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ٤١ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ
إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ
٤٢ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ
وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٤٣ فَلَمَّا
نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ
حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ٤٤﴾

(٣٦) يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾ لدعوتك ويلبي رسالتك وينقاد لأمرك ونهيك، ﴿ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾: بقلوبهم ما ينفعهم، وهم أولو الألباب والأسماع، والمراد بالسماع هنا سماع القلب والاستجابة، وإلا فمجرد سماع الأذن يشترك فيه البر والفاجر، فكل المكلفين قد قامت عليهم حجة الله تعالى باستماع آياته، فلم يبق لهم عذر في عدم القبول. ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦)﴾: يحتمل أن المعنى مقابل للمعنى المذكور؛ أي: إنما يستجيب لك أحياء القلوب، وأما أموات القلوب الذين لا يشعرون بسعادتهم ولا يحسون بما ينجيهم؛ فإنهم لا يستجيبون لك ولا ينقادون، وموعدهم القيامة، يبعثهم الله ثم إليه يرجعون. ويحتمل أن المراد بالآية على ظاهرها، وأن الله تعالى يقرر المعاد، وأنه سيبعث الأموات يوم القيامة، ثم ينبئهم بما كانوا يعملون، ويكون هذا متضمنا للترغيب في الاستجابة لله ورسوله، والترهيب من عدم ذلك.

(٣٧) ﴿وَقَالُوا۟﴾؛ أي: المكذبون بالرسول تعنتًا وعنادًا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ يعنون بذلك آيات الاقتراح التي يقترحونها بعقولهم الفاسدة وآرائهم الكاسدة؛ كقولهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا (٩٢)﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٢] الآيات. ﴿قُلْ﴾: مجيبًا لقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾: فليس في قدرته قصور عن ذلك، كيف وجميع الأشياء منقادة لعزته مذعنة لسلطانه. ولكن أكثر الناس لا يعلمون، فهم لجهلهم وعدم علمهم يطلبون ما هو شر لهم من الآيات، التي لو جاءتهم فلم يؤمنوا بها؛ لعوجلوا بالعقاب؛ كما هي سنة الله التي لا تبديل لها، ومع هذا؛ فإن كان قصدهم الآيات التي تبين لهم الحق وتوضح السبيل؛ فقد أتى محمد ﷺ بكل آية قاطعة، وحجة ساطعة، دالة على ما جاء به من الحق، بحيث يتمكن العبد في كل مسألة من مسائل الدين أن يجد فيما جاء به عدة أدلة عقلية ونقلية؛ بحيث لا تبقي في القلوب أدنى شك وارتياب، فتبارك الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق وأيده بالآيات البينات ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة، وإن الله لسميع عليم.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨)﴾.

(٣٨) أي: جميع الحيوانات الأرضية والهوائية من البهائم والوحوش والطيور كلها أمم أمثالكم، خلقناها كما خلقناكم، ورزقناها كما رزقناكم، ونفذت فيها مشيئتنا وقدرتنا كما كانت نافذة فيكم. ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾؛ أي: ما أهملنا ولا أغفلنا في اللوح المحفوظ شيئًا من الأشياء، بل جميع الأشياء - صغيرها وكبيرها - مثبتة في اللوح المحفوظ على ما هي عليه، فتقع جميع الحوادث طبق ما جرى به القلم. وفي هذه الآية دليل على أن الكتاب الأول قد حوى جميع الكائنات، وهذا أحد مراتب القضاء والقدر؛ فإنها أربع مراتب: علم الله الشامل لجميع الأشياء، وكتابه المحيط بجميع الموجودات، ومشيئته وقدرته النافذة العامة لكل شيء، وخلقه لجميع المخلوقات حتى أفعال العباد. ويحتمل أن المراد بالكتاب هذا القرآن، وأن المعنى كالمعنى في قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ

شَيْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩]. وقوله: ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾؛ أي: جميع الأمم تحشر وتجمع إلى الله في موقف القيامة، في ذلك الموقف العظيم الهائل، فيجازيهم بعدله وإحسانه، ويمضي عليهم حكمه الذي يحمده عليه الأولون والآخرون؛ أهل السماء وأهل الأرض.

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ۗ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿٣٩﴾ هذا بيان لحال المكذبين بآيات الله المكذبين لرسله: أنهم قد سدوا على أنفسهم باب الهدى، وفتحوا باب الردى، وأنهم ﴿ صُمٌّ ﴾ عن سماع الحق، بُكْمٌ عن النطق به؛ فلا ينطقون إلا بالباطل، ﴿ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾؛ أي: منغمسون في ظلمات الجهل والكفر والظلم والعناد والمعاصي، وهذا من إضلال الله إياهم؛ فإنه ﴿ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾؛ لأنه المنفرد بالهداية والإضلال بحسب ما اقتضاه فضله وحكمته.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿٤٠﴾ يقول تعالى لرسوله: ﴿ قُلْ ﴾ للمشركين بالله العادلين به غيره: ﴿ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾؛ أي: إذا حصلت هذه المشقات وهذه الكروب التي يُضطر إلى دفعها؛ هل تدعون آلهتكم وأصنامكم أم تدعون ربكم الملك الحق المبين؟

﴿٤١﴾ ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾: فإذا كانت هذه حالكم مع أندادكم عند الشدائد؛ تنسونهم لعلمكم أنهم لا يملكون لكم ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، وتخلصون لله الدعاء؛ لعلمكم أنه هو الضار النافع المجيب لدعوة المضطر؛ فما بالكم في الرخاء تشركون به وتجعلون له شركاء؟! هل دلكم على ذلك عقل أو نقل؟ أم عندكم من سلطان بهذا؟ أم تفترون على الله الكذب؟!

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿٤٢﴾ يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾: من الأمم السالفين، والقرون المتقدمين، فكذبوا رسلنا، وجحدوا بآياتنا، ﴿ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾؛ أي: بالفقر والمرض والآفات والمصائب رحمةً منا بهم، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ إلينا، ويلجئون عند الشدة إلينا.

﴿٤٣﴾ ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾؛ أي: استحجرت فلا تلين للحق، ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾: فظنوا أن ما هم عليه دين الحق، فتمتعوا في باطلهم برهةً من الزمان، ولعب بعقولهم الشيطان.

﴿٤٤﴾ ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾: من الدنيا ولذاتها وغفلاتها، ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾؛ أي: آيسون من كل خير، وهذا أشد ما يكون من العذاب: أن يؤخذوا على غِرَّة وغفلة وطمأنينة؛ ليكون أشد لعقوبتهم، وأعظم لمصيبتهم.

﴿٤٥﴾ ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾؛ أي: اصطُلموا بالعذاب[1]، وتقطعت بهم الأسباب ﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾: على ما قضاه وقدره من هلاك المكذبين؛ فإن بذلك تتبين آياته وإكرامه لأوليائه، وإهانته لأعدائه، وصدق ما جاءت به المرسلون.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿٤٦﴾ يخبر تعالى أنه كما هو المتفرد بخلق الأشياء وتدبيرها؛ فإنه المنفرد بالوحدانية والإلهية، فقال: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم ﴾: فبقيتم بلا سمع ولا بصر ولا عقل. ﴿ مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ﴾: فإذا لم يكن غير الله يأتي بذلك؛ فلم عبدتم معه من لا قدرة له على شيء

(١) ع، ط: «العذاب». واصطُلموا: استُأصلوا. الوسيط (ص ل م).

إلا إذا شاءه الله؟ وهذا من أدلة التوحيد وبطلان الشرك، ولهذا قال: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾؛ أي: نوعها، ونأتي بها في كل فن؛ لتنير الحق، وتتبين سبيل المجرمين. ﴿ثُمَّ هُمۡ﴾: مع هذا البيان التام، ﴿يَصۡدِفُونَ ٤٦﴾: عن آيات الله، ويعرضون عنها.

﴿٤٧﴾ ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ﴾؛ أي: أخبروني ﴿إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغۡتَةً أَوۡ جَهۡرَةً﴾؛ أي: مفاجأة أو قد تقدم أمامه مقدمات تعلمون بها وقوعه، ﴿هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٧﴾: الذين صاروا سببًا لوقوع العذاب بهم بظلمهم وعنادهم؟ فاحذروا أن تقيموا على الظلم؛ فإنه الهلاك الأبدي، والشقاء السرمدي.

﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٤٨ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٤٩﴾.

﴿٤٨﴾ يذكر تعالى زبدة ما أرسل به المرسلين أنه البشارة والنذارة، وذلك مستلزم لبيان: المبشَّر والمبشِّر به والأعمال التي إذا عملها العبد حصلت له البشارة، والمنذِر والمنذَر به والأعمال التي من عملها حقت عليه النذارة، ولكن الناس انقسموا بحسب إجابتهم لدعوتهم وعدمها إلى قسمين: ﴿فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ﴾؛ أي: آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأصلح إيمانه وأعماله ونيته، ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾: فيما يستقبل، ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٤٨﴾: على ما مضى.

﴿٤٩﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾؛ أي: ينالهم ويذوقونه، ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٤٩﴾.

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ٥٠﴾.

﴿٥٠﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ أن يخاطب المقترحين[1] عليه الآيات، أو القائلين له إنما تدعونا لنتخذك إلهًا مع الله: ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: مفاتيح رزقه ورحمته، ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾: وإنما ذلك كله عند الله؛ فهو الذي ما

فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٥
قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم
مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ
ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ ٤٦ قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ
بَغۡتَةً أَوۡ جَهۡرَةً هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٧ وَمَا
نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ
فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٤٨ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا
يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٤٩ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ
عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ
إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ
أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ٥٠ وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ
إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ
٥١ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ
وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ
عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٢

يفتح للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده، وهو وحده عالم الغيب والشهادة فلا يظهر على غيبه أحدًا إلا من ارتضى من رسول. ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌ﴾: فأكون نافذ التصرف قويًّا، فلست أدعي فوق منزلتي التي أنزلني الله بها، ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾؛ أي: هذا غايتي ومنتهى أمري وأعلاه، لا[2] أتبع إلا ما يوحى إلي، فأعمل به في نفسي، وأدعو الخلق كلهم إلى ذلك؛ فإذا عرفت منزلتي؛ فلأي شيء يبحث الباحث معي أو يطلب مني أمرًا لست أدعيه؟! وهل يُلْزَم الإنسان بغير ما هو بصدده؟! ولأي شيء إذا دعوتكم بما يوحى إلي أن تلزموني أني أدعي لنفسي غير مرتبتي؟! وهل هذا إلا ظلم منكم وعناد وتمرد؟! قل لهم في بيان الفرق بين من قبل دعوتي وانقاد لما أوحي إلي وبين من لم يكن كذلك: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ٥٠﴾: فتتنزلون الأشياء منازلها وتختارون ما هو أولى بالاختيار والإيثار.

(١) عبارة: «أن يخاطب المقترحين» وردت في ع: «المقترحين»، ط: «للمقترحين».

(٢) ع، ط: «إن».

﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿٥١﴾ هـذا القرآن نـذارة للخلق كلهـم، ولكن إنمـا ينتفع بـه ﴿ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾؛ فهـم متيقنـون للانتقـال من هذه الـدار إلى دار القرار؛ فلذلك يستصحبون ما ينفعهم ويدعون ما يضرهم. ﴿ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ ﴾؛ أي: مـن دون اللـه ﴿ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾؛ أي: لا مـن يتولـى أمرهم فيُحصِّـل لهم المطلـوب، ويدفـع عنهم المحـذور، ولا من يشـفع لهم؛ لأن الخلـق كلهـم ليس لهـم من الأمر شـيء. ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ ﴾: اللـه بامتثال أوامـره واجتناب نواهيه؛ فإن الإنذار موجب لذلك وسبب من أسبابه.

﴿٥٢﴾ ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾؛ أي: لا تطـرد عنك وعن مجالسـتك أهـل العبادة والإخلاص رغبةً في مجالسـة غيرهم، من الملازمين لدعاء ربهـم دعاء العبـادة بالذكر والصلاة ونحوها ودعاء المسـألة فـي أول النهار وآخره، وهم قاصـدون بذلك وجه الله، ليس لهـم من الأغـراض سـوى ذلـك الغـرض الجليـل؛ فهؤلاء ليسوا مستحقين للطرد والإعراض عنهم، بل هم مستحقون لموالاتهـم ومحبتهم وإدنائهم وتقريبهـم؛ لأنهم الصفوة من الخلق - وإن كانـوا فقراء - والأعزاء في الحقيقة، وإن كانوا عنـد النـاس أذلاء. ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ ﴾؛ أي: كل له حسابه وله عمله الحسن وعملـه القبيـح، ﴿ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾: وقد امتثل ﷺ هذا الأمر أشـد امتثال، فكان إذا جلس الفقراء مـن المؤمنين؛ صبر نفسـه معهم، وأحسـن معاملتهم، وألان لهم جانبه، وحسن خلقه، وقربهم منه، بل كانوا هم أكثر أهل مجلسه رضي الله عنهم.

وكان سـبب نزول هذه الآيات أن أناسًـا مـن قريش أو من أجـلاف العـرب قالـوا للنبـي ﷺ: إن أردت أن نؤمـن لـك ونتبعك؛ فاطرد فلانًا وفلانًا - أناسًا من فقراء الصحابة-؛ فإنا نسـتحي أن ترانا العرب جالسـين مع هـؤلاء الفقراء. فحمله حبه لإسـلامهم واتباعهم له فحدثته نفسـه بذلك، فعاتبه الله بهذه الآيات ونحوها.

﴿٥٣﴾ ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾؛ أي: هـذا مـن ابتلاء اللـه لعباده حيث جعـل بعضهم غنيًّا وبعضهم فقيرًا وبعضهم شـريفًا وبعضهم وضيعًـا؛ فـإذا من الله بالإيمـان على الفقيـر أو الوضيع، كان ذلـك محل محنـة للغني والشـريف؛ فـإن كان قصـده الحق واتباعـه؛ آمن وأسـلم ولم يمنعه من ذلك مشـاركة الذي يراه دونه بالغنى أو الشـرف، وإن لم يكن صادقًا في طلب الحق؛ كانـت هذه عقبـةً ترده عن اتباع الحق، وقالـوا محتقرين لمن يرونهم دونهم: ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾: فمنعهم هـذا مـن اتباع الحق لعـدم زكائهم. قال اللـه مجيبًا لكلامهم المتضمـن الاعتـراض علـى اللـه فـي هداية هـؤلاء وعـدم هدايتهم هـم: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ الذين يعرفـون النعمـة ويقرون بها ويقومون بمـا تقتضيه من العمل الصالـح، فيضـع فضلـه ومنته عليهـم دون من ليس بشـاكر؛ فـإن الله تعالى حكيـم لا يضع فضله عند مـن ليس له بأهل، وهؤلاء المعترضون بهذا الوصف بخلاف من من الله عليهم بالإيمان من الفقراء وغيرهم؛ فإنهم هم الشاكرون.

﴿٥٤﴾ ولما نهى الله رسوله عن طرد المؤمنين القانتين؛ أمره بمقابلتهـم بالإكـرام والإعظـام والتبجيل والاحتـرام، فقال: ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾؛ أي: وإذا جاءك المؤمنون؛ فحيهم، ورحب بهم، ولقهم منك تحيةً وسلامًا، وبشرهم بما ينشط عزائمهم وهممهم من رحمة الله وسعة جوده وإحسانه، وحثهم على كل سبب وطريق يوصل لذلك، ورهبهم من الإقامة على الذنوب، وأمرهم بالتوبة من المعاصي لينالوا مغفرة ربهم وجوده، ولهذا قال: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ ﴾؛ أي: فـلا بـد مـع تـرك الذنـوب والإقلاع والندم عليها من إصلاح العمل وأداء ما أوجب الله وإصلاح ما فسـد من الأعمـال الظاهرة والباطنة؛ فإذا وجد ذلـك كلـه؛ ﴿ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾؛ أي: صب عليهم من مغفرته ورحمته بحسب ما قاموا به مما أمرهم به.

وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾

(٥٥) ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾؛ أي: نوضحها ونبينها ونميز بين طريق الهدى من الضلال والغي والرشاد؛ ليهتدي بذلك المهتدون ويتبين الحق الذي ينبغي سلوكه. ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾: الموصلة إلى سخط الله وعذابه؛ فإن سبيل المجرمين إذا استبانت واتضحت؛ أمكن اجتنابها والبعد منها؛ بخلاف ما لو كانت مشتبهة ملتبسة؛ فإنه لا يحصل هذا المقصود الجليل.

﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

(٥٦) يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين الذين يدعون مع الله آلهة أخرى: ﴿إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: من الأنداد والأوثان التي لا تملك نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا؛ فإن هذا باطل، وليس لكم فيه حجة ولا شبهة إلا اتباع الهوى الذي اتباعه أعظم الضلال. ولهذا قال: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾؛ أي: إن اتبعت أهواءكم، ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾: بوجه من الوجوه.

(٥٧) وأما ما أنا عليه من توحيد الله وإخلاص العمل له؛ فإنه هو الحق الذي تقوم عليه البراهين والأدلة القاطعة، وأنا ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾؛ أي: على يقين مبين بصحته وبطلان ما عداه. وهذه شهادة من الرسول جازمة لا تقبل التردد، وهو أعدل الشهود[1] على الإطلاق، فصدق بها المؤمنون، وتبين لهم من صحتها وصدقها بحسب ما من الله به عليهم، ولكنكم أيها المشركون كذبتم به، وهو لا يستحق هذا منكم، ولا يليق به إلا التصديق، وإذا استمررتم على تكذيبكم؛ فاعلموا أن العذاب واقع بكم لا محالة، وهو عند الله، هو الذي ينزله عليكم إذا شاء وكيف شاء، وإن استعجلتم به؛ فليس بيدي من الأمر شيء، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾؛ فكما أنه هو الذي حكم بالحكم الشرعي فأمر ونهى؛ فإنه سيحكم بالحكم الجزائي فيثيب ويعاقب بحسب ما تقتضيه حكمته؛

(١) زاد في ع، ط: «من الخلق».

فالاعتراض على حكمه مطلقًا مدفوع، وقد أوضح السبيل وقص على عباده الحق قصًّا قطع به معاذيرهم وانقطعت له حجتهم؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة. ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾: بين عباده في الدنيا والآخرة، فيفصل بينهم فصلًا يحمده عليه حتى من قضى عليه ووجّه الحق نحوه.

(٥٨) ﴿قُل﴾ للمستعجلين بالعذاب جهلًا وعنادًا وظلمًا: ﴿لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾: فأوقعته بكم، ولا خير لكم في ذلك، ولكن الأمر عند الحليم الصبور الذي يعصيه العاصون ويتجرأ عليه المتجرئون وهو يعافيهم ويرزقهم ويسدي عليهم نعمه الظاهرة والباطنة. ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾: لا يخفى عليه من أحوالهم شيء فيمهلهم ولا يهملهم.

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾.

وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ
يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ
ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ
وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ
رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ
أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن
ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ
لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ
ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا
مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم
بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾
وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ
نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ
ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ
ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾

﴿٥٩﴾ هـذه الآية العظيمة مـن أعظم الآيـات تفصيلًا لعلمه المحيط، وأنه شامل للغيوب كلها، التي يُطْلِع منها ما شاء من خلقه، وكثير منها طوى علمه عن الملائكة المقربين والأنبياء المرسـلين فضلًا عـن غيرهم من العالمين، وأنـه يعلم ما في البراري والقفار من الحيوانات والأشجار والرمال والحصى والتـراب، وما فـي البحار مـن حيواناتها ومعادنهـا وصيدها وغير ذلك مما تحتويه أرجاؤها ويشـتمل عليه ماؤها. ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ﴾: من أشجار البر والبحر والبلدان والقفر والدنيـا والآخرة إلا يعلمهـا، ﴿وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ﴾: مـن حبـوب الثمار والـزروع وحبـوب البـذور التـي يبذرها الخلق وبذور النوابت البرية التي ينشأ منها أصناف النباتات، ﴿وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ﴾: هـذا عمـوم بعد خصـوص ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٥٩﴾﴾: وهو اللوح المحفوظ؛ قد حواها واشـتمل عليها، وبعض هذا المذكور يبهر عقول العقلاء، ويذهل أفئدة النبلاء، فدل هذا على عظمة الرب العظيم وسعته في أوصافه كلهـا، وأن الخلق من أولهـم إلى آخرهم لو اجتمعوا على أن يحيطوا ببعض صفاته؛ لم يكن لهم قدرة ولا وسـع في ذلك، فتبارك الرب العظيم الواسـع العليم الحميد المجيد الشـهيد المحيـط، وجل من إله لا يحصي أحد ثنـاءً عليه، بل هو كما أثنـى على نفسـه وفوق ما يثني عليه عباده. فهـذه الآية دلت على علمـه المحيط بجميع الأشـياء وكتابـه المحيط بجميع الحوادث.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾.

هذا كله تقرير لألوهيته واحتجاج على المشركين به وبيان أنه تعالى المستحق للحب والتعظيم والإجلال والإكرام.

﴿٦٠﴾ فأخبـر أنـه وحـده المتفـرد بتدبيـر عباده فـي يقظتهم ومنامهـم، وأنـه يتوفاهم بالليل وفـاة النوم، فتهـدأ حركاتهم وتسـتريح أبدانهم، ويبعثهم في اليقظـة من نومهم؛ ليتصرفوا في مصالحهم الدينيـة والدنيوية، وهو تعالى يعلم ما جرحوا وما كسبوا من تلك الأعمال، ثم لا يزال تعالى هكذا يتصرف فيهم حتى يستوفوا آجالهم، فيقضى بهذا التدبير أجل مسمى، وهـو أجل الحياة، وأجل آخر فيما بعد ذلك، وهو البعث بعد المـوت، ولهـذا قـال: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾: لا إلـى غيره، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾: من خير وشر.

﴿٦١﴾ ﴿وَهُوَ﴾ تعالـى ﴿ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾: ينفـذ فيهـم إرادتـه الشـاملة ومشـيئته العامة، فليسـوا يملكـون من الأمر شـيئًا، ولا يتحركون ولا يسـكنون إلا بإذنـه، ومع ذلك؛ فقد وكل بالعبـاد حفظةً مـن الملائكة يحفظـون العبد ويحفظون عليـه مـا عمل؛ كمـا قـال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]، ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ﴿١٧﴾ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٧، ١٨]: فهـذا حفظـه لهم في حـال الحياة. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا﴾؛ أي: الملائكـة الموكلـون بقبـض الأرواح، ﴿وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ فـي ذلك؛ فلا يزيدون سـاعةً مما قدر الله، وقضاه، ولا يُنْقِصون، ولا ينفذون من ذلك إلا بحسـب المراسـيم الإلهية والتقادير الربانية.

﴿٦٢﴾ ﴿ ثُمَّ ﴾: بعد الموت والحياة البرزخية وما فيها من الخير والشر، ﴿ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ ﴾؛ أي: الذي تولاهم بحكمه القدري فنفذ فيهم ما شاء من أنواع التدبير، ثم تولاهم بأمره ونهيه وأرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب، ثم ردوا إليه ليتولى الحكم فيهم بالجزاء. ويثيبهم على ما عملوا من الخيرات ويعاقبهم على الشرور والسيئات، ولهذا قال: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ ﴾: وحده لا شريك له، ﴿ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾: لكمال علمه وحفظه لأعمالهم بما أثبته في اللوح المحفوظ ثم أثبتته ملائكته في الكتاب الذي بأيديهم.

فإذا كان تعالى هو المنفرد بالخلق والتدبير، وهو القاهر فوق عباده، وقد اعتنى بهم كل الاعتناء في جميع أحوالهم، وهو الذي له الحكم القدري والحكم الشرعي والحكم الجزائي؛ فأنى للمشركين العدول عمَّن هذا وصفه ونعته إلى عبادة من ليس له من الأمر شيء ولا عنده مثقال ذرة من النفع ولا له قدرة وإرادة؟ أما والله؛ لو علموا حلم الله عليهم، وعفوه ورحمته بهم، وهم يبارزونه بالشرك والكفران، ويتجرءون على عظمته بالإفك والبهتان، وهو يعافيهم ويرزقهم؛ لانجذبت دواعيهم إلى معرفته، وذهلت عقولهم في حبه، ولمقتوا أنفسهم أشد المقت حيث انقادوا لداعي الشيطان، الموجب للخزي والخسران، ولكنهم قوم لا يعقلون.

﴿ قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿٦٣﴾ أي: ﴿ قُلۡ ﴾: للمشركين بالله الداعين معه آلهةً أخرى ملزمًا لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية على ما أنكروه من توحيد الإلهية، ﴿ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ ﴾؛ أي: شدائدهما ومشقاتهما وحين يتعذر أو يتعسر عليكم وجه الحيلة، فتدعون ربكم تضرعًا بقلب خاضع ولسان لا يزال يلهج بحاجته في الدعاء وتقولون وأنتم في تلك الحال: ﴿ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ ﴾: الشدة التي وقعنا فيها، ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾: لله؛ أي: المعترفين بنعمته، الواضعين لها في طاعة ربهم، الذين حفظوها عن أن يبذلوها في معصيته.

﴿٦٤﴾ ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ﴾؛ أي: من هذه الشدة الخاصة، ومن جميع الكروب العامة، ﴿ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾: لا تفون لله بما قلتم، وتنسون نعمه عليكم؛ فأي برهان أوضح من هذا على بطلان الشرك وصحة التوحيد؟!

﴿ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿٦٥﴾ أي: هو تعالى قادر على إرسال العذاب إليكم من كل جهة، ﴿ مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ ﴾؛ أي: يخلطكم ﴿ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍ ﴾؛ أي: في الفتنة وقتل بعضكم بعضًا؛ فهو قادر على ذلك كله؛ فاحذروا من الإقامة على معاصيه فيصيبكم من العذاب ما يتلفكم ويمحقكم، ومع هذا؛ فقد أخبر أنه قادر على ذلك، ولكن من رحمته أن رفع عن هذه الأمة العذاب من فوقهم بالرجم والحصب ونحوه ومن تحت أرجلهم بالخسف، ولكن عاقب من عاقب منهم بأن أذاق بعضهم بأس بعض وسلط بعضهم على بعض بهذه العقوبات المذكورة عقوبةً عاجلةً يراها المعتبرون ويشعر بها العاملون. ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ﴾؛ أي: ننوعها ونأتي بها على أوجه كثيرة، وكلها دالة على الحق، ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾؛ أي: يفهمون ما خلقوا من أجله ويفقهون الحقائق الشرعية والمطالب الإلهية.

﴿٦٦﴾ ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ ﴾؛ أي: بالقرآن ﴿ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ ﴾: الذي لا مرية فيه ولا شك يعتريه. ﴿ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴿٦٦﴾ ﴾: أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها، وإنما أنا منذر ومبلغ.

﴿٦٧﴾ ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞ ﴾؛ أي: وقت يستقر فيه وزمان لا يتقدم عنه ولا يتأخر، ﴿ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾: ما توعدون به من العذاب.

﴿ وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ

وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن
ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟
دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ
أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ
وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ
أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ
مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ
كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ
يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ
وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن
فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ
عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

(٦٨) المراد بالخوض في آيات الله التكلم بما يخالف الحق من تحسين المقالات الباطلة والدعوة إليها ومدح أهلها والإعراض عن الحق والقدح فيه وفي أهله؛ فأمر الله رسوله أصلًا وأمته تبعًا إذا رأوا من يخوض بآيات الله بشيء مما ذكر بالإعراض عنهم، وعدم حضور مجالس الخائضين بالباطل والاستمرار على ذلك حتى يكون البحث والخوض في كلام غيره؛ فإذا كان في كلام غيره؛ زال النهي المذكور؛ فإن كان مصلحةً؛ كان مأمورًا به، وإن كان غير ذلك؛ كان غير مفيد ولا مأمور به، وفي ذم الخوض بالباطل حث على البحث والنظر والمناظرة بالحق.

ثم قال: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾؛ أي: بأن جلست معهم على وجه النسيان والغفلة، ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾: يشمل الخائضين بالباطل وكل متكلم بمحرم أو فاعل لمحرم؛ فإنه يحرم الجلوس والحضور عند حضور المنكر الذي لا يقدر على إزالته، هذا النهي والتحريم لمن جلس معهم، ولم يستعمل تقوى الله بأن كان يشاركهم في القول والعمل المحرم أو يسكت عنهم وعن الإنكار؛ فإن استعمل تقوى الله تعالى بأن كان يأمرهم بالخير وينهاهم عن الشر والكلام الذي يصدر منهم؛ فيترتب على ذلك زوال الشر أو تخفيفه؛ فهذا ليس عليه حرج ولا إثم، ولهذا قال:

(٦٩) ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾؛ أي: ولكن ليذكرهم ويعظهم لعلهم يتقون الله تعالى. وفي هذا دليل على أنه ينبغي أن يستعمل المذكر من الكلام ما يكون أقرب إلى حصول مقصود التقوى، وفيه دليل على أنه إذا كان التذكير والوعظ مما يزيد الموعوظ شرًّا إلى شره؛ كان تركه هو الواجب؛ لأنه إذا ناقض المقصود؛ كان تركه مقصودًا.

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

(٧٠) المقصود من العباد أن يخلصوا لله الدين بأن يعبدوه وحده لا شريك له ويبذلوا مقدورهم في مرضاته ومحابه، وذلك متضمن لإقبال القلب على الله وتوجهه إليه وكون سعي العبد نافعًا، وجدًّا لا هزلًا، وإخلاصًا لوجه الله لا رياء وسمعة، هذا هو الدين الحقيقي الذي يقال له: دين، فأما من زعم أنه على الحق، وأنه صاحب دين وتقوى، وقد اتخذ دينه لعبًا ولهوًا؛ بأن لها قلبه عن محبة الله ومعرفته، وأقبل على كل ما يضره، ولها في باطله، ولعب فيه ببدنه؛ لأن العمل والسعي إذا كان لغير الله؛ فهو لعب؛ فهذا أمر الله تعالى أن يترك ويحذر ولا يغتر به، وتنظر حاله، ويحذر من أفعاله، ولا يغتر بتعويقه عما يقرب إلى الله.

﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾؛ أي: ذكر بالقرآن ما ينفع العباد أمرًا وتفصيلًا وتحسينًا له بذكر ما فيه من أوصاف الحسن، وما يضر العباد نهيًا عنه وتفصيلًا لأنواعه وبيان ما فيه من الأوصاف القبيحة الشنيعة الداعية لتركه، وكل هذا لئلا تبسل نفس بما كسبت؛ أي: قبل اقتحام العبد للذنوب وتجرئه

على علام الغيوب واستمراره على ذلك المرهوب؛ فذكرها وعظها لترتدع وتنزجر وتكف عن فعلها.

وقوله: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾؛ أي: قبل أن تحيط بها ذنوبها ثم لا ينفعها أحد من الخلق لا قريب ولا صديق ولا يتولاها من دون الله أحد ولا يشفع لها شافع. ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾؛ أي: تفتدي بكل فداء ولو بملء الأرض ذهبًا ﴿لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾؛ أي: لا يقبل ولا يفيد. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: الموصوفون بما ذكر ﴿ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ﴾؛ أي: أهلكوا وأيسوا من الخير، وذلك ﴿بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾؛ أي: ماء حار قد انتهى حره يشوي وجوههم ويقطع أمعاءهم ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَاۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿٧١﴾ ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول للمشركين بالله، الداعين معه غيره، الذين يدعونكم إلى دينهم؛ مبينًا وشارحًا لوصف آلهتهم التي يكتفي العاقل بذكر وصفها عن النهي عنها؛ فإن كل عاقل إذا تصور مذهب المشركين؛ جزم ببطلانه قبل أن تقام البراهين على ذلك، فقال: ﴿أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾؛ وهذا وصف يدخل فيه كل من عُبد من دون الله؛ فإنه لا ينفع ولا يضر، وليس له من الأمر شيء، إن الأمر إلا لله. ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾؛ أي: وننقلب بعد هداية الله لنا إلى الضلال، ومن الرشد إلى الغي، ومن الصراط الموصل إلى جنات النعيم إلى الطرق التي تفضي بسالكها إلى العذاب الأليم!! فهذه حال لا يرتضيها ذو رشد، وصاحبها ﴿كَٱلَّذِي ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: أضلته وتيهته عن طريقه ومنهجه الموصل إلى مقصده، فبقي ﴿حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى﴾، والشياطين يدعونه إلى الردى، فبقي بين الداعيين حائرًا، وهذه حال الناس كلهم؛ إلا من عصمه الله تعالى؛ فإنهم يجدون فيهم جواذب ودواعي متعارضة؛ داعي الرسالة والعقل الصحيح والفطرة المستقيمة يدعونه إلى الهدى والصعود إلى أعلى عليين، ودواعي الشيطان ومن سلك مسلكه والنفس الأمارة بالسوء يدعونه إلى الضلال والنزول إلى أسفل سافلين؛ فمن الناس من يكون مع دواعي الهدى في أموره كلها أو أغلبها، ومنهم من بالعكس من ذلك، ومنهم من يتساوى لديه الداعيان ويتعارض عنده الجاذبان، وفي هذا الموضع تعرف أهل السعادة من أهل الشقاوة.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾؛ أي: ليس الهدى إلا الطريق التي شرعها الله على لسان رسوله، وما عداه فهو ضلال وردًى وهلاك. ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾: بأن ننقاد لتوحيده ونستسلم لأوامره ونواهيه وندخل تحت رق عبوديته؛ فإن هذا أفضل نعمة أنعم الله بها على العباد، وأكمل تربية أوصلها إليهم.

﴿٧٢﴾ ﴿وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: وأمرنا أن نقيم الصلاة بأركانها وشروطها وسننها ومكملاتها، ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾: بفعل ما أمر به واجتناب ما عنه نهى. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾؛ أي: تجمعون ليوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم خيرها وشرها.

﴿٧٣﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾: ليأمر العباد وينهاهم ويثيبهم ويعاقبهم، ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾: الذي لا مرية فيه ولا مثنوية ولا يقول شيئًا عبثًا. ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾؛ أي: يوم القيامة خصه بالذكر مع أنه مالك كل شيء؛ لأنه تنقطع فيه الأملاك، فلا يبقى ملك إلا لله[1] الواحد القهار. ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾: الذي له الحكمة التامة، والنعمة السابغة، والإحسان العظيم، والعلم المحيط بالسرائر والبواطن والخفايا، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ

(١) في الأصل، ط: «الله».

۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ
أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ
مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾
فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ
لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا
رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ
أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾
إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ
أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ
إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا
تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا
تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ
سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾

قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾
فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ
أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ
وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠
مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ
وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى
شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾
وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ
أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ
ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ
يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾
وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن
نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿٧٤﴾ يقول تعالى: واذكر قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام مثنيًا عليه ومعظمًا في حال دعوته إلى التوحيد ونهيه عن الشرك. ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ﴾؛ أي: لا تنفع ولا تضر، وليس لها من الأمر شيء، ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ ﴾: حيث عبدتم من لا يستحق من العبادة شيئًا، وتركتم عبادة خالقكم ورازقكم ومدبركم.

﴿٧٥﴾ ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾: حين وفقناه للتوحيد والدعوة إليه، ﴿ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي: ليرى ببصيرته ما اشتملت عليه من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة، ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾: فإنه بحسب قيام الأدلة يحصل له الإيقان والعلم التام بجميع المطالب.

﴿٧٦﴾ ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ ﴾؛ أي: أظلم، ﴿ رَءَا كَوْكَبًا ﴾: لعله من الكواكب المضيئة؛ لأن تخصيصه بالذكر يدل على زيادته عن غيره، ولهذا - والله أعلم - قال من قال: إنه الزهرة، ﴿ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ﴾؛ أي: على وجه التنزل مع الخصم؛ أي: هذا ربي؛ فهلم ننظر: هل يستحق الربوبية؟ وهل يقوم لنا دليل على ذلك؟ فإنه لا ينبغي لعاقل أن يتخذ إلهه هواه بغير حجة ولا برهان، ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ ﴾؛ أي: غاب ذلك الكوكب، ﴿ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾؛ أي: الذي يغيب ويختفي عمن عبده؛ فإن المعبود لا بد أن يكون قائمًا بمصالح من عبده ومدبرًا له في جميع شئونه، فأما الذي يمضي وقت كثير وهو غائب؛ فمن أين يستحق العبادة، وهل اتخاذه إلهًا إلا من أسْفَهِ السفه وأبطل الباطل؟!

﴿٧٧﴾ ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا ﴾؛ أي: طالعًا، ورأى زيادته على نور الكواكب ومخالفته لها، ﴿ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ﴾: تنزلًا، ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ ﴾: فافتقر غاية الافتقار إلى هداية ربه، وعلم أنه إن لم يهده الله؛ فلا هادي له، وإن لم يعنه على طاعته؛ فلا معين له.

﴿٧٨﴾ ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ﴾: من الكوكب ومن القمر، ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَتْ ﴾: تقرر حينئذ الهدى، واضمحل الردى فـ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾: حيث قام البرهان الصادق الواضح على بطلانه.

﴿٧٩﴾ ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ﴾؛ أي: لله وحده، مقبلًا عليه، معرضًا عمن سواه، ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾: فتبرأ من الشرك، وأذعن بالتوحيد، وأقام على ذلك البرهان.

وهذا الذي ذكرنا في تفسير هذه الآيات هو الصواب، وهو أن المقام مقام مناظرة من إبراهيم لقومه وبيان بطلان إلهية هذه الأجرام العلوية وغيرها، وأما من قال: إنه مقام نظر في حال طفوليته؛ فليس عليه دليل.

(٨٠) ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ﴾: أي فائدة لمحاجة من لم يتبين له الهدى؟ فأما من هداه الله ووصل إلى أعلى درجات اليقين؛ فإنه هو بنفسه يدعو الناس إلى ما هو عليه. ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ﴾: فإنها لن تضرني ولن تمنع عني من النفع شيئًا، ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠)﴾: فتعلمون أنه وحده المعبود المستحق للعبودية.

(٨١) ﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ﴾: وحالها حال العجز وعدم النفع، ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ﴾؛ أي: إلا بمجرد اتباع الهوى؟! ﴿فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (٨١)﴾؟!

(٨٢) قال الله تعالى فاصلًا بين الفريقين: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ﴾؛ أي: يخلطوا ﴿إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ (٨٢)﴾: الأمن من المخاوف والعذاب والشقاء، والهداية إلى الصراط المستقيم؛ فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقًا لا بشرك ولا بمعاصٍ؛ حصل لهم الأمن التام والهداية التامة، وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده، ولكنهم يعملون السيئات؛ حصل لهم أصل الهداية وأصل الأمن، وإن لم يحصل لهم كمالها. ومفهوم الآية الكريمة: أن الذين لم يحصل لهم الأمران؛ لم يحصل لهم هداية ولا أمن، بل حظهم الضلال والشقاء.

(٨٣) ولما حكم لإبراهيم عليه السلام بما بين به من البراهين القاطعة قال: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ﴾؛ أي: علا بها عليهم وفلجهم بها. ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾: كما رفعنا درجات إبراهيم عليه السلام في الدنيا والآخرة؛ فإن العلم يرفع الله به صاحبه فوق العباد درجات، خصوصًا العالم العامل المعلِّم؛ فإنه يجعله الله إمامًا للناس بحسب حاله، تُرمق أفعاله، وتقتفى آثاره، ويستضاء بنوره، ويمشى بعلمه في ظلمة ديجوره؛ قال تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾ [المجادلة: ١١]. ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ (٨٣)﴾: فلا يضع العلم والحكمة إلا في المحل اللائق بها، وهو أعلم بذلك المحل، وبما ينبغي له.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ
وَهُم مُّهۡتَدُونَ (٨٢) وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ
قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ (٨٣)
وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا
هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ
وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ (٨٤)
وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٨٥)
وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى
ٱلۡعَٰلَمِينَ (٨٦) وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ
وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (٨٧) ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي
بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ (٨٨) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ
فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ
(٨٩) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ
أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ (٩٠)

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ (٨٤)
وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٨٥)
وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ (٨٦) وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (٨٧) ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (٨٨) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ (٨٩)
أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ (٩٠)﴾.

لما ذكر الله تعالى عبده وخليله إبراهيم عليه السلام، وذكر ما من الله عليه به من العلم والدعوة والصبر؛ ذكر ما أكرمه الله به من الذرية الصالحة والنسل الطيب وأن الله

جعل صفوة الخلق من نسله، وأعظم بهذه المنقبة والكرامة الجسيمة التي لا يدرك لها نظير!! فقال:

(٨٤) ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾: ابنه الذي هو إسرائيل أبو الشعب الذي فضله الله على العالمين، ﴿ كُلًّا ﴾ منهما هديناه الصراط المستقيم في علمه وعمله، و﴿ نُوحًا ﴾ هديناه ﴿ مِن قَبْلُ ﴾، وهدايته من أعلى أنواع الهدايات الخاصة التي لم تحصل إلا لأفراد من العالم، وهم أولو العزم من الرسل، الذي هو أحدهم، ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ ﴾ -: يحتمل أن الضمير عائد إلى نوح؛ لأنه أقرب مذكور، ولأن الله ذكر مع من ذكر لوطًا، وهو من ذرية نوح لا من ذرية إبراهيم؛ لأنه ابن أخيه، ويحتمل أن الضمير يعود إلى إبراهيم؛ لأن السياق في مدحه والثناء عليه، ولوط وإن لم يكن من ذريته؛ فإنه ممن آمن على يده، فكان منقبة الخليل وفضيلته بذلك أبلغ من كونه مجرد ابن له. ﴿ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ ﴾ ابن داود ﴿ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ ﴾ ابن يعقوب ﴿ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ ابني عمران. ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾: كما أصلحنا ذرية إبراهيم الخليل؛ لأنه أحسن في عبادة ربه وأحسن في نفع الخلق، كذلك ﴿ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (٨٤) ﴾: بأن نجعل لهم من الثناء الصدق والذرية الصالحة بحسب إحسانهم.

(٨٥) ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ ﴾: ابنه، ﴿ وَعِيسَىٰ ﴾ ابن مريم، ﴿ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ ﴾: من هؤلاء ﴿ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٨٥) ﴾: في أخلاقهم وأعمالهم وعلومهم، بل هم سادة الصالحين وقادتهم وأئمتهم.

(٨٦) ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ ﴾ ابن إبراهيم، أبو الشعب الذي هو أفضل الشعوب، وهو الشعب العربي، ووالد سيد ولد آدم محمد ﷺ، ﴿ وَيُونُسَ ﴾ ابن متى، ﴿ وَلُوطًا ﴾ ابن هاران أخي إبراهيم، ﴿ وَكُلًّا ﴾: من هؤلاء الأنبياء والمرسلين ﴿ فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (٨٦) ﴾: لأن درجات الفضائل أربع، وهي التي ذكرها الله بقوله: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النساء: ٦٩]: فهؤلاء من الدرجة العليا، بل هم أفضل الرسل على الإطلاق، فالرسل الذين قصهم الله في كتابه أفضل ممن لم يقصص علينا نبأهم بلا شك.

(٨٧) ﴿ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ ﴾؛ أي: آباء هؤلاء المذكورين، ﴿ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ﴾؛ أي: وهدينا من آباء هؤلاء وذرياتهم وإخوانهم، ﴿ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ ﴾؛ أي: اخترناهم، ﴿ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٨٧) ﴾.

(٨٨)، (٨٩) ﴿ ذَٰلِكَ ﴾: الهدى المذكور ﴿ هُدَى ٱللَّهِ ﴾: الذي لا هدى إلا هداه. ﴿ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾: فاطلبوا منه الهدى؛ فإنه إن لم يهدكم؛ فلا هادي لكم غيره، وممن شاء هدايته هؤلاء المذكورون. ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ ﴾: على الفرض والتقدير، ﴿ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٨٨) ﴾: فإن الشرك محبط للعمل موجب للخلود في النار؛ فإذا كان هؤلاء الصفوة الأخيار لو أشركوا - وحاشاهم - لحبطت أعمالهم؛ فغيرهم أولى.

(٩٠) ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾: المذكورون ﴿ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾؛ أي: امش أيها الرسول الكريم خلف هؤلاء الأنبياء الأخيار واتبع ملتهم. وقد امتثل ﷺ فاهتدى بهدي الرسل قبله، وجمع كل كمال فيهم، فاجتمعت لديه فضائل وخصائص فاق بها جميع العالمين، وكان سيد المرسلين وإمام المتقين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. وبهذا الملحظ استدل بهذه من استدل من الصحابة أن رسول الله ﷺ أفضل الرسل كلهم، ﴿ قُل ﴾ للذين أعرضوا عن دعوتك: ﴿ لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾؛ أي: لا أطلب منكم مغرمًا ومالًا جزاء عن إبلاغي إياكم ودعوتي لكم، فيكون من أسباب امتناعكم، إن أجري إلا على الله. ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ (٩٠) ﴾: يتذكرون به ما ينفعهم فيفعلونه وما يضرهم فيذرونه، ويتذكرون به معرفة ربهم بأسمائه وأوصافه، ويتذكرون به الأخلاق الحميدة والطرق الموصلة إليها، والأخلاق الرذيلة والطرق المفضية إليها؛ فإذا كان ذكرى للعالمين؛ كان أعظم نعمة أنعم الله بها عليهم، فعليهم قبولها، والشكر عليها.

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) ﴾.

(٩١) هذا تشنيع على من نفى الرسالة من اليهود والمشركين وزعم أن الله ما أنزل على بشر من شيء؛ فمن قال هذا؛ فما قدر الله حق قدره ولا عظمه حق عظمته؛ إذ هذا قدح في حكمته، وزعم أنه يترك عباده هملًا لا يأمرهم ولا ينهاهم،

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

ونفي لأعظم منة امتن الله بها على عباده، وهي الرسالة التي لا طريق للعباد إلى نيل السعادة والكرامة والفلاح إلا بها؛ فأي قدح في الله أعظم من هذا؟!

﴿قُلْ﴾ لهم ملزمًا بفساد قولهم وقررهم بما به يقرون: ﴿مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ﴾: وهو التوراة العظيمة ﴿نُورًا﴾: في ظلمات الجهل، ﴿وَهُدًى﴾: من الضلالة، وهاديًا إلى الصراط المستقيم علمًا وعملًا، وهو الكتاب الذي شاع وذاع وملأ ذكره القلوب والأسماع، حتى إنهم جعلوا يتناسخونه في القراطيس ويتصرفون فيه بما شاءوا؛ فما وافق أهواءهم منه؛ أبدوه وأظهروه، وما خالف ذلك؛ أخفوه وكتموه، وذلك كثير. ﴿وَعُلِّمْتُم﴾: من العلوم التي بسبب ذلك الكتاب الجليل ﴿مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾.

فإذا سألتهم عمن أنزل هذا الكتاب الموصوف بتلك الصفات؛ فأجب عن هذا السؤال و﴿قُلِ اللَّهُ﴾: الذي أنزله، فحينئذ يتضح الحق، وينجلي مثل الشمس؛ وتقوم عليهم الحجة. ﴿ثُمَّ﴾ إذا ألزمتهم بهذا الإلزام ﴿ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾؛ أي: اتركهم يخوضوا في الباطل ويلعبوا بما لا فائدة فيه حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون.

﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

(٩٢) أي: ﴿وَهَٰذَا﴾: القرآن ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ إليك ﴿مُبَارَكٌ﴾؛ أي: وصفه البركة، وذلك لكثرة خيراته وسعة مبراته ﴿مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ أي: موافق للكتب السابقة وشاهد لها بالصدق، ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾؛ أي: وأنزلناه أيضًا لتنذر أم القرى - وهي مكة المكرمة - ومن حولها من ديار العرب، بل ومن سائر البلدان، فتحذر الناس عقوبة الله وأخذه الأمم، وتحذرهم مما يوجب ذلك. ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾: لأن الخوف إذا كان في القلب؛ عمرت أركانه وانقاد لمراضي الله، ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾؛ أي: يداومون عليها ويحفظون أركانها وحدودها وشروطها وآدابها ومكملاتها. جعلنا الله منهم.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

(٩٣) يقول تعالى: لا أحد أعظم ظلمًا ولا أكبر جرمًا ممن كذب على الله بأن نسب إلى الله قولًا أو حكمًا وهو تعالى بريء منه، وإنما كان هذا أظلم الخلق؛ لأن فيه من الكذب وتغيير الأديان أصولها وفروعها ونسبة ذلك إلى الله ما هو من أكبر المفاسد، ويدخل في ذلك ادعاء النبوة، وأن الله يوحي إليه، وهو كاذب في ذلك؛ فإنه مع كذبه على الله وجرأته على عظمته وسلطانه يوجب على الخلق أن يتبعوه ويجاهدهم على ذلك ويستحل دماء من خالفه وأموالهم. ويدخل في هذه الآية كل من ادعى النبوة كمسيلمة الكذاب

والأسود العنسي والمختار وغيرهم ممن اتصف بهذا الوصف. ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: ومن أظلم ممن زعم أنه يقدر على ما يقدر الله عليه ويجاري الله في أحكامه ويشرع من الشرائع كما شرعه[1] الله. ويدخل في هذا كل من يزعم أنه يقدر على معارضة القرآن، وأنه في إمكانه أن يأتي بمثله! وأي ظلم أعظم من دعوى الفقير العاجز بالذات الناقص من كل وجه، مشاركة القوي الغني الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه في ذاته وأسمائه وصفاته؟!

ولما ذم الظالمين؛ ذكر ما أعد لهم من العقوبة في حال الاحتضار ويوم القيامة، فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾؛ أي: شدائده وأهواله الفظيعة وكربه الشنيعة؛ لرأيت أمرًا هائلًا وحالةً لا يقدر الواصف أن يصفها. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾: إلى أولئك الظالمين المحتضرين بالضرب والعذاب؛ يقولون لهم عند منازعة أرواحهم وقلقها وتعصيها عن الخروج من الأبدان: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾؛ أي: العذاب الشديد الذي يهينكم ويذلكم، والجزاء من جنس العمل؛ فإن هذا العذاب ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾: من كذبكم عليه وردكم للحق الذي جاءت به الرسل، ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾؛ أي: تترفعون عن الانقياد لها والاستسلام لأحكامها.

وفي هذا دليل على عذاب البرزخ ونعيمه؛ فإن هذا الخطاب والعذاب الموجه إليهم إنما هو عند الاحتضار وقبيل الموت وبعده. وفيه دليل على أن الروح جسم يدخل ويخرج ويخاطب، ويساكن الجسد ويفارقه.

﴿٩٤﴾ فهذه حالهم في البرزخ، وأما يوم القيامة؛ فإنهم إذا وردوها؛ وردوها مفلسين فرادى بلا أهل ولا مال ولا أولاد ولا جنود ولا أنصار؛ كما خلقهم الله أول مرة، عارين من كل شيء؛ فإن الأشياء إنما تتمول وتحصل بعد ذلك بأسبابها التي هي أسبابها، وفي ذلك اليوم تنقطع جميع الأمور التي كانت مع العبد في الدنيا سوى العمل الصالح والعمل السيئ الذي هو مادة الدار الآخرة الذي تنشأ عنه ويكون حسنها وقبحها وسرورها وغمومها وعذابها ونعيمها بحسب الأعمال؛ فهي التي تنفع أو تضر وتسوء أو تسر، وما سواها من الأهل والولد والمال والأنصار فعواري خارجية وأوصاف زائلة وأحوال حائلة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ﴾؛ أي: أعطيناكم وأنعمنا به عليكم ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾: لا يغنون عنكم شيئًا، ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾: فإن المشركين يشركون بالله ويعبدون معه الملائكة والأنبياء والصالحين وغيرهم، وهم كلهم لله، ولكنهم يجعلون لهذه المخلوقات نصيبًا من أنفسهم وشركة في عبادتهم، وهذا زعم منهم وظلم؛ فإن الجميع عبيد لله، والله مالكهم والمستحق لعبادتهم؛ فشركهم في العبادة وصرفها لبعض العبيد تنزيل لهم منزلة الخالق المالك[2]، فيوبخون يوم القيامة، ويقال لهم هذه المقالة ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾؛ أي: تقطعت الوصل والأسباب بينكم وبين شركائكم من الشفاعة وغيرها، فلم تنفع ولم تُجْدِ شيئًا. ﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾: من الربح والأمن والسعادة والنجاة التي زينها لكم الشيطان وحسنها في قلوبكم، فنطقت بها ألسنتكم، واغتررتم بهذا الزعم الباطل الذي لا حقيقة له حين تبين لكم نقيض ما كنتم تزعمون، وظهر أنكم الخاسرون لأنفسكم وأهليكم وأموالكم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿٩٥﴾ يخبر تعالى عن كماله وعظمة سلطانه وقوة اقتداره وسعة رحمته وعموم كرمه وشدة عنايته بخلقه، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ﴾ شامل لسائر الحبوب التي يباشر الناس زرعها، والتي لا يباشرونها؛ كالحبوب التي يبثها الله في البراري والقفار، فيفلق الحبوب عن الزروع والنوابت على اختلاف أنواعها وأشكالها ومنافعها، ويفلق النوى عن

(١) ع، ط: «يشرعه».

(٢) بعده في ع: «لهم».

الأشـجار من النخيل والفواكه وغيـر ذلك، فينتفع الخلق من الآدميين والأنعام والدواب، ويرتعون فيما فلق الله من الحب والنوى، ويقتاتون وينتفعون بجميع أنواع المنافع التي جعلها اللـه فـي ذلك، ويريهم الله من بره وإحسـانه مـا يبهر العقول ويذهل الفحول، ويريهـم من بدائع صنعته وكمال حكمته ما بـه يعرفونـه ويوحدونه ويعلمـون أنه هو الحـق وأن عبادة ما سـواه باطلة. ﴿ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ ﴾: كمـا يخرج من المني حيوانًا ومن البيضة فرخًا ومن الحب والنوى زرعًا وشـجرًا، ﴿ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ ﴾: وهـو الـذي لا نمو فيـه أو لا روح ﴿ مِنَ ٱلۡحَيِّ ﴾: كمـا يخرج من الأشـجار والزروع النـوى والحب، ويخرج من الطائـر بيضًا ونحو ذلـك. ﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾ الذي فعل ما فعل وانفرد بخلق هذه الأشياء وتدبيرها ﴿ ٱللَّهُ ﴾ ربكم[1]؛ أي: الـذي لـه الألوهيـة والعبادة علـى خلقـه أجمعين، وهو الـذي ربـى جميـع العالمين بنعمـه وغذاهـم بكرمه، ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾؛ أي: فأنـى تصرفون وتصـدون عن عبادة من هذا شأنه إلى عبادة من لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا؟

﴿٩٦﴾ ولما ذكـر تعالى مادة خلق الأقـوات؛ ذكر منته بتهيئة المسـاكن وخلقه كل ما يحتاج إليه العباد من الضياء والظلمة وما يترتـب علـى ذلك من أنـواع المنافـع والمصالح، فقال: ﴿ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ ﴾؛ أي: كمـا أنـه فالق الحـب والنوى، كذلك هـو فالق ظلمة الليل الداجي الشـامل لمـا على وجه الأرض بضياء الصبح الذي يفلقه شيئًا فشيئًا، حتى تذهب ظلمة الليل كلها ويخلفها الضياء والنور العام الذي يتصرف به الخلق في مصالحهم ومعايشهم ومنافع دينهم ودنياهم.

ولمـا كان الخلـق محتاجيـن إلـى السـكون والاسـتقرار والراحـة التي لا تتـم إلا بوجـود النهار والنـور؛ ﴿ جَعَلَ ﴾: الله الليل سـكنًا يسـكن فيـه الآدميون إلى دورهـم ومنامهم، والأنعـام إلى مأواهـا، والطيور إلـى أوكارها فتأخـذ نصيبها مـن الراحة، ثـم يزيل الله ذلك بالضياء، وهكـذا أبدًا إلى يوم القيامـة. وجعـل تعالـى الشـمس ﴿ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗا ﴾: بهما تعـرف الأزمنة والأوقـات؛ فتنضبط بذلك أوقـات العبادات وآجـال المعاملات، ويعـرف بها مدة ما مضـى من الأوقات التـي لـولا وجـود الشـمس والقمـر وتناوبهمـا واختلافهما لمـا عـرف ذلك عامـة الناس واشـتركوا فـي علمـه، بل كان

۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٠١﴾

لا يعرفـه إلا أفـراد من النـاس بعد الاجتهـاد، وبذلك يفوت مـن المصالـح الضروريـة مـا يفـوت. ﴿ ذَٰلِكَ ﴾: التقدير المذكـور، ﴿ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾: الـذي مـن عزتـه انقـادت له هـذه المخلوقات العظيمة فجرت مذللة مسخرة بأمـره، بحيـث لا تتعدى ما حـده الله لها ولا تتقـدم عنه ولا تتأخر، العليم الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن والأوائل والأواخر. ومن الأدلة العقلية على إحاطة علمه تسـخير هذه المخلوقات العظيمة على تقدير ونظام بديع تحير العقول في حسنه وكماله وموافقته للمصالح والحكم.

﴿٩٧﴾ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ ﴾: حين تشـتبه عليكم المسالك، ويتحير في سيره السـالك، فجعل الله النجـوم هدايةً للخلق إلى السـبيل التي يحتاجون إلى سـلوكها لمصالحهم وتجاراتهم وأسـفارهم، منهـا نجـوم لا تزال ترى ولا تسـير عن محلهـا، ومنها ما هو مسـتمر السـير يعرف سـيره أهل المعرفة بذلك، ويعرفون به الجهات والأوقات. ودلت هذه الآية ونحوها على مشروعية

(١) ساقط من ط.

تعلم سير الكواكب ومحالها الذي يسمى علم التسيير؛ فإنه لا تتم الهداية ولا تمكن إلا بذلك.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾؛ أي: بيناها ووضحناها وميزنا كل جنس ونوع منها عن الآخر بحيث صارت آيات الله بادية ظاهرة، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٩٧﴾؛ أي: لأهل العلم والمعرفة؛ فإنهم الذين يوجه إليهم الخطاب، ويطلب منهم الجواب؛ بخلاف أهل الجهل والجفاء المعرضين عن آيات الله وعن العلم الذي جاءت به الرسل؛ فإن البيان لا يفيدهم شيئًا، والتفصيل لا يزيل عنهم ملتبسًا، والإيضاح لا يكشف لهم مشكلًا.

۝٩٨ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾: وهو آدم عليه السلام، أنشأ الله منه هذا العنصر الآدمي الذي قد ملأ الأرض، ولم يزل في زيادة ونمو، الذي قد تفاوت في أخلاقه وخلقه وأوصافه تفاوتًا لا يمكن ضبطه، ولا يدرك وصفه، وجعل الله لهم مستقرًّا؛ أي: منتهًى ينتهون إليه وغاية يساقون إليها، وهي دار القرار التي لا مستقر وراءها ولا نهاية فوقها؛ فهذه الدار هي التي خلق الخلق لسكناها، وأوجدوا في الدنيا ليسعوا في أسبابها التي تنشأ عليها وتعمر بها، وأودعهم الله في أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم، ثم في دار الدنيا، ثم في البرزخ؛ كل ذلك على وجه الوديعة التي لا تستقر ولا تثبت، بل يتنقل منها، حتى يوصل إلى الدار التي هي المستقر، وأما هذه الدار؛ فإنها مستودع وممر. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ۝٩٨﴾: عن الله آياته، ويفهمون عنه حججه وبيناته.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٩٩﴾.

۝٩٩ وهذا من أعظم مننه العظيمة التي يضطر إليها الخلق من الآدميين، وغيرهم، وهو أنه أنزل من السماء ماء متتابعًا وقت حاجة الناس إليه، فأنبت الله به كل شيء مما يأكل الناس والأنعام، فرتع الخلق بفضل الله وانبسطوا برزقه وفرحوا بإحسانه وزال عنهم الجدب واليأس والقحط، ففرحت القلوب وأسفرت الوجوه وحصل للعباد من رحمة الرحمن الرحيم ما به يتمتعون وبه يرتعون، مما يوجب لهم أن يبذلوا جهدهم في شكر من أسدى النعم وعبادته والإنابة إليه والمحبة له.

ولما ذكر عموم ما ينبت بالماء من أنواع الأشجار والنبات؛ ذكر الزرع والنخل لكثرة نفعهما وكونهما قوتًا لأكثر الناس، فقال: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ﴾؛ أي: من ذلك النبات الخضر ﴿حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾: بعضه فوق بعض من بر وشعير وذرة وأرز وغير ذلك من أصناف الزروع، وفي وصفه بأنه متراكب إشارة إلى أن حبوبه متعددة، وجميعها تستمد من مادة واحدة، وهي لا تختلط، بل هي متفرقة الحبوب مجتمعة الأصول، وإشارة أيضًا إلى كثرتها وشمول ريعها وغلتها؛ ليبقى أصل البذر، ويبقى بقية كثيرة للأكل والادخار. ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ﴾: أخرج الله ﴿مِن طَلْعِهَا﴾: وهو الكُفُرَّى والوعاء قبل ظهور القنو منه، فيخرج من ذلك الوعاء ﴿قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾؛ أي: قريبة سهلة التناول متدلية على من أرادها؛ بحيث لا يعسر التناول من النخل، وإن طالت؛ فإنه يوجد فيها كَرَبٌ ومراقي يسهل صعودها. وأخرج تعالى بالماء جنات ﴿مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾: فهذه من الأشجار الكثيرة النفع العظيمة الوقع؛ فلذلك خصصها الله بالذكر بعد أن عم جميع الأشجار والنوابت. وقوله: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾: يحتمل أن يرجع إلى الرمان والزيتون؛ أي: مشتبهًا في شجره وورقه غير متشابه في ثمره، ويحتمل أن يرجع ذلك إلى سائر الأشجار والفواكه، وأن بعضها مشتبه؛ يشبه بعضه بعضًا، ويتقارب في بعض أوصافه، وبعضها لا مشابهة بينه وبين غيره، والكل ينتفع به العباد ويتفكهون، ويقتاتون ويعتبرون، ولهذا أمر تعالى بالاعتبار به، فقال: ﴿ٱنظُرُوٓا۟﴾: نظر فكر واعتبار ﴿إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾؛ أي: الأشجار كلها، خصوصًا النخل، ﴿إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾؛ أي: انظروا إليه وقت إطلاعه ووقت نضجه وإيناعه؛ فإن في ذلك عبرًا وآيات يستدل بها على رحمة الله وسعة إحسانه وجوده وكمال اقتداره وعنايته بعباده، ولكن ليس كل أحد يعتبر ويتفكر، وليس كل من تفكر؛ أدرك المعنى المقصود، ولهذا قيد تعالى الانتفاع بالآيات بالمؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٩٩﴾: فإن المؤمنين يحملهم ما معهم من الإيمان على العمل بمقتضياته ولوازمه التي منها التفكر في آيات الله والاستنتاج منها ما يراد منها وما تدل عليه عقلًا وفطرةً وشرعًا.

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ
بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ
وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ
لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ
الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن
رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم
بِحَفِيظٍ (١٠٤) ﴾.

(١٠٠) يخبر تعالى أنه مع إحسانه لعباده وتعرفه إليهم بآياته البينات وحججه الواضحات؛ أن المشركين به من قريش وغيرهم جعلوا له شركاء يدعونهم ويعبدونهم من الجن والملائكة، الذين هم خلق من خلق الله، ليس فيهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء، فجعلوها شركاء لمن له الخلق والأمر، وهو المنعم بسائر أصناف النعم، الدافع لجميع النقم، وكذلك خرق المشركون؛ أي: ائتفكوا وافتروا من تلقاء أنفسهم لله بنين وبنات بغير علم منهم، ومن أظلم ممن قال على الله بلا علم، وافترى عليه أشنع النقص الذي يجب تنزيه الله عنه، ولهذا نزه نفسه عما افتراه عليه المشركون، فقال: ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) ﴾؛ فإنه تعالى الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل نقص وآفة وعيب.

(١٠١) ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾؛ أي: خالقهما ومتقن صنعتهما على غير مثال سبق بأحسن خلق ونظام وبهاء لا تقترح عقول أولي الألباب مثله، وليس له في خلقهما مشارك. ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ﴾؛ أي: كيف يكون لله الولد وهو الإله السيد الصمد الذي لا صاحبة له؛ أي: لا زوجة، وهو الغني عن مخلوقاته، وكلها فقيرة إليه مضطرة في جميع أحوالها إليه، والولد لا بد أن يكون من جنس والده، والله خالق كل شيء، وليس شيء من المخلوقات مشابهًا لله بوجه من الوجوه؟ ولما ذكر عموم خلقه للأشياء؛ ذكر إحاطة علمه بها، فقال: ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ﴾، وفي ذكر العلم بعد الخلق إشارة إلى الدليل العقلي إلى ثبوت علمه، وهو هذه المخلوقات وما اشتملت عليه من النظام التام والخلق الباهر؛ فإن في ذلك دلالة على سعة علم الخالق وكمال حكمته؛ كما قال تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك: ١٤]، وكما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) ﴾ [يس: ٨١].

(١٠٢) ﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾ الذي خلق ما خلق وقدر ما قدر؛ ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾؛ أي: المألوه المعبود الذي يستحق نهاية الذل له ونهاية الحب، الرب الذي ربى جميع الخلق بالنعم، وصرف عنهم صنوف النقم، ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ﴾؛ أي: إذا استقر وثبت أنه الله الذي لا إله إلا هو؛ فاصرفوا له جميع أنواع العبادة، وأخلصوها لله، واقصدوا بها وجهه؛ فإن هذا هو المقصود من الخلق الذي خلقوا لأجله، ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [الذاريات: ٥٦]. ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) ﴾، أي: جميع الأشياء تحت وكالة الله وتدبيره خلقًا وتدبيرًا وتصريفًا. ومن المعلوم أن الأمر المتصرف فيه يكون استقامته وتمامه وكمال انتظامه بحسب حال الوكيل عليه، ووكالته تعالى على الأشياء ليست من جنس وكالة الخلق؛ فإن وكالتهم وكالة نيابة، والوكيل فيها تابع لموكله، وأما الباري تبارك

الجزء السابع — سورة الأنعام

ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ
فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَا تُدْرِكُهُ
الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)
قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ
فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (١٠٤) وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ
الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠٥)
اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ
الْمُشْرِكِينَ (١٠٦) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ
حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (١٠٧) وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ
يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا
لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ (١٠٨) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ
لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا
جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ
يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠)

١٤١

وتعالى؛ فوكالته من نفسه لنفسه، متضمنة لكمال العلم وحسن التدبير والإحسان فيه والعدل، فلا يمكن أحدًا أن يستدرك على الله، ولا يرى في خلقه خللًا ولا فطورًا، ولا في تدبيره نقصًا وعيبًا، ومن وكالته أنه تعالى توكل ببيان دينه وحفظه عن المزيلات والمغيرات، وأنه تولى حفظ المؤمنين وعصمتهم عما يزيل إيمانهم ودينهم.

(١٠٣) ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾: لعظمته وجلاله وكماله، أي: لا تحيط به الأبصار وإن كانت تراه وتفرح بالنظر إلى وجهه الكريم، فنفي الإدراك لا ينفي الرؤية، بل يثبتها بالمفهوم؛ فإنه إذا نفى الإدراك الذي هو أخص أوصاف الرؤية؛ دل على أن الرؤية ثابتة؛ فإنه لو أراد نفي الرؤية؛ لقال: لا تراه الأبصار... ونحو ذلك، فعلم أنه ليس في الآية حجة لمذهب المعطلة الذين ينفون رؤية ربهم في الآخرة، بل فيها ما يدل على نقيض قولهم. ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾؛ أي: هو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، وسمعه بجميع الأصوات الظاهرة والخفية، وبصره بجميع المبصرات صغارها وكبارها، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ (١٠٣)﴾؛ أي: الذي لطف علمه وخبرته ودق حتى أدرك السرائر والخفايا والخبايا والبواطن، ومن لطفه أنه يسوق عبده إلى مصالح دينه، ويوصلها إليه بالطرق التي لا يشعر بها العبد ولا يسعى فيها، ويوصله إلى السعادة الأبدية والفلاح السرمدي من حيث لا يحتسب، حتى إنه يقدر عليه الأمور التي يكرهها العبد ويتألم منها ويدعو الله أن يزيلها؛ لعلمه أن دينه أصلح؛ وأن كماله متوقف عليها؛ فسبحان اللطيف لما يشاء، الرحيم بالمؤمنين.

(١٠٤) ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (١٠٤)﴾: لما بين تعالى من الآيات البينات والأدلة الواضحات الدالة على الحق في جميع المطالب والمقاصد؛ نبه العباد عليها، وأخبر أن هدايتهم وضدها لأنفسهم، فقال: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: آيات تبين الحق وتجعله للقلب بمنزلة الشمس للأبصار؛ لما اشتملت عليه من فصاحة اللفظ وبيانه ووضوحه ومطابقته للمعاني الجليلة والحقائق الجميلة؛ لأنها صادرة من الرب الذي ربى خلقه بصنوف نعمه الظاهرة والباطنة، التي من أفضلها وأجلها تبيين الآيات وتوضيح المشكلات. ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾: بتلك الآيات مواقع العبرة وعمل بمقتضاها ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾: فإن الله هو الغني الحميد، ومن عمي بأن بُصِّرَ فلم يتبصر، وزجر فلم ينزجر، وبين له الحق فما انقاد له ولا تواضع؛ فإنما عماه مضرته عليه. ﴿وَمَآ أَنَا۠﴾: أيها الرسول، ﴿عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (١٠٤)﴾: أحفظ أعمالكم وأراقبها على الدوام، إنما علي البلاغ المبين، وقد أديته وبلغت ما أنزل الله إلي؛ فهذه وظيفتي، وما عدا ذلك فلست موظفًا فيه[1].

﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٠٨)﴾.

(١٠٨) ينهى الله المؤمنين عن أمر كان جائزًا بل مشروعًا في الأصل، وهو سب آلهة المشركين التي اتخذت أوثانًا وآلهة مع الله، التي يتقرب إلى الله بإهانتها وسبها، ولكن لما كان هذا السب طريقًا إلى سب المشركين لرب العالمين، الذي يجب تنزيه جنابه العظيم عن كل عيب وآفة وسب وقدح؛ نهى الله عن سب آلهة المشركين؛ لأنهم يحمون لدينهم ويتعصبون له؛ لأن كل أمة زين الله لهم عملهم فرأوه حسنًا وذبوا عنه ودافعوا بكل طريق، حتى إنهم يسبون الله رب العالمين الذي رسخت عظمته في قلوب الأبرار والفجار إذا سب المسلمون آلهتهم، ولكن الخلق كلهم مرجعهم ومآلهم إلى الله يوم القيامة، يعرضون عليه وتعرض أعمالهم، فينبئهم بما كانوا يعملون من خير وشر.

وفي هذه الآية الكريمة دليل للقاعدة الشرعية، وهو أن الوسائل تعتبر بالأمور التي توصل إليها، وأن وسائل المحرم - ولو كانت جائزة - تكون محرمةً إذا كانت تفضي إلى الشر.

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١)﴾.

(١) فسر بعده النجار في طبعته الآيات من ١٠٥-١٠٧ من تلقاء نفسه وليست من تفسير الشيخ السعدي فآثرنا حذفه.

الجزء الثامن — سورة الأنعام

۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا
عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا
شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ
الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ
(١١٢) وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ (١١٣) أَفَغَيْرَ اللَّهِ
أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ۚ
وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ۖ
فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا
وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥) وَإِن
تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن
يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧)
فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨)

١٤٢

(١٠٩) أي: وأقسم المشركون المكذبون للرسول محمد ﷺ ﴿بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾؛ أي: قسمًا اجتهدوا فيه وأكدوه، ﴿لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾: تدل على صدق محمد ﷺ، ﴿لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾: وهذا الكلام الذي صدر منهم لم يكن قصدهم فيه الرشاد، وإنما قصدهم دفع الاعتراض عليهم ورد ما جاء به الرسول قطعًا؛ فإن الله أيد رسوله ﷺ بالآيات البينات والأدلة الواضحات التي عند الالتفات لها لا تبقى أدنى شبهة ولا إشكال في صحة ما جاء به؛ فطلبهم بعد ذلك للآيات من باب التعنت الذي لا يلزم إجابته، بل قد يكون المنع من إجابتهم أصلح لهم؛ فإن الله جرت سنته في عباده أن المقترحين للآيات على رسلهم إذا جاءتهم فلم يؤمنوا بها أنه يعاجلهم بالعقوبة، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾؛ أي: هو الذي يرسلها إذا شاء، ويمنعها إذا شاء، ليس لي من الأمر شيء، فطلبكم مني الآيات ظلم وطلب لما لا أملك، وإنما توجهون إلى توضيح ما جئتكم به وتصديقه، وقد حصل، ومع ذلك؛ فليس معلومًا أنهم إذا جاءتهم الآيات يؤمنون ويصدقون، بل الغالب ممن هذه حاله[1] لا يؤمن، ولهذا قال: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩)﴾.

(١١٠) ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠)﴾؛ أي: ونعاقبهم إذا لم يؤمنوا أول مرة يأتيهم فيه الداعي وتقوم عليهم الحجة بتقليب القلوب والحيلولة بينهم وبين الإيمان وعدم التوفيق لسلوك الصراط المستقيم، وهذا من عدل الله وحكمته بعباده؛ فإنهم الذين جنوا على أنفسهم، وفتح لهم الباب فلم يدخلوا، وبين لهم الطريق فلم يسلكوا؛ فبعد ذلك إذا حرموا التوفيق؛ كان مناسبًا لأحوالهم.

(١١١) وكذلك تعليقهم الإيمان بإرادتهم ومشيئتهم وحدهم وعدم الاعتماد على الله من أكبر الغلط؛ فإنهم لو جاءتهم الآيات العظيمة؛ من تنزيل الملائكة إليهم يشهدون للرسول بالرسالة، وتكليم الموتى، وبعثهم بعد موتهم، وحشرنا عليهم كل شيء حتى يكلمهم ﴿قُبُلًا﴾ قبلًا ومشاهدةً ومباشرة بصدق ما جاء به الرسول؛ ما حصل لهم الإيمان إذا لم يشأ الله إيمانهم، ولكن أكثرهم يجهلون؛ فلذلك رتبوا إيمانهم على مجرد إتيان الآيات، وإنما العقل والعلم أن يكون العبد مقصوده اتباع الحق، ويطلبه بالطرق التي بينها الله، ويعمل بذلك، ويستعين ربه في اتباعه، ولا يتكل على نفسه وحوله وقوته، ولا يطلب من الآيات الاقتراحية ما لا فائدة فيه.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ (١١٣)﴾.

(١١٢) يقول تعالى مسليًا لرسوله ﷺ: وكما جعلنا لك أعداء يردون دعوتك ويحاربونك ويحسدونك؛ فهذه سنتنا أن نجعل لكل نبي نرسله إلى الخلق أعداءً من شياطين الإنس والجن يقومون بضد ما جاءت به الرسل، ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾؛ أي: يزين بعضهم لبعض الأمر الذي يدعون إليه من الباطل ويزخرفون له العبارات حتى يجعلوه في أحسن صورة ليغتر به السفهاء وينقاد له الأغبياء الذين لا يفهمون الحقائق ولا يفقهون المعاني، بل تعجبهم الألفاظ المزخرفة والعبارات المموهة، فيعتقدون الحق باطلًا والباطل حقًا.

(١) زاد في ع، ط: «أنه».

(١١٣) ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ ﴾؛ أي: ولتميل إلى ذلك الكلام المزخرف ﴿أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾: لأن عدم إيمانهم باليوم الآخر وعدم عقولهم النافعة يحملهم على ذلك، ﴿وَلِيَرْضَوْهُ ﴾: بعد أن يصغوا إليه، فيصغون إليه أولًا، فإذا مالوا إليه ورأوا تلك العبارات المستحسنة؛ رضوه وزين في قلوبهم وصار عقيدةً راسخةً وصفة لازمة، ثم ينتج من ذلك أن يقترفوا من الأعمال والأقوال ما هم مقترفون؛ أي: يأتون من الكذب بالقول والفعل ما هو من لوازم تلك العقائد القبيحة؛ فهذه حال المفترين شياطين[١] الإنس والجن المستجيبين لدعوتهم، وأما أهل الإيمان بالآخرة وأولو العقول الوافية والألباب الرزينة؛ فإنهم لا يغترون بتلك العبارات، ولا تخلبهم تلك التمويهات، بل همتهم مصروفة إلى معرفة الحقائق، فينظرون إلى المعاني التي يدعو إليها الدعاة؛ فإن كانت حقًّا؛ قبلوها وانقادوا لها، ولو كسيت عبارات رديئة وألفاظًا غير وافية، وإن كانت باطلًا؛ ردوها على من قالها، كائنًا من كان، ولو ألبست من العبارات المستحسنة ما هو أرق من الحرير.

ومن حكمته[٢] تعالى في جعله للأنبياء أعداءً وللباطل أنصارًا قائمين بالدعوة إليه: أن يحصل لعباده الابتلاء والامتحان؛ ليتميز الصادق من الكاذب، والعاقل من الجاهل، والبصير من الأعمى. ومن حكمته: أن في ذلك بيانًا للحق وتوضيحًا له؛ فإن الحق يستنير ويتضح إذا قام الباطل يصارعه ويقاومه؛ فإنه حينئذ يتبين من أدلة الحق وشواهده الدالة على صدقه وحقيقته ومن فساد الباطل وبطلانه ما هو من أكبر المطالب التي يتنافس فيها المتنافسون.

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (١١٥) ﴾.

(١١٤) أي: قل يا أيها الرسول: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا ﴾: أحاكم إليه وأتقيد بأوامره ونواهيه؟ فإن غير الله محكوم عليه لا حاكم، وكل تدبير وحكم للمخلوق؛ فإنه مشتمل على النقص والعيب والجور، وإنما الذي يجب أن يتخذ حاكمًا؛ فهو الله وحده لا شريك له، الذي له الخلق والأمر ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾؛ أي: موضحًا فيه الحلال والحرام والأحكام الشرعية وأصول الدين وفروعه، الذي لا بيان فوق بيانه، ولا برهان أجلى من برهانه، ولا أحسن منه حكمًا، ولا أقوم قيلًا؛ لأن أحكامه مشتملة على الحكمة والرحمة، وأهل الكتب السابقة من اليهود والنصارى يعترفون بذلك و﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾: ولهذا تواطأت الأخبار[٣]، ﴿فَلَا ﴾ تَشُكَّنَّ في ذلك ولا ﴿ تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ (١١٤) ﴾.

(١١٥) ثم وصف تفصيلها فقال: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾؛ أي: صدقًا في الإخبار وعدلًا في الأمر والنهي؛ فلا أصدق من أخبار الله التي أودعها هذا الكتاب العزيز، ولا أعدل من أوامره ونواهيه، ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾؛ حيث حفظها وأحكمها بأعلى أنواع الصدق وبغاية الحق؛ فلا يمكن تغييرها ولا اقتراح أحسن منها. ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾: لسائر الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، ﴿ٱلْعَلِيمُ (١١٥) ﴾: الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن والماضي والمستقبل.

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ (١١٧) ﴾.

(١١٦) يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ محذرًا عن طاعة أكثر الناس: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾: فإن أكثرهم قد انحرفوا في أديانهم وأعمالهم وعلومهم؛ فأديانهم فاسدة، وأعمالهم تبع لأهوائهم، وعلومهم ليس فيها تحقيق ولا إيصال لسواء الطريق، بل غايتهم أنهم يتبعون الظن الذي لا يغني من الحق شيئًا، ويتخرصون في القول على الله ما لا يعلمون.

(١١٧) ومن كان بهذه المثابة؛ فحري أن يحذر الله منه عباده ويصف لهم أحواله؛ لأن هذا وإن كان خطابًا للنبي ﷺ؛ فإن أمته تبع[٤] له في سائر الأحكام التي ليست من خصائصه، والله تعالى أصدق قيلًا وأصدق حديثًا، و﴿ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾، وأعلم بمن يهتدي ويهدي، فيجب

(١) عبارة: «المفترين شياطين» وردت في ع: «المغترين بشياطين».
(٢) ع، ط: «حكمة الله».
(٣) ع، ط: «الإخبارات».
(٤) ع، ط: «أسوة».

عليكم أيها المؤمنون أن تتبعوا نصائحه وأوامره ونواهيه؛ لأنه أعلم بمصالحكم، وأرحم بكم من أنفسكم.

ودلت هذه الآية على أنه لا يستدل على الحق بكثرة أهله، ولا يدل قلة السالكين لأمر من الأمور أن يكون غير حق، بل الواقع بخلاف ذلك؛ فإن أهل الحق هم الأقلون عددًا الأعظمون عند الله قدرًا وأجرًا، بل الواجب أن يستدل على الحق والباطل بالطرق الموصلة إليه.

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿١١٨﴾، ﴿١١٩﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بمقتضى الإيمان، وأنهم إن كانوا مؤمنين؛ فليأكلوا مما ذكر اسم الله عليه من بهيمة الأنعام وغيرها من الحيوانات المحللة، ويعتقدوا حلها، ولا يفعلوا كما يفعله أهل الجاهلية من تحريم كثير من الحلال ابتداعًا من عند أنفسهم وإضلالًا من شياطينهم؛ فذكر الله أن علامة المؤمن مخالفة أهل الجاهلية في هذه العادة الذميمة المتضمنة لتغيير شرع الله، وأنه أي شيء يمنعهم من أكل ما ذكر اسم الله عليه؛ وقد فصل الله لعباده ما حرم عليهم وبينه ووضحه، فلم يبق فيه إشكال ولا شبهة توجب أن يمتنع من أكل بعض الحلال خوفًا من الوقوع في الحرام.

ودلت الآية الكريمة على أن الأصل في الأشياء والأطعمة الإباحة، وأنه إذا لم يرد الشرع بتحريم شيء منها؛ فإنه باق على الإباحة؛ فما سكت الله عنه؛ فهو حلال؛ لأن الحرام قد فصله الله؛ فما لم يفصله الله؛ فليس بحرام. ومع ذلك؛ فالحرام الذي قد فصله الله وأوضحه قد أباحه عند الضرورة والمخمصة؛ كما قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ إلى أن قال: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [المائدة: ٣].

ثم حذر عن كثير من الناس، فقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم﴾؛ أي: بمجرد ما تهوى أنفسهم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: ولا حجة؛ فليحذر العبد من أمثال هؤلاء، وعلامتهم كما وصفهم الله لعباده أن دعوتهم غير مبنية على برهان ولا لهم حجة شرعية، وإنما يوجد لهم شبه بحسب أهوائهم الفاسدة،

الجزء الثامن — سورة الأنعام

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَـٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

١٤٣

وآرائهم القاصرة؛ فهؤلاء معتدون على شرع الله وعلى عباد الله، والله لا يحب المعتدين؛ بخلاف الهادين المهتدين؛ فإنهم يدعون إلى الحق والهدى، ويؤيدون دعوتهم بالحجج العقلية والنقلية، ولا يتبعون في دعوتهم إلا رضا ربهم والقرب منه.

﴿وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿١٢٠﴾ المراد بالإثم: جميع المعاصي التي تؤثم العبد؛ أي: توقعه في الإثم والحرج من الأشياء المتعلقة بحقوق الله وحقوق عباده، فنهى الله عباده عن اقتراف الإثم الظاهر والباطن؛ أي: السر والعلانية المتعلقة بالبدن والجوارح والمتعلقة بالقلب، ولا يتم للعبد ترك المعاصي الظاهرة والباطنة إلا بعد معرفتها والبحث عنها، فيكون البحث عنها ومعرفة معاصي القلب والبدن والعلم بذلك واجبًا متعينًا على المكلف، وكثير من الناس يخفى عليه كثير من المعاصي، خصوصًا معاصي القلب؛ كالكبر والعجب والرياء... ونحو

ذلك حتى إنه يكون به كثير منها وهو لا يحس به ولا يشعر، وهذا من الإعراض عن العلم وعدم البصيرة.

ثم أخبر تعالى أن الذين يكسبون الإثم الظاهر والباطن سيجزون على حسب كسبهم وعلى قدر ذنوبهم قلت أو كثرت، وهذا الجزاء يكون في الآخرة، وقد يكون في الدنيا؛ يعاقب العبد فيخفف عنه بذلك من سيئاته.

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾.

﴿١٢١﴾ ويدخل تحت هذا المنهي عنه ما ذكر عليه اسم غير الله؛ كالذي يذبح للأصنام وآلهة المشركين[1]؛ فإن هذا مما أهل لغير الله به المحرم بالنص عليه خصوصًا.

ويدخل في ذلك متروك التسمية مما ذبح لله كالضحايا والهدايا، أو للحم والأكل، إذا كان الذابح متعمدًا ترك التسمية عند كثير من العلماء، ويخرج من هذا العموم الناسي بالنصوص الأخر الدالة على رفع الحرج عنه.

ويدخل في هذه الآية ما مات بغير ذكاة من الميتات؛ فإنها مما لم يذكر اسم الله عليه، ونص الله عليها بخصوصها في قوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾ [المائدة: ٣]، ولعلها سبب نزول الآية؛ لقوله: ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ بغير علم؛ فإن المشركين حين سمعوا تحريم الله ورسوله للميتة وتحليله للمذكاة، وكانوا يستحلون أكل الميتة قالوا معاندة لله ورسوله ومجادلة بغير حجة ولا برهان: أتأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله يعنون بذلك الميتة؟! وهذا رأي فاسد لا يستند على حجة ولا دليل، بل يستند إلى آرائهم الفاسدة التي لو كان الحق تبعًا لها لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن؛ فتبًّا لمن قدم هذه العقول على شرع الله وأحكامه الموافقة للمصالح العامة والمنافع الخاصة. ولا يستغرب هذا منهم؛ فإن هذه الآراء وأشباهها صادرة عن وحي أوليائهم من الشياطين الذين يريدون أن يضلوا الخلق عن دينهم ويدعوهم ليكونوا من أصحاب السعير. ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ ﴾: في شركهم وتحليلهم الحرام وتحريمهم الحلال، ﴿ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾؛ لأنكم اتخذتموهم أولياء من دون الله، ووافقتموهم على ما به فارقوا المسلمين؛ فلذلك كان طريقكم طريقهم.

ودلت هذه الآية الكريمة على أن ما يقع في القلوب من الإلهامات والكشوف التي يكثر وقوعها عند الصوفية ونحوهم لا تدل بمجردها على أنها حق ولا تصدق حتى تعرض على كتاب الله وسنة رسوله؛ فإن شهدا لها بالقبول؛ قبلت، وإن ناقضتهما؛ ردت، وإن لم يعلم شيء من ذلك؛ توقف فيها ولم تصدق ولم تكذب؛ لأن الوحي والإلهام يكون من الرحمن ويكون من الشيطان؛ فلا بد من التمييز بينهما والفرقان، وبعدم التفريق بين الأمرين حصل من الغلط والضلال ما لا يحصيه إلا الله.

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾.

﴿١٢٢﴾ يقول تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ ﴾: من قبل هداية الله له ﴿ مَيْتًا ﴾: في ظلمات الكفر والجهل والمعاصي، ﴿ فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾: بنور العلم والإيمان والطاعة، فصار يمشي بين الناس في النور، متبصرًا في أموره، مهتديًا لسبيله، عارفًا للخير، مؤثرًا له، مجتهدًا في تنفيذه في نفسه وغيره، عارفًا بالشر، مبغضًا له، مجتهدًا في تركه وإزالته عن نفسه وعن غيره، أفيستوي هذا بمن هو في الظلمات؟ ظلمات الجهل والغي والكفر والمعاصي، ﴿ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾، قد التبست عليه الطرق، وأظلمت عليه المسالك، فحضره الهم والغم والحزن والشقاء، فنبه تعالى العقول بما تدركه وتعرفه أنه لا يستوي هذا ولا هذا كما لا يستوي الليل والنهار والضياء والظلمة والأحياء والأموات، فكأنه قيل: فكيف يؤثر من له أدنى مُسْكَة من عقل أن يكون بهذه الحالة وأن يبقى في الظلمات متحيرًا؟! فأجاب بأنه ﴿ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾، فلم يزل الشيطان يحسن لهم أعمالهم ويزينها في قلوبهم حتى استحسنوها ورأوها حقًّا وصار ذلك عقيدةً في قلوبهم وصفةً راسخةً ملازمةً لهم؛ فلذلك رضوا بما هم عليه من الشر والقبائح.

(١) عبارة: «وآلهة المشركين» وردت في ع: «وآلهتهم».

(١٢٣) وهؤلاء الذين في الظلمات يعمهون وفي باطلهم يترددون غير متساوين؛ فمنهم القادة والرؤساء والمتبوعون، ومنهم التابعون المرءوسون، والأولون منهم الذين فازوا بأشقى الأحوال، ولهذا قال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا ﴾؛ أي: الرؤساء الذين قد كبر جرمهم واشتد طغيانهم؛ ﴿ لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ﴾: بالخديعة والدعوة إلى سبيل الشيطان ومحاربة الرسل وأتباعهم بالقول والفعل، وإنما مكرهم وكيدهم يعود على أنفسهم؛ لأنهم يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.

وكذلك يجعل الله كبار أئمة الهدى وأفاضلهم يناضلون هؤلاء المجرمين ويردون عليهم أقوالهم، ويجاهدونهم في سبيل الله، ويسلكون بذلك السبل الموصلة إلى ذلك، ويعينهم الله، ويسدد رأيهم، ويثبت أقدامهم، ويداول الأيام بينهم وبين أعدائهم حتى يدول الأمر في عاقبته بنصرهم وظهورهم. والعاقبة للمتقين.

(١٢٤) وإنما ثبت أكابر المجرمين على باطلهم، وقاموا يرد الحق الذي جاءت به الرسل؛ حسدًا منهم وبغيًا، فقالوا: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾: من النبوة والرسالة، وفي هذا اعتراض منهم على الله، وعجب بأنفسهم، وتكبر على الحق الذي أنزله[1] على أيدي رسله، وتحجر على فضل الله وإحسانه، فرد الله عليهم اعتراضهم الفاسد، وأخبر أنهم لا يصلحون للخير، ولا فيهم ما يوجب أن يكونوا من عباد الله الصالحين، فضلًا أن يكونوا من النبيين والمرسلين، فقال: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾؛ فمن علِمَه يصلح لها ويقوم بأعبائها وهو متصف بكل خلق جميل ومتبرئ من كل خلق دنيء، أعطاه الله[2] ما تقتضيه حكمته أصلًا وتبعًا، ومن لم يكن كذلك؛ لم يضع أفضل مواهبه عند من لا يستأهله ولا يزكو عنده.

وفي هذه الآية دليل على كمال حكمة الله تعالى؛ لأنه وإن كان تعالى رحيمًا واسع الجود كثير الإحسان؛ فإنه حكيم لا يضع جوده إلا عند أهله. ثم توعد المجرمين، فقال: ﴿ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: إهانة وذل؛ كما تكبروا على الحق؛ أذلهم الله، ﴿ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ (١٢٤) ﴾؛ أي: بسبب مكرهم لا ظلمًا منه تعالى.

(١) بعده في ع: «الله».
(٢) ع: «منها».

فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ
أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ
فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا
ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ
وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٢٧) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا
يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم
مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ
أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ
رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨) وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا
بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (١٢٩) يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ
رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ
يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا
وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ (١٣٠) ذَٰلِكَ
أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ (١٣١)

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) ﴾.

(١٢٥) يقول تعالى مبينًا لعباده علامة سعادة العبد وهدايته وعلامة شقاوته وضلاله: إن من انشرح صدره للإسلام؛ أي: اتسع وانفسح فاستنار بنور الإيمان وحيي بضوء اليقين فاطمأنت بذلك نفسه وأحب الخير وطوعت له نفسه فعله متلذذًا به غير مستثقل؛ فإن هذا علامة على أن الله قد هداه ومن عليه بالتوفيق وسلوك أقوم الطريق، وأن علامة من يرد الله ﴿ أَن يُضِلَّهُۥ ﴾: أنه ﴿ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾؛ أي: في غاية الضيق عن الإيمان والعلم واليقين، قد انغمس قلبه في الشبهات والشهوات، فلا يصل إليه خير، ولا ينشرح قلبه لفعل الخير. كأنه من ضيقه وشدته يكاد ﴿ يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾؛ أي: كأنه يكلف الصعود إلى السماء الذي لا حيلة له فيه، وهذا سببه عدم إيمانهم؛ هو الذي أوجب أن يجعل

الله الرجس عليهم؛ لأنهم سدوا على أنفسهم باب الرحمة والإحسان، وهذا ميزان لا يعول وطريق لا يتغير؛ فإن من أعطى واتقى وصدق بالحسنى؛ ييسره الله لليسرى، ومن بخل واستغنى وكذب بالحسنى؛ فسييسره للعسرى.

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿١٢٦﴾ أي: معتدلًا موصلًا إلى الله وإلى دار كرامته، قد بينت أحكامه، وفصلت شرائعه، وميز الخير من الشر. ولكن هذا التفصيل والبيان ليس لكل أحد، إنما هو ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾؛ فإنهم الذين علموا فانتفعوا بعلمهم، وأعد الله لهم الجزاء الجزيل والأجر الجميل.

﴿١٢٧﴾ فلهذا قال: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، وسميت الجنة دار السلام لسلامتها من كل عيب وآفة وكدر وهم وغم وغير ذلك من المنغصات، ويلزم من ذلك أن يكون نعيمها في غاية الكمال ونهاية التمام؛ بحيث لا يقدر على وصفه الواصفون، ولا يتمنى فوقه المتمنون؛ من نعيم الروح والقلب والبدن، ولهم فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون. ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾: الذي تولى تدبيرهم وتربيتهم، ولطف بهم في جميع أمورهم، وأعانهم على طاعته، ويسر لهم كل سبب موصل إلى محبته، وإنما تولاهم بسبب أعمالهم الصالحة ومقدماتهم التي قصدوا بها رضا مولاهم؛ بخلاف من أعرض عن مولاه، واتبع هواه؛ فإنه سلط عليه الشيطان، فتولاه، فأفسد عليه دينه ودنياه.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

﴿١٢٨﴾ يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾؛ أي: جميع الثقلين من الإنس والجن، من ضل منهم ومن أضل غيره، فيقول موبخًا للجن الذين أضلوا الإنس وزينوا لهم الشر وأزوهم إلى المعاصي: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾؛ أي: من إضلالهم وصدهم عن سبيل الله؛ فكيف أقدمتم على محارمي، وتجرأتم على معاندة رسلي، وقمتم محاربين لله، ساعين في صد عباد الله عن سبيله إلى سبيل الجحيم؟! فاليوم حقت عليكم لعنتي، ووجبت لكم نقمتي، وسنزيدكم من العذاب بحسب كفركم وإضلالكم لغيركم، وليس لكم عذر به تعتذرون، ولا ملجأ إليه تلجئون، ولا شافع يشفع، ولا دعاء يسمع! فلا تسأل حينئذ عما يحل بهم من النكال والخزي والوبال، ولهذا لم يذكر الله لهم اعتذارًا، وأما أولياؤهم من الإنس؛ فأبدوا عذرًا غير مقبول، فقالوا: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾؛ أي: تمتع كل من الجني والإنسي بصاحبه وانتفع به؛ فالجني يستمتع بطاعة الإنسي له وعبادته وتعظيمه واستعاذته به، والإنسي يستمتع بنيل أغراضه وبلوغه بحسب[1] خدمة الجني له بعض شهواته؛ فإن الإنسي يعبد الجني فيخدمه الجني ويحصل له بعض الحوائج الدنيوية؛ أي: حصل منا من الذنوب ما حصل، ولا يمكن رد ذلك. ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾؛ أي: وقد وصلنا المحل الذي نُجازى فيه بالأعمال؛ فافعل بنا الآن ما تشاء، واحكم فينا بما تريد، قد انقطعت حجتنا، ولم يبق لنا عذر، والأمر أمرك والحكم حكمك، وكأن في هذا الكلام منهم نوع تضرع وترقق، ولكن في غير أوانه، ولهذا حكم فيهم بحكمه العادل، الذي لا جور فيه، فقال: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، ولما كان هذا الحكم من مقتضى حكمته وعلمه؛ ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾؛ فكما أن علمه وسع الأشياء كلها وعمها؛ فحكمته الغائية شملت الأشياء، وعمتها، ووسعتها.

---

(١) ع: «بسبب».

(١٢٩) ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (١٢٩) ﴾؛ أي: وكما ولينا الجن المردة وسلطناهم على إضلال أوليائهم من الإنس وعقدنا بينهم عقد الموالاة والموافقة بسبب كسبهم وسعيهم بذلك؛ كذلك من سنتنا أن نولي كل ظالم ظالمًا مثله يؤزُّه إلى الشر ويحثه عليه ويزهده في الخير وينفره عنه، وذلك من عقوبات الله العظيمة الشنيع أثرها البليغ خطرها، والذنب ذنب الظالم؛ فهو الذي أدخل الضرر على نفسه وعلى نفسه جنى، وما ربك بظلام للعبيد.

ومن ذلك أن العباد إذا كثر ظلمهم وفسادهم ومنعهم الحقوق الواجبة؛ وُلِّي عليهم ظلمة يسومونهم سوء العذاب، ويأخذون منهم بالظلم والجور أضعاف ما منعوا من حقوق الله وحقوق عباده على وجه غير مأجورين فيه ولا محتسبين؛ كما أن العباد إذا صلحوا واستقاموا؛ أصلح الله رعاتهم، وجعلهم أئمة عدل وإنصاف، لا ولاة ظلم واعتساف.

(١٣٠) ثم وبخ الله جميع من أعرض عن الحق ورده من الجن والإنس، وبين خطأهم، فاعترفوا بذلك، فقال: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي ﴾: الواضحات البينات التي فيها تفاصيل الأمر والنهي والخير والشر والوعد والوعيد، ﴿ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾: ويعلمونكم أن النجاة فيه والفوز إنما هو بامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، وأن الشقاءَ والخسرانَ في تضييع ذلك، فأقروا بذلك واعترفوا، فقالوا: بلى، ﴿ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾: بزينتها وزخرفها ونعيمها، فاطمأنوا بها ورضوا وألهتهم عن الآخرة، ﴿ وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ (١٣٠) ﴾: فقامت عليهم حجة الله، وعلم حينئذ كل أحد حتى هم بأنفسهم عدل الله فيهم، فقال لهم حاكمًا عليهم بالعذاب الأليم: ﴿ ٱدْخُلُواْ فِىٓ ﴾ جملة ﴿ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ [الأعراف: ٣٨]؛ صنعوا كصنيعكم، واستمتعوا بخلاقهم كما استمتعتم، وخاضوا بالباطل كما خضتم؛ إنهم كانوا خاسرين؛ أي: الأولون من هؤلاء والآخرون، وأي خسران أعظم من خسران جنات النعيم وحرمان جوار أكرم الأكرمين؟!

(١٣٢) ولكنهم وإن اشتركوا في الخسران؛ فإنهم يتفاوتون في مقداره تفاوتًا عظيمًا، ﴿ وَلِكُلٍّ ﴾: منهم ﴿ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾: بحسب أعمالهم، لا يجعل قليل الشر منهم ككثيره، ولا التابع كالمتبوع، ولا المرءوس كالرئيس؛ كما أن

وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢) وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ (١٣٣) إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (١٣٤) قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ (١٣٥) وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧)

أهل الثواب والجنة وإن اشتركوا في الربح والفلاح ودخول الجنة؛ فإن بينهم من الفرق ما لا يعلمه إلا الله، مع أنهم كلهم قد رضوا بما آتاهم مولاهم وقنعوا بما حباهم، فنسأله تعالى أن يجعلنا من أهل الفردوس الأعلى التي أعدها الله للمقربين من عباده والمصطفَيْن من خلقه وأهل الصفوة من أهل وداده. ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢) ﴾ فيجازي كلًّا بحسب عمله، وبما يعلمه من مقصده.

(١٣٣) وإنما أمر الله العباد بالأعمال الصالحة ونهاهم عن الأعمال السيئة رحمةً بهم وقصدًا لمصالحهم، و إلا؛ فهو الغني بذاته عن جميع مخلوقاته؛ فلا تنفعه طاعة الطائعين؛ كما لا تضره معصية العاصين. ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾: بالإهلاك، ﴿ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ (١٣٣) ﴾: فإذا عرفتم بأنكم لا بد أن تنتقلوا من هذه الدار كما انتقل غيركم، وترحلون منها وتخلونها لمن بعدكم كما رحل عنها من قبلكم وخلوها لكم؛ فَلِمَ اتخذتموها قرارًا، وتوطنتم بها،

ونسيتم أنها دار ممر، لا دار مقر وأن أمامكم دارًا هي الدار التي جمعت كل نعيم وسلمت من كل آفة ونقص؟ وهي الدار التي يسعى إليها الأولون والآخرون، ويرتحل نحوها السابقون واللاحقون، التي إذا وصلوها؛ فثم الخلود الدائم والإقامة اللازمة والغاية التي لا غاية وراءها والمطلوب الذي ينتهي إليه كل مطلوب والمرغوب الذي يضمحل دونه كل مرغوب، هنالك والله ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ويتنافس فيه المتنافسون من لذة الأرواح وكثرة الأفراح ونعيم الأبدان والقلوب والقرب من علام الغيوب؛ فلله همة تعلقت بتلك الكرامات، وإرادة سمت إلى أعلى الدرجات، وما أبخس حظ من رضي بالدون، وأدنى همة من اختار صفقة المغبون!

(١٣٤) ولا يستبعد المعرض الغافل سرعة الوصول إلى هذه الدار؛ ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ۖ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (١٣٤)﴾: لله، فارين من عقابه؛ فإن نواصيكم تحت قبضته، وأنتم تحت تدبيره وتصرفه.

(١٣٥) ﴿قُلْ﴾: يا أيها الرسول لقومك إذا دعوتهم إلى الله وبينت لهم ما لهم وما عليهم من حقوقه فامتنعوا من الانقياد لأمره واتبعوا أهواءهم واستمروا على شركهم: ﴿يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾؛ أي: على حالتكم التي أنتم عليها ورضيتموها لأنفسكم، ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾: على أمر الله ومتبع لمراضي الله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾: أنا أو أنتم، وهذا من الإنصاف بموضع عظيم؛ حيث بين الأعمال وعامليها، وجعل الجزاء مقرونًا بنظر البصير، ضاربًا فيه صفحًا عن التصريح الذي يغني عنه التلويح، وقد علم أن العاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة للمتقين، وأن المؤمنين لهم عقبى الدار، وأن كل معرض عمَّا جاءت به الرسل عاقبته عاقبة سوء وشر، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (١٣٥)﴾: فكل ظالم وإن تمتع في الدنيا بما تمتع به؛ فنهايته فيه الاضمحلال والتلف؛ إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ
نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ
فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا
كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا
يَحْكُمُونَ (١٣٦) وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ
مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ
لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا
فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ
وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ
حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً
عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا
مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ
عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ۚ
سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) قَدْ
خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا
مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا
مُهْتَدِينَ (١٤٠)﴾.

(١٣٦) يخبر تعالى عما عليه المشركون المكذبون للنبي ﷺ من سفاهة العقل وخفة الأحلام والجهل البليغ، وعدد تبارك وتعالى شيئًا من خرافاتهم؛ لينبه بذلك على ضلالهم والحذر منهم، وأن معارضة أمثال هؤلاء السفهاء للحق الذي جاء به الرسول لا تقدح فيه أصلًا؛ فإنهم لا أهلية لهم في مقابلة الحق، فذكر من ذلك أنهم: جعلوا ﴿لِلَّهِ﴾ نصيبًا ﴿مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ﴾: ولشركائهم من ذلك نصيبًا، والحال أن الله تعالى هو الذي ذرأه للعباد وأوجده رزقًا، فجمعوا بين محذورين محظورين، بل ثلاثة محاذير:

منتهم على الله في جعلهم له نصيبًا مع اعتقادهم أن ذلك منهم تبرع.

وإشراك الشركاء الذين لم يرزقوهم ولم يوجدوا لهم شيئًا في ذلك.

وحكمهم الجائر في أن ما كان لله لم يبالوا به ولم يهتموا، ولو كان واصلًا إلى الشركاء، وما كان لشركائهم اعتنوا به واحتفظوا به ولم يصل إلى الله منه شيء، وذلك أنهم إذا حصل لهم من زروعهم وثمارهم وأنعامهم التي أوجدها الله لهم شيء؛ جعلوه قسمين: قسمًا قالوا: هذا لله بقولهم وزعمهم، و إلا؛ فالله لا يقبل إلا ما كان خالصًا لوجهه ولا يقبل عمل من أشرك به، وقسمًا جعلوه حصة شركائهم من الأوثان والأنداد؛ فإن وصل شيء مما جعلوه

لله واختلط بما جعلوه لغيره؛ لم يبالوا بذلك، وقالوا: الله غني عنه فلا يردونه، وإن وصل شيء مما جعلوه لآلهتهم إلى ما جعلوه لله؛ ردوه إلى محله، وقالوا: إنها فقراء، لا بد من رد نصيبها؛ فهل أسوأ من هذا الحكم وأظلم حيث جعلوا ما للمخلوق يجتهد فيه وينصح ويحفظ أكثر مما يفعل بحق الله؟

ويحتمل أن تأويل الآية الكريمة ما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ: أنه قال عن الله تعالى: أنه قال: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من أشرك معي شيئًا؛ تركته وشركه**»[1]، وأن معنى الآية أن ما جعلوه وتقربوا به لأوثانهم فهو تقرب خالص لغير الله، ليس لله منه شيء، وما جعلوه لله على زعمهم؛ فإنه لا يصل إليه؛ لكونه شركًا، بل يكون حظ الشركاء والأنداد؛ لأن الله غني عنه، لا يقبل العمل الذي أشرك به معه أحد من الخلق.

﴿١٣٧﴾ ومن سفه المشركين وضلالهم أنه زين لكثير من المشركين ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾ - أي: رؤساؤهم وشياطينهم - ﴿قَتْلَ أَوْلَـٰدِهِمْ﴾، وهو الوأد؛ الذين يدفنون أولادهم الذكور[2] خشية الافتقار والإناث خشية العار، وكل هذا من خدع الشياطين الذين يريدون أن يردوهم بالهلاك ويلبسوا عليهم دينهم فيفعلون الأفعال التي في غاية القبح، ولا يزال شركاؤهم يزينونها لهم حتى تكون عندهم من الأمور الحسنة والخصال المستحسنة، ولو شاء الله أن يمنعهم ويحول بينهم وبين هذه الأفعال ويمنع أولادهم عن قتل الأبوين لهم؛ ما فعلوه، ولكن اقتضت حكمته التخلية بينهم وبين أفعالهم؛ استدراجًا منه لهم وإمهالًا لهم وعدم مبالاة بما هم عليه، ولهذا قال: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾؛ أي: دعهم مع كذبهم وافترائهم، ولا تحزن عليهم؛ فإنهم لن يضروا الله شيئًا.

﴿١٣٨﴾ ومن أنواع سفاهتهم أن الأنعام التي أحلها الله لهم عمومًا وجعلها رزقًا ورحمة يتمتعون بها وينتفعون قد اخترعوا فيها بدعًا وأقوالًا من تلقاء أنفسهم؛ فعندهم اصطلاح في بعض الأنعام والحرث أنهم يقولون فيها: ﴿هَـٰذِهِۦٓ أَنْعَـٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾؛ أي: محرم. لا يطعمه

(١) مسلم (٢٩٨٥).
(٢) ليس في الأصل، ط.

الجزء الثامن — سورة الأنعام

وَقَالُوا۟ هَـٰذِهِۦٓ أَنْعَـٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَـٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَـٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَـٰذِهِ ٱلْأَنْعَـٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾

١٤٦

﴿إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾؛ أي: لا يجوز أن يطعمه أحد إلا من أردنا أن يطعمه أو وصفناه بوصف من عندنا، وكل هذا بزعمهم لا مستند لهم ولا حجة إلا أهويتهم وآراؤهم الفاسدة.

وأنعام ليست محرمةً من كل وجه، بل يحرمون ظهورها؛ أي: بالركوب والحمل عليها، ويحمون ظهرها، ويسمونها الحام.

﴿وَأَنْعَـٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾، بل يذكرون اسم أصنامهم وما كانوا يعبدون من دون الله عليها، وينسبون تلك الأفعال إلى الله، وهم كذبة فجار في ذلك. ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾: على الله من إحلال الشرك وتحريم الحلال من الأكل والمنافع.

﴿١٣٩﴾ ومن آرائهم السخيفة أنهم يجعلون بعض الأنعام ويعينونها محرمًا ما في بطنها على الإناث دون الذكور، فيقولون: ﴿مَا فِى بُطُونِ هَـٰذِهِ ٱلْأَنْعَـٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾؛ أي: حلال لهم لا يشاركهم فيها النساء.

﴿ وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ﴾؛ أي: نسائنا، هذا إذا ولد حيًّا، وإن يكن ما في بطنها يولد ميتًا؛ فهم فيه شركاء؛ أي: فهو حلال للذكور والإناث. ﴿ سَيَجْزِيهِمْ ﴾: الله ﴿ وَصْفَهُمْ ﴾: حيث وصفوا ما أحله الله بأنه حرام، ووصفوا الحرام بالحلال، فناقضوا شرع الله وخالفوه ونسبوا ذلك إلى الله. ﴿ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ ﴾؛ حيث أمهل لهم ومكنهم مما هم فيه من الضلال، ﴿ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ ﴾: بهم لا تخفى عليه خافية، وهو تعالى يعلم بهم، وبما قالوه عليه، وافتروه وهو يعافيهم، ويرزقهم جل جلاله.

﴿١٤٠﴾ ثم بين خسرانهم وسفاهة عقولهم، فقال: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾؛ أي: خسروا دينهم وأولادهم وعقولهم، وصار وصفهم بعد العقول الرزينة السفه المردي والضلال، ﴿ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ﴾؛ أي: ما جعله رحمة لهم وساقه رزقًا لهم، فردوا كرامة ربهم، ولم يكتفوا بذلك، بل وصفوها بأنها حرام وهي من أحل الحلال، وكل هذا ﴿ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ﴾؛ أي: كذب يكذب به كل معاند كفار، ﴿ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾؛ أي: قد ضلوا ضلالًا بعيدًا ولم يكونوا مهتدين في شيء من أمورهم.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾.

﴿١٤١﴾ لما ذكر تعالى تصرف المشركين في كثير مما أحله الله لهم من الحروث والأنعام؛ ذكر تبارك وتعالى نعمته عليهم بذلك ووظيفتهم اللازمة عليهم في الحروث والأنعام، فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ ﴾؛ أي: بساتين فيها أنواع الأشجار المتنوعة والنباتات المختلفة، ﴿ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ ﴾؛ أي: بعض تلك الجنات مجعول لها عريش تنتشر عليه الأشجار ويعاونها في النهوض عن الأرض، وبعضها خالٍ من العروش تنبت على ساق أو تنفرش في الأرض. وفي هذا تنبيه على كثرة منافعها وخيراتها، وأنه تعالى علم العباد كيف يعرشونها وينمونها. وأنشأ تعالى النخل ﴿ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ ﴾؛ أي: كله في محل واحد، ويشرب من ماء واحد، ويفضل الله بعضه على بعض في الأكل، وخص تعالى النخل والزرع، على اختلاف أنواعه، لكثرة منافعها ولكونها هي القوت لأكثر الخلق. وأنشأ تعالى الزيتون ﴿ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا ﴾: في شجره، ﴿ وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾: في ثمره وطعمه، كأنه قيل: لأي شيء أنشأ الله هذه الجنات؟ وما عطف عليها؟ فأخبر أنه أنشأها لمنافع العباد، فقال: ﴿ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ ﴾؛ أي: النخل والزرع، ﴿ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾؛ أي: أعطوا حق الزرع، وهو الزكاة ذات الأنصباء المقدرة في الشرع؛ أمرهم أن يعطوها يوم حصادها، وذلك لأن حصاد الزرع بمنزلة حولان الحول؛ لأنه الوقت الذي تتشوف إليه نفوس الفقراء، ويسهل حينئذ إخراجه على أهل الزرع، ويكون الأمر فيها ظاهرًا لمن أخرجها حتى يتميز المخرج ممن لا يخرج.

وقوله: ﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾؛ يعم النهي عن الإسراف في الأكل، وهو مجاوزة الحد والعادة. وأن يأكل صاحب الزرع أكلًا يضر بالزكاة، والإسراف في إخراج حق الزرع بحيث يخرج فوق الواجب عليه أو يضر نفسه أو عائلته أو غرماءه؛ فكل هذا من الإسراف الذي نهى الله عنه، الذي لا يحبه الله بل يبغضه، ويمقت عليه.

وفي هذه الآية دليل على وجوب الزكاة في الثمار، وأنه لا حول لها، بل حولها حصادها في الزروع وجذاذ النخيل، وأنه لا تتكرر فيها الزكاة لو مكثت عند العبد أحوالًا كثيرة إذا كانت لغير التجارة؛ لأن الله لم يأمر بالإخراج منه إلا وقت حصاده، وأنه لو أصابها آفة قبل ذلك بغير تفريط من صاحب الزرع والثمر؛ أنه لا يضمنها، وأنه يجوز الأكل من النخل والزرع قبل إخراج الزكاة منه، وأنه لا يحسب ذلك من الزكاة، بل يزكي المال الذي يبقى بعده، وقد كان النبي ﷺ يبعث خارصًا يخرص للناس ثمارهم ويأمره أن يدع لأهلها الثلث أو الربع بحسب ما يعتريها من الأكل وغيره من أهلها وغيرهم.

﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ

ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾.

﴿١٤٢﴾ أي: وخلق وأنشأ من ﴿ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ﴾؛ أي: بعضها تحملون عليه وتركبونه، وبعضها لا تصلح للحمل والركوب عليها لصغرها كالفصلان ونحوها، وهي الفرش؛ فهي من جهة الحمل والركوب تنقسم إلى هذين القسمين. وأما من جهة الأكل وأنواع الانتفاع؛ فإنها كلها تؤكل وينتفع بها، ولهذا قال: ﴿ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾؛ أي: طرقه وأعماله التي من جملتها أن تحرموا بعض ما رزقكم الله. ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾: فلا يأمركم إلا بما فيه مضرتكم وشقاؤكم الأبدي.

﴿١٤٣﴾ وهذه الأنعام التي امتن الله بها على عباده، وجعلها كلها حلالًا طيبًا، فصلها بأنها: ﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾: ذكر وأنثى، ﴿ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ﴾: كذلك؛ فهذه أربعة، كلها داخلة فيما أحل الله، لا فرق بين شيء منها؛ فقل لهؤلاء المتكلفين الذين يحرمون منها شيئًا دون شيء أو يحرمون بعضها على الإناث دون الذكور ملزمًا لهم بعدم وجود الفرق بين ما أباحوا منها وحرموا: ﴿ ءَآلذَّكَرَيْنِ ﴾: من الضأن والمعز ﴿ حَرَّمَ ﴾: الله فلستم تقولون بذلك وتطردونه، ﴿ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾: حرم الله من الضأن والمعز؛ فليس هذا قولكم؛ لا تحريم الذكور الخلص، ولا الإناث الخلص من الصنفين، بقي إذا كان الرحم مشتملًا على ذكر وأنثى أو على مجهول، فقال: أم تحرمون ما ﴿ ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾؛ أي: أنثى الضأن وأنثى المعز من غير فرق بين ذكر وأنثى؛ فلستم تقولون أيضًا بهذا القول؛ فإذا كنتم لا تقولون بأحد هذه الأقوال الثلاثة التي حصرت الأقسام الممكنة في ذلك؛ فإلى أي شيء تذهبون؟ ﴿ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾: في قولكم ودعواكم.

الجزء الثامن — سورة الأنعام

ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾

١٤٧

ومن المعلوم أنهم لا يمكنهم أن يقولوا قولًا سائغًا في العقل إلا واحدًا من هذه[1] الثلاثة، وهم لا يقولون بشيء منها، إنما يقولون: إن بعض الأنعام التي يصطلحون عليها اصطلاحات من عند أنفسهم حرام على الإناث دون الذكور، أو محرمة في وقت من الأوقات، أو نحو ذلك من الأقوال التي يعلم علمًا لا شك فيه أن مصدرها من الجهل المركب والعقول المختلة المنحرفة والآراء الفاسدة، وأن الله ما أنزل بما قالوه من سلطان، ولا لهم عليه حجة ولا برهان.

﴿١٤٤﴾ ثم ذكر في الإبل والبقر مثل ذلك، فلما بين بطلان قولهم وفساده؛ قال لهم قولًا لا حيلة لهم في الخروج من تبعته إلا في اتباع شرع الله، ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا[2] ﴾؛ أي: لم يبق عليكم إلا دعوى لا سبيل لكم إلى صدقها وصحتها، وهي أن تقولوا: إن الله وصانا بذلك وأوحى إلينا كما أوحى إلى

(١) بعده في ع: «الأمور».
(٢) ساقط من ع، ط.

رسله، بل أوحى إلينا وحيًا مخالفًا لما دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب، وهذا افتراء لا يجهله أحد، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ أي: مع كذبه وافترائه على الله قصده بذلك ضلال[1] عباد الله عن سبيل الله بغير بينة منه ولا برهان ولا عقل ولا نقل. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾: الذين لا إرادة لهم في غير الظلم والجور والافتراء على الله.

﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾.

﴿١٤٥﴾ لما ذكر تعالى ذم المشركين على ما حرموا من الحلال ونسبوه إلى الله وأبطل قولهم؛ أمر تعالى رسوله أن يبين للناس ما حرمه الله عليهم؛ ليعلموا أن ما عدا ذلك حلال؛ من نسب تحريمه إلى الله فهو كاذب مبطل؛ لأن التحريم لا يكون إلا من عند الله على لسان رسوله، وقد قال لرسوله: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ﴾؛ أي: محرمًا أكله؛ بقطع النظر عن تحريم الانتفاع بغير الأكل وعدمه، ﴿إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾: والميتة ما مات بغير ذكاة شرعية؛ فإن ذلك لا يحل؛ كما قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ [المائدة: ٣]، ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾: وهو الدم الذي يخرج من الذبيحة عند ذكاتها؛ فإنه الدم الذي يضر احتباسه في البدن؛ فإذا خرج من البدن؛ زال الضرر بأكل اللحم.

ومفهوم هذا اللفظ أن الدم الذي يبقى في اللحم والعروق بعد الذبح أنه حلال طاهر، ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾؛ أي: فإن هذه الأشياء الثلاثة رجس؛ أي: خبث نجس مضر حرمه الله لطفًا بكم ونزاهة لكم عن مقاربة الخبائث ﴿أَوْ﴾: إلا أن يكون ﴿فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾؛ أي: إلا أن تكون الذبيحة مذبوحة لغير الله من الأوثان والآلهة التي يعبدها المشركون؛ فإن هذا من الفسق الذي هو الخروج عن طاعة الله إلى معصيته. ومع هذا؛ فهذه الأشياء المحرمات؛ من اضطر إليها؛ أي: حملته الحاجة والضرورة إلى أكل شيء منها بأن لم يكن عنده شيء وخاف على نفسه التلف، ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾؛ أي: مريد لأكلها من غير اضطرار، ولا متعدٍّ؛ أي: متجاوز للحد؛ بأن يأكل زيادة عن حاجته، ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾؛ أي: فالله قد سامح من كان بهذه الحال.

واختلف العلماء رحمهم الله في هذا الحصر المذكور في هذه الآية مع أن ثم محرمات لم تذكر فيها كالسباع وكل ذي مخلب من الطير ونحو ذلك؛ فقال بعضهم: إن هذه الآية نازلة قبل تحريم ما زاد على ما ذكر فيها؛ فلا ينافي هذا الحصر المذكور فيها التحريم المتأخر بعد ذلك؛ لأنه لم يجده فيما أوحي إليه في ذلك الوقت.

وقال بعضهم: إن هذه الآية مشتملة على سائر المحرمات، بعضها صريح وبعضها يؤخذ من المعنى وعموم العلة؛ فإن قوله تعالى في تعليل الميتة والدم ولحم الخنزير أو الأخير منها فقط: ﴿فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾: وصف شامل لكل محرم؛ فإن المحرمات كلها رجس وخبث، وهي من الخبائث المستقذرة التي حرمها الله على عباده صيانةً لهم وتكرمةً عن مباشرة الخبيث الرجس، ويؤخذ تفاصيل الرجس المحرم من السنة؛ فإنها تفسر القرآن وتبين المقصود منه.

فإذا كان الله تعالى لم يحرم من المطاعم إلا ما ذكر، والتحريم لا يكون مصدره إلا شرع الله؛ دل ذلك على أن المشركين الذين حرموا ما رزقهم الله مفترون على الله متقولون عليه ما لم يقل.

وفي الآية احتمال قوي، لولا أن الله ذكر فيها الخنزير، وهو أن السياق في نقض أقوال المشركين المتقدمة في تحريمهم لما أحله الله وخوضهم بذلك بحسب ما سولت لهم أنفسهم، وذلك في بهيمة الأنعام خاصة، وليس منها محرم إلا ما ذكر في الآية؛ الميتة منها وما أهل لغير الله به، وما سوى ذلك؛ فحلال. ولعل مناسبة ذكر الخنزير هنا على هذا الاحتمال أن بعض الجهال

(١) ع، ط: «إضلال».

قد يدخله في بهيمة الأنعام، وأنه نوع من أنواع الغنم؛ كما قد يتوهمه جهلة النصارى وأشباههم، فينمونها كما ينمون المواشي، ويستحلونها، ولا يفرقون بينها وبين الأنعام.

(١٤٦) فهذا المحرم على هذه الأمة كلها من باب التنزيه لهم والصيانة، وأما ما حرم على أهل الكتاب؛ فبعضه طيب، ولكنه حرم عليهم عقوبة لهم، ولهذا قال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾: وذلك كالإبل وما أشبهها. وحرمنا عليهم ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ﴾ بعض أجزائها، وهو ﴿شُحُومَهُمَا﴾ وليس المحرم جميع الشحوم منها، بل شحم الألية والثرب، ولهذا استثنى الشحم الحلال من ذلك، فقال: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا﴾؛ أي: الشحم المخالط للأمعاء، ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ﴾-: التحريم على اليهود - ﴿جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾؛ أي: ظلمهم وتعديهم في حقوق الله وحقوق عباده، فحرم الله عليهم هذه الأشياء عقوبة لهم ونكالًا. ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦)﴾: في كل ما نقول ونفعل ونحكم به، ومن أصدق من الله حديثًا؟ ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون؟

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧)﴾.

(١٤٧) أي: فإن كذبك هؤلاء المشركون؛ فاستمر على دعوتهم بالترغيب والترهيب، وأخبرهم بأن الله ﴿ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾؛ أي: عامة شاملة لجميع المخلوقات[1] كلها؛ فسارعوا إلى رحمته بأسبابها التي رأسها وأسها ومادتها تصديق محمد ﷺ فيما جاء به. ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧)﴾؛ أي: الذين كثر إجرامهم وذنوبهم؛ فاحذروا الجرائم الموصلة لبأس الله التي أعظمها ورأسها تكذيب محمد ﷺ.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩)﴾.

الجزء الثامن — سورة الأنعام

فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ
بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا
لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ
كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا
قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا
الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ
فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ
يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ
مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ قُلْ
تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ
شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ
إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ
مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي
حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾

١٤٨

(١٤٨) هذا إخبار من الله أن المشركين سيحتجون على شركهم وتحريمهم ما أحل الله بالقضاء والقدر، ويجعلون مشيئة الله الشاملة لكل شيء من الخير والشر حجةً لهم في دفع اللوم عنهم، وقد قالوا ما أخبر الله أنهم سيقولونه؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥] الآية. فأخبر تعالى أن هذه الحجة لم تزل الأمم المكذبة تدفع بها عنهم دعوة الرسل ويحتجون بها، فلم تُجْدِ فيهم شيئًا ولم تنفعهم، فلم يزل هذا دأبهم حتى أهلكهم الله وأذاقهم بأسه؛ فلو كانت حجةً صحيحةً؛ لدفعت عنهم العقاب، ولما أحل الله بهم العذاب؛ لأنه لا يحل بأسه إلا بمن استحقه فعلم أنها حجة فاسدة وشبهة كاسدة من عدة أوجه:

منها: ما ذكر الله من أنها لو كانت صحيحةً لم تحل بهم العقوبة.

ومنها: أن الحجة لا بد أن تكون حجةً مستندةً إلى العلم والبرهان، فأما إذا كانت مستندةً إلى مجرد الظن والخرص

(١) عبارة: «لجميع المخلوقات» وردت في ع: «للمخلوقات».

الذي لا يغني من الحق شيئًا؛ فإنها باطلة، ولهذا قال: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾؛ فلو كان لهم علم - وهم خصوم ألداء - لأخرجوه، فلما لم يخرجوه؛ علم أنه لا علم عندهم. ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾: ومن بنى حججه على الخرص والظن؛ فهو مبطل خاسر؛ فكيف إذا بناها على البغي والعناد والشر والفساد؟

﴿١٤٩﴾ ومنها: أن الحجة لله البالغة التي لم تبق لأحد عذرًا، التي اتفقت عليها الأنبياء والمرسلون والكتب الإلهية والآثار النبوية والعقول الصحيحة والفطر المستقيمة والأخلاق القويمة، فعلم بذلك أن كل ما خالف هذه الآية[1] القاطعة باطل؛ لأن نقيض الحق لا يكون إلا باطلًا.

ومنها: أن الله تعالى أعطى كل مخلوق قدرةً وإرادةً يتمكن بها من فعل ما كلف به؛ فلا أوجب الله على أحد ما لا يقدر على فعله، ولا حرم على أحد ما لا يتمكن على تركه؛ فالاحتجاج بعد هذا بالقضاء والقدر ظلم محض وعناد صرف.

ومنها: أن الله تعالى لم يجبر العباد على أفعالهم، بل جعل أفعالهم تبعًا لاختيارهم؛ فإن شاءوا فعلوا وإن شاءوا كفوا، وهذا أمر مشاهد لا ينكره إلا من كابر وأنكر المحسوسات؛ فإن كل أحد يفرق بين الحركة الاختيارية والحركة القسرية، وإن كان الجميع داخلًا في مشيئة الله ومندرجًا تحت إرادته.

ومنها: أن المحتجين على المعاصي بالقضاء والقدر يتناقضون في ذلك؛ فإنهم لا يمكنهم أن يطردوا ذلك؛ بل لو أساء إليهم مسيء بضرب أو أخذ مال أو نحو ذلك، واحتج بالقضاء والقدر لما قبلوا منه هذا الاحتجاج ولغضبوا من ذلك أشد الغضب. فيا عجبًا كيف يحتجون به على معاصي الله ومساخطه ولا يرضون من أحد أن يحتج به في مقابلة مساخطهم.

ومنها: أن احتجاجهم بالقضاء والقدر ليس مقصودًا، ويعلمون أنه ليس بحجة، وإنما المقصود منه دفع الحق ويرون أن الحق بمنزلة الصائل؛ فهم يدفعونه بكل ما يخطر ببالهم من الكلام، ولو كانوا يعتقدونه خطأً.

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

﴿١٥٠﴾ أي: قل لمن حرم ما أحل الله ونسب ذلك إلى الله: أحضروا شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا! فإذا قيل لهم هذا الكلام؛ فهم بين أمرين: إما ألَّا يحضروا أحدًا يشهد بهذا، فتكون دعواهم إذًا باطلةً خليةً من الشهود والبرهان. وإما أن يحضروا أحدًا يشهد لهم بذلك، ولا يمكن أن يشهد بهذا إلا كل أفاك أثيم غير مقبول الشهادة، وليس هذا من الأمور التي يصح أن يشهد بها العدول، ولهذا قال تعالى ناهيًا نبيه وأتباعه عن هذه الشهادة: ﴿فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾؛ أي: يسوون به غيره من الأنداد والأوثان؛ فإذا كانوا كافرين باليوم الآخر غير موحدين لله؛ كانت أهويتهم مناسبة لعقيدتهم، وكانت دائرة بين الشرك والتكذيب بالحق، فحري بهوًى هذا شأنه أن ينهى الله خيار خلقه عن اتباعه، وعن الشهادة مع أربابه، وعلم حينئذ أن تحريمهم لما أحل الله صادر عن تلك الأهواء المضلة.

﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾
وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾
وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

(١) ع: «الأدلة».

(١٥١) يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾: لهؤلاء الذين حرموا ما أحل الله: ﴿تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾: تحريمًا عامًّا شاملًا لكل أحد، محتويًا على سائر المحرمات من المآكل والمشارب والأقوال والأفعال، ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾ بالله ﴿شَيْئًا﴾؛ أي: لا قليلًا ولا كثيرًا. وحقيقة الشرك بالله أن يعبد المخلوق كما يعبد الله أو يعظم كما يعظم الله أو يصرف له نوع من خصائص الربوبية والإلهية، وإذا ترك العبد الشرك كله؛ صار موحدًا مخلصًا لله في جميع أحواله؛ فهذا حق الله على عباده: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا. ثم بدأ بآكد الحقوق بعد حقه، فقال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾: من الأقوال الكريمة الحسنة والأفعال الجميلة المستحسنة؛ فكل قول وفعل يحصل به منفعة للوالدين أو سرور لهما؛ فإن ذلك من الإحسان، وإذا وجد الإحسان؛ انتفى العقوق، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾: من ذكور وإناث ﴿مِنْ إِمْلَاقٍ﴾؛ أي: بسبب الفقر وضيقكم من رزقهم؛ كما كان ذلك موجودًا في الجاهلية القاسية الظالمة، وإذا كانوا منهيين عن قتلهم في هذه الحال وهم أولادهم؛ فنهيهم عن قتلهم لغير موجب أو قتل أولاد غيرهم من باب أولى وأحرى. ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾؛ أي: قد تكفلنا برزق الجميع، فلستم الذين ترزقون أولادكم، بل ولا أنفسكم، فليس عليكم منهم ضيق. ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾: وهي الذنوب العظام المستفحشة ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾؛ أي: لا تقربوا الظاهر منها والخفي أو المتعلق منها بالظاهر والمتعلق بالقلب والباطن، والنهي عن قربان الفواحش أبلغ من النهي عن مجرد فعلها؛ فإنه يتناول النهي عن مقدماتها ووسائلها الموصلة إليها. ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾: وهي النفس المسلمة من ذكر وأنثى صغير وكبير بر وفاجر: والكافرة التي قد عصمت بالعهد والميثاق، ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾: كالزاني المحصن والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة. ﴿ذَلِكُمْ﴾: المذكور، ﴿وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١)﴾: عن الله وصيته ثم تحفظونها ثم تراعونها وتقومون بها. ودلت الآية على أنه بحسب عقل العبد يكون قيامه بما أمر الله به.

(١٥٢) ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾: بأكل أو معاوضة على وجه المحاباة لأنفسكم أو أخذ من غير سبب،

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ أي: إلا بالحال التي تصلح بها أموالهم وينتفعون بها، فدل هذا على أنه لا يجوز قربانها والتصرف بها على وجه يضر اليتامى أو على وجه لا مضرة فيه ولا مصلحة. ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ﴾: اليتيم ﴿أَشُدَّهُ﴾؛ أي: حتى يبلغ ويرشد ويعرف التصرف؛ فإذا بلغ أشده؛ أعطي حينئذ ماله، وتصرف فيه على نظره. وفي هذا دلالة على أن اليتيم قبل بلوغ الأشد محجور عليه، وأن وليه يتصرف في ماله بالأحظ، وأن هذا الحجر ينتهي ببلوغ الأشد. ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾؛ أي: بالعدل والوفاء التام؛ فإذا اجتهدتم في ذلك؛ فإننا ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾؛ أي بقدر ما تسعه ولا تضيق عنه؛ فمن حرص على الإيفاء في الكيل والوزن، ثم حصل منه تقصير؛ لم يفرط فيه ولم يعلمه؛ فإن الله عفو غفور. وبهذه الآية ونحوها استدل الأصوليون بأن الله لا يكلف أحدًا ما لا يطيق، وعلى أن من اتقى الله فيما أمر وفعل ما يمكنه من ذلك؛ فلا حرج عليه فيما سوى ذلك.

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾: قولًا تحكمون به بين الناس، وتفصلون بينهم الخطاب، وتتكلمون به على المقالات والأحوال، ﴿فَاعْدِلُوا﴾: في قولكم بمراعاة الصدق فيمن تحبون ومن تكرهون والإنصاف وعدم كتمان ما يلزم بيانه؛ فإن الميل على من تكره بالكلام فيه أو في مقالته من الظلم المحرم، بل إذا تكلم العالم على مقالات أهل البدع؛ فالواجب عليه أن يعطي كل ذي حق حقه وأن يبين ما فيها من الحق والباطل، ويعتبر قربها من الحق وبعدها منه، وذكر الفقهاء أن القاضي يجب عليه العدل بين الخصمين في لحظه ولفظه. ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾: وهذا يشمل العهد الذي عاهده عليه العباد؛ من القيام بحقوقه والوفاء بها، ومن العهد الذي يقع التعاهد به بين الخلق؛ فالجميع يجب الوفاء به، ويحرم نقضه والإخلال به. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾: الأحكام المذكورة، ﴿وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾: ما بينه لكم من الأحكام، وتقومون بوصية الله لكم حق القيام، وتعرفون ما فيها من الحكم والأحكام.

﴿١٥٣﴾ ولما بين كثيرًا من الأوامر الكبار والشرائع المهمة؛ أشار إليها وإلى ما هو أعم منها، فقال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾؛ أي: هذه الأحكام وما أشبهها مما بينه الله في كتابه ووضحه لعباده صراط الله الموصل إليه وإلى دار كرامته المعتدل السهل المختصر. ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾: لتنالوا الفوز والفلاح، وتدركوا الآمال والأفراح، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾؛ أي: الطرق المخالفة لهذا الطريق، ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾؛ أي: تضلكم عنه وتفرقكم يمينًا وشمالًا؛ فإذا ضللتم عن الصراط المستقيم؛ فليس ثم إلا طرق توصل إلى الجحيم. ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾: فإنكم إذا قمتم بما بينه الله لكم علمًا وعملًا؛ صرتم من المتقين وعباد الله المفلحين. ووحد الصراط وأضافه إليه؛ لأنه سبيل واحد موصل إليه، والله هو المعين للسالكين على سلوكه.

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

﴿١٥٤﴾ ﴿ثُمَّ﴾ في هذا الموضع ليس المراد منها الترتيب الزماني؛ فإن زمن موسى عليه السلام متقدم على تلاوة الرسول محمد ﷺ هذا الكتاب، وإنما المراد الترتيب الإخباري، فأخبر أنه آتى ﴿مُوسَى الْكِتَابَ﴾: وهو التوراة ﴿تَمَامًا﴾: لنعمته وكمالًا لإحسانه، ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾: من أمة موسى؛ فإن الله أنعم على المحسنين منهم بنعم لا تحصى من جملتها وتمامها إنزال التوراة عليهم، فتمت عليهم نعمة الله ووجب عليهم القيام بشكرها، ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾: يحتاجون إلى تفصيله من الحلال والحرام والأمر والنهي والعقائد ونحوها، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾؛ أي: يهديهم إلى الخير ويعرفهم بالشر في الأصول والفروع، ﴿وَرَحْمَةً﴾: يحصل به لهم السعادة والرحمة والخير الكثير، ﴿لَّعَلَّهُم﴾: بسبب إنزالنا الكتاب والبينات عليهم ﴿بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾؛ فإنه اشتمل من الأدلة القاطعة على البعث والجزاء بالأعمال، ما يوجب لهم الإيمان بلقاء ربهم والاستعداد له.

﴿١٥٥﴾ ﴿وَهَٰذَا﴾: القرآن العظيم والذكر الحكيم، ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾؛ أي: فيه الخير الكثير والعلم الغزير، وهو الذي تستمد منه سائر العلوم وتستخرج منه البركات؛ فما من خير إلا وقد دعا إليه ورغب فيه وذكر الحكم والمصالح التي تحث عليه، وما من شر إلا وقد نهى عنه وحذر منه وذكر الأسباب المنفرة عن فعله وعواقبها الوخيمة. ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾: فيما يأمر به وينهى، وابنوا أصول دينكم وفروعه عليه. ﴿وَاتَّقُوا﴾: الله تعالى أن تخالفوا له أمرًا ﴿لَعَلَّكُمْ﴾؛ أي: إن اتبعتموه ﴿تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾: فأكبر سبب لنيل رحمة الله اتباع هذا الكتاب علمًا وعملًا.

﴿١٥٦﴾ ﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾؛ أي: أنزلنا إليكم هذا الكتاب المبارك قطعًا لحجتكم وخشية أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا؛ أي اليهود والنصارى. ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾؛ أي: تقولون: لم تنزل علينا

كتابًا، والكتب التي أنزلتها على الطائفتين ليس لنا بها علم ولا معرفة، فأنزلنا إليكم كتابًا لم ينزل من السماء كتاب أجمع ولا أوضح ولا أبين منه.

(١٥٧) ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَـٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾؛ أي: إما أن تعتذروا بعدم وصول أصل الهداية إليكم، وإما أن تعتذروا بعدم كمالها[1] وتمامها، فحصل لكم بكتابكم أصل الهداية وكمالها، ولهذا قال: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: وهذا اسم جنس يدخل فيه كل ما يبين الحق، ﴿وَهُدًى﴾: من الضلالة، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾؛ أي: سعادة لكم في دينكم ودنياكم؛ فهذا يوجب لكم الانقياد لأحكامه والإيمان بأخباره وأن من لم يرفع به رأسًا وكذب به؛ فإنه أظلم الظالمين. ولهذا قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾؛ أي: أعرض ونأى بجانبه، ﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾؛ العذاب الذي يسوء صاحبه ويشق عليه، ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ (١٥٧)﴾: لأنفسهم ولغيرهم جزاءً لهم على عملهم السيئ، وما ربك بظلام للعبيد.

وفي هذه الآيات دليل على أن علم القرآن أجل العلوم وأبركها وأوسعها، وأنه به تحصل الهداية إلى الصراط المستقيم هدايةً تامةً لا يحتاج معها إلى تخرص المتكلمين ولا إلى أفكار المتفلسفين ولا لغير ذلك من علوم الأولين والآخرين.

وأن المعروف أنه لم ينزل جنس الكتاب إلا على الطائفتين؛ من اليهود والنصارى؛ فهم أهل الكتاب عند الإطلاق، لا يدخل فيهم سائر الطوائف؛ لا المجوس ولا غيرهم.

وفيه ما كان عليه الجاهلية قبل نزول القرآن من الجهل العظيم وعدم العلم بما عند أهل الكتاب الذين عندهم مادة العلم، وغفلتهم عن دراسة كتبهم.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨)﴾.

(١) عبارة: «بعدم كمالها» وردت في ع: «بكمالها».

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ
بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا
لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟
إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ
مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ
(١٥٩) مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ
فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٠) قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ
إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ
رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ
(١٦٣) قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ
نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤) وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ
خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ
فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ (١٦٥)

(١٥٨) يقول تعالى: هل ينظر هؤلاء الذين استمر ظلمهم وعنادهم، ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ﴾؛ مقدمات العذاب ومقدمات الآخرة؛ بأن تأتيهم ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم؛ فإنهم إذا وصلوا إلى تلك الحال؛ لم ينفعهم الإيمان ولا صالح الأعمال، ﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾: لفصل القضاء بين العباد ومجازاة المحسنين والمسيئين ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ﴾: الدالة على قرب الساعة. ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ﴾: الخارقة للعادة، التي يعلم بها أن الساعة قد دنت وأن القيامة قد اقتربت. ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا﴾؛ أي: إذا وجد بعض آيات الله؛ لم ينفع الكافر إيمانه أن آمن ولا المؤمن المقصر أن يزداد خيره بعد ذلك، بل ينفعه ما كان معه من الإيمان قبل ذلك، وما كان له من الخير الموجود قبل أن يأتي بعض الآيات. والحكمة في هذا ظاهرة؛ فإنه إنما كان الإيمان ينفع إذا كان إيمانًا بالغيب وكان اختيارًا من العبد. فأما إذا وجدت الآيات؛ صار الأمر شهادةً، ولم

يبق للإيمان فائدة؛ لأنه يشبه الإيمان الضروري؛ كإيمان الغريق والحريق ونحوهما ممن إذا رأى الموت أقلع عما هو فيه؛ كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

وقد تكاثرت الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ أن المراد ببعض آيات الله طلوع الشمس من مغربها، وأن الناس إذا رأوها؛ آمنوا، فلم ينفعهم إيمانهم، ويغلق حينئذ باب التوبة. ولما كان هذا وعيدًا للمكذبين بالرسول ﷺ منتظرًا وهم ينتظرون بالنبي ﷺ وأتباعه قوارع الدهر ومصائب الأمور؛ قال: ﴿ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾: فستعلمون أينا أحق بالأمن.

وفي هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة في إثبات الأفعال الاختيارية لله تعالى؛ كالاستواء والنزول والإتيان لله تبارك وتعالى من غير تشبيه له بصفات المخلوقين، وفي الكتاب والسنة من هذا شيء كثير.

وفيه أن من جملة أشراط الساعة طلوع الشمس من مغربها.

وأن الله تعالى حكيم قد جرت عادته وسنته أن الإيمان إنما ينفع إذا كان اختياريًّا لا اضطراريًّا كما تقدم، وأن الإنسان يكتسب الخير بإيمانه؛ فالطاعة والبر والتقوى إنما تنفع وتنمو إذا كان مع العبد إيمان[1]، فإذا خلا القلب من الإيمان؛ لم ينفعه شيء من ذلك.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾.

﴿١٥٩﴾ يتوعد تعالى الذين فرقوا دينهم؛ أي: شتتوه وتفرقوا فيه، وكل أخذ لنفسه نصيبًا من الأسماء التي لا تفيد الإنسان في دينه شيئًا؛ كاليهودية والنصرانية والمجوسية، أو لا يكمل بها إيمانه؛ بأن يأخذ من الشريعة شيئًا ويجعله دينه ويدع مثله أو ما هو أولى منه؛ كما هو حال أهل الفرقة من أهل البدع والضلال والمفرقين للأمة. ودلت الآية الكريمة أن الدين يأمر بالاجتماع والائتلاف وينهى عن التفرق والاختلاف في أهل الدين وفي سائر مسائله الأصولية والفروعية، وأمره أن يتبرأ ممن فرقوا دينهم، فقال: ﴿ لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾؛ أي: لست منهم وليسوا منك؛ لأنهم خالفوك وعاندوك. ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾: يردون إليه فيجازيهم بأعمالهم، ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾.

﴿١٦٠﴾ ثم ذكر صفة الجزاء فقال: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ ﴾: القولية والفعلية، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله أو حق خلقه، ﴿ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾: هذا أقل ما يكون من التضعيف، ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾: وهذا من تمام عدله تعالى وإحسانه، وأنه لا يظلم مثقال ذرة، ولهذا قال: ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾.

﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾ ﴾.

﴿١٦١﴾ يأمر تعالى نبيه ﷺ أن يقول ويعلن بما هو عليه من الهداية إلى الصراط المستقيم، الدين المعتدل، المتضمن للعقائد النافعة والأعمال الصالحة والأمر بكل حسن والنهي عن كل قبيح، الذي عليه الأنبياء والمرسلون، خصوصًا إمام الحنفاء ووالد من بعث من بعد موته من الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهو الدين الحنيف، المائل عن كل دين غير مستقيم من أديان أهل الانحراف كاليهود والنصارى والمشركين. وهذا عموم.

(١) ع: «الإيمان».

(١٦٢) ثم خصص من ذلك أشرف العبادات، فقال: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي ﴾؛ أي: ذبحي، وذلك لشرف هاتين العبادتين وفضلهما ودلالتهما على محبة الله تعالى وإخلاص الدين له والتقرب إليه بالقلب واللسان والجوارح وبالذبح الذي هو بذل ما تحبه النفس من المال لما هو أحب إليها وهو الله تعالى، ومن أخلص في صلاته ونسكه؛ استلزم ذلك إخلاصه لله في سائر أعماله. وقوله: ﴿ وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي ﴾؛ أي: ما آتيه في حياتي وما يجريه الله علي وما يقدر علي في مماتي؛ الجميع ﴿ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) ﴾.

(١٦٣) ﴿ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾: في العبادة؛ كما أنه ليس له شريك في الملك والتدبير، وليس هذا الإخلاص لله ابتداعًا مني وبدعًا أتيته من تلقاء نفسي، بل ﴿ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ ﴾: أمرًا حتمًا لا أخرج من التبعة إلا بامتثاله، ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) ﴾: من هذه الأمة.

(١٦٤) ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ ﴾: من المخلوقين ﴿ أَبْغِي رَبًّا ﴾؛ أي: أيحسن ذلك، ويليق بي أن أتخذ غيره مربيًا ومدبرًا، والله رب كل شيء؛ فالخلق كلهم داخلون تحت ربوبيته، منقادون لأمره، فتعين علي وعلى غيري أن يتخذ الله ربًا ويرضى به وألّا يتعلق بأحد من المربوبين الفقراء العاجزين. ثم رغب ورهب بذلك الجزاء، فقال: ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾: من خير وشر ﴿ إِلَّا عَلَيْهَا ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت: ٤٦]، ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾: بل كل عليه وزر نفسه، وإن كان أحد قد تسبب في ضلال غيره ووزره؛ فإن عليه وزر التسبب من غير أن ينقص من وزر المباشر شيء، ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ ﴾: يوم القيامة، ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤) ﴾: من خير وشر، ويجازيكم على ذلك أوفى الجزاء.

(١٦٥) ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ﴾؛ أي: يخلف بعضكم بعضًا، واستخلفكم الله في الأرض، وسخر لكم جميع ما فيها، وابتلاكم لينظر كيف تعملون، ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾: في القوة والعافية والرزق والخَلق والخُلق؛ ﴿ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾: فتفاوتت أعمالكم.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ ﴾: لمن عصاه وكذب بآياته، ﴿ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٥) ﴾: لمن آمن به وعمل صالحًا، وتاب من الموبقات.

آخر تفسير سورة الأنعام.

وبه تم الجزء الثاني من تيسير الرحمن في تفسير كلام المنان

فلله الحمد والثناء. وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

وكان الفراغ من كتابته في يوم الجمعة موافق خمس وعشرين من جمادى الآخرة سنة ١٣٤٥؛ خمس وأربعين وثلاثمائة وألف.

بقلم الفقير إلى ربه المنان، علي الحسن العلي الحسن البريكان، وقد نسخته على نسخة المؤلف، غفر الله له، وأثابه على ذلك الثواب الجزيل، وجزاه الله عنا وعن جميع المسلمين أفضل الجزاء في دار الجزاء، وأدخله الله برحمته فسيح الجنان، ووقانا وإياه عذاب النيران، بفضله وكرمه؛ إنه قريب مجيب. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. آمين ثم آمين يا رب العالمين.



الجزء الثامن — سورة الأعراف

سورة الأعراف ٧ — ٢٠٦

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ
لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم
مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾
وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ
﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا
ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ
ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾
وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ
أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ
فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿١٠﴾
وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ
لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾

١٥١

تفسير سورة الأعراف

مكية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ
مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم
مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم
مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾
فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا
ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ
ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿١﴾، ﴿٢﴾ يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ مبينًا له عظمة القرآن: ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ ﴾؛ أي: كتاب جليل حوى كل ما يحتاج إليه العباد وجميع المطالب الإلهية والمقاصد الشرعية محكمًا مفصلًا. فلا يكن في صدرك ﴿ حَرَجٞ مِّنۡهُ ﴾؛ أي: ضيق وشك واشتباه، بل لتعلم أنه تنزيل من حكيم حميد، وأنه أصدق الكلام[1] لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فلينشرح له صدرك، ولتطمئن به نفسك، ولتصدع بأوامره ونواهيه، ولا تخش لائمًا ومعارضًا؛ ﴿ لِتُنذِرَ بِهِۦ ﴾: الخلق وتعظهم وتذكرهم فتقوم الحجة على المعاندين، وليكن ذكرى ﴿ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٥]: يتذكرون به الصراط المستقيم، وأعماله الظاهرة والباطنة، وما يحول بين العبد وبين سلوكه.

﴿٣﴾ ثم خاطب الله العباد، ولفتهم[2] إلى الكتاب، فقال: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾؛ أي: الكتاب الذي أريد إنزاله لأجلكم، وهو ﴿ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾، الذي يريد أن يتم تربيته لكم، فأنزل عليكم هذا الكتاب الذي إن اتبعتموه كملت تربيتكم وتمت عليكم النعمة وهديتم لأحسن الأعمال والأخلاق ومعاليها، ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ﴾؛ أي: تتولونهم، وتتبعون أهواءهم، وتتركون لأجلها الحق، ﴿ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾: فلو تذكرتم وعرفتم المصلحة؛ لما آثرتم الضار على النافع والعدو على الولي.

﴿٤﴾ ثم حذرهم عقوباته للأمم الذين كذبوا ما جاءتهم به رسلهم فلا[3] يشابهونهم، فقال: ﴿ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا ﴾؛ أي: عذابنا الشديد، ﴿ بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾؛ أي: في حين غفلتهم وعلى غرتهم غافلون، لم يخطر الهلاك على قلوبهم، فحين جاءهم العذاب؛ لم يدفعوه عن أنفسهم، ولا أغنت عنهم آلهتهم التي كانوا يرجونهم، ولا أنكروا ما كانوا يفعلونه من الظلم والمعاصي.

﴿٥﴾ ﴿ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿ وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ١١-١٥].

---

(١) ساقط من المطبوع.
(٢) ع: «ألفتهم».
(٣) ع: «لئلا».

(٦) وقوله: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾؛ أي: لنسألن الأمم الذين أرسل الله إليهم المرسلين عما أجابوا به رسلهم، ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ الآيات[1] [القصص: ٦٥]. ﴿ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ ﴾: عن تبليغهم لرسالات ربهم وعما أجابتهم به أممهم.

(٧) ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم ﴾؛ أي: على الخلق كلهم ما عملوا، ﴿ بِعِلْمٍ ﴾: منه تعالى لأعمالهم، ﴿ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ ﴾: في وقت من الأوقات؛ كما قال تعالى: ﴿ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ [المجادلة: ٦]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٧].

ثم ذكر الجزاء على الأعمال، فقال:

﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

(٨) أي: والوزن يوم القيامة يكون بالعدل والقسط الذي لا جور فيه ولا ظلم بوجه. ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾: بأن رجحت كفة حسناته على سيئاته، ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ ﴾؛ أي: الناجون من المكروه، المدركون للمحبوب، الذين حصل لهم الربح العظيم والسعادة الدائمة.

(٩) ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾: بأن رجحت سيئاته وصار الحكم لها، ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم ﴾: إذ فاتهم النعيم المقيم وحصل لهم العذاب الأليم، ﴿ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾: فلم ينقادوا لها كما يجب عليهم ذلك.

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

(١٠) يقول تعالى ممتنًا على عباده بذكر المسكن والمعيشة: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي: هيأناها لكم بحيث تتمكنون من البناء عليها وحرثها ووجوه الانتفاع بها، ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ﴾: مما يخرج من الأشجار والنبات ومعادن الأرض وأنواع الصنائع والتجارات؛ فإنه هو الذي هيأها وسخر أسبابها، ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾: الله الذي أنعم عليكم بأصناف النعم، وصرف عنكم النقم.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ ﴾.

(١١) يقول تعالى مخاطبًا لبني آدم: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ﴾: بخلق أصلكم ومادتكم التي منها خرجتم؛ أبيكم آدم عليه السلام، ﴿ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ﴾: في أحسن صورة وأحسن تقويم، وعلَّمه تعالى ما به تكمل صورته الباطنة؛ أسماء كل شيء، ثم أمر الملائكة الكرام أن يسجدوا لآدم إكرامًا واحترامًا وإظهارًا لفضله، فامتثلوا أمر ربهم، ﴿ فَسَجَدُوٓاْ ﴾ كلهم أجمعون ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾: أبى أن يسجد له تكبرًا عليه وإعجابًا بنفسه.

(١٢) فوبخه الله على ذلك، وقال: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ لما خلقت بيدي؛ أي شرفته وفضلته بهذه الفضيلة التي لم تكن لغيره، فعصيت أمري وتهاونت بي. ﴿ قَالَ ﴾ إبليس معارضًا لربه: ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾، ثم برهن على هذه الدعوى الباطلة بقوله له: ﴿ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾: وموجب هذا أن المخلوق من نار أفضل من المخلوق من طين لعلو النار على الطين وصعودها.

وهذا القياس من أفسد الأقيسة؛ فإنه باطل من عدة أوجه:

منها: أنه في مقابلة أمر الله له بالسجود، والقياس إذا عارض النص فإنه قياس باطل؛ لأن المقصود بالقياس أن يكون الحكم الذي لم يأت فيه نص يقارب الأمور المنصوص عليها ويكون تابعًا لها، فأما قياس يعارضها ويلزم من اعتباره إلغاء النصوص؛ فهذا القياس من أشنع الأقيسة.

ومنها: أن قوله: ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾؛ بمجردها كافية لنقص إبليس الخبيث؛ فإنه برهن على نقصه بإعجابه بنفسه وتكبره والقول على الله بلا علم، وأي نقص أعظم من هذا؟!

ومنها: أنه كذب في تفضيل مادة النار على مادة الطين والتراب؛ فإن مادة الطين فيها الخشوع والسكون والرزانة، ومنها تظهر بركات الأرض من الأشجار وأنواع النبات على اختلاف أجناسه وأنواعه، وأما النار؛ ففيها الخفة والطيش والإحراق.

(١) ساقط من ط.

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ
وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ
فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ
﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ
صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ
وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ
ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ
شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ
لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ
مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا
مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾
فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا
يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا
عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾

(١٣) ولهذا؛ لما جرى من إبليس ما جرى؛ انحط من مرتبته العالية إلى أسفل السافلين، فقال الله له: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ أي: من الجنة، ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾: لأنها دار الطيبين الطاهرين، فلا تليق بأخبث خلق الله وأشرهم، ﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: المهانين الأذلين؛ جزاء على كبره وعجبه بالإهانة والذل.

(١٤)، (١٥) فلما أعلن عدو الله بعداوة الله وعداوة آدم وذريته؛ سأل الله النَّظِرَة والإمهال إلى يوم البعث؛ ليتمكن من إغواء ما يقدر عليه من بني آدم، ولما كانت حكمة الله مقتضية لابتلاء العباد واختبارهم ليتبين الصادق من الكاذب ومن يطيعه ومن يطيع عدوه؛ أجابه لما سأل، فقال: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾.

(١٦) أي: قال إبليس لما أبلس وأيس من رحمة الله: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾؛ أي: للخلق ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾؛ أي: لألزمن الصراط، ولأسعى غاية جهدي على صد الناس عنه وعدم سلوكهم إياه.

(١٧) ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾؛ أي: من جميع الجهات والجوانب، ومن كل طريق يتمكن فيه من إدراك بعض مقصوده فيهم، ولما علم الخبيث أنهم ضعفاء قد تغلب الغفلة على كثير منهم، وكان جازمًا ببذل مجهوده على إغوائهم؛ ظن - وصدق ظنه - فقال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾: فإن القيام بالشكر من سلوك الصراط المستقيم، وهو يريد صدهم عنه وعدم قيامهم به؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: ٦]، وإنما نبهنا الله على ما قال، وعزم على فعله، لنأخذ منه حِذْرَنَا، ونستعد لعدونا، ونحترز منه بعلمنا بالطرق التي يأتي منها ومداخله التي ينفذ منها؛ فله تعالى علينا بذلك أكمل نعمة.

﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾.

(١٨) أي: قال الله لإبليس لما قال ما قال: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾: خروج صَغَارٍ واحتقار، لا خروج إكرام، بل ﴿مَذْءُومًا﴾؛ أي: مذمومًا، ﴿مَّدْحُورًا﴾: مبعدًا عن الله وعن رحمته وعن كل خير. ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾: منك وممن تبعك منهم ﴿أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾: وهذا قسم من الله[1] تعالى أن النار دار العصاة، لا بد أن يملأها من إبليس وأتباعه من الجن والإنس.

ثم حذر آدم شره وفتنته فقال:

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل

(١) عبارة: «من الله» في ع: «منه».

لَكُمَا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

(١٩) أي: أمر الله تعالى آدم وزوجته حواء التي أنعم الله بها عليه ليسكن إليها أن يأكلا من الجنة حيث شاءا ويتمتعا فيها بما أرادا؛ إلا أنه عين لهما شجرة ونهاهما عن أكلها، والله أعلم ما هي، وليس في تعيينها فائدة لنا، وحرم عليهما أكلها؛ بدليل قوله: ﴿ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

(٢٠) فلم يزالا ممتثلين لأمر الله حتى تغلغل إليهما عدوهما إبليس بمكره، فوسوس لهما وسوسة خدعهما بها وموه عليهما وقال: ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ ﴾؛ أي: من جنس الملائكة، ﴿ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾: كما قال في الآية الأخرى: ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [طه: ١٢٠].

(٢١) ومع قوله هذا أقسم لهما بالله: ﴿ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾؛ أي: من جملة الناصحين؛ حيث قلت لكما ما قلت.

(٢٢) فاغترا بذلك، وغلبت الشهوة في تلك الحال على العقل، ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا ﴾؛ أي: أنزلهما عن رتبتهما العالية التي هي البعد عن الذنوب والمعاصي إلى التلوث بأوضارها، فأقدما على أكلها، ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا ﴾؛ أي: ظهرت عورة كل منهما بعدما كانت مستورة، فصار للعري الباطن من التقوى في هذه الحال أثر في اللباس الظاهر حتى انخلع، فظهرت عوراتهما، ولما ظهرت عوراتهما؛ خجلا وجعلا يخصفان على عوراتهما من أوراق شجر الجنة ليستترا بذلك، ﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ ﴾: وهما بتلك الحال موبخًا ومعاتبًا: ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾: فلم اقترفتما المنهي وأطعتما عدوكما؟!

(٢٣) فحينئذ منَّ الله عليهما بالتوبة وقبولها، فاعترفا بالذنب، وسألا من الله مغفرته، فقالا: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾؛ أي: قد فعلنا الذنب الذي نبهتنا عنه وأضررنا بأنفسنا باقتراف الذنب، وقد فعلنا سبب الخسار إن لم تغفر لنا بمحو أثر الذنب وعقوبته وترحمنا بقبول التوبة والمعافاة من أمثال هذه الخطايا، فغفر الله لهما ذلك، ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ

قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢]. هذا وإبليس مستمر على طغيانه، غير مقلع من عصيانه؛ فمن أشبه آدم بالاعتراف وسؤال المغفرة والندم والإقلاع إذا صدرت منه الذنوب؛ اجتباه ربه[1] وهداه، ومن أشبه إبليس إذا صدر منه الذنب لا يزال يزداد من المعاصي؛ فإنه لا يزداد من الله إلا بعدًا.

﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

(٢٥) أي: لما أهبط الله آدم وزوجته وذريتهما إلى الأرض؛ أخبرهما بحال إقامتهم فيها، وأنه جعل لهم فيها حياة، يتلوها الموت مشحونة بالامتحان والابتلاء، وأنهم لا يزالون فيها، يرسل إليهم رسله، وينزل عليهم كتبه، حتى يأتيهم الموت فيدفنون فيها، ثم إذا استكملوا بعثهم الله، وأخرجهم منها إلى الدار التي هي الدار حقيقة، التي هي دار المقامة.

(١) في ع: «الله».

(٢٦) ثم امتن عليهم بما يسر لهم من اللباس الضروري واللباس الذي المقصود منه الجمال، وهكذا سائر الأشياء كالطعام والشراب والمراكب والمناكح، ونحوها قد يسر الله للعباد ضروريها ومكمل ذلك، وبين لهم أن هذا ليس مقصودًا بالذات، وإنما أنزله الله ليكون معونة لهم على عبادته وطاعته، ولهذا قال: ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾: من اللباس الحسي؛ فإن لباس التقوى يستمر مع العبد ولا يبلى ولا يبيد، وهو جمال القلب والروح، وأما اللباس الظاهري؛ فغايته أن يستر العورة الظاهرة في وقت من الأوقات، أو يكون جمالًا للإنسان، وليس وراء ذلك منه نفع. وأيضًا؛ فبتقدير عدم هذا اللباس تنكشف عورته الظاهرة التي لا يضره كشفها مع الضرورة، وأما بتقدير عدم لباس التقوى؛ فإنها تنكشف عورته الباطنة، وينال الخزي والفضيحة. وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) ﴾؛ أي: ذلك المذكور لكم من اللباس مما تذكرون به ما ينفعكم، ويضركم، وتستعينون[١] باللباس الظاهر على الباطن.

﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧) ﴾.

(٢٧) يقول تعالى محذرًا لبني آدم أن يفعل بهم الشيطان كما فعل بأبيهم: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾: بأن يزين لكم العصيان ويدعوكم إليه ويرغبكم فيه فتنقادون له، ﴿كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾: وأنزلهما من المحل العالي إلى أنزل منه؛ فأنتم يريد أن يفعل بكم كذلك ولا يألو جهده عنكم حتى يفتنكم إن استطاع؛ فعليكم أن تجعلوا الحذر منه في بالكم، وأن تلبسوا لأمة الحرب بينكم وبينه، وألَّا تغفلوا عن المواضع التي يدخل منها إليكم؛ إنه يراقبكم على الدوام، و﴿ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ ﴾: من شياطين الجن ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧) ﴾: فعدم الإيمان هو الموجب لعقد الولاية بين الإنسان والشيطان. ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ (١٠٠) ﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠].

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٠) ﴾.

(٢٨) يقول تعالى مبينًا لقبح حال المشركين الذين يفعلون الذنوب ويثبتون لله أنه[٢] أمرهم بها: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً ﴾: وهي كل ما يستفحش ويستقبح، ومن ذلك طوافهم بالبيت عراة، ﴿ قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا ﴾: وصدقوا في هذا، ﴿ وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾: وكذبوا في هذا، ولهذا رد الله عليهم هذه النسبة، فقال: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾؛ أي: لا يليق بكماله وحكمته أن يأمر عباده بتعاطي الفواحش، لا هذا الذي يفعله المشركون ولا غيره، ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) ﴾: وأي افتراء أعظم من هذا؟

(٢٩) ثم ذكر ما يأمر به، فقال: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ﴾؛ أي: بالعدل في العبادات والمعاملات، لا بالظلم والجور، ﴿ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾؛ أي: توجهوا إلى الله، واجتهدوا في تكميل العبادات، خصوصًا الصلاة، أقيموها ظاهرًا وباطنًا، ونقوها من كل مُنَقِّصٍ ومفسد. ﴿ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾؛ أي: قاصدين بذلك وجهه وحده لا شريك له، والدعاء يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة؛ أي: لا تريدون ولا تقصدون[٣] من الأغراض في دعائكم سوى عبودية الله ورضاه، ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ ﴾: أول مرة ﴿ تَعُودُونَ (٢٩) ﴾: للبعث؛ فالقادر على بدء خلقكم قادر على إعادته، بل الإعادة أهون من البداءة.

(٣٠) ﴿ فَرِيقًا ﴾: منكم، ﴿ هَدَىٰ ﴾: الله؛ أي: وفقهم للهداية ويسر لهم أسبابها وصرف عنهم موانعها ﴿ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ أي: وجبت عليهم الضلالة بما تسببوا لأنفسهم وعملوا بأسباب الغواية. ﴿ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا (١١٩) ﴾ [النساء: ١١٩]؛ فحين

(١) ع: «تتنبهون».

(٢) ع، ط: «وينسبون أن الله».
(٣) عبارة: «لا تريدون ولا تقصدون» وردت في ع: «لا تراؤا ولا تقصدوا».

انسلخوا من ولاية الرحمن واستحبوا ولاية الشيطان؛ حصل لهم النصيب الوافر من الخذلان، ووكلوا إلى أنفسهم فخسروا أشد الخسران. وهم يحسبون ﴿أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾: لأنهم انقلبت عليهم الحقائق، فظنوا الباطل حقًّا والحق باطلًا.

وفي هذه الآيات دليل على أن الأوامر والنواهي تابعة للحكمة والمصلحة؛ حيث ذكر تعالى أنه لا يتصور أن يأمر بما تستفحشه وتنكره العقول، وأنه لا يأمر إلا بالعدل والإخلاص.

وفيه دليل على أن الهداية بفضل الله ومنه، وأن الضلالة بخذلانه للعبد إذ تولى - بجهله وظلمه - الشيطان، وتسبب لنفسه بالضلال، وأن من حسب أنه مهتد وهو ضال فإنه لا عذر له؛ لأنه متمكن من الهدى، وإنما أتاه حسبانه من ظلمه بترك الطريق الموصل إلى الهدى.

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿٣١﴾ يقول تعالى بعدما أنزل على بني آدم لباسًا يواري سوآتهم وريشًا: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾؛ أي: استروا عوراتكم عند الصلاة كلها فرضها ونفلها؛ فإن سترها زينة للبدن؛ كما أن كشفها يدع البدن قبيحًا مشوهًا، ويحتمل أن المراد بالزينة هنا ما فوق ذلك من اللباس النظيف الحسن. ففي هذا الأمر بستر العورة في الصلاة وباستعمال التجمل فيها ونظافة السترة من الأدناس والأنجاس. ثم قال: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾؛ أي: مما رزقكم الله من الطيبات، ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾: في ذلك، والإسراف إما أن يكون بالزيادة على القدر الكافي والشره في المأكولات التي تضر بالجسم، وإما أن يكون بزيادة الترفه والتنوق في المآكل والمشارب واللباس، وإما بتجاوز الحلال إلى الحرام. ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾: فإن السرف يبغضه الله، ويضر بدن الإنسان ومعيشته، حتى إنه ربما أدت به الحال إلى أن يعجز عما يجب عليه من النفقات. ففي هذه الآية الكريمة الأمر بتناول الأكل والشرب والنهي عن تركهما وعن الإسراف فيهما.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ

سُورَةُ الأَعْرَافِ — الجُزْءُ الثَّامِنُ

يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا
وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ
الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ
لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا
بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ
سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ
فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾
يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ
اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ
بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ
رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ
قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾

١٥٤

رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿٣٢﴾ يقول تعالى منكرًا على من تعنت وحرم ما أحل الله من الطيبات: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾: من أنواع اللباس على اختلاف أصنافه والطيبات من الرزق من مأكل ومشرب بجميع أنواعه؛ أي: من هذا الذي يقدم على تحريم ما أنعم الله به على العباد؟ ومن ذا الذي يضيق عليهم ما وسعه الله؟ وهذا التوسيع من الله لعباده بالطيبات جعله لهم ليستعينوا به على عبادته فلم يبحه إلا لعباده المؤمنين، ولهذا قال: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؛ أي: لا تبعة عليهم فيها. ومفهوم الآية أن من لم يؤمن بالله، بل استعان بها على معاصيه؛ فإنها غير خالصة له ولا مباحة، بل يعاقب عليها وعلى التنعم بها، ويسأل عن النعيم يوم القيامة. ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾؛ أي: نوضحها ونبينها، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾: لأنهم الذين ينتفعون بما

فصله الله من الآيات، ويعلمون أنها من عند الله، فيعقلونها ويفهمونها.

(٣٣) ثم ذكر المحرمات التي حرمها الله في كل شريعة من الشرائع، فقال: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ ﴾؛ أي: الذنوب الكبار التي تستفحش، وتستقبح لشناعتها وقبحها، وذلك كالزنا واللواط ونحوهما. وقوله: ﴿ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾؛ أي: الفواحش التي تتعلق بحركات البدن والتي تتعلق بحركات القلوب؛ كالكبر والعجب والرياء والنفاق ونحو ذلك، ﴿ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾؛ أي: الذنوب التي تؤثم وتوجب العقوبة في حقوق الله، والبغي على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم. فدخل في هذا الذنوب المتعلقة بحق الله والمتعلقة بحق العباد، ﴿ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾؛ أي: حجة، بل أنزل الحجة والبرهان على التوحيد. والشرك هو أن يُشرَك مع الله في عبادته أحدٌ من الخلق، وربما دخل في هذا الشرك الأصغر؛ كالرياء والحلف بغير الله ونحو ذلك، ﴿ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣) ﴾: في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه؛ فكل هذه قد حرمها الله ونهى العباد عن تعاطيها؛ لما فيها من المفاسد الخاصة والعامة، ولما فيها من الظلم والتجري على الله والاستطالة على عباد الله وتغيير دين الله وشرعه.

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) ﴾.

(٣٤) أي: وقد أخرج الله بني آدم إلى الأرض، وأسكنهم فيها، وجعل لهم أجلًا مسمًّى، لا تتقدم أمة من الأمم على وقتها المسمى ولا تتأخر، لا الأمم المجتمعة ولا أفرادها.

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٣٦) ﴾.

(٣٥) لما أخرج الله بني آدم من الجنة؛ ابتلاهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب عليهم يقصون عليهم آيات الله ويبينون لهم أحكامه. ثم ذكر فضل من استجاب لهم وخسار من لم يستجب لهم، فقال: ﴿ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾: ما حرم الله من الشرك والكبائر والصغائر، ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾: أعماله الظاهرة والباطنة، ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾: من الشر الذي قد يخافه غيرهم، ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) ﴾: على ما مضى. وإذا انتفى الخوف والحزن؛ حصل الأمن التام والسعادة والفلاح الأبدي.

(٣٦) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ ﴾؛ أي: لا آمنت بها قلوبهم ولا انقادت لها جوارحهم، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٣٦) ﴾: كما استهانوا بآياته، ولازموا التكذيب بها؛ أهينوا بالعذاب الدائم الملازم.

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ (٣٧) ﴾.

(٣٧) أي: لا أحد أظلم ﴿ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾: بنسبة الشريك له والنقص له والتقول عليه ما لم يقل، ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ﴾: الواضحة المبينة للحق المبين، الهادية إلى الصراط المستقيم؛ فهؤلاء وإن تمتعوا بالدنيا ونالهم نصيبهم مما كان مكتوبًا لهم في اللوح المحفوظ؛ فليس ذلك بمغنٍ عنهم شيئًا، يتمتعون قليلًا ثم يعذبون طويلًا. ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ ﴾؛ أي: الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم واستيفاء آجالهم، ﴿ قَالُوٓاْ ﴾: لهم في تلك الحالة توبيخًا وعتابًا: ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾: من الأصنام والأوثان؛ فقد جاء وقت الحاجة إن كان فيها منفعة لكم أو دفع مضرة، ﴿ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾؛ أي: اضمحلوا وبطلوا، وليسوا مغنين عنا من عذاب الله من شيء، ﴿ وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ (٣٧) ﴾: مستحقين للعذاب المهين الدائم.

(٣٨)، (٣٩) فقالت لهم الملائكة: ﴿ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ ﴾؛ أي: في جملة أمم ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾؛ أي: مضوا على ما مضيتم عليه من الكفر والاستكبار، فاستحق الجميع الخزي والبوار والخلود في النار[1]. ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ ﴾: من الأمم العاتية النار، ﴿ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا ﴾؛ أي: اجتمع في النار جميع أهلها من الأولين والآخرين والقادة والرؤساء والمقلدين الأتباع، ﴿ قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ ﴾؛ أي: متأخروهم المتبعون للرؤساء، ﴿ لِأُولَىٰهُمْ ﴾: أي: لرؤسائهم شاكين إلى الله إضلالهم إياهم: ﴿ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ

(١) عبارة: «والخلود في النار» ساقطة من ع، ط.

﴿أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: عذبهم عذابًا مضاعفًا لأنهم أضلونا وزينوا لنا الأعمال الخبيثة.

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ﴾؛ أي: الرؤساء قالوا لأتباعهم: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾؛ أي: قد اشتركنا جميعًا في الغي والضلال، وفي فعل أسباب العذاب؛ فأي فضل لكم علينا؟ ﴿قَالَ﴾ الله: ﴿لِكُلٍّ﴾ منكم ﴿ضِعْفٌ﴾: ونصيب من العذاب، ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾: ولكنه من المعلوم أن عذاب الرؤساء وأئمة الضلال أبلغ وأشنع من عذاب الأتباع؛ كما أن نعيم أئمة الهدى ورؤسائه أعظم من ثواب الأتباع؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل: ٨٨]. فهذه الآيات ونحوها دلت على أن سائر أنواع المكذبين بآيات الله مخلدون في العذاب مشتركون فيه وفي أصله، وإن كانوا متفاوتين في مقداره بحسب أعمالهم وعنادهم وظلمهم وافترائهم وأن مودتهم التي كانت بينهم في الدنيا تنقلب يوم القيامة عداوة وملاعنة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿٤٠﴾ يخبر تعالى عن عقاب من كذب بآياته فلم يؤمن بها مع أنها آيات بينات واستكبر عنها فلم ينقد لأحكامها، بل كذب وتولى، أنهم آيسون من كل خير؛ فلا تفتح أبواب السماء لأرواحهم إذا ماتوا، وصعدت تريد العروج إلى الله، فتستأذن، فلا يؤذن لها؛ كما لم تصعد في الدنيا إلى الإيمان بالله ومعرفته ومحبته، كذلك لا تصعد بعد الموت؛ فإن الجزاء من جنس العمل.

ومفهوم الآية أن أرواح المؤمنين المنقادين لأمر الله المصدقين بآياته تفتح لها أبواب السماء حتى تعرج إلى الله، وتصل إلى حيث أراد الله من العالم العلوي، وتبتهج بالقرب من ربها والحظوة برضوانه. وقوله عن أهل النار: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ﴾: وهو البعير المعروف ﴿فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾؛ أي: حتى يدخل البعير الذي هو من أكبر الحيوانات جسمًا في خرق الإبرة الذي هو من أضيق الأشياء. وهذا من باب تعليق الشيء بالمحال؛ أي: فكما

سُورَةُ الأَعْرَافِ — الجُزْءُ الثَّامِنُ

قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

١٥٥

أنه محال دخول الجمل في سم الخياط؛ فكذلك المكذبون بآيات الله محال دخولهم الجنة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]؛ وقال هنا: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾؛ أي: الذين كثر إجرامهم، واشتد طغيانهم.

﴿٤١﴾ ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾؛ أي: فراش من تحتهم، ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾؛ أي: ظلل من العذاب تغشاهم، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾: لأنفسهم جزاء وفاقًا، وما ربك بظلام للعبيد.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿٤٢﴾ لما ذكر تعالى عقاب العاصين الظالمين؛ ذكر ثواب المطيعين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: بقلوبهم، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: بجوارحهم؛ فجمعوا بين الإيمان والعمل، بين الأعمال الظاهرة والأعمال الباطنة، بين فعل الواجبات وترك المحرمات، ولما كان قوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ لفظًا عامًّا يشمل جميع الصالحات الواجبة والمستحبة، وقد يكون بعضها غير مقدور للعبد؛ قال تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾؛ أي: بمقدار ما تسعه طاقتها ولا يعسر على قدرتها؛ فعليها في هذه الحال أن تتقي الله بحسب استطاعتها، وإذا عجزت عن بعض الواجبات التي يقدر عليها غيرها؛ سقطت عنها؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا ءَاتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧]، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]؛ فلا واجب مع العجز، ولا محرم مع الضرورة. ﴿أُولَٰئِكَ﴾؛ أي: المتصفون بالإيمان والعمل الصالح، ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾؛ أي: لا يحولون عنها ولا يبغون بها بدلًا؛ لأنهم يرون فيها من أنواع اللذات وأصناف المشتهيات ما تقف عنده الغايات، ولا يطلب أعلى منه.

﴿٤٣﴾ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾: وهذا من كرمه وإحسانه على أهل الجنة؛ أن الغل الذي كان موجودًا في قلوبهم والتنافس الذي بينهم أن الله يقلعه ويزيله حتى يكونوا إخوانًا متحابين وأخلاء متصافين؛ قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر: ٤٧]، ويخلق الله لهم من الكرامة ما به يحصل لكل واحد منهم الغبطة والسرور، ويرى أنه لا فوق ما هو فيه من النعيم نعيم؛ فبهذا يأمنون من التحاسد والتباغض؛ لأنه قد فقدت أسبابه. وقوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾؛ أي: يفجرونها تفجيرًا حيث شاءوا وأين أرادوا، إن شاءوا في خلال القصور أو في تلك الغرف العاليات أو في رياض الجنات من تحت تلك الحدائق الزاهرات، أنهار تجري في غير أخدود، وخيرات ليس لها حد محدود. ولهذا لما رأوا ما أنعم الله عليهم وأكرمهم به قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا﴾: بأن مَنَّ علينا وأوحى إلى قلوبنا فآمنت به وانقادت للأعمال الموصلة إلى هذه الدار، وحفظ الله علينا إيماننا وأعمالنا حتى أوصلنا بها إلى هذه الدار، فنعم الرب الكريم الذي ابتدأنا بالنعم، وأسدى من النعم الظاهرة والباطنة ما لا يحصيه المحصون ولا يعده العادون. ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾؛ أي: ليس في نفوسنا قابلية للهدى، لولا أنه تعالى منَّ بهدايته واتباع رسله، ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾؛ أي: حين كانوا يتمتعون بالنعيم الذي أخبرت به الرسل وصار حق يقين لهم بعد أن كان علم يقين لهم قالوا: لقد تحققنا ورأينا ما وعدتنا به الرسل وأن جميع ما جاءوا به حق اليقين لامرية فيه ولا إشكال. ﴿وَنُودُوا﴾: تهنئة لهم وإكرامًا وتحية واحترامًا ﴿أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا﴾؛ أي: كنتم الوارثين لها، وصارت إقطاعًا لكم إذ كان إقطاع الكفار النار، أورثتموها ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾: قال بعض السلف: أهل الجنة نجوا من النار بعفو الله، وأدخلوا الجنة برحمة الله، واقتسموا المنازل، وورثوها بالأعمال الصالحة، وهي من رحمته، بل من أعلى أنواع رحمته.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿٤٤﴾، ﴿٤٥﴾ يقول تعالى بعدما ذكر استقرار كل من الفريقين في الدارين ووجدا ما أخبرت به الرسل ونطقت به الكتب من الثواب والعقاب: إن أهل الجنة نادوا أصحاب النار بأن قالوا: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾: حين وعدنا على الإيمان والعمل الصالح الجنة، فأدخلناها وأرانا ما وصفه لنا، ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾: على الكفر والمعاصي ﴿حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾: قد وجدناه حقًّا، فتبين للخلق كلهم بيانًا لا شك فيه صدق وعد الله، ومن أصدق من الله قيلًا، وذهبت عنهم الشكوك والشبه، وصار الأمر حق اليقين، وفرح المؤمنون بوعد الله واغتبطوا، وأيس الكفار من الخير، وأقروا على أنفسهم بأنهم مستحقون للعذاب. ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: بين أهل النار وأهل الجنة بأن قال: ﴿أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ﴾؛ أي: بعده وإقصاؤه عن كل خير ﴿عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾: إذ فتح الله لهم أبواب رحمته، فصدفوا أنفسهم عنها ظلمًا وصدوا عن سبيل الله بأنفسهم وصدوا غيرهم فضلوا وأضلوا. والله تعالى يريد أن تكون مستقيمة ويعتدل سير السالكين إليه، وهؤلاء يريدونها ﴿عِوَجًا﴾: منحرفة صادة عن سواء السبيل. ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾: وهذا الذي أوجب لهم الانحراف عن الصراط والإقبال على شهوات النفوس المحرمة

عدم إيمانهم بالبعث، وعدم خوفهم من العقاب ورجائهم للثواب. ومفهوم هذا[1] أن رحمة الله على المؤمنين، وبره شامل لهم، وإحسانه متواتر عليهم.

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿٤٦﴾ أي: وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار حجاب يقال له: الأعراف، لا من الجنة ولا من النار، يشرف على الدارين، وينظر من عليه حال الفريقين، وعلى هذا الحجاب رجال يعرفون كلًّا من أهل الجنة والنار بسيماهم؛ أي: علاماتهم التي بها يعرفون ويميزون؛ فإذا نظروا إلى أهل الجنة؛ نادوهم: ﴿أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: يحيونهم ويسلمون عليهم، وهم إلى الآن لم يدخلوا الجنة، ولكنهم يطمعون في دخولها، ولم يجعل الله الطمع في قلوبهم إلا لما يريد بهم من كرامته.

﴿٤٧﴾ ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾: ورأوا منظرًا شنيعًا وهولًا فظيعًا، ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾: فأهل الجنة إذا رآهم أهل الأعراف يطمعون أن يكونوا معهم في الجنة ويحيونهم ويسلمون عليهم، وعند انصراف أبصارهم بغير اختيارهم لأهل النار يستجيرون من حالهم هذا على وجه العموم.

﴿٤٨﴾ ثم ذكر الخصوص بعد العموم، فقال: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ﴾: وهم من أهل النار، وقد كانوا في الدنيا لهم أبهة وشرف وأموال وأولاد، فقال لهم أصحاب الأعراف حين رأوهم منفردين في العذاب بلا ناصر ولا مغيث: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾: في الدنيا الذي تستدفعون به المكاره، وتوسلون به إلى مطالبكم في الدنيا؛ فاليوم اضمحل ولم يُغْنِ عنكم شيئًا، وكذلك أي شيء نفعكم استكباركم على الحق وعلى ما جاء به وعلى من اتبعه؟!

[1] ع، ط: «النداء».

الجُزْءُ الثَّامِنُ — سُورَةُ الأَعْرَافِ

وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾

١٥٦

﴿٤٩﴾ ثم أشاروا لهم إلى أناس من أهل الجنة كانوا في الدنيا فقراء ضعفاء يستهزئ بهم أهل النار، فقالوا لأهل النار: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾: الذين أدخلهم الله الجنة، ﴿ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾: احتقارًا لهم وازدراء وإعجابًا بأنفسكم، قد حنثتم في أيمانكم، وبدا لكم من الله ما لم يكن لكم في حساب. ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾: بما كنتم تعملون؛ أي: قيل لهؤلاء الضعفاء إكرامًا واحترامًا: ادخلوا الجنة بأعمالكم الصالحة، ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ﴾: فيما يستقبل من المكاره، ﴿وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾: على ما مضى، بل آمنون مطمئنون فرحون بكل خير. وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾ إلى أن قال: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المطففين: ٢٩-٣٥].

واختلف أهل العلم والمفسرون من هم أصحاب الأعراف وما أعمالهم، والصحيح من ذلك أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم؛ فلا رجحت سيئاتهم فدخلوا النار، ولا رجحت

وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ
ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا
مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ
قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾
إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ
أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا
وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ
وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا
وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ
ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ
ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا
ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ
ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

حسناتهم فدخلوا الجنة، فصاروا في الأعراف ما شاء الله، ثـم إن الله تعالى يدخلهـم برحمته الجنة؛ فإن رحمته تسبق وتغلب غضبه، ورحمته وسعت كل شيء.

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا
مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا
وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟
لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾
وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ
ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا
مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ
خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿٥٠﴾ - ﴿٥٢﴾ أي: ينادي أصحاب النار أصحاب الجنة حين يبلـغ منهـم العذاب كل مبلغ وحين يمسهـم الجـوع المفرط والظمأ الموجع؛ يستغيثون بهم فيقولون: ﴿ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾: مـن الطعام، فأجابهم أهل الجنة بقولهم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا ﴾؛ أي: ماء الجنة وطعامها ﴿ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾: وذلـك جزاء لهم على كفرهم بآيات الله واتخاذهـم دينهـم الـذي أمـروا أن يستقيموا عليـه ووعدوا بالجـزاء الجزيـل عليه ﴿ لَهْوًا وَلَعِبًا ﴾؛ أي: لهـت قلوبهم وأعرضـت عنه ولعبوا واتخذوه سـخريًّا، أو أنهم جعلوا بدل دينهـم اللهـو واللعب، واستعاضوا بذلك عن الديـن القيم، ﴿ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾: بزينتهـا وزخرفها وكثرة دعاتها، فاطمأنـوا إليهـا ورضـوا بها وفرحـوا وأعرضوا عـن الآخرة ونسـوها. ﴿ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ ﴾؛ أي: نتركهـم فـي العـذاب، ﴿ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا ﴾: فكأنهـم لـم يخلقوا إلا للدنيا، وليس أمامهم عرض ولا جزاء، ﴿ وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾: والحـال أن جحودهم هـذا لا عن قصور في آيات الله وبيناتـه، بل قد ﴿ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ ﴾؛ أي: بينـا فيه جميع المطالب التي يحتاج إليها الخلق ﴿ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾؛ من اللـه بأحوال العباد في كل زمان ومكان، وما يصلح لهم وما لا يصلح ليس تفصيله تفصيل غير عالم بالأمور، فتجهله بعـض الأحوال فيحكم حكمًا غير مناسـب، بـل تفصيل من أحاط علمه بكل شـيء ووسـعت رحمته كل شيء. ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾؛ أي: تحصـل للمؤمنيـن بهـذا الكتـاب الهدايـة مـن الضـلال وبيان الحـق والباطـل والغي والرشد، ويحصل أيضًا لهم به الرحمة، وهي الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، فينتفي عنهم بذلك الضلال والشقاء.

﴿٥٣﴾ وهـؤلاء الذيـن حق عليهم العـذاب لم يؤمنـوا بهذا الكتـاب العظيم ولا انقـادوا لأوامره ونواهيـه، فلم يبق فيهم حيلـة إلا اسـتحقاقهم أن يحل بهم ما أخبر بـه القرآن، ولهذا قـال: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ﴾؛ أي: وقـوع مـا أخبر به؛ كما قال يوسـف عليه السـلام حيـن وقعت رؤيـاه: ﴿ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ ﴾ [يوسف: ١٠٠]. ﴿ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ ﴾: متندمين متأسفين على ما مضى متشفعين في مغفرة ذنوبهم مقرين بما أخبرت به الرسل: ﴿ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ ﴾: إلى الدنيا؛ ﴿ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾: وقـد فات الوقت عن الرجوع إلى الدنيا؛ فما تنفعهم شـفاعة الشـافعين. وسؤالهم الرجوع إلـى الدنيا ليعملـوا غير عملهم كـذب منهم، مقصودهم به دفـع مـا حـل بهـم؛ قـال تعالـى: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ

وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنعام: ٢٨]. ﴿قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾: حين فوتوها الأرباح وسلكوا بها سبيل الهلاك، وليس ذلك كخسران الأموال والأثاث أو الأولاد، إنما هذا خسران لا جبران لمصابه. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾: في الدنيا مما تمنيهم أنفسهم به، ويعدهم به الشيطان، قدموا على ما لم يكن لهم في حساب، وتبين لهم باطلهم وضلالهم، وصدق ما جاءتهم به الرسل.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿٥٤﴾ يقول تعالى مبينًا أنه الرب المعبود وحده لا شريك له: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: وما فيهما على عظمهما وسعتهما وإحكامهما وإتقانهما وبديع خلقهما ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة. فلما قضاهما وأودع فيهما من أمره ما أودع؛ ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾: تبارك وتعالى ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: العظيم الذي يسع السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما؛ استوى استواء يليق بجلاله وعظمته وسلطانه، فاستوى على العرش، واحتوى على الملك، ودبر الممالك، وأجرى عليهم أحكامه الكونية وأحكامه الدينية، ولهذا قال: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ﴾: المظلم ﴿ٱلنَّهَارَ﴾؛ المضيء، فيظلم ما على وجه الأرض، ويسكن الآدميون، وتأوي المخلوقات إلى مساكنها، ويستريحون من التعب والذهاب والإياب الذي حصل لهم في النهار. ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾: كلما جاء الليل؛ ذهب النهار، وكلما جاء النهار؛ ذهب الليل، وهكذا أبدًا على الدوام حتى يطوي الله هذا العالم، وينتقل العباد إلى دار غير هذه الدار.

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾؛ أي: بتسخيره وتدبيره الدال على ما له من أوصاف الكمال، فخلقها وعظمها دال على كمال قدرته، وما فيها من الإحكام والانتظام والإتقان دال على كمال حكمته، وما فيها من المنافع والمصالح الضرورية وما دونها دال على سعة رحمته، وذلك دال على سعة علمه، وأنه الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له. ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾؛ أي: له الخلق الذي صدرت عنه جميع المخلوقات علويها وسفليها، أعيانها وأوصافها وأفعالها، والأمر المتضمن للشرائع والنبوات؛ فالخلق يتضمن أحكامه الكونية القدرية، والأمر يتضمن أحكامه الدينية الشرعية، وثم أحكام الجزاء، وذلك يكون في دار البقاء. ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: عظم وتعالى وكثر خيره وإحسانه، فتبارك في نفسه لعظمة أوصافه وكمالها، وبارك في غيره بإحلال الخير الجزيل والبر الكثير؛ فكل بركة في الكون فمن آثار رحمته، ولهذا قال: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

ولما ذكر من عظمته وجلاله ما يدل ذوي الألباب على أنه وحده المعبود المقصود في الحوائج كلها؛ أمر بما يترتب على ذلك، فقال:

﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿٥٥﴾ الدعاء يدخل فيه دعاء المسألة ودعاء العبادة، فأمر بدعائه ﴿تَضَرُّعًا﴾؛ أي: إلحاحًا في المسألة ودءوبًا في العبادة، ﴿وَخُفْيَةً﴾؛ أي: لا جهرًا وعلانية يخاف منه الرياء، بل خفية وإخلاصًا لله تعالى. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾؛ أي: المتجاوزين للحد في كل الأمور، ومن الاعتداء كون العبد يسأل الله مسائل لا تصلح له، أو يتنطع في السؤال، أو يبالغ في رفع صوته بالدعاء؛ فكل هذا داخل في الاعتداء المنهي عنه.

﴿٥٦﴾ ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: بعمل المعاصي ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾: بالطاعات؛ فإن المعاصي تفسد الأخلاق والأعمال والأرزاق؛ كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]: كما أن الطاعات تصلح بها الأخلاق والأعمال والأرزاق وأحوال الدنيا والآخرة. ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾؛ أي: خوفًا من عقابه، وطمعًا في ثوابه؛ طمعًا في قبولها وخوفًا من ردها، لا دعاء عبد مدل على ربه، قد أعجبته نفسه، ونزل نفسه فوق منزلته، أو دعاء من هو غافل لاه.

وحاصل ما ذكر الله من آداب الدعاء: الإخلاص فيه لله وحده؛ لأن ذلك يتضمنه الخفية، وإخفاؤه وإسراره، وأن يكون القلب خائفًا طامعًا لا غافلًا، ولا آمنًا ولا غير مبال بالإجابة، وهذا من إحسان الدعاء؛ فإن الإحسان في كل عبادة

وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ
إِلَّا نَكِدٗاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ ٥٨
لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم
مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥٩
قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٦٠ قَالَ
يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ
٦١ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ
مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٢ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ
رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٦٣ فَكَذَّبُوهُ
فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ
بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ ٦٤ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ
هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ
٦٥ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي
سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦٦ قَالَ يَٰقَوۡمِ
لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٧

بذل الجهد فيها وأداؤها كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه. ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾: في عبادة الله، المحسنين إلى عباد الله، فكلما كان العبد أكثر إحسانًا؛ كان أقرب إلى رحمة ربه، وكان ربه قريبًا منه برحمته. وفي هذا من الحث على الإحسان ما لا يخفى.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٥٧ وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ ٥٨﴾.

(٥٧) يبين تعالى أثرًا من آثار قدرته ونفحة من نفحات رحمته، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾؛ أي: الرياح المبشرات بالغيث، التي تثيره بإذن الله من الأرض، فيستبشر الخلق برحمة الله، وترتاح لها قلوبهم قبل نزوله. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ﴾: الرياح ﴿سَحَابٗا ثِقَالٗا﴾: قد أثاره بعضها، وألفه ريح أخرى وألقحه ريح أخرى، ﴿سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾: قد كادت تهلك حيواناته وكاد أهله أن ييأسوا من رحمة الله. ﴿فَأَنزَلۡنَا بِهِ﴾؛ أي: بذلك البلد الميت ﴿ٱلۡمَآءَ﴾: الغزير من ذلك السحاب، وسخر الله له ريحًا[1] تدره وريحًا تفرقه بإذن الله. ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: فأصبحوا مستبشرين برحمة الله، راتعين بخير الله. وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٥٧﴾؛ أي: كما أحيينا الأرض بعد موتها بالنبات كذلك نخرج الموتى من قبورهم بعدما كانوا رفاتًا متمزقين. وهذا استدلال واضح؛ فإنه لا فرق بين الأمرين؛ فمنكر البعث استبعادًا له - مع أنه يرى ما هو نظيره - من باب العناد وإنكار المحسوسات. وفي هذا الحث على التذكر والتفكر في آلاء الله والنظر إليها بعين الاعتبار والاستدلال لا بعين الغفلة والإهمال.

(٥٨) ثم ذكر تفاوت الأراضي التي ينزل عليها المطر، فقال: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾؛ أي: طيب التربة والمادة، إذا نزل عليه المطر؛ ﴿يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ﴾: الذي هو مستعد له ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِۦ﴾؛ أي: بإرادة الله ومشيئته، فليست الأسباب مستقلة بوجود الأشياء حتى يأذن الله بذلك. ﴿وَٱلَّذِي خَبُثَ﴾: من الأراضي ﴿لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗا﴾؛ أي: إلا نباتًا خاسًّا لا نفع فيه ولا بركة. ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ ٥٨﴾؛ أي: ننوعها، ونبينها، ونضرب فيها الأمثال، ونسوقها لقوم يشكرون الله بالاعتراف بنعمه والإقرار بها وصرفها في مرضاة الله؛ فهم الذين ينتفعون بما فصل الله في كتابه من الأحكام والمطالب الإلهية؛ لأنهم يرونها من أكبر النعم الواصلة إليهم من ربهم، فيتلقونها مفتقرين إليها فرحين بها، فيتدبرونها ويتأملونها، فيبين لهم من معانيها بحسب استعدادهم، وهذا مثال للقلوب حين ينزل عليها الوحي الذي هو مادة الحياة كما أن الغيث مادة الحياة؛ فإن القلوب الطيبة حين يجيئها الوحي تقبله وتعلمه وتنبت بحسب طيب أصلها وحسن عنصرها.

وأما القلوب الخبيثة التي لا خير فيها؛ فإذا جاءها الوحي؛ لم يجد محلًّا قابلًا، بل يجدها غافلة معرضة أو معارضة، فيكون كالمطر الذي يمر على السباخ والرمال والصخور فلا يؤثر فيها شيئًا، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗا﴾ الآيات [الرعد: ١٧].

(١) ساقطة من ع.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

لما ذكر تعالى من أدلة توحيده جملة صالحة؛ أيد ذلك بذكر ما جرى للأنبياء الداعين إلى توحيده مع أممهم المنكرين لذلك، وكيف أيد الله أهل التوحيد وأهلك من عاندهم ولم ينقد لهم، وكيف اتفقت دعوة المرسلين على دين واحد ومعتقد واحد.

﴿٥٩﴾ فقال عن نوح أول المرسلين: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾: يدعوهم إلى عبادة الله وحده حين كانوا يعبدون الأوثان، ﴿فَقَالَ﴾: لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: وحدوه، ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾: لأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور، وما سواه مخلوق مدبر ليس له من الأمر شيء. ثم خوفهم - إن لم يطيعوه - عذاب الله، فقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾: وهذا من نصحه عليه الصلاة والسلام وشفقته عليهم؛ حيث خاف عليهم العذاب الأبدي والشقاء السرمدي؛ كإخوانه من المرسلين، الذين يشفقون على الخلق أعظم من شفقة آبائهم وأمهاتهم. فلما قال لهم هذه المقالة؛ ردوا عليه أقبح رد.

﴿٦٠﴾ ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾؛ أي: الرؤساء الأغنياء المتبوعون، الذين قد جرت العادة باستكبارهم على الحق وعدم انقيادهم للرسل: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾: فلم يكفهم - قبحهم الله - أنهم لم ينقادوا له، بل استكبروا عن الانقياد له، وقدحوا فيه أعظم قدح، ونسبوه إلى الضلال، ولم يكتفوا بمجرد الضلال، حتى جعلوه ضلالًا مبينًا واضحًا لكل أحد!! وهذا من أعظم أنواع المكابرة، التي لا تروج على أضعف الناس عقلًا، وإنما هذا الوصف منطبق على قوم نوح، الذين جاءوا إلى أصنام قد صوروها ونحتوها بأيديهم من الجمادات التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عنهم شيئًا، فنزلوها منزلة فاطر السماوات، وصرفوا لها ما أمكنهم من أنواع القربات، فلولا أن لهم أذهانًا تقوم بها حجة الله عليهم؛ لحكم عليهم بأن المجانين أهدى منهم، بل هم أهدى منهم وأعقل.

﴿٦١﴾، ﴿٦٢﴾ فرد نوح عليهم ردًا لطيفًا وترقق لهم لعلهم ينقادون له، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾؛ أي: لست ضالًا في مسألة من المسائل من جميع الوجوه، وإنما أنا هاد مهتد، بل هدايته عليه الصلاة والسلام من جنس هداية إخوانه أولي العزم من المرسلين، أعلى أنواع الهدايات وأكملها وأتمها، وهي هداية الرسالة التامة الكاملة، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾﴾؛ أي: ربي وربكم ورب جميع الخلق، الذي ربى جميع الخلق[1] بأنواع التربية، الذي من أعظم تربيته أن أرسل إلى عباده رسلًا تأمرهم بالأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة والعقائد الحسنة، وتنهاهم عن أضدادها، ولهذا قال: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾؛ أي: وظيفتي تبليغكم ببيان توحيده وأوامره ونواهيه على وجه النصيحة لكم والشفقة عليكم، ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾: فالذي يتعين أن تطيعوني وتنقادوا لأمري إن كنتم تعلمون.

﴿٦٣﴾ ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾؛ أي: كيف تعجبون من حالة لا ينبغي العجب منها، وهو أن جاءكم التذكير والموعظة والنصيحة على يد رجل منكم، تعرفون حقيقته وصدقه وحاله؛ فهذه الحال من عناية الله بكم وبره وإحسانه الذي يتلقى بالقبول والشكر. وقوله: ﴿لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾؛ أي: لينذركم العذاب الأليم، وتفعلوا الأسباب المنجية من استعمال تقوى الله ظاهرًا وباطنًا، وبذلك تحصل عليهم، وتنزل رحمة الله الواسعة.

﴿٦٤﴾ فلم يفد فيهم ولا نجح، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ﴾؛ أي: السفينة التي أمر الله نوحًا عليه السلام بصنعها، وأوحى إليه أن يحمل من كل صنف من الحيوانات زوجين اثنين وأهله ومن آمن معه، فحملهم فيها، ونجاهم الله بها. ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾: عن الهدى، أبصروا الحق، وأراهم الله على يد نوح من الآيات البينات ما به يؤمن أولو الألباب، فسخروا منه، واستهزءوا به، وكفروا.

---

(١) ع: «العالمين».

أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ٦٨ أَوَعَجِبْتُمْ
أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ
وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ
فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ
٦٩ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ
يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ
٧٠ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ
أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم
مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ
ٱلْمُنتَظِرِينَ ٧١ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا
وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ
٧٢ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ
مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن
رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ
فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٣

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ
إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٦٥ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ
إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ٦٦
قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ٦٧ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ٦٨
أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ
وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي
ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٦٩
قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ
ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧٠ قَالَ
قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي
فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا
مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ٧١
فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ
بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ٧٢﴾

(٦٥) أي: وأرسلنا إلى ﴿عَادٍ﴾: - الأولى، الذين كانوا في أرض اليمن - ﴿أَخَاهُمْ﴾: في النسب ﴿هُودًا﴾: عليه السلام، يدعوهم إلى التوحيد، وينهاهم عن الشرك، والطغيان في الأرض، ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٦٥﴾: سخطه وعذابه إن أقمتم على ما أنتم عليه. فلم يستجيبوا ولا انقادوا.

(٦٦) ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾: رادين لدعوته قادحين في رأيه: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ٦٦﴾؛ أي: ما نراك إلا سفيهًا غير رشيد، ويغلب على ظننا أنك من جملة الكاذبين. وقد انقلبت عليهم الحقيقة واستحكم عماهم حيث رموا نبيهم عليه السلام بما هم متصفون به، وهو أبعد الناس عنه؛ فإنهم السفهاء حقًّا الكاذبون، وأي سفه أعظم ممن قابل أحق الحق بالرد والإنكار، وتكبر عن الانقياد للمرشدين والنصحاء، وانقاد قلبه وقالبه لكل شيطان مريد، ووضع العبادة في غير موضعها، فعبد من لا يغني عنه شيئًا من الأشجار والأحجار؟! وأي كذب أبلغ من كذب من نسب هذه الأمور إلى الله تعالى؟!

(٦٧) ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾: بوجه من الوجوه، بل هو الرسول المرشد الرشيد، ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٦٧﴾.

(٦٨) ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ٦٨﴾: فالواجب عليكم أن تتلقوا ذلك بالقبول والانقياد وطاعة رب العباد.

(٦٩) ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾؛ أي: كيف تعجبون من أمر لا يتعجب منه، وهو أن الله أرسل إليكم رجلًا منكم، تعرفون أمره، يذكركم بما فيه مصالحكم، ويحثكم على ما فيه النفع لكم، فتعجبتم من ذلك تعجب المنكرين. ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾؛ أي: واحمدوا ربكم، واشكروه إذ مكن لكم في الأرض، وجعلكم تخلفون الأمم الهالكة الذين كذبوا الرسل، فأهلكهم الله، وأبقاكم لينظر كيف تعملون، واحذروا أن تقيموا على التكذيب كما أقاموا، فيصيبكم ما أصابهم، واذكروا نعمة الله عليكم التي خصكم بها، وهي أن زادكم ﴿فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾: في القوة وكبر الأجسام وشدة البطش، ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: نعمه الواسعة

وأياديه المتكررة، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: إذا ذكرتموها بشكرها وأداء حقها، ﴿تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾؛ أي: تفوزون بالمطلوب، وتنجون من المرهوب.

﴿٧٠﴾ فوعظهم وذكرهم وأمرهم بالتوحيد وذكر لهم وصف نفسه وأنه ناصح أمين، وحذرهم أن يأخذهم الله كما أخذ من قبلهم، وذكرهم نعم الله عليهم وإدرار الأرزاق إليهم، فلم ينقادوا ولا استجابوا، ﴿قَالُوٓاْ﴾ متعجبين من دعوته ومخبرين له أنهم من المحال أن يطيعوه: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾: قبحهم الله، جعلوا الأمر الذي هو أوجب الواجبات وأكمل الأمور من الأمور التي يعارضون بها ما وجدوا عليه آباءهم، فقدموا ما عليه الآباء الضالون من الشرك وعبادة الأصنام على ما دعت إليه الرسل من توحيد الله وحده لا شريك له وكذبوا نبيهم وقالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾: وهذا الاستفتاح منهم على أنفسهم.

﴿٧١﴾ ﴿قَالَ﴾ لهم هود عليه السلام: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾؛ أي: لا بد من وقوعه؛ فإنه قد انعقدت أسبابه وحان وقت الهلاك. ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾؛ أي: كيف تجادلون على أمور لا حقائق لها وعلى أصنام سميتموها آلهة وهي لا شيء من الإلهية فيها ولا مثقال ذرة و﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾؛ فإنها لو كانت صحيحة؛ لأنزل الله بها سلطانًا، فعدم إنزاله له دليل على بطلانها؛ فإنه ما من مطلوب ومقصود - وخصوصًا الأمور الكبار - إلا وقد بين الله فيها من الحجج ما يدل عليها ومن السلطان ما لا تخفى معه، ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾: ما يقع بكم من العقاب الذي وعدتكم به. ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾: وفرق بين الانتظارين؛ انتظار من يخشى وقوع العقاب، ومن يرجو من الله النصر والثواب.

﴿٧٢﴾ ولهذا فتح الله بين الفريقين فقال: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾؛ أي: هودًا، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ آمنوا ﴿مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾: فإنه الذي هداهم للإيمان، وجعل إيمانهم سببًا ينالون به رحمته، فأنجاهم برحمته، ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ أي: استأصلناهم بالعذاب الشديد الذي لم يبق منهم أحدًا، وسلط الله عليهم ﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات: ٤١، ٤٢]، فأهلكوا فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم فانظر كيف كان عاقبة المنذرين، الذين أقيمت عليهم الحجج فلم ينقادوا لها، وأمروا بالإيمان فلم يؤمنوا، فكان عاقبتهم الهلاك والخزي والفضيحة، ﴿وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ [هود: ٦٠]. وقال هنا: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾: بوجه من الوجوه، بل وصفهم التكذيب والعناد، ونعتهم الكبر والفساد.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿٧٣﴾ أي: وأرسلنا إلى ﴿ثَمُودَ﴾: القبيلة المعروفة الذين كانوا يسكنون الحِجْر وما حوله من أرض الحجاز وجزيرة العرب، أرسل الله إليهم ﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾: نبيًا يدعوهم إلى الإيمان والتوحيد وينهاهم عن الشرك والتنديد، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾: دعوته عليه الصلاة والسلام من جنس دعوة إخوانه من المرسلين: الأمر بعبادة الله وبيان أنه ليس للعباد إله غير الله. ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: خارق من خوارق العادات التي لا تكون إلا آية سماوية لا يقدر الناس عليها، ثم فسرها بقوله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾؛ أي: هذه ناقة شريفة فاضلة لإضافتها إلى الله تعالى إضافة تشريف، لكم فيها آية عظيمة، وقد ذكر وجه الآية في قوله: ﴿لَّهَا شِرْبٌ

وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ
فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ
ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن
قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ
أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ
مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ
ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ
أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ
جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ
رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ
﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم
بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ
شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾

وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الشعراء: ١٥٥]، وكان عندهم بئر كبيرة، وهي المعروفة ببئر الناقة، يتناوبونها هم والناقة، للناقة يوم تشربها ويشربون اللبن من ضرعها، ولهم يوم يردونها وتصدر الناقة عنهم. وقال لهم نبيهم صالح عليه السلام: ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ﴾: فلا عليكم من مئونتها شيء، ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ ﴾؛ أي: بعقر أو غيره، ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾.

﴿٧٤﴾ ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ ﴾: في الأرض تتمتعون بها وتدركون مطالبكم، ﴿ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ ﴾: الذين أهلكهم الله وجعلكم خلفاء من بعدهم، ﴿ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي: مكن لكم فيها وسهل لكم الأسباب الموصلة إلى ما تريدون وتبتغون، ﴿ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا ﴾؛ أي: من الأراضي السهلة التي ليست بجبال[1]، ﴿ وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ﴾ كما هو مشاهد إلى الآن من آثارهم[2] التي في الجبال من المساكن والحجر ونحوها، وهي باقية ما بقيت الجبال. ﴿ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: نعمه وما خولكم من الفضل والرزق والقوة، ﴿ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾؛ أي: لا تخربوا في الأرض بالفساد والمعاصي؛ فإن المعاصي تدع الديار العامرة بلاقع، وقد أخلت ديارهم منهم، وأبقت مساكنهم موحشة بعدهم.

﴿٧٥﴾ ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ ﴾؛ أي: الرؤساء والأشراف الذين تكبروا عن الحق، ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ ﴾: ولما كان المستضعفون ليسوا كلهم مؤمنين؛ قالوا: ﴿ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾؛ أي: أهو صادق أم كاذب؟ فقال المستضعفون: إنا بالذي ﴿ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ من توحيد الله والخبر عنه وأمره ونهيه.

﴿٧٦﴾ ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾: حملهم الكبْر على ألا ينقادوا للحق الذي انقاد له الضعفاء.

﴿٧٧﴾ ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ ﴾: التي توعدهم إن مسوها بسوء أن يصيبهم عذاب أليم. ﴿ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾؛ أي: قسوا عنه واستكبروا عن أمره الذي من عتا عنه أذاقه العذاب الشديد، لا جرم أحل الله بهم من النكال ما لم يحل بغيرهم. ﴿ وَقَالُواْ ﴾: مع هذه الأفعال متجرئين على الله معجِّزين له غير مبالين بما فعلوا بل مفتخرين بها: ﴿ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾: من العذاب، فقال: ﴿ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ ﴾ [هود: ٦٥].

﴿٧٨﴾ ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾: على ركبهم قد أبادهم الله وقطع دابرهم.

﴿٧٩﴾ ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾: صالح عليه السلام حين أحل الله بهم العذاب، ﴿ وَقَالَ ﴾: مخاطبًا لهم توبيخًا وعتابًا بعدما أهلكهم الله: ﴿ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾؛ أي: جميع ما أرسلني الله به إليكم قد أبلغتكم به وحرصت على هدايتكم واجتهدت في سلوككم الصراط المستقيم والدين القويم، ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾: بل رددتم قول النصحاء، وأطعتم كل شيطان رجيم.

(١) زاد في ع، ط: «تتخذون فيها القصور العالية والأبنية الحصينة».

(٢) ع، ط: «أعمالهم».

واعلم أن كثيرًا من المفسرين يذكرون في هذه القصة أن الناقة خرجت من صخرة صماء ملساء اقترحوها على صالح، وأنها تمخضت تمخض الحامل، فخرجت الناقة وهم ينظرون، وأن لها فصيلًا حين عقروها رغى ثلاث رغيات وانفلق له الجبل ودخل فيه، وأن صالحًا عليه السلام قال لهم: آية نزول العذاب بكم أن تصبحوا في اليوم الأول من الأيام الثلاثة ووجوهكم مصفرة، واليوم الثاني محمرة، والثالث مسودة، فكان كما قال.

وهذا من الإسرائيليات التي لا ينبغي نقلها في تفسير كتاب الله، وليس في القرآن ما يدل على شيء منها بوجه من الوجوه، بل لو كانت صحيحة لذكرها الله تعالى؛ لأن فيها من العجائب والعبر والآيات ما لا يهمله تعالى ويدع ذكره حتى يأتي من طريق من لا يوثق بنقله، بل القرآن يكذب بعض هذه المذكورات؛ فإن صالحًا قال لهم: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥]؛ أي: تنعموا وتلذذوا بهذا الوقت القصير جدًّا؛ فإنه ليس لكم من المتاع واللذة سوى هذا، وأي لذة وتمتع لمن وعدهم نبيهم وقوع العذاب وذكر لهم وقوع مقدماته فوقعت يومًا فيومًا على وجه يعمهم ويشملهم؛ لأن احمرار وجوههم واصفرارها واسودادها من العذاب؟! هل هذا إلا مناقض للقرآن ومضاد له؟! فالقرآن فيه الكفاية والهداية عمَّا سواه. نعم؛ لو صح شيء عن رسول الله ﷺ مما لا يناقض كتاب الله؛ فعلى الرأس والعين، وهو مما أمر القرآن باتباعه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧]. وقد تقدم أنه لا يجوز تفسير كتاب الله بالأخبار الإسرائيلية، ولو على تجويز الرواية عنهم بالأمور التي لا يجزم بكذبها؛ فإن معاني كتاب الله يقينية، وتلك أمور لا تصدق ولا تكذب؛ فلا يمكن اتفاقهما.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿٨٠﴾ أي: واذكر عبدنا لوطًا عليه الصلاة والسلام؛ إذ أرسلناه إلى قومه؛ يأمرهم بعبادة الله وحده، وينهاهم عن الفاحشة التي ما سبقهم بها أحد من العالمين؛ فقال: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾؛ أي: الخصلة التي بلغت في العظم والشناعة إلى أن استغرقت أنواع الفحش، ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾: فكونها فاحشة من أشنع الأشياء، وكونهم ابتدعوها، وابتكروها، وسنوها لمن بعدهم من أشنع ما يكون أيضًا.

﴿٨١﴾ ثم بينها بقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾؛ أي: كيف تذرون النساء التي خلقهن الله لكم، وفيهن المستمتع الموافق للشهوة والفطرة، وتقبلون على أدبار الرجال، التي هي غاية ما يكون في الشناعة والخبث؛ محل تخرج منه الأنتان والأخباث التي يستحيا من ذكرها فضلًا عن ملامستها وقربها. ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾؛ أي: متجاوزون لما حده الله، متجرئون على محارمه.

﴿٨٢﴾ ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾؛ أي: يتنزهون عن فعل الفاحشة، ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج: ٨].

﴿٨٣﴾ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾؛ أي: الباقين المعذبين؛ أمره الله أن يسري بأهله ليلًا؛ فإن العذاب مُصَبِّحٌ قومه، فسرى بهم إلا امرأته أصابها ما أصابهم.

﴿٨٤﴾ ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾؛ أي: حجارة حارة شديدة من سجيل، وجعل الله عاليها سافلها، ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾: الهلاك والخزي الدائم.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن
قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ
إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم
مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾
وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ
مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن
رَّبِّكُمْۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ
ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ
إِصْلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ
﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ
عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ
وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ وَٱنظُرُواْ
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ
مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ
فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾

وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن
كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ
وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ
خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ
لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ
فِى مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا
إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن
نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًاۚ عَلَى
ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ
ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ
شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ
فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ
فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ
عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ
لَكُمْۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

(٨٥) أي: وأرسلنا إلى مدين القبيلة المعروفة بمدين ﴿أَخَاهُمْ﴾: في النسب، ﴿شُعَيْبًا﴾: يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويأمرهم بإيفاء المكيال والميزان، وألا يبخسوا الناس أشياءهم، وألا يعثوا في الأرض مفسدين بالإكثار من عمل المعاصي، ولهذا قال: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾: فإن ترك المعاصي امتثالًا لأمر الله وتقربًا إليه خير وأنفع للعبد من ارتكابها الموجب لسخط الجبار وعذاب النار.

(٨٦) ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ﴾: للناس ﴿بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾؛ أي: طريق من الطرق التي يكثر سلوكها؛ تحذرون الناس منها، و﴿تُوعِدُونَ﴾: من سلكها، ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: من أراد الاهتداء به، ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾؛ أي: تبغون سبيل الله تكون معوجة، وتميلونها اتباعًا لأهوائكم، وقد كان الواجب عليكم وعلى غيركم الاحترام والتعظيم للسبيل التي نصبها الله لعباده، ليسلكوها إلى مرضاته ودار كرامته ورحمهم بها أعظم رحمة، وتصدون لنصرتها والدعوة إليها والذب عنها، لا أن تكونوا أنتم قطاع طريقها الصادين الناس عنها؛ فإن هذا كفر لنعمة الله، ومحادة لله، وجعل أقوم الطرق وأعدلها مائلة، وتشنعون على من سلكها، ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ﴾: نعمة الله عليكم ﴿إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾؛ أي: نماكم بما أنعم عليكم من الزوجات والنسل والصحة، وأنه ما ابتلاكم بوباء أو أمراض من الأمراض المقللة لكم، ولا سلط عليكم عدوا يجتاحكم، ولا فرقكم في الأرض، بل أنعم عليكم باجتماعكم وإدرار الأرزاق وكثرة النسل. ﴿وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾: فإنكم لا تجدون في جموعهم إلا الشتات، ولا في ربوعهم إلا الوحشة والانبتات، ولم يورثوا ذكرًا حسنًا، بل أتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة أشد خزيًا وفضيحة.

(٨٧) ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ﴾: وهم الجمهور منهم، ﴿فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾: فينصر المحق، ويوقع العقوبة على المبطل.

(٨٨) ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾: وهم الأشراف والكبراء منهم، الذين اتبعوا أهواءهم ولهوا بلذاتهم، فلما أتاهم الحق ورأوه غير موافق لأهوائهم

الرديئة؛ ردوه، واستكبروا عنه، فقالوا لنبيهم شعيب ومن معه من المؤمنين المستضعفين: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾: استعملوا قوتهم السبعية في مقابلة الحق، ولم يراعوا دينًا ولا ذمة ولا حقًّا، وإنما راعوا واتبعوا أهواءهم وعقولهم السفيهة، التي دلتهم على هذا القول الفاسد، فقالوا: إما أن ترجع أنت ومن معك إلى ديننا أو لنخرجنكم من قريتنا؛ فشعيب عليه الصلاة والسلام كان يدعوهم طامعًا في إيمانهم، والآن لم يسلم من شرهم حتى توعدوه إن لم يتابعهم بالجلاء عن وطنه الذي هو ومن معه أحق به منهم. ﴿قَالَ﴾ لهم شعيب عليه الصلاة والسلام متعجبًا من قولهم: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾؛ أي: أنتابعكم على دينكم وملتكم الباطلة ولو كنا كارهين لها لعلمنا ببطلانها؛ فإنما يدعى إليها من له نوع رغبة فيها، أما من يعلن بالنهي عنها والتشنيع على من اتبعها؛ فكيف يدعى إليها؟!

﴿٨٩﴾ ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾؛ أي: اشهدوا علينا أننا إن عدنا إليها بعدما نجانا الله منها وأنقذنا من شرها أننا كاذبون مفترون على الله الكذب؛ فإننا نعلم أنه لا أعظم افتراء ممن جعل لله شريكًا وهو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا ولا شريكًا في الملك. ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا﴾؛ أي: يمتنع على مثلنا أن نعود فيها؛ فإن هذا من المحال، فآيسهم عليه الصلاة والسلام من كونه يوافقهم من وجوه متعددة.

من جهة أنهم كارهون لها مبغضون لما هم عليه من الشرك.

ومن جهة أنه جعل ما هم عليه كذبًا وأشهدهم أنه إن اتبعهم ومن معه فإنهم كاذبون.

ومنها اعترافهم بمنة الله عليهم إذ أنقذهم الله منها.

ومنها أن عودتهم فيها بعدما هداهم الله من المحالات بالنظر إلى حالتهم الراهنة وما في قلوبهم من تعظيم الله تعالى والاعتراف له بالعبودية وأنه الإله وحده الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، وأن آلهة المشركين أبطل الباطل وأمحل المحال، وحيث إن الله من عليهم بعقول يعرفون بها الحق والباطل والهدى والضلال، وأما من حيث

الجزء التاسع — سورة الأعراف

۞ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

١٦٢

النظر إلى مشيئة الله وإرادته النافذة في خلقه التي لا خروج لأحد عنها ولو تواترت الأسباب وتوافقت القوى؛ فإنهم لا يحكمون على أنفسهم أنهم سيفعلون شيئًا أو يتركونه، ولهذا استثنى: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾؛ أي: فلا يمكننا ولا غيرنا الخروج عن مشيئته التابعة لعلمه وحكمته، وقد ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾: فيعلم ما يصلح للعباد، وما يدبرهم عليه.

﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾؛ أي: اعتمدنا أنه سيثبتنا على الصراط المستقيم، وأن يعصمنا من جميع طرق الجحيم؛ فإن من توكل على الله كفاه ويسر له أمر دينه ودنياه. ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾؛ أي: انصر المظلوم وصاحب الحق على الظالم المعاند للحق، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾: وفتحه تعالى لعباده نوعان: فتح العلم بتبيين الحق من الباطل والهدى من الضلال ومن هو المستقيم على الصراط ممن هو منحرف عنه. والنوع الثاني: فتحه بالجزاء وإيقاع العقوبة على الظالمين، والنجاة والإكرام للصالحين. فسألوا الله أن

يفتح بينهم وبين قومهم بالحق والعدل، وأن يريهم من آياته وعبره ما يكون فاصلًا بين الفريقين.

(٩٠) ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ ﴾: محذرين عن اتباع شعيب: ﴿ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ (٩٠) ﴾: هذا ما سولت لهم أنفسهم؛ أن الخسارة والشقاء في اتباع الرشد والهدى، ولم يدروا أن الخسارة كل الخسارة في لزوم ما هم عليه من الضلال والإضلال، وقد علموا ذلك حين وقع بهم النكال.

(٩١) ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾؛ أي: الزلزلة الشديدة، ﴿ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ (٩١) ﴾؛ أي: صرعى ميتين هامدين.

(٩٢) قال تعالى ناعيًا حالهم: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ﴾؛ أي: كأنهم ما أقاموا في ديارهم، وكأنهم ما تمتعوا في عرصاتها[1]، ولا تفيئوا في ظلالها، ولا غنوا في مسارح أنهارها، ولا أكلوا من ثمار أشجارها، فأخذهم[2] العذاب فنقلهم من مورد اللهو واللعب واللذات إلى مستقر الحزن والشقاء والعقاب والدركات، ولهذا قال: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ (٩٢) ﴾؛ أي: الخسار محصور فيهم؛ لأنهم ﴿ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ (١٥) ﴾ [الزمر: ١٥]، لا من قالوا لهم: ﴿ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ (٩٠) ﴾.

(٩٣) فحين هلكوا تولى عنهم نبيهم شعيب[3] عليه الصلاة والسلام، ﴿ وَقَالَ ﴾ معاتبًا وموبخًا ومخاطبًا لهم بعد موتهم: ﴿ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى ﴾؛ أي: أوصلتها إليكم وبينتها حتى بلغت منكم أقصى ما يمكن أن تصل إليه وخالطت أفئدتكم، ﴿ وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾: فلم تقبلوا نصحي ولا انقدتم لإرشادي، بل فسقتم وطغيتم؛ ﴿ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ (٩٣) ﴾؛ أي: فكيف أحزن على قوم لا خير فيهم؛ أتاهم الخير فردوه ولم يقبلوه، ولا يليق بهم إلا الشر؛ فهؤلاء غير حقيقين أن يحزن عليهم، بل يفرح بإهلاكهم ومحقهم؛ فعياذًا بك اللهم من الخزي والفضيحة! وأي شقاء وعقوبة أبلغ من أن يصلوا إلى حالة يتبرأ منهم أنصح الخلق لهم؟!

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥) ﴾.

(٩٤) يقول تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ ﴾: يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عمَّا هم فيه من الشر، فلم ينقادوا له؛ إلا ﴿ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا ﴾ أي: ابتلاهم الله ﴿ بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾؛ أي: بالفقر والمرض وأنواع البلايا، ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾: إذا أصابتهم؛ خضعت نفوسهم؛ فتضرعوا فهم ﴿ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ﴾ إلى الله، ويستكينون للحق.

(٩٥) ﴿ ثُمَّ ﴾: إذا لم يفد فيهم واستمر استكبارهم وازداد طغيانهم، ﴿ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ ﴾: فأدرَّ عليهم الأرزاق، وعافى أبدانهم، ورفع عنهم البلايا، ﴿ حَتَّىٰ عَفَوا۟ ﴾؛ أي: كثروا وكثرت أرزاقهم وانبسطوا في نعمة الله وفضله ونسوا ما مر عليهم من البلايا، ﴿ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ ﴾؛ أي: هذه عادة جارية لم تزل موجودة في الأولين واللاحقين؛ تارة يكونون في سراء، وتارة في ضراء، وتارة في فرح، ومرة في ترح؛ على حسب تقلبات الزمان وتداول الأيام، وحسبوا أنها ليست للموعظة والتذكير ولا للاستدراج والنكير، حتى إذا اغتبطوا وفرحوا بما أوتوا، وكانت الدنيا أسَرَّ ما كانت إليهم. ﴿ فَأَخَذْنَٰهُم ﴾ بالعذاب ﴿ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥) ﴾؛ أي: لا يخطر لهم الهلاك على بال، وظنوا أنهم قادرون على ما آتاهم الله، وأنهم غير زائلين ولا منتقلين عنه.

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (٩٩) ﴾.

(٩٦) لما ذكر تعالى أن المكذبين للرسل يبتلون بالضراء موعظة وإنذارًا، وبالسراء استدراجًا ومكرًا؛ ذكر أن أهل القرى لو آمنوا بقلوبهم إيمانًا صادقًا صدقته الأعمال، واستعملوا تقوى الله تعالى ظاهرًا وباطنًا بترك جميع ما حرم الله؛ لفتح عليهم بركات السماء والأرض؛ فأرسل السماء عليهم مدرارًا، وأنبت لهم من الأرض ما به يعيشون وتعيش بهائمهم في أخصب عيش وأغزر رزق من غير عناء ولا تعب

(١) في الأصل، ط: «عرصاتهم».
(٢) ع، ط: «حين فاجأهم».
(٣) ليست في الأصل، ط.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ
مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا
وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا
ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ
مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ
يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم
بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾
تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم
بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ۚ
كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا
لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ
﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ
فَظَلَمُوا بِهَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾
وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾

ولا كد ولا نصب، ولكنهم لم يؤمنوا ويتقوا، ﴿ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾: بالعقوبات والبلايا ونزع البركات وكثرة الآفات، وهي بعض جزاء أعمالهم، وإلا؛ فلو آخذهم بجميع ما كسبوا؛ ما ترك على ظهرها[1] من دابة، ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الروم: ٤١].

﴿٩٧﴾ ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ ﴾؛ أي: المكذبة بقرينة السياق، ﴿ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ﴾؛ أي: عذابنا الشديد، ﴿ بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾؛ أي: في غفلتهم وغرتهم وراحتهم؟

﴿٩٨﴾ ﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾: أي شيء يؤمنهم من ذلك وهم قد فعلوا أسبابه وارتكبوا من الجرائم العظيمة ما يوجب بعضه الهلاك؟!

﴿٩٩﴾ ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ﴾: حيث يستدرجهم من حيث لا يعلمون، ويملي لهم إن كيده متين. ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾: فإن من أمن من عذاب الله؛ فإنه لم يصدق بالجزاء على الأعمال ولا آمن بالرسل حقيقة الإيمان.

وهذه الآية الكريمة فيها من التخويف البليغ على أن العبد لا ينبغي له أن يكون آمنًا على ما معه من الإيمان، بل لا يزال خائفًا وجلًا أن يبتلى ببلية تسلب ما معه من الإيمان، وألَّا يزال داعيًا بقوله: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، وأن يعمل ويسعى في كل سبب يخلصه من الشر عند وقوع الفتن؛ فإن العبد ولو بلغت به الحال ما بلغت؛ فليس على يقين من السلامة.

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

﴿١٠٠﴾ يقول تعالى منبهًا للأمم الغابرين[2] بعد هلاك الأمم الغابرين[3]: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ﴾[4]؛ أي: أولم يتبين ويتضح للأمم الذين ورثوا الأرض بعد إهلاك من قبلهم بذنوبهم ثم عملوا كأعمال أولئك المهلكين، أولم يهتدوا أن الله لو شاء لأصابهم بذنوبهم؛ فإن هذه سنته في الأولين والآخرين. وقوله: ﴿ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾؛ أي: إذا نبههم الله فلم ينتبهوا، وذكَّرهم فلم يتذكروا، وهداهم بالآيات والعبر فلم يهتدوا؛ فإن الله تعالى يعاقبهم ويطبع على قلوبهم فيعلوها الران والدنس حتى يختم عليها فلا يدخلها حق ولا يصل إليها خير ولا يسمعون ما ينفعهم، وإنما يسمعون ما به تقوم الحجة عليهم.

﴿١٠١﴾ ﴿ تِلْكَ الْقُرَىٰ ﴾: الذين تقدم ذكرهم، ﴿ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ﴾: ما يحصل به عبرة للمعتبرين، وازدجار للظالمين، وموعظة للمتقين، ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾؛ أي:

(١) عبارة: «على ظهرها» وردت في ع: «عليها».
(٢) كتب في هامش الأصل: «أي: الباقين».
(٣) كتب في هامش الأصل: «أي: الماضين».
(٤) زاد في ع، ط: «أي: أولم يتبين ويتضح للأمم الذين ورثوا الأرض بعد إهلاك من قبلهم بذنوبهم ثم عملوا كأعمال أولئك المهلكين، أولم يهتدوا أن الله لو شاء لأصابهم بذنوبهم».

جاءت هؤلاء المكذبين رسلهم تدعوهم إلى ما فيه سعادتهم، وأيدهم الله بالمعجزات الظاهرة والبينات المبينات للحق بيانًا كاملًا، ولكنهم لم يفدهم هذا ولا أغنى عنهم شيئًا؛ ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: بسبب تكذيبهم وردهم الحق أول مرة ما كان يهديهم[1] للإيمان جزاء لهم على ردهم الحق؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠)﴾ [الأنعام: ١١٠]، ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ (١٠١)﴾: عقوبة منه، وما ظلمهم الله، ولكنهم ظلموا أنفسهم.

(١٠٢) ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾؛ أي: وما وجدنا لأكثر الأمم الذين أرسل الله إليهم الرسل من عهد؛ أي: من ثبات والتزام لوصية الله التي أوصى بها جميع العالمين، ولا انقادوا لأوامره التي ساقها إليهم على ألسنة رسله. ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ (١٠٢)﴾؛ أي: خارجين عن طاعة الله، متبعين لأهوائهم بغير هدى من الله؛ فالله تعالى امتحن العباد بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وأمرهم باتباع عهده وهداه، فلم يمتثل لأمره إلا القليل من الناس، الذين سبقت لهم من الله سابقة السعادة، وأما أكثر الخلق؛ فأعرضوا عن الهدى، واستكبروا عما جاءت به الرسل، فأحل الله بهم من عقوباته المتنوعة ما أحل.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ
فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَقَالَ
مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ
عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ
مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (١٠٥) قَالَ إِن كُنتَ
جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ
عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ
لِلنَّٰظِرِينَ (١٠٨) قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ
عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠)
قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ
بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا
لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ
ٱلْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ
نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ
ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) وَأَوْحَيْنَآ
إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧)
فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟
صَٰغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ (١٢٠) قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (١٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم
بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ
لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوٓا۟ إِنَّآ
إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ
رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦)
وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ
نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ
ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن
يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن
قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن
يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ
كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩) وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ
وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَآءَتْهُمُ
ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ
وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا
نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ
وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟
قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى
ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ
لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا
كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ
يَنكُثُونَ (١٣٥) فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ
كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى

(١) عبارة: «ما كان يهديهم» وردت في ع: «ما كان الله ليهديهم».

بَـٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَـٰٓءِيلَ
بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا
كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ١٣٧ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَـٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ
عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ
إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ
مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٩ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ
أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٠ وَإِذۡ
أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۖ
يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم
بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ١٤١ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ
وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ
مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ
سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ
رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ
إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ
رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ
قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣ قَالَ
يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ
مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي
ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ
فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ
ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٤٥ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي
ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ
بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ
سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا
وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٤٦ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ
ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ١٤٧ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ
عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ
سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ١٤٨ وَلَمَّا سُقِطَ
فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا
رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ١٤٩ وَلَمَّا
رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ
بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ
أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ
يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي
رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٥١ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ
ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ
وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ١٥٢ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ
مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٥٣
وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا
هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ١٥٤ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ
قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ
لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ
مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ
أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥ وَٱكۡتُبۡ
لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ
عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ
فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم
بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ
ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ
يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ
لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ
إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ
وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ
إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ
إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ
ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ
تَهۡتَدُونَ ١٥٨ وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ
وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ١٥٩ وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ
وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب
بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ
قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ
وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا

حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم
بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ
جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلۡقَىٰ
عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ
لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ
عَلِيمٞ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ﴿١١٠﴾
قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأۡتُوكَ
بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ
لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ
لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن
نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ
أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ﴿١١٦﴾
۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا
يَأۡفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ
هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾

رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ
يَظۡلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ
وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ
ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ
ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا
غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ
ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي
ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا
وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا
كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ
مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ
وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ
يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ
بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ
كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ
إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ
لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي
ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ
وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿١٦٨﴾
فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا
ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ
عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ
مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦٩﴾
وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ
ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ
أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ
تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾.

﴿١٠٣﴾ أي: ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل موسى الكليم الإمام العظيم والرسول الكريم إلى قوم عتاة جبابرة - وهم فرعون وملؤه من أشرافهم وكبرائهم - فأراهم من آيات الله العظيمة ما لم يشاهد له نظير. ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾: بأن لم ينقادوا لحقها الذي من لم ينقد له فهو ظالم، بل استكبروا عنها، ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾: كيف أهلكهم الله وأتبعهم الذم واللعنة في الدنيا، ويوم القيامة بئس الرفد المرفود.

﴿١٠٤﴾ وهذا مجمل فصله بقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾: حين جاء إلى فرعون يدعوه إلى الإيمان: ﴿يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾؛ أي: إني رسول من مرسل عظيم، وهو رب العالمين، الشامل للعالم العلوي والسفلي، مربي جميع خلقه بأنواع التدابير الإلهية، التي من جملتها أنه لا يتركهم سدًى، بل يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، وهو الذي لا يقدر أحد أن يتجرأ عليه ويدعي أنه أرسله ولم يرسله.

﴿١٠٥﴾ فإذا كان هذا شأنه، وأنا قد اختارني واصطفاني لرسالته؛ فحقيق علي ألَّا أكذب عليه ولا أقول عليه إلا الحق؛ فإني لو قلت غير ذلك؛ لعاجلني بالعقوبة، وأخذني أخذ عزيز مقتدر؛ فهذا موجب لأن ينقادوا له ويتبعوه، خصوصًا وقد جاءهم ببينة من الله واضحة على صحة ما جاء به من الحق، فوجب عليهم أن يعملوا بمقصود رسالته، ولها مقصودان عظيمان: إيمانهم به واتباعهم له، وإرسال

بني إسرائيل الشعب الذي فضله الله على العالمين أولاد الأنبياء وسلسلة يعقوب عليه السلام الذي موسى عليه الصلاة والسلام واحد منهم.

(١٠٦) فقال له فرعون: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

(١٠٧) ﴿فَأَلْقَىٰ﴾ موسى ﴿عَصَاهُ﴾: في الأرض، ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾؛ أي: حية ظاهرة تسعى وهم يشاهدونها.

(١٠٨) ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾: من جيبه، ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾: من غير سوء؛ فهاتان آيتان كبيرتان دالتان على صحة ما جاء به موسى وصدقه، وأنه رسول رب العالمين.

(١٠٩) ولكن الذين لا يؤمنون لو جاءتهم كل آية لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم؛ فلهذا ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ حين بهرهم ما رأوا من الآيات ولم يؤمنوا وطلبوا لها التأويلات الفاسدة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾﴾؛ أي: ماهر في سحره.

(١١٠) ثم خوفوا ضعفاء الأحلام وسفهاء العقول بأنه ﴿يُرِيدُ﴾ موسى بفعله هذا ﴿أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾؛ أي: يريد أن يجليكم(١) من أوطانكم، ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾؟ أي: إنهم تشاوروا فيما بينهم ما يفعلون بموسى، وما يندفع به ضرره بزعمهم عنهم؛ فإن ما جاء به إن لم يقابل بما يبطله ويدحضه، دخل في عقول أكثر الناس.

(١١١)، (١١٢) فحينئذ انعقد رأيهم إلى أن قالوا لفرعون: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾؛ أي: احبسهما وأمهلهما، وابعث في المدائن أناسًا يحشرون أهل المملكة ويأتون بكل سحار عليم؛ أي: يجيئون بالسحرة المهرة؛ ليقابلوا ما جاء به موسى، فقالوا: يا موسى اجعل ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾ [طه: ٥٨-٦٠].

(١١٣) وقال هنا: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾: طالبين منه الجزاء إن غلبوا، فقالوا: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾﴾.

(١١٤) فـ﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿نَعَمْ﴾: لكم أجر، ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾: فوعدهم الأجر والتقريب وعلو المنزلة عنده؛ ليجتهدوا ويبذلوا وسعهم وطاقتهم في مغالبة موسى.

(١١٥) فلما حضروا مع موسى بحضرة الخلق العظيم، ﴿قَالُوا﴾: على وجه التألي وعدم المبالاة بما جاء به موسى، ﴿يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ﴾: ما معك، ﴿وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

(١١٦) فـ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿أَلْقُوا﴾: لأجل أن يرى الناس ما معهم وما مع موسى، ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾: حبالهم وعصيهم إذا هي من سحرهم كأنها حيات تسعى، ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾: لم يوجد له نظير من السحر.

(١١٧) ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾: فألقاها، ﴿فَإِذَا هِيَ﴾: حية تسعى و﴿تَلْقَفُ﴾ جميع ﴿مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾؛ أي: يكذبون به ويموهون.

(١١٨) ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾؛ أي: تبين، وظهر، واستعلن في ذلك المجمع، ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾.

(١١٩) ﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ﴾؛ أي: في ذلك المقام، ﴿وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾؛ أي: حقيرين قد اضمحل باطلهم وتلاشى سحرهم ولم يحصل لهم المقصود الذي ظنوا حصوله.

(١٢٠) - (١٢٢) وأعظم من تبين له الحق العظيم أهل الصنف والسحر الذي يعرفون من أنواع السحر وجزئياته ما لا يعرفه غيرهم، فعرفوا أن هذه آية عظيمة من آيات الله، لا يدان لأحد بها، ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾﴾؛ أي: وصدقنا بما بعث به موسى من الآيات البينات.

(١٢٣) ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿فِرْعَوْنُ﴾ متهددًا لهم على الإيمان: ﴿آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾: كان الخبيث حاكمًا مستبدًّا على الأبدان والأقوال، قد تقرر عنده وعندهم أن قوله هو المطاع وأمره نافذ فيهم ولا خروج لأحد عن قوله وحكمه، وبهذه الحالة تنحط الأمم وتضعف عقولها ونفوذها وتعجز عن المدافعة عن حقوقها، ولهذا قال الله عنه: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]، وقال هنا: ﴿آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾؛ أي: فهذا سوء أدب منكم وتجرؤ عليّ،

---

(١) عبارة: «أن يجليكم» وردت في ع: «ليجليكم».

قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ
فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ
فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ
أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٢٤﴾
قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا
بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ
﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ
فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ
نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ
ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن
يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا
مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ
أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ
فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ
بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾

ثم موَّه على قومه وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَا﴾؛ أي: إن موسى كبيركم الذي علمكم السحر، فتواطأتم أنتم وهو على أن تنغلبوا له فيظهر فتتبعونه ثم يتبعكم الناس أو جمهورهم، فتُخرجوا منها أهلها، وهذا كذب يعلم هو ومن سبر الأحوال أن موسى عليه الصلاة والسلام لم يجتمع بأحد منهم، وأنهم جمعوا على نظر فرعون ورسله، وأن ما جاء به موسى آية إلهية، وأن السحرة قد بذلوا مجهودهم في مغالبة موسى حتى عجزوا وتبين لهم الحق فاتبعوه. ثم توعدهم فرعون بقوله: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾: ما أحل بكم من العقوبة.

﴿١٢٤﴾ ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ﴾: زعم الخبيث أنهم مفسدون في الأرض، وسيصنع بهم ما يصنع بالمفسدين من تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف؛ أي: اليد اليمنى والرجل اليسرى، ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ﴾: في جذوع النخل؛ لتختزوا بزعمه ﴿أَجۡمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾؛ أي: لا أفعل هذا الفعل بأحد دون أحد، بل كلكم سيذوق هذا العذاب.

﴿١٢٥﴾ فقال السحرة الذين آمنوا لفرعون حين تهددهم: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾؛ أي: فلا نبالي بعقوبتك؛ فالله خير وأبقى؛ فاقض ما أنت قاض.

﴿١٢٦﴾ ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾؛ أي: وما تعيب منا على إنكارك علينا وتوعدك لنا؟ فليس لنا ذنب ﴿إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَا﴾؛ فإن كان هذا ذنبًا يعاب عليه ويستحق صاحبه العقوبة؛ فهو ذنبنا. ثم دعوا الله أن يثبتهم ويصبرهم، فقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ﴾؛ أي: أفض ﴿عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾؛ أي: عظيمًا كما يدل عليه التنكير؛ لأن هذه محنة عظيمة تؤدي إلى ذهاب النفس، فيحتاج فيها من الصبر إلى شيء كثير؛ ليثبت الفؤاد ويطمئن المؤمن على إيمانه ويزول عنه الانزعاج الكثير. ﴿وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾؛ أي: منقادين لأمرك متبعين لرسولك. والظاهر أنه أوقع بهم ما توعدهم عليه، وأن الله تعالى ثبتهم على الإيمان.

﴿١٢٧﴾ هذا وفرعون وملؤه وعامتهم المتبعون للملأ قد استكبروا عن آيات الله وجحدوا بها ظلمًا وعلوًّا وقالوا لفرعون مهيجين له على الإيقاع بموسى وزاعمين أن ما جاء باطل وفساد: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: بالدعوة إلى الله وإلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال التي هي الصلاح في الأرض وما هم عليه هو الفساد، ولكن الظالمين لا يبالون بما يقولون، ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾؛ أي: يدعك أنت وآلهتك، وينهى عنك، ويصد الناس عن اتباعك، ﴿قَالَ﴾ فرعون مجيبًا لهم بأنه سيدع بني إسرائيل مع موسى بحالة لا ينمون فيها ويأمن فرعون وقومه بزعمه من ضررهم: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ﴾؛ أي: نستبقيهن فلا نقتلهن؛ فإذا فعلنا ذلك؛ أمنا من كثرتهم، وكنا مستخدمين لباقيهم ومسخرين لهم على ما نشاء من الأعمال، ﴿وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾: لا خروج لهم عن حكمنا ولا قدرة. وهذا نهاية الجبروت من فرعون والعتو والقسوة.

﴿١٢٨﴾ فقال ﴿مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ﴾: موصيًا لهم - في هذه الحالة التي لا يقدرون معها على شيء ولا مقاومة - بالمقاومة الإلهية والاستعانة الربانية: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: اعتمدوا عليه في جلب ما ينفعكم ودفع ما يضركم، وثقوا بالله أنه سيتم أمركم، ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْ﴾؛ أي: الزموا الصبر على ما يحل بكم منتظرين للفرج. ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ﴾: ليست لفرعون ولا لقومه حتى يتحكموا فيها، ﴿يُورِثُهَا

مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ ﴾؛ أي: يداولها بين الناس على حسب مشيئته وحكمته، ولكن العاقبة للمتقين؛ فإنهم وإن امتحنوا مدة ابتلاء من الله وحكمة؛ فإن النصر لهم، ﴿ وَٱلۡعَٰقِبَةُ ﴾: الحميدة[1] على قومهم. وهذه وظيفة العبد؛ أنه عند القدرة أن يفعل من الأسباب الدافعة عنه أذى الغير ما يقدر عليه، وعند العجز أن يصبر ويستعين الله وينتظر الفرج.

﴿١٢٩﴾ ﴿ قَالُوٓاْ ﴾: لموسى متضجرين من طول ما مكثوا في عذاب فرعون وأذيته: ﴿ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا ﴾: فإنهم يسوموننا سوء العذاب؛ يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا، ﴿ وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَا ﴾: كذلك، ﴿ قَالَ ﴾ لهم موسى مرجيًا لهم بالفرج والخلاص من شرهم: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾؛ أي: يمكنكم فيها ويجعل لكم التدبير فيها، ﴿ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾: هل تشكرون أم تكفرون؟ وهذا وعد أنجزه الله لما جاء الوقت الذي أراده الله.

﴿١٣٠﴾ قال الله تعالى في بيان ما عامل به آل فرعون في هذه المدة الأخيرة - إنها على عادته وسنته في الأمم أن يأخذهم ﴿ بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ الآيات [الأعراف: ٩٤]: ﴿ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ ﴾؛ أي: بالدهور والجدب، ﴿ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾؛ أي: يتعظون أن ما حل بهم وأصابهم معاتبة من الله لهم لعلهم يرجعون عن كفرهم، فلم ينجع فيهم ولا أفاد، بل استمروا على الظلم والفساد.

﴿١٣١﴾ ﴿ فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ ﴾؛ أي: الخصب وإدرار الرزق، ﴿ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ﴾؛ أي: نحن مستحقون لها، فلم يشكروا الله عليها، ﴿ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ ﴾؛ أي: قحط وجدب، ﴿ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ﴾؛ أي: يقولوا: إنما جاءنا بسبب مجيء موسى واتباع بني إسرائيل له. قال الله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: بقضائه وقدرته، ليس كما قالوا، بل إن ذنوبهم وكفرهم هو السبب في ذلك، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾؛ أي: فلذلك قالوا ما قالوا.

﴿١٣٢﴾ ﴿ وَقَالُواْ ﴾: مبينين لموسى أنهم لا يزالون ولا يزولون عن باطلهم: ﴿ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ

(١) زاد في ع: «لهم».

سُورَةُ الأَعْرَافِ — الجُزْءُ التَّاسِعُ

فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ
يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ
أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ
لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ
ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ
فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ
ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن
كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ
إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ
هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ
فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾
وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ
ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ
ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ
يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

١٦٦

بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾؛ أي: قد تقرر عندنا أنك ساحر؛ فمهما جئت بآية؛ جزمنا أنها سحر؛ فلا نؤمن لك ولا نصدق. وهذا غاية ما يكون من العناد أن يبلغ بالكافرين إلى أن تستوي عندهم الحالات سواء نزلت عليهم الآيات أم لم تنزل.

﴿١٣٣﴾ ﴿ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ ﴾؛ أي: الماء الكثير الذي أغرق أشجارهم وزروعهم وأضرهم[2] ضررًا كثيرًا، ﴿ وَٱلۡجَرَادَ ﴾: فأكل ثمارهم وزروعهم ونباتهم، ﴿ وَٱلۡقُمَّلَ ﴾: قيل: إنه الدُّباء؛ أي: صغار الجراد، والظاهر أنه القمل المعروف، ﴿ وَٱلضَّفَادِعَ ﴾: فملأت أوعيتهم وأقلقتهم وآذتهم أذية شديدة، ﴿ وَٱلدَّمَ ﴾: إما أن يكون الرعاف، أو كما قال كثير من المفسرين: إن ماءهم الذي يشربون انقلب دمًا، فكانوا لا يشربون إلا دمًا ولا يطبخون إلا بدم. ﴿ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ ﴾؛ أي: أدلة وبينات على أنهم كانوا كاذبين ظالمين، وعلى أن ما جاء به موسى حق وصدق. ﴿ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ ﴾: لما رأوا الآيات، ﴿ وَكَانُواْ ﴾: في سابق أمرهم ﴿ قَوۡمٗا

(٢) في ع: «أضر بهم».

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ
أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ
قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ
مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا
وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم
مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ
أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن
رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً
وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ
مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ
سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ
رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ
إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ
رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ
قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾: فلذلك عاقبهم الله تعالى بأن أبقاهم على الغي والضلال.

﴿١٣٤﴾ ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ ﴾؛ أي: العذاب؛ يحتمل أن المراد به الطاعون؛ كما قاله كثير من المفسرين، ويحتمل أن يراد به ما تقدم من الآيات؛ الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم؛ فإنها رجز وعذاب، وأنهم كلما أصابهم واحد منها؛ ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾؛ أي: تشفعوا بموسى بما عهد الله عنده من الوحي والشرع. ﴿ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ ﴾: وهم في ذلك كذبة لا قصد لهم إلا زوال ما حل بهم من العذاب، وظنوا إذا رفع لا يصيبهم غيره.

﴿١٣٥﴾ ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ ﴾؛ أي: إلى مدة قدر الله بقاءهم إليها، وليس كشفًا مؤبدًا، وإنما هو مؤقت، ﴿ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾: العهد الذي عاهدوا عليه موسى ووعدوه بالإيمان به وإرسال بني إسرائيل؛ فلا آمنوا به ولا أرسلوا معه بني إسرائيل، بل استمروا على كفرهم يعمهون وعلى تعذيب بني إسرائيل دائبين.

﴿١٣٦﴾ ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾؛ أي: حين جاء الوقت المؤقت لهلاكهم؛ أمر الله موسى أن يسري ببني إسرائيل ليلًا، وأخبره أن فرعون سيتبعهم هو وجنوده. ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ يجمعون الناس ليتبعوا بني إسرائيل، وقالوا لهم: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الشعراء: ٥٣-٦٦]. وقال هنا: ﴿ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾؛ أي: بسبب تكذيبهم بآيات الله، وإعراضهم عما دلَّت عليه من الحق.

﴿١٣٧﴾ ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ ﴾: في الأرض؛ أي: بني إسرائيل الذين كانوا خدمة لآل فرعون يسومونهم سوء العذاب، أورثهم الله ﴿ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ﴾: والمراد بالأرض ههنا أرض مصر التي كانوا فيها مستضعفين أذلين؛ أي: ملكهم الله جميعها ومكنهم فيها، ﴿ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾: حين قال لهم موسى: ﴿ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾، ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ ﴾: من الأبنية الهائلة والمساكن المزخرفة، ﴿ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [النمل: ٥٢].

﴿١٣٨﴾ ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ ﴾: بعدما أنجاهم الله من عدوهم فرعون وقومه وأهلكهم الله، وبنو إسرائيل ينظرون، ﴿ فَأَتَوْا۟ ﴾؛ أي: مروا ﴿ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ﴾؛ أي: يقيمون عندها ويتبركون بها ويعبدونها، ﴿ قَالُوا۟ ﴾ من جهلهم وسفههم لنبيهم موسى بعدما أراهم الله من الآيات ما أراهم: ﴿ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾؛ أي:

اشرع لنا أن نتخذ أصنامًا آلهة كما اتخذها هؤلاء، ﴿قَالَ﴾ لهم موسى: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾: وأي جهل أعظم من جهل الإنسان ربَّه وخالقه، وأراد أن يسوي به غيره ممن لا يملك نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا؟!

(١٣٩) ولهذا قال لهم موسى: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾: لأن دعاءهم إياها باطل وهي باطلة بنفسها؛ فالعمل باطل وغايته باطلة.

(١٤٠) ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾؛ أي: أأطلب لكم إلهًا غير الله المألوه الكامل في ذاته وصفاته وأفعاله؟! ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾: فيقتضي أن تقابلوا فضله وتفضيله بالشكر، وذلك بإفراد الله[1] وحده بالعبادة والكفر بما يدعى من دونه.

(١٤١) ثم ذكَّرهم ما امتن الله به عليهم فقال: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: من فرعون وآله، ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾؛ أي: يوجهون إليكم من العذاب أسوأه، وهو أنهم كانوا ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم﴾؛ أي: النجاة من عذابهم، ﴿بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾؛ أي: نعمة جليلة ومنحة جزيلة، أو وفي ذلك العذاب الصادر منهم لكم بلاء من ربكم عليكم عظيم.

(١٤٢) فلما ذكرهم موسى ووعظهم؛ انتهوا عن ذلك، ولما أتم الله نعمته عليهم بالنجاة من عدوهم وتمكينهم في الأرض؛ أراد تبارك وتعالى أن يتم نعمته عليهم بإنزال الكتاب، الذي فيه الأحكام الشرعية والعقائد المرضية، فواعد موسى ثلاثين ليلة، وأتمها بعشر، فصارت أربعين ليلة؛ ليستعد موسى ويتهيأ لوعد الله ويكون لنزولها موقع كبير لديهم وتشوق إلى إنزالها، ولما ذهب موسى إلى ميقات ربه، قال لهارون موصيًا له على بني إسرائيل من حرصه عليهم وشفقته: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾؛ أي: كن خليفتي فيهم، واعمل فيهم بما كنت أعمل، ﴿وَأَصْلِحْ﴾؛ أي: اتبع طريق الصلاح، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾: وهم الذين يعملون بالمعاصي.

(١٤٣) ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا﴾: الذي وقتناه له لإنزال الكتاب، ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾: بما كلمه من وحيه وأمره ونهيه؛ تشوق إلى رؤية الله، ونزعت نفسه لذلك حبًّا لربه ومودة لرؤيته، ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ﴾ الله[2]: ﴿لَن تَرَانِي﴾؛ أي: لن تقدر الآن على رؤيتي؛ فإن الله تبارك وتعالى أنشأ الخلق في هذه الدار على نشأة لا يقدرون بها، ولا يثبتون لرؤية الله، وليس في هذا دليل على أنهم لا يرونه في الجنة؛ فإنه قد دلت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية على أن أهل الجنة يرون ربهم تبارك وتعالى، ويتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم. وأنه ينشئهم نشأة كاملة يقدرون معها على رؤية الله تعالى، ولهذا رتب الله الرؤية في هذه الآية على ثبوت الجبل، فقال مقنعًا لموسى في عدم إجابته للرؤية: ﴿وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ﴾: إذا تجلى الله له، ﴿فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾: الأصم الغليظ، ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾؛ أي: انهال مثل الرمل انزعاجًا من رؤية الله وعدم ثبوته لها، ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ﴾: حين رأى ما رأى، ﴿صَعِقًا﴾ فلما أفاق تبين له حينئذ أنه إذا لم يثبت الجبل لرؤية الله؛ فموسى أولى ألَّا يثبت لذلك، واستغفر ربه لما صدر منه من السؤال الذي لم يوافق موضعًا، ولذلك ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾؛ أي: تنزيهًا لك وتعظيمًا عما لا يليق بجلالك، ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾: من جميع الذنوب وسوء الأدب معك، ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾؛ أي: جدد عليه الصلاة والسلام إيمانه بما كمل الله له مما كان يجهله قبل ذلك.

(١٤٤) فلما منعه الله من رؤيته بعدما كان متشوقًا إليها؛ أعطاه خيرًا كثيرًا، فقال: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾؛ أي: اخترتك واجتبيتك وفضلتك وخصصتك بفضائل عظيمة ومناقب جليلة، ﴿بِرِسَالَاتِي﴾: التي لا أجعلها ولا أخص بها إلا أفضل الخلق، ﴿وَبِكَلَامِي﴾: إياك من غير واسطة، وهذه فضيلة اختص بها موسى الكليم، وعرف بها من بين إخوانه من المرسلين، ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾: من النعم، وخذ ما آتيتك من الأمر والنهي بانشراح صدر، وتلقه بالقبول والانقياد، ﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾: لله على ما خصك وفضلك.

(١٤٥) ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾: يحتاج إليه العباد ﴿مَّوْعِظَةً﴾: تُرغِّب النفوس في أفعال الخير وترهبهم من أفعال الشر، ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾: من الأحكام الشرعية والعقائد والأخلاق والآداب،

---

(١) عبارة: «بإفراد الله» وردت في ع: «بإفراده».

(٢) زاد في ع: «له».

قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي
فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤ وَكَتَبۡنَا
لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ
شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ
دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٤٥ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ
فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ
بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ
سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا
وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٤٦ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ
ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ١٤٧ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ
عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ
سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ١٤٨ وَلَمَّا سُقِطَ
فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا
رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ١٤٩

﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ﴾؛ أي: بجد واجتهاد على إقامتها، ﴿وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَا﴾: وهي الأوامر الواجبة والمستحبة؛ فإنها أحسنها. وفي هذا دليل على أن أوامر الله في كل شريعة كاملة عادلة حسنة. ﴿سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٤٥﴾: بعدما أهلكهم الله وأبقى ديارهم عبرة بعدهم يعتبر بها المؤمنون الموفقون المتواضعون.

(١٤٦) وأما غيرهم؛ فقال عنهم: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ﴾؛ أي: عن الاعتبار في الآيات الأفقية والنفسية والفهم لآيات الكتاب، ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: يتكبرون على عباد الله وعلى الحق وعلى من جاء به؛ فمن كان بهذه الصفة؛ حرمه الله خيرًا كثيرًا، وخذله، ولم يفقه من آيات الله ما ينتفع به، بل ربما انقلبت عليه الحقائق واستحسن القبيح، ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا﴾: لإعراضهم واعتراضهم ومحادَّتهم لله ورسوله، ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ﴾؛ أي: الهدى والاستقامة، وهو الصراط الموصل إلى الله وإلى دار كرامته، ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ﴾؛ أي: لا يسلكوه ولا يرغبوا فيه سبيلًا، ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ﴾؛ أي: الغواية الموصل لصاحبه إلى دار الشقاء، ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا﴾. والسبب في انحرافهم هذا الانحراف، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٤٦﴾: فردهم لآيات الله وغفلتهم عما يراد بها واحتقارهم لها - هو الذي أوجب لهم من سلوك طريق الغي وترك طريق الرشد ما أوجب.

(١٤٧) ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: العظيمة الدالة على صحة ما أرسلنا به رسلنا، ﴿وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾: لأنها على غير أساس، وقد فقد شرطها، وهو الإيمان بآيات الله والتصديق بجزائه. ﴿هَلۡ يُجۡزَوۡنَ﴾: في بطلان أعمالهم وحصول ضد مقصودهم ﴿إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤٧﴾: فإن أعمال من لا يؤمن باليوم الآخر لا يرجو فيها ثوابًا، وليس لها غاية تنتهي إليها؛ فلذلك اضمحلت وبطلت.

(١٤٨) ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا﴾: صاغه السامري وألقى عليه قبضة من أثر الرسول فصار ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ وصوت، فعبدوه واتخذوه إلهًا، وقال: هذا إلهكم وإله موسى، فنسي موسى، وذهب يطلبه، وهذا من سفههم وقلة بصيرتهم؛ كيف اشتبه عليهم رب الأرض والسماوات بعجل من أنقص المخلوقات؟! ولهذا قال مبينًا إنه ليس فيه من الصفات الذاتية ولا الفعلية ما يوجب أن يكون إلهًا: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ﴾؛ أي: وعدم الكلام نقص عظيم؛ فهم أكمل حالة من هذا الحيوان أو الجماد الذي لا يتكلم، ﴿وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًا﴾؛ أي: لا يدلهم طريقًا دينيًّا ولا يحصِّل لهم مصلحة دنيوية؛ لأن من المتقرر في العقول والفطر أن اتخاذ إله لا يتكلم ولا ينفع ولا يضر من أبطل الباطل وأسمج السفه، ولهذا قال: ﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ١٤٨﴾: حيث وضعوا العبادة في غير موضعها، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا. وفيها دليل على أن من أنكر كلام الله؛ فقد أنكر خصائص إلهية الله تعالى؛ لأن الله ذكر أن عدم الكلام دليل على عدم صلاحية الذي لا يتكلم للإلهية.

(١٤٩) ﴿وَلَمَّا﴾: رجع موسى إلى قومه، فوجدهم على هذه الحال، وأخبرهم بضلالهم؛ ندموا، و﴿سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾؛ أي: من الهم والندم على فعلهم، ﴿وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ﴾: فتنصلوا إلى الله وتضرعوا، و﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي
مِنۢ بَعْدِيٓۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ
أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ
يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي
رَحْمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ
ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ
وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ
تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَۖ وَفِي
نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ
مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ
قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ
ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي
مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَاۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾

﴿يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾: فيدلنا عليه، ويرزقنا عبادته، ويوفقنا لصالح الأعمال، ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾: ما صدر منا من عبادة العجل؛ ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾: الذين خسروا الدنيا والآخرة.

﴿١٥٠﴾ ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾؛ أي: ممتلئًا غضبًا وغيظًا عليهم لتمام غيرته عليه السلام وكمال نصحه وشفقته، ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ﴾؛ أي: بئس الحالة التي خلفتموني بها من بعد ذهابي عنكم؛ فإنها حالة تفضي إلى الهلاك الأبدي والشقاء السرمدي. ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾: حيث وعدكم بإنزال الكتاب فبادرتم برأيكم الفاسد إلى هذه الخصلة القبيحة، ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾؛ أي: رماها من الغضب، ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾: هارون ولحيته، ﴿يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾: وقال له: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾﴾ [طه: ٩٢، ٩٣]: لك بقولي: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ [طه: ٩٤] و﴿قَالَ﴾ هنا: ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾: هذا ترقيق لأخيه بذكر الأم وحدها، وإلا فهو شقيقه لأمه وأبيه. ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي﴾؛ أي: احتقروني حين قلت لهم: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ﴿٩٠﴾﴾ [طه: ٩٠]، ﴿وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي﴾؛ أي: فلا تظن بي تقصيرًا، ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾: بنهرك لي ومسك إياي بسوء فإن الأعداء حريصون على أن يجدوا علي عثرة أو يطلعوا لي على زلة، ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾: فتعاملني معاملتهم.

﴿١٥١﴾ فندم موسى عليه السلام على ما استعجل من صنعه بأخيه قبل أن يعلم براءته مما ظنه فيه من التقصير، و﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾: هارون، ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾؛ أي: في وسطها، واجعل رحمتك تحيط بنا من كل جانب؛ فإنها حصن حصين من جميع الشرور وثَمَّ كل خير وسرور. ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾؛ أي: أرحم بنا من كل راحم، أرحم بنا من آبائنا وأمهاتنا وأولادنا وأنفسنا.

﴿١٥٢﴾ قال الله تعالى مبينًا حال أهل العجل الذين عبدوه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ﴾؛ أي: إلهًا، ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: كما أغضبوا ربهم واستهانوا بأمره. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾: فكل مفتر على الله كاذب على شرعه متقول عليه ما لم يقل؛ فإن له نصيبًا من الغضب من الله والذل في الحياة الدنيا.

﴿١٥٣﴾ وقد نالهم غضب الله حيث أمرهم أن يقتلوا أنفسهم، وأنه لا يرضى الله عنهم إلا بذلك، فقتل بعضهم بعضًا، وانجلت المعركة على قتلى كثيرة، ثم تاب الله عليهم بعد ذلك، ولهذا ذكر حكمًا عامًّا يدخلون فيه هم وغيرهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: من شرك وكبائر وصغائر، ﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا﴾: بأن ندموا على ما مضى وأقلعوا عنه وعزموا على ألَّا يعودوا، ﴿وَءَامَنُوٓاْ﴾: بالله وبما أوجب الله الإيمان به، ولا يتم الإيمان إلا بأعمال القلوب وأعمال الجوارح المترتبة على الإيمان. ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾؛ أي: بعد هذه الحالة - حالة التوبة من السيئات والرجوع إلى الطاعات - ﴿لَغَفُورٌ﴾: يغفر السيئات ويمحوها، ولو كانت قراب الأرض. ﴿رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾: بقبول التوبة والتوفيق لأفعال الخير وقبولها.

۞ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا
هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي
وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ
الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ
فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ
الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ
عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا
النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) قُلْ
يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي
لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ
فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)
وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩)

(١٥٤) ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ﴾؛ أي: سكن غضبه وتراجعت نفسه، وعرف ما هو فيه؛ اشتغل بأهم الأشياء عنده، فـ ﴿أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾: التي ألقاها، وهي ألواح عظيمة المقدار جليلة ﴿نُسْخَتِهَا﴾؛ أي: مشتملة ومتضمنة ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾؛ أي: فيها الهدى من الضلالة، وبيان الحق من الباطل، وأعمال الخير وأعمال الشر، والهدى لأحسن الأعمال والأخلاق والآداب، ورحمة وسعادة لمن عمل بها وعلم أحكامها ومعانيها، ولكن؛ ليس كل أحد يقبل هدى الله ورحمته، وإنما يقبل ذلك، وينقاد له، ويتلقاه بالقبول، الذين ﴿هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤)﴾؛ أي: يخافون منه ويخشونه، وأما من لم يخف الله ولا المقام بين يديه؛ فإنه لا يزداد بها إلا عتوًّا ونفورًا، وتقوم عليه حجة الله فيها.

(١٥٥) ولما تاب بنو إسرائيل، وتراجعوا إلى رشدهم، ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾ منهم ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا﴾: من خيارهم ليعتذروا لقومهم عند ربهم، ووعدهم الله ميقاتًا يحضرون فيه، فلما حضروا؛ قالوا: يا موسى، ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾! [النساء: ١٥٣] فتجرءوا على الله جراءة كبيرة، وأساءوا الأدب معه، فـ ﴿أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾، فصعقوا وهلكوا، فلم يزل موسى عليه الصلاة والسلام يتضرع إلى الله ويتبتل ويقول: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ﴾: أن يحضروا، ويكونون في حالة يعتذرون فيها لقومهم فصاروا هم الظالمين. ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾؛ أي: ضعفاء العقول سفهاء الأحلام، فتضرع إلى الله، واعتذر بأن المتجرئين على الله ليس لهم عقول كاملة تردعهم عما قالوا وفعلوا، وبأنهم حصل لهم فتنة يخطر بها الإنسان ويخاف من ذهاب دينه، فقال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥)﴾؛ أي: أنت خير من غفر، وأولى من رحم، وأكرم من أعطى وتفضل، فكأن موسى عليه الصلاة والسلام قال: المقصود يا رب بالقصد الأول لنا كلنا، هو التزام طاعتك والإيمان بك، وأن من حضره عقله ورشده وتم على ما وهبته من التوفيق؛ فإنه لم يزل مستقيمًا، وأما من ضعف عقله وسفه رأيه وصرفته الفتنة؛ فهو الذي فعل ما فعل لذينك السببين، ومع هذا؛ فأنت أرحم الراحمين وخير الغافرين؛ فاغفر لنا وارحمنا! فأجاب الله سؤاله، وأحياهم من بعد موتهم، وغفر لهم ذنوبهم.

(١٥٦) وقال موسى في تمام دعائه: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾: من علم نافع ورزق واسع وعمل صالح، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾: حسنة، وهي ما أعد الله لأوليائه الصالحين من الثواب. ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾؛ أي: رجعنا مقرين بتقصيرنا منيبين في جميع أمورنا، ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾: ممن كان شقيًّا متعرضًا لأسبابه، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾: من العالم العلوي والسفلي؛ البر والفاجر، المؤمن والكافر؛ فلا مخلوق إلا وقد وصلت إليه رحمة الله وغمره فضله وإحسانه، ولكن الرحمة الخاصة المقتضية لسعادة الدنيا والآخرة ليست لكل أحد، ولهذا قال عنها: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾: المعاصي صغارها وكبارها، ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾: الواجبة مستحقيها، ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦)﴾.

(١٥٧) ومن تمام الإيمان بآيات الله معرفة معناها والعمل بمقتضاها، ومن ذلك اتباع النبي ﷺ ظاهرًا وباطنًا في أصول الدين وفروعه: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾: احتراز عن سائر الأنبياء؛ فإن المقصود بهذا محمد بن عبد الله

ابن عبد المطلب ﷺ، والسياق في أحوال بني إسرائيل، وأن الإيمان بالنبي محمد ﷺ شرط في دخولهم في الإيمان، وأن المؤمنين به المتبعين هم أهل الرحمة المطلقة التي كتبها الله لهم، ووصفه بالأمي لأنه من العرب الأمة الأمية التي لا تقرأ ولا تكتب وليس عندها قبل القرآن كتاب. ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾: باسمه وصفته التي من أعظمها وأجلها ما يدعو إليه وينهى عنه، وأنه ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: وهو كل ما عرف حسنه وصلاحه ونفعه. ﴿وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾: وهو كل ما عرف قبحه في العقول والفطر، فيأمرهم بالصلاة والزكاة والصوم والحج وصلة الأرحام وبر الوالدين والإحسان إلى الجار والمملوك وبذل النفع لسائر الخلق والصدق والعفاف والبر والنصيحة وما أشبه ذلك، وينهى عن الشرك بالله وقتل النفوس بغير حق والزنا وشرب ما يسكر العقل والظلم لسائر الخلق والكذب والفجور ونحو ذلك؛ فأعظم دليل يدل على أنه رسول الله، ما دعا إليه، وأمر به، ونهى عنه، وأحله وحرمه؛ فإنه يحل ﴿لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾: من المطاعم والمشارب والمناكح. ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ﴾: من المطاعم والمشارب والمناكح والأقوال والأفعال. ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: ومن وصفه أن دينه سهل سمح ميسر لا إصر فيه ولا أغلال ولا مشقات ولا تكاليف ثقال.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ﴾؛ أي: عظموه وبجلوه، ﴿وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾: وهو القرآن الذي يستضاء به في ظلمات الشك والجهالات، ويقتدى به إذا تعارضت المقالات. ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾: الظافرون بخير الدنيا والآخرة، والناجون من شرهما؛ لأنهم أتوا بأكبر أسباب الفلاح، وأما من لم يؤمن بهذا النبي الأمي، ويعزره، وينصره، ولم يتبع النور الذي أنزل معه؛ فأولئك هم الخاسرون.

﴿١٥٨﴾ ولما دعا أهل التوراة من بني إسرائيل إلى اتباعه، وكان ربما توهم متوهم أن الحكم مقصور عليهم، أتى بما يدل على العموم، فقال: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾؛ أي: عربيكم وعجميكم، أهل الكتاب منكم وغيرهم، ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: يتصرف فيهما بأحكامه الكونية والتدابير السلطانية وبأحكامه الشرعية الدينية، التي من جملتها أن أرسل إليكم رسولًا عظيمًا يدعوكم إلى الله وإلى دار كرامته، ويحذركم من كل ما يباعدكم منه ومن دار كرامته. ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا معبود بحق إلا الله وحده لا شريك له، ولا تعرف عبادته إلا من طريق رسله. ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾؛ أي: من جملة تدابيره الإحياء والإماتة، التي لا يشاركه فيها أحد، وقد جعل الله الموت جسرًا ومعبرًا، يعبر الإنسان منه إلى دار البقاء التي من آمن بها صدّق الرسول محمدًا ﷺ قطعًا. ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾: إيمانًا في القلب متضمنًا لأعمال القلوب والجوارح، ﴿ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ﴾؛ أي: آمنوا بهذا الرسول المستقيم في عقائده وأعماله، ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾: في مصالحكم الدينية والدنيوية؛ فإنكم إذا لم تتبعوه؛ ضللتم ضلالًا بعيدًا.

﴿١٥٩﴾ ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ﴾؛ أي: جماعة، ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾؛ أي: يهدون به الناس في تعليمهم إياهم وفتواهم لهم، ويعدلون به في الحكم بينهم في قضاياهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

وفي هذا فضيلة لأمة موسى عليه الصلاة والسلام، وأن الله تعالى جعل منهم هداة يهدون بأمره. وكأن الإتيان بهذه الآية الكريمة فيه نوع احتراز مما تقدم؛ فإنه تعالى ذكر فيما تقدم جملة من معايب بني إسرائيل المنافية للكمال المناقضة للهداية، فربما توهم متوهم أن هذا يعم جميعهم، فذكر تعالى أن منهم طائفة مستقيمة هادية مهدية.

﴿١٦٠﴾ ﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمُ﴾؛ أي: قسمناهم ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾؛ أي: اثنتي عشرة قبيلة متعارفة متوالفة، كل بني رجل من أولاد يعقوب قبيلة، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾؛ أي: طلبوا منه أن يدعو الله تعالى أن يسقيهم ماء يشربون منه وتشرب منه مواشيهم، وذلك لأنهم - والله أعلم - في محل قليل الماء، فأوحى الله لموسى إجابة لطلبتهم: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾: يحتمل أنه حجر معين، ويحتمل أنه اسم جنس يشمل أي حجر كان، فضربه، ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾؛ أي: انفجرت من ذلك الحجر ﴿ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾: جارية سارحة، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾؛ أي: قد قسم على كل قبيلة من تلك القبائل الاثنتي عشرة، وجعل لكل منهم عينًا، فعلموها، واطمأنوا

الجزء التاسع — سورة الأعراف

وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ
إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ
فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ
مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ
وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا
ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ
قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ
شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ
لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾
فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟
يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ
حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ
حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ
لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

١٧١

واستراحوا من التعب والمزاحمة والمخاصمة[(١)]، وهذا من تمام نعمة الله عليهم، ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾: فكان يسترهم من حر الشمس، ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ﴾: وهو الحلوى، ﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾: وهو لحم طير من أحسن أنواع الطيور وألذها، فجمع الله لهم بين الظلال والشراب والطعام الطيب من الحلوى واللحوم على وجه الراحة والطمأنينة، وقيل لهم: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا﴾: حين لم يشكروا الله ولم يقوموا بما أوجب الله عليهم. ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾: حيث فوتوها كل خير وعرضوها للشر والنقمة، وهذا كان مدة لبثهم في التيه.

﴿١٦١﴾ ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾؛ أي: ادخلوها لتكون وطنًا لكم ومسكنًا، وهي إيلياء، ﴿وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾؛ أي: قرية كانت كثيرة الأشجار غزيرة الثمار رغيدة العيش؛ فلذلك أمرهم الله أن يأكلوا منها حيث شاءوا، ﴿وَقُولُوا۟﴾: حين تدخلون الباب: ﴿حِطَّةٌ﴾؛ أي: احطط عنا خطايانا واعف عنا، ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾؛ أي خاضعين لربكم مستكينين لعزته شاكرين لنعمته؛ فأمرهم بالخضوع وسؤال المغفرة، ووعدهم على ذلك مغفرة ذنوبهم والثواب العاجل والآجل، فقال: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾﴾: من خير الدنيا والآخرة.

﴿١٦٢﴾ فلم يمتثلوا هذا الأمر الإلهي، بل خالفوا ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾؛ أي: عصوا الله واستهانوا بأمره ﴿قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾: فقالوا بدل طلب المغفرة وقولهم حطة: حبة في شعيرة، وإذا بدلوا القول مع يسره وسهولته؛ فتبديلهم للفعل من باب أولى، ولهذا دخلوا يزحفون على استاههم، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾: حين خالفوا أمر الله وعصوه ﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: عذابًا شديدًا إما الطاعون وإما غيره من العقوبات السماوية، وما ظلمهم الله بعقابه، وإنما كان ذلك ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾[(٢)].

﴿١٦٣﴾ ﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾؛ أي: اسأل بني إسرائيل ﴿عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾؛ أي: على ساحله في حال تعديهم وعقاب الله إياهم، ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾: وكان الله تعالى قد أمرهم أن يعظموه ويحترموه ولا يصيدوا فيه صيدًا، فابتلاهم الله وامتحنهم، فكانت ﴿تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ تأتيهم شرعًا؛ أي: كثيرة طافية على وجه البحر. ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾؛ أي: إذا ذهب يوم السبت ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾؛ أي: تذهب في البحر فلا يرون منها شيئًا. ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾: ففسقهم هو الذي أوجب أن يبتليهم الله وأن تكون لهم هذه المحنة، وإلا؛ فلو لم يفسقوا؛ لعافاهم الله، ولما عرضهم للبلاء والشر.

﴿١٦٤﴾ فتحيلوا على الصيد، فكانوا يحفرون لها حفرًا، وينصبون لها الشباك؛ فإذا جاءت يوم السبت ووقعت في تلك الحفر والشباك؛ لم يأخذوها في ذلك اليوم؛ فإذا جاء يوم الأحد؛ أخذوها، وكثر فيهم ذلك، وانقسموا ثلاث فرق: معظمهم اعتدوا وتجرءوا وأعلنوا بذلك. وفرقة

(١) زيادة من ع.

(٢) ورد في ع: «﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾: أي: يخرجون من طاعة الله إلى معصيته، من غير ضرورة ألجأتهم ولا داعٍ دعاهم سوى الخبث والشر الذي كان كامنًا في نفوسهم».

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ
عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾
فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ
وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ
﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ
﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن
يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ
لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ
ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ
وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ
وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا
وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ
أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ
خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ
بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

أعلنت بنهيهم والإنكار عليهم. وفرقة اكتفت بإنكار أولئك عليهم ونهيهم لهم وقالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾: كأنهم يقولون: لا فائدة في وعظ من اقتحم محارم الله ولم يصغ للنصيح، بل استمر على اعتدائه وطغيانه؛ فإنه لا بد أن يعاقبهم الله إما بهلاك أو عذاب شديد. فقال الواعظون: نعظهم وننهاهم ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾؛ أي: لنعذر فيهم، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾؛ أي: يتركون ما هم فيه من المعصية؛ فلا نيأس من هدايتهم؛ فربما نجع فيهم الوعظ وأثر فيهم اللوم، وهذا هو المقصود الأعظم من إنكار المنكر؛ ليكون معذرة وإقامة الحجة على المأمور المنهي، ولعل الله أن يهديه فيعمل بمقتضى ذلك الأمر والنهي.

(١٦٥) ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ﴾؛ أي: تركوا ما ذكروا به واستمروا على غيهم واعتدائهم، ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾: وهكذا سنة الله في عباده أن العقوبة إذا نزلت نجا منها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾: وهم الذين اعتدوا في السبت ﴿بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾؛ أي: شديد ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾.

وأما الفرقة الأخرى التي قالت للناهين: لم تعظون قومًا الله مهلكهم؛ فاختلف المفسرون في نجاتهم وهلاكهم، والظاهر أنهم كانوا من الناجين؛ لأن الله خص الهلاك بالظالمين، وهو لم يذكر أنهم ظالمون، فدل على أن العقوبة خاصة بالمعتدين في السبت، ولأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الآخرين؛ فاكتفوا بإنكار أولئك، ولأنهم أنكروا عليهم بقولهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾: فأبدوا من غضبهم عليهم ما يقتضي أنهم كارهون أشد الكراهة لفعلهم، وأن الله سيعاقبهم أشد العقوبة.

(١٦٦) ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾؛ أي: قسوا فلم يلينوا ولا اتعظوا، ﴿قُلْنَا لَهُمْ﴾ قولًا قدريًّا: ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾: فانقلبوا بإذن الله قردة وأبعدهم الله من رحمته.

(١٦٧) ثم ذكر ضرب الذلة والصغار على من بقي منهم، فقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾؛ أي: أعلم إعلامًا صريحًا، ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾؛ أي: يهينهم ويذلهم، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾: لمن عصاه، حتى إنه يعجل له العقوبة في الدنيا. ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾: لمن تاب إليه وأناب؛ يغفر له الذنوب، ويستر عليه العيوب، ويرحمه بأن يتقبل منه الطاعات ويثيبه عليها بأنواع المثوبات، وقد فعل الله بهم ما وعدهم به؛ فلا يزالون في ذل وإهانة، تحت حكم غيرهم، لا تقوم لهم راية ولا ينصر لهم علَم.

(١٦٨) ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾؛ أي: فرقناهم ومزقناهم في الأرض بعدما كانوا مجتمعين، ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾: القائمون بحقوق الله وحقوق عباده، ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: دون الصلاح: إما مقتصدون، وإما الظالمون لأنفسهم. ﴿وَبَلَوْنَٰهُم﴾: على عادتنا وسنتنا ﴿بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ أي: باليسر والعسر، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾: عما هم عليه مقيمون من الردى، ويراجعون ما خلقوا له من الهدى، فلم يزالوا بين صالح وطالح ومقتصد.

(١٦٩) ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾: زاد شرهم ﴿وَرِثُوا۟﴾: بعدهم ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: وصار المرجع فيه إليهم، وصاروا يتصرفون فيه بأهوائهم، وتبذل لهم الأموال ليفتوا ويحكموا

۞ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ
خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾
وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ
عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ
الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ
آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ
الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ
﴿١٧٤﴾ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا
فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا
لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ
كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ
يَلْهَثْ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ
الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ
فَهُوَ الْمُهْتَدِي ۖ وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

بغير الحق، وفشت فيهم الرشوة. ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ﴾: مقرين بأنه ذنب وأنهم ظلمة: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾: وهذا قول خالٍ من الحقيقة؛ فإنه ليس استغفارًا وطلبًا للمغفرة على الحقيقة؛ فلو كان ذلك؛ لندموا على ما فعلوا، وعزموا على ألَّا يعودوا، ولكنهم إذا أتاهم عرض آخر ورشوة أخرى؛ يأخذوه، فاشتروا بآيات الله ثمنًا قليلًا، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير! قال الله تعالى في الإنكار عليهم وبيان جراءتهم: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾: فما بالهم يقولون عليه غير الحق اتباعًا لأهوائهم وميلًا مع مطامعهم؟! والحال أنهم قد درسوا ﴿مَا فِيهِ﴾: فليس عليهم فيه إشكال، بل قد أتوا أمرهم متعمدين، وكانوا في أمرهم مستبصرين، وهذا أعظم للذنب وأشد للَّوم وأشنع للعقوبة، وهذا من نقص عقولهم وسفاهة رأيهم بإيثار الحياة الدنيا على الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾: ما حرم الله عليهم من المآكل التي تصاب وتؤكل رشوة على الحكم بغير ما أنزل الله وغير ذلك من أنواع المحرمات. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾؛ أي: أفلا يكون لكم عقول توازن بين ما ينبغي إيثاره وما ينبغي الإيثار عليه، وما هو أولى بالسعي إليه والتقديم له على غيره؟! فخاصية العقل النظر للعواقب، وأما من نظر إلى عاجل طفيف منقطع يفوت نعيمًا عظيمًا باقيًا؛ فأنى له العقل والرأي؟!

﴿١٧٠﴾ وإنما العقلاء حقيقة من وصفهم الله بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾؛ أي: يتمسكون به علمًا وعملًا، فيعلمون ما فيه من الأحكام والأخبار التي علمها أشرف العلوم، ويعملون بما فيها من الأوامر التي هي قرة العيون وسرور القلوب وأفراح الأرواح وصلاح الدنيا والآخرة. ومن أعظم ما يجب التمسك به من المأمورات إقامة الصلاة ظاهرًا وباطنًا، ولهذا خصها الله[1] بالذكر لفضلها وشرفها وكونها ميزان الإيمان، وإقامتها داعية لإقامة غيرها من العبادات. ولما كان عملهم كله إصلاحًا؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾: في أقوالهم وأعمالهم ونياتهم، مصلحين لأنفسهم ولغيرهم.

وهذه الآية وما أشبهها دلت على أن الله بعث رسله عليهم الصلاة والسلام بالصلاح لا بالفساد، وبالمنافع لا بالمضار، وأنهم بعثوا بصلاح الدارين؛ فكل من كان أصلح؛ كان أقرب إلى اتباعهم.

﴿١٧١﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾: حين امتنعوا من قبول ما في التوراة، فألزمهم الله العمل، ونتق فوق رءوسهم الجبل، فصار فوقهم: ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾، وقيل لهم: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾؛ أي: بجد واجتهاد. ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾: دراسة ومباحثة واتصافًا بالعمل به، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾: إذا فعلتم ذلك.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾.

﴿١٧٢﴾، ﴿١٧٣﴾ يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ أي: أخرج من أصلابهم ذريتهم، وجعلهم يتناسلون ويتوالدون قرنًا بعد قرن. وحين أخرجهم من بطون

(١) ليست في الأصل، ط.

أمهاتهم وأصلاب آبائهم أشهدهم ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؛ أي: قررهم بإثبات ربوبيته بما أودعه في فطرهم من الإقرار بأنه ربهم وخالقهم ومليكهم. قالوا: بلى؛ قد أقررنا بذلك؛ فإن الله تعالى فطر عباده على الدين الحنيف القيم، فكل أحد فهو مفطور على ذلك، ولكن الفطرة قد تغير وتبدل بما يطرأ على العقول والعقائد الفاسدة، ولهذا ﴿قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾؛ أي: إنما امتحناكم حتى أقررتم بما تقرر عندكم من أن الله تعالى ربكم؛ خشية أن تنكروا يوم القيامة فلا تقروا بشيء من ذلك، وتزعمون أن حجة الله ما قامت عليكم، ولا عندكم بها علم، بل أنتم غافلون عنها لاهون؛ فاليوم قد انقطعت حجتكم، وثبتت الحجة البالغة لله عليكم. أو تحتجون أيضًا بحجة أخرى، فتقولون: ﴿إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾: فحذونا حذوهم، وتبعناهم في باطلهم. ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾؟ فقد أودع الله في فطركم ما يدلكم على أن ما مع آبائكم باطل، وأن الحق ما جاءت به الرسل، وهذا يقاوم ما وجدتم عليه آباءكم ويعلو عليه. نعم؛ قد يعرض للعبد من أقوال آبائه الضالين ومذاهبهم الفاسدة ما يظنه هو الحق، وما ذاك إلا لإعراضه عن حجج الله وبيناته وآياته الأفقية والنفسية؛ فإعراضه عن ذلك وإقباله على ما قاله المبطلون، ربما صيره بحالة يفضل بها الباطل على الحق. هذا هو الصواب في تفسير هذه الآيات.

وقد قيل: إن هذا يوم أخذ الله الميثاق على ذرية آدم حين استخرجهم من ظهره وأشهدهم على أنفسهم فشهدوا بذلك، فاحتج عليهم بما أمرهم[1] به في ذلك الوقت على ظلمهم في كفرهم وعنادهم في الدنيا والآخرة! ولكن ليس في الآية ما يدل على هذا، ولا له مناسبة، ولا تقتضيه حكمة الله تعالى، والواقع شاهد بذلك؛ فإن هذا العهد والميثاق الذي ذكروا أنه حين أخرج الله ذرية آدم من ظهره حين كانوا في عالم كالذر لا يذكره أحد ولا يخطر ببال آدمي؛ فكيف يحتج الله عليهم بأمر ليس عندهم به خبر ولا له عين ولا أثر؟!

﴿١٧٤﴾ ولهذا؛ لما كان هذا أمرًا واضحًا جليًّا؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾؛ أي: نبينها ونوضحها، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾: إلى ما أودع الله في فطرهم وإلى ما عاهدوا الله عليه فيرتدعون عن القبائح.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾.

﴿١٧٥﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾؛ أي: علمناه كتاب الله فصار العالم الكبير والحبر النحرير فانسلخ منها فأتبعه الشيطان؛ أي: انسلخ من الاتصاف الحقيقي بالعلم بآيات الله؛ فإن العلم بذلك يصير صاحبه متصفًا بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ويرقى إلى أعلى الدرجات وأرفع المقامات؛ فترك هذا كتاب الله وراء ظهره، ونبذ الأخلاق التي يأمر بها الكتاب، وخلعها كما يُخلع اللباس، فلما انسلخ منها؛ أتبعه الشيطان؛ أي: تسلط عليه حين خرج من الحصن الحصين وصار إلى أسفل سافلين، فأزه إلى المعاصي أزًّا، ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾: بعد أن كان من الراشدين المرشدين.

﴿١٧٦﴾ وهذا لأن الله تعالى خذله ووكله إلى نفسه؛ فلهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾: بأن نوفقه للعمل بها، فيرتفع في الدنيا والآخرة، فيتحصن من أعدائه، ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ﴾: فعل ما يقتضي الخذلان؛ إذ أخلد إلى الأرض؛ أي: إلى الشهوات السفلية والمقاصد الدنيوية، ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾: وترك طاعة مولاه. ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾: في شدة حرصه على الدنيا وانقطاع قلبه إليها ﴿كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾؛ أي: لا يزال لاهثًا في كل حال، وهذا لا يزال حريصًا حرصًا قاطعًا قلبه لا يسد فاقته شيء من الدنيا. ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: بعد أن ساقها الله إليهم، فلم ينقادوا لها، بل كذبوا بها وردوها لهوانهم على الله واتباعهم لأهوائهم بغير هدًى من الله. ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾: في ضرب الأمثال وفي العبر والآيات؛ فإذا تفكروا؛ علموا، وإذا علموا؛ عملوا.

(١) ع: «أقروا».

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ
لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ
بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾
وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي
أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ
يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ
كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ
هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ
أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا
هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ
أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ
فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ
عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

(١٧٧) ﴿ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) ﴾؛ أي: ساء وقبح مثل من كذب بآيات الله، وظلم نفسه بأنواع المعاصي؛ فإن مثلهم مثل السوء.

وهذا الذي آتاه الله آياته يحتمل أن المراد به شخص معين قد كان منه ما ذكره الله فقص الله قصته تنبيهًا للعباد، ويحتمل أن المراد بذلك أنه اسم جنس، وأنه شامل لكل من آتاه الله آياته فانسلخ منها.

وفي هذه الآيات الترغيب في العمل بالعلم، وأن ذلك رفعة من الله لصاحبه وعصمة من الشيطان، والترهيب من عدم العمل به، وأنه نزول إلى أسفل سافلين وتسليط للشيطان عليه. وفيه أن اتباع الهوى وإخلاد العبد إلى الشهوات يكون سببًا للخذلان.

(١٧٨) ثم قال تعالى مبينًا أنه المنفرد بالهداية والإضلال: ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ ﴾: بأن يوفقه للخيرات ويعصمه من المكروهات ويعلمه ما لم يكن يعلم، ﴿ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ﴾: حقًّا؛ لأنه آثر هدايته تعالى، ﴿ وَمَن يُضْلِلْ ﴾: فيخذله ولا يوفقه للخير، ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨) ﴾: لأنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين.

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) ﴾.

(١٧٩) يقول تعالى مبينًا كثرة الغاوين الضالين المتبعين إبليس اللعين: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا ﴾؛ أي: أنشأنا، وبثثنا ﴿ لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ﴾: صارت البهائم أحسن حالة منهم. ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾؛ أي: لا يصل إليها فقه ولا علم إلا مجرد قيام الحجة، ﴿ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾: ما ينفعهم، بل فقدوا منفعتها وفائدتها، ﴿ وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾: سماعًا يصل معناه إلى قلوبهم. ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾: الذين بهذه الأوصاف القبيحة ﴿ كَالْأَنْعَامِ ﴾؛ أي: البهائم التي فقدت العقول، وهؤلاء آثروا ما يفنى على ما يبقى فسلبوا خاصية العقل. ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾: من البهائم؛ فإن الأنعام مستعملة فيما خلقت له، ولها أذهان تدرك بها مضرتها من منفعتها؛ فلذلك كانت أحسن حالًا منهم. و﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) ﴾: الذين غفلوا عن أنفع الأشياء؛ غفلوا عن الإيمان بالله وطاعته وذكره، خلقت لهم الأفئدة والأسماع والأبصار لتكون عونًا لهم على القيام بأوامر الله وحقوقه، فاستعانوا بها على ضد هذا المقصود؛ فهؤلاء حقيقون بأن يكونوا ممن ذرأ الله لجهنم وخلقهم لها؛ فخلقهم للنار وبأعمال أهلها يعملون، وأما من استعمل هذه الجوارح في عبادة الله وانصبغ قلبه بالإيمان بالله ومحبته ولم يغفل عن الله؛ فهؤلاء أهل الجنة، وبأعمال أهل الجنة يعملون.

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠) ﴾.

(١٨٠) هذا بيان لعظيم جلاله وسعة أوصافه بأن له الأسماء الحسنى؛ أي: له كل اسم حسن، وضابطه أنه كل اسم دال على صفة كمال عظيمة، وبذلك كانت حسنى؛ فإنها لو دلت على غير صفة، بل كانت علمًا محضًا؛ لم تكن حسنى، وكذلك لو دلت على صفة ليست بصفة كمال، بل إما صفة نقص أو صفة منقسمة إلى المدح والقدح؛ لم تكن حسنى؛ فكل اسم من أسمائه دال على جميع الصفة التي اشتق منها،

مستغرق لجميع معناها، وذلك نحو: العليم الدال على أن له علمًا محيطًا عامًّا لجميع الأشـياء فلا يخرج عن علمه مثقال ذرة فـي الأرض ولا في السـماء، والرحيم الدال على أن له رحمة عظيمة واسـعة لكل شـيء، والقدير الدال على أن له قدرة عامة لا يعجزها شـيء... ونحو ذلك. ومن تمام كونها حسنى أنه لا يدعى إلا بها، ولذلك قال: ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾: وهذا شـامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة، فيدعى في كل مطلوب بما يناسـب ذلك المطلوب، فيقول الداعي مثلًا: اللهم اغفر لي، وارحمني؛ إنك أنت الغفور الرحيم. وتب علي يا تواب! وارزقني يا رزاق والطف بي يا لطيف، ونحو ذلك.

وقولـه: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾؛ أي: عقوبـة وعذابًا علـى إلحادهم في أسـمائه. وحقيقة الإلحاد: الميل بها عما جعلت له، إما بأن يسمى بها من لا يسـتحقها؛ كتسمية المشركين بها لآلهتهم، وإما بنفـي معانيها وتحريفها وأن يجعل لهـا معنًى ما أراده الله ولا رسـوله، وإما أن يشبه بها غيرها؛ فالواجب أن يحذر الإلحاد فيها ويحذر الملحدون فيها. وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة**»(١).

وقولـــــه: ﴿وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾.

﴿١٨١﴾ أي: ومن جملة من خلقنا أمة فاضلة كاملة في نفسها مكملة لغيرها يهدون أنفسهم وغيرهم بالحق فيعلمون الحق ويعملون به ويعلِّمونـه ويدعون إليه وإلى العمل به. ﴿وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾: بين الناس فـي أحكامهم إذا حكموا في الأموال والدماء والحقـوق والمقالات وغير ذلك. وهؤلاء هم أئمـة الهدى ومصابيـح الدجى، وهم الذيـن أنعم الله عليهم بالإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وهم الصديقون الذين مرتبتهم تلي مرتبة الرسـالة، وهم في أنفسـهم مراتب متفاوتة؛ كل بحسـب حاله وعلو منزلته؛ فسبحان من يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾.

﴿١٨٢﴾ أي: والذين كذبوا بآيات الله الدالة على صحة ما جاء به محمد ﷺ من الهدى فردوها ولم يقبلوها، ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾: بأن الله يدر لهم الأرزاق.

﴿١٨٣﴾ ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡ﴾؛ أي: أمهلهـم حتـى يظنـوا أنهـم لا يؤخذون ولا يعاقبون، فيزدادون كفرًا وطغيانًا وشـرًّا إلى شرهم، وبذلك تزيد عقوبتهم ويتضاعف عذابهم، فيضرون أنفسـهم من حيـث لا يعلمون. ولهذا قـال: ﴿إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾؛ أي: قوي بليغ.

﴿١٨٤﴾ ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم﴾: محمـد ﷺ ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾؛ أي: أولـم يُعْمِلـوا أفكارهـم وينظـروا هل في صاحبهـم الذي يعرفونه ولا يخفى عليهم من حاله شـيء؛ هل هو مجنون؟! فلينظروا في أخلاقه وهديه ودله وصفاته، وينظروا فيمـا دعا إليه؛ فـلا يجدون فيه مـن الصفات إلا أكملها، ولا من الأخلاق إلا أتمها، ولا من العقل والرأي إلا ما فاق به العالمين، ولا يدعو إلا لكل خير، ولا ينهى إلا عن كل شـر! أفبهذا يا أولي الألباب جنة؟! أم هو الإمام العظيم والناصح المبين والماجد الكريم والرءوف الرحيم؟! ولهذا قـال: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾؛ أي: يدعـو الخلق إلى ما ينجيهم من العذاب، ويحصِّل لهم الثواب.

﴿١٨٥﴾ ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾: فإنهـم إذا نظروا إليها؛ وجدوها أدلة دالـة على توحيد ربها وعلـى ما له من صفات الكمال. وكذلك لينظروا إلى جميع ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾: فـإن جميع أجزاء العالم تدل أعظم دلالة على علم الله وقدرته وحكمته وسعة رحمته وإحسانه ونفوذ مشيئته وغير ذلك من صفاته العظيمة الدالة على تفرده بالخلق والتدبير الموجبة لأن يكـون هو المعبود المحمود المسبح الموحد المحبوب. وقوله: ﴿وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡ﴾؛ أي: لينظروا فـي خصوص حالهم، وينظروا لأنفسـهم قبل أن يقترب أجلهم ويفجأهم الموت وهم في غفلة معرضون؛ فلا يتمكنون حينئذ من اسـتدراك الفارط.

(١) البخاري (٢٧٣٦)، مسلم (٢٦٧٧).

الجزء التاسع — سورة الأعراف

قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨ ۞هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠ أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ١٩١ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٢ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ١٩٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٩٤ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥

١٧٥

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ١٨٥﴾؛ أي: إذا لم يؤمنوا بهذا الكتاب الجليل؛ فبأي حديث يؤمنون به؟! أبكتب الكذب والضلال؟! أم بحديث كل مفترٍ دجال؟!

١٨٦ ولكن الضال لا حيلة فيه ولا سبيل إلى هدايته، ولهذا قال تعالى: ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٨٦﴾؛ أي: يتحيرون، يترددون لا يخرجون من طغيانهم، ولا يهتدون إلى حق.

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٧ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾.

١٨٧ يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ﴾؛ أي: المكذبون لك المتعنتون ﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا﴾؛ أي: متى وقتها الذي تجيء به؟ ومتى تحل بالخلق؟ ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي﴾؛ أي: إنه تعالى المختص بعلمها، ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا يظهرها لوقتها الذي قدر أن تقوم فيه إلا هو. ﴿ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: خفي علمها على أهل السماوات والأرض واشتد أمرها أيضًا عليهم فهم من الساعة مشفقون. ﴿لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗ﴾؛ أي: فجأة من حيث لا يشعرون لم يستعدوا لها ولم يتهيئوا لقيامها. ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَا﴾؛ أي: هم حريصون على سؤالك عن الساعة كأنك مستحفٍ عن السؤال عنها، ولم يعلموا أنك - لكمال علمك بربك وما ينفع السؤال عنه - غير مبالٍ بالسؤال[1] الخالي من المصلحة المتعذر علمه؛ فإنه لا يعلمها نبي مرسل ولا ملك مقرب، وهي من الأمور التي أخفاها عن الخلق لكمال حكمته وسعة علمه. ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٧﴾: فلذلك حرصوا على ما لا ينبغي الحرص عليه، وخصوصًا مثل حال هؤلاء الذين يتركون السؤال عن الأهم ويدعون ما يجب عليهم من العلم، ثم يذهبون إلى ما لا سبيل لأحد أن يدركه ولا هم مطالبون بعلمه.

١٨٨ ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾: فإني فقير مدبر، لا يأتيني خير إلا من الله، ولا يدفع عني الشر إلا هو، وليس لي من العلم إلا ما علمني الله تعالى. ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾؛ أي: لفعلت الأسباب التي أعلم أنها تنتج لي المصالح والمنافع، ولحذرت من كل ما يفضي إلى سوء ومكروه؛ لعلمي بالأشياء قبل كونها، وعلمي بما تفضي إليه، ولكني لعدم علمي قد ينالني ما ينالني من السوء وقد يفوتني ما يفوتني من مصالح الدنيا ومنافعها؛ فهذا أدل دليل على أني لا علم لي بالغيب. ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ﴾: أنذر العقوبات الدينية والدنيوية والأخروية، وأبين الأعمال المفضية إلى ذلك وأحذر منها. ﴿وَبَشِيرٞ﴾ وبشير بالثواب العاجل والآجل، ببيان الأعمال الموصلة إليه والترغيب فيها، ولكن ليس كل أحد يقبل هذه البشارة والنذارة، وإنما ينتفع بذلك ويقبله المؤمنون.

وهذه الآيات الكريمات مبينة جهل من يقصد النبي ﷺ ويدعوه لحصول نفع أو دفع ضر؛ فإنه ليس بيده شيء من

(١) زاد في ع، ط: «عنها، ولا حريص على ذلك، فلم لا يقتدون بك؟ ويكفون عن الاستحفاء عن هذا السؤال».

الأمر، ولا ينفع من لم ينفعه الله، ولا يدفع الضر عمن لم يدفعه الله عنه، ولا له من العلم إلا ما علمه الله تعالى، وإنما ينفع من قَبِلَ ما أرسل به من البشارة والنذارة وعمل بذلك؛ فهذا نفعه عليه السلام الذي فاق نفع الآباء والأمهات والأخلاء والإخوان، بما حث العباد على كل خير، وحذرهم عن كل شر، وبينه لهم غاية البيان والإيضاح.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾.

﴿١٨٩﴾ أي: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم﴾: أيها الرجال والنساء المنتشرون في الأرض على كثرتكم وتفرقكم، ﴿مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾: وهو آدم أبو البشر ﷺ، ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾؛ أي: خلق من آدم زوجته حواء. لأجل أن يسكن إليها، لأنها إذا كانت منه؛ حصل بينهما من المناسبة والموافقة ما يقتضي سكون أحدهما إلى الآخر، فانقاد كل منهما إلى صاحبه بزمام الشهوة. ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾؛ أي: تجللها مجامعًا لها؛ قدر الباري أن يوجد من تلك الشهوة - وذلك الجماع - النسل، وحينئذ ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾، وذلك في ابتداء الحمل لا تحس به الأنثى ولا يثقلها. ﴿فَلَمَّا﴾ استمرت و﴿أَثْقَلَت﴾ به حين كبر في بطنها؛ فحينئذ صار في قلوبهما الشفقة على الولد وعلى خروجه حيًّا صحيحًا سالمًا لا آفة فيه، لذلك ﴿دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا﴾: ولدًا: ﴿صَالِحًا﴾؛ أي: صالح الخلقة تامها لا نقص فيه، ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾.

﴿١٩٠﴾ ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا﴾: على وفق ما طلبا وتمت عليهما النعمة فيه، ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾؛ أي: جعلا لله شركاء في ذلك الولد الذي انفرد الله بإيجاده والنعمة به وأقر به أعين والديه، فعبَّداه لغير الله: إما أن يسمياه بعبد غير الله؛ كعبد الحارث وعبد العزى وعبد الكعبة ونحو ذلك، أو يشركا في الله في العبادة بعدما منَّ الله عليهما بما مَنَّ به مِنَ النعم التي لا يحصيها أحد من العباد، وهذا انتقال من النوع إلى الجنس؛ فإن أول الكلام في آدم وحواء، ثم انتقل الكلام في الجنس، ولا شك أن هذا موجود في الذرية كثيرًا؛ فلذلك قررهم الله على بطلان الشرك، وأنهم في ذلك ظالمون أشد الظلم، سواء كان الشرك في الأقوال أم في الأفعال؛ فإن الخالق لهم من نفس واحدة، الذي خلق منها زوجها، وجعل لهم من أنفسهم أزواجًا، ثم جعل بينهم من المودة والرحمة ما يسكن بعضهم إلى بعض ويألفه ويلتذ به، ثم هداهم إلى ما به تحصل الشهوة واللذة والأولاد والنسل، ثم أوجد الذرية في بطون الأمهات وقتًا موقتًا تتشوف إليه نفوسهم ويدعون الله أن يخرجه سويًّا صحيحًا، فأتم الله عليهم النعمة، وأنالهم مطلوبهم، أفلا يستحق أن يعبدوه ولا يشركوا به في عبادته أحدًا ويخلصوا له الدين؟!

﴿١٩١﴾، ﴿١٩٢﴾ ولكن الأمر جاء على العكس، فأشركوا بالله ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ﴾؛ أي: لعابديها ﴿نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾: فإذا كانت لا تخلق شيئًا ولا مثقال ذرة، بل هي مخلوقة، ولا تستطيع أن تدفع المكروه عمَّن يعبدها ولا عن أنفسها؛ فكيف تتخذ مع الله آلهة؟! إن هذا إلا أظلم الظلم وأسفه السفه.

﴿١٩٣﴾ ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾ أي: وإن تدعوا أيها المشركون، هذه الأصنام التي عبدتم من دون الله ﴿إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾: فصار الإنسان أحسن حالة منها؛ لأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تهدي ولا تهدى، وكل هذا إذا تصوره اللبيب العاقل تصورًا مجردًا؛ جزم ببطلان إلهيتها وسفاهة من عبدها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾.

﴿١٩٤﴾ وهذا من نوع التحدي للمشركين العابدين للأوثان؛ يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾؛ أي: لا فرق بينكم وبينهم؛ فكلكم عبيد لله مملوكون؛ فإن كنتم كما تزعمون صادقين في أنها تستحق من العبادة شيئًا؛ ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾: فإن

إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ (١٩٦)
وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ
أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ (١٩٧) وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ
وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ (١٩٨) خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ
بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ
ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ
ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ
فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ (٢٠١) وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ
لَا يُقۡصِرُونَ (٢٠٢) وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ
قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ
وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ (٢٠٣) وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ
فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ (٢٠٤) وَٱذۡكُر رَّبَّكَ
فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ
وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ
لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ (٢٠٦)

استجابوا لكم وحصّلوا مطلوبكم، وإلا؛ تبين أنكم كاذبون في هذه الدعوى مفترون على الله أعظم الفرية.

(١٩٥) وهـذا لا يحتاج إلى تبيين فيـه؛ فإنكم إذا نظرتم إليها؛ وجدتـم صورتهـا دالـة على أنه ليـس لديها من النفع شـيء؛ فليس لها أرجل تمشي بها، ولا أيد تبطش بها، ولا أعين تبصر بها، ولا آذان تسـمع بهـا؛ فهي عادمة لجميع الآلات والقوى الموجودة في الإنسـان؛ فإذا كانت لا تجيبكم إذا دعوتموها؛ فهـي عبـاد أمثالكم، بل أنتم أكمل منهـا وأقوى على كثير من الأشـياء؛ فـلأي شـيء عبدتموهـا؟! ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ (١٩٥)﴾؛ أي: اجتمعوا أنتم وشركاؤكم على إيقاع السوء والمكروه بي من غير إمهال ولا إنظار فإنكم غير بالغين لشيء من المكروه بي.

(١٩٦) ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ﴾ الـذي يتولانـي فيجلب لـي المنافع ويدفـع عنـي المضـار. ﴿ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾: الـذي فيـه الهدى والشفاء والنور، وهو من توليه وتربيته لعباده الخاصة الدينيـة. ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ (١٩٦)﴾: الذين صلحت نياتهم وأعمالهـم وأقوالهم؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]؛ فالمؤمنـون الصالحون لمَّا تولوا ربهم بالإيمان والتقوى ولم يتولوا غيره ممن لا ينفع ولا يضر؛ تولاهم الله ولطف بهم وأعانهم على ما فيـه الخير والمصلحة لهم في دينهـم ودنياهم ودفع عنهم بإيمانهـم كل مكـروه؛ كما قـال تعالـى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨].

﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ (١٩٧) وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ (١٩٨)﴾.

(١٩٧)، (١٩٨) وهـذا أيضًـا فـي بيـان عـدم استحقاق هـذه الأصنـام التي يعبدونها من دون الله شـيئًا مـن العبادة؛ لأنها ليس لها اسـتطاعة ولا اقتدار في نصر أنفسـها(١) ولا في نصر عابديهـا، وليس لها قوة العقل والاستجابة؛ فلو دعوتها إلى الهـدى؛ لـم تهتد، وهي صـور لا حياة فيهـا، فتراهم ينظرون إليـك وهـم لا يبصرون حقيقـة؛ لأنهم صوروهـا على صور الحيوانـات مـن الآدميين أو غيرهـم، وجعلـوا لهـا أبصـارًا وأعضـاء؛ فـإذا رأيتها؛ قلت: هـذه حية؛ فـإذا تأملتها؛ عرفت أنهـا جمـادات لا حـراك بهـا ولا حيـاة؛ فبـأي رأي اتخذها المشـركون آلهـة مـع اللـه؟! ولأي مصلحـة أو نفـع عكفوا عندهـا وتقربوا لها بأنواع العبـادات؟! فإذا عرف هذا؛ عرف أن المشـركين وآلهتهـم التي عبدوها لو اجتمعـوا وأرادوا أن يكيـدوا من تـولاه فاطـر السـماوات والأرض متولي أحوال عباده الصالحين؛ لم يقدروا على كيده بمثقال ذرة من الشـر؛ لكمـال عجزهم وعجزها وكمال قوة اللـه واقتداره وقوة من احتمى بجلاله وتوكل عليه، وقيل: إن معنى قوله: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ (١٩٨)﴾: إن الضميـر يعـود إلـى المشـركين المكذبين لرسـول اللـه ﷺ، فتحسـبهم ينظرون إليك يا رسـول الله نظر اعتبار يتبين به الصادق من الكاذب، ولكنهم لا يبصرون حقيقتك وما يتوسـمه المتوسـمون فيك من الجمال والكمال والصدق.

﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ (١٩٩)﴾.

(١٩٩) هذه الآية جامعة لحسـن الخلق مـع الناس وما ينبغي فـي معاملتهـم: فالـذي ينبغي أن يعامـل به النـاس: أن يأخذ

(١) ع، ط: «أنفسهم».

العفو؛ أي: ما سمحت به أنفسهم وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق؛ فلا يكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم، بل يشكر من كل أحد ما قابله به من قول وفعل جميل أو ما هو دون ذلك، ويتجاوز عن تقصيرهم ويغض طرفه عن نقصهم ولا يتكبر على الصغير لصغره ولا ناقص العقل لنقصه ولا الفقير لفقره، بل يعامل الجميع باللطف والمقابلة بما تقتضيه الحال وتنشرح له صدورهم. ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾؛ أي: بكل قول حسن وفعل جميل وخلق كامل للقريب والبعيد؛ فاجعل ما يأتي إلى الناس منك إما تعليم علم أو حث على خير من صلة رحم أو بر والدين أو إصلاح بين الناس أو نصيحة نافعة أو رأي مصيب أو معاونة على بر وتقوى أو زجر عن قبيح أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينية أو دنيوية. ولما كان لا بد من أذية الجاهل؛ أمر الله تعالى أن يقابل الجاهل بالإعراض عنه وعدم مقابلته بجهله؛ فمن آذاك بقوله أو فعله؛ لا تؤذه، ومن حرمك لا تحرمه، ومن قطعك فصله، ومن ظلمك فاعدل فيه.

وأما ما ينبغي أن يعامل به العبد شياطين الجن؛ فقال تعالى:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾.

﴿٢٠٠﴾ أي: أي وقت وفي أي حال، ﴿يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾؛ أي: تحس منه بوسوسة وتثبيط عن الخير أو حث على الشر وإيعاز به(١)، ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: التجئ واعتصم بالله واحتم بحماه. ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ لما تقول، ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾: بنيتك وضعفك وقوة التجائك له فسيحميك من فتنته ويقيك من وسوسته؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾﴾ [الناس: ١] إلى آخر السورة.

﴿٢٠١﴾ ولما كان العبد لا بد أن يغفل وينال منه الشيطان الذي لا يزال مرابطًا ينتظر غِرَّتَهُ وغفلته؛ ذكر تعالى علامة المتقين من الغاوين، وأن المتقي إذا أحس بذنب ومسه طائف من الشيطان فأذنب بفعل محرم أو ترك واجب؛ تذكر من أي باب أُتِيَ ومن أي مدخل دخل الشيطان عليه، وتذكر ما أوجب الله عليه وما عليه من لوازم الإيمان، فأبصر، واستغفر الله تعالى، واستدرك ما فرط منه بالتوبة النصوح والحسنات الكثيرة، فرد شيطانه خاسئًا حسيرًا؛ قد أفسد عليه كل ما أدركه منه.

﴿٢٠٢﴾ وأما إخوان الشياطين وأولياؤهم؛ فإنهم إذا وقعوا في الذنوب لا يزالون يمدونهم في الغي ذنبًا بعد ذنب، ولا يقصرون عن ذلك؛ فالشياطين لا تقصر عنهم بالإغواء؛ لأنها طمعت فيهم حين رأتهم سلسي القياد لها وهم لا يقصرون عن فعل الشر.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

﴿٢٠٣﴾ أي: لا يزال هؤلاء المكذبون لك في تعنت وعناد، ولو جاءتهم الآيات الدالة على الهدى والرشاد؛ فإذا جئتهم بشيء من الآيات الدالة على صدقك؛ لم ينقادوا. ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ﴾: من آيات الاقتراح التي يعينونها، ﴿قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾؛ أي: هلّا اخترت الآية فصارت الآية الفلانية أو المعجزة الفلانية، كأنك أنت المنزل للآيات المدبر لجميع المخلوقات، ولم يعلموا أنه ليس لك من الأمر شيء، أو(٢) لولا اخترعتها من نفسك، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى﴾: فأنا عبد متبع مدبر، والله تعالى هو الذي ينزل الآيات ويرسلها على حسب ما اقتضاه حمده، وطلبته حكمته البالغة؛ فإن أردتم آية لا تضمحل على تعاقب الأوقات وحجة لا تبطل في جميع الآنات؛ فإن ﴿هَٰذَا﴾: القرآن العظيم ﴿بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾: يستبصر به في جميع المطالب الإلهية والمقاصد الإنسانية، وهو الدليل والمدلول؛ فمن تفكر فيه وتدبره؛ علم أنه تنزيل من حكيم حميد، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبه قامت الحجة على كل من بلغه، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون، وإلا؛ فمن آمن؛ فهو هدى له من الضلال ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ له من الشقاء؛ فالمؤمن مهتد بالقرآن، متبع له، سعيد في دنياه وأخراه، وأما من لم يؤمن به؛ فإنه ضال شقي في الدنيا والآخرة.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾.

(١) ع، ط: «إليه».

(٢) زاد في ع، ط: «أن المعنى».

(٢٠٤) هـذا الأمـر عام فـي كل من سـمع كتـاب اللـه يتلى؛ فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات، والفرق بين الاستماع والإنصات أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه، وأما الاستماع له؛ فهو أن يلقي سمعه ويحضر قلبه ويتدبر ما يستمع؛ فإن من لازم على هذين الأمرين حين يتلى كتاب الله؛ فإنه ينال خيرًا كثيرًا وعلمًا غزيرًا وإيمانًا مستمرًّا متجددًا وهدًى متزايدًا وبصيرة في دينه، ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليهما، فدل ذلك على أن من تلي عليه الكتاب فلم يستمع له وينصت أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير.

ومن أوكد ما يؤمر به مستمع القرآن أنه يستمع له وينصت في الصلاة الجهرية إذا قرأ إمامه؛ فإنه مأمور بالإنصات حتى إن أكثر العلماء يقولون: إن اشتغاله بالإنصات أولى من قراءته الفاتحة وغيرها.

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ (٢٠٦) ﴾.

(٢٠٥) الذكر لله تعالى يكون بالقلب ويكون باللسان ويكون بهما وهو أكمل أنواع الذكر وأحواله، فأمر الله عبده ورسوله محمدًا أصلًا وغيره تبعًا بذكر ربه في نفسه؛ أي: مخلصًا خاليًا، ﴿ تَضَرُّعًا ﴾؛ أي: متضرعًا بلسانك مكررًا لأنواع الذكر، ﴿ وَخِيفَةً ﴾: في قلبك؛ بأن تكون خائفًا من الله، وجل القلب منه خوفًا أن يكون عملك غير مقبول، وعلامة الخوف أن يسعى ويجتهد في تكميل العمل وإصلاحه والنصح به. ﴿ وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾؛ أي: كن متوسطًا، لا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلًا - ﴿ بِٱلْغُدُوِّ ﴾: أول النهار، ﴿ وَٱلْآصَالِ ﴾: آخره، وهذان الوقتان فيهما مزية وفضيلة على غيرهما. ﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ (٢٠٥) ﴾: الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم؛ فإنهم حرموا خير الدنيا والآخرة، وأعرضوا عمن كل السعادة والفوز في ذكره وعبوديته، وأقبلوا على من كل الشقاوة والخيبة في الاشتغال به.

وهذه من الآداب التي ينبغي للعبد أن يراعيها حق رعايتها، وهي الإكثار من ذكر الله آناء الليل والنهار، خصوصًا طرفي النهار، مخلصًا خاشعًا متضرعًا متذللًا ساكنًا متواطئًا عليه قلبه ولسانه بأدب ووقار وإقبال على الدعاء والذكر وإحضار له بقلبه وعدم غفلة؛ فإن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه.

(٢٠٦) ثم ذكر تعالى أن له عبادًا مستديمين لعبادته، ملازمين لخدمته، وهم الملائكة؛ لتعلموا أن الله لا يريد أن يتكثر بعبادتكم من قلة، ولا ليتعزز بها من ذلة، وإنما يريد نفع أنفسكم، وأن تربحوا عليه أضعاف أضعاف ما عملتم، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾: من الملائكة المقربين وحملة العرش والكروبيين، ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾: بل يذعنون لها وينقادون لأوامر ربهم، ﴿ وَيُسَبِّحُونَهُۥ ﴾: الليل والنهار لا يفترون. ﴿ وَلَهُۥ ﴾ وحده لا شريك له ﴿ يَسْجُدُونَ (٢٠٦) ﴾: فليقتد العباد بهؤلاء الملائكة الكرام، وليداوموا على عبادة الملك العلام.

تم تفسير سورة الأعراف.

ولله الحمد والشكر والثناء. وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم



تفسير سورة الأنفال

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ ۖ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿١﴾ الأنفال: هي الغنائم التي ينفِّلُها الله لهذه الأمة من أموال الكفار. وكانت هذه الآيات في هذه السورة قد نزلت في قصة بدر، أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون من المشركين، فحصل بين بعض المسلمين فيها نزاع، فسألوا رسول الله ﷺ عنها، فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ﴾: كيف تقْسم؟ وعلى من تقسم؟ ﴿قُلِ﴾ لهم: الأنفال لله ورسوله يضعانها حيث شاءا؛ فلا اعتراض لكم على حكم الله ورسوله، بل عليكم إذا حكم الله ورسوله أن ترضوا بحكمهما وتسلموا الأمر لهما، وذلك داخل في قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾؛ أي: أصلحوا ما بينكم من التشاحن والتقاطع والتدابر بالتوادد والتحاب والتواصل؛ فبذلك تجتمع كلمتكم ويزول ما يحصل - بسبب التقاطع - من التخاصم والتشاجر والتنازع.

ويدخل في إصلاح ذات البين تحسين الخلق لهم والعفو عن المسيئين منهم؛ فإنه بذلك يزول كثير مما يكون في القلوب من البغضاء والتدابر، والأمر الجامع لذلك كله قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾: فإن الإيمان يدعو إلى طاعة الله ورسوله؛ كما أن من لم يطع الله ورسوله فليس بمؤمن، ومن نقصت طاعته لله ورسوله؛ فذلك لنقص إيمانه.

﴿٢﴾ ولما كان الإيمان قسمين: إيمانًا كاملًا يترتب عليه المدح والثناء والفوز التام، وإيمانًا دون ذلك؛ ذكر الإيمان الكامل، فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾: الألف واللام

الجزء التاسع — سورة الأنفال

سورة الأنفال — مدنية ٨ — آياتها ٧٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ ۖ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

١٧٧

للاستغراق لشرائع الإيمان، ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: خافت ورهبت فأوجبت لهم خشية الله تعالى الانكفاف عن المحارم؛ فإن خوف الله تعالى أكبر علاماته أن يحجز[1] صاحبه عن الذنوب. ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾: ووجه ذلك أنهم يلقون له السمع ويحضرون قلوبهم لتدبره؛ فعند ذلك يزيد إيمانهم؛ لأن التدبر من أعمال القلوب، ولأنه لا بد أن يبين لهم معنى كانوا يجهلونه ويتذكرون[2] ما كانوا نسوه أو يحدث في قلوبهم رغبة في الخير واشتياقًا إلى كرامة ربهم أو وجَلًا من العقوبات وازدجارًا عن المعاصي، وكل هذا مما يزداد به الإيمان. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: وحده لا شريك له ﴿يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾؛ أي: يعتمدون في قلوبهم على ربهم في جلب مصالحهم ودفع مضارهم الدينية والدنيوية، ويثقون بأن الله تعالى سيفعل ذلك، والتوكل هو الحامل للأعمال كلها؛ فلا توجد ولا تكمل إلا به.

---

(١) ع: «يحجر».
(٢) ع: «أو يتذكرون».

﴿٣﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾: من فرائض ونوافل، بأعمالها الظاهرة والباطنة؛ كحضور القلب فيها، الذي هو روح الصلاة ولُبُّها، ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾: النفقات الواجبة؛ كالزكوات والكفارات والنفقة على الزوجات والأقارب وما ملكت أيمانهم، والمستحبة؛ كالصدقة في جميع طرق الخير.

﴿٤﴾ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾: الذين اتصفوا بتلك الصفات، ﴿ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾: لأنهم جمعوا بين الإسلام والإيمان، بين الأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة، بين العلم والعمل، بين أداء حقوق الله وحقوق عباده.

وقدم تعالى أعمال القلوب لأنها أصل لأعمال الجوارح وأفضل منها. وفيها دليل على أن الإيمان يزيد وينقص؛ فيزيد بفعل الطاعة وينقص بضدها. وأنه ينبغي للعبد أن يتعاهد إيمانه ويُنْميه. وأن أولى ما يحصل به ذلك تدبر كتاب الله تعالى والتأمل لمعانيه. ثم ذكر ثواب المؤمنين حقًّا، فقال: ﴿ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾؛ أي: عالية بحَسَب علو أعمالهم. ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾: لذنوبهم، ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾: وهو ما أعد الله لهم في دار كرامته مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ودل هذا على أن من لم يصل إلى درجتهم في الإيمان وإن دخل الجنة؛ فلن ينال ما نالوا من كرامة الله التامة.

﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

قدم تعالى أمام هذه الغزوة الكبرى المباركة الصفات التي على المؤمنين أن يقوموا بها؛ لأن من قام بها؛ استقامت أحواله وصلحت أعماله، التي من أكبرها الجهاد في سبيله.

﴿٥﴾، ﴿٦﴾ فكما أن إيمانهم هو الإيمان الحقيقي وجزاءهم هو الحق الذي وعدهم الله به؛ كذلك أخرج الله رسوله ﷺ من بيته إلى لقاء المشركين في بدر بالحق الذي يحبه الله تعالى وقد قدره وقضاه، وإن كان المؤمنون لم يخطر ببالهم في ذلك الخروج أنه يكون بينهم وبين عدوهم قتال؛ فحين تبين لهم أن ذلك واقع؛ جعل فريق من المؤمنين يجادلون النبي ﷺ في ذلك ويكرهون لقاء عدوهم كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون! والحال أن هذا لا ينبغي منهم، خصوصًا بعدما تبين لهم أن خروجهم بالحق ومما أمر الله به ورضيه؛ فبهذه الحال ليس للجدال فيها محل؛ لأن الجدال محله وفائدته عند اشتباه الحق والتباس الأمر، فأما إذا وَضَح وبان؛ فليس إلا الانقياد والإذعان. هذا؛ وكثير من المؤمنين لم يجر منهم من هذه المجادلة شيء ولا كرهوا لقاء عدوهم، وكذلك الذين عاتبهم الله انقادوا للجهاد أشد الانقياد، وثبتهم الله، وقيض لهم من الأسباب ما تطمئن به قلوبهم كما سيأتي ذكر بعضها.

﴿٧﴾ وكان أصل خروجهم يتعرضون لعير خرجت مع أبي سفيان بن حرب لقريش إلى الشام؛ قافلة كبيرة، فلما سمعوا برجوعها من الشام؛ ندب النبي ﷺ الناس، فخرج معه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا معهم سبعون بعيرًا يعتقبون عليها ويحملون عليها متاعهم، فسمع بخبرهم قريش، فخرجوا لمنع عيرهم في عَدد كثير وعُدد وافرة من السلاح والخيل والرجال، يبلغ عددهم قريبًا من الألف، فوعد الله المؤمنين إحدى الطائفتين: إما أن يظفروا بالعير، أو بالنفير، فأحبوا العير لقلة ذات يد المسلمين ولأنها غير ذات الشوكة. ولكن الله تعالى أحب لهم وأراد أمرًا أعلى مما أحبوا، أراد أن يظفروا بالنفير الذي خرج فيه كبراء المشركين وصناديدهم. ﴿ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ فينصر أهله، ﴿ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ ﴾؛ أي: يستأصل أهل الباطل ويُري عباده من نصره للحق أمرًا لم يكن يخطر ببالهم.

﴿٨﴾ ﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ ﴾: بما يظهر من الشواهد والبراهين على صحته وصدقه، ﴿ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ ﴾: بما يقيم من الأدلة والشواهد على بطلانه، ﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ ﴾: فلا يبالي الله بهم.

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ

عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ
ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ
فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ
لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿٩﴾ أي: اذكروا نعمة الله عليكم لما قارب التقاؤكم بعدوكم؛ استغثتم بربكم وطلبتم منه أن يعينكم وينصركم، ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾: وأغاثكم بعدة أمور؛ منها: أن الله أمدكم ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾؛ أي: يردف بعضهم بعضًا.

﴿١٠﴾ ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: إنزال الملائكة ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾؛ أي: لتستبشر بذلك نفوسكم، ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾: وإلا؛ فالنصر بيد الله، ليس بكثرة عَدد ولا عُدد. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾: لا يغالبه مغالب، بل هو القهار الذي يخذل من بلغوا من الكثرة وقوة العدد والآلات ما بلغوا، ﴿حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾: حيث قدر الأمور بأسبابها ووضع الأشياء مواضعها.

﴿١١﴾ ومن نصره واستجابته لدعائكم أن أنزل عليكم نعاسًا ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾؛ أي: فيذهب ما في قلوبكم من الخوف والوجل، ويكون ﴿أَمَنَةً﴾: لكم وعلامة على النصر والطمأنينة. ومن ذلك أنه أنزل عليكم من السماء مطرًا ليطهركم به من الحدث والخبث، وليطهركم به من وساوس الشيطان ورِجْزه، ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾؛ أي: يثبتها؛ فإن ثبات القلب أصل ثبات البدن، ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾: فإن الأرض كانت سهلة دهسة، فلما نزل عليها المطر؛ تلبدت، وثبتت به[1] الأقدام.

﴿١٢﴾ ومن ذلك أن الله أوحى إلى الملائكة: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾: بالعون والنصر والتأييد، ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: ألقوا في قلوبهم وألهموهم الجراءة على عدوهم ورغبوهم في الجهاد وفضله. ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾: الذي هو أعظم جند لكم عليهم؛ فإن الله إذا ثبت المؤمنين وألقى الرعب في قلوب الكافرين؛ لم يقدر

(١) ع: «بها».

الجزء التاسع — سورة الأنفال

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ
مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ
وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ
عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ
ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾
إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ
سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ
ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ
شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ
عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ
دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ
بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

١٧٨

الكافرون على الثبات لهم، ومنحهم الله أكتافهم، ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾؛ أي: على الرقاب، ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾؛ أي: مفصل. وهذا خطاب: إما للملائكة الذين أوحى الله إليهم أن يثبتوا الذين آمنوا فيكونَ في ذلك دليل أنهم باشروا القتال يوم بدر، أو للمؤمنين يشجعهم الله ويعلمهم كيف يقتلون المشركين وأنهم لا يرحمونهم.

﴿١٣﴾ ذلك لأنهم شاقوا الله ورسوله؛ أي: حاربوهما وبارزوهما بالعداوة، ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾: ومن عقابه تسليط أوليائه على أعدائه وتقتيلهم.

﴿١٤﴾ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾: العذاب المذكور، ﴿فَذُوقُوهُ﴾: أيها المشاقون[2] لله ورسوله عذابًا معجلاً. ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾.

وفي هذه القصة من آيات الله العظيمة ما يدل على أن ما جاء به محمد ﷺ رسول الله حقًا:

(٢) ط: «المشاقون».

منها: أن الله وعدهم وعدًا فأنجزهموه.

ومنها: ما قال الله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ﴾ [آل عمران: ١٣] الآية.

ومنها: إجابة دعوة الله للمؤمنين لما استغاثوه بما ذكره من الأسباب.

وفيها الاعتناء العظيم بحال عباده المؤمنين وتقييض الأسباب التي بها ثبت إيمانهم، وثبتت أقدامهم، وزال عنهم المكروه والوساوس الشيطانية.

ومنها: أن من لطف الله بعبده أن يسهل عليه طاعته وييسرها بأسباب داخلية وخارجية.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿١٥﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالشجاعة الإيمانية والقوة في أمره والسعي في جلب الأسباب المقوية للقلوب والأبدان، ونهاهم عن الفرار إذا التقى الزحفان، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا ﴾؛ أي: في صف القتال وتزاحف الرجال واقتراب بعضهم من بعض، ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ ﴾: بل اثبتوا لقتالهم واصبروا على جلادهم؛ فإن في ذلك نصرة لدين الله وقوة لقلوب المؤمنين وإرهابًا للكافرين.

﴿١٦﴾ ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ ﴾؛ أي: رجع ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ ﴾؛ أي: مقره ﴿جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾.

وهذا يدل على أن الفرار من الزحف من غير عذر من أكبر الكبائر؛ كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة، وكما نص هنا على وعيده بهذا الوعيد الشديد. ومفهوم الآية أن المتحرف للقتال - وهو الذي ينحرف من جهة إلى أخرى ليكون أمكن له في القتال وأنكى لعدوه - فإنه لا بأس بذلك؛ لأنه لم يول دبره فارًّا، وإنما ولى دبره ليستعلي على عدوه أو يأتيه من محل يصيب فيه غرته أو ليخدعه بذلك أو غير ذلك من مقاصد المحاربين. وأن المتحيز إلى فئة تمنعه وتعينه على قتال الكفار؛ فإن ذلك جائز؛ فإن كانت الفئة في العسكر؛ فالأمر في هذا واضح، وإن كانت الفئة في غير محل المعركة؛ كانهزام المسلمين بين يدي الكافرين والتجائهم إلى بلد من بلدان المسلمين أو إلى عسكر آخر من عسكر المسلمين؛ فقد ورد من آثار الصحابة ما يدل على أن هذا جائز، ولعل هذا يقيد بما إذا ظن المسلمون أن الانهزام أحمد عاقبةً وأبقى عليهم، أما إذا ظنوا غلبتهم للكفار في ثباتهم لقتالهم؛ فيبعد في هذه الحال أن تكون من الأحوال المرخص فيها؛ لأنه على هذا لا يتصور الفرار المنهي عنه. وهذه الآية مطلقة، وسيأتي في آخر السورة تقييدها بالعدد.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿١٧﴾ يقول تعالى لما انهزم المشركون يوم بدر وقتلهم المسلمون: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ﴾: بحولكم وقوتكم، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾: حيث أعانكم على ذلك بما تقدم ذكره، ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾: وذلك أن النبي ﷺ وقت القتال دخل العريش، وجعل يدعو الله، ويناشده في نصرته، ثم خرج منه، فأخذ حفنة من تراب، فرماها في وجوه المشركين، فأوصلها الله إلى وجوههم، فما بقي منهم واحد إلا وقد أصاب وجهه وفمه وعينيه منها؛ فحينئذ انكسر حدهم وفتر زندهم وبان فيهم الفشل والضعف فانهزموا. يقول تعالى لنبيه: لست بقوتك حين رميت التراب أوصلته إلى أعينهم، وإنما أوصلناه إليهم بقوتنا واقتدارنا. ﴿وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ﴾؛ أي: إن الله تعالى قادر على انتصار المؤمنين من الكافرين من دون مباشرة قتال، ولكن الله أراد أن يمتحن المؤمنين ويوصلهم بالجهاد إلى أعلى الدرجات وأرفع المقامات ويعطيهم أجرًا حسنًا وثوابًا جزيلًا. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾: يسمع تعالى ما أسر به العبد وما أعلن، ويعلم ما في قلبه من النيات الصالحة وضدها، فيقدِّرُ على العباد أقدارًا موافقة لعلمه وحكمته ومصلحة عباده، ويجزي كلا بحسب نيته وعمله.

(١٨) ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾: النصر من الله لكم، ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ (١٨) ﴾؛ أي: مضعف كل مكر وكيد يكيدون به الإسلام وأهله، وجاعل مكرهم محيقًا بهم.

(١٩) ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ ﴾: أيها المشركون؛ أي: تطلبون من الله أن يوقع بأسه وعذابه على المعتدين الظالمين، ﴿ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾: حين أوقع الله بكم من عقابه ما كان نكالًا لكم وعبرة للمتقين. ﴿ وَإِن تَنتَهُوا۟ ﴾: عن الاستفتاح ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾: لأنه ربما أمهلكم[1] ولم يُعجِّل لكم النقمة. ﴿ وَإِن تَعُودُوا۟ ﴾: إلى الاستفتاح وقتال حزب الله المؤمنين ﴿ نَعُدْ ﴾: في نصرهم عليكم، ﴿ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ ﴾؛ أي: أعوانكم وأنصاركم الذين تحاربون وتقاتلون معتمدين عليهم شيئًا. ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٩) ﴾: ومن كان الله معه؛ فهو المنصور، وإن كان ضعيفًا قليلًا عدده.

وهذه المعية التي أخبر الله أنه يؤيد بها المؤمنين تكون بحسب ما قاموا به من أعمال الإيمان؛ فإذا أديل العدو على المؤمنين في بعض الأوقات؛ فليس ذلك إلا تفريطًا من المؤمنين وعدم قيام بواجب الإيمان ومقتضاه، وإلا؛ فلو قاموا بما أمر الله به من كل وجه؛ لما انهزم لهم راية انهزامًا مستقرًّا ولا أديل عليهم عدوهم أبدًا.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) ﴾.

(٢٠) لما أخبر تعالى أنه مع المؤمنين؛ أمرهم أن يقوموا بمقتضى الإيمان الذي يدركون به معيته، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾: بامتثال أمرهما واجتناب نهيهما. ﴿ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ ﴾؛ أي: عن هذا الأمر الذي هو طاعة الله وطاعة رسوله، ﴿ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) ﴾: ما يتلى عليكم من كتاب الله وأوامره ووصاياه ونصائحه؛ فتوليكم في هذه الحال من أقبح الأحوال.

(٢١) ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) ﴾؛ أي: لا تكتفوا بمجرد الدعوى الخالية التي لا حقيقة لها؛ فإنها حالة لا يرضاها الله ولا رسوله، فليس الإيمان بالتمني والتحلي، ولكنه ما وقر في القلوب، وصدقته الأعمال.

(١) ع: «أمهلتم».

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ (١٨) إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٩) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٢٥)

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣) ﴾.

(٢٢) يقول تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ﴾: من لم تفد فيهم الآيات والنذر، وهم ﴿ ٱلصُّمُّ ﴾: عن استماع الحق، ﴿ ٱلْبُكْمُ ﴾: عن النطق به، ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) ﴾: ما ينفعهم ويؤثرونه على ما يضرهم؛ فهؤلاء شر عند الله من شرار[2] الدواب؛ لأن الله أعطاهم أسماعًا وأبصارًا وأفئدة ليستعملوها في طاعة الله، فاستعملوها في معاصيه، وعدموا بذلك الخير الكثير؛ فإنهم كانوا بصدد أن يكونوا من خيار البرية، فأبوا هذا الطريق، واختاروا لأنفسهم أن يكونوا من شر البرية. والسمع الذي نفاه الله عنهم سمع المعنى المؤثر في القلب، وأما سمع الحجة؛ فقد قامت حجة الله تعالى عليهم بما سمعوه من آياته.

(٢) ع: «جميع».

وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ (٢٩) وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ (٣٠) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)

(٢٣) وإنما لم يسمعهم السماع النافع؛ لأنه لم يعلم فيهم خيرًا يصلحون به لسماع آياته. ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ ﴾: على الفرض والتقدير، ﴿لَتَوَلَّواْ﴾: عن الطاعة ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣)﴾: لا التفات لهم إلى الحق بوجه من الوجوه. وهذا دليل على أن الله تعالى لا يمنع الإيمان والخير إلا لمن لا خير فيه الذي لا يزكو لديه ولا يثمر عنده، وله الحمد تعالى والحكمة في هذا.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٢٥) ﴾.

(٢٤) يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان منهم، وهو الاستجابة لله وللرسول؛ أي: الانقياد لما أمرا به والمبادرة إلى ذلك والدعوة إليه، والاجتناب لما نهيا عنه والانكفاف عنه والنهي عنه. وقوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾: وصف ملازم لكل ما دعا الله ورسوله إليه وبيان لفائدته وحكمته؛ فإن حياة القلب والروح بعبودية الله تعالى ولزوم طاعته وطاعة رسوله على الدوام. ثم حذر عن عدم الاستجابة لله وللرسول، فقال: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾: فإياكم أن تردوا أمر الله أول ما يأتيكم، فيحال بينكم وبينه إذا أردتموه بعد ذلك، وتختلف قلوبكم؛ فإن الله يحول بين المرء وقلبه؛ يقلب القلوب حيث شاء، ويصرفها أنى شاء، فليكثر العبد من قول: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، يا مصرف القلوب اصرف قلبي إلى طاعتك. ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) ﴾؛ أي: تجمعون ليوم لا ريب فيه، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بعصيانه.

(٢٥) ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾: بل تصيب فاعل الظلم وغيره، وذلك إذا ظهر الظلم فلم يغير؛ فإن عقوبته تعم الفاعل وغيره. وتقوى هذه الفتنة بالنهي عن المنكر وقمع أهل الشر والفساد وألا يمكنوا من المعاصي والظلم مهما أمكن. ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٢٥) ﴾: لمن تعرض لمساخطه وجانب رضاه.

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) ﴾.

(٢٦) يقول تعالى ممتنًّا على عباده في نصرهم بعد الذلة وتكثيرهم بعد القلة وإغنائهم بعد العَيْلة[1]: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي: مقهورون تحت حكم غيركم، ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ ﴾؛ أي: يأخذونكم، ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾: فجعل لكم بلدًا تأوون إليه، وانتصر من أعدائكم على أيديكم، وغنمتم من أموالهم ما كنتم به أغنياء، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) ﴾: الله على منته العظيمة وإحسانه التام بأن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئًا.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) ﴾.

(١) أي: الفقر.

(٢٧) يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يؤدوا ما ائتمنهم الله عليه من أوامره ونواهيه؛ فإن الأمانة قد عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلومًا جهولًا؛ فمن أدى الأمانة؛ استحق من الله الثواب الجزيل، ومن لم يؤدها، بل خانها؛ استحق العقاب الوبيل، وصار خائنًا لله وللرسول ولأمانته، منقصًا لنفسه بكونه اتصفت نفسه بأخس الصفات وأقبح الشيات، وهي الخيانة، مفوتًا لها أكمل الصفات وأتمها، وهي الأمانة.

(٢٨) ولما كان العبد ممتحنًا بأمواله وأولاده، فربما حمله محبة ذلك على تقديم هوى نفسه على أداء أمانته؛ أخبر الله تعالى أن الأموال والأولاد فتنة يبتلي الله بهما عباده، وأنها عارية ستؤدى لمن أعطاها وترد لمن استودعها. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٨﴾: فإن كان لكم عقل ورأي؛ فآثروا فضله العظيم على لذة صغيرة فانية مضمحلة؛ فالعاقل يوازن بين الأشياء، ويؤثر أولاها بالإيثار وأحقها بالتقديم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾.

(٢٩) امتثال العبد لتقوى ربه عنوان السعادة وعلامة الفلاح، وقد رتب الله على التقوى من خير الدنيا والآخرة شيئًا كثيرًا، فذكر هنا أن من اتقى الله؛ حصل له **أربعة أشياء**، كل واحد منها خير من الدنيا وما فيها: **الأول**: الفرقان، وهو العلم والهدى الذي يفرق به صاحبه بين الهدى والضلال والحق والباطل والحلال والحرام وأهل السعادة من أهل الشقاوة. **الثاني والثالث**: تكفير السيئات ومغفرة الذنوب، وكل واحد منهما داخل في الآخر عند الإطلاق، وعند الاجتماع يفسر تكفير السيئات بالذنوب الصغائر، ومغفرة الذنوب بتكفير الكبائر. **الرابع**: الأجر العظيم والثواب الجزيل لمن اتقاه وآثر رضاه على هوى نفسه. ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾.

﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾.

(٣٠) أي: واذكر أيها الرسول ما منَّ الله به عليك إذ ﴿يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: حين تشاور المشركون في دار الندوة فيما يصنعون بالنبي ﷺ: إما أن يثبتوه عندهم بالحبس ويُوثقوه، وإما أن يقتلوه فيستريحوا - بزعمهم - من شره، وإما أن يخرجوه ويجلوه من ديارهم؛ فكل أبدى من هذه الآراء رأيًا رآه، فاتفق رأيهم على رأي رآه شريرهم أبو جهل لعنه الله، وهو أن يأخذوا من كل قبيلة من قبائل قريش فتى، ويعطوه سيفًا صارمًا، ويقتله الجميع قتلة رجل واحد؛ ليتفرق دمه في القبائل، فيرضى بنو هاشم ثَمَّ بديته، فلا يقدرون على مقاومة جميع[1] قريش، فترصدوا للنبي ﷺ في الليل ليوقعوا به إذا قام من فراشه، فجاءه الوحي من السماء، وخرج عليهم، فذرَّ على رءوسهم التراب وخرج، وأعمى الله أبصارهم عنه، حتى إذا استبطئوه؛ جاءهم آت وقال: خيبكم الله؛ قد خرج محمد وذرَّ على رءوسكم التراب، فنفض كل منهم التراب عن رأسه، ومنع الله رسوله منهم، وأذن له في الهجرة إلى المدينة، فهاجر إليها، وأيده الله بأصحابه المهاجرين والأنصار، ولم يزل أمره يعلو حتى دخل مكة عنوة وقهر أهلها فأذعنوا له وصاروا تحت حكمه بعد أن خرج مستخفيًا منهم خائفًا على نفسه؛ فسبحان اللطيف بعبده الذي لا يغالبه مغالب. وقوله:

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣١ وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٢ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ٣٣ وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٤﴾.

(٣١) يقول تعالى في بيان عناد المكذبين للرسول ﷺ: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا﴾: الدالة على صدق ما جاء به الرسول، ﴿قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣١﴾: وهذا من عنادهم وظلمهم؛ وإلا؛ فقد تحداهم الله أن يأتوا بسورة من مثله، ويدعوا من استطاعوا من دون الله، فلم يقدروا على ذلك، وتبين عجزهم؛ فهذا القول الصادر من هذا القائل مجرد دعوى،

(١) ع: «سائر».

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ
عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ
بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ
أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ
عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ
يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ
الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ
فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُلْ لِلَّذِينَ
كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا
فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ
لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ
انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا
فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

كذّبه الواقع، وقد علم أنه ﷺ أمّيٌّ، لا يقرأ، ولا يكتب، ولا رحل ليدرس من أخبار الأولين، فأتى بهذا الكتاب الجليل الذي ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ **[فصلت: ٤٢].**

(٣٢) ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا ﴾: **الذي يدعو إليه محمد،** ﴿ هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾: **قالوه على وجه الجزم منهم بباطلهم، والجهل بما ينبغي من الخطاب؛ فلو أنهم إذا قاموا على باطلهم من الشبه والتمويهات ما أوجب لهم أن يكونوا على بصيرة ويقين منه قالوا لمن ناظرهم وادعى أن الحق معه: إن كان هذا هو الحق من عندك؛ فاهدنا له؛ لكان أولى لهم وأستر لظلمهم؛ فمذ قالوا:** ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ ﴾ **الآية؛ علم بمجرد قولهم أنهم السفهاء الأغبياء الجهلة الظالمون.**

(٣٣) **فلو عاجلهم الله بالعقاب؛ لما أبقى منهم باقية، ولكنه تعالى دفع عنهم العذاب بسبب وجود الرسول بين أظهرهم، فقال:** ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾: **فوجوده ﷺ(١) أمنة لهم من العذاب، وكانوا مع قولهم هذه المقالة التي يظهرونها على رءوس الأشهاد يدرون بقبحها، فكانوا يخافون من وقوعها فيهم، فيستغفرون الله تعالى؛ فلهذا قال:** ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾: **فهذا مانع يمنع من وقوع العذاب بهم بعدما انعقدت أسبابه.**

(٣٤) **ثم قال:** ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ ﴾؛ **أي: أي شيء يمنعهم من عذاب الله وقد فعلوا ما يوجب ذلك؟ وهو صد الناس عن المسجد الحرام، خصوصًا صدهم النبي ﷺ وأصحابه الذين هم أولى به منهم، ولهذا قال:** ﴿ وَمَا كَانُوا ﴾؛ **أي: المشركون،** ﴿ أَوْلِيَاءَهُ ﴾: **يحتمل أن الضمير يعود إلى الله؛ أي: أولياء الله، ويحتمل أن يعود إلى المسجد الحرام؛ أي: وما كانوا أولى به من غيرهم.** ﴿ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ﴾: **وهم الذين آمنوا بالله ورسوله وأفردوا الله بالتوحيد والعبادة وأخلصوا له الدين.** ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾: **فلذلك ادعوا لأنفسهم أمرًا غيرهم أولى به.**

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

(٣٥) **يعني: أن الله تعالى إنما جعل بيته الحرام ليقام فيه دينه وتُخلص له فيه العبادة؛ فالمؤمنون هم الذين قاموا بهذا الأمر، وأما هؤلاء المشركون الذين يصدون عنه؛ فما كان صلاتهم فيه، التي هي أكبر أنواع العبادات** ﴿ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾؛ **أي: صفيرًا وتصفيقًا؛ فعل الجهلة الأغبياء، الذين ليس في قلوبهم تعظيم لربهم ولا معرفة بحقوقه ولا احترام لأفضل البقاع وأشرفها؛ فإذا كانت هذه صلاتهم فيه؛ فكيف ببقية العبادات؟! فبأي شيء كانوا أولى بهذا البيت من المؤمنين، الذين هم في صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون؟!... إلى آخر ما وصفهم الله به من الصفات الحميدة والأفعال السديدة لا جرم أورثهم الله بيته الحرام ومكنهم منه، وقال بعدما مكن لهم فيه:** ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ **[التوبة: ٢٨]، وقال هنا:** ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

(١) زاد في ع، ط: «بين أظهرهم».

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿٣٦﴾ يقول تعالى مبينًا لعداوة المشركين وكيدهم ومكرهم ومبارزتهم لله ولرسوله وسعيهم في إطفاء نوره وإخماد كلمته، وأن وبال مكرهم سيعود عليهم، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: ليبطلوا الحق، وينصروا الباطل، ويبطل توحيد الرحمن، ويقوم دين عبادة الأوثان.

﴿ فَسَيُنفِقُونَهَا ﴾؛ أي: فسيصدرون هذه النفقة، وتخف عليهم، لتمسكهم بالباطل، وشدة بغضهم للحق، ولكنها ﴿ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ﴾؛ أي: ندامة وخزيًا وذلًّا، ﴿ ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾: فتذهب أموالهم وما أملوا، ويعذبون في الآخرة أشد العذاب، ولهذا قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾؛ أي: يجمعون إليها ليذوقوا عذابها، وذلك لأنها دار الخبث والخبثاء.

﴿٣٧﴾ والله تعالى يريد أن يميز الخبيث من الطيب، ويجعل كل واحدة على حدة وفي دار تخصه، فيجعل الخبيث بعضه على بعض من الأعمال والأموال والأشخاص، ﴿ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾: الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين.

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿٣٨﴾ هذا من لطفه تعالى بعباده؛ لا يمنعه كفر العباد ولا استمرارهم في العناد من أن يدعوهم إلى طريق الرشاد والهدى وينهاهم عما يهلكهم من أسباب الغي والردى، فقال: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ ﴾: عن كفرهم، وذلك بالإسلام لله وحده لا شريك له، ﴿ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾: منهم من الجرائم. ﴿ وَإِن يَعُودُواْ ﴾: إلى كفرهم وعنادهم، ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾: بإهلاك الأمم المكذبة؛ فلينتظروا ما حل بالمعاندين؛ فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون. فهذا خطابه للمكذبين.

﴿٣٩﴾ وأما خطابه للمؤمنين عندما أمرهم بمعاملة الكافرين؛ فقال: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾؛ أي: شرك وصد عن سبيل الله، ويذعنوا لأحكام الإسلام. ﴿ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾: فهذا المقصود من القتال والجهاد لأعداء الدين: أن يدفع شرهم عن الدين، وأن يذب عن دين الله الذي خلق الخلق له، حتى يكون هو العالي على سائر الأديان. ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ ﴾: عما هم عليه من الظلم، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾: لا تخفى عليه منهم خافية.

﴿٤٠﴾ ﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾: عن الطاعة، وأوضعوا في الإضاعة، ﴿ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ ﴾: الذي يتولى عباده المؤمنين، ويوصل إليهم مصالحهم وييسر لهم منافعهم الدينية والدنيوية. ﴿ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾: الذي ينصرهم فيدفع عنهم كيد الفجار وتكالب الأشرار، ومن كان الله مولاه وناصره؛ فلا خوف عليه، ومن كان الله عليه؛ فلا عز له ولا قائمة له.

﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿٤١﴾ يقول تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ ﴾؛ أي: أخذتم من مال الكفار قهرًا بحق قليلًا كان أو كثيرًا، ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ ﴾؛ أي: وباقيه لكم أيها الغانمون؛ لأنه أضاف الغنيمة إليهم، وأخرج منها خمسها، فدل على أن الباقي لهم، يقسم على ما قسمه رسول الله ﷺ: للراجل سهم، وللفارس سهمان لفرسه وسهم له، وأما هذا الخمس؛

۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾

فيقسم خمسة أسهم: سهم لله ولرسوله يصرف في مصالح المسلمين العامة من غير تعيين لمصلحة؛ لأن الله جعله له ولرسوله، والله ورسوله غنيان عنه، فعلم أنه لعباد الله؛ فإذا لم يعين الله له مصرفًا؛ دل على أن مصرفه للمصالح العامة. **والخمس الثاني**: لذي القربى، وهم قرابة النبي ﷺ من بني هاشم وبني المطلب، وأضافه الله إلى القرابة دليلًا على أن العلة فيه مجرد القرابة، فيستوي فيه غنيهم وفقيرهم ذكرهم وأنثاهم. **والخمس الثالث**: لليتامى، وهم الذين فقدت آباؤهم وهم صغار، جعل الله لهم خمس الخمس رحمة بهم، حيث كانوا عاجزين عن القيام بمصالحهم، وقد فقد من يقوم بمصالحهم. **والخمس الرابع**: للمساكين؛ أي: المحتاجين الفقراء من صغار وكبار ذكور وإناث. **والخمس الخامس**: لابن السبيل، وهو الغريب المنقطع به في غير بلده، وبعض المفسرين يقول: إن خمس الغنيمة لا يخرج عن هذه الأصناف، ولا يلزم أن يكونوا فيه على السواء، بل ذلك تبع للمصلحة، وهذا هو الأولى.

وجعل الله أداء الخمس على وجهه شرطًا للإيمان، فقال: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾: وهو يوم بدر، الذي فرق الله به بين الحق والباطل، وأظهر الحق وأبطل الباطل. ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾: جمع المسلمين وجمع الكافرين؛ أي: إن كان إيمانكم بالله وبالحق الذي أنزله الله على رسوله يوم الفرقان الذي حصل فيه من الآيات والبراهين ما دل على أن ما جاء به هو الحق. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾: لا يغالبه أحد إلا غلبه.

﴿٤٢﴾ ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: بعدوة الوادي القريبة من المدينة. ﴿وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾؛ أي: جانبه البعيدة من المدينة؛ فقد جمعكم واد واحد. ﴿وَٱلرَّكْبُ﴾: الذي خرجتم لطلبه، وأراد الله غيره ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾: مما يلي ساحل البحر. ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾: أنتم وإياهم على هذا الوصف وبهذه الحال، ﴿لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ﴾؛ أي: لا بد من تقدم أو تأخر أو اختيار منزل أو غير ذلك مما يعرض لكم أو لهم يصدفكم عن ميعادهم. ولكن الله جمعكم على هذه الحال، ﴿لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾؛ أي: مقدرًا في الأزل لا بد من وقوعه. ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾؛ أي: ليكون حجة وبينة للمعاند، فيختار الكفر على بصيرة وجزم ببطلانه، فلا يبقى له عذر عند الله. ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾؛ أي: يزداد المؤمن بصيرة ويقينًا بما أرى الله الطائفتين من أدلة الحق وبراهينه ما هو تذكرة لأولي الألباب. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾: سميع لجميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، عليم بالظواهر والضمائر والسرائر والغيب والشهادة.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿٤٣﴾، ﴿٤٤﴾ وكان الله قد أرى رسوله المشركين في الرؤيا[1] قليلًا، فبشر بذلك أصحابه، فاطمأنت قلوبهم وثبتت أفئدتهم. ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ﴾ الله ﴿كَثِيرًا﴾: فأخبرت بذلك أصحابك، ﴿لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾: فمنكم من

(١) زاد في ع: «عددًا».

يرى الإقدام على قتالهم ومنكم من لا يرى ذلك، [فوقع من الاختلاف][1] والتنازع مما يوجب الفشل، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾؛ فلطف بكم. ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾؛ أي: بما فيها من ثبات وجزع وصدق وكذب، فعلم الله من قلوبكم ما صار سببًا للطفه وإحسانه بكم وصدق رؤيا رسوله، فأرى الله المؤمنين عدوهم قليلًا في أعينهم، ويقللكم -يا معشر المؤمنين- في أعينهم؛ فكل من الطائفتين ترى الأخرى قليلة؛ لتقدم كل منهما على الأخرى. ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾: من نصر المؤمنين، وخذلان الكافرين، وقتل قادتهم ورؤساء الضلال منهم، ولم يبق منهم أحد له اسم يذكر، فيتيسر بعد ذلك انقيادهم إذا دعوا إلى الإسلام، فصار أيضًا لطفًا بالباقين، الذين من الله عليهم بالإسلام. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾؛ أي: جميع أمور الخلائق ترجع إلى الله، فيميز الخبيث من الطيب، ويحكم في الخلائق بحكمه العادل الذي لا جور فيه ولا ظلم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿٤٥﴾ يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾؛ أي: طائفة من الكفار تقاتلكم، ﴿فَٱثْبُتُواْ﴾: لقتالها، واستعملوا الصبر وحبس النفس على هذه الطاعة الكبيرة، التي عاقبتها العز والنصر، واستعينوا على ذلك بالإكثار من ذكر الله. ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾؛ أي: تدركون ما تطلبون من الانتصار على أعدائكم؛ فالصبر والثبات والإكثار من ذكر الله من أكبر الأسباب للنصر.

(١) ما بين معكوفين ليس في الأصل، ط.

الجزء العاشر — سورة الأنفال

وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾

١٨٣

﴿٤٦﴾ ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾: في استعمال ما أمرا به والمشي خلف ذلك في جميع الأحوال، ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾: تنازعًا يوجب تشتت القلوب وتفرقها، ﴿فَتَفْشَلُواْ﴾؛ أي: تجبنوا، ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾؛ أي: تنحل عزائمكم وتفرق قوتكم ويرفع ما وعدتم به من النصر على طاعة الله ورسوله، ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ﴾: نفوسكم على طاعة الله. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾: بالعون والنصر والتأييد.

﴿٤٧﴾ واخشعوا لربكم واخضعوا له، ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: هذا مقصدهم الذي خرجوا إليه، وهذا الذي أبرزهم من ديارهم؛ لقصد الأشر والبطر في الأرض، وليراهم الناس ويفخروا لديهم، والمقصود الأعظم أنهم خرجوا ليصدوا عن سبيل الله من أراد سلوكه. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾: فلذلك أخبركم بمقاصدهم، وحذركم أن تشبهوا بهم؛ فإنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة، فليكن قصدكم في خروجكم وجه الله تعالى، وإعلاء دين الله،

والصد عن الطرق الموصلة إلى سخط الله وعقابه، وجذب الناس إلى سبيل الله القويم الموصل لجنات النعيم.

(٤٨) ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾: حسَّنها في قلوبهم[1]، ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾: فإنكم في عَدد وعُدد وهيئة لا يقاومكم فيها محمد ومن معه. ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ﴾: من أن يأتيكم أحد ممن تخشون غائلته؛ لأن إبليس قد تبدَّى لقريش في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي، وكانوا يخافون من بني مدلج لعداوة كانت بينهم، فقال لهم الشيطان: أنا جار لكم! فاطمأنت نفوسهم وأتوا على حرد قادرين. فلما ﴿ تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ ﴾: المسلمون والكافرون، فرأى الشيطان جبريل عليه السلام يزع الملائكة؛ خاف خوفًا شديدًا، ﴿ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾؛ أي: ولى مدبرًا، ﴿وَقَالَ ﴾: لمن خدعهم وغرهم: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ ﴾؛ أي: أرى الملائكة الذين لا يدان لأحد بقتالهم؛ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ﴾؛ أي: أخاف أن يعاجلني بالعقوبة في الدنيا، ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٤٨) ﴾.

ومن المحتمل أن يكون الشيطان سول لهم، ووسوس في صدورهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس وأنه جار لهم، فلما أوردهم مواردهم؛ نكص عنهم، وتبرأ منهم؛ كما قال تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٧) ﴾ [الحشر: ١٦، ١٧].

(٤٩) ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾؛ أي: شك وشبهة من ضعفاء الإيمان للمؤمنين حين أقدموا مع قلتهم على قتال المشركين مع كثرتهم: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾؛ أي: أوردهم الدين الذي هم عليه هذه الموارد التي لا يدان لهم بها ولا استطاعة لهم بها، يقولونه احتقارًا لهم واستخفافًا لعقولهم، وهم -والله- الأخفاء عقولًا الضعفاء أحلامًا؛ فإن الإيمان يوجب لصاحبه الإقدام على الأمور الهائلة التي لا يقدم عليها الجيوش العظام؛ فإن المؤمن المتوكل على الله الذي يعلم أنه ما من حول ولا قوة ولا استطاعة لأحد إلا بالله تعالى، وأن الخلق لو اجتمعوا كلهم على نفع شخص بمثقال ذرة؛ لم ينفعوه، ولو اجتمعوا على أن يضروه؛ لم يضروه؛ إلا بشيء قد كتبه الله عليه، وعلم أنه على الحق، وأن الله تعالى حكيم رحيم في كل ما قدره وقضاه؛ فإنه لا يبالي بما أقدم عليه من قوة وكثرة، وكان واثقًا بربه مطمئن القلب لا فزعًا ولا جبانًا، ولهذا قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ﴾: لا يغالب قوته قوة. ﴿ حَكِيمٌ (٤٩) ﴾: فيما قضاه وأجراه.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (٥٠) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ (٥١) كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٥٢) ﴾.

(٥٠) يقول تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ ﴾: الذين كفروا بآيات الله حين توفاهم الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم وقد اشتد بهم القلق وعظم كربهم و﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾: يقولون لهم: أخرجوا أنفسكم، ونفوسهم متمنعة[2] على الخروج؛ لعلمها ما أمامها من العذاب الأليم. ولهذا قال: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (٥٠) ﴾؛ أي: العذاب الشديد المحرق.

(٥١) ذلك العذاب حصل لكم غير ظلم ولا جور من ربكم، وإنما هو بما قدمت أيديكم من المعاصي التي أثرت لكم ما أثرت.

(٥٢) وهذه سنة الله في الأولين والآخرين؛ فإن دأب هؤلاء المكذبين؛ أي: سنتهم وما أجرى الله عليهم من الهلاك بذنوبهم، ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾: من الأمم المكذبة، ﴿كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ﴾: بالعقاب ﴿بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٥٢) ﴾: لا يعجزه أحد يريد أخذه. ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ [هود: ٥٦].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ (٥٤) ﴾.

(١) زاد في ع، ط: «وخدعهم».

(٢) ع، ط: «مستعصية».

(٥٣) ﴿ذَٰلِكَ﴾: العذاب الذي أوقعه الله بالأمم المكذبة[1] وأزال عنهم ما هم فيه من النعم والنعيم بسبب ذنوبهم وتغييرهم ما بأنفسهم، فإن ﴿اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾: من نعم الدين والدنيا، بل يبقيها ويزيدهم منها إن ازدادوا له شكرًا، ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾: من الطاعة إلى المعصية، فيكفروا نعمة الله، ويبدلوا بها[2] كفرًا، فيسلبهم إياها ويغيرها عليهم كما غيروا ما بأنفسهم، ولله الحكمة في ذلك والعدل والإحسان إلى[3] عباده؛ حيث لم يعاقبهم إلا بظلمهم، وحيث جذب قلوب أوليائه إليه بما يذيق العباد من النكال إذا خالفوا أمره. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣)﴾: يسمع جميع ما نطق به الناطقون، سواء من أسر القول ومن جهر به. ويعلم ما تنطوي عليه الضمائر وتخفيه السرائر، فيجري على عباده من الأقدار ما اقتضاه علمه، وجرت به مشيئته.

(٥٤) ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: فرعون وقومه، ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾: حين جاءتهم، ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾: كل بحسب جرمه، ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ﴾: من المهلكين المعذبين ﴿كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤)﴾: لأنفسهم ساعين في هلاكها، لم يظلمهم الله ولا أخذهم بغير جرم اقترفوه؛ فليحذر المخاطبون أن يشابهوهم في الظلم، فيحل الله بهم من عقابه ما أحل بأولئك الفاسقين.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧)﴾.

(٥٥)، (٥٦) ﴿إِنَّ﴾ هؤلاء الذين جمعوا هذه الخصال الثلاث - الكفر، وعدم الإيمان، والخيانة - بحيث لا يثبتون على عهد عاهدوه ولا قول قالوه هم ﴿شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ﴾: فهم شر من الحمير والكلاب وغيرها؛ لأن الخير معدوم منهم، والشر متوقع فيهم.

(٥٧) فإذهاب هؤلاء ومحقهم هو المتعين؛ لئلا يسري داؤهم لغيرهم، ولهذا قال: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾؛ أي: تجدنهم في حال المحاربة؛ بحيث لا يكون لهم عهد وميثاق.

الجزء العاشر — سورة الأنفال

ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا
مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَدَأْبِ آلِ
فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم
بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤)
إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥)
الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ
وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم
مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن
قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ
(٥٨) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩)
وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ
تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ
لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠) ۞ وَإِن جَنَحُوا
لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١)

١٨٤

﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾؛ أي: نكل بهم غيرهم، وأوقع بهم من العقوبة ما يصيرون [به] عبرة لمن بعدهم، ﴿لَعَلَّهُمْ﴾؛ أي: من خلفهم ﴿يَذَّكَّرُونَ (٥٧)﴾ صنيعهم؛ لئلا يصيبهم ما أصابهم. وهذه من فوائد العقوبات والحدود المرتبة على المعاصي، أنها سبب لازدجار من لم يعمل المعاصي، بل وزجرًا لمن عملها ألا يعاودها. ودل تقييد هذه العقوبة في الحرب أن الكافر ولو كان كثير الخيانة سريع الغدر؛ أنه إذا أعطي عهدًا؛ لا يجوز خيانته وعقوبته.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨)﴾.

(٥٨) أي: وإذا كان بينك وبين قوم عهد وميثاق على ترك القتال، فخفت منهم خيانة؛ بأن ظهر من قرائن أحوالهم ما يدل على خيانتهم من غير تصريح منهم بالخيانة. ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ﴾: عهدهم؛ أي: ارمه عليهم، وأخبرهم أنه لا عهد بينك وبينهم ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾؛ أي: حتى يستوي علمك وعلمهم بذلك، ولا يحل لك أن تغدرهم أو تسعى في شيء

(١) ع: «المكذبين».
(٢) عبارة: «ويبدلوا بها» وردت في ع: «ويبدلوها».
(٣) ع: «على».

مما منعه موجب العهد حتى تخبرهم بذلك. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٨﴾: بل يبغضهم أشد البغض؛ فلا بد من أمر بيِّن يبرئكم من الخيانة. ودلت الآية على أنه إذا وجدت الخيانة المحققة[1] منهم؛ لم يحتج أن ينبذ إليهم عهدهم؛ لأنه لم يخف منهم، بل علم ذلك، ولعدم الفائدة، ولقوله: ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾، وهنا قد كان معلومًا عند الجميع غدرهم. ودل مفهومها أيضًا أنه إذا لم يخف منهم خيانة؛ بأن لم يوجد منهم ما يدل على ذلك؛ أنه لا يجوز نبذ العهد إليهم، بل يجب الوفاء إلى أن تتم مدته.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝٥٩﴾.

۝٥٩ أي: لا يحسب الكافرون بربهم المكذبون بآياته أنهم سبقوا الله وفاتوه؛ فإنهم لا يعجزونه، والله لهم بالمرصاد، وله تعالى الحكمة البالغة في إمهالهم وعدم معاجلتهم بالعقوبة، التي من جملتها ابتلاء عباده المؤمنين وامتحانهم وتزودهم من طاعته ومراضيه ما يصلون به إلى المنازل العالية واتصافهم بأخلاق وصفات لم يكونوا بغيره بالغيها؛ فلهذا قال لعباده المؤمنين:

﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۝٦٠﴾.

۝٦٠ أي: ﴿وَأَعِدُّوا۟﴾: لأعدائكم الكفار الساعين في هلاككم وإبطال دينكم، ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾؛ أي: كل ما تقدرون عليه من القوة العقلية والبدنية وأنواع الأسلحة، ونحو ذلك مما يعين على قتالهم، فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تُعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات من المدافع والرشاشات والبنادق والطيارات الجوية والمراكب البرية والبحرية[2] والقلاع والخنادق وآلات الدفاع والرأي والسياسة التي بها يتقدم المسلمون، ويندفع عنهم به شر أعدائهم وتعلم الرمي والشجاعة والتدبير، ولهذا قال النبي ﷺ: «ألا إن القوة الرمي»[3]. ومن ذلك الاستعداد بالمراكب المحتاج إليها عند القتال، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾: وهذه العلة موجودة فيها في ذلك الزمان، وهي إرهاب الأعداء. والحكم يدور مع علته؛ فإذا كان شيء موجود[4] أكثر إرهابًا منها - كالسيارات البرية والهوائية المعدة للقتال التي تكون النكاية فيها أشد؛ كانت مأمورًا بالاستعداد بها والسعي لتحصيلها، حتى إنها إذا لم توجد إلا بتعلم الصناعة؛ وجب ذلك؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. وقوله: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾: ممن تعلمون أنهم أعداؤكم، ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾: ممن سيقاتلونكم بعد هذا الوقت الذي يخاطبهم الله به، ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾: فلذلك أمرهم بالاستعداد لهم. ومن أعظم ما يعين على قتالهم بذل النفقات المالية في جهاد الكفار، ولهذا قال تعالى مرغبًا في ذلك: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: قليلًا كان أو كثيرًا، ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾: أجره يوم القيامة مضاعفًا أضعافًا كثيرة، حتى إن النفقة في سبيل الله تضاعف إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۝٦٠﴾؛ أي: لا تنقصون من أجرها وثوابها شيئًا.

﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦١ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٤﴾.

۝٦١ يقول تعالى ﴿وَإِن جَنَحُوا۟﴾؛ أي: الكفار المحاربون؛ أي: مالوا إلى السلم؛ أي: الصلح وترك القتال، ﴿فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: أجبهم إلى ما طلبوا متوكلًا على ربك؛ فإن في ذلك فوائد كثيرة: منها: أن طلب العافية مطلوب كل وقت؛ فإذا كانوا هم المبتدئين في ذلك؛ كان أولى لإجابتهم.

ومنها: أن في ذلك إجمامًا لقواكم واستعدادًا منكم لقتالهم في وقت آخر إن احتيج إلى ذلك. ومنها: أنكم إذا أصلحتم وأمن بعضكم بعضًا وتمكن كلٌّ من معرفة ما عليه الآخر؛ فإن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه؛ فكل من له عقل وبصيرة إذا كان معه إنصاف؛ فلا بد أن يؤثره على غيره من الأديان؛

(١) ع، ط: «المحققة».
(٢) زاد في ع، ط: «والحصون».
(٣) مسلم (١٩١٧).
(٤) الأصل: «موجودًا شيء».

الجزء العاشر | سورة الأنفال

وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ
بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ
مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ
ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ
ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ
يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ٦٥ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ
ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ
صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ
بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٦٦ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ
لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا
وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٧ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ
ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٦٨ فَكُلُواْ مِمَّا
غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٦٩

١٨٥

لحسنه في أوامره ونواهيه، وحسنه في معاملته للخلق والعدل فيهم. وأنه لا جور فيه ولا ظلم بوجه؛ فحينئذ يكثر الراغبون فيه والمتبعون له، فصار هذا السلم عونًا للمسلمين على الكافرين.

(٦٢)، (٦٣) ولا يُخاف من السلم إلا خصلة واحدة، وهي أن يكون الكفار قصدهم بذلك خدع المسلمين وانتهاز الفرصة فيهم، فأخبرهم الله أنه حسبهم وكافيهم خداعهم، وأن ذلك يعود عليهم ضرره، فقال: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾؛ أي: كافيك ما يؤذيك، وهو القائم بمصالحك ومهماتك؛ فقد سبق لك من كفايته لك ونصره ما يطمئن به قلبك، وإنه ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢﴾؛ أي: أعانك بمعونة سماوية، وهو النصر منه الذي لا يقاومه شيء، ومعونة بالمؤمنين بأن قيضهم لنصرك، ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ﴾: فاجتمعوا، وائتلفوا، وازدادت قوتهم بسبب اجتماعهم، ولم يكن هذا بسعي أحد، ولا بقوة غير قوة الله، وأنت لو[1] ﴿أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾: من ذهب وفضة وغيرهما لتأليفهم بعد تلك النفرة والفرقة الشديدة، ﴿مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾: لأنه لا يقدر على تقليب القلوب إلا الله تعالى. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٣﴾: ومن عزته أن ألف بين قلوبهم وجمعها بعد الفرقة؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

(٦٤) ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: كافيك، ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٤﴾؛ أي: وكافي أتباعك من المؤمنين. وهذا وعد من الله لعباده المؤمنين المتبعين لرسوله بالكفاية والنصرة على الأعداء؛ فإذا أتوا بالسبب الذي هو الإيمان والاتباع؛ فلا بد أن يكفيهم ما أهمهم من أمور الدين والدنيا، وإنما تتخلف الكفاية بتخلف شرطها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ٦٥ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٦٦﴾.

(٦٥) يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ﴾؛ أي: حثهم ونهضهم إليه بكل ما يقوي عزائمهم وينشط هممهم؛ من الترغيب في الجهاد ومقارعة الأعداء، والترهيب من ضد ذلك، وذكر فضائل الشجاعة والصبر، وما يترتب على ذلك من خير الدنيا والآخرة، وذكر مضار الجبن، وأنه من الأخلاق الرذيلة المنقصة للدين والمروءة، وأن الشجاعة بالمؤمنين أولى من غيرهم، ﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ﴾ [النساء: ١٠٤]. ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ﴾: أيها المؤمنون، ﴿عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: يكون الواحد بنسبة عشرة من الكفار، وذلك بأنهم أي: الكفار ﴿قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ٦٥﴾؛ أي: لا علم عندهم بما أعد الله للمجاهدين في سبيله؛ فهم يقاتلون

(١) عبارة: «وأنت لو» وردت في ع: «فلو».

لأجل العلو في الأرض والفساد فيها، وأنتم تفقهون المقصود من القتال أنه لإعلاء كلمة الله، وإظهار دينه، والذب عن كتاب الله وحصول الفوز الأكبر عند الله، وهذه كلها دواع للشجاعة والصبر والإقدام على القتال.

(٦٦) ثم إن هذا الحكم خففه الله على العباد، فقال: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾: فلذلك اقتضت رحمته وحكمته التخفيف. ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ (٦٦) ﴾: بعونه وتأييده.

وهذه الآيات صورتها صورة الإخبار عن المؤمنين بأنهم إذا بلغوا هذا المقدار المعين يغلبون ذلك المقدار المعين، في مقابلته من الكفار، وأن الله يمتن عليهم بما جعل فيهم من الشجاعة الإيمانية، ولكن معناها وحقيقتها الأمر، وأن الله أمر المؤمنين في أول الأمر أن الواحد لا يجوز له أن يفر من العشرة والعشرة من المائة والمائة من الألف، ثم إن الله خفف ذلك، فصار لا يجوز فرار المسلمين من مثليهم من الكفار؛ فإن زادوا على مثليهم؛ جاز لهم الفرار.

ولكن يرد على هذا أمران:

أحدهما: أنها بصورة الخبر، والأصل في الخبر أن يكون على بابه، وأن المقصود بذلك الامتنان والإخبار بالواقع.

والثاني: تقييد ذلك العدد أن يكونوا صابرين؛ بأن يكونوا متدربين على الصبر، ومفهوم هذا أنهم إذا لم يكونوا صابرين؛ فإنه يجوز لهم الفرار، ولو أقل من مثليهم، إذا غلب على ظنهم الضرر؛ كما تقتضيه الحكمة الإلهية.

ويجاب عن الأول بأن قوله: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ ﴾ إلى آخرها: دليل على أن هذا الأمر لازم وأمر محتم، ثم إن الله خففه إلى ذلك العدد؛ فهذا ظاهر في أنه أمر، وإن كان في صيغة الخبر، وقد يقال: إن في إتيانه بلفظ الخبر نكتة بديعة لا توجد فيه إذا كان بلفظ الأمر، وهي تقوية قلوب المؤمنين، والبشارة بأنهم سيغلبون الكافرين.

ويجاب عن الثاني: أن المقصود بتقييد ذلك بالصابرين أنه حث على الصبر، وأنه ينبغي منكم أن تفعلوا الأسباب الموجبة لذلك؛ فإذا فعلوها؛ صارت الأسباب الإيمانية والأسباب المادية مبشرة بحصول ما أخبر الله به من النصر لهذا العدد القليل.

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٩) ﴾.

(٦٧) هذه معاتبة من الله لرسوله وللمؤمنين يوم بدر؛ إذ أسروا المشركين وأبقوهم لأجل الفداء، وكان رأي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في هذه الحال قتلهم واستئصالهم، فقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي: ما ينبغي ولا يليق به إذا قاتل الكفار الذين يريدون أن يطفئوا نور الله، ويسعون لإخماد دينه وألَّا يبقى على وجه الأرض من يعبد الله أن يتسرع إلى أسرهم وإبقائهم لأجل الفداء الذي يحصل منهم، وهو عرض قليل بالنسبة إلى المصلحة المقتضية لإبادتهم وإبطال شرهم؛ فما دام لهم شر وصولة؛ فالأوفق ألَّا يؤسروا؛ فإذا أثخنوا، وبطل شرهم، واضمحل أمرهم؛ فحينئذ لا بأس بأخذ الأسرى منهم وإبقائهم. يقول تعالى: ﴿ تُرِيدُونَ ﴾: بأخذكم الفداء وإبقائهم عرض الحياة الدنيا؛ أي: لا لمصلحة تعود إلى دينكم. ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾: بإعزاز دينه ونصر أوليائه وجعل كلمتهم عالية فوق غيرهم، فيأمركم بما يوصل إلى ذلك. ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) ﴾؛ أي: كامل العزة، لو شاء أن ينتصر من الكفار من دون قتال؛ لفعل، ولكنه حكيم يبتلي بعضكم ببعض.

(٦٨) ﴿ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾: به القضاء والقدر؛ أنه قد أحل لكم الغنائم، وأن الله رفع عنكم -أيها الأمة- العذاب، ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) ﴾. وفي الحديث: «لو نزل عذاب يوم بدر ما نجا منه إلا عمر»[1].

(٦٩) ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ﴾: وهذا من لطفه تعالى بهذه الأمة أن أحل لها الغنائم ولم تحل[2] لأمة قبلها، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾: في جميع أموركم، ولازموها شكرًا لنعم الله عليكم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ ﴾: يغفر لمن تاب إليه جميع الذنوب، ويغفر لمن لم يشرك به شيئًا جميع المعاصي، ﴿ رَّحِيمٌ (٦٩) ﴾: بكم حيث أباح لكم الغنائم وجعلها حلالًا طيبًا.

(١) مغازي الواقدي، ص١١٠.
(٢) ع: «يحلها».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٧١﴾.

(٧٠) وهذه نزلت في أسارى يوم بدر[١]، وكان من جملتهم العباس عم رسول الله ﷺ، فلما طلب منه الفداء؛ ادعى أنه مسلم قبل ذلك، فلم يسقطوا عنه الفداء، فأنزل الله تعالى جبرًا لخاطره ومن كان على مثل حاله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾؛ أي: من المال، بأن ييسر لكم من فضله خيرًا كثيرًا[٢] مما أخذ منكم، ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾: ذنوبكم ويدخلكم الجنة. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠﴾: وقد أنجز الله وعده للعباس وغيره، فحصل له بعد ذلك من المال شيء كثير، حتى إنه مرة لما قدم على النبي ﷺ مال كثير؛ أتاه العباس، فأمره أن يأخذ منه بثوبه ما يطيق حمله، فأخذ منه ما كاد أن يعجز عن حمله[٣].

(٧١) ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾: في السعي لحربك ومنابذتك، ﴿فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡ﴾: فليحذروا خيانتك؛ فإنه تعالى قادر عليهم، وهم تحت قبضته. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٧١﴾؛ أي: عليم بكل شيء، حكيم يضع الأشياء مواضعها، ومن علمه وحكمته أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة الجميلة، وقد[٤] تكفل بكفايتكم شأن الأسرى وشرهم إن أرادوا خيانة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٧٢﴾.

(٧٢) هذا عقد موالاة ومحبة عقدها الله بين المهاجرين الذين آمنوا وهاجروا في سبيل الله وتركوا أوطانهم لله

(١) مسلم (١٧٦٣).
(٢) ع: «وأكثر».
(٣) البخاري (٤٣١).
(٤) ع: «وأن».

الجزء العاشر — سورة الأنفال

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٧١ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٧٢ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٧٤ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٧٥

١٨٦

لأجل الجهاد في سبيل الله، وبين الأنصار الذين آووا رسول الله ﷺ وأصحابه وأعانوهم في ديارهم وأموالهم وأنفسهم؛ فهؤلاء بعضهم أولياء بعض؛ لكمال إيمانهم وتمام اتصال بعضهم ببعض. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ فإنهم قطعوا ولايتكم بانفصالهم عنكم في وقت شدة الحاجة إلى الرجال، فلما لم يهاجروا؛ لم يكن لهم من ولاية المؤمنين شيء، لكنهم إن ﴿ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾؛ أي: لأجل قتال من قاتلهم[٥]؛ ﴿فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾: والقتال معهم، وأما من قاتلوهم لغير ذلك من المقاصد؛ فليس عليكم نصرهم. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ﴾؛ أي: عهد بترك القتال؛ فإنهم إذا أراد المؤمنون المتميزون الذين لم يهاجروا قتالهم؛ فلا تعينوهم عليهم؛ لأجل ما بينكم وبينهم من الميثاق. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٧٢﴾: يعلم ما أنتم عليه من الأحوال، فيشرع لكم من الأحكام ما يليق بكم.

(٥) زاد بعده في ع، ط: «لأجل دينهم».

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ ﴾.

﴿٧٣﴾ لما عقد الولاية بين المؤمنين؛ أخبر أن الكفار حيث جمعهم الكفر فبعضهم أولياء بعض؛ فلا يواليهم إلا كافر مثلهم، وقوله: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ﴾؛ أي: موالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين؛ بأن واليتموهم كلهم أو عاديتموهم كلهم أو واليتم الكافرين وعاديتم المؤمنين، ﴿تَكُن فِتۡنَةٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾: فإنه يحصل بذلك من الشر ما لا ينحصر من اختلاط الحق بالباطل والمؤمن بالكافر وعدم كثير من العبادات الكبار كالجهاد والهجرة وغير ذلك من مقاصد الشرع والدين التي تفوت إذا لم يتخذ المؤمنون وحدهم أولياء بعضهم لبعض.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٌ وَرِزۡقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمۡ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ ﴾.

الآيات السابقات في ذكر عقد الموالاة بين المؤمنين من المهاجرين والأنصار. وهذه الآيات في بيان مدحهم وثوابهم:

﴿٧٤﴾ فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾: من المهاجرين والأنصار؛ أي: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقًّا﴾؛ لأنهم صدقوا إيمانهم بما قاموا به من الهجرة والنصرة والموالاة بعضهم لبعض وجهادهم لأعدائهم من الكفار والمنافقين. ﴿لَّهُم مَّغۡفِرَةٌ﴾: من الله تمحى بها سيئاتهم وتضمحل بها زلاتهم. ولهم رزق ﴿كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾؛ أي: خير كثير من الرب الكريم في جنات النعيم، وربما حصل لهم من الثواب المعجل ما تقر به أعينهم، وتطمئن به قلوبهم.

﴿٧٥﴾ وكذلك من جاء بعد هؤلاء المهاجرين والأنصار ممن اتبعهم بإحسان فآمن وهاجر وجاهد في سبيل الله. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمۡ﴾: لهم ما لكم وعليهم ما عليكم؛ فهذه الموالاة الإيمانية، وقد كانت في أول الإسلام لها وقع كبير وشأن عظيم، حتى إن النبي ﷺ آخى بين المهاجرين والأنصار أخوة خاصة غير الأخوة الإيمانية العامة، وحتى كانوا يتوارثون بها، فأنزل الله: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ فلا يرثه إلا أقاربه من العصبات وأصحاب الفروض فإن لم يكونوا؛ فأقرب قراباته من ذوي الأرحام كما دل عليه عموم هذه الآية الكريمة، وقوله: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في حكمه وشرعه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾: ومنه ما يعلمه من أحوالكم التي يجري من شرائعه الدينية عليكم ما يناسبها.

تم تفسير سورة الأنفال. ولله الحمد والمنة.



تفسير سورة براءة ويقال سورة التوبة وهي مدنية

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢﴾.

۝١، ۝٢ أي: هذه ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ومن رسوله إلى جميع المشركين المعاهدين؛ أن لهم أربعة أشهر يسيحون في الأرض على اختيارهم آمنين من المؤمنين، وبعد الأربعة الأشهر؛ فلا عهد لهم ولا ميثاق. وهذا لمن كان له عهد مطلق غير مقدر أو مقدر بأربعة أشهر فأقل، أما من كان له عهد مقدر بزيادة على أربعة أشهر؛ فإنه يتعين أن يتمم له عهده إذا لم يخف منه خيانة، ولم يبدأ بنقض العهد.

ثم أنذر المعاهدين في مدة عهدهم أنهم وإن كانوا آمنين؛ فإنهم لن يعجزوا الله ولن يفوتوه، وأنه من استمر منهم على شركه؛ فإنه[1] لا بد أن يخزيه، فكان هذا مما يجلبهم إلى الدخول في الإسلام إلا من عاند، وأصر، ولم يبال بوعيد الله.

﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣﴾.

۝٣ هذا ما وعد الله به المؤمنين من نصر دينه وإعلاء كلمته وخذلان أعدائهم من المشركين الذين أخرجوا الرسول ومن معه من مكة من بيت الله الحرام وأجلوهم مما لهم التسلط عليه من أرض الحجاز؛ نصر الله رسوله والمؤمنين حتى افتتح مكة وأذل المشركين وصار للمؤمنين الحكم والغلبة على تلك الديار، فأمر النبي ﷺ مؤذنه أن يؤذن يوم الحج الأكبر، وهو يوم النحر، وقت اجتماع الناس مسلمهم وكافرهم من جميع جزيرة العرب: أن يؤذن بأن الله بريء ورسوله من المشركين؛ فليس لهم عنده عهد وميثاق؛ فأينما وجدوا قتلوا، وقيل لهم: لا تقربوا المسجد الحرام بعد عامكم هذا. وكان ذلك سنة تسع من

(١) ع: «فإن الله».

الجزء العاشر — سورة التوبة

سُورَةُ التَّوْبَةِ — آياتها ١٢٩ — ترتيبها ٩

بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١
فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى
ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ٢ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ
إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ
وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟
أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ
٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ
شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ
مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ٤ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ
فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ
وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٥
وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ
كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ٦

١٨٧

الهجرة، وحج بالناس أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وأذن ببراءة يوم النحر ابن عم رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ثم رغب تعالى المشركين بالتوبة ورهبهم من الاستمرار على الشرك، فقال: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾؛ أي: فائتيه، بل أنتم في قبضته، قادر أن يسلط عليكم عباده المؤمنين. ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣﴾؛ أي: مؤلم مفظع في الدنيا بالقتل والأسر والجلاء وفي الآخرة بالنار وبئس القرار.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٤﴾.

۝٤ أي: هذه البراءة التامة المطلقة من جميع المشركين، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: واستمروا على عهدهم، ولم يجر منهم ما يوجب النقض؛ فلا نقصوكم

شيئًا، ولا عاونوا عليكم أحدًا؛ فهؤلاء أتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم قلت أو كثرت؛ لأن الإسلام لا يأمر بالخيانة، وإنما يأمر بالوفاء. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٤﴾: الذين أدوا ما أمروا به[1]، واتقوا الشرك والخيانة وغير ذلك من المعاصي.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾.

۝٥ يقول تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾؛ أي: التي حُرِّمَ فيها قتال المشركين المعاهَدين، وهي أشهر التسيير الأربعة، وتمام المدة لمن له مدة أكثر منها؛ فقد برئت منهم الذمة. ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾: في أي مكان وزمان، ﴿وَخُذُوهُمْ﴾: أسرى، ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾؛ أي: ضيقوا عليهم؛ فلا تدعوهم يتوسعون في بلاد الله وأرضه التي جعلها الله معبدًا لعباده؛ فهؤلاء ليسوا أهلًا لسكناها، ولا يستحقون منها شبرًا؛ لأن الأرض أرض الله، وهم أعداؤه المنابذون له ولرسله، المحاربون[2] الذين يريدون أن تخلو الأرض من دينه، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. ﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾؛ أي: كل ثنية وموضع يمرون عليه، ورابطوا في جهادهم، وابذلوا غاية مجهودكم في ذلك، ولا تزالوا على هذا الأمر حتى يتوبوا من شركهم. ولهذا قال: ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾: من شركهم، ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: أدوها بحقوقها، ﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: لمستحقيها، ﴿فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾؛ أي: اتركوهم، وليكونوا مثلكم لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾: يغفر الشرك فما دونه للتائبين، ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة ثم قبولها منهم.

وفي هذه الآية دليل على أن من امتنع من أداء الصلاة أو الزكاة؛ فإنه يقاتَل حتى يؤديها؛ كما استدل بذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾.

(١) ع: «ما أمر الله به».
(٢) ع: «المحاربة».

۝٦ لما كان ما تقدم من قوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾: أمرًا عامًّا في جميع الأحوال وفي كل الأشخاص منهم؛ ذكر تعالى أن المصلحة إذا اقتضت تقريب بعضهم؛ جاز، بل وجب ذلك، فقال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾؛ أي: طلب منك أن تجيره وتمنعه من الضرر لأجل أن يسمع كلام الله وينظر حالة الإسلام، ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾: ثم إن أسلم؛ فذاك، وإلا؛ فأبلغه مأمنه؛ أي: المحل الذي يأمن فيه.

والسبب في ذلك أن الكفار قوم لا يعلمون؛ فربما كان استمرارهم على كفرهم لجهل منهم إذا زال اختاروا عليه الإسلام؛ فلذلك أمر الله رسوله. وأمته أسوته في الأحكام أن يجيروا من طلب أن يسمع كلام الله.

وفي هذا حجة صريحة لمذهب أهل السنة والجماعة، القائلين بأن القرآن كلام الله غير مخلوق؛ لأنه تعالى هو المتكلم به، وأضافه إلى نفسه إضافة الصفة إلى موصوفها، وبطلان مذهب المعتزلة ومن أخذ بقولهم أن القرآن مخلوق، وكم من الأدلة الدالة على بطلان هذا القول، ليس هذا محل ذكرها!

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧﴾.

۝٧ هذا بيان للحكمة الموجبة لأن يتبرأ الله ورسوله من المشركين، فقال: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾: هل قاموا بواجب الإيمان؟ أم تركوا رسول الله والمؤمنين من أذيتهم؟ أما حاربوا الحق ونصروا الباطل؟! أما سعوا في الأرض فسادًا؟! فيحق عليهم[3] أن يتبرأ الله منهم، وألَّا يكون لهم عهد عنده ولا عند رسوله. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ﴾: من المشركين ﴿عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾: فإن لهم في العهد - وخصوصًا في هذا المكان الفاضل - حرمة أوجب أن يراعوا فيها، ﴿فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧﴾.

ولهذا قال:

(٣) ع، ط: «لهم».

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿٨﴾ أي: ﴿ كَيْفَ ﴾: يكون للمشركين عند الله عهد وميثاق. والحال أنهم إن ﴿ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ ﴾: بالقدرة والسلطة لا يرحموكم. و﴿ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾؛ أي: لا ذمة ولا قرابة، ولا يخافون الله فيكم، بل يسومونكم سوء العذاب؛ فهذه حالكم معهم لو ظهروا، ولا يغرنكم منهم ما يعاملونكم به وقت الخوف منكم؛ فإنهم ﴿ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ ﴾: الميل والمحبة لكم، بل هم الأعداء حقًّا، المبغضون لكم صدقًا. ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾: لا ديانة لهم ولا مروءة.

﴿٩﴾ ﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾؛ أي: اختاروا الحظ العاجل الخسيس في الدنيا على الإيمان بالله ورسوله والانقياد لآيات الله، ﴿ فَصَدُّوا ﴾: بأنفسهم وصدوا غيرهم ﴿ عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿١٠﴾ ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾؛ أي: لأجل عداوتهم للإيمان وأهله؛ فالوصف الذي جعلهم يعادونكم لأجله ويبغضونكم هو الإيمان.

﴿١١﴾ فذبوا عن دينكم وانصروه واتخذوا من عاداه عدوًّا ومن نصره لكم وليًّا واجعلوا الحكم يدور معه وجودًا وعدمًا، لا تجعلوا الولاية والعداوة طبعية تميلون بهما حيثما مال الهوى وتتبعون فيهما(١) النفس الأمارة بالسوء، ولهذا ﴿ فَإِن تَابُوا ﴾: عن شركهم ورجعوا إلى الإيمان، ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾: وتناسوا تلك العداوة إذ كانوا مشركين؛ لتكونوا عباد الله المخلصين، وبهذا يكون العبد عبدًا حقيقة. لما بين من أحكامه العظيمة ما بين، ووضح منها ما وضح أحكامًا وحِكَمًا وحُكْمًا وحكمة؛ قال: ﴿ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾؛ أي: نوضحها ونميزها ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾: فإليهم

(١) الأصل، ط: «فيها».

الجزء العاشر — سورة التوبة

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

١٨٨

سياق الكلام، وبهم تعرف الآيات والأحكام، وبهم عرف دين الإسلام وشرائع الدين. اللهم اجعلنا من القوم الذين يعلمون ويعملون بما يعلمون برحمتك وجودك وكرمك وإحسانك يا رب العالمين!

﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿١٢﴾ يقول تعالى بعدما ذكر أن المعاهدين من المشركين إن استقاموا على عهدهم فاستقيموا لهم على الوفاء: ﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ ﴾؛ أي: نقضوها وحلوها؛

قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ
عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ
غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ
﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟
مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ
وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ
أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾
إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ
وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ
أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ
ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ
وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾

فقاتلوكم أو أعانوا على قتالكم أو نقصوكم، ﴿وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾؛ أي: عابوه وسخروا منه، ويدخل في هذا جميع أنواع الطعن الموجهة إلى الدين أو إلى القرآن، ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾؛ أي: القادة فيه، الرؤساء الطاعنين في دين الرحمن، الناصرين لدين الشيطان. وخصهم بالذكر لعظم جنايتهم ولأن غيرهم تبع لهم، وليدل على أن من طعن في الدين، وتصدى للرد عليه فإنه من أئمة الكفر. ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾؛ أي: لا عهود ولا مواثيق يلازمون على الوفاء بها، بل لا يزالون خائنين ناكثين للعهد لا يوثق منهم. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: في قتالكم إياهم ﴿يَنتَهُونَ (١٢)﴾: عن الطعن في دينكم، وربما دخلوا فيه.

(١٣) ثم حث على قتالهم وهيج المؤمنين بذكر الأوصاف التي صدرت من هؤلاء الأعداء، والتي هم موصوفون بها، المقتضية لقتالهم، فقال: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾: الذي يجب احترامه وتوقيره وتعظيمه، وهموا أن يجلوه ويخرجوه من وطنه، وسعوا في ذلك ما أمكنهم، ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: حيث نقضوا العهود، وأعانوا عليكم وذلك حيث أعانت[1] قريش وهم معاهدون بني بكر حلفاءهم على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ، وقاتلوا معهم كما هو مذكور مبسوط في السيرة. ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾: في ترك قتالهم؟ ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣)﴾: فإنه[2] أمركم بقتالهم، وأكد ذلك عليكم غاية التأكيد؛ فإن كنتم مؤمنين؛ فامتثلوا لأمر الله، ولا تخشوهم فتتركوا أمر الله.

(١٤) ثم أمر بقتالهم، وذكر ما يترتب على قتالهم من الفوائد، وكل هذا حث وإنهاض للمؤمنين على قتالهم فقال: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾: بالقتل، ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾: إذا نصركم الله عليهم، وهم الأعداء الذين يطلب خزيهم ويحرص عليه، ﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾: هذا وعد من الله وبشارة قد أنجزها، ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤)﴾.

(١٥) ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾: فإن في قلوبهم من الحنق والغيظ عليهم ما يكون قتالهم وقتلهم شفاء لما في قلوب المؤمنين من الغم والهم - إذ يرون هؤلاء الأعداء محاربين لله ولرسوله، ساعين في إطفاء نور الله - وزوالًا للغيظ الذي في قلوبكم. وهذا يدل على محبة الله للمؤمنين[3]، واعتنائه بأحوالهم، حتى إنه جعل من جملة المقاصد الشرعية شفاء ما في صدورهم وذهاب غيظهم. ثم قال: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾: من هؤلاء المحاربين؛ بأن يوفقهم للدخول في الإسلام ويزينه في قلوبهم ويكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥)﴾: يضع الأشياء مواضعها، ويعلم من يصلح للإيمان فيهديه، ومن لا يصلح فيبقيه في غيه وطغيانه.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦)﴾.

(١٦) يقول تعالى لعباده المؤمنين بعدما أمرهم بالجهاد: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟﴾: من دون ابتلاء وامتحان وأمر بما يبين به الصادق والكاذب، ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟

---

(١) ع: «عاونت».
(٢) الأصل، ط: «فالله».
(٣) ع: «لعباده المؤمنين».

مِنكُمْ ﴾؛ أي: علمًا يظهر مما في القوة إلى الخارج؛ ليترتب عليه الثواب والعقاب، فيعلم الذين يجاهدون في سبيله لإعلاء كلمته، ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾؛ أي: وليًّا من الكافرين، بل يتخذون الله ورسوله والمؤمنين أولياء. فشرع الله الجهاد ليحصل به هذا المقصود الأعظم، وهو أن يتميز الصادقون الذين لا يتحيزون إلا لدين الله من الكاذبين الذين يزعمون الإيمان، وهم يتخذون الولائج والأولياء من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين. ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾؛ أي: يعلم ما يصير منكم ويصدر، فيبتليكم بما يظهر به حقيقة ما أنتم عليه، ويجازيكم على أعمالكم خيرها وشرها.

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ۖ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿١٧﴾ يقول تعالى: ﴿مَا كَانَ﴾؛ أي: ما ينبغي، ولا يليق ﴿لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾: بالعبادة والصلاة وغيرها من أنواع الطاعات، والحال أنهم شاهدون ومقرون على أنفسهم بالكفر بشهادة حالهم وفطرهم وعلم كثير منهم أنهم على الكفر والباطل؛ فإذا كانوا ﴿شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾ وعدم الإيمان الذي هو شرط لقبول الأعمال؛ فكيف يزعمون أنهم عمار مساجد الله؛ والأصل منهم مفقود والأعمال منهم باطلة؟! ولهذا قال: ﴿أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾؛ أي: بطلت وضلت. ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿١٨﴾ ثم ذكر من هم عمار مساجد الله، فقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾: الواجبة والمستحبة بالقيام بالظاهر منها والباطن، ﴿وَآتَى الزَّكَاةَ﴾: لأهلها، ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾؛ أي: قصر خشيته على ربه، فكف عما حرم الله، ولم يقصر بحقوق الله الواجبة؛ فوصفهم بالإيمان النافع، وبالقيام بالأعمال الصالحة التي أمها الصلاة والزكاة، وبخشية الله التي هي أصل كل خير؛ فهؤلاء عمار المساجد على الحقيقة وأهلها الذين هم أهلها. ﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾: و(عسى) من الله واجبة، وأما من لم يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ولا عنده خشية لله؛ فهذا ليس من عمار مساجد الله ولا من أهلها الذين هم أهلها، وإن زعم ذلك وادعاه.

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿١٩﴾ لما اختلف بعض المسلمين أو بعض المسلمين وبعض المشركين في تفضيل عمارة المسجد الحرام بالبناء والصلاة والعبادة فيه وسقاية الحاج على الإيمان بالله والجهاد في سبيله؛ أخبر الله تعالى بالتفاوت بينهما، فقال: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾؛ أي: سقيهم الماء من زمزم؛ كما هو المعروف إذا أطلق هذا الاسم أنه المراد، ﴿وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ﴾: فالجهاد والإيمان بالله أفضل من سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام بدرجات كثيرة؛ لأن الإيمان أصل الدين وبه تقبل الأعمال وتزكو الخصال، وأما الجهاد في سبيل الله؛ فهو ذروة سنام الدين؛ به[1] يحفظ الدين الإسلامي ويتسع، وينصر الحق ويخذل الباطل، وأما عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج؛ فهي، وإن كانت أعمالًا صالحة؛ فهي متوقفة على الإيمان، وليس فيها من المصالح ما في الإيمان والجهاد؛ فلذلك قال: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾﴾؛ أي: الذين وصفهم الظلم، الذين لا يصلحون لقبول شيء من الخير، بل لا يليق بهم إلا الشر.

﴿٢٠﴾ ثم صرح بالفضل فقال: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ﴾: بالنفقة في الجهاد وتجهيز الغزاة، ﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾: بالخروج بالنفس، ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾؛ أي: لا يفوز بالمطلوب، ولا ينجو من المرهوب إلا من اتصف بصفاتهم، وتخلق بأخلاقهم.

(١) ع، ط: «الذي به».

الجزء العاشر — سورة التوبة

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾

١٩٠

﴿٢١﴾ ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾: رحمة[1] منه وكرمًا وبرًّا بهم واعتناء ومحبة لهم، ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾: أزال بها عنهم الشرور، وأوصل إليهم بها كل خير، ﴿وَرِضْوَٰنٍ﴾: منه تعالى عليهم، الذي هو أكبر نعيم الجنة وأجله، فيحل عليهم رضوانه؛ فلا يسخط عليهم أبدًا، ﴿وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾: من كل ما اشتهته الأنفس وتلذ الأعين مما لا يعلم وصفه ومقداره إلا الله تعالى، الذي منه أن الله أعد للمجاهدين في سبيله مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، ولو اجتمع الخلق في درجة واحدة منها؛ لوسعتهم.

﴿٢٢﴾ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾: لا يتنقلون عنها ولا يبغون عنها حولًا. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾: لا تستغرب كثرته على فضل الله، ولا يتعجب من عظمه وحسنه على من يقول للشيء: كن؛ فيكون.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿٢٣﴾ يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: اعملوا بمقتضى الإيمان؛ بأن توالوا من قام به وتعادوا من لم يقم به. و﴿لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ﴾: الذين هم أقرب الناس إليكم، وغيرهم من باب أولى وأحرى؛ فلا تتخذوهم ﴿أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟﴾؛ أي: اختاروا على وجه الرضا والمحبة، ﴿ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾: لأنهم تجرءوا على معاصي الله، واتخذوا أعداء الله أولياء، وأصل الولاية المحبة والنصرة، وذلك أن اتخاذهم أولياء موجب لتقديم طاعتهم على طاعة الله ومحبتهم على محبة الله ورسوله.

﴿٢٤﴾ ولهذا ذكر السبب الموجب لذلك، وهو أن محبة الله ورسوله يتعين تقديمهما على محبة كل شيء، وجعل جميع الأشياء تابعة لهما، فقال: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ﴾: ومثلهم الأمهات، ﴿وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ﴾: في النسب والعشيرة[2]، ﴿وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾؛ أي: قراباتكم عمومًا، ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾؛ أي: اكتسبتموها وتعبتم في تحصيلها، خصها بالذكر لأنها أرغب عند أهلها، وصاحبها أشد حرصًا عليها ممن تأتيه الأموال من غير تعب ولا كد. ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾؛ أي: رخصها ونقصها، وهذا شامل لجميع أنواع التجارات والمكاسب من عروض التجارات من الأثمان والأواني والأسلحة والأمتعة والحبوب والحروث والأنعام وغير ذلك. ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾: من حسنها وزخرفتها وموافقتها لأهوائكم؛ فإن كانت هذه الأشياء ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾: فأنتم فسقة ظلمة، ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾؛ أي: انتظروا ما يحل بكم من العقاب، ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾: الذي لا مرد له. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾؛ أي: الخارجين عن طاعة الله، المقدمين على محبة الله شيئًا من المذكورات.

(١) ع: «جودًا».

(٢) ع، ط: «والعشرة».

وهذه الآية الكريمة أعظم دليل على وجوب محبة الله ورسوله، وعلى تقديمهما على محبة كل شيء، وعلى الوعيد الشديد والمقت الأكيد على من كان شيء من هذه المذكورات أحب إليه من الله ورسوله وجهاد في سبيله، وعلامة ذلك أنه إذا عرض عليه أمران: أحدهما يحبه الله ورسوله وليس لنفسه فيه هوى، والآخر تحبه نفسه وتشتهيه ولكنه يفوت عليه محبوبًا لله ورسوله أو ينقصه؛ فإنه إن قدم ما تهواه نفسه على ما يحبه الله؛ دل على أنه ظالم تارك لما يجب عليه.

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾.

يمتن تعالى على عباده المؤمنين بنصره إياهم في مواطن كثيرة من مواطن اللقاء ومواضع الحروب والهيجاء، حتى في يوم حنين الذي اشتدت عليهم فيه الأزمة ورأوا من التخاذل والفرار ما ضاقت عليهم به الأرض على رحبها وسعتها، وذلك أن النبي ﷺ لما فتح مكة؛ سمع أن هوازن اجتمعوا لحربه، فسار إليهم ﷺ في أصحابه الذين فتحوا مكة وبمن أسلم من الطلقاء أهل مكة، فكانوا اثني عشر ألفًا، والمشركون أربعة آلاف، فأُعجب بعض المسلمين بكثرتهم، وقال بعضهم: لن نغلب اليوم من قلة، فلما التقوا هم وهوازن؛ حملوا على المسلمين حملة واحدة، فانهزموا لا يلوي أحد على أحد، ولم يبق مع رسول الله ﷺ إلا نَحْوُ مائة رجل ثبتوا معه، وجعلوا يقاتلون المشركين، وجعل النبي ﷺ يُرَكِّضُ بَغْلَتَهُ نحو المشركين ويقول: «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب»[1]. ولما رأى من المسلمين ما رأى؛ أمر العباس بن عبد المطلب أن ينادي في الأنصار وبقية المسلمين، وكان رفيع الصوت، فناداهم: يا أصحاب السَّمُرَةِ! يا أهل سورة البقرة! فلما سمعوا صوته؛ عطفوا عطفة رجل واحد، فاجتلدوا مع المشركين، فهزم الله المشركين هزيمة شنيعة، واستولوا على معسكرهم ونسائهم وأموالهم.

﴿٢٥﴾ وذلك قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾: وهو اسم للمكان الذي كانت فيه الوقعة بين مكة والطائف، ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا ﴾؛ أي: لم تفدكم شيئًا قليلًا ولا كثيرًا، ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ ﴾: - بما أصابكم من الهم والغم حين انهزمتم - ﴿ بِمَا رَحُبَتْ ﴾؛ أي: على رحبها وسعتها، ﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾؛ أي: منهزمين.

﴿٢٦﴾ ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾: والسكينة: ما يجعله الله في القلوب وقت القلاقل والزلازل والمفظعات مما يثبتها ويسكِّنها ويجعلها مطمئنة، وهي من نعم الله العظيمة على العباد، ﴿ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾: وهم الملائكة، أنزلهم الله معونة للمسلمين يوم حنين يُثَبِّتُونهم ويبشرونهم بالنصر، ﴿ وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾: بالهزيمة والقتل واستيلاء المسلمين على نسائهم وأولادهم وأموالهم. ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾: يعذبهم الله في الدنيا، ثم يردهم في الآخرة إلى عذاب غليظ.

﴿٢٧﴾ ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ﴾: فتاب الله على كثير ممن كانت الوقعة عليهم، وأتوا إلى النبي ﷺ مسلمين تائبين، فرد عليهم نساءهم وأولادهم. ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾؛ أي: ذو مغفرة واسعة ورحمة عامة، يعفو عن الذنوب العظيمة للتائبين، ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة والطاعة والصفح عن جرائمهم وقبول توباتهم، فلا ييأسن أحد من رحمته ومغفرته[2]، ولو فعل من الذنوب والإجرام ما فعل.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿٢٨﴾ يقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ ﴾: بالله، الذين عبدوا معه غيره ﴿ نَجَسٌ ﴾؛ أي: خبثاء في عقائدهم وأعمالهم، وأي نجاسة أبلغ ممن كان يعبد مع الله آلهة لا تنفع ولا تضر ولا تغني عنه شيئًا، وأعمالهم ما بين محاربة لله وصد عن سبيل الله ونصر للباطل ورد للحق وعمل بالفساد في الأرض لا في الصلاح؟! فعليكم أن تطهروا أشرف البيوت وأطهرها عنهم؛ ﴿ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾: وهو سنة تسع من

(١) مسلم (١٧٧٥، ١٧٧٦).

(٢) ع: «مغفرته ورحمته».

ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ
رَّحِيمٞ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ
نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ
وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن
شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ
لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ
ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ
ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ
﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى
ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ
يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ
ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ
وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ
مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ
لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾

الهجرة، حين حج بالناس أبو بكر الصديق، وبعث النبي ﷺ ابن عمه عليًّا أن يؤذن يوم الحج الأكبر ببراءة، فنادى ألَّا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان. وليس المراد هنا نجاسة البدن؛ فإن الكافر كغيره طاهر البدن؛ بدليل أن الله تعالى أباح وطء الكتابية ومباشرتها، ولم يأمر بغسل[1] ما أصاب منها، والمسلمون ما زالوا يباشرون أبدان الكفار، ولم ينقل عنهم أنهم تقذروا منها تقذرهم من النجاسات، وإنما المراد كما تقدم نجاستهم المعنوية بالشرك؛ فكما أن التوحيد والإيمان طهارة؛ فالشرك نجاسة.

وقوله: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ﴾: أيها المسلمون، ﴿عَيۡلَةٗ﴾؛ أي: فقرًا وحاجة من منع المشركين من قربان المسجد الحرام؛ بأن تنقطع الأسباب التي بينكم وبينهم من الأمور الدنيوية، ﴿فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾: فليس الرزق مقصورًا على باب واحد ومحل واحد، بل لا ينغلق باب؛ إلا وفتح غيره أبواب كثيرة؛ فإن فضل الله واسع، وجوده عظيم، خصوصًا لمن ترك شيئًا لوجه الكريم؛ فإن الله أكرم الأكرمين، وقد أنجز الله وعده؛ فإن الله قد أغنى المسلمين من فضله، وبسط لهم من الأرزاق ما كانوا به من أكبر الأغنياء والملوك.

وقوله: ﴿إِن شَآءَ﴾: تعليق للإغناء بالمشيئة؛ لأن الغنى في الدنيا ليس من لوازم الإيمان، ولا يدل على محبة الله؛ فلهذا علقه الله بالمشيئة؛ فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان والدين إلا من يحب. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٨﴾﴾؛ أي: علمه واسع، يعلم من يليق به الغنى ومن لا يليق، ويضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها.

وتدل الآية الكريمة - وهي قوله: ﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَا﴾ - أن المشركين بعدما كانوا هم الملوك والرؤساء بالبيت، ثم صار بعد الفتح الحكم لرسول الله والمؤمنين مع إقامتهم في البيت ومكة المكرمة، ثم نزلت هذه الآية، ولما مات النبي ﷺ؛ أمر أن يُجْلَوْا من الحجاز؛ فلا يبقى فيها دينان، وكل هذا لأجل بعد كل كافر عن المسجد الحرام، فيدخل في قوله: ﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَا﴾.

﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿٢٩﴾ هذه الآية أمر بقتال الكفار من اليهود والنصارى من ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾: إيمانًا صحيحًا يصدقونه بأفعالهم وأعمالهم، ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾: فلا يتبعون شرعه في تحريم المحرمات، ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: لا يدينون بالدين الصحيح، وإن زعموا أنهم على دين؛ فإنه دين غير الحق؛ لأنه إما[2] دين مبدَّل وهو الذي لم يشرعه الله أصلًا، وإما دين منسوخ قد شرعه الله ثم غيَّره بشريعة محمد ﷺ، فيبقى التمسك به بعد النسخ غير جائز. فأمره بقتال هؤلاء وحث على ذلك لأنهم يدعون إلى ما هم عليه، ويحصل الضرر الكثير منهم للناس، بسبب أنهم أهل كتاب. وغيَّا ذلك القتال: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾؛ أي: المال الذي يكون

(١) ع: «أن يغتسل».

(٢) ع، ط: «ما بين».

جزاء لترك المسلمين قتالهم وإقامتهم آمنين على أنفسهم وأموالهم بين أظهر المسلمين، يؤخذ منهم كل عام كل على حسب حاله من غني وفقير ومتوسط؛ كما فعل ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وغيره من أمراء المؤمنين. وقوله: ﴿عَن يَدٍ﴾؛ أي: حتى يبذلوها في حال ذلهم، وعدم اقتدارهم، ويعطوها[1] بأيديهم، فلا يرسلون بها خادمًا، ولا غيره، بل لا تقبل إلا من أيديهم. ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾: فإذا كانوا بهذه الحال، وسألوا المسلمين أن يقروهم بالجزية وهم تحت أحكام المسلمين وقهرهم، وحال الأمن من شرهم وفتنتهم، واستسلموا للشروط التي أجراها عليهم المسلمون، مما ينفي عزهم وتكبرهم وتوجب ذلهم وصغارهم؛ وجب على الإمام أو نائبه أن يعقدها لهم، وإلا؛ بأن لم يفوا ولم يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون؛ لم يجز إقرارهم بالجزية، بل يقاتلون حتى يسلموا.

واستدل بهذه الآية الجمهور الذين يقولون: لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب؛ لأن الله لم يذكر أخذ الجزية إلا منهم، وأما غيرهم؛ فلم يذكر إلا قتالهم حتى يسلموا. وألحق بأهل الكتاب في أخذ الجزية وإقرارهم في ديار المسلمين المجوس؛ فإن النبي ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر، ثم أخذها أمير المؤمنين عمر من الفرس المجوس[2].

وقيل: إن الجزية تؤخذ من سائر الكفار من أهل الكتاب وغيرهم؛ لأن هذه الآية نزلت بعد الفراغ من قتال العرب المشركين والشروع في قتال أهل الكتاب ونحوهم، فيكون هذا القيد إخبارًا بالواقع لا مفهومًا له، ويدل على هذا أن المجوس أخذت منهم الجزية وليسوا أهل كتاب، ولأنه قد تواتر عن المسلمين من الصحابة ومن بعدهم أنهم يدعون من يقاتلونهم إلى إحدى ثلاث: إما الإسلام، أو أداء الجزية، أو السيف؛ من غير فرق بين كتابي وغيره.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿٣٠﴾ لما أمر تعالى بقتال أهل الكتاب ذكر من أقوالهم الخبيثة ما يهيج المؤمنين الذين يغارون لربهم ولدينه على قتالهم والاجتهاد وبذل الوسع فيه، فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾: وهذه المقالة وإن لم تكن مقالة لعامتهم؛ فقد قالها فرقة منهم، فيدل ذلك على أن في اليهود من الخبث والشر ما أوصلهم إلى أن قالوا هذه المقالة التي تجرءوا فيها على الله وتنقصوا عظمته وجلاله. وقد قيل: إن سبب ادعائهم في عزير أنه ابن الله: أنه لما تسلط[3] الملوك على بني إسرائيل ومزقوهم كل ممزق وقتلوا حملة التوراة؛ وجدوا عزيرًا بعد ذلك حافظًا لها أو أكثرها، فأملاها عليهم من حفظه، واستنسخوها. فادعوا فيه هذه الدعوى الشنيعة. ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ﴾ عيسى ابن مريم ﴿ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾، قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾: القول الذي قالوه، ﴿قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾: لم يقيموا عليه حجة ولا برهانًا، ومن كان لا يبالي بما يقول لا يستغرب عليه أي قول يقوله؛ فإنه لا دين ولا عقل يحجزه عما يريد من الكلام، ولهذا قال: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾؛ أي: يشابهون في قولهم هذا ﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: قول المشركين الذين يقولون الملائكة بنات الله، تشابهت قلوبهم فتشابهت أقوالهم في البطلان. ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾؛ أي: كيف يصرفون عن الحق الصرف الواضح المبين إلى القول الباطل المبين؟!

﴿٣١﴾ وهذا وإن كان يستغرب على أمة كبيرة كثيرة أن تتفق على قول يدل على بطلانه أدنى تفكر وتسليط للعقل عليه؛ فإن لذلك سببًا، وهو أنهم ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ﴾: وهم علماؤهم، ﴿وَرُهْبَٰنَهُمْ﴾؛ أي: العباد المتجردين للعبادة، ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: يحلون لهم ما حرم الله فيحلونه، ويحرمون لهم ما أحل الله فيحرمونه، ويشرعون لهم من الشرائع والأقوال المنافية لدين الرسل، فيتبعونهم عليها،

(١) ع: «ويعطونها».
(٢) البخاري (٣١٥٧).
(٣) ع، ط: «سلط الله».

يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ
أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ
أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ
كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ
أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ
وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ
عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ
وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ
تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ
شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ
أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا
يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

وكانوا أيضًا يغلون في مشايخهم وعبادهم، ويعظمونهم، ويتخذون قبورهم أوثانًا تعبد من دون الله، وتقصد بالذبائح والدعاء والاستغاثة. ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾: اتخذوه إلهًا من دون الله، والحال أنهم خالفوا في ذلك أمر الله لهم على ألسنة رسله، فما ﴿أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: فيخلصون له العبادة والطاعة ويخصونه بالمحبة والدعاء، فنبذوا أمر الله، وأشركوا به ما لم ينزل به سلطانًا. ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾: وتعالى ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾؛ أي: تنزه وتقدس وتعالت عظمته عن شركهم وافترائهم؛ فإنهم ينتقصونه في ذلك ويصفونه بما لا يليق بجلاله، والله تعالى العالي في أوصافه وأفعاله عن كل ما نسب إليه مما ينافي كماله المقدس.

﴿٣٢﴾ فلما تبين أنه لا حجةَ لهم على ما قالوه ولا برهان لما أصلوه، وإنما هو مجرد قول قالوه وافتراء افتروه؛ أخبر أنهم ﴿يُرِيدُونَ﴾ بهذا ﴿أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾: ونور الله دينه الذي أَرْسَل به الرسل وأنزل به الكتب، وسماه الله نورًا لأنه يستنار به في ظلمات الجهل والأديان الباطلة؛ فإنه علم بالحق وعمل بالحق، وما عداه فإنه بضده؛ فهؤلاء اليهود والنصارى ومن ضاهاهم من المشركين، يريدون أن يطفئوا نور الله بمجرد أقوالهم التي ليس عليها دليل أصلًا. ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾: لأنه النور الباهر، الذي لا يمكن لجميع الخلق لو اجتمعوا على إطفائه أن يطفئوه، والذي أنزله جميع نواصي العباد بيده، وقد تكفل بحفظه من كل من يريده بسوء، ولهذا قال: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾: وسعوا ما أمكنهم في رده وإبطاله؛ فإن سعيهم لا يضر الحق شيئًا.

﴿٣٣﴾ ثم بين تعالى هذا النور الذي قد تكفل بإتمامه وحفظه، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾: الذي هو العلم النافع، ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ الذي هو العمل الصالح، فكان ما بعث الله به محمدًا ﷺ مشتملًا على بيان الحق من الباطل في أسماء الله وأوصافه وأفعاله، وفي أحكامه وأخباره، والأمر بكل مصلحة نافعة للقلوب والأرواح والأبدان؛ من إخلاص الدين لله وحده، ومحبة الله وعبادته، والأمر بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم والأعمال الصالحة والآداب النافعة، والنهي عن كل ما يضاد ذلك ويناقضه من الأخلاق والأعمال السيئة المضرة للقلوب والأبدان والدنيا والآخرة، فأرسله الله بالهدى ودين الحق؛ ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾؛ أي: ليعليه على سائر الأديان؛ بالحجة والبرهان، والسيف والسنان، وإن كره المشركون ذلك، وبغوا له الغوائل، ومكروا مكرهم؛ فإن المكر السيئ لا يضر إلا صاحبه؛ فوعد الله لا بد أن ينجزه وما ضمنه لا بد أن يقوم به.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ
وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ
عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ
وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾
يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ
وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟
مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٣٤﴾ هذا تحذير من الله تعالى لعباده المؤمنين عن كثير من الأحبار والرهبان؛ أي: العلماء والعُبَّاد الذين يأكلون أموال

الناس بالباطل؛ أي: بغير حق ويصدون عن سبيل الله؛ فإنهم إذا كانت لهم رواتب من أموال الناس، أو بذل الناس لهم من أموالهم؛ فإنه لأجل علمهم وعبادتهم ولأجل هداهم وهدايتهم، وهؤلاء يأخذونها ويصدون الناس عن سبيل الله، فيكون أخذهم لها على هذا الوجه سحتًا وظلمًا؛ فإن الناس ما بذلوا لهم من أموالهم إلا ليدلوهم على الطريق المستقيم، ومن أخذهم لأموال الناس بغير حق أن يعطوهم ليفتوهم، أو يحكموا لهم بغير ما أنزل الله؛ فهؤلاء الأحبار والرهبان ليحذر منهم هاتان الحالتان: أخذهم لأموال الناس بغير حق، وصدهم الناس عن سبيل الله.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ ﴾؛ أي: يمسكونها، ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: طرق الخير الموصلة إلى الله، وهذا هو الكنز المحرم: أن يمسكها عن النفقة الواجبة، كأن يمنع منها الزكاة أو النفقات الواجبة للزوجات أو الأقارب أو النفقة في سبيل الله إذا وجبت؛ ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿٣٥﴾ ثم فسره بقوله: ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا ﴾؛ أي: على أموالهم ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾: فيحمى كل دينار أو درهم على حدته، ﴿ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾: في يوم القيامة، كلما بردت؛ أعيدت، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ويقال لهم توبيخًا ولومًا: ﴿ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾: فما ظلمكم، ولكنكم ظلمتم أنفسكم، وعذبتموها بهذا الكنز.

وذكر الله في هاتين الآيتين انحراف الإنسان في ماله، وذلك بأحد أمرين: إما أن ينفقه في الباطل الذي لا يجدي عليه نفعًا، بل لا يناله منه إلا الضرر المحض، وذلك كإخراج الأموال في المعاصي والشهوات التي لا تعين على طاعة الله، وإخراجها للصد عن سبيل الله. وإما أن يمسك ماله عن إخراجه في الواجبات، والنهي عن الشيء أمر بضده.

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿٣٦﴾ يقول تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: في قضاء الله[1] وقدره ﴿ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ﴾: وهي هذه الشهور المعروفة ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: في حكمه القدري، ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾: وأجرى ليلها ونهارها، وقدر أوقاتها، فقسمها على هذه الشهور الاثني عشر شهرًا. ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾: وهي رجب الفرد وذو القعدة وذو الحجة والمحرم، وسميت حرمًا لزيادة حرمتها وتحريم القتال فيها. ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾: يُحتمل أن الضمير يعود إلى الاثني عشر شهرًا، وأن الله تعالى بين أنه جعلها مقادير للعباد، وأن تُعْمَر بطاعته، ويشكر الله تعالى على منته بها، وتقييضها لمصالح العباد، فلتحذروا من ظلم أنفسكم فيها. ويحتمل أن الضمير يعود إلى الأربعة الحرم، وأن هذا نهي لهم عن الظلم فيها خصوصًا، مع النهي عن الظلم كل وقت؛ لزيادة تحريمها وكون الظلم فيها أشد منه في غيرها، ومن ذلك النهي عن القتال فيها على قول من قال: إن القتال في الأشهر الحرم لم يُنْسخ تحريمه؛ عملًا بالنصوص العامة في تحريم القتال فيها، ومنهم من قال: إن تحريم القتال فيها منسوخ أخذًا بعموم نحو قوله: ﴿وَقَٰتِلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ﴾؛ أي: قاتلوا جميع أنواع المشركين والكافرين برب العالمين، ولا تخصوا أحدًا منهم بالقتال دون أحد، بل اجعلوهم كلهم لكم أعداء كما كانوا هم معكم كذلك قد اتخذوا أهل الإيمان أعداء لهم لا يألونهم من الشر شيئًا، ويحتمل أن ﴿ كَآفَّةً ﴾ حال من الواو، فيكون معنى هذا: وقاتلوا جميعكم المشركين، فيكون فيها وجوب النفير على جميع المؤمنين، وقد نسخت على هذا الاحتمال بقوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً ﴾ [التوبة: ١٢٢] الآية. ﴿وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾: بعونه ونصره وتأييده، فلتحرصوا على استعمال تقوى الله في سركم وعلنكم والقيام بطاعته، خصوصًا عند قتال الكفار؛ فإنه في هذه الحال ربما ترك المؤمن العمل بالتقوى في معاملة الكفار الأعداء المحاربين.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

(١) ع: «قضائه».

إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

﴿٣٧﴾ النسيء هو ما كان أهل الجاهلية يستعملونه في الأشهر الحرم، وكان من جملة بدعهم الباطلة أنهم لما رأوا احتياجهم للقتال في بعض أوقات الأشهر الحرم؛ رأوا بآرائهم الفاسدة أن يحافظوا على عدة الأشهر الحرم التي حرم الله القتال فيها، وأن يؤخروا بعض الأشهر الحرم أو يقدموه ويجعلوا مكانه من أشهر الحل ما أرادوا؛ فإذا جعلوه مكانه؛ أحلوا القتال فيه، وجعلوا الشهر الحلال حرامًا؛ فهذا كما أخبر الله عنهم أنه زيادة في كفرهم وضلالهم؛ لما فيه من المحاذير:

منها: أنهم ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، وجعلوه بمنزلة شرع الله ودينه، والله ورسوله بريئان منه.

ومنها: أنهم قلبوا الدين، فجعلوا الحلال حرامًا والحرام حلالًا.

ومنها: أنهم موَّهوا على الله بزعمهم وعلى عباده، وَلَبَّسوا عليهم دينهم، واستعملوا الخداع والحيلة في دين الله.

ومنها: أن العوائد المخالفة للشرع مع الاستمرار عليها يزول قبحها عن النفوس، وربما ظن أنها عوائد حسنة، فحصل من الغلط والضلال ما حصل.

ولهذا قال: ﴿ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾؛ أي: ليوافقوها في العدد، ﴿ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡ ﴾؛ أي: زينت لهم الشياطين الأعمال السيئة، فرأوها حسنة بسبب العقيدة المزينة في قلوبهم. ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾؛ أي: الذين انصبغ الكفر والتكذيب في قلوبهم، فلو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا.

ثم قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿٣٨﴾ اعلم أن كثيرًا من هذه السورة الكريمة نزلت في غزوة تبوك، إذ ندب النبي ﷺ المسلمين إلى غزو الروم، وكان الوقت حارًّا والزاد قليلًا والمعيشة عَسِرَةً، فحصل من بعض المسلمين من التثاقل ما أوجب أن يعاتبهم الله تعالى عليه ويستنهضهم، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾: ألا تعملون بمقتضى الإيمان ودواعي اليقين من المبادرة لأمر الله والمسارعة إلى رضاه وجهاد أعدائه والنصرة لدينكم؛ فـ ﴿ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾؛ أي: تكاسلتم وملتم إلى الأرض والدعة والسكون فيها. ﴿ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾؛ أي: ما حالكم إلا حال من رضي بالدنيا وسعى لها ولم يبال بالآخرة؛ فكأنه ما آمن بها. ﴿ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾: التي مالت بكم وَقَدَّمتموها على الآخرة ﴿ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ ﴾: أفليس قد جعل الله لكم عقولًا تزنون بها الأمور؟ وأيها أحق بالإيثار؟! أفليست الدنيا من أولها إلى آخرها لا نسبة لها في الآخرة؟! فما مقدار عمر الإنسان القصير جدًّا من الدنيا حتى يجعله الغاية التي لا غاية وراءها فيجعل سعيه وكده وهمه وإرادته لا يتعدى الحياة الدنيا القصيرة المملوءة بالأكدار

المشحونة بالأخطار؟! فبأي رأي رأيتم إيثارها على الدار الآخرة، الجامعة لكل نعيم، التي فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون؟! فوالله ما آثر الدنيا على الآخرة من وقر الإيمان في قلبه، ولا من جزل رأيه، ولا من عُدَّ من أولي الألباب.

(٣٩) ثم توعدهم على عدم النفير، فقال: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: في الدنيا والآخرة؛ فإن عدم النفير في حال الاستنفار من كبائر الذنوب الموجبة لأشد العقاب؛ لما فيه من المضار الشديدة؛ فإن المتخلف قد عصى الله تعالى، وارتكب لنهيه، ولم يساعد على نصر دين الله، ولا ذب عن كتاب الله وشرعه، ولا أعان إخوانه المسلمين على عدوهم الذي يريد أن يستأصلهم ويمحق دينهم، وربما اقتدى به غيره من ضعفاء الإيمان، بل ربما فت في أعضاد من قاموا بجهاد أعداء الله؛ فحقيق بمن هذا حاله أن يتوعده الله بالوعيد الشديد، فقال: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾[١]، ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾؛ فإنه تعالى متكفل بنصر دينه وإعلاء كلمته؛ فسواء امتثلتم لأمر الله أو ألقيتموه وراءكم ظهريًّا. ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)﴾: لا يعجزه شيء أراده ولا يغالبه أحد.

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)﴾.

(٤٠) أي: إلا تنصروا رسوله محمدًا ﷺ؛ فالله غني عنكم، لا تضرونه شيئًا؛ فقد نصره في أقل ما يكون وأذله ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: من مكة، لما هموا بقتله وسعوا في ذلك وحرصوا أشد الحرص فألجئوه إلى أن يخرج. ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾؛ أي: هو وأبو بكر الصديق رضي الله عنه. ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾؛ أي: لما هربا من مكة؛ لجأا إلى غار ثور[٢] في أسفل مكة، فمكثا فيه ليبرد عنهما الطلب؛ فهما في تلك الحالة الحرجة الشديدة المشقة حين انتشر الأعداء من كل جانب يطلبونهما ليقتلوهما، فأنزل الله عليهما من نصره ما لا يخطر على البال. ﴿إِذْ يَقُولُ﴾: النبي ﷺ ﴿لِصَاحِبِهِ﴾: أبي بكر لما حزن واشتد قلقه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾: بعونه ونصره وتأييده، ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾؛ أي: الثبات والطمأنينة والسكون المثبتة للفؤاد، ولهذا لما قلق صاحبه؛ سكنه وقال: لا تحزن إن الله معنا. ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾: وهي الملائكة الكرام، الذين جعلهم الله حرسًا له.

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَىٰ﴾؛ أي: الساقطة المخذولة؛ فإن الذين كفروا كانوا[٣] على حَرْدٍ قادرين في ظنهم على قتل الرسول ﷺ وأخذه حنقين عليه، فعملوا غاية مجهودهم في ذلك، فخذلهم الله ولم يتم لهم مقصودهم، بل ولا أدركوا شيئًا منه، ونصر الله رسوله بدفعه عنه، وهذا هو النصر المذكور في هذا الموضع؛ فإن النصر على قسمين: نصر المسلمين إذا طمعوا في عدوهم بأن يتم الله لهم ما طلبوا وقصدوا ويستولوا على عدوهم ويظهروا عليهم. والثاني: نصر المستضعف الذي طمع فيه عدوه القادر، فنصر الله إياه أن يرد عنه عدوه، ويدافع عنه، ولعل هذا النصر أنفع النصرين، ونصر الله رسوله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين من هذا النوع. وقوله: ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾. أي: كلماته القدرية وكلماته الدينية هي العالية على كلمة غيره، التي من جملتها قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)﴾ [الروم: ٤٧]، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ (٥١)﴾ [غافر: ٥١]، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَٰلِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات: ١٧٣]. فدين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان بالحجج الواضحة والآيات الباهرة والسلطان الناصر. ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾: لا يغالبه مغالب ولا يفوته هارب. ﴿حَكِيمٌ (٤٠)﴾: يضع الأشياء مواضعها، ويؤخر نصر حزبه إلى وقت آخر اقتضته الحكمة الإلهية.

وفي هذه الآية الكريمة فضيلة أبي بكر الصديق بخصيصة لم تكن لغيره من هذه الأمة، وهي الفوز بهذه المنقبة الجليلة والصحبة الجميلة، وقد أجمع المسلمون على أنه هو المراد بهذه الآية الكريمة، ولهذا عدوا من أنكر صحبة أبي بكر

(١) زاد في ع، ط: «ثم لا يكونوا أمثالكم».
(٢) ع: «حراء». راجع سيرة ابن هشام ١/ ٤٨٥.
(٣) ع، ط: «قد كانوا».

الجزء العاشر — سورة التوبة

ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ
فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (٤١)
لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ
عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا
مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ (٤٢)
عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ
صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ (٤٣) لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ
يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ
وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ
لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ
فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) ۞وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ
لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ
وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ (٤٦) لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم
مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ
ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ (٤٧)

١٩٤

للنبي ﷺ كافرًا؛ لأنه منكر للقرآن الذي صرح بها. وفيها فضيلة السكينة، وأنها من تمام نعمة الله على العبد في أوقات الشدائد والمخاوف التي تطيش لها الأفئدة، وأنها تكون على حسب معرفة العبد بربه وثقته بوعده الصادق، وبحسب إيمانه وشجاعته. وفيها أن الحزن قد يعرض لخواص عباد الله الصديقين، مع أن الأولى إذا نزل بالعبد أن يسعى في ذهابه عنه؛ فإنه مضعف للقلب موهن للعزيمة.

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (٤١) لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ (٤٢)﴾.

(٤١) يقول تعالى لعباده المؤمنين مهيجًا لهم على النفير في سبيله، فقال: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا﴾. أي: في العسر واليسر، والمنشط والمكره، والحر والبرد، وفي جميع الأحوال، ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ابذلوا جهدكم في ذلك، واستفرغوا وسعكم في المال والنفس. وفي هذا دليل على أنه كما يجب الجهاد في النفس يجب في المال حيث اقتضت الحاجة ودعت لذلك. ثم قال: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (٤١)﴾. أي: الجهاد في النفس والمال خير لكم من التقاعد عن ذلك؛ لأن فيه رضا الله تعالى، والفوز بالدرجات العاليات عنده، والنصر لدين الله، والدخول في جملة جنده وحزبه.

(٤٢) ﴿لَوۡ كَانَ﴾: خروجهم ﴿عَرَضٗا قَرِيبٗا﴾ أي: لطلب عرض قريب ومنفعة[1] دنيوية سهلة التناول. وكان السفر سفرًا ﴿قَاصِدٗا﴾؛ أي: قريبًا سهلًا ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾: لعدم المشقة الكثيرة، ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾؛ أي: طالت عليهم المسافة، وصعب عليهم السفر؛ فلذلك تثاقلوا عنك، وليس هذا من أمارات العبودية، بل العبد حقيقةً المتعبد لربه في كل حال، القائم بالعبادة السهلة والشاقة؛ فهذا العبد لله على كل حال. ﴿وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ﴾؛ أي: سيحلفون؛ لتخلفهم[2] عن الخروج، أن لهم عذرًا[3]، وأنهم لا يستطيعون ذلك، ﴿يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ﴾: بالقعود والكذب والإخبار بغير الواقع. ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ (٤٢)﴾.

وهذا العتاب إنما هو للمنافقين، الذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، وأبدوا من الأعذار الكاذبة ما أبدوا، فعفا النبي ﷺ عنهم بمجرد اعتذارهم، من غير أن يمتحنهم فيتبين له الصادق من الكاذب، ولهذا عاتبه الله على هذه المسارعة إلى عذرهم، فقال:

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ (٤٣) لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥)﴾.

---

(١) ع، ط: «أو منفعة».
(٢) ع، ط: «أن تخلفهم».
(٣) ع: «أعذارًا».

(٤٣) يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾. أي: سامحك وغفر لك ما أجريت. ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾: في التخلف، ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٤٣)﴾: بأن تمتحنهم ليتبين لك الصادق من الكاذب، فتعذر من يستحق العذر ممن لا يستحق ذلك.

(٤٤) ثم أخبر أن المؤمنين بالله واليوم الآخر لا يستأذنون في ترك الجهاد بأموالهم وأنفسهم؛ لأن ما معهم من الرغبة في الخير والإيمان يحملهم على الجهاد من غير أن يحثهم عليه حاث، فضلًا عن كونهم يستأذنون في تركه من غير عذر. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ (٤٤)﴾: فيجازيهم على ما قاموا به من تقواه، ومن علمه بالمتقين أنه أخبر أن من علاماتهم أنهم لا يستأذنون في ترك الجهاد.

(٤٥) ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: ليس لهم إيمان تام ولا يقين صادق؛ فلذلك قلت رغبتهم في الخير، وجبنوا عن القتال، واحتاجوا أن يستأذنوا في ترك القتال. ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥)﴾؛ أي: لا يزالون في الشك والحيرة.

﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ (٤٧) لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ (٤٨)﴾.

(٤٦) يقول تعالى مبينًا أن المتخلفين من المنافقين قد ظهر منهم من القرائن ما يبين أنهم ما قصدوا الخروج بالكلية، وأن أعذارهم التي اعتذروها باطلة؛ فإن العذر هو المانع الذي يمنع إذا بذل العبد وسعه وسعى في أسباب الخروج ثم منعه مانع شرعي؛ فهذا الذي يُعذر، وأما هؤلاء المنافقون، لو[1] ﴿أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً﴾؛ أي: لاستعدوا وعملوا ما يمكنهم من الأسباب، ولكن لما لم يعدوا له عدة؛ علم أنهم ما أرادوا الخروج، ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾: معكم في الخروج للغزو، ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾: قدرًا وقضاء وإن كان قد أمرهم وحثهم على الخروج وجعلهم مقتدرين عليه، ولكن بحكمته ما أراد إعانتهم، بل خذلهم وثبطهم، ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ (٤٦)﴾: من النساء والمعذورين.

(٤٧) ثم ذكر الحكمة في ذلك، فقال: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾؛ أي: نقصًا، ﴿وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ﴾؛ أي: ولسعوا في الفتنة والشر بينكم وفرقوا جماعتكم المجتمعين. ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾؛ أي: هم حريصون على فتنتكم وإلقاء العداوة بينكم، ﴿وَفِيكُمْ﴾: أناس ضعفاء العقول، ﴿سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾؛ أي: مستجيبون لدعوتهم، يغترون بهم؛ فإذا كانوا[2] حريصين على خذلانكم وإلقاء الشر بينكم وتثبيطكم عن أعدائكم وفيكم من يقبل منهم ويستنصحهم؛ فما ظنك بالشر الحاصل من خروجهم مع المؤمنين والنقص الكثير منهم؟! فلله أتم الحكمة حيث ثبطهم، ومنعهم من الخروج مع عباده المؤمنين رحمة بهم، ولطفًا من أن يداخلهم ما لا ينفعهم، بل يضرهم. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ (٤٧)﴾: فيعلم عباده كيف يحذرونهم، ويبين لهم من المفاسد الناشئة من مخالطتهم.

(٤٨) ثم ذكر أنه قد سبق لهم سوابق في الشر، فقال: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: حين هاجرتم إلى المدينة، فبذلوا[3] الجهد، ﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾؛ أي: أداروا الأفكار، وأعملوا الحيل في إبطال دعوتكم وخذلان دينكم، ولم يقصروا في ذلك. ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ (٤٨)﴾: فبطل كيدهم، واضمحل باطلهم؛ فحقيق بمثل هؤلاء أن يحذر الله عباده المؤمنين منهم، وألَّا يبالي المؤمنون بتخلفهم عنهم.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ (٤٩)﴾.

(٤٩) أي: ومن هؤلاء المنافقين من يستأذن في التخلف ويعتذر بعذر آخر عجيب، فيقول: ﴿ٱئْذَن لِّى﴾: في التخلف، ﴿وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾: في الخروج؛ فإني إذا خرجت فرأيت نساء بني الأصفر لا أصبر عنهن؛ كما قال ذلك الجد بن قيس، ومقصوده -قبحه الله- الرياء والنفاق؛ بأن

(١) ع، ط: «فلو».
(٢) زاد في ع: «هم».
(٣) ع، ط: «بذلوا».

لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ
جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾
وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ
سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ
﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ
مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟
وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ
ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ
﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ
نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ
أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ
أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ
قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ
إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ
إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾

مقصودي مقصود حسن؛ فإن في خروجي فتنة، وتعرضًا للشر، وفي عدم خروجي عافية وكفًا عن الشر. قال الله تعالى مبينًا كذب هذا القول: ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾: فإنه على تقدير صدق هذا القائل في قصده فإن[1] في التخلف مفسدة كبرى وفتنة عظمى محققة، وهي معصية الله ومعصية رسوله والتجرؤ على الإثم الكبير والوزر العظيم، وأما الخروج؛ فمفسدة قليلة بالنسبة للتخلف، وهي متوهمة، مع أن هذا القائل قصده التخلف لا غير، ولهذا توعدهم الله بقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾. ليس لهم عنها مفر ولا مناص ولا فكاك ولا خلاص.

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾.

(٥٠) يقول تعالى مبينًا أن المنافقين هم الأعداء حقًا المبغضون للدين صرفًا: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ﴾. كنصر وإدالة على العدو، ﴿تَسُؤْهُمْ﴾؛ أي: تحزنهم وتغمهم، ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾: كإدالة العدو عليك، ﴿يَقُولُوا۟﴾: متبجحين بسلامتهم من الحضور معك: ﴿قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾. أي: قد حذرنا وعملنا بما ينجينا من الوقوع في مثل هذه المصيبة، ﴿وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾[2]: بمصيبتك وبعدم مشاركتهم إياك فيها.

(٥١) قال تعالى رادًا عليهم في ذلك: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾. أي: قدره وأجراه في اللوح المحفوظ. ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾؛ أي: متولي أمورنا الدينية والدنيوية؛ فعلينا الرضا بأقداره، وليس في أيدينا من الأمر شيء. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾: وحده ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾؛ أي: يعتمدوا عليه في جلب مصالحهم ودفع المضار عنهم، ويثقوا به في تحصيل مطلوبهم؛ فلا خاب من توكل عليه، وأما من توكل على غيره؛ فإنه مخذول غير مدرك لما أمَّل.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

(٥٢) أي: قل للمنافقين الذين يتربصون بكم الدوائر: أي شيء تربصون بنا؟ فإنكم لا تربصون بنا إلا أمرًا فيه غاية نفعنا، وهو إحدى الحسنيين: إما الظفر بالأعداء والنصر عليهم ونيل الثواب الأخروي والدنيوي، وإما الشهادة التي هي من أعلى درجات الخلق وأرفع المنازل عند الله. وأما تربصنا بكم يا معشر المنافقين؛ فنحن ﴿نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾ لا سبب لنا فيه، ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾؛ بأن يسلطنا عليكم فنقتلكم، ﴿فَتَرَبَّصُوٓا۟﴾: بنا الخير، ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾: بكم الشر.

﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

---

(١) ساقط من ع، ط.

(٢) زاد في ع: «فيفرحون».

(٥٣) يقول تعالى مبينًا بطلان نفقات المنافقين وذاكرًا السبب في ذلك، ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿أَنفِقُوا طَوْعًا﴾: من أنفسكم، ﴿أَوْ كَرْهًا﴾: على ذلك بغير اختياركم. ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾: شيء من أعمالكم؛ لأنكم ﴿كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣)﴾: خارجين عن طاعة الله.

(٥٤) ثم بين صفة فسقهم وأعمالهم فقال: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾. والأعمال كلها شرط قبولها الإيمان؛ فهؤلاء لا إيمان لهم ولا عمل صالح، حتى إن الصلاة التي هي أفضل أعمال البدن إذا قاموا إليها قاموا كسالى؛ قال: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾؛ أي: متثاقلون لا يكادون يفعلونها من ثقلها عليهم. ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤)﴾: من غير انشراح صدر وثبات نفس؛ ففي هذا غاية الذم لمن فعل مثل فعلهم، وأنه ينبغي للعبد ألَّا يأتي الصلاة إلا وهو نشيط البدن والقلب إليها، ولا ينفق إلا وهو منشرح الصدر، ثابت القلب، يرجو ذخرها وثوابها من الله وحده، ولا يتشبه بالمنافقين.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧)﴾.

(٥٥) يقول تعالى: فلا تعجبك أموال هؤلاء المنافقين ولا أولادهم؛ فإنه لا غبطة فيها، وأول بركاتها عليهم أن قدموها على مراضي ربهم وعصوا الله لأجلها. ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: والمراد بالعذاب هنا ما ينالهم من المشقة في تحصيلها والسعي الشديد في ذلك وهم القلب فيها وتعب البدن؛ فلو قابلت لذاتهم فيها بمشقاتهم؛ لم يكن لها نسبة إليها؛ فهي لَمَّا ألهتهم عن الله وذكره صارت وبالًا عليهم حتى في الدنيا، ومن وبالها العظيم الخطر أن قلوبهم تتعلق بها وإراداتهم لا تتعداها، فتكون منتهى مطلوبهم وغاية مرغوبهم، ولا يبقى في قلوبهم للآخرة نصيب، فيوجب ذلك أن ينتقلوا من الدنيا، ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥)﴾؛ فأي عقوبة أعظم من هذه العقوبة الموجبة للشقاء الدائم والحسرة الملازمة؟!

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧) وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩) ۞ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ۚ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١)

١٩٦

(٥٦) ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ﴾: قصدهم في حلفهم هذا أنهم ﴿قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٦)﴾؛ أي: يخافون الدوائر، وليس في قلوبهم شجاعة تحملهم على أن يبينوا أحوالهم، فيخافون إن أظهروا حالهم منكم، ويخافون أن تتبرءوا منهم فيتخطفهم الناس[1] من كل جانب، وأما حال قوي القلب ثابت الجنان؛ فإنه يحمله ذلك على بيان حاله حسنة كانت أو سيئة، ولكن المنافقين خُلِعَ عليهم خلعة الجبن، وحلوا بحلية الكذب.

(٥٧) ثم ذكر شدة جبنهم، فقال: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً﴾ يلجئون إليه عندما تنزل بهم الشدائد، ﴿أَوْ مَغَارَاتٍ﴾: يدخلونها فيستقرون فيها، ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾؛ أي: محلا يدخلونه فيتحصنون فيه، ﴿لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧)﴾؛ أي: يسرعون ويهرعون؛ فليس لهم ملكة يقتدرون بها على الثبات.

(١) ع، ط: «الأعداء».

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿٥٨﴾ أي: ومن هؤلاء المنافقين من يعيبك في قسمة الصدقات وينتقد عليك فيها، وليس انتقادهم فيها وعيبهم لقصد صحيح ولا لرأي رجيح، وإنما مقصودهم أن يعطوا منها. ﴿فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾: وهذه حالة لا تنبغي للعبد؛ أن يكون رضاه وغضبه تابعًا لهوى نفسه الدنيوي وغرضه الفاسد، بل الذي ينبغي أن يكون هواه تبعًا لمرضاة ربه؛ كما قال النبي ﷺ: **«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»**[1].

﴿٥٩﴾ وقال هنا: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾؛ أي: أعطاهم من قليل وكثير، ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ ﴾؛ أي: كافينا الله فنرضى بما قسمه لنا، وليؤملوا فضله وإحسانه إليهم بأن يقولوا: ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾؛ أي: متضرعون في جلب منافعنا ودفع مضارنا[2].

ثم بين تعالى كيفية قسمة الصدقات الواجبة فقال:

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿٦٠﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ ﴾؛ أي: الزكوات الواجبة، بدليل أن الصدقة المستحبة لكل أحد لا يخص بها أحد دون أحد؛ إنما الصدقات لهؤلاء المذكورين دون من عداهم؛ لأنه حصرها فيهم، وهم ثمانية أصناف:

الأول والثاني: الفقراء والمساكين، وهم في هذا الموضع صنفان متفاوتان؛ فالفقير أشد حاجة من المسكين؛ لأن الله بدأ بهم، ولا يبدأ إلا بالأهم فالأهم؛ ففسر الفقير بأنه الذي لا يجد شيئًا، أو يجد بعض كفايته دون نصفها، والمسكين الذي يجد نصفها فأكثر، ولا يجد تمام كفايته؛ لأنه لو وجدها؛ لكان غنيًا، فيعطون من الزكاة ما يزول به فقرهم ومسكنتهم.

والثالث: العاملون على الزكاة، وهم كل من له عمل وشغل فيها؛ من حافظ لها وجابٍ[3] لها من أهلها، أو راعٍ، أو حامل لها، أو كاتب، أو نحو ذلك، فيعطون لأجل عمالتهم، وهي أجرة لأعمالهم فيها.

والرابع: المؤلفة قلوبهم، والمؤلف قلبه هو السيد المطاع في قومه ممن يرجى إسلامه، أو يخشى شره، أو يرجى بعطيته قوة إيمانه، أو إسلام نظيره، أو جبايتها ممن لا يعطيها، فيعطى ما يحصل به التأليف والمصلحة.

الخامس: الرقاب، وهم المكاتبون الذين قد اشتروا أنفسهم من ساداتهم؛ فهم يسعون في تحصيل ما يفك رقابهم، فيعانون على ذلك من الزكاة. وفك الرقبة المسلمة التي في حبس الكفار داخل في هذا، بل أولى. ويدخل في هذا أنه يجوز أن يعتق[4] الرقاب استقلالًا؛ لدخوله في قوله: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ ﴾.

السادس: الغارمون، وهم قسمان: أحدهما: الغارمون لإصلاح ذات البين، وهو أن يكون بين طائفتين من الناس شر وفتنة، فيتوسط الرجل للإصلاح بينهم بمال يبذله لأحدهم أو لهم كلهم، فجُعل له نصيب من الزكاة؛ ليكون أنشط له وأقوى لعزمه، فيعطى ولو كان غنيًا. والثاني: من غَرِمَ لنفسه ثم أعسر؛ فإنه يعطى ما يوفي به دينه.

والسابع: الغازي في سبيل الله، وهم الغزاة المتطوعة الذين لا ديوان لهم، فيعطون من الزكاة ما يعينهم على غزوهم من ثمن سلاح أو دابة أو نفقة له ولعياله؛ ليتوفر على الجهاد ويطمئن قلبه، وقال كثير من الفقهاء: إن تفرغ القادر على الكسب لطلب العلم؛ أعطي من الزكاة؛ لأن العلم داخل في الجهاد في سبيل الله. وقالوا أيضًا: يجوز أن يعطى منها الفقير لحج فرضه. وفيه نظر[5].

والثامن: ابن السبيل، وهو الغريب المنقطع به في غير بلده، فيعطى من الزكاة ما يوصله إلى بلده. فهؤلاء الأصناف الثمانية الذين تدفع إليهم الزكاة وحدهم. ﴿فَرِيضَةً مِّنَ

(١) ابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٢، ١٣).
(٢) زاد في ع، ط: «لسلموا من النفاق ولهدوا إلى الإيمان والأحوال العالية».
(٣) ع: «أو جاب».
(٤) ع، ط: «يعتق منها».
(٥) عبارة: «وفيه نظر» ساقطة من ع.

﴿ٱللَّهِ﴾: فرضها وقدرها تابعة لعلمه وحكمه، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦٠﴾.

واعلم أن هذه الأصناف الثمانية ترجع إلى أمرين: **أحدهما**: من يعطى لحاجته ونفعه؛ كالفقير والمسكين ونحوهما. **والثاني**: من يعطى للحاجة إليه وانتفاع الإسلام به.

فأوجب الله هذه الحصة في أموال الأغنياء لسد الحاجات الخاصة والعامة للإسلام والمسلمين، فلو أعطى الأغنياء زكاة أموالهم على الوجه الشرعي؛ لم يبق فقير من المسلمين، ولحصل من الأموال ما يسد الثغور، ويجاهد به الكفار، وتحصل به جميع المصالح الدينية.

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦١ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٦٢ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٣﴾.

(٦١) أي: ومن هؤلاء المنافقين، ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾: بالأقوال الردية والعيب له ولدينه، ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾؛ أي: لا يبالون بما يقولون من الأذية للنبي، ويقولون: إذا بلغه عنا بعض ذلك؛ جئنا نعتذر إليه، فيقبل منا؛ لأنه أذن؛ أي: يقبل كل ما يقال له، لا يميز بين صادق وكاذب، وقصدهم - قبحهم الله - فيما بينهم أنهم غير مكترثين بذلك ولا مهتمين به؛ لأنه إذا لم يبلغه؛ فهذا مطلوبهم، وإن بلغه؛ اكتفوا بمجرد الاعتذار الباطل، فأساءوا كل الإساءة من أوجه كثيرة:

أعظمها: أذية نبيهم الذي جاء لهدايتهم وإخراجهم من الشقاء والهلاك إلى الهدى والسعادة.

ومنها: عدم اهتمامهم أيضًا بذلك، وهو قدر زائد على مجرد الأذية.

ومنها: قدحهم في عقل النبي ﷺ، وعدم إدراكه وتفريقه بين الصادق والكاذب، وهو أكمل الخلق عقلًا وأتمهم إدراكًا وأثقبهم رأيًا وبصيرة، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾؛ أي: يقبل من قال له خيرًا وصدقًا، وأما إعراضه وعدم تعنيفه لكثير من المنافقين المعتذرين بالأعذار

سورة التوبة — الجزء العاشر

يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٦٢ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٣ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ۝٦٤ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ۝٦٦ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٦٧ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٦٨

١٩٧

الكذب؛ فلسعة خلقه وعدم اهتمامه بشأنهم وامتثاله لأمر الله في قوله: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ [التوبة: ٩٥]، وأما حقيقة ما في قلبه ورأيه؛ فقال عنه: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: الصادقين المصدقين، ويعلم الصادق من الكاذب، وإن كان كثيرًا يُعرض عن الذين يعرف كذبهم وعدم صدقهم، ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾: فإنهم به يهتدون وبأخلاقه يقتدون، وأما غير المؤمنين؛ فإنهم لم يقبلوا هذه الرحمة، بل ردوها فخسروا دنياهم وآخرتهم. ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾: بالقول والفعل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦١﴾: في الدنيا والآخرة، ومن العذاب الأليم أنه يتحتم قتل مؤذيه وشاتمه.

(٦٢) ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾: فيتبرءوا مما صدر منهم من الأذية وغيرها، فغايتهم أن ترضوا عليهم. ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٦٢﴾: لأن المؤمن لا يقدم شيئًا على رضا ربه

ورضا رسوله، فدل هذا على انتفاء إيمانهم؛ حيث قدموا رضا غير الله ورسوله.

(٦٣) وهذا محادة لله ومشاقة له، وقد توعد من حاده بقوله: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾: بأن يكون في حد وشق مبعد عن الله ورسوله؛ بأن تهاون بأوامر الله وتجرأ على محارمه، ﴿ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ﴾ و﴿ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ (٦٣) ﴾: الذي لا خزي أشنع ولا أفظع منه، حيث فاتهم النعيم المقيم، وحصلوا على عذاب الجحيم؛ عياذًا بالله من حالهم[1].

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ (٦٦) ﴾.

(٦٤) كانت هذه السورة الكريمة تسمى الفاضحة؛ لأنها بينت أسرار المنافقين وهتكت أستارهم؛ فما زال الله يقول: ومنهم، ومنهم... ويذكر أوصافهم؛ إلا أنه لم يعين أشخاصهم لفائدتين:

إحداهما: أن الله ستير يحب الستر على عباده.

والثانية: أن الذم على من اتصف بذلك الوصف من المنافقين الذين توجه إليهم الخطاب وغيرهم إلى يوم القيامة، فكان ذكر الوصف أعم وأنسب، حتى خافوا غاية الخوف؛ قال الله تعالى: ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا (٦١) ﴾ [الأحزاب: ٦٠، ٦١].

وقال هنا: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾؛ أي: تخبرهم وتفضحهم وتبين أسرارهم، حتى تكون علانية لعباده، ويكونوا عبرة للمعتبرين. ﴿ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ ﴾؛ أي: استمروا على ما أنتم عليه من الاستهزاء والسخرية. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (٦٤) ﴾: وقد وفى تعالى بوعده، فأنزل هذه السورة التي بينتهم، وفضحتهم، وهتكت أستارهم.

(٦٥)، (٦٦) ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾: عما قالوه من الطعن في المسلمين وفي دينهم، يقول طائفة منهم في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قُرَّائنا هؤلاء - يعنون: النبي ﷺ وأصحابه - أرغب بطونًا وأكذب ألسنًا وأجبن عند اللقاء... ونحو ذلك[2]، لما بلغهم أن النبي ﷺ قد علم بكلامهم؛ جاءوا يعتذرون إليه ويقولون: ﴿ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾؛ أي: نتكلم بكلام لا قصد لنا به ولا قصدنا الطعن والعيب، قال الله تعالى مبينًا عدم عذرهم وكذبهم في ذلك: ﴿ قُلْ ﴾ لهم: ﴿ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾؛ فإن الاستهزاء بالله وآياته[3] ورسوله كفر مخرج عن الدين؛ لأن أصل الدين مبني على تعظيم الله وتعظيم دينه ورسله، والاستهزاء بشيء من ذلك مناف لهذا الأصل ومناقض له أشد المناقضة، ولهذا؛ لما جاءوا إلى الرسول يعتذرون بهذه المقالة، والرسول لا يزيدهم على قوله: ﴿ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾. وقوله: ﴿ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ ﴾: لتوبتهم واستغفارهم وندمهم، ﴿ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً ﴾: منكم ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿ كَانُواْ مُجْرِمِينَ (٦٦) ﴾: مقيمين على كفرهم ونفاقهم.

وفي هذه الآيات دليل على أن من أسر سريرة، خصوصًا السريرة التي يمكر فيها بدينه ويستهزئ به وبآياته ورسوله؛ فإن الله تعالى يظهرها ويفضح صاحبها ويعاقبه أشد العقوبة. وأن من استهزأ بشيء من كتاب الله أو سنة رسوله الثابتة عنه أو سخر بذلك أو تنقصه أو استهزأ بالرسول أو تنقصه؛ فإنه كافر بالله العظيم. وأن التوبة مقبولة من كل ذنب وإن كان عظيمًا.

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ (٦٧) وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٦٨) ﴾.

---
(١) ع: «أحوالهم».
(٢) ابن جرير (١٤/ ٣٣٤).
(٣) ليست في الأصل، ط.

كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

﴿٦٧﴾ يقول تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾: لأنهم اشتركوا في النفاق، فاشتركوا في تولي بعضهم بعضًا، وفي هذا قطع للمؤمنين من ولايتهم. ثم ذكر وصف المنافقين العام الذي لا يخرج منه صغير منهم ولا كبير، فقال: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾: وهو الكفر والفسوق والعصيان، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾: وهو الإيمان والأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة والآداب الحسنة، ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾: عن الصدقة وطرق الإحسان؛ فوصفهم البخل. ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ﴾: فلا يذكرونه إلا قليلًا، ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾: من رحمته؛ فلا يوفقهم لخير ولا يدخلهم الجنة، بل يتركهم في الدرك الأسفل من النار خالدين فيها مخلدين. ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾: حصر الفسق فيهم؛ لأن فسقهم أعظم من فسق غيرهم؛ بدليل أن عذابهم أشد من عذاب غيرهم، وأن المؤمنين قد ابتلوا بهم إذ كانوا بين أظهرهم، والاحتراز منهم شديد.

﴿٦٨﴾ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾: جمع المنافقين والكفار في نار جهنم واللعنة والخلود في ذلك لاجتماعهم في الدنيا على الكفر والمعاداة لله ورسوله والكفر بآياته.

﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿٦٩﴾، ﴿٧٠﴾ يقول تعالى محذرًا للمنافقين أن يصيبهم ما أصاب من قبلهم من الأمم المكذبة؛ ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾؛ أي: قرى قوم لوط؛ فكلهم ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: بالحق الواضح الجلي المبين لحقائق الأشياء، فكذبوا بها، فجرى عليهم ما قص الله علينا؛ فأنتم أعمالكم شبيهة بأعمالهم. ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ﴾؛ أي: بنصيبكم من الدنيا، فتناولتموه على وجه اللذة والشهوة، معرضين عن المراد منه، واستعنتم به على معاصي الله، ولم تتعد همتكم وإرادتكم ما خولتم من النعم كما فعل الذين من قبلكم. ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾؛ أي: وخضتم بالباطل والزور وجادلتم بالباطل لتدحضوا به الحق؛ فهذه أعمالهم وعلومهم: استمتاع بالخلاق، وخوض بالباطل؛ فاستحقوا من العقوبة والإهلاك ما استحق من قبلهم ممن فعلوا كفعلهم، وأما المؤمنون منهم[1] وإن استمتعوا بنصيبهم وما خولوا من الدنيا؛ فإنه على وجه الاستعانة به على طاعة الله، وأما علومهم؛ فهي علوم الرسل، وهي: الوصول إلى اليقين في جميع المطالب العالية، والمجادلة بالحق لإدحاض الباطل. قوله: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾: إذ أوقع بهم من عقوبته ما أوقع، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾: حيث تجرءوا على معاصيه، وعصوا رسلهم، واتبعوا أمر كل جبار عنيد.

(١) ع، ط: «فهم».

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾.

﴿٧١﴾ لما ذكر أن المنافقين بعضهم من بعض؛ ذكر أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، ووصفهم بضد ما وصف به المنافقين، فقال: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ ﴾؛ أي: ذكورهم وإناثهم، ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾: في المحبة والموالاة والانتماء والنصرة. ﴿ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾: وهو اسم جامع لكل ما عرف حسنه من العقائد الحسنة والأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة، وأول من يدخل في أمرهم أنفسهم. ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾: وهو كل ما خالف المعروف، وناقضه من العقائد الباطلة والأعمال الخبيثة والأخلاق الرذيلة، ﴿ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾؛ أي: لا يزالون ملازمين لطاعة الله ورسوله على الدوام. ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾؛ أي: يدخلهم في رحمته ويشملهم بإحسانه. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾؛ أي: قوي قاهر، ومع قوته؛ فهو حكيم يضع كل شيء موضعه اللائق به الذي يحمد على ما خلقه وأمر به.

﴿٧٢﴾ ثم ذكر ما أعد الله لهم من الثواب، فقال: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾: جامعة لكل نعيم وفرح، خالية من كل أذى وترح، تجري من تحت قصورها ودورها وأشجارها الأنهار الغزيرة المروية للبساتين الأنيقة التي لا يعلم ما فيها من الخيرات والبركات إلا الله تعالى. ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾: لا يبغون عنها حولًا. ﴿ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ﴾: قد زخرفت وحسنت وأعدت لعباد الله المتقين، قد طاب مرآها وطاب منزلها ومَقيلها، وجمعت من آلات المساكن العالية ما لا يتمنى فوقه المتمنون، حتى إن الله تعالى قد أعد لهم غرفًا في غاية الصفاء والحسن، يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها؛ فهذه المساكن الأنيقة التي حقيق بأن تسكن إليها النفوس وتنزع إليها القلوب وتشتاق لها الأرواح؛ لأنها ﴿ فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ﴾؛ أي: إقامة، لا يظعنون عنها ولا يتحولون منها. ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾: يحله على أهل الجنة ﴿ أَكْبَرُ ﴾: مما هم فيه من النعيم؛ فإن نعيمهم لم يطب إلا برؤية ربهم ورضوانه عليهم، ولأنه الغاية التي أمَّها العابدون، والنهاية التي سعى نحوها المحبون؛ فرضا رب الأرض والسماوات أكبر من نعيم الجنات. ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾: حيث حصلوا على كل مطلوب، وانتفى عنهم كل محذور، وحسنت وطابت منهم جميع الأمور، فنسأل الله أن يجعلنا معهم بجوده.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْۖ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِۚ وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿٧٣﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾؛ أي: بالغ في جهادهم، ﴿ وَٱغْلُظْ ﴾[1] عليهم حيث اقتضت الحال الغلظة عليهم، وهذا الجهاد يدخل فيه الجهاد باليد والجهاد بالحجة واللسان؛ فمن بارز منهم بالمحاربة؛ فيجاهد باليد واللسان والسيف والبيان[2]، ومن كان مذعنًا للإسلام بذمة أو عهد؛ فإنه يجاهد بالحجة والبرهان، ويبين له محاسن الإسلام ومساوئ الشرك والكفران؛ فهذا ما لهم في الدنيا، وأما في الآخرة؛ فإن مأواهم ﴿ جَهَنَّمُ ﴾؛ أي: مقرهم الذي لا يخرجون منها، ﴿ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾.

﴿٧٤﴾ ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ ﴾؛ أي: إذا قالوا قولًا كقول من قال منهم: ﴿ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾ [المنافقون: ٨]، والكلام الذي يتكلم به الواحد بعد الواحد في الاستهزاء بالدين وبالرسول؛ فإذا بلغهم أن النبي ﷺ قد بلغه شيء من ذلك؛ جاءوا إليه يحلفون بالله ما قالوا، قال تعالى مكذبًا لهم: ﴿ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴾: فإسلامهم السابق، وإن كان ظاهره أنه أخرجهم من دائرة الكفر؛ فكلامهم الأخير ينقض

(١) ع، ط: «والغلظة».
(٢) الأصل، ط: «والسنان».

إسلامهم ويدخلهم بالكفر. ﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾: وذلك حين هموا بالفتك برسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقص الله عليه نبأهم، فأمر من يصدهم عن قصدهم. والحال أنهم ما ﴿نَقَمُوٓا۟﴾ وعابوا من رسول الله ﷺ ﴿إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾: بعد أن كانوا فقراء معوزين، وهذا من أعجب الأشياء: أن يستهينوا بمن كان سببًا لإخراجهم من الظلمات إلى النور، ومغنيًا لهم بعد الفقر! وهل حقه عليهم إلا أن يعظموه ويؤمنوا به ويجلوه؟![1] ثم عرض عليهم التوبة، فقال: ﴿فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾؛ لأن التوبة أصل لسعادة الدنيا والآخرة، ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْا۟﴾: عن التوبة والإنابة ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: في الدنيا بما ينالهم من الهم والغم والحزن على نصرة الله لدينه وإعزاز نبيه وعدم حصولهم على مطلوبهم، وفي الآخرة في عذاب السعير. ﴿وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ﴾: يتولى أمورهم ويحصِّل لهم المطلوب، ﴿وَلَا نَصِيرٍ (٧٤)﴾: يدفع عنهم المكروه، وإذا انقطعوا من ولاية الله تعالى؛ فثم أصناف الشر والخسران والشقاء والحرمان.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٧٥) فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ (٧٨)﴾.

(٧٥) أي: ومن هؤلاء المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه، ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾: من الدنيا فبسطها لنا ووسعها، ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٧٥)﴾: فنصل الرحم ونُقري الضيف، ونعين على نوائب الحق، ونفعل الأفعال الحسنة الصالحة.

(٧٦) ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾: لم يفوا بما قالوا، بل ﴿بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟﴾: عن الطاعة والانقياد، ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦)﴾؛ أي: غير ملتفتين إلى الخير.

(٧٧) فلما لم يفوا بما عاهدوا الله عليه؛ عاقبهم ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ﴾: مستمرًّا ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا

(١) زاد في ع، ط: «فاجتمع الداعي الديني وداعي المروءة الإنسانية».

الجزء العاشر — سورة التوبة

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ
وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (٧٣) يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ
مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ
وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ
مِن فَضْلِهِۦ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ
ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٧٤) ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ
ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٧٥)
فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ
(٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟
ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟
أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ
ٱلْغُيُوبِ (٧٨) ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا
جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩)

١٩٩

وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ (٧٧)﴾: فليحذر المؤمن من هذا الوصف الشنيع أن يعاهد ربه إن حصل مقصوده الفلاني؛ ليفعلن كذا وكذا، ثم لا يفي بذلك؛ فإنه ربما عاقبه الله بالنفاق كما عاقب هؤلاء، وقد قال النبي ﷺ في الحديث الثابت في الصحيحين[2]: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف**»؛ فهذا المنافق الذي وعد الله وعاهده لئن أعطاه الله من فضله؛ ليصدقن وليكونن من الصالحين: حدث فكذب، وعاهد فغدر، ووعد فأخلف.

(٧٨) ولهذا توعد من صدر منهم هذا الصنيع بقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ (٧٨)﴾: وسيجازيهم على ما عملوا من الأعمال التي يعلمها الله تعالى.

وهذه الآيات نزلت في رجل من المنافقين يقال له ثعلبة، جاء إلى النبي ﷺ، وسأله أن يدعو الله له أن يعطيه الله من

(٢) البخاري (٢٦٨٢)، مسلم (٥٩).

فضلـه، وأنـه إن أعطاه ليتصدقـن ويصل الرحـم ويعين على نوائـب الحـق[1]، فدعا النبـي ﷺ له، فكان له غنـم، فلم تزل تتنامـى حتى خرج بها عـن المدينة، فكان لا يحضر إلا بعض الصلوات الخمس، ثم أبعد فكان لا يحضر إلا صلاة الجمعة، ثـم كثرت فأبعدها فكان لا يحضـر جمعة ولا جماعة، ففقده النبي ﷺ، فأخبر بحاله، فبعث من يأخذ الصدقات من أهلها، فمـروا على ثعلبـة، فقال: ما هذه إلا جزيـة، ما هذه إلا أخت الجزيـة. فلما لـم يعطهم؛ جـاءوا فأخبروا بذلـك النبي ﷺ، فقـال: «يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة!» ثلاثًا[2]. فلما نزلت هذه الآيـة فيه وفي أمثاله؛ ذهب بها بعض أهله، فبلّغه إياها، فجاء بزكاته، فلم يقبلها النبي ﷺ، ثم جاء بها إلى أبي بكر بعد وفاة النبـي ﷺ، فلـم يقبلها، ثم جاء بها بعد أبي بكر إلى عمر، فلم يقبلها، فيقال: إنه هلك في زمن عثمان.

﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿٧٩﴾ وهـذا أيضًا مـن مخازي المنافقيـن، فكانوا - قبحهم اللـه - لا يدعون شـيئًا من أمور الإسـلام والمسـلمين يرون لهـم مقـالًا؛ إلا قالوا وطعنـوا بغيًـا وعدوانًا، فلمـا حث الله ورسـوله على الصدقة؛ بادر المسلمون إلى ذلك، وبذلوا من أموالهـم كل على حسـب حاله، منهم المكثـر ومنهم المقل، فيلمـزون المكثر منهـم بأن قصـده بنفقتـه الرياء والسـمعة، وقالـوا للمقـل الفقيـر: إن اللـه غني عـن صدقة هـذا، فأنزل اللـه تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ﴾؛ أي: يعيبون ويطعنون ﴿ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾: فيقولون: مـراءون قصدهم الفخر والرياء ويلمزون الذين ﴿لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ ﴾: فيخرجـون مـا اسـتطاعوا ويقولـون: الله غني عن صدقاتهـم، ﴿ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ ﴾، فقوبلوا[3] على صنيعهم بأن سـخر منهـم، ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾؛ فإنهم جمعوا في كلامهم هذا بين عدة محاذير:

منها: تتبعهم لأحـوال المؤمنين وحرصهم على أن يجدوا مقـالًا يقولونه فيهم، والله يقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ١٩].

ومنهـا: طعنهم بالمؤمنين لأجل إيمانهم كفـرًا بالله تعالى وبغضًا للدين.

ومنهـا: أن اللمز محرم، بل هو مـن كبائر الذنوب في أمور الدنيا، وأما اللمز في أمر الطاعة؛ فأقبح وأقبح.

ومنهـا: أن من أطاع الله وتطوع بخصلة من خصال الخير؛ فـإن الـذي ينبغي هو[4] إعانته وتنشيطه علـى عمله، وهؤلاء قصدوا تثبيطهم بما قالوا فيهم، وعابوهم عليه.

ومنهـا: أن حكمهم على مـن أنفق مالًا كثيرًا بأنه مراء غلط فاحـش وحكـم على الغيب ورجم بالظن، وأي شـر أكبر من هذا؟!

ومنهـا: أن قولهـم لصاحب الصدقة القليلـة: الله غني عن صدقـة هـذا؛ كلام مقصوده باطـل؛ فإن الله غنـي عن صدقة المتصـدق بالقليـل والكثير، بـل وغني عن أهل السـماوات والأرض، ولكنـه تعالى أمر العباد بما هم مفتقرون إليه؛ فالله وإن كان غنيًّا عنـه؛ فهم فقراء إليه؛ ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ ﴾ [الزلزلة: ٧]، وفي هذا القول من التثبيط عـن الخير ما هو ظاهر بين، ولهذا كان جزاؤهم أن يسـخر[5] الله منهم، ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿٨٠﴾ ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةً ﴾: علـى وجه المبالغة، وإلا؛ فلا مفهوم لها، ﴿فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴾؛ كمـا قـال فـي الآيـة الأخـرى: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴾ [المنافقون: ٦]. ثم ذكر السبب المانع لمغفرة الله لهم، فقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾: والكافر لا ينفعه الاسـتغفار ولا العمل مـا دام كافرًا. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾؛ أي: الذين صار الفسـق لهم وصفًا؛ بحيـث لا يختارون عليه سـواه، ولا يبغـون بـه بـدلًا، يأتيهم الحـق الواضـح فيردونه فيعاقبهم الله تعالى بألّا يوفقهم له بعد ذلك.

﴿ فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا

(١) عبارة: «نوائب الحق» وردت في ع: «النوائب».
(٢) قصة ثعلبة بن حاطب: أخرجها ابن جرير (١٤/ ٢٧٠).
(٣) ع، ط: «فقابلهم الله».
(٤) ساقط من ع.
(٥) ع: «سخر».

لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿٨١﴾ يقول تعالى مبينًا تبجح المنافقين بتخلفهم وعدم مبالاتهم بذلك الدال على عدم الإيمان واختيار الكفر على الإيمان: ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾: وهذا قدر زائد على مجرد التخلف؛ فإن هذا تخلف محرم، وزيادة رضا بفعل المعصية وتبجح به. ﴿ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾: وهذا بخلاف المؤمنين، الذين إذا تخلفوا ولو لعذر؛ حزنوا على تخلفهم، وتأسفوا غاية الأسف، ويحبون أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله؛ لما في قلوبهم من الإيمان، ويرجون(1) من فضل الله وإحسانه وبره وامتنانه. ﴿ وَقَالُوا ﴾؛ أي: المنافقون: ﴿ لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ﴾؛ أي: قالوا: إن النفير مشقة علينا بسبب الحر فقدموا راحة قصيرة منقضية على الراحة الأبدية التامة، وحذروا من الحر الذي تقي منه الظلال ويذهبه البكور(2) والآصال على الحر الشديد الذي لا يقادر قدره، وهو النار الحامية، ولهذا قال: ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿٨٢﴾ لما آثروا ما يفنى على ما يبقى، ولما فروا من المشقة الخفيفة المنقضية إلى المشقة الشديدة الدائمة؛ قال تعالى: ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا ﴾؛ أي: فليتمتعوا في هذه الدار المنقضية، ويفرحوا بلذاتها، ويلهوا بلعبها، فسيبكون كثيرًا في عذاب أليم. ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾: من الكفر والنفاق وعدم الانقياد لأوامر ربهم.

﴿٨٣﴾ ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ ﴾: وهم الذين تخلفوا من غير عذر ولم يحزنوا على تخلفهم. ﴿ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ ﴾: لغير هذه الغزوة إذا رأوا السهولة، ﴿ فَقُل ﴾ لهم عقوبة: ﴿ لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ﴾: فسيغني الله عنكم، ﴿ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾: وهذا كما قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام: ١١٠]؛ فإن

(1) ع: «ولما يرجون».
(2) ع، ط: «البكر».

الجزء العاشر — سورة التوبة

اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾

٢٠٠

المتثاقل المتخلف عن المأمور به عند انتهاز الفرصة لن يوفق له بعد ذلك ويحال بينه وبينه، وفيه أيضًا تعزير لهم؛ فإنه إذا تقرر عند المسلمين أن هؤلاء من الممنوعين من الخروج إلى الجهاد لمعصيتهم؛ كان ذلك توبيخًا لهم وعارًا عليهم ونكالًا أن يفعل أحد كفعلهم.

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

﴿٨٤﴾ يقول تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ ﴾: من المنافقين، ﴿ وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ﴾: بعد الدفن لتدعو له؛ فإن صلاته ووقوفه على قبورهم شفاعة منه لهم، وهم لا تنفع فيهم الشفاعة، ﴿ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾: ومن كان كافرًا ومات على ذلك؛ فما تنفعه شفاعة الشافعين، وفي ذلك عبرة لغيرهم وزجر ونكال لهم، وهكذا كل من علم منه الكفر والنفاق؛ فإنه لا يصلى عليه.

وفي هذه الآية دليل على مشروعية الصلاة على المؤمنين والوقوف عند قبورهم للدعاء لهم كما كان النبي ﷺ يفعل

رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ
لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ
جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ
وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى
مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ
ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ
لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ
مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾
وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ
مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ
حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى
ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟
مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

ذلك في المؤمنين؛ فإن تقييد النهي بالمنافقين يدل على أنه قد كان متقررًا في المؤمنين.

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

(٨٥) أي: لا تغتر بما أعطاهم الله في الدنيا من الأموال والأولاد؛ فليس ذلك لكرامتهم عليه، وإنما ذلك إهانة منه لهم. ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾: فيتعبون في تحصيلها، ويخافون من زوالها، ولا يتهنون بها، بل لا يزالون يعانون الشدائد والمشاق فيها، وتلهيهم عن الله والدار الآخرة، حتى ينتقلوا من الدنيا، ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾: قد سلبهم حبها عن كل شيء، فماتوا وقلوبهم بها متعلقة وأفئدتهم عليها متحرقة.

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

(٨٦) يقول تعالى في بيان استمرار المنافقين على التثاقل عن الطاعات وأنها لا تؤثر فيهم السور والآيات: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾: يؤمرون فيها بالإيمان بالله والجهاد في سبيل الله، ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾؛ يعني: أولي الغنى والأموال الذين لا عذر لهم، وقد أمدهم الله بأموال وبنين، أفلا يشكرون الله ويحمدونه ويقومون بما أوجبه عليهم وسهل عليهم أمره؟! ولكن أبوا إلا التكاسل والاستئذان في القعود، ﴿وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

(٨٧) قال تعالى: ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾؛ أي: كيف رضوا لأنفسهم أن يكونوا مع النساء المتخلفات عن الجهاد؟! هل معهم فقه أو عقل دلهم على ذلك أم طبع الله على قلوبهم؟! فلا تعي الخير ولا يكون فيها إرادة لفعل ما فيه الخير والفلاح؛ فهم لا يفقهون مصالحهم؛ فلو فقهوا حقيقة الفقه؛ لم يرضوا لأنفسهم بهذه الحال التي تحطهم عن منازل الرجال.

﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾.

(٨٨) يقول تعالى: إذا تخلف هؤلاء المنافقون عن الجهاد؛ فالله سيغني عنهم، ولله عباد وخواص من خلقه اختصهم بفضله يقومون بهذا الأمر، وهم ﴿ٱلرَّسُولُ﴾: محمد ﷺ، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾: غير متثاقلين ولا كسلين، بل هم فرحون مستبشرون، ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾: الكثيرة في الدنيا والآخرة. ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾: الذين ظفروا بأعلى المطالب وأكمل الرغائب.

(٨٩) ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾: فتبًّا لمن لم يرغب بما رغبوا فيه وخسر دينه ودنياه وأخراه، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧]، وقوله: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنعام: ٨٩].

﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿٩٠﴾ يقول تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾؛ أي: جاء الذين تهاونوا وقصروا منهم في الخروج لأجل أن يؤذن لهم في ترك الجهاد؛ غير مبالين في الاعتذار لجفائهم وعدم حيائهم وإتيانهم بسبب ما معهم من الإيمان الضعيف، وأما الذين كذبوا الله ورسوله منهم؛ فقعدوا وتركوا الاعتذار بالكلية. ويحتمل أن معنى قوله: ﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾؛ أي: الذين لهم عذر أتوا إلى الرسول ﷺ ليعذرهم، ومن عادته أن يعذِر من له عذر، ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾: في دعواهم الإيمان المقتضي للخروج وعدم عملهم بذلك. ثم توعدهم بقوله: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾: في الدنيا والآخرة.

﴿٩١﴾ لما ذكر المعتذرين، وكانوا على قسمين: قسم معذور في الشرع، وقسم غير معذور؛ ذكر ذلك بقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾: في أبدانهم وأبصارهم، الذين لا قوة لهم على الخروج والقتال، ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾: وهذا شامل لجميع أنواع المرض، الذي[1] لا يقدر صاحبه على الخروج والجهاد؛ من عرج وعمًى وحمى وذات الجنب والفالج وغير ذلك. ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾؛ أي: لا يجدون زادًا ولا راحلة يتبلغون بها في سفرهم؛ فهؤلاء ليس عليهم حرج، بشرط أن ينصحوا لله ورسوله؛ بأن يكونوا صادقي الإيمان، وأن يكون من نيتهم وعزمهم أنهم لو قدروا لجاهدوا، وأن يفعلوا ما يقدرون عليه من الحث والترغيب والتشجيع على الجهاد.

﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾؛ أي: من سبيل يكون عليهم فيه تبعة؛ فإنهم بإحسانهم فيما عليهم من حقوق الله وحقوق العباد أسقطوا توجه اللوم عليهم، وإذا أحسن العبد فيما يقدر عليه؛ سقط عنه ما لا يقدر عليه.

ويستدل بهذه الآية على قاعدة، وهي أن من أحسن على غيره في نفسه أو في ماله ونحو ذلك، ثم ترتب على إحسانه نقص أو تلف: أنه غير ضامن؛ لأنه محسن، ولا سبيل على المحسنين؛ كما أنه يدل على أن غير المحسن -وهو المسيء- كالمفرط؛ أن عليه الضمان. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾: ومن مغفرته ورحمته عفا عن العاجزين، وأثابهم بنيتهم الجازمة ثواب القادرين الفاعلين.

﴿٩٢﴾ ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾: فلم يصادفوا عندك شيئًا. ﴿قُلْتَ﴾: لهم معتذرًا: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾: فإنهم عاجزون باذلون لأنفسهم، وقد صدر منهم من الحزن والمشقة ما ذكره الله عنهم؛ فهؤلاء لا حرج عليهم، وإذا سقط الحرج عنهم؛ عاد الأمر إلى أصله، وهو أن من نوى الخير واقترن بنيته الجازمة سَعْيٌ فيما يقدر عليه ثم لم يقدر؛ فإنه ينزل منزلة الفاعل التام.

﴿٩٣﴾ ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾: يتوجه واللوم يتناول ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾: قادرون على الخروج لا عذر لهم؛ فهؤلاء ﴿رَضُوا۟﴾ لأنفسهم، ومن دينهم ﴿بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾: كالنساء والأطفال ونحوهم. وإنما رضوا بهذه الحال لأن الله طبع ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: ختم عليها؛ فلا يدخلها خير، ولا يحسون بمصالحهم الدينية والدنيوية، ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾: عقوبة لهم على ما اقترفوا.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

(١) ع: «التي».

يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم قل لا تعتذروا لن
نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى
الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب
والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴿٩٤﴾ سيحلفون
بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا
عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا
يكسبون ﴿٩٥﴾ يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن
ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين
﴿٩٦﴾ الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا
حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم ﴿٩٧﴾ ومن
الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر
عليهم دائرة السوء والله سميع عليم ﴿٩٨﴾ ومن
الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ
ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة
لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم ﴿٩٩﴾

(٩٤) لما ذكر تخلف المنافقين الأغنياء، وأنه لا عذر لهم؛ أخبر أنهم سوف ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم﴾: من غزاتكم، ﴿قل﴾ لهم: ﴿لا تعتذروا لن نؤمن لكم﴾؛ أي: لن نصدقكم في اعتذاركم الكاذب، ﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾: وهو الصادق في قيله، فلم يبق للاعتذار فائدة؛ لأنهم يعتذرون بخلاف ما أخبر الله عنهم، ومحال أن يكونوا صادقين فيما يخالف خبر الله الذي هو أعلى مراتب الصدق. ﴿وسيرى الله عملكم ورسوله﴾: في الدنيا؛ لأن العمل هو ميزان الصدق من الكذب، وأما مجرد الأقوال؛ فلا دلالة فيها على شيء من ذلك، ﴿ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة﴾: الذي لا تخفى عليه خافية، ﴿فينبئكم بما كنتم تعملون (٩٤)﴾: من خير وشر، ويجازيكم بعدله أو بفضله؛ من غير أن يظلمكم مثقال ذرة.

(٩٥) واعلم أن المسيء المذنب له ثلاث حالات: إما يقبل قوله وعذره ظاهرًا وباطنًا ويعفى عنه بحيث يبقى كأنه لم يذنب[1]. وإما أن يعاقبوا بالعقوبة والتعزير الفعلي على ذنبهم. وإما أن يعرض عنهم، ولا يقابلوا بما فعلوا بالعقوبة الفعلية. وهذه الحال الثالثة هي التي أمر الله بها في حق المنافقين، ولهذا قال: ﴿سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم﴾؛ أي: لا توبخوهم ولا تجلدوهم أو تقتلوهم. ﴿إنهم رجس﴾؛ أي: إنهم قذر خبثاء، ليسوا بأهل لأن يبالى بهم، وليس التوبيخ والعقوبة مفيدين فيهم. ويكفيهم أن مأواهم[2] ﴿جهنم جزاء بما كانوا يكسبون (٩٥)﴾.

(٩٦) وقوله: ﴿يحلفون لكم لترضوا عنهم﴾؛ أي: ولهم أيضًا هذا المقصد الآخر منكم غير مجرد الإعراض، بل يحبون أن ترضوا عنهم كأنهم ما فعلوا شيئًا. ﴿فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين (٩٦)﴾؛ أي: فلا ينبغي لكم أيها المؤمنون أن ترضوا عمن لم يرض الله عنه، بل عليكم أن توافقوا ربكم في رضاه وغضبه. وتأمل كيف قال: ﴿فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين (٩٦)﴾، ولم يقل: فإن الله لا يرضى عنهم؛ ليدل ذلك على أن باب التوبة مفتوح، وأنهم مهما تابوا هم أو غيرهم؛ فإن الله يتوب عليهم ويرضى عنهم، وأما ما داموا فاسقين؛ فإن الله لا يرضى عليهم؛ لوجود المانع من رضاه، وهو خروجهم عمّا رضيه الله لهم من الإيمان والطاعة إلى ما يغضبه من الشرك والنفاق والمعاصي.

وحاصل ما ذكره الله أن المنافقين المتخلفين عن الجهاد من غير عذر إذا اعتذروا للمؤمنين وزعموا أن لهم أعذارًا في تخلفهم؛ فإن المنافقين يريدون بذلك أن تعرضوا عنهم وترضوا وتقبلوا عذرهم: فأما قبول العذر منهم والرضا عنهم؛ فلا حبًّا ولا كرامة لهم. وأما الإعراض عنهم؛ فيعرض المؤمنون عنهم إعراضهم عن الأمور الردية الرجس.

وفي هذه الآيات إثبات الكلام لله تعالى في قوله. ﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾، وإثبات الأفعال الاختيارية لله الواقعة بمشيئته تعالى وقدرته في هذا وفي قوله: ﴿وسيرى الله عملكم ورسوله﴾؛ أخبر أنه سيراه بعد وقوعه. وفيها إثبات الرضا لله عن المحسنين والغضب والسخط على الفاسقين.

---

(١) زاد في ع، ط: «فهذه الحالة هي المذكورة هنا في حق المنافقين أن عذرهم غير مقبول، وأنه قد تقررت أحوالهم الخبيثة وأعمالهم السيئة».

(٢) عبارة: «ويكفيهم أن مأواهم» وردت في ع، ط: «وتكفيهم عقوبة».

﴿ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٩﴾ ﴾.

﴿٩٧﴾ يقول تعالى: ﴿ ٱلۡأَعۡرَابُ ﴾: وهم سكان البادية والبراري، ﴿ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا ﴾: من الحاضرة الذين فيهم كفر ونفاق، وذلك لأسباب كثيرة؛ منها: أنهم بعيدون عن معرفة الشرائع الدينية والأعمال والأحكام؛ فهم أحرى ﴿ وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾: من أصول الإيمان وأحكام الأوامر والنواهي؛ بخلاف الحاضرة؛ فإنهم أقرب لأن يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، فيحدث لهم بسبب هذا العلم تصورات حسنة وإرادات للخير الذي يعلمون ما لا يكون في البادية. وفيهم من لطافة الطبع والانقياد للداعي ما ليس في البادية. ويجالسون أهل الإيمان، ويخالطونهم أكثر من أهل البادية؛ فلذلك كانوا أحرى للخير من أهل البادية، وإن كان في البادية والحاضرة كفار ومنافقون؛ ففي البادية أشد وأغلظ مما في الحاضرة.

﴿٩٨﴾ ومن ذلك أن الأعراب أحرص على الأموال وأشح فيها؛ فمنهم ﴿ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ ﴾: من الزكاة والنفقة في سبيل الله وغير ذلك، ﴿ مَغۡرَمٗا ﴾؛ أي: يراها خسارة ونقصًا، لا يحتسب فيها، ولا يريد بها وجه الله، ولا يكاد يؤديها إلا كرهًا، ﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ﴾؛ أي: من عداوتهم للمؤمنين وبغضهم لهم أنهم يودون ويتنظرون فيهم دوائر الدهر وفجائع الزمان، وهذا سينعكس عليهم، فيكون ﴿ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِ ﴾، وأما المؤمنون؛ فلهم الدائرة الحسنة على أعدائهم، ولهم العقبى الحسنة. ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٩٨﴾ ﴾: يعلم نيات العباد وما صدرت منه[1] الأعمال من إخلاص وغيره.

﴿٩٩﴾ وليس الأعراب كلهم مذمومين، بل منهم ﴿ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾: فيسلم بذلك من الكفر والنفاق، ويعمل بمقتضى الإيمان، ﴿ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: يحتسب نفقته ويقصد بها وجه الله تعالى والقرب منه، ويجعلها وسيلة إلى صلوات ﴿ ٱلرَّسُولِ ﴾؛ أي: دعائه لهم وتبريكه عليهم. قال تعالى مبينًا لنفع صلوات الرسول: ﴿ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡ ﴾: تقربهم إلى الله، وتنمي أموالهم، وتحل فيها البركة. ﴿ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓ ﴾: في جملة عباده الصالحين. إنه ﴿ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٩﴾ ﴾: فيغفر السيئات العظيمة لمن تاب إليه، ويعم عباده برحمته التي وسعت كل شيء، ويخص عباده المؤمنين برحمة يوفقهم فيها إلى الخيرات، ويحميهم فيها من المخالفات، ويجزل لهم فيها أنواع المثوبات.

وفي هذه الآية دليل على أن الأعراب كأهل الحاضرة؛ منهم الممدوح ومنهم المذموم، فلم يذمهم الله على مجرد تعربهم وباديتهم، إنما ذمهم على ترك أوامر الله، وأنهم في مظنة ذلك.

ومنها: أن الكفر والنفاق يزيد وينقص ويغلظ، ويخف بحسب الأحوال.

ومنها: فضيلة العلم، وأن فاقده أقرب إلى الشر ممن يعرفه؛ لأن الله ذم الأعراب، وأخبر أنهم أشد كفرًا ونفاقًا، وذكر السبب الموجب لذلك، وأنهم أجدر ألَّا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله.

ومنها: أن العلم النافع الذي هو أنفع العلوم معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله من أصول الدين وفروعه؛ كمعرفة حدود الإيمان والإسلام والإحسان والتقوى والفلاح والطاعة والبر والصلة والإحسان والكفر والنفاق والفسوق والعصيان والزنا والخمر والربا ونحو ذلك؛ فإن في معرفتها يتمكن من فعلها - إن كانت مأمورًا[2] بها أو تركها إن كانت محظورة - ومن الأمر بها أو النهي عنها.

ومنها: أنه ينبغي للمؤمن أن يؤدي ما عليه من الحقوق، منشرح الصدر، مطمئن النفس، ويحرص أن تكون مغنمًا ولا تكون مغرمًا.

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

(١) ع: «عنه».

(٢) ع: «مأمورة».

وَالسَّٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ
اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ
لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ
مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ
نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ
عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَٰلِحًا
وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾
خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ
إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا
أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ
اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ
وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ
اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

٢٠٣

(١٠٠) السابقون الأولون هم الذين سبقوا هذه الأمة وبدروها إلى الإيمان والهجرة والجهاد وإقامة دين الله، ﴿مِنَ الْمُهَٰجِرِينَ﴾: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾. ومن الأنصار الذين: ﴿تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٨، ٩]. ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾: بالاعتقادات والأقوال والأعمال؛ فهؤلاء هم الذين سلموا من الذم وحصل لهم نهاية المدح وأفضل الكرامات من الله. ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾: ورضاه تعالى أكبر من نعيم الجنة، ﴿وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَٰرُ﴾: الجارية التي تساق إلى سقي الجنان والحدائق الزاهية الزاهرة والرياض الناضرة. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾: لا يبغون عنها حولًا ولا يطلبون منها بدلًا؛ لأنهم مهما تمنوه أدركوه، ومهما أرادوه وجدوه. ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾: الذي حصل لهم فيه كل محبوب للنفوس ولذة للأرواح ونعيم للقلوب وشهوة للأبدان، واندفع عنهم كل محذور.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

(١٠١) يقول تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾: أيضًا منافقون، ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾؛ أي: تمرنوا عليه[1] وازدادوا فيه طغيانًا، ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾: بأعيانهم فتعاقبهم أو تعاملهم بمقتضى نفاقهم؛ لما لله في ذلك من الحكمة الباهرة. ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾: يحتمل أن التثنية على بابها، وأن عذابهم عذاب في الدنيا وعذاب في الآخرة؛ ففي الدنيا ما ينالهم من الهم والغم والكراهة لما يصيب المؤمنين من الفتح والنصر، وفي الآخرة عذاب النار وبئس القرار، ويحتمل أن المراد سنغلظ عليهم العذاب، ونضاعفه عليهم، ونكرره.

﴿وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

(١٠٢) يقول تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ﴾: ممن بالمدينة ومن حولها، بل ومن سائر البلاد الإسلامية، ﴿اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾؛ أي: أقروا بها وندموا عليها وسعوا في التوبة منها والتطهر من أدرانها، ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾: ولا يكون العمل صالحًا إلا إذا كان مع العبد أصل التوحيد والإيمان المخرجُ عن الكفر والشرك الذي هو شرط لكل عمل صالح؛ فهؤلاء خلطوا الأعمال الصالحة بالأعمال السيئة من التجرؤ على بعض المحرمات والتقصير في بعض الواجبات مع الاعتراف بذلك والرجاء بأن يغفر الله لهم؛ فهؤلاء ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾: وتوبته على عبده نوعان: الأول: التوفيق للتوبة. والثاني: قبولها بعد وقوعها منهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾؛ أي: وصفه المغفرة والرحمة اللتان لا يخلو مخلوق منهما، بل لا بقاء للعالم العلوي والسفلي إلا بهما؛ فلو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ

(١) زاد في ع، ط: «واستمروا».

بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر: ٤١]، ومن مغفرته أن المسرفين على أنفسهم الذين قطعوا أعمارهم بالأعمال السيئة إذا تابوا إليه وأنابوا، ولو قبيل موتهم بأقل القليل؛ فإنه يعفو عنهم ويتجاوز عن سيئاتهم. فهذه الآية دالة على أن المخلط المعترف النادم الذي لم يتب توبة نصوحًا؛ أنه تحت الخوف والرجاء، وهو إلى السلامة أقرب، وأما المخلط الذي لم يعترف، ولم يندم على ما مضى منه، بل لا يزال مصرًّا على الذنوب؛ فإنه يخاف عليه أشد الخوف.

﴿١٠٣﴾ قال تعالى لرسوله ومن قام مقامه آمرًا له بما يطهر المؤمنين ويتمم إيمانهم: ﴿ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ ﴾: وهي الزكاة المفروضة، ﴿ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾؛ أي: تطهرهم من الذنوب والأخلاق الرذيلة، ﴿ وَتُزَكِّيهِم ﴾؛ أي: تنميهم، وتزيد في أخلاقهم الحسنة وأعمالهم الصالحة، وتزيد في ثوابهم الدنيوي والأخروي، وتُنْمِي أموالهم، ﴿ وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡ ﴾؛ أي: ادع لهم؛ أي: للمؤمنين عمومًا وخصوصًا عندما يدفعون إليك زكاة أموالهم. ﴿ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡ ﴾؛ أي: طمأنينة لقلوبهم واستبشار لهم. ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾: لدعائك سمع إجابة وقبول. ﴿ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾: بأحوال العباد ونياتهم، فيجازي كل عامل بعمله وعلى قدر نيته. فكان النبي ﷺ يمتثل لأمر الله، ويأمرهم بالصدقة، ويبعث عماله لجبايتها؛ فإذا أتاه أحد بصدقته؛ دعا له وبرك.

ففي هذه الآية دلالة على وجوب الزكاة في جميع الأموال، وهذا إذا كانت للتجارة ظاهرة؛ فإنها أموال تنمى ويكتسب بها؛ فمن العدل أن يواسي منها الفقراء بأداء ما أوجب الله فيها من الزكاة. وما عدا أموال التجارة؛ فإن كان المال ينمى كالحبوب والثمار والماشية المتخذة للنماء والدر والنسل؛ فإنها تجب فيها الزكاة، وإلا لم تجب فيها؛ لأنها إذا كانت للقنية؛ لم تكن بمنزلة الأموال التي يتخذها الإنسان في العادة مالًا يتمول ويطلب منه المقاصد المالية، وإنما صرف عن المالية بالقنية ونحوها.

وفيها: أن العبد لا يمكنه أن يتطهر، ويتزكى حتى يخرج زكاة ماله، وأنه لا يكفرها شيء سوى أدائها؛ لأن الزكاة والتطهير متوقف على إخراجها.

وفيها: استحباب الدعاء من الإمام أو نائبه لمن أدى زكاته بالبركة، وأن ذلك ينبغي أن يكون جهرًا؛ بحيث يسمعه المتصدق فيسكن إليه.

ويؤخذ من المعنى أنه ينبغي إدخال السرور على المؤمن بالكلام اللين والدعاء له ونحو ذلك مما يكون فيه طمأنينة وسكون لقلبه[1].

﴿ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

﴿١٠٤﴾ أي: أما علموا سعة رحمة الله وعموم كرمه، وأنه ﴿ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ ﴾: التائبين من أي ذنب كان، بل يفرح تعالى بتوبة عبده إذا تاب أعظم فرح يقدر، ﴿ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾: منهم؛ أي: يقبلها ويأخذها بيمينه، فيربيها لأحدهم كما يربي الرجل فَلُوَّهُ، حتى تكون التمرة الواحدة كالجبل العظيم؛ فكيف بما هو أكبر وأكثر من ذلك. ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ﴾؛ أي: كثير التوبة على التائبين؛ فمن تاب إليه؛ تاب عليه، ولو تكررت منه المعصية[2] مرارًا، ولا يمل الله من التوبة على عباده حتى يملوا هم، ويأبوا إلا النفار والشرود عن بابه وموالاتهم عدوهم. ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾: الذي وسعت رحمته كل شيء، وكتبها للذين يتقون، ويؤتون الزكاة، ويؤمنون بآياته، ويتبعون رسوله.

﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

﴿١٠٥﴾ يقول تعالى: ﴿ وَقُلِ ﴾ لهؤلاء المنافقين: ﴿ ٱعۡمَلُواْ ﴾: ما ترون من الأعمال، واستمروا على باطلكم؛ فلا تحسبوا أن ذلك سيخفى، ﴿ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾؛ أي: لا بد أن يتبين عملكم ويتضح، ﴿ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾: من خير وشر ففي هذا التهديد والوعيد الشديد على من استمر على باطله وطغيانه وغيه وعصيانه. ويحتمل أن المعنى: إنكم مهما عملتم من خير أو شر؛ فإن الله مطلع عليكم، وسَيُطْلِعُ رسوله وعباده المؤمنين على أعمالكم ولو كانت باطنة.

﴿ وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ﴾.

---

(١) زاد بعده في ع، ط: «وأنه ينبغي تنشيط من أنفق نفقة، وعمل عملًا صالحًا بالدعاء له والثناء، ونحو ذلك».

(٢) ساقط من ع.

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ
الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ
وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ
﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ
يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا
وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ
عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ
عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً
فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾
۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم
بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ
وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ
وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا
بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾

(١٠٦) أي: ﴿وَآخَرُونَ﴾: من المخلفين ﴿مُرْجَوْنَ﴾ أي: مؤخرون ﴿لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾: ففي هذا التخويف الشديد للمتخلفين والحث لهم على التوبة والندم. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾: بأحوال العباد ونياتهم، ﴿حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾: يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها؛ فإن اقتضت حكمته أن يغفر لهم ويتوب عليهم؛ غفر لهم وتاب عليهم. وإن اقتضت حكمته أن يخذلهم ولا يوفقهم للتوبة؛ فعل ذلك.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

(١٠٧) كان أناس من المنافقين من أهل قباء اتخذوا مسجدًا إلى جنب مسجد قباء يريدون به المضارة والمشاقة بين المؤمنين، ويعدونه لمن يرجونه من المحاربين لله ورسوله؛ يكون لهم حصنًا عند الاحتياج إليه، فبين تعالى خزيهم، وأظهر سرهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾؛ أي: مضارة للمؤمنين ولمسجدهم الذي يجتمعون فيه، ﴿وَكُفْرًا﴾؛ أي: مقصدهم فيه الكفر إذا قصد غيرهم الإيمان، ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: لينشعبوا ويتفرقوا ويختلفوا، ﴿وَإِرْصَادًا﴾؛ أي: إعدادًا ﴿لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: إعانة للمحاربين لله ورسوله، الذين تقدم حرابهم واشتدت عداوتهم، وذلك كأبي عامر الراهب، الذي كان من أهل المدينة، فلما قدم النبي ﷺ وهاجر إلى المدينة؛ كفر به، وكان متعبدًا في الجاهلية، فذهب إلى المشركين يستعين بهم على حرب رسول الله ﷺ، فلما لم يدرك مطلوبه عندهم؛ ذهب إلى قيصر بزعمه أنه ينصره، فهلك اللعين في الطريق، وكان على وعد وممالأة هو والمنافقون، فكان مما أعدوا له مسجد الضرار، فنزل الوحي بذلك، فبعث إليه النبي ﷺ من يهدمه ويحرقه، فهدم، وحرق، وصار بعد ذلك مزبلة.

قال تعالى بعدما بين من مقاصدهم الفاسدة في ذلك المسجد: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا﴾ في بنائنا إياه ﴿إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: الإحسان إلى الضعيف والعاجز والضرير. ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾: فشهادة الله عليهم أصدق من حلفهم.

(١٠٨) ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾؛ أي: لا تصلِّ في ذلك المسجد الذي بني ضرارًا أبدًا؛ فالله يغنيك عنه، ولست بمضطر إليه. ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾: ظهر فيه الإسلام في قباء، وهو مسجد قباء أسس على إخلاص الدين لله وإقامة ذكره وشعائر دينه، وكان قديمًا في هذا عريقًا فيه؛ فهذا المسجد الفاضل ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾: وتتعبد وتذكر الله تعالى؛ فهو فاضل وأهله فضلاء، ولهذا مدحهم الله بقوله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾: من الذنوب، ويتطهروا من الأوساخ والنجاسات والأحداث، ومن المعلوم أن من أحب شيئًا؛ لا بد أن يسعى له ويجتهد فيما يحب؛ فلا

بـد أنهم كانـوا حريصين على التطهر من الذنوب والأوسـاخ والأحداث، ولهذا كانوا ممن سبق إسلامه، وكانوا مقيمين للصلاة، محافظيـن على الجهاد مع رسـول اللـه ﷺ وإقامة شـرائع الديـن، وممـن كانـوا يتحـرزون مـن مخالفـة اللـه ورسوله.

وسألهم النبي ﷺ بعدما نزلت هذه الآية[1] في مدحهم عن طهارتهم، فأخبروه أنهـم يتبعون الحجارة المـاء، فحمدهم على صنيعهم.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ١٠٨﴾: الطهارة المعنوية كالتنزه مـن الشـرك والأخـلاق الرذيلـة، والطهـارة الحسـية كإزالة الأنجاس ورفع الأحداث.

١٠٩ ثـم فاضـل بيـن المسـاجد بحسـب مقاصـد أهلهـا وموافقتها لرضاه، فقال: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: علـى نية صالحة وإخلاص، ﴿وَرِضْوَٰنٍ﴾: بـأن كان موافقًـا لأمـره، فجمـع فـي عملـه بيـن الإخـلاص والمتابعـة. ﴿خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا﴾؛ أي: على طـرف؛ ﴿جُرُفٍ هَارٍ﴾؛ أي: بال، قد تداعى للانهدام، ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ١٠٩﴾: لما فيه مصالح دينهم ودنياهم.

١١٠ ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: شـكًا وريبًا ماكثًا في قلوبهم، ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾: بأن يندمـوا غاية الندم، ويتوبوا إلى ربهم، ويخافوه غاية الخوف؛ فبذلـك يعفو الله عنهم، وإلا؛ فبنيانهم لا يزيدهم إلا ريبًا إلى ريبهـم، ونفاقًا إلى نفاقهم. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾: بجميع الأشـياء؛ ظاهرها وباطنها، خفيها وجليها، وبما أسـره العباد وأعلنوه، ﴿حَكِيمٌ ١١٠﴾: لا يفعـل ولا يخلـق ولا يأمـر ولا ينهى إلا ما اقتضته الحكمة وأمر به؛ فلله الحمد.

وفي هذه الآيات عدة فوائد:

منهـا: أن اتخاذ المسـجد الذي يقصد به الضرار لمسـجد آخـر بقربـه أنه محرم، وأنـه يجب هدم مسـجد الضرار الذي اطلع على مقصود أصحابه.

ومنهـا: أن العمـل، وإن كان فاضـلًا، تغيره النيـة، فينقلب منهيًّا عنه؛ كما قلبت نية أصحاب مسـجد الضرار عملهم إلى ما ترى.

ومنها: أن كل حالة يحصل بها التفريق بين المؤمنين؛ فإنها مـن المعاصي التـي يتعين تركهـا وإزالتها؛ كمـا أن كل حالة يحصـل بها جمع المؤمنيـن وائتلافهم يتعيـن اتباعها والأمر بهـا والحث عليهـا؛ لأن الله علل اتخاذهم لمسـجد الضرار بهـذا المقصـد الموجب للنهـي عنه كما يوجـب ذلك الكفر والمحاربة لله ورسوله.

ومنهـا: النهي عن الصلاة في أماكـن المعصية والبعد عنها وعن قربها.

ومنهـا: أن المعصيـة تؤثـر فـي البقـاع كما أثـرت معصية المنافقين في مسـجد الضـرار ونهي عن القيـام فيه، وكذلك الطاعة تؤثر في الأماكن كما أثرت في مسـجد قباء، حتى قال اللـه فيـه: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾: ولهـذا كان لمسجد قباء من الفضل مـا ليس لغيره، حتى كان ﷺ يزور قباء كل سـبت يصلـي فيه[2]، وحث على الصلاة فيه.

ومنهـا: أنه يسـتفاد من هـذه التعاليـل المذكورة فـي الآية أربع قواعد مهمة، وهي: كل عمل فيه مضارة لمسـلم، أو فيه معصية لله؛ فـإن المعاصي من فروع الكفر، أو فيه تفريق بين المؤمنين، أو فيه معاونة لمن عادى الله ورسـوله؛ فإنه محرم ممنوع منه، وعكسه بعكسه[3].

ومنها: أنه إذا كان مسـجد قباء مسجدًا أسس على التقوى؛ فمسـجد النبـي ﷺ الذي أسسـه بيـده المباركـة، وعمل فيه، واختاره الله له من باب أولى وأحرى.

ومنهـا: أن العمـل المبنـي علـى الإخـلاص والمتابعة هو العمل المؤسـس علـى التقـوى الموصل لعاملـه إلى جنات النعيـم، والعمـل المبنـي علـى سـوء القصـد وعلـى البـدع والضلال هو العمل المؤسـس على شـفا جـرف هار، فانهار به في نار جهنم. والله لا يهدي القوم الظالمين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ

(١) أحمد (٣/ ٤٢٢)، ابن ماجه (٣٥٥).

(٢) البخاري (١١٩٣)، مسلم (١٣٩٩).

(٣) زاد في ع، ط: «ومنها: أن الأعمال الحسـية الناشـئة عن معصية اللـه، لا تـزال مبعـدة لفاعلهـا عن اللـه، بمنزلة الإصـرار على المعصية حتى يزيلهـا ويتوب منها توبة تامة؛ بحيث يتقطع قلبه من الندم والحسرات.».

ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ
ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ
وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ
وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن
يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ
مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١١٣ وَمَا كَانَ
ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ
فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ
١١٤ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ
يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ١١٥ إِنَّ ٱللَّهَ
لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن
دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ١١٦ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى
ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي
سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ
مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١١٧

وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾.

(١١١) يخبر تعالى خبرًا صدقًا ويعد وعدًا حقًّا بمبايعة عظيمة ومعاوضة جسيمة، وهو أنه ﴿ ٱشۡتَرَىٰ ﴾: بنفسه الكريمة ﴿ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم ﴾: فهي الثمن والسلعة المبيعة، ﴿ بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ ﴾: التي فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين من أنواع اللذات والأفراح والمسرات والحور الحسان والمنازل الأنيقات، وصفة العقد والمبايعة بأن يبذلوا لله نفوسهم وأموالهم في جهاد أعدائه؛ لإعلاء كلمته وإظهار دينه. فيقاتلون ﴿ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ ﴾: فهذا العقد والمبايعة قد صدرت من الله مؤكدة بأنواع التأكيدات. ﴿ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ ﴾: التي هي أشرف الكتب التي طرقت العالم وأعلاها وأكملها، وجاء بها أكمل الرسل أولو العزم، وكلها اتفقت على هذا الوعد الصادق. ﴿ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ ﴾: أيها المؤمنون، القائمون بما وعدكم الله ﴿ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ ﴾؛ أي: لتفرحوا بذلك وليبشر بعضكم بعضًا ويحث بعضكم بعضًا. ﴿ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾: الذي لا فوز أكبر منه ولا أجل؛ لأنه يتضمن السعادة الأبدية والنعيم المقيم، والرضا من الله الذي هو أكبر من نعيم الجنات.

وإذا أردت أن تعرف مقدار الصفقة؛ فانظر إلى المشتري؛ من هو؟ وهو الله جل جلاله، وإلى العوض، وهو أكبر الأعواض وأجلها؛ جنات النعيم، وإلى الثمن المبذول فيها، وهو النفس والمال، الذي هو أحب الأشياء للإنسان، وإلى من جرى على يديه عقد هذا التبايع، وهو أشرف الرسل، وبأي الكتب[1] رُقِمَ؟ وهي كتب الله الكبار المنزلة على أفضل الخلق.

﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾.

(١١٢) كأنه قيل: من هم المؤمنون الذين لهم البشارة من الله بدخول الجنات ونيل الكرامات؟ فقال: هم: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ﴾؛ أي: الملازمون للتوبة في جميع الأوقات عن جميع السيئات. ﴿ ٱلۡعَٰبِدُونَ ﴾؛ أي: المتصفون بالعبودية لله والاستمرار على طاعته من أداء الواجبات والمستحبات في كل وقت؛ فبذلك يكون العبد من العابدين. ﴿ ٱلۡحَٰمِدُونَ ﴾: لله في السراء والضراء واليسر والعسر، المعترفون بما لله عليهم من النعم الظاهرة والباطنة، المثنون على الله بذكرها وبذكره في آناء الليل وآناء النهار. ﴿ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ﴾: فُسِّرَتِ السياحة بالصيام، أو السياحة في طلب العلم، وفسرت بسياحة القلب في معرفة الله ومحبته والإنابة إليه على الدوام، والصحيح أن المراد بالسياحة السفر في القربات؛ كالحج والعمرة والجهاد وطلب العلم وصلة الأقارب ونحو ذلك. ﴿ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ﴾؛ أي: المكثرون من الصلاة، المشتملة على الركوع والسجود. ﴿ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾: ويدخل فيه جميع الواجبات والمستحبات. ﴿ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾: وهي جميع ما نهى الله ورسوله عنه. ﴿ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ

(١) ع، ط: «كتاب».

ٱللَّهِ ﴾: بتعلمهم حدود ما أنزل الله على رسوله، وما يدخل في الأوامر والنواهي والأحكام، وما لا يدخل، الملازمون لها فعلًا وتركًا. ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾: لم يذكر ما يبشرهم به؛ ليعم جميع ما رتب على الإيمان من ثواب الدنيا والدين والآخرة؛ فالبشارة متناولة لكل مؤمن، وأما مقدارها وصفتها؛ فإنها بحسب حال المؤمنين وإيمانهم قوة وضعفًا وعملًا بمقتضاه.

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾.

﴿١١٣﴾ يعني: ما يليق ولا يحسن للنبي وللمؤمنين به، ﴿ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾؛ أي: لمن كفر به وعبد معه غيره، ﴿ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾: فإن الاستغفار لهم في هذه الحال غلط غير مفيد؛ فلا يليق بالنبي والمؤمنين؛ لأنهم إذا ماتوا على الشرك أو علم أنهم يموتون عليه؛ فقد حقت عليهم كلمة العذاب، ووجب عليهم الخلود في النار، ولم تنفع فيهم شفاعة الشافعين ولا استغفار المستغفرين. وأيضًا؛ فإن النبي والذين آمنوا معه عليهم أن يوافقوا ربهم في رضاه وغضبه، ويوالوا من والاه الله، ويعادوا من عاداه الله، والاستغفار منهم لمن تبين أنه من أصحاب النار مناف لذلك مناقض له.

﴿١١٤﴾ ولئن وجد الاستغفار من خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام لأبيه؛ فإنه ﴿ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ ﴾: في قوله: ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ ﴾ [مريم: ٤٧]: وذلك قبل أن يعلم عاقبة أبيه، ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ ﴾: لإبراهيم أن أباه ﴿ عَدُوٌّ لِّلَّهِ ﴾: سيموت على الكفر، ولم ينفع فيه الوعظ والتذكير؛ ﴿ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾: موافقة لربه وتأدبًا معه. ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ ﴾؛ أي: رجاع إلى الله في جميع الأمور، كثير الذكر والدعاء والاستغفار والإنابة إلى ربه. ﴿ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾؛ أي: ذو رحمة بالخلق، وصفح عما يصدر منهم إليه من الزلات، لا يستفزه جهل الجاهلين، ولا يقابل الجاني عليه بجرمه، فأبوه قال له: ﴿ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾، وهو يقول له: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ﴾ [مريم: ٤٦، ٤٧]؛ فعليكم أن تقتدوا وتتبعوا ملة إبراهيم في كل شيء ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ [الممتحنة: ٤]؛ كما نبهكم الله عليها وعلى غيرها. ولهذا قال:

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ ﴾.

﴿١١٥﴾ يعني: أن الله تعالى إذا مَنَّ على قوم بالهداية وأمرهم بسلوك الصراط المستقيم؛ فإنه تعالى يتمم عليهم إحسانه، ويبين لهم جميع ما يحتاجون إليه وتدعو إليه ضرورتهم؛ فلا يتركهم ضالين جاهلين بأمور دينهم. ففي هذا دليل على كمال رحمته، وأن شريعته وافية بجميع ما يحتاجه العباد في أصول الدين وفروعه. ويحتمل أن المراد بذلك: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾: فإذا بين لهم ما يتقون، فلم ينقادوا له؛ عاقبهم بالإضلال جزاء لهم على ردهم الحق المبين، والأول أولى. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾: فلكمال علمه وعمومه علمكم ما لم تكونوا تعلمون، وبين لكم ما به تنتفعون.

﴿١١٦﴾ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾؛ أي: هو المالك لذلك، المدبر لعباده بالإحياء والإماتة وأنواع التدابير الإلهية؛ فإذا كان لا يخل بتدبيره القدري؛ فكيف يخل بتدبيره الديني المتعلق بإلهيته ويترك عباده سدًى مهملين أو يدعهم ضالين جاهلين وهو أعظم تولية لعباده؟! فلهذا قال: ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ ﴾؛ أي: ولي يتولاكم بجلب المنافع لكم أو نصير يدفع عنكم المضار.

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾.

وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ
بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ
مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ
الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ
الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم
مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ
عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ
وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ
الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم
بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾
وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ
وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً
فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ
وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

﴿١١٧﴾ يخبر تعالى أنه من لطفه وإحسانه تاب على النبي محمد ﷺ، ﴿وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾: فغفر لهم الزلات ووفر لهم الحسنات ورقاهم إلى أعلى الدرجات، وذلك بسبب قيامهم بالأعمال الصعبة الشاقات، ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾؛ أي: خرجوا معه لقتال الأعداء في غزوة[1] تبوك، وكانت في حر شديد وضيق من الزاد والركوب وكثرة عدو مما يدعو إلى التخلف، فاستعانوا الله تعالى، وقاموا بذلك ﴿مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: تنقلب قلوبهم ويميلوا إلى الدعة والسكون، ولكن الله ثبتهم وأيدهم وقواهم.

وزيغ القلب هو انحرافه عن الصراط المستقيم؛ فإن كان الانحراف في أصل الدين؛ كان كفرًا، وإن كان في شرائعه؛ كان بحسب تلك الشريعة التي زاغ عنها: إما قصر عن فعلها، أو فعلها على غير الوجه الشرعي. وقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: قبل توبتهم. ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾: ومن رأفته ورحمته أن مَنَّ عليهم بالتوبة وقبلها منهم، وثبتهم عليها.

﴿١١٨﴾ وكذلك لقد تاب على ﴿الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾: عن الخروج مع المسلمين في تلك الغزوة، وهم: كعب بن مالك وصاحباه، وقصتهم مشهورة معروفة في الصحاح والسنن[2]. ﴿حَتَّىٰ إِذَا﴾: حزنوا حزنًا عظيمًا، و﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾؛ أي: على سعتها ورحبها، ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾: التي هي أحب إليهم من كل شيء، فضاق عليهم الفضاء الواسع والمحبوب الذي لم تجر العادة بالضيق منه، وذلك لا يكون إلا من أمر مزعج بلغ من الشدة والمشقة ما لا يمكن التعبير عنه، وذلك لأنهم قدموا رضا الله ورضا رسوله على كل شيء. ﴿وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾؛ أي: تيقنوا وعرفوا بحالهم أنه لا ينجي من الشدائد ويلجأ إليه إلا الله وحده لا شريك له، فانقطع تعلقهم بالمخلوقين، وتعلقوا بالله ربهم، وفروا منه إليه، فمكثوا بهذه الشدة نحو خمسين ليلة. ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: أذن في توبتهم ووفقهم لها، ﴿لِيَتُوبُوا﴾؛ أي: لتقع منهم فيتوب الله عليهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾؛ أي: كثير التوبة والعفو والغفران عن الزلات والنقصان[3]، ﴿الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾: وصفه الرحمة العظيمة التي لا تزال تنزل على العباد في كل وقت وحين، في جميع اللحظات ما تقوم به أمورهم الدينية والدنيوية.

وفي هذه الآيات دليل على أن توبة الله على العبد أجل الغايات وأعلى النهايات؛ فإن الله جعلها نهاية خواص عباده، وامتن عليهم بها حين عملوا الأعمال التي يحبها ويرضاها.

ومنها: لطف الله بهم، وتثبيتهم في إيمانهم عند الشدائد والنوازل المزعجة.

ومنها: أن العبادة الشاقة على النفس لها فضل ومزية ليست لغيرها، وكلما عظمت المشقة؛ عظم الأجر.

ومنها: أن توبة الله على عبده بحسب ندمه وأسفه الشديد، وأن من لا يبالي بالذنب ولا يُحْرَجُ إذا فعله؛ فإن توبته مدخولة، وإن زعم أنها مقبولة.

(١) ع: «وقعة».

(٢) البخاري (٤٤١٨)، مسلم (٢١٢٠).

(٣) ع: «والعصيان».

ومنها: أن علامة الخير وزوال الشدة إذا تعلق القلب بالله تعالى تعلقًا تامًّا وانقطع عن المخلوقين.

ومنها: أن من لطف الله بالثلاثة أن وسمهم بوسم ليس بعار عليهم، فقال: ﴿ خُلِّفُوا ﴾؛ إشارة إلى أن المؤمنين خلفوهم، أو خلفوا عمن بت في قبول عذرهم أو في رده[1]، وأنهم لم يكن تخلفهم رغبة عن الخير، ولهذا لم يقل: تخلفوا.

ومنها: أن الله تعالى من عليهم بالصدق، ولهذا أمر بالاقتداء بهم، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾.

﴿١١٩﴾ أي: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾: بالله وبما أمر الله بالإيمان به! قوموا بما يقتضيه الإيمان، وهو القيام بتقوى الله تعالى؛ باجتناب ما نهى الله عنه والبعد عنه، ﴿ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾: في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، الذين أقوالهم صدق، وأعمالهم وأحوالهم لا تكون إلا صدقًا، خلية من الكسل والفتور، سالمة من المقاصد السيئة، مشتملة على الإخلاص والنية الصالحة؛ فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة؛ قال تعالى: ﴿ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡ ﴾ [المائدة: ١١٩] الآية.

﴿ مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾.

﴿١٢٠﴾ يقول تعالى حاثًّا لأهل المدينة المنورة من المهاجرين والأنصار ومن حولها من الأعراب الذين أسلموا فحسن إسلامهم: ﴿ مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: ما ينبغي لهم ذلك ولا يليق بأحوالهم. ﴿ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ ﴾: في بقائها وراحتها، وسكونه ﴿ عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾: الكريمة الزكية، بل النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم؛ فعلى كل مسلم أن يفدي النبي ﷺ بنفسه ويقدمه عليها؛ فعلامة تعظيم الرسول ومحبته والإيمان التام به ألَّا يتخلفوا عنه. ثم ذكر الثواب الحامل على الخروج، فقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ﴾؛ أي: المجاهدين في سبيل الله، ﴿ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ ﴾؛ أي: تعب ومشقة، ﴿ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: مجاعة، ﴿ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ ﴾: من الخوض لديارهم والاستيلاء على أوطانهم ﴿ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا ﴾: كالظفر بجيش أو سرية أو الغنيمة لمال، ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌ ﴾: لأن هذه آثار ناشئة عن أعمالهم. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾: الذين أحسنوا في مبادرتهم إلى أمر الله وقيامهم بما عليهم من حقه وحق خلقه؛ فهذه الأعمال آثار من آثار عملهم.

﴿١٢١﴾ ثم قال: ﴿ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا ﴾: في ذهابهم إلى عدوهم، ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾: ومن ذلك هذه الأعمال إذا أخلصوا فيها لله، ونصحوا فيها.

ففي هذه الآيات أشد ترغيب وتشويق للنفوس إلى الخروج إلى الجهاد في سبيل الله والاحتساب لما يصيبهم فيه من المشقات، وأن ذلك لهم رفعة درجات، وأن الآثار المترتبة على عمل العبد له فيها أجر كبير.

﴿ وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

﴿١٢٢﴾ يقول تعالى منبهًا لعباده المؤمنين على ما ينبغي لهم: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗ ﴾؛ أي: جميعًا لقتال عدوهم؛ فإنه يحصل عليهم المشقة بذلك، ويفوت به كثير من المصالح الأخرى، ﴿ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ ﴾؛ أي: من البلدان والقبائل والأفخاذ ﴿ طَآئِفَةٞ ﴾: تحصل بها الكفاية والمقصود؛ لكان أولى.

ثم نبه على أن في إقامة المقيمين منهم وعدم خروجهم مصالح لو خرجوا لفاتتهم، فقال: ﴿ لِّيَتَفَقَّهُواْ ﴾؛ أي: القاعدون ﴿ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ ﴾؛ أي: ليتعلموا العلم الشرعي، ويَعْلَموا معانيه، ويفقهوا أسراره، وليُعَلِّموا غيرهم، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

---

(١) عبارة: «أو خلفوا عمن بت في قبول عذرهم أو في رده» ساقطة من ع.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ
وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾
وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ
إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ
﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا
إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ
أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ
لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ
سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ
ثُمَّ انصَرَفُوا ۚ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ
﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ
عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ
رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

سُورَةُ يُونُسَ — مكية — آياتها ١٠٩ — ترتيبها ١٠

ففي هذا فضيلة العلم، وخصوصًا الفقه في الدين، وأنه أهم الأمور، وأن من تعلم علمًا؛ فعليه نشره وبثه في العباد ونصيحتهم فيه؛ فإن انتشار العلم عن العالم من بركته وأجره الذي ينمى، وأما اقتصار العالم على نفسه وعدم دعوته إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة وترك تعليم الجهال ما لا يعلمون؛ فأي منفعة حصلت للمسلمين منه؟! وأي نتيجة نتجت من علمه؟! وغايته أن يموت فيموت علمه وثمرته، وهذا غاية الحرمان لمن آتاه الله علمًا، ومنحه فهمًا.

وفي هذه الآية أيضًا دليل وإرشاد وتنبيه لطيف لفائدة مهمة، وهي أن المسلمين ينبغي لهم أن يُعِدُّوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة من يقوم بها، ويوفر وقته عليها، ويجتهد فيها، ولا يلتفت إلى غيرها؛ لتقوم مصالحهم، وتتم منافعهم، ولتكون وجهة جميعهم ونهاية ما يقصدون قصدًا واحدًا، وهو قيام مصلحة دينهم ودنياهم، ولو تفرقت الطرق وتعددت المشارب؛ فالأعمال متباينة، والقصد واحد، وهذه من الحكمة العامة النافعة في جميع الأمور.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

﴿١٢٣﴾ وهذا أيضًا إرشاد آخر: بعدما أرشدهم إلى التدبير فيمن يباشر القتال؛ أرشدهم إلى أنهم يبدءون بالأقرب فالأقرب من الكفار والغلظة عليهم والشدة في القتال والشجاعة والثبات. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾؛ أي: وليكن لديكم علم أن المعونة من الله تنزل بحسب التقوى؛ فلازموا على تقوى الله؛ يعنكم وينصركم على عدوكم. وهذا العموم في قوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾: مخصوص بما إذا كانت المصلحة في قتال غير الذين يلوننا، وأنواع المصالح كثيرة جدًّا.

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ
زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ
يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ
رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا
يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ
ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾.

﴿١٢٤﴾ يقول تعالى مبينًا حال المنافقين وحال المؤمنين عند نزول القرآن وتفاوت ما بين الفريقين، فقال: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾: فيها الأمر والنهي والخبر عن نفسه الكريمة وعن الأمور الغائبة والحث على الجهاد. ﴿فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾؛ أي: حصل الاستفهام لمن حصل له الإيمان بها من الطائفتين. قال تعالى مبينًا الحال الواقعة: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾: بالعلم بها وفهمها واعتقادها والعمل بها والرغبة في فعل الخير والانكفاف عن فعل الشر. ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾؛ أي: يبشر بعضهم بعضًا بما من الله عليهم من آياته والتوفيق لفهمها والعمل بها، وهذا دال على انشراح صدورهم لآيات الله، وطمأنينة قلوبهم، وسرعة انقيادهم لما تحثهم عليه.

﴿١٢٥﴾ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ أي: شك ونفاق، ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾؛ أي: مرضًا إلى مرضهم، وشكًّا إلى شكهم؛ من حيث إنهم كفروا بها وعاندوها وأعرضوا عنها، فازداد لذلك مرضهم، وترامى بهم إلى الهلاك والطبع على قلوبهم حتى ماتوا ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾، وهذا عقوبة لهم لأنهم كفروا

بآيات اللـه، وعصوا رسـوله، فأعقبهم نفاقًا فـي قلوبهم إلى يوم يلقونه.

(١٢٦) قـال تعالـى موبخًا لهـم[1] علـى إقامتهم علـى ما هم عليـه مـن الكفـر والنفـاق: ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ﴾: بمـا يصيبهـم مـن البلايـا والأمـراض، وبمـا يبتلـون من الأوامـر الإلهية التي يـراد بها اختبارهـم، ﴿ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ ﴾: عمـا هـم عليـه مـن الشـر، ﴿ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) ﴾: مـا ينفعهـم فيفعلونـه ومـا يضرهـم فيتركونـه؛ فاللـه تعالـى يبتليهم -كما هي سـنته في سـائر الأمم- بالسـراء والضراء وبالأوامر والنواهي ليرجعوا إليه، ثم لا يتوبون، ولا هم يذكرون.

وفـي هذه الآيات دليل على أن الإيمان يزيد وينقص، وأنه ينبغـي للمؤمن أن يتفقد إيمانه، ويتعاهـده، فيجدده، وينميه، ليكون دائمًا في صعود.

وقوله:

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٢٧) ﴾.

(١٢٧) يعنـي: أن المنافقين الذين يحـذرون أن تنزل عليهم سـورة تنبئهـم بما في قلوبهـم. إذا نزلت سـورة ليؤمنوا بها ويعملوا بمضمونها، ﴿ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾: جازمين على تـرك العمل بهـا، ينتظـرون الفرصة فـي الاختفاء عن أعيـن المؤمنيـن، ويقولـون: ﴿ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ﴾: متسـللين وانقلبـوا معرضيـن، فجازاهـم اللـه بعقوبة من جنس عملهم؛ فكما انصرفـوا عن العمل؛ ﴿ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم ﴾؛ أي: صدهـا عن الحق وخذلها، ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٢٧) ﴾: فقهًـا ينفعهـم؛ فإنهـم لـو فقهـوا؛ لكانـوا إذا نزلت سـورة آمنوا بها وانقـادوا لأمرها. والمقصود من هذا بيان شدة نفورهم عن الجهاد وغيره من شرائع الإيمان؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ [محمد: ٢٠].

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ (١٢٩) ﴾.

(١٢٨) يمتـن تعالـى علـى عبـاده المؤمنيـن بما بعـث فيهم النبـي الأمـي، الذي من أنفسـهم، يعرفـون حالـه، ويتمكنون مـن الأخـذ عنـه، ولا يأنفـون عن الانقيـاد له، وهـو ﷺ في غايـة النصـح لهـم والسـعي فـي مصالحهـم. ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾؛ أي: يشـق عليـه الأمـر الـذي يشـق عليكـم ويعنتكـم. ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾: فيحب لكـم الخير، ويسـعى جهـده في إيصالـه إليكم، ويحرص علـى هدايتكم إلى الإيمان، ويكره لكم الشـر، ويسـعى جهـده في تنفيركم عنـه. ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾؛ أي: شـديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم بهم من والديهم، ولهذا كان حقه مقدمًا على سـائر حقوق الخلق، وواجب على الأمة الإيمان به وتعظيمه وتوقيره وتعزيره.

(١٢٩) ﴿ فَإِن ﴾ آمنـوا؛ فذلـك حظهـم وتوفيقهـم، وإن ﴿ تَوَلَّوْا۟ ﴾ عن الإيمان والعمل؛ فامض على سبيلك، ولا تزل فـي دعوتـك، وقـل: ﴿ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ﴾؛ أي: اللـه يكفينـي[2] جميع ما أهمني. ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾؛ أي: لا معبود بحق سواه. ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾؛ أي: اعتمـدت ووثقـت بـه في جلب ما ينفـع ودفع مـا يضـر. ﴿ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ (١٢٩) ﴾: الـذي هو أعظـم المخلوقـات، وإذا كان رب العرش العظيم الـذي وسـع المخلوقـات؛ كان ربًّا لمـا دونه من بـاب أولى وأحرى.

تم تفسير سورة التوبة بعون الله ومنه.

فلله الحمد أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا.



(١) ليس في الأصل، ط.

(٢) ع، ط: «كافيَّ في».

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا
أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ
أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا
لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ٢ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ
فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ
إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ ٣ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ
يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ
أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٤ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ
ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ
وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ
لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٥ إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ
ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ٦

٢٠٨

تفسير سورة يونس

وهي مكية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ٢﴾.

(١) يقول تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾: وهو هذا القرآن، المشتمل على الحكمة والأحكام، الدالة آياته على الحقائق الإيمانية والأوامر والنواهي الشرعية، الذي على جميع الأمة تلقيه بالرضا والقبول والانقياد.

(٢) ومع هذا؛ فأعرض أكثرهم فهم لا يعلمون، فتعجبوا ﴿أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾: عذاب الله، وخوفهم نقم الله، وذكرهم بآيات الله، ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: إيمانًا صادقًا ﴿أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾؛ أي: لهم جزاء موفور وثواب مذخور عند ربهم بما قدموه وأسلفوه من الأعمال الصالحة الصادقة، فتعجب الكافرون من هذا الرجل العظيم تعجبًا حملهم على الكفر به! فقال الكافرون عنه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ٢﴾؛ أي: بين السحر، لا يخفى بزعمهم على أحد، وهذا من سفههم وعنادهم؛ فإنهم تعجبوا من أمر ليس مما يتعجب منه ويستغرب، وإنما يتعجب من جهالتهم وعدم معرفتهم بمصالحهم؛ كيف لم يؤمنوا بهذا الرسول الكريم الذي بعثه الله من أنفسهم؛ يعرفونه حق المعرفة، فردوا دعوته، وحرصوا على إبطال دينه؟! والله متم نوره ولو كره الكافرون.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٤﴾.

(٣) يقول تعالى مبينًا لربوبيته وإلهيته وعظمته: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾: مع أنه قادر على خلقها في لحظة واحدة، ولكن لما له في ذلك من الحكمة الإلهية، ولأنه رفيق في أفعاله، ومن جملة حكمته فيها أنه خلقها بالحق وللحق؛ ليعرف بأسمائه وصفاته، ويفرد بالعبادة. ﴿ثُمَّ﴾: بعد خلق السماوات والأرض ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾: استواء يليق بعظمته ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾: في العالم العلوي والسفلي؛ من الإماتة والإحياء، وإنزال الأرزاق، ومداولة الأيام بين الناس، وكشف الضر عن المضرورين، وإجابة سؤال السائلين؛ فأنواع التدابير نازلة منه وصاعدة إليه، وجميع الخلق مذعنون لعزته خاضعون لعظمته وسلطانه. ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾: فلا يقدم أحد منهم على الشفاعة، ولو كان أفضل الخلق، حتى يأذن الله، ولا يأذن إلا لمن ارتضى، ولا يرتضي إلا أهل الإخلاص والتوحيد له. ﴿ذَٰلِكُمُ﴾: الذي هذا شأنه ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾؛ أي: هو الله الذي له وصف الإلهية الجامعة لصفات الكمال، ووصف الربوبية، الجامع لصفات الأفعال. ﴿فَٱعۡبُدُوهُ﴾؛ أي: أفردوه بجميع ما تقدرون عليه من أنواع العبودية. ﴿أَفَلَا

﴿تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾: الأدلة الدالة على أنه وحده المعبود المحمود ذو الجلال والإكرام.

(٤) فلما ذكر حكمه القدري، وهو التدبير العام، وحكمه الديني، وهو شرعه الذي مضمونه ومقصوده عبادته وحده لا شريك له؛ ذكر الحكم الجزائي، وهو مجازاته على الأعمال بعد الموت، فقال: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾؛ أي: سيجمعكم بعد موتكم لميقات يوم معلوم. ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾: فالقادر على ابتداء الخلق قادر على إعادته، والذي يرى ابتداءه بالخلق ثم ينكر إعادته للخلق؛ فهو فاقد العقل، منكر لأحد المثلين؛ مع إثبات ما هو أولى منه؛ فهذا دليل عقلي واضح على المعاد. ثم ذكر الدليل النقلي، فقال: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾؛ أي: وعده صادق لا بد من إتمامه، ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: بقلوبهم بما أمرهم الله بالإيمان به، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: بجوارحهم من واجبات ومستحبات ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾؛ أي: بإيمانهم وأعمالهم جزاء قد بينه لعباده وأخبر أنه لا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: بآيات الله، وكذبوا رسل الله ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾؛ أي: ماء حار يشوي الوجوه ويقطع الأمعاء، ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾: من سائر أصناف العذاب، ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝٤﴾؛ أي: بسبب كفرهم وظلمهم، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦﴾.

(٥)، (٦) لما قرر ربوبيته وإلهيته؛ ذكر الأدلة العقلية الأفقية الدالة على ذلك وعلى كماله في أسمائه وصفاته؛ من الشمس والقمر والسماوات والأرض: وجميع ما خلق فيهما من سائر أصناف المخلوقات، وأخبر أنها آيات ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥﴾ و﴿لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦﴾؛ فإن العلم يهدي إلى معرفة الدلالة فيها وكيفية استنباط الدلائل[1] على أقرب وجه، والتقوى تحدث في القلب الرغبة في الخير والرهبة من الشر، الناشئين عن الأدلة والبراهين وعن العلم واليقين.

(١) ع: «الدليل».

وحاصل ذلك أن مجرد خلق هذه المخلوقات بهذه الصفة دال على كمال قدرة الله تعالى وعلمه وحياته وقيوميته، وما فيها من الإحكام والإتقان والإبداع والحسن دال على كمال حكمة الله وحسن خلقه وسعة علمه، وما فيها من أنواع المنافع والمصالح - كجعل الشمس ضياء والقمر نورًا يحصل بهما من النفع الضروري وغيره مما[2] يحصل - يدل ذلك على رحمة الله تعالى واعتنائه بعباده وسعة بره وإحسانه، وما فيها من التخصيصات دال على مشيئة الله وإرادته النافذة، وذلك دال على أنه وحده المعبود المحبوب المحمود ذو الجلال والإكرام والأوصاف العظام، الذي لا تنبغي الرغبة والرهبة إلا إليه، ولا يصرف خالص الدعاء إلا له لا لغيره من المخلوقات المربوبات المفتقرات إلى الله في جميع شئونها.

وفي هذه الآيات الحث والترغيب على التفكر في مخلوقات الله والنظر فيها بعين الاعتبار؛ فإن بذلك تنفسح[3] البصيرة ويزداد الإيمان والعقل وتقوى القريحة، وفي إهمال ذلك تهاون بما أمر الله به، وإغلاق لزيادة الإيمان، وجمود للذهن والقريحة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨﴾.

(٧) يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾؛ أي: لا يطمعون بلقاء الله، الذي هو أكبر ما طمع فيه الطامعون، وأعلى ما أمله المؤملون، بل أعرضوا عن ذلك، وربما كذبوا به، ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: بدلًا عن الآخرة، ﴿وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾؛ أي: ركنوا إليها، وجعلوها غاية أمرهم[4] ونهاية قصدهم؛ فسعوا لها، وأكبوا على لذاتها وشهواتها؛ بأي طريق حصلت حصلوها، ومن أي وجه لاحت ابتدروها، قد صرفوا إراداتهم ونياتهم وأفكارهم وأعمالهم إليها، فكأنهم خلقوا للبقاء فيها، وكأنها ليست بدار ممر يتزود فيها المسافرون إلى الدار الباقية التي إليها يرحل الأولون والآخرون وإلى نعيمها ولذاتها شمر الموفقون. ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧﴾: فلا ينتفعون بالآيات القرآنية

(٢) ع: «ما».
(٣) ع: «تنفتح».
(٤) ع: «مرامهم».

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ
بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ
ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن
تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ
ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ
رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ
ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ
لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ
ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا
عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ
لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ
مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ
لِيُؤْمِنُواْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ
خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

ولا بالآيات الأفقية والنفسية، والإعراض عن الدليل مستلزم للإعراض والغفلة عن المدلول المقصود.

﴿٨﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: الذين هذا وصفهم، ﴿مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾؛ أي: مقرهم ومسكنهم التي لا يرحلون عنها؛ ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾: من الكفر والشرك وأنواع المعاصي.

فلما ذكر عقابهم؛ ذكر ثواب المطيعين، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿٩﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: جمعوا بين الإيمان والقيام بموجبه ومقتضاه من الأعمال الصالحة، المشتملة على أعمال القلوب وأعمال الجوارح، على وجه الإخلاص والمتابعة. ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾؛ أي: بسبب ما معهم من الإيمان يثيبهم الله أعظم الثواب، وهو الهداية، فيعلمهم ما ينفعهم، ويمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية، ويهديهم للنظر في آياته، ويهديهم في هذه الدار إلى الصراط المستقيم[1]، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم، ولهذا قال: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: الجارية على الدوام. ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾: أضافها الله إلى النعيم لاشتمالها على النعيم التام؛ نعيم القلب بالفرح والسرور والبهجة والحبور ورؤية الرحمن وسماع كلامه والاغتباط برضاه وقربه ولقاء الأحبة والإخوان والتمتع بالاجتماع بهم وسماع الأصوات المطربات والنغمات المشجيات والمناظر المفرحات، ونعيم البدن بأنواع المآكل والمشارب والمناكح ونحو ذلك مما لا تعلمه النفوس ولا خطر ببال أحد، أو قدر أن يصفه الواصفون.

﴿١٠﴾ ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾؛ أي: عبادتهم فيها لله أولها تسبيح لله وتنزيه له عن النقائص، وآخرها تحميد لله؛ فالتكاليف سقطت عنهم في دار الجزاء، وإنما بقي لهم أكمل اللذات، الذي هو ألذ عليهم من المآكل اللذيذة، ألا وهو ذكر الله الذي تطمئن به القلوب وتفرح به الأرواح، وهو لهم بمنزلة النفس من دون كلفة ومشقة. وأما ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا﴾ فيما بينهم عند التلاقي والتزاور؛ فهو السلام؛ أي: كلام سالم من اللغو والإثم، موصوف بأنه ﴿سَلَٰمٌ﴾. وقد قيل في تفسير قوله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ﴾ إلى آخر الآية: إن أهل الجنة إذا احتاجوا إلى الطعام والشراب ونحوهما؛ قالوا: سبحانك اللهم! فأحضر لهم في الحال، ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ إذا فرغوا: ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿١١﴾ وهذا من لطفه وإحسانه بعباده: أنه لو عجل لهم الشر إذا أتوا بأسبابه وبادرهم بالعقوبة على ذلك كما يعجل لهم الخير إذا أتوا بأسبابه؛ ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾؛ أي: لمحقتهم العقوبة، ولكنه تعالى يمهلهم ولا يهملهم ويعفو عن كثير من حقوقه؛ فلو يؤاخذ الله الناس بظلمهم؛ ما ترك على ظهرها من دابة، ويدخل في هذا أن العبد إذا غضب على أولاده أو أهله أو ماله ربما دعا عليهم دعوة لو قبلت منه؛

(١) زاد في ع، ط: «وفي الصراط المستقيم».

لهلكوا ولأضره ذلك غاية الضرر، ولكنه تعالى حليم حكيم. وقوله: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾؛ أي: لا يؤمنون بالآخرة؛ فلذلك لا يستعدون لها ولا يعملون ما ينجيهم من عذاب الله، ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾؛ أي: باطلهم الذي جاوزوا به الحق والحد ﴿يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾: يترددون حائرين، لا يهتدون السبيل، ولا يوفقون لأقوم دليل، وذلك عقوبة لهم على ظلمهم وكفرهم بآيات الله.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿١٢﴾ وهذا إخبار عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وأنه إذا مسه ضر من مرض أو مصيبة؛ اجتهد في الدعاء، وسأل الله في جميع أحواله؛ قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا، وألح في الدعاء؛ ليكشف الله عنه ضره، ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾؛ أي: استمر في غفلته معرضًا عن ربه كأنه ما جاءه ضر فكشفه الله عنه؛ فأي ظلم أعظم من هذا الظلم؛ يطلب من الله قضاء غرضه؛ فإذا أناله إياه؛ لم ينظر إلى حق ربه؛ وكأنه ليس عليه لله حق؟! وهذا تزيين من الشيطان زين له ما كان مستهجنًا مستقبحًا في العقول والفطر، ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾؛ أي: المتجاوزين للحد ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٣﴾ يخبر تعالى أنه أهلك الأمم الماضية بظلمهم وكفرهم بعدما جاءتهم البينات على أيدي الرسل تبين الحق، فلم ينقادوا لها، ولم يؤمنوا، فأحل بهم عقابه الذي لا يرد عن كل مجرم متجرئ على محارم الله، وهذه سنته في جميع الأمم.

﴿١٤﴾ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ﴾؛ أي: أيها المخاطبون ﴿خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾؛ فإن أنتم اعتبرتم، واتعظتم بمن قبلكم، واتبعتم آيات الله، وصدقتم رسله؛ نجوتم في الدنيا والآخرة، وإن فعلتم كفعل الظالمين قبلكم؛ أحل بكم ما أحل بهم، ومن أنذر فقد أعذر.

سورة يونس — الجزء الحادي عشر

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ
لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ
أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ
أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ
ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ
فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ
لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا
عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا
فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ
ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا
ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

٢١٠

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿١٥﴾ يذكر تعالى تعنت المكذبين لرسوله محمد ﷺ، وأنهم إذا تتلى عليهم آيات الله القرآنية المبينة للحق؛ أعرضوا عنها، وطلبوا وجوه التعنت، فقالوا جراءة منهم وظلمًا: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾: فقبحهم الله؛ ما أجراهم على الله وأشدهم ظلمًا وردًّا لآياته! فإذا كان الرسول العظيم يأمره الله أن يقول لهم: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ﴾؛ أي: ما ينبغي ولا يليق بي[1] ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ﴾؛ فإني

(١) ساقط من ع، ط.

رسول محض، ليس لي من الأمر شيء. ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾؛ أي: ليس لي غير ذلك؛ فإني عبد مأمور، ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾: فهذا قول خير الخلق وأدبه مع أوامر ربه ووحيه؛ فكيف بهؤلاء السفهاء الضالين الذين جمعوا بين الجهل والضلال والظلم والعناد والتعنت والتعجيز لرب العالمين؛ أفلا يخافون عذاب يوم عظيم؟! فإن زعموا أن قصدهم أن يتبين لهم الحق بالآيات التي طلبوا؛ فهم كذبة في ذلك؛ فإن الله قد بين من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، وهو الذي يُصَرِّفُها كيف يشاء؛ تبعًا[1] لحكمته الربانية ورحمته بعباده.

﴿١٦﴾ ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ طويلًا ﴿مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾؛ أي: قبل تلاوته وقبل درايتكم به وأنا ما خطر على بالي ولا وقع في ظني. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾: أني حيث لم أقله[2] في مدة عمري، ولا صدر مني ما يدل على ذلك؛ فكيف أتقوله بعد ذلك، وقد لبثت فيكم عمرًا طويلًا، تعرفون حقيقة حالي، بأني أمي لا أقرأ، ولا أكتب، ولا أدرس، ولا أتعلم من أحد، فأتيتكم بكتاب عظيم أعجز الفصحاء وأعيا العلماء؛ فهل يمكن مع هذا أن يكون من تلقاء نفسي؟! أم هذا دليل قاطع أنه تنزيل من حكيم حميد؟! فلو أعملتم أفكاركم وعقولكم، وتدبرتم حالي وحال هذا الكتاب؛ لجزمتم جزمًا لا يقبل الريب بصدقه، وأنه الحق الذي ليس بعده إلا الضلال، ولكن إذا أبيتم إلا التكذيب والعناد؛ فأنتم لا شك أنكم ظالمون.

﴿١٧﴾ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾؛ فلو كنت متقوِّلًا؛ لكنت أظلم الناس، وفاتني الفلاح، ولم تخف عليكم حالي، ولكني جئتكم بآيات الله، فكذبتم بها، فتعين فيكم الظلم، ولا بد أن أمركم سيضمحل ولن تنالوا الفلاح ما دمتم كذلك. ودل قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ الآية: أن الذي حملهم على هذا التعنت الذي صدر منهم هو عدم إيمانهم بلقاء الله وعدم رجائه وأن من آمن بلقاء الله؛ فلا بد أن ينقاد لهذا الكتاب ويؤمن به، لأنه حسن القصد.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٨﴾ يقول تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾؛ أي: المشركون المكذبون لرسول الله ﷺ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾؛ أي: إن معبوداتهم[3] لا تملك لهم مثقال ذرة من النفع ولا تدفع عنهم شيئًا ﴿وَيَقُولُونَ﴾: قولًا خاليًا من البرهان: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: يعبدونهم ليقربوهم إلى الله ويشفعوا لهم عنده، وهذا قول من تلقاء أنفسهم، وكلام ابتكروه هم، ولهذا قال تعالى مبطلًا لهذا القول: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: الله تعالى هو العالم الذي أحاط علمًا بجميع ما في السماوات والأرض، وقد أخبركم بأنه ليس له شريك ولا إله معه؛ فأنتم يا معشر المشركين تزعمون أنه يوجد له فيها شركاء، أفتخبرونه بأمر خفي عليه وعلمتموه؟! أأنتم أعلم أم الله؟! فهل يوجد قول أبطل من هذا القول المتضمن أن هؤلاء الضلال الجهال السفهاء أعلم من رب العالمين؟! فليكتف العاقل بمجرد تصور هذا القول؛ فإنه يجزم بفساده وبطلانه. ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾؛ أي: تقدس وتنزه أن يكون له شريك أو نظير، بل هو الله الأحد الفرد الصمد الذي لا إله في السماوات والأرض إلا هو، وكل معبود في العالم العلوي والسفلي سواه فإنه باطل عقلًا وشرعًا وفطرة، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج: ٦٢].

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿١٩﴾ أي: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾: متفقين على الدين الصحيح، ولكنهم اختلفوا، ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾: بإمهال العاصين وعدم معاجلتهم بذنوبهم، ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾: بأن ننجي المؤمنين ونهلك

(١) ع، ط: «تابعًا».
(٢) ع، ط: «أتقوله».
(٣) ساقط من ع.

الكافرين المكذبين، وصار هذا فارقًا بينهم ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾، ولكنه أراد امتحانهم وابتلاء بعضهم ببعض؛ ليتبين الصادق من الكاذب.

﴿٢٠﴾ ﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ أي: المكذبون المتعنتون: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾؛ يعنون: آيات الاقتراح التي يعينونها؛ كقولهم: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الفرقان: ٧] الآيات، وكقولهم: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ [الإسراء: ٩٠] الآيات. ﴿فَقُلْ﴾: لهم إذا طلبوا منك آية: ﴿إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾؛ أي: هو المحيط علمًا بأحوال العباد، فيدبرهم بما يقتضيه علمه فيهم وحكمته البديعة، وليس لأحد تدبير في حكم ولا دليل ولا غاية ولا تعليل. ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾؛ أي: كل ينتظر بصاحبه ما هو أهل له فانظروا لمن تكون العاقبة.

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿٢١﴾ يقول تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ﴾: كالصحة بعد المرض والغنى بعد الفقر والأمن بعد الخوف؛ نسوا ما أصابهم من الضراء، ولم يشكروا الله على الرخاء والرحمة، بل استمروا في طغيانهم ومكرهم، ولهذا قال: ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي ءَايَاتِنَا﴾؛ أي: يسعون بالباطل ليبطلوا به الحق. ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾: فإن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله؛ فمقصودهم منعكس عليهم، ولم يسلموا من التبعة، بل تكتب الملائكة عليهم ما يعملون، ويحصيه الله عليهم، ثم يجازيهم الله عليه أوفر الجزاء.

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

الجزء الحادي عشر — سورة يونس

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

٢١١

﴿٢٢﴾، ﴿٢٣﴾ لما ذكر تعالى القاعدة العامة في أحوال الناس عند إصابة الرحمة لهم بعد الضراء واليسر بعد العسر؛ ذكر حالة تؤيد ذلك، وهي حالهم في البحر عند اشتداده والخوف من عواقبه، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾: بما يسر لكم من الأسباب المسيرة[1] لكم فيها وهداكم إليها. ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ﴾؛ أي: السفن البحرية، ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾: موافقة لما يهوونه من غير انزعاج ولا مشقة، ﴿وَفَرِحُوا بِهَا﴾: واطمأنوا إليها؛ فبينما هم كذلك؛ إذ جاءتهم ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾: شديدة الهبوب، ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾؛ أي: عرفوا أنه الهلاك، فانقطع حينئذ تعلقهم بالمخلوقين، وعرفوا أنه لا ينجيهم من هذه الشدة إلا الله وحده، وحينئذ دعوا الله ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾: ووعدوا من أنفسهم على وجه الإلزام، فقالوا: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾؛ أي: نسوا تلك الشدة وذلك الدعاء وما ألزموه أنفسهم، فأشركوا بالله من اعترفوا

(١) الأصل: «الميسرة».

أنه لا ينجيهم من الشدائد ولا يدفع عنهم المضايق؛ فهلا أخلصوا لله العبادة في الرخاء كما أخلصوها في الشدة؟! ولكن هذا البغي يعود وباله عليهم، ولهذا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾؛ أي: غاية ما تؤملون ببغيكم وشرودكم عن الإخلاص لله أن تنالوا شيئًا من حطام الدنيا وجاهها النزر اليسير الذي سينقضي سريعًا ويمضي جميعًا ثم تنتقلون عنه بالرغم منكم ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ﴾: في يوم القيامة، ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٣﴾: وفي هذا غاية التحذير لهم عن الاستمرار على عملهم.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢٤﴾.

(٢٤) وهذا المثل من أحسن الأمثلة، وهو مطابق لحالة الدنيا؛ فإن لذاتها وشهواتها وجاهها ونحو ذلك يزهو لصاحبه إن زها وقتًا قصيرًا؛ فإذا استكمل وتم؛ اضمحل وزال عن صاحبه أو زال صاحبه عنه، فأصبح صفر اليدين منها، ممتلئ القلب من همها وحزنها وحسرتها؛ فذلك ﴿كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: نبت فيها من كل صنف وزوج بهيج، ﴿مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ﴾: كالحبوب والثمار، ومما تأكل الأنعام: كأنواع العشب والكلأ المختلف الأصناف. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ﴾؛ أي: تزخرفت في منظرها واكتست في زينتها فصارت بهجة للناظرين ونزهة للمتفرجين وآية للمتبصرين، فصرت ترى لها منظرًا عجيبًا ما بين أخضر وأصفر وأبيض وغيره. ﴿وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ﴾؛ أي: حصل معهم طمع بأن ذلك سيستمر ويدوم لوقوف إرادتهم عنده وانتهاء مطالبهم فيه؛ فبينما هم في تلك الحالة؛ ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِ﴾؛ أي: كأنها ما كانت، فهذه حالة الدنيا سواء بسواء. ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾؛ أي: نبينها ونوضحها بتقريب المعاني إلى الأذهان وضرب الأمثال، ﴿لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢٤﴾؛ أي: يعملون أفكارهم فيما ينفعهم، وأما الغافل المعرض؛ فهذا لا تنفعه الآيات، ولا يزيل عنه الشك البيان.

ولما ذكر الله حال الدنيا وحاصل نعيمها؛ شوق إلى الدار الباقية، فقال:

﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٥ ۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٦﴾.

(٢٥) عم تعالى عباده بالدعوة إلى دار السلام والحث على ذلك والترغيب، وخص بالهداية من شاء استخلاصه واصطفاءه؛ فهذا فضله وإحسانه، والله يختص برحمته من يشاء، وذلك عدله وحكمته، وليس لأحد عليه حجة بعد البيان والرسل، وسمى الله الجنة دار السلام لسلامتها من جميع الآفات والنقائص، وذلك لكمال نعيمها وتمامه وبقائه وحسنه من كل وجه.

(٢٦) ولما دعا إلى دار السلام؛ كأن النفوس تشوقت إلى الأعمال الموجبة لها الموصلة إليها، فأخبر عنها بقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾؛ أي: للذين أحسنوا في عبادة الخالق، بأن عبدوه على وجه المراقبة والنصيحة في عبوديته، وقاموا بما قدروا عليه منها، وأحسنوا إلى عباد الله، بما يقدرون عليه من الإحسان القولي والفعلي: من بذل الإحسان المالي والإحسان البدني والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعليم الجاهلين ونصيحة المعرضين وغير ذلك من وجوه البر والإحسان؛ فهؤلاء الذين أحسنوا لهم الحسنى، وهي الجنة الكاملة في حسنها، وزيادة، وهي النظر إلى وجه الله الكريم، وسماع كلامه، والفوز برضاه، والبهجة بقربه؛ فبهذا حصل لهم أعلى ما يتمناه المتمنون، ويسأله السائلون.

ثم ذكر اندفاع المحذور عنهم، فقال: ﴿وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ﴾؛ أي: لا ينالهم مكروه بوجه من الوجوه؛ لأن المكروه إذا وقع بالإنسان؛ تبين ذلك في وجهه وتغير وتكدر. وأما هؤلاء؛ فكما قال الله عنهم: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ٢٤﴾ [المطففين: ٢٤]، أولئك أصحاب الجنة الملازمون لها هم فيها خالدون، لا يحولون، ولا يزولون، ولا يتغيرون.

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۢ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧﴾.

(٢٧) لما ذكر أصحاب الجنة؛ ذكر أصحاب النار، فذكر أن بضاعتهم التي اكتسبوها في الدنيا هي الأعمال السيئة المسخطة لله من أنواع الكفر والتكذيب وأصناف المعاصي، فجزاؤهم سيئة مثلها؛ أي: جزاء يسوءُهم بحسب ما عملوا من السيئات على اختلاف أحوالهم، ﴿وَتَرْهَقُهُمْ﴾؛ أي: تغشاهم ﴿ذِلَّةٌ﴾: في قلوبهم وخوف من عذاب الله لا يدفعه عنهم دافع ولا يعصمهم منه عاصم، وتسري تلك الذلة الباطنة إلى ظاهرهم، فتكون سوادًا في وجوههم. ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٧)﴾: فكم بين الفريقين من الفرق؟! ويا بعد ما بينهما من التفاوت! ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥)﴾ [القيامة: ٢٢-٢٥]، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ (٤٢)﴾ [عبس: ٣٨-٤٢].

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (٣٠)﴾.

(٢٨) يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾؛ أي: نجمع جميع الخلائق لميعاد يوم معلوم، ونحضر المشركين وما كانوا يعبدون من دون الله، ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾؛ أي: الزموا مكانكم ليقع التحاكم والفصل بينكم وبينهم، ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: فرقنا بينهم بالبعد البدني والقلبي، فحصلت بينهم العداوة الشديدة بعد أن بذلوا لهم في الدنيا خالص المحبة وصفو الوداد، فانقلبت تلك المحبة والولاية بغضًا وعداوة. وقال شركاؤهم متبرئين منهم: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨)﴾: فإننا ننزه الله أن يكون له شريك أو نديد.

(٢٩) ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ (٢٩)﴾: ما أمرناكم بها ولا دعوناكم لذلك، وإنما عبدتم من دعاكم إلى ذلك، وهو الشيطان؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠)﴾ [يس: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم

سورة يونس — الجزء الحادي عشر

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٦) وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٧) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (٣٠) قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣)﴾

٢١٢

مُّؤْمِنُونَ (٤١)﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١]: فالملائكة الكرام والأنبياء والأولياء ونحوهم يتبرءون ممن عبدهم يوم القيامة، ويتنصلون من دعائهم إياهم إلى عبادتهم، وهم الصادقون البارون في ذلك.

(٣٠) فحينئذ يتحسر المشركون حسرة لا يمكن وصفها، ويعلمون مقدار ما قدموا من الأعمال وما أسلفوا من رديء الخصال، ويتبين لهم يومئذ أنهم كانوا كاذبين، وأنهم مفترون على الله، قد ضلت عبادتهم واضمحلت معبوداتهم وتقطعت بهم الأسباب والوسائل، ولهذا قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ﴾؛ أي: في ذلك اليوم، ﴿تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾: أي: تتفقد أعمالها وكسبها وتتبعه بالجزاء وتجازى بحسبه إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر، ﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (٣٠)﴾: من قولهم بصحة ما هم عليه من الشرك، وأن ما يعبدون من دون الله تنفعهم، وتدفع عنهم العذاب.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ

ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾
فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ
تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟
أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿٣١﴾ أي: قل لهؤلاء الذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا محتجًّا عليهم بما أقروا به من توحيد الربوبية على ما أنكروه من توحيد الإلهية: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾: بإنزال الأرزاق من السماء وإخراج أنواعها من الأرض وتيسير أسبابها فيها. ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾؛ أي: من هو الذي خلقهما وهو مالكهما؟ وخصهما بالذكر من باب التنبيه على المفضول بالفاضل، ولكمال شرفهما ونفعهما. ﴿ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾؛ كإخراج أنواع الأشجار والنبات من الحبوب والنوى، وإخراج المؤمن من الكافر، والطائر من البيضة... ونحو ذلك، ﴿ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾: عكس هذه المذكورات. ﴿ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾: في العالم العلوي والسفلي، وهذا شامل لجميع أنواع التدابير الإلهية؛ فإنك إذا سألتهم عن ذلك؛ ﴿ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾: لأنهم يعترفون بجميع ذلك، وأن الله لا شريك له في شيء من المذكورات، ﴿ فَقُلْ ﴾ لهم إلزامًا بالحجة: ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾: الله فتخلصون له العبادة وحده لا شريك له، وتخلعون ما تعبدون من دونه من الأنداد والأوثان.

﴿٣٢﴾ ﴿ فَذَٰلِكُمُ ﴾: الذي وصف نفسه بما وصفها به ﴿ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ﴾؛ أي: المألوه المعبود المحمود المربي جميع الخلق بالنعم، وهو ﴿ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾: فإنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير لجميع الأشياء، الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو، ذو الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العظيمة والجلال والإكرام. ﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾: عن عبادة من هذا وصفه إلى عبادة الذي ليس له من وجوده إلا العدم ولا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا؛ فليس له من الملك مثقال ذرة، ولا شركة له بوجه من الوجوه، ولا يشفع عند الله إلا بإذنه.

﴿٣٣﴾ فتبًّا لمن أشرك به، وويحًا لمن كفر به؛ لقد عدموا عقولهم بعد أن عدموا أديانهم، بل فقدوا دنياهم وأخراهم، ولهذا قال تعالى عنهم: ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾: بعد أن أراهم الله من الآيات البينات والبراهين النيرات ما فيه عبرة لأولي الألباب وموعظة للمتقين وهدًى للعالمين.

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ
يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم
مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ
أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ
تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ
ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿٣٤﴾ يقول تعالى مبينًا عجز آلهة المشركين وعدم اتصافها بما يوجب اتخاذها آلهة مع الله: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ﴾؛ أي: يبتديه، ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾: وهذا استفهام بمعنى النفي والتقرير؛ أي: ما منهم أحد يبدأ الخلق ثم يعيده، وهي أضعف من ذلك وأعجز، ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾: من غير مشارك ولا معاون له على ذلك. ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾؛ أي: تصرفون وتحرفون عن عبادة المنفرد بالابتداء والإعادة إلى عبادة من لا يخلق شيئًا وهم يخلقون.

﴿٣٥﴾ ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ﴾: ببيانه وإرشاده أو بإلهامه وتوفيقه، ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾: وحده ﴿ يَهْدِى لِلْحَقِّ ﴾ بالأدلة والبراهين وبالإلهام والتوفيق والإعانة إلى سلوك أقوم طريق. ﴿ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ ﴾؛ أي: لا يهتدي ﴿ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ﴾: لعدم علمه ولضلاله، وهي شركاؤهم التي لا تهدي ولا تهتدي إلا أن تهدى. ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾؛ أي: أي شيء جعلكم تحكمون هذا الحكم الباطل بصحة عبادة أحد مع الله بعد ظهور الحجة والبرهان أنه لا يستحق العبادة إلا الله وحده؟! فإذا تبين أنه ليس في آلهتهم التي يعبدون مع الله أوصاف معنوية ولا أوصاف فعلية تقتضي أن تعبد مع الله، بل هي متصفة بالنقائص الموجبة لبطلان إلهيتها؛ فلأي شيء جعلت مع الله آلهة؟!

﴿٣٦﴾ فالجواب: إن هذا من تزيين الشيطان للإنسان أقبح البهتان وأضل الضلال، حتى اعتقد ذلك، وألفه، وظنه حقًّا وهو لا شيء، ولهذا قال: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ ﴾ أي: أكثر الذين يدعون من دون الله شركاء ﴿ إِلَّا ظَنًّا ﴾ أي: ما يتبعون في الحقيقة شركاء

لله؛ فإنه ليس لله شريك أصلًا عقلًا ولا نقلًا، وإنما يتبعون الظن، و﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا﴾: فسموها آلهة وعبدوها مع الله؛ ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ (٣٦)﴾: وسيجازيهم على ذلك بالعقوبة البليغة.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٣٧) أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (٣٨) بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣٩) وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ (٤٠) وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ (٤١)﴾.

(٣٧) يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: غير ممكن ولا متصور أن يفترى هذا القرآن على الله تعالى؛ لأنه الكتاب العظيم، الذي ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ (٤٢)﴾ [فصلت: ٤٢]، وهو الكتاب الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا، وهو الكتاب[1] الذي تكلم به رب العالمين؛ فكيف يقدر أحد من الخلق أن يتكلم بمثله أو بما يقاربه والكلام تابع لعظمة المتكلم ووصفه؟!! فإن كان أحد يماثل الله في عظمته وأوصاف كماله؛ أمكن أن يأتي بمثل هذا القرآن، ولو تنزلنا على الفرض والتقدير، فتقوله أحد على رب العالمين؛ لعاجله بالعقوبة وبادره بالنكال. ولكن الله أنزل هذا الكتاب رحمة للعالمين وحجة على العباد أجمعين، أنزله ﴿تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾: من كتب الله السماوية؛ بأن وافقها وصدقها بما شهدت به وبشرت بنزوله، فوقع كما أخبرت، ﴿وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: للحلال والحرام والأحكام الدينية والقدرية والإخبارات الصادقة. ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٣٧)﴾؛ أي: لا شك ولا مرية فيه بوجه من الوجوه، بل هو الحق اليقين، تنزيل من رب العالمين، الذي ربى جميع الخلق بنعمه، ومن أعظم أنواع تربيته أن أنزل عليهم هذا الكتاب

قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ
ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ (٣٤) قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ
إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن
يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ (٣٥)
وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ
عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ (٣٦) وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ
ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ
فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٣٧) أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ
مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (٣٨)
بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ
ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣٩)
وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ
بِٱلۡمُفۡسِدِينَ (٤٠) وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ
أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ (٤١) وَمِنۡهُم مَّن
يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ (٤٢)

الذي فيه مصالحهم الدينية والدنيوية، المشتمل على مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال.

(٣٨) ﴿أَمۡ يَقُولُونَ﴾؛ أي: المكذبون به عنادًا وبغيًا: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾: محمد على الله واختلقه، ﴿قُلۡ﴾: لهم ملزمًا لهم بشيء، إن قدروا عليه؛ أمكن ما ادعوه، وإلا كان قولهم باطلًا: ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (٣٨)﴾: يعاونكم على الإتيان بسورة مثله، وهذا محال، ولو كان ممكنًا؛ لادعوا قدرتهم على ذلك، ولأتوا بمثله، ولكن لما بان عجزهم؛ تبين أن ما قالوه باطل، لا حظ له من الحجة.

(٣٩) والذي حملهم على التكذيب بالقرآن المشتمل على الحق الذي لا حق فوقه أنهم لم يحيطوا به علمًا؛ فلو أحاطوا به علمًا وفهموه حق فهمه؛ لأذعنوا بالتصديق به، وكذلك إلى الآن لم يأتهم تأويله الذي وعدهم أن ينزل بهم العذاب، ويحل بهم النكال، وهذا التكذيب الصادر منهم من جنس تكذيب من قبلهم، ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣٩)﴾: وهو الهلاك الذي

(١) ع: «كتاب الله».

الجزء الحادي عشر — سورة يونس

وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟
لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ
ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا
سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ
وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ
فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ
أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ
﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ
أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾
قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ
ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ
تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ
هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ
أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾

٢١٤

لم يبق منهم أحدًا؛ فليحذر هؤلاء أن يستمروا على تكذيبهم، فيحل بهم ما أحل بالأمم المكذبين والقرون المهلكين.

وفي هذا دليل على وجوب[1] التثبت في الأمور، وأنه لا ينبغي للإنسان أن يبادر بقبول شيء أو رده قبل أن يحيط به علمًا.

﴿٤٠﴾ ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾؛ أي: بالقرآن وما جاء به، ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾: وهم الذين لا يؤمنون به على وجه الظلم والعناد والفساد، فسيجازيهم على فسادهم بأشد العذاب.

﴿٤١﴾ ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾: فاستمر على دعوتك، وليس عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء، لكل عمله. ﴿فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾؛ كما قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦].

(١) ساقط من ع، ط.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿٤٢﴾ يخبر تعالى عن بعض المكذبين للرسول ولما جاء به: وأن منهم ﴿مَّن يَسْتَمِعُونَ﴾: إلى النبي ﷺ وقت قراءته للوحي، لا على وجه الاسترشاد، بل على وجه التفرج والتكذيب وتطلب العثرات، وهذا استماع غير نافع ولا مجد على أهله خيرًا، لا جرم انسد عليهم باب التوفيق وحرموا من فائدة الاستماع، ولهذا قال: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾: وهذا الاستفهام بمعنى النفي المتقرر؛ أي: لا تسمع الصم الذين لا يستمعون القول ولو جهرت به، وخصوصًا إذا كان عقلهم معدومًا؛ فإذا كان من المحال إسماع الأصم الذي لا يعقل للكلام؛ فهؤلاء المكذبون كذلك ممتنع إسماعك إياهم إسماعًا ينتفعون به، وأما سماع الحجة؛ فقد سمعوا ما تقوم عليهم به حجة الله البالغة؛ فهذا طريق عظيم من طرق العلم قد انسد عليهم، وهو طريق المسموعات المتعلقة بالخبر.

﴿٤٣﴾ ثم ذكر انسداد الطريق الثاني، وهو طريق النظر فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾: فلا يفيدهم نظرهم[2] إليك، ولا استراحوا لك[3] شيئًا فكما أنك لا تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون؛ فكذلك لا تهدي هؤلاء؛ فإذا فسدت عقولهم وأسماعهم وأبصارهم التي هي الطرق الموصلة إلى العلم ومعرفة الحقائق؛ فأين الطريق الموصل لهم إلى الحق؟!

ودل قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ الآية: أن النظر إلى حالة النبي ﷺ وهديه وأخلاقه وأعماله وما يدعو إليه من أعظم الأدلة على صدقه وصحة ما جاء به، وأنه يكفي البصير عن غيره من الأدلة.

﴿٤٤﴾ وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾: فلا يزيد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾: يجيئهم الحق فلا يقبلونه، فيعاقبهم الله بعد ذلك بالطبع على قلوبهم، والختم على أسماعهم وأبصارهم.

(٢) ع، ط: «يفيده نظره».
(٣) ع، ط: «ولا سبر أحوالك».

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿٤٥﴾ يخبر تعالى عن سرعة انقضاء الدنيا، وأن الله تعالى إذا حشر الناس وجمعهم ليوم لا ريب فيه كأنهم ما لبثوا إلا ساعة من نهار، وكأنه ما مر عليهم نعيم ولا بؤس، وهم يتعارفون بينهم كحالهم في الدنيا؛ ففي هذا اليوم يربح المتقون، ويخسر ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ إلى الصراط المستقيم والدين القويم حيث فاتهم النعيم، واستحقوا دخول النار.

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿٤٦﴾ أي: لا تحزن أيها الرسول على هؤلاء المكذبين، ولا تستعجل لهم؛ فإنهم لا بد أن يصيبهم الذي نعدهم من العذاب: إما في الدنيا فتراه بعينك وتقر به نفسك، وإما في الآخرة بعد الوفاة؛ فإن مرجعهم إلى الله، وسينبئهم بما كانوا يعملون ﴿ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾ [المجادلة: ٦]؛ ففيه الوعيد الشديد لهم والتسلية للرسول الذي كذبه قومه وعاندوه.

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿٤٧﴾ يقول تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾: من الأمم الماضية ﴿ رَّسُولٌ ﴾: يدعوهم إلى توحيد الله ودينه. فإذا جاءهم ﴿ رَسُولُهُمْ ﴾ بالآيات؛ صدقه بعضهم وكذبه آخرون، فيقضي الله بينهم بالقسط بنجاة المؤمنين وإهلاك المكذبين. ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾: بأن يعذبوا قبل إرسال الرسول وبيان الحجة، أو يعذبوا بغير جرمهم.

﴿٤٨﴾، ﴿٤٩﴾ فليحذر المكذبون لك من مشابهة الأمم المهلكين فيحل بهم ما حل بأولئك ولا يستبطئوا العقوبة ويقولوا: ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾: فإن هذا ظلم منهم؛ حيث طلبوه من النبي ﷺ؛ فإنه ليس له من الأمر شيء، وإنما عليه البلاغ والبيان للناس، وأما حسابهم وإنزال العذاب عليهم؛ فمن الله تعالى، ينزِّل عليهم إذا جاء الأجل الذي أجله فيه والوقت الذي قدره فيه الموافق لحكمته الإلهية؛ فإذا جاء ذلك الوقت؛ لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون. فليحذر المكذبون من الاستعجال؛ فإنهم مستعجلون بعذاب الله الذي إذا نزل لا يرد بأسه عن القوم المجرمين. ولهذا قال:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿٥٠﴾ يقول تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا ﴾: وقت نومكم بالليل، ﴿ أَوْ نَهَارًا ﴾: في وقت غفلتكم، ﴿ مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾؛ أي: أي بشارة استعجلوا بها، وأي عقاب ابتدروه؟

﴿٥١﴾ ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ﴾: فإنه لا ينفع الإيمان حين حلول عذاب الله، ويقال لهم توبيخًا وعتابًا في تلك الحال التي زعموا أنهم يؤمنون: ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ ﴾: تؤمنون في حال الشدة والمشقة، ﴿ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾: فإن سنة الله في عباده أنه يعتبهم إذا استعتبوه قبل وقوع العذاب؛ فإذا وقع العذاب؛ لا ينفع نفسًا إيمانها؛ كما قال تعالى عن فرعون لما أدركه الغرق: ﴿ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾، وأنه يقال له: ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [يونس: ٩٠، ٩١]، وقال تعالى: ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ﴾ [غافر: ٨٥]، وقال هنا: ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ ﴾: تدَّعون الإيمان[1]، ﴿ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾: فهذا ما عملت أيديكم، وهذا ما استعجلتم به.

﴿٥٢﴾ ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾: حين يوفون أعمالهم يوم القيامة: ﴿ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ ﴾؛ أي: العذاب الذي تخلدون فيه، ولا يفتر عنكم ساعة. ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾: من الكفر والتكذيب والمعاصي.

(١) ع: «للإيمان».

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا۟
ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ
وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ
مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ
﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا
يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ
فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ
تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ
وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ
فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى
ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

(٥٣) يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾؛ أي: يستخبرك المكذبون على وجه التعنت والعناد لا على وجه التبين والاسترشاد. ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾؛ أي: أصحيح حشر العباد وبعثهم بعد موتهم ليوم المعاد وجزاء العباد بأعمالهم إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر؟ ﴿قُلْ﴾: لهم مقسمًا على صحته مستدلًّا عليه بالدليل الواضح والبرهان: ﴿إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾: لا مرية فيه ولا شبهة تعتريه، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾: لله أن يبعثكم؛ فكما ابتدأ خلقكم ولم تكونوا شيئًا؛ كذلك يعيدكم مرة أخرى ليجازيكم بأعمالكم.

(٥٤) وإذا كانت القيامة، فلو ﴿أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾: بالكفر والمعاصي جميع ﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: من ذهب وفضة وغيرهما؛ لتفتدي به من عذاب الله، ﴿لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾: ولما نفعها ذلك، وإنما النفع والضر والثواب والعقاب على الأعمال الصالحة والسيئة، ﴿وَأَسَرُّوا۟﴾؛ أي: الذين ظلموا، ﴿ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾: ندموا على ما قدموا ولات حين مناص، ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾؛ أي: العدل التام الذي لا ظلم ولا جور فيه بوجه من الوجوه.

(٥٥) ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: يحكم فيهم بحكمه الديني والقدري، وسيحكم فيهم بحكمه الجزائي، ولهذا قال: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾: فلذلك لا يستعدون للقاء الله، بل ربما لم يؤمنوا به، وقد تواترت عليه الأدلة القطعية والبراهين النقلية والعقلية.

(٥٦) ﴿هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾؛ أي: هو المتصرف بالإحياء والإماتة وسائر أنواع التدابير[1] لا شريك له في ذلك. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾: يوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم خيرها وشرها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

(٥٧) يقول تعالى مرغبًا للخلق في الإقبال على هذا الكتاب الكريم بذكر أوصافه الحسنة الضرورية للعباد فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: تعظكم وتنذركم عن الأعمال الموجبة لسخط الله، المقتضية لعقابه، وتحذركم عنها ببيان آثارها ومفاسدها، ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾: وهو هذا القرآن، شفاء لما في الصدور من أمراض الشهوات الصادة عن الانقياد للشرع، وأمراض الشبهات القادحة في العلم اليقيني؛ فإن ما فيه من المواعظ والترغيب والترهيب والوعد والوعيد مما يوجب للعبد الرغبة والرهبة، وإذا وجدت فيه الرغبة في الخير، والرهبة عن الشر، ونمتا على تكرر ما يرد إليها من معاني القرآن؛ أوجب ذلك تقديم مراد الله على مراد النفس، وصار ما يرضي الله أحب إلى العبد من شهوة نفسه، وكذلك ما فيه

(١) ع: «التدبير».

من البراهين والأدلة التي صرَّفها الله غاية التصريف وبينها أحسن بيان مما يزيل الشبه القادحة في الحق ويصل به القلب إلى أعلى درجات اليقين، وإذا صح القلب من مرضه، ورفل بأثواب العافية؛ تبعته الجوارح كلها؛ فإنها تصلح بصلاحه وتفسد بفساده.

﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾: فالهدى هو العلم بالحق والعمل به، والرحمة هي ما يحصل من الخير والإحسان والثواب العاجل والآجل لمن اهتدى به؛ فالهدى أجلُّ الوسائل، والرحمة أكمل المقاصد والرغائب، ولكن لا يهتدي به ولا يكون رحمة إلا في حق المؤمنين، وإذا حصل الهدى وحلت الرحمة الناشئة عنه؛ حصلت السعادة والفلاح والربح والنجاح والفرح والسرور.

﴿٥٨﴾ ولذلك أمر تعالى بالفرح بذلك، فقال: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ ﴾: الذي هو القرآن، الذي هو أعظم نعمة ومنة وفضل تفضل الله به على عباده، ﴿ وَبِرَحْمَتِهِ ﴾: الدين والإيمان وعبادة الله ومحبته ومعرفته. ﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾: من متاع الدنيا ولذاتها؛ فنعمة الدين المتصلة بسعادة الدارين لا نسبة بينها وبين جميع ما في الدنيا مما هو مضمحل زائل عن قريب. وإنما أمر الله تعالى بالفرح بفضله ورحمته؛ لأن ذلك مما يوجب انبساط النفس ونشاطها وشكرها لله تعالى وقوتها وشدة الرغبة في العلم والإيمان الداعي للازدياد منهما، وهذا فرح محمود؛ بخلاف الفرح بشهوات الدنيا ولذاتها أو الفرح بالباطل؛ فإن هذا مذموم؛ كما قال[1] قوم قارون له: ﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [القصص: ٧٦]، وكما قال تعالى في الذين فرحوا بما عندهم من الباطل المناقض لما جاءت به الرسل: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ [غافر: ٨٣].

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

(١) زاد في الأصل، ط: «تعالى عن».

﴿٥٩﴾ يقول تعالى منكرًا على المشركين الذين ابتدعوا تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرمه: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ ﴾؛ يعني: أنواع الحيوانات المحللة التي جعلها الله رزقًا لهم ورحمة في حقهم، ﴿ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا ﴾ قل لهم موبخًا على هذا القول الفاسد: ﴿ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾: ومن المعلوم أن الله لم يأذن لهم؛ فعلم أنهم مفترون.

﴿٦٠﴾ ﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾: أن يفعل الله بهم من النكال ويحل بهم من العقاب؛ قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ [الزمر: ٦٠].

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾: كثير وذو إحسان جزيل. ولكن أكثرهم[2] لا يشكرون، إما أنهم لا يقومون[3] بشكرها، وإما أن يستعينوا بها على معاصيه، وإما أن يحرموا منها، ويردوا ما منَّ الله به على عباده، وقليل منهم الشاكر الذي يعترف بالنعمة، ويثني بها على الله، ويستعين بها على طاعته.

ويستدل بهذه الآية على أن الأصل في جميع الأطعمة الحل؛ إلا ما ورد الشرع بتحريمه؛ لأن الله أنكر على من حرم الرزق الذي أنزله لعباده.

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾.

﴿٦١﴾ يخبر تعالى عن عموم مشاهدته واطلاعه على جميع أحوال العباد في حركاتهم وسكناتهم، وفي ضمن هذا الدعوة لمراقبته على الدوام، فقال: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ﴾؛ أي: حال من أحوالك الدينية والدنيوية، ﴿ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ ﴾؛ أي: وما تتلو من القرآن الذي أوحاه الله إليك، ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ﴾: صغير أو كبير، ﴿ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾؛ أي: وقت شروعكم فيه واستمراركم على العمل به، فراقبوا الله في أعمالكم، وأدوها على وجه النصيحة والاجتهاد فيها، وإياكم وما يكره الله تعالى؛ فإنه

(٢) ع، ط: «أكثر الناس».
(٣) ع، ط: «ألا يقوموا».

أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ
﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ
فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ
ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ
ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ
مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ
يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا
ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ
سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ
إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا
لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ
لَا يُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ
نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾

مطلع عليكم عالم بظواهركم وبواطنكم. ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾؛ أي: ما يغيب عن علمه وسمعه وبصره ومشاهدته ﴿مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾؛ أي: قد أحاط به علمه وجرى به قلمه. وهاتان المرتبتان من مراتب القضاء والقدر كثيرًا ما يقرن الله بينهما، وهما العلم المحيط بجميع الأشياء وكتابته المحيطة بجميع الحوادث؛ كقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: ٧٠].

﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿٦٢﴾ يخبر تعالى عن أوليائه وأحبائه ويذكر أعمالهم وأوصافهم وثوابهم، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾: فيما يستقبلونه مما أمامهم من المخاوف والأهوال، ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾: على ما أسلفوا؛ لأنهم لم يسلفوا إلا صالح الأعمال، وإذا كانوا لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؛ ثبت لهم الأمن والسعادة والخير الكثير الذي لا يعلمه إلا الله تعالى.

﴿٦٣﴾ ثم ذكر وصفهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، وصدقوا إيمانهم باستعمال التقوى بامتثال الأوامر واجتناب النواهي؛ فكل من كان مؤمنًا تقيًّا؛ كان لله تعالى وليًّا.

﴿٦٤﴾ لذلك كانت ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: أما البشارة في الدنيا؛ فهي الثناء الحسن والمودة في قلوب المؤمنين والرؤيا الصالحة وما يراه العبد من لطف الله به وتيسيره لأحسن الأعمال والأخلاق وصرفه عن[1] مساوئ الأخلاق، وأما في الآخرة؛ فأولها البشارة عند قبض أرواحهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت: ٣٠]: وفي القبر ما يبشر به من رضا الله تعالى والنعيم المقيم، وفي الآخرة تمام البشرى بدخول جنات النعيم والنجاة من العذاب الأليم. ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾: بل ما وعد الله فهو حق، لا يمكن تغييره ولا تبديله؛ لأنه الصادق في قيله، الذي لا يقدر أحد أن يخالفه فيما قدره وقضاه. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾: لأنه اشتمل على النجاة من كل محذور، والظفر بكل مطلوب محبوب، وحصر الفوز فيه؛ لأنه لا فوز لغير أهل الإيمان والتقوى.

والحاصل أن البشرى شاملة لكل خير وثواب رتبه الله في الدنيا والآخرة على الإيمان والتقوى، ولهذا أطلق ذلك فلم يقيده.

﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿٦٥﴾ أي: ولا يحزنك قول المكذبين فيك من الأقوال التي يتوصلون بها إلى القدح فيك وفي دينك؛ فإن أقوالهم لا تعزهم ولا تضرك شيئًا. ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾؛ يؤتيها من يشاء ويمنعها ممن يشاء، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي: فليطلبها بطاعته؛ بدليل قوله بعده:

(١) ع: «عنه».

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]: ومن المعلوم أنك على طاعة الله، وأن العزة لك ولأتباعك من الله. ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]. وقوله: ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾؛ أي سمعه قد أحاط بجميع الأصوات؛ فلا يخفى عليه شيء منها؛ وعلمه قد أحاط بجميع الظواهر والبواطن؛ فلا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات والأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وهو تعالى يسمع قولك وقول أعدائك فيك، ويعلم ذلك تفصيلًا؛ فاكتف بعلم الله وكفايته؛ فمن يتق الله فهو حسبه.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿٦٦﴾ يخبر تعالى أن له ما في السماوات والأرض خلقًا وملكًا[1]، يتصرف فيهم بما يشاء من أحكامه؛ فالجميع مماليك لله مسخرون مدبرون لا يستحقون شيئًا من العبادة وليسوا شركاء لله بوجه من الوجوه، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾: الذي لا يغني من الحق شيئًا، ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾: في ذلك خرص إفك وبهتان؛ فإن كانوا صادقين في أن معهم شركاء لله؛ فليظهروا من أوصافها ما تستحق به مثقال ذرة من العبادة؛ فلن يستطيعوا؛ فهل منهم أحد يخلق شيئًا أو يرزق أو يملك شيئًا من المخلوقات أو يدبر الليل والنهار، الذي جعله الله قيامًا للناس؟!

﴿٦٧﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾: في النوم والراحة بسبب الظلمة التي تغشى وجه الأرض؛ فلو استمر الضياء؛ لما قروا ولما سكنوا. وجعل الله النهار ﴿مُبْصِرًا﴾؛ أي: مضيئًا يبصر به الخلق فيتصرفون في معايشهم ومصالح دينهم ودنياهم. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾: عن الله، سمع فهم، وقبول، واسترشاد، لا سمع تعنت وعناد؛ فإن في ذلك لآيات لقوم يسمعون يستدلون بها على أنه وحده المعبود، وأنه الإله الحق، وأن إلهية ما سواه باطلة، وأنه الرءوف الرحيم العليم الحكيم.

﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بِهَـٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَـٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿٦٨﴾ يقول تعالى مخبرًا عن بهت المشركين لرب العالمين: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾: فنزه نفسه عن ذلك بقوله: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾؛ أي: تنزه عما يقول الظالمون في نسبة النقائص إليه علوًّا كبيرًا. ثم برهن عن ذلك بعدة براهين:

أحدها قوله: ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾؛ أي: الغنى منحصر فيه، وأنواع الغنى مستغرقة فيه؛ فهو الغني الذي له الغنى التام بكل وجه واعتبار من جميع الوجوه؛ فإذا كان غنيًّا من كل وجه؛ فلأي شيء يتخذ الولد؟! ألحاجة منه إلى الولد؟ فهذا مناف لغناه؛ فلا يتخذ أحد ولدًا إلا لنقص في غناه؟!

البرهان الثاني قوله: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: وهذه كلمة جامعة عامة، لا يخرج عنها موجود من أهل السماوات والأرض، الجميع مخلوقون عبيد مماليك، ومن المعلوم أن هذا الوصف العام ينافي أن يكون له[2] ولد؛ فإن الولد من جنس والده، لا يكون مخلوقًا ولا مملوكًا؛ فملكيته لما في السماوات والأرض عمومًا تنافي الولادة.

البرهان الثالث قوله: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بِهَـٰذَآ﴾؛ أي: هل عندكم من حجة وبرهان يدل على أن لله ولدًا؟! فلو كان لهم دليل؛ لأبدوه، فلما تحداهم وعجَّزهم عن إقامة الدليل؛ علم بطلان ما قالوه، وأن ذلك قول بلا علم، ولهذا قال: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾: فإن هذا من أعظم المحرمات.

﴿٦٩﴾، ﴿٧٠﴾ ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾؛ أي: لا ينالون مطلوبهم ولا يحصل لهم مقصودهم، وإنما يتمتعون في كفرهم وكذبهم في الدنيا قليلًا، ثم ينتقلون إلى الله ويرجعون إليه، فيذيقهم ﴿ٱلْعَذَابَ

(١) زاد في ع، ط: «وعبيدًا».

(٢) ع، ط: «له منهم».

الجزء الحادي عشر — سورة يونس

۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم
مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ
أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ
إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ
أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾
فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ
وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ
﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ
فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ
ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ
فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٧٥﴾
فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٧٦﴾
قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ
ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا
وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٨﴾

٢١٧

ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١١٧].

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

﴿٧١﴾ يقول تعالى لنبيه: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: على قومك ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾: في دعوته لقومه حين دعاهم إلى الله مدة طويلة فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، فلم يزدهم دعاؤه إياهم إلا طغيانًا، فتمللوا منه وسئموا، وهو عليه الصلاة والسلام غير متكاسل ولا متوانٍ في دعوتهم، فقال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: إن كان مقامي عندكم وتذكيري إياكم ما ينفعكم[1] بآيات الله الأدلة الواضحة البينة، قد شق عليكم، وعظم لديكم، وأردتم أن تنالوني بسوء أو تردوا الحق. ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾؛ أي: اعتمدت على الله في دفع كل شر يراد بي وبما أدعو إليه؛ فهذا جندي، وعدتي. وأنتم فأتوا بما قدرتم عليه من أنواع العدد والعُدد، ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ﴾: كلكم بحيث لا يتخلف منكم أحد ولا تدخروا من مجهودكم شيئًا، وأحضروا ﴿شُرَكَآءَكُمۡ﴾: الذين كنتم تعبدونهم وتوالونهم من دون الله رب العالمين، ﴿ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ﴾؛ أي: مشتبهًا خفيًّا، بل ليكن ذلك ظاهرًا علانية. ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ﴾؛ أي: اقضوا علي بالعقوبة والسوء الذي في إمكانكم، ﴿وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ ﴾؛ أي: لا تمهلوني ساعة من نهار.

فهذا برهان قاطع وآية عظيمة على صحة رسالته وصدق ما جاء به؛ حيث كان وحده لا عشيرة تحميه ولا جنود تؤويه، وقد بادأ قومه بتسفيه آرائهم وفساد دينهم وعيب آلهتهم، وقد حملوا من بغضه وعداوته ما هو أعظم من الجبال الرواسي، وهم أهل القدرة والسطوة، وهو يقول لهم: اجتمعوا أنتم وشركاؤكم ومن استطعتم، وأبدوا كل ما تقدرون عليه من الكيد، فأوقعوا بي إن قدرتم على ذلك، فلم يقدروا على شيء من ذلك، فعلم أنه الصادق حقًّا، وهم الكاذبون فيما يدعون.

﴿٧٢﴾ ولهذا قال: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾: عمَّا دعوتكم إليه؛ فلا موجب لتوليكم؛ لأنه تبين أنكم لا تولون عن باطل إلى حق، وإنما تولون عن حق قامت الأدلة على صحته إلى باطل قامت الأدلة على فساده، ومع هذا؛ ﴿فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍ﴾: على دعوتي وعلى إجابتكم، فتقولوا: هذا جاءنا ليأخذ أموالنا فتمتنعون لأجل ذلك. ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا أريد الثواب والجزاء إلا منه، وأيضًا؛ فإني ما أمرتكم بأمر وأخالفكم إلى ضده. بل أُمِرْتُ ﴿أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾: فأنا أول داخل وأول فاعل لما أمرتكم به.

﴿٧٣﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾: بعدما دعاهم ليلًا ونهارًا وسرًّا وجهارًا فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارًا. ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾: الذي أمرناه أن يصنعه بأعيننا، وقلنا له: إذا فار التنور؛ فـ﴿ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن

(١) ع: «ينفعهم».

سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ﴾ [هود: ٤٠]، ففعل ذلك، فأمر الله السماء بماء منهمر، وفجر ﴿ ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر: ١٢-١٤]. ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ ﴾: في الأرض بعد إهلاك المكذبين، ثم بارك الله في ذريته وجعل ذريته هم الباقين، ونشرهم في أقطار الأرض، ﴿ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾: بعد ذلك البيان وإقامة البرهان. ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾: وهو الهلاك المخزي واللعنة المتتابعة عليهم في كل قرن يأتي بعدهم، لا تسمع فيهم إلا لومًا، ولا ترى إلا قدحًا وذمًّا؛ فليحذر هؤلاء المكذبون أن يحل بهم ما حل بأولئك الأقوام المكذبين من الهلاك والخزي والنكال.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿٧٤﴾ ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ أي: من بعد نوح عليه السلام، ﴿ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ ﴾: المكذبين يدعونهم إلى الهدى ويحذرونهم من أسباب الردى، ﴿ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾؛ أي: كل نبي أيد دعوته بالآيات الدالة على صحة ما جاء به. ﴿ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ﴾؛ يعني: أن الله تعالى عاقبهم حيث جاءهم الرسول فبادروا بتكذيبه، فطبع الله على قلوبهم، وحال بينهم وبين الإيمان بعد أن كانوا متمكنين منه؛ كما قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام: ١١٠]. ولهذا قال هنا: ﴿ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾؛ أي: نختم عليها فلا يدخلها خير، وما ظلمهم الله، ولكنهم ظلموا أنفسهم بردهم الحق لما جاءهم وتكذيبهم الأول.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

﴿٧٥﴾ أي: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم ﴾ أي: من بعد هؤلاء الرسل الذين أرسلهم الله إلى القوم المكذبين المهلكين ﴿ مُّوسَىٰ ﴾: ابن عمران، كليم الرحمن، أحد أولي العزم من المرسلين، وأحد الكبار المقتدى بهم، المنزل عليهم الشرائع المعظمة الواسعة. وجعلنا معه أخاه هارون وزيرًا. بعثناهما ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ ﴾؛ أي: كبار دولته ورؤسائهم؛ لأن عامتهم تبع للرؤساء، ﴿ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾: الدالة على صدق ما جاء به من توحيد الله والنهي عن عبادة ما سوى الله تعالى. ﴿ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾: عنها ظلمًا وعلوًّا بعدما استيقنوها، ﴿ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾؛ أي: وصفهم الإجرام والتكذيب.

﴿٧٦﴾ ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا ﴾: الذي هو أكبر أنواع الحق وأعظمها، وهو من عند الله، الذي خضعت لعظمته

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ
قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ
مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ
عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ
ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ
خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ
فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ
ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ
تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا
بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ
أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً
وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ
رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ
وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

الرقاب، وهو رب العالمين المربي جميع خلقه بالنعم، فلما جاءهم الحق من عند الله على يد موسى؛ ردوه فلم يقبلوه، و﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾﴾: لم يكفهم - قبحهم الله - إعراضهم ولا ردهم إياه، حتى جعلوه أبطل الباطل، وهو السحر الذي حقيقته التمويه، بل جعلوه سحرًا مبينًا ظاهرًا، وهو الحق المبين.

(٧٧) ولهذا ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَىٰٓ﴾ موبخًا لهم عن ردهم الحق الذي لا يرده إلا أظلم الناس: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ﴾؛ أي: أتقولون: إنه سحر مبين. ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾؛ أي: فانظروا وصفه وما اشتمل عليه؛ فبمجرد ذلك يجزم بأنه الحق، ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾: لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ فانظروا لمن تكون له العاقبة، ولمن له الفلاح وعلى يديه النجاح، وقد علموا بعد ذلك وظهر لكل أحد أن موسى عليه السلام هو الذي أفلح، وفاز بظفر الدنيا والآخرة.

(٧٨) ﴿قَالُوٓا۟﴾ لموسى رادين لقوله بما لا يرده: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾؛ أي: أجئتنا لتصدنا عما وجدنا عليه آباءنا من الشرك وعبادة غير الله وتأمرنا بأن نعبد الله وحده لا شريك له؛ فجعلوا قول آبائهم الضالين حجة يردون بها الحق الذي جاءهم به موسى عليه السلام. وقوله: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: وجئتمونا لتكونوا أنتم الرؤساء ولتخرجونا من أرضنا؟ وهذا تمويه منهم، وترويج على جهالهم وتهييج لعوامهم على معاداة موسى، وعدم الإيمان به، وهذا لا يحتج به من عرف الحقائق وميز بين الأمور؛ فإن الحجج لا تدفع إلا بالحجج والبراهين، وأما من جاء بالحق؛ فرد قوله بأمثال هذه الأمور؛ فإنها تدل على عجز موردها عن الإتيان بما يرد القول الذي جاء به خصمه؛ لأنه لو كان له حجة؛ لأوردها، ولم يلجأ إلى قوله: قصدك كذا أو مرادك كذا، سواء كان صادقًا في قوله وإخباره عن قصد خصمه أم كاذبًا، مع أن موسى عليه الصلاة والسلام كل من عرف حاله وما يدعو إليه؛ عرف أنه ليس له قصد في العلو في الأرض، وإنما قصده كقصد إخوانه المرسلين، هداية الخلق وإرشادهم لما فيه نفعهم. ولكن حقيقة الأمر كما نطقوا به بقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾؛ أي: تكبرًا وعنادًا، لا لبطلان ما جاء به موسى وهارون، ولا لاشتباه فيه، ولا لغير ذلك من المعاني، سوى الظلم والعدوان، وإرادة العلو الذي رموا به موسى وهارون.

(٧٩) ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾؛ معارضًا للحق الذي جاء به موسى ومغالبًا لملئه وقومه: ﴿ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾؛ أي: ماهر بالسحر متقن له. فأرسل في مدائن مصر من أتاه بأنواع السحرة على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم.

(٨٠) ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾: للمغالبة لموسى[1]، ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾﴾؛ أي: أي شيء أردتم، لا أعين لكم شيئًا، وذلك لأنه جازم بغلبته غير مبال بهم وبما جاءوا به.

(٨١) ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟﴾: حبالهم وعصيهم إذا هي كأنها حيات تسعى، ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾؛ أي: هذا السحر الحقيقي العظيم، ولكن مع عظمته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾؛ فإنهم يريدون بذلك نصر الباطل على الحق، وأي فساد أعظم من هذا؟! وهكذا كل مفسد عمل عملًا واحتال كيدًا أو أتى بمكر؛ فإن عمله سيبطل ويضمحل، وإن حصل لعمله روجان في وقت ما؛

(١) ع: «مع موسى».

فإن مآله الاضمحلال والمحق، وأما المصلحون الذين قصدهم بأعمالهم وجه الله تعالى، وهي أعمال ووسائل نافعة مأمور بها؛ فإن الله يصلح أعمالهم ويرقيها وينميها على الدوام.

﴿٨٢﴾ فألقى موسى عصاه، فتلقفت جميع ما صنعوا، فبطل سحرهم، واضمحل باطلهم. ﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾: فأذعن[1] السحرة حين تبين لهم الحق، فتوعدهم فرعون بالصلب وتقطيع الأيدي والأرجل، فلم يبالوا بذلك، وثبتوا على إيمانهم.

﴿٨٣﴾ وأما فرعون وملؤه وأتباعهم؛ فلم يؤمن منهم أحد، بل استمروا في طغيانهم يعمهون، ولهذا قال: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ ﴾؛ أي: شباب من بني إسرائيل صبروا على الخوف لما ثبت في قلوبهم الإيمان، ﴿ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾: عن دينهم. ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي: له القهر والغلبة فيها؛ فحقيق بهم أن يخافوا من بطشه، وخصوصًا أنه كان من المسرفين؛ أي: المتجاوزين للحد في البغي والعدوان. والحكمة - والله أعلم - بكونه ما آمن لموسى إلا ذرية من قومه: أن الذرية والشباب أقبل للحق وأسرع له انقيادًا؛ بخلاف الشيوخ ونحوهم ممن تربى على الكفر؛ فإنهم بسبب ما مكث في قلوبهم من العقائد الفاسدة أبعد من الحق من غيرهم.

﴿٨٤﴾ ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ ﴾: موصيًا لقومه بالصبر، ومذكرًا لهم ما يستعينون به على ذلك، فقال: ﴿ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ ﴾: فقوموا بوظيفة الإيمان، ﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾؛ أي: اعتمدوا عليه والجئوا إليه واستنصروه.

﴿٨٥﴾ ﴿ فَقَالُواْ ﴾: ممتثلين لذلك: ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾؛ أي: لا تسلطهم علينا فيفتنونا أو يغلبونا، فيفتنون بذلك، ويقولون: لو كانوا على حق لما غُلبوا.

﴿٨٦﴾ ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾: لنسلم من شرهم ولنقيم على ديننا على وجه نتمكن به من إقامة شرائعه وإظهاره من غير معارض ولا منازع.

(١) ع، ط: «فألقي».

﴿٨٧﴾ ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ ﴾: حين اشتد الأمر على قومهما من فرعون وقومه وحرصوا على فتنتهم عن دينهم، ﴿ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾؛ أي: مروهم أن يجعلوا لهم بيوتًا يتمكنون به من الاستخفاء فيها، ﴿ وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾؛ أي: اجعلوها محلًّا تصلون فيها حيث عجزتم عن إقامة الصلاة في الكنائس والبيع العامة. ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾: فإنها معونة على جميع الأمور، ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾: بالنصر والتأييد وإظهار دينهم؛ فإن مع العسر يسرًا، إن مع العسر يسرًا. وحين اشتد الكرب وضاق الأمر؛ فرجه الله ووسعه.

﴿٨٨﴾ فلما رأى موسى القسوة والإعراض من فرعون وملئه[2]؛ دعا عليهم وأمن هارون على دعائه، فقال: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً ﴾: يتزينون بها من أنواع الحلي والثياب والبيوت المزخرفة والمراكب الفاخرة والخدام، ﴿ وَأَمْوَٰلًا ﴾: عظيمة ﴿ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ﴾؛ أي: إن أموالهم يستعينون[3] على الإضلال في سبيلك فَيَضِلُّونَ ويُضِلُّونَ. ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾؛ أي: أتلفها عليهم إما بالهلاك وإما بجعلها حجارة غير منتفع بها، ﴿ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾؛ أي: قسها، ﴿ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾: قال ذلك غضبًا عليهم حيث تجرءوا على محارم الله وأفسدوا عباد الله وصدوا عن سبيله، ولكمال معرفته بربه بأن الله سيعاقبهم على ما فعلوا بإغلاق باب الإيمان عليهم.

﴿٨٩﴾ ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى: ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾: هذا دليل على أن موسى كان يدعو وهارون يؤمن على دعائه، وأن الذي يؤمن يكون شريكًا للداعي في ذلك الدعاء. ﴿ فَٱسْتَقِيمَا ﴾: على دينكما، واستمرا على دعوتكما، ﴿ وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾؛ أي: لا تتبعان سبيل الجهال الضلال، المنحرفين عن الصراط المستقيم، المتبعين لطرق الجحيم.

﴿٩٠﴾ فأمر الله موسى أن يسري ببني إسرائيل ليلًا، وأخبره أنهم سيتبعونه، وأرسل فرعون في المدائن حاشرين يقولون: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ - أي: موسى وقومه - ﴿ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الشعراء: ٥٤-٥٦].

(٢) ع: «وملئهم».
(٣) ع، ط: «لم يستعينوا بها إلا».

قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ
ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ
فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ
ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ
وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ
مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ
خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾
وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ
فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ
فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ
ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ
مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ
﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ
﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

فجمع جنوده قاصيهم ودانيهم، فأتبعهم بجنوده بغيًا وعدوًا؛ أي: خروجهم باغين على موسى وقومه ومعتدين في الأرض، وإذا اشتد البغي واستحكم الذنب؛ فانتظر العقوبة. ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾: وذلك أن الله أوحى إلى موسى لما وصل البحر أن يضربه بعصاه، فضربه، فانفلق اثني عشر طريقًا، وسلكه بنو إسرائيل، وساق فرعون وجنوده خلفه داخلين، فلما استكمل موسى وقومه خارجين من البحر وفرعون وجنوده داخلين فيه؛ أمر الله البحر، فالتطم على فرعون وجنوده، فأغرقهم وبنو إسرائيل ينظرون، حتى إذا أدرك فرعون الغرق وجزم بهلاكه؛ ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: وهو الله الإله الحق الذي لا إله إلا هو، ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾؛ أي: المنقادين لدين الله، ولما جاء به موسى.

(٩١) قال الله تعالى مبينًا أن هذا الإيمان في هذه الحالة غير نافع له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾: تؤمن وتقر برسول الله، ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾؛ أي: بارزت بالمعاصي والكفر والتكذيب، ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾: فلا ينفعك الإيمان كما جرت عادة الله أن الكفار إذا وصلوا إلى هذه الحالة الاضطرارية أنه لا ينفعهم إيمانهم؛ لأن إيمانهم صار إيمانًا مشاهدًا؛ كإيمان من ورد القيامة، والذي ينفع إنما هو الإيمان بالغيب.

(٩٢) ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾: قال المفسرون: إن بني إسرائيل لما في قلوبهم من الرعب العظيم من فرعون، كأنهم لم يصدقوا بإغراقه، وشكوا في ذلك، فأمر الله البحر أن يلقيه على نجوة مرتفعة ببدنه؛ ليكون لهم عبرة وآية. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾: فلذلك تمر عليهم وتتكرر فلا ينتفعون بها؛ لعدم إقبالهم عليها، وأما من له عقل وقلب حاضر؛ فإنه يرى من آيات الله ما هو أكبر دليل على صحة ما أخبرت به الرسل.

(٩٣) ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾؛ أي: أنزلهم الله وأسكنهم في مساكن آل فرعون، وأورثهم أرضهم وديارهم، ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: من المطاعم والمشارب وغيرهما، ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُواْ﴾: في الحق ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾: الموجب لاجتماعهم وائتلافهم، ولكن بغى بعضهم على بعض، وصار لكثير منهم أهوية وأغراض تخالف الحق، فحصل بينهم من الاختلاف شيء كثير. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾: بحكمه العدل الناشئ عن علمه التام وقدرته الشاملة.

وهذا هو الداء الذي يعرض لأهل الدين الصحيح، وهو أن الشيطان إذا أعجزه[1] أن يطيعوه في ترك الدين بالكلية، سعى في التحريش بينهم وإلقاء العداوة والبغضاء، فحصل من الاختلاف ما هو موجب ذلك، ثم حصل من تضليل بعضهم لبعض وعداوة بعضهم لبعض ما هو قرة عين اللعين، وإلا؛ فإذا كان ربهم واحدًا ورسولهم واحدًا ودينهم واحدًا ومصالحهم العامة متفقة؛ فلأي شيء يختلفون اختلافًا يفرق شملهم ويشتت أمرهم ويحل رابطتهم ونظامهم فيفوت من مصالحهم الدينية والدنيوية ما يفوت ويموت من دينهم بسبب ذلك ما يموت؟! فنسألك اللهم لطفًا بعبادك المؤمنين، يجمع شملهم، ويرأب صدعهم، ويرد قاصيهم على دانيهم يا ذا الجلال والإكرام!

(١) ع، ط: «أعجزوه».

﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

﴿٩٤﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ﴾: هل هو صحيح أم غير صحيح، ﴿ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ﴾؛ أي: اسأل أهل الكتب المنصفين والعلماء الراسخين؛ فإنهم سيقرون لك بصدق ما أخبرت به وموافقته لما معهم.

فإن قيل: إن كثيرًا من أهل الكتاب من اليهود والنصارى، بل ربما كان أكثرهم ومعظمهم، كذبوا رسول الله، وعاندوه، وردوا عليه دعوته، والله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بهم، وجعل شهادتهم حجة لما جاء به وبرهانًا على صدقه؛ فكيف يكون ذلك؟! فالجواب عن هذا من عدة أوجه:

منها: أن الشهادة إذا أضيفت إلى طائفة أو أهل مذهب أو بلد ونحوهم؛ فإنها إنما تتناول العدول الصادقين منهم، وأما من عداهم؛ فلو كانوا أكثر من غيرهم؛ فلا عبرة فيهم؛ لأن الشهادة مبنية على العدالة والصدق، وقد حصل ذلك بإيمان كثير من أحبارهم الربانيين؛ كعبد الله بن سلام وأصحابه وكثير ممن أسلم في وقت النبي ﷺ وخلفائه ومن بعدهم[١].

ومنها: أن شهادة أهل الكتاب للرسول مبنية على كتابهم التوراة الذي ينتسبون إليه؛ فإذا كان موجودًا في التوراة ما يوافق القرآن ويصدقه ويشهد له بالصحة؛ فلو اتفقوا من أولهم لآخرهم[٢] على إنكار ذلك؛ لم يقدح بما جاء به الرسول.

ومنها: أن الله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بأهل الكتاب على صحة ما جاءه وأظهر ذلك وأعلنه على رءوس الأشهاد، ومن المعلوم أن كثيرًا منهم من أحرص الناس على إبطال دعوة الرسول محمد ﷺ؛ فلو كان عندهم ما يرد ما ذكره الله؛ لأبدوه وأظهروه وبينوه، فلما لم يكن شيء من ذلك؛ كان عدم رد المعادي وإقرار المستجيب من أدل الأدلة على صحة هذا القرآن وصدقه.

(١) عبارة: «كعبد الله بن سلام وأصحابه...» إلخ. وردت في ع: «كعبد الله بن سلام وكعب الأحبار».
(٢) ع: «وآخرهم».

ومنها: أنه ليس أكثر أهل الكتاب رد دعوة الرسول، بل أكثرهم استجاب لها وانقاد طوعًا واختيارًا؛ فإن الرسول بعث وأكثر أهل الأرض المتدينين أهل كتاب، فلم يمكث دينه مدة غير كثيرة حتى انقاد للإسلام أكثر أهل الشام ومصر والعراق وما جاورها من البلدان التي هي مقر دين أهل الكتاب، ولم يبق إلا أهل الرياسات الذين آثروا رياساتهم على الحق ومن تبعهم من العوام الجهلة، ومن تدين بدينهم اسمًا لا معنى؛ كالإفرنج الذين حقيقة أمرهم أنهم دهرية منحلون عن جميع أديان الرسل، وإنما انتسبوا للدين المسيحي ترويجًا لملكهم؛ وتمويهًا لباطلهم؛ كما يعرف ذلك من عرف أحوالهم البينة الظاهرة.

وقوله: ﴿ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ ﴾؛ أي: الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه[٣]، ﴿ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾: كقوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ [الأعراف: ٢].

﴿٩٥﴾ ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾: وحاصل هذا أن الله نهى عن شيئين: الشك في هذا القرآن، والامتراء فيه. وأشد من ذلك التكذيب به، وهو آيات الله البينات، التي لا تقبل التكذيب بوجه، ورتب على هذا الخسار، وهو عدم الربح أصلًا، وذلك بفوات الثواب في الدنيا والآخرة، وحصول العقاب في الدنيا والآخرة، والنهي عن الشيء أمر بضده، فيكون أمرًا بالتصديق التام بالقرآن، وطمأنينة القلب إليه، والإقبال عليه، علمًا وعملًا؛ فبذلك يكون العبد من الرابحين، الذين أدركوا أجل المطالب وأفضل الرغائب وأتم المناقب، وانتفى عنهم الخسار.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

﴿٩٦﴾، ﴿٩٧﴾ يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾؛ أي: إنهم من الضالين الغاوين أهل النار، لا بد أن يصيروا إلى ما قدره الله وقضاه؛ فلا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية؛ فلا تزيدهم الآيات إلا طغيانًا وغيًّا إلى غيهم، وما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم بردهم للحق لما جاءهم أول مرة، فعاقبهم الله بأن طبع على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم الذي وعدوا به؛ فحينئذ يعلمون حق اليقين أن ما هم عليه

(٣) زاد في ع: «ولهذا قال».

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ
ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ
إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ
جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا
كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ
عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾
فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ
قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى
رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ
﴿١٠٣﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ
تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ
أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا
وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ
مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾

هو الضلال وأن ما جاءتهم به الرسل هو الحق، ولكن في وقت لا يجدي عليهم إيمانهم شيئًا؛ ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الروم: ٥٧]. **وأما الآيات؛ فإنها تنفع من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.**

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾.

(٩٨) **يقول تعالى:** ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ﴾: **من القرى المكذبين،** ﴿ءَامَنَتْ﴾: **حين رأت العذاب،** ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ﴾؛ **أي: لم يكن منهم أحد انتفع بإيمانه حين رأى العذاب؛ كما قال تعالى عن فرعون ما تقدم قريبًا لما قال:** ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾، **فقيل له:** ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾، **وكما قال تعالى:** ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥]، **وقال تعالى:** ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، **والحكمة في هذا ظاهرة؛ فإن الإيمان الاضطراري ليس بإيمان حقيقة، ولو صرف عنه العذاب والأمر الذي اضطره إلى الإيمان؛ لرجع إلى الكفران. وقوله:** ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾: **فهم مستثنون من العموم السابق، ولا بد لذلك من حكمة لعالم الغيب والشهادة لم تصل إلينا ولم تدركها أفهامنا؛ قال الله تعالى:** ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ **إلى قوله:** ﴿وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٩-١٤٨]. **ولعل الحكمة في ذلك أن غيرهم من المهلكين لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وأما قوم يونس؛ فإن الله أعلم أن إيمانهم سيستمر، بل قد استمر فعلًا، وثبتوا عليه. والله أعلم.**

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

(٩٩) **يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ:** ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾: **بأن يلهمهم الإيمان ويوزع قلوبهم للتقوى؛ فقدرته صالحة لذلك، ولكنه اقتضت حكمته أن كان بعضهم مؤمنين وبعضهم كافرين.** ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾؛ **أي: لا تقدر على ذلك، وليس في إمكانك، ولا قدرة لغير الله على شيء من ذلك.**

(١٠٠) ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: **بإرادته ومشيئته وإذنه القدري الشرعي؛ فمن كان من الخلق قابلًا لذلك يزكو عنده الإيمان؛ وفقه وهداه.** ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾؛ **أي: الشر والضلال** ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾: **عن الله أوامره ونواهيه، ولا يلقون بالًا لنصائحه ومواعظه.**

﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

(١٠١) يدعو تعالى عباده إلى النظر لما في السماوات والأرض، والمراد بذلك نظر الفكر والاعتبار والتأمل لما فيها وما تحتوي عليه والاستبصار؛ فإن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون وعبرًا لقوم يوقنون، تدل على أن الله وحده المعبود المحمود ذو الجلال والإكرام والأسماء والصفات العظام، ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (١٠١)﴾؛ فإنهم لا ينتفعون بالآيات؛ لإعراضهم وعنادهم.

(١٠٢)، (١٠٣) ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: فهل ينتظر هؤلاء الذين لا يؤمنون بآيات الله بعد وضوحها إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم؛ أي: من الهلاك والعقاب؛ فإنهم صنعوا كصنيعهم، وسنة الله جارية في الأولين والآخرين. ﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ (١٠٢)﴾: فستعلمون من[1] تكون له العاقبة الحسنة والنجاة في الدنيا والآخرة. وليست إلا للرسل وأتباعهم، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: من مكاره الدنيا والآخرة وشدائدهما. ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾: أوجبناه على أنفسنا، ﴿نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)﴾: وهذا من دفعه عن المؤمنين[2] فإن الله يدافع عن الذين آمنوا؛ فإنه بحسب ما مع العبد من الإيمان؛ تحصل له النجاة من المكاره.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٠٦)﴾.

(١٠٤) يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ سيد المرسلين وإمام المتقين وخير الموقنين: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾؛ أي: في ريب واشتباه؛ فإني لست في شك منه، بل لدي العلم اليقيني أنه الحق وأن ما تدعون من دون الله باطل، ولي على ذلك الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة، ولهذا قال: ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: من الأنداد والأصنام وغيرهما[3]؛ لأنها لا تخلق ولا ترزق ولا تدبر شيئًا من الأمور، وإنما هي مخلوقة مسخرة ليس فيها ما يقتضي عبادتها. ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾؛ أي: هو الله الذي خلقكم، وهو الذي يميتكم ثم يبعثكم ليجازيكم بأعمالكم؛ فهو الذي يستحق أن يعبد، ويصلى له[4]، ويسجد، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٠٤)﴾.

(١٠٥) ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾؛ أي: أخلص أعمالك الظاهرة والباطنة لله، وأقم جميع شرائع الدين، ﴿حَنِيفًا﴾؛ أي: مقبلًا على الله معرضًا عما سواه. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٠٥)﴾: لا في حالهم ولا تكن معهم.

(١٠٦) ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾: وهذا وصف لكل مخلوق أنه لا ينفع ولا يضر، وإنما النافع الضار هو الله تعالى. ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾؛ بأن دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك، ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٠٦)﴾؛ أي: الضارين أنفسهم بإهلاكها، وهذا الظلم هو الشرك؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان: ١٣]: فإذا كان خير الخلق لو دعا مع الله غيره؛ لكان من الظالمين المشركين؛ فكيف بغيره؟!

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (١٠٧)﴾.

(١٠٧) هذا من أعظم الأدلة على أن الله وحده المستحق للعبادة؛ فإنه النافع الضار المعطي المانع الذي إذا مس بضر كفقر ومرض ونحوها: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾: لأن الخلق لو اجتمعوا على أن ينفعوا بشيء لم ينفعوا إلا بما كتبه الله ولو اجتمعوا على أن يضروا أحدًا؛ لم يقدروا على شيء من ضرره إذا لم يرده الله. ولهذا قال: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾؛ أي: لا يقدر أحد من الخلق أن يرد فضله وإحسانه؛ كما قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢]. ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾؛ أي: يختص برحمته من شاء من خلقه والله ذو الفضل العظيم، ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾: لجميع الزلات، الذي يوفق عبده لأسباب مغفرته، ثم إذا فعلها العبد؛ غفر الله ذنوبه كبارها وصغارها، ﴿ٱلرَّحِيمُ (١٠٧)﴾: الذي وسعت رحمته كل شيء ووصل

(١) ع، ط: «لمن».
(٢) عبارة: «وهذا من دفعه عن المؤمنين» ليست في الأصل.
(٣) ع: «وغيرها».
(٤) زاد في ع، ط: «ويخضع».

وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن
يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ
وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ
ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن
ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ
مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

ترتيبها ١١ — سُورَةُ هُودٍ — آياتها ١٢٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾
أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟
رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ
كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ
يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ
يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾

جوده إلى جميع الموجودات؛ بحيث لا تستغني عن إحسانه طرفة عين.

فإذا عرف العبد بالدليل القاطع أن الله هو المنفرد بالنعم وكشف النقم وإعطاء الحسنات وكشف السيئات والكربات، وأن أحدًا من الخلق ليس بيده من هذا شيء إلا ما أجراه الله على يده؛ جزم بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ولهذا لما بين الدليل الواضح؛ قال بعده:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

﴿١٠٨﴾ أي: ﴿ قُلْ ﴾: يا أيها الرسول لما تبين البرهان: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾؛ أي: الخبر الصادق المؤيد بالبراهين الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه، وهو واصل إليكم من ربكم، الذي من أعظم تربيته لكم أن أنزل إليكم هذا القرآن، الذي فيه تبيان لكل شيء، وفيه من أنواع الأحكام والمطالب الإلهية والأخلاق المرضية ما فيه أعظم تربية لكم وإحسان منه إليكم؛ فقد تبين الرشد من الغي، ولم يبق لأحد شبهة. ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾: بهدى الله؛ بأن علم الحق وتفهمه وآثره على غيره ﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ﴾. والله تعالى غني عن عباده، وإنما ثمرة أعمالهم راجعة إليهم. ﴿ وَمَن ضَلَّ ﴾: عن الهدى؛ بأن أعرض عن العلم بالحق أو عن العمل به، ﴿ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾: ولا يضر الله شيئًا فلا يضر إلا نفسه. ﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾: فأحفظ أعمالكم وأحاسبكم عليها، وإنما أنا لكم نذير مبين، والله عليكم وكيل؛ فانظروا لأنفسكم ما دمتم في مدة الإمهال.

﴿١٠٩﴾ ﴿ وَٱتَّبِعْ ﴾: أيها الرسول ﴿ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ ﴾ علمًا وعملًا وحالًا ودعوة إليه، ﴿ وَٱصْبِرْ ﴾: على ذلك؛ فإن هذا أعلى أنواع الصبر، وإن عاقبته حميدة؛ فلا تكسل ولا تضجر، بل دم على ذلك واثبت، ﴿ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ﴾: بينك وبين من كذبك. ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾: فإن حكمه مشتمل على العدل التام والقسط الذي يحمد عليه. وقد امتثل ﷺ أمر ربه، وثبت على الصراط المستقيم، حتى أظهر الله دينه على سائر الأديان، ونصره على أعدائه بالسيف والسنان، بعدما نصره الله عليهم بالحجة والبرهان، فلله الحمد والثناء الحسن كما ينبغي لجلاله وعظمته وكماله وسعة إحسانه.

تم تفسير سورة يونس. والحمد لله رب العالمين.



تفسير سورة هود عليه السلام
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿١﴾ يقول تعالى: هذا ﴿كِتَٰبٌ﴾: عظيم، ونزل كريم، ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾؛ أي: أتقنت وأحسنت، صادقة أخبارها، عادلة أوامرها ونواهيها، فصيحة ألفاظه بهية معانيه، ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾؛ أي: ميزت وبينت بيانًا في أعلى أنواع البيان، ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ﴾: يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، لا يأمر ولا ينهى إلا بما تقتضيه حكمته، ﴿خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾: مطلع على الظواهر والبواطن؛ فإذا كان إحكامه وتفصيله من عند الله الحكيم الخبير؛ فلا تسأل بعد هذا عن عظمته وجلالته واشتماله على كمال الحكمة وسعة الرحمة.

﴿٢﴾ وإنما أنزل الله كتابه لأجل ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ أي: لأجل إخلاص الدين كله لله، وألَّا يشرك به أحد من خلقه. ﴿إِنَّنِي لَكُم﴾: أيها الناس، ﴿مِّنۡهُ﴾؛ أي: من الله ربكم ﴿نَذِيرٞ﴾: لمن تجرأ على المعاصي بعقاب الدنيا والآخرة، ﴿وَبَشِيرٞ﴾: للمطيعين لله بثواب الدنيا والآخرة.

﴿٣﴾، ﴿٤﴾ ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾: عمَّا صدر منكم من الذنوب، ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾: فيما تستقبلون من أعماركم بالرجوع إليه بالإنابة والرجوع عما يكرهه الله إلى ما يحبه ويرضاه. ثم ذكر ما يترتب على الاستغفار والتوبة، فقال: ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾؛ أي: يعطيكم من رزقه ما تتمتعون به وتنتفعون. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾؛ أي: إلى وقت وفاتكم. ﴿وَيُؤۡتِ﴾: منكم ﴿كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥ﴾؛ أي: يعطي أهل الإحسان والبر من فضله وبره ما هو جزاء لإحسانهم من حصول ما يحبون ودفع ما يكرهون. ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾: عمَّا دعوتكم إليه، بل أعرضتم عنه، وربما كذبتم به، ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾: وهو يوم القيامة، الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين. ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ ليجازيهم بأعمالهم إن خيرًا؛ فخير، وإن شرًّا؛ فشر.

وفي قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾: كالدليل على إحياء الله الموتى؛ فإنه على كل شيء قدير، ومن جملة الأشياء إحياء الموتى، وقد أخبر بذلك، وهو أصدق القائلين؛ فيجب وقوع ذلك عقلًا ونقلًا.

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾.

﴿٥﴾ يخبر تعالى عن جهل المشركين وشدة ضلالهم أنهم ﴿يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾؛ أي: يميلونها ﴿لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُ﴾ أي: من الله، فتقع صدورهم حاجبة لعلم الله بأحوالهم وبصره لهيئاتهم. قال تعالى مبينًا خطأهم في هذا الظن: ﴿أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ﴾؛ أي: يتغطون بها، يعلمهم في تلك الحال التي هي من أخفى الأشياء، بل ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾: من الأقوال والأفعال، ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾: منها، بل ما هو أبلغ من ذلك، وهو: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾؛ أي: بما فيها من الإرادات والوساوس والأفكار التي لم ينطقوا بها سرًّا ولا جهرًا؛ فكيف تخفى عليه حالكم إذا ثنيتم صدوركم لتستخفوا منه؟!

ويحتمل أن المعنى في هذا: أن الله يذكر إعراض المكذبين للرسول، الغافلين عن دعوته، أنهم من شدة إعراضهم يثنون صدورهم؛ أي: يَحْدَودِبون حين يرون الرسول ﷺ؛ لئلا يراهم ويسمعهم دعوته ويعظهم بما ينفعهم؛ فهل فوق هذا الإعراض شيء؟! ثم توعدهم بعلمه تعالى بجميع أحوالهم وأنهم لا يخفون عليه، وسيجازيهم بصنيعهم.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦﴾﴾.

﴿٦﴾ أي: جميع ما دب على وجه الأرض من آدمي وحيوان بري أو بحري؛ فالله تعالى قد تكفل بأرزاقهم[1] وأقواتهم، فرزقهم على الله. ﴿وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَا﴾؛ أي: يعلم مستقر هذه الدواب، وهو المكان الذي تقيم فيه وتستقر فيه وتأوي إليه، ومستودعها المكان الذي تنتقل

(١) ع: «فرزقها».

۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا
وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ
عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ
إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟
إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ
أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ
مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾
وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ
لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ
مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾
إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ
وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ
وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ
مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾

إليه في ذهابها ومجيئها وعوارض أحوالها. ﴿ كُلٌّ ﴾: من تفاصيل أحوالها ﴿ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ ﴾؛ أي: في اللوح المحفوظ، المحتوي على جميع الحوادث الواقعة، والتي تقع في السماوات والأرض، الجميع قد أحاط بها علم الله، وجرى بها قلمه، ونفذت فيها مشيئته ووسعها رزقه؛ فلتطمئن القلوب إلى كفاية من تكفل بأرزاقها، وأحاط علمًا بذواتها وصفاتها.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿٧﴾ يخبر تعالى أنه ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾: أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة. وحين خلق السماوات والأرض كان ﴿ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾: فوق السماء السابعة؛ فبعد أن خلق السماوات والأرض؛ استوى على عرشه، يدبر الأمور ويصرفها كيف شاء من الأحكام القدرية والأحكام الشرعية. ولهذا قال: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢]؛ أي: ليمتحنكم إذ خلق لكم ما في السماوات والأرض بأمره ونهيه، فينظر أيكم أحسن عملًا. قال الفضيل بن عياض رحمه الله: أخلصه وأصوبه. قيل: يا أبا علي! ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا؛ لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا؛ لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا. والخالص: أن يكون لوجه الله، والصواب: أن يكون متبعًا فيه الشرع والسنة. وهذا كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق: ١٢]: فالله تعالى خلق الخلق لعبادته ومعرفته بأسمائه وصفاته، وأمرهم بذلك؛ فمن انقاد وأدى ما أمر به؛ فهو من المفلحين، ومن أعرض عن ذلك؛ فأولئك هم الخاسرون، ولا بد أن يجمعهم في دار يجازيهم فيها على ما أمرهم به ونهاهم. ولهذا ذكر الله تكذيب المشركين بالجزاء، فقال: ﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾؛ أي: ولئن قلت لهؤلاء وأخبرتهم بالبعث بعد الموت؛ لم يصدقوك، بل كذبوك أشد التكذيب(1)، وقدحوا فيما جئت به، وقالوا: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾: ألا وهو الحق المبين.

﴿٨﴾ ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾؛ أي: إلى وقت مقدر فتباطئوه، لقالوا من جهلهم وظلمهم: ﴿ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ﴾؟! ومضمون هذا تكذيبهم به؛ فإنهم يستدلون بعدم وقوعه بهم عاجلًا على كذب الرسول المخبر بوقوع العذاب؛ فما أبعد هذا الاستدلال. ﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ ﴾ العذاب ﴿ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ ﴾: فيتمكنون من النظر في أمرهم، ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾؛ أي: نزل ﴿ مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ ﴾: من العذاب حيث تهاونوا به، حتى جزموا بكذب من جاء به.

(1) ع: «الكذب».

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١)﴾.

(٩)، (١٠) يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان أنه جاهل ظالم: بأن الله إذا أذاقه منه رحمة؛ كالصحة والرزق والأولاد ونحو ذلك، ثم نزعها منه؛ فإنه يستسلم لليأس وينقاد للقنوط؛ فلا يرجو ثواب الله ولا يخطر بباله أن الله سيردها أو مثلها أو خيرًا منها عليه، وأنه إذا أذاقه رحمة من بعد ضراء مسته، أنه يفرح ويبطر ويظن أنه سيدوم له ذلك الخير ويقول: ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠)﴾؛ أي: يفرح بما أوتي مما يوافق هوى نفسه، فخور بنعم الله على عباد الله، وذلك يحمله على الأشر والبطر والإعجاب بالنفس والتكبر على الخلق واحتقارهم وازدرائهم، وأي عيب أشد من هذا؟!

(١١) وهذه طبيعة الإنسان من حيث هو؛ إلا من وفقه الله وأخرجه من هذا الخلق الذميم إلى ضده، وهم الذين صبَّروا أنفسهم عند الضراء فلم ييأسوا، وعند السراء فلم يبطروا، وعملوا الصالحات من واجبات ومستحبات. ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾؛ لذنوبهم يزول بها عنهم كل محذور، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١)﴾؛ وهو الفوز بجنات النعيم التي فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ (١٣) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٤)﴾.

(١٢) يقول تعالى مسليًا لنبيه محمد ﷺ عن تكذيب المكذبين: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾؛ أي: لا ينبغي هذا لمثلك؛ أن قولهم يؤثر فيك ويصدك عما أنت عليه، فتترك بعض ما يوحى إليك، ويضيق صدرك لتعنتهم بقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾: فإن هذا القول ناشئ من تعنت، وظلم، وعناد، وضلال، وجهل بمواقع الحجج والأدلة؛ فامض على أمرك، ولا تصدك هذه الأقوال الركيكة التي لا تصدر إلا من سفيه، ولا يضيق لذلك صدرك؛ فهل أوردوا عليك حجة لا تستطيع حلها؟! أم قدحوا ببعض ما جئت به قدحًا يؤثر فيه وينقص قدره فيضيق صدرك لذلك؟! أم عليك حسابهم ومطالب بهدايتهم جبرًا؟! ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ (١٢)﴾: فهو الوكيل عليهم، يحفظ أعمالهم، ويجازيهم بها أتم الجزاء.

(١٣) ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾؛ أي: افترى محمد هذا القرآن، فأجابهم بقوله: ﴿قُلْ﴾: لهم: ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ (١٣)﴾؛ أي: إن كان قد افتراه؛ فإنه لا فرق بينكم وبينه في الفصاحة والبلاغة، وأنتم الأعداء حقًّا الحريصون بغاية ما يمكنكم على إبطال دعوته فإن كنتم صادقين فأتوا بعشر سور مثله مفتريات!

الجزء الثاني عشر — سورة هود

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ (١٣) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٤) مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٦) أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ (١٨) ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ (١٩)

٢٢٣

(١٤) ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ ﴾: على شيء من ذلكم، ﴿فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ ﴾: من عند الله؛ لقيام الدليل والمقتضي وانتفاء المعارض. ﴿ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾؛ أي: واعلموا أنه لا إله إلا هو؛ أي: هو[1] المستحق للألوهية والعبادة. ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٤) ﴾؛ أي: منقادون لألوهيته، مستسلمون لعبوديته.

وفي هذه الآيات إرشاد إلى أنه لا ينبغي للداعي إلى الله أن يصده اعتراض المعترضين ولا قدح القادحين، خصوصًا إذا كان القدح لا مستند له ولا يقدح فيما دعا إليه، وأنه لا يضيق صدره، بل يطمئن بذلك، ماضيًا على أمره، مقبلًا على شأنه، وأنه لا يجب إجابة اقتراحات المقترحين للأدلة التي يختارونها، بل يكفي إقامة الدليل السالم عن المعارض على جميع المسائل والمطالب.

وفيها: أن هذا القرآن معجز بنفسه، لا يقدر أحد من البشر أن يأتي بمثله، ولا بعشر سور مثله، بل ولا بسورة من مثله؛ لأن الأعداء البلغاء الفصحاء تحداهم الله بذلك، فلم يعارضوه؛ لعلمهم أنهم لا قدرة فيهم على ذلك.

وفيها: أن مما يطلب فيه العلم ولا يكفي غلبة الظن، علم القرآن وعلم التوحيد؛ لقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾.

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١٦) ﴾.

(١٥) يقول تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾؛ أي: كل إرادته مقصورة على الحياة الدنيا وعلى زينتها من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، قد صرف رغبته وسعيه وعمله في هذه الأشياء، ولم يجعل لدار القرار من إرادته شيئًا؛ فهذا لا يكون إلا كافرًا؛ لأنه لو كان مؤمنًا؛ لكان ما معه من الإيمان يمنعه أن تكون جميع إرادته للدار الدنيا، بل نفس إيمانه وما تيسر له من الأعمال أثر من آثار إرادته الدار الآخرة، ولكن هذا الشقي الذي كأنه خلق للدنيا وحدها، ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا ﴾؛ أي: نعطيهم ما قسم لهم في أم الكتاب من ثواب الدنيا. ﴿ وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) ﴾؛ أي: لا ينقصون شيئًا مما قدر لهم، ولكن هذا منتهى نعيمهم.

(١٦) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ﴾: خالدين فيها أبدًا، لا يفتر عنهم العذاب، وقد حرموا جزيل الثواب. ﴿ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا ﴾؛ أي: في الدنيا؛ أي: بطل، واضمحل ما عملوه مما يكيدون به الحق وأهله، وما عملوه من أعمال الخير التي لا أساس لها، ولا وجود لشرطها وهو الإيمان.

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١٧) ﴾.

(١٧) يذكر تعالى حال رسوله محمد ﷺ ومن قام مقامه من ورثته القائمين بدينه وحججه، الموقنين بذلك، وأنهم لا يوصف بهم غيرهم، ولا يكون أحد مثلهم، فقال: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾: بالوحي الذي أنزل الله فيه المسائل المهمة ودلائلها الظاهرة، فتيقن تلك البينة، ﴿وَيَتْلُوهُ ﴾؛ أي: يتلو هذه البينة والبرهان برهان آخر، ﴿ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾: وهو شاهد الفطرة المستقيمة والعقل الصحيح، حين شهد حقيقة ما أوحاه الله وشرعه وعلم بعقله حسنه فازداد بذلك إيمانًا إلى إيمانه ثمَّ شاهد ثالث من قبله؛ وهو ﴿ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ ﴾: التوراة التي جعلها الله ﴿إِمَامًا ﴾ للناس ﴿وَرَحْمَةً ﴾ لهم، يشهد لهذا القرآن بالصدق ويوافقه فيما جاء به من الحق؛ أي: أفمن كان بهذا الوصف، قد تواردت عليه شواهد الإيمان وقامت لديه أدلة اليقين؛ كمن هو في الظلمات والجهالات ليس بخارج منها؟ لا يستوون عند الله ولا عند عباد الله. ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾؛ أي: الذين وفقوا لقيام الأدلة عندهم، ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ أي: بالقرآن حقيقة، فيثمر لهم إيمانهم كل خير في الدنيا والآخرة.

﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴾؛ أي: سائر طوائف أهل الأرض المتحزبة على رد الحق، ﴿ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾: لا بد من وروده إليها، ﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ ﴾؛ أي: في أدنى شك منه. ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١٧) ﴾: إما جهلًا منهم وضلالًا، وإما ظلمًا وعنادًا وبغيًا، وإلا؛ فمن

(١) ع، ط: «هو وحده».

كان قصده حسنًا وفهمه مستقيمًا؛ فلا بد أن يؤمن به؛ لأنه يرى ما يدعوه إلى الإيمان من كل وجه.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿١٨﴾ يخبر تعالى أنه لا أحد ﴿ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾: ويدخل في هذا كل من كذب على الله بنسبة الشريك له، أو وصفه بما لا يليق بجلاله، أو الإخبار عنه بما لم يقل، أو ادعاء النبوة، أو غير ذلك من الكذب على الله؛ فهؤلاء أعظم الناس ظلما. ﴿ أُولَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾: ليجازيهم بظلمهم؛ فعندما يحكم عليهم بالعقاب الشديد؛ ﴿ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾؛ أي: الذين شهدوا عليهم بافترائهم وكذبهم: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ﴾؛ أي: لعنة لا تنقطع؛ لأن ظلمهم صار وصفًا لهم ملازمًا، لا يقبل التخفيف.

﴿١٩﴾ ثم وصف ظلمهم فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾: فصدوا بأنفسهم عن سبيل الله، وهي سبيل الرسل التي دعوا الناس إليها، وصدوا غيرهم عنها، فصاروا أئمة يدعون إلى النار ﴿ وَيَبْغُونَهَا ﴾؛ أي: سبيل الله ﴿ عِوَجًا ﴾؛ أي: يجتهدون في ميلها وتشيينها وتهجينها؛ لتصير عند الناس غير مستقيمة، فيحسنون الباطل؛ ويقبحون الحق؛ قبحهم الله. ﴿ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿٢٠﴾ ﴿ أُولَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي: ليسوا فائتين الله؛ لأنهم تحت قبضته وفي سلطانه، ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾: فيدفعوا عنهم المكروه أو يحصلوا لهم ما ينفعهم، بل تقطعت بهم الأسباب. ﴿ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾؛ أي: يُغَلَّظُ ويزداد؛ لأنهم ضلوا بأنفسهم وأضلوا غيرهم. ﴿ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ ﴾؛ أي: من بغضهم للحق ونفورهم عنه، ما كانوا يستطيعون أن

أُولَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾

يسمعوا آيات الله سماعًا ينتفعون به؛ ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ ﴾ [المدثر: ٤٩-٥١]، ﴿ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾؛ أي: ينظرون نظر عبرة وتفكر فيما ينفعهم، وإنما هم كالصم البكم الذين لا يعقلون.

﴿٢١﴾ ﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾: حيث فوتوها أعظم الثواب واستحقوا أشد العذاب، ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾؛ أي: اضمحل دينهم الذي يدعون إليه ويحسنونه، ولم تغن عنهم آلهتهم التي يعبدون من دون الله لما جاء أمر ربك.

﴿٢٢﴾ ﴿ لَا جَرَمَ ﴾؛ أي: حقًا وصدقًا، ﴿ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾: حصر الخسار فيهم، بل جعل لهم منه أشده؛ لشدة حسرتهم وحرمانهم وما يعانون من المشقة من العذاب، فنستجير بالله من حالهم.

ولما ذكر حال الأشقياء؛ ذكر أوصاف السعداء وما لهم عند الله من الثواب، فقال:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤) ﴾.

(٢٣) يقول تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾: بقلوبهم؛ أي: صدقوا واعترفوا لما أمر الله بالإيمان به من أصول الدين وقواعده، ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾: المشتملة على أعمال القلوب والجوارح وأقوال اللسان، ﴿ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾؛ أي: خضعوا له واستكانوا لعظمته وذلوا لسلطانه، وأنابوا إليه بمحبته وخوفه ورجائه والتضرع إليه. ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾: الذين جمعوا تلك الصفات، ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) ﴾: لأنهم لم يتركوا من الخير مطلبًا إلا أدركوه، ولا خيرًا إلا سبقوا إليه.

(٢٤) ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ ﴾؛ أي: فريق الأشقياء وفريق السعداء، ﴿ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ ﴾: هؤلاء الأشقياء. ﴿ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ﴾: مثل السعداء. ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾؟ لا يستوون مثلًا، بل بينهما من الفرق ما لا يأتي عليه الوصف. ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤) ﴾: الأعمال التي تنفعكم فتفعلونها، والأعمال التي تضركم فتتركونها.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۚ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ۖ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١) قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ۚ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٩) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ ۚ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨) تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩) ﴾

(٢٥) أي: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا ﴾: أول المرسلين ﴿ إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾: يدعوهم إلى الله وينهاهم عن الشرك، فقال: ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) ﴾؛ أي: بينت لكم ما أنذرتكم به بيانًا زال به الإشكال.

(٢٦) ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾؛ أي: أخلصوا العبادة لله وحده، واتركوا كل ما يُعْبَدُ من دون الله. ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) ﴾: إن لم تقوموا بتوحيد الله وتطيعوني.

(٢٧) ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ ﴾؛ أي: الأشراف والرؤساء رادين لدعوة نوح عليه السلام كما جرت العادة لأمثالهم أنهم أول من رد دعوة المرسلين ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾: وهذا مانع بزعمهم عن اتباعه، مع أنه في نفس الأمر هو الصواب الذي لا ينبغي غيره؛ لأن البشر يتمكن البشر أن يتلقوا عنه ويراجعوه في كل أمر؛ بخلاف الملائكة. ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾؛ أي: ما نرى اتبعك منا إلا الأراذل والسفلة - بزعمهم - وهم في الحقيقة الأشراف وأهل العقول، الذين انقادوا للحق، ولم يكونوا كالأراذل الذين يقال لهم: الملأ، الذين اتبعوا كل شيطان مريد، واتخذوا آلهة من الحجر والشجر يتقربون إليها ويسجدون لها؛ فهل ترى أرذل من هؤلاء وأخس؟! وقولهم: ﴿ بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾؛ أي: إنما اتبعوك من غير تفكر وروية، بل بمجرد ما دعوتهم اتبعوك؛ يعنون بذلك أنهم ليسوا على بصيرة من أمرهم، ولم يعلموا أن الحق المبين تدعو إليه بداهة العقول، وبمجرد ما يصل إلى أولي الألباب يعرفونه ويتحققونه، لا كالأمور الخفية التي تحتاج إلى تأمل وفكر طويل. ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾؛ أي: لستم أفضل منا فننقاد لكم، ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ (٢٧) ﴾: وكذبوا في قولهم هذا؛ فإنهم رأوا من الآيات التي جعلها الله مؤيدة لنوح ما يوجب لهم الجزم التام على صدقه.

(٢٨) ولهذا ﴿قَالَ ﴾ لهم نوح مجاوبًا: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾؛ أي: على يقين وجزم؛ يعني: وهو الرسول الكامل القدوة، الذي ينقاد له أولو الألباب، وتضمحل في جنب عقله عقول الفحول من الرجال، وهو الصادق حقًا؛ فإذا قال: إني على بينة من ربي؛ فحسبك بهذا القول شهادة له وتصديقًا. ﴿ وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ ﴾؛ أي: أوحى إلي وأرسلني وَمَنَّ علي بالهداية، ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾؛ أي: خفيت عليكم وبها تثاقلتم، ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾؛ أي: أنكرهكم على ما تحققناه، وشككتم أنتم فيه. ﴿ وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ (٢٨) ﴾ وأنتم كارهون حتى حرصتم على رد ما جئت به، ليس ذلك ضارنا، وليس بقادح من يقيننا فيه، ولا

الجزء الثاني عشر — سورة هود

وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًاۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ
أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ
قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْۚ
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ
أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ
أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًاۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْۖ إِنِّىٓ إِذًا
لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ
جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ
إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ
نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْۚ
هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ
قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾
وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ
فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا
وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾

٢٢٥

قولكم وافتراؤكم علينا صادًّا[١] لنا عما كنا عليه، وإنما غايته أن يكون صادًّا لكم أنتم وموجبًا لعدم انقيادكم للحق الذي تزعمون أنه باطل؛ فإذا وصلت الحال إلى هذه الغاية؛ فلا نقدر على إكراهكم على ما أمر الله ولا إلزامكم ما نفرتم عنه، ولهذا قال: ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ (٢٨) ﴾؟!

(٢٩) ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾؛ أي: على دعوتي إياكم ﴿ مَالًا ﴾: فتستثقلون المغرم، ﴿ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾: وكأنهم طلبوا منه طرد المؤمنين الضعفاء، فقال لهم: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾؛ أي: ما ينبغي لي ولا يليق بي ذلك، بل أتلقاهم بالرحب والإكرام والإعزاز والإعظام، ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ ﴾: فمثيبهم على إيمانهم وتقواهم بجنات النعيم. ﴿ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) ﴾: حيث تأمرونني بطرد أولياء الله وإبعادهم عني، وحيث رددتم الحق لأنهم أتباعه، وحيث استدللتم على بطلان الحق بقولكم: إني بشر مثلكم، وإنه ليس لنا عليكم من فضل.

(١) ع: «بصادٍّ».

﴿٣٠﴾ ﴿ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ ﴾؛ أي: من يمنعني من عذابه؛ فإن طردهم موجب للعذاب والنكال الذي لا يمنعه من دون الله مانع. ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾: ما هو الأنفع لكم والأصلح وتدبرون الأمور؟!

﴿٣١﴾ ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ ﴾؛ أي: غايتي أني رسول الله إليكم؛ أبشركم وأنذركم، وما عدا ذلك؛ فليس بيدي من الأمر شيء، فليست خزائن الله عندي أدبرها أنا وأعطي من أشاء وأحرم من أشاء. ﴿ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ ﴾: فأخبركم بسرائركم وبواطنكم، ﴿ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ ﴾: والمعنى أني لا أدعي رتبة فوق رتبتي، ولا منزلة سوى المنزلة التي أنزلني الله بها، ولا أحكم على الناس بظني. ﴿ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ ﴾؛ أي: الضعفاء المؤمنين الذين يحتقرهم الملأ الذين كفروا؛ ﴿ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾: فإن كانوا صادقين في إيمانهم؛ فلهم الخير الكثير، وإن كانوا غير ذلك؛ فحسابهم على الله. ﴿ إِنِّيٓ إِذٗا ﴾؛ أي: إن قلت لكم شيئًا مما تقدم، ﴿ لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾: وهذا تأييس منه عليه الصلاة والسلام لقومه أن ينبذ فقراء المؤمنين أو يمقتهم، وإقناع[1] لقومه بالطرق المقنعة للمنصف.

﴿٣٢﴾ فلما رأوه لا ينكف عما كان عليه من دعوتهم ولم يدركوا منه مطلوبهم؛ ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾: فما أجهلهم وأضلهم! حيث قالوا هذه المقالة لنبيهم الناصح؛ فهلا قالوا إن كانوا صادقين: يا نوح! قد نصحتنا وأشفقت علينا ودعوتنا إلى أمر لم يتبين لنا فنريد منك أن تبينه لنا لننقاد لك، وإلا فأنت مشكور في نصحك؛ لكان هذا الجواب المنصف للذي قد دعا إلى أمر خفي عليه، ولكنهم في قولهم كاذبون، وعلى نبيهم متجرئون، ولم يردوا ما قاله بأدنى شبهة فضلًا عن أن يردوه بحجة، ولهذا عدلوا من جهلهم وظلمهم إلى الاستعجال بالعذاب، وتعجيز الله.

﴿٣٣﴾ ولهذا أجابهم نوح عليه السلام بقوله: ﴿ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ ﴾؛ أي: إن اقتضت مشيئته وحكمته أن ينزله بكم؛ فعل ذلك، ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾: لله، وأنا ليس بيدي من الأمر شيء.

(١) ع، ط: «وتقنيع».

﴿٣٤﴾ ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ ﴾؛ أي: إن إرادة الله غالبة؛ فإنه إذا أراد أن يغويكم لردكم الحق؛ فلو حرصت غاية مجهودي ونصحت لكم أتم النصح - وهو قد فعل عليه السلام - فليس ذلك بنافع لكم شيئًا. ﴿ هُوَ رَبُّكُمۡ ﴾: يفعل بكم ما يشاء ويحكم فيكم بما يريد، ﴿ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾: فيجازيكم بأعمالكم.

﴿٣٥﴾ ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ ﴾: هذا الضمير محتمل أن يعود إلى نوح كما كان السياق في قصته مع قومه، وأن المعنى أن قومه يقولون: افترى على الله كذبًا، وكذب بالوحي الذي يزعم أنه من الله، وأن الله أمره أن يقول: ﴿ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾؛ أي: كل عليه وزره، ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ﴾ [الأنعام: ١٦٤]. ويحتمل أن يكون عائدًا إلى النبي محمد ﷺ، وتكون هذه الآية معترضة في أثناء قصة نوح وقومه؛ لأنها من الأمور التي لا يعلمها إلا الأنبياء، فلما شرع الله في قصها على رسوله، وكانت من جملة الآيات الدالة على صدقه ورسالته؛ ذكر تكذيب قومه له، مع البيان التام، فقال: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ ﴾؛ أي: هذا القرآن اختلقه محمد من تلقاء نفسه؛ أي: فهذا من أعجب الأقوال وأبطلها؛ فإنهم يعلمون أنه لم يقرأ ولم يكتب ولم يرحل عنهم لدراسة على أهل الكتب، فجاء بهذا الكتاب الذي تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله؛ فإذا زعموا مع هذا أنه افتراه؛ علم أنهم معاندون، ولم يبق فائدة في حجاجهم، بل اللائق في هذه الحال الإعراض عنهم، ولهذا قال: ﴿ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي ﴾؛ أي: ذنبي وكذبي. ﴿ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾؛ أي: فلم تَسْتَلِجُّونَ في تكذيبي؟

﴿٣٦﴾ وقوله: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ ﴾؛ أي: قد قسوا ﴿ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾؛ أي: فلا تحزن ولا تبال بهم وبأفعالهم؛ فإن الله قد مقتهم وأحق عليهم عذابه الذي لا يرد.

﴿٣٧﴾ ﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا ﴾؛ أي: بحفظنا ومرأى منا وعلى مرضاتنا، ﴿ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ ﴾؛ أي: لا تراجعني في إهلاكهم، ﴿ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾؛ أي: قد حق عليهم القول، ونفذ فيهم القدر.

(٣٨) فامتثـل أمر ربه، وجعل يصنـع الفلك، ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾: ورأوا مـا يصنـع، ﴿سَخِرُواْ مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا﴾: الآن، ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨)﴾.

(٣٩) ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩)﴾: نحن أم أنتم؟ وقد علموا ذلك حين حل بهم العقاب.

(٤٠) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾؛ أي: قدرنا بوقت نزول العذاب بهم، ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾؛ أي: أنزل الله السماء بالماء المنهمر، وفجر الأرض كلها عيونًا، حتى التنانير التي هي محل النار في العادة وأبعد ما يكون عن الماء تفجرت، فالتقى الماء على أمر قد قدر، ﴿قُلْنَا﴾ لنوح: ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾؛ أي: من كل صنف من أصناف المخلوقات ذكر وأنثى؛ لتبقى مادة سائر الأجناس، وأما بقية الأصناف الزائدة عن الزوجين؛ فإن[1] السفينة لا تطيق حملها، ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾: ممن كان كافرًا؛ كابنه الذي غرق. ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ والحال أنه ما ﴿ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠)﴾.

(٤١) ﴿وَقَالَ﴾ نوح لمن أمره الله أن يحملهم: ﴿ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾؛ أي: تجري على اسم الله وترسو على اسم الله وتجري بتسخيره وأمره. ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١)﴾: حيث غفر لنا، ورحمنا، ونجانا من القوم الظالمين.

(٤٢) ثم وصف جريانها كأنا نشاهدها، فقال: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ﴾؛ أي: بنوح ومن ركب معه ﴿فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾: والله حافظها، وحافظ أهلها، ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾: لما ركب ليركب معه، ﴿وَكَانَ﴾ ابنه ﴿فِى مَعْزِلٍ﴾: عنهم حين ركبوا؛ أي: مبتعدًا، وأراد منه أن يقرب ليركب، فقال له: ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٤٢)﴾: فيصيبك ما يصيبهم.

(٤٣) ﴿قَالَ﴾ ابنه مكذبًا لأبيه أنه لا ينجو إلا من ركب[2] السفينة: ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾؛ أي: سأرتقي جبلًا أمتنع به من الماء. ﴿قَالَ﴾ نوح: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾: فلا يعصم أحدًا جبل ولا

(١) ع: «فلأن».
(٢) ع: «ركب معه».

سورة هود — الجزء الثاني عشر

وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ
مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ٣٨
فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ
مُّقِيمٌ ٣٩ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا
مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ
وَمَنْ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ٤٠ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ
فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ٤١ وَهِىَ
تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ
فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ٤٢
قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ
ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ
مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ٤٣ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ
أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّۖ وَقِيلَ
بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ
ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ٤٥

٢٢٦

غيره، ولو تسبب بغاية ما يمكنه من الأسباب؛ لما نجا إن لم ينجه الله، ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ﴾ الابن ﴿مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ (٤٣)﴾.

(٤٤) ولما أغرقهم الله ونجى نوحًا ومن معه؛ ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾: الذي خرج منك، والذي نزل إليك، ابلعي الماء الذي على وجهك، ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾: فامتثلتا لأمر الله، فابتلعت الأرض ماءها، وأقلعت السماء ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ أي: نضب من الأرض، ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾: بهلاك المكذبين ونجاة المؤمنين، ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ السفينة ﴿عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾؛ أي: أرسيت على ذلك الجبل المعروف في أرض الموصل، ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٤)﴾؛ أي: أُتبِعوا بهلاكهم[3] لعنة وبعدًا وسحقًا لا يزال معهم.

(٤٥) ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: وقد قلت لي: فـ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾، ولن تخلف ما وعدتني به. لعله عليه

(٣) ع: «بعد هلاكهم».

قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ
مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾
قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا
تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ
ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ
وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ
مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ
مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ
أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ
غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ
أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾
وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ
عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟
مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ
بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾

الصلاة والسلام - حملته الشفقة وأن الله وعده بنجاة أهله - ظن أن الوعد لعمومهم؛ من آمن ومن لم يؤمن؛ فلذلك دعا ربه بذلك الدعاء، ومع هذا؛ ففوض الأمر لحكمة الله البالغة.

﴿٤٦﴾ **حيث قال:** ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ ﴿قَالَ﴾ **الله له:** ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾: **الذين وعدتك بإنجائهم،** ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾**؛ أي: هذا الدعاء الذي دعوت به لنجاة كافر لا يؤمن بالله ولا رسوله،** ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾**؛ أي: ما لا تعلم عاقبته ومآله، وهل يكون خيرًا أو غير خير.** ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾**؛ أي: إني أعظك وعظًا تكون به من الكاملين، وتنجو به من صفات الجاهلين.**

﴿٤٧﴾ **فحينئذ ندم نوح عليه السلام ندامة شديدة على ما صدر منه، و**﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾: **فبالمغفرة والرحمة ينجو العبد من أن يكون من الخاسرين. ودل هذا على أن نوحًا عليه السلام لم يكن عنده علم بأن سؤاله لربه في نجاة ابنه محرم داخل في قوله:** ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾**، بل تعارض عنده الأمران، وظن دخوله في قوله:** ﴿وَأَهْلَكَ﴾**، وبعد هذا تبين له أنه داخل في المنهي عن الدعاء لهم والمراجعة فيهم.**

﴿٤٨﴾ ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾: **من الآدميين وغيرهم من الأزواج التي حملها معه، فبارك الله في الجميع، حتى ملئوا أقطار الأرض ونواحيها** ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾: **في الدنيا،** ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾**؛ أي: هذا الإنجاء ليس بمانع لنا من أن من كفر بعد ذلك؛ أحللنا به العقاب، وإن متعوا قليلًا؛ فسيؤخذون بعد ذلك.**

﴿٤٩﴾ **قال الله لنبيه محمد ﷺ بعدما قص عليه هذه القصة المبسوطة التي لا يعلمها إلا مَنْ مَنَّ عليه برسالته:** ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾: **فيقولوا: إنه كان يعلمها؛ فاحمد الله واشكره واصبر على ما أنت عليه من الدين القويم والصراط المستقيم والدعوة إلى الله.** ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾: **الذين يتقون الشرك وسائر المعاصي، فستكون لك العاقبة على قومك كما كانت لنوح على قومه.**

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا
لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ
لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ
ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا
تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ
بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن
نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ
وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى
جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن
دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾
فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا
غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا
جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم
مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟

رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾

﴿٥٠﴾ أي: وأرسلنا إلى ﴿ عَادٍ ﴾: وهم القبيلة المعروفة في الأحقاف من أرض اليمن، ﴿ أَخَاهُمْ ﴾: في النسب، ﴿ هُودًا ﴾: ليتمكنوا من الأخذ عنه والعلم بصدقه، فقال لهم: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾؛ أي: أمرهم بعبادة الله وحده، ونهاهم عما هم عليه من عبادة غير الله، وأخبرهم أنهم قد افتروا على الله الكذب في عبادتهم لغيره وتجويزهم لذلك، ووضح لهم وجوب عبادة الله وفساد عبادة ما سواه.

﴿٥١﴾ ثم ذكر عدم المانع لهم من الانقياد، فقال: ﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾؛ أي: غرامة من أموالكم على ما دعوتكم إليه فتقولوا: هذا يريد أن يأخذ أموالنا، وإنما أدعوكم وأعلمكم مجانًا. ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾: ما أدعوكم إليه وأنه موجب لقبوله، منتف المانع عن رده.

﴿٥٢﴾ ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ﴾: عما مضى منكم، ﴿ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾: فيما تستقبلونه بالتوبة النصوح والإنابة إلى الله تعالى؛ فإنكم إذا فعلتم ذلك؛ ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾: بكثرة الأمطار التي تخصب بها الأرض ويكثر خيرها، ﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾: فإنهم كانوا من أقوى الناس، ولهذا قالوا: ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [فصلت: ١٥]، فوعدهم أنهم إن آمنوا زادهم قوة إلى قوتهم، ﴿ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ ﴾: عنه؛ أي: عن ربكم ﴿ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾؛ أي: مستكبرين عن عبادته، متجرئين على محارمه.

﴿٥٣﴾ ﴿ قَالُواْ ﴾ رادين لقوله: ﴿ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾: إن كان قصدهم بالبينة البينة التي يقترحونها؛ فهذه غير لازمة للحق، بل اللازم أن يأتي النبي بآية تدل على صحة ما جاء به، وإن كان قصدهم أنه لم يأتهم ببينة تشهد لما قاله بالصحة؛ فقد كذبوا في ذلك؛ فإنه ما جاء نبي لقومه إلا وبعث الله على يديه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، ولو لم يكن له آية إلا دعوته إياهم لإخلاص الدين لله وحده لا شريك له، والأمر بكل عمل صالح وخلق جميل، والنهي عن كل خلق ذميم من الشرك بالله والفواحش والظلم وأنواع المنكرات، مع ما هو مشتمل عليه هود عليه السلام من الصفات التي لا تكون إلا لخيار الخلق وأصدقهم، لكفى بها آيات وأدلة على صدقه، بل أهل العقول وأولو الألباب يرون أن هذه الآية أكبر من مجرد الخوارق التي يراها بعض الناس هي المعجزات فقط.

ومن آياته، وبيناته الدالة على صدقه، أنه شخص واحد، ليس له أنصار ولا أعوان، وهو يصرخ في قومه ويناديهم ويعجزهم ويقول لهم: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ﴾، ﴿ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ ﴾: وهم الأعداء الذين لهم السطوة والغلبة، ويريدون إطفاء ما معه من النور بأي طريق كان، وهو غير مكترث[1] ولا مبال بهم، وهم عاجزون لا يقدرون أن ينالوه بشيء من السوء، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون. وقولهم: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ ﴾؛ أي: لا نترك عبادة آلهتنا لمجرد قولك الذي ما أقمت عليه بينة بزعمهم. ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾: وهذا تأييس منهم لنبيهم هود عليه السلام في إيمانهم، وأنهم لا يزالون في كفرهم يعمهون.

﴿٥٤﴾ ﴿ إِن نَّقُولُ ﴾: فيك ﴿ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾؛ أي: أصابتك بخبال وجنون، فصرت تهذي بما لا يعقل؛ فسبحان من طبع على قلوب الظالمين! كيف جعلوا أصدق الخلق الذي جاء بأحق الحق بهذه المرتبة التي يستحي العاقل من حكايتها عنهم، لولا أن الله حكاها عنهم؟!

﴿٥٥﴾ ولهذا بين هود عليه الصلاة والسلام أنه واثق غاية الوثوق أنه لا يصيبه منهم ولا من آلهتهم أذى، فقال: ﴿ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ﴾؛ أي: اطلبوا لي الضرر كلكم بكل طريق تتمكنون بها مني، ﴿ ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ ﴾؛ أي: لا تمهلوني.

﴿٥٦﴾ ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ ﴾؛ أي: اعتمدت في أمري كله على الله، ﴿ رَبِّي وَرَبِّكُم ﴾؛ أي: هو خالق الجميع ومدبرنا وإياكم، وهو الذي ربانا. ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾: فلا تتحرك ولا تسكن إلا بإذنه؛ فلو اجتمعتم جميعًا على الإيقاع بي، والله لم يسلطكم علي؛ لم تقدروا على ذلك؛ فإن سلطكم فلحكمة أرادها. ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾؛ أي: على عدل وقسط وحكمة وحمد في قضائه وقدره وشرعه

(١) بعده في ع: «بهم».

إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ
وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي
جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا
مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ
(٥٦) فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ
رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ
(٥٧) وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ
مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ (٥٨) وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ
رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ (٥٩) وَأُتۡبِعُواْ
فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا
بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ (٦٠) ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ
يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ
وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ
(٦١) قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن
نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ (٦٢)

وأمره وفي جزائه وثوابه وعقابه، لا تخرج أفعاله عن الصراط المستقيم التي يحمد، ويثنى عليه بها.

(٥٧) ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾: عما دعوتكم إليه، ﴿فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ﴾: فلم يبق عليَّ تبعة من شأنكم، ﴿وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾: يقومون بعبادته ولا يشركون به شيئًا، ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ﴾: فإن ضرركم إنما يعود إليكم[1]؛ فالله لا تضره معصية العاصين ولا تنفعه طاعة الطائعين[2]، ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَا﴾ [فصلت: ٤٦]. ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ (٥٧)﴾.

(٥٨) ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾؛ أي: عذابنا بإرسال الريح العقيم التي ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ (٤٢)﴾ [الذاريات: ٤٢]؛ ﴿نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ (٥٨)﴾؛ أي: عظيم شديد أحله الله بعاد فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم.

(٥٩) ﴿وَتِلۡكَ عَادٞۖ﴾: الذين أوقع الله بهم ما أوقع بظلم منهم لأنهم ﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾: ولهذا قالوا لهود: ﴿مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾! فتبين بهذا أنهم متيقنون لدعوته، وإنما عاندوا وجحدوا، ﴿وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ﴾؛ لأن من عصى رسولًا؛ فقد عصى جميع المرسلين؛ لأن دعوتهم واحدة، ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ﴾؛ أي: متسلط على عباد الله بالجبروت، ﴿عَنِيدٖ (٥٩)﴾؛ أي: معاند لآيات الله، فعصوا كل ناصح ومشفق عليهم، واتبعوا كل غاشٍّ لهم يريد إهلاكهم، لا جرم أهلكهم الله.

(٦٠) ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ﴾: فما من وقت وجيل إلا ولأنبائهم القبيحة وأخبارهم الشنيعة ذكر يذكرون به وذم يلحقهم. ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾: لهم أيضًا لعنة، ﴿أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ﴾؛ أي: جحدوا من خلقهم ورزقهم ورباهم. ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ (٦٠)﴾؛ أي: أبعدهم الله عن كل خير، وقربهم من كل شر.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ (٦١) قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ (٦٢) قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ (٦٣) وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ (٦٥) فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ (٦٨)﴾

(٦١) أي: وأرسلنا إلى ﴿ثَمُودَ﴾: وهم عاد الثانية، المعروفون، الذين يسكنون الحِجْر ووادي القرى، ﴿أَخَاهُمۡ﴾: في النسب، ﴿صَٰلِحٗا﴾: عبد الله ورسوله ﷺ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده. ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ

(١) ع: «عليكم».
(٢) ع: «المطيعين».

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾؛ أي: وحدوه وأخلصوا له الدين، ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾: لا من أهل السماء ولا من أهل الأرض، ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾؛ أي: خلقكم فيها، فقال: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾؛ أي: استخلفكم فيها وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة، ومكنكم في الأرض؛ تبنون وتغرسون وتزرعون وتحرثون ما شئتم وتنتفعون بمنافعها وتستغلون مصالحها؛ فكما أنه لا شريك له في جميع ذلك؛ فلا تشركوا به في عبادته. ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾: مما صدر منكم من الكفر والشرك والمعاصي وأقلعوا عنها، ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾؛ أي: ارجعوا إليه بالتوبة النصوح والإنابة. ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾؛ أي: قريب ممن دعاه دعاء مسألة أو دعاء عبادة يجيبه بإعطائه سؤاله وقبول عبادته وإثابته عليها أجل الثواب.

واعلم أن قربه تعالى نوعان: عام وخاص: **فالقرب العام**: قربه بعلمه، من جميع الخلق، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦].

والقرب الخاص: قربه من عابديه وسائليه ومحبيه، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴿١٩﴾﴾ [العلق: ١٩]، وفي هذه الآية، وفي قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وهذا النوع قرب يقتضي إلطافه تعالى وإجابته لدعواتهم وتحقيقه لمراداتهم، ولهذا يقرن باسمه «القريب» اسمه «المجيب».

(٦٢) فلما أمرهم نبيهم صالح عليه السلام ورغبهم في الإخلاص لله وحده؛ ردوا عليه دعوته، وقابلوه أشنع المقابلة. و﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا﴾؛ أي: قد كنا نرجوك ونؤمل فيك العقل والنفع، وهذا شهادة منهم لنبيهم صالح: أنه ما زال معروفًا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأنه من خيار قومه، ولكنه لما جاءهم بهذا الأمر الذي لا يوافق أهواءهم الفاسدة؛ قالوا هذه المقالة التي مضمونها أنك قد كنت كاملًا، والآن أخلفت ظننا فيك، وصرت بحالة لا يرجى منك خير، وذنبه ما قالوه عنه، وهو قولهم: ﴿أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾: وبزعمهم أن هذا من أعظم القدح في صالح؛ كيف قدح في عقولهم وعقول آبائهم الضالين؟! وكيف ينهاهم عن عبادة من لا ينفع ولا يضر ولا يغني شيئًا من الأحجار والأشجار ونحوها، وأمرهم بإخلاص الدين لله ربهم الذي لم تزل نعمه عليهم

قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي
مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي
غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ٦٣ وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ
فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ
عَذَابٞ قَرِيبٞ ٦٤ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ
ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ٦٥ فَلَمَّا جَآءَ
أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا
وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ٦٦ وَأَخَذَ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ
٦٧ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا
لِّثَمُودَ ٦٨ وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ
سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ٦٩ فَلَمَّا
رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ
قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ٧٠ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ
فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١

٢٢٩

تترى وإحسانه عليهم دائمًا ينزل، الذي ما بهم من نعمة إلا منه، ولا يدفع عنهم السيئات إلا هو؟! ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾؛ أي: ما زلنا شاكين فيما دعوتنا إليه شكًّا مؤثرًا في قلوبنا الريب.

(٦٣) وبزعمهم أنهم لو علموا صحة ما دعاهم إليه؛ لاتبعوه، وهم كذبة في ذلك، ولهذا بين كذبهم في قوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾؛ أي: برهان ويقين مني، ﴿وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾؛ أي: منّ علي برسالته ووحيه؛ أي: أفأتابعكم على ما أنتم عليه وما تدعونني إليه. ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾؛ أي: غير خسار وتباب وضرر.

(٦٤) ﴿وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾: لها شرب من البئر يومًا، ثم يشربون كلهم من ضرعها، ولهم شرب يوم معلوم، ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾؛ أي: ليس عليكم من مؤنتها وعلفها شيء، ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾؛ أي: بعقر؛ ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾.

(٦٥) ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ ﴾: لهم صالح: ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) ﴾: بل لا بد من وقوعه.

(٦٦) ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾: بوقوع العذاب، ﴿ نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ﴾؛ أي: نجيناهم من العذاب والخزي والفضيحة. ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) ﴾: ومن قوته وعزته أن أهلك الأمم الطاغية ونجى الرسل وأتباعهم.

(٦٧) ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ ﴾ العظيمة فقطعت قلوبهم؛ ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) ﴾؛ أي: خامدين لا حراك لهم.

(٦٨) ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾؛ أي: كأنهم لما جاءهم العذاب ما تمتعوا في ديارهم ولا أنسوا فيها ولا تنعموا بها يومًا من الدهر، قد فارقهم النعيم، وتناولهم العذاب السرمدي، الذي لا ينقطع، الذي كأنه لم يزل. ﴿ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ﴾؛ أي: جحدوه بعد أن جاءتهم الآية المبصرة. ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ (٦٨) ﴾: فما أشقاهم وأذلهم! نستجير بالله من عذاب الدنيا وخزيها.

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ
سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا
تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا
أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا
بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا
عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢)
قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ
الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ
وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ
أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ
وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا
سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧)
وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ
قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا
تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ
عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ
أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا
رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ
وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ
إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ
أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً
مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ
الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣) ﴾

(٦٩) أي: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا ﴾: من الملائكة الكرام رسولنا ﴿ إِبْرَاهِيمَ ﴾ الخليل ﴿ بِالْبُشْرَىٰ ﴾؛ أي: بالبشارة بالولد حين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط وأمرهم أن يمروا على إبراهيم فيبشروه بإسحاق، فلما دخلوا عليه، ﴿ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ ﴾؛ أي: سلموا عليه ورد عليهم السلام. ففي هذا مشروعية السلام، وأنه لم يزل من ملة إبراهيم عليه السلام، وأن السلام قبل الكلام، وأنه ينبغي أن يكون الرد أبلغ من الابتداء؛ لأن سلامهم بالجملة الفعلية الدالة على التجدد، ورده بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت والاستمرار، وبينهما فرق كبير؛ كما هو معلوم في علم العربية. ﴿ فَمَا لَبِثَ ﴾: إبراهيم لما دخلوا عليه، ﴿ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) ﴾؛ أي: بادر لبيته فاستحضر لأضيافه عجلًا مشويًّا على الرَّضْفِ سمينًا، فقربه إليهم فقال: ألا تأكلون.

(٧٠) ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ ﴾؛ أي: إلى تلك الضيافة، ﴿ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾: وظن أنهم أتوه بشر ومكروه، وذلك قبل أن يعرف أمرهم، ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) ﴾؛ أي: إنا رسل الله، أرسلنا الله إلى إهلاك قوم لوط.

(٧١) ﴿ وَامْرَأَتُهُ ﴾ أي: وامرأة إبراهيم ﴿ قَائِمَةٌ ﴾: تخدم أضيافه، ﴿ فَضَحِكَتْ ﴾: حين سمعت بحالهم وما أرسلوا به تعجبًا، ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) ﴾.

(٧٢) فتعجبت من ذلك و﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ﴾: فهذان مانعان من وجود الولد. ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) ﴾.

(٧٣) ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾: فإن أمره لا عجب فيه؛ لنفوذ مشيئته التامة في كل شيء؛ فلا يستغرب على قدرته شيء، وخصوصًا فيما يدبره ويمضيه لأهل هذا

قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾

البيت المبارك. ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ﴾؛ أي: لا تزال رحمته وإحسانه وبركاته، وهي الزيادة من خيره وإحسانه وحلول الخير الإلهي ﴿عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾؛ أي: حميد الصفات؛ لأن صفاته صفات كمال، حميد الأفعال؛ لأن أفعاله إحسان وجود وبر وحكمة وعدل وقسط. ﴿مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾: والمجد هو عظمة الصفات وسعتها؛ فله صفات الكمال، وله من كل صفة كمال أكملها وأتمها وأعمها.

﴿٧٤﴾ ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾: الذي أصابه من خيفة أضيافه، ﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾: بالولد؛ التفت حينئذ إلى مجادلة الرسل في إهلاك قوم لوط، وقال لهم: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ [العنكبوت: ٣٢].

﴿٧٥﴾ ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾؛ أي: ذو خلق حسن وسعة صدر وعدم غضب عند جهل الجاهلين، ﴿أَوَّٰهٌ﴾؛ أي: متضرع إلى الله في جميع الأوقات، ﴿مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾؛ أي: رجاع إلى الله بمعرفته ومحبته والإقبال عليه والإعراض عمن سواه؛ فلذلك كان يجادل عمَّن حتَّم الله بهلاكهم.

﴿٧٦﴾ فقيل له: ﴿يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ﴾: الجدال. ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾: بهلاكهم، ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾: فلا فائدة في جدالك.

﴿٧٧﴾ ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا﴾؛ أي: الملائكة الذين صدروا من إبراهيم، لما أتوا ﴿لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ﴾؛ أي: شق عليه مجيئهم، ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾؛ أي: شديد حرج؛ لأنه علم أن قومه لا يتركونهم؛ لأنهم في صور شباب جرد مرد في غاية الكمال والجمال.

﴿٧٨﴾ ولهذا وقع ما خطر بباله، ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾؛ أي: يسرعون ويبادرون يريدون أضيافه بالفاحشة التي كانوا يعملونها، ولهذا قال: ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ أي: الفاحشة التي ما سبقهم إليها أحد من العالمين. ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾: من أضيافي - وهذا كما عرض سليمان ﷺ على المرأتين أن يشق الولد المختصم فيه لاستخراج الحق - ولعلمه أن بناته ممتنع منالهن ولا حق لهم فيهن، والمقصود الأعظم دفع هذه الفاحشة الكبرى[1]. ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ﴾؛ أي: إما أن تراعوا تقوى الله، وإما أن تراعوني في ضيفي ولا تخزوني عندهم. ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾: فينهاكم ويزجركم. وهذا دليل على مروجهم وانحلالهم من الخير والمروءة.

﴿٧٩﴾ ﴿قَالُوا۟﴾ له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾؛ أي: لا نريد إلا الرجال، ولا لنا رغبة في النساء.

﴿٨٠﴾ فاشتد قلق لوط عليه الصلاة والسلام و﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾؛ كقبيلة مانعة؛ لمنعتكم. وهذا بحسب الأسباب المحسوسة، وإلا؛ فإنه يأوي إلى أقوى الأركان، وهو الله الذي لا يقوم لقوته أحد.

﴿٨١﴾ ولهذا لما بلغ الأمر منتهاه واشتد الكرب؛ ﴿قَالُوا۟﴾ له: ﴿يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾؛ أي: أخبروه بحالهم ليطمئن

---

(١) من قوله: «وهذا كما عرض سليمان» إلى هذا الموضع = ساقط من ع.

فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا
حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ
وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴿٨٣﴾ ۞ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ
شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ
وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ
وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوۡمِ
أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ
ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٨٥﴾
بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم
بِحَفِيظٖ ﴿٨٦﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن
نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ
إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن
كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ
أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ
مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾

قلبه، ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾: بسوء. ثم قال جبريل بجناحه، فطمس أعينهم، فانطلقوا يتوعدون لوطًا بمجيء الصبح، وأمر الملائكة لوطًا أن يسري بأهله ﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾؛ أي: بجانب منه قبل الفجر بكثير؛ ليتمكنوا من البعد عن قريتهم، ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ﴾؛ أي: بادروا بالخروج، وليكن همكم النجاء، ولا تلتفتوا إلى ما وراءكم، ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا﴾: من العذاب ﴿مَآ أَصَابَهُمۡۚ﴾؛ لأنها تشارك قومها في الإثم، فتدلهم على أضياف لوط إذا نزل به أضياف. ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ﴾: فكأن لوطًا استعجل ذلك، فقيل له: ﴿أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾﴾.

(٨٢) ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾: بنزول العذاب وإحلاله فيهم ﴿جَعَلۡنَا﴾: ديارهم ﴿عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾؛ أي: قلبناها عليهم، ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ﴾؛ أي: من حجارة النار الشديدة الحرارة، ﴿مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾﴾؛ أي: متتابعة تتبع من شذ عن القرية.

(٨٣) ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ﴾؛ أي: معلمة، عليها علامة العذاب والغضب، ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: الذين يشابهون لفعل قوم لوط، ﴿بِبَعِيدٖ ﴿٨٣﴾﴾: فليحذر العباد أن يفعلوا كفعلهم؛ لئلا يصيبهم ما أصابهم.

﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا
لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ
إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ
مُّحِيطٖ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ
بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي
ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم
مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿٨٦﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ
أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ
فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾
قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي
مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ
عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ
عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن
يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ
وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ
ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا
نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ
لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ
عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا
تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي
عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ
هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ
أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن
لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾

(٨٤) أي: وأرسلنا إلى ﴿مَدۡيَنَ﴾: القبيلة المعروفة، الذين يسكنون مدين، في أدنى فلسطين، ﴿أَخَاهُمۡ﴾: في النسب، ﴿شُعَيۡبٗاۚ﴾: لأنهم يعرفونه ويتمكنون[1] من الأخذ عنه، فـ ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ

(١) ع: «وليتمكنوا».

غَيْرُهُۥ ﴾؛ أي: أخلصوا له العبادة؛ فإنهم كانوا يشركون به، وكانوا مع شركهم يبخسون المكيال والميزان، ولهذا نهاهم عن ذلك، فقال: ﴿ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾: بل أوفوا الكيل والميزان بالقسط. ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ ﴾؛ أي: بنعمة كثيرة وصحة وكثرة أموال وبنين؛ فاشكروا الله على ما أعطاكم، ولا تكفروا بنعمة الله فيزيلها عنكم. ﴿ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ ﴾؛ أي: عذابًا يحيط بكم ولا يبقي منكم باقية.

﴿٨٥﴾ ﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ﴾؛ أي: بالعدل الذي ترضون أن تعطوه، ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾؛ أي: لا تنقصوا من أشياء الناس، فتسرقوها بأخذها بنقص المكيال والميزان، ﴿ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾: فإن الاستمرار على المعاصي يفسد الأديان والعقائد والدين والدنيا ويهلك الحرث والنسل.

﴿٨٦﴾ ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾؛ أي: يكفيكم ما أبقى الله لكم من الخير وما هو لكم؛ فلا تطمعوا في أمر لكم عنه غنية وهو ضار لكم جدًّا، ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾: فاعملوا بمقتضى الإيمان. ﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ ﴾؛ أي: لست بحافظ لأعمالكم ووكيل عليها، وإنما الذي يحفظها الله تعالى، وأما أنا فأبلغكم ما أرسلت به.

﴿٨٧﴾ ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾؛ أي: قالوا ذلك على وجه التهكم بنبيهم والاستبعاد لإجابتهم له، ومعنى كلامهم: أنه لا موجب لنهيك لنا إلا أنك تصلي لله وتتعبد له؛ أفإن كنت كذلك؛ أفيوجب لنا أن نترك ما يعبد آباؤنا لقول ليس عليه دليل إلا أنه موافق لك؟! فكيف نتبعك ونترك آباءنا الأقدمين أولي العقول والألباب؟! وكذلك لا يوجب قولك لنا أن نفعل في أموالنا ما قلت لنا من وفاء الكيل والميزان وأداء الحقوق الواجبة فيها، بل لا نزال نفعل فيها ما شئنا؛ لأنها أموالنا، فليس لك فيها تصرف، ولهذا قالوا في تهكمهم: ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾؛ أي: أئنك أنت الذي الحلم والوقار لك خلق والرشد لك سجية؛ فلا يصدر عنك إلا رشد، ولا تأمر إلا برشد، ولا تنهى إلا عن غي؟! أي: ليس الأمر كذلك، وقصدهم أنه موصوف بعكس هذين الوصفين: بالسفه والغواية؛ أي: أن المعنى: كيف تكون أنت الحليم الرشيد، وآباؤنا هم السفهاء الغاوين؟! وهذا القول الذي أخرجوه بصيغة التهكم وأن الأمر بعكسه ليس كما ظنوه، بل الأمر كما قالوه: إن صلاته تأمره أن ينهاهم عما كان يعبد آباؤهم الضالون وأن يفعلوا في أموالهم ما يشاءون؛ فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وأي فحشاء ومنكر أكبر من عبادة غير الله، ومن منع حقوق عباد الله، أو سرقتها بالمكاييل والموازين، وهو عليه الصلاة والسلام الحليم الرشيد؟!

﴿٨٨﴾ ﴿ قَالَ ﴾ لهم شعيب: ﴿ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾؛ أي: يقين وطمأنينة في صحة ما جئت به، ﴿ وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾؛ أي: أعطاني الله من أصناف المال ما أعطاني، وأنا ﴿ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾: فلست أريد أن أنهاكم عن البخس في المكيال والميزان وأفعله أنا حتى تتطرق إليَّ التهمة في ذلك، بل ما أنهاكم عن أمر إلا وأنا أول مبتدر لتركه. ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ﴾؛ أي: ليس لي من المقاصد إلا أن تصلح أحوالكم وتستقيم منافعكم، وليس لي من المقاصد الخاصة لي وحدي شيء بحسب استطاعتي. ولما كان هذا فيه نوع تزكية للنفس؛ دفع هذا بقوله: ﴿ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾؛ أي: وما يحصل لي من التوفيق لفعل الخير والانفكاك عن الشر إلا بالله تعالى، لا بحولي ولا بقوتي. ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾؛ أي: اعتمدت في أموري ووثقت في كفايته. ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾: في أداء ما أمرني به من أنواع العبادات، وفي هذا التقرب إليه بسائر أفعال الخيرات، وبهذين الأمرين تستقيم أحوال العبد، وهما الاستعانة بربه والإنابة إليه؛ كما قال تعالى: ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود: ١٢٣]. وقال: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾ [الفاتحة: ٥].

﴿٨٩﴾ ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ ﴾؛ أي: لا تحملنكم مخالفتي ومشاقتي، ﴿ أَن يُصِيبَكُم ﴾: من العقوبات، ﴿ مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ ﴾: لا في الدار ولا في الزمان.

﴿٩٠﴾ ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾: عما اقترفتم من الذنوب، ﴿ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ﴾: فيما يستقبل من أعماركم بالتوبة النصوح والإنابة إليه بطاعته وترك مخالفته. ﴿ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ ﴾: لمن تاب وأناب؛ يرحمه فيغفر له ويتقبل توبته ويحبه.

ومعنى الودود من أسمائه تعالى: أنه يحب عباده المؤمنين ويحبونه؛ فهو فعول بمعنى فاعل ومعنى مفعول.

الجزء الثاني عشر — سورة هود

وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ
قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم
بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي
رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ
وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ
عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ
ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ
مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ
سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ
كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ
أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾
كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدۡ
أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ
وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ﴿٩٧﴾

٢٣٢

(٩١) ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾؛ أي: تضجروا من نصائحه ومواعظه لهم، فقالوا: ﴿مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾، وذلك لبغضهم لما يقول ونفرتهم عنه. ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗا﴾؛ أي: في نفسك لست من الكبار والرؤساء، بل من المستضعفين. ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ﴾؛ أي: جماعتك وقبيلتك، ﴿لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾﴾؛ أي: ليس لك قدر في صدورنا ولا احترام في أنفسنا، وإنما احترمنا قبيلتك بتركنا إياك.

(٩٢) ﴿قَالَ﴾[1] لهم مترققًا لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: كيف تراعونني لأجل رهطي ولا تراعونني لله، فصار رهطي أعز عليكم من الله. ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّا﴾؛ أي: نبذتم أمر الله وراء ظهوركم، ولم تبالوا به، ولا خفتم منه. ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾﴾: لا يخفى عليه من أعمالكم مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، فسيجازيكم على ما عملتم أتم الجزاء.

(٩٣) لما أعيوه وعجز عنهم؛ قال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾؛ أي: على حالتكم ودينكم. ﴿إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾: ويحل عليه عذاب مقيم، ﴿وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ﴾ أنا أم أنتم، وقد علموا ذلك حين وقع عليهم العذاب، ﴿وَٱرۡتَقِبُوٓاْ﴾: ما يحل بي. ﴿إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾﴾ ما يحل بكم.

(٩٤) ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾: بإهلاك قوم شعيب، ﴿نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾: لا تسمع لهم صوتًا، ولا ترى منهم حركة.

(٩٥) ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآ﴾؛ أي: كأنهم ما أقاموا في ديارهم ولا تنعموا فيها حين أتاهم العذاب. ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ﴾: إذ أهلكها الله وأخزاها، ﴿كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾؛ أي: قد اشتركت هاتان القبيلتان في السُّحق والبعد والهلاك.

وشعيب عليه السلام كان يسمى خطيب الأنبياء؛ لحسن مراجعته لقومه. وفي قصته من الفوائد والعبر شيء كثير:

منها: أن الكفار كما يعاقبون ويخاطبون بأصل الإسلام؛ فكذلك بشرائعه وفروعه؛ لأن شعيبًا دعا قومه إلى التوحيد وإلى إيفاء المكيال والميزان، وجعل الوعيد مرتبًا على مجموع ذلك.

ومنها: أن نقص المكاييل والموازين من كبائر الذنوب وتخشى العقوبة العاجلة على من تعاطى ذلك، وأن ذلك من سرقة أموال الناس، وإذا كان سرقتهم في المكاييل والموازين موجبة للوعيد؛ فسرقتهم على وجه القهر والغلبة من باب أولى وأحرى.

ومنها: أن الجزاء من جنس العمل؛ فمن بخس أموال الناس يريد زيادة ماله؛ عوقب بنقيض ذلك، وكان سببًا لزوال الخير الذي عنده من الرزق؛ لقوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾؛ أي: فلا تتسببوا إلى زواله بفعلكم.

ومنها: أن على العبد أن يقنع بما آتاه الله ويقنع بالحلال عن الحرام وبالمكاسب المباحة عن المكاسب المحرمة، وأن ذلك خير له؛ لقوله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾؛ ففي ذلك من البركة وزيادة الرزق ما ليس في التكالب على الأسباب المحرمة من المحق وضد البركة.

(١) ع: «فقال».

ومنها: أن ذلك من لوازم الإيمان وآثاره؛ فإنه رتب العمل به على وجود الإيمان، فدل على أنه إذا لم يوجد العمل؛ فالإيمان ناقص أو معدوم.

ومنها: أن الصلاة لم تزل مشروعة للأنبياء المتقدمين، وأنها من أفضل الأعمال، حتى إنه متقرر عند الكفار فضلها وتقديمها على سائر الأعمال، وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي ميزان للإيمان وشرائعه؛ فبإقامتها تكمل أحوال العبد، وبعدم إقامتها تختل أحواله الدينية.

ومنها: أن المال الذي يرزقه الله الإنسان، وإن كان الله قد خوله إياه؛ فليس له أن يصنع فيه ما يشاء؛ فإنه أمانة عنده، عليه أن يقيم حق الله فيه بأداء ما فيه من الحقوق والامتناع من المكاسب التي حرمها الله ورسوله، لا كما يزعمه الكفار ومن أشبههم؛ أن أموالهم لهم أن يصنعوا فيها ما يشاءون ويختارون، سواء وافق حكم الله أو خالفه.

ومنها: أن من تكملة دعوة الداعي وتمامها: أن يكون أول مبادر لما يأمر غيره به وأول منته عما ينهى غيره عنه؛ كما قال شعيب عليه السلام: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾، ولقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢﴾ [الصف: ٢].

ومنها: أن وظيفة الرسل وسنتهم وملتهم إرادة الإصلاح بحسب القدرة والإمكان، فيأتون بتحصيل المصالح وتكميلها أو بتحصيل ما يقدر عليه منها، وبدفع المفاسد وتقليلها، ويراعون المصالح العامة على المصالح الخاصة.

وحقيقة المصلحة هي التي تصلح بها أحوال العباد، وتستقيم بها أمورهم الدينية والدنيوية.

ومنها: أن من قام بما يقدر عليه من الإصلاح؛ لم يكن ملومًا ولا مذمومًا في عدم فعله ما لا يقدر عليه؛ فعلى العبد أن يقيم من الإصلاح في نفسه وفي غيره ما يقدر عليه.

ومنها: أن العبد ينبغي له ألَّا يتكل على نفسه طرفة عين، بل لا يزال مستعينًا بربه، متوكلًا عليه، سائلًا له التوفيق، وإذا حصل له شيء من التوفيق؛ فلينسبه لموليه ومسديه ولا يعجب بنفسه؛ لقوله: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾.

ومنها: الترهيب بأخذات الأمم، وما جرى عليهم، وأنه ينبغي أن تذكر القصص التي فيها إيقاع العقوبات بالمجرمين في سياق الوعظ والزجر؛ كما أنه ينبغي ذكر ما أكرم الله به أهل التقوى عند الترغيب والحث على التقوى.

ومنها: أن التائب من الذنب كما يسمح له عن ذنبه ويعفى عنه؛ فإن الله تعالى يحبه ويوده، ولا عبرة بقول من يقول: إن التائب إذا تاب؛ فحسبه أن يغفر له ويعود عليه العفو، وأما عود الود والحب؛ فإنه لا يعود؛ فإن الله قال: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ۝٩٠﴾.

ومنها: أن الله يدفع عن المؤمنين بأسباب كثيرة قد يعلمون بعضها وقد لا يعلمون شيئًا منها، وربما دفع عنهم بسبب قبيلتهم وأهل وطنهم الكفار؛ كما دفع الله عن شعيب رجم قومه بسبب رهطه.

وأن هذه الروابط التي يحصل بها الدفع عن الإسلام والمسلمين لا بأس بالسعي فيها، بل ربما تعين ذلك؛ لأن الإصلاح مطلوب على حسب القدرة والإمكان؛ فعلى هذا لو ساعد المسلمون الذين تحت ولاية الكفار، وعملوا على جعل الولاية جمهورية يتمكن فيها الأفراد والشعوب من حقوقهم الدينية والدنيوية؛ لكان أولى من استسلامهم لدولة تقضي على حقوقهم الدينية والدنيوية، وتحرص على إبادتها وجعلهم عَمَلَة وخدمًا لهم. نعم؛ إن أمكن أن تكون الدولة للمسلمين وهم الحكام؛ فهو المتعين، ولكن لعدم إمكان هذه المرتبة؛ فالمرتبة التي فيها دفع ووقاية للدين والدنيا مقدمة. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ۝٩٦ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۝٩٧ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ۝٩٨ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ۝٩٩ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ۝١٠٠ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۝١٠١﴾

۝٩٦ يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾: ابن عمران ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾: الدالة على صدق ما جاء به؛ كالعصا واليد

الجزء الثاني عشر — سورة هود

يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ
ٱلۡمَوۡرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ
ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ
مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ
أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ﴿١٠١﴾
وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ
أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ
ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ﴿١٠٣﴾ وَمَا
نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ﴿١٠٤﴾ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ
إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي
ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ
﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ﴿١٠٨﴾

٢٣٣

ونحوهما من الآيات التي أجراها الله على يدي موسى عليه السلام، ﴿وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾﴾؛ أي: حجة ظاهرة بينة ظهرت ظهور الشمس.

﴿٩٧﴾ ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾؛ أي: أشراف قومه؛ لأنهم المتبوعون، وغيرهم تبع لهم، فلم ينقادوا لما مع موسى من الآيات التي أراهم إياها كما تقدم بسطها في سورة الأعراف، ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ﴿٩٧﴾﴾: بل هو ضال غاوٍ، لا يأمر إلا بما هو ضرر محض.

﴿٩٨﴾ لا جرم لما اتبعه قومه؛ أرداهم وأهلكهم؛ ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿٩٩﴾ ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ﴾؛ أي: في الدنيا ﴿لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: يلعنهم الله وملائكته والناس أجمعون في الدنيا والآخرة. ﴿بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ﴿٩٩﴾﴾؛ أي: بئس ما أجتمع لهم، وترادف عليهم من عذاب الله ولعنة الدنيا والآخرة.

﴿١٠٠﴾ ولما ذكر قصص هؤلاء الأمم مع رسلهم؛ قال الله تعالى لرسوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَ﴾: لتنذر به ويكون آية على رسالتك وموعظة وذكرى للمؤمنين. ﴿مِنۡهَا قَآئِمٞ﴾: لم يتلف، بل بقي من آثار ديارهم ما يدل عليهم. ومنها حصيد: قد تهدمت مساكنهم، واضمحلت منازلهم فلم يبق لها أثر.

﴿١٠١﴾ ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾: بأخذهم بأنواع العقوبات، ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾: بالشرك والكفر والعناد. ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَ﴾: وهكذا كل من التجأ إلى غير الله؛ لم ينفعه ذلك عند نزول الشدائد. ﴿وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ﴿١٠١﴾﴾؛ أي: خسار ودمار بالضد مما خطر ببالهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿١٠٢﴾ أي: يقصمهم بالعذاب، ويبيدهم، ولا ينفعهم ما كانوا يدعون من دون الله من شيء.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ﴿١٠٤﴾ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿١٠٣﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾: المذكور من أخذه للظالمين بأنواع العقوبات، ﴿لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ أي: لعبرة ودليلًا على أن أهل الظلم والإجرام لهم العقوبة الدنيوية والعقوبة الأخروية. ثم انتقل من هذا إلى وصف الآخرة، فقال: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾؛ أي: جمعوا لأجل ذلك اليوم، للمجازاة، وليظهر لهم من عظمة الله وسلطانه وعدله العظيم ما به يعرفونه حق المعرفة. ﴿وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ﴿١٠٣﴾﴾؛ أي: يشهده الله وملائكته وجميع المخلوقين.

﴿١٠٤﴾ ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾؛ أي: إتيان يوم القيامة، ﴿إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ﴿١٠٤﴾﴾: إذا انقضى أجل الدنيا، وما قدر الله

فيها من الخلق؛ فحينئذ ينقلهم إلى الدار الأخرى، ويجري عليهم أحكامه الجزائية، كما أجرى عليهم في الدنيا أحكامه الشرعية.

(١٠٥) ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾: ذلك اليوم ويجتمع الخلق، ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾: حتى الأنبياء والملائكة الكرام لا يشفعون إلا بإذنه. ﴿فَمِنْهُمْ﴾؛ أي: الخلق ﴿شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ١٠٥﴾: فالأشقياء هم الذين كفروا بالله، وكذبوا رسله وعصوا أمره، والسعداء هم المؤمنون المتقون.

(١٠٦) وأما جزاؤهم: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟﴾؛ أي: حصلت لهم الشقاوة والخزي والفضيحة ﴿فَفِى ٱلنَّارِ﴾: منغمسون في عذابها مشتد عليهم عقابها. ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾: من شدة ما هم فيه ﴿زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ١٠٦﴾: وهو أشنع الأصوات وأقبحها.

(١٠٧) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: في النار التي هذا عذابها، ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾؛ أي: خالدين فيها أبدًا إلا المدة التي شاء الله ألَّا يكونوا فيها، وذلك قبل دخولها؛ كما قاله جمهور المفسرين؛ فالاستثناء على هذا راجع إلى ما قبل دخولها؛ فهم خالدون فيها جميع الأزمان سوى الزمن الذي قبل الدخول فيها. ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧﴾: فكل ما أراد فعله واقتضته حكمته؛ فعله تبارك وتعالى، لا يرده أحد عن مراده.

(١٠٨) ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟﴾؛ أي: حصلت لهم السعادة والفلاح والفوز، ﴿فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾: ثم أكد ذلك بقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ١٠٨﴾؛ أي: ما أعطاهم الله من النعيم المقيم واللذة العالية؛ فإنه دائم مستمر غير منقطع بوقت من الأوقات. نسأل الله الكريم من فضله.

﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ١٠٩﴾.

(١٠٩) يقول الله تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: المشركون؛ أي: لا تشك في حالهم، وأن ما هم عليه باطل؛ فليس لهم دليل شرعي ولا عقلي، وإنما دليلهم وشبهتهم ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا

الجزء الثاني عشر — سورة هود

فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ
ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ١٠٩
وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ
١١٠ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ ١١١ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟
إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١١٢ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ
لَا تُنصَرُونَ ١١٣ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ
ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ
١١٤ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ١١٥ فَلَوْلَا
كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ
فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ١١٦ وَمَا كَانَ
رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ١١٧

٢٣٤

يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾، ومن المعلوم أن هذا ليس بشبهة فضلًا عن أن يكون دليلًا؛ لأن أقوال ما عدا الأنبياء يحتج لها لا يحتج بها، خصوصًا أمثال هؤلاء الضالين، الذين كثر خطؤهم وفساد أقوالهم في أصول الدين؛ فإن أقوالهم وإن اتفقوا عليها؛ فإنها خطأ وضلال. ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ١٠٩﴾؛ أي: لا بدَّ أن ينالهم نصيبهم من الدنيا مما كتب لهم، وإن كثر ذلك النصيب أو راق في عينك؛ فإنه لا يدل على صلاح حالهم؛ فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان والدين الصحيح إلا من يحب. والحاصل أنه لا يغتر باتفاق الضالين على قول الضالين من آبائهم الأقدمين، ولا على ما خولهم الله، وآتاهم من الدنيا.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ١١٠ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ١١١ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا

تَطْغَوْاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

﴿١١٠﴾ يخبر تعالى أنه آتى موسى الكتاب، الذي هو التوراة، الموجب للاتفاق على أوامره ونواهيه، والاجتماع، ولكن مع هذا؛ فإن المنتسبين إليه اختلفوا فيه اختلافًا أضر بعقائدهم وبجامعتهم الدينية. ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾: بتأخيرهم وعدم معاجلتهم بالعذاب، ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾: بإحلال العقوبة بالظالم، ولكنه تعالى اقتضت حكمته أن أخر القضاء بينهم إلى يوم القيامة، وبقوا في شك مريب. وإذا كانت هذه حالهم مع كتابهم؛ فمع القرآن الذي أوحاه الله إليك غير مستغرب من طائفة اليهود ألَّا يؤمنوا به، وأن يكونوا في شك منه مريب.

﴿١١١﴾ ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾؛ أي: لا بد أن يقضي الله بينهم يوم القيامة بحكمه العدل، فيجازي كلًّا بما يستحقه. ﴿ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾: من خير وشر، ﴿ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ ﴾: فلا يخفى عليه شيء من أعمالهم؛ دقيقها وجليلها.

﴿١١٢﴾ ثم لما أخبر بعدم استقامتهم التي أوجبت اختلافهم وافتراقهم؛ أمر نبيه محمدًا ﷺ ومن معه من المؤمنين أن يستقيموا كما أمروا، فيسلكوا ما شرعه الله من الشرائع، ويعتقدوا ما أخبر الله به من العقائد الصحيحة، ولا يزيغوا عن ذلك يمنة ولا يسرة، ويدوموا على ذلك، ولا يطغوا بأن يتجاوزوا ما حده الله لهم من الاستقامة، وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ ﴾؛ أي: لا يخفى عليه من أعمالكم شيء، وسيجازيكم عليها. ففيه ترغيب لسلوك الاستقامة وترهيب من ضدها.

﴿١١٣﴾ ولهذا حذرهم عن الميل إلى من تعدى الاستقامة، فقال: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾: فإنكم إذا ملتم إليهم ووافقتموهم على ظلمهم أو رضيتم ما هم عليه من الظلم؛ ﴿ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾: إن فعلتم ذلك. ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾: يمنعونكم من عذاب الله، ولا يحصلون لكم شيئًا من ثواب الله. ﴿ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾؛ أي: لا يدفع عنكم العذاب إذا مسكم.

ففي هذه الآية التحذير من الركون إلى كل ظالم، والمراد بالركون: الميل والانضمام إليه بظلمه وموافقته على ذلك والرضا بما هو عليه من الظلم، وإذا كان هذا الوعيد في الركون إلى الظلمة؛ فكيف حال الظلمة بأنفسهم؟! نسأل الله العافية من الظلم.

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾.

﴿١١٤﴾ يأمر تعالى بإقامة الصلاة كاملة ﴿ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ ﴾؛ أي: أوله وآخره، ويدخل في هذا صلاة الفجر وصلاتا الظهر والعصر، ﴿ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾: ويدخل في ذلك صلاة المغرب والعشاء، ويتناول ذلك قيام الليل؛ فإنها مما تزلف العبد وتقربه إلى الله تعالى. ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾؛ أي: فهذه الصلوات الخمس وما ألحق بها من التطوعات من أكبر الحسنات، وهي مع أنها حسنات تقرب إلى الله وتوجب الثواب؛ فإنها تذهب السيئات وتمحوها، والمراد بذلك الصغائر؛ كما قيدتها الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ؛ مثل قوله: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان؛ مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر**»[1]، بل كما قيدتها الآية التي في سورة النساء، وهي قوله عز وجل: ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ [النساء: ٣١]. ﴿ ذَٰلِكَ ﴾: لعل الإشارة لكل ما تقدم؛ من لزوم الاستقامة على الصراط المستقيم، وعدم مجاوزته وتعديه، وعدم الركون إلى الذين ظلموا، والأمر بإقامة الصلاة، وبيان أن الحسنات يذهبن السيئات؛ الجميع ﴿ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾: يفهمون بها ما أمرهم الله به ونهاهم، ويمتثلون لتلك الأوامر الحسنة المثمرة للخيرات الدافعة للشرور والسيئات.

﴿١١٥﴾ ولكن تلك الأمور تحتاج إلى مجاهدة النفس والصبر عليها، ولهذا قال: ﴿ وَٱصْبِرْ ﴾؛ أي: احبس نفسك على طاعة الله وعن معصيته وإلزامها لذلك واستمر ولا تضجر. ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾: بل يتقبل الله عنهم أحسن الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون.

---

(١) مسلم (٢٣٣).

وفي هـذا ترغيب عظيـم للـزوم الصبر بتشـويق النفس الضعيفة إلى ثواب الله كلما ونت وفترت.

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾.

﴿١١٦﴾ لمـا ذكـر تعالى إهلاك الأمـم المكذبة للرسـل، وأن أكثرهم منحرفون عن أهل الكتب الإلهية، وذلك كله يقضي علـى الأديـان بالذهـاب والاضمحـلال؛ ذكـر أنـه لـولا أنه جعـل في القـرون الماضية بقايا من أهـل الخير، يدعون إلى الهـدى وينهون عن الفسـاد والردى، فحصـل من نفعهم، ما بقيت بـه الأديان(١)، ولكنهم قليلون جـدًّا، وغاية الأمر أنهم نجـوا باتباعهم المرسـلين، وقيامهم بما قامـوا به من دينهم، ويكون حجـة الله أجراها على أيديهم؛ ليهلك من هلك عن بينـة ويحيا مـن حيَّ عن بينـة ولكن اتبع ﴿ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ ﴾؛ أي: اتبعـوا مـا هم فيه مـن النعيم والترف، ولـم يبغـوا بـه بـدلًا. ﴿ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾؛ أي: ظالميـن باتباعهم مـا أترفوا فيه، فلذلك حـق عليهم العقاب واستأصلهم العذاب.

وفـي هذا حث لهذه الأمـة أن يكون فيهم بقايا؛ مصلحون لمـا أفسـد النـاس، قائمون بديـن الله، يدعون مـن ضل إلى الهـدى، ويصبـرون منهـم علـى الأذى، ويبصرونهـم مـن العمـى، وهـذه الحالـة أعلـى حالـة يرغـب فيهـا الراغبون، وصاحبها يكون إمامًا في الدين؛ إذا جعل عمله خالصًا لرب العالمين.

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾.

﴿١١٧﴾ أي: ومـا كان الله ليهلك القرى بظلم منه لهم والحال أنهـم ﴿مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾؛ أي: مقيمـون علـى الصـلاح مستمرون عليه؛ فما كان الله ليهلكهم إلا إذا ظلموا، وقامت عليهم حجة الله.

ويحتمل أن المعنى: ومـا كان ربك ليهلك القرى بظلمهم السـابق إذا رجعـوا وأصلحـوا عملهم؛ فإن اللـه يعفو عنهم، ويمحو ما تقدم من ظلمهم.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾.

﴿١١٨﴾ يخبر تعالى أنه لو شـاء لجعل الناس كلهم أمة واحدة على الدين الإسلامي؛ فإن مشيئته غير قاصرة، ولا يمتنع عليه شـيء، ولكنه اقتضت حكمته ألَّا يزالون مختلفين، مخالفين للصـراط المستقيم، متبعين السـبل الموصلة إلـى النار، كل يرى الحق فيما قاله والضلال في قول غيره.

﴿١١٩﴾ ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾: فهداهـم إلـى العلم بالحق والعمـل بـه والاتفـاق عليـه؛ فهـؤلاء سـبقت لهـم سـابقة السـعادة وتداركتهم العناية الربانيـة والتوفيق الإلهي، وأما من عداهم؛ فهم مخذولون موكولون إلى أنفسـهم. وقوله: ﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾؛ أي: اقتضـت حكمتـه أنـه خلقهـم ليكون منهم السـعداء والأشـقياء والمتفقـون والمختلفون والفريـق الـذي هـدى اللـه والفريـق الـذي حقـت عليهم الضلالـة؛ ليتبيـن للعبـاد عدله وحكمتـه، وليُظْهِر مـا كَمِنَ في الطباع البشـرية من الخير والشـر، ولتقوم سوق الجهاد والعبادات التي لا تتم ولا تستقيم إلا بالامتحان والابتلاء، ولأنـه تمت ﴿ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾: فلا بد أن ييسـر للنار أهلًا يعملون بأعمالها الموصلة إليها.

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

﴿١٢٠﴾ لمـا ذكر في هذه السـورة مـن أخبار الأنبيـاء ما ذكر؛ ذكر الحكمة في ذكر ذلك، فقال: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾؛ أي: قلبـك؛ ليطمئـن، ويثبت، ويصبـر كما صبر أولو العزم من الرسـل؛ فـإن النفوس تأنس بالاقتـداء وتنشـط على الأعمـال، وتريـد المنافسـة لغيرها،

---

(١) علـق في هامش النسـخة ع: «والمعروف في تفسيرها غير هذا المعنـى الـذي ذكر هنـا، وهو أن هـذا بمعنى النفي، أي أنه لم يكن في القرون السالفة أولو بقية... إلخ. إلا قليلًا، ممن أبقيت منهـم، أي: يكن بقي قليل بهـذه الصفة، وهو قريب من المعنى الذي ذكر، فأما ما ذكرنا في الأصل أنسب».

وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ
﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ
لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ
عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ
ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ
﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ
فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

سُورَةُ يُوسُفَ ١٢ — آياتها ١١١

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا
لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ
بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ
لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ
أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾

ويتأيد الحق بذكر شواهده وكثرة من قام به. ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ﴾: السورة ﴿ٱلْحَقُّ﴾: اليقين فلا شك فيه بوجه من الوجوه؛ فالعلم بذلك من العلم بالحق الذي هو أكبر فضائل النفوس. ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾؛ أي: يتعظون به فيرتدعون عن الأمور المكروهة ويتذكرون الأمور المحبوبة لله فيفعلونها.

﴿١٢١﴾ وأما من ليس من أهل الإيمان؛ فلا تنفعهم المواعظ وأنواع التذكير، ولهذا قال: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: بعدما قامت عليهم الآيات: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾؛ أي: حالتكم التي أنتم عليها، ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾﴾: على ما كنا عليه.

﴿١٢٢﴾ ﴿وَٱنتَظِرُوٓا۟﴾: ما يحل بنا، ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾: ما يحل بكم.

﴿١٢٣﴾ وقد فصل الله بين الفريقين، وأرى عباده نصره لعباده المؤمنين، وقمعه لأعداء الله المكذبين. ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: ما غاب فيهما من الخفايا والأمور الغيبية، ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾: من الأعمال والعمال، فيميز الخبيث من الطيب، ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾؛ أي: قم بعبادته، وهي جميع ما أمر الله به مما تقدر عليه. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٨١]: في ذلك.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾: من الخير والشر، بل قد أحاط علمه بذلك، وجرى به قلمه، وسيجري عليه حكمه وجزاؤه.

تم تفسير سورة هود.

والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على محمد وسلم. وكان الفراغ من نسخه في يوم السبت في ٢١ من شهر ربيع الآخر سنة ١٣٤٧.

تفسير سورة يوسف عليه السلام

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾.

۝١ يخبر تعالى أن آيات القرآن هي ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١﴾؛ أي: البين الواضحة ألفاظه ومعانيه.

۝٢ ومن بيانه وإيضاحه أنه أنزله باللسان العربي، أشرف الألسنة وأبينها، المبين لكل ما يحتاجه الناس من الحقائق النافعة[1]، وكل هذا الإيضاح والتبيين ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾؛ أي: لتعقلوا حدوده وأصوله وفروعه وأوامره ونواهيه؛ فإذا عقلتم ذلك بإيقانكم، واتصفت قلوبكم بمعرفتها؛ أثمر[2] ذلك عمل الجوارح والانقياد إليه، و﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾؛ أي: تزداد عقولكم بتكرر المعاني الشريفة العالية على أذهانكم، فتنتقلون من حال إلى أحوال أعلى منها وأكمل.

۝٣ ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾؛ وذلك لصدقها وسلاسة عبارتها ورونق معانيها، ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾؛ أي: بما اشتمل عليه هذا القرآن الذي أوحيناه إليك وفضلناك به على سائر الأنبياء، وذاك محض منة من الله وإحسان. ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾؛ أي: ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان قبل أن يوحي الله إليك، ولكن جعلناه نورًا نهدي به من نشاء من عبادنا.

ولما مدح ما اشتمل عليه هذا القرآن من القصص وأنها أحسن القصص على الإطلاق؛ فلا يوجد من القصص في شيء من الكتب مثل هذا القرآن؛ ذكر قصة يوسف وأبيه وإخوته، القصة العجيبة الحسنة فقال:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾.

واعلم أن الله ذكر أنه يقص على رسوله أحسن القصص في هذا الكتاب، ثم ذكر هذه القصة، وبسطها وذكر ما جرى فيها، فعلم بذلك أنها قصة تامة كاملة حسنة؛ فمن أراد أن يكملها أو يحسنها بما يذكر في الإسرائيليات التي لا يعرف لها سند ولا ناقل، وأغلبها كذب؛ فهو مستدرك على الله، ومكمل لشيء يزعم أنه ناقص، وحسبك بأمر ينتهي إلى هذا الحد قبحًا؛ فإن تضاعيف هذه السورة قد ملئت في كثير من التفاسير من الأكاذيب والأمور الشنيعة المناقضة لما قصه الله تعالى بشيء كثير؛ فعلى العبد أن يفهم عن الله ما قصه، ويدع ما سوى ذلك مما ليس عن النبي ﷺ ينقل.

۝٤ فقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام، ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ۝٤﴾: فكانت هذه الرؤيا مقدمة لما وصل إليه يوسف عليه السلام من الارتفاع في الدنيا والآخرة، وهكذا إذا أراد الله أمرًا من الأمور العظام؛ قدم بين يديه مقدمة توطئة له وتسهيلًا لأمره، واستعدادًا لما يرد على العبد من المشاق، ولطفًا بعبده وإحسانًا إليه فأوَّلها يعقوب بأن الشمس أمه والقمر أبوه والكواكب إخوته، وأنه ستنتقل به الأحوال إلى أن يصير إلى حال يخضعون له ويسجدون له إكرامًا وإعظامًا، وأن ذلك لا يكون إلا بأسباب تتقدمه من اجتباء الله له واصطفائه له وإتمام نعمته عليه بالعلم والعمل والتمكين في الأرض، وأن هذه النعمة ستشمل آل يعقوب الذين سجدوا له، وصاروا تبعًا له فيها.

---

(١) عبارة: «المبين لكل ما يحتاجه الناس من الحقائق النافعة» ساقطة من ع.

(٢) ع: «أثر».

قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ
إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ
رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ
وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ
إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ
ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ
أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟
يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ
بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ
وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ
فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ
لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ
لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ
أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ
أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾

(٥)، (٦) ولهذا قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾؛ أي: يصطفيك ويختارك بما منَّ به عليك من الأوصاف الجليلة والمناقب الجميلة، ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾؛ أي: من تعبير الرؤيا وبيان ما تئول إليه الأحاديث الصادقة كالكتب السماوية ونحوها، ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾: في الدنيا والآخرة؛ بأن يؤتيك في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾: حيث أنعم الله عليهما بنعم عظيمة واسعة دينية ودنيوية. ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦)﴾؛ أي: علمه محيط بالأشياء وبما احتوت عليه ضمائر العباد من البر وغيره، فيعطي كلًّا ما تقتضيه حكمته وحمده؛ فإنه حكيم يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها.

ولما تم تعبيرها ليوسف؛ قال له أبوه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾؛ أي: حسدًا من عند أنفسهم؛ بأن تكون أنت الرئيس الشريف عليهم. ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥)﴾: لا يفتر عنه ليلًا ولا نهارًا ولا سرًّا ولا جهارًا؛ فالبعد عن الأسباب التي يتسلط بها على العبد أولى. فامتثل يوسف أمر أبيه، ولم يخبر إخوته بذلك، بل كتمها عنهم.

﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ (٧) إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٨) ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ (٩)﴾.

(٧) يقول تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ﴾؛ أي: عبر وأدلة على كثير من المطالب الحسنة، ﴿لِّلسَّآئِلِينَ (٧)﴾؛ أي: لكل من سأل عنها بلسان الحال أو بلسان المقال؛ فإن السائلين هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر، وأما المعرضون؛ فلا ينتفعون بالآيات ولا بالقصص[1] والبينات.

(٨) ﴿إِذْ قَالُوا۟﴾: فيما بينهم: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾: بنيامين؛ أي: شقيقه، وإلا فكلهم إخوة، ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾؛ أي: جماعة، فكيف يفضلهما[2] بالمحبة والشفقة. ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٨)﴾؛ أي: لفي خطأ بين حيث فضلهما علينا من غير موجب نراه، ولا أمر نشاهده.

(٩) ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾؛ أي: غيبوه عن أبيه في أرض بعيدة لا يتمكن من رؤيته فيها؛ فإنكم إذا فعلتم أحد هذين الأمرين؛ ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾؛ أي: يتفرغ لكم، ويقبل عليكم بالشفقة والمحبة؛ فإنه قد اشتغل قلبه بيوسف شغلًا لا يتفرغ لكم. ﴿وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾؛ أي: من بعد هذا الصنيع قومًا صالحين؛ أي: تتوبون إلى الله وتستغفرونه من بعد ذنبكم، فقدموا العزم على التوبة قبل صدور الذنب منهم؛ تسهيلًا لفعله، وإزالة لشناعته، وتنشيطًا من بعضهم لبعض.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ (١٠)﴾.

(١٠) أي: ﴿قَالَ قَآئِلٌ﴾: من إخوة يوسف الذين أرادوا قتله أو تبعيده: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾: فإن قتله أعظم إثمًا وأشنع، والمقصود يحصل بتبعيده عن أبيه من غير قتل، ولكن توصلوا إلى تبعيده بأن تلقوه ﴿فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾:

(١) ع: «في القصص».
(٢) زاد في ع، ط: «علينا».

وتتوعدوه على أنه لا يخبر بشأنكم، بل على أنه عبد مملوك آبق منكم لأجل أن يلتقطه ﴿بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾: الذين يريدون مكانًا بعيدًا فيحتفظون فيه، وهذا القائل أحسنهم رأيًا في يوسف وأبرهم وأتقاهم في هذه القضية؛ فإن بعض الشر أهون من بعض، والضرر الخفيف يدفع به الضرر الثقيل. فلما اتفقوا على هذا الرأي:

﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿١١﴾ أي: قال إخوة يوسف متوصلين إلى مقصدهم لأبيهم: ﴿يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾﴾؛ أي: لأي شيء يدخلك الخوف منا على يوسف من غير سبب ولا موجب، والحال: أنا ﴿لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾﴾؛ أي: مشفقون عليه نود له ما نود لأنفسنا.

وهذا يدل على أن يعقوب عليه السلام لا يترك يوسف يذهب مع إخوته للبرية ونحوها.

﴿١٢﴾ فلما نفوا عن أنفسهم التهمة المانعة لعدم إرساله معهم؛ ذكروا له من مصلحة يوسف وأنسه الذي يحبه أبوه له ما يقتضي أن يسمح بإرساله معهم، فقالوا: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾؛ أي: يتنزه في البرية ويستأنس، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾؛ أي: سنراعيه، ونحفظه من كل أذى يريده.

﴿١٣﴾ فأجابهم بقوله: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾؛ أي: مجرد ذهابكم به يحزنني ويشق عليّ؛ لأنني لا أقدر على فراقه، ولو مدة يسيرة؛ فهذا مانع من إرساله.

ومانع ثان، وهو أني أخاف ﴿أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: في حال غفلتكم عنه؛ لأنه صغير لا يمتنع من الذئب.

﴿١٤﴾ ﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾؛ أي: جماعة حريصون على حفظه؛ ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾؛ أي: لا خير فينا ولا نفع يرجى منا إن أكله الذئب وغلبنا عليه.

الجزء الثاني عشر — سورة يوسف

فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّـٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

٢٣٧

فلما مهدوا لأبيهم الأسباب الداعية لإرساله وعدم الموانع؛ سمح حينئذ بإرساله معهم لأجل أنسه.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٥﴾ أي: لما ذهب إخوة يوسف بيوسف بعدما أذن له أبوه، وعزموا أن يجعلوه في غيابة الجب كما قال قائلهم السابق ذكره، وكانوا قادرين على ما أجمعوا عليه، فنفذوا فيه قدرتهم، وألقوه في الجب، ثم إن الله لطف به بأن أوحى إليه وهو بتلك الحال الحرجة: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾؛ أي: سيكون منك معاتبة لهم، وإخبار عن

أمرهم هذا، وهم لا يشعرون بذلك الأمر. ففيه بشارة له بأنه سينجو مما وقع فيه، وأن الله سيجمعه بأهله وإخوته على وجه العز والتمكين له في الأرض.

(١٦) ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ ﴾: ليكون إتيانهم متأخرًا عن عادتهم، وبكاؤهم دليلًا لهم وقرينة على صدقهم.

(١٧) فقالوا معتذرين بعذر كاذب: ﴿ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾: إما على الأقدام أو بالرمي والنضال، ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا ﴾: توفيرًا له وراحة، ﴿ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾: في حال غيابنا عنه واستباقنا. ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾؛ أي: اعتذرنا بهذا العذر، والظاهر أنك لا تصدقنا؛ لما في قلبك من الحزن على يوسف والرقة الشديدة عليه، ولكن عدم تصديقك إيانا لا يمنعنا أن نعتذر بالعذر الحقيقي. وكل هذا تأكيد لعذرهم.

(١٨) ومما أكدوا به قولهم أنهم جاءوا: ﴿ عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾: زعموا أنه دم يوسف حين أكله الذئب، فلم يصدقهم أبوهم بذلك، و﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾؛ أي: زينت لكم أنفسكم أمرًا قبيحًا في التفريق بيني وبينه؛ لأنه رأى من القرائن والأحوال ومن رؤيا يوسف التي قصها عليه ما دله على ما قال. ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾؛ أي: أما أنا؛ فوظيفتي سأحرص على القيام بها، وهي أني أصبر على هذه المحنة صبرًا جميلًا سالمًا من السخط والتشكي إلى الخلق، وأستعين الله على ذلك لا على حولي وقوتي، فوعد من نفسه هذا الأمر، وشكا إلى خالقه في قوله: ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [يوسف: ٨٦]: لأن الشكوى إلى الخالق لا تنافي الصبر الجميل؛ لأن النبي إذا وعد وفى.

﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

(١٩) أي: مكث يوسف في الجب ما مكث، حتى جاءت ﴿ سَيَّارَةٌ ﴾؛ أي: قافلة تريد مصر، ﴿ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ ﴾؛ أي: فرطهم ومقدمهم الذي يعس لهم المياه ويسبرها ويستعد لهم بتهيئة الحياض ونحو ذلك، ﴿ فَأَدْلَىٰ ﴾: ذلك الوارد ﴿ دَلْوَهُۥ ﴾: فتعلق فيه يوسف عليه السلام وخرج، ﴿ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ﴾؛ أي: استبشر وقال: هذا غلام نفيس، ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ﴾.

(٢٠) وكان إخوته قريبًا منه، فاشتراه السيارة منهم ﴿ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ ﴾؛ أي: قليل جدًّا، فسره بقوله: ﴿ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾: لأنه لم يكن لهم قصد إلا تغييبه وإبعاده عن أبيه، ولم يكن لهم قصد في أخذ ثمنه. والمعنى في هذا أن السيارة لما وجدوه؛ عزموا أن يسروا أمره، ويجعلوه من جملة بضائعهم التي معهم، حتى جاءهم إخوته، فزعموا أنه عبد أبق منهم، فاشتروه منهم بذلك الثمن، واستوثقوا منهم فيه لئلا يهرب. والله أعلم.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

(٢١) أي: لما ذهب به السيارة إلى مصر وباعوه بها، فاشتراه عزيز مصر، فلما اشتراه؛ أعجب به ووصى عليه امرأته وقال: ﴿ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾؛ أي: إما أن ينفعنا كنفع العبيد بأنواع الخدم، وإما أن نستمتع فيه استمتاعنا بأولادنا، ولعل ذلك أنه لم يكن لهما ولد. ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي: كما يسرنا له أن يشتريه عزيز مصر ويكرمه هذا الإكرام؛ جعلنا هذا مقدمة لتمكينه في الأرض من هذا الطريق. ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾: إذا بقي لا شغل له ولا هم له سوى العلم؛ صار ذلك من أسباب تعلمه علمًا كثيرًا من علم الأحكام وعلم التعبير وغير ذلك. ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾؛ أي: أمره تعالى نافذ لا يبطله مبطل ولا يغلبه مغالب. ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾: فلذلك يجري منهم، ويصدر ما يصدر في مغالبة أحكام الله القدرية، وهم أعجز وأضعف من ذلك.

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

(٢٢) أي: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ ﴾ يوسف ﴿ أَشُدَّهُۥٓ ﴾؛ أي: كمال قوته المعنوية والحسية وصلح لأن يتحمل الأحمال الثقيلة من النبوة والرسالة؛ ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾؛ أي: جعلناه

نبيًّا رسـولًا وعالمًا ربانيًّا. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾: في عبادة الخالق ببذل الجهد والنصح فيها، وإلى عباد الله ببذل النفع والإحسان إليهم؛ نؤتيهم من جملة الجزاء على إحسانهم علمًا نافعًا. ودل هذا على أن يوسف وفَّى مقام الإحسان، فأعطاه الله الحكم بين الناس والعلم الكثير والنبوة.

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

هذه المحنة العظيمة أعظم على يوسف من محنة إخوته وصبره عليها، أعظم أجرًا لأنه صبر اختيار مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوع الفعل، فقدم محبة الله عليها، وأما محنته بإخوته؛ فصبره صبر اضطرار؛ بمنزلة الأمراض والمكاره التي تصيب العبد بغير اختياره، وليس له ملجأ إلا الصبر عليها طائعًا أو كارهًا.

﴿٢٣﴾، ﴿٢٤﴾ وذلك أن يوسف عليه الصلاة والسلام بقي مكرَّمًا في بيت العزيز، وكان له من الجمال والكمال والبهاء ما أوجب ذلك أن راودته ﴿الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ﴾؛ أي: هو غلامها وتحت تدبيرها والمسكن واحد يتيسر إيقاع الأمر المكروه من غير شعور[1] أحد ولا إحساس بشر. وزادت المصيبة بأن غلقت ﴿الْأَبْوَابَ﴾: وصار المحل خاليًا، وهما آمنان من دخول أحد عليهما بسبب تغليق الأبواب. وقد دعته إلى نفسها، فقالت: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾؛

(١) ع: «إشعار».

الجزء الثاني عشر — سورة يوسف

وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ
وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ
إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا
لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ
وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَاسْتَبَقَا
الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ۚ
قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ
أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ
الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ
مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ
مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ
هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ
﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا
عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾

٢٣٨

أي: افعل الأمر المكروه وأقبل إليّ! ومع هذا؛ فهو غريب لا يحتشم مثله ما يحتشمه إذا كان في وطنه وبين معارفه، وهو أسير تحت يدها، وهي سيدته، وفيها من الجمال ما يدعو إلى ما هنالك، وهو شاب عزب، وقد توعدته إن لم يفعل ما تأمره به بالسجن أو العذاب الأليم، فصبر عن معصية الله مع وجود الداعي القوي فيه؛ لأنه قد هم فيها هما تركه لله، وقدم مراد الله على مراد النفس الأمارة بالسوء، ورأى من برهان ربه - وهو ما معه من العلم والإيمان الموجب لترك كل ما حرم الله - ما أوجب له البعد والانكفاف عن هذه المعصية الكبيرة، و﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾؛ أي: أعوذ بالله أن أفعل هذا الفعل القبيح؛ لأنه مما يسخط الله ويبعد عنه، ولأنه خيانة في حق سيدي الذي أكرم مثواي؛ فلا يليق بي أن أقابله في أهله بأقبح مقابلة، وهذا من أعظم الظلم، والظالم لا يفلح.

والحاصل أنه جعل الموانع له من هذا الفعل: تقوى الله، ومراعاة حق سيده الذي أكرمه، وصيانة نفسه عن الظلم الذي

لا يفلح من تعاطاه، وكذلك ما من الله عليه من برهان الإيمان الـذي في قلبه يقتضي منه امتثال الأوامر واجتناب الزواجر، والجامع لذلك كله أن الله صرف عنه السوء والفحشاء؛ لأنه من عباده المخلصين له في عباداتهم، الذين أخلصهم الله واختارهم واختصهم لنفسه، وأسدى عليهم من النعم، وصرف عنهم من المكاره ما كانوا به من خيار خلقه.

(٢٥) ولما امتنع من إجابة طلبها بعد المراودة الشديدة؛ ذهب ليهرب منها ويبادر إلى الخروج من الباب ليتخلص ويهرب من الفتنة، فبادرت[1] إليه وتعلقت بثوبه، فشقت قميصه، فلما وصلا إلى الباب في تلك الحال؛ ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾ - أي: زوجها - ﴿لَدَا ٱلْبَابِ﴾، فرأى أمرًا شق عليه، فبادرت إلى الكذب، وادعت أن المراودة قد كانت من يوسف، وقالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾: ولم تقل: من فعل بأهلك سوءًا؛ تبرئة لها وتبرئة له أيضًا من الفعل، وإنما النزاع عند الإرادة والمراودة، ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥)﴾؛ أي: أو يعذب عذابًا أليمًا.

(٢٦) فبرأ نفسه مما رمته به، و﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾: فحينئذ احتملت الحال صدق كل واحد منهما، ولم يعلم أيهما، ولكن الله تعالى جعل للحق والصدق علامات وأمارات تدل عليه، قد يعلمها العباد وقد لا يعلمونها؛ فمن الله في هذه القضية بمعرفة الصادق منهما تبرئة لنبيه وصفيه يوسف عليه السلام، فانبعث شاهد من أهل بيتها يشهد بقرينة من وجدت معه فهو الصادق، فقال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٢٦)﴾؛ لأن ذلك يدل على أنه هو المقبل عليها المراود لها المعالج، وأنها أرادت أن تدفعه عنها، فشقت قميصه من هذا الجانب.

(٢٧) ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٢٧)﴾: لأن ذلك يدل على هروبه منها؛ وأنها هي التي طلبته، فشقت قميصه من هذا الجانب.

(٢٨) ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾: عرف بذلك صدق يوسف وبراءته وأنها هي الكاذبة، فقال لها سيدها: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨)﴾: وهل أعظم من هذا الكيد الـذي برأت به نفسها مما أرادت وفعلت ورمت به نبي الله يوسف عليه السلام؟!

(١) ع، ط: «فبادرته».

(٢٩) ثم إن سيدها لما تحقق الأمر؛ قال ليوسف: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾؛ أي: اترك الكلام فيه وتناسه ولا تذكره لأحد طلبًا للستر على أهله. ﴿وَٱسْتَغْفِرِى﴾: أيتها المرأة، ﴿لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ (٢٩)﴾: فأمر يوسف بالإعراض، وأمرها بالاستغفار والتوبة.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ (٣٣) فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٣٤) ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥)﴾.

(٣٠) يعني: أن الخبر اشتهر وشاع في البلد، وتحدث به النسوة، فجعلن يلمنها ويقلن: ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾؛ أي: هذا أمر مستقبح! هي امرأة كبيرة القدر وزوجها كبير القدر ومع هذا لم تزل تراود فتاها الذي تحت يدها وفي خدمتها عن نفسه، ومع هذا؛ فإن حبه قد بلغ من قلبها مبلغًا عظيمًا. ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾؛ أي: وصل حبه إلى شغاف قلبها، وهو باطنه وسويداؤه، وهذا أعظم ما يكون من الحب. ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٣٠)﴾: حيث وجدت منها هذه الحالة التي لا ينبغي منها، وهي حالة تحط قدرها وتضعه عند الناس.

(٣١) وكان هذا القول منهن مكرًا ليس المقصود به مجرد اللوم لها والقدح فيها، وإنما أردن أن يتوصلن بهذا الكلام إلى رؤية يوسف الذي فتنت به امرأة العزيز لتحنق امرأة العزيز وتريهن إياه ليعذرنها، ولهذا سماه مكرًا، فقال: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾: تدعوهن إلى منزلها للضيافة، ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾؛ أي: محلًا مهيئًا بأنواع الفرش والوسائد وما يقصد بذلك من المآكل اللذيذة، وكان في جملة ما أتت به وأحضرته في تلك الضيافة طعام يحتاج إلى

سكين: إما أُترُجٌّ أو غيره. ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾: ليقطِّعن فيها ذلك الطعام، ﴿وَقَالَتِ﴾ ليوسف: ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾: في حالة جماله وبهائه، ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾؛ أي: أعظمنه في صدورهن ورأين منظرًا فائقًا لم يشاهدن مثله؛ ﴿وَقَطَّعْنَ﴾: من الدهش ﴿أَيْدِيَهُنَّ﴾: بتلك السكاكين اللاتي معهن، ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾؛ أي: تنزيهًا لله، ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾: وذلك أن يوسف أعطي من الجمال الفائق والنور والبهاء ما كان به آية للناظرين وعبرة للمتأملين.

﴿٣٢﴾ فلما تقرر عندهن جمال يوسف الظاهر، وأعجبهن غاية الإعجاب، وظهر منهن من العذر لامرأة العزيز شيء كثير؛ أرادت أن تريهن جماله الباطن بالعفة التامة، فقالت معلنة لذلك ومبينة لحبه الشديد غير مبالية، ولأن اللوم انقطع عنها من النسوة: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾؛ أي: امتنع، وهي مقيمة على مراودته، لم تزدها مرور الأوقات إلا محبة وشوقًا وقلقًا لوصاله وتوقًا، ولهذا قالت له بحضرتهن: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾: لتلجئه بهذا الوعيد إلى حصول مقصودها منه.

﴿٣٣﴾ فعند ذلك اعتصم يوسف بربه، واستعان به على كيدهن و﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾: وهذا يدل على أن النسوة جعلن يشرن على يوسف في مطاوعة سيدته، وجعلن يَكِدْنَه في ذلك، فاستحب السجن والعذاب الدنيوي على لذة حاضرة توجب العذاب الشديد. ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾؛ أي: أمل إليهن؛ فإني ضعيف عاجز إن لم تدفع عني السوء[1]؛ صبوت إليهن، ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾: فإن هذا جهل؛ لأنه آثر لذة قليلة منغصة على لذات متتابعات وشهوات متنوعات في جنات النعيم، ومن آثر هذا على هذا؛ فمن أجهل منه؟! فإن العلم والعقل يدعو إلى تقديم أعظم المصلحتين وأعظم اللذتين، ويؤثر ما كان محمود العاقبة.

﴿٣٤﴾ ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾: حين دعاه، ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾: فلم تزل تراوده وتستعين عليه بما تقدر عليه من الوسائل، حتى أيَّسها، وصرف الله عنه كيدها. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾: لدعاء الداعي، ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾: بنيته الصالحة

الجزء الثاني عشر — سورة يوسف

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ
كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ
وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ
كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن
نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا
مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ
إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ
﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ
حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ
إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ
رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا
بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ
مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾

٢٣٩

وبُنيته الضعيفة المقتضية لإمداده بمعونته ولطفه، فهذا ما نجى الله به يوسف من هذه الفتنة الملمة والمحنة الشديدة.

﴿٣٥﴾ وأما أسياده؛ فإنه لما اشتهر الخبر وبان وصار الناس فيها بين عاذر ولائم وقادح، ﴿بَدَا لَهُم﴾؛ أي: ظهر لهم ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾: الدالة على براءته، ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾؛ أي: لينقطع بذلك الخبر ويتناساه الناس؛ فإن الشيء إذا شاع؛ لم يزل يذكر، ويشاع مع وجود أسبابه؛ فإذا عدمت أسبابه؛ نسي، فرأوا أن هذا مصلحة لهم، فأدخلوه في السجن.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ

(١) زاد في ع: «وأكون إن».

وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ
لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى
ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ
ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ
﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ
وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ
أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ
ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا
فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًاۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ
مِن رَّأْسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي
ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ
ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ
﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ
سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍۖ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾

إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ
ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ
أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً
سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ
ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿٣٦﴾ أي: ولما دخل يوسف السجن؛ كان في جملة من دخل ﴿مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾؛ أي: شابان، فرأى كل واحد منهما رؤيا، فقصها على يوسف ليعبرها، ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا﴾: وذلك الخبز ﴿تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾؛ أي: بتفسيره وما يئول إليه أمره[1]. وقولهما: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾؛ أي: من أهل الإحسان إلى الخلق؛ فأحسن إلينا في تعبيرك لرؤيانا كما أحسنت إلى غيرنا، فتوسلا ليوسف بإحسانه.

﴿٣٧﴾ ﴿قَالَ﴾ لهما مجيبًا لطلبهما: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾؛ أي: فلتطمئن قلوبكما فإني سأبادر إلى تعبير رؤياكما، فلا يأتيكما غداؤكما أو عشاؤكما أول ما يجيء إليكما؛ إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما، ولعل يوسف عليه الصلاة والسلام قصد أن يدعوهما إلى الإيمان في هذه الحال التي بدت حاجتهما إليه؛ ليكون أنجع لدعوته وأقبل لهما. ثم قال: ﴿ذَٰلِكُمَا﴾: التعبير الذي سأعبره لكما، ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾؛ أي: هذا من علم الله علمنيه وأحسن إليّ به. وذلك ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾: والترك كما يكون للداخل في شيء ثم ينتقل عنه يكون لمن لم يدخل فيه أصلًا؛ فلا يقال: إن يوسف كان من قبل على غير ملة إبراهيم.

﴿٣٨﴾ ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾: ثم فسر تلك الملة بقوله: ﴿مَا كَانَ لَنَآ[2] أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾: بل نفرد الله بالتوحيد ونخلص له الدين والعبادة. ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: هذا من أفضل مننه وإحسانه وفضله علينا وعلى من هداه الله كما هدانا؛ فإنه لا أفضل من منة الله على العباد بالإسلام والدين القويم؛ فمن قبله وانقاد له؛ فهو حظه، وقد حصل له أكبر النعم وأجل الفضائل. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾: فلذلك تأتيهم المنة والإحسان فلا يقبلونها ولا يقومون لله بحقه. وفي هذا من الترغيب للطريق التي هو عليها ما لا يخفى؛ فإن الفتيين لما تقرر عنده أنهما رأياه بعين التعظيم والإجلال وأنه محسن معلم؛ ذكر لهما أن هذه الحالة التي أنا عليها كلها من فضل الله وإحسانه، حيث منَّ عليّ بترك الشرك وباتباع ملة آبائي؛ فبهذا وصلت إلى ما رأيتما، فينبغي لكما أن تسلكا ما سلكت.

﴿٣٩﴾ ثم صرح لهما بالدعوة فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾؛ أي: أأرباب عاجزة ضعيفة لا تنفع ولا تضر ولا تعطي ولا تمنع وهي متفرقة ما بين أشجار وأحجار وملائكة وأموات وغير

(١) ع، ط: «أمرهما».

(٢) زاد في ع: «أي: ما ينبغي ولا يليق».

ذلك من أنواع المعبودات التي يتخذها المشركون، أذلك[1] خير أم الله الذي له صفات الكمال الواحد في ذاته وصفاته وأفعاله؟ فلا شريك له في شيء من ذلك، القهار الذي انقادت الأشياء لقهره وسلطانه؛ فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها.

(٤٠) ومن المعلوم أن مَن هذا شأنه ووصفه خير من الآلهة المتفرقة التي هي مجرد أسماء لا كمال لها ولا فعال لديها، ولهذا قال: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم ﴾؛ أي: كسوتموها أسماء سميتموها آلهة، وهي لا شيء، ولا فيها من صفات الألوهية شيء. ﴿ مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾: بل أنزل الله السلطان بالنهي عن عبادتها وبيان بطلانها، وإذا لم ينزل الله بها سلطانًا؛ لم يكن طريق ولا وسيلة ولا دليل لها. ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾: وحده؛ فهو الذي يأمر وينهى ويشرع الشرائع ويسن الأحكام، وهو الذي ﴿ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾؛ أي: المستقيم الموصل إلى كل خير، وما سواه من الأديان؛ فإنها غير مستقيمة، بل معوجة توصل إلى كل شر. ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠) ﴾: حقائق الأشياء، وإلا؛ فإن الفرق بين عبادة الله وحده لا شريك له وبين الشرك به أظهر الأشياء وأبينها، ولكن لعدم العلم من أكثر الناس بذلك حصل منهم ما حصل من الشرك. فيوسف عليه السلام دعا صاحبي السجن لعبادة الله وحده وإخلاص الدين له، فيحتمل أنهما استجابا وانقادا فتمت عليهما النعمة، ويحتمل أنهما لم يزالا على شركهما، فقامت عليهما بذلك الحجة.

(٤١) ثم إنه عليه السلام شرع يعبر رؤياهما بعدما وعدهما ذلك، فقال: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا ﴾: وهو الذي رأى أنه يعصر خمرًا؛ فإنه يخرج من السجن، ﴿ فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ﴾؛ أي: يسقي سيده الذي كان يخدمه خمرًا، وذلك مستلزم لخروجه من السجن. ﴿ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ ﴾: وهو الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزًا تأكل الطير منه، ﴿ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ﴾: فإنه عبر عن الخبز الذي تأكله الطير بلحم رأسه وشحمه وما فيه من المخ، وأنه لا يقبر ويستر عن الطيور، بل يصلب ويجعل في محل تتمكن الطيور من أكله، ثم أخبرهما بأن هذا التأويل الذي تأوله لهما أنه لا بد من وقوعه، فقال: ﴿ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) ﴾؛ أي: تسألان عن تعبيره وتفسيره.

(١) ع: «أتلك».

﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢) ﴾.

(٤٢) أي: ﴿ وَقَالَ ﴾ يوسف عليه السلام ﴿ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ﴾: وهو الذي رأى أنه يعصر خمرًا: ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾؛ أي: اذكر له شأني وقصتي لعله يرق لي فيخرجني مما أنا فيه، ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ ﴾؛ أي: فأنسى الشيطان ذلك الناجي ذكر الله تعالى وذكر ما يقرب إليه، ومن جملة ذلك نسيانه ذكر يوسف الذي يستحق أن يجازى بأتم الإحسان، وذلك ليتم الله أمره وقضاءه. ﴿ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢) ﴾: والبضع من الثلاث إلى التسع، ولهذا قيل: إنه لبث سبع سنين.

ولما أراد الله أن يتم أمره ويأذن بإخراج يوسف من السجن؛ قدر لذلك سببًا[2] لإخراج يوسف وارتفاع شأنه وإعلاء قدره وهو رؤيا الملك.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ (٤٤) وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩) ﴾.

لما أراد الله تعالى أن يخرج يوسف من السجن؛ أرى الله الملك هذه الرؤيا العجيبة التي تأويلها يتناول جميع الأمة؛ ليكون تأويلها على يد يوسف، فيظهر من فضله ويبين من علمه ما يكون له رفعة في الدارين. ومن التقادير المناسبة أن الملك الذي ترجع إليه أمور الرعية هو الذي رآها؛ لارتباط

(٢) زاد في ع: «كان سببًا».

الجزء الثاني عشر — سورة يوسف

قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾
وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ
فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ
سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ
وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ
تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا
قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ
مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ
عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي
بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ
ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾ قَالَ
مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ
مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ
ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ
لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾

٢٤١

مصالحها به، وذلك أنه رأى رؤيا هالته، فجمع[1] علماء قومه وذوي الرأي منهم وقال:

﴿٤٣﴾ ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ﴾؛ أي: سبع من البقرات ﴿عِجَافٞ﴾: وهذا من العجب أن السبع العجاف الهزيلات اللاتي سقطت قوتهن يأكلن السبع السمان التي كن نهاية في القوة. ورأيت ﴿وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ﴾ أي: يأكلهن سبع سنبلات أخر ﴿يَابِسَٰتٖ﴾؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ﴾: لأن تعبير الجميع واحد وتأويلهن شيء واحد، ﴿إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿٤٤﴾ فتحيروا ولم يعرفوا لها وجهًا؛ وقالوا ﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖ﴾؛ أي: أحلام لا حاصل لها ولا لها تأويل. وهذا جزم منهم بما لا يعلمون وتعذر منهم بما ليس بعذر. ثم قالوا: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾؛ أي: لا نعبر إلا الرؤيا وأما الأحلام التي هي من الشيطان أو من حديث النفس فإنا لا نعبرها. فجمعوا بين الجهل والجزم بأنها أضغاث أحلام والإعجاب بالنفس بحيث إنهم لم يقولوا: لا نعلم تأويلها! وهذا من الأمور التي لا تنبغي لأهل الدين والحجا. وهذا أيضًا من لطف الله بيوسف عليه السلام؛ فإنه لو عبرها ابتداء قبل أن يعرضها على الملأ من قومه وعلمائهم فيعجزوا عنها؛ لم يكن لها ذلك الموقع، ولكن لما عرضها عليهم، فعجزوا عن الجواب، وكان الملك مهتمًّا لها غاية، فعبرها يوسف؛ وقعت عندهم موقعًا عظيمًا.

وهذا نظير إظهار الله فضل آدم على الملائكة بالعلم بعد أن سألهم فلم يعلموا، ثم سأل آدم فعلمهم أسماء كل شيء، فحصل بذلك زيادة فضله. وكما يُظهر فضل أفضل خلقه محمد ﷺ في القيامة أن يلهم الله الخلق أن يتشفعوا بآدم ثم بنوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى عليهم السلام، فيعتذرون عنها، ثم يأتون محمدًا ﷺ، فيقول: **«أنا لها، أنا لها»**[2]، فيشفع في جميع الخلق، وينال ذلك المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون؛ فسبحان من خفيت ألطافه ودقت في إيصاله البر والإحسان إلى خواص أصفيائه وأوليائه.

﴿٤٥﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا﴾؛ أي: من الفتيين، وهو الذي رأى أنه يعصر خمرًا، وهو الذي أوصاه يوسف أن يذكره عند ربه، ﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾؛ أي: وتذكر يوسف وما جرى له في تعبيره لرؤياهما وما وصاه به وعلم أنه كفيل بتعبير هذه الرؤيا بعد مدة من السنين، فقال: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾: إلى يوسف لأسأله عنها.

﴿٤٦﴾ فأرسلوه، فجاء إليه، ولم يعنفه يوسف على نسيانه، بل استمع ما يسأله عنه، وأجابه عن ذلك، فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾؛ أي: كثير الصدق في أقواله وأفعاله، ﴿أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾: فإنهم متشوفون لتعبيرها، وقد أهمتهم.

﴿٤٧﴾ فعبر يوسف السبع البقرات السمان والسبع السنبلات الخضر بأنهن سبع سنين مخصبات، والسبع البقرات العجاف والسبع السنبلات اليابسات بأنهن سنين مجدبات، ولعل وجه ذلك - والله أعلم - أن الخصب والجدب لما كان الحرث مبنيًّا عليه، وأنه إذا حصل الخصب؛ قويت الزروع والحروث وحسن منظرها وكثرت غلالها، والجدب بالعكس من

(١) ع: «فجمع لها».

(٢) البخاري (٤٧١٢)، مسلم (١٩٣).

ذلـك، وكانت البقر هـي التي تحرث عليها الأرض وتسـقى عليهـا الحروث في الغالب، والسـنبلات هي أعظم الأقوات وأفضلهـا؛ عبرهـا بذلـك لوجـود المناسـبة، فجمـع لهم في تأويلهـا بين التعبير والإشـارة لما يفعلونه ويستعدون به من التدبير في سـني الخصب إلى سني الجدب، فقال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾؛ أي: متتابعـات، ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ﴾: مـن تلك الـزروع، ﴿فَذَرُوهُ﴾؛ أي: اتركـوه ﴿فِي سُنبُلِهِ﴾: لأنه أبقى له وأبعد من الالتفات إليه، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧)﴾؛ أي: دبـروا أيضًـا أكلكم في هذه السـنين الخصبـة، وليكن قليلًا؛ ليكثر ما تدخرون، ويعظم نفعه ووقعه.

(٤٨) ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: بعد تلك السـنين السبع المخصبات، ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾؛ أي: مجدبات، ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾؛ أي: يأكلـن جميع ما ادخرتمـوه ولو كان كثيرًا، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨)﴾؛ أي: تمنعونه من التقديم لهن.

(٤٩) ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: السبع الشـداد ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩)﴾؛ أي: فيـه تكثـر الأمطار والسيول، وتكثـر الغـلات، وتزيد علـى أقواتهـم حتى إنهم يعصـرون العنب ونحوه زيـادة على أكلهم، ولعل اسـتدلاله علـى وجـود هـذا العام الخصـب مع أنـه غير مصـرح به في رؤيـا الملك؛ لأنه فهم من [التعبير] بالسـبع الشـداد أن العام الذي يليها يزول به شدتها، ومن المعلوم أنه لا يزول الجدب المستمر سـبع سـنين متواليات إلا بعام مخصب جدًّا، وإلا؛ لما كان للتقدير فائدة.

فلما رجع الرسـول إلى الملك والنـاس، وأخبرهم بتأويل يوسف للرؤيا؛ عجبوا من ذلك، وفرحوا بها أشد الفرح.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ۚ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ۚ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣) وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧)﴾.

(٥٠) يقـول تعالـى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ لمـن عنده: ﴿ائْتُونِي بِهِ﴾؛ أي: بيوسـف عليـه السلام بأن يخرجوه من السـجن ويحضـروه إليـه. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾، وأمـره بالحضـور عنـد الملـك؛ امتنع عـن المبـادرة إلـى الخروج حتـى تتبين براءته التامة، وهذا مـن صبره وعقله ورأيه التام، وحينئذ قال للرسـول: ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾؛ يعنـي بـه: الملك، ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾؛ أي: اسـأله مـا شـأنهن وقصتهـن؛ فـإن أمرهـن ظاهـر متضـح. ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠)﴾.

(٥١) فأحضرهن الملك وقال: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾؛ أي: شأنكن، ﴿إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾: فهـل رأيتن منه ما يريب؟! فبرأنـه و﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾؛ أي: لا قليـل ولا كثيـر؛ فحينئـذ زال السـبب الذي تبنى عليـه التهمة، ولـم يبق إلا مـا عند امرأة العزيـز، فقالت ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾؛ أي: تمحـص وتبين بعدما كنا نُدخل عليه[1] من السوء والتهمة ما أوجب له السجن، ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١)﴾: في أقواله وبراءته.

(٥٢) ﴿ذَٰلِكَ﴾: الإقرار الذي أقررت أني راودت يوسـف، ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾: يحتمـل أن مرادهـا بذلـك زوجها؛ أي: ليعلم أني حين أقررت أني راودت يوسـف أني لـم أخنه بالغيـب؛ أي: لم يجر مني إلا مجـرد المراودة، ولم أفسـد عليه فراشـه. ويحتمل أن المراد بذلك: ليعلم يوسـف حيـن أقررت أني أنا التي[2] راودتـه، وأنه صادق أني لم أخنه في حال غيبته عني. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢)﴾: فإن كل خائـن لا بدَّ أن تعود خيانته ومكره على نفسـه، ولا بد أن يتبين أمره.

(٥٣) ثـم لما كان في هذا الكلام نوع تزكية لنفسـها وأنه لم يجـر منها ذنب في شـأن يوسـف اسـتدركت فقالت: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾؛ أي: مـن المـراودة والهـم والحـرص الشـديد

(١) ط: «معه».
(٢) ع، ط: «الذي».

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ
رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ
لِنَفْسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ قَالَ
ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ
مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ
بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ
ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخْوَةُ
يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا
جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ أَلَا تَرَوْنَ
أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا
كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ
وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ
لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ
﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ
فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾

والكيد في ذلك. ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾؛ أي: لكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء؛ أي: الفاحشة وسائر الذنوب؛ فإنها مركب الشيطان، ومنها يدخل على الإنسان. ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ﴾: فنجاه من نفسه الأمارة حتى صارت نفسه مطمئنة إلى ربها منقادة لداعي الهدى متعاصية عن داعي الردى؛ فذلك ليس من النفس، بل من فضل الله ورحمته بعبده. ﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ ﴾؛ أي: هو غفور لمن تجرأ على الذنوب والمعاصي إذا تاب وأناب، رحيم بقبول توبته وتوفيقه للأعمال الصالحة.

وهذا هو الصواب أن هذا من قول امرأة العزيز لا من قول يوسف؛ فإن السياق في كلامها، ويوسف إذ ذاك في السجن لم يحضر.

﴿٥٤﴾ فلما تحقق الملك والناس براءة يوسف التامة؛ أرسل إليه الملك، وقال: ﴿ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾؛ أي: أجعله من خلصائي[1] ومقربًا لدي. فأتوه به مكرمًا محترمًا، ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ ﴾؛ أعجبه كلامه، وزاد موقعه عنده، فقال له: ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا ﴾؛ أي: عندنا ﴿ مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ ﴾؛ أي: متمكن أمين على الأسرار.

﴿٥٥﴾ ﴿ قَالَ ﴾ يوسف طلبًا للمصلحة العامة: ﴿ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي: على خزائن جبايات الأرض وغلالها وكيلًا حافظًا مدبرًا. ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ ﴾؛ أي: حفيظ للذي أتولاه؛ فلا يضيع منه شيء في غير محله، وضابط للداخل والخارج، عليم بكيفية التدبير والإعطاء والمنع والتصرف في جميع أنواع التصرفات. وليس ذلك حرصًا من يوسف على الولاية، وإنما هو رغبة منه في النفع العام، وقد عرف من نفسه من الكفاية والأمانة والحفظ ما لم يكونوا يعرفونه؛ فلذلك طلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض، فجعله الملك على خزائن الأرض وولاه إياها.

﴿٥٦﴾، ﴿٥٧﴾ قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾؛ أي: بهذه الأسباب والمقدمات المذكورة، ﴿ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾: في عيش رغد ونعمة واسعة وجاه عريض، ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ﴾؛ أي: هذا من رحمة الله بيوسف التي أصابه بها وقدرها له، وليست مقصورة على نعمة الدنيا. ﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾، ويوسف عليه السلام من سادات المحسنين؛ فله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، ولهذا قال: ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٞ ﴾ - من أجر الدنيا - ﴿ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾؛ أي: لمن جمع بين التقوى والإيمان؛ فبالتقوى تترك الأمور المحرمة من كبائر الذنوب وصغائرها، وبالإيمان التام يحصل تصديق القلب بما أمر الله بالتصديق به وتتبعه أعمال القلوب وأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات.

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ

(١) ع، ط: «خصيصة لي».

عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾
وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟
يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا
وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾
قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ
إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ
﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ
مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ
عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟
مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن
شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا
عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

أي: لما تولى يوسف عليه السلام خزائن الأرض؛ دبرها أحسن تدبير، فزرع في أرض مصر جميعها في السنين المخصبة زروعًا هائلة، واتخذ لها المحلات الكبار، وجبى من الأطعمة شيئًا كثيرًا، وحفظه وضبطه ضبطًا تامًّا، فلما دخلت السنون المجدبة، وسرى الجدب حتى وصل إلى فلسطين التي يقيم فيها يعقوب وبنوه، فأرسل يعقوب بنيه لأجل الميرة إلى مصر.

﴿٥٨﴾ فجاء ﴿ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾؛ أي: لم يعرفوه.

﴿٥٩﴾ ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾؛ أي: كال لهم كما كان يكيل لغيرهم، وكان من تدبيره الحسن أنه لا يكيل لكل واحد أكثر من حمل بعير، وكان قد سألهم عن حالهم، فأخبروه أن لهم أخًا عند أبيه، وهو بنيامين، ﴿ قَالَ ﴾ لهم: ﴿ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾: ثم رغبهم في الإتيان به، فقال: ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾: في الضيافة والإكرام.

﴿٦٠﴾ ثم رهبهم بعدم الإتيان به، فقال: ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ ﴾: وذلك لعلمه باضطرارهم إلى الإتيان إليه، وأن ذلك يحملهم على الإتيان به.

﴿٦١﴾ ﴿ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾: دل هذا على أن يعقوب عليه السلام كان مولعًا به لا يصبر عنه، وكان يتسلى به بعد يوسف؛ فلذلك احتاج إلى مراودة في بعثه معهم، ﴿ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾: لما أمرتنا به.

الجزء الثالث عشر — سورة يوسف

قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن
قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟
مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا
مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ
أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ
أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ
أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ
﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ
مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا
لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا
دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم
مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ
لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ
﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ
إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾

٢٤٣

﴿٦٢﴾ ﴿ وَقَالَ ﴾ يوسف ﴿ لِفِتْيَٰنِهِ ﴾ الذين في خدمته: ﴿ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ ﴾؛ أي: الثمن الذي اشتروا به منه الميرة، ﴿ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ ﴾؛ أي: بضاعتهم إذا رأوها بعد ذلك في رحالهم؛ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾: لأجل التحرج من أخذها على ما قيل. والظاهر أنه أراد أن يرغبهم في إحسانه إليهم بالكيل لهم كيلًا وافيًا ثم إعادة بضاعتهم إليهم على وجه لا يحسون بها ولا يشعرون لما يأتي؛ فإن الإحسان يوجب للإنسان تمام الوفاء للمحسن.

﴿٦٣﴾ ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ ﴾؛ أي: إن لم ترسل معنا أخانا، ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ ﴾؛ أي: ليكون ذلك سببًا لكيلنا. ثم التزموا له بحفظه فقالوا: ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾: من أن يعرض له ما يكره.

﴿٦٤﴾ ﴿ قَالَ ﴾ لهم يعقوب عليه السلام: ﴿ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾؛ أي: قد تقدم منكم التزام أكثر من هذا في حفظ يوسف، ومع هذا؛ فلم تفوا

بما عقدتم من التأكيد؛ فلا أثق بالتزامكم وحفظكم، وإنما أثق بالله تعالى. ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤﴾؛ أي: يعلم حالي وأرجو أن يرحمني، فيحفظه ويرده علي، وكأنه في هذا الكلام قد لان لإرساله معهم.

٦٥ ثم إنهم لما ﴿فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ﴾: هذا دليل على أنه قد كان معلومًا عندهم أن يوسف قد ردها عليهم بالقصد، وأنه أراد أن يملكهم إياها، فقالوا لأبيهم ترغيبًا في إرسال أخيهم معهم: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ﴾؛ أي: أي شيء نطلب بعد هذا الإكرام الجميل حيث وفى لنا الكيل، ورد علينا بضاعتنا على الوجه الحسن المتضمن للإخلاص ومكارم الأخلاق؟! ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا﴾؛ أي: إذا ذهبنا بأخينا؛ صار سببًا لكيله لنا، فنمير[1] أهلنا، ونأتي[2] لهم بما هم مضطرون إليه من القوت، ﴿وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ﴾: بإرساله معنا؛ فإنه يكيل لكل واحد حمل بعير. ﴿ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ٦٥﴾؛ أي: سهل لا ينالك منه ضرر؛ لأن المدة لا تطول، والمصلحة قد تبينت.

٦٦ فـ﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب: ﴿لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: عهدًا ثقيلًا وتحلفون بالله ﴿لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ﴾؛ أي: إلا أن يأتيكم أمر لا قبل لكم به ولا تقدرون دفعه، ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ﴾: على ما قال وأراد؛ ﴿قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٦٦﴾؛ أي: تكفينا شهادته علينا وحفظه وكفالته.

٦٧ ثم لما أرسله معهم؛ وصاهم إذا هم قدموا مصر أن ﴿لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾: وذلك أنه خاف عليهم العين؛ لكثرتهم وبهاء منظرهم؛ لكونهم أبناء رجل واحد، وهذا سبب، وإلا فما ﴿أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾: شيئًا؛ فالمقدر لا بد أن يكون. ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾؛ أي: القضاء قضاؤه والأمر أمره؛ فما قضاه، وحكم به لا بد أن يقع. ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ﴾؛ أي: اعتمدت على الله لا على ما وصيتكم به من السبب. ﴿وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧﴾: فإن بالتوكل يحصل كل مطلوب، ويندفع كل مرهوب.

٦٨ ﴿وَلَمَّا﴾ ذهبوا و﴿دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ﴾: ذلك الفعل ﴿يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ﴾: وهو موجب الشفقة والمحبة للأولاد، فحصل له في ذلك نوع طمأنينة وقضاء لما في خاطره، وليس هذا قصورًا في علمه؛ فإنه من الرسل الكرام والعلماء الربانيين، ولهذا قال عنه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ﴾؛ أي: لصاحب علم عظيم، ﴿لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾؛ أي: لتعليمنا إياه، لا بحوله وقوته أدركه، بل بفضل الله وتعليمه. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦٨﴾: عواقب الأمور ودقائق الأشياء، وكذلك أهل العلم منهم يخفى عليهم من العلم وأحكامه ولوازمه شيء كثير.

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٦٩ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ٧٠ قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ٧١ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ٧٢ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ٧٣ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ٧٤ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٥ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦ ۞قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ٧٩﴾.

٦٩ أي: لما دخل إخوة يوسف على يوسف؛ ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾؛ أي: شقيقه، وهو بنيامين، الذي أمرهم بالإتيان به وضمه إليه، واختصه من بين إخوته، وأخبره بحقيقة الحال، و﴿قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾؛ أي: لا تحزن. ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٦٩﴾: فإن العاقبة خير لنا، ثم خبره بما يريد أن يصنع ويتحيل لبقائه عنده إلى أن ينتهي الأمر.

(١) ع، ط: «فمرنا».
(٢) ع، ط: «وأتينا».

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ
أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟
عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ
وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ
لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ
﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ
مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ
﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن
وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ
فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ
وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ
فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ
وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا
فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّآ نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾

(٧٠) ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾؛ أي: كال لكل واحد من إخوته، ومن جملتهم أخوه هذا، ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾: وهو الإناء الذي يشرب به ويكال فيه ﴿فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ﴾: أوعوا متاعهم، فلما انطلقوا ذاهبين؛ ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ (٧٠)﴾: ولعل هذا المؤذن لم يعلم بحقيقة الحال.

(٧١) ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: إخوة يوسف، ﴿وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم﴾: لإبعاد التهمة؛ فإن السارق ليس له هم إلا البعد والانطلاق عمن سرق منه؛ لتسلم له سرقته، وهؤلاء جاءوا مقبلين إليهم، ليس لهم هم إلا إزالة التهمة التي رموا بها عنهم، فقالوا في هذه الحال: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١)﴾؟ ولم يقولوا: ما الذي سرقنا؟ لجزمهم بأنهم برآء من السرقة.

(٧٢) ﴿قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾؛ أي: أجرة له على وجدانه، ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ (٧٢)﴾؛ أي: كفيل. وهذا يقوله المؤذن المتفقد.

(٧٣) ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: بجميع أنواع المعاصي، ﴿وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ (٧٣)﴾: فإن السرقة من أكبر أنواع الفساد في الأرض. وإنما أقسموا على علمهم أنهم ليسوا مفسدين ولا سارقين؛ لأنهم عرفوا أنهم سبروا من أحوالهم ما يدلهم على عفتهم وورعهم وأن هذا الأمر لا يقع منهم بعلم من اتهموهم، وهذا أبلغ في نفي التهمة من أن لو قالوا: تالله لم نفسد في الأرض ولم نسرق.

(٧٤) ﴿قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾؛ أي: جزاء هذا الفعل، ﴿إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ (٧٤)﴾: بأن كان معكم.

(٧٥) ﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ﴾؛ أي: الموجود في رحله، ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾: بأن يتملكه صاحب السرقة، وكان هذا في دينهم؛ أن السارق إذا ثبتت عليه السرقة؛ كان ملكًا لصاحب المال المسروق، ولهذا قالوا: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ (٧٥)﴾.

(٧٦) فبدأ المفتش بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، وذلك لتزول الريبة التي يظن أنها فعلت بالقصد. ثم لما لم يجد في أوعيتهم شيئًا، ﴿ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾: ولم يقل: وجدها أو سرقها أخوه مراعاة للحقيقة الواقعة؛ فحينئذ تم ليوسف ما أراد من بقاء أخيه عنده على وجه لا يشعر به إخوته. قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾؛ أي: يسرنا له هذا الكيد الذي توصل به إلى أمر غير مذموم. ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾: لأنه ليس من دينه أن يتملك السارق، وإنما له عندهم جزاء آخر؛ فلو ردت الحكومة إلى دين الملك؛ لم يتمكن يوسف من إبقاء أخيه عنده، ولكنه جعل الحكم منهم؛ ليتم له ما أراد. قال تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾: بالعلم النافع ومعرفة الطرق الموصلة إلى مقصدها؛ كما رفعنا درجات يوسف. ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦)﴾؛ فكل عالم فوقه من هو أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى عالم الغيب والشهادة.

(٧٧) فلما رأى إخوة يوسف ما رأوا؛ ﴿قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ﴾: هذا الأخ؛ فليس هذا غريبًا منه، ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾؛ يعنون يوسف عليه السلام، ومقصودهم تبرئة أنفسهم، وأن هذا وأخاه قد يصدر منهما ما يصدر من السرقة، وهما ليسا شقيقين لنا، وفي هذا من الغض عليهما ما فيه، ولهذا ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾؛ أي: لم يقابلهم على ما قالوه بما يكرهون، بل كظم الغيظ وأسرَّ الأمر في نفسه، و﴿قَالَ﴾ في نفسه: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ

قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ
إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ
قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم
مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ
ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ
﴿٨٠﴾ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ
وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ
﴿٨١﴾ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ
وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ
فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ
يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٨٤﴾
قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا
أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي
وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾

مَكَانَهُ﴾: حيث ذممتمونا بما أنتم على أشر منه. ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾: منا من وصفنا بسرقة يعلم الله أنا برآء منها.

﴿٧٨﴾ ثم سلكوا معه مسلك التملق لعله يسمح لهم بأخيهم، ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا﴾؛ أي: وإنه لا يصبر عنه، وسيشق عليه فراقه. ﴿فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾: فأحسن إلينا وإلى أبينا بذلك.

﴿٧٩﴾ قال يوسف: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾؛ أي: هذا ظلم منا لو أخذنا البريء بذنب من وجدنا متاعنا عنده، ولم يقل: من سرق. كل هذا تحرز من الكذب. ﴿إِنَّآ إِذٗا﴾؛ أي: إن أخذنا غير من وجد في رحله، ﴿لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾: حيث وضعنا العقوبة في غير موضعها.

﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿٨٠﴾ أي: فلما استيأس إخوة يوسف من يوسف أن يسمح لهم بأخيهم، ﴿خَلَصُواْ نَجِيّٗا﴾؛ أي: اجتمعوا وحدهم ليس معهم غيرهم، وجعلوا يتناجون فيما بينهم، ﴿قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾: في حفظه وأنكم تأتون به إلا أن يحاط بكم، ﴿وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَ﴾: فاجتمع عليكم الأمران: تفريطكم في يوسف السابق، وعدم إتيانكم بأخيه باللاحق؛ فليس لي وجه أواجه به أبي. ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ﴾؛ أي: سأقيم في هذه الأرض ولا أزال بها، ﴿حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِي﴾؛ أي: يقدر لي المجيء وحدي أو مع أخي، ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿٨١﴾ ثم وصاهم ما يقولون لأبيهم، فقال: ﴿ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ﴾؛ أي: وأخذ بسرقته، ولم يحصل لنا أن نأتيك به مع ما بذلنا من الجهد في ذلك، والحال أنا ما شهدنا بشيء لم نعلمه، وإنما شهدنا بما علمنا؛ لأننا رأينا الصواع استخرج من رحله. ﴿وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾﴾؛ أي: لو كنا نعلم الغيب؛ لما حرصنا وبذلنا المجهود في ذهابه معنا، ولما أعطيناك عهودنا ومواثيقنا، فلم نظن أن الأمر سيبلغ ما بلغ.

﴿٨٢﴾ ﴿وَسۡـَٔلِ﴾: إن شككت في قولنا ﴿ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَا﴾ فاطلعوا على ما أخبرناك به، ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾: لم نكذب، ولم نغير، ولم نبدل، بل هذا الواقع.

﴿٨٣﴾ فلما رجعوا إلى أبيهم وأخبروه بهذا الخبر؛ اشتد حزنه وتضاعف كمده واتهمهم أيضًا في هذه القضية كما اتهمهم في الأولى و﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌ﴾؛ أي: ألجأ في ذلك إلى الصبر الجميل الذي لا يصحبه تسخط ولا جزع ولا شكوى للخلق. ثم لجأ إلى

حصول الفرج لما رأى أن الأمر اشتد، والكربة انتهت، فقال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًا﴾؛ أي: يوسف وبنيامين وأخوهم الكبير الذي أقام في مصر. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ﴾: الذي يعلم حالي واحتياجي إلى تفريجه ومنته واضطراري إلى إحسانه، ﴿ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾: الذي جعل لكل شيء قدرًا، والأمر[1] منتهي بحسب ما اقتضته حكمته الربانية.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿٨٤﴾ أي: وتولى يعقوب عليه الصلاة والسلام عن أولاده بعدما أخبروه هذا الخبر، واشتد به الأسف والأسى، وابيضت عيناه من الحزن الذي في قلبه والكمد الذي أوجب له كثرة البكاء حيث ابيضت عيناه من ذلك؛ ﴿فَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٨٤﴾﴾؛ أي: ممتلئ القلب من الحزن الشديد، ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾؛ أي: ظهر منه ما كَمَنَ من الهم القديم والشوق المقيم، وذكرته هذه المصيبة الخفيفة بالنسبة للأولى، المصيبة الأولى.

﴿٨٥﴾ فقال له أولاده متعجبين من حاله: ﴿تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ﴾؛ أي: لا تزال تذكر يوسف في جميع أحوالك، ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾؛ أي: فانيًا لا حراك فيك ولا قدرة لك على الكلام، ﴿أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾؛ أي: لا تترك ذكره مع قدرتك على ذكره أبدًا.

﴿٨٦﴾ ﴿قَالَ﴾ يعقوب: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي﴾؛ أي: ما أبث من الكلام، ﴿وَحُزۡنِيٓ﴾: الذي في قلبي. ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: وحده لا إليكم ولا إلى غيركم من الخلق؛ فقولوا ما شئتم، ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾: من أنه سيردهم عليَّ ويقر عيني بالاجتماع بهم.

سورة يوسف — الجزء الثالث عشر

يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٩٥﴾

٢٤٦

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿٨٧﴾ أي: قال يعقوب عليه السلام لبنيه: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾؛ أي: احرصوا واجتهدوا على التفتيش عنهما، ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾: فإن الرجاء يوجب للعبد السعي والاجتهاد فيما رجاه، والإياس يوجب له التثاقل والتباطؤ، وأولى ما رجا العباد فضل الله وإحسانه ورحمته وروحه. ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾: فإنهم لكفرهم يستبعدون رحمته، ورحمته

(١) ع، ط: «ولكل أمر».

بعيدة منهم؛ فلا تتشبهوا بالكافرين. ودل هذا على أنه بحسب إيمان العبد يكون رجاؤه لرحمة الله وروحه.

(٨٨) فذهبوا. ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ ﴾ أي: على يوسف، ﴿ قَالُوا۟ ﴾: متضرعين إليه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ﴾؛ أي: قد اضطررنا نحن وأهلنا ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ ﴾؛ أي: مدفوعة مرغوب عنها لقلتها وعدم وقوعها الموقع؛ ﴿ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ ﴾؛ أي: مع عدم وفاء العوض، وتصدق علينا بالزيادة عن الواجب. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) ﴾: بثواب الدنيا والآخرة.

(٨٩) فلما انتهى الأمر وبلغ أشده؛ رق لهم يوسف رقة شديدة، وعرفهم بنفسه، وعاتبهم فقال: ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾: أما يوسف؛ فظاهر فعلهم فيه، وأما أخوه؛ فلعله - والله أعلم - قولهم: ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ﴾، أو أن الحادث[1] الذي فرق بينه وبين أبيه هم السبب فيه والأصل الموجب له. ﴿ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ (٨٩) ﴾: وهذا نوع اعتذار لهم بجهلهم أو توبيخ لهم إذ فعلوا فعل الجاهلين، مع أنه لا ينبغي ولا يليق منهم.

(٩٠) فعرفوا أن الذي خاطبهم هو يوسف، فقالوا: ﴿ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ﴾: بالإيمان والتقوى والتمكين في الدنيا، وذلك بسبب الصبر والتقوى، ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ ﴾؛ أي: يتقي فعل ما حرم الله ويصبر على الآلام والمصائب وعلى الأوامر بامتثالها. ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٩٠) ﴾: فإن هذا من الإحسان، والله لا يضيع أجر من أحسن عملًا.

(٩١) ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ﴾؛ أي: فضلك علينا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأسأنا إليك غاية الإساءة، وحرصنا على إيصال الأذى إليك والتبعيد لك عن أبيك، فآثرك الله تعالى ومكنك مما تريد ﴿ وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ (٩١) ﴾[2].

(٩٢) ﴿ قَالَ ﴾ لهم يوسف عليه السلام كرمًا وجودًا: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾؛ أي: لا أثرب عليكم ولا ألومكم، ﴿ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ (٩٢) ﴾؛ فسمح لهم سماحًا تامًّا من غير تعيير لهم على ذكر الذنب السابق، ودعا لهم بالمغفرة والرحمة، وهذا نهاية الإحسان الذي لا يتأتى إلا من خواص الخلق وخيار المصطفين.

﴿ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٩٨) ﴾.

(٩٣) أي: قال يوسف عليه السلام لإخوته: ﴿ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا ﴾: لأن كل داء يداوى بضده؛ فهذا القميص لما كان فيه أثر ريح يوسف الذي أودع قلب أبيه من الحزن والشوق ما الله به عليم؛ أراد أن يشمه فترجع إليه روحه وتتراجع إليه نفسه ويرجع إليه بصره، ولله في ذلك حكم وأسرار لا يطلع عليها العباد، وقد أطلع يوسف من ذلك على هذا الأمر. ﴿ وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) ﴾؛ أي: أولادكم وعشيرتكم وتوابعكم كلهم؛ ليحصل تمام اللقاء ويزول عنكم نكد المعيشة وضنك الرزق.

(٩٤) ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ ﴾: عن أرض مصر مقبلة إلى أرض فلسطين؛ شم يعقوب ريح القميص، فقال: ﴿ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ (٩٤) ﴾؛ أي: تسخرون مني، وتزعمون أن هذا الكلام صدر مني من غير شعور؛ لأنه رأى منهم من التعجب من حاله ما أوجب له هذا القول.

(٩٥) فوقع ما ظنه بهم، فقالوا: ﴿ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ (٩٥) ﴾؛ أي: لا تزال تائهًا في بحر لجي، لا تدري ما تقول.

(٩٦) ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ ﴾: بقرب الاجتماع بيوسف وإخوته وأبيهم، ﴿ أَلْقَىٰهُ ﴾؛ أي: القميص ﴿ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ﴾؛ أي: رجع على حاله الأولى بصيرًا بعد أن ابيضت عيناه من الحزن، فقال لمن حضره من أولاده وأهله الذين كانوا يفندون رأيه، ويتعجبون منه منتصرًا عليهم

(١) ع، ط: «السبب».
(٢) زاد في ع، ط: «وهذا غاية الاعتراف منهم بالجرم الحاصل منهم على يوسف».

مغتبطًا[1] بنعمة الله عليه: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾: حيث كنت مترجيًا للقاء يوسف مترقبًا لزوال الهم والغم والحزن.

﴿٩٧﴾ فأقروا بذنبهم[2]، و﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾: حيث فعلنا معك ما فعلنا.

﴿٩٨﴾ ﴿قَالَ﴾ مجيبًا لطلبتهم ومسرعًا لإجابتهم: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾: ورجائي به أن يغفر لكم ويرحمكم ويتغمدكم برحمته.

وقد قيل: إنه أخر الاستغفار لهم إلى وقت السحر الفاضل؛ ليكون أتم للاستغفار وأقرب للإجابة.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿٩٩﴾ أي: ﴿فَلَمَّا﴾ تجهز يعقوب وأولاده وأهلهم أجمعون وارتحلوا من بلادهم قاصدين الوصول إلى يوسف في مصر وسكناها، فلما وصلوا إليه و﴿دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾؛ أي: ضمهما إليه واختصهما بقربه وأبدى لهما من البر والإحسان والتبجيل والإعظام شيئًا عظيمًا. ﴿وَقَالَ﴾ لجميع أهله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾: من جميع المكاره والمخاوف. فدخلوا في هذه الحال السارة، وزال عنهم النصب ونكد المعيشة وحصل السرور والبهجة.

﴿١٠٠﴾ ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾؛ أي: على سرير الملك ومجلس العز[3]، ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾؛ أي: أبوه وأمه وإخوته سجودًا على وجه التعظيم والتبجيل والإكرام. ﴿وَقَالَ﴾ لما رأى هذه الحال ورأى سجودهم له: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾: حين رأى أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر له ساجدين؛ فهذا وقوعها الذي آلت إليه ووصلت. ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾: فلم يجعلها أضغاث أحلام. ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ﴾: إحسانًا جسيمًا، ﴿إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾: وهذا من لطفه وحسن خطابه عليه السلام؛ حيث ذكر حاله في السجن، ولم يذكر حاله في الجب؛ لتمام عفوه عن إخوته، وأنه لا يذكر ذلك الذنب، وأن إتيانكم من البادية من إحسان الله إليَّ، فلم يقل جاء بكم من الجوع والنصب، ولا قال: أحسن بكم، بل قال: أحسن بي، جعل الإحسان عائدًا إليه؛ فتبارك من يختص برحمته من يشاء من عباده ويهب لهم من لدنه رحمة إنه هو الوهاب، ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾: فلم يقل: نزغ الشيطان إخوتي، بل كأن الذنب والجهل صدر من الطرفين؛ فالحمد لله الذي أخزى الشيطان ودحره وجمعنا بعد تلك الفرقة الشاقة. ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾: يوصل بره وإحسانه إلى العبد من حيث لا يشعر ويوصله إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهها. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾: الذي يعلم ظواهر الأمور وبواطنها وسرائر العباد وضمائرهم. ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾: في وضعه الأشياء مواضعها وسوقه الأمور إلى أوقاتها المقدرة لها.

الجزء الثالث عشر — سورة يوسف

فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ
أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟
يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ
أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا
دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ
إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟
لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا
رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم
مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ
رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ
قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى
مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ
نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ
﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

٢٤٧

(١) ع، ط: «متبجحًا».
(٢) زاد في ع، ط: «ونجعوا بذلك».
(٣) ع، ط: «العزيز».

وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٤
وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا
وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ١٠٥ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا
وَهُم مُّشْرِكُونَ ١٠٦ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ
أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١٠٧ قُلْ هَٰذِهِۦ
سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ
ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٠٨ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ
إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓۗ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي
ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۗ
وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١٠٩ حَتَّىٰٓ
إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ
نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ
١١٠ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ
حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ
وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ١١١

﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١ ﴾.

(١٠١) لما أتم الله ليوسف ما أتم من التمكين في الأرض والملك وأقر عينه بأبويه وإخوته وبعد العلم العظيم الذي أعطاه الله إياه، فقال مقرًّا بنعمة الله شاكرًا لها داعيًا بالثبات على الإسلام: ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ ﴾: وذلك أنه كان على خزائن الأرض وتدبيرها ووزيرًا كبيرًا للملك، ﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾؛ أي: من تأويل أحاديث الكتب المنزلة وتأويل الرؤيا وغير ذلك من العلم. ﴿ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا ﴾؛ أي: أدمْ علي الإسلام وثبتني عليه حتى تتوفاني عليه، ولم يكن هذا دعاء باستعجال الموت. ﴿ وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١ ﴾: من الأنبياء الأبرار والأصفياء الأخيار.

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ١٠٢ ﴾.

(١٠٢) لما قص الله هذه القصة على محمد ﷺ؛ قال الله له: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾: النبأ[1] الذي أخبرناك به ﴿ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾: ولولا إيحاؤنا إليك؛ لما وصل إليك هذا الخبر الجليل[2]، ﴿ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ ﴾؛ أي: إخوة يوسف. ﴿ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ١٠٢ ﴾: به حين تعاقدوا على التفريق بينه وبين أبيه في حالة لا يطلع عليها إلا الله تعالى ولا يمكن أحدًا أن يصل إلى علمها إلا بتعليم الله له إياها؛ كما قال تعالى لما قص قصة موسى وما جرى له؛ ذكر الحال التي لا سبيل للخلق إلى علمها إلا بوحيه، فقال: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٤٤ ﴾ [القصص: ٤٤] الآيات؛ فهذا أدل دليل على أن من جاء بها رسول الله حقًّا.

﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ١٠٣
وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٤
وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا
وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ١٠٥ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم
مُّشْرِكُونَ ١٠٦ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ
ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١٠٧ ﴾.

(١٠٣) يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ ﴾: على إيمانهم ﴿ بِمُؤْمِنِينَ ١٠٣ ﴾: فإن مداركهم ومقاصدهم قد أصبحت فاسدة؛ فلا ينفعهم حرص الناصحين عليهم، ولو عدمت الموانع؛ بأن كانوا يعلِّمونهم ويدعونهم إلى ما فيه الخير لهم ودفع الشر عنهم من غير أجر ولا عوض، ولو أقاموا لهم من الشواهد والآيات الدالات على صدقهم ما أقاموا.

(١٠٤) ولهذا قال: ﴿ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٤ ﴾: يتذكرون به ما ينفعهم ليفعلوه، وما يضرهم ليتركوه.

(١٠٥) ﴿ وَكَأَيِّن ﴾؛ أي: وكم ﴿ مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا ﴾: دالة لهم على توحيد الله، ﴿ وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ١٠٥ ﴾.

(١٠٦) ومع هذا، إن وجد منهم بعض الإيمان، ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ١٠٦ ﴾: فهم وإن أقروا بربوبية

(١) ع، ط: «الإنباء».
(٢) زاد في ع، ط: «فإنك لم تكن حاضرًا».

الله تعالى وأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور؛ فإنهم يشركون في ألوهية الله وتوحيده.

(١٠٧) فهؤلاء الذين وصلوا إلى هذه الحال لم يبق عليهم إلا أن يحل بهم العذاب ويفجأهم العقاب وهم آمنون، ولهذا قال: ﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ ﴾؛ أي: الفاعلون لتلك الأفعال، المعرضون عن آيات الله، ﴿ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: عذاب يغشاهم ويعمهم ويستأصلهم، ﴿ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾؛ أي: فجأة، ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٠٧) ﴾؛ أي: فإنهم قد استوجبوا لذلك؛ فليتوبوا إلى الله، ويتركوا ما يكون سببًا في عقابهم.

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٠٨) وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠٩) ﴾.

(١٠٨) يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ قُلْ ﴾ للناس: ﴿ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ ﴾؛ أي: طريقي التي أدعو إليها، وهي السبيل الموصلة إلى الله وإلى دار كرامته، المتضمنة للعلم بالحق والعمل به وإيثاره، وإخلاص الدين لله وحده لا شريك له. ﴿ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾؛ أي: أحث الخلق والعباد إلى الوصول إلى ربهم وأرغبهم في ذلك وأرهبهم مما يبعدهم عنه، ومع هذا؛ فأنا ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾: من ديني؛ أي: على علم ويقين من غير شك ولا امتراء ولا مرية. أنا وكذلك من اتبعني: يدعو إلى الله كما أدعو على بصيرة من أمره. ﴿ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾: عما نسب إليه مما لا يليق بجلاله أو ينافي كماله. ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٠٨) ﴾: في جميع أموري، بل أعبد الله مخلصًا له الدين.

(١٠٩) ثم قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا ﴾؛ أي: لم نرسل ملائكة ولا غيرهم من أصناف الخلق؛ فلأي شيء يستغرب قومك رسالتك، ويزعمون أنه ليس لك عليهم فضل، فلك فيمن قبلك من المرسلين أسوة حسنة. ﴿ نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾؛ أي: لا من البادية، بل من أهل القرى، الذين هم أكمل عقولًا وأصح آراء، وليتبين أمرهم ويتضح شأنهم. ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾: إذا لم يصدقوا لقولك، ﴿ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾: كيف أهلكهم الله بتكذيبهم؛ فاحذروا أن تقيموا على ما قاموا عليه، فيصيبكم ما أصابهم. ﴿ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾؛ أي: الجنة وما فيها من النعيم المقيم، ﴿ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ﴾: الله في امتثال أوامره واجتناب نواهيه؛ فإن نعيم الدنيا منغص منكد منقطع، ونعيم الآخرة تام كامل لا يفنى أبدًا، بل هو على الدوام في تزايد وتواصل. ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨) ﴾ [هود: ١٠٨]. ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠٩) ﴾؛ أي: أفلا يكون لكم عقول تؤثر الذي هو خير على الأدنى؟

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾.

(١١٠) يخبر تعالى أنه يرسل الرسل الكرام، فيكذبهم القوم المجرمون اللئام، وأن الله تعالى يمهلهم ليرجعوا إلى الحق، ولا يزال الله يمهلهم حتى إنه تصل الحال إلى غاية الشدة منهم على الرسل، حتى إن الرسل على كمال يقينهم وشدة تصديقهم بوعد الله ووعيده ربما أنه يخطر بقلوبهم نوع من الإياس ونوع من ضعف العلم والتصديق؛ فإذا بلغ الأمر هذه الحال؛ ﴿ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ﴾: وهم الرسل وأتباعهم، ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ (١١٠) ﴾؛ أي: ولا يرد عذابنا عمن اجترم وتجرأ على الله؛ ﴿ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠) ﴾ [الطارق: ١٠].

(١١١) ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ ﴾؛ أي: قصص الأنبياء والرسل مع قومهم ﴿ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾؛ أي: يعتبر بها أهل الخير وأهل الشر، وأن من فعل مثل فعلهم؛ ناله ما نالهم من كرامة أو إهانة، ويعتبرون بها أيضًا ما لله من صفات الكمال والحكمة العظيمة، وأنه الله الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له. وقوله: ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾؛ أي: ما كان هذا القرآن الذي قص الله به عليكم من أنباء الغيب ما قص من الأحاديث المفتراة المختلقة. ﴿ وَلَٰكِن ﴾: كان ﴿ تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾: من الكتب السابقة؛ يوافقها ويشهد لها بالصحة، ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾: يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه ومن

الأدلة والبراهين. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾: فإنهم بسبب ما يحصل لهم به من العلم بالحق وإيثاره يحصل لهم الهدى، وبما يحصل لهم من الثواب العاجل والآجل تحصل لهم الرحمة.

فصل

في ذكر شيء من العبر والفوائد التي اشتملت عليها هذه القصة العظيمة التي قال الله في أولها: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، وقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾﴾، وقال في آخرها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، غير ما تقدم في مطاويها من الفوائد.

فمن ذلك: أن هذه القصة من أحسن القصص وأوضحها وأبينها؛ لما فيها من أنواع التنقلات؛ من حال إلى حال، ومن محنة إلى محنة، ومن محنة إلى منحة ومنة، ومن ذل إلى عز، ومن رق إلى ملك، ومن فرقة وشتات إلى اجتماع وائتلاف، ومن حزن إلى سرور، ومن رخاء إلى جدب، ومن جدب إلى رخاء، ومن ضيق إلى سعة، ومن إنكار إلى إقرار؛ فتبارك من قصها فأحسنها، ووضحها، وبينها.

ومنها: أن فيها أصلًا لتعبير الرؤيا؛ فإن علم التعبير من العلوم المهمة التي يعطيها الله من يشاء من عباده، وإن أغلب ما تبنى عليه المناسبة والمشابهة في الاسم والصفة:

فإن رؤيا يوسف التي رأى أن الشمس والقمر وأحد عشر كوكبًا له ساجدين وجه المناسبة فيها أن هذه الأنوار هي زينة السماء وجمالها وبها منافعها؛ فكذلك الأنبياء والعلماء زينة للأرض وجمال، وبهم يهتدى في الظلمات كما يهتدى بهذه الأنوار، ولأن الأصل أبوه وأمه، وإخوته هم الفرع؛ فمن المناسب أن يكون الأصل أعظم نورًا وجرمًا لما هو فرع عنه؛ فلذلك كانت الشمس أمه والقمر أباه والكواكب إخوته. ومن المناسبة أن الشمس لفظ مؤنث؛ فلذلك كانت أمه، والقمر والكواكب مذكرات؛ فكانت لأبيه وإخوته. ومن المناسبة أن الساجد معظم محترم للمسجود له، والمسجود له معظم محترم؛ فلذلك دل ذلك على أن يوسف يكون معظمًا محترمًا عند أبويه وإخوته، ومن لازم ذلك أن يكون مجتبى مفضلًا في العلم والفضائل الموجبة لذلك، ولذلك قال له أبوه: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾.

ومن المناسبة في رؤيا الفتيين: أن الرؤيا الأولى التي رأى صاحبها أنه يعصر خمرًا؛ أن الذي يعصر خمرًا في العادة يكون خادمًا لغيره، والعصر يقصد لغيره؛ فلذلك أوَّله بما يئول إليه؛ أنه يسقي ربه، وذلك متضمن لخروجه من السجن. وأوَّلَ رؤيا الآخر الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزًا تأكل الطير منه بأن جلدة رأسه ولحمه وما في ذلك من المخ أنه هو الذي يحمل وأنه سيبرز للطيور بمحل تتمكن من الأكل من رأسه، فرأى من حاله أنه سيقتل ويصلب بعد موته فيبرز للطيور فتأكل من رأسه، وذلك لا يكون إلا بالصلب بعد القتل.

وأوَّل رؤيا الملك للبقرات والسنبلات بالسنين المخصبة والسنين المجدبة، ووجه المناسبة أن الملك به ترتبط أحوال الرعية ومصالحها، وبصلاحه تصلح وبفساده تفسد، وكذلك السنون بها صلاح أحوال الرعية واستقامة أمر المعاش أو عدمه، وأما البقر؛ فإنها تحرث الأرض عليها ويستقى عليها الماء وإذا أخصبت السنة؛ سمنت، وإذا أجدبت؛ صارت عجافًا، وكذلك السنابل في الخصب تكثر وتخضر، وفي الجدب تقل وتيبس، وهي أفضل غلال الأرض.

ومنها: ما فيها من الأدلة على صحة نبوة محمد ﷺ؛ حيث قص على قومه هذه القصة الطويلة، وهو لم يقرأ كتب الأولين، ولا دارس أحدًا، يراه قومه بين أظهرهم صباحًا ومساء، وهو أمي لا يخط ولا يقرأ، وهي موافقة لما في الكتب السابقة، وما كان لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون.

ومنها: أنه ينبغي البعد عن أسباب الشر وكتمان ما تخشى مضرته؛ لقول يعقوب ليوسف: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾.

ومنها: أنه يجوز ذكر الإنسان بما يكره على وجه النصيحة لغيره؛ لقوله: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾.

ومنها: أن نعمة الله على العبد نعمة على من يتعلق به من أهل بيته وأقاربه وأصحابه، وأنه ربما شملتهم وحصل لهم ما حصل له بسببه؛ كما قال يعقوب في تفسيره لرؤيا يوسف: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾، ولما تمت النعمة على يوسف؛ حصل لآل يعقوب من العز والتمكين في الأرض والسرور والغبطة ما حصل بسبب يوسف.

ومنها: أن العدل مطلوب في كل الأمور، لا في معاملة السلطان رعيته فقط، ولا فيما دونه، بل حتى في معاملة الوالد لأولاده في المحبة والإيثار وغيره، وأن في الإخلال بذلك يختل عليه الأمر وتفسد الأحوال، ولهذا لما قدم يعقوب يوسف في المحبة وآثره على إخوته؛ جرى منهم ما جرى على أنفسهم وعلى أبيهم وأخيهم.

ومنها: الحذر من شؤم الذنوب، وأن الذنب الواحد يستتبع ذنوبًا متعددة، ولا يتم لفاعله إلا بعدة جرائم؛ فإخوة يوسف لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه؛ احتالوا لذلك بأنواع من الحيل، وكذبوا عدة مرات، وزوروا على أبيهم في القميص والدم الذي فيه، وفي إتيانهم عشاء يبكون، ولا تستبعد أنه قد كثر البحث فيها في تلك المدة، بل لعل ذلك اتصل إلى أن اجتمعوا بيوسف، وكلما صار البحث؛ حصل من الإخبار بالكذب والافتراء ما حصل، وهذا شؤم الذنب وآثاره التابعة والسابقة واللاحقة.

ومنها: أن العبرة في حال العبد بكمال النهاية لا بنقص البداية؛ فإن أولاد يعقوب عليهم السلام جرى منهم ما جرى في أول الأمر مما هو أكبر أسباب النقص واللوم، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح والسماح التام من يوسف ومن أبيهم والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، وإذا سمح العبد عن حقه؛ فالله خير الراحمين، ولهذا في أصح الأقوال أنهم كانوا أنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [النساء: ١٦٣]، وهم أولاد يعقوب الاثنا عشر وذريتهم، ومما يدل على ذلك أن في رؤيا يوسف أنه رآهم كواكب نيرة، والكواكب فيها النور والهداية، الذي من صفات الأنبياء؛ فإن لم يكونوا أنبياء؛ فإنهم علماء هداة.

ومنها: ما منَّ الله به على يوسف عليه الصلاة والسلام من العلم والحلم ومكارم الأخلاق والدعوة إلى الله وإلى دينه وعفوه عن إخوته الخاطئين عفوًا بادرهم به وتمم ذلك بألَّا يثرب عليهم ولا يعيرهم به، ثم بره العظيم بأبويه وإحسانه لإخوته، بل لعموم الخلق.

ومنها: أن بعض الشر أهون من بعض، وارتكاب أخف الضررين أولى من ارتكاب أعظمهما؛ فإن إخوة يوسف لما اتفقوا على قتل يوسف أو إلقائه أرضًا، وقال قائل منهم: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾؛ كان قوله أحسن منهم وأخف، وبسببه خف عن إخوته الإثم الكبير.

ومنها: أن الشيء إذا تداولته الأيدي وصار من جملة الأموال ولم يعلم أنه كان على غير وجه الشرع؛ أنه لا إثم على من باشره ببيع أو شراء أو خدمة أو انتفاع أو استعمال؛ فإن يوسف عليه السلام باعه إخوته بيعًا حرامًا لا يجوز، ثم ذهبت به السيارة إلى مصر، فباعوه بها، وبقي عند سيده غلامًا رقيقًا، وسماه الله شراءً، وكان عندهم بمنزلة الغلام الرقيق المكرم.

ومنها: الحذر من الخلوة بالنساء اللاتي يخشى منهن الفتنة، والحذر أيضًا من المحبة التي يخشى ضررها؛ فإن امرأة العزيز جرى منها ما جرى بسبب انفرادها[1] بيوسف وحبها الشديد له، الذي ما تركها حتى راودته تلك المراودة، ثم كذبت عليه، فسجن بسببها مدة طويلة.

ومنها: أن الهم الذي هم به يوسف بالمرأة ثم تركه لله مما يرقيه إلى الله زلفى؛ لأن الهم داع من دواعي النفس الأمارة بالسوء، وهو طبيعة لأغلب الخلق، فلما قابل بينه وبين محبة الله وخشيته؛ غلبت محبة الله وخشيته داعي النفس والهوى، فكان ممن ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠﴾ [النازعات: ٤٠]، ومن السبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله؛ أحدهم: رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله. وإنما الهم الذي يلام عليه العبد الهم الذي يساكنه، ويصير عزمًا ربما اقترن به الفعل.

ومنها: أن من دخل الإيمان قلبه، وكان مخلصًا لله في جميع أموره؛ فإن الله يدفع عنه ببرهان إيمانه وصدق إخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي ما هو جزاء لإيمانه وإخلاصه؛ لقوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٢٤﴾: على قراءة من قرأها بكسر اللام، ومن قرأها بالفتح؛ فإنه من إخلاص الله إياه، وهو متضمن لإخلاصه هو بنفسه، فلما أخلص عمله لله؛ أخلصه الله، وخلصه من السوء والفحشاء.

ومنها: أنه ينبغي للعبد إذا رأى محلًّا فيه فتنة وأسباب معصية أن يفر منه ويهرب غاية ما يمكنه؛ ليتمكن من التخلص من المعصية؛ لأن يوسف عليه السلام لما راودته

(١) ع، ط: «توحدها».

التي هو في بيتها؛ فر هاربًا يطلب الباب ليتخلص من شرها.

ومنها: أن القرائن يعمل بها عند الاشتباه، فلو تخاصم رجل وامرأته في شيء من أواني الدار؛ فما يصلح للرجل؛ فإنه للرجل، وما يصلح للمرأة؛ فهو لها، هذا إذ لم يكن بينة، وكذا لو تنازع نجار وحداد في آلة حرفتهما من غير بينة، والعمل بالقيافة[1] في الأشباه والأثر من هذا الباب؛ فإن شاهد يوسف شهد بالقرينة وحكم بها في قد القميص واستدل بقده من دبره على صدق يوسف وكذبها. ومما يدل على هذه القاعدة أنه استدل بوجود الصواع في رحل أخيه على الحكم عليه بالسرقة من غير بينة شهادة ولا إقرار؛ فعلى هذا إذا وجد المسروق في يد السارق، خصوصًا إذا كان معروفًا بالسرقة؛ فإنه يحكم عليه بالسرقة، وهذا أبلغ من الشهادة. وكذلك وجود الرجل يتقيأ الخمر أو وجود المرأة التي لا زوج لها ولا سيد - حاملًا؛ فإنه يقام بذلك الحد ما لم يقم مانع منه، ولهذا سمى الله هذا الحكم شاهدًا، فقال: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾.

ومنها: ما عليه يوسف من الجمال الظاهر والباطن؛ فإن جماله الظاهر أوجب للمرأة التي هو في بيتها ما أوجب، وللنساء اللاتي جمعتهن حين لُمنها على ذلك أن قطعنَّ أيديهن وقلن: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١﴾. وأما جماله الباطن؛ فهو العفة العظيمة عن المعصية مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوعها وشهادة امرأة العزيز والنسوة بعد ذلك ببراءته، ولهذا قالت امرأة العزيز: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾، وقالت بعد ذلك: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٥١﴾، وقالت النسوة: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾.

ومنها: أن يوسف عليه السلام اختار السجن على المعصية؛ فهكذا ينبغي للعبد إذا ابتلي بين أمرين: إما فعل معصية، وإما عقوبة دنيوية: أن يختار العقوبة الدنيوية على مواقعة الذنب الموجب للعقوبة الشديدة في الدنيا والآخرة، ولهذا من علامات الإيمان أن يكره العبد أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يلتجئ إلى الله ويحتمي بحماه عند وجود أسباب المعصية ويتبرأ من حوله وقوته؛ لقول يوسف عليه السلام: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٣٣﴾.

ومنها: أن العلم والعقل يدعوان صاحبهما إلى الخير وينهيانه عن الشر، وأن الجهل يدعو صاحبه إلى موافقة هوى النفس وإن كان معصية ضارًّا لصاحبه.

ومنها: أنه كما على العبد عبودية لله في الرخاء؛ فعليه عبودية في الشدة؛ فيوسف عليه السلام لم يزل يدعو إلى الله، فلما دخل السجن؛ استمر على ذلك ودعا الفتيين إلى التوحيد ونهاهما عن الشرك. ومن فطنته - عليه السلام - أنه لما رأى فيهما قابلية لدعوته حيث ظنّا فيه الظن الحسن، وقالا له: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٦﴾ وأتياه لأن يعبر لهما رؤياهما، فرآهما متشوقين لتعبيرها عنده، رأى ذلك فرصة فانتهزها، فدعاهما إلى الله تعالى قبل أن يعبر رؤياهما؛ ليكون أنجح لمقصوده وأقرب لحصول مطلوبه، وبين لهما أولًا أن الذي أوصله إلى الحال التي رأياه فيها من الكمال والعلم إيمانه وتوحيده وتركه ملة من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، وهذا دعاء لهما بلسان الحال، ثم دعاهما بالمقال، وبين فساد الشرك وبرهن عليه، وحقيقة التوحيد وبرهن عليه.

ومنها: أنه يبدأ بالأهم فالأهم، وأنه إذا سئل المفتي، وكان السائل في حاجة أشد لغير ما سأل عنه؛ أنه ينبغي له أن يعلمه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله؛ فإن هذا علامة على نصح المعلم وفطنته وحسن إرشاده وتعليمه؛ فإن يوسف لما سأله الفتيان عن الرؤيا؛ قدم لهما قبل تعبيرها دعوتهما إلى الله وحده لا شريك له.

ومنها: أن من وقع في مكروه وشدة؛ لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه أو الإخبار بحاله، وأن هذا لا يكون شكوى للمخلوق؛ فإن هذا من الأمور العادية التي جرى العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض، ولهذا قال يوسف للذي ظن أنه ناج من الفتيين: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾.

ومنها: أنه ينبغي ويتأكد على المعلم استعمال الإخلاص التام في تعليمه، وألَّا يجعل تعليمه وسيلة لمعاوضة أحد في مال أو جاه أو نفع، وألَّا يمتنع من التعليم أو لا ينصح فيه إذا لم يفعل السائل ما كلفه به المعلم؛ فإن يوسف عليه السلام قد قال، ووصى أحد الفتيين أن يذكره عند ربه، فلم يذكره ونسي، فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف؛ أرسلوا ذلك الفتى، وجاءه سائلًا مستفتيًا عن تلك الرؤيا، فلم يعنفه

(١) ع: «بالقافة».

يوسف، ولا وبخه لتركه ذكره، بل أجابه عن سؤاله جوابًا تامًّا من كل وجه.

ومنها: أنه ينبغي للمسئول أن يدل السائل على أمر ينفعه مما يتعلق بسؤاله ويرشده إلى الطريق التي ينتفع بها في دينه ودنياه؛ فإن هذا من كمال نصحه وفطنته وحسن إرشاده؛ فإن يوسف عليه السلام لم يقتصر على تعبير رؤيا الملك، بل دلهم - مع ذلك - على ما يصنعون في تلك السنين المخصبات من كثرة الزرع وكثرة جبايته.

ومنها: أنه لا يلام الإنسان على السعي في دفع التهمة عن نفسه وطلب البراءة لها، بل يحمد على ذلك؛ كما امتنع يوسف عن الخروج من السجن حتى تتبين لهم براءته بحال النسوة اللاتي قطعن أيديهن.

ومنها: فضيلة العلم؛ علم الأحكام والشرع، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم التدبير والتربية، وأنه أفضل من الصورة الظاهرة، ولو بلغت في الحسن جمال يوسف؛ فإن يوسف بسبب جماله حصلت له تلك المحنة والسجن، وبسبب علمه حصل له العز والرفعة والتمكين في الأرض؛ فإن كل خير في الدنيا والآخرة من آثار العلم وموجباته.

ومنها: أن علم التعبير من العلوم الشرعية، وأنه يثاب الإنسان على تعلمه وتعليمه، وأن تعبير الرؤيا[1] داخل في الفتوى؛ لقوله للفتيين: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾، وقال الملك: ﴿أَفْتُونِي فِي رُءْيَىٰ﴾، وقال الفتى ليوسف: ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ﴾ الآيات؛ فلا يجوز الإقدام على تعبير الرؤيا من غير علم.

ومنها: أنه لا بأس أن يخبر الإنسان عما في نفسه من صفات الكمال من علم أو عمل إذا كان في ذلك مصلحة، ولم يقصد به العبد الرياء، وسلم من الكذب؛ لقول يوسف: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾.

وكذلك لا تذم الولاية إذا كان المتولي فيها يقوم بما يقدر عليه من حقوق الله وحقوق عباده، وأنه لا بأس بطلبها إذا كان أعظم كفاءة من غيره، وإنما الذي يذم إذا لم يكن فيه كفاية، أو كان موجودًا غيره مثله أو أعلى منه، أو لم يرد بها إقامة أمر الله؛ فبهذه الأمور ينهى عن طلبها والتعرض لها.

ومنها: أن الله واسع الجود والكرم، يجود على عبده بخير الدنيا والآخرة، وأن خير الآخرة له سببان: الإيمان، والتقوى، وأنه خير من ثواب الدنيا وملكها، وأن العبد ينبغي له أن يدعو نفسه، ويشوقها لثواب الله، ولا يدعها تحزن إذا رأت أهل الدنيا ولذاتها وهي غير قادرة عليها، بل يسليها بثواب الله الأخروي وفضله العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

ومنها: أن جباية الأرزاق إذا أريد بها التوسعة على الناس من غير ضرر يلحقهم؛ لا بأس بها؛ لأن يوسف أمرهم بجباية الأرزاق والأطعمة في السنين المخصبات[2] للاستعداد للسنين المجدبة، وأن هذا غير مناقض للتوكل على الله، بل يتوكل العبد على الله، ويعمل بالأسباب التي تنفعه في دينه ودنياه.

ومنها: حسن تدبير يوسف لما تولى خزائن الأرض حتى كثرت عندهم الغلات جدًّا، حتى صار أهل الأقطار يقصدون مصر لطلب الميرة منها؛ لعلمهم بوفورها فيها، وحتى إنه كان لا يكيل لأحد إلا مقدار الحاجة الخاصة، أو أقل لا يزيد كل قادم على كيل بعير وحمله.

ومنها: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن المرسلين، وإكرام الضيف؛ لقول يوسف لإخوته: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾.

ومنها: أن سوء الظن مع وجود القرائن الدالة عليه غير ممنوع ولا محرم؛ فإن يعقوب قال لأولاده بعدما امتنع من إرسال يوسف معهم حتى عالجوه أشد المعالجة ثم قال لهم بعدما أتوه وزعموا أن الذئب أكله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾، وقال لهم في الأخ الآخر: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾، ثم لما احتبسه يوسف عنده، وجاء إخوته لأبيهم؛ قال لهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾؛ فهم في الأخيرة وإن لم يكونوا مفرطين؛ فقد جرى منهم ما أوجب لأبيهم أن قال ما قال من غير إثم عليه ولا حرج.

ومنها: أن استعمال الأسباب الدافعة للعين وغيرها من المكاره أو الرافعة لها بعد نزولها غير ممنوع، بل جائز، وإن كان لا يقع شيء إلا بقضاء وقدر؛ فإن الأسباب أيضًا من القضاء والقدر؛ لأمر يعقوب؛ حيث قال لبنيه: ﴿يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾.

(١) ع: «المرائي».

(٢) ع: «المخصبة».

ومنهـا: جـواز اسـتعمال المكايـد التـي يتوصـل بهـا إلى الحقـوق، وأن العلم بالطرق الخفيـة الموصلة إلى مقاصدها ممـا يحمد عليـه العبد، وإنمـا الممنوع التحيل على إسـقاط واجب أو فعل محرم.

ومنهـا: أنه ينبغي لمن أراد أن يوهـم غيره بأمر لا يحب أن يطلـع عليه أن يستعمل المعاريض القوليـة والفعلية المانعة لـه مـن الكذب؛ كمـا فعل يوسـف حيـث ألقى الصـواع في رحـل أخيه، ثم اسـتخرجها منه موهمًا أنه سـارق، وليس فيه إلا القرينـة الموهمـة لإخوته، وقال بعـد ذلك: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾، ولـم يقل: من سـرق متاعنا. وكذلك لم يقل: إنا وجدنا متاعنا عنده؛ بل أتى بكلام عام يصلح له ولغيره، وليس في ذلك محذور، وإنما فيه إيهام أنه سـارق؛ ليحصل المقصود الحاضر، وأنه يبقى عند أخيه، وقد زال عن الأخ هذا الإيهام بعدما تبينت الحال.

ومنها: أنه لا يجوز للإنسان أن يشهد إلا بما علمه وتحققه إما بمشاهدة أو خبر من يثق به، وتطمئن إليه النفس؛ لقولهم: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾.

ومنها: هذه المحنة العظيمة التي امتحن الله بها نبيه وصفيه يعقـوب عليه السـلام؛ حيث قضـى بالتفريـق بينه وبيـن ابنه يوسـف الذي لا يقدر على فراقه سـاعة واحدة ويحزنه ذلك أشـد الحزن، فحصـل التفريق بينه وبينه مـدة طويلة لا تقصر عـن ثلاثيـن سـنة، ويعقـوب لـم يفارق الحـزن قلبـه في هذه المـدة، ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ۝٨٤﴾، ثم ازداد به الأمر شـدة حين صار الفـراق بينه وبين ابنه الثاني شـقيق يوسـف، هذا وهو صابر لأمر الله محتسب الأجر من الله قد وعد من نفسـه الصبر الجميل، ولا شـك أنه وفَّى بما وعـد به، ولا ينافي ذلك قولـه: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ فـإن الشـكوى إلى اللـه لا تنافي الصبـر، وإنما الذي ينافيه الشكوى إلى المخلوقين.

ومنهـا: أن الفـرج مع الكـرب، وأن مع العسـر يسـرًا؛ فإنه لمـا طال الحـزن على يعقوب واشـتد به إلى أنهـى ما يكون، ثـم حصـل الاضطـرار لآل يعقوب ومسـهم الضـر؛ أذن الله حينئـذ بالفرج، فحصل التلاقي في أشـد الأوقـات إليه حاجة واضطرارًا، فتم بذلك الأجر وحصل السـرور وعلم من ذلك أن الله يبتلي أولياءه بالشدة والرخاء والعسر واليسر؛ ليمتحن صبرهم وشكرهم، ويزداد بذلك إيمانهم ويقينهم وعرفانهم.

ومنها: جواز إخبار الإنسـان بما يجد وما هو فيه من مرض أو فقر ونحوهما على غير وجه التسـخط؛ لأن إخوة يوسـف قالـوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾، ولـم ينكـر عليهـم يوسف.

ومنهـا: فضيلـة التقـوى والصبـر، وأن كل خير فـي الدنيا والآخرة فمن آثار التقوى والصبر، وأن عاقبة أهلهما أحسـن العواقـب؛ لقوله: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٩٠﴾.

ومنهـا: أنه ينبغي لمن أنعم الله عليه بنعمة بعد شـدة وفقر وسـوء حال أن يعترف بنعمة اللـه عليه، وألَّا يزال ذاكرًا حاله الأولى؛ ليحدث لذلك شكرًا كلما ذكرها؛ لقول يوسف عليه السـلام: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾.

ومنهـا: لطـف اللـه العظيم بيوسـف؛ حيث نقلـه في تلك الأحـوال، وأوصـل إليه الشـدائد والمحن؛ ليوصلـه بها إلى أعلى الغايات ورفيع الدرجات.

ومنهـا: أنه ينبغـي للعبد أن يتملق إلى اللـه دائمًا في تثبيت إيمانه، ويُعْمِلَ الأسـباب الموجبة لذلك، ويسـأل الله حسن الخاتمة وتمام النعمة؛ لقول يوسـف عليه الصلاة والسـلام: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠١﴾.

فهذا ما يَسَّرَ الله من الفوائد والعبر في هذه القصة المباركة، ولا بد أن يظهر للمتدبر المتفكر غير ذلك؛ فنسأله تعالى علمًا نافعًا وعملًا متقبلًا إنه جواد كريم.

تم تفسير سورة يوسف وأبيه وإخوته عليهم الصلاة والسلام. والحمد لله رب العالمين.



سُورَةُ الرَّعْدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ
عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ
يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ
رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ
وَأَنْهَٰرًاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ
ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ
قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ
وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ
فِى ٱلْأُكُلِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾
۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ
جَدِيدٍۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ
فِىٓ أَعْنَاقِهِمْۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾

٢٤٩

تفسير سورة الرعد
وهي مدنية - وقيل مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾.

﴿١﴾ يخبر تعالى أن هذا القرآن هو آيات الكتاب الدالة على كل ما يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه، وأن الذي أُنزِلَ إلى الرسول من ربه هو الحق المبين؛ لأن أخباره صدق وأوامره ونواهيه عدل مؤيدة بالأدلة والبراهين القاطعة؛ فمن أقبل عليه وعلى علمه؛ كان من أهل العلم بالحق الذي يوجب لهم علمهم العمل بما أحب الله. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾: بهذا القرآن: إما جهلًا وإعراضًا عنه وعدم اهتمام به، وإما عنادًا وظلمًا؛ فلذلك أكثر الناس غير منتفعين به؛ لعدم السبب الموجب للانتفاع.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿٢﴾ يخبر تعالى عن انفراده بالخلق والتدبير والعظمة والسلطان الدال على أنه وحده المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: على عظمها واتساعها بقدرته العظيمة، ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾؛ أي: ليس لها عمد من تحتها؛ فإنه لو كان لها عمد؛ لرأيتموها، ﴿ثُمَّ﴾: بعدما خلق السماوات والأرض، ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: العظيم، الذي هو أعلى المخلوقات، استواء يليق بجلاله ويناسب كماله. ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾: لمصالح العباد ومصالح مواشيهم وثمارهم. ﴿كُلٌّ﴾: من الشمس والقمر، ﴿يَجْرِى﴾: بتدبير العزيز العليم ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: بسير منتظم لا يفتران ولا ينيان حتى يجيء الأجل المسمى، وهو طي الله هذا العالم ونقلهم إلى الدار الآخرة التي هي دار القرار؛ فعند ذلك يطوي الله السماوات ويبدلها ويغير الأرض ويبدلها، فتكور الشمس والقمر ويجمع بينهما فيلقيان في النار؛ ليرى من عبدهما أنهما غير أهل للعبادة، فيتحسر بذلك أشد الحسرة، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين. وقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾: هذا جمع بين الخلق والأمر؛ أي: قد استوى الله العظيم على سرير الملك؛ يدبر الأمور في العالم العلوي والسفلي، فيخلق ويرزق، ويغني ويفقر، ويرفع أقوامًا ويضع آخرين، ويعز ويذل، ويخفض ويرفع، ويقيل العثرات، ويفرج الكربات، وينفذ الأقدار في أوقاتها التي سبق بها علمه وجرى بها قلمه، ويرسل ملائكته الكرام لتدبير ما جعلهم على تدبيره، ويُنزِّل الكتب الإلهية على رسله، ويبين ما يحتاج إليه العباد من الشرائع والأوامر والنواهي، ويفصلها غاية التفصيل ببيانها وإيضاحها وتمييزها. ﴿لَعَلَّكُم﴾: بسبب ما أخرج لكم من

الآيـات الأفقية والآيات القرآنية، ﴿ بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢ ﴾: فإن كثرة الأدلة وبيانها ووضوحها من أسـباب حصول اليقين فـي جميـع الأمـور الإلهيـة، خصوصًـا فـي العقائـد الكبار؛ كالبعث والنشور والإخراج من القبور.

وأيضًـا؛ فقـد عُلِـمَ أن الله تعالـى حكيم؛ لا يخلـق الخلق سـدًى، ولا يتركهـم عبثًا؛ فكما أنه أرسـل رسـله وأنزل كتبه لأمـر العبـاد ونهيهـم؛ فلا بـد أن ينقلهـم إلى دار يحـل فيهم جـزاؤه؛ فيجـازي المحسـنين بأحسـن الجـزاء، ويجـازي المسيئين بإساءتهم.

﴿٣﴾ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ ﴾؛ أي: خلقهـا للعبـاد ووسعها وبارك فيها ومهدها للعباد وأودع فيها من مصالحهم ما أودع، ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ ﴾؛ أي: جبالًا عظامًا؛ لئلا تميد بالخلـق؛ فإنـه لولا الجبال؛ لمـادت بأهلها؛ لأنهـا على تيار مـاء لا ثبـوت لهـا ولا اسـتقرار إلا بالجبـال الرواسـي التي جعلهـا اللـه أوتادًا لهـا، وجعل فيهـا أنهارًا تسـقي الآدميين وبهائمهـم وحروثهـم؛ فأخـرج بها مـن الأشـجار والزروع والثمار خيرًا كثيرًا، ولهذا قال: ﴿ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾؛ أي: صنفيـن مما يحتاج إليه العباد. ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ﴾: فتظلم الآفاق، فيسـكن كل حيوان إلى مأواه، ويسـتريحون من التعب والنصب فـي النهار، ثـم إذا قضوا مآربهـم من النـوم؛ غشـي النهار الليـل؛ فإذا هـم مصبحون ينتشرون في مصالحهم وأعمالهم في النهار، ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٣ ﴾ [القصص: ٧٣]. ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ﴾: علـى المطالـب الإلهيـة ﴿ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣ ﴾: فيهـا وينظـرون فيها نظر اعتبار، دالـة على أن الذي خلقها ودبرها وصرَّفهـا هـو الله الذي لا إله إلا هو، ولا معبود سـواه، وأنه عالـم الغيب والشـهادة الرحمن الرحيم، وأنه القادر على كل شـيء، الحكيم في كل شـيء، المحمود على مـا خلقه وأمر به، تبارك وتعالى.

﴿٤﴾ ومـن الآيـات علـى كمـال قدرتـه وبديـع صنعتـه أن جعـل فـي ﴿ ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ ﴾: فيهـا أنـواع الأشجار: من ﴿ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ ﴾، وغير ذلك، والنخيل التـي بعضها ﴿ صِنْوَانٌ ﴾؛ أي: عدة أشـجار فـي أصل واحد. ﴿ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ﴾: بأن كان كل شـجرة على حدتها، والجميع ﴿ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ ﴾: وأرضه واحدة. ﴿ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ﴾: لونـًا وطعمـًا ونفعـًا ولـذة؛ فهذه أرض طيبة تنبت الكلأ والعشـب الكثير والأشجار والزروع، وهذه أرض تلاصقهـا لا تنبت كلأً ولا تمسـك ماء، وهذه تمسـك الماء ولا تنبت الكلأ، وهذه تنبت الزرع والأشجار ولا تنبت الكلأ، وهذه الثمرة حلوة وهذه مرة وهذه بين ذلك؛ فهل هذا التنوع في ذاتها وطبيعتها أم ذلك تقدير العزيز الرحيم؟ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٤ ﴾؛ أي: لقوم لهم عقول تهديهـم إلـى ما ينفعهـم وتقودهم إلى ما يرشـدون ويعقلون عـن الله وصاياه وأوامره ونواهيه، وأما أهل الإعراض وأهل البـلادة؛ فهـم فـي ظلماتهـم يعمهون وفـي غيهم يتـرددون، لا يهتدون إلى ربهم سبيلًا ولا يَعُونَ له قيلًا.

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥ ﴾.

﴿٥﴾ يحتمـل أن معنى قولـه: ﴿ وَإِن تَعْجَبْ ﴾: من عظمة اللـه تعالـى وكثرة أدلـة توحيده؛ فـإن العجب مع هـذا إنكار المكذبيـن وتكذيبهم بالبعـث وقولهـم: ﴿ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾؛ أي: هـذا بعيد في غايـة الامتناع بزعمهم أنهـم بعدمـا كانـوا ترابًـا أن الله يعيدهـم؛ فإنهم مـن جهلهم قاسـوا قدرة الخالق بقـدرة المخلوق، فلمـا رأوا هذا ممتنعًا فـي قـدرة المخلـوق، ظنـوا أنـه ممتنع علـى قـدرة الخالق، ونسـوا أن اللـه خلقهم أول مـرة ولم يكونوا شـيئًا. ويحتمل أن معنـاه: وإن تعجب من قولهم وتكذيبهم للبعث؛ فإن ذلك مـن العجائب؛ فإن الذي توضح لـه الآيات ويرى منها الأدلة القاطعة على البعث ما لا يقبل الشـك والريب ثم ينكر ذلك؛ فإن قوله من العجائب، ولكن ذلك لا يسـتغرب على ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ﴾: وجحـدوا وحدانيتـه، وهـي أظهـر الأشـياء وأجلاها. ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ ﴾: المانعة لهم من الهدى ﴿ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ﴾: حيـث دعـوا إلى الإيمـان فلم يؤمنـوا، وعرض عليهم الهـدى فلم يهتـدوا، فقلبت قلوبهـم وأفئدتهم عقوبة علـى أنهم لم يؤمنوا بـه أول مرة. ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥ ﴾: لا يخرجون منها أبدًا.

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٦ ﴾.

﴿٦﴾ يخبر تعالى عن جهل المكذبين لرسوله، المشركين به، الذين وعظوا فلم يتعظوا، وأقيمت عليهم الأدلة فلم ينقادوا لها، بل جاهروا بالإنكار، واستدلوا بحلم الله الواحد القهار عنهم وعدم معاجلتهم بذنوبهم أنهم على حق، وجعلوا يستعجلون الرسول بالعذاب، ويقول قائلهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢]. والحال أنه قد ﴿خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾؛ أي: وقائع الله وأيامه في الأمم المكذبين، أفلا يتفكرون في حالهم ويتركون جهلهم؟! ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾؛ أي: لا يزال خيره إليهم وإحسانه وبره وعفوه نازلًا إلى العباد، وهم لا يزال شركهم[1] وعصيانهم إليه صاعدًا؛ يعصونه فيدعوهم إلى بابه، ويجرمون فلا يحرمهم خيره وإحسانه؛ فإن تابوا إليه؛ فهو حبيبهم؛ لأنه يحب التوابين ويحب المتطهرين، وإن لم يتوبوا؛ فهو طبيبهم؛ يبتليهم بالمصائب ليطهرهم من المعايب: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣]. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾: على من لم يزل مصرًّا على الذنوب، قد أبى التوبة والاستغفار والالتجاء إلى العزيز الغفار؛ فليحذر العباد عقوباته بأهل الجرائم؛ فإن أخذه أليم شديد.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾.

﴿٧﴾ أي: ويقترح الكفار عليك من الآيات التي يعينونها ويقولون: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، ويجعلون هذا القول منهم عذرًا لهم في عدم الإجابة إلى الرسول، والحال أنه منذر، ليس له من الأمر شيء، والله هو الذي ينزل الآيات، وقد أيده بالأدلة البينات التي لا تخفى على أولي الألباب، وبها يهتدي من قَصْدُهُ الحق، وأما الكافر الذي من ظلمه وجهله يقترح على الله الآيات؛ فهذا اقتراح منه باطل وكذب وافتراء؛ فإنه لو جاءته أي آية كانت؛ لم يؤمن ولم ينقد؛ لأنه لم يمتنع من الإيمان لعدم ما يدله على صحته، وإنما ذلك لهوى نفسه واتباع شهوته. ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾؛ أي: داع يدعوهم إلى الهدى من الرسل وأتباعهم، ومعهم من الأدلة والبراهين ما يدل على صحة ما معهم من الهدى.

(١) ع، ط: «شرهم».

الجزء الثالث عشر — سورة الرعد

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾

٢٥٠

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾.

﴿٨﴾، ﴿٩﴾ يخبر تعالى بعموم علمه وسعة اطلاعه وإحاطته بكل شيء، فقال: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾: من بني آدم وغيرهم، ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾؛ أي: تنقص مما فيها، إما أن يهلك الحمل أو يتضاءل أو يضمحل، ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾: الأرحام وتكبر الأجنة التي فيها. ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾﴾: لا يتقدم عليه ولا يتأخر ولا يزيد ولا ينقص إلا بما تقتضيه حكمته وعلمه؛ فإنه ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ

﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾: في ذاته وأسمائه وصفاته، ﴿ٱلۡمُتَعَالِ ⑨﴾: على جميع خلقه بذاته وقدرته وقهره.

⑩ ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم﴾: في علمه وسمعه وبصره، ﴿مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ﴾؛ أي: مستقر بمكان خفي فيه، ﴿وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ⑩﴾؛ أي: داخل سربه في النهار، والسرب هو ما يستخفي فيه الإنسان: إما جوف بيته، أو غار، أو مغارة، أو نحو ذلك.

⑪ ﴿لَهُۥ﴾؛ أي: للإنسان ﴿مُعَقِّبَٰتٞ﴾: من الملائكة يتعاقبون في الليل والنهار، ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾؛ أي: يحفظون بدنه وروحه من كل من يريده بسوء، ويحفظون عليه أعماله، وهم ملازمون له دائمًا؛ فكما أن علم الله محيط به؛ فالله قد أرسل هؤلاء الحفظة على العباد بحيث لا تخفى أحوالهم ولا أعمالهم ولا ينسى منها شيء. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ﴾: من النعمة والإحسان ورغد العيش، ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾: بأن ينتقلوا من الإيمان إلى الكفر، ومن الطاعة إلى المعصية، أو من شكر نعم الله إلى البطر بها، فيسلبهم الله عند ذلك إياها، وكذلك إذا غير العباد ما بأنفسهم من المعصية، فانتقلوا إلى طاعة الله؛ غير الله عليهم ما كانوا فيه من الشقاء إلى الخير والسرور والغبطة والرحمة. ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا﴾؛ أي: عذابًا وشدة وأمرًا يكرهونه؛ فإن إرادته لا بد أن تنفذ فيهم، فإنه لا ﴿مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾، ولا أحد يمنعهم منه، ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ⑪﴾: يتولى أمورهم، فيجلب لهم المحبوب، ويدفع عنهم المكروه. فليحذروا من الإقامة على ما يكره الله؛ خشية أن يحل بهم من العقاب ما لا يرد عن القوم المجرمين.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ⑫ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ⑬﴾.

⑫ يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾؛ أي: يخاف منه الصواعق والهدم وأنواع الضرر على بعض الثمار ونحوها، ويطمع في خيره ونفعه، ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ⑫﴾: بالمطر الغزير الذي به نفع العباد والبلاد.

⑬ ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ﴾: وهو الصوت الذي يسمع من السحاب المزعج للعباد؛ فهو خاضع لربه، مسبح بحمده، وتسبح الملائكة ﴿مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾؛ أي: خشعًا لربهم خائفين من سطوته، ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾: وهي هذه النار التي تخرج من السحاب. ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾: من عباده بحسب ما شاءه وأراده. ﴿وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ⑬﴾؛ أي: شديد الحول والقوة؛ فلا يريد شيئًا إلا فعله، ولا يتعاصى عليه شيء، ولا يفوته هارب. فإذا كان هو وحده الذي يسوق للعباد الأمطار والسحب التي فيها مادة أرزاقهم، وهو الذي يدبر الأمور وتخضع له المخلوقات العظام التي يخاف منها وتزعج العباد، وهو شديد القوة؛ فهو الذي يستحق أن يعبد وحده لا شريك له، ولهذا قال:

﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ⑭﴾.

⑭ ﴿لَهُۥ﴾ أي: لله وحده ﴿دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ﴾: وهي عبادته وحده لا شريك له، وإخلاص دعاء العبادة ودعاء المسألة له تعالى؛ أي: هو الذي ينبغي أن يصرف له الدعاء والخوف والرجاء والحب والرغبة والرهبة والإنابة؛ لأن ألوهيته هي الحق، وألوهية غيره باطلة. ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾: من الأوثان والأنداد التي جعلوها شركاء لله، ﴿لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم﴾؛ أي: لمن يدعوها ويعبدها بشيء قليل ولا كثير، لا من أمور الدنيا ولا من أمور الآخرة. ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ﴾: الذي لا تناله كفاه لبعده؛ ﴿لِيَبۡلُغَ﴾: ببسط كفيه إلى الماء ﴿فَاهُ﴾؛ فإنه عطشان، ومن شدة عطشه يتناول بيده ويبسطها إلى الماء الممتنع وصولها إليه؛ فلا يصل إليه؛ كذلك الكفار الذين يدعون مع الله آلهة لا يستجيبون لهم بشيء ولا ينفعونهم في أشد الأوقات إليهم حاجة؛ لأنهم فقراء؛ كما أن من دعوهم فقراء ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي﴾ الأرض ولا في السماء ﴿وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ㉒﴾ [سبأ: ٢٢]، ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ⑭﴾: لبطلان ما يدعون من دون الله، فبطلت عبادتهم ودعاؤهم؛ لأن الوسيلة تبطل ببطلان غايتها، ولما كان الله تعالى هو الملك الحق المبين؛ كانت عبادته حقًّا متصلة النفع بصاحبها في الدنيا والآخرة.

وتشبيه دعاء الكافرين لغير الله بالذي يبسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه من أحسن الأمثلة؛ فإن ذلك تشبيه بأمر محال؛ فكما أن هذا محال؛ فالمشبه به محال، والتعليق على المحال من أبلغ ما يكون في نفي الشيء؛ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾ [الأعراف: ٤٠].

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿١٥﴾ أي: جميع ما احتوت عليه السماوات والأرض كلها خاضعة لربها، تسجد له ﴿ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾: فالطوع لمن يأتي بالسجود والخضوع اختيارًا كالمؤمنين، والكره لمن يستكبر عن عبادة ربه، وحاله وفطرته تكذبه في ذلك. ﴿ وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿١٥﴾ ﴾؛ أي: وتسجد له ظلال المخلوقات أول النهار وآخره، وسجود كل شيء بحسب حاله؛ كما قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤]؛ فإذا كانت المخلوقات كلها تسجد لربها طوعًا وكرهًا؛ كان هو الإله[1] حقًّا، المعبود المحمود حقًّا، وإلهية غيره باطلة، ولهذا ذكر بطلانها وبرهن عليه بقوله:

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَـٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَـٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّـٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿١٦﴾ أي: قل لهؤلاء المشركين به أوثانًا وأندادًا؛ يحبونها كما يحبون الله، ويبذلون لها أنواع التقربات والعبادات: أفتاهت عقولكم حتى اتخذتم من دونه أولياء تتولونهم بالعبادة وليسوا بأهل لذلك؛ فإنهم ﴿ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾، وتتركون ولاية من هو كامل الأسماء والصفات، المالك للأحياء والأموات، الذي بيده الخلق والتدبير والنفع والضر؛ فما تستوي عبادة الله وحده وعبادة المشركين به، كما لا يستوي الأعمى والبصير، ﴿ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَـٰتُ وَٱلنُّورُ ﴾: فإن كان عندهم شك واشتباه وجعلوا له شركاء، زعموا أنهم خلقوا كخلقه، وفعلوا كفعله؛ فأزل عنهم

(١) ع: «الله».

لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَـٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَـٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّـٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾

هذا الاشتباه واللبس بالبرهان الدال على تفرد[2] الإله بالوحدانية، فقل لهم: الله خالق كل شيء؛ فإنه من المحال أن يخلق شيء من الأشياء نفسه، ومن المحال أيضًا أن يوجد من دون خالق، فتعين أن لها إلهًا خالقًا لا شريك له في خلقه؛ لأنه الواحد القهار؛ فإنه لا توجد الوحدة والقهر إلا لله وحده؛ فالمخلوقات كل مخلوق فوقه مخلوق يقهره، ثم فوق ذلك القاهر قاهر أعلى منه، حتى ينتهي القهر للواحد القهار؛ فالقهر والتوحيد متلازمان متعينان لله وحده، فتبين بالدليل العقلي القاهر أن ما يدعى من دون الله ليس له شيء من خلق المخلوقات، وبذلك كانت عبادته باطلة.

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾.

(٢) ع، ط: «توحد».

(١٧) شبه تعالى الهدى الذي أنزل[1] على رسوله لحياة القلوب والأرواح بالماء الذي أنزله لحياة الأشباح، وشبه ما في الهدى من النفع العام الكثير الذي يضطر إليه العباد بما في المطر من النفع العام الضروري، وشبه القلوب الحاملة للهدى وتفاوتها بالأودية التي تسيل فيها السيول؛ فواد كبير يسع ماء كثيرًا كقلب كبير يسع علمًا كثيرًا، وواد صغير يأخذ ماء قليلًا كقلب صغير يسع علمًا قليلًا... وهكذا. وشبه ما يكون في القلوب من الشهوات والشبهات عند وصول الحق إليها بالزبد الذي يعلو الماء ويعلو ما يوقد عليه النار من الحلية التي يراد تخليصها وسبكها، وأنها لا تزال فوق الماء طافية مكدِّرة له حتى تذهب وتضمحل، ويبقى ما ينفع الناس من الماء الصافي والحلية الخالصة، كذلك الشبهات والشهوات لا يزال القلب يكرهها ويجاهدها بالبراهين الصادقة والإرادات الجازمة حتى تذهب وتضمحل ويبقى القلب خالصًا صافيًا ليس فيه إلا ما ينفع الناس من العلم بالحق وإيثاره والرغبة فيه؛ فالباطل يذهب ويمحقه الحق؛ ﴿إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ۝٨١﴾ [الإسراء: ٨١]، وقال هنا: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ۝١٧﴾: ليتضح الحق من الباطل والهدى من الضلال.

﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ۝١٨﴾.

(١٨) لما بين تعالى الحق من الباطل؛ ذكر أن الناس على قسمين: مستجيب لربه فذكر ثوابه، وغير مستجيب فذكر عقابه، فقال: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ﴾؛ أي: انقادت قلوبهم للعلم والإيمان، وجوارحهم للأمر والنهي، وصاروا موافقين لربهم فيما يريده منهم؛ فلهم ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾؛ أي: الحالة الحسنة والثواب الحسن؛ فلهم من الصفات أجلها، ومن المناقب أفضلها، ومن الثواب العاجل والآجل ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ﴾: بعدما ضرب لهم الأمثال وبين لهم الحق لهم الحالة غير الحسنة. و﴿لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾: من ذهب وفضة وغيرها، ﴿وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓ﴾: من عذاب يوم القيامة؛ ما تقبل منهم. وأنى لهم ذلك؟! ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ﴾: وهو الحساب الذي يأتي على كل ما أسلفوه من

(١) ع: «أنزله».

عمل سيئ وما ضيعوه من حقوق الله وحقوق عباده، قد كتب ذلك وسُطِّر عليهم: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ۝٤٩﴾ [الكهف: ٤٩]. وبعد هذا الحساب السيئ، مأواهم ﴿جَهَنَّمُ﴾: الجامعة لكل عذاب من الجوع الشديد والعطش الوجيع والنار الحامية والزقوم والزمهرير والضريع، وجميع ما ذكره الله من أصناف العذاب. ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ۝١٨﴾؛ أي: المقر والمسكن مسكنهم.

﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝١٩ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ۝٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ۝٢١ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ۝٢٢ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ۝٢٤﴾.

(١٩)، (٢٠) يقول تعالى مفرقًا بين أهل العلم والعمل وبين ضدهم: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾: ففهم ذلك وعمل به. ﴿كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓ﴾: لا يعلم الحق ولا يعمل به؛ فبينهما من الفرق كما بين السماء والأرض؛ فحقيق بالعبد أن يتذكر ويتفكر، أي الفريقين أحسن حالًا وخير مآلًا، فيؤثر طريقه[2]، ويسلك خلف فريقه[3]، ولكن ما كل أحد يتذكر ما ينفعه ويضره. ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝١٩﴾؛ أي: أولو العقول الرزينة والآراء الكاملة، الذين هم لب العالم وصفوة بني آدم. فإن سألت عن وصفهم؛ فلا تجد أحسن من وصف الله لهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾: الذي عهده إليهم والذي عاهدهم عليه من القيام بحقوقه كاملة موفرة؛ فالوفاء بها توفيتها حقها من التتميم لها والنصح فيها، ومن تمام الوفاء بها أنهم لا ﴿يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ۝٢٠﴾؛ أي: العهد الذي عاهدوا الله عليه، فدخل في ذلك جميع المواثيق والعهود والأيمان والنذور التي يعقدها العباد، فلا يكون العبد من أولي الألباب الذين لهم الثواب العظيم إلا بأدائها كاملة وعدم نقضها وبخسها.

(٢) ع: «طريقها».
(٣) ع: «فريقها».

۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ
أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ
﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ
وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ
بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا
وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ
عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ
﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا
أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ
وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا
بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ
مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ
قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

(٢١) ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾: وهذا عام في كل ما أمر الله بوصله من الإيمان به وبرسوله ومحبته ومحبة رسوله والانقياد لعبادته وحده لا شريك له ولطاعة رسوله، ويصلون آباءهم وأمهاتهم ببرهم بالقول والفعل وعدم عقوقهم، ويصلون الأقارب والأرحام بالإحسان إليهم قولًا وفعلًا، ويصلون ما بينهم وبين الأزواج والأصحاب والمماليك بأداء حقهم كاملًا موفرًا من الحقوق الدينية والدنيوية. والسبب الذي يجعل العبد واصلًا ما أمر الله به أن يوصل خشية الله وخوف يوم الحساب، ولهذا قال: ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾؛ أي: يخافونه، فيمنعهم خوفهم منه ومن القدوم عليه يوم الحساب أن يتجرءوا على معاصي الله أو يقصروا في شيء مما أمر الله به؛ خوفًا من العقاب ورجاء للثواب.

(٢٢) ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ﴾: على المأمورات بامتثالها، وعن المنهيات بالانكفاف عنها والبعد منها، وعلى أقدار الله المؤلمة بعدم تسخطها، ولكن بشرط أن يكون ذلك الصبر ﴿ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾: لا لغير ذلك من المقاصد والأغراض الفاسدة؛ فإن هذا الصبر النافع، الذي يحبس به العبد نفسه طلبًا لمرضاة ربه ورجاء للقرب منه والحظوة بثوابه، وهو الصبر الذي من خصائص أهل الإيمان، وأما الصبر المشترك الذي غايته التجلد ومنتهاه الفخر؛ فهذا يصدر من البر والفاجر والمؤمن والكافر؛ فليس هو الممدوح على الحقيقة. ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾: بأركانها وشروطها ومكملاتها ظاهرًا وباطنًا. ﴿ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾: دخل في ذلك النفقات الواجبة كالزكوات والكفارات والنفقات المستحبة، وأنهم ينفقون حيث دعت الحاجة إلى النفقة سرًّا وعلانية. ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾؛ أي: من أساء إليهم بقول أو فعل؛ لم يقابلوه بفعله، بل قابلوه بالإحسان إليه، فيعطون من حرمهم، ويعفون عمن ظلمهم، ويصلون من قطعهم، ويحسنون إلى من أساء إليهم، وإذا كانوا يقابلون المسيء بالإحسان؛ فما ظنك بغير المسيء. ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾: الذين وصفت صفاتهم الجليلة ومناقبهم الجميلة؛ ﴿ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) ﴾.

(٢٣)، (٢٤) فسرها بقوله: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾؛ أي: إقامة لا يزولون عنها ولا يبغون عنها حولًا؛ لأنهم لا يرون فوقها غاية؛ لما اشتملت عليه من النعيم والسرور، الذي تنتهي إليه المطالب والغايات، ومن تمام نعيمهم وقرة أعينهم أنهم ﴿ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾: من الذكور والإناث وأزواجهم؛ أي: الزوج أو الزوجة، وكذلك النظراء والأشباه والأصحاب والأحباب؛ فإنهم من أزواجهم وذرياتهم. ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) ﴾: يهنئونهم بالسلامة وكرامة الله لهم، ويقولون: ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾؛ أي: حلت عليكم السلامة والتحية من الله وحصلت لكم، وذلك متضمن لزوال كل مكروه ومستلزم لحصول كل محبوب ﴿ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾؛ أي: بسبب[1] صبركم هو الذي أوصلكم إلى هذه المنازل العالية والجنان الغالية. ﴿ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) ﴾: فحقيق بمن نصح نفسه، وكان لها عنده قيمة أن يجاهدها لعلها تأخذ من أوصاف أولي الألباب بنصيب، ولعلها تحظى بهذه الدار التي هي منية النفوس وسرور الأرواح الجامعة لجميع اللذات والأفراح؛ فلمثلها فليعمل العاملون، وفيها فليتنافس المتنافسون.

(١) ساقط من ط.

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿٢٥﴾ لما ذكر حال أهل الجنة؛ ذكر أن أهل النار بعكس ما وصفهم به، فقال عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾؛ أي: من بعد ما أكده عليهم على أيدي رسله وغلظ[1] عليهم، فلم يقابلوه بالانقياد والتسليم، بل قابلوه بالإعراض والنقض. ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾: فلم يصلوا ما بينهم وبين ربهم بالإيمان والعمل الصالح، ولا وصلوا الأرحام، ولا أدوا الحقوق، بل أفسدوا في الأرض بالكفر والمعاصي والصد عن سبيل الله وابتغائها عوجًا. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾؛ أي: البعد والذم من الله وملائكته وعباده المؤمنين. ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾: وهي الجحيم بما فيها من العذاب الأليم.

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿٢٦﴾ أي: هو وحده يوسع الرزق ويبسطه على من يشاء ويقدره ويضيقه على من يشاء. ﴿وَفَرِحُوا۟﴾؛ أي: الكفار ﴿بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: فرحًا أوجب لهم أن يطمئنوا بها ويغفلوا عن الآخرة، وذلك لنقصان عقولهم. ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾؛ أي: شيء حقير يتمتع به قليلًا ويفارق أهله وأصحابه ويُعْقِبُهُمْ ويلًا طويلًا.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿٢٧﴾ يخبر تعالى أن الذين كفروا بآيات الله يتعنتون على رسول الله ويقترحون ويقولون: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: ويزعمهم أنها لو جاءت لآمنوا، فأجابهم الله بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾؛ أي: طلب رضوانه، فليست الهداية والضلال بأيديهم حتى يجعلوا ذلك متوقفًا على الآيات، ومع ذلك فهم كاذبون؛ ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: ١١١].

ولا يلزم أن يأتي الرسول بالآية التي يعينونها ويقترحونها، بل إذا جاءهم بآية تبين ما جاء به من الحق؛ كفى ذلك وحصل المقصود وكان أنفع لهم من طلبهم الآيات التي يعينونها؛ فإنها لو جاءتهم طبق ما اقترحوا، فلم يؤمنوا بها؛ لعاجلهم العذاب.

﴿٢٨﴾ ثم ذكر تعالى علامة المؤمنين، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: يزول قلقها واضطرابها، وتحضرها أفراحها ولذاتها. ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾؛ أي: حقيق بها وحري ألَّا تطمئن لشيء سوى ذكره؛ فإنه لا شيء ألذ للقلوب ولا أشهى ولا أحلى من محبة خالقها والأنس به ومعرفته، وعلى قدر معرفتها بالله ومحبتها له يكون ذكرها له، هذا على القول بأن ذكر الله ذكر العبد لربه من تسبيح وتهليل وتكبير وغير ذلك، وقيل: إن المراد بذكر الله كتابه الذي أنزله ذكرى للمؤمنين؛ فعلى هذا معنى طمأنينة القلب[2] بذكر الله أنها حين تعرف معاني القرآن وأحكامه تطمئن لها؛ فإنها تدل على الحق المبين المؤيد بالأدلة والبراهين، وبذلك تطمئن القلوب؛ فإنها لا تطمئن إلا باليقين والعلم، وذلك في كتاب الله مضمون على أتم الوجوه وأكملها، وأما ما سواه من الكتب التي لا ترجع إليه؛ فلا تطمئن بها، بل لا تزال قلقة من تعارض الأدلة وتضاد الأحكام، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]، وهذا إنما يعرفه من خبر كتاب الله، وتدبره، وتدبر غيره من أنواع العلوم؛ فإنه يجد بينها وبينه فرقًا عظيمًا.

﴿٢٩﴾ ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: آمنوا بقلوبهم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وصدقوا هذا الإيمان بالأعمال الصالحة؛ أعمال القلوب كمحبة الله وخشيته ورجائه، وأعمال الجوارح كالصلاة ونحوها. ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾؛ أي: لهم حالة طيبة ومرجع حسن، وذلك بما ينالون من رضوان الله وكرامته في الدنيا والآخرة، وإن لهم كمال الراحة وتمام الطمأنينة، ومن جملة ذلك شجرة طوبى التي في الجنة، التي

(١) ع: «وغلظه».

(٢) ع: «القلوب».

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ
مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ
لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ
قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾
وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ
بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ
أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ
وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ
مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ
عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُواْ
لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم
بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ
ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾

يسير الراكب في ظلها مائة عام ما يقطعها؛ كما وردت بها الأحاديث الصحيحة.

﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿٣٠﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ ﴾: إلى قومك تدعوهم إلى الهدى، ﴿ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ ﴾: أرسلنا فيهم رسلنا، فلست ببدع من الرسل حتى يستنكروا رسالتك، ولست تقول من تلقاء نفسك، بل تتلو عليهم آيات الله، التي أوحاها الله إليك، التي تطهر القلوب وتزكي النفوس، والحال أن قومك يكفرون بالرحمن، فلم يقابلوا رحمته وإحسانه التي أعظمها أن أرسلناك إليهم رسولًا وأنزلنا عليك كتابًا - بالقبول والشكر، بل قابلوها بالإنكار والرد؛ أفلا يعتبرون بمن خلا من قبلهم من القرون المكذبة كيف أخذهم الله بذنوبهم؟ ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾: وهذا متضمن للتوحيدين: توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية؛ فهو ربي الذي رباني بنعمه منذ أوجدني، وهو إلهي الذي ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ في جميع أموري وإليه أنيب؛ أي: أرجع في جميع عباداتي وفي حاجاتي.

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿٣١﴾ يقول تعالى مبينًا فضل القرآن الكريم على سائر الكتب المنزلة: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا ﴾: من الكتب الإلهية، ﴿ سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ ﴾: عن أماكنها، ﴿ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ ﴾: جنانًا وأنهارًا، ﴿ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾: لكان هذا القرآن. ﴿ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾: فيأتي بالآيات التي تقتضيها حكمته؛ فما بال المكذبين يقترحون من الآيات ما يقترحون؟! فهل لهم ولغيرهم من الأمر شيء؟! ﴿ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾: فليعلموا أنه قادر على هدايتهم جميعًا، ولكنه لا يشاء ذلك، بل يهدي من يشاء ويضل من يشاء. ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾: على كفرهم لا يعتبرون ولا يتعظون،[1] والله تعالى يوالي عليهم القوارع التي تصيبهم في ديارهم أو تحل قريبًا منها وهم مصرون على كفرهم. ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ﴾: الذي وعدهم به لنزول العذاب المتصل الذي لا يمكن رفعه. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ ﴾: وهذا تهديد لهم وتخويف من نزول ما وعدهم الله به على كفرهم وعنادهم وظلمهم.

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿٣٢﴾ يقول تعالى لرسوله مثبتًا له ومسليًا: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾: فلست أول رسول كذب وأوذي. ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾: برسلهم؛ أي: أمهلتهم مدة حتى ظنوا أنهم غير معذبين، ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾: بأنواع العذاب. ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾: كان عقابًا شديدًا وعذابًا أليمًا؛ فلا يغترَّ هؤلاء الذين كذبوك واستهزءوا بك بإمهالنا؛ فلهم أسوة فيمن قبلهم من الأمم، فليحذروا أن يفعل بهم كما فعل بأولئك.

(١) زاد في ع: «حتى».

۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ
أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى
ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ
بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ
أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾
وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا
جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ
لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾
يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾
وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ
ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا
مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ
ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ
يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿٣٣﴾ يقول تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾: بالجزاء العاجل والآجل، بالعدل والقسط، وهو الله تبارك وتعالى؛ كمن ليس كذلك. ولهذا قال: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ﴾: وهو الله الأحد الفرد الصمد الذي لا شريك له ولا ند ولا نظير. ﴿ قُلْ ﴾: لهم إن كانوا صادقين: ﴿ سَمُّوهُمْ ﴾: لتعلم حالهم. ﴿ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾: فإنه إذا كان عالم الغيب والشهادة، وهو لا يعلم له شريكًا؛ علم بذلك بطلان دعوى الشريك له، وأنكم بمنزلة الذي يعلم الله أن له شريكًا وهو لا يعلمه، وهذا أبطل ما يكون! ولهذا قال: ﴿ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ﴾؛ أي: غاية ما يمكن من دعوى الشريك له تعالى أنه بظاهر أقوالكم، وأما في الحقيقة؛ فلا إله إلا الله، وليس أحد من الخلق يستحق شيئًا من العبادة، ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ ﴾: الذي مكروه، وهو كفرهم وشركهم وتكذيبهم لآيات الله. ﴿ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾؛ أي: عن الطريق المستقيمة الموصلة إلى الله وإلى دار كرامته. ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ ﴾: لأنه ليس لأحد من الأمر شيء.

﴿٣٤﴾ ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ﴾: من عذاب الدنيا؛ لشدته ودوامه. ﴿ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ﴾: يقيهم من عذابه؛ فعذابه إذا وجهه إليهم لا مانع منه.

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿٣٥﴾ يقول تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾: الذين تركوا ما نهاهم الله عنه، ولم يقصروا فيما أمرهم به؛ أي: صفتها وحقيقتها، ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾: أنهار العسل وأنهار الخمر وأنهار اللبن وأنهار الماء التي تجري في غير أخدود، فتسقي تلك البساتين والأشجار، فتحمل[1] جميع أنواع الثمار. ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ﴾: دائم أيضًا. ﴿ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ﴾؛ أي: عاقبتهم ومآلهم التي إليها يصيرون. ﴿ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ ﴾: فكم بين الفريقين من الفرق المبين؟

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿٣٦﴾ يقول تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾؛ أي: مننا عليهم به وبمعرفته، ﴿ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾: فيؤمنون به ويصدقونه ويفرحون بموافقة الكتب بعضها لبعض وتصديق بعضها بعضًا، وهذه حال من آمن من أهل الكتابين. ﴿ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ﴾؛ أي: ومن طوائف الكفار المنحرفين عن[2] الحق من ينكر بعض هذا القرآن ولا يصدقه؛ ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ [الزمر: ٤١]، إنما أنت يا محمد منذر تدعو إلى الله. ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ﴾؛ أي: بإخلاص

(١) زاد في ع: «من».
(٢) ع: «المتجرمين على».

الدين لله وحده. ﴿إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ۝٣٦﴾؛ أي: مرجعي الذي أرجع به إليه، فيجازيني بما قمت به من الدعوة إلى دينه والقيام بما أمرت به.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ۝٣٧﴾.

(٣٧) أي: ولقد أنزلنا هذا القرآن والكتاب ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾؛ أي: محكمًا متقنًا بأوضح الألسنة وأفصح اللغات؛ لئلا يقع فيه شك واشتباه، وليوجب أن يُتَّبَعَ وحده ولا يداهن فيه ولا يتبع ما يضاده ويناقضه من أهواء الذين لا يعلمون، ولهذا توعد رسوله - مع أنه معصوم - ليمتن عليه بعصمته، وليكون لأمته أسوته في الأحكام، فقال: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾: البين، الذي ينهاك عن اتباع أهوائهم. ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾: يتولاك فيحصل لك الأمر المحبوب. ﴿وَلَا وَاقٍ ۝٣٧﴾: يقيك من الأمر المكروه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٣٨ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ۝٣٩﴾

(٣٨) أي: لست أول رسول أرسل إلى الناس حتى يستغربوا رسالتك. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾: فلا يعيبك أعداؤك بأن يكون لك أزواج وذرية كما كان لإخوانك المرسلين؛ فلأي شيء يقدحون فيك بذلك وهم يعلمون أن الرسل قبلك كذلك إلا لأجل أغراضهم الفاسدة وأهوائهم، وإن طلبوا منك آية اقترحوها؛ فليس لك من الأمر شيء. ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: والله لا يأذن فيها إلا في وقتها الذي قدره وقضاه. ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٣٨﴾: لا يتقدم عليه ولا يتأخر عنه، فليس استعجالهم بالآيات أو بالعذاب موجبًا لأن يقدم الله ما كتب أنه يؤخر، مع أنه تعالى فعال لما يريد.

(٣٩) ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾: من الأقدار، ﴿وَيُثْبِتُ﴾: ما يشاء منها، وهذا المحو والتغيير في غير ما سبق به علمه وكتبه قلمه؛ فإن هذا لا يقع فيه تبديل ولا تغيير؛ لأن ذلك محال على الله أن يقع في علمه نقص أو خلل، ولهذا قال: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ۝٣٩﴾؛ أي: اللوح المحفوظ الذي ترجع إليه سائر الأشياء؛ فهو أصلها، وهي فروع وشعب؛ فالتغيير والتبديل يقع في الفروع والشعب؛ كأعمال اليوم والليلة التي تكتبها الملائكة ويجعل الله لثبوتها أسبابًا ولمحوها أسبابًا، لا تتعدى تلك الأسباب ما رسم في اللوح المحفوظ؛ كما جعل الله البر والصلة والإحسان من أسباب طول العمر وسعة الرزق، وكما جعل المعاصي سببًا لمحق بركة الرزق والعمر، وكما جعل أسباب النجاة من المهالك والمعاطب سببًا للسلامة، وجعل التعرض لذلك سببًا للعطب؛ فهو الذي يدبر الأمور بحسب قدرته وإرادته، وما يدبره منها لا يخالف ما قد علمه وكتبه في اللوح المحفوظ.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ۝٤٠ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٤١﴾.

(٤٠) يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: لا تعجل عليهم بإصابة ما يوعدون من العذاب؛ فهم إن استمروا على طغيانهم وكفرهم؛ فلا بد أن يصيبهم ما وعدوا به: إما أن نرينك إياه في الدنيا فتقر بذلك عينك، أو نتوفينك قبل إصابتهم؛ فليس ذلك شغلًا لك. ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾: والتبيين[1] للخلق، ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ۝٤٠﴾: فنحاسب الخلق على ما قاموا به مما عليهم وضيعوه، ونثيبهم أو نعاقبهم.

(٤١) ثم قال متوعدًا للمكذبين: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾: قيل: بإهلاك المكذبين واستئصال الظالمين، وقيل: بفتح بلدان المشركين ونقصهم في أموالهم وأبدانهم، وقيل غير ذلك من الأقوال. والظاهر - والله أعلم - أن المراد بذلك أن أراضي هؤلاء المكذبين جعل الله يفتحها ويجتاحها ويحل القوارع بأطرافها تنبيهًا لهم قبل أن يجتاحهم النقص، ويوقع الله بهم من القوارع ما لا يرده أحد، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾: ويدخل في هذا حكمه الشرعي والقدري والجزائي؛ فهذه الأحكام التي يحكم الله فيها توجد في غاية الحكمة والإتقان، لا خلل فيها ولا نقص، بل هي مبنية على القسط والعدل والحمد؛ فلا يتعقبها أحد، ولا سبيل إلى القدح فيها؛ بخلاف حكم

(١) ع: «التبيّن».

الجزء الثالث عشر — سورة إبراهيم

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ
شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ — آياتها ٥٢ — ترتيبها ١٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ
إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾
ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ
لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ
ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا
مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ
مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ
﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ
قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ
ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

٢٥٥

غيره؛ فإنه قد يوافق الصواب وقد لا يوافقه. ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾؛ أي: فلا يستعجلوا بالعذاب؛ فإن كل ما هو آت فهو قريب.

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿٤٢﴾ يقول تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: برسلهم وبالحق الذي جاءت به الرسل، فلم يغن عنهم مكرهم، ولم يصنعوا شيئًا؛ فإنهم يحاربون الله ويبارزونه. ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾؛ أي: لا يقدر أحد أن يمكر مكرًا إلا بإذنه وتحت قضائه وقدره؛ فإذا كانوا يمكرون بدينه؛ فإن مكرهم سيعود عليهم بالخيبة والندم؛ فإن الله ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾؛ أي: همومها وإراداتها وأعمالها الظاهرة والباطنة، والمكر لا بد أن يكون من كسبها؛ فلا يخفى على الله مكرهم، فيمتنع أن يمكروا مكرًا يضر الحق وأهله ويفيدهم شيئًا.

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾؛ أي: ألهم أو لرسله؟ ومن المعلوم أن العاقبة للمتقين لا[1] للكفر وأعماله.

﴿٤٣﴾ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾؛ أي: يكذبونك ويكذبون ما أرسلت به. ﴿قُلْ﴾ لهم إن طلبوا على ذلك شهيدًا: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾: وشهادته بقوله وبفعله[2] وإقراره: أما قوله؛ فبما أوحاه الله إلى أصدق خلقه مما يثبت به رسالته. وأما فعله؛ فلأن الله تعالى أيد رسوله ونصره نصرًا خارجًا عن قدرته وقدرة أصحابه وأتباعه، وهذا شهادة منه له بالفعل والتأييد، وأما إقراره؛ فإنه أخبر الرسول عنه أنه رسول[3]، وأنه أمر الناس باتباعه؛ فمن اتبعه؛ فله رضوان الله وكرامته، ومن لم يتبعه؛ فله النار والسخط، وحل له ماله ودمه، والله يقره على ذلك؛ فلو تقول عليه بعض الأقاويل؛ لعاجله بالعقوبة.

﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾: وهذا شامل لكل علماء أهل الكتابين؛ فإنهم يشهدون للرسول، من آمن واتبع الحق، فصرح بتلك الشهادة التي عليه، ومن كتم ذلك؛ فإخبار الله عنه أن عنده شهادة أبلغ من خبره، ولو لم يكن عنده شهادة؛ لرد استشهاده بالبرهان؛ فسكوته يدل على أن عنده شهادة مكتومة، وإنما أمر الله باستشهاد أهل الكتاب لأنهم أهل هذا الشأن، وكل أمر إنما يستشهد فيه أهله ومن هم أعلم به من غيرهم؛ بخلاف من هو أجنبي عنه؛ كالأميين من مشركي العرب وغيرهم؛ فلا فائدة في استشهادهم؛ لعدم خبرتهم ومعرفتهم. والله أعلم.

تم تفسير سورة الرعد.

والحمد لله رب العالمين.



---

(١) ساقط من ط.
(٢) ع: «وفعله».
(٣) ع: «رسوله».

تفسير سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿١﴾، ﴿٢﴾ يخبر تعالى أنه أنزل كتابه على رسوله محمد ﷺ؛ لنفع الخلق؛ ليخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر والأخلاق السيئة وأنواع المعاصي إلى نور العلم والإيمان والأخلاق الحسنة. وقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: لا يحصل منهم المراد المحبوب لله إلا بإرادة من الله ومعونة؛ ففيه حث للعباد على الاستعانة بربهم. ثم فسر النور الذي يهديهم إليه هذا الكتاب، فقال: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾؛ أي: الموصل إليه وإلى دار كرامته، المشتمل على العلم بالحق والعمل به. وفي ذكر العزيز الحميد بعد ذكر الصراط الموصل إليه إشارة إلى أن من سلكه؛ فهو عزيز بعز الله، قوي ولو لم يكن له أنصار إلا الله، محمود في أموره، حسن العاقبة، وليدل ذلك على أن صراط الله من أكبر الأدلة على ما لله من صفات الكمال ونعوت الجلال، وأن الذي نصبه لعباده عزيز السلطان حميد في أقواله وأفعاله وأحكامه، وأنه مألوه معبود بالعبادات التي هي منازل الصراط المستقيم، وأنه كما أن له ملك السماوات والأرض خلقًا ورزقًا وتدبيرًا؛ فله الحكم على عباده بأحكامه الدينية؛ لأنهم ملكه، ولا يليق به أن يتركهم سدًى. فلما بين الدليل والبرهان؛ توعد من لم ينقد لذلك، فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾﴾: لا يُقَدَّرُ قدره، ولا يوصف أمره.

﴿٣﴾ ثم وصفهم بأنهم ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾: فرضوا بها واطمأنوا وغفلوا عن الدار الآخرة. ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: التي نصبها لعباده وبينها في كتبه وعلى ألسنة رسله؛ فهؤلاء قد نابذوا مولاهم بالمعاداة والمحاربة. ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾؛ أي: سبيل الله ﴿عِوَجًا﴾؛ أي: يحرصون على تهجينها وتقبيحها للتنفير عنها، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: الذين ذكر وصفهم ﴿فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾: لأنهم ضلوا وأضلوا وشاقوا الله ورسوله وحاربوهما؛ فأي ضلال أبعد من هذا؟! وأما أهل الإيمان؛ فبعكس هؤلاء؛ يؤمنون بالله وآياته، ويستحبون الآخرة على الدنيا، ويدعون إلى سبيل الله، ويحسنونها مهما أمكنهم، ويبغون استقامتها.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿٤﴾ وهذا من لطفه بعباده أنه ما أرسل رسولًا إلا بلسان قومه؛ ليبين لهم ما يحتاجون إليه، ويتمكنون من تعلم ما أتى به، بخلاف ما لو أتى[1] على غير لسانهم؛ فإنهم يحتاجون إلى تعلم[2] تلك اللغة التي يتكلم بها، ثم يفهمون عنه. فإذا بين لهم الرسول ما أمروا به ونهوا عنه وقامت عليهم حجة الله؛ ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾: ممن لم ينقد للهدى، ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾: ممن اختصه برحمته. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾: الذي من عزته أنه انفرد بالهداية والإضلال وتقليب القلوب إلى ما شاء، ومن حكمته أنه لا يضع هدايته ولا إضلاله إلا بالمحل اللائق به.

ويستدل بهذه الآية الكريمة على أن علوم العربية الموصلة إلى تبيّن كلامه وكلام رسوله أمور مطلوبة محبوبة لله؛ لأنه لا يتم معرفة ما أنزل على رسوله إلا بها، إلا إذا كان الناس في حالة[3] لا يحتاجون إليها، وذلك إذا تمرنوا على العربية، ونشأ عليها صغيرهم، وصارت طبيعة لهم؛ فحينئذ قد اكتفوا المؤنة، وصلحوا على أن[4] يتلقوا عن الله وعن رسوله ابتداء، كما تلقى الصحابة رضي الله عنهم.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ

(١) ع: «كان».
(٢) ع: «أن يتعلموا».
(٣) عبارة: «في حالة» وردت في ع: «بحالة».
(٤) عبارة: «على أن» وردت في ع: «لأن».

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ
إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ
وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى
ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ
رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ
عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ
جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ
مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ
بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ
فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم
بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ
رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ
لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ
مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا
عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾

ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾
وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ
إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ
وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى
ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ
رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ
عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ
جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿٥﴾ يخبر تعالى أنه أرسل موسى بآياته العظيمة الدالة على صدق ما جاء به وصحته، وأمره بما أمر الله به رسوله محمدًا ﷺ، بل وبما أمر به جميع الرسل قومهم: ﴿ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾؛ أي: ظلمات الجهل والكفر وفروعه إلى نور العلم والإيمان وتوابعه. ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: بنعمه عليهم وإحسانه إليهم، وبأيامه في الأمم المكذبين ووقائعه بالكافرين؛ ليشكروا نعمه وليحذروا عقابه. ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾؛ أي: في أيام الله على العباد، ﴿ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ ﴾؛ أي: صبار في الضراء والعسر والضيق، شكور على السراء والنعمة؛ فإنه يستدل بأيامه على كمال قدرته وعميم إحسانه وتمام عدله وحكمته.

﴿٦﴾ ولهذا امتثل موسى عليه السلام أمر ربه، فذكرهم نعم الله، فقال: ﴿ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾؛ أي: بقلوبكم وألسنتكم، ﴿ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ ﴾؛ أي: يولونكم، ﴿ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾؛ أي: أشده. وفسر ذلك بقوله: ﴿ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾؛ أي: يبقونهن فلا يقتلونهن. ﴿ وَفِى ذَٰلِكُم ﴾: الإنجاء ﴿ بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾؛ أي: نعمة عظيمة، أو وفي ذلكم العذاب الذي ابتليتم به من فرعون وملئه ابتلاء من الله عظيم لكم لينظر هل تصبرون أم لا؟

﴿٧﴾ وقال لهم حاثًّا على شكر نعم الله: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾؛ أي: أعلم ووعد، ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾: من نعمي، ﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾: ومن ذلك أن يزيل عنهم النعمة التي أنعم بها عليهم. والشكر: هو اعتراف القلب بنعم الله، والثناء على الله بها، وصرفها في مرضاة الله تعالى. وكفر النعمة ضد ذلك.

﴿٨﴾ ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾: فلن تضروا[1] الله شيئًا، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾، فالطاعات لا تزيد في ملكه، والمعاصي لا تنقصه، وهو كامل الغنى، حميد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، ليس له من الصفات إلا كل صفة حمد وكمال، ولا من الأسماء إلا كل اسم حسن، ولا من الأفعال إلا كل فعل جميل.

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ
وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ
جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ
وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ
إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ
وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا

(١) ع: «تضر».

بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿٩﴾ يقول تعالى مخوفًا عباده ما أحله بالأمم المكذبة حين جاءتهم الرسل فكذبوهم، فعاقبهم بالعقاب العاجل الذي رآه الناس وسمعوه، فقال: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾: وقد ذكر الله قصصهم في كتابه وبسطها. ﴿ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾: من كثرتهم وكون أخبارهم اندرست؛ فهؤلاء كلهم ﴿ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾؛ أي: بالأدلة الدالة على صدق ما جاءوا به، فلم يرسل الله رسولًا إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر؛ فحين أتتهم رسلهم بالبينات؛ لم ينقادوا لها، بل استكبروا عنها، ﴿ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾؛ أي: لم يؤمنوا بما جاءوا به، ولم يتفوهوا بشيء مما يدل على الإيمان؛ كقوله: ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ [البقرة: ١٩]. ﴿ وَقَالُوٓا۟ ﴾ صريحًا لرسلهم: ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾؛ أي: موقع في الريبة.

﴿١٠﴾ وقد كذبوا في ذلك وظلموا، ولهذا ﴿ قَالَتْ ﴾ لهم ﴿ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ ﴾؛ أي: فإنه أظهر الأشياء وأجلاها؛ فمن شك في الله ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾: الذي وجود الأشياء مستند إلى وجوده؛ لم يكن عنده ثقة بشيء من المعلومات، حتى الأمور المحسوسة. ولهذا خاطبتهم الرسل خطاب من لا يشك فيه، ولا يصلح الريب فيه. ﴿ يَدْعُوكُمْ ﴾: إلى منافعكم ومصالحكم، ﴿ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾؛ أي: ليثيبكم على الاستجابة لدعوته بالثواب العاجل والآجل، فلم يدعكم لينتفع بعبادتكم، بل النفع عائد إليكم. فردوا على رسلهم رد السفهاء الجاهلين، وقالوا لهم: ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾؛ أي: فكيف تفضلوننا بالنبوة والرسالة؟ ﴿ تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾: فكيف نترك رأي الآباء وسيرتهم

الجزء الثالث عشر — سورة إبراهيم

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

٢٥٧

لرأيكم؟! وكيف نطيعكم وأنتم بشر مثلنا؟! ﴿ فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾؛ أي: بحجة وبينة ظاهرة، ومرادهم بينة يقترحونها هم، وإلا؛ فقد تقدم أن رسلهم جاءتهم بالبينات.

﴿١١﴾ ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ ﴾ مجيبين لاقتراحهم[1] واعتراضهم: ﴿ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾؛ أي: صحيح وحقيقة أنا بشر مثلكم. ﴿ وَلَٰكِنَّ ﴾ ليس في ذلك ما يدفع ما جئنا به من الحق؛ فإن ﴿ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾؛ فإذا من الله علينا بوحيه ورسالته؛ فذلك فضله وإحسانه، وليس لأحد أن يحجر على الله فضله ويمنعه من تفضله؛ فانظروا ما جئناكم به؛ فإن كان حقًّا؛ فاقبلوه، وإن كان غير ذلك؛ فردوه، ولا تجعلوا حالنا حجة لكم على رد ما جئناكم به، وقولكم: ﴿ فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾، فإن هذا ليس بأيدينا وليس لنا من الأمر شيء. ﴿ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾: فهو الذي إن شاء جاءكم

(١) ع: «عن اقتراحهم».

به وإن شاء لـم يأتكم بـه، وهو لا يفعـل إلا ما هـو مقتضى حكمته ورحمته. ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ ﴾: لا على غيره، ﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾: فيعتمـدون عليـه فـي جلـب مصالحهـم ودفـع مضارهـم؛ لعلمهم بتمام كفايته وكمـال قدرته وعميم إحسـانه، ويثقون به في تيسـير ذلك، وبحسـب مـا معهم من الإيمـان يكون توكلهـم. فعلم بهذا وجوب التـوكل وأنه من لوازم الإيمان ومن العبادات الكبار التي يحبها الله ويرضاها لتوقف سائر العبادات عليه.

﴿١٢﴾ ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾؛ أي: أي شـيء يمنعنـا من التوكل علـى الله والحال أننـا علـى الحق والهـدى، ومن كان علـى الحق والهـدى؛ فإن هداه يوجب له تمام التوكل، وكذلك ما يعلم من أن الله متكفل بمعونة المهتـدي وكفايته، يدعو إلى ذلك؛ بخلاف من لم يكن على الحق والهدى؛ فإنه ليس ضامنًا على الله؛ فإن حاله مناقضة لحال المتوكل؟! وفي هذا كالإشـارة من الرسل عليهم الصلاة والسـلام لقومهم بآيـة عظيمة، وهو أن قومهـم - في الغالب - لهم القهر والغلبة عليهم، فتحدتهم رسلهم بأنهم متوكلون على الله في دفع كيدهم ومكرهـم[1]، وجازمون بكفايته إياهم، وقد كفاهم الله شرهم مع حرصهم على إتلافهم وإطفاء ما معهم من الحق، فيكون هذا كقول نوح لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ ﴾ الآيـات [يونس: ٧١]، وقـول هـود عليه السـلام: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ ﴾ [هود: ٥٤، ٥٥]. ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ﴾: ولنستمرن علـى دعوتكم ووعظكـم وتذكيركم، ولا نبالي بمـا يأتينا منكم من الأذى؛ فإنا سـنوطن أنفسـنا على ما ينالنا منكم من الأذى؛ احتسـابًا للأجر ونصحًـا لكـم، لعل اللـه أن يهديكم مـع كثـرة التذكير. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ ﴾: وحـده لا على غيـره، ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾: فإن التوكل عليه مفتاح لكل خير.

واعلم أن الرسل عليهم الصلاة والسلام توكلهم في أعلى المطالب وأشـرف المراتب، وهي التوكل على الله في إقامة دينه ونصره وهدايـة عبيده وإزالة الضلال عنهم. وهذا أكمل ما يكون من التوكل.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿١٣﴾ لمـا ذكر دعوة الرسـل لقومهـم ودوامهم على ذلك وعـدم مللهم؛ ذكر منتهى ما وصلت بهم الحال مع قومهم، فقـال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ ﴾: متوعدين لهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾: وهـذا أبلغ ما يكـون من الرد، وليس بعد هـذا فيهم مطمع؛ لأنـه مـا كفاهـم أن أعرضـوا عـن الهـدى، بـل توعدوهـم بالإخـراج من ديارهم، ونسـبوها إلى أنفسـهم، وزعموا أن الرسـل لا حق لهـم فيها، وهذا مـن أعظم الظلـم؛ فإن الله أخـرج عبـاده إلـى الأرض، وأمرهـم بعبادته، وسـخر لهم الأرض وما عليها يسـتعينون بها على عبادته؛ فمن اسـتعان بذلك على عبـادة الله؛ حل له ذلك وخرج من التبعة، ومن اسـتعان بذلك على الكفر وأنـواع المعاصي؛ لم يكن ذلك خالصًـا له ولم يَحِلَّ له، فعلم أن أعداء الرسـل في الحقيقة ليس لهم شـيء من الأرض التي توعدوا الرسل بإخراجهم منهـا. وإن رجعنا إلى مجـرد العادة؛ فإن الرسـل من جملة أهـل بلادهم وأفـراد منهم؛ فلأي شـيء يمنعونهم حقًّا لهم صريحًـا واضحًـا؟! هل هذا إلا مـن عدم الديـن والمروءة بالكلية؟! ولهذا لما انتهى مكرهم بالرسل إلى هذه الحال؛ مـا بقـي حينئـذ إلا أن يمضـي اللـه أمـره وينصـر أوليـاءه. ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾: بأنـواع العقوبات.

﴿١٤﴾ ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ ﴾؛ أي: العاقبـة الحسـنة التي جعلها الله للرسـل ومـن تبعهم جزاء، ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِى ﴾: عليـه فـي الدنيـا، وراقب اللـه مراقبة مـن يعلـم أنـه يـراه، ﴿وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾؛ أي: مـا توعدت به مـن عصاني؛ فأوجب لـه ذلك الانكفاف عمـا يكرهه الله والمبادرة إلى ما يحبه الله.

(١) الأصل، ع: «كيدكم ومكركم».

(١٥) ﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ ﴾؛ أي: الكفار؛ أي: هم الذين طلبوا واستعجلوا فتح الله وفرقانه بين أوليائه وأعدائه، فجاءهم ما استفتحوا به، وإلا؛ فالله حليم، لا يعاجل من عصاه بالعقوبة. ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) ﴾؛ أي: خسر في الدنيا والآخرة من تجبر على الله وعلى الحق وعلى عباد الله، واستكبر في الأرض، وعاند الرسل، وشاقهم.

(١٦) ﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ ﴾؛ أي: جهنم لهذا الجبار العنيد بالمرصاد؛ فلا بد له من ورودها، فيذاق حينئذ العذاب الشديد. ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ (١٦) ﴾: في لونه وطعمه ورائحته الخبيثة، وهو في غاية الحرارة.

(١٧) ﴿ يَتَجَرَّعُهُۥ ﴾: من العطش الشديد، ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ ﴾: فإنه إذا قرب إلى وجهه؛ شواه، وإذا وصل إلى بطنه؛ قطع ما أتى عليه من الأمعاء، ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾؛ أي: يأتيه العذاب الشديد من كل نوع من أنواع العذاب، وكل نوع منه من شدته يبلغ إلى الموت، ولكن الله قضى ألَّا يموتوا؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ [فاطر: ٣٦، ٣٧]، ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ ﴾؛ أي: الجبار العنيد ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧) ﴾؛ أي: قوي شديد لا يعلم بوصفه وشدته إلا الله تعالى.

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ (١٨) ﴾.

(١٨) يخبر تعالى عن أعمال الكفار التي عملوها: إما أن المراد بها أهم[1] الأعمال التي عملوها لله بأنها في ذهابها وبطلانها واضمحلالها كاضمحلال الرماد الذي هو أدق الأشياء وأخفها إذا اشتدت به الريح في يوم عاصف شديد الهبوب؛ فإنه لا يبقي منه شيئًا ولا يقدر منه على شيء يذهب ويضمحل؛ فكذلك أعمال الكفار، ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾، ولا على مثقال ذرة منه؛ لأنه مبني على الكفر والتكذيب. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ (١٨) ﴾: حيث بَطَلَ سعيهم واضمحل عملهم. وإما أن المراد بذلك أعمال الكفار التي عملوها ليكيدوا بها الحق؛ فإنهم يسعون

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠) وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (٢١) وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ (٢٣) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ (٢٤)

ويكدحون في ذلك، ومكرهم عائد عليهم، ولن يضروا الله ورسله وجنده وما معهم من الحق شيئًا.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠) وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (٢١) ﴾.

(١٩) ينبه تعالى عباده بأنه ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾؛ أي: ليعبده الخلق ويعرفوه ويأمرهم وينهاهم، وليستدلوا بهما وما فيهما على ما له من صفات الكمال، وليعلموا أن الذي خلق السماوات والأرض - على عظمهما وسعتهما - قادر على أن يعيدهم خلقًا جديدًا؛ ليجازيهم بإحسانهم وإساءتهم، وأن قدرته ومشيئته لا تقصر عن ذلك.

(١) ساقط من ع، ط.

ولهذا قال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٩﴾: يحتمل أن المعنى: إن يشأ يذهبكم ويأت بقوم غيركم يكونون أطوع لله منكم. ويحتمل أن المراد: إن يشأ يفنيكم ثم يعيدهم بالبعث خلقًا جديدًا. ويدل على هذا الاحتمال ما ذكره بعده من أحوال القيامة.

۝٢٠ ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝٢٠﴾؛ أي: بممتنع، بل هو سهل عليه جدًّا، ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

۝٢١ ﴿وَبَرَزُوا۟﴾؛ أي: الخلائق ﴿لِلَّهِ جَمِيعًا﴾: حين ينفخ في الصور فيخرجون من الأجداث إلى ربهم، فيقفون في أرض مستوية، قاعٍ صفصف، لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا، ويبرزون له لا يخفى عليه منهم خافية؛ فإذا برزوا؛ صاروا يتحاجون، وكل يدفع عن نفسه ويدافع ما يقدر عليه، ولكن أنى لهم ذلك؟! ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟﴾؛ أي: التابعون والمقلدون، ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾: وهم المتبوعون الذين هم قادة في الضلال: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾؛ أي: في الدنيا أمرتمونا بالضلال وزينتموه لنا فأغويتمونا. ﴿فَهَلْ أَنتُم﴾ اليوم ﴿مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾؛ أي: ولو مثقال ذرة ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: المتبوعون والرؤساء: أغويناكم كما غوينا، و﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾؛ فلا يغني أحد أحدًا. ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ﴾: من العذاب، ﴿أَمْ صَبَرْنَا﴾: عليه. ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ۝٢١﴾؛ أي: لا ملجأ نلجأ إليه، ولا مهرب لنا من عذاب الله.

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٢ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۝٢٣﴾.

۝٢٢ أي: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: الذي هو سبب لكل شر يقع ووقع في العالم مخاطبًا[1] لأهل النار ومتبرئًا منهم، ﴿لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾: ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾: على ألسنة رسله فلم تطيعوه؛ فلو أطعتموه؛ لأدركتم الفوز العظيم. ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾: الخير، ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾؛ أي: لم يحصل ولن يحصل لكم ما منيتكم به من الأماني الباطلة. ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾؛ أي: من حجة على تأييد قولي، ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾؛ أي: هذه[2] نهاية ما عندي أني دعوتكم إلى مرادي وزيّنته لكم فاستجبتم لي اتباعًا لأهوائكم وشهواتكم؛ فإذا كانت الحال بهذه الصورة؛ ﴿فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾: فأنتم السبب وعليكم المدار في موجب العقاب. ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾؛ أي: بمغيثكم من الشدة التي أنتم بها، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾: كل له قسط من العذاب. ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: تبرأت من جعلكم لي شريكًا مع الله، فلست شريكًا لله، ولا تجب طاعتي. ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: لأنفسهم بطاعة الشيطان ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٢﴾: خالدين فيه أبدًا. وهذا من لطف الله بعباده أن حذرهم من طاعة الشيطان، وأخبر بمداخله التي يدخل منها على الإنسان ومقاصده فيه، وأنه يقصد أن يدخله النيران.

وهنا بين لنا أنه إذا دخل النار وجنده[3]؛ أنه يتبرأ منهم هذه البراءة، ويكفر بشركهم، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ۝١٤﴾ [فاطر: ١٤]. واعلم أن الله ذكر في هذه الآية أن الشيطان ليس له سلطان، وقال في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ۝١٠٠﴾ [النحل: ١٠٠]؛ فالسلطان الذي نفاه عنه هو سلطان الحجة والدليل، فليس له حجة أصلًا على ما يدعو إليه، وإنما نهاية ذلك أن يقيم لهم من الشُّبه والتزيينات ما به يتجرءون على المعاصي، وأما السلطان الذي أثبته؛ فهو التسلط بالإغراء على المعاصي لأوليائه يؤزهم إلى المعاصي أزًّا، وهم الذين سلطوه على أنفسهم بموالاته والالتحاق بحزبه، ولهذا ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون.

(١) ع: «خاطبًا».
(٢) ع: «هذا».
(٣) ع: «وحزبه».

تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ
كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ
(٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ
اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧) ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا
وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ
الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ
تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠) قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ
آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (٣١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ
بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ
فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ
الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣)

(٢٣) ولما ذكر عقاب الظالمين؛ ذكر ثواب الطائعين، فقال: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ أي: الذين قاموا بالدين قولًا وعملًا واعتقادًا، ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: فيها من اللذات والشهوات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: لا بحولهم وقوتهم، بل بحول الله وقوته. ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (٢٣)﴾؛ أي: يحيي بعضهم بعضًا بالسلام والتحية والكلام الطيب.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ
طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا
كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ
اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦)﴾.

(٢٤) يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾: وهي شهادة أن لا إله إلا الله وفروعها ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾: وهي النخلة ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾: في الأرض. ﴿وَفَرْعُهَا﴾: منتشر ﴿فِي السَّمَاءِ﴾: وهي كثيرة النفع دائمًا.

(٢٥) ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا﴾؛ أي: ثمرتها، ﴿كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾: فكذلك شجرة الإيمان أصلها ثابت في قلب المؤمن علمًا واعتقادًا، وفرعها من الكلم الطيب والعمل الصالح والأخلاق المرضية والآداب الحسنة في السماء دائمًا، يصعد إلى الله منه من الأعمال والأقوال التي تخرجها شجرة الإيمان، ما ينتفع به المؤمن وينتفع(١) غيره، ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥)﴾: ما أمرهم به ونهاهم عنه؛ فإن في ضرب الأمثال تقريبًا للمعاني المعقولة من الأمثال المحسوسة، ويتبين المعنى الذي أراده الله غاية البيان ويتضح غاية الوضوح، وهذا من رحمته وحسن تعليمه؛ فلله أتم الحمد وأكمله وأعمه. فهذه صفة كلمة التوحيد، وثباتها في قلب المؤمن.

(٢٦) ثم ذكر ضدها، وهي كلمة الكفر وفروعها، فقال: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾: المأكل والمطعم، وهي شجرة الحنظل ونحوها. ﴿اجْتُثَّتْ﴾: هذه الشجرة ﴿مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦)﴾؛ أي: من ثبوت؛ فلا عروق تمسكها، ولا ثمرة صالحة تنتجها، بل إن وجد فيها ثمرة؛ فهي ثمرة خبيثة، كذلك كلمة الكفر والمعاصي، ليس لها ثبوت نافع في القلب، ولا تثمر إلا كل قول خبيث وعمل خبيث يؤذي(٢) صاحبه، ولا ينتفع، ولا يصعد إلى الله منه عمل صالح، ولا ينفع نفسه، ولا ينتفع به غيره.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ
اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)﴾.

(٢٧) يخبر تعالى أنه يثبّت عباده المؤمنين؛ أي: الذين قاموا بما عليهم من الإيمان القلبي(٣) التام، الذي يستلزم أعمال الجوارح ويثمّرها، فيثبتهم الله في الحياة الدنيا عند ورود الشبهات بالهداية إلى اليقين، وعند عروض الشهوات بالإرادة الجازمة على تقديم ما يحبه الله على هوى النفس

(١) ع: «وينفع».

(٢) في ط: «يستضر به».

(٣) عبارة: «الإيمان القلبي» وردت في ع: «إيمان القلب».

ومرادها[1]، وفي الآخرة عند الموت بالثبات على الدين الإسلامي والخاتمة الحسنة، وفي القبر عند سؤال الملكين للجواب الصحيح إذا قيل للميت: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ هداهم للجواب الصحيح بأن يقول المؤمن: الله ربي، والإسلام ديني، ومحمد نبيي. ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: عن الصواب في الدنيا والآخرة، وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم.

وفي هذه الآية دلالة على فتنة القبر وعذابه ونعيمه؛ كما تواترت بذلك النصوص عن النبي ﷺ في الفتنة وصفتها ونعيم القبر وعذابه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿٢٨﴾ يقول تعالى مبينًا حال المكذبين لرسوله من كفار قريش وما آل إليه أمرهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾: ونعمة الله هي إرسال محمد ﷺ إليهم يدعوهم إلى إدراك الخيرات في الدنيا والآخرة وإلى النجاة من شرور الدنيا والآخرة، فبدلوا هذه النعمة بردها والكفر بها والصد عنها بأنفسهم وصدهم غيرهم حتى أحلوا ﴿قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾: وهي النار؛ حيث تسببوا لإضلالهم، فصاروا وبالًا على قومهم من حيث يظن نفعهم، ومن ذلك أنهم زينوا لهم الخروج يوم بدر ليحاربوا الله ورسوله، فجرى عليهم ما جرى، وقتل كثير من كبرائهم وصناديدهم في تلك الوقعة.

﴿٢٩﴾ ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾؛ أي: يحيط بهم حرها من جميع جوانبهم. ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿٣٠﴾ ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾؛ أي: نظراء وشركاء، ﴿لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾؛ أي: ليضلوا العباد عن سبيل الله بسبب ما جعلوا لله من الأنداد ودعوهم إلى عبادتها. ﴿قُلْ﴾ لهم متوعدًا: ﴿تَمَتَّعُوا۟﴾ بكفركم وضلالكم قليلًا؛ فليس ذلك بنافعكم، ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾؛ أي: مآلكم[2] ومأواكم فيها وبئس المصير.

﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾.

﴿٣١﴾ أي: قل لعبادي الذين آمنوا آمرًا لهم بما فيه غاية صلاحهم وأن ينتهزوا الفرصة قبل ألَّا يمكنهم ذلك: ﴿يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: ظاهرًا وباطنًا، ﴿وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾؛ أي: من النعم التي أنعمنا بها عليهم قليلًا أو كثيرًا، ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾: وهذا يشمل النفقة الواجبة كالزكاة ونفقة من تجب عليه نفقته، والمستحبة كالصدقات ونحوها. ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾؛ أي: لا ينفع فيه شيء، ولا سبيل إلى استدراك ما فات؛ لا بمعاوضة بيع وشراء، ولا بهبة خليل وصديق؛ فكل امرئ له شأن يغنيه؛ فليقدم العبد لنفسه، ولينظر ما قدمه لغد، وليتفقد أعماله، ويحاسب نفسه قبل الحساب الأكبر.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿٣٢﴾ يخبر تعالى أنه وحده ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: على اتساعهما وعظمهما، ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾: وهو المطر الذي ينزله الله من السحاب، ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ﴾ أي: بذلك الماء ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: المختلفة الأنواع، ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾: ورزقًا لأنعامكم. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾؛ أي: السفن والمراكب، ﴿لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾: فهو الذي يسر لكم صنعتها وأقدركم عليها وحفظها على تيار الماء لتحملكم وتحمل تجاراتكم وأمتعتكم إلى بلد تقصدونه. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾: لتسقي حروثكم وأشجاركم، وتشربوا منها.

﴿٣٣﴾ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾: لا يفتران ولا ينيان، يسعيان لمصالحكم من حساب أزمنتكم ومصالح أبدانكم وحيواناتكم وزروعكم وثماركم. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ﴾: لتسكنوا فيه، ﴿وَٱلنَّهَارَ﴾ مبصرًا لتبتغوا من فضله.

(١) ع: «ومراداتها».
(٢) زاد في ع: «ومقركم».

وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾

(٣٤) ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾؛ أي: أعطاكم من كل ما تعلقت به أمانيكم وحاجتكم مما تسألونه إياه بلسان الحال أو بلسان المقال من أنعام وآلات وصناعات وغير ذلك. ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾: فضلًا عن قيامكم بشكرها. ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾؛ أي: هذه طبيعة الإنسان من حيث هو ظالم متجرئ على المعاصي مقصر في حقوق ربه، كفار لنعم الله لا يشكرها ولا يعترف بها؛ إلا من هداه الله فشكر نعمه، وعرف حق ربه وقام به.

ففي هذه الآيات من أصناف نعم الله على العباد شيء عظيم مجمل ومفصل يدعو الله به العباد إلى القيام بشكره وذكره، ويحثهم على ذلك، ويرغبهم في سؤاله ودعائه آناء الليل والنهار؛ كما أن نعمته[1] تتكرر عليهم في جميع الأوقات.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾.

(٣٥) أي: واذكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام في هذه الحالة الجميلة. إذ قال: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ﴾؛ أي: الحرم ﴿ ءَامِنًا ﴾: فاستجاب الله دعاءه شرعًا وقدرًا، فحرمه الله في الشرع، ويسر من أسباب حرمته قدرًا ما هو معلوم، حتى إنه لم يرده ظالم بسوء إلا قصمه الله؛ كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم. ولما دعا له بالأمن؛ دعا له ولبنيه بالأمن، فقال: ﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾؛ أي: اجعلني وإياهم جانبًا بعيدًا عن عبادتها والإلمام بها.

(٣٦) ثم ذكر الموجب لخوفه عليه وعلى بنيه بكثرة من افتتن وابتلي بعبادتها. فقال: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾؛ أي: ضلوا بسببها، ﴿ فَمَن تَبِعَنِى ﴾: على ما جئت به من التوحيد والإخلاص لله رب العالمين ﴿ فَإِنَّهُۥ مِنِّى ﴾: لتمام الموافقة، ومن أحب قومًا وتبعهم؛ التحق بهم. ﴿ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾: وهذا من شفقة الخليل عليه الصلاة والسلام؛ حيث دعا للعاصين بالمغفرة والرحمة من الله، والله تبارك وتعالى أرحم منه بعباده، لا يعذب إلا من تمرد عليه.

(٣٧) ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾: وذلك أنه أتى بهاجر أم إسماعيل وبابنها إسماعيل عليه الصلاة والسلام وهو في الرضاع من الشام حتى وضعهما في مكة، وهي إذ ذاك ليس فيها سكن ولا داع ولا مجيب، فلما وضعهما؛ دعا ربه بهذا الدعاء، فقال

(١) ع: «نعمه».

مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ
هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ
ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ
الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم
مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا
أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا
لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ
مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ
﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
ذُو انتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ
وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ
مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ
وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ
إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا
بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾

متضرعًا متوكلًا على ربه: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾؛ أي: لا كل ذريتي؛ لأن إسحاق في الشام وباقي بنيه كذلك، وإنما أسكن في مكة إسماعيل وذريته. وقوله: ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾؛ أي: لأن أرض مكة لا تصلح للزراعة. ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾؛ أي: اجعلهم موحدين مقيمين الصلاة؛ لأن إقامة الصلاة من أخص وأفضل العبادات الدينية؛ فمن أقامها كان مقيمًا لدينه. ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: تحبهم وتحب الموضع الذي هم ساكنون فيه. فأجاب الله دعاءه، فأخرج من ذرية إسماعيل محمدًا ﷺ، حتى دعا ذريته إلى الدين الإسلامي وإلى ملة أبيهم إبراهيم، فاستجابوا له وصاروا مقيمي الصلاة. وافترض الله حج هذا البيت الذي أسكن به ذرية إبراهيم، وجعل فيه سرًّا عجيبًا جاذبًا للقلوب؛ فهي تحجه ولا تقضي منه وطرًا على الدوام، بل كلما أكثر العبد التردد إليه؛ ازداد شوقه وعظم ولعه وتوقه، وهذا سر إضافته تعالى إلى نفسه المقدسة. ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾: فأجاب الله دعاءه، فصار يجبى إليه ثمرات كل شيء؛ فإنك ترى مكة المشرفة كل وقت، والثمار فيها متوفرة، والأرزاق تتوالى إليها من كل جانب.

﴿٣٨﴾ ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾؛ أي: أنت أعلم بنا منا، فنسألك من تدبيرك وتربيتك لنا أن تيسر لنا من الأمور التي نعلمها والتي لا نعلمها ما هو مقتضى علمك ورحمتك. ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾﴾: ومن ذلك هذا الدعاء الذي لم يقصد به الخليل إلا الخير وكثرة الشكر لله رب العالمين.

﴿٣٩﴾ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾: فذلك[1] من أكبر النعم، وكونهم على الكبر في حال الإياس من الأولاد نعمة أخرى، وكونهم أنبياء صالحين أجل وأفضل. ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾﴾؛ أي: لقريب الإجابة ممن دعاه، وقد دعوته فلم يخيب رجائي.

﴿٤٠﴾، ﴿٤١﴾ ثم دعا لنفسه ولذريته، فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾: فاستجاب الله له في ذلك كله؛ إلا أن دعاءه لأبيه إنما كان عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو لله؛ تبرأ منه.

ثم قال تعالى:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿٤٢﴾ هذا وعيد شديد للظالمين وتسلية للمظلومين؛ يقول تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾: حيث أمهلهم وأدر عليهم الأرزاق وتركهم يتقلبون في البلاد آمنين مطمئنين؛ فليس في هذا ما يدل على حسن حالهم؛ فإن الله يملي للظالم ويمهله ليزداد إثمًا، حتى إذا أخذه؛ لم يفلته، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢]. والظلم ههنا يشمل الظلم فيما بين العبد وربه وظلمه لعباد الله. ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾﴾؛ أي: لا تطرف من شدة ما ترى من الأهوال وما أزعجها من القلاقل.

(١) ع، ط: «فهبتهم».

(٤٣) ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾؛ أي: مسرعين إلى إجابة الداعي حين يدعوهم إلى الحضور بين يدي الله للحساب، لا امتناع لهم ولا محيص ولا ملجأ، ﴿ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ﴾؛ أي: رافعيها، قد غُلَّت أيديهم إلى الأذقان، فارتفعت لذلك رءوسهم، ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣) ﴾؛ أي: أفئدتهم فارغة من قلوبهم، قد صعدت إلى الحناجر، لكنها مملوءة من كل هم وغم وحزن وقلق.

﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) ﴾.

(٤٤) يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ﴾؛ أي: صف لهم صفة تلك الحال، وحذرهم من الأعمال الموجبة للعذاب، الذي حين يأتي في شدائده وقلاقله، فيقول الذين ظلموا بالكفر والتكذيب وأنواع المعاصي، نادمين على ما فعلوا، سائلين للرجعة في غير وقتها: ﴿ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾؛ أي: ردنا إلى الدنيا؛ فإنا قد أبصرنا؛ ﴿ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ ﴾: والله يدعو إلى دار السلام، ﴿ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ﴾: وهذا كله لأجل التخلص من العذاب الأليم، وإلا؛ فهم كذبة في هذا الوعد؛ ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ [الأنعام: ٢٨]، ولهذا يوبخون ويقال لهم: ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) ﴾: عن الدنيا وانتقال إلى الآخرة؛ فها قد تبين لكم حنثكم في إقسامكم وكذبكم فيما تدعون.

(٤٥) وليس عليكم قاصر في الدنيا من أجل الآيات البينات، بل سكنتم ﴿ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾: من أنواع العقوبات، وكيف أحل الله بهم العقوبات حين كذبوا بالآيات البينات، ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (٤٥) ﴾: الواضحة التي لا تدع أدنى شك في القلب إلا أزالته، فلم تنفع فيكم تلك الآيات، بل أعرضتم ودمتم على باطلكم، حتى صار ما صار، ووصلتم إلى هذا اليوم الذي لا ينفع فيه اعتذار من اعتذر بباطل.

(٤٦) ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا ﴾؛ أي: المكذبون للرسل ﴿ مَكْرَهُمْ ﴾: الذي وصلت إليه إراداتهم وقدروا[1] عليه، ﴿ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾؛ أي: هو محيط به علمًا وقدرة، فإنه عاد مكرهم عليهم، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله. ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) ﴾؛ أي: ولقد كان مكر الكفار المكذبين للرسل بالحق وبمن جاء به من عظمه لتزول الجبال الراسيات بسببه عن أماكنها؛ أي: مكروا مكرًا كبارًا لا يقادر قدره، ولكن الله رد كيدهم في نحورهم. ويدخل في هذا كل من مكر من المخالفين للرسل لينصر باطلًا أو يبطل حقًا، والقصد أن مكرهم لم يغن عنهم شيئًا ولم يضروا الله شيئًا، وإنما ضروا أنفسهم.

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٥٢) ﴾.

(٤٧) يقول تعالى: ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾: بنجاتهم ونجاة أتباعهم وسعادتهم، وإهلاك أعدائهم وخذلانهم في الدنيا وعقابهم في الآخرة؛ فهذا لا بد من وقوعه؛ لأنه وعد به الصادق قولًا على ألسنة أصدق خلقه، وهم الرسل، وهذا أعلى ما يكون من الأخبار، خصوصًا وهو مطابق للحكمة الإلهية والسنن الربانية وللعقول الصحيحة، والله تعالى لا يعجزه شيء؛ فإنه ﴿ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤٧) ﴾؛ أي: إذا أراد أن ينتقم من أحد؛ فإنه لا يفوته ولا يعجزه، وذلك في يوم القيامة.

(٤٨) ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ﴾: تبدل غير السماوات، وهذا التبديل تبديل صفات لا تبديل ذات؛ فإن الأرض يوم القيامة تسوى وتمد كمد الأديم، ويلقى ما على ظهرها من جبل ومعلم، فتصير قاعًا صفصفًا، لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا، وتكون السماء كالمهل من شدة أهوال

(١) ع، ط: «وصلت إراداتهم وقدرهم».

ذلك اليوم، ثم يطويها الله تعالى بيمينه. ﴿ وَبَرَزُواْ ﴾؛ أي: الخلائق من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشورهم في محل لا يخفى منهم على الله شيء، ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ۝٤٨﴾؛ أي: المنفرد بعظمته وأسمائه وصفاته وأفعاله العظيمة وقهره لكل العوالم؛ فكلها تحت تصرفه وتدبيره؛ فلا يتحرك منها متحرك، ولا يسكن ساكن إلا بإذنه.

﴿٤٩﴾ ﴿ وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾؛ أي: الذين وصفهم الإجرام وكثرة الذنوب ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ في ذلك اليوم، ﴿مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ۝٤٩﴾؛ أي: يسلسل كل أهل عمل من المجرمين بسلاسل من نار، فيقادون إلى العذاب في أذل صورة وأشنعها وأبشعها.

﴿٥٠﴾ ﴿ سَرَابِيلُهُم ﴾؛ أي: ثيابهم ﴿مِّن قَطِرَانٖ﴾: وذلك لشدة اشتعال النار فيهم وحرارتها ونتن ريحها، ﴿وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ﴾: التي هي أشرف ما في أبدانهم ﴿ٱلنَّارُ﴾؛ أي: تحيط بها، وتصلاها من كل جانب، وغير الوجوه من باب أولى وأحرى.

﴿٥١﴾ وليس هذا ظلمًا من الله لهم، وإنما هو جزاء لما قدموا وكسبوا، ولهذا قال تعالى: ﴿ لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ ﴾: من خير وشر بالعدل والقسط الذي لا جور فيه بوجه من الوجوه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ۝٥١﴾؛ كقوله تعالى[1]: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء: ١]، ويحتمل أن معناه سريع المحاسبة؛ فيحاسب الخلق في ساعة واحدة كما يرزقهم ويدبرهم بأنواع التدابير في لحظة واحدة، لا يشغله شأن عن شأن، وليس ذلك بعسير عليه.

﴿٥٢﴾ فلما بين البيان المبين في هذا القرآن؛ قال في مدحه: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ ﴾؛ أي: يتبلغون به ويتزودون إلى الوصول إلى أعلى المقامات وأفضل الكرامات؛ لما اشتمل عليه من الأصول والفروع وجميع العلوم التي يحتاجها العباد، ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾: لما فيه من الترهيب من أعمال الشر وما أعد الله لأهلها من العقاب، ﴿وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾: حيث صرف فيه من الأدلة والبراهين على ألوهيته ووحدانيته ما صار ذلك حق اليقين، ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٥٢﴾؛ أي: العقول الكاملة ما ينفعهم فيفعلونه وما يضرهم فيتركونه، وبذلك صاروا أولي الألباب والبصائر؛ إذ بالقرآن ازدادت معارفهم وآراؤهم، وتنورت أفكارهم لما أخذوه غضًا طريًا؛ فإنه لا يدعو إلا إلى أعلى الأخلاق والأعمال وأفضلها، ولا يستدل على ذلك إلا بأقوى الأدلة وأبينها، وهذه القاعدة إذا تدرب بها العبد الذكي؛ لم يزل في صعود ورقي على الدوام في كل خصلة حميدة. والحمد لله رب العالمين.

تم تفسير سورة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام.



(١) ساقط من ع.

سورة الحجر — آياتها ٩٩ — ترتيبها ١٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

تفسير سورة الحجر

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿١﴾ يقول تعالى معظمًا لكتابه مادحًا له: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: الآيات الدالة على أحسن المعاني وأفضل المطالب، ﴿وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾﴾: للحقائق بأحسن لفظ وأوضحه وأدله على المقصود.

﴿٢﴾ وهذا مما يوجب على الخلق الانقياد إليه والتسليم لحكمه وتلقيه بالقبول والفرح والسرور، فأما من قابل هذه النعمة العظيمة بردها والكفر بها؛ فإنه من المكذبين الضالين، الذين سيأتي عليهم وقت يتمنون أنهم مسلمون؛ أي: منقادون لأحكامه، وذلك حين ينكشف الغطاء وتظهر أوائل الآخرة ومقدمات الموت؛ فإنهم في أحوال الآخرة كلها يتمنون أنهم مسلمون، وقد فات وقت الإمكان، ولكنهم في هذه الدنيا مغترون.

﴿٣﴾ فـ ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟﴾: بلذاتهم، ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾؛ أي: يؤملون البقاء في الدنيا فيلهيهم عن الآخرة، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾: أن ما هم عليه باطل، وأن أعمالهم ذهبت خسرانًا عليهم، ولا يغتروا بإمهال الله تعالى؛ فإن هذه سنته في الأمم.

﴿٤﴾ ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾: كانت مستحقة للعذاب، ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾﴾: مقدر لإهلاكها.

﴿٥﴾ ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾﴾: وإلا؛ فالذنوب لا بد من وقوع أثرها وإن تأخر.

﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿٦﴾ أي: وقال المكذبون لمحمد ﷺ استهزاء وسخرية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾: على زعمك، ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾﴾: إذ تظن أنا سنتبعك ونترك ما وجدنا عليه آباءنا لمجرد قولك.

﴿٧﴾، ﴿٨﴾ ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾: يشهدون لك بصحة ما جئت به، ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾﴾: فلما لم تأت بالملائكة؛ فلست بصادق. وهذا من أعظم الظلم والجهل: أما الظلم؛ فظاهر؛ فإن هذا تجرؤ على الله وتعنت بتعيين الآيات التي لم يخترها، وحصل المقصود والبرهان بدونها من الآيات الكثيرة الدالة على صحة ما جاء به. وأما الجهل؛ فإنهم جهلوا مصلحتهم من مضرتهم؛ فليس في إنزال الملائكة خير لهم، بل لا ينزل الله الملائكة إلا بالحق الذي لا إمهال على من لم يتبعه وينقد له. ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا﴾؛ أي: حين تنزل الملائكة إن لم يؤمنوا -ولن

يؤمنوا- بـ ﴿ مُنظَرِينَ ﴿٨﴾ ﴾؛ أي: بممهلين، فصار طلبهم لإنزال الملائكة تعجيلًا لأنفسهم بالهلاك والدمار؛ فإن الإيمان ليس في أيديهم، وإنما هو بيد الله، ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [الأنعام: ١١١].

﴿٩﴾ ويكفيهم من الآيات إن كانوا صادقين هذا القرآن العظيم، ولهذا قال هنا: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾؛ أي: القرآن الذي فيه ذكرى لكل شيء من المسائل والدلائل الواضحة، وفيه يتذكر من أراد التذكر. ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾؛ أي: في حال إنزاله وبعد إنزاله؛ ففي حال إنزاله حافظون له من استراق كل شيطان رجيم، وبعد إنزاله أودعه الله في قلب رسوله واستودعه في قلوب أمته وحفظ الله ألفاظه من التغيير فيها والزيادة والنقص ومعانيه من التبديل؛ فلا يحرف محرف معنى من معانيه إلا وقيض الله له من يبين الحق المبين، وهذا من أعظم آيات الله ونعمه على عباده المؤمنين، ومن حفظه أن الله يحفظ أهله من أعدائهم، ولا يسلط عليهم عدوًّا يجتاحهم.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿١٠﴾ يقول تعالى لنبيه إذ كذبه المشركون: لم يزل هذا دأب الأمم الخالية والقرون الماضية، ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾؛ أي: فرقهم وجماعتهم رسلًا.

﴿١١﴾ ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ ﴾: يدعوهم إلى الحق والهدى، ﴿ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿١٢﴾، ﴿١٣﴾ ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ ﴾؛ أي: ندخل التكذيب ﴿ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾؛ أي: الذين وصفهم الظلم والبهت، عاقبناهم لما تشابهت[1] قلوبهم بالكفر والتكذيب وتشابهت معاملتهم لأنبيائهم ورسلهم بالاستهزاء والسخرية وعدم الإيمان، ولهذا قال: ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾؛ أي: عادة الله فيهم بإهلاك من لم يؤمن بآيات الله.

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿١٤﴾، ﴿١٥﴾ أي: ولو جاءتهم كل آية عظيمة؛ لم يؤمنوا وكابروا[2]، ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾: فصاروا يعرجون فيه ويشاهدونه عيانًا بأنفسهم؛ لقالوا من ظلمهم وعنادهم منكرين لهذه الآية: ﴿ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا ﴾؛ أي: أصابها سكر وغشاوة حتى رأينا ما لم نر. ﴿ بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾؛ أي: ليس هذا بحقيقة، بل هذا سحر. وقوم وصلت بهم الحال إلى هذا الإنكار؛ فإنهم لا مطمع فيهم ولا رجاء.

ثم ذكر الآيات الدالات على ما جاءت به الرسل من الحق فقال:

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿١٦﴾ يقول تعالى مبينًا كمال اقتداره ورحمته بخلقه: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ﴾؛ أي: نجومًا كالأبراج والأعلام العظام يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ﴿ وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ ﴾: فإنه لولا النجوم؛ لما كان للسماء هذا المنظر البهي والهيئة العجيبة، وهذا مما يدعو الناظرين إلى التأمل فيها والنظر في معانيها والاستدلال بها على باريها.

﴿١٧﴾ ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ ﴾: إذا استرق السمع؛ اتبعته الشهب الثواقب، فبقيت السماء ظاهرها مجمل بالنجوم النيرات، وباطنها محروس ممنوع من الآفات.

﴿١٨﴾ ﴿ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ ﴾؛ أي: في بعض الأوقات قد يسترق بعض الشياطين السمع بخفية واختلاس. ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾؛ أي: بين منير يقتله أو يخبله؛ فربما أدركه الشهاب قبل أن يوصلها الشيطان إلى وليه فينقطع خبر السماء عن الأرض، وربما ألقاها إلى وليه قبل أن يدركه

(١) ع: «اشتبهت».

(٢) ع: «وكابروها».

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾

الشهاب، فيضمها، ويكذب معها مائة كذبة، ويستدل بتلك الكلمة التي سمعت من السماء.

﴿١٩﴾ ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾؛ أي: وسعناها سعة يتمكن الآدميون والحيوانات كلها من(١) الامتداد بأرجائها والتناول من أرزاقها والسكون في نواحيها. ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ ﴾؛ أي: جبالًا عظامًا تحفظ الأرض بإذن الله أن تميد وتثبتها أن تزول. ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ ﴾؛ أي: نافع متقوم يضطر إليه العباد والبلاد ما بين نخيل وأعناب وأصناف الأشجار وأنواع النبات والمعادن(٢).

﴿٢٠﴾ ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ﴾: من الحرث ومن الماشية ومن أنواع المكاسب والحرف، ﴿ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾؛ أي: أنعمنا عليكم بعبيد وإماء وأنعام لنفعكم ومصالحكم، وليس عليكم رزقها، بل خولكم الله إياها، وتكفل بأرزاقها.

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾

﴿٢١﴾ أي: جميع الأرزاق وأصناف الأقدار لا يملكها أحد إلا الله؛ فخزائنها بيده، يعطي من يشاء ويمنع من يشاء بحسب حكمته ورحمته الواسعة. ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ ﴾؛ أي: المقدر من كل شيء من مطر وغيره، ﴿ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾: فلا يزيد على ما قدره الله، ولا ينقص منه.

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

﴿٢٢﴾ أي: وسخرنا الرياح رياح الرحمة تلقح السحاب كما يلقح الذكر الأنثى، فينشأ عن ذلك الماء بإذن الله، فيسقيه الله العباد ومواشيهم وأرضهم، ويبقي في الأرض مدخرًا لحاجاتهم وضروراتهم ما هو مقتضى قدرته ورحمته. ﴿ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾؛ أي: لا قدرة لكم على خزنه وادخاره، ولكن الله يخزنه لكم ويسلكه ينابيع في الأرض رحمة بكم وإحسانًا إليكم.

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.

(١) ع: «على».
(٢) ساقط من ع.

﴿٢٣﴾ - ﴿٢٥﴾ أي: هو وحده لا شريك له الذي يحيي الخلق من العدم بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا، ويميتهم لآجالهم التي قدرها، ﴿ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾؛ كقوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [مريم: ٤٠]: وليس ذلك بعزيز ولا ممتنع على الله؛ فإنه تعالى يعلم المستقدمين من الخلق والمستأخرين منهم، ويعلم ما تنقص الأرض منهم وما تفرق من أجزائهم، وهو الذي قدرته لا يعجزها معجز، فيعيد عباده خلقًا جديدًا، ويحشرهم إليه. ﴿ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ ﴾: يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، ويجازي كل عامل بعمله: إن خيرًا؛ فخير، وإن شرًّا؛ فشر.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن

قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمۡ أَكُن
لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٣٣﴾ قَالَ
فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ
ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ
مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ
أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾
إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ
مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ
ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٣﴾
لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ
ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾
وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ
﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ﴿٤٨﴾
۞ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي
هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾

يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ
ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ
مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ
عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ
يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ
ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ
وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾
قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ
عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ
لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ
مَّقۡسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾.

يذكر تعالى نعمته وإحسانه على أبينا آدم عليه السلام، وما جرى من عدوه إبليس، وفي ضمن ذلك التحذير لنا من شره وفتنته، فقال تعالى:

(٢٦) ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ ﴾؛ أي: آدم عليه السلام ﴿ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٢٦﴾ ﴾؛ أي: من طين قد يبس بعدما خُمِّرَ حتى صار له صلصلة وصوت كصوت الفخار. والحمأ المسنون: الطين المتغير لونه وريحه من طول مكثه.

(٢٧) ﴿ وَٱلۡجَآنَّ ﴾: وهو أبو الجن؛ أي: إبليس، ﴿ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ ﴾: خلق آدم، ﴿ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾؛ أي: من النار الشديدة الحرارة.

(٢٨)، (٢٩) فلما أراد الله خلق آدم؛ قال للملائكة: ﴿ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ ﴾: جسدًا تامًّا، ﴿ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

(٣٠)، (٣١) فامتثلوا أمر ربهم، ﴿ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾: تأكيد بعد تأكيد؛ ليدل على أنه لم يتخلف منهم أحد، وذلك تعظيمًا لأمر الله وإكرامًا لآدم حيث علم ما لم يعلموا. ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ ﴾: وهذه أول عداوته لآدم وذريته.

(٣٢)، (٣٣) ﴿ قَالَ ﴾: الله: ﴿ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٣٣﴾ ﴾: فاستكبر على أمر الله، وأبدى العداوة لآدم وذريته، وأعجب بعنصره، وقال: أنا خير من آدم.

(٣٤)، (٣٥) ﴿ قَالَ ﴾ الله معاقبًا له على كفره واستكباره: ﴿ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾ ﴾؛ أي: مطرود مبعد من كل خير، ﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ ﴾؛ أي: الذم والعيب والبعد عن رحمة الله ﴿ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ ﴾. ففيها وما أشبهها دليل على أنه سيستمر على كفره وبعده من الخير.

(٣٦) - (٣٨) ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ ﴾؛ أي: أمهلني ﴿ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٣٨﴾ ﴾: وليس إجابة الله لدعائه كرامة في حقه، وإنما ذلك امتحان وابتلاء من الله له وللعباد؛ ليتبين الصادق الذي يطيع مولاه دون عدوه ممن ليس كذلك، ولذلك حذرنا منه غاية التحذير، وشرح لنا ما يريده منا.

(٣٩)، (٤٠) ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي: أزين لهم الدنيا، وأدعوهم إلى إيثارها على الأخرى، حتى يكونوا منقادين لكل معصية، ﴿ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) ﴾؛ أي: أصدهم كلهم عن الصراط المستقيم، ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ (٤٠) ﴾؛ أي: الذين أخلصتهم، واجتبيتهم لإخلاصهم وإيمانهم وتوكلهم.

(٤١) قال الله: ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) ﴾؛ أي: معتدل موصل إلي وإلى دار كرامتي.

(٤٢) ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾: تميلهم به إلى ما تشاء من أنواع الضلالات بسبب عبوديتهم لربهم وانقيادهم لأوامره، أعانهم الله وعصمهم من الشيطان.

﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ ﴾: فرضي بولايتك وطاعتك بدلًا من طاعة الرحمن، ﴿ مِنَ ٱلْغَاوِينَ (٤٢) ﴾: والغاوي ضد الراشد؛ فهو الذي عرف الحق وتركه، والضال الذي تركه من غير علم منه به.

(٤٣) ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) ﴾؛ أي: إبليس وجنوده.

(٤٤) ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ ﴾: كل باب أسفل من الآخر. ﴿ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ ﴾؛ أي: من أتباع إبليس ﴿ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (٤٤) ﴾: بحسب أعمالهم؛ قال تعالى: ﴿ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) ﴾ [الشعراء: ٩٤، ٩٥].

ولما ذكر تعالى ما أعد لأعدائه أتباع إبليس من النكال والعذاب الشديد؛ ذكر ما أعد لأوليائه من الفضل العظيم والنعيم المقيم، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ (٥٠) ﴾.

(٤٥) يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾: الذين اتقوا طاعة الشيطان وما يدعوهم إليه من جميع الذنوب والعصيان، ﴿ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ﴾: قد احتوت على جميع الأشجار، وأينعت فيها جميع الثمار اللذيذة في جميع الأوقات.

(٤٦) ويقال لهم حال دخولها: ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ (٤٦) ﴾: من الموت والنوم والنصب واللغوب وانقطاع شيء من النعيم الذي هم فيه أو نقصانه ومن المرض والحزن والهم وسائر المكدرات.

(٤٧) ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾: فتبقى قلوبهم سالمة من كل غل وحسد متصافية متحابة، ﴿ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ (٤٧) ﴾: دل ذلك على تزاورهم واجتماعهم وحسن أدبهم فيما بينهم في كون كل منهم مقابلًا للآخر لا مستدبرًا له، متكئين على تلك السرر المزينة بالفرش واللؤلؤ وأنواع الجواهر.

(٤٨) ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ﴾: لا ظاهر ولا باطن، وذلك لأن الله ينشئهم نشأة وحياة كاملة لا تقبل شيئًا من الآفات. ﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) ﴾: على سائر الأوقات.

(٤٩) ولما ذكر ما يوجب الرغبة والرهبة من مفعولات الله من الجنة والنار؛ ذكر ما يوجب ذلك من أوصافه تعالى، فقال: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِيٓ ﴾؛ أي: أخبرهم خبرًا جازمًا مؤيدًا بالأدلة، ﴿ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٤٩) ﴾: فإنهم إذا عرفوا كمال رحمته ومغفرته؛ سعوا في الأسباب الموصلة لهم إلى رحمته، وأقلعوا عن الذنوب وتابوا منها؛ لينالوا مغفرته.

(٥٠) ومع هذا؛ فلا ينبغي أن يتمادى بهم الرجاء إلى حال الأمن والإدلال؛ فنبئهم أن ﴿ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ (٥٠) ﴾؛ أي: لا عذاب في الحقيقة إلا عذاب الله الذي لا يقادر قدره ولا يبلغ كنهه، نعوذ به من عذابه؛ فإنهم إذا عرفوا أنه ﴿ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ (٢٥) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ (٢٦) ﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦]؛ حذروا وأبعدوا عن كل سبب يوجب لهم العقاب.

فالعبد ينبغي أن يكون قلبه دائمًا بين الخوف والرجاء والرغبة والرهبة؛ فإذا نظر إلى رحمة ربه ومغفرته وجوده وإحسانه؛ أحدث له ذلك الرجاء والرغبة، وإذا نظر إلى ذنوبه وتقصيره في حقوق ربه؛ أحدث له الخوف والرهبة والإقلاع عنها.

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ

إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ
لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن
مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ
فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ
رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ
﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ
إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ
ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ
إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ
يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ
بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ
وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ
دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ
يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ
ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾

بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ
فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ
ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا
ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿٥١﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ ﴾؛ أي: عن تلك القصة العجيبة؛ فإن في قصك عليهم أنباء الرسل وما جرى لهم ما يوجب لهم العبرة والاقتداء بهم، خصوصًا إبراهيم الخليل - الذي أمرنا الله أن نتبع ملته - وضيفه هم الملائكة الكرام، أكرمه الله بأن جعلهم أضيافه.

﴿٥٢﴾، ﴿٥٣﴾ ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا ﴾؛ أي: سلموا عليه فرد عليهم، ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾؛ أي: خائفون؛ لأنه لما دخلوا عليه، وحسبهم ضيوفًا؛ ذهب مسرعًا إلى بيته، فأحضر لهم ضيافتهم عجلًا حنيذًا، فقدمه إليهم، فلما رأى أيديهم لا تصل إليه؛ خاف منهم أن يكونوا لصوصًا أو نحوهم ﴿ قَالُواْ ﴾ له: ﴿ لَا تَوْجَلْ ﴾: وهو إسحاق عليه الصلاة والسلام. تضمنت هذه البشارة بأنه ذكر لا أنثى. ﴿ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ ﴾؛ أي: كثير العلم. وفي الآية الأخرى: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الصافات: ١١٢].

﴿٥٤﴾ ﴿قَالَ ﴾ لهم متعجبًا من هذه البشارة: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي ﴾: بالولد ﴿عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ ﴾: وصار نوع إياس منه. ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾؛ أي: على أي وجه تبشرون وقد عدمت الأسباب؟!

﴿٥٥﴾ ﴿ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾: الذي لا شك فيه؛ لأن الله على كل شيء قدير، وأنتم بالخصوص يا أهل هذا البيت، رحمة الله وبركاته عليكم؛ فلا يستغرب فضل الله وإحسانه إليكم. ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾: الذين يستبعدون وجود الخير، بل لا تزال راجيًا لفضل الله وإحسانه وبره وامتنانه.

﴿٥٦﴾ فأجابهم إبراهيم بقوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾: الذين لا علم لهم بربهم وكمال اقتداره، وأما من أنعم الله عليه بالهداية والعلم العظيم؛ فلا سبيل إلى القنوط إليه؛ لأنه يعرف من كثرة الأسباب والوسائل والطرق لرحمة الله شيئًا كثيرًا.

ثم لما بشروه بهذه البشارة؛ عرف أنهم مرسلون لأمر مهم.

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ
أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا
لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ
ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ
إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ
يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ
بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ
وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ
دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ
يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ
ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾
قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ
يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا

سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿٥٧﴾ أي: ﴿ قَالَ ﴾ الخليل عليه السلام للملائكة: ﴿ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾؛ أي: ما شأنكم؟ ولأي شيء أرسلتم؟

﴿٥٨﴾ ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾؛ أي: كثر فسادهم وعظم شرهم لنعذبهم ونعاقبهم.

﴿٥٩﴾، ﴿٦٠﴾ ﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ ﴾؛ أي: إلا لوطًا وأهله، ﴿ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾؛ أي: الباقين بالعذاب، وأما لوط؛ فسنخرجنه وأهله وننجيهم[1] منها. فجعل إبراهيم يجادل الرسل في إهلاكهم ويراجعهم، فقيل له: ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [هود: ٧٦]. فذهبوا منه.

﴿٦١﴾، ﴿٦٢﴾ ﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ ﴾ لهم لوط: ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾؛ أي: لا أعرفكم، ولا أدري من أنتم.

﴿٦٣﴾ فـ ﴿ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾؛ أي: جئناك بعذابهم الذي كانوا يشكون فيه ويكذبونك حين تعدهم به.

﴿٦٤﴾ ﴿ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾: الذي ليس بالهزل. ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾: فيما قلنا لك.

﴿٦٥﴾ ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ ﴾؛ أي: في أثنائه حين تنام العيون ولا يدري أحد عن مسراك. ﴿ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾؛ أي: بل بادروا وأسرعوا، ﴿ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾: كأن معهم دليلًا يدلهم إلى أين يتوجهون.

﴿٦٦﴾ ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ﴾؛ أي: أخبرناه خبرًا لا مثنوية فيه، ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾؛ أي: سيصبحهم العذاب الذي يجتاحهم، ويستأصلهم.

﴿٦٧﴾-﴿٦٩﴾ ﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ﴾؛ أي: المدينة التي فيها قوم[2] لوط، ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾؛ أي: يبشر بعضهم

(١) ع: «وننجينهم».
(٢) سقط من ع، ط.

قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾

بعضًا بأضياف لوط وصباحة وجوههم واقتدارهم عليهم، وذلك لقصدهم فعل الفاحشة فيهم، فجاءوا حتى وصلوا إلى بيت لوط، فجعلوا يعالجون لوطًا على أضيافه، ولوط يستعيذ منهم ويقول: ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ ﴾؛ أي: راقبوا الله أول ذلك، وإن كان ليس فيكم خوف من الله؛ فلا تفضحوني في أضيافي، وتنتهكوا منهم الأمر الشنيع.

﴿٧٠﴾ ﴿ قَالُوا ﴾ له جوابًا عن قوله: ﴿ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ ﴾ فقط: ﴿ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾: أن تضيفهم، فنحن قد أنذرناك، ومن أنذر؛ فقد أعذر.

﴿٧١﴾، ﴿٧٢﴾ ﴿ قَالَ ﴾ لهم لوط من شدة الأمر الذي أصابه: ﴿ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ ﴾: فلم يبالوا بقوله، ولهذا قال الله لرسوله محمد ﷺ: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾: وهذه السكرة هي سكرة محبة الفاحشة التي لا يبالون معها بعذل ولا لوم.

(٧٣) فلما بينت له الرسل حالهم؛ زال عن لوط ما كان يجده من الضيق والكرب، فامتثل أمر ربه، وسرى بأهله ليلًا، فنجوا. وأما أهل القرية؛ ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾؛ أي: وقت شروق الشمس؛ حيث[1] كانت العقوبة عليهم أشد.

(٧٤) ﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾؛ أي: قلبنا عليهم مدينتهم، ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ ﴾: تتبع فيها من شذ من البلد منهم.

(٧٥) ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾؛ أي: المتأملين المتفكرين الذين لهم فكر وروية وفراسة يفهمون بها ما أريد بذلك من أن من تجرأ على معاصي الله، خصوصًا هذه الفاحشة العظيمة، وأن الله سيعاقبهم بأشنع العقوبات؛ كما تجرءوا على أشنع السيئات.

(٧٦) ﴿ وَإِنَّهَا ﴾؛ أي: مدينة قوم لوط ﴿ لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾: للسالكين، يعرفه كل من تردد في تلك الديار.

(٧٧) ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾: وفي هذه القصة من العبر: عنايته تعالى بخليله إبراهيم؛ فإن لوطًا عليه السلام من أتباعه وممن آمن به، فكأنه تلميذ له؛ فحين أراد الله إهلاك قوم لوط حين استحقوا ذلك؛ أمر رسله أن يمروا على إبراهيم عليه السلام كي يبشروه بالولد ويخبروه بما بعثوا له، حتى إنه جادلهم عليه السلام في إهلاكهم، حتى أقنعوه، فطابت نفسه، وكذلك لوط عليه السلام، لما كانوا أهل وطنه؛ فربما أخذته الرقة عليهم والرأفة بهم؛ قدَّر الله من الأسباب ما به يشتد غيظه وحَنَقُهُ عليهم، حتى استبطأ إهلاكهم لما قيل له: ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾ [هود: ٨١].

ومنها: أن الله تعالى إذا أراد أن يهلك قرية ازداد شرهم وطغيانهم؛ فإذا انتهى؛ أوقع بهم من العقوبات ما يستحقونه.

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴾.

(٧٨) وهؤلاء قوم شعيب، نعتهم الله وأضافهم إلى الأيكة، وهو البستان كثير الأشجار؛ ليذكر نعمته عليهم، وأنهم ما قاموا بها، بل جاءهم نبيهم شعيب، فدعاهم إلى التوحيد، وترك ظلم الناس في المكاييل والموازين، وعالجهم على ذلك أشد المعالجة، فاستمروا على ظلمهم في حق الخالق وفي حق الخلق، ولهذا وصفهم هنا بالظلم.

(٧٩) ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾: فأخذهم عذاب يوم الظلة؛ إنه كان عذاب يوم عظيم. ﴿ وَإِنَّهُمَا ﴾؛ أي: ديار قوم لوط وأصحاب الأيكة، ﴿ لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴾؛ أي: لبطريق واضح يمر بهم المسافرون كل وقت، فيبين من آثارهم ما هو مشاهد بالأبصار، فيعتبر بذلك أولو الألباب.

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

(٨٠) يخبر تعالى عن أهل الحجر، وهم قوم صالح، الذين كانوا يسكنون الحجر المعروف في أرض الحجاز: أنهم كذبوا المرسلين؛ أي: كذبوا صالحًا، ومن كذب رسولًا؛ فقد كذب سائر الرسل لاتفاق دعوتهم، وليس تكذيب بعضهم لشخصه، بل لما جاء به من الحق، الذي اشترك جميع الرسل بالإتيان به.

(٨١) ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا ﴾: الدالة على صحة ما جاءهم به صالح من الحق التي من جملتها تلك الناقة التي هي من آيات الله العظيمة. ﴿ فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ ﴾: كبرًا وتجبرًا على الله.

(٨٢) ﴿ وَكَانُوا۟ ﴾: من كثرة إنعام الله عليهم، ﴿ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾: من المخاوف، مطمئنين في ديارهم؛ فلو شكروا النعمة وصدّقوا نبيهم صالحًا عليه السلام؛ لأدر الله عليهم الأرزاق، ولأكرمهم بأنواع من الثواب العاجل والآجل، ولكنهم لما كذبوا وعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا: ﴿ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

(٨٣) ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾: فتقطعت قلوبهم في أجوافهم وأصبحوا في دارهم جاثمين هلكى، مع ما يتبع ذلك من الخزي واللعنة المستمرة.

---

(١) ع، ط: «حين».

(٨٤) ﴿ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٤ ﴾: لأن أمر الله إذا جاء لا يرده كثرة جنود ولا قوة أنصار ولا غزارة أموال.

﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ٨٥ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ٨٦ ﴾.

(٨٥) أي: ما خلقناهما عبثًا باطلًا كما يظن ذلك أعداء الله، بل ما خلقناهما ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾: الذي منه أن يكونا بما فيهما دالتين على كمال خالقهما[1] واقتداره وسعة رحمته وحكمته وعلمه المحيط، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له. ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ ﴾: لا ريب فيها؛ لأن خلق السماوات والأرض ابتداء ﴿أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧]. ومرة أخرى ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ٨٥ ﴾: وهو الصفح الذي لا أذية فيه، بل يقابل إساءة المسيء بالإحسان وذنبه بالغفران؛ لتنال من ربك جزيل الأجر والثواب؛ فإن كل ما هو آت فهو قريب.

وقد ظهر لي معنى أحسن مما ذكرت هنا، وهو أن المأمور به هو الصفح الجميل؛ أي: الحسن الذي قد سلم من الحقد والأذية القولية والفعلية، دون الصفح الذي ليس بجميل، وهو الصفح في غير محله؛ فلا يصفح حيث اقتضى المقام العقوبة؛ كعقوبة المعتدين الظالمين الذين لا ينفع فيهم إلا العقوبة، وهذا هو المعنى.

(٨٦) ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ﴾: لكل مخلوق، ﴿ٱلۡعَلِيمُ ٨٦ ﴾: بكل شيء؛ فلا يعجزه أحد من جميع ما أحاط به علمه، وجرى عليه خلقه، وذلك سائر الموجودات.

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧ لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨ وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ٨٩ كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ٩٠ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ٩١ فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٣ ﴾.

(٨٧) يقول تعالى ممتنًا على رسوله: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي ﴾: وهن على الصحيح السور السبع الطوال: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال مع التوبة. أو أنها فاتحة الكتاب؛ لأنها سبع آيات. فيكون عطف ﴿وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧ ﴾ على ذلك من باب عطف العام على الخاص؛ لكثرة ما في المثاني من التوحيد وعلوم الغيب والأحكام الجليلة وتثنيتها فيها. وعلى القول بأن الفاتحة هي السبع المثاني معناها أنها سبع آيات تثنى في كل ركعة.

(٨٨) وإذ كان الله قد أعطاه القرآن العظيم مع السبع المثاني؛ كان قد أعطاه أفضل ما يتنافس فيه المتنافسون وأعظم ما فرح به المؤمنون، ﴿ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨ ﴾ [يونس: ٥٨]، ولذلك قال بعده: ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ ﴾؛ أي: لا تعجب إعجابًا يحملك على اشتغال فكرك بشهوات[2] الدنيا التي تمتع بها المترفون واغتر بها الجاهلون، واستغن بما آتاك الله من المثاني والقرآن العظيم. ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ ﴾: فإنهم لا خير فيهم يرجى، ولا نفع يرتقب؛ فلك في المؤمنين عنهم أحسن البدل وأفضل العوض. ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨ ﴾؛ أي: ألن لهم جانبك وحسِّن لهم خلقك محبة وإكرامًا وتوددًا.

(٨٩) ﴿ وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ٨٩ ﴾؛ أي: قم بما عليك من النذارة وأداء الرسالة والتبليغ للقريب والبعيد والعدو والصديق؛ فإنك إذا فعلت ذلك؛ فليس عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء.

(٩٠) وقوله: ﴿ كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ٩٠ ﴾؛ أي: كما أنزلنا العقوبة على المقتسمين على بطلان ما جئت به، الساعين لصد الناس عن سبيل الله.

(٩١) ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ٩١ ﴾؛ أي: أصنافًا وأعضاء وأجزاء يُصَرِّفونه بحسب ما يهوونه؛ فمنهم من يقول: سحر، ومنهم من يقول: كهانة، ومنهم من يقول: مفترًى... إلى غير ذلك من أقوال الكفرة المكذبين به، الذين جعلوا قدحهم فيه؛ ليصدوا الناس عن الهدى.

(١) ع: «خالقها».

(٢) ع: «بمشبوهات».

ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ
عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ
يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ
أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن
مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

سورة النحل

ترتيبها ١٦ — آياتها ١٢٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ
﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ
أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ
ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَـٰمَ
خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ
﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾

(٩٢)، (٩٣) ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾؛ أي: جميع من قدح فيه وعابه وحرفه وبدله، ﴿ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾: وفي هذا أعظم ترهيب وزجر لهم عن الإقامة على ما كانوا يعملون.

(٩٤) ثم أمر الله رسوله ألَّا يبالي بهم ولا بغيرهم، وأن يصدع بما أمر الله ويعلن بذلك لكل أحد ولا يعوقنه عن أمره عائق ولا تصده أقوال المتهوكين. ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾: أي؛ لا تبال بهم، واترك مشاتمتهم ومسابتهم مقبلًا على شأنك.

(٩٥) ﴿ إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾: بك وبما جئت به. وهذا وعد من الله لرسوله ألَّا يضره المستهزئون، وأن يكفيه الله إياهم بما شاء من أنواع العقوبة، وقد فعل تعالى: فإنه ما تظاهر أحد بالاستهزاء برسول الله ﷺ وبما جاء به؛ إلا أهلكه الله وقتله شر قتلة.

(٩٦) ثم ذكر وصفهم، وأنهم كما يؤذونك يا رسول الله؛ فإنهم أيضًا يؤذون الله، ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ﴾: وهو ربهم وخالقهم ومدبرهم. ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾: غب أفعالهم إذا وردوا القيامة.

(٩٧) ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾: لك من التكذيب والاستهزاء؛ فنحن قادرون على استئصالهم بالعذاب والتعجيل لهم بما يستحقونه[1]، ولكن الله يمهلهم، ولا يهملهم.

(٩٨) فأنت يا محمد، ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾؛ أي: أكثر من ذكر الله وتسبيحه وتحميده والصلاة؛ فإن ذلك يوسع الصدر ويشرحه ويعينك على أمورك.

(٩٩) ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾؛ أي: الموت؛ أي: استمر في جميع الأوقات على التقرب إلى الله بأنواع العبادات. فامتثل ﷺ أمر ربه، فلم يزل دائبًا في العبادة حتى أتاه اليقين من ربه، ﷺ تسليمًا كثيرًا.

---

(١) ع: «يستحقون».

تفسير سورة النحل
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ۝٢﴾.

(١) يقول تعالى مقربًا لما وعد به محققًا لوقوعه: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾: فإنه آت، وما هو آت فإنه قريب. ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١﴾: من نسبة الشريك والولد والصاحبة والكفء وغير ذلك مما نسبه إليه المشركون مما لا يليق بجلاله أو ينافي كماله.

(٢) ولما نزه نفسه عما وصفه به أعداؤه؛ ذكر الوحي الذي ينزله على أنبيائه مما يجب اتباعه في ذكر ما ينسب لله من صفات الكمال، فقال: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾؛ أي: بالوحي الذي به حياة الأرواح، ﴿عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾: ممن يعلمه صالحًا لتحمل رسالته. وزبدة دعوة الرسل[١] كلهم ومدارها على قوله: ﴿أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا﴾؛ أي: على معرفة الله تعالى، وتوحده في صفات العظمة، التي هي صفات الألوهية، وعبادته وحده لا شريك له؛ فهي التي أنزل[٢] بها كتبه، وأرسل رسله، وجعل الشرائع كلها تدعو إليها، وتحث، وتجاهد من حاربها، وقام بضدها.

ثم ذكر الأدلة والبراهين على ذلك، فقال:

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۝٤ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ۝٧ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ۚ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩﴾.

(١) ع: «المرسلين».
(٢) زاد في ع: «الله».

هذه السورة تسمى سورة النعم؛ فإن الله ذكر في أولها أصول النعم وقواعدها، وفي آخرها متمماتها ومكملاتها.

(٣) فأخبر أنه ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾؛ ليستدل بهما[٣] العباد على عظمة خالقهما وما له من نعوت الكمال، ويعلموا أنه خلقهما مسكنًا لعباده الذين يعبدونه بما يأمرهم به من الشرائع التي أنزلها على ألسنة رسله، ولهذا نزه نفسه عن شرك المشركين به، فقال: ﴿تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣﴾، أي: تنزه وتعاظم عن شركهم؛ فإنه الإله حقًّا، الذي لا تنبغي العبادة والحب والذل إلا له تعالى.

(٤) ولما ذكر خلق السماوات [والأرض][٤]؛ ذكر خلق ما فيهما، وبدأ بأشرف ذلك، وهو الإنسان، فقال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾: لم يزل يدبرها ويربيها[٥] وينميها حتى صارت بشرًا تامًّا كامل الأعضاء الظاهرة والباطنة، قد غمره بنعمه الغزيرة، حتى إذا استتم فخر بنفسه وأعجب بها. ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۝٤﴾: يحتمل أن المراد: فإذا هو خصيم لربه؛ يكفر به، ويجادل رسله، ويكذب بآياته، ونسي خلقه الأول، وما أنعم الله عليه به من النعم، فاستعان بها على معاصيه.

ويحتمل أن المعنى أن الله أنشأ الآدمي من نطفة، ثم لم يزل ينقله من طور إلى طور، حتى صار عاقلًا، متكلمًا، ذا ذهن ورأي، يخاصم ويجادل؛ فليشكر العبد ربه الذي أوصله إلى هذه الحال، التي ليس في إمكانه القدرة على شيء منها.

(٥) ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ﴾؛ أي: لأجلكم ولأجل منافعكم ومصالحكم، ومن جملة منافعها العظيمة[٦]، ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾: مما تتخذون من أصوافها وأوبارها وأشعارها وجلودها من الثياب والفرش والبيوت. ولكم فيها منافع غير ذلك، ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥﴾.

(٦) ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾؛ أي: في وقت رواحها وراحتها وسكونها ووقت حركتها وسرحها، وذلك أن جمالها لا يعود إليها منه شيء؛ فإنكم أنتم الذين تتجملون بها كما تتجملون بثيابكم وأولادكم وأموالكم وتعجبون بذلك.

(٣) ع: «بها».
(٤) زيادة ليست في الأصل، ع.
(٥) ع، ط: «ويرقيها».
(٦) زاد في ع، ط: «أن لكم».

وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ
ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ
وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾
وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ
شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم
بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ
ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾
وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ
مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ
﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى
سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟
مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ
وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

(٧) ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾: من الأحمال الثقيلة، بل وتحملكم أنتم، ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾: ولكن الله ذللها لكم؛ فمنها ما تركبونه، ومنها ما تحملون عليه ما تشاءون من الأثقال إلى البلدان البعيدة والأقطار الشاسعة. ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾: إذ سخر لكم ما تضطرون إليه وتحتاجونه؛ فله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه وسعة جوده وبره.

(٨) ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ﴾: سخرناها لكم؛ ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾؛ أي: تارة تستعملونها للضرورة في الركوب، وتارة لأجل الجمال والزينة، ولم يذكر الأكل؛ لأن البغال والحمير[1] محرم أكلها، والخيل لا تستعمل في الغالب للأكل، بل ينهى عن ذبحها لأجل الأكل خوفًا من انقطاعها، وإلا؛ فقد ثبت في **الصحيحين** أن النبي ﷺ أذن في لحوم الخيل[2]. ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾: مما يكون بعد نزول القرآن من الأشياء التي يركبها الخلق في البر والبحر والجو ويستعملونها في منافعهم ومصالحهم؛ فإنه لم يذكرها بأعيانها؛ لأن الله تعالى لم يذكر في كتابه إلا ما يعرفه العباد أو يعرفون نظيره، وأما ما ليس له نظير في زمانهم[3]؛ فإنه لو ذكر؛ لم يعرفوه ولم يفهموا المراد منه، فيذكر أصلًا جامعًا يدخل فيه ما يعلمون وما لا يعلمون؛ كما ذكر نعيم الجنة، وسمى منه ما نعلم ونشاهد نظيره؛ كالنخل والأعناب والرمان، وأجمل ما لا نعرف له نظيرًا في قوله: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾ [الرحمن: ٥٢]؛ فكذلك هنا ذكر ما نعرفه من المراكب؛ كالخيل والبغال والحمير والإبل والسفن، وأجمل الباقي في قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾.

(٩) ولما ذكر تعالى الطريق الحسي، وأن الله قد جعل للعباد ما يقطعونه به من الإبل وغيرها؛ ذكر الطريق المعنوي الموصل إليه، فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾؛ أي: الصراط المستقيم، الذي هو أقرب الطرق وأخصرها، موصل إلى الله وإلى كرامته، وأما الطريق الجائر في عقائده وأعماله، وهو كل ما خالف الصراط المستقيم؛ فهو قاطع عن الله، موصل إلى دار الشقاء، فسلك المهتدون الصراط المستقيم بإذن ربهم، وضل الغاوون عنه، وسلكوا الطرق الجائرة. ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾: ولكنه هدى بعضًا كرمًا وفضلًا، ولم يهد آخرين حكمة منه وعدلًا.

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾.

(١٠)، (١١) بذلك على كمال قدرة الله، الذي أنزل هذا الماء من السحاب الرقيق اللطيف، ورحمته حيث جعل فيه ماء غزيرًا منه يشربون، وتشرب مواشيهم، ويسقون منه حروثهم، فتخرج لهم الثمرات الكثيرة والنعم الغزيرة.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

(١٢) أي: سخر لكم هذه الأشياء لمنافعكم وأنواع مصالحكم؛ بحيث لا تستغنون عنها أبدًا؛ فبالليل تسكنون

(١) ع: «والحمر».
(٢) البخاري (٥٥٢٠)، مسلم (١٩٤١).
(٣) عبارة: «في زمانهم» ساقطة من ع، ط.

وتنامـون وتستريحون، وبالنهـار تنتشـرون فـي معايشـكم ومنافع دينكم ودنياكم، وبالشـمس والقمر من الضياء والنور والإشـراق وإصلاح الأشـجار والثمـار والنبـات وتجفيف الرطوبـات وإزالـة البرودة الضـارة للأرض وللأبـدان وغير ذلك مـن الضروريـات والحاجيات التابعة لوجود الشـمس والقمـر، وفيهمـا وفـي النجوم مـن الزينـة للسـماء والهداية فـي ظلمات البر والبحر ومعرفة الأوقات وحسـاب الأزمنة ما تتنـوع دلالاتها وتتصـرف آياتها، ولهذا جمعهـا في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾؛ أي: لمـن لهـم عقول يسـتعملونها فـي التدبـر والتفكر فيما هـي مهيئة لـه مستعدة، تعقل ما تراه وتسـمعه، لا كنظـر الغافلين الذين حظهم من النظر حظ البهائم التي لا عقل لها.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

﴿١٣﴾ أي: فيمـا ذرأ اللـه ونشـر للعباد من كل مـا على وجه الأرض مـن حيوان وأشـجار ونبات وغير ذلـك مما تختلف ألوانـه وتختلـف منافعـه آيـة علـى كمال قـدرة اللـه وعميم إحسـانه وسـعة بره وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له. ﴿لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: يستحضرون فـي ذاكرتهم ما ينفعهـم من العلم النافـع ويتأملون ما دعاهم الله إلى التأمل فيه حتى يتذكروا بذلك ما هو دليل عليه.

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٤﴾ أي: هو وحده لا شريك له ﴿الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾: وهيـأه لمنافعكم المتنوعة؛ ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾: وهو السـمك والحـوت الذي يصطادونـه منه، ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾: فتزيدكـم جمـالًا وحسـنًا إلـى حسنكم. ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ﴾؛ أي: السـفن والمراكـب ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾؛ أي: تَمْخَرُ فـي البحـر العجـاج الهائـل بمقدمها حتى تسـلك فيه من قطر إلى آخر تحمل المسافرين وأرزاقهـم وأمتعتهـم وتجاراتهـم التـي يطلبون بهـا الأرزاق وفضل الله عليهـم. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾: الذي يسـر لكـم هذه الأشـياء وهيأهـا وتثنون على اللـه الذي من

وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا
لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ
﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن
تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ
مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ
أَحْيَاءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ
فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ
﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ
لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ
قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً
يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا
سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ
مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

بهـا؛ فلله تعالى الحمد والشـكر والثناء؛ حيـث أعطى العباد مـن مصالحهم ومنافعهم فوق مـا يطلبون وأعلى مما يتمنون وآتاهم من كل ما سألوه لا نحصي ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه.

﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿١٥﴾، ﴿١٦﴾ أي: ﴿وَأَلْقَىٰ﴾: اللـه تعالـى لأجـل عباده ﴿فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾: وهـي الجبـال العظـام؛ لئـلا تميـد بهـم وتضطـرب بالخلـق، فيتمكنـون مـن حـرث الأرض والبناء والسير عليها، ومن رحمته تعالى أن جعل فيها أنهارًا يسوقها مـن أرض بعيـدة إلـى أرض مضطرة إليها؛ لسـقيهم وسـقي مواشـيهم وحروثهـم؛ أنهارًا علـى وجـه الأرض وأنهارًا في بطنها يسـتخرجونها بحفرها حتى يصلوا إليها فيستخرجونها بمـا سـخر اللـه لهـم مـن الدوالـي والآلات ونحوهـا، ومن رحمتـه أن جعـل فـي الأرض سـبلًا؛ أي: طرقًـا توصـل إلى

الديار المتنائية. ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٥﴾: السبيل إليها، حتى إنك تجد أرضًا مشتبكة بالجبال مسلسلة فيها، وقد جعل الله فيما بينها منافذ ومسالك للسالكين.

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٨ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ١٩ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ٢٠ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ٢١ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ٢٢ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ٢٣﴾.

١٧ لما ذكر تعالى ما خلقه من المخلوقات العظيمة وما أنعم به من النعم العميمة؛ ذكر أنه لا يشبهه أحد، ولا كفء له ولا ند له، فقال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾: جميع المخلوقات، وهو الفعال لما يريد، ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾: شيئًا لا قليلًا ولا كثيرًا. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧﴾: فتعرفون أن المنفرد بالخلق أحق بالعبادة كلها؛ فكما أنه واحد في خلقه وتدبيره؛ فإنه واحد في إلهيته وتوحيده وعبادته، وكما أنه ليس له مشارك إذ أنشأكم وأنشأ غيركم؛ فلا تجعلوا له أندادًا في عبادته، بل أخلصوا له الدين.

١٨ ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾: عددًا مجردًا عن الشكر، ﴿لَا تُحْصُوهَا﴾: فضلًا عن كونكم تشكرونها؛ فإن نعمه الظاهرة والباطنة على العباد بعدد الأنفاس واللحظات، من جميع أصناف النعم، مما يعرف العباد ومما لا يعرفون، وما يدفع عنهم من النقم؛ فأكثر من أن تحصى. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٨﴾: يرضى منكم باليسير من الشكر مع إنعامه الكثير.

١٩، ٢٠ وكما أن رحمته واسعة وجوده عميم ومغفرته شاملة للعباد؛ فعلمه محيط بهم، ﴿يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ١٩﴾ من عُبِدَ من دونه فإنهم ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾: قليلًا ولا كثيرًا. ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ ٢٠﴾؛ فكيف يخلقون شيئًا مع افتقارهم في إيجادهم إلى الله تعالى؟!

٢١، ٢٢ ومع هذا؛ ليس فيهم من أوصاف الكمال شيء لا علم ولا غيره. ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾: فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيئًا، أفتتخذ هذه آلهة من دون رب العالمين؟! فتبًّا لعقول المشركين ما أضلها وأفسدها؛ حيث ضلت في أظهر الأشياء فسادًا، وسووا بين الناقص من جميع الوجوه؛ فلا أوصاف كمال، ولا شيء من الأفعال! وبين الكامل من جميع الوجوه الذي له كل صفة كمال وله من تلك الصفة أكملها وأعظمها؛ فله العلم المحيط بكل الأشياء والقدرة العامة والرحمة الواسعة التي ملأت جميع العوالم، والحمد والمجد والكبرياء والعظمة التي لا يقدر أحد من الخلق أن يحيط ببعض أوصافه، ولهذا قال: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾: وهو الله الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد؛ فأهل الإيمان والعقول أجلَّته قلوبهم، وعظَّمته، وأحبَّته حبًّا عظيمًا، وصرفوا له كل ما استطاعوا[1] من القربات البدنية والمالية وأعمال القلوب وأعمال الجوارح، وأثنوا عليه بأسمائه الحسنى وصفاته وأفعاله المقدسة.

﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾: لهذا الأمر العظيم، الذي لا ينكره إلا أعظم الخلق جهلًا وعنادًا، وهو توحيد الله. ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ٢٢﴾: عن عبادته.

٢٣ ﴿لَا جَرَمَ﴾؛ أي: حقًّا لا بد ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾: من الأعمال القبيحة. ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ٢٣﴾: بل يبغضهم أشد البغض، وسيجازيهم من جنس عملهم. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾ [غافر: ٦٠].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ٢٤ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ٢٦ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ٢٧ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ ۚ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٢٨ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ٢٩﴾.

---

(١) ع: «اسطاعوا».

ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُوا۟ خَيْرًاۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾

٢٧٠

﴿٢٤﴾ يقول تعالى مخبرًا عن شدة تكذيب المشركين بآيات الله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ﴾؛ أي: إذا سئلوا عن القرآن والوحي الذي هو أكبر نعمة أنعم الله بها على العباد؛ فماذا قولكم به؟ وهل تشكرون هذه النعمة وتعترفون بها أم تكفرون وتعاندون؟ فيكون جوابهم أقبح جواب وأسمجه، فيقولون عنه: إنه ﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾؛ أي: كذب اختلقه محمد على الله، وما هو إلا قصص الأولين التي يتناقلها الناس جيلًا بعد جيل، منها الصدق ومنها الكذب.

﴿٢٥﴾ فقالوا هذه المقالة، ودعوا أتباعهم إليها، وحملوا وزرهم ووزر من انقاد لهم إلى يوم القيامة، وقوله: ﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾؛ أي: من أوزار المقلدين الذين لا علم عندهم إلا ما دعوهم إليه، فيحملون إثم ما دعوهم إليه، وأما الذين يعلمون؛ فكل مستقل بجرمه؛ لأنه عرف ما عرفوا. ﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾؛ أي: بئس ما حملوا من الوزر المثقل لظهورهم من وزرهم ووزر من أضلوه.

﴿٢٦﴾، ﴿٢٧﴾ ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾: برسلهم، واحتالوا بأنواع الحيل على رد ما جاءوهم به، وبنوا من مكرهم قصورًا هائلة، ﴿ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ ﴾؛ أي: جاءها الأمر من أساسها وقاعدتها، ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ ﴾: فصار ما بنوه عذابًا عذبوا به. ﴿ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾: وذلك أنهم ظنوا أن هذا البنيان سينفعهم ويقيهم العذاب، فصار عذابهم فيما بنوه وأصلوه. وهذا من أحسن الأمثال في إبطال الله مكر أعدائه؛ فإنهم فكروا وقدروا فيما جاءت به الرسل لما كذبوه وجعلوا لهم أصولًا وقواعد من الباطل يرجعون إليها ويردون بها ما جاءت به الرسل، واحتالوا أيضًا على إيقاع المكروه والضرر بالرسل ومن تبعهم، فصار مكرهم وبالًا عليهم، فصار تدبيرهم فيه تدميرهم، وذلك لأن مكرهم سيئ، ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ [فاطر: ٤٣]. هذا في الدنيا، ولعذاب الآخرة أخزى، ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ ﴾؛ أي: يفضحهم على رءوس الخلائق ويبين لهم كذبهم وافتراءهم على الله. ﴿ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ﴾؛ أي: تحاربون وتعادون الله وحزبه لأجلهم تزعمون أنهم شركاء لله؛ فإذا سألهم هذا السؤال؛ لم يكن لهم جواب إلا الإقرار بضلالهم والاعتراف بعنادهم، فيقولون: ﴿ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٧]: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾؛ أي: العلماء الربانيون: ﴿ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ ﴾؛ أي: يوم القيامة، ﴿ وَٱلسُّوٓءَ ﴾؛ أي: سوء[1] العذاب ﴿ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾. وفي هذا فضيلة أهل العلم، وأنهم الناطقون بالحق في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وأن لقولهم اعتبارًا عند الله وعند خلقه.

﴿٢٨﴾ ثم ذكر ما يفعل بهم عند الوفاة وفي القيامة، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾؛ أي: تتوفاهم في هذه الحال التي كثر فيها ظلمهم وغيهم، وقد علم ما يلقى الظلمة في ذلك المقام من أنواع العذاب والخزي والإهانة. ﴿ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ ﴾؛ أي: استسلموا وأنكروا ما كانوا يعبدون[2] من دون الله، وقالوا: ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ﴾: فيقال لهم: ﴿ بَلَىٰٓ ﴾: كنتم تعملون السوء. و﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا

(١) ساقط من ع، ط.
(٢) ع، ط: «يعبدونهم».

﴿كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾: فلا يفيدكم الجحود شيئًا. وهذا في بعض مواقف القيامة؛ ينكرون ما كانوا عليه في الدنيا؛ ظنًّا أنه ينفعهم؛ فإذا شهدت عليهم جوارحهم، وتبين ما كانوا عليه؛ أقروا واعترفوا، ولهذا لا يدخلون النار حتى يعترفوا بذنوبهم.

﴿٢٩﴾ فإذا دخلوا[1] أبواب جهنم، كل أهل عمل يدخلون من الباب اللائق بحالهم؛ ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾: نار جهنم؛ فإنها مثوى الحسرة والندم، ومنزل الشقاء والألم، ومحل الهموم والغموم، وموضع السَّخَط من الحي القيوم، لا يُفَتَّرُ عنهم من عذابها، ولا يرفع عنهم يومًا من أليم عقابها، قد أعرض عنهم الرب الرحيم، وأذاقهم العذاب العظيم.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿٣٠﴾ لما ذكر الله قيل المكذبين بما أنزل الله؛ ذكر ما قاله المتقون، وأنهم اعترفوا وأقروا بأن ما أنزل[2] الله نعمة عظيمة وخير عظيم امتن الله به على العباد، فقبلوا تلك النعمة، وتلقوها بالقبول والانقياد، وشكروا الله عليها، فعلموها وعملوا بها. ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾: في عبادة الله تعالى وأحسنوا إلى عباد الله؛ فلهم ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾: رزق واسع وعيشة هنية وطمأنينة قلب وأمن وسرور. ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ﴾: من هذه الدار وما فيها من أنواع اللذات والمشتهيات؛ فإن هذه نعيمها قليل محشو بالآفات منقطع؛ بخلاف نعيم الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿٣١﴾، ﴿٣٢﴾ ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾؛ أي: مهما تمنته أنفسهم وتعلقت به إراداتهم[3]؛ حصل لهم على أكمل الوجوه وأتمها؛ فلا يمكن أن يطلبوا نوعًا من أنواع النعيم الذي فيه لذة القلوب وسرور الأرواح؛ إلا وهو حاضر لديهم، ولهذا يعطي الله أهل الجنة كل ما تمنوه عليه، حتى إنه يذكرهم أشياء من النعيم لم تخطر على قلوبهم؛ فتبارك الذي لا نهاية لكرمه ولا حد لجوده، الذي ليس كمثله شيء في صفات ذاته وصفات أفعاله وآثار تلك النعوت وعظمة الملك والملكوت. ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾﴾: لسخط الله وعذابه؛ بأداء ما أوجبه عليهم من الفروض والواجبات المتعلقة بالقلب والبدن واللسان من حقه وحق عباده، وترك ما نهاهم الله عنه. ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: مستمرين على تقواهم، ﴿طَيِّبِينَ﴾؛ أي: طاهرين مطهرين من كل نقص ودنس يتطرق إليهم ويخل في إيمانهم، فطابت قلوبهم بمعرفة الله ومحبته، وألسنتهم بذكره والثناء عليه، وجوارحهم بطاعته والإقبال عليه. ﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾؛ أي: التحية الكاملة حاصلة لكم، والسلامة من كل آفة، وقد سلمتم من كل ما تكرهون. ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾: من الإيمان بالله والانقياد لأمره؛ فإن العمل هو السبب والمادة والأصل في دخول الجنة والنجاة من النار، وذلك العمل حصل لهم برحمة الله ومنته[4]، لا بحولهم وقوتهم.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿٣٣﴾ يقول تعالى: هل ينظر هؤلاء الذين جاءتهم الآيات فلم يؤمنوا وذُكِّروا فلم يتذكروا، ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: لقبض أرواحهم، ﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾: بالعذاب الذي سيحل بهم؛ فإنهم قد استحقوا لوقوعه فيهم. ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: كذبوا وكفروا، ثم لم يؤمنوا، حتى نزل بهم العذاب. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ إذ عذبهم، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾؛ فإنها مخلوقة لعبادة الله؛ ليكون مآلها إلى كرامة الله، فظلموها وتركوا ما خلقت له وعرضوها للإهانة الدائمة والشقاء الملازم.

﴿٣٤﴾ ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾؛ أي: عقوبات أعمالهم وآثارها، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾؛ أي: نزل ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾: فإنهم كانوا إذا أخبرتهم رسلهم

(١) عبارة: «فإذا دخلوا» وردت في ع: «فادخلوا».
(٢) ع: «أنزله».
(٣) ع: «إرادتهم».
(٤) زاد في ع: «عليهم».

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن
شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ
فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ
٣٥ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ
وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ
حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٣٦ إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ
فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٧
وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ
وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٨
لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ
كَانُواْ كَٰذِبِينَ ٣٩ إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ
لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٠ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ
لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ
يَعۡلَمُونَ ٤١ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٤٢

٢٧١

بالعذاب؛ استهزءوا به، وسخروا ممن أخبر به، فحل بهم ذلك الأمر الذي سخروا منه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥﴾.

(٣٥) أي: احتج المشركون على شركهم بمشيئة الله، وأن الله لو شاء ما أشركوا ولا حرموا شيئًا من الأنعام[1] التي أحلها؛ كالبحيرة والوصيلة والحام ونحوها من دونه، وهذه حجة باطلة؛ فإنها لو كانت حقًّا؛ ما عاقب الله الذين من قبلهم حيث أشركوا به، فعاقبهم أشد العقاب؛ فلو كان يحب ذلك منهم؛ لما عذبهم. وليس قصدهم بذلك إلا رد الحق الذي جاءت به الرسل، وإلا؛ فعندهم علم أنه لا حجة لهم على الله؛ فإن الله أمرهم ونهاهم، ومكنهم من القيام بما كلفهم، وجعل لهم قوة ومشيئة تصدر عنها أفعالهم؛ فاحتجاجهم بالقضاء والقدر من أبطل الباطل، هذا وكل أحد يعلم بالحس قدرة الإنسان على كل فعل يريده من غير أن ينازعه منازع؛ فجمعوا بين تكذيب الله وتكذيب رسله وتكذيب الأمور العقلية والحسية. ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥﴾؛ أي: البين الظاهر الذي يصل إلى القلوب ولا يبقي لأحد على الله حجة؛ فإذا بلَّغتهم الرسل أمر ربهم ونهيه واحتجوا عليهم بالقدر؛ فليس للرسل من الأمر شيء، وإنما حسابهم على الله عز وجل.

﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٣٦ إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٧﴾.

(٣٦) يخبر تعالى أن حجته قامت على جميع الأمم، وأنه ما من أمة متقدمة أو متأخرة إلا وبعث الله فيها رسولًا، وكلهم متفقون على دعوة واحدة ودين واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له. ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾: فانقسمت الأمم بحسب استجابتها لدعوة الرسل وعدمها قسمين: ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ﴾: فاتبعوا المرسلين علمًا وعملًا، ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾: فاتبع سبيل الغي. ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: بأبدانكم وقلوبكم، ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٣٦﴾: فإنكم سترون من ذلك العجائب؛ فلا تجد مكذبًا إلا كان عاقبته الهلاك.

(٣٧) ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ﴾: وتبذل جهدك في ذلك، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ﴾: ولو فعل كل سبب؛ لم يهده إلا الله. ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٧﴾: ينصرونهم من عذاب الله، ويقونهم بأسه.

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٨ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ٣٩ إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٠﴾.

(١) ساقط من ع.

(٣٨) يخبر تعالى عن المشركين المكذبين لرسوله أنهم أقسموا ﴿بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾؛ أي: حلفوا أيمانًا مؤكدة مغلظة على تكذيب الله وأن الله لا يبعث الأموات ولا يقدر على إحيائهم بعد أن كانوا ترابًا. قال تعالى مكذبًا لهم: ﴿بَلَىٰ﴾ سيبعثهم ويجمعهم ليوم لا ريب فيه. ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا﴾: لا يخلفه ولا يغيره. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٨﴾: ومن جهلهم العظيم إنكارهم البعث والجزاء.

(٣٩)، (٤٠) ثم ذكر الحكمة في الجزاء والبعث، فقال: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ﴾: من المسائل الكبار والصغار، فيبين حقائقها ويوضحها، ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ٣٩﴾: حتى يروا[1] أعمالهم حسرات عليهم، وما نفعتهم آلهتهم التي يدعون مع الله من شيء لما جاء أمر ربك، وحين يرون ما يعبدون حطبًا لجهنم، وتكور الشمس والقمر، وتتناثر النجوم، ويتضح لمن يعبدها أنها عبيد مسخرات، وأنهن مفتقرات إلى الله في جميع الحالات، وليس ذلك على الله بصعب ولا شديد؛ فإنه إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون من غير منازعة ولا امتناع، بل يكون على طبق ما أراده وشاءه.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٤٢﴾.

(٤١) يخبر تعالى بفضل المؤمنين الممتحنين، ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ﴾؛ أي: في سبيله وابتغاء مرضاته، ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾: بالأذية والمحنة من قومهم، الذين يفتنونهم ليردوهم إلى الكفر والشرك، فتركوا الأوطان والخلّان، وانتقلوا عنها لأجل طاعة الرحمن، فذكر لهم ثوابين: ثوابًا عاجلًا في الدنيا من الرزق الواسع والعيش الهنيء الذي رأوه عيانًا بعدما هاجروا وانتصروا على أعدائهم وافتتحوا البلدان وغنموا منها الغنائم العظيمة فتمولوا وآتاهم الله في الدنيا حسنة. ﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: الذي وعدهم على لسان رسوله خير و[2]﴿أَكۡبَرُ﴾ من أجر الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ٢١ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٢﴾ [التوبة: ٢٠-٢٢]. وقوله: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١﴾؛ أي: لو كان لهم علم ويقين بما عند الله من الأجر والثواب لمن آمن به وهاجر في سبيله؛ لم يتخلف عن ذلك أحد.

(٤٢) ثم ذكر وصف أوليائه، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾: على أوامر الله، وعن نواهيه، وعلى أقدار الله المؤلمة، وعلى الأذية فيه والمحن. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٤٢﴾؛ أي: يعتمدون عليه في تنفيذ محابه لا على أنفسهم، وبذلك تنجح أمورهم وتستقيم أحوالهم؛ فإن الصبر والتوكل ملاك الأمور كلها؛ فما فات أحدًا شيء من الخير إلا لعدم صبره وبذل جهده فيما أريد منه أو لعدم توكله واعتماده على الله.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾.

(٤٣) يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾؛ أي: لست ببدع من الرسل، فلم نرسل قبلك ملائكة، بل رجالًا كاملين لا نساء. ﴿نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾: من الشرائع والأحكام ما هو من فضله وإحسانه على العبيد، من غير أن يأتوا بشيء من قبل أنفسهم. ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾؛ أي: الكتب السابقة ﴿إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣﴾: نبأ الأولين، وشككتم، هل بعث الله رجالًا؟ فاسألوا أهل العلم بذلك، الذين نزلت عليهم الزبر والبينات، فعلموها وفهموها؛ فإنهم كلهم قد تقرر عندهم أن الله ما بعث إلا رجالًا يوحي إليهم من أهل القرى.

وعموم هذه الآية فيها مدح أهل العلم، وأن أعلى أنواعه العلم بكتاب الله المنزل؛ فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث، وفي ضمنه تعديل لأهل العلم وتزكية لهم؛ حيث أمر بسؤالهم، وأن بذلك يخرج الجاهل من التبعة، فدل على أن الله ائتمنهم على وحيه وتنزيله، وأنهم مأمورون بتزكية أنفسهم والاتصاف بصفات الكمال.

(٤٤) وأفضل أهل الذكر أهل هذا القرآن العظيم؛ فإنهم أهل الذكر على الحقيقة، وأولى من غيرهم بهذا الاسم،

(١) ع: «حين يرون»، ط: «حتى يرون».
(٢) عبارة: «خير و» ساقطة من ع.

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ
ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ
ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ
﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ
أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ
فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ
رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ
يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ
﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ
وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ
ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن
نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ
إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾

ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾؛ أي: القرآن الذي فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد من أمور دينهم ودنياهم الظاهرة والباطنة، ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾: وهذا شامل لتبيين ألفاظه وتبيين معانيه. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾: فيه، فيستخرجون من كنوزه وعلومه بحسب استعدادهم وإقبالهم عليه.

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾.

(٤٥) - (٤٧) هذا تخويف من الله تعالى لأهل الكفر والتكذيب وأنواع المعاصي من أن يأخذهم بالعذاب على غرة وهم لا يشعرون: إما أن يأخذهم العذاب من فوقهم، أو من أسفل منهم بالخسف وغيره، وإما في حال تقلبهم وشغلهم وعدم خطور العذاب ببالهم، وإما في حال تخوفهم من العذاب؛ فليسوا بمعجزين الله[1] في حالة من هذه الأحوال، بل هم تحت قبضته، ونواصيهم بيده، ولكنه رءوف رحيم، لا يعاجل العاصين بالعقوبة، بل يمهلهم ويعافيهم ويرزقهم، وهم يؤذونه ويؤذون أولياءه، ومع هذا يفتح لهم[2] أبواب التوبة، ويدعوهم إلى الإقلاع عن السيئات التي تضرهم، ويعدهم بذلك أفضل الكرامات ومغفرة ما صدر منهم من الذنوب؛ فليستح المجرم من ربه أن تكون نعم الله عليه نازلة في جميع الحالات[3] ومعاصيه صاعدة إلى ربه في كل الأوقات، وليعلم أن الله يمهل ولا يهمل، وأنه إذا أخذ العاصي؛ أخذه أخذ عزيز مقتدر؛ فليتب إليه، وليرجع في جميع أموره إليه؛ فإنه رءوف رحيم؛ فالبدارَ البدارَ إلى رحمته الواسعة، وبره العميم، وسلوك الطرق الموصلة إلى فضل الرب الرحيم، ألا وهي تقواه، والعمل بما يحبه ويرضاه.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

(٤٨) يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾؛ أي: الشاكون في توحيد ربهم وعظمته وكماله، ﴿إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾؛ أي: إلى جميع مخلوقاته، وكيف تتفيأ أظلتها ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾؛ أي: كلها ساجدة لربها خاضعة لعظمته وجلاله، ﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾؛ أي: ذليلون تحت التسخير والتدبير والقهر، ما منهم أحد إلا وناصيته بيد الله وتدبيره عنده.

(٤٩) ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ﴾: من الحيوانات الناطقة والصامتة، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: الكرام، خصهم بعد العموم لفضلهم وشرفهم وكثرة عبادتهم، ولهذا قال: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾؛ أي: عن عبادته؛ على كثرتهم وعظمة أخلاقهم وقوتهم؛ كما قال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢].

(١) ع: «الله».
(٢) ع: «عليهم».
(٣) ع، ط: «اللحظات».

لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ
لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ
تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ
﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ
﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ
أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ
﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن
يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ
سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ
وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ
لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن
قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ
ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾

(٥٠) ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾: لما مدحهم بكثرة الطاعة والخضوع لله؛ مدحهم بالخوف من الله الذي هو فوقهم بالذات والقهر وكمال الأوصاف؛ فهم أذلاء تحت قهره. ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾؛ أي: مهما أمرهم الله تعالى؛ امتثلوا لأمره طوعًا واختيارًا. وسجود المخلوقات لله تعالى قسمان: سجود اضطرار ودلالة على ما له من صفات الكمال، وهذا عام لكل مخلوق من مؤمن وكافر وبر وفاجر وحيوان ناطق وغيره. وسجود اختيار يختص بأوليائه وعباده المؤمنين من الملائكة وغيرهم من المخلوقات[1].

﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

(٥١) يأمر تعالى بعبادته وحده لا شريك له، ويستدل على ذلك بانفراده بالنعم، فقال: و﴿ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾؛ أي: تجعلون له شريكًا في إلهيته، وهو ﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾: متوحد في الأوصاف العظيمة، متفرد بالأفعال كلها؛ فكما أنه الواحد في ذاته وأسمائه ونعوته وأفعاله؛ فلتوحدوه في عبادته، ولهذا قال: ﴿ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ ﴾؛ أي: خافوني، وامتثلوا أمري، واجتنبوا نهيي من غير أن تشركوا بي شيئًا من المخلوقات؛ فإنها كلها لله تعالى مملوكة.

(٥٢) ﴿ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ﴾؛ أي: الدين والعبادة والذل في جميع الأوقات لله وحده، على الخلق أن يخلصوه لله وينصبغوا بعبوديته. ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾: من أهل الأرض أو أهل السماوات؛ فإنهم لا يملكون لكم ضرًّا ولا نفعًا، والله المنفرد بالعطاء والإحسان.

(٥٣) ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ ﴾: ظاهرة وباطنة ﴿ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾: لا أحد يشركه فيها، ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ ﴾: من فقر ومرض وشدة ﴿ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾؛ أي: تضجون بالدعاء والتضرع لعلمكم أنه لا يدفع الضر والشدة إلا هو؛ فالذي انفرد بإعطائكم ما تحبون، وصرف ما تكرهون، هو الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده.

(٥٤)، (٥٥) ولكن كثيرًا من الناس يظلمون أنفسهم ويجحدون نعمة الله عليهم إذا نجاهم من الشدة - فصاروا في حال الرخاء؛ أشركوا به بعض مخلوقاته الفقيرة، ولهذا قال: ﴿ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾؛ أي: أعطيناهم؛ حيث نجيناهم من الشدة، وخلصناهم من المشقة. ﴿ فَتَمَتَّعُوا۟ ﴾: في دنياكم قليلًا ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾: عاقبة كفركم.

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾.

(٥٦) يخبر تعالى عن جهل المشركين وظلمهم وافترائهم على الله الكذب، وأنهم يجعلون لأصنامهم التي لا تعلم ولا تنفع ولا تضر نصيبًا مما رزقهم الله وأنعم به عليهم،

---

(١) عبارة: «من المخلوقات» ساقط من ع.

فاستعانوا برزقه على الشرك به، وتقربوا به إلى أصنام منحوتة؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٣٦] الآية. ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾: ويقال: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [يونس: ٥٩، ٦٠]؟! فيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

﴿٥٧﴾ - ﴿٥٩﴾ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾: - سبحانه - حيث قالوا عن الملائكة العباد المقربين: إنهم بنات الله، ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾؛ أي: لأنفسهم الذكور، حتى إنهم يكرهون البنات كراهة شديدة؛ فكان أحدهم إذا ﴿بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾: من الغم الذي أصابه، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾؛ أي: كاظم على الحزن والأسف إذ بشر بأنثى، وحتى إنه يفتضح عند أبناء جنسه، ويتوارى منهم من سوء ما بشر به، ثم يعمل فكره ورأيه الفاسد فيما يصنع بتلك البنت التي بشر بها: ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾؛ أي: يتركها من غير قتل على إهانة وذل، ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾؛ أي: يدفنها وهي حية، وهو الوأد الذي ذم الله به المشركين. ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾: إذ وصفوا الله بما لا يليق بجلاله من نسبة الولد إليه، ثم لم يكفهم هذا حتى نسبوا له أردأ القسمين، وهو الإناث اللاتي يأنفون بأنفسهم عنها ويكرهونها؛ فكيف ينسبونها لله تعالى؟! فبئس الحكم حكمهم.

﴿٦٠﴾ ولما كان هذا من أمثال السوء التي نسبها إليه أعداؤه المشركون؛ قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾؛ أي: المثل الناقص والعيب التام. ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾: وهو كل صفة كمال، وكل كمال في الوجود فالله أحق به من غير أن يستلزم ذلك نقصًا بوجه، وله المثل الأعلى في قلوب أوليائه، وهو التعظيم والإجلال والمحبة والإنابة والمعرفة. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: الذي قهر جميع الأشياء، وانقادت له المخلوقات بأسرها. ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾: الذي يضع الأشياء مواضعها فلا يأمر ولا يفعل إلا ما يحمد عليه، ويثنى على كماله فيه.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿٦١﴾ لما ذكر تعالى ما افتراه الظالمون عليه؛ ذكر كمال حلمه وصبره، فقال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾: من غير زيادة ولا نقص، ﴿مَّا تَرَكَ﴾ على ظهرها ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾؛ أي: لأهلك المباشرين للمعصية وغيرهم من أنواع الدواب والحيوانات؛ فإن شؤم المعاصي يَهْلِكُ به الحرث والنسل. ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾: عن تعجيل العقوبة عليهم، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: وهو يوم القيامة. ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾: فليحذروا ما داموا في وقت الإمهال قبل أن يجيء الوقت الذي لا إمهال فيه.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿٦٢﴾ يخبر تعالى أن المشركين يجعلون ﴿لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾: من البنات ومن الأوصاف القبيحة، وهو الشرك؛ بصرف شيء من العبادات إلى بعض المخلوقات التي هي عبيد لله؛ فكما أنهم يكرهون ولا يرضون أن يكون عبيدهم - وهم مخلوقون من جنسهم - شركاء لهم فيما رزقهم الله؛ فكيف يجعلون له شركاء من عبيده؟ وهم مع هذه الإساءة العظيمة تصف ﴿أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: أن لهم الحالة الحسنة في الدنيا والآخرة؛ رد عليهم بقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾: مقدمون إليها، ماكثون فيها، غير خارجين منها أبدًا.

﴿٦٣﴾ بين تعالى لرسوله ﷺ أنه ليس هو أول رسول كُذِّب، فقال تعالى[1]: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾: رسلاً يدعونهم إلى التوحيد، ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾: فكذَّبوا الرسل، وزعموا أن ما هم عليه هو الحق المنجّي من كل مكروه، وأن ما دعت إليه الرسل؛ فهو بخلاف ذلك، فلما زين لهم الشيطان أعمالهم؛ صار ﴿وَلِيُّهُمُ﴾: في الدنيا، فأطاعوه واتبعوه وتولوه، ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: ٥٠]. ﴿وَلَهُمْ

(١) ساقط من ع.

وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا
فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾
وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا
حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ
أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي
مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا
شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ
ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ
فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي
رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ
ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا
وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ
ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٢﴾

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾: في الآخرة؛ حيث تولوا عن ولاية الرحمن ورضوا بولاية الشيطان، فاستحقوا لذلك عذاب الهوان.

﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

﴿٦٥﴾ عن الله مواعظه وتذكيره، فيستدلون بذلك على أنه وحده المعبود، الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده؛ لأنه المنعم بإنزال المطر وإنبات جميع أصناف النبات، وعلى أنه على كل شيء قدير، وأن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الأموات، وأن الذي نشر هذا الإحسان لذو رحمة واسعة وجود عظيم.

﴿ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿٦٦﴾ أي: ﴿ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ ﴾: التي سخرها الله لمنافعكم، ﴿ لَعِبۡرَةٗ ﴾: تستدلون بها على كمال قدرة الله وسعة إحسانه؛ حيث أسقاكم من بطونها المشتملة على الفرث والدم، فأخرج من بين ذلك لبنًا خالصًا من الكدر سائغًا للشاربين للذته ولأنه يسقي ويغذي؛ فهل هذه إلا قدرة إلهية لا أمور طبيعية؟! فأي شيء في الطبيعة يقلب العلف الذي تأكله البهيمة والشراب الذي تشربه من الماء العذب والملح لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين؟!

﴿٦٧﴾ وجعل تعالى لعباده من ثمرات النخيل والأعناب منافع للعباد ومصالح من أنواع الرزق الحسن الذي يأكله العباد طريًّا ونضيجًا وحاضرًا ومدخرًا وطعامًا وشرابًا يتخذ من عصيرها ونبيذها ومن السكر الذي كان حلالًا قبل ذلك، ثم إن الله نسخ حل المسكرات وأعاض عنها بالطيبات من الأنبذة وأنواع الأشربة اللذيذة المباحة، ولهذا قال من قال: إن المراد بالسكر هنا الطعام والشراب اللذيذ، وهو أولى من القول الأول. ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾: عن الله كمال اقتداره؛ حيث أخرجها من أشجار شبيهة بالحطب، فصارت ثمرة لذيذة وفاكهة طيبة، وعلى شمول رحمته؛ حيث عم بها عباده، ويسرها لهم، وأنه الإله المعبود وحده؛ حيث إنه المنفرد بذلك.

﴿ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿٦٨﴾، ﴿٦٩﴾ في خلق هذه النحلة الصغيرة، التي هداها الله هذه الهداية العجيبة، ويسر لها المراعي، ثم الرجوع إلى بيوتها التي أصلحتها بتعليم الله لها وهدايته لها، ثم يخرج من بطونها هذا العسل اللذيذ مختلف الألوان بحسب اختلاف أرضها ومراعيها؛ فيه شفاء للناس من أمراض عديدة؛ فهذا دليل على كمال عناية الله تعالى وتمام لطفه بعباده، وأنه الذي لا ينبغي أن يحب غيره، ويدعى سواه.

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿٧٠﴾ يخبر تعالى أنه الذي خلق العباد ونقلهم في الخليقة[1] طورًا بعد طور، ثم بعد أن يستكملوا آجالهم يتوفاهم، ومنهم من يعمره حتى يرد ﴿إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾؛ أي: أخسه، الذي يبلغ به الإنسان إلى ضعف القوى الظاهرة والباطنة، حتى العقل الذي هو جوهر الإنسان يزيد ضعفه، حتى إنه ينسى ما كان يعلمه، ويصير عقله كعقل الطفل[2]، ولهذا قال: ﴿لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾؛ أي: قد أحاط علمه وقدرته بجميع الأشياء، ومن ذلك ما يُنَقِّل به الآدمي من أطوار الخلقة خلقًا بعد خلق؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم: ٥٤].

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿٧١﴾ وهذا من أدلة توحيده وقبح الشرك به؛ يقول تعالى: كما أنكم مشتركون بأنكم مخلوقون مرزوقون؛ إلا أنه تعالى ﴿فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾: فجعل منكم أحرارًا لهم مال وثروة، ومنكم أرقاء لهم لا يملكون شيئًا من الدنيا؛ فكما أن سادتهم الذين فضلهم الله عليهم بالرزق ليسوا ﴿بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾: ويرون هذا من الأمور الممتنعة؛ فكذلك من أشركتم بها مع الله؛ فإنها عبيد ليس لها من الملك مثقال ذرة؛ فكيف تجعلونها شركاء لله تعالى؟! هل هذا إلا من أعظم الظلم والجحود لنعم الله، ولهذا قال: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾؛ فلو أقروا بالنعمة ونسبوها إلى من أولاها؛ لما أشركوا به أحدًا.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿٧٢﴾ يخبر تعالى عن منته العظيمة على عباده؛ حيث جعل لهم أزواجًا ليسكنوا إليها، وجعل لهم من أزواجهم أولادًا تقر بهم أعينهم ويخدمونهم ويقضون حوائجهم وينتفعون بهم من وجوه كثيرة، ورزقهم من الطيبات من المآكل والمشارب والنعم الظاهرة التي لا يقدر العباد أن يُحْصُوها. ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾؛ أي: أيؤمنون بالباطل الذي لم يكن شيئًا مذكورًا، ثم أوجده الله، وليس له من وجوده سوى العدم؟ فلا تخلق ولا ترزق ولا تدبر من الأمور شيئًا، وهذا عام لكل ما عبد من دون الله؛ فإنها باطلة؛ فكيف يتخذها المشركون من دون الله. ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾: يجحدونها، ويستعينون بها على معاصي الله والكفر به، هل هذا إلا من أظلم الظلم وأفجر الفجور وأسفه السفه؟!

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿٧٣﴾، ﴿٧٤﴾ يخبر تعالى عن جهل المشركين وظلمهم، أنهم يعبدون من دونه آلهة اتخذوها شركاء لله، والحال أنهم لا يملكون لهم رزقًا من السماوات والأرض؛ فلا ينزلون مطرًا ولا رزقًا، ولا ينبتون من نبات الأرض شيئًا، ولا يملكون مثقال ذرة في السماوات والأرض، ولا يستطيعون لو أرادوا؛ فإن غير المالك للشيء ربما كان له قوة واقتدار على ما ينفع من يتصل به، وهؤلاء لا يملكون ولا يقدرون؛ فهذه صفة آلهتهم؛ كيف جعلوها مع الله وشبهوها بمالك الأرض والسماوات الذي له الملك كله والحمد كله والقوة كلها، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾: المتضمنة للتسوية بينه وبين خلقه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾: فعلينا ألَّا نقول عليه بلا علم، وأن نسمع ما ضربه العليم من الأمثال؛ فلهذا ضرب تعالى مثلين له ولمن يعبد من دونه:

﴿٧٥﴾ أحدهما: عبد مملوك؛ أي: رقيق لا يملك نفسه ولا يملك من المال والدنيا شيئًا، والثاني: حر غني قد

---

(١) ع: «الخلقة».
(٢) ع: «الصبي».

وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ
إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا
مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا
فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ
بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ
أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ
مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن
يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيۡبُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ
أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ
أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ
لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ
﴿٧٨﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ
مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٧٩﴾

رزقه اللـه منه رزقًا حسـنًا من جميع أصنـاف المال، وهو كريم محب للإحسان؛ فهو ينفق منه سرًّا وجهرًا؛ هل يستوي هذا وذاك؟! لا يسـتويان؛ مع أنهما مخلوقـان، غير محال استواؤهما؛ فإذا كانا لا يسـتويان؛ فكيف يستوي المخلوق العبد الذي ليس له ملك ولا قدرة ولا استطاعة، بل هو فقير من جميع الوجوه، بالرب الخالق المالك لجميع الممالك، القادر على كل شـيء؟! ولهذا حمد نفسه واختص بالحمد بأنواعـه، فقال: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ ﴾: فكأنه قيـل: إذا كان الأمر كذلك؛ فلم سَـوَّى المشـركون آلهتهم باللـه؟! قال: ﴿ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾: فلـو علموا حقيقـة العلم؛ لم يتجرءوا على الشرك العظيم.

﴿٧٦﴾ والمثل الثانـي: مثل ﴿ رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ ﴾: لا يسـمع ولا ينطـق، ﴿ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ ﴾: لا قليـل ولا كثيـر، ﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ ﴾؛ أي: يخدمـه مولاه ولا يسـتطيع هو أن يخدم نفسـه؛ فهو ناقص من كل وجه، فهل يسـتوي هذا ومن كان ﴿ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٦﴾ ﴾؟ فأقواله عدل وأفعاله مستقيمة؛ فكما أنهما لا يسـتويان؛ فلا يسـتوي من عُبد من دون الله وهو لا يقدر على شـيء من مصالحه؛ فلولا قيام الله بها؛ لم يستطع شيئًا منها، لا يكون كفوًا ولا ندًّا لمن لا يقول إلا الحق، ولا يفعل إلا ما يحمد عليه.

﴿ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿٧٧﴾ أي: هو تعالى المنفرد بغيب السـماوات والأرض؛ فـلا يعلم الخفايا والبواطن والأسـرار إلا هـو، ومن ذلك علم السـاعة؛ فلا يدري أحد متى تأتـي إلا الله؛ فإذا جاءت وتجلت؛ لم تكـن ﴿ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ ﴾: من ذلـك، فيقوم الناس من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشـورهم، وتفوت الفرص لمن يريـد الإمهال. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٧٧﴾ ﴾: فلا يستغرب على قدرته الشاملة إحياؤه للموتى.

﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

﴿٧٨﴾ أي: هـو المنفرد بهذه النعـم؛ حيث ﴿ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴾: ولا تقـدرون علـى شـيء. ثم إنه جعل ﴿ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ ﴾: خص هذه الأعضاء الثلاثة لشـرفها وفضلهـا ولأنها مفتاح لكل علم؛ فلا يصل[1] للعبـد علم إلا من أحد هذه الأبواب الثلاثة، وإلا؛ فسـائر الأعضاء والقوى الظاهرة والباطنة هو الذي أعطاهم إياها وجعل ينميها فيهم شـيئًا فشـيئًا إلى أن يصل كل أحد إلى الحالة اللائقة به، وذلك لأجل أن يشكروا الله باسـتعمال ما أعطاهم من هذه الجوارح في طاعة الله؛ فمن استعملها في غير ذلك؛ كانت حجة عليه، وقابل النعمة بأقبح المعاملة[2].

﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

(١) ع، ط: «وصل».
(٢) ع: «المقابلة».

(٧٩) أي: لأنهم المنتفعون بآيات الله، المتفكرون فيما جعلت آية عليه، وأما غيرهم؛ فإن نظرهم نظر لهو وغفلة. ووجه الآية فيها أن الله تعالى خلقها بخلقة تصلح للطيران، ثم سخر لها هذا الهواء اللطيف، ثم أودع فيها من قوة الحركة ما قدرت به على ذلك، وذلك دليل على[1] حكمته وعلمه الواسع وعنايته الربانية بجميع مخلوقاته وكمال اقتداره؛ تبارك[2] رب العالمين.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ (٨٠) وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ (٨١) فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ (٨٢) يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ (٨٣)﴾.

(٨٠) يُذَكِّرُ تعالى عباده نعمه، ويستدعي منهم شكرها والاعتراف بها، فقال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا﴾: في الدور والقصور ونحوها، تكنكم من الحر والبرد، وتستركم أنتم وأولادكم وأمتعتكم، وتتخذون فيها الغرف والبيوت التي هي لأنواع منافعكم ومصالحكم، وفيها حفظ لأموالكم وحرمكم وغير ذلك من الفوائد المشاهدة. ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾: إما من الجلد نفسه، أو مما نبت عليه من صوف وشعر ووبر، ﴿بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا﴾؛ أي: تجدونها[3] خفيفة الحمل[4] تكون لكم ﴿يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ﴾ أي: في السفر، والمنازل التي لا قصد لكم في استيطانها، فتقيكم من الحر والبرد والمطر، وتقي متاعكم من المطر. وجعل لكم من ﴿أَصۡوَافِهَا﴾؛ أي: الأنعام، ﴿وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا﴾: وهذا شامل لكل ما يتخذ منها من الآنية والأوعية والفرش والألبسة والأجلة وغير ذلك. ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ (٨٠)﴾؛ أي: تتمتعون بذلك في هذه الدنيا وتنتفعون بها؛ فهذا مما سخر الله العباد لصنعته وعمله.

(١) زاد في ع: «كمال».
(٢) زاد في ع: «الله».
(٣) ساقط من ع، ط.
(٤) ع: «المحمل».

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ
(٨٠) وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ (٨١) فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ (٨٢) يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ (٨٣) وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ
(٨٤) وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ (٨٥) وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ (٨٦) وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ (٨٧)

(٨١) ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ﴾؛ أي: من مخلوقاته التي لا صنعة لكم فيها، ﴿ظِلَٰلٗا﴾: وذلك كأظلة الأشجار والجبال والآكام ونحوها. ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا﴾؛ أي: مغارات تكنُّكم من الحر والبرد والأمطار والأعداء. ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ﴾؛ أي: ألبسة وثيابًا، ﴿تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾: ولم يذكر الله البرد؛ لأنه قد تقدم أن هذه السورة أولها في أصول النعم وآخرها في مكملاتها ومتمماتها، ووقاية البرد من أصول النعم؛ فإنه من الضرورة وقد ذكره في أولها في قوله: ﴿لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ﴾ [النحل: ٥]. ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡ﴾؛ أي: وثيابًا تقيكم وقت البأس والحرب من السلاح، وذلك كالدروع والزرود ونحوها. ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾: حيث أسبغ عليكم من نعمه ما لا يدخل تحت الحصر. ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾: إذا ذكرتم نعمة الله ورأيتموها غامرة لكم من كل وجه؛ ﴿تُسۡلِمُونَ (٨١)﴾: لعظمته وتنقادون لأمره وتصرفونها في طاعة موليها ومسديها؛ فكثرة النعم من الأسباب الجالبة من العباد مزيد الشكر والثناء بها على الله تعالى.

(٨٢) ولكـن أبى الظالمون إلا تمردًا وعنادًا، ولهذا قال الله عنهم: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾: عن الله وعن طاعته بعدما ذكِّروا بنعمه وآياتـه، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾:[1] ليس عليك من هدايتهم وتوفيقهم شـيء، بل أنت مطالـب بالوعظ والتذكير والإنذار والتحذير.

(٨٣) فإذا أديت ما عليك؛ فحسابهم على الله؛ فإنهم يرون الإحسان ويعرفون نعمة الله، ولكنهم ينكرونها ويجحدونها. ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾: لا خير فيهـم، ومـا ينفعهـم توالي الآيات؛ لفسـاد مشـاعرهم وسـوء قصودهم، وسـيرون جزاء اللـه لكل جبار عنيد كفـور للنعم متمرد على الله وعلى رسله.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

(٨٤)، (٨٥) يخبر تعالى عـن حال هؤلاء[2] الذين كفروا في يوم القيامة، وأنه لا يقبل لهم عذر ولا يرفع عنهم العقاب، وأن شـركاءهم تتبرأ منهم، ويقرون على أنفسهم بالكفر والافتراء على الله، فقـال: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾: يشـهد عليهـا بأعمالهم ومـاذا أجابوا به الداعي إلـى الهدى، وذلك الشهيد الذي يبعثه الله أزكى الشهداء وأعدلهم، وهم الرسل الذين إذا شـهدوا؛ تـم عليهم الحكـم. ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾: فـي الاعتـذار؛ لأن اعتذارهـم بعدمـا علموا[3] يقينًا بطـلان ما هم عليه، اعتذار كاذب لا يفيدهم شـيئًا، وإن طلبـوا أيضًا الرجـوع إلى الدنيا ليستدركوا؛ لـم يجابوا ولم يعتبوا، بل يبادرهم العذاب الشديد الذي لا يخفف عنهم من غير إنظار ولا إمهال من حين يرونه؛ لأنهم لا حسـنات لهم، وإنمـا تعد أعمالهم وتحصى ويوقفـون عليها، ويقرّرون بها، ويفتضحون.

(٨٦) ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَآءَهُمْ﴾: يـوم القيامـة، وعلمـوا بطلانهـا، ولـم يمكنهـم الإنـكار، ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ﴾: ليـس عندهـا نفـع ولا شـفع، فنوهـوا بأنفسـهم ببطلانهـا، وكفروا بهـا، وبدت البغضاء والعـداوة بينهم وبينها، ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾؛ أي: ردت عليهـم شـركاؤهم قولهـم، فقالت لهم: ﴿إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾: حيـث جعلتمونـا شـركاء للـه وعبدتمونـا معـه، فلم نأمركـم بذلك، ولا زعمنـا أن فينا استحقاقًا للألوهية؛ فاللوم عليكم.

(٨٧) فحينئذ استسلموا لله، وخضعوا لحكمه، وعلموا أنهم مسـتحقون للعـذاب، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾: فدخلـوا النـار وقد امتـلأت قلوبهـم من مقت أنفسـهم ومن حمد ربهم، وأنه لم يعاقبهم إلا بما كسبوا.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

(٨٨) حيـث كفروا بأنفسـهم، وكذّبوا بآيـات الله، وحاربوا رسـله، وصـدوا النـاس عن سـبيل اللـه، وصاروا دعـاة إلى الضلال، فاسـتحقوا مضاعفة العذاب كما تضاعف جرمهم، وكما أفسدوا في أرض الله.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

(٨٩) لمـا ذكر فيما تقـدم أنه يبعث في كل أمة شـهيدًا؛ ذكر ذلـك أيضًـا هنا، وخـص منهم هذا الرسـول الكريـم، فقال: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ أي: علـى أمتـك تشـهد عليهـم بالخير والشـر، وهذا مـن كمال عدل اللـه تعالى؛ أن كل رسـول يشـهد علـى أمتـه؛ لأنـه أعظـم اطلاعًا مـن غيره علـى أعمـال أمته، وأعدل وأشـفق مـن أن يشـهد عليهم إلا بما يسـتحقون، وهذا كقوله تعالـى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقـال تعالـى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ [النساء: ٤١، ٤٢]. وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾: فـي أصول الديـن وفروعـه، وفي أحكام الدارين،

---

(١) زاد في ع: «أي».
(٢) ساقط من ع.
(٣) ع: «علم».

وكل ما يحتاج إليه العباد؛ فهو مبيَّن فيه أتمُّ تبيين، بألفاظ واضحة ومعانٍ جلية، حتى إنه تعالى يثنِّي فيه الأمور الكبار التي يحتاج القلب لمرورها عليه كل وقت وإعادتها في كل ساعة ويعيدها ويبديها بألفاظ مختلفة وأدلة متنوعة لتستقر في القلوب فتثمر من الخير والبر بحسب ثبوتها في القلب، وحتى إنه تعالى يجمع في اللفظ القليل الواضح معاني كثيرة يكون اللفظ لها كالقاعدة والأساس. واعتبر هذا بالآية التي بعد هذه الآية، وما فيها من أنواع الأوامر والنواهي التي لا تحصر.

فلما كان هذا القرآن تبيانًا لكل شيء؛ صار حجة الله على العباد كلهم، فانقطعت به حجة الظالمين، وانتفع به المسلمون، فصار هدى لهم يهتدون به إلى أمر دينهم ودنياهم ورحمة ينالون به كل خير في الدنيا والآخرة؛ فالهدى ما نالوا[1] به من علم نافع وعمل صالح، والرحمة ما ترتب على ذلك من ثواب الدنيا والآخرة؛ كصلاح القلب وبره وطمأنينته، وتمام العقل الذي لا يتم إلا بتربيته على معانيه التي هي أجل المعاني وأعلاها، والأعمال الكريمة والأخلاق الفاضلة والرزق الواسع والنصر على الأعداء بالقول والفعل ونيل رضا الله تعالى وكرامته العظيمة التي لا يعلم ما فيها من النعيم المقيم إلا الرب الرحيم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿٩٠﴾ فالعدل الذي أمر الله به يشمل العدل في حقه وفي حق عباده؛ فالعدل في ذلك أداء الحقوق كاملة موفورة[2]؛ بأن يؤدي العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية والبدنية والمركبة منهما في حقه وحق عباده، ويعامل الخلق بالعدل التام، فيؤدي كل والٍ ما عليه[3] تحت ولايته، سواء في ذلك ولاية الإمامة الكبرى وولاية القضاء ونواب الخليفة ونواب القاضي. والعدل: هو ما فرضه الله عليهم في كتابه وعلى لسان رسوله وأمرهم بسلوكه، ومن العدل في المعاملات أن تعاملهم في عقود البيع والشراء وسائر المعاوضات بإيفاء جميع ما عليك؛ فلا تبخس لهم حقًّا،

(١) ع: «نالوه».
(٢) ع: «موفرة».
(٣) زاد في ع: «لمن».

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ
ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ
أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ
هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى
وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ
وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ
وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ
﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ
بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ
غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا
بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ
ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾
وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن
يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

ولا تغشُّهم ولا تخدعُهم وتظلمُهم؛ فالعدل واجب، والإحسان فضيلة مستحب، وذلك كنفع الناس بالمال والبدن والعلم وغير ذلك من أنواع النفع، حتى[4] يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول وغيره، وخص الله إيتاء ذي القربى وإن كان داخلًا في العموم؛ لتأكد حقهم وتعين صلتهم وبرهم والحرص على ذلك، ويدخل في ذلك جميع الأقارب؛ قريبهم وبعيدهم، لكن كلُّ من كان أقرب كان أحق بالبر. وقوله: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾: وهو كل ذنب عظيم استفحشته الشرائع والفطر؛ كالشرك بالله والقتل بغير حق والزنا والسرقة والعُجْب والكبر واحتقار الخلق وغير ذلك من الفواحش، ويدخل في المنكر كل ذنب ومعصية متعلق بحق الله تعالى، وبالبغي كل عدوان على الخلق في الدماء والأموال والأعراض. فصارت هذه الآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات، لم يبق شيء إلا دخل فيها. فهذه قاعدة ترجع إليها سائر الجزئيات؛ فكل مسألة مشتملة على عدل أو إحسان أو إيتاء ذي القربى؛ فهي مما أمر الله به، وكل

(٤) زاد في ع: «إنه».

مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر أو بغي؛ فهي مما نهى الله عنه، وبها يعلم حسن ما أمر الله به وقبح ما نهى عنه، وبها يعتبر ما عند الناس من الأقوال، وترد إليها سائر الأحوال؛ فتبارك من جعل في كلامه الهدى والشفاء والنور والفرقان بين جميع الأشياء، ولهذا قال: ﴿يَعِظُكُمْ﴾؛ أي: بما بيَّنه لكم في كتابه بأمركم بما فيه غاية صلاحكم ونهيكم عما فيه مضرتكم. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾: ما يعظكم به فتفهمونه وتعقلونه؛ فإنكم إذا تذكرتموه وعقلتموه؛ عملتم بمقتضاه، فسعدتم سعادة لا شقاوة معها.

فلما أمر بما هو واجب في أصل الشرع؛ أمر بوفاء ما أوجبه العبد على نفسه، فقال:

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۝٩١ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٩٢﴾.

۝٩١ وهذا يشمل جميع ما عاهد العبد عليه ربه من العبادات والنذور والأيمان التي عقدها إذا كان الوفاء بها برًّا، ويشمل أيضًا ما تعاقد عليه هو وغيره؛ كالعهود بين المتعاقدين، وكالوعد الذي يعده العبد لغيره ويؤكده على نفسه؛ فعليه في جميع ذلك الوفاء وتتميمها مع القدرة، ولهذا نهى الله عن نقضها، فقال: ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾: بعقدها على اسم الله تعالى. ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ﴾: أيها المتعاقدون، ﴿كَفِيلًا﴾: فلا يحل لكم ألَّا تحكموا ما جعلتم الله عليكم كفيلًا، فيكون ذلك ترك تعظيم لله واستهانة به، وقد رضي الآخر منك باليمين والتوكيد الذي جعلت الله فيه كفيلًا؛ فكما ائتمنك وأحسن ظنه فيك؛ فَلْتَفِ له بما قلت وأكدته. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۝٩١﴾: فيجازي كل عامل بعمله على حسب نيته ومقصده.

۝٩٢ ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾: في نقضكم للعهود بأسوأ الأمثال وأقبحها وأدلها على سفه متعاطيها، وذلك ﴿كَالَّتِي﴾ تغزل غزلًا قويًّا؛ فإذا استحكم وتم ما أريد منه؛ ﴿نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ فجعلته ﴿أَنكَاثًا﴾: فتعبت على الغزل، ثم على النقض، ولم تستفد سوى الخيبة والعناء وسفاهة العقل ونقص الرأي؛ فكذلك من نقض ما عاهد عليه؛ فهو ظالم جاهل سفيه ناقص الدين والمروءة. وقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾؛ أي: لا تنبغي هذه الحالة منكم؛ تعقدون الأيمان المؤكدة، وتنتظرون فيها الفرص: فإذا كان العاقد لها ضعيفًا غير قادر على الآخر؛ أتمها لا لتعظيم العقد واليمين، بل لعجزه. وإن كان قويًّا يرى مصلحته الدنيوية في نقضها؛ نقضها غير مبال بعهد الله ويمينه، كل ذلك دورانًا مع أهوية النفوس وتقديمًا لها على مراد الله منكم وعلى المروءة الإنسانية والأخلاق المرضية؛ لأجل أن تكون أمة أكثر عددًا وقوة من الأخرى. وهذا ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ امتحانًا؛ حيث قيض من أسباب المحن ما يُمْتَحن به الصادق الوفي من الفاجر الشقي. ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٩٢﴾: فيجازي كلا بعمله[1]، ويخزي الغادر.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾.

۝٩٣ أي: لو ﴿شَاءَ اللَّهُ﴾ لجمع الناس على الهدى، ولجعلهم ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾: ولكنه تعالى المنفرد بالهداية والإضلال، وهدايته وإضلاله من أفعاله التابعة لعلمه وحكمته، يعطي الهداية من يستحقها فضلًا، ويمنعها من[2] لا يستحقها عدلًا ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾: من خير وشر، فيجازيكم عليها أتم الجزاء وأعدله.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٩٤﴾.

۝٩٤ أي: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ﴾: وعهودكم ومواثيقكم ﴿دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ أي: تبعًا لأهوائكم، متى شئتم وفيتم بها، ومتى شئتم نقضتموها؛ فإنكم إذا فعلتم ذلك؛ تزل أقدامكم بعد ثبوتها على الصراط المستقيم. ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ﴾؛ أي: العذاب الذي يسوءكم ويحزنكم. ﴿بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾: حيث ضللتم وأضللتم غيركم. ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٩٤﴾: مضاعف.

(١) ع: «بما عمل».
(٢) ع: «ممن».

﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٩٦) مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾.

(٩٥) يحذر تعالى عباده من نقض العهود والأيمان لأجل متاع الدنيا وحطامها، فقال: ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾: تنالونه بالنقض وعدم الوفاء. ﴿ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾: من الثواب العاجل والآجل لمن آثر رضاه وأوفى بما عاهد عليه الله، ﴿ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾: من حطام الدنيا الزائلة ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) ﴾.

(٩٦) فآثروا ما يبقى على ما يفنى؛ فإن ﴿ مَا عِندَكُمْ ﴾: ولو كثر جدًّا لا بد أن ينفد ويفنى، ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾: ببقائه، لا يفنى ولا يزول؛ فليس بعاقل من آثر الفاني الخسيس على الباقي النفيس، وهذا كقوله تعالى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا (١٦) وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ (١٧) ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]. ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ (١٩٨) ﴾ [آل عمران: ١٩٨]. وفي هذا الحث والترغيب على الزهد في الدنيا، خصوصًا الزهد المتعين، وهو الزهد فيما يكون ضررًا على العبد ويوجب له الاشتغال عما أوجب الله عليه وتقديمه على حق الله؛ فإن هذا الزهد واجب. ومن الدواعي للزهد أن يقابل العبد لذات الدنيا وشهواتها بخيرات الآخرة؛ فإنه يجد من الفرق والتفاوت ما يدعوه إلى إيثار أعلى الأمرين، وليس الزهد الممدوح هو الانقطاع للعبادات القاصرة؛ كالصلاة والصيام والذكر ونحوها، بل لا يكون العبد زاهدًا زهدًا صحيحًا حتى يقوم بما يقدر عليه من الأوامر الشرعية الظاهرة والباطنة، ومن الدعوة إلى الله وإلى دينه بالقول والفعل؛ فالزهد الحقيقي هو الزهد فيما لا ينفع في الدين والدنيا، والرغبة والسعي في كل ما ينفع. ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ ﴾: على طاعة الله وعن معصيته، وفطموا أنفسهم عن الشهوات الدنيوية المضرة بدينهم؛ ﴿ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٩٦) ﴾: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة؛ فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا.

الجزء الرابع عشر — سورة النحل

وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا
وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ (٩٤) وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ
هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ
وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ
مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٩٦) مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ
أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ
أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٩٧) فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ
فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ
عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا
سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ
(١٠٠) وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ
بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
(١٠١) قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢)

٢٧٨

(٩٧) ولهذا ذكر جزاء العاملين في الدنيا والآخرة فقال: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾: فإن الإيمان شرط في صحة الأعمال الصالحة وقبولها، بل لا تسمى أعمالًا صالحة إلا بالإيمان، والإيمان مقتض لها؛ فإنه التصديق الجازم المثمر لأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات؛ فمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح؛ ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾: وذلك بطمأنينة قلبه وسكون نفسه وعدم التفاته لما يشوش عليه قلبه ويرزقه الله رزقًا حلالًا طيبًا من حيث لا يحتسب. ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ ﴾: في الآخرة ﴿ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾: من أصناف اللذات؛ مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيؤتيه الله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة.

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ (١٠٠) ﴾.

(٩٨) - (١٠٠) أي: فإذا أردت القراءة لكتاب الله الذي هو أشرف الكتب وأجلها، وفيه صلاح القلوب والعلوم الكثيرة؛ فإن الشيطان أحرص ما يكون على العبد عند شروعه في الأمور الفاضلة، فيسعى في صرفه عن مقاصدها ومعانيها؛ فالطريق إلى السلامة من شره الالتجاء إلى الله والاستعاذة به من شره، فيقول القارئ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم؛ متدبرًا لمعناها، معتمدًا بقلبه على الله في صرفه عنه، مجتهدًا في دفع وسواسه[١] وأفكاره الرديئة، مجتهدًا على السبب الأقوى في دفعه، وهو التحلي بحلية الإيمان والتوكل؛ فإن الشيطان ﴿لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ﴾؛ أي: تسلط ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: وحده لا شريك له، ﴿يَتَوَكَّلُونَ (٩٩)﴾: فيدفع الله عن المؤمنين المتوكلين عليه شر الشيطان ولا يبقى له عليهم سبيل. ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ﴾؛ أي: تسلطه ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾؛ أي: يجعلونه لهم وليًا، وذلك بتخليهم عن ولاية الله، ودخولهم في طاعة الشيطان، وانضمامهم لحزبه؛ فهم الذين جعلوا له ولاية على أنفسهم، فأزهم إلى المعاصي أزًا، وقادهم إلى النار قودًا.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢)﴾.

(١٠١) يذكر تعالى أن المكذبين بهذا القرآن يتتبعون ما يرونه حجة لهم، وهو أن الله تعالى هو الحاكم الحكيم، الذي يَشْرَعُ الأحكام ويبدل حكمًا مكان آخر؛ لحكمته ورحمته؛ فإذا رأوه كذلك؛ قدحوا في الرسول وبما جاء به، و﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾، قال الله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١)﴾: فهم جهال، لا علم لهم بربهم ولا بشرعه، ومن المعلوم أن قدح الجاهل بلا علم لا عبرة به؛ فإن القدح في الشيء فرع عن العلم به وما يشتمل عليه مما يوجب المدح والقدح.

(١٠٢) ولهذا ذكر تعالى حكمته في ذلك، فقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾: وهو جبريل الرسول المقدس المنزه عن كل عيب وخيانة وآفة، ﴿مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: نزوله من عند الله[٢] بالحق، وهو مشتمل على الحق في أخباره وأوامره ونواهيه؛ فلا سبيل لأحد أن يقدح فيه قدحًا صحيحًا؛ لأنه إذا علم أنه الحق؛ علم أن ما عارضه وناقضه باطل. ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: عند نزول آياته وتواردها عليهم وقتًا بعد وقت؛ فلا يزال الحق يصل إلى قلوبهم شيئًا فشيئًا، حتى يكون إيمانهم أثبت من الجبال الرواسي. وأيضًا؛ فإنهم يعلمون أنه الحق، وإذا شرع حكمًا من الأحكام[٣]، ثم نسخه؛ علموا أنه أبدله بما هو مثله أو خير منه لهم، وأن نسخه هو المناسب للحكمة الربانية والمناسبة العقلية. ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢)﴾؛ أي: يهديهم إلى حقائق الأشياء، ويبين لهم الحق من الباطل والهدى من الضلال، ويبشرهم أن لهم أجرًا حسنًا ماكثين فيه أبدًا. وأيضًا؛ فإنه كلما نزل شيئًا فشيئًا؛ كان أعظم هداية وبشارة لهم مما لو أتاهم جملة واحدة وتفرق الفكر فيه، بل ينزل الله حكمًا وبشارة أكثر[٤]؛ فإذا فهموه وعقلوه وعرفوا المراد منه وترَوَّوْا منه؛ أنزل نظيره... وهكذا. ولذلك بلغ الصحابة رضي الله عنهم به مبلغًا عظيمًا، وتغيرت أخلاقهم وطبائعهم، وانتقلوا إلى أخلاق وعوائد وأعمال فاقوا بها الأولين والآخرين، وكان أعلى وأولى لمن بعدهم أن يتربوا بعلومه، ويتخلقوا بأخلاقه، ويستضيئوا بنوره في ظلمات الغي والجهالات، ويجعلوه إمامهم في جميع الحالات. فبذلك تستقيم أمورهم الدينية والدنيوية.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ (١٠٥)﴾.

(١٠٣) يخبر تعالى عن قيل المشركين المكذبين لرسوله: ﴿أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ﴾: هذا الكتاب الذي جاء به، ﴿بَشَرٌ﴾: وذلك البشر الذي يشيرون إليه أعجمي اللسان. ﴿وَهَٰذَا﴾: القرآن ﴿لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ (١٠٣)﴾: هل هذا القول ممكن أو له حظ من الاحتمال؟! ولكن الكاذب يكذب ولا يفكر فيما يئول إليه كذبه، فيكون في قوله من التناقض والفساد ما يوجب رده بمجرد تصوره.

(١٠٤) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: الدالة دلالة صريحة على الحق المبين فيردونها ولا يقبلونها، ﴿لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾: حيث جاءهم الهدى فردوه فعوقبوا بحرمانه وخذلان الله لهم. ﴿وَلَهُمْ﴾: في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤)﴾.

(١) ع: «وساوسه».
(٢) عبارة: «من عند الله» ليست في ع، ط.
(٣) عبارة: «من الأحكام» ليست في ع.
(٤) ساقط من ع.

(١٠٥) ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ﴾؛ أي: إنما يصدر افتراء الكذب من ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾: كالمعاندين لرسوله من بعد ما جاءتهم البينات. ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ (١٠٥) ﴾؛ أي: الكذب منحصر فيهم، وعليهم أولى بأن يطلق من غيرهم. وأما محمد ﷺ المؤمن بآيات الله الخاضع لربه؛ فمحال أن يكذب على الله، ويتقول عليه ما لم يقل، فأعداؤه رموه بالكذب الذي هو وصفهم، فأظهر الله خزيهم وبين فضائحهم؛ فله تعالى الحمد.

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ (١٠٧) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ (١٠٨) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (١٠٩) ﴾.

(١٠٦) - (١٠٨) يخبر تعالى عن شناعة حال من كفر بالله من بعد إيمانه فعمي بعدما أبصر، ورجع إلى الضلال بعدما اهتدى، وشرح صدره بالكفر راضيًا به مطمئنًا: أن لهم الغضب الشديد من الرب الرحيم، الذي إذا غضب؛ لم يقم لغضبه شيء وغضب عليهم كل شيء. ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ﴾؛ أي: في غاية الشدة، مع أنه دائم أبدًا. وذلك أنهم[1] ﴿ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾: حيث ارتدوا على أدبارهم؛ طمعًا في شيء من حطام الدنيا، ورغبة فيه، وزهدًا في خير الآخرة.

فلما اختاروا الكفر على الإيمان؛ منعهم الله الهداية، فلم يهدهم؛ لأن الكفر وصفُهُم، فطبع على قلوبهم؛ فلا يدخلها خير، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم؛ فلا ينفذ منها ما ينفعهم ويصل إلى قلوبهم، فشملتهم الغفلة وأحاط بهم الخذلان وحرموا رحمة الله التي وسعت كل شيء، وذلك أنها أتتهم فردوها وعرضت عليهم فلم يقبلوها.

(١٠٩) ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (١٠٩) ﴾: الذين خسروا أنفسهم وأموالهم وأهليهم يوم القيامة، وفاتهم النعيم المقيم، وحصلوا على العذاب الأليم، وهذا بخلاف

(١) ع: «لأنهم».

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ (١٠٥) مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ (١٠٧) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ (١٠٨) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (١٠٩) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٠)

من أكره على الكفر وأجبر عليه، وقلبه مطمئن بالإيمان راغب فيه؛ فإنه لا حرج عليه ولا إثم، ويجوز له النطق بكلمة الكفر عند الإكراه عليها.

ودل ذلك على أن كلام المكره على الطلاق أو العتاق أو البيع أو الشراء أو سائر العقود أنه لا عبرة به ولا يترتب عليه حكم شرعي؛ لأنه إذا لم يعاقب على كلمة الكفر إذا أكره عليها؛ فغيرها من باب أولى وأحرى.

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٠) يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١) ﴾.

(١١٠) أي: ثم إن ربك: الذي ربى عباده المخلصين بلطفه وإحسانه لغفور رحيم لمن هاجر في سبيله، وخلى دياره وأمواله طالبًا لمرضاة الله، وفتن على دينه ليرجع إلى الكفر، فثبت على الإيمان، وتخلص ما معه من اليقين، ثم جاهد أعداء الله ليدخلهم في دين الله بلسانه ويده، وصبر على هذه

۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ
نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا
قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا
مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ
ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ
جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ
ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا
وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾
إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ
أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ
ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ
ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ
إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ
مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾

العبادات الشاقة على أكثر الناس؛ فهذه أكبر الأسباب التي تنال بها أعظم العطايا وأفضل المواهب، وهي مغفرة الله للذنوب صغارها وكبارها، المتضمن ذلك زوال كل أمر مكروه، ورحمته العظيمة التي بها صلحت أحوالهم واستقامت أمور دينهم ودنياهم؛ فلهم الرحمة من الله في يوم القيامة.

﴿١١١﴾ حين ﴿تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾: كل يقول: نفسي نفسي، لا يهمه سوى نفسه؛ ففي ذلك اليوم يفتقر العبد إلى حصول مثقال ذرة من الخير. ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾: من خير وشر. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾: فلا يزاد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم. ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [يس: ٥٤].

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿١١٢﴾، ﴿١١٣﴾ وهذه القرية هي مكة المشرفة التي كانت آمنة مطمئنة لا يهاج فيها أحد، وتحترمها الجاهلية الجَهْلَاء، حتى إن أحدهم يجد قاتل أبيه وأخيه فلا يهيجه مع شدة الحمية فيهم والنعرة العربية، فحصل لها في مكة من الأمن التام ما لم يحصل في سواها، وكذلك الرزق الواسع، كانت بلدة ليس فيها زرع ولا شجر، ولكن يسر الله لها الرزق يأتيها من كل مكان، فجاءهم رسول منهم يعرفون أمانته وصدقه؛ يدعوهم إلى أكمل الأمور، وينهاهم عن الأمور السيئة، فكذبوه وكفروا بنعمة الله عليهم، فأذاقهم الله ضد ما كانوا فيه، وألبسهم ﴿لِبَاسَ ٱلْجُوعِ﴾ الذي هو ضد الرغد، ﴿وَٱلْخَوْفِ﴾ الذي هو ضد الأمن، وذلك بسبب صنيعهم وكفرهم وعدم شكرهم، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾.

﴿١١٤﴾ يأمر تعالى[1] عباده بأكل ما رزقهم الله من الحيوانات والحبوب والثمار وغيرها. ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾؛ أي: حالة كونها متصفة بهذين الوصفين؛ بحيث لا تكون مما حرم الله أو أثرًا من[2] غصب ونحوه؛ فتمتعوا بما خلق الله لكم من غير إسراف ولا تعدٍّ. ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾: بالاعتراف بها بالقلب، والثناء على الله بها، وصرفها في طاعة الله. ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾؛ أي: إن كنتم مخلصين له العبادة؛ فلا تشكروا إلا إياه، ولا تنسوا المنعم.

﴿١١٥﴾ ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ﴾: الأشياء المضرة تنزيهًا لكم، ومن ذلك: ﴿ٱلْمَيْتَةَ﴾، ويدخل في ذلك كل ما كان موته على غير ذكاة مشروعة، ويستثنى منه ميتة الجراد والسمك. ﴿وَٱلدَّمَ﴾: المسفوح، وأما ما يبقى في العروق

(١) ساقط من ع.
(٢) ع: «عن».

واللحم؛ فلا يضر. ﴿ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ ﴾: لقذارته وخبثه، وذلك شامل للحمه وشحمه وجميع أجزائه. ﴿ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾: كالذي يذبح للأصنام والقبور ونحوها؛ لأنه مقصود به الشرك. ﴿ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ ﴾: إلى شيء من المحرمات؛ بأن حملته الضرورة وخاف إن لم يأكل أن يهلك؛ فلا جناح عليه إذا كان ﴿ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ ﴾؛ أي: إذا لم يرد أكل المحرم، وهو غير مضطر ولا متعدٍّ الحلال إلى الحرام أو متجاوز لما زاد على قدر الضرورة؛ فهذا الذي حرمه الله من المباحات.

(١١٦) ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ ﴾؛ أي: لا تحرموا وتحللوا من تلقاء أنفسكم كذبًا وافتراء على الله وتقولًا عليه؛ ﴿ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ (١١٦) ﴾: لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا بد أن يظهر الله خزيهم.

(١١٧) وإن تمتعوا في الدنيا؛ فإنه ﴿ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ﴾: ومصيرهم إلى النار، ﴿ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (١١٧) ﴾.

(١١٨) فالله تعالى ما حرم علينا إلا الخبيثات تفضلًا منه وصيانة عن كل مستقذر، وأما الذين هادوا؛ فحرم الله عليهم طيبات أحلت لهم بسبب ظلمهم عقوبة لهم؛ كما قصه في سورة الأنعام في قوله: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (١٤٦) ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ (١١٩) ﴾.

(١١٩) وهذا حض منه لعباده على التوبة ودعوة لهم إلى الإنابة، فأخبر أن من عمل سوءًا ﴿ بِجَهَٰلَةٖ ﴾: بعاقبة ما تجني عليه، ولو كان متعمدًا للذنب؛ فإنه لا بد أن ينقص ما في قلبه من العلم وقت مقارفة الذنب؛ فإذا تاب وأصلح بأن ترك الذنب وندم عليه وأصلح أعماله؛ فإن الله يغفر له ويرحمه ويتقبل توبته ويعيده إلى حالته الأولى أو أعلى منها.

﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ
بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ (١١٩)
إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ
(١٢٠) شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ
(١٢١) وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
(١٢٢) ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ
مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ (١٢٣) إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ عَلَى ٱلَّذِينَ
ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا
كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ (١٢٤) ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ
وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ
هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ (١٢٥)
وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ
لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ (١٢٦) وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ
وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ
(١٢٧) إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ (١٢٨)

صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (١٢١) وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ (١٢٣) ﴾.

(١٢٠) يخبر تعالى عما فضل به خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام وخصه به من الفضائل العالية والمناقب الكاملة، فقال: ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ ﴾؛ أي: إمامًا جامعًا لخصال الخير هاديًا مهتديًا، ﴿ قَانِتٗا لِّلَّهِ ﴾؛ أي: مديمًا لطاعة ربه مخلصًا له الدين، ﴿ حَنِيفٗا ﴾: مقبلًا على الله بالمحبة والإنابة والعبودية، معرضًا عمن سواه. ﴿ وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ (١٢٠) ﴾: في قوله وعمله وجميع أحواله؛ لأنه إمام الموحدين الحنفاء.

(١٢١) ﴿ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِ ﴾؛ أي: آتاه الله في الدنيا حسنة، وأنعم عليه بنعم ظاهرة وباطنة، فقام بشكرها، فكان نتيجة هذه الخصال الفاضلة أن ﴿ ٱجۡتَبَىٰهُ ﴾ ربه واختصه بخلته وجعله من صفوة خلقه وخيار عباده المقربين. ﴿ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (١٢١) ﴾: في علمه وعمله، فعلم بالحق وآثره على غيره.

(١٢٢) ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾: رزقًا واسعًا، وزوجة حسناء، وذرية صالحين، وأخلاقًا مرضية. ﴿ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾: الذين لهم المنازل العالية والقرب العظيم من الله تعالى.

(١٢٣) ومن أعظم فضائله أن الله أوحى لسيد الخلق وأكملهم أن يتبع ملة إبراهيم ويقتدي به هو وأمته.

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾.

(١٢٤) يقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ ﴾؛ أي: فرضًا ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾: حين ضلوا عن يوم الجمعة، وهم اليهود، فصار اختلافهم سببًا لأن يجب عليهم في السبت احترامه وتعظيمه، وإلا؛ فالفضيلة الحقيقية ليوم الجمعة، الذي هدى الله هذه الأمة إليه.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾: فيبين لهم المحق من المبطل والمستحق للثواب ممن استحق العقاب.

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾.

(١٢٥) أي: ليكن دعاؤك للخلق مسلمهم وكافرهم إلى سبيل ربك المستقيم المشتمل على العلم النافع والعمل الصالح، ﴿ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾؛ أي: كل أحد على حسب حاله وفهمه وقبوله وانقياده، ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل، والبداءة بالأهم فالأهم، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم، وبما يكون قبوله أتم، وبالرفق واللين؛ فإن انقاد بالحكمة، وإلا؛ فينتقل معه بالدعوة بالموعظة الحسنة، وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب: إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها والنواهي من المضار وتعدادها، وإما بذكر إكرام من قام بدين الله وإهانة من لم يقم به، وإما بذكر ما أعد الله للطائعين من الثواب العاجل والآجل وما أعد للعاصين من العقاب العاجل والآجل؛ فإن كان المدعو يرى أن ما هو عليه حق، أو كان داعية إلى الباطل؛ فيجادَل بالتي هي أحسن، وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلًا ونقلًا، ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقدها؛ فإنه أقرب إلى حصول المقصود وألَّا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشاتمة تذهب بمقصودها ولا تحصل الفائدة منها، بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها. وقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾؛ أي: يعلم السبب الذي أداه إلى الضلال، ويعلم أعماله المترتبة على ضلالته، وسيجازيه عليها. ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾: علم أنهم يصلحون للهداية فهداهم، ثم مَنَّ عليهم فاجتباهم.

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

(١٢٦) يقول تعالى مبيحًا للعدل ونادبًا للفضل والإحسان: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ ﴾: من أساء إليكم بالقول والفعل، ﴿ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾: من غير زيادة منكم على ما أجراه معكم. ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ ﴾: عن المعاقبة وعفوتم عن جرمهم، ﴿ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾: من الاستيفاء، وما عند الله خير لكم وأحسن عاقبة؛ كما قال تعالى: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى: ٤٠].

(١٢٧)، (١٢٨) ثم أمر رسوله بالصبر على دعوة الخلق إلى الله والاستعانة بالله على ذلك وعدم الاتكال على النفس، فقال: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾: هو الذي يعينك عليه ويثبتك. ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾: إذا دعوتهم فلم تر منهم قبولًا لدعوتك؛ فإن الحزن لا يجدي عليك شيئًا. ﴿ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ ﴾؛ أي: شدة وحرج ﴿ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾: فإن مكرهم عائد إليهم، وأنت من المتقين المحسنين، والله مع المتقين المحسنين بعونه وتوفيقه وتسديده، وهم الذين اتقوا الكفر والمعاصي، وأحسنوا في عبادة الله؛ بأن عبدوا الله كأنهم يرونه؛ فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم، والإحسان إلى الخلق ببذل النفع لهم من كل وجه. نسأل الله أن يجعلنا من المتقين المحسنين.

تم تفسير سورة النحل. ولله الحمد والمنة(١).



(١) عبارة: «ولله الحمد والمنة» وردت في ع: «والحمد لله».

تفسير سورة بني إسرائيل
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾.

﴿١﴾ ينزه تعالى نفسه المقدسة ويعظمها لأن له الأفعال العظيمة والمنن الجسيمة التي من جملتها أن ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾: ورسوله محمد ﷺ، ﴿لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾: الذي هو أجل المساجد على الإطلاق، ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾: الذي هو من المساجد الفاضلة، وهو محل الأنبياء، فأسرى به في ليلة واحدة إلى مسافة بعيدة جدًّا، ورجع في ليلته، وأراه الله من آياته ما ازداد به هدًى وبصيرة وثباتًا وفرقانًا، وهذا من اعتنائه تعالى به ولطفه؛ حيث يسره لليسرى في جميع أموره، وخوله نعمًا فاق بها الأولين والآخرين. وظاهر الآية أن الإسراء كان في أول الليل، وأنه من نفس المسجد الحرام، لكن ثبت في الصحيح أنه أسري به من بيت أم هانئ؛ فعلى هذا تكون الفضيلة في المسجد الحرام لسائر الحرم؛ فكله تضاعف فيه العبادة كتضاعفها في نفس المسجد، وأن الإسراء بروحه وجسده معًا، وإلا لم يكن في ذلك آية كبرى ومنقبة عظيمة.

وقد تكاثرت الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ في الإسراء وذكر تفاصيل ما رأى، وأنه أسري به إلى بيت المقدس، ثم عرج به من هناك إلى السماوات حتى وصل إلى ما فوق السماوات العلى، ورأى الجنة والنار، والأنبياء على مراتبهم، وفرض عليه الصلوات خمسين، ثم ما زال يراجع ربه بإشارة موسى الكليم حتى صارت خمسًا في الفعل[1] وخمسين في الأجر[2] والثواب، وحاز من المفاخر تلك الليلة هو وأمته ما لا يعلم مقداره إلا الله عز وجل. وذكره هنا وفي مقام الإنزال للقرآن ومقام

(١) عبارة: «في الفعل» وردت في ع: «بالفعل».
(٢) عبارة: «في الأجر» وردت في ع: «بالأجر».

الجزء الخامس عشر — سورة الإسراء

سورة الإسراء — آياتها ١١١ — ترتيبها ١٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ
هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ
هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾
ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾
وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ
مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا
عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ
وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ
وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾
إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ
وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ
كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾

٢٨٢

التحدي بصفة العبودية؛ لأنه نال هذه المقامات الكبار بتكميله لعبودية ربه.

وقوله: ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾؛ أي: بكثرة الأشجار والأنهار والخصب الدائم، ومن بركته تفضيله على غيره من المساجد سوى المسجد الحرام ومسجد المدينة، وأنه يطلب شد الرحل إليه للعبادة والصلاة فيه، وأن الله اختصه محلًّا لكثير من أنبيائه وأصفيائه.

﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ

أَسَأْتُمْ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأٓخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَاۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ ﴾.

﴿٢﴾ كثيرًا ما يقرن الباري بين نبوة محمد ﷺ ونبوة موسى ﷺ وبين كتابيهما وشريعتيهما؛ لأن كتابيهما أفضل الكتب، وشريعتيهما أكمل الشرائع، ونبوتيهما أعلى النبوات، وأتباعهما أكثر المؤمنين، ولهذا قال هنا: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾: الذي هو التوراة، ﴿ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾: يهتدون به في ظلمات الجهل إلى العلم بالحق. ﴿ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ﴾؛ أي: وقلنا لهم ذلك، وأنزلنا إليهم الكتاب لذلك؛ ليعبدوا الله وحده، وينيبوا إليه، ويتخذوه وحده وكيلًا ومدبرًا لهم في أمر دينهم ودنياهم، ولا يتعلقوا بغيره من المخلوقين الذين لا يملكون شيئًا ولا ينفعونهم بشيء.

﴿٣﴾ ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾؛ أي: يا ذرية من مننا عليهم وحملناهم مع نوح. ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾: ففيه التنويه بالثناء على نوح عليه السلام بقيامه بشكر الله واتصافه بذلك، والحث لذريته أن يقتدوا به في شكره ويتابعوه عليه، وأن يتذكروا نعمة الله عليهم إذ أبقاهم، واستخلفهم في الأرض، وأغرق غيرهم.

﴿٤﴾ ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾؛ أي: تقدمنا وعهدنا إليهم وأخبرناهم في كتابهم أنهم لا بد أن يقع منهم إفساد في الأرض مرتين بعمل المعاصي والبطر لنعم الله والعلو في الأرض والتكبر فيها، وأنه إذا وقع واحدة منهما؛ سلط الله عليهم الأعداء وانتقم منهم، وهذا تحذير لهم وإنذار لعلهم يرجعون فيتذكرون.

﴿٥﴾ ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا ﴾؛ أي: أولى المرتين اللتين يفسدون فيهما؛ أي: إذا وقع منهم ذلك الفساد، ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ ﴾: بعثًا قدريًّا وسلَّطنا عليكم تسليطًا كونيًّا جزائيًّا، ﴿ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾؛ أي: ذوي شجاعة وعدد وعدة، فنصرهم الله عليكم، فقتلوكم وَسَبَوْا أولادكم ونهبوا أموالكم، ﴿ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ﴾ فهتكوا الدور، ودخلوا المسجد الحرام، وأفسدوه. ﴿ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ﴾: لا بد من وقوعه لوجود سببه منهم. واختلف المفسرون في تعيين هؤلاء المسلطين؛ إلا أنهم اتفقوا على أنهم قوم كفار: إما من أهل العراق، أو الجزيرة، أو غيرها؛ سلطهم الله على بني إسرائيل لما كثرت فيهم المعاصي وتركوا كثيرًا من شريعتهم وطغوا في الأرض.

﴿٦﴾ ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾؛ أي: على هؤلاء الذين سلطوا عليكم فأجليتموهم من دياركم، ﴿ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ ﴾؛ أي: أكثرنا أرزاقكم وكثرناكم وقويناكم عليهم، ﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ ﴾: منهم، وذلك بسبب إحسانكم وخضوعكم لله.

﴿٧﴾ ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾: لأن النفع عائد إليكم حتى في الدنيا كما شاهدتم من انتصاركم على أعدائكم. ﴿ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾؛ أي: فلأنفسكم يعود الضرر؛ كما أراكم الله من تسليط الأعداء. ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأٓخِرَةِ ﴾؛ أي: المرة الأخرى[1] التي تفسدون فيها في الأرض؛ سلطنا أيضًا عليكم الأعداء، ﴿ لِيَسُۥٓـُٔواْ وُجُوهَكُمْ ﴾: بانتصارهم عليكم وسبيكم، ﴿ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾: والمراد بالمسجد مسجد بيت المقدس، ﴿ وَلِيُتَبِّرُواْ ﴾؛ أي: يخربوا ويدمروا ﴿ مَا عَلَوْاْ ﴾: عليه ﴿ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ ﴾: فيخربوا بيوتكم ومساجدكم وحروثكم.

﴿٨﴾ ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾: فيديل لكم الكرة عليهم، فرحمهم وجعل لهم الدولة وتوعدهم على المعاصي، فقال: ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ ﴾: إلى الإفساد في الأرض، ﴿ عُدْنَا ﴾: إلى عقوبتكم، فعادوا لذلك، فسلط الله عليهم رسوله محمدًا ﷺ، فانتقم الله به منهم؛ فهذا جزاء الدنيا، وما عند الله من النكال أعظم وأشنع، ولهذا قال: ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ ﴾: يصلونها ويلازمونها لا يخرجون منها أبدًا. وفي هذه الآيات التحذير لهذه الأمة من العمل بالمعاصي؛ لئلا يصيبهم ما أصاب بني إسرائيل؛ فسنة الله واحدة لا تبدل ولا تغير، ومن نظر إلى تسليط الكفرة على المسلمين والظلمة؛ عرف أن ذلك من أجل ذنوبهم عقوبة لهم، وأنهم إذا أقاموا كتاب الله وسنة رسوله؛ مكن لهم في الأرض، ونصرهم على أعدائهم.

---

(١) ع، ط: «الآخرة».

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿٩﴾، ﴿١٠﴾ يخبر تعالى عن شرف القرآن وجلالته وأنه ﴿ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾؛ أي: أعدل وأعلى من العقائد والأعمال والأخلاق؛ فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن؛ كان أكمل الناس وأقومهم وأهداهم في جميع الأمور. ﴿ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾: من الواجبات والسنن، ﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾: أعده الله لهم في دار كرامته لا يعلم وصفه إلا هو. ﴿ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾؛ فالقرآن مشتمل على البشارة والنذارة وذكر الأسباب التي تنال بها البشارة، وهو الإيمان والعمل الصالح، والتي تستحق بها النذارة، وهو ضد ذلك.

﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾.

﴿١١﴾ وهذا من جهل الإنسان وعجلته؛ حيث يدعو على نفسه وأولاده[1] بالشر عند الغضب، ويبادر بذلك الدعاء كما يبادر بالدعاء في الخير، ولكن الله من لطفه[2] يستجيب له في الخير ولا يستجيب له بالشر، ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ [يونس: ١١].

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿١٢﴾ يقول تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ﴾؛ أي: دالتين على كمال قدرة الله وسعة رحمته وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له. ﴿ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ ﴾؛ أي: جعلناه مظلمًا للسكون فيه والراحة. ﴿ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾؛ أي: مضيئة، ﴿ لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾: في معايشكم وصنائعكم وتجاراتكم وأسفاركم، ﴿ وَلِتَعْلَمُوا۟ ﴾: بتوالي الليل والنهار واختلاف القمر ﴿ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾: فتبنون عليها ما تشاءون من مصالحكم. ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ

(١) زاد في ع: «وماله».
(٢) عبارة: «من لطفه» وردت في ع: «بلطفه».

الجزء الخامس عشر — سورة الإسراء

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ
حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾
وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾
وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾
وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ
ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ
ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ
إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا
يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا
﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ
عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ
رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا
فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ
ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

٢٨٣

تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ ﴾؛ أي: بينا الآيات، وصرفناه لتتميز الأشياء، ويتبين الحق من الباطل؛ كما قال تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨].

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿١٣﴾، ﴿١٤﴾ وهذا إخبار عن كمال عدله أن كل إنسان يلزمه طائره في عنقه؛ أي: ما عمل من خير وشر يجعله الله ملازمًا له لا يتعداه إلى غيره؛ فلا يحاسب بعمل غيره ولا يحاسب غيره بعمله. ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ﴾: فيه عمله[3] من الخير والشر حاضرًا صغيره وكبيره، ويقال له: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾: وهذا من أعظم العدل والإنصاف أن يقال

(٣) ع: «ما عمله».

للعبد: حاسب نفسك؛ ليعرف ما عليه[1] من الحق الموجب للعقاب.

﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿١٥﴾ أي: هداية كل أحد وضلاله لنفسه. لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يدفع عنه مثقال ذرة من الشر، والله تعالى أعدل العادلين، لا يعذب أحدًا حتى تقوم عليه الحجة بالرسالة ثم يعاند الحجة، وأما من انقاد للحجة أو لم تبلغه حجة الله تعالى؛ فإن الله تعالى لا يعذبه[2]. استدل بهذه الآية على أن أهل الفترات وأطفال المشركين لا يعذبهم الله حتى يبعث إليهم رسولًا؛ لأنه منزه عن الظلم.

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿١٦﴾ يخبر تعالى أنه إذا أراد أن يهلك قرية من القرى الظالمة ويستأصلها بالعذاب؛ أمر مترفيها أمرًا قدريًّا، ففسقوا فيها، واشتد طغيانهم؛ ﴿ فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ ﴾؛ أي: كلمة العذاب التي لا مرد لها؛ ﴿ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾

﴿١٧﴾ وهؤلاء أمم كثيرة أبادهم الله بالعذاب من بعد قوم نوح؛ كعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ممن عاقبهم الله لما كثر بغيهم واشتد كفرهم؛ أنزل الله بهم عقابه العظيم. ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾: فلا يخافوا منه ظلمًا، وأنه يعاقبهم على ما عملوه.

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ ﴾.

(١) عبارة: «ليعرف ما عليه» وردت في ع: «ليعترف بما عليه».
(٢) ط: «يعذب به».

﴿١٨﴾ يخبر تعالى أن ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ﴾: الدنيا ﴿ ٱلْعَاجِلَةَ ﴾ المنقضية الزائلة، فعمل لها وسعى، ونسي المبتدى أو المنتهى: أن الله يعجل له من حطامها ومتاعها ما يشاؤه ويريده، مما كتب الله له في اللوح المحفوظ، ولكنه متاع غير نافع ولا دائم له، ثم يجعل له في الآخرة ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا ﴾؛ أي: يباشر عذابها، ﴿ مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ ﴾؛ أي: في حالة الخزي والفضيحة والذم من الله ومن خلقه والبعد عن رحمة الله، فيجمع له بين العذاب والفضيحة.

﴿١٩﴾ ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾: فرضيها وآثرها على الدنيا، ﴿ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾: الذي دعت إليه الكتب السماوية والآثار النبوية، فعمل بذلك على قدر إمكانه، ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾: بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾؛ أي: مقبولًا منمًّى مدخرًا، لهم أجرهم وثوابهم عند ربهم.

﴿٢٠﴾ ومع هذا؛ فلا يفوتهم نصيبهم من الدنيا؛ فكلًّا يمده الله منها؛ لأنه عطاؤه وإحسانه. ﴿ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾؛ أي: ممنوعًا من أحد، بل جميع الخلق راتعون بفضله وإحسانه.

﴿٢١﴾ ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾: في الدنيا بسعة الأرزاق وقلتها، واليسر والعسر، والعلم والجهل، والعقل والسفه، وغير ذلك من الأمور التي فضل الله العباد بعضهم على بعض بها. ﴿ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ ﴾: فلا نسبة لنعيم الدنيا ولذاتها إلى الآخرة بوجه من الوجوه؛ فكم بين من هو في الغرف العاليات واللذات المتنوعات والسرور والخيرات والأفراح ممن هو يتقلب في الجحيم، ويعذب بالعذاب الأليم، وقد حل عليه سخط الرب الرحيم، وكل من الدارين بين أهلها من التفاوت ما لا يمكن أحدًا عده.

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿٢٢﴾ أي: لا تعتقد أن أحدًا من المخلوقين يستحق شيئًا من العبادة، ولا تشرك بالله أحدًا منهم؛ فإن ذلك داعٍ للذم والخذلان؛ فالله وملائكته ورسله قد نهوا عن الشرك، وذموا من عمله أشد الذم، ورتبوا عليه من الأسماء المذمومة

والأوصاف المقبوحة ما كان به متعاطيه أشنع الخلق وصفًا وأقبحهم نعتًا، وله من الخذلان في أمر دينه ودنياه بحسب ما تركه من التعلق بربه؛ فمن تعلق بغيره؛ فهو مخذول قد وكل إلى من تعلق به، ولا أحد من الخلق ينفع أحدًا إلا بإذن الله؛ وكما أن من جعل مع الله إلهًا آخر له الذم والخذلان؛ فمن وحَّده وأخلص دينه لله، وتعلق به دون غيره؛ فإنه محمودٌ معانٌ في جميع أحواله.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا (٢٤)﴾.

(٢٣) لما نهى تعالى عن الشرك به؛ أمر بالتوحيد، فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾: قضاء دينيًّا، وأمر أمرًا شرعيًّا ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾: أحدًا من أهل الأرض والسماوات الأحياء والأموات، ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾: لأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي له كل صفة كمال، وله من كل صفة[1] أعظمها، على وجه لا يشبهه أحد من خلقه، وهو المنعم بالنعم الظاهرة والباطنة، الدافع لجميع النقم، الخالق، الرازق، المدبر لجميع الأمور؛ فهو المتفرد بذلك كله، وغيره ليس له من ذلك شيء. ثم ذكر بعد حقه القيام بحق الوالدين، فقال: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾؛ أي: أحسنوا إليهما بجميع وجوه الإحسان القولي والفعلي؛ لأنهما سبب وجود العبد، ولهما من المحبة للولد والإحسان إليه، والقرب ما يقتضي تأكد الحق ووجوب البر. ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾؛ أي: إذا وصلا إلى هذه السن التي تضعف فيها قواهما ويحتاجان من اللطف والإحسان ما هو معروف، ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾: وهذا أدنى مراتب الأذى، نبه به على ما سواه، والمعنى: لا تؤذهما أدنى أذية، ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾؛ أي: تزجرهما وتتكلم لهما كلامًا خشنًا. ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣)﴾: بلفظ يحبانه، وتأدب وتلطف معهما[2] بكلام لين حسن يلذ على قلوبهما، وتطمئن

(١) ع، ط: «تلك الصفة».
(٢) ساقط من ع، ط.

الجزء الخامس عشر — سورة الإسراء

مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ
جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ
ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ
سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩) كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ
رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا
بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا
(٢١) لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا (٢٢)
۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا
يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ
أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَٱخْفِضْ
لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى
صَغِيرًا (٢٤) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ
فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا (٢٥) وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ
وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ
كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا (٢٧)

٢٨٤

به نفوسهما، وذلك يختلف باختلاف الأحوال والعوائد والأزمان.

(٢٤) ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾؛ أي: تواضع لهما ذلًّا لهما ورحمة واحتسابًا للأجر، لا لأجل الخوف منهما أو الرجاء لما لهما[3] ونحو ذلك من المقاصد التي لا يؤجر عليها العبد. ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾؛ أي: ادع لهما بالرحمة أحياء وأمواتًا؛ جزاء على تربيتهما إياك صغيرًا. وفهم من هذا أنه كلما ازدادت التربية؛ ازداد الحق. وكذلك من تولى تربية الإنسان في دينه ودنياه تربية صالحة غير الأبوين؛ فإن له على من رباه حق التربية.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا (٢٥)﴾.

(٢٥) أي: ربكم تعالى مطلع على ما أكنته سرائركم من خير وشر، وهو لا ينظر إلى أعمالكم وأبدانكم، وإنما ينظر إلى

(٣) عبارة: «لما لهما» وردت في ع: «لمالهما».

قلوبكم وما فيها من الخير والشر. ﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ﴾: بأن تكون إراداتكم ومقاصدكم دائرة على مرضاة الله، ورغبتكم فيما يقربكم إليه، وليس في قلوبكم إرادات مستقرة لغير الله. ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ﴾؛ أي: الرجاعين إليه في جميع الأوقات؛ ﴿غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾: فمن اطلع الله على قلبه، وعلم أنه ليس فيه إلا الإنابة إليه ومحبته ومحبة ما يقرب إليه؛ فإنه وإن جرى منه في بعض الأوقات ما هو مقتضى الطبائع البشرية؛ فإن الله يعفو عنه، ويغفر له الأمور العارضة غير المستقرة.

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿٢٦﴾، ﴿٢٧﴾ يقول تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾: من البر والإكرام الواجب والمسنون، وذلك الحق يتفاوت بتفاوت الأحوال والأقارب والحاجة وعدمها والأزمنة، ﴿وَٱلْمِسْكِينَ﴾: آته حقه من الزكاة ومن غيرها؛ لتزول مسكنته، ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾: وهو الغريب المنقطع به عن بلده، ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ بل يعطى الجميع من المال، على وجه لا يضر المعطي، ولا يكون زائدًا على المقدار اللائق؛ فإن ذلك تبذير، قد نهى الله عنه وأخبر: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾: لأن الشيطان لا يدعو إلا إلى كل خصلة ذميمة، فيدعو الإنسان إلى البخل والإمساك؛ فإذا عصاه؛ دعاه إلى الإسراف والتبذير، والله تعالى إنما يأمر بأعدل الأمور وأقسطها، ويمدح عليه؛ كما في قوله عن عباد الرحمن الأبرار: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٧].

﴿٢٨﴾، ﴿٢٩﴾ وقال هنا: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾: كناية عن شدة الإمساك والبخل، ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾: فتنفق فيما لا ينبغي أو زيادة على ما ينبغي، ﴿فَتَقْعُدَ﴾: إن فعلت ذلك ﴿مَلُومًا﴾؛ أي: تلام على ما فعلت، ﴿مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾؛ أي: حاسر اليد فارغها؛ فلا بقي ما في يدك من المال، ولا خلفه مدح وثناء.

وهذا الأمر بإيتاء ذي القربى مع القدرة والغنى، فأما مع العدم أو تعسر النفقة الحاضرة؛ فأمر تعالى أن يُردوا ردًّا جميلًا، فقال: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾؛ أي: تعرض عن إعطائهم إلى وقت آخر ترجو فيه من الله تيسير الأمر. ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾؛ أي: لطيفًا برفق ووعد بالجميل عند سنوح الفرصة واعتذار بعدم الإمكان في الوقت الحاضر؛ لينقلبوا عنك مطمئنة خواطرهم؛ كما قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٣]: وهذا أيضًا من لطف الله تعالى بالعباد، أمرهم بانتظار الرحمة والرزق منه؛ لأن انتظار ذلك عبادة، وكذلك وعدهم بالصدقة والمعروف عند التيسر عبادة حاضرة؛ لأن الهم بفعل الحسنة حسنة، ولهذا ينبغي للإنسان أن يفعل ما يقدر عليه من الخير، وينوي فعل ما لم يقدر عليه ليثاب على ذلك، ولعل الله ييسر[1] له بسبب رجائه.

﴿٣٠﴾ ثم قال تعالى ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ ﴾: من عباده ﴿وَيَقْدِرُ﴾ ويضيقه على من يشاء حكمة منه. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾: فيجزيهم على ما يعلمه صالحًا لهم، ويدبرهم بلطفه وكرمه.

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿٣١﴾ وهذا من رحمته بعباده؛ حيث كان أرحم بهم من والديهم، فنهى الوالدين أن يقتلوا أولادهم خوفًا من الفقر والإملاق، وتكفل برزق الجميع، وأخبر أن: ﴿قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾؛ أي: من أعظم كبائر الذنوب؛ لزوال الرحمة من القلب، والعقوق العظيم، والتجرؤ على قتل الأطفال الذين لم يجر منهم ذنب ولا معصية.

﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾.

---

(١) ع: «ييسره».

وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا
مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا
كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ
لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوا
أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ
خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ
سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَمَن
قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي
الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي
هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ
مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۚ
ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ
إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾
وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ
الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾

﴿٣٢﴾ والنهي عن قربانه أبلغ من النهي عن مجرد فعله؛ لأن ذلك يشمل النهي عن جميع مقدماته ودواعيه؛ فإن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، خصوصًا هذا الأمر الذي في كثير من النفوس أقوى داع إليه، ووصف الله الزنا وقبحه بأنه ﴿كَانَ فَٰحِشَةً﴾؛ أي: إثمًا يستفحش في الشرع والعقل والفطر؛ لتضمنه التجرؤ على الحرمة في حق الله وحق المرأة وحق أهلها أو زوجها وإفساد الفراش واختلاط الأنساب وغير ذلك من المفاسد. وقوله: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾؛ أي: بئس السبيل سبيل من تجرأ على هذا الذنب العظيم.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾.

﴿٣٣﴾ وهذا شامل لكل نفس حرم الله قتلها من صغير وكبير وذكر وأنثى وحر وعبد ومسلم وكافر له عهد، ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾: كالنفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة، والباغي في حال بغيه إذا لم يندفع إلا بالقتل. ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾؛ أي: بغير حق، ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ﴾: وهو أقرب عصباته وورثته إليه ﴿سُلْطَٰنًا﴾؛ أي: حجة ظاهرة على القصاص من القاتل، وجعلنا له أيضًا تسلطًا قدريًّا على ذلك، وذلك حين تجتمع الشروط الموجبة للقصاص؛ كالعمد العدوان، والمكافأة. ﴿فَلَا يُسْرِف﴾: الولي ﴿فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾: والإسراف مجاوزة الحد: إما أن يمثل بالقاتل، أو يقتله بغير ما قتل به، أو يقتل غير القاتل. وفي هذه الآية دليل إلى أن الحق في القتل للولي؛ فلا يقتص إلا بإذنه، وإن عفا؛ سقط القصاص، وأن ولي المقتول يعينه الله على القاتل ومن أعانه، حتى يتمكن من قتله.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾.

﴿٣٤﴾ وهذا من لطفه ورحمته باليتيم الذي فقد والده وهو صغير غير عارف بمصلحة نفسه ولا قائم بها أن أمر أولياءه بحفظه وحفظ ماله وإصلاحه وألَّا يقربوه ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾: من التجارة فيه وعدم تعريضه للأخطار والحرص على تنميته، وذلك ممتد إلى أن يبلغ اليتيم ﴿أَشُدَّهُۥ﴾؛ أي: بلوغه وعقله ورشده؛ فإذا بلغ أشده؛ زالت عنه الولاية، وصار ولي نفسه، ودفع إليه ماله؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: ٦]، ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾: الذي عاهدتم الله عليه، والذي عاهدتم الخلق عليه. ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾؛ أي: مسئولين عن الوفاء به[1]؛ فإن وفيتم؛ فلكم الثواب الجزيل، وإن لم تفعلوا[2]؛ فعليكم الإثم العظيم.

﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٣٥﴾ وهذا أمر بالعدل وإيفاء المكاييل والموازين بالقسط من غير بخس ولا نقص. ويؤخذ من عموم المعنى، النهي عن كل غش في ثمن أو مثمن أو معقود عليه، والأمر بالنصح

(١) زاد في ع، ط: «وعدمه».
(٢) ع، ط: «تفوا».

والصدق في المعاملة. ﴿ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ ﴾: من عدمه، ﴿ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ٣٥ ﴾؛ أي: أحسن عاقبة، به يسلم العبد من التبعات، وبه تنزل البركة.

﴿ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦ ﴾.

٣٦ أي: ولا تتبع ما ليس لك به علم، بل تثبت في كل ما تقوله وتفعله؛ فلا تظنَّ ذلك يذهب لا لك ولا عليك. ﴿ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦ ﴾: فحقيق بالعبد الذي يعرف أنه مسئول عما قاله وفعله وعما استعمل به جوارحه التي خلقها الله لعبادته أن يعد للسؤال جوابًا، وذلك لا يكون إلا باستعمالها بعبودية الله، وإخلاص الدين له، وكفها عما يكرهه الله تعالى.

﴿ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ٣٧ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا ٣٨ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ٣٩ ﴾.

٣٧ يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًا ﴾؛ أي: كبرًا وتيهًا وبطرًا متكبرًا على الحق ومتعاظمًا في تكبرك[1] على الخلق. ﴿ إِنَّكَ ﴾: في فعلك ذلك ﴿ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ٣٧ ﴾: في تكبرك، بل تكون حقيرًا عند الله، ومحتقرًا عند الخلق، مبغوضًا، ممقوتًا، قد اكتسبت شر الأخلاق، واكتسيت بأرذلها[2]، من غير إدراك لبعض ما تروم.

٣٨ ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ ﴾: المذكور الذي نهى الله عنه فيما تقدم من قوله: ﴿ لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾، والنهي عن عقوق الوالدين، وما عطف على ذلك، ﴿ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا ٣٨ ﴾؛ أي: كل ذلك يسوء العاملين ويضرهم، والله تعالى يكرهه ويأباه.

٣٩ ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الذي بيناه ووضحناه من هذه الأحكام الجليلة، ﴿ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِ ﴾: فإن الحكمة الأمر بمحاسن الأعمال ومكارم الأخلاق والنهي عن أراذل الأخلاق وأسوأ الأعمال. وهذه الأعمال المذكورة في هذه الآيات من الحكمة العالية التي أوحاها رب العالمين لسيد المرسلين في أشرف الكتب ليأمر بها أفضل الأمم؛ فهي من الحكمة التي من أوتيها؛ فقد أوتي خيرًا كثيرًا. ثم ختمها بالنهي عن عبادة غير الله كما افتتحها بذلك، فقال: ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ ﴾؛ أي: خالدًا مخلدًا؛ فإنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار. ﴿ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ٣٩ ﴾؛ أي: قد لحقتك اللائمة واللعنة والذم من الله وملائكته والناس أجمعين.

﴿ أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا ٤٠ ﴾.

٤٠ وهذا إنكار شديد على من زعم أن الله اتخذ من خلقه بنات، فقال: ﴿ أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ ﴾؛ أي: اختار لكم الصفوة والقسم الكامل، ﴿ وَٱتَّخَذَ ﴾: لنفسه ﴿ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ﴾: حيث زعموا أن الملائكة بنات الله. ﴿ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا ٤٠ ﴾: فيه أعظم الجرأة على الله، حيث نسبتم له الولد المتضمن لحاجته، واستغناء بعض المخلوقات عنه، وحكموا له بأردأ القسمين، وهن الإناث، وهو الذي خلقكم واصطفاكم بالذكور، فتعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

﴿ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا ٤١ قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ٤٢ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ٤٣ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤٤ ﴾.

٤١ يخبر تعالى أنه صرَّف لعباده في هذا القرآن؛ أي: نوَّع الأحكام ووضحها وأكثر من الأدلة والبراهين على ما دعا إليه، ووعظ وذكَّر لأجل أن يتذكروا ما ينفعهم فيسلكوه وما يضرهم فيدعوه، ولكن أبى أكثر الناس ﴿ إِلَّا نُفُورٗا ٤١ ﴾ عن آيات الله؛ لبغضهم للحق ومحبتهم ما كانوا عليه من الباطل، حتى تعصبوا لباطلهم، ولم يعيروا آيات الله لهم سمعًا، ولا ألقوا لها بالًا.

(١) ساقط من ع، ط.
(٢) ع: «أرذلها».

﴿٤٢﴾ ومن أعظم ما صرف فيه الآيات والأدلة التوحيد الذي هو أصل الأصول، فأمر به ونهى عن ضده وأقام عليه من الحجج العقلية والنقلية شيئًا كثيرًا؛ بحيث إن من أصغى إلى بعضها لا تدع في قلبه شكًّا ولا ريبًا، ومن الأدلة على ذلك هذا الدليل العقلي الذي ذكره هنا، فقال: ﴿قُل﴾: للمشركين الذين يجعلون مع الله إلهًا آخر: ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾؛ أي: على موجب زعمهم وافترائهم؛ ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾؛ أي: لاتخذوا سبيلًا إلى الله بعبادته والإنابة إليه والتقرب وابتغاء الوسيلة؛ فكيف يجعل العبد الفقير الذي يرى شدة افتقاره لعبودية ربه إلهًا مع الله؟! هل هذا إلا من أظلم الظلم وأسفه السفه؛ فعلى هذا المعنى تكون هذه الآية كقوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧]: وكقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الفرقان: ١٧، ١٨].

ويحتمل أن المعنى في قوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾؛ أي: لطلبوا السبيل وسعوا في مغالبة الله تعالى، فإما أن يعلوا عليه فيكون من علا وقهر هو الرب الإله، فأما وقد علموا أنهم يقرون أن آلهتهم التي يدعون[1] من دون الله مقهورة مغلوبة ليس لها من الأمر شيء؛ فلِمَ اتخذوها وهي بهذه الحال؟! فيكون هذا كقوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].

﴿٤٣﴾ ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ﴾؛ أي: تقدس وتنزه وعلت أوصافه، ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾: من الشرك به واتخاذ الأنداد معه، ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾: فعلا قدره وعظم وجلت كبرياؤه التي لا تقادر أن يكون معه آلهة؛ فقد ضل من قال ذلك ضلالًا مبينًا وظلم ظلمًا كبيرًا، لقد تضاءلت لعظمته المخلوقات العظيمة، وصغرت لدى كبريائه السماوات السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن فيهن، ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]،

الجزء الخامس عشر — سورة الإسراء

ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا
ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم
بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾
وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾
قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا
﴿٤٢﴾ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ
ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن
لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ
ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا
مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ
وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا
﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ
إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ
كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾
وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾

٢٨٦

وافتقر إليه العالم العلوي والسفلي فقرًا ذاتيًّا لا ينفك عن أحد منهم في وقت من الأوقات، هذا الفقر بجميع وجوهه؛ فقر من جهة الخلق والرزق والتدبير، وفقر من جهة الاضطرار إلى أن يكون معبودهم ومحبوبهم الذي إليه يتقربون، وإليه في كل حال يفزعون.

﴿٤٤﴾ ولهذا قال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ﴾: من حيوان ناطق وغير ناطق، ومن أشجار ونبات وجامد، وحي وميت، ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾: بلسان الحال ولسان المقال، ﴿وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾؛ أي: تسبيح باقي المخلوقات التي على غير لغتكم، بل يحيط بها علام الغيوب. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾: حيث لم يعاجل بالعقوبة من قال فيه قولًا تكاد السماوات والأرض تتفطر منه وتخر له الجبال، ولكنه أمهلهم، وأنعم عليهم، وعافاهم، ورزقهم، ودعاهم إلى بابه ليتوبوا من هذا الذنب العظيم؛ ليعطيهم الثواب الجزيل، ويغفر لهم ذنبهم؛ فلولا حلمه ومغفرته؛ لسقطت السماوات على الأرض، ولما ترك على ظهرها من دابة.

(١) ع، ط: «يعبدون».

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿٤٥﴾ يخبر تعالى عن عقوبته للمكذبين بالحق الذين ردوه وأعرضوا عنه أنه يحول بينهم وبين الإيمان، فقال: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾: الذي فيه الوعظ والتذكير والهدى والإيمان والخير والعلم الكثير؛ ﴿ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴾: يسترهم عن فهمه حقيقة وعن التحقق بحقائقه والانقياد إلى ما يدعو إليه من الخير.

﴿٤٦﴾ ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾؛ أي: أغطية وأغشية لايفقهون معها القرآن، بل يسمعونه سماعًا تقوم به عليهم الحجة، ﴿ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾؛ أي: صممًا عن سماعه، ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ ﴾: داعيًا لتوحيده، ناهيًا عن الشرك به؛ ﴿ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ ﴾: من شدة بغضهم له ومحبتهم لما هم عليه من الباطل؛ كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الزمر: ٤٥].

﴿٤٧﴾ ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ ﴾؛ أي: إنما منعناهم من الانتفاع عند سماع القرآن لأننا نعلم أن مقاصدهم سيئة؛ يريدون أن يعثروا على أقل شيء ليقدحوا به، وليس استماعهم لأجل الاسترشاد وقبول الحق، وإنما هم معتمدون على عدم اتباعه، ومن كان بهذه الحالة؛ لم يفده الاستماع شيئًا، ولهذا قال: ﴿ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ ﴾؛ أي: متناجين، ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾: في مناجاتهم: ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾: فإذا كانت هذه مناجاتهم الظالمة فيما بينهم، وقد بنوها على أنه مسحور؛ فهم جازمون أنهم غير معتبرين لما قال، وأنه يهذي لا يدري ما يقول.

﴿٤٨﴾ قال تعالى: ﴿ ٱنظُرْ ﴾: متعجبًا ﴿ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ ﴾: التي هي أضل الأمثال وأبعدها عن الصواب، ﴿ فَضَلُّوا۟ ﴾: في ذلك، أو فصارت سببًا لضلالهم؛ لأنهم بنوا عليها أمرهم، والمبني على فاسد أفسد منه. ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾؛ أي: لا يهتدون أي اهتداء، فنصيبهم الضلال المحض والظلم الصرف.

﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿٤٩﴾ يخبر تعالى عن قول المنكرين للمبعث[1] وتكذيبهم به واستبعادهم بقولهم: ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا ﴾؛ أي: أجسادًا بالية. ﴿ أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴾؛ أي: لا يكون ذلك، وهو محال بزعمهم، فجهلوا أشد الجهل؛ حيث كذبوا رسل الله، وجحدوا آيات الله، وقاسوا قدرة خالق السماوات[2] والأرض بِقُدَرِهِمُ الضعيفة العاجزة، فلما رأوا أن هذا ممتنع عليهم لا يقدرون عليه؛ جعلوا قدرة الله كذلك؛ فسبحان من جعل خلقًا من خلقه يزعمون أنهم أولو العقول والألباب مثالًا في جهل أظهر الأشياء وأجلاها وأوضحها براهين وأعلاها؛ ليري عباده أنه ما ثَمَّ إلا توفيقه وإعانته أو الهلاك والضلال، ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ [آل عمران: ٨].

﴿٥٠﴾، ﴿٥١﴾ ولهذا أمر رسوله ﷺ أن يقول لهؤلاء المنكرين للبعث استبعادًا: ﴿ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ ﴾؛ أي: يعظم ﴿ فِى صُدُورِكُمْ ﴾: لتسلموا بذلك - على زعمكم - من أن تنالكم قدرة الله أو تنفذ فيكم مشيئته؛ فإنكم غير معجزي الله في أي حالة تكونون وعلى أي وصف تتحولون، وليس لكم في أنفسكم تدبير في حالة الحياة وبعد الممات؛ فدعوا التدبير والتصريف لمن هو على كل شيء قدير وبكل شيء محيط. ﴿ فَسَيَقُولُونَ ﴾: حين تقيم عليهم الحجة في البعث: ﴿ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾: فكما فطركم ولم تكونوا شيئًا مذكورًا؛ فإنه سيعيدكم خلقًا

(١) ع، ط: «للبعث».
(٢) ع: «الأرض والسماوات».

۞ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾

جديدًا؛ ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾؛ أي: يهزونها إنكارًا وتعجبًا مما قلت. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾؛ أي: متى وقت البعث الذي تزعمه على قولك؟ لا إقرارًا منهم لأصل البعث، بل ذلك سفه منهم وتعجيز. ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾: فليس في تعيين وقته فائدة، وإنما الفائدة والمدار على تقريره والإقرار به وإثباته، وإلا؛ فكل ما هو آت؛ فإنه قريب.

﴿٥٢﴾ ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾: للبعث والنشور وينفخ في الصور، ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾؛ أي: تنقادون لأمره ولا تستعصون عليه. وقوله: ﴿بِحَمْدِهِ﴾؛ أي: هو المحمود تعالى على فعله[1]، ويجزي به العباد إذا جمعهم ليوم التناد، ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾: من سرعة وقوعه، وأن الذي مر عليكم من النعيم كأنه ما كان؛ فهذا الذي يقول عنه المنكرون: متى هو؟ يندمون غاية الندم عند وروده، ويقال لهم: هذا الذي كنتم به تكذبون.

﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾.

﴿٥٣﴾ وهذا من لطفه بعباده؛ حيث أمرهم بأحسن الأخلاق والأعمال والأقوال الموجبة للسعادة في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾: وهذا أمر بكل كلام يقرب إلى الله؛ من قراءة وذكر وعلم وأمر بمعروف ونهي عن منكر وكلام حسن لطيف مع الخلق على اختلاف مراتبهم ومنازلهم، وأنه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين؛ فإنه يؤمر بإيثار أحسنهما إن لم يمكن الجمع بينهما، والقول الحسن داع لكل خلق جميل وعمل صالح؛ فإن من ملك لسانه؛ ملك جميع أمره. وقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: يسعى بين العباد بما يفسد عليهم دينهم ودنياهم؛ فدواء هذا ألَّا يطيعوه في الأقوال غير الحسنة التي يدعوهم إليها، وأن يَلينوا فيما بينهم؛ لينقمع الشيطان الذي ينزغ بينهم؛ فإنه عدوهم الحقيقي الذي ينبغي لهم أن يحاربوه؛ فإنه يدعوهم ليكونوا من أصحاب السعير، وأما إخوانهم؛ فإنهم وإن نزغ الشيطان فيما بينهم وسعى في العداوة؛ فإن الحزم كل الحزم السعي في ضد عدوهم، وأن يقمعوا أنفسهم الأمارة بالسوء، التي يدخل الشيطان من قبلها؛ فبذلك يطيعون ربهم، ويستقيم أمرهم، ويهدون لرشدهم.

﴿٥٤﴾ ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾: من أنفسكم؛ فلذلك لا يريد لكم إلا ما هو الخير، ولا يأمركم إلا بما فيه مصلحة لكم، وقد تريدون شيئًا الخير في عكسه. ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾: فيوفق من يشاء لأسباب الرحمة، ويخذل من شاء فيضل عنها فيستحق العذاب. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾﴾: تُدَبِّر أمرهم وتقوم بمجازاتهم، وإنما الله هو الوكيل، وأنت مبلغ هادٍ إلى صراط مستقيم.

﴿٥٥﴾ ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: من جميع أصناف الخلائق، فيعطي كلًّا منهم ما يستحقه وتقتضيه حكمته، ويفضل بعضهم على بعض في جميع الخصال الحسية والمعنوية؛ كما فضل بعض النبيين المشتركين بوحيه على بعض، بالفضائل والخصائص الراجعة إلى ما

(١) ع: «ما يفعله».

منَّ به عليهم، من الأوصاف الممدوحة، والأخلاق المرضية والأعمال الصالحة وكثرة الأتباع ونزول الكتب على بعضهم، المشتملة على الأحكام الشرعية والعقائد المرضية؛ كما أنزل على داود زبورًا، وهو الكتاب المعروف؛ فإذا كان تعالى قد فضل بعضهم على بعض وآتى بعضهم كتبًا؛ فلم ينكر المكذبون لمحمد ﷺ ما أنزله الله عليه وما فضله به من النبوة والكتاب؟

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿٥٦﴾ يقول تعالى: ﴿ قُلِ ﴾ للمشركين بالله الذين اتخذوا من دونه أندادًا يعبدونهم كما يعبدون الله، ويدعونهم كما يدعونه ملزمًا لهم بتصحيح ما زعموه، واعتقدوه إن كانوا صادقين: ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم﴾: آلهة من دون الله، فانظروا هل ينفعونكم أو يدفعون عنكم الضر؟ ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ﴾: من مرض أو فقر أو شدة ونحو ذلك؛ فلا يدفعونه بالكلية. ﴿وَلَا﴾ يملكون أيضًا تحويله من شخص إلى آخر، ومن شدة إلى ما دونها؛ فإذا كانوا بهذه الصفة؛ فلأي شيء تدعونهم من دون الله؟ فإنهم لا كمال لهم ولا فعال نافعة؛ فاتخاذهم نقص في الدين والعقل وسفه في الرأي.

ومن العجب أن السفه عند الاعتياد والممارسة وتلقيه عن الآباء الضالين بالقبول يراه صاحبه هو الرأي السديد والعقل المفيد، ويرى إخلاص الدين لله الواحد الأحد الكامل المنعم بجميع النعم الظاهرة والباطنة هو السفه والأمر المتعجب منه؛ كما قال المشركون: ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾ [ص: ٥].

﴿٥٧﴾ ثم أخبر أيضًا أن الذين يعبدونهم من دون الله في شغل شاغل عنهم باهتمامهم بالافتقار إلى الله وابتغاء الوسيلة إليه؛ فقال: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾: من الأنبياء والصالحين والملائكة، ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾؛ أي: يتنافسون في القرب من ربهم، ويبذلون ما يقدرون عليه من الأعمال الصالحة المقربة إلى الله تعالى وإلى رحمته، ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾: فيجتنبون كل ما يوصل إلى العذاب. ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾؛ أي: هو الذي ينبغي شدة الحذر منه والتوقي من أسبابه. وهذه الأمور الثلاثة الخوف والرجاء والمحبة التي وصف الله بها هؤلاء المقربين عنده هي الأصل والمادة في كل خير؛ فمن تمت له؛ تمت له أموره، وإذا خلا القلب منها؛ ترحلت عنه الخيرات، وأحاطت به الشرور.

وعلامة المحبة ما ذكره الله أن يجتهد العبد في كل عمل يقربه إلى الله، وينافس في قربه بإخلاص الأعمال كلها لله، والنصح فيها وإيقاعها في أكمل الوجوه المقدور عليها؛ فمن زعم أنه يحب الله بغير ذلك؛ فهو كاذب.

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿٥٨﴾ أي: ما من قرية من القرى المكذبة للرسل إلا لا بد أن يصيبهم هلاك قبل يوم القيامة أو عذاب شديد، كتاب كتبه الله وقضاء أبرمه لا بد من وقوعه؛ فليبادر المكذبون بالإنابة إلى الله وتصديق رسله قبل أن تتم عليهم كلمة العذاب ويحق عليهم القول.

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿٥٩﴾ يذكر تعالى رحمته بعدم إنزاله الآيات التي يقترح بها المكذبون، وأنه ما منعه أن يرسلها إلا خوفًا[1] من تكذيبهم لها؛ فإذا كذبوا بها؛ عاجلهم العقاب وحل بهم من غير تأخير كما فعل بالأولين الذين كذبوا بها، ومن أعظم الآيات الآية التي أرسلها الله إلى ثمود، وهي الناقة العظيمة الباهرة التي كانت تصدر عنها جميع القبيلة بأجمعها، ومع ذلك كذبوا بها، فأصابهم ما قص الله علينا في كتابه. وهؤلاء كذلك؛ لو جاءتهم الآيات الكبار؛ لم يؤمنوا؛ فإنه ما منعهم من

(١) مذهب أهل السنة والجماعة إثبات ما أثبته الله ورسوله ونفي ما نفاه الله ورسوله من الأسماء والصفات، وصفة الخوف لم ترد في كتاب الله ولا سنة رسوله، وهي صفة نقص، ينزه الله تعالى عنها، وهو سهو من الشيخ رحمه الله.

الإيمان خفاء ما جاء به الرسول واشتباهه؛ هل هو حق أو باطل؟ فإنه قد جاء من البراهين الكثيرة ما دل على صحة ما جاء به الموجب لهداية من طلب الهداية؛ فغيرُها مثلها، فلا بد أن يسلكوا بها ما سلكوا بغيرها، فترك إنزالها والحالة هذه خير لهم وأنفع. وقوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (٥٩)﴾؛ أي: لم يكن القصد بها أن تكون داعية وموجبة للإيمان الذي لا يحصل إلا بها، بل المقصود منها التخويف والترهيب؛ ليرتدعوا عمَّا هم عليه.

(٦٠) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾: علمًا وقدرة؛ فليس لهم ملجأ يلجئون إليه ولا ملاذ يلوذون به عنه، وهذا كافٍ لمن له عقل في الانكفاف عما يكرهه الله الذي أحاط بالناس، ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً﴾: أكثر المفسرين على أنها[1] ليلة الإسراء، ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ﴾: التي ذكرت ﴿فِي الْقُرْآنِ﴾: وهي شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم.

والمعنى: إذا كان هذان الأمران قد صارا فتنة للناس، حتى استلج الكفار بكفرهم وازداد شرهم، وبعض من كان إيمانه ضعيفًا رجع عنه، بسبب أن ما أخبرهم به من الأمور التي كانت ليلة الإسراء، ومن الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كان خارقًا للعادة، والإخبار بوجود شجرة تنبت في أصل الجحيم أيضًا من الخوارق؛ فهذا الذي أوجب لهم التكذيب؛ فكيف لو شاهدوا الآيات العظيمة والخوارق الجسيمة؟! أليس ذلك أولى أن يزداد بسببه شرهم؛ فلذلك رحمهم الله وصرفها عنهم. ومن هنا تعلم أن عدم التصريح في الكتاب والسنة بذكر الأمور العظيمة التي حدثت في الأزمنة المتأخرة أولى وأحسن؛ لأن الأمور التي لم يشاهد الناس لها نظيرًا ربما لا تقبلها عقولهم، لو أخبروا بها قبل وقوعها فيكون ذلك ريبًا في قلوب بعض المؤمنين ومانعًا يمنع من لم يدخل الإسلام ومنفرًا عنه، بل ذكر الله ألفاظًا عامة تتناول جميع ما يكون. والله أعلم. ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾: بالآيات، ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾: التخويف ﴿إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠)﴾: وهذا أبلغ ما يكون في التحلي بالشر ومحبته وبغض الخير وعدم الانقياد له.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا

(١) زاد في ع: «في».

الجزء الخامس عشر — سورة الإسراء

وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ
وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ
إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا
جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ
فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾
وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ
قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي
كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ
ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ
جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ
مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ
فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا
غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى
بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ
فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾

٢٨٨

الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢) قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا (٦٥)﴾.

(٦١) ينبه تبارك وتعالى عباده على شدة عداوة الشيطان وحرصه على إضلالهم، وأنه لما خلق الله آدم؛ استكبر عن السجود له و﴿قَالَ﴾ متكبرًا: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١)﴾؛ أي: من طين، وبزعمه أنه خير منه؛ لأنه خلق من نار، وقد تقدم فساد هذا القياس الباطل من عدة أوجه.

(٦٢) فلما تبين لإبليس تفضيل الله لآدم؛ ﴿قَالَ﴾ مخاطبًا لله: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾؛ أي: لأستأصلنهم بالإضلال

ولأغوينهم، ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾: عرف الخبيث أنه لا بد أن يكون منهم من يعاديه ويعصيه.

﴿٦٣﴾ فقال الله له: ﴿اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾: واختارك على ربه ووليه الحق. ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾؛ أي: مدخرًا لكم موفرًا جزاء على أعمالكم.

﴿٦٤﴾ ثم أمره الله أن يفعل كل ما يقدر عليه من إضلالهم، فقال: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾: ويدخل في هذا كل داعٍ إلى المعصية، ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾: ويدخل فيه كل راكب وماشٍ في معصية الله؛ فهو من خيل الشيطان ورجله. والمقصود أن الله ابتلى العباد بهذا العدو المبين الداعي لهم إلى معصية الله بأقواله وأفعاله. ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾: وذلك شامل لكل معصية تعلقت بأموالهم وأولادهم من منع الزكاة والكفارات والحقوق الواجبة، وعدم تأديب الأولاد وتربيتهم على الخير وترك الشر، وأخذ الأموال بغير حقها أو وضعها بغير حقها أو استعمال المكاسب الردية، بل ذكر كثير من المفسرين أنه يدخل في مشاركة الشيطان في الأموال والأولاد ترك التسمية عند الطعام والشراب والجماع، وأنه إذا لم يسم الله في ذلك؛ شارك فيه الشيطان؛ كما ورد فيه الحديث. ﴿وَعِدْهُمْ﴾: الوعود المزخرفة التي لا حقيقة لها، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾؛ أي: باطلًا مُضْمَحِلًّا؛ كأن يزين لهم المعاصي والعقائد الفاسدة، ويعدهم عليها الأجر؛ لأنهم يظنون أنهم على الحق، وقال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة: ٢٦٨].

﴿٦٥﴾ ولما أخبر عما يريد الشيطان أن يفعل بالعباد؛ ذكر ما يُعْتَصَمُ به من فتنته، وهو عبودية الله والقيام بالإيمان والتوكل، فقال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾؛ أي: تسلط وإغواء، بل الله يدفع عنهم بقيامهم بعبوديته كل شر، ويحفظهم من الشيطان الرجيم، ويقوم بكفايتهم. ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾: لمن توكل عليه، وأدى ما أُمِرَ به.

﴿رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾.

﴿٦٦﴾ يذكر تعالى نعمته على العباد بما سخر لهم من الفلك والسفن والمراكب، وألهمهم كيفية صنعتها وسخر لها البحر الملتطم يحملها على ظهره؛ لينتفع العباد بها في الركوب والحمل للأمتعة والتجارة، وهذا من رحمته بعباده؛ فإنه لم يزل بهم رحيمًا رءوفًا، يؤتيهم من كل ما تعلقت به إرادتهم ومنافعهم.

﴿٦٧﴾ ومن رحمته الدالة على أنه وحده المعبود دون ما سواه أنهم إذا مسهم الضر في البحر، فخافوا من الهلاك لتراكم الأمواج؛ ضل عنهم ما كانوا يدعون من دون الله في حال الرخاء من الأحياء والأموات، فكأنهم لم يكونوا يدعونهم في وقت من الأوقات؛ لعلمهم أنهم ضعفاء عاجزون عن كشف الضر، وصرخوا بدعوة فاطر الأرض والسماوات، الذي تستغيث به في شدائدها جميع المخلوقات، وأخلصوا له الدعاء والتضرع في هذه الحال، فلما كشف الله عنهم الضر ونجاهم إلى البر؛ نسوا ما كانوا يدعون إليه من قبل، وأشركوا به من لا ينفع ولا يضر ولا يعطي ولا يمنع، وأعرضوا عن الإخلاص لربهم ومليكهم.

وهذا من جهل الإنسان وكفره؛ فإن الإنسان كفور للنعم؛ إلا من هدى الله فمنَّ عليه بالعقل السليم واهتدى إلى الصراط المستقيم؛ فإنه يعلم أن الذي يكشف الشدائد، وينجي من الأهوال هو الذي يستحق أن يفرد، وتخلص له سائر الأعمال في الشدة والرخاء واليسر والعسر، وأما من خُذِل ووُكِل إلى عقله الضعيف؛ فإنه لم يلحظ وقت الشدة إلا مصلحته الحاضرة وإنجاءه في تلك الحال، فلما حصلت له النجاة وزالت عنه المشقة؛ ظن بجهله أنه قد أعجز الله، ولم يخطر بقلبه شيء من العواقب الدنيوية فضلًا عن أمور الآخرة.

﴿٦٨﴾، ﴿٦٩﴾ ولهذا ذكرهم الله[1] بقوله: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾؛ أي: فهو

(١) زاد في ع: «ذلك».

وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

على كل شـيء قدير، إن شـاء أنزل عليكم عذابًا من أسفل منكم بالخسـف، أو من فوقكم بالحاصـب، وهو العذاب الـذي يحصبهم فيصبحوا هالكين؛ فـلا تظنوا أن الهلاك لا يكون إلا في البحـر، وإن ظننتم ذلك؛ فلسـتم آمنين[1] من ﴿أَن يُعِيدَكُمْ﴾: في البحر؛ ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾؛ أي: ريحًا شـديدة جدًّا تقصـف ما أتت عليه، ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾؛ أي: تبعة ومطالبة؛ فإن الله لم يظلمكم مثقال ذرة.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾.

﴿٧٠﴾ وهذا من كرمه عليهم وإحسـانه الذي لا يقادر قدره؛ حيث كرم بنـي آدم بجميع وجوه الإكـرام، فكرمهم بالعلم والعقل وإرسال الرسل وإنزال الكتب، وجعل منهم الأولياء والأصفياء، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة، ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ﴾: على الركاب من الإبل والبغال والحمير والمراكب البرية. وفـي البحر في السـفن والمراكب، ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: مـن المآكل والمشـارب والملابس والمناكح؛ فمـا من طيب تتعلق بـه حوائجهم إلا وقـد أكرمهم الله به ويسره لهم غاية التيسير، ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾: بما خصهم به من المناقب وفضلهم به من الفضائل التي ليسـت لغيرهم من أنـواع المخلوقات، أفلا يقومون بشكر من أولى النعم ودفع النقم، ولا تحجبهم النعم عن المنعم فيشتغلوا بها عن عبادة ربهم، بل ربما استعانوا بها على معاصيه؟!

﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾.

﴿٧١﴾ يخبر تعالى عن حال الخلق يـوم القيامة، وأنه يدعو كل أناس معهم إمامهم وهاديهم إلى الرشـد، وهم الرسـل ونوابهم، فتعرض كل أمة، ويحضرها رسولهم الذي دعاهم، وتعرض أعمالهم على الكتاب الذي يدعو إليه الرسـول هل هي موافقة له أم لا؟ فينقسـمون بهذا قسـمين: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾: لكونـه اتبع إمامه الهـادي إلى صراط مسـتقيم، واهتدى بكتابه، فكثرت حسـناته، وقلت سيئاته؛ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ﴾: قـراءة سـرور وبهجـة على ما يرون فيهـا مما يفرحهم ويسـرهم، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾: مما عملوه من الحسنات.

﴿٧٢﴾ ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ﴾: الدنيـا ﴿أَعْمَىٰ﴾: عـن الحق؛ فلم يقبله ولـم ينقد له، بل اتبـع الضلال، ﴿فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾: عن سـلوك طريق الجنة كما لم يسلكه في الدنيا، ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾: فـإن الجزاء من جنس العمل، وكما تدين تدان.

وفي هـذه الآية دليل علـى أن كل أمة تدعـى إلى دينها وكتابها وهل عملت به أم لا؟ وأنهم لا يؤاخذون بشـرع نبي لم يؤمروا باتباعه، وأن الله لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه ومخالفته لهـا، وأن أهل الخير يعطون كتبهم بأيمانهم، ويحصل لهم من الفرح والسرور شيء عظيم، وأن أهل الشر بعكـس ذلك، وأنهم لا يقدرون على قراءة كتبهم من شـدة غمهم وحزنهم وثبورهم.

(١) ع، ط: «فأنتم آمنون».

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ﴿٧٣﴾ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿٧٣﴾ يذكر تعالى منته على رسوله محمد ﷺ وحفظه له من أعدائه الحريصين على فتنته بكل طريق، فقال: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥ ﴾؛ أي: قد كادوا لك أمرًا لم يدركوه، وتحيلوا لك، على أن تفتري على الله غير الذي أنزلنا إليك، فتجيء بما يوافق أهواءهم، وتدع ما أنزل الله إليك. ﴿ وَإِذٗا ﴾: لو فعلت ما يهوون؛ ﴿ لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ﴿٧٣﴾ ﴾؛ أي: حبيبًا صفيًّا أعز عليهم من أحبابهم لما جبلك الله عليه من مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب المحببة للقريب والبعيد والصديق والعدو، ولكن لتعلم أنهم لم يعادوك وينابذوك العداوة إلا للحق الذي جئت به لا لذاتك؛ كما قال تعالى: ﴿ قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٣].

﴿٧٤﴾ ومع هذا ﴿ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ ﴾: على الحق وامتننا عليك بعدم الإجابة لداعيهم، ﴿ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾: من كثرة المعالجة ومحبتك لهدايتهم.

﴿٧٥﴾ ﴿ إِذٗا ﴾: لو ركنت إليهم بما يهوون، ﴿ لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ﴾؛ أي: لأصبناك بعذاب مضاعف في الدنيا والآخرة، وذلك لكمال نعمة الله عليك وكمال معرفتك. ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ﴿٧٥﴾ ﴾: ينقذك مما يحل بك من العذاب، ولكن الله تعالى عصمك من أسباب الشر ومن الشر، فثبتك وهداك الصراط المستقيم، ولم تركن إليهم بوجه من الوجوه؛ فله عليك أتم نعمة وأبلغ منحة.

﴿٧٦﴾، ﴿٧٧﴾ ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَا ﴾؛ أي: من بغضهم لمقامك بين أظهرهم، قد كادوا أن يخرجوك من الأرض ويجلوك عنها، ولو فعلوا ذلك؛ لم يلبثوا بعدك فيها إلا قليلًا، حتى تحل بهم العقوبة؛ كما هي سنة الله التي لا تحول ولا تبدل في جميع الأمم، كل أمة كذبت رسولها وأخرجته؛ عاجلها الله بالعقوبة، ولما مكر به الذين كفروا وأخرجوه؛ لم يلبثوا إلا قليلًا حتى أوقع الله بهم ببدر، وقتل صناديدهم، وفض بيضتهم؛ فله الحمد.

وفي هذه الآيات دليل على شدة افتقار العبد إلى تثبيت الله إياه، وأنه لا يزال متملقًا لربه أن يثبته على الإيمان ساعيًا في كل سبب موصل إلى ذلك؛ لأن النبي ﷺ - وهو أكمل الخلق - قال الله له: ﴿ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾؛ فكيف بغيره؟!

وفيها: تذكير الله لرسوله منته عليه وعصمته من الشر، فدل ذلك على أن الله يحب من عباده أن يتفطنوا لإنعامه عليهم عند وجود أسباب الشر بالعصمة منه والثبات على الإيمان.

وفيها: أنه بحسب علو مرتبة العبد وتواتر النعم عليه من الله يعظم إثمه ويتضاعف جرمه إذا فعل ما يلام عليه؛ لأن الله ذكر رسوله لو فعل - وحاشاه من ذلك - بقوله: ﴿ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ﴿٧٥﴾ ﴾.

وفيها: أن الله إذا أراد إهلاك أمة؛ تضاعف جرمها وعظم وكبر، فيحق عليها القول من الله، فيوقع بها العقاب؛ كما هي سنته في الأمم إذا أخرجوا رسولهم.

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ﴿٨٠﴾ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿٧٨﴾ يأمر تعالى نبيه محمدًا ﷺ بإقامة الصلاة تامة ظاهرًا وباطنًا في أوقاتها، ﴿ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ ﴾؛ أي: ميلانها إلى الأفق الغربي بعد الزوال، فيدخل في ذلك صلاة الظهر وصلاة العصر ﴿ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ ﴾؛ أي: ظلمته، فدخل في ذلك صلاة المغرب وصلاة العشاء، ﴿ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ ﴾؛ أي: صلاة الفجر، وسميت قرآنًا لمشروعية إطالة القرآن فيها

أطـول مـن غيرها، ولفضل القـراءة فيها؛ حيث يشـهدها الله وملائكة الليل وملائكة النهار.

ففي هذه الآية ذكر الأوقات الخمسة للصلوات المكتوبات، وأن الصلوات الموقعة فيها فرائض؛ لتخصيصها بالأمر.

وفيها أن الوقت شرط لصحة الصلاة، وأنه سبب لوجوبها؛ لأن الله أمر بإقامتها لهذه الأوقات، وأن الظهر والعصر يجمعان، والمغرب والعشاء كذلك؛ للعذر؛ لأن الله جمع وقتهما جميعًا.

وفيه فضيلة صلاة الفجر، وفضيلة إطالة القراءة فيها، وأن القراءة فيها ركن؛ لأن العبادة إذا سميت ببعض أجزائها؛ دل على فرضية ذلك.

(٧٩) وقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ ﴾؛ أي: صل به في سائر أوقاته، ﴿ نَافِلَةً لَّكَ ﴾؛ أي: لتكون صلاة الليل زيادة لك في علو القدر ورفع الدرجات؛ بخلاف غيرك؛ فإنها تكون كفارة لسيئاته. ويحتمل أن يكون المعنى أن الصلوات الخمس فرض عليك وعلى المؤمنين؛ بخلاف صلاة الليل؛ فإنها فرض عليك بالخصوص؛ لكرامتك على الله أن جعل وظيفتك أكثر من غيرك، وليكثر ثوابك، وتنال بذلك المقام المحمود، وهو المقام الذي يحمده فيه الأولون والآخرون، مقام الشفاعة العظمى، حين يستشفع الخلائق بآدم ثم بنوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى، وكلهم يعتذر ويتأخر عنها، حتى يستشفعوا بسيد ولد آدم ليرحمهم[1] الله من هَمِّ الموقف وكربه، فيشفع عند ربه، فيشفعه ويقيمه مقامًا يغبطه به الأولون والآخرون، وتكون له المنة على جميع الخلق.

(٨٠) وقوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾؛ أي: اجعل مداخلي ومخارجي كلها في طاعتك وعلى مرضاتك، وذلك لتضمنها الإخلاص وموافقته الأمر. ﴿ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا (٨٠) ﴾؛ أي: حجة ظاهرة وبرهانًا قاطعًا على جميع ما آتيه وما أذره، وهذا أعلى حالة ينزلها الله العبد، أن تكون أحواله كلها خيرًا ومقربة له إلى ربه، وأن يكون له على كل حالة من أحواله دليل ظاهر، وذلك متضمن للعلم النافع والعمل الصالح للعلم بالمسائل والدلائل.

(٨١) وقوله: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾: والحق هو ما أوحاه الله إلى رسوله محمد ﷺ، فأمره الله أن يقول

(١) ع: «ليريحهم».

وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ
وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُنَّةَ مَن قَدْ
أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧) أَقِمِ
ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ
قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ
نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا (٧٩) وَقُل رَّبِّ
أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن
لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا (٨٠) وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ
إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١) وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ
وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢) وَإِذَآ
أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا
(٨٣) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ
سَبِيلًا (٨٤) وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى
وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥) وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ
بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا (٨٦)

ويعلن: قد جاء الحق الذي لا يقوم له شيء، وزهق الباطل؛ أي: اضمحل وتلاشى. ﴿ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١) ﴾؛ أي: هذا وصف الباطل، ولكنه قد يكون له صولة ورواج[2] إذا لم يقابله الحق، فعند مجيء الحق؛ يضمحل الباطل فلا يبقى له حراك، ولهذا لا يروج الباطل إلا في الأزمان والأمكنة الخالية من العلم بآيات الله وبيناته. وقوله:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢) ﴾.

(٨٢) فالقرآن مشتمل على الشفاء والرحمة، وليس ذلك لكل أحد، وإنما ذلك للمؤمنين به المصدقين بآياته العالمين به، وأما الظالمون بعدم التصديق به أو عدم العمل به؛ فلا تزيدهم آياته إلا خسارًا؛ إذ به تقوم عليهم الحجة؛ فالشفاء الذي تضمنه القرآن عام لشفاء القلوب من الشبه والجهالة والآراء الفاسدة والانحراف السيئ والقصود الرديئة[3]؛ فإنه

(٢) ع، ط: «وروجان».
(٣) ع، ط: «السيئة».

مشتمل على العلم اليقيني الذي تزول به كل شبهة وجهالة، والوعظ والتذكير الذي يزول به كل شهوة تخالف أمر الله، ولشفاء الأبدان من آلامها وأسقامها، وأما الرحمة؛ فإن ما فيه من الأسباب والوسائل التي يحث عليها متى فعلها العبد، فاز بالرحمة والسعادة الأبدية والثواب العاجل والآجل.

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿٨٣﴾ هذه طبيعة الإنسان من حيث هو، إلا من هداه الله؛ فإن الإنسان عند إنعام الله عليه يفرح بالنعم، ويبطر بها، ويعرض، وينأى بجانبه عن ربه؛ فلا يشكره، ولا يذكره. ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ ﴾: كالمرض ونحوه، ﴿كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ ﴾: من الخير، قد قطع عن ربه رجاءه، وظن أن ما هو فيه دائم أبدًا، وأما من هداه الله؛ فإنه عند النعم يخضع لربه، ويشكر نعمته، وعند الضراء يتضرع، ويرجو من الله عافيته وإزالة ما يقع[1] فيه، وبذلك يخف عليه البلاء.

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾

﴿٨٤﴾ أي: ﴿قُلْ كُلٌّ﴾: من الناس، ﴿يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾؛ أي: على ما يليق به من الأحوال: إن كان من الصفوة الأبرار؛ لم يشاكلهم إلا عملهم لرب العالمين، ومن كانوا من غيرهم من المخذولين؛ لم يناسبهم إلا العمل للمخلوقين، ولم يوافقهم إلا ما وافق أغراضهم. ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾: فيعلم من يصلح للهداية فيهديه، ومن لا يصلح لها فيخذله ولا يهديه.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿٨٥﴾ وهذا متضمن لردع من يسأل المسائل التي لا يقصدُ بها إلا التعنت والتعجيز، ويدع السؤال عن المهم، فيسألون عن الروح التي هي من الأمور الخفية التي لا يتقن وصفها وكيفيتها كل أحد، وهم قاصرون في العلم الذي يحتاج إليه العباد، ولهذا أمر الله رسوله أن يجيب سؤالهم بقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾؛ أي: من جملة مخلوقاته التي أمرها أن تكون فكانت، فليس في السؤال عنها كبير فائدة مع عدم علمكم بغيرها.

وفي هذه الآية دليل على أن المسئول إذا سئل عن أمر، الأولى بالسائل غيره أن يعرض عن جوابه، ويدله على ما يحتاج إليه، ويرشده إلى ما ينفعه.

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿٨٦﴾، ﴿٨٧﴾ يخبر تعالى أن القرآن والوحي الذي أوحاه إلى رسوله رحمة منه عليه وعلى عباده، وهو أكبر النعم على الإطلاق على رسوله؛ فإن فضل الله عليه كبير لا يقادر قدره؛ فالذي تفضل به عليك قادر على أن يذهب به ثم لا تجد رادًّا يرده ولا وكيلًا يتوجه عند الله فيه؛ فلتغتبط به وتقر به عينك، ولا يحزنك تكذيب المكذبين واستهزاء الضالين؛ فإنهم عرضت عليهم أجل النعم فردُّوها لهوانهم على الله وخذلانه لهم.

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾.

﴿٨٨﴾ وهذا دليل قاطع وبرهان ساطع على صحة ما جاء به الرسول وصدقه؛ حيث تحدى الله الإنس والجن أن يأتوا بمثله، وأخبر أنهم لا يأتون بمثله، ولو تعاونوا كلهم على ذلك؛ لم يقدروا عليه، ووقع كما أخبر الله؛ فإن دواعي أعدائه المكذبين به متوفرة على رد ما جاء به بأي وجه كان، وهم أهل اللسان والفصاحة؛ فلو كان عندهم أدنى تأهل وتمكن من ذلك؛ لفعلوه، فعلم بذلك أنهم أذعنوا غاية الإذعان طوعًا وكرهًا، وعجزوا عن معارضته، وكيف يقدر المخلوق من تراب، الناقص من جميع الوجوه، الذي ليس له علم ولا قدرة ولا إرادة ولا مشيئة ولا كلام ولا كمال إلا من ربه؛ أن يعارض كلام رب الأرض والسماوات، المطلع على سائر الخفيات، الذي له الكمال المطلق والحمد المطلق والمجد العظيم، الذي لو أن البحر يمده من بعده سبعة أبحر مدادًا والأشجار كلها أقلام؛ لنفد المداد وفنيت الأقلام ولم تنفد كلمات الله؛ فكما أنه ليس أحد من المخلوقين مماثلًا لله في أوصافه؛ فكلامه من أوصافه التي لا يماثله فيها أحد؛ فليس كمثله شيء في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله تبارك وتعالى؛ فتبًّا لمن اشتبه عليه

(١) ع: «وقع».

إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (٨٧) قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٨٩) وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا (٩٣) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا (٩٥) قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٩٦)

كلام الخالق بكلام المخلوق، وزعم أن محمدًا ﷺ افتراه على الله، واختلقه من نفسه.

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٨٩) وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا (٩٣) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا (٩٥) قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٩٦) ﴾.

(٨٩) - (٩٣) يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾؛ أي: نوعنا فيه المواعظ والأمثال، وثنَّينا فيه المعاني التي يضطر إليها العباد لأجل أن يتذكروا ويتقوا، فلم يتذكر إلا القليل منهم، الذين سبقت لهم من الله سابقة السعادة، وأعانهم الله بتوفيقه، وأما أكثر الناس؛ فأبوا إلا كفورًا لهذه النعمة التي هي أكبر من جميع النعم، وجعلوا يتعنتون عليه بإقتراح آيات غير آياته يخترعونها من تلقاء أنفسهم الظالمة الجاهلة، فيقولون لرسول الله ﷺ الذي أتى بهذا القرآن المشتمل على كل برهان وآية: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) ﴾؛ أي: أنهارًا جارية، ﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ ﴾: فتستغني بها عن المشي في الأسواق والذهاب والمجيء، ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾؛ أي: قطعًا من العذاب، ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) ﴾؛ أي: جميعًا أو مقابلة ومعاينة يشهدون لك بما جئت به، ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ ﴾؛ أي: مزخرف بالذهب وغيره، ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ ﴾: رقيًّا حسيا. ومع هذا فلن ﴿نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ﴾. ولما كانت هذه تعنتات وتعجيزات وكلام أسفه الناس وأظلمهم، المتضمنة لرد الحق وسوء أدب[1] مع الله، وأن الرسول ﷺ هو الذي يأتي بالآيات؛ أمره الله أن ينزهه، فقال: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي ﴾: عما تقولون علوًّا كبيرًا، وسبحانه أن تكون أحكامه وآياته تابعة لأهوائهم الفاسدة وآرائهم الضالة. ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا (٩٣) ﴾: ليس بيده شيء من الأمر.

(٩٤) وهذا السبب الذي منع أكثر الناس من الإيمان؛ حيث كانت الرسل التي ترسل إليهم من جنسهم بشرًا، وهذا من رحمته بهم أن أرسل إليهم بشرًا منهم؛ فإنهم لا يطيقون التلقي من الملائكة.

(٩٥) ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ ﴾: يثبتون على رؤية الملائكة والتلقي عنهم؛ ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا (٩٥) ﴾: ليمكنهم التلقي عنه.

(٩٦) ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٩٦) ﴾: فمن شهادته لرسوله ما أيده به من المعجزات، وما أنزل عليه من الآيات، ونصره على

(١) ع: «الأدب».

وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ
مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا
وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾
ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا
وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ
ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ
وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾
قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ
ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ
ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ
إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ
هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ
يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ
فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

مـن عاداه ونـاوأه؛ فلو تقول عليه بعـض الأقاويل؛ لأخذ منه باليميـن، ثم لقطع منه الوتين؛ فإنه خبير بصير، لا تخفى عليه من أحوال العباد خافية.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ
لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ
عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ
سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا
كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ
ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ
وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾
قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ
ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿٩٧﴾ يخبـر تعالـى أنـه المنفـرد بالهداية والإضـلال؛ فمن يهده فييسـره لليسـرى ويجنبه العسـرى؛ فهـو المهتدي على الحقيقـة، ومن يضللـه فيخذلـه ويكله إلى نفسـه: فلا هادي لـه مـن دون الله، وليس له ولـي ينصره من عـذاب الله حين يحشـرهم الله على وجوههم، خزيًا وإهانة، ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا﴾، لا يبصرون، ولا ينطقون. ﴿مَّأْوَىٰهُمْ﴾؛ أي: مقرهم ودارهم ﴿جَهَنَّمُ﴾: التي جمعت كل هـم وغم وعذاب. ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾؛ أي: تهيـأت للانطفـاء، ﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾؛ أي: سـعرناها بهم، لا يُفتَّر عنهـم العذاب، ولا يقضى عليهم فيموتوا، ولا يخفف عنهم من عذابها.

﴿٩٨﴾ ولـم يظلمهم الله تعالى، بـل جازاهم بما كفروا بآياته وأنكـروا البعث الذي أخبرت به الرسـل، ونطقت به الكتب، وعجـزوا ربهم؛ فأنكروا تمـام قدرته، ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾؛ أي: لا يكـون هـذا؛ لأنه في غاية البعد عند عقولهم الفاسدة.

﴿٩٩﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: وهي أكبر من خلق الناس، ﴿قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾: بلى إنه على ذلك قدير. ولكنه قد جعل لهم[1] ﴿أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾: ولا شـك وإلا فلو شـاء لجاءهـم به بغتة ومـع إقامته الحجج والأدلة على البعـث؛ ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾: ظلمًا منهم وافتراء.

﴿١٠٠﴾ ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ﴾: التي لا تنفد ولا تبيـد، ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾؛ أي: خشـية أن ينفد مـا تنفقون منه، مع أنه من المحال أن تنفد خزائن الله، ولكن الإنسان مطبوع على الشح والبخل.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾
قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن
يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ
بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا
بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾

﴿١٠١﴾ أي: لست أيها الرسـول المؤيد بالآيات أول رسـول كذبـه النـاس؛ فلقد أرسـلنا قبلك موسـى بن عمـران الكليم إلـى فرعون وقومه وآتينـاه ﴿تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾: كل واحدة منهـا تكفي لمن قصده اتباع الحـق كالحية والعصا والطوفان

(١) ع، ط: «لذلك».

والجـراد والقُمَّل والضفادع والـدم والرجز وفلق البحر؛ فإن شـككت في شـيء مـن ذلـك؛ ﴿فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ﴾: مع هـذه الآيـات: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ١٠١﴾.

١٠٢ ﴿قَالَ﴾ لـه موسى: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ﴾: يـا فرعـون، ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: الآيـات. ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ﴾: منه لعبـاده؛ فليس قولك هذا بالحقيقة، وإنما قلت ذلـك ترويجًا علـى قومك واسـتخفافًا لهـم. ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ١٠٢﴾؛ أي: ممقوتـًا، ملقًـى في العذاب، لك الويل والذم واللعنة.

١٠٣، ١٠٤ ﴿فَأَرَادَ﴾: فرعـون ﴿أَن يَسۡتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: يجليهم ويخرجهم منها، ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا ١٠٣﴾: وأورثنا بني إسـرائيل أرضهم وديارهم، ولهذا قال: ﴿وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ١٠٤﴾؛ أي: جميعًا؛ ليجازي كل عامل بعمله.

﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ١٠٥﴾

١٠٥ أي: وبالحـق أنزلنـا هـذا القرآن الكريم لأمـر العباد ونهيهم وثوابهـم وعقابهـم، ﴿وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾؛ أي: بالصـدق والعـدل والحفـظ مـن كل شيطان رجيم. ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا﴾: مـن أطـاع الله بالثـواب العاجـل والآجـل، ﴿وَنَذِيرٗا ١٠٥﴾: لمـن عصى الله بالعقـاب العاجل والآجل، ويلزم من ذلك بيان ما يبشر به وينذر.

﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦ قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا ١٠٩﴾

١٠٦ أي: وأنزلنـا هـذا القرآن مفرقـًا فارقـًا بيـن الهـدى والضـلال والحـق والباطـل؛ ﴿لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾؛ أي: على مهـل؛ ليتدبروه، ويتفكروا في معانيه ويسـتخرجوا علومـه، ﴿وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦﴾؛ أي: شـيئًا فشـيئًا مفرقـًا في ثـلاث وعشـرين سـنة. ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ

الجزء الخامس عشر — سورة الإسراء

وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ١٠٥
وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦
قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ
عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ
وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ
خُشُوعٗا ۩ ١٠٩ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ
ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ
بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ١١٠ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن
لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ١١١

سُورَةُ الكَهۡفِ (١٨ — آياتها ١١٠)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١
قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ
يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ٢ مَّٰكِثِينَ
فِيهِ أَبَدٗا ٣ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ٤

٢٩٣

وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ٣٣﴾ [الفرقان: ٣٣].

١٠٧ فإذا تبين أنه الحق الذي لا شك فيه ولا ريب بوجه من الوجـوه، ﴿قُلۡ﴾ لمن كذب به وأعـرض عنه: ﴿ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْ﴾: فليس لله حاجة فيكم ولستم بضاريه شيئًا، وإنما ضـرر ذلك عليكم؛ فـإن لله عبادًا غيركم، وهـم الذين آتاهم الله العلم النافع؛ ﴿إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ١٠٧﴾؛ أي: يتأثرون به غاية التأثر ويخضعون له.

١٠٨ ﴿وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ﴾: عمـا لا يليـق بجلالـه ممـا نسـبه إليـه المشـركون. ﴿إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا﴾: بالبعث والجزاء بالأعمال، ﴿لَمَفۡعُولٗا ١٠٨﴾: لا خلف فيه ولا شك.

١٠٩ ﴿وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ﴾؛ أي: على وجوههم، ﴿يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ﴾: القرآن ﴿خُشُوعٗا ١٠٩﴾: وهـؤلاء كالذين من الله عليهـم من مؤمني أهـل الكتاب؛ كعبد الله بن سـلام، وغيره ممن أسلم[1] في وقت النبي ﷺ وبعد ذلك.

(١) ع: «آمن».

﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ﴿١١١﴾ ﴾

﴿١١٠﴾ يقول تعالى لعباده: ﴿ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَ ﴾؛ أي: أيهما شئتم. ﴿ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾؛ أي: ليس له اسم غير حسن؛ أي: حتى ينهى عن دعائه به؛ بل أي اسم دعوتموه به؛ حصل به المقصود، والذي ينبغي أن يدعى في كل مطلوب بما يناسب ذلك الاسم. ﴿ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ ﴾؛ أي: قراءتك، ﴿ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا ﴾؛ فإن في كل من الأمرين محذورًا، أما الجهر؛ فإن المشركين المكذبين به إذا سمعوه، سبوه، وسبوا من جاء به. وأما المخافتة؛ فإنه لا يحصل المقصود لمن أراد استماعه مع الإخفاء. ﴿ وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ ﴾؛ أي: بين الجهر والإخفات ﴿ سَبِيلٗا ﴿١١٠﴾ ﴾؛ أي: تتوسط فيما بينهما.

﴿١١١﴾ ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ﴾: الذي له الكمال والثناء والحمد والمجد من جميع الوجوه، المنزه عن كل آفة ونقص. ﴿ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ ﴾: بل الملك كله لله الواحد القهار؛ فالعالم العلوي والسفلي كلهم مملوكون لله، ليس لأحد من الملك شيء. ﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّ ﴾؛ أي: لا يتولى أحدًا من خلقه ليتعزز به ويعاونه، فإنه الغني الحميد، الذي لا يحتاج إلى أحد من المخلوقات في الأرض ولا في السماوات، ولكنه يتخذ أولياءه إحسانًا منه إليهم ورحمة بهم، ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. ﴿ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ﴿١١١﴾ ﴾؛ أي: عظمه وأجله بالإخبار بأوصافه العظيمة، وبالثناء عليه بأسمائه الحسنى، وبتمجيده بأفعاله المقدسة، وبتعظيمه وإجلاله بعبادته وحده لا شريك له، وإخلاص الدين كله له.

تم تفسير سورة الإسراء ولله الحمد والمنة والثناء الحسن على يد جامعه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي.

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين. آمين. وصلى الله على محمد وسلم تسليمًا كثيرًا.

وذلك في ٧ جمادى الأولى سنة ١٣٤٤هـ.

ونقلته من خط المؤلف بقلم الفقير إلى ربه سليمان الحمد البسام غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين. آمين. وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. آمين ثم آمين[1].

---

(١) كان الشيخ – رحمه الله – قد طلب في ٣١/ ٢/ ١٣٧٤هـ من الشيخ محمد نصيف – رحمه الله – أن يختار من يتولى طباعة خمسة آلاف نسخة من المجلد الخامس من التفسير، وذكر محب الدين الخطيب والشيخ حامد الفقي – رحمهما الله – فبعث الشيخ محمد نصيف – رحمه الله – بالكتاب إلى الأستاذ محب الدين الخطيب لطباعته، وطبع بالفعل عام ١٣٧٥هـ وقد جعل الشيخ – رحمه الله – لهذا الجزء مقدمة، وأتبعه بخاتمة فيها أصول وكليات من أصول وكليات التفسير، وهذه هي مقدمة الشيخ لهذا الجزء، وأما الخاتمة فقد جعلتها في آخر التفسير، قال – رحمه الله –:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وأصلي وأسلم على محمد وآله وصحبه.

أما بعد:

فلما كان علم التفسير للقرآن أشرف العلوم على الإطلاق وأهمها وأحقها بتحقيق معانيه وفهم مبانيه؛ لكونه تنزيلًا من حكيم حميد، أنزله هدى ورحمة للعباد وتبيانًا لكل شيء، وتفصيلًا لكل ما يحتاجونه في دينهم ودنياهم وأخراهم، وكان من خاصة علم القرآن أن فهم بعضه وطائفة منه يعين على فهم جميعه؛ لأن القرآن من أوله إلى آخره يدور على تقرير الأصول النافعة والحقائق والشرائع الكبار والأحكام الحسنة والعقائد الصحيحة، ويوجه العباد إلى كل خير، ويحذرهم من كل شر، ويعيد تقرير هذه الأمور ويبديها، بأساليب متنوعة وتصاريف مناسبة في غاية اليسر والسهولة والإحكام والحسن الذي لا مزيد عليه.

وقد تكرر عليّ السؤال من كثير من الأصحاب في نشر تفسيرنا هذا جميعه، وألحوا لما يرونه من الفائدة الكبيرة، فاعتذرت بأن ذلك يصعب جدًّا؛ لأنه مبسوط، وأيضًا في هذه الأوقات قلت رغبات الناس في الكتب المطولة؛ لذلك أحببت إجابتهم لنشر بعض ما طلبوا، وهو الاقتصار على جزء واحد من أجزاء هذا التفسير، ووقع الاختيار على الجزء الأوسط من سورة الكهف إلى آخر النمل؛ فما لا يحصل جميعه لا يترك جميعه. وأرجو الله وأسأله أن يجعل ذلك خالصًا لوجهه، نافعًا لنا ولإخواننا، وأن يمدنا بعونه وعنايته وتوفيقه؛ إنه جواد كريم رءوف رحيم.

وأتبعته بكليات وأصول من كليات التفسير؛ لاستدراك ما لعله يفوت القارئ في غير هذا الجزء؛ فإن الأصول والكليات تبنى عليها الفروع والجزئيات، ويحصل بها من النفع والفائدة على اختصارها ما لا يحصل في الكلام الطويل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

المؤلف

تفسير سورة الكهف

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾

۝١ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾: هو الثناء عليه بصفاته التي هي كلها صفات كمال، وبنعمه الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، وأجل نعمه على الإطلاق إنزاله الكتاب العظيم على عبده ورسوله محمد ﷺ، فحمد نفسه، وفي ضمنه إرشاد العباد ليحمدوه على إرسال الرسول إليهم، وإنزال الكتاب عليهم. ثم وصف هذا الكتاب بوصفين مشتملين على أنه الكامل من جميع الوجوه، وهما: نفي العوج عنه، وإثبات أنه مقيم[1] مستقيم: فنفي العوج يقتضي أنه ليس في أخباره كذب، ولا في أوامره ونواهيه ظلم ولا عبث. وإثبات الاستقامة يقتضي أنه لا يخبر ولا يأمر إلا بأجلِّ الإخبارات، وهي الأخبار التي تملأ القلوب معرفة وإيمانًا وعقلًا؛ كالإخبار بأسماء الله وصفاته وأفعاله، ومنها الغيوب المتقدمة والمتأخرة، وأن أوامره ونواهيه تزكي النفوس وتطهرها وتنميها وتكملها؛ لاشتمالها على كمال العدل والقسط والإخلاص والعبودية لله رب العالمين وحده لا شريك له. وحقيق بكتاب موصوف بما ذكر أن يحمد الله نفسه على إنزاله، وأن يتمدح إلى عباده به.

۝٢ وقوله: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾؛ أي: لينذر بهذا القرآن الكريم عقابه الذي عنده؛ أي: قدره وقضاه على من خالف أمره، وهذا يشمل عقاب الدنيا وعقاب الآخرة. وهذا أيضًا من نعمه أن خوف عباده وأنذرهم ما يضرهم ويهلكهم؛ كما قال تعالى لما ذكر في هذا القرآن وصف النار؛ قال: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ۝١٦﴾ [الزمر: ١٦]؛ فمن رحمته بعباده أن قيض العقوبات الغليظة على من خالف أمره وبينها لهم وبين لهم الأسباب الموصلة إليها. ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢﴾؛ أي: وأنزل الله على عبده الكتاب ليبشر المؤمنين به وبرسله وكتبه الذين كمل إيمانهم، فأوجب لهم عمل الصالحات، وهي الأعمال الصالحة من واجب ومستحب، التي جمعت الإخلاص والمتابعة: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢﴾: وهو الثواب الذي رتبه الله على الإيمان والعمل الصالح، وأعظمه وأجله الفوز برضا الله ودخول الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وفي وصفه بالحُسْنِ دلالة على أنه لا مكدر فيه ولا منغص بوجه من الوجوه؛ إذ لو وجد فيه شيء من ذلك؛ لم يكن حسنه تامًّا.

۝٣ ومع ذلك؛ فهذا الأجر الحسن ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣﴾: لا يزول عنهم ولا يزولون عنه، بل نعيمهم في كل وقت متزايد. وفي ذكر التبشير ما يقتضي ذكر الأعمال الموجبة للمبشَّر به، وهو أن هذا القرآن قد اشتمل على كل عمل صالح موصل لما تستبشر به النفوس، وتفرح به الأرواح.

۝٤، ۝٥ ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤﴾: من اليهود والنصارى والمشركين، الذين قالوا هذه المقالة الشنيعة؛ فإنهم لم يقولوها عن علم ولا يقين؛ لا علم منهم ولا علم من آبائهم الذين قلدوهم واتبعوهم، بل إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾؛ أي: عظمت شناعتها واشتدت عقوبتها، وأي شناعة أعظم من وصفه بالاتخاذ للولد الذي يقتضي نقصه ومشاركة غيره له في خصائص الربوبية والإلهية والكذب عليه؟! ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ١٤٤]؟! ولهذا قال هنا: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾؛ أي: كذبًا محضًا ما فيه من الصدق شيء. وتأمل كيف أبطل هذا القول بالتدريج والانتقال من شيء إلى أبطل منه: فأخبر أولًا أنه ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ﴾: والقول على الله بلا علم لا شك في منعه وبطلانه. ثم أخبر ثانيًا أنه قول قبيح شنيع، فقال: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾. ثم ذكر ثالثًا مرتبته من القبح، وهو الكذب المنافي للصدق.

(١) ع: «قيم».

مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ
أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ
عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا
جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا
﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ
أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾
إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً
وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى
ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ
أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ
إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا
عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ
قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم
بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾

﴿٦﴾ ولما كان النبي ﷺ حريصًا على هداية الخلق، ساعيًا في ذلك أعظم السعي، فكان ﷺ يفرح ويسر بهداية المهتدين، ويحزن ويأسف على المكذبين الضالين؛ شفقة منه ﷺ عليهم، ورحمة بهم؛ أرشده الله ألَّا يشغل نفسه بالأسف على هؤلاء الذين لا يؤمنون بهذا القرآن؛ كما قال في الأخرى: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [الشعراء: ٣]، وقال: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ [فاطر: ٨]، وهنا قال: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾؛ أي: مهلكها غمًّا وأسفًا عليهم، وذلك أن أجرك قد وجب على الله، وهؤلاء لو علم الله فيهم خيرًا لهداهم، ولكنه علم أنهم لا يصلحون إلا للنار؛ فلذلك خذلهم فلم يهتدوا؛ فإشغالك نفسك غمًّا وأسفًا عليهم ليس فيه فائدة لك.

وفي هذه الآية ونحوها عبرة؛ فإن المأمور بدعاء الخلق إلى الله عليه التبليغ والسعي بكل سبب يوصل إلى الهداية، وسد طرق الضلال والغواية، بغاية ما يمكنه، مع التوكل على الله في ذلك؛ فإن اهتدوا؛ فبها ونعمت، وإلا؛ فلا يحزن ولا يأسف؛ فإن ذلك مضعف للنفس، هادم للقوى، ليس[1] فيه فائدة، بل يمضي على فعله الذي كلف به وتوجه إليه، وما عدا ذلك؛ فهو خارج عن قدرته. وإذا كان النبي ﷺ يقول الله له: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص: ٥٦]، وموسى عليه السلام يقول: ﴿ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ﴾ [المائدة: ٢٥] الآية؛ فمن عداهم من باب أولى وأحرى؛ قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢].

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾.

﴿٧﴾ يخبر تعالى أنه جعل جميع ما على وجه الأرض من مآكل لذيذة ومشارب ومساكن[2] طيبة وأشجار وأنهار وزروع وثمار ومناظر بهيجة ورياض أنيقة وأصوات شجية وصور مليحة وذهب وفضة وخيل وإبل ونحوها؛ الجميع جعله الله زينة لهذه الدار فتنة واختبارًا؛ ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾؛ أي: أخلصه وأصوبه.

﴿٨﴾ ومع ذلك سيجعل الله جميع هذه المذكورات فانية مضمحلة وزائلة منقضية، وستعود الأرض ﴿ صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾: قد ذهبت لذاتها وانقطعت أنهارها واندرست آثارها وزال نعيمها.

هذه حقيقة الدنيا، قد جلَّاها الله لنا كأنها رأي عين، وحذرنا من الاغترار بها، ورغبنا في دار يدوم نعيمها ويسعد مقيمها، كل ذلك رحمة بنا، فاغتر بزخرف الدنيا وزينتها من نظر إلى ظاهر الدنيا دون باطنها، فصحبوا الدنيا صحبة البهائم، وتمتعوا بها تمتع السوائم، لا ينظرون في حق ربهم، ولا يهتمون لمعرفته، بل همهم تناول الشهوات من أي وجه حصلت وعلى أي حالة اتفقت؛ فهؤلاء إذا حضر أحدهم الموت، قلق لخراب ذاته وفوات لذاته، لا لما قدمت يداه من التفريط والسيئات.

وأما من نظر إلى باطن الدنيا وعلم المقصود منها ومنه؛ فإنه تناول منها ما يستعين به على ما خلق له، وانتهز الفرصة في عمره الشريف، فجعل الدنيا منزل عبور لا محل حبور، وشقة سفر لا منزل إقامة، فبذل جهده في معرفة ربه وتنفيذ

(١) زاد في ع: «له».
(٢) في الأصل: «وملابس».

أوامره وإحسان العمل؛ فهذا بأحسن المنازل عند الله، وهو حقيق منه بكل كرامة ونعيم وسرور وتكريم، فنظر إلى باطن الدنيا حين نظر المغتر إلى ظاهرها، وعمل لآخرته حين عمل البطَّال لدنياه، فشتان ما بين الفريقين! وما أبعد الفرق بين الطائفتين!

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿٩﴾ وهذا الاستفهام بمعنى النفي والنهي؛ أي: لا تظن أن قصة أصحاب الكهف وما جرى لهم غريبة على آيات الله وبديعة في حكمته، وأنه لا نظير لها ولا مجانس لها، بل لله تعالى من الآيات العجيبة الغريبة ما هو كثير من جنس آياته في أصحاب الكهف وأعظم منها، فلم يزل الله يري عباده من الآيات في الآفاق وفي أنفسهم ما يتبين به الحق من الباطل والهدى من الضلال. وليس المراد بهذا النفي عن أن تكون قصة أصحاب الكهف من العجائب، بل هي من آيات الله العجيبة، وإنما المراد أن جنسها كثير جدًّا؛ فالوقوف معها وحدها في مقام العجب والاستغراب نقص في العلم والعقل، بل وظيفة المؤمن التفكر بجميع آيات الله التي دعا الله العباد إلى التفكر فيها؛ فإنها مفتاح الإيمان وطريق العلم والإيقان. وإضافتهم[١] إلى الكهف الذي هو الغار في الجبل، ﴿وَالرَّقِيمِ﴾؛ أي: الكتاب الذي قد رُقمت فيه أسماؤهم وقصتهم لملازمتهم له دهرًا طويلًا.

﴿١٠﴾ ثم ذكر قصتهم مجملة، فصلها بعد ذلك فقال: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ﴾؛ أي: الشباب ﴿إِلَى الْكَهْفِ﴾: يريدون بذلك التحصن والتحرز من فتنة قومهم لهم، ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾؛ أي: تثبتنا بها وتحفظنا من الشر وتوفقنا للخير، ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾؛ أي: يسر لنا كل سبب موصل إلى الرشد، وأصلح لنا أمر ديننا ودنيانا؛ فجمعوا بين السعي والفرار من الفتنة إلى محل يمكن الاستخفاء فيه، وبين تضرعهم وسؤالهم لله تيسير أمورهم وعدم اتكالهم على أنفسهم وعلى الخلق.

(١) ع: «وأضافهم».

﴿١١﴾ فلذلك استجاب الله دعاءهم، وقيض لهم ما لم يكن في حسابهم؛ قال: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ﴾؛ أي: أنمناهم ﴿سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾: وهي ثلاثمائة سنة وتسع سنين، وفي النوم المذكور حفظ لقلوبهم من الاضطراب والخوف وحفظ لهم من قومهم[٢].

﴿١٢﴾ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾؛ أي: من نومهم، ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾؛ أي: لنعلم أيهم أحصى لمقدار مدتهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ الآية، وفي العلم بمقدار لبثهم ضبط للحساب، ومعرفة لكمال قدرة الله تعالى وحكمته ورحمته؛ فلو استمروا على نومهم؛ لم يحصل الاطلاع على شيء من ذلك من قصتهم.

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿١٣﴾ هذا شروع في تفصيل قصتهم، وأن الله يقصها على نبيه بالحق والصدق الذي ما فيه شك ولا شبهة بوجه من الوجوه. ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾: وهذا من جموع القلة، يدل ذلك على أنهم دون العشرة، آمنوا بالله وحده لا شريك له من دون قومهم، فشكر الله لهم إيمانهم، فزادهم هدى؛ أي: بسبب أصل اهتدائهم إلى الإيمان زادهم الله من الهدى الذي هو العلم النافع والعمل الصالح؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦].

﴿١٤﴾ ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: صبرناهم وثبتناهم وجعلنا قلوبهم مطمئنة في تلك الحالة المزعجة، وهذا من لطفه تعالى بهم وبره أن وفقهم للإيمان والهدى والصبر والثبات والطمأنينة. ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: الذي خلقنا ورزقنا ودبرنا وربانا هو خالق السماوات والأرض، المنفرد بخلق هذه المخلوقات العظيمة، لا تلك الأوثان والأصنام، التي لا تخلق ولا ترزق ولا تملك نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، فاستدلوا بتوحيد الربوبية على توحيد

(٢) زاد في ع، ط: «وليكون آية بينة».

وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ
يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا
﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ
ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ
مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن
يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ﴿١٧﴾ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا
وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم
بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ
فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ
لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا
يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ
أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ
طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ
بِكُمۡ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ
أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٢٠﴾

الإلهية. ولهذا قالوا: ﴿لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗا﴾؛ أي: من سائر المخلوقات، ﴿لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا﴾؛ أي: إن دعونا معه آلهة بعدما علمنا أنه الرب الإله الذي لا تجوز ولا تنبغي العبادة إلا له ﴿شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾؛ أي: ميلًا عظيمًا عن الحق، وطريقًا بعيدة عن الصواب، فجمعوا بين الإقرار بتوحيد الربوبية وتوحيد الإلهية والتزام ذلك وبيان أنه الحق وما سواه باطل، وهذا دليل على كمال معرفتهم بربهم وزيادة الهدى من الله لهم.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۢ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴿١٥﴾﴾.

﴿١٥﴾ لما ذكروا ما منَّ الله به عليهم من الإيمان والهدى والتقوى؛ التفتوا إلى ما كان عليه قومهم من اتخاذ الآلهة من دون الله، فمقتوهم، وبينوا أنهم ليسوا على يقين من أمرهم، بل هم في غاية الجهل والضلال، فقالوا: ﴿لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۢ بَيِّنٖ﴾؛ أي: بحجة وبرهان على ما هم عليه من الباطل، ولا يستطيعون سبيلًا إلى ذلك، وإنما ذلك افتراء منهم على الله وكذب عليه، وهذا أعظم الظلم، ولهذا قال: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ﴿١٦﴾﴾.

﴿١٦﴾ أي: قال بعضهم لبعض: إذ حصل لكم اعتزال قومكم في أجسامكم وأديانكم؛ فلم يبق إلا النجاء من شرهم والتسبب بالأسباب المفضية لذلك؛ لأنه[1] لا سبيل لهم إلى قتالهم ولا بقائهم بين أظهرهم وهم على غير دينهم. ﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾؛ أي: انضموا إليه واختفوا فيه، ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ﴿١٦﴾﴾: وفيما تقدم أخبر أنهم دعوه بقولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ﴿١٠﴾﴾؛ فجمعوا بين التبري من حولهم وقوتهم والالتجاء إلى الله في صلاح أمرهم ودعائه بذلك، وبين الثقة بالله أنه سيفعل ذلك، لا جرم أن الله نشر لهم من رحمته وهيأ لهم من أمرهم مرفقًا؛ فحفظ أديانهم وأبدانهم، وجعلهم من آياته على خلقه، ونشر لهم من الثناء الحسن ما هو من رحمته بهم، ويسر لهم كل سبب، حتى المحل الذي ناموا فيه كان على غاية ما يمكن من الصيانة؛ ولهذا قال:

﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ﴿١٧﴾ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٧﴾ أي: حفظهم الله من الشمس، فيسر لهم غارًا إذا طلعت الشمس؛ تميل عنه يمينًا، وعند غروبها تميل عنه شمالًا؛ فلا ينالهم حرها فتفسد أبدانهم بها. ﴿وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُ﴾؛ أي: من الكهف؛ أي: مكان متسع، وذلك ليطرُقهم الهواء والنسيم، ويزول عنهم الوخم والتأذي بالمكان الضيق، خصوصًا مع طول المكث، و﴿ذَٰلِكَ مِنۡ

(١) ع: «لأنهم».

﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: الدالة على قدرته ورحمته[1] وإجابة دعائهم وهدايتهم حتى في هذه الأمور، ولهذا قال: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِ﴾؛ أي: لا سبيل إلى نيل الهداية إلا من الله؛ فهو الهادي المرشد لمصالح الدارين. ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧﴾؛ أي: لا تجد من يتولاه ويدبره على ما فيه صلاحه، ولا يرشده إلى الخير والفلاح؛ لأن الله قد حكم عليه بالضلال، ولا راد لحكمه.

١٨ ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ﴾؛ أي: تحسبهم أيها الناظر إليهم كأنهم أيقاظ، والحال أنهم نيام. قال المفسرون: وذلك لأن أعينهم منفتحة لئلا تفسد؛ فالناظر إليهم يحسبهم أيقاظًا وهم رقود. ﴿وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ﴾: وهذا أيضًا من حفظه لأبدانهم؛ لأن الأرض من طبيعتها أكل الأجسام المتصلة بها؛ فكان من قدر الله أن قلبهم على جنوبهم يمينًا وشمالًا بقدر ما لا تفسد الأرض أجسامهم، والله تعالى قادر على حفظهم من الأرض من غير تقليب، ولكنه تعالى حكيم، أراد أن تجري سنته في الكون ويربط الأسباب بمسبباتها. ﴿وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ﴾؛ أي: الكلب الذي كان مع أصحاب الكهف أصابه ما أصابهم من النوم وقت حراسته، فكان باسطًا ذراعيه بالوصيد؛ أي: الباب أو فنائه. هذا حفظهم من الأرض، وأما حفظهم من الآدميين؛ فأخبر أنه حماهم بالرعب الذي نشره الله عليهم؛ فلو اطلع عليهم أحد؛ لامتلأ قلبه رعبًا وولى منهم فرارًا، وهذا الذي أوجب أن يبقوا كل هذه المدة الطويلة وهم لم يعثر عليهم أحد مع قربهم من المدينة جدًّا، والدليل على قربهم أنهم لما استيقظوا؛ أرسلوا أحدهم يشتري لهم طعامًا من المدينة، وبقوا في انتظاره، فدل ذلك على شدة قربهم منها.

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ١٩ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ٢٠﴾.

(١) زاد في ع: «بهم».

١٩ يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ﴾: من نومهم الطويل، ﴿لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ﴾؛ أي: ليتباحثوا للوقوف على الحقيقة من مدة لبثهم. ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ﴾: وهذا مبني على ظن القائل، وكأنهم وقع عندهم اشتباه في طول مدتهم؛ فلهذا ﴿قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ﴾: فردوا العلم إلى المحيط علمه بكل شيء جملة وتفصيلًا، ولعل الله تعالى بعد ذلك أطلعهم على مدة لبثهم؛ لأنه بعثهم ليتساءلوا بينهم، وأخبر أنهم تساءلوا وتكلموا بمبلغ ما عندهم وصار آخر أمرهم الاشتباه؛ فلا بد أن يكون قد أخبرهم يقينًا؛ علمنا ذلك من حكمته في بعثهم، وأنه لا يفعل ذلك عبثًا، ومن رحمته بمن طلب علم الحقيقة في الأمور المطلوب علمها وسعى لذلك ما أمكنه؛ فإن الله يوضح له ذلك، وبما ذكر فيما بعده من قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ﴾؛ فلولا أنه حصل العلم بحالهم؛ لم يكونوا دليلًا على ما ذكر. ثم إنهم لما تساءلوا بينهم، وجرى منهم ما أخبر الله به؛ أرسلوا أحدهم بورقهم؛ أي: بالدراهم التي كانت معهم؛ ليشتري لهم طعامًا يأكلونه من المدينة التي خرجوا منها، وأمروه أن يتخير من الطعام أزكاه؛ أي: أطيبه وألذه، وأن يتلطف في ذهابه وشرائه وإيابه، وأن يختفي في ذلك، ويخفي حال إخوانه، ولا يشعرن بهم أحدًا.

٢٠ وذكروا المحذور من اطلاع غيرهم عليهم وظهورهم عليهم أنهم بين أمرين: إما الرجم بالحجارة فيقتلونهم أشنع قتلة لحنقهم عليهم وعلى دينهم، وإما أن يفتنوهم عن دينهم ويردوهم في ملتهم، وفي هذه الحال لا تفلحون أبدًا، بل يخسرون في دينهم ودنياهم وأخراهم.

وقد دلت هاتان الآيتان على عدة فوائد:

منها: الحث على العلم وعلى المباحثة فيه؛ لكون الله بعثهم لأجل ذلك.

ومنها: الأدب فيمن اشتبه عليه العلم أن يرده إلى عالمه، وأن يقف عند حده.

ومنها: صحة الوكالة في البيع والشراء وصحة الشركة في ذلك.

ومنها: جواز أكل الطيبات والمطاعم اللذيذة إذا لم تخرج إلى حد الإسراف المنهي عنه؛ لقوله: ﴿فَلۡيَنظُرۡ

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ
ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ
ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ
أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ
رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا
بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ
بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا
وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ
إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ
إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا
﴿٢٤﴾ وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا
﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ
فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ
رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾

﴿أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾: وخصوصًا إذا كان الإنسان لا يلائمه إلا ذلك، ولعل هذا عمدة كثير من المفسرين القائلين بأن هؤلاء أولاد ملوك؛ لكونهم أمروه بأزكى الأطعمة التي جرت عادة الأغنياء الكبار بتناولها.

ومنها: الحث على التحرز والاستخفاء والبعد عن مواقع الفتن في الدين واستعمال الكتمان في ذلك على الإنسان وعلى إخوانه في الدين.

ومنها: شدة رغبة هؤلاء الفتية في الدين وفرارهم من كل فتنة في دينهم وتركهم أوطانهم[1] في الله.

ومنها: ذكر ما اشتمل عليه الشر من المضار والمفاسد الداعية لبغضه وتركه، وأن هذه الطريقة هي طريقة المؤمنين المتقدمين والمتأخرين؛ لقولهم: ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾.

(١) ع: «لأوطانهم».

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿٢١﴾ يخبر تعالى أنه أطلع الناس على حال أهل الكهف، وذلك - والله أعلم - بعدما استيقظوا وبعثوا أحدهم يشتري لهم طعامًا وأمروه بالاستخفاء والإخفاء، فأراد الله أمرًا فيه صلاح للناس وزيادة أجر لهم، وهو أن الناس رأوا منهم آية من آيات الله المشاهدة بالعيان على أن وعد الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا بعد بعدما كانوا يتنازعون بينهم أمرهم؛ فمن مثبت للوعد والجزاء ومن ناف لذلك، فجعل قصتهم زيادة بصيرة ويقين للمؤمنين وحجة على الجاحدين، وصار لهم أجر هذه القضية، وشهر الله أمرهم، ورفع قدرهم، حتى عظمهم الذين اطلعوا عليهم؛ وقالوا ﴿ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا﴾: الله أعلم بحالهم ومآلهم! وقال من غلب على أمرهم، وهم الذين لهم الأمر:

﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾؛ أي: نعبد الله تعالى فيه ونتذكر به أحوالهم وما جرى لهم. وهذه الحالة محظورة نهى عنها النبي ﷺ وذم فاعليها، ولا يدل ذكرها هنا على عدم ذمها؛ فإن السياق في شأن[2] أهل الكهف والثناء عليهم، وأن هؤلاء وصلت بهم الحال إلى أن قالوا ابنوا عليهم مسجدًا بعد خوف أهل الكهف الشديد من قومهم وحذرهم من الاطلاع عليهم، فوصلت الحال إلى ما ترى.

وفي هذه القصة دليل على أن من فرَّ بدينه من الفتن؛ سلمه الله منها، وأن من حرص على العافية؛ عافاه الله، ومن أوى إلى الله؛ آواه الله وجعله هداية لغيره، ومن تحمل الذل في سبيله وابتغاء مرضاته؛ كان آخر أمره وعاقبته العز العظيم من حيث لا يحتسب، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ [آل عمران: ١٩٨].

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾.

(٢) زاد في ع: «تعظيم».

(٢٢) يخبر تعالى عن اختلاف أهل الكتاب في عدة أصحاب الكهف، اختلافًا صادرًا عن رجمهم بالغيب، وتقولهم بما لا يعلمون، وأنهم فيهم على ثلاثة أقوال: منهم من يقول: ﴿ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾، ومنهم من يقول: ﴿خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾، وهذان القولان ذكر الله بعدهما أن هذا رجم منهم بالغيب، فدل على بطلانهما، ومنهم من يقول: ﴿سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾، وهذا - والله أعلم - هو الصواب؛ لأن الله أبطل الأولين ولم يبطله، فدل على صحته، وهذا من الاختلاف الذي لا فائدة تحته، ولا يحصل بمعرفة عددهم مصلحة للناس دينية ولا دنيوية، ولهذا قال تعالى: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞ﴾: وهم الذين أصابوا الصواب وعلموا إصابتهم. ﴿فَلَا تُمَارِ﴾: تجادل وتحاج ﴿فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا﴾؛ أي: مبنيًا على العلم واليقين، ويكون أيضًا فيه فائدة، وأما المماراة المبنية على الجهل والرجم بالغيب أو التي لا فائدة فيها: إما أن يكون الخصم معاندًا، أو تكون المسألة لا أهمية فيها ولا تحصل فائدة دينية بمعرفتها؛ كعدد أصحاب الكهف ونحو ذلك؛ فإن في كثرة المناقشات فيها والبحوث المتسلسلة تضييعًا للزمان وتأثيرًا في مودة القلوب بغير فائدة. ﴿وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم﴾؛ أي: في شأن أهل الكهف ﴿مِّنۡهُمۡ﴾؛ أي: من أهل الكتاب، ﴿أَحَدٗا (٢٢)﴾: وذلك لأن مبنى كلامهم فيهم على الرجم بالغيب والظن الذي لا يغني من الحق شيئًا؛ ففيها دليل على المنع من استفتاء من لا يصلح للفتوى: إما لقصوره في الأمر المستفتى فيه، أو لكونه لا يبالي بما تكلم به، وليس عنده ورع يحجزه، وإذا نهي عن استفتاء هذا الجنس؛ فنهيه هو عن الفتوى من باب أولى وأحرى.

وفي الآية أيضًا دليل على أن الشخص قد يكون منهيًا عن استفتائه في شيء دون آخر، فيستفتى فيما هو أهل له بخلاف غيره؛ لأن الله لم ينه عن استفتائهم مطلقًا، إنما نهى عن استفتائهم في قصة أصحاب الكهف وما أشبهها.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا (٢٤)﴾.

(٢٣) هذا النهي كغيره، وإن كان لسبب خاص وموجه للرسول ﷺ؛ فإن الخطاب عام للمكلفين؛ فنهى الله أن يقول العبد في الأمور المستقبلة: ﴿إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ﴾: من دون أن يقرنه بمشيئة الله، وذلك لما فيه من المحذور، وهو الكلام على الغيوب المستقبلة التي لا يدري هل يفعله أم لا؟ وهل تكون أم لا؟ وفيه رد الفعل إلى مشيئة العبد استقلالًا، وذلك محذور محظور؛ لأن المشيئة كلها لله، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٢٩)﴾ [التكوير: ٢٩]، ولما في ذكر مشيئة الله من تيسير الأمر وتسهيله وحصول البركة فيه والاستعانة من العبد لربه.

(٢٤) ولما كان العبد بشرًا لا بد أن يسهو عن[1] ذكر المشيئة؛ أمره الله أن يستثني بعد ذلك إذا ذكر؛ ليحصل المطلوب ويندفع المحذور. ويؤخذ من عموم قوله: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾: الأمر بذكر الله عند النسيان؛ فإنه يزيله ويذكر العبد ما سها عنه. وكذلك يؤمر الساهي الناسي لذكر الله أن يذكر ربه ولا يكونن من الغافلين. ولما كان العبد مفتقرًا إلى الله في توفيقه للإصابة وعدم الخطأ في أقواله وأفعاله؛ أمره الله أن يقول: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا (٢٤)﴾: فأمره أن يدعو الله ويرجوه ويثق به أن يهديه لأقرب الطرق الموصلة إلى الرشد، وحري بعبد تكون هذه حاله، ثم يبذل جهده، ويستفرغ وسعه في طلب الهدى والرشد، أن يوفق لذلك، وأن تأتيه المعونة من ربه، وأن يسدده في جميع أموره.

﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا (٢٥) قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا (٢٦)﴾.

(٢٥)، (٢٦) لما نهاه الله عن استفتاء أهل الكتاب في شأن أهل الكهف لعدم علمهم بذلك، وكان الله عالم الغيب والشهادة العالم بكل شيء؛ أخبره الله بمدة لبثهم، وأن علم ذلك عنده وحده؛ فإنه من غيب السماوات والأرض، وغيبها مختص به؛ فما أخبر به عنها على ألسنة رسله؛ فهو الحق اليقين الذي لا يشك فيه، وما لا يطلع رسله عليه؛ فإن أحدًا من الخلق لا يعلمه. وقوله: ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡ﴾: تعجب من كمال سمعه وبصره وإحاطتهما بالمسموعات والمبصرات بعدما أخبر بإحاطة علمه بالمعلومات، ثم أخبر عن انفراده بالولاية العامة والخاصة؛ فهو الولي الذي يتولى تدبير جميع الكون، والولي لعباده المؤمنين؛ يخرجهم من

(١) عبارة: «يسهو عن» وردت في ع: «يسهي فيترك».

وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ
يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ
أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن
شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ
وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ
ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ
لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ
مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ
فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ۞ وَٱضْرِبْ
لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا
بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ
تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ
لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾

الظلمات إلى النور، وييسرهم لليسرى، ويجنبهم العسرى، ولهذا قال: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ﴾؛ أي: هو الذي تولى أصحاب الكهف بلطفه وكرمه، ولم يكلهم إلى أحد من الخلق. ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾: وهذا يشمل الحكم الكوني القدري والحكم الشرعي الديني؛ فإنه الحاكم في خلقه قضاء وقدرًا وخلقًا وتدبيرًا، والحاكم فيهم بأمره ونهيه وثوابه وعقابه.

ولما أخبر أنه تعالى له غيب السماوات والأرض؛ فليس لمخلوق إليها طريق إلا عن الطريق التي يخبر بها عباده، وكان هذا القرآن قد اشتمل على كثير من الغيوب؛ أمر تعالى بالإقبال عليه، فقال:

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿٢٧﴾ التلاوة: هي الاتباع؛ أي: اتبع ما أوحى الله إليك بمعرفة معانيه وفهمها وتصديق أخباره وامتثال أوامره ونواهيه؛ فإنه الكتاب الجليل، الذي لا مبدل لكلماته؛ أي: لا تغير ولا تبدل لصدقها وعدلها وبلوغها من الحسن فوق كل غاية، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]؛ فلكمالها[1] استحال عليها التغيير والتبديل، فلو كانت ناقصة؛ لعرض لها ذلك أو شيء منه. وفي هذا تعظيم للقرآن في ضمنه الترغيب على الإقبال عليه. ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾؛ أي: لن تجد من دون ربك ملجأ تلجأ إليه ولا معاذًا تعوذ به؛ فإذا تعين أنه وحده الملجأ في كل الأمور؛ تعين أن يكون هو المألوه المرغوب إليه في السراء والضراء، المفتقر إليه في جميع الأحوال، المسئول في جميع المطالب.

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿٢٨﴾ يأمر تعالى نبيه محمدًا ﷺ، وغيره أسوته في الأوامر والنواهي أن يصبر نفسه مع المؤمنين العُبَّاد المنيبين. ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾؛ أي: أول النهار وآخره؛ يريدون بذلك وجه الله، فوصفهم بالعبادة والإخلاص فيها؛ ففيها الأمر بصحبة الأخيار ومجاهدة النفس على صحبتهم ومخالطتهم، وإن كانوا فقراء؛ فإن في صحبتهم من الفوائد ما لا يحصى. ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾؛ أي: لا تجاوزهم بصرك وترفع عنهم نظرك؛ ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ فإن هذا ضار غير نافع، قاطع عن المصالح الدينية؛ فإن ذلك يوجب تعلق القلب بالدنيا، فتصير الأفكار والهواجس فيها، وتزول من القلب الرغبة في الآخرة؛ فإن زينة الدنيا تروق للناظر وتسحر القلب، فيغفل القلب عن ذكر الله، ويقبل على اللذات والشهوات، فيضيع وقته، وينفرط أمره، فيخسر الخسارة الأبدية والندامة السرمدية، ولهذا قال: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾: غفل عن الله فعاقبه بأن أغفله عن ذكره، ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾؛ أي: صار تبعًا لهواه؛ حيث ما اشتهت نفسه فعله، وسعى في إدراكه، ولو كان فيه هلاكه وخسرانه؛ فهو قد اتخذ إلهه هواه؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣] الآية. ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ﴾؛ أي: مصالح دينه ودنياه ﴿فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾؛ أي: ضائعة معطلة؛ فهذا قد نهى الله عن طاعته؛ لأن طاعته تدعو إلى الاقتداء به، ولأنه لا يدعو إلا لما هو متصف به.

---

(١) ع: «فلتمامها».

ودلت الآية على أن الذي ينبغي أن يطاع، ويكون إمامًا للناس من امتلأ قلبه بمحبة الله، وفاض ذلك على لسانه، فلهج بذكر الله، واتبع مراضي ربه، فقدمها على هواه، فحفظ بذلك ما حفظ من وقته، وصلحت أحواله، واستقامت أفعاله، ودعا الناس إلى ما من الله به عليه؛ فحقيق بذلك أن يتبع، ويجعل إمامًا.

والصبر المذكور في هذه الآية هو الصبر على طاعة الله، الذي هو أعلى أنواع الصبر، وبتمامه يتم باقي الأقسام.

وفي الآية استحباب الذكر والدعاء والعبادة طرفي النهار؛ لأن الله مدحهم بفعله، وكل فعل مدح الله فاعله؛ دل ذلك على أن الله يحبه؛ وإذا كان يحبه فإنه يأمر به ويرغِّب فيه.

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿٢٩﴾ أي: قل للناس يا محمد: هو(١) ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾؛ أي: قد تبين الهدى من الضلال، والرشد من الغي، وصفات أهل السعادة وصفات أهل الشقاوة، وذلك بما بينه الله على لسان رسوله؛ فإذا بان واتضح ولم يبق فيه شبهة؛ ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾؛ أي: لم يبق إلا سلوك أحد الطريقين بحسب توفيق العبد وعدم توفيقه، وقد أعطاه الله مشيئة بها يقدر على الإيمان والكفر، والخير والشر؛ فمن آمن؛ فقد وفق للصواب، ومن كفر؛ فقد قامت عليه الحجة، وليس بمكره على الإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦](٢). ثم ذكر تعالى مآل الفريقين، فقال: ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ ﴾: بالكفر والفسوق والعصيان، ﴿ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾؛ أي: سورها المحيط بها؛ فليس لهم منفذ ولا طريق ولا مخلص منها، تصلاهم النار الحامية. ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ ﴾؛ أي: يطلبوا الشراب ليطفئ ما نزل بهم من العطش الشديد؛ ﴿ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ ﴾؛ أي: كالرصاص المذاب أو كعكر الزيت من شدة حرارته. ﴿ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ﴾؛ أي: فكيف بالأمعاء والبطون؟! كما قال تعالى: ﴿ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحج: ٢٠، ٢١]. ﴿ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ ﴾: الذي يراد ليطفئ العطش ويدفع بعض العذاب فيكون زيادة في عذابهم وشدة عقابهم، ﴿ وَسَآءَتْ ﴾: النار ﴿ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾: وهذا ذم لحالة النار؛ أنها ساءت المحل الذي يرتفق به؛ فإنها ليس فيها ارتفاق؛ وإنما فيها العذاب العظيم الشاق الذي لا يُفَتَّر عنهم ساعة، وهم فيه مبلسون، قد أيسوا من كل خير، ونسيهم الرحيم في العذاب، كما نسوه.

﴿٣٠﴾ ثم ذكر الفريق الثاني، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾؛ أي: جمعوا بين الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وعمل الصالحات من الواجبات والمستحبات. ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ ﴾: وإحسان العمل أن يريد العبد العمل لوجه الله متبعًا في ذلك شرع الله؛ فهذا العمل لا يضيعه الله ولا شيئًا منه، بل يحفظه للعاملين، ويوفيهم من الأجر بحسب عملهم وفضله وإحسانه.

﴿٣١﴾ وذكر أجرهم بقوله: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ﴾(٣)؛ أي: أولئك الموصوفون بالإيمان والعمل الصالح، لهم الجنات العاليات التي قد كثرت أشجارها فأجنَّت من فيها، وكثرت أنهارها، فصارت تجري من تحت تلك الأشجار الأنيقة والمنازل الرفيعة، وحليتهم فيها الذهب، ولباسهم فيها الحرير الأخضر من السندس، وهو الغليظ من الديباج، والإستبرق وهو ما رق منه، متكئين فيها على الأرائك، وهي السرر المزينة المجملة بالثياب الفاخرة؛ فإنها لا تسمى أريكة حتى تكون كذلك، وفي اتكائهم على الأرائك ما يدل على كمال الراحة وزوال النصب والتعب وكون الخدم يسعون عليهم بما يشتهون، وتمام ذلك الخلود الدائم والإقامة الأبدية؛

(١) ع: «هذا».
(٢) زاد في ع، ط: «وليس في قوله: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ الإذن في كلا الأمرين وإنما ذلك تهديد ووعيد لمن اختار الكفر بعد البيان التام كما ليس فيها ترك قتال الكافرين».
(٣) زاد في ع: «أولئك».

فهذه الدار الجليلة، ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾: للعاملين، ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾: يرتفقون بها، ويتمتعون بما فيها، مما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين من الحبرة والسرور، والفرح الدائم، واللذات المتواترة والنعم المتوافرة، وأي مرتفق أحسن من دار، أدنى أهلها يسير في ملكه ونعيمه وقصوره وبساتينه ألفي سنة؟ ولا يرى فوق ما هو فيه من النعيم، قد أعطي جميع أمانيه ومطالبه، وزيد من المطالب، ما قصرت عنه الأماني، ومع ذلك؛ فنعيمهم على الدوام، متزايد في أوصافه وحسنه، فنسأل الله الكريم ألَّا يحرمنا خير ما عنده من الإحسان بشر ما عندنا من التقصير والعصيان. ودلت الآية الكريمة وما أشبهها على أن الحلية عامة للذكور والإناث؛ كما ورد في الأخبار الصحيحة؛ لأنه أطلقها في قوله: ﴿يُحَلَّوْنَ﴾، وكذلك الحرير ونحوه.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾

﴿٣٢﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: اضرب للناس مثل هذين الرجلين: الشاكر لنعمة الله، والكافر لها، وما صدر من كل منهما من الأقوال والأفعال، وما حصل بسبب ذلك من العقاب العاجل والآجل والثواب؛ ليعتبروا بحالهما، ويتعظوا بما حصل عليهما، وليس معرفة أعيان الرجلين وفي أي زمان أو مكان هما فيه فائدة أو نتيجة؛ فالنتيجة تحصل من قصتهما فقط، والتعرض لما سوى ذلك من التكلف. فأحد هذين الرجلين الكافر لنعمة الله الجليلة جعل الله له جنتين؛ أي: بستانين حسنين ﴿مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ﴾؛ أي: في هاتين الجنتين من كل الثمرات، وخصوصًا أشرف الأشجار العنب والنخل؛ فالعنب وسطها، والنخل قد حف بذلك ودار به، فحصل فيه من حسن المنظر وبهائه وبروز الشجر والنخل للشمس والرياح التي تكمل بها الثمار وتنضج وتتجوهر، ومع ذلك جعل بين تلك الأشجار زرعًا.

﴿٣٣﴾ فلم يبق عليهما إلا أن يقال: كيف ثمار هاتين الجنتين؟ وهل لهما ماء يكفيهما؟ فأخبر تعالى أن كلًّا من ﴿ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾؛ أي: ثمرها وزرعها ضعفين؛ أي: متضاعفًا، وأنها لم ﴿تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾؛ أي: لم تنقص من أكلها أدنى شيء، ومع ذلك فالأنهار في جوانبها سارحة كثيرة غزيرة.

﴿٣٤﴾ ﴿وَكَانَ لَهُۥ﴾؛ أي: لذلك الرجل ﴿ثَمَرٌ﴾؛ أي: عظيم؛ كما يفيده التنكير؛ أي: قد استكملت جنتاه ثمارهما، وارجحنَّت أشجارهما ولم تعرض لهما آفة أو نقص، فهذا غاية منتهى زينة الدنيا في الحرث، ولهذا اغتر هذا الرجل[1] وتبجح وافتخر، ونسي آخرته. ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾ أي: فقال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن وهما يتحاوران؛ أي: يتراجعان بينهما في بعض الماجريات المعتادة مفتخرًا عليه: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾: فخر بكثرة ماله وعزة أنصاره من عبيد وخدم وأقارب، وهذا جهل منه، وإلا؛ فأي افتخار بأمر خارجي ليس فيه فضيلة نفسية ولا صفة معنوية، وإنما هو بمنزلة فخر الصبي بالأماني التي لا حقائق تحتها؟!

﴿٣٥﴾، ﴿٣٦﴾ ثم لم يكفه هذا الافتخار على صاحبه، حتى حكم بجهله وظلمه، وظن لما دخل جنته، ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ﴾؛ أي: تنقطع وتضمحل ﴿هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾﴾: فاطمأن إلى هذه الدنيا، ورضي بها، وأنكر البعث، فقال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى﴾: على ضرب المثل؛ ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾؛ أي: ليعطيني خيرًا من هاتين الجنتين! وهذا لا يخلو من أمرين: إما أن يكون عالمًا بحقيقة الحال، فيكون كلامه هذا على وجه التهكم والاستهزاء، فيكون زيادة كفر إلى كفره. وإما أن يكون هذا ظنه في الحقيقة، فيكون من أجهل الناس وأبخسهم حظًّا من العقل؛ فأي تلازم بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة حتى يظن بجهله أن من أعطي في الدنيا أعطي في الآخرة؟! بل الغالب أن الله تعالى يزوي الدنيا عن أوليائه وأصفيائه، ويوسعها على أعدائه، الذين ليس لهم في الآخرة نصيب. والظاهر أنه يعلم حقيقة الحال، ولكنه قال هذا الكلام على وجه التهكم والاستهزاء؛ بدليل قوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾: فإثبات أن وصفه الظلم في حال دخوله الذي جرى منه من القول ما جرى، يدل على تمرده وعناده.

---

(١) زاد في ع: «بهما».

﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن
تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ
أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ
ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾.

(٣٧) أي: قال له صاحبه المؤمن ناصحًا له ومذكرًا له حاله الأولى التي أوجده الله فيها في الدنيا ﴿مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾؛ فهو الذي أنعم عليك بنعمة الإيجاد والإمداد، وواصل عليك النعم، ونقلك من طور إلى طور، حتى سوَّاك رجلًا كامل الأعضاء والجوارح المحسوسة والمعقولة، وبذلك يسر لك الأسباب وهيأ لك ما هيأ من نعم الدنيا، فلم تحصل لك الدنيا بحولك وقوتك، بل بفضل الله تعالى عليك؛ فكيف يليق بك أن تكفر بالله الذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلًا، وتجحد[1] نعمته، وتزعم أنه لا يبعثك، وإن بعثك أنه يعطيك خيرًا من جنتك؟! هذا مما لا ينبغي ولا يليق.

(٣٨) ولهذا لما رأى صاحبُه المؤمن حاله واستمراره على كفره وطغيانه؛ قال مخبرًا عن نفسه على وجه الشكر لربه والإعلان بدينه عند ورود المجادلات والشبه: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾: فأقر بربوبية ربه وانفراده فيها والتزام[2] طاعته وعبادته، وأنه لا يُشرك به أحدًا من المخلوقين.

ثم أخبر أن نعمة الله عليه بالإيمان والإسلام، ولو مع قلة ماله وولده؛ أنها هي النعمة الحقيقية، وأن ما عداها معرض للزوال والعقوبة عليه والنكال، فقال:

﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ
أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن
تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ
عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ
بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا
كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ
عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾.

(١) في الأصل: «وتجهل».
(٢) ع: «والتزم».

سورة الكهف — الجزء الخامس عشر

وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ
أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى
لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ
أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا
﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ
دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠
أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن
جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا
زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾
وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ
عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ
فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ
لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ
فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

٢٩٨

(٣٩) أي: قال للكافر صاحبُه المؤمن: أنت وإن فخرت عليَّ بكثرة مالك وولدك، ورأيتني ﴿أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾؛ فإن ما عند الله خير وأبقى، وما يرجى من خيره وإحسانه أفضل من جميع الدنيا التي يتنافس فيها المتنافسون.

(٤٠) ﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾؛ أي: على جنتك التي طغيت بها وغرتك، ﴿حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: عذابًا بمطر عظيم أو غيره. ﴿فَتُصْبِحَ﴾: بسبب ذلك ﴿صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾﴾؛ أي: قد اقتُلِعتْ أشجارها، وتَلِفتْ ثمارها وغرق زرعها، وزال نفعها.

(٤١) ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا﴾ الذي مادتها منه ﴿غَوْرًا﴾؛ أي: غائرًا في الأرض. ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾؛ أي: غائرًا لا يستطاع الوصول إليه بالمعاول ولا بغيرها، وإنما دعا على جنته المؤمنُ غضبًا لربه؛ لكونها غرته وأطغته واطمأن إليها؛ لعله ينيب، ويراجع رشده، ويبصر في أمره.

(٤٢) فاستجاب الله دعاءه، ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾؛ أي: أصابه عذاب أحاط به واستهلكه فلم يبق منه شيء،

والإحاطة بالثمر يستلزم تلف جميع أشجاره وثماره وزرعه، فندم كل الندامة، واشتد لذلك أسفه. ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾؛ أي: على كثرة نفقاته الدنيوية عليها، حيث اضمحلت وتلاشت، فلم يبق لها عوض، وندم أيضًا على شركه وشره، ولهذا قال: ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾.

﴿٤٣﴾ قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾؛ أي: لما نزل العذاب بجنته؛ ذهب عنه ما كان يفتخر به من قوله لصاحبه: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾، فلم يدفعوا عنه من العذاب شيئًا أشد ما كان إليهم حاجة، وما كان بنفسه منتصرًا، وكيف ينتصر أو يكون له انتصار[1] على قضاء الله وقدره الذي إذا أمضاه وقدَّره لو اجتمع أهل السماء والأرض على إزالة شيء منه لم يقدروا؟! ولا يستبعد من رحمة الله ولطفه أن صاحب هذه الجنة التي أحيط بها تحسنت حاله، ورزقه الله الإنابة إليه وراجع رشده، وذهب تمرده وطغيانه؛ بدليل أنه أظهر الندم على شركه بربه، وأن الله أذهب عنه ما يطغيه وعاقبه في الدنيا، وإذا أراد الله بعبد خيرًا عجل له العقوبة في الدنيا، وفضلُ الله لا تحيط به الأوهام والعقول، ولا ينكره إلا ظالم جهول.

﴿٤٤﴾ ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾؛ أي: في تلك الحال التي أجرى الله فيها العقوبة على من طغى، وآثر الحياة الدنيا، والكرامة لمن آمن، وعمل صالحًا، وشكر الله، ودعا غيره لذلك؛ تبين وتوضح أن الولاية الحق لله وحده؛ فمن كان مؤمنًا به تقيًّا؛ كان له وليًّا، فأكرمه بأنواع الكرامات، ودفع عنه الشرور والمثلات - ومن لم يؤمن بربه ويتولاه؛ خسر دينه ودنياه - فثوابه الدنيوي والأخروي خير ثواب يرجى ويؤمل.

ففي هذه القصة العظيمة اعتبار بحال الذي أنعم الله عليه نعمًا دنيوية، فألهته عن آخرته، وأطغته، وعصى الله فيها، أن مآلها الانقطاع والاضمحلال، وأنه وإن تمتع بها قليلًا؛ فإنه يحرمها طويلًا، وأن العبد ينبغي له إذا أعجبه شيء من ماله أو ولده أن يضيف النعمة إلى موليها ومسديها، وأن يقول: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾؛ ليكون شاكرًا لله متسببًا لبقاء نعمته عليه؛ لقوله: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾.

(١) ع: «أنصار».

وفيها: الإرشاد إلى التسلي عن لذات الدنيا وشهواتها بما عند الله من الخير؛ لقوله: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾.

وفيها: أن المال والولد لا ينفعان إن لم يعينا على طاعة الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [سبأ: ٣٧].

وفيه: الدعاء بتلف مال من كان ماله سبب طغيانه وكفره وخسرانه، خصوصًا إن فضل نفسه بسببه على المؤمنين، وفخر عليهم.

وفيها: أن ولاية الله وعدمها إنما تتضح نتيجتها إذا انجلى الغبار وحق الجزاء، ووجد العاملون أجرهم؛ فـ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾؛ أي: عاقبة ومآلًا.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾.

﴿٤٥﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ أصلًا ولمن قام بوراثته بعده تبعًا: اضرب للناس ﴿مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ ليتصوروها حق التصور ويعرفوا ظاهرها وباطنها، فيقيسوا بينها وبين الدار الباقية، ويؤثروا أيهما أولى بالإيثار. وأن مثل هذه الحياة الدنيا كمثل المطر؛ ينزل على الأرض، فيختلط نباتها، وتنبت من كل زوج بهيج، فبينا زهرتها وزخرفها تسر الناظرين، وتفرح المتفرجين، وتأخذ بعيون الغافلين؛ إذ أصبحت ﴿هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾: فذهب ذلك النبات الناضر والزهر الزاهر والمنظر البهي، فأصبحت الأرض غبراء ترابًا قد انحرف عنها النظر، وصدف[2] عنها البصر، وأوحشت القلب؛ كذلك هذه الدنيا؛ بينما صاحبها قد أعجب بشبابه، وفاق فيها على أقرانه وأترابه، وحصّل درهمها ودينارها، واقتطف من لذته أزهارها، وخاض في الشهوات في جميع أوقاته، وظن أنه لا يزال فيها سائر أيامه؛ إذ أصابه الموت أو التلف لماله، فذهب عنه سروره، وزالت لذته وحبوره، واستوحش قلبه من الآلام، وفارق شبابه وقوته وماله، وانفرد بصالح أو سيئ أعماله، هنالك يعض الظالم على يديه، حين يعلم حقيقة ما هو عليه، ويتمنى العود إلى الدنيا، لا ليستكمل الشهوات،

(٢) في ط: «وصرف».

بل ليستدرك ما فرط منه من الغفلات؛ بالتوبة والأعمال الصالحات، فالعاقل الحازم الموفق، يعرض على نفسه هذه الحالة، ويقول لنفسه: قدِّري أنك قد متِّ، ولا بد أن تموتي؛ فأي الحالتين تختارين: الاغترار بزخرف هذه الدار، والتمتع بها كتمتع الأنعام السارحة، أم العمل لدار أكلها دائم وظلها الظليل[1]، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين؟ فبهذا يعرف توفيق العبد من خذلانه، وربحه من خسرانه.

(٤٦) ولهذا أخبر تعالى أن المال والبنين ﴿ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾؛ أي: ليس وراء ذلك شيء، وأن الذي يبقى للإنسان وينفعه ويسره الباقيات الصالحات، وهذا يشمل جميع الطاعات الواجبة والمستحبة من حقوق الله وحقوق عباده من صلاة وزكاة وصدقة وحج وعمرة وتسبيح وتحميد وتهليل، وقراءة وطلب علم، وأمر بمعروف ونهي عن منكر وصلة رحم وبر والدين وقيام بحق الزوجات والمماليك والبهائم وجميع وجوه الإحسان إلى الخلق، كل هذا من الباقيات الصالحات؛ فهذه خير عند الله ثوابًا وخير أملًا؛ فثوابها يبقى، ويتضاعف على الآباد، ويؤمل أجرها وبرها ونفعها عند الحاجة؛ فهذه التي ينبغي أن يتنافس بها المتنافسون، ويستبق إليها العاملون، ويجدّ في تحصيلها المجتهدون.

وتأمل كيف لما ضرب الله مثل الدنيا وحالها واضمحلالها؛ ذكر أن الذي فيها نوعان: نوع من زينتها يتمتع به قليلًا ثم يزول بلا فائدة تعود لصاحبه، بل ربما لحقته مضرته، وهو المال والبنون. ونوع يبقى لصاحبه على الدوام، وهي الباقيات الصالحات.

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا (٤٨) وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) ﴾.

(٤٧)، (٤٨) يخبر تعالى عن حال يوم القيامة وما فيه من الأهوال المقلقة والشدائد المزعجة، فقال: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ ﴾؛ أي: يزيلها عن أماكنها؛ يجعلها كثيبًا، ثم يجعلها

(١) ساقط من ع، ط.

سُورَةُ الكَهْفِ — الجزء الخامس عشر

ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦) وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا (٤٨) وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا (٥٠) ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا (٥٢) وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣)

٢٩٩

كالعهن المنفوش، ثم تضمحل وتتلاشى وتكون هباء منبثًّا، وتبرز الأرض فتصير قاعًا صفصفًا، لا عوج فيه ولا أمتًا، ويحشر الله جميع الخلق على تلك الأرض؛ فلا يغادر منهم أحدًا، بل يجمع الأولين والآخرين من بطون الفلوات وقعور البحار، ويجمعهم بعدما تفرقوا، ويعيدهم بعدما تمزقوا خلقًا جديدًا، فيُعرضون عليه صفًّا ليستعرضهم وينظر في أعمالهم ويحكم فيهم بحكمه العدل الذي لا جور فيه ولا ظلم، ويقول لهم: ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ﴾؛ أي: بلا مال ولا أهل ولا عشيرة، ما معهم إلا الأعمال التي عملوها والمكاسب في الخير والشر التي كسبوها؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وقال هنا مخاطبًا للمنكرين للبعث وقد شاهدوه عيانًا: ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا (٤٨) ﴾؛ أي: أنكرتم الجزاء على الأعمال ووعد الله ووعيده؛ فها قد رأيتموه وذقتموه.

(٤٩) فحينئذ تحضر كُتُبُ الأعمال التي كتبتها الملائكة الأبرار[1]، فتطير لها القلوب، وتعظم من وقعها الكروب، وتكاد لها الصم الصلاب تذوب، ويشفق منها المجرمون؛ فإذا رأوها مسطرة عليهم أعمالهم، محصية عليهم أقوالهم وأفعالهم؛ قالوا: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾؛ أي: لا يترك خطيئة صغيرة ولا كبيرة إلا وهي مكتوبة فيه محفوظة لم ينس منها عمل سر ولا علانية ولا ليل ولا نهار. ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾: لا يقدرون على إنكاره، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾: فحينئذ يجازون بها ويقررون بها ويخزون ويحق عليهم العذاب، ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ [آل عمران: ١٨٢]: بل هم غير خارجين عن عدله وفضله.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾.

(٥٠) يخبر تعالى عن عداوة إبليس لآدم وذريته، وأن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم إكرامًا وتعظيمًا وامتثالًا لأمر الله، فامتثلوا ذلك؛ ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾، وقال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ [الإسراء: ٦١]. وقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢]، فتبين بهذا عداوته لله ولأبيكم؛ فكيف تتخذونه ﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾؛ أي: الشياطين ﴿أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾؛ أي: بئس ما اختاروا لأنفسهم من ولاية الشيطان الذي لا يأمرهم إلا بالفحشاء والمنكر عن ولاية الرحمن الذي كل السعادة والفلاح والسرور في ولايته.

وفي هذه الآية الحث على اتخاذ الشيطان عدوًّا والإغراء بذلك وذكر السبب الموجب لذلك، وأنه لا يفعل ذلك إلا ظالم، وأي ظلم أعظم من ظلم من اتخذ عدوه الحقيقي وليًّا وترك الولي الحميد؟! قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٠].

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾﴾.

(٥١) يقول تعالى: ما أشهدت الشياطين وهؤلاء المضلين خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم؛ أي: ما أحضرتهم ذلك ولا شاورتهم عليه؛ فكيف يكونون خالقين لشيء من ذلك، بل المتفرد بالخلق والتدبير والحكمة والتقدير هو الله، خالق الأشياء كلها، المتصرف فيها بحكمته؛ فكيف يجعل له شركاء من الشياطين يوالون ويطاعون كما يطاع الله وهم لم يخلقوا ولم يشهدوا خلقًا ولم يعاونوا الله تعالى، ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾؛ أي: معاونين مظاهرين لله على شأن من الشئون؛ أي: ما ينبغي ولا يليق بالله أن يجعل لهم قسطًا من التدبير؛ لأنهم ساعون في إضلال الخلق والعداوة لربهم؛ فاللائق أن يقصيهم ولا يدنيهم.

(٥٢) ولما ذكر حال من أشرك به في الدنيا، وأبطل هذا الشرك غاية الإبطال، وحكم بجهل صاحبه وسفهه؛ أخبر عن حالهم مع شركائهم يوم القيامة، وأن الله يقول لهم: نادوا شركائي بزعمكم؛ أي: على موجب زعمكم الفاسد، وإلا؛ فالحقيقة[2] ليس لله شريك في الأرض ولا في السماء؛ أي: نادوهم لينفعوكم ويخلصوكم من الشدائد. ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾: لأن الحكم والملك يومئذ لله، لا أحد يملك مثقال ذرة من النفع لنفسه ولا لغيره. ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم﴾؛ أي: بين المشركين وشركائهم ﴿مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾﴾؛ أي: مهلكًا يفرق بينهم وبينهم، ويبعد بعضهم من بعض، ويتبين حينئذ عداوة الشركاء لشركائهم، وكفرهم بهم، وتبريهم منهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٦].

﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾.

(٥٣) أي: لما كان يوم القيامة، وحصل من الحساب ما حصل، وتميز كل فريق من الخلق بأعمالهم، وحقت كلمة العذاب على المجرمين، فرأوا جهنم قبل دخولها،

(١) ع، ط: «الكرام».

(٢) ع، ط: «فبالحقيقة».

فانزعجوا، واشتد قلقهم لظنهم أنهم مواقعوها، وهذا الظن قال المفسرون: إنه بمعنى اليقين، فأيقنوا أنهم داخلوها، ﴿وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ۝٥٣﴾؛ أي: معدلًا يعدلون إليه، ولا شافع لهم من دون إذنه. وفي هذا من التخويف والترهيب ما ترعد له الأفئدة والقلوب.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ۝٥٤﴾.

۝٥٤ يخبر تعالى عن عظمة القرآن وجلالته وعمومه، وأنه صرَّف فيه ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾؛ أي: من كل طريق موصل إلى العلوم النافعة والسعادة الأبدية وكل طريق يعصم من الشر والهلاك؛ ففيه أمثال الحلال والحرام، وجزاء الأعمال، والترغيب والترهيب، والأخبار الصادقة النافعة للقلوب؛ اعتقادًا وطمأنينة ونورًا، وهذا مما يوجب التسليم لهذا القرآن وتلقيه بالانقياد والطاعة وعدم المنازعة له في أمر من الأمور، ومع ذلك؛ كان كثير من الناس يجادلون في الحق بعدما تبين، ويجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ۝٥٤﴾؛ أي: مجادلة ومنازعة فيه، مع أن ذلك غير لائق بهم، ولا عدل منهم، والذي أوجب له ذلك، وعدم الإيمان بالله، إنما هو الظلم والعناد، لا لقصور في بيانه وحجته وبرهانه، وإلا؛ فلو جاءهم العذاب وجاءهم ما جاء قبلهم؛ لم تكن هذه حالهم، ولهذا قال:

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ۝٥٥﴾.

۝٥٥ أي: ما منع الناس من الإيمان - والحال أن الهدى الذي يحصل به الفرق بين الهدى والضلال والحق والباطل قد وصل إليهم وقامت عليهم حجة الله، فلم يمنعهم عدم البيان، بل منعهم الظلم والعدوان عن الإيمان، فلم يبق إلا أن تأتيهم سنة الله وعادته في الأولين، من أنهم إذا لم يؤمنوا؛ عوجلوا بالعذاب، أو يرون العذاب قد أقبل عليهم، ورأوه مقابلة ومعاينة؛ أي: فليخافوا من ذلك، وليتوبوا من كفرهم؛ قبل أن يكون العذاب الذي لا مرد له.

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ۝٥٦﴾.

سُورَةُ الكَهْف — الجزء الخامس عشر

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ۝٥٤ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ۝٥٥ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ۝٥٦ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ۝٥٧ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ۝٥٨ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ۝٥٩ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ۝٦٠ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ۝٦١

٣٠٠

۝٥٦ أي: لم نرسل الرسل عبثًا، ولا ليتخذهم الناس أربابًا، ولا ليدعوا إلى أنفسهم، بل أرسلناهم يدعون الناس إلى كل خير، وينهون عن كل شر، ويبشرونهم على امتثال ذلك بالثواب العاجل والآجل، وينذرونهم على معصية ذلك بالعقاب العاجل والآجل، فقامت بذلك حجة الله على العباد، ومع ذلك يأبى الظالمون الكافرون إلا المجادلة بالباطل ليدحضوا به الحق، فسعوا في نصر الباطل مهما أمكنهم، وفي إدحاض الحق وإبطاله، واستهزءوا برسل الله وآياته، وفرحوا بما عندهم من العلم، ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٣٢﴾ [التوبة: ٣٢]، ويظهر الحق على الباطل، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]، ومن حكمة الله ورحمته أن تقييضه المبطلين المجادلين الحق بالباطل من أعظم الأسباب إلى وضوح الحق وتبين شواهده وأدلته وتبين الباطل وفساده؛ فبضدها تتبين الأشياء.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ

ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾
وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ
لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾
وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم
مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿٥٧﴾ يخبر تعالى أنه لا أعظم ظلمًا ولا أكبر جرمًا من عبد ذُكِّر بآيات الله وبين له الحق من الباطل والهدى من الضلال، وخوف ورهب ورغب، فأعرض عنها، فلم يتذكر بما ذكر به، ولم يرجع عما كان عليه، ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ من الذنوب، ولم يراقب علام الغيوب؛ فهذا أعظم ظلمًا من المعرض الذي لم تأته آيات الله ولم يُذَكَّر بها، وإن كان ظالمًا؛ فإنه أشد[1] ظلمًا من هذا؛ لكون العاصي على بصيرة وعلم أعظم ممن ليس كذلك، ولكن الله تعالى عاقبه بسبب إعراضه عن آياته ونسيانه لذنوبه ورضاه لنفسه حالة الشر مع علمه بها، أن سد عليه أبواب الهداية بأن جعل على قلبه أكنة؛ أي: أغطية محكمة تمنعه أن يفقه الآيات وإن سمعها؛ فليس في إمكانه الفقه الذي يصل إلى القلب. ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾؛ أي: صممًا يمنعهم من وصول الآيات ومن سماعها على وجه الانتفاع، وإن كانوا بهذه الحالة؛ فليس لهدايتهم سبيل. ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾: لأن الذي يرجى أن يجيب الداعي للهدى من ليس عالمًا، وأما هؤلاء الذين أبصروا ثم عموا، ورأوا طريق الحق فتركوه، وطريق الضلال فسلكوه، وعاقبهم الله بإقفال القلوب والطبع عليها؛ فليس في هدايتهم حيلة ولا طريق. وفي هذه الآية من التخويف لمن ترك الحق بعد علمه أن يحال بينه وبينه، ولا يتمكن منه بعد ذلك ما هو أعظم مرهب وزاجر عن ذلك.

﴿٥٨﴾ ثم أخبر تعالى عن سعة مغفرته ورحمته، وأنه يغفر الذنوب ويتوب الله على من يتوب فيتغمده برحمته ويشمله بإحسانه، وأنه لو آخذ العباد على ما قدمت أيديهم من الذنوب؛ لعجل لهم العذاب، ولكنه تعالى حليم لا يعجل بالعقوبة، بل يمهل ولا يهمل، والذنوب لا بد من وقوع آثارها، وإن تأخرت عنها مدة طويلة، ولهذا قال: ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾؛ أي: لهم موعد يجازون فيه بأعمالهم، لا بد لهم منه، ولا مندوحة لهم عنه، ولا ملجأ ولا محيد عنه.

(١) ع، ط: «أخف».

﴿٥٩﴾ وهذه سنته في الأولين والآخرين، ألَّا يعاجلهم بالعقاب، بل يستدعيهم إلى التوبة والإنابة؛ فإن تابوا وأنابوا؛ غفر لهم ورحمهم وأزال عنهم العقاب، وإلا؛ فإن استمروا على ظلمهم وعنادهم، وجاء الوقت الذي جعله موعدًا لهم؛ أنزل بهم بأسه، ولهذا قال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾؛ أي: بظلمهم، لا بظلم منا. ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾؛ أي: وقتًا مقدرًا لا يتقدمون عنه ولا يتأخرون.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ
ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا
نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ
لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ
أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ
إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾
قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا
عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا
عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ
رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ
عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا
وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن
شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي
ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ إلى قوله: ﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ
صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿٦٠﴾ يخبر تعالى عن نبيه موسى عليه السلام وشدة رغبته في الخير وطلب العلم أنه قال لفتاه؛ أي: خادمه الذي يلازمه في حضره وسفره، وهو يوشع بن نون، الذي نبأه الله بعد ذلك: ﴿لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾؛ أي: لا أزال مسافرًا وإن طالت علي الشقة ولحقتني المشقة حتى أصل إلى مجمع البحرين، وهو المكان الذي أوحي إليه أنك ستجد فيه عبدًا من عباد الله العالمين، عنده من العلم ما ليس عندك، ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾؛ أي: مسافة طويلة. المعنى أن الشوق والرغبة حمل موسى أن قال لفتاه هذه المقالة.

﴿٦١﴾ وهذا عزم منه جازم، فلذلك أمضاه، ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا ﴾؛ أي: هو وفتاه ﴿مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾: وكان معهما

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾

حوت يتزودان منه ويأكلان، وقد وعد أنه متى فقد الحوت؛ فثم ذلك العبد الذي قصدته. ﴿فَٱتَّخَذَ﴾: ذلك الحوت ﴿سَبِيلَهُۥ﴾؛ أي: طريقه ﴿فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾. وهذا من الآيات، قال المفسرون: إن ذلك الحوت الذي كانا يتزودان منه لما وصلا إلى ذلك المكان أصابه بلل البحر، فانسرب بإذن الله في البحر، وصار مع حيواناته حيًّا.

﴿٦٢﴾ فلما جاوز موسى وفتاه مجمع البحرين؛ قال موسى لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾؛ أي: لقد تعبنا من هذا السفر المجاوز فقط، وإلا؛ فالسفر الطويل الذي وصلا به إلى مجمع البحرين لم يجدا مس التعب فيه، وهذا من الآيات والعلامات الدالة لموسى على وجود مطلبه، وأيضًا؛ فإن الشوق المتعلق بالوصول إلى ذلك المكان سهل لهما الطريق، فلما تجاوزا غايتهما؛ وجدا مس التعب.

﴿٦٣﴾ فلما قال موسى لفتاه هذه المقالة؛ قال له فتاه: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾(١) ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: لأنه السبب في ذلك، ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾؛ أي: لما انسرب في البحر ودخل فيه؛ كان ذلك من العجائب. قال المفسرون: كان ذلك المسلك للحوت سربًا ولموسى وفتاه عجبًا.

﴿٦٤﴾ فلما قال له الفتى هذا القول، وكان عند موسى وعد من الله أنه إذا فقد الحوت؛ وجد الخضر، فقال موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾؛ أي: نطلب. ﴿فَٱرْتَدَّا﴾؛ أي: رجعا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾؛ أي: رجعا يقصان أثرهما(٢) الذي نسيا فيه الحوت.

﴿٦٥﴾ فلما وصلا إليه؛ ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾: وهو الخضر، وكان عبدًا صالحًا لا نبيًّا على الصحيح. ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾؛ أي: أعطاه الله رحمة خاصة، بها زاد علمه وحسن عمله، ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا﴾؛ أي: من عندنا ﴿عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾: وكان قد أعطي من العلم ما لم يعط موسى، وإن كان موسى عليه السلام أعلم منه بأكثر الأشياء وخصوصًا في العلوم الإيمانية والأصولية؛ لأنه من أولي العزم من المرسلين، الذين فضلهم الله على سائر الخلق بالعلم والعمل وغير ذلك.

﴿٦٦﴾ فلما اجتمع به موسى؛ قال له على وجه الأدب والمشاورة والإخبار عن مطلبه: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾؛ أي: هل أتبعك على أن تعلمني مما علمك الله ما به أسترشد وأهتدي، وأعرف به الحق في تلك القضايا؟ وكان الخضر قد أعطاه الله من الإلهام والكرامة ما به يحصل له الاطلاع على بواطن كثير من الأشياء التي خفيت حتى على موسى عليه السلام.

﴿٦٧﴾ فقال الخضر لموسى: لا أمتنع من ذلك، ولكنك ﴿لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾؛ أي: لا تقدر على اتباعي وملازمتي؛ لأنك ترى ما لا تقدر على الصبر عليه من الأمور، التي ظاهرها المنكر وباطنها غير ذلك.

﴿٦٨﴾ ولهذا قال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾؛ أي: كيف تصبر على أمرٍ ما أحطت بباطنه وظاهره وعلمت المقصود منه ومآله.

﴿٦٩﴾ فقال موسى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾: وهذا عزم منه قبل أن يوجد الشيء الممتحن

(١) زاد في ع، ط: «أي: ألم تعلم حين آوانا الليل إلى تلك الصخرة المعروفة بينهما ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾».
(٢) زاد في ط: «إلى المكان».

۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن
سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا
﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟
أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ
قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى
وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا
ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا
وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ
فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا
﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا
﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ
تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ
أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ
عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ
عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾

به، والعزم شيء ووجود الصبر شيء آخر؛ فلذلك ما صبر موسى عليه السلام حين وقع الأمر.

﴿٧٠﴾ فحينئذ قال له الخضر: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾؛ أي: لا تبتدئني بسؤال منك وإنكار حتى أكون أنا الذي أخبرك بحاله في الوقت الذي ينبغي إخبارك به، فنهاه عن سؤاله، ووعده أن يوقفه على حقيقة الأمر.

﴿٧١﴾ ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾؛ أي: اقتلع الخضر منها لوحًا، وكان له مقصود في ذلك سيبينه، فلم يصبر موسى عليه السلام؛ لأن ظاهره أنه منكر؛ لأنه عيب للسفينة وسبب لغرق أهلها، ولهذا قال موسى: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾؛ أي: عظيمًا شنيعًا، وهذا من عدم صبره عليه السلام.

﴿٧٢﴾ فقال له الخضر: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾؛ أي: فوقع كما أخبرتك.

﴿٧٣﴾ وكان هذا من موسى نسيانًا، فقال: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾؛ أي: لا تعسّر عليَّ الأمر، واسمح لي؛ فإن ذلك وقع على وجه النسيان، فلا تؤاخذني في أول مرة، فجمع بين الإقرار به والعذر منه، وأنه ما ينبغي لك أيها الخضر الشدة على صاحبك، فسمح عنه الخضر.

﴿٧٤﴾ ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا﴾؛ أي: صغيرًا، ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾: الخضر، فاشتد بموسى الغضب، وأخذته الحَمِيَّةُ الدينية حين قتل غلامًا صغيرًا لم يذنب. ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾: وأي نكر مثل قتل الصغير الذي ليس عليه ذنب ولم يقتل أحدًا؟! وكان الأول[1] من موسى نسيانًا، وهذه غير نسيان، ولكن عدم صبر.

﴿٧٥﴾ فقال له الخضر معاتبًا ومذكرًا: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾؟

﴿٧٦﴾ فـ﴿قَالَ﴾ له موسى: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍ بَعْدَهَا﴾ أي: بعد هذه المرة؛ ﴿فَلَا تُصَٰحِبْنِى﴾؛ أي: فأنت معذور بذلك وبترك صحبتي، ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾؛ أي: أعذرت مني، ولم تقصر.

﴿٧٧﴾ ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾؛ أي: استضافاهم يضيفوهما، ﴿فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾؛ أي: عاب واستهدم، ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾: الخضر؛ أي بناه وأعاده جديدًا، فـ﴿قَالَ﴾ له موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾؛ أي: أهل هذه القرية لم يضيفونا مع وجوب ذلك عليهم، وأنت تبنيه من دون أجرة، وأنت تقدر عليها؟!

﴿٧٨﴾ فحينئذ لم يف موسى عليه السلام بما قال، واستعذر الخضر منه، فـ﴿قَالَ﴾ له: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ﴾: فإنك شرطت ذلك على نفسك، فلم يبق الآن عذر، ولا موضع للصحبة. ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾؛ أي: سأخبرك بما أنكرت علي وأنبئك بأن[2] لي في ذلك من المآرب، وما يئول إليه الأمر.

﴿٧٩﴾ ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ﴾: التي خرقتها، ﴿فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾: يقتضي ذلك الرقة عليهم والرأفة بهم،

(١) عبارة: «وكان الأول» وردت في ع: «وكانت الأولى».
(٢) ع: «بما».

﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾؛ أي: كان مرورهم على ذلك الملك الظالم؛ فكل سفينة صالحة تمر عليه ما فيها عيب غصبها وأخذها ظلمًا، فأردت أن أخرقها ليكون فيها عيب فتسلم من ذلك الظالم.

﴿٨٠﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ﴾: الذي قتلته؛ ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾: وكان ذلك الغلام قد قدِّر عليه أنه لو بلغ لأرهق أبويه طغيانًا وكفرًا؛ أي: لحملهما على الطغيان والكفر: إما لأجل محبتهما إياه، أو للحاجة إليه؛ أو يحملهما[1] على ذلك؛ أي: فقتلته؛ لاطلاعي على ذلك؛ سلامة لدين أبويه المؤمنين، وأي فائدة أعظم من هذه الفائدة الجليلة؟!

﴿٨١﴾ وهو وإن كان فيه إساءة إليهما وقطع لذريتهما؛ فإن الله تعالى سيعطيهما من الذرية ما هو خير منه، ولهذا قال: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾؛ أي: ولدًا صالحًا زكيًّا واصلًا لرحمه؛ فإن الغلام الذي قتل لو بلغ لعقهما أشد العقوق بحملهما على الكفر والطغيان.

﴿٨٢﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ﴾: الذي أقمته؛ ﴿فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾؛ أي: حالهما تقتضي الرأفة بهما ورحمتهما؛ لكونهما صغيرين، عدما أباهما، وحفظهما الله أيضًا بصلاح والدهما. ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾؛ أي: فلهذا هدمت الجدار واستخرجت ما تحته من كنزهما ورددته وأعدته مجانًا؛ ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾؛ أي: هذا الذي فعلته رحمة من الله آتاها الله عبده الخضر. ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾؛ أي: ما أتيت شيئًا من قبل نفسي ومجرد إرادتي، وإنما ذلك من رحمة الله وأمره. ﴿ذَٰلِكَ﴾: الذي فسرته لك ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾.

وفي هذه القصة العجيبة الجليلة من الفوائد والأحكام والقواعد شيء كثير ننبه على بعضه بعون الله:

فمنها: فضيلة العلم والرحلة في طلبه، وأنه أهم الأمور؛ فإن موسى عليه السلام رحل مسافة طويلة، ولقي النصب في طلبه، وترك القعود عند بني إسرائيل لتعليمهم وإرشادهم، واختار السفر لزيادة العلم على ذلك.

ومنها: البداءة بالأهم فالأهم؛ فإن زيادة العلم وعلم الإنسان أهم من ترك ذلك والاشتغال بالتعليم من دون تزود من العلم، والجمع بين الأمرين أكمل.

ومنها: جواز أخذ الخادم في الحضر والسفر؛ لكفاية المؤن وطلب الراحة؛ كما فعل موسى.

ومنها: أن المسافر لطلب علم أو جهاد أو نحوه، إذا اقتضت المصلحة الإخبار بمطلبه وأين يريده؛ فإنه أكمل من كتمه؛ فإن في إظهاره فوائد من الاستعداد له واتخاذ[2] عدته وإتيان الأمر على بصيرة وإظهار الشوق لهذه العبادة الجليلة؛ كما قال موسى: ﴿لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾، وكما أخبر النبي ﷺ أصحابه حين غزا تبوك بوجهه مع أن عادته التورية، وذلك تبع للمصلحة.

ومنها: إضافة الشر وأسبابه إلى الشيطان على وجه التسويل والتزيين، وإن كان الكل بقضاء الله وقدره؛ لقول فتى موسى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾.

ومنها: جواز إخبار الإنسان عما هو من مقتضى طبيعة النفس من نصب أو جوع أو عطش إذا لم يكن على وجه التسخط وكان صدقًا؛ لقول موسى: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾.

ومنها: استحباب كون خادم الإنسان ذكيًّا فطنًا كيّسًا؛ ليتم له أمره الذي يريده.

ومنها: استحباب إطعام الإنسان خادمه من مأكله وأكلهما جميعًا؛ لأن ظاهر قوله: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾: إضافة إلى الجميع: أنه أكل هو وهو جميعًا.

ومنها: أن المعونة تنزل على العبد على حسب قيامه بالمأمور به، وأن الموافق لأمر الله يعان ما لا يعان غيره؛ لقوله: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾، والإشارة إلى السفر المجاوز لمجمع البحرين، وأما الأول؛ فلم يشتك منه التعب مع طوله؛ لأنه هو السفر على الحقيقة، وأما الأخير؛ فالظاهر أنه بعض يوم؛ لأنهم فقدوا الحوت حين أووا إلى الصخرة؛ فالظاهر أنهم باتوا عندها، ثم ساروا من الغد، حتى إذا جاء وقت الغداء؛ قال موسى لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾. فحينئذ تذكر أنه نسيه في الموضع الذي إليه منتهى قصده.

(١) في ع: «يحدهما»، ولعلها: «يحضهما»، وقد اختلط على الناسخ.

(٢) ساقط من ع، ط.

ومنها: أن ذلك العبد الذي لقياه ليس نبيًّا، بل عبدًا صالحًا؛ لأنـه وصفه بالعبودية، وذكر منة الله عليه بالرحمة والعلم، ولم يذكر رسالته ولا نبوته، ولو كان نبيًّا؛ لذكر ذلك كما ذكر غيره. وأما قوله في آخر القصة: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾؛ فإنه لا يدل على أنه نبي، وإنما يدل على الإلهام والتحديث؛ كما يكون لغير الأنبياء؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]، ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل: ٦٨].

ومنها: أن العلم الذي يعلمه الله لعباده نوعان: علم مكتسب يدركه العبد بجده واجتهاده، ونوع: علم لدنيّ يهبه الله لمن يمن عليه من عباده؛ لقوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝٦٥﴾.

ومنها: التأدب مع المعلم وخطاب المتعلم إياه ألطف خطاب؛ لقول موسى عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝٦٦﴾: فأخرج الكلام بصورة الملاطفة والمشاورة، وأنك هل تأذن لي في ذلك أم لا؟ وإقراره بأنه يتعلم منه؛ بخلاف ما عليه أهل الجفاء أو الكبر، الذي لا يظهر للمعلم افتقاره إلى علمه، بل يدعي أنه يتعاون هو وإياه، بل ربما ظن أنه يعلم معلمه وهو جاهل جدًّا؛ فالذل للمعلم وإظهار الحاجة إلى تعليمه من أنفع شيء للمتعلم.

ومنها: تواضع الفاضل للتعلم ممن دونه؛ فإن موسى بلا شك أفضل من الخضر.

ومنها: تعلم العالم الفاضل للعلم الذي لم يتمهر فيه ممن مهر فيه، وإن كان دونه في العلم بدرجات كثيرة؛ فإن موسى عليه السلام من أولي العزم من المرسلين، الذين منحهم الله وأعطاهم من العلم ما لم يعط سواهم، ولكن في هذا العلم الخاص كان عند الخضر ما ليس عنده؛ فلهذا حرص على التعلم منه؛ فعلى هذا لا ينبغي للفقيه المحدث إذا كان قاصرًا في علم النحو أو الصرف أو نحوه من العلوم ألَّا يتعلمه ممن مهر فيه، وإن لم يكن محدثًا ولا فقيهًا.

ومنها: إضافة العلم وغيره من الفضائل لله تعالى، والإقرار بذلك، وشكر الله عليها؛ لقوله: ﴿تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ﴾؛ أي: مما علمك الله تعالى.

ومنها: أن العلم النافع هو العلم المرشد إلى الخير، فكل علم يكون فيه رشد وهداية لطريق الخير وتحذير عن طريق الشر أو وسيلة لذلك؛ فإنه من العلم النافع، وما سوى ذلك؛ فإما أن يكون ضارًّا أو ليس فيه فائدة؛ لقوله: ﴿أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝٦٦﴾.

ومنها: أن من ليس له قوة الصبر على صحبة العالم والعلم وحسن الثبات على ذلك؛ أنه ليس بأهل لتلقي(١) العلم؛ فمن لا صبر له؛ لا يدرك العلم، ومن استعمل الصبر ولازمه؛ أدرك به كل أمر سعى فيه؛ لقول الخضر يعتذر عن موسى بذكر المانع لموسى من الأخذ عنه: إنه لا يصبر معه.

ومنها: أن السبب الكبير لحصول الصبر إحاطة الإنسان علمًا وخبرة بذلك الأمر الذي أُمِرَ بالصبر عليه، وإلا؛ فالذي لا يدريه أو لا يدري غايته ولا نتيجته ولا فائدته وثمرته ليس عنده سبب الصبر؛ لقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۝٦٨﴾؛ فجعل الموجب لعدم صبره عدم إحاطته خبرًا بالأمر.

ومنها: الأمر بالتأني والتثبت وعدم المبادرة إلى الحكم على الشيء حتى يعرف ما يراد منه وما هو المقصود.

ومنها: تعليق الأمور المستقبلة التي من أفعال العباد بالمشيئة، وألَّا يقول الإنسان للشيء: إني فاعل ذلك في المستقبل إلا أن يقول إن شاء الله.

ومنها: أن العزم على فعل الشيء ليس بمنزلة فعله؛ فإن موسى قال: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾: فوطن نفسه على الصبر ولم يفعل.

ومنها: أن المعلم إذا رأى المصلحة في إيزاعه للمتعلم أن يترك الابتداء في السؤال عن بعض الأشياء حتى يكون المعلم هو الذي يوقفه عليها؛ فإن المصلحة تتبع؛ كما إذا كان فهمه قاصرًا، أو نهاه عن الدقيق في سؤال الأشياء التي غيرها أهم منها أو لا يدركها ذهنه، أو يسأل سؤالًا لا يتعلق بموضع البحث.

ومنها: جواز ركوب البحر في غير الحالة التي يخاف منها.

ومنها: أن الناسي غير مؤاخذ بنسيانه؛ لا في حق الله، ولا في حقوق العباد؛ لقوله: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ﴾.

(١) عبارة: «أنه ليس بأهل لتلقي» وردت في ع، ط: «أنه يفوته بحسب عدم صبره كثير من»

ومنهـا: أنـه ينبغـي للإنسـان أن يأخـذ مـن أخـلاق الناس ومعاملاتهـم العفو منها وما سـمحت به أنفسـهم، ولا ينبغي له أن يكلفهم ما لا يطيقون أو يشق عليهم ويرهقهم؛ فإن هذا مدعـاة إلى النفور منه والسآمة، بل يأخذ المتيسـر ليتيسـر له الأمر.

ومنها: أن الأمور تجري أحكامها على ظاهرها، وتعلق بها الأحـكام الدنيوية في الأمـوال والدماء وغيرها؛ فإن موسـى عليه السـلام أنكر علـى الخضر خرقه السـفينة وقتل الغلام، وأن هذه الأمور ظاهرها أنها من المنكر، وموسى عليه السلام لا يسعه السكوت عنها في غير هذه الحال التي صحب عليها الخضر، فاستعجل عليه السلام، وبادر إلى الحكم في حالتها العامة، ولم يلتفت إلى هذا العارض الذي يوجب عليه الصبر وعدم المبادرة إلى الإنكار.

ومنها: القاعدة الكبيرة الجليلة، وهو أنه يدفع الشـر الكبير بارتكاب الشـر الصغيـر، ويراعى أكبـر المصلحتين بتفويت أدناهما؛ فإن قتل الغلام شر، ولكن بقاءه حتى يفتن أبويه عن دينهمـا أعظم شـرًّا منـه، وبقاء الغلام مـن دون قتل وعصمته وإن كان يظـن أنـه خيـر؛ فالخيـر ببقاء ديـن أبويـه وإيمانهما خيـر من ذلك؛ فلذلك قتلـه الخضر. وتحت هذه القاعدة من الفروع والفوائد ما لا يدخل تحت الحصر، فتزاحم المصالح والمفاسد كلها داخل في هذا.

ومنهـا: القاعدة الكبيـرة أيضًا، وهي أن عمل الإنسـان في مـال غيـره إذا كان على وجـه المصلحة وإزالة المفسـدة أنه يجـوز، ولو بلا إذن، حتى ولو ترتب على عمله إتلاف بعض مال الغير؛ كما خرق الخضر السفينة لتعيب فتسلم من غصب الملك الظالـم؛ فعلى هذا: لو وقع حرق أو غرق أو نحوهما في دار إنسان أو ماله، وكان إتلاف بعض المال أو هدم بعض الـدار فيه سـلامة للباقي؛ جاز للإنسـان، بل شـرع لـه ذلك؛ حفظًا لمال الغير. وكذلك لو أراد ظالم أخذ مال الغير، ودفع إليه إنسان بعض المال افتداء للباقي؛ جاز، ولو من غير إذن.

ومنها: أن العمل يجوز في البحر كما يجوز في البر؛ لقوله: ﴿يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾، ولم ينكر عليهم عملهم.

ومنها: أن المسـكين قـد يكـون لـه مـال لا يبلـغ كفايتـه ولا يخرج بذلك عن اسـم المسكنة؛ لأن الله أخبر أن هؤلاء المساكين لهم سفينة.

ومنهـا: أن القتل مـن أكبر الذنوب؛ لقوله فـي قتل الغلام: ﴿لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ٧٤﴾.

ومنهـا: أن القتـل قصاصًـا غيـر منكـر؛ لقولـه: ﴿بِغَيۡرِ نَفۡسٖ﴾.

ومنها: أن العبد الصالح يحفظه الله في نفسه وفي ذريته.

ومنهـا: أن خدمـة الصالحيـن أو من يتعلق بهـم أفضل من غيرهـا؛ لأنه علـل استخراج كنزهمـا وإقامـة جدارهما بأن أباهما صالح.

ومنهـا: اسـتعمال الأدب مع اللـه تعالى فـي الألفاظ؛ فإن الخضـر أضـاف عيـب السـفينة إلى نفسـه؛ بقولـه: ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾، وأمـا الخيـر؛ فأضافـه إلـى اللـه تعالـى؛ لقولـه: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾؛ كمـا قـال إبراهيم عليه السـلام: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠﴾ [الشعراء: ٨٠]، وقالـت الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠﴾ [الجن: ١٠]؛ مع أن الكل بقضاء الله وقدره.

ومنهـا: أنـه ينبغـي للصاحب ألَّا يفـارق صاحبـه في حالة مـن الأحوال ويترك صحبته حتى يعتبـه ويعذر منه؛ كما فعل الخضر مع موسى.

ومنهـا: أن موافقـة الصاحـب لصاحبـه فـي غيـر الأمـور المحذورة مدعاة وسبب لبقاء الصحبة وتأكدها؛ كما أن عدم الموافقة سبب لقطع المرافقة[١].

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا ٨٣ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ٨٤ فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ٨٥ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۖ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ٨٦ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ٨٧ وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا ٨٨﴾.

(١) زاد في ع، ط: «ومنها: أن هذه القضايا التي أجراها الخضر هي قَدَر محض، أجراها الله وجعلها على يد هذا العبد الصالح ليستدل العباد بذلك على ألطافه في أقضيته، وأنه يقدر على العبد أمورًا يكرهها جدًّا وهي صلاح دينه، كما في قضية الغلام، أو وهي صلاح دنياه كما في قضية السفينة، فأراهم نموذجًا من لطفه وكرمه ليعرفوه، ويرضوا غاية الرضا بأقداره المكروهة».

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا (٨٤) فَأَتۡبَعَ سَبَبًا
(٨٥) حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ
وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ
فِيهِمۡ حُسۡنٗا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ
فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا (٨٧) وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً
ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا (٨٨) ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّىٰٓ
إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن
دُونِهَا سِتۡرٗا (٩٠) كَذَٰلِكَۖ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا (٩١) ثُمَّ أَتۡبَعَ
سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا
لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا (٩٣) قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ
مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ
سَدّٗا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ
وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا (٩٥) ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ
قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا
(٩٦) فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا (٩٧)

(٨٣) كان أهل الكتاب أو المشركون سألوا رسول الله ﷺ عن قصة ذي القرنين، فأمره الله أن يقول: ﴿سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا (٨٣)﴾: فيه نبأ مفيد وخطاب عجيب؛ أي: سأتلو عليكم من أحواله ما يُتذكَّر فيه ويكون عبرة، وأما ما سوى ذلك من أحواله؛ فلم يتله عليهم.

(٨٤)، (٨٥) ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: ملكه الله تعالى ومكنه من النفوذ في أقطار الأرض وانقيادهم له. ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا (٨٤) فَأَتۡبَعَ سَبَبًا (٨٥)﴾؛ أي: أعطاه الله من الأسباب الموصلة له لما وصل إليه ما به يستعين على قهر البلدان وسهولة الوصول إلى أقاصي العمران، وعمل بتلك الأسباب التي أعطاه الله إياها؛ أي: استعملها على وجهها؛ فليس كل من عنده شيء من الأسباب يسلكه، ولا كل أحد يكون قادرًا على السبب؛ فإذا اجتمع القدرة على السبب الحقيقي والعمل به؛ حصل المقصود، وإن عدما أو أحدهما؛ لم يحصل، وهذه الأسباب التي أعطاه الله إياها لم يخبرنا الله ولا رسوله بها، ولم تتناقلها الأخبار على وجه يفيد العلم؛ فلهذا لا يسعنا غير السكوت عنها وعدم الالتفات لما يذكره النقلة للإسرائيليات ونحوها، ولكننا نعلم بالجملة أنها أسباب قوية كثيرة داخلية وخارجية، بها صار له جند عظيم ذو عَدَد وعُدَد ونظام، وبه تمكن من قهر الأعداء ومن تسهيل الوصول إلى مشارق الأرض ومغاربها وأنحائها.

(٨٦) فأعطاه الله ما بلغ به ﴿مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ﴾، حتى رأى الشمس في مرأى العين كأنها ﴿تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ﴾؛ أي: سوداء، وهذا المعتاد لمن كان بينه وبين أفق الشمس الغربي ماء؛ رآها تغرب في نفس الماء، وإن كانت في غاية الارتفاع. ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا﴾؛ أي: عند مغربها ﴿قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا (٨٦)﴾؛ أي: إما أن تعذبهم بقتل أو ضرب أو أسر ونحوه، وإما أن تحسن إليهم؛ فخُيِّر بين الأمرين؛ لأن الظاهر أنهم[1] كفار أو فساق أو فيهم شيء من ذلك؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين غير فساق؛ لم يرخَّص له في تعذيبهم.

(٨٧) فكان عند ذي القرنين من السياسة الشرعية ما استحق به المدح والثناء؛ لتوفيق الله له لذلك، فقال: سأجعلهم قسمين: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾: بالكفر، ﴿فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا (٨٧)﴾؛ أي: تحصل له العقوبتان؛ عقوبة الدنيا، وعقوبة الآخرة.

(٨٨) ﴿وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾؛ أي: فله الجنة والحالة الحسنة عند الله جزاء يوم القيامة. ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا (٨٨)﴾؛ أي: وسنحسن إليه ونلطف له بالقول ونيسر له المعاملة. وهذا يدل على كونه من الملوك الصالحين والأولياء العادلين العالمين؛ حيث وافق مرضاة الله في معاملة كل أحد بما يليق بحاله.

﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا (٩٠) كَذَٰلِكَۖ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا (٩١) ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا (٩٣) قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا (٩٥) ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ

(١) زاد في ع، ط: «إما».

حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّىۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾.

﴿٨٩﴾ أي: لما وصل إلى مغرب الشمس؛ كر راجعًا، قاصدًا مطلعها، متبعًا للأسباب التي أعطاه الله.

﴿٩٠﴾ فوصل إلى مطلع الشمس فـ ﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ ﴾؛ أي: وجدها تطلع على أناس ليس لهم ستر من الشمس: إما لعدم استعدادهم في المساكن، وذلك لزيادة همجيتهم وتوحشهم وعدم تمدنهم، وإما لكون الشمس دائمة عندهم لا تغرب غروبًا يذكر؛ كما يوجد ذلك في شرقي إفريقيا الجنوبي، فوصل إلى موضع انقطع عنه علم أهل الأرض فضلًا عن وصولهم إليه[١] بأبدانهم.

﴿٩١﴾ ومع هذا؛ فكل هذا بتقدير الله له وعلمه به، ولهذا قال: ﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا ﴾؛ بما عنده من الخير والأسباب العظيمة، وعلمنا معه حيثما توجه وسار.

﴿٩٢﴾، ﴿٩٣﴾ ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ ﴾: قال المفسرون: ذهب متوجهًا من المشرق قاصدًا للشمال، فوصل إلى ما بين السدين، وهما سدان كانا سلاسل جبال[٢] معروفين في ذلك الزمان، سدان من سلاسل الجبال المتصلة يمنة ويسرة، حتى تتصل بالبحار، بين يأجوج ومأجوج وبين الناس، ﴿ وَجَدَ ﴾: من دون السدين ﴿ قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ ﴾؛ لعجمة ألسنتهم واستعجام أذهانهم وقلوبهم.

﴿٩٤﴾ وقد أعطى الله ذا القرنين من الأسباب العلمية ما فقه به ألسنة أولئك القوم وفقههم وراجعهم وراجعوه، فاشتكوا إليه ضرر يأجوج ومأجوج، وهما أمتان عظيمتان من بني آدم، فقالوا: ﴿ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾: بالقتل وأخذ الأموال وغير ذلك. ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا ﴾؛ أي: جعلًا؛ ﴿ عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾: ودل ذلك على عدم اقتدارهم بأنفسهم على بنيان السد، وعرفوا اقتدار ذي القرنين عليه، فبذلوا له أجرة ليفعل ذلك، وذكروا له السبب الداعي، وهو إفسادهم في الأرض.

(١) ع، ط: «إياه».
(٢) عبارة: «سلاسل جبال» ليست في الأصل، ط.

﴿٩٥﴾ فلم يكن ذو القرنين ذا طمع ولا رغبة في الدنيا ولا تاركًا لإصلاح أحوال الرعية، بل كان قصده الإصلاح؛ فلذلك أجاب طلبتهم؛ لما فيها من المصلحة، ولم يأخذ منهم أجرة، وشكر ربه على تمكينه واقتداره، فقال لهم: ﴿ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ ﴾؛ أي: مما تبذلون لي وتعطونني، وإنما أطلب منكم أن تعينوني بقوة منكم بأيديكم؛ ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ﴾؛ أي: مانعًا من عبورهم عليكم.

﴿٩٦﴾ ﴿ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ﴾؛ أي: قطع الحديد، فأعطوه ذلك، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ ﴾؛ أي: الجبلين اللذين بني بينهما السد، ﴿ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ﴾: النار؛ أي أوقدوها إيقادًا عظيمًا واستعملوا لها المنافيخ لتشتد فتذيب النحاس، فلما ذاب النحاس الذي يريد أن يلصقه بين زبر الحديد، ﴿ قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ ﴾؛ أي: نحاسًا مذابًا، فأفرغ عليه القطر، فاستحكم السد استحكامًا هائلًا، وامتنع به من وراءه من الناس من ضرر يأجوج ومأجوج.

﴿٩٧﴾ ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ ﴾؛ أي: فما لهم استطاعة ولا قدرة على الصعود عليه؛ لارتفاعه، ولا على نقبه؛ لإحكامه وقوته.

﴿٩٨﴾ فلما فعل هذا الفعل الجميل والأثر الجليل؛ أضاف النعمة إلى موليها، وقال: ﴿ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ﴾؛ أي: من فضله وإحسانه عليَّ، وهذه حال الخلفاء والصالحين إذا منَّ الله عليهم بالنعم الجليلة؛ ازداد شكرهم وإقرارهم واعترافهم بنعمة الله؛ كما قال سليمان عليه السلام لما حضر عنده عرش ملكة سبأ مع البعد العظيم؛ قال: ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ [النمل: ٤٠]؛ بخلاف أهل التجبر والتكبر والعلو في الأرض؛ فإن النعم الكبار تزيدهم أشرًا وبطرًا؛ كما قال قارون لما آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة؛ قال: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص: ٧٨]. وقوله: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى ﴾؛ أي: لخروج يأجوج ومأجوج. ﴿ جَعَلَهُۥ ﴾؛ أي: ذلك السد المحكم المتقن ﴿ دَكَّآءَ ﴾؛ أي: دكه فانهدم، واستوى هو والأرض، ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾.

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ﴾.

﴿٩٩﴾ يحتمل أن الضمير يعود إلى يأجوج ومأجوج، وأنهم إذا خرجوا على الناس من كثرتهم واستيعابهم للأرض كلها

قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي
حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ
فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾
الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ
سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي
أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ
أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ
يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ
فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ
جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ
فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي
لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ
إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو
لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

يموج بعضهم ببعض؛ كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأنبياء: ٩٦]، ويحتمل أن الضمير يعود إلى الخلائق يوم القيامة، وأنهم يجتمعون فيه، فيكثرون، ويموج بعضهم ببعض من الأهوال والزلازل العظام؛ بدليل قوله: ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ ﴾ أي: إذا نفخ إسرافيل في الصور؛ أعاد الله الأرواح إلى الأجساد، ثم حشرهم وجمعهم لموقف القيامة، الأولين منهم والآخرين، والكافرين والمؤمنين؛ ليسألوا، ويحاسبوا، ويجزوا بأعمالهم.

(١٠٠) فأما الكافرون على اختلافهم؛ فإن جهنم جزاؤهم خالدين فيها أبدًا، ولهذا قال: ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ ﴾ [التكوير: ١٢]؛ أي: عرضت لهم لتكون مأواهم ومنزلهم، وليتمتعوا بأغلالها وسعيرها وحميمها وزمهريرها، وليذوقوا من العقاب ما تبكم له القلوب، وتصم الآذان.

(١٠١) وهذا آثار أعمالهم وجزاء أفعالهم؛ فإنهم في الدنيا كانت أعينهم في غطاء عن ذكر الله؛ أي: معرضين عن الذكر الحكيم والقرآن الكريم، ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ [فصلت: ٥]، وفي أعينهم أغطية تمنعهم من رؤية آيات الله النافعة؛ كما قال تعالى: ﴿ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ [البقرة: ٧]. ﴿ وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ ﴾؛ أي: لا يقدرون على سمع آيات الله، الموصلة إلى الإيمان؛ لبغضهم القرآن والرسول؛ فإن المبغض لا يستطيع أن يلقي سمعه إلى كلام من أبغضه؛ فإذا انحجبت عنهم طرق العلم والخير؛ فليس لهم سمع ولا بصر ولا عقل نافع؛ فقد كفروا بالله، وجحدوا آياته، وكذبوا رسله، فاستحقوا جهنم، وساءت مصيرًا.

﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ ﴾

(١٠٢) وهذا برهان وبيان لبطلان دعوى المشركين الكافرين، الذين اتخذوا بعض الأنبياء والأولياء شركاء لله يعبدونهم، ويزعمون أنهم يكونون لهم أولياء، ينجونهم من عذاب الله، وينيلونهم ثوابه، وهم قد كفروا بالله وبرسوله، يقول الله لهم على وجه الاستفهام والإنكار المتقرر بطلانه في العقول: ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ﴾؛ أي: لا يكون ذلك، ولا يوالي وليُّ الله معاديًا لله أبدًا؛ فإن الأولياء موافقون لله في محبته ورضاه وسخطه وبغضه، فيكون على هذا المعنى مشابهًا لقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١]؛ فمن زعم أنه يتخذ ولي الله وليًّا له وهو معاد لله؛ فهو كاذب. ويحتمل - وهو الظاهر - أن المعنى: أفحسب الكفار بالله المنابذون لرسله أن يتخذوا من دون الله أولياء ينصرونهم وينفعونهم من دون الله ويدفعون عنهم الأذى؟ هذا حسبان باطل وظن فاسد؛ فإن جميع المخلوقين ليس بيدهم من النفع والضر شيء، ويكون هذا كقوله تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الإسراء: ٥٦]، ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ ﴾ [الزخرف: ٨٦]. ونحو ذلك من الآيات التي يذكر الله فيها أن المتخذ من دونه وليًّا ينصره ويواليه ضال خائب الرجاء غير نائل لبعض مقصوده. ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ

لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾؛ أي: ضيافة وقرى؛ فبئس النزل نزلهم، وبئست جهنم ضيافتهم.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾.

(١٠٣) أي: قل يا محمد للناس -على وجه التحذير والإنذار-: هل أخبركم بأخسر الناس أعمالًا على الإطلاق؟

(١٠٤) ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ أي: بطل واضمحل كل ما عملوه من عمل، ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ﴾ محسنون في صنعه؛ فكيف بأعمالهم التي يعلمون أنها باطلة وأنها محادّة لله ورسله ومعاداة؟!

(١٠٥) فمن هم هؤلاء الذين خسرت أعمالهم، فـ﴿خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾؟ ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾؛ أي: جحدوا الآيات القرآنية والآيات العيانيّة الدالة على وجوب الإيمان به وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر. ﴿فَحَبِطَتْ﴾: بسبب ذلك ﴿أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾: لأن الوزن فائدته مقابلة الحسنات بالسيئات والنظر في الراجح منها والمرجوح، وهؤلاء لا حسنات لهم؛ لعدم شرطها، وهو الإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: ١١٢]، لكن تعد أعمالهم، وتحصى ويقررون بها، ويخزون بها على رءوس الأشهاد ثم يعذبون عليها.

(١٠٦) ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ﴾؛ أي: حبوط أعمالهم، وأنه لا يقام لهم يوم القيامة وزن؛ لحقارتهم وخستهم بكفرهم بآيات الله واتخاذهم آياته ورسله هزوًا يستهزئون بها ويسخرون منهم[1]، مع أن الواجب في آيات الله ورُسُله الإيمان التام بها والتعظيم لها والقيام بها أتم القيام، وهؤلاء عكسوا القضية، فانعكس أمرهم وتعسوا وانتكسوا في العذاب.

(١) ع، ط: «منها».

ولمّا بيّن مآل الكافرين وأعمالهم؛ بيّن أعمال المؤمنين ومآلهم، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾.

(١٠٧) أي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: بقلوبهم، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: بجوارحهم، وشمل هذا الوصف جميع الدين؛ عقائده وأعماله، أصوله وفروعه الظاهرة والباطنة؛ فهؤلاء على اختلاف طبقاتهم من الإيمان والعمل الصالح، ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ﴾: يحتمل أن المراد بجنات الفردوس أعلى الجنة ووسطها وأفضلها، وأن هذا الثواب لمن كمّل الإيمان والعمل الصالح، وهم الأنبياء والمقربون، ويحتمل أن يراد بها جميع منازل الجنان، فيشمل هذا الثواب جميع طبقات أهل الإيمان من المقربين والأبرار والمقتصدين؛ كل بحسب حاله، وهذا أولى المعنيين؛ لعمومه، ولذكر الجنة بلفظ الجمع المضاف إلى الفردوس، وأن الفردوس يطلق على البستان المحتوي على الكرم أو الأشجار الملتفة، وهذا صادق على جميع الجنة؛ فجنة الفردوس نزل وضيافة لأهل الإيمان والعمل الصالح، وأي ضيافة أجل وأكبر وأعظم من هذه الضيافة، المحتوية على كل نعيم للقلوب والأرواح والأبدان؟! وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، من المنازل الأنيقة، والرياض الناضرة، والأشجار المثمرة، والطيور المغردة المشجية، والمآكل اللذيذة، والمشارب الشهية، والنساء الحسان، والخدم، والولدان، والأنهار السارحة، والمناظر الرائقة، والجمال الحسي والمعنوي، والنعمة الدائمة، وأعلى ذلك وأفضله وأجلُّه التنعم بالقرب من الرحمن ونيل رضاه الذي هو أكبر نعيم الجنان، والتمتع برؤية وجهه الكريم وسماع كلام الرءوف الرحيم، فلله تلك الضيافة؛ ما أجلها وأجملها وأدومها وأكملها! وهي أعظم من أن يحيط بها وصف أحد من الخلائق، أو تخطر على القلوب؛ فلو علم العباد بعض ذلك النعيم علمًا حقيقيًّا يصل إلى قلوبهم لطارت إليها قلوبهم بالأشواق، ولتقطعت أرواحهم من ألم الفراق، ولساروا إليها زرافات ووحدانًا، ولم يؤثروا عليها دنيا فانية، ولذات منغصة متلاشية، ولم يفوِّتوا أوقاتًا تذهب ضائعة خاسرة، يقابل كل لحظة منها من النعيم من

الحقب آلاف مؤلفة، ولكن الغفلة شملت، والإيمان ضعف، والعلم قل، والإرادة وهت[1]، فكان ما كان؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(١٠٨) وقوله: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾: هذا هو تمام النعيم، أن فيها النعيم الكامل، ومن تمامه أنه لا ينقطع، ﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ ﴾؛ أي: تحولًا ولا انتقالًا؛ لأنهم لا يرون إلا ما يعجبهم ويبهجهم ويسرهم ويفرحهم، ولا يرون نعيمًا فوق ما هم فيه.

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾.

(١٠٩) أي: قل لهم مخبرًا عن عظمة الباري وسعة صفاته وأنها لا يحيط العباد بشيء منها: ﴿ لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ ﴾؛ أي: هذه الأبحر الموجودة في العالم ﴿ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى ﴾؛ أي: وأشجار الدنيا من أولها إلى آخرها من أشجار البلدان والبراري والبحار أقلام، ﴿ لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ ﴾: وتكسرت الأقلام ﴿ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى ﴾: وهذا شيء عظيم لا يحيط به أحد، وفي الآية الأخرى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [لقمان: ٢٧]: وهذا من باب تقريب المعنى إلى الأذهان؛ لأن هذه الأشياء مخلوقة، وجميع المخلوقات منقضية منتهية، وأما كلام الله؛ فإنه من جملة صفاته، وصفاته غير مخلوقة ولا لها حد ولا منتهى؛ فأي سعة وعظمة تصورتها القلوب؛ فالله فوق ذلك، وهكذا سائر صفات الله تعالى؛ كعلمه، وحكمته، وقدرته، ورحمته؛ فلو جمع علم الخلائق من الأولين والآخرين أهل السماوات وأهل الأرض؛ لكان بالنسبة إلى علم العظيم أقل من نسبة عصفور وقع على حافة البحر، فأخذ بمنقاره من البحر بالنسبة للبحر وعظمته، ذلك بأن الله له الصفات العظيمة الواسعة الكاملة، وأن إلى ربك المنتهى.

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾.

(١١٠) أي: قل يا محمد للكفار وغيرهم: ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾؛ أي: لست بإله، ولا لي شركة في الملك، ولا علم بالغيب، ولا عندي خزائن الله، وإنما أنا بشر مثلكم، عبد من عبيد ربي. ﴿ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾؛ أي: فضلت عليكم بالوحي الذي يوحيه الله إليَّ، الذي أجلّهُ الإخبار لكم، ﴿ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾؛ أي: لا شريك له ولا أحد يستحق من العبادة مثقال ذرة غيره، وأدعوكم إلى العمل الذي يقربكم منه وينيلكم ثوابه ويدفع عنكم عقابه، ولهذا قال: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾: وهو الموافق لشرع الله من واجب ومستحب، ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾؛ أي: لا يرائي بعمله، بل يعمله خالصًا لوجه الله تعالى؛ فهذا الذي جمع بين الإخلاص والمتابعة هو الذي ينال ما يرجو ويطلب، وأما من عدا ذلك؛ فإنه خاسر في دنياه وأخراه، وقد فاته القرب من مولاه ونيل رضاه.

آخر تفسير سورة الكهف. ولله الحمد.



(١) ع: «نفذت».

ترتيبها ١٩ سُورَةُ مَرۡيَمَ آياتها ٩٨

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ٢
إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ
مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ
شَقِيّٗا ٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ
ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ
مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ٦ يَٰزَكَرِيَّآ
إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا
٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي
عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨ قَالَ كَذَٰلِكَ
قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ
شَيۡـٔٗا ٩ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا
تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ
مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١

تفسير سورة مريم

وهي مدنية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ﴿٦﴾ ﴾.

﴿٢﴾ أي: هذا ﴿ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ ﴾: سنقصه عليك، ونفصله تفصيلًا يعرِّف به حالة نبيه زكريا وآثاره الصالحة ومناقبه الجميلة؛ فإن في قصها عبرة للمعتبرين وأسوة للمقتدين، ولأن في تفصيل رحمته لأوليائه وبأي سبب حصلت لهم مما يدعو إلى محبة الله تعالى والإكثار من ذكره ومعرفته والسبب الموصل إليه، وذلك أن الله تعالى اجتبى واصطفى زكريا عليه السلام لرسالته، وخصه بوحيه، فقام بذلك قيام أمثاله من المرسلين، ودعا العباد إلى ربه، وعلمهم ما علمه الله، ونصح لهم في حياته وبعد مماته كإخوانه من المرسلين ومن اتبعهم.

﴿٣﴾، ﴿٤﴾ فلما رأى من نفسه الضعف، وخاف أن يموت، ولم يكن أحد ينوب منابه في دعوة الخلق إلى ربهم والنصح لهم، شكا إلى ربه ضعفه الظاهر والباطن، وناداه نداء خفيًّا؛ ليكون أكمل وأفضل وأتم إخلاصًا، فقال: ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي ﴾؛ أي: وهى وضعف، وإذا ضعف العظم الذي هو عماد البدن؛ ضعف غيره. ﴿ وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا ﴾؛ لأن الشيب دليل الضعف والكبر ورسول الموت ورائده ونذيره، فتوسل إلى الله تعالى بضعفه وعجزه، وهذا من أحب الوسائل إلى الله؛ لأنه يدل على التبري من الحول والقوة وتعلق القلب بحول الله وقوته. ﴿ وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ﴿٤﴾ ﴾؛ أي: لم تكن يا رب تردني خائبًا ولا محرومًا من الإجابة، بل لم تزل بي حفيًّا ولدعائي مجيبًا، ولم تزل ألطافك تتوالى علي وإحسانك واصلًا إلي، وهذا توسل إلى الله بإنعامه عليه وإجابة دعواته السابقة، فسأل الذي أحسن سابقًا أن يتمم إحسانه لاحقًا.

﴿٥﴾ ﴿ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي ﴾؛ أي: وإني خفت من يتولى على بني إسرائيل من بعد موتي ألَّا يقوموا بدينك حق القيام، ولا يدعوا عبادك إليك.

وظاهر هذا أنه لم ير فيهم أحدًا فيه لياقة للإمامة في الدين، وهذا فيه شفقة زكريا عليه السلام ونصحه وأن طلبه للولد ليس كطلب غيره؛ قصده مجرد المصلحة الدنيوية، وإنما قصده مصلحة الدين والخوف من ضياعه، ورأى غيره غير صالح لذلك، وكان بيته من البيوت المشهورة في الدين ومعدن الرسالة ومظنة للخير، فدعا الله أن يرزقه ولدًا يقوم بالدين من بعده، واشتكى أن امرأته عاقر؛ أي: ليست تلد أصلًا، وأنه قد بلغ من الكبر عتيًّا؛ أي: عمرًا يندر معه وجود الشهوة والولد. ﴿ فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ﴿٥﴾ ﴾.

﴿٦﴾ وهذه الولاية ولاية الدين وميراث النبوة والعلم والعمل، ولهذا قال: ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ

﴿رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾؛ أي: عبدًا صالحًا ترضاه وتحببه إلى عبادك.

والحاصل أنه سأل الله ولدًا ذكرًا صالحًا يبقى بعد موته ويكون وليًّا من بعده ويكون نبيًّا مرضيًّا عند الله وعند خلقه، وهذا أفضل ما يكون من الأولاد، ومن رحمة الله بعبده أن يرزقه ولدًا صالحًا جامعًا لمكارم الأخلاق ومحامد الشيم، فرحمه ربه واستجاب دعوته فقال:

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١﴾.

۝٧ أي: بشره الله تعالى على يد الملائكة بيحيى، وسماه الله له يحيى، وكان اسمًا موافقًا لمسماه؛ يحيا حياة حسية فتتم به المنة، ويحيا حياة معنوية، وهي حياة القلب والروح بالوحي والعلم والدين. ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾؛ أي: لم يسم هذا الاسم قبله أحد، ويحتمل أن المعنى: لم نجعل له من قبل مثيلًا ومساميًا؛ فيكون ذلك بشارة بكماله واتصافه بالصفات الحميدة، وأنه فاق من قبله، ولكن على هذا الاحتمال؛ هذا العموم لا بد أن يكون مخصوصًا بإبراهيم وموسى ونوح عليهم السلام ونحوهم ممن هو أفضل من يحيى قطعًا.

۝٨ فحينئذ لما جاءته البشارة بهذا المولود الذي طلبه؛ استغرب وتعجب وقال: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ﴾: والحال أن المانع من وجود الولد موجود بي وبزوجتي، وكأنه وقت دعائه لم يستحضر هذا المانع؛ لقوة الوارد في قلبه وشدة الحرص العظيم على الولد، وفي هذه الحال حين قبلت دعوته؛ تعجب من ذلك.

۝٩ فأجابه الله بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾؛ أي: الأمر مستغرب في العادة، وفي سنة الله في الخليقة، ولكن قدرة الله تعالى صالحة لإيجاده[1] بدون أسبابها؛ فذلك هين عليه، ليس بأصعب من إيجاده قبل، ولم يك شيئًا.

(١) ع: «لإيجاد الأشياء».

۝١٠ ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً﴾؛ أي: يطمئن بها قلبي، وليس هذا شكًّا في خبر الله، وإنما هو كما قال الخليل عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠]: فطلب زيادة العلم والوصول إلى عين اليقين بعد علم اليقين، فأجابه الله إلى طلبته رحمة به. فـ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١]، والمعنى واحد؛ لأنه تارة يعبر بالليالي، وتارة بالأيام، ومؤداهما[2] واحد، وهذا من الآيات العجيبة؛ فإن منعه من الكلام مدة ثلاثة أيام وعجزه عنه من غير خرس ولا آفة، بل كان سويًّا لا نقص فيه من الأدلة على قدرة الله الخارقة للعوائد، ومع هذا ممنوع من الكلام الذي يتعلق بالآدميين وخطابهم، وأما التسبيح[3] والذكر ونحوه فغير ممنوع منه، ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ۝٤١﴾ [آل عمران: ٤١].

۝١١ فاطمأن قلبه، واستبشر بهذه البشارة العظيمة، وامتثل لأمر الله له بالشكر بعبادته وذكره، فعكف في محرابه، وخرج على قومه منه ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: بالإشارة والرمز، ﴿أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١﴾: لأن البشارة بيحيى في حق الجميع مصلحة دينية.

﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٥﴾.

۝١٢ دل الكلام السابق على ولادة يحيى وشبابه وتربيته، فلما وصل إلى حالة يفهم فيها الخطاب؛ أمره الله أن يأخذ الكتاب بقوة؛ أي: بجد واجتهاد، وذلك بالاجتهاد في حفظ ألفاظه وفهم معانيه والعمل بأوامره ونواهيه، هذا تمام أخذ الكتاب بقوة، فامتثل أمر ربه، وأقبل على الكتاب فحفظه وفهمه، وجعل الله فيه من الذكاء والفطنة ما لا يوجد في غيره، ولهذا قال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢﴾[4].

(٢) ط: «ومؤداهما».

(٣) زاد في ط: «والتهليل».

(٤) زاد في ط: «أي: معرفة أحكام الله والحكم بها وهو في حال صغره وصباه».

يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾
وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ
يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ
وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ
مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا
فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ
أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ
رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى
غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ
قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً
مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ
بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ
قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾
فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾
وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾

﴿١٣﴾ وآتيناه أيضًا حنانًا ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾؛ أي: رحمة ورأفة تيسرت بها أموره، وصلحت بها أحواله، واستقامت بها أفعاله. ﴿وَزَكَوٰةً﴾؛ أي: طهارة من الآفات والذنوب، فطهر قلبه وتزكى عقله، وذلك يتضمن زوال الأوصاف المذمومة والأخلاق الرديئة وزيادة الأخلاق الحسنة والأوصاف المحمودة، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾﴾؛ أي: فاعلًا للمأمور تاركًا للمحظور.

﴿١٤﴾ ومن كان مؤمنًا تقيًا؛ كان لله وليًا، وكان من أهل الجنة التي أعدت للمتقين، وحصل له من الثواب الدنيوي والأخروي ما رتبه الله على التقوى، وكان أيضًا برًا ﴿بِوَٰلِدَيْهِ﴾؛ أي: لم يكن عاقًا ولا مسيئًا إلى أبويه، بل كان محسنًا إليهما بالقول والفعل. ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾؛ أي: لم يكن متجبرًا متكبرًا عن عبادة الله، ولا مترفعًا على عباد الله ولا على والديه، بل كان متواضعًا متذللًا مطيعًا أوّابًا لله على الدوام، فجمع بين القيام بحق الله وحق خلقه.

﴿١٥﴾ ولهذا حصلت له السلامة من الله في جميع أحواله؛ مبادئها وعواقبها؛ فلذا قال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾: وذلك يقتضي سلامته من الشيطان والشر والعقاب في هذه الأحوال الثلاثة وما بينها، وأنه سالم من النار والأهوال، ومن أهل دار السلام؛ فصلوات الله وسلامه عليه وعلى والده وعلى سائر المرسلين، وجعلنا[1] من أتباعهم إنه جواد كريم.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾.

﴿١٦﴾ لما ذكر قصة زكريا ويحيى، وكانت من الآيات العجيبة؛ انتقل منها إلى ما هو أعجب منها تدريجًا من الأدنى إلى الأعلى، فقال: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾: الكريم ﴿مَرْيَمَ﴾: عليها السلام، وهذا من أعظم فضائلها؛ أن تذكر في الكتاب العظيم الذي يتلوه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها؛ تذكر فيه بأحسن الذكر وأفضل الثناء؛ جزاء لعملها الفاضل وسعيها الكامل؛ أي: واذكر في الكتاب مريم في حالها الحسنة حين ﴿ٱنتَبَذَتْ﴾؛ أي: تباعدت عن أهلها ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾؛ أي: مما يلي الشرق عنهم.

﴿١٧﴾ ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾؛ أي: سترًا ومانعًا، وهذا التباعد منها واتخاذ الحجاب لتعتزل وتنفرد بعبادة ربها، وتقنت له في حالة الإخلاص والخضوع والذل لله تعالى، وذلك امتثال منها لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران: ٤٢، ٤٣]. وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾: وهو جبريل عليه السلام، ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾؛ أي: كاملًا من الرجال في صورة جميلة وهيئة حسنة، لا عيب فيه ولا نقص؛ لكونها لا تحتمل رؤيته على ما هو عليه.

(١) ع: «وجعلنا الله».

(١٨) فلما رأته في هذه الحال، وهي معتزلة عن أهلها، منفردة عن الناس، قد اتخذت الحجاب عن أعز الناس عليها، وهم أهلها؛ خافت أن يكون رجلًا قد تعرض لها بسوء وطمع فيها، فاعتصمت بربها واستعاذت منه فقالت له: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ﴾؛ أي: ألتجئ به، وأعتصم برحمته أن تنالني بسوء، ﴿إِن كُنتَ تَقِيّٗا (١٨)﴾؛ أي: إن كنت تخاف الله وتعمل بتقواه؛ فاترك التعرض لي؛ فجمعت بين الاعتصام بربها وبين تخويفه وترهيبه وأمره بلزوم التقوى، وهي في تلك الحالة الخالية والشباب والبعد عن الناس، وهو في ذلك الجمال الباهر والبشرية الكاملة السوية، ولم ينطق لها بسوء أو يتعرض لها، وإنما ذلك خوف منها، وهذا أبلغ ما يكون من العفة والبعد عن الشر وأسبابه، وهذه العفة خصوصًا مع اجتماع الدواعي، وعدم المانع من أفضل الأعمال، ولذلك أثنى الله عليها، فقال: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]، ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ (٩١)﴾ [الأنبياء: ٩١]؛ فأعاضها الله بعفتها ولدًا من آيات الله، ورسولًا من رسله.

(١٩) فلما رأى جبريل منها الروع والخيفة؛ قال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾؛ أي: إنما وظيفتي وشغلي تنفيذ رسالة ربي فيك، ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا (١٩)﴾: وهذه بشارة عظيمة بالولد وزكائه؛ فإن الزكاء يستلزم تطهيره من الخصال الذميمة واتصافه بالخصال الحميدة.

(٢٠) فتعجبت من وجود الولد من غير أب، فقالت: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا (٢٠)﴾: والولد لا يوجد إلا بذلك.

(٢١) ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ﴾: تدل على كمال قدرة الله تعالى وعلى أن الأسباب جميعها لا تستقل بالتأثير، وإنما تأثيرها بتقدير الله، فيري عباده خرق العوائد في بعض الأسباب العادية؛ لئلا يقفوا مع الأسباب، ويقطعوا النظر عن مقدرها ومسببها. ﴿وَرَحۡمَةٗ مِّنَّا﴾؛ أي: ولنجعله رحمة منا به وبوالدته وبالناس: أما رحمة الله به؛ فلما خصه الله بوحيه، ومنّ عليه بما منّ به على أولي العزم. وأما رحمته بوالدته؛ فلِمَا حصل لها من الفخر والثناء الحسن والمنافع العظيمة. وأما رحمته بالناس؛ فإن أكبر نعمه عليهم أن بعث فيهم رسولًا، يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة فيؤمنون به، ويطيعونه، وتحصل لهم سعادة الدنيا والآخرة. ﴿وَكَانَ﴾؛ أي: وجود عيسى عليه السلام على هذه الحالة ﴿أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا (٢١)﴾: قضاء سابقًا؛ فلا بد من نفوذ هذا التقدير والقضاء، فنفخ جبريل عليه السلام في جيبها.

﴿فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا (٢٢) فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا (٢٣) فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا (٢٤) وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا (٢٥) فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا (٢٦)﴾.

(٢٢) أي: لما حملت بعيسى عليه السلام؛ خافت من الفضيحة، فتباعدت عن الناس مكانًا قصيًّا.

(٢٣) فلما قرب ولادها؛ ألجأها المخاض إلى جذع نخلة، فلما آلمها وجع الولادة، ووجع الانفراد عن الطعام والشراب، ووجع قلبها من قالة الناس، وخافت عدم صبرها؛ تمنت أنها ماتت قبل هذا الحادث وكانت نسيًا منسيًّا؛ فلا تذكر، وهذا التمني بناء على ذلك المزعج، وليس في هذه الأمنية خير لها ولا مصلحة، وإنما الخير والمصلحة بتقدير ما حصل.

(٢٤) فحينئذ سكَّن الملك روعها، وثبَّت جأشها، وناداها من تحتها؛ لعله من مكان أنزل من مكانها، وقال لها: لا تحزني؛ أي: لا تجزعي ولا تهتمي؛ فـ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا (٢٤)﴾؛ أي: نهرًا تشربين منه.

(٢٥) ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا (٢٥)﴾؛ أي: طريًّا لذيذًا نافعًا.

(٢٦) ﴿فَكُلِي﴾: من التمر، ﴿وَٱشۡرَبِي﴾: من النهر، ﴿وَقَرِّي عَيۡنٗا﴾: بعيسى؛ فهذا طمأنينتها من جهة السلامة من ألم الولادة وحصول المأكل والمشرب الهني، وأما من جهة قالة الناس؛ فأمرها أنها إذا رأت أحدًا من البشر أن تقول على وجه الإشارة: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا﴾؛ أي: سكوتًا، ﴿فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا (٢٦)﴾؛ أي: لا تخاطبيهم بكلام لتستريحي من قولهم وكلامهم، وكان معروفًا عندهم أن السكوت من العبادات المشروعة. وإنما

لم تؤمر بمخاطبتهم في نفي ذلك عن نفسها، لأن الناس لا يصدقونها، ولا فيه فائدة، وليكون تبرئتها بكلام عيسى في المهد أعظم شاهد على براءتها؛ فإن إتيان المرأة بولد من دون زوج ودعواها أنه من غير أحد من أكبر الدعاوى التي لو أقيم عدة من الشهود لم تصدق بذلك، فجُعلت بينة هذا الخارق للعادة أمرًا من جنسه، وهو كلام عيسى في حال صغره جدًّا، ولهذا قال تعالى:

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾.

﴿٢٧﴾ أي: فلما تعلت مريم من نفاسها؛ أتت بعيسى قومها تحمله، وذلك لعلمها ببراءة نفسها وطهارتها، فأتت غير مبالية ولا مكترثة، فقالوا: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾؛ أي: عظيمًا وخيمًا، وأرادوا بذلك البغاء حاشاها من ذلك.

﴿٢٨﴾ ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾: الظاهر أنه أخ لها حقيقي فنسبوها إليه[1]، ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾؛ أي: لم يكن أبواك إلا صالحين سالمين من الشر، وخصوصًا هذا الشر الذي يشيرون إليه، وقصدهم: فكيف كنت على غير وصفهما وأتيت بما لم يأتيا به؟! وذلك أن الذرية في الغالب بعضها من بعض في الصلاح وضده، فتعجبوا بحسب ما قام بقلوبهم؛ كيف وقع منها؟!

﴿٢٩﴾ ﴿فَأَشَارَتْ﴾ لهم ﴿إِلَيْهِ﴾؛ أي: كلموه، وإنما أشارت لذلك لأنها أمرت عند مخاطبة الناس لها أن تقول: ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾، فلما أشارت إليهم بتكليمه؛ تعجبوا من ذلك، وقالوا: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾؛ لأن ذلك لم تجر به عادة ولا حصل من أحد في ذلك السن.

الجزء السادس عشر — سورة مريم

فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ
إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾
فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا
فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ
أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى
ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى
نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ
وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى
جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ
وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ
ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ
إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ
فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ
بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ
وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾

٣٠٧

﴿٣٠﴾ فحينئذ قال عيسى عليه السلام وهو في المهد صبي: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾: فخاطبهم بوصفه بالعبودية، وأنه ليس فيه صفة يستحق بها أن يكون إلهًا أو ابنًا للإله، تعالى الله عن قول النصارى المخالفين لعيسى في قوله: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾، ومدعون موافقته، ﴿ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: قضى أن يؤتيني الكتاب، ﴿وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾: فأخبرهم بأنه عبد الله[2]، وأن الله علمه الكتاب وجعله من جملة أنبيائه؛ فهذا من كماله لنفسه.

﴿٣١﴾ ثم ذكر تكميله لغيره، فقال: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾؛ أي: في أي مكان وأي زمان؛ فالبركة جعلها الله فيَّ من تعليم الخير والدعوة إليه والنهي عن الشر والدعوة إلى الله في أقواله وأفعاله؛ فكل من جالسه أو اجتمع به؛ نالته بركته وسعد به مصاحبه. ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾؛ أي: أوصاني بالقيام بحقوقه التي من أعظمها الصلاة، وحقوق عباده التي أجلها الزكاة؛ مدة حياتي؛ أي: فأنا ممتثل لوصية ربي، عامل عليها، منفذ لها.

---

(١) زاد في ع، ط: «وكانوا يسمون بأسماء الأنبياء، وليس هو هارون بن عمران أخا موسى؛ لأن بينهما قرونًا كثيرة».

(٢) ع: «عبدٌ لِلَّه».

(٣٢) وأوصاني أيضًا أن أبرَّ والدتي فأحسن إليها غاية الإحسان، وأقوم بما ينبغي لها؛ لشرفها وفضلها، ولكونها والدة لها حق الولادة وتوابعها. ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا ﴾؛ أي: متكبرًا على الله مترفعًا على عباده، ﴿ شَقِيًّا (٣٢) ﴾: في دنياي وأخراي، فلم يجعلني كذلك، بل جعلني مطيعًا له خاضعًا خاشعًا متذللًا متواضعًا لعباد الله سعيدًا في الدنيا والآخرة أنا ومن اتبعني.

(٣٣) فلما تم له الكمال ومحامد الخصال؛ قال: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ﴾؛ أي: من فضل ربي وكرمه حصلت لي السلامة يوم ولادتي ويوم موتي ويوم بعثي من الشر والشيطان والعقوبة، وذلك يقتضي سلامته من الأهوال ودار الفجار، وأنه من أهل دار السلام؛ فهذه معجزة عظيمة وبرهان باهر على أنه رسول الله وعبد الله حقًّا.

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٣٦) ﴾.

(٣٤)، (٣٥) أي: ذلك الموصوف بتلك الصفات عيسى ابن مريم من غير شك ولا مرية، بل ﴿ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ﴾ وكلام الله الذي لا أصدق منه قيلًا ولا أحسن منه حديثًا؛ فهذا الخبر اليقيني عن عيسى عليه السلام، وما قيل فيه مما يخالف هذا؛ فإنه مقطوع ببطلانه، وغايته أن يكون شكًّا من قائله لا علم له به، ولهذا قال: ﴿ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) ﴾؛ أي: يشكون فيمارون بشكهم ويجادلون بخرصهم؛ فمن قائل عنه: إنه الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، تعالى الله عن إفكهم وتقولهم علوًّا كبيرًا؛ فـ ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ﴾؛ أي: ما ينبغي ولا يليق؛ لأن ذلك من الأمور المستحيلة؛ لأنه الغني الحميد المالك لجميع الممالك؛ فكيف يتخذ من عباده ومماليكه ولدًا. ﴿ سُبْحَٰنَهُۥٓ ﴾؛ أي: تنزه وتقدس عن الولد والنقص، ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا ﴾؛ أي: من الأمور الصغار والكبار؛ لم يمتنع عليه ولم يستصعب، ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٣٥) ﴾؛ فإذا كان قدره ومشيئته نافذًا في العالم العلوي والسفلي، فكيف يكون له ولد؟! وإذا كان، إذا أراد شيئًا؛ قال له: كن فيكون؛ فكيف يستبعد إيجاده عيسى من غير أب؟!

(٣٦) ولهذا أخبر عيسى أنه عبد مربوب كغيره، فقال: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ ﴾: الذي خلقنا وصورنا ونفذ فينا تدبيره وصرفنا تقديره. ﴿ فَٱعْبُدُوهُ ﴾؛ أي: أخلصوا له العبادة واجتهدوا في الإنابة. وفي هذا الإقرار بتوحيد الربوبية وتوحيد الإلهية والاستدلال بالأول على الثاني، ولهذا قال: ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٣٦) ﴾؛ أي: طريق معتدل موصل إلى الله؛ لكونه طريق الرسل وأتباعهم، وما عدا هذا؛ فإنه من طرق الغي والضلال.

﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٣٨) ﴾.

(٣٧) لما بين تعالى حال عيسى ابن مريم الذي لا يشك فيها ولا يمترى؛ أخبر أن الأحزاب؛ أي: فرق الضلال من اليهود والنصارى وغيرهم على اختلاف طبقاتهم اختلفوا في عيسى عليه السلام؛ فمن غالٍ فيه وجافٍ؛ فمنهم من قال: إنه الله! ومنهم من قال: إنه ابن الله! ومنهم من قال: إنه ثالث ثلاثة! ومنهم من لم يجعله رسولًا، بل رماه بأنه ولد بغيٍّ كاليهود! وكل هؤلاء أقوالهم باطلة، وآراؤهم فاسدة مبنية على الشك والعناد والأدلة الفاسدة والشبه الكاسدة، وكل هؤلاء مستحقون للوعيد الشديد، ولهذا قال: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾: بالله ورسله وكتبه، ويدخل فيهم اليهود والنصارى، القائلون بعيسى قول الكفر، ﴿ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) ﴾؛ أي: مشهد يوم القيامة، الذي يشهده الأولون والآخرون، أهل السماوات وأهل الأرض، الخالق والمخلوق، الممتلئ بالزلازل والأهوال، المشتمل على الجزاء بالأعمال؛ فحينئذ يتبين ما كانوا يخفون، ويبدون، وما كانوا يكتمون.

(٣٨) ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾؛ أي: ما أسمعهم وما أبصرهم في ذلك اليوم، فيقرون بكفرهم وشركهم وأقوالهم، ويقولون: ﴿ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) ﴾ [السجدة: ١٢]: ففي القيامة يستيقنون حقيقة ما هم عليه. ﴿ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٣٨) ﴾: وليس لهم عذر في هذا الضلال؛ لأنهم بين معاند ضال على بصيرة عارف بالحق صادف عنه، وبين ضالٍّ عن طريق الحق، متمكن من معرفة الحق والصواب، ولكنه راضٍ بضلاله، وما هو عليه من سوء أعماله، غير ساعٍ في معرفة الحق من الباطل.

وتأمل كيف قال: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾؛ بعد قوله: ﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ ﴾، ولم يقل: فويل لهم؛ ليعود الضمير إلى الأحزاب؛ لأن من الأحزاب المختلفين طائفة أصابت الصواب، ووافقت الحق فقالت في عيسى: إنه عبد الله ورسوله، فآمنوا به واتبعوه؛ فهؤلاء مؤمنون غير داخلين في هذا الوعيد؛ فلهذا خص الله بالوعيد الكافرين.

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿٣٩﴾، ﴿٤٠﴾ الإنذار: هو الإعلام بالمخوف على وجه الترهيب والإخبار بصفاته، وأحق ما ينذر به ويخوف به العباد يوم الحسرة حين يقضى الأمر، فيجمع الأولون والآخرون في موقف واحد، ويسألون عن أعمالهم؛ فمن آمن بالله واتبع رسله؛ سعد سعادة لا يشقى بعدها، ومن لم يؤمن بالله ويتبع رسله؛ شقي شقاوة لا يسعد[1] بعدها، وخسر نفسه وأهله؛ فحينئذ يتحسر ويندم ندامة تنقطع منها القلوب، وتتصدع منها الأفئدة، وأي حسرة أعظم من فوات رضا الله وجنته واستحقاق سخطه والنار على وجه لا يَتَمَكَّنُ من الرجوع ليستأنف العمل، ولا سبيل له إلى تغيير حاله بالعود إلى الدنيا؟! فهذا قدامهم، والحال أنهم في الدنيا في غفلة عن هذا الأمر العظيم؛ لا يخطر بقلوبهم، ولو خطر؛ فعلى سبيل الغفلة، قد عمَّتهم الغفلة، وشملتهم السكرة؛ فهم لا يؤمنون بالله، ولا يتبعون رسله، قد ألهتهم دنياهم، وحالت بينهم وبين الإيمان شهواتهم المنقضية الفانية؛ فالدنيا وما فيها من أولها إلى آخرها ستذهب عن أهلها ويذهبون عنها، وسيرث الله الأرض ومن عليها، ويرجعهم إليه، فيجازيهم بما عملوا فيها، وما خسروا فيها أو ربحوا؛ فمن عمل خيرًا؛ فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك؛ فلا يلومنَّ إلا نفسه.

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ

(١) ع، ط: «سعادة».

سورة مريم — الجزء السادس عشر

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ
﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَاذْكُرْ
فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ
لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ
إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا
سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ
عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ
فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي
يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ
سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾
وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ
أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ
مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾
وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾
وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾

٣٠٨

أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ ﴾.

أجل الكتب وأفضلها وأعلاها، هذا الكتاب المبين، والذكر الحكيم؛ فإن ذُكِرَ فيه الأخبار؛ كانت أصدق الأخبار وأحقها وأنفعها، وإن ذكر فيه الأمر والنهي؛ كانت أجل الأوامر والنواهي وأعدلها وأقسطها، وإن ذكر فيه الجزاء والوعد والوعيد؛ كان أصدق الأنباء وأحقها وأدلها على الحكمة والعدل والفضل، وإن ذكر فيه الأنبياء والمرسلون؛ كان المذكور فيه أكمل من غيره وأفضل، ولهذا كثيرًا ما يبدئ ويعيد في قصص الأنبياء الذين فضَّلهم على غيرهم، ورفع قدرهم وأعلى أمرهم بسبب ما قاموا به من عبادة الله ومحبته،

والإنابة إليـه، والقيام بحقوقه، وحقوق العباد، ودعوة الخلق إلـى الله، والصبر على ذلـك، والمقامات الفاخرة، والمنازل العاليـة، فذكـر اللـه في هذه السـورة جملة من الأنبيـاء؛ يأمر اللـه رسـوله أن يذكرهـم؛ لأن فـي ذكرهم إظهـار الثناء على الله وعليهم، وبيان فضله وإحسانه إليهـم، وفيه الحث على الإيمان بهم ومحبتهم، والاقتداء بهم، فقال:

(٤١) ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ ﴾: جمـع الله له بيـن الصديقية والنبـوة؛ فالصديق كثير الصدق؛ فهـو الصـادق فـي أقوالـه وأفعاله وأحوالـه، المصدِّق بكل ما أمـر بالتصديق به، وذلك يسـتلزم العلـم العظيم، الواصل إلـى القلب، المؤثر فيـه، الموجب لليقيـن، والعمل الصالح الكامـل، وإبراهيم عليه السـلام هو أفضـل الأنبياء كلهم بعد محمـد ﷺ، وهو الأب الثالث للطوائف الفاضلة، وهو الذي جعـل الله في ذريته النبـوة والكتاب، وهو الـذي دعا الخلق إلى الله، وصبر على ما ناله من العذاب العظيم، فدعا القريب والبعيد، واجتهد في دعوة أبيه مهما أمكنه.

(٤٢) وذكر الله مراجعته إياه فقال: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ ﴾: مهجنًا لـه عبـادة الأوثـان: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ ﴾؛ أي: لِـمَ تعبـد أصنامًـا ناقصة في ذاتها وفي أفعالها؛ فلا تسـمع، ولا تبصـر، ولا تملك لعابدها نفعًا ولا ضرًّا، بـل لا تملك لأنفسـها شـيئًا مـن النفـع، ولا تقدر على شـيء مـن الدفع؟! فهذا برهان جلي دالٌّ على أن عبادة الناقـص في ذاته وأفعاله مسـتقبح عقلًا وشـرعًا، ودل تنبيهه وإشـارته أن الذي يجب ويحسـن عبادة من له الكمال، الذي لا ينـال العباد نعمة إلا منه، ولا يدفع عنهم نقمة إلا هو، وهو الله تعالى.

(٤٣) ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾؛ أي: يا أبـت لا تَحْقِرْني وتقـول: إني ابنـك، وإن عنـدك ما ليس عندي، بل قد أعطاني الله من العلم ما لم يعطك، والمقصود مـن هـذا قولـه: ﴿ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ ﴾؛ أي: مسـتقيمًا معتدلًا، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وطاعته في جميع الأحوال.

وفـي هـذا مـن لطـف الخطـاب ولينـه مـا لا يخفـى، فإنه لم يقـل: يا أبـت أنا عالم وأنـت جاهل، أو: ليـس عندك من العلـم شـيء، وإنما أتى بصيغـة تقتضـي[1] أن عندي وعندك علمًـا، وأن الذي وصل إليَّ لم يصل إليك ولم يأتك؛ فينبغي لك أن تتبع الحجة وتنقاد لها.

(٤٤) ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾: لأن مـن عبـد غير الله؛ فقـد عبد الشيطان؛ كما قال تعالـى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [يـس: ٦٠]. ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ ﴾: فمـن اتبـع خطواتـه؛ فقد اتخذه وليًّا، وكان عاصيًا لله بمنزلة الشـيطان. وفـي ذكـر إضافـة العصيان إلى اسـم الرحمن إشـارة إلى أن المعاصـي تمنع العبد من رحمة الله وتغلق عليه أبوابها؛ كما أن الطاعة أكبر الأسباب لنيل رحمته.

(٤٥) ولهـذا قـال: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾؛ أي: بسـبب إصـرارك علـى الكفـر، وتماديـك في الطغيـان، ﴿ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ ﴾؛ أي: فـي الدنيـا والآخـرة، فتنزل بمنازله الذميمة، وترتع في مراتعه الوخيمة، فتدرَّج الخليل عليه السـلام بدعوة أبيه بالأسـهل فالأسـهل، فأخبـره بعلمـه، وأن ذلك موجـب لاتباعك إيـاي، وأنك إن أطعتنـي؛ اهتديـت إلـى صراط مسـتقيم. ثـم نهاه عـن عبادة الشـيطان، وأخبره بما فيها من المضـار. ثم حذره عقاب الله ونقمته إن أقام على حاله، وأنه يكون وليًّا للشيطان.

(٤٦) فلم ينجع هذا الدعاء بذلك الشـقي، وأجاب بجواب جاهـل وقـال: ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾: فتبجـح بآلهته التي هي من الحجر والأصنام، ولام إبراهيم عن رغبته عنها، وهذا من الجهل المفرط والكفر الوخيم؛ يتمدح بعبادة الأوثان ويدعو إليها. ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ ﴾؛ أي: عن شـتم آلهتي ودعوتـي إلى عبادة الله، ﴿ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾؛ أي: قتلًا بالحجارة، ﴿ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ ﴾؛ أي: لا تكلمني زمانًا طويلًا.

(٤٧) فأجابـه الخليـل جـواب عبـاد الرحمن عنـد خطاب الجاهليـن، ولم يشـتمه، بل صبـر، ولم يقابل أبـاه بما يكره، وقال: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ﴾؛ أي: ستسـلم من خطابي إياك بالشتم والسـب وبمـا تكـره، ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ ﴾؛ أي: لا أزال أدعـو الله لـك بالهداية والمغفرة بأن يهديك للإسلام الذي به تحصل المغفرة؛ فـ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ ﴾؛ أي: رحيمًـا رءوفًـا بحالـي معتنيًـا بي، فلم يزل يسـتغفر الله له رجـاء أن يهديه الله، فلما تبين له أنه عدو لله، وأنه لا يفيد فيه شيئًا؛ ترك الاستغفار له وتبرأ منه.

(١) زيادة ليست في الأصل.

وقـد أمرنا اللـه باتباع ملـة إبراهيم؛ فمن اتباع ملته سـلوك طريقـه فـي الدعوة إلـى الله بطريـق العلم والحكمـة واللين والسـهولة والانتقال من رتبة إلى رتبة[1]، والصبر على ذلك، وعدم السآمة منه، والصبر على ما ينال الداعي من أذى الخلق بالقول والفعل، ومقابلة ذلك بالصفح والعفو، بل بالإحسان القولي والفعلي.

(٤٨) فلمـا أيـس مـن قومـه وأبيـه؛ قـال: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: أنتـم وأصنامكـم، ﴿ وَأَدْعُواْ رَبِّى ﴾: وهـذا شـامل لدعاء العبادة ودعاء المسـألة، ﴿ عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا (٤٨) ﴾؛ أي: عسى الله أن يسعدني بإجابـة دعائي وقبـول أعمالـي، وهذه وظيفة مـن أيس ممن دعاهم - فاتبعوا أهواءهم، فلم تنجع فيهم المواعظ، فأصروا فـي طغيانهم يعمهـون - أن يشـتغل بإصلاح نفسـه، ويرجو القبول من ربه، ويعتزل الشر وأهله.

(٤٩) ولما كان مفارقة الإنسـان لوطنه ومَألَفِه وأهله وقومه من أشق شيء على النفس لأمور كثيرة معروفة، ومنها انفراده عمـن يتعزز بهم ويتكثر، وكان من ترك شـيئًا لله؛ عوضه الله خيـرًا منه، واعتـزل إبراهيم قومه؛ قـال الله في حقه: ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا ﴾: مـن إسـحاق ويعقـوب، ﴿ جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) ﴾: فحصـل لـه ولهؤلاء الصالحين المرسـلين إلى الناس، الذين خصهم الله بوحيه، واختارهم لرسالته، واصطفاهم من العالمين.

(٥٠) ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم ﴾؛ أي: لإبراهيـم وابنيـه إسـحاق ويعقـوب، ﴿ مِّن رَّحْمَتِنَا ﴾: وهـذا يشـمل جميـع مـا وهـب اللـه لهم من الرحمة مـن العلوم النافعـة والأعمال الصالحة والذريـة الكثيـرة المنتشـرة، الذيـن قـد كثـر فيهـم الأنبيـاء والصالحون، ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠) ﴾: وهذا أيضًـا من الرحمة التي وهبها لهم؛ لأن الله وعد كل محسـن أن ينشـر لـه ثنـاء صادقًا بحسـب إحسـانه، وهؤلاء مـن أئمة المحسـنين، فنشـر الله الثناء الحسـن الصادق غير الكاذب العالـي غير الخفـي، فذكرُهم مـلأ الخافقين، والثنـاء عليهم ومحبتهم امتلأت بها القلوب وفاضت بها الألسـنة، فصاروا قدوة للمقتدين وأئمة للمهتدين، ولا تزال أذكارهم في سـائر العصـور متجددة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشـاء، والله ذو الفضل العظيم.

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (٥١) وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا (٥٣) ﴾.

(٥١) أي: واذكـر فـي هذا القرآن العظيم موسـى بن عمران علـى وجـه التبجيل لـه والتعظيـم والتعريف بمقامـه الكريم وأخلاقـه الكاملة. ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا ﴾: قـرئ بفتح اللام على معنـى أن اللـه تعالى اختـاره، واسـتخلصه، واصطفـاه على العالميـن، وقـرئ بكسـرها علـى معنـى أنـه كان مُخْلِصًا لله تعالى فـي جميع أعمالـه وأقواله ونياتـه، فوصفه الإخلاص فـي جميع أحوالـه، والمعنيـان متلازمـان؛ فإن اللـه أخلصه لإخلاصـه، وإخلاصـه موجـب لاسـتخلاصه، وأجـل حالة يوصـف بهـا العبد الإخـلاص منه والاسـتخلاص مـن ربه. ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (٥١) ﴾؛ أي: جمـع اللـه لـه بيـن الرسـالة والنبوة؛ فالرسـالة تقتضي تبليغ كلام المرسِـل وتبليغ جميع مـا جـاء به من الشـرع دقه وجلـه، والنبوة تقتضـي إيحاء الله إليـه وتخصيصـه بإنـزال الوحي إليـه؛ فالنبوة بينـه وبين ربه، والرسالة بينه وبين الخلق.

(٥٢) بل خصه الله من أنواع الوحي بأجلِّ أنواعه وأفضلها، وهـو تكليمه تعالـى وتقريبه مناجيًا لله تعالـى، وبهذا اختُصَّ من بيـن الأنبياء بأنه كليم الرحمـن، ولهذا قال: ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ ﴾؛ أي: الأيمن من موسـى في وقت مسيره، أو: الأيمـن؛ أي: الأبـرك من اليمن والبركـة، ويدل على هذا المعنـى قوله تعالى: ﴿ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [النمل: ٨]. ﴿ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا (٥٢) ﴾: والفـرق بيـن النـداء والنجـاء: أن النداء هو الصوت الرفيع، والنجاء ما دون ذلك.

وفـي هـذا إثبـات الـكلام للـه تعالـى وأنواعـه مـن النداء والنجـاء؛ كما هو مذهب أهل السـنة والجماعـة؛ خلافًا لمن أنكر ذلك من الجهمية والمعتزلة، ومن نحا نحوهم.

(٥٣) وقولـه: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا (٥٣) ﴾: هذا من أكبر فضائل موسـى وإحسانه ونصحه لأخيه هارون: أنـه سـأل ربـه أن يشـركه فـي أمـره وأن يجعله رسـولًا مثله، فاسـتجاب اللـه له ذلك، ووهـب له من رحمتـه أخاه هارون نبيًّا؛ فنبوة هارون تابعة لنبوة موسـى عليهما السلام، فساعده على أمره وأعانه عليه.

---

(١) عبارة: «رتبة إلى رتبة» وردت في ع، ط: «مرتبة إلى مرتبة».

وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن
رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ
صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ
وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ
إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ
وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ
ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ
خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا
﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ
وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ
بِٱلْغَيْبِ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا
وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ
عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ
أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾

٣٠٩

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿٥٤﴾ أي: واذكر في القرآن الكريم هذا النبي العظيم، الذي خرج منه الشعب العربي، أفضل الشعوب وأجلها، الذين منهم سيد ولد آدم. ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ ﴾؛ أي: لا يَعِدُ وعْدًا إلا وفَّى به، وهذا شامل للوعد الذي يعقده مع الله أو مع العباد، ولهذا لما وعد من نفسه الصبر على ذبح أبيه له؛ قال: ﴿ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الصافات: ١٠٢]: وفَّى بذلك، ومكن أباه من الذبح الذي هو أكبر مصيبة تصيب الإنسان. ثم وصفه بالرسالة والنبوة التي هي أكبر منن الله على عبده، وجعله[1] من الطبقة العليا من الخلق.

﴿٥٥﴾ ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ ﴾؛ أي: كان مقيمًا لأمر الله على أهله، فيأمرهم بالصلاة المتضمنة للإخلاص للمعبود، وبالزكاة المتضمنة للإحسان إلى العبيد؛ فكمل نفسه، وكمل غيره، وخصوصًا أخص الناس عنده، وهم أهله؛ لأنهم أحق بدعوته من غيرهم. ﴿ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾: وذلك بسبب امتثاله لمراضي ربه واجتهاده فيما يرضيه؛ ارتضاه الله وجعله من خواص عباده وأوليائه المقربين؛ فرضي الله عنه، ورضي هو[2] عن ربه.

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿٥٦﴾ أي: اذكر في الكتاب على وجه التعظيم والإجلال والوصف بصفات الكمال إدريس. ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ ﴾: جمع الله له بين الصديقية الجامعة للتصديق التام والعلم الكامل واليقين الثابت والعمل الصالح، وبين اصطفائه لوحيه واختياره لرسالته.

﴿٥٧﴾ ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾؛ أي: رفع الله ذكره في العالمين ومنزلته بين المقربين، فكان عالي الذكر عالي المنزلة.

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿٥٨﴾ لما ذكر هؤلاء الأنبياء المكرمين وخواص المرسلين وذكر فضائلهم ومراتبهم؛ قال: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾؛ أي: أنعم الله عليهم نعمة لا تُلحق ومنة لا تسبق؛ من النبوة والرسالة، وهم الذين أمرنا أن ندعو الله أن يهدينا صراط الذين أنعم عليهم، وأن من أطاع الله كان ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [النساء: ٦٩] الآية، وأن بعضهم ﴿ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾؛ أي: من ذريته. ﴿ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ ﴾: فهذه خير بيوت العالم، اصطفاهم الله واختارهم واجتباهم، وكان حالهم عند تلاوة آيات الرحمن عليهم، المتضمنة للإخبار بالغيوب وصفات علام الغيوب والإخبار باليوم الآخر والوعد والوعيد؛ ﴿ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ ﴾؛ أي: خضعوا لآيات الله، وخشعوا لها، وأثرت في قلوبهم من الإيمان والرغبة والرهبة ما أوجب لهم البكاء والإنابة والسجود لربهم، ولم يكونوا من الذين إذا سمعوا آيات الله؛ خروا عليها صمًّا وعميانًا.

وفي إضافة الآيات إلى اسمه الرحمن دلالة على أن آياته من رحمته بعباده وإحسانه إليهم؛ حيث هداهم بها إلى

(١) ع، ط: «وأهلها».

(٢) ساقط من ع.

الحق، وبصرهم من العمى، وأنقذهم من الضلالة، وعلمهم من الجهالة.

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿٥٩﴾ لما ذكر تعالى هؤلاء الأنبياء وهم المخلصون، المتبعون لمراضي ربهم، المنيبون إليه؛ ذكر من أتى بعدهم وبدلوا ما أمروا به، وأنه خلف ﴿ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ ﴾: رجعوا إلى الخلف والوراء، فـ﴿ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾: التي أمروا بالمحافظة عليها وإقامتها، فتهاونوا بها وضيعوها، وإذا ضيعوا الصلاة التي هي عماد الدين وميزان الإيمان والإخلاص لرب العالمين، التي هي آكد الأعمال وأفضل الخصال؛ كانوا لما سواها من دينهم أضيع وله أرفض. والسبب الداعي لذلك أنهم اتبعوا شهوات أنفسهم وإراداتها، فصارت هممهم منصرفة إليها مقدمة لها على حقوق الله، فنشأ من ذلك التضييع لحقوقه والإقبال على شهوات أنفسهم مهما لاحت لهم حصَّلوها، وعلى أي وجه اتفقت تناولوها. ﴿ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾؛ أي: عذابًا مضاعفًا شديدًا.

﴿٦٠﴾ ثم استثنى تعالى فقال: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ ﴾: عن الشرك والبدع والمعاصي، فأقلع عنها، وندم عليها، وعزم عزمًا جازمًا ألَّا يعاودها، ﴿ وَءَامَنَ ﴾: بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ﴿ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ﴾: وهو العمل الذي شرعه الله على ألسنة رسله إذا قصد به وجهه، ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾: الذين جمعوا بين التوبة والإيمان والعمل الصالح، ﴿ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ ﴾: المشتملة على النعيم المقيم والعيش السليم وجوار الرب الكريم، ﴿ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ ﴾: من أعمالهم، بل يجدونها كاملة، موفرة أجورها، مضاعفًا عددها.

﴿٦١﴾ ثم ذكر أن الجنة التي وعدهم بدخولها ليست كسائر الجنات، وإنما هي: ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ﴾؛ أي: جنات إقامة لا ظعن فيها ولا حِوَلَ ولا زوال، وذلك لسعتها وكثرة ما فيها من الخيرات والسرور والبهجة والحبور. ﴿ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾؛ أي: التي وعدها الرحمن، أضافها إلى اسمه الرحمن؛ لأنها فيها من الرحمة والإحسان ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وسماها تعالى رحمته، فقال: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٧]. وأيضًا؛ ففي إضافتها إلى رحمته ما يدل على استمرار سرورها، وأنها باقية ببقاء رحمته التي هي أثرها وموجِبُها.

والعباد في هذه الآية المراد عباد إلهيته، الذين عبدوه والتزموا شرائعه، فصارت العبودية وصفًا لهم؛ كقوله: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ [الفرقان: ٦٣]، ونحوه؛ بخلاف عباده المماليك فقط، الذين لم يعبدوه؛ فهؤلاء وإن كانوا عبيدًا لربوبيته لأنه خلقهم ورزقهم ودبرهم؛ فليسوا داخلين في عبيد إلهيته، العبودية الاختيارية التي يمدح صاحبها، وإنما عبوديتهم عبودية اضطرار لا مدح لهم فيها.

وقوله: ﴿ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾: يحتمل أن تكون متعلقة بوعد الرحمن، فيكون المعنى على هذا: أن الله وعدهم إياها وعدًا غائبًا لم يشاهدوه، ولم يروه فآمنوا بها، وصدقوا غيبها، وسعوا لها سعيها مع أنهم لم يروها؛ فكيف لو رأوها؛ لكانوا أشد لها طلبًا وأعظم فيها رغبة وأكثر لها سعيًا، ويكون في هذا مدح لهم بإيمانهم بالغيب، الذي هو الإيمان النافع.

ويحتمل أن تكون متعلقة بعباده؛ أي: الذين عبدوه في حال غيبهم وعدم رؤيتهم إياه؛ فهذه عبادتهم ولم يروه؛ فلو رأوه؛ لكانوا أشد له عبادة وأعظم إنابة وأكثر حبًّا وأجل شوقًا.

ويحتمل أيضًا أن المعنى: هذه الجنات التي وعدها الرحمن عباده من الأمور التي لا تدركها الأوصاف ولا يعلمها أحد إلا الله؛ ففيه من التشويق لها، والوصف المجمل ما يهيج النفوس، ويزعج الساكن إلى طلبها، فيكون هذا مثل قوله: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة: ١٧].

والمعاني كلها صحيحة ثابتة، ولكن الاحتمال الأول أولى؛ بدليل قوله: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ ﴾: لا بد من وقوعه؛ فإنه لا يخلف الميعاد، وهو أصدق القائلين.

﴿٦٢﴾ ﴿ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا ﴾؛ أي: كلامًا لاغيًا لا فائدة فيه ولا ما يؤثم؛ فلا يسمعون فيها شتمًا ولا عيبًا ولا قولًا فيه معصية لله أو قولًا مكدرًا، ﴿ إِلَّا سَلَٰمٗا ﴾؛ أي: إلا الأقوال السالمة

رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ
هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ
أُخۡرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ
وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ
لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ
شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ
هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ
حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ
فِيهَا جِثِيّٗا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ﴿٧٣﴾ وَكَمۡ
أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ﴿٧٤﴾ قُلۡ مَن
كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ
إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا
وَأَضۡعَفُ جُندٗا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ
وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾

من كل عيب؛ من ذكر لله، وتحية، وكلام سرور وبشارة، ومطارحة الأحاديث الحسنة بين الإخوان، وسماع خطاب الرحمن، والأصوات الشجية من الحور والملائكة والولدان، والنغمات المطربة، والألفاظ الرخيمة؛ لأن الدار دار السلام؛ فليس فيها إلا السلام التام من جميع الوجوه. ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾﴾؛ أي: أرزاقهم من المآكل والمشارب وأنواع اللذات مستمرة حيثما طلبوا وفي أي وقت رغبوا، ومن تمامها ولذتها وحسنها أن تكون في أوقات معلومة ﴿بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾﴾؛ ليعظم وقعها، ويتم نفعها.

(٦٣) فـ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ﴾: التي وصفناها بما ذكر ﴿ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾﴾؛ أي: نورثها المتقين، ونجعلها منزلهم الدائم، الذي لا يظعنون عنه ولا يبغون عنه حولًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣].

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ﴿٦٤﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴿٦٥﴾﴾.

(٦٤) استبطأ النبي ﷺ جبريل عليه السلام مرة في نزوله إليه، فقال له: لو تأتينا أكثر مما تأتينا؛ شوقًا[1] إليه وتوحشًا لفراقه وليطمئن قلبه بنزوله؛ فأنزل الله تعالى على لسان جبريل: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَ﴾؛ أي: ليس لنا من الأمر شيء، إن أمرنا؛ ابتدرنا أمره ولم نعص له أمرًا؛ كما قال عنهم: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم: ٦]؛ فنحن عبيد مأمورون. ﴿لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: له الأمور الماضية والمستقبلة والحاضرة في الزمان والمكان؛ فإذا تبين أن الأمر كله لله، وأننا عبيد مدبرون، فيبقى الأمر دائرًا بين؛ هل تقتضيه الحكمة الإلهية فينفذه أم لا تقتضيه فيؤخره؟ ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ﴿٦٤﴾﴾؛ أي: لم يكن الله لينساك ويهملك؛ كما قال تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الضحى: ٣]: بل لم يزل معتنيًا بأمورك مجريًا لك على أحسن عوائده الجميلة وتدابيره الجميلة؛ أي: فإذا تأخر نزولنا عن الوقت المعتاد؛ فلا يحزنك ذلك ولا يهمك، واعلم أن الله هو الذي أراد ذلك؛ لما له من الحكمة فيه.

(٦٥) ثم علل إحاطة علمه وعدم نسيانه بأنه ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾: فربوبيته للسماوات والأرض، وكونهما على أحسن نظام وأكمله، ليس فيه غفلة ولا إهمال ولا سدًى ولا باطل: برهان قاطع على علمه الشامل؛ فلا تشغل نفسك بذلك، بل اشغلها بما ينفعك ويعود عليك طائله، وهو عبادته وحده لا شريك له، ﴿وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾؛ أي: اصبر نفسك عليها، وجاهدها، وقم عليها أتم القيام وأكمله بحسب قدرتك، وفي الاشتغال بعبادة الله تسلية للعابد عن جميع التعلقات والمشتهيات؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِ﴾ إلى أن قال: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا﴾ [طه: ١٣١، ١٣٢] الآيتان[2].

﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴿٦٥﴾﴾؛ أي: هل تعلم لله مساميًا ومشابهًا ومماثلًا من المخلوقين؟ وهذا استفهام بمعنى النفي المعلوم بالعقل؛ أي: لا تعلم له مساميًا ولا مشابهًا؛

---

(١) ع: «تشوقًا».
(٢) ع: «الآية».

لأنه الرب، وغيره مربوب، الخالق وغيره مخلوق، الغني من جميع الوجوه، وغيره فقير بالذات من كل وجه، الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وغيره ناقص ليس فيه من الكمال إلا ما أعطاه الله تعالى؛ فهذا برهان قاطع على أن الله هو المستحق لإفراده بالعبودية، وأن عبادته حق، وعبادة ما سواه باطل؛ فلهذا أمر بعبادته وحده والاصطبار لها، وعلل ذلك بكماله وانفراده بالعظمة والأسماء الحسنى.

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿٦٦﴾ المراد بالإنسان ههنا كل منكر للبعث مستبعد لوقوعه؛ فيقول مستفهمًا على وجه النفي والعناد والكفر: ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ ﴾؛ أي: كيف يعيدني الله حيًّا بعد الموت وبعد ما كنت رميمًا؟! هذا لا يكون ولا يتصور! وهذا بحسب عقله الفاسد ومقصده السيئ وعناده لرسل الله وكتبه؛ فلو نظر أدنى نظر وتأمل أدنى تأمل؛ لرأى استبعاده للبعث في غاية السخافة.

﴿٦٧﴾ ولهذا ذكر تعالى برهانًا قاطعًا ودليلًا واضحًا يعرفه كل أحد على إمكان البعث، فقال: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ ﴾؛ أي: أولا يلتفت نظره ويستذكر حالته الأولى، وأن الله خلقه أول مرة ولم يك شيئًا؟! فمن قدر على خلقه من العدم، ولم يك شيئًا مذكورًا؛ أليس بقادر على إنشائه بعدما تمزق، وجمعه بعدما تفرق؟! وهذا كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧].

وفي قوله: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾: دعوة للنظر بالدليل العقلي بألطف خطاب، وأن إنكار من أنكر ذلك مبني على غفلة منه عن حاله الأولى، وإلا؛ فلو تذكرها وأحضرها في ذهنه؛ لم ينكر ذلك.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿٦٨﴾ أقسم الله تعالى وهو أصدق القائلين بربوبيته ليحشرن هؤلاء المنكرين للبعث هم وشياطينهم، فيجمعهم لميقات يوم معلوم، ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ﴾؛ أي: جاثين على ركبهم من شدة الأهوال وكثرة الزلزال وفظاعة الأحوال، منتظرين لحكم الكبير المتعال.

﴿٦٩﴾ ولهذا ذكر حكمه فيهم، فقال: ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ﴾؛ أي: ثم لننزعن من كل طائفة وفرقة من الظالمين المشتركين في الظلم والكفر والعتو أشدهم عتوًّا وأعظمهم ظلمًا وأكبرهم كفرًا، فيقدمهم إلى العذاب، ثم هكذا يقدم إلى العذاب الأغلظ إثمًا فالأغلظ، وهم في تلك الحال متلاعنون؛ يلعن بعضهم بعضًا، ويقول أخراهم لأولاهم: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ [الأعراف: ٣٨، ٣٩].

﴿٧٠﴾ وكل هذا تابع لعدله وحكمته وعلمه الواسع، ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ ﴾؛ أي: علمنا محيط بمن هو أولى صليًّا بالنار، قد علمناهم، وعلمنا أعمالهم واستحقاقها وقسطها من العذاب.

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾.

﴿٧١﴾ وهذا خطاب لسائر الخلائق؛ برّهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم؛ أنه ما منهم من أحد إلا سيرد النار، حكمًا حتمه الله على نفسه، وأوعد به عباده؛ فلا بد من نفوذه، ولا محيد عن وقوعه. واختلف في معنى الورود: فقيل: ورودها حضورها للخلائق كلهم حتى يحصل الانزعاج من كل أحد، ثم بعد ينجي الله المتقين.

وقيل: ورودها دخولها، فتكون على المؤمنين بردًا وسلامًا. وقيل: الورود هو المرور على الصراط الذي هو على متن جهنم، فيمر الناس على قدر أعمالهم؛ فمنهم من يمر كلمح البصر، وكالريح، وكأجاويد الخيل، وكأجاويد الركاب، ومنهم من يسعى، ومنهم من يمشي مشيًا، ومنهم من يزحف زحفًا، ومنهم من يخطف فيلقى في النار؛ كل بحسب تقواه.

﴿٧٢﴾ ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ﴾: الله تعالى بفعل المأمور واجتناب المحظور. ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾: أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾: وهذا بسبب ظلمهم وكفرهم، وجب لهم الخلود وحق عليهم العذاب، وتقطعت بهم الأسباب.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿٧٣﴾ أي: وإذا تتلى على هؤلاء الكفار آياتنا بينات؛ أي: واضحات الدلالة على وحدانية الله وصدق رسله، توجب لمن سمعها صدق الإيمان وشدة الإيقان؛ قابلوها بضد ما يجب لها، واستهزءوا بها وبمن آمن بها، واستدلوا بحسن حالهم في الدنيا على أنهم خير من المؤمنين، فقالوا معارضين للحق: ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾؛ أي: نحن والمؤمنون ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾؛ أي: في الدنيا من كثرة الأموال والأولاد وتفرق[1] الشهوات. ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾؛ أي: مجلسًا؛ أي: فاستنتجوا من هذه المقدمة الفاسدة بسبب أنهم أكثر مالًا وأولادًا، وقد حصلت[2] أكثر مطالبهم من الدنيا، ومجالسهم وأنديتهم مزخرفة مزوقة، والمؤمنون بخلاف هذه الحال؛ فهم خير من المؤمنين!!

﴿٧٤﴾ وهذا دليل في غاية الفساد، وهو من باب قلب الحقائق، وإلا؛ فكثرة الأموال والأولاد وحسن المنظر كثيرًا ما يكون سببًا لهلاك صاحبه وشقائه وشره، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا﴾؛ أي: متاعًا من أوانٍ وفرش وبيوت وزخارف، ﴿وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾؛ أي: أحسن مرأى ومنظرًا من غضارة العيش وسرور اللذات وحسن الصور؛ فإذا كان هؤلاء المهلكون أحسن منهم أثاثًا ورئيًا، ولم يمنعهم ذلك من حلول العقاب بهم؛ فكيف يكون هؤلاء وهم أقل منهم وأذل معتصمين من العذاب، ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [القمر: ٤٣]؟! وعلم من هذا أن الاستدلال على خير الآخرة بخير الدنيا من أفسد الأدلة وأنه من طرق الكفار.

﴿ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿٧٥﴾ لما ذكر دليلهم الباطل الدال على شدة عنادهم وقوة ضلالهم؛ أخبر هنا أن من كان في الضلالة؛ بأن رضيها لنفسه، وسعى فيها؛ فإن الله يمده منها ويزيده فيها حبًّا؛ عقوبة له على اختيارها على الهدى؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٠]. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟﴾؛ أي: القائلون: ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾، ﴿مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ﴾: بقتل أو غيره، ﴿وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾: التي هي باب الجزاء على الأعمال. ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾؛ أي: فحينئذ يتبين لهم بطلان دعواهم، وأنها دعوى مضمحلة، ويتيقنون أنهم أهل الشر وأضعف جندًا، ولكن لا يفيدهم هذا العلم شيئًا؛ لأنه لا يمكنهم الرجوع إلى الدنيا فيعملون غير عملهم الأول.

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾.

﴿٧٦﴾ لما ذكر أنه يمد للظالمين[3] في ضلالهم؛ ذكر أنه يزيد المهتدين هداية من فضله عليهم ورحمته، والهدى يشمل العلم النافع والعمل الصالح؛ فكل من سلك طريقًا في العلم والإيمان والعمل[4] الصالح؛ زاده الله منه، وسهله عليه، ويسره له، ووهب له أمورًا أخر لا تدخل تحت كسبه، وفي هذا دليل على زيادة الإيمان ونقصه؛ كما قاله السلف الصالح.

ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١]، ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]. ويدل عليه أيضًا الواقع؛ فإن الإيمان قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح، والمؤمنون متفاوتون في هذه الأمور أعظم تفاوت.

ثم قال: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾؛ أي: الأعمال الباقية التي لا تنقطع إذا انقطع غيرها ولا تضمحل، هي الصالحات منها؛ من صلاة وزكاة وصوم وحج وعمرة وقراءة وتسبيح وتكبير وتحميد وتهليل وإحسان إلى المخلوقين وأعمال قلبية وبدنية؛ فهذه الأعمال ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾؛ أي: خير عند الله ثوابها وأجرها، وكثير للعاملين نفعها وردها، وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل في غير بابه؛ فإنه ما ثَمَّ غير الباقيات الصالحات عمل ينفع ولا يبقى لصاحبه ثوابه ولا ينجع، ومناسبته ذكر الباقيات الصالحات. والله أعلم:

(١) ع: «وتوفر»، ط: «وتفوق».
(٢) ع، ط: «حصلت لهم».
(٣) ع: «للضالين».
(٤) عبارة: «والإيمان والعمل» وردت في ع: «أو الإيمان أو العمل».

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا
﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ
سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ
مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً
لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ
عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ
تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾
يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ
إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ
ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ
جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ
وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا
﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى
ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ
وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾

أنه لما ذكر أن الظالمين جعلوا أحوال الدنيا من المال والولد وحسن المقام ونحو ذلك علامة لحسن حال صاحبها؛ أخبر هنا أن الأمر ليس كما زعموا، بل العمل الذي هو عنوان السعادة ومنشور الفلاح، هو العمل بما يحبه الله ويرضاه.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾.

﴿٧٧﴾ أي: أفلا تعجب[1] من حالة هذا الكافر، الذي جمع بين كفره بآيات الله ودعواه الكبيرة أنه سيؤتى في الآخرة مالًا وولدًا؛ أي: يكون من أهل الجنة، هذا من أعجب الأمور؛ فلو كان مؤمنًا بالله وادعى هذه الدعوى؛ لسهل الأمر.

وهذه الآية وإن كانت نازلة في كافر معين؛ فإنها تشمل كل كافر زعم أنه على الحق، وأنه من أهل الجنة.

﴿٧٨﴾ قال الله توبيخًا له وتكذيبًا: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾؛ أي: أحاط علمه بالغيب حتى علم ما يكون، وأن من جملة ما يكون أنه يؤتى يوم القيامة مالًا وولدًا. ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾: أنه نائل ما قاله؛ أي: لم يكن شيء من ذلك، فعلم أنه متقول قائل ما لا علم له به. وهذا التقسيم والترديد في غاية ما يكون من الإلزام وإقامة الحجة؛ فإن الذي يزعم أنه حاصل له خير عند الله في الآخرة لا يخلو: إما أن يكون قوله صادرًا عن علم بالغيوب المستقبلة، وقد علم أن هذا لله وحده؛ فلا أحد يعلم شيئًا من المستقبلات الغيبية إلا من[2] أطلعه الله عليه من رسله.

وإما أن يكون متخذًا عهدًا عند الله، بالإيمان به، واتباع رسله الذين[3] عهد الله لأهله، وأوزع أنهم أهل الآخرة، الناجون الفائزون؛ فإذا انتفى هذان الأمران؛ علم بذلك بطلان الدعوى.

﴿٧٩﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿كَلَّا﴾؛ أي: ليس الأمر كما زعم؛ فليس للقائل اطلاع على الغيب، لأنه كافر ليس عنده من علم الرسائل[4] شيء، ولا اتخذ عند الرحمن عهدًا؛ لكفره وعدم إيمانه ولكنه يستحق ضد ما تقوَّله، وأن قوله مكتوب محفوظ ليجازى عليه ويعاقب، ولهذا قال: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾﴾؛ أي: نزيده من أنواع العقوبات كما ازداد من الغي والضلال.

﴿٨٠﴾ ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾؛ أي: نرثه ماله وولده، فينتقل من الدنيا فردًا بلا مال ولا أهل ولا أنصار ولا أعوان، ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾: فيرى من وخيم [العذاب وأليم][5] العقاب ما هو جزاء أمثاله من الظالمين.

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾.

﴿٨٣﴾ وهذا من عقوبة الكافرين: أنهم لما لم يعتصموا بالله ولم يتمسكوا بحبل الله، بل أشركوا به ووالوا أعداءه من

(١) ع، ط: «تتعجب».
(٢) ع، ط: «ما».
(٣) ع، ط: «الذي».
(٤) ع، ط: «الرسل».
(٥) ليس في: الأصل، ط.

الشياطين؛ سلطهم عليهم وقيضهم لهم، فجعلت الشياطين تؤزهم إلى المعاصي أزًّا، وتزعجهم إلى الكفر إزعاجًا، فيوسوسون لهم، ويوحون إليهم، ويزينون لهم الباطل، ويقبحون لهم الحق، فيدخل حب الباطل في قلوبهم ويتشربها، فيسعى فيه سعي المحق في حقه، فينصره بجهده، ويحارب عنه، ويجاهد أهل الحق في سبيل الباطل، وهذا كله جزاء له على توليه من وليه وتوليه لعدوه؛ جعل له عليه سلطانًا، وإلا؛ فلو آمن بالله وتوكل عليه؛ لم يكن له عليه سلطان؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ (١٠٠)﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠].

(٨٤) ﴿فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ أي: على هؤلاء الكفار المستعجلين بالعذاب، ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا (٨٤)﴾؛ أي: إن لهم أيامًا معدودة؛ لا يتقدمون عنها ولا يتأخرون، نمهلهم ونحلم عنهم مدة ليراجعوا أمر الله؛ فإذا لم ينجع فيهم ذلك؛ أخذناهم أخذ عزيز مقتدر.

﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا (٨٥) وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا (٨٦) لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا (٨٧)﴾.

(٨٥) يخبر تعالى عن تفاوت الفريقين: المتقين والمجرمين، وأن المتقين له باتقاء الشرك والبدع والمعاصي، يحشرهم إلى موقف القيامة مكرمين مبجلين معظمين، وأن مآلهم الرحمن، وقصدهم المنان وفدًا إليه، والوافد لا بد أن يكون في قلبه من الرجاء وحسن الظن بالوافد إليه ما هو معلوم، فالمتقون يفدون إلى الرحمن راجين منه رحمته وعميم إحسانه والفوز بعطاياه في دار رضوانه، وذلك بسبب ما قدموه من العمل بتقواه واتباع مراضيه، وأن الله عهد إليهم بذلك الثواب على ألسنة رسله، فتوجهوا إلى ربهم مطمئنين به، واثقين بفضله.

(٨٦) وأما المجرمون؛ فإنهم يساقون ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا (٨٦)﴾؛ أي: عطاشًا، وهذا أبشع ما يكون من الحالات سوقهم على وجه الذل والصغار إلى أعظم سجن وأفظع عقوبة، وهو جهنم، في حال ظمئهم ونصبهم؛ يستغيثون فلا يغاثون، ويدعون فلا يستجاب لهم، ويستشفعون فلا يشفع لهم.

(٨٧) ولهذا قال: ﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾؛ أي: ليست الشفاعة ملكهم ولا لهم منها شيء، وإنما هي لله تعالى، ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا﴾ [الزمر: ٤٤]، وقد أخبر أنه لا تنفعهم شفاعة الشافعين؛ لأنهم لم يتخذوا عنده عهدًا بالإيمان به وبرسله، وإلا؛ فمن اتخذ عنده عهدًا، فآمن به وبرسله، واتبعهم؛ فإنه ممن ارتضاه الله وتحصل له الشفاعة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. وسمى الله الإيمان به واتباع رسله عهدًا؛ لأنه عهد في كتبه وعلى ألسنة رسله بالجزاء الجميل لمن اتبعهم.

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا (٨٨) لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا (٨٩) تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا (٩١) وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا (٩٣) لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا (٩٤) وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا (٩٥)﴾.

(٨٨) وهذا تقبيح وتشنيع لقول المعاندين الجاحدين، الذين زعموا أن الرحمن اتخذ ولدًا؛ كقول النصارى: المسيح ابن الله، واليهود: عزير ابن الله، والمشركين: الملائكة بنات الله؛ تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

(٨٩) - (٩١) ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا (٨٩)﴾؛ أي: عظيمًا وخيمًا. من عظيم أمره أنه: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾: على عظمتها وصلابتها؛ ﴿يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ﴾؛ أي: من هذا القول، ﴿وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ﴾: منه؛ أي: تتصدع وتنفطر، ﴿وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا (٩٠)﴾؛ أي: تندك الجبال ﴿أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا (٩١)﴾؛ أي: من أجل هذه الدعوى القبيحة تكاد هذه المخلوقات أن يكون منها ما ذكر.

(٩٢) والحال أنه ﴿وَمَا يَنۢبَغِي﴾؛ أي: لا يليق ولا يكون ﴿لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢)﴾: وذلك لأن اتخاذه الولد يدل على نقصه واحتياجه، وهو الغني الحميد، والولد أيضًا من جنس والده، والله تعالى لا شبيه له ولا مثل ولا سمي.

(٩٣) ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا (٩٣)﴾؛ أي: ذليلًا منقادًا غير متعاص ولا ممتنع؛ الملائكة والإنس والجن وغيرهم، الجميع مماليك متصرف فيهم، ليس لهم من الملك شيء، ولا من التدبير شيء؛ فكيف يكون له ولد وهذا شأنه وعظمة ملكه؟!

﴿٩٤﴾ ﴿ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾؛ أي: لقد أحاط علمه بالخلائق كلهم، أهل السماوات والأرض، وأحصاهم، وأحصى أعمالهم؛ فلا يضل ولا ينسى ولا تخفى عليه خافية.

﴿٩٥﴾ ﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾؛ أي: لا أولاد ولا مال ولا أنصار، ليس معه إلا عمله، فيجازيه الله ويوفيه حسابه، إن خيرًا؛ فخير، وإن شرًّا فشر؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام: ٩٤].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾.

﴿٩٦﴾ هذا من نعمه على عباده الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح: أن وعدهم أن يجعل لهم ودًّا؛ أي: محبة ووِدادًا في قلوب أوليائه وأهل السماء والأرض، وإذا كان لهم في القلوب ود؛ تيسر لهم كثير من أمورهم، وحصل لهم من الخيرات والدعوات والإرشاد والقبول والإمامة ما حصل، ولهذا ورد في الحديث الصحيح[1]: «**إن الله إذا أحب عبدًا؛ نادى جبريل: إني أحب فلانًا؛ فأحبه. فيحبه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلانًا؛ فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض**» وإنما جعل الله لهم ودًّا لأنهم ودوه، وأحبوه، فوددهم إلى أوليائه وأحبابه.

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾ ﴾.

﴿٩٧﴾ يخبر تعالى عن نعمته، وأنه[2] يسر هذا القرآن الكريم بلسان الرسول محمد ﷺ؛ يسر ألفاظه ومعانيه؛ ليحصل المقصود منه والانتفاع به؛ ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾: بالترغيب في المبشر به من الثواب العاجل والآجل، وذكر الأسباب الموجبة للبشارة، ﴿ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ ﴾؛ أي: شديدين في باطلهم، أقوياء في كفرهم، فتنذرهم، فتقوم عليهم الحجة، وتتبين لهم المحجة، فيهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة.

(١) البخاري (٦٠٤٠)، مسلم (٢٦٣٧).
(٢) ع: «وأن الله».

سورة طه — الجزء السادس عشر

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾

سُورَةُ طه — مكية ٢٠ — آياتها ١٣٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾

٣١٢

﴿٩٨﴾ ثم توعدهم بإهلاك المكذبين قبلهم، فقال: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾: من قوم نوح، وعاد، وثمود، وفرعون، وغيرهم من المعاندين المكذبين، لما استمروا في طغيانهم؛ أهلكهم الله؛ فليس لهم من باقية. ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾ ﴾: والركز: الصوت الخفي؛ أي: لم يبق منهم عين ولا أثر، بل بقيت أخبارهم عبرة للمعتبرين، وأسمارهم عظة للمتعظين.

تم تفسير سورة مريم. ولله الحمد والشكر.

تفسير سورة طه
وهي مكية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٨﴾﴾.

﴿١﴾، ﴿٢﴾ ﴿طه ﴿١﴾﴾: من جملة الحروف المقطعة المفتتح بها كثير من السور، وليست اسمًا للنبي ﷺ. ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴿٢﴾﴾؛ أي: ليس المقصود بالوحي وإنزال القرآن عليك وشرع الشريعة لتشقى بذلك، ويكون في الشريعة تكليف يشق على المكلفين، وتعجز عنه قوى العاملين، وإنما الوحي والقرآن والشرع شرعه الرحيم الرحمن، وجعله موصلًا للسعادة والفلاح والفوز، وسهله غاية التسهيل، ويسر كل طرقه وأبوابه، وجعله غذاء للقلوب والأرواح وراحة للأبدان، فتلقته الفطر السليمة والعقول المستقيمة بالقبول والإذعان؛ لعلمها بما احتوى عليه من الخير في الدنيا والآخرة.

﴿٣﴾ ولهذا قال: ﴿إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴿٣﴾﴾: إلا ليتذكر به من يخشى الله تعالى، فيتذكر ما فيه من الترغيب لأجل المطالب فيعمل بذلك، ومن الترهيب عن الشقاء والخسران فيرهب منه، ويتذكر به الأحكام الحسنة الشرعية المفصلة التي كان مستقرًّا في عقله حسنها مجملًا، فوافق التفصيل ما يجده في فطرته وعقله، ولهذا سماه الله تذكرة، والتذكرة لشيء كان موجودًا؛ إلا أن صاحبه غافل عنه أو غير مستحضر لتفصيله.

وخص بالتذكرة من يخشى؛ لأن غيره لا ينتفع به، وكيف ينتفع به من لم يؤمن بجنة ولا نار ولا في قلبه من خشية الله مثقال ذرة؟! هذا ما لا يكون، ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ [الأعلى: ١٠-١٢].

﴿٤﴾ ثم ذكر جلالة هذا القرآن العظيم، وأنه تنزيل خالق الأرض والسماوات، المدبر لجميع المخلوقات؛ أي: فاقبلوا تنزيله بغاية الإذعان والمحبة والتسليم، وعظموه نهاية التعظيم. وكثيرًا ما يقرن بين الخلق والأمر؛ كما في هذه الآية وكما في قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وفي قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، وذلك أنه الخالق الآمر الناهي؛ فكما أنه لا خالق سواه؛ فليس على الخلق إلزام ولا أمر ولا نهي إلا من خالقهم. وأيضًا؛ فإن خلقه للخلق فيه من التدبير القدري الكوني، وأمره فيه التدبير الشرعي الديني؛ فكما أن الخلق لا يخرج عن الحكمة، فلم يخلق شيئًا عبثًا؛ فكذلك لا يأمر ولا ينهى إلا بما هو عدل وحكمة وإحسان.

﴿٥﴾ فلما بين أنه الخالق المدبر الآمر الناهي؛ أخبر عن عظمته وكبريائه، فقال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾: الذي هو أرفع المخلوقات وأعظمها وأوسعها، ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾: استواء يليق بجلاله ويناسب عظمته وجماله، فاستوى على العرش، واحتوى على الملك.

﴿٦﴾ ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾: من ملك وإنسي وجني وحيوان وجماد ونبات، ﴿وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾﴾؛ أي: الأرض؛ فالجميع ملك لله تعالى، عبيد مدبرون مسخرون تحت قضائه وتدبيره، ليس لهم من الملك شيء، ولا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

﴿٧﴾ ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ﴾: الكلام الخفي، ﴿وَأَخۡفَى ﴿٧﴾﴾: من السر، الذي في القلب ولم ينطق به، أو السر ما خطر على القلب، وأخفى ما لم يخطر؛ يعلم تعالى أنه يخطر في وقته وعلى صفته. المعنى أن علمه تعالى محيط بجميع الأشياء؛ دقيقها وجليلها؛ خفيها وظاهرها؛ فسواء جهرت بقولك أو أسررته؛ فالكل سواء بالنسبة لعلمه تعالى.

﴿٨﴾ فلما قرر كماله المطلق بعموم خلقه وعموم أمره ونهيه وعموم رحمته وسعة عظمته وعلوه على عرشه وعموم ملكه وعموم علمه؛ نتج من ذلك أنه المستحق للعبادة، وأن عبادته هي الحق التي يوجبها الشرع والعقل والفطرة، وعبادة غيره باطلة، فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا معبود بحق ولا مألوه بالحب والذل والخوف والرجاء والمحبة والإنابة والدعاء إلا هو. ﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٨﴾﴾؛ أي: له الأسماء الكثيرة الكاملة الحسنى: من حسنها أنها كلها أسماء دالة على المدح؛ فليس فيها اسم لا يدل على المدح والحمد، ومن حسنها أنها ليست أعلامًا محضة، وإنما هي

أسماء وأوصاف، ومن حسنها أنها دالة على الصفات الكاملة وأن له من كل صفة أكملها وأعمها وأجلها، ومن حسنها أنه أمر العباد أن يدعوه بها؛ لأنها وسيلة مقربة إليه؛ يحبها ويحب من يحبها، ويحب من يحفظها، ويحب من يبحث عن معانيها، ويتعبد له بها؛ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ
لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ
عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا
رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢)﴾.

(٩)، (١٠) يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ على وجه الاستفهام التقريري والتعظيم لهذه القصة والتفخيم لها: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩)﴾: في حاله التي هي مبدأ سعادته ومنشأ نبوته؛ أنه رأى نارًا من بعيد، وكان قد ضل الطريق، وأصابه البرد، ولم يكن عنده ما يتدفأ به في سفره. فقال لأهله: ﴿إِنِّي آنَسْتُ﴾؛ أي: أبصرت ﴿نَارًا﴾: وكان ذلك في جانب الطور الأيمن. ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ﴾: تصطلون به، ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠)﴾؛ أي: من يهديني الطريق. وكان مطلبه النور الحسي والهداية الحسية، فوجد ثَمَّ النور المعنوي؛ نور الوحي الذي تستنير به الأرواح والقلوب، والهداية الحقيقية؛ هداية الصراط المستقيم الموصلة إلى جنات النعيم، فحصل له أمر لم يكن في حسابه ولا خطر بباله.

(١١) ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾؛ أي: النار التي آنسها من بعيد، وكانت في الحقيقة نورًا، وهي نار تحرق وتشرق، ويدل على ذلك قوله ﷺ: «حجابه النور - أو النار - لو كشفه؛ لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره»[1]. فلما وصل إليها؛ نودي منها؛ أي: ناداه الله؛ كما قال: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢)﴾ [مريم: ٥٢].

(١٢) ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢)﴾: أخبره أنه ربه، وأمره أن يستعد ويتهيأ لمناجاته ويهتم لذلك، ويلقي نعليه، لأنه بالوادي المقدس المطهر المعظم، ولو لم يكن من تقديسه إلا أنه[2] اختاره لمناجاته كليمه موسى؛ لكفى. وقد قال كثير من المفسرين: إن الله أمره أن يلقي نعليه؛ لأنهما من جلد حمار[3]؛ فالله أعلم بذلك.

(١) مسلم (١٧٩).
(٢) ع: «أن الله».
(٣) الترمذي (١٧٣٤)، الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٧٩).

وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا
فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ
أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ
عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ
بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا
وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا
يَا مُوسَى ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا
وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ
إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ
مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٢٤﴾ قَالَ
رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ
لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ
أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ
كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ
أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٣٧﴾

(١٣) ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾؛ أي: تخيرتك واصطفيتك من الناس، وهذه أكبر نعمة ومِنَّة أنعم الله بها عليه تقتضي من الشكر ما يليق بها، ولهذا قال: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣)﴾؛ أي: ألق سمعك للذي أوحي إليك؛ فإنه حقيق بذلك؛ لأنه أصل الدين ومبدؤه وعماد الدعوة الإسلامية.

(١٤) ثم بين الذي يوحيه إليه بقوله: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾؛ أي: الله المستحق الألوهية المتصف بها؛ لأنه الكامل في أسمائه وصفاته، المنفرد بأفعاله، الذي لا شريك له ولا مثيل ولا كفو ولا سمي. ﴿فَاعْبُدْنِي﴾: بجميع أنواع العبادة ظاهرها وباطنها أصولها وفروعها. ثم خص الصلاة بالذكر، وإن كانت داخلة في العبادة؛ لفضلها وشرفها وتضمنها عبودية القلب واللسان والجوارح. وقوله: ﴿لِذِكْرِي (١٤)﴾: اللام للتعليل؛ أي: أقم الصلاة لأجل ذكرك إياي؛ لأن ذكره تعالى أجل المقاصد، وبه[4] عبودية القلب، وبه سعادته؛ فالقلب المعطل عن ذكر الله معطل عن كل خير وقد خَرِبَ كل الخراب، فشرع الله للعباد أنواع العبادات التي المقصود

(٤) ع: «وهو».

منها إقامة ذكره، وخصوصًا الصلاة؛ قال تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]؛ أي: ما فيها من ذكر الله أكبر من نهيها عن الفحشاء والمنكر، وهذا النوع يقال له: توحيد الإلهية وتوحيد العبادة؛ فالألوهية وصفه تعالى، والعبودية وصف عبده.

(١٥) ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ ﴾؛ أي: لا بد من وقوعها، ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾؛ أي: عن نفسي؛ كما في بعض القراءات؛ كقوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال: ﴿ وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ [الزخرف: ٨٥]؛ فعلمها قد أخفاه عن الخلائق كلهم؛ فلا يعلمها ملك مقرب ولا نبي مرسل، والحكمة في إتيان الساعة: ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ (١٥) ﴾: من الخير والشر؛ فهي الباب لدار الجزاء، ﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى (٣١) ﴾ [النجم: ٣١].

﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ (١٦) ﴾.

(١٦) أي: فلا يصدك ويشغلك عن الإيمان بالساعة والجزاء والعمل لذلك من كان كافرًا بها، غير معتقد لوقوعها، يسعى في الشك فيها والتشكيك، ويجادل فيها بالباطل، ويقيم من الشبه ما يقدر عليه؛ متبعًا في ذلك هواه، ليس قصده الوصول إلى الحق، وإنما قصاراه اتباع هواه؛ فإياك أن تُصغي إلى من هذه حاله، أو تقبل شيئًا من أقواله وأعماله الصادة عن الإيمان بها والسعي لها سعيها. وإنما حذر الله تعالى عمن هذه حاله؛ لأنه من أخوف ما يكون على المؤمن بوسوسته وتدجيله[1] وكون النفوس مجبولة على التشبه والاقتداء بأبناء الجنس، وفي هذا تنبيه وإشارة إلى التحذير عن كل داع إلى باطل، يصد عن الإيمان الواجب أو عن كماله، أو يوقع الشبهة في القلب، وعن النظر في الكتب المشتملة على ذلك.

وذكر في هذا الإيمان به وعبادته والإيمان باليوم الآخر؛ لأن هذه الأمور الثلاثة أصول الإيمان وركن الدين، وإذا تمت؛ تم أمر الدين، ونقصه أو فقده بنقصها أو نقص شيء منها. وهذه نظير قوله تعالى في الإخبار عن ميزان سعادة الفرق الذين أوتوا الكتاب وشقاوتهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩) ﴾ [المائدة: ٦٩]. وقوله: ﴿ فَتَرْدَىٰ (١٦) ﴾؛ أي: تهلك وتشقى إن اتبعت طريق من يصد عنها، وقوله تعالى:

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ (٢١) وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى (٢٣) ﴾.

(١٧) لما بين الله لموسى أصل الإيمان؛ أراد أن يبين له ويريه من آياته ما يطمئن به قلبه، وتقر به عينه، ويقوى إيمانه بتأييد الله له على عدوه، فقال: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ (١٧) ﴾: هذا مع علمه تعالى، ولكن لزيادة الاهتمام في هذا الموضع؛ أخرج الكلام بطريق الاستفهام.

(١٨) فقال موسى: ﴿ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى ﴾: ذكر فيها هاتين المنفعتين؛ منفعة لجنس الآدمي، وهو أنه يعتمد عليها في قيامه ومشيه، فيحصل فيها معونة ومنفعة للبهائم، وهو أنه كان يرعى الغنم؛ فإذا رعاها في شجر الخبط ونحوه؛ هش بها؛ أي: ضرب الشجر ليتساقط ورقه فيرعاه الغنم. هذا الخلق الحسن من موسى عليه السلام الذي من آثاره حسن رعاية الحيوان البهيم والإحسان إليه دل على عناية من الله له واصطفاء وتخصيص تقتضيه رحمة الله وحكمته. ﴿ وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ ﴾؛ أي: مقاصد ﴿ أُخْرَىٰ ﴾: غير هذين الأمرين.

ومن أدب موسى عليه السلام أن الله لما سأله عما في يمينه، وكان السؤال محتملًا عن السؤال عن عينها أو منفعتها؛ أجابه بعينها ومنفعتها.

(١٩)، (٢٠) فقال الله له: ﴿ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) ﴾: انقلبت بإذن الله ثعبانًا عظيمًا، فولى موسى هاربًا خائفًا ولم يعقب.

وفي وصفها بأنها تسعى إزالة لوهم يمكن وجوده، وهو أن يظن أنها تخييل لا حقيقة؛ فكونها تسعى يزيل هذا الوهم.

(٢١) فقال الله لموسى: ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ﴾؛ أي: ليس عليك منها بأس، ﴿ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ (٢١) ﴾؛ أي: هيئتها وصفتها؛ إذ كانت عصا، فامتثل موسى أمر الله إيمانًا به وتسليمًا، فأخذها، فعادت عصاه التي كان يعرفها. هذه آية.

(١) ع: «وتدخيله».

﴿٢٢﴾ ثم ذكر الآية الأخرى، فقال: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾؛ أي: أدخل يدك إلى[1] جيبك، وضم عليك عضدك الذي هو جناح الإنسان؛ ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾؛ أي: بياضًا ساطعًا من غير عيب ولا برص. ﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿٢٣﴾ قال الله: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [القصص: ٣٢]؛ ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾؛ أي: فعلنا ما ذكرنا من انقلاب العصا حية تسعى ومن خروج اليد بيضاء للناظرين، لأجل أن نريك من آياتنا الكبرى الدالة على صحة رسالتك وحقيقة[2] ما جئت به، فيطمئن قلبك، ويزداد علمك، وتثق بوعد الله لك بالحفظ والنصرة، ولتكون حجة وبرهانًا لمن أرسلت إليهم.

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿٢٤﴾ لما أوحى الله إلى موسى ونبأه وأراه الآيات الباهرات؛ أرسله إلى فرعون ملك مصر، فقال: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾؛ أي: تمرد وزاد على الحد في الكفر والفساد والعلو في الأرض والقهر للضعفاء، حتى إنه ادعى الربوبية والألوهية قبحه الله؛ أي: وطغيانه سبب لهلاكه، ولكن من رحمة الله وحكمته وعدله أنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة بالرسل.

﴿٢٥﴾ فحينئذ علم موسى عليه السلام أنه تحمل حملًا عظيمًا؛ حيث أرسل إلى هذا الجبار العنيد، الذي ليس له منازع في مصر من الخلق، وموسى عليه السلام وحده، وقد جرى منه ما جرى من القتل، فامتثل أمر ربه، وتلقاه بالانشراح والقبول، وسأله المعونة وتيسير الأسباب التي هي من تمام الدعوة، فقال: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾﴾؛ أي: وسعه وافسحه لأتحمل الأذى القولي والفعلي، ولا يتكدر قلبي بذلك، ولا يضيق صدري؛ فإن الصدر إذا ضاق؛ لم يصلح صاحبه لهداية الخلق ودعوتهم؛ قال الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وعسى الخلق يقبلون الحق مع اللين وسعة الصدر وانشراحه عليهم.

﴿٢٦﴾ ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾﴾؛ أي: سهل عليَّ كل أمر أسلكه وكل طريق أقصده في سبيلك، وهون عليَّ ما أمامي من الشدائد، ومن تيسير الأمر أن ييسر للداعي أن يأتي جميع الأمور من أبوابها، ويخاطب كل أحد بما يناسب له، ويدعوه بأقرب الطرق الموصلة إلى قبول قوله.

﴿٢٧﴾، ﴿٢٨﴾ ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾: وكان في لسانه ثقل لا يكاد يفهم عنه الكلام كما قال المفسرون؛ كما قال الله عنه: إنه قال: ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾، فسأل الله أن يحل منه عقدة؛ يفقهوا ما يقول، فيحصل المقصود التام من المخاطبة والمراجعة والبيان عن المعاني.

﴿٢٩﴾، ﴿٣٠﴾ ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾﴾؛ أي: معينًا يعاونني ويؤازرني ويساعدني على من أرسلت إليهم، وسأل أن يكون من أهله؛ لأنه من باب البر، وأحق ببر الإنسان قرابته. ثم عينه بسؤاله، فقال: ﴿هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾﴾.

﴿٣١﴾، ﴿٣٢﴾ ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾﴾؛ أي قوني به وشد به ظهري. قال الله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ [القصص: ٣٥]، ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾﴾؛ أي: في النبوة؛ بأن تجعله نبيًّا رسولًا كما جعلتني.

﴿٣٣﴾، ﴿٣٤﴾ ثم ذكر الفائدة في ذلك، فقال: ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾: علم عليه الصلاة والسلام أن مدار العبادات كلها والدين على ذكر الله، فسأل الله أن يجعل أخاه معه يتساعدان ويتعاونان على البر والتقوى، فيكثر منهما ذكر الله من التسبيح والتهليل وغيره من أنواع العبادات.

﴿٣٥﴾ ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾: تعلم حالنا وضعفنا وعجزنا وافتقارنا إليك في كل الأمور، وأنت أبصر بنا من أنفسنا وأرحم؛ فمن علينا بما سألناك، وأجب لنا فيما دعوناك.

﴿٣٦﴾ فقال الله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾؛ أي: أعطيت جميع ما طلبت، فسنشرح صدرك، ونيسر أمرك، ونحل عقدة من لسانك؛ يفقهوا قولك، ونشد عضدك بأخيك

(١) ع: «في».
(٢) ع: «وحقية».

الجزء السادس عشر — سورة طه

إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ (٣٨) أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ
فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ
عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ (٣٩) إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ
فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ
عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ
فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ (٤٠)
وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي (٤١) ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا
فِي ذِكۡرِي (٤٢) ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا
لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ (٤٤) قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ
أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ
(٤٦) فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ
وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ
ٱلۡهُدَىٰٓ (٤٧) إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ
وَتَوَلَّىٰ (٤٨) قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ
كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ (٥١)

٣١٤

هارون ﴿وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ (٣٥)﴾ [القصص: ٣٥].

وهذا السؤال من موسى عليه السلام، يدل على كمال معرفته بالله وكمال فطنته ومعرفته للأمور وكمال نصحه، وذلك أن الداعي إلى الله المرشد للخلق، خصوصًا إذا كان المدعو من[1] أهل العناد والتكبر والطغيان، يحتاج إلى سعة صدر، وحلم تام على ما يصيبه من الأذى، ولسان فصيح يتمكن من التعبير به عمَّا يريده ويقصده، بل الفصاحة والبلاغة لصاحب هذا المقام من ألزم ما يكون؛ لكثرة المراجعات والمراوضات، ولحاجته لتحسين الحق وتزيينه بما يقدر عليه؛ ليحببه إلى النفوس، وإلى تقبيح الباطل وتهجينه لينفر عنه، ويحتاج مع ذلك أيضًا أن يتيسر له أمره، فيأتي البيوت من أبوابها، ويدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن؛ يعامل الناس كلًّا بحسب حاله، وتمام ذلك أن يكون لمن هذه صفته أعوان ووزراء يساعدونه على مطلوبه؛ لأن الأصوات إذا كثرت؛ لا بد أن تؤثر؛ فلذلك سأله عليه الصلاة والسلام هذه الأمور، فأعطيها.

وإذا نظرت إلى حالة الأنبياء المرسلين إلى الخلق؛ رأيتهم بهذه الحال بحسب أحوالهم، خصوصًا خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ؛ فإنه في الذروة العليا من كل صفة كمال، وله من شرح الصدر وتيسير الأمر وفصاحة اللسان وحسن التعبير والبيان والأعوان على الحق من الصحابة فمن بعدهم ما ليس لغيره.

﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ (٣٧) إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ (٣٨) أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ (٣٩) إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ (٤٠) وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي (٤١)﴾.

(٣٧) - (٣٩) لما ذكر منته على عبده ورسوله موسى بن عمران في الدين والوحي والرسالة وإجابة سؤله؛ ذكر نعمته عليه وقت التربية والتنقلات في أطواره، فقال: ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ (٣٧)﴾: حيث ألهمنا أمك أن تقذفك في التابوت وقت الرضاع خوفًا من فرعون؛ لأنه أمر بذبح أبناء بني إسرائيل، فأخفته أمه وخافت عليه خوفًا شديدًا، فقذفته في التابوت، ثم قذفته في اليم؛ أي: شط نيل مصر، فأمر الله اليم أن يلقيه في الساحل، وقيض الله أن يأخذه أعدى الأعداء لله ولموسى، ويتربى في أولاده، ويكون قرة عين لمن رآه، ولهذا قال: ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي﴾؛ فكل من رآه أحبه. ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ (٣٩)﴾؛ أي: ولتتربى على نظري وفي حفظي وكلاءتي، وأي نظر وكفالة أجل وأكمل من ولاية البر الرحيم القادر على إيصال مصالح عبده ودفع المضار عنه؛ فلا ينتقل من حالة إلى حالة إلا والله تعالى هو الذي دبر ذلك لمصلحة موسى!

(٤٠) ومن حسن تدبيره أن موسى لما وقع في يد عدوه؛ قلقت أمه قلقًا شديدًا، وأصبح فؤادها فارغًا، وكادت تخبر به، لولا أن الله ثبتها وربط على قلبها؛ ففي هذه الحالة حرم الله على موسى المراضع؛ فلا يقبل ثدي امرأة قط؛ ليكون مآله إلى أمه فترضعه ويكون عندها مطمئنة ساكنة قريرة العين، فجعلوا يعرضون عليه المراضع؛ فلا يقبل ثديًا، فجاءت

(١) عبارة: «المدعو من» وردت في ع: «المدعوون».

أخت موسى، فقالت لهم: ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [القصص: ١٢]، ﴿ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا ﴾: وهو القبطي لما دخل المدينة وقت غفلة من أهلها وجد رجلين يقتتلان: واحد من شيعة موسى والآخر من عدوه قبطي، ﴿ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ [القصص: ١٥]، فدعا الله وسأله المغفرة فغفر له، ثم فر هاربًا لما سمع أن الملأ طلبوه يريدون قتله. ﴿ فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ ﴾: من عقوبة الذنب ومن القتل، ﴿ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ﴾؛ أي: اختبرناك وبلوناك فوجدناك مستقيمًا في أحوالك، أو نقَّلْناك في أحوالك وأطوارك حتى وصلت إلى ما وصلت إليه. ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾: حين فر هاربًا من فرعون وملئه حين أرادوا قتله، فتوجه إلى مدين، ووصل إليها، وتزوج هناك، ومكث عشر سنين أو ثماني سنين، ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾؛ أي: جئت مجيئًا [قد مضى به القدر وعلمه الله وأراده في هذا الوقت وهذا الزمان وهذا المكان ليس مجيئك اتفاقًا من غير قصد ولا تدبير منا][1] وهذا يدل على كمال اعتناء الله بكليمه موسى عليه السلام.

﴿٤١﴾ ولهذا قال: ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ﴾؛ أي: أجريت عليك صنائعي ونعمي وحسن عوائدي وتربيتي؛ لتكون لنفسي حبيبًا مختصًّا، وتبلغ في ذلك مبلغًا لا يناله أحد من الخلق إلا النادر منهم.

وإذا كان الحبيب إذا أراد اصطناع حبيبه من المخلوقين، وأراد أن يبلغ من الكمال المطلوب له ما يبلغ؛ يبذل غاية جهده ويسعى نهاية ما يمكنه في إيصاله لذلك؛ فما ظنك بصنائع الرب القادر الكريم؟! وما تحسبه يفعل بمن أراده لنفسه، واصطفاه من خلقه.

﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿٤٢﴾ لما امتن الله على موسى بما امتن به من النعم الدينية والدنيوية؛ قال له: ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ ﴾: هارون ﴿ بِـَٔايَٰتِى ﴾؛ أي: الآيات التي مني، الدالة على الحق وحسنه وقبح الباطل؛ كاليد والعصا ونحوها؛ في تسع آيات إلى فرعون وملئه، ﴿ وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ﴾؛ أي: لا تفترا ولا تكسلا عن مداومة ذكري بالاستمرار عليه والزماه كما وعدتما بذلك: ﴿ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾؛ فإن ذكر الله فيه معونة على جميع الأمور؛ يسهلها، ويخفف حملها.

﴿٤٣﴾ ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾؛ أي: جاوز الحد في كفره وطغيانه وظلمه وعدوانه.

﴿٤٤﴾ ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾؛ أي: سهلًا لطيفًا برفق ولين وأدب في اللفظ من دون فحش ولا صلف ولا غلظة في المقال أو فظاظة في الأفعال. ﴿ لَّعَلَّهُۥ ﴾: بسبب القول اللين ﴿ يَتَذَكَّرُ ﴾: ما ينفعه فيأتيه ﴿ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾: ما يضره فيتركه؛ فإن القول اللين داع لذلك، والقول الغليظ منفر عن صاحبه، وقد فُسِّر القول اللين في قوله: ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [النازعات: ١٨، ١٩]؛ فإن في هذا الكلام من لطف القول وسهولته وعدم بشاعته ما لا يخفى على المتأمل؛ فإنه أتى بـ ﴿ هَل ﴾ الدالة على العرض والمشاورة، التي لا يشمئز منها أحد، ودعاه إلى التزكي والتطهر من الأدناس، التي أصلها التطهر من الشرك، الذي يقبله كل عقل سليم، ولم يقل: أزكيك، بل قال: ﴿ تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ ﴾: أنت بنفسك، ثم دعاه إلى سبيل ربه الذي رباه وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة، التي ينبغي مقابلتها بشكرها وذكرها، فقال: ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾، فلما لم يقبل هذا الكلام اللين الذي يأخذ حسنه بالقلوب؛ علم أنه لا ينجع فيه تذكير، فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر.

﴿٤٥﴾ ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ ﴾؛ أي: يبادرنا بالعقوبة والإيقاع بنا قبل أن تبلغه رسالاتك، ونقيم عليه الحجة، ﴿ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾؛ أي: يتمرد عن الحق، ويطغى بملكه وسلطانه وجنده وأعوانه.

﴿٤٦﴾ ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ ﴾: أن يفرط عليكما؛ ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾؛ أي: أنتما بحفظي ورعايتي، أسمع قولكما، وأرى جميع أحوالكما؛ فلا تخافا منه. فزال الخوف عنهما، واطمأنت قلوبهما بوعد ربهما.

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾.

(١) ما بين معكوفين ورد في الأصل، ط: «ليس اتفاقًا من غير قصد ولا تدبير منا، بل بقدر ولطف منا».

قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾
ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُواْ
وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞مِنۡهَا
خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدۡ
أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا
مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ
فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا
سُوٗى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى
﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم
مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ
وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ
ٱلنَّجۡوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم
مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجۡمِعُواْ
كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴿٦٤﴾

(٤٧) أي: فأتياه بهذين الأمرين: دعوته إلى الإسلام، وتخليص هذا الشعب الشريف بني إسرائيل من قيده وتعبيده لهم؛ ليتحرروا ويملكوا أمرهم، ويقيم فيهم موسى شرع الله ودينه. ﴿قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ﴾: تدل على صدقنا، ﴿فَأَلۡقَىٰ﴾ موسى ﴿عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأعراف: ١٠٧، ١٠٨]... إلى آخر ما ذكر الله عنهما. ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾؛ أي: من اتبع الصراط المستقيم واهتدى بالشرع المبين؛ حصلت له السلامة في الدنيا والآخرة.

(٤٨) ﴿إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ﴾؛ أي: خبرنا[1] من عند الله لا من عند أنفسنا؛ ﴿أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾؛ أي: كذب بأخبار الله وأخبار رسله، وتولى عن الانقياد لهم واتباعهم، وهذا فيه الترغيب لفرعون بالإيمان والتصديق واتباعهما والترهيب من ضد ذلك، ولكن لم يفد فيه هذا الوعظ والتذكير، فأنكر ربه وكفر وجادل في ذلك ظلمًا وعنادًا.

(١) ع: «خبر».

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾.

(٤٩) أي: قال فرعون لموسى على وجه الإنكار: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾؟

(٥٠) فأجاب موسى بجواب شافٍ كافٍ واضح، فقال: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾؛ أي: ربنا الذي خلق جميع المخلوقات، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، الدال[2] على حسن صنعة من خلقه، من كِبَرِ الجسم وصغره وتوسطه وجميع صفاته، ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ كل مخلوق إلى ما خلقه له، وهذه الهداية الكاملة[3] المشاهدة في جميع المخلوقات؛ فكل مخلوق تجده يسعى لما خلق له من المنافع وفي دفع المضار عنه، حتى إن الله أعطى الحيوان البهيم من العقل ما يتمكن به على ذلك، وهذا كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧]: فالذي خلق المخلوقات، وأعطاها خلقها الحسن الذي لا تقترح العقول فوق حسنه، وهداها لمصالحها؛ هو الرب على الحقيقة؛ فإنكاره إنكار لأعظم الأشياء وجودًا، وهو مكابرة ومجاهرة بالكذب؛ فلو قدر أن الإنسان أنكر من الأمور المعلومة ما أنكر؛ كان إنكاره لرب العالمين أكبر من ذلك.

(٥١) ولهذا لما لم يمكن فرعون أن يعاند هذا الدليل القاطع؛ عدل إلى المشاغبة، وحاد عن المقصود، فقال لموسى: ﴿فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥١﴾﴾؛ أي: ما شأنهم؟ وما خبرهم؟ وكيف وصلت بهم الحال وقد سبقونا إلى الإنكار والكفر، والظلم، والعناد، ولنا فيهم أسوة؟

(٥٢) فقال موسى: ﴿عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾؛ أي: قد أحصى أعمالهم من خير وشر، وكتبه في كتابه[4]، وهو اللوح المحفوظ، وأحاط به علمًا وخبرًا؛

(٢) زيادة ليست في الأصل.
(٣) ع، ط: «العامة».
(٤) ع: «كتاب».

فلا يضل عن شيء منها ولا ينسى ما علمه منها، ومضمون ذلك أنهم قَدِمُوا إلى ما قدموه[(١)] ولاقوا أعمالهم وسيجازون عليها؛ فلا معنى لسؤالك واستفهامك يا فرعون عنهم؛ فتلك أمة قد خلت، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم؛ فإن كان الدليل الذي أوردناه عليك والآيات التي أريناكها قد تحققتَ صدقها ويقينها، وهو الواقع؛ فانقد إلى الحق، ودع عنك الكفر والظلم وكثرة الجدال بالباطل، وإن كنت قد شككت فيها أو رأيتها غير مستيقنة[(٢)]؛ فالطريق مفتوح، وباب البحث غير مغلق، فرد الدليل بالدليل والبرهان بالبرهان، ولن تجد لذلك سبيلًا ما دام الملَوان؛ كيف وقد أخبر الله عنه أنه جحدها مع استيقانها؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وقال موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]؟! فعلم أنه ظالم في جداله، قصده العلو في الأرض.

(٥٣) ثم استطرد في هذا الدليل القاطع بذكر كثير من نعمه وإحسانه الضروري، فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾؛ أي: فراشًا بحالة تتمكنون من السكون فيها والقرار والبناء والغراس وإثارتها للازدراع وغيره، وذللها لذلك، ولم يجعلها ممتنعة عن مصلحة من مصالحكم. ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾؛ أي: نفذ لكم الطرق الموصلة من أرض إلى أرض، ومن قطر إلى قطر، حتى كان الآدميون يتمكنون من الوصول إلى جميع الأرض بأسهل ما يكون، وينتفعون بأسفارهم أكثر مما ينتفعون بإقامتهم. ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾؛ أي: أنزل المطر، ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ١٦٤]، وأنبت بذلك جميع أصناف النوابت على اختلاف أنواعها وتشتت أشكالها وتباين أحوالها، فساقه وقدَّره ويسره رزقًا لنا ولأنعامنا، ولولا ذلك؛ لهلك من عليها من آدمي وحيوان.

(٥٤) ولهذا قال: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾: وسياقها على وجه الامتنان؛ ليدل ذلك على أن الأصل في جميع النوابت الإباحة؛ فلا يَحْرُمُ منها إلا ما كان مضرًّا كالسموم ونحوه. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾؛ أي: لذوي العقول الرزينة والأفكار المستقيمة، على فضل الله وإحسانه ورحمته وسعة جوده وتمام عنايته، وعلى أنه الرب المعبود المالك المحمود، الذي لا يستحق العبادة سواه، ولا الحمد والمدح والثناء إلا من امتن بهذه النعم، وعلى أنه على كل شيء قدير؛ فكما أحيا الأرض بعد موتها؛ إن ذلك لمحيي الموتى. وخص الله أولي النهى بذلك لأنهم المنتفعون بها الناظرون إليها نظر اعتبار، وأما من عداهم؛ فإنهم بمنزلة البهائم السارحة والأنعام السائمة، لا ينظرون إليها نظر اعتبار، ولا تنفذ بصائرهم إلى المقصود منها، بل حظهم حظ البهائم؛ يأكلون ويشربون وقلوبهم لاهية وأجسادهم معرضة، ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف: ١٠٥].

(٥٥) ولما ذكر كرم الأرض وحسن شكرها لما ينزله الله عليها من المطر، وأنها بإذن ربها تخرج النبات المختلف الأنواع؛ أخبر أنه خلقنا منها، وفيها يعيدنا إذا متنا فدفنا فيها، ومنها يخرجنا ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾؛ فكما أوجدنا منها من العدم، وقد علمنا ذلك وتحققناه؛ فسيعيدنا بالبعث منها بعد موتنا؛ ليجازينا بأعمالنا التي عملناها عليها. وهذان دليلان على الإعادة عقليان واضحان: إخراج النبات من الأرض بعد موتها، وإخراج المكلفين منها في إيجادهم.

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾.

(٥٦) يخبر تعالى أنه أرى فرعون من الآيات والعبر والقواطع جميع أنواعها العيانية والأفقية والنفسية؛ فما استقام ولا ارعوى، وإنما كذب وتولى؛ كذب الخبر وتولى عن الأمر والنهي، وجعل الحق باطلًا والباطل حقًّا، وجادل بالباطل ليضل الناس.

(٥٧) فقال: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ﴾: زعم أن هذه الآيات التي أراه إياها موسى سحر وتمويه، المقصود منها إخراجهم من أرضهم والاستيلاء عليها؛ ليكون كلامه مؤثرًا في قلوب قومه؛ فإن الطباع تميل إلى أوطانها، ويصعب عليها الخروج منها ومفارقتها، فأخبرهم أن موسى هذا قصده؛ ليبغضوه ويسعوا في محاربته.

(١) ع: «قدَّموا».
(٢) ع، ط: «مستقيمة».

(٥٨) ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ ﴾: مثل سحرك، فأمهلنا واجعل لنا ﴿مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) ﴾؛ أي: مستوٍ علمنا وعلمك به، أو مكانًا مستويًا معتدلًا لتتمكن من رؤية ما فيه.

(٥٩) فقال موسى: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ ﴾: وهو عيدهم الذي يتفرغون فيه ويقطعون شواغلهم، ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى (٥٩) ﴾؛ أي: يجمعون كلهم في وقت الضحى. وإنما سأل موسى ذلك؛ لأن يوم الزينة ووقت الضحى منه يحصل فيه من كثرة الاجتماع ورؤية الأشياء على حقائقها ما لا يحصل في غيره.

(٦٠) ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ﴾؛ أي: جميع ما يقدر عليه مما يكيد به موسى، فأرسل في مدائنه من يحشر السحرة الماهرين في سحرهم، وكان السحر إذ ذاك متوفرًا، وعلمه مرغوبًا فيه، فجمع خلقًا كثيرًا من السحرة، ثم أتى كل منهما للموعد، واجتمع الناس للموعد، فكان الجمع حافلًا، حضره الرجال والنساء والملأ والأشراف والعوام والصغار والكبار، وحضوا الناس على الاجتماع، وقالوا ﴿لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ (٤٠) ﴾ [الشعراء: ٣٩، ٤٠].

(٦١) فحين اجتمعوا من جميع البلدان؛ وعظهم موسى عليه السلام، وأقام عليهم الحجة، وقال لهم: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾؛ أي: لا تنصروا ما أنتم عليه من الباطل بسحركم، وتغالبوا الحق، وتفتروا على الله الكذب، فيستأصلكم بعذاب من عنده، ويخيب سعيكم وافتراؤكم؛ فلا تدركون ما تطلبون من النصر والجاه عند فرعون وملئه، ولا تسلموا من عذاب الله.

(٦٢) وكلام الحق لا بد أن يؤثر في القلوب، لا جرم ارتفع الخصام والنزاع بين السحرة لما سمعوا كلام موسى وارتبكوا، ولعل من جملة نزاعهم الاشتباه في موسى هل هو على الحق أم لا؟ ولكنهم إلى الآن ما تم أمرهم؛ ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا؛ ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ [الأنفال: ٤٢]؛ فحينئذ أسروا فيما بينهم النجوى، وأنهم يتفقون على مقالة واحدة؛ لينجحوا في مقالهم وفعالهم، وليتمسك الناس بدينهم.

(٦٣) والنجوى التي أسروها فسرها بقوله: ﴿ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا ﴾؛ كمقالة فرعون السابقة؛ فإما أن يكون ذلك توافقًا من فرعون والسحرة على هذه المقالة من غير قصد، وإما أن يكون تلقينًا منه لهم مقالته التي صمم عليها وأظهرها للناس، وزادوا على قول فرعون أن قالوا: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ (٦٣) ﴾؛ أي: طريقة السحر؛ حسدكم عليها، وأراد أن يظهر عليكم؛ ليكون له الفخر والصيت والشهرة، ويكون هو المقصود بهذا العلم الذي شغلتم زمانكم فيه ويذهب عنكم ما كنتم تأكلون بسببه، وما يتبع ذلك من الرياسة.

(٦٤) وهذا حض من بعضهم على بعض[1] على الاجتهاد في مغالبته، ولهذا قالوا: ﴿ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ﴾؛ أي: أظهروه دفعة واحدة متظاهرين متساعدين فيه متناصرين متفقًا رأيكم وكلمتكم، ﴿ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ﴾: ليكون أمكن لعملكم وأهيب لكم في القلوب، ولئلا يترك بعضكم بعض مقدوره من العمل، واعلموا أن من أفلح اليوم ونجح وغلب غيره؛ فإنه المفلح الفائز؛ فهذا يوم له ما بعده من الأيام؛ فما أصلبهم[2] في باطلهم وأشدهم فيه! حيث أتوا بكل سبب ووسيلة وممكن ومكيدة يكيدون بها الحق.

(٦٥) ويأبى الله إلا أن يتم نوره ويظهر الحق على الباطل، فلما تمت مكيدتهم وانحصر قصدهم ولم يبق إلا العمل؛ ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ ﴾: عصاك، ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) ﴾: خيروه موهمين أنهم على جزم من ظهورهم عليه بأي حالة كانت.

(٦٦) فقال لهم موسى: ﴿بَلْ أَلْقُوا۟ ﴾: فألقوا حبالهم وعصيهم؛ ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ ﴾؛ أي: إلى موسى ﴿مِن سِحْرِهِمْ ﴾: البليغ، ﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) ﴾: أي: حيات تسعى.

(٦٧) فلما خيل إلى موسى ذلك؛ أوجس في نفسه خيفة كما هو مقتضى الطبيعة البشرية، وإلا؛ فهو جازم بوعد الله ونصره.

(٦٨) ﴿ قُلْنَا ﴾: له تثبيتًا وتطمينًا: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ (٦٨) ﴾: عليهم؛ أي: ستعلو عليهم، وتقهرهم، ويذلوا لك، ويخضعوا.

---

(١) عبارة: «على بعض» وردت في ع: «البعض».
(٢) عبارة: «فما أصلبهم» وردت في ع: «فلله درهم ما أصلبهم».

(٦٩) ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ ﴾؛ أي: عصاك؛ ﴿ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩) ﴾؛ أي: كيدهم ومكرهم ليس بمثمر لهم ولا ناجح؛ فإنه من كيد السحرة الذين يموهون على الناس ويلبسون الباطل ويخيلون أنهم على الحق.

(٧٠) فألقى موسى عصاه، فتلقفت ما صنعوا كله وأكلته، والناس ينظرون لذلك الصنيع، فعلم السحرة علمًا يقينًا أن هذا ليس بسحر، وأنه من الله، فبادروا للإيمان، ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ (٤٦) قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (٤٨) ﴾ [الشعراء: ٤٦-٤٨]، فوقع الحق وظهر وسطع، وبطل السحر والمكر والكيد في ذلك المجمع العظيم، فصارت بينة ورحمة للمؤمنين وحجة على المعاندين.

(٧١) فـ﴿ قَالَ ﴾ فرعون للسحرة: ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾؛ أي: كيف أقدمتم على الإيمان من دون مراجعة مني ولا إذن، استغرب ذلك منهم لأدبهم معه وذلهم وانقيادهم له في كل أمر من أمورهم، وجعل هذا من ذاك، ثم استلج فرعون في كفره وطغيانه بعد هذا البرهان، واستخف عقول[1] قومه، وأظهر لهم أن هذه الغلبة من موسى للسحرة ليس لأن الذي معه الحق، بل لأنه تمالأ هو والسحرة ومكروا ودبروا أن يخرجوا فرعون وقومه من بلادهم، فقبل قومه هذا المكر منه، وظنوه صدقًا، ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ (٥٤) ﴾ [الزخرف: ٥٤]؛ مع أن هذه المقالة التي قالها لا تدخل عقل من له أدنى مُسكة من عقل ومعرفة بالواقع؛ فإن موسى أتى من مدين وحيدًا، وحين أتى؛ لم يجتمع بأحد من السحرة ولا غيرهم، بل بادر إلى دعوة فرعون وقومه، وأراهم الآيات، فأراد فرعون أن يعارض ما جاء به موسى، فسعى ما أمكنه، وأرسل في مدائنه من يجمع له كل ساحر عليم، فجاءوا إليه، ووعدهم الأجر والمنزلة عند الغلبة، وهم حرصوا غاية الحرص وكادوا أشد الكيد على غلبتهم لموسى، وكان منهم ما كان؛ فهل يمكن أو يتصور مع هذا أن يكونوا دبروا هم وموسى واتفقوا على ما صدر؟! هذا من أمحل المحال. ثم توعد فرعون السحرة فقال: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ﴾: كما يفعل بالمحارب الساعي بالفساد؛ يقطع يده اليمنى ورجله اليسرى. ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾؛ أي: لأجل أن تشتهروا وتختزوا. ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ

(١) في الأصل: «بقول».

الجزء السادس عشر — سورة طه

قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩) فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠) قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ (٧٢) إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ (٧٣) إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (٧٤) وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ (٧٥) جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ (٧٦)

٣١٦

أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) ﴾؛ يعني: بزعمه هو وأمته وأنه أشد عذابًا من الله وأبقى؛ قلبًا للحقائق، وترهيبًا لمن لا عقل له.

(٧٢) ولهذا؛ لما عرف السحرة الحق ورزقهم الله من العقل ما يدركون به الحقائق؛ أجابوه بقولهم: ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي لن نختارك وما وعدتنا به من الأجر والتقريب على ما أرانا الله من الآيات البينات: الدالات على أن الله هو الرب المعبود وحده، المعظم المبجل وحده، وأن ما سواه باطل، ونؤثرك على الذي فطرنا وخلقنا، هذا لا يكون. ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾: مما أوعدتنا به من القطع والصلب والعذاب، ﴿ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ (٧٢) ﴾؛ أي: إن ما توعدنا به غاية ما يكون في هذه الحياة الدنيا ينقضي ويزول ولا يضرنا؛ بخلاف عذاب الله لمن استمر على كفره؛ فإنه دائم عظيم. وهذا كأنه جواب منهم لقوله: ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) ﴾. وفي هذا الكلام من السحرة دليل على أنه ينبغي للعاقل أن يوازن بين لذات الدنيا ولذات الآخرة وبين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

(٧٣) ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾؛ أي: كفرنا ومعاصينا؛ فإن الإيمان مكفر للسيئات، والتوبة تجب ما قبلها. وقولهم: ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾: الذي عارضنا به الحق. هذا دليل على أنهم غير مختارين في عملهم المتقدم، وإنما أكرههم فرعون إكراهًا. والظاهر - والله أعلم - أن موسى لما وعظهم - كما تقدم في قوله: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ أثر معهم ووقع منهم موقعًا كبيرًا، ولهذا تنازعوا بعد هذا الكلام والموعظة. ثم إن فرعون ألزمهم ذلك وأكرههم على المكر الذي أجروه، ولهذا تكلموا بكلامه السابق قبل إتيانهم؛ حيث قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا﴾، فجروا على ما سنه لهم وأكرههم عليه. ولعل هذه النكتة التي قامت بقلوبهم من كراهتهم لمعارضة الحق بالباطل، وفعلهم ما فعلوا على وجه الإغماض هي التي أثرت معهم ورحمهم الله بسببها، ووفقهم للإيمان والتوبة. ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ﴾: مما أوعدتنا[1] من الأجر والمنزلة والجاه، ﴿وَأَبْقَىٰٓ (٧٣)﴾: ثوابًا وإحسانًا، لا ما يقول فرعون: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١)﴾؛ يريد أنه أشد عذابًا وأبقى.

وجميع ما أتى من قصص موسى مع فرعون يذكر الله فيه إذا أتى على قصة السحرة أن فرعون توعدهم بالقطع والصلب ولم يذكر أنه فعل ذلك، ولم يأت في ذلك حديث صحيح، والجزم بوقوعه أو عدمه يتوقف على الدليل. والله أعلم بذلك وغيره[2].

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (٧٤) وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ (٧٥) جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ (٧٦)﴾.

(٧٤) يخبر تعالى أن من أتاه وقدم عليه مجرمًا - أي: وصفه الجرم من كل وجه، وذلك يستلزم الكفر - واستمر على ذلك حتى مات؛ فإن له نار جهنم الشديد نكالها، العظيمة أغلالها، البعيد قعرها، الأليم حرها وقرها، التي فيها من العقاب ما يذيب الأكباد والقلوب، ومن شدة ذلك أن المعذب فيها لا يموت ولا يحيا، لا يموت فيستريح ولا يحيا حياة يتلذذ بها، وإنما حياته محشوة بعذاب القلب والروح والبدن، الذي لا يقدر قدره ولا يفتَّر عنه ساعة؛ يستغيث فلا يغاث، ويدعو فلا يستجاب له؛ نعم إذا استغاث؛ أغيث بماء كالمهل يشوي الوجوه، وإذا دعا؛ أجيب: بـ ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨)﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

(٧٥)، (٧٦) ومن يأت ربه مؤمنًا به، مصدقًا لرسله، متبعًا لكتبه، قد عمل الصالحات الواجبة والمستحبة؛ ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ (٧٥)﴾؛ أي: المنازل العاليات في الغرف المزخرفات، واللذات المتواصلات، والأنهار السارحات، والخلود الدائم، والسرور العظيم، فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ﴿وَذَٰلِكَ﴾: الثواب ﴿جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ (٧٦)﴾؛ أي: تطهر من الشرك والكفر والفسوق والعصيان: إما ألَّا يفعلها بالكلية، أو يتوب مما فعله منها، وزكى أيضًا نفسه، ونماها بالإيمان والعمل الصالح؛ فإن للتزكية معنيين: التنقية وإزالة الخبث، والزيادة بحصول الخير، وسميت الزكاة زكاة لهذين الأمرين.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ (٧٩)﴾.

(٧٧) - (٧٩) لما ظهر موسى بالبراهين على فرعون وقومه؛ مكث في مصر يدعوهم إلى الإسلام ويسعى في تخليص بني إسرائيل من فرعون وعذابه، وفرعون في عتوٍّ ونفور، وأمره شديد على بني إسرائيل، ويريه الله من الآيات والعبر ما قصه الله علينا في القرآن، وبنو إسرائيل لا يقدرون أن يُظهروا إيمانهم ويعلنوه، قد اتخذوا بيوتهم مساجد، وصبروا على فرعون وأذاه، فأراد الله تعالى أن ينجيهم من عدوهم ويمكن لهم في الأرض؛ ليعبدوه جهرًا ويقيموا أمره، فأوحى إلى نبيه موسى أن يواعد بني إسرائيل سرًّا ويسيروا أول الليل ليتمادوا في الأرض، وأخبره أن فرعون وقومه سيتبعونه، فخرجوا أول الليل، جميع بني إسرائيل ونساؤهم وذريتهم، فلما أصبح أهل مصر، وإذا هم ليس فيهم منهم داعٍ ولا مجيب، فحنق عليهم عدوهم فرعون، وأرسل في المدائن من يجمع له الناس ويحضهم على الخروج في أثر بني إسرائيل[3]،

(١) ع: «وعدتنا».
(٢) زاد في ع، ط: «ولكن توعده إياهم بذلك مع اقتداره، دليل على وقوعه، ولأنه لو لم يقع لذكره الله، ولاتفاق الناقلين على ذلك».
(٣) زاد في ع، ط: «ليوقع بهم وينفذ غيظه، والله غالب على أمره، فتكاملت جنود فرعون فسار بهم يتبع بني إسرائيل».

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾، وقلقوا، وخافوا: البحر أمامهم. وفرعون من ورائهم؛ قد امتلأ عليهم غيظًا وحنقًا، وموسى مطمئن القلب ساكن البال، قد وثق بوعد ربه فقال: ﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء: ٦٠-٦٢]؛ فأوحى الله إليه أن يضرب البحر بعصاه، فضربه، فانفرق اثني عشر طريقًا، وصار الماء كالجبال العالية عن يمين الطرق ويسارها، وأيبس الله طرقهم التي انفرق عنها الماء، وأمرهم الله ألَّا يخافوا من إدراك فرعون ولا يخشوا من الغرق في البحر، فسلكوا في تلك الطرق، فجاء فرعون وجنوده، فسلكوا وراءهم، حتى تكامل قوم موسى خارجين وقوم فرعون داخلين؛ أمر الله البحر، فالتطم عليهم، وغشيهم من اليم ما غشيهم، وغرقوا كلهم، ولم ينج[1] منهم أحد، وبنو إسرائيل ينظرون إلى عدوهم، قد أقر الله أعينهم بهلاكه، وهذا عاقبة الكفر والضلال وعدم الاهتداء بهدي الله، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ ﴾: بما زين لهم من الكفر، وتهجين ما أتى به موسى، واستخفافه إياهم، وما هداهم في وقت من الأوقات، فأوردهم موارد الغي والضلال، ثم أوردهم مورد العذاب والنكال.

﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿٨٠﴾، ﴿٨١﴾ يذكِّر تعالى بني إسرائيل منته العظيمة عليهم بإهلاك عدوهم، ومواعدته لموسى عليه السلام بجانب الطور الأيمن؛ لينزل عليه الكتاب الذي فيه الأحكام الجليلة والأخبار الجميلة، فتتمَّ عليهم النعمة الدينية بعد النعمة الدنيوية، ويذكر منته أيضًا عليهم في التيه بإنزال المن والسلوى والرزق الرَّغَد الهنيء، الذي يحصل لهم بلا مشقة، وأنه قال لهم: ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾؛ أي: واشكروه على ما أسدى إليكم من النعم. ﴿ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ ﴾؛ أي: في رزقه فتستعملوه في معاصيه وتبطروا النعمة فإنكم إن فعلتم ذلك حل عليكم غضبي؛ أي: غضبت عليكم ثم عذبتكم. ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ ﴾؛ أي: ردي وهلك وخاب وخسر؛ لأنه عَدِمَ الرضا والإحسان، وحل عليه الغضب والخسران.

(١) ع: «ينجح».

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾

﴿٨٢﴾ ومع هذا؛ فالتوبة معروضة، ولو عمل العبد ما عمل من المعاصي، ولهذا قال: ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ ﴾؛ أي: كثير المغفرة والرحمة، ﴿ لِّمَن تَابَ ﴾: من الكفر والبدعة والفسوق، ﴿ وَءَامَنَ ﴾: بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ﴿ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾: من أعمال القلب والبدن وأقوال اللسان، ﴿ ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾؛ أي: سلك الصراط المستقيم، وتابع الرسول الكريم، واقتدى بالدين القويم؛ فهذا يغفر الله أوزاره، ويعفو عما تقدم من ذنبه وإصراره؛ لأنه أتى بالسبب الأكبر للمغفرة والرحمة، بل الأسباب كلها منحصرة في هذه الأشياء؛ فإن التوبة تجب ما قبلها، والإيمان والإسلام يهدم ما قبله، والعمل الصالح الذي هو الحسنات يذهب السيئات، وسلوك طرق الهداية، بجميع أنواعها، من تعلم علم وتدبر آية أو حديث، حتى يتبين له معنى من المعاني يهتدي به، ودعوة إلى دين الحق ورد بدعة أو كفر أو ضلالة وجهاد وهجرة، وغير ذلك من جزئيات الهداية كلها مكفرات للذنوب محصلات لغاية المطلوب.

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ
وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا
يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ
يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟
أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ
﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ
أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ
إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ
قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ
بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ
فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ
فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ
مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ
عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ
إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾﴾.

(٨٣) كان الله تعالى قد واعد موسى أن يأتيه لينزل عليه التوراة ثلاثين ليلة، فأتمها بعشر، فلما تم الميقات؛ بادر موسى عليه السلام إلى الحضور للموعد شوقًا لربه وحرصًا على موعوده، فقال الله له: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾﴾؛ أي: ما الذي قدمك عليهم؟ ولم لم تصبر حتى تقدم أنت وهم؟

(٨٤) ﴿قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾؛ أي: قريبًا مني، وسيصلون في أثري، والذي عجلني إليك يا رب الطلب لقربك والمسارعة في رضاك والشوق إليك[1].

(٨٥) فقال الله له: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾؛ أي: بعبادتهم للعجل ابتليناهم واختبرناهم فلم يصبروا، وحين وصلت إليهم المحنة كفروا، ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾﴾: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ وصاغه فصار ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟﴾ لهم: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾، فنسيه موسى، فافتتن به بنو إسرائيل، فعبدوه، ونهاهم هارون، فلم ينتهوا.

(٨٦) فلما رجع موسى إلى قومه وهو غضبان أسف؛ أي: ممتلئ غيظًا وحنقًا وغمًّا؛ قال لهم موبخًا ومقبحًا لفعلهم: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾: وذلك بإنزال التوراة. ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾؛ أي: المدة فتطاولتم غيبتي وهي مدة قصيرة؟! هذا قول كثير من المفسرين، ويحتمل أن معناه: أفطال عليكم عهد النبوة والرسالة، فلم يكن لكم بالنبوة علم ولا أثر، واندرست آثارها، فلم تقفوا منها على خبر، فانمحت آثارها لبعد العهد بها، فعبدتم غير الله لغلبة الجهل وعدم العلم بآثار الرسالة؟! أي: ليس الأمر كذلك، بل النبوة بين أظهركم، والعلم قائم، والعذر غير مقبول. ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ﴾: بفعلكم ﴿أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: فتعرضتم لأسبابه واقتحمتم موجب عذابه، وهذا هو الواقع. ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾﴾: حين أمرتكم بالاستقامة ووصيت بكم هارون فلم ترقبوا غائبًا ولم تحترموا حاضرًا.

﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾.

(٨٧)، (٨٨) أي: قالوا له: ما فعلنا الذي فعلنا عن تعمد منا وملك منا لأنفسنا، ولكن السبب الداعي لذلك أننا تأثمنا من زينة القوم التي عندنا، وكانوا فيما يذكرون استعاروا حليًا كثيرًا من القبط، فخرجوا وهو معهم، وألقوه وجمعوه حين ذهب موسى ليراجعوه فيه إذا رجع، وكان السامري قد بَصُر يوم الغرق بأثر الرسول، فسولت له نفسه أن يأخذ قبضة من أثره، وأنه إذا ألقاها على شيء حَيِيَ فتنة وامتحانًا، فألقاها على ذلك العجل الذي صاغه بصورة عجل، فتحرك العجل وصار له

---

(١) عبارة: «الطلب لقربك والمسارعة في رضاك والشوق إليك»=

= وردت في ع: «طلبًا لقربك، ومسارعة في رضاك، وشوقًا إليك».

خوار وصوت، وقالوا: إن موسى ذهب يطلب ربه، وهو ههنا، فنسيه.

(٨٩) وهذا من بلادتهم وسخافة عقولهم؛ حيث رأوا هذا العجل[1] الغريب الذي صار له خوار بعد أن كان جمادًا، فظنوه إله الأرض والسماوات، أفلا يرون أن العجل لا ﴿يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾؛ أي: لا يتكلم ويراجعهم ويراجعونه، ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٩)﴾؛ فالعادم للكمال والكلام والفعال لا يستحق أن يعبد، وهو أنقص من عابديه؛ فإنهم يتكلمون ويقدرون على بعض الأشياء من النفع والدفع بإقدار الله لهم.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى (٩٠) قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ (٩١) قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى (٩٣) قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى (٩٤)﴾.

(٩٠)، (٩١) أي: إنهم باتخاذهم العجل ليسوا معذورين فيه؛ فإنه وإن كانت عرضت لهم الشبهة في أصل عبادته؛ فإن هارون قد نهاهم عنه، وأخبرهم أنه فتنة، وأن ربهم الرحمن الذي منه النعم الظاهرة والباطنة، الدافع للنقم، وأنه أمرهم أن يتبعوه ويعتزلوا العجل، فأبوا وقالوا: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ (٩١)﴾.

(٩٢)، (٩٣) فأقبل موسى على أخيه لائمًا له، وقال: ﴿يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾: فتخبرني لأبادر للرجوع إليهم. ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى (٩٣)﴾: في قولي: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ (١٤٢)﴾ [الأعراف: ١٤٢]: فأخذ موسى برأس هارون ولحيته يجره من الغضب والعتب عليه.

(٩٤) فقال هارون: ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾: ترقيق له، وإلا فهو شقيقه. ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى (٩٤)﴾: فإنك أمرتني أن أخلفك فيهم؛ فلو تبعتك؛ لتركت ما أمرتني بلزومه، وخشيت لائمتك، و﴿أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ حيث تركتهم وليس عندهم راعٍ ولا خليفة؛ فإن هذا يفرقهم، ويشتت شملهم؛ فلا تجعلني مع القوم الظالمين، ولا تشمت فينا الأعداء. فندم موسى على ما صنع بأخيه وهو غير مستحق لذلك، فـ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ (١٥١)﴾ [الأعراف: ١٥١].

ثم أقبل على السامري: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى (٩٦) قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا (٩٧)﴾.

(٩٥)، (٩٦) أي: ما شأنك يا سامري حيث فعلت ما فعلت؟ فقال: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾: وهو جبريل عليه السلام على فرس، رآه وقت خروجهم من البحر وغرق فرعون وجنوده على ما قاله المفسرون، ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ﴾ حافر فرسه، فنبذتها على العجل، ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى (٩٦)﴾: أن أقبضها ثم أنبذها، فكان ما كان.

(٩٧) فقال له موسى: اذهب؛ أي: تباعد عني واستأخر مني. ﴿فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾؛ أي: تعاقب في الحياة عقوبة، لا يدنو منك أحد ولا يمسك أحد، حتى إن من أراد القرب منك؛ قلت له: لا تمسني ولا تقرب مني؛ عقوبة على ذلك؛ حيث مس ما لم يمسه غيره وأجرى ما لم يجره أحد. ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾: فتجازى بعملك من خير وشر. ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾؛ أي: العجل، ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا (٩٧)﴾: ففعل موسى ذلك؛ فلو كان إلهًا؛ لامتنع ممن يريده بأذى ويسعى له بالإتلاف. وكان قد أشرب العجل في قلوب بني إسرائيل، فأراد موسى عليه السلام إتلافه وهم ينظرون على وجه لا تمكن إعادته؛ بالإحراق والسحق وذرِّه في اليم ونسفه؛ ليزول ما في قلوبهم من حبه كما زال شخصه، ولأن في إبقائه محنة؛ لأن في النفوس أقوى داعٍ إلى الباطل.

فلما تبين لهم بطلانه؛ أخبرهم بمن يستحق العبادة وحده لا شريك له، فقال:

(١) ساقط من ع، ط.

كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا
ذِكۡرٗا ﴿٩٩﴾ مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا
﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا ﴿١٠١﴾ يَوۡمَ يُنفَخُ
فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ
بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ﴿١٠٣﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ
أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ﴿١٠٤﴾ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ
فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ﴿١٠٦﴾
لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ﴿١٠٧﴾ يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ
لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا
﴿١٠٨﴾ يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ
قَوۡلٗا ﴿١٠٩﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ
عِلۡمٗا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ
حَمَلَ ظُلۡمٗا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا
يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا
وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا ﴿١١٣﴾

﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ﴿٩٨﴾ ﴾.

﴿٩٨﴾ أي: لا معبود إلا وجهه الكريم؛ فلا يؤلَّه، ولا يحب، ولا يرجى، ولا يخاف ولا يدعى إلا هو؛ لأنه الكامل الذي له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، المحيط علمه بجميع الأشياء، الذي ما من نعمة بالعباد إلا منه، ولا يدفع السوء إلا هو؛ فلا إله إلا هو، ولا معبود سواه.

﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ﴿٩٩﴾ مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا ﴿١٠١﴾ ﴾.

﴿٩٩﴾ يمتن الله تعالى على نبيه ﷺ بما قصه عليه من أنباء السابقين وأخبار السالفين؛ كهذه القصة العظيمة، وما فيها من الأحكام وغيرها، التي لا ينكرها أحد من أهل الكتاب؛ فأنت لم تدرس أخبار الأولين، ولم تتعلم ممن دراها؛ فإخبارك بالحق اليقين من أخبارهم دليل على أنك رسول الله حقًّا، وما جئت به صدق، ولهذا قال: ﴿ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ﴾؛ أي: عطية نفيسة ومنحة جزيلة من عندنا، ﴿ ذِكۡرٗا ﴾: وهو هذا القرآن الكريم؛ ذكر للأخبار السابقة واللاحقة، وذكر يتذكر به ما لله تعالى من الأسماء والصفات الكاملة، ويتذكر به أحكام الأمر والنهي وأحكام الجزاء، وهذا مما يدل على أن القرآن مشتمل على أحسن ما يكون من الأحكام، التي تشهد العقول والفطر بحسنها وكمالها، ويذكر هذا القرآن ما أودع الله فيها، وإذا كان القرآن ذكرًا للرسول ولأمته؛ فيجب تلقيه بالقبول والتسليم والانقياد والتعظيم، وأن يهتدى بنوره إلى الصراط المستقيم، وأن يُقبلوا عليه بالتعلم والتعليم.

﴿١٠٠﴾ وأما مقابلته بالإعراض أو ما هو أعظم منه من الإنكار؛ فإنه كفر لهذه النعمة، ومن فعل ذلك؛ فهو مستحق للعقوبة، ولهذا قال: ﴿ مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ ﴾: فلم يؤمن به أو تهاون بأوامره ونواهيه أو بتعلم معانيه الواجبة، ﴿ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا ﴿١٠٠﴾ ﴾: وهو ذنبه الذي بسببه أعرض عن القرآن، وأولاه الكفر والهجران.

﴿١٠١﴾ ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهِ ﴾؛ أي: في وزرهم؛ لأن العذاب هو نفس الأعمال، تنقلب عذابًا على أصحابها بحسب صغرها وكبرها، ﴿ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا ﴿١٠١﴾ ﴾؛ أي: بئس الحمل الذي يحملونه والعذاب الذي يعذبونه يوم القيامة.

ثم استطرد فذكر أحوال يوم القيامة وأهواله فقال:

﴿ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ﴿١٠٣﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ﴿١٠٤﴾ ﴾.

﴿١٠٢﴾، ﴿١٠٣﴾ أي: إذا نفخ في الصور، وخرج الناس من قبورهم؛ كل على حسب حاله؛ فالمتقون يحشرون إلى الرحمن وفدًا، والمجرمون يحشرون زرقًا ألوانهم من الخوف والقلق والعطش؛ يتناجون بينهم ويتخافتون[1] في قصر مدة الدنيا وسرعة الآخرة، فيقول بعضهم ما لبثتم إلا عشرة أيام، ويقول بعضهم غير ذلك، والله يعلم تخافتهم ويسمع ما يقولون: ﴿ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً ﴾؛ أي: أعدلهم وأقربهم إلى التقدير: ﴿ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ﴿١٠٤﴾ ﴾: والمقصود من هذا الندم العظيم؛ كيف ضيعوا الأوقات القصيرة وقطعوها ساهين لاهين معرضين عما ينفعهم مقبلين على

(١) ع: «يتخافون».

مـا يضرهـم؛ فهـا قد حضـر الجزاء، وحـق الوعيـد، فلم يبق إلا النـدم والدعاء بالويل والثبور؛ كما قـال تعالى: ﴿ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٤].

﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ﴿١٠٧﴾ يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا ﴿١٠٨﴾ يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ﴿١٠٩﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ﴿١١٠﴾ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا ﴿١١٢﴾ ﴾.

﴿١٠٤﴾ - ﴿١٠٧﴾ يخبـر تعالـى عـن أهـوال القيامة ومـا فيها من الـزلازل والقلاقل، فقـال: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ ﴾؛ أي: ماذا يصنع بها يوم القيامة؟ وهل تبقى بحالها أم لا؟ ﴿ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ﴿١٠٥﴾ ﴾؛ أي: يزيلهـا ويقلعهـا مـن أماكنهـا، فتكون كالعهـن وكالرمل، ثـم يدكها فيجعلها هبـاء منبثًّا، فتضمحل وتتلاشـى، ويسـويها بـالأرض، ويجعـل الأرض ﴿ قَاعٗا صَفۡصَفٗا ﴿١٠٦﴾ ﴾: مسـتويًا، ﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا ﴾: أيهـا الناظـر، ﴿ عِوَجٗا ﴾: هذا من تمام اسـتوائها، ﴿ وَلَآ أَمۡتٗا ﴿١٠٧﴾ ﴾؛ أي: أوديـة وأماكـن منخفضـة أو مرتفعـة، فتبرز الأرض وتتسـع للخلائـق ويمدها الله مد الأديم، فيكونون في موقف واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر.

﴿١٠٨﴾ - ﴿١١٠﴾ ولهـذا قـال: ﴿ يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ ﴾: وذلـك حيـن يبعثـون من قبورهـم ويقومـون منها؛ يدعوهم الداعي إلى الحضـور والاجتماع للموقف، فيتبعونه مهطعين إليـه، لا يلتفتـون عنـه، ولا يعرجـون يمنة ولا يسـرة. وقوله: ﴿ لَا عِوَجَ لَهُۥ ﴾؛ أي: لا عوج لدعوة الداعي، بل تكون دعوته حقًّـا وصدقًـا لجميـع الخلـق، يُسـمعهم جميعهـم، ويصيح لهـم أجمعين، فيحضـرون لموقف القيامة خاشـعة أصواتهم للرحمن. ﴿ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا ﴿١٠٨﴾ ﴾؛ أي: إلا وطء الأقدام أو المخافتـة سـرًّا بتحريك الشـفتين فقط؛ يملكهم الخشـوع والسـكوت[(١)] والإنصـات؛ انتظـارًا لحكـم الرحمـن فيهـم، وتعنو وجوههـم؛ أي: تذل وتخضع، فترى في ذلك الموقف العظيم الأغنياء والفقراء والرجال والنساء والأحرار والأرقاء والملـوك والسـوقة، سـاكتين منصتيـن، خاشـعة أبصارهـم، خاضعة رقابهم، جاثين على ركبهم، عانية وجوههم، لا يدرون ماذا ينفصل كل منهم به ولا ماذا يفعل به، قد اشتغل كل بنفسه وشأنه عن أبيه وأخيه وصديقه وحبيبه، ﴿ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [عبس: ٣٧]، يحكم فيه الحاكم العدل الديان، ويجازي المحسن بإحسانه والمسيء بالحرمان.

والأمـل بالرب الكريم الرحمن الرحيم أن يري الخلائق منه من الفضل والإحسـان والعفو والصفـح والغفران، ما لا تعبر عنه الألسنة ولا تتصوره الأفكار، ويتطلع لرحمته إذ ذاك جميع الخلق؛ لما يشاهدونه، فيختص المؤمنون به وبرسله بالرحمة.

فإن قيل من أين لكم هذا الأمل؟ وإن شئت قلت: من أين لكم هذا العلم بما ذكر؟

قلنـا: لما نعلمـه من غلبة رحمته لغضبه، ومن سـعة جوده الـذي عم جميع البرايا، ومما نشـاهده في أنفسـنا وفي غيرنا مـن النعـم المتواتـرة فـي هـذه الـدار، وخصوصًا فـي فضل القيامة؛ فإن قوله: ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ ﴾ ﴿ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴾، مع قوله: ﴿ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِ ﴾ [الفرقان: ٢٦]، مـع قوله ﷺ: «إن لله مائة رحمة، أنزل لعباده رحمة، بها يتراحمون ويتعاطفون، حتى إن البهيمة ترفع حافرها عن ولدها خشـية أن تطـأه»[(٢)]، أي: مـن الرحمة المودعة فـي قلبها؛ فإذا كان يوم القيامة؛ ضم هذه الرحمة إلى تسع وتسـعين رحمة، فرحـم بها العباد، مـع قوله ﷺ: «للهُ أرحم بعبـاده من الوالدة بولدهـا»[(٣)]؛ فقـل ما شـئت عن رحمتـه؛ فإنها فـوق ما تقول، وتصور فوق ما شئت؛ فإنها فوق ذلك؛ فسبحان من رحم في عدله وعقوبته، كما رحم في فضله وإحسانه ومثوبته، وتعالى من وسـعت رحمته كل شـيء، وعم كرمه كل حي، وجل من غني عـن عباده رحيم بهم، وهم مفتقرون إليه على الدوام في جميع أحوالهم؛ فلا غنى لهم عنه طرفة عين.

وقولـه: ﴿ يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ﴿١٠٩﴾ ﴾؛ أي: لا يشفع أحد عنده من الخلق إلا من أذن له في الشـفاعة، ولا يأذن إلا لمن رضي قوله؛ أي: شـفاعته؛ مـن الأنبياء والمرسـلين وعباده المقربيـن فيمن ارتضى قوله

(١) ع: «والسكون».

(٢) البخاري (٦٠٠٠)، مسلم (٢٧٥٢).
(٣) البخاري (٥٩٩٩)، مسلم (٢٧٥٤).

فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن
يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ
إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا
لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ
﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا
مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾
وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ
ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ
لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا
يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾
ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا
جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى
فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن
ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾

وعمله، وهو المؤمن المخلص؛ فإذا اختل واحد من هذه الأمور؛ فلا سبيل لأحد إلى شفاعة من أحد.

﴿١١١﴾، ﴿١١٢﴾ وينقسم الناس في ذلك الموقف قسمين: ظالمين بكفرهم وشرهم؛ فهؤلاء لا ينالهم إلا الخيبة والحرمان والعذاب الأليم في جهنم وسخط الديان. والقسم الثاني: من آمن الإيمان المأمور به، وعمل صالحًا من واجب ومسنون؛ ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾؛ أي: زيادة في سيئاته. ﴿وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾؛ أي: نقصًا من حسناته، بل تغفر ذنوبه وتطهر عيوبه وتضاعف حسناته، ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾.

﴿١١٣﴾ أي: وكذلك أنزلنا هذا الكتاب باللسان الفاضل العربي الذي تفهمونه وتفقهونه ولا يخفى عليكم لفظه ولا معناه. ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾؛ أي: نوعناها أنواعًا كثيرة؛ تارة بذكر أسمائه الدالة على العدل والانتقام، وتارة بذكر المثلات التي أحلها بالأمم السابقة، وأمر أن تعتبر بها الأمم اللاحقة، وتارة بذكر آثار الذنوب وما تكسبه من العيوب، وتارة بذكر أهوال القيامة وما فيها من المزعجات والمقلقات، وتارة بذكر جهنم وما فيها من أنواع العقاب وأصناف العذاب؛ كل هذا رحمة بالعباد؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾: الله، فيتركون من الشر والمعاصي ما يضرهم، ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾: فيعملون من الطاعات والخير ما ينفعهم، فكونه عربيًّا وكونه مصرفًا فيه من الوعيد أكبر سبب وأعظم داعٍ للتقوى والعمل الصالح؛ فلو كان غير عربي أو غير مصرف فيه؛ لم يكن له هذا الأثر.

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾.

﴿١١٤﴾ لما ذكر تعالى حكمه الجزائي في عباده، وحكمه الأمري الديني الذي أنزله في الكتاب[1] وكان هذا من آثار ملكه؛ قال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾؛ أي: جل وارتفع وتقدس عن كل نقص وآفة. ﴿ٱلْمَلِكُ﴾: الذي الملك وصفه، والخلق كلهم مماليك له، وأحكام الملك القدرية والشرعية نافذة فيهم. ﴿ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: وجوده وملكه وكماله حق؛ فصفات الكمال لا تكون حقيقة إلا لذي الجلال، ومن ذلك الملك؛ فإن غيره من الخلق، وإن كان له ملك في بعض الأوقات على بعض الأشياء؛ فإنه ملك قاصر باطل يزول، وأما الرب؛ فلا يزال ولا يزول ملكًا حيًّا قيومًا جليلًا. ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾؛ أي: لا تبادر بتلقف القرآن حين يتلوه عليك جبريل، واصبر حتى يفرغ منه؛ فإذا فرغ منه؛ فاقرأه؛ فإن الله قد ضمن لك جمعه في صدرك وقراءتك إياه؛ كما قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: ١٦-١٩]. ولما كانت عجلته ﷺ على تلقف الوحي ومبادرته إليه تدل على محبته التامة للعلم وحرصه عليه؛ أمره الله تعالى أن يسأله زيادة العلم؛ فإن العلم خير، وكثرة الخير مطلوبة، وهي من الله، والطريق إليها الاجتهاد والشوق للعلم وسؤال الله والاستعانة به والافتقار إليه في كل وقت.

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة الأدب في تلقي العلم، وأن المستمع للعلم ينبغي له أن يتأنى ويصبر حتى يفرغ المملي

(١) ع: «كتابه».

والمعلم من كلامه المتصل بعضه ببعض؛ فإذا فرغ منه؛ سأل إن كان عنده سؤال، ولا يبادر بالسؤال وقطع كلام ملقي العلم؛ فإنه سبب للحرمان، وكذلك المسئول ينبغي له أن يستملي سؤال السائل ويعرف المقصود منه قبل الجواب؛ فإن ذلك سبب لإصابة الصواب.

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾.

﴿١١٥﴾ أي: ولقد وصينا آدم وأمرناه وعهدنا إليه عهدًا ليقوم به، فالتزمه وأذعن له وانقاد وعزم على القيام به، ومع ذلك نسي ما أمر به، وانتقضت عزيمته المحكمة، فجرى عليه ما جرى، فصار عبرة لذريته، وصارت طبائعهم مثل طبيعته[1]؛ نسي آدم[2] فنسيت ذريته، وخطئ فخطئوا، ولم يثبت على العزم المؤكد وهم كذلك، وبادر بالتوبة من خطيئته، وأقر بها، واعترف فغفرت له، ومن يشابه أباه فما ظلم.

ثم ذكر تفصيل ما أجمله، فقال:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

﴿١١٦﴾ أي: لما أكمل خلق آدم بيده، وعلمه الأسماء، وفضله وكرمه؛ أمر الملائكة بالسجود له إكرامًا وتعظيمًا وإجلالًا، فبادروا بالسجود ممتثلين، وكان بينهم إبليس، فاستكبر عن أمر ربه، وامتنع من السجود لآدم، وقال: ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١٢].

﴿١١٧﴾ - ﴿١١٩﴾ فتبينت حينئذ عداوته البليغة لآدم وزوجه لما كان عدوًا لله، وظهر من حسده ما كان سبب العداوة، فحذر الله آدم وزوجه منه، وقال: لا ﴿ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ ﴾: إذا أخرجت منها؛ فإن لك فيها الرزق الهني

(١) الأصل، ط: «طبيعة آدم».
(٢) ليست في الأصل، ط.

والراحة التامة، ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ ﴾؛ أي: تصيبك الشمس بحرها، فضمن له استمرار الطعام والشراب والكسوة والماء وعدم التعب والنصب، ولكنه نهاه عن أكل شجرة معينة، فقال: ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [البقرة: ٣٥].

﴿١٢٠﴾ فلم يزل الشيطان يوسوس[3] لهما ويزين أكل الشجرة ويقول: ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ ﴾؛ أي: الشجرة التي من أكل منها خلد في الجنة، ﴿ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾؛ أي: لا ينقطع إذا أكلت منها.

﴿١٢١﴾ فأتاه بصورة ناصح، وتلطف له في الكلام؛ فاغتر به آدم، فأكلا من الشجرة، فَسُقِط في أيديهما وسقطت كسوتهما، واتضحت معصيتهما، وبدا لكل منهما سوءة الآخر بعد أن كانا مستورين، وجعلا يخصفان على أنفسهما من ورق أشجار الجنة؛ ليستترا بذلك، وأصابهما من الخجل ما الله به عليم. ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾: فبادرا إلى التوبة والإنابة وقالا:

﴿١٢٢﴾ ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٣]: فاجتباه ربه واختاره ويسر له التوبة، فتاب عليه وهدى، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها، ورجع كيد العدو عليه، وبطل مكره، فتمت النعمة عليه وعلى ذريته، ووجب عليهم القيام بها والاعتراف وأن يكونوا على حذر من هذا العدو المرابط الملازم لهم ليلًا ونهارًا، ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٧].

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

(٣) ع: «يسول».

قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ
نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ
وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ
فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ
مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ
وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا
تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ
وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ
﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى
ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ
لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن
قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ
فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

﴿١٢٣﴾ يخبر تعالى أنه أمر آدم وإبليس أن يهبطا إلى الأرض، وأن يتخذا[1]؛ آدم وبنوه الشيطانَ عدوًّا لهم، فيأخذوا الحذر منه، ويُعِدُّوا له عدته، ويحاربوه، وأنه سينزل عليهم كتبًا ويرسل إليهم رسلًا يبينون لهم الطريق المستقيم الموصلة إليه وإلى جنته، ويحذرونهم من هذا العدو المبين، وأنهم أيَّ وقت جاءهم ذلك الهدى الذي هو الكتب والرسل؛ فإن من اتبعه؛ اتبع ما أُمِرَ به، واجتنب ما نهي عنه؛ فإنه لا يضل في الدنيا ولا في الآخرة ولا يشقى فيهما، بل قد هدي إلى صراط مستقيم في الدنيا والآخرة، وله السعادة والأمن في الآخرة. وقد نفى عنه الخوف والحزن في آية أخرى بقوله: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٨]، واتباع الهدى بتصديق الخبر وعدم معارضته بالشبه، وامتثال الأمر بألَّا يعارضه بشهوة.

﴿١٢٤﴾ ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾؛ أي: كتابي الذي يُتذكَّر به جميع المطالب العالية، وأن يتركه على وجه الإعراض عنه أو ما هو أعظم من ذلك؛ بأن يكون على وجه الإنكار له والكفر به. ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾؛ أي: فإن جزاءه أن نجعل معيشته ضيقة مشقة، ولا يكون ذلك إلا عذابًا. وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر، وأنه يضيق عليه قبره، ويحصر فيه، ويعذب جزاء لإعراضه عن ذكر ربه، وهذه إحدى الآيات الدالة على عذاب القبر.

والثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: ٩٣] الآية.

والثالثة: قوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١].

والرابعة: قوله عن آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦] الآية.

والذي أوجب لمن فسرها بعذاب القبر فقط من السلف وقصرها على ذلك - والله أعلم - آخر الآية، وأن الله ذكر في آخرها عذاب يوم القيامة.

وبعض المفسرين يرى أن المعيشة الضنك عامة في دار الدنيا؛ بما يصيب المعرض عن ذكر ربه من الهموم والغموم والآلام، التي هي عذاب معجل، وفي دار البرزخ، وفي الدار الآخرة؛ لإطلاق المعيشة الضنك وعدم تقييدها. ﴿وَنَحْشُرُهُۥ﴾؛ أي: هذا المعرض عن ذكر ربه ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾: البصر على الصحيح؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧].

﴿١٢٥﴾ ﴿قَالَ﴾: على وجه الذل والمراجعة والتألم والضجر من هذه الحالة: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ﴾: في دار الدنيا ﴿بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾: فما الذي صيرني إلى هذه الحالة البشعة؟

﴿١٢٦﴾ ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾: بإعراضك عنها، ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾؛ أي: تترك في العذاب؛ فأجيب بأن هذا هو عين عملك، والجزاء من جنس العمل؛ فكما عميت عن ذكر ربك، وعشيت عنه، ونسيته ونسيت حظك منه؛ أعمى الله بصرك في الآخرة، فحشرت إلى النار أعمى أصم أبكم، وأعرض عنك، ونسيك في العذاب.

﴿١٢٧﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛ أي: هذا الجزاء نجزيه ﴿مَنْ أَسْرَفَ﴾: بأن تعدى الحدود وارتكب المحارم وجاوز ما أذن له، ﴿وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾: الدالة على جميع مطالب

(١) ع، ط: «يتخذوا».

الإيمان دلالة واضحة صريحة؛ فالله لم يظلمه ولم يضع العقوبة في غير محلها، وإنما السبب إسرافه وعدم إيمانه. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ﴾: من عذاب الدنيا أضعافًا مضاعفة، ﴿وَأَبۡقَىٰٓ ١٢٧﴾: لكونه لا ينقطع؛ بخلاف عذاب الدنيا؛ فإنه منقطع؛ فالواجب الخوف والحذر من عذاب الآخرة.

﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ١٢٨﴾.

١٢٨ أي: ﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ﴾: لهؤلاء المكذبين المعرضين ويدلهم على سلوك طريق الرشاد وتجنب طريق الغي والفساد ما أحل الله بالمكذبين قبلهم من القرون الخالية والأمم المتتابعة، الذين يعرفون قصصهم، ويتناقلون أسمارهم، وينظرون بأعينهم مساكنهم من بعدهم؛ كقوم هود وصالح ولوط وغيرهم، وأنهم لما كذبوا رسلنا وأعرضوا عن كتبنا؛ أصبناهم بالعذاب الأليم؛ فما الذي يؤمِّن هؤلاء أن يحل بهم ما حل بأولئك؟ ﴿أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ ٤٣ أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ ٤٤﴾ [القمر: ٤٣، ٤٤]: لا شيء من هذا كله، فليس هؤلاء الكفار خيرًا من أولئك حتى يدفع عنهم العذاب بخيرهم، بل هم شر منهم، لأنهم كفروا بأشرف الرسل وخير الكتب، وليس لهم براءة مزبورة وعهد عند الله، وليسوا كما يقولون إن جمعهم ينفعهم ويدفع عنهم، بل هم أذل وأحقر من ذلك؛ فإهلاك القرون الماضية بذنوبهم من أسباب الهداية؛ لكونها من الآيات الدالة على صحة رسالة الرسل الذين جاءوهم وبطلان ما هم عليه، ولكن ما كل أحد ينتفع بالآيات، إنما ينتفع بها أولو النهى؛ أي: العقول السليمة والفطر المستقيمة، والألباب التي تزجر أصحابها عما لا ينبغي.

﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى ١٢٩ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ١٣٠﴾.

١٢٩ هذه تسلية للرسول وتصبير له عن المبادرة إلى إهلاك المكذبين المعرضين، وأن كفرهم وتكذيبهم سبب صالح لحلول العذاب بهم ولزومه لهم؛ لأن الله جعل العقوبات سببًا وناشئًا عن الذنوب ملازمًا لها[1]، وهؤلاء قد أتوا بالسبب، ولكن الذي أخره عنهم كلمة ربك المتضمنة لإمهالهم وتأخيرهم وضرب الأجل المسمى؛ فالأجل المسمى ونفوذ كلمة الله هو الذي أخر عنهم العقوبة إلى إبان وقتها، ولعلهم يراجعون أمر الله فيتوب عليهم ويرفع عنهم العقوبة إذا لم تحق عليهم الكلمة.

١٣٠ ولهذا أمر الله رسوله بالصبر على أذيتهم بالقول، وأمره أن يتعوض عن ذلك وليستعين[2] عليه بالتسبيح ﴿بِحَمۡدِ﴾ ربه في هذه الأوقات الفاضلة؛ ﴿قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَا﴾، وفي أطراف النهار أوله وآخره؛ عموم بعد خصوص، وأوقات ﴿ٱلَّيۡلِ﴾ وساعاته، لعلك إن فعلت ذلك ترضى بما يعطيك ربك من الثواب العاجل والآجل، وليطمئن قلبك، وتقر عينك بعبادة ربك، وتتسلى بها عن أذيتهم؛ فيخف حينئذ عليك الصبر.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ١٣١﴾.

١٣١ أي: ولا تمد ﴿عَيۡنَيۡكَ﴾ معجبًا ولا تكرر النظر مستحسنًا إلى أحوال الدنيا والممتعين بها من المآكل والمشارب اللذيذة والملابس الفاخرة والبيوت المزخرفة والنساء المجملة؛ فإن ذلك كله ﴿زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ تبتهج بها نفوس المغترين، وتأخذ إعجابًا بأبصار المعرضين، ويتمتع بها بقطع النظر عن الآخرة القوم الظالمون، ثم تذهب سريعًا وتمضي جميعًا، وتقتل محبيها وعشاقها فيندمون حيث لا تنفع الندامة، ويعلمون ما هم عليه إذا قدموا يوم[3] القيامة، وإنما جعلها الله فتنة واختبارًا ليعلم من يقف عندها ويغتر بها ومن هو أحسن عملًا. كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ٨﴾ [الكهف: ٧، ٨]. ﴿وَرِزۡقُ رَبِّكَ﴾: العاجل من العلم والإيمان وحقائق الأعمال الصالحة، والآجل من النعيم المقيم والعيش السليم في جوار الرب الرحيم، ﴿خَيۡرٞ﴾: مما متعنا به أزواجًا في ذاته وصفاته، ﴿وَأَبۡقَىٰ ١٣١﴾: لكونه لا ينقطع ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]؛ كما قال تعالى: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

وفي هذه الآية إشارة إلى أن العبد إذا رأى من نفسه طموحًا إلى زينة الدنيا وإقبالًا عليها أن يذكِّرها ما أمامها من رزق ربه، وأن يوازن بين هذا وهذا.

---

(١) ع: «له».

(٢) ع: «ويستعين».

(٣) ع: «في».

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾.

﴿١٣٢﴾ أي: حث أهلك على الصلاة، وأزعجهم إليها من فرض ونفل، والأمر بالشيء أمر بجميع ما لا يتم إلا به، فيكون أمرًا بتعليمهم ما يصلح الصلاة ويفسدها ويكملها. ﴿ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾؛ أي: على الصلاة بإقامتها بحدودها وأركانها وآدابها وخشوعها؛ فإن ذلك مشق على النفس، ولكن ينبغي إكراهها وجهادها على ذلك والصبر معها دائمًا؛ فإن العبد إذا أقام صلاته على الوجه المأمور به؛ كان لما سواها من دينه أحفظ وأقوم، وإذا ضيعها؛ كان لما سواها أضيع. ثم ضمن تعالى لرسوله ﷺ الرزق، وألَّا يشغله الاهتمام به عن إقامة دينه، فقال: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾؛ أي: رزقك علينا، قد تكفلنا به كما تكفلنا بأرزاق الخلائق كلهم؛ فكيف بمن قام بأمرنا واشتغل بذكرنا؟! ورزق الله عام للمتقي وغيره؛ فينبغي الاهتمام بما يجلب السعادة الأبدية، وهو التقوى، ولهذا قال: ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ ﴾: في الدنيا والآخرة ﴿ لِلتَّقْوَىٰ ﴾: التي هي فعل المأمور وترك المنهي؛ فمن قام بها؛ كان له العاقبة؛ كما قال تعالى: ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾.

﴿١٣٣﴾ أي: قال المكذبون للرسول ﷺ: هلا يأتينا بآية من ربه؛ يعنون آيات الاقتراح؛ كقولهم: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٢]، وهذا تعنت منهم وعناد وظلم؛ فإنهم هم والرسول ﷺ بشر عبيد لله؛ فلا يليق منهم الاقتراح بحسب أهوائهم، وإنما الذي ينزلها ويختار منها ما يختار بحسب حكمته هو الله، ولما كان قولهم[1]: ﴿ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ﴾: يقتضي أنه لم يأتهم بآية على صدقه ولا بينة على حقه، وهذا كذب وافتراء؛ فإنه أتى من المعجزات الباهرات والآيات القاهرات ما يحصل ببعضه المقصود، ولهذا قال: ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِم ﴾: إن كانوا صادقين في قولهم، وأنهم يطلبون الحق بدليله، ﴿ بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ ﴾؛ أي: هذا القرآن العظيم، المصدق لما في الصحف الأولى من التوراة والإنجيل والكتب السابقة، المطابق لها، المخبر بما أخبرت به، وتصديقه أيضًا مذكور فيها، ومبشر بالرسول ﷺ بها، وهذا كقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥١]؛ فالآيات تنفع المؤمنين ويزداد بها إيمانهم وإيقانهم، وأما المعرضون عنها المعارضون لها؛ فلا يؤمنون بها ولا ينتفعون بها. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

﴿١٣٤﴾ وإنما الفائدة في سوقها إليهم ومخاطبتهم بها لتقوم عليهم حجة الله، ولئلا يقولوا حين ينزل بهم العذاب: ﴿ لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ ﴾: بالعقوبة؛ فها قد جاءكم رسولي ومعه آياتي وبراهيني؛ فإن كنتم كما تقولون؛ فصدقوه.

﴿١٣٥﴾ ﴿ قُلْ ﴾: يا محمد مخاطبًا للمكذبين لك الذين يقولون تربصوا به ريب المنون: ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ ﴾: فتربصوا بي الموت، وأنا أتربص بكم العذاب، ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾؛ أي: الظفر أو الشهادة؛ ﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ [التوبة: ٥٢]. ﴿ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ ﴾؛ أي: المستقيم، ﴿ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾: بسلوكه أنا أم أنتم؛ فإن صاحبه هو الفائز الراشد الناجي المفلح، ومن حاد عنه خاسر خائب معذب. وقد علم أن الرسول هو الذي بهذه الحالة، وأعداؤه بخلافه. والله أعلم.

---

(١) عبارة: «ولما كان قولهم» وردت في ع: «ولأن».

تفسير سورة الأنبياء عليهم السلام
وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٤﴾.

(١) هـذا تعجب من حالـة النـاس، وأنهم لا ينجع فيهم تذكيـر، ولا يرعـوون إلـى نذيـر، وأنهـم قـد قرب حسـابهم ومجازاتهـم علـى أعمالهـم الصالحـة والطالحـة، والحـال أنهـم ﴿فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾؛ أي: غفلة عما خلقوا له، وإعـراض عمـا زجروا به، كأنهـم للدنيا خلقـوا، وللتمتع بها ولـدوا، وأن الله تعالـى لا يزال يجدد لهـم التذكير والوعظ، ولا يزالون في غفلتهم وإعراضهم.

(٢) ولهـذا قـال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾: يذكرهـم مـا ينفعهـم ويحثهم عليـه، وما يضرهـم ويرهبهـم منـه. ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ﴾: سـماعًا تقـوم عليهـم بـه الحجة، ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢﴾.

(٣) ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: قلوبهـم غافلـة معرضـة لاهية بمطالبها الدنيوية، وأبدانهم لاعبة، قد اشتغلوا بتناول الشـهوات والعمل بالباطـل والأقوال الرديـة، مع أن الذي ينبغـي لهم أن يكونوا بغيـر هذه الصفة؛ تُقْبِلُ قلوبهم على أمر الله ونهيه، وتسـتمعه اسـتماعًا تفقه المراد منه، وتسعى جوارحهـم في عبـادة ربهم التي خلقـوا لأجلها، ويجعلون القيامة والحسـاب والجزاء منهم على بال؛ فبذلك يتم لهم أمرهم وتستقيم أحوالهم وتزكو أعمالهم. وفي معنى قوله: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾: قولان:

أحدهمـا: أن هـذه الأمـة هـي آخر الأمـم، ورسـولها آخر الرسـل، وعلـى أمته تقوم السـاعة؛ فقد قرب الحسـاب منها

الجزء السابع عشر — سورة الأنبياء

سورة الأنبياء — آياتها ١١٢ — ٢١

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١
مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ
يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ
تُبْصِرُونَ ۝٣ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ
وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٤ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ
ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ
۝٥ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ
۝٦ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ
ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا
لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ۝٨ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ
ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩
لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠

٣٢٢

بالنسـبة لمـا قبلها من الأمـم؛ لقوله ﷺ: «**بعثت أنا والسـاعة كهاتين**»؛ وقرن بين إصبعيه السبابة والتي تليها[١].

والقول الثاني: أن المراد بقرب الحسـاب الموت، وأن من مـات قامت قيامته ودخل في دار الجزاء على الأعمال، وأن هذا تعجب من كل غافل معرض لا يدري متى يفجؤه الموت صباحًا أو مساء؛ فهذه حالة الناس كلهم؛ إلا من أدركته العناية الربانية، فاستعد للموت وما بعده.

ثـم ذكر ما يتناجى به الكافـرون الظالمون على وجه العناد ومقابلـة الحـق بالباطل، وأنهم تناجـوا وتواطئـوا فيما بينهم أن يقولوا في الرسـول ﷺ: إنه بشـر مثلكـم؛ فما الذي فضله عليكـم وخصه من بينكم؟! فلو ادعى أحد منكم مثل دعواه؛ لـكان قوله مـن جنس قولـه، ولكنـه يريد أن يتفضـل عليكم ويرأس فيكم؛ فلا تطيعوه ولا تصدقوه، وإنه ساحر، وما جاء بـه من القـرآن سـحر؛ فانفروا عنه ونفـروا النـاس، وقولوا:

(١) البخاري (٦٥٠٥)، مسلم (٢٩٥١).

﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾﴾: هذا وهم يعلمون أنه رسول الله حقًّا بما يشاهدون من الآيات الباهرة ما لم يشاهد غيرهم، ولكن حملهم على ذلك الشقاء والظلم والعناد.

﴿٤﴾ والله تعالى قد أحاط علمًا بما تناجوا به، وسيجازيهم عليه، ولهذا قال: ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ ﴾: الخفي والجلي ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: في جميع ما احتوت عليه أقطارهما. ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾: لسائر الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾: بما في الضمائر، وأكنته السرائر.

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿٥﴾ يذكر تعالى افتاك المكذبين بمحمد ﷺ وبما جاء به من القرآن العظيم، وأنهم تقولوا فيه[1]، وقالوا فيه الأقاويل الباطلة المختلفة؛ فتارة يقولون: أضغاث أحلام بمنزلة كلام النائم الهاذي الذي لا يحس بما يقول! وتارة يقولون: افتراه واختلقه وتقوله من عند نفسه! وتارة يقولون: إنه شاعر وما جاء به شعر! وكل من له أدنى معرفة بالواقع من حالة الرسول، ونظر في هذا الذي جاء به؛ جزم جزمًا لا يقبل الشك أنه أجل الكلام وأعلاه، وأنه من عند الله، وأن أحدًا من البشر لا يقدر على الإتيان بمثل بعضه؛ كما تحدى الله أعداءه بذلك ليعارضوه مع توفر دواعيهم لمعارضته وعداوته، فلم يقدروا على شيء من معارضته وهم يعلمون ذلك؛ وإلا فما الذي أقامهم وأقعدهم وأقض مضاجعهم وبلبل ألسنتهم إلا الحق الذي لا يقوم له شيء، وإنما يقولون هذه الأقوال فيه حيث لم يؤمنوا به؛ تنفيرًا عنه لمن لم يعرفه، وهو أكبر الآيات المستمرة الدالة على صحة ما جاء به الرسول ﷺ وصدقه، وهو كافٍ شافٍ؛ فمن طلب دليلًا غيره أو اقترح آية من الآيات سواه؛ فهو جاهل ظالم مشبه لهؤلاء المعاندين الذين كذبوه، وطلبوا من الآيات الاقتراحية ما هو أضر شيء عليهم، وليس لهم فيها مصلحة؛ لأنهم إن كان قصدهم معرفة الحق إذا تبين دليله؛ فقد تبين دليله بدونها، وإن كان قصدهم التعجيز وإقامة العذر لأنفسهم إن لم يأت بما طلبوا؛ فإنهم بهذه الحالة على فرض إتيان ما طلبوا من الآيات لا يؤمنون قطعًا؛ فلو جاءتهم كل آية لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم، ولهذا قال الله عنهم: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾؛ أي: كناقة صالح وعصا موسى ونحو ذلك.

﴿٦﴾ قال الله: ﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ﴾؛ أي: بهذه الآيات المقترحة، وإنما سنته تقتضي أن من طلبها، ثم حصلت له، فلم يؤمن؛ أن يعاجله بالعقوبة؛ فالأولون ما آمنوا بها، أفيؤمن هؤلاء بها؟! ما الذي فضلهم على أولئك؟! وما الخير الذي فيهم يقتضي الإيمان عند وجودها؟! وهذا الاستفهام بمعنى النفي؛ أي: لا يكون ذلك منهم أبدًا.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾.

﴿٧﴾ - ﴿٩﴾ هذا جواب لشُبَهِ المكذبين للرسول القائلين: هلَّا كان مَلَكًا لا يحتاج إلى طعام وشراب، وتصرف في الأسواق! وهلا كان خالدًا! فإذا لم يكن كذلك؛ دل على أنه ليس برسول! وهذه الشبه ما زالت في قلوب المكذبين للرسل، تشابهوا في الكفر؛ فتشابهت أقوالهم؛ فأجاب تعالى عن هذه الشبه، لهؤلاء المكذبين للرسول، المقرين بإثبات الرسل قبله، ولو لم يكن إلا إبراهيم عليه السلام، الذي قد أقر بنبوته جميع الطوائف، والمشركون يزعمون أنهم على دينه وملته؛ بأن الرسل قبل محمد ﷺ كلهم من البشر الذين يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، وتطرأ عليهم العوارض البشرية من الموت وغيره، وأن الله أرسلهم إلى قومهم وأممهم، فصدقهم من صدقهم، وكذبهم من كذبهم، وأن الله صدقهم ما وعدهم به من النجاة والسعادة لهم ولأتباعهم، وأهلك المسرفين المكذبين لهم؛ فما بال محمد ﷺ تقام الشبه الباطلة على إنكار رسالته، وهي موجودة في إخوانه المرسلين، الذين يقر بهم المكذبون لمحمد؟! فهذا إلزام لهم في غاية الوضوح، وأنهم إن أقروا برسول من البشر، ولن

(١) ع: «عصوه»، ط: «سفّهوه».

يقروا برسول من غير البشر، أن شبههم باطلة، قد أبطلوها هم بإقرارهم بفسادها وتناقضهم بها.

فلو قدر انتقالهم هذا إلى إنكار نبوة البشر رأسًا، وأنه لا يكون نبي إن لم يكن ملكًا مخلدًا لا يأكل الطعام؛ فقد أجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾ [الأنعام: ٨، ٩]، وأن البشر لا طاقة لهم بتلقي الوحي من الملائكة، ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ۝٩٥﴾ [الإسراء: ٩٥]؛ فإن حصل معكم شك وعدم علم بحالة الرسل المتقدمين؛ فاسألوا أهل الذكر من الكتب السالفة؛ كأهل التوراة والإنجيل؛ يخبرونكم بما عندهم من العلم، وأنهم كلهم بشر من جنس المرسَل إليهم.

وهذه الآية وإن كان سببها خاصًّا بالسؤال عن حالة الرسل المتقدمين من أهل الذكر، وهم أهل العلم؛ فإنها عامة في كل مسألة من مسائل الدين أصوله وفروعه إذا لم يكن عند الإنسان علم منها أن يسأل من يعلمها؛ ففيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم، ولم يؤمر بسؤالهم إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه[1].

وفي تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم نهي عن سؤال المعروف بالجهل وعدم العلم، ونهي له أن يتصدى لذلك. وفي هذه الآية دليل على أن النساء ليس منهن نبية؛ لا مريم ولا غيرها؛ لقوله: ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠﴾.

۝١٠ أي: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾: أيها المرسل إليهم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﴿كِتَٰبًا﴾: جليلًا وقرآنًا مبينًا. ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾؛ أي: شرفكم وفخركم وارتفاعكم: إن تذكرتم به ما فيه من الأخبار الصادقة فاعتقدتموها، وامتثلتم ما فيه من الأوامر، واجتنبتم ما فيه من النواهي؛ ارتفع قدركم وعظم أمركم. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠﴾: ما ينفعكم وما يضركم؛ كيف لا تعملون على ما فيه ذكركم وشرفكم في الدنيا والآخرة؟! فلو كان لكم عقل؛ لسلكتم هذا السبيل،

(١) ط: «عملوه».

وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝١١ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝١٢ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ۝١٣ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝١٤ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ۝١٥ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝١٦ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝١٧ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ۝١٨ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۝٢١ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٢٢ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِيۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ۝٢٤

فلما لم تسلكوه وسلكتم غيره من الطرق التي فيها ضعتكم وخستكم في الدنيا والآخرة وشقاوتكم فيهما؛ علم أنه ليس لكم معقول صحيح ولا رأي رجيح.

وهذه الآية مصداقها ما وقع؛ فإن المؤمنين بالرسول والذين تذكروا بالقرآن من الصحابة فمن بعدهم؛ حصل لهم من الرفعة والعلو الباهر والصيت العظيم والشرف على الملوك ما هو أمر معلوم لكل أحد؛ كما أنه معلوم ما حصل لمن لم يرفع بهذا القرآن رأسًا، ولم يهتد به ويتزكى به من المقت والضعة والتدسية والشقاوة؛ فلا سبيل إلى سعادة الدنيا والآخرة إلا بالتذكر بهذا الكتاب.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝١١ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝١٢ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ۝١٣ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝١٤ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ۝١٥﴾.

(١١) يقول تعالى محذرًا لهؤلاء الظالمين المكذبين للرسول بما فعل بالأمم المكذبة لغيره من الرسل: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ أي: أهلكنا بعذاب مستأصل ﴿مِن قَرْيَةٍ﴾: تلفت عن آخرها، ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ (١١)﴾.

(١٢)، (١٣) وإن هؤلاء المهلكين لما أحسوا بعذاب الله وعقابه وباشرهم نزولُه؛ لم يمكن لهم الرجوع، ولا طريق لهم إلى النزوع، وإنما ضربوا الأرض بأرجلهم ندمًا وقلقًا وتحسرًا على ما فعلوا [وهروبًا من وقوعه][1]، فقيل لهم على وجه التهكم بهم: ﴿لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ (١٣)﴾؛ أي: لا يفيدكم الركض والندم، ولكن؛ إن كان لكم اقتدار؛ فارجعوا إلى ما أترفتم فيه من اللذات والمشتهيات ومساكنكم المزخرفات ودنياكم التي غرتكم وألهتكم حتى جاءكم أمر الله؛ فكونوا فيها متمكنين، وللذاتها جانين، وفي منازلكم مطمئنين معظمين؛ لعلكم أن تكونوا مقصودين في أموركم كما كنتم سابقًا مسئولين من مطالب الدنيا كحالتكم الأولى، وهيهات!

(١٤) أين الوصول إلى هذا وقد فات الوقت، وحل بهم العقاب والمقت، وذهب عنهم عزهم وشرفهم ودنياهم، وحضرهم ندمهم وتحسرهم؟! ولهذا ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (١٤)﴾.

(١٥) ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾؛ أي: الدعاء بالويل والثبور والندم والإقرار على أنفسهم بالظلم وأن الله عادل فيما أحل بهم، ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ (١٥)﴾؛ أي: بمنزلة النبات الذي قد حصد وأنيم؛ قد خمدت منهم الحركات، وسكنت منهم الأصوات؛ فاحذروا أيها المخاطبون، أن تستمروا على تكذيب أشرف الرسل، فيحل بكم كما حل بأولئك.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ (١٧)﴾.

(١٦) يخبر تعالى أنه ما خلق السماوات والأرض عبثًا، ولا لعبًا من غير فائدة، بل خلقها بالحق وللحق؛ ليستدل بها العباد على أنه الخالق العظيم، المدبر الحكيم، الرحمن الرحيم، الذي له الكمال كله والحمد كله والعزة كلها، الصادق في قيله، الصادقة رسله فيما تخبر عنه، وأنه القادر على خلقهما مع سعتهما وعِظَمِهِمَا، قادر على إعادة الأجساد بعد موتها؛ ليجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

(١٧) ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾: على الفرض والتقدير المحال؛ ﴿لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾؛ أي: من عندنا، ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ (١٧)﴾: ولم نطلعكم على ما فيه عبث ولهو؛ لأن ذلك نقص ومثل سوء لا نحب أن نريه إياكم؛ فالسماوات والأرض اللذان بمرأى منكم على الدوام لا يمكن أن يكون القصد منهما العبث واللهو؛ كل هذا تنزل مع العقول الصغيرة وإقناعها بجميع الوجوه المقنعة؛ فسبحان الحليم الرحيم الحكيم في تنزيله الأشياء منازلها.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠)﴾.

(١٨) يخبر تعالى أنه تكفل بإحقاق الحق وإبطال الباطل، وإن كان باطل قيل وجودل به؛ فإن الله يُنْزِلُ من الحق والعلم والبيان ما يدمغه فيضمحل ويتبين لكل أحد بطلانه. ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾؛ أي: مضمحل فانٍ. وهذا عام في جميع المسائل الدينية، لا يورد مبطل شبهة عقلية ولا نقلية في إحقاق باطل أو رد حق؛ إلا وفي أدلة الله من القواطع العقلية والنقلية ما يذهب ذلك القول الباطل ويقمعه؛ فإذا هو متبيِّن بطلانه لكل أحد. وهذا يتبين باستقراء المسائل مسألة مسألة؛ فإنك تجدها كذلك. ثم قال: ولكم أيها الواصفون الله بما لا يليق به من اتخاذ الولد والصاحبة ومن الأنداد والشركاء حظكم من ذلك ونصيبكم، الذي تدركون به ﴿ٱلْوَيْلُ﴾ والندامة والخسران. ليس لكم مما قلتم فائدة، ولا يرجع عليكم بعائدة تؤملونها، وتعملون لأجلها، وتسعون في الوصول إليها؛ إلا عكس مقصودكم، وهو الخيبة والحرمان.

(١٩) ثم أخبر أنه له ملك السماوات والأرض وما بينهما؛ فالكل عبيده ومماليكه، فليس لأحد منهم ملك ولا قسط من الملك ولا معاونة عليه، ولا يشفع إلا بإذن الله؛ فكيف يتخذ من هؤلاء آلهة؟! وكيف يجعل لله منها ولد؟! فتعالى

(١) زيادة ليست في: الأصل، ط.

وتقدس المالك العظيم الذي خضعت له الرقاب، وذلت له الصعاب، وخشعت له الملائكة المقربون، وأذعنوا له بالعبادة الدائمة المستمرة أجمعون؛ ولهذا قال: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾؛ أي: الملائكة، ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ١٩﴾؛ أي: لا يملون، ولا يسأمون لشدة رغبتهم وكمال محبتهم وقوة أبدانهم.

٢٠ ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ٢٠﴾؛ أي: مستغرقين في العبادة والتسبيح في جميع أوقاتهم، فليس في أوقاتهم وقت فارغ ولا خالٍ منها، وهم على كثرتهم بهذه الصفة.

وفي هذا من بيان عظمته وجلالة سلطانه وكمال علمه وحكمته ما يوجب ألَّا يعبد إلا هو، ولا تصرف العبادة لغيره.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ٢١ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ٢٣ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ٢٤ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ٢٥﴾.

٢١ لما بين تعالى كمال اقتداره وعظمته وخضوع كل شيء له؛ أنكر على المشركين الذين اتخذوا من دون الله آلهة من الأرض في غاية العجز وعدم القدرة. ﴿هُمْ يُنشِرُونَ ٢١﴾: استفهام بمعنى النفي؛ أي: لا يقدرون على نشرهم وحشرهم؛ يفسرها قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ٣﴾ [الفرقان: ٣]، ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ٧٤ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ٧٥﴾ [يس: ٧٤، ٧٥].

٢٢ فالمشرك يعبد المخلوق الذي لا ينفع ولا يضر، ويدع الإخلاص لله الذي له الكمال كله وبيده الأمر والنفع والضر، وهذا من عدم توفيقه وسوء حظه وتوفر جهله وشدة ظلمه؛ فإنه لا يصلح الوجود إلا على إله واحد؛ كما أنه لم يوجد إلا برب واحد، ولهذا قال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ﴾؛ أي: في السماوات والأرض، ﴿ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾: في ذاتهما، وفسد من فيهما من المخلوقات.

وبيان ذلك: أن العالم العلوي والسفلي على ما يرى في أكمل ما يكون من الصلاح والانتظام، الذي ما فيه خلل ولا عيب ولا ممانعة ولا معارضة، فدل ذلك على أن مدبره واحد، وربه واحد، وإلهه واحد؛ فلو كان له مدبران وربان أو أكثر من ذلك؛ لاختل نظامه وتقوضت أركانه؛ فإنهما يتمانعان ويتعارضان، وإذا أراد أحدهما تدبير شيء وأراد الآخر عدمه؛ فإنه محال وجود مرادهما معًا، ووجود مراد أحدهما دون الآخر يدل على عجز الآخر وعدم اقتداره، واتفاقهما على مراد واحد في جميع الأمور غير ممكن؛ فإذًا يتعين أن القاهر الذي يوجد مراده وحده من غير ممانع ولا مدافع هو الله الواحد القهار، ولهذا ذكر الله دليل التمانع في قوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ٩١﴾ [المؤمنون: ٩١]، ومنه على أحد التأويلين قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ٤٢ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ٤٣﴾ [الإسراء: ٤٢، ٤٣]؛ ولهذا قال هنا: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: تنزه وتقدس عن كل نقص لكماله وحده، ﴿رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾: الذي هو سقف المخلوقات وأوسعها وأعظمها؛ فربوبية ما دونه من باب أولى، ﴿عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢﴾؛ أي: الجاحدون الكافرون من اتخاذ الولد والصاحبة، وأن يكون له شريك بوجه من الوجوه.

٢٣ ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾: لعظمته وعزته وكمال قدرته؛ لا يقدر أحد أن يمانعه أو يعارضه؛ لا بقول ولا بفعل، ولكمال حكمته ووضعه الأشياء مواضعها وإتقانها أحسن كل[1] شيء يقدره العقل؛ فلا يتوجه إليه سؤال؛ لأن خلقه ليس فيه خلل ولا إخلال. ﴿وَهُمْ﴾؛ أي: المخلوقون كلهم، ﴿يُسْـَٔلُونَ ٢٣﴾: عن أفعالهم وأقوالهم؛ لعجزهم وفقرهم، ولكونهم عبيدًا، قد استحقت أفعالهم وحركاتهم؛ فليس لهم من التصرف والتدبير في أنفسهم ولا في غيرهم مثقال ذرة.

٢٤ ثم رجع إلى تهجين حال المشركين، وأنهم اتخذوا من دونه آلهة؛ فقل لهم موبخًا ومقرعًا: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن

(١) ساقط من ع، ط.

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ
بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم
بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ
وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ
٢٨ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ
جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ
أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا
مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ٣٠ وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ
رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ
يَهۡتَدُونَ ٣١ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ
ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ٣٢ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ
وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٣٣ وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ
ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ٣٤ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ
ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٣٥

دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ ﴾؛ أي: حجتكم ودليلكم على صحة ما ذهبتم إليه، ولن يجدوا لذلك سبيلًا، بل قد قامت الأدلة القطعية على بطلانه، ولهذا قال: ﴿ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِي ﴾؛ أي: قد اتفقت الكتب والشرائع على صحة ما قلت لكم من إبطال الشرك؛ فهذا كتاب الله الذي فيه ذكر كل شيء بأدلته العقلية والنقلية، وهذه الكتب السابقة كلها براهين وأدلة لما قلت. ولما عُلم أنهم قامت عليهم الحجة والبرهان على بطلان ما ذهبوا إليه؛ عُلم أنه لا برهان لهم؛ لأن البرهان القاطع يُجْزَمُ أنه لا معارض له، وإلا؛ لم يكن قطعيًّا، وإن وجد معارضات؛ فإنها شبه لا تغني من الحق شيئًا. وقوله: ﴿ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّ ﴾؛ أي: وإنما أقاموا على ما هم عليه تقليدًا لأسلافهم؛ يجادلون بغير علم ولا هدًى، وليس عدم علمهم الحق لخفائه وغموضه، وإنما ذلك لإعراضهم عنه، وإلا؛ فلو التفتوا إليه أدنى التفات؛ تبين لهم الحق من الباطل تبينًا واضحًا جليًّا، ولهذا قال: ﴿ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٤ ﴾.

(٢٥) ولما حول تعالى على ذكر المتقدمين، وأمر بالرجوع إليها في بيان هذه المسألة؛ بينها أتم تبيين في قوله: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥ ﴾: فكل الرسل الذين من قبلك مع كتبهم زبدة رسالتهم وأصلها الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وبيان أنه الإله الحق المعبود وأن عبادة ما سواه باطلة.

﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ٢٨ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩ ﴾.

(٢٦) يخبر تعالى عن سفاهة المشركين المكذبين للرسول، وأنهم زعموا - قبحهم الله - أن الله اتخذ ولدًا، فقالوا: الملائكة بنات الله! تعالى الله عن قولهم، وأخبر عن وصف الملائكة بأنهم عبيد مربوبون مدبرون، ليس لهم من الأمر شيء، وإنما هم مكرمون عند الله، قد ألزمهم الله، وصيرهم من عبيد كرامته ورحمته، وذلك لما خصهم به من الفضائل والتطهير عن الرذائل، وأنهم في غاية الأدب مع الله والامتثال لأوامره.

(٢٧) ﴿ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ ﴾؛ أي: لا يقولون قولًا مما يتعلق بتدبير المملكة حتى يقول الله؛ لكمال أدبهم وعلمهم بكمال حكمته وعلمه. ﴿ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧ ﴾؛ أي: مهما أمرهم؛ امتثلوا لأمره، ومهما دبرهم عليه؛ فعلوه؛ فلا يعصونه طرفة عين، ولا يكون لهم عمل بأهواء أنفسهم من دون أمر الله.

(٢٨) ومع هذا؛ فالله قد أحاط بهم علمه، ﴿ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ ﴾؛ أي: أمورهم الماضية والمستقبلة؛ فلا خروج لهم عن علمه؛ كما لا خروج لهم عن أمره وتدبيره، ومن جزئيات وصفهم بأنهم لا يسبقونه بالقول أنهم لا يشفعون لأحد بدون إذنه ورضاه؛ فإذا أذن لهم وارتضى من يشفعون فيه شفعوا فيه؛ ولكنه تعالى لا يرضى من القول والعمل إلا ما كان خالصًا لوجهه متبعًا فيه الرسول.

وهذه الآية من أدلة إثبات الشفاعة، وأن الملائكة يشفعون. ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾؛ أي: خائفون وجلون، قد خضعوا لجلاله، وعنت وجوههم لعزه وجماله.

﴿٢٩﴾ فلما بين أنه لا حق لهم في الألوهية، ولا يستحقون شيئًا من العبودية بما وصفهم به من الصفات المقتضية لذلك؛ ذكر أيضًا أنه لا حظ لهم ولا بمجرد الدعوى، وأن من قال منهم: إني إله من دون الله على سبيل الفرض والتنزل. ﴿فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾: وأي ظلم أعظم من ادعاء المخلوق الناقص الفقير إلى الله من جميع الوجوه مشاركته[1] الله في خصائص الإلهية والربوبية؟!

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿٣٠﴾ أي: أولم ينظر هؤلاء الذين كفروا بربهم، وجحدوا الإخلاص له في العبودية ما يدلهم دلالةً مشاهدةً على أنه الرب المحمود الكريم المعبود، فيشاهدون السماء والأرض، فيجدونهما ﴿رَتْقًا﴾؛ هذه ليس فيها سحاب ولا مطر، وهذه هامدة ميتة لا نبات فيها، ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾؛ السماء بالمطر، والأرض بالنبات. أليس الذي أوجد في السماء السحاب بعد أن كان الجو صافيًا لا قزعة فيه، وأودع فيه الماء الغزير، ثم ساقه إلى بلد ميت قد اغبرت أرجاؤه وقحط عنه ماؤه، فأمطره فيها، فاهتزت وتحركت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج مختلف الأنواع متعدد المنافع؛ أليس ذلك دليلًا على أنه الحق وما سواه باطل، وأنه محيي الموتى، وأنه الرحمن الرحيم؟ ولهذا قال: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾؛ أي: إيمانًا صحيحًا ما فيه شك ولا شرك.

ثم عدد تعالى الأدلة الأفقية، فقال:

﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

(١) ع: «مشاركة».

﴿٣١﴾ أي: ومن الأدلة على قدرته وكماله ووحدانيته ورحمته أنه لما كانت الأرض لا تستقر إلا بالجبال؛ أرساها بها، وأوتدها لئلا تميد بالعباد؛ أي: لئلا تضطرب؛ فلا يتمكن العباد من السكون فيها ولا حرثها ولا الاستقرار بها، فأرساها بالجبال، فحصل بسبب ذلك من المصالح والمنافع ما حصل.

ولما كانت الجبال المتصل بعضها ببعض قد اتصلت[2] اتصالًا كثيرًا جدًّا؛ فلو بقيت بحالها جبالًا شامخات وقللًا باذخات؛ لتعطل الاتصال بين كثير من البلدان؛ فمن حكمة الله ورحمته أن جعل بين تلك الجبال ﴿فِجَاجًا سُبُلًا﴾؛ أي: طرقًا سهلة لا حَزْنة، ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾: إلى الوصول إلى مطالبهم من البلدان، ولعلهم يهتدون بالاستدلال بذلك على وحدانية المنان.

﴿٣٢﴾، ﴿٣٣﴾ ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا﴾: للأرض التي أنتم عليها ﴿مَّحْفُوظًا﴾: من السقوط؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١]؛ محفوظًا أيضًا من استراق الشياطين للسمع. ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾؛ أي: غافلون لاهون.

وهذا عام في جميع آيات السماء؛ من علوها، وسعتها، وعظمتها، ولونها الحسن، وإتقانها العجيب، وغير ذلك من المشاهَد فيها من الكواكب الثوابت والسيارات، وشمسها وقمرها النيرات، المتولد عنهما الليل والنهار، وكونهما دائمًا في فلكهما سابحين. وكذلك النجوم، فتقوم بسبب ذلك منافع العباد من الحر والبرد والفصول، ويعرفون حساب عباداتهم ومعاملاتهم، ويستريحون في ليلهم ويهدءون ويسكنون، وينتشرون في نهارهم ويسعون في معايشهم؛ كل هذه الأمور إذا تدبرها اللبيب وأمعن فيها النظر؛ جزم جزمًا لا شك فيه أن الله جعلها مؤقتة في وقت معلوم إلى أجل محتوم، يقضي العباد منها مآربهم، وتقوم بها منافعهم، وليستمتعوا وينتفعوا، ثم بعد هذا ستزول وتضمحل ويفنيها الذي أوجدها ويسكنها الذي حركها، وينتقل المكلفون إلى دار غير هذه الدار؛ يجدون فيها جزاء أعمالهم كاملًا موفرًا، ويعلم أن المقصود من هذه الدار أن تكون مزرعة لدار القرار، وأنها منزل سفر لا محل إقامة.

(٢) ع: «تتصل».

وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا
أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ
هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ
ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ
إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ
لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا
هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا
يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ
بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ
يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ
ٱلرَّحۡمَٰنِۚ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمۡ
لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ
أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ
وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي
ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾

﴿ وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿٣٤﴾ لما كان أعداء الرسول ﷺ يقولـون: تربصوا به ريب المنون؛ قال الله تعالى: هذا طريق مسلوك ومعبد منهوك؛ فلم نجعل لبشر ﴿مِّن قَبۡلِكَ﴾ يا محمد ﴿ٱلۡخُلۡدَ﴾ في الدنيا؛ فإذا مت؛ فسبيل أمثالك من الرسل والأنبياء والأولياء. ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾؛ أي: فهـل إذا مت؛ خلدوا بعدك، فليهنهـم الخلود إذًا إن كان، وليـس الأمر كذلك، بل كل من عليها فانٍ.

﴿٣٥﴾ ولهذا قال: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾: وهذا يشـمل سائر نفوس الخلائق، وأن هذا كأس لا بد من شربه وإن طال بالعبد المدى وعمّر سنين، ولكن الله تعالى أوجد عباده في الدنيـا، وأمرهـم ونهاهـم، وابتلاهـم بالخير والشـر وبالغنى والفقـر والعـز والـذل والحيـاة والمـوت؛ فتنـة منه تعالى؛ ﴿لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ﴿٧﴾﴾ [الكهـف: ٧]، ومن يفتتن عنـد مواقع الفتـن ومن ينجو، ثـم إلينا ترجعـون، فنجازيكم بأعمالكم؛ إن خيرًا فخير، وإن شـرًّا فشر، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤١].

وهـذه الآيـة تدل علـى بطلان قول مـن يقول ببقـاء الخضر، وأنـه مخلد في الدنيـا؛ فهو قول لا دليل عليـه، ومناقض للأدلة الشرعية.

﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿٣٦﴾ وهـذا مـن شـدة كفرهـم؛ فـإن المشـركين إذا رأوا رسول الله ﷺ؛ استهزءوا به وقالوا: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾؛ أي: هذا المحتقر بزعمهم، الذي يسب آلهتكم ويذمهـا ويقـع فيهـا؛ أي: فلا تبالوا بـه، ولا تحتفلـوا به. هذا استهزاؤهم واحتقارهـم له بما هـو من كمالـه؛ فإنه الأكمل الأفضـل، الذي مـن فضائلـه ومكارمه إخلاص العبـادة لله، وذم كل مـا يعبـد مـن دونـه وتنقصه، وذكـر محلـه ومكانته، ولكن محل الازدراء والاستهزاء هؤلاء الكفار الذين جمعوا كل خلـق ذميـم، ولـو لم يكـن إلا كفرهم بالـرب وجحدهم لرسـله، فصاروا بذلك من أخسـاء[1] الخلـق وأرذلهم، ومع هـذا؛ فذكرهم للرحمن الذي هو أعلى حالاتهم كافرون به؛ لأنـه لا يذكرونـه ولا يؤمنون به إلا وهم مشـركون؛ فذكرهم كفـر وشـرك؛ فكيـف بأحوالهـم بعـد ذلـك؟! ولهـذا قـال: ﴿وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾. وفـي ذكر اسمه الرحمن هنا بيـان لقباحـة حالهم، وأنهم كيـف قابلوا الرحمن - مسـدي النعم كلها، ودافع النقـم، الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع السوء إلا هو - بالكفر والشرك.

(١) ع، ط: «أخس».

(٣٧) ﴿ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖ ﴾؛ أي: خلق عجولًا، يبادر الأشياء، ويستعجل بوقوعها؛ فالمؤمنون يستعجلون عقوبة الله للكافرين ويتباطئونها، والكافرون يتولون ويستعجلون بالعذاب تكذيبًا وعنادًا ويقولون: ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (٣٨) ﴾، والله تعالى يمهل ولا يهمل، ويحلم ويجعل لهم أجلًا مؤقتًا، ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ (٣٤) ﴾ [الأعراف: ٣٤]. ولهذا قال: ﴿ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي ﴾؛ أي: في انتقامي ممن كفر بي وعصاني، ﴿ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ (٣٧) ﴾: ذلك.

(٣٨) وكذلك الذين كفروا يقولون: ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (٣٨) ﴾: قالوا هذا القول اغترارًا ولمَّا يحقَّ عليهم العقاب وينزل بهم العذاب.

(٣٩) فلو ﴿ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ حالهم الشنيعة ﴿ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ ﴾؛ إذ قد أحاط بهم من كل جانب، وغشيهم من كل مكان، ﴿ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ (٣٩) ﴾؛ أي: لا ينصرهم غيرهم؛ فلا نصروا، ولا انتصروا.

(٤٠) ﴿ بَلۡ تَأۡتِيهِم ﴾ النار ﴿ بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ ﴾: من الانزعاج والذعر والخوف العظيم. ﴿ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا ﴾: إذ هم أذل وأضعف من ذلك. ﴿ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ (٤٠) ﴾؛ أي: يمهلون فيؤخر عنهم العذاب؛ فلو علموا هذه الحالة حق المعرفة؛ لما استعجلوا بالعذاب، ولخافوه أشد الخوف، ولكن لما ترحل عنهم هذا العلم؛ قالوا ما قالوا.

(٤١) ولما ذكر استهزاءهم برسوله بقولهم: ﴿ أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ ﴾؛ سلاه بأن هذا دأب الأمم السالفة مع رسلهم، فقال: ﴿ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم ﴾؛ أي: نزل بهم، ﴿ مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ (٤١) ﴾؛ أي: نزل بهم العذاب وتقطعت عنهم الأسباب؛ فليحذر هؤلاء أن يصيبهم ما أصاب أولئك المكذبين.

﴿ قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۗ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ (٤٢) أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ (٤٣) بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ (٤٤) ﴾.

(٤٢) يقول تعالى ذاكرًا عجز هؤلاء الذين اتخذوا من دونه آلهة، وأنهم محتاجون مضطرون إلى ربهم الرحمن، الذي رحمته شملت البر والفاجر في ليلهم ونهارهم، فقال: ﴿ قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم ﴾؛ أي: يحرسكم ويحفظكم ﴿ بِٱلَّيۡلِ ﴾: إذا كنتم نائمين على فرشكم وذهبت حواسكم، ﴿ وَٱلنَّهَارِ ﴾ وقت انتشاركم وغفلتكم ﴿ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾؛ أي: بدله وغيره؛ أي: هل يحفظكم أحد غيره؟ لا حافظ إلا هو. ﴿ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ (٤٢) ﴾: فلهذا أشركوا به، وإلا؛ فلو أقبلوا على ربهم[1]، وتلقوا نصائحه؛ لهدوا لرشدهم، ووفقوا في أمرهم.

(٤٣) ﴿ أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَا ﴾؛ أي: إذا أردناهم بسوء؛ هل من آلهتهم من يقدر على منعهم من ذلك السوء والشر النازل بهم؟ ﴿ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ (٤٣) ﴾؛ أي: لا يعانون على أمورهم من جهتنا، وإذا لم يعانوا من الله؛ فهم مخذولون في أمورهم، لا يستطيعون جلب منفعة ولا دفع مضرة.

(٤٤) والذي أوجب لهم استمرارهم على كفرهم وشركهم قوله: ﴿ بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُ ﴾؛ أي: أمددناهم بالأموال والبنين، وأطلنا أعمارهم، فاشتغلوا بالتمتع بها، ولهوا بها عما له خلقوا، وطال عليهم الأمد، فقست قلوبهم، وعظم[2] طغيانهم، وتغلظ كفرانهم؛ فلو لفتوا أنظارهم إلى من عن يمينهم وعن يسارهم من الأرض؛ لم يجدوا إلا هالكًا، ولم يسمعوا إلا صوت ناعية، ولم يحسوا إلا بقرون متتابعة على الهلاك، وقد نصب الموت في كل طريق لاقتناص النفوس الأشراك، ولهذا قال: ﴿ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآ ﴾؛ أي: بموت أهلها وفنائهم شيئًا فشيئًا حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين؛ فلو رأوا هذه الحالة؛ لم يغتروا ويستمروا على ما هم عليه. ﴿ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ (٤٤) ﴾: الذين بوسعهم الخروج عن قدر الله، وبطاقتهم الامتناع

(١) ع، ط: «ذكر ربهم».
(٢) ع: «وعلا».

قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا
مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ
لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ
ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ
مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ
﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ
ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ
مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا
بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ
أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾
قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟
أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ
﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾

عن الموت؟ فهل هذا وصفهم حتى يغتروا بطول البقاء؟ أم إذا جاءهم رسول ربهم، لقبض أرواحهم، أذعنوا وذلوا ولم يظهر منهم أدنى ممانعة؟

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿٤٥﴾ أي: ﴿ قُلْ ﴾: يا محمد للناس كلهم: ﴿ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ﴾؛ أي: إنما أنا رسول، لا آتيكم بشيء من عندي، ولا عندي خزائن الله، ولا أعلم الغيب، ولا أقول إني ملك، وإنما أنذركم بما أوحاه الله لي؛ فإن استجبتم فقد استجبتم لله، وسيثيبكم على ذلك، وإن أعرضتم وعارضتم؛ فليس بيدي من الأمر شيء، وإنما الأمر لله، والتقدير كله لله. ﴿ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ ﴾؛ أي: الأصم لا يسمع صوتًا؛ لأن سمعه قد فسد وتعطل، وشرط السماع مع الصوت أن يوجد محل قابل لذلك. كذلك الوحي سبب لحياة القلوب والأرواح وللفقه عن الله، ولكن إذا كان القلب غير قابل لسماع الهدى؛ كان بالنسبة للهدى والإيمان بمنزلة الأصم بالنسبة إلى الأصوات؛ فهؤلاء المشركون صم عن الهدى؛ فلا يستغرب عدم اهتدائهم، خصوصًا في هذه الحالة التي لم يأتهم العذاب، ولا مسهم ألمه.

﴿٤٦﴾ ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ ﴾؛ أي: ولو جزء يسير، ولا يسير من عذابه؛ ﴿ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾؛ أي: لم يكن قولهم إلا الدعاء بالويل والثبور والندم والاعتراف بظلمهم وكفرهم واستحقاقهم العذاب.

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿٤٧﴾ يخبر تعالى عن حكمه العدل وقضائه القسط بين عباده إذا جمعهم[1] يوم القيامة، وأنه يضع لهم الموازين العادلة التي يبين فيها مثاقيل الذر الذي توزن به الحسنات والسيئات؛ ﴿ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ ﴾: مسلمة و لا كافرة ﴿ شَيْـًٔا ﴾: بأن تنقص من حسناتها أو يزاد في سيئاتها، ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ التي هي أصغر الأشياء وأحقرها من خير أو شر ﴿ أَتَيْنَا بِهَا ﴾ أتينا بها وأحضرناها، ليجازى بها صاحبها؛ كقوله: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، وقالوا: ﴿ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ﴾ [الكهف: ٤٩]. ﴿ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾؛ يعني بذلك نفسه الكريمة؛ فكفى بها حاسبًا؛ أي: عالمًا بأعمال العباد، حافظًا لها، مثبتًا لها في الكتاب، عالمًا بمقاديرها ومقادير ثوابها وعقابها واستحقاقها، موصلًا للعمال جزاءها.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

---

(١) بعده في ع: «في».

(٤٨) كثيرًا ما يجمع تعالى بين هذين الكتابين الجليلين اللذين لم يطرق العالم أفضل منهما ولا أعظم ذكرًا ولا أبرك ولا أعظم هدًى وبيانًا، وهما التوراة والقرآن، فأخبر أنه آتى موسى أصلًا وهارون تبعًا الفرقان، وهو التوراة الفارقة بين الحق والباطل والهدى والضلال، وأنها ﴿ضِيَآءً﴾؛ أي: نور يهتدي به المهتدون، ويأتم به السالكون، وتعرف به الأحكام، ويميز به بين الحلال والحرام، وينير في ظلمة الجهل والبدع والغواية وذكرًا للمتقين؛ يتذكرون به ما ينفعهم وما يضرهم، ويتذكر به الخير والشر، وخص المتقين بالذكر، لأنهم المنتفعون بذلك علمًا وعملًا.

(٤٩) ثم فسر المتقين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾؛ أي: يخشونه في حال غيبتهم وعدم مشاهدة الناس لهم؛ فمع المشاهدة أولى، فيتورعون عما حرم، ويقومون بما ألزم. ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ (٤٩)﴾؛ أي: خائفون وجلون؛ لكمال معرفتهم بربهم، فجمعوا بين الإحسان والخوف، والعطف هنا من باب عطف الصفات المتغايرات الواردة على شيء واحد وموصوف واحد.

(٥٠) ﴿وَهَٰذَا﴾؛ أي: القرآن، ﴿ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُ﴾: فوصفه بوصفين جليلين: كونه ذكرًا يتذكر به جميع المطالب؛ من معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، ومن صفات الرسل والأولياء وأحوالهم، ومن أحكام الشرع من العبادات والمعاملات وغيرها، ومن أحكام الجزاء والجنة والنار، فيتذكر به المسائل والدلائل العقلية والنقلية، وسماه ذكرًا؛ لأنه يذكر ما ركزه الله في العقول والفطر من التصديق بالأخبار الصادقة، والأمر بالحسن عقلًا، والنهي عن القبيح عقلًا.

وكونه مباركًا يقتضي كثرة خيراته ونمائها وزيادتها، ولا شيء أعظم بركة من هذا القرآن؛ فإن كل خير ونعمة وزيادة دينية أو دنيوية أو أخروية؛ فإنها بسببه، وأثر عن العمل به؛ فإذا كان ذكرًا مباركًا؛ وجب تلقيه بالقبول والانقياد والتسليم، وشكر الله على هذه المنحة الجليلة، والقيام بها، واستخراج بركته؛ بتعلم ألفاظه ومعانيه. وأن مقابلته بضد هذه الحالة؛ من الإعراض عنه، والإضراب عنه صفحًا، وإنكاره، وعدم الإيمان به؛ فهذا من أعظم الكفر وأشد الجهل والظلم، ولهذا أنكر تعالى على من أنكره، فقال: ﴿أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ (٥٠)﴾.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ (٥١)﴾ إلى آخر هذه القصة وهو قوله: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ (٧٣)﴾.

(٥١) لما ذكر تعالى موسى ومحمدًا صلى الله عليهما وسلم وكتابيهما؛ قال: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ﴾؛ أي: من قبل إرسال موسى ومحمد ونزول كتابيهما، فأراه الله ملكوت السماوات والأرض، وأعطاه من الرشد الذي كمل به نفسه، ودعا الناس إليه، ما لم يؤته أحدًا من العالمين، غير محمد، وأضاف الرشد إليه لكونه رشدًا بحسب حاله وعلو مرتبته، وإلا؛ فكل مؤمن له من الرشد بحسب ما معه من الإيمان. ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ (٥١)﴾؛ أي: أعطيناه رشده، واختصصناه بالرسالة والخلة، واصطفيناه في الدنيا والآخرة؛ لعلمنا أنه أهل لذلك وكفء له؛ لزكائه وذكائه.

ولهذا ذكر محاجته لقومه، ونهيهم عن الشرك، وتكسير الأصنام وإلزامهم بالحجة، فقال:

(٥٢) ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾: التي مثلتموها؛ نحتموها بأيديكم على صور بعض المخلوقات، ﴿ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ (٥٢)﴾: مقيمون على عبادتها، ملازمون لذلك؛ فما هي؟ وأي فضيلة ثبتت لها؟ وأين عقولكم التي ذهبت حتى أفنيتم أوقاتكم بعبادتها، والحال أنكم مثلتموها ونحتموها بأيديكم؛ فهذا من أكبر العجائب؛ تعبدون ما تنحتون؟!

(٥٣) فأجابوا بغير حجة جواب العاجز الذي ليس بيده أدنى شبهة، فقالوا: ﴿وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا﴾: كذلك يفعلون فسلكنا سبيلهم، واتبعناهم[1] على عبادتها!! ومن المعلوم أن فعل أحد من الخلق سوى الرسل ليس بحجة ولا تجوز به القدوة، خصوصًا في أصل الدين وتوحيد رب العالمين.

(٥٤) ولهذا قال لهم إبراهيم مضللًا للجميع: ﴿لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ (٥٤)﴾؛ أي: ضلال

(١) ع: «وتبعناهم».

فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ
﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾
قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ
عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ
هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ
هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ
أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ
رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ
أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا
يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ
فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾
وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ
وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا
لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾

بين واضح، وأي ضلال أبلغ من ضلالهم في الشرك وترك التوحيد؟! أي: فليس ما قلتم يصلح للتمسك به، وقد اشتركتم وإياهم في الضلال الواضح البين لكل أحد.

(٥٥) ﴿ قَالُوٓا ﴾: على وجه الاستغراب لقوله، والاستفهام[1] لما قال، وكيف بادأهم بتسفيههم وتسفيه آبائهم: ﴿ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ (٥٥) ﴾؛ أي: هذا القول الذي قلته والذي جئتنا به: هل هو حق وجد، أم كلامك لنا كلام لاعب مستهزئ لا يدري ما يقول؟! وهذا الذي أرادوا، وإنما رددوا الكلام بين الأمرين لأنهم نزلوه منزلة المتقرر المعلوم عند كل أحد، أن الكلام الذي جاء به إبراهيم كلام سفيه لا يعقل ما يقول.

(٥٦) فرد عليهم إبراهيم ردًّا بيَّن به وجه سفههم وقلة عقولهم، فقال: ﴿ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٥٦) ﴾: فجمع لهم بين الدليل العقلي والدليل السمعي: أما الدليل العقلي؛ فإنه قد علم كل أحد، حتى هؤلاء الذين جادلهم إبراهيم: أن الله وحده الخالق لجميع المخلوقات من بني آدم والملائكة والجن والبهائم والسماوات والأرض المدبر لهن بجميع أنواع التدبير، فيكون كل مخلوق مفطورًا مدبرًا متصرفًا فيه، ودخل في ذلك جميع ما عبد من دون الله، أفيليق عند من له أدنى مسكة من عقل وتمييز أن يعبد مخلوقًا متصرَّفًا فيه، لا يملك نفعًا، ولا ضرًّا، ولا موتًا، ولا حياة، ولا نشورًا، ويدع عبادة الخالق الرازق المدبر؟!

وأما الدليل السمعي؛ فهو المنقول عن الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ فإن ما جاءوا به معصوم لا يغلط ولا يخبر بغير الحق، ومن أنواع هذا القسم شهادة أحد من الرسل على ذلك؛ فلهذا قال إبراهيم: ﴿ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم ﴾؛ أي: أن الله وحده المعبود، وأن عبادة ما سواه باطل، ﴿ مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٥٦) ﴾: وأي شهادة بعد شهادة الله أعلى من شهادة الرسل، خصوصًا أولي العزم منهم، خصوصًا خليل الرحمن؟

(٥٧) ولما بين أن أصنامهم ليس لها من التدبير شيء؛ أراد أن يريهم بالفعل عجزها وعدم انتصارها، وليكيد كيدًا يحصل به إقرارهم بذلك؛ فلهذا قال: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم ﴾؛ أي: أكسرها على وجه الكيد، ﴿ بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ (٥٧) ﴾: عنها، إلى عيد من أعيادهم.

(٥٨) فلما تولوا مدبرين؛ ذهب إليها بخفية، ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا ﴾؛ أي: كِسرًا وقِطعًا، وكانت مجموعة في بيت واحد فكسرها كلها، ﴿ إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ ﴾؛ أي: إلا صنمهم الكبير؛ فإنه تركه لمقصد سيبينه.

وتأمل هذا الاحتراز العجيب؛ فإن كل ممقوت عند الله لا يطلق عليه ألفاظ التعظيم إلا على وجه إضافته لأصحابه؛ كما كان النبي ﷺ إذا كتب إلى ملوك الأرض المشركين يقول: إلى عظيم الفرس... إلى عظيم الروم... ونحو ذلك ولم يقل: إلى العظيم! وهنا قال تعالى: ﴿ إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ ﴾، ولم يقل: كبيرًا من أصنامهم؛ فهذا ينبغي التنبه له والاحتراز من تعظيم ما حقره الله؛ إلا إذا أضيف إلى من عظمه. وقوله: ﴿ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) ﴾؛ أي: ترك إبراهيم تكسير صنمهم هذا لأجل أن يرجعوا إليه، ويستملوا حجته، ويلتفتوا إليها، ولا يعرضوا عنها، ولهذا قال في آخرها: ﴿ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾.

(١) ط: «والاستعظام».

(٥٩) فحين رأوا ما حل بأصنامهم من الإهانة والخزي؛ ﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٥٩) ﴾: فرموا إبراهيم بالظلم الذي هم أولى به حيث كسرها، ولم يدروا أن تكسيره لها من أفضل مناقبه ومن عدله وتوحيده، وإنما الظالم من اتخذها آلهة، وقد رأى ما يفعل بها.

(٦٠) ﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ ﴾ - أي: يعيبهم ويذمهم، ومن هذا شأنه لا بد أن يكون هو الذي كسرها، أو أن بعضهم سمعه يذكر أنه سيكيدها - ﴿ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ (٦٠) ﴾.

(٦١) فلما تحققوا أنه إبراهيم؛ ﴿ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ ﴾؛ أي: بإبراهيم، ﴿ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ ﴾؛ أي: بمرأى منهم ومسمع، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) ﴾؛ أي: يحضرون ما يُصنع بمن كسر آلهتهم. وهذا الذي أراد إبراهيم وقصد: أن يكون بيان الحق بمشهد من الناس؛ ليشاهدوا الحق وتقوم عليهم الحجة؛ كما قال موسى حين واعد فرعون: ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى (٥٩) ﴾ [طه: ٥٩].

(٦٢) فحين حضر الناس وأحضر إبراهيم؛ قالوا له: ﴿ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا ﴾؛ أي: التكسير ﴿ بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ (٦٢) ﴾؟ وهذا استفهام تقرير؛ أي: فما الذي جرأك؟ وما الذي أوجب لك الإقدام على هذا الأمر؟

(٦٣) فقال إبراهيم والناس مشاهدون: ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾؛ أي: كسرها غضبًا عليها لما عبدت معه، وأراد أن تكون العبادة منكم لصنمكم الكبير وحده، وهذا الكلام من إبراهيم القصد منه إلزام الخصم وإقامة الحجة عليه، ولهذا قال: ﴿ فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ (٦٣) ﴾، وأراد الأصنام المكسرة؛ اسألوها لم كسرت؟ والصنم الذي لم يكسر؛ اسألوه لأي شيء كسرها؟ إن كان عندهم نطق؛ فسيجيبونكم إلى ذلك، وأنا وأنتم وكل أحد يدري أنها لا تنطق، ولا تتكلم، ولا تنفع ولا تضر، بل ولا تنصر نفسها ممن يريدها بأذى.

(٦٤) ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾؛ أي: ثابت عليهم عقولهم، ورجعت إليهم أحلامهم، وعلموا أنهم ضالون في عبادتها، وأقروا على أنفسهم بالظلم والشرك، ﴿ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٦٤) ﴾: فحصل بذلك المقصود، ولزمتهم الحجة بإقرارهم أن ما هم عليه باطل، وأن فعلهم كفر وظلم.

(٦٥) ولكن لم يستمروا على هذه الحالة، ولكن ﴿ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾؛ أي: انقلب الأمر عليهم، وانتكست عقولهم، وضلت أحلامهم، فقالوا لإبراهيم: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ (٦٥) ﴾؛ فكيف تتهكم بنا، وتستهزئ بنا، وتأمرنا أن نسألها، وأنت تعلم أنها لا تنطق؟

(٦٦) فقال إبراهيم موبخًا لهم ومعلنًا بشركهم على رءوس الأشهاد ومبينًا عدم استحقاق آلهتهم للعبادة: ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) ﴾: فلا نفع ولا دفع.

(٦٧) ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: ما أضلكم وأخسر صفقتكم وما أخسكم أنتم وما عبدتم من دون الله!! إن كنتم تعقلون عرفتم هذه الحال، فلما عدمتم العقل وارتكبتم الجهل والضلال على بصيرة؛ صارت البهائم أحسن حالًا منكم.

(٦٨) فحينئذ لما أفحمهم ولم يبينوا حجة؛ استعملوا قوتهم في معاقبته، فـ ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ (٦٨) ﴾؛ أي: اقتلوه أشنع القتلات بالإحراق غضبًا لآلهتكم ونصرة لها؛ فتعسًا لهم تعسًا، حيث عبدوا من أقروا أنه يحتاج إلى نصرهم واتخذوه إلهًا!!

(٦٩) فانتصر الله لخليله لما ألقوه في النار، وقال لها: ﴿ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ (٦٩) ﴾: فكانت عليه بردًا وسلامًا، لم ينله فيها أذى، ولا أحس بمكروه.

(٧٠) ﴿ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا ﴾: حيث عزموا على إحراقه، ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ (٧٠) ﴾؛ أي: في الدنيا والآخرة؛ كما جعل الله خليله وأتباعه هم الرابحين المفلحين.

(٧١) ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا ﴾: وذلك أنه لم يؤمن به من قومه إلا لوط عليه السلام، قيل: إنه ابن أخيه، فنجاه الله، وهاجر ﴿ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ (٧١) ﴾؛ أي: الشام، فغادر قومه في بابل من أرض العراق، ﴿ وَقَالَ إِنِّى ﴾ ذاهب ﴿ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢٦) ﴾ [العنكبوت: ٢٦]. ومن بركة الشام أن كثيرًا من الأنبياء كانوا فيها، وأن الله اختارها مهاجرًا لخليله، وفيها أحد بيوته الثلاثة المقدسة، وهو بيت المقدس.

(٧٢) ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ ﴾: حين اعتزل قومه، ﴿ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾: ابن إسحاق، ﴿ نَافِلَةً ﴾: بعدما كبر وكانت

وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ
ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا
عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ
ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ
فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ
وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ
نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾
فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا
مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾
وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ
فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ
إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾

زوجته عاقرًا، فبشرته الملائكة بإسحاق، ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود: ٧١]، ويعقوب هو إسرائيل الذي كانت منه الأمة العظيمة، وإسماعيل بن إبراهيم الذي كانت منه الأمة الفاضلة العربية، ومن ذريته سيد الأولين والآخرين.

﴿وَكُلًّا﴾: من إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ﴿جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾؛ أي: قائمين بحقوقه وحقوق عباده.

﴿٧٣﴾ ومن صلاحهم أنه جعلهم أئمة يهدون بأمره، وهذا من أكبر نعم الله على عبده: أن يكون إمامًا يهتدي به المهتدون، ويمشي خلفه السالكون، وذلك لما صبروا، وكانوا بآياتنا يوقنون.

وقوله: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾؛ أي: يهدون الناس بديننا، لا يأمرون بأهواء أنفسهم، بل بأمر الله ودينه واتباع مرضاته، ولا يكون العبد إمامًا حتى يدعو إلى أمر الله.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾: يفعلونها ويدعون الناس إليها، وهذا شامل للخيرات كلها[1] من حقوق الله وحقوق العباد، ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾: هذا من باب عطف الخاص على العام؛ لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ولأن من كملهما كما أمر؛ كان قائمًا بدينه، ومن ضيعهما؛ كان لما سواهما أضيع، ولأن الصلاة أفضل الأعمال التي فيها حقه، والزكاة أفضل الأعمال التي فيها الإحسان لخلقه.

﴿وَكَانُوا۟ لَنَا﴾؛ أي: لا لغيرنا ﴿عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾؛ أي: مديمين على العبادات القلبية والقولية والبدنية في أكثر أوقاتهم، فاستحقوا أن تكون العبادة وصفهم، فاتصفوا بما أمر الله به الخلق، وخلقهم لأجله.

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿٧٤﴾ هذا ثناء من الله على رسوله لوط عليه السلام بالعلم الشرعي والحكم بين الناس بالصواب والسداد، وأن الله أرسله إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله وينهاهم عما هم عليه من الفواحش، فلبث يدعوهم، فلم يستجيبوا له، فقلب الله عليهم ديارهم، وعذبهم عن آخرهم؛ لأنهم ﴿كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾﴾: كذبوا الداعي وتوعدوه بالإخراج، ونجى الله لوطًا وأهله، فأمره أن يسري بهم ليلًا ليبعدوا عن القرية، فسروا ونجوا من فضل الله عليهم ومنته.

﴿٧٥﴾ ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ﴾: التي من دخلها كان من الآمنين من جميع المخاوف، النائلين كل خير وسعادة وبر وسرور وثناء، وذلك لأنه من الصالحين، الذين صلحت أعمالهم، وزكت أحوالهم، وأصلح الله فاسدهم، والصلاح هو السبب لدخول العبد برحمة الله؛ كما أن الفساد سبب لحرمانه الرحمة والخير، وأعظم الناس صلاحًا الأنبياء عليهم السلام، ولهذا يصفهم بالصلاح، وقال سليمان عليه السلام: ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: ١٩].

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

---

(١) ساقط من: ع.

(٧٦)، (٧٧) أي: واذكر عبدنا ورسولنا نوحًا عليه السلام مثنيًا مادحًا حين أرسله الله إلى قومه، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا؛ يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عن الشرك به، ويبدي فيهم ويعيد، ويدعوهم سرًّا وجهارًا وليلًا ونهارًا، فلما رآهم لا ينجع فيهم الوعظ ولا يفيد لديهم الزجر؛ نادى ربه وقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧]؛ فاستجاب الله له، فأغرقهم، ولم يبق منهم أحدًا، ونجى الله نوحًا وأهله ومن معه من المؤمنين في الفلك المشحون، وجعل ذريته هم الباقين، ونصره الله على قومه المستهزئين.

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَـٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَـٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

(٧٨) أي: واذكر هذين النبيين الكريمين داود وسليمان مثنيًا مبجلًا؛ إذ آتاهما الله العلم الواسع والحكم بين العباد؛ بدليل قوله: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾؛ أي: إذ تحاكم إليهما صاحب حرث نفشت فيه غنم القوم الأخرى؛ أي: رعت ليلًا، فأكلت ما في أشجاره ورعت زرعه، فقضى فيه داود عليه السلام بأن الغنم تكون لصاحب الحرث؛ نظرًا إلى تفريط أصحابها، فعاقبهم بهذه العقوبة، وحكم فيها سليمان بحكم موافق للصواب؛ بأن أصحاب الغنم يدفعون غنمهم إلى صاحب الحرث، فينتفع بدرها وصوفها، ويقومون على بستان صاحب الحرث حتى يعود إلى حاله الأولى؛ فإذا عاد إلى حاله؛ ترادًّا، ورجع كل منهما بماله، وكان هذا من كمال فهمه وفطنته عليه السلام.

(٧٩) ولهذا قال: ﴿فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ﴾؛ أي: فهمناه هذه القضية، ولا يدل ذلك أن داود لم يفهمه الله في غيرها، ولهذا خصها بالذكر؛ بدليل قوله: ﴿وَكُلًّا﴾: من داود وسليمان آتيناهما ﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾: وهذا دليل على أن الحاكم قد يصيب الحق والصواب، وقد يخطئ ذلك، وليس بملوم إذا أخطأ مع بذل اجتهاده.

ثم ذكر ما خص به كلًّا منهما، فقال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾: وذلك أنه كان من أعبد الناس وأكثرهم لله ذكرًا وتسبيحًا وتمجيدًا، وكان قد أعطاه الله من حسن الصوت ورقته ورخامته ما لم يؤته أحدًا من الخلق، فكان إذا سبح وأثنى على الله؛ جاوبته الجبال الصم والطيور البهم، وهذا فضل الله عليه وإحسانه، ولهذا قال: ﴿وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

(٨٠) ﴿وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾؛ أي: علَّم الله داود عليه السلام صنعة الدروع؛ فهو أول من صنعها وعلمها وسرت صناعته إلى من بعده، فألان الله له الحديد، وعلمه كيف يسردها، والفائدة فيها كبيرة؛ ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾؛ أي: هي وقاية لكم وحفظ عند الحرب واشتداد البأس. ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَـٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾: نعمة الله عليكم؛ حيث أجراها على يد عبده داود؟ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النحل: ٨١].

يحتمل أن تعليم الله لداود صنعة الدروع وإلانتها أمر خارق للعادة، وأن يكون كما قاله المفسرون: إن الله ألان له الحديد، حتى كان يعمله كالعجين والطين من دون إذابة له على النار.

ويحتمل أن تعليم الله له على جاري العادة، وأن إلانة الحديد له بما علمه الله من الأسباب المعروفة الآن لإذابتها، وهذا هو الظاهر؛ لأن الله امتن بذلك على العباد وأمرهم بشكرها، ولولا أن صنعته من الأمور التي جعلها الله مقدورة للعباد؛ لم يمتن عليهم بذلك ويذكر فائدتها؛ لأن الدروع التي صنع داود عليه السلام متعذر أن يكون المراد أعيانها، وإنما المنة بالجنس. والاحتمال الذي ذكره المفسرون لا دليل عليه؛ إلا قوله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾ [سبأ: ١٠]، وليس فيه أن الإلانة من دون سبب، والله أعلم بذلك.

وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا
دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ٨٢ ۞ وَأَيُّوبَ إِذۡ
نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣
فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ
وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ٨٤
وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ
٨٥ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
٨٦ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ
فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي
كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ
مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨ وَزَكَرِيَّآ
إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ
٨٩ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا
لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ
وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠

(٨١) ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾؛ أي: سخرناها ﴿عَاصِفَةٗ﴾؛ أي: سريعة في مرورها، ﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ﴾: حيث دبرت امتثلت أمره، غدوها شهر ورواحها شهر، ﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا﴾: وهي أرض الشام؛ حيث كان مقره، فيذهب على الريح شرقًا وغربًا، ويكون مأواها ورجوعها إلى الأرض المباركة. ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ (٨١)﴾: قد أحاط علمنا بجميع الأشياء، وعلمنا من داود وسليمان ما أوصلناهما به إلى ما ذكرنا.

(٨٢) ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَ﴾: وهذا أيضًا من خصائص سليمان عليه السلام: أن الله سخر له الشياطين والعفاريت، وسلطه على تسخيرهم في الأعمال التي لا يقدر على كثير منها غيرهم، فكان منهم من يغوص له البحر ويستخرج الدر واللؤلؤ وغير ذلك، ومنهم من يعمل له ﴿مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ: ١٣]. وسخر طائفة منهم لبناء بيت المقدس، ومات وهم على عمله، وبقوا بعده سنة، حتى علموا موته؛ كما سيأتي إن شاء الله تعالى. ﴿وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ (٨٢)﴾؛ أي: لا يقدرون على الامتناع منه وعصيانه، بل حفظهم الله له بقوته وعزته وسلطانه.

﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ (٨٣) فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ (٨٤)﴾.

(٨٣) أي: واذكر عبدنا ورسولنا أيوب مثنيًا معظمًا له رافعًا لقدره حين ابتلاه ببلاء شديد فوجده صابرًا راضيًا عنه، وذلك أن الشيطان سلط على جسده ابتلاء من الله وامتحانًا، فنفخ في جسده، فتقرح قروحًا عظيمة، ومكث مدة طويلة، واشتد به البلاء، ومات أهله، وذهب ماله، فنادى ربه: رب ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ (٨٣)﴾: فتوسل إلى الله بالإخبار عن حال نفسه، وأنه بلغ الضر منه كل مبلغ، وبرحمة ربه الواسعة العامة.

(٨٤) فاستجاب الله له وقال له: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ (٤٢)﴾ [ص: ٤٢]: فركض برجله، فخرجت من ركضته عين ماء باردة، فاغتسل منها، وشرب، فأذهب الله ما به من الأذى. ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ﴾؛ أي: رددنا عليه أهله وماله. ﴿وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ﴾: بأن منحه الله مع العافية من الأهل والمال شيئًا كثيرًا، ﴿رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾: به حيث صبر ورضي، فأثابه الله ثوابًا عاجلًا قبل ثواب الآخرة. ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ (٨٤)﴾؛ أي: جعلناه عبرة للعابدين الذين ينتفعون بالصبر؛ فإذا رأوا ما أصابه من البلاء، ثم ما أثابه بعد زواله[1]، ونظروا السبب؛ وجدوه الصبر، ولهذا أثنى الله عليه به في قوله: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ (٤٤)﴾ [ص: ٤٤]، فجعلوه أسوة وقدوة عندما يصيبهم الضر.

﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ (٨٥) وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٨٦)﴾.

(٨٥) أي: واذكر عبادنا المصطفين وأنبياءنا المرسلين بأحسن الذكر، وأثن عليهم أبلغ الثناء: ﴿إِسۡمَٰعِيلَ﴾ ابن إبراهيم، ﴿وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِ﴾: نبيين من أنبياء

(١) ع: «الزوال».

بني إسرائيل؛ ﴿ كُلٌّ ﴾ من هؤلاء المذكورين ﴿ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾. والصبر: هو حبس النفس ومنعها مما تميل بطبعها إليه، وهذا يشمل أنواع الصبر الثلاثة: الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصية الله، والصبر على أقدار الله المؤلمة.

فلا يستحق العبد اسم الصبر التام حتى يوفي هذه الثلاثة حقها؛ فهؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد وصفهم الله بالصبر؛ فدل أنهم وفوها حقها وقاموا بها كما ينبغي.

﴿٨٦﴾ ووصفهم أيضًا بالصلاح، وهو يشمل: صلاح القلب بمعرفة الله ومحبته والإنابة إليه كل وقت، وصلاح اللسان؛ بأن يكون رطبًا من ذكر الله، وصلاح الجوارح باشتغالها بطاعة الله وكفها عن المعاصي.

فبصبرهم وصلاحهم أدخلهم الله برحمته، وجعلهم مع إخوانهم من المرسلين، وأثابهم الثواب العاجل والآجل، ولو لم يكن من ثوابهم إلا أن الله تعالى نوه بذكرهم في العالمين، وجعل لهم لسان صدق في الآخرين؛ لكفى بذلك شرفًا وفضلًا.

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

﴿٨٧﴾، ﴿٨٨﴾ أي: واذكر عبدنا ورسولنا ذا ﴿ ٱلنُّونِ ﴾، وهو يونس؛ أي: صاحب النون، وهي الحوت، بالذكر الجميل والثناء الحسن؛ فإن الله تعالى أرسله إلى قومه، فدعاهم، فلم يؤمنوا، فوعدهم بنزول العذاب بأمد سماه لهم، فجاءهم العذاب، ورأوه عيانًا، فعجوا إلى الله وضجوا وتابوا، فرفع الله عنهم العذاب؛ كما قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾ [يونس: ٩٨]، وقال: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الصافات: ١٤٧، ١٤٨]. وهذه الأمة العظيمة الذين آمنوا بدعوة يونس من أكبر فضائله، ولكنه عليه الصلاة والسلام ذهب مغاضبًا وأبق عن ربه لذنب من الذنوب التي لم يذكرها الله لنا في كتابه ولا حاجة لنا إلى تعيينها؛ لقوله: ﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ... وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الصافات: ١٤٠-١٤٢]؛ أي: فاعل ما يلام عليه[1]. وظن أن الله لا يقدر عليه؛ أي: يضيق عليه في بطن الحوت، أو ظن أنه سيفوت الله تعالى، ولا مانع من عروض هذا الظن للكمَّل من الخلق على وجه لا يستقر ولا يستمر عليه، فركب في السفينة مع أناس، فاقترعوا من يلقون منهم في البحر لما خافوا الغرق إن بقوا كلهم، فأصابت القرعة يونس، فالتقمه الحوت، وذهب به إلى ظلمات البحار، فنادى في تلك الظلمات: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾، فأقر لله تعالى بكمال الألوهية، ونزهه عن كل نقص وعيب وآفة، واعترف بظلم نفسه وجنايته؛ قال الله تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]، ولهذا قال هنا: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ﴾؛ أي: الشدة التي وقع فيها، ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾: وهذا وعد وبشارة لكل مؤمن وقع في شدة وغم: أن الله تعالى سينجيه منها ويكشف عنه ويخفف؛ لإيمانه كما فعل بيونس عليه السلام.

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

﴿٨٩﴾ أي: واذكر عبدنا ورسولنا زكريا، منوهًا بذكره، ناشرًا لمناقبه وفضائله التي من جملتها هذه المنقبة العظيمة، المتضمنة لنصحه للخلق ورحمة الله إياه، وأنه ﴿ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا ﴾؛ أي: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾ [مريم: ٤-٦]: من هذه الآيات علمنا أن قوله: ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا ﴾: أنه لما تقارب أجله؛ خاف ألَّا يقوم أحد بعده مقامه في الدعوة إلى الله والنصح لعباد الله، وأن يكون في وقته فردًا ولا يخلف من يشفعه ويعينه على ما قام به. ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾؛ أي: خير الباقين، وخير من خلفني بخير، وأنت أرحم بعبادك مني، ولكني أريد ما يطمئن به قلبي، وتسكن له نفسي ويجري في موازيني ثوابه.

(١) زاد في ع، ط: «والظاهر أن عجلته ومغاضبته لقومه وخروجه من بين أظهرهم قبل أن يأمره الله بذلك».

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا
وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِ
أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾
وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾
فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ
لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ
أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ
يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾
وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ
كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا
ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ
اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ
هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾
لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ
سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾

﴿٩٠﴾ ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ﴾: النبي الكريم، الذي لم يجعل الله له من قبل سميًّا، ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾: بعدما كانت عاقرًا لا يصلح رحمها للولادة، فأصلح الله رحمها للحمل لأجل نبيه زكريا، وهذا من فوائد الجليس والقرين الصالح؛ أنه مبارك على قرينه، فصار يحيى مشتركًا بين الوالدين. ولما ذكر هؤلاء الأنبياء والمرسلين كلًّا على انفراده؛ أثنى عليهم عمومًا، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾؛ أي: يبادرون إليها، ويفعلونها في أوقاتها الفاضلة، ويكملونها على الوجه اللائق الذي ينبغي، ولا يتركون فضيلة يقدرون عليها إلا انتهزوا الفرصة فيها. ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾؛ أي: يسألوننا الأمور المرغوب فيها من مصالح الدنيا والآخرة، ويتعوذون بنا من الأمور المرهوب منها من مضار الدارين، وهم راغبون راهبون، لا غافلون لاهون، ولا مدلُّون. ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾؛ أي: خاضعين متذللين متضرعين، وهذا لكمال معرفتهم بربهم.

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿٩١﴾ أي: واذكر مريم عليها السلام مثنيًا عليها مبينًا لقدرها شاهرًا لشرفها، فقال: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾؛ أي: حفظته من الحرام وقربانه، بل ومن الحلال، فلم تتزوج؛ لاشتغالها بالعبادة واستغراق وقتها بالخدمة لربها، وحين جاءها جبريل في صورة بشر سوي تام الخلق والحسن؛ ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ [مريم: ١٨]، فجازاها الله من جنس عملها ورزقها ولدًا من غير أب، بل نفخ فيها جبريل عليه السلام، فحملت بإذن الله، ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾﴾؛ حيث حملت به ووضعته من دون مسيس أحد، وحيث تكلم في المهد، وبرأها مما ظن بها المتهمون، وأخبر عن نفسه في تلك الحالة، وأجرى الله على يديه من الخوارق والمعجزات ما هو معلوم، فكانت وابنها آية للعالمين، يتحدث بها جيلًا بعد جيل، ويعتبر بها المعتبرون.

﴿٩٢﴾ ولما ذكر الأنبياء عليهم السلام؛ قال مخاطبًا للناس: و﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾؛ أي: هؤلاء الرسل المذكورون هم أمتكم وأئمتكم الذين بهم تأتمون وبهديهم تقتدون، كلهم على دين واحد وصراط واحد، والرب أيضًا واحد، ولهذا قال: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾: الذي خلقتكم وربيتكم بنعمتي[1] في الدين والدنيا؛ فإذا كان الرب واحدًا والنبي واحدًا والدين واحدًا، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، بجميع أنواع العبادة؛ كان وظيفتكم والواجب عليكم القيام بها، ولهذا قال: ﴿فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾: فرتب العبادة على ما سبق بالفاء ترتيب المسبب على سببه.

﴿٩٣﴾ وكان اللائق الاجتماع على هذا الأمر وعدم التفرق فيه، ولكن البغي والاعتداء أبيا إلا الافتراق والتقطع، ولهذا قال: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: تفرق الأحزاب المتنسبون لأتباع الأنبياء فرقًا، وتشتتوا كل يدعي أن

---

(١) ع: «بنعمي».

الحق معه والباطل مع الفريق الآخر، و﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون: ٥٣]. وقد علم أن المصيب منهم من كان سالكًا للدين القويم والصراط المستقيم، مؤتمًّا بالأنبياء، وسيظهر هذا إذا انكشف الغطاء، وبرح الخفاء، وحشر الله الناس لفصل القضاء؛ فحينئذ يتبين الصادق من الكاذب، ولهذا قال: ﴿كُلٌّ﴾: من الفرق المتفرقة وغيرهم، ﴿إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾؛ أي: فنجازيهم أتم الجزاء.

(٩٤) ثم فصل جزاءه فيهم منطوقًا ومفهومًا، فقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾؛ أي: الأعمال التي شرعتها الرسل وحثت عليها الكتب، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: بالله وبرسله وما جاءوا به، ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾؛ أي: لا نضيع سعيه ولا نبطله، بل نضاعفه له أضعافًا كثيرة. ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾؛ أي: مثبتون له في اللوح المحفوظ وفي الصحف التي مع الحفظة؛ أي: ومن لم يعمل من الصالحات أو عملها وهو ليس بمؤمن؛ فإنه محروم خاسر في دينه ودنياه.

﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

(٩٥) أي: يمتنع على القرى المهلكة المعذبة الرجوع إلى الدنيا ليستدركوا ما فرطوا فيه؛ فلا سبيل إلى الرجوع لمن أهلك وعذب، فليحذر المخاطبون أن يستمروا على ما يوجب الإهلاك، فيقع بهم، فلا يمكن رفعه، وليقلعوا وقت الإمكان والإدراك.

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

(٩٦) هذا تحذير من الله للناس أن يقيموا على الكفر والمعاصي، وأنه قد قرب انفتاح يأجوج ومأجوج، وهما قبيلتان عظيمتان من بني آدم، وقد سد عليهم ذو القرنين لما شُكي إليه إفسادهم في الأرض، وفي آخر الزمان ينفتح السد عنهم؛ فيخرجون إلى الناس، وفي هذه الحالة والوصف الذي ذكره الله من كل مكان مرتفع، وهو الحدب، ﴿يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾؛ أي: يسرعون.

في هذا دلالة على كثرتهم الباهرة، وإسراعهم في الأرض، إما بذواتهم، وإما بما خلق الله لهم من الأسباب التي تقرب

الجزء السابع عشر — سورة الأنبياء

لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ
خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ
الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ
﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا
بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ
﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ
يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا
لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ
﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ
فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ
عَلَىٰ سَوَاءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾
إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ
﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَالَ
رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

٢٢ سُورَةُ الحَجِّ ٧٨

٣٣١

لهم البعيد، وتسهل عليهم الصعب، وأنهم يقهرون الناس، ويعلون عليهم في الدنيا، وأنه لا يدان لأحد بقتالهم.

(٩٧) ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾؛ أي: يوم القيامة الذي وعد الله بإتيانه، ووعده حق وصدق؛ ففي ذلك اليوم ترى أبصار الكفار شاخصة من شدة الأفزاع والأهوال المزعجة والقلاقل المفظعة، وما كانوا يعرفون من جناياتهم وذنوبهم، وأنهم يدعون بالويل والثبور والندم والحسرة على ما فات ويقولون: لـ﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ اليوم العظيم، فلم نزل فيها مستغرقين، وفي لهو الدنيا متمتعين، حتى أتانا اليقين، ووردنا القيامة؛ فلو كان يموت أحد من الندم والحسرة لماتوا. ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾: اعترفوا بظلمهم وعدل الله فيهم؛ فحينئذ يؤمر بهم إلى النار هم وما كانوا يعبدون، ولهذا قال:

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ

وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

﴿٩٨﴾ أي: وإنكم أيها العابدون، مع الله آلهة غيره، ﴿ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾؛ أي: وقودها وحطبها، ﴿ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾: وأصنامكم.

﴿٩٩﴾ والحكمة في دخول الأصنام النار وهي جماد لا تعقل، وليس عليها ذنب؛ بيان كذب من اتخذها آلهة، وليزداد عذابهم؛ فلهذا قال: ﴿ لَوْ كَانَ هَـٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ﴾: هذا كقوله تعالى: ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النحل: ٣٩]، وكل من العابدين والمعبودين فيها خالدون، لا يخرجون منها، ولا ينتقلون عنها.

﴿١٠٠﴾ ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ ﴾: من شدة العذاب، ﴿ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾: صم بكم عمي، أو لا يسمعون من الأصوات غير صوتها؛ لشدة غليانها، واشتداد زفيرها وتغيظها.

﴿١٠١﴾، ﴿١٠٢﴾ ودخول آلهة المشركين النار إنما هو الأصنام أو من عبد وهو راضٍ بعبادته، وأما المسيح وعزير والملائكة ونحوهم ممن عُبد من الأولياء؛ فإنهم لا يعذبون فيها، ويدخلون في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ ﴾؛ أي: سبقت لهم سابقة السعادة في علم الله وفي اللوح المحفوظ وفي تيسيرهم في الدنيا لليسرى والأعمال الصالحة. ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ عَنْهَا ﴾؛ أي: عن النار ﴿ مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾: فلا يدخلونها، ولا يكونون قريبًا منها، بل يبعدون عنها غاية البعد، حتى لا يسمعوا حسيسها، ولا يروا شخصها. ﴿ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾: من المآكل والمشارب والمناكح والمناظر مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، مستمر لهم ذلك، يزداد حسنه على الأحقاب.

﴿١٠٣﴾ ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ ﴾؛ أي: لا يقلقهم إذا فزع الناس أكبر فزع، وذلك يوم القيامة، حين تقرب النار تتغيظ على الكافرين والعاصين، فيفزع الناس لذلك الأمر[(١)]، وهؤلاء لا يحزنهم؛ لعلمهم بما يقدمون عليه، وأن الله قد أمنهم مما يخافون. ﴿ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾: إذا بعثوا من قبورهم وأتوا على النجائب وفدًا لنشورهم مهنئين لهم قائلين: ﴿ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾: فليهنكم ما وعدكم الله، وليعظم استبشاركم بما أمامكم من الكرامة، وليكثر فرحكم وسروركم بما أمنكم الله من المخاوف والمكاره.

﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

﴿١٠٤﴾ يخبر تعالى أنه يوم القيامة يطوي السماوات على عظمها واتساعها كما يطوي الكاتب للسجل؛ أي: الورقة المكتوب فيها؛ فتنتشر نجومها، وتكور شمسها وقمرها، وتزول عن أماكنها.

﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾؛ أي: إعادتنا للخلق مثل ابتدائنا لخلقهم؛ فكما ابتدأنا خلقهم ولم يكونوا شيئًا؛ كذلك نعيدهم بعد موتهم، ﴿ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾: ننفذ ما وعدنا؛ لكمال قدرته، وأنه لا تمتنع منه الأشياء.

﴿١٠٥﴾ ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ ﴾: وهو الكتاب المزبور، والمراد: الكتب المنزلة؛ كالتوراة، ونحوها، ﴿ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ ﴾؛ أي: كتبناه في الكتب المنزلة بعدما كتبناه في الكتاب السابق الذي هو اللوح المحفوظ وأم الكتاب الذي توافقه جميع التقادير المتأخرة عنه والمكتوب في ذلك: ﴿ أَنَّ ٱلْأَرْضَ ﴾؛ أي: أرض الجنة، ﴿ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾: الذين قاموا بالمأمورات، واجتنبوا المنهيات؛ فهم الذين يورثهم الله الجنات؛ كقول أهل الجنة: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ﴿ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ﴾ [الزمر: ٧٤]، ويحتمل أن المراد الاستخلاف في الأرض، وأن الصالحين يمكن الله لهم في الأرض، ويوليهم عليها؛ كقوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ الآية [النور: ٥٥].

(١) ليست في: الأصل، ط.

﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾.

﴿١٠٦﴾ يثني الله تعالى على كتابه العزيز القرآن ويبين كفايته التامة عن كل شيء وأنه لا يستغنى عنه، فقال: ﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾؛ أي: يتبلغون به في الوصول إلى ربهم وإلى دار كرامته، فيوصلهم إلى أجل المطالب وأفضل الرغائب، وليس للعابدين الذين هم أشرف الخلق وراءه غاية؛ لأنه الكفيل بمعرفة ربهم بأسمائه وصفاته وأفعاله وبالإخبار بالغيوب الصادقة وبالدعوة لحقائق الإيمان وشواهد الإيقان، المبين للمأمورات كلها والمنهيات جميعها، المعرف بعيوب النفس والعمل والطرق التي ينبغي سلوكها في دقيق الدين وجليله، والتحذير من طرق الشيطان، وبيان مداخله على الإنسان؛ فمن لم يغنه القرآن؛ فلا أغناه الله، ومن لا يكفيه؛ فلا كفاه الله.

﴿١٠٧﴾ ثم أثنى على رسوله الذي جاء بالقرآن، فقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾: فهو رحمته المهداة لعباده؛ فالمؤمنون به قبلوا هذه الرحمة وشكروها وقاموا بها، وغيرهم كفروها، وبدلوا نعمة الله كفرًا، وأبوا رحمة الله ونعمته.

﴿١٠٨﴾ ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد: ﴿ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾: الذي لا يستحق العبادة إلا هو، ولهذا قال: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾؛ أي: منقادون لعبوديته مستسلمون لألوهيته؛ فإن فعلوا؛ فليحمدوا ربهم على ما منَّ عليهم بهذه النعمة التي فاقت[1] المنن.

﴿١٠٩﴾، ﴿١١٠﴾ ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾: عن الانقياد لعبودية ربهم؛ فحذرهم حلول المثلات ونزول العقوبة. ﴿ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ ﴾؛ أي: أعلمتكم بالعقوبة، ﴿ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾؛ أي: علمي وعلمكم بذلك مستوٍ؛ فلا تقولوا إذا نزل بكم العذاب: ﴿ مَا جَآءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ﴾ [المائدة: ١٩]، بل الآن استوى علمي، وعلمكم لما أنذرتكم وحذرتكم وأعلمتكم بمآل الكفر، ولم أكتم عنكم شيئًا. ﴿ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾؛ أي: من العذاب؛ لأن علمه عند الله، وهو بيده؛ ليس لي من الأمر شيء.

﴿١١١﴾ ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ ﴾؛ أي: لعل تأخير العذاب الذي استعجلتموه شر لكم، وإن تمتعوا في الدنيا إلى حين، ثم يكون أعظم لعقوبتكم.

﴿١١٢﴾ ﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ﴾؛ أي: بيننا وبين القوم الكافرين؛ فاستجاب الله هذا الدعاء، وحكم بينهم في الدنيا قبل الآخرة بما عاقب الله به الكافرين من وقعة بدر وغيرها. ﴿ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾؛ أي: نسأل ربنا الرحمن ونستعين به على ما تصفون من قولكم: سنظهر عليكم، وسيضمحل دينكم! فنحن في هذا لا نعجب بأنفسنا، ولا نتكل على حولنا وقوتنا، وإنما نستعين بالرحمن الذي ناصية كل مخلوق بيده، ونرجوه أن يتم ما استعناه به من رحمته. وقد فعل ولله الحمد.



(١) ع: «فاتت».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾

تفسير سورة الحج

قيل مكية وقيل مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾.

﴿١﴾ يخاطب الله الناس كافة بأن يتقوا ربهم الذي رباهم بالنعم الظاهرة والباطنة، فحقيق بهم أن يتقوه بترك الشرك والفسوق والعصيان، ويمتثلوا أوامره مهما استطاعوا. ثم ذكر ما يعينهم على التقوى ويحذرهم من تركها، وهو الإخبار بأهوال القيامة، فقال: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾: لا يقدر قدره ولا يبلغ كنهه، ذلك بأنها إذا وقعت الساعة؛ رجفت الأرض، وارتجت، وزلزلت زلزالها، وتصدعت الجبال، واندكت، وكانت كثيبًا مهيلًا، ثم كانت هباء منبثًا، ثم انقسم الناس ثلاثة أزواج؛ فهناك تنفطر السماء، وتكور الشمس والقمر، وتنتثر النجوم، ويكون من القلاقل والبلابل ما تنصدع له القلوب، توجل منه الأفئدة، وتشيب منه الولدان، وتذوب له الصم الصلاب.

﴿٢﴾ ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾: مع أنها مجبولة على شدة محبتها لولدها، خصوصًا في هذه الحال التي لا يعيش إلا بها، ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾: من شدة الفزع والهول، ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾؛ أي: تحسبهم أيها الرائي لهم سكارى من الخمر، وليسوا سكارى.

﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾: فلذلك أذهب عقولهم، وفرغ قلوبهم، وملأها من الفزع، وبلغت القلوب الحناجر، وشخصت الأبصار، في ذلك اليوم لا يجزي والد عن ولده، ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئًا، ويومئذ ﴿يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٤-٣٧]، وهناك ﴿يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفرقان: ٢٧، ٢٨]، وتسود حينئذ وجوه وتبيض وجوه، وتنصب الموازين التي يوزن بها مثاقيل الذر من الخير والشر، وتنشر صحائف الأعمال وما فيها من جميع الأعمال والأقوال والنيات من صغير وكبير، وينصب الصراط على متن جهنم، وتزلف الجنة للمتقين، وبرزت الجحيم للغاوين، ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الفرقان: ١٢، ١٣]، ويقال لهم: ﴿لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ [الفرقان: ١٤]، وإذا نادوا ربهم ليخرجهم منها؛ قال: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٨]؛ قد غضب عليهم الرب الرحيم، وحضرهم العذاب الأليم، وأيسوا من كل خير، ووجدوا أعمالهم كلها، لم يفقدوا منها نقيرًا ولا قطميرًا.

هذا؛ والمتقون في روضات الجنات يحبرون، وفي أنواع اللذات يتفكهون، وفيما اشتهت أنفسهم خالدون؛ فحقيق

بالعاقل الذي يعرف أن كل هذا أمامه أن يعد له عدته، وألَّا يلهيه الأمل فيترك العمل، وأن تكون تقوى الله شعاره، وخوفه دثاره، ومحبة الله وذكره روح أعماله.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤ ﴾.

(٣)، (٤) أي: ومن الناس طائفة وفرقة؛ سلكوا طريق الضلال، وجعلوا يجادلون بالباطل الحق؛ يريدون إحقاق الباطل وإبطال الحق، والحال أنهم في غاية الجهل، ما عندهم من العلم شيء، وغاية ما عندهم تقليد أئمة الضلال من كل شيطان مريد متمرد على الله وعلى رسله معاند لهم، قد شاق الله ورسوله، وصار من الأئمة الذين يدعون إلى النار. ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ﴾؛ أي: قدر على هذا الشيطان المريد، ﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾؛ أي: اتبعه؛ ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾: عن الحق ويجنبه الصراط المستقيم؛ ﴿وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾: وهذا نائب إبليس حقًّا؛ فإن الله قال عنه: ﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر: ٦]. فهذا الذي يجادل في الله قد جمع بين ضلاله بنفسه وتصديه إلى إضلال الناس، وهو متبع ومقلد لكل شيطان مريد، ظلمات بعضها فوق بعض، ويدخل في هذا جمهور أهل الكفر والبدع؛ فإن أكثرهم مقلدة يجادلون بغير علم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٧ ﴾.

(٥) يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ﴾؛ أي: شك واشتباه وعدم علم بوقوعه، مع أن الواجب عليكم أن تصدقوا ربكم وتصدقوا رسله في ذلك، ولكن إذا أبيتم إلا الريب؛ فهاكم دليلين عقليين تشاهدونهما، كل واحد منهما يدل دلالة قطعية على ما شككتم فيه، ويزيل عن قلوبكم الريب:

أحدهما: الاستدلال بابتداء خلق الإنسان، وأن الذي ابتدأه سيعيده، فقال فيه: ﴿فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾: وذلك بخلق أبي البشر آدم عليه السلام، ﴿ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾؛ أي: مَنِيٍّ، وهذا ابتداء أول التخليق، ﴿ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ﴾؛ أي: تنقلب تلك النطفة بإذن الله دمًا أحمر، ﴿ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ﴾؛ أي: ينتقل الدم مضغة؛ أي: قطعة لحم بقدر ما يمضغ، وتلك المضغة تارة تكون ﴿مُّخَلَّقَةٖ﴾؛ أي: مصور منها خلق الآدمي. ﴿وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾ تارة: بأن تقذفها الأرحام قبل تخليقها، ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾: أصل نشأتكم؛ مع قدرته تعالى على تكميل خلقه في لحظة واحدة، ولكن ليبين لنا كمال حكمته وعظيم قدرته وسعة رحمته.

﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾: أي: ونقر؛ أي: نبقي في الأرحام من الحمل الذي لم تقذفه الأرحام ما نشاء إبقاءه إلى أجل مسمى، وهو مدة الحمل، ﴿ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ﴾: من بطون أمهاتكم ﴿طِفۡلٗا﴾: لا تعلمون شيئًا، وليس لكم قدرة، وسخرنا لكم الأمهات، وأجرينا لكم في ثديها الرزق، ثم تنتقلون طورًا بعد طور حتى تبلغوا أشدكم، وهو كمال القوة والعقل. ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾: من قبل أن يبلغ سن الأشد، ومنكم من يتجاوزه فيرد ﴿إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾؛ أي: أخسه وأرذله، وهو سن الهرم والتخريف، الذي به يزول العقل ويضمحل كما زالت باقي القوة وضعفت، ﴿لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗا﴾؛ أي: لأجل ألَّا يعلم هذا المعمَّر شيئًا مما كان يعلمه قبل ذلك، وذلك لضعف عقله؛ فقوة الآدمي محفوفة بضعفين: ضعف الطفولية ونقصها، وضعف الهرم ونقصه؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ۝٥٤﴾ [الروم: ٥٤].

والدليل الثاني: إحياء الأرض بعد موتها، فقال الله فيه: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ﴾؛ أي: خاشعة مغبرة لا نبات فيها ولا خضرة، ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ﴾؛ أي: تحركت بالنبات، ﴿وَرَبَتۡ﴾؛ أي: ارتفعت بعد خشوعها، وذلك لزيادة نباتها، ﴿وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ﴾؛ أي: صنف من

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ
﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى
ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى
وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى
ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ
بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ
مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ
فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ
ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ
وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن
ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾
إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ
يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى
ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾

أصناف النبات ﴿بَهِيجٍ ۝٥﴾؛ أي: يبهج الناظرين ويسر المتأملين.

۝٦، ۝٧ فهذان الدليلان القاطعان يدلان على هذه المطالب الخمسة، وهي هذه: ﴿ذَٰلِكَ﴾: الذي أنشأ الآدمي مما وصف لكم وأحيا الأرض بعد موتها، ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: الرب المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وعبادته هي الحق، وعبادة غيره باطلة. ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾: كما ابتدأ الخلق، وكما أحيا الأرض بعد موتها، ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾: كما أشهدكم من بديع قدرته وعظيم صنعته ما أشهدكم، ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾: فلا وجه لاستبعادها، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾: فيجازيكم بأعمالكم حسنها وسيئها.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩﴾.

۝٨ المجادلة المتقدمة للمقلد، وهذه المجادلة للشيطان المريد الداعي إلى البدع، فأخبر أنه ﴿يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾؛ أي: يجادل رسل الله وأتباعهم بالباطل ليدحض به الحق، ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: صحيح، ﴿وَلَا هُدًى﴾؛ أي: غير متبع في جداله هذا من يهديه؛ لا عقل مرشد، ولا متبوع مهتد، ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨﴾؛ أي: واضح بين؛ فلا له حجة عقلية ولا نقلية، إن هي إلا شبهات يوحيها إليه الشيطان، ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١].

۝٩، ۝١٠ ومع هذا: ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾؛ أي: لاويًا[1] جانبه وعنقه، وهذا كناية عن كبره عن الحق واحتقاره للخلق؛ فقد فرح بما معه من العلم غير النافع، واحتقر أهل الحق وما معهم من الحق؛ ﴿لِيُضِلَّ﴾ الناس؛ أي: ليكون من دعاة الضلال.

ويدخل تحت هذا جميع أئمة الكفر والضلال. ثم ذكر عقوبتهم الدنيوية والأخروية، فقال: ﴿لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾؛ أي: يفتضح هذا في الدنيا قبل الآخرة.

وهذا من آيات الله العجيبة؛ فإنك لا تجد داعيًا من دعاة الكفر والضلال إلا وله من المقت بين العالمين واللعنة والبغض والذم ما هو حقيق به، وكل بحسب حاله. ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩﴾؛ أي: نذيقه حرها الشديد وسعيرها البليغ، وذلك بما قدمت يداه.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝١١ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ۝١٢ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ۝١٣﴾.

۝١١ أي: ومن الناس من هو ضعيف الإيمان، لم يدخل الإيمان قلبه، ولم تخالطه بشاشته، بل دخل فيه إما خوفًا وإما عادة على وجه لا يثبت عند المحن. ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾؛ أي: إن استمر رزقه رغدًا ولم يحصل له من المكاره شيء اطمأن بذلك الخير، لا بإيمانه؛ فهذا ربما أن

(١) ع: «لاوي».

اللـه يعافيـه ولا يقيض لـه من الفتن ما ينصـرف به عن دينه. ﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ﴾: من حصول مكروه أو زوال محبوب؛ ﴿ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ ﴾؛ أي: ارتـد عن دينه؛ ﴿ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ﴾: أمـا في الدنيا؛ فإنه لا يحصل له بالردة ما أمله، الـذي جعـل الردة رأسًا لمالـه وعوضًـا عما يظـن إدراكه، فخاب سـعيه، ولم يحصل له إلا ما قسـم لـه، وأما الآخرة؛ فظاهـر، حـرم الجنـة التي عرضهـا السماوات والأرض، واستحق النـار. ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾؛ أي: الواضح البين.

﴿١٢﴾، ﴿١٣﴾ ﴿ يَدْعُوا۟ ﴾: هـذا الراجـع علـى وجهه من دون اللـه ﴿ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ﴾، وهـذا صفـة كل مدعـو ومعبود من دون الله؛ فإنه لا يملك لنفسـه ولا لغيره نفعًا ولا ضـرًّا. ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ ﴾: الـذي قـد بلغ في البعـد إلى حـد النهاية؛ حيث أعرض عن عبـادة النافع الضار الغنـي المغني، وأقبل على عبـادة مخلوق مثله أو دونه، ليس بيده من الأمر شيء، بل هو إلى حصول ضد مقصوده أقرب، ولهـذا قال: ﴿ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ﴾: فإن ضرره فـي العقل والبدن والدنيا والآخرة معلوم. ﴿ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ ﴾؛ أي: هـذا المعبـود، ﴿ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ ﴾؛ أي: القريـن المـلازم على صحبتـه؛ فإن المقصـود من المولى والعشير حصـول النفع ودفع الضـرر؛ فإذا لم يحصل شـيء من هذا؛ فإنه مذموم ملوم.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿١٤﴾ لمـا ذكـر تعالـى المجـادل بالباطـل، وأنـه علـى قسـمين: مقلد وداع؛ ذكر أن المتسمي بالإيمان أيضًا على قسـمين: قسـم لم يدخل الإيمان قلبه كما تقدم. والقسـم الثاني: المؤمن حقيقة؛ صدق ما معه من الإيمان بالأعمال الصالحـة، فأخبـر تعالـى أنـه يدخلهـم ﴿ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾: وسـميت الجنـة جنـة لاشـتمالها على المنازل والقصور والأشـجار والنوابت التي تجن من فيها ويسـتتر بهـا مـن كثرتهـا. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ ﴾: فمهمـا أراده تعالـى فعلـه؛ من غيـر ممانـع ولا معارض، ومـن ذلك إيصال أهـل الجنة إليها، جعلنـا الله منهم بمنه وكرمه.

﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿١٥﴾ أي: مـن كان يظـن أن اللـه لا ينصر رسـوله وأن دينه سـيضمحل فإن النصر من الله ينزل من السماء، ﴿ فَلْيَمْدُدْ ﴾ ذلك الظان ﴿ بِسَبَبٍ ﴾ أي: حبل ﴿ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ وليرقى إليها ﴿ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾: النصر النازل عليه من السـماء، ﴿ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ ﴾؛ أي: ما يكيد به الرسول، ويعمله من محاربته والحـرص على إبطال دينـه، ما يغيظه من ظهـور دينه. وهذا اسـتفهام بمعنـى النفي، وأنـه[1] لا يقدر على شـفاء غيظه بما يعمله من الأسباب.

ومعنـى هـذه الآيـة الكريمـة: يا أيهـا المعادي للرسـول محمد ﷺ، السـاعي فـي إطفاء دينه، الـذي يظن بجهله أن سـعيه سـيفيده شـيئًا! اعلم أنك مهما فعلت من الأسباب، وسـعيت في كيد الرسـول؛ فإن ذلـك لا يُذْهِبُ غيظك ولا يشـفي كمـدك؛ فليـس لك قـدرة في ذلـك، ولكن سنشـير عليـك بـرأي تتمكن به من شـفاء غيظك ومـن قطع النصر عـن الرسـول إن كان ممكنًـا: ائـت الأمـر من بابـه، وارتق إليـه بأسبابه، اعمـد إلـى حبل من ليـف أو غيره، ثـم علقه فـي السـماء، ثـم اصعـد به حتـى تصل إلـى الأبـواب التي ينـزل منها النصر، فسـدها وأغلقها واقطعهـا؛ فبهذه الحال تشـفي غيظـك؛ فهذا هـو الـرأي والمكيدة، وأما ما سـوى هـذه الحال؛ فلا يخطر ببالك أنك تشـفي بهـا غيظك، ولو ساعدك من ساعدك من الخلق.

وهذه الآية الكريمة فيها من الوعد والبشارة بنصر الله لدينه ولرسوله وعباده المؤمنين ما لا يخفى، ومن تأييس الكافرين الذيـن يريدون أن يطفئـوا نور الله بأفواههـم، والله متم نوره ولو كره الكافرون؛ أي: وسعوا مهما أمكنهم.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿١٦﴾ أي: وكذلـك لمـا فصلنا في هذا القـرآن ما فصلنا؛ جعلنـاه آيـات بينـات واضحـات دالات علـى جميـع المطالـب والمسـائل النافعـة، ولكـن الهدايـة بيـد اللـه؛ فمـن أراد الله هدايتـه؛ اهتدى بهذا القـرآن، وجعله إمامًا

(١) ع: «أي».

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ
﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ
وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ
يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ
وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ
وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟
فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ
مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ
وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟
أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ
﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ
أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾

لـه وقدوة واستضاء بنوره، ومن لم يرد اللـه هدايته؛ فلو جاءته كل آية ما آمن، ولم ينفعه القرآن شيئًا، بل يكون حجة عليه.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ إلى قولـه: ﴿ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿١٧﴾ يخبر تعالى عن طوائف أهل الأرض من الذين أوتوا الكتاب من المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين ومن المجوس ومن المشركين: أن الله سيجمعهم جميعهم ليوم القيامة، ويفصل بينهم بحكمه العدل، ويجازيهم بأعمالهم التي حفظها وكتبها وشهدها، ولهذا قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿١٩﴾ - ﴿٢٢﴾ ثم فصل هذا الفصل بينهم بقوله: ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾: كل يدعي أنه المحق. ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾: يشمل كل كافر من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين والمشركين، ﴿ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾؛ أي: يجعل لهم ثياب من قطران، وتشعل فيها النار؛ ليعمهم العذاب من جميع جوانبهم، ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ ﴾: الماء الحار جدًّا، ﴿ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ ﴾: من اللحم والشحم والأمعاء من شدة حره وعظيم أمره. ﴿ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ ﴾: بيد الملائكة الغلاظ الشداد تضربهم بها وتقمعهم. ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا ﴾؛ فلا يُفتَّر عنهم العذاب ولا هم ينظرون، ويقال لهم توبيخًا: ﴿ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾؛ أي: المحرق للقلوب والأبدان.

﴿٢٣﴾ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾: ومعلوم أن هذا الوصف لا يصدق على غير المسلمين، الذين آمنوا بجميع الكتب وجميع الرسل، ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾؛ أي: يسورون في أيديهم، رجالهم ونساؤهم أساور الذهب، ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾: فتم نعيمهم بذكر أنواع المأكولات اللذيذات، المشتمل عليها لفظ الجنات، وذكر الأنهار السارحات، أنهار الماء واللبن والعسل والخمر، وأنواع اللباس والحلي الفاخر.

﴿٢٤﴾ وذلك بسبب أنهم هدوا ﴿ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾: الذي أفضله وأطيبه كلمة الإخلاص، ثم سائر الأقوال الطيبة التي فيها ذكر الله أو إحسان إلى عباد الله. ﴿ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾؛ أي: الصراط المحمود، وذلك لأن جميع الشرع كله محتوٍ على الحكمة والحمد وحسن المأمور به وقبح المنهي، وهو الدين الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، المشتمل على العلم النافع والعمل الصالح. أو: وهدوا إلى صراط الله الحميد؛ لأن الله كثيرًا ما يضيف الصراط إليه؛ لأنه يوصل صاحبه إلى الله. وفي ذكر الحميد هنا ليبين أنهم نالوا الهداية بحمد ربهم ومنته عليهم، ولهذا يقولون في الجنة: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٤٣].

واعترض تعالى بين هذه الآيات بذكر سجود المخلوقات له؛ جميع من في السماوات والأرض، والشمس، والقمر، والنجوم، والجبال، والشجر، والدواب الذي يشمل الحيوانات كلها. وكثير من الناس، وهم المؤمنون: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾؛ أي: وجب وكتب لكفره وعدم إيمانه، فلم يوفقه الله للإيمان؛ لأن الله أهانه. ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾: ولا راد لما أراد، ولا معارض لمشيئته؛ فإذا كانت المخلوقات كلها ساجدة لربها، خاضعة لعظمته، مستكينة لعزته، عانية لسلطانه؛ دل أنه وحده الرب المعبود الملك المحمود، وأن من عدل عنه إلى عبادة سواه؛ فقد ضل ضلالًا بعيدًا، وخسر خسرانًا مبينًا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

(٢٥) يخبر تعالى عن شناعة ما عليه المشركون الكافرون بربهم، وأنهم جمعوا بين الكفر بالله ورسله[1]، وبين الصد عن سبيل الله، ومنع الناس من الإيمان، والصد أيضًا عن المسجد الحرام الذي ليس ملكًا لهم ولا لآبائهم، بل الناس فيه سواء المقيم فيه والطارئ إليه، بل صدوا عنه أفضل الخلق محمدًا وأصحابه، والحال أن[2] المسجد الحرام من حرمته واحترامه وعظمته أن من ﴿يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾؛ فمجرد الإرادة للظلم والإلحاد في الحرم موجب للعذاب، وإن كان غيره لا يعاقب العبد عليه إلا بعمل الظلم؛ فكيف بمن أتى فيه أعظم الظلم من الكفر والشرك والصد عن سبيله ومنع من يريده بزيارة؟! فما ظنهم[3] أن يفعل الله بهم؟!

وفي هذه الآية الكريمة وجوب احترام الحرم وشدة تعظيمه والتحذير من إرادة المعاصي فيه وفعلها.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟

الجزء السابع عشر — سورة الحج

وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ
﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ
ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ
وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾
وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى
شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ
ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ
كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟
مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ
عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟
ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟
نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن
يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ
لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟
ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾

٣٣٥

مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾.

(٢٦) يذكر تعالى عظمة البيت الحرام وجلالته وعظمة بانيه، وهو خليل الرحمن، فقال: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾؛ أي: هيأناه له وأنزلناه إياه، وجعل قسمًا من ذريته من سكانه، وأمره الله ببنيانه، فبناه على تقوى الله، وأسسه على طاعة الله، وبناه هو وابنه إسماعيل، وأمره ألَّا يشرك به شيئًا؛ بأن يخلص لله أعماله ويبنيه على اسم الله. ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾؛ أي: من الشرك والمعاصي ومن الأنجاس والأدناس، وأضافه الرحمن إلى نفسه لشرفه وفضله ولتعظم محبته في القلوب، وتنصب إليه الأفئدة من كل جانب، وليكون أعظم لتطهيره وتعظيمه؛ لكونه بيت الرب للطائفين به والعاكفين عنده، المقيمين لعبادة من العبادات من ذكر وقراءة وتعلم علم وتعليمه وغير ذلك من أنواع القرب، ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾؛ أي:

(١) ع: «ورسوله».
(٢) زاد في ع: «هذا».
(٣) ط: «ظنكم».

المصلين؛ أي: طهره لهؤلاء الفضلاء الذين همهم طاعة مولاهم وخدمته والتقرب إليه عند بيته؛ فهؤلاء لهم الحق ولهم الإكرام، ومن إكرامهم تطهير البيت لأجلهم.

ويدخل في تطهيره تطهيره من الأصوات اللاغية والمرتفعة التي تشوش على المتعبدين بالصلاة والطواف.

وقدم الطواف على الاعتكاف والصلاة لاختصاصه بهذا البيت، ثم الاعتكاف لاختصاصه بجنس المساجد.

(٢٧) ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ ﴾؛ أي: أعلمهم به، وادعهم إليه، وبلغ دانيهم وقاصيهم فرضه وفضيلته؛ فإنك إذا دعوتهم؛ أتوك حجاجًا وعمارًا. ﴿ رِجَالًا ﴾؛ أي: مشاة على أرجلهم من الشوق، ﴿ وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ ﴾؛ أي: ناقة ضامر تقطع المهامه والمفاوز، وتواصل السير حتى تأتي إلى أشرف الأماكن، ﴿ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾؛ أي: من كل بلد بعيد.

وقد فعل الخليل عليه السلام ثم من بعده ابنه محمد ﷺ، فدعيا الناس إلى حج هذا البيت، وأبديا في ذلك وأعادا، وقد حصل ما وعد الله به؛ أتاه الناس رجالًا وركبانًا من مشارق الأرض ومغاربها.

(٢٨) ثم ذكر فوائد زيارة بيت الله الحرام مرغبًا فيه، فقال: ﴿ لِيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾؛ أي: لينالوا ببيت الله منافع دينية من العبادات الفاضلة، والعبادات التي لا تكون إلا فيه، ومنافع دنيوية، من التكسب وحصول الأرباح الدنيوية، وكل هذا أمر مشاهد، كل يعرفه. ﴿ لِيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾: وهذا من المنافع الدينية والدنيوية؛ أي: ليذكروا اسم الله عند ذبح الهدايا شكرًا لله على ما رزقهم منها ويسرها لهم؛ فإذا ذبحتموها؛ ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ﴾؛ أي: شديد الفقر.

(٢٩) ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ ﴾؛ أي: يقضوا نسكهم ويزيلوا الوسخ والأذى الذي لحقهم في حال الإحرام، ﴿ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ ﴾: التي أوجبوها على أنفسهم من الحج والعمرة والهدايا، ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾؛ أي: القديم، أفضل المساجد على الإطلاق، المعتق من تسلط الجبابرة عليه. وهذا أمر بالطواف، خصوصًا بعد الأمر بالمناسك عمومًا؛ لفضله وشرفه، ولكونه المقصود، وما قبله وسائل إليه. ولعله والله أعلم أيضًا لفائدة أخرى، وهو أن الطواف مشروعٌ كلَّ وقت، وسواء كان تابعًا لنسك أم مستقلًّا بنفسه.

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾.

(٣٠) ﴿ ذَٰلِكَ ﴾؛ أي[1]: ذكرنا لكم من تلكم الأحكام وما فيها من تعظيم حرمات الله وإجلالها وتكريمها؛ لأن تعظيم حرمات الله من الأمور المحبوبة لله المقربة إليه التي من عظَّمها وأجلَّها أثابه الله ثوابًا جزيلًا، وكانت خيرًا له في دينه ودنياه وأخراه عند ربه. وحرمات الله كل ما له حرمة وأمر باحترامه من عبادة أو غيرها؛ كالمناسك كلها، وكالحرم والإحرام، وكالهدايا، وكالعبادات التي أمر الله العباد بالقيام بها؛ فتعظيمها إجلالها بالقلب ومحبتها وتكميل العبودية فيها غير متهاون ولا متكاسل ولا متثاقل. ثم ذكر منته وإحسانه بما أحله لعباده من بهيمة الأنعام من إبل وبقر وغنم، وشرعها من جملة المناسك التي يتقرب بها إليه، فعظمت منته فيها من الوجهين. ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ في القرآن تحريمه من قوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ ﴾ [المائدة: ٣] الآية. ولكن الذي من رحمته بعباده أن حرمه عليهم ومنعهم منه تزكية لهم وتطهيرًا من الشرك به وقول الزور، ولهذا قال: ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ ﴾؛ أي: الخبث القذر ﴿ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ ﴾؛ أي: الأنداد التي جعلتموها آلهة مع الله؛ فإنها أكبر أنواع الرجس.

والظاهر أن ﴿ مِنَ ﴾ هنا ليست لبيان الجنس كما قاله كثير من المفسرين، وإنما هي للتبعيض، وأن الرجس عام في جميع المنهيات المحرمات، فيكون منهيًّا عنها عمومًا، وعن الأوثان التي هي بعضها خصوصًا، ﴿ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ ﴾؛ أي: جميع الأقوال المحرمات؛ فإنها من قول الزور[2].

(١) ع: «الذي».
(٢) زاد في ع، ط: «الذي هو الكذب ومن ذلك شهادة الزور، فلما نهاهم عن الشرك والرجس وقول الزور».

حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾

٣٣٦

﴿٣١﴾ أمرهم أن يكونوا ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾؛ أي: مقبلين عليه وعلى عبادته، معرضين عما سواه. ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾: فمثله ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: سقط منها، ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾: بسرعة، ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾؛ أي: بعيد. كذلك المشركون؛ فالإيمان بمنزلة السماء محفوظة مرفوعة، ومن ترك الإيمان بمنزلة الساقط من السماء عرضة للآفات والبليات؛ فإما أن تخطفه الطير فتقطِّعه أعضاء، كذلك المشرك إذا ترك الاعتصام بالإيمان؛ تخطفته الشياطين من كل جانب، ومزقوه، وأذهبوا عليه دينه ودنياه.

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿٣٢﴾ أي: ذلك الذي ذكرنا لكم من تعظيم حرماته وشعائره، والمراد بالشعائر أعلام الدين الظاهرة:

ومنها: المناسك كلها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨].

ومنها: الهدايا والقربان للبيت، وتقدم أن معنى تعظيمها إجلالها والقيام بها وتكميلها على أكمل ما يقدر عليه العبد.

ومنها: الهدايا؛ فتعظيمها باستحسانها واستسمانها، وأن تكون مكملة من كل وجه. فتعظيم شعائر الله صادر من تقوى القلوب؛ فالمعظم لها يبرهن على تقواه وصحة إيمانه؛ لأن تعظيمها تابع لتعظيم الله وإجلاله.

﴿٣٣﴾ ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾؛ أي: في الهدايا، ﴿مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: هذا في الهدايا المسوقة من البدن ونحوها؛ ينتفع بها أربابها بالركوب والحلب ونحو ذلك مما لا يضرها إلى أجل مسمى مقدر موقت، وهو ذبحها إذا وصلت محلها، وهو ﴿ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾؛ أي: الحرم كله، منى وغيرها؛ فإذا ذبحت؛ أكلوا منها وأهدوا وأطعموا البائس الفقير.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٣٤﴾ أي: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾: من الأمم السالفة ﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾؛ أي: فاستبقوا إلى الخيرات وتسارعوا إليها، ولننظر أيكم أحسن عملًا. والحكمة في جعل الله لكل أمة منسكًا؛ لإقامة ذكره والالتفات لشكره، ولهذا قال: ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾: وإن اختلفت أجناس الشرائع؛ فكلها متفقة على هذا الأصل، وهو ألوهية الله وإفراده بالعبودية وترك الشرك به، ولهذا قال: ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾؛ أي: انقادوا واستسلموا له لا لغيره؛ فإن الإسلام له طريق[1] الوصول إلى دار السلام. ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾: بخير الدنيا والآخرة، والمخبت: الخاضع لربه، المستسلم لأمره، المتواضع لعباده.

(١) ع، ط: «طريق إلى».

(٣٥) ثم ذكر صفات المخبتين، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: خوفًا وتعظيمًا، فتركوا لذلك المحرمات لخوفهم ووجلهم من الله وحده. ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾: من البأساء والضراء وأنواع الأذى؛ فلا يجري منهم التسخط لشيء من ذلك، بل صبروا ابتغاء وجه ربهم؛ محتسبين ثوابه، مرتقبين أجره. ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾؛ أي: الذين جعلوها قائمة مستقيمة كاملة؛ بأن أدوا اللازم فيها والمستحب وعبوديتها الظاهرة والباطنة. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥)﴾: وهذا يشمل جميع النفقات الواجبة؛ كالزكاة والكفارة والنفقة على الزوجات والمماليك والأقارب، والنفقات المستحبة؛ كالصدقات بجميع وجوهها.

وأتى بـ(من) المفيدة للتبعيض ليعلم سهولة ما أمر الله به ورغب فيه، وأنه جزء يسير مما رزق الله، ليس للعبد في تحصيله قدرة لولا تيسير الله له ورزقه إياه؛ فيا أيها المرزوق من فضل الله! أنفق مما رزقك الله؛ ينفق الله عليك ويزدك من فضله.

﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ (٣٧)﴾.

(٣٦) هذا دليل على أن الشعائر عامة في جميع أعلام الدين الظاهرة، وتقدم أن الله أخبر أن من عظم شعائره؛ فإن ذلك من تقوى القلوب، وهنا أخبر أن من جملة شعائره البدن؛ أي: الإبل والبقر على أحد القولين، فتعظم وتستسمن وتستحسن. ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾؛ أي: المهدي وغيره من الأكل والصدقة والانتفاع والثواب والأجر. ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾؛ أي: عند ذبحها، قولوا: بسم الله، واذبحوها ﴿صَوَآفَّ﴾؛ أي: قائمات؛ بأن تقام على قوائمها الأربع، ثم تعقل يدها اليسرى، ثم تنحر. ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾؛ أي: سقطت في الأرض جنوبها حين تسلخ ثم يسقط الجزار جنوبها على الأرض؛ فحينئذ قد استعدت لأن يؤكل منها؛ ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾: وهذا خطاب للمهدي، فيجوز له الأكل من هديه، ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾؛ أي: الفقير الذي لا يسأل تقنعًا وتعففًا، والفقير الذي يسأل؛ فكل منهما له حق فيهما. ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ﴾؛ أي: البدن، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦)﴾: الله على تسخيرها؛ فإنه لولا تسخيره لها؛ لم يكن لكم بها طاقة، ولكنه ذللها لكم وسخرها رحمة بكم وإحسانًا إليكم؛ فاحمدوه.

(٣٧) وقوله: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾؛ أي: ليس المقصود منها ذبحها فقط، ولا ينال الله من لحومها ولا دمائها شيء؛ لكونه الغني الحميد، وإنما يناله الإخلاص فيها والاحتساب والنية الصالحة، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾: ففي هذا حث وترغيب على الإخلاص في النحر، وأن يكون القصد وجه الله وحده؛ لا فخرًا ولا رياء ولا سمعة ولا مجرد عادة، وهكذا سائر العبادات إن لم يقترن بها الإخلاص وتقوى الله؛ كانت كالقشر الذي لا لب فيه والجسد الذي لا روح فيه. ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: تعظموه وتجلوه، كما ﴿هَدَىٰكُمْ﴾؛ أي: مقابلة لهدايته إياكم؛ فإنه يستحق أكمل الثناء وأجل الحمد وأعلى التعظيم. ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ (٣٧)﴾: بعبادة الله؛ بأن يعبدوا الله كأنهم يرونه؛ فإن لم يصلوا إلى هذه الدرجة؛ فليعبدوه معتقدين وقت عبادتهم اطلاعه عليهم ورؤيته إياهم، والمحسنين لعباد الله بجميع وجوه الإحسان؛ من نفع مال أو علم أو جاه أو نصح أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو كلمة طيبة ونحو ذلك؛ فالمحسنون لهم البشارة من الله بسعادة الدنيا والآخرة، وسيحسن الله إليهم كما أحسنوا في عبادته ولعباده؛ ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ (٦٠)﴾ [الرحمن: ٦٠]، ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ﴾ [يونس: ٢٦].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨)﴾.

(٣٨) هذا إخبار ووعد وبشارة من الله للذين آمنوا أن الله يدافع عنهم كل مكروه، ويدفع عنهم بسبب إيمانهم كل شر: من شر الكفار وشر وسوسة الشيطان وشرور أنفسهم وسيئات أعمالهم، ويحمل عنهم عند نزول المكاره ما لا يتحملون، فيخفف عنهم غاية التخفيف، كل مؤمن

لـه من هـذه المدافعـة والفضيلة بحسـب إيمانه، فمسـتقل ومستكثر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾؛ أي: خائـن فـي أمانتـه التي حملـه الله إياهـا، فيبخس حقوق الله عليـه ويخونها ويخون الخلـق. ﴿كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾: لنعم الله، يوالي عليه الإحسـان، ويتوالـى منه الكفـر والعصيان؛ فهذا لا يحبه اللـه، بل يُبْغِضُهُ وَيَمْقُتُهُ وسـيجازيه على كفره وخيانتـه. ومفهوم الآية أن الله يحب كل أمين قائم بأمانته شكور لمولاه.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾.

﴿٣٩﴾ كان المسـلمون فـي أول الإسـلام ممنوعين من قتال الكفار ومأمورين بالصبـر عليهم لحكمة إلهية، فلما هاجروا إلـى المدينـة، وأوذوا وحصـل لهـم منعـة وقـوة؛ أذن لهـم بالقتـال؛ كما قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾: يفهم منه أنهم كانوا قبل ممنوعين، فأذن الله لهم بقتال الذين يقاتلون، وإنمـا أذن لهم لأنهم ظلموا بمنعهم مـن دينهم وأذيتهم عليه وإخراجهم من ديارهم. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾: فليستنصروه وليستعينوا به.

﴿٤٠﴾ ثـم ذكـر صفـة ظلمهـم، فقـال: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم﴾؛ أي: ألجئـوا إلـى الخـروج بالأذيـة والفتنـة، ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ﴾: أن ذنبهـم الـذي نقـم منهـم أعداؤهم، ﴿أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾؛ أي: إلا أنهـم وحـدوا اللـه وعبـدوه مخلصين لـه الدين؛ فإن كان هذا ذنبًـا؛ فهو ذنبهم؛ كقولـه تعالـى: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج: ٨]: وهـذا يدل علـى حكمة الجهاد؛ فـإن المقصـود منـه إقامة دين اللـه، أو ذب الكفـار المؤذين للمؤمنيـن البادئيـن لهم بالاعتـداء عن ظلمهـم واعتدائهم، والتمكن من عبادة الله وإقامة الشـرائع الظاهرة، ولهذا قال:

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَـٰبُ مَدْيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾: فيدفـع اللـه بالمجاهديـن في سبيله ضـرر الكافريـن؛ ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ﴾؛ أي: لهدمـت هـذه المعابـد الكبـار لطوائـف أهـل الكتـاب، معابـد اليهـود والنصـارى والمسـاجد للمسـلمين. ﴿يُذْكَرُ فِيهَا﴾؛ أي: فـي هـذه المعابـد ﴿ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾: تقام فيها الصلوات، وتتلى فيها كتب الله، ويذكر فيها اسم الله بأنواع الذكر؛ فلولا دفع الله الناس بعضهم ببعض؛ لاستولى الكفار على المسلمين، فخربـوا معابدهم وفتنوهـم عن دينهم، فدل هـذا أن الجهاد مشـروع لأجل دفع الصائل والمؤذي، ومقصود لغيره. ودل ذلـك علـى أن البلدان التـي حصلت فيهـا الطمأنينـة بعبادة الله، وعمـرت مسـاجدها، وأقيمت فيها شـعائر الدين كلها مـن فضائل المجاهديـن وبركتهم، دفع اللـه عنها الكافرين؛ قـال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: ٢٥١].

فإن قلت: نرى الآن مساجد المسلمين عامرة لم تخرب؛ مع أنها كثير منها إمارة صغيرة وحكومة غير منظمة، مع أنهم لا يدان لهم بقتال من جاورهم من الإفرنج، بل نرى المساجد التي تحت ولايتهم وسيطرتهم عامرة، وأهلها آمنون مطمئنون؛ مع قدرة ولاتهم من الكفار على هدمها، والله أخبر أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض؛ لهدمت هذه المعابد، ونحن لا نشاهد دفعًا[1]؟

أجيب بأن جواب هذا السؤال والاستشكال داخل في عموم هذه الآية وفرد من أفرادها؛ فإن من عرف أحوال الدول الآن ونظامها، وأنها تعتبر كل أمة وجنس تحت ولايتها وداخل في حكمها؛ تعتبره عضوًا من أعضاء المملكة وجزءًا من أجزاء الحكومة، سواء كانت تلك الأمة مقتدرة بعَددها أو عُددها، أو مالها، أو علمها، أو خدمتها، فتراعي الحكومات مصالح ذلك الشعب الدينية والدنيوية، وتخشى إن لم تفعل ذلك أن يختل نظامها وتفقد بعض أركانها، فيقوم من أمر الدين بهذا السبب ما يقوم، خصوصًا المساجد؛ فإنها ولله الحمد في غاية الانتظام، حتى في عواصم الدول الكبار. وتراعي تلك الدول الحكومات المستقلة؛ نظرًا لخواطر رعاياهم المسلمين، مع وجود التحاسد والتباغض بين دول النصارى، الذي أخبر الله أنه لا يزال إلى يوم القيامة، فتبقى الحكومة المسلمة التي لا تقدر تدافع عن نفسها سالمة من كثير ضررهم؛ لقيام الحسد عندهم؛ فلا يقدر أحدهم أن يمد يده عليها، خوفًا من احتمائها بالآخر، مع أن الله تعالى لا بد أن يري عباده من نصر الإسلام والمسلمين ما قد وعد به في كتابه، وقد ظهرت ولله الحمد أسبابه بشعور المسلمين بضرورة رجوعهم إلى دينهم، والشعور مبدأ العمل؛ فنحمده ونسأله أن يتم نعمته، ولهذا قال في وعده الصادق المطابق للواقع: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾؛ أي: يقوم بنصر دينه، مخلصًا له في ذلك، يقاتل في سبيله لتكون كلمة الله هي العليا.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾؛ أي: كامل القوة، عزيز، لا يرام، قد قهر الخلائق وأخذ بنواصيهم. فأبشروا يا معشر المسلمين؛ فإنكم وإن ضعف عَددكم وعُددكم وقوي عَدد عدوكم؛ فإنَّ ركنكم القوي العزيز ومعتمدكم على من خلقكم وخلق ما تعملون؛ فاعملوا بالأسباب المأمور بها، ثم اطلبوا منه نصركم؛ فلا بد أن ينصركم، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ [محمد: ٧]، وقوموا أيها المسلمون بحق الإيمان والعمل الصالح؛ فقد ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ [النور: ٥٥].

﴿٤١﴾ ثم ذكر علامة من ينصره، وبها يعرف أن من ادعى أنه ينصر الله وينصر دينه ولم يتصف بهذا الوصف؛ فهو كاذب، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي: ملكناهم إياها، وجعلناهم المتسلطين عليها من غير منازع ينازعهم ولا معارض؛ ﴿ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾: في أوقاتها وحدودها وأركانها وشروطها في الجمعة والجماعات. ﴿ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾: التي عليهم خصوصًا، وعلى رعيتهم عمومًا، آتوها أهلها الذين هم أهلها. ﴿ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾: وهذا يشمل كل معروف حُسْنُهُ شرعًا وعقلًا من حقوق الله وحقوق الآدميين. ﴿ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾: كل منكر شرعًا وعقلًا، معروف قبحه، والأمر بالشيء والنهي عنه يدخل فيه ما لا يتم إلا به؛ فإذا كان المعروف والمنكر يتوقف على تعلم وتعليم أجبروا الناس على التعلم والتعليم، وإذا كان يتوقف على تأديب مقدر شرعًا أو غير مقدر؛ كأنواع التعزير؛ قاموا بذلك، وإذا كان يتوقف على جعل أناس متصدين له؛ لزم ذلك، ونحو ذلك مما لا يتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا به.

﴿ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾؛ أي: جميع الأمور ترجع إلى الله، وقد أخبر أن العاقبة للتقوى؛ فمن سلطه الله على العباد من الملوك وقام بأمر الله؛ كانت له العاقبة الحميدة والحالة الرشيدة، ومن تسلط عليهم بالجبروت، وأقام فيهم هوى نفسه؛ فإنه وإن حصل له ملك موقت؛ فإن عاقبته غير حميدة؛ فولايته مشئومة، وعاقبته مذمومة.

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ

(١) ع: «مدافعًا».

ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿٤٢﴾ - ﴿٤٤﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: وإن يكذبك هؤلاء المشركون؛ فلست بأول رسول كذب، وليسوا بأول أمة كذبت رسولها؛ ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ﴾؛ أي: قوم شعيب. ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾: المكذبين، فلم أعاجلهم بالعقوبة، بل أمهلتهم حتى استمروا في طغيانهم يعمهون وفي كفرهم وشرهم يزدادون، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾: بالعذاب أخذ عزيز مقتدر. ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾؛ أي: إنكاري عليهم كفرهم وتكذيبهم كيف حاله؟! كان أشد العقوبات وأفظع المثلات؛ فمنهم من أغرقه، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من أهلك بالريح العقيم، ومنهم من خسف به الأرض، ومنهم من أرسل عليه عذاب يوم الظلة؛ فليعتبر بهم هؤلاء المكذبون أن يصيبهم ما أصابهم؛ فإنهم ليسوا خيرًا منهم، ولا كتب لهم براءة في الكتب المنزلة من الله. وكم من المعذبين المهلكين أمثال هؤلاء كثير!

﴿٤٥﴾ ولهذا قال: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾؛ أي: وكم من قرية، ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾: بالعذاب الشديد والخزي الدنيوي، ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾: بكفرها بالله وتكذيبها لرسله، لم يكن عقوبتنا لها ظلمًا منا. ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾؛ أي فديارهم متهدمة قصورها وجدرانها، قد سقطت على عروشها، فأصبحت خرابًا بعد أن كانت عامرة، وموحشة بعد أن كانت آهلة بأهلها آنسة. ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾؛ أي: وكم من بئر قد كان يزدحم عليها الخلق لشربهم وشرب مواشيهم، ففقد أهلها وعدم منها الوارد والصادر! وكم من قصر تعب عليه أهله فشيدوه ورفعوه وحصنوه وزخرفوه؛ فحين جاءهم أمر الله؛ لم يغن عنهم شيئًا، وأصبح خاليًا من أهله، قد صاروا عبرة لمن اعتبر ومثالًا لمن فكر ونظر.

﴿٤٦﴾ ولهذا دعا الله عباده إلى السير في الأرض لينظروا ويعتبروا، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ﴾: بأبدانهم وقلوبهم؛ ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾: آيات الله ويتأملون بها مواقع عبره، ﴿أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾: أخبار الأمم الماضين وأنباء القرون المعذبين، وإلا فمجرد نظر العين وسماع الأذن وسير البدن الخالي من التفكر والاعتبار غير مفيد ولا موصل إلى المطلوب، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾؛ أي: هذا العمى الضار في الدين عمى القلب عن الحق حتى لا يشاهده كما لا يشاهد الأعمى المرئيات، وأما عمى البصر؛ فغايته بلغة، ومنفعة دنيوية.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿٤٧﴾ أي: يتعجلك هؤلاء المكذبون بالعذاب لجهلهم وظلمهم وعنادهم وتعجيزًا لله وتكذيبًا لرسله، ولن يخلف الله وعده؛ فما وعدهم به من العذاب لا بد من وقوعه، ولا يمنعهم منه مانع، وأما عجلته والمبادرة فيه؛ فليس ذلك إليك يا محمد، ولا يستفزنك عجلتهم وتعجيزهم إيانا؛ فإن أمامهم يوم القيامة الذي يجمع فيه أولهم وآخرهم، ويجازون بأعمالهم، ويقع بهم العذاب الدائم الأليم، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾: من طوله وشدته وهوله؛ فسواء أصابهم عذاب في الدنيا أم تأخر عنهم العذاب؛ فإن هذا اليوم لا بد أن يدركهم.

ويحتمل أن المراد أن الله حليم، ولو استعجلوا العذاب؛ فإن يومًا عنده كألف سنة مما تعدون؛ فالمدة وإن تطاولتموها، واستبطأتم فيها نزول العذاب؛ فإن الله يمهل المدد الطويلة، ولا يهمل، حتى إذا أخذ الظالمين بعذابه؛ لم يفلتهم.

﴿٤٨﴾ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا﴾؛ أي: أمهلتها مدة طويلة، ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾؛ أي: مع ظلمهم، فلم يكن مبادرتهم بالظلم موجبًا لمبادرتنا بالعقوبة، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعذاب ﴿وَإِلَىَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾؛ أي: مع عذابها في الدنيا سترجع إلى الله فيعذبها بذنوبها؛ فليحذر هؤلاء الظالمون من حلول عقاب الله، ولا يغتروا بالإمهال.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا
عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن
قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ
﴿٤٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾
وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ
﴿٥١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ
أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ
ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ
مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ
قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ
فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ
تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿٤٩﴾ يأمر تعالى عبده ورسوله محمدًا ﷺ أن يخاطب الناس جميعًا بأنه رسول الله حقًّا؛ مبشرًا للمؤمنين بثواب الله، منذرًا للكافرين والظالمين من عقابه. وقوله: ﴿ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ أي؛ بين الإنذار، وهو التخويف مع الإعلام بالمخوف، وذلك لأنه أقام البراهين الساطعة على صدق ما أنذرهم به.

﴿٥٠﴾ ثم ذكر تفصيل النذارة والبشارة، فقال: ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾: بقلوبهم إيمانًا صحيحًا صادقًا، ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾: بجوارحهم ﴿ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ ﴾؛ أي: الجنات التي يُتَنَعَّمُ بها بأنواع النعيم من المآكل والمشارب والمناكح والصور والأصوات والتنعم برؤية الرب الكريم وسماع كلامه.

﴿٥١﴾ ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾[1]؛ أي: جحدوا نعمة ربهم، وكذبوا رسله وآياته. فأولئك ﴿ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ ﴾؛ أي: الملازمون لها، المصاحبون لها في كل أوقاتهم؛ فلا يخفف عنهم من عذابها، ولا يفتر عنهم لحظة من عقابها.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿٥٢﴾ يخبر تعالى بحكمته البالغة واختياره لعباده وأن الله ما أرسل قبل محمد ﴿ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ ﴾؛ أي: قرأ قراءته التي يذكّر بها الناس ويأمرهم وينهاهم، ﴿ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾؛ أي: في قراءته من طرقه ومكايده ما هو مناقض لتلك القراءة مع أن الله تعالى قد عصم الرسل بما يبلغون عن الله وحفظ وحيه أن يشتبه أو يختلط بغيره، ولكن هذا إلقاء[2] من الشيطان غير مستقر ولا مستمر، وإنما هو عارض يعرض ثم يزول، وللعوارض أحكام، ولهذا قال: ﴿ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ﴾؛ أي: يزيله، ويذهبه، ويبطله، ويبين أنه ليس من آياته. و﴿ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ﴾؛ أي: يتقنها، ويحررها، ويحفظها، فتبقى خالصة من مخالطة إلقاء الشيطان. ﴿ وَاللَّهُ [عَزِيزٌ][3] ﴾؛ أي: كامل القوة والاقتدار؛ فبكمال قوته يحفظ وحيه، ويزيل ما تلقيه الشياطين. ﴿ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ ﴾: يضع الأشياء مواضعها.

﴿٥٣﴾ فمن كمال حكمته مكن الشياطين من الإلقاء المذكور؛ ليحصل ما ذكره بقوله ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً ﴾: لطائفتين من الناس لا يبالي الله بهم:

---

(١) سبق قلم الشيخ - رحمه الله - إلى الآية رقم (٥٦) من هذه السورة فجمع بينها وبين هذه الآية فكتب ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ ﴾ ثم فسرها بما يوافق الذي كتب، فعدلت الآية وصوبتها، وأبقيت التفسير كما هو. (طبعة اللويحق).

(٢) ع: «الإلقاء».

(٣) كذا في النسختين، وعليه فسرها المؤلف. والآية: ﴿ عَلِيمٌ ﴾.

الذين ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ أي: ضعف وعدم إيمان تام وتصديق جازم، فيؤثر في قلوبهم أدنى شبهة تطرأ عليها؛ فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان؛ داخلهم الريب والشك، فصار فتنة لهم.

﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: الغليظة التي لا يؤثر فيها زجر ولا تذكير، ولا تفهم عن الله وعن رسوله لقسوتها؛ فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان؛ جعلوه حجة لهم على باطلهم، وجادلوا به، وشاقوا الله ورسوله، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ۝٥٣﴾؛ أي: مشاقة لله ومعاندة للحق ومخالفة له بعيد من الصواب. فما يلقيه الشيطان يكون فتنة لهؤلاء الطائفتين، فيظهر به ما في قلوبهم من الخبث الكامن فيها.

(٥٤) وأما **الطائفة الثالثة**؛ فإنه يكون رحمة في حقها، وهم المذكورون بقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾: وأن الله منحهم من العلم ما به يعرفون الحق من الباطل والرشد من الغي، فيفرقون[1] بين الأمرين الحق المستقر الذي يُحْكِمُهُ الله، والباطل العارض الذي ينسخه الله، بما على كل منهما من الشواهد، وليعلموا أن الله حكيم يقيض بعض أنواع الابتلاء وليظهر بذلك كمائن النفوس الخيرة والشريرة؛ ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾: بسبب ذلك، ويزداد إيمانهم عند دفع المعارض والشبه؛ ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: تخشع وتخضع وتسلم لحكمته، وهذا من هدايته إياهم. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: بسبب إيمانهم ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٤﴾: علم بالحق وعمل بمقتضاه؛ فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وهذا النوع من تثبيت الله لعبده.

وهذه الآيات فيها بيان أن للرسول ﷺ أسوة بإخوانه المرسلين؛ لما وقع منه عند قراءته ﷺ ﴿وَالنَّجْمِ﴾، فلما بلغ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ۝٢٠﴾؛ ألقى الشيطان في قراءته: تلك الغرانيق العلى. وإن شفاعتهن[2] لترتجى؛ فحصل بذلك للرسول حزن وللناس فتنة؛ كما ذكر الله، فأنزل الله هذه الآيات.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ۝٥٥ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝٥٦ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥٧﴾.

(٥٥) يخبر تعالى عن حالة الكفار، وأنهم لا يزالون في شك مما جئتهم به يا محمد؛ لعنادهم وإعراضهم، وأنهم لا يبرحون مستمرين على هذه الحال، ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾؛ أي: مفاجأة، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ۝٥٥﴾؛ أي: لا خير فيه، وهو يوم القيامة؛ فإذا جاءتهم الساعة أو أتاهم ذلك اليوم؛ علم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين، وندموا حيث لا ينفعهم الندم، وأبلسوا، وأيسوا من كل خير، وودوا لو آمنوا بالرسول واتخذوا معه سبيلًا. ففي هذا تحذيرهم من إقامتهم على مريتهم وفريتهم.

(٥٦)، (٥٧) ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿لِّلَّهِ﴾: تعالى لا لغيره، ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾: بحكمه العدل وقضائه الفصل. ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا﴾: بالله ورسله وما جاءوا به، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: ليصدقوا بذلك إيمانهم ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝٥٦﴾: نعيم القلب والروح والبدن مما لا يصفه الواصفون ولا تدركه العقول. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾: بالله ورسله، ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾: الهادية للحق والصواب، فأعرضوا عنها أو عاندوها ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥٧﴾: لهم من شدته وألمه وبلوغه للأفئدة؛ كما استهانوا برسله وآياته؛ أهانهم الله بالعذاب.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۝٥٨ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝٥٩﴾.

(٥٨) هذه بشارة كبرى لمن هاجر في سبيل الله، فخرج من داره ووطنه وأولاده وماله ابتغاء وجه الله ونصرة لدين الله؛ فهذا قد وجب أجره على الله؛ سواء مات على فراشه أو قتل مجاهدًا في سبيل الله. ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾: في البرزخ وفي يوم القيامة؛ بدخول الجنة الجامعة للرَّوح والريحان والحسن والإحسان ونعيم القلب والبدن، ويحتمل أن المراد أن المهاجر في سبيل الله قد تكفل الله[3] برزقه في الدنيا رزقًا واسعًا حسنًا، سواء

(١) ع: «فيميزون».
(٢) ع: «شفاعتهم».
(٣) سقط من ع، ط.

الجزء السابع عشر — سورة الحج

ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿٥٩﴾ ۞ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٦٤﴾

٣٣٩

علم الله منه أنه يموت على فراشه أو يقتل شهيدًا؛ فكلهم مضمون له الرزق؛ فلا يتوهم أنه إذا خرج من دياره وأمواله سيفتقر ويحتاج؛ فإن رازقه هو خير الرازقين. وقد وقع كما أخبر؛ فإن المهاجرين السابقين تركوا ديارهم وأبناءهم وأموالهم نصرة لدين الله، فلم يلبثوا إلا يسيرًا حتى فتح الله عليهم البلاد، ومكنهم من العباد، فاجتبوا من أموالها ما كانوا به من أغنى الناس.

﴿٥٩﴾ ويكون على هذا القول قوله: ﴿ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥ ﴾: إما ما يفتح الله عليهم من البلدان، خصوصًا فتح مكة المشرفة؛ فإنهم دخلوها في حالة الرضا والسرور، وإما المراد به رزق الآخرة، وأن ذلك دخول الجنة، فتكون الآية جمعت بين الرزقين؛ رزق الدنيا ورزق الآخرة. واللفظ صالح لذلك كله، والمعنى صحيح؛ فلا مانع من إرادة الجميع. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ ﴾: بالأمور؛ ظاهرها وباطنها، متقدمها ومتأخرها. ﴿ حَلِيمٞ ﴿٥٩﴾ ﴾: يعصيه الخلائق ويبارزونه بالعظائم، وهو لا يعاجلهم بالعقوبة، مع كمال اقتداره، بل يواصل لهم رزقه، ويسدي إليهم فضله.

﴿ ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿٦٠﴾ ذلك بأن من جُنِيَ عليه وظلم؛ فإنه يجوز له مقابلة الجاني بمثل جنايته؛ فإن فعل ذلك؛ فليس عليه سبيل، وليس بملوم؛ فإن بغي عليه بعد هذا؛ فإن الله ينصره؛ لأنه مظلوم؛ فلا يجوز أن يُبْغَى عليه بسبب أنه استوفى حقه، وإذا كان المجازي غيره بإساءته إذا ظلم بعد ذلك؛ نصره الله؛ فالذي بالأصل لم يعاقب أحدًا إذا ظلم وجني عليه؛ فالنصر إليه أقرب. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ﴿٦٠﴾ ﴾؛ أي: يعفو عن المذنبين؛ فلا يعاجلهم بالعقوبة، ويغفر ذنوبهم، فيزيلها ويزيل آثارها عنهم؛ فالله هذا وصفه المستقر اللازم الذاتي، ومعاملته لعباده في جميع الأوقات بالعفو والمغفرة، فينبغي لكم أيها المظلومون المجني عليهم أن تعفوا وتصفحوا وتغفروا؛ ليعاملكم الله كما تعاملون عباده؛ ﴿ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى: ٤٠].

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ ﴾.

﴿٦١﴾ ذلك الذي شرع لكم تلك الأحكام الحسنة العادلة هو حسن التصرف في تقديره وتدبيره، الذي ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ ﴾؛ أي: يدخل هذا على هذا، وهذا على هذا، فيأتي بالليل بعد النهار، وبالنهار بعد الليل، ويزيد في أحدهما ما ينقصه من الآخر، ثم بالعكس، فيترتب على ذلك قيام الفصول ومصالح الليل والنهار والشمس والقمر، التي هي من أجلِّ نعمه على العباد، وهي من الضروريات لهم. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ ﴾: يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات. ﴿بَصِيرٞ ﴿٦١﴾ ﴾: يرى دبيب النملة السوداء تحت الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ﴿ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الرعد: ١٠].

(٦٢) ﴿ ذَٰلِكَ ﴾: صاحب الحكم والأحكام، ﴿ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾؛ أي: الثابت الذي لا يزال ولا يزول، فالأول الذي ليس قبله شيء، الآخر الذي ليس بعده شيء، كامل الأسماء والصفات، صادق الوعد، الذي وعده حق ولقاؤه حق ودينه حق وعبادته هي الحق النافعة الباقية على الدوام. ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ ﴾: من الأصنام والأنداد من الحيوانات والجمادات، ﴿ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾: الذي هو باطل في نفسه، وعبادته باطلة؛ لأنها متعلقة بمضمحل فانٍ، فتبطل تبعًا لغايتها ومقصودها. ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ (٦٢) ﴾: العلي في ذاته؛ فهو عالٍ على جميع المخلوقات، وفي قَدْرِهِ؛ فهو كامل الصفات، وفي قهره لجميع المخلوقات، الكبير في ذاته وفي أسمائه وفي صفاته، الذي من عظمته وكبريائه أن الأرض قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه، ومن كبريائه أن كرسيه وسع السماوات والأرض، ومن عظمته وكبريائه أن نواصي العباد بيده؛ فلا يتصرفون إلا بمشيئته، ولا يتحركون ويسكنون إلا بإرادته، وحقيقة الكبرياء التي لا يعلمها إلا هو؛ لا ملك مقرب ولا نبي مرسل: أنها كل صفة كمال وجلال وكبرياء وعظمة؛ فهي ثابتة له، وله من تلك الصفة أجلها وأكملها، ومن كبريائه أن العبادات كلها، الصادرة من أهل السماوات والأرض كلها، المقصود منها تكبيره وتعظيمه وإجلاله وإكرامه، ولهذا كان التكبير شعارًا للعبادات الكبار كالصلاة وغيرها.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ (٦٤) ﴾.

(٦٣) هذا حث منه تعالى وترغيب في النظر بآياته الدالة على وحدانيته وكماله، فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾؛ أي: ألم تشاهد ببصرك وبصيرتك، ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾: وهو المطر، فينزل على أرض خاشعة مجدبة، قد اغبرت أرجاؤها ويبس ما فيها من شجر ونبات، فتصبح مخضرة؛ قد اكتست من كل زوج كريم، وصار لها بذلك منظر بهيج، أن الذي أحياها بعد موتها وهمودها لمحيي الموتى بعد أن كانوا رميمًا. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) ﴾: اللطيف: الذي يدرك بواطن الأشياء وخفياتها وسرائرها، الذي يسوق إلى عبده الخير، ويدفع عنه الشر بطرق لطيفة تخفى على العباد. ومن لطفه أنه يُري عبده عزته في انتقامه، وكمال اقتداره، ثم يظهر لطفه بعد أن أشرف العبد على الهلاك. ومن لطفه أنه يعلم مواقع القطر من الأرض وبذور الأرض في بواطنها[1]، فيسوق ذلك الماء إلى ذلك البذر الذي خفي على علم الخلائق، فَيَنْبُتُ منه أنواع النبات. ﴿ خَبِيرٌ (٦٣) ﴾: بسرائر الأمور وخبايا الصدور وخفايا الأمور.

(٦٤) ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ والأرض خلقًا وعبيدًا، يتصرف فيهم بملكه وحكمته وكمال اقتداره، ليس لأحد غيره من الأمر شيء. ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ﴾: بذاته، الذي له الغنى المطلق التام من جميع الوجوه. ومن غناه أنه لا يحتاج إلى أحد من خلقه ولا يواليهم من ذلة ولا يتكثر بهم من قلة. ومن غناه أنه ما اتخذ صاحبة ولا ولدًا. ومن غناه أنه صمد لا يأكل ولا يشرب ولا يحتاج إلى ما يحتاج إليه الخلق بوجه من الوجوه؛ فهو يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ. ومن غناه أن الخلق كلهم مفتقرون إليه؛ في إيجادهم وإعدادهم وإمدادهم، وفي دينهم ودنياهم. ومن غناه أنه لو اجتمع من في السماوات ومن في الأرض، الأحياء منهم والأموات، في صعيد واحد، فسأل كل منهم ما بلغت أمنيَّته، فأعطاهم فوق أمانيهم؛ ما نقص ذلك من ملكه شيء. ومن غناه أن يده سحاء بالخير والبركات الليل والنهار، لم يزل إفضاله على الأنفاس. ومن غناه وكرمه ما أودعه في دار كرامته مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ﴿ ٱلْحَمِيدُ (٦٤) ﴾؛ أي: المحمود في ذاته، وفي أسمائه؛ لكونها حسنى، وفي صفاته؛ لكونها كلها صفات كمال، وفي أفعاله؛ لكونها دائرة بين العدل والإحسان والرحمة والحكمة، وفي شرعه؛ لكونه لا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة أو راجحة، ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة خالصة أو راجحة، الذي له الحمد الذي يملأ ما في السماوات والأرض وما بينهما وما شاء بعدهما، الذي لا يحصي العباد ثناء على حمده، بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه عباده، وهو المحمود على توفيق من يوفقه وخذلان من يخذله، وهو الغني في حمده، الحميد في غناه.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا

(١) ع: «باطنها».

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ
بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ
ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ
ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾
لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ
فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾
وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ
بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾
أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ
فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ
مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى
وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ
بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن
ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾.

(٦٥) أي: ألم تشاهد ببصرك وقلبك نعمة ربك السابغة وأياديه الواسعة، و﴿أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: من حيوانات ونبات وجمادات؛ فجميع ما في الأرض مسخر لبني آدم؛ حيواناتها لركوبه وحمله وأعماله وأكله وأنواع انتفاعه، وأشجارها وثمارها يقتاتها، وقد سلط على غرسها واستغلالها، ومعادنها يستخرجها وينتفع بها. ﴿وَٱلْفُلْكَ﴾؛ أي: وسخر لكم الفلك، وهي السفن، ﴿تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾: تحملكم وتحمل تجاراتكم وتوصلكم من محل إلى محل وتستخرجون من البحر حلية تلبسونها. ومن رحمته بكم أنه يمسك ﴿ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾؛ فلولا رحمته وقدرته؛ لسقطت السماء على الأرض، فتلف ما عليها، وهلك من فيها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر: ٤١]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾: أرحم بهم من والديهم ومن أنفسهم، ولهذا يريد لهم الخير، ويريدون له الشر والضر. ومن رحمته أن سخر لهم ما سخر من هذه الأشياء.

(٦٦) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ﴾: وأوجدكم من العدم، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾: بعد أن أحياكم، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾: بعد موتكم؛ ليجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾؛ أي: جنسه إلا من عصمه الله؛ ﴿لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾: لنعم الله، كفور بالله، لا يعترف بإحسانه، بل ربما كفر بالبعث وقدرة ربه.

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾.

(٦٧) يخبر تعالى أنه جعل لكل أمة ﴿مَنسَكًا﴾؛ أي: معبدًا وعبادة، قد تختلف في بعض الأمور، مع اتفاقها على العدل والحكمة؛ كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [المائدة: ٤٨] الآية، ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾؛ أي: عاملون عليه بحسب أحوالهم؛ فلا اعتراض على شريعة من الشرائع، خصوصًا من الأميين أهل الشرك والجهل المبين؛ فإنه إذا ثبتت رسالة الرسول بأدلتها؛ وجب أن يُتَلَقَّى جميع ما جاء به بالقبول والتسليم وترك الاعتراض، ولهذا قال: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ﴾؛ أي: لا ينازعك المكذبون لك، ويعترضون على بعض ما جئتهم به بعقولهم الفاسدة؛ مثل منازعتهم في حل الميتة بقياسهم الفاسد؛ يقولون: تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله؟! وكقولهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ [البقرة: ٢٧٥] ونحو ذلك من اعتراضاتهم التي لا يلزم الجواب عن أعيانها، وهم منكرون لأصل الرسالة، وليس فيها مجادلة ومحاجة بانفرادها، بل لكل مقام مقال؛ فصاحب هذا الاعتراض المنكر لرسالة الرسول إذا زعم أنه

يجادل ليسترشد؛ يقال له: الكلام معك في إثبات الرسالة وعدمها، وإلا؛ فالاقتصار على هذه دليل أن مقصوده التعنت والتعجيز، ولهذا أمر الله رسوله أن يدعو إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ويمضي على ذلك؛ سواء اعترض المعترضون أم لا، وأنه لا ينبغي أن يثنيك عن الدعوة شيء؛ لأنك على ﴿هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾؛ أي: معتدل، موصل للمقصود، متضمن علم الحق والعمل به؛ فأنت على ثقة من أمرك ويقين من دينك، فيوجب ذلك لك الصلابة والمضي لما أمرك به ربك، ولست على أمر مشكوك فيه أو حديث مفترى، فتقف مع الناس ومع أهوائهم وآرائهم ويوقفك اعتراضهم، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ [النمل: ٧٩].

مع أن في قوله: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾: إرشادًا لأجوبة المعترضين على جزئيات الشرع بالعقل الصحيح؛ فإن الهدى وصف لكل ما جاء به الرسول، والهدى ما تحصل به الهداية في مسائل الأصول والفروع، وهي المسائل التي يعرف حسنها وعدلها وحكمتها بالعقل والفطرة السليمة، وهذا يعرف بتدبر تفاصيل المأمورات والمنهيات.

﴿٦٨﴾، ﴿٦٩﴾ ولهذا أمره الله بالعدول عن جدالهم في هذه الحالة، فقال: ﴿وَإِن جَـٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾﴾؛ أي: هو عالم بمقاصدكم ونياتكم؛ فمجازيكم عليها وهو الذي يحكم بينكم يوم القيامة ﴿فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾: فمن وافق الصراط المستقيم؛ فهو من أهل النعيم، ومن زاغ عنه؛ فهو من أهل الجحيم.

﴿٧٠﴾ ومن تمام حكمه أن يكون حكمًا بعلم؛ فلذلك ذكر إحاطة علمه وإحاطة كتابه، فقال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾: لا يخفى عليه منها خافية من ظواهر الأمور وبواطنها؛ خفيها وجليها، متقدمها ومتأخرها؛ ذلك العلم المحيط بما في السماء والأرض، قد أثبته الله ﴿فِى كِتَـٰبٍ﴾، وهو: اللوح المحفوظ، حين خلق الله القلم؛ «قال له: اكتب! قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة»[1]. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾: وإن كان تصوره عندكم لا يحاط به؛ فالله تعالى يسير عليه أن يحيط علمًا بجميع الأشياء، وأن يكتب ذلك في كتاب مطابق للواقع.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿٧١﴾ يذكر تعالى حالة المشركين به العادلين به غيره، وأن حالهم أقبح الحالات، وأنه لا مستند لهم على ما فعلوه؛ فليس لهم به علم، وإنما هو تقليد تلقوه عن آبائهم الضالين، وقد يكون الإنسان لا علم عنده بما فعله، وهو في نفس الأمر له حجة ما علمها، فأخبر هنا أن الله لم ينزل في ذلك ﴿سُلْطَـٰنًا﴾؛ أي: حجة تدل عليه وتجوزه، بل قد أنزل البراهين القاطعة على فساده وبطلانه، ثم توعد الظالمين منهم المعاندين للحق، فقال: ﴿وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾: ينصرهم من عذاب الله إذا نزل بهم، وحل.

﴿٧٢﴾ وهل هؤلاء الذين لا علم لهم بما هم عليه قَصْد في اتباع الآيات والهدى إذا جاءهم أم هم راضون بما هم عليه من الباطل، ذكر ذلك بقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا﴾: التي هي آيات الله الجليلة المستلزمة لبيان الحق من الباطل؛ لم يلتفتوا إليها، ولم يرفعوا بها رأسًا، بل ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ﴾: من بغضها وكراهتها؛ ترى وجوههم معبسة وأبشارهم مكفهرة. ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا﴾؛ أي: يكادون يوقعون بهم القتل والضرب البليغ من شدة بغضهم وبغض الحق وعداوته؛ فهذه الحالة من الكفار بئس الحالة وشرها بئس الشر، ولكن ثَمَّ ما هو شر منها: حالتهم التي يئولون إليها؛ فلهذا قال: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾: فهذه شرها طويل عريض، ومكروهها وآلامها تزداد على الدوام.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ

(١) أبو داود (٤٧٠٠)، الترمذي (٢١٥٥).

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

سُورَةُ المُؤْمِنُونَ (١١٨) (٢٣)

وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿٧٣﴾، ﴿٧٤﴾ هذا مثل ضربه الله لقبح عبادة الأوثان وبيان نقصان عقول من عبدها وضعف الجميع، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾: هذا خطاب للمؤمنين والكفار؛ المؤمنون يزدادون علمًا وبصيرة، والكافرون تقوم عليهم الحجة. ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ﴾؛ أي: ألقوا إليه أسماعكم، وافهموا ما احتوى عليه، ولا يصادف منكم قلوبًا لاهية وأسماعًا معرضة، بل ألقوا إليه القلوب والأسماع، وهو هذا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾: شمل كل ما يُدْعَى من دون الله، ﴿لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا ﴾: الذي هو من أحقر المخلوقات وأخسها؛ فليس في قدرتهم خلق هذا المخلوق الضعيف؛ فما فوقه من باب أولى، ﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ﴾: بل أبلغ من ذلك: إن ﴿يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾: وهذا غاية ما يصير من العجز. ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ ﴾: الذي هو المعبود من دون الله، ﴿وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾: الذي هو الذباب؛ فكل منهما ضعيف، وأضعف منهما من يتعلق بهذا الضعيف وينزله منزلة رب العالمين؛ فهؤلاء ما قدروا ﴿ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾، حيث سوى الفقير العاجز من جميع الوجوه بالغني القوي من جميع الوجوه، سووا من لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا بمن هو النافع الضار المعطي المانع مالك الملك والمتصرف فيه بجميع أنواع التصريف.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾؛ أي: كامل القوة، كامل العزة، من كمال قوته وعزته: أن نواصي الخلق بيديه، وأنه لا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلا بإرادته ومشيئته؛ فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ومن كمال قوته: أنه يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ومن كمال قوته: أنه يبعث الخلق كلهم، أولهم وآخرهم بصيحة واحدة، ومن كمال قوته أنه أهلك الجبابرة والأمم العاتية بشيء يسير وسوط من عذابه.

﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ ﴾.

﴿٧٥﴾، ﴿٧٦﴾ لما بين تعالى كماله وضعف الأصنام وأنه المعبود حقًّا؛ بين حالة الرسل وتميزهم عن الخلق بما تميزوا به من الفضائل، فقال: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾؛ أي: يختار ويجتبي من الملائكة رسلًا ومن الناس رسلًا؛ يكونون أزكى ذلك النوع وأجمعه لصفات المجد وأحقه بالاصطفاء؛ فالرسل لا يكونون إلا صفوة الخلق على الإطلاق، والذي اختارهم واصطفاهم ليس جاهلًا بحقائق الأشياء، أو يعلم شيئًا دون شيء، وإنما[1] المصطفي لهم السميع البصير، الذي قد أحاط علمه وسمعه وبصره بجميع الأشياء؛ فاختياره إياهم عن علم منه أنهم أهل لذلك، وأن الوحي يصلح فيهم؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ ﴾؛ أي: هو يرسل الرسل يدعون الناس إلى الله؛ فمنهم المجيب، ومنهم الراد لدعوتهم، ومنهم

(١) في الأصل، ط: «وإنَّ».

العامل، ومنهم الناكل؛ فهذه وظيفة الرسل، وأما الجزاء على تلك الأعمال؛ فمصيرها إلى الله؛ فلا تعدم منه فضلًا وعدلًا.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٧٧ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٧٨﴾.

(٧٧) يأمر تعالى عباده المؤمنين بالصلاة، وخص منها الركوع والسجود، لفضلهما وركنيتهما، وعبادته التي هي قرة العيون وسَلوة القلب المحزون، وإن ربوبيته وإحسانه على العباد يقتضي منهم أن يخلصوا له العبادة، ويأمرهم بفعل الخير عمومًا، وعلق تعالى الفلاح على هذه الأمور، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٧٧﴾؛ أي: تفوزون بالمطلوب المرغوب، وتنجون من المكروه المرهوب؛ فلا طريق للفلاح سوى الإخلاص في عبادة الخالق والسعي في نفع عبيده؛ فمن وفق لذلك؛ فله القِدْح المعلَّى من السعادة والنجاح والفلاح.

(٧٨) ﴿وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾: والجهاد بذل الوسع في حصول الغرض المطلوب؛ فالجهاد في الله حق جهاده هو القيام التام بأمر الله، ودعوة الخلق إلى سبيله بكل طريق موصل إلى ذلك؛ من نصيحة وتعليم وقتال وأدب وزجر ووعظ وغير ذلك. ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾؛ أي: اختاركم يا معشر المسلمين من بين الناس، واختار لكم الدين، ورضيه لكم، واختار لكم أفضل الكتب وأفضل الرسل؛ فقابلوا هذه المنحة العظيمة بالقيام بالجهاد فيه حق القيام. ولما كان قوله: ﴿وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾؛ ربما توهم متوهم أن هذا من باب تكليف ما لا يطاق أو تكليف ما يَشُقُّ؛ احترز منه بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾؛ أي: مشقة وعسر، بل يسره غاية التيسير، وسهله بغاية السهولة؛ فأولًا: ما أمر وألزم إلا بما هو سهل على النفوس لا يثقلها ولا يئودها، ثم إذا عرض بعض الأسباب الموجبة للتخفيف؛ خفف ما أمر به: إما بإسقاطه، أو إسقاط بعضه.

ويؤخذ من هذه الآية قاعدة شرعية، وهي أن «المشقة تجلب التيسير» و«الضرورات تبيح المحظورات»، فيدخل في ذلك من الأحكام الفرعية شيء كثير معروف في كتب الأحكام.

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾؛ أي: هذه الملة المذكورة والأوامر المزبورة ملة أبيكم إبراهيم، التي ما زال عليها؛ فالزموها واستمسكوا بها. ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: في الكتب السابقة مذكورون ومشهورون، ﴿وَفِى هَـٰذَا﴾؛ أي: هذا الكتاب وهذا الشرع؛ أي: ما زال هذا الاسم لكم قديمًا وحديثًا؛ ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾: بأعمالكم خيرها وشرها، ﴿وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: لكونكم خير أمة أخرجت للناس، أمة وسطًا عدلًا خيارًا، تشهدون للرسل أنهم بلغوا أممهم، وتشهدون على الأمم أن رسلهم بلغتهم بما أخبركم الله به في كتابه.

﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: بأركانها وشروطها وحدودها وجميع لوازمها، ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: المفروضة لمستحقيها؛ شكرًا لله على ما أولاكم. ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: امتنعوا به، وتوكلوا عليه في ذلك، ولا تتكلوا على حولكم وقوتكم. ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾: الذي يتولى أموركم، فيدبركم بحسن تدبيره، ويصرفكم على أحسن تقديره. ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٧٨﴾؛ أي: نعم المولى لمن تولاه فحصل له مطلوبه، ونعم النصير لمن استنصره فدفع عنه المكروه.

تم تفسير سورة الحج. والحمد لله رب العالمين.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١) وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧)

تفسير سورة المؤمنون

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١) ﴾.

هذا تنويه من الله بذكر عباده المؤمنين، وذكر فلاحهم وسعادتهم، وبأي شيء وصلوا إلى ذلك، وفي ضمن ذلك الحث على الاتصاف بصفاتهم والترغيب فيها؛ فليزن العبد نفسه وغيره على هذه الآيات؛ يعرف بذلك ما معه وما مع غيره من الإيمان زيادة ونقصًا، كثرة وقلة.

(١) فقوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) ﴾؛ أي: قد فازوا وسعدوا ونجحوا، وأدركوا كل ما يروم[1]، المؤمنون الذين آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين.

(٢) الذين من صفاتهم الكاملة أنهم ﴿ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) ﴾: والخشوع في الصلاة هو حضور القلب بين يدي الله تعالى، مستحضرًا لقربه، فيسكن لذلك قلبه، وتطمئن نفسه، وتسكن حركاته، ويقل التفاته، متأدبًا بين يدي ربه، مستحضرًا جميع ما يقوله ويفعله في صلاته من أول صلاته إلى آخرها، فتنتفي بذلك الوساوس والأفكار الردية، وهذا روح الصلاة والمقصود منها، وهو الذي يُكتب للعبد؛ فالصلاة التي لا خشوع فيها ولا حضور قلب، وإن كانت مجزية مثابًا عليها؛ فإن الثواب على حسب ما يعقل القلب منها.

(٣) ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ ﴾: وهو الكلام الذي لا خير فيه ولا فائدة، ﴿ مُعْرِضُونَ (٣) ﴾: رغبة عنه وتنزيهًا لأنفسهم وترفعًا عنه، وإذا مروا باللغو مروا كرامًا، وإذا كانوا معرضين عن اللغو؛ فإعراضهم عن المحرم من باب أولى وأحرى، وإذا ملك العبد لسانه وخزنه إلا في الخير؛ كان مالكًا لأمره؛ كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل حين وصاه بوصايا؛ قال: **«ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟»**. قلت: بلى يا رسول الله! فأخذ بلسان نفسه وقال: **«كف عليك هذا»**[2]. فالمؤمنون من صفاتهم الحميدة كف ألسنتهم عن اللغو والمحرمات.

(٤) ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) ﴾؛ أي: مؤدون لزكاة أموالهم على اختلاف أجناس الأموال؛ مزكين لأنفسهم من أدناس الأخلاق ومساوئ الأعمال التي تزكو النفوس بتركها وتجنبها؛ فأحسنوا في عبادة الخالق في الخشوع في الصلاة، وأحسنوا إلى خلقه بأداء الزكاة.

(٥) ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) ﴾: عن الزنا، ومن تمام حفظها تجنب ما يدعو إلى ذلك؛ كالنظر واللمس ونحوهما، فحفظوا فروجهم من كل أحد.

---

(١) ع، ط: «يرام».
(٢) الترمذي (٢٦١٦)، ابن ماجه (٢٩٧٣).

(٦) ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ ﴾: من الإماء المملوكات؛ ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) ﴾: بقربهما؛ لأن الله تعالى أحلهما.

(٧) ﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ ﴾؛ أي: غير الزوجة والسرية؛ ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ (٧) ﴾: الذين تعدوا ما أحل الله إلى ما حرمه، المتجرئون على محارم الله. وعموم هذه الآية يدل على تحريم نكاح المتعة؛ فإنها ليست زوجة حقيقة مقصودًا بقاؤها ولا مملوكة، وتحريم نكاح المحلل لذلك. ويدل قوله: ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ ﴾: أنه يشترط في حل المملوكة أن تكون كلها في ملكه؛ فلو كان له بعضها؛ لم تحل؛ لأنها ليست مما ملكت يمينه، بل هي ملك له ولغيره؛ فكما أنه لا يجوز أن يشترك في المرأة الحرة زوجان؛ فلا يجوز أن يشترك في الأمة المملوكة سيدان.

(٨) ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ (٨) ﴾؛ أي: مراعون لها، ضابطون، حافظون، حريصون على القيام بها وتنفيذها. وهذا عام في جميع الأمانات التي هي حق لله، والتي هي حق للعباد؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ [الأحزاب: ٧٢]: فجميع ما أوجبه الله على عبده أمانة على العبد حفظها بالقيام التام بها. وكذلك يدخل في ذلك أمانات الآدميين؛ كأمانات الأموال والأسرار ونحوهما؛ فعلى العبد مراعاة الأمرين وأداء الأمانتين؛ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨]، وكذلك العهد يشمل العهد الذي بينهم وبين ربهم والذي بينهم وبين العباد، وهي الالتزامات والعقود التي يعقدها العبد؛ فعليه مراعاتها والوفاء بها، ويحرم عليه التفريط فيها وإهمالها.

(٩) ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) ﴾؛ أي: يداومون عليها في أوقاتها وحدودها وأشراطها وأركانها؛ فمدحهم بالخشوع بالصلاة وبالمحافظة عليها، لأنه لا يتم أمرهم إلا بالأمرين؛ فمن يداوم على الصلاة من غير خشوع أو على الخشوع من دون محافظة عليها؛ فإنه مذموم ناقص.

(١٠) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾: الموصوفون بتلك الصفات ﴿ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ (١٠) ﴾.

(١١) ﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ ﴾: الذي هو أعلى الجنة ووسطها وأفضلها؛ لأنهم حلوا من صفات الخير أعلاها وذروتها، أو المراد بذلك جميع الجنة؛ ليدخل بذلك عموم المؤمنين على درجاتهم في مراتبهم كل بحسب حاله. ﴿ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (١١) ﴾: لا يظعنون عنها ولا يبغون عنها حولًا؛ لاشتمالها على أكمل النعيم وأفضله وأتمه من غير مكدر ولا منغص.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) ﴾.

ذكر الله في هذه الآيات أطوار الآدمي وتنقلاته من ابتداء خلقه إلى آخر ما يصير إليه:

(١٢) فذكر ابتداء خلق أبي النوع البشري آدم عليه السلام، وأنه ﴿ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ﴾؛ أي: قد سلت وأخذت من جميع الأرض، ولذلك جاء بنوه على قدر الأرض: منهم الطيب والخبيث وبين ذلك، والسهل والحزن وبين ذلك.

(١٣) ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ ﴾؛ أي: جنس الآدميين ﴿ نُطْفَةً ﴾: تخرج من بين الصلب والترائب، فتستقر ﴿ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ﴾: وهو الرحم، محفوظة من الفساد والريح وغير ذلك.

(١٤) ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ ﴾: التي قد استقرت قبل ﴿ عَلَقَةً ﴾؛ أي: دمًا أحمر بعد مضي أربعين يومًا من النطفة، ثم خلقنا ﴿ ٱلْعَلَقَةَ ﴾: بعد أربعين يومًا ﴿ مُضْغَةً ﴾؛ أي: قطعة لحم صغيرة بقدر ما يمضغ من صغرها، ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ ﴾: اللينة ﴿ عِظَٰمًا ﴾: صلبة قد تخللت اللحم بحسب حاجة البدن إليها، ﴿ فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ﴾؛ أي: جعلنا اللحم كسوة للعظام؛ كما جعلنا العظام عمادًا للحم، وذلك في الأربعين الثالثة، ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾: نفخ فيه الروح، فانتقل من كونه جمادًا إلى أن صار حيوانًا. ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ ﴾؛ أي: تعالى وتعاظم وكثر خيره، ﴿ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ (١٤) ﴾: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٩) ﴾ [السجدة: ٧-٩]؛ فخلقه كله حسن، والإنسان من أحسن مخلوقاته، بل هو أحسنها

وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ
بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ
لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن
طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي
الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ
وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ
غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا
إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ
مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا
رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي
بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا
وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن
كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ
مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾

على الإطلاق؛ كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [التين: ٤]، ولهذا كان خواصه أفضل المخلوقات وأكملها.

﴿١٥﴾ ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾: الخلق ونفخ الروح، ﴿ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ﴾: في أحد أطواركم وتنقلاتكم.

﴿١٦﴾ ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾: فتجازون بأعمالكم حسنها وسيئها؛ قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ [القيامة: ٣٦-٤٠].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

﴿١٧﴾ لما ذكر تعالى خلق الآدمي؛ ذكر مسكنه وتوفر النعم عليه من كل وجه، فقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ ﴾: سقفًا للبلاد ومصلحة للعباد، ﴿ سَبْعَ طَرَائِقَ ﴾؛ أي: سبع سماوات طباقًا، كل طبقة فوق الأخرى، قد زينت بالنجوم والشمس والقمر، وأودع فيها من مصالح الخلق ما أودع. ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾؛ فكما أن خلقنا عام لكل مخلوق؛ فعلمنا أيضًا محيط بما خلقنا؛ فلا نغفل مخلوقًا ولا ننساه، ولا نخلق خلقًا فنضيعه، ولا نغفل عن السماء فتقع على الأرض، ولا ننسى ذرة في لجج البحار وجوانب الفلوات ولا دابة إلا سقنا إليها رزقها، ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ [هود: ٦]: وكثيرًا ما يقرن تعالى بين خلقه وعلمه؛ كقوله: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك: ١٤]، ﴿ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾ [يس: ٨١]؛ لأن خلق المخلوقات من أقوى الأدلة العقلية على علم خالقها وحكمته.

﴿١٨﴾ ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾: يكون رزقًا لكم ولأنعامكم بقدر ما يكفيكم؛ فلا ينقصه بحيث[1] يتلف المساكن، ولا تعيش منه[2] النباتات والأشجار، بل أنزله وقت الحاجة لنزوله، ثم صرفه عند التضرر من دوامه، ﴿ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ﴾؛ أي: أنزلناه عليها، فسكن واستقر وأخرج بقدرة منزله جميع الأزواج النباتية، وأسكنه أيضًا معدًّا في خزائن الأرض؛ بحيث لم يذهب نازلًا حتى لا يوصل إليه ولا يبلغ قعره. ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾: إما بألَّا ننزله، أو ننزله فيذهب نازلًا لا يوصل إليه، أو لا يوجد منه المقصود منه، وهذا تنبيه منه لعباده أن يشكروه على نعمته ويقدروا عدمها؛ ماذا يحصل به من الضرر؛ كقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الملك: ٣٠].

﴿١٩﴾ ﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ ﴾؛ أي: بذلك الماء، ﴿ جَنَّاتٍ ﴾؛ أي: بساتين ﴿ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾: خص تعالى هذين النوعين، مع أنه ينشئ منه غيرهما من الأشجار؛ لفضلهما ومنافعهما التي فاقت بها الأشجار، ولهذا ذكر العام في قوله: ﴿ لَّكُمْ فِيهَا ﴾؛ أي: في تلك الجنات ﴿ فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ من تين وأترج ورمان وتفاح وغيرها.

---

(١) زاد في ع، ط: «لا يكفي الأرض والأشجار، فلا يحصل منه المقصود. ولا يزيده زيادة لا تحتمل، بحيث».

(٢) ع: «معه».

﴿٢٠﴾ ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ ﴾: وهي شجرة الزيتون؛ أي: جنسها، خصت بالذكر لأن مكانها خاص في أرض الشام، ولمنافعها التي ذكر بعضها في قوله: ﴿ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾؛ أي: فيها الزيت الذي هو دهن، يكثر[1] استعماله من الاستصباح به، واصطباغ للآكلين؛ أي: يجعل إدامًا للآكلين وغير ذلك من المنافع.

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿٢١﴾ أي: ومن نعمه عليكم أن سخر لكم الأنعام؛ الإبل والبقر والغنم، فيها عبرة للمعتبرين ومنافع للمنتفعين، ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا ﴾: من لبن يخرج من بين فرث ودم خالص سائغ للشاربين، ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ ﴾: من أصوافها وأوبارها وأشعارها، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتًا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم، ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ ﴾: أفضل المآكل من لحم وشحم.

﴿٢٢﴾ ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾؛ أي: جعلها لكم في البر، تحملون عليها أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس؛ كما جعل لكم السفن في البحر تحملكم وتحمل متاعكم قليلًا كان أو كثيرًا؛ فالذي أنعم بهذه النعم وصنف أنواع الإحسان وأدر علينا من خيره المدرار هو الذي يستحق كمال الشكر وكمال الثناء والاجتهاد في عبوديته وألَّا يستعان بنعمه على معاصيه.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ إلى آخر القصة وهي قوله: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿٢٣﴾ يذكر تعالى رسالة عبده ورسوله نوح عليه السلام أول رسول أرسله لأهل الأرض، فأرسله إلى قومه، وهم يعبدون الأصنام، فأمرهم بعبادة الله وحده، فقال: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾؛ أي: أخلصوا له العبادة؛ لأن العبادة لا تصح إلا بإخلاصها. ﴿ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾: فيه إبطال ألوهية غير الله وإثبات الإلهية لله تعالى؛ لأنه الخالق الرازق الذي له الكمال كله، وغيره بخلاف ذلك. ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾: ما أنتم عليه من عبادة الأوثان والأصنام التي صورت على صور قوم صالحين، فعبدوها مع الله؟

﴿٢٤﴾ فاستمر على ذلك يدعوهم سرًّا وجهارًا وليلًا ونهارًا ألف سنة إلا خمسين عامًا، وهم لا يزدادون إلا عتوًّا ونفورًا، ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ﴾: من قومه؛ الأشراف والسادة المتبوعون على وجه المعارضة لنبيهم نوح والتحذير من اتباعه: ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾؛ أي: ما هذا إلا بشر مثلكم، قصده حين ادعى النبوة أن يزيد عليكم فضيلة ليكون متبوعًا، وإلا؛ فما الذي يفضله عليكم وهو من جنسكم؟! وهذه المعارضة لا زالت موجودة في مكذبي الرسل، وقد أجاب الله عنها بجواب شافٍ على ألسنة رسله؛ كما في قوله: ﴿ قَالُوٓا۟ ﴾؛ أي: لرسلهم. ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [إبراهيم: ١٠، ١١]: فأخبروا أن هذا فضل الله ومنته، فليس لكم أن تحجروا على الله، وتمنعوه من إيصال فضله إلينا[2].

وقالوا أيضًا: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً ﴾: وهذه أيضًا معارضة بالمشيئة باطلة؛ فإنه وإن كان لو شاء لأنزل ملائكة؛ فإنه حكيم رحيم، حكمته ورحمته تقتضي أن يكون الرسول من جنس الآدميين؛ لأن الملك لا قدرة لهم على مخاطبته، ولا يمكن أن يكون إلا بصورة رجل، ثم يعود اللبس عليهم كما كان. وقولهم: ﴿ مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا ﴾؛ أي: بإرسال رسول ﴿ فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ وأي حجة في عدم سماعهم إرسال رسول في آبائهم الأولين؟! لأنهم لم يحيطوا علمًا بما تقدم؛ فلا يجعلون جهلهم حجة لهم! وعلى تقدير أنه لم يرسل منهم[3] رسولًا: فإما أن يكونوا على الهدى؛ فلا حاجة لإرسال الرسول إذ ذاك، وإما أن يكونوا على غيره؛ فليحمدوا ربهم ويشكروه أن خصهم بنعمة لم تأت آباءهم ولا شعروا بها، ولا يجعلوا عدم الإحسان على غيرهم سببًا لكفرهم للإحسان إليهم.

﴿٢٥﴾ ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ ﴾؛ أي: مجنون، ﴿ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ ﴾؛ أي: انتظروا به ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ ﴾: إلى أن يأتيه الموت.

---

(١) ع، ط: «يستعمل».

(٢) الأصل، ط: «علينا».

(٣) ع، ط: «فيهم».

فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا
مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ
ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا
مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟
ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا
تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ
﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ
﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا
ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ
ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ
ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾
فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾

وهذه الشبه التي أوردها معارضة لنبوة نبيهم دالة على شدة كفرهم وعنادهم وعلى أنهم في غاية الجهل والضلال؛ فإنها لا تصلح للمعارضة بوجه من الوجوه؛ كما ذكرنا، بل هي في نفسها متناقضة متعارضة؛ فقوله: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا﴾ رجل ﴿مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أثبتوا أن له عقلًا يكيدهم به ليعلوهم ويسودهم، ويحتاج مع هذا أن يُحْذَرَ منه لئلا يغتر به؛ فكيف يلتئم مع قولهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾؟! وهل هذا إلا من مشبه ضال، منقلب عليه الأمر، قصده الدفع بأي طريق اتفق له، غير عالم بما يقول. ويأبى الله إلا أن يظهر خزي من عاداه وعادى رسله.

﴿٢٦﴾ فلما رأى نوح أنه لا يفيدهم دعاؤه إلا فرارًا؛ ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾: فاستنصر ربه عليهم غضبًا لله حيث ضيعوا أمره وكذبوا رسوله[1]. وقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: ٢٧]. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الصافات: ٧٥].

﴿٢٧﴾ ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾: عند استجابتنا له سببًا ووسيلة للنجاة قبل وقوع أسبابه: ﴿أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾؛ أي: السفينة ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾؛ أي: بأمرنا لك ومعونتنا، وأنت في حفظنا وكلاءتنا؛ بحيث نراك ونسمعك. ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾: بإرسال الطوفان الذي عذبوا به، ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾؛ أي: فارت الأرض وتفجرت عيونًا حتى محل النار الذي لم تجر العادة إلا ببعده عن الماء. ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾؛ أي: أدخل في الفلك من كل جنس من الحيوانات ذكرًا وأنثى لتبقى مادة النسل لسائر الحيوانات التي اقتضت الحكمة الربانية إيجادها في الأرض. ﴿وَأَهْلَكَ﴾؛ أي: أدخلهم ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾: كابنه، ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾؛ أي: لا تدعني أن أنجيهم؛ فإن القضاء والقدر قد حتم. ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿٢٨﴾ ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾؛ أي: علوتم عليها واستقلت بكم في تيار الأمواج ولجج اليم؛ فاحمدوا الله على النجاة والسلامة. وقل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾: وهذا تعليم منه له ولمن معه أن يقولوا هذا شكرًا له وحمدًا على نجاتهم من القوم الظالمين في عملهم وعذابهم.

﴿٢٩﴾ ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾؛ أي: وبقيت عليكم نعمة أخرى؛ فادعوا الله فيها، وهي أن ييسر الله لكم منزلًا مباركًا، فاستجاب الله دعاءه؛ قال الله: ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ إلى أن قال: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود: ٤٤-٤٨] الآية.

﴿٣٠﴾ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾؛ أي: في هذه القصة ﴿لَءَايَٰتٍ﴾: تدل على أن الله وحده المعبود، وعلى أن رسوله نوحًا صادق، وأن قومه كاذبون، وعلى رحمة الله بعباده؛ حيث حملهم في صلب أبيهم نوح في الفلك لما غرق أهل الأرض، والفلك أيضًا من آيات الله؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾ [القمر: ١٥]. ولهذا جمعها هنا؛ لأنها تدل على عدة آيات ومطالب. ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

---

(١) الأصل، ط: «رسله».

مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا وَمَا نَحۡنُ لَهُۥ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿٣١﴾ لما ذكر نوحًا وقومه وكيف أهلكهم؛ قال: ﴿ ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ ﴾: الظاهر أنهم ثمود قوم صالح عليه السلام؛ لأن هذه القصة تشبه قصتهم.

﴿٣٢﴾ ﴿ فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ ﴾: من جنسهم يعرفون نسبه وحسبه وصدقه؛ ليكون ذلك أسرع لانقيادهم إذا كان منهم وأبعد عن اشمئزازهم، فدعا إلى ما دعت إليه الرسل أممهم: ﴿ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾: فكلهم اتفقوا على هذه الدعوة، وهي أول دعوة يدعون بها أممهم؛ الأمر بعبادة الله، والإخبار أنه المستحق لذلك، والنهي عن عبادة ما سواه، والإخبار ببطلان ذلك وفساده، ولهذا قال: ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾: ربكم فتجتنبوا هذه الأوثان والأصنام.

﴿٣٣﴾ فقال ﴿ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾؛ أي: قال الرؤساء الذين جمعوا بين الكفر والمعاندة، وأطغاهم ترفهم في الحياة الدنيا؛ معارضة لنبيهم وتكذيبًا وتحذيرًا منه. ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ ﴾؛ أي: من جنسكم، ﴿ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾: فما الذي يفضله عليكم؟! فهلا كان ملكًا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب!

﴿٣٤﴾ ﴿ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾؛ أي: إن تبعتموه وجعلتموه لكم رئيسًا وهو مثلكم؛ إنكم لمسلوبو العقل نادمون على ما فعلتم! وهذا من العجب؛ فإن الخسار والندامة حقيقة لمن لم يتابعه ولم ينقد له، والجهل والسفه العظيم لمن تكبر عن الانقياد لبشر خصه الله بوحيه، وفضله برسالته، وابتلي بعبادة الشجر والحجر، وهذا نظير قولهم: ﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ﴿٢٥﴾ ﴾ [القمر: ٢٤، ٢٥].

﴿٣٥﴾، ﴿٣٦﴾ فلما أنكروا رسالته وردوها؛ أنكروا ما جاء به من البعث بعد الموت والمجازاة على الأعمال، فقالوا: ﴿ أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾؛ أي: بعيد بعيد ما يعدكم به من البعث بعد أن تمزقتم وكنتم ترابًا وعظامًا. فنظروا نظرًا قاصرًا، ورأوا هذا بالنسبة إلى قدرهم غير ممكن، فقاسوا قدرة الخالق بقدرهم، تعالى الله، فأنكروا قدرته على إحياء الموتى، وعجزوه غاية التعجيز، ونسوا خلقهم أول مرة، وأن الذي أنشأهم من العدم؛ فإعادته لهم بعد البلاء أهون عليه، وكلاهما هين لديه؛ فلم لا ينكرون أول خلقهم ويكابرون المحسوسات ويقولون: إننا لم نزل موجودين، حتى يسلم لهم إنكارهم البعث ويُنتقل معهم إلى الاحتجاج على إثبات وجود الخالق العظيم؟! وهنا دليل آخر، وهو أن الذي أحيا الأرض بعد موتها؛ إن ذلك لمحيي الموتى؛ إنه على كل شيء قدير. وثم دليل آخر، وهو ما أجاب به المنكرين للبعث في قوله: ﴿ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ﴿٣﴾ ﴾. فقال في جوابهم: ﴿ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡ ﴾؛ أي: في البلى ﴿ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ﴿٤﴾ ﴾ [ق: ٤].

﴿٣٧﴾ ﴿ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا ﴾؛ أي: يموت أناس ويحيا أناس، ﴿ وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿٣٨﴾ ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ ﴾[1]: فلهذا أتى بما أتى به من توحيد الله وإثبات المعاد! ﴿ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٢٥﴾ ﴾؛ أي: ارفعوا عنه العقوبة بالقتل وغيره احترامًا له، ولأنه مجنون غير مؤاخذ بما يتكلم به؛ أي: فلم يبق بزعمهم الباطل مجادلة معه لصحة ما جاء به؛ فإنهم قد زعموا[2] بطلانه، وإنما بقي الكلام هل يوقِعون به أم لا؛ فبزعمهم أن عقولهم الرزينة اقتضت الإبقاء عليه وترك الإيقاع به مع قيام الموجب!! فهل فوق هذا العناد والكفر غاية؟!

﴿٣٩﴾ ولهذا لما اشتد كفرهم ولم ينفع فيهم الإنذار؛ دعا عليهم نبيهم، فقال: ﴿ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ ﴾؛ أي: بإهلاكهم وخزيهم الدنيوي قبل الآخرة.

---

(١) سها المؤلف - رحمه الله - وقام بتفسير الآية (٢٥) من نفس السورة.
(٢) ع، ط: «عرفوا».

مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا
كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ
أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (٤٤) ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ
هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٤٥) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ
فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا
وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ
(٤٨) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩) وَجَعَلْنَا
ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ
(٥٠) يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا
تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ
فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ
فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا
نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ
(٥٦) إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ
بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩)

(٤٠)، (٤١) ﴿قَالَ﴾ الله مجيبًا لدعوته: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾: لا بالظلم والجور، بل بالعدل وبظلمهم أخذتهم الصيحة فأهلكتهم عن آخرهم. ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾؛ أي: هشيمًا يبسًا بمنزلة غثاء السيل الملقى في جنبات الوادي، وقال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١)﴾ [القمر: ٣١]. ﴿فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١)﴾؛ أي: أتبعوا مع عذابهم البعد واللعنة والذم من العالمين؛ ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (٢٩)﴾ [الدخان: ٢٩].

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (٤٤)﴾.

(٤٢)، (٤٣) أي: ثم أنشأنا من بعد هؤلاء المكذبين المعاندين ﴿قُرُونًا آخَرِينَ (٤٢)﴾: كل أمة في وقت مسمى وأجل محدود، لا تتقدم عنه ولا تتأخر، وأرسلنا إليهم رسلًا متتابعة لعلهم يؤمنون وينيبون، فلم يزل الكفر والتكذيب دأب الأمم العصاة والكفرة البغاة، ﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾: مع أن كل رسول يأتي من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، بل مجرد دعوة الرسل وشرعهم يدل على حقية ما جاءوا به.

(٤٤) ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا﴾: بالهلاك، فلم يبق منهم باقية، وتعطلت مساكنهم من بعدهم، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾: يتحدث بهم من بعدهم، ويكونون عبرة للمتقين ونكالًا للمكذبين وخزيًا عليهم مقرونًا بعذابهم. ﴿فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (٤٤)﴾: ما أشقاهم! وتعسًا لهم! ما أخسر صفقتهم!

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٤٥) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩)﴾.

مر عليَّ منذ زمان طويل كلام لبعض العلماء، لا يحضرني الآن اسمه، وهو أنه بعد موسى ونزول التوراة، رفع الله العذاب عن الأمم؛ أي: عذاب الاستئصال، وشرع للمكذبين المعاندين بالجهاد، ولم أدر من أين أخذه، فلما تدبرت هذه الآيات مع الآيات التي في سورة القصص؛ تبين لي وجهه: أما هذه الآيات؛ فلأن الله ذكر الأمم المهلكة المتتابعة على الهلاك، ثم أخبر أنه أرسل موسى بعدهم وأنزل عليه التوراة فيها الهداية للناس، ولا يرد على هذا إهلاك فرعون؛ فإنه قبل نزول التوراة.

وأما الآيات التي في سورة القصص؛ فهي صريحة جدًّا؛ فإنه لما ذكر هلاك فرعون؛ قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣)﴾ [القصص: ٤٣]: فهذا صريح أنه آتاه الكتاب بعد هلاك الأمم الباغية، وأخبر أنه أنزله بصائر للناس وهدًى ورحمة.

ولعل من هذا ما ذكر الله في سورة يونس من قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾؛ أي: من بعد نوح، ﴿رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ الآيتان [يونس: ٧٤، ٧٥]. والله أعلم.

(٤٥) فقوله: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ ﴾: ابن عمران كليم الرحمن، ﴿وَأَخَاهُ هَٰرُونَ ﴾: حين سأل ربه أن يشركه في أمره فأجاب سؤله، ﴿بِـَٔايَٰتِنَا ﴾: الدالة على صدقهما وصحة ما جاءا به، ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٤٥) ﴾؛ أي: حجة بينة من قوتها أن تقهر القلوب وتتسلط عليها لقوتها فتنقاد لها قلوب المؤمنين وتقوم الحجة البينة على المعاندين. وهذا كقوله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾: ولهذا رئيس المعاندين عرف الحق وعاند. ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ ﴾؛ أي: بتلك الآيات البينات، ﴿فَقَالَ ﴾ له فرعون: ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١) ﴾. فـ﴿ قَالَ ﴾ موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢) ﴾ [الإسراء: ١٠١، ١٠٢]. وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤].

(٤٦) وقال هنا: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٤٥) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ ﴾: كهامان وغيره من رؤسائهم، ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾؛ أي: تكبروا عن الإيمان بالله واستكبروا على أنبيائه، ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) ﴾؛ أي: وصفهم العلو والقهر والفساد في الأرض، فلهذا صدر منهم الاستكبار، ذلك غير مستكثر منهم.

(٤٧) ﴿فَقَالُوٓا۟ ﴾ كبرًا وتيهًا وتحذيرًا لضعفاء العقول وتمويهًا: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾: كما قاله من قبلهم سواء بسواء؛ تشابهت قلوبهم في الكفر، فتشابهت أقوالهم وأفعالهم، وجحدوا منة الله عليهما بالرسالة. ﴿وَقَوْمُهُمَا ﴾؛ أي: بنو إسرائيل. ﴿لَنَا عَٰبِدُونَ (٤٧) ﴾؛ أي: معبدون بالأعمال والأشغال الشاقة؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩) ﴾ [البقرة: ٤٩]: فكيف نكون تابعين بعد أن كنا متبوعين؟! وكيف يكون هؤلاء رؤساء علينا؟! ونظير قولهم قول قوم نوح: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ (١١١) ﴾ [الشعراء: ١١١]، ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾ [هود: ٢٧].

(٤٨) من المعلوم أن هذا لا يصلح لدفع الحق، وأنه تكذيب ومعاندة، ولهذا قال: ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ (٤٨) ﴾: في الغرق في البحر وبنو إسرائيل ينظرون.

(٤٩) ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ﴾: بعدما أهلك الله فرعون وخلص الشعب الإسرائيلي مع موسى وتمكن حينئذ من إقامة أمر الله فيهم وإظهار شعائره؛ وعده الله أن ينزل عليه التوراة أربعين ليلة، فذهب لميقات ربه؛ قال الله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٤٥]. ولهذا قال هنا: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩) ﴾؛ أي: بمعرفة تفاصيل الأمر والنهي والثواب والعقاب ويعرفون ربهم بأسمائه وصفاته.

﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠) ﴾.

(٥٠) أي: وامتننا على عيسى ابن مريم وجعلناه وأمه من آيات الله العجيبة؛ حيث حملته وولدته من غير أب، وتكلم في المهد صبيًّا، وأجرى الله على يديه من الآيات ما أجرى. ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ﴾؛ أي: مكان مرتفع، وهذا -والله أعلم- وقت وضعها، ﴿ذَاتِ قَرَارٍ ﴾؛ أي: مستقر وراحة، ﴿وَمَعِينٍ (٥٠) ﴾؛ أي: ماء جارٍ؛ بدليل قوله: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ ﴾؛ أي: تحت المكان الذي أنت فيه لارتفاعه ﴿سَرِيًّا (٢٤) ﴾؛ أي: نهرًا، وهو المعين. ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ﴾ [مريم: ٢٤-٢٦].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ (٥٦) ﴾.

(٥١) هذا أمر منه تعالى لرسله بأكل الطيبات التي هي: الرزق والطيب الحلال، والشكر لله بالعمل الصالح الذي به يصلح القلب والبدن والدنيا والآخرة، ويخبرهم أنه بما يعملون عليم؛ فكل عمل عملوه وكل سعي اكتسبوه؛ فإن الله يعلمه، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء وأفضله، فدل هذا على أن الرسل كلهم متفقون على إباحة الطيبات من المآكل وتحريم الخبائث منها، وأنهم متفقون على كل عمل صالح، وإن تنوعت بعض أجناس المأمورات واختلفت بها الشرائع؛ فإنها كلها عمل صالح، ولكن تتفاوت بتفاوت

الأزمنة. ولهذا؛ الأعمال الصالحة التي هي صلاح في جميع الأزمنة قد اتفقت عليها الأنبياء والشرائع؛ كالأمر بتوحيد الله وإخلاص الدين لـه ومحبته وخوفه ورجائه والبر والصدق والوفـاء بالعهد وصلة الأرحام وبر الوالدين والإحسان إلى الضعفاء والمساكين واليتامى والحنو والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك من الأعمال الصالحة، ولهذا كان أهل العلم والكتب السابقة والعقل حين بعث الله محمدًا ﷺ يستدلون على نبوته بأجناس ما يأمر به وينهى عنه؛ كما جرى لهرقل وغيره؛ فإنه إذا أمر بما أمر به الأنبياء الذين من قبله ونهى عما نهوا عنه؛ دل على أنه من جنسهم؛ بخلاف الكذاب؛ فلا بد أن يأمر بالشر وينهى عن الخير.

(٥٢) ولهذا قال تعالى للرسل: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً ﴾؛ أي: جماعتكم -يا معشر الرسل- جماعة ﴿ وَٰحِدَةً ﴾: متفقة على دين واحد وربكم واحد. ﴿ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢ ﴾: بامتثال أوامري واجتناب زواجري. وقد أمر الله المؤمنين بما أمر به المرسلين؛ لأنهم بهم يقتدون وخلفهم يسلكون، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝١٧٢ ﴾ [البقرة: ١٧٢]: فالواجب على كل المنتسبين إلى الأنبياء وغيرهم أن يمتثلوا هذا ويعملوا به.

(٥٣) ولكن أبى الظالمون الجاحدون[1] إلا عصيانًا، ولهذا قال: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ﴾؛ أي: تقطع المنتسبون إلى أتباع الأنبياء ﴿ أَمْرَهُم ﴾؛ أي: دينهم ﴿ بَيْنَهُمْ زُبُرًا ﴾؛ أي: قطعًا. ﴿ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾؛ أي: بما عندهم من العلم والدين ﴿ فَرِحُونَ ۝٥٣ ﴾: يزعمون أنهم المحقون، وغيرهم على غير الحق، مع أن المحق منهم من كان على طريق الرسل من أكل الطيبات والعمل الصالح، وما عداهم فإنهم مبطلون.

(٥٤) ﴿ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ ﴾؛ أي: في وسط جهلهم بالحق ودعواهم أنهم هم المحقون ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٤ ﴾؛ أي: إلى أن ينزل العذاب بهم؛ فإنهم لا ينفع فيهم وعظ، ولا يفيدهم زجر؛ فكيف يفيد بمن يزعم أنه على الحق ويطمع في دعوة غيره إلى ما هو عليه؟

(٥٥)، (٥٦) ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾؛ أي: أيظنون أن زيادتنا إياهم بالأموال والأولاد دليل على أنهم من أهل الخير والسعادة، وأن لهم خير الدنيا والآخرة، وهذا مقدم لهم؟! ليس الأمر كذلك؛ ﴿ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦ ﴾: أنما نملي لهم ونمهلهم ونمدهم بالنعم ليزدادوا إثمًا وليتوفر عقابهم في الآخرة، وليغتبطوا بما أوتوا، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً ﴾ [الأنعام: ٤٤].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٦٢ ﴾.

لما ذكر تعالى الذين جمعوا بين الإساءة والأمن، الذين يزعمون أن عطاء الله إياهم في الدنيا دليل على خيرهم وفضلهم؛ ذكر الذين جمعوا بين الإحسان والخوف، فقال:

(٥٧) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ ﴾؛ أي: وجلون، مشفقة قلوبهم، كل ذلك من خشية ربهم؛ خوفًا أن يضع عليهم عدله؛ فلا يبقي لهم حسنة، وسوء ظن بأنفسهم ألَّا يكونوا قد قاموا بحق الله تعالى، وخوفًا على إيمانهم من الزوال، ومعرفة منهم بربهم وما يستحقه من الإجلال والإكرام. وخوفهم وإشفاقهم يوجب لهم الكف عما يوجب الأمر المخوف من الذنوب والتقصير في الواجبات.

(٥٨) ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ ﴾؛ أي: إذا تليت عليهم آياته؛ زادتهم إيمانًا، ويتفكرون أيضًا في الآيات القرآنية، ويتدبرونها، فيبين لهم من معاني القرآن وجلالته واتفاقه وعدم اختلافه وتناقضه وما يدعو إليه من معرفة الله وخوفه ورجائه وأحوال الجزاء، فيحدث لهم بذلك من تفاصيل الإيمان ما لا يعبر عنه اللسان، ويتفكرون أيضًا في الآيات الأفقية؛ كما في قوله: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ﴾ إلى آخر الآيات [آل عمران: ١٩٠].

(٥٩) ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ ﴾؛ أي: لا شركًا جليًّا؛ كاتخاذ غير الله معبودًا يدعوه ويرجوه، ولا شركًا خفيًّا؛ كالرياء ونحوه، بل هم مخلصون لله في أقوالهم وأعمالهم وسائر أحوالهم.

(١) ع، ط: «المفترقون».

وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠)
أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١) وَلَا نُكَلِّفُ
نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٢)
بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا
عَامِلُونَ (٦٣) حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ
(٦٤) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي
تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ
بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧) أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ
آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ
(٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ
كَارِهُونَ (٧٠) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ
وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن
ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ (٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ
وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٣)
وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (٧٤)

(٦٠) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا﴾؛ أي: يعطون من أنفسهم مما أمروا به ما آتوا من كل ما يقدرون عليه من صلاة وزكاة وحج وصدقة وغير ذلك، ومع هذا ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾؛ أي: خائفة ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠)﴾؛ أي: خائفة عند عرض أعمالها عليه والوقوف بين يديه أن تكون أعمالهم غير منجية من عذاب الله؛ لعلمهم بربهم، وما يستحقه من أصناف العبادات.

(٦١) ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾؛ أي: في ميدان التسارع في أفعال الخير؛ همهم ما يقربهم إلى الله، وإرادتهم مصروفة فيما ينجي من عذابه؛ فكل خير سمعوا به أو سنحت لهم الفرصة؛ انتهزوه وبادروه؛ قد نظروا إلى أولياء الله وأصفيائه أمامهم، ويمنة، ويسرة؛ يسارعون في كل خير، وينافسون في الزلفى عند ربهم؛ فنافسوهم، ولما كان المسابق لغيره المسارع؛ قد يسبق لجده وتشميره، وقد لا يسبق لتقصيره؛ أخبر تعالى أن هؤلاء من القسم السابقين، فقال: ﴿وَهُمْ لَهَا﴾؛ أي: للخيرات، ﴿سَابِقُونَ (٦١)﴾: قد بلغوا ذروتها، وتباروا هم والرعيل الأول، ومع هذا قد سبقت لهم من الله سابقة السعادة أنهم سابقون.

(٦٢) ولما ذكر مسارعتهم إلى الخيرات وسبقهم إليها؛ ربما وهم واهم أن المطلوب منهم ومن غيرهم أمر غير مقدور أو متعسر؛ أخبر تعالى أنه لا يكلف ﴿نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾؛ أي: بقدر ما تسعه ويفضل من قوتها عنه، ليس مما يستوعب قوتها؛ رحمة منه وحكمة؛ لتيسير طريق الوصول إليه، ولتعمر جادة السالكين في كل وقت إليه. ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ﴾: وهو الكتاب الأول الذي فيه كل شيء، وهو يطابق كل واقع يكون؛ فلذلك كان حقًّا. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٢)﴾: ينقص من إحسانهم، أو يزداد في عقوبتهم وعصيانهم.

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣) حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧)﴾.

(٦٣) يخبر تعالى أن قلوب المكذبين في غمرة من هذا؛ أي: وسط غمرة من الجهل والظلم والغفلة والإعراض تمنعهم من الوصول إلى هذا القرآن؛ فلا يهتدون به، ولا يصل إلى قلوبهم منه شيء، ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٦]؛ فلما كانت قلوبهم في غمرة منه؛ عملوا بحسب هذا الحال من الأعمال الكفرية والمعاندة للشرع ما هو موجب لعقابهم، ولكن لهم ﴿أَعْمَالٌ مِّن دُونِ﴾: هذه الأعمال ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣)﴾؛ أي: فلا يستغربوا عدم وقوع العذاب فيهم؛ فإن الله يمهلهم ليعملوا هذه الأعمال التي بقيت عليهم مما كتب عليهم؛ فإذا عملوها، واستوفوها؛ انتقلوا بشر حالة إلى غضب الله وعقابه.

(٦٤)، (٦٥) ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾؛ أي: متنعميهم الذين ما اعتادوا إلا الترف والرفاهية والنعيم، ولم تحصل لهم المكاره؛ فإذا أخذناهم ﴿بِالْعَذَابِ﴾، ووجدوا مسه؛ ﴿إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤)﴾: يصرخون ويتوجعون؛ لأنه أصابهم أمر خالف ما هم عليه، ويستغيثون، فيقال لهم: ﴿لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ (٦٥)﴾: وإذا لم تأتهم النصرة من الله، وانقطع عنهم الغوث من جانبه؛ لم يستطيعوا نصر أنفسهم، ولم ينصرهم أحد.

﴿٦٦﴾ فكأنه قيل: ما السبب الذي أوصلهم إلى هذه الحال؟ قال: ﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾: لتؤمنوا بها وتقبلوا عليها، فلم تفعلوا ذلك، بل ﴿ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾؛ أي: راجعين القهقرى إلى الخلف، وذلك لأن باتباعهم القرآن يتقدمون، وبالإعراض عنه يستأخرون، وينزلون إلى أسفل سافلين.

﴿٦٧﴾ ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾: قال المفسرون: معناه: مستكبرين به: الضمير يعود إلى البيت المعهود عند المخاطبين أو الحرم؛ أي: متكبرين على الناس بسببه، تقولون: نحن أهل الحرم؛ فنحن أفضل من غيرنا وأعلى. ﴿ سَٰمِرًا ﴾؛ أي: جماعة يتحدثون بالليل حول البيت. ﴿ تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾؛ أي: تقولون الكلام الهجر الذي هو القبيح في هذا القرآن؛ فالمكذبون كانت طريقتهم في القرآن الإعراض عنه، ويوصي بعضهم بعضًا بذلك، ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ﴾ القول ﴿ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت: ٢٦]، وقال الله عنهم: ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [النجم: ٥٩-٦١]، ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ﴾ [الطور: ٣٣] فلما كانوا جامعين لهذه الرذائل؛ لا جرم حقت عليهم العقوبة، ولما وقعوا فيها؛ لم يكن لهم ناصر ينصرهم ولا مغيث ينقذهم، ويوبخون عند ذلك بهذه الأعمال الساقطة.

﴿٦٨﴾ ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ﴾؛ أي: أفلا يتفكرون في القرآن ويتأملونه ويتدبرونه؛ أي: فإنهم لو تدبروه؛ لأوجب لهم الإيمان، ولمنعهم من الكفر، ولكن المصيبة التي أصابتهم بسبب إعراضهم عنه. ودل هذا على أن تدبر القرآن يدعو إلى كل خير ويعصم من كل شر، والذي منعهم من تدبره أن على قلوبهم أقفالها. ﴿ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾؛ أي: أو منعهم من الإيمان أنه جاءهم رسول وكتاب ما جاء آباءهم الأولين، فرضوا بسلوك طريق آبائهم الضالين، وعارضوا كل ما خالف ذلك! ولهذا قالوا هم ومن أشبههم من الكفار ما أخبر الله عنهم: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾. فأجابهم بقوله: ﴿ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ﴾ فهل تتبعون؟ إن كان قصدكم الحق. فأجابوا بحقيقة أمرهم: ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الزخرف: ٢٣، ٢٤].

﴿٦٩﴾ وقوله: ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾؛ أي: أومنعهم من اتباع الحق أن رسولهم محمدًا ﷺ غير معروف عندهم فهم منكرون له يقولون: لا نعرفه ولا نعرف صدقه، دعونا[1] ننظر حاله ونسأل عنه من له به خبرة؟ أي: لم يكن الأمر كذلك؛ فإنهم يعرفون الرسول ﷺ معرفة تامة، صغيرهم وكبيرهم، يعرفون منه كل خلق جميل، ويعرفون صدقه وأمانته، حتى كانوا يسمونه قبل البعثة: الأمين؛ فلم لا يصدقونه حين جاءهم بالحق العظيم والصدق المبين؟!

﴿٧٠﴾ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ﴾؛ أي: جنون؛ فلهذا قال ما قال! والمجنون غير مسموع منه، ولا عبرة بكلامه؛ لأنه يهذي بالباطل والكلام السخيف! قال الله في الرد عليهم في هذه المقالة: ﴿ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾؛ أي: بالأمر الثابت الذي هو صدق وعدل لا اختلاف فيه ولا تناقض؛ فكيف يكون من جاء به، به جنة؟! وهلّا[2] يكون إلا في أعلى درج الكمال من العلم والعقل ومكارم الأخلاق! وأيضًا؛ فإن في هذا الانتقال مما تقدم؛ أي: بل الحقيقة التي منعتهم من الإيمان أنه ﴿ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾، وأعظم الحق الذي جاءهم به: إخلاص العبادة لله وحده، وترك ما يعبد من دون الله، وقد علم كراهتهم لهذا الأمر وتعجبهم منه؛ فكون الرسول أتى بالحق، وكونهم كارهين للحق بالأصل، هو الذي أوجب لهم التكذيب بالحق؛ لا شكًّا ولا تكذيبًا للرسول؛ كما قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٣].

﴿٧١﴾ فإن قيل: لِمَ لَمْ يكن الحق موافقًا لأهوائهم؛ لأجل أن يؤمنوا أو يسرعوا الانقياد؟ أجاب تعالى بقوله: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾: ووجه ذلك أن أهواءهم متعلقة بالظلم والكفر والفساد من الأخلاق والأعمال؛ فلو اتبع الحق أهواءهم؛ لفسدت السماوات والأرض؛ لفساد التصرف والتدبير المبني على الظلم وعدم العدل؛ فالسماوات والأرض ما استقامتا إلا بالحق والعدل. ﴿ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ ﴾؛ أي: بهذا القرآن المذكر لهم بكل خير، الذي به فخرهم وشرفهم حين يقومون به ويكونون به سادة الناس. ﴿ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ ﴾: شقاوة منهم وعدم توفيق؛ ﴿ نَسُوا۟

(١) ع، ط: «دعونا حتى».
(٢) ط: «وهل».

﴿ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩]؛ فالقرآن ومن جاء به أعظم نعمة ساقها الله إليهم، فلم يقابلوها إلا بالرد والإعراض؛ فهل بعد هذا الحرمان حرمان؟! وهل يكون وراءه إلا نهاية الخسران؟!

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿٧٢﴾ أي: أو منعهم من اتباعك يا محمد أنك تسألهم على الإجابة أجرًا؛ ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الطور: ٤٠]: يتكلفون من اتباعك بسبب ما تأخذ منهم من الأجر والخراج، ليس الأمر كذلك. ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾: وهذا كما قال الأنبياء لأممهم: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾ [هود: ٥١]؛ أي: ليسوا يدعون الخلق طمعًا فيما يصيبهم منهم من الأموال، وإنما يدعونهم نصحًا لهم وتحصيلًا لمصالحهم، بل كان الرسل أنصح للخلق من أنفسهم، فجزاهم الله عن أممهم خير الجزاء، ورزقنا الاقتداء بهم في جميع الأحوال.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿٧٣﴾، ﴿٧٤﴾ ذكر الله تعالى في هذه الآيات الكريمات كل سبب موجب للإيمان، وذكر الموانع، وبين فسادها واحدًا بعد واحد، فذكر من الموانع: أن قلوبهم في غمرة، وأنهم لم يدبروا القول، وأنهم اقتدوا بآبائهم، وأنهم قالوا: برسولهم جنة؛ كما تقدم الكلام عليها.

وذكر من الأمور الموجبة لإيمانهم: تدبر القرآن، وتلقي نعمة الله بالقبول، ومعرفة حال الرسول محمد ﷺ وكمال صدقه وأمانته، وأنه لا يسألهم عليه أجرًا، وإنما سعيه لنفعهم ومصلحتهم، وأن الذي يدعوهم إليه صراط مستقيم، سهل على العاملين لاستقامته، موصل إلى المقصود من قرب، حنيفية سمحة؛ حنيفية في التوحيد، سمحة في العمل؛ فدعوتك إياهم إلى الصراط المستقيم موجب لمن يريد الحق أن يتبعك؛ لأنه مما تشهد العقول والفطر بحسنه وموافقته للمصالح؛ فأين يذهبون إن لم يتابعوك؟ فإنهم ليس عندهم ما يغنيهم ويكفيهم عن متابعتك؛ لأنهم ﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾، متجنبون، منحرفون عن الطريق الموصل إلى الله وإلى دار كرامته، ليس في أيديهم إلا ضلالات وجهالات، وهكذا كل من خالف الحق؛ لا بد أن يكون

۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾

منحرفًا في جميع أموره؛ قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿٧٥﴾ هذا بيان لشدة تمردهم وعنادهم، وأنهم إذا أصابهم الضر؛ دعوا الله أن يكشف عنهم ليؤمنوا، أو ابتلاهم بذلك ليرجعوا إليه؛ أن الله إذا كشف الضر عنهم؛ ﴿لَّلَجُّواْ﴾؛ أي: استمروا ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾؛ أي: يجولون في كفرهم حائرين مترددين؛ كما ذكر الله حالهم عند ركوب الفلك، وأنهم يدعونه مخلصين له الدين، وينسون ما يشركون به، فلما أنجاهم؛ إذا هم يبغون في الأرض بالشرك وغيره.

(٧٦) ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ ﴾: قال المفسرون: المراد بذلك الجوع الذي أصابهم سبع سنين، وأن الله ابتلاهم بذلك ليرجعوا إليه بالذل والاستسلام، فلم ينجع فيهم، ولا نجح منهم أحد. ﴿ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ ﴾؛ أي: خضعوا وذلوا، ﴿ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) ﴾: إليه ويفتقرون، بل مر عليهم ذلك ثم زال كأنه لم يصبهم، لم يزالوا في غيهم وكفرهم.

(٧٧) ولكن وراءهم العذاب الذي لا يرد، وهو قوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾: كالقتل يوم بدر وغيره؛ ﴿ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧) ﴾: آيسون من كل خير، قد حضرهم الشر وأسبابه؛ فليحذروا قبل نزول عذاب الله الشديد، الذي لا يرد؛ بخلاف مجرد العذاب؛ فإنه ربما أقلع عنهم؛ كالعقوبات الدنيوية التي يؤدب الله بها عباده؛ قال تعالى فيها: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) ﴾ [الروم: ٤١].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠) ﴾.

(٧٨) يخبر تعالى بمننه على عباده الداعية لهم إلى شكره والقيام بحقه، فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ ﴾: لتدركوا به المسموعات فتنتفعوا في دينكم ودنياكم، ﴿ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾: لتدركوا بها المبصرات فتنتفعوا بها في مصالحكم، ﴿ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾؛ أي: العقول التي تدركون بها الأشياء وتتميزون بها عن البهائم؛ فلو عدمتم السمع والأبصار والعقول بأن كنتم صمًّا عميًا بكمًا؛ ماذا تكون حالكم؟ وماذا تفقدون من ضرورياتكم وكمالكم؟ أفلا تشكرون الذي منَّ عليكم بهذه النعم؛ فتقومون بتوحيده وطاعته؟ ولكنكم قليلٌ شكركم مع توالي النعم عليكم.

(٧٩) ﴿ وَهُوَ ﴾: تعالى ﴿ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي: بثكم في أقطارها وجهاتها، وسلطكم على استخراج مصالحها ومنافعها، وجعلها كافية لمعايشكم ومساكنكم. ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) ﴾: بعد موتكم فيجازيكم بما عملتم في الأرض من خير وشر، وتحدث الأرض التي كنتم فيها بأخبارها.

(٨٠) ﴿ وَهُوَ ﴾: تعالى وحده ﴿ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾؛ أي: المتصرف في الحياة والموت هو الله وحده. ﴿ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾؛ أي: تعاقبهما وتناوبهما؛ فلو شاء أن يجعل النهار سرمدًا، ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ ولو شاء أن يجعل الليل سرمدًا ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) ﴾ ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾ [القصص: ٧١-٧٣]. ولهذا قال هنا: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠) ﴾؛ فتعرفون أن الذي وهب لكم من النعم السمع والأبصار والأفئدة، والذي نشركم في الأرض وحده، والذي يحيي ويميت وحده، والذي يتصرف بالليل والنهار وحده؛ إن ذلك موجب لكم أن تخلصوا له العبادة وحده لا شريك له، وتتركوا عبادة من لا ينفع ولا يضر ولا يتصرف بشيء، بل هو عاجز من كل وجه؛ فلو كان لكم عقل؛ لم تفعلوا ذلك.

﴿ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (٨٣) ﴾.

(٨١)-(٨٣) أي: بل سلك هؤلاء المكذبون مسلك الأولين من المكذبين بالبعث، واستبعدوه غاية الاستبعاد، وقالوا: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) ﴾؛ أي: هذا لا يتصور ولا يدخل العقل بزعمهم. ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ ﴾؛ أي: ما زلنا نوعد بأن البعث كائن نحن وآباؤنا، ولم نره، ولم يأت بعد. ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (٨٣) ﴾؛ أي: قصصهم وأسمارهم التي يتحدث بها وتلهي، وإلا؛ فليس لها حقيقة، وكذبوا قبحهم الله؛ فإن الله أراهم من آياته أكبر من البعث، ومثله: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧]، ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ (٧٨) ﴾ الآيات [يس: ٧٨]، ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ الآيات [الحج: ٥].

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ

أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

﴿٨٤﴾، ﴿٨٥﴾ أي: قل لهؤلاء المكذبين بالبعث، العادلين بالله غيره؛ محتجًّا عليهم بما أثبتوه وأقروا بـه من توحيد الربوبية وانفراد الله بها على ما أنكروه من توحيد الإلهية والعبادة، وبما أثبتوه من خلق المخلوقات العظيمة على ما أنكروه من إعادة الموتى الذي هو أسهل من ذلك: ﴿ لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ ﴾؛ أي: من هو الخالق للأرض ومن عليها من حيوان ونبات وجماد وبحار وأنهار وجبال، المالك لذلك، المدبر له؛ فإنك إذا سألتهم عن ذلك؛ لا بد أن يقولوا: الله وحده. فقل لهم إذا أقروا بذلك: ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾؛ أي: أفلا ترجعون إلى ما ذكركم الله به مما هو معلوم عندكم مستقر في فطركم قد يغيبه الإعراض في بعض الأوقات، والحقيقة أنكم إن رجعتم إلى ذاكرتكم بمجرد التأمل؛ علمتم أن مالك ذلك هو المعبود وحده، وأن إلهية من هو مملوك أبطل الباطل.

﴿٨٦﴾، ﴿٨٧﴾ ثم انتقل إلى ما هو أعظم من ذلك، فقال: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ ﴾: وما فيها من النيرات والكواكب السيارات والثوابت، ﴿ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ ﴾: الذي هو أعلى المخلوقات وأوسعها وأعظمها؛ فمن الذي خلق ذلك ودبره وصرفه بأنواع التدبير؟ ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾؛ أي: سيقرون بأن الله رب ذلك كله، قل لهم حين يقرون بذلك: ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾: عبادة المخلوقات العاجزة وتتقون الرب العظيم كامل القدرة عظيم السلطان؟! وفي هذا من لطف الخطاب من قوله: ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾، ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾؛ والوعظ بأداة العرض الجاذبة للقلوب [فيه] ما لا يخفى.

﴿٨٨﴾، ﴿٨٩﴾ ثم انتقل إلى إقرارهم بما هو أعم من ذلك كله، فقال: ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾؛ أي: مُلك كل شيء من العالم العلوي والعالم السفلي، ما نبصره وما لا نبصره، والملكوت صيغة مبالغة؛ بمعنى الملك. ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ ﴾: عباده من الشر ويدفع عنهم المكاره ويحفظهم مما يضرهم، ﴿ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾؛ أي: لا يقدر أحد أن يجير على الله ولا يدفع الشر الذي قدره الله، بل ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه. ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾؛ أي: سيقرون أن الله المالك لكل شيء، المجير الذي لا يجار عليه، ﴿ قُلْ ﴾ لهم حين يقرون بذلك ملزمًا لهم: ﴿ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾؛ أي: فأين تذهب عقولكم حيث عبدتم من علمتم أنهم لا ملك لهم ولا قسط من الملك، وأنهم عاجزون من جميع الوجوه، وتركتم الإخلاص للمالك العظيم القادر المدبر لجميع الأمور؟ فالعقول التي دلتكم على هذا لا تكون إلا مسحورة، وهي بلا شك قد سحرها الشيطان بما زين لهم، وحسن لهم وقلب الحقائق لهم فسحر عقولهم، كما سحرت السحرة أعين الناس.

﴿ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

﴿٩٠﴾ - ﴿٩٢﴾ يقول تعالى: بل أتينا هؤلاء المكذبين بالحق؛ المتضمن للصدق في الأخبار، العدل في الأمر والنهي؛ فما بالهم لا يعترفون به، وهو أحق أن يتبع، وليس عندهم ما يعوضهم عنه إلا الكذب والظلم؟! ولهذا قال: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾: كذب يعرف بخبر الله وخبر رسله، ويعرف بالعقل الصحيح، ولهذا نبه تعالى على الدليل العقلي على امتناع إلهين فقال: ﴿ إِذًا ﴾؛ أي: لو كان معه آلهة كما يقولون؛ ﴿ لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ ﴾؛ أي: لانفرد كل واحد من الإلهين بمخلوقاته واستقل بها، ولحرص على ممانعة الآخر ومغالبته، ﴿ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾؛ فالغالب أن يكون هو الإله؛ فمن التمانع لا يمكن وجود العالم ولا يتصور أن ينتظم هذا الانتظام المدهش للعقول، واعتبر ذلك بالشمس والقمر والكواكب الثابتة والسيارة؛ فإنها منذ خلقت وهي تجري على نظام واحد وترتيب واحد، كلها مسخرة بالقدرة، مدبرة بالحكمة لمصالح الخلق كلهم، ليست مقصورة على مصلحة أحد دون أحد، ولن ترى فيها خللًا ولا تناقضًا ولا معارضة في أدنى تصرف؛ فهل يتصور أن يكون ذلك تقدير إلهين ربين. ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾: قد نطقت بلسان حالها، وأفهمت ببديع أشكالها: أن المدبر لها إله واحد؛ كامل الأسماء والصفات، قد افتقرت إليه جميع المخلوقات

بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ
وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا
بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ
الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ
إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾
ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾
وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ
رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ
ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ
هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ
فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾
فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ
خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ
خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾

في ربوبيته لها وفي إلهيته لها؛ فكما لا وجود لها ولا دوام إلا بربوبيته؛ كذلك لا صلاح لها ولا قوام إلا بعبادته وإفراده بالطاعة. ولهذا نبه على عظمة صفاته بأنموذج من ذلك، وهو علمه المحيط، فقال: ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ ﴾؛ أي: الذي غاب عن أبصارنا وعلمنا من الواجبات والمستحيلات والممكنات ﴿ وَالشَّهَادَةِ ﴾: وهو ما نشاهد من ذلك. ﴿ فَتَعَالَىٰ ﴾؛ أي: ارتفع وعظم ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾: به من لا علم عنده إلا ما علمه الله.

﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

﴿٩٣﴾ - ﴿٩٥﴾ لما أقام تعالى على المكذبين أدلته العظيمة، فلم يلتفتوا لها، ولم يذعنوا لها؛ حق عليهم العذاب، ووعدوا بنزوله، وأرشد الله رسوله أن يقول: ﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾؛ أي: أي وقت أريتني عذابهم وأحضرتني ذلك، ﴿ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾؛ أي: اعصمني وارحمني مما ابتليتهم به من الذنوب الموجبة للنقم، واحمني أيضًا من العذاب الذي ينزل بهم؛ لأن العقوبة العامة تعم عند نزولها العاصي وغيره. قال الله في تقريب عذابهم: ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾: ولكن إن أخرناه؛ فلحكمة، وإلا فقدرتنا صالحة لإيقاعه.

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾.

﴿٩٦﴾ هذا من مكارم الأخلاق التي أمر الله رسوله بها، فقال: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ﴾؛ أي: إذا أساء إليك أعداؤك بالقول والفعل؛ فلا تقابلهم بالإساءة؛ مع أنه يجوز معاقبة المسيء بمثل إساءته، ولكن ادفع إساءتهم إليك بالإحسان منك إليهم؛ فإن ذلك فضل منك على المسيء، ومن مصالح ذلك أنه تخف الإساءة عنك في الحال وفي المستقبل، وأنه أدعى لجلب المسيء إلى الحق، وأقرب إلى ندمه وأسفه ورجوعه بالتوبة عما فعل، ويتصف[1] العافي بصفة الإحسان، ويقهر بذلك عدوه الشيطان، ويستوجب[2] الثواب من الرب؛ قال تعالى: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا ﴾؛ أي: ما يوفق لهذا الخلق الجميل ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

وقوله: ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾؛ أي: بما يقولون من الأقوال المتضمنة للكفر والتكذيب بالحق، قد أحاط علمنا بذلك، وقد حلمنا عنهم وأمهلناهم وصبرنا عليهم، والحق لنا، وتكذيبهم لنا؛ فأنت يا محمد ينبغي لك أن تصبر على ما يقولون، وتقابلهم بالإحسان. هذه وظيفة العبد في مقابلة المسيء من البشر.

﴿٩٧﴾، ﴿٩٨﴾ وأما المسيء من الشياطين؛ فإنه لا يفيد فيه الإحسان، ولا يدعو حزبه إلا ليكونوا من أصحاب السعير؛ فالوظيفة في مقابلته أن يسترشد بما أرشد الله إليه رسوله،

---

(١) ع: «وليتصف».
(٢) ع: «وليستوجب».

فقال: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ [(١)] مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾؛ أي: أعوذ بك من الشر الذي يصيبني بسبب مباشرتهم وهمزهم ومسهم، ومن الشر الذي بسبب حضورهم ووسوستهم، وهذه استعاذة من مادة الشر كله وأصله، ويدخل فيه الاستعاذة من جميع نزغات الشيطان ومن مسه ووسوسته؛ فإذا أعاذ الله عبده من هذا الشر، وأجاب دعاءه؛ سلم من كل شر، ووفق لكل خير.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾
لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن
وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

﴿٩٩﴾، ﴿١٠٠﴾ يخبر تعالى عن حال من حضره الموت من المفرطين الظالمين: أنه يندم في تلك الحال إذا رأى مآله، وشاهد قبح أعماله، فيطلب الرجعة إلى الدنيا، لا للتمتع بلذاتها واقتطاف شهواتها، وإنما ذلك يقول: ﴿ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾: من العمل وفرطت في جنب الله. ﴿ كَلَّآ ﴾؛ أي: لا رجعة له ولا إمهال، قد قضى الله أنهم إليها لا يُرْجَعُون، ﴿ إِنَّهَا ﴾؛ أي: مقالته التي تمنى فيها الرجوع إلى الدنيا ﴿ كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾؛ أي: مجرد قول باللسان، لا يفيد صاحبه إلا الحسرة والندم، وهو أيضًا غير صادق في ذلك؛ فإنه لو رد لعاد لما نهي عنه. ﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾؛ أي: من أمامهم وبين أيديهم برزخ، وهو الحاجز بين الشيئين؛ فهو هنا الحاجز بين الدنيا والآخرة، وفي هذا البرزخ يتنعم المطيعون، ويعذب العاصون من موتهم إلى يوم يبعثون؛ أي: فليعدوا له عدته، وليأخذوا له أهبته.

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ
وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ
ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ
فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا
وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا
فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾
إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا
وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ
أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ
ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى
ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ
ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

﴿١٠١﴾ يخبر تعالى عن هول يوم القيامة، وما في ذلك من المزعجات والمقلقات، وأنه إذا نفخ في الصور نفخة البعث، فحشر الناس أجمعون، لميقات يوم معلوم؛ أنه يصيبهم من الهول ما ينسيهم أنسابهم التي هي أقوى الأسباب، فغير الأنساب من باب أولى، وأنه لا يسأل أحد أحدًا عن حاله؛ لاشتغاله بنفسه؛ فلا يدري هل ينجو نجاة لا شقاوة بعدها أو يشقى شقاوة لا سعادة بعدها؛ قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿١٠٢﴾ وفي القيامة مواضع يشتد كربها ويعظم وقعها؛ كالميزان الذي يميز به أعمال العبد، وينظر فيه بالعدل ما له وما عليه، وتبين فيه مثاقيل الذر من الخير والشر. ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾: بأن رجحت حسناته على سيئاته؛ ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾: لنجاتهم من النار، واستحقاقهم الجنة، وفوزهم بالثناء الجميل.

﴿١٠٣﴾ ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾: بأن رجحت سيئاته على حسناته وأحاطت بها خطيئاته؛ ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾: كل خسارة غير هذه الخسارة؛ فإنها بالنسبة إليها سهلة، ولكن هذه خسارة صعبة؛ لا يجبر مصابها، ولا يستدرك فائتها؛ خسارة أبدية وشقاوة سرمدية، قد خسر نفسه الشريفة التي يتمكن بها من السعادة الأبدية، ففوتها هذا النعيم المقيم في جوار الرب الكريم. ﴿ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾: لا يخرجون منها أبد الآبدين، وهذا الوعيد إنما هو - كما ذكرنا - لمن أحاطت خطيئاته بحسناته، ولا يكون ذلك إلا كافرًا؛ فعلى هذا لا يحاسب محاسبة من توزن حسناته وسيئاته؛ فإنهم لا حسنات لهم، ولكن تعد أعمالهم وتحصى، فيوقفون عليها، ويقررون بها، ويخزون بها.

(١) زاد في ع، ط: «أي: أعتصم بحولك وقوتك متبرئًا من حولي وقوتي».

أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟
رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ
أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا
وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ
ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ
سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾
إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ
كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ
يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ
إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا
ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ
ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

سُورَةُ النُّورِ (٢٤) آياتها ٦٤

وأما من معه أصل الإيمان، ولكن عظمت سيئاته، فرجحت على حسناته؛ فإنه وإن دخل النار؛ لا يخلد فيها كما دلت على ذلك نصوص الكتاب والسنة.

(١٠٤) ثم ذكر تعالى سوء مصير الكافرين، فقال: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾؛ أي: تغشاهم من جميع جوانبهم، حتى تصيب أعضاءهم الشريفة، ويتقطع لهبها عن وجوههم، ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾: قد عبست وجوههم وقلصت شفاههم، من شدة ما هم فيه، وعظيم ما يلقونه.

(١٠٥) فيقال لهم توبيخًا ولومًا: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾: تُدْعَونَ بها لتؤمنوا وتعرض عليكم لتنظروا؛ ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾: ظلمًا منكم وعنادًا، وهي آيات بينات، دالات على الحق والباطل، مبينات للمحق والمبطل؟!

(١٠٦) فحينئذ أقروا بظلمهم حيث لا ينفع الإقرار: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾؛ أي: غلبت علينا الشقاوة الناشئة عن الظلم والإعراض عن الحق والإقبال على ما يضر وترك ما ينفع، ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾﴾: في عملهم، وإن كانوا يدرون أنهم ظالمون؛ أي: فعلنا في الدنيا فعل التائه الضال السفيه؛ كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك: ١٠].

(١٠٧) ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾: وهم كاذبون في وعدهم هذا؛ فإنهم كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]، ولم يُبْقِ الله لهم حجة، بل قطع أعذارهم، وعمرهم في الدنيا ما يتذكر فيه من تذكر، ويرتدع فيه المجرم.

(١٠٨) فقال الله جوابًا لسؤالهم: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾: وهذا القول - نسأله تعالى العافية - أعظم قول على الإطلاق يسمعه المجرمون في التخييب والتوبيخ والذل والخسار والتأييس من كل خير والبشرى بكل شر، وهذا الكلام والغضب من الرب الرحيم أشد عليهم، وأبلغ في نكايتهم من عذاب الجحيم.

(١٠٩) ثم ذكر الحال التي أوصلتهم إلى العذاب وقطعت عنهم الرحمة، فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾: فجمعوا بين الإيمان المقتضي لأعماله الصالحة، والدعاء لربهم بالمغفرة والرحمة، والتوسل إليه بربوبيته ومنته عليهم بالإيمان، والإخبار بسعة رحمته وعموم إحسانه، وفي ضمنه ما يدل على خضوعهم وخشوعهم وانكسارهم لربهم وخوفهم ورجائهم؛ فهؤلاء سادات الناس وفضلاؤهم.

(١١٠) ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ﴾: أيها الكفرة الأنذال ناقصو العقول والأحلام، ﴿سِخْرِيًّا﴾: تهزءون بهم وتحتقرونهم حتى اشتغلتم بذكر السفه، ﴿حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾﴾: وهذا الذي أوجب لهم نسيان الذكر اشتغالهم بالاستهزاء بهم؛ كما أن نسيانهم للذكر يحثهم على الاستهزاء؛ فكل من الأمرين يمد الآخر؛ فهل فوق هذه الجرأة جرأة؟!

(١١١) ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾: على طاعتي وعلى أذاكم حتى وصلوا إليَّ ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾﴾: بالنعيم المقيم والنجاة من الجحيم؛ كما قال في الآية الأخرى:

﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المطففين: ٣٤] الآيات.

(١١٢) - (١١٤) ﴿قَالَ﴾ لهم على وجه اللوم وأنهم سفهاء الأحلام حيث اكتسبوا في هذه المدة اليسيرة كل شر أوصلهم إلى غضبه وعقوبته، ولم يكتسبوا ما اكتسبه المؤمنون من الخير الذي يوصلهم إلى السعادة الدائمة ورضوان ربهم: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾: كلامهم هذا مبني على استقصارهم جدًّا لمدة مكثهم في الدنيا، وأفاد ذلك، لكنه لا يفيد مقداره ولا يعينه؛ فلهذا قالوا: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾؛ أي: الضابطين لعدده، وأما هم؛ ففي شغل شاغل وعذاب مذهل عن معرفة عدده. فقال لهم: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾: سواء عينتم عدده أم لا، ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾.

(١١٥)، (١١٦) أي: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾ أيها الخلق، ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾؛ أي: سدًى وباطلًا تأكلون وتشربون وتمرحون وتتمتعون بلذات الدنيا ونترككم لا نأمركم ولا ننهاكم ولا نثيبكم ونعاقبكم، ولهذا قال: ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾؟ لا يخطر هذا ببالكم. ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾؛ أي: تعاظم وارتفع عن هذا الظن الباطل الذي يرجع إلى القدح في حكمته، ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾: فكونه ملكًا للخلق كلهم حقًّا في صدقه ووعده ووعيده مألوهًا معبودًا لما له من الكمال، رب العرش العظيم فما دونه من باب أولى يمنع أن يخلقكم عبثًا.

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

(١١٧) أي: ومن دعا مع الله آلهة غيره بلا بينة من أمره ولا برهان على ذلك يدل على ما ذهب إليه، وهذا قيد ملازم؛ فكل من دعا غير الله؛ فليس له برهان على ذلك، بل دلت البراهين على بطلان ما ذهب إليه، فأعرض عنها ظلمًا وعنادًا؛ فهذا سيقدم على ربه فيجازيه بأعماله ولا ينيله من الفلاح شيئًا؛ لأنه كافر، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾: فكفرهم منعهم من الفلاح.

(١١٨) ﴿وَقُل﴾: داعيًا لربك مخلصًا له الدين: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ﴾: لنا حتى تنجينا من المكروه، وارحمنا لتوصلنا برحمتك إلى كل خير. ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾: فكل راحم للعبد؛ فالله خير له منه، أرحم بعبده من الوالدة بولدها، وأرحم به من نفسه.

تم تفسير «سورة المؤمنون» من فضل الله وإحسانه.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ
﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم
بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ
عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ
مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ
فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ
فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾
وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ
عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ
﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾
وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

تفسير سورة النور

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾.

﴿١﴾ أي: هذه ﴿سُورَةٌ﴾ عظيمة القدر، ﴿أَنزَلْنَاهَا﴾: رحمة منا بالعباد، وحفظناها من كل شيطان، ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾؛ أي: قدرنا فيها ما قدرنا من الحدود والشهادات وغيرها، ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾؛ أي: أحكامًا جليلة وأوامر وزواجر وحكمًا عظيمة؛ ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾: حين نبين لكم، ونعلمكم ما لم تكونوا تعلمون.

ثم شرع في بيان تلك الأحكام المشار إليها، فقال:

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾.

﴿٢﴾ هذا الحكم في الزاني والزانية البكرين: أنهما يجلد كل منهما مائة جلدة، وأما الثيب؛ فقد دلت السنة الصحيحة المشهورة أن حده الرجم.

ونهانا تعالى أن تأخذنا رأفة بهما[1] في دين الله تمنعنا من إقامة الحد عليهما، سواء رأفة طبيعية، أو لأجل قرابة أو صداقة أو غير ذلك، وأن الإيمان موجب لانتفاء هذه الرأفة المانعة من إقامة أمر الله؛ فرحمته حقيقة بإقامة حد الله[2] عليه، فنحن وإن رحمناه لجريان القدر عليه؛ فلا نرحمه من هذا الجانب.

وأمر تعالى أن يحضر عذاب الزانيين ﴿طَائِفَةٌ﴾؛ أي: جماعة من المؤمنين؛ ليشتهر ويحصل بذلك الخزي والارتداع، وليشاهدوا الحد فعلًا؛ فإن مشاهدة أحكام الشرع بالفعل مما يقوى به العلم، ويستقر بها الفهم، ويكون أقرب لإصابة الصواب؛ فلا يزاد فيه ولا ينقص. والله أعلم.

﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾.

﴿٣﴾ هذا بيان لرذيلة الزنا، وأنه يدنس عرض صاحبه وعرض من قارنه ومازجه ما لا يفعله بقية الذنوب، فأخبر أن الزاني لا يُقْدِمُ على نكاحه من النساء إلا أنثى زانية تناسب حاله حالها، أو مشركة بالله لا تؤمن ببعث ولا جزاء، ولا تلتزم أمر الله.

والزانية كذلك لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك.

﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾؛ أي: حرم عليهم أن يُنكحوا زانيًا أو يَنكحوا زانية. ومعنى الآية أن من اتصف بالزنا من رجل أو امرأة، ولم يتب من ذلك؛ أن المقدم على نكاحه مع تحريم الله لذلك لا يخلو إما ألَّا يكون ملتزمًا لحكم الله ورسوله؛ فذاك لا يكون إلا مشركًا، وإما أن يكون ملتزمًا لحكم الله ورسوله، فأقدم على نكاحه، مع علمه بزناه؛ فإن هذا النكاح زنا، والناكح زانٍ مسافح؛ فلو كان مؤمنًا بالله حقًّا؛ لم يقدم على ذلك.

(١) ساقط من: ع.
(٢) عبارة: «حد الله» وردت في الأصل، ط: «الحد».

وهـذا دليل صريـح على تحريم نكاح الزانيـة حتى تتوب، وكذلـك نكاح الزاني حتى يتـوب؛ فإن مقارنة الزوج لزوجته والزوجـة لزوجها أشـد الاقترانـات والازدواجات، وقد قال تعالـى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [الصافات: ٢٢]؛ أي: قرناءهـم، فحـرم الله ذلك لما فيه من الشـر العظيم، وفيه من قلـة الغيرة وإلحـاق الأولاد الذين ليسـوا من الـزوج، وكون الزانـي لا يعفها بسـبب اشـتغاله بغيرها؛ ممـا بعضه كاف في التحريم[١].

وفـي هذا دليـل أن الزاني ليـس مؤمنًا كما قـال النبي ﷺ: «لا يزنـي الزاني حين يزني وهو مؤمـن»[٢]؛ فهو وإن لم يكن مشـركًا؛ فـلا يطلـق عليـه اسـم المـدح الـذي هـو الإيمـان المطلق.

﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥﴾.

(٤) لما عظَّم تعالى أمر الزاني بوجوب جلده وكذا رجمه إن كان محصنًا، وأنه لا تجوز مقارنته ولا مخالطته على وجه لا يسـلم فيـه العبد من الشـر؛ بيَّن تعالى تعظيـم الإقدام على الأعراض بالرمـي بالزنا، فقـال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾؛ أي: النسـاء الأحرار العفائف، وكذلـك الرجال، لا فرق بين الأمريـن، والمـراد بالرمي الرمي بالزنا؛ بدليل السـياق. ﴿ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ﴾: علـى ما رموا به ﴿بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾؛ أي: رجال عدول يشـهدون بذلـك صريحًـا ﴿فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ﴾: بسـوط متوسـط يؤلم فيـه، ولا يبالغ بذلـك حتى يتلفـه؛ لأن القصد التأديب لا الإتلاف.

وفـي هـذا تقريـر حـد القـذف، ولكـن بشـرط أن يكـون المقـذوف كمـا قـال تعالـى محصنًا مؤمنًـا، وأما قـذف غير المحصـن؛ فإنـه يوجب التعزيـر، ﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗا﴾؛ أي: لهـم عقوبـة أخـرى، وهـو أن شـهادة القـاذف غيـر مقبولـة، ولو حد علـى القذف، حتى يتـوب؛ كما يأتي. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٤﴾؛ أي: الخارجـون عـن طاعة اللـه، الذين قد كثر شـرهم، وذلـك لانتهاك[٣] مـا حرم الله، وانتهاك عرض أخيه، وتسـليط النـاس على الكلام بما تكلم

(١) ع: «للتحريم».
(٢) البخاري (٢٤٧٥)، مسلم (٥٧).
(٣) ع: «لانتهاكه».

بـه، وإزالة الأخوة التـي عقدها الله بين أهل الإيمان، ومحبة أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا. وهذا دليل على أن القذف من كبائر الذنوب.

(٥) وقولـه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥﴾: فالتوبـة فـي هذا الموضـع أن يكـذب القاذف نفسـه، ويقر أنه كاذب فيما قـال، وهو واجب عليه أن يكذِّب نفسـه، ولـو تيقن وقوعه؛ حيث لـم يأت بأربعة شـهداء؛ فإذا تـاب القـاذف وأصلح عمله وبدل إسـاءته إحسـانًا؛ زال عنه الفسـق، وكذلك تقبل شـهادته على الصحيح؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥﴾، يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب وأناب.

وإنمـا يجلد القـاذف إذا لم يأت بأربعة شـهداء إذا لم يكن زوجًا؛ فإن كان زوجًا؛ فقد ذكر بقوله:

﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٧ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾.

وإنما كانت شـهادات الزوج علـى زوجته دارئة عنه الحد؛ لأن الغالـب أن الـزوج لا يقدم على رمي زوجته التي يدنسـه ما يدنسـها إلا إذا كان صادقًـا، ولأن له في ذلك حقًّا، وخوفًا من إلحاق أولاد ليسوا منه به، ولغير ذلك من الحكم المفقودة في غيره، فقال:

(٦)، (٧) ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾؛ أي: الحرائـر لا المملـوكات ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ﴾: علـى رميهـم بذلـك ﴿شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ﴾: بـأن لـم يقيمـوا شـهداء علـى مـا رموهـن[٤] بـه، ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦﴾: سـماها شهادة لأنها نائبة مناب الشهود؛ بـأن يقول: أشـهد باللـه أني لمـن الصادقين فيمـا رميتها به. ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٧﴾؛ أي: يزيـد فـي الخامسـة مع الشـهادة المذكـورة مؤكدًا تلك الشـهادات بأن يدعو على نفسه باللعنة إن كان كاذبًا؛ فإذا تم لعانه؛ سقط عنه حد القذف.

(٤) ع، ط: «رموهم».

وظاهر الآيات ولو سمى الرجل الذي رماها به؛ فإنه يسقط حقه تبعًا لها.

وهل يقام عليها الحد بمجرد لعان الرجل ونكولها أم تحبس؟ فيه قولان للعلماء، الذي يدل عليه الدليل أنه يقام عليها الحد؛ بدليل قوله: ﴿ وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ ﴾ إلى آخره؛ فلولا أن العذاب - وهو الحد - قد وجب بلعانه؛ لم يكن لعانها دارئًا له.

﴿٨﴾، ﴿٩﴾ ﴿ وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ﴾؛ أي: يدفع عنها العذاب إذا قابلت شهادات الزوج بشهادات من جنسها؛ ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ ﴾، وتزيد في الخامسة مؤكدة لذلك أن تدعو على نفسها بالغضب، فإذا تم اللعان بينهما؛ فرق بينهما إلى الأبد، وانتفى الولد الملاعن عنه.

وظاهر الآيات يدل على اشتراط هذه الألفاظ عند اللعان منه ومنها، واشتراط الترتيب فيها، وألَّا ينقص منها شيء ولا يبدل شيء بشيء، وأن اللعان مختص بالزوج إذا رمى امرأته، لا بالعكس، وأن الشبه في الولد مع اللعان لا عبرة به؛ كما لا يعتبر مع الفراش، وإنما يعتبر الشبه حيث لا مرجح إلا هو.

﴿١٠﴾ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾: وجواب الشرط محذوف يدل عليه سياق الكلام؛ أي: لأحل بأحد المتلاعنين الكاذب منهما ما دعا به على نفسه، ومن رحمته وفضله ثبوت هذا الحكم الخاص بالزوجين؛ لشدة الحاجة إليه، وأن بين لكم شدة الزنا وفظاعته وفظاعة القذف به، وأن شرع التوبة من هذه الكبائر وغيرها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

لما ذكر فيما تقدم تعظيم الرمي بالزنا عمومًا؛ صار ذلك كأنه مقدمة لهذه القصة التي وقعت على أشرف النساء أم المؤمنين رضي الله عنها، وهذه الآيات نزلت في قصة الإفك المشهورة الثابتة في الصحاح والسنن والمسانيد[1]، وحاصلها أن النبي ﷺ في بعض غزواته ومعه زوجته عائشة الصديقة بنت الصديق، فانقطع عقدها، فانحبست في طلبه، ورحلوا جملها وهودجها فلم يفقدوها، ثم استقل الجيش راحلًا، وجاءت مكانهم، وعلمت أنهم إذا فقدوها؛ رجعوا إليها، فاستمروا في مسيرهم، وكان صفوان بن المعطل السلمي من أفاضل الصحابة رضي الله عنه، قد عرس في أخريات القوم ونام، فرأى عائشة رضي الله عنها، فعرفها، فأناخ راحلته، فركبتها من دون أن يكلمها أو تكلمه، ثم جاء يقود بها بعدما نزل الجيش في الظهيرة، فلما رأى بعض المنافقين الذين في صحبة النبي ﷺ في ذلك السفر مجيء صفوان بها في هذه الحال؛ أشاع ما أشاع، ووشي الحديث، وتلقفته الألسن، حتى

(١) البخاري (٤٧٥٠، ٤٧٥٧)، مسلم (٢٧٧٠).

اغتـر بذلك بعـض المؤمنين، وصـاروا يتناقلون هـذا الكلام، وانحبس الوحي مدة طويلة عن رسـول الله ﷺ، وبلغ الخبر عائشـة بعد ذلك بمدة، فحزنت حزنًا شديدًا؛ فأنزل الله تعالى براءتهـا في هذه الآيـات، ووعظ الله المؤمنيـن وأعظم ذلك، ووصاهم بالوصايا النافعة.

(١١) فقولـه تعالـى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ﴾؛ أي: الكـذب الشنيع، وهو رمي أم المؤمنين، ﴿عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡ﴾؛ أي: جماعة متتسبون إليكم يا معشـر المؤمنين، منهم المؤمن الصادق في إيمانـه، ولكنـه اغتر بترويـج المنافقين، ومنهـم المنافق. ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾: لمـا تضمـن ذلك تبرئة أم المؤمنين ونزاهتهـا والتنويه بذكرها، حتى تناول عموم المدح سائر زوجات النبي ﷺ، ولما تضمن من بيان الآيات المضطر إليها العباد، التي ما زال العمل بها إلى يوم القيامة؛ فكل هذا خير عظيم، لولا مقالـة أهل الإفك، لم يحصل ذلك، وإذا أراد الله أمرًا؛ جعل له سـببًا، ولذلك جعل الخطاب عامًّا مع المؤمنين كلهم، وأخبر أن قدح بعضهم ببعض كقدح في أنفسـهم؛ ففيه أن المؤمنيـن في توادهـم وتراحمهم وتعاطفهـم واجتماعهم على مصالحهم كالجسـد الواحد، والمؤمـن للمؤمن كالبنيان يشـد بعضـه بعضًا؛ فكمـا أنه يكـره أن يقدح أحد فـي عرضه؛ فليكـره من كل أحـد أن يقدح فـي أخيه المؤمن الـذي بمنزلة نفسه، وما لم يصل العبد إلى هذه الحالة؛ فإنه من نقص إيمانه وعدم نصحـه. ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِ﴾: وهذا وعيد للذين جاءوا بالإفك، وأنهم سـيعاقبون على ما قالوا من ذلك، وقد حد النبي ﷺ منهم جماعة، ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ﴾؛ أي: معظـم الإفك، وهو المنافق الخبيث عبـد الله بن أبي ابن سلول لعنه الله. ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ (١١)﴾: ألا وهو الخلود في الدرك الأسفل من النار.

(١٢) ثم أرشـد الله عباده عند سـماع مثل هـذا الكلام، فقال: ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا﴾؛ أي: ظـن المؤمنـون بعضهم ببعض خيـرًا، وهو السـلامة مما رموا بـه، وأن ما معهـم من الإيمـان المعلوم يدفع ما قيـل فيهم من الإفك الباطل. ﴿وَقَالُواْ﴾ بسبب ذلك الظن: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾؛ أي: تنزيهًا لك من كل سوء، وعن أن تبتلي أصفياءك بالأمور الشـنيعة. ﴿هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ (١٢)﴾؛ أي: كذب وبهت من أعظم الأشياء وأبينها؛ فهذا من الظن الواجب حين سماع المؤمن عن أخيه المؤمن مثل هذا الكلام، وأن يبرئه بلسانه، ويكذب القائل لذلك.

سورة النور — الجزء الثامن عشر

إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ (١١) لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ (١٢) لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ (١٣) وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ (١٥) وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ (١٦) يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ (١٩) وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ (٢٠)

٣٥١

(١٣) ﴿لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾؛ أي: هـلَّا جـاء الرامون على ما رموا به بأربعة شـهداء؛ أي: عدول مرضيين، ﴿فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ (١٣)﴾: وإن كانـوا فـي أنفسـهم قـد تيقنـوا ذلـك؛ فإنهـم كاذبون في حكـم اللـه؛ لأنـه حرم عليهـم التكلـم بذلك مـن دون أربعة شـهود، ولهذا قـال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ (١٣)﴾: ولـم يقل: فأولئك هم الكاذبون، وهـذا كله من تعظيم حرمة عـرض المسـلم؛ بحيث لا يجوز الإقدام علـى رميه من دون نصاب الشهادة بالصدق.

(١٤) ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾: بحيث شملكم إحسانه فيهما في أمر دينكم ودنياكم ﴿لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ﴾؛ أي: خضتم ﴿فِيهِ﴾: من شأن الإفك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤)﴾: لاسـتحقاقكم ذلك بمـا قلتم، ولكن من فضل اللـه عليكـم ورحمتـه أن شـرع لكـم التوبة، وجعـل العقوبة مطهرة للذنوب.

(١٥) ﴿إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ﴾؛ أي: تَلَقَّفُونَـه ويلقيه بعضكم إلـى بعـض وتستوشـون حديثـه وهو قـول باطل. ﴿وَتَقُولُونَ

بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾: والأمران محظوران؛ التكلم بالباطل، والقول بلا علم. ﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا ﴾: فلذلك أقدم عليه من أقدم من المؤمنين الذين تابوا منه. وتطهروا بعد ذلك. ﴿ وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾: وهذا فيه الزجر البليغ عن تعاطي بعض الذنوب على وجه التهاون بها؛ فإن العبد لا يفيده حسبانه شيئًا، ولا يخفف من عقوبته الذنب، بل يضاعف الذنب، ويسهل عليه مواقعته مرة أخرى.

﴿١٦﴾ ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ﴾؛ أي: وهلَّا إذ سمعتم أيها المؤمنون كلام أهل الإفك، ﴿ قُلْتُم ﴾: منكرين لذلك معظمين لأمره: ﴿ مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا ﴾؛ أي: ما ينبغي لنا وما يليق بنا الكلام بهذا الإفك المبين؛ لأن المؤمن يمنعه إيمانه من ارتكاب القبائح. ﴿ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ ﴾؛ أي: كذب ﴿ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿١٧﴾ ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ ﴾؛ أي: لنظيره من رمي المؤمنين بالفجور؛ فالله يعظكم وينصحكم عن ذلك، ونعم المواعظ والنصائح من ربنا؛ فيجب علينا مقابلتها بالقبول والإذعان والتسليم والشكر له على ما بين لنا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ﴾ [النساء: ٥٨]. ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ ﴾: دل ذلك على أن الإيمان الصادق يمنع صاحبه من الإقدام على المحرمات.

﴿١٨﴾ ﴿ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾: المشتملة على بيان الأحكام والوعظ والزجر والترغيب والترهيب، يوضحها لكم توضيحًا جليًّا. ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾؛ أي: كامل العلم، عام الحكمة؛ فمن علمه وحكمته أن علمكم من علمه، وإن كان ذلك راجعًا لمصالحكم في كل وقت.

﴿١٩﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ ﴾؛ أي: الأمور الشنيعة المستقبحة[1]، فيحبون أن تشتهر الفاحشة ﴿ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾؛ أي: موجع للقلب والبدن، وذلك لغشه لإخوانه المسلمين، ومحبة الشر لهم، وجراءته على أعراضهم؛ فإذا كان هذا الوعيد لمجرد محبة أن تشيع الفاحشة واستحلاء ذلك بالقلب؛ فكيف بما هو أعظم من ذلك من إظهاره ونقله؟ وسواء كانت الفاحشة صادرة أو غير صادرة، وكل هذا من رحمة الله لعباده المؤمنين، وصيانة أعراضهم؛ كما صان دماءهم وأموالهم، وأمرهم بما يقتضي المصافاة، وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه. ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾: فلذلك علمكم، وبين لكم ما تجهلونه.

﴿٢٠﴾ ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾: قد أحاط بكم من كل جانب ﴿ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ عليكم، ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾: لما بين لكم هذه الأحكام والمواعظ والحكم الجليلة، ولما أمهل من خالف أمره، ولكن فضله ورحمته، وأن ذلك وصفه اللازم أثر لكم من الخير الدنيوي والأخروي ما لن تحصوه أو تعدوه.

﴿٢١﴾ ولما نهى عن هذا الذنب بخصوصه؛ نهى عن الذنوب عمومًا، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾؛ أي: طرقه ووساوسه. وخطوات الشيطان يدخل فيها سائر المعاصي المتعلقة بالقلب واللسان والبدن.

ومن حكمته تعالى أن بين الحكم وهو النهي عن اتباع خطوات الشيطان، والحكمة وهو بيان ما في المنهي عنه من الشر المقتضي والداعي لتركه، فقال: ﴿ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ ﴾؛ أي: الشيطان ﴿ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾؛ أي: ما تستفحشه العقول والشرائع من الذنوب العظيمة مع ميل بعض النفوس إليه، ﴿ وَٱلْمُنكَرِ ﴾: وهو ما تنكره العقول ولا تعرفه؛ فالمعاصي التي هي خطوات الشيطان لا تخرج عن ذلك، فنهى الله عنها العباد نعمة منه عليهم أن يشكروه ويذكروه؛ لأن ذلك صيانة لهم عن التدنس بالرذائل والقبائح؛ فمن إحسانه عليهم أن نهاهم عنها كما نهاهم عن أكل السموم القاتلة ونحوها. ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾؛ أي: ما تطهر من اتباع خطوات الشيطان؛ لأن الشيطان يسعى هو وجنده في الدعوة إليها وتحسينها، والنفس ميالة إلى السوء أمارة به، والنقص مستول على العبد من جميع جهاته، والإيمان غير قوي؛ فلو خلي وهذه الدواعي؛ ما زكى أحد بالتطهر من الذنوب والسيئات والنماء بفعل الحسنات؛ فإن الزكاء يتضمن الطهارة والنماء، ولكن فضله ورحمته أوجبا أن يتزكى منكم من تزكى، وكان من دعاء النبي ﷺ: «**اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها**»[2]. ولهذا قال: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ﴾: من يعلم منه أن يتزكى بالتزكية، ولهذا قال: ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾.

---

(١) زاد في ع: «المستعظمة»..

(٢) مسلم (٢٧٢٢).

(٢٢) ﴿ وَلَا يَأْتَلِ ﴾؛ أي: لا يحلف ﴿أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ﴾: كان من جملة الخائضين في الإفك مِسْطَحُ بن أُثاثة، وهو قريب لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان مسطح فقيرًا من المهاجرين في سبيل الله، فحلف أبو بكر ألَّا ينفق عليه؛ لقوله الذي قال، فنزلت هذه الآية ينهاهم عن هذا الحلف المتضمن لقطع النفقة عنه، ويحثه على العفو والصفح، ويعده بمغفرة الله إن غفر له، فقال: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ (٢٢) ﴾: إذا عاملتم عبيده بالعفو والصفح؛ عاملكم بذلك، فقال أبو بكر لما سمع هذه الآية: بلى والله؛ إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجَّع النفقة إلى مسطح.

وفي هذه الآية دليل على النفقة على القريب، وأنه لا تترك النفقة والإحسان بمعصية الإنسان، والحث على العفو والصفح ولو جرى منه ما جرى من أهل الجرائم.

(٢٣) ثم ذكر الوعيد الشديد على رمي المحصنات، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ﴾؛ أي: العفائف عن الفجور ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ ﴾: اللاتي لم يخطر ذلك بقلوبهن، ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ ﴾: واللعنة لا تكون إلا على ذنب كبير، وأكد اللعنة بأنها متواصلة عليهم في الدارين. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٞ (٢٣) ﴾: وهذا زيادة على اللعنة، أبعدهم عن رحمته وأحل بهم شدة نقمته، وذلك العذاب يوم القيامة.

(٢٤) ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٢٤) ﴾: فكل جارحة تشهد عليه بما عملته، ينطقها الذي أنطق كل شيء؛ فلا يمكنه الإنكار، ولقد عدل في العباد من جعل شهودهم من أنفسهم.

(٢٥) ﴿ يَوْمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ ﴾؛ أي: جزاءهم على أعمالهم الجزاء الحق الذي بالعدل والقسط؛ يجدون جزاءها موفرًا لم يفقدوا منها شيئًا، وقالوا: ﴿ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا (٤٩) ﴾ [الكهف: ٤٩]، ﴿ وَيَعْلَمُونَ ﴾ في ذلك الموقف العظيم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ (٢٥) ﴾، فيعلمون انحصار الحق المبين في الله تعالى؛ فأوصافه العظيمة حق، وأفعاله هي الحق، وعبادته هي الحق، ولقاؤه حق، ووعده ووعيده حق، وحكمه الديني والجزائي حق، ورسله حق؛ فلا ثَمَّ حق إلا في الله، وما من الله.

الجزء الثامن عشر | سورة النور

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ (٢١) وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ (٢٢) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٞ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ (٢٥) ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ (٢٦) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٞ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) ﴾

٣٥٢

(٢٦) ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ﴾؛ أي: كل خبيث من الرجال والنساء والكلمات والأفعال مناسب للخبيث وموافق له ومقترن به ومشاكل له، وكل طيب من الرجال والنساء والكلمات والأفعال مناسب للطيب وموافق له ومقترن به ومشاكل له؛ فهذه كلمة عامة وحصر لا يخرج منه شيء، من أعظم مفرداته أن الأنبياء، خصوصًا أولي العزم منهم، وخصوصًا سيدهم محمد ﷺ، الذي هو أفضل الطيبين من الخلق على الإطلاق، لا يناسبهم إلا كل طيب من النساء؛ فالقدح في عائشة رضي الله عنها بهذا الأمر قدح في النبي ﷺ، وهو المقصود بهذا الإفك من قصد المنافقين؛ فمجرد كونها زوجة للرسول ﷺ يعلم أنها لا تكون إلا طيبة طاهرة من هذا الأمر القبيح؛ فكيف وهي ما هي؟! صديقة النساء وأفضلهن وأعلمهن وأطيبهن، حبيبة رسول رب العالمين التي لم ينزل الوحي عليه وهو في لحاف زوجة من زوجاته غيرها[1]؟!

(١) البخاري (٢٥٨١)، مسلم (٢٤٤٢).

فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن
قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ
فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾
قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ
ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ
يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ
زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ
وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ
آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ
أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ
أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ
الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ
وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا
إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

ثم صرح بذلك بحيث لا يبقى لمبطل مقالًا، ولا لشك وشبهة مجالًا، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾: والإشارة إلى عائشة رضي الله عنها أصلًا، وللمؤمنات المحصنات الغافلات تبعًا ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾: تستغرق الذنوب. ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾: في الجنة صادر من الرب الكريم.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿٢٧﴾ يرشد الباري عباده المؤمنين ألَّا يدخلوا بيوتًا غير بيوتهم بغير استئذان؛ فإن في ذلك عدة مفاسد:

منها: ما ذكره الرسول ﷺ: حيث قال: «إنما جعل الاستئذان من أجل البصر»(١)؛ فبسبب الإخلال به يقع البصر على العورات التي داخل البيوت؛ فإن البيت للإنسان في ستر عورة ما وراءه بمنزلة الثوب في ستر عورة جسده.

ومنها: أن ذلك يوجب الريبة من الداخل، ويتهم بالشر سرقة أو غيرها؛ لأن الدخول خفية يدل على الشر، ومنع الله المؤمنين من دخول غير بيوتهم ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا﴾؛ أي: تستأذنوا، سمي الاستئذان استئناسًا؛ لأن به يحصل الاستئناس، وبعدمه تحصل الوحشة، ﴿وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾: وصفة ذلك ما جاء في الحديث: «السلام عليكم، أأدخل؟»(٢). ﴿ذَٰلِكُمْ﴾؛ أي: الاستئذان المذكور ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾: لاشتماله على عدة مصالح، وهو من مكارم الأخلاق الواجبة؛ فإن أذن؛ دخل المستأذن.

﴿٢٨﴾ ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾: فلا تدخلوا فيها ﴿حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾؛ أي: فلا تمتنعوا من الرجوع ولا تغضبوا منه؛ فإن صاحب المنزل لم يمنعكم حقًّا واجبًا لكم، وإنما هو متبرع؛ فإن شاء أذن أو منع؛ فأنتم لا يأخذ أحدكم الكبر والاشمئزاز من هذه الحال؛ ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾؛ أي: أشد لتطهيركم من السيئات وتنميتكم بالحسنات. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾: فيجازي كل عامل بعمله من كثرة وقلة وحسن وعدمه.

﴿٢٩﴾ هذا الحكم في البيوت المسكونة سواء كان فيها متاع للإنسان أم لا، وفي البيوت غير المسكونة التي لا متاع فيها للإنسان، وأما البيوت التي ليس فيها أهلها، وفيها متاع الإنسان المحتاج للدخول إليه، وليس فيها أحد يتمكن من استئذانه، وذلك كبيوت الكراء وغيرها؛ فقد ذكرها بقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾؛ أي: حرج وإثم؛ دل على أن الدخول من غير استئذان في البيوت السابقة أنه محرم وفيه حرج ﴿أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾: وهذا من احترازات القرآن العجيبة؛ فإن قوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾: لفظ عام في كل بيت ليس ملكًا للإنسان، أخرج منه تعالى البيوت التي ليست ملكه وفيها متاعه وليس فيها ساكن، فأسقط الحرج في الدخول إليها. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾: أحوالكم الظاهرة والخفية،

(١) البخاري (٦٢٤١)، مسلم (٢١٥٦).
(٢) أبو داود (٥١٧٦)، الترمذي (٢٨٥٣).

وعلم مصالحكم؛ فلذلك شرع لكم ما تحتاجون إليه وتضطرون من الأحكام الشرعية.

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿٣٠﴾ أي: أرشد المؤمنين وقل لهم: الذين معهم إيمان يمنعهم من وقوع ما يخل بالإيمان ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾: عن النظر إلى العورات وإلى النساء الأجنبيات وإلى المردان، الذين يخاف بالنظر إليهم الفتنة وإلى زينة الدنيا التي تفتن وتوقع في المحذور. ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾: عن الوطء الحرام في قبل أو دبر أو ما دون ذلك وعن التمكين من مسِّها والنظر إليها. ﴿ذَٰلِكَ﴾: الحفظ للأبصار والفروج ﴿أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾: أطهر وأطيب وأنمى لأعمالهم؛ فإن من حفظ فرجه وبصره؛ طهر من الخبث الذي يتدنس به أهل الفواحش، وزكت أعماله بسبب ترك المحرم الذي تطمع إليه النفس وتدعو إليه؛ فمن ترك شيئًا لله؛ عوضه الله خيرًا منه، ومن غض بصره عن المحرم أنار الله بصيرته، ولأن العبد إذا حفظ فرجه وبصره عن الحرام ومقدماته مع دواعي الشهوة؛ كان حفظه لغيره أبلغ، ولهذا سماه الله حفظًا؛ فالشيء المحفوظ إن لم يجتهد حافظه في مراقبته وحفظه وعمل الأسباب الموجبة لحفظه؛ لم ينحفظ، كذلك البصر والفرج إن لم يجتهد العبد في حفظهما؛ أوقعاه في بلايا ومحن.

وتأمل كيف أمر بحفظ الفرج مطلقًا؛ لأنه لا يباح في حالة من الأحوال، وأما البصر؛ فقال: ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾: بأداة (من) الدالة على التبعيض؛ فإنه يجوز النظر في بعض الأحوال لحاجة؛ كنظر الشاهد والعامل والخاطب ونحو ذلك. ثم ذكرهم بعلمه بأعمالهم ليجتهدوا في حفظ أنفسهم من المحرمات.

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓا إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿٣١﴾ لما أمر المؤمنين بغض الأبصار وحفظ الفروج؛ أمر المؤمنات بذلك، فقال: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ﴾: عن النظر إلى العورات والرجال بشهوة ونحو ذلك من النظر الممنوع. ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾: من التمكين من جماعها أو مسها أو النظر المحرم إليها، ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾: كالثياب الجميلة والحلي وجميع البدن كله من الزينة. ولما كانت الثياب الظاهرة لا بد لها منها؛ قال: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾؛ أي: الثياب الظاهرة التي جرت العادة بلبسها إذا لم يكن في ذلك ما يدعو إلى الفتنة بها، ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾: وهذا لكمال الاستتار.

ويدل ذلك على أن الزينة التي يحرم إبداؤها يدخل فيها جميع البدن كما ذكرنا.

ثم كرر النهي عن إبداء زينتهن؛ ليستثني منه قوله: ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾؛ أي: أزواجهن، ﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾: يشمل الأب بنفسه والجد وإن علا[1]، ﴿أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾: أشقاء أو لأب أو لأم. ﴿أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾؛ أي: يجوز للنساء أن ينظر بعضهن إلى بعض مطلقًا، ويحتمل أن الإضافة تقتضي الجنسية؛ أي: النساء المسلمات اللاتي من جنسكن؛ ففيه دليل لمن قال: إن المسلمة لا يجوز أن تنظر إليها الذمية، ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ﴾: فيجوز للمملوك إذا كان كله للأنثى أن ينظر لسيدته ما دامت مالكة له كله؛ فإذا زال الملك أو بعضه؛ لم يجز النظر، ﴿أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾؛ أي: أو الذين يتبعونكم ويتعلقون بكم من الرجال الذين لا إربة لهم في هذه الشهوة؛ كالمعتوه الذي لا يدري ما هنالك، وكالعنين الذي لم يبق له شهوة لا في فرجه ولا في قلبه؛ فإن هذا لا محذور من نظره. ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾؛ أي: الأطفال الذين دون التمييز؛ فإنه يجوز نظرهم للنساء الأجانب، وعلل تعالى ذلك بأنهم ﴿لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾؛ أي: ليس لهم علم بذلك، ولا وجدت فيهم الشهوة بعد، ودل هذا أن المميز تستتر منه المرأة؛ لأنه يظهر على عورات النساء.

(١) زاد في ع، ط: «﴿أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾: ويدخل فيه الأبناء، وأبناء البعولة مهما نزلوا».

وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن
يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾
وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ
وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ
عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا
تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟
مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ
ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ
لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ
نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ
لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ
وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾

﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾؛ أي: لا يضربن الأرض بأرجلهن ليصوت ما عليهن من حلي كخلاخل وغيرها، فتعلمَ زينتها بسببه، فيكون وسيلة إلى الفتنة.

ويؤخذ من هذا ونحوه قاعدة سد الوسائل، وأن الأمر إذا كان مباحًا ولكنه يفضي إلى محرم أو يخاف من وقوعه؛ فإنه يمنع منه. فالضرب بالرِّجْل في الأرض الأصل أنه مباح، ولكن لما كان وسيلة لعلم الزينة؛ منع منه.

ولما أمر تعالى بهذه الأوامر الحسنة، ووصى بالوصايا المستحسنة، وكان لا بد من وقوع تقصير من المؤمن بذلك؛ أمر الله تعالى بالتوبة، فقال: ﴿ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾، ثم علق على ذلك الفلاح، فقال: ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾: فلا سبيل إلى الفلاح إلا بالتوبة، وهي الرجوع مما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا إلى ما يحبه ظاهرًا وباطنًا. ودل هذا أن كل مؤمن محتاج إلى التوبة؛ لأن الله خاطب المؤمنين جميعًا. وفيه الحث على الإخلاص بالتوبة في قوله: ﴿ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ﴾؛ أي: لا لمقصد غير وجهه من سلامة من آفات الدنيا أو رياء وسمعة، أو نحو ذلك من المقاصد الفاسدة.

﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿٣٢﴾ يأمر تعالى الأولياء والأسياد بإنكاح من تحت ولايتهم من الأيامى، وهم من لا أزواج لهم من رجال ونساء ثيب وأبكار، فيجب على القريب وولي اليتيم أن يزوج من يحتاج للزواج ممن تجب نفقته عليه، وإذا كانوا مأمورين بإنكاح من تحت أيديهم؛ كان أمرهم بالنكاح بأنفسهم من باب أولى. ﴿ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ﴾: يحتمل أن المراد بالصالحين صلاح الدين، وأن الصالح من العبيد والإماء - وهو الذي لا يكون فاجرًا زانيًا - مأمور سيده بإنكاحه جزاء له على صلاحه وترغيبًا له فيه، ولأن الفاسد بالزنا منهي عن تزوجه، فيكون مؤيدًا للمذكور في أول السورة أن نكاح الزاني والزانية محرم حتى يتوب، ويكون التخصيص بالصلاح في العبيد والإماء دون الأحرار؛ لكثرة وجود ذلك في العبيد عادة.

ويحتمل أن المراد بالصالحين الصالحون للتزوج المحتاجون إليه من العبيد والإماء، يؤيد هذا المعنى أن السيد غير مأمور بتزويج مملوكه قبل حاجته إلى الزواج، ولا يبعد إرادة المعنيين كليهما. والله أعلم. وقوله: ﴿ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ ﴾؛ أي: الأزواج والمتزوجين، ﴿ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾: فلا يمنعكم ما تتوهمون من أنه إذا تزوج افتقر بسبب كثرة العائلة ونحوه.

وفيه حث على التزوج ووعد للمتزوج بالغنى بعد الفقر. ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ ﴾: كثير الخير عظيم الفضل. ﴿ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ ﴾: بمن يستحق فضله الديني والدنيوي أو أحدهما ممن لا يستحق، فيعطي كلًّا ما علمه، واقتضاه حكمه.

(٣٣) ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾: هذا حكم العاجز عن النكاح، أمره الله أن يستعفف؛ أي: أن يكف عن المحرم ويفعل الأسباب التي تكفه عنه، من صرف دواعي قلبه بالأفكار التي تخطر بإيقاعه فيه، ويفعل أيضًا كما قال النبي ﷺ: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة؛ فليتزوج، ومن لم يستطع؛ فعليه بالصوم، فإنه له وجاء»[(١)]. وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾؛ أي: لا يقدرون نكاحًا: إما لفقرهم، أو فقر أوليائهم وأسيادهم، أو امتناعهم من تزويجهم، وليس لهم قدرة على إجبارهم على ذلك. وهذا التقدير أحسن من تقدير من قدر لا يجدون مهر نكاح، وجعلوا المضاف إليه نائبًا مناب المضاف؛ فإن في ذلك محذورين: أحدهما: الحذف في الكلام، والأصل عدم الحذف. والثاني: كون المعنى قاصرًا على من له حالان: حالة غنًى بماله، وحالة عُدْم، فيخرج العبيد والإماء ومَنْ إنكاحه على وليه كما ذكرنا، ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾: وعد للمستعفف أن الله سيغنيه وييسر له أمره، وأمر له بانتظار الفَرَج؛ لئلا يشق عليه ما هو فيه.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾؛ أي: من ابتغى وطلب منكم الكتابة وأن يشتري نفسه من عبيد وإماء؛ فأجيبوه إلى ما طلب، وكاتبوه، ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ﴾؛ أي: في الطالبين للكتابة ﴿خَيْرًا﴾؛ أي: قدرة على التكسب وصلاحًا في دينه؛ لأن في الكتابة تحصيل المصلحتين: مصلحة العتق والحرية، ومصلحة العوض الذي يبذله في فداء نفسه، وربما جد واجتهد وأدرك لسيده في مدة الكتابة من المال ما لا يحصل في رقه، فلا يكون ضرر على السيد في كتابته، مع حصول عظيم المنفعة للعبد؛ فلذلك أمر الله بالكتابة على هذا الوجه أمر إيجاب؛ كما هو الظاهر، أو أمر استحباب على القول الآخر، وأمر بمعاونتهم على كتابتهم؛ لكونهم محتاجين لذلك؛ بسبب أنهم لا مال لهم، فقال: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾؛ يدخل في ذلك أمر سيده الذي كاتبه أن يعطيه من كتابته أو يسقط عنه منها وأمر الناس بمعونتهم، ولهذا جعل الله للمكاتبين قسطًا من الزكاة ورغب في إعطائه بقوله: ﴿مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾؛ أي: فكما أن المال مال الله، وإنما الذي بأيديكم عطية من الله لكم ومحض منة؛ فأحسنوا لعباد الله كما أحسن الله إليكم.

ومفهوم الآية الكريمة أن العبد إذا لم يطلب الكتابة؛ لا يؤمر سيده أن يبتدئ بكتابته، وأنه إذا لم يعلم منه خيرًا؛ بأن علم منه عكسه: إما أنه يعلم أنه لا كسب له، فيكون بسبب ذلك كَلًّا على الناس ضائعًا، وإما أن يخاف إذا عتق وصار في حرية نفسه أن يتمكن من الفساد؛ فهذا لا يؤمر بكتابته، بل ينهى عن ذلك؛ لما فيه من المحذور المذكور.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ﴾؛ أي: إماءكم ﴿عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾؛ أي: أن تكون زانية؛ ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾: لأنه لا يتصور إكراهها إلا بهذه الحال، وأما إذا لم ترد تحصنًا؛ فإنها تكون بغيًّا يجب على سيدها منعها من ذلك، وإنما هذا نهي لما كانوا يستعملونه في الجاهلية من كون السيد يجبر أمته على البغاء؛ ليأخذ منها أجرة ذلك، ولهذا قال: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: فلا يليق بكم أن تكون إماؤكم خيرًا منكم وأعف عن الزنا وأنتم تفعلون بهن ذلك لأجل عرض الحياة؛ متاع قليل يعرض ثم يزول؛ فكسبكم النزاهة والنظافة والمروءة -بقطع النظر عن ثواب الآخرة وعقابها- أفضل من كسبكم العرض القليل الذي يكسبكم الرذالة والخسة.

ثم دعا من جرى منه الإكراه إلى التوبة، فقال: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣)﴾: فليتب إلى الله، وليقلع عما صدر منه مما يغضبه؛ فإذا فعل ذلك؛ غفر الله ذنوبه ورحمه؛ كما رحم نفسه بفكاكها من العذاب، وكما رحم أمته بعدم إكراهها على ما يضرها.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤)﴾.

(٣٤) هذا تعظيم وتفخيم لهذه الآيات التي تلاها على عباده؛ ليعرفوا قدرها ويقوموا بحقها، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾؛ أي: واضحات الدلالة على كل أمر تحتاجون إليه من الأصول والفروع؛ بحيث لا يبقى فيها إشكال ولا شبهة. وأنزلنا إليكم أيضًا مثلًا ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾: من أخبار الأولين؛ الصالح منهم والطالح، وصفة أعمالهم، وما جرى لهم وجرى عليهم؛ تعتبرونه مثالًا ومعتبرًا لمن فعل مثل أعمالهم أن يجازى مثل ما جوزوا. ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤)﴾؛ أي: وأنزلنا إليكم موعظة للمتقين؛ من الوعد والوعيد والترغيب والترهيب؛ يتعظ بها المتقون، فيكفون عما يكره الله إلى ما يحبه الله.

---

(١) البخاري (٥٠٦٥)، مسلم (١٤٠٠).

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٣٥﴾ ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: الحسي والمعنوي. وذلك أنه تعالى بذاته نور، وحجابه نور، الذي لو كشفه[1] لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، وبه استنار العرش والكرسي والشمس والقمر والنور، وبه استنارت الجنة. وكذلك النور المعنوي يرجع إلى الله؛ فكتابه نور، وشرعه نور، والإيمان والمعرفة في قلوب رسله وعباده المؤمنين نور؛ فلولا نوره تعالى؛ لتراكمت الظلمات، ولهذا كل محل يفقد نوره؛ فثم الظلمة والحصر. ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾: الذي يهدي إليه، وهو نور الإيمان والقرآن في قلوب المؤمنين ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾؛ أي: كوة ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾: لأن الكوة تجمع نور المصباح بحيث لا يتفرق. ذلك ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ﴾: من صفائها وبهائها، ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾؛ أي: مضيء إضاءة الدر، ﴿يُوقَدُ﴾: ذلك المصباح الذي في تلك الزجاجة الدرية ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾؛ أي: يوقد من زيت الزيتون، الذي ناره من أنور ما يكون ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ﴾: فقط؛ فلا تصيبها الشمس آخر النهار ﴿وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾: فقط؛ فلا تصيبها الشمس [أول] النهار. وإذا انتفى عنها الأمران؛ كانت متوسطة من الأرض؛ كزيتون الشام؛ تصيبه الشمس أول النهار وآخره، فيحسن ويطيب ويكون أصفى لزيتها، ولهذا قال: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا﴾: من صفائه ﴿يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾: فإذا مسته النار؛ أضاء إضاءة بليغة. ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾؛ أي: نور النار ونور الزيت.

ووجه هذا المثل الذي ضربه الله وتطبيقه على حالة المؤمن ونور الله في قلبه أن فطرته التي فطر عليها بمنزلة الزيت الصافي؛ ففطرته صافية مستعدة للتعاليم الإلهية والعمل المشروع؛ فإذا وصل إليه العلم والإيمان؛ اشتعل ذلك النور في قلبه بمنزلة اشتعال النار في فتيلة ذلك المصباح، وهو صافي القلب من سوء القصد وسوء الفهم عن الله، إذا وصل إليه الإيمان؛ أضاء إضاءة عظيمة لصفائه من الكدورات، وذلك بمنزلة صفاء الزجاجة الدرية، فيجتمع له نور الفطرة ونور الإيمان ونور العلم وصفاء المعرفة؛ نور على نوره.

ولما كان هذا من نور الله تعالى، وليس كل أحد يصلح له ذلك؛ قال: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾: ممن يعلم زكاءه وطهارته، وأنه يزكي معه وينمو. ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾: ليعقلوا عنه ويفهموا؛ لطفًا منه بهم، وإحسانًا إليهم، وليتضح الحق من الباطل؛ فإن الأمثال تقرب المعاني المعقولة من المحسوسة، فيعلمها العباد علمًا واضحًا. ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾: فعلمه محيط بجميع الأشياء، فلتعلموا أن ضربه الأمثال ضرب من يعلم حقائق الأشياء وتفاصيلها وأنها مصلحة للعباد؛ فليكن اشتغالكم بتدبرها وتعقلها لا بالاعتراض عليها ولا بمعارضتها؛ فإنه يعلم وأنتم لا تعلمون.

ولما كان نور الإيمان والقرآن أكثر وقوع أسبابه في المساجد؛ ذكرها منوهًا بها، فقال:

﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿٣٦﴾ أي: يُتَعَبَّدُ لله ﴿فِى بُيُوتٍ﴾: عظيمة فاضلة هي أحب البقاع إليه، وهي المساجد، ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: أمر ووصى ﴿أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾: هذان مجموع أحكام المساجد، فيدخل في رفعها بناؤها وكنسها وتنظيفها من النجاسات والأذى وصونها عن المجانين والصبيان الذين لا يتحرزون عن النجاسات وعن الكافر، وأن تصان عن اللغو فيها ورفع الأصوات بغير ذكر الله. ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾: يدخل في ذلك الصلاة كلها؛ فرضها ونفلها، وقراءة القرآن، والتسبيح، والتهليل، وغيره من أنواع الذكر، وتعلم العلم وتعليمه، والمذاكرة فيها، والاعتكاف، وغير ذلك من العبادات التي تفعل في المساجد، ولهذا كانت عمارة المساجد على قسمين: عمارة بنيان وصيانة لها، وعمارة بذكر اسم الله من الصلاة وغيرها، وهذا أشرف

(١) عبارة: «لو كشفه» وردت في ع: «لولا لطفه».

القسمين، ولهذا شرعت الصلوات الخمس والجمعة في المساجد وجوبًا عند أكثر العلماء واستحبابًا عند آخرين.

(٣٧) ثم مدح تعالى عمارها بالعبادة، فقال: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ ﴾: إخلاصًا ﴿ بِٱلْغُدُوِّ ﴾: أول النهار ﴿ وَٱلْآصَالِ ﴾: آخره ﴿ رِجَالٌ ﴾: خص هذين الوقتين لشرفهما ولتيسر السير فيهما إلى الله وسهولته، ويدخل في ذلك التسبيح في الصلاة وغيرها، ولهذا شرعت أذكار الصباح والمساء وأورادهما عند الصباح والمساء؛ أي: يسبح فيها لله رجال، وأي رجال؟! ليسوا ممن يؤثر على ربه دنيا ذات لذات ولا تجارة ومكاسب مشغلة عنه. ﴿ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ ﴾: وهذا يشمل كل تكسب يقصد به العوض، فيكون قوله: ﴿ وَلَا بَيْعٌ ﴾: من باب عطف الخاص على العام؛ لكثرة الاشتغال بالبيع على غيره؛ فهؤلاء الرجال وإن اتجروا وباعوا واشتروا؛ فإن ذلك لا محذور فيه، لكنهم لا تلهيهم تلك بأن يقدموها ويؤثروها على ﴿ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾: بل جعلوا طاعة الله وعبادته غاية مرادهم ونهاية مقصدهم؛ فما حال بينهم وبينها رفضوه.

ولما كان ترك الدنيا شديدًا على أكثر النفوس، وحب المكاسب بأنواع التجارات محبوبًا لها، ويشق عليها تركه في الغالب وتتكلف من تقديم حق الله على ذلك؛ ذكر ما يدعوها إلى ذلك ترغيبًا وترهيبًا، فقال: ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ (٣٧) ﴾: من شدة هوله وإزعاجه للقلوب والأبدان؛ فلذلك خافوا ذلك اليوم، فسهل عليهم العمل وترك ما يشغل عنه.

(٣٨) ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ ﴾: والمراد بـ ﴿ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ ﴾: أعمالهم الحسنة الصالحة؛ لأنها أحسن ما عملوا؛ لأنهم يعملون المباحات وغيرها؛ فالثواب لا يكون إلا على العمل الحسن؛ كقوله تعالى: ﴿ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٣٥) ﴾ [الزمر: ٣٥]، ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾: زيادة كثيرة عن الجزاء المقابل لأعمالهم. ﴿ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) ﴾: بل يعطيه من الأجر ما لا يبلغه عمله، بل ولا تبلغه أمنيته، ويعطيه من الأجر بلا عد ولا كيل، وهذا كناية عن كثرته جدًّا.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ

الجزء الثامن عشر — سورة النور

رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ
ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ (٣٧)
لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ
مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ
بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا
وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ (٣٩)
أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن
فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ
يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ (٤٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ
ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَـٰٓفَّـٰتٍ كُلٌّ قَدْ
عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ
ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ (٤٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى
سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ
خِلَـٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ
وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَـٰرِ (٤٣)

٣٥٥

حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ (٤٠) ﴾.

هذان مثلان ضربهما الله لأعمال الكفار في بطلانها وذهابها سدًى وتحسر عامليها منها، فقال:

(٣٩) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾: بربهم وكذبوا رسله ﴿ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ ﴾؛ أي: بقاع لا شجر فيه ولا نبت ﴿ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً ﴾: شديد العطش، الذي يتوهم ما لا يتوهم غيره، بسبب ما معه من العطش، وهذا حسبان باطل، فيقصده ليزيل ظمأه ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾: فندم ندمًا شديدًا، وازداد ما به من الظمأ بسبب انقطاع رجائه؛ كذلك أعمال الكفار بمنزلة السراب، ترى ويظنها الجاهل الذي لا يدري الأمور أعمالًا نافعة، فيغُرُّه صورتها، ويخلبه خيالها، ويحسبها هو أيضًا أعمالًا نافعة لهواه، وهو أيضًا محتاج إليها، بل مضطر إليها؛ كاحتياج الظمآن للماء، حتى إذا قدم على أعماله

يوم الجزاء؛ وجدها ضائعة، ولم يجدها شيئًا، والحال أنه لم يذهب لا له ولا عليه، بل ﴿ وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ﴾: لم يخف عليه من عمله نقير ولا قطمير، ولن يعدم منه قليلًا ولا كثيرًا. ﴿ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾: فلا يستبطئ الجاهلون ذلك الوعد؛ فإنه لا بد من إتيانه، ومثلها الله بالسراب الذي ﴿ بِقِيعَةٍ ﴾؛ أي: لا شجر فيه ولا نبات، وهذا مثال لقلوبهم؛ لا خير فيها ولا بر فتزكو فيها الأعمال، وذلك للسبب المانع، وهو الكفر.

﴿٤٠﴾ والمثل الثاني لبطلان أعمال الكفار: ﴿ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ ﴾: بعيد قعره طويل مداه، ﴿ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾: ظلمة البحر اللجي، ثم فوقه ظلمة الأمواج المتراكمة، ثم فوق ذلك ظلمة السحب المدلهمة، ثم فوق ذلك ظلمة الليل البهيم، فاشتدت الظلمة جدًّا؛ بحيث إن الكائن في تلك الحال ﴿ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ﴾: مع قربها إليه؛ فكيف بغيرها؟! كذلك الكفار تراكمت على قلوبهم الظلمات؛ ظلمة الطبيعة التي لا خير فيها، وفوقها ظلمة الكفر، وفوق ذلك ظلمة الجهل، وفوق ذلك ظلمة الأعمال الصادرة عما ذكر، فبقوا في الظلمة متحيرين، وفي غمرتهم يعمهون، وعن الصراط المستقيم مدبرين، وفي طرق الغي والضلال يترددون، وهذا لأن الله تعالى خذلهم فلم يعطهم من نوره. ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾: لأن نفسه ظالمة جاهلة، فليس فيها من الخير والنور إلا ما أعطاها مولاها ومنحها ربها.

يحتمل أن هذين المثالين لأعمال جميع الكفار؛ كل منهما منطبق عليها، وعدَّدهما لتعدد الأوصاف، ويحتمل أن كل مثال لطائفة وفرقة؛ فالأول للمتبوعين، والثاني للتابعين. والله أعلم.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿٤١﴾ نبه[1] تعالى عباده على عظمته وكمال سلطانه وافتقار جميع المخلوقات له في ربوبيتها وعبادتها، فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾: من حيوان وجماد، ﴿ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ﴾؛ أي: صافات أجنحتها في جو السماء تسبح ربها. ﴿ كُلٌّ ﴾: من هذه المخلوقات ﴿ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ﴾؛ أي: كل له صلاة وعبادة بحسب حاله اللائقة به، وقد ألهمه الله تلك الصلاة والتسبيح: إما بواسطة الرسل كالجن والإنس والملائكة، وإما بإلهام منه تعالى كسائر المخلوقات غير ذلك.

وهذا الاحتمال أرجح؛ بدليل قوله: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾؛ أي: علم جميع أفعالهم[2]، فلم يخف عليه منها شيء، وسيجازيهم بذلك، فيكون على هذا قد جمع بين علمه بأعمالهم، وذلك بتعليمه، وبين علمه بمقاصدهم[3] المتضمن للجزاء. ويحتمل أن الضمير في قوله: ﴿ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ﴾: يعود إلى الله، وأن الله تعالى قد علم عباداتهم، وإن لم تعلموا أيها العباد منها إلا ما أطلعكم الله عليه. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿٤٢﴾ فلما بين عبوديتهم وافتقارهم إليه من جهة العبادة والتوحيد؛ بين افتقارهم من جهة الملك والتربية والتدبير، فقال: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾: خالقهما ورازقهما والمتصرف فيهما في حكمه الشرعي والقدري في هذه الدار وفي حكمه الجزائي بدار القرار؛ بدليل قوله: ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ ﴾؛ أي: مرجع الخلق ومآلهم ليجازيهم بأعمالهم.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿٤٣﴾ أي: ألم تشاهد ببصرك عظيم قدرة الله وكيف ﴿ يُزْجِى ﴾؛ أي: يسوق ﴿ سَحَابًا ﴾: قطعًا متفرقة، ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ ﴾: بين تلك القطع، فيجعله سحابًا متراكمًا مثل الجبال ﴿ فَتَرَى ٱلْوَدْقَ ﴾؛ أي: الوابل والمطر يخرج من خلال السحاب نقطًا متفرقة؛ ليحصل بها الانتفاع من دون ضرر، فتمتلئ بذلك الغدران، وتتدفق الخلجان، وتسيل الأودية،

---

(١) ع: «ينبه».

(٢) ع، ط: «أفعالها».

(٣) ع، ط: «بأعمالها».

وتنبت الأرض من كل زوج كريم. وتـارة ينزل الله من ذلك السحاب بَرَدًا يتلف ما يصيبه ﴿ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ﴾؛ أي: بحسب ما اقتضاه[1] حكمه القدري وحكمته التي يحمد عليها، ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ ﴾؛ أي: يكاد ضوء برق ذلك السحاب من شدته ﴿ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ ﴾؛ أليس الذي أنشأها وساقها لعباده المفتقرين وأنزلها على وجه يحصل به النفع وينتفي به الضرر كامل القدرة نافذ المشيئة واسع الرحمة؟!

﴿٤٤﴾ ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾: من حر إلى برد، ومن برد إلى حر، ومن ليل إلى نهار، ونهار إلى ليل ويديل الأيام بين عباده. ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ ﴾؛ أي: لذوي البصائر والعقول النافذة للأمور المطلوبة منها كما تنفذ الأبصار إلى الأمور المشاهدة الحسية؛ فالبصير ينظر إلى هذه المخلوقات نظر اعتبار وتفكر وتدبر لما أريد بها ومنها، والمعرض الجاهل نظره إليها نظر غفلة بمنزلة نظر البهائم.

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿٤٥﴾ ينبه عباده على ما يشاهدونه أنه خلق جميع الدواب التي على وجه الأرض ﴿ مِّن مَّآءٍ ﴾؛ أي: مادتها كلها الماء؛ كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠]؛ فالحيوانات التي تتوالد، مادتها ماء النطفة حين يلقح الذكر الأنثى، والحيوانات التي تتولد من الأرض لا تتولد إلا من الرطوبات المائية؛ كالحشرات، لا يوجد منها شيء يتولد من غير ماء أبدًا؛ فالمادة واحدة، ولكن الخلقة مختلفة من وجوه كثيرة. ﴿ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ ﴾؛ كالحية ونحوها، ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ ﴾؛ كالآدميين وكثير من الطيور، ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ﴾؛ كبهيمة الأنعام ونحوها؛ فاختلافها مع أن الأصل واحد يدل على نفوذ مشيئة الله وعموم قدرته. ولهذا قال: ﴿ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾؛ أي: من المخلوقات على ما يشاؤه من الصفات. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ ﴾؛ كما أنزل المطر على الأرض، وهو لقاح واحد، والأم واحدة، وهي الأرض، والأولاد مختلفو الأصناف والأوصاف. ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ

(١) عبارة: «ما اقتضاه» وردت في الأصل، ط: «اقتضاء».

يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾
وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن
يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ
وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ
ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ
ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ
يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ
أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾
إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ
أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن
يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ
﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل
لَّا تُقْسِمُواْ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾

وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [الرعد: ٤].

﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿٤٦﴾ أي: لقد رحمنا عبادنا وأنزلنا إليهم آيات بينات؛ أي: واضحات الدلالة على جميع المقاصد الشرعية والآداب المحمودة والمعارف الرشيدة، فاتضحت بذلك السبل، وتبين الرشد من الغي والهدى من الضلال؛ فلم يبق أدنى شبهة لمبطل يتعلق بها، ولا أدنى إشكال لمريد الصواب؛ لأنها تنزيل من كمل علمه وكملت رحمته وكمل بيانه؛ فليس بعد بيانه بيان. ليهلك بعد ذلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة. ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾: ممن سبقت لهم سابقة الحسنى وقدم الصدق ﴿ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ ﴾؛ أي: طريق واضح مختصر موصل إليه وإلى دار كرامته متضمن العلم بالحق وإيثاره والعمل به. عمم البيان التام لجميع الخلق، وخصص بالهداية من يشاء؛ فهذا فضله

وإحسانه، وما فضل الكريم بممنون، وذاك عدله، وقطع الحجة للمحتج، والله أعلم حيث يجعل مواقع إحسانه.

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿٤٧﴾ يخبر تعالى عن حالة الظالمين ممن في قلبه مرض وضعف إيمان أو نفاق وريب وضعف، علم أنهم يقولون بألسنتهم ويلتزمون الإيمان بالله والطاعة، ثم لا يقومون بما قالوا، ويتولى فريق منهم عن الطاعة توليًا عظيمًا؛ بدليل قوله: ﴿ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٣]؛ فإن المتولي قد يكون له نية عود ورجوع إلى ما تولى عنه، وهذا المتولي معرض لا التفات له ولا نظر لما تولى عنه. وتجد هذه الحالة مطابقة لحال كثير ممن يدعي الإيمان والطاعة لله، وهو ضعيف الإيمان، تجده لا يقوم بكثير من العبادات، خصوصًا العبادات التي تشق على كثير من النفوس؛ كالزكوات، والنفقات الواجبة والمستحبة، والجهاد في سبيل الله، ونحو ذلك.

﴿٤٨﴾ ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾؛ أي: إذا صار بينهم وبين أحد حكومة ودعوا إلى حكم الله ورسوله، ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾: يريدون أحكام الجاهلية ويفضلون أحكام القوانين غير الشرعية على الأحكام الشرعية؛ لعلمهم أن الحق عليهم، وأن الشرع لا يحكم إلا بما يطابق الواقع.

﴿٤٩﴾ ﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾؛ أي: إلى حكم الشرع ﴿ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾: وليس ذلك لأجل أنه حكم شرعي، وإنما ذلك لأجل موافقة أهوائهم؛ فليسوا ممدوحين في هذه الحال، ولو أتوا إليه مذعنين؛ لأن العبد حقيقة من يتبع الحق فيما يحب ويكره، وفيما يسره ويحزنه. وأما الذي يتبع الشرع عند موافقة هواه وينبذه عند مخالفته، ويقدم الهوى على الشرع؛ فليس بعبد على الحقيقة.

﴿٥٠﴾ قال الله في لومهم على الإعراض عن الحكم الشرعي: ﴿ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾؛ أي: علة أخرجت القلب عن صحته وأزالت حاسته فصار بمنزلة المريض الذي يعرض عما ينفعه ويقبل على ما يضره. ﴿ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ ﴾؛ أي: شكوا وقلقت قلوبهم من حكم الله ورسوله واتهموه أنه لا يحكم بالحق. ﴿ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ﴾؛ أي: يحكم عليهم حكمًا ظالمًا جائرًا، وإنما هذا وصفهم؛ ﴿ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾، وأما حكم الله ورسوله؛ ففي غاية العدالة والقسط وموافقة الحكمة، ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المائدة: ٥٠].

وفي هذه الآيات دليل على أن الإيمان ليس هو مجرد القول حتى يقترن به العمل، ولهذا نفى الإيمان عمن تولى عن الطاعة ووجوب الانقياد لحكم الله ورسوله في كل حال، وأن من لم ينقد له دل على مرض في قلبه وريب في إيمانه، وأنه يحرم إساءة الظن بأحكام الشريعة، وأن يظن بها خلاف العدل والحكمة.

ولما ذكر حالة المعرضين عن الحكم الشرعي، ذكر حالة المؤمنين الممدوحين، فقال:

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿٥١﴾ أي: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾: حقيقة، الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم ﴿ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾: سواء وافق أهواءهم أو خالفها، ﴿ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾؛ أي: سمعنا حكم الله ورسوله وأجبنا من دعانا إليه وأطعنا طاعة تامة سالمة من الحرج. ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾: حصر الفلاح فيهم؛ لأن الفلاح الفوز بالمطلوب والنجاة من المكروه، ولا يفلح إلا من حكَّم الله ورسوله وأطاع الله ورسوله.

﴿٥٢﴾ ولما ذكر فضل الطاعة في الحكم خصوصًا؛ ذكر فضلها عمومًا في جميع الأحوال، فقال: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾: فيصدق خبرهما ويمتثل أمرهما ﴿ وَيَخْشَ ٱللَّهَ ﴾؛ أي: يخافه خوفًا مقرونًا بمعرفة، فيترك ما نهى عنه، ويكف نفسه عما تهوى، ولهذا قال: ﴿ وَيَتَّقْهِ ﴾: بترك المحظور؛ لأن التقوى عند الإطلاق يدخل فيها فعل المأمور وترك المنهي عنه، وعند اقترانها بالبر أو الطاعة - كما في هذا الموضع - تفسر بتوقي عذاب الله بترك معاصيه. ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾: الذين

جمعوا بين طاعة الله وطاعة رسوله، وخشية الله وتقواه ﴿ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾: بنجاتهم من العذاب؛ لتركهم أسبابه، ووصولهم إلى الثواب؛ لفعلهم أسبابه؛ فالفوز محصور فيهم، وأما من لم يتصف بوصفهم؛ فإنه يفوته من الفوز بحسب ما قصر عنه من هذه الأوصاف الحميدة.

واشتملت هذه الآية على الحق المشترك بين الله وبين رسوله، وهو الطاعة المستلزمة للإيمان، والحق المختص بالله، وهو الخشية والتقوى، وبقي الحق الثالث المختص بالرسول، وهو التعزير والتوقير؛ كما جمع بين الحقوق الثلاثة في سورة الفتح في قوله: ﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ [الفتح: ٩].

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿٥٣﴾ يخبر تعالى عن حالة المتخلفين عن الرسول ﷺ في الجهاد من المنافقين ومن في قلوبهم مرض وضعف إيمان أنهم يقسمون بالله: ﴿ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ ﴾: فيما يستقبل أو لئن نصصت عليهم حين خرجت؛ ﴿ لَيَخْرُجُنَّ ﴾ والمعنى الأول أولى. قال الله رادًّا عليهم: ﴿ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ﴾؛ أي: لا نحتاج إلى إقسامكم وإلى أعذاركم؛ فإن الله قد نبأنا من أخباركم. وطاعتكم معروفة لا تخفى علينا، قد كنا نعرف منكم التثاقل والكسل من غير عذر؛ فلا وجه لعذركم وقسمكم، إنما يحتاج إلى ذلك من كان أمره محتملًا وحاله مشتبهة؛ فهذا ربما يفيده العذر براءة، وأما أنتم؛ فكلا ولما، وإنما يُنتظر بكم ويخاف عليكم حلول بأس الله ونقمته، ولهذا توعدهم بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾: فيجازيكم عليها أتم الجزاء.

﴿٥٤﴾ هذه حالهم في نفس الأمر، وأما الرسول عليه الصلاة والسلام؛ فوظيفته أن يأمركم وينهاكم، ولهذا قال: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾ فإن امتثلوا؛ كان حظهم وسعادتهم، وإن ﴿ تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ ﴾: من الرسالة، وقد أداها، ﴿ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ﴾: من الطاعة، وقد بانت حالكم وظهرت، فبان ضلالكم وغيكم واستحقاقكم العذاب. ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ﴾: إلى الصراط المستقيم

قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾

قولًا وعملًا؛ فلا سبيل لكم إلى الهداية إلا بطاعته، وبدون ذلك لا يمكن، بل هو محال. ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾؛ أي: تبليغكم البين الذي لا يبقي لأحد شكًّا ولا شبهة، وقد فعل ﷺ؛ بلغ البلاغ المبين، وإنما الذي يحاسبكم ويجازيكم هو الله تعالى؛ فالرسول ليس له من الأمر شيء، وقد قام بوظيفته.

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿٥٥﴾ هذا من وعوده[1] الصادقة التي شوهد تأويلها ومخبرها؛ فإنه وعد من قام بالإيمان والعمل الصالح من هذه الأمة أن يستخلفهم في الأرض، فيكونون هم الخلفاء

(١) ع، ط: «أوعاده».

فيها، المتصرفين في تدبيرها، وأنه يمكّن ﴿ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾، وهو دين الإسلام الذي فاق الأديان كلها، ارتضاه لهذه الأمة لفضلها وشرفها ونعمته عليها بأن يتمكنوا من إقامته وإقامة شرائعه الظاهرة والباطنة في أنفسهم وفي غيرهم؛ لكون غيرهم من أهل الأديان وسائر الكفار مغلوبين ذليلين، وأنه يبدلهم أمنًا ﴿ مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ ﴾؛ حيث كان الواحد منهم لا يتمكن من إظهار دينه وما هو عليه إلا بأذى كثير من الكفار، وكون جماعة المسلمين قليلين جدًّا بالنسبة إلى غيرهم، وقد رماهم أهل الأرض عن قوس واحدة، وبغوا لهم الغوائل، فوعدهم الله هذه الأمور وقت نزول الآية، وهي لم تشاهد الاستخلاف في الأرض والتمكين فيها والتمكين من إقامة الدين الإسلامي والأمن التام بحيث يعبدون الله ولا يشركون به شيئًا ولا يخافون أحدًا إلا الله، فقام صدر هذه الأمة من الإيمان والعمل الصالح بما يفوق[1] على غيرهم، فمكنهم من البلاد والعباد، وفتحت مشارق الأرض ومغاربها، وحصل الأمن التام والتمكين التام؛ فهذا من آيات الله العجيبة الباهرة، ولا يزال الأمر إلى قيام الساعة، مهما قاموا بالإيمان والعمل الصالح؛ فلا بد أن يوجد ما وعدهم الله، وإنما يسلط عليهم الكفار والمنافقين ويديلهم في بعض الأحيان بسبب إخلال المسلمين بالإيمان والعمل الصالح.

﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾: التمكين والسلطنة التامة لكم يا معشر المسلمين، ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٥٥ ﴾: الذين خرجوا عن طاعة الله وفسدوا، فلم يصلحوا لصالح، ولم يكن فيهم أهلية للخير؛ لأن الذي يترك الإيمان في حال عزه وقهره وعدم وجود الأسباب المانعة منه يدل على فساد نيته وخبث طويته؛ لأنه لا داعي له لترك الدين إلا ذلك.

ودلت هذه الآية أن الله قد مكن مَنْ قبلنا واستخلفهم في الأرض؛ كما قال موسى لقومه: ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۝١٢٩ ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [القصص: ٥، ٦].

﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٥٦ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٥٧ ﴾.

(١) ع: «يفوقون».

۝٥٦ يأمر تعالى بإقامة الصلاة بأركانها وشروطها وآدابها ظاهرًا وباطنًا، وبإيتاء الزكاة من الأموال التي استخلف الله عليها العباد وأعطاهم إياها؛ بأن يؤتوها الفقراء وغيرهم ممن ذكرهم الله لمصرف الزكاة؛ فهذان أكبر الطاعات وأجلهما، جامعتان لحقه وحق خلقه، للإخلاص للمعبود وللإحسان إلى العبيد. ثم عطف عليهما الأمر العام، فقال: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾: وذلك بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ومن ﴿ يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾: حين تقومون بذلك ﴿ تُرْحَمُونَ ۝٥٦ ﴾: فمن أراد الرحمة؛ فهذا طريقها، ومن رجاها من دون إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإطاعة الرسول؛ فهو متمنٍّ كاذب، وقد منته نفسه الأماني الكاذبة.

۝٥٧ ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾: فلا يغررك ما متعوا به في الحياة الدنيا؛ فإن الله وإن أمهلهم؛ فإنه لا يهملهم؛ ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٢٤ ﴾ [لقمان: ٢٤]. ولهذا قال هنا: ﴿ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٥٧ ﴾؛ أي: بئس المآل مآل الكافرين؛ مآل الشر والحسرة والعقوبة الأبدية.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٨ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٩ ﴾.

۝٥٨ أمر المؤمنين أن يستأذنهم مماليكهم والذين لم يبلغوا الحلم منهم، قد ذكر الله حكمته، وأنه ثلاث عوارت للمستأذن عليهم؛ وقت نومهم بالليل بعد العشاء، وعند انتباههم قبل صلاة الفجر؛ فهذا في الغالب أن النائم يستعمل للنوم في الليل ثوبًا غير ثوبه المعتاد، وأما نوم النهار؛ فلمَّا كان في الغالب قليلًا قد ينام فيه العبد بثيابه المعتادة؛ قيده بقوله: ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ ﴾؛ أي: للقائلة وسط النهار؛ ففي ثلاثة هذه الأحوال يكون المماليك والأولاد الصغار كغيرهم لا يمكنون من الدخول إلا بإذن، وأما ما عدا

هـذه الأحوال الثلاثة؛ فقال: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ﴾؛ أي: ليسـوا كغيرهـم؛ فإنهـم يحتاج إليهـم دائمًا، فيشق الاستئذان منهم في كل وقت، ولهذا قال: ﴿ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾؛ أي: يترددون عليكم في قضاء أشغالكم وحوائجكم. ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ ﴾: بيانًا مقرونًـا بحكمتـه؛ ليتأكـد ويتقـوى ويعرف به رحمة شـارعه وحكمته، ولهذا قـال: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ ﴾: له العلم المحيـط بالواجبات والمستحيلات والممكنـات والحكمة التي وضعت كل شيء مواضعه[1]، فأعطى كل مخلوق خلقه اللائـق به، وأعطى كل حكم شـرعي حكمه اللائـق به، ومنه هذه الأحكام التي بينها وبين مآخذها وحسنها.

﴿٥٩﴾ ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ ﴾: وهـو إنـزال المنـي يقظـة أو منامًـا؛ ﴿ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾؛ أي: فـي سـائر الأوقات، والذيـن من قبلهم هم الذيـن ذكرهـم اللـه بقولـه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ ﴾ الآيـة. ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾: ويوضحهـا ويفصـل أحكامها. ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾.

وفي هاتين الآيتين فوائد:

منهـا: أن السـيد وولي الصغيـر مخاطبان بتعليـم عبيدهم ومـن تحت ولايتهـم مـن الأولاد العلم والآداب الشـرعية؛ لأن اللـه وجه الخطـاب إليهم بقولـه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ ﴾ الآيـة، ولا يمكـن ذلـك إلا بالتعليـم والتأديـب، ولقوله: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ﴾.

ومنهـا: الأمـر بحفـظ العـورات والاحتياط لذلـك من كل وجه، وأن المحل والمكان الذي هو مظنة لرؤية عورة الإنسان فيه، أنه منهي عن الاغتسال فيه والاستنجاء ونحو ذلك.

ومنها: جواز كشـف العـورة لحاجة؛ كالحاجـة عند النوم وعند البول والغائط ونحو ذلك.

ومنها: أن المسلمين كانوا معتادين القيلولة وسط النهار؛ كما اعتادوا نوم الليل؛ لأن الله خاطبهم ببيان حالهم الموجودة.

(١) ع: «موضعه».

وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

٣٥٨

ومنهـا: أن الصغيـر الـذي دون البلـوغ لا يجـوز أن يمكَّن مـن رؤية العورة، ولا يجوز أن تـرى عورته؛ لأن الله لم يأمر باستئذانهم إلا عن أمر ما يجوز.

ومنها: أن المملوك أيضًا لا يجوز أن يرى عورة سيده؛ كما أن سيده لا يجوز أن يرى عورته؛ كما ذكرنا في الصغير.

ومنها: أنه ينبغي للواعظ والمعلم ونحوهم ممن يتكلم في مسائل العلم الشـرعي أن يقرن بالحكم بيان مأخذه ووجهه، ولا يلقيه مجردًا عن الدليل والتعليل؛ لأن الله لما بين الحكم المذكور؛ علله بقوله: ﴿ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ﴾.

ومنها: أن الصغير والعبد مخاطبان كما أن وليهما مخاطب؛ لقوله: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ﴾.

ومنها: أن ريق الصبي طاهر، ولو كان بعد نجاسة؛ كالقيء؛ لقولـه تعالـى: ﴿ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ ﴾؛ مع قـول النبي ﷺ حين سئل عن الهرة: «إنها ليست بنجس، إنها من الطوافين عليكم والطوافات»[2].

(٢) أبو داود (٧٥)، الترمذي (٩٢).

ومنها: جواز استخدام الإنسان من تحت يده من الأطفال على وجه معتاد لا يشق على الطفل؛ لقوله: ﴿ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم ﴾. ومنها: أن الحكم المذكور المفصل إنما هو لما دون البلوغ، وأما ما بعد البلوغ؛ فليس إلا الاستئذان.

ومنها: أن البلوغ يحصل بالإنزال، فكل حكم شرعي رتب على البلوغ؛ حصل بالإنزال، وهذا مجمع عليه، وإنما الخلاف هل يحصل البلوغ بالسن أو الإنبات للعانة. والله أعلم.

﴿ وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿٦٠﴾ ﴿ وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾؛ أي: اللاتي قعدن عن الاستمتاع والشهوة، ﴿ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا ﴾؛ أي: لا يطمعن في النكاح ولا يُطمع فيهن، وذلك لكونها عجوزًا لا تشتهي أو دميمة الخلقة لا تُشتهى ولا تشتهي. ﴿ فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ ﴾؛ أي: حرج وإثم، ﴿ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾؛ أي: الثياب الظاهرة كالخمار ونحوه، الذي قال الله فيه للنساء: ﴿ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١]؛ فهؤلاء يجوز لهن أن يكشفن وجوههن لأمن المحذور منها وعليها.

ولما كان نفي الحرج عنهن في وضع الثياب ربما توهم منه جواز استعمالها لكل شيء؛ دفع هذا الاحتراز بقوله: ﴿ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖ ﴾؛ أي: غير مظهرات للناس زينة من تجمل بثياب ظاهرة، وتَسَتُّرُ وجهها، ومن ضرب الأرض برجلها[١] ليعلم ما تخفي من زينتها؛ لأن مجرد الزينة على الأنثى، ولو مع تسترها، ولو كانت لا تشتهى؛ يفتن فيها ويوقع الناظر إليها في الحرج. ﴿ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّ ﴾: والاستعفاف طلب العفة بفعل الأسباب المقتضية لذلك من تزوج وترك لما يخشى منه الفتنة. ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾: لجميع الأصوات. ﴿ عَلِيمٞ ﴿٦٠﴾ ﴾: بالنيات والمقاصد؛ فليحذرن من كل قول وقصد فاسد، ويعلمن أن الله يجازي على ذلك.

﴿ لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

﴿٦١﴾ يخبر تعالى عن منته على عباده، وأنه لم يجعل عليهم في الدين من حرج، بل يسره غاية التيسير، فقال: ﴿ لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ ﴾؛ أي: ليس على هؤلاء جناح في ترك الأمور الواجبة التي تتوقف على واحد منها، وذلك كالجهاد ونحوه مما يتوقف على بصر الأعمى أو سلامة الأعرج أو صحة المريض، ولهذا المعنى العام الذي ذكرناه؛ أطلق الكلام في ذلك، ولم يقيد؛ كما قيد قوله: ﴿ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ ﴾؛ أي حرج، ﴿ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ ﴾؛ أي: بيوت أولادكم. وهذا موافق للحديث الثابت: «**أنت ومالك لأبيك**»[٢]، والحديث الآخر: «**إن أطيب ما أكلتم من كسبكم، وإن أولادكم من كسبكم**»[٣].

وليس المراد من قوله: ﴿ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ ﴾: بيت الإنسان نفسه؛ فإن هذا من باب تحصيل الحاصل، الذي ينزه عنه كلام الله، ولأنه نفي الحرج عما يظن أو يتوهم فيه الإثم من هؤلاء المذكورين، وأما بيت الإنسان نفسه؛ فليس فيه أدنى توهم. ﴿ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ ﴾: وهؤلاء معروفون. ﴿ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ ﴾؛ أي: البيوت التي أنتم متصرفون فيها بوكالة أو ولاية ونحو ذلك، وأما تفسيرها بالمملوك؛ فليس بوجيه؛ لوجهين: أحدهما: أن المملوك لا يقال فيه: ملكت مفاتحه، بل يقال: ما ملكتموه، أو: ما ملكت أيمانكم؛ لأنهم مالكون له جملة، لا لمفاتحه فقط. والثاني: أن بيوت المماليك غير خارجة عن بيت الإنسان نفسه؛ لأن المملوك وما ملكه لسيده؛ فلا وجه لنفي الحرج عنه.

---

(١) ليس في: الأصل، ط.

(٢) أبو داود (٣٥٣٠)، ابن ماجه (٢٢٩١).

(٣) أبو داود (٣٥٢٨)، النسائي (٧/ ٢٤٠).

﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾: وهذا الحرج المنفي عن الأكل من هذه البيوت؛ كل ذلك إذا كان بدون إذن، والحكمة فيه معلومة من السياق؛ فإن هؤلاء المسمين قد جرت العادة والعرف بالمسامحة في الأكل منها؛ لأجل القرابة القريبة أو التصرف التام أو الصداقة؛ فلو قدر في أحد من هؤلاء عدم المسامحة والشح في الأكل المذكور؛ لم يجز الأكل ولم يرتفع الحرج نظرًا للحكمة والمعنى. وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾؛ فكل ذلك جائز؛ أكل أهل البيت الواحد جميعًا، أو أكل كل واحد منهم وحده، وهذا نفي للحرج لا نفي للفضيلة، وإلا؛ فالأفضل الاجتماع على الطعام. ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾: نكرة في سياق الشرط؛ يشمل بيت الإنسان وبيت غيره، سواء كان في البيت ساكن أم لا؛ فإذا دخلها الإنسان؛ ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: فَلْيُسَلِّمْ بعضكم على بعض؛ لأن المسلمين كأنهم شخص واحد من توادهم وتراحمهم وتعاطفهم؛ فالسلام مشروع لدخول سائر البيوت؛ من غير فرق بين بيت وبيت، والاستئذان تقدم أن فيه تفصيلًا في أحكامه، ثم مدح هذا السلام، فقال: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾؛ أي: سلامكم بقولكم: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أو: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين؛ إذ تدخلون البيوت ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾؛ أي: قد شرعها لكم وجعلها تحيتكم، ﴿مُبَارَكَةً﴾: لاشتمالها على السلامة من النقص وحصول الرحمة والبركة والنماء والزيادة، ﴿طَيِّبَةً﴾: لأنها من الكلم الطيب المحبوب عند الله، الذي فيه طيب نفس للمحيا ومحبة وجلب مودة.

لما بين لنا هذه الأحكام الجليلة؛ قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾: الدالات على أحكامه الشرعية وحكمها ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٦١﴾: عنه؛ فتفهمونها وتعقلونها بقلوبكم، ولتكونوا من أهل العقول والألباب الرزينة؛ فإن معرفة أحكامه الشرعية على وجهها يزيد في[1] العقل وينمو به اللب؛ لكون معانيها أجل المعاني وآدابها أجل الآداب، ولأن الجزاء من جنس العمل؛ فكما استعمل عقله للعقل عن ربه وللتفكر في آياته التي دعاه إليها؛ زاده من ذلك.

وفي هذه الآيات دليل على قاعدة عامة كلية، وهي: أن العرف والعادة مخصص للألفاظ؛ كتخصيص اللفظ للفظ؛ فإن الأصل أن الإنسان ممنوع من تناول طعام غيره مع أن الله أباح الأكل من بيوت هؤلاء للعرف والعادة؛ فكل مسألة تتوقف على الإذن من مالك الشيء إذا عُلم إذنه بالقول أو العرف؛ جاز الإقدام عليه.

وفيها: دليل على أن الأب يجوز له أن يأخذ ويتملك من مال ولده ما لا يضره؛ لأن الله سمى بيته بيتًا للإنسان.

وفيها: دليل على أن المتصرف في بيت الإنسان كزوجته وأخته ونحوهما يجوز لهما الأكل عادة وإطعام السائل المعتاد.

وفيها: دليل على جواز المشاركة في الطعام، سواء أكلوا مجتمعين أو متفرقين، ولو أفضى ذلك إلى أن يأكل بعضهم أكثر من بعض.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٦٢ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦٣ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٦٤﴾.

۝٦٢ هذا إرشاد من الله لعباده المؤمنين أنهم إذا كانوا مع الرسول ﷺ على أمر جامع؛ أي: من ضرورته أو مصلحته أن يكونوا فيه جميعًا؛ كالجهاد والمشاورة ونحو ذلك من الأمور التي يشترك فيها المؤمنون؛ فإن المصلحة تقتضي اجتماعهم عليه وعدم تفرقهم؛ فالمؤمن بالله ورسوله حقًا لا يذهب لأمر من الأمور؛ لا يرجع لأهله، ولا يذهب لبعض الحوائج التي يشذ بها عنهم؛ إلا بإذن من الرسول أو نائبه من بعده، فجعل موجب الإيمان عدم الذهاب إلا بإذن، ومدحهم على فعلهم هذا وأدبهم مع رسوله وولي الأمر منهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: ولكن؛ هل يأذن لهم أم لا؟ ذكر لإذنه لهم شرطين؛ أحدهما: أن يكون لشأن من شئونهم وشغل من أشغالهم، فأما من

(١) ع: «به».

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ
عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ
أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ
لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ
ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ
بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ
أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ
مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ
يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

سورة الفرقان (٢٥) آياتها (٧٧)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا
﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ
يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾

يستأذن من غير عذر؛ فلا يؤذن له. والثاني: أن يشاء الإذن، فتقتضيه المصلحة من دون مضرة بالآذن؛ قال: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾: فإذا كان له عذر، واستأذن؛ فإن كان في قعوده وعدم ذهابه مصلحة برأيه أو شجاعته ونحو ذلك؛ لم يأذن له. ومع هذا؛ إذا استأذن وأذن له بشرطيه؛ أمر الله رسوله أن يستغفر له لما عسى أن يكون مقصرًا في الاستئذان، ولهذا قال: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾: يغفر لهم الذنوب، ويرحمهم؛ بأن جوز لهم الاستئذان مع العذر.

﴿٦٣﴾ ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾(1)؛ فإذا دعاكم فأجيبوه وجوبًا، حتى إنه تجب إجابة الرسول ﷺ في حال الصلاة، وليس أحد إذا قال قولًا يجب على الأمة قبول قوله والعمل به إلا الرسول؛ لعصمته، وكوننا مخاطبين باتباعه؛ قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]. وكذلك لا تجعلوا دعاءكم للرسول كدعاء بعضكم بعضًا؛ فلا تقولوا: يا محمد، عند ندائكم، أو: يا محمد بن عبد الله! كما يقول ذلك بعضكم لبعض، بل من شرفه وفضله وتميُّزه ﷺ عن غيره أن يقال: يا رسول الله، يا نبي الله. ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾. لما مدح المؤمنين بالله ورسوله الذين إذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه؛ توعد من لم يفعل ذلك وذهب من غير استئذان؛ فهو وإن خفي عليكم بذهابه على وجه خفي، وهو المراد بقوله: ﴿يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾؛ أي: يلوذون وقت تسللهم وانطلاقهم بشيء يحجبهم عن العيون؛ فالله يعلمهم، وسيجازيهم على ذلك أتم الجزاء، ولهذا توعدهم بقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾؛ أي: يذهبون إلى بعض شئونهم عن أمر الله ورسوله؛ فكيف بمن لم يذهب إلى شأن من شئونه، وإنما ترك أمر الله من دون شغل له؛ ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾؛ أي: شرك وشر، ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿٦٤﴾ ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: ملكًا وعبيدًا يتصرف فيهم بحكمه القدري وحكمه الشرعي. ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾؛ أي: قد أحاط علمه بما أنتم عليه من خير وشر، وعلم جميع أعمالكم؛ أحصاها علمه، وجرى بها قلمه، وكتبتها عليكم الحفظة الكرام الكاتبون. ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟﴾: يخبرهم بجميع أعمالهم؛ دقيقها وجليلها؛ إخبارًا مطابقًا لما وقع منهم، ويستشهد عليهم أعضاءهم؛ فلا يعدمون منه فضلًا أو عدلًا. ولما قيد علمه بأعمالهم؛ ذكر العموم بعد الخصوص، فقال: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾.



(١) زاد بعده في ع، ط: «أي: لا تجعلوا دعاء الرسول إياكم، ودعاءكم للرسول كدعاء بعضكم بعضًا».

تفسير سورة الفرقان
وهي مكية عند الجمهور

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢ ﴾.

۝١ هذا بيان لعظمته الكاملة وتفرده بالوحدانية من كل وجه وكثرة خيراته وإحسانه، فقال: ﴿ تَبَارَكَ ﴾؛ أي: تعاظم، وكملت أوصافه، وكثرت خيراته، الذي من أعظم خيراته ونعمه أن نزل هذا القرآن الفارق بين الحلال والحرام والهدى والضلال وأهل السعادة من أهل الشقاوة، ﴿ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾: محمد ﷺ، الذي كمل مراتب العبودية وفاق جميع المرسلين؛ ﴿ لِيَكُونَ ﴾: ذلك الإنزال للفرقان على عبده ﴿ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾: ينذرهم بأس الله ونقمه ويبين لهم مواقع رضا الله من سخطه، حتى إن مَنْ قَبِل نذارته وعمل بها؛ كان من الناجين في الدنيا والآخرة، الذين حصلت لهم السعادة الأبدية والملك السرمدي؛ فهل فوق هذه النعمة وهذا الفضل والإحسان شيء؟! فتبارك الذي هذا بعض إحسانه وبركاته.

۝٢ ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي: له التصرف فيهما وحده، وجميع من فيهما مماليك وعبيد له، مذعنون لعظمته، خاضعون لربوبيته، فقراء إلى رحمته، الذي لم ﴿ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾: وكيف يكون له ولد أو شريك؛ وهو المالك وغيره مملوك، وهو القاهر وغيره مقهور، وهو الغني بذاته من جميع الوجوه والمخلوقون مفتقرون إليه فقراء[1] من جميع الوجوه؟! وكيف يكون له شريك في الملك ونواصي العباد كلهم بيديه؛ فلا يتحركون أو يسكنون ولا يتصرفون إلا بإذنه؛ فتعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا؛ فلم يقدره حق قدره من قال فيه ذلك، ولهذا قال: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾: شمل العالم العلوي والعالم السفلي من حيواناته ونباتاته وجماداته، ﴿ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢ ﴾؛ أي: أعطى كل مخلوق منها ما يليق به ويناسبه من الخلق وما تقتضيه حكمته من ذلك؛ بحيث صار كل مخلوق لا يتصور العقل الصحيح أن يكون بخلاف شكله وصورته المشاهدة، بل كل جزء وعضو من المخلوق الواحد لا يناسبه غير محله الذي هو فيه؛ قال تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ ﴾ [الأعلى: ١-٣]، وقال تعالى: ﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ ﴾ [طه: ٥٠].

ولما بين كماله وعظمته وكثرة إحسانه؛ كان ذلك مقتضيًا لأن يكون وحده المحبوب المألوه المعظم المفرد بالإخلاص وحده لا شريك له؛ ناسب أن يذكر بطلان عبادة ما سواه، فقال:

﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣ ﴾.

۝٣ أي: من أعجب العجائب وأدل الدليل على سفههم ونقص عقولهم، بل أدل على ظلمهم وجراءتهم على ربهم: أن اتخذوا آلهة بهذه الصفة، وبلغ من عجزها أنها لا تقدر على خلق شيء، بل هم مخلوقون، بل بعضهم مما عملته أيديهم، ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾؛ أي: لا قليلًا ولا كثيرًا؛ لأنه نكرة في سياق النفي. ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣ ﴾؛ أي: بعثًا بعد الموت. فأعظم أحكام العقل بطلان إلهيتها وفسادها وفساد عقل من اتخذها آلهة وشركاء للخالق لسائر المخلوقات من غير مشاركة له في ذلك، الذي بيده النفع والضر والعطاء والمنع، الذي يحيي ويميت ويبعث من في القبور ويجمعهم يوم النشور، وقد جعل لهم دارين: دار الشقاء والخزي والنكال لمن اتخذ معه آلهة أخرى، ودار الفوز والسعادة والنعيم المقيم لمن اتخذه وحده معبودًا.

ولما قرر بالدليل القاطع الواضح صحة التوحيد وبطلان ضده؛ قرر صحة الرسالة وبطلان قول من عارضها واعترضها، فقال:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً

---

(١) ع، ط: «فقرًا ذاتيًّا».

وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾

وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾.

﴿٤﴾ أي: وقال الكافرون بالله، الذي أوجب لهم كفرهم أن قالوا في القرآن والرسول: إن هذا القرآن كذب كذبه محمد، وإفك افتراه على الله، وأعانه على ذلك قوم آخرون؛ فرد الله عليهم ذلك بأن هذا مكابرة منهم وإقدام على الظلم والزور الذي لا يمكن أن يدخل عقل أحد؛ وهم أشد الناس معرفة بحالة الرسول ﷺ وكمال صدقه وأمانته وبره التام، وأنه لا يمكنه لا هو ولا سائر الخلق أن يأتوا بهذا القرآن الذي هو أجل الكلام وأعلاه، وأنه لم يجتمع بأحد يعينه على ذلك؛ ﴿ فَقَدْ جَآءُو ﴾ بهذا القول ﴿ ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ ﴾.

﴿٥﴾ ومن جملة أقاويلهم فيه أن قالوا: هذا الذي جاء به محمد ﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا ﴾؛ أي: هذا قصص الأولين وأساطيرهم، التي تتلقاها الأفواه وينقلها كل أحد، استنسخها محمد؛ ﴿ فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾: وهذا القول منهم فيه عدة عظائم:

منها: رميهم الرسول الذي هو أبر الناس وأصدقهم بالكذب والجرأة العظيمة.

ومنها: إخبارهم عن هذا القرآن -الذي هو أصدق الكلام وأعظمه وأجله- بأنه كذب وافتراء.

ومنها: أن في ضمن ذلك أنهم قادرون أن يأتوا بمثله، وأن يضاهي المخلوق الناقص من كل وجه الخالق الكامل من كل وجه بصفة من صفاته، وهي الكلام.

ومنها: أن الرسول قد علمت حاله، وهم أشد الناس علمًا بها؛ أنه لا يكتب ولا يجتمع بمن يكتب له؛ وهم قد زعموا ذلك.

﴿٦﴾ فلذلك رد عليهم ذلك بقوله: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي: أنزله من أحاط علمه بما في السماوات وما في الأرض من الغيب والشهادة والجهر والسر؛ كقوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٤]. ووجه إقامة الحجة عليهم أن الذي أنزله هو المحيط علمه بكل شيء، فيستحيل ويمتنع أن يقول مخلوق ويتقول عليه هذا القرآن، ويقول: هو من عند الله، وما هو من عنده، ويستحل دماء من خالفه وأموالهم، ويزعم أن الله قال له ذلك، والله يعلم كل شيء، ومع ذلك؛ فهو يؤيده وينصره على أعدائه ويمكنه من رقابهم وبلادهم؛ فلا يمكن أحدًا أن ينكر هذا القرآن إلا بعد إنكار علم الله، وهذا لا يقول به طائفة من بني آدم سوى الفلاسفة الدهرية.

وأيضًا: فإن ذكر علمه تعالى العام ينبههم ويحضهم على تدبر القرآن، وأنهم لو تدبروا؛ لرأوا فيه من علمه وأحكامه ما يدل دلالة قاطعة على أنه لا يكون إلا من عالم الغيب والشهادة.

ومع إنكارهم للتوحيد والرسالة؛ من لطف الله بهم أنه لم يدعهم وظلمهم، بل دعاهم إلى التوبة والإنابة إليه، ووعدهم بالمغفرة والرحمة إن هم تابوا ورجعوا، فقال: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا ﴾؛ أي: وصفه المغفرة لأهل الجرائم والذنوب إذا فعلوا أسباب المغفرة، وهي الرجوع عن معاصيه والتوبة منها. ﴿ رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾: بهم؛ حيث لم يعاجلهم بالعقوبة وقد فعلوا مقتضاها، وحيث قبل توبتهم

بعد المعاصي، وحيث محا ما سلف من سيئاتهم، وحيث قبل حسناتهم، وحيث أعاد الراجع إليه بعد شروده والمقبل عليه بعد إعراضه إلى حالة المطيعين المنيبين إليه.

﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾
أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ
وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾
ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ
خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ
بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا
وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟
هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟
ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾.

(٧) هذا من مقالة المكذبين للرسول، الذين قدحوا في رسالته، وهو أنهم اعترضوا بأنه هلّا كان مَلَكًا أو مَلِكًا أو يساعده[1]؛ وهذا من خصائص البشر؛ فهلاّ كان ملكًا لا يأكل الطعام ولا يحتاج إلى ما يحتاج إليه البشر، ﴿ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾: للبيع والشراء، وهذا بزعمهم لا يليق بمن يكون رسولًا؛ مع أن الله قال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾. ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ ﴾؛ أي: هلّا أنزل معه ملك يساعده ويعاونه ﴿ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ ﴾: وبزعمهم أنه غير كافٍ للرسالة، ولا بطوقه وقدرته القيام بها.

(٨) ﴿ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ ﴾؛ أي: مال مجموع من غير تعب، ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾: فيستغني بذلك عن مشيه في الأسواق لطلب الرزق، ﴿ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾: حملهم على القول ظلمهم، لا اشتباه منهم: ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ﴾: هذا وقد علموا كمال عقله وحسن حديثه وسلامته من جميع المطاعن.

(٩) ولما كانت هذه الأقوال منهم عجيبة جدًّا؛ قال تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ ﴾: وهي: هلّا كان مَلَكًا أو زالت عنه خصائص البشر، أو معه ملك لأنه غير قادر على ما قال، أو أنزل عليه كنز، أو جعلت له جنة تغنيه عن المشي في الأسواق، أو أنه كان مسحورًا. ﴿ فَضَلُّوا۟ فَلَا ﴾ يهتدون ﴿ سَبِيلًا ﴿٩﴾ ﴾: قالوا أقوالًا متناقضة، كلها جهل وضلال وسفه، ليس في شيء منها هداية، بل ولا في شيء منها أدنى شبهة تقدح في الرسالة، فبمجرد النظر إليها وتصورها يجزم العاقل ببطلانها، ويكفيه عن ردها. ولهذا أمر تعالى بالنظر إليها وتدبرها، والنظر: هل توجب التوقف عن الجزم للرسول بالرسالة والصدق؟!

(١٠) ولهذا أخبر أنه قادر على أن يعطيك خيرًا كثيرًا في الدنيا، فقال: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ ﴾؛ أي: خيرًا مما قالوا، ثم فسره بقوله: ﴿ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ ﴾: مرتفعة مزخرفة؛ فقدرته ومشيئته لا تقصر عن ذلك، ولكنه تعالى لما كانت الدنيا عنده في غاية البعد والحقارة؛ أعطى منها أولياءه ورسله ما اقتضته حكمته منها، واقتراح أعدائهم بأنهم هلا رزقوا منها رزقًا كثيرًا جدًّا - ظلم وجرأة.

(١١) ولما كانت تلك الأقوال التي قالوها معلومة الفساد؛ أخبر تعالى أنها لم تصدر منهم لطلب الحق ولا لاتباع البرهان، وإنما صدرت منهم تعنتًا وظلمًا وتكذيبًا بالحق، فقالوا ما في قلوبهم[2] من ذلك، ولهذا قال: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ﴾: والمكذب المتعنت الذي ليس له قصد في اتباع الحق لا سبيل إلى هدايته ولا حيلة في مجادلته، وإنما له حيلة واحدة، وهي نزول العذاب به؛ فلهذا قال: ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ ﴾؛ أي: نارًا عظيمة قد اشتد سعيرها وتغيظت على أهلها واشتد زفيرها.

(١٢) ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾؛ أي: قبل وصولهم ووصولها إليهم؛ ﴿ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا ﴾: عليهم ﴿ وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾: تقلق منهم[3] الأفئدة، وتتصدع القلوب، ويكاد الواحد منهم يموت خوفًا منها وذعرًا، قد غضبت عليهم لغضب خالقها، وقد زاد لهبها لزيادة كفرهم وشرهم.

(١) زاد بعده في ع، ط: «فقالوا: ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ ﴾؛ أي: ما لهذا الذي ادعى الرسالة تهكمًا منهم واستهزاء ﴿ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ ﴾».

(٢) عبارة: «في قلوبهم» وردت في ع: «بقلوبهم».
(٣) ع: «منه».

الجزء الثامن عشر — سورة الفرقان

إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا
أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾
لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ
أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ
لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ
كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا
يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي
هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ
يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ
وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ
كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا
نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾
وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ
الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ
لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

٣٦١

﴿١٣﴾ ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ ﴾؛ أي: وقت عذابهم وهم في وسطها جمع في مكان، بين ضيق المكان وتزاحم السكان وتقرينهم بالسلاسل والأغلال؛ فإذا وصلوا لذلك المكان النحس وحبسوا في أشر حبس؛ ﴿ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ ﴾: دعوا على أنفسهم بالثبور والخزي والفضيحة، وعلموا أنهم ظالمون معتدون، قد عدل فيهم الخالق حيث أنزلهم بأعمالهم هذا المنزل.

﴿١٤﴾ وليس ذلك الدعاء والاستغاثة بنافعة لهم ولا مغنية من عذاب الله، بل يقال لهم: ﴿ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾؛ أي: لو زاد ما قلتم أضعاف أضعافه؛ ما أفادكم إلا الهم والغم والحزن.

لمَّا بين جزاء الظالمين؛ ناسب أن يذكر جزاء المتقين، فقال:

﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿١٥﴾ أي: قل لهم مبينًا لسفاهة رأيهم واختيارهم الضار على النافع: ﴿ أَذَٰلِكَ ﴾: الذي وصفت لكم من العذاب ﴿ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾: التي زادها تقوى الله؛ فمن قام بالتقوى؛ فالله قد وعده إياها، ﴿ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً ﴾: على تقواهم، ﴿ وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾: موئلًا يرجعون إليها، ويستقرون فيها، ويخلدون دائمًا أبدًا.

﴿١٦﴾ ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ﴾؛ أي: يطلبون وتتعلق به أمانيهم ومشيئتهم؛ من المطاعم، والمشارب اللذيذة، والملابس الفاخرة، والنساء الجميلات، والقصور العاليات، والجنات والحدائق المرجحنة، والفواكه التي تسر ناظريها وآكليها من حسنها وتنوعها وكثرة أصنافها، والأنهار التي تجري في رياض الجنة وبساتينها حيث شاءوا يصرِّفونها ويفجرونها أنهارًا من ماء غير آسن، ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ [محمد: ١٥] وروائح طيبة، ومساكن مزخرفة، وأصوات شجية تأخذ من حسنها بالقلوب، ومزاورة الإخوان، والتمتع بلقاء الأحباب، وأعلى من ذلك كله التمتع بالنظر إلى وجه الرب الرحيم، وسماع كلامه والحظوة بقربه والسعادة برضاه، والأمن من سخطه واستمرار هذا النعيم ودوامه وزيادته على ممر الأوقات وتعاقب الآنات. ﴿ كَانَ ﴾: دخولها والوصول إليها ﴿ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾ ﴾: يسأله إياها عباده المتقون بلسان حالهم ولسان مقالهم.

فأي الدارين المذكورتين خير وأولى بالإيثار؟! وأي العاملين - عمال دار الشقاء أو عمال دار السعادة - أولى بالفضل والعقل والفخر يا أولي الألباب؟! لقد وضح الحق واستنار السبيل، فلم يبق للمفرط عذر في تركه الدليل؛ فنرجوك يا من قضيت على أقوام بالشقاء وأقوام بالسعادة أن تجعلنا ممن كتبت لهم الحسنى وزيادة، ونستغيث بك اللهم من حالة الأشقياء ونسألك المعافاة منها.

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا

تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿١٧﴾ يخبر تعالى عن حالة المشركين وشركائهم يوم القيامة وتبريهم منهم وبطلان سعيهم، فقال: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ﴾؛ أي: المكذبين المشركين، ﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ﴾: الله مخاطبًا للمعبودين على وجه التقريع لمن عبدهم: ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾: هل أمرتموهم بعبادتكم وزينتم لهم ذلك أم ذلك من تلقاء أنفسهم؟

﴿١٨﴾ ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ ﴾: نزهوا الله عن شرك المشركين به، وبرءوا أنفسهم من ذلك، ﴿ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا ﴾؛ أي: لا يليق بنا ولا يحسن منا أن نتخذ من دونك من أولياء نتولاهم ونعبدهم وندعوهم؛ فإذا كنا محتاجين ومفتقرين إلى عبادتك ومتبرئين من عبادة غيرك؛ فكيف نأمر أحدًا بعبادتنا؟! هذا لا يكون. أو: سبحانك عن ﴿ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾: وهذا كقول المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧] الآية، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١]، ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأحقاف: ٦].

فلما نزهوا أنفسهم أن يدعوا لعبادة غير الله أو يكونوا أضلوهم؛ ذكروا السبب الموجب لإضلال المشركين، فقالوا: ﴿ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ ﴾: في لذات الدنيا وشهواتها ومطالبها النفسية، ﴿ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ ﴾: اشتغالًا في لذات الدنيا وإكبابًا على شهواتها؛ فحافظوا على دنياهم وضيعوا دينهم، ﴿ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ ﴾؛ أي: بائرين، لا خير فيهم، ولا يصلحون لصالح، لا يصلحون إلا للهلاك والبوار، فذكروا المانع من اتباعهم الهدى، وهو التمتع في الدنيا، الذي صرفهم عن الهدى، وعدم المقتضي للهدى، وهو أنهم لا خير فيهم؛ فإذا عدموا المقتضي ووجد المانع؛ فلا تشاء من شر وهلاك إلا وجدته فيهم.

﴿١٩﴾ فلما تبرءوا منهم؛ قال الله توبيخًا وتقريعًا للعابدين: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ ﴾: إنهم أمروكم بعبادتهم ورضوا فعلكم وإنهم شفعاء لكم عند ربكم؛ كذبوكم في ذلك الزعم، وصاروا من أكبر أعدائكم، فحق عليكم العذاب. ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا ﴾: للعذاب عنكم بفعلكم أو بفداء أو غير ذلك ﴿ وَلَا نَصْرًا ﴾: لعجزكم وعدم ناصركم. هذا حكم الضالين المقلدين الجاهلين كما رأيت، أسوأ حكم وأشر مصير. وأما المعاند منهم الذي عرف الحق وصدف عنه؛ فقال في حقه: ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ ﴾: بترك الحق ظلمًا وعنادًا؛ ﴿ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾: لا يقادر قدره ولا يبلغ أمره.

﴿٢٠﴾ ثم قال تعالى جوابًا لقول المكذبين: ﴿ مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾: فما جعلناهم جسدًا لا يأكلون الطعام وما جعلناهم ملائكة؛ فلك فيهم أسوة، وأما الغنى والفقر؛ فهو فتنة وحكمة من الله تعالى؛ كما قال: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾: الرسول فتنة للمرسل إليهم واختبار للمطيعين من العاصين، والرسل فتناهم بدعوة الخلق، والغني فتنة للفقير، والفقير فتنة للغني، وهكذا سائر أصناف الخلق في هذه الدار دار الفتن والابتلاء والاختبار، والقصد من تلك الفتنة: ﴿ أَتَصْبِرُونَ ﴾، فتقومون بما هو وظيفتكم اللازمة الراتبة، فيثيبكم مولاكم، أم لا تصبرون فتستحقون المعاقبة؟ ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾: يعلم أحوالكم، ويصطفي من يعلمه يصلح لرسالته، ويختصه بتفضيله ويعلم أعمالكم فيجازيكم عليها إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ
أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا
٢١ يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ
حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ٢٢ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ
هَبَآءٗ مَّنثُورًا ٢٣ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا
وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤ وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ
تَنزِيلًا ٢٥ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى
ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا ٢٦ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ
يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ
فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ
وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ٢٩ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ
يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠ وَكَذَٰلِكَ
جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا
وَنَصِيرٗا ٣١ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ
وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢

﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ٢٢ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ٢٣﴾.

(٢١) أي: قال المكذبون للرسول، المكذبون بوعد الله ووعيده، الذين ليس في قلوبهم خوف الوعيد ولا رجاء لقاء الخالق: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾؛ أي: هلَّا نزلت الملائكة تشهد لك بالرسالة وتؤيدك عليها، أو تنزل رسلًا مستقلين، أو نرى ربنا فيكلمنا ويقول: هذا رسولي؛ فاتبعوه! وهذا معارضة للرسول بما ليس بمعارض، بل بالتكبر والعلو والعتو. ﴿لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾: حيث اقترحوا هذا الاقتراح وتجرءوا هذه الجرأة؛ فمن أنتم يا فقراء ويا مساكين حتى تطلبوا رؤية الله وتزعموا أن الرسالة متوقف ثبوتها على ذلك؟! وأي كبر أعظم من هذا؟! ﴿وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ٢١﴾؛ أي: قسوا وصلبوا عن الحق قساوة عظيمة؛ فقلوبهم أشد من الأحجار وأصلب من الحديد، لا تلين للحق ولا تصغي للناصحين؛ فلذلك لم ينجع فيهم وعظ ولا تذكير، ولا اتبعوا الحق حين جاءهم النذير، بل قابلوا أصدق الخلق وأنصحهم وآيات الله البينات بالإعراض والتكذيب والمعارضة؛ فأي عتو أكبر من هذا العتو؟! ولذلك بطلت أعمالهم، واضمحلت، وخسروا أشد الخسران.

(٢٢) ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾: وذلك أنهم لا يرونها مع استمرارهم على جرمهم وعنادهم إلا لعقوبتهم وحلول البأس بهم: فأول ذلك عند الموت إذا تنزلت عليهم الملائكة؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٩٣﴾ [الأنعام: ٩٣]. ثم في القبر حيث يأتيهم منكر ونكير، فيسألهم عن ربهم ونبيهم ودينهم، فلا يجيبون جوابًا ينجيهم، فيحلون بهم النقمة وتزول عنهم بهم الرحمة.

ثم يوم القيامة حين تسوقهم الملائكة إلى النار، ثم يسلمونهم لخزنة جهنم، الذين يتولون عذابهم ويباشرون عقابهم. فهذا الذي اقترحوه وهذا الذي طلبوه إن استمروا على إجرامهم لا بد أن يروه ويلقوه، وحينئذ يتعوذون من الملائكة ويفرون، ولكن لا مفر لهم، ﴿وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ٢٢﴾: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ٣٣﴾ [الرحمن: ٣٣].

(٢٣) ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ﴾؛ أي: أعمالهم التي رجوا أن تكون خيرًا وتعبوا فيها، ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ٢٣﴾؛ أي: باطلًا مضمحلًا قد خسروه وحرموا أجره وعوقبوا عليه، وذلك لفقده الإيمان وصدوره عن مكذب لله ورسله؛ فالعمل الذي يقبله الله هو ما صدر من المؤمن المخلص المصدق للرسل المتبع لهم فيه.

﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤﴾.

(٢٤) أي: في ذلك اليوم الهائل كثير البلابل، ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾: الذين آمنوا بالله وعملوا صالحًا واتقوا ربهم ﴿خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا﴾: من أهل النار، ﴿وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤﴾؛ أي: مستقرهم في الجنة وراحتهم التي هي القيلولة هو

المستقر النافع والراحة التامة؛ لاشتمال ذلك على تمام النعيم الذي لا يشوبه كدر؛ بخلاف أصحاب النار؛ فإن جهنم مستقرهم ساءت مستقرًا ومقيلًا، وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر منه شيء؛ لأنه لا خير في مقيل أهل النار ومستقرهم؛ كقوله: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النمل: ٥٩].

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾.

﴿٢٥﴾، ﴿٢٦﴾ يخبر تعالى عن عظمة يوم القيامة وما فيه من الشدة والكروب ومزعجات القلوب، فقال: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾: وذلك الغمام الذي ينزل الله فيه؛ ينزل من فوق السماوات، فتنفطر له السماوات وتشقق وتنزل الملائكة كل سماء، فيقفون صفًّا صفًّا، إما صفًّا واحدًا محيطًا بالخلائق، وإما كل سماء يكونون صفًّا، ثم السماء التي تليها صفًّا[1]، وهكذا القصد أن الملائكة على كثرتهم وقوتهم ينزلون محيطين بالخلق مذعنين لأمر ربهم لا يتكلم منهم أحد إلا بإذن من الله؛ فما ظنك بالآدمي الضعيف، خصوصًا الذي بارز مالكه بالعظائم، وأقدم على مساخطه، ثم قدم عليه بذنوب وخطايا لم يتب منها، فيحكم فيه الملك الخلاق بالحكم الذي لا يجور ولا يظلم مثقال ذرة، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾: لصعوبته الشديدة وتعسر أموره عليه؛ بخلاف المؤمن؛ فإنه يسير عليه خفيف الحمل: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦]. وقوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم القيامة، ﴿ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾: لا يبقى لأحد من المخلوقين ملك ولا صورة ملك؛ كما كانوا في الدنيا، بل قد تساوت الملوك ورعاياهم والأحرار والعبيد والأشراف وغيرهم.

ومما يرتاح له القلب وتطمئن به النفس وينشرح له الصدر أنه أضاف الملك في يوم القيامة لاسمه الرحمن؛ الذي وسعت رحمته كل شيء، وعمت كل حي، وملأت الكائنات، وعمرت بها الدنيا والآخرة، وتم بها كل ناقص، وزال بها كل نقص، وغلبت الأسماء الدالة عليه الأسماء الدالة على الغضب، وسبقت رحمته غضبه وغلبته؛ فلها السبق والغلبة، وخلق هذا الآدمي الضعيف وشرفه وكرمه ليتم عليه نعمته وليتغمده برحمته، وقد حضروا في موقف الذل والخضوع والاستكانة بين يديه؛ ينتظرون ما يحكم فيهم وما يجري عليهم، وهو أرحم بهم من أنفسهم ووالديهم؛ فما ظنك بما يعاملهم به، ولا يهلك على الله إلا هالك، ولا يخرج من رحمته إلا من غلبت عليه الشقاوة، وحقت عليه كلمة العذاب.

﴿٢٧﴾ ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ﴾: بشركه وكفره وتكذيبه للرسل ﴿عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾: تأسفًا وتحسرًا وحزنًا وأسفًا، ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾؛ أي: طريقًا بالإيمان به وتصديقه واتباعه.

﴿٢٨﴾ ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا﴾: وهو الشيطان الإنسي أو الجني ﴿خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾؛ أي: حبيبًا مصافيًا، عاديت أنصح الناس لي وأبرهم بي وأرفقهم بي، وواليت أعدى عدو لي، الذي لم تفدني ولايته إلا الشقاء والخسار والخزي والبوار.

﴿٢٩﴾ ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾: حيث زين له ما هو عليه من الضلال بخدعه وتسويله، ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾: يزين له الباطل ويقبح له الحق ويعده الأماني ثم يتخلى عنه ويتبرأ منه؛ كما قال لجميع أتباعه حين قضي الأمر وفرغ الله من حساب الخلق: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢] الآية؛ فلينظر العبد لنفسه وقت الإمكان، وليتدارك الممكن قبل ألَّا يمكن، وليوال مَنْ ولايته فيها سعادته، ويعادِ مَنْ تنفعه عداوته وتضره صداقته. والله الموفق.

---

(١) الحاكم (٤/ ٥٦٩، ٥٧٠).

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾
ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ
مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ
وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى
ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ
نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ
ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟
وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا
لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ
ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ
كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ
إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ
لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ
مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿٣٠﴾ ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ ﴾: مناديًا لربه وشاكيًا عليه إعراض قومه عما جاء به ومتأسفًا على ذلك منهم: ﴿ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ﴾: الذي أرسلتني لهدايتهم وتبليغهم ﴿ ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ ﴾؛ أي: قد أعرضوا عنه وهجروه وتركوه، مع أن الواجب عليهم الانقياد لحكمه والإقبال على أحكامه والمشي خلفه.

﴿٣١﴾ قال الله مسليًا لرسوله ومخبرًا: إن هؤلاء الخلق لهم سلف صنعوا كصنيعهم، فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾؛ أي: من الذين لا يصلحون للخير ولا يزكُّون عليه؛ يعارضونهم، ويردون عليهم، ويجادلونهم بالباطل. من بعض فوائد ذلك أن يعلو الحق على الباطل، وأن يتبين الحق ويتضح اتضاحًا عظيمًا؛ لأن معارضة الباطل للحق مما تزيده وضوحًا وبيانًا وكمال استدلال، وأن نتبين ما يفعل الله بأهل الحق من الكرامة، وبأهل الباطل من العقوبة؛ فلا تحزن عليهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا ﴾: يهديك فيحصل لك المطلوب ومصالح دينك ودنياك، ﴿ وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾: ينصرك على أعدائك، ويدفع عنك كل مكروه في أمر الدين والدنيا؛ فاكتف به وتوكل عليه.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿٣٢﴾ هذا من جملة مقترحات الكفار الذي توحيه إليهم أنفسهم، فقالوا: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾؛ أي: كما أنزلت الكتب قبله. وأي محذور من نزوله على هذا الوجه؟! بل نزوله على هذا الوجه أكمل وأحسن، ولهذا قال: ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾: أنزلناه متفرقًا ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾: لأنه كلما نزل عليه شيء من القرآن؛ ازداد طمأنينة وثباتًا، وخصوصًا عند ورود أسباب القلق؛ فإن نزول القرآن عند حدوثه يكون له موقع عظيم وتثبيت كثير أبلغ مما لو كان نازلًا قبل ذلك ثم تذكَّرهُ عند حلول سببه، ﴿ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾؛ أي: مهلناه، ودرَّجناك فيه تدريجًا.

وهذا كله يدل على اعتناء الله بكتابه القرآن وبرسوله محمد ﷺ؛ حيث جعل إنزال كتابه جاريًا على أحوال الرسول ومصالحه الدينية.

﴿٣٣﴾ ولهذا قال: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾: يعارضون به الحق ويدفعون به رسالتك، ﴿ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾؛ أي: أنزلنا عليك قرآنًا جامعًا للحق في معانيه والوضوح والبيان التام في ألفاظه؛ فمعانيه كلها حق وصدق لا يشوبها باطل ولا شبهة بوجه من الوجوه، وألفاظه وحدوده للأشياء أوضح ألفاظًا وأحسن تفسيرًا، مبين للمعاني بيانًا كاملًا.

وفي هذه الآية دليل على أنه ينبغي للمتكلم في العلم من محدث ومعلم وواعظ أن يقتدي بربه في تدبيره حال رسوله، كذلك العالم يدبر أمر الخلق، وكلما حدث موجب أو حصل موسم؛ أتى بما يناسب ذلك من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والمواعظ الموافقة لذلك.

وفيه رد على المتكلفين من الجهمية ونحوهم ممن يرى أن كثيرًا من نصوص القرآن محمولة على غير ظاهرها، ولها معانٍ غير ما يفهم منها؛ فإذًا على قولهم لا يكون القرآن أحسن تفسيرًا من غيره، وإنما التفسير الأحسن على زعمهم تفسيرهم الذي حرفوا له المعاني تحريفًا!

﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾.

﴿٣٤﴾ يخبر تعالى عن حال المشركين الذين كذبوا رسوله وسوء مآلهم وأنهم ﴿يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾: في أشنع مرأى وأفظع منظر، تسحبهم ملائكة العذاب ويجرونهم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾: الجامعة لكل عذاب وعقوبة، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: الذين بهذه الحال ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾: ممن آمن بالله وصدق رسله ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾: وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر منه شيء؛ فإن المؤمنين حسن مكانهم ومستقرهم، واهتدوا في الدنيا إلى الصراط المستقيم، وفي الآخرة إلى الوصول إلى جنات النعيم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

﴿٣٥﴾ - ﴿٤٠﴾ أشار تعالى إلى هذه القصص، وقد بسطها في آيات أخر؛ ليحذر المخاطبين من استمرارهم على تكذيب رسولهم، فيصيبهم ما أصاب هؤلاء الأمم الذين كانوا قريبًا منهم ويعرفون قصصهم بما استفاض واشتهر عنهم، ومنهم من يرون آثارهم عيانًا؛ كقوم صالح في الحجر، وكالقرية التي أمطرت مطر السوء بحجارة من سجيل؛ يمرون عليهم مصبحين وبالليل في أسفارهم؛ فإن أولئك الأمم ليسوا شرًّا منهم، ورسلهم ليسوا خيرًا من رسول هؤلاء؛ ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾ [القمر: ٤٣]، ولكن الذي منع هؤلاء من الإيمان مع ما شاهدوا من الآيات أنهم كانوا لا يرجون بعثًا ولا نشورًا؛ فلا يرجون لقاء ربهم، ولا يخشون نكاله؛ فلذلك استمروا على عنادهم، وإلا؛ فقد جاءهم من الآيات ما لا يبقى معه شك ولا شبهة ولا إشكال ولا ارتياب.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

﴿٤١﴾ أي: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ﴾: يا محمد؛ هؤلاء المكذبون لك، المعاندون لآيات الله، المستكبرون في الأرض؛ استهزءوا بك، واحتقروك، وقالوا على وجه الاحتقار والاستصغار: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾؛ أي: غير مناسب ولا لائق أن يبعث الله هذا الرجل! وهذا من شدة ظلمهم وعنادهم وقلبهم الحقائق؛ فإن كلامهم هذا يُفْهِمُ أن الرسول - حاشاه - في غاية الخسة والحقارة، وأنه لو كانت الرسالة لغيره؛ لكان أنسب. ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٣١]؛ فهذا الكلام لا يصدر إلا من أجهل الناس وأضلهم، أو من أعظمهم عنادًا، وهو متجاهل، قصده ترويج ما معه من الباطل بالقدح بالحق وبمن جاء به، وإلا؛ فمن تدبر أحوال محمد بن عبد الله ﷺ؛ وجده رجل العالم وهمامهم ومقدَّمهم في العقل والعلم واللب والرزانة ومكارم الأخلاق ومحاسن الشيم والعفة والشجاعة والكرم وكل خلق فاضل. وأن المحتقر له والشانئ له قد جمع من السفه والجهل والضلال والتناقض والظلم والعدوان ما لا يجمعه غيره. وحسبه جهلًا وضلالًا أن يقدح بهذا الرسول العظيم والهمام الكريم، والقصد من قدحهم فيه واستهزائهم به؛ تصلبهم على باطلهم وغرورًا لضعفاء العقول.

﴿٤٢﴾ ولهذا قالوا: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ هذا الرجل: بأن يجعل الآلهة إلهًا واحدًا، ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾: لأضلنا. زعموا - قبحهم الله - أن الضلال

أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا
كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ
ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا
﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ
لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا ﴿٤٧﴾
وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ
مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ
لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٥٠﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا
لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ
وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ
ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا
وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ
نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا ﴿٥٤﴾ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا ﴿٥٥﴾

هو التوحيد، وأن الهدى ما هم عليه من الشرك؛ فلهذا تواصوا بالصبر عليه، ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡ﴾ [ص: ٦]، وهنا قالوا: ﴿لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَا﴾: والصبر يحمد في المواضع كلها؛ إلا في هذا الموضع؛ فإنه صبر على أسباب الغضب، وعلى الاستكثار من حطب جهنم، وأما المؤمنون؛ فهم كما قال الله عنهم: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ٣]، ولما كان هذا حكمًا منهم بأنهم المهتدون والرسول ضال، وقد تقرر أنهم لا حيلة فيهم توعدهم بالعذاب، وأخبر أنهم في ذلك الوقت، ﴿حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ﴾: يعلمون علمًا حقيقيًا، ﴿مَنۡ﴾ هو ﴿أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾. ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴿٢٧﴾﴾ الآيات.

﴿٤٣﴾ وهل فوق ضلال من جعل إلهه معبوده هواه؛ فما هويه فعله؟! فلهذا قال: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾: ألا تعجب من حاله وتنظر ما هو فيه من الضلال وهو يحكم لنفسه بالمنازل الرفيعة، ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾؛ أي: لست عليه بمسيطر مسلط، بل إنما أنت منذر قد قمت بوظيفتك. وحسابه على الله.

﴿٤٤﴾ ثم سجل تعالى على ضلالهم البليغ بأن سلبهم العقول والأسماع، وشبههم في ضلالهم بالأنعام السائمة التي لا تسمع ﴿إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧١]، بل هم أضل من الأنعام؛ فإن الأنعام يهديها راعيها فتهتدي، وتعرف طريق هلاكها فتجتنبه، وهي أيضًا أسلم عاقبة من هؤلاء، فتبين بهذا أن الرامي للرسول بالضلال أحق بهذا الوصف، وأن كل حيوان بهيم؛ هو أهدى منه.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا ﴿٤٦﴾﴾.

﴿٤٥﴾، ﴿٤٦﴾ أي: ألم تشاهد ببصرك وبصيرتك كمال قدرة ربك وسعة رحمته: أنه مد على العباد الظل، وذلك قبل طلوع الشمس، ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ﴾؛ أي: على الظل ﴿دَلِيلٗا ﴿٤٥﴾﴾: فلولا وجود الشمس؛ لما عرف الظل؛ فإن الضد يعرف بضده، ﴿ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا ﴿٤٦﴾﴾؛ فكلما ارتفعت الشمس؛ تقلص الظل شيئًا فشيئًا، حتى يذهب بالكلية. فتوالي الظل والشمس على الخلق الذي يشاهدونه عيانًا، وما يترتب على ذلك من اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما وتعاقب الفصول وحصول المصالح الكثيرة بسبب ذلك؛ من أدل دليل على قدرة الله وعظمته، وكمال رحمته وعنايته بعباده، وأنه وحده المعبود المحمود المحبوب المعظم ذو الجلال والإكرام.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا ﴿٤٧﴾﴾.

﴿٤٧﴾ أي: من رحمته بكم ولطفه أن جعل الليل لكم بمنزلة اللباس الذي يغشاكم حتى تستقروا فيه، وتهدءوا بالنوم وتسبت حركاتكم؛ أي: تنقطع عند النوم؛ فلولا الليل؛ لما سكن العباد، ولا استمروا في تصرفهم، فضرهم ذلك غاية الضرر، ولو استمر أيضًا الظلام؛ لتعطلت عليهم معايشهم ومصالحهم، ولكنه جعل النهار نشورًا؛ ينتشرون

فيه لتجاراتهم وأسفارهم وأعمالهم، فيقوم بذلك ما يقوم من المصالح.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٥٠﴾﴾.

﴿٤٨﴾، ﴿٤٩﴾ أي: هو وحده الذي رحم عباده وأدر عليهم رزقه بأن أرسل الرياح مبشرات بين يدي رحمته، وهو المطر، فثار بها السحاب وتألف، وصار كسفًا وألقحته وأدرته بإذن آمرها والمتصرف فيها؛ ليقع استبشار العباد بالمطر قبل نزوله، وليستعدوا له قبل أن يفجأهم دفعة واحدة، ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾﴾: يطهر من الحدث والخبث، ويطهر من الغش والأدناس، وفيه بركة من بركته؛ أنه أنزله ليحيي به بلدة ميتًا، فتختلف أصناف النوابت والأشجار فيها مما يأكل الناس والأنعام، ﴿وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ﴿٤٩﴾﴾؛ أي: نسقيكموه أنتم وأنعامكم؛ أليس الذي أرسل الرياح المبشرات، وجعلها في عملها متنوعات، وأنزل من السماء ماء طهورًا مباركًا، فيه رزق العباد ورزق بهائمهم؛ هو الذي يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك معه غيره؟!

﴿٥٠﴾ ولما ذكر تعالى هذه الآيات العيانية المشاهدة، وصرَّفها للعباد ليعرفوه ويشكروه ويذكروه؛ مع ذلك: أبى ﴿أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٥٠﴾﴾: لفساد أخلاقهم وطبائعهم.

﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴿٥٢﴾﴾.

﴿٥١﴾ يخبر تعالى عن نفوذ مشيئته، وأنه لو شاء؛ لبعث في كل قرية نذيرًا؛ أي: رسولًا ينذرهم ويحذرهم؛ فمشيئته غير قاصرة عن ذلك، ولكن اقتضت حكمته ورحمته بك وبالعباد يا محمد أن أرسلك إلى جميعهم؛ أحمرهم وأسودهم، عربيهم وعجميهم، إنسهم وجنهم.

﴿٥٢﴾ ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: في ترك شيء مما أرسلت به، بل ابذل جهدك في تبليغ ما أرسلت به، ﴿وَجَٰهِدۡهُم﴾: بالقرآن ﴿جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴿٥٢﴾﴾؛ أي: لا تبق من مجهودك في نصر الحق وقمع الباطل إلا بذلته، ولو رأيت منهم من التكذيب والجراءة ما رأيت؛ فابذل جهدك، واستفرغ وسعك، ولا تيأس من هدايتهم، ولا تترك إبلاغهم لأهوائهم.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴿٥٣﴾﴾.

﴿٥٣﴾ أي: ﴿وَهُوَ﴾: وحده ﴿ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾: يلتقيان؛ البحر العذب، وهي الأنهار السارحة على وجه الأرض، والبحر الملح، وجعل منفعة كل واحد منهما مصلحة للعباد. ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا﴾؛ أي: حاجزًا يحجز من اختلاط أحدهما بالآخر، فتذهب المنفعة المقصودة منها ﴿وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴿٥٣﴾﴾؛ أي: حاجزًا حصينًا.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا ﴿٥٤﴾﴾.

﴿٥٤﴾ أي: وهو الله وحده لا شريك له الذي خلق الآدمي من ماء مهين، ثم نشر منه ذرية كثيرة، وجعلهم أنسابًا وأصهارًا، متفرقين ومجتمعين، والمادة كلها من ذلك الماء المهين؛ فهذا يدل على كمال اقتداره؛ لقوله: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا ﴿٥٤﴾﴾، ويدل على أن عبادته هي الحق وعبادة غيره باطلة؛ لقوله:

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا ﴿٥٥﴾﴾.

﴿٥٥﴾ أي: يعبدون أصنامًا وأمواتًا لا تضر ولا تنفع، ويجعلونها أندادًا لمالك النفع والضر والعطاء والمنع؛ مع أن الواجب عليهم أن يكونوا مقتدين بإرشادات ربهم، ذابين عن دينه، ولكنهم عكسوا القضية، ﴿وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا ﴿٥٥﴾﴾: فالباطل الذي هو الأوثان والأنداد أعداء لله؛ فالكافر عاونها وظاهرها على ربها، وصار عدوًّا لربه مبارزًا له في العداوة والحرب؛ هذا هو الذي خلقه ورزقه وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة، وليس يخرج عن ملكه وسلطانه وقبضته، والله لم يقطع عنه إحسانه وبره، وهو بجهله مستمر على هذه المعاداة والمبارزة.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٥٦﴾ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿٥٧﴾

وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٥٦ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ
مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ٥٧ وَتَوَكَّلۡ
عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ
عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ٥٨ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا
فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ
خَبِيرٗا ٥٩ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ
أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا ۩ ٦٠ تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ
فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا ٦١ وَهُوَ
ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ
شُكُورٗا ٦٢ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ
هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣ وَٱلَّذِينَ
يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ٦٤ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ
رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا
٦٥ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٦٦ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ
لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧

٣٦٥

﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا (٥٨) ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا (٥٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا (٦٠)﴾.

(٥٦) يخبر تعالى أنه ما أرسل رسوله محمدًا ﷺ مسيطرًا على الخلق، ولا جعله ملكًا، ولا عنده خزائن الأشياء، وإنما أرسله ﴿مُبَشِّرٗا﴾: يبشر من أطاع الله بالثواب العاجل والآجل. ﴿وَنَذِيرٗا﴾: ينذر من عصى الله بالعقاب العاجل والآجل، وذلك مستلزم لتبيين ما به البشارة، وما تحصل به النذارة من الأوامر والنواهي.

(٥٧) وإنك يا محمد لا تسألهم على إبلاغهم القرآن والهدى أجرًا حتى يمنعهم ذلك من اتباعك ويتكلفون من الغرامة، ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا (٥٧)﴾؛ أي: إلا من شاء أن ينفق نفقة في مرضاة ربه وسبيله؛ فهذا وإن رغبتكم فيه؛ فلست أجبركم عليه، وليس أيضًا أجرًا لي عليكم، وإنما هو راجع لمصلحتكم وسلوككم للسبيل الموصلة إلى ربكم.

(٥٨) ثم أمره أن يتوكل عليه ويستعين به، فقال: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ﴾: الذي له الحياة الكاملة المطلقة ﴿ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦ﴾؛ أي: اعبده وتوكل عليه في الأمور المتعلقة بك والمتعلقة بالخلق، ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا (٥٨)﴾: يعلمها ويجازي عليها؛ فأنت ليس عليك من هداهم شيء، وليس عليك حفظ أعمالهم، وإنما ذلك كله بيد الله.

(٥٩) ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ﴾: بعد ذلك ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾: الذي هو سقف المخلوقات وأعلاها وأوسعها وأجملها، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾: استوى على عرشه الذي وسع السماوات والأرض باسمه الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء، فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات، فأثبت بهذه الآية خلقه للمخلوقات واطلاعه على ظاهرهم وباطنهم وعلوه فوق العرش ومباينته إياهم. ﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا (٥٩)﴾؛ يعني: بذلك نفسه الكريمة؛ فهو الذي يعلم أوصافه وعظمته وجلاله، وقد أخبركم بذلك، وأبان لكم من عظمته ما تسعدون به من معرفته، فعرفه العارفون وخضعوا لجلاله، واستكبر عن عبادته الكافرون، واستنكفوا عن ذلك.

(٦٠) ولهذا قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾؛ أي: وحده، الذي أنعم عليكم بسائر النعم، ودفع عنكم جميع النقم، ﴿قَالُواْ﴾ جحدًا وكفرًا: ﴿وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾: بزعمهم الفاسد أنهم لا يعرفون الرحمن، وجعلوا من جملة قوادحهم في الرسول أن قالوا: ينهانا عن اتخاذ آلهة مع الله، وهو يدعو معه إلهًا آخر؛ يقول: يا رحمن[1]! ونحو ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]: فأسماؤه تعالى كثيرة لكثرة أوصافه وتعدد كماله؛ فكل واحد منها دل على صفة كمال، ﴿أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا﴾؛ أي: لمجرد أمرك إيانا، وهذا مبني منهم على التكذيب بالرسول واستكبارهم عن طاعته، ﴿وَزَادَهُمۡ﴾: دعوتهم إلى السجود للرحمن ﴿نُفُورٗا (٦٠)﴾: هربًا من الحق إلى الباطل وزيادة كفر وشقاء.

(١) البخاري في «خلق أفعال العباد» (٣٥٥).

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾.

كرر تعالى في هذه السورة الكريمة قوله: ﴿ تَبَارَكَ ﴾؛ ثلاث مرات؛ لأن معناها كما تقدم أنها تدل على عظمة الباري وكثرة أوصافه وكثرة خيراته وإحسانه.

وهذه السورة فيها من الاستدلال على عظمته وسعة سلطانه ونفوذ مشيئته وعموم علمه وقدرته وإحاطة ملكه في الأحكام الأمرية والأحكام الجزائية وكمال حكمته.

وفيها: ما يدل على سعة رحمته وواسع جوده وكثرة خيراته الدينية والدنيوية ما هو مقتضٍ لتكرار هذا الوصف الحسن.

﴿٦١﴾ فقال: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾: وهي النجوم عمومها أو منازل الشمس والقمر التي تنزلها منزلة منزلة، وهي بمنزلة البروج والقلاع للمدن في حفظها، كذلك النجوم بمنزلة البروج المجعولة للحراسة؛ فإنها رجوم للشياطين، ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا﴾: فيه النور والحرارة، وهي الشمس ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾: فيه النور لا الحرارة، وهذا من أدلة عظمته وكثرة إحسانه؛ فإن ما فيها من الخلق الباهر والتدبير المنتظم والجمال العظيم دال على عظمة خالقها في أوصافه كلها، وما فيها من المصالح للخلق والمنافع دليل على كثرة خيراته.

﴿٦٢﴾ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾؛ أي: يذهب أحدهما؛ فيخلفه الآخر، هكذا أبدًا لا يجتمعان ولا يرتفعان، ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾؛ أي: لمن أراد أن يتذكر بهما ويعتبر ويستدل بهما على كثير من المطالب الإلهية ويشكر الله على ذلك، ولمن أراد أن يذكر الله ويشكره، وله ورد من الليل أو النهار؛ فمن فاته ورده من أحدهما؛ أدركه في الآخر، وأيضًا؛ فإن القلوب تتقلب وتنتقل في ساعات الليل والنهار، فيحدث لها النشاط والكسل والذكر والغفلة والقبض والبسط والإقبال والإعراض، فجعل الله الليل والنهار يتواليان على العباد ويتكرران؛ ليحدث لهما الذكر والنشاط والشكر لله في وقت آخر، ولأن أوقات العبادات تتكرر بتكرر الليل والنهار؛ فكلما تكررت الأوقات؛ أحدث للعبد همة غير همته التي كسلت في الوقت المتقدم، فزاد في تذكرها وشكرها، فوظائف الطاعات بمنزلة سقي الإيمان الذي يمده؛ فلولا ذلك؛ لذوى غرس الإيمان ويبس، فلله أتم حمد وأكمله على ذلك.

ثم ذكر من جملة كثرة خيره، منته على عباده الصالحين وتوفيقهم للأعمال الصالحات التي أكسبتهم المنازل العاليات في غرف الجنات، فقال:

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ ﴾ إلى آخر السورة الكريمة.

﴿٦٣﴾ العبودية لله نوعان: عبودية لربوبيته؛ فهذه يشترك فيها سائر الخلق؛ مسلمهم وكافرهم، برهم وفاجرهم؛ فكلهم عبيد لله مربوبون مدبرون، ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [مريم: ٩٣].

وعبودية لألوهيته وعبادته ورحمته، وهي عبودية أنبيائه وأوليائه، وهي المراد هنا، ولهذا أضافها إلى اسمه الرحمن؛ إشارة إلى أنهم إنما وصلوا إلى هذه الحال بسبب رحمته، فذكر أن صفاتهم أكمل الصفات ونعوتهم أفضل النعوت، فوصفهم بأنهم ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾؛ أي: ساكنين متواضعين لله وللخلق؛ فهذا وصف لهم بالوقار والسكينة والتواضع لله ولعباده، ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾؛ أي: خطاب جهل؛ بدليل إضافة الفعل وإسناده لهذا الوصف، ﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾؛ أي: خاطبوهم خطابًا يسلمون فيه من الإثم، ويسلمون من مقابلة الجاهل بجهله، وهذا مدح لهم بالحلم الكثير ومقابلة المسيء بالإحسان والعفو عن الجاهل ورزانة العقل الذي أوصلهم إلى هذه الحال.

﴿٦٤﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ ﴾؛ أي: يكثرون من صلاة الليل مخلصين فيها لربهم متذللين له؛ كما قال تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة: ١٦، ١٧].

الجزء التاسع عشر — سورة الفرقان

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِـَٔايَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ ٢٦ — ٢٢٧

٣٦٦

﴿٦٥﴾ ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ﴾؛ أي: ادفعه عنا بالعصمة من أسبابه ومغفرة ما وقع منا مما هو مقتضٍ للعذاب، ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ ﴾؛ أي: ملازمًا لأهلها بمنزلة ملازمة الغريم لغريمه.

﴿٦٦﴾ ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ ﴾: وهذا منهم على وجه التضرع لربهم، وبيان شدة حاجتهم إليه، وأنهم ليس في طاقتهم احتمال هذا العذاب، وليتذكروا منة الله عليهم؛ فإن صرف الشدة بحسب شدتها وفظاعتها يعظم وقعها، ويشتد الفرح بصرفها.

﴿٦٧﴾ ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا ﴾: النفقات الواجبة والمستحبة ﴿ لَمْ يُسْرِفُوا ﴾: بأن يزيدوا على الحد فيدخلوا في قسم التبذير، ﴿ وَلَمْ يَقْتُرُوا ﴾: فيدخلوا في باب البخل والشح، وإهمال الحقوق الواجبة، ﴿ وَكَانَ ﴾: إنفاقهم ﴿ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾: بين الإسراف والتقتير ﴿ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾: يبذلون في الواجبات من الزكوات والكفارات والنفقات الواجبة وفيما ينبغي على الوجه الذي ينبغي من غير ضرر ولا ضرار، وهذا من عدلهم واقتصادهم.

﴿٦٨﴾ ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾: بل يعبدونه وحده مخلصين له الدين حنفاء مقبلين عليه معرضين عما سواه، ﴿ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ ﴾: وهي نفس المسلم والكافر المعاهد ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾: كقتل النفس بالنفس، وقتل الزاني المحصن والكافر الذي يحل قتله، ﴿ وَلَا يَزْنُونَ ﴾: بل يحفظون فروجهم؛ إلا على أزواجهم أوما ملكت أيمانهم، ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ﴾؛ أي: الشرك بالله أو قتل النفس التي حرم الله بغير حق أو الزنا؛ فسوف ﴿ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿٦٩﴾ ثم فسره بقوله: ﴿ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ ﴾؛ أي: في العذاب ﴿ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ ﴾، فالوعيد بالخلود لمن فعلها كلها ثابت لا شك فيه، وكذلك لمن أشرك بالله، وكذلك الوعيد بالعذاب الشديد على كل واحد من هذه الثلاثة؛ لكونها إما شرك وإما من أكبر الكبائر، وأما خلود القاتل والزاني في العذاب؛ فإنه لا يتناوله الخلود؛ لأنه قد دلت النصوص القرآنية والسنة النبوية أن جميع المؤمنين سيخرجون من النار، ولا يخلد فيها مؤمن، ولو فعل من المعاصي ما فعل. ونص تعالى على هذه الثلاثة لأنها أكبر الكبائر: فالشرك فيه فساد الأديان، والقتل فيه فساد الأبدان، والزنا فيه فساد الأعراض.

﴿٧٠﴾ ﴿ إِلَّا مَن تَابَ ﴾: عن هذه المعاصي وغيرها بأن أقلع عنها في الحال، وندم على ما مضى له من فعلها، وعزم عزمًا جازمًا ألَّا يعود، ﴿ وَءَامَنَ ﴾ بالله إيمانًا صحيحًا يقتضي ترك المعاصي وفعل الطاعات، ﴿ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ﴾: مما أمر به الشارع إذا قصد به وجه الله؛ ﴿ فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾؛ أي: تتبدل أفعالهم وأقوالهم التي كانت مستعدة لعمل السيئات، تتبدل حسنات، فيتبدل شركهم إيمانًا، ومعصيتهم طاعة، وتتبدل نفس السيئات التي عملوها ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة وإنابة وطاعة، تبدل حسنات كما هو ظاهر الآية، وورد في ذلك حديث الرجل الذي حاسبه الله ببعض ذنوبه، فعددها عليه، ثم أبدل مكان كل سيئة حسنة، فقال: يا رب! إن لي سيئات لا أراها ههنا. والله أعلم. ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا ﴾: لمن تاب

يغفر الذنوب العظيمة. ﴿ رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾: بعباده؛ حيث دعاهم إلى التوبة بعد مبارزته بالعظائم، ثم وفقهم لها، ثم قبلها منهم.

﴿٧١﴾ ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ ﴾؛ أي: فليعلم أن توبته في غاية الكمال؛ لأنها رجوع إلى الطريق الموصل إلى الله، الذي هو عين سعادة العبد وفلاحه؛ فليخلص فيها، وليخلصها من شوائب الأغراض الفاسدة. فالمقصود من هذا الحث على تكميل التوبة واتباعها على أفضل الوجوه وأجلها؛ ليقدم على من تاب إليه، فيوفيه أجره بحسب كمالها.

﴿٧٢﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾؛ أي: لا يحضرون الزور؛ أي: القول والفعل المحرم، فيجتنبون جميع المجالس المشتملة على الأقوال المحرمة أو الأفعال المحرمة؛ كالخوض في آيات الله، والجدال الباطل، والغيبة، والنميمة، والسب، والقذف، والاستهزاء، والغناء المحرم، وشرب الخمر، وفرش الحرير والصور... ونحو ذلك، وإذا كانوا لا يشهدون الزور؛ فمن باب أولى وأحرى ألَّا يقولوه ويفعلوه، وشهادة الزور داخلة في قول الزور، تدخل في هذه الآية بالأولوية، ﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ ﴾: وهو الكلام الذي لا خير فيه ولا فيه فائدة دينية ولا دنيوية؛ ككلام السفهاء ونحوهم ﴿ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾؛ أي: نزهوا أنفسهم، وأكرموها عن الخوض فيه، ورأوا الخوض فيه وإن كان لا إثم فيه؛ فإنه سفه ونقص للإنسانية والمروءة؛ فربئوا بأنفسهم عنه. وفي قوله: ﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ ﴾: إشارة إلى أنهم لا يقصدون حضوره ولا سماعه، ولكن عند المصادفة التي من غير قصد يكرمون أنفسهم عنه.

﴿٧٣﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾: التي أمرهم باستماعها والاهتداء بها ﴿ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ ﴾؛ أي: لم يقابلوها بالإعراض عنها، والصمم عن سماعها، وصرف النظر والقلوب عنها كما يفعله من لم يؤمن بها ويصدق، وإنما حالهم فيها وعند سماعها كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [السجدة: ١٥]: يقابلونها بالقبول والافتقار إليها والانقياد والتسليم لها، وتجد عندهم آذانًا سامعة وقلوبًا واعية، فيزداد بها إيمانهم، ويتم بها إيقانهم، وتحدث لهم نشاطًا، ويفرحون بها سرورًا واغتباطًا.

﴿٧٤﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا ﴾؛ أي: قرنائنا من أصحاب وأقران وزوجات، ﴿ وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾؛ أي: تقر بهم أعيننا، وإذا استقرأنا حالهم وصفاتهم؛ عرفنا من هممهم وعلو مرتبتهم أنهم لا تقر أعينهم حتى يروهم مطيعين لربهم عالمين عاملين وهذا كما أنه دعاء لأزواجهم وذرياتهم في صلاحهم؛ فإنه دعاء لأنفسهم؛ لأن نفعه يعود عليهم، ولهذا جعلوا ذلك هبة لهم، فقالوا: ﴿ هَبْ لَنَا ﴾، بل دعاؤهم يعود إلى نفع عموم المسلمين؛ لأن بصلاح من ذكر يكون سببًا لصلاح كثير ممن يتعلق بهم وينتفع بهم.

﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾؛ أي: أوصلنا يا ربنا إلى هذه الدرجة العالية؛ درجة الصديقين والكمل من عباد الله الصالحين، وهي درجة الإمامة في الدين، وأن يكونوا قدوة للمتقين في أقوالهم وأفعالهم، يقتدى بأفعالهم ويطمئن لأقوالهم ويسير أهل الخير خلفهم، فيهدون ويهتدون. ومن المعلوم أن الدعاء ببلوغ شيء دعاء بما لا يتم إلا به، وهذه الدرجة - درجة الإمامة في الدين - لا تتم إلا بالصبر واليقين؛ كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة: ٢٤]: فهذا الدعاء يستلزم من الأعمال والصبر على طاعة الله وعن معصيته وأقداره المؤلمة ومن العلم التام الذي يوصل صاحبه إلى درجة اليقين خيرًا كثيرًا وعطاء جزيلًا، وأن يكونوا في أعلى ما يمكن من درجات الخلق بعد الرسل.

﴿٧٥﴾، ﴿٧٦﴾ ولهذا لما كانت هممهم ومطالبهم عالية، كان الجزاء من جنس العمل، فجازاهم بالمنازل العاليات، فقال: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾؛ أي: المنازل الرفيعة والمساكن الأنيقة الجامعة لكل ما يشتهى وتلذه الأعين، وذلك بسبب صبرهم نالوا ما نالوا؛ كما قال تعالى: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، ولهذا قال هنا: ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ ﴾: من ربهم ومن ملائكته الكرام ومن بعض على بعض، ويسلمون من جميع المنغصات والمكدرات.

والحاصل أن الله وصفهم بالوقار، والسكينة، والتواضع له ولعباده، وحسن الأدب، والحلم، وسعة الخلق، والعفو عن الجاهلين، والإعراض عنهم، ومقابلة إساءتهم بالإحسان، وقيام الليل، والإخلاص فيه، والخوف من النار، والتضرع لربهم أن ينجيهم منها، وإخراج الواجب والمستحب في النفقات، والاقتصاد في ذلك. وإذا كانوا مقتصدين في الإنفاق الذي جرت العادة بالتفريط فيه أو الإفراط؛ فاقتصادهم وتوسطهم في غيره من باب أولى، والسلامة من كبائر الذنوب، والاتصاف بالإخلاص لله في عبادته، والعفة عن الدماء والأعراض، والتوبة عند صدور شيء من ذلك، وأنهم لا يحضرون مجالس المنكر والفسوق القولية والفعلية، ولا يفعلونها بأنفسهم، وأنهم يتنزهون من اللغو والأفعال الردية، التي لا خير فيها، وذلك يستلزم مروءتهم وإنسانيتهم وكمالهم ورفعة أنفسهم عن كل خسيس قولي وفعلي، وأنهم يقابلون آيات الله بالقبول لها والتفهم لمعانيها والعمل بها والاجتهاد في تنفيذ أحكامها، وأنهم يدعون الله تعالى بأكمل الدعاء في الدعاء الذي ينتفعون به، وينتفع به من يتعلق بهم، وينتفع به المسلمون من صلاح أزواجهم وذريتهم، ومن لوازم ذلك سعيهم في تعليمهم ووعظهم ونصحهم؛ لأن من حرص على شيء ودعا الله فيه؛ لا بد أن يكون متسببًا فيه، وأنهم دعوا الله ببلوغ أعلى الدرجات الممكنة لهم، وهي درجة الإمامة والصديقية؛ فلله ما أعلى هذه الصفات، وأرفع هذه الهمم، وأجلّ هذه المطالب، وأزكى تلك النفوس، وأطهر تيك القلوب، وأصفى هؤلاء الصفوة، وأتقى هؤلاء السادة. ولله فضل الله عليهم، ونعمته، ورحمته التي جللتهم، ولطفه الذي أوصلهم إلى هذه المنازل.

ولله منة الله على عباده أن بين لهم أوصافهم ونعت لهم هيئاتهم، وبين لهم هممهم وأوضح لهم أجورهم؛ ليشتاقوا إلى الاتصاف بأوصافهم، ويبذلوا جهدهم في ذلك، ويسألوا الذي منَّ عليهم وأكرمهم، الذي فضله في كل زمان ومكان وفي كل وقت وأوان أن يهديهم كما هداهم، ويتولاهم بتربيته الخاصة كما تولاهم.

فاللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، ولا حول ولا قوة إلا بك، لا نملك لأنفسنا نفعًا ولا ضرًّا، ولا نقدر على مثقال ذرة من الخير إن لم تيسر ذلك لنا؛ فإنا ضعفاء عاجزون من كل وجه، نشهد أنك إن وكلتنا إلى أنفسنا طرفة عين؛ وكلتنا إلى ضعف وعجز وخطيئة؛ فلا نثق يا ربنا إلا برحمتك، التي بها خلقتنا ورزقتنا وأنعمت علينا بما أنعمت من النعم الظاهرة والباطنة، وصرفت عنا من النقم؛ فارحمنا رحمة تغنينا بها عن رحمة من سواك، فلا خاب من سألك ورجاك.

(٧٧) ولما كان الله تعالى قد أضاف هؤلاء العباد إلى رحمته واختصهم بعبوديته لشرفهم وفضلهم، ربما توهم متوهم أنهم وأيضًا غيرهم؛ فلم لا يدخل في العبودية؟! فأخبر تعالى أنه لا يبالي ولا يعبأ بغير هؤلاء، وأنه لولا دعاؤكم إياه دعاء العبادة ودعاء المسألة؛ ما عبأ بكم ولا أحبكم، فقال: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا (٧٧) ﴾؛ أي: عذابًا يلزمكم لزوم الغريم لغريمه، وسوف يحكم الله بينكم وبين عباده المؤمنين.

تم تفسير سورة الفرقان. فلله الحمد والثناء والشكر أبدًا.



تفسير سورة الشعراء

وهي مكية عند الجمهور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾.

﴿١﴾، ﴿٢﴾ يشير الباري تعالى إشارة تدل على التعظيم لآيات الكتاب المبين البين الواضح الدال على جميع المطالب الإلهية والمقاصد الشرعية؛ بحيث لا يبقى عند الناظر فيه شك ولا شبهة فيما أخبر به أو حكم به؛ لوضوحه ودلالته على أشرف المعاني وارتباط الأحكام بحِكَمِها وتعليقها بمناسبها، فكان رسول الله ﷺ ينذر به الناس، ويهدي به الصراط المستقيم، فيهتدي بذلك عباد الله المتقون، ويعرض عنه من كتب عليه الشقاء، فكان يحزن حزنًا شديدًا على عدم إيمانهم؛ حرصًا منه على الخير، ونصحًا لهم.

﴿٣﴾ فلهذا قال تعالى لنبيه: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾؛ أي: مهلكها وشاق عليها ﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾؛ أي: فلا تفعل ولا تذهب نفسك عليهم حسرات؛ فإن الهداية بيد الله، وقد أديت ما عليك من التبليغ، وليس فوق هذا القرآن المبين آية حتى ننزلها ليؤمنوا بها؛ فإنه كافٍ شافٍ لمن يريد الهداية.

﴿٤﴾ ولهذا قال: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾؛ أي: من آيات الاقتراح ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ﴾؛ أي: أعناق المكذبين ﴿لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾﴾: ولكن لا حاجة إلى ذلك ولا مصلحة فيه؛ فإنه إذ ذاك الوقت يكون الإيمان غير نافع، وإنما الإيمان النافع هو الإيمان بالغيب؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ [الأنعام: ١٥٨] الآية.

﴿٥﴾ ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾: يأمرهم وينهاهم ويذكرهم ما ينفعهم ويضرهم ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾﴾: بقلوبهم وأبدانهم. هذا إعراضهم عن الذكر المحدث الذي جرت العادة أنه يكون موقعه أبلغ من غيره؛ فكيف بإعراضهم عن غيره؟! وهذا لأنهم لا خير فيهم، ولا تنجع فيهم المواعظ.

﴿٦﴾ ولهذا قال: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾؛ أي: بالحق، وصار التكذيب لهم سجية لا تتغير ولا تتبدل، ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾﴾؛ أي: سيقع بهم العذاب ويحل بهم ما كذبوا به؛ فإنهم قد حقت عليهم كلمة العذاب.

﴿٧﴾ قال الله منبهًا على التفكر الذي ينفع صاحبه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾﴾: من جميع أصناف النباتات، حسنة المنظر، كريمة في نفعها.

الجزء التاسع عشر — سورة الشعراء
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾
وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾

٣٦٧

﴿٨﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾: على إحياء الله الموتى بعد موتهم؛ كما أحيا الأرض بعد موتها، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣].

﴿٩﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾: الذي قد قهر كل مخلوق، ودان له العالم العلوي والسفلي. ﴿الرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾: الذي وسعت رحمته كل شيء، ووصل جوده إلى كل حي، العزيز الذي أهلك الأشقياء بأنواع العقوبات، الرحيم بالسعداء؛ حيث أنجاهم من كل شر وبلاء.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ إلى آخر القصة.

قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾ أعاد الباري تعالى قصة موسى وثناها في القرآن ما لم يثن غيرها؛ لكونها مشتملة على حكم عظيمة وعبر، وفيها نبؤه مع الظالمين والمؤمنين، وهو صاحب الشريعة الكبرى، وصاحب التوراة أفضل الكتب بعد القرآن، فقال:

﴿١٠﴾، ﴿١١﴾ واذكر حالة موسى الفاضلة وقت نداء الله إياه حين كلمه ونبأه وأرسله، فقال: ﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾﴾: الذين تكبروا في الأرض وعلوا على أهلها وادعى كبيرهم الربوبية، ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾؛ أي: قل لهم بلين قولٍ ولطف عبارة: ألا تتقون الله الذي خلقكم ورزقكم فتتركوا ما أنتم عليه من الكفر.

﴿١٢﴾ - ﴿١٤﴾ فقال موسى عليه السلام معتذرًا من ربه ومبينًا لعذره وسائلًا له المعونة على هذا الحمل الثقيل: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾، فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾﴾ [طه: ٢٥-٣٠]، ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾﴾: فأجاب الله طلبته ونبأ أخاه كما نبأه، ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ [القصص: ٣٤]؛ أي: معاونًا لي على أمري. ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ﴾؛ أي: في قتل القبطي، ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٥﴾ - ﴿١٧﴾ ﴿قَالَ كَلَّا﴾؛ أي: لا يتمكنون من قتلك؛ فإنا سنجعل لكما سلطانًا؛ فلا يصلون إليكما أنتما ومن اتبعكما الغالبون، ولهذا لم يتمكن فرعون من قتل موسى مع منابذته له غاية المنابذة وتسفيه رأيه وتضليله وقومه، ﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا﴾: الدالة على صدقكما وصحة ما جئتما به، ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾: أحفظكما وأكلؤكما، ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾؛ أي: أرسلنا إليك لتؤمن به وبنا، وتنقاد لعبادته وتذعن لتوحيده. ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾﴾: فكف عنهم عذابك، وارفع عنهم يدك؛ ليعبدوا ربهم، ويقيموا أمر دينهم.

﴿١٨﴾، ﴿١٩﴾ فلما جاءا لفرعون وقالا له ما قال الله لهما؛ لم يؤمن فرعون، ولم يلن، وجعل يعارض موسى، فـ ﴿قَالَ﴾: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾؛ أي: ألم ننعم عليك ونقم بتربيتك منذ كنت وليدًا في مهدك ولم تزل كذلك، ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾: وهي قتل موسى للقبطي حين استغاثه ﴿الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥] الآية. ﴿وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾﴾؛ أي: وأنت إذ ذاك طريقك طريقنا وسبيلك سبيلنا في الكفر، فأقر على نفسه بالكفر من حيث لا يدري.

﴿٢٠﴾ - ﴿٢٢﴾ فقال موسى: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾﴾؛ أي: عن غير كفر، وإنما كان عن ضلال وسفه، فاستغفرت ربي فغفر لي، ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾: حين تراجعتم بقتلي، فهربت إلى مدين، ومكثت سنين، ثم جئتكم ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾.

فالحاصل أن اعتراض فرعون على موسى اعتراض جاهل أو متجاهل؛ فإنه جعل المانع من كونه رسولًا أن جرى منه القتل، فبين له موسى أن قتله على وجه الضلال والخطأ الذي لم يقصد نفس القتل، وأن فضل الله تعالى غير ممنوع منه أحد؛ فَلِمَ منعتم ما منحني الله من الحكم والرسالة؟

بقي عليك يا فرعون إدلاؤك بقولك: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾؟ وعند التحقيق يتبين أن لا منة لك فيها، ولهذا قال موسى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: تدلي علي بهذه المنة لأنك سخرت بني إسرائيل، وجعلتهم لك بمنزلة العبيد، وأنا قد أسلمتني من تعبيدك وتسخيرك، وجعلتها علي نعمة؛ فعند التصور يتبين أن الحقيقة أنك ظلمت هذا الشعب الفاضل، وعذبتهم

وسخرتهم بأعمالك، وأنا قد سلمني الله من أذاك، مع وصول أذاك لقومي؛ فما هذه المنة التي تمنُّ بها وتدلي بها؟!

(٢٣) - (٢٥) ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾: وهذا إنكار منه لربه ظلمًا وعلوًّا، مع تيقن صحة ما دعاه إليه موسى، فقال: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾؛ أي: الذي خلق العالم العلوي والسفلي، ودبره بأنواع التدبير، ورباه بأنواع التربية، ومن جملة ذلك أنتم أيها المخاطبون؛ فكيف تنكرون خالق المخلوقات وفاطر الأرض والسماوات، ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾، فقال فرعون متجرهمًا ومعجبًا لقوله: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾: ما يقوله هذا الرجل؟!

(٢٦)، (٢٧) فقال موسى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾: تعجبتم أم لا، استكبرتم أم أذعنتم، فقال فرعون معاندًا للحق قادحًا بمن جاء به: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾: حيث قال خلاف ما نحن عليه، وخالفنا فيما ذهبنا إليه؛ فالعقل عنده وأهل العقل من زعموا أنهم لم يخلقوا، أو أن السماوات والأرض ما زالتا موجودتين من غير موجد، وأنهم بأنفسهم خلقوا من غير خالق! والعقل عنده أن يعبد المخلوق الناقص من جميع الوجوه! والجنون عنده أن يثبت الرب الخالق للعالم العلوي والسفلي والمنعم بالنعم الظاهرة والباطنة ويدعى إلى عبادته! وزين لقومه هذا القول، وكانوا سفهاء الأحلام خفيفي العقول، ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف: ٥٤].

(٢٨) فقال موسى عليه السلام مجيبًا لإنكار فرعون وتعطيله لرب العالمين: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾: من سائر المخلوقات، ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾: فقد أديت لكم من البيان والتبيين ما يفهمه كل من له أدنى مُسْكَة من عقل؛ فما بالكم تتجاهلون فيما أخاطبكم به؟! وفيه إيماء وتنبيه إلى أن الذي رميتم به موسى من الجنون أنه داؤكم، فرميتم أزكى الخلق عقلًا وأكملهم علمًا! والحال أنكم أنتم المجانين؛ حيث ذهبت عقولكم عن إنكار أظهر الموجودات؛ خالق الأرض والسماوات وما بينهما؛ فإذا جحدتموه؛ فأي شيء تثبتون؟! وإذا جهلتموه؛ فأي شيء تعلمون؟! وإذا لم تؤمنوا به وبآياته؛ فبأي شيء بعد الله وآياته تؤمنون؟! تالله؛ إن المجانين

قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ
فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا
عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ
﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾
قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ
لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ
أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ
فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ
عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا
تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ
﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ
لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾

الذين بمنزلة البهائم أعقل منكم، وإن الأنعام السارحة أهدى منكم.

(٢٩) - (٣٣) فلما خنقت فرعون الحجة وعجزت قدرته وبيانه عن المعارضة؛ ﴿قَالَ﴾: متوعدًا لموسى بسلطانه: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾: زعم - قبحه الله - أنه قد طمع في إضلال موسى، وألَّا يتخذ إلهًا غيره، وإلا؛ فقد تقرر أنه هو ومن معه على بصيرة من أمرهم، فقال له موسى: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾؛ أي: آية ظاهرة جلية على صحة ما جئت به من خوارق العادات، ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ﴾؛ أي: ذكر الحيات. ﴿مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾﴾: ظاهر لكل أحد لا خيال ولا تشبيه، ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾: من جيبه، ﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾؛ أي: لها نور عظيم لا نقص فيه لمن نظر إليها.

(٣٤) - (٣٧) ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ﴾: معارضًا للحق ومن جاء به: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم

لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ
قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ
وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ
﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ
ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ
﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾
رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ
لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ
إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ
أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم
مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ
لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ
﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾
كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾

﴿مِّنْ أَرْضِكُم﴾: موه عليهم لعلمه بضعف عقولهم أن هذا من جنس ما يأتي به السحرة؛ لأنه من المتقرر عندهم أن السحرة يأتون من العجائب بما لا يقدر عليه الناس، وخوَّفهم أن قصده بهذا السحر التوصل إلى إخراجهم من وطنهم؛ ليجدوا ويجتهدوا في معاداة من يريد إجلاءهم عن أولادهم وديارهم، ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥)﴾ أن نفعل به؟ ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾؛ أي: أخرهما، ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ (٣٦)﴾: جامعين للناس، ﴿يَأْتُوكَ﴾ أولئك الحاشرون ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧)﴾؛ أي: ابعث في جميع مدنك التي هي مقر العلم ومعدن السحر من يجمع لك كل ساحر ماهر عليم في سحره؛ فإن الساحر يقابل بسحر من جنس سحره، وهذا من لطف الله؛ أن يري العباد بطلان ما موه به فرعون الجاهل الضال المضل أن ما جاء به موسى سحر؛ قيضهم أن جمعوا أهل المهارة بالسحر؛ لينعقد المجلس عن حضرة الخلق العظيم، فيظهر الحق على الباطل، ويقر أهل العلم وأهل الصناعة بصحة ما جاء به موسى، وأنه ليس بسحر.

(٣٨) - (٤٠) فعمل فرعون برأيهم، فأرسل في المدائن من يجمع السحرة، واجتهد في ذلك وجد، ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨)﴾: قد واعدهم إياه موسى، وهو يوم الزينة الذي يتفرغون فيه من أشغالهم، ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩)﴾؛ أي: نودي بعموم الناس بالاجتماع في ذلك اليوم الموعود، ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ (٤٠)﴾؛ أي: قالوا للناس: اجتمعوا لتنظروا غلبة السحرة لموسى، وأنهم ماهرون في صناعتهم، فنتبعهم ونعظمهم ونعرف فضيلة علم السحر. فلو وفقوا للحق؛ لقالوا: لعلنا نتبع المحق منهم، ونعرف الصواب؛ فلذلك ما أفاد فيهم ذلك إلا قيام الحجة عليهم.

(٤١)، (٤٢) ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾: ووصلوا الفرعون؛ قالوا له: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ (٤١)﴾: لموسى؟ ﴿قَالَ نَعَمْ﴾: لكم أجر وثواب، ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (٤٢)﴾؛ عندي؛ وعدهم الأجر والقربة منه؛ ليزداد نشاطهم ويأتوا بكل مقدورهم في معارضة ما جاء به موسى.

(٤٣) - (٤٥) فلما اجتمعوا للموعد هم وموسى وأهل مصر؛ وعظهم موسى وذكرهم وقال: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ (٦١)﴾ [طه: ٦١]، فتنازعوا وتخاصموا، ثم شجعهم فرعون وشجع بعضهم بعضًا، ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣)﴾؛ أي: ألقوا كل ما في خواطركم إلقاؤه ولم يقيدهم[1] بشيء دون شيء لجزمه ببطلان ما جاءوا به من معارضة الحق، ﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾: فإذا هي حيات تسعى، وسحروا بذلك أعين الناس. ﴿وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ (٤٤)﴾: فاستعانوا بعزة عبد ضعيف عاجز من كل وجه؛ إلا أنه قد تجبر وحصل له صورة ملك وجنود، فغرتهم تلك الأبهة، ولم تنفذ بصائرهم إلى حقيقة الأمر، أو أن هذا قَسَم منهم بعزة فرعون، والمقسم عليه أنهم غالبون، ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ﴾: تبتلع وتأخذ ﴿مَا يَأْفِكُونَ (٤٥)﴾: فالتقفت جميع ما ألقوا من الحبال والعصي؛ لأنها إفك وكذب وزور، وذلك كله باطل لا يقوم للحق ولا يقاومه.

(٤٦) - (٤٨) فلما رأى السحرة هذه الآية العظيمة؛ تيقنوا لعلمهم أن هذا ليس بسحر، وإنما هو آية من آيات الله

(١) ع، ط: «يقيده».

ومعجزة تنبئ بصدق موسى وصحة ما جاء به، ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾: لربهم، ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾: وانقمع الباطل في ذلك المجمع، وأقر رؤساؤه ببطلانه، ووضح الحق وظهر، حتى رأى ذلك الناظرون بأبصارهم.

﴿٤٩﴾ - ﴿٥١﴾ ولكن أبى فرعون إلا عتوًّا وضلالًا وتماديًا في غيه وعنادًا، فقال للسحرة: ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ يتعجب ويعجب قومه من جراءتهم عليه وإقدامهم على الإيمان من غير إذنه ومؤامرته، ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾: هذا؛ وهو الذي جمع السحرة، وملأه الذين أشاروا عليه بجمعهم من مدائنهم، وقد علموا أنهم ما اجتمعوا بموسى ولا رأوه قبل ذلك، وأنهم جاءوا من السحر بما يحير الناظرين ويهيلهم، ومع ذلك؛ فراج عليهم هذا القول الذي هم بأنفسهم وقفوا على بطلانه؛ فلا يستنكر على أهل هذه العقول ألَّا يؤمنوا بالحق الواضح والآيات الباهرة؛ لأنهم لو قال لهم فرعون عن أي شيء كان، أنه على خلاف حقيقته؛ صدقوه. ثم توعد السحرة، فقال: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ﴾؛ أي: اليد اليمنى والرجل اليسرى؛ كما يفعل بالمفسد في الأرض، ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾: لتختزوا وتذلوا، فقال السحرة حين وجدوا حلاوة الإيمان وذاقوا لذته: ﴿ لَا ضَيْرَ ﴾؛ أي: لا نبالي بما توعدتنا به، ﴿ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ ﴾: من الكفر والسحر وغيرهما ﴿ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾: بموسى من هؤلاء الجنود. فثبتهم الله وصبرهم؛ فيحتمل أن فرعون فعل بهم ما توعدهم به لسلطانه واقتداره إذ ذاك، ويحتمل أن الله منعه منهم.

﴿٥٢﴾ ثم لم يزل فرعون وقومه مستمرين على كفرهم؛ يأتيهم موسى بالآيات البينات، وكلما جاءتهم آية وبلغت منهم كل مبلغ؛ وعدوا موسى وعاهدوه لئن كشف الله عنهم؛ ليؤمنن به وليرسلن معه بني إسرائيل، فيكشفه الله، ثم ينكثون. فلما يئس موسى من إيمانهم، وحقت عليهم كلمة العذاب، وآن لبني إسرائيل أن ينجيهم من أسرهم ويمكن لهم في الأرض؛ أوحى الله إلى موسى: ﴿ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ ﴾؛ أي: اخرج ببني إسرائيل أول الليل؛ ليتمادوا ويتمهلوا في ذهابهم ﴿ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾؛ أي: سيتبعكم فرعون وجنوده. ووقع كما أخبر؛ فإنهم لما أصبحوا، وإذا بنو إسرائيل قد سروا كلهم مع موسى.

﴿٥٣﴾ - ﴿٥٦﴾ ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾: يجمعون الناس؛ ليوقع ببني إسرائيل، ويقول مشجعًا لقومه: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾؛ أي: بني إسرائيل ﴿ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾: فنريد أن ننفذ غيظنا في هؤلاء العبيد الذين أبقوا منا، ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾؛ أي: الحذر على الجميع منهم، وهم أعداء للجميع، والمصلحة مشتركة.

﴿٥٧﴾ - ﴿٥٩﴾ فخرج فرعون وجنوده في جيش عظيم ونفير عام، لم يتخلف منهم سوى أهل الأعذار الذين منعهم العجز؛ قال الله تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ ﴾؛ أي: بساتين مصر وجنانها الفائقة وعيونها المتدفقة وزروع قد ملأت أراضيهم وعمرت بها حاضرتهم وبواديهم، ﴿ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾: يعجب الناظرين ويلهي المتأملين؛ تمتعوا به دهرًا طويلًا، وقضوا بلذاته وشهواته عمرًا مديدًا على الكفر والعناد والتكبر على العباد والتيه العظيم، ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا ﴾؛ أي: هذه البساتين والعيون والزروع والمقام الكريم ﴿ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾: الذين جعلوهم من قبل عبيدهم وسخروا في أعمالهم الشاقة؛ فسبحان من يؤتي الملك من يشاء وينزعه عمن يشاء ويعز من يشاء بطاعته، ويذل من يشاء بمعصيته.

﴿٦٠﴾ - ﴿٦٢﴾ ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾؛ أي: اتبع قوم فرعون قوم موسى وقت شروق الشمس، وساقوا خلفهم محثين على غيظ وحنق قادرين، ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ ﴾؛ أي: رأى كل منهما صاحبه، ﴿ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ ﴾: شاكين لموسى وحزنين: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾. فـ ﴿ قَالَ ﴾ موسى مثبتًا لهم ومخبرًا لهم بوعد ربه الصادق: ﴿ كَلَّآ ﴾؛ أي: ليس الأمر كما ذكرتم أنكم مدركون، ﴿ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾: لما فيه نجاتي ونجاتكم.

﴿٦٣﴾ - ﴿٦٨﴾ ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾: فضربه، ﴿ فَٱنفَلَقَ ﴾: اثني عشر طريقًا، ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ﴾؛ أي: الجبل ﴿ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ﴾: فدخله موسى وقومه، ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ﴾: في ذلك المكان ﴿ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾؛ أي: فرعون وقومه، وقربناهم، وأدخلناهم في ذلك الطريق الذي سلك منه موسى وقومه، ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾: استكملوا خارجين، لم يتخلف منهم أحد،

فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١ قَالَ
كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب
بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ٦٣
وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٤ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ٦٥
ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم
مُّؤۡمِنِينَ ٦٧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٦٨ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ
نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ٧٠ قَالُواْ
نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ٧١ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ
تَدۡعُونَ ٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ٧٣ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا
كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٧٤ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٧٥ أَنتُمۡ
وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ
٧٧ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ
٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ
يُحۡيِينِ ٨١ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ
٨٢ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ٨٣

﴿ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٦ ﴾: لم يتخلف منهم عن الغرق أحد. ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ ﴾: عظيمة على صدق ما جاء به موسى عليه السلام وبطلان ما عليه فرعون وقومه، ﴿ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ٦٧ ﴾: مع هذه الآيات المقتضية للإيمان؛ لفساد قلوبكم، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٦٨ ﴾: بعزته أهلك الكافرين المكذبين، وبرحمته نجى موسى ومن معه أجمعين.

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ٧٠ ﴾ إلى آخر هذه القصة.

(٦٩) - (٧١) أي: واتل يا محمد على الناس نبأ إبراهيم الخليل وخبره الجليل في هذه الحالة بخصوصها، وإلا؛ فله أنباء كثيرة، ولكن من أعجب أنبائه وأفضلها هذا النبأ المتضمن لرسالته ودعوته قومه ومحاجته إياهم وإبطاله ما هم عليه، ولذلك قيده بالظرف فقال: ﴿ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ٧٠ قَالُواْ ﴾: متبجحين بعبادتهم: ﴿ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا ﴾: ننحتها ونعملها بأيدينا، ﴿ فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ٧١ ﴾؛ أي: مقيمين على عبادتها في كثير من أوقاتنا.

(٧٢) - (٧٤) فقال لهم إبراهيم مبينًا لعدم استحقاقها للعبادة: ﴿ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ٧٢ ﴾: فيستجيبون دعاءكم ويفرجون كربكم ويزيلون عنكم كل مكروه؟ ﴿ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ٧٣ ﴾: فأقروا أن ذلك كله غير موجود فيها؛ فلا تسمع دعاء، ولا تنفع، ولا تضر! ولهذا لما كسرها وقال: ﴿ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ٦٣ ﴾؛ قالوا له: ﴿ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ٦٥ ﴾ [الأنبياء: ٦٣، ٦٥]؛ أي: هذا أمر متقرر من حالها، لا يقبل الإشكال والشك. فلجئوا إلى تقليد آبائهم الضالين، فقالوا: ﴿ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٧٤ ﴾: فتبعناهم على ذلك، وسلكنا سبيلهم، وحافظنا على عاداتهم.

(٧٥) - (٨٢) فقال لهم إبراهيم: أنتم وآباؤكم كلكم خصوم في الأمر، والكلام مع الجميع واحد: ﴿ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ ﴾: فليضرون بأدنى شيء من الضرر، وليكيدون فلا يقدرون. ﴿ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٧ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨ ﴾: هو المنفرد بنعمة الخلق ونعمة الهداية للمصالح الدينية والدنيوية، ثم خصص منها بعض الضروريات، فقال: ﴿ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ٨١ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ٨٢ ﴾: فهذا هو وحده المنفرد بذلك، فيجب أن يفرد بالعبادة والطاعة، وتترك هذه الأصنام التي لا تخلق ولا تهدي، ولا تمرض ولا تشفي، ولا تطعم ولا تسقي، ولا تميت ولا تحيي، ولا تنفع عابديها بكشف الكروب ولا مغفرة الذنوب؛ فهذا دليل قاطع وحجة باهرة لا تقدرون أنتم وآباؤكم على معارضتها، فدل على اشتراككم في الضلال وترككم طريق الهدى والرشد. قال الله تعالى: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ ﴾ [الأنعام: ٨٠] الآيات.

(٨٣)، (٨٤) ثم دعا عليه السلام ربه، فقال: ﴿ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا ﴾؛ أي: علمًا كثيرًا أعرف به الأحكام والحلال والحرام، وأحكم به بين الأنام، ﴿ وَأَلۡحِقۡنِي

وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾

بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾: من إخوانه الأنبياء والمرسلين، ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾؛ أي: اجعل لي ثناء صدق مستمر إلى آخر الدهر. فاستجاب الله دعاءه، فوهب له من العلم والحكم ما كان به من أفضل المرسلين، وألحقه بإخوانه المرسلين، وجعله محبوبًا مقبولًا معظمًا مُثنًى عليه في جميع الملل في كل الأوقات، قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾ إنا ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾ [الصافات: ١٠٨-١١١].

(٨٥) ﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾؛ أي: من أهل الجنة التي يورثهم الله إياها، فأجاب الله دعاءه، فرفع منزلته في جنات النعيم.

(٨٦) ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾﴾: وهذا الدعاء بسبب الوعد الذي قال لأبيه: لأستغفرن ﴿لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم: ٤٧]، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤]، ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ [هود: ٧٥].

(٨٧) - (٨٩) ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾؛ أي: بالتوبيخ على بعض الذنوب والعقوبة عليها والفضيحة، بل أسعدني في ذلك اليوم الذي ﴿لَا يَنفَعُ﴾ فيه ﴿مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾: فهذا الذي ينفعه عندك، وهذا الذي ينجو من العقاب ويستحق جزيل الثواب.

والقلب السليم: معناه: الذي سلم من الشرك والشك ومحبة الشر والإصرار على البدعة والذنوب، ويلزم من سلامته مما ذكر اتصافه بأضدادها من الإخلاص والعلم واليقين ومحبة الخير وتزيينه في قلبه، وأن تكون إرادته ومحبته تابعة لمحبة الله، وهواه تبعًا لما جاء عن الله.

(٩٠) - (٩٥) ثم ذكر من صفات ذلك اليوم العظيم وما فيه من الثواب والعقاب، فقال: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾؛ أي: قربت ﴿لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾﴾: ربهم، الذين امتثلوا أوامره، واجتنبوا زواجره واتقوا سخطه وعقابه. ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ﴾؛ أي: برزت واستعدت بجميع ما فيها من العذاب ﴿لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾: الذين أوضعوا في معاصي الله، وتجرءوا على محارمه، وكذبوا رسله، وردوا ما جاءهم به من الحق، ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾: بأنفسهم؛ أي: فلم يكن من ذلك من شيء، وظهر كذبهم وخزيهم، ولاحت خسارتهم وفضيحتهم، وبان ندمهم، وضل سعيهم. ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا﴾؛ أي: ألقوا في النار ﴿هُمْ﴾؛ أي: ما كانوا يعبدون، ﴿وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾﴾: العابدون لها، ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾: من الإنس والجن، الذين أزهم إلى المعاصي أزًّا، وتسلط عليهم بشركهم وعدم إيمانهم، فصاروا من دعاته والساعين في مرضاته، وهم ما بين داعٍ لطاعته ومجيب لهم ومقلد لهم على شركهم.

(٩٦) - (١٠٤) ﴿قَالُوا﴾؛ أي: جنود إبليس الغاوون لأصنامهم وأوثانهم التي عبدوها: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾: في العبادة والمحبة والخوف والرجاء، وندعوكم كما ندعوه. فتبين لهم حينئذ ضلالهم، وأقروا بعدل الله في عقوبتهم، وأنها في محلها، وهم لم يسووهم برب العالمين؛ إلا في العبادة، لا في الخلق؛ بدليل قولهم: ﴿بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾؛ أنهم مقرون

أن الله رب العالمين كلهم، الذين من جملتهم أصنامهم وأوثانهم، ﴿ وَمَآ أَضَلَّنَآ ﴾: عن طريق الهدى والرشد ودعانا إلى طريق الغي والفسق ﴿ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾: وهم الأئمة الذين يدعون إلى النار، ﴿ فَمَا لَنَا ﴾: حينئذ ﴿مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾: يشفعون لنا لينقذونا من عذابه ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾؛ أي: قريب مصاف ينفعنا بأدنى نفع؛ كما جرت العادة بذلك في الدنيا؛ فأيسوا من كل خير، وأبلسوا بما كسبوا، وتمنوا العودة إلى الدنيا ليعملوا صالحًا؛ ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ﴾؛ أي: رجعة إلى الدنيا وإعادة إليها، ﴿ فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾: لنسلم من العقاب ونستحق الثواب. هيهات هيهات؛ قد حيل بينهم وبين ما يشتهون، وقد غلقت منهم الرهون. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾: الذي ذكرنا لكم ووصفنا ﴿لَءَايَةً ﴾: لكم، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾: مع نزول الآيات.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ إلى آخر القصة.

﴿١٠٥﴾ - ﴿١١٠﴾ يذكر تعالى تكذيب قوم نوح لرسولهم نوح، وما رد عليهم وردوا عليه، وعاقبة الجميع، فقال: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾: جميعهم، لأن تكذيب نوح كتكذيب جميع المرسلين؛ لأنهم كلهم اتفقوا على دعوة واحدة وأخبار واحدة؛ فتكذيب أحدهم كتكذيب بجميع ما جاءوا به من الحق. كذبوه ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ ﴾: في النسب ﴿ نُوحٌ ﴾: وإنما ابتعث الله الرسل من نسب من أرسل إليهم؛ لئلا يشمئزوا من الانقياد له، ولأنهم يعرفون حقيقته؛ فلا يحتاجون أن يبحثوا عنه، فقال لهم مخاطبًا بألطف خطاب؛ كما هي طريقة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾: الله تعالى، فتتركوا ما أنتم مقيمون عليه من عبادة الأوثان، وتخلصوا العبادة لله وحده. ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ ﴾: فكونه رسولًا إليهم بالخصوص يوجب لهم تلقي ما أرسل به إليهم، والإيمان به، وأن يشكروا الله تعالى على أن خصهم بهذا الرسول الكريم. وكونه أمينًا يقتضي أنه لا يقول على الله، ولا يزيد في وحيه ولا ينقص. وهذا يوجب لهم التصديق بخبره والطاعة لأمره، ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾: فيما أمركم به ونهاكم عنه؛ فإن هذا هو الذي يترتب على كونه رسولًا إليهم أمينًا؛ فلذلك رتبه بالفاء الدالة على السبب، فذكر السبب الموجب، ثم ذكر انتفاء المانع، فقال: ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾: فتتكلفوا من المغرم الثقيل ﴿ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾: أرجو بذلك القرب منه والثواب الجزيل، وأما أنتم؛ فمنيتي ومنتهى إرادتي منكم النصح لكم وسلوككم الصراط المستقيم، ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ﴾: كرر ذلك عليه السلام؛ لتكريره دعوة قومه، وطول مكثه في ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِى قَوْمِهِۦٓ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت: ١٤]، و﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ ﴾ [نوح: ٦] الآيات.

﴿١١١﴾ فقالوا ردًّا لدعوته ومعارضة له بما ليس يصلح للمعارضة: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾؛ أي: كيف نتبعك ونحن لا نرى أتباعك إلا أسافل الناس وأراذلهم وسقطهم. بهذا يعرف تكبرهم عن الحق وجهلهم بالحقائق؛ فإنهم لو كان قصدهم الحق؛ لقالوا - إن كان عندهم إشكال وشك في دعوته -: بين لنا صحة ما جئت به بالطرق الموصلة إلى ذلك! ولو تأملوا حق التأمل؛ لعلموا أن أتباعه هم الأعلون، خيار الخلق، أهل العقول الرزينة والأخلاق الفاضلة، وأن الأرذل من سلب خاصية عقله، فاستحسن عبادة الأحجار، ورضي أن يسجد لها ويدعوها، وأبى الانقياد لدعوة الرسل الكمل. وبمجرد ما يتكلم أحد الخصمين في الكلام الباطل؛ يعرف فساد ما عنده؛ بقطع النظر عن صحة دعوى خصمه؛ فقوم نوح لما سمعنا عنهم أنهم قالوا في ردهم دعوة نوح: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾: فبنوا على هذا الأصل الذي كل أحد يعرف فساده رد دعوته؛ عرفنا أنهم ضالون مخطئون، ولو لم نشاهد من آيات نوح ودعوته العظيمة ما يفيد الجزم واليقين بصدقه وصحة ما جاء به.

﴿١١٢﴾ - ﴿١١٥﴾ فقال نوح عليه السلام: ﴿وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾؛ أي: أعمالهم وحسابهم على الله، إنما علي التبليغ، وأنتم دعوهم عنكم؛ إن كان ما جئتكم به الحق؛ فانقادوا له، وكلٌّ له عمله، ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾: كأنهم - قبحهم الله - طلبوا منه أن يطردهم عنه تكبرًا وتجبرًا ليؤمنوا، فقال: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾؛ فإنهم لا يستحقون الطرد والإهانة، وإنما يستحقون الإكرام القولي والفعلي؛ كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ

قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي
لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ
﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ
رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ
مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ
﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ
عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ
آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾
وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾
وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾
وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ
﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾

كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام: ٥٤]. ﴿ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾ ﴾؛ أي: ما أنا إلا منذر ومبلغ عن الله، ومجتهد في نصح العباد، وليس لي من الأمر شيء إن الأمر إلا لله.

﴿١١٦﴾ فاستمر نوح عليه الصلاة والسلام على دعوتهم ليلًا ونهارًا، سرًّا وجهارًا، فلم يزدادوا إلا نفورًا، و﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ ﴾: من دعوتك إيانا إلى الله وحده؛ ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾؛ أي: لنقتلنك شر قتلة؛ بالرمي بالحجارة؛ كما يقتل الكلب، فتبًّا لهم! ما أقبح هذه المقابلة! يقابلون الناصح الأمين الذي هو أشفق عليهم من أنفسهم بشر مقابلة.

﴿١١٧﴾، ﴿١١٨﴾ لا جرم لما انتهى ظلمهم واشتد كفرهم؛ دعا عليهم نبيهم بدعوة أحاطت بهم، فقال: ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [نوح: ٢٦] الآيات، وهنا قال: ﴿ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا ﴾؛ أي: أهلك الباغي منا، وهو يعلم أنهم البغاة الظلمة، ولهذا قال: ﴿ وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾.

﴿١١٩﴾ - ﴿١٢٢﴾ ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ﴾؛ أي: السفينة ﴿ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ﴾: من الخلق والحيوانات، ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ﴾؛ أي: بعد نوح ومن معه من المؤمنين ﴿ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾؛ أي: جميع قومه. ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾؛ أي: نجاة نوح وأتباعه وإهلاك من كذبه ﴿ لَآيَةً ﴾: دالة على صدق رسلنا وصحة ما جاءوا به وبطلان ما عليه أعداؤهم المكذبون بهم. ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾: الذي قهر بعزه أعداءه فأغرقهم بالطوفان. ﴿ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾: بأوليائه؛ حيث نجى نوحًا ومن معه من أهل الإيمان.

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ إلى آخر القصة.

﴿١٢٣﴾ - ﴿١٢٧﴾ أي: كذبت القبيلة المسماة عادًا رسولهم هودًا، وتكذيبهم له تكذيب لغيره؛ لاتفاق الدعوة، ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ ﴾: في النسب ﴿ هُودٌ ﴾: بلطف وحسن خطاب: ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾: الله، فتتركوا الشرك وعبادة غيره، ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ ﴾؛ أي: أرسلني الله إليكم رحمة بكم واعتناء بكم، وأنا أمين؛ تعرفون ذلك مني. رتب على ذلك قوله: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ ﴾؛ أي: أدوا حق الله تعالى، وهو التقوى، وأدوا حقي؛ بطاعتي فيما آمركم به وأنهاكم عنه؛ فهذا موجب لأن تتبعوني وتطيعوني، وليس ثَمَّ مانع يمنعكم من الإيمان، فلست أسألكم على تبليغي إياكم ونصحي لكم أجرًا حتى تستثقلوا ذلك المغرم. ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾: الذي رباهم بنعمه وأدَرَّ عليهم فضله وكرمه؛ خصوصًا ما ربى به أولياءه وأنبياءه.

﴿١٢٨﴾ - ﴿١٣٥﴾ ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ﴾؛ أي: مدخل بين الجبال ﴿ آيَةً ﴾؛ أي: علامة ﴿ تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾؛ أي: تفعلون ذلك عبثًا لغير فائدة تعود بمصالح دينكم ودنياكم، ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ﴾؛ أي: بركًا ومجابي للمياه؛ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾: والحال أنه لا سبيل إلى الخلود لأحد. ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ ﴾: بالخلق ﴿ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾: قتلًا وضربًا وأخذ أموال. وكان الله تعالى قد أعطاهم قوة عظيمة، وكان الواجب عليهم أن يستعينوا بقوتهم على طاعة الله، ولكنهم فخروا واستكبروا وقالوا: من أشد منا قوة؟ واستعملوا قوتهم في معاصي الله وفي العبث

إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ
لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ
إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾
فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾
وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ
﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ
وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ
إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ
هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا
بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟
نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

والسفه؛ فلذلك نهاهم نبيهم عن ذلك. ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: واتركوا شرككم وبطركم ﴿وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾: حيث علمتم أني رسول الله إليكم أمين ناصح. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم﴾؛ أي: أعطاكم ﴿بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾؛ أي: أمدكم بما لا يجهل ولا ينكر من الأنعام، ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ﴾: من إبل وبقر وغنم، ﴿وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾﴾؛ أي: وكثرة نسل؛ كثّر أموالكم وكثّر أولادكم؛ خصوصًا الذكور؛ أفضل القسمين. هذا تذكيرهم بالنعم، ثم ذكّرهم حلول عذاب الله فقال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾؛ أي: إني من شفقتي عليكم، وبري بكم أخاف أن ينزل بكم عذاب عظيم. إذا نزل لا يرد إن استمررتم على كفركم وبغيكم.

﴿١٣٦﴾ - ﴿١٣٨﴾ فقالوا معاندين للحق مكذبين لنبيهم: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾؛ أي: الجميع على حد سواء! وهذا غاية العتو؛ فإن قومًا بلغت بهم الحال إلى أن صارت مواعظ الله التي تذيب الجبال الصم الصلاب، وتتصدع لها أفئدة أولي الألباب، وجودها وعدمها عندهم على حد سواء؛ لقوم انتهى ظلمهم واشتد شقاؤهم وانقطع الرجاء من هدايتهم، ولهذا قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾؛ أي: هذه الأحوال والنعم ونحو ذلك عادة الأولين؛ تارة يستغنون، وتارة يفتقرون، وهذه أحوال الدهر؛ لأن هذه محن ومنح من الله تعالى وابتلاء لعباده. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾: وهذا إنكار منهم للبعث، أو تنزل مع نبيهم وتهكم به؛ إننا على فرض أننا نبعث؛ فإننا كما أدرت علينا النعم في الدنيا؛ كذلك لا تزال مستمرة علينا إذا بعثنا.

﴿١٣٩﴾، ﴿١٤٠﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾؛ أي: صار التكذيب سجية لهم وخلقًا لا يردعهم عنه رادع؛ ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ [الحاقة: ٦، ٧]. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾: على صدق نبينا هود عليه السلام، وصحة ما جاء به، وبطلان ما عليه قومه من الشرك والجبروت. ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾: مع وجود الآيات المقتضية للإيمان، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: الذي أهلك بقدرته[1] قوم هود على قوتهم وبطشهم. ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾: بنبيه هود حيث نجاه ومن معه من المؤمنين.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾ إلى آخر القصة.

﴿١٤١﴾ - ﴿١٤٥﴾ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ القبيلة المعروفة في مدائن الحجر ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾: كذبوا صالحا عليه السلام، الذي جاء بالتوحيد، الذي دعت إليه المرسلون، فكان تكذيبهم له تكذيبًا للجميع، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ﴾: في النسب برفق ولين: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾﴾: الله تعالى وتدعون الشرك والمعاصي. ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ﴾: من الله ربكم، أرسلني إليكم لطفًا بكم ورحمة، فتلقوا رحمته بالقبول، وقابلوها بالإذعان. ﴿أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾﴾: تعرفون ذلك مني، وذلك يوجب عليكم أن تؤمنوا بي وبما جئت به، ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾: فتقولوا: يمنعنا من اتباعك أنك تريد أخذ أموالنا. ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾؛ أي: لا أطلب الثواب إلا منه.

﴿١٤٦﴾ - ﴿١٥٢﴾ ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾؛ أي: نضيد

(١) ع، ط: «بقوته».

كثير؛ أي: أتحسبون أنكم تتركون في هـذه الخيرات والنعم سدى تتنعمون وتمتعون كما تتمتع الأنعام؟ وتتركون سدى لا تؤمرون ولا تنهون، وتستعينون بهذه النعم على معاصي الله، ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾؛ أي: بلغت بكم الفراهة والحذق إلى أن اتخذتم بيوتًا من الجبال الصم الصلاب. ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾: الذين تجاوزوا الحد، ﴿ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾؛ أي: الذين وصفهم ودأبهم الإفساد في الأرض بعمل المعاصي والدعوة إليها إفسادًا لا إصلاح فيه، وهذا أضر ما يكون؛ لأنه شر محض، وكأن أناسًا عندهم مستعدون لمعارضة نبيهم. موضعون في الدعوة لسبيل الغي، فنهاهم صالح عن الاغترار بهم، ولعلهم الذين قال الله فيهم: ﴿ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [النمل: ٤٨].

﴿١٥٣﴾، ﴿١٥٤﴾ فلم يفد فيهم هذا النهي والوعظ شيئًا، فقالوا لصالح: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾؛ أي: قد سحرت فأنت تهذي بما لا معنى له، و﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾؛ فأي فضيلة فقتنا بها حتى تدعونا إلى اتباعك، ﴿ فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ ﴾؛ هذا مع أن مجرد اعتبار حالته وحالة ما دعا إليه من أكبر الآيات البينات على صحة ما جاء به وصدقه، ولكنهم من قسوتهم سألوا آيات الاقتراح التي في الغالب لا يفلح من طلبها؛ لكون طلبه مبنيًّا على التعنت لا على الاسترشاد.

﴿١٥٥﴾، ﴿١٥٦﴾ فقال صالح: ﴿ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ ﴾: تخرج من صخرة صماء ملساء - تابعنا في هذا كثيرًا من المفسرين، ولا مانع من ذلك - ترونها وتشاهدونها بأجمعكم، ﴿ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ ﴾؛ أي: تشرب ماء البئر يومًا، وأنتم تشربون لبنها، ثم تصدر عنكم اليوم الآخر، وتشربون أنتم ماء البئر، ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ ﴾: بعقر أو غيره؛ ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ ﴾.

﴿١٥٧﴾ - ﴿١٥٩﴾ فخرجت، واستمرت عندهم بتلك الحال، فلم يؤمنوا، واستمروا على طغيانهم، ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَـٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾: وهي صيحة نزلت عليهم فدمرتهم أجمعين. ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ﴾: على صدق ما جاءت به رسلنا وبطلان قول معارضيهم. ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ ﴾.

الجزء التاسع عشر — سورة الشعراء

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ
﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ
أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾
أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم
مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ
لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾
رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾
إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم
مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ
لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا
تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾
وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾

٣٧٤

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ إلى آخر القصة.

﴿١٦٠﴾ - ﴿١٦٧﴾ قال لهم وقالوا كما قال من قبلهم، تشابهت قلوبهم في الكفر، فتشابهت أقوالهم، وكانوا مع شركهم يأتون فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين؛ يختارون نكاح الذكران المستقذر الخبيث، ويرغبون عما خلق لهم من أزواجهم؛ لإسرافهم وعدوانهم، فلم يزل ينهاهم حتى ﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ ﴾؛ أي: من البلد.

﴿١٦٨﴾ - ﴿١٧٥﴾ فلما رأى استمرارهم عليه؛ ﴿ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾؛ أي: المبغضين له الناهين عنه المحذرين، ﴿ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾: من فعله وعقوبته، فاستجاب الله له ﴿ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾؛ أي: الباقين في العذاب، وهي امرأته. ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ﴾؛ أي: حجارة من سجيل، ﴿ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ ﴾: أهلكهم الله عن آخرهم. ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ ﴾.

الجزء التاسع عشر — سورة الشعراء

وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ
مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ
مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ
ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ
مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ
عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾
فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ
فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ
ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُواْ
هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ
إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾

٣٧٥

﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ إلى آخر القصة.

﴿١٧٦﴾ - ﴿١٨٠﴾ أصحاب الأيكة؛ أي: البساتين الملتفة أشجارها، وهم أصحاب مدين، فكذبوا نبيهم شعيبًا الذي جاء بما جاء به المرسلون. ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾: الله تعالى فتتركوا ما يسخطه ويغضبه من الكفر والمعاصي، ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾: يترتب على ذلك أن تتقوا الله، وتطيعوني.

﴿١٨١﴾ - ﴿١٨٤﴾ وكانوا مع شركهم يبخسون المكاييل والموازين؛ فلذلك قال لهم: ﴿ أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ ﴾؛ أي: أتموه وأكملوه، ﴿ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ ﴾: الذين ينقصون الناس أموالهم ويسلبونها ببخس المكيال والميزان، ﴿ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴾؛ أي: بالميزان العادل الذي لا يميل، ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ ﴾؛ أي: الخليقة الأولين؛ فكما انفرد بخلقكم وخلق من قبلكم من غير مشاركة له في ذلك؛ فأفردوه بالعبادة والتوحيد، وكما أنعم عليكم بالإيجاد والإمداد بالنعم؛ فقابلوه بشكره.

﴿١٨٥﴾ - ﴿١٨٧﴾ قالوا له مكذبين له رادين لقوله: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ ﴾: فأنت تهذي وتتكلم كلام المسحور الذي غايته ألَّا يؤاخذ به، ﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾: فليس فيك فضيلة اختصصت بها علينا حتى تدعونا إلى اتباعك. وهذا مثل قول من قبلهم ومن بعدهم، ممن عارضوا الرسل بهذه الشبهة، التي لم يزالوا يدلون بها ويصولون ويتفقون عليها؛ لاتفاقهم على الكفر، وتشابه قلوبهم، وقد أجابت عنها الرسل بقولهم: ﴿ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [إبراهيم: ١١]. ﴿ وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ ﴾: وهذا جراءة منهم وظلم وقول زور، قد انطووا على خلافه؛ فإنه ما من رسول من الرسل واجه قومه ودعاهم وجادلهم وجادلوه؛ إلا وقد أظهر الله على يديه من الآيات ما به يتيقنون صدقه وأمانته، خصوصًا شعيبًا عليه السلام، الذي يسمى خطيب الأنبياء؛ لحسن مراجعته قومه ومجادلتهم بالتي هي أحسن؛ فإن قومه قد تيقنوا صدقه وأن ما جاء به حق، ولكن إخبارهم عن ظن كذبه كذب منهم. ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾؛ أي: قطع عذاب تستأصلنا، ﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ ﴾؛ كقول إخوانهم: ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٢]، أو أنهم طلبوا بعض آيات الاقتراح التي لا يلزم تتميم مطلوب من سألها.

﴿١٨٨﴾ ﴿ قَالَ ﴾ شعيب عليه السلام: ﴿ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾؛ أي: نزول العذاب ووقوع آيات الاقتراح لست أنا الذي آتي بها وأنزلها بكم، وليس عليَّ إلا تبليغكم ونصحكم، وقد فعلت، وإنما الذي يأتي بها ربي، العالم بأعمالكم وأحوالكم، الذي يجازيكم ويحاسبكم.

﴿١٨٩﴾ - ﴿١٩١﴾ ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾؛ أي: صار التكذيب لهم وصفًا، والكفر لهم ديدنًا، بحيث لا تفيدهم الآيات، وليس بهم حيلة إلا نزول العذاب، ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ﴾: أظلتهم سحابة، فاجتمعوا تحتها مستلذين لظلها غير الظليل، فأحرقتهم بالعذاب، فظلوا تحتها خامدين، ولديارهم مفارقين، ولدار الشقاء والعذاب نازلين، ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ ﴾: لا كرة لهم إلى الدنيا فيستأنفوا العمل، ولا يفتر عنهم العذاب ساعة ولا هم ينظرون. ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ﴾: دالة على صدق شعيب وصحة ما دعا إليه وبطلان

رد قومه عليه، ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ١٩٠ ﴾: مع رؤيتهم الآيات؛ لأنهم لا زكاء فيهم ولا خير لديهم؛ ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ١٠٣ ﴾ [يوسف: ١٠٣]. ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾: الذي امتنع بقوته عن إدراك أحد وقهر كل مخلوق. ﴿ ٱلرَّحِيمُ ١٩١ ﴾: الذي الرحمة وصفه، ومن آثارها جميع الخيرات في الدنيا والآخرة، من حين أوجد الله العالم إلى ما لا نهاية له، ومن عزته أن أهلك أعداءه حين كذبوا رسله، ومن رحمته أن نجى أولياءه ومن اتبعهم من المؤمنين.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ١٩٣
عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ١٩٥
وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ١٩٦ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟
بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ١٩٧ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ١٩٨ فَقَرَأَهُۥ
عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ١٩٩ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى
قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ٢٠٠ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ
ٱلْأَلِيمَ ٢٠١ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٢٠٢ فَيَقُولُوا۟ هَلْ
نَحْنُ مُنظَرُونَ ٢٠٣ ﴾.

١٩٢ لما ذكر قصص الأنبياء مع أممهم، وكيف دعوهم و[ما] ردوا عليهم به، وكيف أهلك الله أعداءهم وصارت لهم العاقبة؛ ذكر هذا الرسول الكريم والنبي المصطفى العظيم وما جاء به من الكتاب الذي فيه هداية لأولي الألباب، فقال: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٩٢ ﴾: فالذي أنزله فاطر الأرض والسماوات، المربي جميع العالم العلوي والسفلي، وكما أنه رباهم بهدايتهم لمصالح دنياهم وأبدانهم؛ فإنه يربيهم أيضًا بهدايتهم لمصالح دينهم وأخراهم، ومن أعظم ما رباهم به إنزال هذا الكتاب الكريم، الذي اشتمل على الخير الكثير والبر الغزير، وفيه من الهداية لمصالح الدارين والأخلاق الفاضلة ما ليس في غيره، وفي قوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٩٢ ﴾ من تعظيمه وشدة الاهتمام به من كونه نزل من الله لا من غيره مقصودًا فيه نفعكم وهدايتكم.

١٩٣ - ١٩٥ ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ١٩٣ ﴾: وهو جبريل عليه السلام، الذي هو أفضل الملائكة وأقواهم، الأمين الذي قد أمن أن يزيد فيه أو ينقص ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾: يا محمد ﴿ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ١٩٤ ﴾: تهدي به إلى طريق الرشاد وتنذر به عن طريق الغي، ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ ﴾: وهو أفضل الألسنة، بلغة من بعث إليهم وباشر دعوتهم أصلًا، اللسان البين الواضح.

وتأمل كيف اجتمعت هذه الفضائل الفاخرة في هذا الكتاب الكريم؛ فإنه أفضل الكتب، نزل به أفضل الملائكة، على أفضل الخلق، على أفضل بضعة فيه، وهي قلبه على أفضل أمة أخرجت للناس، بأفضل الألسنة وأفصحها وأوسعها، وهو اللسان العربي المبين.

١٩٦ ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ١٩٦ ﴾؛ أي: قد بشرت به كتب الأولين وصدقته، وهو لما نزل طبق ما أخبرت به، صدقها، بل جاء بالحق وصدق المرسلين.

١٩٧ ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً ﴾: على صحته وأنه من الله ﴿ أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ١٩٧ ﴾: الذين قد انتهى إليهم العلم، وصاروا أعلم الناس، وهم أهل الصنف؛ فإن كل شيء يحصل به اشتباه يُرجع فيه إلى أهل الخبرة والدراية، فيكون قولهم حجة على غيرهم؛ كما عرف السحرة الذين مهروا في علم السحر صدق معجزة موسى، وأنه ليس بسحر؛ فقول الجاهلين بعد هذا لا يؤبه به.

١٩٨، ١٩٩ ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ١٩٨ ﴾: الذين لا يفقهون لسانهم ولا يقدرون على التعبير لهم كما ينبغي. ﴿ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ١٩٩ ﴾: يقولون ما نفقه ما يقول ولا ندري ما يدعو إليه! فليحمدوا ربهم أن جاءهم على لسان أفصح الخلق وأقدرهم على التعبير على المقاصد بالعبارات الواضحة وأنصحهم، وليبادروا إلى التصديق به وتلقيه بالتسليم والقبول.

٢٠٠ - ٢٠٣ ولكن تكذيبهم له من غير شبهة إن هو إلا محض الكفر والعناد وأمر قد توارثته الأمم المكذبة؛ فلهذا قال: ﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ٢٠٠ ﴾؛ أي: أدخلنا التكذيب ونظمناه في قلوب أهل الإجرام؛ كما يدخل السلك في الإبرة، فتشربته، وصار وصفًا لها، وذلك بسبب ظلمهم وجرمهم؛ فلذلك ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ٢٠١ ﴾: على تكذيبهم، ﴿ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٢٠٢ ﴾؛ أي: يأتيهم على حين غفلة وعدم إحساس منهم ولا استشعار بنزوله؛ ليكون أبلغ في عقوبتهم والنكال بهم، ﴿ فَيَقُولُوا۟ ﴾: إذ ذاك: ﴿ هَلْ نَحْنُ

مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا
لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ
ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ
عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ
مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ
جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي
بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي
يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ
كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾
وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ
يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ
بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

سُورَةُ النَّمْلِ (٢٧) آياتها ٩٣

مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾؛ أي: يطلبون أن ينظروا ويمهلوا، والحال أنه قد فات الوقت، وحل بهم العذاب الذي لا يرفع عنهم، ولا يُفتَّرُ ساعة.

﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾.

(٢٠٤) يقول تعالى: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا ﴾: الذي هو العذاب الأليم العظيم الذي لا يستهان به ولا يحتقر ﴿ يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾؟! فما الذي غرهم؟! هل فيهم قوة وطاقة للصبر عليه؟! أم عندهم قوة يقدرون على دفعه أو رفعه إذا نزل؟! أم يعجزوننا ويظنون أننا لا نقدر على ذلك؟!

(٢٠٥) - (٢٠٧) ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾؛ أي: أفرأيت إذا لم نستعجل عليهم بإنزال العذاب وأمهلناهم عدة سنين يتمتعون في الدنيا، ﴿ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ ﴾: من العذاب، ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾: من اللذات والشهوات؛ أي: أي شيء تغني عنهم وتفيدهم، وقد مضت اللذات[1] وبطلت واضمحلت، وأعقبت تبعاتها، وضوعف لهم العذاب عند طول المدة. القصد أن الحذر من وقوع العذاب واستحقاقهم له، وأما تعجيله وتأخيره؛ فلا أهمية تحته، ولا جدوى عنده.

﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾.

(٢٠٨)، (٢٠٩) يخبر تعالى عن كمال عدله في إهلاك المكذبين، وأنه ما أوقع بقرية هلاكًا وعذابًا إلا بعد أن يُعْذِرَ منهم، ويبعث فيهم النذر بالآيات البينات، فيدعونهم إلى الهدى، وينهونهم عن الردى، ويذكرونهم بآيات الله، وينبهونهم على أيامه في نعمه ونقمه. ﴿ ذِكْرَىٰ ﴾: لهم وإقامة حجة عليهم، ﴿ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ ﴾: فنهلك القرى قبل أن ننذرهم ونأخذهم وهم غافلون عن النذر؛ كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء: ١٥]، ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥].

(٢١٠) - (٢١٢) ولما بين تعالى كمال القرآن وجلالته؛ نزهه عن كل صفة نقص، وحماه وقت نزوله وبعد نزوله من شياطين الجن والإنس، فقال: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ ﴾؛ أي: لا يليق بحالهم ولا يناسبهم، ﴿ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ ﴾: ذلك ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾: قد أبعدوا عنه، وأعدت لهم الرجوم لحفظه، ونزل به جبريل أقوى الملائكة، الذي لا يقدر شيطان أن يقربه أو يحوم حول ساحته، وهذا كقوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩].

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾.

(٢١٣) ينهى تعالى رسوله أصلًا وأمته أسوة له في ذلك عن دعاء غير الله من جميع المخلوقين، وأن ذلك موجب

(١) ساقط من ع، ط.

للعذاب الدائم والعقاب السرمدي؛ لكونه شركًا، و﴿مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]، والنهي عن الشيء أمر بضده؛ فالنهي عن الشرك أمر بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له؛ محبة وخوفًا ورجاء وذلًّا وإنابة إليه في جميع الأوقات.

(٢١٤) ولما أمره بما فيه كمال نفسه؛ أمره بتكميل غيره، فقال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ (٢١٤)﴾: الذين هم أقرب الناس إليك، وأحقهم بإحسانك الديني والدنيوي، وهذا لا ينافي أمره بإنذار جميع الناس؛ كما إذا أمر الإنسان بعموم الإحسان، ثم قيل له: أحسن إلى قرابتك؛ فيكون هذا الخصوص دالًّا على التأكيد وزيادة الحث. فامتثل ﷺ هذا الأمر الإلهي، فدعا سائر بطون قريش، فعمم وخصص، وذكرهم ووعظهم، ولم يُبق ﷺ من مقدوره شيئًا من نصحهم وهدايتهم إلا فعله، فاهتدى من اهتدى، وأعرض من أعرض.

(٢١٥) ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٢١٥)﴾: بلين جانبك، ولطف خطابك لهم وتوددك وتحببك إليهم وحسن خلقك والإحسان التام بهم، وقد فعل ﷺ ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]؛ فهذه أخلاقه ﷺ أكمل الأخلاق التي يحصل بها من المصالح العظيمة ودفع المضار ما هو مشاهد؛ فهل يليق بمؤمن بالله ورسوله يدعي اتباعه والاقتداء به أن يكون كلًّا على المسلمين، شرس الأخلاق، شديد الشكيمة، غليظ القلب، فظ القول فظيعه، وإن رأى منهم معصية أو سوء أدب؛ هجرهم ومقتهم وأبغضهم، لا لين عنده، ولا أدب لديه، ولا توفيق؛ قد حصل من هذه المعاملة من المفاسد وتعطيل المصالح ما حصل، ومع ذلك تجده محتقرًا لمن اتصف بصفات الرسول الكريم، وقد رماه بالنفاق والمداهنة، وزكى[1] نفسه ورفعها وأعجب بعمله؟! فهل يعد هذا إلا من جهله وتزيين الشيطان وخدعه له؟!

(٢١٦) ولهذا قال الله لرسوله: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾: في أمر من الأمور؛ فلا تتبرأ منهم، ولا تترك معاملتهم بخفض الجناح ولين الجانب، بل تبرأ من عملهم؛ فعظهم عليه، وانصحهم، وابذل قدرتك في ردهم عنه وتوبتهم منه. وهذا لدفع احتراز وهم من يتوهم أن قوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨)﴾ [الحجر: ٨٨]: يقتضي الرضاء بجميع ما يصدر منهم ما داموا مؤمنين، فدفع هذا بهذا. والله أعلم.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ (٢١٧) ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٢٢٠)﴾.

(٢١٧) أعظم مساعد للعبد على القيام بما أمر به الاعتماد على ربه والاستعانة بمولاه على توفيقه للقيام بالمأمور؛ فلذلك أمر الله تعالى بالتوكل عليه، فقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ (٢١٧)﴾: والتوكل هو اعتماد القلب على الله تعالى في جلب المنافع ودفع المضار، مع ثقته به وحسن ظنه بحصول مطلوبه؛ فإنه عزيز رحيم؛ بعزته يقدر على إيصال الخير ودفع الشر عن عبده، وبرحمته به يفعل ذلك.

(٢١٨) - (٢٢٠) ثم نبهه على الاستعانة باستحضار قرب الله والنزول في منزل الإحسان، فقال: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ (٢١٩)﴾؛ أي: يراك في هذه العبادة العظيمة، التي هي الصلاة؛ وقت قيامك وتقلبك راكعًا وساجدًا؛ خصها بالذكر لفضلها وشرفها، ولأن من استحضر فيها قرب ربه؛ خشع وذل وأكملها، وبتكميلها يكمل سائر عمله، ويستعين بها على جميع أموره. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾: لسائر الأصوات على اختلافها وتشتتها وتنوعها. ﴿ٱلْعَلِيمُ (٢٢٠)﴾: الذي أحاط بالظواهر والبواطن والغيب والشهادة. فاستحضار العبد رؤية الله له في جميع أحواله، وسمعه لكل ما ينطق به، وعلمه بما ينطوي عليه قلبه من الهم والعزم والنيات؛ مما يعينه على منزلة الإحسان.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ (٢٢٣) وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧)﴾.

(١) ع: «كمل»، ط: «وذكر».

هذا جواب لمن قال من مكذبي الرسول: إن محمدًا ينزل عليه شيطان، وقول من قال: إنه شاعر.

﴿٢٢١﴾ - ﴿٢٢٣﴾ فقال: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ ﴾؛ أي: أخبركم الخبر الحقيقي الذي لا شك فيه ولا شبهة عن من تنزل الشياطين عليه؛ أي: بصفة الأشخاص الذين تنزل عليهم الشياطين. ﴿ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ ﴾؛ أي: كذاب كثير القول للزور والإفك بالباطل، ﴿ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ ﴾: في فعله كثير المعاصي. هذا الذي تنزل عليه الشياطين وتناسب حاله حالهم. ﴿ يُلْقُونَ ﴾: عليه ﴿ السَّمْعَ ﴾: الذي يسترقونه من السماء، ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾؛ أي: أكثر ما يلقون إليه كذب، فيصدق واحدة ويكذب معها مائة، فيختلط الحق بالباطل، ويضمحل الحق بسبب قلته وعدم علمه. فهذه صفة الأشخاص الذين تنزل عليهم الشياطين، وهذه صفة وحيهم له.

وأما محمد ﷺ؛ فحاله مباينة لهذه الأحوال أعظم مباينة؛ لأنه الصادق الأمين البار الراشد، الذي جمع بين بر القلب وصدق اللهجة ونزاهة الأفعال من المحرم، والوحي الذي ينزل عليه من عند الله ينزل محروسًا محفوظًا مشتملًا على الصدق العظيم الذي لا شك فيه ولا ريب؛ فهل يستوي يا أهل العقول هذا وأولئك؟! وهل يشتبهان إلا على مجنون لا يميز ولا يفرق بين الأشياء؟!

﴿٢٢٤﴾ - ﴿٢٢٦﴾ فلما نزهه عن نزول الشياطين عليه؛ برأه أيضًا من الشعر، فقال: ﴿ وَالشُّعَرَاءُ ﴾؛ أي: هل أنبئكم أيضًا عن حالة الشعراء ووصفهم الثابت؛ فإنهم ﴿ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ ﴾: عن طريق الهدى، المقبلون على طريق الغي والردى؛ فهم في أنفسهم غاوون، وتجد أتباعهم كل غاو ضال فاسد. ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾: غوايتهم وشدة ضلالهم، ﴿ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ ﴾: من أودية الشعر ﴿ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ ﴾: فتارة في مدح، وتارة في قدح، وتارة في صدق، وتارة في كذب، وتارة يتغزلون، وأخرى يسخرون، ومرة يمرحون، وآونة يحزنون؛ فلا يستقر لهم قرار، ولا يثبتون على حال من الأحوال. ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ ﴾؛ أي: هذا وصف الشعراء: أنهم تخالف أقوالهم أفعالهم؛ فإذا سمعت الشاعر يتغزل بالغزل الرقيق؛ قلت: هذا أشد الناس غرامًا، وقلبه فارغ من ذاك، وإذا سمعته يمدح أو يذم؛ قلت: هذا صدق! وهو كذب. وتارة يتمدح بأفعال لم يفعلها، وتروك لم يتركها، وكرم لم يحم حول ساحته، وشجاعة يعلو بها على الفرسان، وتراه أجبن من كل جبان. هذا وصفهم؛ فانظر هل يطابق حالة الرسول محمد ﷺ الراشد البار، الذي يتبعه كل راشد ومهتد، الذي قد استقام على الهدى وجانب الردى ولم تتناقض أفعاله، ولم تخالف أقواله أفعاله؛ الذي لا يأمر إلا بالخير، ولا ينهى إلا عن الشر، ولا أخبر بشيء إلا صدق، ولا أمر بشيء إلا كان أول الفاعلين له، ولا نهى عن شيء إلا كان أول التاركين له؛ فهل تناسب حاله حالة الشعراء أو يقاربهم؟ أم هو مخالف لهم من جميع الوجوه؟ فصلوات الله وسلامه على هذا الرسول الأكمل، والهمام الأفضل، أبد الآبدين، ودهر الداهرين، الذي ليس بشاعر ولا ساحر ولا مجنون، ولا يليق به إلا كل كمال.

﴿٢٢٧﴾ ولما وصف الشعراء بما وصفهم به؛ استثنى منهم من آمن بالله ورسوله وعمل صالحًا وأكثر من ذكر الله وانتصر من أعدائه المشركين من بعد ما ظلموهم، فصار شعرهم من أعمالهم الصالحة وآثار إيمانهم؛ لاشتماله على مدح أهل الإيمان والانتصار من أهل الشرك والكفر والذب عن دين الله وتبيين العلوم النافعة والحث على الأخلاق الفاضلة، فقال: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾: إلى موقف وحساب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ولا حقًّا إلا استوفاه. والحمد لله رب العالمين.



تفسير سورة النمل
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾.

﴿١﴾ ينبه تعالى عباده على عظمة القرآن، ويشير إليه إشارة دالة على التعظيم، فقال: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾﴾؛ أي: هي أعلى الآيات وأقوى البينات وأوضح الدلالات وأبينها على أجل المطالب وأفضل المقاصد وخير الأعمال وأزكى الأخلاق؛ آيات تدل على الأخبار الصادقة والأوامر الحسنة والنهي عن كل عمل وخيم وخلق ذميم، آيات بلغت في وضوحها وبيانها للبصائر النيرة مبلغ الشمس للأبصار، آيات دلت على الإيمان ودعت للوصول إلى الإيقان وأخبرت عن الغيوب الماضية والمستقبلة على طبق ما كان ويكون، آيات دعت إلى معرفة الرب العظيم بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وأفعاله الكاملة، آيات عرَّفتنا برسله وأوليائه ووصفتهم حتى كأننا ننظر إليهم بأبصارنا.

﴿٢﴾ ولكن مع هذا؛ لم ينتفع بها كثير من العالمين، ولم يهتد بها جميع المعاندين؛ صونًا لها عمَّن لا خير فيه ولا صلاح ولا زكاء في قلبه، وإنما اهتدى بها من خصهم الله بالإيمان واستنارت بذلك قلوبهم، وصفت سرائرهم، فلهذا قال: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾؛ أي: تهديهم إلى سلوك الصراط المستقيم، وتبين لهم ما ينبغي أن يسلكوه أو يتركوه، وتبشرهم بثواب الله. المرتب على الهداية لهذا الطريق.

﴿٣﴾ ربما قيل: لعله يكثر مدعو الإيمان؛ فهل يقبل من كل أحد ادعى أنه مؤمن ذلك؟ أم لا بد لذلك من دليل وهو الحق؟ فلذلك بين تعالى صفة المؤمنين، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾

يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فرضها ونفلها؛ فيأتون بأفعالها الظاهرة من أركانها وشروطها وواجباتها ومستحباتها وأفعالها الباطنة وهو الخشوع الذي هو روحها ولبها؛ باستحضار قرب الله وتدبر ما يقوله المصلي ويفعله، ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: المفروضة لمستحقيها. ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾﴾؛ أي: قد بلغ معهم الإيمان إلى أن وصل إلى درجة اليقين، وهو العلم التام الواصل إلى القلب الداعي إلى العمل، ويقينهم بالآخرة يقتضي كمال سعيهم لها وحذرهم من أسباب العذاب وموجبات العقاب، وهذا أصل كل خير.

﴿٤﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾: ويكذبون بها ويكذبون من جاء بإثباتها؛ ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾﴾: حائرين، مترددين، مؤثرين سخط الله على رضاه، قد انقلبت عليهم الحقائق، فرأوا الباطل حقًّا والحق باطلًا.

﴿٥﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾؛ أي: أشده وأسوأه وأعظمه، ﴿وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾﴾: حصر

الخسـار فيهم، لكونهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، وخسروا الإيمان الذي دعتهم إليه الرسل.

(٦) ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦) ﴾ ؛ أي: وإن هـذا القرآن الـذي ينـزل عليـك، وتتلقنـه ينزل من عنـد ﴿ حَكِيمٍ ﴾، يضـع الأشـياء مواضعها، وينزلهـا منازلها، ﴿ عَلِيمٍ ﴾ بأسـرار الأحوال[1] وبواطنهـا كظواهرها. وإذا كان مـن عنـد ﴿ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦) ﴾؛ علم أنه كلـه حكمة ومصالح للعباد من الذي هو أعلم بمصالحهم منهم.

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ إلى آخر قصته.

(٧) يعنـي: اذكر هذه الحالة الفاضلة الشـريفة من أحوال موسـى بن عمـران؛ ابتـداء الوحي إليـه واصطفائه برسـالته وتكليـم اللـه إياه، وذلك أنه لما مكث في مدين عدة سـنين، وسـار بأهلـه مـن مديـن متوجهًـا إلـى مصـر، فلمـا كان في أثناء الطريق؛ ضـل، وكان في ليلة مظلمة بـاردة، فقال لهم: ﴿ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾؛ أي: أبصـرت نـارًا مـن بعيد، ﴿ سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾: عـن الطريـق، ﴿ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) ﴾؛ أي: تستدفئون، وهذا دليل على أنه تائه ومشتد برده هو وأهله.

(٨) ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾؛ أي: نـاداه اللـه تعالـى وأخبره أن هـذا محل مقـدس مبارك، ومـن بركتـه أن جعله الله موضعًا لتكليم الله لموسـى وندائه وإرسـاله. ﴿ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٨) ﴾: عـن أن يظـن بـه نقص أو سوء، بل هو الكامل في وصفه وفعله.

(٩) ﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٩) ﴾؛ أي: أخبـره اللـه أنه الله المستحق للعبادة وحده لا شـريك لـه؛ كما في الآيـة الأخـرى: ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ (١٤) ﴾ [طه: ١٤]. ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾: الـذي قهـر جميع الأشياء وأذعنت له كل المخلوقات. ﴿ ٱلْحَكِيمُ (٩) ﴾: فـي أمـره وخَلْقِـهِ، ومن حكمتـه أن أرسـل عبده موسـى بن عمران، الذي علم الله منه أنه أهل لرسـالته ووحيه وتكليمه، ومـن عزته أن تعتمد عليه ولا تسـتوحش مـن انفرادك وكثرة أعدائـك وجبروتهـم؛ فـإن نواصيهـم بيـد اللـه وحركاتهـم وسكونهم بتدبيره.

(١٠) ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾: فألقاها، ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾: وهو ذكـر الحيات سـريع الحركـة؛ ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾: ذعرًا من الحية التي رأى على مقتضى الطبائع البشـرية، فقال اللـه له: ﴿ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ ﴾، وقـال في الآية الأخرى: ﴿ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ (٣١) ﴾ [القصص: ٣١]. ﴿ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ (١٠) ﴾: لأن جميـع المخاوف مندرجة في قضائه وقدره وتصريفه وأمره، فالذين اختصهم الله برسـالته واصطفاهم لوحيه لا ينبغي لهم أن يخافوا غير الله؛ خصوصًا عند زيادة القرب منه والحظوة بتكليمه.

(١١) ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ ﴾؛ أي: فهـذا الـذي هـو محل الخوف والوحشـة؛ بسـبب ما أسـدى من الظلـم ومـا تقدم له مـن الجرم، وأمـا المرسـلون؛ فما لهم وللوحشـة والخـوف؟! ومع هذا؛ من ظلم نفسـه بمعاصي الله و تاب وأناب فبدل سـيئاته حسـنات ومعاصيه طاعات؛ فـإن الله غفور رحيم؛ فلا ييأس أحد مـن رحمته ومغفرته؛ فإنـه يغفـر الذنـوب جميعًا، وهو أرحـم بعباده مـن الوالدة بولدها.

(١٢) ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾: لا برص ولا نقص، بل بياض يبهر الناظرين شعاعه ﴿ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ﴾؛ أي: هاتـان الآيتـان - انقلاب العصا حيـة تسـعى، وإخـراج اليد مـن الجيب فتخرج بيضـاء - في جملة تسـع آيـات تذهب بهـا وتدعو فرعـون وقومه. ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ (١٢) ﴾: فسقوا بشركهم وعتوهم وعلوهم على عباد الله واستكبارهم في الأرض بغير الحق.

(١٣) فذهـب موسـى عليـه السـلام إلـى فرعـون وملئـه، ودعاهم إلى الله تعالى، وأراهم الآيات، ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً ﴾: مضيئة تدل على الحق ويُبْصَرُ بها كما تبصر الأبصار بالشـمس، ﴿ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٣) ﴾: لم يكفهم مجرد القـول بأنه سـحر، بل قالوا: مبين ظاهر لـكل أحد! وهذا من أعجـب العجائب؛ الآيـات المبصرات والأنوار السـاطعات تجعل مـن أبين الخزعبلات وأظهر السـحر، هل هذا إلا من أعظم المكابرة وأوقح السفسطة؟!

(١٤) ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا ﴾؛ أي: كفـروا بآيات اللـه جاحديـن لهـا، ﴿ وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾؛ أي: ليس جحدهم مسـتندًا إلى الشـك والريب، وإنما جحدهم مع علمهم وتيقنهم بصحتها ﴿ ظُلْمًا ﴾: منهـم لحـق ربهـم ولأنفسـهم، ﴿ وَعُلُوًّا ﴾: علـى

(١) ع، ط: «الأمور».

الحق وعلى العباد وعلى الانقياد للرسل. ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾: أسوأ عاقبة؛ دمرهم الله، وغرقهم في البحر، وأخزاهم، وأورث مساكنهم المستضعفين من عباده.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ... ﴾ إلى آخر القصة.

﴿١٥﴾ يذكر في هذا القرآن وينوه بمنته على داود وسليمان ابنه بالعلم الواسع الكثير؛ بدليل التنكير؛ كما قال تعالى: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ الآية [الأنبياء: ٧٨، ٧٩]. وقالا شاكرين لربهما منته الكبرى بتعليمهما: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾: فحمدا الله على جعلهما من المؤمنين أهل السعادة، وأنهما كانا من خواصهم. ولا شك أن المؤمنين أربع درجات: الصالحون، ثم فوقهم الشهداء، ثم فوقهم الصديقون، ثم فوقهم الأنبياء. وداود وسليمان من خواص الرسل، وإن كانا دون درجة أولي العزم الخمسة، لكنهما من جملة الرسل الفضلاء الكرام، الذين نوه الله بذكرهم ومدحهم في كتابه مدحًا عظيمًا، فحمدا الله على بلوغ هذه المنزلة، وهذا عنوان سعادة العبد: أن يكون شاكرًا لله على نعمه الدينية والدنيوية، وأن يرى جميع النعم من ربه؛ فلا يفخر بها ولا يُعجب بها، بل يرى أنها تستحق عليه شكرًا كثيرًا.

﴿١٦﴾ فلما مدحهما مشتركين؛ خص سليمان بما خصه به لكون الله أعطاه ملكًا عظيمًا وصار له من المعجزات ما لم يكن لأبيه صلى الله عليهما وسلم، فقال: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾؛ أي: ورث علمه ونبوته، وانضم علم أبيه إلى علمه، فلعله تعلم من أبيه ما عنده من العلم مع ما كان عليه من العلم وقت أبيه؛ كما تقدم من قوله: ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ﴾ [الأنبياء: ٧٩]. ﴿ وَقَالَ ﴾: شكرًا لله وتبجحًا بإحسانه وتحدثًا بنعمته: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ ﴾: فكان عليه الصلاة والسلام يفقه ما تقول وتتكلم به؛ كما راجع الهدهد وراجعه، وكما فهم قول النملة للنمل كما يأتي، وهذا لم يكن لأحد غير سليمان عليه السلام، ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾؛ أي: أعطانا الله من النعم ومن أسباب الملك ومن السلطنة والقهر ما

وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾

لم يؤت أحدًا من الآدميين، ولهذا دعا ربه، فقال: رَبِّ هَبْ ﴿ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ﴾ [ص: ٣٥]: فسخر الله له الشياطين يعملون له كل ما شاء من الأعمال التي يعجز عنها غيرهم، وسخر له الريح غدوها شهر ورواحها شهر. ﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾: الذي أعطانا الله، وفضلنا، واختصنا به ﴿ لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾: الواضح الجلي، فاعترف أكمل اعتراف بنعمة الله تعالى.

﴿١٧﴾ ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾: أي جمع له جنوده الكثيرة الهائلة المتنوعة من بني آدم ومن الجن والشياطين ومن الطيور. ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾: يدبرون ويرد أولهم على آخرهم وينظمون غاية التنظيم في سيرهم ونزولهم وحلهم وترحالهم، قد استعد لذلك وأعد له عدته، وكل هذه الجنود مؤتمرة بأمره لا تقدر على عصيانه ولا تتمرد عليه؛ كما قال تعالى: ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ ﴾ [ص: ٣٩]؛ أي: أعط بغير حساب.

(١٨) فسار بهذه الجنود الضخمة في بعض أسفاره، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ ﴾: منبهة لرفقتها وبني جنسها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ (١٨) ﴾: فنصحت هذه النملة وأسمعت النمل: إما بنفسها، ويكون الله قد أعطى النمل أسماعًا خارقة للعادة؛ لأن التنبيه للنمل الذي قد ملأ الوادي بصوت نملة واحدة من أعجب العجائب. وإما بأنها أخبرت من حولها من النمل ثم سرى الخبر من بعضهن لبعض حتى بلغ الجميع وأمرتهن بالحذر والطريق في ذلك، وهو دخول مساكنهن، وعرفت حالة سليمان وجنوده وعظمة سلطانه، واعتذرت عنهم أنهم إن حطَموكم؛ فليس عن قصد منهم ولا شعور.

(١٩) فسمع سليمان عليه الصلاة والسلام قولها وفهمه، ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا ﴾: إعجابًا منه بفصاحتها ونصحها وحسن تعبيرها، وهذا حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ الأدب الكامل، والتعجب في موضعه، وألَّا يبلغ بهم الضحك إلا إلى التبسم؛ كما كان الرسول ﷺ جل ضحكه التبسم[1]؛ فإن القهقهة تدل على خفة العقل وسوء الأدب، وعدم التبسم والعجب مما يتعجب منه يدل على شراسة الخلق والجبروت، والرسل منزهون عن ذلك. وقال شاكرًا لله الذي أوصله إلى هذه الحالة: ﴿ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ ﴾؛ أي: ألهمني ووفقني ﴿ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ ﴾: فإن النعمة على الوالدين نعمة على الولد، فسأل ربه التوفيق للقيام بشكر نعمته الدينية والدنيوية عليه وعلى والديه، ﴿ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ ﴾؛ أي: ووفقني أن أعمل صالحًا ترضاه؛ لكونه موافقًا لأمرك مخلصًا فيه سالمًا من المفسدات والمنقصات، ﴿ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ ﴾: التي منها الجنة، ﴿ فِي ﴾: جملة ﴿ عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٩) ﴾: فإن الرحمة مجعولة للصالحين على اختلاف درجاتهم ومنازلهم. فهذا نموذج ذكره الله من حالة سليمان عند سماع خطاب النملة وندائها.

(٢٠) ثم ذكر نموذجًا آخر من مخاطبته للطير، فقال: ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ ﴾: دل هذا على كمال عزمه وحزمه وحسن تنظيمه لجنوده وتدبيره بنفسه للأمور الصغار والكبار، حتى إنه لم يهمل هذا الأمر، وهو تفقد الطيور، والنظر هل هي موجودة كلها أم مفقود منها شيء؟ وهذا هو المعنى للآية.

ولم يصنع شيئًا من قال: إنه تفقد الطير لينظر أين الهدهد منها ليدله على بعد الماء وقربه؛ كما زعموا عن الهدهد أنه يبصر الماء تحت الأرض الكثيفة؛ فإن هذا القول لا يدل عليه دليل، بل الدليل العقلي واللفظي دال على بطلانه: أما العقلي؛ فإنه قد عرف بالعادة والتجارب والمشاهدات أن هذه الحيوانات كلها ليس منها شيء يبصر هذا البصر الخارق للعادة وينظر الماء تحت الأرض الكثيفة، ولو كان كذلك؛ لذكره الله؛ لأنه من أكبر الآيات. وأما الدليل اللفظي؛ فلو أريد هذا المعنى؛ لقال: وطلب الهدهد لينظر له الماء، فلما فقده؛ قال ما قال، أو: ففتش عن الهدهد، أو: بحث عنه. ونحو ذلك من العبارات. وإنما تفقد الطير لينظر الحاضر منها والغائب ولزومها للمراكز والمواضع التي عينها لها. وأيضًا؛ فإن سليمان عليه السلام لا يحتاج ولا يضطر إلى الماء بحيث يحتاج لهندسة الهدهد؛ فإن عنده من الشياطين والعفاريت ما يحفرون له الماء، ولو بلغ في العمق ما بلغ، وسخر الله له الريح غدوها شهر ورواحها؛ فكيف مع ذلك يحتاج إلى الهدهد؟!

وهذه التفاسير التي توجد وتشتهر بها أقوال لا يعرف غيرها تنقل هذه الأقوال عن بني إسرائيل مجردة، ويغفل الناقل عن مناقضتها للمعاني الصحيحة وتطبيقها على الأقوال، ثم لا تزال تتناقل وينقلها المتأخر مسلمًا للمتقدم، حتى يظن أنها الحق، فيقع من الأقوال الردية في التفاسير ما يقع، واللبيب الفطن يعرف أن هذا القرآن الكريم العربي المبين الذي خاطب الله به الخلق كلهم عالمهم وجاهلهم وأمرهم بالتفكر في معانيه وتطبيقها على ألفاظه العربية المعروفة المعاني التي لا تجهلها العرب العرباء، وإذا وجد أقوالًا منقولة عن غير رسول الله ﷺ، ردها إلى هذا الأصل؛ فإن وافقه؛ قبلها؛ لكون اللفظ دالًّا عليها، وإن خالفته لفظًا ومعنى أو لفظًا أو معنى؛ ردها وجزم ببطلانها؛ لأن عنده أصلًا معلومًا مناقضًا لها، وهو ما يعرفه من معنى الكلام ودلالته.

(١) الترمذي (٣٦٤٥).

إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا
عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن
دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ
فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ
فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ
أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا
فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ
ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣١﴾
قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ
تَشۡهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ
فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً
أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٤﴾
وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣٥﴾

والشاهد أن تفقد سليمان عليه السلام للطير وفقده الهدهد يدل على كمال حزمه وتدبيره للملك بنفسه وكمال فطنته، حتى فقد هذا الطائر الصغير، ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾؛ أي: هل عدم رؤيتي إياه لقلة فطنتي به لكونه خفيًّا بين هذه الأمم الكثيرة؟ أم على بابها بأن كان غائبًا من غير إذني ولا أمري؟!

(٢١) فحينئذ تغيظ عليه وتوعده فقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا﴾: دون القتل ﴿أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿٢١﴾﴾؛ أي: حجة واضحة على تخلفه. وهذا من كمال ورعه وإنصافه؛ أنه لم يقسم على مجرد عقوبته بالعذاب أو القتل؛ لأن ذلك لا يكون إلا من ذنب، وغيبته قد تحتمل أنها لعذر واضح؛ فلذلك استثناه لورعه وفطنته.

(٢٢) ﴿فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ﴾: ثم جاء، وهذا يدل على هيبة جنوده منه وشدة ائتمارهم لأمره، حتى إن هذا الهدهد الذي خلفه العذر الواضح لم يقدر على التخلف زمنًا كثيرًا، ﴿فَقَالَ﴾ لسليمان: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾؛ أي: عندي من العلم علم ما أحطت به على علمك الواسع وعلو درجتك فيه، ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ﴾: القبيلة المعروفة في اليمن ﴿بِنَبَإٖ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: خبر متيقن.

(٢٣) ثم فسر هذا النبأ فقال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾؛ أي: تملك قبيلة سبأ، وهي امرأة، ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾: يؤتاه الملوك من الأموال والسلاح والجنود والحصون والقلاع ونحو ذلك، ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾﴾؛ أي: كرسي ملكها الذي تجلس عليه عرش هائل، وعظم العروش تدل على عظمة المملكة وقوة السلطان وكثرة رجال الشورى.

(٢٤) ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: هم مشركون يعبدون الشمس، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾: فرأوا ما هم عليه هو الحق، ﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾: لأن الذي يرى أن الذي عليه حق لا مطمع في هدايته حتى تتغير عقيدته.

(٢٥) ثم قال: ﴿أَلَّا﴾؛ أي: هلا ﴿يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: يعلم الخفي الخبيء في أقطار السماوات وأنحاء الأرض من صغار المخلوقات وبذور النباتات وخفايا الصدور، ويخرج خبء الأرض والسماء بإنزال المطر وإنبات النبات، ويخرج خبء الأرض عند النفخ في الصور وإخراج الأموات من الأرض ليجازيهم بأعمالهم، ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

(٢٦) ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا تنبغي العبادة والإنابة والذل والحب إلا له؛ لأنه المألوه؛ لما له من الصفات الكاملة والنعم الموجبة لذلك. ﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾: الذي هو سقف المخلوقات، ووسع الأرض والسماوات. فهذا الملك عظيم السلطان كبير الشأن هو الذي يذل له ويخضع ويسجد له ويركع.

(٢٧)، (٢٨) فسلم الهدهد حين ألقى إليه هذا النبأ العظيم، وتعجب سليمان كيف خفي عليه، وقال مثبتًا لكمال عقله ورزانته: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا﴾: وسيأتي نصه، ﴿فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾؛ أي: استأخر غير بعيد، ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾: إليك وما يتراجعون به.

فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ
ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ٣٦ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم
بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٣٧ قَالَ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣٨
قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي
عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ٣٩ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ
بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا
مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ
لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ٤٠ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا
نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ ٤١ فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ
أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ
٤٢ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ
٤٣ قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن
سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي
ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٤

(٢٩) - (٣١) فذهب به، فألقاه عليها، فقالت لقومها: ﴿إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ (٢٩)﴾؛ أي: جليل المقدار، من أكبر ملوك الأرض، ثم بينت مضمونه، فقالت: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ (٣١)﴾؛ أي: لا تكونوا فوقي، بل اخضعوا تحت سلطاني، وانقادوا لأوامري، وأقبلوا إلي مسلمين. وهذا في غاية الوجازة مع البيان التام؛ فإنه تضمن نهيه عن العلو عليه والبقاء على حالهم التي هم عليها، والانقياد لأمره والدخول تحت طاعته، ومجيئهم إليه ودعوتهم إلى الإسلام. وفيه استحباب ابتداء الكتب بالبسملة كاملة، وتقديم الاسم في أول عنوان الكتاب.

(٣٢)، (٣٣) فمن حزمها وعقلها أن جمعت كبار دولتها ورجال مملكتها وقالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي﴾؛ أي: أخبروني ماذا نجيبه به؟! وهل ندخل تحت طاعته وننقاد أم ماذا نفعل؟! ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ (٣٢)﴾؛ أي: ما كنت مستبدة بأمر دون رأيكم ومشورتكم، ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾؛ أي: إن رددت عليه قوله، ولم تدخلي في طاعته؛ فإنا أقوياء على القتال. فكأنهم مالوا إلى هذا الرأي الذي لو تم، لكان فيه دمارهم، ولكنهم أيضًا لم يستقروا عليه، بل قالوا: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ﴾؛ أي: الرأي ما رأيت؛ لعلمهم بعقلها وحزمها ونصحها لهم، ﴿فَٱنظُرِي﴾: نظر فكر وتدبر ﴿مَاذَا تَأۡمُرِينَ (٣٣)﴾.

(٣٤)، (٣٥) فقالت لهم -مقنعة لهم بالعدول[1] عن رأيهم، ومبينة سوء مغبة القتال-: ﴿إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا﴾: قتلًا وأسرًا ونهبًا لأموالها وتخريبًا لديارها، ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗ﴾؛ أي: جعلوا الرؤساء السادة أشراف الناس من الأذلين؛ أي: فهذا رأي غير سديد، وأيضًا؛ فلست بمطيعة له قبل الاختبار وإرسال من يكشف عن أحواله ويتدبرها، وحينئذ نكون على بصيرة من أمرنا. فقالت: ﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ (٣٥)﴾: منه؛ هل يستمر على رأيه وقوله؟ أم تخدعه الهدية وتبدل فكرته؟! وكيف أحواله وجنوده؟!

(٣٦) فأرسلت إليه بهدية مع رسل من عقلاء قومها وذوي الرأي منهم. ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ﴾؛ أي: جاءه الرسل بالهدية، ﴿قَالَ﴾: منكرًا عليهم ومتغيظًا على عدم إجابتهم: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾: فليست تقع عندي موقعًا، ولا أفرح بها، قد أغناني الله عنها، وأكثر علي النعم، ﴿بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ (٣٦)﴾: لحبكم للدنيا، وقلة ما بأيديكم بالنسبة لما أعطاني الله.

(٣٧) ثم أوصى الرسول من غير كتاب لما رأى من عقله وأنه سينقل كلامه على وجهه، فقال: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ﴾؛ أي: بهديتك، ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم﴾؛ أي: لا طاقة لهم ﴿بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ (٣٧)﴾: فرجع إليهم وأبلغهم ما قال سليمان، وتجهزوا للمسير إلى سليمان.

(٣٨) - (٤٠) وعلم سليمان أنهم لا بد أن يسيروا إليه، فقال لمن حضره من الجن والإنس: ﴿أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ (٣٨)﴾؛ أي: لأجل أن نتصرف فيه قبل أن يسلموا فتكون أموالهم محترمة، ﴿قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾: والعفريت هو القوي النشيط جدًّا، ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ (٣٩)﴾: والظاهر أن سليمان إذ ذاك في الشام، فيكون بينه وبين

(١) ساقط من ع، ط.

سبأ نحو مسيرة أربعة أشهر؛ شهران ذهابًا وشهران إيابًا، ومع ذلك يقول هذا العفريت: أنا ألتزم بالمجيء به على كبره وثقله وبعده قبل أن تقوم من مجلسك الذي أنت فيه، والمعتاد من المجالس الطويلة أن تكون معظم الضحى نحو ثلث يوم، هذا نهاية المعتاد، وقد يكون دون ذلك أو أكثر، وهذا الملك العظيم الذي عند آحاد رعيته هذه القوة والقدرة.

وأبلغ من ذلك أن ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾: قال المفسرون: هو رجل عالم صالح عند سليمان، يقال له: آصف بن برخيا، كان يعرف اسم الله الأعظم، الذي إذا دعي به؛ أجاب، وإذا سئل به أعطى: ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾: بأن يدعو الله بذلك الاسم، فيحضر حالًا، وأنه دعا الله، فحضر. فالله أعلم؛ هل هذا المراد، أم أن عنده علمًا من الكتاب يقتدر به على جلب البعيد وتحصيل الشديد؟! ﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ ﴾ سليمان ﴿ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ ﴾: حمد الله تعالى على أقداره وملكه وتيسير الأمور له، و﴿ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾؛ أي: ليختبرني بذلك، فلم يغتر عليه السلام بملكه وسلطانه وقدرته كما هو دأب الملوك الجاهلين، بل علم أن ذلك اختبار من ربه، فخاف ألَّا يقوم بشكر هذه النعمة، ثم بين أن هذا الشكر لا ينتفع الله به، وإنما يرجع نفعه إلى صاحبه، فقال: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾: غني عن أعماله، كريم كثير الخير، يعم به الشاكر والكافر؛ إلا أن شكر نعمه داعٍ للمزيد منها، وكفرها داعٍ لزوالها.

﴿٤١﴾ ثم قال لمن عنده: ﴿ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا ﴾؛ أي: غيروه بزيادة ونقص، ونحن في ذلك: ﴿ نَنظُرْ ﴾: مختبرين لعقلها: ﴿أَتَهْتَدِىٓ ﴾ للصواب ويكون عندها ذكاء وفطنة تليق بملكها، ﴿ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿٤٢﴾ ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْ ﴾: قادمة على سليمان؛ عرض عليها عرشها، وكان عهدها به قد خلفته في بلدها، و﴿ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ﴾؛ أي: أنه استقر عندنا أن لك عرشًا عظيمًا؛ فهل هو كهذا العرش الذي أحضرناه لك؟ ﴿ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ﴾: وهذا من ذكائها وفطنتها: لم تقل هو لوجود التغيير فيه والتنكير، ولم تنف أنه هو لأنها عرفته، فأتت بلفظ محتمل للأمرين، صادق على الحالين.

فقال سليمان متعجبًا من هدايتها وعقلها وشاكرًا لله أن أعطاه أعظم منها: ﴿ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا ﴾؛ أي: الهداية والعقل والحزم من قبل هذه الملكة، ﴿ وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾: وهي الهداية النافعة الأصلية.

ويحتمل أن هذا من قول ملكة سبأ: وأوتينا العلم عن ملك سليمان وسلطانه وزيادة اقتداره من قبل هذه الحالة التي رأينا فيها قدرته على إحضار العرش من المسافة البعيدة، فأذعنا له وجئنا مسلمين له خاضعين لسلطانه.

﴿٤٣﴾ قال الله تعالى: ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: عن الإسلام، وإلا؛ فلها من الذكاء والفطنة ما به تعرف الحق من الباطل، ولكن العقائد الباطلة تُذهب بصيرة القلب. ﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾: فاستمرت على دينهم، وانفراد الواحد عن أهل الدين والعادة المستمرة بأمر يراه بعقله من ضلالهم وخطئهم من أندر ما يكون؛ فلهذا لا يستغرب بقاؤها على الكفر.

﴿٤٤﴾ ثم إن سليمان أراد أن ترى من سلطانه ما يبهر العقول، فأمرها أن تدخل الصرح، وهو المجلس المرتفع المتسع، وكان مجلسًا من قوارير، تجري تحته الأنهار. فـ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً ﴾: ماء؛ لأن القوارير شفافة يرى الماء الذي تحتها كأنه بذاته يجري ليس دونه شيء، ﴿ وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾: لتخوضه[1]، وهذا أيضًا من عقلها وأدبها؛ فإنها لم تمتنع من الدخول للمحل الذي أمرت بدخوله لعلمها أنها لم تستدع إلا للإكرام، وأن ملك سليمان وتنظيمه قد بناه على الحكمة، ولم يكن في قلبها أدنى شك من حالة السوء بعدما رأت ما رأت، فلما استعدت للخوض؛ قيل لها: ﴿ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ ﴾؛ أي: مجلس ﴿ مِّن قَوَارِيرَ ﴾: فلا حاجة منك لكشف الساقين؛ فحينئذ لما وصلت إلى سليمان وشاهدت ما شاهدت وعلمت نبوته ورسالته؛ تابت ورجعت عن كفرها و﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

فهذا ما قصه الله علينا من قصة ملكة سبأ وما جرى لها مع سليمان، وما عدا ذلك من الفروع المولدة والقصص الإسرائيلية؛ فإنه لا يتعلق بالتفسير لكلام الله، وهو من الأمور التي يقف الجزم بها على الدليل المعلوم عن[2]

(١) ع، ط: «للخياضة».
(٢) ساقط من ع، ط.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا
هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ
بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ
عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ
رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟
تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا
مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا
وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ
﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ
أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ
ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾

المعصوم، والمنقولات في هذا الباب كلها أو أكثرها ليس كذلك؛ فالحزم كل الحزم الإعراض عنها وعدم إدخالها في التفاسير. والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ إلى آخر القصة.

(٤٥) يخبر تعالى أنه أرسل إلى ثمود القبيلة المعروفة أخاهم في النسب صالحًا، وأنه أمرهم أن يعبدوا الله وحده، ويتركوا الأنداد والأوثان؛ ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾: منهم المؤمن، ومنهم الكافر - وهم معظمهم.

(٤٦) ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾؛ أي: لم تبادرون فعل السيئات وتحرصون عليها قبل فعل الحسنات التي بها تحسن أحوالكم وتصلح أموركم الدينية والدنيوية؟! والحال أنه لا موجب لكم إلى الذهاب لفعل السيئات ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾: بأن تتوبوا من شرككم وعصيانكم وتدعوه أن يغفر لكم، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾: فإن رحمة الله قريب من المحسنين، والتائب من الذنوب هو من المحسنين.

(٤٧) ﴿قَالُوا۟﴾: لنبيهم صالح مكذبين ومعارضين: ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾: زعموا - قبحهم الله - أنهم لم يروا على وجه صالح خيرًا، وأنه هو ومن معه من المؤمنين صاروا سببًا لمنع بعض مطالبهم الدنيوية! فقال لهم صالح: ﴿طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ما أصابكم إلا بذنوبكم. ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾: بالسراء والضراء، والخير والشر؛ لينظر هل تقلعون وتتوبون أم لا؟ فهذا دأبهم في تكذيب نبيهم وما قابلوه به.

(٤٨) ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾: التي فيها صالح، الجامعة لمعظم قومه ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾؛ أي: وصفهم الإفساد في الأرض، ولا لهم قصد ولا فعل بالإصلاح، قد استعدوا لمعاداة صالح والطعن في دينه ودعوة قومهم إلى ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الشعراء: ١٥٠-١٥٢].

(٤٩) فلم يزالوا بهذه الحال الشنيعة حتى أنهم من عداوتهم ﴿تَقَاسَمُوا۟﴾ فيما بينهم؛ كل واحد أقسم للآخر: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾؛ أي: لنأتينهم ليلًا هو وأهله، فلنقتلنهم، ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ﴾: إذا قام علينا وادعى علينا أنا قتلناهم؛ ننكر ذلك وننفيه ونحلف: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

(٥٠) فتواطئوا على ذلك، ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا﴾: دبروا أمرهم على قتل صالح وأهله على وجه الخفية حتى من قومهم خوفًا من أوليائه، ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾: بنصر نبينا صالح عليه السلام وتيسير أمره وإهلاك قومه المكذبين. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

(٥١) ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾: هل حصل مقصودهم وأدركوا بذلك المكر مطلوبهم؟ أم انتقض عليهم الأمر؟! ولهذا قال: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾: أهلكناهم واستأصلنا شأفتهم فجاءتهم صيحة عذاب فأهلكوا عن آخرهم.

(٥٢) ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ﴾: قد تهدمت جدرانها على سقوفها، وأوحشت من ساكنيها، وعطلت من نازليها

﴿ بِمَا ظَلَمُوٓاْ ﴾؛ أي: هذا عاقبة ظلمهم وشركهم بالله وبغيهم في الأرض. ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) ﴾: الحقائق، ويتدبرون وقائع الله في أوليائه وأعدائه، فيعتبرون بذلك، ويعلمون أن عاقبة الظلم الدمار والهلاك، وأن عاقبة الإيمان والعدل النجاة والفوز.

(٥٣) ولهذا قال: ﴿ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ (٥٣) ﴾؛ أي: أنجينا المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وكانوا يتقون الشرك بالله والمعاصي، ويعملون بطاعته وطاعة رسله.

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) ﴾ إلى آخر القصة.

(٥٤) أي: واذكر عبدنا ورسولنا لوطًا ونبأه الفاضل حين قال لقومه داعيًا لهم إلى الله وناصحًا: ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ ﴾؛ أي: الفعلة الشنعاء التي تستفحشها العقول والفطر وتستقبحها الشرائع. ﴿ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) ﴾: ذلك وتعلمون قبحه، فعاندتم وارتكبتم ذلك ظلمًا منكم وجرأة على الله.

(٥٥) ثم فسر تلك الفاحشة فقال: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ﴾؛ أي: كيف توصلتم إلى هذه الحال، فصارت شهوتكم للرجال وأدبارهم محل الغائط والنجو والخبث، وتركتم ما خلق الله لكم من النساء من المحال الطيبة التي جبلت النفوس إلى الميل إليها، وأنتم انقلب عليكم الأمر، فاستحسنتم القبيح، واستقبحتم الحسن؟! ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) ﴾[1]: متجاوزون لحدود الله متجرئون على محارمه.

(٥٦) ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ ﴾: قبول ولا انزجار ولا تذكر وادكار، إنما كان جوابهم المعارضة والمناقضة والتوعد لنبيهم الناصح ورسولهم الأمين بالإجلاء عن وطنه والتشريد عن بلده؛ فما كان جواب قومه ﴿ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ﴾: فكأنه قيل: ما نقمتم منهم وما ذنبهم الذي أوجب لهم الإخراج؟ فقالوا: ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) ﴾؛ أي: يتنزهون عن اللواط وأدبار الذكور!!

(١) سبق قلم الشيخ - رحمه الله - فذهب إلى آية الأعراف فكتب: ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨١) ﴾ وفسرها على هذا، فصححت الآية وأبقيت التفسير كما هو. (طبعة اللويحق).

۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ (٥٨) قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣)

فقبحهم الله؛ جعلوا أفضل الحسنات بمنزلة أقبح السيئات، ولم يكتفوا بمعصيتهم لنبيهم فيما وعظهم به، حتى وصلوا إلى إخراجه، والبلاء موكل بالمنطق؛ فهم قالوا: أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون! ومفهوم هذا الكلام: وأنتم متلوثون بالخبث والقذارة المقتضي لنزول العقوبة بقريتكم ونجاة من خرج منها.

(٥٧)، (٥٨) ولهذا قال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ (٥٧) ﴾: وذلك لما جاءته الملائكة في صورة أضياف، وسمع بهم قومه، فجاءوا إليه يريدونهم بالشر، وأغلق الباب دونهم، واشتد الأمر عليه، ثم أخبرته الملائكة عن جلية الحال، وأنهم جاءوا لاستنقاذه وإخراجه من بين أظهرهم، وأنهم يريدون إهلاكهم، وأن موعدهم الصبح، وأمروه أن يسري بأهله ليلًا إلا امرأته؛ فإنه سيصيبها ما أصابهم، فخرج بأهله ليلًا، فنجوا، وصبحهم العذاب، فقلب الله عليهم ديارهم، وجعل أعلاها أسفلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك، ولهذا

قال هنا: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾؛ أي: بئس المطر مطرهم، وبئس العذاب عذابهم؛ لأنهم أنذروا وخوفوا فلم ينزجروا ولم يرتدعوا، فأحل الله بهم عقابه الشديد.

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿٥٩﴾ أي: قل الحمد لله الذي يستحق كمال الحمد والمدح والثناء؛ لكمال أوصافه وجميل معروفه وهباته وعدله وحكمته في عقوبته المكذبين وتعذيب الظالمين، وسلام أيضًا على عباده الذين تخيرهم واصطفاهم على العالمين من الأنبياء والمرسلين وصفوة الله رب العالمين، وذلك لرفع ذكرهم وتنويهًا بقدرهم وسلامتهم من الشر والأدناس وسلامة ما قالوه في ربهم من النقائص والعيوب. ﴿ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾: وهذا استفهام قد تقرر وعرف؛ أي: آلله الرب العظيم كامل الأوصاف عظيم الألطاف خير أم الأصنام والأوثان التي عبدوها معه وهي ناقصة من كل وجه؛ لا تنفع ولا تضر ولا تملك لأنفسها ولا لعابديها مثقال ذرة من الخير؟ فالله خير مما يشركون.

ثم ذكر تفاصيل ما به يعرف ويتعين أنه الإله المعبود، وأن عبادته هي الحق وعبادة ما سواه هي الباطل، فقال:

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿٦٠﴾ أي: أمن خلق السماوات وما فيها من الشمس والقمر والنجوم والملائكة والأرض وما فيها من جبال وبحار وأنهار وأشجار وغير ذلك، ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم ﴾؛ أي: لأجلكم ﴿ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ﴾؛ أي: بساتين ﴿ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾؛ أي: حسن منظر من كثرة أشجارها وتنوعها وحسن ثمارها. ﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ﴾: لولا منة الله عليكم بإنزال المطر. ﴿ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾: فعل هذه الأفعال حتى يعبد معه ويشرك به، ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾: به غيره، ويسوون به سواه، مع علمهم أنه وحده خالق العالم العلوي والسفلي ومنزل الرزق.

﴿ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

﴿٦١﴾ أي: هل الأصنام والأوثان الناقصة من كل وجه التي لا فعل منها ولا رزق ولا نفع خير أم الله الذي ﴿ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا ﴾: يستقر عليها العباد ويتمكنون من السكنى والحرث والبناء والذهاب والإياب، ﴿ وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا ﴾؛ أي: جعل في خلال الأرض أنهارًا ينتفع بها العباد في زروعهم وأشجارهم وشربهم وشرب مواشيهم، ﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ ﴾؛ أي: جبالًا ترسيها وتثبتها لئلا تميد وتكون أوتادًا لها لئلا تضطرب، ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ ﴾: البحر المالح والبحر العذب ﴿ حَاجِزًا ﴾: يمنع من اختلاطهما فتفوت المنفعة المقصودة من كل منهما، بل جعل بينهما حاجزًا من الأرض؛ جعل مجرى الأنهار في الأرض مبعدة عن البحار، فيحصل منها مقاصدها ومصالحها. ﴿ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾: فعل ذلك حتى يعدل به الله ويشرك به معه، ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾: فيشركون بالله تقليدًا لرؤسائهم، وإلا؛ فلو علموا حق العلم لم يشركوا به شيئًا.

﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

﴿٦٢﴾ أي: هل يجيب المضطر الذي أقلقته الكروب وتعسر عليه المطلوب واضطر للخلاص بما هو فيه إلا الله وحده؟! ومن يكشف السوء؛ أي: البلاء والشر والنقمة؛ إلا الله وحده؟! ومن يجعلكم خلفاء الأرض يمكنكم منها ويمد لكم بالرزق ويوصل إليكم نعمه وتكونون خلفاء من قبلكم كما أنه سيميتكم ويأتي بقوم بعدكم؟! أإله مع الله يفعل هذه الأفعال؟! لا أحد يفعل مع الله شيئًا من ذلك، حتى بإقراركم أيها المشركون، ولهذا كانوا إذا مسهم الضر دعوا الله مخلصين له الدين؛ لعلمهم أنه وحده المقتدر على دفعه وإزالته، ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾؛ أي: قليلًا تذكركم وتدبركم للأمور التي إذا تذكرتموها ادكرتم ورجعتم إلى الهدى، ولكن الغفلة والإعراض شامل لكم؛ فلذلك ما ارعويتم ولا اهتديتم.

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿٦٣﴾ أي: من هو الذي يهديكم حين تكونون في ظلمات البر والبحر حيث لا دليل ولا معلم يرى ولا وسيلة إلى النجاة إلا هدايته لكم وتيسيره الطريق وجعل ما جعل لكم من الأسباب التي تهتدون بها؟! ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾؛ أي: بين يدي المطر، فيرسلها، فتثير السحاب، ثم تؤلفه، ثم تجمعه، ثم تلقحه، ثم تدره، فيستبشر بذلك العباد قبل نزول المطر. ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾: فعل ذلك؟! أم هو وحده الذي انفرد به؟! فلم أشركتم معه غيره وعبدتم سواه؟! ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾: تعاظم وتنزه وتقدس عن شركهم وتسويتهم به غيره.

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿٦٤﴾ أي: من هو الذي يبدأ الخلق وينشئ المخلوقات ويبتدئ خلقها ثم يعيد الخلق يوم البعث والنشور؟! ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بالمطر والنبات؟! ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾: يفعل ذلك ويقدر عليه، ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾؛ أي: حجتكم ودليلكم على ما قلتم: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ وإلا؛ فبتقدير أنكم تقولون: إن الأصنام لها مشاركة له في شيء من ذلك؛ فذلك مجرد دعوى صدِّقوها بالبرهان، وإلا فاعرفوا أنكم مبطلون لا حجة لكم، فارجعوا إلى الأدلة اليقينية والبراهين القطعية الدالة على أن الله هو المتفرد بجميع التصرفات وأنه المستحق أن يصرف له جميع أنواع العبادات.

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿٦٥﴾ يخبر تعالى أنه المنفرد بعلم غيب السماوات والأرض؛ كقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ

سُورَةُ النَّمْلِ — الجُزْءُ العِشْرُونَ

أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ
أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾
قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ
أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ
فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟
أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا
هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾
قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ
﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ
أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ
فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ
يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾

٣٨٣

إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩]، وكقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤] إلى آخر السورة.

فهذه الغيوب ونحوها اختص الله بعلمها، فلم يعلمها ملك مقرب ولا نبي مرسل، وإذا كان هو المنفرد بعلم ذلك، والمحيط علمه بالسرائر والبواطن والخفايا؛ فهو الذي لا تنبغي العبادة إلا له.

ثم أخبر تعالى عن ضعف علم المكذبين بالآخرة، متنقلًا من شيء إلى ما هو أبلغ منه، فقال: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾؛ أي: وما يدرون ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾؛ أي: متى البعث والنشور والقيام من القبور؛ أي: فلذلك لم يستعدوا.

﴿٦٦﴾ ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾؛ أي: بل ضعف وقل ولم يكن يقينًا ولا علمًا واصلًا إلى القلب، وهذا أقل وأدنى درجة للعلم، ضعفه ووهاؤه، بل ليس عندهم علم

ولا ضعيف، وإنما ﴿هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾؛ أي: من الآخرة، والشك زال به العلم؛ لأن العلم بجميع مراتبه لا يجامع الشك. ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا﴾؛ أي: من الآخرة ﴿عَمُونَ (٦٦)﴾: قد عميت عنها بصائرهم، ولم يكن في قلوبهم من وقوعها، ولا احتمال، بل أنكروها واستبعدوها.

(٦٧) ولهذا قال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧)﴾؛ أي: هذا بعيد غير ممكن؛ قاسوا قدرة كامل القدرة بقدرهم الضعيفة.

(٦٨) ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا﴾؛ أي: البعث ﴿نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ﴾؛ أي: فلم يجئنا ولا رأينا منه شيئًا. ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨)﴾؛ أي: قصصهم وأخبارهم التي تقطع بها الأوقات، وليس لها أصل، ولا صدق فيها. فانتقل في الإخبار عن أحوال المكذبين بالإخبار أنهم لا يدرون متى وقت الآخرة، ثم الإخبار بضعف علمهم فيها، ثم الإخبار بأنه شك، ثم الإخبار بأنه عمًى، ثم الإخبار بإنكارهم لذلك واستبعادهم وقوعه؛ أي: وبسبب هذه الأحوال؛ ترحَّل خوف الآخرة من قلوبهم، فأقدموا على معاصي الله، وسهل عليهم تكذيب الحق والتصديق بالباطل، واستحلوا الشهوات على القيام بالعبادات، فخسروا دنياهم وأخراهم.

(٦٩) ثم نبههم على صدق ما أخبرت به الرسل، فقال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩)﴾؛ فلا تجدون مجرمًا قد استمر على إجرامه إلا وعاقبته شر عاقبة، وقد أحل الله به من الشر والعقوبة ما يليق بحاله.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢)﴾.

(٧٠) أي: لا تحزن يا محمد على هؤلاء المكذبين وعدم إيمانهم؛ فإنك لو علمت ما فيهم من الشر وأنهم لا يصلحون للخير؛ لم تأس ولم تحزن، ولا يضيق صدرك ولا تقلق نفسك بمكرهم؛ فإن مكرهم ستعود عاقبته عليهم، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)﴾ [الأنفال: ٣٠].

(٧١) ويقول المكذبون بالمعاد وبالحق الذي جاء به الرسول مستعجلين للعذاب: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٧١)﴾: وهذا من سفاهة رأيهم وجهلهم؛ فإن وقوعه ووقته قد أجله الله بأجله وقدره بقدر؛ فلا يدل عدم استعجاله على بعض مطلوبهم، ولكن مع هذا قال تعالى محذرًا لهم وقوع ما يستعجلون:

(٧٢) ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾؛ أي: قرب منكم وأوشك أن يقع بكم ﴿بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢)﴾: من العذاب.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٧٥)﴾.

(٧٣) ينبه عباده على سعة جوده وكثرة أفضاله، ويحثهم على شكرها، ومع هذا؛ فأكثر الناس قد أعرضوا عن الشكر، واشتغلوا بالنعم عن المنعم.

(٧٤) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ﴾؛ أي: تنطوي عليه ﴿صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤)﴾: فليحذروا من عالم السرائر والظواهر وليراقبوه.

(٧٥) ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: خفية وسر من أسرار العالم العلوي والسفلي ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٧٥)﴾: قد أحاط ذلك الكتاب بجميع ما كان ويكون إلى أن تقوم الساعة؛ فكل حادث يحدث جلي أو خفي؛ إلا وهو مطابق لما كتب في اللوح المحفوظ.

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧)﴾.

(٧٦) وهذا خبر عن هيمنة القرآن على الكتب السابقة وتفصيله وتوضيحه لما كان فيها قد وقع فيه اشتباه واختلاف عند بني إسرائيل، فقصه هذا القرآن قصًّا زال به الإشكال، وبين الصواب من المسائل المختلف فيها.

(٧٧) وإذا كان بهذه المثابة من الجلالة والوضوح وإزالة كل خلاف وفصل كل مشكل؛ كان أعظم نعم الله على العباد، ولكن ما كل أحد يقابل النعمة بالشكر، ولهذا بين أن نفعه ونوره وهداه مختص بالمؤمنين، فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَهُدًى﴾: من الضلالة والغي والشبه، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾: تنثلج له صدورهم وتستقيم به أمورهم الدينية والدنيوية، ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧)﴾:

به، المصدقين له، المتلقين له، بالقبول المقبلين على تدبره، المتفكرين في معانيه؛ فهؤلاء تحصل لهم به الهداية إلى الصراط المستقيم، والرحمة المتضمنة للسعادة والفوز والفلاح.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ ﴾.

﴿٧٨﴾ أي: إن الله تعالى سيفصل بين المختصمين وسيحكم بين المختلفين بحكمه العدل وقضائه القسط؛ فالأمور، وإن حصل فيها اشتباه في الدنيا بين المختلفين لخفاء الدليل أو لبعض المقاصد؛ فإنه سيبين فيها الحق المطابق للواقع حين يحكم الله فيها. ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾: الذي قهر الخلائق فأذعنوا له. ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ ﴾: بجميع الأشياء، العليم بأقوال المختلفين، وعن ماذا صدرت، وعن غاياتها ومقاصدها، وسيجازي كلًّا بما علمه فيه.

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿٧٩﴾ أي: اعتمد على ربك في جلب المصالح ودفع المضار وفي تبليغ الرسالة وإقامة الدين وجهاد الأعداء. ﴿ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾: الواضح، والذي على الحق يدعو إليه ويقوم بنصرته أحق من غيره بالتوكل؛ فإنه يسعى في أمر مجزوم به، معلوم صدقه، لا شك فيه ولا مرية، وأيضًا؛ فهو حق في غاية البيان، لا خفاء به ولا اشتباه.

﴿٨٠﴾ وإذا قمت بما حملت وتوكلت على الله في ذلك؛ فلا يضرك ضلال من ضل وليس عليك هداهم؛ فلهذا قال: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ ﴾؛ أي: حين تدعوهم وتناديهم، وخصوصًا: ﴿ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾: فإنه يكون أبلغ في عدم إسماعهم.

﴿٨١﴾ ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ﴾: كما قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦]. ﴿ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾؛ أي: هؤلاء الذين ينقادون لك، هم الذين يؤمنون بآيات الله وينقادون لها بأعمالهم واستسلامهم؛ كما

الجزء العشرون — سورة النمل

وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم
بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى
ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ
إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن
تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا
وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ
ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ
فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو
قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ
﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ
يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ
مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ
دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ
صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾

٣٨٤

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٦].

﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿٨٢﴾ أي: إذا وقع على الناس القول الذي حتمه الله وفرض وقته؛ ﴿ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً ﴾ خارجة ﴿ مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾، أو دابة من دواب الأرض، ليست من السماء، وهذه الدابة ﴿ تُكَلِّمُهُمْ ﴾؛ أي: تكلم العباد ﴿ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾؛ أي: لأجل أن الناس ضعف علمهم ويقينهم بآيات الله؛ فإظهار الله هذه الدابة من آيات الله العجيبة؛ ليبين للناس ما كانوا فيه يمترون. وهذه الدابة المشهورة التي تخرج في آخر الزمان، وتكون من أشراط الساعة؛ كما تكاثرت بذلك الأحاديث، لم يذكر الله ورسوله كيفية هذه الدابة، وإنما ذكر أثرها والمقصود منها، وأنها من آيات الله؛ تكلم الناس كلامًا خارقًا للعادة حين يقع القول على الناس وحين يمترون

بآيات الله، فتكون حجة وبرهانًا للمؤمنين، وحجة على المعاندين.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿٨٣﴾ يخبر تعالى عن حالة المكذبين في موقف القيامة، وأن الله يجمعهم ويحشر من كل أمة من الأمم فوجًا وطائفة، ﴿ مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾: يجمع أولهم على آخرهم، وآخرهم على أولهم؛ ليعمهم السؤال والتوبيخ واللوم.

﴿٨٤﴾ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو ﴾: وحضروا؛ قال لهم موبخًا ومقرعًا: ﴿ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا ﴾؛ أي: الواجب عليكم التوقف حتى ينكشف لكم الحق، وألَّا تتكلموا إلا بعلم؛ فكيف كذبتم بأمر لم تحيطوا به علمًا. ﴿ أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾؛ أي: يسألهم عن علمهم وعن عملهم، فيجد علمهم تكذيبًا بالحق وعملهم لغير الله، أو على غير سنة رسولهم.

﴿٨٥﴾ ﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ ﴾؛ أي: حقت عليهم كلمة العذاب بسبب ظلمهم الذي استمروا عليه وتوجهت عليهم الحجة، ﴿ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾: لأنه لا حجة لهم.

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

﴿٨٦﴾ أي: ألم يشاهدوا هذه الآية العظيمة والنعمة الجسيمة، وهو تسخير الله لهم الليل والنهار، هذا بظلمته ليسكنوا فيه ويستريحوا من التعب ويستعدوا للعمل، وهذا بضيائه لينتشروا فيه في معاشهم وتصرفاتهم. ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾: بكمال[1] وحدانية الله وسبوغ نعمته.

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

﴿٨٧﴾ يخوف تعالى عباده ما أمامهم من يوم القيامة وما فيه من المحن والكروب ومزعجات القلوب، فقال: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ ﴾: بسبب النفخ فيه ﴿ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي: انزعجوا وارتاعوا وماج بعضهم ببعض خوفًا مما هو مقدمة له ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾: ممن أكرمه الله وثبته وحفظه من الفزع. ﴿ وَكُلٌّ ﴾ من الخلق عند النفخ في الصور ﴿ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾: صاغرين ذليلين؛ كما قال تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [مريم: ٩٣]. ففي ذلك اليوم يتساوى الرؤساء والمرءوسون في الذل والخضوع لمالك الملك.

﴿٨٨﴾ ومن هوله أنك ترى ﴿ ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾: لا تفقد شيئًا منها، وتظنها باقية على الحال المعهودة، وهي قد بلغت منها الشدائد والأهوال كل مبلغ، وقد تفتتت، ثم تضمحل وتكون هباء منبثا، ولهذا قال: ﴿ وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾: من خفتها وشدة ذلك الخوف، وذلك ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾: فيجازيكم بأعمالكم.

﴿٨٩﴾ ثم بين كيفية جزائه، فقال: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ ﴾: اسم جنس، يشمل كل حسنة قولية أو فعلية أو قلبية، ﴿ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾[2]: هذا أقل التفضيل. ﴿ وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾؛ أي: من الأمر الذي فزع الخلق لأجله آمنون، وإن كانوا يفزعون معهم.

﴿٩٠﴾ ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ ﴾: اسم جنس يشمل كل سيئة، ﴿ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ ﴾؛ أي: ألقوا في النار على وجوههم، ويقال لهم: ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟

(١) ع، ط: «على كمال».

(٢) سبق قلم الشيخ رحمه الله إلى آية الأنعام فكتب: ﴿ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾.

﴿ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿٩١﴾ أي: قل لهم يا محمد: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾؛ أي: مكة المكرمة ﴿ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ وأنعم على أهلها؛ فيجب أن يقابلوا ذلك بالشكر والقبول، ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ﴾: من العلويات والسفليات؛ أتى به لئلا يتوهم اختصاص ربوبيته بالبيت وحده. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾[1]؛ أي: أبادر إلى الإسلام. وقد فعل ﷺ؛ فإنه أول هذه الأمة إسلامًا، وأعظمها استسلامًا.

﴿٩٢﴾ وأمرت أيضًا أن ﴿أَتْلُوَا﴾ عليكم ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾: لتهتدوا به وتقتدوا وتعلموا ألفاظه ومعانيه؛ فهذا الذي عليَّ، وقد أديته، ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ﴾: نفعه يعود عليه، وثمرته عائدة إليه، ﴿وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾: وليس بيدي من الهداية شيء.

﴿٩٣﴾ ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: الذي له الحمد في الأولى والآخرة، ومن جميع الخلق، خصوصًا أهل الاختصاص والصفوة من عباده؛ فإن الذي وقع والذي ينبغي أن يقع منهم من الحمد والثناء على ربهم أعظم مما يقع من غيرهم؛ لرفعة درجاتهم وكمال قربهم منه وكثرة خيراته عليهم، ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾: معرفة تدلكم على الحق والباطل؛ فلا بد أن يريكم من آياته ما تستنيرون به في الظلمات؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾: بل قد علم ما أنتم عليه من الأعمال والأحوال، وعلم مقدار جزاء تلك الأعمال، وسيحكم بينكم حكمًا تحمدونه عليه، ولا يكون لكم حجة بوجه من الوجوه عليه.

تم تفسير سورة النمل بفضل الله وإعانته وتيسيره، ونسأله تعالى ألَّا تزال ألطافه ومعونته مستمرة علينا وواصلة منه إلينا، فهو أكرم الأكرمين، وخير الراحمين، وموصل المنقطعين، ومجيب السائلين، ميسر الأمور العسيرة، وفاتح أبواب بركاته، ومجزل في جميع الأوقات هباته، ميسر

(١) سبق قلم الشيخ رحمه الله فكتب: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الزمر: ١٢] وعلى هذا فسر الآية. (طبعة اللويحق).

الجزء العشرون — سورة النمل

مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾
وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ
إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ
ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ
ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي
لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ
لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

سُورَةُ القَصَصِ — مكية ٢٨ — آياتها ٨٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا عَلَيْكَ
مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ
فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ
طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ
مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا
فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾

٣٨٥

القرآن للمتذكرين، ومسهل طرقه وأبوابه للمقبلين، ويمد مائدة خيراته ومبراته للمتفكرين. والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

على يد جامعه وممليه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين. وذلك في ٢٢ رمضان سنة ١٣٤٣. وتم تحريره من خط مؤلفه في ٢٩ ذي الحجة سنة ١٣٤٦.

تم الجزء الخامس من تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ويليه إن شاء الله الجزء السادس أوله: تفسير سورة القصص ويليه في النشر أصول في أصول التفسير وتفسير ألفاظ عامة يكثر في القرآن مرورها ويحتاج معرفتها.



تفسير سورة القصص

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ ﴾ إلى آخر القصة.

(٢) ﴿ تِلْكَ ﴾ الآيات المستحقة للتعظيم والتفخيم، ﴿ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ ﴾: لكل أمر يحتاج إليه العباد؛ من معرفة ربهم، ومعرفة حقوقه، ومعرفة أوليائه وأعدائه، ومعرفة وقائعه وأيامه، ومعرفة ثواب الأعمال وجزاء العمال؛ فهذا القرآن قد بينها غاية التبيين، وجلاها للعباد، ووضحها.

(٣) من جملة ما أبان، قصة موسى وفرعون؛ فإنه أبداها وأعادها في عدة مواضع، وبسطها في هذا الموضع، فقال: ﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ ﴾: فإن نبأهما غريب وخبرهما عجيب، ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ ﴾: فإليهم يساق الخطاب ويوجه الكلام؛ حيث إن معهم من الإيمان ما يقبلون به على تدبر ذلك وتلقيه بالقبول والاهتداء بمواقع العبر، ويزدادون به إيمانًا ويقينًا وخيرًا إلى خيرهم، وأما من عداهم؛ فلا يستفيدون منه إلا إقامة الحجة عليهم، وصانه الله عنهم، وجعل بينهم وبينه حجابًا أن يفقهوه.

(٤) فأول هذه القصة: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾: في ملكه وسلطانه وجنوده وجبروته، فصار من أهل العلو فيها، لا من الأعلين فيها، ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾؛ أي: طوائف متفرقة يتصرف فيهم بشهوته وينفذ فيهم ما أراد من قهره وسطوته، ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ ﴾: وتلك الطائفة هم بنو إسرائيل، الذين فضلهم الله على العالمين، الذي ينبغي له أن يكرمهم ويجلهم، ولكنه استضعفهم بحيث إنه رأى أنهم لا منعة لهم تمنعهم مما أراده فيهم، فصار لا يبالي بهم ولا يهتم بشأنهم، وبلغت به الحال إلى أنه ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ﴾: خوفًا من أن يكثروا فيغمروه في بلاده، ويصير لهم الملك. ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ ﴾: الذين لا قصد لهم في صلاح الدين ولا صلاح الدنيا. وهذا من إفساده في الأرض.

(٥) ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾: بأن نزيل عنهم مواد الاستضعاف ونهلك من قاومهم ونخذل من ناوأهم، ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ في الدين، وذلك لا يحصل مع الاستضعاف، بل لا بد من تمكين في الأرض، وقدرة تامة، ﴿ وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ ﴾: للأرض، الذين لهم العاقبة في الدنيا قبل الآخرة.

(٦) ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾: فهذه الأمور كلها قد تعلقت بها إرادة الله وجرت بها مشيئته. وكذلك نريد أن نري ﴿ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ﴾: وزيره ﴿ وَجُنُودَهُمَا ﴾: التي بها صالوا، وجالوا وعلوا وبغوا، ﴿ مِنْهُم ﴾؛ أي: من هذه الطائفة المستضعفة ﴿ مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ۝٦ ﴾: من إخراجهم من ديارهم، ولذلك كانوا يسعون في قمعهم وكسر شوكتهم وتقتيل أبنائهم الذين هم محل ذلك؛ فكل هذا قد أراده الله، وإذا أراد أمرًا؛ سهل أسبابه ونهج طرقه، وهذا الأمر كذلك؛ فإنه قدر وأجرى من الأسباب - التي لم يشعر بها لا أولياؤه ولا أعداؤه - ما هو سبب موصل إلى هذا المقصود.

(٧) فأول ذلك لما أوجد الله رسوله موسى الذي جعل استنقاذ هذا الشعب الإسرائيلي على يديه وبسببه، وكان في وقت تلك المخافة العظيمة التي يذبحون بها الأبناء، أوحى إلى أمه أن ترضعه ويمكث عندها، ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ ﴾: بأن أحسست أحدًا تخافين عليه منه أن يوصله إليهم، ﴿ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ ﴾؛ أي: نيل مصر، في وسط تابوت مغلق، ﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ ﴾: فبشرها بأنه سيرده عليها وأنه سيكبر ويسلم من كيدهم ويجعله الله رسولًا، وهذا من أعظم البشائر الجليلة. وتقديم هذه البشارة لأم موسى ليطمئن قلبها، ويسكن روعها.

(٨) فكأنها خافت عليه، وفعلت ما أمرت به، ألقته في اليم، وساقه الله تعالى، ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ ﴾: فصار من لقطهم، وهم الذين باشروا وجدانه؛ ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾؛ أي: لتكون العاقبة والمآل من هذا الالتقاط أن يكون عدوًّا لهم وحزنًا يحزنهم؛ بسبب أن الحذر لا ينفع من القدر، وأن الذي خافوا منه من بني إسرائيل قيض الله أن يكون زعيمهم يتربى تحت أيديهم وعلى نظرهم وبكفالتهم.

وعند التدبر والتأمل تجد في طي ذلك من المصالح لبني إسرائيل ودفع كثير من الأمور الفادحة بهم ومنع كثير من التعديات قبل رسالته؛ بحيث إنه صار من كبار المملكة، وبالطبع لا بد أن يحصل منه مدافعة عن حقوق شعبه، هذا وهو هو ذو الهمة العالية والغيرة المتوقدة، ولهذا وصلت الحال بذلك الشعب المستضعف - الذي بلغ بهم الذل والإهانة إلى ما قص الله علينا بعضه - أن صار بعض أفراده ينازع ذلك الشعب القاهر العالي في الأرض كما سيأتي بيانه، وهذا مقدمة للظهور؛ فإن الله تعالى من سنته الجارية أن جعل الأمور تمشي على التدريج شيئًا فشيئًا، ولا تأتي دفعة واحدة. وقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ۝٨﴾؛ أي: فأردنا أن نعاقبهم على خطئهم، ونكيد لهم جزاء على مكرهم وكيدهم.

﴿٩﴾ فلما التقطه آل فرعون؛ حنن الله عليه امرأة فرعون الفاضلة الجليلة المؤمنة آسية بنت مزاحم، ﴿وَقَالَتِ﴾: هذا الولد ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾؛ أي: أَبْقِهِ لنا لتقر به أعيننا، ونسر به في حياتنا، ﴿عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾؛ أي: لا يخلو: إما أن يكون بمنزلة الخدم الذين يسعون في نفعنا وخدمتنا، أو نرقيه درجة أعلى من ذلك؛ نجعله ولدًا لنا ونكرمه ونجله. فقدر الله تعالى أنه نفع امرأة فرعون التي قالت تلك المقالة؛ فإنه لما صار قرة عين لها وأحبته حبًّا شديدًا، فلم يزل لها بمنزلة الولد الشفيق، حتى كبر، ونبأه الله، وأرسله، فبادرت إلى الإسلام والإيمان به، رضي الله عنها وأرضاها. قال الله تعالى عن هذه المراجعات والمقاولات في شأن موسى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾: ما جرى به القلم، ومضى به القدر من وصوله إلى ما وصل إليه. وهذا من لطفه تعالى؛ فإنهم لو شعروا؛ لكان لهم وله شأن آخر.

﴿١٠﴾ ولما فقدت موسى أمه حزنت حزنًا شديدًا، وأصبح فؤادها فارغًا من القلق الذي أزعجها على مقتضى الحالة البشرية، مع أن الله تعالى نهاها عن الحزن والخوف، ووعدها برده. ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾؛ أي: بما في قلبها ﴿لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾: فثبتناها، فصبرت ولم تبد به؛ ﴿لِتَكُونَ﴾: بذلك الصبر والثبات ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: فإن العبد إذا أصابته مصيبة فصبر وثبت؛ ازداد بذلك إيمانه، ودل ذلك على أن استمرار الجزع مع العبد دليل على ضعف إيمانه.

وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا
مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ
أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي
وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾
فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ
فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾
وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ
أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ
فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن
رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ
لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ
عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾
فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ
أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

﴿١١﴾ ﴿وَقَالَتْ﴾ أم موسى ﴿لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾؛ أي: اذهبي فقصي الأثر عن أخيك، وابحثي عنه؛ من غير أن يحس بك أحد أو يشعروا بمقصودك، فذهبت تقصه، ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١﴾؛ أي: أبصرته على وجه كأنها مارة لا قصد لها فيه، وهذا من تمام الحزم والحذر؛ فإنها لو أبصرته وجاءت إليهم قاصدة؛ لظنوا بها أنها هي التي ألقته، فربما عزموا على ذبحه عقوبة لأهله.

﴿١٢﴾ ومن لطف الله بموسى وأمه أن منعه من قبول ثدي امرأة، فأخرجوه إلى السوق رحمة به، ولعل أحدًا يطلبه، فجاءت أخته وهو بتلك الحال، ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ۝١٢﴾: وهذا جل غرضهم؛ فإنهم أحبوه حبًّا شديدًا، وقد منعه الله من المراضع، فخافوا أن يموت.

﴿١٣﴾ فلما قالت لهم أخته تلك المقالة المشتملة على الترغيب في أهل هذا البيت بتمام حفظه وكفالته والنصح له؛ بادروا إلى إجابتها، فأعلمتهم ودلتهم على أهل هذا البيت.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي
ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا
فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ
فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ
فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ
﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ
ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا
ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ
مُّبِينٞ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ
يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ
أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿١٩﴾
وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ
يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾
فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾

﴿فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾: كما وعدناها بذلك؛ ﴿كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ﴾: بحيث إنه تربى عندها على وجه تكون فيه آمنة مطمئنة تفرح به وتأخذ الأجرة الكثيرة على ذلك، ﴿وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾: فأريناها بعض ما وعدناها به عيانًا ليطمئن بذلك قلبها ويزداد إيمانها، ولتعلم أنه سيحصل وعد الله في حفظه ورسالته. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾: فإذا رأوا السبب متشوشًا؛ شوش ذلك إيمانهم؛ لعدم علمهم الكامل أن الله تعالى يجعل المحن والعقبات الشاقة بين يدي الأمور العالية والمطالب الفاضلة.

فاستمر موسى عليه الصلاة والسلام عند آل فرعون يتربى في سلطانهم ويركب مراكبهم ويلبس ملابسهم، وأمه بذلك مطمئنة، قد استقر أنها أمه من الرضاع، ولم يستنكر ملازمته إياها وحنوها عليه. وتأمل هذا اللطف من الله وصيانة نبيه موسى من الكذب في منطقه وتيسير الأمر الذي صار به التعلق بينه وبينها، الذي بان للناس أنه هو الرضاع الذي بسببه يسميها أمًّا، فكان الكلام الكثير منه ومن غيره في ذلك كله صدقًا وحقًّا.

﴿١٤﴾ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾: من القوة والعقل واللب، وذلك نحو أربعين سنة في الغالب، ﴿وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾: كملت فيه تلك الأمور ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾؛ أي: حكمًا يعرف به الأحكام الشرعية، ويحكم به بين الناس، وعلمًا كثيرًا. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾: في عبادة الله، المحسنين لخلق الله؛ يعطيهم علمًا وحكمًا بحسب إحسانهم. ودل هذا على كمال إحسان موسى عليه السلام.

﴿١٥﴾ - ﴿١٧﴾ ﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا﴾: إما وقت القائلة أو غير ذلك من الأوقات التي بها يغفلون عن الانتشار، ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ﴾: أي يتخاصمان ويتضاربان. ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾؛ أي: من بني إسرائيل، ﴿وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾: القبط، ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾: لأنه قد اشتهر وعلم الناس أنه من بني إسرائيل، واستغاثته لموسى دليل على أنه بلغ موسى عليه السلام مبلغًا يخاف منه ويرجى من بيت المملكة والسلطان. ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾؛ أي: وكز الذي من عدوه استجابة لاستغاثة الإسرائيلي، ﴿فَقَضَىٰ عَلَيۡهِ﴾؛ أي: أماته من تلك الوكزة لشدتها وقوة موسى. فندم موسى عليه السلام على ما جرى منه، و﴿قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾؛ أي: من تزيينه ووسوسته. ﴿إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾﴾: فلذلك أجريت ما أجريت بسبب عداوته البينة وحرصه على الإضلال. ثم استغفر ربه، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾: خصوصًا للمخبتين إليه، المبادرين للإنابة والتوبة؛ كما جرى من موسى عليه السلام، ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ﴾: بالتوبة والمغفرة والنعم الكثيرة، ﴿فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا﴾؛ أي: معينًا ومساعدًا ﴿لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾؛ أي: لا أعين أحدًا على معصية. وهذا وعد من موسى عليه السلام بسبب منة الله عليه ألَّا يعين مجرمًا كما فعل في قتل القبطي، وهذا يفيد أن النعم تقتضي من العبد فعل الخير وترك الشر.

﴿١٨﴾، ﴿١٩﴾ فلما جرى منه قتل الذي هو من عدوه؛ أصبح ﴿فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾: هل يشعر به آل فرعون أم لا؟ وإنما خاف لأنه قد علم أنه لا يتجرأ أحد على مثل هذه الحال سوى موسى من بني إسرائيل. فبينما هو على

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ
ٱلسَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ
ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ
قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا
شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ
رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا
تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ
أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ
لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا
يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ
(٢٦) قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن
تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ
وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ
قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨)

٣٨٨

تلك الحال؛ ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾: على عدوه. ﴿يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾: على قبطي آخر، ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ﴾: موبخًا له على حاله: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ (١٨)﴾؛ أي: بيِّنُ الغواية ظاهر الجراءة، ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ﴾: موسى ﴿بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾: أي له وللمخاصم المستصرخ لموسى؛ أي: لم يزل اللجاج بين القبطي والإسرائيلي، وهو يستغيث بموسى، فأخذته الحمية، حتى هم أن يبطش بالقبطي، فـ ﴿قَالَ﴾ له القبطي زاجرًا له عن قتله: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾: لأن من أعظم آثار الجبار في الأرض قتل النفس بغير حق. ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ (١٩)﴾: وإلا؛ فلو أردت الإصلاح؛ لَحُلْتَ بيني وبينه من غير قتل أحد. فانكف موسى عن قتله، وارعوى لوعظه وزجره.

(٢٠) وشاع الخبر بما جرى من موسى في هاتين القضيتين حتى تراود ملأ فرعون وفرعون على قتله، وتشاوروا على ذلك، فقيض الله ذلك الرجل الناصح، وبادرهم إلى الإخبار لموسى بما اجتمع عليه رأي ملئهم، فقال: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾؛ أي: ركضًا على قدميه من نصحه لموسى وخوفه أن يوقعوا به قبل أن يشعر، فقال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ﴾؛ أي: يتشاورون فيك؛ ﴿لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ﴾: عن المدينة ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ (٢٠)﴾: فامتثل نصحه.

(٢١) ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾: أن يوقَع به القتل، ودعا الله و﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢١)﴾: فإنه قد تاب من ذنبه، وفعله غضبًا من غير قصد منه للقتل؛ فتَوَعُّدُهُمْ له ظلم منهم وجراءة.

(٢٢) ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾؛ أي: قاصدًا بوجهه مدين، وهو جنوبي فلسطين؛ حيث لا ملك لفرعون، ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ (٢٢)﴾؛ أي: وسط الطريق المختصر الموصل إليها بسهولة ورفق. فهداه الله سواء السبيل، فوصل إلى مدين.

(٢٣) ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾: مواشيهم، وكانوا أهل ماشية كثيرة، ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾؛ أي: دون تلك الأمة ﴿ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾: غنمهما عن حياض الناس؛ لعجزهما عن مزاحمة الرجال، وبخلهم وعدم مروءتهم عن السقي لهما، ﴿قَالَ﴾: لهما موسى: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾؛ أي: ما شأنكما بهذه الحالة؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾؛ أي: قد جرت العادة أنه لا يحصل لنا سقي حتى يصدر الرعاء مواشيهم؛ فإذا خلا لنا الجو؛ سقينا، ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣)﴾؛ أي: لا قوة له على السقي، فليس فينا قوة نقتدر بها، ولا لنا رجال يزاحمون الرعاء.

(٢٤) فرق لهما موسى عليه السلام ورحمهما، ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾: غير طالب منهما الأجر، ولا له قصد غير وجه الله تعالى، فلما سقى لهما، وكان ذلك وقت شدة حر وسط النهار؛ بدليل قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾؛ مستريحًا لتلك الظلال بعد التعب، ﴿فَقَالَ﴾ في تلك الحالة مسترزقًا ربه: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)﴾؛ أي: إني مفتقر للخير الذي تسوقه إليَّ وتيسره لي، وهذا سؤال منه بحاله، والسؤال بالحال أبلغ من السؤال بلسان المقال.

(٢٥) فلم يزل في هذه الحالة داعيًا ربه متملقًا، وأما المرأتان؛ فذهبتا إلى أبيهما وأخبرتاه بما جرى، فأرسل أبوهما إحداهما

إلى موسى، فجاءته ﴿ تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾، وهذا يدل على كرم عنصرها وخلقها الحسن؛ فإن الحياء من الأخلاق الفاضلة، وخصوصًا في النساء، ويدل على أن موسى عليه السلام لم يكن فيما فعله من السقي لهما بمنزلة الأجير والخادم الذي لا يستحى منه عادة، وإنما هو عزيز النفس، رأت من حسن خلقه ومكارم أخلاقه ما أوجب لها الحياء منه، ﴿ قَالَتْ ﴾ له ﴿ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾؛ أي: لا ليمنَّ عليك، بل أنت الذي ابتدأتنا بالإحسان، وإنما قصده أن يكافئك على إحسانك، فأجابها موسى، ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ ﴾: من ابتداء السبب الموجب لهربه إلى أن وصل إليه، ﴿ قَالَ ﴾: له مسكنًا روعه جابرًا قلبه: ﴿ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾؛ أي: ليذهب خوفك وروعك؛ فإن الله نجاك منهم حيث وصلت إلى هذا المحل الذي ليس لهم عليه سلطان.

﴿٢٦﴾ ﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا ﴾؛ أي: إحدى ابنتيه: ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ﴾؛ أي: اجعله أجيرًا عندك يرعى الغنم ويسقيها، ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ ﴾؛ أي: إن موسى أولى من استؤجر؛ فإنه جمع القوة والأمانة، وخير أجير استؤجر من جمعهما؛ أي: القوة والقدرة على ما استؤجر عليه، والأمانة فيه بعدم الخيانة، وهذان الوصفان ينبغي اعتبارهما في كل من يتولى للإنسان عملًا بإجارة أو غيرها؛ فإن الخلل لا يكون إلا بفقدهما أو فقد إحداهما، وأما اجتماعهما؛ فإن العمل يتم ويكمل. وإنما قالت ذلك لأنها شاهدت من قوة موسى عند السقي لهما ونشاطه ما عرفت به قوته، وشاهدت من أمانته وديانته وأنه رحمهما في حالة لا يرجى نفعهما، وإنما قصده بذلك وجه الله تعالى.

﴿٢٧﴾ ﴿ قَالَ ﴾ صاحب مدين لموسى: ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ﴾؛ أي: تصير أجيرًا عندي ﴿ ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ ﴾؛ أي: ثماني سنين، ﴿ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ﴾: تبرع منك لا شيء واجب عليك. ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ﴾: فأحتم عشر السنين، أو ما أريد أن أستأجرك لأكلفك أعمالًا شاقة، وإنما استأجرتك لعمل سهل يسير لا مشقة فيه. ﴿ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾: فرغبه في سهولة العمل وفي حسن المعاملة، وهذا يدل على أن الرجل الصالح ينبغي له أن يحسن خلقه مهما أمكنه، وأن الذي يطلب منه أبلغ من غيره.

﴿٢٨﴾ ﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام مجيبًا له فيما طلب منه: ﴿ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ﴾؛ أي: هذا الشرط الذي أنت ذكرت رضيت به، وقد تم فيما بيني وبينك، ﴿ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ﴾: سواء قضيت الثماني الواجبة أم تبرعت بالزائد عليها، ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ﴾: حافظ يراقبنا ويعلم ما تعاقدنا عليه.

وهذا الرجل أبو المرأتين صاحب مدين ليس بشعيب النبي المعروف كما اشتهر عند كثير من الناس؛ فإن هذا قول لم يدل عليه دليل، وغاية ما يكون أن شعيبًا عليه السلام قد كانت بلده مدين، وهذه القضية جرت في مدين؛ فأين الملازمة بين الأمرين؟! وأيضًا؛ فإنه غير معلوم أن موسى أدرك زمان شعيب؛ فكيف بشخصه؟! ولو كان ذلك الرجل شعيبًا؛ لذكره الله تعالى، ولسمته المرأتان. وأيضًا؛ فإن شعيبًا عليه الصلاة والسلام قد أهلك الله قومه بتكذيبهم إياه، ولم يبق إلا من آمن به، وقد أعاذ الله المؤمنين به أن يرضوا لبنتي نبيهم بمنعهما عن الماء وصد ماشيتهما حتى يأتيهما رجل غريب فيحسن إليهما ويسقي ماشيتهما، وما كان شعيب ليرضى أن يرعى موسى عنده ويكون خادمًا له وهو أفضل منه وأعلى درجة؛ إلا أن يقال: هذا قبل نبوة موسى؛ فلا منافاة. وعلى كل حال؛ لا يعتمد على أنه شعيب النبي بغير نقل صحيح عن النبي ﷺ. والله أعلم.

﴿٢٩﴾ ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ ﴾: يحتمل أنه قضى الأجل الواجب أو الزائد عليه كما هو الظن بموسى ووفائه؛ اشتاق إلى الوصول إلى أهله ووالدته وعشيرته ووطنه، وظن من طول المدة أنهم قد تناسوا ما صدر منه. ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ﴾: قاصدًا مصر، ﴿ ءَانَسَ ﴾؛ أي: أبصر، ﴿ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾: وكان قد أصابهم البرد، وتاهوا الطريق.

﴿٣٠﴾ ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾: فأخبره بألوهيته وربوبيته، ويلزم من ذلك أن يأمره بعبادته وتألهه كما صرح به في الآية الأخرى، ﴿ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ ﴾ [طه: ١٤].

﴿٣١﴾ ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾: فألقاها، ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ ﴾: تسعى سعيًا شديدًا، ولها صورة مهيلة ﴿ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾: ذكر

۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ
ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم
مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ
(٢٩) فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ
ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ
ٱلْعَٰلَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا
جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ
مِنَ ٱلْءَامِنِينَ (٣١) ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ
غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ
بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟
قَوْمًا فَٰسِقِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ
أَن يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا
فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (٣٤)
قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا
يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ (٣٥)

الحيات العظيم، ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾؛ أي: يرجع لاستيلاء الروع على قلبه، فقال الله له: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ (٣١) ﴾: وهذا أبلغ ما يكون في التأمين وعدم الخوف؛ فإن قوله: ﴿ أَقْبِلْ ﴾: يقتضي الأمر بإقباله ويجب عليه الامتثال، ولكن قد يكون إقباله وهو لم يزل في الأمر المخوف، فقال: ﴿ وَلَا تَخَفْ ﴾: أمر له بشيئين: إقباله، وألَّا يكون في قلبه خوف. ولكن يبقى احتمال، وهو أنه قد يُقْبِلُ وهو غير خائف، ولكن لا تحصل له الوقاية والأمن من المكروه فقال: ﴿ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ (٣١) ﴾: فحينئذ اندفع المحذور من جميع الوجوه. فأقبل موسى عليه السلام غير خائف ولا مرعوب، بل مطمئنًّا واثقًا بخبر ربه، قد ازداد إيمانه وتم يقينه. فهذه آية أراه الله إياها قبل ذهابه إلى فرعون؛ فيكون على يقين تام، فيكون أجرأ له وأقوى وأصلب.

(٣٢) ثم أراه الآية الأخرى، فقال: ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ ﴾؛ أي: أدخلها ﴿ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾: فسلكها وأخرجها كما ذكر الله تعالى، ﴿ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ﴾؛ أي: ضم جناحك - وهو عضدك - إلى جنبك؛ ليزول عنك الرهب والخوف. ﴿ فَذَٰنِكَ ﴾؛ أي: انقلاب العصا حية وخروج اليد بيضاء من غير سوء ﴿ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ ﴾؛ أي: حجتان قاطعتان من الله ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ (٣٢) ﴾: فلا يكفيهم مجرد الإنذار وأمر الرسول إياهم، بل لا بد من الآيات الباهرة إن نفعت.

(٣٣)، (٣٤) فـ﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام معتذرًا من ربه وسائلًا له المعونة على ما حمله وذاكرًا له الموانع التي فيه ليزيل ربه ما يحذره منها: ﴿ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا ﴾؛ أي: ﴿ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا ﴾؛ أي: معاونًا ومساعدًا، ﴿ يُصَدِّقُنِىٓ ﴾ فإنه مع تضافر الأخبار يقوى الحق ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (٣٤) ﴾.

(٣٥) فأجابه الله إلى سؤاله، فقال: ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾؛ أي: نعاونك به ونقويك. ثم أزال عنه محذور القتل، فقال: ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا ﴾؛ أي: تسلطًا وتمكنًا من الدعوة بالحجة والهيبة الإلهية من عدوهما لهما؛ ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾: وذلك بسبب آياتنا وما دلت عليه من الحق وما أزعجت به من باشرها ونظر إليها؛ فهي التي بها حصل لكما السلطان، واندفع بها عنكم كيد عدوكم، وصارت لكم أبلغ من الجنود أولي العَدد والعُدد. ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ (٣٥) ﴾: وهذا وعد لموسى في ذلك الوقت، وهو وحده فريد، وقد رجع إلى بلده بعدما كان شريدًا، فلم تزل الأحوال تتطور والأمور تتنقل حتى أنجز له موعوده، ومكنه من العباد والبلاد، وصار له ولأتباعه الغلبة والظهور.

(٣٦) فذهب موسى برسالة ربه، ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ ﴾: واضحات الدلالة على ما قال لهم، ليس فيها قصور ولا خفاء، ﴿ قَالُوا۟ ﴾: على وجه الظلم والعلو والعناد: ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى ﴾؛ كما قال فرعون في تلك الحال التي ظهر فيها الحق، واستعلى على الباطل، واضمحل الباطل، وخضع له الرؤساء العارفون حقائق الأمور: ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ [طه: ٧١]! هذا؛ وهو الذكي غير الزكي، الذي بلغ من المكر والخداع والكيد

فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ
مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٦ وَقَالَ
مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ
لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٣٧ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ
لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ
إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣٨ وَٱسۡتَكۡبَرَ
هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا
لَا يُرۡجَعُونَ ٣٩ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي
ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠
وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ
لَا يُنصَرُونَ ٤١ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ
وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ٤٢ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا
مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ
بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٤٣

ما قصه الله علينا، وقد علم ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض، ولكن الشقاء غالب، ﴿ وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٦ ﴾: وقد كذبوا في ذلك؛ فإن الله أرسل يوسف قبل موسى؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ٣٤ ﴾ [غافر: ٣٤].

٣٧ ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ ﴾: حين زعموا أن الذي جاءهم به سحر وضلال، وأن ما هم عليه هو الهدى: ﴿ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ﴾؛ أي: إذا لم تفد المقابلة معكم وتبيين الآيات البينات وأبيتم إلا التمادي في غيكم واللجاج على كفركم؛ فالله تعالى العالم بالمهتدي وغيره ومن تكون له عاقبة الدار؛ نحن أم أنتم. ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٣٧ ﴾: فصار عاقبة الدار لموسى وأتباعه، والفلاح والفوز، وصار لأولئك الخسار وسوء العاقبة والهلاك.

٣٨ ﴿ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ﴾: متجرئًا على ربه ومموهًا على قومه السفهاء أخفاء العقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي ﴾؛ أي: أنا وحدي إلهكم ومعبودكم، ولو كان ثَمَّ إله غيري؛ لعلمته! فانظر إلى هذا الورع التام من فرعون؛ حيث لم يقل: ما لكم من إله غيري! بل تورع وقال: ما علمت لكم من إله غيري! وهذا لأنه عندهم العالم الفاضل، الذي مهما قال؛ فهو الحق، ومهما أمر؛ أطاعوه.

فلما قال هذه المقالة التي قد تحتمل أن ثم إلهًا غيره؛ أراد أن يحقق النفي الذي جعل فيه ذلك الاحتمال، فقال لهامان: ﴿ فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ ﴾: ليجعل له لبنًا من فخار، ﴿ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا ﴾؛ أي: بناء عاليًا؛ ﴿ لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣٨ ﴾ ولكن سنحقق هذا الظن ونريكم كذب موسى.

فانظر هذه الجراءة العظيمة على الله، التي ما بلغها آدمي! كذَّب موسى، وادعى أنه الله، ونفى أن يكون له علم بالإله الحق، وفعل الأسباب ليتوصل إلى إله موسى، وكل هذا ترويج. ولكن العجب من هؤلاء الملأ الذين يزعمون أنهم كبار المملكة المدبرون لشئونها؛ كيف لعب هذا الرجل بعقولهم، واستخف أحلامهم؟! وهذا لفسقهم الذي صار صفة راسخة فيهم؛ فسد دينهم، ثم تبع ذلك فساد عقولهم؛ فنسألك اللهم الثبات على الإيمان، وألَّا تزيغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وتهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

٣٩ قال تعالى: ﴿ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾: استكبروا على عباد الله، وساموهم سوء العذاب، واستكبروا على رسل الله وما جاءوهم به من الآيات، فكذبوها، وزعموا أن ما هم عليه أعلى منها وأفضل، ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ٣٩ ﴾: فلذلك تجرءوا، وإلا؛ فلو علموا أو ظنوا أنهم يرجعون إلى الله؛ لما كان منهم ما كان.

٤٠ ﴿ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ ﴾: عندما استمر عنادهم وبغيهم، ﴿ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠ ﴾: كانت أشر العواقب وأخسرها عاقبة، أعقبتها العقوبة الدنيوية المستمرة المتصلة بالعقوبة الأخروية.

(٤١) ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾؛ أي: جعلنا فرعون وملأه من الأئمة الذين يقتدى بهم، ويمشي خلفهم إلى دار الخزي والشقاء. ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ (٤١)﴾: من عذاب الله؛ فهم أضعف شيء عن دفعه عن أنفسهم، وليس لهم من دون الله من ولي ولا نصير.

(٤٢) ﴿وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ﴾؛ أي: وأتبعناهم زيادة في عقوبتهم وخزيهم في الدنيا لعنة يلعنون، ولهم عند الخلق الثناء القبيح والمقت والذم، وهذا أمر مشاهد؛ فهم أئمة الملعونين في الدنيا ومقدمتهم. ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ (٤٢)﴾: المبعدين، المستقذرة أفعالهم، الذين اجتمع عليهم مقت الله ومقت خلقه ومقت أنفسهم.

(٤٣) ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾: وهو التوراة ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ﴾: الذين كان خاتمتهم في الإهلاك العام فرعون وجنوده، وهذا دليل على أنه بعد نزول التوراة انقطع الهلاك العام، وشرع جهاد الكفار بالسيف؛ ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: كتاب الله الذي أنزله على موسى فيه بصائر للناس؛ أي: أمور يبصرون بها ما ينفعهم وما يضرهم، فتقوم الحجة على العاصي، وينتفع بها المؤمن، فتكون رحمة في حقه وهداية له إلى الصراط المستقيم، ولهذا قال: ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣)﴾.

(٤٤) ولما قص الله على رسوله ما قص من هذه الأخبار الغيبية؛ نبه العباد على أن هذا خبر إلهي محض، ليس للرسول طريق إلى علمه؛ إلا من جهة الوحي؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ﴾؛ أي: بجانب الطور الغربي، ﴿إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٤٤)﴾: على ذلك حتى يقال: إنه وصل إليك من هذا الطريق.

(٤٥) ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ﴾: فاندرس العلم ونسيت آياته، فبعثناك في وقت اشتدت الحاجة إليك وإلى ما علمناك وأوحينا إليك، ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا﴾؛ أي: مقيمًا، ﴿فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾؛ أي: تعلمهم وتتعلم منهم، حتى أخبرت بما أخبرت من شأن موسى في مدين. ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ (٤٥)﴾؛ أي: ولكن ذلك الخبر الذي جئت به

الجزء العشرون — سورة القصص

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٤٤) وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (٤٧) فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ (٤٨) قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (٤٩) فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٥٠)

٣٩١

عن موسى أثر من آثار إرسالنا إياك ووحي لا سبيل لك إلى علمه بدون إرسالنا.

(٤٦) ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا﴾: موسى وأمرناه أن يأتي القوم الظالمين ويبلغهم رسالتنا ويريهم من آياتنا وعجائبنا ما قصصنا عليك.

والمقصود أن الماجريات التي جرت لموسى عليه الصلاة والسلام في هذه الأماكن، فقصصتها كما هي من غير زيادة ولا نقص، لا يخلو من أحد أمرين: إما أن تكون حضرتها وشاهدتها، أو ذهبت إلى محالها فتعلمتها من أهلها؛ فحينئذ قد لا يدل ذلك على أنك رسول الله؛ إذ الأمور التي يُخْبَر بها عن شهادة ودراسة من الأمور المشتركة غير المختصة بالأنبياء، ولكن هذا قد علم وتُيُقِّنَ أنه ما كان وما صار؛ فأولياؤك وأعداؤك يعلمون عدم ذلك. فتعين الأمر الثاني، وهو أن هذا جاءك من قِبَل الله ووحيه وإرساله، فثبت بالدليل القطعي صحة رسالتك ورحمة الله بك للعباد، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ

قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ ﴾؛ أي: العرب وقريش؛ فإن الرسالة عندهم لا تعرف وقت إرسال الرسول وقبله بأزمان متطاولة، ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾: تفصيل الخير فيفعلونه، والشر فيتركونه. فإذا كنت بهذه المنزلة؛ كان الواجب عليهم المبادرة إلى الإيمان بك وشكر هذه النعمة التي لا يقادر قدرها ولا يدرك شكرها. وإنذاره للعرب لا ينفي أن يكون مرسلًا لغيرهم؛ فإنه عربي، والقرآن الذي نزل عليه عربي، وأول من باشر بدعوته العرب، فكانت رسالته لهم أصلًا ولغيرهم تبعًا؛ كما قال تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾ [يونس: ٢]، ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

﴿٤٧﴾ ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ﴾: من الكفر والمعاصي، فيقولوا[1]: ﴿رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾؛ أي: فأرسلناك يا محمد، لدفع حجتهم، وقطع مقالتهم.

﴿٤٨﴾ ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ ﴾: الذي لا شك فيه ﴿مِنۡ عِندِنَا ﴾: وهو القرآن الذي أوحيناه إليك، ﴿قَالُواْ﴾: مكذبين له ومعترضين بما ليس يعترض به: ﴿لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ ﴾؛ أي: أنزل عليه كتاب من السماء جملة واحدة؛ أي: فأما ما دام ينزل متفرقًا؛ فإنه ليس من عند الله، وأي دليل في هذا؟! وأي شبهة أنه ليس من عند الله حين نزل مفرقًا؟! بل من كمال هذا القرآن واعتناء الله بمن أنزل عليه أن نزل متفرقًا؛ ليثبت الله به فؤاد رسوله، ويحصل زيادة الإيمان للمؤمنين، ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: ٣٣]. وأيضًا؛ فإن قياسهم على كتاب موسى قياس قد نقضوه؛ فكيف يقيسونه على كتاب كفروا به ولم يؤمنوا؟! ولهذا قال: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا ﴾؛ أي: القرآن والتوراة تعاونا في سحرهما وإضلال الناس ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾: فثبت بهذا أن القوم يريدون إبطال الحق بما ليس ببرهان، وينقضونه بما لا ينقض، ويقولون الأقوال المتناقضة المختلفة، وهذا شأن كل كافر، ولهذا صرح أنهم كفروا بالكتابين والرسولين ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿٤٩﴾ ولكن هل كفرهم بهما طلبًا للحق واتباعًا لأمر عندهم خير منهما، أم مجرد هوًى؟! قال تعالى ملزمًا لهم بذلك: ﴿ قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ ﴾؛ أي: من التوراة والقرآن؛ ﴿أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾: ولا سبيل لهم ولا لغيرهم أن يأتوا بمثلهما؛ فإنه ما طرق العالم منذ خلقه الله مثل هذين الكتابين علمًا وهدى وبيانًا ورحمة للخلق، وهذا من كمال الإنصاف من الداعي أن قال: أنا مقصودي الحق والهدى والرشد، وقد جئتكم بهذا الكتاب المشتمل على ذلك الموافق لكتاب موسى؛ فيجب علينا جميعًا الإذعان لهما واتباعهما من حيث كونهما هدى وحقًّا؛ فإن جئتموني بكتاب من عند الله هو أهدى منهما؛ اتبعته، وإلا؛ فلا أترك هدى وحقًّا قد علمته لغير هدى وحق.

﴿٥٠﴾ ﴿ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ ﴾: فلم يأتوا بكتاب أهدى منهما، ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ ﴾؛ أي: فاعلم أن تركهم اتباعك ليسوا ذاهبين إلى حق يعرفونه ولا إلى هدى، وإنما ذلك مجرد اتباع لأهوائهم. ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ ﴾: فهذا من أضل الناس؛ حيث عرض عليه الهدى والصراط المستقيم الموصل إلى الله وإلى دار كرامته؛ فلم يلتفت إليه، ولم يقبل عليه، ودعاه هواه إلى سلوك الطرق الموصلة إلى الهلاك والشقاء، فاتبعه وترك الهدى؛ فهل أحد أضل ممن هذا وصفه؟! ولكن ظلمه وعدوانه وعدم محبته للحق هو الذي أوجب له أن يبقى على ضلاله ولا يهديه الله؛ فلهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾؛ أي: الذين صار الظلم لهم وصفًا والعناد لهم نعتًا، جاءهم الهدى فرفضوه، وعرض لهم الهوى فتبعوه، سدوا على أنفسهم أبواب الهداية وطرقها، وفتحوا عليهم أبواب الغواية وسبلها؛ فهم في غيهم وظلمهم يعمهون، وفي شقائهم وهلاكهم يترددون، وفي قوله: ﴿ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ ﴾: دليل على أن كل من لم يستجب للرسول، وذهب إلى قول مخالف لقول الرسول؛ فإنه لم يذهب إلى هدى، وإنما ذهب إلى هوى.

﴿٥١﴾ ﴿وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ ﴾؛ أي: تابعناه وواصلناه وأنزلناه شيئًا فشيئًا رحمة بهم ولطفًا؛ ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾: حين تتكرر عليهم آياته، وتنزل عليهم بيناته وقت الحاجة إليها، فصار نزوله متفرقًا رحمة بهم، فَلِمَ اعترضوا بما هو من مصالحهم؟!

---

(١) ع، ط: «فقالوا».

فصل في ذكر بعض الفوائد والعبر في هذه القصة العجيبة

فمنها: أن آيات الله تعالى وعبره وأيامه في الأمم السابقة إنما يستفيد بها ويستنير المؤمنون؛ فعلى حسب إيمان العبد تكون عبرته، وأن الله تعالى إنما يسوق القصص لأجلهم، وأما غيرهم؛ فلا يعبأ الله بهم، وليس لهم منها نور وهدى.

ومنها: أن الله تعالى إذا أراد أمرًا؛ هيأ أسبابه، وأتى بها شيئًا فشيئًا بالتدريج لا دفعة واحدة.

ومنها: أن الأمة المستضعفة، ولو بلغت في الضعف ما بلغت، لا ينبغي لها أن يستولي عليها الكسل عن طلب حقها، ولا الإياس من ارتقائها إلى أعلى الأمور، خصوصًا إذا كانوا مظلومين؛ كما استنقذ الله أمة بني إسرائيل الأمة الضعيفة من أسر فرعون وملئه، ومكنهم في الأرض، وملكهم بلادهم.

ومنها: أن الأمة ما دامت ذليلة مقهورة، لا تأخذ حقها، ولا تتكلم به لا يقوم لها أمر دينها ولا دنياها، ولا يكون لها إمامة فيه.

ومنها: لطف الله بأم موسى وتهوينه عليها المصيبة بالبشارة بأن الله سيرد إليها ابنها، ويجعله من المرسلين.

ومنها: أن الله يُقدِّر على عبده بعض المشاق لينيله سرورًا أعظم من ذلك، أو يدفع عنه شرًّا أكثر منه؛ كما قدر على أم موسى ذلك الحزن الشديد والهم البليغ الذي هو وسيلة إلى أن يصل إليها ابنها على وجه تطمئن به نفسها، وتقرُّ به عينها، وتزداد به غبطة وسرورًا.

ومنها: أن الخوف الطبيعي من الخلق لا ينافي الإيمان ولا يزيله؛ كما جرى لأم موسى، ولموسى من تلك المخاوف.

ومنها: أن الإيمان يزيد وينقص، وأن من أعظم ما يزيد به الإيمان، ويتم به اليقين؛ الصبر عند المزعجات، والتثبيت من الله عند المقلقات؛ كما قال تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠﴾؛ أي: ليزداد إيمانها بذلك، ويطمئن قلبها.

ومنها: أن من أعظم نعم الله على عبده وأعظم معونة للعبد على أموره تثبيت الله إياه وربط جأشه وقلبه عند المخاوف وعند الأمور المذهلة؛ فإنه بذلك يتمكن من القول الصواب والفعل الصواب؛ بخلاف من استمر قلقه وروعه وانزعاجه؛ فإنه يضيع فكره، ويذهل عقله؛ فلا ينتفع بنفسه في تلك الحال.

ومنها: أن العبد ولو عرف أن القضاء والقدر ووعد الله نافذ لا بد منه؛ فإنه لا يهمل فعل الأسباب التي أمر بها، ولا يكون ذلك منافيًا لإيمانه بخبر الله؛ فإن الله قد وعد أم موسى أن يرده عليها، ومع ذلك اجتهدت في رده، وأرسلت أخته لتقصه وتطلبه.

ومنها: جواز خروج المرأة في حوائجها وتكليمها للرجال من غير محذور كما جرى لأخت موسى وابنتي صاحب مدين.

ومنها: جواز أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع والدلالة على من يفعل ذلك.

ومنها: أن الله من رحمته بعبده الضعيف الذي يريد إكرامه أن يريه من آياته ويشهده من بيناته ما يزيد به إيمانه؛ كما رد الله موسى على أمه؛ لتعلم أن وعد الله حق.

ومنها: أن قتل الكافر الذي له عهد بعقد أو عرف لا يجوز؛ فإن موسى عليه السلام عد قتله القبطي الكافر ذنبًا، واستغفر الله منه.

ومنها: أن الذي يقتل النفوس بغير حق؛ يعد من الجبارين الذين يفسدون في الأرض.

ومنها: أن من قتل النفوس بغير حق، وزعم أنه يريد الإصلاح في الأرض وتهييب أهل المعاصي؛ فإنه كاذب في ذلك، وهو مفسد؛ كما حكى الله قول القبطي: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ۝١٩﴾: على وجه التقرير له لا الإنكار.

ومنها: أن إخبار الرجل غيره بما قيل فيه على وجه التحذير له من شر يقع فيه؛ لا يكون ذلك نميمة، بل قد يكون واجبًا؛ كما أخبر ذلك الرجل لموسى ناصحًا له ومحذرًا.

ومنها: أنه إذا خاف القتل والتلف في الإقامة؛ فإنه لا يلقي بيده إلى التهلكة، ولا يستسلم لذلك، بل يذهب عنه كما فعل موسى.

ومنها: أنه عند تزاحم المفسدتين؛ إذا كان لا بد من ارتكاب إحداهما؛ فإنه يرتكب الأخف منهما الأسلم؛ كما أن موسى لما دار الأمر بين بقائه في مصر ولكنه يقتل، أو يذهب إلى

بعض البلدان البعيدة التي لا يعرف الطريق إليها، وليس معه دليل يدله غير ربه، ولكن هذه الحالة أرجى للسلامة من الأولى، فتبعها موسى.

ومنها: أن الناظر في العلم عند الحاجة إلى التكلم فيه إذا لم يترجح عنده أحد القولين؛ فإنه يستهدي ربه، ويسأله أن يهديه الصواب من القولين بعد أن يقصد بقلبه الحق ويبحث عنه؛ فإن الله لا يخيب من هذه حاله؛ كما خرج موسى تلقاء مدين، فقال: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾.

ومنها: أن الرحمة بالخلق والإحسان على من يعرف ومن لا يعرف من أخلاق الأنبياء، وأن من الإحسان سقي الماشية الماء وإعانة العاجز.

ومنها: استحباب الدعاء بتبيين الحال وشرحها، ولو كان الله عالمًا بها؛ لأنه تعالى يحب تضرع عبده وإظهار ذله ومسكنته؛ كما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾.

ومنها: أن الحياء - خصوصًا من الكرام - من الأخلاق الممدوحة.

ومنها: المكافأة على الإحسان لم يزل دأب الأمم السابقين.

ومنها: أن العبد إذا فعل العمل لله تعالى، ثم حصل له مكافأة عليه من غير قصد بالقصد الأول؛ فإنه لا يلام على ذلك؛ كما قبل موسى مجازاة صاحب مدين عن معروفه الذي لم يبتغ له، ولم يستشرف بقلبه على عوض.

ومنها: مشروعية الإجارة، وأنها تجوز على رعاية الغنم ونحوها مما لا يُقدَّر به العمل، وإنما مرده العرف.

ومنها: أنه تجوز الإجارة بالمنفعة، ولو كانت المنفعة بضعًا.

ومنها: أن خطبة الرجل لابنته الرجل الذي يتخيره لا يلام عليه.

ومنها: أن خير أجير وعامل يعمل للإنسان أن يكون قويًا أمينًا.

ومنها: أن من مكارم الأخلاق أن يحسِّن خُلُقه لأجيره وخادمه، ولا يشق عليه بالعمل؛ لقوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

ومنها: جواز عقد الإجارة وغيرها من العقود من دون إشهاد؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾.

ومنها: ما أجرى الله على يد موسى من الآيات البينات والمعجزات الظاهرة من الحية وانقلاب يده بيضاء من غير سوء ومن عصمة الله لموسى وهارون من فرعون ومن الغرق.

ومنها: أن من أعظم العقوبات أن يكون الإنسان إمامًا في الشر، وذلك بحسب معارضته لآيات الله وبيناته؛ كما أن من أعظم نعمة أنعم الله بها على عبده، أن يجعله إمامًا في الخير هاديًا مهديًا.

ومنها: ما فيها من الدلالة على رسالة محمد ﷺ؛ حيث أخبر بذلك تفصيلًا مطابقًا وتأصيلًا موافقًا قصه قصًا صدَّق به المرسلين وأيد به الحق المبين، من غير حضور شيء من تلك الوقائع، ولا مشاهدة لموضع واحد من تلك المواضع، ولا تلاوةِ درس فيها شيئًا من هذه الأمور، ولا مجالسة أحد من أهل العلم، إن هو إلا رسالة الرحيم الرحمن، ووحي أنزله عليه الكريم المنان؛ لينذر به قومًا جاهلين، وعن النُّذر والرسل غافلين؛ فصلوات الله وسلامه على من مجرد خبره ينبئ أنه رسول الله، ومجرد أمره ونهيه ينبه العقول النيرة أنه من عند الله؛ كيف وقد تطابق على صحة ما جاء به وصدقِه، خبرُ الأولين والآخرين، والشرع الذي جاء به من رب العالمين، وما جبل عليه من الأخلاق الفاضلة التي لا تناسب ولا تصلح إلا لأعلى الخلق درجة، والنصر المبين لدينه وأمته، حتى بلغ دينه مبلغ الليل والنهار، وفتحت أمته معظم بلدان الأمصار بالسيف والسنان وقلوبهم بالعلم والإيمان، ولم تزل الأمم المعاندة والملوك الكفرة المتعاضدة ترميه بقوس واحدة وتكيد له المكايد وتمكر لإطفائه وإخفائه وإخماده من الأرض، وهو قد بهرها وعلاها، لا يزداد إلا نموًّا، ولا آياته وبراهينه إلا ظهورًا، وكل وقت من الأوقات يظهر من آياته ما هو عبرة للعالمين، وهداية للعالمين، ونورًا وبصيرة للمتوسمين. والحمد لله وحده.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾
وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ
مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ
بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ
ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ
عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿٥٢﴾ يذكر تعالى عظمة القرآن وصدقه وحقه، وأن أهل العلم بالحقيقة يعرفونه، ويؤمنون به، ويقرون بأنه الحق، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ ﴾: وهم أهل التوراة والإنجيل، الذين لم يغيروا ولم يبدلوا، ﴿ هُم بِهِۦ ﴾؛ أي: بهذا القرآن ومن جاء به ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿٥٣﴾ ﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾: استمعوا له وأذعنوا، و﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ ﴾: لموافقته ما جاءت به الرسل، ومطابقته لما ذكر في الكتب، واشتماله على الأخبار الصادقة والأوامر والنواهي الموافقة لغاية الحكمة، وهؤلاء الذين تفيد شهادتهم وينفع قولهم؛ لأنهم لا يقولون ما يقولون إلا عن علم وبصيرة؛ لأنهم أهل الخبرة وأهل الكتب، وغيرهم لا يدل ردهم ومعارضتهم للحق على شبهة فضلًا عن الحجة؛ لأنهم ما بين جاهل فيه أو متجاهل معاند للحق؛ قال تعالى: ﴿ قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الإسراء: ١٠٧] الآيات، وقوله: ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾: فلذلك ثبتنا على ما من الله به علينا من الإيمان والإسلام، فصدقنا بهذا القرآن، آمنا بالكتاب الأول والكتاب الآخر، وغيرنا ينقض تكذيبه بهذا الكتاب إيمانه بالكتاب الأول.

﴿٥٤﴾ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾: الذين آمنوا بالكتابين ﴿ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾: أجرًا على الإيمان الأول، وأجرًا على الإيمان الثاني؛ ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾: على الإيمان، وثبتوا على العمل، فلم تزعزعهم عن ذلك شبهة، ولا ثناهم عن الإيمان رياسة ولا شهوة. ومن خصالهم الفاضلة التي هي من آثار إيمانهم الصحيح أنهم يدرءون ﴿ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾؛ أي: دأبهم وطريقتهم الإحسان لكل أحد، حتى للمسيء إليهم بالقول والفعل؛ يقابلونه بالقول الحميد والفعل الجميل؛ لعلمهم بفضيلة هذا الخلق العظيم، وأنه لا يوفق له إلا ذو حظ عظيم.

الجزء العشرون — سورة القصص

۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ
ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ
قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾
أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ
ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ
أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ
لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ
ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓاْ إِن
نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ
حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ
بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ
إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ
ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَمَا
كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾

٣٩٢

﴿٥٥﴾ ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ ﴾: من جاهل خاطبهم به، ﴿ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ ﴾: مقالة عباد الرحمن أولي الألباب: ﴿ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾؛ أي: كل سيجازى بعمله الذي عمله وحده، ليس عليه من وزر غيره شيء، ولزم من ذلك أنهم يتبرءون مما عليه الجاهلون من اللغو والباطل والكلام الذي لا فائدة فيه. ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾؛ أي: لا تسمعون منا إلا الخير، ولا نخاطبكم بمقتضى جهلكم؛ فإنكم وإن رضيتم لأنفسكم هذا المرتع اللئيم؛ فإنا ننزه أنفسنا عنه ونصونها عن الخوض فيه، ﴿ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾: من كل وجه.

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿٥٦﴾ يخبر تعالى أنك يا محمد - وغيرك من باب أولى - لا تقدر على هداية أحد، ولو كان من أحب الناس إليك؛ فإن هذا أمر غير مقدور للخلق؛ هداية التوفيق وخلق الإيمان في القلب، وإنما ذلك بيد الله تعالى؛ يهدي من يشاء وهو أعلم بمن يصلح للهداية فيهديه ممن لا يصلح لها فيبقيه على

ضلاله. وأما إثبات الهداية للرسول في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشورى: ٥٢]: فتلك هداية البيان والإرشاد؛ فالرسول يبين الصراط المستقيم، ويرغب فيه، ويبذل جهده في سلوك الخلق له، وأما كونه يخلق في قلوبهم الإيمان، ويوفقهم بالفعل؛ فحاشا وكلَّا، ولهذا لو كان قادرًا عليها؛ لهدى من وصل إليه إحسانه ونصره ومنعه من قومه؛ عمه أبا طالب، ولكنه أوصل إليه من الإحسان بالدعوة له للدين والنصح التام ما هو أعظم مما فعله معه عمه، ولكن الهداية بيد الله.

﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ
أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ
رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧ وَكَمْ
أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ
لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥٨
وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟
عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا
ظَٰلِمُونَ ۝٥٩﴾.

(٥٧) يخبر تعالى أن المكذبين من قريش وأهل مكة يقولون للرسول ﷺ: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾: بالقتل والأسر ونهب الأموال؛ فإن الناس قد عادوك وخالفوك؛ فلو تابعناك؛ لتعرضنا لمعاداة الناس كلهم، ولم يكن لنا بهم طاقة. وهذا الكلام منهم يدل على سوء الظن بالله تعالى، وأنه لا ينصر دينه ولا يعلي كلمته، بل يمكن الناس من أهل دينه، فيسومونهم سوء العذاب، وظنوا أن الباطل سيعلو على الحق. قال الله مبينًا لهم حالة هم بها دون الناس وأن الله اختصهم بها، فقال: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾؛ أي: أولم نجعلهم متمكنين ممكنين في حرم يكثره المتنابون ويقصده الزائرون، قد احترمه القريب والبعيد؛ فلا يهاج أهله، ولا ينتقصون بقليل ولا كثير، والحال أن كل ما حولهم من الأماكن قد حف بها الخوف من كل جانب، وأهلها غير آمنين ولا مطمئنين؛ فليحمدوا ربهم على هذا الأمن التام الذي ليس فيه غيرهم، وعلى الرزق الكثير الذي يجبى إليهم من كل مكان من الثمرات والأطعمة والبضائع ما به يرتزقون ويتوسعون، وليتبعوا هذا الرسول الكريم؛ ليتم لهم الأمن والرغد، وإياهم وتكذيبه والبطر بنعمة الله؛ فَيُبَدَّلُوا من بعد أمنهم خوفًا، وبعد عزهم ذلًّا، وبعد غناهم فقرًا.

(٥٨) ولهذا توعدهم بما فعل بالأمم قبلهم، فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾؛ أي: فخرت بها وألهتها واشتغلت بها عن الإيمان بالرسل، فأهلكهم الله، وأزال عنهم النعمة، وأحل بهم النقمة، ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ لتوالي الهلاك والتلف عليهم وإيحاشها من بعدهم، ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥٨﴾: للعباد؛ نميتهم ثم يرجع إلينا جميع ما متعناهم به من النعم، ثم نعيدهم إلينا، فنجازيهم بأعمالهم.

(٥٩) ومن حكمته ورحمته ألَّا يعذب الأمم بمجرد كفرهم قبل إقامة الحجة عليهم بإرسال الرسل إليهم، ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾؛ أي: بكفرهم وظلمهم؛ ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾؛ أي: في القرية والمدينة التي إليها يرجعون، ونحوها يترددون، وكل ما حولها ينتجعها، ولا تخفى عليه أخبارها، ﴿رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾: الدالة على صحة ما جاء به وصدق ما دعاهم إليه، فيبلغ قوله قاصيهم ودانيهم؛ بخلاف بعث الرسل في القرى البعيدة والأطراف النائية؛ فإن ذلك مظنة الخفاء والجفاء، والمدن الأمهات مظنة الظهور والانتشار، وفي الغالب أنهم أقل جفاء من غيرهم، ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ۝٥٩﴾: بالكفر والمعاصي، مستحقون للعقوبة. والحاصل أن الله لا يعذب أحدًا إلا بظلمه وإقامة الحجة عليه.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا
عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٠ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا
حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝٦١﴾.

(٦٠) هذا حض منه تعالى لعباده على الزهد في الدنيا وعدم الاغترار بها، وعلى الرغبة في الأخرى وجعلها مقصود العبد ومطلوبه، ويخبرهم أن جميع ما أوتيه الخلق من الذهب والفضة والحيوانات والأمتعة والنساء والبنين والمآكل والمشارب واللذات كلها متاع الحياة الدنيا وزينتها؛ أي: يُتَمَتَّعُ به وقتًا قصيرًا متاعًا قاصرًا محشوًّا بالمنغصات ممزوجًا بالغصص، ويتزين به زمانًا يسيرًا للفخر والرياء، ثم يزول ذلك سريعًا، وينقضي جميعًا، ولم يستفد صاحبه

منه إلا الحسرة والندم والخيبة والحرمان، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾: من النعيم المقيم والعيش السليم ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾؛ أي: أفضل في وصفه وكميته، وهو دائم أبدًا ومستمر سرمدًا، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٠﴾؛ أي: أفلا تكون لكم عقول بها تزنون؛ أي الأمرين أولى بالإيثار؟! وأي الدارين أحق للعمل لها؟! فدل ذلك أنه بحسب عقل العبد يؤثر الأخرى على الدنيا، وأنه ما آثر أحد الدنيا إلا لنقص في عقله.

﴿٦١﴾ ولهذا نبه العقول على الموازنة بين عاقبة مؤثر الدنيا ومؤثر الآخرة، فقال: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾؛ أي: هل يستوي مؤمن، ساعٍ للآخرة سعيها، قد عمل على وعد ربه له بالثواب الحسن الذي هو الجنة وما فيها من النعيم العظيم؛ فهو لاقيه من غير شك ولا ارتياب؛ لأنه وعد من كريم صادق الوعد لا يخلف الميعاد لعبد قام بمرضاته وجانب سخطه؛ ﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فهو يأخذ فيها ويعطي، ويأكل ويشرب، ويتمتع كما تتمتع البهائم، قد اشتغل بدنياه عن آخرته، ولم يرفع بهدى الله رأسًا، ولم ينقد للمرسلين؛ فهو لا يزال كذلك؛ لا يتزود من دنياه إلا الخسار والهلاك. ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝٦١﴾: للحساب، وقد عُلِمَ أنه لم يقدم خيرًا لنفسه، وإنما قدم جميع ما يضره، وانتقل إلى دار الجزاء بالأعمال؛ فما ظنكم إلام يصير إليه؟! وما تحسبون ما يصنع به؟! فليختر العاقل لنفسه ما هو أولى بالاختيار وأحق الأمرين بالإيثار.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٦٢ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ۝٦٣ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ۝٦٤ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦٥ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ۝٦٦﴾.

﴿٦٢﴾، ﴿٦٣﴾ هذا إخبار من الله تعالى عما يسأل عنه الخلائق يوم القيامة، وأنه يسألهم عن أصول الأشياء؛ عن عبادة الله، وإجابة رسله، فقال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾؛ أي: ينادي من أشركوا به شركاء يعبدونهم ويرجون نفعهم ودفع الضرر عنهم، فيناديهم ليبين لهم عجزها وضلالهم، ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾: وليس لله شريك، ولكن ذلك بحسب زعمهم

الجزء العشرون — سورة القصص

وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ
ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٠ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا
فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝٦١ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ
كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٦٢ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ
ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا
يَعْبُدُونَ ۝٦٣ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟
لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ۝٦٤ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ
فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦٥ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ
يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ۝٦٦ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ
صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ۝٦٧ وَرَبُّكَ
يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ
ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٨ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ
صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٦٩ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ
ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٧٠

٣٩٣

وافترائهم، ولهذا قال: ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٦٢﴾: فأين هم بذواتهم؟! وأين نفعهم؟! وأين دفعهم؟! ومن المعلوم أنه يتبين لهم في تلك الحال أن الذي عبدوه ورجوه باطل مضمحل في ذاته وما رجوا منه، فيقرون على أنفسهم بالضلالة والغواية، ولهذا ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾: من الرؤساء والقادة في الكفر والشر؛ مقرين بغوايتهم وإغوائهم: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾: التابعون ﴿ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾؛ أي: كلنا قد اشترك في الغواية وحق عليه كلمة العذاب، ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾: من عبادتهم؛ أي: نحن برآء منهم ومن عملهم. ﴿مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ۝٦٣﴾: وإنما كانوا يعبدون الشياطين.

﴿٦٤﴾ ﴿وَقِيلَ﴾ لهم: ﴿ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾: على ما أملتم فيهم من النفع، فأمروا بدعائهم في ذلك الوقت الحرج الذي يضطر فيه العابد إلى من عبده، ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾: لينفعوهم أو يدفعوا عنهم من عذاب الله من شيء، ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾: فعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين مستحقين للعقوبة،

﴿ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾: الذي سيحل بهم عيانًا بأبصارهم بعدما كانوا مكذبين به منكرين له؛ ﴿ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾؛ أي: لما حصل عليهم ما حصل، ولهدوا إلى صراط الجنة كما اهتدوا في الدنيا، ولكن لم يَهتدوا، فلم يُهتدوا.

﴿٦٥﴾، ﴿٦٦﴾ ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾: هل صدقتموهم واتبعتموهم؟ أم كذبتموهم وخالفتموهم؟ ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾؛ أي: لم يحيروا عن هذا السؤال جوابًا، ولم يهتدوا إلى الصواب، ومن المعلوم أنه لا ينجي في هذا الموضع إلا التصريح بالجواب الصحيح المطابق لأحوالهم من أننا أجبناهم بالإيمان والانقياد، ولكن لما علموا تكذيبهم لهم وعنادهم لأمرهم؛ لم ينطقوا بشيء، ولا يمكن أن يتساءلوا، ويتراجعوا بينهم في ماذا يجيبون به، ولو كان كذبًا.

﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿٦٧﴾ لما ذكر تعالى سؤال الخلق عن معبودهم وعن رسلهم؛ ذكر الطريق الذي ينجو به العبد من عقاب الله تعالى، وأنه لا نجاة إلا لمن اتَّصَفَ بالتوبة من الشرك والمعاصي، وآمن بالله فعبده، وآمن برسله فصدقهم، وعمل صالحًا متبعًا فيه للرسل. ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ ﴾: من جمع هذه الخصال ﴿ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾: الناجحين بالمطلوب، الناجين من المرهوب؛ فلا سبيل إلى الفلاح بدون هذه الأمور.

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿٦٨﴾ - ﴿٧٠﴾ هذه الآيات فيها عموم خلقه لسائر المخلوقات، ونفوذ مشيئته بجميع البريات، وانفراده باختيار من يختاره ويختصه من الأشخاص والأوامر والأزمان والأماكن، وأن أحدًا ليس له من الأمر والاختيار شيء، وأنه تعالى منزه عن كل ما يشركون به من الشريك والظهير والعوين والولد والصاحبة ونحو ذلك مما أشرك به المشركون، وأنه العالم بما أكنته الصدور وما أعلنوه، وأنه وحده المعبود المحمود في الدنيا والآخرة على ما له من صفات الجلال والجمال، وعلى ما أسداه إلى خلقه من الإحسان والإفضال، وأنه هو الحاكم في الدارين؛ في الدنيا بالحكم القدري الذي أثره جميع ما خلق وذرأ، والحكم الديني الذي أثره جميع الشرائع والأوامر والنواهي. وفي الآخرة يحكم بحكمه القدري والجزائي، ولهذا قال: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾: فيجازي كلًّا منكم بعمله من خير وشر.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

﴿٧١﴾ - ﴿٧٣﴾ هذا امتنان من الله على عباده؛ يدعوهم به إلى شكره والقيام بعبوديته وحقه أن جعل لهم من رحمته النهار ليبتغوا من فضل الله وينتشروا لطلب أرزاقهم ومعايشهم في ضيائه، والليل ليهدءوا فيه ويسكنوا وتستريح أبدانهم وأنفسهم من تعب التصرف في النهار؛ فهذا من فضله ورحمته بعباده؛ فهل أحد يقدر على شيء من ذلك، وإن جعل الله ﴿ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ ﴾: مواعظ الله وآياته سماع فهم وقبول وانقياد، و﴿ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾: مواقع العبر ومواضع الآيات فتستنير بصائركم وتسلكوا الطريق المستقيم، وقال في الليل: ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ ﴾، وفي النهار: ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾؛ لأن سلطان السمع في الليل أبلغ من سلطان البصر، وعكسه النهار.

وفي هذه الآيات تنبيه إلى أن العبد ينبغي له أن يتدبر نعم الله عليه، ويستبصر فيها، ويقيسها بحال عدمها؛ فإنه إذا وازن بين حالة وجودها وبين حالة عدمها؛ تنبه عقله لموضع المنة؛ بخلاف من جرى مع العوائد، ورأى أن هذا أمر لم

يزل مستمرًّا ولا يزال، وعمي قلبه عـن الثناء على الله بنعمه ورؤية افتقـاره إليها في كل وقت؛ فإن هذا لا يحدث له فكرة شكر ولا ذكر.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿٧٤﴾، ﴿٧٥﴾ أي: ويـوم ينـادي اللـه المشـركين بـه العادلين بـه غيره، الذيـن يزعمـون أن لـه شـركاء يستحقون أن يعبـدوا، وينفعـون، ويضـرون؛ فـإذا كان يـوم القيامة؛ أراد اللـه أن يظهـر جراءتهـم وكذبهـم فـي زعمهـم وتكذيبهـم لأنفسـهم؛ فـ ﴿يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾؛ أي: بزعمهـم لا بنفس الأمـر؛ كما قال: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [يونس: ٦٦]، فـإذا حضـروا هم وإياهـم؛ نـزع اللـه ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾: مـن الأمـم المكذبة ﴿شَهِيدًا﴾: يشـهد علـى مـا جرى فـي الدنيا من شـركهم واعتقادهـم، وهـؤلاء بمنزلـة المنتخبيـن؛ أي: انتخبنـا مـن رؤسـاء المكذبيـن من يتصـدى للخصومة عنهـم والمجادلة عـن إخوانهم، وهم على طريق واحد؛ فإذا برزوا للمحاكمة، ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾: حجتكـم ودليلكـم علـى صحـة شـرككم؛ هـل أمرناكـم بذلـك؟ هـل أمرتكـم رسـلي؟ هل وجدتم ذلك في شـيء من كتبي؟ هل فيهم أحد يستحق شيئًا مـن الإلهية؟ هل ينفعونكم أو يدفعـون عنكم من عذاب الله أو يغنـون عنكم؟ فليفعلوا إذًا إن كان فيهم أهلية وليروكم إن كان لهـم قـدرة، ﴿فَعَلِمُوٓا۟﴾: حينئذ بطلان قولهم وفساده، و﴿أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾: تعالـى، قـد توجهـت عليهـم الخصومـة وانقطعـت حجتهـم وأفلجـت حجـة اللـه، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾: مـن الكـذب والإفـك؛ اضمحـل وتلاشى وعدم، وعلموا أن الله قد عدل فيهم؛ حيث لم يضع العقوبة إلا بمن استحقها واستأهلها.

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾

﴿٧٦﴾ يخبـر تعالـى عن حالـة قارون ومـا فَعـل وفُعل به ونصـح ووعـظ، فقـال: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾؛ أي: مـن بنـي إسـرائيل، الذيـن فضلـوا علـى العالمين وفاقوهم في زمانهم، وامتن الله عليهم بما امتن به، فكانت حالهم مناسـبة للاسـتقامة، ولكـن قارون هذا انحرف عن سـبيل قومه ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، وطغى بما أوتيه مـن الأموال العظيمـة المطغيـة، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾؛ أي: كنـوز الأمـوال شـيئًا كثيـرًا، ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾: والعصبة من العشـرة إلى التسعة إلى السبعة ونحو ذلك؛ أي: حتى إن مفاتح خزائن أمواله تُثقل الجماعة القوية عن حملها؛ هذه المفاتيح؛ فما ظنك بالخزائـن؟! ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾: ناصحين له محذرين له عـن الطغيـان: ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾؛ أي: لا تفـرح بهـذه الدنيا العظيمة، وتفتخـر بها، وتلهيك عـن الآخرة؛ فإن الله لا يحـب الفرحين بها المكبين على محبتها.

قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ
مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ
وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ
فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا
مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ
وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا
بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ
ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟
مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن
يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ
وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا
لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ
﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا
يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

﴿٧٧﴾ ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾؛ أي: قد حصل عندك من وسائل الآخرة ما ليس عند غيرك من الأموال، فابتغ بها ما عند الله، وتصدق، ولا تقتصر على مجرد نيل الشهوات وتحصيل اللذات، ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: لا نأمرك أن تتصدق بجميع مالك وتبقى ضائعًا، بل أنفق لآخرتك واستمتع بدنياك استمتاعًا لا يثلم دينك ولا يضر بآخرتك، ﴿وَأَحْسِن﴾: إلى عباد الله ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ بهذه الأموال، ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: بالتكبر والعمل بمعاصي الله والاشتغال بالنعم عن المنعم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾: بل يعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

﴿٧٨﴾ ﴿قَالَ﴾ قارون رادًّا لنصيحتهم كافرًا لنعمة ربه: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾؛ أي: إنما أدركت هذه الأموال بكسبي ومعرفتي بوجوه المكاسب وحذقي. أو: على علم من الله بحالي؛ يعلم أني أهل لذلك؛ فلم تنصحوني على ما أعطاني الله؟! قال تعالى مبينًا أن عطاءه ليس دليلًا على حسن حالة المعطى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾: فما المانع من إهلاك قرون أخرى مع مضي عادتنا وسنتنا بإهلاك من هو مثله وأعظم منه إذا فعل ما يوجب الهلاك؟! ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾: بل يعاقبهم الله ويعذبهم على ما يعلمه منهم؛ فهم وإن أثبتوا لأنفسهم حالة حسنة وشهدوا لها بالنجاة؛ فليس قولهم مقبولًا، وليس ذلك رادًّا عنهم من العذاب شيئًا؛ لأن ذنوبهم غير خفية؛ فإنكارهم لها لا محل له.

﴿٧٩﴾ فلم يزل قارون مستمرًّا على عناده وبغيه وعدم قبول نصيحة قومه، فرحًا بطرًا، قد أعجبته نفسه وغره ما أوتيه من الأموال، ﴿فَخَرَجَ﴾ ذات يوم ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾؛ أي: بحالة أرفع ما يكون من أحوال دنياه، قد كان له من الأموال ما كان، وقد استعد وتجمل بأعظم ما يمكنه، وتلك الزينة في العادة من مثله تكون هائلة، جمعت زينة الدنيا وزهرتها وبهجتها وغضارتها وفخرها، فرمقته في تلك الحالة العيون، وملأت بزته القلوب، واختلبت زينته النفوس، فانقسم فيه الناظرون قسمين، كل تكلم بحسب ما عنده من الهمة والرغبة، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: الذين تعلقت إرادتهم فيها، وصارت منتهى رغبتهم، ليس لهم إرادة في سواها: ﴿يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ﴾: من الدنيا ومتاعها وزهرتها، ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾: وصدقوا إنه لذو حظ عظيم لو كان الأمر منتهيًا إلى رغباتهم وإنه ليس وراء الدنيا دار أخرى؛ فإنه قد أعطي منها ما به غاية التنعم بنعيم الدنيا، واقتدر بذلك على جميع مطالبه، فصار هذا الحظ العظيم بحسب همتهم، وإن همة جعلت هذا غاية مرادها ومنتهى مطلبها؛ لمن أدنى الهمم وأسفلها وأدناها، وليس لها أدنى صعود إلى المرادات العالية والمطالب الغالية.

﴿٨٠﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾: الذين عرفوا حقائق الأشياء ونظروا إلى باطن الدنيا حين نظر أولئك إلى ظاهرها: ﴿وَيْلَكُمْ﴾: متوجعين مما تمنوا لأنفسهم، راثين لحالهم، منكرين لمقالهم، ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾: العاجل من لذة العبادة ومحبته والإنابة إليه والإقبال عليه، والآجل من الجنة وما فيها مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين خير ﴿لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ من هذا الذي تمنيتم ورغبتم فيه؛ فهذه حقيقة الأمر، ولكن ما كل من يعلم ذلك يقبل عليه، فما يلقى ذلك

ويوفق له ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ۝٨٠﴾: الذين حبسوا أنفسهم على طاعة الله وعن معصيته وعلى أقداره المؤلمة وصبروا على جواذب الدنيا وشهواتها أن تشغلهم عن ربهم وأن تحول بينهم وبين ما خلقوا له؛ فهؤلاء الذين يؤثرون ثواب الله على الدنيا الفانية.

﴿٨١﴾ فلما انتهت بقارون حالة البغي والفخر، وازينت الدنيا عنده، وكثر بها إعجابه؛ بغته العذاب، ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾: جزاء من جنس عمله؛ فكما رفع نفسه على عباد الله؛ أنزله الله أسفل سافلين هو وما اغتر به من داره وأثاثه ومتاعه. ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾؛ أي: جماعة وعصبة وخدم وجنود، ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ۝٨١﴾؛ أي: جاءه العذاب فما نصر ولا انتصر.

﴿٨٢﴾ ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾؛ أي: الذين يريدون الحياة الدنيا، الذين قالوا: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ ﴿يَقُولُونَ﴾: متوجعين ومعتبرين وخائفين من وقوع العذاب بهم: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾؛ أي: يضيق الرزق على من يشاء. فعلمنا حينئذ أن بسطه لقارون ليس دليلًا على خير فيه، وأننا غالطون في قولنا: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٧٩﴾، و﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾: فلم يعاقبنا على ما قلنا؛ فلولا فضله ومنته؛ ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾: فصار هلاك قارون عقوبة له، وعبرة وموعظة لغيره، حتى إن الذين غبطوه سمعت كيف ندموا، وتغير فكرهم الأول، ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٢﴾؛ أي: لا في الدنيا، ولا في الآخرة.

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٨٣﴾.

﴿٨٣﴾ لما ذكر تعالى قارون وما أوتيه من الدنيا وما صارت إليه عاقبة أمره، وأن أهل العلم قالوا: ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحًا؛ رَغَّب تعالى في الدار الآخرة، وأخبر بالسبب الموصل إليها، فقال: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾: التي أخبر الله بها في كتبه وأخبرت بها رسله التي قد جمعت كل نعيم، واندفع عنها كل مكدر ومنغص، ﴿نَجْعَلُهَا﴾: دارًا وقرارًا ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾؛ أي: ليس لهم إرادة؛ فكيف العمل للعلو في الأرض على عباد الله والتكبر عليهم وعلى الحق؟! ﴿وَلَا فَسَادًا﴾: وهذا شامل لجميع المعاصي؛ فإذا كانوا لا إرادة لهم في العلو في الأرض ولا الفساد؛ لزم من ذلك أن تكون إرادتهم مصروفة إلى الله، وقصدهم الدار الآخرة، وحالهم التواضع لعباد الله والانقياد للحق والعمل الصالح، وهؤلاء هم المتقون، الذين لهم العاقبة، ولهذا قال: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾؛ أي: حالة الفلاح والنجاح، التي تستقر وتستمر، لمن اتقى الله تعالى. وغيرهم، وإن حصل لهم بعض الظهور والراحة؛ فإنه لا يطول وقته، ويزول عن قريب.

وعلم من هذا الحصر في الآية الكريمة أن الذين يريدون العلو في الأرض أو الفساد ليس لهم في الدار الآخرة نصيب، ولا لهم منها حظ[1].

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٨٤﴾.

﴿٨٤﴾ يخبر تعالى عن مضاعفة فضله وتمام عدله، فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾: شَرَطَ فيها أن يأتي بها العامل؛ لأنه قد يعملها ولكن يقترن بها ما لا تقبل منه أو يبطلها؛ فهذا لم يجئ بالحسنة، والحسنة اسم جنس يشمل جميع ما أمر الله به ورسوله من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة المتعلقة بحقه تعالى وحقوق عباده، ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾؛ أي: أعظم وأجل، وفي الآية الأخرى: ﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]: هذا التضعيف للحسنة لا بد منه، وقد يقترن بذلك من الأسباب ما تزيد به المضاعفة؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٢٦١﴾ [البقرة: ٢٦١]: بحسب حال العامل وعمله ونفعه ومحله ومكانه، ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾: وهي كل ما نهى الشارع عنه، نهي تحريم؛ ﴿فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٨٤﴾؛ كقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝١٦٠﴾ [الأنعام: ١٦٠].

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨٥ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٨٦ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ

(١) ع، ط: «نصيب».

إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ
أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ
تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ
فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ
ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

سُورَةُ ٱلْعَنكَبُوتِ ٢٩ — آياتها ٦٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا
يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ
ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا۟
لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن
جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾

ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

﴿٨٥﴾ **يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾؛ أي: أنزله، وفرض فيه الأحكام، وبين فيه الحلال والحرام، وأمرك بتبليغه للعالمين والدعوة لأحكامه جميع المكلفين؛ لا يليق بحكمته أن تكون الحياة هي الحياة الدنيا فقط من غير أن يثاب العباد ويعاقبوا، بل لا بد أن يردك إلى معاد يجازى فيه المحسنون بإحسانهم والمسيئون بمعصيتهم، وقد بينت لهم الهدى وأوضحت لهم المنهج؛ فإن تبعوك؛ فذلك حظهم وسعادتهم، وإن أبوا إلا عصيانك والقدح بما جئت به من الهدى وتفضيل ما معهم من الباطل على الحق؛ فلم يبق للمجادلة محل، ولم يبق إلا المجازاة على الأعمال من العالم بالغيب والشهادة والمحق والمبطل، ولهذا قال: ﴿ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ ﴾: وقد علم أن رسوله هو المهتدي الهادي، وأن أعداءه هم الضالون المضلون.**

﴿٨٦﴾ **﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾؛ أي: لم تكن متحريًا لنزول هذا الكتاب عليك، ولا مستعدًّا له، ولا متصديًا، ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾: بك وبالعباد، فأرسلك بهذا الكتاب الذي رحم به العالمين، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، وزكاهم وعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين: فإذا علمت أنه أنزله إليك رحمة منه؛ علمت أن جميع ما أمر به ونهى عنه؛ فإنه رحمة وفضل من الله؛ فلا يكن في صدرك حرج من شيء منه، وتظن أن مخالفه أصلح وأنفع، ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾؛ أي: معينًا لهم على ما هو من شعب كفرهم، ومن جملة مظاهرتهم أن يقال في شيء منه: إنه خلاف الحكمة والمصلحة والمنفعة.**

﴿٨٧﴾ **﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾: بل أبلغها وأنفذها، ولا تبال بمكرهم، ولا يخدعنك عنها، ولا تتبع أهواءهم، ﴿ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾؛ أي: اجعل الدعوة إلى ربك منتهى قصدك وغاية عملك، فكل ما خالف ذلك؛ فارفضه من رياء أو سمعة أو موافقة أغراض أهل الباطل؛ فإن ذلك داع إلى الكون معهم ومساعدتهم على أمرهم، ولهذا قال: ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾: لا في شركهم، ولا في فروعه وشعبه التي هي جميع المعاصي.**

﴿٨٨﴾ **﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾: بل أخلص لله عبادتك؛ فإنه ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾: فلا أحد يستحق أن يؤله ويحب ويعبد إلا الله الكامل الباقي الذي ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾: وإذا كان كل شيء سواه هالكًا مضمحلًّا؛ فعبادة الهالك الباطل باطلة ببطلان غايتها وفساد نهايتها، ﴿ لَهُ ٱلْحُكْمُ ﴾: في الدنيا والآخرة، ﴿ وَإِلَيْهِ ﴾: لا إلى غيره ﴿ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾: فإذا كان ما سوى الله باطلًا هالكًا، والله هو الباقي الذي لا إله إلا هو، وله الحكم في الدنيا والآخرة، وإليه مرجع الخلائق كلهم؛ ليجازيهم بأعمالهم؛ تعين على من له عقل أن يعبد الله وحده لا شريك له، ويعمل لما يقربه ويدنيه، ويحذر من سخطه وعقابه، وأن يقدم على ربه غير تائب ولا مقلع عن خطئه وذنوبه.**

تم تفسير سورة القصص.

ولله الحمد والثناء والمجد دائمًا أبدًا.



تفسير سورة العنكبوت
وهي مكية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿١﴾ - ﴿٣﴾ يخبر تعالى عن تمام حكمته، وأن حكمته لا تقتضي أن كل من قال إنه مؤمن وادعى لنفسه الإيمان؛ أن يبقوا في حالة يسلمون فيها من الفتن والمحن، ولا يعرض لهم ما يشوش عليهم إيمانهم وفروعه؛ فإنهم لو كان الأمر كذلك؛ لم يتميز الصادق من الكاذب والمحق من المبطل، ولكن سنته وعادته في الأولين وفي هذه الأمة أن يبتليهم بالسراء والضراء والعسر واليسر والمنشط والمكره والغنى والفقر وإدالة الأعداء عليهم في بعض الأحيان ومجاهدة الأعداء بالقول والعمل ونحو ذلك من الفتن، التي ترجع كلها إلى فتنة الشبهات المعارضة للعقيدة والشهوات المعارضة للإرادة؛ فمن كان عند ورود الشبهات يثبت إيمانه ولا يتزلزل ويدفعها بما معه من الحق، وعند ورود الشهوات الموجبة والداعية إلى المعاصي والذنوب أو الصارفة عمَّا أمر الله به ورسولُه، يعمل بمقتضى الإيمان ويجاهد شهوته؛ دل ذلك على صدق إيمانه وصحته، ومن كان عند ورود الشبهات تؤثر في قلبه شكًّا وريبًا، وعند اعتراض الشهوات تصرفه إلى المعاصي أو تصدفه عن الواجبات؛ دل ذلك على عدم صحة إيمانه وصدقه. والناس في هذا المقام درجات لا يحصيها إلا الله؛ فمستقل ومستكثر. فنسأل الله تعالى أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يثبت قلوبنا على دينه؛ فالابتلاء والامتحان للنفوس بمنزلة الكير يخرج خَبَثَهَا وطيبها.

﴿ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿٤﴾ أي: أحسب الذين همهم فعل السيئات وارتكاب الجنايات أن أعمالهم ستهمل وأن الله سيغفل عنهم أو يفوتونه؛ فلذلك أقدموا عليها وسهل عليهم عملها؟! ﴿ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٤﴾ ﴾؛ أي: ساء حكمهم؛ فإنه حكم جائر لتضمنه إنكار قدرة الله وحكمته، وأن لديهم قدرة يمتنعون بها من عقاب الله، وهم أضعف شيء وأعجزه.

﴿ مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿٥﴾ يعني: يا أيها المحب لربه، المشتاق لقربه ولقائه، المسارع في مرضاته! أبشر بقرب لقاء الحبيب؛ فإنه آت، وكل ما هو آت قريب، فتزود للقائه، وسر نحوه مستصحبًا الرجاء مؤملًا الوصول إليه.

﴿٦﴾ ولكن ما كل من يدعي يعطى بدعواه، ولا كل من تمنى يعطى ما تمناه؛ فإن الله سميع للأصوات عليم بالنيات؛ فمن كان صادقًا في ذلك؛ أناله ما يرجو، ومن كان كاذبًا؛ لم تنفعه دعواه، وهو العليم بمن يصلح لحبه ومن لا يصلح، ﴿ وَمَن جَٰهَدَ ﴾: نفسه وشيطانه وعدوه الكافر؛ ﴿ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓ ﴾: لأن نفعه راجع إليه، وثمرته عائدة إليه، وإن الله غني عن العالمين، لم يأمرهم بما أمرهم به لينتفع به، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلًا منه عليهم، وقد علم أن الأوامر والنواهي يحتاج المكلَّف فيها إلى جهاد؛ لأن نفسه تتثاقل بطبعها عن الخير، وشيطانه ينهاه عنه، وعدوه الكافر يمنعه من إقامة دينه كما ينبغي، وكل هذه معارضات تحتاج إلى مجاهدات وسعي شديد.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿٧﴾ يعني: أن الذين مَنَّ الله عليهم بالإيمان والعمل الصالح سيكفر الله عنهم سيئاتهم؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات، ﴿ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾؛ وهي أعمال الخير من واجبات ومستحبات، فهي أحسن ما يعمل العبد؛ لأنه يعمل المباحات أيضًا وغيرها.

﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ
وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ
بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ
فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ
فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ
إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ
﴿١٠﴾ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ
﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا
وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن
شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا
مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ
﴿١٣﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ
إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾

﴿٨﴾ أي: وأمرنا الإنسان ووصيناه بوالديه حسنًا؛ أي: ببرهما والإحسان إليهما بالقول والعمل، وأن يحافظ على ذلك ولا يعقهما ويسيء إليهما في قوله وعمله، ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ﴾: وليس لأحد علم بصحة الشرك بالله، وهذا تعظيم لأمر الشرك. ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾﴾: فأجازيكم بأعمالكم؛ فبروا والديكم، وقدموا طاعتهما إلا على طاعة الله ورسوله؛ فإنها مقدمة على كل شيء.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾.

﴿٩﴾ أي: من آمن بالله وعمل صالحًا؛ فإن الله وعده أن يدخله الجنة في جملة عباد الله الصالحين من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، كل على حسب درجته ومرتبته عند الله؛ فالإيمان الصحيح والعمل الصالح عنوان على سعادة صاحبه، وأنه من أهل الرحمن والصالحين من عباد الله.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿١٠﴾، ﴿١١﴾ لما ذكر تعالى أنه لا بد أن يمتحن من ادعى الإيمان؛ ليظهر الصادق من الكاذب؛ بين تعالى أن من الناس فريقًا لا صبر لهم على المحن ولا ثبات لهم على بعض الزلازل، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ﴾: بضرب أو أخذ مال أو تعيير؛ ليرتد عن دينه، وليراجع الباطل؛ ﴿جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: يجعلها صادة له عن الإيمان والثبات عليه؛ كما أن العذاب صاد عما هو سببه. ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡ﴾: لأنه موافق للهوى.

فهذا الصنف من الناس من الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج: ١١]. ﴿أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾: حيث أخبركم بهذا الفريق الذي حاله كما وصف لكم، فتعرفون بذلك كمال علمه وسعة حكمته. ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾؛ أي: فلذلك قدر محنًا وابتلاء؛ ليظهر علمه فيهم، فيجازيهم بما ظهر منهم، لا بما يعلمه بمجرده؛ لأنهم قد يحتجون على الله أنهم لو ابتلوا لثبتوا.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿١٢﴾ يخبر تعالى عن افتراء الكفار ودعوتهم للمؤمنين إلى دينهم، وفي ضمن ذلك تحذير المؤمنين من الاغترار بهم والوقوع في مكرهم، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾: فاتركوا دينكم أو بعضه، واتبعونا في ديننا؛ فإننا نضمن لكم الأمر، ونحمل ﴿خَطَٰيَٰكُمۡ﴾: وهذا الأمر ليس بأيديهم؛ فلهذا قال: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍ﴾: لا قليل ولا كثير؛ فهذا التحمل ولو رضي به صاحبه؛ فإنه لا يفيد شيئًا؛ فإن الحق لله، والله

تعالى لم يمكن العبد من التصرف في حقه إلا بأمره وحكمه، وحكمه ألَّا تزر وازرة وزر أخرى.

(١٣) ولما كان قوله: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ﴾: قد يتوهم منه أيضًا أن الكفار الداعين إلى كفرهم - ونحوهم ممن دعا إلى باطله - ليس عليهم إلا ذنبهم الذي ارتكبوه دون الذنب الذي فعله غيرهم، ولو كانوا متسببين فيه؛ قال محترزًا عن هذا الوهم: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾؛ أي: أثقال ذنوبهم التي عملوها، ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾: وهي الذنوب التي بسببهم ومن جرَّائِهِمْ؛ فالذنب الذي فعله التابع لكل من التابع والمتبوع حصة منه: هذا لأنه فعله وباشره، والمتبوع لأنه تسبب في فعله ودعا إليه؛ كما أن الحسنة إذا فعلها التابع له أجرها بالمباشرة وللداعي أجره بالتسبب، ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (١٣)﴾: من الشر وتزيينه وقولهم: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ (١٤) فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ (١٥)﴾.

(١٤) يخبر تعالى عن حكمه وحكمته في عقوبات الأمم المكذبة، وأن الله أرسل عبده ورسوله نوحًا عليه السلام إلى قومه يدعوهم إلى التوحيد وإفراد الله بالعبادة والنهي عن الأنداد والأصنام، ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ﴾: نبيًّا داعيًا ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾: وهو لا يني بدعوتهم ولا يفتر في نصحهم؛ يدعوهم ليلًا ونهارًا وسرًّا وجهارًا، فلم يرشدوا ولا اهتدوا، بل استمروا على كفرهم وطغيانهم، حتى دعا عليهم نبيهم نوح عليه الصلاة والسلام مع شدة صبره وحلمه واحتماله، فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا (٢٦)﴾ [نوح: ٢٦]، ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾؛ أي: الماء الذي نزل من السماء بكثرة ونبع من الأرض بشدة، ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ (١٤)﴾؛ مستحقون للعذاب.

(١٥) ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾: الذين ركبوا معه؛ أهله ومن آمن به، ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾؛ أي: السفينة أو قصة نوح ﴿ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ (١٥)﴾: يعتبرون بها على أن من كذب الرسل آخر أمره الهلاك، وأن المؤمنين سيجعل الله لهم من كل هم فرجًا ومن كل ضيق مخرجًا، وجعل الله أيضًا السفينة؛ أي: جنسها آية للعالمين؛ يعتبرون بها رحمة

فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ
(١٥) وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ
خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ
وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِن تُكَذِّبُوا۟
فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ
ٱلْمُبِينُ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ
يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ
مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى
ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ
وَلَا نَصِيرٍ (٢٢) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ
أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣)

ربهم الذي قيض لهم أسبابها، ويسر لهم أمرها، وجعلها تحملهم، وتحمل متاعهم من محل إلى محل، ومن قطر إلى قطر.

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢)﴾.

(١٦) يذكر تعالى أنه أرسل خليله إبراهيم عليه السلام إلى قومه يدعوهم إلى الله، فقال لهم: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: وحدوه وأخلصوا له العبادة وامتثلوا ما أمركم به، ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾: أن يغضب عليكم فيعذبكم، وذلك بترك ما يغضبه من المعاصي. ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾؛ أي: عبادة الله وتقواه ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾: من ترك ذلك، وهذا من باب إطلاق أفعل التفضيل بما ليس في الطرف الآخر منه شيء؛ فإن ترك عبادة الله وترك تقواه لا خير فيه بوجه، وإنما كانت عبادة الله وتقواه خيرًا للناس لأنه لا سبيل إلى نيل كرامته في الدنيا والآخرة إلا بذلك، وكل خير يوجد في الدنيا والآخرة؛ فإنه من آثار عبادة الله وتقواه. ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٦﴾: ذلك؛ فاعلموا الأمور، وانظروا ما هو أولى بالإيثار.

(١٧)، (١٨) فلما أمرهم بعبادة الله وتقواه؛ نهاهم عن عبادة الأصنام، وبين لهم نقصها وعدم استحقاقها للعبودية، فقال: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ﴾: تنحتونها، وتخلقونها بأيديكم، وتخلقون لها أسماء الآلهة، وتختلقون الكذب بالأمر بعبادتها والتمسك بذلك. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: في نقصه وأنه ليس فيه ما يدعو إلى عبادته، ﴿لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾: فكأنه قيل: قد بان لنا أن هذه الأوثان مخلوقة ناقصة لا تملك نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، وأن من هذا وصفه لا يستحق أدنى أدنى أدنى مثقال مثقال مثقال ذرة من العبادة والتأله، والقلوب لا بد أن تطلب معبودًا تألهه وتسأله حوائجها. فقال حاثًّا لهم على من يستحق العبادة: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾: فإنه هو الميسر له المقدر المجيب لدعوة من دعاه لمصالح دينه ودنياه، ﴿وَٱعۡبُدُوهُ﴾: وحده لا شريك له؛ لكونه الكامل النافع الضار المتفرد بالتدبير، ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ﴾: وحده؛ لكون جميع ما وصل ويصل إلى الخلق من النعم فمنه، وجميع ما اندفع ويندفع من النقم عنهم؛ فهو الدافع لها. ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١٧﴾: فيجازيكم على ما عملتم، وينبئكم بما أسررتم وأعلنتم؛ فاحذروا القدوم عليه وأنتم على شرككم، وارغبوا فيما يقربكم إليه ويثيبكم عند القدوم عليه.

(١٩) ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ﴾: يوم القيامة. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ١٩﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الروم: ٢٧].

(٢٠) ﴿قُلۡ﴾: لهم إن حصل معهم ريب وشك في الابتداء: ﴿سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: بأبدانكم وقلوبكم، ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ﴾: فإنكم ستجدون أممًا من الآدميين والحيوانات لا تزال توجد شيئًا فشيئًا، وتجدون النبات والأشجار كيف تحدث وقتًا بعد وقت، وتجدون السحاب والرياح ونحوها مستمرة في تجددها، بل الخلق دائمًا في بدء وإعادة؛ فانظر إليهم وقت موتتهم الصغرى - النوم؛ وقد هجم عليهم الليل بظلامه، فسكنت منهم الحركات، وانقطعت منهم الأصوات، وصاروا في فرشهم ومأواهم كالميتين، ثم إنهم لم يزالوا على ذلك طول ليلهم حتى انفلق الإصباح، فانتبهوا من رقدتهم، وبُعثوا من موتتهم؛ قائلين: الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور. ولهذا قال: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ﴾: بعد الإعادة ﴿يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾: وهي النشأة التي لا تقبل موتًا ولا نومًا، وإنما هو الخلود والدوام في إحدى الدارين. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠﴾: فقدرته تعالى لا يعجزها شيء، وكما قدر بها على ابتداء الخلق؛ فقدرته على الإعادة من باب أولى وأحرى.

(٢١) ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ﴾؛ أي: هو المنفرد بالحكم الجزائي، وهو إثابة الطائعين ورحمتهم، وتعذيب العاصين والتنكيل بهم، ﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ٢١﴾؛ أي: ترجعون إلى الدار التي بها تجري عليكم أحكام عذابه ورحمته، فاكتسبوا في هذه الدار ما هو من أسباب رحمته من الطاعات، وابتعدوا من أسباب عذابه وهو المعاصي.

(٢٢) ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾؛ أي: يا هؤلاء المكذبون المتجرئون على المعاصي! لا تحسبوا أنه مغفول عنكم أو أنكم معجزون لله في الأرض ولا في السماء؛ فلا تغرنكم قدرتكم وما زينت لكم أنفسكم وخدعتكم من النجاة من عذاب الله، فلستم بمعجزين الله في جميع أقطار العالم، ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ﴾: يتولاكم فيحصِّل لكم مصالح دينكم ودنياكم. ﴿وَلَا نَصِيرٖ ٢٢﴾: ينصركم فيدفع عنكم المكاره.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٣﴾.

(٢٣) يخبر تعالى من هم الذين زال عنهم الخير وحصل لهم الشر، وأنهم الذين كفروا به وبرسله وبما جاءوهم به،

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ
فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ
﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ
فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم
بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ
وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ
إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا
لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ
وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ
مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾
أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ
فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ
أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ
﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾

وكذبوا بلقاء الله، فليس عندهم إلا الدنيا؛ فلذلك أقدموا على ما أقدموا عليه من الشرك والمعاصي؛ لأنه ليس في قلوبهم ما يخوفهم من عاقبة ذلك، ولهذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى﴾؛ أي: فلذلك لم يعملوا سببًا واحدًا يحصِّلون به الرحمة، وإلا؛ فلو طمعوا في رحمته؛ لعملوا لذلك أعمالًا.

والإياس من رحمة الله من أعظم المحاذير، وهو نوعان: إياس الكفار منها وتركهم كل سبب يقربهم منها. وإياس العصاة بسبب كثرة جناياتهم أوحشتهم فملكت قلوبهم، فأحدث لها الإياس. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾؛ أي: مؤلم موجع.

وكأن هذه الآيات معترضات بين كلام إبراهيم لقومه وردهم عليه، والله أعلم بذلك.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿٢٤﴾ أي: فما كان مجاوبة قوم إبراهيم لإبراهيم حين دعاهم إلى ربه قبول دعوته والاهتداء بنصحه ورؤية نعمة الله عليهم بإرساله إليهم، وإنما كان مجاوبتهم له شر مجاوبة، ﴿قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾: أشنع القتلات، وهم أناس مقتدرون، لهم السلطان، فألقوه في النار، ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ﴾: منها. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾: فيعلمون صحة ما جاءت به الرسل وبرهم ونصحهم وبطلان قول من خالفهم وناقضهم، وأن المعارضين للرسل كأنهم تواصوا وحث بعضهم بعضًا على التكذيب.

﴿٢٥﴾ ﴿وَقَالَ﴾: لهم إبراهيم في جملة ما قاله من نصحه: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: غاية ذلك مودة في الدنيا ستنقطع وتضمحل، ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾؛ أي: يتبرأ كل من العابدين والمعبودين من الآخر، ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٦]؛ فكيف تتعلقون بمن يعلم أنه سيتبرأ من عابديه، ويلعنهم. وأن مأوى الجميع العابدين والمعبودين ﴿ٱلنَّارُ﴾: وليس أحد ينصرهم من عذاب الله، ولا يدفع عنهم عقابه.

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿٢٦﴾ أي: لم يزل إبراهيم عليه الصلاة والسلام يدعو قومه، وهم مستمرون على عنادهم؛ إلا أنه آمن له بدعوته لوط الذي نبأه الله وأرسله إلى قومه كما سيأتي ذكره، ﴿وَقَالَ﴾: إبراهيم حين رأى أن دعوة قومه لا تفيدهم شيئًا: ﴿إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾؛ أي: هاجر أرض السوء، ومهاجر إلى الأرض المباركة، وهي الشام. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: الذي له القوة، وهو يقدر على هدايتكم، ولكنه حكيم، ما اقتضت حكمته ذلك.

وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ
أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٣١
قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ
وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٢ وَلَمَّآ
أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا
وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ
كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٣ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ
هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ
٣٤ وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ
٣٥ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ
ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ
٣٦ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي
دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٣٧ وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ
لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ
أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ٣٨

ولما اعتزلهم وفارقهم وهم بحالهم؛ لم يذكر الله عنهم أنه أهلكهم بعذاب، بل ذكر اعتزاله إياهم وهجرته من بين أظهرهم، فأما ما يذكر في الإسرائيليات أن الله تعالى فتح على قومه باب البعوض، فشرب دماءهم، وأكل لحومهم، وأتلفهم عن آخرهم؛ فهذا يتوقف الجزم به على الدليل الشرعي، ولم يوجد؛ فلو كان الله استأصلهم بالعذاب؛ لذكره كما ذكر إهلاك الأمم المكذبة، ولكن هل من أسرار ذلك أن الخليل عليه السلام من أرحم الخلق وأفضلهم وأحلمهم وأجلهم؛ فلم يدعُ على قومه كما دعا غيره، ولم يكن الله ليجري عليهم بسببه عذابًا عامًّا؟ ومما يدل على ذلك أنه راجع الملائكة في إهلاك قوم لوط، وجادلهم، ودافع عنهم، وهم ليسوا قومه. والله أعلم بالحال.

(٢٧) ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾؛ أي: بعدما هاجر إلى الشام، ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾: فلم يأت بعده نبي إلا من ذريته، ولا نزل كتاب إلا على ذريته، حتى ختموا بابنه محمد ﷺ وعليهم أجمعين. وهذا من أعظم المناقب والمفاخر، أن تكون مواد الهداية والرحمة والسعادة والفلاح والفوز في ذريته، وعلى أيديهم اهتدى المهتدون، وآمن المؤمنون، وصلح الصالحون، ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾: من الزوجة الجميلة فائقة الجمال، والرزق الواسع، والأولاد الذين بهم قرت عينه، ومعرفة الله ومحبته والإنابة إليه. ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾: بل هو ومحمد صلى الله عليهما وسلم أفضل الصالحين على الإطلاق وأعلاهم منزلة. فجمع الله له بين سعادة الدنيا والآخرة.

﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٩ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٣٠﴾ إلى آخر القصة.

تقدم أن لوطًا عليه السلام آمن لإبراهيم وصار من المهتدين به، وقد ذكروا أنه ليس من ذرية إبراهيم، وإنما هو ابن أخي إبراهيم؛ فقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾: وإن كان عامًّا؛ فلا يناقض كون لوط نبيًّا رسولًا، وهو ليس من ذريته؛ لأن الآية جيء بها لسياق المدح والثناء على الخليل، وقد أخبر أن لوطًا اهتدى على يديه، ومن اهتدى على يديه؛ أكمل ممن اهتدى من ذريته بالنسبة إلى فضيلة الهادي. والله أعلم.

(٢٨)، (٢٩) فأرسل الله لوطًا إلى قومه، وكانوا مع شركهم قد جمعوا بين فعل الفاحشة في الذكور وقطع السبيل وفشو المنكرات في مجالسهم، فنصحهم لوط عن هذه الأمور، وبين لهم قبائحها في نفسها وما تئول إليه من العقوبة البليغة، فلم يرعووا ولم يذكروا. ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٩﴾.

(٣٠) - (٣٥) فأيس منهم نبيهم، وعلم استحقاقهم العذاب، وجزع من شدة تكذيبهم له، فدعا عليهم، و﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٣٠﴾: فاستجاب الله دعاءه، فأرسل الملائكة لإهلاكهم، فمروا بإبراهيم قبل ذلك، وبشروه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، ثم سألهم إبراهيم: أين يريدون؟ فأخبروه أنهم يريدون إهلاك قوم لوط، فجعل يراجعهم ويقول: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطٗا﴾، فقالوا له:

﴿ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾: ثم مضوا حتى أتوا لوطًا، فساءه مجيئهم، وضاق بهم ذرعًا؛ بحيث إنه لم يعرفهم، وظن أنهم من جملة الضيوف أبناء السبيل، فخاف عليهم من قومه، فقالوا له: ﴿ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ﴾: وأخبروه أنهم رسل الله، ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا ﴾؛ أي: عذابًا ﴿ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾: فأمروه أن يسري بأهله ليلًا، فلما أصبحوا؛ قلب الله عليهم ديارهم، فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل متتابعة حتى أبادتهم وأهلكتهم فصاروا سمرًا من الأسمار وعبرة من العبر. ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾؛ أي: تركنا من ديار قوم لوط آثارًا بينة لقوم يعقلون العبر بقلوبهم فينتفعون بها؛ كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿٣٦﴾، ﴿٣٧﴾ أي: وأرسلنا إلى ﴿ مَدْيَنَ ﴾: القبيلة المعروفة المشهورة ﴿ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾: الذي أمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، والإيمان بالبعث ورجائه والعمل له، ونهاهم عن الإفساد في الأرض ببخس المكاييل والموازين والسعي بقطع الطرق. ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾: فأخذهم ﴿ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ عذاب الله، ﴿ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

الجزء العشرون — سورة العنكبوت

وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ
بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ
﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا
وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ
ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ
وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ
ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ
ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ
لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن
دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ
ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ
﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ
وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ
وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

٤٠١

﴿٣٨﴾ أي: وكذلك ما فعلنا بعاد وثمود، وقد علمت قصصهم، وتبين لكم بشيء تشاهدونه بأبصاركم من مساكنهم وآثارهم التي بانوا عنها، وقد جاءتهم رسلهم بالآيات البينات المفيدة للبصيرة، فكذبوهم وجادلوهم، وزين لهم الشيطان أعمالهم، حتى ظنوا أنه أفضل مما جاءتهم به الرسل.

﴿٣٩﴾ وكذلك قارون وفرعون وهامان، حين بعث الله إليهم موسى بن عمران بالآيات البينات، والبراهين الساطعات، فلم ينقادوا، واستكبروا في الأرض على عباد الله فأذلوهم، وعلى الحق فردوه فلم يقدروا على النجاء حين نزلت بهم العقوبة. ﴿ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾: الله ولا فائتين، بل سلموا واستسلموا.

﴿٤٠﴾ ﴿ فَكُلًّا ﴾: من هؤلاء الأمم المكذبة ﴿ أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ﴾: على قدره وبعقوبة مناسبة له، ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾؛ أي: عذابًا يحصبهم كقوم عاد حين أرسل الله عليهم الريح العقيم و﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ

خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾ [الحاقة: ٧]، ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾: كقوم صالح، ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾: كقارون، ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾: كفرعون وهامان وجنودهما. ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ ﴾؛ أي: ما ينبغي ولا يليق به تعالى أن يظلمهم لكمال عدله وغناه التام عن جميع الخلق، ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾: منعوها حقها الذي هي بصدده؛ فإنها مخلوقة لعبادة الله وحده؛ فهؤلاء وضعوها في غير موضعها، وشغلوها بالشهوات والمعاصي، فضروها غاية الضرر من حيث ظنوا أنهم ينفعونها.

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿٤١﴾ هذا مثل ضربه الله لمن عبد معه غيره يقصد به التعزز والتَّقَوِّي والنفع، وأن الأمر بخلاف مقصوده؛ فإن مثله كمثل العنكبوت اتخذت بيتًا يقيها من الحر والبرد والآفات، ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ ﴾: أضعفها وأوهاها ﴿ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ﴾: فالعنكبوت من الحيوانات الضعيفة، وبيتها من أضعف البيوت؛ فما ازدادت باتخاذه إلا ضعفًا.

كذلك هؤلاء الذين يتخذون من دونه أولياء فقراء عاجزون من جميع الوجوه، وحين اتخذوا الأولياء من دونه يتعززون بهم ويستنصرونهم؛ ازدادوا ضعفًا إلى ضعفهم ووهنًا إلى وهنهم؛ فإنهم اتكلوا عليهم في كثير من مصالحهم، وألقوها عليهم، وتخلوا هم عنها؛ على أن أولئك سيقومون بها، فخذلوهم، فلم يحصلوا منهم على طائل، ولا أنالوهم من معونتهم أقل نائل؛ فلو كانوا يعلمون حقيقة العلم حالهم وحال من اتخذوهم؛ لم يتخذوهم، ولتبرءوا منهم، ولتولوا الرب القادر الرحيم، الذي إذا تولاه عبده وتوكل عليه؛ كفاه مئونة دينه ودنياه، وازداد قوة إلى قوته في قلبه وبدنه وحاله وأعماله.

﴿٤٢﴾ ولما بين نهاية ضعف آلهة المشركين؛ ارتقى من هذا إلى ما هو أبلغ منه، وأنها ليست بشيء، بل هي مجرد أسماء سموها وظنون اعتقدوها، وعند التحقيق يتبين للعاقل بطلانها وعدمها، ولهذا قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ﴾؛ أي: إنه تعالى يعلم - وهو عالم الغيب والشهادة - أنهم ما يدعون من دون الله شيئًا موجودًا ولا إلهًا له حقيقة؛ كقوله تعالى: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ [النجم: ٢٣]، وقوله: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ [يونس: ٦٦]. ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾: الذي له القوة جميعًا، التي قهر بها جميع الخلق. ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ ﴾: الذي يضع الأشياء مواضعها، الذي أحسن كل شيء خلقه وأتقن ما أمره.

﴿٤٣﴾ ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾؛ أي: لأجلهم ولانتفاعهم وتعليمهم؛ لكونها من الطرق الموضحة للعلوم؛ لأنها تقرب الأمور المعقولة بالأمور المحسوسة، فيتضح المعنى المطلوب بسببها؛ فهي مصلحة لعموم الناس. ولكن ما ﴿ يَعْقِلُهَآ ﴾: لفهمها وتدبرها وتطبيقها على ما ضربت له وعقلها في القلب ﴿ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾؛ أي: إلا أهل العلم الحقيقي، الذين وصل العلم إلى قلوبهم. وهذا مدح للأمثال التي يضربها، وحث على تدبرها وتعقلها، ومدح لمن يعقلها، وأنه عنوان على أنه من أهل العلم، فعلم أن من لم يعقلها ليس من العالمين.

والسبب في ذلك أن الأمثال التي يضربها الله في القرآن إنما هي للأمور الكبار والمطالب العالية والمسائل الجليلة، فأهل العلم يعرفون أنها أهم من غيرها؛ لاعتناء الله بها، وحثه عباده على تعقلها وتدبرها، فيبذلون جهدهم في معرفتها، وأما من لم يعقلها مع أهميتها؛ فإن ذلك دليل على أنه ليس من أهل العلم؛ لأنه إذا لم يعرف المسائل المهمة، فعدم معرفته غيرها من باب أولى وأحرى، ولهذا أكثر ما يضرب الله الأمثال في أصول الدين ونحوها.

﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿٤٤﴾ أي: هو تعالى المنفرد بخلق السماوات على علوها وارتفاعها وسعتها وحسنها وما فيها من الشمس والقمر والكواكب والملائكة، والأرض وما فيها من الجبال والبحار والبراري والقفار والأشجار ونحوها، وكل ذلك خلقه بالحق؛ أي: لم يخلقها عبثًا ولا سدًى ولا لغير فائدة، وإنما خلقها ليقوم أمره وشرعه، ولتتم نعمته على

عباده، وليروا من حكمته وقهره وتدبيره ما يدلهم على أنه وحده معبودهم ومحبوبهم وإلههم. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٤٤)﴾: على كثير من المطالب الإيمانية، إذا تدبرها المؤمن؛ رأى ذلك فيها عيانًا.

﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) ﴾.

(٤٥) يأمر تعالى بتلاوة وحيه وتنزيله، وهو هذا الكتاب العظيم، ومعنى تلاوته: اتباعه بامتثال ما يأمر به واجتناب ما ينهى عنه، والاهتداء بهداه، وتصديق أخباره، وتدبر معانيه، وتلاوة ألفاظه. فصار تلاوة لفظه جزء المعنى وبعضه، وإذا كان هذا معنى تلاوة الكتاب؛ علم أن إقامة الدين كله داخلة في تلاوة الكتاب، فيكون قوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾: من باب عطف الخاص على العام؛ لفضل الصلاة وشرفها وآثارها الجميلة، وهي: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾: فالفحشاء كل ما استعظم واستفحش من المعاصي التي تشتهيها النفوس، والمنكر كل معصية تنكرها العقول والفطر.

ووجه كون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر: أن العبد المقيم لها المتمم لأركانها وشروطها وخشوعها يستنير قلبه ويتطهر فؤاده ويزداد إيمانه وتقوى رغبته في الخير وتقل أو تعدم رغبته في الشر؛ فبالضرورة مداومتها، والمحافظة عليها على هذا الوجه تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ فهذا من أعظم مقاصد الصلاة وثمراتها.

وثم في الصلاة مقصود أعظم من هذا وأكبر، وهو ما اشتملت عليه من ذكر الله بالقلب واللسان والبدن؛ فإن الله تعالى إنما خلق العباد لعبادته، وأفضل عبادة تقع منهم الصلاة، وفيها من عبوديات الجوارح كلها ما ليس في غيرها، ولهذا قال: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾: ويحتمل أنه لما أمر بالصلاة ومدحها؛ أخبر أن ذكره تعالى خارج الصلاة أكبر من الصلاة؛ كما هو قول جمهور المفسرين، لكن الأول أولى؛ لأن الصلاة أفضل من الذكر خارجها، ولأنها - كما تقدم - بنفسها من أكبر الذكر. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥)﴾: من خير وشر، فيجازيكم على ذلك أكمل الجزاء وأوفاه.

سُورَةُ العَنكَبُوت — الجزء الحادي والعشرون

۞ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا
الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ
إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦)
وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ
يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا
إِلَّا الْكَافِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ
وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ
آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ
بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (٤٩) وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ
آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ
مُّبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ
يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا
يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا
بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٥٢)

٤٠٢

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦)﴾.

(٤٦) ينهى تعالى عن مجادلة أهل الكتاب إذا كانت عن غير بصيرة من المجادل أو بغير قاعدة مرضية، وألَّا يجادلوا إلا بالتي هي أحسن؛ بحسن خلق ولطف ولين كلام ودعوة إلى الحق وتحسينه، ورد الباطل وتهجينه بأقرب طريق موصل لذلك، وألَّا يكون القصد منها مجرد المجادلة والمغالبة وحب العلو، بل يكون القصد بيان الحق وهداية الخلق، ﴿إِلَّا﴾: الذين ظلموا من أهل الكتاب؛ بأن ظهر من قصده وحاله أنه لا إرادة له في الحق، وإنما يجادل على وجه المشاغبة والمغالبة؛ فهذا لا فائدة في جداله؛ لأن المقصود منها ضائع، ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ﴾؛ أي: ولتكن مجادلتكم لأهل الكتاب مبنية على الإيمان بما أنزل إليكم وأنزل إليهم، وعلى الإيمان برسولكم ورسولهم، وعلى أن الإله واحد،

ولا تكـن مناظرتكـم إياهـم على وجـه يحصل بـه القدح في شيء من الكتب الإلهية أو بأحد من الرسل كما يفعله الجهلة عند مناظرة الخصوم يقدح بجميع ما معهم من حق وباطل؛ فهذا ظلم وخروج عن الواجب وآداب النظر؛ فإن الواجب أن يرد ما مع الخصم من الباطل، ويقبل ما معه من الحق، ولا يرد الحق لأجل قوله، ولو كان كافرًا.

وأيضًا؛ فإن بناء مناظرة أهـل الكتاب على هذا الطريق فيه إلـزام لهم بالإقرار بالقرآن وبالرسـول الذي جـاء به؛ فإنه إذا تكلم في الأصول الدينية والتي اتفقت عليها الأنبياء والكتب وتقـررت عنـد المتناظرين وثبتـت حقائقهـا عندهما وكانت الكتب السـابقة والمرسلون مع القرآن ومحمد ﷺ قد بينتها، ودلت عليهـا وأخبرت بها؛ فإنه يلـزم التصديق بالكتب كلها والرسـل كلهـم، وهذا من خصائص الإسـلام، فأما أن يقال: نؤمن بما دل عليه الكتاب الفلاني دون الكتاب الفلاني، وهو الحـق الذي صدق ما قبله؛ فهذا ظلم وهوى، وهو يرجع إلى قولـه بالتكذيب؛ لأنه إذا كذب القرآن الـدال عليها المصدق لمـا بين يديه من التـوراة؛ فإنه مكذب لما زعـم أنه به مؤمن. وأيضًـا؛ فـإن كل طريق تثبت بها نبوة أي نبـي كان؛ فإن مثلها وأعظـم منها دالة على نبوة محمد ﷺ، وكل شـبهة يقدح بها فـي نبوة محمد ﷺ؛ فإن مثلها أو أعظـم منها يمكن توجيهها إلى نبوة غيره؛ فإذا ثبت بطلانها في غيره؛ فثبوت بطلانها في حقـه ﷺ أظهـر وأظهـر. وقولـه: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ۝٤٦﴾؛ أي: منقـادون مستسـلمون لأمـره، ومن آمن به واتخـذه إلهًا وآمن بجميع كتبه ورسله وانقاد لله واتبع رسله؛ فهو السعيد، ومن انحرف عن هذا الطريق؛ فهو الشقي.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٤٧ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ۝٤٨﴾.

﴿٤٧﴾ أي: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾: يـا محمـد، هـذا ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الكريـم، المبيـن كل نبـأ عظيـم، الداعـي إلـى كل خلق فاضـل وأمر كامل، المصدق للكتب السـابقة، المخبـر بـه الأنبيـاء الأقدمـون، ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾: فعرفـوه حـق معرفته ولم يداخلهم حسـد وهـوًى، ﴿يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾: لأنهـم تيقنـوا صدقه بمـا لديهم مـن الموافقات، وبما عندهـم مـن البشـارات، وبمـا تميزوا بـه من معرفة الحسن والقبيـح والصـدق والكـذب. ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: الموجودين ﴿مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾: إيمانًـا عـن بصيـرة لا عن رغبـة ولا رهبة، ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٤٧﴾: الذيـن دأبهـم الجحـود للحق والعنـاد لـه، وهـذا حصر لمـن كفر بـه؛ أنه لا يكون من أحد قصده متابعة الحق، وإلا؛ فكل من له قصد صحيـح؛ فإنـه لا بد أن يؤمن به؛ لما اشـتمل عليه من البينات لكل من له عقل أو ألقى السـمع وهو شـهيد. ومما يدل على صحتـه أنه جاء به هذا النبـي الأمين، الذي عرف قومه صدقه وأمانته ومدخله ومخرجه وسـائر أحواله، وهو لا يكتب بيده خطًّـا، بل ولا يقرأ خطًّا مكتوبًا، فإتيانـه به في هذه الحال من أظهـر البينات القاطعة التـي لا تقبل الارتياب أنه من عند الله العزيز الحميد.

﴿٤٨﴾ ولهـذا قال: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ﴾؛ أي: تقرأ ﴿مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا﴾: لـو كنـت بهـذه الحـال ﴿لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ۝٤٨﴾: فقالوا تَعَلَّمَهُ من الكتب السابقة أو استنسخه منها، فأما وقد نزل على قلبك كتابًا جليلًا تحديت به الفصحاء والبلغاء الأعداء الألداء أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله، فعجزوا غاية العجز، بل ولا حدثتهم أنفسهم بالمعارضة؛ لعلمهم ببلاغته وفصاحته، وأن كلام أحد من البشـر لا يبلغ أن يكون مجاريًا له أو على منواله، ولهذا قال:

﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٤٩﴾.

﴿٤٩﴾ ﴿بَلۡ هُوَ﴾ أي: بـل هـذا القرآن ﴿ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ﴾: لا خفيات ﴿فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾: وهـم سـادة الخلق وعقلاؤهـم، وأولـو الألباب منهـم والكمل منهـم، فإذا كان آيات بينات في صدور أمثال هؤلاء؛ كانوا حجة على غيرهم، وإنكار غيرهم لا يضر، ولا يكون ذلك إلا ظلمًا، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٤٩﴾: لأنـه لا يجحدهـا إلا جاهـل، تكلم بغير علم، ولـم يقتد بأهل العلم، ومن هو متمكن من معرفته على حقيقته، وإما متجاهل عرف أنه حق فعانده، وعرف صدقه فخالفه.

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٥١ قُلۡ كَفَىٰ

بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿٥٠﴾ أي: واعترض هؤلاء الظالمون المكذبون للرسول ولما جاء به، واقترحوا عليه نزول آيات عينوها؛ كما قال الله عنهم: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٩٠] الآيات، فتعيين الآيات ليس عندهم ولا عند الرسول ﷺ؛ فإن في ذلك تدبيرًا مع الله، وأنه لو كان كذلك، وينبغي أن يكون كذلك، وليس لأحد من الأمر شيء، ولهذا قال: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾: إن شاء أنزلها أو منعها، ﴿ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾: وليس لي مرتبة فوق هذه المرتبة. وإذا كان القصد بيان الحق من الباطل؛ فإذا حصل المقصود بأي طريق كان؛ كان اقتراح الآيات المعينات على ذلك ظلمًا وجورًا وتكبرًا على الله وعلى الحق، بل لو قدر أن تنزل تلك الآيات ويكون في قلوبهم أنهم لا يؤمنون بالحق إلا بها؛ كان ذلك ليس بإيمان، وإنما ذلك شيء وافق أهواءهم، فآمنوا لا لأنه حق، بل لتلك الآيات؛ فأي فائدة حصلت في إنزالها على التقدير الفرضي؟

﴿٥١﴾ ولما كان المقصود بيان الحق؛ ذكر تعالى طريقه، فقال: ﴿ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ ﴾: في علمهم بصدقك وصدق ما جئت به، ﴿ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ﴾: وهذا كلام مختصر جامع فيه من الآيات البينات والدلالات الباهرات شيء كثير؛ فإنه كما تقدم إتيان الرسول به بمجرده وهو أمي من أكبر الآيات على صدقه، ثم عجزهم عن معارضته وتحديه إياهم آية أخرى، ثم ظهوره وبروزه جهرًا علانية يتلى عليهم، ويقال هو من عند الله، قد أظهره الرسول وهو في وقت قل فيه أنصاره وكثر مخالفوه وأعداؤه؛ فلم يخفه، ولم يثن ذلك عزمه، بل صرح به على رءوس الأشهاد، ونادى به بين الحاضر والباد؛ بأن هذا كلام ربي؛ فهل أحد يقدر على معارضته أو ينطق بمباراته أو يستطيع مجاراته؟! ثم إخباره عن قصص الأولين وأنباء السالفين والغيوب المتقدمة والمتأخرة، مع مطابقته للواقع.

ثم هيمنته على الكتب المتقدمة وتصحيحه للصحيح، ونفي ما أدخل فيها من التحريف والتبديل، ثم هدايته لسواء السبيل في أمره ونهيه؛ فما أمر بشيء فقال العقل: ليته لم يأمر به، ولا نهى عن شيء فقال العقل: ليته لم ينه عنه، بل هو مطابق للعدل والميزان والحكمة المعقولة لذوي البصائر والعقول، ثم مسايرة إرشاداته وهدايته وأحكامه لكل حال وكل زمان بحيث لا تصلح الأمور إلا به؛ فجميع ذلك يكفي من أراد تصديق الحق، وعمل على طلب الحق؛ فلا كفى الله من لم يكفه القرآن، ولا شفى الله من لم يشفه الفرقان، ومن اهتدى به واكتفى؛ فإنه رحمة له وخير؛ فلذلك قال: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾: وذلك لما يحصِّلون فيه من العلم الكثير، والخير الغزير، وتزكية القلوب والأرواح، وتطهير العقائد، وتكميل الأخلاق، والفتوحات الإلهية والأسرار الربانية.

﴿٥٢﴾ ﴿ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗا ﴾: فأنا قد استشهدته؛ فإن كنت كاذبًا؛ أحل بي ما به تعتبرون، وإن كان إنما يؤيدني، وينصرني، وييسر لي الأمور؛ فلتكفكم هذه الشهادة الجليلة من الله؛ فإن وقع في قلوبكم أن شهادته - وأنتم لم تسمعوه ولم تروه - لا تكفي دليلًا؛ فإنه ﴿ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾: ومن جملة معلوماته حالي وحالكم ومقالي لكم؛ فلو كنت متقولًا عليه مع علمه بذلك وقدرته على عقوبتي؛ لكان قدحًا في علمه وقدرته وحكمته؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦]. ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾: حيث خسروا الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وحيث فاتهم النعيم المقيم، وحيث حصل لهم في مقابلة الحق الصحيح كل باطل قبيح، وفي مقابلة النعيم كل عذاب أليم، فخسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

﴿ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿٥٣﴾ يخبر تعالى عن جهل المكذبين للرسول وما جاء به، وأنهم يقولون استعجالًا للعذاب وزيادة تكذيب: ﴿ مَتَىٰ

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ
وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ
وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ
مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ
﴿٥٥﴾ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ
﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي
مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ
صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ
رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن
سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم
مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا
لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾

هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [يونس: ٤٨]؟ يقول تعالى: ﴿ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾: مضروب لنزوله ولم يأت بعد، ﴿ لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ﴾: بسبب تعجيزهم لنا وتكذيبهم الحق؛ فلو آخذناهم بجهلهم؛ لكان كلامهم أسرع لبلائهم وعقوبتهم، ولكن مع ذلك؛ فلا يستبطئون نزوله ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ فوقع كما أخبر الله تعالى، لما قدموا لبدر بطرين مفاخرين ظانين أنهم قادرون على مقصودهم، فأهانهم الله، وقتل كبارهم، واستوعب جملة أشرارهم، ولم يبق منهم بيت إلا أصابته تلك المصيبة، فأتاهم العذاب من حيث لم يحتسبوا، ونزل بهم وهم لا يشعرون.

﴿٥٤﴾ هذا؛ وإن لم ينزل عليهم العذاب الدنيوي؛ فإن أمامهم العذاب الأخروي الذي لا يخلص منهم أحد منه، سواء عوجل بعذاب الدنيا أو أمهل، ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾: ليس لهم عنه معدل ولا متصرف؛ قد أحاطت بهم من كل جانب كما أحاطت بهم ذنوبهم وسيئاتهم وكفرهم، وذلك العذاب هو العذاب الشديد.

﴿٥٥﴾ ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾: فإن أعمالكم انقلبت عليكم عذابًا، وشملكم العذاب كما شملكم الكفر والذنوب.

﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿٥٦﴾ - ﴿٥٩﴾ يقول تعالى: ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾: بي وصدقوا رسولي، ﴿ إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾: فإذا تعذرت عليكم عبادة ربكم في أرض؛ فارتحلوا منها إلى أرض أخرى؛ حيث كانت العبادة لله وحده؛ فأماكن العبادة ومواضعها واسعة، والمعبود واحد، والموت لا بد أن ينزل بكم، ثم ترجعون إلى ربكم، فيجازي من أحسن عبادته وجمع بين الإيمان والعمل الصالح بإنزاله الغرف العالية والمنازل الأنيقة الجامعة، لما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وأنتم فيها خالدون. فـ﴿ نِعْمَ ﴾ تلك المنازل في جنات النعيم ﴿ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ لله. ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾: على عبادة الله ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾: في ذلك، فصبرهم على عبادة الله يقتضي بذل الجهد والطاقة في ذلك، والمحاربة العظيمة للشيطان، الذي يدعوهم إلى الإخلال بشيء من ذلك. وتوكلهم يقتضي شدة اعتمادهم على الله، وحسن ظنهم به أن يحقق ما عزموا عليه من الأعمال ويكملها. ونص على التوكل وإن كان داخلًا في الصبر؛ لأنه يحتاج إليه في كل فعل وترك مأمور به، ولا يتم إلا به.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿٦٠﴾ أي: الباري تبارك وتعالى قد تكفل بأرزاق الخلائق كلهم قويهم وعاجزهم؛ فكم ﴿ مِّن دَابَّةٍ ﴾ في الأرض ضعيفة القوى، ضعيفة العقل، ﴿ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾: ولا تدخره، بل لم تزل لا شيء معها من الرزق، ولا يزال الله يسخر لها الرزق في كل وقت بوقته. ﴿ اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾: فكلكم عيال الله القائم برزقكم كما قام بخلقكم وتدبيركم. ﴿ وَهُوَ

ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾: فلا تخفى عليه خافية، ولا تهلك دابة من عدم الرزق بسبب أنها خافية عليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ ﴾ [هود: ٦].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿٦١﴾ - ﴿٦٣﴾ هذا استدلال على المشركين المكذبين بتوحيد الإلهية والعبادة، وإلزام لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية؛ فأنت لو ﴿سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؟ ومن نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها؟ ومن بيده تدبير جميع الأشياء؟ ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ وحده، ولاعترفوا بعجز الأوثان ومن عبدوه مع الله عن شيء من ذلك! فاعجب لإفكهم وكذبهم وعدولهم إلى من أقروا بعجزه وأنه لا يستحق أن يدبر شيئًا! وسجِّل عليهم بعدم العقل، وأنهم السفهاء ضعفاء الأحلام! فهل تجد أضعف عقلًا وأقل بصيرة ممن أتى إلى حجر أو قبر ونحوه - وهو يدري أنه لا ينفع ولا يضر ولا يخلق ولا يرزق، ثم صرف له خالص الإخلاص وصافي العبودية، وأشركه مع الرب الخالق الرازق النافع الضار؟! وقل: الحمد لله الذي بين الهدى من الضلال، وأوضح بطلان ما عليه المشركون؛ ليحذره الموفقون. وقل: الحمد لله الذي خلق العالم العلوي والسفلي، وقام بتدبيرهم ورزقهم، وبسط الرزق على من يشاء، وضيقه على من يشاء حكمة منه، ولعلمه بما يصلح عباده، وما ينبغي لهم.

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ

وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

سُورَةُ الرُّومِ — آياتها ٦٠ — ٣٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾

٤٠٤

وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿٦٤﴾ يخبر تعالى عن حالة الدنيا والآخرة وفي ضمن ذلك التزهيد في الدنيا والتشويق للأخرى، فقال: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾: في الحقيقة ﴿إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾: تلهو بها القلوب، وتلعب بها الأبدان؛ بسبب ما جعل الله فيها من الزينة واللذات والشهوات الخالبة للقلوب المعرضة، الباهجة للعيون الغافلة، المفرحة للنفوس المبطلة الباطلة، ثم تزول سريعًا وتنقضي جميعًا ولم يحصل منها محبها إلا على الندم والحسرة والخسران. وأما الدار الآخرة؛ فإنها دار ﴿ٱلْحَيَوَانُ﴾؛ أي: الحياة الكاملة، التي من لوازمها أن تكون أبدان أهلها في غاية القوة، وقواهم في غاية الشدة؛ لأنها أبدان وقوى خلقت للحياة، وأن يكون موجودًا فيها كل ما تكمل به الحياة، وتتم به اللذة من مفرحات القلوب

وشهوات الأبدان من المآكل والمشارب والمناكح وغير ذلك، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾: لمَّا آثروا الدنيا على الآخرة، ولو كانوا يعقلون؛ لما رغبوا عن دار الحيوان، ورغبوا في دار اللهو واللعب. فدل ذلك: أن الذين يعلمون لا بد أن يؤثروا الآخرة على الدنيا؛ لما يعلمونه من حالة الدارين.

﴿٦٥﴾، ﴿٦٦﴾ ثم ألزم تعالى المشركين بإخلاصهم لله في حال الشدة عند ركوب البحر وتلاطم أمواجه وخوفهم الهلاك؛ يتركون إذًا أندادهم، ويخلصون الدعاء لله وحده لا شريك له، فلما زالت عنهم الشدة، ونجى من أخلصوا له الدعاء إلى البر - أشركوا به من لا نجاهم من شدة، ولا أزال عنهم مشقة؛ فهلا أخلصوا لله الدعاء في حال الرخاء والشدة واليسر والعسر؛ ليكونوا مؤمنين به حقًّا، مستحقين ثوابه، مندفعًا عنهم عقابه، ولكن شركهم هذا بعد نعمتنا عليهم بالنجاة من البحر ليكون عاقبته كفر ما آتيناهم، ومقابلة النعمة بالإساءة، وليكملوا تمتعهم في الدنيا، الذي هو كتمتع الأنعام، ليس لهم همٌّ إلا بطونهم وفروجهم. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾: حين ينتقلون من الدنيا إلى الآخرة شدة الأسف وأليم العقوبة.

﴿٦٧﴾ ثم امتن عليهم بحرمه الآمن، وأنهم أهله في أمن وسعة ورزق، والناس من حولهم يتخطفون ويخافون، أفلا يعبدون الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف؟! ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾: وهو ما هم عليه من الشرك والأقوال والأفعال الباطلة، ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ﴾: هم ﴿يَكْفُرُونَ﴾؟ فأين ذهبت عقولهم، وانسلخت أحلامهم حيث آثروا الضلال على الهدى، والباطل على الحق والشقاء على السعادة، وحيث كانوا أظلم الخلق؟!

﴿٦٨﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾: فنسب ما هو عليه من الضلال والباطل إلى الله، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾: على يد رسوله محمد ﷺ، ولكن هذا الظالم العنيد أمامه جهنم، ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾: يؤخذ بها منهم الحق، ويخزون بها، وتكون منزلهم الدائم الذي لا يخرجون منه؟

﴿٦٩﴾ ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾: وهم الذين هاجروا في سبيل الله وجاهدوا أعداءهم وبذلوا مجهودهم في اتباع مرضاته؛ ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾؛ أي: الطرق الموصلة إلينا، وذلك لأنهم محسنون. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾: بالعون والنصر والهداية.

دل هذا على أن أحرى الناس بموافقة الصواب أهل الجهاد، وعلى أن من أحسن فيما أمر به؛ أعانه الله ويسر له أسباب الهداية، وعلى أن من جد واجتهد في طلب العلم الشرعي؛ فإنه يحصل له من الهداية والمعونة على تحصيل مطلوبه أمور إلهية خارجة عن مدرك اجتهاده، وتيسر له أمر العلم؛ فإن طلب العلم الشرعي من الجهاد في سبيل الله، بل هو أحد نوعي الجهاد، الذي لا يقوم به إلا خواص الخلق، وهو الجهاد بالقول واللسان للكفار والمنافقين، والجهاد على تعليم أمور الدين وعلى رد نزاع المخالفين للحق، ولو كانوا من المسلمين.

تم تفسير سورة العنكبوت - بحمد الله وعونه.



تفسير سورة الروم

وهي مكية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾.

﴿١﴾ - ﴿٥﴾ كانت الفرس والروم في ذلك الوقت من أقوى دول الأرض، وكان يكون بينهما من الحروب والقتال ما يكون بين الدول المتوازنة، وكانت الفرس مشركين يعبدون النار، وكانت الروم أهل كتاب ينتسبون إلى التوراة والإنجيل، وهم أقرب إلى المسلمين من الفرس، فكان المؤمنون يحبون غلبتهم وظهورهم على الفرس، وكان المشركون لاشتراكهم والفرس في الشرك يحبون ظهور الفرس على الروم، فظهر الفرس على الروم وغلبوهم غلبًا لم يحط بملكهم، بل بأدنى أرضهم، ففرح بذلك مشركو مكة وحزن المسلمون، فأخبرهم الله، ووعدهم أن الروم ستغلب الفرس ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾: تسع أو ثمان ونحو ذلك مما لا يزيد على العشر ولا ينقص عن الثلاث، وأن غلبة الفرس للروم ثم غلبة الروم للفرس كل ذلك بمشيئته وقدره، ولهذا قال: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ﴾: فليس الغلبة والنصر لمجرد وجود الأسباب، وإنما هي لا بد أن يقترن بها القضاء والقدر.

﴿وَيَوۡمَئِذٖ﴾؛ أي: يوم يغلب الروم الفرس ويقهرونهم، ﴿يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾؛ أي: يفرحون بانتصارهم على الفرس، وإن كان الجميع كفارًا، ولكن بعض الشر أهون من بعض، ويحزن يومئذ المشركون. ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾: الذي له العزة التي قهر بها الخلائق أجمعين، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء. ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾: بعباده المؤمنين؛ حيث قيض لهم من الأسباب التي تسعدهم وتنصرهم ما لا يدخل في الحساب.

﴿٦﴾ ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾: فتيقنوا ذلك، واجزموا به، واعلموا أنه لا بد من وقوعه. فلما نزلت هذه الآيات التي فيها هذا الوعد؛ صدق بها المسلمون، وكفر بها المشركون، حتى تراهن بعض المسلمين وبعض المشركين على عدة سنين عينوها، فلما جاء الأجل الذي ضربه الله؛ انتصر الروم على الفرس، وأجلوهم من بلادهم التي أخذوها منهم، وتحقق وعد الله. وهذا من الأمور الغيبية التي أخبر بها الله قبل وقوعها ووجدت في زمان من أخبرهم الله بها من المسلمين والمشركين. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾﴾: أن ما وعد الله به حق؛ فلذلك يوجد فريق منهم يكذبون بوعده، ويكذبون آياته.

﴿٧﴾ وهؤلاء الذين لا يعلمون؛ أي: لا يعلمون بواطن الأشياء وعواقبها، وإنما ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾: فينظرون إلى الأسباب، ويجزمون بوقوع الأمر الذي في رأيهم انعقدت أسباب وجوده، ويتيقنون عدم الأمر الذي لم يشاهدوا له من الأسباب المقتضية لوجوده شيئًا؛ فهم واقفون مع الأسباب، غير ناظرين إلى مسببها المتصرف فيها. ﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾: قد توجهت قلوبهم وأهواؤهم وإراداتهم إلى الدنيا وشهواتها وحطامها؛ فعملت لها وسعت وأقبلت بها وأدبرت، وغفلت عن الآخرة؛ فلا الجنة تشتاق إليها، ولا النار تخافها وتخشاها، ولا المقام بين يدي الله ولقائه يروعها ويزعجها، وهذا علامة الشقاء، وعنوانه الغفلة عن الآخرة.

ومن العجب أن هذا القسم من الناس قد بلغت بكثير منهم الفطنة والذكاء في ظاهر الدنيا إلى أمر يحير العقول ويدهش الألباب، وأظهروا من العجائب الذرية والكهربائية والمراكب البرية والبحرية والهوائية ما فاقوا به، وبرزوا وأعجبوا بعقولهم، ورأوا غيرهم عاجزًا عما أقدرهم الله عليه، فنظروا إليهم بعين الاحتقار والازدراء، وهم مع ذلك أبلد الناس في أمر دينهم، وأشدهم غفلة عن آخرتهم، وأقلهم معرفة بالعواقب. قد رآهم أهل البصائر النافذة في جهلهم يتخبطون، وفي ضلالهم يعمهون، وفي باطلهم يترددون، نسوا الله فأنساهم أنفسهم، أولئك هم الفاسقون، ثم نظروا إلى ما أعطاهم الله وأقدرهم عليه

وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ
٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ
٧ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ
بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ٨ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً
وَأَثَارُوا ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ
رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا
أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٩ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا ٱلسُّوٓأَىٰٓ
أَن كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ١٠ ٱللَّهُ
يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ١١ وَيَوْمَ تَقُومُ
ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ١٢ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ
شُفَعَٰٓؤُا وَكَانُوا بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ١٣ وَيَوْمَ
تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ١٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا
وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ١٥

من الأفكار الدقيقة في الدنيا وظاهرها، و[ما] حرموا من العقل العالي، فعرفوا أن الأمر لله والحكم له في عباده، وإن هو إلا توفيقه أو خذلانه، فخافوا ربهم وسألوه أن يتم لهم ما وهبهم من نور العقول والإيمان حتى يصلوا إليه ويحلوا بساحته. وهذه الأمور لو قارنها الإيمان وبنيت عليه؛ لأثمرت الرقي العالي والحياة الطيبة، ولكنها لما بني كثير منها على الإلحاد؛ لم تثمر إلا هبوط الأخلاق وأسباب الفناء والتدمير.

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ (٨) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ (١٠) ﴾.

(٨) أي: أفلم يتفكر هؤلاء المكذبون لرسل الله ولقائه ﴿ فِىٓ أَنفُسِهِم ﴾؛ فإن في أنفسهم آيات يعرفون بها أن الذي أوجدهم من العدم سيعيدهم بعد ذلك، وأن الذي نقلهم أطوارًا من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى آدمي قد نفخ فيه الروح إلى طفل إلى شاب إلى شيخ إلى هرم غير لائق أن يتركهم سدى مهملين. لا ينهون، ولا يؤمرون، ولا يثابون، ولا يعاقبون. ﴿ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾؛ أي: ليبلوكم أيكم أحسن عملًا، ﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾؛ أي: مؤقت بقاؤهما إلى أجل تنقضي به الدنيا وتجيء القيامة، وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات. ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ (٨) ﴾: فلذلك لم يستعدوا للقائه، ولم يصدقوا رسله التي أخبرت به.

(٩) وهذا الكفر عن غير دليل، بل الأدلة القاطعة دلت على البعث والجزاء، ولهذا نبههم على السير في الأرض والنظر في عاقبة الذين كذبوا رسلهم وخالفوا أمرهم ممن هم أشد من هؤلاء قوة وأكثر آثارًا في الأرض من بناء قصور ومصانع ومن غرس أشجار ومن زرع وإجراء أنهار، فلم تغن عنهم قوتهم، ولا نفعتهم آثارهم حين كذبوا رسلهم الذين جاءوهم بالبينات الدالات على الحق وصحة ما جاءوهم به؛ فإنهم حين ينظرون في آثار أولئك؛ لم يجدوا إلا أممًا بائدة، وخلقًا مهلكين، ومنازل بعدهم موحشة. وذم من الخلق عليهم متتابع، وهذا جزاءٌ معجل توطئة[1] للجزاء الأخروي ومبتدأ له؛ وكل هذه الأمم المهلكة لم يظلمهم الله بذلك الإهلاك، وإنما ظلموا أنفسهم وتسببوا في هلاكها.

(١٠) ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا ﴾؛ أي: المسيئين ﴿ ٱلسُّوٓأَىٰٓ ﴾؛ أي: الحالة السيئة الشنيعة، وصار ذلك داعيًا لهم إلى أن ﴿ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ (١٠) ﴾: فهذا عقوبة لإساءتهم وذنوبهم، ثم ذلك الاستهزاء والتكذيب يكون سببًا لأعظم العقوبات وأعضل المثلات.

﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا وَكَانُوا بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ

(١) ع، ط: «نموذج».

ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿١١﴾ - ﴿١٣﴾ يخبر تعالى أنه المتفرد بإبداء المخلوقات، ثم يعيدهم. ثم إليه يرجعون بعد إعادتهم ليجازيهم بأعمالهم. ولهذا ذكر جزاء أهل الشر ثم جزاء أهل الخير، فقال: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ ﴾: ويقوم الناس لرب العالمين، ويَرِدُون[1] القيامة عيانًا، يومئذ ﴿يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ ﴾؛ أي: ييأسون من كل خير، وذلك أنهم ما قدموا لذلك اليوم إلا الإجرام، وهي الذنوب من كفر وشرك ومعاصٍ، فلما قدموا أسباب العقاب، ولم يخلطوها بشيء من أسباب الثواب؛ أيسوا، وأبلسوا، وأفلسوا، وضل عنهم ما كانوا يفترونه من نفع شركائهم وأنهم يشفعون لهم، ولهذا قال: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ ﴾: التي عبدوها مع الله ﴿شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾: تبرأ المشركون ممن أشركوهم مع الله، وتبرأ المعبودون وقالوا: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [القصص: ٦٣]، والتعنوا وابتعدوا.

﴿١٤﴾ - ﴿١٦﴾ وفي ذلك اليوم يفترق أهل الخير والشر كما افترقت أعمالهم في الدنيا. ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾: آمنوا بقلوبهم وصدقوا ذلك بالأعمال الصالحة ﴿فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ ﴾: فيها سائر أنواع النبات وأصناف المشتهيات ﴿يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾؛ أي: يسرون، وينعمون بالمآكل اللذيذة والأشربة والحور الحسان والخدم والولدان والأصوات المطربات والسماع المبهج[2] والمناظر العجيبة والروائح الطيبة والفرح والسرور واللذة والحبور، مما لا يقدر أحد أن يصفه. ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾: وجحدوا نعمه، وقابلوها بالكفر، ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾: التي جاءتهم بها رسلنا ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾: فيه، قد أحاطت بهم جهنم من جميع جهاتهم، واطلع العذاب الأليم على أفئدتهم، وشوى الحميم وجوههم، وقطع أمعاءهم؛ فأين الفرق بين الفريقين؟! وأين التساوي بين المُنَعَّمين والمعذبين؟!

(١) ط: «يرون».
(٢) ع، ط: «المشجي».

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾

﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿١٧﴾، ﴿١٨﴾ هذا إخبار عن تنزهه عن السوء والنقص وتقدسه عن أن يماثله أحد من الخلق، وأمر للعباد أن يسبحوه حين يمسون، وحين يصبحون، ووقت العشي ووقت الظهيرة؛ فهذه الأوقات الخمسة أوقات الصلوات الخمس، أمر الله عباده بالتسبيح فيها والحمد، ويدخل في ذلك الواجب منه؛ كالمشتملة عليه الصلوات الخمس، والمستحب؛ كأذكار الصباح والمساء وأدبار الصلوات وما يقترن بها من النوافل؛ لأن هذه الأوقات التي اختارها الله لأوقات المفروضات هي أفضل الأوقات؛ فالتسبيح والتحميد فيها والعبادة فيها أفضل من غيرها، بل العبادة وإن لم تشتمل على قول: سبحان الله؛ فإن الإخلاص فيها تنزيه لله بالفعل أن يكون له شريك في العبادة، أو

أن يستحق أحد من الخلق ما يستحقه من الإخلاص والإنابة.

(١٩) ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾: كما يخرج النبات من الأرض الميتة، والسنبلة من الحبة، والشجرة من النواة، والفرخ من البيضة، والمؤمن من الكافر، ونحو ذلك. ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾: بعكس المذكور، ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾: فينزل عليها المطر وهي ميتة هامدة؛ فإذا أنزل عليها الماء؛ اهتزت، وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج. ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) ﴾: من قبوركم.

فهذا دليل قاطع وبرهان ساطع أن الذي أحيا الأرض بعد موتها يحيي الأموات؛ فلا فرق في نظر العقل بين الأمرين، ولا موجب لاستبعاد أحدهما مع مشاهدة الآخر.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾.

(٢٠) هذا شروع في تعداد آياته الدالة على انفراده بالإلهية وكمال عظمته ونفوذ مشيئته وقوة اقتداره وجميل صنعه وسعة رحمته وإحسانه، فقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾: وذلك بخلق أصل النسل آدم عليه السلام، ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) ﴾؛ [أي: الذي خلقكم من أصل واحد ومادة واحدة]، وبثكم في أقطار الأرض وأرجائها.

ففي ذلك آيات على أن الذي أنشأكم من هذا الأصل، وبثكم في أقطار الأرض هو الرب المعبود الملك المحمود والرحيم الودود، الذي سيعيدكم بالبعث بعد الموت.

(٢١) ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ﴾: الدالة على رحمته وعنايته بعباده وحكمته العظيمة وعلمه المحيط، ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾: تناسبكم، وتناسبونهن، وتشاكلكم، وتشاكلونهن؛ ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾: بما رتب على الزواج من الأسباب الجالبة للمودة والرحمة، فحصل بالزوجة الاستمتاع واللذة والمنفعة بوجود الأولاد وتربيتهم والسكون إليها؛ فلا تجد بين أحد في الغالب مثل ما بين الزوجين من المودة والرحمة. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾: يُعْمِلون أفكارهم، ويتدبرون آيات الله، وينتقلون من شيء إلى شيء.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ (٢٢) ﴾.

(٢٢) والعالمون: هم أهل العلم الذين يفهمون العبر ويتدبرون الآيات، وآيات الله في ذلك كثيرة: فمن آيات خلق السماوات والأرض وما فيهما؛ أن ذلك دال على عظمة سلطان الله وكمال اقتداره، الذي أوجد هذه المخلوقات العظيمة، وكمال حكمته؛ لما فيها من الإتقان، وسعة علمه؛ لأن الخالق لا بد أن يعلم ما خلقه؛ ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ [الملك: ١٤]، وعموم رحمته وفضله؛ لما في ذلك من المنافع الجليلة، وأنه المريد الذي يختار ما يشاء؛ لما فيها من التخصيصات والمزايا، وأنه وحده الذي يستحق أن يعبد ويوحد؛ لأنه المنفرد بالخلق؛ فيجب أن يفرد بالعبادة.

فكل هذه أدلة عقلية نبه الله العقول إليها، وأمرها بالتفكر واستخراج العبرة منها، وكذلك في اختلاف ﴿أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾: على كثرتكم وتباينكم مع أن الأصل واحد ومخارج الحروف واحدة، ومع ذلك؛ لا تجد صوتين متفقين من كل وجه، ولا لونين متشابهين من كل وجه؛ إلا وتجد من الفرق بين ذلك ما به يحصل التمييز. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ (٢٢) ﴾ أي إن هذا دال على كمال قدرته ونفوذ مشيئته و[من] عنايته بعباده ورحمته بهم، أن قدر ذلك الاختلاف؛ لئلا يقع التشابه، فيحصل الاضطراب، ويفوت كثير من المقاصد والمطالب.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) ﴾.

(٢٣) أي: سماع تدبر وتعقل للمعاني والآيات في ذلك؛ إن ذلك دليل على رحمة الله تعالى؛ كما قال: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾ [القصص: ٧٣]، وعلى تمام حكمته؛ إذ حكمته اقتضت سكون الخلق في وقت ليستريحوا به ويستجموا، وانتشارهم في وقت لمصالحهم الدينية والدنيوية، ولا يتم ذلك إلا بتعاقب الليل والنهار عليهم، والمنفرد بذلك هو المستحق للعبادة.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) ﴾.

﴿٢٤﴾ أي: ومن آياته أن ينزل عليكم المطر الذي تحيا به البلاد والعباد، ويريكم قبل نزوله مقدماته من الرعد والبرق الذي يخاف ويطمع فيه. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾: دالة على عموم إحسانه وسعة علمه وكمال إتقانه وعظيم حكمته، وأنه يحيي الموتى، كما أحيا الأرض بعد موتها، ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾؛ أي: لهم عقول تعقل بها ما تسمعه وتراه وتحفظه، وتستدل به على ما جعل دليلًا عليه.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿٢٥﴾ أي: ومن آياته العظيمة أن قامت السماوات والأرض واستقرتا وثبتتا لأمره، فلم يتزلزلا، ولم تسقط السماء على الأرض؛ فقدرته العظيمة التي بها أمسك السماوات والأرض أن تزولا؛ يقدر بها على أنه إذا دعا الخلق دعوة من الأرض؛ إذا هم يخرجون. ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

﴿٢٦﴾ ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: الكل خلقه ومماليكه والمتصرف فيهم من غير منازع ولا معاون ولا معارض، وكلهم قانتون لجلاله، خاضعون لكماله.

﴿٢٧﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ﴾؛ أي: إعادة الخلق بعد موتهم، ﴿أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾: من ابتداء خلقهم، وهذا بالنسبة إلى الأذهان والعقول؛ فإذا كان قادرًا على الابتداء الذي تقرون به؛ كانت قدرته على الإعادة التي هي أهون أولى وأولى.

ولما ذكر من الآيات العظيمة ما به يعتبر المعتبرون، ويتذكر المؤمنون، ويستبصر المهتدون؛ ذكر الأمر العظيم والمطلب الكبير، فقال: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: وهو كل صفة كمال، والكمال من تلك الصفة، والمحبة والإنابة التامة الكاملة في قلوب عباده المخلصين والذكر الجليل والعبادة منهم؛ فالمثل الأعلى هو وصفه الأعلى وما ترتب عليه، ولهذا كان أهل العلم يستعملون في حق الباري قياس الأولى، فيقولون: كل صفة كمال في المخلوقات؛ فخالقها أحق بالاتصاف بها على وجه لا يشاركه فيها أحد، وكل

سورة الروم — الجزء الحادي والعشرون

وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ
دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ
ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ
أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي
مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ
أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾
بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ
أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ
حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ
اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ
وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا
دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

٤٠٧

نقص في المخلوق ينزه عنه؛ فتنزيه الخالق عنه من باب أولى وأحرى. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾؛ أي: له العزة الكاملة والحكمة الواسعة، فعزته أوجد بها المخلوقات وأظهر المأمورات، وحكمته أتقن بها ما صنعه وأحسن فيها ما شرعه.

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿٢٨﴾ هذا مثل ضربه الله لقبح الشرك وتهجينه، مثلًا من أنفسكم لا يحتاج إلى حل وترحال وإعمال الجمال. ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾؛ أي: هل أحد من عبيدكم وإمائكم الأرقاء يشاركم في

رزقكم، وترون أنكم وهم فيه على حد سواء. ﴿ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾؛ أي: كالأحرار الشركاء في الحقيقة، الذين يخاف من قسمه واختصاص كل شيء بحاله؟! ليس الأمر كذلك؛ فإنه ليس أحد مما ملكت أيمانكم شريكًا لكم فيما رزقكم الله تعالى، هذا؛ ولستم الذين خلقتموهم ورزقتموهم، وهم أيضًا مماليك مثلكم؛ فكيف ترضون أن تجعلوا لله شريكًا من خلقه، وتجعلونه بمنزلته وعديلًا له في العبادة، وأنتم لا ترضون مساواة مماليككم لكم؟! هذا من أعجب الأشياء، ومن أدل شيء على سفه من اتخذ شريكًا مع الله، وأن ما اتخذه باطل مضمحل، ليس مساويًا لله ولا له من العبادة شيء. ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ ﴾: بتوضيحها بأمثلتها ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾: الحقائق ويعرفون. وأما من لا يعقل؛ فلو فصلت له الآيات وبينت له البينات؛ لم يكن له عقل يبصر به ما تبين، ولا لب يعقل به ما توضح؛ فأهل العقول والألباب هم الذين يساق إليهم الكلام، ويوجه الخطاب.

﴿٢٩﴾ وإذا علم من هذا المثال أن من اتخذ من دون الله شريكًا يعبده ويتوكل عليه في أموره؛ فإنه ليس معه من الحق شيء؛ فما الذي أوجب لهم الإقدام على أمر باطل توضح بطلانه وظهر برهانه؟ لقد أوجب لهم ذلك اتباع الهوى، فلهذا قال: ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾: هويت أنفسهم الناقصة التي ظهر من نقصها ما تعلق به هواها أمرًا يجزم العقل بفساده والفطر برده بغير علم دلهم عليه ولا برهان قادهم إليه، ﴿ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ﴾؛ أي: لا تعجبوا من عدم هدايتهم؛ فإن الله تعالى أضلهم بظلمهم، ولا طريق لهداية من أضل الله؛ لأنه ليس أحد معارضًا لله أو منازعًا له في ملكه، ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾: ينصرونهم حين تحق عليهم كلمة العذاب، وتنقطع بهم الوصل والأسباب.

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿٣٠﴾ يأمر تعالى بالإخلاص له في جميع الأحوال وإقامة دينه، فقال: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ ﴾؛ أي: انصبه ووجهه ﴿ لِلدِّينِ ﴾: الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان، بأن تتوجه بقلبك وقصدك وبدنك إلى إقامة شرائع الدين الظاهرة كالصلاة والزكاة والصوم والحج ونحوها، وشرائعه الباطنة كالمحبة والخوف والرجاء والإنابة، والإحسان في الشرائع الظاهرة والباطنة؛ بأن تعبد الله فيها كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك.

وخص الله إقامة الوجه؛ لأن إقبال الوجه تبع لإقبال القلب، ويترتب على الأمرين سعي البدن، ولهذا قال: ﴿ حَنِيفًا ﴾؛ أي: مقبلًا على الله في ذلك معرضًا عما سواه، وهذا الأمر الذي أمرنا به هو ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾: ووضع في عقولهم حسنها واستقباح غيرها؛ فإن جميع أحكام الشرع الظاهرة والباطنة قد وضع الله في قلوب الخلق كلهم الميل إليها، فوضع في قلوبهم محبة الحق وإيثار الحق، وهذا حقيقة الفطرة. ومن خرج عن هذا الأصل؛ فلعارض عرض لفطرته أفسدها؛ كما قال النبي ﷺ: **«كل مولود يولد على الفطرة؛ فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»**[1]. ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: لا أحد يبدل خلق الله فيجعل المخلوق على غير الوضع الذي وضعه الله. ﴿ ذَٰلِكَ ﴾: الذي أمرناك به ﴿ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾؛ أي: الطريق المستقيم الموصل إلى الله وإلى كرامته؛ فإن من أقام وجهه للدين حنيفًا؛ فإنه سالك الصراط المستقيم في جميع شرائعه وطرقه، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾: فلا يتعرفون الدين القيم، وإن عرفوه؛ لم يسلكوه.

﴿٣١﴾ ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ ﴾: وهذا تفسير لإقامة الوجه للدين؛ فإن الإنابة إنابة القلب وانجذاب دواعيه لمراضي الله تعالى، ويلزم من ذلك عمل البدن بمقتضى ما في القلب، فشمل ذلك العبادات الظاهرة والباطنة، ولا يتم ذلك إلا بترك المعاصي الظاهرة والباطنة؛ فلذلك قال: ﴿ وَٱتَّقُوهُ ﴾؛ فهذا يشمل فعل المأمورات وترك المنهيات، وخص من المأمورات الصلاة لكونها تدعو إلى الإنابة والتقوى كما قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾: فهذا إعانتها على التقوى، ثم قال: ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت:

(١) البخاري (١٣٥٩)، مسلم (٢٦٥٨).

٤٥]: فهـذا حثها على الإنابة. وخص مـن المنهيات أصلها، والـذي لا يقبل معه عمل، وهو الشـرك، فقال: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ ﴾: لكون الشـرك مضادًّا للإنابة التي روحها الإخلاص من كل وجه.

﴿٣٢﴾ ثـم ذكر حالة المشـركين مهجنًا لها ومقبحًـا، فقال: ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ ﴾: مـع أن الديـن واحـد، وهـو إخلاص العبادة لله وحده، وهؤلاء المشـركون فرقوه: منهم من يعبد الأوثان والأصنام، ومنهم من يعبد الشمس والقمر، ومنهم مـن يعبد الأوليـاء والصالحين، ومنهـم يهود، ومنهم نصـارى، ولهذا قال: ﴿ وَكَانُواْ شِيَعًا ﴾؛ أي: كل فرقة من فرق الشرك تحزبت[1] وتعصبت على نصر ما معها من الباطل ومنابـذة غيرهم ومحاربتهـم. ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾: من العلوم المخالفة لعلوم الرسل ﴿ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾: به يحكمون لأنفسهم بأنه الحق وأن غيرهم على باطل.

وفي هذا تحذير للمسلمين من تشتتهم وتفرقهم فرقًا، كل فريـق يتعصب لمـا معه من حق وباطل، فيكونون مشـابهين بذلـك للمشـركين في التفرق، بـل الدين واحد، والرسـول واحد، والإله واحد، وأكثر الأمور الدينية وقع فيها الإجماع بيـن العلمـاء والأئمـة، والأخـوة الإيمانيـة قد عقدهـا الله وربطهـا أتـم ربط؛ فمـا بال ذلـك كله يلغـى ويبنـى التفرق والشـقاق بين المسـلمين على مسائل خفية أو فروع خلافية يضلـل بهـا بعضهم بعضًـا ويتميز بها بعضهـم عن بعض؟! فهل هذا إلا من أكبر نزغات الشـيطان وأعظم مقاصده التي كاد بها المسـلمين؟! وهل السـعي في جمع كلمتهم وإزالة مـا بينهم من الشـقاق المبني على ذلك الأصـل الباطل إلا من أفضـل الجهاد في سـبيل الله وأفضل الأعمـال المقربة إلى الله؟!

ولمـا أمر تعالى بالإنابة إليـه، وكان المأمور بها هي الإنابة الاختياريـة، التـي تكـون فـي حـال العسـر واليسـر والسـعة والضيـق؛ ذكر الإنابة الاضطرارية التي لا تكون مع الإنسـان إلا عنـد ضيقه وكربه؛ فإذا زال عنه الضيق؛ نبذها وراء ظهره، وهذه غير نافعة، فقال:

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ

(١) ع: «تألفت»، ط: «تاهت».

سُورَةُ الرُّومِ — الجُزْءُ الحَادِي وَالعِشْرُونَ

وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾

٤٠٨

بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿٣٣﴾، ﴿٣٤﴾ ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ ﴾: مـرض أو خـوف مـن هـلاك ونحوه، ﴿ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾: ونسـوا مـا كانوا به يشركون في تلك الحال؛ لعلمهم أنه لا يكشف الضر إلا الله، ﴿ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً ﴾: شـفاهم مـن مرضهـم وآمنهم مـن خوفهـم، ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾: ينقضـون تلـك الإنابة التي صـدرت منهم، ويشـركون به من لا أسـعدهم ولا أشـقى[2]، ولا أفقـر ولا أغنـى، وكل هـذا كفـر بمـا آتاهم اللـه ومنَّ به عليهـم حيـث أنجاهـم، وأنقذهـم مـن الشـدة وأزال عنهـم المشقة؛ فهلا قابلوا هذه النعمة الجليلة بالشكر والدوام على الإخلاص له في جميع الأحوال؟!

﴿٣٥﴾ ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا ﴾؛ أي: حجـة ظاهـرة، ﴿ فَهُوَ ﴾؛ أي: ذلـك السـلطان ﴿ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ

(٢) عبارة: «أسـعدهم ولا أشقى» وردت في ع، ط: «دفع عنهم ولا أغنى».

﴿يُشۡرِكُونَ ٣٥﴾: ويقول لهم: اثبتوا على شركك واستمروا على شككم؛ فإن ما أنتم عليه هو الحق، وما دعتكم الرسل إليه باطل؛ فهل ذلك السلطان موجود عندهم حتى يوجب لهم شدة التمسك بالشرك؟ أم البراهين العقلية والسمعية والكتب السماوية والرسل الكرام وسادات الأنام قد نهوا أشد النهي عن ذلك، وحذروا من سلوك طرقه الموصلة إليه، وحكموا بفساد عقل ودين من ارتكبه؟! فشرك هؤلاء بغير حجة ولا برهان، وإنما هو أهواء النفوس ونزغات الشيطان.

﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ٣٦ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٣٧﴾.

(٣٦)، (٣٧) يخبر تعالى عن طبيعة أكثر الناس في حالي الرخاء والشدة أنهم إذا أذاقهم الله منه رحمة من صحة وغنى ونصر ونحو ذلك؛ فرحوا بذلك فرح بطر لا فرح شكر وتبجح بنعمة الله. ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ﴾؛ أي: حال تسوءهم، وذلك ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾: من المعاصي، ﴿إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ٣٦﴾: ييأسون من زوال ذلك الفقر والمرض ونحوه، وهذا جهل منهم وعدم معرفة. ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾: فالقنوط بعدما علم أن الخير والشر من الله والرزق سعته وضيقه من تقديره ضائع ليس له محل؛ فلا تنظر أيها العاقل لمجرد الأسباب، بل اجعل نظرك لمسببها، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٣٧﴾: فهم الذين يعتبرون ببسط الله لمن يشاء وقبضه، ويعرفون بذلك حكمة الله ورحمته وجوده وجذب القلوب لسؤاله في جميع مطالب الرزق.

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٣٨ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ٣٩﴾.

(٣٨) أي: فأعط القريب منك - على حسب قربه وحاجته - حقه الذي أوجبه الشارع أو حض عليه من النفقة الواجبة والصدقة والهدية والبر والسلام والإكرام والعفو عن زلته والمسامحة عن هفوته، وكذلك آت المسكين الذي أسكنه الفقر والحاجة ما تزيل به حاجته وتدفع به ضرورته من إطعامه وسقيه وكسوته. ﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾: الغريب المنقطع به في غير بلده، الذي هو مظنة شدة الحاجة، وأنه لا مال معه ولا كسب يدبر نفسه به في سفره؛ بخلاف الذي في بلده؛ فإنه حتى لو لم يكن له مال، فإنه لا بد في الغالب أن يكون في حرفة أو صناعة ونحوها تسد حاجته، ولهذا جعل الله في الزكاة حصة للمسكين وابن السبيل.

﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل: ﴿خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ﴾: بذلك العمل ﴿وَجۡهَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: خير غزير وثواب كثير؛ لأنه من أفضل الأعمال الصالحة، والنفع المتعدي الذي وافق محله المقرون به الإخلاص؛ فإن لم يرد به وجه الله؛ لم يكن خيرًا للمعطي، وإن كان خيرًا ونفعًا للمعطى؛ كما قال تعالى: ﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]: مفهومها أن هذه الأمور[1] خير؛ لنفعها المتعدي، ولكن من يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله؛ فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا، وقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: الذين عملوا هذه الأعمال وغيرها لوجه الله، ﴿هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٣٨﴾: الفائزون بثواب الله الناجون من عقابه.

(٣٩) ولما ذكر العمل الذي يقصد به وجهه من النفقات؛ ذكر العمل الذي يقصد به مقصد دنيوي، فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: ما أعطيتم من أموالكم الزائدة عن حوائجكم، وقصدكم بذلك أن يربو؛ أي: يزيد في أموالكم؛ بأن تعطوها لمن تطمعون أن يعاوضكم عنها بأكثر منها؛ فهذا العمل لا يربو أجره عند الله؛ لكونه معدوم الشرط الذي هو الإخلاص.

ومثل ذلك العمل الذي يراد به الزيادة في الجاه والرياء عند الناس؛ فهذا كله لا يربو عند الله. ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ﴾؛ أي: مال يطهركم من الأخلاق الرذيلة، ويطهر أموالكم من البخل بها، ويزيد في دفع حاجة المعطَى؛ ﴿تُرِيدُونَ﴾: بذلك ﴿وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ٣٩﴾؛ أي: المضاعف لهم الأجر، الذين تربو نفقاتهم عند الله، ويربيها الله لهم، حتى تكون شيئًا كثيرًا، ودل قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ﴾: أن الصدقة مع اضطرار من يتعلق بالمنفق أو مع دين عليه لم يقضه ويُقدِّم عليه الصدقة؛ أن ذلك ليس بزكاة يؤجر عليه

(١) ع، ط: «المستثنيات».

العبد، ويُردُّ تصرفه شرعًا؛ كما قال تعالى في الذي يُمْدَح: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ [الليل: ١٨]؛ فليس مجرد إيتاء المال خيرًا، حتى يكون بهذه الصفة، وهو أن يكون على وجه يتزكى به صاحبه[1].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿٤٠﴾ يخبر تعالى أنه وحده المنفرد بخلقكم ورزقكم وإماتتكم وإحيائكم، وأنه ليس أحد من الشركاء التي يدعوها المشركون من يشارك الله في شيء من هذه الأشياء؛ فكيف يشركون بمن انفرد بهذه الأمور من ليس له تصرف فيها بوجه من الوجوه؟ فسبحانه وتعالى، وتقدس، وتنزه، وعلا عن شركهم؛ فلا يضره ذلك، وإنما وباله عليهم.

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿٤١﴾ أي: استعلن ﴿ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾؛ أي: فساد معايشهم ونقصها وحلول الآفات بها وفي أنفسهم من الأمراض والوباء وغير ذلك، وذلك بسبب ما قدمت أيديهم من الأعمال الفاسدة المفسدة بطبعها. هذه المذكورة، ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾؛ أي: ليعلموا أنه المجازي على الأعمال، فعجل لهم نموذجًا من جزاء أعمالهم في الدنيا؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾: عن أعمالهم التي أثرت لهم من الفساد ما أثرت، فتصلح أحوالهم، ويستقيم أمرهم؛ فسبحان من أنعم ببلائه، وتفضل بعقوبته، وإلا؛ فلو أذاقهم جميع ما كسبوا؛ ما ترك على ظهرها من دابة.

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿٤٢﴾ والأمر بالسير في الأرض يدخل فيه السير بالأبدان والسير في القلوب للنظر والتأمل بعواقب المتقدمين، ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾: تجدون عاقبتهم شر العواقب، ومآلهم شر مآل: عذاب استأصلهم، وذم، ولعن من خلق الله

(١) ع، ط: «المؤتي».

قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ
كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن
قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن
كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾
لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم
مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم
بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ
فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ
خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ
﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ
﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ
مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

يتبعهم، وخزي متواصل؛ فاحذروا أن تفعلوا فعالهم؛ لئلا[2] يُحذى بكم حذوهم؛ فإن عدل الله وحكمته في كل زمان ومكان.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿٤٣﴾ أي: أقبل بقلبك وتوجه بوجهك، واسع ببدنك لإقامة الدين القيم المستقيم، فنفذ أوامره ونواهيه بجد واجتهاد، وقم بوظائفه الظاهرة والباطنة، وبادر زمانك وحياتك وشبابك، ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾: وهو يوم القيامة، الذي إذا جاء؛ لا يمكن رده، ولا يرجأ العاملون ليستأنفوا العمل، بل فرغ من الأعمال، ولم يبق إلا جزاء العمال. ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾؛ أي:

(٢) ساقط من ع، ط.

يتفرقون عن ذلك اليوم، ويصدرون أشتاتًا متفاوتين؛ ليروا أعمالهم.

(٤٤)، (٤٥) ﴿ مَن كَفَرَ ﴾: منهم، ﴿ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ﴾: ويعاقب هو بنفسه، لا تزر وازرة وزر أخرى، ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا ﴾: من الحقوق التي لله والتي للعباد الواجبة والمستحبة ﴿ فَلِأَنفُسِهِمْ ﴾: لا لغيرهم؛ ﴿ يَمْهَدُونَ (٤٤) ﴾؛ أي: يهيئون، ولأنفسهم يعمرون آخرتهم، ويستعدون للفوز بمنازلها وغرفاتها، ومع ذلك جزاؤهم ليس مقصورًا على أعمالهم، بل يجزيهم الله من فضله الممدود وكرمه غير المحدود ما لا تبلغه أعمالهم، وذلك لأنه أحبهم، وإذا أحب الله عبدًا؛ صب عليه الإحسان صبًّا، وأجزل له العطايا الفاخرة، وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة، وهذا بخلاف الكافرين؛ فإن الله لما أبغضهم ومقتهم؛ عاقبهم وعذبهم، ولم يزدهم كما زاد من قبلهم؛ فلهذا قال: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ (٤٥) ﴾.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) ﴾.

(٤٦) أي: ومن الأدلة الدالة على رحمته وبعثه الموتى وأنه الإله المعبود والملك المحمود، أن أرسل ﴿ ٱلرِّيَاحَ ﴾: أمام المطر ﴿ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾: بإثارتها للسحاب ثم جمعها، فتستبشر بذلك النفوس قبل نزوله، ﴿ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾: فينزل عليكم مطرًا تحيا به البلاد والعباد وتذوقون من رحمته ما تعرفون أن رحمته هي المنقذة للعباد الجالبة لأرزاقهم، فتشتاقون إلى الإكثار من الأعمال الصالحة الفاتحة لخزائن الرحمة، ﴿ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ ﴾: في البحر ﴿ بِأَمْرِهِۦ ﴾: القدري، ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾: بالتصرف في معايشكم ومصالحكم. ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) ﴾: من سخر لكم الأسباب، ويسر لكم الأمور؛ فهذا المقصود من النعم أن تقابل بشكر الله تعالى؛ ليزيدكم الله منها، ويبقيها عليكم، وأما مقابلة النعم بالكفر والمعاصي؛ فهذه حال من بدل نعمة الله كفرًا، ونعمته محنة، وهو معرض لها للزوال والانتقال منه إلى غيره.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾.

(٤٧) أي: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ ﴾: في الأمم السالفين ﴿ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ ﴾: حين جحدوا توحيد الله وكذبوا بالحق، فجاءتهم رسلهم يدعونهم إلى التوحيد والإخلاص والتصديق بالحق وبطلان ما هم عليه من الكفر والضلال، وجاءوهم بالبينات والأدلة على ذلك، فلم يؤمنوا ولم يزولوا عن غيهم، ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ ﴾: ونصرنا المؤمنين أتباع الرسل، ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾؛ أي: أوجبنا ذلك على أنفسنا، وجعلناه من جملة الحقوق المتعينة، ووعدناهم به؛ فلا بد من وقوعه، فأنتم أيها المكذبون لمحمد ﷺ إن بقيتم على تكذيبكم؛ حلت بكم العقوبة، ونصرناه عليكم.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾.

(٤٨)، (٤٩) يخبر تعالى عن كمال قدرته وتمام نعمته أنه ﴿ يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾: من الأرض، ﴿ فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾؛ أي: يمده ويوسعه ﴿ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾؛ أي: على أي حالة أرادها من ذلك، ثم يجعله؛ أي: ذلك السحاب الواسع ﴿ كِسَفًا ﴾؛ أي: سحابًا ثخينًا قد طبّق بعضه فوق بعض. ﴿ فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾؛ أي: السحاب؛ نقطًا صغارًا متفرقة، لا تنزل جميعًا فتُفسِدَ ما أتت عليه، ﴿ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ ﴾؛ أي: بذلك المطر ﴿ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) ﴾: يبشر بعضهم بعضًا بنزوله، وذلك لشدة حاجتهم وضرورتهم إليه؛ فلهذا قال: ﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) ﴾؛ أي: آيسين قانطين لتأخر وقت مجيئه؛ أي: فلما نزل في تلك الحال؛ صار له موقع عظيم عندهم وفرح واستبشار.

(٥٠) ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾: فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج كريم. ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ ﴾: الذي أحيا الأرض بعد موتها ﴿ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾: فقدرته تعالى لا يتعاصى عليها شيء، وإن تعاصى على قدر خلقه، ودق عن أفهامهم، وحارت فيه عقولهم.

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿٥١﴾ يخبر تعالى عن حالة الخلق وأنهم مع هذه النعم عليهم بإحياء الأرض بعد موتها ونشر رحمة الله تعالى: لو أرسلنا على هذا النبات الناشئ عن المطر وعلى زروعهم ريحًا مضرة متلفة أو منقصة، ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾: قد تداعى إلى التلف، ﴿لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾: فينسون النعم الماضية، ويبادرون إلى الكفر! وهؤلاء لا ينفع فيهم وعظ ولا زجر.

﴿٥٢﴾ ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾: وبالأولى: ﴿إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾﴾: فإن الموانع قد توفرت فيهم عن الانقياد والسماع النافع كتوفر هذه الموانع المذكورة عن سماع الصوت الحسي.

﴿٥٣﴾ ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ﴾: لأنهم لا يقبلون الإبصار بسبب عماهم؛ فليس فيهم قابلية له. ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾: فهؤلاء الذين ينفع فيهم إسماع الهدى، المؤمنون بآياتنا بقلوبهم، المنقادون لأوامرنا، المسلمون لنا؛ لأن معهم الداعي القوي لقبول النصائح والمواعظ، وهو استعدادهم للإيمان بكل آية من آيات الله، واستعدادهم لتنفيذ ما يقدرون عليه من أوامر الله ونواهيه.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿٥٤﴾ يخبر تعالى عن سعة علمه وعظيم اقتداره وكمال حكمته؛ أنه ابتدأ خلق الآدميين من ضعف، وهو الأطوار الأولى من خلقه من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى أن صار حيوانًا في الأرحام إلى أن ولد وهو في سن الطفولية، وهو إذ ذاك في غاية الضعف وعدم القوة والقدرة، ثم ما زال الله يزيد في قوته شيئًا فشيئًا، حتى بلغ سن الشباب، واستوت قوته، وكملت قواه الظاهرة والباطنة، ثم انتقل من هذا الطور ورجع إلى الضعف والشيبة والهرم. ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾: بحسب حكمته، ومن حكمته أن يري العبد ضعفه،

سُورَةُ الرُّومِ — الجزء الحادي والعشرون

وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

٤١٠

وأن قوته محفوفة بضعفين، وأنه ليس له من نفسه إلا النقص، ولولا تقوية الله له؛ لما وصل إلى قوة وقدرة، ولو استمرت قوته في الزيادة؛ لطغى وبغى وعتا، وليعلم العباد كمال قدرة الله، التي لا تزال مستمرة؛ يخلق بها الأشياء، ويدبر بها الأمور، ولا يلحقها إعياء ولا ضعف ولا نقص بوجه من الوجوه.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿٥٥﴾ يخبر تعالى عن يوم القيامة وسرعة مجيئه، وأنه إذا قامت الساعة؛ ﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: بالله أنهم ﴿مَا لَبِثُوا۟﴾: في الدنيا إلا ساعة، وذلك اعتذار منهم؛ لعله ينفعهم العذر، واستقصار لمدة الدنيا. ولما كان قولهم كذبًا لا حقيقة له؛ قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾؛

أي: ما زالوا وهم في الدنيا يؤفكون عن الحقائق ويأتفكون الكذب؛ ففي الدنيا كذَّبوا الحق الذي جاءت به المرسلون، وفي الآخرة أنكروا الأمر المحسوس، وهو اللبث الطويل في الدنيا؛ فهذا خلقهم القبيح، والعبد يُبْعَثُ على ما مات عليه.

(٥٦) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ ﴾؛ أي: مَنَّ الله عليهم بهما، وصارا وصفًا لهم، العلم بالحق والإيمان المستلزم إيثار الحق، وإذا كانوا عالمين بالحق، مؤثرين له؛ لزم أن يكون قولهم مطابقًا للواقع مناسبًا لأحوالهم؛ فلهذا قالوا الحق: ﴿ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: في قضائه وقدره الذي كتبه الله عليكم وفي حكمه ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ﴾؛ أي: عمرتم عمرًا يتذكر فيه المتذكر، ويتدبر فيه المتدبر ويعتبر فيه المعتبر، حتى صار البعث، ووصلتم إلى هذه الحال. ﴿ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٥٦) ﴾: فلذلك أنكرتموه في الدنيا، وأنكرتم إقامتكم في الدنيا وقتًا تتمكنون فيه من الإنابة والتوبة، فلم يزل الجهل شعاركم، وآثاره من التكذيب والخسار دثاركم.

(٥٧) ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾: فإن كذبوا، وزعموا أنهم ما قامت عليهم الحجة، أو ما تمكنوا من الإيمان؛ ظهر كذبهم بشهادة أهل العلم والإيمان وشهادة جلودهم وأيديهم وأرجلهم، وإن طلبوا الإعذار، وأنهم يردون، ولا يعودون لما نهوا عنه؛ لم يمكنوا؛ فإنه فات وقت الإعذار، فلا تقبل معذرتهم. ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) ﴾؛ أي: يزال عتبهم والعتاب عنهم.

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠) ﴾.

(٥٨)، (٥٩) أي: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا ﴾: لأجل عنايتنا ورحمتنا ولطفنا وحسن تعليمنا ﴿ لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾: تتضح به الحقائق وتعرف به الأمور وتنقطع به الحجة، وهذا عام في الأمثال التي يضربها الله في تقريب الأمور المعقولة بالمحسوسة، وفي الإخبار بما سيكون وجلاء حقيقته حتى كأنه وقع، ومنه في هذا الموضع ذكر الله تعالى ما يكون يوم القيامة، وحالة المجرمين فيه، وشدة أسفهم، وأنه لا يقبل منهم عذر ولا عتاب، ولكن أبى الظالمون الكافرون إلا معاندة الحق الواضح، ولهذا قال: ﴿ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ ﴾؛ أي: أي آية تدل على صحة ما جئت به، ﴿ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨) ﴾؛ أي: قالوا للحق: إنه باطل! وهذا من كفرهم وجراءتهم وطبع الله على قلوبهم وجهلهم المفرط، ولهذا قال: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩) ﴾: فلا يدخلها خير، ولا تدرك الأشياء على حقيقتها، بل ترى الحق باطلًا والباطل حقًّا.

(٦٠) ﴿ فَٱصْبِرْ ﴾: على ما أمرت به وعلى دعوتهم إلى الله ولو رأيت منهم إعراضًا؛ فلا يصدنك ذلك. ﴿ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾؛ أي: لا شك فيه، وهذا مما يعين على الصبر؛ فإن العبد إذا علم أن عمله غير ضائع، بل سيجده كاملًا؛ هان عليه ما يلقاه من المكاره، وتيسر عليه كل عسير، واستقل من عمله كل كثير. ﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠) ﴾؛ أي: قد ضعف إيمانهم وقلَّ يقينهم فخفَّتْ لذلك أحلامهم، وقلَّ صبرهم؛ فإياك أن يستخفك هؤلاء؛ فإنك إن لم تجعلهم منك على بال، وتحذر منهم، وإلا؛ استخفوك وحملوك على عدم الثبات على الأوامر والنواهي، والنفس تساعدهم على هذا، وتطلب التشبه والموافقة، وهذا مما يدل على أن كل مؤمن موقن رزين العقل؛ يسهل عليه الصبر، وكل ضعيف اليقين؛ ضعيف العقل خفيفه؛ فالأول بمنزلة اللب، والآخر بمنزلة القشور. فالله المستعان.



تفسير سورة لقمان

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾.

(٢) يشير تعالى إشارة دالة على التعظيم إلى: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾؛ أي: إن آياته محكمة صدرت من حكيم خبير.

ومن إحكامها أنها جاءت بأجلِّ الألفاظ وأفصحِها وأبينِها، الدالة على أجلِّ المعاني وأحسنها.

ومن إحكامها أنها محفوظة من التغيير والتبديل والزيادة والنقص والتحريف.

ومن إحكامها أن جميع ما فيها من الأخبار السابقة واللاحقة والأمور الغيبية كلها مطابقة للواقع، مطابق لها الواقع، لم يخالفها كتاب من الكتب الإلهية، ولم يخبر بخلافها نبي من الأنبياء، ولم يأت ولن يأتي علم محسوس ولا معقول صحيح يناقض ما دلت عليه.

ومن إحكامها أنها ما أمرت بشيء إلا وهو خالص المصلحة أو راجحها، ولا نهت عن شيء إلا وهو خالص المفسدة أو راجحها، وكثيرًا ما يجمع بين الأمر بالشيء مع ذكر حكمته وفائدته، والنهي عن الشيء مع ذكر مضرته.

ومن إحكامها أنها جمعت بين الترغيب والترهيب والوعظ البليغ الذي تعتدل به النفوس الخيرة، وتحتكم فتعمل بالحزم.

ومن إحكامها: أنك تجد آياتها المتكررة كالقصص والأحكام ونحوها قد اتفقت كلها وتواطأت، فليس فيها تناقض ولا اختلاف؛ فكلما ازداد بها البصير تدبرًا وأعمل فيها العقل تفكرًا؛ انبهر عقله وذهل لبه من التوافق والتواطؤ، وجزم جزمًا لا يمترى فيه أنه تنزيل من حكيم حميد.

الجزء الحادي والعشرون — سورة لقمان

سورة لقمان — ترتيبها ٣١ — آياتها ٣٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً
لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم
بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ
لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا
كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧
إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨
خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ
بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا
مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝١٠ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا
خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١١

٤١١

(٣) ولكن مع أنه حكيم يدعو إلى كل خلق كريم وينهى عن كل خلق لئيم، أكثر الناس محرومون من الاهتداء به، معرضون عن الإيمان والعمل به؛ إلا من وفقه الله تعالى وعصمه، وهم المحسنون في عبادة ربهم، والمحسنون إلى الخلق؛ فإنه ﴿هُدًى﴾: لهم يهديهم إلى الصراط المستقيم، ويحذرهم من طرق الجحيم. ﴿وَرَحْمَةً﴾: لهم تحصل لهم به السعادة في الدنيا والآخرة والخير الكثير والثواب الجزيل والفرح والسرور، ويندفع عنهم الضلال والشقاء.

(٤) ثم وصف المحسنين بالعلم التام، وهو اليقين الموجب للعمل والخوف من عقاب الله، فيتركون معاصيه، ووصفهم بالعمل، وخص من العمل عملين فاضلين: ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المشتملة على الإخلاص، ومناجاة الله تعالى، والتعبد العام للقلب واللسان والجوارح المعينة على سائر الأعمال. ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: التي تزكي صاحبها من الصفات الرذيلة، وتنفع أخاه المسلم وتسد

حاجتـه، ويبيـن بهـا أن العبـد يؤثـر محبـة الله علـى محبته للمـال، فيخـرج محبوبه مـن المال لما هو أحـب إليه، وهو طلب مرضاة الله.

(٥) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾: المحسـنون الجامعون بيـن العلم التام والعمـل ﴿ عَلَىٰ هُدًى ﴾؛ أي: عظيم كما يفيده التنكير، وذلك الهـدى حاصل لهـم وواصل إليهـم ﴿ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾: الذي لم يـزل يربيهم بالنعـم ويدفع عنهـم النقم، وهـذا الهدى الذي أوصله إليهم مـن تربيته الخاصة بأوليائـه، وهو أفضل أنواع التربيـة. ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٥) ﴾: الذيـن أدركوا رضا ربهـم وثوابـه الدنيـوي والأخـروي، وسـلموا مـن سـخطه وعقابـه، وذلك لسـلوكهم طريق الفلاح، الـذي لا طريق له غيرها.

ولمـا ذكر تعالـى المهتدين بالقـرآن المقبليـن عليه؛ ذكر مـن أعـرض عنه ولم يرفع به رأسًـا، وأنـه عوقب على ذلك بـأن تعوض عنـه كل باطل مـن القول، فترك أعلـى الأقوال وأحسـن الحديث، واستبدل به أسـفل قول وأقبحه؛ فلذلك قال:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٦) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ (٨) خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٩) ﴾.

(٦) أي: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن ﴾: هـو محـروم مخـذول ﴿ يَشْتَرِى ﴾؛ أي: يختـار ويرغـب رغبـة مـن يبـذل الثمـن فـي الشـيء، ﴿ لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾؛ أي: الأحاديـث الملهيـة للقلـوب، الصادة لها عن أجلِّ مطلـوب، فدخل في هذا كل كلام محرم وكل لغو وباطل وهذيان؛ مـن الأقوال المرغبة فـي الكفـر والفسـوق والعصيان، ومـن أقـوال الرادين على الحق المجادليـن بالباطـل ليدحضوا بـه الحق، ومـن غيبة ونميمة وكذب وشـتم وسـب، ومـن غناء ومزامير شـيطان. ومـن الماجريـات الملهية التي لا نفع فيهـا في دين ولا دنيا؛ فهـذا الصنـف مـن النـاس ﴿ يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ عن هـدي الحديـث ﴿ لِيُضِلَّ ﴾ النـاس ﴿ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾؛ أي: بعدمـا ضـل في فعله أضل غيـره؛ لأن الإضلال ناشـئ عـن الضـلال، وإضلاله في هـذا الحديـث صده عن الحديـث النافـع والعمـل النافـع والحـق المبيـن والصراط المسـتقيم، ولا يتـم لـه هذا حتـى يقدح في الهـدى والحق، الـذي جاءت به آيـات الله ويتخذها هزوًا، يسـخر بها وبمن جـاء بها؛ فـإذا جمع بين مدح الباطـل والترغيب فيه والقدح فـي الحق والاسـتهزاء بـه وبأهله؛ أضـل من لا علـم عنده، وخدعه بما يوحيه إليه من القول الذي لا يميزه ذلك الضال، ولا يعـرف حقيقتـه، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٦) ﴾: بمـا ضلـوا، وأضلوا، واسـتهزءوا بآيات اللـه، وكذبوا الحق الواضـح.

(٧) ولهـذا قـال: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا ﴾: ليؤمـن بهـا وينقاد لها، ﴿ وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا ﴾؛ أي: أدبر إدبار مستكبر عنها راد لهـا ولـم تدخل قلبه ولا أثرت فيه بـل أدبر عنها ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾، بـل: ﴿ كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾؛ أي: صممًـا لا تصـل إليها الأصوات؛ فهذا لا حيلة في هدايته. ﴿ فَبَشِّرْهُ ﴾: بشـارة تؤثـر فـي قلبـه الحـزن والغم، وفـي بشـرته السـوء والظلمة والغبـرة، ﴿ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧) ﴾: مؤلم لقلبه ولبدنه، لا يقادر قـدره، ولا يـدرى بعظيـم أمره؛ فهذه بشـارة أهل الشـر؛ فلا نعمت البشارة.

(٨)، (٩) وأمـا بشـارة أهـل الخيـر؛ فقـال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾: جمعـوا بيـن عبـادة الباطـن بالإيمـان والظاهـر بالإسـلام والعمل الصالـح، ﴿ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ (٨) ﴾: بشـارة لهم بما قدمـوه وقِرًى لهم بما أسـلفوه ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾؛ أي: فـي جنـات النعيم نعيـم القلب والروح والبـدن. ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ﴾: لا يمكـن أن يخلف ولا يغير ولا يتبـدل. ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٩) ﴾: كامـل العـزة، كامل الحكمـة، من عزته وحكمته، وفق من وفق، وخذل من خذل بحسب ما اقتضاه علمه فيهم وحكمته.

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (١١) ﴾.

(١٠) يتلـو تعالـى على عبـاده آثارًا من آثـار قدرتـه وبدائع مـن بدائع حكمتـه ونعمًا من آثار رحمتـه، فقال: ﴿ خَلَقَ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾: السبع على عظمها وسعتها وكثافتها وارتفاعها الهائل ﴿ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ﴾؛ أي: ليس لها عمد، ولو كان لها عمد؛ لرئيت، وإنما استقرت، واستمسكت بقدرة الله تعالى، ﴿ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ ﴾؛ أي: جبالًا عظيمة ركزها في أرجائها وأنحائها لئلا ﴿ تَمِيدَ بِكُمۡ ﴾؛ فلولا الجبال الراسيات؛ لمادت الأرض ولما استقرت بساكنيها، ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ ﴾؛ أي: نشر في الأرض الواسعة من جميع أصناف الدواب التي هي مسخرة لبني آدم ولمصالحهم ومنافعهم، ولمَّا بثها في الأرض؛ علم تعالى أنه لا بد لها من رزق تعيش به، فأنزل من السماء ماء مباركًا، ﴿ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ١٠ ﴾: المنظر، نافع، مبارك، فرتعت فيه الدواب المنبثة، وسكن إليه كل حيوان.

(١١) ﴿ هَٰذَا ﴾؛ أي: خلق العالم العلوي والسفلي من جماد وحيوان وسوق أرزاق الخلق إليهم، ﴿ خَلۡقُ ٱللَّهِ ﴾: وحده لا شريك له، كل مقر بذلك، حتى أنتم يا معشر المشركين، ﴿ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ ﴾؛ أي: الذين جعلتموهم له شركاء تدعونهم وتعبدونهم، يلزم على هذا أن يكون لهم خلق كخلقه ورزق كرزقه؛ فإن كان لهم شيء من ذلك؛ فأرونيه؛ ليصح ما ادعيتم فيهم من استحقاق العبادة. ومن المعلوم أنهم لا يقدرون أن يُروه شيئًا من الخلق لها؛ لأن جميع المذكورات قد أقروا أنها خلق الله وحده، ولا ثم شيء يعلم غيرها، فثبت عجزهم عن إثبات شيء لها تستحق به أن تعبد، ولكن عبادتهم إياها عن غير علم وبصيرة، بل عن جهل وضلال، ولهذا قال: ﴿ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ١١ ﴾؛ أي: جلي واضح؛ حيث عبدوا من لا يملك نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، وتركوا الإخلاص للخالق الرازق المالك لكل الأمور.

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ١٢ وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ١٤ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَا ﴾ إلى آخر القصة.

وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا
يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ١٢ وَإِذۡ قَالَ
لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ
لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ
وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ
إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ١٤ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ
لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ
وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم
بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٥ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ
خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ
بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ
بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ
مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ
مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ
وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩

(١٢) يخبر تعالى عن امتنانه على عبده الفاضل لقمان بالحكمة، وهي العلم بالحق على وجهه وحكمته؛ فهي العلم بالأحكام، ومعرفة ما فيها من الأسرار والأحكام؛ فقد يكون الإنسان عالمًا ولا يكون حكيمًا، وأما الحكمة؛ فهي مستلزمة للعلم، بل وللعمل، ولهذا فسرت الحكمة بالعلم النافع والعمل الصالح. ولما أعطاه الله هذه المنة العظيمة؛ أمره أن يشكره على ما أعطاه؛ ليبارك له فيه، وليزيده من فضله، وأخبره أن شكر الشاكرين يعود نفعه عليهم، وأن من كفر فلم يشكر الله؛ عاد وبال ذلك عليه، والله غني عنه حميد فيما يقدره ويقضيه على من خالف أمره؛ فغناه تعالى من لوازم ذاته، وكونه حميدًا في صفات كماله حميدًا في جميل صنعه من لوازم ذاته، وكل واحد من الوصفين صفة كمال، واجتماع أحدهما إلى الآخر زيادة كمال إلى كمال.

واختلف المفسرون هل كان لقمان نبيًّا أو عبدًا صالحًا، والله تعالى لم يذكر عنه إلا أنه آتاه الحكمة، وذكر بعض

مـا يـدل على حكمته فـي وعظه لابنه، فذكر أصـول الحكمة وقواعدها الكبار، فقال:

﴿١٣﴾ ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ ﴾؛ أو: قال له قولًا به يعظه، والوعظ: الأمر والنهي المَقْرُونُ بالترغيب والترهيب؛ فأمره بالإخلاص ونهاه عن الشرك وبين له السبب في ذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾: ووجه كونه عظيمًا أنه لا أفظع وأبشع ممن سوَّى المخلوق من تراب بمالك الرقاب، وسوَّى الذي لا يملك من الأمر شيئًا بمالك الأمر كله، وسوَّى الناقص الفقير من جميع الوجوه بالرب الكامل الغني من جميع الوجوه، وسوَّى من لم ينعم بمثقال ذرة من النعم، بالذي ما بالخلق من نعمة في دينهم ودنياهم وأخراهم وقلوبهم وأبدانهم إلا منه، ولا يصرف السوء إلا هو؛ فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟! وهل أعظم ظلمًا ممن خلقه الله لعبادته وتوحيده، فذهب بنفسه الشريفة، فجعلها في أخس المراتب، جعلها عابدة لمن لا يسوى شيئًا، فظلم نفسه ظلمًا كبيرًا؟!

﴿١٤﴾ ولما أمر بالقيام بحقه بترك الشرك الذي من لوازمه القيام بالتوحيد؛ أمر بالقيام بحق الوالدين، فقال: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ ﴾؛ أي: عهدنا إليه وجعلناه وصية عنده سنسأله عن القيام بها وهل حفظها أم لا؟ فوصيناه ﴿بِوَٰلِدَيْهِ ﴾، وقلنا له: ﴿ٱشْكُرْ لِى ﴾: بالقيام بعبوديتي وأداء حقوقي وألَّا تستعين بنعمي على معصيتي ﴿وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾: بالإحسان إليهما بالقول اللين والكلام اللطيف والفعل الجميل والتواضع لهما وإكرامهما وإجلالهما والقيام بمئونتهما واجتناب الإساءة إليهما من كل وجه بالقول والفعل، فوصيناه بهذه الوصية وأخبرناه أن ﴿إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾؛ أي: سترجع أيها الإنسان إلى من وصاك وكَلَّفك بهذه الحقوق، فيسألك: هل قمت بها فيثيبك الثواب الجزيل، أم ضيعتها فيعاقبك العقاب الوبيل؟! ثم ذكر السبب الموجب لبر الوالدين في الأم، فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾؛ أي: مشقة على مشقة؛ فلا تزال تلاقي المشاق من حين يكون نطفة؛ من الوحم والمرض، والضعف، والثقل، وتغير الحال، ثم وجع الولادة، ذلك الوجع الشديد. ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ﴾: وهو ملازم لحضانة أمه وكفالتها ورضاعها. أفما يحسن بمن تحمل على ولده هذه الشدائد مع شدة الحب أن يؤكد على ولده، ويوصي إليه بتمام الإحسان إليه؟

﴿١٥﴾ ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ ﴾؛ أي: اجتهد والداك ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾: ولا تظن أن هذا داخل في الإحسان إليهما؛ لأن حق الله مقدم على حق كل أحد، و«**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**»، ولم يقل: وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم؛ فعُقَّهما، بل قال: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾؛ أي: في الشرك، وأما برهما؛ فاستمر عليه، ولهذا قال: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾؛ أي: صحبة إحسان إليهما بالمعروف، وأما اتباعهما وهما بحالة الكفر والمعاصي؛ فلا تتبعهما، ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ﴾: وهم المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله، المستسلمون لربهم، المنيبون إليه، واتباع سبيلهم أن يسلك مسلكهم في الإنابة إلى الله، التي هي انجذاب دواعي القلب وإراداته إلى الله، ثم يتبعها سعي البدن فيما يرضي الله ويقرب منه، ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾: الطائع والعاصي والمنيب وغيره، ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾: فلا يخفى على الله من أعمالهم خافية.

﴿١٦﴾ ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾: التي هي أصغر الأشياء وأحقرها ﴿فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ ﴾؛ أي: في وسطها، ﴿أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾: في أي جهة من جهاتهما؛ ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ﴾: لسعة علمه وتمام خبرته وكمال قدرته، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾؛ أي: لطف في علمه وخبرته، حتى اطلع على البواطن والأسرار وخفايا القفار والبحار. والمقصود من هذا الحث على مراقبة الله والعمل بطاعته مهما أمكن، والترهيب من عمل القبيح قلَّ أو كثر.

﴿١٧﴾ ﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾: حثه عليها وخصها لأنها أكبر العبادات البدنية، ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾: وذلك يستلزم العلم بالمعروف؛ ليأمر به، والعلم بالمنكر؛ لينهى عنه، والأمر بما لا يتم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر إلا به، من الرفق والصبر، وقد صرح به في قوله: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾: ومن كونه فاعلًا لما يأمر به، كافًّا لما يُنهى عنه، فتضمن هذا تكميلَ نفسه بفعل الخير وترك الشر، وتكميلَ غيره بذلك بأمره ونهيه. ولما علم أنه لا بد أن يبتلى إذا أمر ونهى وأن في الأمر والنهي مشقة على النفوس؛ أمره بالصبر على ذلك، فقال: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ ﴾: الذي وعظ به لقمان ابنه ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾؛

أي: من الأمور التي يُعْزَمُ عليها، ويهتم بها، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم.

(١٨) ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾؛ أي: لا تمله وتعبس بوجهك للناس تكبرًا عليهم وتعاظمًا، ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾؛ أي: بطرًا فخرًا بالنعم ناسيًا المنعم معجبًا بنفسك. ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ ﴾: في نفسه وهيئته وتعاظمه ﴿ فَخُورٍ (١٨) ﴾: بقوله.

(١٩) ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾؛ أي: امش متواضعًا مستكينًا لا مشي البطر والتكبر ولا مشي التماوت، ﴿ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾: أدبًا مع الناس ومع الله، ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ ﴾؛ أي: أفظعها وأبشعها ﴿ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) ﴾: فلو كان في رفع الصوت البليغ فائدة ومصلحة؛ لما اختص بذلك الحمار الذي قد علمت خسته وبلادته.

وهذه الوصايا التي وصى بها لقمان لابنه؛ تجمع أمهات الحكم، وتستلزم ما لم يُذكر منها، وكل وصية يقرن بها ما يدعو إلى فعلها إن كانت أمرًا وإلى تركها إن كانت نهيًا، وهذا يدل على ما ذكرنا في تفسير الحكمة: أنها العلم بالأحكام وحِكَمِهَا ومناسباتها: فأمَرَه بأصل الدين وهو التوحيد، ونهاه عن الشرك، وبين له الموجب لتركه. وأمره ببر الوالدين، وبين له السبب الموجب لبرهما، وأمره بشكره وشكرهما، ثم احترز بأن محل برهما وامتثال أوامرهما ما لم يأمرا بمعصية، ومع ذلك؛ فلا يعقهما، بل يحسن إليهما، وإن كان لا يطيعهما إذا جاهداه على الشرك. وأمره بمراقبة الله وخوفه القدوم عليه، وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من الخير والشر إلا أتى بها، ونهاه عن التكبر. وأمره بالتواضع ونهاه عن البطر والأشر والمرح. وأمره بالسكون في الحركات والأصوات، ونهاه عن ضد ذلك. وأمره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الصلاة وبالصبر اللذين يسهل بهما كل أمر؛ كما قال تعالى: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ [البقرة: ٤٥]. فحقيق بمن أوصى بهذه الوصايا أن يكون مخصوصًا بالحكمة مشهورًا بها، ولهذا من منة الله عليه وعلى سائر عباده أن قص عليهم من حكمته ما يكون لهم به أسوة حسنة.

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١) ﴾.

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١) ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢) وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦) وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨)

(٢٠، ٢١) يمتن تعالى على عباده بنعمه، ويدعوهم إلى شكرها ورؤيتها وعدم الغفلة عنها، فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا ﴾؛ أي: تشاهدوا وتبصروا بأبصاركم وقلوبكم، ﴿ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ ﴾: من الشمس والقمر والنجوم كلها مسخرات لنفع العباد، ﴿ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾: من الحيوانات والأشجار والزروع والأنهار والمعادن ونحوها؛ كما قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة: ٢٩]، ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ ﴾؛ أي: عمكم وغمركم بوافر[1] ﴿ نِعَمَهُ ﴾ الظاهرة والباطنة؛ التي نعلم بها والتي تخفى علينا؛ نعم الدنيا ونعم الدين، حصول المنافع ودفع المضار؛ فوظيفتكم أن تقوموا بشكر هذه النعم بمحبة المنعم والخضوع له وصرفها في الاستعانة على طاعته وألَّا يستعان بشيء منها على معصيته.

(١) عبارة: «أي: عمكم وغمركم بوافر» سقطت من ع، و«بوافر» من ط.

ولكن مع توالي هذه النعم فإن[1] من ﴿ٱلنَّاسِ مَن﴾: لم يشكرها، بل كفرها، وكفر بمن أنعم بها، وجحد الحق الذي أنزل به كتبه، وأرسل به رسله، فجعل ﴿يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾؛ أي: يجادل عن الباطل ليدحض به الحق، ويدفع به ما جاء به الرسول من الأمر بعبادة الله وحده، وهذا المجادل يجادل ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ وعلى غير بصيرة؛ فليس جداله عن علم؛ فيترك وشأنه، ويسمح له في الكلام. ﴿وَلَا هُدٗى﴾: يقتدي به بالمهتدين ﴿وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٢٠﴾؛ أي نيّر مبين للحق؛ فلا معقول ولا منقول ولا اقتداء بالمهتدين، وإنما جداله في الله مبني على تقليد آباء غير مهتدين، بل ضالين مضلين، ولهذا قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: على أيدي رسله؛ فإنه الحق، وبينت لهم أدلته الظاهرة، ﴿قَالُواْ﴾ معارضين ذلك: ﴿بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾: فلا نترك ما وجدنا عليه آباءنا لقول أحد كائنًا من كان. قال تعالى في الرد عليهم وعلى آبائهم: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٢١﴾؛ أي: فاستجاب له آباؤهم، ومشوا خلفه، وصاروا من تلاميذ الشيطان، واستولت عليهم الحيرة؛ فهل هذا موجب لاتباعهم لهم ومشيهم على طريقتهم؟! أم ذلك يرهبهم من سلوك سبيلهم، وينادي على ضلالهم وضلال من تبعهم؟! وليس دعوة الشيطان لآبائهم ولهم محبة لهم ومودة، وإنما ذلك عداوة لهم ومكر لهم، وبالحقيقة أتباعه من أعدائه الذين تمكن منهم، وظفر بهم، وقرت عينه باستحقاقهم عذاب السعير بقبول دعوته.

﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٢٢ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٢٣ نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ٢٤﴾.

٢٢ ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: يخضع له وينقاد له بفعل الشرائع مخلصًا له دينه، ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾: في ذلك الإسلام؛ بأن كان عمله مشروعًا، قد اتبع فيه الرسول ﷺ، أو: ومن يسلم وجهه إلى الله بفعل جميع العبادات وهو محسن فيها؛ بأن يعبد الله كأنه يراه؛ فإن لم يكن يراه؛ فإنه يراه. أو: ومن يسلم وجهه إلى الله بالقيام بحقوقه، وهو محسن إلى عباد الله، قائم بحقوقهم، والمعاني متلازمة، لا فرق بينها إلا من جهة اختلاف مورد اللفظتين، وإلا؛ فكلها متفقة على القيام بجميع شرائع الدين على وجه تقبل به وتكمل؛ فمن فعل ذلك؛ ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾؛ أي: بالعروة التي من تمسك بها؛ توثق ونجا وسلم من الهلاك وفاز بكل خير، ومن لم يسلم وجهه لله، أو: لم يحسن؛ لم يستمسك بالعروة الوثقى، وإذا لم يستمسك بالعروة الوثقى؛ لم يكن ثَمَّ إلا الهلاك والبوار. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٢٢﴾؛ أي: رجوعها وموئلها ومنتهاها، فيحكم في عباده ويجازيهم بما آلت إليه أعمالهم، ووصلت إليه عواقبهم، فليستعدوا لذلك الأمر.

٢٣ ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓ﴾: لأنك أديت ما عليك من الدعوة والبلاغ؛ فإذا لم يهتد؛ فقد وجب أجرك على الله، ولم يبق للحزن موضع على عدم اهتدائه؛ لأنه لو كان فيه خير؛ لهداه الله، ولا تحزن أيضًا على كونهم تجرءوا عليك بالعداوة، ونابذوك المحاربة، واستمروا على غيهم وكفرهم، ولا تتحرق عليهم بسبب أنهم ما بودروا بالعذاب، فإن ﴿إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾: من كفرهم وعداوتهم وسعيهم في إطفاء نور الله وأذى رسله. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٢٣﴾: التي ما نطق بها الناطقون؛ فكيف بما ظهر وكان شهادة؟!

٢٤ ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا﴾: في الدنيا؛ ليزداد إثمهم ويتوفر عذابهم. ﴿ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ﴾؛ أي: نلجئهم ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ٢٤﴾؛ أي: انتهى في عظمه وكبره وفظاعته وألمه وشدته.

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٥ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٦ وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٧ مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ٢٨﴾.

٢٥ أي: ﴿وَلَئِن﴾ سألت هؤلاء المشركين المكذبين بالحق: ﴿مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾: لعلموا أن أصنامهم ما خلقت شيئًا من ذلك، ولبادروا بقولهم: ﴿ٱللَّهُ﴾: الذي خلقهما وحده، ﴿قُلِ﴾ لهم ملزمًا لهم ومحتجًا عليهم بما

(١) ساقط من ع، ط.

أقروا به على ما أنكروا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: الذي بين النور وأظهر الاستدلال عليكم من أنفسكم؛ فلو كانوا يعلمون؛ لجزموا أن المنفرد بالخلق والتدبير هو الذي يفرد بالعبادة والتوحيد، ولكن ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾: فلذلك أشركوا به غيره، ورضوا بتناقض ما ذهبوا إليه على وجه الحيرة والشك لا على وجه البصيرة.

﴿٢٦﴾ ثم ذكر في هاتين الآيتين نموذجًا من سعة أوصاف الله سبحانه؛ ليدعو عباده إلى معرفته ومحبته وإخلاص الدين له، فذكر عموم ملكه، وأن جميع ما في السماوات والأرض -وهذا شامل لجميع العالم العلوي والسفلي- أنه ملكه، يتصرف فيهم بأحكام الملك القدرية وأحكامه الأمرية وأحكامه الجزائية؛ فكلهم عبيد مماليك مدبَّرون مسخَّرون، ليس لهم من الملك شيء، وأنه واسع الغنى؛ فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه أحد من الخلق، ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ [الذاريات: ٥٧]، وأن أعمال النبيين والصديقين والشهداء والصالحين لا تنفع الله شيئًا، وإنما تنفع عامليها، والله غني عنهم وعن أعمالهم، ومن غناه أن أغناهم وأقناهم في دنياهم وأخراهم.

ثم أخبر تعالى عن سعة حمده، وأن حمده من لوازم ذاته؛ فلا يكون إلا حميدًا من جميع الوجوه؛ فهو حميد في ذاته، وهو حميد في صفاته؛ فكل صفة من صفاته يستحق عليها أكمل حمد وأتمه؛ لكونها صفات عظمة وكمال، وجميع ما فعله وخلقه يحمد عليه، وجميع ما أمر به ونهى عنه يحمد عليه، وجميع ما حكم به في العباد وبين العباد في الدنيا والآخرة يحمد عليه.

﴿٢٧﴾ ثم أخبر عن سعة كلامه وعظمة قوله بشرح يبلغ من القلوب كل مبلغ، وتنبهر له العقول وتحير فيه الأفئدة وتسيح في معرفته أولو الألباب والبصائر، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾: يكتب بها، ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾: مدادًا يستمد بها؛ لتكسرت تلك الأقلام، ولفني ذلك المداد، ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾: وهذا ليس مبالغة لا حقيقة له، بل لما علم تبارك وتعالى أن العقول تتقاصر عن الإحاطة ببعض صفاته، وعلم تعالى أن معرفته لعباده أفضل نعمة أنعم بها عليهم وأجلّ منقبة حصلوها، وهي لا تمكن على وجهها، ولكن ما لا يدرك كله، لا يترك كله، فنبههم تعالى على بعضها تنبيهًا تستنير به قلوبهم، وتنشرح له صدورهم، ويستدلون بما وصلوا إليه إلى ما لم يصلوا إليه، ويقولون كما قال أفضلهم، وأعلمهم بربه: «**لا نحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»، وإلا فالأمر أجل من ذلك وأعظم.

وهذا التمثيل من باب تقريب المعنى الذي لا يطاق الوصول إليه إلى الأفهام والأذهان، وإلا؛ فالأشجار وإن تضاعفت على ما ذكر أضعافًا كثيرة، والبحور لو امتدت بأضعاف مضاعفة؛ فإنه يتصور نفادها وانقضاؤها؛ لكونها مخلوقة، وأما كلام الله تعالى؛ فلا يتصور نفاده، بل دلنا الدليل الشرعي والعقلي على أنه لا نفاد له ولا منتهى؛ فكل شيء ينتهي إلا الباري وصفاته، ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم: ٤٢]، وإذا تصور العقل حقيقة أوليته تعالى وآخريته، وأن كل ما فرضه الذهن من الأزمان السابقة مهما تسلسل الفرض والتقدير؛ فهو تعالى قبل ذلك إلى غير نهاية، وأنه مهما فرض الذهن والعقل من الأزمان المتأخرة وتسلسل الفرض والتقدير وساعد على ذلك من ساعد بقلبه ولسانه؛ فالله تعالى بعد ذلك إلى غير غاية ولا نهاية، والله في جميع الأوقات يحكم ويتكلم ويقول ويفعل كيف أراد، وإذا أراد، لا مانع له من شيء من أقواله وأفعاله؛ فإذا تصور العقل ذلك؛ عرف أن المثل الذي ضربه الله لكلامه ليدرك العباد شيئًا منه، وإلا؛ فالأمر أعظم وأجل.

ثم ذكر جلالة عزته وكمال حكمته، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾؛ أي: له العزة جميعًا الذي ما في العالم العلوي والسفلي من القوة إلا هي منه، هو الذي أعطاها للخلق؛ فلا حول ولا قوة إلا به، وبعزته قهر الخلق كلهم، وتصرف فيهم ودبرهم، وبحكمته خلق الخلق، وابتدأه بالحكمة، وجعل غايته والمقصود منه الحكمة، وكذلك الأمر والنهي وجد بالحكمة، وكانت غايته المقصودة الحكمة؛ فهو الحكيم في خلقه وأمره.

﴿٢٨﴾ ثم ذكر عظمة قدرته وكمالها، وأنه لا يمكن أن يتصورها العقل، فقال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾: وهذا شيء يحير العقول: أن خلق جميع الخلق على كثرتهم وبعثهم بعد موتهم بعد تفرقهم في لمحة واحدة كخلقه نفسًا واحدة؛ فلا وجه لاستبعاد البعث والنشور

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ
وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ
مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ
ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ
كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ
فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ
﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ
عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ
حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ
ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ
وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا
وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾

سُورَةُ السَّجْدَةِ

والجزاء على الأعمال؛ إلا الجهل بعظمة الله وقوة قدرته. ثم ذكر عموم سمعه لجميع المسموعات وبصره لجميع المبصرات، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿٢٩﴾ وهذا فيه أيضًا انفراده بالتصرف والتدبير، وسعة تصرفه بإيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل؛ أي: إدخال أحدهما على الآخر؛ فإذا دخل أحدهما؛ ذهب الآخر، وتسخيره للشمس والقمر يجريان بتدبير ونظام لم يختل منذ خلقهما؛ ليقيم بذلك من مصالح العباد ومنافعهم في دينهم ودنياهم ما به يعتبرون وينتفعون، و﴿كُلٌّ﴾ منهما ﴿يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: إذا جاء ذلك الأجل؛ انقطع جريانهما وتعطل سلطانهما، وذلك في يوم القيامة حين تكور الشمس، ويخسف القمر، وتنتهي دار الدنيا، وتبتدئ الدار الآخرة. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: من خير وشر. ﴿خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾: لا يخفى عليه شيء من ذلك، وسيجازيكم على تلك الأعمال بالثواب للمطيعين والعقاب للعاصين.

﴿٣٠﴾ و﴿ذَٰلِكَ﴾: الذي بين لكم من عظمته وصفاته ما بيَّن ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾: في ذاته وفي صفاته، ودينه حق، ورسله حق، ووعده حق، ووعيده حق، وعبادته هي الحق. ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾: في ذاته وصفاته؛ فلولا إيجاد الله له؛ لما وجد، ولولا إمداده؛ لما بقي؛ فإذا كان باطلًا؛ كانت عبادته أبطل وأبطل. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾: بذاته فوق جميع مخلوقاته الذي علت صفاته عن أن يقاس بها صفات أحد من الخلق، وعلا على الخلق؛ فقهرهم ﴿ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾: الذي له الكبرياء في ذاته وصفاته، وله الكبرياء في قلوب أهل السماء والأرض.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿٣١﴾ أي: ألم تر من آثار قدرته ورحمته وعنايته بعباده أن سخر البحر تجري فيه الفلك بأمره القدري ولطفه وإحسانه؛ ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾: ففيها الانتفاع والاعتبار. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾ فهم المنتفعون بالآيات ﴿صَبَّارٍ﴾ على الضراء. ﴿شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾ على السراء، صبار على طاعة الله وعن معصيته وعلى أقداره، شكور لله على نعمه الدينية والدنيوية.

﴿٣٢﴾ وذكر تعالى حال الناس عند ركوبهم البحر وغشيان الأمواج كالظلل فوقهم أنهم يخلصون الدعاء لله والعبادة، ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾: انقسموا فريقين: ﴿فَمِنْهُم﴾ فريق ﴿مُّقْتَصِدٌ﴾؛ أي: لم يقم بشكر الله على وجه الكمال، بل هم مذنبون ظالمون لأنفسهم، وفريق كافر لنعمة الله جاحد لها، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾؛ أي: غدار، ومن غدره أنه عاهد ربه لئن أنجيتنا من البحر وشدته لنكونن من الشاكرين. فغدر هذا الفريق، ولم يف بذلك. وهو مع ذلك ﴿كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾: لنعم الله؛

فهل يليق بمن نجاهم الله من هذه الشدة إلا القيام التام بشكر نعم الله؟!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿٣٣﴾ يأمر تعالى الناس بتقواه، التي هي امتثال أوامره وترك زواجره، ويستلفتهم لخشية يوم القيامة، اليوم الشديد الذي فيه كل أحد لا يهمه إلا نفسه. فـ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾: لا يزيد في حسناته ولا ينقص من سيئاته، قد تم على كل عبد عمله، وتحقق عليه جزاؤه. فلفت النظر لهذا اليوم المهيل مما يقوي العبد ويسهل عليه تقوى الله، وهذا من رحمة الله بالعباد؛ يأمرهم بتقواه التي فيها سعادتهم، ويعدهم عليها الثواب، ويحذرهم من العقاب، ويزعجهم إليه بالمواعظ والمخوفات، فلك الحمد يا رب العالمين. ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾: فلا تمتروا فيه، ولا تعملوا عمل غير المصدق؛ فلهذا قال: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾: بزينتها وزخارفها وما فيها من الفتن والمحن. ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾: الذي هو الشيطان، الذي ما زال يخدع الإنسان، ولا يغفل عنه في جميع الأوقات؛ فإن لله على عباده حقًّا، وقد وعدهم موعدًا يجازيهم فيه بأعمالهم وهل وفوا حقه أم قصروا فيه؟ وهذا أمر يجب الاهتمام به، وأن يجعله العبد نصب عينيه ورأس مال تجارته التي يسعى إليه، ومن أعظم العوائق عنه والقواطع دونه الدنيا الفتانة والشيطان الموسوس المسول، فنهى تعالى عباده أن تغرهم الدنيا أو يغرهم بالله الغرور، ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النساء: ١٢٠].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿٣٤﴾ قد تقرر أن الله تعالى أحاط علمه بالغيب والشهادة والظواهر والبواطن، وقد يطلع الله عباده على كثير من الأمور الغيبية، وهذه الأمور الخمسة من الأمور التي طوى علمها عن جميع الخلق؛ فلا يعلمها نبي مرسل ولا ملك مقرب، فضلًا عن غيرهما، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾؛ أي: يعلم متى مرساها؛ كما قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ [الأعراف: ١٨٧] الآية، ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ﴾؛ أي: هو المنفرد بإنزاله، وعلم وقت نزوله، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾: فهو الذي أنشأ ما فيها، وعلم ما هو؛ هل هو ذكر أم أنثى؟

ولهذا يسأل الملك الموكل بالأرحام ربه: هل هو ذكر أم أنثى؟ فيقضي الله ما يشاء. ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾: من كسب دينها ودنياها، ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾: بل الله تعالى هو المختص بعلم ذلك جميعه. ولما خصص هذه الأشياء؛ عمم علمه بجميع الأشياء، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾: محيط بالظواهر والبواطن والخفايا والخبايا والسرائر، ومن حكمته التامة أن أخفى علم هذه الخمسة عن العباد؛ لأن في ذلك من المصالح ما لا يخفى على من تدبر ذلك.

تم تفسير سورة لقمان بفضل الله وعونه والحمد لله.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا
مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ
ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ
ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا
تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ
إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ
عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ
كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ
نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ
مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا
مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى
خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم
مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾

تفسير سورة السجدة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾﴾.

﴿٢﴾ يخبر تعالى أن هذا الكتاب الكريم تنزيل نزل من رب العالمين، الذي رباهم بنعمته، ومن أعظم ما رباهم به هذا الكتاب، الذي فيه كل ما يصلح أحوالهم ويتمم أخلاقهم، وأنه لا ريب فيه ولا شك ولا امتراء.

﴿٣﴾ ومع ذلك؛ قال المكذبون للرسول الظالمون في ذلك: افتراه محمد واختلقه من عند نفسه! وهذا من أكبر الجراءة على إنكار كلام الله، ورمي محمد ﷺ بأعظم الكذب، وقدرة الخلق على كلام مثل كلام الخالق، وكل واحد من هذه من الأمور العظائم، قال الله رادًّا على من قال: افتراه: ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾: الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴿مِن رَّبِّكَ﴾: أنزله رحمة للعباد، ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾؛ أي: هم في حال ضرورة وفاقة لإرسال الرسول وإنزال الكتاب لعدم النذير، بل هم في جهلهم يعمهون، وفي ظلمة ضلالهم يترددون، فأنزلنا الكتاب عليك، ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾﴾: من ضلالهم، فيعرفون الحق ويؤثرونه. وهذه الأشياء التي ذكرها الله كلها مناقضة لتكذيبهم له، وإنها تقتضي منهم الإيمان والتصديق التام به، وهو كونه من رب العالمين، وأنه حق، والحق مقبول على كل حال، وأنه ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ بوجه من الوجوه؛ فليس فيه ما يوجب الريبة؛ لا بخبر غير مطابق للواقع، ولا بخفاء واشتباه معانيه، وأنهم في ضرورة وحاجة إلى الرسالة، وأن فيه الهداية لكل خير وإحسان.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿٤﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته بأنه ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، أولها يوم الأحد، وآخرها الجمعة، مع قدرته على خلقها بلحظة، ولكنه تعالى رفيق حكيم، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: الذي هو سقف المخلوقات استواء يليق بجلاله، ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ﴾: يتولاكم في أموركم فينفعكم ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾: يشفع لكم إن توجه عليكم العقاب. ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾: فتعلمون أن خالق الأرض والسماوات، المستوي على العرش العظيم، الذي انفرد بتدبيركم وتوليكم، وله الشفاعة كلها، هو المستحق لجميع أنواع العبادة!

﴿٥﴾ ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾: القدري والأمر الشرعي، الجميع هو المنفرد بتدبيره، نازلة تلك التدابير من عند الملك القدير، ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾: فيسعد بها ويشقي، ويغني ويفقر، ويعز ويذل ويكرم ويهين، ويرفع أقوامًا ويضع آخرين، وينزل الأرزاق، ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾؛ أي: الأمر ينزل من عنده، ويعرج إليه ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ﴾: وهو يعرج إليه، ويصله في لحظة.

﴿٦﴾ ﴿ ذَٰلِكَ ﴾: الذي خلق تلك المخلوقات العظيمة، الذي استوى على العرش العظيم، وانفرد بالتدابير في المملكة، ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ﴾: فبسعة علمه وكمال عزته وعموم رحمته أوجدها، وأودع فيها من المنافع ما أودع، ولم يعسر عليه تدبيرها.

﴿٧﴾ ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾؛ أي: كل مخلوق خلقه الله؛ فإن الله أحسن خلقه، وخلقه خلقًا يليق به ويوافقه؛ فهذا عام، ثم خص الآدمي لشرفه وفضله، فقال: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ﴾: وذلك بخلق آدم عليه السلام أبي البشر.

﴿٨﴾ ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ ﴾؛ أي: ذرية آدم ناشئة ﴿سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ﴾: وهو النطفة المستقذرة الضعيفة.

﴿٩﴾ ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ ﴾ بلحمه وأعضائه وأعصابه وعروقه، وأحسن خِلقته، ووضع كل عضو منه بالمحل الذي لا يليق به غيره، ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ﴾: بأن أرسل إليه الملك؛ فينفخ فيه الروح، فيعود بإذن الله حيوانًا بعد أن كان جمادًا، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾؛ أي: ما زال يعطيكم من المنافع شيئًا فشيئًا حتى أعطاكم السمع والأبصار ﴿ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾: الذي خلقكم، وصوركم.

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿١٠﴾ أي: قال المكذبون بالبعث على وجه الاستبعاد: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي: بلينا وتمزقنا وتفرقنا في المواضع التي لا تعلم، ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾؛ أي: لمبعوثون بعثًا جديدًا؛ بزعمهم أن هذا من أبعد الأشياء! وذلك بقياسهم قدرة الخالق على قدرهم، وكلامهم هذا ليس لطلب الحقيقة، وإنما هو ظلم وعناد وكفر بلقاء ربهم وجحد، ولهذا قال: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾: فكلامهم عُلم مصدره وغايته، وإلا؛ فلو كان قصدهم بيان الحق لبين لهم من الأدلة القاطعة على ذلك ما يجعله مشاهدًا للبصيرة بمنزلة الشمس للبصر، ويكفيهم أنهم عندهم علم أنهم قد ابتُدئوا من العدم؛ فالإعادة أسهل من الابتداء، وكذلك الأرض الميتة ينزل الله عليها المطر فتحيا بعد موتها، وينبت به متفرق بذورها.

﴿١١﴾ ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾؛ أي: جعله الله وكيلًا على قبض الأرواح، وله أعوان، ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾: فيجازيكم بأعمالكم، وقد أنكرتم البعث؛ فانظروا ماذا يفعل الله بكم.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿١٢﴾ لما ذكر تعالى رجوعهم إليه يوم القيامة؛ ذكر حالهم في مقامهم بين يديه، فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾: الذين أصروا على الذنوب العظيمة، ﴿نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾: خاشعين خاضعين، أذلاء مقرين بجرمهم، سائلين الرجعة قائلين: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾؛ أي: بان لنا الأمر ورأيناه عيانًا، فصار عين يقين، ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾؛ أي: صار عندنا الآن يقين بما كنا نكذب به؛ أي: لرأيت أمرًا فظيعًا وحالًا مزعجة وأقوامًا خاسرين وسؤالًا غير مجاب؛ لأنه قد مضى وقت الإمهال.

﴿١٣﴾ وكل هذا بقضاء الله وقدره؛ حيث خلى بينهم وبين الكفر والمعاصي؛ فلهذا قال: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾؛ أي: لهدينا الناس كلهم وجمعناهم على الهدى، فمشيئتنا صالحة لذلك، ولكن الحكمة تأبى أن يكونوا كلهم على الهدى، ولهذا قال: ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى ﴾؛ أي: وجب

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾

وثبت ثبوتًا لا تغير فيه، ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ ﴾: فهذا الوعد لا بد منه ولا محيد عنه؛ فلا بد من تقرير أسبابه من الكفر والمعاصي.

﴿١٤﴾ ﴿ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ ﴾؛ أي: يقال للمجرمين الذين ملكهم الذل، وسألوا الرجعة إلى الدنيا؛ ليستدركوا ما فاتهم: قد فات وقت الرجوع، ولم يبق إلا العذاب، فذوقوا العذاب الأليم بما نسيتم لقاء يومكم هذا، وهذا النسيان نسيان ترك؛ أي: بما أعرضتم عنه، وتركتم العمل له، وكأنكم غير قادمين عليه ولا ملاقيه. ﴿ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ﴾؛ أي: تركناكم بالعذاب جزاء من جنس عملكم؛ فكما نَسيتم نُسيتم، ﴿ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ ﴾؛ أي: العذاب غير المنقطع؛ فإن العذاب إذا كان له أجل وغاية؛ كان فيه بعض التنفيس والتخفيف، وأما عذاب جهنم - أعاذنا الله منه - فليس فيه روح راحة ولا انقطاع لعذابهم فيها؛ ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾: من الكفر والفسوق والمعاصي.

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿١٥﴾ لما ذكَّر تعالى الكافرين بآياته وما أعدَّ لهم من العذاب؛ ذكر المؤمنين بها ووصفهم وما أعد لهم من الثواب، فقال: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾؛ أي: إيمانًا حقيقيًّا من يوجد منه شواهد الإيمان، وهم ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا ﴾، فتليت عليهم آيات القرآن، وأتتهم النصائح على أيدي رسل الله، ودعوا إلى التذكر؛ سمعوها فقبلوها وانقادوا و﴿ خَرُّوا۟ سُجَّدًا ﴾؛ أي: خاضعين لها خضوع ذكر لله وفرح بمعرفته، ﴿ وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾: لا بقلوبهم ولا بأبدانهم فيمتنعون من الانقياد لها، بل متواضعون لها، قد تلقوها بالقبول وقابلوها بالانشراح، وتوصلوا بها إلى مرضاة الرب الرحيم، واهتدوا بها إلى الصراط المستقيم.

﴿١٦﴾ ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾؛ أي: ترتفع جنوبهم وتنزعج عن مضاجعها اللذيذة إلى ما هو ألذ عندهم منه وأحب إليهم، وهو الصلاة في الليل ومناجاة الله تعالى، ولهذا قال: ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾؛ أي: في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية ودفع مضارِّهما ﴿ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾؛ أي: جامعين بين الوصفين؛ خوفًا أن ترد أعمالهم، وطمعًا في قبولها؛ خوفًا من عذاب الله، وطمعًا في ثوابه، ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ﴾: من الرزق قليلًا أو كثيرًا، ﴿ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾: ولم يذكر قيد النفقة، ولا المنفق عليه؛ ليدل على العموم؛ فإنه يدخل فيه النفقة الواجبة؛ كالزكوات والكفارات ونفقة الزوجات والأقارب، والنفقة المستحبة في وجوه الخير، والنفقة والإحسان المالي خير مطلقًا؛ سواء وافق فقيرًا أو غنيًّا، قريبًا أو بعيدًا، ولكن الأجر يتفاوت بتفاوت النفع، فهذا عملهم.

﴿١٧﴾ وأما جزاؤهم؛ فقال: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ ﴾: يدخل فيه جميع نفوس الخلق؛ لكونه نكرة في سياق النفي؛ أي:

فلا يعلم أحد ﴿ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ ﴾: من الخير الكثير والنعيم الغزير والفرح والسرور واللذة والحبور؛ كما قال تعالى على لسان رسوله: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[1]؛ فكما صلوا في الليل ودعوا وأخفوا العمل؛ جازاهم من جنس عملهم، فأخفى أجرهم، ولهذا قال: ﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧ ﴾.

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ١٨ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٩ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٠ ﴾.

١٨ ينبه تعالى العقول على ما تقرر فيها من عدم تساوي المتفاوتين المتباينين، وأن حكمته تقتضي عدم تساويهما، فقال: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا ﴾: قد عمر قلبه بالإيمان، وانقادت جوارحه لشرائعه، واقتضى إيمانه آثاره وموجباته من ترك مساخط الله التي يضر وجودها بالإيمان، ﴿ كَمَن كَانَ فَاسِقٗا ﴾: قد خرب قلبه وتعطل من الإيمان، فلم يكن فيه وازع ديني، فأسرعت جوارحه بموجبات الجهل والظلم في كل إثم ومعصية، وخرج بفسقه عن طاعة ربه، أفيستوي هذان الشخصان؟! ﴿ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ١٨ ﴾: عقلًا وشرعًا؛ كما لا يستوي الليل والنهار والضياء والظلمة، وكذلك لا يستوي ثوابهما في الآخرة.

١٩ ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾: من فروض ونوافل، ﴿ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴾؛ أي: الجنات التي هي مأوى اللذات، ومعدن الخيرات، ومحل الأفراح، ونعيم القلوب والنفوس والأرواح، ومحل الخلود، وجوار الملك المعبود، والتمتع بقربه والنظر إلى وجهه وسماع خطابه، ﴿ نُزُلَۢا ﴾: لهم؛ أي: ضيافة وقرى؛ ﴿ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٩ ﴾: فأعمالهم التي تفضل الله بها عليهم هي التي أوصلتهم لتلك المنازل الغالية العالية، التي لا يمكن التوصل إليها ببذل الأموال، ولا بالجنود والخدم، ولا بالأولاد، بل ولا بالنفوس والأرواح، ولا يتقرب إليها بشيء أصلًا سوى الإيمان والعمل الصالح.

٢٠ ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ﴾؛ أي: مقرهم ومحل خلودهم النار، التي جمعت كل عذاب وشقاء، ولا يفتر عنهم العقاب ساعة، ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾: فكلما حدثتهم إرادتهم بالخروج لبلوغ العذاب منهم كل مبلغ؛ ردوا إليها، فذهب عنهم روح ذلك الفرج، واشتد عليهم الكرب، ﴿ وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٠ ﴾.

فهذا عذاب النار الذي يكون فيه مقرهم ومأواهم، وأما العذاب الذي قبل ذلك ومقدمة له، وهو عذاب البرزخ؛ فقد ذكر بقوله:

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢١ ﴾.

٢١ أي: ولنذيقن الفاسقين المكذبين نموذجًا من العذاب الأدنى، وهو عذاب البرزخ، فنذيقهم طرفًا منه قبل أن يموتوا: إما بعذاب بالقتل ونحوه كما جرى لأهل بدر من المشركين، وإما عند الموت؛ كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ ﴾ [الأنعام: ٩٣]، ثم يكمل لهم العذاب الأدنى في برزخهم.

وهذه الآية من الأدلة على إثبات عذاب القبر، ودلالتها ظاهرة؛ فإنه قال: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ ﴾؛ أي: بعض وجزء منه، فدل على أن ثمَّ عذابًا أدنى قبل العذاب الأكبر، وهو عذاب النار، ولما كانت الإذاقة من العذاب الأدنى في الدنيا قد لا يتصل بها الموت، فأخبر تعالى أنه يذيقهم ذلك؛ لعلهم يرجعون إليه، ويتوبون من ذنوبهم؛ كما قال تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٤١ ﴾ [الروم: ٤١].

﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ٢٢ ﴾.

---

(١) البخاري (٤٧٧٩)، مسلم (٢٨٢٤).

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ
أَعْرَضَ عَنْهَا ۚ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا
مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ۖ وَجَعَلْنَاهُ
هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ
بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ
هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ
يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ
﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ
بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾
قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ
﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

سورة الأحزاب — ترتيبها ٣٣ — آياتها ٧٣

(٢٢) أي: لا أحد أظلم وأزيد تعديًا ممن ذُكِّر بآيات ربه، التي أوصلها إليه ربه، الذي يريد تربيته وتكميل نعمته عليه على يد رسله، تأمره وتذكره مصالحه الدينية والدنيوية، وتنهاه عن مضاره الدينية والدنيوية، التي تقتضي أن يقابلها بالإيمان والتسليم والانقياد والشكر، فقابلها هذا الظالم بضد ما ينبغي، فلم يؤمن بها ولا اتبعها، بل أعرض عنها وتركها وراء ظهره؛ فهذا من أكبر المجرمين، الذين يستحقون شديد النقمة، ولهذا قال: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢)﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ۖ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥)﴾.

(٢٣) لما ذكر تعالى آياته التي ذكر بها عباده، وهو القرآن الذي أنزله على محمد ﷺ، ذكر أنه ليس ببدع من الكتب، ولا من جاء به بغريب من الرسل، فقد آتى الله ﴿مُوسَى الْكِتَابَ﴾: الذي هو التوراة المصدقة للقرآن، التي قد صدقها القرآن، فتطابق حقهما، وثبت برهانهما. ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾: لأنه قد تواردت أدلة الحق وبيناته، فلم يبق للشك والمرية محل، ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾؛ أي: الكتاب الذي آتيناه موسى ﴿هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣)﴾: يهتدون به في أصول دينهم، وفروعه، وشرائعه موافقة لذلك الزمان في بني إسرائيل، وأما هذا القرآن الكريم؛ فجعله الله هداية للناس كلهم؛ لأنه هداية للخلق في أمر دينهم ودنياهم إلى يوم القيامة، وذلك لكماله وعلوه، ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤)﴾ [الزخرف: ٤].

(٢٤) ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ﴾؛ أي: من بني إسرائيل، ﴿أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾؛ أي: علماء بالشرع وطرق الهداية مهتدين في أنفسهم يهدون غيرهم بذلك الهدى؛ فالكتاب الذي أنزل إليهم هدى، والمؤمنون به منهم على قسمين: أئمة يهدون بأمر الله، وأتباع مهتدون بهم، والقسم الأول أرفع الدرجات بعد درجة النبوة والرسالة، وهي درجة الصديقين، وإنما نالوا هذه الدرجة العالية، ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾: على التعلم والتعليم والدعوة إلى الله والأذى في سبيله، وكفوا نفوسهم عن جماحها في المعاصي واسترسالها في الشهوات. ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤)﴾؛ أي: وصلوا في الإيمان بآيات الله إلى درجة اليقين، وهو العلم التام الموجب للعمل، وإنما وصلوا إلى درجة اليقين؛ لأنهم تعلموا تعلمًا صحيحًا، وأخذوا المسائل عن أدلتها المفيدة لليقين، فما زالوا يتعلمون المسائل، ويستدلون عليها بكثرة الدلائل، حتى وصلوا لذاك؛ فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

(٢٥) وثَمَّ مسائل اختلف فيها بنو إسرائيل، منهم من أصاب فيها الحق، ومنهم من أخطأه خطأً أو عمدًا، والله تعالى ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥)﴾: وهذا القرآن يقص على بني إسرائيل بعض الذي يختلفون فيه؛ فكل خلاف وقع بينهم، ووجد في القرآن تصديق لأحد القولين؛ فهو الحق، وما عداه مما خالفه باطل.

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿٢٦﴾ يعني: أولم يتبين لهؤلاء المكذبين للرسول ويهديهم إلى الصواب كم أهلكنا قبلهم من القرون الذين سلكوا مسلكهم، ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾: فيشاهدونها عيانًا؛ كقوم هود وصالح وقوم لوط. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾: يستدل بها على صدق الرسل التي جاءتهم، وبطلان ما هم عليه من الشرك والشر، وعلى أن من فعل مثل فعلهم؛ فُعل بهم كما فُعل بأشياعه من قبل، وعلى أن الله تعالى مجازي العباد وباعثهم للحشر والتناد. ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾: آيات الله، فيعونها، فينتفعون بها؛ فلو كان لهم سمع صحيح وعقل رجيح؛ لم يقيموا على حالة يجزم بها بالهلاك.

﴿٢٧﴾ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾: بأبصارهم نعمتنا وكمال حكمتنا، ﴿أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾: التي لا نبات فيها، فيسوق الله المطر الذي لم يكن قبل موجودًا فيها، فيفرغه فيها من السحاب أو من الأنهار؛ ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا﴾؛ أي: نباتًا مختلف الأنواع، ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ﴾: وهو نبات البهائم ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾: وهو طعام الآدميين. ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾: تلك المنة التي أحيا الله بها البلاد والعباد، فيستبصرون فيهتدون بذلك البصر وتلك البصيرة إلى الصراط المستقيم؟ ولكن غلب عليهم العمى، واستولت عليهم الغفلة، فلم يبصروا في ذلك بصر الرجال، وإنما نظروا إلى ذلك نظر الغفلة ومجرد العادة، فلم يوفقوا للخير.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿٢٨﴾ أي: يستعجل المجرمون بالعذاب الذي وعدوا به على التكذيب جهلًا منهم ومعاندة، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ﴾: الذي يفتح بيننا وبينكم بتعذيبنا على زعمكم ﴿إِن كُنتُمْ﴾ أيها الرسل ﴿صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾﴾: في دعواكم.

﴿٢٩﴾ ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ﴾: الذي يحصل به عقابكم لا تستفيدون به شيئًا؛ فلو كان إذا حصل؛ حصل إمهالكم لتستدركوا ما فاتكم حين صار الأمر عندكم يقينًا؛ لكان لذلك وجه، ولكن إذا جاء يوم الفتح؛ انقضى الأمر، ولم يبق للمحنة والابتلاء محل؛ إذ ﴿لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ﴾: لأنه صار إيمان ضرورة، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾؛ أي: يمهلون، فيؤخر عنهم العذاب، فيستدركون أمرهم.

﴿٣٠﴾ ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾: لما وصل خطابهم لك وظلمهم إلى حالة الجهل واستعجال العذاب. ﴿وَانتَظِرْ﴾: الأمر الذي يحل بهم؛ فإنه لا بد منه، ولكن له أجل إذا جاء لا يتقدم ولا يتأخر، ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾: بك ريب المنون، ومتربصون بكم دوائر السوء، والعاقبة للتقوى.

تم تفسير سورة السجدة بحول الله ومنه. فله تعالى كمال الحمد والثناء والمجد.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ
كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن
رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ
وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا (٣) مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى
جَوْفِهِۦ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ
وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ
يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ (٤) ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ
هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ
فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم
بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا
(٥) ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ
وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ
مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم
مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا (٦)

تفسير سورة الأحزاب

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا (٣)﴾.

(١)، (٢) أي: يا أيها الذي مَنَّ الله عليه بالنبوة واختصه بوحيه وفضله على سائر الخلق! اشكر نعمة ربك عليك باستعمال تقواه التي أنت أولى بها من غيرك، والتي يجب عليك منها أعظم من سواك؛ فامتثل أوامره ونواهيه، وبلغ رسالاته، وأدِّ إلى عباده وحيه، وابذل النصيحة للخلق، ولا يصدنك عن هذا المقصود صادٌّ ولا يردك عنه رادٌّ، فلا تطع كل كافر قد أظهر العداوة لله ولرسوله، ولا منافق قد استبطن التكذيب والكفر وأظهر ضده؛ فهؤلاء هم الأعداء على الحقيقة؛ فلا تطعهم في بعض الأمور التي تنقض التقوى وتناقضها، ولا تتبع أهواءهم؛ يضلوك عن الصواب. ولكن اتبع ﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾: فإنه هو الهدى والرحمة، وارج بذلك ثواب ربك؛ إنه ﴿كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢)﴾: يجازيكم بحسب ما يعلمه منكم من الخير والشر.

(٣) فإن وقع في قلبك أنك إن لم تطعهم في أهوائهم المضلة؛ حصل عليك منهم ضرر، أو حصل نقص في هداية الخلق؛ فادفع ذلك عن نفسك، واستعمل ما يقاومه ويقاوم غيره، وهو التوكل على الله؛ بأن تعتمد على ربك اعتماد من لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا في سلامتك من شرهم وفي إقامة الدين الذي أمرت به، وثق بالله في حصول ذلك الأمر على أي حال كان.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا (٣)﴾: توكل إليه الأمور، فيقوم بها وبما هو أصلح للعبد، وذلك لعلمه بمصالح عبده من حيث لا يعلم العبد، وقدرته على إيصالها إليه من حيث لا يقدر عليها العبد، وأنه أرحم بعبده من نفسه ومن والديه وأرأف به من كل أحد، خصوصًا خواص عبيده، الذين لم يزل يربيهم ببره ويدر عليهم بركاته الظاهرة والباطنة، خصوصًا وقد أمره بإلقاء أموره إليه، ووعده أن يقوم بها؛ فهناك لا تسأل عن كل أمر يتيسر، وصعب يسهل، وخطوب تهون، وكروب تزول، وأحوال وحوائج تقضى، وبركات تنزل، ونقم تدفع، وشرور ترفع. وهناك ترى العبد، الضعيف الذي فوض أمره لسيده قد قام بأمور لا تقوم بها أمة من الناس، وقد سهل الله عليه ما كان يصعب على فحول الرجال. وبالله المستعان.

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ (٤) ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾

﴿٤﴾ يعاتب تعالى عباده عن التكلم بما لا حقيقة له من الأقوال، ولم يجعله الله تعالى كما قالوا؛ فإن ذلك القول منكم كذب وزور يترتب عليه منكرات من الشرع، وهذه قاعدة عامة في التكلم في كل شيء والإخبار بوقوع ووجود ما لم يجعله الله تعالى، ولكن خص هذه الأشياء المذكورة لوقوعها وشدة الحاجة إلى بيانها، فقال: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾: هذا لا يوجد؛ فإياكم أن تقولوا عن أحد: إن له قلبين في جوفه، فتكونوا كاذبين على الخلقة الإلهية، ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ﴾: بأن يقول أحدكم لزوجته أنت عليَّ كظهر أمي أو كأمي؛ فما جعلهن الله ﴿أُمَّهَٰتِكُمْ﴾: أمك من ولدتك وصارت أعظم النساء عليك حرمة وتحريمًا، وزوجتك أحل النساء لك؛ فكيف تشبه أحد المتناقضين بالآخر؟! هذا أمر لا يجوز؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ [المجادلة: ٢].

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾: والأدعياء: الولد الذي كان الرجل يدعيه وهو ليس له، أو يدعى إليه بسبب تبنيه إياه؛ كما كان الأمر في الجاهلية وأول الإسلام، فأراد الله تعالى أن يبطله ويزيله، فقدم بين يدي ذلك بيان قبحه، وأنه باطل وكذب، وكل باطل وكذب لا يوجد في شرع الله ولا يتصف به عباد الله، يقول تعالى: فالله لم يجعل الأدعياء الذين تدعونهم أو يدعون إليكم أبناءكم؛ فإن أبناءكم في الحقيقة من ولدتموهم وكانوا منكم، وأما هؤلاء الأدعياء من غيركم؛ فلا جعل الله هذا كهذا، ﴿ذَٰلِكُمْ﴾: القول الذي تقولون في الدعي: إنه ابن فلان الذي ادعاه، أو والده فلان، ﴿قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾؛ أي: قول لا حقيقة له ولا معنى له، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾؛ أي: اليقين والصدق؛ فلذلك أمركم باتباعه على قوله وشرعه؛ فقوله حق، وشرعه حق، والأقوال والأفعال الباطلة لا تنسب إليه بوجه من الوجوه، وليست من هدايته؛ لأنه لا يهدي إلا إلى السبيل المستقيمة والطرق الصادقة، وإن كان ذلك واقعًا بمشيئته؛ فمشيئته عامة لكل ما وجد من خير وشر.

﴿٥﴾ ثم صرح لهم بترك الحالة الأولى المتضمنة للقول الباطل، فقال: ﴿ٱدْعُوهُمْ﴾؛ أي: الأدعياء ﴿لِءَابَآئِهِمْ﴾: الذين ولدوهم ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أعدل وأقوم وأهدى، ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾: الحقيقيين ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾؛ أي: إخوتكم في دين الله ومواليكم في ذلك؛ فادعوهم بالأخوة الإيمانية الصادقة والموالاة على ذلك؛ فترك الدعوة إلى من تبناهم حتم لا يجوز فعلها، وأما دعاؤهم لآبائهم؛ فإن علموا؛ دعوا إليهم، وإن لم يعلموا؛ اقتصر على ما يعلم منهم، وهو أخوة الدين والموالاة؛ فلا تظنوا أن حالة عدم علمكم بآبائهم عذر في دعوتهم إلى من تبناهم؛ لأن المحذور لا يزول بذلك.

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾: بأن سبق على لسان أحدكم دعوته إلى من تبناه؛ فهذا غير مؤاخذ به، أو علم أبوه ظاهرًا فدعوتموه إليه، وهو في الباطن غير أبيه؛ فليس عليكم في ذلك حرج إذا كان خطأ. ﴿وَلَٰكِن﴾ يؤاخذكم بـ ﴿مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ من الكلام بما لا يجوز. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾: غفر لكم ورحمكم؛ حيث لم يعاقبكم بما سلف، وسمح لكم بما أخطأتم به، ورحمكم؛ حيث بين لكم أحكامه التي تصلح دينكم ودنياكم؛ فله الحمد تعالى.

﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾.

﴿٦﴾ يخبر تعالى المؤمنين خبرًا يعرفون به حالة الرسول ﷺ ومرتبته، فيعاملونه بمقتضى تلك الحالة، فقال: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾: أقرب ما للإنسان وأولى ما له نفسه؛ فالرسول أولى بالمؤمن من نفسه؛ لأنه عليه الصلاة والسلام بذل لهم من النصح والشفقة والرأفة ما كان به أرحم الخلق وأرأفهم؛ فرسول الله أعظم الخلق منة عليهم من كل أحد؛ فإنه لم يصل إليهم مثقال ذرة من الخير ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر إلا على يديه وبسببه؛ فلذلك وجب عليهم إذا تعارض مراد النفس أو مراد أحد من الناس مع مراد الرسول أن يقدم مراد الرسول،

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ
وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾
لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا
﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ
جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ
مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ
وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا
زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم
مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ
مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ۚ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ
مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا
فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ
لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا
اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾

وألَّا يعارض قول الرسول بقول أحد كائنًا ما كان، وأن يفدوه بأنفسهم وأموالهم وأولادهم، ويقدموا محبته على محبة الخلق كلهم، وألا يقولوا حتى يقول، ولا يتقدموا بين يديه، وهو ﷺ أب للمؤمنين؛ كما في قراءة بعض الصحابة يربيهم كما يربي الوالد أولاده، فترتب على هذه الأبوة أن كان نساؤه أمهاتهم؛ أي: في الحرمة والاحترام والإكرام، لا في الخلوة والمحرمية، وكأن هذا مقدمة لما سيأتي في قصة زيد بن حارثة، الذي كان يدعى قبل زيد بن محمد، حتى أنزل الله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، فقطع نسبه وانتسابه منه.

فأخبر في هذه الآية أن المؤمنين كلهم أولاد للرسول؛ فلا مزية لأحد عن أحد، وإن انقطع عن أحدهم انتساب الدعوة؛ فإن النسب الإيماني لم ينقطع عنه؛ فلا يحزن ولا يأسف، وترتب على أن زوجات الرسول أمهات المؤمنين: أنهن لا يحللن لأحد من بعده؛ كما سيصرح بذلك، ﴿وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٥٣].

﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ﴾؛ أي: الأقارب قربوا أو بعدوا ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾؛ أي: في حكمه، فيرث بعضهم بعضًا ويبر بعضهم بعضًا؛ فهم أولى من الحلف والنصرة، والأدعياء الذين كانوا من قبل يرثون بهذه الأسباب دون ذوي الأرحام، فقطع تعالى التوارث بذلك، وجعله للأقارب لطفًا منه وحكمة؛ فإن الأمر لو استمر على العادة السابقة؛ لحصل من الفساد والشر والتحيل لحرمان الأقارب من الميراث شيء كثير، ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾؛ أي: سواء كان الأقارب مؤمنين مهاجرين أو غير مهاجرين؛ فإن ذوي الأرحام مقدمون في ذلك. وهذه الآية حجة على ولاية ذوي الأرحام في جميع الولايات؛ كولاية النكاح والمال وغير ذلك، ﴿إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا﴾؛ أي: ليس لهم حق مفروض، وإنما هو بإرادتكم، إن شئتم أن تتبرعوا لهم تبرعًا وتعطوهم معروفًا منكم، ﴿كَانَ﴾: ذلك الحكم المذكور ﴿فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾؛ أي: قد سطر وكتب وقدره الله؛ فلا بد من نفوذه.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾.

﴿٧﴾، ﴿٨﴾ يخبر تعالى أنه أخذ من النبيين عمومًا ومن أولي العزم - وهم هؤلاء الخمسة المذكورون خصوصًا - ميثاقهم الغليظ وعهدهم الثقيل المؤكد على القيام بدين الله والجهاد في سبيله، وأن هذا سبيل قد مشى عليه الأنبياء المتقدمون، حتى ختموا بسيدهم وأفضلهم محمد ﷺ، وأمر الناس بالاقتداء بهم، وسيسأل الله الأنبياء وأتباعهم عن هذا العهد الغليظ؛ هل وفوا فيه وصدقوا فيثيبهم جنات النعيم، أم كفروا فيعذبهم العذاب الأليم؟ قال تعالى: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ

﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾.

﴿٩﴾ - ﴿١١﴾ يذكِّر تعالى عباده المؤمنين نعمته عليهم، ويحثهم على شكرها حين جاءتهم جنود أهل مكة والحجاز من فوقهم وأهل نجد من أسفل منهم، وتعاقدوا وتعاهدوا على استئصال الرسول والصحابة، وذلك في وقعة الخندق، ومالأتهم طوائف اليهود الذين حوالي المدينة، فجاءوا بجنود عظيمة وأمم كثيرة، وخندق رسول الله ﷺ على المدينة، فحصروا المدينة، واشتد الأمر، وبلغت القلوب الحناجر، حتى بلغ الظن من كثير من الناس كل مبلغ لما رأوا من الأسباب المستحكمة والشدائد الشديدة، فلم يزل الحصار على المدينة مدة طويلة، والأمر كما وصف الله: ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ ﴾؛ أي: الظنون السيئة أن الله لا ينصر دينه ولا يتم كلمته، ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾: بهذه الفتنة العظيمة، ﴿ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾: بالخوف والقلق والجوع؛ ليتبين إيمانهم ويزيد إيقانهم، فظهر ولله الحمد من إيمانهم وشدة يقينهم ما فاقوا فيه الأولين والآخرين. وعندما اشتد الكرب وتفاقمت الشدائد؛ صار إيمانهم عين اليقين، ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وهنالك تبين نفاق المنافقين، وظهر ما كانوا يضمرون؛ قال تعالى:

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿١٢﴾ وهذه عادة المنافق عند الشدة والمحنة؛ لا يثبت إيمانه، وينظر بعقله القاصر إلى الحالة الحاضرة، ويصدق ظنه.

﴿١٣﴾ ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ ﴾: أي من المنافقين بعدما جزعوا وقلَّ صبرهم صاروا أيضًا من المخذلين؛ فلا صبروا بأنفسهم، ولا تركوا الناس من شرهم، فقالت هذه الطائفة: ﴿ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ ﴾: يريدون: يا أهل المدينة! فنادوهم باسم الوطن المنبئ عن التسمية فيه؛ إشارة إلى أن الدين والأخوة الإيمانية ليس لهما في قلوبهم قدر؛ وأن الذي حملهم على ذلك مجرد الخور الطبيعي. ﴿ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ ﴾؛ أي: في موضعكم الذي خرجتم إليه خارج المدينة، وكانوا عسكروا دون الخندق وخارج المدينة، ﴿ فَٱرْجِعُوا۟ ﴾: إلى المدينة. فهذه الطائفة تُخَذِّل عن الجهاد وتبين أنهم لا قوة لهم بقتال عدوهم ويأمرونهم بترك القتال؛ فهذه الطائفة أشر الطوائف وأضرها، وطائفة أخرى دونهم، أصابهم الجبن والجزع، وأحبوا أن ينخزلوا عن الصفوف، فجعلوا يعتذرون بالأعذار الباطلة، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾؛ أي: عليها الخطر ونخاف عليها أن يهجم عليها الأعداء ونحن غُيَّب عنها؛ فأْذن لنا؛ نرجع إليها فنحرسها، وهم كذبة في ذلك، ﴿ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ ﴾؛ أي: ما قصدهم ﴿ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾: ولكن جعلوا هذا الكلام وسيلة وعذرًا لهم؛ فهؤلاء قلَّ إيمانهم، وليس له ثبوت عند اشتداد المحن.

﴿١٤﴾ ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم ﴾: المدينة ﴿ مِّنْ أَقْطَارِهَا ﴾؛ أي: لو دخل الكفار إليها من نواحيها واستولوا عليها - لا كان ذلك - ثم سئل هؤلاء ﴿ ٱلْفِتْنَةَ ﴾؛ أي: الانقلاب عن دينهم والرجوع إلى دين المستولين المتغلبين، ﴿ لَءَاتَوْهَا ﴾؛ أي: لأعطوها مبادرين، ﴿ وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾؛ أي: ليس لهم منعة ولا تصلب على الدين، بل بمجرد ما تكون الدولة للأعداء؛ يعطونهم ما طلبوا، ويوافقونهم على كفرهم.

﴿١٥﴾ هذه حالهم، والحال أنهم ﴿ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ ﴾: سيسألهم عن ذلك العهد، فيجدهم قد نقضوه؛ فما ظنهم إذًا بربهم؟!

﴿١٦﴾ ﴿ قُل ﴾: لهم لائمًا على فرارهم ومخبرًا أنهم لا يفيدهم ذلك شيئًا: ﴿ لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ ﴾: فلو كنتم في بيوتكم؛ لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم، والأسباب تنفع إذا لم يعارضها القضاء والقدر؛ فإذا جاء القضاء والقدر؛ تلاشى كل سبب، وبطلت كل وسيلة ظنها الإنسان تنجيه، ﴿ وَإِذًا ﴾: حين

قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا
لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ
أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ
وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ
لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً
عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ
كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم
بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ
ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ
لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ
فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم
مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ
حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾
وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ
وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾

فررتم؛ لتسلموا من الموت والقتل، لتنعموا في الدنيا؛ فإنكم ﴿لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾: متاعًا لا يسوى فراركم وترككم أمر الله وتفويتكم على أنفسكم التمتع الأبدي في النعيم السرمدي.

(١٧) ثم بين أن الأسباب كلها لا تغني عن العبد شيئًا إذا أراده الله بسوء، فقال: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم﴾؛ أي: يمنعكم ﴿مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا﴾؛ أي: شرًّا، ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾: فإنه هو المعطي المانع، الضار النافع، الذي لا يأتي بالخير إلا هو، ولا يدفع السوء إلا هو، ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا﴾: يتولاهم فيجلب لهم النفع ﴿وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾: ينصرهم فيدفع عنهم المضار؛ فليمتثلوا طاعة المنفرد بالأمور كلها، الذي نفذت مشيئته ومضى قدره ولم ينفع مع ترك ولايته ونصرته ولي ولا ناصر.

(١٨) ثم توعد تعالى المخذلين المعوقين وتهددهم فقال: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾: عن الخروج لمن لم يخرجوا، ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾: الذين خرجوا: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾؛ أي: ارجعوا كما تقدم من قولهم: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾، وهم مع تعويقهم وتخذيلهم ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ﴾: القتال والجهاد بأنفسهم، ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾: فهم أشد الناس حرصًا على التخلف لعدم الداعي لذلك من الإيمان والصبر، ووجود المقتضي للجبن من النفاق وعدم الإيمان.

(١٩) ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾: بأبدانهم عند القتال، وأموالهم عند النفقة فيه؛ فلا يجاهدون بأموالهم وأنفسهم، ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: نظر المغشي ﴿عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾: من شدة الجبن الذي خلع قلوبهم والقلق الذي أذهلهم وخوفًا من إجبارهم على ما يكرهون من القتال، ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ﴾: وصاروا في حال الأمن والطمأنينة؛ ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾؛ أي: خاطبوكم وتكلموا معكم بكلام حديد ودعاوى غير صحيحة، وحين تسمعهم تظنهم أهل الشجاعة والإقدام. ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾: الذي يراد منهم، وهذا شر ما في الإنسان: أن يكون شحيحًا بما أُمِر به، شحيحًا بماله أن ينفقه في وجهه، شحيحًا في بدنه أن يجاهد أعداء الله أو يدعو إلى سبيل الله، شحيحًا بجاهه، شحيحًا بعلمه ونصيحته ورأيه. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: الذين بتلك الحالة ﴿لَمْ يُؤْمِنُوا۟﴾: فأحبط الله أعمالهم بسبب عدم إيمانهم. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾: وأما المؤمنون؛ فقد وقاهم الله شح أنفسهم، ووفقهم لبذل ما أمروا به من بذل أبدانهم في القتال في سبيله، وإعلاء كلمته، وأموالهم للنفقة في طرق الخير، وجاههم وعلمهم.

(٢٠) ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾؛ أي: يظنون أن هؤلاء الأحزاب الذين تحزبوا على حرب رسول الله ﷺ وأصحابه لم يذهبوا حتى يستأصلوهم، فخاب ظنهم، وبطل حسبانهم. ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾: مرة أخرى، ﴿يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾؛ أي: لو أتى الأحزاب مرة ثانية مثل هذه المرة؛ ود هؤلاء المنافقون أنهم ليسوا في المدينة، ولا في القرب منها، وأنهم مع الأعراب في البادية، يستخبرون عن أخباركم، ويسألون عن أنبائكم

مـاذا حصـل عليكم؟ فتبًّـا لهم وبعدًا؛ فليسـوا ممـن يبالى[1] بحضورهـم، ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ ﴾: فلا تبالوهم، ولا تأسوا عليهم.

﴿٢١﴾ ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾: حيث حضر الهيجاء بنفسـه الكريمة، وباشـر موقـف الحرب وهو الشـريف الكامل والبطل الباسـل، فكيف تشـحون بأنفسكم عـن أمر جاد رسـول الله ﷺ بنفسـه فيه؟ فتأسـوا بـه في هذا الأمر وغيره.

واستدل الأصوليون في هذه الآية على الاحتجاج بأفعال الرسول ﷺ، وأن الأصل أن أمته أسوته في الأحكام؛ إلا ما دل الدليل الشـرعي على الاختصاص به؛ فالأسـوة نوعان: أسوة حسنة وأسوة سيئة، فالأسوة الحسنة في الرسول ﷺ؛ فـإن المتأسـي به سـالك الطريـق الموصل إلى كرامـة الله، وهـو الصـراط المسـتقيم، وأمـا الأسـوة بغيـره إذا خالفـه؛ فهو الأسـوة السـيئة؛ كقول المشـركين حين دعتهم الرسـل للتأسـي بهـم: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الزخرف: ٢٢]: وهـذه الأسـوة الحسـنة إنما يسـلكها ويوفـق لها مـن كان يرجو الله واليـوم الآخر؛ فإن مـا معه من الإيمان وخوف اللـه ورجاء ثوابه وخوف عقابه يحثه على التأسي بالرسول ﷺ.

﴿٢٢﴾ لمـا ذكـر حالـة المنافقيـن عنـد الخـوف؛ ذكـر حال المؤمنين فقال: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ ﴾: الذين تحزبوا ونزلـوا منازلهـم وانتهـى الخـوف، ﴿ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾: فـي قولـه: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٤]، ﴿ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾: فإنـا رأينا ما أخبرنا به، ﴿ وَمَا زَادَهُمْ ﴾: ذلك الأمر ﴿ إِلَّآ إِيمَٰنًا ﴾: في قلوبهم، ﴿ وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾: في جوارحهم، وانقيادًا لأمر الله.

﴿٢٣﴾ ولمـا ذكر أن المنافقين عاهدوا اللـه لا يولون الأدبار ونقضـوا ذلـك العهد؛ ذكـر وفـاء المؤمنين به، فقـال: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾؛ أي: وفـوا بـه وأتمـوه وأكملـوه، فبذلـوا مهجهـم فـي مرضاتـه، وسـبَّلوا

(١) الأصل: «يغالي».

سورة الأحزاب — الجزء الحادي والعشرون

مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن
قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ
ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ
أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ
أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ
فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ
وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ
ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ
سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ
ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾
يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ
لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

٤٢١

نفوسـهم فـي طاعتـه. ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ ﴾؛ أي: إرادتـه ومطلوبـه ومـا عليه مـن الحق، فقتل في سـبيل اللـه أو مات مؤديًـا لحقه لم يُنقصه شـيئًا، ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾: تكميل ما عليه؛ فهو شـارع فـي قضاء ما عليه ووفاء نحبـه ولما يكمله، وهـو فـي رجـاء تكميلـه سـاعٍ فـي ذلـك مجـد، ﴿ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾: كمـا بـدل غيرهـم، بل لـم يزالوا علـى العهد، لا يلـوون ولا يتغيـرون؛ فهؤلاء هـم الرجال على الحقيقة، ومـن عداهـم فصورهـم صور رجـال، وأمـا الصفـات؛ فقد قصرت عن صفات الرجال.

﴿٢٤﴾ ﴿ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾؛ أي: بسـبب صدقهم في أقوالهم وأحوالهـم ومعاملتهم مع الله واسـتواء ظاهرهم وباطنهم، قال الله تعالى: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ [المائدة: ١١٩] الآيـة؛ أي: قدرنـا ما قدرنا من هذه الفتـن والمحـن والـزلازل ليتبيـن الصـادق مـن الكاذب، فيجـزي الصادقين بصدقهـم، ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾:

الذين تغيرت قلوبهم وأعمالهم عند حلول الفتن، ولم يفوا بما عاهدوا الله عليه، ﴿إِن شَآءَ﴾: تعذيبهم؛ بأن لم يشأ هدايتهم، بل علم أنهم لا خير فيهم، فلم يوفقهم، ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾: بأن يوفقهم للتوبة والإنابة، وهذا هو الغالب على كرم الكريم، ولهذا ختم الآية باسمين دالين على المغفرة والفضل والإحسان، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾؛ غفورًا لذنوب المسرفين على أنفسهم، ولو أكثروا من العصيان، إذا أتوا بالمتاب. ﴿رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾: بهم؛ حيث وفقهم للتوبة، ثم قبلها منهم، وستر عليهم ما اجترحوه.

﴿٢٥﴾ ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾؛ أي: ردهم خائبين، لم يحصل لهم الأمر الذي كانوا حريصين عليه، مغتاظين، قادرين عليه، جازمين بأن لهم الدائرة، قد غرتهم جموعهم وأعجبوا بتحزبهم وفرحوا بعَددهم وعُددهم، فأرسل الله عليهم ريحًا عظيمة، وهي ريح الصبا، فزعزعت مراكزهم، وقوضت خيامهم، وكفأت قدورهم، وأزعجتهم، وضربهم الله بالرعب، فانصرفوا بغيظهم، وهذا من نصر الله لعباده المؤمنين. ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾: بما صنع لهم من الأسباب العادية والقدرية. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾: لا يغالبه أحد إلا غُلب، ولا يستنصره أحد إلا غَلب، ولا يعجزه أمر أراده، ولا ينفع أهل القوة والعزة قوتهم وعزتهم إن لم يعنهم بقوته وعزته.

﴿٢٦﴾ ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾؛ أي: عاونوهم ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: من اليهود ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾؛ أي: أنزلهم من حصونهم نزولًا مظفورًا بهم مجعولين تحت حكم الإسلام، ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾: فلم يقووا على القتال، بل استسلموا وخضعوا وذلوا. ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾: وهم الرجال المقاتلون، ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾: من عداهم من النساء والصبيان.

﴿٢٧﴾ ﴿وَأَوْرَثَكُمْ﴾؛ أي: غنَّمكم ﴿أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾؛ أي: أرضًا كانت من قبل من شرفها وعزتها عند أهلها لا تتمكنون من وطئها، فمكنكم الله منها ومن أهلها، وخذلهم، وغنمتم أموالهم، وقتلتموهم، وأسرتموهم، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾: لا يعجزه شيء، ومن قدرته قدر لكم ما قدر.

وكانت هذه الطائفة من أهل الكتاب هم بنو قريظة من اليهود في قرية خارج المدينة غير بعيد، وكان النبي ﷺ حين هاجر إلى المدينة وادعهم وهادنهم فلم يقاتلهم ولم يقاتلوه، وهم باقون على دينهم، لم يغير عليهم شيئًا، فلما رأوا يوم الخندق الأحزاب الذين تحزبوا على رسول الله وكثرتهم وقلة المسلمين، وظنوا أنهم سيستأصلون الرسول والمؤمنين، وساعد على ذلك تدجيل بعض رؤسائهم عليهم، فنقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ، ومالئوا المشركين على قتاله، فلما خذل الله المشركين؛ تفرغ رسول الله ﷺ لقتالهم، فحاصرهم في حصنهم، فنزلوا على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه، فحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم وتغنم أموالهم، فأتم الله لرسوله والمؤمنين المنة، وأسبغ عليهم النعمة، وأقر أعينهم بخذلان من انخذل من أعدائهم، وقتل من قتلوا، وأسر من أسروا، ولم يزل لطف الله بعباده المؤمنين مستمرًّا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾.

﴿٢٨﴾ لما اجتمع نساء رسول الله ﷺ عليه في الغيرة، وطلبن منه النفقة والكسوة؛ طلبن منه أمرًا لا يقدر عليه في كل وقت، ولم يزلن في طلبهن متفقات وفي مرادهن متعنتات، فشق ذلك على الرسول، حتى وصلت به الحال إلى أنه آلى منهن شهرًا، فأراد الله أن يسهل الأمر على رسوله، وأن يرفع درجة زوجاته، ويذهب عنهن كل أمر ينقص أجرهن فأمر رسوله أن يخيرهن، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: ليس لكن في غيرها مطلب، وصرتن ترضين لوجودها وتغضبن لفقدها؛ فليس لي فيكن أرب وحاجة، وأنتن بهذه الحال، ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾: شيئًا مما عندي من الدنيا، ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾؛ أي: أفارقكن ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾﴾:

من دون مغاضبة ولا مشاتمة، بل بسعة صدر وانشراح بال، قبل أن تبلغ الحال إلى ما لا ينبغي.

(٢٩) ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ ﴾؛ أي: هذه الأشياء مرادكن وغاية مقصودكن، وإذا حصل لكُنَّ الله ورسوله والجنة؛ لم تبالين بسعة الدنيا وضيقها ويسرها وعسرها، وقنعتن من رسول الله بما تيسر، ولم تطلبن منه ما يشق عليه، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾: رتب الأجر على وصفهن بالإحسان؛ لأنه السبب الموجب لذلك، لا لكونهن زوجات للرسول؛ فإن مجرد ذلك لا يكفي، بل لا يفيد شيئًا مع عدم الإحسان، فخيرهن رسول الله ﷺ في ذلك، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة كلهن، لم يتخلف منهن واحدة رضي الله عنهن.

وفي هذا التخيير فوائد عديدة:

منها: الاعتناء برسوله والغيرة عليه أن يكون بحالة يشق عليه كثرة مطالب زوجاته الدنيوية.

ومنها: سلامته ﷺ بهذا التخيير من تبعة حقوق الزوجات، وأنه يبقى في حرية نفسه إن شاء أعطى وإن شاء منع، ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ﴾ [الأحزاب: ٣٨].

ومنها: تنزيهه عما لو كان فيهن من تؤثر الدنيا على الله ورسوله والدار الآخرة عنها، وعن مقارنتها.

ومنها: سلامة زوجاته رضي الله عنهن عن الإثم والتعرض لسخط الله ورسوله، فحسم الله بهذا التخيير عنهن التسخط على الرسول الموجب لسخطه، المسخط لربه، الموجب لعقابه.

ومنها: إظهار رفعتهن وعلو درجتهن وبيان علو هممهن أن كان الله ورسوله والدار الآخرة مرادهن ومقصودهن دون الدنيا وحطامها.

ومنها: استعدادهن بهذا الاختيار للأمر الخيار للوصول إلى خيار درجات الجنة وأن يكُنَّ زوجاته في الدنيا والآخرة.

ومنها: ظهور المناسبة بينه وبينهن؛ فإنه أكمل الخلق، وأراد الله أن تكون نساؤه كاملات مكملات طيبات مطيبات، ﴿ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾ [النور: ٢٦].

ومنها: أن هذا التخيير داعٍ وموجب للقناعة التي يطمئن لها القلب وينشرح لها الصدر، ويزول عنهن جشع الحرص وعدم الرضا الموجب لقلق القلب واضطرابه وهمه وغمه.

ومنها: أن يكون اختيارهن هذا سببًا لزيادة أجرهن ومضاعفته، وأن يكن بمرتبة ليس فيها أحد من النساء، ولهذا قال:

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) ﴾.

(٣٠) لما اخترن الله ورسوله والدار الآخرة؛ ذكر مضاعفة أجرهن ومضاعفة وزرهن وإثمهن لو جرى منهن؛ ليزداد حذرهن وشكرهن الله تعالى، فجعل من أتى منهن بفاحشة ظاهرة لها العذاب ضعفين.

(٣١) ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ ﴾؛ أي: تطيع الله ورسوله وتعمل صالحًا قليلًا أو كثيرًا، ﴿ نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ ﴾؛ أي: مثل ما نعطي غيرها مرتين، ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) ﴾: وهي الجنة، فقنتن لله ورسوله وعملن صالحًا، فعلم بذلك أجرهن.

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤) ﴾.

(٣٢) يقول تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ ﴾: خطاب لهن كلهن ﴿ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ ﴾: الله؛ فإنكن

۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ
أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ
لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ
فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ
فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ
ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا
يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ
تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ
ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾
إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ
وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ
وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ
وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ
فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا
وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

بذلك تَفُقْنَ النساء ولا يلحقكن أحد من النساء؛ فكمِّلن التقوى بجميع وسائلها ومقاصدها، فلهذا أرشدهن إلى قطع وسائل المحرم، فقال: ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ ﴾؛ أي: في مخاطبة الرجال، أو بحيث يسمعون، فَتَلِنَّ في ذلك، وتتكلمن بكلام رقيق، ﴿ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾؛ أي: مرض شهوة الحرام فإنه مستعد ينتظر أدنى محرك يحركه لأن قلبه غير صحيح؛ فإن القلب الصحيح ليس فيه شهوة لما حرم الله؛ فإن ذلك لا تكاد تميله ولا تحركه الأسباب لصحة قلبه وسلامته من المرض؛ بخلاف مريض القلب الذي لا يتحمل ما يتحمل الصحيح، ولا يصبر على ما يصبر عليه؛ فأدنى سبب يوجد ويدعوه إلى الحرام يجيب دعوته ولا يتعاصى عليه؛ فهذا دليل على أن الوسائل لها أحكام المقاصد؛ فإن الخضوع بالقول واللين فيه في الأصل مباح، ولكن لما كان وسيلة إلى المحرم؛ منع منه، ولهذا ينبغي للمرأة في مخاطبة الرجال ألّا تلين لهم القول.

ولما نهاهن عن الخضوع في القول؛ فربما توهم أنهن مأمورات بإغلاظ القول؛ دفع هذا بقوله: ﴿ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ ﴾؛ أي: غير غليظ ولا جاف؛ كما أنه ليس بلين خاضع. وتأمل كيف قال: ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ ﴾، ولم يقل: فلا تلن بالقول، وذلك لأن المنهي عنه القول اللين الذي فيه خضوع المرأة للرجل وانكسارها عنده، والخاضع هو الذي يُطمع فيه، بخلاف من تكلم كلامًا لينًا ليس فيه خضوع، بل ربما صار فيه ترفع وقهر للخصم؛ فإن هذا لا يطمع فيه خصمه، ولهذا مدح الله رسوله باللين، فقال: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال لموسى وهارون: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه: ٤٣، ٤٤].

ودل قوله: ﴿ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾؛ مع أمره بحفظ الفرج وثنائه على الحافظين لفروجهم والحافظات، ونهيه عن قربان الزنا: أنه ينبغي للعبد إذا رأى من نفسه هذه الحالة، وأنه يهش لفعل المحرم عندما يرى أو يسمع كلام من يهواه ويجد دواعي طمعه قد انصرفت إلى الحرام، فليعرف أن ذلك مرض، فليجتهد في إضعاف هذا المرض وحسم الخواطر الردية ومجاهدة نفسه على سلامتها من هذا المرض الخطر وسؤال الله العصمة والتوفيق، وأن ذلك من حفظ الفرج المأمور به.

﴿٣٣﴾ ﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ ﴾؛ أي: اقررن فيها؛ لأنه أسلم وأحفظ لكُنَّ، ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾؛ أي: لا تكثرن الخروج متجملات أو متطيبات كعادة أهل الجاهلية الأولى، الذين لا علم عندهم ولا دين؛ فكل هذا دفع للشر وأسبابه. ولما أمرهن بالتقوى عمومًا وبجزيئات من التقوى نص عليها لحاجة النساء إليها، كذلك أمرهن بالطاعة، خصوصًا الصلاة والزكاة اللتان يحتاجهما ويضطر إليهما كل أحد، وهما أكبر العبادات وأجلُّ الطاعات، وفي الصلاة الإخلاص للمعبود، وفي الزكاة الإحسان إلى العبيد.

ثم أمرهن بالطاعة عمومًا، فقال: ﴿ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾: يدخل في طاعة الله ورسوله كل أمر أمرًا به أمر إيجاب أو استحباب، ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ ﴾: بأمركن بما أمركن به ونهيكن عما نهاكن عنه؛ ﴿ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ ﴾؛ أي:

الأذى والشر والخبث ﴿ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾: حتى تكونوا طاهرين مطهرين؛ أي: فاحمدوا ربكم واشكروه على هذه الأوامر والنواهي التي أخبركم بمصلحتها، وأنها محض مصلحتكم، لم يرد الله أن يجعل عليكم بذلك حرجًا ولا مشقة، بل لتتزكى نفوسكم، وتتطهر أخلاقكم، وتحسن أعمالكم، ويعظم بذلك أجركم.

﴿٣٤﴾ ولما أمرهن بالعمل الذي هو فعل وترك؛ أمرهن بالعلم، وبين لهن طريقه، فقال: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾، والمراد بآيات الله القرآن، والحكمة أسراره أو سنة رسوله، وأمرهن بذكره يشمل ذكر لفظه بتلاوته وذكر معناه بتدبره والتفكر فيه واستخراج أحكامه وحكمه، وذكر العمل به وتأويله.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾: يدرك سرائر الأمور وخفايا الصدور وخبايا السماوات والأرض والأعمال التي تبين وتسر؛ فلطفه وخبرته يقتضي حثهن على الإخلاص وإسرار الأعمال ومجازاة الله على تلك الأعمال. ومن معاني اللطيف: الذي يسوق عبده إلى الخير، ويعصمه من الشر بطرق خفية لا يشعر بها، ويسوق إليه من الرزق ما لا يدريه، ويريه من الأسباب التي تكرهها النفوس، ما يكون ذلك طريقًا له إلى أعلى الدرجات وأرفع المنازل.

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿٣٥﴾ لما ذكر تعالى ثواب زوجات الرسول ﷺ وعقابهن لو قدر عدم الامتثال وأنه ليس مثلهن أحد من النساء؛ ذكر بقية النساء غيرهن، ولما كان حكمهن والرجال واحدًا؛ جعل الحكم مشتركًا، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ ﴾: وهذا في الشرائع الظاهرة إذا كانوا قائمين بها، ﴿ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾: وهذا في الأمور الباطنة من عقائد القلب وأعماله، ﴿ وَٱلْقَٰنِتِينَ ﴾؛ أي: المطيعين لله ولرسوله، ﴿ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ ﴾: في مقالهم وفعالهم، ﴿ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾: على الشدائد والمصائب، ﴿ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ ﴾: في جميع أحوالهم خصوصًا في عباداتهم ولا سيما في صلواتهم، ﴿ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾: فرضًا ونفلًا، ﴿ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ ﴾: شمل ذلك الفرض والنفل، ﴿ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ ﴾: عن الزنا ومقدماته، ﴿ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾؛ أي: في أكثر الأوقات، خصوصًا في أوقات الأوراد المقيدة؛ كالصباح والمساء، وأدبار الصلوات المكتوبات، ﴿ وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم ﴾؛ أي: لهؤلاء الموصوفين بتلك الصفات الجميلة والمناقب الجليلة، التي هي ما بين اعتقادات وأعمال قلوب وأعمال جوارح وأقوال لسان ونفع متعد وقاصر وما بين أفعال الخير وترك الشر الذي من قام بهن فقد قام بالدين كله ظاهره وباطنه بالإسلام والإيمان والإحسان، فجازاهم على عملهم بالمغفرة لذنوبهم؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات. ﴿ وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾: لا يقدر قدره إلا الذي أعطاه؛ مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. نسأل الله أن يجعلنا منهم.

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿٣٦﴾ ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ ﴾ أي: لا ينبغي ولا يليق بمن اتصف بالإيمان إلا الإسراع في مرضاة الله ورسوله والهرب من سخط الله ورسوله وامتثال أمرهما واجتناب نهيهما؛ فلا يليق بمؤمن ولا مؤمنة، ﴿ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا ﴾: من الأمور وحتَّما به وألزما به ﴿ أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾؛ أي: الخيار هل يفعلونه أم لا؟ بل يعلم المؤمن والمؤمنة أن الرسول أولى به من نفسه؛ فلا يجعل بعض أهواء نفسه حجابًا بينه وبين أمر الله ورسوله، ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾؛ أي: بينًا؛ لأنه ترك الصراط المستقيم الموصلة إلى كرامة الله إلى غيرها من الطرق الموصلة للعذاب الأليم، فذكر أولًا السبب الموجب لعدم معارضة أمر الله ورسوله، وهو الإيمان، ثم ذكر المانع من ذلك، وهو التخويف بالضلال الدال على العقوبة والنكال.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ
لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا
مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ
أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ
مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ
مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ
أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا
﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى
ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ
يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ
بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن
رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً
وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم
مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿٣٧﴾ وكان سبب نزول هذه الآيات[1] أن الله تعالى أراد أن يشرع شرعًا عامًّا للمؤمنين أن الأدعياء ليسوا في حكم الأبناء حقيقة من جميع الوجوه، وأن أزواجهم لا جناح على من تبناهم في نكاحهن، وكان هذا من الأمور المعتادة التي لا تكاد تزول إلا بحادث كبير، فأراد أن يكون هذا الشرع قولًا من رسوله وفعلًا، وإذا أراد الله أمرًا؛ جعل له سببًا، فكان زيد بن حارثة يدعى زيد بن محمد، قد تبناه النبي ﷺ، فصار يدعى إليه، حتى نزل ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٥]؛ فقيل له: زيد بن حارثة، وكانت تحته زينب بنت جحش ابنة عمة رسول الله ﷺ، وكان قد وقع في قلب الرسول لو طلقها زيد لتزوجها، فقدر الله أن يكون بينها وبين زيد ما اقتضى أن جاء زيد بن حارثة يستأذن النبي ﷺ في فراقها؛ قال الله: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾؛ أي: بالإسلام، ﴿ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾: بالعتق والإرشاد والتعليم حين جاءك مشاورًا في فراقها، فقلت له ناصحًا له ومخبرًا بمصلحته مقدمًا لها على رغبتك مع وقوعها في قلبك: ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾؛ أي: لا تفارقها واصبر على ما جاءك منها.

﴿ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾: تعالى في أمورك عامة وفي أمر زوجك خاصة؛ فإن التقوى تحث على الصبر وتأمر به، ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾: والذي أخفاه أنه لو طلقها زيد؛ لتزوجها ﷺ، ﴿ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ ﴾: في عدم إبداء ما في نفسك، ﴿ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾: فإن خشيته جالبة لكل خير مانعة من كل شر، ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا ﴾؛ أي: طابت نفسه ورغب عنها وفارقها، ﴿ زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾: وإنما فعلنا ذلك لفائدة عظيمة، وهي: ﴿ لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ ﴾: حيث رأوك تزوجت زوج زيد بن حارثة الذي كان من قبل ينتسب إليك، ولما كان قوله: ﴿ لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ ﴾: عامًّا في جميع الأحوال، وكان من الأحوال ما لا يجوز ذلك، وهي قبل انقضاء وطره منها؛ قيد ذلك بقوله: ﴿ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾؛ أي: لا بد من فعله ولا عائق له ولا مانع.

وفي هذه الآيات المشتملات على هذه القصة فوائد:

منها: الثناء على زيد بن حارثة، وذلك من وجهين: أحدهما: أن الله سماه في القرآن ولم يسم من الصحابة باسمه غيره. والثاني: أن الله أخبر أنه أنعم عليه؛ أي: بنعمة الإسلام والإيمان، وهذه شهادة من الله له أنه مسلم مؤمن ظاهرًا وباطنًا، وإلا؛ فلا وجه لتخصيصه بالنعمة؛ إلا أن المراد بها النعمة الخاصة.

ومنها: أن المعتَق في نعمة المعتِق.

ومنها: جواز تزوج زوجة الدَّعِيِّ كما صرح به.

(١) البخاري (٤٧٨٧، ٧٤٢٠).

ومنها: أن التعليم الفعلي أبلغ من القولي، خصوصًا إذا اقترن بالقول؛ فإن ذلك نور على نور.

ومنها: أن المحبة التي في قلب العبد لغير زوجته ومملوكته ومحارمه إذا لم يقترن بها محذور لا يأثم عليها العبد، ولو اقترن بذلك أمنيته أن لو طلقها زوجها لتزوجها من غير أن يسعى في فرقة بينهما أو يتسبب بأي سبب كان؛ لأن الله أخبر أن الرسول ﷺ أخفى ذلك في نفسه.

ومنها: أن الرسول ﷺ قد بلغ البلاغ المبين، فلم يدع شيئًا مما أوحي إليه إلا وبلغه، حتى هذا الأمر الذي فيه عتابه، وهذا يدل على أنه رسول الله، ولا يقول إلا ما أوحي إليه، ولا يريد تعظيم نفسه.

ومنها: أن المستشار مؤتمن، يجب عليه - إذا استشير في أمر من الأمور - أن يشير بما يعلمه أصلح للمستشير، ولو كان للمستشار حظ نفس يقدم مصلحة المستشير على هوى نفسه وغرضه.

ومنها: أن من الرأي الحسن لمن استشار في فراق زوجة أن يؤمر بإمساكها مهما أمكن صلاح الحال؛ فهو أحسن من الفرقة.

ومنها: أنه يتعين أن يقدم العبد خشية الله على خشية الناس، وأنها أحق منها وأولى.

ومنها: فضيلة زينب رضي الله عنها أم المؤمنين؛ حيث تولى الله تزويجها من رسوله ﷺ من دون خطبة ولا شهود، ولهذا كانت تفتخر بذلك على أزواج رسول الله ﷺ، وتقول: زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سماوات[1].

ومنها: أن المرأة إذا كانت ذات زوج لا يجوز نكاحها ولا السعي فيه وفي أسبابه حتى يقضي زوجها وطره منها، ولا يقضي وطره حتى تنقضي عدتها؛ لأنها قبل انقضاء عدتها وهي في عصمته أو في حقه الذي له وطر إليها ولو من بعض الوجوه.

(١) البخاري (٧٤٢٠).

﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿٣٨﴾ هذا دفع لطعن من طعن في الرسول ﷺ في كثرة أزواجه، وأنه طعن بما لا مطعن فيه، فقال: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ ﴾؛ أي: إثم وذنب ﴿ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ﴾؛ أي: قدر له من الزوجات؛ فإن هذا قد أباحه الله له كما أباحه للأنبياء قبله، ولهذا قال: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ﴾؛ أي: لا بد من وقوعه.

﴿٣٩﴾ ثم ذكر من هم الذين من قبل قد خلوا وهذه سنتهم وعادتهم، وأنهم ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾: فيتلون على العباد آيات الله وحججه وبراهينه ويدعونهم إلى الله، ﴿ وَيَخْشَوْنَهُۥ ﴾: وحده لا شريك له، ﴿ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾؛ فإذا كان هذا سنة في الأنبياء المعصومين الذين وظيفتهم قد أدوها وقاموا بها أتم القيام، وهو دعوة الخلق إلى الله والخشية منه وحده، التي تقتضي فعل كل مأمور وترك كل محظور، دل ذلك على أنه لا نقص فيه بوجه. ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾: محاسبًا عباده مراقبًا أعمالهم. وعلم من هذا أن النكاح من سنن المرسلين.

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿٤٠﴾ أي: ما كان الرسول ﴿ مُحَمَّدٌ ﴾: ﷺ ﴿ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾: أيها الأمة، فقطع انتساب زيد بن حارثة منه من هذا الباب. ولما كان هذا النفي عامًّا في جميع الأحوال إن حمل ظاهر اللفظ على ظاهره؛ أي: لا أبوة نسب ولا أبوة ادعاء، وكان قد تقرر فيما تقدم أن الرسول ﷺ أب للمؤمنين كلهم، وأزواجه أمهاتهم، فاحترز أن يدخل هذا النوع بعموم النهي المذكور؛ فقال: ﴿ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾؛ أي: هذه مرتبته؛ مرتبة المطاع المتبوع المهتدى به المؤمن له الذي يجب تقديم محبته على محبة كل أحد، الناصح، الذي لهم - أي: للمؤمنين - من بره ونصحه كأنه أب لهم، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾؛ أي: قد أحاط علمه بجميع

تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا
إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم
مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ
وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ
مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ
فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ
أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ
يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ
وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً
مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا
خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا
عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا
يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾

٤٢٤

الأشياء، ويعلم حيث يجعل رسالاته، ومن يصلح لفضله ومن لا يصلح.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿٤١﴾ يأمر تعالى المؤمنين بذكره ذكرًا كثيرًا؛ من تهليل وتحميد وتسبيح وتكبير وغير ذلك من كل قول فيه قربة إلى الله، وأقل ذلك أن يلازم الإنسان أوراد الصباح والمساء وأدبار الصلوات الخمس وعند العوارض والأسباب، وينبغي مداومة ذلك في جميع الأوقات على جميع الأحوال؛ فإن ذلك عبادة يسبق بها العامل وهو مستريح وداع إلى محبة الله ومعرفته وعون على الخير وكف للسان عن الكلام القبيح.

﴿٤٢﴾ ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾؛ أي: أول النهار وآخره؛ لفضلهما وشرفهما وسهولة العمل فيهما.

﴿٤٣﴾ ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾؛ أي: من رحمته بالمؤمنين ولطفه بهم أن جعل من صلاته عليهم وثنائه وصلاة ملائكته ودعائهم ما يخرجهم من ظلمات الذنوب والجهل إلى نور الإيمان والتوفيق والعلم والعمل؛ فهذه أعظم نعمة أنعم بها على العباد الطائعين، تستدعي منهم شكرها والإكثار من ذكر الله الذي لطف بهم ورحمهم وجعل حملة عرشه أفضل الملائكة ومن حوله يسبحون بحمد ربهم، ويستغفرون للذين آمنوا، فيقولون: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ [غافر: ٧-٩]: فهذه رحمته ونعمته عليهم في الدنيا.

﴿٤٤﴾ وأما رحمته بهم في الآخرة؛ فأجل رحمة وأفضل ثواب، وهو الفوز برضا ربهم وتحيته، واستماع كلامه الجليل، ورؤية وجهه الجميل، وحصول الأجر الكبير الذي لا يدريه ولا يعرف كنهه إلا من أعطاهم إياه، ولهذا قال: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿٤٥﴾ هذه الأشياء التي وصف الله بها رسوله محمدًا ﷺ هي المقصود من رسالته وزبدتها وأصولها التي اختص بها، وهي خمسة أشياء:

أحدها: كونه ﴿ شَٰهِدًا ﴾؛ أي: شاهدًا على أمته بما عملوه من خير وشر؛ كما قال تعالى: ﴿ لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ﴿ فَكَيْفَ

إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ [النساء: ٤١]: فهو ﷺ شاهد عدل مقبول.

الثاني والثالث: كونه مبشرًا ونذيرًا: وهذا يستلزم ذكر المبشَّر والمنذَر وما يبشَّر به وينذَر والأعمال الموجبة لذلك: فالمبشَّر هم المؤمنون المتقون، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح وترك المعاصي، لهم البشرى في الحياة الدنيا بكل ثواب دنيوي وديني رُتب على الإيمان والتقوى، وفي الأخرى بالنعيم المقيم، وذلك كله يستلزم ذكر تفصيل المذكور من تفاصيل الأعمال وخصال التقوى وأنواع الثواب. والمنذَر هم المجرمون الظالمون، أهل الظلم والجهل، لهم النذارة في الدنيا من العقوبات الدنيوية والدينية المرتبة على الجهل والظلم، وفي الأخرى بالعقاب الوبيل والعذاب الطويل. وهذه الجملة تفصيلها ما جاء به ﷺ من الكتاب والسنة المشتمل على ذلك.

﴿٤٦﴾ **الرابع**: كونه داعيًا إلى الله؛ أي: أرسله الله يدعو الخلق إلى ربهم ويشوقهم[1] لكرامته ويأمرهم بعبادته التي خلقوا لها، وذلك يستلزم استقامته على ما يدعو إليه وذكر تفاصيل ما يدعو إليه؛ بتعريفهم لربهم بصفاته المقدسة، وتنزيهه عما لا يليق بجلاله، وذكر أنواع العبودية، والدعوة إلى الله بأقرب طريق موصل إليه، وإعطاء كل ذي حق حقه، وإخلاص الدعوة إلى الله لا إلى نفسه وتعظيمها؛ كما قد يعرض ذلك لكثير من النفوس في هذا المقام، وذلك كله ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ تعالى له في الدعوة وأمره وإرادته وقدره.

الخامس: كونه سراجًا منيرًا؛ وذلك يقتضي أن الخلق في ظلمة عظيمة، لا نور يهتدى به في ظلماتها، ولا علم يستدل به في جهالاتها، حتى جاء الله بهذا النبي الكريم، فأضاء الله به تلك الظلمات، وعلم به من الجهالات، وهدى به ضُلّالًا إلى الصراط المستقيم، فأصبح أهل الاستقامة قد وضح لهم الطريق، فمشوا خلف هذا الإمام، وعرفوا به الخير والشر، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، واستناروا به لمعرفة معبودهم، وعرفوه بأوصافه الحميدة وأفعاله السديدة وأحكامه الرشيدة.

(١) ع، ط: «ويسوقهم».

﴿٤٧﴾ وقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾: ذكر في هذه الجملة المُبَشَّر، وهم المؤمنون، وعند ذكر الإيمان بمفرده تدخل فيه الأعمال الصالحة، وذكر المُبَشَّر به، وهو الفضل الكبير؛ أي: العظيم الجليل الذي لا يقادر قدره من النصر في الدنيا وهداية القلوب وغفران الذنوب وكشف الكروب وكثرة الأرزاق الدارة وحصول النعم السارة والفوز برضا ربهم وثوابه والنجاة من سخطه وعقابه، وهذا مما يُنَشِّطُ العاملين أن يذكر لهم من ثواب الله على أعمالهم ما به يستعينون على سلوك الصراط المستقيم، وهذا من جملة حِكَمِ الشرع: كما أن من حكمه أن يذكر في مقام الترهيب العقوبات المرتبة على ما يرهب منه؛ ليكون عونًا على الكف عما حرم الله.

﴿٤٨﴾ ولما كان ثَمَّ طائفة من الناس مستعدة للقيام بصد الداعين إلى الله من الرسل وأتباعهم، وهم المنافقون الذين أظهروا الموافقة في الإيمان وهم كفرة فجرة في الباطن، والكفار ظاهرًا وباطنًا؛ نهى الله رسوله عن طاعتهم وحذره ذلك، فقال: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾؛ أي: في كل أمر يصد عن سبيل الله، ولكن لا يقتضي هذا أذاهم، بل لا تطعهم، ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾: فإن ذلك جالب لهم وداع إلى قبول الإسلام وإلى كف كثير من أذيتهم له ولأهله، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾: في إتمام أمرك وخذلان عدوك، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾: توكل إليه الأمور المهمة، فيقوم بها ويسهلها على عبده.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾.

﴿٤٩﴾ يخبر تعالى المؤمنين أنهم إذا نكحوا المؤمنات ثم طلقوهن من قبل أن يمسوهن؛ فليس عليهن في ذلك عدة يعتدها أزواجهن عليهن، وأمرهم بتمتيعهن بهذه الحالة بشيء من متاع الدنيا الذي يكون فيه جبر لخواطرهن لأجل فراقهن، وأن يفارقوهن فراقًا جميلًا من غير مخاصمة ولا مشاتمة ولا مطالبة، ولا غير ذلك.

ويستدل بهذه الآية على أن الطلاق لا يكون إلا بعد النكاح، فلو طلقها قبل أن ينكحها أو علق طلاقها على نكاحها؛

لم يقـع؛ لقولـه: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾، فجعل الطلاق بعد النكاح، فـدل على أنه قبل ذلك لا محل له. وإذا كان الطلاق الذي هـو فرقة تامة وتحريم تام لا يقع قبل النـكاح؛ فالتحريم الناقص لظهـار أو إيلاء ونحوه من باب أولى وأحرى ألَّا يقع قبـل النكاح؛ كما هو أصح قولي العلماء.

ويـدل على جواز الطلاق لأن اللـه أخبر به عن المؤمنين على وجه لـم يلمهم عليه، ولـم يؤنبهم مـع تصدير الآية بخطاب المؤمنين.

وعلى جوازه قبل المسـيس؛ كما قـال في الآية الأخرى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٦].

وعلى أن المطلقـة قبل الدخول لا عدة لهـا، بل بمجرد طلاقها يجوز لها التزوج حيث لا مانع.

وعلى أن عليها العدة بعد الدخول. وهل المراد بالدخول والمسيس الوطء كما هو مجمع عليه أو وكذلك الخلوة ولو لم يحصـل معها وطء كما أفتى بذلك الخلفاء الراشـدون، وهو الصحيح؛ فمتى دخل عليهـا وطئها أم لا، إذا خلا بها، وجب عليها العدة.

وعلى أن المطلقة قبل المسـيس تمتع على الموسع قدره وعلى المقتر قدره، ولكن هذا إذا لم يفرض لها مهر؛ فإن كان لها مهر مفروض؛ فإنه إذا طلق قبل الدخول؛ تَنَصَّفَ المهر، وكفى عن المتعة.

وعلى أنه ينبغي لمن فارق زوجته قبل الدخول أو بعده أن يكون الفراق جميلًا يحمد فيـه كل منهما الآخر، ولا يكون غير جميل؛ فإن في ذلك من الشر المترتب عليه من قدح كل منهما بالآخر شيء كثير.

وعلى أن العدة حق للـزوج؛ لقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾: دل مفهومه أنه لو طلقها بعد المسـيس؛ كان له عليها عدة.

وعلـى أن المفارقـة بالوفـاة تعتد مطلقـًا؛ لقوله: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ الآية.

وعلى أن مـن عدا غير المدخول بها مـن المفارقات من الزوجات، بموت أو حياة، عليهن العدة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾.

﴿٥٠﴾ يقول تعالى ممتنًّا على رسوله بإحلاله له ما أحل مما يشترك هو والمؤمنون وما ينفرد به ويختص: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾؛ أي: أعطيتهن مهورهن من الزوجات، وهذا من الأمور المشتركة بينه وبين المؤمنين؛ فإن المؤمنين كذلك يباح لهم من آتوهن أجورهن من الأزواج. وكذلك أحللنا لك ما ﴿مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾؛ أي: الإماء التي ملكت، ﴿مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾: من غنيمة الكفار من عبيدهم، والأحرار من لهن زوج منهم ومن لا زوج لهن، وهذا أيضًا مشـترك، وكذلك من المشـترك قوله: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ﴾: شـمل العم والعمة والخال والخالة القريبين والبعيدين، وهذا حصر المحللات، يؤخذ من مفهومه أن ما عداهن من الأقارب غير محلل؛ كما تقدم في سـورة النساء؛ فإنه لا يباح من الأقارب من النساء غير هؤلاء الأربع، وما عداهن من الفروع مطلقًا، والأصول مطلقًا، وفروع الأب والأم، وإن نزلوا، وفروع من فوقهم لصلبه؛ فإنه لا يباح.

وقوله: ﴿اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾: قيد لحل هؤلاء للرسول؛ كما هو الصواب من القولين في تفسير هذه الآية، وأما غيره عليه الصلاة والسـلام؛ فقد علم أن هذا قيـد لغير الصحة. وأحللنا لك امرأة ﴿مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾: بمجرد هبتها نفسـها، ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾؛ أي: هذا تحت الإرادة والرغبـة، ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ يعني: إباحـة المَوهِبة، وأمـا المؤمنون؛ فـلا يحل لهم أن يتزوجـوا امرأة بمجرد هبتها نفسـها لهـم. ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾؛ أي: قد علمنا ما علـى المؤمنين وما يحل لهـم وما لا يحل من

الزوجات وملك اليمين، وقد أعلمناهم بذلك، وبينا فرائضه فما في هذه الآية مما يخالف ذلك؛ فإنه خاص لك؛ لكون الله جعله خطابًا للرسول وحده بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ ﴾ إلى آخر الآية.

وقوله: ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾: وأبحنا لك يا أيها النبي ما لم نبح لهم، ووسعنا عليك ما لم نوسع على غيرك؛ ﴿ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ﴾: وهذا من زيادة اعتناء الله تعالى برسوله ﷺ، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ﴾؛ أي: لم يزل متصفًا بالمغفرة والرحمة، وينزل على عباده من مغفرته ورحمته وجوده وإحسانه ما اقتضته حكمته، ووجدت منهم أسبابه.

﴿ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿٥١﴾ وهذا أيضًا من توسعة الله على رسوله ورحمته به أن أباح له ترك القَسْمِ بين زوجاته على وجه الوجوب، وأنه إن فعل ذلك؛ فهو تبرع منه، ومع ذلك؛ فقد كان ﷺ يجتهد في القسم بينهن في كل شيء، ويقول: «اللهم! هذا قسمي فيما أملك؛ فلا تلمني فيما لا أملك»[1]، فقال هنا: ﴿ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ ﴾؛ أي: تؤخر من أردت من زوجاتك، فلا تؤويها إليك، ولا تبيت عندها، ﴿ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ﴾؛ أي: تضمها وتبيت عندها، ومع ذلك؛ لا يتعين هذا الأمر. ﴿ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ ﴾؛ أي: أن تؤويها، ﴿ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾: والمعنى أن الخيرة بيدك في ذلك كله. وقال كثير من المفسرين: إن هذا خاص بالواهبات له أن يرجي من يشاء ويؤوي من يشاء؛ أي: إن شاء؛ قبل من وهبت نفسها له، وإن شاء؛ لم يقبلها. والله أعلم.

ثم بين الحكمة في ذلك، فقال: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾؛ أي: التوسعة عليك وكون الأمر راجعًا إليك وبيدك، وكون ما جاء منك إليهن تبرعًا منك؛ ﴿ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ﴾: لعلمهن أنك لم تترك واجبًا ولم تفرط في حق لازم، ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ﴾؛

(١) أبو داود (٢١٣٤)، ابن ماجه (١٩٧١).

الجزء الثاني والعشرون — سورة الأحزاب

تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾

٤٢٥

أي: ما يعرض لها عند أداء الحقوق الواجبة والمستحبة وعند المزاحمة في الحقوق؛ فلذلك شرع لك التوسعة يا رسول الله؛ لتطمئن قلوب زوجاتك، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ ﴾؛ أي: واسع العلم، كثير الحلم، ومن علمه أن شرع لكم ما هو أصلح لأموركم وأكثر لأجوركم، ومن حلمه أن لم يعاقبكم بما صدر منكم، وما أصرت عليه قلوبكم من الشر.

﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿٥٢﴾ وهذا شكر من الله الذي لم يزل شكورًا لزوجات رسوله رضي الله عنهن، حيث اخترن الله ورسوله والدار الآخرة؛ أن رحمهن وقصر رسوله عليهن، فقال: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ ﴾: زوجاتك الموجودات، ﴿ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ ﴾؛ أي: ولا أن تطلق بعضهن فتأخذ بدلها،

فحصل بهذا أمنهن من الضرائر ومن الطلاق؛ لأن الله قضى أنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، لا يكون بينه وبينهن فرقة، ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾؛ أي: حسن غيرهن؛ فلا يحللن لك، ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾؛ أي: السراري؛ فذلك جائز لك؛ لأن المملوكات في كراهة الزوجات لسن بمنزلة الزوجات في الإضرار للزوجات. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾؛ أي: مراقبًا للأمور وعالمًا بما إليه تئول وقائمًا بتدبيرها على أكمل نظام وأحسن إحكام.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾.

﴿٥٣﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالتأدب مع رسول الله ﷺ في دخول بيوته، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾؛ أي: لا تدخلوها بغير إذن للدخول فيها لأجل الطعام، وأيضًا ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾؛ أي: منتظرين ومتأنين لانتظار نضجه أو سعة صدر بعد الفراغ منه. والمعنى: أنكم لا تدخلوا بيوت النبي إلا بشرطين: الإذن لكم بالدخول، وأن يكون جلوسكم بمقدار الحاجة، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾؛ أي: قبل الطعام وبعده.

ثم بين حكمة النهي وفائدته، فقال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾؛ أي: انتظاركم الزائد على الحاجة ﴿كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾؛ أي: يتكلف منه ويشق عليه حبسكم إياه عن شئون بيته وأشغاله فيه، ﴿فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ﴾: أن يقول لكم: اخرجوا! كما هو جاري العادة أن الناس - خصوصًا أهل الكرم منهم - يستحيون أن يُخرجوا الناس من مساكنهم، ولكن الله ﴿لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾: فالأمر الشرعي، ولو كان يتوهم أن في تركه أدبًا وحياء؛ فإن الحزم كل الحزم اتباع الأمر الشرعي، وأن يجزم أن ما خالفه ليس من الأدب في شيء، والله تعالى لا يستحيي أن يأمركم بما فيه الخير لكم والرفق لرسوله كائنًا ما كان.

فهذا أدبهم في الدخول في بيوته، وأما أدبهم معه في خطاب زوجاته؛ فإنه: إما أن يحتاج إلى ذلك، أو لا يحتاج إليه؛ فإن لم يحتج إليه؛ فلا حاجة إليه، والأدب تركه، وإن احتيج إليه، كأن يسألهن متاعًا أو غيره من أواني البيت أو نحوها؛ فإنهن يُسألن ﴿مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾؛ أي: يكون بينكم وبينهن ستر يستر عن النظر؛ لعدم الحاجة إليه، فصار النظر إليهن ممنوعًا بكل حال، وكلامهن فيه التفصيل الذي ذكره الله. ثم ذكر حكمة ذلك بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾؛ لأنه أبعد عن الريبة، وكلما بعد الإنسان عن الأسباب الداعية إلى الشر؛ فإنه أسلم له وأطهر لقلبه؛ فلهذا من الأمور الشرعية التي بين الله كثيرًا من تفاصيلها أن جميع وسائل الشر وأسبابه ومقدماته ممنوعة، وأنه مشروع البعد عنها بكل طريق.

ثم قال كلمة جامعة وقاعدة عامة: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾: يا معشر المؤمنين؛ أي: غير لائق ولا مستحسن منكم، بل هو أقبح شيء، ﴿أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾؛ أي: أذية قولية أو فعلية بجميع ما يتعلق به، ﴿وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا﴾: هذا من جملة ما يؤذيه؛ فإنه ﷺ له مقام التعظيم والرفعة والإكرام، وتزوج زوجاته بعده مخل بهذا المقام، وأيضًا؛ فإنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، والزوجية باقية بعد موته؛ فلذلك لا يحل نكاح زوجاته بعده لأحد من أمته. ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾: وقد امتثلت هذه الأمة هذا الأمر، واجتنبت ما نهى الله عنه منه، ولله الحمد والشكر.

﴿٥٤﴾ ثم قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا﴾؛ أي: تظهروه، ﴿أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾: يعلم ما في قلوبكم، وما أظهرتموه؛ فيجازيكم عليه.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا

مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿٥٥﴾ لما ذكر أنهن لا يُسألن متاعًا إلا من وراء حجاب، وكان اللفظ عامًّا لكل أحد؛ احتيج أن يستثنى منه هؤلاء المذكورون من المحارم، وأنه ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ﴾ في عدم الاحتجاب عنهم، ولم يذكر فيها الأعمام والأخوال؛ لأنهن إذا لم يحتجبن عمن هن عماته ولا خالاته من أبناء الإخوة والأخوات مع رفعتهن عليهم؛ فعدم احتجابهن عن عمهن وخالهن من باب أولى، ولأن منطوق الآية الأخرى المصرحة بذكر العم والخال مقدمة على ما يفهم من هذه الآية، وقوله: ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾؛ أي: لا جناح عليهن ألّا يحتجبن عن نسائهن؛ أي: اللاتي من جنسهن في الدين، فيكون ذلك مُخْرِجًا لنساء الكفار، ويحتمل أن المراد جنس النساء؛ فإن المرأة لا تحتجب عن المرأة، ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾: ما دام العبد في ملكها جميعه، ولما رفع الجناح عن هؤلاء؛ شرط فيه وفي غيره لزوم تقوى الله، وألّا يكون في ذلك محذور شرعي، فقال: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾؛ أي: استعملن تقواه في جميع الأحوال. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾: يشهد أعمال العباد ظاهرها وباطنها، ويسمع أقوالهم، ويرى حركاتهم؛ ثم يجازيهم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾.

﴿٥٦﴾ وهذا فيه تنبيه على كمال رسول الله ﷺ ورفعة درجته وعلو منزلته عند الله وعند خلقه ورفع ذكره، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ تعالى ﴿وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾؛ أي: يثني الله عليه بين الملائكة وفي الملأ الأعلى لمحبته تعالى له، ويثني عليه الملائكة المقربون، ويدعون له ويتضرعون. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾: اقتداء بالله وملائكته، وجزاء له على بعض حقوقه عليكم، وتكميلًا لإيمانكم، وتعظيمًا له ﷺ ومحبة وإكرامًا، وزيادة في حسناتكم، وتكفيرًا من سيئاتكم، وأفضل هيئات الصلاة عليه - عليه الصلاة والسلام - ما علم به أصحابه: «**اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما**

لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾

٤٢٦

باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد»[1]. وهذا الأمر بالصلاة والسلام عليه مشروع في جميع الأوقات، وأوجبه كثير من العلماء في الصلاة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾.

﴿٥٧﴾، ﴿٥٨﴾ لما أمر تعالى بتعظيم رسوله ﷺ والصلاةِ والسلام عليه؛ نهى عن أذيته، وتوعد عليها، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾: وهذا يشمل كل أذية قولية أو فعلية من سب وشتم أو تنقص له أو لدينه أو ما يعود إليه بالأذى، ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: أبعدهم وطردهم، ومن لَعْنِهم في الدنيا أنه يتحتم قتل من شتم الرسول وآذاه، ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ

(١) البخاري (٦٣٥٧)، مسلم (٤٠٦).

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾[1]: جزاء له على أذاه أن يؤذى بالعذاب الأليم، فأذية الرسول ليست كأذية غيره؛ لأنه ﷺ لا يؤمن العبد بالله حتى يؤمن برسوله، وله من التعظيم الذي هو من لوازم الإيمان ما يقتضي ذلك ألَّا يكون مثل غيره، وإن كان أذية المؤمنين عظيمة وإثمها عظيمًا، ولهذا قال فيها: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾؛ أي: بغير جناية منهم موجبة للأذى، ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا﴾: على ظهورهم ﴿بُهْتَانًا﴾: حيث آذوهم بغير سبب، ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾: حيث تعدَّوا عليهم وانتهكوا حرمةً أمر اللهُ باحترامها، ولهذا كان سب آحاد المؤمنين موجبًا للتعزير بحسب حالته وعلو مرتبته؛ فتعزير من سب الصحابة أبلغ، وتعزير من سب العلماء وأهل الدين أعظم من غيرهم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

﴿٥٩﴾ هذه الآية هي التي تسمى آية الحجاب، فأمر الله نبيه أن يأمر النساء عمومًا، ويبدأ بزوجاته وبناته - لأنهن آكد من غيرهن، ولأن الآمر لغيره ينبغي أن يبدأ بأهله قبل غيرهم؛ كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]. أن ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾: وهن اللاتي يكن فوق الثياب من ملحفة وخمار ورداء ونحوه؛ أي: يغطين بها وجوههن وصدورهن، ثم ذكر حكمة ذلك، فقال: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾: دل على وجود أذية إن لم يحتجبن، وذلك لأنهن إذا لم يحتجبن، ربما ظن أنهن غير عفيفات، فيتعرض لهن من في قلبه مرض، فيؤذيهن، وربما استهين بهن، وظن أنهن إماء، فتهاون بهن من يريد الشر؛ فالاحتجاب حاسم لمطامع الطامعين فيهن. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾: حيث غفر لكم ما سلف ورحمكم بأن بين لكم الأحكام وأوضح الحلال والحرام؛ فهذا سد للباب من جهتهن.

﴿٦٠﴾، ﴿٦١﴾ وأما من جهة أهل الشر؛ فقد توعدهم بقوله: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ أي: مرض شك أو شهوة، ﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾؛ أي: المخوفون المرهبون الأعداء، المتحدثون بكثرتهم وقوتهم وضعف المسلمين، ولم يذكر المعمول الذي ينتهون عنه؛ ليعم ذلك كل ما توحي به أنفسهم إليهم، وتوسوس به، وتدعو إليه من الشر من التعريض بسب الإسلام وأهله، والإرجاف بالمسلمين، وتوهين قواهم، والتعرض للمؤمنات بالسوء والفاحشة. وغير ذلك من المعاصي الصادرة من أمثال هؤلاء.

﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾؛ أي: نأمرك بعقوبتهم وقتالهم ونسلطك عليهم، ثم إذا فعلنا ذلك؛ لا طاقة لهم بك، وليس لهم قوة ولا امتناع، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾؛ أي: لا يجاورونك في المدينة إلا قليلًا؛ بأن تقتلهم أو تنفيهم، وهذا فيه دليل لنفي أهل الشر الذين يتضرر بإقامتهم بين أظهر المسلمين؛ فإن ذلك أحسم للشر وأبعد منه، ويكونون ﴿مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾؛ أي: مبعدين حيث وجدوا، لا يحصل لهم أمن، ولا يقر لهم قرار، يخشون أن يقتلوا أو يحبسوا أو يعاقبوا.

﴿٦٢﴾ ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾: أن من تمادى في العصيان وتجرأ على الأذى ولم ينته منه؛ فإنه يعاقب عقوبة بليغة، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾؛ أي: تغييرًا، بل سنته تعالى وعادته جارية مع الأسباب المقتضية لأسبابها.

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾.

(١) في الأصل: «أليمًا». وقد سهى الشيخ في تذييل الآية وفسرها على ذلك.

يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾

(٦٣) أي: يستخبرك الناس عن الساعة استعجالًا لها، وبعضهم تكذيبًا لوقوعها وتعجيزًا للذي أخبر بها، ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا يعلمها إلا الله؛ فليس لي ولا لغيري بها علم، ومع هذا؛ فلا تستبطئوها، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾.

(٦٤) - (٦٦) ومجرد مجيء الساعة قربًا وبعدًا ليس تحته نتيجة ولا فائدة، وإنما النتيجة والخسار والربح والشقاوة والسعادة: هل يستحق العبد العذاب أو يستحق الثواب؟ فهذه سأخبركم بها وأصف لكم مستحقها، فوصف مستحق العذاب ووصف العذاب؛ لأن الوصف المذكور منطبق على هؤلاء المكذبين بالساعة، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: الذين صار الكفر دأبهم وطريقتهم الكفر بالله وبرسله وبما جاءوا به من عند الله، فأبعدهم في الدنيا والآخرة من رحمته، وكفى بذلك عقابًا، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾﴾؛ أي: نارًا موقدة تسعر في أجسامهم، ويبلغ العذاب إلى أفئدتهم، ويخلدون في ذلك العذاب الشديد، فلا يخرجون منه، ولا يفتر عنهم ساعة، ﴿لَّا يَجِدُونَ﴾ لهم ﴿وَلِيًّا﴾: فيعطيهم ما طلبوه ﴿وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾: يدفع عنهم العذاب، بل قد تخلى عنهم الولي النصير وأحاط بهم عذاب السعير، وبلغ منهم مبلغًا عظيمًا، ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾: فيذوقون حرها، ويشتد عليهم أمرها، ويتحسرون على ما أسلفوا. و﴿يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾﴾: فسلمنا من هذا العذاب، واستحققنا كالمطيعين جزيل الثواب، ولكن أمنية فات وقتها، فلم تفدهم إلا حسرة وندمًا وهمًّا وغمًّا وألمًا.

(٦٧) ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾: وقلدناهم على ضلالهم، ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾؛ كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩] الآية.

(٦٨) ولما علموا أنهم هم وكبراءهم مستحقون للعقاب؛ أرادوا أن يشتفوا ممن أضلوهم، فقالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾: فيقول الله ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ [الأعراف: ٣٨]: فكلكم اشتركتم في الكفر والمعاصي، فتشتركون في العقاب، وإن تفاوت عذاب بعضكم على بعض بحسب تفاوت الجرم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾.

(٦٩) يحذر تعالى عباده المؤمنين عن أذية رسولهم محمد ﷺ النبي الكريم، الرءوف الرحيم، فيقابلوه بضد ما يجب له من الإكرام والاحترام، وألَّا يتشبهوا بحال الذين آذوا موسى بن عمران كليم الرحمن، فبرأه الله مما قالوا من الأذية؛ أي: أظهر الله لهم براءته، والحال أنه عليه الصلاة والسلام ليس محل التهمة والأذية؛ فإنه كان وجيهًا عند الله، مقربًا لديه، من خواص المرسلين، ومن عباد الله المخلصين، فلم يزجرهم ما له من الفضائل عن أذيته والتعرض له بما يكره. فاحذروا أيها المؤمنون أن تتشبهوا بهم في ذلك، والأذية المشار إليها هي قول بني إسرائيل لموسى لما رأوا شدة حيائه وتستره عنهم: إنه ما يمنعه من

ذلك إلا أنه آدر؛ أي: كبير الخصيتين، واشتهر ذلك عندهم، فأراد الله أن يبرئه منهم، فاغتسل يومًا، ووضع ثوبه على حجر، ففر الحجر بثوبه، فأهوى موسى عليه السلام في طلبه، فمر به على مجالس بني إسرائيل، فرأوه أحسن خلق الله، فزال عنه ما رموه به[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾.

(٧٠) يأمر تعالى المؤمنين بتقواه في جميع أحوالهم في السر والعلانية، ويخص منها ويندب للقول السديد، وهو القول الموافق للصواب أو المقارب له عند تعذر اليقين من قراءة، وذكر، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وتعلم علم وتعليمه، والحرص على إصابة الصواب في المسائل العلمية، وسلوك كل طريق موصل لذلك، وكل وسيلة تعين عليه. ومن القول السديد لين الكلام، ولطفه في مخاطبة الأنام، والقول المتضمن للنصح والإشارة بما هو الأصلح.

(٧١) ثم ذكر ما يترتب على تقواه وقول القول السديد، فقال: ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾؛ أي: يكون ذلك سببًا لصلاحها وطريقًا لقبولها؛ لأن استعمال التقوى تتقبل به الأعمال؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧﴾ [المائدة: ٢٧]: ويوفق فيه الإنسان للعمل الصالح، ويصلح الله الأعمال أيضًا بحفظها عما يفسدها وحفظ ثوابها ومضاعفته؛ كما أن الإخلال بالتقوى والقول السديد سبب لفساد الأعمال وعدم قبولها وعدم ترتب آثارها عليها، ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾: أيضًا ﴿ذُنُوبَكُمۡ﴾: التي هي السبب في هلاككم؛ فالتقوى تستقيم بها الأمور، ويندفع بها كل محذور، ولهذا قال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾.

﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا ٧٣﴾.

(١) البخاري (٣٤٠٤)، مسلم (٣٣٩).

(٧٢) يعظم تعالى شأن الأمانة التي ائتمن الله عليها المكلفين، التي هي امتثال الأوامر واجتناب المحارم في حال السر والخفية كحال العلانية، وأنه تعالى عرضها على المخلوقات العظيمة؛ السماوات والأرض والجبال عرض تخيير لا تحتيم، وأنكِ إن قمت بها وأديتها على وجهها؛ فلك الثواب، وإن لم تقومي بها ولم تؤديها؛ فعليك العقاب، ﴿فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا﴾؛ أي: خوفًا ألَّا يقمن بما حملن، لا عصيانًا لربهن ولا زهدًا في ثوابه، وعرضها الله على الإنسان على ذلك الشرط المذكور، فقبلها وحملها مع ظلمه وجهله، وحمل هذا الحمل الثقيل.

(٧٣) فانقسم الناس بحسب قيامهم بها وعدمه إلى ثلاثة أقسام: منافقون أظهروا أنهم قاموا بها ظاهرًا لا باطنًا، ومشركون تركوها ظاهرًا وباطنًا، ومؤمنون قائمون بها ظاهرًا وباطنًا. فذكر الله تعالى أعمال هذه الأقسام الثلاثة وما لهم من الثواب والعقاب، فقال: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا ٧٣﴾: فله تعالى الحمد حيث ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين الدالين على تمام مغفرة الله وسعة رحمته وعموم جوده، مع أن المحكوم عليهم كثير منهم لم يستحق المغفرة والرحمة؛ لنفاقه وشركه.

تم تفسير سورة الأحزاب بحمد الله وعونه.



تفسير سورة سبأ

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) ﴾.

(١) ﴿ الْحَمْدُ ﴾: الثناء بالصفات الحميدة والأفعال الحسنة؛ فلله تعالى الحمد؛ لأن جميع صفاته يحمد عليها لكونها صفات كمال، وأفعاله يحمد عليها لأنها دائرة بين الفضل الذي يحمد عليه ويشكر، والعدل الذي يحمد عليه ويعترف بحكمته فيه. وحمد نفسه هنا على أن ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾: ملكًا وعبيدًا يتصرف فيهم بحمده. ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ﴾: لأن في الآخرة يظهر من حمده والثناء عليه ما لا يكون في الدنيا؛ فإذا قضى الله تعالى بين الخلائق كلهم، ورأى الناس والخلق كلهم ما حكم به وكمال عدله وقسطه وحكمته فيه؛ حمدوه كلهم على ذلك، حتى أهل العقاب؛ ما دخلوا النار إلا وقلوبهم ممتلئة من حمده، وأن هذا من جراء أعمالهم، وأنه عادل في حكمه بعقابهم.

وأما ظهور حمده في دار النعيم والثواب؛ فذلك شيء قد تواردت به الأخبار وتوافق عليه الدليل السمعي والعقلي؛ فإنهم في الجنة يرون من توالي نعم الله وإدرار خيره وكثرة بركاته وسعة عطاياه التي لم يبق في قلوب أهل الجنة أمنية ولا إرادة إلا وقد أعطي منها كل واحد منهم فوق ما تمنى وأراد، بل يعطون من الخير ما لم تتعلق به أمانيهم ولم يخطر بقلوبهم؛ فما ظنك بحمدهم لربهم في هذه الحال مع أن في الجنة تضمحل العوارض والقواطع التي تقطع عن معرفة الله ومحبته والثناء عليه، ويكون ذلك أحب إلى أهلها من كل نعيم وألذ عليهم من كل لذة؟! ولهذا؛ إذا رأوا الله تعالى وسمعوا كلامه عند خطابه لهم؛ أذهلهم ذلك عن كل نعيم، ويكون الذكر لهم في الجنة كالنفس متواصلًا في جميع الأوقات، هذا إذا أضفت ذلك إلى أنه يظهر لأهل الجنة في الجنة كل وقت من عظمة ربهم، وجلاله، وجماله، وسعة كماله،

الجزء الثاني والعشرون — سورة سبإ

سُورَةُ سَبَإٍ — ترتيبها ٣٤ — آياتها ٥٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٣) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (٥) وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧)

٤٢٨

ما يوجب لهم كمال الحمد والثناء عليه. ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾: في ملكه وتدبيره، الحكيم في أمره ونهيه. ﴿ الْخَبِيرُ (١) ﴾: المطلع على سرائر الأمور وخفاياها.

(٢) ولهذا فصل علمه بقوله: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ ﴾؛ أي: من مطر وبذر وحيوان، ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾: من أنواع النباتات وأصناف الحيوانات، ﴿ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾: من الأملاك والأرزاق والأقدار، ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾: من الملائكة والأرواح وغير ذلك. ولما ذكر مخلوقاته وحكمته فيها وعلمه بأحوالها؛ ذكر مغفرته ورحمته لها، فقال: ﴿ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) ﴾؛ أي: الذي الرحمة والمغفرة وصفه، ولم تزل آثارهما تنزل على العباد كل وقت بحسب ما قاموا به من مقتضياتهما.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٣) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿٣﴾ لما بين تعالى عظمته بما وصف به نفسه، وكان هذا موجبًا لتعظيمه وتقديسه والإيمان به؛ ذكر أن من أصناف الناس طائفة لم تقدر ربها حق قدره، ولم تعظمه حق عظمته، بل كفروا به وأنكروا قدرته على إعادة الأموات وقيام الساعة، وعارضوا بذلك رسله، فقال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾؛ أي: بالله وبرسله وبما جاءوا به، فقالوا بسبب كفرهم: ﴿لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ﴾؛ أي: ما هي إلا هذه الحياة الدنيا نموت ونحيا! فأمر الله رسوله أن يرد قولهم ويبطله ويقسم على البعث وأنه سيأتيهم، واستدل على ذلك بدليل من أقر به؛ لزمه أن يصدق بالبعث ضرورة، وهو علمه تعالى الواسع العام، فقال: ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ﴾؛ أي: الأمور الغائبة عن أبصارنا وعن علمنا؛ فكيف بالشهادة؟! ثم أكد علمه فقال: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ ﴾؛ أي: لا يغيب عن علمه ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي: جميع الأشياء بذواتها وأجزائها، حتى أصغر ما يكون من الأجزاء، وهو المثاقيل منها، ﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ ﴾؛ أي: قد أحاط به علمه وجرى به قلمه وتضمنه الكتاب المبين الذي هو اللوح المحفوظ.

فالذي لا يخفى عن علمه مثقال الذرة فما دونه في جميع الأوقات، ويعلم ما تنقص الأرض من الأموات وما يبقى من أجسادهم؛ قادر على بعثهم من باب أولى، وليس بعثهم بأعجب من هذا العلم المحيط.

﴿٤﴾ ثم ذكر المقصود من البعث، فقال: ﴿ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾: بقلوبهم، صدقوا الله، وصدقوا رسله تصديقًا جازمًا، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾: تصديقًا لإيمانهم. ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾: لذنوبهم، بسبب إيمانهم وعملهم يندفع بها كل شر وعقاب، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾: بإحسانهم، يحصل لهم به كل مطلوب ومرغوب وأمنية.

﴿٥﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ﴾؛ أي: سعوا فيها كفرًا بها وتعجيزًا لمن جاء بها وتعجيزًا لمن أنزلها كما عجزوه في الإعادة بعد الموت. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾؛ أي: مؤلم لأبدانهم وقلوبهم.

﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿٦﴾ لما ذكر تعالى إنكار من أنكر البعث، وأنهم يرون ما أنزل على رسوله ليس بحق؛ ذكر حالة الموفقين من العباد، وهم أهل العلم، وأنهم يرون ما أنزل الله على رسوله؛ من الكتاب وما اشتمل عليه من الأخبار ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾؛ أي: الحق منحصر فيه، وما خالفه وناقضه فإنه باطل؛ لأنهم وصلوا من العلم إلى درجة اليقين، ويرون أيضًا أنه في أوامره ونواهيه؛ يهدي ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾: وذلك لأنهم جزموا بصدق ما أخبر به من وجوه كثيرة: من جهة علمهم بصدق من أخبر به، ومن جهة موافقته للأمور الواقعة والكتب السابقة، ومن جهة ما يشاهدون من أخبارها التي تقع عيانًا، ومن جهة ما يشاهدون من الآيات العظيمة الدالة عليها في الآفاق وفي أنفسهم، ومن جهة موافقتها لما دلت عليه أسماؤه تعالى وأوصافه، ويرون في الأوامر والنواهي أنها تهدي إلى الصراط المستقيم المتضمن للأمر بكل صفة تزكي النفس وتنمي الأجر وتفيد العامل وغيره؛ كالصدق والإخلاص وبر الوالدين وصلة الأرحام والإحسان إلى عموم الخلق ونحو ذلك، وتنهى عن كل صفة قبيحة، تدنس النفس، وتحبط الأجر، وتوجب الإثم والوزر، من الشرك، والزنا، والربا، والظلم في الدماء، والأموال، والأعراض.

وهذه منقبة لأهل العلم وفضيلة وعلامة لهم، وأنه كلما كان العبد أعظم علمًا وتصديقًا بأخبار ما جاء به الرسول وأعظم معرفة بحكم أوامره ونواهيه؛ كان من أهل العلم الذين جعلهم الله حجة على ما جاء به الرسول، احتج الله بهم على المكذبين المعاندين كما في هذه الآية وغيرها.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾

﴿٧﴾ أي: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾: على وجه التكذيب والاستهزاء والاستبعاد، وذكر وجه الاستبعاد؛ أي: قال

بعضهم لبعض: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾﴾؛ يعنون بذلك الرجل رسول الله ﷺ، وأنه رجل أتى بما يستغرب منه، حتى صار بزعمهم فرجة يتفرجون عليه وأعجوبة يسخرون منه، وأنه كيف يقول: إنكم مبعوثون بعدما مزقكم البلى وتفرقت أوصالكم، واضمحلت أعضاؤكم!

﴿٨﴾ فهذا الرجل الذي أتى بذلك: هل افترى ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾: فتجرأ عليه وقال ما قال، ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌ﴾: فلا يستغرب منه؛ فإن الجنون فنون، وكل هذا منهم على وجه العناد والظلم، ولقد علموا أنه أصدق خلق الله وأعقلهم، ومن علمهم أنهم أبدوا وأعادوا في معاداتهم، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في صد الناس عنه؛ فلو كان كاذبًا مجنونًا؛ لم ينبغ لكم يا أهل العقول غير الزاكية أن تصغوا لما قال ولا تحتفلوا بدعوته؛ فإن المجنون لا ينبغي للعاقل أن يلفت إليه نظره أو يبلغ قوله منه كل مبلغ، ولولا عنادكم وظلمكم؛ لبادرتم لإجابته ولبيتم دعوته، ولكن ما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون، ولهذا قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، ومنهم الذين قالوا تلك المقالة ﴿فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾؛ أي: في الشقاء العظيم والضلال البعيد الذي ليس بقريب من الصواب، وأي شقاء وضلال أبلغ من إنكارهم لقدرة الله على البعث، وتكذيبهم لرسولهم الذي جاء به، واستهزائهم به، وجزمهم بأن ما جاءوا به هو الحق فرأوا الحق باطلًا والباطل والضلال حقًّا وهدًى؟!

﴿٩﴾ ثم نبههم على الدليل العقلي الدال على عدم استبعاد البعث الذي استبعدوه، وأنهم لو نظروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض، فرأوا من قدرة الله فيهما ما يبهر العقول، ومن عظمته ما يذهل العلماء الفحول، وأن خلقهما وعظمتهما وما فيهما من المخلوقات أعظم من إعادة الناس بعد موتهم من قبورهم؛ فما الحامل لهم على ذلك التكذيب مع التصديق بما هو أكبر منه؟! نعم؛ ذاك خبر غيبي إلى الآن ما شاهدوه؛ فلذلك كذبوا به. قال الله: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: من العذاب؛ لأن الأرض والسماء تحت تدبيرنا؛ فإن أمرناهما؛ لم يستعصيا؛ فاحذروا إصراركم على تكذيبكم فنعاقبكم أشد العقوبة. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾؛ أي: خلق السماوات والأرض وما فيهما من المخلوقات ﴿لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾: فكلما كان العبد أعظم إنابة إلى الله؛ كان انتفاعه بالآيات أعظم؛ لأن المنيب مقبل إلى ربه، قد توجهت

الجزء الثاني والعشرون — سورة سبإ

أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ
فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ
ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ
يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ
سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ
وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ
رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾
يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ
وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ
ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ
إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ
أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾

٤٢٩

إراداته وهماته لربه، ورجع إليه في كل أمر من أموره، فصار قريبًا من ربه، ليس له هم إلا الاشتغال بمرضاته، فيكون نظره للمخلوقات نظر فكرة وعبرة لا نظر غفلة غير نافعة.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿١٠﴾، ﴿١١﴾ أي: ولقد مننا على عبدنا ورسولنا داود عليه الصلاة والسلام، وآتيناه فضلًا من العلم النافع، والعمل الصالح، والنعم الدينية والدنيوية: ومن نعمه عليه:

ما خصه به من أمره تعالى الجمادات كالجبال والحيوانات من الطيور أن تُؤَوِّبَ معه وتُرَجِّعَ التسبيح بحمد ربها مجاوبة له، وفي هذا من النعمة عليه أن كان ذلك من خصائصه التي لم تكن لأحد قبله ولا بعده، وأن ذلك يكون منهضًا له ولغيره على التسبيح إذا رأوا هذه الجمادات والحيوانات تتجاوب بتسبيح ربها وتمجيده وتكبيره وتحميده؛ كان ذلك مما يهيج على ذكر الله تعالى.

ومنها: أن ذلك كما قال كثير من العلماء: إنه طرب بصوت داود؛ فإن الله تعالى قد أعطاه من حسن الصوت ما فاق به غيره، وكان إذا رجع التسبيح والتهليل والتمجيد بذلك الصوت الرخيم الشجي المطرب؛ طرب كل من سمعه من الإنس والجن، حتى الطيور والجبال، وسبحت بحمد ربها.

ومنها: أنه لعله ليحصل له أجر تسبيحها، لأنه سبب ذلك، وتسبح تبعًا له.

ومن فضله عليه أن ألان له الحديد؛ ليعمل الدروع السابغات، وعلَّمه تعالى كيفية صنعته؛ بأن يقدره في ﴿ٱلسَّرۡدِ﴾؛ أي: يقدره حلقًا ويصنعه كذلك ثم يدخل بعضها ببعض، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ٨٠﴾ [الأنبياء: ٨٠]، ولما ذكر ما امتن به عليه وعلى آله؛ أمره بشكره وأن يعملوا صالحًا، ويراقبوا الله تعالى فيه بإصلاحه وحفظه من المفسدات؛ فإنه بصير بأعمالهم، مطلع عليها، لا يخفى عليه منها شيء.

﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ١٢ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣ فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ١٤﴾.

(١٢) لما ذكر فضله على داود عليه السلام؛ ذكر فضله على ابنه سليمان عليه الصلاة والسلام، وأن الله سخر له الريح تجري بأمره وتحمله وتحمل جميع ما معه وتقطع المسافة البعيدة جدًّا في مدة يسيرة، فتسير في اليوم مسيرة شهرين: ﴿غُدُوُّهَا شَهۡرٞ﴾؛ أي: أول النهار إلى الزوال، ﴿وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞ﴾: من الزوال إلى آخر النهار، ﴿وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِ﴾؛ أي: سخرنا له عين النحاس: وسهلنا له الأسباب في استخراج ما يستخرج منها من الأواني وغيرها، وسخر الله له أيضًا الشياطين والجن لا يقدرون أن يستعصوا عن أمره، ﴿وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ١٢﴾.

(١٣) وأعمالهم؛ كل ما شاء سليمان عملوه؛ ﴿مِن مَّحَٰرِيبَ﴾: وهو كل بناء يعقد وتحكم به الأبنية؛ فهذا فيه ذكر الأبنية الفخمة. ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾؛ أي: صور الحيوانات والجمادات من إتقان صنعتهم، وقدرتهم على ذلك، ﴿وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ﴾؛ أي: كالبرك الكبار يعملونها لسليمان للطعام؛ لأنه يحتاج إلى ما لا يحتاج إليه غيره. ويعملون له قدورًا ﴿رَّاسِيَٰتٍ﴾: لا تزال عن أماكنها من عظمها، فلما ذكر منته عليهم؛ أمرهم بشكرها، فقال: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ﴾: وهم داود وأولاده وأهله؛ لأن المنة على الجميع، وكثير من هذه المصالح عائد لكلهم ﴿شُكۡرٗا﴾: لله على ما أعطاهم، ومقابلة لما أولاهم. ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾: فأكثرهم لم يشكروا الله تعالى على ما أولاهم من نعمه ودفع عنهم من النقم. والشكر: اعتراف القلب بمنة الله تعالى، وتلقيها افتقارًا إليها، وصرفها في طاعة الله تعالى، وصونها عن صرفها في المعصية.

(١٤) فلم يزل الشياطين يعملون لسليمان عليه الصلاة والسلام كل بناء، وكانوا قد موهوا على الإنس، وأخبروهم أنهم يعلمون الغيب، ويطلعون على المكنونات، فأراد الله تعالى أن يُرِيَ العباد كذبهم في هذه الدعوى، فمكثوا يعملون على عملهم، وقضى الله الموت على سليمان عليه السلام، واتكأ على عصاه، وهي المنسأة، فصاروا إذا مروا به وهو متكئ عليها؛ ظنوه حيًّا وهابوه. فغدوا على عملهم كذلك سنة كاملة على ما قيل، حتى سلطت دابة الأرض على عصاه، فلم تزل ترعاها حتى بادت وسقطت، فسقط سليمان، وتفرقت الشياطين وتبينت الإنس أن الجن ﴿أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ١٤﴾: وهو العمل الشاق عليهم؛ فلو علموا الغيب؛ لعلموا موت سليمان الذي هم أحرص شيء عليه ليسلموا مما هم فيه.

﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ١٥ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ١٦ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا

ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ
فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ
لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ
فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم
مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى
شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿١٥﴾ - ﴿١٩﴾ سبأ قبيلة معروفة في أداني اليمن، ومسكنهم بلدة يقال لها: مأرب، ومن نعم الله ولطفه بالناس عمومًا وبالعرب خصوصًا أنه قص في القرآن أخبار المهلكين والمعاقبين ممن كان يجاور العرب، ويشاهد آثاره، ويتناقل الناس أخباره؛ ليكون ذلك أدعى إلى التصديق وأقرب للموعظة، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ﴾؛ أي: محلهم الذي يسكنون فيه ﴿ءَايَةٌ﴾: والآية هنا ما أدر الله عليهم من النعم، وصرف عنهم من النقم، الذي يقتضي ذلك منهم أن يعبدوا الله ويشكروه. ثم فسر الآية بقوله: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾: وكان لهم واد عظيم تأتيه سيول كثيرة، وكانوا بنوا سدًّا محكمًا يكون مجمعًا للماء، فكانت السيول تأتيه، فيجتمع هناك ماء عظيم، فيفرقونه على بساتينهم التي عن يمين ذلك الوادي وشماله، وتغل لهم تلك الجنتان العظيمتان من الثمار ما يكفيهم ويحصل لهم به الغبطة والسرور، فأمرهم الله بشكر نعمه التي أدرها عليهم من وجوه كثيرة:

منها: هاتان الجنتان اللتان غالب أقواتهم منهما.

ومنها: أن الله جعل بلدهم بلدة طيبة لحسن هوائها وقلة وخمها وحصول الرزق الرغد فيها.

ومنها: أن الله تعالى وعدهم إن شكروه أن يغفر لهم ويرحمهم، ولهذا قال: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾.

ومنها: أن الله لما علم احتياجهم في تجاراتهم ومكاسبهم إلى الأرض المباركة - الظاهر أنها قرى صنعاء كما قاله غير واحد من السلف، وقيل: إنها الشام؛ هيأ لهم من الأسباب ما به يتيسر وصولهم إليها بغاية السهولة من الأمن وعدم الخوف وتواصل القرى بينهم وبينها؛ بحيث لا يكون عليهم مشقة بحمل الزاد والمزاد، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾؛ أي: سيرًا مقدرًا يعرفونه ويحكمون عليه بحيث لا يتيهون عنه ليالي وأيامًا.

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ
كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ
﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ
جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ
﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً
وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾
فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ
أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ
شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا
فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ
إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ
عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ
ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى
ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾

٤٣٠

﴿ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾؛ أي: مطمئنين في السير في تلك الليالي والأيام غير خائفين، وهذا من تمام نعمة الله عليهم أن أمنهم من الخوف. فأعرضوا عن المنعم وعن عبادته، وبطروا النعمة وملوها، حتى إنهم طلبوا وتمنوا أن تتباعد أسفارهم بين تلك القرى التي كان السير فيها متيسرًا. ﴿وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾: بكفرهم بالله وبنعمته، فعاقبهم الله تعالى بهذه النعمة التي أطغتهم، فأبادها عليهم، فأرسل عليها ﴿سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾؛ أي: السيل المتوعر الذي خرب سدهم، وأتلف جناتهم، وخرب بساتينهم، فتبدلت تلك الجنات ذات الحدائق المعجبة والأشجار المثمرة، وصار بدلها أشجار لا نفع فيها. ولهذا قال: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ﴾؛ أي: شيء قليل من الأكل الذي لا يقع منهم موقعًا، ﴿خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾: وهذا كله شجر معروف، وهذا من جنس عملهم؛ فكما بدلوا الشكر الحسن بالكفر القبيح؛ بدلوا تلك النعمة بما ذكر. ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾؛ أي: وهل نجازي جزاء العقوبة - بدليل السياق - إلا من كفر بالله

وبطر النعمة؟! فلما أصابهم ما أصابهم؛ تفرقوا وتمزقوا بعدما كانوا مجتمعين، وجعلهم الله أحاديث يتحدث بهم وأسمارًا للناس، وكان يضرب بهم المثل، فيقال: «تفرقوا أيدي سبأ»؛ فكل أحد يتحدث بما جرى لهم، ولكن لا ينتفع بالعبرة فيهم إلا من قال الله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾: صبار على المكاره والشدائد، يتحملها لوجه الله، ولا يتسخطها، بل يصبر عليها، شكور لنعمة الله تعالى، يُقرُّ بها، ويعترف، ويثني على من أولاها، ويصرفها في طاعته.

فهذا إذا سمع بقصتهم وما جرى منهم وعليهم؛ عرف بذلك أن تلك العقوبة جزاء لكفرهم نعمة الله، وأن من فعل مثلهم؛ فُعل به كما فُعل بهم، وأن شكر الله تعالى حافظ للنعمة دافع للنقمة، وأن رسل الله صادقون فيما أخبروا به، وأن الجزاء حق كما رأى أنموذجه في دار الدنيا.

﴿٢٠﴾ ثم ذكر أن قوم سبأ من الذين صدَّق عليهم إبليس ظنه؛ حيث قال لربه: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]: وهذا ظن من إبليس لا يقين؛ لأنه لا يعلم الغيب ولم يأته خبر من الله أنه سيغويهم أجمعين؛ إلا من استثنى؛ فهؤلاء وأمثالهم ممن صدَّق عليه إبليس ظنه ودعاهم وأغواهم، ﴿فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾: ممن لم يكفر بنعمة الله؛ فإنه لم يدخل تحت ظن إبليس، ويحتمل أن قصة سبأ انتهت عند قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾. ثم ابتدأ فقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على جنس الناس، فتكون الآية عامة في كل من اتبعه.

﴿٢١﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ﴾؛ أي: لإبليس ﴿عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ﴾؛ أي: تسلط وقهر وقسر على ما يريده منهم، ولكن حكمة الله تعالى اقتضت تسليطه وتسويله لبني آدم؛ ﴿لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾؛ أي: ليقوم سوق الامتحان، ويعلم به الصادق من الكاذب، ويعرف من كان إيمانه صحيحًا يثبت عند الامتحان والاختبار وإلقاء الشبه الشيطانية ممن إيمانه غير ثابت يتزلزل بأدنى شبهة ويزول بأقل داعٍ يدعوه إلى ضده؛ فالله تعالى جعله امتحانًا يمتحن به عباده ويظهر الخبيث من الطيب. ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾: يحفظ العباد ويحفظ عليهم أعمالهم، ويحفظ تعالى جزاءها؛ فيوفيهم إياها كاملة موفرة.

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ۚ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقَّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿٢٢﴾، ﴿٢٣﴾ أي: ﴿قُلِ﴾: يا أيها الرسول للمشركين بالله غيره من المخلوقات التي لا تنفع ولا تضر ملزمًا لهم بعجزها ومبينًا بطلان عبادتها: ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾؛ أي: زعمتموهم شركاء لله إن كان دعاؤكم ينفع؛ فإنهم قد توفرت فيهم أسباب العجز وعدم إجابة الدعاء من كل وجه؛ فإنهم ليس لهم أدنى ملك؛ ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾: على وجه الاستقلال، ولا على وجه الاشتراك، ولهذا قال: ﴿وَمَا لَهُمْ﴾؛ أي: لتلك الآلهة الذين زعمتم ﴿فِيهِمَا﴾؛ أي: في السماوات والأرض ﴿مِن شِرْكٍ﴾؛ أي: لا شرك قليل ولا كثير؛ فليس لهم ملك ولا شركة ملك.

بقي أن يقال: ومع ذلك؛ فقد يكونون أعوانًا للمالك ووزراء له؛ فدعاؤهم يكون نافعًا؛ لأنهم بسبب حاجة الملك إليهم يقضون حوائج من تعلق بهم، فنفى تعالى هذه المرتبة، فقال: ﴿وَمَا لَهُ﴾؛ أي: لله تعالى الواحد القهار ﴿مِنْهُم﴾؛ أي: من هؤلاء المعبودين ﴿مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: معاون ووزير يساعده على الملك والتدبير. فلم يبق إلا الشفاعة، فنفاها بقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾: فهذه أنواع التعلقات التي يتعلق بها المشركون بأندادهم وأوثانهم من البشر والشجر والحجر وغيرهم، قطعها الله وبين بطلانها تبيينًا حاسمًا لمواد الشرك قاطعًا لأصوله؛ لأن المشرك إنما يدعو ويعبد غير الله؛ لما يرجو منه من النفع، فهذا الرجاء هو الذي أوجب له الشرك، فإذا كان من يدعوه غير الله لا مالكًا للنفع والضر ولا شريكًا للمالك ولا عونًا وظهيرًا للمالك، ولا يقدر أن يشفع بدون إذن المالك، كان هذا الدعاء وهذه العبادة ضلالًا في العقل باطلة في الشرع، بل ينعكس على المشرك مطلوبه ومقصوده؛ فإنه يريد منها النفع، فبين الله بطلانه وعدمه، وبين في آيات أخر ضررها على عابديها، وأنه ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٦].

والعجب أن المشرك استكبر عن الانقياد للرسل بزعمه[1] أنهم بشر، ورضي أن يعبد ويدعو الشجر والحجر، استكبر عن الإخلاص للملك الرحمن الديان، ورضي بعبادة من ضره أقرب من نفعه، طاعة لأعدى عدو له وهو الشيطان!

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾: يحتمل أن الضمير في هذا الموضع يعود إلى المشركين؛ لأنهم مذكورون في اللفظ، والقاعدة في الضمائر أن تعود إلى أقرب مذكور، ويكون المعنى: إذا كان يوم القيامة وفزع عن قلوب المشركين؛ أي: زال الفزع وسئلوا حين رجعت إليهم عقولهم عن حالهم في الدنيا وتكذيبهم للحق الذي جاءت به الرسل؛ أنهم يقرون أن ما هم عليه من الكفر والشرك باطل، وأن ما قال الله وأخبرت به عنه رسله هو الحق، فبدا لهم ما كانوا يخفون من قبل، وعلموا أن الحق لله، واعترفوا بذنوبهم. ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾: بذاته فوق جميع المخلوقات، وقهره لهم وعلو قدره بما له من الصفات العظيمة جليلة المقدار. ﴿ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾: في ذاته وصفاته، ومن علوه أن حكمه تعالى يعلو، وتذعن له النفوس، حتى نفوس المتكبرين والمشركين، وهذا المعنى أظهر، وهو الذي يدل عليه السياق.

ويحتمل أن الضمير يعود إلى الملائكة، وذلك أن الله تعالى إذا تكلم بالوحي؛ سمعته الملائكة فصعقوا وخروا لله سجدًا، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد؛ فإذا زال الصعق عن قلوب الملائكة وزال الفزع، فيسأل بعضهم بعضًا عن ذلك الكلام الذي صعقوا منه: ماذا قال ربكم؟ فيقول بعضهم لبعض: قال الحق: إما إجمالًا لعلمهم أنه لا يقول إلا حقًّا، وإما أن يقولوا: قال كذا وكذا، للكلام الذي سمعوه منه، وذلك من الحق. فيكون المعنى على هذا أن المشركين الذين عبدوا مع الله تلك الآلهة التي وصفنا لكم عجزها ونقصها وعدم نفعها بوجه من الوجوه كيف صدفوا وصرفوا عن إخلاص العبادة للرب العظيم العلي الكبير الذي من عظمته وجلاله أن الملائكة الكرام والمقربين من الخلق يبلغ بهم الخضوع والصعق عند سماع كلامه هذا المبلغ، ويقرون كلهم لله أنه لا يقول إلا الحق؛ فما بال هؤلاء المشركين استكبروا عن عبادة من هذا شأنه

(١) الأصل: «بزعمهم».

الجزء الثاني والعشرون — سورة سبإ

وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن
قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ
﴿٢٣﴾ ۞قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ
وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢٤﴾ قُل
لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلۡ
يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ
﴿٢٦﴾ قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ كَلَّاۚ بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ
ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ
بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾
قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ
﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا
بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ
رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ
ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ﴿٣١﴾

٤٣١

وعظمة ملكه وسلطانه؟! فتعالى العلي الكبير عن شرك المشركين وإفكهم وكذبهم.

﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ كَلَّاۚ بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿٢٤﴾ يأمر تعالى نبيه محمدًا ﷺ أن يقول لمن أشرك بالله ويسأله عن صحة شركه: ﴿مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾: فإنهم لا بد أن يقروا أنه الله، ولئن لم يقروا؛ ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾: فإنك لا تجد من يدفع هذا القول. فإذا تبين أن الله وحده الذي يرزقكم من السماوات والأرض وينزل لكم المطر وينبت لكم النبات ويفجر لكم الأنهار ويطلع لكم من ثمار الأشجار وجعل لكم الحيوانات جميعها لنفعكم

ورزقكـم؛ فلم تعبـدون معه من لا يرزقكم شيئًا ولا يفيدكم نفعًا؟! وقولـه: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢٤﴾﴾؛ أي: إحـدى الطائفتين منا ومنكم على الهدى مستعلية عليه، أو في ضلال بيِّن منغمرة فيه.

وهـذا الكلام يقولـه من تبين لـه الحق واتضح لـه الصواب وجـزم بالحق الـذي هو عليه وبطلان ما عليـه خصمه؛ أي: قد شرحنا من الأدلة الواضحة عندنا وعندكم ما به يعلم علمًا يقينيًّا لا شـك فيه مـن المحق منا ومـن المبطل ومـن المهتدي ومن الضـال، حتى إنه يصيـر التعيين بعد ذلك لا فائدة فيه؛ فإنك إذا وازنـت[1] بين من يدعو إلى عبادة الخالق لسائر المخلوقات، المتصرف فيها بجميع أنواع التصرفات، المسدي جميع النعم، الذي رزقهم وأوصل إليهم كل نعمة ودفع عنهم كل نقمة، الذي له الحمد كلـه والملك كله وكل أحد من الملائكة فمن دونهم خاضعـون لهيبتـه متذللـون لعظمتـه، وكل الشـفعاء تخافه، لا يشـفع أحد منهم عنده إلا بإذنه، العلي الكبير في ذاته وأوصافه وأفعالـه، الذي له كل كمال وكل جلال وكل جمال وكل حمد وثناء ومجد، يدعـو إلـى التقرب لمـن هذا شـأنه، وإخلاص العمـل لـه، وينهى عن عبـادة من سـواه، وبين مـن يتقرب إلى أوثـان وأصنام وقبـور لا تخلق ولا ترزق ولا تملك لأنفسـها ولا لمـن عبدها نفعًا ولا ضـرًّا ولا موتًا ولا حياة ولا نشـورًا، بل هي جمادات لا تعقل ولا تسمع دعاء عابديها، ولو سمعته؛ ما استجابت لهم، ويـوم القيامـة يكفرون بشـركهم ويتبرءون منهم ويتلاعنون بينهم، ليس لهم قسـط من الملك، ولا شـركة فيه ولا إعانة فيه، ولا لهم شـفاعة يستقلون بهـا دون الله؛ فهو يدعـو مَنْ هـذا وصفه، ويتقـرب إليه مهما أمكنـه، ويعادي من أخلـص الدين للـه ويحاربه، ويكذب رسـل اللـه الذين جاءوا بالإخـلاص لله وحده - تبين[2] لك أي الفريقين: المهتدي من الضال والشـقي من السعيد، ولم يحتج إلى أن يعين لك ذلك؛ لأن وصف الحال أوضح من لسان المقال.

﴿٢٥﴾ ﴿قُل﴾ لهـم: ﴿لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾؛ أي: كل منـا ومنكـم لـه عملـه، أنتم لا تسـألون عن إجرامنا وذنوبنا لو أذنبنا، ونحن لا نسـأل عن أعمالكم؛ فليكن المقصود منا ومنكم طلب الحقائق وسلوك طريـق الإنصاف، ودعوا ما كنا نعمل، ولا يكن مانعًا لكم من اتبـاع الحق؛ فـإن أحكام الدنيـا تجري علـى الظواهر، ويتبع فيهـا الحق ويجتنـب الباطل، وأما الأعمـال؛ فلها دار أخرى يحكم فيها أحكم الحاكمين، ويفصل بين المختصمين أعدل العادلين.

﴿٢٦﴾ ولهذا قال: ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا﴾؛ أي: يحكـم بيننا حكمًا يتبين به الصادق من الكاذب، والمستحق للثواب من المستحق للعقاب، وهو خير الفاتحين.

﴿٢٧﴾ ﴿قُلۡ﴾: لهـم يـا أيهـا الرسـول، ومـن نـاب منابـك: ﴿أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾؛ أي: أيـن هـم؟ وأين السـبيل إلى معرفتهـم؟ وهل هم في الأرض أم في السـماء؟ فـإن عالـم الغيب والشـهادة قد أخبرنـا أنه ليس فـي الوجود لـه شـريك: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ﴾ [يونس: ١٨] الآيـة، ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [يونس: ٦٦]، وكذلـك خواص خلقه من الأنبياء والمرسـلين لا يعلمون له شـريكًا؛ فيـا أيها المشـركون! أروني الذيـن ألحقتم بزعمكـم الباطل باللـه شـركاء! وهذا السـؤال لا يمكنهم الإجابة عنه، ولهذا قـال: ﴿كَلَّاۚ﴾؛ أي: ليس لله شـريك ولا نـد ولا ضد، ﴿بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ﴾: الذي لا يسـتحق التألـه والتعبد إلا هو ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾: الذي قهر كل شـيء؛ فكل ما سـواه فهو مقهور مسـخر مدبر. ﴿ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾: الذي أتقن ما خلقه، وأحسـن ما شـرعه، ولـو لـم يكـن فـي حكمتـه فـي شـرعه إلا أنـه أمـر بتوحيده وإخلاص الدين له، وأحب ذلك وجعله طريقًا للنجاة، ونهى عـن الشـرك به واتخاذ الأنـداد من دونه، وجعـل ذلك طريقًا للشـقاء والهـلاك؛ لكفـى بذلك برهانًـا على كمـال حكمته؛ فكيف وجميع ما أمر به ونهى عنه مشتمل على الحكمة؟!

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿٢٨﴾ يخبر تعالى أنه ما أرسـل رسـوله ﷺ إلا ليبشر جميع النـاس بثـواب اللـه، ويخبرهـم بالأعمـال الموجبـة لذلك، وينذرهـم عقاب الله، ويخبرهم بالأعمال الموجبة له؛ فليس لـك مـن الأمر شـيء، وكل مـا اقترح عليك أهـل التكذيب

---

(١) فعل الشرط.
(٢) جواب الشرط.

والعناد؛ فليس من وظيفتك، إنما ذلك بيد الله تعالى. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾؛ أي: ليس لهم علم صحيح، بل إما جهال أو معاندون لم يعملوا بعلمهم، فكأنهم لا علم لهم، ومن عدم علمهم جعلهم عدم الإجابة لما اقترحوه على الرسول موجبًا لرد دعوته.

(٢٩) فمما اقترحوه استعجالهم العذاب الذي أنذرهم به، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾: وهذا ظلم منهم؛ فأي ملازمة بين صدقه وبين الإخبار بوقت وقوعه؟! وهل هذا إلا رد للحق وسفه في العقل؟! أليس النذير في أمر من أحوال الدنيا لو جاء قومًا يعلمون صدقه ونصحه ولهم عدو ينتهز الفرصة منهم ويُعِدُّ لهم، فقال لهم: تركت عدوكم قد سار يريد اجتياحكم واستئصالكم؛ فلو قال بعضهم: إن كنت صادقًا؛ فأخبرنا بأية ساعة يصل إلينا؟ وأين مكانه الآن؟ فهل يُعَدُّ هذا القائل عاقلًا أم يحكم بسفهه وجنونه؟! هذا والمخبر يمكن صدقه وكذبه، والعدو قد يبدو له غيرهم وقد تنحلُّ عزيمته، وهم قد يكون بهم منعة يدافعون بها عن أنفسهم؛ فكيف بمن كذب أصدق الخلق المعصوم في خبره، الذي لا ينطق عن الهوى بالعذاب اليقين، الذي لا مدفع له ولا ناصر منه، أليس رد خبره بحجة عدم بيان وقت وقوعه من أسفه السفه؟!

(٣٠) ﴿قُل﴾ لهم مخبرًا بوقت وقوعه الذي لا شك فيه: ﴿لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾: فاحذروا ذلك اليوم وأعدوا له عدته.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

(٣١) لما ذكر تعالى أن ميعاد المستعجلين بالعذاب لا بد من وقوعه عند حلول أجله؛ ذكر هنا حالهم في ذلك

الجزء الثاني والعشرون — سورة سبإ

قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ
عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ
تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ
لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ
هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ
مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾
وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾
قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا
زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ
بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ
ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ
إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ
أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾

٤٣٢

اليوم، وأنك لو رأيت حالهم إذ وُقِفُوا عند ربهم واجتمع الرؤساء والأتباع في الكفر والضلال؛ لرأيت أمرًا عظيمًا وهولًا جسيمًا، ورأيت كيف يتراجعون و﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾: وهم الأتباع، ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾: وهم القادة: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾: ولكنكم حلتم بيننا وبين الإيمان، وزينتم لنا الكفران، فتبعناكم على ذلك، ومقصودهم بذلك أن يكون العذاب على الرؤساء دونهم.

(٣٢) ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟﴾: مستفهمين لهم ومخبرين أن الجميع مشتركون في الجرم: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾؛ أي: بقوتنا وقهرنا لكم، ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾؛ أي: مختارين للإجرام، لستم مقهورين عليه، وإن كنا قد زينا لكم؛ فما كان لنا عليكم من سلطان.

(٣٣) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ

أَندَادًا ﴾؛ أي: بل الذي دهانا منكم ووصل إلينا من إضلالكم ما دبرتموه من المكر في الليل والنهار؛ إذ تحسِّنون لنا الكفر وتدعوننا إليه، وتقولون: إنه الحق، وتقدحون في الحق، وتهجِّنونه وتزعمون أنه الباطل؛ فما زال مكركم بنا وكيدكم إيانا حتى أغويتمونا وفتنتمونا. فلم تفد تلك المراجعة بينهم شيئًا إلا براءة بعضهم من بعض والندامة العظيمة، ولهذا قال: ﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ﴾؛ أي: زال عنهم ذلك الاحتجاج الذي احتج به بعضهم لينجو من العذاب، وعلم أنه ظالم مستحق له، فندم كل منهم غاية الندم، وتمنى أن لو كان على الحق، وأنه ترك الباطل الذي أوصله إلى هذا العذاب، سرًّا في أنفسهم؛ لخوفهم من الفضيحة في إقرارهم على أنفسهم! وفي بعض مواقف القيامة وعند دخولهم النار يُظْهِرُون ذلك الندم جهرًا: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٧، ٢٨] الآيات، ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾ [الملك: ١٠، ١١]. ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾: يغلون كما يغل المسجون الذي سيهان في سجنه؛ كما قال تعالى: ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢] الآيات. ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ ﴾: في هذا العذاب والنكال وتلك الأغلال الثقال ﴿ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾: من الكفر والفسوق والعصيان.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿٣٤﴾ يخبر تعالى عن حالة الأمم الماضية المكذبة للرسل أنها كحال هؤلاء الحاضرين المكذبين لرسولهم محمد ﷺ، وأن الله إذا أرسل رسولًا في قرية من القرى؛ كفر به مترفوها، وأبطرتهم نعمتهم، وفخروا بها.

﴿٣٥﴾ ﴿ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا ﴾؛ أي: ممن اتبع الحق، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾؛ أي: أولًا لسنا بمبعوثين؛ فإن بعثنا؛ فالذي أعطانا الأموال والأولاد في الدنيا؛ سيعطينا أكثر من ذلك في الآخرة، ولا يعذبنا.

﴿٣٦﴾ فأجابهم الله تعالى بأن بسط الرزق وتضييقه ليس دليلًا على ما زعمتم؛ فإن الرزق تحت مشيئة الله؛ إن شاء؛ بسطه لعبده، وإن شاء ضيقه.

﴿٣٧﴾ ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ ﴾: وتدني إليه، وإنما الذي يقرب منه زلفى الإيمان بما جاء به المرسلون والعمل الصالح الذي هو من لوازم الإيمان؛ فإن أولئك لهم الجزاء عند الله تعالى مضاعفًا؛ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة لا يعلمها إلا الله. ﴿ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾؛ أي: في المنازل العاليات المرتفعات جدًّا، ساكنين فيها مطمئنين، آمنين من المكدرات والمنغصات لما هم فيه من اللذات وأنواع المشتهيات، وآمنين من الخروج منها والحزن فيها.

﴿٣٨﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ﴾ أي: على وجه التعجيز لنا ولرسلنا والتكذيب؛ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿٣٩﴾ ثم أعاد تعالى أنه ﴿ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ﴾: ليرتب عليه قوله: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ ﴾: نفقة واجبة أو مستحبة على قريب أو جار أو مسكين أو يتيم أو غير ذلك، ﴿ فَهُوَ ﴾ تعالى ﴿ يُخْلِفُهُۥ ﴾: فلا تتوهموا أن الإنفاق مما ينقص الرزق، بل وعد بالخلف للمنفق الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر. ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾: فاطلبوا الرزق منه، واسعوا في الأسباب التي أمركم بها.

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾

٤٣٣

﴿٤٠﴾، ﴿٤١﴾ ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾؛ أي: العابدين لغير الله والمعبودين من دونه من الملائكة، ﴿ ثُمَّ يَقُولُ ﴾: الله ﴿ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾: على وجه التوبيخ لمن عبدهم: ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾؟! فتبرءوا من عبادتهم و﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ ﴾؛ أي: تنزيهًا لك وتقديسًا أن يكون لك شريك أو ند، ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ﴾: فنحن مفتقرون إلى ولايتك، مضطرون إليها؛ فكيف ندعو غيرنا إلى عبادتنا؟ أم كيف نصلح لأن نُتَّخذ من دونك أولياء وشركاء، ﴿ بَلْ ﴾ هؤلاء المشركون ﴿ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ﴾؛ أي: الشياطين، يأمرونهم بعبادتنا أو عبادة غيرنا، فيطيعونهم بذلك، وطاعتهم هي عبادتهم؛ لأن العبادة الطاعة؛ كما قال تعالى مخاطبًا لكل من اتخذ معه آلهة: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [يس: ٦٠، ٦١]. ﴿ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾؛ أي: مصدقون للجن منقادون لهم؛ لأن الإيمان هو التصديق الموجب للانقياد.

﴿٤٢﴾ فلما تبرءوا منهم؛ قال تعالى مخاطبًا لهم: ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾: تقطعت بينكم الأسباب، وانقطع بعضكم من بعض، ﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾: بالكفر والمعاصي بعدما ندخلهم النار: ﴿ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾: فاليوم عاينتموها ودخلتموها جزاء لتكذيبكم وعقوبة لما أحدثه ذلك التكذيب من عدم الهرب من أسبابها.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿٤٣﴾ يخبر تعالى عن حالة المشركين عندما تتلى عليهم آيات الله البينات وحججه الظاهرات وبراهينه القاطعات، الدالة على كل خير، الناهية عن كل شر، التي هي أعظم نعمة جاءتهم ومنة وصلت إليهم، الموجبة لمقابلتها بالإيمان والتصديق، والانقياد، والتسليم، أنهم يقابلونها بضد ما ينبغي ويكذبون من جاءهم بها ويقولون: ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ ﴾؛ أي: هذا قصده حين يأمركم بالإخلاص لله لتتركوا عوائد آبائكم الذين تعظمون وتمشون خلفهم، فردوا الحق بقول الضالين، ولم يوردوا برهانًا ولا شبهة؛ فأي شبهة إذا أمرت الرسل بعض الضالين باتباع الحق فادعوا أن إخوانهم الذين على طريقتهم لم يزالوا عليه؟! وهذه السفاهة ورد الحق بأقوال الضالين إذا تأملت كل حق رد؛ فإذا هذا مآله، لا يرد إلا بأقوال الضالين من المشركين والدهريين والفلاسفة والصابئين والملحدين في دين الله المارقين؛ فهم أسوة كل من رد الحق إلى يوم القيامة.

ولما احتجوا بفعل آبائهم وجعلوها دافعة لما جاءت به الرسل؛ طعنوا بعد هذا بالحق، ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ﴾؛ أي: كذب افتراه هذا الرجل الذي جاء به، ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ ﴾؛ أي: سحر ظاهر بين لكل أحد؛ تكذيبًا بالحق وترويجًا على السفهاء.

(٤٤) ولما بين ما ردوا به الحق، وأنها أقوال دون مرتبة الشبهة، فضلًا عن أن تكون حجة؛ ذكر أنهم وإن أراد أحد أن يحتج لهم؛ فإنهم لا مستند لهم ولا لهم شيء يعتمدون عليه أصلًا، فقال: ﴿ وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَا ﴾: حتى تكون عمدة لهم، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ (٤٤) ﴾: حتى يكون عندهم من أقواله وأحواله ما يدفعون به ما جئتهم به؛ فليس عندهم علم ولا أثارة من علم.

(٤٥) ثم خوفهم ما فعل بالأمم المكذبين قبلهم، فقال: ﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ ﴾؛ أي: ما بلغ هؤلاء المخاطبون ﴿مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ ﴾؛ أي: الأمم الذين من قبلهم ﴿رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥) ﴾؛ أي: إنكاري عليهم وعقوبتي إياهم، قد أعلمنا ما فعل بهم من النكال، وأن منهم من أغرقه، ومنهم من أهلكه بالريح العقيم وبالصيحة وبالرجفة وبالخسف بالأرض وبإرسال الحاصب من السماء؛ فاحذروا يا هؤلاء المكذبون أن تدوموا على التكذيب، فيأخذكم كما أخذ من قبلكم ويصيبكم ما أصابهم.

﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ (٤٦) قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ (٤٧) قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ (٤٨) قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩) قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ (٥٠) ﴾.

(٤٦) أي: ﴿قُلۡ ﴾: يا أيها الرسول لهؤلاء المكذبين المعاندين المتصدين لرد الحق وتكذيبه والقدح بمن جاء به: ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ﴾؛ أي: بخصلة واحدة أشير عليكم بها وأنصح لكم في سلوكها، وهي طريق نَصَفٌ، لست أدعوكم بها إلى اتباع قولي ولا إلى ترك قولكم من دون موجب لذلك، وهي: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ﴾؛ أي: تنهضوا بهمة ونشاط وقصد لاتباع الصواب وإخلاص لله مجتمعين ومتباحثين في ذلك ومتناظرين وفرادى، كل واحد يخاطب نفسه بذلك؛ فإذا قمتم لله مثنى وفرادى؛ استعملتم فكركم وأجلتموه وتدبرتم أحوال رسولكم: هل هو مجنون فيه صفات المجانين من كلامه وهيئته وصفته؟ أم هو نبي صادق منذر لكم ما يضركم مما أمامكم من العذاب الشديد؟ فلو قبلوا هذه الموعظة واستعملوها؛ لتبين لهم أكثر من غيرهم أن رسول الله ﷺ ليس بمجنون؛ لأن هيئته ليست كهيئات المجانين في خنقهم، واختلاجهم، ونظرهم، بل هيئته أحسن الهيئات، وحركاته أجلُّ الحركات، وهو أكمل الخلق أدبًا وسكينة وتواضعًا ووقارًا، لا يكون إلا لأرزن الرجال عقلًا.

ثم إذا تأملوا كلامه الفصيح، ولفظه المليح، وكلماته التي تملأ القلوب أمنًا وإيمانًا، وتزكي النفوس، وتطهر القلوب، وتبعث على مكارم الأخلاق، وتحث على محاسن الشيم، وتزجر[1] عن مساوئ الأخلاق ورذائلها، إذا تكلم رمقته العيون، هيبة وإجلالًا وتعظيمًا؛ فهل هذا يشبه هذيان المجانين وعربدتهم وكلامهم الذي يشبه أحوالهم؟! فكل من تدبر أحواله وقصدُه استعلامٌ: هل هو رسول الله أم لا؟ سواء تفكر وحده، أم معه غيره؛ جزم بأنه رسول الله حقًّا ونبيه صدقًا، خصوصًا المخاطبين، و[2] هو صاحبهم، يعرفون أول أمره وآخره.

(٤٧) وثَمَّ مانع للنفوس آخر عن اتباع الداعي إلى الحق، وهو أنه يأخذ أموال من يستجيب له، ويأخذ أجرة على دعوته، فبين الله تعالى نزاهة رسوله عن هذا الأمر، فقال: ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ ﴾؛ أي: على اتباعكم للحق ﴿فَهُوَ لَكُمۡ ﴾؛ أي: فأشهدكم أن ذلك الأجر على التقدير أنه لكم. ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ (٤٧) ﴾؛ أي: محيط علمه بما أدعو إليه؛ فلو كنت كاذبًا؛ لأخذني بعقوبته، وشهيد أيضًا على أعمالكم، سيحفظها عليكم ثم يجازيكم بها.

(٤٨) ولما بيّن البراهين الدالة على صحة الحق وبطلان الباطل؛ أخبر تعالى أن هذه سنته وعادته أن يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق؛ لأنه بين من الحق في هذا الموضع ورد به أقوال المكذبين ما كان عبرة للمعتبرين وآية للمتأملين؛ فإنك كما ترى كيف اضمحلت أقوال المكذبين، وتبين كذبهم وعنادهم، وظهر الحق وسطع، وبطل الباطل وانقمع، وذلك بسبب بيان ﴿عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ (٤٨) ﴾، الذي يعلم ما تنطوي عليه القلوب من الوساوس والشبه، ويعلم ما يقابل ذلك ويدفعه من الحجج، فيعلِّمُ بها عباده، ويبينها لهم.

---

(١) ع، ط: «وترهِّب».
(٢) ع، ط: «الذي».

(٤٩) ولهذا قال: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: ظهر وبان وصار بمنزلة الشمس وظهر سلطانه، ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩)﴾؛ أي: اضمحل وبطل أمره وذهب سلطانه؛ فلا يبدئ ولا يعيد.

(٥٠) ولما تبين الحق بما دعا إليه الرسول، وكان المكذبون له يرمونه بالضلال؛ أخبرهم بالحق، ووضحه لهم، وبين لهم عجزهم عن مقاومته، وأخبرهم أن رميهم له بالضلال ليس بضائر الحقَّ شيئًا ولا دافع ما جاء به، وأنه إن ضل - وحاشاه من ذلك، لكن على سبيل التنزل في المجادلة؛ فإنما يضل على نفسه؛ أي: ضلاله قاصر على نفسه، غير متعد إلى غيره، ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ﴾: فليس ذلك من نفسي، وحولي، وقوتي، وإنما هدايتي بما ﴿يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾: فهو مادة هدايتي؛ كما هو مادة هداية غيري؛ إن ربي ﴿سَمِيعٌ﴾ للأقوال والأصوات كلها، ﴿قَرِيبٌ (٥٠)﴾ ممن دعاه وسأله وعبده.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٥١) وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ (٥٣) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ (٥٤)﴾.

(٥١) يقول تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾: أيها الرسول، ومن قام مقامك، حال هؤلاء المكذبين ﴿إِذْ فَزِعُوا۟﴾: حين رأوا العذاب وما أخبرتهم به الرسل وما كذبوا به؛ لرأيت أمرًا هائلًا، ومنظرًا مُفْظِعًا، وحالة منكرة، وشدة شديدة؛ وذلك حين يحق عليهم العذاب، ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ لهم وليس لهم عنه مهرب، ﴿وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٥١)﴾؛ أي: ليس بعيدًا عن محل العذاب، بل يؤخذون ثم يقذفون في النار.

(٥٢) ﴿وَقَالُوٓا۟﴾: في تلك الحال: آمنا بالله، وصدقنا ما به كذبنا، ولكن أنى ﴿لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾؛ أي: تناول الإيمان، ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ (٥٢)﴾: قد حيل بينهم وبينه، وصار من الأمور المحالة في هذه الحالة.

(٥٣) فلو أنهم آمنوا وقت الإمكان؛ لكان إيمانهم مقبولًا، ولكنهم ﴿كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ﴾؛ أي: يرمون ﴿بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ (٥٣)﴾: بقذفهم الباطل ليدحضوا

قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠) وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٥١) وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ (٥٣) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ (٥٤)

سُورَةُ فَاطِرٍ — مكية ٣٥ — آياتها ٤٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١) مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣)

به الحق، ولكن لا سبيل إلى ذلك؛ كما لا سبيل للرامي من مكان بعيد إلى إصابة الغرض؛ فكذلك الباطل من المحال أن يغلب الحق أو يدفعه، وإنما يكون له صولة وقت غفلة الحق عنه، فإذا برز الحق وقاوم الباطل؛ قمعه.

(٥٤) ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾: من الشهوات واللذات والأولاد والأموال والخدم والجنود، قد انفردوا بأعمالهم، وجاءوا فرادى كما خلقوا وتركوا ما خولوا وراء ظهورهم، ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ أي: من الأمم السابقين، حين جاءهم الهلاك، حيل بينهم وبين ما يشتهون. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ (٥٤)﴾؛ أي: يحدث الريبة وقلق القلب؛ فلذلك لم يؤمنوا، ولم يعتبوا حين استعتبوا.

تم تفسير سورة سبأ.

ولله الحمد والمنة والفضل، ومنه العون، وعليه التوكل، وبه الثقة.

تفسير سورة فاطر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) ﴾.

(١) يمدح الله تعالى نفسه الكريمة المقدسة على خلقه السماوات والأرض وما اشتملتا عليه من المخلوقات؛ لأن ذلك دليل على كمال قدرته وسعة ملكه وعموم رحمته وبديع حكمته وإحاطة علمه. ولما ذكر الخلق؛ ذكر بعده ما يتضمن الأمر، وهو أنه ﴿ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ﴾: في تدبير أوامره القدرية ووسائط بينه وبين خلقه في تبليغ أوامره الدينية. وفي ذكره أنه جعل الملائكة رسلًا ولم يستثن منهم أحدًا دليل على كمال طاعتهم لربهم وانقيادهم لأمره؛ كما قال تعالى: ﴿ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) ﴾ [التحريم: ٦]. ولما كانت الملائكة مدبِّرات بإذن الله ما جعلهم الله موكَّلين فيه؛ ذكر قوتهم على ذلك وسرعة سيرهم؛ بأن جعلهم ﴿ أُولِي أَجْنِحَةٍ ﴾: تطير بها فتسرع بتنفيذ ما أمرت به، ﴿ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾؛ أي: منهم من له جناحان وثلاثة وأربعة بحسب ما اقتضته حكمته. ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾؛ أي: يزيد بعض مخلوقاته على بعض في صفة خلقها وفي القوة وفي الحسن وفي زيادة الأعضاء المعهودة وفي حسن الأصوات ولذة النغمات. ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ﴾: فقدرته تعالى تأتي على ما يشاؤه، ولا يستعصي عليها شيء، ومن ذلك زيادة مخلوقاته بعضها على بعض.

(٢) ثم ذكر انفراده تعالى بالتدبير والعطاء والمنع، فقال: ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ ﴾: من رحمته عنهم ﴿ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ﴾: فهذا يوجب التعلق بالله تعالى والافتقار إليه من جميع الوجوه، وألَّا يدعى إلا هو ولا يخاف ويرجى إلا هو. ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾: الذي قهر الأشياء كلها. ﴿ الْحَكِيمُ (٢) ﴾: الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤) ﴾.

(٣) يأمر تعالى جميع الناس أن يذكروا نعمته عليهم، وهذا شامل لذكرها بالقلب اعترافًا، وباللسان ثناء، وبالجوارح انقيادًا، فإن ذكر نعمه تعالى داعٍ لشكره. ثم نبههم على أصول النعم، وهي الخلق والرزق، فقال: ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾: ولما كان من المعلوم أنه ليس أحد يخلق ويرزق إلا الله؛ نتج من ذلك أن كان ذلك دليلًا على ألوهيته وعبوديته، ولهذا قال: ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣) ﴾؛ أي: تصرفون من عبادة الخالق الرازق لعبادة المخلوق المرزوق.

(٤) ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ ﴾: يا أيها الرسول؛ فلك أسوة بمن قبلك من المرسلين؛ ﴿ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾: فأُهلك المكذبون، ونجى الله الرسل وأتباعهم. ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤) ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) ﴾.

(٥)، (٦) يقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ ﴾: بالبعث والجزاء على الأعمال ﴿ حَقٌّ ﴾؛ أي: لا شك فيه ولا مرية ولا تردد، قد دلت على ذلك الأدلة السمعية والبراهين العقلية، فإذا كان وعده حقًّا؛ فتهيئوا له وبادروا أوقاتكم الشريفة بالأعمال الصالحة ولا يقطعكم عن ذلك قاطع. ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾: بلذاتها وشهواتها ومطالبها النفسية، فتلهيكم عما خلقتم له، ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) ﴾: الذي هو ﴿ الشَّيْطَانَ ﴾، وهو ﴿ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾

في الحقيقة. ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾؛ أي: لتكن منكم عداوته على بال، ولا تهملوا محاربته كل وقت؛ فإنه يراكم وأنتم لا ترونه، وهو دائمًا لكم بالمرصاد. ﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾: هذا غايته ومقصوده ممن تبعه أن يهان غاية الإهانة بالعذاب الشديد.

(٧) ثم ذكر أن الناس انقسموا بحسب طاعة الشيطان وعدمها إلى قسمين، وذكر جزاء كل منهما، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ أي: جحدوا ما جاءت به الرسل ودلت عليه الكتب ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾: في نار جهنم، شديد في ذاته ووصفه، وأنهم خالدون فيها أبدًا، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: بقلوبهم بما دعا الله إلى الإيمان به، ﴿وَعَمِلُواْ﴾ - بمقتضى ذلك الإيمان بجوارحهم - الأعمال ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾: لذنوبهم، يزول بها عنهم الشر والمكروه، ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝٧﴾: يحصل به المطلوب.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ۝٨﴾.

(٨) يقول تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾: القبيح، زينه له الشيطان وحسنه في عينه، ﴿فَرَءَاهُ حَسَنٗا﴾؛ أي: كمن هداه الله إلى الصراط المستقيم والدين القويم؛ فهل يستوي هذا وهذا؟! فالأول عمل السيئ، ورأى الحق باطلًا والباطل حقًّا، والثاني عمل الحسن ورأى الحق حقًّا والباطل باطلًا، ولكن الهداية والإضلال بيد الله تعالى. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ أي: على الضالين الذين زين لهم سوء أعمالهم، وصدهم الشيطان عن الحق ﴿حَسَرَٰتٍ﴾: فليس عليك إلا البلاغ، وليس عليك من هداهم شيء، والله هو الذي يجازيهم بأعمالهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ۝٨﴾.

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾.

(٩) يخبر تعالى عن كمال اقتداره وسعة جوده وأنه ﴿ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾: فأنزله الله عليها، ﴿فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾: فحييت البلاد والعباد، وارتزقت الحيوانات، ورتعت في تلك الخيرات،

الجزء الثاني والعشرون　　سورة فاطر

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ۝٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ۝٧ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ۝٨ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ۝١٠ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝١١

٤٣٥

﴿كَذَٰلِكَ﴾: الذي أحيا الأرض بعد موتها ينشر الأموات من قبورهم بعدما مزقهم البلاء، فيسوق إليهم مطرًا كما ساقه إلى الأرض الميتة، فينزله عليهم، فتحيا الأجساد والأرواح من القبور ويكون ﴿ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾، فيأتون للقيام بين يدي الله، ليحكم بينهم ويفصل بحكمه العدل.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ۝١٠﴾.

(١٠) أي: يا من يريد العزة! اطلبها ممن هي بيده؛ فإن العزة بيد الله، ولا تنال إلا بطاعته، وقد ذكرها بقوله: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾: من قراءة وتسبيح وتحميد وتهليل وكل كلام حسن طيب، فيرفع إلى الله، ويعرض عليه، ويثني الله على صاحبه بين الملأ الأعلى، ﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ﴾: من أعمال القلوب وأعمال الجوارح ﴿يَرۡفَعُهُۥ﴾: الله تعالى إليه أيضًا كالكلم الطيب. وقيل: والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب؛

فيكون رفع الكلم الطيب بحسب أعمال العبد الصالحة فهي التي ترفع كلمه الطيب، فإذا لم يكن له عمل صالح؛ لم يُرفع له قول إلى الله تعالى. فهذه الأعمال التي ترفع إلى الله تعالى ويرفع الله صاحبها ويعزه، وأما السيئات؛ فإنها بالعكس، يريد صاحبها الرفعة بها، ويمكر ويكيد ويعود ذلك عليه، ولا يزداد إلا هوانًا ونزولًا، ولهذا قال: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾: يهانون فيه غاية الإهانة. ﴿وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾؛ أي: يهلك ويضمحل ولا يفيدهم شيئًا؛ لأنه مكر بالباطل لأجل الباطل.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿١١﴾ يذكر تعالى خلقه الآدمي وتنقله في هذه الأطوار من تراب إلى نطفة وما بعدها، ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾؛ أي: لم يزل ينقلكم طورًا بعد طور حتى أوصلكم إلى أن كنتم أزواجًا؛ ذكر يتزوج أنثى، ويراد بالزواج الذرية والأولاد؛ فهو وإن كان النكاح من الأسباب فيه؛ فإنه مقترن بقضاء الله وقدره وعلمه. ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾: وكذلك أطوار الآدمي كلها بعلمه وقضائه ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾؛ أي: عمر الذي كان معمرًا عمرًا طويلًا، ﴿إِلَّا﴾: بعلمه تعالى، أو: وما ينقص من عمر الإنسان الذي هو بصدد أن يصل إليه لولا ما سلكه من أسباب قِصَرِ العمر؛ كالزنا وعقوق الوالدين وقطيعة الأرحام ونحو ذلك مما ذكر أنها من أسباب قصر العمر، والمعنى أن طول العمر وقصره بسبب وبغير سبب كلُّه بعلمه تعالى، وقد أثبت ذلك ﴿فِى كِتَٰبٍ﴾: حوى ما يجري على العبد في جميع أوقاته وأيام حياته. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾؛ أي: إحاطة علمه بتلك المعلومات الكثيرة، وإحاطة كتابه بها.

فهذه ثلاثة أدلة من أدلة البعث والنشور، كلها عقلية، نبه الله عليها في هذه الآيات: إحياء الأرض بعد موتها، وأن الذي أحياها سيحيي الموتى. وتنقل الآدمي في تلك الأطوار، فالذي أوجده ونقَّله طبقًا بعد طبق وحالًا بعد حال حتى بلغ ما قدر له؛ فهو على إعادته وإنشائه النشأة الأخرى أقدر، وهو أهون عليه. وإحاطة علمه بجميع أجزاء العالم العلوي والسفلي دقيقها وجليلها، الذي في القلوب، والأجنة التي في البطون، وزيادة الأعمار ونقصها، وإثبات ذلك كله في كتاب؛ فالذي كان هذا يسيرًا عليه؛ فإعادته للأموات أيسر وأيسر. فتبارك من كثر خيره، ونبه عباده على ما فيه صلاحهم في معاشهم ومعادهم.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٢﴾ هذا إخبار عن قدرته تعالى وحكمته ورحمته، أنه جعل البحرين لمصالح العالم الأرضي كلهم، وأنه لم يسو بينهما؛ لأن المصلحة تقتضي أن تكون الأنهار عذبة فراتًا سائغًا شرابها؛ لينتفع بها الشاربون والغارسون والزارعون، وأن يكون البحر ملحًا أجاجًا؛ لئلا يَفْسُد الهواء المحيط بالأرض بروائح ما يموت في البحر من الحيوانات، ولأنه ساكن لا يجري؛ فملوحته تمنعه من التغير، ولتكون حيواناته أحسن وألذ، ولهذا قال: ﴿وَمِن كُلٍّ﴾: من البحر الملح والعذب ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾: وهو السمك المتيسر صيده في البحر، ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾: من لؤلؤ ومرجان وغيرهما مما يوجد في البحر، فهذه مصالح عظيمة للعباد.

ومن المصالح أيضًا والمنافع في البحر أن سخره الله تعالى يحمل الفلك من السفن والمراكب، فتراها تمخر البحر وتشقه، فتسلك من إقليم إلى إقليم آخر، ومن محل إلى محل، فتحمل السائرين وأثقالهم وتجاراتهم، فيحصل بذلك من فضل الله وإحسانه شيء كثير، ولهذا قال: ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿١٣﴾ ومن ذلك أيضًا إيلاجه تعالى الليل بالنهار والنهار بالليل؛ يُدخل هذا على هذا وهذا على هذا، كلما أتى أحدهما؛ ذهب الآخر، ويزيد أحدهما وينقص الآخر ويتساويان، فيقوم بذلك ما يقوم من مصالح العباد في أبدانهم وحيواناتهم وأشجارهم وزروعهم، وكذلك ما جعل الله في تسخير الشمس والقمر من مصالح الضياء والنور والحركة والسكون وانتشار العباد في طلب فضله وما فيهما من إنضاج الثمار وتجفيف ما يجفف وغير ذلك مما هو من الضروريات التي لو فقدت؛ للحِق الناس الضرر.

وقوله ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: كل من الشمس والقمر يسيران في فلكهما ما شاء الله أن يسيرا؛ فإذا جاء الأجل وقرب انقضاء الدنيا؛ انقطع سيرهما، وتعطل سلطانهما، وخسف القمر، وكورت الشمس، وانتثرت النجوم.

فلما بيّن تعالى ما بيَّن من هذه المخلوقات العظيمة وما فيها من العبر الدالة على كماله وإحسانه قال: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾؛ أي: الذي انفرد بخلق هذه المذكورات وتسخيرها هو الرب المألوه المعبود الذي له الملك كله. ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾: من الأوثان والأصنام، ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: لا يملكون شيئًا لا قليلًا ولا كثيرًا، حتى ولا القطمير الذي هو أحقر الأشياء، وهذا من تنصيص النفي وعمومه؛ فكيف يُدْعَوْنَ وهم غير مالكين لشيء من ملك السماوات والأرض؟!

﴿١٤﴾ ومع هذا: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾: لأنهم ما بين جماد وأموات وملائكة مشغولين بطاعة ربهم، ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾: على وجه الفرض والتقدير ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾: لأنهم لا يملكون شيئًا ولا يرضى أكثرهم بعبادة من عبده، ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾؛ أي: يتبرءون منكم، ويقولون: ﴿سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ [سبأ: ٤١]، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾؛ أي: لا أحد ينبئك أصدق من الله العليم الخبير؛ فاجزم بأن هذا الأمر الذي نبأ به كأنه رأي عين، فلا تشك فيه ولا تَمْتَرِ. فتضمنت هذه الآيات الأدلة والبراهين الساطعة الدالة على أنه تعالى المألوه المعبود الذي لا يستحق شيئًا من العبادة سواه، وأن عبادة ما سواه باطلة متعلقة بباطل لا تفيد عابده شيئًا.

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٥﴾ يخاطب تعالى جميع الناس، ويخبرهم بحالهم ووصفهم، وأنهم فقراء إلى الله من جميع الوجوه: فقراء في إيجادهم؛ فلولا إيجاده إياهم لم يوجدوا، فقراء في إعدادهم بالقوى والأعضاء والجوارح، التي لولا إعداده إياهم بها؛ لما استعدوا لأي عمل كان، فقراء في إمدادهم بالأقوات والأرزاق والنعم الظاهرة والباطنة؛ فلولا فضله وإحسانه وتيسيره الأمور، لما حصل لهم من الرزق والنعم شيء، فقراء في صرف النقم عنهم ودفع المكاره وإزالة الكروب والشدائد؛ فلولا دفعه عنهم وتفريجه لكرباتهم

وإزالته لعسرهم؛ لاستمرت عليهم المكاره والشدائد، فقراء إليه في تربيتهم بأنواع التربية وأجناس التدبير، فقراء إليه في تألههم له وحبهم له وتعبدهم وإخلاص العبادة له تعالى؛ فلو لم يوفقهم لذلك؛ لهلكوا وفسدت أرواحهم وقلوبهم وأحوالهم، فقراء إليه في تعليمهم ما لا يعلمون وعملهم بما يصلحهم؛ فلولا تعليمه؛ لم يتعلموا، ولولا توفيقه؛ لم يصلحوا؛ فهم فقراء بالذات إليه بكل معنى وبكل اعتبار، سواء شعروا ببعض أنواع الفقر أم لم يشعروا، ولكن الموفق منهم الذي لا يزال يشاهد فقره في كل حال من أمور دينه ودنياه، ويتضرع له ويسأله ألَّا يكله إلى نفسه طرفة عين وأن يعينه على جميع أموره، ويستصحب هذا المعنى في كل وقت؛ فهذا حري بالإعانة التامة من ربه وإلهه الذي هو أرحم به من الوالدة بولدها.

﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾؛ أي: الذي له الغنى التام من جميع الوجوه؛ فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه خلقه، ولا يفتقر إلى شيء مما يفتقر إليه الخلق؛ وذلك لكمال صفاته، وكونها كلها صفات كمال ونعوت جلال، ومن غناه تعالى أنه قد أغنى الخلق في الدنيا والآخرة، الحميد في ذاته، وأسمائه؛ لأنها حسنى، وأوصافه؛ لكونها عليا، وأفعاله؛ لأنها فضل وإحسان وعدل وحكمة ورحمة، وفي أوامره ونواهيه؛ فهو الحميد على ما فيه من الصفات، وعلى ما مَنَّه من الفضل والإنعام وعلى الجزاء بالعدل، وهو الحميد في غناه، الغني في حمده.

﴿١٦﴾ ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾: يحتمل أن المراد: إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بغيركم من الناس أطوع لله منكم، ويكون في هذا تهديد لهم بالهلاك والإبادة، وأن مشيئته غير قاصرة عن ذلك. ويحتمل أن المراد بذلك إثبات البعث والنشور، وأن مشيئة الله تعالى نافذة في كل شيء، وفي إعادتكم بعد موتكم خلقًا جديدًا، ولكن لذلك الوقت أجل قدره الله لا يتقدم عنه ولا يتأخر.

﴿١٧﴾ ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾؛ أي: بممتنع، ولا معجز له.

﴿١٨﴾ ويدل على المعنى الأخير ما ذكره بعده في قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾؛ أي: في يوم القيامة كل أحد يجازى بعمله، ولا يحمل أحد ذنب أحد. ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾؛ أي: نفس مثقلة بالخطايا والذنوب ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ أي: تستغيث بمن يحمل عنها بعض أوزارها، ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾: فإنه لا يحمل قريب عن قريب، فليست حال الآخرة بمنزلة حال الدنيا يساعد الحميم حميمه والصديق صديقه، بل يوم القيامة يتمنى العبد أن يكون له حق على أحد، ولو على والديه وأقاربه. ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: هؤلاء الذين يقبلون النذارة وينتفعون بها، أهل الخشية لله بالغيب. أي: الذين يخشونه في حال السر والعلانية والمشهد والمغيب، وأهل إقامة الصلاة بحدودها وشروطها وأركانها وواجباتها وخشوعها؛ لأن الخشية لله تستدعي من العبد العمل بما يخشى من تضييعه العقاب، والهرب مما يخشى من ارتكابه العذاب، والصلاة تدعو إلى الخير، وتنهى عن الفحشاء والمنكر. ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾؛ أي: ومن زكى نفسه بالتنقي من العيوب، كالرياء، والكبر، والكذب، والغش، والمكر، والخداع، والنفاق، ونحو ذلك من الأخلاق الرذيلة، وتحلى بالأخلاق الجميلة؛ من الصدق، والإخلاص، والتواضع، ولين الجانب، والنصح للعباد، وسلامة الصدر من الحقد والحسد وغيرهما من مساوئ الأخلاق؛ فإن تزكيته يعود نفعها إليه، ويصل مقصودها إليه، ليس يضيع من عمله شيء. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾: فيجازي الخلائق على ما أسلفوه، ويحاسبهم على ما قدموه وعملوه، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿١٩﴾ - ﴿٢٣﴾ يخبر تعالى أنه لا يتساوى الأضداد في حكمة الله وفيما أودعه في فطر عباده، ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ﴾: فاقد البصر ﴿وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾؛ فكما أنه من المتقرر عندكم الذي لا يقبل الشك أن هذه المذكورات لا تتساوى؛ فكذلك فلتعلموا أن عدم تساوي

المتضادات المعنوية أولى وأولى؛ فلا يستوي المؤمن والكافر، ولا المهتدي والضال، ولا العالم والجاهل، ولا أصحاب الجنة وأصحاب النار، ولا أحياء القلوب وأمواتها؛ فإن بين هذه الأشياء من التفاوت والفرق ما لا يعلمه إلا الله تعالى. فإذا علمت المراتب وميزت الأشياء وبان الذي ينبغي أن يُتنافس في تحصيله من ضده؛ فليختر الحازم لنفسه ما هو أولى به وأحق بالإيثار. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾: سماع فهم وقبول؛ لأنه تعالى هو الهادي الموفق. ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: أموات القلوب، أو: كما أن دعاءك لا يفيد سكان القبور شيئًا، كذلك لا يفيد المعرض المعاند شيئًا، ولكن وظيفتك النذارة وإبلاغ ما أرسلت به؛ قبل منك أم لا، ولهذا قال: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿٢٤﴾ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: مجرد إرسالنا إياك بالحق؛ لأن الله تعالى بعثك على حين فترة من الرسل وطموس من السبل واندراس من العلم وضرورة عظيمة إلى بعثك، فبعثك الله رحمة للعالمين، وكذلك ما بعثناك به من الدين القويم والصراط المستقيم حق لا باطل، وكذلك ما أرسلناك به من هذا القرآن العظيم وما اشتمل عليه من الذكر الحكيم حق وصدق، ﴿بَشِيرًا﴾: لمن أطاعك بثواب الله العاجل والآجل ﴿وَنَذِيرًا﴾: لمن عصاك بعقاب الله العاجل والآجل، ولست ببدْع من الرسل. ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ﴾: من الأمم الماضية والقرون الخالية ﴿إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾: يقيم عليهم حجة الله؛ ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿٢٥﴾ أي: وإن يكذبك أيها الرسول هؤلاء المشركون؛ فلست أول رسول كذب، ﴿فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: الدالات على الحق وعلى صدقهم فيما أخبروهم به. ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾؛ أي: الكتب المكتوبة المجموع فيها كثير من الأحكام. ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾؛ أي: المضيء في أخباره الصادقة

وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ
﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ
أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ
أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ
مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ
ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا
أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا
وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ
مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ
إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ
وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ
وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾

وأحكامه العادلة، فلم يكن تكذيبهم إياهم ناشئًا عن اشتباه أو قصور بما جاءتهم به الرسل، بل بسبب ظلمهم وعنادهم.

﴿٢٦﴾ ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: بأنواع العقوبات ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾: عليهم؟ كان أشد النكير وأعظم التنكيل؛ فإياكم وتكذيب هذا الرسول الكريم، فيصيبكم كما أصاب أولئك من العذاب الأليم والخزي الوخيم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾.

يذكر تعالى خلقه للأشياء المتضادات التي أصلها واحد ومادتها واحدة وفيها من التفاوت والفرق ما هو مشاهد معروف؛ ليدل العباد على كمال قدرته وبديع حكمته:

(٢٧) فمن ذلك أن الله تعالى أنزل من السماء ماء، فأخرج به من الثمرات المختلفات والنباتات المتنوعات ما هو مشاهد للناظرين، والماء واحد والأرض واحدة. ومن ذلك الجبال التي جعلها الله أوتادًا للأرض؛ تجدها جبالًا مشتبكة، بل جبلًا واحدًا، وفيها ألوان متعددة، فيها ﴿ جُدَدٌۢ بِيضٌ ﴾؛ أي: طرائق بيض، وفيها طرائق صفر وحمر، وفيها ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) ﴾؛ أي: شديدة السواد جدًّا.

(٢٨) ومن ذلك الناس والدواب والأنعام؛ فيها من اختلاف الألوان والأوصاف والأصوات والهيئات ما هو مرئي بالأبصار مشهود للنظار، والكل من أصل واحد ومادة واحدة، فتفاوتها دليل عقلي على مشيئة الله تعالى التي خصصت ما خصصت منها بلونه ووصفه، وقدرة الله تعالى حيث أوجدها كذلك، وحكمته ورحمته حيث كان ذلك الاختلاف وذلك التفاوت فيه من المصالح والمنافع ومعرفة الطرق ومعرفة الناس بعضهم بعضًا ما هو معلوم، وذلك أيضًا دليل على سعة علم الله تعالى، وأنه يبعث من في القبور، ولكن الغافل ينظر في هذه الأشياء وغيرها نظر غفلة لا تحدث له تذكرًا، وإنما ينتفع بها من يخشى الله تعالى ويعلم بفكره الصائب وجه الحكمة فيها، ولهذا قال: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾: فكل من كان بالله أعلم؛ كان أكثر له خشية، وأوجبت له خشية الله الانكفاف عن المعاصي والاستعداد للقاء من يخشاه، وهذا دليل على فضيلة العلم؛ فإنه داع إلى خشية الله، وأهل خشيته هم أهل كرامته؛ كما قال تعالى: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ (٨) ﴾ [البينة: ٨]. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ﴾: كامل العزة، ومن عزته خلق هذه المخلوقات المتضادات. ﴿ غَفُورٌ (٢٨) ﴾: لذنوب التائبين.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠) ﴾.

(٢٩) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: يتبعونه في أوامره فيمتثلونها وفي نواهيه فيتركونها وفي أخباره فيصدقونها ويعتقدونها ولا يقدِّمون عليه ما خالفه من الأقوال، ويتلون أيضًا ألفاظه بدراسته، ومعانيه بتتبعها واستخراجها، ثم خص من التلاوة بعدما عم الصلاة، التي هي عماد الدين، ونور المسلمين، وميزان الإيمان وعلامة صدق الإسلام، والنفقة على الأقارب والمساكين واليتامى وغيرهم من الزكاة والكفارات والنذور والصدقات، ﴿ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾: في جميع الأوقات؛ ﴿ يَرْجُونَ ﴾: بذلك ﴿ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) ﴾؛ أي: لن تكسُدَ وتفسُدَ، بل تجارة هي أجل التجارات وأعلاها وأفضلها ألا وهي رضا ربهم والفوز بجزيل ثوابه والنجاة من سخطه وعقابه، وهذا فيه أنهم يخلصون بأعمالهم، وأنهم لا يرجون بها من المقاصد السيئة والنيات الفاسدة شيئًا.

(٣٠) وذكر أنهم حصل لهم ما رجوه، فقال: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ ﴾؛ أي: أجور أعمالهم على حسب قلتها وكثرتها، وحسنها وعدمه، ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾: زيادة عن أجورهم. ﴿ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠) ﴾: غفر لهم السيئات، وقبل منهم القليل من الحسنات.

﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ (٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) ﴾.

(٣١) يذكر تعالى أن الكتاب الذي أوحاه إلى رسوله ﴿ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾: من كثرة ما اشتمل عليه من الحق وإحاطته بأصوله، كأن الحق منحصر فيه؛ فلا يكن في قلوبكم حرج منه ولا تتبرموا منه ولا تستهينوا به؛ فإذا كان هو الحق؛ لزم أن كل ما دل عليه من المسائل الإلهية والغيبية وغيرها مطابق لما في الواقع؛ فلا يجوز أن يراد به ما يخالف ظاهره وما دل عليه. ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾: من الكتب والرسل؛ لأنها أخبرت به، فلما وجد وظهر؛ ظهر به صدقها؛ فهي بشرت به وأخبرت، وهو صدَّقها، ولهذا لا يمكن أحدًا أن

وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ
يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٣١ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ
ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم
مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ
ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ
فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٣٣
وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ
شَكُورٌ ٣٤ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا
فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ٣٥ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ
نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ
عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ٣٦ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ
فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ
أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ
فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ٣٧ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ
غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٣٨

يؤمن بالكتب السابقة وهو كافر بالقرآن أبدًا؛ لأن كفره به ينقض إيمانه بها؛ لأن من جملة أخبارها الخبر عن القرآن، ولأن أخبارها مطابقة لأخبار القرآن. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٣١﴾: فيعطي كل أمة وكل شخص ما هو اللائق بحاله، ومن ذلك أن الشرائع السابقة لا تليق إلا بوقتها وزمانها، ولهذا ما زال الله يرسل الرسل رسولًا بعد رسول حتى ختمهم بمحمد ﷺ، فجاء بهذا الشرع الذي يصلح لمصالح الخلق إلى يوم القيامة، ويتكفل بما هو الخير في كل وقت، ولهذا لما كانت هذه الأمة أكمل الأمم عقولًا وأحسنهم أفكارًا وأرقهم قلوبًا وأزكاهم أنفسًا؛ اصطفاهم تعالى واصطفى لهم دين الإسلام وأورثهم الكتاب المهيمن على سائر الكتب.

٣٢ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا﴾: وهم هذه الأمة. ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾: بالمعاصي التي هي دون الكفر، ﴿وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾: مقتصر على ما يجب عليه، تارك للمحرم، ﴿وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾؛ أي: سارع فيها، واجتهد فسبق غيره، وهو المؤدي للفرائض، المكثر من النوافل، التارك للمحرم والمكروه؛ فكلهم اصطفاه الله تعالى لوراثة هذا الكتاب، وإن تفاوتت مراتبهم وتميزت أحوالهم؛ فلكل منهم قسط من وراثته، حتى الظالم لنفسه؛ فإن ما معه من أصل الإيمان، وعلوم الإيمان، وأعمال الإيمان، من وراثة الكتاب؛ لأن المراد بوراثة الكتاب وراثة علمه وعمله ودراسة ألفاظه واستخراج معانيه، وقوله: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾: راجع إلى السابق إلى الخيرات؛ لئلا يغتر بعمله، بل ما سبق إلى الخيرات إلا بتوفيق الله تعالى ومعونته؛ فينبغي له أن يشتغل بشكر الله تعالى على ما أنعم به عليه. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢﴾؛ أي: وراثة الكتاب الجليل لمن اصطفى تعالى من عباده، هو الفضل الكبير، الذي جميع النعم بالنسبة إليه كالعدم، فأجلُّ النعم على الإطلاق وأكبر الفضل، وراثة هذا الكتاب.

٣٣ ثم ذكر جزاء الذين أورثهم كتابه فقال: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾؛ أي: جنات مشتملات على الأشجار، والظل، والظليل، والحدائق الحسنة، والأنهار المتدفقة، والقصور العالية، والمنازل المزخرفة في أبد لا يزول، وعيش لا ينفد. والعدن: الإقامة؛ فجنات عدن؛ أي: جنات إقامة، أضافها للإقامة، لأن الإقامة والخلود وصفها ووصف أهلها، ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾: وهو الحلي الذي يجعل في اليدين على ما يحبون ويرون أنه أحسن من غيره، الرجال والنساء في الحلية في الجنة سواء. ويحلون فيها لؤلؤًا: يُنْظَمُ في ثيابهم وأجسادهم، ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٣٣﴾: من سندس ومن إستبرق أخضر.

٣٤ ولمَّا تمَّ نعيمهم، وكملت لذَّتهم؛ قالوا ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَ﴾: وهذا يشمل كل حزن؛ فلا حزن يعرض لهم بسبب نقص في جمالهم، ولا في طعامهم وشرابهم، ولا في لذاتهم ولا في أجسادهم، ولا في دوام لبثهم؛ فهم في نعيم ما يرون عليه مزيدًا، وهو في تزايد أبد الآباد. ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ﴾: حيث غفر لنا الزلات. ﴿شَكُورٌ ٣٤﴾: حيث قبل منا الحسنات وضاعفها، وأعطانا من فضله ما لم تبلغه أعمالنا ولا أمانينا. فبمغفرته

نجوا من كل مكروه ومرهوب، وبشكره وفضله حصل لهم كل مرغوب محبوب.

(٣٥) ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا ﴾؛ أي: أنزلنا نزول حلول واستقرار، لا نزول معبر واعتبار ﴿ دَارَ ٱلْمُقَامَةِ ﴾؛ أي: الدار التي تدوم فيها الإقامة، والدار التي يرغب في المقام فيها؛ لكثرة خيراتها وتوالي مسراتها وزوال كدوراتها، وذلك الإحلال بفضله علينا وكرمه، لا بأعمالنا؛ فلولا فضله؛ لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه، ﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) ﴾؛ أي: لا تعب في الأبدان ولا في القلب والقوى ولا في كثرة التمتع.

وهذا يدل على أن الله تعالى يجعل أبدانهم في نشأة كاملة ويهيئ لهم من أسباب الراحة على الدوام ما يكونون بهذه الصفة؛ بحيث لا يمسهم نصب ولا لغوب، ولا هم ولا حزن.

ويدل على أنهم لا ينامون في الجنة؛ لأن النوم فائدته زوال التعب وحصول الراحة به، وأهل الجنة بخلاف ذلك، ولأنه موت أصغر، وأهل الجنة لا يموتون. جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٣٧) ﴾.

(٣٦) لما ذكر تعالى حال أهل الجنة ونعيمهم؛ ذكر حال أهل النار وعذابهم، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾؛ أي: جحدوا ما جاءتهم به رسلهم من الآيات وأنكروا لقاء ربهم، ﴿ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾: يعذبون فيها أشد العذاب وأبلغ العقاب، ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾: بالموت ﴿ فَيَمُوتُوا۟ ﴾: فيستريحوا، ﴿ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾: فشدة العذاب وعظمه مستمر عليهم في جميع الآنات واللحظات. ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) ﴾.

(٣٧) ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾؛ أي: يصرخون ويتصايحون ويستغيثون ويقولون: ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾: فاعترفوا بذنبهم، وعرفوا أن الله عَدَلَ فيهم، ولكن سألوا الرجعة في غير وقتها، فيقال لهم: ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا ﴾؛ أي: دهرًا وعمرًا ﴿ يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾؛ أي: يتمكن فيه من أراد التذكر من العمل، متعناكم في الدنيا، وأدررنا عليكم الأرزاق، وقيضنا لكم أسباب الراحة، ومددنا لكم في العمر، وتابعنا عليكم الآيات ﴿ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾، وواصلنا إليكم النذر، وابتليناكم بالسراء والضراء؛ لتُنيبوا إلينا وترجعوا إلينا، فلم ينجع فيكم إنذار، ولم تفد فيكم موعظة، وأخرنا عنكم العقوبة، حتى إذا انقضت آجالكم وتمت أعماركم ورحلتم عن دار الإمكان، بأشر الحالات، ووصلتم إلى هذه الدار دار الجزاء على الأعمال؛ سألتم الرجعة؟! هيهات هيهات! فات وقت الإمكان، وغضب عليكم الرحيم الرحمن، واشتد عليكم عذاب النار، ونسيكم أهل الجنة، فامكثوا في جهنم خالدين مخلدين، وفي العذاب مهانين، ولهذا قال: ﴿ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٣٧) ﴾: ينصرهم فيخرجهم منها، أو يخفف عنهم من عذابها.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٣٨) ﴾.

(٣٨) لما ذكر تعالى جزاء أهل الدارين، وذكر أعمال الفريقين؛ أخبر تعالى عن سعة علمه تعالى، واطلاعه على غيب السماوات والأرض، التي غابت عن أبصار الخلق وعن علمهم، وأنه عالم بالسرائر وما تنطوي عليه الصدور من الخير والشر والزكاء وغيره، فيعطي كلًّا ما يستحقه، وينزل كل أحد منزلته.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (٣٩) ﴾.

(٣٩) يخبر تعالى عن كمال حكمته ورحمته بعباده أنه قدر بقضائه السابق أن يجعل بعضهم يخلف بعضًا في الأرض، ويرسل لكل أمة من الأمم النذر، فينظر كيف يعملون؛ ﴿ فَمَن كَفَرَ ﴾: بالله وبما جاءت به رسله؛ فإن كفره عليه، وعليه إثمه وعقوبته، ولا يحمل عنه أحد، ولا يزداد الكافر بكفره إلا مقت ربه له وبغضه إياه، وأي عقوبة أعظم من مقت الرب الكريم؟! ﴿ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (٣٩) ﴾؛ أي: يخسرون أنفسهم وأهليهم وأعمالهم ومنازلهم في الجنة؛

فالكافر لا يزال في زيادة من الشقاء والخسران والخزي عند الله وعند خلقه والحرمان.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾.

(٤٠) يقول تعالى معجزًا لآلهة المشركين ومبينًا نقصها وبطلان شركهم من جميع الوجوه: ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول لهم: ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي: أخبروني عنهم هل هم مستحقون للدعاء والعبادة؟! فـ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾: هل خلقوا بحرًا أم خلقوا جبالًا أو خلقوا حيوانًا أو خلقوا جمادًا؟! سيقرون أن الخالق لجميع الأشياء هو الله تعالى. ﴿أَمْ لَهُمْ﴾: أي لشركائكم ﴿شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: في خلقها وتدبيرها؟! سيقولون: ليس لهم شركة في ذلك! فإذا لم يخلقوا شيئًا ولم يشاركوا الخالق في خلقه؛ فَلِمَ عبدتموهم ودعوتموهم مع إقراركم بعجزهم؟! فانتفى الدليل العقلي على صحة عبادتهم، ودل على بطلانها.

ثم ذكر الدليل السمعي، وأنه أيضًا منتفٍ، فلهذا قال: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾: يتكلم بما كانوا به يشركون؛ يأمرهم بالشرك وعبادة الأوثان. ﴿فَهُمْ﴾: في شركهم ﴿عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾: أي: من ذلك الكتاب الذي نزل عليهم في صحة الشرك، ليس الأمر كذلك؛ فإنهم ما نزل عليهم كتاب قبل القرآن، ولا جاءهم نذير قبل رسول الله محمد ﷺ، ولو قدر نزول كتاب إليهم وإرسال رسول إليهم وزعموا أنه أمرهم بشركهم؛ فإنا نجزم بكذبهم؛ لأن الله قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]: فالرسل والكتب كلها متفقة على الأمر بإخلاص الدين لله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]. فإن قيل: إذا كان الدليل العقلي والنقلي قد دلا على بطلان الشرك؛ فما الذي حَمَلَ المشركين على الشرك وفيهم ذوو العقول والذكاء والفطنة؟! أجاب تعالى بقوله: ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾؛ أي: ذلك الذي مشوا عليه ليس لهم فيه حجة، وإنما ذلك توصية بعضهم لبعض به، وتزيين بعضهم لبعض، واقتداء المتأخر بالمتقدم الضال، وأماني مناها الشياطين، وزين لهم سوء أعمالهم، فنشأت في قلوبهم، وصارت صفة من صفاتها،

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا
يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ
كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ
بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ
إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن
جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ
مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ
وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ
ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا
﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ
فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾

٤٣٩

فعسر زوالها، وتعسر انفصالها، فحصل ما حصل من الإقامة على الكفر والشرك الباطل المضمحل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾.

(٤١) يخبر تعالى عن كمال قدرته وتمام رحمته وسعة حلمه ومغفرته، وأنه تعالى ﴿يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: عن الزوال؛ فإنهما لو زالتا؛ ما أمسكهما أحد من الخلق، ولعجزت قدرهم وقواهم عنهما، ولكنه تعالى قضى أن يكونا كما وجدا؛ ليحصل للخلق القرار والنفع والاعتبار، وليعلموا من عظيم سلطانه وقوة قدرته ما به تمتلئ قلوبهم له إجلالًا وتعظيمًا، ومحبة وتكريمًا، وليعلموا كمال حلمه ومغفرته، بإمهال المذنبين، وعدم معاجلته للعاصين، مع أنه لو أمر السماء لحصبتهم، ولو أذن للأرض؛ لابتلعتهم، ولكن وسعتهم مغفرته وحلمه وكرمه. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾.

وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ
ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى
فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

سُورَةُ يسٓ — ترتيبها ٣٦ — آياتها ٨٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ
صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ
أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ
فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى
ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا
وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ
عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ
مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ
وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ
مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾

٤٤٠

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾.

﴿٤٢﴾ أي: وأقسم هؤلاء الذين كذبوك يا رسول الله قسمًا اجتهدوا فيه بالأيمان الغليظة: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾؛ أي: أهدى من اليهود والنصارى أهل الكتب، فلم يفوا بتلك الإقسامات والعهود، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾: لم يهتدوا، ولم يصيروا أهدى من إحدى الأمم، بل لم يدوموا على ضلالهم الذي كان، بل ﴿مَّا زَادَهُمْ﴾ ذلك ﴿إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾: زيادة ضلال وبغي وعناد.

﴿٤٣﴾ وليس إقسامهم المذكور لقصد حسن، وطلب للحق، وإلا لوفقوا له، ولكنه صادر عن استكبار في الأرض على الخلق وعلى الحق، وبهرجة في كلامهم هذا؛ يريدون به المكر والخداع، وأنهم أهل الحق الحريصون على طلبه، فيغتر بهم المغترون، ويمشي خلفهم المقتدون، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ﴾: الذي مقصوده مقصود سيئ، ومآله وما يرمي إليه سيئ باطل ﴿إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾: فمكرهم إنما يعود عليهم. وقد أبان الله لعباده في هذه المقالات وتلك الإقسامات أنهم كذبة في ذلك مزورون، فاستبان خزيهم، وظهرت فضيحتهم، وتبين قصدهم السيئ، فعاد مكرهم في نحورهم، ورد الله كيدهم في صدورهم، فلم يبق لهم إلا انتظار ما يحل بهم من العذاب، الذي هو سنة الله في الأولين، التي لا تبدل ولا تغير؛ أن كل من سار في الظلم والعناد والاستكبار على العباد أن تحل به نقمته، وتسلب عنه نعمته، فليترقب هؤلاء ما فعل بأولئك.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾.

﴿٤٤﴾ يحض تعالى الناس على السير في الأرض في القلوب والأبدان للاعتبار لا لمجرد النظر والغفلة، وأن ينظروا إلى عاقبة الذين من قبلهم ممن كذبوا الرسل وكانوا أكثر منهم أموالًا وأولادًا وأشد قوة وعمروا الأرض أكثر مما عمرها هؤلاء، فلما جاءهم العذاب؛ لم تنفعهم قوتهم، ولم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا، ونفذت فيهم قدرة الله ومشيئته، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: لكمال علمه وقدرته. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾.

﴿٤٥﴾ ثم ذكر تعالى كمال حلمه وشدة إمهاله وإنظاره أرباب الجرائم والذنوب، فقال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟﴾: من الذنوب ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾؛ أي: لاستوعبت العقوبة حتى الحيوانات غير المكلفة. ﴿وَلَٰكِن﴾: يمهلهم تعالى ولا يهملهم، ﴿يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾: فيجازيهم بحسب ما علمه منهم من خير وشر.

تم تفسير سورة فاطر. والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة يس

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾
عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا
مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ
فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى
ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا
وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ
عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ
مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ
وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا
قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾.

(٢) هذا قسم من الله تعالى بالقرآن الحكيم الذي وصفه الحكمة، وهي وضع كل شيء موضعه: وضع الأمر والنهي في المحل اللائق بهما، ووضع الجزاء بالخير والشر في محلهما اللائق بهما؛ فأحكامه الشرعية والجزائية كلها مشتملة على غاية الحكمة. ومن حكمة هذا القرآن أنه يجمع بين ذكر الحكم وحكمته، فينبه العقول على المناسبات والأوصاف المقتضية لترتيب الحكم عليها.

(٣) ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾﴾: هذا المقسم عليه، وهو رسالة محمد ﷺ، وأنك يا محمد من جملة المرسلين، فلست ببدع من الرسل. وأيضًا؛ فجئت بما جاء به الرسل من الأصول الدينية. وأيضًا فمن تأمل أحوال المرسلين وأوصافهم وعرف الفرق بينهم وبين غيرهم؛ عرف أنك من خيار المرسلين بما فيك من الصفات الكاملة والأخلاق الفاضلة. ولا يخفى ما بين المقسم به وهو القرآن الحكيم وبين المقسم عليه وهو رسالة الرسول محمد ﷺ من الاتصال، وأنه لو لم يكن لرسالته دليل ولا شاهد إلا هذا القرآن الحكيم؛ لكفى به دليلًا وشاهدًا على رسالة محمد ﷺ، بل القرآن العظيم أقوى الأدلة المتصلة المستمرة على رسالة الرسول، فأدلة القرآن كلها أدلة لرسالة محمد ﷺ.

(٤) ثم أخبر بأعظم أوصاف الرسول ﷺ، الدالة على رسالته، وهو أنه ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾﴾: معتدل، موصل إلى الله وإلى دار كرامته، وذلك الصراط المستقيم مشتمل على أعمال، وهي الأعمال الصالحة المصلحة للقلب والبدن والدنيا والآخرة، والأخلاق الفاضلة المُزَكِّية للنفس المطهرة للقلب المنمية للأجر، فهذا الصراط المستقيم الذي هو وصف الرسول ﷺ ووصف دينه الذي جاء به.

فتأمل جلالة هذا القرآن الكريم؛ كيف جمع بين القَسَم بأشرف الأقسام على أجل مقسَم عليه، وخبر الله وحده كافٍ، ولكنه تعالى أقام من الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة في هذا الموضع على صحة ما أقسم عليه من رسالة رسوله ما نبهنا عليه وأشرنا إشارة لطيفة لسلوك طريقه.

(٥) وهذا الصراط المستقيم ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾﴾؛ فهو الذي أنزل به كتابه وأنزله طريقًا لعباده موصلًا لهم إليه، فحماه بعزته عن التغيير والتبديل، ورحم به عباده رحمة اتصلت بهم حتى أوصلتهم إلى دار رحمته، ولهذا ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين العزيز الرحيم.

(٦) فلما أقسم تعالى على رسالته، وأقام الأدلة عليها؛ ذكر شدة الحاجة إليها واقتضاء الضرورة لها، فقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾﴾: وهم العرب الأميون، الذين لم يزالوا خالين من الكتب، عادمين الرسل، قد عمتهم الجهالة وغمرتهم الضلالة، فأرسل الله إليهم رسولًا من أنفسهم يزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، فينذر العرب الأميين ومن لحق بهم من كل أمي، ويذكر أهل الكتب بما عندهم من الكتب؛ فنعمة الله به على العرب خصوصًا وعلى غيرهم عمومًا.

(٧) ولكن هؤلاء الذين بعثت لإنذارهم بعدما أنذرتهم انقسموا قسمين: قسم رد لما جئت به ولم يقبل النذارة، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾﴾؛ أي: نفذ فيهم القضاء والمشيئة أنهم لا يزالون في كفرهم وشركهم، وإنما حق عليهم القول بعد أن عرض عليهم الحق فرفضوه؛ فحينئذ عوقبوا بالطبع على قلوبهم.

(٨) وذكر الموانع من وصول الإيمان لقلوبهم، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾: وهي جمع غِل، والغل ما يغل به العنق؛ فهو للعنق بمنزلة القيد للرِّجل. وهذه الأغلال التي

في الأعناق عظيمة ﴿فَهِىَ﴾ قد وصلت ﴿إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ وقد رفعت رءوسهم إلى فوق. ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾﴾؛ أي: رافعو رءوسهم من شدة الغل الذي في أعناقهم؛ فلا يستطيعون أن يَخفضوها.

﴿٩﴾ ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾؛ أي: حاجزًا يحجزهم عن الإيمان؛ ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾: قد غمرهم الجهل والشقاء من جميع جوانبهم، فلم تُفد فيهم النذارة.

﴿١٠﴾ ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾: وكيف يؤمن من طبع على قلبه ورأى الحق باطلًا والباطل حقًّا؟!

﴿١١﴾ والقسم الثاني الذين قبلوا النذارة وقد ذكرهم بقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾؛ أي: إنما تنفع نذارتك ويتعظ بنصحك ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾؛ أي: من قصدُهُ اتباع الحق وما ذكِّر به، ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: من اتصف بهذين الأمرين: القصد الحسن في طلب الحق، وخشية الله تعالى؛ فهم الذين ينتفعون برسالتك وَيَزْكون بتعليمك، وهذا الذي وُفق لهذين الأمرين، بشره ﴿بِمَغْفِرَةٍ﴾: لذنوبه ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾: لأعماله الصالحة ونيته الحسنة.

﴿١٢﴾ ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؛ أي: نبعثهم بعد موتهم لنجازيهم على الأعمال، ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾: من الخير والشر، وهو أعمالهم التي عملوها وباشروها في حال حياتهم، ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾: وهي آثار الخير وآثار الشر التي كانوا هم السبب في إيجادها في حال حياتهم وبعد وفاتهم، وتلك الأعمال التي نشأت من أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم؛ فكل خير عمل به أحد من الناس بسبب علم العبد وتعليمه أو نصحه أو أمره بالمعروف أو نهيه عن المنكر أو علم أودعه عند المتعلمين أو في كتب ينتفع بها في حياته وبعد موته أو عمل خيرًا من صلاة أو زكاة أو صدقة أو إحسان فاقتدى به غيره، أو عمل مسجدًا أو محلًّا من المحال التي يرتفق بها الناس وما أشبه ذلك؛ فإنها من آثاره التي تكتب له، وكذلك عمل الشر، ولهذا: «من سن سنة حسنة؛ فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»[1].

(١) مسلم (١٠١٧).

وهذا الموضع يبين لك علو مرتبة الدعوة إلى الله والهداية إلى سبيله بكل وسيلة وطريق موصل إلى ذلك، ونزول درجة الداعي إلى الشر الإمام فيه، وأنه أسفل الخليقة وأشدهم جرمًا وأعظمهم إثمًا، ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾: من الأعمال والنيات وغيرها ﴿أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾؛ أي: كتاب هو أم الكتب، وإليه مرجع الكتب التي تكون بأيدي الملائكة، وهو اللوح المحفوظ.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾
إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ
إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ
ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾

﴿١٣﴾ أي: واضرب لهؤلاء المكذبين برسالتك الرادين لدعوتك مثلًا يعتبرون به ويكون لهم موعظة إن وفقوا للخير، وذلك المثل: أصحاب القرية وما جرى منهم من التكذيب لرسل الله وما جرى عليهم من عقوبته ونكاله، وتعيين تلك القرية لو كان فيه فائدة؛ لعينها الله، فالتعرض لذلك وما أشبهه من باب التكلف والتكلم بلا علم، ولهذا إذا تكلم أحد في مثل هذه الأمور؛ تجد عنده من الخبط والخلط والاختلاف الذي لا يستقر له قرار ما تعرف به أن طريق العلم الصحيح الوقوف مع الحقائق وترك التعرض لما لا فائدة فيه، وبذلك تزكو النفس ويزيد العلم من حيث يظن الجاهل أن زيادته بذكر الأقوال التي لا دليل عليها ولا حجة عليها ولا يحصل منها من الفائدة إلا تشويش الذهن واعتياد الأمور المشكوك فيها. والشاهد أن هذه القرية جعلها الله مثلًا للمخاطبين. ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾: من الله تعالى؛ يأمرونهم بعبادة الله وحده وإخلاص الدين له، وينهونهم عن الشرك والمعاصي.

﴿١٤﴾ ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾؛ أي: قويناهما بثالث، فصاروا ثلاثة رسل؛ اعتناء من الله بهم، وإقامة للحجة بتوالي الرسل إليهم، ﴿فَقَالُوٓا۟﴾ لهم: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٥﴾ فأجابوهم بالجواب الذي ما زال مشهورًا عند من رد دعوة الرسل؛ ﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾؛ أي: فما الذي فضلكم علينا وخصكم من دوننا؟! قالت الرسل لأممهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ

سُورَةُ يسٓ — الجزء الثاني والعشرون

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾
إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ
إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ
ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ
إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾
قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم
مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ
بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ
يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن
لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى
فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن
يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا
يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ
بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى
يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾

٤٤١

عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١١]، ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ﴾؛ أي: أنكروا عموم الرسالة، ثم أنكروا أيضًا المخاطبين لهم، فقالوا: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿١٦﴾ فقالت هؤلاء الرسل الثلاثة: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾﴾: فلو كنا كاذبين؛ لأظهر الله خزينا ولبادرنا بالعقوبة.

﴿١٧﴾ ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾؛ أي: البلاغ المبين الذي يحصل به توضيح الأمور المطلوب بيانها، وما عدا هذا من آيات الاقتراح أو من سرعة العذاب؛ فليس إلينا، وإنما وظيفتنا التي هي البلاغ المبين قمنا بها وبيناها لكم؛ فإن اهتديتم؛ فهو حظكم وتوفيقكم، وإن ضللتم؛ فليس لنا من الأمر شيء.

﴿١٨﴾ فقال أصحاب القرية لرسلهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾؛ أي: لم نر على قدومكم علينا واتصالكم بنا إلا الشر، وهذا من أعجب العجائب؛ أن يجعل من قدم عليهم بأجلّ نعمة ينعم الله بها على العباد وأجلّ كرامة يكرمهم بها، وضرورتهم إليها فوق كل ضرورة، قد قدم بحالة شر زادت على الشر الذي هم عليه واستشأموا بها، ولكن الخذلان وعدم التوفيق يصنع بصاحبه أعظم مما يصنع به عدوه، ثم توعدوهم فقالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾؛ أي: لنقتلنكم رجمًا بالحجارة أشنع القتلات، ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٩﴾ فقالت لهم رسلهم: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾: وهو ما معهم من الشرك والشر المقتضي لوقوع المكروه والنقمة، وارتفاع المحبوب والنعمة. ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾؛ أي: بسبب أنا ذكّرناكم ما فيه صلاحكم وحظكم، قلتم لنا ما قلتم، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾: متجاوزون للحد متجرهمون في قولكم. فلم يزدهم دعاؤهم إلا نفورًا واستكبارًا.

﴿٢٠﴾ ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾: حرصًا على نصح قومه حين سمع ما دعت إليه الرسل وآمن به وعلم ما رد به قومه عليهم، فقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾: فأمرهم باتباعهم، ونصحهم على ذلك، وشهد لهم بالرسالة.

﴿٢١﴾ ثم ذكر تأييدًا لما شهد به ودعا إليه، فقال: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾؛ أي: اتبعوا من نصحكم نصحًا يعود إليكم بالخير، وليس يريد منكم أموالكم ولا أجرًا على نصحه لكم وإرشاده؛ فهذا موجب لاتباع مَنْ هذا وصفه. بقي أن يقال: فلعله يدعو ولا يأخذ أجرة ولكنه ليس على الحق، فدفع هذا الاحتراز بقوله: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾: لأنهم لا يدعون إلا لما يشهد العقل الصحيح بحسنه، ولا ينهون إلا بما يشهد العقل الصحيح بقبحه.

﴿٢٢﴾ - ﴿٢٥﴾ فكأن قومه لم يقبلوا نصحه، بل عادوا لائمين له على اتباع الرسل وإخلاص الدين لله وحده، فقال: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: وما المانع لي من عبادة من هو المستحق للعبادة؛ لأنه الذي فطرني وخلقني ورزقني وإليه مآل جميع الخلق فيجازيهم بأعمالهم؛ فالذي بيده الخلق والرزق، والحكم بين العباد، في الدنيا والآخرة، هو الذي يستحق أن يعبد، ويثنى عليه ويمجد، دون من لا يملك نفعًا ولا ضرًّا، ولا عطاء ولا منعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، ولهذا قال: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ

الجزء الثالث والعشرون — سورة يس

۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا
كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ
﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ
أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ
﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا
فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ
وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ
وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى
خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ
وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ
فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ
ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ
عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ
ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

٤٤٢

ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا ﴾: لأنه لا أحد يشفع عند الله إلا بإذنه؛ فلا تغني شفاعتهم عني شيئًا ﴿ وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ ﴾: من الضر الذي أراده الله بي. ﴿ إِنِّىٓ إِذًا ﴾؛ أي: إن عبدت آلهة هذا وصفها ﴿ لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾: فجمع في هذا الكلام بين نصحهم، والشهادة للرسل بالرسالة والاهتداء، والإخبار بتعين عبادة الله وحده، وذكر الأدلة عليها، وأن عبادة غيره باطلة، وذكر البراهين عليها والإخبار بضلال من عبدها، والإعلان بإيمانه جهرًا، مع خوفه الشديد من قتلهم، فقال: ﴿ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿٢٦﴾، ﴿٢٧﴾ فقتله قومه، لما سمعوا منه وراجعهم بما راجعهم به. ﴿ قِيلَ ﴾: له في الحال: ﴿ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ﴾. فقال مخبرًا بما وصل إليه من الكرامة على توحيده وإخلاصه وناصحًا لقومه بعد وفاته كما نصح لهم في حياته: ﴿ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى ﴾؛ أي: بأي شيء غفر لي فأزال عني أنواع العقوبات، ﴿ وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾: بأنواع المثوبات والمسرات؛ أي: لو وصل علم ذلك إلى قلوبهم؛ لم يقيموا على شركهم.

﴿٢٨﴾ قال الله في عقوبة قومه: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾؛ أي: ما احتجنا أن نتكلف في عقوبتهم فننزل جندًا من السماء لإتلافهم. ﴿ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾: لعدم الحاجة إلى ذلك، وعظمة اقتدار الله تعالى، وشدة ضعف بني آدم، وأنهم أدنى شيء يصيبهم من عذاب الله يكفيهم.

﴿٢٩﴾ ﴿ إِن كَانَتْ ﴾؛ أي: ما كانت عقوبتهم ﴿ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً ﴾؛ أي: صوتًا واحدًا تكلم به بعض ملائكة الله؛ ﴿ فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾: قد تقطعت قلوبهم في أجوافهم وانزعجوا لتلك الصيحة فأصبحوا خامدين لا صوت ولا حركة ولا حياة بعد ذلك العتو والاستكبار ومقابلة أشرف الخلق بذلك الكلام القبيح وتجبرهم عليهم.

﴿٣٠﴾ قال الله متوجعًا[1] للعباد: ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾؛ أي: ما أعظم شقاءهم وأطول عناءهم وأشد جهلهم حيث كانوا بهذه الصفة القبيحة التي هي سبب لكل شقاء وعذاب ونكال.

---

(١) مذهب أهل السنة والجماعة إثبات ما أثبته الله ورسوله ونفي ما نفاه الله ورسوله من الأسماء والصفات، وصفة التوجع لم ترد في كتاب الله ولا سنة رسوله، وهي صفة نقص، ينزه الله تعالى عنها، وهناك خلاف في تفسير الآية؛ هل القائل هو الله جل جلاله أم غيره؟ وفي هذا يقول تلميذ المؤلف محمد بن عثيمين رحمهما الله جميعا في تفسير سورة يس الطبعة الثانية لعام ٢٠٠٤ لدار الثريا في الصفحة ١٠٥: وقوله: ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ﴾. قيل: إن القائل هم المكذبون، وأنهم تحسروا على أنفسهم، وقالوا: يا حسرة على العباد، ثم بينوا السبب كما سيأتي. وقيل: إن الحسرة من أتباع الرسل، يعني من هذا الرجل ونحوه يتحسر على هؤلاء العباد. وقيل: إن التحسر من الله، عز وجل، لكن ليس معناه أنه يتصف به، بل المعنى أنه يبين حسرة العباد على أنفسهم، يقول: يا حسرة واقعة على العباد، فتكون (على) قريبة من معنى (من) يعني أن الله تعالى يبين أن هؤلاء العباد المكذبين سوف يتحسرون على تكذيبهم، وهذا أقرب إلى السياق لقوله: ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ﴾. فالكلام كلام الله، عز وجل، لكن لما كان التحسر ندما وألما صار الله تعالى منزها عنه، فوجب أن يكون المراد: يا حسرة واقعة عليهم، أي: ما أشد تحسر العباد على ما فعلوا من التكذيب للرسل كما نبينه آخر الآية.

(٣١)، (٣٢) ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) ﴾؛ يقول تعالى: ألم ير هؤلاء ويعتبروا بمن قبلهم من القرون المكذبة التي أهلكها الله تعالى وأوقع بها عقابها، وأن جميعهم قد باد وهلك فلم يرجع إلى الدنيا، ولن يرجع إليها، وسيعيد الله الجميع خلقًا جديدًا، ويبعثهم بعد موتهم، ويحضرون بين يديه تعالى؛ ليحكم بينهم بحكمه العدل الذي ﴿ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠) ﴾ [النساء: ٤٠].

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾.

(٣٣) أي: ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ ﴾: على البعث والنشور والقيام بين يدي الله تعالى للجزاء على الأعمال هذه ﴿ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ ﴾: أنزل الله عليها المطر فأحياها بعد موتها، ﴿ وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) ﴾: من جميع أصناف الزروع ومن جميع أصناف النبات التي تأكله أنعامهم.

(٣٤) ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا ﴾؛ أي: في تلك الأرض الميتة ﴿ جَنَّاتٍ ﴾؛ أي: بساتين فيها أشجار كثيرة، وخصوصًا النخيل والأعناب، اللذان هما أشرف الأشجار، ﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا ﴾؛ أي: في الأرض ﴿ مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) ﴾: جعلنا في الأرض تلك الأشجار والنخيل والأعناب.

(٣٥) ﴿ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ ﴾: قوتًا وفاكهة وأدمًا ولذة. والحال أن ذلك الثمر ما ﴿ عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾: وليس لهم فيه صنع ولا عمل، إن هو إلا صنعة أحكم الحاكمين وخير الرازقين، وأيضًا؛ فلم تعمله أيديهم بطبخ ولا غيره، بل أوجد الله هذه الثمار غير محتاجة لطبخ ولا شيء تؤخذ من أشجارها فتؤكل في الحال. ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥) ﴾: من ساق لهم هذه النعم، وأسبغ عليهم من جوده وإحسانه ما به تصلح أمور دينهم ودنياهم، أليس الذي أحيا الأرض بعد موتها فأنبت فيها الزروع والأشجار وأودع فيها لذيذ الثمار وأظهر ذلك الجَنَى من تلك الغصون وفجر الأرض اليابسة الميتة بالعيون بقادر على أن يحيي الموتى؟ بلى إنه على كل شيء قدير.

(٣٦) ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾؛ أي: الأصناف كلها ﴿ مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ ﴾: فنوع فيها من الأصناف ما يعسر تعداده، ﴿ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾: فنوعهم إلى ذكر وأنثى، وفاوت بين خَلْقهم وخُلُقهم وأوصافهم الظاهرة والباطنة ﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾: من المخلوقات التي قد خلقت وغابت عن علمنا، والتي لم تخلق بعد؛ فسبحانه وتعالى أن يكون له شريك، أو ظهير، أو عوين، أو وزير، أو صاحبة، أو ولد، أو سَمِيّ، أو شبيه، أو مثيل في صفات كماله ونعوت جلاله، أو يعجزه شيء يريده.

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾.

(٣٧) أي: ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ ﴾: على نفوذ مشيئة الله وكمال قدرته وإحيائه الموتى بعد موتهم ﴿ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾؛ أي: نزيل منه الضياء العظيم الذي طبَّق الأرض فنبدله بالظلمة ونحلها محله؛ ﴿ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) ﴾.

(٣٨) وكذلك نزيل هذه الظلمة التي عمتهم وشملتهم، فنطلع الشمس، فتضيء الأقطار، وينتشر الخلق لمعايشهم ومصالحهم، ولهذا قال: ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾؛ أي: دائمًا تجري لمستقر لها، قدره الله لها، لا تتعداه ولا تقصر قدره عنه وليس لها تصرف في نفسها ولا استعصاء على قدرة الله تعالى. ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ ﴾: الذي بعزته دبر هذه المخلوقات العظيمة بأكمل تدبير وأحسن نظام. ﴿ الْعَلِيمِ (٣٨) ﴾: الذي بعلمه جعلها مصالح لعباده ومنافع في دينهم ودنياهم.

(٣٩) ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾: ينزلها، كل ليلة ينزل منها واحدة، ﴿ حَتَّىٰ ﴾: صغر جدًا و﴿ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) ﴾؛ أي: عرجون النخلة الذي من قدمه نش وصغر حجمه وانحنى، ثم بعد ذلك ما زال يزيد شيئًا فشيئًا حتى يتم نوره، ويتسق ضياؤه.

وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا
لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ
وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا
قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾
وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ
﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى
ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ
﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ
﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾
وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ
﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ
وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً
وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ
نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

﴿٤٠﴾ وكل من الشمس والقمر والليل والنهار قدره الله تقديرًا لا يتعداه، وكل له سلطان ووقت، إذا وجد؛ عدم الآخر، ولهذا قال: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ ﴾؛ أي: في سلطانه الذي هو الليل؛ فلا يمكن أن توجد الشمس في الليل، ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾: فيدخل عليه قبل انقضاء سلطانه. ﴿وَكُلٌّ ﴾: من الشمس والقمر والنجوم ﴿فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾؛ أي: يترددون على الدوام؛ فكل هذا دليل ظاهر وبرهان باهر على عظمة الخالق وعظمة أوصافه، خصوصًا وصف القدرة والحكمة والعلم في هذا الموضع.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾
وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ
لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا
قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا
تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ
مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا
يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا
يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿٤١﴾ أي: ودليل لهم وبرهان على أن الله وحده المعبود؛ لأنه المنعم بالنعم الصارف للنقم الذي من جملة نعمه ﴿ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾: قال كثير من المفسرين: المراد بذلك آباؤهم.

﴿٤٢﴾ ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم ﴾؛ أي: للموجودين من بعدهم ﴿ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾؛ أي: من مثل ذلك الفلك؛ أي: جنسه ﴿مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾: به. فذكر نعمته على الآباء بحملهم في السفن؛ لأن النعمة عليهم نعمة على الذرية.

وهذا الموضع من أشكل المواضع عليَّ في التفسير؛ فإن ما ذكره كثير من المفسرين من أن المراد بالذرية الآباء مما لا يعهد في القرآن إطلاق الذرية على الآباء، بل فيه من الإبهام وإخراج الكلام عن موضوعه ما يأباه كلام رب العالمين وإرادته البيان والتوضيح لعباده. وثَمَّ احتمال أحسن من هذا، وهو أن المراد بالذرية الجنس، وأنهم هم بأنفسهم؛ لأنهم هم من ذرية بني آدم، ولكن ينقض هذا المعنى قوله: ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾: إن أريد: وخلقنا من مثل ذلك الفلك؛ أي: لهؤلاء المخاطبين ما يركبون من أنواع الفلك، فيكون ذلك تكريرًا للمعنى تأباه فصاحة القرآن. فإن أريد بقوله: ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾: الإبل التي هي سفن البر؛ استقام المعنى واتضح؛ إلا أنه يبقى أيضًا أن يكون الكلام فيه تشويش؛ فإنه لو أريد هذا المعنى؛ لقال: وآية لهم أنا حملناهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون، فأما أن يقال في الأول: حملنا ذريتهم، وفي الثاني: حملناهم؛ فإنه لا يظهر المعنى إلا أن يقال: الضمير عائد إلى الذرية. والله أعلم بحقيقة الحال.

فلما وصلت في الكتابة إلى هذا الموضع؛ ظهر لي معنى ليس ببعيد من مراد الله تعالى، وذلك أن من عرف جلالة كتاب الله وبيانه التام من كل وجه للأمور الحاضرة والماضية والمستقبلة، وأنه يذكر من كل معنى أعلاه وأكمل ما يكون من أحواله، وكانت الفلك من آياته تعالى ونعمه على عباده من حين أنعم عليهم بتعلمها إلى يوم القيامة، ولم تزل

موجودة في كل زمان إلى زمان المواجَهين بالقرآن، فلما خاطبهم الله تعالى بالقرآن، وذكر حالة الفلك، وعلم تعالى أنه سيكون أعظم آيات الفلك في غير وقتهم وفي غير زمانهم حين يعلمهم صنعة الفلك البحرية الشراعية منها والبخارية والجوية السابحة في الجو كالطيور ونحوها والمراكب البرية مما كانت الآية العظمى فيه لم توجد إلا في الذرية؛ نبه في الكتاب على أعلى نوع من أنواع آياتها، فقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾؛ أي: المملوء ركبانًا وأمتعة، فحملهم الله تعالى، ونجاهم بالأسباب التي علمهم الله بها من الغرق.

﴿٤٣﴾ ولهذا نبههم على نعمته عليهم حيث أنجاهم من الغرق مع قدرته على ذلك، فقال: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾؛ أي: لا أحد يصرخ لهم فيعاونهم على الشدة ولا يزيل عنهم المشقة، ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾﴾: مما هم فيه.

﴿٤٤﴾ ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾: حيث لم نغرقهم لطفًا بهم وتمتيعًا لهم إلى حين، لعلهم يرجعون، أو يستدركون ما فَرَطَ منهم.

﴿٤٥﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾؛ أي: من أحوال البرزخ والقيامة وما في الدنيا من العقوبات؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾: أعرضوا عن ذلك، فلم يرفعوا به رأسًا، ولو جاءتهم كل آية.

﴿٤٦﴾ ولهذا قال: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾: وفي إضافة الآيات إلى ربهم دليل على كمالها ووضوحها؛ لأنه ما أبين من آيات الله ولا أعظم بيانًا، وإن من جملة تربية الله لعباده أن أوصل إليهم الآيات التي يستدلون بها على ما ينفعهم في دينهم ودنياهم.

﴿٤٧﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: من الرزق الذي منَّ به الله عليكم، ولو شاء لسلبكم إياه، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾: معارضين للحق محتجين بالمشيئة: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ﴾: أيها المؤمنون، ﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾: حيث تأمروننا بذلك، وهذا مما يدل على جهلهم العظيم أو تجاهلهم الوخيم؛ فإن المشيئة ليست حجة لعاصٍ أبدًا؛ فإنه وإن كان ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن؛ فإنه تعالى مكن العباد وأعطاهم من القوة ما يقدرون على فعل الأمر واجتناب النهي؛ فإذا تركوا ما أمروا به؛ كان ذلك اختيارًا منهم لا جبرًا لهم وقهرًا.

﴿٤٨﴾، ﴿٤٩﴾ ﴿وَيَقُولُونَ﴾: على وجه التكذيب والاستعجال: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾. قال الله تعالى: لا يستبعدوا ذلك؛ فإنه عن قريب، ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾: وهي نفخة الصور. ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾؛ أي: تصيبهم ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾؛ أي: وهم لاهون عنها، لم تخطر على قلوبهم في حال خصومتهم وتشاجرهم بينهم، الذي لا يوجد في الغالب إلا وقت الغفلة.

﴿٥٠﴾ وإذا أخذتهم وقت غفلتهم؛ فإنهم لا ينظرون ولا يمهلون؛ ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾؛ أي: لا قليلة ولا كثيرة، ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿٥١﴾ النفخة الأولى هي نفخة الفزع والموت. وهذه نفخة البعث والنشور؛ فإذا نفخ في الصور؛ خرجوا ﴿مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ والقبور ﴿يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ إلى ربهم؛ أي: يسرعون للحضور بين يديه، لا يتمكنون من التأني والتأخر.

﴿٥٢﴾ وفي تلك الحال يحزن المكذبون ويظهرون الحسرة والندم ويقولون: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾؛ أي: من رقدتنا في القبور؛ لأنه ورد في بعض الأحاديث أن لأهل القبور رَقْدَةً قبيل النفخ في الصور. فيجابون ويقال لهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾؛ أي: هذا الذي وعدكم الله به ووعدتكم به الرسل، فظهر صدقهم رأي عين. ولا تحسب أن ذكر الرحمن في هذا الموضع لمجرد الخبر عن وعده، وإنما ذلك للإخبار بأنه في ذلك اليوم العظيم سيرون من رحمته ما لا يخطر على الظنون ولا حَسَبَ به الحاسبون؛ كقوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٢٦]، ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه: ١٠٨]، ونحو ذلك مما يذكر اسمه الرحمن في هذا.

إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ
فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم
مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ
أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا
تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ
هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ
أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ
﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ
عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟
يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟
ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ
عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ
﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾
وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ
﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾

(٥٣) ﴿إِن كَانَتْ﴾: البعثة من القبور ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾: ينفخ فيها إسرافيل في الصور، فتحيا الأجساد؛ ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾: الأولون والآخرون، والإنس والجن؛ ليحاسبوا على أعمالهم.

(٥٤) ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾: لا ينقص من حسناتها ولا يزاد في سيئاتها. ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾: من خير أو شر؛ فمن وجد خيرًا؛ فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك؛ فلا يلومن إلا نفسه.

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾.

(٥٥)، (٥٦) لما ذكر تعالى أن كل أحد لا يجزى إلا ما عمله؛ ذكر جزاء الفريقين، فبدأ بجزاء أهل الجنة، وأخبر أنهم في ذلك اليوم ﴿فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾؛ أي: في شغل مفكه للنفس مُلِذٍّ لها من كل ما تهواه النفوس وتلذه العيون ويتمناه المتمنون، ومن ذلك افتضاض العذارى الجميلات؛ كما قال: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ﴾: من الحور العين اللاتي قد جمعن حسن الوجوه والأبدان وحسن الأخلاق ﴿فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾؛ أي: السرر المزينة باللباس المزخرف الحسن ﴿مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾﴾: عليها اتكاء دالًّا على كمال الراحة والطمأنينة واللذة.

(٥٧) ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾: كثيرة من جميع أنواع الثمار اللذيذة؛ من عنب، وتين، ورمان، وغيرها، ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾﴾؛ أي: يطلبون؛ فمهما طلبوه وتمنوه؛ أدركوه.

(٥٨) ولهم أيضًا ﴿سَلَٰمٌ﴾ حاصل لهم ﴿قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾: ففي هذا كلام الرب تعالى لأهل الجنة وسلامه عليهم، وأكده بقوله: ﴿قَوْلًا﴾: وإذا سلم عليهم الرب الرحيم؛ حصلت لهم السلامة التامة من جميع الوجوه، وحصلت لهم التحية التي لا تحية أعلى منها ولا نعيم مثلها؛ فما ظنك بتحية ملك الملوك، الرب العظيم، الرءوف الرحيم، لأهل دار كرامته، الذين أحل عليهم رضوانه؛ فلا يسخط عليهم أبدًا؛ فلولا أن الله تعالى قدر ألَّا يموتوا أو تزول قلوبهم عن أماكنها من الفرح والبهجة والسرور؛ لحصل ذلك، فنرجو ربنا ألَّا يحرمنا ذلك النعيم، وأن يمتعنا بالنظر إلى وجهه الكريم.

﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

(٥٩) لما ذكر تعالى جزاء المتقين؛ ذكر جزاء المجرمين، وأنهم يقال لهم يوم القيامة: امتازوا ﴿ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾؛ أي: تميزوا عن المؤمنين، وكونوا على حدة؛ ليوبخهم ويقرعهم على رءوس الأشهاد قبل أن يدخلهم النار، فيقول لهم:

﴿٦٠﴾ ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ ﴾؛ أي: آمركم وأوصيكم على ألسنة رسلي وأقول لكم: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾؛ أي: لا تطيعوه؟ وهذا التوبيخ يدخل فيه التوبيخ عن جميع أنواع الكفر والمعاصي؛ لأنها كلها طاعة للشيطان وعبادة له، ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ ﴾: فحذرتكم منه غاية التحذير، وأنذرتكم عن طاعته، وأخبرتكم بما يدعوكم إليه.

﴿٦١﴾، ﴿٦٢﴾ وأمرتكم: أن تعبدوني بامتثال أوامري وترك زواجري. ﴿ هَٰذَا ﴾؛ أي: عبادتي وطاعتي ومعصية الشيطان ﴿ صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾: فعلوم الصراط المستقيم وأعماله ترجع إلى هذين الأمرين؛ أي: فلم تحفظوا عهدي ولم تعملوا بوصيتي، ﴿ وَلَقَدْ ﴾ واليتم عدوكم وهو الشيطان الذي ﴿ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾؛ أي: خلقًا كثيرًا. ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾؛ أي: أفلا كان لكم عقل يأمركم بموالاة ربكم ووليكم الحق، ويزجركم عن اتخاذ أعدى الأعداء لكم وليًّا؟ فلو كان لكم عقل صحيح؛ لما فعلتم ذلك.

﴿٦٣﴾ فإذا أطعتم الشيطان، وعاديتم الرحمن، وكذبتم بلقائه، ووردتم القيامة دار الجزاء، وحق عليكم القول بالعذاب، فـ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾: وتكذبون بها؛ فانظروا إليها عيانًا! فهناك تنزعج منهم القلوب، وتزوغ الأبصار، ويحصل الفزع الأكبر.

﴿٦٤﴾ ثم يكمل ذلك بأن يؤمر بهم إلى النار، ويقال لهم: ﴿ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾؛ أي: ادخلوها على وجه تصلاكم، ويحيط بكم حرها، ويبلغ منكم كل مبلغ، بسبب كفركم بآيات الله، وتكذيبكم لرسل الله.

﴿٦٥﴾ قال تعالى في بيان وصفهم الفظيع في دار الشقاء: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾: بأن نجعلهم خرسًا فلا يتكلمون، فلا يقدرون على إنكار ما عملوه من الكفر والتكذيب. ﴿ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾؛ أي: تشهد عليهم أعضاؤهم بما عملوه، وينطقها الذي أنطق كل شيء.

﴿٦٦﴾ ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ ﴾: بأن نذهب أبصارهم كما طمسنا على نطقهم؛ ﴿ فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ ﴾؛ أي: فبادروا إليه؛ لأنه الطريق إلى الوصول إلى الجنة. ﴿ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾: وقد طمست أبصارهم؟!

﴿٦٧﴾ ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ﴾؛ أي: لأذهبنا حركتهم، ﴿ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيًّا ﴾: إلى الأمام، ﴿ وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾: إلى ورائهم، ليبعدوا عن النار.

والمعنى: أن هؤلاء الكفار حقت عليهم كلمة العذاب، ولم يكن بد من عقابهم، وفي ذلك الموطن ما ثَمَّ إلا النار قد بُرِّزَتْ، وليس لأحد نجاة إلا بالعبور على الصراط، وهذا لا يستطيعه إلا أهل الإيمان الذين يمشون في نورهم، وأما هؤلاء فليس لهم عند الله عهد في النجاة من النار؛ فإن شاء طمس أعينهم، وأبقى حركتهم فلم يهتدوا إلى الصراط لو استبقوا إليه وبادروه، وإن شاء أذهب حراكهم فلم يستطيعوا التقدم ولا التأخر، المقصود أنهم لا يعبرونه، فلا تحصل لهم النجاة.

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿٦٨﴾ يقول تعالى: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ ﴾: من بني آدم ﴿ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ﴾؛ أي: يعود إلى الحالة التي ابتدأ منها؛ حالة الضعف؛ ضعف العقل وضعف القوة. ﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾: أن الآدمي ناقص من كل وجه، فيتداركون قوتهم وعقولهم، فيستعملوها في طاعة ربهم؟

﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿٦٩﴾ ينزه تعالى نبيه محمدًا ﷺ عما رماه به المشركون من أنه شاعر، وأن الذي جاء به شعر، فقال: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾: أن يكون شاعرًا؛ أي: هذا من جنس المحال أن يكون شاعرًا؛ لأنه رشيد مهتد، والشعراء غاوون، يتبعهم الغاوون، ولأن الله تعالى حسم جميع الشبه التي يتعلق بها الضالون عن رسوله، فحسم أن يكون يكتب أو يقرأ، وأخبر أنه ما علمه الشعر وما ينبغي له. ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ ﴾؛ أي: ما هذا الذي جاء به إلا ذكر يتذكر به أولو الألباب جميع المطالب الدينية؛ فهو مشتمل عليها أتم اشتمال، وهو يذكِّر العقول، ما ركز الله في فطرها من الأمر بكل حسن، والنهي عن كل قبيح. ﴿ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ ﴾؛ أي: مبين لما يطلب بيانه، ولهذا حذف المعمول؛ ليدل على أنه مبين لجميع الحق بأدلته التفصيلية والإجمالية والباطل وأدلة بطلانه. أنزله الله كذلك على رسوله.

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا
مَٰلِكُونَ ٧١ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ٧٢
وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ٧٣ وَٱتَّخَذُوا۟
مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ٧٤ لَا يَسْتَطِيعُونَ
نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ٧٥ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ
إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ٧٦ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا
خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ٧٧ وَضَرَبَ لَنَا
مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ٧٨
قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ
٧٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم
مِّنْهُ تُوقِدُونَ ٨٠ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ٨١
إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢
فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٨٣

سُورَةُ الصَّافَّاتِ ٣٧ ١٨٢

(٧٠) ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾؛ أي: حي القلب واعيه؛ فهو الذي يزكو على هذا القرآن، وهو الذي يزداد من العلم منه والعمل، ويكون القرآن لقلبه بمنزلة المطر للأرض الطيبة الزاكية، ﴿ وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (٧٠) ﴾: لأنهم قامت عليهم به حجة الله وانقطع احتجاجهم، فلم يبق لهم أدنى عذر وشبهة يدلون بها.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾.

(٧١) - (٧٣) يأمر تعالى العباد بالنظر إلى ما سخر لهم من الأنعام وذللها وجعلهم مالكين لها مطاوعة لهم في كل أمر يريدونه منها، وأنه جعل لهم فيها منافع كثيرة من حملهم وحمل أثقالهم ومحاملهم وأمتعتهم من محل إلى محل، ومن أكلهم منها، وفيها دفء، ومن أوبارها وأصوافها وأشعارها أثاثًا ومتاعًا إلى حين، وفيها زينة وجمال وغير ذلك من المنافع المشاهدة منها. ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾ الله تعالى الذي أنعم بهذه النعم، ويخلصون له العبادة، ولا يتمتعون بها تمتعًا خاليًا من العبرة والفكرة؟!

﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ (٧٥) ﴾.

(٧٤)، (٧٥) هذا بيان لبطلان آلهة المشركين التي اتخذوها مع الله تعالى ورجوا نصرها وشفعها؛ فإنها في غاية العجز. ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾: ولا أنفسهم ينصرون: فإذا كانوا لا يستطيعون نصرهم؛ فكيف ينصرونهم؟! والنصر له شرطان: الاستطاعة والقدرة؛ فإذا استطاع يبقى: هل يريد نصرةً مِنْ عبده أم لا؟ فَنَفْيُ الاستطاعة ينفي الأمرين كليهما. ﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ (٧٥) ﴾؛ أي: محضرون هم وهم في العذاب، ومتبرئ بعضهم من بعض، أفلا تبرءوا في الدنيا من عبادة هؤلاء وأخلصوا العبادة للذي بيده الملك والنفع والضر، والعطاء والمنع، وهو الولي النصير؟!

﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦) ﴾.

(٧٦) أي: فلا يحزنك يا أيها الرسول قول المكذبين، والمراد بالقول ما دل عليه السياق، كل قول يقدحون فيه في الرسول أو فيما جاء به؛ أي: فلا تشغل قلبك بالحزن عليهم. ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦) ﴾؛ فنجازيهم على حسب علمنا بهم، وإلا؛ فقولهم لا يضرك شيئًا.

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣) ﴾.

هذه الآيات الكريمات فيها ذكر شبهة منكري البعث، والجواب عنها بأتم جواب وأحسنه وأوضحه.

(٧٧) فقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾: المنكر للبعث أو الشاك فيه أمرًا يفيده اليقين التام بوقوعه، وهو ﴿ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ ﴾ ابتداءً ﴿ مِن نُّطْفَةٍ ﴾، ثم تنقله في الأطوار شيئًا فشيئًا، حتى كَبِر وشب وتم عقله واستتب؛ ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) ﴾: بعد أن كان ابتداء خلقه من نطفة؛ فلينظر التفاوت بين هاتين الحالتين، وليعلم أن الذي أنشأه من العدم قادر على أن يعيده بعدما تفرق وتمزق من باب أولى.

(٧٨) ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا ﴾: لا ينبغي لأحد أن يضربه، وهو قياس قدرة الخالق بقدرة المخلوق، وأن الأمر المستبعد على قدرة المخلوق مستبعد على قدرة الخالق، فَسَّرَ هذا المثل بقوله: ﴿ قَالَ ﴾: ذلك الإنسان: ﴿ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ (٧٨) ﴾؛ أي: هل أحد يحييها؟ استفهام إنكار؛ أي: لا أحد يحييها بعدما بليت وتلاشت. هذا وجه الشبهة والمثل، وهو أن هذا أمر في غاية البعد على ما يعهد من قدرة البشر، وهذا القول الذي صدر من هذا الإنسان غفلة منه ونسيان لابتداء خلقه؛ فلو فطن لخلقه بعد أن لم يكن شيئًا مذكورًا، فوجد عيانًا؛ لم يضرب هذا المثل.

(٧٩) فأجاب تعالى عن هذا الاستبعاد بجواب شافٍ كافٍ، فقال: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾: وهذا بمجرد تصوره يعلم به علمًا يقينًا لا شبهة فيه أن الذي أنشأها أول مرة قادر على الإعادة ثاني مرة، وهو أهون على القدرة إذا تصوره المتصور. ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) ﴾: هذا أيضًا دليل ثانٍ من صفات الله تعالى، وهو أن علمه تعالى محيط بجميع مخلوقاته في جميع أحوالها في جميع الأوقات، ويعلم ما تنقص الأرض من أجساد الأموات وما يبقى، ويعلم الغيب والشهادة؛ فإذا أقر العبد بهذا العلم العظيم؛ علم أنه أعظم وأجلّ من إحياء الله الموتى من قبورهم.

(٨٠) ثم ذكر دليلًا ثالثًا، فقال: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) ﴾: فإذا أخرج النار اليابسة من الشجر الأخضر الذي هو في غاية الرطوبة مع تضادهما وشدة تخالفهما؛ فإخراجه الموتى من قبورهم مثل ذلك.

(٨١) ثم ذكر دليلًا رابعًا، فقال: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾: على سعتهما وعِظَمهما ﴿ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾؛ أي: أن يعيدهم بأعيانهم ﴿ بَلَىٰ ﴾: قادر على ذلك؛ فإن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس. ﴿ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ (٨١) ﴾: وهذا دليل خامس؛ فإنه تعالى الخلاق الذي جميع المخلوقات؛ متقدمها ومتأخرها، صغيرها وكبيرها؛ كلها أثر من آثار خلقه وقدرته، وأنه لا يستعصي عليه مخلوق أراد خلقه؛ فإعادته للأموات فرد من أفراد آثار خلقه.

(٨٢) ولهذا قال: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا ﴾: نكرة في سياق الشرط فتعم كل شيء، ﴿ أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾؛ أي: في الحال من غير تمانع.

(٨٣) ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾: وهذا دليل سادس؛ فإنه تعالى هو الملك المالك لكل شيء؛ الذي جميع ما سكن في العالم العلوي والسفلي ملك له وعبيد مسخرون مدبرون، يتصرف فيهم بأقداره الحكمية وأحكامه الشرعية وأحكامه الجزائية؛ فإعادته إياهم بعد موتهم لينفذ فيهم حكم الجزاء من تمام ملكه، ولهذا قال: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣) ﴾: من غير امتراء ولا شك؛ لتواتر البراهين القاطعة والأدلة الساطعة على ذلك. فتبارك الذي جعل في كلامه الهدى والشفاء والنور.

تم تفسير سورة يس.

فلله تعالى الحمد كما ينبغي لجلاله، وله الثناء كما يليق بكماله، وله المجد كما تستدعيه عظمته وكبرياؤه، وصلى الله على محمد وسلم.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ٣
إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ
ٱلْمَشَٰرِقِ ٥ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ٦ وَحِفْظًا
مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ
مِن كُلِّ جَانِبٍ ٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ
ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ١٠ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا
أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ١١ بَلْ عَجِبْتَ
وَيَسْخَرُونَ ١٢ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ١٣ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ
١٤ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ١٥ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا
أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ١٦ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ١٧ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ
١٨ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ١٩ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا
يَوْمُ ٱلدِّينِ ٢٠ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢١
۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٢٢ مِن دُونِ
ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ٢٣ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ٢٤

تفسير سورة الصافات

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿١﴾ - ﴿٤﴾ هذا قسم منه تعالى بالملائكة الكرام في حال عباداتها وتدبيرها ما تدبره بإذن ربها على ألوهيته تعالى وربوبيته، فقال: ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ ﴾؛ أي: صفوفًا في خدمة ربهم، وهم الملائكة، ﴿ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ ﴾: وهم الملائكة يزجرون السحاب وغيره بأمر الله، ﴿ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ ﴾: وهم الملائكة الذين يتلون كلام الله تعالى، فلما كانوا متألهين لربهم ومتعبدين في خدمته ولا يعصونه طرفة عين؛ أقسم بهم على ألوهيته، فقال: ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ ﴾: ليس له شريك في الإلهية؛ فأخلِصوا له الحب والخوف والرجاء وسائر أنواع العبادة.

﴿٥﴾ ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ ﴾؛ أي: هو الخالق لهذه المخلوقات، الرازق لها، المدبر لها؛ فكما أنه لا شريك له في ربوبيته إياها؛ فكذلك لا شريك له في ألوهيته. وكثيرًا ما يقرر تعالى توحيد الإلهية بتوحيد الربوبية؛ لأنه دال عليه. وقد أقر به أيضًا المشركون في العبادة، فيلزمهم بما أقروا به على ما أنكروه. وخص الله المشارق بالذكر؛ لدلالتها على المغارب، أو لأنها مشارق النجوم التي سيذكرها. فلهذا قال:

﴿٦﴾ - ﴿٩﴾ ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾: ذكر الله في الكواكب هاتين الفائدتين العظيمتين: إحداهما: كونها زينة للسماء؛ إذ لولاها؛ لكانت السماء مظلمة لا ضوء فيها، ولكن زينها بها؛ لتستنير أرجاؤها وتحسن صورتها، ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ويحصل فيها من المصالح ما يحصل. والثانية: حراسة السماء عن كل شيطان مارد يصل بتمرده إلى استماع الملأ الأعلى، وهم الملائكة؛ فإذا استمعوا ﴿ يُقْذَفُونَ ﴾ بالشهب الثواقب ﴿ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ ﴾: طردًا لهم وإبعادًا عن استماع ما يقول الملأ الأعلى. ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ ﴾؛ أي: دائم معد لهم لتمردهم عن طاعة ربهم.

﴿١٠﴾ ولولا أنه تعالى استثنى؛ لكان ذلك دليلًا على أنهم لا يستمعون شيئًا أصلًا، ولكن قال: ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ ﴾؛ أي: إلا من تلقف من الشياطين المردة الكلمة الواحدة على وجه الخفية والسرقة، ﴿ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾: تارة يدركه قبل أن يوصلها إلى أوليائه فينقطع خبر السماء، وتارة يخبر بها قبل أن يدركه الشهاب، فيكذبون معها مائة كذبة، يروجونها بسبب الكلمة التي سمعت من السماء.

﴿١١﴾ ولما بين هذه المخلوقات العظيمة؛ قال: ﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ ﴾؛ أي: اسأل منكري خلقهم بعد موتهم: ﴿أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا ﴾؛ أي: إيجادهم بعد موتهم أشد خلقًا وأشق. ﴿أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآ ﴾: من هذه المخلوقات؛ فلا بد أن يُقروا أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، فيلزمهم إذًا الإقرار بالبعث، بل لو رجعوا إلى أنفسهم وفكروا فيها؛ لعلموا أن ابتداء خلقهم من طين لازب أصعب عند الفكر من إنشائهم بعد موتهم، ولهذا قال: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ﴿١١﴾ ﴾؛ أي: قوي شديد؛ كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الحجر: ٢٦].

﴿ بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ يَسۡتَسۡخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿١٢﴾ ﴿ بَلۡ عَجِبۡتَ ﴾: أيها الرسول أو أيها الإنسان من تكذيب من كذب بالبعث بعد أن أريتهم من الآيات العظيمة والأدلة المستقيمة، وهو حقيقةً محل عجب واستغراب؛ لأنه مما لا يقبل الإنكار. وأعجب من إنكارهم وأبلغ منه أنهم يسخرون ممن جاء بالخبر عن البعث، فلم يكفهم مجرد الإنكار، حتى زادوا السخرية بالقول الحق.

﴿١٣﴾ ومن العجب أيضًا أنهم إذا ﴿ ذُكِّرُواْ ﴾: ما يعرفون في فطرهم وعقولهم وفطنوا له ولفت نظرهم إليه ﴿لَا يَذۡكُرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾: ذلك؛ فإن كان جهلًا؛ فهو من أدل الدلائل على شدة بلادتهم العظيمة؛ حيث ذكروا ما هو مستقر في الفطرة معلوم بالعقل لا يقبل الإشكال، وإن كان تجاهلًا وعنادًا؛ فهو أعجب وأغرب.

﴿١٤﴾ ومن العجب أيضًا أنهم إذا أقيمت عليهم الأدلة، وذكروا الآيات التي يخضع لها فحول الرجال وألباب الألبَّاء، يسخرون منها ويعجبون.

﴿١٥﴾ ومن العجب أيضًا قولهم للحق لما جاءهم: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾: فجعلوا أعلى الأشياء وأجلها - وهو الحق - في رتبة أخس الأشياء وأحقرها.

﴿١٦﴾، ﴿١٧﴾ ومن العجب أيضًا قياسهم قدرة رب الأرض والسماوات على قدرة الآدمي الناقص من جميع الوجوه، فقالوا استبعادًا وإنكارًا: ﴿ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿١٨﴾ ولما كان هذا منتهى ما عندهم وغاية ما لديهم؛ أمر الله رسوله أن يجيبهم بجواب مشتمل على ترهيبهم، فقال: ﴿ قُلۡ نَعَمۡ ﴾: ستبعثون أنتم وآباؤكم الأولون، ﴿وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾: ذليلون صاغرون لا تمتنعون، ولا تستعصون على قدرة الله.

﴿١٩﴾ ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴾: ينفخ إسرافيل فيها في الصور، ﴿ فَإِذَا هُمۡ ﴾ مبعوثون من قبورهم ﴿يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾: كما ابتدئ خلقهم، بعثوا بجميع أجزائهم حفاة عراة غرلًا.

﴿٢٠﴾ وفي تلك الحال يظهرون الندم والخزي والخسار، ويدعون بالويل والثبور، ﴿ وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ ﴾؛ فقد أقروا بما كانوا في الدنيا به يهزءون!

﴿٢١﴾ فيقال لهم: ﴿ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ﴾: بين العباد فيما بينهم وبين ربهم من الحقوق وفيما بينهم وبين غيرهم من الخلق ﴿ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿٢٢﴾، ﴿٢٣﴾ أي: إذا حضروا يوم القيامة وعاينوا ما به يكذبون ورأوا ما به يستسخرون؛ يؤمر بهم إلى النار التي بها يكذبون، فيقال: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾: أنفسهم بالكفر والشرك والمعاصي ﴿ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ ﴾: الذين من جنس عملهم، كل يضم إلى من يجانسه في العمل، ﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾: من الأصنام والأنداد التي زعموها، اجمعوهم جميعًا، واهدوهم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ ﴾؛ أي: سوقوهم سوقًا عنيفًا إلى جهنم.

﴿٢٤﴾ وبعدما يتعين أمرهم إلى النار ويعرفون أنهم من أهل دار البوار؛ يقال: قفوهم قبل أن توصلوهم إلى جهنم، ﴿إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾: عما كانوا يفترونه في الدنيا؛ ليظهر على رءوس الأشهاد كذبهم وفضيحتهم.

مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ
عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾
قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ
بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾
فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ
﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ
لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا
لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ
لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ
﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾
فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ
﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ
﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ
الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ
بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾

(٢٥) فيقال لهم: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾**: أي: ما الذي جرى عليكم اليوم، وما الذي طرقكم، لا ينصر بعضكم بعضًا، ولا يغيث بعضكم بعضًا، بعدما كنتم تزعمون في الدنيا أن آلهتكم ستدفع عنكم العذاب وتغيثكم أو تشفع لكم عند الله؟!**

(٢٦) فكأنهم لا يجيبون هذا السؤال؛ لأنهم قد علاهم الذل والصغار، واستسلموا لعذاب النار وخشعوا وخضعوا وأبلسوا، فلم ينطقوا، ولهذا قال: ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

(٢٧)، (٢٨) لما جمعوا هم وأزواجهم وآلهتهم وهدوا إلى صراط الجحيم ووقفوا فسئلوا فلم يجيبوا؛ أقبلوا فيما بينهم يلوم بعضهم بعضًا على إضلالهم وضلالهم، فقال الأتباع للمتبوعين الرؤساء: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾﴾**؛ أي: بالقوة والغلبة فتضلونا، ولولا أنتم؛ لكنا مؤمنين.**

(٢٩) - (٣٢) ﴿قَالُوا﴾ **لهم:** ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾﴾**؛ أي: ما زلتم مشركين كما نحن مشركون؛ فأي شيء فضلكم علينا؟! وأي شيء يوجب لومنا؟! والحال أنه ما** ﴿كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾**؛ أي: قهر لكم على اختيار الكفر،** ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾﴾**: متجاوزين للحد،** ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا﴾**: نحن وإياكم** ﴿قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾﴾**: العذاب؛ أي: حق علينا قدر ربنا وقضاؤه، أنَّا وإياكم سنذوق العذاب ونشترك في العقاب. فلذلك أغويناكم** ﴿إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾﴾**؛ أي: دعوناكم إلى طريقتنا التي نحن عليها، وهي الغواية، فاستجبتم لنا؛ فلا تلومونا ولوموا أنفسكم.**

(٣٣)، (٣٤) قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾**؛ أي: يوم القيامة** ﴿فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾**: وإن تفاوتت مقادير عذابهم بحسب جرمهم؛ كما اشتركوا في الدنيا على الكفر اشتركوا في الآخرة بجزائه، ولهذا قال:** ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

(٣٥)، (٣٦) ثم ذكر أن إجرامهم قد بلغ الغاية وجاوز النهاية، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾**: فدعوا إليها وأمروا بترك إلهية ما سواه** ﴿يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾**: عنها وعلى من جاء بها،** ﴿وَيَقُولُونَ﴾ **معارضة لها:** ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا﴾**: التي لم نزل نعبدها نحن وآباؤنا، لقول شاعر** ﴿مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾**؛ يعنون: محمدًا ﷺ، فلم يكفهم - قبحهم الله - الإعراض عنه ولا مجرد تكذيبه، حتى حكموا عليه بأظلم الأحكام، وجعلوه شاعرًا مجنونًا، وهم يعلمون أنه لا يعرف الشعر والشعراء، ولا وصفه وصفهم، وأنه أعقل خلق الله وأعظمهم رأيًا.**

(٣٧) ولهذا قال تعالى ناقضًا لقولهم: ﴿ بَلْ جَآءَ ﴾: محمد ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾؛ أي: مجيئه حقًّا، وما جاء به من الشرع والكتاب حق، ﴿ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ (٣٧) ﴾؛ أي: ومجيئه صدق المرسلين؛ فلولا مجيئه وإرساله؛ لم يكن الرسل صادقين؛ فهو آية ومعجزة لكل رسول قبله؛ لأنهم أخبروا به وبشروا، وأخذ الله عليهم العهد والميثاق لئن جاءهم ليؤمنن به ولينصرنه، وأخذوا ذلك على أممهم، فلما جاء؛ ظهر صدق الرسل الذين قبله، وتبين كذب من خالفهم، فلو قدر عدم مجيئه، وهم قد أخبروا به؛ لكان ذلك قادحًا في صدقهم. وصدق أيضًا المرسلين؛ بأن جاء بما جاءوا به، ودعا إلى ما دعوا إليه، وآمن بهم، وأخبر بصحة رسالتهم ونبوتهم وشرعهم.

(٣٨)، (٣٩) ولما كان قولهم السابق: ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ (٣١) ﴾ قولًا صادرًا منهم يحتمل أن يكون صدقًا أو غيره؛ أخبر تعالى بالقول الفصل الذي لا يحتمل غير الصدق واليقين، وهو الخبر الصادر منه تعالى، فقال: ﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ (٣٨) ﴾؛ أي: المؤلم الموجع، ﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ ﴾: في إذاقة العذاب الأليم ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) ﴾: فلم نظلمكم، وإنما عدلنا فيكم.

ولما كان هذا الخطاب لفظه عامًّا، والمراد به المشركون؛ استثنى تعالى المؤمنين، فقال:

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٤٣) عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧) وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ (٤٩) ﴾.

(٤٠) يقول تعالى: ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (٤٠) ﴾: فإنهم غير ذائقي العذاب الأليم؛ لأنهم أخلصوا لله الأعمال، فأخلصهم واختصهم برحمته وجاد عليهم بلطفه.

(٤١)، (٤٢) ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) ﴾؛ أي: غير مجهول، وإنما هو رزق عظيم جليل لا يجهل أمره ولا يبلغ كنهه، فسره بقوله: ﴿ فَوَٰكِهُ ﴾: من جميع أنواع الفواكه التي تتفكه بها النفس للذتها في لونها وطعمها. ﴿ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) ﴾: لا مهانون محتقرون، بل معظمون مبجلون موقرون، قد أكرم بعضهم بعضًا، وأكرمتهم الملائكة الكرام، وصاروا يدخلون عليهم من كل باب، ويهنئونهم ببلوغ أهنأ الثواب، وأكرمهم أكرم الأكرمين وجاد عليهم بأنواع الكرامات من نعيم القلوب والأرواح والأبدان.

(٤٣) ﴿ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٤٣) ﴾؛ أي: الجنات التي النعيم وصفها والسرور نعمتها؛ وذلك لما جمعته مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وسلمت من كل ما يخل بنعيمها من جميع المكدرات والمنغصات.

(٤٤) ومن كرامتهم عند ربهم وإكرام بعضهم بعضًا أنهم على ﴿ سُرُرٍ ﴾: وهي المجالس المرتفعة المزينة بأنواع الأكسية الفاخرة المزخرفة المجملة؛ فهم متكئون عليها على وجه الراحة والطمأنينة والفرح، ﴿ مُّتَقَٰبِلِينَ (٤٤) ﴾: فيما بينهم، قد صفت قلوبهم ومحبتهم فيما بينهم، ونعموا باجتماع بعضهم مع بعض؛ فإن مقابلة وجوههم تدل على تقابل قلوبهم وتأدب بعضهم مع بعض، فلم يستدبره أو يجعله إلى جانبه، بل من كمال السرور والأدب ما دل عليه ذلك التقابل.

(٤٥) - (٤٧) ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) ﴾؛ أي: يتردد الولدان المستعدون لخدمتهم عليهم بالأشربة اللذيذة بالكاسات الجميلة المنظر المترعة من الرحيق المختوم بالمسك، وهي كاسات الخمر، وتلك الخمر تخالف خمر الدنيا من كل وجه؛ فإنها في لونها ﴿ بَيْضَآءَ ﴾ من أحسن الألوان، وفي طعمها ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ (٤٦) ﴾: يلتذ شاربها بها وقت شربها وبعده، وأنها سالمة من غول العقل وذهابه ونزفه ونزف مال صاحبها، وليس فيها صداع ولا كدر.

(٤٨)، (٤٩) فلما ذكر طعامهم وشرابهم ومجالسهم. وعموم النعيم وتفاصيله داخلة في قوله: ﴿ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٤٣) ﴾، لكن فصَّل هذه الأشياء لتعلم فتشتاق النفوس إليها؛ ذكر أزواجهم، فقال: ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) ﴾؛ أي: وعند أهل دار النعيم في محلاتهم القريبة حور حسان كاملات الأوصاف قاصرات الطرف: إما أنها قصرت طرفها على زوجها لعفتها، وعدم مجاوزته لغيره، ولجمال زوجها وكماله؛ بحيث لا تطلب في الجنة سواه، ولا ترغب إلا به. وإما لأنها قصرت طرف زوجها عليها، وذلك يدل على كمالها وجمالها الفائق، الذي

يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا
لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ
ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي
لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا
ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾
لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ
ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ
تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ
﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ
عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾
إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾
وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم
مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾
إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ
ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾

٤٤٨

أوجب لزوجها أن يقصر طرفه عليها. وقصر الطرف أيضًا يدل على قصر النفس والمحبة عليها، وكلا المعنيين محتمل، وكلاهما صحيح.

وكل هذا يدل على جمال الرجال والنساء في الجنة ومحبة بعضهم بعضًا محبة لا يطمح معها أحد إلى غيره ويدل على شدة عفتهم كلهم، وأنه لا حسد فيها ولا تباغض ولا تشاحن، وذلك لانتفاء أسبابه. ﴿ عِينٌ ﴿٤٨﴾ ﴾؛ أي: حسان الأعين جميلاتها ملاح الحدق. ﴿ كَأَنَّهُنَّ ﴾؛ أي: الحور ﴿ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾؛ أي: مستور، وذلك من حسنهن وصفائهن، وكون ألوانهن أحسن الألوان وأبهاها، ليس فيه كدر ولا شين.

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

﴿٥٠﴾ - ﴿٥٩﴾ لما ذكر تعالى نعيمهم، وتمام سرورهم، بالمآكل والمشارب، والأزواج الحسان، والمجالس الحسنة؛ ذكر تذاكرهم فيما بينهم ومطارحتهم للأحاديث عن الأمور الماضية وأنهم ما زالوا في المحادثة والتساؤل حتى أفضى ذلك بهم إلى أن قال قائل منهم: ﴿ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ ﴾: في الدنيا ينكر البعث ويلومني على تصديقي به، ويقول لي: ﴿ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾؛ أي: مجازون بأعمالنا؟! أي: كيف تصدق بهذا الأمر البعيد، الذي في غاية الاستغراب، وهو أننا إذا تمزقنا فصرنا ترابًا وعظامًا أننا نبعث ونعاد ثم نحاسب ونجازى بأعمالنا؛ أي: يقول صاحب الجنة لإخوانه: هذه قصتي وهذا خبري أنا وقريني، ما زلت أنا مؤمنًا مصدقًا، وهو ما زال مكذبًا منكرًا للبعث، حتى متنا، ثم بعثنا، فوصلت أنا إلى ما ترون من النعيم الذي أخبرتنا به الرسل، وهو لا شك أنه قد وصل إلى العذاب. ﴿ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾: لننظر إليه فنزداد غبطة وسرورًا بما نحن فيه، ويكون ذلك رأي عين؟! والظاهر من حال أهل الجنة، وسرور بعضهم ببعض، وموافقة بعضهم بعضًا، أنهم أجابوه لما قال، وذهبوا تبعًا له للاطلاع على قرينه. ﴿ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ ﴾ أي: رأى قرينه ﴿ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ ﴾؛ أي: في وسط العذاب وغمراته. والعذاب قد أحاط به، فـ﴿ قَالَ ﴾ له لائمًا على حاله وشاكرًا لله على نعمته أن نجاه من كيده: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ ﴾؛ أي: تهلكني بسبب ما أدخلت عليَّ من الشبه بزعمك، ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي ﴾: على أن ثبتني على الإسلام ﴿ لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾: في العذاب معك. ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾؟ أي: يقوله المؤمن مبتهجًا بنعمة الله على أهل الجنة بالخلود الدائم فيها والسلامة من العذاب. استفهام بمعنى الإثبات والتقرير. وقوله: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾، وحذف المعمول، والمقام مقام لذة وسرور، فدل ذلك على أنهم يتساءلون بكل ما يتلذذون بالتحدث به والمسائل التي وقع فيها النزاع والإشكال، ومن المعلوم أن لذة أهل العلم بالتساؤل عن العلم والبحث عنه فوق اللذات الجارية في أحاديث

الدنيا؛ فلهم من هذا النوع النصيب الوافر، ويحصل لهم من انكشاف الحقائق العلمية في الجنة ما لا يمكن التعبير عنه.

(٦٠) فلما ذكر تعالى نعيم الجنة ووصفه بهذه الأوصاف الجميلة؛ مدحه وشوق العاملين وحثهم على العمل له، فقال: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) ﴾: الذي حصل لهم به كل خير وكل ما تهوى النفوس وتشتهي، واندفع عنهم به كل محذور ومكروه؛ فهل فوز يطلب فوقه، أم هو غاية الغايات ونهاية النهايات؛ حيث حل عليهم رضا رب الأرض والسماوات، وفرحوا بقربه، وتنعموا بمعرفته، وسروا برؤيته، وطربوا لكلامه؟!

(٦١) ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١) ﴾: فهو أحق ما أنفقت فيه نفائس الأنفاس، وأولى ما شمر إليه العارفون الأكياس، والحسرة كل الحسرة أن يمضي على الحازم وقت من أوقاته وهو غير مشتغل بالعمل الذي يقرب لهذه الدار؛ فكيف إذا كان يسير بخطاياه إلى دار البوار؟!

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠) وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ (٧٢) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤) ﴾.

(٦٢) ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا ﴾؛ أي: ذلك النعيم الذي وصفناه لأهل الجنة خير أم العذاب الذي يكون في الجحيم من جميع أصناف العذاب؛ فأي الطعامين أولى؟ الطعام الذي وصف في الجنة، ﴿ أَمْ ﴾ طعام أهل النار، وهو ﴿ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) ﴾؟

(٦٣) - (٦٦) ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً ﴾؛ أي: عذابًا ونكالًا ﴿ لِّلظَّالِمِينَ (٦٣) ﴾: أنفسهم بالكفر والمعاصي. ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) ﴾؛ أي: وسطه؛ فهذا مخرجها ومعدنها؛ شر المعادن وأسوءها، وشر المغرس يدل على شر الغراس وخسته، ولهذا نبهنا الله على شرها بما ذكر أين تنبت به وبما ذكر من صفة ثمرتها، وأن ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) ﴾ فلا تسأل بعد هذا عن طعمها وما تفعل في أجوافهم وبطونهم. وليس لهم عنها مندوحة ولا معدل، ولهذا قال: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ﴾: فهذا طعام أهل النار؛ فبئس الطعام طعامهم.

(٦٧) ثم ذكر شرابهم، فقال: ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا ﴾؛ أي: على أثر هذا الطعام ﴿ لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ (٦٧) ﴾؛ أي: ماءً حارًّا قد تناهى حره؛ كما قال تعالى: ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) ﴾ [الكهف: ٢٩]، وكما قال تعالى: ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥) ﴾ [محمد: ١٥].

(٦٨) ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ ﴾؛ أي: مآلهم ومقرهم ومأواهم ﴿ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) ﴾: ليذوقوا من عذابه الشديد وحره العظيم ما ليس عليه مزيد من الشقاء.

(٦٩) - (٧٣) وكأنه قيل: ما الذي أوصلهم إلى هذه الدار؟ فقال: ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ﴾؛ أي: وجدوا ﴿ آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠) ﴾؛ أي: يسرعون في الضلال، فلم يلتفتوا إلى ما دعتهم إليه الرسل ولا إلى ما حذرتهم عنه الكتب ولا إلى أقوال الناصحين، بل عارضوهم بأن قالوا: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) ﴾ [الزخرف: ٢٣]. ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ ﴾؛ أي: قبل هؤلاء المخاطبين ﴿ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) ﴾: وقليل منهم آمن واهتدى، ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ (٧٢) ﴾: ينذرونهم عن غيهم وضلالهم، ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) ﴾: كانت عاقبتهم الهلاك والخزي والفضيحة؛ فليحذر هؤلاء أن يستمروا على ضلالهم فيصيبهم مثل ما أصابهم.

(٧٤) ولما كان المنذرون ليسوا كلهم ضالين، بل منهم من آمن وأخلص الدين لله؛ استثناهم الله من الهلاك، فقال: ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤) ﴾؛ أي: الذين أخلصهم الله وخصهم برحمته لإخلاصهم؛ فإن عواقبهم صارت حميدة.

ثم ذكر نموذجًا من عواقب الأمم المكذبين، فقال:

وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَـٰمٌ
عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ
عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَإِنَّ مِن
شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ
لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ
﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾
فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ
فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا
بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ
﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ
فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾
وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ
﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ
يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ
يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾

﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿٧٥﴾ - ﴿٨٢﴾ يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح عليه السلام أول الرسل أنه لما دعا قومه إلى الله تلك المدة الطويلة، فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارًا؛ أنه نادى ربه، فقال: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [نوح: ٢٦] الآية، وقال: ﴿ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ٣٠]. فاستجاب الله له، ومدح تعالى نفسه، فقال: ﴿ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾: لدعاء الداعين وسماع تبتلهم وتضرعهم، أجابه إجابة طابقت ما سأل، نجاه وأهله من الكرب العظيم، وأغرق جميع الكافرين، وأبقى نسله وذريته متسلسلين؛ فجميع الناس من ذرية نوح عليه السلام، وجعل له ثناء حسنًا مستمرًّا إلى وقت الآخرين، وذلك لأنه محسن في عبادة الخالق، محسن إلى الخلق، وهذه سنته تعالى في المحسنين؛ أن ينشر لهم من الثناء على حسب إحسانهم، ودل قوله: ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ﴾: أن الإيمان أرفع منازل العباد، وأنه مشتمل على جميع شرائع الدين وأصوله وفروعه؛ لأن الله مدح به خواص خلقه.

﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ ﴾.

﴿٨٣﴾، ﴿٨٤﴾؛ أي: وإن من شيعة نوح عليه السلام ومن هو على طريقته في النبوة والرسالة ودعوة الخلق إلى الله وإجابة الدعاء إبراهيم الخليل عليه السلام. ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ ﴾: من الشرك والشبه والشهوات المانعة من تصور الحق والعمل به. وإذا كان قلب العبد سليمًا؛ سلم من كل شر، وحصل له كل خير.

﴿٨٥﴾ - ﴿٨٧﴾ ومن سلامته أنه سليم من غش الخلق وحسدهم وغير ذلك من مساوئ الأخلاق، ولهذا نصح الخلق في الله، وبدأ بأبيه وقومه، فقال: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾؟ هذا استفهام على وجه الإنكار وإلزام لهم بالحجة. ﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾؟ أي: تعبدون[1] آلهة كذبًا ليست بآلهة، ولا تصلح للعبادة؟! ﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾: أن يفعل بكم وقد عبدتم معه غيره؟! وهذا ترهيب لهم بالجزاء بالعقاب على الإقامة على شركهم، ﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ أي: وما الذي ظننتم برب العالمين من النقص حتى جعلتم له أندادًا وشركاء؟!

﴿٨٨﴾ - ﴿٩٣﴾ فأراد عليه السلام أن يكسر أصنامهم ويتمكن من ذلك، فانتهز الفرصة في حين غفلة منهم لما ذهبوا إلى عيد من أعيادهم، فخرج معهم، ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾: في الحديث الصحيح: «لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات: قوله: إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وقوله عن زوجته: إنها أختي»[2]. والقصد

(١) الأصل، ط: «أتعبدون من دون».
(٢) البخاري (٣٣٥٨)، مسلم (٢٣٧١).

أنه تخلف عنهم ليتم له الكيد بآلهتهم. فلهذا تولوا ﴿ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾، فوجد الفرصة؛ ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ ﴾؛ أي: أسرع إليها على وجه الخفية والمراوغة، ﴿ فَقَالَ ﴾ متهكمًا بها: ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾؛ أي: فكيف يليق أن تعبد وهي أنقص من الحيوانات التي تأكل وتكلم، وهذه جماد لا تأكل ولا تكلم؟! ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ ﴾؛ أي: جعل يضربها بقوته ونشاطه حتى جعلها جذاذًا؛ إلا كبيرًا لهم لعلهم إليه يرجعون.

﴿٩٤﴾ - ﴿٩٦﴾ ﴿ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ ﴾؛ أي: يسرعون ويهرعون؛ يريدون أن يوقعوا به بعدما بحثوا و﴿ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾؟ وقيل لهم: ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥٩، ٦٠]، يقول: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥٧]. فوبخوه ولاموه، فقال: ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٣-٦٦] الآية، و﴿ قَالَ ﴾ هنا: ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾؛ أي: تنحتونه بأيديكم وتصنعونه؛ فكيف تعبدونهم وأنتم الذين صنعتموهم، وتتركون الإخلاص لله والله ﴿ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾؟!

﴿٩٧﴾، ﴿٩٨﴾ ﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا ﴾؛ أي: عاليًا مرتفعًا وأوقدوا فيه النار، ﴿ فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ ﴾: جزاء على ما فعل من تكسير آلهتهم، وأرادوا ﴿ بِهِۦ كَيْدًا ﴾: ليقتلوه أشنع قتلة؛ ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾: رد الله كيدهم في نحورهم، وجعل النار على إبراهيم بردًا وسلامًا.

﴿٩٩﴾ ولما فعلوا فيه هذا الفعل، وأقام عليهم الحجة، وأعذر منهم؛ قال: ﴿ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى ﴾؛ أي: مهاجر إليه، قاصد إلى الأرض المباركة أرض الشام ﴿ سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ ﴾: يدلني على ما فيه الخير لي من أمر ديني ودنياي. وقال في الآية الأخرى: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ ﴾ [مريم: ٤٨].

﴿١٠٠﴾ ﴿ رَبِّ هَبْ لِى ﴾: ولدًا يكون ﴿ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾، وذلك عندما أيس من قومه، ولم ير فيهم خيرًا؛ دعا الله أن يهب له غلامًا صالحًا ينفع الله به في حياته وبعد مماته.

﴿١٠١﴾ فاستجاب الله له وقال: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾: وهذا إسماعيل عليه السلام بلا شك؛ فإنه ذكر بعده البشارة بإسحاق، ولأن الله تعالى قال في بشراه بإسحاق: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾ [هود: ٧١]: فدل على أن إسحاق غير الذبيح، ووصف الله إسماعيل عليه السلام بالحلم، وهو يتضمن الصبر وحسن الخلق وسعة الصدر والعفو عمن جنى.

﴿١٠٢﴾ ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ ﴾؛ أي: أدرك أن يسعى معه، وبلغ سنًّا يكون في الغالب أحب ما يكون لوالديه؛ قد ذهبت مشقته وأقبلت منفعته، فقال له إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ ﴾؛ أي: قد رأيت في النوم والرؤيا أن الله يأمرني بذبحك، ورؤيا الأنبياء وحي. ﴿ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾؛ فإن أمر الله تعالى لا بد من تنفيذه، فقال إسماعيل صابرًا محتسبًا مرضيًا لربه وبارًّا بوالده: ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾؛ أي: امض لما أمرك الله، ﴿ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾: أخبر أباه أنه موطن نفسه على الصبر، وقرن ذلك بمشيئة الله تعالى؛ لأنه لا يكون شيء بدون مشيئة الله.

﴿١٠٣﴾ ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا ﴾؛ أي: إبراهيم وابنه إسماعيل: إبراهيم جازمًا بقتل ابنه وثمرة فؤاده امتثالًا لأمر ربه وخوفًا من عقابه، والابن قد وطن نفسه على الصبر، وهانت عليه في طاعة ربه ورضا والده، ﴿ وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ ﴾؛ أي: تل إبراهيم إسماعيل على جبينه ليضجعه فيذبحه، وقد انكب لوجهه؛ لئلا ينظر وقت الذبح إلى وجهه.

﴿١٠٤﴾، ﴿١٠٥﴾ ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ ﴾: في تلك الحال المزعجة والأمر المدهش: ﴿ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾؛ أي: قد فعلت ما أمرت به؛ فإنك وطنت نفسك على ذلك، وفعلت كل سبب، ولم يبق إلا إمرار السكين على حلقه. ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾: في عبادتنا، المقدمين رضانا على شهوات أنفسهم.

فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ
صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ
ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي
ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ
﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا
مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ
وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ
﴿١١٥﴾ وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ
ٱلۡمُسۡتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكۡنَا
عَلَيۡهِمَا فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ
﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنۡ
عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٢٣﴾
إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ
ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾

٤٥٠

(١٠٦) ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾: الذي امتحنا به إبراهيم عليه السلام ﴿لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ (١٠٦)﴾؛ أي: الواضح الذي تبين به صفاء إبراهيم وكمال محبته لربه وخلته؛ فإن إسماعيل عليه السلام لما وهبه الله لإبراهيم؛ أحبه حبًّا شديدًا، وهو خليل الرحمن، والخلة أعلى أنواع المحبة، وهو منصب لا يقبل المشاركة، ويقتضي أن تكون جميع أجزاء القلب متعلقة بالمحبوب، فلما تعلقت شعبة من شعب قلبه بابنه إسماعيل؛ أراد الله تعالى أن يصفي وده ويختبر خلته، فأمره أن يذبح من زاحم حبه حب ربه، فلما قدم حب الله وآثره على هواه وعزم على ذبحه وزال ما في القلب من المزاحم، بقي الذبح لا فائدة فيه؛ فلهذا قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ (١٠٦)﴾.

(١٠٧) ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ (١٠٧)﴾؛ أي: صار بدله ذبح من الغنم عظيم ذبحه إبراهيم، فكان عظيمًا: من جهة أنه كان فداء لإسماعيل، ومن جهة أنه من جملة العبادات الجليلة، ومن جهة أنه كان قربانًا وسنة إلى يوم القيامة.

(١٠٨)، (١٠٩) ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ (١٠٨) سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ (١٠٩)﴾؛ أي: وأبقينا عليه ثناء صادقًا في الآخرين؛ كما كان في الأولين؛ فكل وقت بعد إبراهيم عليه السلام؛ فإنه فيه محبوب معظم مثنًى عليه. ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ (١٠٩)﴾؛ أي: تحية عليه؛ كقوله: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ﴾ [النمل: ٥٩].

(١١٠) ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ (١١٠)﴾: في عبادة الله ومعاملة خلقه أن نفرج عنهم الشدائد، ونجعل لهم العاقبة والثناء الحسن.

(١١١) ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (١١١)﴾: بما أمر الله بالإيمان به، الذين بلغ بهم الإيمان إلى درجة اليقين؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ (٧٥)﴾ [الأنعام: ٧٥].

(١١٢) ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١١٢)﴾: هذه البشارة الثانية بإسحاق؛ الذي من ورائه يعقوب، فبشر بوجوده وبقائه ووجود ذريته وكونه نبيًّا من الصالحين؛ فهي بشارات متعددة.

(١١٣) ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَ﴾؛ أي: أنزلنا عليهما البركة التي هي النمو والزيادة في علمهما وعملهما وذريتهما، فنشر الله من ذريتهما ثلاث أمم عظيمة: أمة العرب من ذرية إسماعيل، وأمة بني إسرائيل، وأمة الروم من ذرية إسحاق. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ (١١٣)﴾؛ أي: منهم الصالح والطالح، والعادل والظالم، الذي تبين ظلمه بكفره وشركه، ولعل هذا من باب دفع الإيهام؛ فإنه لما قال: ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَ﴾؛ اقتضى ذلك البركة في ذريتهما، وأن من تمام البركة أن تكون الذرية كلهم محسنين، فأخبر الله تعالى أن منهم محسنًا وظالمًا. والله أعلم.

﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (١١٤) وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ (١١٦) وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ (١١٨) وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِمَا فِي ٱلۡأٓخِرِينَ (١١٩) سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (١٢٢)﴾.

(١١٤) - (١٢٢) يذكر تعالى منته على عبديه ورسوليه موسى وهارون ابني عمران بالنبوة والرسالة والدعوة إلى الله تعالى، ونجاتهما وقومهما من عدوهما فرعون، ونصرهما عليه، حتى أغرقه الله وهم ينظرون، وإنزال الله عليهما الكتاب المستبين، وهو التوراة التي فيها الأحكام والمواعظ وتفصيل كل شيء، وأن الله هداهما الصراط المستقيم؛ بأن شرع لهما دينًا ذا أحكام وشرائع مستقيمة موصلة إلى الله، ومَنَّ عليهما بسلوكه. ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (١١٩) سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٠)﴾؛ أي: أبقى عليهما ثناء حسنًا وتحية في الآخرين، ومن باب أولى وأحرى في الأولين. ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢)﴾.

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢)﴾.

(١٢٣) - (١٣٢) يمدح تعالى عبده ورسوله إلياس عليه الصلاة والسلام بالنبوة والرسالة والدعوة إلى الله، وأنه أمر قومه بالتقوى وعبادة الله وحده، ونهاهم عن عبادتهم صنمًا لهم يقال له: بعل، وتركهم عبادة الله الذي خلق الخلق، وأحسن خلقهم ورباهم فأحسن تربيتهم، وأدرَّ عليهم النعم الظاهرة والباطنة، وأنكم كيف تركتم عبادة من هذا شأنه إلى عبادة صنم لا يضر ولا ينفع ولا يخلق ولا يرزق، بل لا يأكل ولا يتكلم، وهل هذا إلا من أعظم الضلال والسفه والغي. ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾: فيما دعاهم إليه، فلم ينقادوا له، قال الله متوعدًا لهم: ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧)﴾؛ أي: يوم القيامة في العذاب، ولم يذكر لهم عقوبة دنيوية ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨)﴾؛ أي: الذين أخلصهم الله ومن عليهم باتباع نبيهم؛ فإنهم غير محضرين في العذاب، وإنما لهم من الله جزيل الثواب. ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾؛ أي: على إلياس ﴿فِي الْآخِرِينَ (١٢٩)﴾: ثناء حسنًا. ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠)﴾؛ أي: تحية من الله ومن عباده عليه. ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢)﴾: فأثنى الله عليه كما أثنى على إخوانه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

الجزء الثالث والعشرون — سورة الصافات

فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢) وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨) وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) ۞ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨) فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣)

٤٥١

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨)﴾.

(١٣٣) - (١٣٨) وهذا ثناء منه تعالى على عبده ورسوله لوط بالنبوة والرسالة ودعوته إلى الله قومه ونهيهم عن الشرك وفعل الفاحشة، فلما لم ينتهوا؛ نجاه الله وأهله أجمعين، فسروا ليلًا، فنجوا؛ ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥)﴾؛ أي: الباقين المعذبين، وهي زوجة لوط، لم تكن على دينه. ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦)﴾: بأن قلبنا عليهم ديارهم فجعلنا عاليها سافلها، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود حتى همدوا وخمدوا، ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم﴾؛ أي: على ديار قوم لوط ﴿مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ﴾؛ أي: في هذه الأوقات يكثر ترددكم إليها ومروركم بها، فلم تقبل الشك والمرية. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨)﴾: الآيات والعبر وتنزجرون عما يوجب الهلاك؟!

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨) ﴾.

(١٣٩) وهذا ثناء منه تعالى على عبده ورسوله يونس بن متى؛ كما أثنى على إخوانه المرسلين بالنبوة والرسالة والدعوة إلى الله.

(١٤٠) وذكر تعالى عنه أنه عاقبه عقوبة دنيوية أنجاه منها بسبب إيمانه وأعماله الصالحة، فقال: ﴿ إِذْ أَبَقَ ﴾؛ أي: من ربه مغاضبًا له ظانًّا أنه لا يقدر عليه ويحبسه في بطن الحوت، ولم يذكر الله ما غاضب عليه ولا ذنبه الذي ارتكبه؛ لعدم فائدتنا بذكره، وإنما فائدتنا بما ذكرنا عنه أنه أذنب، وعاقبه الله مع كونه من الرسل الكرام، وأنه نجاه بعد ذلك، وأزال عنه الملام، وقيض له ما هو سبب صلاحه. فلما أبق؛ لجأ ﴿ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ (١٤٠) ﴾: بالركاب والأمتعة.

(١٤١) فلما ركب مع غيره والفلك شاحن؛ ثقلت السفينة، فاحتاجوا إلى إلقاء بعض الركبان، وكأنهم لم يجدوا لأحد مزية في ذلك، فاقترعوا على أن من قرع وغُلِبَ؛ أُلقي في البحر؛ عدلًا من أهل السفينة، وإذا أراد الله أمرًا؛ هيأ أسبابه، فلما اقترعوا؛ أصابت القرعة يونس. ﴿ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ (١٤١) ﴾؛ أي: المغلوبين، فأُلقي في البحر.

(١٤٢) ﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ ﴾: وقت التقامه ﴿ مُلِيمٌ (١٤٢) ﴾؛ أي: فاعل ما يلام عليه، وهو مغاضبته لربه.

(١٤٣)، (١٤٤) ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) ﴾؛ أي: في وقته السابق بكثرة عبادته لربه وتسبيحه وتحميده وفي بطن الحوت حيث قال: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء: ٨٧]؛ ﴿ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) ﴾؛ أي: لكانت مقبرته، ولكن بسبب تسبيحه وعبادته لله؛ نجاه الله تعالى، وكذلك ينجي الله المؤمنين عند وقوعهم في الشدائد.

(١٤٥) ﴿ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ ﴾: بأن قذفه الحوت من بطنه بالعراء، وهي الأرض الخالية العارية من كل أحد، بل ربما كانت عارية من الأشجار والظلال. ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) ﴾؛ أي: قد سقم ومرض بسبب حبسه في بطن الحوت حتى صار مثل الفرخ الممعوط من البيضة.

(١٤٦) ﴿ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (١٤٦) ﴾: تظله بظلها الظليل؛ لأنها باردة الظلال، ولا يسقط عليها ذباب، وهذا من لطفه به وبره.

(١٤٧)، (١٤٨) ثم لطف به لطفًا آخر، وامتن عليه منة عظمى، وهو أنه أرسله ﴿ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ ﴾: من الناس ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) ﴾: عنها، والمعنى أنهم إن لم يزيدوا عنها؛ لم ينقصوا، فدعاهم إلى الله تعالى، ﴿ فَـَٔامَنُوا۟ ﴾: فصاروا في موازينه؛ لأنه الداعي لهم، ﴿ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨) ﴾: بأن صرف الله عنهم العذاب بعدما انعقدت أسبابه؛ قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) ﴾ [يونس: ٩٨].

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ (١٥٠) أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٥٧) ﴾.

(١٤٩) يقول تعالى لنبيه ﷺ ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ ﴾؛ أي: اسأل المشركين بالله غيره، الذين عبدوا الملائكة وزعموا أنها بنات الله، فجمعوا بين الشرك بالله ووصفه بما لا يليق بجلاله. ﴿ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ (١٤٩) ﴾؛ أي: هذه قسمة ضيزى، وقول جائر من جهة جعلهم الولد لله تعالى، ومن جهة جعلهم أردأ القسمين وأخسهما له، وهو البنات، اللاتي لا يرضونهن لأنفسهم؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ (٥٧) ﴾ [النحل: ٥٧]، ومن جهة جعلهم الملائكة بنات لله، وحكمهم بذلك.

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ١٥٤ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٥٥ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ
١٥٦ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١٥٧ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ
نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ١٥٨ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا
يَصِفُونَ ١٥٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ١٦٠ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ١٦١
مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ١٦٢ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ١٦٣ وَمَا مِنَّآ إِلَّا
لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ١٦٤ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ١٦٥ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ
١٦٦ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ١٦٧ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ١٦٨ لَكُنَّا
عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ١٦٩ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ١٧٠ وَلَقَدْ
سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ
جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ١٧٣ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ١٧٤ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ
يُبْصِرُونَ ١٧٥ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ١٧٦ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ
صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ١٧٧ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ١٧٨ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ
يُبْصِرُونَ ١٧٩ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠
وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٨٢

٣٨ سُورَةُ صٓ ٨٨

(١٥٠) قال تعالى في بيان كذبهم: ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ (١٥٠) ﴾: خلقهم؛ أي: ليس الأمر كذلك؛ فإنهم ما شهدوا خلقهم، فدل على أنهم قالوا هذا القول بلا علم، بل افتراء على الله.

(١٥١) - (١٥٧) ولهذا قال: ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ ﴾؛ أي: كذبهم الواضح؛ ﴿ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى ﴾؛ أي: اختار ﴿ ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) ﴾: هذا الحكم الجائر. ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) ﴾: وتميزون هذا القول الباطل الجائر؟ فإنكم لو تذكرتم؛ لم تقولوا هذا القول. ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ (١٥٦) ﴾؛ أي: حجة ظاهرة على قولكم من كتاب أو رسول، وكل هذا غير واقع، ولهذا قال: ﴿ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٥٧) ﴾: فإن من يقول قولًا لا يقيم عليه حجة شرعية؛ فإنه كاذب متعمد أو قائل على الله بلا علم.

﴿ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (١٦٠) ﴾.

(١٥٨) أي: جعل هؤلاء المشركون بالله بين الله وبين الجِنَّةِ نسبًا؛ حيث زعموا أن الملائكة بنات الله، وأن أمهاتهم سروات الجن! والحال أن الجِنَّةَ قد علمت أنهم محضرون بين يدي الله ليجازيهم؛ فهم عباد أذلاء؛ فلو كان بينهم وبينه نسب؛ لم يكونوا كذلك.

(١٥٩)، (١٦٠) ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾: الملك العظيم، والكامل الحليم، عما يصفه به المشركون من كل وصف أوجبه كفرهم وشركهم. ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (١٦٠) ﴾: فإنه لم ينزه نفسه عما وصفوه به؛ لأنهم لم يصفوه إلا بما يليق بجلاله، وبذلك كانوا مخلَصين.

﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ (١٦٣) ﴾.

(١٦١) - (١٦٣) أي: إنكم أيها المشركون ومن عبدتموه مع الله لا تقدرون أن تفتنوا وتضلوا أحدًا إلا من قضى الله أنه من أهل الجحيم، فنفذ فيه القضاء الإلهي. والمقصود من هذا بيان عجزهم وعجز آلهتهم عن إضلال أحد، وبيان كمال قدرة الله تعالى؛ أي: فلا تطمعوا بإضلال عباد الله المخلصين وحزبه المفلحين.

﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) ﴾.

(١٦٤) - (١٦٦) هذا فيه بيان براءة الملائكة عليهم السلام عما قاله فيهم المشركون، وأنهم عباد الله، لا يعصونه طرفة عين؛ فما منهم من أحد إلا وله مقام وتدبير قد أمره الله به لا يتعداه ولا يتجاوزه، وليس لهم من الأمر شيء، ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ (١٦٥) ﴾: في طاعة الله وخدمته، ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) ﴾: لله عما لا يليق به؛ فكيف مع هذا يصلحون أن يكونوا شركاء لله، تعالى الله!

﴿ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠) وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ

﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ١٧٥ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ١٧٦ فَإِذَا نَزَلَ
بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ١٧٧ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ١٧٨
وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ١٧٩ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا
يَصِفُونَ ١٨٠ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ١٨١ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ١٨٢﴾.

١٦٧ - ١٧٠ يخبر تعالى أن هؤلاء المشركين يظهرون التمني ويقولون: لو جاءنا من الذكر والكتب ما جاء الأولين؛ لأخلصنا لله العبادة، بل لكنا المخلصين على الحقيقة، وهم كذبة في ذلك؛ فقد جاءهم أفضل الكتب فكفروا به، فعلم أنهم متمردون على الحق. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ١٧٠﴾: العذاب حين يقع بهم.

١٧١ - ١٧٩ ولا يحسبوا أيضًا أنهم في الدنيا غالبون، بل قد سبقت كلمة الله التي لا مرد لها ولا مخالف لها لعباده المرسلين وجنده المفلحين؛ أنهم الغالبون لغيرهم المنصورون من ربهم نصرًا عزيزًا يتمكنون فيه من إقامة دينهم. وهذه بشارة عظيمة لمن اتصف بأنه من جند الله؛ بأن كانت أحواله مستقيمة، وقاتل من أمر بقتالهم أنه غالب منصور. ثم أمر رسوله بالإعراض عمن عاندوا ولم يقبلوا الحق، وأنه ما بقي إلا انتظار ما يحل بهم من العذاب، ولهذا قال: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ١٧٥﴾: من يحل به النكال؛ فإنه سيحل بهم. ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾؛ أي: نزل عليهم وقريبًا منهم، ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ١٧٧﴾؛ لأنه صباح الشر والعقوبة والاستئصال. ثم كرر الأمر بالتولي عنهم وتهديدهم بوقوع العذاب.

١٨٠ - ١٨٢ ولما ذكر في هذه السورة كثيرًا من أقوالهم الشنيعة التي وصفوه بها؛ نزه نفسه عنها، فقال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ﴾؛ أي: تنزه وتعالى، ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾؛ أي: الذي عز فقهر كل شيء، واعتز عن كل سوء يصفونه به، ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ١٨١﴾: لسلامتهم من الذنوب والآفات، وسلامة ما وصفوا به فاطر الأرض والسماوات. ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٨٢﴾: الألف واللام للاستغراق؛ فجميع أنواع الحمد من الصفات الكاملة العظيمة والأفعال التي ربى بها العالمين وأدر عليهم فيها النعم وصرف عنهم بها النقم ودبرهم تعالى في حركاتهم وسكونهم وفي جميع أحوالهم كلها لله تعالى؛ فهو المقدس عن النقص، المحمود بكل كمال، المحبوب المعظم، ورسله سالمون مسلم عليهم، ومن اتبعهم في ذلك له السلامة في الدنيا والآخرة، وأعداؤه لهم الهلاك والعطب في الدنيا والآخرة.

تم تفسير سورة الصافات في ٦ شوال سنة ١٣٤٣.

على يد جامعه وكاتبه عبد الرحمن بن ناصر السعدي.

وصلى الله على محمد وسلم تسليمًا. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.



تفسير سورة ص
وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ
وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ
مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا
سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ
عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ
إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ
هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى
شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ
رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ
ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ ﴾

﴿١﴾ هذا بيان من الله تعالى لحال القرآن وحال المكذبين به معه ومع من جاء به، فقال: ﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ ﴾؛ أي: ذي القدر العظيم والشرف، المذكر للعباد كل ما يحتاجون إليه من العلم بأسماء الله وصفاته وأفعاله، ومن العلم بأحكام الله الشرعية، ومن العلم بأحكام المعاد والجزاء؛ فهو مذكر لهم في أصول دينهم وفروعه. وهنا لا يحتاج إلى ذكر المقسَم عليه؛ فإن حقيقة الأمر أن المقسَم به وعليه شيء واحد، وهو هذا القرآن الموصوف بهذا الوصف الجليل.

﴿٢﴾ فإذا كان القرآن بهذا الوصف؛ عُلِمَ ضرورة العباد إليه فوق كل ضرورة، وكان الواجب عليهم تلقيه بالإيمان والتصديق والإقبال على استخراج ما يتذكر به منه، فهدى الله من هدى لهذا، وأبى الكافرون به وبمن أنزله، وصار معهم عزة وشقاق، عزة وامتناع عن الإيمان به، واستكبار وشقاق له؛ أي: مشاقة ومخاصمة في رده وإبطاله وفي القدح بمن جاء به.

﴿٣﴾ فتوعدهم بإهلاك القرون الماضية المكذبة بالرسل، وأنهم حين جاءهم الهلاك؛ نادوا واستغاثوا في صرف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾
كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟
أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾
أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ
مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾
مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ
عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ
﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم
مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾
جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ
نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ
لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ
فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا
مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾

العذاب عنهم، ولكن ﴿ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ ﴾؛ أي: وليس الوقت وقت خلاص مما وقعوا فيه ولا فرج لما أصابهم، فليحذر هؤلاء أن يدوموا على عزتهم وشقاقهم؛ فيصيبهم ما أصابهم.

﴿٤﴾ ﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾؛ أي: عجب هؤلاء المكذبون في أمر ليس محل عجب أن جاءهم منذر منهم ليتمكنوا من التلقي عنه وليعرفوه حق المعرفة، ولأنه من قومهم؛ فلا تأخذهم النخوة القومية عن اتباعه؛ فهذا مما يوجب الشكر عليهم وتمام الانقياد له، ولكنهم عكسوا القضية، فتعجبوا تعجب إنكار، وقالوا من كفرهم وظلمهم: ﴿ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ ﴾!

﴿٥﴾ وذنبه عندهم أنه جعل ﴿ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾؛ أي: كيف ينهى عن اتخاذ الشركاء والأنداد ويأمر بإخلاص العبادة لله وحده؟! ﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾: الذي جاء به ﴿ لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾؛ أي: يقضي منه العجب لبطلانه وفساده عندهم.

(٦) ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ﴾: المقبول قولهم، محرضين قومهم على التمسك بما هم عليه من الشرك. ﴿أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡ﴾؛ أي: استمروا عليها وجاهدوا نفوسكم في الصبر عليها وعلى عبادتها، ولا يردكم عنها رادٌّ، ولا يصدنكم عن عبادتها صادٌّ. ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾: الذي جاء به محمد من النهي عن عبادتها ﴿لَشَيۡءٞ يُرَادُ (٦)﴾؛ أي: يقصد؛ أي: له قصد ونية غير صالحة في ذلك، وهذه شبهة لا تروج إلا على السفهاء؛ فإن من دعا إلى قول حق أو غير حق لا يُرَدُّ قوله بالقدح في نيته؛ فنيته وعمله له، وإنما يرد بمقابلته بما يبطله ويفسده من الحجج والبراهين، وهم قصدهم أن محمدًا ما دعاكم إلى ما دعاكم إلا ليرأس فيكم ويكون معظمًا عندكم متبوعًا.

(٧) ﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا﴾: القول الذي قاله والدين الذي دعا إليه ﴿فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ أي: في الوقت الأخير، فلا أدركنا عليه آباءنا، ولا آباؤنا أدركوا آباءهم عليه؛ فامضوا على الذي مضى عليه آباؤكم؛ فإنه الحق، وما هذا الذي دعا إليه محمد إلا اختلاق اختلقه وكذب افتراه. وهذه أيضًا شبهة من جنس شبهتهم الأولى؛ حيث ردوا الحق بما ليس بحجة لرد أدنى قول، وهو أنه قول مخالف لما عليه آباؤهم الضالون؛ فأين في هذا ما يدل على بطلانه؟!

(٨) ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾؛ أي: ما الذي فضله علينا حتى ينزل الذكر عليه من دوننا ويخصه الله به؟! وهذه أيضًا شبهة، أين البرهان فيها على رد ما قاله؟ وهل جميع الرسل إلا بهذا الوصف؟! يَمُنُّ الله عليهم برسالته ويأمرهم بدعوة الخلق إلى الله. ولهذا؛ لما كانت هذه الأقوال الصادرة منهم لا يصلح شيء منها لرد ما جاء به الرسول؛ أخبر تعالى من أين صدرت، وأنهم ﴿فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِي﴾: ليس عندهم علم ولا بينة، فلما وقعوا في الشك وارتضوا به وجاءهم الحق الواضح وكانوا جازمين بإقامتهم على شكهم؛ قالوا ما قالوا من تلك الأقوال لدفع الحق، لا عن بينة من أمرهم، وإنما ذلك من باب الائتفاك منهم. ومن المعلوم أن من هو بهذه الصفة يتكلم عن شك وعناد؛ فإن قوله غير مقبول ولا قادح أدنى قدح في الحق، وأنه يتوجه عليه الذم واللوم بمجرد كلامه، ولهذا توعدهم بالعذاب، فقال: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ (٨)﴾؛ أي: قالوا هذه الأقوال وتجرءوا عليها؛ حيث كانوا ممتعين في الدنيا، لم يصبهم من عذاب الله شيء؛ فلو ذاقوا عذابه؛ لم يتجرءوا.

(٩) ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ (٩)﴾: فيعطون منها من شاءوا ويمنعون منها من شاءوا؛ حيث قالوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾؛ أي: هذا فضله تعالى ورحمته، وليس ذلك بأيديهم حتى يتجرءوا على الله.

(١٠) ﴿أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾: بحيث يكونون قادرين على ما يريدون، ﴿فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ (١٠)﴾: الموصلة لهم إلى السماء، فيقطعوا الرحمة عن رسول الله! فكيف يتكلمون وهم أعجز خلق الله وأضعفهم بما تكلموا به؟!

(١١) أم قصدهم التحزب والتجند والتعاون على نصر الباطل وخذلان الحق، وهو الواقع؛ فإن هذا المقصود لا يتم لهم، بل سعيهم خائب، وجندهم مهزوم، ولهذا قال: ﴿جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ (١١)﴾.

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ (١٣) إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤) وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ (١٥)﴾.

(١٢) - (١٥) يحذرهم تعالى أن يفعل بهم ما فعل بالأمم من قبلهم، الذين كانوا أعظم قوة منهم وتحزبًا على الباطل. ﴿قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ﴾: قوم هود ﴿وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ (١٢)﴾؛ أي: الجنود العظيمة والقوة الهائلة، ﴿وَثَمُودُ﴾: قوم صالح، ﴿وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ﴾؛ أي: الأشجار والبساتين الملتفة، وهم قوم شعيب. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ (١٣)﴾: الذين اجتمعوا بقوتهم وعَددهم وعُددهم على رد الحق، فلم تغن عنهم شيئًا ﴿إِن كُلٌّ﴾: من هؤلاء ﴿إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ﴾: عليهم ﴿عِقَابِ (١٤)﴾: الله، وهؤلاء ما الذي يطهرهم ويزكيهم ألا يصيبهم ما أصاب أولئك؟! فلينتظروا ﴿صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ (١٥)﴾؛ أي: من رجوع ورد، تهلكهم، وتستأصلهم إن أقاموا على ما هم عليه.

﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ (١٦) ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾.

(١٦) أي: قال هؤلاء المكذبون من جهلهم ومعاندتهم الحق مستعجلين للعذاب: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾؛ أي: قسطنا وما قسم لنا من العذاب عاجلًا ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦)﴾: ولجوا في هذا القول، وزعموا أنك يا محمد إن كنت صادقًا؛ فعلامة صدقك أن تأتينا بالعذاب.

فقال لرسوله: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾: كما صبر من قبلك من الرسل؛ فإن قولهم لا يضر الحق شيئًا، ولا يضرونك في شيء، وإنما يضرون أنفسهم.

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (٢٠)﴾.

(١٧) لما أمر الله رسوله بالصبر على قومه؛ أمره أن يستعين على الصبر بالعبادة لله وحده، ويتذكر حال العابدين؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]. ومن أعظم العابدين نبي الله داود عليه الصلاة والسلام، ﴿ذَا الْأَيْدِ﴾؛ أي: القوة العظيمة على عبادة الله تعالى في بدنه وقلبه. ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧)﴾؛ أي: رجّاع إلى الله في جميع الأمور بالإنابة إليه بالحب والتأله والخوف والرجاء وكثرة التضرع والدعاء، رجّاع إليه عندما يقع منه بعض الخلل بالإقلاع والتوبة النصوح.

(١٨)، (١٩) ومن شدة إنابته لربه وعبادته أن سخر الله الجبال معه تسبح معه بحمد ربها ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨)﴾: أول النهار وآخره، وسخر الطير ﴿مَحْشُورَةً﴾: معه مجموعة. ﴿كُلٌّ﴾: من الجبال والطير ﴿لَّهُ﴾ تعالى ﴿أَوَّابٌ (١٩)﴾: امتثالًا لقوله تعالى: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠]: فهذه منة الله عليه بالعبادة.

(٢٠) ثم ذكر منته عليه بالملك العظيم، فقال: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾؛ أي: قويناه بما أعطيناه من الأسباب وكثرة العَدد والعُدد التي بها قوى الله ملكه. ثم ذكر منته عليه بالعلم، فقال: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾؛ أي: النبوة والعلم العظيم ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ (٢٠)﴾؛ أي: الخصومات بين الناس.

اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ١٧
إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ١٨ وَالطَّيْرَ
مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ١٩ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ
وَفَصْلَ الْخِطَابِ ٢٠ ۞ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا
الْمِحْرَابَ ٢١ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ
خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ
وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ٢٢ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً
وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ٢٣ قَالَ
لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي
بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ
مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩
٢٤ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ
٢٥ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ
بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ
عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ٢٦

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥) يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦)﴾.

(٢١) لما ذكر تعالى أنه آتى نبيه داود الفصل في الخطاب بين الناس، وكان معروفًا بذلك مقصودًا؛ ذكر تعالى نبأ خصمين اختصما عنده في قضية جعلهما الله فتنة لداود وموعظة لخلل

ارتكبه، فتاب الله عليه وغفر له وقيض له هذه القضية، فقال لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ﴾: فإنه نبأ عجيب، ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا﴾: على داود ﴿الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾؛ أي: محل عبادته من غير إذن ولا استئذان، ولم يدخلوا عليه من باب.

﴿٢٢﴾ فلذلك لما دخلوا عليه بهذه الصورة؛ فزع منهم وخاف، فقالوا له: نحن ﴿خَصْمَانِ﴾؛ فلا تخف، ﴿بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾: بالظلم، ﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾؛ أي: بالعدل ولا تَمِلْ مع أحدنا، ﴿وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿٢٣﴾ والمقصود من هذا أن الخصمين قد عرف أن قصدهما الحق الواضح الصرف، وإذا كان ذلك؛ فسيقصان عليه نبأهما بالحق، فلم يشمئز نبي الله داود من وعظهما له ولم يؤنبهما، فقال أحدهما: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾: نص على الأخوة في الدين أو النسب أو الصداقة؛ لاقتضائها عدم البغي، وأن بغيه الصادر منه أعظم من غيره، ﴿لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾؛ أي: زوجة، وذلك خير كثير يوجب عليه القناعة بما آتاه الله، ﴿وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾، فطمع فيها، ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾؛ أي: دعها لي وخلها في كفالتي، ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾؛ أي: غلبني في القول، فلم يزل بي حتى أدركها أو كاد.

﴿٢٤﴾ فقال داود لما سمع كلامه، ومن المعلوم من السياق السابق من كلامهما أن هذا هو الواقع؛ فلهذا لم يحتج أن يتكلم الآخر؛ فلا وجه للاعتراض بقول القائل: لم حكم داود قبل أن يسمع كلام الخصم الآخر؟ ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ﴾: وهذه عادة الخلطاء والقرناء - الكثير منهم - فقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾: لأن الظلم من صفة النفوس ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: فإن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح يمنعهم من الظلم، ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣]. ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ﴾: حين حكم بينهما ﴿أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾؛ أي: اختبرناه ودبرنا عليه هذه القضية ليتنبه، ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾: لما صدر منه، ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾؛ أي: ساجدًا، ﴿وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾: لله تعالى بالتوبة النصوح والعبادة.

﴿٢٥﴾ ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾: الذي صدر منه، وأكرمه الله بأنواع الكرامات، فقال: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى﴾؛ أي: منزلة عالية وقربة منا، ﴿وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾﴾؛ أي: مرجع. وهذا الذنب الذي صدر من داود عليه السلام لم يذكره الله لعدم الحاجة إلى ذكره؛ فالتعرض له من باب التكلف، وإنما الفائدة ما قصه الله علينا من لطفه به وتوبته وإنابته وأنه ارتفع محله فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها.

﴿٢٦﴾ ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾: تنفذ فيها القضايا الدينية والدنيوية، ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾؛ أي: العدل، وهذا لا يتمكن منه إلا بعلم بالواجب، وعلم بالواقع، وقدرة على تنفيذ الحق، ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى﴾: فتميل مع أحد لقرابة أو صداقة أو محبة أو بغض للآخر، ﴿فَيُضِلَّكَ﴾: الهوى ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾: ويخرجك عن الصراط المستقيم. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾: خصوصًا المتعمدين منهم ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾؛ فلو ذكروه ووقع خوفه في قلوبهم؛ لم يميلوا مع الهوى الفاتن.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿٢٧﴾ يخبر تعالى عن تمام حكمته في خلقه السماوات والأرض، وأنه لم يخلقهما ﴿بَاطِلًا﴾؛ أي: عبثًا ولعبًا من غير فائدة ولا مصلحة. ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: بربهم حيث ظنوا ما لا يليق بجلاله. ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾﴾: فإنها التي تأخذ الحق منهم وتبلغ منهم كل مبلغ. وإنما خلق الله السماوات والأرض بالحق وللحق، فخلقهما ليعلم العباد كمال علمه وقدرته وسعة سلطانه، وأنه تعالى وحده المعبود دون من لم يخلق مثقال ذرة من السماوات والأرض، وأن البعث حق، وسيفصل الله بين أهل الخير والشر، ولا يظن الجاهل بحكمة الله أن يسوي الله بينهما في حكمه.

﴿٢٨﴾ ولهذا قال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾: هذا غير لائق بحكمتنا وحكمنا.

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ
فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ
﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟
ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ
﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ
أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾
رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا
سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ
لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾
فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ
كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا
عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ
مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ
بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾

(٢٩) ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾: فيه خير كثير وعلم غزير، فيه كل هدى من ضلالة، وشفاء من داء، ونور يستضاء به في الظلمات، وكل حكم يحتاج إليه المكلفون، وفيه من الأدلة القطعية على كل مطلوب ما كان به أجلَّ كتاب طرق العالم منذ أنشأه الله، ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ أي: هذه الحكمة من إنزاله؛ ليتدبر الناس آياته، فيستخرجوا علمها، ويتأملوا أسرارها وحكمها؛ فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة تدرك بركته وخيره، وهذا يدل على الحث على تدبر القرآن، وأنه من أفضل الأعمال، وأن القراءة المشتملة على التدبر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود، ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ (٢٩)﴾؛ أي: أولو العقول الصحيحة، يتذكرون بتدبرهم لها كل علم ومطلوب. فدل هذا على أنه بحسب لب الإنسان وعقله يحصل له التذكر والانتفاع بهذا الكتاب.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ (٣٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ (٣٨) هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ (٤٠)﴾.

(٣٠) لما أثنى الله تعالى على داود وذكر ما جرى له ومنه؛ أثنى على ابنه سليمان عليهما السلام، فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ﴾؛ أي: أنعمنا به عليه وأقررنا به عينه. ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾: سليمان عليه السلام، فإنه اتصف بما يوجب المدح، وهو ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ (٣٠)﴾؛ أي: رجّاعٌ إلى الله في جميع أحواله بالتأله والإنابة والمحبة والذكر والدعاء والتضرع والاجتهاد في مرضاة الله وتقديمها على كل شيء.

(٣١) - (٣٣) ولهذا؛ لما عرضت عليه الخيل الجياد ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾؛ أي: التي من وصفها الصفون، وهو رفع إحدى قوائمها عند الوقوف، وكان لها منظر رائق وجمال معجب، خصوصًا للمحتاج إليها؛ كالملوك؛ فما زالت تعرض عليه حتى غابت الشمس في الحجاب، فألهته عن صلاة المساء وذكره، فقال ندمًا على ما مضى منه، وتقربًا إلى الله بما ألهاه عن ذكره، وتقديمًا لحب الله على حب غيره: ﴿إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾: وضمن أحببت معنى آثرت؛ أي: آثرت حب الخير الذي هو المال عمومًا وفي الموضع المراد الخيل ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَىَّ﴾: فردوها، ﴿فَطَفِقَ﴾: فيها ﴿مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ (٣٣)﴾؛ أي: جعل يعقرها بسيفه في سوقها وأعناقها.

(٣٤) ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾؛ أي: ابتليناه واختبرناه بذهاب ملكه وانفصاله عنه بسبب خلل اقتضته الطبيعة البشرية، ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾؛ أي: شيطانًا قضى الله وقدر أن يجلس على كرسي ملكه ويتصرف في الملك في مدة فتنة سليمان، ﴿ثُمَّ أَنَابَ (٣٤)﴾: سليمان إلى الله تعالى، وتاب.

(٣٥) - (٣٩) فـ ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾: فاستجاب الله له، وغفر له، وردَّ عليه ملكه، وزاده ملكًا لم يحصل لأحد من بعده، وهو تسخير الشياطين له يبنون ما يريد، ويغوصون له في البحر يستخرجون الدر والحلي، ومن عصاه منهم؛ قرَّنه في الأصفاد وأوثقه، وقلنا له: ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا ﴾: فقر به عينًا، ﴿ فَٱمْنُنْ ﴾: على من شئت، ﴿ أَوْ أَمْسِكْ ﴾: من شئت ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾؛ أي: لا حرج عليك في ذلك ولا حساب؛ لعلمه تعالى بكمال عدله وحسن أحكامه.

(٤٠) ولا تحسبن هذا لسليمان في الدنيا دون الآخرة، بل له في الآخرة خير عظيم، ولهذا قال: ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾؛ أي: هو من المقربين عند الله المكرمين بأنواع الكرامات لله.

فصل

فيما تبين لنا من الفوائد والحكم في قصة داود وسليمان عليهما السلام.

فمنها: أن الله تعالى يقص على نبيه محمد ﷺ أخبار من قبله ليثبت فؤاده وتطمئن نفسه، ويذكر له من عباداتهم وشدة صبرهم وإنابتهم ما يشوِّقه إلى منافستهم والتقرب إلى الله الذي تقربوا له والصبر على أذى قومه، ولهذا في هذا الموضع لما ذكر الله ما ذكر من أذية قومه وكلامهم فيه وفيما جاء به؛ أمره بالصبر، وأن يذكر عبده داود فيتأسى به.

ومنها: أن الله تعالى يمدح ويحب القوة في طاعته؛ قوة القلب والبدن؛ فإنه يحصل منها من آثار الطاعة وحسنها وكثرتها ما لا يحصل مع الوهن وعدم القوة، وأن العبد ينبغي له تعاطي أسبابها وعدم الركون إلى الكسل والبطالة المخلة بالقوة المضعفة للنفس.

ومنها: أن الرجوع إلى الله في جميع الأمور من أوصاف أنبياء الله وخواص خلقه؛ كما أثنى الله على داود وسليمان بذلك؛ فليقتد بهما المقتدون، وليهتد بهداهم السالكون، ﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

ومنها: ما أكرم الله به نبيه داود عليه السلام من حسن الصوت العظيم الذي جعل الله بسببه الجبال الصم والطيور البهم يُجَاوِبْنَه إذا رجَّع صوته بالتسبيح، ويُسبِّحن معه بالعشيِّ والإشراق.

ومنها: أن من أكبر نعم الله على عبده أن يرزقه العلم النافع ويعرف الحكم والفصل بين الناس؛ كما امتن الله به على عبده داود عليه السلام.

ومنها: اعتناء الله تعالى بأنبيائه وأصفيائه عندما يقع منهم بعض الخلل بفتنته إياهم وابتلائهم بما به يزول عنهم المحذور، ويعودون إلى أكملَ من حالتهم الأولى؛ كما جرى لداود وسليمان عليهما السلام.

ومنها: أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون من الخطأ فيما يبلغون عن الله تعالى؛ لأن مقصود الرسالة لا يحصل إلا بذلك، وأنه قد يجري منهم بعض مقتضيات الطبيعة من المعاصي، ولكن الله يتداركهم ويبادرهم بلطفه.

ومنها: أن داود عليه السلام كان في أغلب أحواله لازمًا محرابه لخدمة ربه، ولهذا تسور الخصمان عليه المحراب؛ لأنه كان إذا خلا في محرابه؛ لا يأتيه أحد، فلم يجعل كل وقته للناس مع كثرة ما يرد عليه من الأحكام، بل جعل له وقتًا يخلو فيه بربه وتقر عينه بعبادته، وتعينه على الإخلاص في جميع أموره.

ومنها: أنه ينبغي استعمال الأدب في الدخول على الحكام وغيرهم؛ فإن الخصمين لما دخلا على داود في حالة غير معتادة ومن غير الباب المعهود؛ فزع منهم، واشتد عليه ذلك، ورآه غير لائق بالحال.

ومنها: أنه لا يمنع الحاكمَ من الحكم بالحق سوءُ أدب الخصم وفعله ما لا ينبغي.

ومنها: كمال حلم داود عليه السلام؛ فإنه ما غضب عليهما حين جاءاه بغير استئذان، وهو الملك، ولا انتهرهما، ولا وبخهما.

ومنها: جواز قول المظلوم لمن ظلمه: أنت ظلمتني أو: يا ظالم! ونحو ذلك أو باغٍ عليَّ! لقولهما: ﴿ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾.

ومنها: أن الموعوظ والمنصوح، ولو كان كبير القدر جليل العلم، إذا نصحه أحد أو وعظه؛ لا يغضب ولا يشمئز، بل يبادره بالقبول والشكر؛ فإن الخصمين نصحا داود، فلم يشمئز ولم يغضب ولم يثنه ذلك عن الحق، بل حكم بالحق الصرف.

ومنها: أن المخالطة بين الأقارب والأصحاب وكثرة التعلقات الدنيوية المالية موجبة للتعادي بينهم، وبغي بعضهم على بعض، وأنه لا يرد عن ذلك إلا استعمال تقوى الله والصبر على الأمور بالإيمان والعمل الصالح، وأن هذا من أقل شيء في الناس.

ومنها: أن الاستغفار والعبادة، خصوصًا الصلاة، من مكفرات الذنوب؛ فإن الله رتب مغفرة ذنب داود على استغفاره وسجوده.

ومنها: إكرام الله لعبده داود وسليمان بالقرب منه وحسن الثواب، وألَّا يظن أن ما جرى لهما منقص لدرجتهما عند الله تعالى، وهذا من تمام لطفه بعباده المخلصين؛ أنه إذا غفر لهم وأزال أثر ذنوبهم؛ أزال الآثار المترتبة عليه كلها، حتى ما يقع في قلوب الخلق؛ فإنهم إذا علموا ببعض ذنوبهم؛ وقع في قلوبهم نزولهم عن درجتهم الأولى، فأزال الله تعالى هذه الآثار، وما ذاك بعزيز على الكريم الغفار.

ومنها: أن الحكم بين الناس مرتبة دينية تولاها رسل الله وخواص خلقه، وأن وظيفة القائم بها الحكم بالحق ومجانبة الهوى؛ فالحكم بالحق يقتضي العلم بالأمور الشرعية والعلم بصورة القضية المحكوم بها وكيفية إدخالها في الحكم الشرعي؛ فالجاهل بأحد الأمرين لا يصلح للحكم، ولا يحل له الإقدام عليه.

ومنها: أنه ينبغي للحاكم أن يحذر الهوى ويجعله منه على بال؛ فإن النفوس لا تخلو منه، بل يجاهد نفسه بأن يكون الحق مقصوده، وأن يلقي عنه وقت الحكم كل محبة أو بغض لأحد الخصمين.

ومنها: أن سليمان عليه السلام من فضائل داود ومن منن الله عليه حيث وهبه له، وأن من أكبر نعم الله على عبده أن يهب له ولدًا صالحًا؛ فإن كان عالمًا؛ كان نورًا على نور.

ومنها: ثناء الله تعالى على سليمان ومدحه في قوله: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝٣٠﴾.

ومنها: كثرة خير الله وبره بعبيده أن يمن عليهم بصالح الأعمال ومكارم الأخلاق، ثم يثني عليهم بها، وهو المتفضل الوهاب.

ومنها: تقديم سليمان محبة الله تعالى على محبة كل شيء.

ومنها: أن كل ما شغل العبد عن الله؛ فإنه مشئوم مذموم؛ فليفارقه وليقبل على ما هو أنفع له.

ومنها: القاعدة المشهورة: من ترك شيئًا لله؛ عوضه الله خيرًا منه. فسليمان عليه السلام عقر الجياد الصافنات المحبوبة للنفوس تقديمًا لمحبة الله، فعوضه الله خيرًا من ذلك؛ بأن سخر له الريح الرخاء اللينة التي تجري بأمره إلى حيث أراد وقصد، غدوها شهر ورواحها شهر، وسخر له الشياطين أهل الاقتدار على الأعمال التي لا يقدر عليها الآدميون.

و منها: أن تسخير الشياطين لا يكون لأحد بعد سليمان عليه السلام.

ومنها: أن سليمان عليه السلام كان ملكًا نبيًّا، يفعل ما أراد، ولكنه لا يريد إلا العدل، بخلاف النبي العبد؛ فإنه تكون إرادته تابعة لأمر الله؛ فلا يفعل ولا يترك إلا بالأمر؛ كحال نبينا ﷺ، وهذه الحال أكمل.

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۝٤١ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝٤٢ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٤٣ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝٤٤﴾.

۝٤١ أي: ﴿وَٱذْكُرْ﴾: في هذا الكتاب ذي الذكر ﴿عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾: بأحسن الذكر، وأثن عليه بأحسن الثناء؛ حين أصابه الضر فصبر على ضره، فلم يشتك لغير ربه، ولا لجأ إلا إليه. فـ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾: داعيًا، وإليه لا إلى غيره شاكيًا، فقال: رب ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۝٤١﴾؛ أي: بأمر مشق متعب معذب، وكان سُلِّطَ على جسده فنفخ فيه حتى

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ
(٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ
نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ (٤٤) وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ
أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ (٤٥) إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى
ٱلدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ (٤٧) وَٱذْكُرْ
إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ (٤٨) هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ
وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ (٤٩) جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ
(٥٠) مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١)
۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢) هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ
ٱلْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ (٥٤) هَٰذَا ۚ وَإِنَّ
لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ (٥٦) هَٰذَا
فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ (٥٨)
هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ (٥٩)
قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ (٦٠)
قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ (٦١)

تقرح ثم تقيح بعد ذلك، واشتد به الأمر، وكذلك هلك أهله وماله.

(٤٢) فقيل له: ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾؛ أي: اضرب الأرض بها؛ لينبع لك منها عين تغتسل منها وتشرب، فيذهب عنك الضر والأذى، ففعل ذلك، فذهب عنه الضر وشفاه الله تعالى.

(٤٣) ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ ﴾: قيل: إن الله تعالى أحياهم له ﴿ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾: في الدنيا، وأغناه الله وأعطاه مالًا عظيمًا، ﴿ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾: بعبدنا أيوب حيث صبر فأثبناه من رحمتنا ثوابًا عاجلًا وآجلًا. ﴿ وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ (٤٣) ﴾؛ أي: وليتذكر أولو العقول بحالة أيوب ويعتبروا فيعلموا أن من صبر على الضر؛ فإن الله تعالى يثيبه ثوابًا عاجلًا وآجلًا ويستجيب دعاءه إذا دعاه.

(٤٤) ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا ﴾؛ أي: حزمة شماريخ، ﴿ فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾: قال المفسرون: وكان في مرضه وضره قد غضب على زوجته في بعض الأمور، فحلف لئن شفاه الله ليضربنها مائة جلدة، فلما شفاه الله، وكانت امرأته صالحة محسنة إليه؛ رحمها الله ورحمه، فأفتاه أن يضربها بضغث فيه مائة شمراخ ضربة واحدة فيبر في يمينه. ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ ﴾؛ أي: أيوب ﴿ صَابِرًا ﴾؛ أي: ابتليناه بالضر العظيم فصبر لوجه الله تعالى. ﴿ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ﴾: الذي كمل مراتب العبودية في حال السراء والضراء والشدة والرخاء، ﴿ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ (٤٤) ﴾؛ أي: كثير الرجوع إلى الله في مطالبه الدينية والدنيوية، كثير الذكر لربه والدعاء والمحبة والتأله.

﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ (٤٥) إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ (٤٧) ﴾.

(٤٥) يقول تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ ﴾: الذين أخلصوا لنا العبادة ذكرًا حسنًا ﴿ إِبْرَٰهِيمَ ﴾: الخليل وابنه ﴿ إِسْحَٰقَ ﴾ وابن ابنه يعقوب ﴿ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى ﴾؛ أي: القوة على عبادة الله تعالى، ﴿ وَٱلْأَبْصَٰرِ (٤٥) ﴾؛ أي: البصيرة في دين الله. فوصفهم بالعلم النافع والعمل الصالح الكثير.

(٤٦) ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ﴾: عظيمة وخصيصة جسيمة، وهي: ﴿ ذِكْرَى ٱلدَّارِ (٤٦) ﴾: جعلنا ذكرى الدار الآخرة في قلوبهم، والعمل لها صفوة وقتهم. والإخلاص والمراقبة لله وصفهم الدائم، وجعلناهم ذكرى الدار، يتذكر بأحوالهم المتذكر ويعتبر بهم المعتبر، ويذكرون بأحسن الذكر.

(٤٧) ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ﴾: الذين اصطفاهم الله من صفوة خلقه ﴿ ٱلْأَخْيَارِ (٤٧) ﴾: الذين لهم كل خلق كريم وعمل مستقيم.

﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ (٤٨) ﴾.

(٤٨) أي: واذكر هؤلاء الأنبياء بأحسن الذكر، وأثن عليهم أحسن الثناء؛ فإن كلًّا منهم من الأخيار، الذين اختارهم الله من الخلق، واختار لهم أكمل الأحوال من الأعمال والأخلاق والصفات الحميدة والخصال السديدة.

﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ
مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ
كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾
هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن
نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿٤٩﴾ ﴿ هَٰذَا ﴾؛ أي: ذكـر هؤلاء الأنبيـاء الصفوة، وذكر أوصافهم ﴿ذِكْرٌ﴾: في هذا القرآن ذي الذكر، يتذكر بأحوالهم المتذكـرون، ويشـتاق إلى الاقتـداء بأوصافهـم الحميدة المقتدون، ويعرف ما منَّ الله عليهم به من الأوصاف الزكية، وما نشـر لهم من الثناء بين البرية. فهذا نوع من أنواع الذكر، وهو ذكر أهل الخير.

ومن أنـواع الذكر ذكر جـزاء أهل الخير وأهل الشـر، ولهـذا قـال: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾: ربهم؛ بامتثـال الأوامر واجتناب النواهي من كل مؤمن ومؤمنة ﴿لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾﴾؛ أي: لمآبًا حسـنًا ومرجعًا مستحسنًا.

﴿٥٠﴾ ثـم فسره وفصلـه فقـال: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾؛ أي: جنات إقامة لا يبغـي صاحبها بدلًا منها مـن كمالها وتمام نعيمها، وليسـوا بخارجين منها ولا بمخرجين، ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾﴾؛ أي: مفتحة لأجلهم أبواب منازلها ومساكنها، لا يحتاجون أن يفتحوها هم، بل هم مخدومون، وهذا دليل أيضًا على الأمـان التام، وأنه ليس في جنات عدن ما يوجب أن تغلق لأجله أبوابها.

﴿٥١﴾ ﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا ﴾: على الأرائك المزينات والمجالس المزخرفـات. ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾؛ أي: يأمرون خدامهم أن يأتوا ﴿بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾﴾: من كل ما تشتهيه نفوسهم وتلـذه أعينهم، وهذا يدل على كمـال النعيم وكمال الراحة والطمأنينة وتمام اللذة.

﴿٥٢﴾ ﴿وَعِندَهُمْ﴾: من أزواجهم الحور العين ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾ طرفهن على أزواجهن، وطـرف أزواجهن عليهن لجمالهم كلهم ومحبـة كل منهما للآخر وعدم طموحه لغيره، وأنه لا يبغي بصاحبه بدلًا ولا عنه عوضًا، ﴿أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾﴾؛ أي: على سن واحدة، أعدل سن الشباب وأحسنه وألذه.

﴿٥٣﴾ ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ ﴾: أيها المتقون ﴿لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾﴾: جزاء على أعمالكم الصالحة.

﴿٥٤﴾ ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا ﴾: الـذي أوردنـاه على أهل دار النعيـم ﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾؛ أي: انقطاع، بل هو دائم مسـتقر في جميـع الأوقات، متزايد فـي جميع الآنات، وليس هذا بعظيم على الرب الكريـم، الرءوف الرحيم، البر الجواد، الواسـع الغني، الحميد اللطيف، الرحمن، الملك الديان، الجليل الجميل المنان، ذي الفضل الباهر والكـرم المتواتر، الذي لا تحصى نعمه ولا يحاط ببعض بره.

﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا
فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ
مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ
إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ
لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا
ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ
ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾
إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿٥٥﴾ ﴿هَٰذَا﴾ الجـزاء للمتقيـن ما وصفنـاه، ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾؛ أي: للمتجاوزيـن للحد في الكفـر والمعاصي ﴿لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾﴾؛ أي: لشر مرجع ومنقلب.

﴿٥٦﴾ ثم فصله فقال: ﴿ جَهَنَّمَ ﴾: التي جمع فيها كل عذاب واشـتد حرها وانتهى قرها ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾؛ أي: يعذبون فيها عذابًا يحيط بهـم من كل وجه، لهم من فوقهم ظلل من النار ومـن تحتهم ظلل. ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾﴾: المعد لهم مسـكنًا ومستقرًّا.

﴿٥٧﴾ ﴿هَٰذَا﴾: المهـاد، هذا العذاب الشـديد والخزي والفضيحة والنكال. ﴿فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ﴾: ماء حار قد اشـتد حره، يشربونه فيقطع أمعاءهم، ﴿وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾﴾: وهو أكره مـا يكون من الشـراب من قيح وصديد، مـر المذاق، كريه الرائحة.

وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ
سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ
النَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾
رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ
عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ
إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ
لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ
مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ
أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ
يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ
مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ
﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ
الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ
الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ
لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾

٤٥٧

(٥٨) ﴿وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ﴾؛ أي: من نوعه ﴿أَزْوَاجٌ (٥٨)﴾؛ أي: عدة أصناف من أصناف العذاب، يعذبون بها ويخزون بها.

(٥٩)، (٦٠) وعند تواردهم على النار يَشْتُمُ بعضهم بعضًا، ويقول بعضهم لبعض: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾: النار ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ (٥٩) قَالُوا﴾؛ أي: الفوج المقبل المقتحم: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ﴾؛ أي: العذاب ﴿لَنَا﴾: بدعوتكم لنا وفتنتكم وإضلالكم وتسببكم. ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠)﴾: قرار الجميع قرار السوء والشر.

(٦١) ثم دعوا على المغوين لهم: ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١)﴾. وقال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ (٣٨)﴾ [الأعراف: ٣٨].

(٦٢) ﴿وَقَالُوا﴾: وهم في النار: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ (٦٢)﴾؛ أي: كنا نزعم أنهم من الأشرار المستحقين لعذاب النار، وهم المؤمنون، تفقدهم أهل النار - قبحهم الله- هل يرونهم في النار؟

(٦٣) ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ (٦٣)﴾؛ أي: عدم رؤيتنا لهم دائر بين أمرين: إما أننا غالطون في عدنا إياهم من الأشرار، بل هم من الأخيار، وإنما كلامنا لهم من باب السخرية والاستهزاء بهم، وهذا هو الواقع؛ كما قال تعالى لأهل النار: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠)﴾ [المؤمنون: ١٠٩، ١١٠].

والأمر الثاني: أنهم لعلهم زاغت أبصارنا عن رؤيتهم معنا في العذاب، وإلا؛ فهم معنا معذبون، ولكن تجاوزتهم أبصارنا! فيحتمل أن هذا الذي في قلوبهم، فتكون العقائد التي اعتقدوها في الدنيا وكثرة ما حكموا لأهل الإيمان بالنار تمكنت من قلوبهم وصارت صبغة لها، فدخلوا النار وهم بهذه الحالة، فقالوا ما قالوا.

ويحتمل أن كلامهم هذا كلام تمويه؛ كما موهوا في الدنيا موهوا حتى في النار، ولهذا يقول أهل الأعراف لأهل النار: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩)﴾ [الأعراف: ٤٩].

(٦٤) قال تعالى مؤكدًا ما أخبر به، وهو أصدق القائلين: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾: الذي ذكرت لكم ﴿لَحَقٌّ﴾: ما فيه شك ولا مرية ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤)﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥)
رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦) قُلْ هُوَ نَبَأٌ
عَظِيمٌ (٦٧) أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ
إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٧٠) إِذْ قَالَ رَبُّكَ
لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ
مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ
أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ
يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ
مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن
طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي
إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩)
قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١)
قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ

ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ﴿٨٨﴾ ﴾.

﴿٦٥﴾ ﴿ قُلۡ ﴾: يا أيها الرسول لهؤلاء المكذبين إن طلبوا منك ما ليس لك ولا بيدك: ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞ ﴾: هذا نهاية ما عندي، وأما الأمر؛ فلله تعالى، ولكني آمركم وأنهاكم وأحثكم على الخير وأزجركم عن الشر؛ فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فعليها. ﴿ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾؛ أي: ما أحد يؤله ويعبد بحق إلا الله، ﴿ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ ﴾: هذا تقرير لألوهيته بهذا البرهان القاطع، وهو وحدته تعالى وقهره لكل شيء؛ فإن القهر ملازم للوحدة؛ فلا يكون اثنان قهاران متساويين في قهرهما أبدًا، فالذي يقهر جميع الأشياء هو الواحد الذي لا نظير له، وهو الذي يستحق أن يعبد وحده كما كان قاهرًا وحده.

﴿٦٦﴾ وقرر ذلك أيضًا بتوحيد الربوبية، فقال: ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ﴾؛ أي: خالقهما ومربيهما ومدبرهما بجميع أنواع التدابير، ﴿ ٱلۡعَزِيزُ ﴾: الذي له القوة التي بها خلق المخلوقات العظيمة. ﴿ ٱلۡغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ ﴾: لجميع الذنوب؛ صغيرها وكبيرها، لمن تاب إليه وأقلع منها. فهذا الذي يحب، ويستحق أن يعبد دون من لا يخلق، ولا يرزق ولا يضر، ولا ينفع، ولا يملك من الأمر شيئًا، وليس له قوة الاقتدار، ولا بيده مغفرة الذنوب والأوزار.

﴿٦٧﴾، ﴿٦٨﴾ ﴿ قُلۡ ﴾: لهم مخوفًا ومحذرًا ومنهضًا لهم ومنذرًا: ﴿ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾؛ أي: ما أنبأتكم به من البعث والنشور والجزاء على الأعمال خبر عظيم ينبغي الاهتمام الشديد بشأنه، ولا ينبغي إغفاله. ولكن ﴿ أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾: كأنه ليس أمامكم حساب ولا عقاب ولا ثواب.

﴿٦٩﴾، ﴿٧٠﴾ فإن شككتم في قولي وامتريتم في خبري؛ فإني أخبركم بأخبار لا علم لي بها ولا درستها في كتاب؛ فإخباري بها على وجهها من غير زيادة ولا نقص أكبر شاهد لصدقي وأدل دليل على حق ما جئتكم به، ولهذا قال: ﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ ﴾؛ أي: الملائكة؛ ﴿ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾؛ لولا تعليم الله إياي وإيحاؤه إليَّ، ولهذا قال: ﴿ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ ﴾؛ أي: ظاهر النذارة جليها؛ فلا نذير أبلغ من نذارته ﷺ.

﴿٧١﴾، ﴿٧٢﴾ ثم ذكر اختصام الملأ الأعلى، فقال: ﴿ إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ﴾: على وجه الإخبار، ﴿ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ﴿٧١﴾ ﴾؛ أي: مادته من طين، ﴿ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ ﴾؛ أي: سويت جسمه وتم، ﴿ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

﴿٧٣﴾، ﴿٧٤﴾ فوطن الملائكة الكرام أنفسهم على ذلك حين يتم خلقه ونفخ الروح فيه امتثالًا لربهم وإكرامًا لآدم عليه السلام، فلما تم خلقه في بدنه وروحه، وامتحن الله آدم والملائكة في العلم، وظهر فضله عليهم؛ أمرهم الله بالسجود، ﴿ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ﴾: لم يسجد، ﴿ ٱسۡتَكۡبَرَ ﴾: عن أمر ربه، واستكبر على آدم، ﴿ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾: في علم الله تعالى.

﴿٧٥﴾ ﴿ قَالَ ﴾ الله له موبخًا ومعاتبًا: ﴿ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ ﴾؛ أي: شرفته وكرمته واختصصته بهذه الخصيصة التي اختص بها عن سائر الخلق، وذلك يقتضي عدم التكبر عليه. ﴿ أَسۡتَكۡبَرۡتَ ﴾: في امتناعك ﴿ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿٧٦﴾ ﴿ قَالَ ﴾ إبليس معارضًا لربه مناقضًا: ﴿ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾ ﴾: وبزعمه أن عنصر النار خير من عنصر الطين، وهذا من القياس الفاسد؛ فإن عنصر النار مادة الشر والفساد والعلو والطيش والخفة، وعنصر الطين مادة الرزانة والتواضع وإخراج أنواع الأشجار والنباتات، وهو يغلب النار ويطفئها، والنار تحتاج إلى مادة تقوم بها والطين قائم بنفسه. فهذا قياس شيخ القوم، الذي عارض به الأمر الشفاهي من الله، قد تبين غاية بطلانه وفساده؛ فما بالك بأقيسة التلاميذ الذين عارضوا الحق بأقيستهم؛ فإنها كلها أعظم بطلانًا وفسادًا من هذا القياس.

﴿٧٧﴾، ﴿٧٨﴾ ﴿ قَالَ ﴾ الله له: ﴿ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا ﴾؛ أي: من السماء والمحل الكريم، ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٧٧﴾ ﴾؛ أي: مبعد مدحور، ﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ ﴾ أي: طردي وإبعادي ﴿ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ ﴾: دائمًا أبدًا.

﴿٧٩﴾ ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾: لشدة عداوته لآدم وذريته؛ ليتمكن من إغواء من قدر الله أن يغويه.

قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ
مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ
﴿٨٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ﴿٨٨﴾

سُورَةُ الزُّمَرِ (٣٩ – آياتها ٧٥)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ
ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا
لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ
مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ
فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ
كَفَّارٞ ﴿٣﴾ لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا
يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٤﴾
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ
وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ
كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ﴿٥﴾

(٨٠)، (٨١) ﴿ قَالَ ﴾ الله مجيبًا لدعوته حيث اقتضت حكمته ذلك: ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ (٨١) ﴾: حين تستكمل الذرية، ويتم الامتحان.

(٨٢)، (٨٣) فلما علم أنه مُنظَر؛ بادى ربه من خبثه بشدة العداوة لربه ولآدم وذريته، فقال: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ (٨٢) ﴾:

يحتمل أن الباء للقسم، وأنه أقسم بعزة الله ليغوينهم كلهم أجمعين ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ (٨٣) ﴾: علم أن الله سيحفظهم من كيده. ويحتمل أن الباء للاستعانة، وأنه لما علم أنه عاجز من كل وجه، وأنه لا يضل أحدًا إلا بمشيئة الله تعالى، فاستعان بعزة الله على إغواء ذرية آدم. هذا وهو عدو الله حقًّا، ونحن يا ربنا العاجزون المقصرون، المقرُّون لك بكل نعمة، ذرية من شرفته وكرمته؛ فنستعين بعزتك العظيمة، وقدرتك، ورحمتك الواسعة لكل مخلوق، ورحمتك التي أوصلت إلينا بها ما أوصلت من النعم الدينية والدنيوية، وصرفت بها ما عنا صرفت من النقم، أن تعيننا على محاربته وعداوته والسلامة من شره وشركه، ونحسن الظن بك أن تجيب دعاءنا، ونؤمن بوعدك الذي قلت لنا: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ﴾ [غافر: ٦٠]؛ فقد دعوناك كما أمرتنا، فاستجب لنا كما وعدتنا. ﴿ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ (١٩٤) ﴾ [آل عمران: ١٩٤].

(٨٤)، (٨٥) ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى: ﴿ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ (٨٤) ﴾؛ أي: الحق وصفي والحق قولي، ﴿ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ (٨٥) ﴾.

(٨٦) فلما بين الرسول للناس الدليل، ووضح لهم السبيل؛ قال الله له: ﴿ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ ﴾؛ أي: على دعائي إياكم ﴿ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) ﴾: أدعي أمرًا ليس لي، وأقفو ما ليس لي به علم، لا أتبع إلا ما يوحى إلي.

(٨٧) ﴿ إِنۡ هُوَ ﴾؛ أي: هذا الوحي والقرآن ﴿ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ (٨٧) ﴾: يتذكرون به كل ما ينفعهم من مصالح دينهم ودنياهم، فيكون شرفًا ورفعة للعالمين به وإقامة حجة على المعاندين.

فهذه السورة العظيمة مشتملة على الذكر الحكيم، والنبأ العظيم، وإقامة الحجج والبراهين على من كذب بالقرآن، وعارضه، وكذب من جاء به، والإخبار عن عباد الله المخلصين، وجزاء المتقين والطاغين؛ فلهذا أقسم في أولها بأنه ذو الذكر، ووصفه في آخرها بأنه ذكر للعالمين، وأكثر التذكير بها فيما بين ذلك؛ كقوله: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ ﴾، ﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ ﴾، ﴿ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ ﴾، ﴿ هَٰذَا ذِكۡرٞ ﴾. اللهم علمنا منه ما جهلنا، وذكرنا منه ما نُسِّينا نسيان غفلة ونسيان ترك.

(٨٨) ﴿ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ ﴾؛ أي: خبره ﴿ بَعۡدَ حِينِۭ (٨٨) ﴾: وذلك حين يقع عليهم العذاب، وتتقطع عنهم الأسباب.

تم تفسير سورة ص بمنه تعالى وعونه.

تفسير سورة الزمر

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾.

﴿١﴾ يخبر تعالى عن عظمة القرآن وجلالة من تكلم به ونزل منه، وأنه نزل ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾؛ أي: الذي وصفه الألوهية للخلق، وذلك لعظمته وكماله والعزة التي قهر بها كل مخلوق، وذل له كل شيء والحكمة في خلقه وأمره؛ فالقرآن نازل ممن هذا وصفه، والكلام وصف للمتكلم، والوصف يتبع الموصوف؛ فكما أن الله تعالى الكامل من كل وجه الذي لا مثيل له؛ فكذلك كلامه كامل من كل وجه لا مثيل له؛ فهذا وحده كافٍ في وصف القرآن دال على مرتبته.

﴿٢﴾ ولكنه مع هذا زاد بيانًا لكماله بمن نزل عليه، وهو محمد ﷺ، الذي هو أشرف الخلق، فعلم أنه أشرف الكتب، وبما نزل به، وهو الحق، فنزل بالحق الذي لا مرية فيه لإخراج الخلق من الظلمات إلى النور، ونزل مشتملًا على الحق في أخباره الصادقة وأحكامه العادلة؛ فكل ما دل عليه؛ فهو أعظم أنواع الحق من جميع المطالب العلمية، وما بعد الحق إلا الضلال.

ولما كان نازلًا من الحق مشتملًا على الحق لهداية الخلق على أشرف الخلق؛ عظمت فيه النعمة، وجلت، ووجب القيام بشكرها، وذلك بإخلاص الدين لله؛ فلهذا قال: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾﴾؛ أي: أخلص لله تعالى جميع دينك من الشرائع الظاهرة والشرائع الباطنة: الإسلام والإيمان والإحسان؛ بأن تفرد الله وحده بها، وتقصد به وجهه، لا غير ذلك من المقاصد.

﴿٣﴾ ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾: هذا تقرير للأمر بالإخلاص، وبيان أنه تعالى كما أنه له الكمال كله وله التفضل على عباده من جميع الوجوه؛ فكذلك له الدين الخالص الصافي من جميع الشوائب؛ فهو الدين الذي ارتضاه لنفسه وارتضاه لصفوة خلقه وأمرهم به؛ لأنه متضمن للتأله لله في حبه وخوفه ورجائه والإنابة إليه في عبوديته والإنابة إليه في تحصيل مطالب عباده، وذلك الذي يصلح القلوب ويزكيها ويطهرها؛ دون الشرك به في شيء من العبادة؛ فإن الله بريء منه، وليس لله فيه شيء؛ فهو أغنى الشركاء عن الشرك، وهو مفسد للقلوب والأرواح والدنيا والآخرة، مشقٍ للنفوس غاية الشقاء.

فلذلك لما أمر بالتوحيد والإخلاص؛ نهى عن الشرك به، وأخبر بذم من أشرك به، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾؛ أي: يتولونهم بعبادتهم ودعائهم، معتذرين عن أنفسهم، وقائلين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾؛ أي: لترفع حوائجنا لله، وتشفع لنا عنده، وإلا؛ فنحن نعلم أنها لا تخلق ولا ترزق ولا تملك من الأمر شيئًا؛ أي: فهؤلاء قد تركوا ما أمر الله به من الإخلاص، وتجرءوا على أعظم المحرمات، وهو الشرك، وقاسوا الذي ليس كمثله شيء الملك العظيم بالملوك، وزعموا بعقولهم الفاسدة ورأيهم السقيم أن الملوك كما أنه لا يوصل إليهم إلا بوجهاء وشفعاء ووزراء يرفعون إليهم حوائج رعاياهم ويستعطفونهم عليهم ويمهدون لهم الأمر في ذلك؛ أن الله تعالى كذلك!

وهذا القياس من أفسد الأقيسة، وهو يتضمن التسوية بين الخالق والمخلوق، مع ثبوت الفرق العظيم عقلًا ونقلًا وفطرة؛ فإن الملوك إنما احتاجوا للوساطة بينهم وبين رعاياهم؛ لأنهم لا يعلمون أحوالهم، فيحتاج من يعلمهم بأحوالهم، وربما لا يكون في قلوبهم رحمة لصاحب الحاجة، فيحتاج من يعطفهم عليه، ويسترحمه لهم، ويحتاجون إلى الشفعاء والوزراء، ويخافون منهم، فيقضون حوائج من توسطوا لهم مراعاة لهم ومداراة لخواطرهم، وهم أيضًا فقراء؛ قد يمنعون لما يخشون من الفقر، وأما الرب تعالى؛ فهو الذي أحاط علمه بظواهر الأمور وبواطنها، الذي لا يحتاج إلى من يخبره بأحوال رعيته وعباده، وهو تعالى أرحم الراحمين، وأجود الأجودين، لا يحتاج إلى أحد من خلقه يجعله راحمًا لعباده، بل هو أرحم بهم من أنفسهم ووالديهم، وهو الذي يحثهم

ويدعوهم إلى الأسباب التي ينالون بها رحمته، وهو يريد من مصالحهم ما لا يريدونه لأنفسهم، وهو الغني، الذي له الغنى التام المطلق، الذي لو اجتمع الخلق من أولهم وآخرهم في صعيد واحد، فسألوه، فأعطى كلًّا منهم ما سأل وتمنى؛ لم ينقصوا من غناه شيئًا، ولم ينقصوا مما عنده إلا كما ينقص البحر إذا غمس فيه المِخْيَط، وجميع الشفعاء يخافونه؛ فلا يشفع منهم أحد إلا بإذنه، وله الشفاعة كلها؛ فبهذه الفروق يعلم جهل المشركين به وسفههم العظيم وشدة جراءتهم عليه، ويعلم أيضًا الحكمة في كون الشرك لا يغفره الله تعالى؛ لأنه يتضمن القدح في الله تعالى، ولهذا قال حاكمًا بين الفريقين المخلصين والمشركين وفي ضمنه التهديد للمشركين: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾: وقد علم أن حكمه أن المؤمنين المخلصين في جنات النعيم، ومن يشرك بالله؛ فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾؛ أي: لا يوفق للهداية إلى الصراط المستقيم ﴿مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾؛ أي: وصفه الكذب أو الكفر؛ بحيث تأتيه المواعظ والآيات ولا يزول عنه ما اتصف به، ويريه الله الآيات فيجحدها ويكفر بها ويكذب؛ فهذا أنى له الهدى وقد سد على نفسه الباب، وعوقب بأن طبع الله على قلبه فهو لا يؤمن.

﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾.

﴿٤﴾ أي: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾: كما زعم ذلك من زعمه من سفهاء الخلق ﴿لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾؛ أي: لاصطفى من مخلوقاته الذي يشاء اصطفاءه واختصه لنفسه، وجعله بمنزلة الولد، ولم يكن له حاجة إلى اتخاذ الصاحبة. ﴿سُبْحَانَهُ﴾: عما ظنه به الكافرون أو نسبه إليه الملحدون. ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾؛ أي: الواحد في ذاته وفي أسمائه وفي صفاته وفي أفعاله؛ فلا شبيه له في شيء من ذلك ولا مماثل؛ فلو كان له ولد؛ لاقتضى أن يكون شبيهًا له في وحدته؛ لأنه بعضه وجزء منه. القهار لجميع العالم العلوي والسفلي؛ فلو كان له ولد؛ لم يكن مقهورًا، ولكان له إدلال على أبيه ومناسبة منه، ووحدته تعالى وقهره متلازمان؛ فالواحد لا يكون إلا قهارًا، والقهار لا يكون إلا واحدًا، وذلك ينفي الشركة له من كل وجه.

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾.

﴿٥﴾ يخبر تعالى أنه ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾؛ أي: بالحكمة والمصلحة، وليأمر العباد وينهاهم ويثيبهم ويعاقبهم. ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾؛ أي: يدخل كلًّا منهما على الآخر، ويحله محله؛ فلا يجتمع هذا وهذا، بل إذا أتى أحدهما؛ انعزل الآخر عن سلطانه، ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾: بتسخير منظم وسير مقنن. ﴿كُلٌّ﴾: من الشمس والقمر ﴿يَجْرِي﴾: متأثرًا عن تسخيره تعالى ﴿لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾: وهو انقضاء هذه الدار وخرابها، فيخرب الله آلاتها وشمسها وقمرها، وينشئ الخلق نشأة جديدة؛ ليستقروا في دار القرار الجنة أو النار. ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ﴾: الذي لا يغالب، القاهر لكل شيء، الذي لا يستعصي عليه شيء، الذي من عزته أوجد هذه المخلوقات العظيمة، وسخرها، تجري بأمره. ﴿الْغَفَّارُ ﴿٥﴾﴾: لذنوب عباده التوابين المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٢]، الغفار لمن أشرك به بعدما رأى من آياته العظيمة ثم تاب وأناب.

﴿٦﴾ ومن عزته أن ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾: على كثرتكم وانتشاركم في أنحاء الأرض، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾: وذلك ليسكن إليها وتسكن إليه وتتم بذلك النعمة، ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ﴾؛ أي: خلقها بقدر نازل منه رحمة بكم ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾: وهي التي ذكرها في سورة الأنعام: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾، ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣، ١٤٤]، وخصها بالذكر مع أنه أنزل لمصالح

خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم
مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ
خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ
ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ
ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ
لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾
۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ
نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا
لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ
ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ
ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ
وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾

عباده من البهائم غيرها؛ لكثرة نفعها وعموم مصالحها ولشرفها ولاختصاصها بأشياء لا يصلح غيرها؛ كالأضحية والهَدْي والعقيقة ووجوب الزكاة فيها واختصاصها بالدية. ولما ذكر خلق أبينا وأمنا؛ ذكر ابتداء خلقنا، فقال: ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾؛ أي: طورًا بعد طور، وأنتم في حال لا يد مخلوق تمسكم ولا عين تنظر إليكم، وهو قد رباكم في ذلك المكان الضيق ﴿ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ﴾: ظلمة البطن، ثم ظلمة الرحم، ثم ظلمة المشيمة. ﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾: الذي خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر، وخلقكم وخلق لكم الأنعام والنعم ﴿ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾؛ أي: المألوه المعبود الذي رباكم ودبركم؛ فكما أنه الواحد في خلقه وتربيته لا شريك له في ذلك؛ فهو الواحد في ألوهيته لا شريك له، ولهذا قال: ﴿ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ ﴾: بعد هذا البيان، أتبعه ببيان استحقاقه تعالى لإخلاص العبادة له وحده، دون عبادة الأوثان التي لا تدبر شيئًا، وليس لها من الأمر شيء.

﴿٧﴾ فقال: ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ﴾: لا يضره كفركم كما لا ينتفع بطاعتكم، ولكن أمره ونهيه لكم محض فضله وإحسانه عليكم. ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾: لكمال إحسانه بهم وعلمه أن الكفر يشقيهم شقاوة لا يسعدون بعدها، ولأنه خلقهم لعبادته؛ فهي الغاية التي خلق لها الخلق؛ فلا يرضى أن يدَعوا ما خلقهم لأجله.

﴿ وَإِن تَشْكُرُوا۟ ﴾: لله تعالى بتوحيده وإخلاص الدين له ﴿ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾: لرحمته بكم ومحبته للإحسان عليكم ولفعلكم ما خلقكم لأجله، وكما أنه لا يتضرر بشرككم ولا ينتفع بأعمالكم وتوحيدكم؛ كذلك كل أحد منكم له عمله من خير وشر. ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ ﴾: في يوم القيامة، ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾: إخبارًا أحاط به علمه وجرى عليه قلمه وكتبته عليكم الحفظة الكرام وشهدت به عليكم الجوارح، فيجازي كلًّا منكم بما يستحقه. ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾؛ أي: بنفس الصدور وما فيها من وصف بر أو فجور. والمقصود من هذا الإخبار بالجزاء بالعدل التام.

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿٨﴾ يخبر تعالى عن كرمه بعبده وإحسانه وبره وقلة شكر عبده، وأنه حين يمسه الضر من مرض أو فقر أو وقوع في كربة بحر أو غيره؛ أنه يعلم أنه لا ينجيه في هذه الحال إلا الله، فيدعوه متضرعًا منيبًا، ويستغيث به في كشف ما نزل به ويلح في ذلك. ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ ﴾: الله ﴿ نِعْمَةً مِّنْهُ ﴾: بأن كشف ما به من الضر والكربة، ﴿ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ﴾؛ أي: نسي ذلك الضر الذي دعا الله لأجله، ومر كأنه ما أصابه ضر، واستمر على شركه، ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾؛ أي: ليضل بنفسه ويضل غيره؛ لأن الإضلال فرع عن الضلال، فأتى بالملزوم ليدل على اللازم. ﴿ قُلْ ﴾: لهذا العاتي الذي بدل نعمة الله كفرًا: ﴿ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ ﴾: فلا يغنيك ما تتمتع به إذا كان المآل النار، ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧].

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿٩﴾ هـذه مقابلة بين العامل بطاعة الله وغيره، وبين العالم والجاهـل، وأن هذا من الأمور التـي تقرر في العقول تباينها، وعلـم علمًـا يقينًـا تفاوتهـا؛ فليـس المعرض عـن طاعة ربه المتبع لهواه كمن هو قانت؛ أي: مطيع لله بأفضل العبادات، وهـي الصلاة، وأفضل الأوقات، وهي أوقات الليل، فوصفه بكثرة العمل وأفضله، ثم وصفه بالخوف والرجاء، وذكر أن متعلق الخوف عذاب الآخرة على ما سلف من الذنوب، وأن متعلـق الرجاء رحمـة الله، فوصفه بالعمـل الظاهر والباطن. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾: ربهـم ويعلمون دينه الشـرعي ودينه الجزائي وما له في ذلك من الأسـرار والحكم، ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾: شيئًا من ذلك، لا يستوي هؤلاء ولا هؤلاء؛ كما لا يستوي الليل والنهار والضياء والظلام والماء والنار. ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾: إذا ذُكِّـروا ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾؛ أي: أهل العقول الزكيـة الذكيـة؛ فهـم الذيـن يؤثـرون الأعلـى علـى الأدنى؛ فيؤثـرون العلم على الجهل، وطاعة اللـه على مخالفته؛ لأن لهم عقولًا ترشـدهم للنظر فـي العواقب؛ بخلاف من لا لب له ولا عقل؛ فإنه يتخذ إلهه هواه.

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿١٠﴾ أي: قل مناديًا لأشـرف الخلق، وهـم المؤمنون، آمرًا لهم بأفضل الأوامر، وهي التقوى، ذاكرًا لهم السبب الموجب للتقـوى، وهو ربوبية الله لهم وإنعامه عليهم، المقتضي ذلك منهـم أن يتقوه، ومـن ذلك ما من الله عليهـم به من الإيمان؛ فإنـه موجـب للتقـوى؛ كمـا تقـول: أيهـا الكريـم تصـدق! وأيهـا الشـجاع قاتل! وذكر لهم الثواب المنشـط فـي الدنيا، فقـال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾: بعبـادة ربهـم لهـم ﴿حَسَنَةٌ﴾: رزق واسـع ونفس مطمئنة وقلب منشرح؛ كما قـال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧]. ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾: إذا منعتـم من عبادته في أرض؛ فهاجـروا إلى غيرها تعبدون فيهـا ربكـم وتتمكنـون من إقامـة دينكم. ولمـا قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾؛ كان لبعـض النفوس مجال فـي هـذا الموضع، وهـو أن النص عـام؛ أنه كل من أحسـن؛ فله في الدنيا حسـنة؛ فما بال من آمـن في أرض يضطهد فيها ويمتهن لا يحصل له ذلك؟ دفع هذا الظن بقوله: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾: وهنا بشـارة نَـصَّ عليها النبـي ﷺ بقوله: «**لا تزال طائفـة من أمتي علـى الحق ظاهرين؛ لا يضرهـم من خذلهم ولا مـن خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك**»(١). تشـير إليـه هذه الآية وترمي إليه من قريـب، وهو أنه تعالى أخبر أن أرضه واسـعة؛ فمهما مُنعتم مـن عبادته في موضع؛ فهاجروا إلـى غيرهـا. وهذا عام في كل زمان ومكان؛ فلا بد أن يكون لـكل مهاجر ملجأ من المسـلمين يلجأ إليـه وموضع يتمكن من إقامة دينه فيه.

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾: وهـذا عـام فـي جميع أنواع الصبـر: الصبر على أقدار اللـه المؤلمة؛ فلا يتسـخطها، والصبـر عن معاصيه؛ فلا يرتكبهـا، والصبر على طاعته حتى يؤديها، فوعد الله الصابرين أجرهم بغير حساب؛ أي: بغيـر حـد ولا عد ولا مقدار، ومـا ذاك إلا لفضيلة الصبر ومحله عند الله، وأنه معين على كل الأمور.

﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿١١﴾ أي: ﴿قُلْ﴾: يـا أيهـا الرسـول، للنـاس: ﴿إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾: فـي قولـه فـي أول السـورة: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾﴾.

﴿١٢﴾ ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾: لأنـي الداعـي الهـادي للخلق إلى ربهـم، فيقتضي أني أول من ائتمر بما أمر به وأول من أسلم، وهذا الأمر لا بد من إيقاعه من محمد ﷺ وممـن زعـم أنه من أتباعـه؛ فلا بد من الإسـلام في الأعمال الظاهرة والإخلاص لله في الأعمال الظاهرة والباطنة.

---
(١) مسلم (١٩٢٠).

قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾

﴿١٣﴾ ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى ﴾: فيما أمرني به من الإخلاص والإسلام ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾: يخلد فيه من أشرك ويعاقب فيه من عصى.

﴿١٤﴾، ﴿١٥﴾ ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾: كما قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ [الكافرون: ١-٦]. ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾: حقيقة هم ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾: حيث حرموها الثواب، واستحقت بسببهم وخيم العقاب، ﴿ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾؛ أي: فرق بينهم وبينهم، واشتد عليهم الحزن، وعظم الخسران. ﴿ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ ﴾: الذي ليس مثله خسران، وهو خسران مستمر لا ربح بعده، بل ولا سلامة.

﴿١٦﴾ ثم ذكر شدة ما يحصل لهم من الشقاء، فقال: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾؛ أي: قطع عذاب كالسحاب العظيم، ﴿ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ ﴾: الوصف الذي وصفنا به عذاب أهل النار سوط يسوق الله به عباده إلى رحمته، ﴿ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ ﴾؛ أي: جعل ما أعده لأهل الشقاء من العذاب داعيًا يدعو عباده إلى التقوى وزجرًا عما يوجب العذاب؛ فسبحان من رحم عباده في كل شيء! وسهل لهم الطرق الموصلة إليه، وحثهم على سلوكها، ورغبهم بكل مرغب تشتاق له النفوس وتطمئن له القلوب، وحذرهم من العمل لغير ذلك غاية التحذير، وذكر لهم الأسباب الزاجرة عن تركه.

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿١٧﴾ لما ذكر تعالى حال المجرمين؛ ذكر حال المنيبين وثوابهم، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا ﴾: والمراد بالطاغوت في هذا الموضع عبادة غير الله؛ فاجتنبوها في عبادتها، وهذا من أحسن الاحتراز من الحكيم العليم؛ لأن المدح إنما يتناول المجتنب لها في عبادتها. ﴿ وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ﴾: بعبادته وإخلاص الدين له، فانصرفت دواعيهم من عبادة الأصنام إلى عبادة الملك العلام، ومن الشرك والمعاصي إلى التوحيد والطاعات. ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾: التي لا يقادر قدرها ولا يعلم وصفها إلا من أكرمهم بها، وهذا شامل للبشرى في الحياة الدنيا بالثناء الحسن والرؤيا الصالحة والعناية الربانية من الله، التي يرون في خلالها أنه مريد لإكرامهم في الدنيا والآخرة، ولهم البشرى في الآخرة عند الموت وفي القبر وفي القيامة، وخاتمة البشرى ما يبشرهم به الرب الكريم من دوام رضوانه وبره وإحسانه وحلول أمانه في الجنة.

﴿١٨﴾ ولما أخبر أن لهم البشرى؛ أمره الله ببشارتهم، وذكر الوصف الذي استحقوا به البشارة، فقال: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾: وهذا جنس يشمل كل قول؛ فهم يستمعون جنس القول ليميزوا بين ما ينبغي إيثاره مما ينبغي اجتنابه؛ فلهذا كان من حزمهم وعقلهم أنهم يتبعون أحسنه، وأحسنه على الإطلاق كلام الله وكلام رسوله؛ كما قال في هذه السورة: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا ﴾ [الزمر: ٢٣] الآية.

وفي هذه الآية نكتة، وهي أنه لما أخبر عن هؤلاء الممدوحين أنهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه؛ كأنه قيل: هل من طريق إلى معرفة أحسنه حتى نتصف بصفات أولي الألباب، وحتى نعرف أن مَنْ آثره فهو من أولي الألباب؟ قيل: نعم؛ أحسنه ما نص الله عليه بقوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ الآية. أولئك ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾: لأحسن الأخلاق والأعمال، ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾؛ أي: العقول الزاكية، ومن لبهم وحزمهم أنهم عرفوا الحسن وغيره، وآثروا ما ينبغي إيثاره على ما سواه، وهذا علامة العقل، بل لا علامة للعقل سوى ذلك؛ فإن الذي لا يميز بين الأقوال حسنها وقبيحها؛ ليس من أهل العقول الصحيحة، أو الذي يميز لكن غلبت شهوته على عقله فبقي عقله تابعًا لشهوته فلم يؤثر الأحسن؛ كان ناقص العقل.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿١٩﴾ أي: أفمن وجبت عليه كلمة العذاب باستمراره على غيه وعناده وكفره؛ فإنه لا حيلة لك في هدايته، ولا تقدر أن تنقذ من في النار لا محالة.

﴿٢٠﴾ لكن الغنى[1] كل الغنى[1] والفوز كل الفوز للمتقين، الذين أعد لهم من الكرامة وأنواع النعيم ما لا يقادر قدره، ﴿لَهُمْ غُرَفٌ﴾؛ أي: منازل عالية مزخرفة من حسنها وبهائها وصفائها أنه يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، ومن علوها وارتفاعها أنها تُرى كما يرى الكوكب الغابر في الأفق الشرقي أو الغربي، ولهذا قال: ﴿مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾؛ أي: بعضها فوق بعض ﴿مَّبْنِيَّةٌ﴾: بذهب وفضة وملاطها المسك الأذفر، ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: المتدفقة التي تسقي للبساتين الزاهرة والأشجار الطاهرة، فتُغِلُّ أنواع الثمار اللذيذة والفاكهة النضيجة. ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾: وقد وعد المتقين هذا الثواب؛ فلا بد من الوفاء به؛ فليوفوا بخصال التقوى؛ ليوفيهم أجورهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾.

﴿٢١﴾ يذكِّر تعالى أولي الألباب ما أنزله من السماء من الماء، وأنه سلكه ينابيع في الأرض؛ أي: أودعه فيها ينبوعًا يستخرج بسهولة ويسر. ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾: من بُرٍّ وذرة وشعير وأرز وغير ذلك، ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾: عند استكماله أو عند حدوث آفة فيه، ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾: متكسرًا. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾: يذكرون به عناية ربهم ورحمته بعباده، حيث يسر لهم هذا الماء وخزنه بخزائن الأرض تبعًا لمصالحهم، ويذكرون به كمال قدرته، وأنه يحيي الموتى كما أحيا الأرض بعد موتها، ويذكرون به أن الفاعل لذلك هو المستحق للعبادة. اللهم اجعلنا من أولي الألباب، الذين نوهت بذكرهم، وهديتهم بما أعطيتهم من العقول وأريتهم من أسرار كتابك وبديع آياتك ما لم يصل إليه غيرهم؛ إنك أنت الوهاب.

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿٢٢﴾ أي: أفيستوي من شرح الله صدره للإسلام، فاتسع لتلقي أحكام الله والعمل بها منشرحًا قرير العين على بصيرة من أمره، وهو المراد بقوله: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: كمن ليس كذلك؛ بدليل قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا تلين لكتابه ولا تتذكر آياته ولا تطمئن بذكره، بل هي معرضة عن ربها، ملتفتة إلى غيره؛ فهؤلاء لهم الويل الشديد والشر الكبير. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾: وأي ضلال أعظم من ضلال من أعرض عن وليه، ومن كل السعادة في الإقبال عليه، وقسا قلبه عن ذكره، وأقبل على كل ما يضره؟!

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾.

(١) الأصل، ع: «الغبن»، والمثبت يقتضيه السياق.

أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ
لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾
ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ
جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ
إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن
يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ
ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ
﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ
ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى
هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا
غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ
شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ
﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

(٢٣) يخبر تعالى عن كتابه الذي نزله أنه ﴿ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ على الإطلاق؛ فأحسن الحديث كلام الله، وأحسن الكتب المنزلة من كلام الله هذا القرآن، وإذا كان هو الأحسن؛ علم أن ألفاظه أفصح الألفاظ وأوضحها، وأن معانيه أجل المعاني؛ لأنه أحسن الحديث في لفظه ومعناه. ﴿ مُّتَشَٰبِهًا ﴾: في الحسن والائتلاف وعدم الاختلاف بوجه من الوجوه، حتى إنه كلما تدبره المتدبر وتفكر فيه المتفكر؛ رأى من اتفاقه - حتى في معانيه الغامضة - ما يبهر الناظرين ويجزم بأنه لا يصدر إلا من حكيم عليم، هذا المراد بالتشابه في هذا الموضع، وأما في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ [آل عمران: ٧]؛ فالمراد بها: التي تشتبه على فهوم كثير من الناس، ولا يزول هذا الاشتباه إلا بردها إلى المحكم، ولهذا قال: ﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾: فجعل التشابه لبعضه، وهنا جعله كله متشابهًا؛ أي: في حسنه؛ لأنه قال: ﴿ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾، وهو سور وآيات، والجميع يشبه بعضه بعضًا؛ كما ذكرنا. ﴿ مَّثَانِىَ ﴾؛ أي: تُثَنَّى فيه القصص والأحكام والوعد والوعيد وصفات أهل الخير وصفات أهل الشر، وتثنَّى فيه أسماء الله وصفاته، وهذا من جلالته وحسنه؛ فإنه تعالى لما علم احتياج الخلق إلى معانيه المزكية للقلوب المكملة للأخلاق، وأن تلك المعاني للقلوب بمنزلة الماء لسقي الأشجار؛ فكما أن الأشجار كلما بعد عهدها بسقي الماء؛ نقصت، بل ربما تلفت، وكلما تكرر سقيها؛ حسنت وأثمرت أنواع الثمار النافعة؛ فكذلك القلب يحتاج دائمًا إلى تكرر معاني كلام الله تعالى عليه، وأنه لو تكرر عليه المعنى مرة واحدة في جميع القرآن؛ لم يقع منه موقعًا، ولم تحصل النتيجة منه.

ولهذا سلكت في هذا التفسير هذا المسلك الكريم؛ اقتداء بما هو تفسير له؛ فلا تجد فيه الحوالة على موضع من المواضع، بل كل موضع تجد تفسيره كامل المعنى غير مراع لما مضى مما يشبهه، وإن كان بعض المواضع يكون أبسط من بعض وأكثر فائدة، وهكذا ينبغي للقارئ للقرآن المتدبر لمعانيه ألَّا يدع التدبر في جميع المواضع منه؛ فإنه يحصل له بسبب ذلك خير كثير ونفع غزير. ولما كان القرآن العظيم بهذه الجلالة والعظمة؛ أثر في قلوب أولي الألباب المهتدين؛ فلهذا قال تعالى: ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾: لما فيه من التخويف والترهيب المزعج، ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: عند ذكر الرجاء والترغيب؛ فهو تارة يرغبهم لعمل الخير، وتارة يرهبهم من عمل الشر. ﴿ ذَٰلِكَ ﴾: الذي ذكره الله من تأثير القرآن فيهم ﴿ هُدَى ٱللَّهِ ﴾؛ أي: هداية منه لعباده، وهو من جملة فضله وإحسانه عليهم، ﴿ يَهْدِى بِهِۦ ﴾؛ أي: بسبب ذلك ﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ من عباده. ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾؛ أي: القرآن الذي وصفناه لكم ﴿ هُدَى ٱللَّهِ ﴾: الذي لا طريق يوصل إلى الله إلا منه. ﴿ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ من عباده، ممن حسن قصده؛ كما قال تعالى: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [المائدة: ١٦]. ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾: لأنه لا طريق يوصل إليه إلا توفيقه، والتوفيق للإقبال على كتابه، فإذا لم يحصل هذا؛ فلا سبيل إلى الهدى، وما هو إلا الضلال المبين والشقاء.

﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ٢٥ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ٢٦﴾.

(٢٤) أي: هل يستوي هذا الذي هداه الله، ووفقه لسلوك الطريق الموصلة لدار كرامته كمن كان في الضلال، واستمر على عناده حتى قدم القيامة فجاءه العذاب العظيم فجعل يتقي بوجهه الذي هو أشرف الأعضاء، وأدنى شيء من العذاب يؤثر فيه، فهو يتقي فيه سوء العذاب؛ لأنه قد غُلَّتْ يداه ورجلاه؟! ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ﴾: أنفسهم بالكفر والمعاصي توبيخًا وتقريعًا: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ٢٤﴾.

(٢٥) ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: من الأمم كما كذب هؤلاء، ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ٢٥﴾: جاءهم في غفلة أول نهار أو هم قائلون.

(٢٦) ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ﴾: بذلك العذاب ﴿ٱلْخِزْيَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: فافتضحوا عند الله وعند خلقه. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ٢٦﴾: فليحذر هؤلاء من المُقام على التكذيب فيصيبهم ما أصاب أولئك من التعذيب.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٢٧ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ٢٨ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٢٩ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ٣١﴾.

(٢٧) يخبر تعالى أنه ضرب في القرآن من جميع الأمثال؛ أمثال أهل الخير وأمثال أهل الشر وأمثال التوحيد والشرك، وكل مثل يقرب حقائق الأشياء والحكمة في ذلك؛ ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٢٧﴾: عندما نوضح لهم الحق، فيعلمون ويعملون.

(٢٨) ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾؛ أي: جعلناه قرآنًا عربيًّا واضح الألفاظ سهل المعاني، خصوصًا على العرب، غير ذي عوج؛ أي: ليس فيه خلل ولا نقص بوجه من الوجوه؛ لا في ألفاظه ولا في معانيه. وهذا يستلزم كمال اعتداله واستقامته؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ١ قَيِّمًا﴾ [الكهف: ١، ٢]. ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ٢٨﴾ الله تعالى؛ حيث سهلنا عليهم طرق التقوى العلمية والعملية بهذا القرآن العربي المستقيم، الذي ضرب الله فيه من كل مثل.

(٢٩) ثم ضرب مثلًا للشرك والتوحيد، فقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا﴾؛ أي: عبدًا. ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾: فهم كثيرون، وليسوا متفقين على أمر من الأمور وحالة من الحالات حتى تمكن راحته، بل هم متشاكسون متنازعون فيه، كل له مطلب يريد تنفيذه ويريد الآخر غيره؛ فما تظن حال هذا الرجل مع هؤلاء الشركاء المتشاكسين؟! ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾؛ أي: خالصًا له قد عرف مقصود سيده وحصلت له الراحة التامة. ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾؛ أي: هذان الرجلان ﴿مَثَلًا﴾؟ لا يستويان، كذلك المشرك فيه شركاء متشاكسون، يدعو هذا ثم يدعو هذا، فتراه لا يستقر له قرار ولا يطمئن قلبه في موضع، والموحد مخلص لربه، قد خلصه الله من الشركة لغيره؛ فهو في أتم راحة وأكمل طمأنينة. فـ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: على تبيين الحق من الباطل وإرشاد الجهال. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٢٩﴾.

(٣٠) ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ٣٠﴾؛ أي: كلكم لا بد أن يموت، ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ٣٤﴾ [الأنبياء: ٣٤].

(٣١) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ٣١﴾: فيما تنازعتم فيه، فيفصل بينكم بحكمه العادل، ويجازي كلًّا ما عمله، أحصاه الله ونسوه.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُۥ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ٣٢ وَٱلَّذِي جَاءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ٣٣ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ٣٤ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ٣٥﴾.

(٣٢) يقول تعالى محذرًا ومخبرًا أنه لا أظلم وأشد ظلمًا ﴿مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾: إما بنسبته إلى ما لا يليق بجلاله، أو بادعاء النبوة، أو الإخبار بأن الله قال كذا أو أخبر بكذا أو حكم بكذا وهو كاذب؛ فهذا داخل في قوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ١٦٩﴾ [البقرة: ١٦٩]: إن كان جاهلًا

وإلا فهو أشنع وأشنع، ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓ﴾؛ أي: ما أظلم ممن جاءه الحق المؤيد بالبينات فكذبه، فتكذيبه ظلم عظيم منه؛ لأنه رد الحق بعدما تبين له؛ فإن كان جامعًا بين الكذب على الله والتكذيب بالصدق[1]؛ كان ظلمًا على ظلم. ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ ٣٢﴾: يحصل بها الاشتفاء منهم وأخذ حق الله من كل ظالم وكافر، ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: ١٣].

٣٣ ولما ذكر الكاذب المكذب وجنايته وعقوبته؛ ذكر الصادق المصدق وثوابه، فقال: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ﴾: في قوله وعمله، فدخل في ذلك الأنبياء ومن قام مقامهم ممن صدق فيما قاله عن خبر الله وأحكامه، وفيما فعله من خصال الصدق، ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾؛ أي: بالصدق؛ لأنه قد يجيء الإنسان بالصدق، ولكن قد لا يصدق به بسبب استكباره أو احتقاره لمن قاله وأتى به؛ فلا بد في المدح من الصدق والتصديق، فصدقه يدل على علمه وعدله، وتصديقه يدل على تواضعه وعدم استكباره. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ أي: الذين وفقوا للجمع بين الأمرين ﴿هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ٣٣﴾: فإن جميع خصال التقوى ترجع إلى الصدق بالحق والتصديق به.

٣٤ ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾: من الثواب مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؛ فكل ما تعلقت به إرادتهم ومشيئتهم من أصناف اللذات والمشتهيات فإنه حاصل لهم معد مهيأ. ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٤﴾: الذين يعبدون الله كأنهم يرونه؛ فإن لم يكونوا يرونه؛ فإنه يراهم، المحسنين إلى عباد الله.

٣٥ ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٣٥﴾: عمل الإنسان له ثلاث حالات: إما أسوأ، أو أحسن، أو لا أسوأ ولا أحسن، والقسم الأخير قسم المباحات وما لا يتعلق به ثواب ولا عقاب، والأسوأ المعاصي كلها، والأحسن الطاعات كلها. فبهذا التفصيل يتبين معنى الآية، وأن قوله ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾؛ أي: ذنوبهم الصغار والكبار بسبب إحسانهم وتقواهم، ﴿وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٣٥﴾؛ أي: بحسناتهم كلها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٤٠﴾ [النساء: ٤٠].

(١) ع، ط: «بالحق».

سورة الزمر — الجزء الرابع والعشرون

﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ ٣٢ وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ٣٣ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٤ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٣٥ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٦ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ ٣٧ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٣٨ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣٩ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ٤٠﴾

٤٦٢

﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٦ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ ٣٧﴾.

٣٦، ٣٧ ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾؛ أي: أليس من كرمه وجوده وعنايته بعبده الذي قام بعبوديته وامتثل أمره واجتنب نهيه، خصوصًا أكمل الخلق عبودية لربه، وهو محمد ﷺ؛ فإن الله تعالى سيكفيه في أمر دينه ودنياه ويدفع عنه من ناوأه بسوء. ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾: من الأصنام والأنداد أن تنالك بسوء، وهذا من غيهم وضلالهم. ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٦ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾: لأنه تعالى الذي بيده الهداية والإضلال، وهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ﴾: له العزة الكاملة التي قهر بها كل شيء، وبعزته يكفي عبده، ويدفع عنه مكرهم ﴿ذِي ٱنتِقَامٖ ٣٧﴾: ممن عصاه، فاحذروا موجبات نقمته.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿٣٨﴾ أي: ولئن سألت هؤلاء الضُّلَّال الذين يخوفونك بالذين من دونه وأقمت عليهم دليلًا من أنفسهم، فقلت: ﴿ مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ ﴾: لم يثبتوا لآلهتهم من خلقها شيئًا، ﴿ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾: الذي خلقها الله وحده. ﴿ قُلْ ﴾: لهم مقررًا عجز آلهتهم بعدما تبينت قدرة الله: ﴿ أَفَرَءَيْتُم ﴾؛ أي: أخبروني ﴿ مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ ﴾: أي ضر كان، ﴿ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ ﴾: بإزالته بالكلية أو بتخفيفه من حال إلى حال؟ ﴿ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ ﴾: يوصل إليَّ بها منفعة في ديني أو دنياي، ﴿ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ﴾: ومانعاتها عني؟ سيقولون: لا يكشفون الضر ولا يمسكون الرحمة، ﴿ قُلْ ﴾ لهم بعدما تبين الدليل القاطع على أنه وحده المعبود، وأنه الخالق للمخلوقات، النافع الضار وحده، وأن غيره عاجز من كل وجه عن الخلق والنفع والضر، مستجلبًا كفايته، مستدفعًا مكرهم وكيدهم. ﴿ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾؛ أي: عليه يعتمد المعتمدون في جلب مصالحهم ودفع مضارهم، فالذي بيده وحده الكفاية هو حسبي سيكفيني كل ما أهمني، وما لا أهتم به.

﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿٣٩﴾، ﴿٤٠﴾ أي: ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا أيها الرسول: ﴿ يَٰقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾؛ أي: على حالتكم التي رضيتموها لأنفسكم من عبادة من لا يستحق من العبادة شيئًا ولا له من الأمر شيء، ﴿ إِنِّي عَٰمِلٌ ﴾: على ما دعوتكم إليه من إخلاص الدين لله تعالى وحده، ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾: لمن العاقبة و﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾: في الدنيا، ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ ﴾: في الأخرى ﴿ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾: لا يحول عنه ولا يزول. وهذا تهديد عظيم لهم، وهم يعلمون أنهم المستحقون للعذاب المقيم، ولكن الظلم والعناد حال بينهم وبين الإيمان.

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿٤١﴾ يخبر تعالى أنه أنزل على رسوله الكتاب المشتمل على الحق في أخباره وأوامره ونواهيه، الذي هو مادة الهداية وبلاغ لمن أراد الوصول إلى الله وإلى دار كرامته، وأنه قامت به الحجة على العالمين. ﴿ فَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴾: بنوره واتبع أوامره؛ فإن نفع ذلك يعود لنفسه ﴿ وَمَن ضَلَّ ﴾: بعدما تبين له الهدى ﴿ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾: لا يضر الله شيئًا. ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾: تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها وتجبرهم على ما تشاء، وإنما أنت مبلغ تؤدي إليهم ما أمرت به.

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿٤٢﴾ يخبر تعالى أنه المتفرد بالتصرف بالعباد في حال يقظتهم ونومهم وفي حال حياتهم وموتهم، فقال: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾: وهذه الوفاة الكبرى وفاة الموت، وإخباره أنه يتوفى الأنفس وإضافة الفعل إلى نفسه لا ينافي أنه قد وكل بذلك ملك الموت وأعوانه؛ كما قال تعالى: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ [السجدة: ١١]، ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الأنعام: ٦١]؛ لأنه تعالى يضيف الأشياء إلى نفسه باعتبار أنه الخالق المدبر، ويضيفها إلى أسبابها باعتبار أن من سننه تعالى وحكمته أن جعل لكل أمر من الأمور سببًا. وقوله: ﴿ وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾: وهذه الموتة الصغرى؛ أي: ويمسك النفس التي لم تمت في منامها، ﴿ فَيُمْسِكُ ﴾: من هاتين النفسين النفس ﴿ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ ﴾، وهي نفس من كان مات أو قضى أن يموت في منامه، ﴿ وَيُرْسِلُ ﴾ النفس ﴿ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾؛ أي: إلى استكمال رزقها وأجلها. ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾: على كمال اقتداره وإحيائه الموتى بعد موتهم.

وفي هذه الآية دليل على أن الروح والنفس جسم قائم بنفسه، مخالف جوهره جوهر البدن، وأنها مخلوقة مدبرة يتصرف الله فيها في الوفاة والإمساك والإرسال، وأن أرواح الأحياء والأموات تتلاقى في البرزخ فتجتمع فتتحادث، فيرسل الله أرواح الأحياء، ويمسك أرواح الأموات.

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿٤٣﴾ ينكر تعالى على من اتخذ من دونه شفعاء يتعلق بهم ويسألهم ويعبدهم، ﴿قُلْ﴾ لهم مبينًا جهلهم وأنها لا تستحق شيئًا من العبادة: ﴿أَوَلَوْ كَانُوا۟﴾؛ أي: من اتخذتم من الشفعاء ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا﴾؛ أي: لا مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، بل ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: وليس لهم عقل يستحقون أن يُمدحوا به؛ لأنها جمادات من أحجار وأشجار وصور وأموات؛ فهل يقال: إن لمن اتخذها عقلًا، أم هو من أضل الناس وأجهلهم وأعظمهم ظلمًا؟!

﴿٤٤﴾ ﴿قُل﴾: لهم: ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا﴾: لأن الأمر كله لله، وكل شفيع؛ فهو يخافه، ولا يقدر أن يشفع عنده أحد إلا بإذنه؛ فإذا أراد رحمة عبده؛ أذن للشفيع الكريم عنده أن يشفع رحمة بالاثنين. ثم قرر أن الشفاعة كلها له بقوله: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: جميع ما فيهما من الذوات والأفعال والصفات؛ فالواجب أن تطلب الشفاعة ممن يملكها وتخلص له العبادة. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾: فيجازي المخلص له بالثواب الجزيل، ومن أشرك به بالعذاب الوبيل.

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَـٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿٤٥﴾، ﴿٤٦﴾ يذكر تعالى حالة المشركين وما اقتضاه شركهم: أنهم إذا ﴿ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ﴾ توحيدًا له وعملًا[1]

(١) ع، ط: «وأمرًا».

الجزء الرابع والعشرون — سورة الزمر

إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ
فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم
بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى
لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ
وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ
لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ
قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾
قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ
إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ
قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن
دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ عَـٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ
فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ
يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾

٤٦٣

بإخلاص الدين له وترك ما يُعبد من دونه؛ يشمئزون وينفرون ويكرهون ذلك أشد الكراهة. ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾: من الأصنام والأنداد، ودعا الداعي إلى عبادتها ومدحها؛ ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾: بذلك فرحًا بذكر معبوداتهم، ولكون الشرك موافقًا لأهوائهم وهذه الحال أشر الحالات وأشنعها ولكن موعدهم يوم الجزاء؛ فهناك يؤخذ الحق منهم وينظر: هل تنفعهم آلهتهم التي كانوا يدعون من دون الله شيئًا؟! ولهذا قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: خالقهما ومدبرهما، ﴿عَـٰلِمَ ٱلْغَيْبِ﴾: الذي غاب عن أبصارنا وعلمنا ﴿وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾: الذي نشاهده، ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

وإن من أعظم الاختلاف اختلاف الموحدين المخلصين القائلين: إن ما هم عليه هو الحق وإن لهم الحسنى في الآخرة دون غيرهم، والمشركين الذين اتخذوا من دونك الأنداد والأوثان وسووا بك من لا يسوى شيئًا، وتنقصوك غاية التنقص، واستبشروا عند ذكر آلهتهم، واشمأزوا عند ذكرك

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ
نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ
عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ
وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟
وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ
لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾
۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن
رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ
﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ
ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ
إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ
بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ
عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾

وزعموا مع هذا أنهم على الحق وغيرهم على الباطل وأن لهم الحسنى؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحج: ١٧]، وقد أخبرنا بالفصل بينهم بعدها بقوله: ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ ﴾ إلى أن قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحج: ١٩-٢٣]، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٢]، ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾ [المائدة: ٧٢]؛ ففي هذه الآية بيان عموم خلقه تعالى، وعموم علمه، وعموم حكمه بين عباده؛ فقدرته التي نشأت عنها المخلوقات، وعلمه المحيط بكل شيء دال على حكمه بين عباده وبعثهم وعلمه بأعمالهم خيرها وشرها وبمقادير جزائها، وخلقه دال على علمه، ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ [الملك: ١٤].

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿٤٧﴾ لما ذكر تعالى أنه الحاكم بين عباده، وذكر مقالة المشركين وشناعتها، كأن النفوس تشوفت إلى ما يفعل الله بهم يوم القيامة، فأخبر أن لهم ﴿ سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ ﴾؛ أي: أشده وأفظعه؛ كما قالوا أشد الكفر وأشنعه، وأنهم على الفرض والتقدير لو كان لهم ما في الأرض جميعًا من ذهبها وفضتها ولؤلئها وحيواناتها وأشجارها وزروعها وجميع أوانيها وأثاثها، ومثله معه، ثم بذلوه ﴿ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ليفتدوا به من العذاب وينجوا منه؛ ما قبل منهم، ولا أغنى عنهم من عذاب الله شيئًا، ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]. ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾؛ أي: يظنون من السخط العظيم والمقت الكبير، وقد كانوا يحكمون لأنفسهم بغير ذلك.

﴿٤٨﴾ ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ﴾؛ أي: الأمور التي تسوءهم بسبب صنيعهم وكسبهم، ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾: من الوعيد والعذاب الذي نزل بهم، وما حل عليهم من العقاب.

﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿٤٩﴾ يخبر تعالى عن حالة الإنسان وطبيعته أنه حين يمسه ضر من مرض أو شدة أو كرب، ﴿ دَعَانَا ﴾: ملحًّا في تفريج ما نزل به، ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا ﴾: فكشفنا ضره، وأزلنا مشقته؛ عاد بربه كافرًا ولمعروفه منكرًا، و﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ﴾؛ أي: علم من الله أني له أهل وأني مستحق له؛

لأني كريم عليه، أو على علم مني بطرق تحصيله، قال تعالى: ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ﴾: يبتلي الله به عباده لينظر من يشكره ممن يكفره. ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٩ ﴾: فلذلك يعدون الفتنة منحة، ويشتبه عليهم الخير المحض بما قد يكون سببًا للخير أو للشر.

۝٥٠ قال تعالى: ﴿ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾؛ أي: قولهم: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾؛ فما زالت متوارثة عند المكذبين، لا يقرون بنعمة ربهم، ولا يرون له حقًّا، فلم يزل دأبهم حتى أهلكوا، ﴿ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٥٠ ﴾: حين جاءهم العذاب!

۝٥١ ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾: والسيئات في هذا الموضع العقوبات؛ لأنها تسوء الإنسان وتحزنه. ﴿ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾: فليسوا خيرًا من أولئك، ولم يكتب لهم براءة في الزبر.

۝٥٢ ولما ذكر أنهم اغتروا بالمال وزعموا بجهلهم أنه يدل على حسن حال صاحبه؛ أخبرهم تعالى أن رزقه لا يدل على ذلك، و﴿ أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ ﴾: من عباده، سواء كان صالحًا أو طالحًا. ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾: الرزق؛ أي: يضيقه على من يشاء صالحًا أو طالحًا؛ فرزقه مشترك بين البرية، والإيمان والعمل الصالح يخص به خير البرية ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ ﴾؛ أي: بسط الرزق وقبضه؛ لعلمهم أن مرجع ذلك عائد إلى الحكمة والرحمة، وأنه أعلم بحال عبيده؛ فقد يضيق عليهم الرزق لطفًا بهم؛ لأنه لو بسطه؛ لبغوا في الأرض، فيكون تعالى مراعيًا في ذلك صلاح دينهم الذي هو مادة سعادتهم وفلاحهم. والله أعلم.

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن
رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٥٣
وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ
ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن
رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ
لَا تَشْعُرُونَ ۝٥٥ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي
جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ۝٥٦ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ
اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ۝٥٧ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى
الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ۝٥٨
بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ
مِنَ الْكَافِرِينَ ۝٥٩ ﴾.

۝٥٣ يخبر تعالى عباده المسرفين بسعة كرمه، ويحثهم على الإنابة قبل ألَّا يمكنهم ذلك، فقال: ﴿ قُلْ ﴾ يا أيها الرسول ومن قام مقامه من الدعاة لدين الله مخبرًا للعباد عن ربهم: ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ﴾: باتباع ما تدعوهم إليه أنفسهم من الذنوب والسعي في مساخط علام الغيوب، ﴿ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾؛ أي: لا تيأسوا منها، فتلقوا بأيديكم إلى التهلكة، وتقولوا: قد كثرت ذنوبنا وتراكمت عيوبنا؛ فليس لها طريق يزيلها ولا سبيل يصرفها فتبقون بسبب ذلك مصرين على العصيان، متزودين ما يغضب عليكم الرحمن، ولكن اعرفوا ربكم بأسمائه الدالة على كرمه وجوده، واعلموا أن ﴿ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ من الشرك والقتل والزنا والربا والظلم وغير ذلك من الذنوب الكبار والصغار. ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٥٣ ﴾؛ أي: وصفه المغفرة والرحمة وصفان لازمان ذاتيان لا تنفك ذاته عنهما، ولم تزل آثارهما سارية في الوجود، مالئة للموجود، تسح يداه من الخيرات آناء الليل والنهار، ويوالي النعم على العباد والفواضل في السر والجهار، والعطاء أحب إليه من المنع، والرحمة سبقت الغضب وغلبته.

۝٥٤ ولكن لمغفرته ورحمته ونيلهما أسباب؛ إن لم يأت بها العبد؛ فقد أغلق على نفسه باب الرحمة والمغفرة، أعظمها وأجلها - بل لا سبب لها غيره - الإنابة إلى الله تعالى بالتوبة النصوح، والدعاء والتضرع والتأله والتعبد؛ فهلم إلى هذا السبب الأجلّ والطريق الأعظم، ولهذا أمر تعالى بالإنابة إليه والمبادرة إليها، فقال: ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾: بقلوبكم، ﴿ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾: بجوارحكم، إذا أفردت الإنابة؛ دخلت فيها أعمال الجوارح، وإذا جمع بينهما كما في هذا الموضع؛ كان المعنى ما ذكرنا. وفي قوله: ﴿ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾: دليل على الإخلاص، وأنه من دون إخلاص لا تفيد الأعمال الظاهرة والباطنة شيئًا ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ﴾: مجيئًا لا يُدفع، ﴿ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤ ﴾.

۝٥٥ فكأنه قيل: ما هي الإنابة والإسلام، وما جزئياتهما وأعمالهما؟ فأجاب تعالى بقوله: ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾: مما أمركم من الأعمال الباطنة؛ كمحبة الله وخشيته وخوفه ورجائه والنصح لعباده ومحبة

أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾
أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ
مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا
وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي
جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟
بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ
خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا
ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ
أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ
فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ
وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ
مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾

الخير لهم وترك ما يضاد ذلك، ومن الأعمال الظاهرة؛ كالصلاة والزكاة والصيام والحج والصدقة وأنواع الإحسان، ونحو ذلك مما أمر الله به، وهو أحسن ما أنزل إلينا من ربنا، فالمتبع لأوامر ربه في هذه الأمور ونحوها هو المنيب المسلم ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾: وكل هذا حث على المبادرة وانتهاز الفرصة.

(٥٦) ثم حذرهم ﴿أَن﴾ لا يستمروا على غفلتهم حتى يأتيهم يوم يندمون فيه ولا تنفع الندامة، و﴿تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في جانب حقه. ﴿وَإِن كُنتُ﴾: في الدنيا ﴿لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾: في إتيان الجزاء حتى رأيته عيانًا.

(٥٧) ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾﴾: و(لو) في هذا الموضع للتمني؛ أي: ليت أن الله هداني، فأكون متقيًا له، فأسلم من العقاب، وأستحق الثواب، وليست (لو) هنا شرطية؛ لأنها لو كانت شرطية؛ لكانوا محتجين بالقضاء والقدر على ضلالهم، وهي حجة باطلة، ويوم القيامة تضمحل كل حجة باطلة.

(٥٨) ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ﴾: وتجزم بوروده: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾؛ أي: رجعة إلى الدنيا: ﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

(٥٩) قال تعالى في أن ذلك غير ممكن ولا مفيد، وأن هذه أماني باطلة لا حقيقة لها؛ إذ لا يتجدد للعبد لو رد بيان بعد البيان الأول: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي﴾: الدالة على الحق دلالة لا يمترى فيها، ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾: عن اتباعها، ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾: فسؤال الرد إلى الدنيا نوع عبث، ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٨].

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾.

(٦٠) يخبر تعالى عن خزي ﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟﴾ عليه، وأن وجوههم تكون يوم القيامة ﴿مُّسْوَدَّةٌ﴾: كأنها الليل البهيم، يعرفهم بذلك أهل الموقف، فالحق أبلج واضح كأنه الصبح؛ فكما سودوا وجه الحق بالكذب؛ سود الله وجوههم جزاء من جنس عملهم؛ فلهم سواد الوجوه ولهم العذاب الشديد في جهنم، ولهذا قال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾: عن الحق، وعن عبادة ربهم، المفترين عليه، بلى والله؛ إن فيها لعقوبة وخزيًا وسخطًا يبلغ من المتكبرين كل مبلغ، ويؤخذ الحق منهم بها، والكذب على الله يشمل الكذب عليه باتخاذ الشريك والولد والصاحبة، والإخبار عنه بما لا يليق بجلاله، أو ادعاء النبوة، أو القول في شرعه بما لم يقله والإخبار بأنه قاله وشرعه.

(٦١) ولما ذكر حالة المتكبرين؛ ذكر حالة المتقين، فقال: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ﴾؛ أي: بنجاتهم، وذلك لأن معهم آلة النجاة، وهي تقوى الله تعالى، التي هي العُدَّة عند كل هول وشدة. ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾؛ أي: العذاب الذي يسوءهم، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾: فنفى عنهم مباشرة العذاب وخوفه، وهذا غاية الأمان؛ فلهم الأمن التام يصحبهم حتى يوصلهم إلى دار السلام؛ فحينئذ

يأمنون من كل سوء ومكروه، وتجري عليهم نضرة النعيم، ويقولون: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ٣٤﴾ [فاطر: ٣٤].

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٦٣﴾.

٦٢ يخبر تعالى عن عظمته وكماله الموجب لخسران من كفر به، فقال: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾: هذه العبارة وما أشبهها مما هو كثير في القرآن تدل على أن جميع الأشياء غير الله وأسمائه وصفاته مخلوقة؛ ففيها رد على كل من قال بقدم بعض المخلوقات؛ كالفلاسفة القائلين بقدم الأرض والسماوات، وكالقائلين بقدم الأرواح، ونحو ذلك من أقوال أهل الباطل المتضمنة تعطيل الخالق عن خلقه، وليس كلام الله من الأشياء المخلوقة؛ لأن الكلام صفة المتكلم، والله تعالى بأسمائه وصفاته أولٌ ليس قبله شيء؛ فأخذ أهل الاعتزال من هذه الآية ونحوها أن كلام الله مخلوق، من أعظم الجهل؛ فإنه تعالى لم يزل بأسمائه وصفاته، ولم يحدث له صفة من صفاته، ولم يكن معطلًا عنها بوقت من الأوقات.

والشاهد من هذا أن الله تعالى أخبر عن نفسه الكريمة أنه خالق لجميع العالم العلوي والسفلي، وأنه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢﴾، والوكالة التامة لا بد فيها من علم الوكيل بما كان وكيلًا عليه، وإحاطته بتفاصيله، ومن قدرة تامة على ما هو وكيل عليه؛ ليتمكن من التصرف فيه، ومن حفظ لما هو وكيل عليه، ومن حكمة ومعرفة بوجوه التصرفات ليصرفها ويدبرها على ما هو الأليق؛ فلا تتم الوكالة إلا بذلك كله؛ فما نقص من ذلك؛ فهو نقص فيها. ومن المعلوم المتقرر أن الله تعالى منزه عن كل نقص في صفة من صفاته؛ فإخباره بأنه على كل شيء وكيل؛ يدل على إحاطة علمه بجميع الأشياء، وكمال قدرته على تدبيرها، وكمال تدبيره، وكمال حكمته التي يضع بها الأشياء مواضعها.

٦٣ ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: مفاتيحها علمًا وتدبيرًا؛ فـ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢﴾ [فاطر: ٢]. فلما بين من عظمته ما يقتضي أن تمتلئ القلوب له إجلالًا وإكرامًا؛ ذكر حال من عكس القضية فلم يقدره حق قدره، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: الدالة على الحق اليقين والصراط المستقيم؛ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٦٣﴾: خسروا ما به تصلح القلوب من التأله والإخلاص لله، وما به تصلح الألسن من إشغالها بذكر الله، وما تصلح به الجوارح من طاعة الله، وتعوضوا عن ذلك كل مفسد للقلوب والأبدان، وخسروا جنات النعيم، وتعوضوا عنها بالعذاب الأليم.

﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ٦٤ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٦٦﴾.

٦٤ ﴿قُلۡ﴾ يا أيها الرسول لهؤلاء الجاهلين الذين دعوك إلى عبادة غير الله: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ٦٤﴾؛ أي: هذا الأمر صدر من جهلكم، وإلا؛ فلو كان لكم علم بأن الله تعالى الكامل من جميع الوجوه، مسدي جميع النعم هو المستحق للعبادة دون من كان ناقصًا من كل وجه لا ينفع ولا يضر؛ لم تأمروني بذلك، وذلك لأن الشرك بالله محبط للأعمال، مفسد للأحوال.

٦٥ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾: من جميع الأنبياء، ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾: هذا مفرد مضاف يعم كل عمل، ففي نبوة جميع الأنبياء أن الشرك محبط لجميع الأعمال؛ كما قال تعالى في سورة الأنعام لما عدد كثيرًا من أنبيائه ورسله؛ قال عنهم: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٨٨﴾ [الأنعام: ٨٨]، ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥﴾: دينك وآخرتك؛ فبالشرك تحبط الأعمال، ويستحق العقاب والنكال.

٦٦ ثم قال: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ﴾: لما أخبر أن الجاهلين يأمرونه بالشرك، وأخبر عن شناعته؛ أمره بالإخلاص، فقال: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ﴾؛ أي: أخلص له العبادة وحده لا شريك له، ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٦٦﴾: الله على توفيق الله تعالى؛ فكما أنه تعالى يشكر على النعم الدنيوية كصحة الجسم وعافيته وحصول الرزق وغير ذلك؛ كذلك يشكر ويثنى عليه بالنعم الدينية؛ كالتوفيق للإخلاص والتقوى، بل نعم

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ
إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ
٦٨ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ
بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ
٦٩ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ٧٠
وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا
فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ
يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ
هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ
٧١ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى
ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ٧٢ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى
ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ
خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣
وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ
نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ٧٤

الدين هي النعم على الحقيقة، وفي تدبر أنها من الله تعالى، والشكر لله عليها سلامة من آفة العجب التي تَعرِض لكثير من العاملين بسبب جهلهم، وإلا؛ فلو عرف العبد حقيقة الحال؛ لم يعجب بنعمة تستحق عليه زيادة الشكر.

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿٦٧﴾ يقول تعالى: وما قدر هؤلاء المشركون ربهم ﴿حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾: ولا عظموه حق تعظيمه، بل فعلوا ما يناقض ذلك من إشراكهم به من هو ناقص في أوصافه وأفعاله؛ فأوصافه ناقصة من كل وجه، وأفعاله ليس عنده نفع ولا ضر ولا عطاء ولا منع ولا يملك من الأمر شيئًا، فسووا هذا المخلوق الناقص بالخالق الرب العظيم، الذي من عظمته الباهرة وقدرته القاهرة أن جميع الأرض يوم القيامة قبضة للرحمن، وأن السماوات على سعتها وعظمها مطويات بيمينه، فلا عظمه حق عظمته من سوى به غيره، وهل أظلم ممن فعل ذلك. ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾؛ أي: تنزه، وتعاظم عن شركهم به.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿٦٨﴾ لما خوفهم تعالى من عظمته؛ خوفهم بأحوال يوم القيامة، ورغبهم ورهبهم، فقال: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾: وهو قرن عظيم لا يعلم عظمته إلا خالقه ومن أطلعه الله على علمه من خلقه، فينفخ فيه إسرافيل عليه السلام أحد الملائكة المقربين وأحد حملة عرش الرحمن؛ ﴿فَصَعِقَ﴾؛ أي: غشي عليه أو مات على اختلاف القولين، ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: كلهم، لما سمعوا نفخة الصور؛ أزعجتهم من شدتها وعظمها، وما يعلمون أنها مقدمة له، ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾: ممن ثبته الله عند النفخة، فلم يصعق؛ كالشهداء أو بعضهم وغيرهم، وهذه النفخة الأولى نفخة الصعق ونفخة الفزع، ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ﴾ نفخة ﴿أُخْرَىٰ﴾؛ نفخة البعث، ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ﴾؛ أي: قد قاموا من قبورهم لبعثهم وحسابهم قد تمت منهم الخلقة الجسدية والأرواح، وشخصت أبصارهم؛ ﴿يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾: ماذا يفعل الله بهم؟

﴿٦٩﴾ ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾: علم من هذا أن الأنوار الموجودة تذهب يوم القيامة وتضمحل، وهو كذلك؛ فإن الله أخبر أن الشمس تكور والقمر يخسف والنجوم تُنْتَثَرُ ويكون الناس في ظلمة؛ فتشرق عند ذلك الأرض بنور ربها عندما يتجلى وينزل للفصل بينهم، وذلك اليوم يجعل الله للخلق قوة، وينشئهم نشأة يَقْوَوْن على ألَّا يحرقهم نوره ويتمكنون أيضًا من رؤيته، وإلا؛ فنوره تعالى عظيم، لو كشفه؛ لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه. ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾؛ أي: كتاب الأعمال وديوانه، وضع ونشر ليقرأ ما فيه من الحسنات والسيئات؛ كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩]، ويقال للعامل

مـن تمـام العـدل والإنصـاف: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء: ١٤]. ﴿ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾: ليسـألوا عـن التبليغ وعـن أممهم ويشـهدوا عليهـم، ﴿ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾: مـن الملائكة وأعضـاء الإنسـان[1] والأرض، ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾؛ أي: العدل التام والقسـط العظيم؛ لأنه حساب صادر ممن لا يظلم مثقال ذرة ومن هو محيط بكل شـيء وكتابه الذي هـو اللوح المحفـوظ محيط بكل مـا عملوه، والحفظـة الكرام الذيـن لا يعصـون ربهـم قـد كتبت عليهم مـا عملـوه، وأعدل الشـهداء قد شـهدوا على ذلك الحكم، فحكـم بذلك من يعلم مقادير الأعمال ومقادير استحقاقها للثواب والعقاب، فيحصل حكم يقر به الخلق، ويعترفون لله بالحمد والعدل، ويعرفون به مـن عظمته وعلمه وحكمتـه ورحمته ما لم يخطر بقلوبهم، ولا تعبر عنه ألسنتهم.

﴿٧٠﴾ ولهـذا قـال: ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿٧١﴾ لمـا ذكر تعالـى حكمه بيـن عباده الذيـن جمعهم في خلقـه ورزقه وتدبيـره واجتماعهم في الدنيـا واجتماعهم في موقـف القيامـة - فرقهم تعالـى عند جزائهم كمـا افترقوا في الدنيا بالإيمـان والكفر والتقوى والفجـور، فقال: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ﴾؛ أي: سـوقًا عنيفًـا، يضربـون بالسياط الموجعة من الزبانية الغلاظ الشداد، إلى شر محبس وأفظـع موضـع، وهـي جهنم، التـي قد جمعـت كل عذاب، وحضرها كل شـقاء، وزال عنها كل سـرور؛ كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾ [الطور: ١٣]؛ أي: يدفعـون إليها دفعًـا، وذلك لامتناعهم من دخولها ويسـاقون إليهـا، ﴿ زُمَرًا ﴾؛ أي: فرقًـا متفرقة، كل زمـرة مع الزمرة التي تناسـب عملها وتشـاكل سـعيها، يلعـن بعضهم بعضًـا ويبرأ بعضهـم مـن بعـض، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا ﴾؛ أي: وصلوا إلى سـاحتها، ﴿ فُتِحَتْ ﴾: لهـم؛ أي: لأجلهـم ﴿ أَبْوَٰبُهَا ﴾: لقدومهـم وقـرى لنزولهـم، ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ ﴾: مهنِّين لهـم بالشـقاء الأبـدي والعـذاب السـرمدي، وموبخين لهم علـى الأعمال التي أوصلتهم إلـى هذا المحل الفظيع: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾؛ أي: من جنسـكم، تعرفونهم وتعرفون صدقهم، وتتمكنون من التلقي عنهم، ﴿ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ ﴾: التـي أرسـلهم اللـه بهـا، الدالة على الحـق اليقين بأوضـح البراهيـن، ﴿ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾؛ أي: وهـذا يوجب عليكم اتباعهـم والحذر من عـذاب هذا اليوم باسـتعمال تقـواه، وقـد كانت حالكـم بخلاف هـذه الحال، ﴿ قَالُواْ ﴾: مقريـن بذنبهـم وأن حجـة اللـه قامـت عليهـم: ﴿ بَلَىٰ ﴾: قـد جاءتنـا رسـل ربنا بآياتـه وبيناتـه، وبينـوا لنا غايـة التبيين، وحذرونا من هـذا اليوم. ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ ﴾؛ أي: بسـبب كفرهـم وجبـت عليهم كلمة العذاب التي هي لكل من كفر بآيات الله وجحد مـا جـاءت بـه المرسـلون، فاعترفـوا بذنبهـم وقيـام الحجة عليهم.

﴿٧٢﴾ ﴿ قِيلَ ﴾ لهـم على وجه الإهانة والإذلال: ﴿ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ ﴾: كل طائفـة تدخـل مـن الباب الذي يناسـبها ويوافـق عملهـا، ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾: أبـدًا لا يظعنـون عنهـا ولا يُفتَّـرُ عنهـم العـذاب سـاعة ولا يُنظـرون، ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾؛ أي: بئـس المقـر النـار مقرهـم، وذلـك لأنهـم تكبروا علـى الحق، فجازاهم اللـه من جنس عملهم بالإهانة والذل والخزي.

﴿٧٣﴾ ثـم قـال عـن أهـل الجنـة: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ ﴾: بتوحيـده والعمـل بطاعتـه سَـوْقَ إكـرام وإعـزاز يحشـرون وفدًا علـى النجائـب ﴿ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾: فرحين مستبشرين، كل زمرة مع الزمرة التي تناسب عملها وتشاكله، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا ﴾؛ أي: وصلـوا لتلـك الرحـاب الرحيبـة والمنازل الأنيقة، وهبَّ عليهم ريحها ونسيمها وآن خلودها

(١) عبارة: «وأعضاء الإنسان» وردت في ع، ط: «والأعضاء».

وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ
رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

سُورَةُ غَافِرٍ (ترتيبها ٤٠ — آياتها ٨٥)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ
ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ
إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ
نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ
لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ
فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى
ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ
وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ
لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا
فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾

ونعيمها، ﴿ وَفُتِحَتْ ﴾ لهم ﴿ أَبْوَٰبُهَا ﴾: فتح إكرام لكرام الخلق ليكرموا فيها، ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾: تهنئة لهم وترحيبًا: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾؛ أي: سلام عليكم من كل آفة وشر حال عليكم ﴿ طِبْتُمْ ﴾؛ أي: طابت قلوبكم بمعرفة الله ومحبته وخشيته، وألسنتكم بذكره وجوارحكم بطاعته. فبسبب طيبكم ادخلوها ﴿ خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾: لأنها الدار الطيبة، ولا يليق بها إلا الطيبون. وقال في النار: ﴿ فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾، وفي الجنة ﴿ وَفُتِحَتْ ﴾: بالواو؛ إشارة إلى أن أهل النار بمجرد وصولهم إليها؛ فتحت لهم أبوابها من غير إنظار ولا إمهال، وليكون فتحها في وجوههم وعلى وصولهم أعظمَ لحرها وأشدَّ لعذابها، وأما الجنة؛ فإنها الدار العالية الغالية، التي لا يوصل إليها ولا ينالها كل أحد إلا من أتى بالوسائل الموصلة إليها، ومع ذلك؛ فيحتاجون لدخولها لشفاعة أكرم الشفعاء عليه، فلم تفتح لهم بمجرد ما وصلوا إليها، بل يستشفعون إلى الله بمحمد ﷺ، حتى يشفع، فيشفعه الله تعالى.

وفي الآيات دليل على أن النار والجنة لهما أبواب تفتح وتغلق، وأن لكل منهما خزنة، وهما الداران الخالصتان اللتان لا يدخل فيهما إلا من استحقهما؛ بخلاف سائر الأمكنة والدور.

﴿٧٤﴾ ﴿ وَقَالُوا۟ ﴾ عند دخولهم فيها واستقرارهم حامدين ربهم على ما أولاهم ومَنَّ عليهم وهداهم: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ ﴾؛ أي: وعدنا الجنة على ألسنة رسله، إن آمنا وصلحنا؛ فوفَّى لنا بما وعدنا وأنجز لنا ما منَّانا، ﴿ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ ﴾؛ أي: أرض الجنة ﴿ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ﴾؛ أي: ننزل منها أي مكان شئنا، ونتناول منها أي نعيم أردنا، ليس ممنوعًا عنا شيء نريده، ﴿ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾: الذين اجتهدوا بطاعة ربهم في زمن قليل منقطع، فنالوا بذلك خيرًا عظيمًا باقيًا مستمرًّا. وهذه الدار التي تستحق المدح على الحقيقة، التي يكرم الله فيها خواص خلقه، ورضيها الجواد الكريم لهم نزلًا، وبنى أعلاها وأحسنها وغرسها بيده وحشاها من رحمته وكرامته ما ببعضه يفرح الحزين، ويزول الكدر، ويتم الصفاء.

﴿٧٥﴾ ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ﴾: أيها الرائي ذلك اليوم العظيم ﴿ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ ﴾؛ أي: قد قاموا في خدمة ربهم واجتمعوا حول عرشه خاضعين لجلاله معترفين بكماله مستغرقين بجماله، ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾؛ أي: ينزهونه عن كل ما لا يليق بجلاله مما نسب إليه المشركون وما لم ينسبوا. ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم ﴾؛ أي: بين الأولين والآخرين من الخلق ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾: الذي لا اشتباه فيه ولا إنكار ممن عليه الحق. ﴿ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾: لم يذكر القائل من هو؛ ليدل ذلك على أن جميع الخلق نطقوا بحمد ربهم وحكمته على ما قضى به على أهل الجنة وأهل النار، حمد فضل وإحسان، وحمد عدل وحكمة.

تم تفسير سورة الزمر بحمد الله وعونه.



تفسير سورة المؤمن

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣ ﴾.

﴿٢﴾، ﴿٣﴾ يخبر تعالى عن كتابه العظيم وأنه صادر ومنزل من الله المألوه المعبود لكماله وانفراده بأفعاله. ﴿ ٱلۡعَزِيزِ ﴾: الذي قهر بعزته كل مخلوق. ﴿ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ ﴾: بكل شيء، ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ ﴾: للمذنبين، ﴿ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ ﴾: من التائبين، ﴿ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ﴾: على من تجرأ على الذنوب ولم يتب منها، ﴿ ذِي ٱلطَّوۡلِ ﴾؛ أي: التفضل والإحسان الشامل. فلما قرر ما قرر من كماله، وكان ذلك موجبًا لأن يكون وحده المألوه الذي تخلص له الأعمال؛ قال: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣ ﴾.

ووجه المناسبة بذكر نزول القرآن من الله الموصوف بهذه الأوصاف أن هذه الأوصاف مستلزمة لجميع ما يشتمل عليه القرآن من المعاني؛ فإن القرآن: إما إخبار عن أسماء الله وصفاته وأفعاله، وهذه أسماء وأوصاف وأفعال. وإما إخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلة؛ فهي من تعليم العليم لعباده. وإما إخبار عن نعمه العظيمة وآلائه الجسيمة وما يوصل إلى ذلك من الأوامر؛ فذلك يدل عليه قوله: ﴿ ذِي ٱلطَّوۡلِ ﴾. وإما إخبار عن نقمه الشديدة وعما يوجبها ويقتضيها من المعاصي؛ فذلك يدل عليه قوله: ﴿ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ﴾. وإما دعوة للمذنبين إلى التوبة والإنابة والاستغفار؛ فذلك يدل عليه قوله: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ﴾. وإما إخبار بأنه وحده المألوه المعبود وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على ذلك والحث عليه والنهي عن عبادة ما سوى الله وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على فسادها والترهيب منها؛ فذلك يدل عليه قوله تعالى: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾. وإما إخبار عن حكمه الجزائي العدل وثواب المحسنين وعقاب العاصين؛ فهذا يدل عليه قوله: ﴿ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣ ﴾. فهذا جميع ما يشتمل عليه القرآن من المطالب العاليات.

﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٤ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦ ﴾.

﴿٤﴾ يخبر تبارك وتعالى أنه ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾، والمراد بالمجادلة هنا المجادلة لرد آيات الله ومقابلتها بالباطل؛ فهذا من صنيع الكفار، وأما المؤمنون؛ فيخضعون للحق ليدحضوا به الباطل، ولا ينبغي للإنسان أن يغتر بحالة الإنسان الدنيوية ويظن أن إعطاء الله إياه في الدنيا دليل على محبته له وأنه على الحق، ولهذا قال: ﴿ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٤ ﴾؛ أي: ترددهم فيها بأنواع التجارات والمكاسب، بل الواجب على العبد أن يعتبر الناس بالحق وينظر إلى الحقائق الشرعية ويزن بها الناس، ولا يزن الحق بالناس كما عليه من لا علم ولا عقل له.

﴿٥﴾ ثم هدد من جادل بآيات الله ليبطلها كما فعل من قبله من الأمم من ﴿ قَوۡمُ نُوحٖ ﴾ وعاد ﴿ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ ﴾، الذين تحزبوا وتجمعوا على الحق ليبطلوه وعلى الباطل لينصروه، وأنه بلغت بهم الحال وآل بهم التحزب إلى أنه همت ﴿ كُلُّ أُمَّةِۭ ﴾: من الأمم ﴿ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ ﴾؛ أي: يقتلوه، وهذا أبلغ ما يكون للرسل، الذين هم قادة أهل الخير، الذين معهم الحق الصرف، الذي لا شك فيه ولا اشتباه، هموا بقتلهم؛ فهل بعد هذا البغي والضلال والشقاء إلا العذاب العظيم الذي لا يخرجون منه؟! ولهذا قال في عقوبتهم الدنيوية والأخروية: ﴿ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ ﴾؛ أي: بسبب تكذيبهم وتحزبهم ﴿ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥ ﴾: كان أشد العقاب وأفظعه، إن هو إلا صيحة أو حاصب ينزل عليهم، أو يأمر الأرض أن تأخذهم أو البحر أن يغرقهم؛ فإذا هم خامدون.

﴿٦﴾ ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾؛ أي: كما حقت على أولئك حقت عليهم كلمة الضلال التي نشأت عنها كلمة العذاب، ولهذا قال: ﴿ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦ ﴾.

رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ
مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ
يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ
أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾
قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا
فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ
ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ
ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ
لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾
فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾
رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن
يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ
عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾

﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿٧﴾ يخبر تعالى عن كمال لطفه تعالى بعباده المؤمنين، وما قيض لأسباب سعادتهم من الأسباب الخارجة عن قُدرِهم من استغفار الملائكة المقربين لهم ودعائهم لهم بما فيه صلاح دينهم وآخرتهم، وفي ضمن ذلك الإخبار عن شرف حملة العرش ومن حوله وقربهم من ربهم وكثرة عبادتهم ونصحهم لعباد الله لعلمهم أن الله يحب ذلك منهم، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ ﴾؛ أي: عرش الرحمن، الذي هو سقف المخلوقات وأعظمها وأوسعها وأحسنها وأقربها من الله تعالى، الذي وسع الأرض والسماوات والكرسي، وهؤلاء الملائكة قد وكَّلهم الله تعالى بحمل عرشه العظيم؛ فلا شك أنهم من أكبر الملائكة وأعظمهم وأقواهم، واختيار الله لهم لحمل عرشه وتقديمهم في الذكر وقربهم منه يدل على أنهم أفضل أجناس الملائكة عليهم السلام؛ قال تعالى: ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحاقة: ١٧]، ﴿ وَمَنْ حَوْلَهُۥ ﴾: من الملائكة المقربين في المنزلة والفضيلة، ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾: هذا مدح لهم بكثرة عبادتهم لله تعالى، وخصوصًا التسبيح والتحميد، وسائر العبادات تدخل في تسبيح الله وتحميده؛ لأنها تنزيه له عن كون العبد يصرفها لغيره وحمد له تعالى، بل الحمد هو العبادة لله تعالى، وأما قول العبد: «**سبحان الله وبحمده**»[1]؛ فهو داخل في ذلك، وهو من جملة العبادات، ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾: وهذا من جملة فوائد الإيمان وفضائله الكثيرة جدًّا؛ أن الملائكة الذين يؤمنون بالله ولا ذنوب عليهم يستغفرون لأهل الإيمان؛ فالمؤمن بإيمانه تسبب لهذا الفضل العظيم.

ولما كانت المغفرة لها لوازم لا تتم إلا بها - غير ما يتبادر إلى كثير من الأذهان أن سؤالها وطلبها غايته مجرد مغفرة الذنوب - ذكر تعالى صفة دعائهم لهم بالمغفرة بذكر ما لا تتم إلا به، فقال: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾: فعلمك قد أحاط بكل شيء، لا يخفى عليك منه خافية ولا يعزب عن علمك مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ورحمتك وسعت كل شيء؛ فالكون علويه وسفليه قد امتلأ برحمة الله تعالى، ووسعتهم، ووصل إلى ما وصل إليه خلقه، ﴿ فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ ﴾: من الشرك والمعاصي، ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ ﴾: باتباع رسلك بتوحيدك وطاعتك، ﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ ﴾؛ أي: قهم العذاب نفسه، وقهم أسباب العذاب.

﴿٨﴾ ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ ﴾: على ألسنة رسلك ﴿ وَمَن صَلَحَ ﴾؛ أي: صلح بالإيمان والعمل الصالح ﴿ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ ﴾: زوجاتهم وأزواجهن وأصحابهم ورفقائهم ﴿ وَذُرِّيَّٰتِهِمْۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ﴾: القاهر لكل شيء؛ فبعزتك تغفر ذنوبهم، وتكشف عنهم

(١) البخاري (٦٦٨٢)، مسلم (٢٦٩٤).

المحذور، وتوصلهم بها إلى كل خير. ﴿ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾﴾: الذي يضع الأشياء مواضعها؛ فلا نسألك يا ربنا أمرًا تقتضي حكمتك خلافه، بل من حكمتك التي أخبرت بها على ألسنة رسلك واقتضاها فضلك - المغفرة للمؤمنين.

﴿٩﴾ ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ أي: الأعمال السيئة وجزاءها؛ لأنها تسوء صاحبها، ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥ﴾: لأن رحمتك لم تزل مستمرة على العباد، لا يمنعها إلا ذنوب العباد وسيئاتهم؛ فمن وقيته السيئات؛ وفقته للحسنات وجزائها الحسن. ﴿وَذَٰلِكَ﴾؛ أي: زوال المحذور بوقاية السيئات وحصول المحبوب بحصول الرحمة؛ ﴿هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾: الذي لا فوز مثله، ولا يتنافس المتنافسون بأحسن منه.

وقد تضمن هذا الدعاء من الملائكة: كمال معرفتهم بربهم، والتوسل إلى الله بأسمائه الحسنى التي يحب من عباده التوسل بها إليه، والدعاء بما يناسب ما دعوا الله فيه. فلما كان دعاؤهم بحصول الرحمة وإزالة أثر ما اقتضته النفوس البشرية التي علم الله نقصها واقتضاءها لما اقتضته من المعاصي ونحو ذلك من المبادئ والأسباب التي قد أحاط الله بها علمًا؛ توسلوا بالرحيم العليم. وتضمن كمال أدبهم مع الله تعالى بإقرارهم بربوبيته لهم الربوبية العامة والخاصة، وأنه ليس لهم من الأمر شيء، وإنما دعاؤهم لربهم صدر من فقير بالذات من جميع الوجوه لا يدلي على ربه بحالة من الأحوال، إن هو إلا فضل الله وكرمه وإحسانه. وتضمن موافقتهم لربهم تمام الموافقة؛ بمحبة ما يحبه من الأعمال، التي هي العبادات التي قاموا بها واجتهدوا اجتهاد المحبين، ومن العمال الذين هم المؤمنون، الذين يحبهم الله تعالى من بين خلقه؛ فسائر الخلق المكلفين يبغضهم الله إلا المؤمنين منهم؛ فمن محبة الملائكة لهم دعوا الله واجتهدوا في صلاح أحوالهم؛ لأن الدعاء للشخص من أدل الدلائل على محبته؛ لأنه لا يدعو إلا لمن يحبه.

وتضمن ما شرحه الله، وفصله من دعائهم - بعد قوله: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ - التنبيه اللطيف على كيفية تدبر كتابه، وألَّا يكون المتدبر مقتصرًا على مجرد معنى اللفظ بمفرده، بل ينبغي له أن يتدبر معنى اللفظ؛ فإذا فهمه فهمًا صحيحًا على وجهه؛ نظر بعقله إلى ذلك الأمر والطرق الموصلة إليه، وما لا يتم إلا به، وما يتوقف عليه؛ وجزم بأن الله أراده؛ كما يجزم أنه أراد المعنى الخاص الدال عليه اللفظ، والذي يوجب الجزم له، بأن الله أراده أمران: أحدهما: معرفته وجزمه بأنه من توابع المعنى والمتوقف عليه. الثاني: علمه بأن الله بكل شيء عليم، وأن الله أمر عباده بالتدبر والتفكر في كتابه. وقد علم تعالى ما يلزم من تلك المعاني، وهو المخبر بأن كتابه هدى ونور وتبيان لكل شيء، وأنه أفصح الكلام وأجله إيضاحًا؛ فبذلك يحصل للعبد من العلم العظيم والخير الكثير بحسب ما وفقه الله له.

وقد كان في تفسيرنا هذا كثير من هذا منَّ به الله علينا، وقد يخفى في بعض الآيات مأخذه على غير المتأمل صحيح الفكرة، ونسأله تعالى أن يفتح علينا من خزائن رحمته ما يكون سببًا لصلاح أحوالنا وأحوال المسلمين، فليس لنا إلا التعلق بكرمه والتوسل بإحسانه الذي لا نزال نتقلب فيه في كل الآنات وفي جميع اللحظات، ونسأله من فضله أن يقينا شر أنفسنا المانع والمعوق لوصول رحمته؛ إنه الكريم الوهاب، الذي تفضل بالأسباب ومسبباتها. وتضمن ذلك أن المقارن من زوج وولد وصاحب يسعد بقرينه ويكون اتصاله به سببًا لخير يحصل له خارج عن عمله، وسبب عمله؛ كما كانت الملائكة تدعو للمؤمنين ولمن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، وقد يقال: إنه لا بد من وجود صلاحهم؛ لقوله: ﴿وَمَن صَلَحَ﴾؛ فحينئذ يكون ذلك من نتيجة عملهم. والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾.

﴿١٠﴾ يخبر تعالى عن الفضيحة والخزي الذي يصيب الكافرين وسؤالهم الرجعة والخروج من النار، وامتناع ذلك عليهم وتوبيخهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: أطلقه ليشمل أنواع الكفر كلها من الكفر بالله أو بكتبه أو برسله أو باليوم الآخر، حين يدخلون النار، ويقرون أنهم مستحقونها؛ لما فعلوه من الذنوب والأوزار، فيمقتون أنفسهم لذلك أشد

المقت، ويغضبون عليها غاية الغضب، فينادون عند ذلك ويقال لهم: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ﴾؛ أي: إياكم ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾؛ أي: حين دعتكم الرسل وأتباعهم إلى الإيمان، وأقاموا لكم من البينات ما تبين به الحق، فكفرتم وزهدتم في الإيمان الذي خلقكم الله له، وخرجتم من رحمته الواسعة، فمقتكم وأبغضكم؛ فهذا ﴿أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: فلم يزل هذا المقت مستمرًّا عليكم، والسخط من الكريم حالًّا بكم، حتى آلت بكم الحال إلى ما آلت؛ فاليوم حل عليكم غضب الله وعقابه، حين نال المؤمنون رضوان الله وثوابه.

﴿١١﴾ فتمنوا الرجوع و﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ﴾: يريدون الموتة الأولى وما بين النفختين على ما قيل، أو العدم المحض قبل إيجادهم ثم أماتهم بعد ما أوجدهم، ﴿وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾: الحياة الدنيا والحياة الأخرى، ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾؛ أي: تحسروا وقالوا ذلك، فلم يفد ولم ينجع.

﴿١٢﴾ ووبخوا على عدم فعل أسباب النجاة، فقيل لهم: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾؛ أي: إذا دعي لتوحيده وإخلاص العمل له ونهي عن الشرك به، ﴿كَفَرْتُمْ﴾: به، واشمأزت لذلك قلوبكم ونفرتم غاية النفور، ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾؛ أي: هذا الذي أنزلكم هذا المنزل وبوأكم هذا المقيل والمحل أنكم تكفرون بالإيمان وتؤمنون بالكفر، ترضون بما هو شر وفساد في الدنيا والآخرة، وتكرهون ما هو خير وصلاح في الدنيا والآخرة، تؤثرون سبب الشقاوة والذل والغضب، وتزهدون بما هو سبب الفوز والفلاح والظفر: ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦]. ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾: العلي: الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه: علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر، ومن علو قدره كمال عدله تعالى، وأنه يضع الأشياء مواضعها، ولا يساوي بين المتقين والفجار. الكبير: الذي له الكبرياء والعظمة والمجد في أسمائه وصفاته وأفعاله، المُتنزِّهُ عن كل آفة وعيب ونقص؛ فإذا كان الحكم له تعالى، وقد حكم عليكم بالخلود الدائم؛ فحكمه لا يغير ولا يبدل.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾.

﴿١٣﴾ يذكر تعالى نعمه العظيمة على عباده بتبيين الحق من الباطل بما يري عباده من آياته النفسية والآفاقية والقرآنية الدالة على كل مطلوب مقصود، الموضحة للهدى من الضلال، بحيث لا يبقى عند الناظر فيها والمتأمل لها أدنى شك في معرفة الحقائق، وهذا من أكبر نعمه على عباده حيث لم يبق الحق مشتبهًا ولا الصواب ملتبسًا، بل نوَّع الدلالات ووضح الآيات؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة، وكلما كانت المسائل أجلّ وأكبر؛ كانت الدلائل عليها أكثر وأيسر؛ فانظر إلى التوحيد، لما كانت مسألته من أكبر المسائل، بل أكبرها؛ كثرت الأدلة عليها العقلية والنقلية وتنوعت، وضرب الله لها الأمثال، وأكثر لها من الاستدلال، ولهذا ذكرها في هذا الموضع، ونبه على جملة من أدلتها، فقال: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

ولما ذكر أنه يري عباده آياته؛ نبه على آية عظيمة، فقال: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾؛ أي: مطرًا به ترتزقون وتعيشون أنتم وبهائمكم، وذلك يدل على أن النعم كلها منه؛ فمنه نعم الدين، وهي المسائل الدينية والأدلة عليها وما يتبع ذلك من العمل بها، والنعم الدنيوية كلها كالنعم الناشئة عن الغيث الذي تحيا به البلاد والعباد، وهذا يدل دلالة قاطعة أنه وحده هو المعبود الذي يتعين إخلاص الدين له؛ كما أنه وحده المنعم. ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾: بالآيات حين يذكر بها ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾: إلى الله تعالى بالإقبال على محبته وخشيته وطاعته والتضرع إليه؛ فهذا الذي ينتفع بالآيات، وتصير رحمة في حقه، ويزداد بها بصيرة.

﴿١٤﴾ ولما كانت الآيات تثمر التذكر، والتذكر يوجب الإخلاص لله؛ رتب الأمر على ذلك بالفاء الدالة على السببية، فقال: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾: وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة. والإخلاص معناه تخليص القصد لله تعالى في جميع العبادات الواجبة والمستحبة، حقوق الله وحقوق عباده؛ أي: أخلصوا لله تعالى في كل ما تدينونه به، وتتقربون به إليه، ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾: لذلك؛

فلا تبالوا بهم، ولا يثنكم ذلك عن دينكم، ولا تأخذكم بالله لومة لائم؛ فإن الكافرين يكرهون الإخلاص لله وحده غاية الكراهة؛ كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الزمر: ٤٥].

﴿١٥﴾ ثم ذكر من جلاله وكماله ما يقتضي إخلاص العبادة له، فقال: ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ ﴾؛ أي: العليُّ الأعلى، الذي استوى على العرش واختص به وارتفعت درجاته ارتفاعًا باين به مخلوقاته وارتفع به قدره وجلت أوصافه وتعالت ذاته أن يتقرب إليه إلا بالعمل الزكي الطاهر المطهر، وهو الإخلاص الذي يرفع درجات أصحابه ويقربهم إليه ويجعلهم فوق خلقه. ثم ذكر نعمته على عباده بالرسالة والوحي، فقال: ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ ﴾؛ أي: الوحي الذي للأرواح والقلوب بمنزلة الأرواح للأجساد؛ فكما أن الجسد بدون الروح لا يحيا ولا يعيش؛ فالروح والقلب بدون روح الوحي لا يصلح ولا يفلح؛ فهو تعالى ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ ﴾: الذي فيه نفع العباد ومصلحتهم ﴿ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾: وهم الرسل الذين فضلهم، واختصهم لوحيه ودعوة عباده.

والفائدة في إرسال الرسل هو تحصيل سعادة العباد في دينهم ودنياهم وآخرتهم، وإزالة الشقاوة عنهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم، ولهذا قال: ﴿ لِيُنذِرَ ﴾: من ألقى الله إليه الوحي ﴿ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ ﴾؛ أي: يخوف العباد بذلك ويحثهم على الاستعداد له بالأسباب المنجية مما يكون فيه؛ وسماه ﴿ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ ﴾ لأنه يلتقي فيه الخالق والمخلوق، والمخلوقون بعضهم مع بعض، والعاملون وأعمالهم وجزاؤهم.

﴿١٦﴾ ﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ﴾؛ أي: ظاهرون على الأرض، وقد اجتمعوا في صعيد واحد لا عوج ولا أمت فيه، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر. ﴿ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ﴾: لا من ذواتهم ولا من أعمالهم ولا من جزاء تلك الأعمال ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾؛ أي: من هو المالك لذلك اليوم العظيم الجامع للأولين والآخرين، أهل السماوات وأهل الأرض، الذي انقطعت فيه الشركة في الملك وتقطعت الأسباب، ولم يبق إلا الأعمال الصالحة أو السيئة، الملك ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾؛ أي: المنفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله؛

ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾

فلا شريك له في شيء منها بوجه من الوجوه. القهار لجميع المخلوقات، الذي دانت له المخلوقات وذلت وخضعت، خصوصًا في ذلك اليوم الذي عنت فيه الوجوه للحي القيوم، يومئذ لا تكَلَّمُ نفس إلا بإذنه.

﴿١٧﴾ ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾: في الدنيا من خير وشر قليل وكثير. ﴿ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ﴾: على أحد بزيادة في سيئاته أو نقص من حسناته. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ ﴾؛ أي: لا تستبطئوا ذلك اليوم؛ فإنه آت، وكل آت قريب، وهو أيضًا سريع المحاسبة لعباده يوم القيامة لإحاطة علمه وكمال قدرته.

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ﴾.

(١٨) يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ ﴾؛ أي: يوم القيامة التي قد أزفت وقربت، وآن الوصول إلى أهوالها وقلاقلها وزلازلها. ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ ﴾؛ أي: قد ارتفعت وبقيت أفئدتهم هواء ووصلت القلوب من الروع والكرب إلى الحناجر شاخصة أبصارهم ﴿كَٰظِمِينَ ﴾: لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابًا، وكاظمين على ما في قلوبهم من الروع الشديد والمزعجات الهائلة. ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ ﴾؛ أي: قريب ولا صاحب ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) ﴾: لأن الشفعاء لا يشفعون في الظالم نفسه بالشرك، ولو قدرت شفاعتهم؛ فالله تعالى لا يرضى شفاعتهم فلا يقبلها.

(١٩) ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ ﴾: وهو النظر الذي يخفيه العبد من جليسه ومقارنه، وهو نظر المسارقة، ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ (١٩) ﴾: مما لم يبينه العبد لغيره؛ فالله تعالى يعلم ذلك الخفي؛ فغيره من الأمور الظاهرة من باب أولى وأحرى.

(٢٠) ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ﴾: لأن قوله حق وحكمه الشرعي حق وحكمه الجزائي حق، وهو المحيط علمًا وكتابة وحفظًا بجميع الأشياء، وهو المنزه عن الظلم والنقص وسائر العيوب، وهو الذي يقضي قضاءه القدري، الذي إذا شاء شيئًا كان، وما لم يشأ لم يكن، وهو الذي يقضي بين عباده المؤمنين والكافرين في الدنيا ويفصل بينهم بفتح ينصر به أولياءه وأحبابه. ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ ﴾: وهذا شامل لكل ما عبد من دون الله، ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ﴾: لعجزهم وعدم إرادتهم للخير واستطاعتهم لفعله. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾: لجميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات. ﴿ٱلْبَصِيرُ (٢٠) ﴾: بما كان، وما يكون، وما يُبْصَرُ، وما لا يُبْصَرُ، وما يعلم العباد وما لا يعلمون.

قال في أول هاتين الآيتين: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ ﴾، ثم وصفها بهذه الأوصاف المقتضية للاستعداد لذلك اليوم العظيم؛ لاشتمالها على الترغيب والترهيب.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٢٢) ﴾.

(٢١)، (٢٢) يقول تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي: بقلوبهم وأبدانهم سير نظر واعتبار وتفكر في الآثار، ﴿فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من المكذبين، فسيجدونها شر العواقب؛ عاقبة الهلاك والدمار والخزي والفضيحة، وقد كانوا أشد منهم قوة من هؤلاء في العَدد والعُدد وكبر الأجسام، وأشد آثارًا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ ﴾: من البناء والغرس، وقوة الآثار تدل على قوة المؤثر فيها وعلى تمنعه بها، ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ﴾: بعقوبته ﴿بِذُنُوبِهِمْ ﴾: حين أصروا واستمروا عليها. ﴿إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٢٢) ﴾: فلم تغن قوتهم عند قوة الله شيئًا، بل من أعظم الأمم قوة قوم عاد الذين قالوا: من أشد منا قوة؟! أرسل الله إليهم ريحًا أضعفت قواهم ودمرتهم كل تدمير.

ثم ذكر نموذجًا من أحوال المكذبين بالرسل وهو فرعون وجنوده فقال:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٢٣)
إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ
كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟
ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا
كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ (٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ
ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ
أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ
بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ (٢٧)
وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ
أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ
مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ
صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى
مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ
فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ
أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ (٢٩) وَقَالَ
ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ (٣٠)
مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ
ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١) وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ
تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ
مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ

فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ
ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ
مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ
أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ
ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ
ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا وَكَذَٰلِكَ
زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ
فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ
ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ
ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾
مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن
ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ
يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى
ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ
وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ
ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا
وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ
أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ
أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ
سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾
ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ
أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾.

﴿٢٣﴾ أي: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴾: إلى جنس هؤلاء المكذبين ﴿ مُوسَىٰ ﴾: ابن عمران ﴿ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾: العظيمة الدالة دلالة قطعية على حقيقة ما أرسل به وبطلان ما عليه من أرسل إليهم من الشرك وما يتبعه ﴿ وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ ﴾؛ أي: حجة بينة تتسلط على القلوب فتذعن لها كالحية والعصا ونحوهما من الآيات البينات التي أيد الله بها موسى، ومكنه مما دعا إليه من الحق.

﴿٢٤﴾ والمبعوث إليهم ﴿ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ﴾: وزيره ﴿ وَقَٰرُونَ ﴾: الذي كان من قوم موسى فبغى عليهم بماله، فكلهم ردوا عليه أشد الرد، ﴿ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿٢٥﴾ ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا ﴾: وأيده الله بالمعجزات الباهرة الموجبة لتمام الإذعان؛ لم يقابلوها بذلك، ولم يكفهم مجرد الترك والإعراض، بل ولا إنكارها ومعارضتها بباطلهم، بل وصلت بهم الحال الشنيعة إلى أن ﴿ قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾: حيث كادوا هذه المكيدة وزعموا أنهم إذا قتلوا أبناءهم لم يقووا، وبقوا في رقهم وتحت عبوديتهم. ﴿ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ ﴾: حيث لم يتم لهم ما قصدوا، بل أصابهم ضد ما قصدوا، أهلكهم الله، وأبادهم عن آخرهم.

وتدبر هذه النكتة التي يكثر مرورها بكتاب الله تعالى إذا كان السياق في قصة معينة أو على شيء معين، وأراد الله أن يحكم على ذلك المعيّن بحكم لا يختص به؛ ذكر الحكم وعلقه على الوصف العام؛ ليكون أعم، وتندرج فيه الصورة التي سيق الكلام لأجلها، وليندفع الإيهام باختصاص الحكم بذلك المعين؛ فلهذا لم يقل: وما كيدهم إلا في ضلال، بل قال: ﴿ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿٢٦﴾ ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ﴾: متكبرًا متجبرًا مغررًا لقومه السفهاء: ﴿ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ﴾؛ أي: زعم - قبحه الله - أنه لولا مراعاة خواطر قومه؛ لقتله، وأنه لا يمنعه منه دعاء ربه. ثم ذكر الحامل له على إرادة قتله، وأنه نصح لقومه وإزالة للشر في الأرض، فقال: ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾: الذي أنتم عليه ﴿ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ ﴾: وهذا من أعجب ما يكون! أن يكون شر الخلق ينصح الناس عن اتباع خير الخلق. هذا من التمويه والترويج الذي لا يدخل إلا عقل من قال الله فيهم: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الزخرف: ٥٤].

﴿٢٧﴾ ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ ﴾: حين قال فرعون تلك المقالة الشنيعة التي أوجبها له طغيانه واستعان فيها بقوته واقتداره مستعينًا موسى بربه: ﴿ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم ﴾؛ أي: امتنعت بربوبيته التي دبر بها جميع الأمور ﴿ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ ﴾؛ أي: يحمله تكبره وعدم إيمانه بيوم الحساب على الشر والفساد، يدخل فيه فرعون وغيره كما تقدم قريبًا في القاعدة، فمنعه الله تعالى بلطفه من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، وقيض له من الأسباب ما اندفع به عنه شر فرعون وملئه.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ
أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾
وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ
لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤْمِنٞ مِّنْ ءَالِ
فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ
ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا
فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي
يَعِدُكُمْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٞ كَذَّابٞ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ
لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ
بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ
أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ
أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٖ
وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمٗا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾
وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ
مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٖ ﴿٣٣﴾

﴿٢٨﴾ ومن جملة الأسباب هذا الرجل المؤمن الذي من آل فرعون من بيت المملكة، لا بد أن يكون له كلمة مسموعة، وخصوصًا إذا كان يظهر موافقتهم ويكتم إيمانه؛ فإنهم يراعونه في الغالب ما لا يراعونه لو خالفهم في الظاهر؛ كما منع الله رسوله محمدًا ﷺ بعمه أبي طالب من قريش؛ حيث كان أبو طالب كبيرًا عندهم موافقًا لهم على دينهم، ولو كان مسلمًا؛ لم يحصل منه ذلك المنع، فقال ذلك الرجل المؤمن الموفق العاقل الحازم مقبحًا فعل قومه وشناعة ما عزموا عليه: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾؛ أي: كيف تستحلون قتله وهذا ذنبه وجرمه أنه يقول ربي الله، ولم يكن أيضًا قولًا مجردًا عن البينات، ولهذا قال: ﴿ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾: لأن بينته اشتهرت عندهم اشتهارًا علم به الصغير والكبير؛ أي: فهذا لا يوجب قتله؛ فهلا أبطلتم قبل ذلك ما جاء به من الحق، وقابلتم البرهان ببرهان يرده ثم بعد ذلك نظرتم هل يحل قتله إذا ظهرتم عليه بالحجة أم لا؟! فأما وقد ظهرت حجته واستعلى برهانه؛ فبينكم وبين حل قتله مفاوز تنقطع بها أعناق المطي.

ثم قال لهم مقالة عقلية تقنع كل عاقل بأي حالة قدرت، فقال: ﴿ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾: أي: موسى بين أمرين إما كاذب في دعواه أو صادق فيها، فإن كان كاذبًا فكذبه عليه وضرره مختص به، وليس عليكم في ذلك ضرر؛ حيث امتنعتم من إجابته وتصديقه، وإن كان صادقًا، وقد جاءكم بالبينات وأخبركم أنكم إن لم تجيبوه عذبكم الله عذابًا في الدنيا وعذابًا في الآخرة؛ فإنه لا بد أن يصيبكم بعض الذي يعدكم، وهو عذاب الدنيا. وهذا من حسن عقله ولطف دفعه عن موسى؛ حيث أتى بهذا الجواب الذي لا تشويش فيه عليهم، وجعل الأمر دائرًا بين تينك الحالتين، وعلى كل تقدير؛ فقتله سفه وجهل منكم.

ثم انتقل - رضي الله عنه وأرضاه وغفر له ورحمه - إلى أمر أعلى من ذلك وبيان قرب موسى من الحق فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ ﴾؛ أي؛ متجاوز الحد بترك الحق والإقبال على الباطل، ﴿ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ ﴾: بنسبته ما أسرف فيه إلى الله؛ فهذا لا يهديه الله إلى طريق الصواب؛ لا في مدلوله، ولا في دليله، ولا يوفق للصراط المستقيم؛ أي: وقد رأيتم ما دعا موسى إليه من الحق وما هداه الله إلى بيانه من البراهين العقلية والخوارق السماوية؛ فالذي اهتدى هذا الهدى لا يمكن أن يكون مسرفًا ولا كاذبًا. وهذا دليل على كمال علمه وعقله ومعرفته بربه.

﴿٢٩﴾ ثم حذر قومه ونصحهم وخوفهم عذاب الآخرة ونهاهم عن الاغترار بالملك الظاهر، فقال: ﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾؛ أي: في الدنيا ﴿ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾: على رعيتكم تنفذون فيهم ما شئتم من التدبير؛ فهبكم حصل لكم ذلك وتم ولن يتم؛ ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: عذابه ﴿ إِن جَآءَنَا ﴾؟ وهذا من حسن دعوته؛ حيث جعل الأمر مشتركًا بينه وبينهم بقوله: ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا ﴾، وقوله: ﴿ إِن جَآءَنَا ﴾؛ ليفهمهم أنه ينصح لهم كما ينصح لنفسه ويرضى لهم ما يرضى لنفسه، فـ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ﴾: معارضًا له في ذلك ومغررًا لقومه أن يتبعوا موسى: ﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾: وصدق في قوله: ﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ ﴾، ولكن ما الذي رأى؟! رأى أن يستخف قومه فيتابعوه ليقيم بهم رياسته، ولم ير الحق معه، بل رأى الحق مع موسى وجحد به مستيقنًا له، وكذب في قوله: ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾؛ فإن هذا قلب للحق؛ فلو

أمرهم باتباعه اتباعًا مجردًا على كفره وضلاله؛ لكان الشر أهون، ولكنه أمرهم باتباعه، وزعم أن في اتباعه اتباع الحق، وفي اتباع الحق اتباع الضلال.

(٣٠) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ ﴾: مكررًا دعوة قومه، غير آيس من هدايتهم؛ كما هي حالة الدعاة إلى الله تعالى؛ لا يزالون يدعون إلى ربهم، ولا يردهم عن ذلك رادٌّ، ولا يثنيهم عتو مَنْ دعوه عن تكرار الدعوة، فقال لهم: ﴿ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ (٣٠) ﴾؛ يعني: الأمم المكذبين الذين تحزبوا على أنبيائهم واجتمعوا على معارضتهم.

(٣١) ثم بينهم فقال: ﴿ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ ﴾؛ أي: مثل عادتهم في الكفر والتكذيب، وعادة الله فيهم بالعقوبة العاجلة في الدنيا قبل الآخرة، ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ (٣١) ﴾: فيعذبهم بغير ذنب أذنبوه ولا جرم أسلفوه.

(٣٢) ولما خوفهم العقوبات الدنيوية؛ خوفهم العقوبات الأخروية، فقال: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ (٣٢) ﴾؛ أي: يوم القيامة؛ حين ينادي أهل الجنة أهل النار: ﴿ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا ﴾ [الأعراف: ٤٤] إلى آخر الآيات، ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ (٥٠) ﴾ [الأعراف: ٥٠]، وحين ينادي أهل النار مالكًا: ﴿ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَ ﴾، فيقول: ﴿ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ (٧٧) ﴾ [الزخرف: ٧٧]، وحين ينادون ربهم: ﴿ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ (١٠٧) ﴾، فيجيبهم: ﴿ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) ﴾ [المؤمنون: ١٠٧، ١٠٨]، وحين يقال للمشركين: ﴿ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ ﴾ [القصص: ٦٤].

(٣٣) فخوفهم رضي الله عنه هذا اليوم المهول، وتوجع لهم أن أقاموا على شركهم بذلك، ولهذا قال: ﴿ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ ﴾؛ أي: قد ذهب بكم إلى النار. ﴿ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖ ﴾: لا من أنفسكم قوة تدفعون بها عذاب الله ولا ينصركم من دونه من أحد، ﴿ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ (٩) فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ (١٠) ﴾ [الطارق: ٩، ١٠]. ﴿ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ (٣٣) ﴾: لأن الهدى بيد الله تعالى. فإذا منع عبده الهدى لعلمه أنه غير لائق به لخبثه؛ فلا سبيل إلى هدايته.

سورة غافر — الجزء الرابع والعشرون

وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ (٣٤) ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ (٣٥) وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ (٣٦) أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ (٣٧) وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ (٣٨) يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ (٣٩) مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ (٤٠)

٤٧١

(٣٤) ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ ﴾: ابن يعقوب عليهما السلام ﴿ مِن قَبۡلُ ﴾: إتيان موسى ﴿ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ الدالة على صدقه، وأمركم بعبادة ربكم وحده لا شريك له، ﴿ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ﴾: في حياته، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ ﴾: ازداد شككم وشرككم، ﴿ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗا ﴾؛ أي: هذا ظنكم الباطل وحسبانكم الذي لا يليق بالله تعالى؛ فإنه تعالى لا يترك خلقه سدى لا يأمرهم وينهاهم، بل يرسل إليهم رسله؛ والظن أن الله لا يرسل رسولًا ظنٌّ ضلال، ولهذا قال: ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ (٣٤) ﴾: وهذا هو وصفهم الحقيقي الذي وصفوا به موسى ظلمًا وعلوًّا؛ فهم المسرفون بتجاوزهم الحق وعدولهم عنه إلى الضلال، وهم الكذبة حيث نسبوا ذلك إلى الله وكذبوا رسوله؛ فالذي وصفه السرف والكذب لا ينفك عنهما لا يهديه الله ولا يوفقه للخير؛ لأنه رد الحق بعد أن وصل إليه وعرفه؛ فجزاؤه أن يعاقبه الله بأن يمنعه الهدى؛ كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ ﴾ [الصف: ٥]، ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ

﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠]، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢٥٨].

﴿٣٥﴾ ثم ذكر وصف المسرف المرتاب[1]، فقال: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾: التي بيَّنت الحق من الباطل وصارت من ظهورها بمنزلة الشمس للبصر؛ فهم يجادلون فيها على وضوحها ليدفعوها ويبطلوها ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾؛ أي: بغير حجة وبرهان، وهذا وصف لازم لكل من جادل في آيات الله؛ فإنه من المحال أن يجادل بسلطان؛ لأن الحق لا يعارضه معارض؛ فلا يمكن أن يعارض بدليل شرعي أو عقلي أصلًا. ﴿كَبُرَ﴾: ذلك القول المتضمن لرد الحق بالباطل ﴿مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: فالله أشد بغضًا لصاحبه؛ لأنه تضمن التكذيب بالحق والتصديق بالباطل ونسبته إليه، وهذه أمور يشتد بغض الله لها ولمن اتصف بها، وكذلك عباده المؤمنون يمقتون على ذلك أشد المقت موافقة لربهم، وهؤلاء خواص خلق الله تعالى؛ فمقتهم دليل على شناعة من مقتوه. ﴿كَذَلِكَ﴾؛ أي: كما طبع على قلوب آل فرعون، ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾: متكبر في نفسه على الحق برده وعلى الخلق باحتقارهم، جبار بكثرة ظلمه وعدوانه.

﴿٣٦﴾، ﴿٣٧﴾ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾: معارضًا لموسى ومكذبًا له في دعوته إلى الإقرار برب العالمين الذي على العرش استوى وعلى الخلق اعتلى: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا﴾؛ أي: بناء عظيمًا مرتفعًا، والقصد منه: ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾: في دعواه أن لنا ربًّا، وأنه فوق السماوات، ولكنه يريد أن يحتاط فرعون ويختبر الأمر بنفسه، قال الله تعالى في بيان الذي حمله على هذا القول: ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ﴾: فزين له العمل السيئ، فلم يزل الشيطان يزينه وهو يدعو إليه ويحسنه حتى رآه حسنًا ودعا إليه وناظر مناظرة المحقين وهو من أعظم المفسدين. ﴿وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾: الحق بسبب الباطل الذي زين له. ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ﴾: الذي أراد أن يكيد به الحق ويوهم به الناس أنه محق وأن موسى مبطل ﴿إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾؛ أي: خسار وبوار، لا يفيده إلا الشقاء في الدنيا والآخرة.

﴿٣٨﴾ ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ﴾: معيدًا نصيحته لقومه: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾: لا كما يقول لكم فرعون؛ فإنه لا يهديكم إلا طريق الغي والفساد.

﴿٣٩﴾ ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾: يتمتع بها ويتنعم قليلًا، ثم تنقطع وتضمحل؛ فلا تغرنكم وتخدعكم عما خلقتم له. ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾: التي هي محل الإقامة ومنزل السكون والاستقرار؛ فينبغي لكم أن تؤثروها وتعملوا لها عملًا يسعدكم فيها.

﴿٤٠﴾ ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾: من شرك أو فسوق أو عصيان ﴿فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾؛ أي: لا يجازى إلا بما يسوءه ويحزنه بقدر إساءته وما تستحقه؛ لأن جزاء السيئة السوء. ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾: من أعمال القلوب والجوارح وأقوال اللسان؛ ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾؛ أي: يعطون أجرهم بلا حد ولا عد، بل يعطيهم الله ما لا تبلغه أعمالهم.

﴿٤١﴾ ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ﴾: بما قلت لكم، ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾﴾: بترك اتباع نبي الله موسى عليه السلام.

﴿٤٢﴾ ثم فسر ذلك فقال: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾: أنه يستحق أن يعبد من دون الله، والقول على الله بلا علم من أكبر الذنوب وأقبحها. ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ﴾: الذي له القوة كلها، وغيره ليس بيده من الأمر شيء: ﴿الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾﴾: الذي يسرف العباد على أنفسهم ويتجرءون على مساخطه، ثم إذا تابوا وأنابوا إليه؛ كفر عنهم السيئات والذنوب ودفع موجباتها من العقوبات الدنيوية والأخروية.

﴿٤٣﴾ ﴿لَا جَرَمَ﴾؛ أي: حقًّا يقينًا ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾؛ أي: لا يستحق الدعوة إليه والحث على اللجأ إليه في الدنيا ولا في الآخرة لعجزه ونقصه، وأنه لا يملك نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾: تعالى فسيجازي كل عامل بعمله، ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾﴾: وهم الذين أسرفوا على أنفسهم بالتجرؤ على ربهم بمعاصيه والكفر به دون غيرهم.

﴿٤٤﴾ فلما نصحهم وحذرهم وأنذرهم ولم يطيعوه ولا وافقوه؛ قال لهم: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾:

(١) ع، ط: «الكذاب».

من هذه النصيحة، وسترون مغبة عدم قبولها حين يحل بكم العقاب وتحرمون جزيل الثواب، ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: ألجأ إليه وأعتصم وألقي أموري كلها لديه وأتوكل عليه في مصالحي ودفع الضرر الذي يصيبني منكم أو من غيركم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾: يعلم أحوالهم وما يستحقون: يعلم حالي وضعفي فيمنعني منكم ويكفيني شركم، ويعلم أحوالكم فلا تتصرفون إلا بإرادته ومشيئته؛ فإن سلطكم عليَّ؛ فبحكمة منه تعالى وعن إرادته ومشيئته صدر ذلك.

﴿٤٥﴾، ﴿٤٦﴾ ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾؛ أي: وقى اللهُ القويُّ الرحيمُ ذلك الرجل المؤمن الموفَّق عقوبات ما مكر فرعون وآله له من إرادة إهلاكه وإتلافه لأنه بادأهم بما يكرهون وأظهر لهم الموافقة التامة لموسى عليه السلام، ودعاهم إلى ما دعاهم إليه موسى، وهذا أمر لا يحتملونه، وهم الذين لهم القدرة إذ ذاك، وقد أغضبهم واشتد حَنَقُهم عليه، فأرادوا به كيدًا، فحفظه الله من كيدهم ومكرهم، وانقلب كيدهم ومكرهم على أنفسهم. ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾: أغرقهم الله تعالى في صبيحة واحدة عن آخرهم، وفي البرزخ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾: فهذه العقوبات الشنيعة التي تحل بالمكذبين لرسل الله المعاندين لأمره.

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿٤٧﴾ يخبر تعالى عن تخاصم أهل النار وعتاب بعضهم بعضًا واستغاثتهم بخزنة النار وعدم الفائدة في ذلك، فقال: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾: يحتج التابعون بإغواء المتبوعين، ويتبرأ المتبوعون من التابعين، ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟﴾؛ أي: الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ على

﴿وَيَـٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّـٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾

الحق من القادة الذين دعوهم إلى ما استكبروا لأجله: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾: أنتم أغويتمونا وأضللتمونا، وزينتم لنا الشرك والشر، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾؛ أي: ولو قليلًا.

﴿٤٨﴾ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾: مبينين لعجزهم ونفوذ الحكم الإلهي في الجميع: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾: وجعل لكل قسطه من العذاب؛ فلا يزاد في ذلك ولا ينقص منه ولا يغير ما حكم به الحكيم.

﴿٤٩﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ﴾: من المستكبرين والضعفاء ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾: لعله تحصل بعض الراحة.

﴿٥٠﴾ ﴿قَالُوٓا۟﴾ لهم موبخين ومبينين أن شفاعتهم لا تنفعهم ودعاءهم لا يفيدهم شيئًا: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾: التي تبينتم بها الحق والصراط المستقيم وما يقرب من الله وما يبعد منه، ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾: قد

قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ
بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ
﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا
وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ
وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى
ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدٗى
وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ
حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ
وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ
ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ
مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ
خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾
وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾

جاءونا بالبينات، وقامت علينا حجة الله البالغة، فظلمنا وعاندنا الحق بعدما تبين، ﴿ قَالُواْ ﴾؛ أي: الخزنة لأهل النار متبرئين من الدعاء لهم والشفاعة: ﴿ فَٱدۡعُواْ ﴾: أنتم، ولكن هذا الدعاء هل يغني شيئًا أم لا؟ قال تعالى: ﴿ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ ﴾؛ أي: باطل لاغ؛ لأن الكفر محبط لجميع الأعمال صاد لإجابة الدعاء.

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿٥١﴾ لما ذكر عقوبة آل فرعون في الدنيا والبرزخ ويوم القيامة، وذكر حالة أهل النار الفظيعة الذين نابذوا رسله وحاربوهم؛ قال: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾؛ أي: بالحجة والبرهان والنصر، ﴿ وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ في الآخرة بالحُكم ولأتباعهم بالثواب ولمن حاربهم بشدة العقاب[1].

﴿٥٢﴾ ﴿ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡ ﴾: حين يعتذرون، ﴿ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴾؛ أي: الدار السيئة التي تسوء نازليها.

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿٥٣﴾، ﴿٥٤﴾ لما ذكر ما جرى لموسى وفرعون وما آل إليه أمر فرعون وجنوده، ثم ذكر الحكم العام الشامل له ولأهل النار؛ ذكر أنه أعطى موسى ﴿ ٱلۡهُدَىٰ ﴾؛ أي: الآيات والعلم الذي يهتدي به المهتدون، ﴿ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ ﴾؛ أي: جعلناه متوارثًا بينهم من قرن إلى آخر، وهو التوراة، وذلك الكتاب مشتمل على ﴿ هُدٗى ﴾، وهو العلم بالأحكام الشرعية وغيرها، ﴿ وَذِكۡرَىٰ ﴾ أي: التذكر للخير بالترغيب فيه وعن الشر بالترهيب عنه، وليس ذلك لكل أحد، وإنما هو ﴿ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿٥٥﴾ ﴿ فَٱصۡبِرۡ ﴾: يا أيها الرسول كما صبر مَنْ قبلك من أولي العزم المرسلين، ﴿ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ﴾؛ أي: ليس مشكوكًا فيه أو فيه ريب أو كذب حتى يعسر عليك الصبر، وإنما هو الحق المحض والهدى الصرف الذي يصبر عليه الصابرون ويجتهد في التمسك به أهل البصائر؛ فقوله: ﴿ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ﴾: من الأسباب التي تحث على الصبر على طاعة الله وعمَّا يكره الله، ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾: المانع لك من تحصيل فوزك وسعادتك، فأمره بالصبر الذي فيه يحصل المحبوب، وبالاستغفار الذي فيه دفع المحذور، ﴿ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ ﴾، خصوصًا ﴿ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٥٥﴾ ﴾: اللذين هما أفضل الأوقات، وفيهما من الأوراد والوظائف الواجبة والمستحبة ما فيهما؛ لأن في ذلك عونًا على جميع الأمور.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿٥٦﴾ يخبر تعالى أن من جادل في آياته ليبطلها بالباطل بغير بينة من أمره ولا حجة أن هذا صادر من كبر في صدورهم على الحق وعلى من جاء به؛ يريدون الاستعلاء عليه بما

(١) ط: «العذاب».

معهم من الباطل؛ فهذا قصدهم ومرادهم، ولكن هذا لا يتم لهم، وليسوا ببالغيه؛ فهذا نص صريح وبشارة بأن كل من جادل الحق أنه مغلوب، وكل من تكبر عليه فهو في نهايته ذليل، ﴿فَٱسۡتَعِذۡ﴾؛ أي: اعتصم والجأ ﴿بِٱللَّهِ﴾: ولم يذكر ما يستعيذ منه إرادة للعموم؛ أي: استعذ بالله من الكبر الذي يوجب التكبر على الحق، واستعذ بالله من شياطين الإنس والجن، واستعذ بالله من جميع الشرور. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾: لجميع الأصوات على اختلافها. ﴿ٱلۡبَصِيرُ ٥٦﴾: بجميع المرئيات بأي محل وموضع وزمان كانت.

﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ٥٨ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ٥٩﴾.

(٥٧) يخبر تعالى بما تقرر في العقول أن خلق السماوات والأرض -على عظمهما وسعتهما- أعظم وأكبر من خلق الناس؛ فإن الناس بالنسبة إلى خلق السماوات والأرض من أصغر ما يكون؛ فالذي خلق الأجرام العظيمة وأتقنها قادر على إعادة الناس بعد موتهم من باب أولى وأحرى، وهذا أحد الأدلة العقلية الدالة على البعث دلالة قاطعة بمجرد نظر العاقل إليها، يستدل بها استدلالًا لا يقبل الشك والشبهة بوقوع ما أخبرت به الرسل من البعث؛ وليس كل أحد يجعل فكره لذلك، ويقبل على تدبره، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾: ولذلك لا يعتبرون بذلك، ولا يجعلونه منهم على بال.

(٥٨) ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُ﴾؛ أي: كما لا يستوي الأعمى والبصير؛ كذلك لا يستوي من آمن بالله وعمل الصالحات ومن كان مستكبرًا على عبادة ربه، مقدمًا على معاصيه، ساعيًا في مساخطه، ﴿قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ٥٨﴾؛ أي: تذكركم قليل، وإلا؛ فلو تذكرتم مراتب الأمور ومنازل الخير والشر والفرق بين الأبرار والفجار، وكانت لكم همة علية؛ لآثرتم النافع على الضار، والهدى على الضلال، والسعادة الدائمة على الدنيا الفانية.

إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يُؤۡمِنُونَ ٥٩ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ
إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ
دَاخِرِينَ ٦٠ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ
فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ
وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٦١ ذَٰلِكُمُ
ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ
٦٢ كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ
٦٣ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ
بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ
ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٤ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ
مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٥ ۞ قُلۡ
إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ
ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٦

(٥٩) ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾: قد أخبرت بها الرسل الذين هم أصدق الخلق، ونطقت بها الكتب السماوية التي جميع أخبارها أعلى مراتب الصدق، وقامت عليها الشواهد المرئية والآيات الأفقية. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ٥٩﴾ مع هذه الأمور التي توجب كمال التصديق والإذعان.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾.

(٦٠) هذا من لطفه بعباده ونعمته العظيمة؛ حيث دعاهم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم وأمرهم بدعائه دعاء العبادة ودعاء المسألة ووعدهم أن يستجيب لهم، وتوعد من استكبر عنها، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾؛ أي: ذليلين حقيرين، يجتمع عليهم العذاب والإهانة جزاء على استكبارهم.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

تدبر هذه الآيات الكريمات الدالة على سعة رحمة الله، وجزيل فضله، ووجوب شكره، وكمال قدرته، وعظيم سلطانه، وسعة ملكه، وعموم خلقه لجميع الأشياء، وكمال حياته، واتصافه بالحمد على كل ما اتصف به من الصفات الكاملة وما فعله من الأفعال الحسنة، وتمام ربوبيته، وانفراده فيها، وأن جميع التدبير في العالم العلوي والسفلي في ماضي الأوقات وحاضرها ومستقبلها بيد الله تعالى، ليس لأحد من الأمر شيء ولا من القدرة شيء. فينتج من ذلك أنه تعالى المألوه المعبود وحده الذي لا يستحق أحد غيره من العبودية شيئًا كما لم يستحق من الربوبية شيئًا، وينتج من ذلك امتلاء القلوب بمعرفة الله تعالى ومحبته وخوفه ورجائه. وهذان الأمران – وهما معرفته وعبادته – هما اللذان خلق الله الخلق لأجلهما، وهما الغاية المقصودة منه تعالى لعباده، وهما الموصلان إلى كل خير وفلاح وصلاح وسعادة دنيوية وأخروية، وهما أشرف عطايا الكريم لعباده، وهما أشرف اللذات على الإطلاق، وهما اللذان إن فاتا فات كل خير وحضر كل شر. فنسأله تعالى أن يملأ قلوبنا بمعرفته ومحبته، وأن يجعل حركاتنا الباطنة والظاهرة خالصة لوجهه تابعة لأمره؛ إنه لا يتعاظمه سؤال، ولا يحفيه نوال.

﴿٦١﴾ فقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ ﴾؛ أي: لأجلكم جعل الله الليل مظلمًا، ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ ﴾: من حركاتكم التي لو استمرت لضرت؛ فتأوون إلى فرشكم، ويلقي الله عليكم النوم الذي يستريح به القلب والبدن، وهو من ضروريات الآدمي، لا يعيش بدونه، ويسكن فيه أيضًا كل حبيب إلى حبيبه، ويجتمع الفكر، وتقل الشواغل. وجعل تعالى النهار ﴿ مُبْصِرًا ﴾: منيرًا بالشمس المستمرة في الفلك، فتقومون من فرشكم إلى أشغالكم الدينية والدنيوية؛ هذا لذكره وقراءته، وهذا لصلاته، وهذا لطلبه العلم ودراسته، وهذا لبيعه وشرائه، وهذا لبنائه أو حدادته أو نحوها من الصناعات، وهذا لسفره برًّا وبحرًا، وهذا لفلاحته، وهذا لتصليح حيواناته. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ ﴾؛ أي: عظيم كما يدل عليه التنكير ﴿ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾: حيث أنعم عليهم بهذه النعم وغيرها، وصرف عنهم النقم، وهذا يوجب عليهم تمام شكره وذكره. ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ﴾: بسبب جهلهم وظلمهم. ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سبأ: ١٣]، الذين يقرون بنعمة ربهم ويخضعون لله ويحبونه، ويصرفونها في طاعة مولاهم ورضاه.

﴿٦٢﴾ ﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾: الذي فعل ما فعل ﴿ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾؛ أي: المنفرد بالإلهية والمنفرد بالربوبية؛ لأن انفراده بهذه النعم من ربوبيته، وإيجابها للشكر من ألوهيته. ﴿ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾: تقرير لربوبيته، ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾: تقرير أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له. ثم صرح بالأمر بعبادته، فقال: ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾؛ أي: كيف تصرفون عن عبادته وحده لا شريك له بعدما أبان لكم الدليل، وأنار لكم السبيل.

﴿٦٣﴾ ﴿ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾؛ أي: عقوبة على جحدهم لآيات الله وتعديهم على رسله؛ صرفوا عن التوحيد والإخلاص؛ كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٧].

﴿٦٤﴾ ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾؛ أي: قارة ساكنة مهيأة لكل مصالحكم، تتمكنون من حرثها وغرسها والبناء عليها والسفر والإقامة فيها، ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾: سقفًا للأرض التي أنتم فيها، قد جعل الله فيها ما تنتفعون به من الأنوار والعلامات، التي يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾: فليس في جنس الحيوانات أحسن صورة من بني آدم؛ كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [التين: ٤]، وإذا أردت أن تعرف حسن الآدمي وكمال حكمة الله تعالى فيه؛ فانظر إليه عضوًا عضوًا؛ هل تجد عضوًا من أعضائه يليق به ويصلح أن يكون في غير محله، وانظر أيضًا إلى الميل الذي في القلوب

بعضهـم لبعض؛ هل تجد ذلك في غيـر الآدميين، وانظر إلى ما خصه اللـه به من العقل والإيمان والمحبـة والمعرفة التي هي أحسـن الأخلاق المناسـبة لأجمل الصور؟! ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾: وهذا شـامل لـكل طيب من مأكل ومشـرب ومنكح وملبس ومنظر ومسـمع وغير ذلك من الطيبات التي يسـرها الله لعباده ويسر لهم أسبابها ومنعهم مـن الخبائث التي تضادها وتضر أبدانهم وقلوبهم وأديانهم. ﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾: الذي دبـر الأمور وأنعم عليكم بهـذه النعم، ﴿ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾؛ أي: تعاظـم وكثـر خيره وإحسانه، المربي جميع العالمين بنعمه.

﴿٦٥﴾ ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ ﴾: الـذي لـه الحيـاة الكاملـة التامـة المسـتلزمة لما تسـتلزمه من صفاته الذاتية التي لا تتم حياته إلا بهـا؛ كالسـمع والبصـر والقـدرة والعلـم والـكلام وغير ذلـك مـن صفات كماله ونعـوت جلالـه. ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾؛ أي: لا معبـود بحـق إلا وجهـه الكريـم، ﴿ فَٱدْعُوهُ ﴾: وهـذا شـامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾؛ أي: اقصـدوا بـكل عبادة ودعاء وعمل وجـه الله تعالى؛ فإن الإخـلاص هو المأمور بـه؛ كما قال تعالـى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة: ٥]. ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾؛ أي: جميـع المحامـد والمدائح والثناء؛ بالقـول كنطـق الخلق بذكره، والفعـل كعبادتهم له؛ كل ذلك للـه تعالى وحده لا شـريك لـه؛ لكماله في أوصافه وأفعاله وتمام نعمه.

﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿٦٦﴾ لمـا ذكـر الأمـر بإخـلاص العبـادة لله وحـده، وذكر الأدلة على ذلك والبينات؛ صرح بالنهي عن عبادة ما سـواه، فقـال: ﴿ قُلْ ﴾ يـا أيهـا النبـي، ﴿ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾: مـن الأوثان والأصنام، وكل ما عبد من دون الله، ولست على شك من أمري، بل على يقين وبصيرة،

الجزء الرابع والعشرون — سورة غافر

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ
يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟
شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى
وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا
قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ
يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ
﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾
فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ
مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ
نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾
ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ
تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ
مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا
نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾

٤٧٥

ولهـذا قـال: ﴿ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾: بقلبي ولسـاني وجوارحي؛ بحيث تكون منقـادة لطاعته مستسـلمة لأمـره، وهذا أعظم مأمـور به على الإطـلاق؛ كما أن النهـي عن عبادة ما سـواه أعظم منهي عنه على الإطلاق.

﴿٦٧﴾ ثـم قـرر هـذا التوحيـد بأنـه الخالـق لكـم والمطـور لخلقتكـم؛ فكمـا خلقكـم وحـده؛ فاعبـدوه وحـده، فقـال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾: وذلـك بخلقـة أصلكـم وأبيكـم آدم عليـه السـلام، ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾: وهـذا ابتـداء خلق سـائر النوع الإنسـاني ما دام في بطن أمه، فنبه بالابتداء على بقية الأطوار من العلقـة فالمضغة فالعظام فنفخ الروح، ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ ﴾: هكذا تنتقلون فـي الخلقة الإلهية ﴿ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ﴾: من قوة العقل والبدن وجميع قواه الظاهرة والباطنـة، ﴿ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ﴾: بلوغ الأشد، ﴿ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ ﴾: بهذه الأطوار المقدَّرة إلـى أجـل مسـمى: تنتهـي عنـده أعماركـم. ﴿ وَلَعَلَّكُمْ

تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾: أحوالكم فتعلموا أن المطور لكم في هذه الأطوار كامل الاقتدار، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وأنكم ناقصون من كل وجه.

﴿٦٨﴾ ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ ﴾؛ أي: هو المنفرد بالإحياء والإماتة؛ فلا تموت نفس بسبب أو بغير سبب إلا بإذنه ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿١١﴾ ﴾ [فاطر: ١١]. ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا ﴾: جليلًا أو حقيرًا ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾: لا رد في ذلك ولا مثنوية ولا تمنُّع.

﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

﴿٦٩﴾ ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾: الواضحة البينة متعجبًا من حالهم الشنيعة، ﴿أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾؛ أي: كيف ينعدلون عنها؟! وإلى أي شيء يذهبون بعد البيان التام؟! هل يجدون آيات بينات تعارض آيات الله؟! لا والله. أم يجدون شبهًا توافق أهواءهم ويصولون بها لأجل باطلهم؟!

﴿٧٠﴾ - ﴿٧٢﴾ فبئس ما استبدلوا واختاروا لأنفسهم بتكذيبهم بالكتاب الذي جاءهم من الله وبما أرسل الله به رسله الذين هم خير الخلق وأصدقهم وأعظمهم عقولًا؛ فهؤلاء لا جزاء لهم سوى النار الحامية، ولهذا توعدهم الله بعذابها، فقال: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ ﴾: التي لا يستطيعون معها حركة، ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ ﴾: التي يقرنون بها هم وشياطينهم ﴿يُسۡحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي ٱلۡحَمِيمِ ﴾؛ أي: الماء الذي اشتد غليانه وحره، ﴿ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾: يوقد عليهم اللهب العظيم، فيصلون بها، ثم يوبخون على شركهم وكذبهم.

﴿٧٣﴾، ﴿٧٤﴾ وقيل ﴿لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾: هل نفعوكم أو دفعوا عنكم بعض العذاب؟! ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾؛ أي: غابوا ولم يحضروا، ولو حضروا؛ لم ينفعوا. ثم إنهم أنكروا فقالوا: ﴿بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗا ﴾: يحتمل أن مرادهم بذلك الإنكار، وظنوا أنه ينفعهم ويفيدهم، ويحتمل - وهو الأظهر - أن مرادهم بذلك الإقرار على بطلان إلهية ما كانوا يعبدون، وأنه ليس لله شريك في الحقيقة، وإنما هم ضالون مخطئون بعبادة معدوم الإلهية، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾؛ أي: كذلك الضلال الذي كانوا عليه في الدنيا الضلال الواضح لكل أحد، حتى إنهم بأنفسهم يقرون ببطلانه يوم القيامة، ويتبين لهم معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ [يونس: ٦٦]، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡ ﴾ [فاطر: ١٤]، ﴿ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ [الأحقاف: ٥] الآيات.

﴿٧٥﴾ ويقال لأهل النار: ﴿ذَٰلِكُم ﴾: العذاب الذي نوع عليكم ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾؛ أي: تفرحون بالباطل الذي أنتم عليه وبالعلوم التي خالفتم بها علوم الرسل، وتمرحون على عباد الله بغيًا وعدوانًا وظلمًا وعصيانًا؛ كما قال تعالى في آخر هذه السورة: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ ﴾، وكما قال قوم قارون له: ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [القصص: ٧٦]، وهذا هو الفرح المذموم الموجب للعقاب؛ بخلاف الفرح الممدوح، الذي قال الله فيه: ﴿ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ ﴾ [يونس: ٥٨]، وهو الفرح بالعلم النافع والعمل الصالح.

﴿٧٦﴾ ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ ﴾: كلٌّ بطبقة من طبقاتها على قدر عمله ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾: لا يخرجون منها أبدًا. ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾: مثوى يخزون فيه ويهانون ويحبسون ويعذبون، ويترددون بين حرها وزمهريرها.

﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿٧٧﴾ أي: ﴿فَٱصۡبِرۡ ﴾: يا أيها الرسول على دعوة قومك وما ينالك منهم من أذًى، واستعن على صبرك بإيمانك.

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾: سينصر دينه ويعلي كلمته وينصر رسله في الدنيا والآخرة، واستعن على ذلك أيضًا بتوقع العقوبة بأعدائك في الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾: في الدنيا؛ فذاك، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾: قبل عقوبتهم، ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾: فنجازيهم بأعمالهم؛ فلا تحسبن الله غافلًا عما يعمل الظالمون.

ثم سلّاه وصبّره بذكر إخوانه المرسلين، فقال:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿٧٨﴾ أي: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا﴾: كثيرين إلى قومهم يدعونهم ويصبرون على أذاهم. ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾: خبرهم، ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾: وكل الرسل مدبرون ليس بيدهم شيء من الأمر. ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ منهم ﴿أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ﴾: من الآيات السمعية والعقلية ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بمشيئته وأمره؛ فاقتراح المقترح على الرسل الإتيان بالآيات ظلم منهم وتعنت وتكذيب بعد أن أيدهم الله بالآيات الدالة على صدقهم وصحة ما جاءوا به. ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾: بالفصل بين الرسل وأعدائهم والفتح، ﴿قُضِىَ﴾: بينهم ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: الذي يقع الموقع ويوافق الصواب بإنجاء الرسل وأتباعهم وإهلاك المكذبين، ولهذا قال: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾؛ أي: وقت القضاء المذكور ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾: الذين وصفهم الباطل وما جاءوا به من العلم والعمل باطل، وغايتهم المقصودة لهم باطلة، فليحذر هؤلاء المخاطبون أن يستمروا على باطلهم، فيخسروا كما خسر أولئك؛ فإن هؤلاء لا خير منهم ولا لهم براءة في الكتب بالنجاة.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ
وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ
بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ
هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ
لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا
مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى
ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ
ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ
قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ
﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم
مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا
رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ
مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ
ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

﴿٧٩﴾، ﴿٨٠﴾ يمتن تعالى على عباده بما جعل لهم من الأنعام التي بها جملة من المنافع[1]: منها: منافع الركوب عليها والحمل، ومنها: منافع الأكل من لحومها والشرب من ألبانها، ومنها: الدفء واتخاذ الآلات والأمتعة من أصوافها وأوبارها وأشعارها... إلى غير ذلك من المنافع. ﴿وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ﴾: من الوصول إلى الأقطار البعيدة، وحصول السرور بها والفرح عند أهلها. ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾؛ أي: على الرواحل البرية والفلك البحرية يحملكم الله، الذي سخرها، وهيأ لها ما هيأ من الأسباب، التي لا تتم إلا بها.

﴿٨١﴾ ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾: الدالة على وحدانيته وأسمائه وصفاته، وهذا من أكبر نعمه؛ حيث أشهد عباده آياته النفسية وآياته الأفقية ونعمه الباهرة وعدَّدها عليهم ليعرفوه ويشكروه ويذكروه. ﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾؛ أي: أي آية من آياته لا تعترفون بها؟! فإنكم قد تقرر عندكم أن جميع الآيات

(١) ع، ط: «الإنعام».

والنعم منه تعالى، فلم يبق للإنكار محل، ولا للإعراض عنها موضع، بل أوجبت لذوي الألباب بذل الجهد واستفراغ الوسع للاجتهاد في طاعته والتبتل في خدمته والانقطاع إليه.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿٨٢﴾ يحث تعالى المكذبين لرسولهم على السير في الأرض بأبدانهم وقلوبهم وسؤال العالمين، ﴿ فَيَنظُرُواْ ﴾: نظر فكر واستدلال لا نظر غفلة وإهمال ﴿ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾: من الأمم السالفة؛ كعاد وثمود وغيرهم ممن ﴿ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ من الأبنية الحصينة والغراس الأنيقة والزروع الكثيرة. ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾: حين جاءهم أمر الله، فلم تغن عنهم قوتهم، ولا افتدوا بأموالهم، ولا تحصنوا بحصونهم.

﴿٨٣﴾ ثم ذكر جرمهم الكبير، فقال: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ﴾: من الكتب الإلهية والخوارق العظيمة، والعلم النافع المبيِّن للهدى من الضلال والحق من الباطل، ﴿ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾: المناقض لدين الرسل، ومن المعلوم أن فرحهم به يدل على شدة رضاهم به وتمسكهم ومعاداة الحق الذي جاءت به الرسل وجعل باطلهم حقًّا، وهذا عام لجميع العلوم التي نوقض بها ما جاءت به الرسل، ومن أحقها بالدخول في هذا، علوم الفلسفة والمنطق اليوناني الذي رُدَّت به كثير من آيات القرآن، ونقَّصت قدره في القلوب، وجعلت أدلته اليقينية القاطعة أدلة لفظية لا تفيد شيئًا من اليقين، ويقدم عليها عقول أهل السفه والباطل، وهذا من أعظم الإلحاد في آيات الله والمعارضة لها والمناقضة؛ فالله المستعان، ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾؛ أي: نزل بهم ﴿ مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ من العذاب.

﴿٨٤﴾ ﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ﴾؛ أي: عذابنا؛ أقروا حيث لا ينفعهم الإقرار؛ ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾: من الأصنام والأوثان، وتبرأنا من كل ما خالف الرسل من علم أو عمل.

﴿٨٥﴾ ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ﴾؛ أي: في تلك الحال، وهذه ﴿ سُنَّتَ ٱللَّهِ ﴾ وعادته ﴿ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ﴾: أن المكذبين حين ينزل بهم بأس الله وعقابه إذا آمنوا؛ كان إيمانهم غير صحيح ولا منجيًا لهم من العذاب؛ وذلك لأنه إيمان ضرورة قد اضطروا إليه، وإيمان مشاهدة، وإنما الإيمان الذي ينجي صاحبه هو الإيمان الاختياري الذي يكون إيمانًا بالغيب، وذلك قبل وجود قرائن العذاب، ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ﴾؛ أي: وقت الإهلاك وإذاقة البأس ﴿ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾: دينهم ودنياهم وأخراهم، ولا يكفي مجرد الخسارة في تلك الدار، بل لا بد من خسران يشقي في العذاب الشديد والخلود فيه دائمًا أبدًا.

تم تفسير سورة المؤمن بحمد الله ولطفه ومعونته لا بحولنا وقوتنا. فله الشكر والثناء.



تفسير سورة السجدة[1]

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٞ
فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا
فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا
فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا
وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ
مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ
وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ
وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٨﴾﴾.

(٢) يخبر تعالى عباده أن هذا الكتاب الجليل والقرآن الجميل ﴿تَنزِيلٞ﴾: صادر ﴿مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾﴾: الذي وسعت رحمته كل شيء، الذي من أعظم رحمته وأجلِّها إنزال هذا الكتاب، الذي حصل به من العلم والهدى والنور والشفاء والرحمة والخير الكثير ما هو من أجلِّ نعمه على العباد، وهو الطريق للسعادة في الدارين.

(٣) ثم أثنى على الكتاب بتمام البيان، فقال: ﴿فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾؛ أي: فصل كل شيء من أنواعه على حدته، وهذا يستلزم البيان التام والتفريق بين كل شيء وتمييز الحقائق، ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾؛ أي: باللغة الفصحى أكمل اللغات، فصلت آياته وجعل عربيًّا. ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾﴾؛ أي: لأجل أن يتبين لهم معناه كما يتبين لفظه، ويتضح لهم الهدى من الضلال والغي من الرشاد، وأما الجاهلون الذين لا يزيدهم الهدى إلا ضلالًا ولا البيان إلا عمى؛ فهؤلاء لم يسق الكلام لأجلهم، و﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [البقرة: ٦].

(١) كذا في الأصل، ع، والاسم المشتهر للسورة هو (سورة فصلت) أو حم السجدة.

الجزء الرابع والعشرون — سورة فصلت

سورة فصلت — ٤١ — آياتها ٥٤

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ
ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ
أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ
مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ
فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ
أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ
لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ
هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ
أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٨﴾ ۞ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ
ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾
وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ
أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ
فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾

٤٧٧

(٤) ﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾؛ أي: بشيرًا بالثواب العاجل والآجل، ونذيرًا بالعقاب العاجل والآجل، وذكر تفصيلهما، وذكر الأسباب والأوصاف التي تحصل بها البشارة والنذارة، وهذه الأوصاف للكتاب مما يوجب أن يُتلقى بالقبول والإذعان والإيمان والعمل به، ولكن أعرض أكثر الخلق عنه إعراض المستكبرين، ﴿فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٤﴾﴾: له سماع قبول وإجابة، وإن كانوا قد سمعوه سماعًا تقوم عليهم به الحجة الشرعية.

(٥) ﴿وَقَالُواْ﴾؛ أي: هؤلاء المعرضون عنه مبينين عدم انتفاعهم به بسد الأبواب الموصلة إليه: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ﴾؛ أي: أغطية مغشاة، ﴿مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾؛ أي: صمم فلا نسمع لك ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾: فلا نراك؛ القصد من ذلك أنهم أظهروا الإعراض عنه من كل وجه، وأظهروا بغضه والرضا بما هم عليه، ولهذا قالوا: ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾﴾؛ أي: كما رضيت بالعمل بدينك؛ فإننا راضون كل الرضا بالعمل في ديننا، وهذا من

أعظم الخذلان؛ حيث رضوا بالضلال عن الهدى، واستبدلوا الكفر بالإيمان، وباعوا الآخرة بالدنيا.

(٦)، (٧) ﴿قُلْ﴾: لهم يا أيها النبي: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾؛ أي: هذه صفتي ووظيفتي: أني بشر مثلكم، ليس بيدي من الأمر شيء، ولا عندي ما تستعجلون به، وإنما فضلني الله عليكم وميزني وخصني بالوحي الذي أوحاه إلي وأمرني باتباعه ودعوتكم إليه. ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ﴾؛ أي: اسلكوا الصراط الموصل إلى الله تعالى بتصديق الخبر الذي أخبر به واتباع الأمر واجتناب النهي، هذه حقيقة الاستقامة، ثم الدوام على ذلك، وفي قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾: تنبيه على الإخلاص، وأن العامل ينبغي له أن يجعل مقصوده وغايته التي يعمل لأجلها الوصول إلى الله وإلى دار كرامته؛ فبذلك يكون عمله خالصًا صالحًا نافعًا، وبفواته يكون عمله باطلًا.

ولما كان العبد ولو حرص على الاستقامة لا بد أن يحصل منه خلل بتقصير بمأمور أو ارتكاب منهي؛ أمره بدواء ذلك بالاستغفار المتضمن للتوبة، فقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾، ثم توعد من ترك الاستقامة فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: الذين عبدوا من دونه من لا يملك نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، ودسوا أنفسهم فلم يزكوها بتوحيد ربهم والإخلاص له، ولم يصلُّوا ولا زكَّوا؛ فلا إخلاص للخالق بالتوحيد والصلاة، ولا نفع للخلق بالزكاة وغيرها. ﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ (٧)﴾؛ أي: لا يؤمنون بالبعث ولا بالجنة والنار؛ فلذلك لما زال الخوف من قلوبهم؛ أقدموا على ما أقدموا عليه مما يضرهم في الآخرة.

(٨) ولما ذكر الكافرين؛ ذكر المؤمنين ووصفهم وجزاءهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: بهذا الكتاب وما اشتمل عليه مما دعا إليه من الإيمان وصدقوا إيمانهم بالأعمال الصالحة الجامعة للإخلاص والمتابعة، ﴿لَهُمْ أَجْرٌ﴾؛ أي: عظيم ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨)﴾؛ أي: غير مقطوع ولا نافذ، بل هو مستمر مدى الأوقات، متزايد على الساعات، مشتمل على جميع اللذات والمشتهيات.

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ (١٠) ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ (١١) فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ (١٢)﴾.

(٩)، (١٠) ينكر تعالى ويعجب من كفر الكافرين به، الذين جعلوا معه أندادًا، يشركونهم معه، ويبذلون لهم ما يشاءون من عباداتهم، ويسوونهم بالرب العظيم الملك الكريم، الذي خلق الأرض الكثيفة العظيمة في يومين، ثم دحاها في يومين؛ بأن جعل فيها رواسي من فوقها ترسيها عن الزوال والتزلزل وعدم الاستقرار؛ فكمل خلقها ودحاها وأخرج أقواتها وتوابع ذلك ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ (١٠)﴾: عن ذلك؛ فلا ينبئك مثل خبير؛ فهذا الخبر الصادق الذي لا زيادة فيه ولا نقص.

(١١) ﴿ثُمَّ﴾: بعد أن خلق الأرض ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾؛ أي: قصد ﴿إِلَى﴾: خلق ﴿ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾: قد ثار على وجه الماء، ﴿فَقَالَ لَهَا﴾: ولما كان هذا التخصيص يوهم الاختصاص؛ عطف عليه بقوله: ﴿وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾؛ أي: انقادا لأمري طائعتين أو مكرهتين؛ فلا بد من نفوذه، ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ (١١)﴾؛ أي: ليس لنا إرادة تخالف إرادتك.

(١٢) ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾: فتم خلق السماوات والأرض في ستة أيام؛ أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، مع أن قدرة الله ومشيئته صالحة لخلق الجميع في لحظة واحدة، ولكن مع أنه قدير؛ فهو حكيم رفيق؛ فمن حكمته ورفقه أن جعل خلقها في هذه المدة المقدرة.

واعلم أن ظاهر هذه الآية مع قوله تعالى في النازعات لما ذكر خلق السماوات؛ قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ (٣٠)﴾: يظهر منهما التعارض! مع أن كتاب الله لا تعارض فيه ولا اختلاف! والجواب عن ذلك ما قاله كثير من السلف: أن خلق الأرض وصورتها متقدم على خلق السماوات كما هنا. ودحي الأرض بأن ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا (٣١) وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا (٣٢)﴾: متأخر على خلق السماوات؛ كما في سورة النازعات، ولهذا قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ (٣٠) أَخْرَجَ

مِنْهَا ﴾ [النازعات: ٣٠- ٣٢] إلى آخره، ولم يقل: والأرض بعد ذلك خلقها. وقوله: ﴿ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾؛ أي: الأمر والتدبير اللائق بها، الذي اقتضته حكمة أحكم الحاكمين، ﴿ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾: هي النجوم؛ يستنار بها ويهتدى، وتكون زينة وجمالًا للسماء ظاهرًا ﴿ وَحِفْظًا ﴾ لها باطنًا بجعلها رجومًا للشياطين؛ لئلا يسترق السمع فيها. ﴿ ذَٰلِكَ ﴾: المذكور من الأرض وما فيها والسماء وما فيها ﴿ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ﴾: الذي عزته قهر بها الأشياء ودبرها وخلق بها المخلوقات. ﴿ ٱلْعَلِيمِ ﴾ الذي أحاط علمه بالمخلوقات والغائب والشاهد.

فتركُ المشركين الإخلاص لهذا الرب العظيم الواحد القهار، الذي انقادت المخلوقات لأمره، ونفذ فيها قدره من أعجب الأشياء، واتخاذهم له أندادًا يسوونهم به وهم ناقصون في أوصافهم وأفعالهم أعجب وأعجب، ولا دواء لهؤلاء إن استمر إعراضهم إلا العقوبات الدنيوية والأخروية؛ فلهذا خوفهم بقوله:

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿١٣﴾، ﴿١٤﴾ أي: فإن أعرض هؤلاء المكذبون بعدما بين لهم من أوصاف القرآن الحميدة ومن صفات الإله العظيم، ﴿ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً ﴾؛ أي: عذابًا يستأصلكم ويجتاحكم، ﴿ مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾: القبيلتين المعروفتين؛ حيث اجتاحهم العذاب، وحل عليهم وبيل العقاب، وذلك بظلمهم وكفرهم؛ حيث ﴿ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾؛ أي: يتبع بعضهم بعضًا متوالين، ودعوتهم جميعًا واحدة: ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾؛ أي: يأمرون بالإخلاص لله، وينهونهم عن الشرك به، فردوا رسالتهم وكذبوهم، و﴿ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً ﴾؛ أي: وأما أنتم؛ فبشر مثلنا، ﴿ فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾: وهذه الشبهة لم تزل متوارثة بين المكذبين من الأمم، وهي من أوهى الشبه؛ فإنه ليس من شرط الإرسال أن يكون المرسَل ملكًا، وإنما شرط الرسالة أن يأتي الرسول بما يدل على صدقه، فليقدحوا إن استطاعوا

فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾

بصدقهم بقادح عقلي أو شرعي، ولن يستطيعوا إلى ذلك سبيلًا.

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

هذا تفصيل لقصة هاتين الأمتين عاد وثمود:

﴿١٥﴾ فأما عاد؛ فكانوا مع كفرهم بالله وجحودهم بآيات الله وكفرهم برسله مستكبرين ﴿ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ قاهرين لمن حولهم من العباد ظالمين لهم قد أعجبتهم قوتهم، ﴿ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾: قال تعالى ردًّا عليهم بما يعرفه كل أحد: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾: فلولا خلقه إياهم؛ لم يوجدوا؛ فلو نظروا إلى هذه الحال نظرًا صحيحًا؛ لم يغتروا بقوتهم.

(١٦) فعاقبهم الله عقوبة تناسب قوتهم التي اغتروا بها، ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾؛ أي: ريحًا عظيمة من قوتها وشدتها، لها صوت مزعج كالرعد القاصف، فسخرها الله عليهم ﴿ فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) ﴾ [الحاقة: ٧]، فدمرتهم وأهلكتهم ﴿ فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، وقال هنا: ﴿ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾: الذي اختزوا به وافتضحوا بين الخليقة، ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ (١٦) ﴾؛ أي: لا يمنعون من عذاب الله، ولا ينفعون أنفسهم.

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ (١٨) ﴾.

(١٧) ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ ﴾: وهم القبيلة المعروفة، الذين سكنوا الحجر وحواليه، الذين أرسل الله إليهم صالحًا عليه السلام يدعوهم إلى توحيد ربهم وينهاهم عن الشرك، وآتاهم الله الناقة آية عظيمة لها شرب ولهم شرب يوم معلوم، يشربون لبنها يومًا ويشربون من الماء يومًا، وليسوا ينفقون عليها، بل تأكل من أرض الله، ولهذا قال هنا: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ ﴾؛ أي: هداية بيان، وإنما نص عليهم، وإن كان جميع الأمم المهلكة قد قامت عليهم الحجة وحصل لهم البيان؛ لأن آية ثمود آية باهرة قد رآها صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم، وكانت آية مبصرة، فلهذا خصهم بزيادة البيان والهدى، ولكنهم من ظلمهم وشرهم استحبوا ﴿ ٱلْعَمَىٰ ﴾ الذي هو الكفر والضلال ﴿ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ الذي هو العلم والإيمان، ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ﴾ العذاب ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (١٧) ﴾، لا ظلمًا من الله لهم.

(١٨) ﴿ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ (١٨) ﴾؛ أي: نجى الله صالحًا عليه السلام ومن اتبعه من المؤمنين المتقين للشرك والمعاصي.

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٢٣) فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ (٢٤) ﴾.

(١٩) يخبر تعالى عن أعدائه الذين بارزوه بالكفر به وبآياته وتكذيب رسله ومعاداتهم ومحاربتهم وحالهم الشنيعة حين يحشرون؛ أي: يجمعون ﴿ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) ﴾؛ أي: يرد أولهم على آخرهم، ويتبع آخرهم أولهم، ويساقون إليها سوقًا عنيفًا، لا يستطيعون امتناعًا ولا ينصرون أنفسهم ولا هم يُنصرون.

(٢٠) ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا ﴾؛ أي: حتى إذا وردوا على النار وأرادوا الإنكار أو أنكروا ما عملوه من المعاصي، ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم ﴾: عموم بعد خصوص، ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٢٠) ﴾؛ أي: شهد عليهم كل عضو من أعضائهم؛ فكل عضو يقول: أنا فعلت كذا وكذا يوم كذا وكذا، وخص هذه الأعضاء الثلاثة؛ لأن أكثر الذنوب إنما تقع بها أو بسببها.

(٢١) فإذا شهدت عليهم، عاتبوها ﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ ﴾: هذا دليل على أن الشهادة تقع من كل عضو كما ذكرنا، ﴿ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾: ونحن نتدافع عنكن؟ ﴿ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾: فليس في إمكاننا الامتناع عن الشهادة حين أنطقنا الذي لا يستعصي شيء[1] عن مشيئته[2]، ﴿ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾: فكما خلقكم بذواتكم وأجسامكم؛ خلق أيضًا صفاتكم، ومن ذلك الإنطاق. ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) ﴾: في الآخرة، فيجزيكم بما عملتم. ويُحتمل أن المراد بذلك الاستدلال على البعث بالخلق الأول كما هو طريقة القرآن.

(٢٢) ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴾؛ أي: وما كنتم تختفون عن شهادة أعضائكم عليكم ولا تحاذرون من ذلك. ﴿ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ ﴾: بإقدامكم على المعاصي ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) ﴾: فلذلك صدر منكم ما صدر.

---

(١) ط: «أحد».

(٢) عبارة: «شيء عن مشيئته» وردت في ع: «عن مشيئته أحد».

﴿٢٣﴾ وهذا الظن صار سبب هلاكهم وشقائهم، ولهذا قال: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾: الظن السيئ؛ حيث ظننتم به ما لا يليق بجلاله، ﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾؛ أي: أهلككم، ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾: لأنفسهم وأهليهم وأديانهم؛ بسبب الأعمال التي أوجبها لكم ظنكم القبيح بربكم. فحقت عليكم كلمة العقاب والشقاء، ووجب عليكم الخلود الدائم في العذاب، الذي لا يفتر عنهم ساعة.

﴿٢٤﴾ ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾: فلا جلد عليها ولا صبر، وكل حالة قُدِّرَ إمكان الصبر عليها؛ فالنار لا يمكن الصبر عليها، وكيف الصبر على نار قد اشتد حرها وزادت على نار الدنيا بسبعين ضعفًا وعظم غليان حميمها وزاد نتن صديدها وتضاعف برد زمهريرها، وعظمت سلاسلها وأغلالها، وكبرت مقامعها، وغلظ خزانها، وزال ما في قلوبهم من رحمتهم، وختام ذلك سخط الجبار، وقوله لهم حين يدعونه ويستغيثون: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٨]. ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟﴾؛ أي: يطلبوا أن يزال عنهم العتب، فيرجعوا إلى الدنيا؛ ليستأنفوا العمل، ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾: لأنه ذهب وقته، وعمروا ما يعمر فيه من تذكر، وجاءهم النذير، وانقطعت حجتهم، مع أن استعتابهم كذب منهم، فلو ردوا؛ لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون.

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿٢٥﴾ ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ﴾: أي لهؤلاء الظالمين الجاحدين للحق ﴿قُرَنَآءَ﴾: من الشياطين؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم: ٨٣]؛ أي: تزعجهم إلى المعاصي، وتحثهم عليها، ﴿فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: فالدنيا زخرفوها بأعينهم ودعوهم إلى لذاتها وشهواتها المحرمة، حتى افتتنوا فأقدموا على معاصي الله وسلكوا ما شاءوا من محاربة الله ورسوله، والآخرة بعَّدوها عليهم وأنسوهم ذكرها، وربما أوقعوا عليهم الشبه بعدم وقوعها، فترحل خوفها من قلوبهم، فقادوهم إلى الكفر والبدع والمعاصي. وهذا التسليط والتقييض من الله للمكذبين الشياطين بسبب إعراضهم عن ذكر الله وآياته

وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾

وجحودهم الحق؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧]. ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾؛ أي: وجب عليهم ونزل القضاء والقدر بعذابهم ﴿فِىٓ﴾ جملة ﴿أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾: لأديانهم وآخرتهم، ومن خسر؛ فلا بد أن يذل ويشقى ويعذب.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿٢٦﴾ يخبر تعالى عن إعراض الكفار عن القرآن وتواصيهم بذلك، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾؛

الجزء الرابع والعشرون — سورة فصلت

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ
الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ
الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ
وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾
وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ
إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ
ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ
وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا
إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ
فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ
اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ
وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ
إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ
رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾

٤٨٠

أي: أعرضوا عنه بأسماعكم، وإياكم أن تلتفتوا أو تُصْغُوا إليه وإلى من جاء به؛ فإن اتفق أنكم سمعتموه أو سمعتم الدعوة إلى أحكامه، عارضوه ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾؛ أي: تكلموا بالكلام الذي لا فائدة فيه، بل فيه المضرة، ولا تمكنوا - مع قدرتكم - أحدًا يملك عليكم الكلام به وتلاوة ألفاظه ومعانيه، هذا لسان حالهم ولسان مقالهم في الإعراض عن هذا القرآن. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: إن فعلتم ذلك ﴿تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾: وهذا شهادة من الأعداء، وأوضحُ الحق ما شهدت به الأعداء؛ فإنهم لم يحكموا بغلبتهم لمن جاء بالحق إلا في حال الإعراض عنه والتواصي بذلك، ومفهوم كلامهم أنهم إن لم يَلْغَوا فيه، بل استمعوا إليه وألقوا أذهانهم؛ أنهم لا يغلبون؛ فإن الحق غالب غير مغلوب، يعرف هذا أصحاب الحق وأعداؤه.

﴿٢٧﴾ ولما كان هذا ظلمًا منهم وعنادًا؛ لم يبق فيهم مطمع للهداية، فلم يبق إلا عذابهم ونكالهم، ولهذا قال: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾: وهو الكفر والمعاصي؛ فإنها أسوأ ما كانوا يعملون؛ لكونهم يعملون المعاصي وغيرها؛ فالجزاء بالعقوبة إنما هو على عمل الشر، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿٢٨﴾ ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾: الذين حاربوه وحاربوا أولياءه؛ جزاؤهم ﴿النَّارُ﴾ بالكفر والتكذيب والمجادلة والمجالدة. ﴿النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾؛ أي: الخلود الدائم، الذي لا يفتر عنهم العذاب ساعة ولا هم ينصرون، وذلك ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾؛ فإنها آيات واضحة وأدلة قاطعة مفيدة لليقين، فأعظم الظلم وأكبر العناد جحدها والكفر بها.

﴿٢٩﴾ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: الأتباع منهم؛ بدليل ما بعده على وجه الحنق على من أضلهم: ﴿رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾؛ أي: الصنفين اللذين قادانا إلى الضلال والعذاب من شياطين الجن وشياطين الإنس الدعاة إلى جهنم، ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾؛ أي: الأذلين المهانين؛ كما أضلونا وفتنونا وصاروا سببًا لنزولنا؛ ففي هذا بيان حنق بعضهم على بعض، وتبرِّي بعضهم من بعض.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿٣٠﴾ يخبر تعالى عن أوليائه، وفي ضمن ذلك تنشيطهم والحث على الاقتداء بهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾؛ أي: اعترفوا ونطقوا ورضوا بربوبية الله تعالى واستسلموا لأمره، ثم استقاموا على الصراط المستقيم علمًا وعملًا؛ فلهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة. ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾: الكرام؛ أي: يتكرر نزولهم عليهم مبشرين لهم عند الاحتضار ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾: على ما يستقبل من أمركم، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾: على ما مضى، فنفوا عنهم المكروه الماضي والمستقبل. ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ

﴿تُوعَدُونَ ٣٠﴾: فإنها قد وجبت لكم وثبتت، وكان وعد الله مفعولًا.

٣١ ويقولون لهم أيضًا مثبتين لهم ومبشرين: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾: يحثونهم في الدنيا على الخير ويزينونه لهم، ويرهبونهم عن الشر ويقبحونه في قلوبهم، ويدعون الله لهم، ويثبتونهم عند المصائب والمخاوف، وخصوصًا عند الموت وشدته، والقبر وظلمته، وفي القيامة وأهوالها، وعلى الصراط، وفي الجنة؛ يهنُّونهم بكرامة ربهم، ويدخلون عليهم من كل باب، ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾ [الرعد: ٢٤]، ويقولون لهم أيضًا: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة، ﴿مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾: قد أعد وهيئ، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ٣١﴾؛ أي: تطلبون من كل ما تتعلق به إرادتكم وتطلبونه، من أنواع اللذات والمشتهيات، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

٣٢ ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ٣٢﴾؛ أي: هذا الثواب الجزيل والنعيم المقيم نزل وضيافة من ﴿غَفُورٍ﴾ غفر لكم السيئات، ﴿رَّحِيمٍ ٣٢﴾ حيث وفقكم لفعل الحسنات ثم قبلها منكم؛ فبمغفرته أزال عنكم المحذور، وبرحمته أنالكم المطلوب.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ٣٣﴾

٣٣ هذا استفهام بمعنى النفي المتقرر؛ أي: لا أحد ﴿أَحْسَنُ قَوْلًا﴾؛ أي: كلامًا وطريقة وحالة ﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾: بتعليم الجاهلين، ووعظ الغافلين والمعرضين، ومجادلة المبطلين؛ بالأمر بعبادة الله بجميع أنواعها، والحث عليها، وتحسينها مهما أمكن، والزجر عما نهى الله عنه، وتقبيحه بكل طريق يوجب تركه، خصوصًا من هذه الدعوة إلى أصل دين الإسلام وتحسينه، ومجادلة أعدائه بالتي هي أحسن، والنهي عما يضاده من الكفر والشرك، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ومن الدعوة إلى الله تحبيبه إلى عباده؛ بذكر تفاصيل نعمه، وسعة جوده، وكمال رحمته، وذكر أوصاف كماله، ونعوت جلاله.

ومن الدعوة إلى الله الترغيب في اقتباس العلم والهدى من كتاب الله وسنة رسوله، والحث على ذلك بكل طريق موصل إليه. ومن ذلك الحث على مكارم الأخلاق، والإحسان إلى عموم الخلق، ومقابلة المسيء بالإحسان، والأمر بصلة الأرحام وبر الوالدين. ومن ذلك الوعظ لعموم الناس في أوقات المواسم والعوارض والمصائب بما يناسب ذلك الحال، إلى غير ذلك مما لا تنحصر أفراده بما يشمله الدعوة إلى الخير كله، والترهيب من جميع الشر.

ثم قال تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾؛ أي: مع دعوته الخلق إلى الله بادر هو بنفسه إلى امتثال أمر الله بالعمل الصالح الذي يرضي ربه، ﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ٣٣﴾؛ أي: المنقادين لأمره، السالكين في طريقه، وهذه المرتبة تمامها للصديقين الذين عملوا على تكميل أنفسهم وتكميل غيرهم وحصلت لهم الوراثة التامة من الرسل؛ كما أن من أشر الناس قولًا من كان من دعاة الضلال السالكين لسبله، وبين هاتين المرتبتين المتباينتين، اللتين ارتفعت إحداهما إلى أعلى عليين، ونزلت الأخرى إلى أسفل سافلين، مراتب لا يعلمها إلا الله، وكلها معمورة بالخلق، ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ١٣٢﴾ [الأنعام: ١٣٢].

﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ٣٥﴾.

٣٤ يقول تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾؛ أي: لا يستوي فعل الحسنات والطاعات لأجل رضا الله تعالى، ولا فعل السيئات والمعاصي التي تسخطه ولا ترضيه، ولا يستوي الإحسان إلى الخلق، ولا الإساءة إليهم لا في ذاتها، ولا في وصفها، ولا في جزائها. ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ٦٠﴾ [الرحمن: ٦٠]. ثم أمر بإحسان خاص، له موقع كبير، وهو الإحسان إلى من أساء إليك، فقال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾؛ أي: فإذا أساء إليك مسيء من الخلق، خصوصًا من له حق كبير عليك؛ كالأقارب والأصحاب ونحوهم، إساءة بالقول أو بالفعل؛ فقابله بالإحسان إليه؛ فإن

قَطَعَكَ فَصِلْه، وإن ظلمك فاعف عنه، وإن تكلم فيك غائبًا أو حاضرًا فلا تقابله، بل اعف عنه، وعامله بالقول اللين، وإن هجرك وترك خطابك فطيِّب له الكلام، وابذل له السلام؛ فإذا قابلت الإساءة بالإحسان؛ حصل فائدة عظيمة. ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾؛ أي: كأنه قريب شفيق.

﴿٣٥﴾ ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ ﴾؛ أي: وما يوفق لهذه الخصلة الحميدة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ﴾ صبَّروا نفوسهم على ما تكره، وأجبروها على ما يحبه الله؛ فإن النفوس مجبولة على مقابلة المسيء بإساءته، وعدم العفو عنه؛ فكيف بالإحسان؛ فإذا صبَّر الإنسان نفسه وامتثل أمر ربه وعرف جزيل الثواب وعلم أن مقابلته للمسيء بجنس عمله لا يفيده شيئًا ولا يزيد العداوة إلا شدة، وأن إحسانه إليه ليس بواضع قدره، بل من تواضع لله رفعه؛ هان عليه الأمر، وفعل ذلك متلذذًا مستحليًا له. ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾: لكونها من خصال خواص الخلق، التي ينال بها العبد الرفعة في الدنيا والآخرة، التي هي من أكبر خصال مكارم الأخلاق.

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿٣٦﴾ لما ذكر تعالى ما يقابل به العدو من الإنس، وهو مقابلة إساءته بالإحسان؛ ذكر ما يدفع به العدو الجني، وهو الاستعاذة بالله والاحتماء من شره، فقال: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ ﴾؛ أي: أي وقت من الأوقات أحسست بشيء من نزغات الشيطان؛ أي: من وساوسه وتزيينه للشر وتكسيله عن الخير وإصابة ببعض الذنوب وإطاعة له ببعض ما يأمر به، ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾؛ أي: اسأله مفتقرًا إليه أن يعيذك ويعصمك منه. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾: فإنه يسمع قولك وتضرعك، ويعلم حالك واضطرارك إلى عصمته وحمايته.

﴿٣٧﴾ ثم ذكر تعالى أن من آياته الدالة على كمال قدرته ونفوذ مشيئته وسعة سلطانه ورحمته بعباده وأنه الله وحده لا شريك له، ﴿ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ ﴾: هذا بمنفعة ضيائه وتصرف العباد فيه، وهذا بمنفعة ظلمته وسكون الخلق فيه، ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾: اللذان لا تستقيم معايش العباد ولا أبدانهم ولا أبدان حيواناتهم إلا بهما، وبهما من المصالح ما لا يحصى عدده. ﴿ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ ﴾: فإنهما مدبران مسخران مخلوقان، ﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ ﴾؛ أي اعبدوه وحده؛ لأنه الخالق العظيم، ودعوا عبادة ما سواه من المخلوقات، وإن كبر جرمها وكثرت مصالحها فإن ذلك ليس منها، وإنما هو من خالقها تبارك وتعالى ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾: فخصوه بالعبادة وإخلاص الدين له.

﴿٣٨﴾ ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾: عن عبادة الله تعالى، ولم ينقادوا لها؛ فإنهم لن يضروا الله شيئًا، والله غني عنهم، وله عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولهذا قال: ﴿ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾؛ يعني: الملائكة المقربين، ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾؛ أي: لا يملون من عبادته؛ لقوتهم وشدة الداعي القوي منهم إلى ذلك.

﴿٣٩﴾ ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾: الدالة على كمال قدرته وانفراده بالملك والتدبير والوحدانية، ﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً ﴾؛ لا نبات فيها، ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ﴾؛ أي: المطر، ﴿ٱهْتَزَّتْ ﴾؛ أي: تحركت بالنبات، ﴿وَرَبَتْ ﴾: ثم أنبتت من كل زوج بهيج؛ فحيي به العباد والبلاد. ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا ﴾: بعد موتها وهمودها ﴿لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ﴾: من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشورهم. ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾: فكما لم تعجز قدرته على إحياء الأرض بعد موتها لا تعجز عن إحياء الموتى.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ

لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ (٤١) لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ (٤٢) ﴾.

(٤٠) الإلحاد في آيات الله: الميل بها عن الصواب بأي وجه كان: إما بإنكارها وجحودها وتكذيب من جاء بها، وإما بتحريفها وتصريفها عن معناها الحقيقي وإثبات معانٍ ما أرادها الله منها، فتوعد تعالى من ألحد فيها بأنه لا يخفى عليه، بل هو مطلع على ظاهره وباطنه، وسيجازيه على إلحاده بما كان يعمل، ولهذا قال: ﴿ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ ﴾: مثل الملحد بآيات الله ﴿ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾: من عذاب الله، مستحقًّا لثوابه؟ من المعلوم أن هذا خير.

لما تبين الحق من الباطل والطريق المنجي من عذابه من الطريق المهلك؛ قال: ﴿ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ ﴾: إن شئتم؛ فاسلكوا طريق الرشد الموصلة إلى رضا ربكم وجنته، وإن شئتم؛ فاسلكوا طريق الغي المسخطة لربكم الموصلة إلى دار الشقاء. ﴿ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) ﴾: يجازيكم بحسب أحوالكم وأعمالكم؛ كقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ ﴾ [الكهف: ٢٩].

(٤١)، (٤٢) ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ ﴾؛ أي: يجحدون القرآن الكريم، المذكر للعباد جميع مصالحهم الدينية والدنيوية والأخروية، المعلي لقدر من اتبعه، ﴿ لَمَّا جَآءَهُمۡ ﴾: نعمة من ربهم على يد أفضل الخلق وأكملهم. والحال: إنه ﴿ لَكِتَٰبٌ ﴾: جامع لأوصاف الكمال، ﴿ عَزِيزٞ (٤١) ﴾؛ أي: منيع من كل من أراده بتحريف أو سوء، ولهذا قال: ﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ ﴾؛ أي: لا يَقْرَبُهُ شيطان من شياطين الإنس والجن؛ لا بسرقة ولا بإدخال ما ليس منه به ولا بزيادة ولا نقص؛ فهو محفوظ في تنزيله، محفوظة ألفاظه ومعانيه، قد تكفل من أنزله بحفظه؛ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر: ٩]. ﴿ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ ﴾: في خلقه وأمره، يضع كل شيء موضعه وينزلها منازلها ﴿ حَمِيدٖ (٤٢) ﴾: على ما له من صفات الكمال ونعوت الجلال، وعلى ما له من العدل والإفضال؛ فلهذا كان كتابه مشتملًا على تمام الحكمة وعلى تحصيل المصالح والمنافع ودفع المفاسد والمضار التي يحمد عليها.

الجزء الرابع والعشرون — سورة فصلت

وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ (٣٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ (٤١) لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ (٤٢) مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ (٤٣) وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ (٤٤) وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ (٤٥) مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ (٤٦)

٤٨١

﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ (٤٣) ﴾.

(٤٣) أي: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ ﴾: أيها الرسول من الأقوال الصادرة ممن كذبك وعاندك ﴿ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَ ﴾؛ أي: من جنسها، بل ربما إنهم تكلموا بكلام واحد؛ كتعجب جميع الأمم المكذبة للرسل من دعوتهم إلى الإخلاص لله وعبادته وحده لا شريك له، وردهم هذا بكل طريق يقدرون عليه، وقولهم: ﴿ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا ﴾ [يس: ١٥]، واقتراحهم على رسلهم الآيات التي لا يلزمهم الإتيان بها... ونحو ذلك من أقوال أهل التكذيب؛ لما تشابهت قلوبهم في الكفر؛ تشابهت أقوالهم، وصبر الرسل عليهم السلام على أذاهم وتكذيبهم؛ فاصبر كما صبر مَنْ قبلك.

ثم دعاهم إلى التوبة والإتيان بأسباب المغفرة، وحذرهم من الاستمرار على الغي، فقال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ ﴾؛

أي: عظيمة يمحو بها كل ذنب لمن أقلع وتاب، ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾: لمن أصر واستكبر.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿٤٤﴾ يخبر تعالى عن فضله وكرمه؛ حيث أنزل كتابه عربيًّا على الرسول العربي بلسان قومه ليبين لهم، وهذا مما يوجب لهم زيادة الاعتناء به والتلقي له والتسليم، وأنه لو جعله قرآناً أعجميًّا بلغة غير العرب؛ لاعترض المكذبون، وقالوا: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾؛ أي: هلا بُيِّنَتْ آياته ووُضِّحَتْ وفُسِّرَتْ، ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾؛ أي: كيف يكون محمد عربيًّا والكتاب أعجميًّا؟! هذا لا يكون. فنفى الله تعالى كل أمر يكون فيه شبهة لأهل الباطل عن كتابه، ووصفه بكل وصف يوجب لهم الانقياد، ولكن المؤمنون الموفقون انتفعوا به، وارتفعوا، وغيرهم بالعكس من أحوالهم، ولهذا قال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾؛ أي: يهديهم لطريق الرشد والصراط المستقيم، ويعلمهم من العلوم النافعة ما به تحصل الهداية التامة، وشفاء لهم من الأسقام البدنية والأسقام القلبية؛ لأنه يزجر عن مساوئ الأخلاق وأقبح الأعمال، ويحث على التوبة النصوح التي تغسل الذنوب وتشفي القلب. ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: بالقرآن ﴿فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾؛ أي: صمم عن استماعه وإعراض، ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾؛ أي: لا يبصرون به رشدًا، ولا يهتدون به، ولا يزيدهم إلا ضلالًا؛ فإنهم إذا ردوا الحق؛ ازدادوا عمى إلى عماهم وغيًّا إلى غيهم. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾؛ أي: ينادون إلى الإيمان ويُدعَوْن إليه فلا يستجيبون؛ بمنزلة الذي ينادى وهو في مكان بعيد، لا يسمع داعيًا ولا يجيب مناديًا. والمقصود أن الذين لا يؤمنون بالقرآن لا ينتفعون بهداه ولا يبصرون بنوره ولا يستفيدون منه خيرًا؛ لأنهم سدوا على أنفسهم أبواب الهدى بإعراضهم وكفرهم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿٤٥﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾: كما آتيناك الكتاب، فصنع به الناس ما صنعوا معك؛ اختلفوا فيه: فمنهم من آمن به واهتدى وانتفع، ومنهم من كذبه ولم ينتفع به، وإن الله تعالى لولا حلمه وكلمته السابقة بتأخير العذاب إلى أجل مسمى لا يتقدم عليه ولا يتأخر؛ ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾: بمجرد ما يتميز المؤمنون من الكافرين؛ بإهلاك الكافرين بالحال؛ لأن سبب الهلاك قد وجب وحق. ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾؛ أي: قد بلغ بهم إلى الريب الذي يقلقهم؛ فلذلك كذبوه وجحدوه.

﴿٤٦﴾ ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾: وهو العمل الذي أمر الله به ورسوله ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾: نفعه وثوابه في الدنيا والآخرة. ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾: ضرره وعقابه في الدنيا والآخرة، وفي هذا حث على فعل الخير وترك الشر، وانتفاع العاملين بأعمالهم الحسنة، وضررهم بأعمالهم السيئة، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾: فيُحمِّل أحدًا فوق سيئاته.

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿٤٧﴾، ﴿٤٨﴾ هذا إخبار عن سعة علمه تعالى واختصاصه بالعلم الذي لا يطلع عليه سواه، فقال: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾؛ أي: جميع الخلق يرد علمها إلى الله تعالى، ويقرون بالعجز عنه؛ الرسل والملائكة وغيرهم. ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾؛ أي: وعائها الذي تخرج منه، وهذا شامل لثمرات جميع الأشجار التي في البلدان والبراري؛ فلا تخرج ثمرة شجرة من الأشجار إلا وهو يعلمها علمًا تفصيليًّا. ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾: من بني آدم وغيرهم من أنواع الحيوانات إلا بعلمه، ﴿وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾؛ فكيف سوى المشركون به تعالى من لا علم عنده ولا سمع ولا بصر؟! ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾؛ أي:

المشـركين به يوم القيامـة توبيخًا وإظهـارًا لكذبهم، فيقول لهـم: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾: الذيـن زعمتـم أنهم شـركائي، فعبدتموهـم وجادلتم على ذلك وعاديتم الرسـل لأجلهم؟ ﴿قَالُوٓاْ﴾: مقريـن ببطـلان إلهيتهـم وشـركتهم مـع اللـه: ﴿ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾﴾؛ أي: أعلمناك يـا ربنـا واشهد علينا أنه ما منا أحد يشهد بصحة إلهيتهم وشركتهم؛ فكلنـا الآن رجعنـا إلى بطـلان عبادتها وتبرأنا منهـا، ولهذا قـال: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ﴾: مـن دون اللـه؛ أي: ذهبـت عقائدهـم وأعمالهم التـي أفنوا فيهـا أعمارهم على عبـادة غير اللـه، وظنوا أنها تفيدهم، وتدفـع عنهم العذاب، وتشـفع لهم عند الله، فخاب سـعيهم، وانتقض ظنهم، ولم تغن عنهم شـركاؤهم شيئًا. ﴿وَظَنُّواْ﴾؛ أي: أيقنوا في تلك الحـال ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾؛ أي: منقـذ ينقذهـم ولا مغيث ولا ملجأ. فهذه عاقبة من أشرك بالله غيره، يبينها الله لعباده، ليحذروا الشرك به.

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾.

﴿٤٩﴾ هـذا إخبار عن طبيعة الإنسـان من حيث هو، وعدم صبره وجلده، لا على الخير ولا على الشر، إلا من نقله الله مـن هذه الحال إلى حال الكمال، فقال: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾؛ أي: لا يمـل دائمًـا من دعـاء الله بالغنى والمال والولد وغير ذلك من مطالب الدنيا، ولا يزال يعمل علـى ذلك، ولا يقتنـع بقليل ولا بكثير منها؛ فلو حصل له مـن الدنيـا ما حصـل؛ لم يـزل طالبًا للزيـادة. ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾؛ أي: المكـروه كالمـرض والفقـر وأنـواع البلايـا، ﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾؛ أي: ييـأس مـن رحمـة اللـه تعالـى، ويظـن أن هـذا البـلاء هو القاضـي عليـه بالهلاك، ويتشوش من إتيان الأسباب على غير ما يحب ويطلب؛ إلا

۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾

الذين آمنوا(١) وعملوا الصالحات؛ فإنهم إذا أصابهم الخير والنعمـة والمحاب؛ شـكروا الله تعالـى، وخافوا أن تكون نعم الله عليهم استدراجًا وإمهالًا، وإن أصابتهم مصيبة في أنفسـهم وأموالهم وأولادهـم؛ صبروا ورجَـوا فضل ربهم فلم ييأسوا.

﴿٥٠﴾ ثـم قـال تعالـى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ﴾؛ أي: الإنسـان الذي لا يسـأم من دعاء الخير وإن مسـه الشر فيئوس قنوط ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾؛ أي: بعد ذلك الشـر الـذي أصابه؛ بأن عافاه اللـه مـن مرضه أو أغناه من فقره؛ فإنه لا يشـكر الله تعالى؛ بـل يبغي ويطغـى ويقـول: ﴿هَٰذَا لِى﴾؛ أي: أتاني لأني له أهـل وأنـا مسـتحق لـه، ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾، وهذا إنـكار منه للبعث، وكفر للنعمـة والرحمة التي أذاقها اللـه لـه، ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: علـى تقدير إتيان السـاعة، وأني سـأرجع إلى ربي؛ إن لي عنده للحسنى؛ فكما حصلت لي النعمة في الدنيا؛ فإنها

(١) ع، ط: «صبروا».

ستحصل لي في الآخرة! وهذا من أعظم الجرأة والقول على الله بلا علم؛ فلهذا توعده بقوله: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾؛ أي: شديد جدًّا.

﴿٥١﴾ ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾: بصحة أو رزق أو غيرهما ﴿أَعْرَضَ﴾: عن ربه وعن شكره، ﴿وَنَـَٔا﴾؛ أي: ترفع ﴿بِجَانِبِهِۦ﴾: عجبًا وتكبرًا، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾: أي: المرض أو الفقر أو غيرهما ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾؛ أي: كثير جدًّا؛ لعدم صبره؛ فلا صبر في الضراء ولا شكر في الرخاء؛ إلا من هداه الله ومَنَّ عليه.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿٥٢﴾ أي: ﴿قُلْ﴾: لهؤلاء المكذبين بالقرآن المسارعين إلى الكفران: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ﴾: هذا القرآن ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: من غير شك ولا ارتياب، ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾؛ أي: معاندة لله ولرسوله؛ لأنه تبين لكم الحق والصواب، ثم عدلتم عنه لا إلى حق، بل إلى باطل وجهل؛ فإذًا تكونون أضل الناس وأظلمهم.

﴿٥٣﴾ فإن قلتم أو شككتم بصحته وحقيقته؛ فسيقيم الله لكم، ويريكم من؛ حيث قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ﴾؛ كالآيات التي في السماء وفي الأرض وما يحدثه الله تعالى من الحوادث العظيمة الدالة للمستبصر على الحق. ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾: مما اشتملت عليه أبدانهم من بديع آيات الله وعجائب صنعته وباهر قدرته، وفي حلول العقوبات والمثلات في المكذبين ونصر المؤمنين، ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ﴾: من تلك الآيات بيانًا لا يقبل الشك، ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾: وما اشتمل عليه حق، وقد فعل تعالى؛ فإنه أرى عباده من الآيات ما به تبين لهم أنه الحق، ولكن الله هو الموفق للإيمان من شاء، والخاذل لمن يشاء. ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾؛ أي: أولم يكفهم - على أن القرآن حق، ومن جاء به صادق - شهادة الله تعالى؛ فإنه قد شهد له بالصدق، وهو أصدق الشاهدين، وأيده ونصره نصرًا متضمنًا لشهادته القولية عند من شك فيها.

﴿٥٤﴾ ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: في شك من البعث والقيامة، وليس عندهم دار سوى الدار الدنيا؛ فلذلك لم يعملوا للآخرة، ولم يلتفتوا لها. ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾: علمًا وقدرة وعزة.

تم تفسير سورة السجدة بمنه تعالى.



تفسير سورة الشورى

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٩﴾﴾.

﴿٣﴾ - ﴿٥﴾ يخبر تعالى أنه أوحى هذا القرآن العظيم إلى النبي الكريم كما أوحى إلى من قبله من الأنبياء والمرسلين؛ ففيه بيان فضله بإنزال الكتب وإرسال الرسل سابقًا ولاحقًا، وأن محمدًا ﷺ ليس ببدع من الرسل، وأن طريقته طريقة من قبله، وأحواله تناسب أحوال مَنْ قبلَه من المرسلين، وما جاء به يشابه ما جاءوا به؛ لأن الجميع حق وصدق، وهو تنزيل من اتصف بالألوهية والعزة العظيمة والحكمة البالغة، وأن جميع العالم العلوي والسفلي ملكه وتحت تدبيره القدري والشرعي، وأنه ﴿ٱلۡعَلِيُّ﴾ بذاته وقدره وقهره. ﴿ٱلۡعَظِيمُ ﴿٤﴾﴾: الذي من عظمته ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّ﴾: على عظمها وكونها جمادًا، ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾: الكرام المقربون خاضعون لعظمته مستكينون لعزته مذعنون بربوبيته، ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾: ويعظمونه عن كل نقص، ويصفونه بكل كمال، ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: عما يصدر منهم مما لا يليق بعظمة ربهم وكبريائه، مع أنه تعالى ﴿ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾: الذي لولا مغفرته ورحمته؛ لعاجل الخلق بالعقوبة المستأصلة.

الجزء الخامس والعشرون — سورة الشورى

سُورَةُ الشُّورَىٰ — ترتيبها ٤٢ — آياتها ٥٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ
ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ
ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ
وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي
ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ
مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ
﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ
حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي
ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ
مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾
أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ
عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ
إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾

٤٨٣

وفي وصفه تعالى بهذه الأوصاف بعد أن ذكر أنه أوحى إلى الرسل كلهم عمومًا وإلى محمد - صلى الله عليهم وسلم - خصوصًا، إشارة إلى أن هذا القرآن الكريم فيه من الأدلة والبراهين والآيات الدالة على كمال الباري تعالى ووصفه بهذه الأسماء العظيمة الموجبة لامتلاء القلوب من معرفته ومحبته وتعظيمه وإجلاله وإكرامه وصرف جميع أنواع العبودية الظاهرة والباطنة له تعالى، وأن من أكبر الظلم وأفحش القول اتخاذ أنداد لله من دونه، ليس بيدهم نفع ولا ضر، بل هم مخلوقون مفتقرون إلى الله في جميع أحوالهم.

﴿٦﴾ ولهذا عقبه بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾: يتولونهم بالعبادة والطاعة؛ كما يعبدون الله ويطيعونه؛ فإنما اتخذوا الباطل، وليسوا بأولياء على الحقيقة. ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾: يحفظ عليهم أعمالهم فيجازيهم بخيرها وشرها، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿٦﴾﴾: فتسأل عن أعمالهم، وإنما أنت مبلغ أديت وظيفتك.

(٧) ثم ذكر منته على رسوله وعلى الناس حيث أنزل الله ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ بيِّن الألفاظ والمعاني، ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ ﴾: وهي مكة المكرمة، ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾: من قرى العرب، ثم يسري هذا الإنذار إلى سائر الخلق، ﴿ وَتُنذِرَ ﴾: الناس ﴿ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ ﴾: الذي يجمع الله به الأولين والآخرين، وتخبرهم أنه ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾، وأن الخلق ينقسمون فيه فريقين: ﴿ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ ﴾: وهم الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، ﴿ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ (٧) ﴾: وهم أصناف الكفرة المكذبين.

(٨) ﴿ وَ ﴾ مع هذا لو ﴿ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ ﴾: أي جعل الناس ﴿ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾: على الهدى؛ لأنه القادر الذي لا يمتنع عليه شيء، ولكن أراد أن يدخل في رحمته من شاء من خواص خلقه، وأما الظالمون الذين لا يصلحون لصالح؛ فإنهم محرومون من الرحمة؛ فما لهم من دون الله من ولي يتولاهم فيحصِّل لهم المحبوب، ولا نصير يدفع عنهم المكروه.

(٩) ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ يتولونهم بعبادتهم إياهم؛ فقد غلطوا أقبح غلط؛ ﴿ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ ﴾ الذي يتولاه عبده بعبادته وطاعته والتقرب إليه بما أمكن من أنواع التقربات، ويتولى عباده عمومًا بتدبيره ونفوذ القدر فيهم، ويتولى عباده المؤمنين خصوصًا بإخراجهم من الظلمات إلى النور، وتربيتهم بلطفه، وإعانتهم في جميع أمورهم. ﴿ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٩) ﴾؛ أي: هو المتصرف بالإحياء والإماتة ونفوذ المشيئة والقدرة؛ فهو الذي يستحق أن يعبد وحده لا شريك له.

﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ (١١) لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١٢) ﴾.

(١٠) يقول تعالى: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ ﴾: من أصول دينكم وفروعه مما لم تتفقوا عليه ﴿ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾: يُرَدُّ إلى كتابه وإلى سنة رسوله؛ فما حكما به؛ فهو الحق، وما خالف ذلك؛ فباطل. ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى ﴾؛ أي: فكما أنه تعالى الرب الخالق الرازق المدبر؛ فهو تعالى الحاكم بين عباده بشرعه في جميع أمورهم. ومفهوم الآية الكريمة أن اتفاق الأمة حجة قاطعة؛ لأن الله تعالى لم يأمرنا أن نرد إليه إلا ما اختلفنا فيه؛ فما اتفقنا عليه يكفي اتفاق الأمة عليه؛ لأنها معصومة عن الخطأ، ولا بد أن يكون اتفاقها موافقًا لما في كتاب الله وسنة رسوله. وقوله: ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾؛ أي: اعتمدت بقلبي عليه في جلب المنافع ودفع المضار، واثقًا به تعالى في الإسعاف بذلك، ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) ﴾؛ أي: أتوجه بقلبي وبدني إليه وإلى طاعته وعبادته، وهذان الأصلان كثيرًا ما يذكرهما الله في كتابه؛ لأنهما يحصل بمجموعهما كمال العبد، ويفوته الكمال بفوتهما أو فوت أحدهما؛ كقوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله: ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود: ١٢٣].

(١١) ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي: خالقهما بقدرته ومشيئته وحكمته. ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾: لتسكنوا إليها وتنتشر منكم الذرية ويحصل لكم من النفع ما يحصل، ﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ﴾؛ أي: ومن جميع أصنافها نوعين ذكرًا وأنثى؛ لتبقى وتنمو لمنافعكم الكثيرة، ولهذا عدَّاها باللام الدالة على التعليل؛ أي: جعل ذلك لأجلكم ولأجل النعمة عليكم، ولهذا قال: ﴿ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾؛ أي: يبثكم ويكثركم ويكثر مواشيكم بسبب أن جعل لكم من أنفسكم، وجعل لكم من الأنعام أزواجًا. ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾: أي: ليس يشبهه تعالى ولا يماثله شيء من مخلوقاته لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله؛ لأن أسماءه كلها حسنى، وصفاته صفات كمال وعظمة، وأفعاله تعالى أوجد بها المخلوقات العظيمة من غير مشارك؛ فليس كمثله شيء؛ لانفراده وتوحده بالكمال من كل وجه. ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾: لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات. ﴿ ٱلْبَصِيرُ (١١) ﴾: يرى دبيب النملة السوداء، في الليلة الظلماء، على الصخرة الصماء، ويرى سريان القوت في أعضاء الحيوانات الصغيرة جدًّا، وسريان الماء في الأغصان الدقيقة.

وهذه الآية ونحوها دليل لمذهب أهل السنة والجماعة من إثبات الصفات ونفي مماثلة المخلوقات، وفيها رد على المشبهة في قوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾، وعلى المعطلة في قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ (١١) ﴾.

فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا
وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ
وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾
۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ
إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ
وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ
يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا
تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ
أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾
فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ
وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ
بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ
لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

(١٢) وقوله: ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي: له ملك السماوات والأرض، وبيده مفاتيح الرحمة والأرزاق والنعم الظاهرة والباطنة؛ فكل الخلق مفتقرون إلى الله في جلب مصالحهم ودفع المضارِّ عنهم في كل الأحوال، ليس بيد أحد من الأمر شيء، والله تعالى هو المعطي المانع الضار النافع، الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع الشر إلا هو، و﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [فاطر: ٢]، ولهذا قال هنا: ﴿ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ ﴾؛ أي: يوسعه ويعطيه من أصناف الرزق ما شاء، ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾؛ أي: يضيق على من يشاء حتى يكون بقدر حاجته، لا يزيد عنها، وكل هذا تابع لعلمه وحكمته؛ فلهذا قال: ﴿ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾: فيعلم أحوال عباده؛ فيعطي كلًّا ما يليق بحكمته، وتقتضيه مشيئته.

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾.

(١٣) هذه أكبر منة أنعم الله بها على عباده أن شرع لهم من الدين خير الأديان وأفضلها وأزكاها وأطهرها، دين الإسلام، الذي شرعه الله للمصطفين المختارين من عباده، بل شرعه الله لخيار الخيار وصفوة الصفوة، وهم أولو العزم من المرسلين، المذكورون في هذه الآية، أعلى الخلق درجة وأكملهم من كل وجه؛ فالدين الذي شرعه الله لهم لا بد أن يكون مناسبًا لأحوالهم موافقًا لكمالهم، بل إنما كملهم الله، واصطفاهم بسبب قيامهم به؛ فلولا الدين الإسلامي؛ ما ارتفع أحد من الخلق؛ فهو روح السعادة وقطب رحى الكمال، وهو ما تضمنه هذا الكتاب الكريم ودعا إليه من التوحيد والأعمال والأخلاق والآداب. ولهذا قال: ﴿ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ ﴾؛ أي: أمركم أن تقيموا جميع شرائع الدين أصوله وفروعه؛ تقيمونه بأنفسكم، وتجتهدون في إقامته على غيركم، وتعاونون على البر والتقوى، ولا تعاونون على الإثم والعدوان، ﴿ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾؛ أي: ليحصل منكم الاتفاق على أصول الدين وفروعه، واحرصوا على ألَّا تفرقكم المسائل وتحزبكم أحزابًا، فتكونوا شيعًا يعادي بعضكم بعضًا مع اتفاقكم على أصل دينكم.

ومن أنواع الاجتماع على الدين وعدم التفرق فيه ما أمر به الشارع من الاجتماعات العامة؛ كاجتماع الحج والأعياد والجمع والصلوات الخمس والجهاد وغير ذلك من العبادات التي لا تتم ولا تكمل إلا بالاجتماع لها وعدم التفرق. ﴿ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾؛ أي: شق عليهم غاية المشقة؛ حيث دعوتهم إلى الإخلاص لله وحده؛ كما قال عنهم: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الزمر: ٤٥]، وقولهم: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾ [ص: ٥]. ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ ﴾؛ أي: يختار من خليقته من يعلم أنه يصلح للاجتباء لرسالته وولايته، ومنه أن اجتبى هذه الأمة وفضلها على سائر الأمم واختار لها أفضل الأديان وخيرها. ﴿ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾: هذا السبب الذي من العبد يتوصل به إلى هداية الله تعالى، وهو إنابته لربه، وانجذاب دواعي قلبه إليه، وكونه قاصدًا وجهه؛ فحسن مقصد العبد مع اجتهاده في طلب الهداية من أسباب التيسير لها؛ كما قال تعالى: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [المائدة: ١٦].

وفي هذه الآية أن الله يهدي إليه من ينيب، مع قوله: ﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ [لقمان: ١٥]، مع العلم بأحوال الصحابة رضي الله عنهم وأن شدة إنابتهم، دليل على أن قولهم حجة، خصوصًا الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين.

﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿١٤﴾ لما أمر تعالى باجتماع المسلمين على دينهم، ونهاهم عن التفرق؛ أخبرهم أنهم ينبغي لهم ألا يغتروا بما أنزل الله عليهم من الكتاب؛ فإن أهل الكتاب لم يتفرقوا حتى أنزل الله عليهم الكتاب الموجب للاجتماع، ففعلوا ضد ما يأمر به كتابهم، وذلك كله بغيًا وعدوانًا منهم؛ فإنهم تباغضوا، وتحاسدوا، وحصلت بينهم المشاحنة والعداوة، فوقع الاختلاف؛ فاحذروا أيها المسلمون أن تكونوا مثلهم. ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾؛ أي: بتأخير العذاب القاضي إلى أجل مسمى، ﴿ لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾: ولكن حكمته وحلمه اقتضى تأخير ذلك عنهم. ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾؛ أي: الذين ورثوهم، وصاروا خلفًا لهم ممن ينتسب إلى العلم منهم، ﴿ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ ﴾؛ أي: لفي اشتباه كثير يوقع في الاختلاف؛ حيث اختلف سلفهم بغيًا وعنادًا؛ فإن خلفهم اختلفوا شكًّا وارتيابًا، والجميع مشتركون في الاختلاف المذموم.

﴿١٥﴾ ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ﴾؛ أي: فللدين القويم والصراط المستقيم، الذي أنزل الله به كتبه وأرسل رسله؛ فادع إليه أمتك، وحضهم عليه، وجاهد عليه من لم يقبله. ﴿ وَٱسْتَقِمْ ﴾: بنفسك ﴿ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾؛ أي: استقامة موافقة لأمر الله؛ لا تفريط ولا إفراط، بل امتثالًا لأوامر الله، واجتنابًا لنواهيه، على وجه الاستمرار على ذلك؛ فأمره بتكميل نفسه بلزوم الاستقامة، وبتكميل غيره بالدعوة إلى ذلك. ومن المعلوم أن أمر الرسول ﷺ أمر لأمته إذا لم يرد تخصيص له. ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾؛ أي: أهواء المنحرفين عن الدين من الكفرة والمنافقين، إما باتباعهم على بعض دينهم، أو بترك الدعوة إلى الله، أو بترك الاستقامة؛ فإنك إن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذًا لمن الظالمين، ولم يقل: ولا تتبع دينهم؛ لأن حقيقة دينهم الذي شرعه الله لهم هو دين الرسل كلهم، ولكنهم لم يتبعوه، بل اتبعوا أهواءهم واتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا، ﴿ وَقُلْ ﴾: لهم عند جدالهم ومناظرتهم: ﴿ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ﴾؛ أي: لتكن مناظرتك لهم مبنية على هذا الأصل العظيم، الدال على شرف الإسلام وجلالته وهيمنته على سائر الأديان، وأن الدين الذي يزعم أهل الكتاب أنهم عليه جزء من الإسلام، وفي هذا إرشاد إلى أن أهل الكتاب إن ناظروا مناظرة مبنية على الإيمان ببعض الكتب أو ببعض الرسل دون غيره؛ فلا يسلم لهم ذلك؛ لأن الكتاب الذي يدعون إليه والرسول الذي ينتسبون إليه من شرطه أن يكون مصدقًا بهذا القرآن وبمن جاء به؛ فكتابنا ورسولنا لم يأمرنا إلا بالإيمان بموسى وعيسى والتوراة والإنجيل التي أخبر بها وصدق بها وأخبر أنها مصدقة له ومقرة بصحته، وأما مجرد التوراة والإنجيل وموسى وعيسى الذين لم يوصفوا لنا ولم يوافقوا لكتابنا؛ فلم يأمرنا بالإيمان بهم.

وقوله: ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾؛ أي: في الحكم فيما اختلفتم فيه؛ فلا تمنعني عداوتكم وبغضكم يا أهل الكتاب من العدل بينكم، ومن العدل في الحكم بين أهل الأقوال المختلفة من أهل الكتاب وغيرهم أن يُقْبَلَ ما معهم من الحق ويرد ما معهم من الباطل. ﴿ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾؛ أي: هو رب الجميع، لستم بأحق به منا، ﴿ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾: من خير وشر، ﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾؛ أي: بعدما تبينت الحقائق واتضح الحق من الباطل والهدى من الضلال؛ لم يبق للجدال والمنازعة محل؛ لأن المقصود من الجدال إنما هو بيان الحق من الباطل؛ ليهتدي الراشد، ولتقوم الحجة على الغاوي. وليس المراد بهذا أن أهل الكتاب لا يجادلون، كيف والله يقول: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت: ٤٦]؟! وإنما المراد ما ذكرنا. ﴿ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾: يوم القيامة، فيجزي كلًّا بعمله، ويتبين حينئذ الصادق من الكاذب.

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ وَلَهُمۡ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾.

﴿١٦﴾ وهذا تقرير لقوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ﴾؛ فأخبر هنا أن الذين ﴿يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾: بالحجج الباطلة والشبه المتناقضة ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾: أي: من بعد ما استجاب لله أولو الألباب والعقول لمَّا بين لهم من الآيات القاطعة والبراهين الساطعة؛ فهؤلاء المجادلون للحق من بعد ما تبين ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ﴾؛ أي: باطلة مدفوعة ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾؛ لأنها مشتملة على رد الحق، وكل ما خالف الحق؛ فهو باطل، ﴿وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ﴾: بعصيانهم وإعراضهم عن حجج الله وبيناته وتكذيبها، ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾: هو أثر غضب الله عليهم؛ فهذه عقوبة كل مجادل للحق بالباطل.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٧﴾ لما ذكر تعالى أن حججه واضحة بينة بحيث استجاب لها كل من فيه خير؛ ذكر أصلها وقاعدتها، بل جميع الحجج التي أوصلها إلى العباد ترجع إليه، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَ﴾: فالكتاب هو هذا القرآن العظيم الذي نزل بالحق، واشتمل على الحق والصدق واليقين، وكله آيات بينات وأدلة واضحات على جميع المطالب الإلهية والعقائد الدينية، فجاء بأحسن المسائل وأوضح الدلائل.

وأما الميزان؛ فهو العدل والاعتبار بالقياس الصحيح والعقل الرجيح؛ فكل الدلائل العقلية من الآيات الآفاقية[1]، والنفسية، والاعتبارات الشرعية، والمناسبات، والعلل، والأحكام، والحكم، داخلة في الميزان الذي أنزله الله تعالى ووضعه بين عباده ليزنُوا به ما أثبته وما نفاه من الأمور، ويعرفوا به صدق ما أخبر به وأخبرت به رسله. فما خرج عن هذين الأمرين - عن الكتاب والميزان - مما قيل: إنه حجة أو برهان أو دليل أو نحو ذلك من العبارات؛ فإنه باطل

(١) الأصل: «الأفقية».

وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ
دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ وَلَهُمۡ عَذَابٌ شَدِيدٌ
﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ
لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ
بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ
أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾
ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِىُّ ٱلۡعَزِيزُ
﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِى حَرۡثِهِۦۖ وَمَن
كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلۡأٓخِرَةِ مِن
نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ
مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِىَ بَيۡنَهُمۡۗ
وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ
مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ
لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٢﴾

متناقض قد فسدت أصوله وانهدمت مبانيه وفروعه، يعرف ذلك من خَبَرَ المسائل ومآخذها، وعرف التمييز بين راجح الأدلة ومرجوحها، والفرق بين الحجج والشبه.

وأما من اغتر بالعبارات المزخرفة والألفاظ المموَّهة ولم تنفذ بصيرته إلى المعنى المراد؛ فإنه ليس من أهل هذا الشأن، ولا من فرسان هذا الميدان؛ فَوِفاقه وخلافه سيان. ثم قال تعالى مخوفًا للمستعجلين لقيام الساعة المنكرين لها، ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾؛ أي: ليس بمعلوم بُعدها ولا متى تقوم؛ فهي في كل وقت متوقع وقوعها، مخوف وجبتها.

﴿١٨﴾ ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَا﴾: عنادًا وتكذيبًا وتعجيزًا لربهم، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا﴾؛ أي: خائفون؛ لإيمانهم بها، وعلمهم بما تشتمل عليه من الجزاء بالأعمال، وخوفهم لمعرفتهم بربهم ألَّا تكون أعمالهم منجية ولا مسعدة، ولهذا قال: ﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّ﴾: الذي لا مرية فيه، ولا شك يعتريه. ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ

﴿ فِي ٱلسَّاعَةِ ﴾؛ أي: بعدما امتروا فيها، ماروا الرسل وأتباعهم بإثباتها؛ ﴿ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ﴾؛ أي: معاندة ومخاصمة غير قريبة من الصواب، في غاية البعد عن الحق. وأي بعد أبعد ممن كذب بالدار التي هي الدار على الحقيقة؟! وهي الدار التي خلقت للبقاء الدائم والخلود السرمد، وهي دار الجزاء التي يظهر الله فيها عدله وفضله، وإنما هذه الدار بالنسبة إليها كراكب قال في ظل شجرة ثم رحل وتركها، وهي دار عبور وممر لا محل استقرار، فصدقوا بالدار المضمحلة الفانية حيث رأوها وشاهدوها، وكذبوا بالدار الآخرة التي تواترت بالإخبار عنها الكتب الإلهية والرسل الكرام وأتباعهم، الذين هم أكمل الخلق عقولًا وأغزرهم علمًا وأعظمهم فطنة وفهمًا.

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿١٩﴾ يخبر تعالى أنه ﴿ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾؛ ليعرفوه ويحبوه ويتعرضوا للطفه وكرمه، واللطف من أوصافه تعالى معناه: الذي يدرك الضمائر والسرائر، الذي يوصل عباده - وخصوصًا المؤمنين - إلى ما فيه الخير لهم من حيث لا يعلمون ولا يحتسبون. فمن لطفه بعبده المؤمن أن هداه إلى الخير هداية لا تخطر بباله بما يَسَّر له من الأسباب الداعية له إلى ذلك من فطرته على محبة الحق والانقياد له وإيزاعه تعالى لملائكته الكرام أن يثبتوا عباده المؤمنين ويحثوهم على الخير ويلقوا في قلوبهم من تزيين الحق ما يكون داعيًا لاتباعه. ومن لطفه أن أمر المؤمنين بالعبادات الاجتماعية التي بها تقوى عزائمهم وتنبعث هممهم ويحصل منهم التنافس على الخير والرغبة فيه واقتداء بعضهم ببعض. ومن لطفه أن قيض لعبده كل سبب يعوقه ويحول بينه وبين المعاصي، حتى إنه تعالى إذا علم أن الدنيا والمال والرياسة ونحوها مما يتنافس فيه أهل الدنيا تقطع عبده عن طاعته أو تحمله على الغفلة عنه أو على معصيته؛ صرفها عنه، وقدر عليه رزقه، ولهذا قال هنا: ﴿ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ ﴾: بحسب اقتضاء حكمته ولطفه، ﴿ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾ ﴾: الذي له القوة كلها؛ فلا حول ولا قوة لأحد من المخلوقين إلا به، الذي دانت له جميع الأشياء.

﴿٢٠﴾ ثم قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾؛ أي: أجرها وثوابها، فآمن بها وصدق وسعى لها سعيها، ﴿ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦ ﴾: بأن نضاعف عمله وجزاءه أضعافًا كثيرة؛ كما قال تعالى في سورة أخرى: ﴿ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ﴿١٩﴾ ﴾ [الإسراء: ١٩]، ومع ذلك؛ فنصيبه من الدنيا لا بد أن يأتيه، ﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا ﴾: بأن كانت الدنيا هي مقصوده وغاية مطلوبه، فلم يقدم لآخرته، ولا رجا ثوابها، ولم يخش عقابها، ﴿ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا ﴾: نصيبه الذي قسم له، ﴿ وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾: قد حرم الجنة ونعيمها، واستحق النار وجحيمها. وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [هود: ١٥] إلى آخر الآيات.

﴿ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿٢١﴾ يخبر تعالى أن المشركين اتخذوا شركاء يوالونهم ويشتركون هم وإياهم في الكفر وأعماله من شياطين الإنس الدعاة إلى الكفر، ﴿ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾: من الشرك والبدع، وتحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم الله ونحو ذلك مما اقتضته أهواؤهم، مع أن الدين لا يكون إلا ما شرعه الله تعالى، ليدين به العباد، ويتقربوا به إليه؛ فالأصل الحجر على كل أحد أن يشرع شيئًا ما جاء عن الله وعن رسوله؛ فكيف بهؤلاء الفسقة المشتركين هم وآباؤهم وهم على الكفر. ﴿ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ ﴾؛ أي: لولا الأجل المسمى الذي ضربه الله فاصلًا بين الطوائف المختلفة، وأنه سيؤخرهم إليه؛ لقضي بينهم في الوقت الحاضر بسعادة المحق وإهلاك المبطل؛ لأن

المقتضي للإهلاك موجود، ولكن أمامهم العذاب الأليم في الآخرة؛ هؤلاء وكل ظالم.

(٢٢) وفي ذلك اليوم ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أنفسهم بالكفر والمعاصي، ﴿مُشْفِقِينَ﴾؛ أي: خائفين وجلين، ﴿مِمَّا كَسَبُوا۟﴾: أن يعاقبوا عليه، ولما كان الخائف قد يقع به ما أشفق منه وخافه وقد لا يقع؛ أخبر أنه ﴿وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾: العقاب الذي خافوه؛ لأنهم أتوا بالسبب التام الموجب للعقاب من غير معارض من توبة ولا غيرها، ووصلوا موضعًا فات فيه الإنظار والإمهال. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بقلوبهم بالله وبكتبه ورسله وما جاءوا به، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: يشمل فيه كل عمل صالح من أعمال القلوب وأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات؛ فهؤلاء ﴿فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾؛ أي: الروضات المضافة إلى الجنات، والمضاف يكون بحسب المضاف إليه؛ فلا تسأل عن بهجة تلك الرياض المونقة، وما فيها من الأنهار المتدفقة، والغياض المعشبة، والمناظر الحسنة، والأشجار المثمرة، والطيور المغردة، والأصوات الشجية المطربة، والاجتماع بكل حبيب، والأخذ من المعاشرة والمنادمة بأكمل نصيب؛ رياض لا تزداد على طول المدى إلا حسنًا وبهاء، ولا يزداد أهلها إلا اشتياقًا إلى لذاتها ووِدادًا. ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾: فيها؛ أي: في الجنات؛ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فمهما أرادوا؛ فهو حاصل، ومهما طلبوا؛ حصل، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ (٢٢)﴾: وهل فضل[1] أكبر من الفوز برضا الله تعالى والتنعم بقربه في دار كرامته؟!

(٢٣) ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: هذه البشارة العظيمة التي هي أكبر البشائر على الإطلاق بشر بها الرحيم الرحمن على يد أفضل خلقه لأهل الإيمان والعمل الصالح؛ فهي أجل الغايات، والوسيلة الموصلة إليها أفضل الوسائل، ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾؛ أي: على تبليغي إياكم هذا القرآن ودعوتكم إلى أحكامه ﴿أَجْرًا﴾؛ فلست أريد أخذ أموالكم ولا التولي عليكم والترؤس ولا غير ذلك من الأغراض ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

يحتمل أن المراد: لا أسألكم عليه أجرًا؛ إلا أجرًا واحدًا، هو لكم، وعائد نفعه إليكم، وهو أن تودوني وتحبوني في القرابة؛ أي: لأجل القرابة، ويكون على هذا المودة الزائدة على مودة الإيمان؛ فإن مودة الإيمان بالرسول وتقديم محبته على جميع المحاب بعد محبة الله فرض على كل مسلم، وهؤلاء طلب منهم زيادة على ذلك أن يحبوه لأجل القرابة؛ لأنه ﷺ قد باشر بدعوته أقرب الناس إليه، حتى إنه قيل: إنه ليس في بطون قريش أحد إلا ولرسول الله ﷺ فيه قرابة.

ويحتمل أن المراد: إلا مودة الله تعالى المودة الصادقة، وهي التي يصحبها التقرب إلى الله والتوسل بطاعته الدالة على صحتها وصدقها، ولهذا قال: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾؛ أي: في التقرب إلى الله.

وعلى كلا القولين؛ فهذا الاستثناء دليل على أنه لا يسألكم عليه أجرًا بالكلية؛ إلا أن يكون شيئًا يعود نفعه إليهم؛ فهذا ليس من الأجر في شيء، بل هو من الأجر منه لهم ﷺ؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ (٨)﴾ [البروج: ٨]، وقولهم: ما لفلان عندك ذنب إلا أنه محسن إليك.

﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾: من صلاة، أو صوم، أو حج، أو إحسان إلى الخلق، ﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾: بأن يشرح الله صدره، وييسر أمره، ويكون سببًا للتوفيق لعمل آخر، ويزداد بها عمل المؤمن، ويرتفع عند الله، وعند خلقه، ويحصل له الثواب العاجل والآجل. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣)﴾: يغفر الذنوب العظيمة، ولو بلغت ما بلغت عند التوبة منها، ويشكر على العمل القليل بالأجر الكثير؛ فبمغفرته يغفر الذنوب ويستر العيوب، وبشكره يتقبل الحسنات ويضاعفها أضعافًا كثيرة.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٢٤)﴾.

(٢٤) يعني: أم يقول المكذبون للرسول ﷺ جرأة منهم وكذبًا: ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾: فرموك بأشنع الأمور وأقبحها، وهو الافتراء على الله بادعاء النبوة والنسبة إلى الله ما هو بريء منه، وهم يعلمون صدقك وأمانتك؛

(١) ع، ط: «فوز».

الجزء الخامس والعشرون — سورة الشورى

ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ قُل لَّآ
أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ
لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ
كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ
بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ
عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾
وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ
وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ
لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ
خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ
وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ
إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا
كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ
فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾

٤٨٦

فكيف يتجرءون على هذا الكذب الصراح؟! بل تجرءوا بذلك على الله تعالى؛ فإنه قدح في الله؛ حيث مكنك من هذه الدعوة العظيمة المتضمنة - على موجب زعمهم - أكبر الفساد في الأرض؛ حيث مكنه الله من التصريح بالدعوة، ثم بنسبتها إليه، ثم يؤيده بالمعجزات الظاهرات والأدلة القاهرات والنصر المبين والاستيلاء على من خالفه، وهو تعالى قادر على حسم هذه الدعوة من أصلها ومادتها، وهو أن يختم على قلب الرسول ﷺ؛ فلا يعي شيئًا، ولا يدخل إليه خير، وإذا ختم على قلبه؛ انحسم الأمر كله وانقطع؛ فهذا دليل قاطع على صحة ما جاء به الرسول، وأقوى شهادة من الله له على ما قال، ولا يوجد شهادة أعظم منها ولا أكبر، ولهذا من حكمته ورحمته وسنته الجارية أنه يمحو الباطل ويزيله، وإن كان له صولة في بعض الأوقات؛ فإن عاقبته الاضمحلال، ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾: الكونية التي لا تبدل ولا تغير، ووعده الصادق، وكلماته الدينية التي تحقق ما شرعه من الحق وتثبته في القلوب وتبصر أولي الألباب، حتى إن من جملة إحقاقه تعالى الحق أن يقيض له الباطل ليقاومه؛ فإذا قاومه؛ صال عليه الحق ببراهينه وبيناته، فظهر من نوره وهداه ما به يضمحل الباطل وينقمع ويتبين بطلانه لكل أحد، ويظهر الحق كل الظهور لكل أحد. ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾؛ أي: بما فيها، وما اتصفت به من خير وشر، وما أكنته ولم تبده.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿٢٥﴾ هذا بيان لكمال كرم الله تعالى وسعة جوده وتمام لطفه؛ إذ ﴿يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ﴾ الصادرة ﴿عَنْ عِبَادِهِۦ﴾: حين يقلعون عن ذنوبهم ويندمون عليها ويعزمون على ألَّا يعاودوها إذا قصدوا بذلك وجه ربهم؛ فإن الله يقبلها بعدما انعقدت سببًا للهلاك ووقوع العقوبات الدنيوية والدينية، ﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: ويمحوها، ويمحو أثرها من العيوب، وما اقتضته من العقوبات، ويعود التائب عنده كريمًا كأنه ما عمل سوءًا قط، ويحبه ويوفقه لما يقربه إليه.

ولما كانت التوبة من الأعمال العظيمة التي قد تكون كاملة بسبب تمام الإخلاص والصدق فيها، وقد تكون ناقصة عند نقصهما، وقد تكون فاسدة إذا كان القصد منها بلوغ غرض من الأغراض الدنيوية، وكان محل ذلك القلب الذي لا يعلمه إلا الله؛ ختم هذه الآية بقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿٢٦﴾ فالله تعالى دعا جميع العباد إلى الإنابة إليه والتوبة من التقصير، فانقسموا بحسب الاستجابة له إلى قسمين: مستجيبين، وصفهم بقوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: يستجيبون لربهم لما دعاهم إليه، وينقادون له، ويلبون دعوته؛ لأن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح يحملهم على ذلك؛ فإذا استجابوا له؛ شكر الله لهم، وهو الغفور الشكور، ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾: توفيقًا ونشاطًا على العمل، وزادهم مضاعفة في الأجر زيادة عمَّا تستحقه

أعمالهم من الثواب والفوز العظيم. وأما غير المستجيبين لله، وهم المعاندون ﴿ الكافرون ﴾ به وبرسله؛ فإنهم ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ في الدنيا والآخرة.

﴿٢٧﴾ ثم ذكر أن من لطفه بعباده أنه لا يوسع عليهم الدنيا سعة تضر بأديانهم، فقال: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي: لغفلوا عن طاعة الله، وأقبلوا على التمتع بشهوات الدنيا، فأوجبت لهم الإكباب على ما تشتهيه نفوسهم، ولو كان معصية وظلمًا. ﴿ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ﴾: بحسب ما اقتضاه لطفه وحكمته، ﴿ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ﴾: كما في بعض الآثار أن الله تعالى يقول: «إن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الغنى، ولو أفقرته؛ لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الفقر، ولو أغنيته؛ لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الصحة، ولو أمرضته؛ لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا المرض، ولو عافيته؛ لأفسده ذلك، إني أدبر أمر عبادي بعلمي بما في قلوبهم، إني خبير بصير»[1].

﴿٢٨﴾ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ﴾؛ أي: المطر الغزير الذي به يغيث البلاد والعباد ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ ﴾: وانقطع عنهم مدة ظنوا أنه لا يأتيهم، وأيسوا، وعملوا لذلك الجدب أعمالًا، فينزل الله الغيث، ﴿ وَيَنشُرُ ﴾ به ﴿ رَحْمَتَهُۥ ﴾ من إخراج الأقوات للآدميين وبهائمهم، فيقع عندهم موقعًا عظيمًا، ويستبشرون بذلك ويفرحون. ﴿ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ﴾: الذي يتولى عباده بأنواع التدبير، ويتولى القيام بمصالح دينهم ودنياهم ﴿ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ ﴾: في ولايته وتدبيره، الحميد على ما له من الكمال، وما أوصله إلى خلقه من أنواع الأفضال.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿٢٩﴾ ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ أي: ومن أدلة قدرته العظيمة وأنه سيحيي الموتى بعد موتهم: ﴿ خَلْقُ ﴾ هذه ﴿ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾؛ على عظمهما وسعتهما، الدال على قدرته وسعة سلطانه، وما فيهما من الإتقان والإحكام دال على حكمته، وما فيهما من المنافع والمصالح دال على رحمته، وذلك يدل على أنه المستحق لأنواع العبادة كلها، وأن إلهية ما سواه باطلة. ﴿ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾؛ أي: ما نشر في السماوات والأرض من أصناف الدواب، التي جعلها الله مصالح ومنافع لعباده. ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ ﴾؛ أي: جمع الخلق بعد موتهم لموقف القيامة ﴿ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾: فقدرته ومشيئته صالحان لذلك، ويتوقف وقوعه على وجود الخبر الصادق، وقد علم أنه قد تواترت أخبار المرسلين وكتبهم بوقوعه.

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿٣٠﴾ يخبر تعالى أنه ما أصاب العباد من مصيبة في أبدانهم وأموالهم وأولادهم وفيما يحبون ويكون عزيزًا عليهم إلا بسبب ما قدمته أيديهم من السيئات، وأن ما يعفو الله عنه أكثر؛ فإن الله لا يظلم العباد، ولكن أنفسهم يظلمون، ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [فاطر: ٤٥].

﴿٣١﴾ وليس إهمالًا منه تعالى تأخير العقوبات ولا عجزًا: ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي: معجزين قدرة الله عليكم، بل أنتم عاجزون في الأرض، ليس عندكم امتناع عما ينفذه الله فيكم، ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ ﴾: يتولاكم، فيحصِّل لكم المنافع ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ ﴾: يدفع عنكم المضار.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿٣٢﴾ أي: ومن أدلة رحمته وعنايته بعباده ﴿ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ ﴾: من السفن والمراكب البخارية[2] والشراعية التي هي من عظمها ﴿ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ ﴾، وهي الجبال الكبار التي سخر لها البحر العجاج، وحفظها من التطام الأمواج، وجعلها تحملكم وتحمل أمتعتكم الكثيرة إلى البلدان والأقطار البعيدة، وسخر لها من الأسباب ما كان معونة على ذلك.

---

(١) أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣١٨).

(٢) ع، ط: «النارية».

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ
فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ
﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ
يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا
غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ
ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا
وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ
بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ
يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ
﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ
لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾

٤٨٧

﴿٣٣﴾، ﴿٣٤﴾ ثم نبه على هذه الأسباب بقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾: التي جعلها الله سببًا لسيرها[1]، ﴿فَيَظْلَلْنَ﴾؛ أي: الجواري ﴿رَوَاكِدَ﴾: على ظهر البحر لا تتقدم ولا تتأخر. ولا ينتقض هذا بالمراكب البخارية[2]؛ فإن من شرط مشيها وجود الريح، وإن شاء الله تعالى؛ أوبق الجواري بما كسب أهلها؛ أي: أغرقها في البحر وأتلفها، ولكنه يحلم ويعفو عن كثير. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾؛ أي: كثير الصبر على ما تكرهه نفسه، ويشق عليها فيكرهها عليه من مشقة طاعة أو ردع داع إلى معصية أو ردع نفسه عند المصائب عن التسخط، شكور في الرخاء، وعند النعم يعترف بنعمة ربه، ويخضع له، ويصرفها في مرضاته؛ فهذا الذي ينتفع بآيات الله، وأما الذي لا صبر عنده ولا شكر له عند نعم الله؛ فإنه معرض أو معاند لا ينتفع بالآيات.

(١) ع، ط: «المشيها».
(٢) ع، ط: «النارية».

﴿٣٥﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾: ليبطلوها بباطلهم، ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾؛ أي: لا ينقذهم منقذ مما حل بهم من العقوبة.

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿٣٦﴾ هذا تزهيد في الدنيا وترغيب في الآخرة وذكر الأعمال الموصلة إليها؛ فقال: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ﴾: من ملك ورياسة وأموال وبنين وصحة وعافية بدنية، ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: لذة منغصة منقطعة، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾: من الثواب الجزيل والأجر الجليل والنعيم المقيم ﴿خَيْرٌ﴾ من لذات الدنيا، خيرية لا نسبة بينهما ﴿وَأَبْقَىٰ﴾: لأنه نعيم لا منغص فيه ولا كدر ولا انتقال.

ثم ذكر لمن هذا الثواب، فقال: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾؛ أي: جمعوا بين الإيمان الصحيح المستلزم لأعمال الإيمان الظاهرة والباطنة، وبين التوكل الذي هو الآلة لكل عمل؛ فكل عمل لا يصحبه التوكل؛ فغير تام، وهو الاعتماد بالقلب على الله في جلب ما يحبه العبد ودفع ما يكرهه مع الثقة به تعالى.

﴿٣٧﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾: والفرق بين الكبائر والفواحش - مع أن جميعهما كبائر - أن الفواحش هي الذنوب الكبار التي في النفوس داع إليها كالزنا ونحوه، والكبائر ما ليس كذلك، هذا عند الاقتران، وأما مع إفراد كل منهما عن الآخر؛ فإن الآخر يدخل فيه. ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾؛ أي: قد تخلقوا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، فصار الحلم لهم سجية وحسن الخلق لهم طبيعة، حتى إذا أغضبهم أحد بمقاله أو فعاله؛ كظموا ذلك الغضب، فلم ينفذوه، بل غفروه، ولم يقابلوا المسيء إلا بالإحسان والعفو والصفح، فترتب على هذا العفو والصفح من المصالح ودفع المفاسد في أنفسهم وغيرهم شيء كثير؛ كما قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

﴿٣٨﴾ ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ ﴾؛ أي: انقادوا لطاعته، ولبوا دعوته، وصار قصدهم رضوانه وغايتهم الفوز بقربه، ومن الاستجابة لله إقام الصلاة وإيتاء الزكاة؛ فلذلك عطفهما على ذلك من باب عطف العام على الخاص الدال على شرفه وفضله، فقال: ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾؛ أي: ظاهرها وباطنها فرضها ونفلها، ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾: من النفقات الواجبة؛ كالزكاة والنفقة على الأقارب ونحوهم، والمستحبة؛ كالصدقات على عموم الخلق. ﴿ وَأَمْرُهُمْ ﴾: الديني والدنيوي، ﴿ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾؛ أي: لا يستبد أحد منهم برأيه في أمر من الأمور المشتركة بينهم، وهذا لا يكون إلا فرعًا عن اجتماعهم وتوالفهم وتوادهم وتحاببهم؛ فمن كمال عقولهم أنهم إذا أرادوا أمرًا من الأمور التي تحتاج إلى إعمال الفكر والرأي فيها؛ اجتمعوا لها وتشاوروا وبحثوا فيها، حتى إذا تبينت لهم المصلحة؛ انتهزوها وبادروها، وذلك كالرأي في الغزو والجهاد وتولية الموظفين لإمارة أو قضاء أو غيره، وكالبحث في المسائل الدينية عمومًا؛ فإنها من الأمور المشتركة، والبحث فيها لبيان الصواب مما يحبه الله، وهو داخل في هذه الآية.

﴿٣٩﴾ ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ ﴾؛ أي: وصل إليهم من أعدائهم ﴿ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾: لقوتهم وعزتهم، ولم يكونوا أذلاء عاجزين عن الانتصار؛ فوصفهم بالإيمان، والتوكل على الله، واجتناب الكبائر والفواحش الذي تكفر به الصغائر، والانقياد التام، والاستجابة لربهم، وإقامة الصلاة، والإنفاق في وجوه الإحسان، والمشاورة في أمورهم، والقوة، والانتصار على أعدائهم؛ فهذه خصال الكمال قد جمعوها، ويلزم من قيامها فيهم فعل ما هو دونها وانتفاء ضدها.

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿٤٠﴾ ذكر الله في هذه الآية مراتب العقوبات، وأنها على ثلاث مراتب: عدل، وفضل، وظلم. **فمرتبة العدل**: جزاء السيئة بسيئة مثلها؛ لا زيادة ولا نقص؛ فالنفس بالنفس، وكل جارحة بالجارحة المماثلة لها، والمال يضمن بمثله.

ومرتبة الفضل: العفو والإصلاح عن المسيء، ولهذا قال: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾؛ يجزيه أجرًا عظيمًا وثوابًا كثيرًا، وشرط الله في العفو الإصلاح فيه ليدل ذلك على أنه إذا كان الجاني لا يليق بالعفو عنه، وكانت المصلحة الشرعية تقتضي عقوبته؛ فإنه في هذه الحال لا يكون مأمورًا به، وفي جعل أجر العافي على الله ما يهيج على العفو، وأن يعامل العبد الخلق بما يحب أن يعامله الله به؛ فكما يحب أن يعفو الله عنه؛ فليعف عنهم، وكما يحب أن يسامحه الله؛ فليسامحهم؛ فإن الجزاء من جنس العمل.

وأما مرتبة الظلم؛ فقد ذكرها بقوله: ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾: الذين يجنون على غيرهم ابتداء، أو يقابلون الجاني بأكثر من جنايته؛ فالزيادة ظلم.

﴿٤١﴾ ﴿ وَلَمَنِ انتَصَرَ ﴾ من ﴿ بَعْدَ ظُلْمِهِ ﴾؛ أي: انتصر ممن ظلمه بعد وقوع الظلم عليه ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾؛ أي: لا حرج عليهم في ذلك. ودل قوله: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ ﴾، وقوله: ﴿ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ ﴾: أنه لا بد من إصابة البغي والظلم ووقوعه، وأما إرادة البغي على الغير وإرادة ظلمه من غير أن يقع منه شيء؛ فهذا لا يجازى بمثله، وإنما يؤدب تأديبًا يردعه عن قول أو فعل صدر منه.

﴿٤٢﴾ ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ ﴾؛ أي: إنما تتوجه الحجة بالعقوبة الشرعية ﴿ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾: وهذا شامل للظلم والبغي على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم. ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾؛ أي: موجع للقلوب والأبدان بحسب ظلمهم وبغيهم.

﴿٤٣﴾ ﴿ وَلَمَن صَبَرَ ﴾: على ما يناله من أذى الخلق، ﴿ وَغَفَرَ ﴾: لهم بأن سمح لهم عما يصدر منهم ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾؛ أي: لمن الأمور التي حث الله عليها وأكدها وأخبر أنه لا يلقاها إلا أهل الصبر والحظوظ العظيمة، ومن الأمور التي لا يوفق لها إلا أولو العزائم والهمم وذوو الألباب والبصائر؛ فإن ترك الانتصار للنفس بالقول أو الفعل من أشق شيء عليها، والصبر على الأذى والصفح عنه ومغفرته ومقابلته بالإحسان أشق وأشق، ولكنه يسير على من يسره الله عليه وجاهد نفسه على الاتصاف به، واستعان الله على ذلك، ثم إذا ذاق العبد حلاوته، ووجد آثاره؛ تلقاه برحب الصدر، وسعة الخُلُق، والتلذذ فيه.

وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ
مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ
خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ
فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ٤٥ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم
مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ٤٦ ٱسۡتَجِيبُواْ
لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم
مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ ٤٧ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ
فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَإِنَّآ إِذَآ
أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ
بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ٤٨ لِّلَّهِ مُلۡكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا
وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ٤٩ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ
وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ٥٠ ۞ وَمَا كَانَ
لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ
رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ٥١

﴿ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ﴾.

(٤٤) يخبر تعالى أنه المنفرد بالهداية والإضلال، وأنه ﴿ مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ ﴾: بسبب ظلمه ﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦ ﴾: يتولى أمره ويهديه، ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ﴾: مرأى ومنظرًا فظيعًا صعبًا شنيعًا يظهرون الندم العظيم والحزن على ما سلف منهم، و﴿يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿٤٤﴾ ﴾؛ أي: هل لنا طريق أو حيلة إلى رجوعنا إلى الدنيا لنعمل غير الذي كنا نعمل، وهذا طلب للأمر المحال الذي لا يمكن.

(٤٥) ﴿ وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا ﴾؛ أي: على النار ﴿ خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ ﴾؛ أي: ترى أجسامهم خاشعة للذل الذي في قلوبهم، ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ ﴾؛ أي: ينظرون إلى النار مسارقة وشزرًا من هيبتها وخوفها، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾: حين ظهرت عواقب الخلق وتبين أهل الصدق من غيرهم: ﴿إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾: على الحقيقة، ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾: حيث فوَّتوا أنفسهم جزيل الثواب وحصلوا على أليم العقاب وفُرِّق بينهم وبين أهليهم فلم يجتمعوا بهم آخر ما عليهم. ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾: أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ﴿٤٥﴾ ﴾؛ أي: في سوائه ووسطه منغمرين لا يخرجون منه أبدًا، و﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الزخرف: ٧٥].

(٤٦) ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾: كما كانوا في الدنيا يمنون أنفسهم بذلك؛ ففي القيامة يتبين لهم ولغيرهم أن أسبابهم التي أمَّلوها تقطعت، وأنه حين جاءهم عذاب الله لم يدفع عنهم، ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ﴾: تحصل به هدايته؛ فهؤلاء ضلوا حين زعموا في شركائهم النفع ودفع الضر، فتبين حينئذ ضلالهم.

﴿ ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ ﴿٤٧﴾ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ﴿٤٨﴾ ﴾.

(٤٧) يأمر تعالى عباده بالاستجابة له بامتثال ما أمر به واجتناب ما نهى عنه وبالمبادرة بذلك وعدم التسويف ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ ﴾: يوم القيامة، الذي إذا جاء؛ لا يمكن رده واستدراك الفائت، وليس للعبد في ذلك اليوم ملجأ يلجأ إليه فيفوِّت ربه ويهرب منه، بل قد أحاطت الملائكة بالخليقة من خلفهم، ونودوا: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الرحمن: ٣٣]: وليس للعبد في ذلك اليوم نكير لما اقترفه وأجرمه، بل لو أنكر؛ لشهدت عليه جوارحه. وهذه الآية ونحوها فيها ذم الأمل والأمر بانتهاز الفرصة في كل عمل يعرض للعبد؛ فإن للتأخير آفات.

(٤٨) ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ ﴾: عما جئتهم به بعد البيان التام ﴿ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾: تحفظ أعمالهم وتسأل عنها، ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾: فإذا أديت ما عليك؛ فقد وجب أجرك على الله، سواء استجابوا أم أعرضوا، وحسابهم على الله الذي يحفظ عليهم صغير أعمالهم وكبيرها وظاهرها وباطنها. ثم ذكر تعالى حالة الإنسان، وأنه إذا أذاقه الله رحمة من صحة بدن، ورزق رغد، وجاه ونحوه؛ ﴿فَرِحَ بِهَا ﴾؛ أي: فرح فرحًا مقصورًا عليها لا يتعداها، ويلزم من ذلك طمأنينته بها وإعراضه عن المنعم. ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ ﴾؛ أي: مرض أو فقر أو نحوهما ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ (٤٨) ﴾؛ أي: طبيعته كفران النعمة السابقة والتسخط لما أصابه من السيئة.

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾.

(٤٩)، (٥٠) هذه الآية فيها الإخبار عن سعة ملكه تعالى ونفوذ تصرفه في الملك في الخلق لما يشاء والتدبير لجميع الأمور، حتى إن تدبيره تعالى من عمومه أنه يتناول المخلوقة عن الأسباب التي يباشرها العباد؛ فإن النكاح من الأسباب لولادة الأولاد؛ فالله تعالى هو الذي يعطيهم من الأولاد ما يشاء؛ فمن الخلق من يهب له إناثًا، ومنهم من يهب له ذكورًا، ومنهم من يزوجه؛ أي: يجمع له ذكورًا وإناثًا، ومنهم من يجعله عقيمًا لا يولد له. ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ ﴾: بكل شيء. ﴿ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾: على كل شيء. فيتصرف بعلمه وإتقانه الأشياء وبقدرته في مخلوقاته.

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ (٥١) وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ (٥٣) ﴾.

(٥١) لما قال المكذبون لرسل الله الكافرون بالله: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ﴾ [البقرة: ١١٨]: من كبرهم وتجبرهم؛ رد الله عليهم بهذه الآية الكريمة، وبيّن أن تكليمه تعالى لا يكون إلا لخواص خلقه؛ للأنبياء والمرسلين وصفوته من العالمين، وأنه يكون على أحد هذه الأوجه: إما أن يكلمه الله وحيًا، بأن يلقي الوحي في قلب الرسول من غير إرسال ملك ولا مخاطبة منه شفاهًا، ﴿ أَوْ ﴾ يكلمه منه شفاهًا، لكن ﴿مِن وَرَآئِ حِجَابٍ ﴾؛ كما حصل لموسى بن عمران كليم الرحمن، ﴿ أَوْ ﴾ يكلمه الله بواسطة الرسول الملكي؛ ﴿يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾؛ كجبريل أو غيره من الملائكة، ﴿فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ ﴾؛ أي: بإذن ربه لا بمجرد هواه؛ ﴿مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ ﴾ تعالى عليٌّ الذات عليُّ الأوصاف، عظيمها، ﴿عَلِىٌّ ﴾ الأفعال، قد قهر كل شيء، ودانت له المخلوقات، ﴿حَكِيمٌ (٥١) ﴾ في وضعه كل شيء في موضعه من المخلوقات والشرائع.

(٥٢) ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ حين أوحينا إلى الرسل قبلك، ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾: وهو هذا القرآن الكريم، سماه روحًا؛ لأن الروح يحيا به الجسد، والقرآن تحيا به القلوب والأرواح، وتحيا به مصالح الدنيا والدين؛ لما فيه من الخير الكثير والعلم الغزير، وهو محض منة الله على رسوله وعباده المؤمنين من غير سبب منهم، ولهذا قال: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى ﴾؛ أي: قبل نزوله عليك ﴿مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾؛ أي: ليس عندك علم بأخبار الكتب السابقة، ولا إيمان وعمل بالشرائع الإلهية، بل كنت أميًّا لا تخط ولا تقرأ، فجاءك هذا الكتاب الذي ﴿ جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾: يستضيئون به في ظلمات الكفر والبدع والأهواء المردية، ويعرفون به الحقائق، ويهتدون به إلى الصراط المستقيم. ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) ﴾؛ أي: تبينه لهم، وتوضحه، وترغبهم فيه، وتنهاهم عن ضده، وترهبهم منه.

(٥٣) ثم فسر الصراط المستقيم، فقال: ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي: الصراط الذي نصبه الله لعباده وأخبرهم أنه موصل إليه وإلى دار كرامته. ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ (٥٣) ﴾؛ أي: ترجع جميع أمور الخير والشر، فيجازي كلا بعمله؛ إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر.

تم تفسير سورة الشورى.

والحمد لله أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا على تيسيره وتسهيله.



وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ
وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ
وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ
مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ٥٣

سُورَةُ الزُّخْرُفِ ٨٩ ٤٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا
لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا
لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ٤ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا
أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ٥ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي
ٱلْأَوَّلِينَ ٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ
٧ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ
٨ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ
خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ٩ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ
مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٠

تفسير سورة الزخرف

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥ ﴾.

(٢)، (٣) هذا قسم بالقرآن على القرآن، فأقسم بالكتاب المبين، وأطلق، ولم يذكر المتعلق؛ ليدل على أنه مبين لكل ما يحتاج إليه العباد من أمور الدنيا والدين والآخرة. ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾: هذا المقسم عليه أنه جعل بأفصح اللغات وأوضحها وأبينها، وهذا من بيانه. وذكر الحكمة في ذلك، فقال: ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ ﴾؛ ألفاظه ومعانيه لتيسرها وقربها من الأذهان.

(٤) ﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾؛ أي: هذا الكتاب ﴿ فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا ﴾ أي: في الملأ الأعلى في أعلى الرتب وأفضلها ﴿ لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤ ﴾؛ أي: لعلي في قدره وشرفه ومحله، حكيم فيما يشتمل عليه من الأوامر والنواهي والأخبار؛ فليس فيه حكم مخالف للحكمة والعدل والميزان.

(٥) ثم أخبر تعالى أن حكمته وفضله يقتضي ألَّا يترك عباده هَمَلًا؛ لا يرسل إليهم رسولًا ولا ينزل عليهم كتابًا ولو كانوا مسرفين ظالمين، فقال: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا ﴾؛ أي: أفنعرض عنكم ونترك إنزال الذكر إليكم ونضرب عنكم صفحًا لأجل إعراضكم وعدم انقيادكم، بل ننزل عليكم الكتاب، ونوضح لكم فيه كل شيء؛ فإن آمنتم به واهتديتم؛ فهو من توفيقكم، وإلا؛ قامت عليكم الحجة، وكنتم على بينة من أمركم.

﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨ ﴾.

(٦) - (٨) يقول تعالى: إن هذه سنتنا في الخلق ألَّا نتركهم هملًا؛ ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ ﴾: يأمرونهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ولم يزل التكذيب موجودًا في الأمم. ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ ﴾: جحدًا لما جاء به، وتكبرًا على الحق، ﴿ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم ﴾ أي: من هؤلاء ﴿ بَطْشًا ﴾؛ أي: قوة وأفعالًا وآثارًا في الأرض، ﴿ وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨ ﴾؛ أي: مضت أمثالهم وأخبارهم وبينا لكم منها ما فيه عبرة ومزدجر عن التكذيب والإنكار.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠ وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًاۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١١ وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤ ﴾.

﴿٩﴾ يخبر تعالى عن المشركين أنك لإن ﴿ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾: الله وحده لا شريك له. ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾: الذي دانت لعزته جميع المخلوقات. ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾: بظواهر الأمور وبواطنها وأوائلها وأواخرها. فإذا كانوا مقرين بذلك؛ فكيف يجعلون له الولد والصاحبة والشريك؟! وكيف يشركون به من لا يخلق ولا يرزق ولا يميت ولا يحيي؟!

﴿١٠﴾ ثم ذكر أيضًا من الأدلة الدالة على كمال نعمته واقتداره بما خلقه لعباده من الأرض التي مهدها وجعلها قرارًا للعباد يتمكنون فيها من كل ما يريدون، ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾؛ أي: جعل منافذ بين سلاسل الجبال المتصلة تنفذون منها إلى ما وراءها من الأقطار، ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ ﴾: في السير في الطرق ولا تضيعون، ولعلكم أيضًا تهتدون في الاعتبار بذلك والادكار فيه.

﴿١١﴾ ﴿ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ ﴾: لا يزيد ولا ينقص، ويكون أيضًا بمقدار الحاجة؛ لا ينقص بحيث لا يكون فيه نفع، ولا يزيد بحيث يضر العباد والبلاد، بل أغاث به العباد، وأنقذ به البلاد من الشدة، ولهذا قال: ﴿ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾؛ أي: أحييناها بعد موتها، ﴿ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ ﴾؛ أي: فكما أحيا الأرض الميتة الهامدة بالماء؛ كذلك يحييكم بعدما تستكملون في البرزخ ليجازيكم بأعمالكم.

﴿١٢﴾ ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾؛ أي: الأصناف جميعها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون؛ من ليل ونهار، وحر وبرد، وذكر وأنثى... وغير ذلك، ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ ﴾؛ أي: السفن البحرية الشراعية والبخارية، ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾[1].

﴿١٣﴾ ﴿ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾: وهذا شامل لظهور الفلك ولظهور الأنعام؛ أي: لتستقروا عليها. ﴿ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾: بالاعتراف بالنعمة لمن سخرها والثناء عليه تعالى بذلك، ولهذا قال: ﴿ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾؛ أي: لولا تسخيره لنا ما سخر من الفلك والأنعام؛ ما كنا مطيقين لذلك وقادرين عليه، ولكن من لطفه وكرمه تعالى سخرها وذللها

(١) عبارة: «والبخارية، ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾» وردت في ع، ط: «والنارية ما تركبون ومن الأنعام ما تركبون».

وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾

ويسر أسبابها. والمقصود من هذا بيان أن الرب الموصوف بما ذكره من إفاضة النعم على العباد هو الذي يستحق أن يعبد، ويصلى له ويسجد.

﴿ وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم

مُقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿١٥﴾ يخبر تعالى عن شناعة قول المشركين الذين جعلوا لله تعالى ولدًا، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، ولم يكن له كفوًا أحد. وأن ذلك باطل من عدة أوجه: منها: أن الخلق كلهم عباده، والعبودية تنافي الولادة. ومنها: أن الولد جزء من والده، والله تعالى بائن من خلقه مباين لهم في صفاته ونعوت جلاله، والولد جزء من الوالد؛ فمحال أن يكون لله تعالى ولد.

﴿١٦﴾ ومنها: أنهم يزعمون أن الملائكة بنات الله، ومن المعلوم أن البنات أدون الصنفين؛ فكيف يكون لله البنات ويصطفيهم بالبنين ويفضلهم بها؟! فإذًا؛ يكونون أفضل من الله! تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا!

﴿١٧﴾ ومنها: أن الصنف الذي نسبوه لله - وهو البنات - أدون الصنفين وأكرههما لهم، حتى إنهم من كراهتهم لذلك إذا ﴿ بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا ﴾؛ من كراهته وشدة بغضه؛ فكيف يجعلون لله ما يكرهون؟!

﴿١٨﴾ ومنها: أن الأنثى ناقصة في وصفها وفي منطقها وبيانها، ولهذا قال تعالى: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ ﴾؛ أي: يجمل فيها لنقص جماله، فيجمل بأمر خارج عنه، ﴿ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ ﴾؛ أي: عند الخصام الموجب لإظهار ما عند الشخص من الكلام ﴿ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾؛ أي: غير مبين لحجته ولا مفصح عما احتوى عليه ضميره؛ فكيف ينسبونهن لله تعالى؟!

﴿١٩﴾ ومنها: أنهم جعلوا ﴿ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾: فتجرءوا على الملائكة العباد المقربين، ورقَّوهم عن مرتبة العبادة والذل إلى مرتبة المشاركة لله في شيء من خواصه، ثم نزلوا بهم عن مرتبة الذكورية إلى مرتبة الأنوثية؛ فسبحان من أظهر تناقض من كذب عليه وعاند رسله! ومنها: أن الله رد عليهم بأنهم لم يشهدوا خلق الله لملائكته؛ فكيف يتكلمون بأمر من المعلوم عند كل أحد أنه ليس لهم به علم؟! ولكن لا بد أن يسألوا عن هذه الشهادة، وستكتب عليهم ويعاقبون عليها.

﴿٢٠﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ﴾: فاحتجوا على عبادتهم الملائكة بالمشيئة، وهي حجة لم يزل المشركون يطرقونها، وهي حجة باطلة في نفسها عقلًا وشرعًا؛ فكل عاقل لا يقبل الاحتجاج بالقدر، ولو سلكه في حالة من أحواله؛ لم يثبت عليها قدمه، وأما شرعًا؛ فإن الله تعالى أبطل الاحتجاج به، ولم يذكره عن غير المشركين به المكذبين لرسله؛ فإن الله تعالى قد أقام الحجة على العباد؛ فلم يبق لأحد عليه حجة أصلًا، ولهذا قال هنا: ﴿ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾؛ أي: يتخرصون تخرصًا لا دليل عليه، ويتخبطون خبط عشواء.

﴿٢١﴾ ثم قال: ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ ﴾: يخبرهم بصحة أفعالهم وصدق أقوالهم؟! ليس الأمر كذلك؛ فإن الله أرسل محمدًا نذيرًا إليهم، وهم لم يأتهم نذير غيره؛ أي: فلا عقل ولا نقل، وإذا انتفى الأمران؛ فلا ثم إلا الباطل.

﴿٢٢﴾ نعم؛ لهم شبهة من أوهى الشبه، وهي تقليد آبائهم الضالين، الذين ما زال الكفرة يردون بتقليدهم دعوة الرسل، ولهذا قال هنا: ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾؛ أي: على دين وملة، ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾؛ أي: فلا نتبع ما جاء به محمد ﷺ.

﴿٢٣﴾ ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ ﴾؛ أي: منعَّموها وملؤها الذين أطغتهم الدنيا وغرتهم الأموال واستكبروا على الحق: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾؛ أي: فهؤلاء ليسوا ببدع منهم، وليسوا بأول من قال هذه المقالة. وهذا الاحتجاج من هؤلاء المشركين الضالين بتقليدهم لآبائهم الضالين ليس المقصود به اتباع الحق والهدى، وإنما هو تعصب محض، يراد به نصرة ما معهم من الباطل.

﴿٢٤﴾ ولهذا كل رسول يقول لمن عارضه بهذه الشبهة الباطلة: ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ﴾؛ أي: أفتتبعونني لأجل الهدى؟ ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾: فعلم بهذا أنهم ما أرادوا اتباع الحق والهدى، وإنما قصدهم اتباع الباطل والهوى.

وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾

٤٩١

﴿٢٥﴾ ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾: بتكذيبهم الحق وردهم إياه بهذه الشبهة الباطلة، ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾: فليحذر هؤلاء أن يستمروا على تكذيبهم فيصيبهم ما أصابهم.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿٢٦﴾ يخبر تعالى عن ملة إبراهيم الخليل عليه السلام، الذي ينتسب إليه أهل الكتاب والمشركون، وكلهم يزعم أنه على طريقته، فأخبر عن دينه الذي ورَّثه في ذريته، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ﴾: الذين اتخذوا من دون الله آلهة يعبدونهم ويتقربون إليهم: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾؛ أي: مبغض له مجتنب معاد لأهله.

﴿٢٧﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾؛ فإني أتولاه وأرجو أن يهديني للعلم بالحق والعمل بالحق؛ فكما فطرني ودبرني بما يصلح بدني ودنياي، ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ لما يصلح ديني وآخرتي.

﴿٢٨﴾ ﴿وَجَعَلَهَا﴾؛ أي: هذه الخصلة الحميدة التي هي أم الخصال وأساسها، وهي إخلاص العبادة لله وحده، والتبري من عبادة ما سواه ﴿كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾؛ أي: في ذريته، ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: إليها ﴿يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾: لشهرتها عنه وتوصيته لذريته وتوصية بعض بنيه كإسحاق ويعقوب لبعض؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]. إلى آخر الآيات.

﴿٢٩﴾ فلم تزل هذه الكلمة موجودة في ذريته عليه السلام حتى دخلهم الترف والطغيان، فقال تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾: بأنواع الشهوات، حتى صارت هي غايتهم ونهاية مقصودهم، فلم تزل يتربى حبها في قلوبهم، حتى صارت صفات راسخة وعقائد متأصلة. ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾: الذي لا شك فيه ولا مرية ولا اشتباه، ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾﴾؛ أي: بين الرسالة، قامت أدلة رسالته قيامًا باهرًا بأخلاقه ومعجزاته، وبما جاء به، وبما صدق به المرسلين وبنفس دعوته ﷺ.

﴿٣٠﴾ ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾: الذي يوجب على من له أدنى دين ومعقول أن يقبله وينقاد له، ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾: وهذا من أعظم المعاندة والمشاقة؛ فإنهم لم يكتفوا بمجرد الإعراض عنه، بل ولا جحده، فلم يرضوا حتى قدحوا به قدحًا شنيعًا، وجعلوه بمنزلة السحر الباطل الذي لا يأتي به إلا أخبث الخلق وأعظمهم افتراء، والذي حملهم على ذلك طغيانهم بما متعهم الله به وآباءهم.

﴿٣١﴾ ﴿وَقَالُوا۟﴾: مقترحين على الله بعقولهم الفاسدة: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾؛ أي:

معظم عندهم مبجل من أهل مكة أو أهل الطائف؛ كالوليد بن المغيرة ونحوه ممن هو عندهم عظيم.

﴿٣٢﴾ قال الله ردًّا لاقتراحهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؛ أي: أهم الخزان لرحمة الله، وبيدهم تدبيرها، فيعطون النبوة والرسالة من يشاءون، ويمنعونها ممن يشاءون؟! ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾؛ أي: في الحياة الدنيا، والحال أن رحمة ﴿رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾: من الدنيا؛ فإذا كانت معايش العباد وأرزاقهم الدنيوية بيد الله تعالى، هو الذي يقسمها بين عباده، فيبسط الرزق على من يشاء ويضيقه على من يشاء بحسب حكمته؛ فرحمته الدينية - التي أعلاها النبوة والرسالة - أولى وأحرى أن تكون بيد الله تعالى؛ فالله أعلم حيث يجعل رسالته.

فعلم أن اقتراحهم ساقط لاغ، وأن التدبير للأمور كلها دينها ودنيويها بيد الله وحده، هذا إقناع لهم من جهة غلطهم في الاقتراح الذي ليس في أيديهم منه شيء، إن هو إلا ظلم منهم ورد للحق. وقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾: لو عرفوا حقائق الرجال والصفات التي بها يعرف علو قدر الرجل، وعظم منزلته عند الله وعند خلقه؛ لعلموا أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ هو أعظم الرجال قدرًا، وأعلاهم فخرًا، وأكملهم عقلًا، وأغزرهم علمًا، وأجلهم رأيًا وعزمًا وحزمًا، وأكملهم خلقًا، وأوسعهم رحمة، وأشدهم شفقة، وأهداهم وأتقاهم، وهو قطب دائرة الكمال، وإليه المنتهى في أوصاف الرجال، ألا وهو رجل العالم على الإطلاق؛ يعرف ذلك أولياؤه وأعداؤه؛ إلا من ضل وكابر؛ فكيف يفضل عليه المشركون من لم يشم مثقال ذرة من كماله، ومن جرمه[1] ومنتهى حمقه[2] أن جعل إلهه الذي يعبده ويدعوه ويتقرب إليه صنمًا أو شجرًا أو حجرًا لا يضر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع، وهو كَلٌّ على مولاه، يحتاج لمن يقوم بمصالحه؟! فهل هذا إلا من فعل السفهاء والمجانين؟! فكيف يجعل مثل هذا عظيمًا؟! أم كيف يفضل على خاتم الرسل وسيد ولد آدم ﷺ؟! ولكن الذين كفروا لا يعقلون.

(١) ع، ط: «حزمه».
(٢) ع، ط: «عقله».

وفي هذه الآية تنبيه على حكمة الله تعالى في تفضيل الله بعض العباد على بعض في الدنيا؛ ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾؛ أي: ليسخر بعضهم بعضًا في الأعمال والحرف والصنائع؛ فلو تساوى الناس في الغنى ولم يحتج بعضهم إلى بعض؛ لتعطل كثير من مصالحهم ومنافعهم.

وفيها دليل على أن نعمته الدينية خير من النعمة الدنيوية؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٨].

﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٣٣﴾ - ﴿٣٥﴾ يخبر تعالى بأن الدنيا لا تسوى عنده شيئًا، وأنه لولا لطفه ورحمته بعباده التي لا يقدم عليها شيئًا؛ لوسع الدنيا على الذين كفروا توسيعًا عظيمًا، ولجعل ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾؛ أي: درجًا من فضة، ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾: إلى سطوحهم، ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾﴾: من فضة، ولجعل لهم زخرفًا؛ أي: لزخرف لهم دنياهم بأنواع الزخارف وأعطاهم ما يشتهون، ولكن منعه من ذلك رحمته بعباده؛ خوفًا عليهم من التسارع في الكفر وكثرة المعاصي بسبب حب الدنيا. ففي هذا دليل على أنه يمنع العباد بعض أمور الدنيا منعًا عامًّا أو خاصًّا لمصالحهم، وأن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة. وأن كل هذه المذكورات متاع الحياة الدنيا منغصة مكدرة فانية، وأن الآخرة عند الله تعالى خير للمتقين لربهم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه؛ لأن نعيمها تام كامل من كل وجه، وفي الجنة ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون. فما أشد الفرق بين الدارين!

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم

مُهۡتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ
ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ
ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿٣٦﴾ يخبر تعالى عن عقوبته البليغة بمن أعرض عن ذكره، فقال: ﴿ وَمَن يَعۡشُ ﴾؛ أي: يعرض ويصد ﴿ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾: الذي هو القرآن العظيم، الذي هو أعظم رحمة رحم بها الرحمن عباده؛ فمن قبلها؛ فقد قبل خير المواهب، وفاز بأعظم المطالب والرغائب، ومن أعرض عنها وردها؛ فقد خاب وخسر خسارة لا يسعد بعدها أبدًا، وقيض له الرحمن شيطانًا مريدًا يقارنه ويصاحبه ويعده ويمنيه ويؤزه إلى المعاصي أزًّا.

﴿٣٧﴾ ﴿ وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾؛ أي: الصراط المستقيم والدين القويم، ﴿ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾: بسبب تزيين الشيطان للباطل وتحسينه له وإعراضهم عن الحق، فاجتمع هذا وهذا. فإن قيل: فهل لهذا من عذر من حيث إنه ظن أنه مهتدٍ وليس كذلك؟ قيل: لا عذر لهذا وأمثاله الذين مصدر جهلهم الإعراض عن ذكر الله مع تمكنهم على الاهتداء، فزهدوا في الهدى مع القدرة عليه، ورغبوا في الباطل؛ فالذنب ذنبهم والجرم جرمهم.

﴿٣٨﴾ فهذه حالة هذا المعرض عن ذكر الله في الدنيا مع قرينه، وهو الضلال والغي وانقلاب الحقائق، وأما حاله إذا جاء ربَّه في الآخرة؛ فهو شر الأحوال، وهو الندم والتحسر والحزن الذي لا يُجبَرُ مصابه والتبري من قرينه، ولهذا قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ﴿٣٨﴾ ﴾؛ كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴿٢٨﴾ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

﴿٣٩﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾؛ أي: ولا ينفعكم يوم القيامة اشتراككم في العذاب أنتم وقرناؤكم وأخلاؤكم، وذلك لأنكم اشتركتم في الظلم فاشتركتم في عقابه وعذابه، ولن ينفعكم أيضًا روح التسلي في المصيبة؛ فإن المصيبة إذا

سورة الزخرف — الجزء الخامس والعشرون

وَلِبُيُوتِهِمۡ أَبۡوَٰبٗا وَسُرُرًا عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخۡرُفٗاۚ وَإِن
كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ
لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا
فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ
أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ
بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ
إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ
ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٤٠﴾
فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي
وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ
إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ
وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ
أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا
مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ
رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَضۡحَكُونَ ﴿٤٧﴾

٤٩٢

وقعت في الدنيا واشترك فيها المعاقَبون؛ هان عليهم بعض الهون، وتسلى بعضهم ببعض، وأما مصيبة الآخرة؛ فإنها جمعت كل عقاب ما فيه أدنى راحة، حتى ولا هذه الراحة. نسألك يا ربنا العافية وأن تريحنا برحمتك.

﴿ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿٤٠﴾ يقول تعالى لرسوله ﷺ مسليًا له عن امتناع المكذبين عن الاستجابة له وأنهم لا خير فيهم ولا فيهم زكاء يدعوهم إلى الهدى: ﴿ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ﴾؛ أي: الذين لا يسمعون، ﴿ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ ﴾: الذين لا يبصرون أو تهدي من ﴿ كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٤٠﴾ ﴾؛ أي: بين واضح لعلمه بضلاله

ورضاه به؛ فكما أن الأصم لا يسمع الأصوات، والأعمى لا يبصر، والضال ضلالًا مبينًا لا يهتدي؛ فهؤلاء قد فسدت فطرهم وعقولهم بإعراضهم عن الذكر، واستحدثوا عقائد فاسدة وصفات خبيثة تمنعهم وتحول بينهم وبين الهدى، وتوجب لهم الازدياد من الردى.

(٤١) فهؤلاء لم يبق إلا عذابهم ونكالهم إما في الدنيا أو في الآخرة، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ (٤١)﴾؛ أي: فإن ذهبنا بك قبل أن نريك ما نعدهم من العذاب؛ فاعلم بخبرنا الصادق أنا منهم منتقمون.

(٤٢) ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾: من العذاب، ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ (٤٢)﴾: ولكن ذلك متوقف على اقتضاء الحكمة لتعجيله أو تأخيره؛ فهذه حالك وحال هؤلاء المكذبين.

(٤٣) وأما أنت؛ ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾: فعلًا واتصافًا بما يأمر بالاتصاف به، ودعوة إليه، وحرصًا على تنفيذه بنفسك وفي غيرك. ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٣)﴾: موصل إلى الله وإلى دار كرامته، وهذا مما يوجب عليك زيادة التمسك به والاهتداء، إذا علمت أنه حق وعدل وصدق تكون بانيًا على أصل أصيل، إذا بنى غيرك على الشكوك والأوهام والظلم والجور.

(٤٤) ﴿وَإِنَّهُ﴾؛ أي: هذا القرآن الكريم، ﴿لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾؛ أي: فخر لكم ومنقبة جليلة ونعمة لا يقادر قدرها ولا يعرف وصفها، ويذكركم أيضًا ما فيه من الخير الدنيوي والأخروي، ويحثكم عليه، ويذكركم الشر ويرهبكم عنه. ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤)﴾: عنه؛ هل قمتم به فارتفعتم وانتفعتم؟ أم لم تقوموا به فيكون حجة عليكم وكفرًا منكم بهذه النعمة؟

(٤٥) ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥)﴾: حتى يكون للمشركين نوع حجة يتبعون فيها أحدًا من الرسل؛ فإنك لو سألتهم واستخبرت عن أحوالهم؛ لم تجد أحدًا منهم يدعو إلى اتخاذ إله آخر مع الله، وأن كل الرسل من أولهم إلى آخرهم يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وكل رسول بعثه الله يقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، فدل هذا أن المشركين ليس لهم مستند في شركهم لا من عقل صحيح ولا نقل عن الرسل.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (٥٠) وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ (٥٦)﴾.

(٤٦) لما قال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥)﴾؛ بين تعالى حال موسى ودعوته التي هي أشهر ما يكون من دعوات الرسل، ولأن الله تعالى أكثر من ذكرها في كتابه، فذكر حاله مع فرعون: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾: التي دلت دلالة قاطعة على صحة ما جاء به؛ كالعصا والحية وإرسال الجراد والقمل... إلى آخر الآيات، ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦)﴾: فدعاهم إلى الإقرار بربهم، ونهاهم عن عبادة ما سواه.

(٤٧)، (٤٨) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧)﴾؛ أي: ردوها وأنكروها واستهزءوا بها ظلمًا وعلوًّا، فلم يكن لقصور بالآيات وعدم وضوح فيها، ولهذا قال: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾؛ أي: الآية المتأخرة أعظم من السابقة، ﴿وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾: كالجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات،

وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم
بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا
رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ
ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ
قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن
تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ
وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ
مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ
فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا
ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ
سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ
مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا
خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾
إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾

٤٩٣

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾: إلى الإسلام ويذعنون له؛ ليزول شركهم وشرهم.

(٤٩) ﴿وَقَالُوا۟﴾ عندما نزل عليهم العذاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾: يعنون: موسى عليه السلام، وهذا إما من باب التهكم به، وإما أن يكون هذا الخطاب عندهم مدحًا، فتضرعوا إليه بأن خاطبوه بما يخاطبون به من يزعمون أنهم علماؤهم، وهم السحرة، فقالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾؛ أي: بما خصك الله به وفضلك به من الفضائل والمناقب أن يكشف عنا العذاب، ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾: إن كشف الله عنا ذلك.

(٥٠) ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾؛ أي: لم يفوا بما قالوا، بل غدروا، واستمروا على كفرهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف: ١٣٣-١٣٥].

(٥١) ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ﴾: مستعليًا بباطله قد غره ملكه وأطغاه ماله وجنوده: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ﴾؛ أي: ألست المالك لذلك المتصرف فيه؟ ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾؛ أي: الأنهار المنسحبة من النيل في وسط القصور والبساتين. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾: هذا الملك الطويل العريض؟! وهذا من جهله البليغ؛ حيث افتخر بأمر خارج عن ذاته، ولم يفخر بأوصاف حميدة، ولا أفعال سديدة.

(٥٢) ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾؛ يعني - قبحه الله - بالمهين موسى بن عمران كليم الرحمن الوجيه عند الله؛ أي: أنا العزيز وهو الذليل المهان المحتقر؛ فأيُّنا خير؟! ﴿وَ﴾ مع هذا؛ فإنه لا ﴿يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ عما في ضميره بالكلام؛ لأنه ليس بفصيح اللسان، وهذا ليس من العيوب في شيء، إذا كان يبين ما في قلبه، ولو كان ثقيلًا عليه الكلام.

(٥٣) ثم قال فرعون: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾؛ أي: فهلا كان موسى بهذه الحالة: أن يكون مزينًا مجملًا بالحلي والأساور، ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾: يعاونونه على دعوته ويؤيدونه على قوله.

(٥٤) ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾؛ أي: استخف فرعون عقولهم بما أبدى لهم من هذه الشبه، التي لا تسمن ولا تغني من جوع، ولا حقيقة تحتها، وليست دليلًا على حق ولا على باطل، ولا تروج إلا على ضعفاء العقول؛ فأي دليل يدل على أن فرعون محق في كون ملك مصر له وأنهاره تجري من تحته؟! وأي دليل يدل على بطلان ما جاء به موسى لقلة أتباعه وثقل لسانه وعدم تحلية الله له بـ ﴿أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾؟! ولكن فرعون لقي ملأً لا معقول عندهم؛ فمهما قال؛ اتبعوه؛ من حق وباطل. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾: فبسبب فسقهم قيض لهم فرعون، يزين لهم الشرك والشر.

(٥٥)، (٥٦) ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾؛ أي: أغضبونا بأفعالهم، ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾: ليعتبر بهم المعتبرون، ويتعظ بأحوالهم المتعظون.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾.

(٥٧) يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾؛ أي: نهي عن عبادته وجعلت عبادته بمنزلة عبادة الأصنام والأنداد، ﴿إِذَا قَوْمُكَ﴾: المكذبون لك ﴿مِنْهُ﴾؛ أي: من أجل هذا المثل المضروب، ﴿يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾؛ أي: يلجون[1] في خصومتهم لك ويصيحون ويزعمون أنهم قد غلبوا في حجتهم وأفلجوا.

(٥٨) ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾؛ يعني: عيسى؛ حيث نهي عن عبادة الجميع، وشورك بينهم بالوعيد على من عبدهم، ونزل أيضًا قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾. ووجه حجتهم الظالمة أنهم قالوا: قد تقرر عندنا وعندك يا محمد أن عيسى من عباد الله المقربين الذين لهم العاقبة الحسنة؛ فلم سويت بينه وبين معبوداتنا[2] في النهي عن عبادة الجميع؟! فلولا أن حجتك باطلة؛ لم تتناقض؟! ولِمَ قلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨]؟! وهذا لفظ

(١) ع، ط: «يستلجون».
(٢) عبارة: «وبين معبوداتنا» وردت في ع، ط: «وبينها».

-بزعمهم- يعم الأصنام وعيسى؛ فهل هذا إلا تناقض؟ وتناقض الحجة دليل على بطلانها! هذا أقصى[3] ما يقررون به هذه الشبهة التي فرحوا بها واستبشروا وجعلوا يصدون ويتباشرون. وهي - ولله الحمد - من أضعف الشبه وأبطلها؛ فإن تسوية الله بين النهي عن عبادة المسيح وبين النهي عن عبادة الأصنام؛ لأن العبادة حق لله تعالى، لا يستحقها أحد من الخلق لا الملائكة المقربون ولا الأنبياء المرسلون ولا من سواهم من الخلق؛ فأي شبهة في تسوية النهي عن عبادة عيسى وغيره؟!

(٥٩) وليس في تفضيل عيسى عليه السلام وكونه مقربًا عند ربه ما يدل على الفرق بينه وبينها في هذا الموضع، وإنما هو كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾: بالنبوة والحكمة والعلم والعمل، ﴿وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾: يعرفون به قدرة الله تعالى على إيجاده من دون أب. وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾؛ فالجواب عنها من ثلاثة أوجه: **أحدها:** أن قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أن ﴿مَا﴾ اسم لما لا يعقل لا يدخل فيه المسيح ونحوه. **الثاني:** أن الخطاب للمشركين الذين بمكة وما حولها، وهم إنما يعبدون أصنامًا وأوثانًا ولا يعبدون المسيح. **الثالث:** أن الله قال بعد هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١]؛ فلا شك أن عيسى وغيره من الأنبياء والأولياء داخلون في هذه الآية.

(٦٠) ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾؛ أي: لجعلنا بدلكم ملائكة يخلفونكم في الأرض، ويكونون في الأرض حتى نرسل إليهم ملائكة من جنسهم، وأما أنتم يا معشر البشر؛ فلا تطيقون أن ترسل إليكم الملائكة؛ فمن رحمة الله بكم أن أرسل إليكم رسلًا من جنسكم تتمكنون من الأخذ عنهم.

(٦١) ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾؛ أي: وإن عيسى عليه السلام لدليل على الساعة، وأن القادر على إيجاده من أم بلا أب قادر على بعث الموتى من قبورهم، أو: وإن عيسى عليه السلام سينزل في آخر الزمان ويكون نزوله علامة من

(٣) ع، ط: «أنهى».

علامات الساعة، ﴿ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾؛ أي: لا تشكن في قيام الساعة؛ فإن الشك فيها كفر، ﴿ وَٱتَّبِعُونِ ﴾: بامتثال ما أمرتكم واجتناب ما نهيتكم، ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾: موصل إلى الله عز وجل.

﴿٦٢﴾ ﴿ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾: عما أمركم الله به؛ ﴿ إِنَّهُۥ ﴾: أي الشيطان ﴿ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ ﴾: حريص على إغوائكم، باذل جهده في ذلك.

﴿٦٣﴾ ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾: الدالة على صدق نبوته وصحة ما جاءهم به من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ونحو ذلك من الآيات، ﴿ قَالَ ﴾: لبني إسرائيل: ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ ﴾: النبوة والعلم بما ينبغي على الوجه الذي ينبغي، ﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾؛ أي: أبين لكم صوابه وجوابه، فيزول عنكم بذلك اللبس، فجاء عليه السلام مكملًا ومتممًا لشريعة موسى عليه السلام ولأحكام التوراة، وأتى ببعض التسهيلات الموجبة للانقياد له وقبول ما جاءهم به. ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ ﴾؛ أي: اعبدوا الله وحده لا شريك له، وامتثلوا أمره، واجتنبوا نهيه، وآمنوا بي، وصدقوني، ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿٦٤﴾ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ ﴾: ففيه الإقرار بتوحيد الربوبية بأن الله هو المربي جميع خلقه بأنواع النعم الظاهرة والباطنة، والإقرار بتوحيد العبودية بالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وإخبار عيسى عليه السلام أنه عبد من عباد الله، ليس كما قال النصارى فيه: إنه ابن الله أو ثالث ثلاثة. والإخبار بأن هذا المذكور صراط مستقيم موصل إلى الله وإلى جنته.

﴿٦٥﴾ فلما جاءهم عيسى عليه السلام بهذا، اختلف ﴿ ٱلْأَحْزَابُ ﴾: المتحزبون على التكذيب، ﴿ مِنۢ بَيْنِهِمْ ﴾: كل قال بعيسى عليه السلام مقالة باطلة ورد ما جاء به؛ إلا من هدى الله من المؤمنين، الذين شهدوا له بالرسالة، وصدقوا بكل ما جاء به، وقالوا: إنه عبد الله ورسوله. ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾؛ أي: ما أشد حزن الظالمين! ﴿ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ ﴾ وما أعظم خسارهم في ذلك اليوم!

وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾

٤٩٤

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

﴿٦٦﴾ يقول تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ ﴾؛ أي: هل ينتظر المكذبون؟! وهل يتوقعون ﴿ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾؛ أي: فإذا جاءت؛ فلا تسألوا عن أحوال من كذب بها واستهزأ بمن جاء بها.

﴿٦٧﴾ ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ ﴾؛ أي: يوم القيامة، المتخالين على الكفر والتكذيب ومعصية الله، ﴿ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾:

لأن خلتهم ومحبتهم في الدنيا لغير الله، فانقلبت يوم القيامة عداوة ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾: للشرك والمعاصي؛ فإن محبتهم تدوم وتتصل بدوام من كانت المحبة لأجله.

﴿٦٨﴾ ثم ذكر ثواب المتقين، وأن الله تعالى يناديهم يوم القيامة بما يسر قلوبهم ويذهب عنهم كل آفة وشر، فيقول: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾؛ أي: لا خوف يلحقكم فيما تستقبلونه من الأمور، ولا حزن يصيبكم فيما مضى منها، وإذا انتفى المكروه من كل وجه؛ ثبت المحبوب المطلوب.

﴿٦٩﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ أي: وصفهم الإيمان بآيات الله، وذلك شامل للتصديق بها، وما لا يتم التصديق إلا به من العلم بمعناها والعمل بمقتضاها، ﴿وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ لله منقادين له في جميع أحوالهم، فجمعوا بين الاتصاف بعمل الظاهر والباطن.

﴿٧٠﴾ ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾: التي هي دار القرار ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾؛ أي: من كان على مثل عملكم من كل مقارن لكم من زوجة وولد وصاحب وغيرهم، ﴿تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾﴾؛ أي: تنعمون وتكرمون، ويأتيكم من فضل ربكم من الخيرات والسرور والأفراح واللذات ما لا تعبر الألسن عن وصفه.

﴿٧١﴾ ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾؛ أي: تدور عليهم خدامهم من الولدان المخلدين بطعامهم بأحسن الأواني وأفخرها، وهي صحاف الذهب، وبشرابهم بألطف الأواني، وهي الأكواب التي لا عُرى لها، وهي من أصفى الأواني، من فضة أعظم من صفاء القوارير، ﴿وَفِيهَا﴾؛ أي: الجنة ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾: وهذا لفظ جامع، يأتي على كل نعيم وفرح وقرة عين وسرور قلب؛ فكل ما اشتهته[1] النفوس من مطاعم ومشارب وملابس ومناكح، وما تلذه[2] العيون من مناظر حسنة وأشجار محدقة ونعم مونقة ومبانٍ مزخرفة؛ فإنه حاصل فيها معد لأهلها على أكمل الوجوه وأفضلها؛ كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يس: ٥٧]. ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾﴾: وهذا هو تمام نعيم أهل الجنة، وهو الخلد الدائم فيها، الذي يتضمن دوام نعيمها وزيادته وعدم انقطاعه.

﴿٧٢﴾ ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ﴾: الموصوفة بأكمل الصفات هي ﴿ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾؛ أي: أورثكم الله إياها بأعمالكم، وجعلها من فضله جزاء لها، وأودع فيها من رحمته ما أودع.

﴿٧٣﴾ ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾؛ كما في الآية الأخرى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾ [الرحمن: ٥٢]، ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾؛ أي: مما تتخيرون من تلك الفواكه الشهية والثمار اللذيذة تأكلون.

ولما ذكر نعيم الجنة عقبه بذكر عذاب جهنم، فقال:

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿٧٤﴾ ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: الذين أجرموا بكفرهم وتكذيبهم ﴿فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: منغمرون فيه، محيط بهم العذاب من كل جانب، ﴿خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾﴾: فيه لا يخرجون منه أبدًا.

﴿٧٥﴾ و﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾: العذاب ساعة لا بإزالته ولا بتهوين عذابه، ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾؛ أي: آيسون من كل خير، غير راجين للفرج، وذلك أنهم ينادون ربهم، فيقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٧، ١٠٨].

﴿٧٦﴾ وهذا العذاب العظيم بما قدمت أيديهم وبما ظلموا به أنفسهم، ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ فالله لم يظلمهم ولم يعاقبهم بلا ذنب ولا جرم.

﴿٧٧﴾ ﴿وَنَادَوْا۟﴾: وهم في النار لعلهم يحصل لهم استراحة: ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾؛ أي: ليمتنا فنستريح؛ فإننا في غم شديد وعذاب غليظ لا صبر لنا عليه ولا جلد، ﴿قَالَ﴾ لهم مالك خازن النار حين طلبوا منه أن يدعو الله لهم أن يقضي عليهم: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾؛ أي: مقيمون فيها لا تخرجون عنها أبدًا، فلم يحصل لهم ما قصدوه، بل أجابهم بنقيض قصدهم، وزادهم غمًّا إلى غمهم.

﴿٧٨﴾ ثم وبخهم بما فعلوا، فقال: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾: الذي يوجب عليكم أن تتبعوه، فلو تبعتموه؛ لفزتم وسعدتم، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾: فلذلك شقيتم شقاوة لا سعادة بعدها.

---

(١) ط: «تشتهيه».
(٢) ع، ط: «ولذته».

﴿ أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿٧٩﴾ يقول تعالى: ﴿ أَمْ أَبْرَمُوٓاْ ﴾؛ أي: أبرم المكذبون بالحق المعاندون له ﴿ أَمْرًا ﴾؛ أي: كادوا كيدًا ومكروا للحق ولمن جاء بالحق ليدحضوه بما موهوا من الباطل المزخرف المزوق، ﴿ فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾؛ أي: محكمون أمرًا ومدبرون تدبيرًا يعلو تدبيرهم وينقضه ويبطله. وهو ما قيضه الله من الأسباب والأدلة لإحقاق الحق وإبطال الباطل؛ كما قال تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

﴿٨٠﴾ ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ ﴾: بجهلهم وظلمهم ﴿أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ ﴾: الذي لم يتكلموا به، بل هو سر في قلوبهم، ﴿وَنَجْوَىٰهُم ﴾؛ أي: كلامهم الخفي الذي يتناجون به؛ أي: فلذلك أقدموا على المعاصي، وظنوا أنها لا تبعة لها ولا مجازاة على ما خفي منها، فرد الله عليهم بقوله: ﴿ بَلَىٰ ﴾؛ أي: إنا نعلم سرهم ونجواهم، ﴿وَرُسُلُنَا ﴾: الملائكة الكرام ﴿ لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾: كل ما عملوه، وسيحفظ ذلك عليهم حتى يَرِدُوا القيامة فيجدوا ما عملوا حاضرًا، ولا يظلم ربك أحدًا.

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿٨١﴾ أي: قل يا أيها الرسول الكريم للذين جعلوا لله ولدًا، وهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، ولم يكن له كفوًا أحد: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾: لذلك الولد؛ لأنه جزء من والده، وأنا أولى الخلق انقيادًا للأوامر المحبوبة لله، ولكني أول المنكرين لذلك، وأشدهم له نفيًا، فعلم بذلك بطلانه؛ فهذا احتجاج عظيم عند من عرف أحوال الرسل، وأنه إذا علم أنهم أكمل الخلق، وأن كل خير فهم أول الناس سبقًا إليه وتكميلًا له. وكل شر فهم أول الناس تركًا له وإنكارًا له وبعدًا منه؛ فلو كان للرحمن ولد، وهو الحق؛ لكان محمد بن عبد الله أفضل الرسل أول من عبده، ولم يسبقه إليه المشركون.

إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

ويحتمل أن معنى الآية: لو كان للرحمن ولد؛ فأنا أول العابدين لله، ومن عبادتي لله إثبات ما أثبته ونفي ما نفاه؛ فهذا من العبادة القولية الاعتقادية، ويلزم من هذا لو كان حقًّا؛ لكنت أول مثبت له، فعلم بذلك بطلان دعوى المشركين وفسادها عقلًا ونقلًا.

﴿٨٢﴾ ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾: من الشريك والظهير والعوين والولد وغير ذلك مما نسبه إليه المشركون.

﴿٨٣﴾ ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ ﴾؛ أي: يخوضوا بالباطل ويلعبوا بالمحال؛ فعلومهم ضارة غير نافعة، وهي الخوض والبحث بالعلوم التي يعارضون بها الحق وما جاءت به الرسل، وأعمالهم لعب وسفاهة لا تزكي النفوس ولا تثمر المعارف، ولهذا توعدهم بما أمامهم يوم القيامة، فقال: ﴿ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾: فسيعلمون فيه ماذا حصلوا، وما حصلوا عليه من الشقاء الدائم والعذاب المستمر.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

﴿٨٤﴾ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ يخبر تعالى أنه وحده المألوه المعبود في السماوات والأرض، فأهل السماوات كلهم، والمؤمنون من أهل الأرض يعبدونه ويعظمونه ويخضعون لجلاله ويفتقرون لكماله، ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [الرعد: ١٥]. فهو تعالى المألوه المعبود الذي يألهه الخلائق كلهم طائعين مختارين وكارهين، وهذه كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ٣]؛ أي: ألوهيته ومحبته فيهما، وأما هو فإنه فوق عرشه بائن من خلقه متوحد بجلاله متمجد بكماله. ﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ﴾: الذي أحكم ما خلقه، وأتقن ما شرعه؛ فما خلق شيئًا إلا لحكمة، ولا شرع شيئًا إلا لحكمة، وحكمه القدري والشرعي والجزائي مشتمل على الحكمة، ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾: بكل شيء، يعلم السر وأخفى، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في العالم العلوي والسفلي ولا أصغر منها ولا أكبر.

﴿٨٥﴾ ﴿ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾: ﴿ تَبَارَكَ ﴾؛ بمعنى: تعالى وتعاظم وكثر خيره واتسعت صفاته وعظم ملكه، ولهذا ذكر سعة ملكه للسموات والأرض وما بينهما، وسعة علمه، وأنه بكل شيء عليم، حتى إنه تعالى انفرد بعلم الغيوب، التي لم يطلع عليها أحد من الخلق؛ لا نبي مرسل ولا ملك مقرب، ولهذا قال: ﴿ وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾: قدم الظرف ليفيد الحصر؛ أي: لا يعلم متى تجيء الساعة إلا هو. ومن تمام ملكه وسعته أنه مالك الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾؛ أي: في الآخرة فيحكم بينكم بحكمه العدل.

﴿٨٦﴾ ومن تمام ملكه أنه لا يملك أحد من خلقه من الأمر شيئًا، ولا يقدم على الشفاعة عنده أحد إلا بإذنه. ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ ﴾؛ أي: كل من دعي من دون الله من الأنبياء والملائكة وغيرهم لا يملكون الشفاعة ولا يشفعون إلا بإذن الله ولا يشفعون إلا لمن ارتضى، ولهذا قال: ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ ﴾؛ أي: نطق بلسانه مقرًّا بقلبه عالمًا بما يشهد به، ويشترط أن تكون شهادته بالحق، وهو الشهادة لله تعالى بالوحدانية، ولرسله بالنبوة والرسالة، وصحة ما جاءوا به من أصول الدين وفروعه وحقائقه وشرائعه؛ فهؤلاء الذين تنفع فيهم شفاعة الشافعين، وهؤلاء الناجون من عقاب الله، الحائزون لثوابه.

﴿٨٧﴾ ثم قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾؛ أي: ولئن سألت المشركين عن توحيد الربوبية ومن هو الخالق؛ لأقروا أنه الله وحده لا شريك له، ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾؛ أي: فكيف يصرفون عن عبادة الله والإخلاص له وحده؟! فإقرارهم بتوحيد الربوبية يلزمهم به الإقرار بتوحيد الألوهية، وهو من أكبر الأدلة على بطلان الشرك.

﴿٨٨﴾ ﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾: هذا معطوف على قوله: ﴿ وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾؛أي: وعنده علم قيله؛ أي: الرسول ﷺ شاكيًا لربه تكذيب قومه، متحزنًا على ذلك، متحسرًا على عدم إيمانهم؛ فالله تعالى عالم بهذه الحال، قادر على معاجلتهم بالعقوبة، ولكنه تعالى حليم، يمهل العباد، ويستأني بهم لعلهم يتوبون ويرجعون.

﴿٨٩﴾ ولهذا قال: ﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ﴾؛ أي: اصفح عنهم ما يأتيك من أذيتهم القولية والفعلية، واعف عنهم، ولا يبدر منك لهم إلا السلام الذي يقابل به أولو الألباب والبصائر للجاهلين؛ كما قال تعالى عن عباده الصالحين: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾؛ أي: خطابًا بمقتضى جهلهم، ﴿ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣]. فامتثل ﷺ لأمر ربه، وتلقى ما يصدر إليه من قومه وغيرهم من الأذى بالعفو والصفح، ولم يقابلهم عليه السلام إلا بالإحسان إليهم والخطاب الجميل؛ فصلوات الله وسلامه على من خصه الله بالخُلُق العظيم الذي فضل به أهل الأرض والسماء، وارتفع به أعلى من كواكب الجوزاء، وقوله: ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾؛ أي: غب ذنوبهم وعاقبة جرمهم.

تم تفسير سورة الزخرف. ولله الحمد والمنة.



تفسير سورة الدخان

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ
مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤
أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن
كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ
ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩
فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ
هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا
مُؤْمِنُونَ ۝١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ
تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ
عَآئِدُونَ ۝١٥ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝١٦﴾.

(٢)، (٣) هذا قسم بالقرآن على القرآن، فأقسم بالكتاب المبين لكل ما يحتاج إلى بيانه أنه أنزله ﴿فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾؛ أي: كثيرة الخير والبركة، وهي ليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر، فأنزل أفضل الكلام بأفضل الليالي والأيام على أفضل الأنام بلغة العرب الكرام؛ لينذر به قومًا عمتهم الجهالة وغلبت عليهم الشقاوة، فيستضيئوا بنوره، ويقتبسوا من هداه، ويسيروا وراءه، فيحصل لهم الخير الدنيوي والخير الأخروي، ولهذا قال: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾.

(٤) ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في تلك الليلة الفاضلة التي نزل فيها القرآن، ﴿يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾؛ أي: يفصل ويميز ويكتب كل أمر قدري وشرعي حكم الله به. وهذه الكتابة والفرقان الذي يكون في ليلة القدر إحدى الكتابات التي تكتب وتميز، فتطابق الكتاب الأول الذي كتب الله به مقادير الخلائق وآجالهم وأرزاقهم وأعمالهم وأحوالهم. ثم إن الله تعالى قد وكل ملائكة تكتب ما سيجري على العبد وهو في بطن أمه. ثم وكلهم بعد خروجه إلى الدنيا؛ وكل به كرامًا كاتبين يكتبون ويحفظون عليه أعماله. ثم إنه تعالى يقدر في ليلة القدر ما يكون في السنة، وكل هذا من تمام علمه وكمال حكمته وإتقان حفظه واعتنائه تعالى بخلقه.

الجزء الخامس والعشرون — سورة الدخان

سورة الدخان — مكية ٤٤ — آياتها ٥٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ
مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤
أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ
إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ
وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ
۝٩ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى
ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ
إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣
ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ
إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ۝١٥ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ
۝١٦ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ
كَرِيمٌ ۝١٧ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٨

٤٩٦

(٥) ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾؛ أي: هذا الأمر الحكيم أمر صادر من عندنا. ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥﴾: للرسل ومنزلين للكتب، والرسل تبلغ أوامر المرسِل وتخبر بأقداره.

(٦) ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾؛ أي: إن إرسال الرسل وإنزال الكتب التي أفضلها القرآن رحمة من رب العباد بالعباد؛ فما رحم الله عباده برحمة أجل من هدايتهم بالكتب والرسل، وكل خير ينالونه في الدنيا والآخرة؛ فإنه من أجل ذلك وبسببه. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦﴾؛ أي: يسمع جميع الأصوات، ويعلم جميع الأمور الظاهرة والباطنة، وقد علم تعالى ضرورة العباد إلى رسله وكتبه، فرحمهم بذلك ومنَّ عليهم؛ فلله تعالى الحمد والمنة والإحسان.

(٧)، (٨) ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾؛ أي: خالق ذلك ومدبره والمتصرف فيه بما يشاء، ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧﴾؛ أي: عالمين بذلك علمًا مفيدًا لليقين؛ فاعلموا أن الرب للمخلوقات هو إلهها الحق، ولهذا قال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا معبود إلا وجهه، ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾؛ أي: هو المتصرف وحده بالإحياء والإماتة،

وسيجمعكم بعد موتكم فيجزيكم بعملكم، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر. ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾؛ أي: رب الأولين والآخرين؛ مربيهم بالنعم، الدافع عنهم النقم.

﴿٩﴾ فلما قرر تعالى ربوبيته وألوهيته بما يوجب العلم التام ويدفع الشك؛ أخبر أن الكافرين مع هذا البيان: ﴿فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩﴾؛ أي: منغمرون في الشكوك والشبهات، غافلون عما خلقوا له، قد اشتغلوا باللعب الباطل الذي لا يجدي عليهم إلا الضرر.

﴿١٠﴾ - ﴿١٦﴾ ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾؛ أي: انتظر فيهم العذاب؛ فإنه قد قرب وآن أوانه، ﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: يعمهم ذلك الدخان، ويقال لهم: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١﴾. واختلف المفسرون في المراد بهذا الدخان:

فقيل: إنه الدخان الذي يغشى الناس ويعمهم حين تقرب النار من المجرمين في يوم القيامة، وأن الله توعدهم بعذاب يوم القيامة، وأمر نبيه أن ينتظر بهم ذلك اليوم. ويؤيد هذا المعنى أن هذه الطريقة هي طريقة القرآن في توعد الكفار والتأني بهم وترهيبهم بذلك اليوم وعذابه وتسلية الرسول والمؤمنين بالانتظار بمن آذاهم. ويؤيده أيضًا أنه قال في هذه الآية: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣﴾، وهذا يقال يوم القيامة للكفار حين يطلبون الرجوع إلى الدنيا، فيقال: قد ذهب وقت الرجوع.

وقيل: إن المراد بذلك ما أصاب كفار قريش حين امتنعوا من الإيمان واستكبروا على الحق، فدعا عليهم النبي ﷺ، فقال: «اللهم أعني عليهم بسنين كسني يوسف»[1]. فأرسل الله عليهم الجوع العظيم، حتى أكلوا الميتات والعظام، وصاروا يرون الذي بين السماء والأرض كهيئة الدخان، وليس به، وذلك من شدة الجوع، فيكون على هذا قوله: ﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ﴾: أن ذلك بالنسبة إلى أبصارهم وما يشاهدون، وليس بدخان حقيقة، ولم يزالوا بهذه الحالة حتى استرحموا رسول الله ﷺ، وسألوه أن يدعو الله لهم أن يكشفه الله عنهم، فدعا ربه؛ فكشفه الله عنهم، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ۝١٥﴾: إخبار بأن الله سيصرفه عنهم، وتوعد لهم أن يعودوا إلى الاستكبار والتكذيب، وإخبار بوقوعه، فوقع، وأن الله سيعاقبهم بالبطشة الكبرى، قالوا: وهي وقعة بدر. وفي هذا القول نظر ظاهر.

وقيل: إن المراد بذلك أن ذلك من أشراط الساعة، وأنه يكون في آخر الزمان دخان يأخذ بأنفاس الناس ويصيب المؤمنين منه كهيئة الدخان.

والقول هو الأول. وفي الآية احتمال أن المراد بقوله: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤﴾: أن هذا كله يكون يوم القيامة، وأن قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ۝١٥ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝١٦﴾: أن هذا ما وقع لقريش كما تقدم.

وإذا أنزلت هذه الآيات على هذين المعنيين؛ لم تجد في اللفظ ما يمنع من ذلك، بل تجدها مطابقة لهما أتم المطابقة، وهذا الذي يظهر عندي ويترجح. والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ۝١٧ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٨ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٩ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ۝٢٠ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ۝٢١ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ۝٢٢ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٢٣ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ۝٢٤ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝٢٨ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ۝٢٩ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ۝٣٠ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٣١ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٢ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ۝٣٣﴾.

﴿١٧﴾ لما ذكر تعالى تكذيب من كذب الرسول محمدًا ﷺ؛ ذكر أن لهم سلفًا من المكذبين، فذكر قصتهم مع موسى، وما أحل الله بهم؛ ليرتدع هؤلاء المكذبون عما هم عليه، فقال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: ابتليناهم واختبرناهم بإرسال رسولنا موسى بن عمران إليهم، الرسول الكريم الذي فيه من الكرم ومكارم الأخلاق ما ليس في غيره.

﴿١٨﴾ ﴿أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: قال لفرعون وملئه: أدوا إلي عباد الله؛ يعني بهم: بني إسرائيل؛ أي: أرسلوهم وأطلقوهم من عذابكم وسومكم إياهم سوء العذاب؛ فإنهم عشيرتي وأفضل العالمين في زمانهم، وأنتم قد ظلمتموهم

(١) البخاري (٤٧٧٤، ٤٨٢١)، مسلم (٢٧٩٧).

واستعبدتموهم بغير حق، فأرسلوهم ليعبدوا ربهم. ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾﴾؛ أي: رسول من رب العالمين، أمين على ما أرسلني به، لا أكتمكم منه شيئًا، ولا أزيد فيه ولا أنقص، وهذا يوجب تمام الانقياد له.

(١٩) ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾: بالاستكبار عن عبادته والعلو على عباد الله. ﴿إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾﴾؛ أي: بحجة بينة ظاهرة، وهو ما أتى به من المعجزات الباهرات والأدلة القاهرات.

(٢٠) فكذبوه وهموا بقتله، فلجأ إلى الله من شرهم، فقال: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾﴾؛ أي: تقتلوني أشر القتلات بالرجم بالحجارة.

(٢١) ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾؛ أي: لكم ثلاث مراتب: الإيمان بي، وهو مقصودي منكم. فإن لم تحصل منكم هذه المرتبة؛ ﴿فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾ لا علي ولا لي؛ فاكفوني شركم. فلم تحصل منهم المرتبة الأولى ولا الثانية، بل لم يزالوا متمردين عاتين على الله محاربين لنبيه موسى عليه السلام غير ممكنين له من قومه بني إسرائيل.

(٢٢) ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: قد أجرموا جرمًا يوجب تعجيل العقوبة، فأخبر عليه السلام بحالهم، وهذا دعاء بالحال التي هي أبلغ من المقال؛ كما قال عن نفسه عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص: ٢٤].

(٢٣) فأمره الله أن يسري بعباده ليلًا، وأخبره أن فرعون وقومه سيتبعونه.

(٢٤) ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾(١)؛ وذلك أنه لما سرى موسى ببني إسرائيل كما أمره الله، ثم تبعهم فرعون، فأمر الله موسى أن يضرب البحر، فضربه، فصار اثني عشر طريقًا، وصار الماء من بين تلك الطرق كالجبال العظيمة، فسلكه موسى وقومه، فلما خرجوا منه؛ أمره الله أن يتركه ﴿رَهْوًا﴾؛ أي: بحاله؛ ليسلكه فرعون وجنوده. ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾: فلما تكامل قوم موسى خارجين منه وقوم فرعون داخلين فيه؛ أمره الله تعالى أن يلتطم عليهم، فغرقوا عن آخرهم، وتركوا ما متعوا به من الحياة الدنيا، وأورثه الله بني إسرائيل الذين كانوا مستعبدين لهم.

الجزء الخامس والعشرون — سورة الدخان

وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ
بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا
رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم
مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ
تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ
كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾
فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ
نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ
كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى
الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ
﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا
نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ
خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ
﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾
مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

٤٩٧

(٢٥) - (٢٨) ولهذا قال: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا﴾؛ أي: هذه النعمة المذكورة ﴿قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾. وفي الآية الأخرى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء: ٥٩].

(٢٩) ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾؛ أي: لمَّا أتلفهم الله وأهلكهم لم تبك عليهم السماء والأرض؛ أي: لم يُحزن عليهم ولم يؤس على فراقهم، بل كل استبشر بهلاكهم وتلفهم، حتى السماء والأرض؛ لأنهم ما خلفوا من آثارهم إلا ما يسود وجوههم ويوجب عليهم اللعنة والمقت من العالمين. ﴿وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾؛ أي: ممهلين عن العقوبة، بل اصطلمتهم في الحال.

(٣٠)، (٣١) ثم امتن تعالى على بني إسرائيل، فقال: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾﴾: الذي كانوا فيه ﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾: إذ يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، ﴿إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا﴾؛ أي: مستكبرًا في الأرض بغير الحق، ﴿مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾: المتجاوزين لحدود الله المتجرئين على محارمه.

(١) زاد في ع، ط: «أي: بحاله».

(٣٢) ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ ﴾؛ أي: اصطفيناهم وانتقيناهم ﴿ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾: منا بهم وباستحقاقهم لذلك الفضل ﴿ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (٣٢) ﴾؛ أي: عالمي زمانهم ومن قبلهم وبعدهم، حتى أتى الله بأمة محمد ﷺ ففضلوا العالمين كلهم، وجعلهم الله خير أمة أخرجت للناس، وامتن عليهم بما لم يمتن به على غيرهم.

(٣٣) ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم ﴾؛ أي: بني إسرائيل ﴿ مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ ﴾: الباهرة والمعجزات الظاهرة ﴿ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ (٣٣) ﴾؛ أي: إحسان كثير ظاهر منا عليهم وحجة عليهم على صحة ما جاءهم به نبيهم موسى عليه السلام.

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (٣٥) فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣٦) أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ (٣٧) ﴾.

(٣٤)، (٣٥) يخبر تعالى ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾: المكذبين، ﴿ لَيَقُولُونَ (٣٤) ﴾: مستبعدين للبعث والنشور: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (٣٥) ﴾؛ أي: ما هي إلا الحياة الدنيا؛ فلا بعث ولا نشور، ولا جنة ولا نار.

(٣٦) ثم قالوا متجرئين على ربهم معجزين له: ﴿ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣٦) ﴾: وهذا من اقتراح الجهلة المعاندين في مكان سحيق؛ فأي ملازمة بين صدق الرسول ﷺ وأنه متوقف على الإتيان بآبائهم؛ فإن الآيات قد قامت على صدق ما جاءهم به وتواترت تواترًا عظيمًا من كل وجه؟!

(٣٧) قال تعالى: ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ ﴾؛ أي: هؤلاء المخاطبون، ﴿ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ (٣٧) ﴾؟ فإنهم ليسوا خيرًا منهم، وقد اشتركوا في الإجرام؛ فليتوقعوا من الهلاك ما أصاب إخوانهم المجرمين.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩) إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤١) إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٤٢) ﴾.

(٣٨)، (٣٩) يخبر تعالى عن كمال قدرته وتمام حكمته، وأنه ما خلق السماوات والأرض لعبًا، ولا لهوًا، وسدى من غير فائدة، وأنه ما خلقهما ﴿ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾؛ أي: نفس خلقهما بالحق، وخلقهما مشتمل على الحق، وأنه أوجدهما ليعبدوه وحده لا شريك له، وليأمر العباد وينهاهم ويثيبهم ويعاقبهم. ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩) ﴾؛ فلذلك لم يتفكروا في خلق السماوات والأرض.

(٤٠) ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ ﴾: وهو يوم القيامة، الذي يفصل الله به بين الأولين والآخرين وبين كل مختلفين، ﴿ مِيقَٰتُهُمْ ﴾؛ أي: الخلائق ﴿ أَجْمَعِينَ (٤٠) ﴾: كلهم سيجمعهم الله فيه، ويحضرهم ويحضر أعمالهم، ويكون الجزاء عليها.

(٤١) ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا ﴾: لا قريب عن قريبه، ولا صديق عن صديقه، ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤١) ﴾؛ أي: يمنعون من عذاب الله عز وجل؛ لأن أحدًا من الخلق لا يملك من الأمر شيئًا.

(٤٢) ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٤٢) ﴾: فإنه هو الذي ينتفع ويرتفع برحمة الله تعالى التي تسبب إليها، وسعى لها سعيها في الدنيا. ثم قال تعالى:

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ (٤٤) كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ (٥٠) ﴾.

(٤٣) - (٥٠) لما ذكر يوم القيامة، وأنه يفصل بين عباده فيه؛ ذكر افتراقهم إلى فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير، وهم الآثمون بعمل الكفر والمعاصي، وأن طعامهم ﴿ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ (٤٣) ﴾: شر الأشجار وأفظعها، وأن طعامها ﴿ كَٱلْمُهْلِ ﴾؛ أي: كالصديد المنتن خبيث الريح والطعم شديد الحرارة، ﴿ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ (٤٥) ﴾ بطونهم ﴿ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ (٤٦) ﴾، ويقال للمعذب: ﴿ ذُقْ ﴾: هذا العذاب الأليم والعقاب الوخيم، ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ (٤٩) ﴾؛ أي: بزعمك أنك عزيز ستمتنع من عذاب الله، وأنك كريم على الله لا يصيبك بعذاب؛ فاليوم تبين لك أنك أنت الذليل المهان الخسيس. ﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ العذاب العظيم، ﴿ مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ (٥٠) ﴾؛ أي: تشكون؛ فالآن صار عندكم حق اليقين.

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾
يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ
وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ
ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ
ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ
ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿٥١﴾ - ﴿٥٣﴾ هذا جزاء المتقين لله، الذين اتقوا سخطه وعذابه بتركهم المعاصي وفعلهم الطاعات، فلما انتفى السخط عنهم والعذاب؛ ثبت لهم الرضا من الله والثواب العظيم في ظل ظليل من كثرة الأشجار والفواكه، وعيون سارحة تجري من تحتهم الأنهار يفجرونها تفجيرًا، في جنات النعيم، فأضاف الجنات إلى النعيم؛ لأن كل ما اشتملت عليه، كله نعيم وسرور كامل من كل وجه، ما فيه منغص ولا مكدر بوجه من الوجوه، ولباسهم من الحرير الأخضر من السندس والإستبرق؛ أي: غليظ الحرير ورقيقه مما تشتهيه أنفسهم، ﴿ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾: في قلوبهم ووجوههم في كمال الراحة والطمأنينة والمحبة والعشرة الحسنة والآداب المستحسنة.

﴿٥٤﴾ ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾: النعيم التام والسرور الكامل، ﴿ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ ﴾؛ أي: نساء جميلات من جمالهن وحسنهن أنه يحار الطرف في حسنهن، وينبهر العقل بجمالهن وينخلب اللب لكمالهن، ﴿ عِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾؛ أي: ضخام الأعين حسانها.

﴿٥٥﴾ ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا ﴾: أي: الجنة ﴿ بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ﴾: مما له اسم في الدنيا ومما لا يوجد له اسم ولا نظير في الدنيا؛ فمهما طلبوه من أنواع الفاكهة وأجناسها؛ أحضر لهم في الحال من غير تعب ولا كلفة، آمنين من انقطاع ذلك، وآمنين من مضرته، وآمنين من كل مكدر، وآمنين من الخروج منها والموت.

﴿٥٦﴾ ولهذا قال: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾؛ أي: ليس فيها موت بالكلية، ولو كان فيها موت يستثنى؛ لم يستثنِ الموتة الأولى التي هي الموتة في الدنيا، فتم لهم كل محبوب مطلوب، ﴿ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿٥٧﴾ ﴿ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ﴾؛ أي: حصول النعيم واندفاع العذاب عنهم من فضل الله عليهم وكرمه؛ فإنه تعالى هو

إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى
عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾
طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ
ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ
صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ
أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ
﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ
﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾
كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ
فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ
إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا
مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ
لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

سُورَةُ الجَاثِيَة ٤٥ — آياتها ٣٧

الذي وفقهم للأعمال الصالحة، التي بها نالوا خير الآخرة وأعطاهم أيضًا ما لم تبلغه أعمالهم. ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ ﴾: وأي فوز أعظم من نيل رضوان الله وجنته والسلامة من عذابه وسخطه.

﴿٥٨﴾ ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ ﴾؛ أي: القرآن ﴿ بِلِسَانِكَ ﴾؛ أي: سهلناه بلسانك الذي هو أفصح الألسنة على الإطلاق وأجلها، فتيسر به لفظه، وتيسر به معناه، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾: ما فيه نفعهم فيفعلونه، وما فيه ضررهم فيتركونه.

﴿٥٩﴾ ﴿ فَٱرْتَقِبْ ﴾؛ أي: انتظر ما وعدك ربك من الخير والنصر. ﴿ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾: ما يحل بهم من العذاب، وفرق بين الارتقاب: رسول الله وأتباعه يرتقبون الخير في الدنيا والآخرة، وضدهم يرتقبون الشر في الدنيا والآخرة.

تم تفسير سورة الدخان. ولله الحمد والمنة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ
لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ
مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ
ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ (٦) وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ ءَايَٰتِ
ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ
(٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
مُّهِينٌ (٩) مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا
وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠) هَٰذَا
هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (١١)
۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن
فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى
ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣)

٤٩٩

تفسير سورة الجاثية

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن
دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ
ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ
حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ (٦) وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ
ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ
أَلِيمٍ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
مُّهِينٌ (٩) مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا
مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠) هَٰذَا هُدًى
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (١١) ﴾.

(٢) يخبر تعالى خبرًا يتضمن الأمر بتعظيم القرآن والاعتناء به؛ أنه ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ﴾: المألوه المعبود؛ لما اتصف به من صفات الكمال، وانفرد به من النعم، الذي له العزة الكاملة والحكمة التامة.

(٣) - (٥) ثم أيد ذلك بما ذكره من الآيات الأفقية والنفسية؛ من خلق السماوات والأرض، وما بث فيهما من الدواب، وما أودع فيهما من المنافع، وما أنزل الله من الماء الذي يحيي به الله البلاد والعباد؛ فهذه كلها آيات بينات وأدلة واضحات على صدق هذا القرآن العظيم وصحة ما اشتمل عليه من الحكم والأحكام، ودالات أيضًا على ما لله تعالى من الكمال، وعلى البعث والنشور.

(٦) - (١٠) ثم قسم تعالى الناس بالنسبة إلى الانتفاع بآياته وعدمه إلى قسمين:

قسم يستدلون بها، ويتفكرون بها، وينتفعون فيرتفعون، وهم المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر إيمانًا تامًّا، وصل بهم إلى درجة اليقين، فزكى منهم العقول، وازدادت به معارفهم وألبابهم وعلومهم.

وقسم يسمع آيات الله سماعًا تقوم به الحجة عليه، ثم يعرض عنها ويستكبر، كأنه ما سمعها؛ لأنها لم تزك قلبه ولا طهرته، بل بسبب استكباره عنها؛ ازداد طغيانه، وأنه إذا علم من آيات الله شيئًا؛ اتخذها هزوًا، فتوعده الله تعالى بالويل، فقال: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) ﴾؛ أي: كذاب في مقاله، أثيم في فعاله، وأخبر أن له عذابًا أليمًا، وأن ﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾: تكفي في عقوبتهم البليغة، وأنه لا ﴿ يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ ﴾: من الأموال ﴿ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ﴾: يستنصرون بهم، فخذلوهم أحوج ما كانوا إليهم لو نفعوا.

(١١) فلما بين آياته القرآنية والعيانية، وأن الناس فيها على قسمين؛ أخبر أن القرآن المشتمل على هذه المطالب العالية؛ أنه هدى، فقال: ﴿ هَٰذَا هُدًى ﴾: وهو وصف عام لجميع القرآن؛ فإنه يهدي إلى معرفة الله تعالى بصفاته المقدسة وأفعاله الحميدة، ويهدي إلى معرفة رسله وأوليائهم وأعدائهم وأوصافهم، ويهدي إلى الأعمال الصالحة، ويدعو إليها، ويبين الأعمال السيئة وينهى عنها، ويهدي إلى بيان الجزاء على الأعمال، ويبين الجزاء الدنيوي والأخروي؛ فالمهتدون اهتدوا به فأفلحوا وسعدوا. ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾: الواضحة القاطعة، التي لا

يكفر بها إلا من اشتد ظلمه، وتضاعف طغيانه، ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿١٢﴾ يخبر تعالى عـن فضله على عباده وإحسـانه إليهم بتسـخير البحر لسـير المراكب والسـفن بأمره وتيسيره، ﴿ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾: بأنـواع التجـارات والمكاسـب، ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾: الله تعالى؛ فإنكم إذا شـكرتموه؛ زادكم من نعمه وأثابكم على شكركم أجرًا جزيلًا.

﴿١٣﴾ ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾؛ أي: مـن فضله وإحسـانه، وهذا شـامل لأجرام السـماوات والأرض، ولما أودع الله فيهما من الشـمس والقمر والكواكب الثوابت والسيارات وأنواع الحيوانات وأصناف الأشجار والثمرات وأجناس المعادن وغير ذلك مما هو معد لمصالح بني آدم ومصالح ما هو من ضروراته؛ فهذا يوجب عليهم أن يبذلوا غاية جهدهم في شكر نعمته، وأن تغلغـل أفكارهم في تدبر آياتـه وحكمه، ولهذا قال: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾. وجملة ذلك أن خلقها وتدبيرها وتسـخيرها دالٌّ على نفوذ مشـيئة الله وكمال قدرته.

ومـا فيها من الإحـكام والإتقان وبديع الصنعة وحسـن الخلقة دالٌّ على كمال حكمته وعلمه.

وما فيها من السـعة والعظمة والكثرة دال على سعة ملكه وسلطانه.

وما فيها من التخصيصات والأشياء المتضادات دليل على أنه الفعال لما يريد.

وما فيها من المنافـع والمصالح الدينيـة والدنيوية دليل على سعة رحمته وشمول فضله وإحسانه وبديع لطفه وبره، وكل ذلك دال على أنه وحده المألوه المعبود الذي لا تنبغي العبادة والذل والمحبة إلا له، وأن رسله صادقون فيما جاءوا به. فهذه أدلة عقلية واضحة لا تقبل ريبًا ولا شكًّا.

﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ
قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ
وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا
بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ
وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُم بَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ
فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ
رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ
أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ
شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ
﴿١٩﴾ هَـٰذَا بَصَـٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ
﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ
مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ
وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

٥٠٠

﴿١٤﴾، ﴿١٥﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بحسن الخلق والصبر على أذية المشـركين به الذيـن ﴿ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: لا يرجون ثوابه ولا يخافون وقائعه في العاصين؛ فإنه تعالى سيجزي كل قوم ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾: فأنتم يا معشـر المؤمنين يجزيكم على إيمانكم وصفحكـم وصبركم ثوابًا جزيلًا، وهم إن استمروا على تكذيبهم؛ فلا يحل بكم ما حل بهم من العذاب الشـديد والخزي، ولهذا قال: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

ثم قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُم بَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿١٦﴾ أي: ولقد أنعمنا على بني إسـرائيل نعمًا لم تحصل لغيرهـم من النـاس، وآتيناهـم ﴿ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾؛ أي: التوراة

والإنجيل والحكم بين الناس والنبوة التي امتازوا بها، وصارت النبوة في ذرية إبراهيم عليه السلام، أكثرهم من بني إسرائيل، ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: من المآكل والمشارب والملابس وإنزال المن والسلوى عليهم، ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦﴾؛ أي: على الخلق بهذه النعم. ويخرج من هذا العموم اللفظي هذه الأمة؛ فإنهم خير أمة أخرجت للناس، والسياق يدل على أن المراد غير هذه الأمة؛ فإن الله يقص علينا ما امتن به على بني إسرائيل وميزهم على غيرهم.

وأيضًا؛ فإن الفضائل التي فاق بها بنو إسرائيل من الكتاب والحكم والنبوة وغيرها من النعوت قد حصلت كلها لهذه الأمة، وزادت عليهم هذه الأمة فضائل كثيرة؛ فهذه الشريعة شريعة بني إسرائيل جزء منها؛ فإن هذا الكتاب مهيمن على سائر الكتب السابقة، ومحمد ﷺ مصدق لجميع المرسلين.

١٧ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم﴾؛ أي: آتينا بني إسرائيل ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾؛ أي: دلالات تبين الحق من الباطل ﴿مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾: القدري الذي أوصله الله إليهم، وتلك الآيات هي المعجزات التي رأوها على يد موسى عليه السلام؛ فهذه النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل تقتضي الحال أن يقوموا بها على أكمل الوجوه، وأن يجتمعوا على الحق الذي بينه الله لهم، ولكن انعكس الأمر، فعاملوها بعكس ما يجب، وافترقوا فيما أمروا بالاجتماع به، ولهذا قال: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾؛ أي: الموجب لعدم الاختلاف، وإنما حملهم على الاختلاف، البغي من بعضهم على بعض والظلم. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ١٧﴾: فيميز المحق من المبطل، والذي حمله على الاختلاف الهوى أو غيره.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ١٨ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ١٩﴾.

١٨ أي: ثم شرعنا لك شريعة كاملة تدعو إلى كل خير، وتنهى عن كل شر من أمرنا الشرعي، ﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾؛ فإن في اتباعها السعادة الأبدية والصلاح والفلاح، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ١٨﴾؛ أي: الذين تكون أهويتهم غير تابعة للعلم ولا ماشية خلفه، وهم كل من خالف شريعة الرسول ﷺ هواه وإرادته؛ فإنه من أهواء الذين لا يعلمون.

١٩ ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾؛ أي: لا ينفعونك عند الله، فيحصلوا لك الخير، ويدفعوا عنك الشر إن اتبعتهم على أهوائهم، ولا تصلح أن توافقهم وتواليهم؛ فإنك وإياهم متباينون، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ١٩﴾: يخرجهم من الظلمات إلى النور بسبب تقواهم وعملهم بطاعته.

٢٠ ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٢٠﴾؛ أي: ﴿هَٰذَا﴾ القرآن الكريم والذكر الحكيم ﴿بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: تحصل به التبصرة في جميع الأمور للناس، فيحصل به الانتفاع للمؤمنين، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٢٠﴾: فيهتدون به إلى الصراط المستقيم في أصول الدين وفروعه، ويحصل به الخير والسرور والسعادة في الدنيا والآخرة، وهي الرحمة، فتزكو به نفوسهم، وتزداد به عقولهم، ويزيد به إيمانهم ويقينهم، وتقوم به الحجة على من أصر وعاند.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ٢١﴾.

٢١ أي: أم حسب المسيئون المكثرون من الذنوب المقصرون في حقوق ربهم، ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: بأن قاموا بحقوق ربهم، واجتنبوا مساخطه، ولم يزالوا مؤثرين رضاه على هوى أنفسهم؛ أي: أحسبوا أن يكونوا ﴿سَوَآءً﴾ في الدنيا والآخرة؟ ساء ما ظنوا وحسبوا، وساء ما حكموا به؛ فإنه حكم يخالف حكمة أحكم الحاكمين وخير العادلين، ويناقض العقول السليمة والفطر المستقيمة، ويضاد ما نزلت به الكتب وأخبرت به الرسل، بل الحكم الواقع القطعي أن المؤمنين العاملين الصالحات، لهم النصر والفلاح والسعادة والثواب في العاجل والآجل؛ كل على قدر إحسانه، وأن المسيئين لهم الغضب والإهانة والعذاب والشقاء في الدنيا والآخرة.

٢٢ ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ٢٢﴾ أي: خلق الله السماوات والأرض بالحكمة، وليعبد وحده لا شريك له، ثم يحاسب[1] بعد ذلك من أمرهم بعبادته، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة؛ هل شكروا الله تعالى وقاموا بالمأمور؟ أم كفروا فاستحقوا جزاء الكفور؟

---

(١) ع، ط: «يجازي».

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

(٢٣) يقول تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾: الرجل الضال الذي، ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾: فما هويه سلكه؛ سواء كان يرضي الله أم يسخطه، ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: من الله أنه لا تليق به الهداية. ولا يزكو عليها، ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ﴾: فلا يسمع ما ينفعه، ﴿وَقَلْبِهِۦ﴾: فلا يعي الخير، ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾: تمنعه من نظر الحق. ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا أحد يهديه، وقد سد الله عليه أبواب الهداية، وفتح له أبواب الغواية، وما ظلمه الله، ولكن هو الذي ظلم نفسه، وتسبب لمنع رحمة الله عليه. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾: ما ينفعكم فتسلكوه وما يضركم فتجتنبوه؟!

(٢٤) ﴿وَقَالُوا۟﴾؛ أي: منكرو البعث: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾: إن هي إلا عادات وجري على رسوم الليل والنهار، يموت أناس ويحيا أناس، ومن مات؛ فليس براجع إلى الله ولا مجازيه بعمله. وقولهم هذا صادر عن غير علم، ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾: فأنكروا المعاد، وكذبوا الرسل الصادقين من غير دليل دلهم ولا برهان، إن هي إلا ظنون واستبعادات خالية عن الحقيقة.

(٢٥) ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾: وهذا جراءة منهم على الله؛ حيث اقترحوا هذا الاقتراح، وزعموا أن صدق رسل الله متوقف على الإتيان بآبائهم - وأنهم لو جاءوهم بكل آية؛ لم يؤمنوا؛ إلا إن اتبعتهم الرسل على ما قالوا - وهم كذبة فيما قالوا، وإنما قصدهم دفع دعوة الرسل، لا بيان الحق.

(٢٦) قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾: وإلا؛ فلو وصل العلم باليوم الآخر إلى قلوبهم؛ لعملوا له أعمالًا وتهيئوا له.

الجزء الخامس والعشرون — سورة الجاثية

أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾

٥٠١

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾.

(٢٧) يخبر تعالى عن سعة ملكه وانفراده بالتصرف والتدبير في جميع الأوقات، وأنه يوم ﴿تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾؛ ويجمع

الخلائق لموقف القيامة؛ يحصل الخسار على المبطلين، الذين أتوا بالباطل ليدحضوا به الحق، وكانت أعمالهم باطلة لأنها متعلقة بالباطل، فبطلت في يوم القيامة، اليوم الذي تستبين فيه الحقائق واضمحلت عنهم، وفاتهم الثواب، وحصلوا على أليم العقاب.

(٢٨) ثم وصف تعالى شدة يوم القيامة وهوله ليحذره العباد ويستعد له العُبَّاد، فقال: ﴿ وَتَرَىٰ ﴾: أيها الرائي لذلك اليوم، ﴿ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾: على ركبها خوفًا وذعرًا وانتظارًا لحكم الملك الرحمن. ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ﴾؛ أي: إلى شريعة نبيهم الذي جاءهم من عند الله، وهل قاموا بها فيحصل الثواب والنجاة؟ أم ضيعوها فيحصل لهم الخسران؟ ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) ﴾ فأمة موسى يدعون إلى شريعة موسى، وأمة عيسى كذلك، وأمة محمد كذلك، وهكذا غيرهم؛ كل أمة تدعى إلى شرعها الذي كلفت به، هذا أحد الاحتمالات في الآية، وهو معنى صحيح في نفسه، غير مشكوك فيه.

ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ﴾؛ أي: إلى كتاب أعمالها وما سطر عليها من خير وشر، وأن كل أحد يجازى بما عمله بنفسه؛ كقوله تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت: ٤٦].

ويحتمل أن المعنيين كليهما مراد من الآية.

(٢٩) ويدل على هذا قوله: ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ﴾؛ أي: هذا كتابنا الذي أنزلنا عليكم يفصل بينكم بالحق الذي هو العدل، ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) ﴾: فهذا كتاب الأعمال.

(٣٠) ولهذا فصل ما يفعل الله بالفريقين، فقال: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾: إيمانًا صحيحًا، وصدقوا إيمانهم بالأعمال الصالحة من واجبات ومستحبات، ﴿ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ﴾: التي محلها الجنة، وما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم. ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ (٣٠) ﴾؛ أي: المفاز والنجاة والربح والفلاح الواضح البين، الذي إذا حصل للعبد؛ حصل له كل خير، واندفع عنه كل شر.

(٣١) ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾: بالله، فيقال لهم توبيخًا وتقريعًا: ﴿ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾، وقد دلتكم على ما فيه صلاحكم ونهتكم عما فيه ضرركم، وهي أكبر نعمة وصلت إليكم لو وفقتم لها، ﴿ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ عنها وأعرضتم وكفرتم بها، فجنيتم أكبر جناية، وأجرمتم أشد الجرم؛ فاليوم تجزون ما كنتم تعملون.

(٣٢) ويوبخون أيضًا بقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم ﴾: منكرين لذلك: ﴿ مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) ﴾: فهذه حالهم في الدنيا، وحال البعث الإنكار له، وردوا قول من جاء به.

(٣٣) قال تعالى: ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ ﴾؛ أي: وظهر لهم يوم القيامة عقوبات أعمالهم، ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾؛ أي: نزل ﴿ مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٣) ﴾؛ أي: نزل بهم العذاب الذي كانوا في الدنيا يستهزئون بوقوعه وبمن جاء به.

(٣٤) ﴿ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ ﴾؛ أي: نترككم في العذاب ﴿ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾؛ فإن الجزاء من جنس العمل، ﴿ وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ﴾؛ أي: هي مقركم ومصيركم. ﴿ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ (٣٤) ﴾: ينصرونكم من عذاب الله ويدفعون عنكم عقابه.

(٣٥) ﴿ ذَٰلِكُم ﴾: الذي حصل لكم من العذاب بسبب أنكم ﴿ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ﴾: مع أنها موجبة للجد والاجتهاد وتلقيها بالسرور والاستبشار والفرح، ﴿ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾: بزخارفها ولذاتها وشهواتها، فاطمأننتم إليها، وعملتم لها، وتركتم العمل للدار الباقية. ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) ﴾؛ أي: ولا يمهلون ولا يردون إلى الدنيا ليعملوا صالحًا.

(٣٦) ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ ﴾: كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، ﴿ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٣٦) ﴾؛ أي: له الحمد على ربوبيته لسائر الخلق؛ حيث خلقهم ورباهم، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة.

(٣٧) ﴿ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي: له الجلال والعظمة والمجد؛ فالحمد فيه الثناء على الله بصفات الكمال، ومحبته تعالى وإكرامه، والكبرياء فيها عظمته وجلاله، والعبادة مبنية على ركنين: محبة الله والذل له، وهما ناشئان عن العلم بمحامد الله وجلاله وكبريائه، ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾: القاهر لكل شيء. ﴿ ٱلْحَكِيمُ (٣٧) ﴾: الذي يضع الأشياء مواضعها؛ فلا يشرع ما يشرعه إلا لحكمة ومصلحة، ولا يخلق ما يخلقه إلا لفائدة ومنفعة.

تم تفسير سورة الجاثية. ولله الحمد والمنة والفضل.



تفسير سورة الأحقاف

وهي مكية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ۝٣ ﴾.

(٢) هذا ثناء منه تعالى على كتابه العزيز وتعظيم له، وفي ضمن ذلك إرشاد العباد إلى الاهتداء بنوره والإقبال على تدبر آياته واستخراج كنوزه.

(٣) ولما بين إنزال كتابه المتضمن للأمر والنهي؛ ذكر خلقه السماوات والأرض، فجمع بين الخلق والأمر، ﴿ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ ﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ١٢]، وكما قال تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ [النحل: ٢، ٣]؛ فالله تعالى هو الذي خلق المكلفين، وخلق مساكنهم، وسخر لهم ما في السماوات وما في الأرض، ثم أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وأمرهم ونهاهم، وأخبرهم أن هذه الدار دار أعمال وممر للعمال، لا دار إقامة لا يرحل عنها أهلها، وهم سينتقلون منها إلى دار الإقامة والقرار وموطن الخلود والدوام، وإنما أعمالهم التي عملوها في هذه الدار سيجدون ثوابها في تلك الدار كاملًا موفرًا، وأقام تعالى الأدلة الدالة على تلك الدار، وأذاق العباد نموذجًا من الثواب والعقاب العاجل؛ ليكون أدعى لهم إلى طلب المحبوب والهرب من المرهوب، ولهذا قال هنا: ﴿ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾؛ أي: لا عبثًا ولا سدًى، بل ليعرف العباد عظمة خالقهما، ويستدلوا على كماله، ويعلموا أن الذي خلقهما على عظمهما قادر على أن يعيد العباد بعد موتهم للجزاء، وأن خلقهما وبقاءهما مقدر إلى ساعة معينة ﴿ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗى ﴾.

فلما أخبر بذلك، وهو أصدق القائلين، وأقام الدليل، وأنار السبيل؛ أخبر مع ذلك أن طائفة من الخلق قد أبوا إلا إعراضًا

الجزء السادس والعشرون — سورة الأحقاف

وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٣٣ وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٣٤ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ۝٣٥ فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٦ وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣٧

سُورَةُ الأَحْقَافِ — آياتها ٣٥ — ترتيبها ٤٦

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ۝٣ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٤ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۝٥

٥٠٢

عن الحق وصدوفًا عن دعوة الرسل، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ۝٣ ﴾. وأما الذين آمنوا؛ فلما علموا حقيقة الحال؛ قبلوا وصايا ربهم، وتلقوها بالقبول والتسليم، وقابلوها بالانقياد والتعظيم، ففازوا بكل خير، واندفع عنهم كل شر.

﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٤ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ۝٦ ﴾.

(٤) أي: ﴿ قُلۡ ﴾: لهؤلاء الذين أشركوا بالله أوثانًا وأندادًا لا تملك نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، قل لهم مبينًا عجز أوثانهم، وأنها لا تستحق شيئًا من العبادة: ﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾: هل

وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا
تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا
سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ
لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِي
وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ
وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠
إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ
وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ
فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ
إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا
ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾
أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

خلقوا من أجرام السماوات والأرض شيئًا؟ هل خلقوا جبالًا؟ هل أجروا أنهارًا؟ هل نشروا حيوانًا؟ هل أنبتوا أشجارًا؟ هل كان منهم معاونة على خلق شيء من ذلك؟ لا شيء من ذلك بإقرارهم على أنفسهم فضلًا عن غيرهم. فهذا دليل عقلي قاطع على أن كل من سوى الله؛ فعبادته باطلة.

ثم ذكر انتفاء الدليل النقلي، فقال: ﴿ ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ ﴾: الكتاب، يدعو إلى الشرك، ﴿ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾: موروث عن الرسل يأمر بذلك. ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ من المعلوم أنهم عاجزون أن يأتوا عن أحد من الرسل بدليل يدل على ذلك، بل نجزم ونتيقن أن جميع الرسل دعوا إلى توحيد ربهم ونهوا عن الشرك به، وهي أعظم ما يؤثر عنهم من العلم؛ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وكل رسول قال لقومه: ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف: ٥٩]، فعلم أن جدال المشركين في شركهم غير مستندين على برهان ولا دليل، وإنما اعتمدوا على ظنون كاذبة وآراء كاسدة وعقول فاسدة، يدلك على فسادها استقراء أحوالهم وتتبع علومهم وأعمالهم والنظر في حال من أفنوا أعمارهم بعبادته؛ هل أفادهم شيئًا في الدنيا أو في الآخرة؟

﴿٥﴾، ﴿٦﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾؛ أي: مدة مقامه في الدنيا لا ينتفع به مثقال ذرة، ﴿ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾: لا يسمعون منهم دعاء ولا يجيبون لهم نداء. هذا حالهم في الدنيا، ويوم القيامة يكفرون بشركهم[1]، ﴿ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً ﴾ يلعن بعضهم بعضًا، ويتبرأ بعضهم من بعض ﴿ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿٧﴾ ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾؛ أي: على المكذبين ﴿ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ ﴾: بحيث تكون على وجه لا يمترى بها، ولا يشك في وقوعها وحقها؛ لم تفدهم خيرًا، بل قامت عليهم بذلك الحجة، ويقولون من إفكهم وافترائهم ﴿ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾؛ أي: ظاهر لا شك فيه. وهذا من باب قلب الحقائق، الذي لا يروج إلا على ضعفاء العقول، وإلا؛ فبين الحق الذي جاء به الرسول ﷺ وبين السحر من المنافاة والمخالفة أعظم مما بين السماء والأرض، وكيف يقاس الحق - الذي علا وارتفع ارتفاعًا على الأفلاك، وفاق بضوئه ونوره نور الشمس، وقامت الأدلة الأفقية والنفسية عليه، وأقرت به، وأذعنت أولو البصائر والعقول الرزينة كيف يقاس الحق الذي هذا شأنه[2] - بالباطل الذي

---

(١) ع، ط: «بشركهم».
(٢) عبارة: «كيف يقاس الحق الذي هذا شأنه» ساقطة من ع، ط.

هو السحر الذي لا يصدر إلا من ضال ظالم خبيث النفس خبيث العمل؛ فهو مناسب له وموافق لحاله؟! وهل هذا إلا من البهرجة؟!

(٨) ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾؛ أي: افترى محمد هذا القرآن من عند نفسه؛ فليس من عند الله، ﴿ قُلْ ﴾ لهم: ﴿ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ ﴾؛ فالله عليَّ قادر وبما تفيضون فيه عالم؛ فكيف لم يعاقبني على افترائي الذي زعمتم؛ ﴿ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾: إن أرادني الله بضر أو أرادني برحمة، ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾: فلو كنت متقولًا عليه؛ لأخذ مني باليمين، ولعاقبني عقابًا يراه كل أحد؛ لأن هذا أعظم أنواع الافتراء لو كنت متقولًا. ثم دعاهم إلى التوبة مع ما صدر منهم من معاندة الحق ومخاصمته، فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٨) ﴾؛ أي: فتوبوا إليه، وأقلعوا عما أنتم فيه يغفر لكم ذنوبكم، ويرحمكم فيوفقكم للخير، ويثيبكم جزيل الأجر.

(٩) ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾؛ أي: لست بأول رسول جاءكم حتى تستغربوا رسالتي وتستنكروا دعوتي؛ فقد تقدم من الرسل والأنبياء من وافقت دعوتي دعوتهم؛ فلأي شيء تنكرون رسالتي؟! ﴿ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ﴾؛ أي: لست إلا بشرًا، ليس بيدي من الأمر شيء، والله تعالى هو المتصرف بي وبكم، الحاكم علي وعليكم، ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ ولست آتي بالشيء من عندي. ﴿ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٩) ﴾: فإن قبلتم رسالتي وأجبتم دعوتي؛ فهو حظكم ونصيبكم في الدنيا والآخرة، وإن رددتم ذلك علي؛ فحسابكم على الله، وقد أنذرتكم، ومن أنذر فقد أعذر.

(١٠) ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾؛ أي: أخبروني لو كان هذا القرآن من عند الله، وشهد على صحته الموفقون من أهل الكتاب، الذين عندهم من الحق ما يعرفون أنه الحق، فآمنوا به واهتدوا، فتطابقت أنباء الأنبياء وأتباعهم النبلاء واستكبرتم أيها الجهلاء الأغبياء؛ فهل هذا إلا أعظم الظلم وأشد الكفر؟! ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٠) ﴾: ومن الظلم الاستكبار عن الحق بعد التمكن منه.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١) وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) ﴾.

(١١)، (١٢) أي: قال الكفار بالحق معاندين له ورادِّين لدعوته: ﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾؛ أي: ما سبقنا إليه المؤمنون، أو لكنا أول مبادر به وسابق إليه! وهذا من البهرجة في مكان؛ فأي دليل يدل على أن علامة الحق سَبْقُ المكذبين به للمؤمنين؟! هل هم أزكى نفوسًا؟! أم أكمل عقولًا؟! أم الهدى بأيديهم؟! ولكن هذا الكلام الذي صدر منهم يعزون به أنفسهم، بمنزلة من لم يقدر على الشيء ثم طفق يذمه، ولهذا قال: ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١) ﴾؛ أي: هذا السبب الذي دعاهم إليه أنهم لما لم يهتدوا بهذا القرآن، وفاتهم أعظم المواهب وأجلّ الرغائب؛ قدحوا فيه بأنه كذب، وهو الحق الذي لا شك فيه ولا امتراء يعتريه، ﴿ وَ ﴾ قد وافق الكتب السماوية، ﴿ مِن قَبْلِهِۦ ﴾ خصوصًا أكملها وأفضلها بعد القرآن، وهي التوراة ﴿ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾؛ أي: يقتدي بها بنو إسرائيل ويهتدون بها، ويحصل لهم خير الدنيا والآخرة.

﴿ وَهَٰذَا ﴾: القرآن ﴿ كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ ﴾: للكتب السابقة، شهد بصدْقها وصدّقها بموافقته لها، وجعله الله ﴿ لِّسَانًا عَرَبِيًّا ﴾: ليسهل تناوله ويتيسر تذكره؛ ﴿ لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾: أنفسهم بالكفر والفسوق والعصيان إن استمروا على ظلمهم بالعذاب الوبيل، ﴿ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) ﴾ في عبادة الخالق وفي نفع المخلوقين بالثواب الجزيل في الدنيا والآخرة، ويذكر الأعمال التي ينذر عنها والأعمال التي يبشر بها.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٤) ﴾.

(١٣) أي: إن الذين أقروا بربهم، وشهدوا له بالوحدانية، والتزموا طاعته، وداوموا على ذلك، و﴿ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾ مدة حياتهم؛ ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾: من كل شر أمامهم، ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) ﴾: على ما خلفوا وراءهم.

وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ
كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ
أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ
عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي
ذُرِّيَّتِي ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ
نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ
الْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِي قَالَ
لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن
قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ
مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ
الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا
خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ
فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ
بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

(١٤) ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾؛ أي: أهلها الملازمون لها، الذين لا يبغون عنها حولًا ولا يريدون بها بدلًا، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾: من الإيمان بالله، المقتضي للأعمال الصالحة، التي استقاموا عليها.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾.

(١٥) هذا من لطفه تعالى بعباده وشكره للوالدين أن وصى الأولاد وعهد إليهم أن يحسنوا إلى والديهم بالقول اللطيف والكلام اللين وبذل المال والنفقة وغير ذلك من وجوه الإحسان، ثم نبه على ذكر السبب الموجب لذلك، فذكر ما تحملته الأم من ولدها، وما قاسته من المكاره وقت حملها، ثم مشقة ولادتها المشقة الكبيرة، ثم مشقة الرضاع وخدمة الحضانة، وليست المذكورات مدة يسيرة ساعة أو ساعتين، وإنما ذلك؛ أي: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ﴾[1] مدة طويلة قدرها ﴿ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾: للحمل تسعة أشهر ونحوها، والباقي للرضاع، هذا الغالب. ويستدل بهذه الآية مع قوله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]: أن أقل مدة الحمل ستة أشهر؛ لأن مدة الرضاع - وهي سنتان - إذا سقطت من الثلاثين شهرًا[2]؛ بقي ستة أشهر مدة للحمل، ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾؛ أي: نهاية قوته وشبابه وكمال عقله، ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾؛ أي: ألهمني ووفقني، ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾؛ أي: نعم الدين ونعم الدنيا، وشكره بصرف النعم في طاعة مسديها وموليها ومقابلته على منته بالاعتراف والعجز عن الشكر والاجتهاد في الثناء بها على الله، والنعم على الوالدين نعم على أولادهم وذريتهم لأنهم لا بد أن ينالهم منها ومن أسبابها وآثارها، خصوصًا نعم الدين؛ فإن صلاح الوالدين بالعلم والعمل من أعظم الأسباب لصلاح أولادهم، ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾: بأن يكون جامعًا لما يصلحه سالمًا مما يفسده؛ فهذا العمل الذي يرضاه الله ويقبله ويثيب عليه، ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾: لما دعا لنفسه بالصلاح؛ دعا لذريته أن يصلح الله أحوالهم، وذكر أن صلاحهم يعود نفعه على والديهم؛ لقوله: ﴿وَأَصْلِحْ لِي﴾. ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾: من الذنوب والمعاصي ورجعت إلى طاعتك، ﴿وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

(١٦) ﴿أُولَٰئِكَ﴾: الذين ذكرت أوصافهم ﴿الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾: وهو الطاعات؛ لأنهم يعملون أيضًا غيرها، ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي﴾: جملة ﴿أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾: فحصل لهم الخير والمحبوب، وزال عنهم الشر والمكروه. ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾؛ أي: هذا الوعد الذي وعدناهم هو وعد صادق من أصدق القائلين الذي لا يخلف الميعاد.

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ

(١) عبارة: «أي: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ﴾» سقطت من ع، ط.
(٢) عبارة: «من الثلاثين شهرًا» وردت في ع، ط: «منها السنتان».

ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿١٧﴾ لما ذكر تعالى حال الصالح البار لوالديه؛ ذكر حالة العاق، وأنها شر الحالات، فقال: ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ ﴾: إذ [دعواه][1] إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، وخوفاه الجزاء، وهذا أعظم إحسان يصدر من الوالدين لولدهما أن يدعواه إلى ما فيه سعادته الأبدية وفلاحه السرمدي، فقابلهما بأقبح مقابلة، فقال: ﴿ أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾؛ أي: تبًّا لكما، ولما جئتما به.

ثم ذكر وجه استبعاده وإنكاره لذلك، فقال: ﴿ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ ﴾: من قبري إلى يوم القيامة ﴿ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى ﴾: على التكذيب، وسلفوا على الكفر، وهم الأئمة المقتدى بهم لكل كفور وجهول ومعاند. ﴿ وَهُمَا ﴾؛ أي: والداه ﴿ يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ ﴾: عليه ويقولان له: ﴿ وَيْلَكَ ءَامِنْ ﴾؛ أي: يبذلان غاية جهدهما ويسعيان في هدايته أشد السعي، حتى إنهما من حرصهما عليه يستغيثان الله له استغاثة الغريق، ويسألانه سؤال الشريق، ويعذلان ولدهما، ويتوجعان له، ويبينان له الحق، فيقولان: ﴿ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾، ثم يقيمان عليه من الأدلة ما أمكنهما، وولدهما لا يزداد إلا عتوًّا ونفورًا واستكبارًا عن الحق وقدحًا فيه، ﴿ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾؛ أي: إلا منقول من كتب المتقدمين، ليس من عند الله، ولا أوحاه الله إلى رسوله، وكل أحد يعلم أن محمدًا ﷺ أمي لا يكتب ولا يقرأ، ولا يتعلم من أحد؛ فمن أين يتعلمه؟ وأنى للخلق أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا؟!

﴿١٨﴾ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ﴾: بهذه الحالة الذميمة ﴿ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ ﴾؛ أي: حقت عليهم كلمة العذاب ﴿ فِىٓ ﴾ جملة ﴿ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾: على الكفر والتكذيب، فسيدخل هؤلاء في غمارهم، ويغرقون في تيارهم. ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾: والخسران فوات رأس مال الإنسان، وإذا فقد رأس ماله؛ فالأرباح من باب أولى وأحرى؛ فهم قد فاتهم الإيمان، ولم يحصلوا شيئًا من النعيم، ولا سلموا من عذاب الجحيم.

﴿١٩﴾ ﴿ وَلِكُلٍّ ﴾: من أهل الخير وأهل الشر ﴿ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ﴾؛ أي: كل على حسب مرتبته من الخير والشر، ومنازلهم في الدار الآخرة على قدر أعمالهم، ولهذا قال: ﴿ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾: بألَّا يزاد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم.

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿٢٠﴾ يذكر تعالى حال الكفار عند عرضهم على النار حين يوبخون ويقرعون، فيقال لهم: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا ﴾؛ حيث اطمأننتم إلى الدنيا، واغتررتم بلذاتها، ورضيتم بشهواتها، وألهتكم طيباتها عن السعي لآخرتكم، ﴿ وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ كما تتمتع الأنعام السارحة؛ فهي حظكم من آخرتكم. ﴿ فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴾؛ أي: العذاب الشديد الذي يهينكم، ويفضحكم ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ على الله ﴿ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾؛ أي: تنسبون الطريق الضالة التي أنتم عليها إلى الله وإلى حكمه وأنتم كذبة في ذلك، ﴿ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾؛ أي: تتكبرون عن طاعته، فجمعوا بين قول الباطل والعمل بالباطل والكذب على الله[2] والقدح في الحق والاستكبار عنه، فعوقبوا أشد العقوبة.

﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ

(١) الأصل، ع: «دعياه».

(٢) زاد في ع، ط: «بنسبته إلى رضاه».

۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ
مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا
بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ
وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣)
فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا
بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ
شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي
الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ
وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ
وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ
بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَلَقَدْ
أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ
(٢٧) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً
بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨)

أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) ﴾.

(٢١) أي: ﴿ وَاذْكُرْ ﴾: بالثناء الجميل ﴿ أَخَا عَادٍ ﴾: وهو هود عليه السلام، حيث كان من الرسل الكرام، الذين فضلهم الله تعالى بالدعوة إلى دينه وإرشاد الخلق إليه، ﴿ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ ﴾: وهم عاد ﴿ بِالْأَحْقَافِ ﴾؛ أي: في منازلهم المعروفة بالأحقاف، وهي الرمال الكثيرة في أرض اليمن، ﴿ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾: فلم يكن بدعًا منهم ولا مخالفًا لهم، قائلًا لهم: ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) ﴾: فأمرهم بعبادة الله الجامعة لكل قول سديد وعمل حميد، ونهاهم عن الشرك والتنديد، وخوفهم إن لم يطيعوه العذاب الشديد، فلم تفد فيهم تلك الدعوة.

(٢٢) ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا ﴾؛ أي: ليس لك من القصد ولا معك من الحق إلا أنك حسدتنا على آلهتنا، فأردت أن تصرفنا عنها، ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) ﴾: وهذا غاية الجهل والعناد.

(٢٣) ﴿ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ ﴾: فهو الذي بيده أزِمَّة الأمور ومقاليدها، وهو الذي يأتيكم بالعذاب إن شاء، ﴿ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ ﴾؛ أي: ليس علي إلا البلاغ المبين، ﴿ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) ﴾: فلذلك صدر منكم ما صدر من هذه الجرأة الشديدة.

(٢٤)، (٢٥) فأرسل الله عليهم العذاب العظيم، وهو الريح التي دمرتهم وأهلكتهم، ولهذا قال: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ ﴾؛ أي: العذاب، ﴿ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ﴾؛ أي: معترضًا كالسحاب، قد أقبل على أوديتهم التي تسيل فتسقي مزارعهم[1] ويشربون من آبارها وغدرانها، ﴿ قَالُوا ﴾: مستبشرين: ﴿ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾؛ أي: هذا السحاب سيمطرنا. قال تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ﴾؛ أي: هذا الذي جنيتم به على أنفسكم حيث قلتم: ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) ﴾. ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ ﴾: تمر عليه من شدتها ونحسها، فسلطها الله ﴿ عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) ﴾ [الحاقة: ٧]، ﴿ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾؛ أي: بإذنه ومشيئته، ﴿ فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ﴾: قد تلفت مواشيهم وأموالهم وأنفسهم. ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) ﴾: بسبب جرمهم وظلمهم.

(٢٦) هذا مع أن الله قد أدرَّ عليهم النعم العظيمة فلم يشكروه ولا ذكروه، ولهذا قال: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ ﴾؛ أي: مكناهم في الأرض يتناولون طيباتها، ويتمتعون بشهواتها، وعمرناهم عمرًا يتذكر فيه من تذكر ويتعظ فيه المهتدي؛ أي: ولقد مكنا عادًا كما مكناكم يا هؤلاء المخاطبون؛ أي: فلا تحسبوا أن ما مكناكم فيه مختص بكم، وأنه سيدفع عنكم من عذاب الله شيئًا، بل غيركم أعظم منكم تمكينًا، فلم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم ولا جنودهم من الله شيئًا، ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً ﴾؛ أي: لا قصور في أسماعهم ولا أبصارهم ولا أذهانهم حتى يقال: إنهم تركوا الحق جهلًا منهم وعدم تمكن من العلم به ولا خلل في عقولهم، ولكن التوفيق بيد الله، ﴿ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ ﴾: لا قليل ولا كثير، وذلك ﴿ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ الدالة على توحيده وإفراده

(١) ع، ط: «نوابتهم».

بالعبادة، ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾؛ أي: نزل بهم العذاب الذي يكذبون بوقوعه، ويستهزئون بالرسل الذين حذروهم منه.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿٢٧﴾، ﴿٢٨﴾ يحذر تعالى مشركي العرب وغيرهم بإهلاك الأمم المكذبين الذين هم حول ديارهم، بل كثير منهم في جزيرة العرب؛ كعاد وثمود ونحوهم، وأن الله تعالى صرف لهم ﴿ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾؛ أي: نوعها من كل وجه، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾: عما هم عليه من الكفر والتكذيب، فلما لم يؤمنوا؛ أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، ولم تنفعهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء، ولهذا قال هنا: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ﴾؛ أي: يتقربون إليهم ويتألهونهم لرجاء نفعهم. ﴿بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ﴾: فلم يجيبوهم ولا دفعوا عنهم، ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾: من الكذب الذي يمنون به أنفسهم؛ حيث يزعمون أنهم على الحق، وأن أعمالهم ستنفعهم، فضلت وبطلت.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿٢٩﴾ كان الله تعالى قد أرسل رسوله محمدًا ﷺ إلى الخلق إنسهم وجنهم، وكان لا بد من إبلاغ الجميع لدعوة النبوة والرسالة؛ فالإنس يمكنه عليه الصلاة والسلام دعوتهم وإنذارهم، وأما الجن؛ فصرفهم الله إليه بقدرته وأرسل إليه ﴿نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾؛ أي: وصى بعضهم بعضًا بذلك، ﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾: وقد وعوه

وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا
حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ
﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ
مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ
﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن
ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ
فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ
فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ
إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ
أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا
كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ
وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا
سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَـٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

سُورَةُ مُحَمَّدٍ ٤٧ ٣٨

وأثر ذلك فيهم، ﴿وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾: نصحًا منهم لهم، وإقامة لحجة الله عليهم، وقيضهم الله معونة لرسوله ﷺ في نشر دعوته في الجن.

﴿٣٠﴾ ﴿قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾: لأن كتاب موسى أصل للإنجيل وعمدة لبني إسرائيل في أحكام الشرع، وإنما الإنجيل متمم ومكمل ومغير لبعض الأحكام، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ﴾: هذا الكتاب الذي سمعناه، ﴿إِلَى ٱلْحَقِّ﴾: وهو الصواب في كل مطلوب وخبر، ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾: موصل إلى الله وإلى جنته من العلم بالله وبأحكامه الدينية وأحكام الجزاء.

﴿٣١﴾ فلما مدحوا القرآن وبينوا محله ومرتبته؛ دعوهم إلى الإيمان به، فقالوا: ﴿يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: الذي لا يدعو إلا إلى ربه، لا يدعوكم إلى غرض من أغراضه ولا هوى، وإنما يدعوكم إلى ربكم ليثيبكم، ويزيل عنكم كل شر ومكروه، ولهذا قالوا: ﴿وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾: وإذا أجارهم من

العـذاب الأليم؛ فما ثم بعـد ذلك إلا النعيم؛ فهـذا جزاء من أجاب داعي الله.

(٣٢) ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾: فإن الله على كل شيء قدير، فلا يفوته هارب ولا يغالبه مغالب، ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٣٢) ﴾، وأي ضلال أبلغ من ضلال من نادته الرسل، ووصلت إليه النذر بالآيات البينات والحجج المتواترات فأعرض واستكبر؟!

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) ﴾.

(٣٣) هذا استدلال منه تعالى على الإعادة بعد الموت بما هو أبلغ منها، وهو أنه الذي خلق السماوات والأرض على عِظَمهما وسعتهما وإتقان خلقهما من دون أن يكترث بذلك، ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ ﴾؛ فكيف تعجزه إعادتكم بعد موتكم وهو ﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) ﴾؟!

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ (٣٥) ﴾.

(٣٤) يخبر تعالى عن حال الكفار الفظيعة عند عرضهم على النار التي كانوا يكذبون بها، وأنهم يوبخون ويقال لهم: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ﴾؛ فقد حضرتموه وشاهدتموه عيانًا، ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾: فاعترفوا بذنبهم وتبين كذبهم، ﴿قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) ﴾؛ أي: عذابًا لازمًا دائمًا كما كان كفركم صفة لازمة.

(٣٥) ثم أمر تعالى رسوله أن يصبر على أذية المكذبين المعادين له، وألَّا يزال داعيًا لهم إلى الله، وأن يقتدي بصبر أولي العزم من المرسلين سادات الخلق أولي العزائم والهمم العالية، الذين عظم صبرهم وتم يقينهم؛ فهم أحق الخلق بالأسوة بهم والقفو لآثارهم والاهتداء بمنارهم، فامتثل ﷺ لأمر ربه، فصبر صبرًا لم يصبره نبي قبله، حتى رماه المعادون له عن قوس واحدة، وقاموا جميعًا بصده عن الدعوة إلى الله، وفعلوا ما يمكنهم من المعاداة والمحاربة، وهو ﷺ لم يزل صادعًا بأمر الله، مقيمًا على جهاد أعداء الله، صابرًا على ما يناله من الأذى، حتى مكن الله له في الأرض، وأظهر دينه على سائر الأديان وأمته على الأمم، فصلى الله عليه وسلم تسليمًا.

وقوله: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾؛ أي: لهؤلاء المكذبين المستعجلين للعذاب؛ فإن هذا من جهلهم وحمقهم؛ فلا يستخفنك جهلهم[1] ولا يحملك ما ترى من استعجالهم على أن تدعو الله عليهم بذلك؛ فإن كل ما هو آت قريب، ﴿كَأَنَّهُمْ ﴾ حين ﴿يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ ﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾؛ فلا يحزنك تمتعهم القليل وهم صائرون إلى العذاب الوبيل، ﴿بَلَٰغٌ ﴾؛ أي: هذه الدنيا متاعها وشهواتها ولذاتها بُلْغة منغصة ودفع وقت حاضر قليل، وهذا القرآن العظيم - الذي بينا لكم فيه البيان التام - بلاغ لكم وزاد إلى الدار الآخرة، ونعم الزاد والبلغة، زاد يوصل إلى دار النعيم، ويعصم من العذاب الأليم؛ فهو أفضل زاد يتزوده الخلائق، وأجل نعمة أنعم الله بها عليهم، ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ ﴾: بالعقوبات ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ (٣٥) ﴾؛ أي: الذين لا خير فيهم، وقد خرجوا عن طاعة ربهم، ولم يقبلوا الحق الذي جاءتهم به الرسل، وأعذر الله لهم وأنذرهم، فاستمروا على تكذيبهم وكفرهم، نسأل الله العصمة.

آخر تفسير سورة الأحقاف. والحمد لله رب العالمين.



(١) ع، ط: «بجهلهم».

تفسير سورة القتال

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝١ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ۝٣﴾.

(١) هذه الآيات مشتملات على ذكر ثواب المؤمنين، وعقاب العاصين، والسبب في ذلك، ودعوة الخلق إلى الاعتبار بذلك، فقال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾: وهؤلاء رؤساء الكفر وأئمة الضلال، الذين جمعوا بين الكفر بالله وآياته والصد لأنفسهم وغيرهم عن سبيل الله، التي هي الإيمان بما دعت إليه الرسل واتباعه؛ فهؤلاء ﴿أَضَلَّ﴾ الله ﴿أَعْمَالَهُمْ ۝١﴾؛ أي: أبطلها وأشقاهم بسببها، وهذا يشمل أعمالهم التي عملوها ليكيدوا بها الحق وأولياء الله، إن الله جعل كيدهم في نحورهم، فلم يدركوا مما قصدوا شيئًا، وأعمالهم التي يرجون أن يثابوا عليها؛ إن الله سيحبطها عليهم، والسبب في ذلك أنهم اتبعوا الباطل، وهو كل غاية لا يراد بها وجه الله من عبادة الأصنام والأوثان. والأعمال التي في نصر الباطل لما كانت باطلة؛ كانت الأعمال لأجلها باطلة.

(٢) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بما أنزل الله على رسله عمومًا وعلى محمد ﷺ خصوصًا، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: بأن قاموا بما عليهم من حقوق الله وحقوق العباد الواجبة والمستحبة، ﴿كَفَّرَ﴾ الله ﴿عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾: صغارها وكبارها، وإذا كفرت سيئاتهم؛ نجوا من عذاب الدنيا والآخرة، ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾؛ أي: أصلح دينهم ودنياهم وقلوبهم وأعمالهم، وأصلح ثوابهم بتنميته وتزكيته، وأصلح جميع أحوالهم.

(٣) والسبب في ذلك أنهم اتبعوا الحق الذي هو الصدق واليقين وما اشتمل عليه هذا القرآن العظيم الصادر من ربهم الذي رباهم بنعمته ودبرهم بلطفه، فرباهم تعالى بالحق، فاتبعوه، فصلحت أمورهم، فلما كانت الغاية المقصودة لهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝١ وَالَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن
رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ
اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ۝٣ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ
إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ
أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم
بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ
وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ
فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٩ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ۝١٠
ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۝١١

متعلقة بالحق المنسوب إلى الله الباقي الحق المبين؛ كانت الوسيلة صالحة باقية، باقيًا ثوابها. ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ۝٣﴾؛ حيث بين لهم تعالى أهل الخير وأهل الشر، وذكر لكل منهم صفة يعرفون بها ويتميزون؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾.

(٤) يقول تعالى مرشدًا عباده إلى ما فيه صلاحهم ونصرهم على أعدائهم: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: في الحرب والقتال؛ فاصدقوهم القتال واضربوا منهم الأعناق ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ وكسرتم شوكتهم[1] ورأيتم الأسر أولى وأصلح؛ ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾؛ أي: الرباط، وهذا احتياط لأسرهم لئلا

(١) زاد في ع، ط: «وتبطلوا شهرتهم، فإذا فعلتم ذلك».

يهربوا؛ فإذا شد منهم الوثاق؛ اطمأن المسلمون من حربهم ومن شرهم؛ فإذا كانوا تحت أسركم؛ فأنتم بالخيار بين المن عليهم وإطلاقهم بلا مال ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ بألَّا تطلقوهم حتى يشتروا أنفسهم، أو يشتريهم أصحابهم بمال أو بأسير مسلم عندهم، وهذا الأمر مستمر ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾؛ أي: حتى لا يبقى حرب، وتبقون في المسالمة والمهادنة؛ فإن لكل مقام مقالًا، ولكل حال حكمًا.

فالحال المتقدمة إنما هي إذا كان قتال وحرب؛ فإذا كان في بعض الأوقات لا حرب فيه لسبب من الأسباب؛ فلا قتل ولا أسر. ﴿ذَٰلِكَ﴾: الحكم المذكور في ابتلاء المؤمنين بالكافرين ومداولة الأيام بينهم وانتصار بعضهم على بعض، ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾: فإنه تعالى على كل شيء قدير، وقادر على ألَّا ينتصر الكفار في موضع واحد أبدًا، حتى يبيد المسلمون خضراءهم، ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾: ليقوم سوق الجهاد، وتتبين بذلك أحوال العباد الصادق من الكاذب، وليؤمن من آمن إيمانًا صحيحًا عن تبصرة لا إيمانًا مبنيًّا على متابعة أهل الغلبة؛ فإنه إيمان ضعيف جدًّا، لا يكاد يستمر لصاحبه عند المحن والبلايا. ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: لهم ثواب جزيل وأجر جميل، وهم الذين قاتلوا مَنْ أمروا بقتالهم؛ لتكون كلمة الله هي العليا؛ فلن ﴿يُضِلَّ﴾ الله ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾؛ أي: لن يحبطها ويبطلها، بل يتقبلها وينميها لهم ويظهر من أعمالهم نتائجها في الدنيا والآخرة.

(٥) ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾: إلى سلوك الطريق الموصلة إلى الجنة، ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥﴾؛ أي: حالهم وأمورهم، وثوابهم يكون صالحًا كاملًا لا نكد فيه ولا تنغيص بوجه من الوجوه.

(٦) ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾؛ أي: عرفها أولًا بأن شوقهم إليها، ونعتها لهم، وذكر لهم الأعمال الموصلة إليها، التي من جملتها الشهادة[1] في سبيل الله، ووفقهم للقيام بما أمرهم به ورغبهم فيه، ثم إذا دخلوا الجنة؛ عرفهم منازلهم وما احتوت عليه من النعيم المقيم والعيش السليم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٩﴾.

(٧) هذا أمر منه تعالى للمؤمنين أن ينصروا الله بالقيام بدينه والدعوة إليه وجهاد أعدائه، وأن يقصدوا بذلك وجه الله؛ فإنهم إذا فعلوا ذلك؛ نصرهم وثبت أقدامهم؛ أي: يربط على قلوبهم بالصبر والطمأنينة والثبات، ويصبر أجسادهم على ذلك، ويعينهم على أعدائهم؛ فهذا وعد من كريم صادق الوعد أن الذي ينصره بالأقوال والأفعال سينصره مولاه، وييسر له أسباب النصر من الثبات وغيره.

(٨) وأما الذين كفروا بربهم ونصروا الباطل؛ فإنهم في تعس؛ أي: انتكاس من أمرهم وخذلان، ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٨﴾؛ أي: أبطل أعمالهم التي يكيدون بها الحق، فرجع كيدهم في نحورهم، وبطلت أعمالهم التي يزعمون أنهم يريدون بها وجه الله.

(٩) ذلك الإضلال والتعس للذين كفروا بسبب أنهم ﴿كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من القرآن الذي أنزله صلاحًا للعباد وفلاحًا لهم، فلم يقبلوه، بل أبغضوه وكرهوه، ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٩﴾.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ۝١٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۝١١﴾.

(١٠) أي: أفلا يسير هؤلاء المكذبون بالرسول ﷺ، ﴿فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: فإنهم لا يجدون عاقبتهم إلا شر العواقب؛ فإنهم لا يلتفتون يمنة ولا يسرة إلا وجدوا من كان قبلهم[2] قد بادوا وهلكوا واستأصلهم التكذيب والكفر، فخمدوا، ودمر الله عليهم أموالهم وديارهم، بل دمر أعمالهم ومكرهم، وللكافرين في كل زمان ومكان أمثال هذه العواقب الوخيمة والعقوبات الذميمة، وأما المؤمنون؛ فإن الله تعالى ينجيهم من العذاب، ويجزل لهم كثير الثواب.

(١١) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: فتولاهم برحمته، فأخرجهم من الظلمات إلى النور، وتولى جزاءهم ونصرهم، ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: بالله تعالى؛ حيث قطعوا عنهم ولاية الله، وسدوا على أنفسهم رحمته ﴿لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۝١١﴾: يهديهم إلى سبل السلام، ولا ينجيهم من عذاب الله وعقابه، بل أولياؤهم الطاغوت؛ يخرجونهم من النور إلى الظلمات، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۝١٢﴾.

---

(١) ع، ط: «القتل».

(٢) ع، ط: «ما حولهم».

إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾

(١٢) لما ذكر تعالى أنه ولي المؤمنين؛ ذكر ما يفعل بهم في الآخرة من دخول الجنات، التي تجري من تحتها الأنهار، التي تسقي تلك البساتين الزاهرة، والأشجار الناضرة المثمرة؛ لكل زوج بهيج، وكل فاكهة لذيذة. ولما ذكر أن الكافرين لا مولى لهم؛ ذكر أنهم وكلوا إلى أنفسهم، فلم يتصفوا بصفات المروءة ولا الصفات الإنسانية، بل نزلوا عنها دركات، وصاروا كالأنعام التي لا عقل لها ولا فضل، بل جل همهم ومقصدهم التمتع بلذات الدنيا وشهواتها، فترى حركاتهم الظاهرة والباطنة دائرة حولها غير متعدية لها إلى ما فيه الخير والسعادة، ولهذا كانت النار مثوى لهم؛ أي: منزلًا معدًّا لا يخرجون منها ولا يفتر عنهم من عذابها.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) ﴾.

(١٣) أي: وكم من قرية من قرى المكذبين هي أشد قوة من قريتك في الأموال والأولاد والأعوان والأبنية والآلات، ﴿ أَهْلَكْنَٰهُمْ ﴾ حين كذبوا رسلنا، ولم تفد فيهم المواعظ؛ فلا تجد لهم ناصرًا، ولم تغن عنهم قوتهم من عذاب الله شيئًا؛ فكيف حال هؤلاء الضعفاء أهل قريتك إذ أخرجوك عن وطنك، وكذبوك وعادوك، وأنت أفضل المرسلين وخير الأولين والآخرين؟! أليسوا بأحق من غيرهم بالإهلاك والعقوبة، لولا أن الله تعالى بعث رسوله بالرحمة والتأني بكل كافر وجاحد.

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم (١٤) ﴾.

(١٤) أي: لا يستوي من هو على بصيرة من أمر دينه علمًا وعملًا قد علم الحق واتبعه، ورجا ما وعده الله لأهل الحق؛ كمن هو أعمى القلب، قد رفض الحق وأضله واتبع هواه بغير هدى من الله، ومع ذلك يرى أن ما هو عليه هو الحق؛ فما أبعد الفرق بين الفريقين! وما أعظم التفاوت بين الطائفتين! أهل الحق وأهل الغي.

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ (١٥) ﴾.

(١٥) ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾؛ أي: التي أعدها الله لعباده الذين اتقوا سخطه، واتبعوا رضوانه؛ أنها من نعتها وصفتها الجميلة، ﴿ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ ﴾؛ أي: غير متغير لا بوخم ولا بريح منتنة ولا بمرارة ولا بكدورة، بل هو أعذب المياه وأصفاها وأطيبها ريحًا وألذها شربًا، ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ ﴾: بحموضة ولا غيرها، ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾؛ أي: يلتذ بها شاربها لذة عظيمة، لا كخمر الدنيا التي يكره مذاقها وتصدع الرأس وتغوّل العقل، ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾: من شمعه وسائر أوساخه. ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾: من نخيل وعنب وتفاح ورمان وأترج وتين وغير ذلك مما لا نظير له في الدنيا؛ فهذا المحبوب المطلوب قد حصل لهم. ثم قال: ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾: يزول بها عنهم المرهوب؛ فأي هؤلاء خير أم: ﴿ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ ﴾: التي اشتد حرها وتضاعف عذابها، ﴿ وَسُقُوا۟ ﴾: فيها ﴿ مَآءً حَمِيمًا ﴾؛ أي: حارًّا جدًّا، ﴿ فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ (١٥) ﴾: فسبحان من فاوت بين الدارين والجزاءين والعاملين والعملين.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ (١٦) وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ (١٧) ﴾.

(١٦) يقول تعالى: ومن المنافقين ﴿مَن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾: ما تقول؛ استماعًا لا عن قبول وانقياد، بل معرضة قلوبهم عنه، ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾: مستفهمين عما قلت وما سمعوا مما لم يكن لهم فيه رغبة: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾؛ أي: قريبًا! وهذا في غاية الذم لهم؛ فإنهم لو كانوا حريصين على الخير؛ لألقوا إليه أسماعهم ووعته قلوبهم وانقادت له جوارحهم، ولكنهم بعكس هذه الحال، ولهذا قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: ختم عليها وسد أبواب الخير التي تصل إليها بسبب اتباعهم أهواءهم التي لا يهوون فيها إلا الباطل.

(١٧) ثم بين حال المهتدين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟﴾: بالإيمان والانقياد واتباع ما يرضي الله ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾: شكرًا منه تعالى لهم على ذلك، ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ (١٧)﴾؛ أي: وفقهم للخير، وحفظهم من الشر. فذكر للمهتدين جزاءين: العلم النافع، والعمل الصالح.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ (١٨)﴾.

(١٨) أي: فهل ينظر هؤلاء المكذبون أو ينتظرون ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾؛ أي: فجأة وهم لا يشعرون، ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾؛ أي: علاماتها الدالة على قربها ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ (١٨)﴾؛ أي: من أين لهم إذا جاءتهم الساعة وانقطعت آجالهم أن يتذكروا ويستعتبوا؛ قد فات ذلك وذهب وقت التذكر؛ فقد عمروا ما يتذكر فيه من تذكر وجاءهم النذير. ففي هذا الحث على الاستعداد قبل مفاجأة الموت؛ فإن موت الإنسان قيام ساعته.

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ (١٩)﴾.

(١٩) العلم لا بد فيه من إقرار القلب ومعرفته بمعنى ما طلب منه علمه، وتمامه أن يعمل بمقتضاه. وهذا العلم الذي أمر الله به، وهو العلم بتوحيد الله، فرض عين على كل إنسان، لا يسقط عن أحد كائنًا من كان، بل كل مضطر إلى ذلك.

والطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا الله أمور:

أحدها - بل أعظمها -: تدبر أسمائه وصفاته وأفعاله الدالة على كماله وعظمته وجلاله؛ فإنها توجب بذل الجهد في التأله له والتعبد للرب الكامل الذي له كل حمد ومجد وجلال وجمال.

الثاني: العلم بأنه تعالى هو المنفرد بالخلق والتدبير، فيعلم بذلك أنه المنفرد بالألوهية.

الثالث: العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة الدينية والدنيوية؛ فإن ذلك يوجب تعلق القلب به ومحبته والتأله له وحده لا شريك له.

الرابع: ما نراه ونسمعه من الثواب لأوليائه القائمين بتوحيده من النصر والنعم العاجلة، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به؛ فإن هذا داعٍ إلى العلم بأنه تعالى وحده المستحق للعبادة كلها.

الخامس: معرفة أوصاف الأوثان والأنداد التي عبدت مع الله واتخذت آلهة، وأنها ناقصة من جميع الوجوه، فقيرة بالذات، لا تملك لنفسها ولا لعابديها نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، ولا ينصرون من عبدهم ولا ينفعونهم بمثقال ذرة من جلب خير أو دفع شر؛ فإن العلم بذلك يوجب العلم بأنه لا إله إلا الله وبطلان إلهية ما سواه.

السادس: اتفاق كتب الله على ذلك وتواطؤها عليه.

السابع: أن خواص الخلق الذين هم أكمل الخليقة أخلاقًا وعقولًا ورأيًا وصوابًا وعلمًا - وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون - قد شهدوا لله بذلك.

الثامن: ما أقامه الله من الأدلة الأفقية والنفسية التي تدل على التوحيد أعظم دلالة وتنادي عليه بلسان حالها بما أودعها من لطائف صنعته وبديع حكمته وغرائب خلقه؛ فهذه الطرق التي أكثر الله من دعوة الخلق بها إلى أنه لا إله إلا الله، وأبداها في كتابه وأعادها، عند تأمل العبد في بعضها؛ لا بد أن يكون عنده يقين وعلم بذلك؛ فكيف إذا اجتمعت وتواطأت واتفقت وقامت أدلة للتوحيد[1] من كل جانب؟! فهناك يرسخ الإيمان والعلم بذلك في قلب العبد؛ بحيث يكون كالجبال الرواسي، لا تزلزله الشبه والخيالات، ولا يزداد على تكرر الباطل والشبه إلا نموًا وكمالًا. هذا، وإن نظرت إلى الدليل العظيم والأمر الكبير - وهو تدبر هذا القرآن العظيم والتأمل في آياته؛ فإنه الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد، ويحصل به من تفاصيله وجمله ما لا تحصل في غيره.

وقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾؛ أي: اطلب من الله المغفرة لذنبك؛ بأن تفعل أسباب المغفرة من التوبة والدعاء بالمغفرة والحسنات الماحية وترك الذنوب والعفو عن الجرائم، واستغفر أيضًا للمؤمنين والمؤمنات؛ فإنهم بسبب إيمانهم

(١) ع، ط: «التوحيد».

كان لهم حق على كل مسلم ومسلمة، ومن جملة حقوقهم أن يدعى لهم ويستغفر لذنوبهم، وإذا كان مأمورًا بالاستغفار لهم المتضمن لإزالة الذنوب وعقوباتها عنهم؛ فإن من لوازم ذلك النصح لهم، وأن يحب لهم من الخير ما يحب لنفسه، ويكره لهم من الشر ما يكره لنفسه، ويأمرهم بما فيه الخير لهم، وينهاهم عما فيه ضررهم، ويعفو عن مساويهم ومعايبهم، ويحرص على اجتماعهم اجتماعًا تتألف به قلوبهم، ويزول ما بينهم من الأحقاد المفضية للمعاداة والشقاق، الذي به تكثر ذنوبهم ومعاصيهم. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ﴾؛ أي: تصرفاتكم وحركاتكم وذهابكم ومجيئكم، ﴿وَمَثْوَىٰكُمْ ١٩﴾: الذي به تستقرون؛ فهو يعلمكم في الحركات والسكنات، فيجازيكم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ٢٠ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ٢١ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ٢٢ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ٢٣﴾.

(٢٠)، (٢١) يقول تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: استعجالًا ومبادرة للأوامر الشاقة: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾؛ أي: فيها الأمر بالقتال، ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾؛ أي: ملزم العمل بها، ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾: الذي هو أشق شيء على النفوس؛ لم يثبت ضعفاء الإيمان على امتثال هذه الأوامر، ولهذا قال: ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾: من كراهتهم لذلك وشدته عليهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧].

ثم ندبهم تعالى إلى ما هو الأليق بحالهم، فقال: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ٢٠ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾؛ أي: فأولى لهم أن يمتثلوا الأمر الحاضر المحتم عليهم، ويجمعوا عليه هممهم، ولا يطلبوا أن يشرع لهم ما هو شاق عليهم، وليفرحوا بعافية الله تعالى وعفوه، ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾؛ أي: جاءهم أمر جد وأمر محتم، لو ﴿صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: في هذه الحال بالاستعانة به وبذل الجهد في امتثاله، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾: من حالهم الأولى، وذلك من وجوه: منها: أن العبد ناقص من كل وجه، لا قدرة له إلا إن أعانه الله؛ فلا يطلب زيادة على ما هو قائم

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ
مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ
يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ
٢٠ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ
لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ٢١ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟
فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ٢٢ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ
فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ٢٣ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ
أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ٢٤ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم
مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ
لَهُمْ ٢٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ
ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ
٢٦ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ
وَأَدْبَٰرَهُمْ ٢٧ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ
وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ٢٨ أَمْ حَسِبَ
ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ٢٩

بصدده. ومنها: أنه إذا تعلقت نفسه بالمستقبل؛ ضعف عن العمل بوظيفة وقته الحاضر وبوظيفة المستقبل، أما الحال؛ فلأن الهمة انتقلت عنه إلى غيره، والعمل تبع للهمة. وأما المستقبل؛ فإنه لا يجيء حتى تفتر الهمة عن نشاطها، فلا يعان عليه. ومنها: أن العبد المؤمل للآمال المستقبلة، مع كسله عن عمل الوقت الحاضر، شبيه بالمتألي الذي يجزم بقدرته على ما يستقبل من أموره؛ فأحرى به أن يخذل ولا يقوم بما هم به وتوعد[1] نفسه عليه؛ فالذي ينبغي أن يجمع العبد همه وفكرته ونشاطه على وقته الحاضر، ويؤدي وظيفته بحسب قدرته، ثم كلما جاء وقت؛ استقبله بنشاط وهمة عالية مجتمعة غير متفرقة، مستعينًا بربه في ذلك؛ فهذا حري بالتوفيق والتسديد في جميع أموره.

(٢٢) ثم ذكر تعالى حال المتولي عن طاعة ربه، وأنه لا يتولى إلى خير، بل إلى شر، فقال: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ٢٢﴾؛ أي: فهما أمران: إما التزام لطاعة الله وامتثال لأوامره؛ فثَمَّ الخير

(١) ع، ط: «ووطن».

والرشد والفلاح. وإما الإعراض عن ذلك والتولي عن طاعة الله؛ فما ثم إلا الفساد في الأرض بالعمل بالمعاصي وقطيعة الأرحام.

(٢٣) ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ﴾: أفسدوا في الأرض، وقطعوا أرحامهم. ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾: بأن أبعدهم عن رحمته وقربوا من سخط الله ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (٢٣)﴾؛ أي: جعلهم لا يسمعون ما ينفعهم ولا يبصرونه؛ فلهم آذان ولكن لا تسمع سماع إذعان وقبول، وإنما تسمع سماعًا تقوم بها حجة الله عليها، ولهم أعين ولكن لا يبصرون بها العبر والآيات، ولا يلتفتون بها إلى البراهين والبينات.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)﴾.

(٢٤) أي: فهلا يتدبر هؤلاء المعرضون لكتاب الله ويتأملونه حق التأمل؛ فإنهم لو تدبروه؛ لدلهم على كل خير، ولحذرهم من كل شر، ولملأ قلوبهم من الإيمان وأفئدتهم من الإيقان، ولأوصلهم إلى المطالب العالية والمواهب الغالية، ولبين لهم الطريق الموصلة إلى الله وإلى جنته ومكملاتها ومفسداتها، والطريق الموصلة إلى العذاب، وبأي شيء يحذر، ولعرفهم بربهم وأسمائه وصفاته وإحسانه، ولشوقهم إلى الثواب الجزيل، ورهبهم من العقاب الوبيل، ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)﴾؛ أي: قد أغلق على ما فيها من الإعراض والغفلة والاعتراض، وأقفلت فلا يدخلها خير أبدًا؟! هذا هو الواقع.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ
الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ (٢٥) ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ
فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ
الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ
فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨)﴾.

(٢٥) يخبر تعالى عن حالة المرتدين عن الهدى والإيمان على أعقابهم إلى الضلال والكفران، ذلك لا عن دليل دلهم ولا برهان، وإنما هو تسويل من عدوهم الشيطان، وتزيين لهم وإملاء منه لهم؛ ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠)﴾ [النساء: ١٢٠].

(٢٦) و﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾: قد تبين لهم الهدى، فزهدوا فيه ورفضوه، و﴿قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾: من المبارزين العداوة لله ولرسوله: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾؛ أي: الذي يوافق أهواءهم؛ فلذلك عاقبهم الله بالضلال والإقامة على ما يوصلهم إلى الشقاء الأبدي والعذاب السرمدي، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦)﴾: فلذلك فضحهم، وبينها لعباده المؤمنين؛ لئلا يغتروا بها.

(٢٧) ﴿فَكَيْفَ﴾ ترى حالهم الشنيعة ورؤيتهم الفظيعة، ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾: الموكلون بقبض أرواحهم، ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾: بالمقامع الشديدة؟!

(٢٨) ﴿ذَٰلِكَ﴾: العذاب الذي استحقوه ونالوه، بسبب أنهم ﴿اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾: من كل كفر وفسوق وعصيان، ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾: فلم يكن لهم رغبة فيما يقربهم إليه ولا يدنيهم منه، ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨)﴾؛ أي: أبطلها وأذهبها، وهذا بخلاف من اتبع ما يرضي الله وكره سخطه؛ فإنه سيكفر عنه سيئاته ويضاعف له أجره وثوابه.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ
أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ
وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ
حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١)﴾.

(٢٩) يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: من شبهة أو شهوة؛ بحيث تخرج القلب عن حال صحته واعتداله، ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ﴾ ما في قلوبهم من أضغانهم وعداوتهم للإسلام وأهله! هذا ظن لا يليق بحكمة الله؛ فإنه لا بد أن يميز الصادق من الكاذب، وذلك بالابتلاء بالمحن التي من ثبت عليها ودام إيمانه فيها؛ فهو المؤمن حقيقة، ومن ردته على عقبيه، فلم يصبر عليها، وحين أتاه الامتحان جزع وضعف إيمانه وخرج ما في قلبه من الضغن وتبين نفاقه؛ هذا مقتضى الحكمة الإلهية.

(٣٠) مع أنه تعالى قال: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾؛ أي: بعلاماتهم التي هي كالرسم في وجوههم، ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾؛ أي: لا بد أن يظهر ما في قلوبهم ويتبين بفلتات ألسنتهم؛ فإن الألسن مغارف القلوب، يظهر فيها ما في القلوب من الخير والشر، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠)﴾: فيجازيكم عليها.

(٣١) ثم ذكر أعظم امتحان يمتحن به عباده، وهو الجهاد في سبيل الله، فقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾؛ أي: نختبر إيمانكم وصبركم، ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١)﴾: فمن امتثل أمر الله وجاهد في سبيل الله

بنصر دينه وإعلاء كلمته؛ فهو المؤمن حقًّا، ومن تكاسل عن ذلك؛ كان ذلك نقصًا في إيمانه.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢) ﴾.

(٣٢) هذا وعيد شديد لمن جمع أنواع الشر كلها من الكفر بالله وصد الخلق عن سبيل الله الذي نصبه موصلًا إليه، ﴿وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾؛ أي: عاندوه وخالفوه عن عمد وعناد، لا عن جهل وغي وضلال؛ فإنهم ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾؛ فلا ينقص به ملكه، ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢)﴾؛ أي: مساعيهم التي بذلوها في نصر الباطل؛ بألَّا تثمر لهم إلا الخيبة والخسران، وأعمالهم التي يرجون بها الثواب لا تقبل؛ لعدم وجود شرطها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣)﴾.

(٣٣) يأمر تعالى المؤمنين بأمر به تتم[1] وتحصل سعادتهم الدينية والدنيوية، وهو طاعته وطاعة رسوله في أصول الدين وفروعه، والطاعة هي امتثال الأمر واجتناب النهي على الوجه المأمور به بالإخلاص وتمام المتابعة، وقوله: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣)﴾: يشمل النهي عن إبطالها بعد عملها بما يفسدها من منٍّ بها وإعجاب وفخر وسمعة، ومن عمل بالمعاصي التي تضمحل معها الأعمال ويحبط أجرها. ويشمل النهي عن إفسادها حال وقوعها بقطعها أو الإتيان بمفسد من مفسداتها. فمبطلات الصلاة والصيام والحج ونحوها كلها داخلة في هذا ومنهي عنها.

ويستدل الفقهاء بهذه الآية على تحريم قطع الفرض وكراهة قطع النفل من غير موجب لذلك، وإذا كان الله قد نهى عن إبطال الأعمال؛ فهو أمر بإصلاحها وإكمالها وإتمامها والإتيان بها على الوجه الذي تصلح به علمًا وعملًا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥)﴾.

(٣٤) هذه الآية والتي في البقرة قوله: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٧]: مقيدتان لكل نص مطلق فيه

وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي
لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ
الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١) إِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ
لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢)
۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا
أَعْمَالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا
وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ
وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥) إِنَّمَا
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ
وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ
تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ
لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ
فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ۚ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ۚ وَإِن
تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨)

إحباط العمل بالكفر؛ فإنه مقيد بالموت عليه، فقال هنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ﴿وَصَدُّوا﴾: الخلق ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾: بتزهيدهم إياهم بالحق، ودعوتهم إلى الباطل وتزيينه، ﴿ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾: لم يتوبوا منه، ﴿فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾: لا بشفاعة ولا بغيرها؛ لأنه قد تحتم عليهم العقاب، وفاتهم الثواب، ووجب عليهم الخلود في النار، وسدت عليهم رحمة الرحيم الغفار.

ومفهوم الآية الكريمة أنهم إن تابوا من ذلك قبل موتهم؛ فإن الله يغفر لهم ويرحمهم ويدخلهم الجنة، ولو كانوا مفنين أعمارهم في الكفر به والصد عن سبيله والإقدام على معاصيه. فسبحان من فتح لعباده أبواب الرحمة ولم يغلقها عن أحد ما دام حيًّا متمكنًا من التوبة. وسبحان الحليم الذي لا يعاجل العاصين بالعقوبة، بل يعافيهم[2] ويرزقهم كأنهم ما عصوه مع قدرته عليهم.

(٣٥) ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا﴾؛ أي: تضعفوا عن قتال عدوكم، ويستولي عليكم الخوف، بل اصبروا، واثبتوا،

(١) ع، ط: «تتم أمورهم».

(٢) الأصل: «يعاقبهم».

ووطنوا أنفسكم على القتال والجلاد طلبًا لمرضاة ربكم ونصحًا للإسلام وإغضابًا للشيطان، ولا تدعو إلى المسالمة والمتاركة بينكم وبين أعدائكم طلبًا للراحة، والحال أنكم أنتم ﴿ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ﴾؛ أي: ينقصكم ﴿أَعْمَٰلَكُمْ ۝٣٥﴾: فهذه الأمور الثلاثة كل منها مقتض للصبر وعدم الوهن كونهم الأعلين؛ أي: قد توفرت لهم أسباب النصر ووعدوا من الله بالوعد الصادق؛ فإن الإنسان لا يهن إلا إذا كان أذل من غيره وأضعف عددًا وعُددًا وقوة داخلية وخارجية.

الثاني: أن الله معهم؛ فإنهم مؤمنون، والله مع المؤمنين بالعون والنصر والتأييد، وذلك موجب لقوة قلوبهم وإقدامهم على عدوهم.

الثالث: أن الله لا ينقصهم من أعمالهم شيئًا، بل سيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله، خصوصًا عبادة الجهاد؛ فإن النفقة تضاعف فيها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٢٠ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٢١﴾ [التوبة: ١٢٠، ١٢١].

فإذا عرف الإنسان أن الله تعالى لا يضيع عمله وجهاده؛ أوجب له ذلك النشاط وبذل الجهد فيما يترتب عليه الأجر والثواب؛ فكيف إذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة؟! فإن ذلك يوجب النشاط التام. فهذا من ترغيب الله لعباده وتنشيطهم وتقوية أنفسهم على ما فيه صلاحهم وفلاحهم.

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ۝٣٦ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ۝٣٧ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ۝٣٨﴾.

۝٣٦، ۝٣٧ هذا تزهيد منه تعالى لعباده في الحياة الدنيا؛ بإخبارهم عن حقيقة أمرها؛ بأنها لعب ولهو؛ لعب في الأبدان ولهو في القلوب، فلا يزال العبد لاهيًا في ماله وأولاده وزينته ولذاته من النساء والمآكل والمشارب والمساكن والمجالس والمناظر والرياسات، لاعبًا في كل عمل لا فائدة فيه، بل هو دائر بين البطالة والغفلة والمعاصي، حتى يستكمل دنياه ويحضره أجله؛ فإذا هذه الأمور قد ولت وفارقت ولم يحصل العبد منها على طائل، بل قد تبين له خسرانه وحرمانه وحضر عذابه؛ فهذا موجب للعاقل الزهد فيها وعدم الرغبة فيها والاهتمام بشأنها، وإنما الذي ينبغي أن يهتم به ما ذكره بقوله: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾: بأن تؤمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتقوموا بتقواه التي هي من لوازم الإيمان ومقتضياته، وهي العمل بمرضاته على الدوام، مع ترك معاصيه؛ فهذا الذي ينفع العبد، وهو الذي ينبغي أن يُتنافس فيه وتبذل الهمم والأعمال في طلبه، وهو مقصود الله من عباده؛ رحمة بهم ولطفًا؛ ليثيبهم الثواب الجزيل، ولهذا قال: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ۝٣٦﴾؛ أي: لا يريد تعالى أن يكلفكم ما يشق عليكم ويعنتكم من أخذ أموالكم وبقائكم بلا مال أو ينقصكم نقصًا يضركم، ولهذا قال: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ۝٣٧﴾؛ أي: ما في قلوبكم من الضغن إذا طلب منكم ما تكرهون بذله.

۝٣٨ والدليل على أن الله لو طلب منكم أموالكم وأحفاكم بسؤالها أنكم تمتنعون منها، أنكم ﴿تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: على هذا الوجه الذي فيه مصلحتكم الدينية والدنيوية، ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾؛ أي: فكيف لو سألكم وطلب منكم أموالكم في غير أمر ترونه مصلحة عاجلة؟! أليس من باب أولى وأحرى امتناعكم من ذلك؟!

ثم قال: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾: لأنه حرم نفسه ثواب الله تعالى، وفاته خير كثير، ولن يضر الله بترك الإنفاق شيئًا، ﴿وَٱللَّهُ﴾ هو ﴿ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾: تحتاجون إليه في جميع أوقاتكم لجميع أموركم، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟﴾: عن الإيمان بالله وامتثال ما يأمركم به؛ ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ۝٣٨﴾: في التولي، بل يطيعون الله ورسوله ويحبون الله ورسوله؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

تم تفسير سورة القتال. والحمد لله رب العالمين.



تفسير سورة الفتح

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾.

(١) هذا الفتح المذكور هو صلح الحديبية، حين صد المشركون رسول الله ﷺ لما جاء معتمرًا في قصة طويلة، صار آخر أمرها أن صالحهم رسول الله ﷺ على وضع الحرب بينه وبينهم عشر سنين، وعلى أن يعتمر من العام المقبل، وعلى أن من أراد أن يدخل في عهد قريش وحلفهم؛ دخل، ومن أحب أن يدخل في عهد رسول الله ﷺ وعقده؛ فعل. وسبب ذلك أنه لما أمن الناس بعضهم بعضًا؛ اتسعت دائرة الدعوة لدين الله عز وجل، وصار كل مؤمن بأي محل كان من تلك الأقطار يتمكن من ذلك، وأمكن ذلك للحريص على الوقوف على حقيقة الإسلام، فدخل الناس في تلك المدة في دين الله أفواجًا؛ فلذلك سماه الله فتحًا، ووصفه بأنه فتح مبين؛ أي: ظاهر جلي؛ وذلك لأن المقصود من[1] فتح بلدان المشركين إعزاز دين الله وانتصار المسلمين، وهذا حصل به الفتح.

(٢) ورتب الله على هذا الفتح عدة أمور، فقال: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾: وذلك - والله أعلم - بسبب ما حصل بسببه من الطاعات الكثيرة والدخول في الدين بكثرة، وبما تحمل ﷺ من تلك الشروط التي لا يصبر عليها إلا أولو العزم من المرسلين، وهذا من أعظم مناقبه وكراماته ﷺ: أن غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾: بإعزاز دينك ونصرك على أعدائك واتساع كلمتك، ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾: تنال به السعادة الأبدية والفلاح السرمدي.

(٣) ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾؛ أي: قويًا لا يتضعضع فيه الإسلام، بل يحصل الانتصار التام وقمع الكافرين وذلهم ونقصهم، مع توفر قوى المسلمين ونموهم ونمو أموالهم؛ ثم ذكر آثار هذا الفتح على المؤمنين، فقال:

(١) ع، ط: «في».

الجزء السادس والعشرون — سورة الفتح

سُورَةُ الفَتْحِ — ترتيبها ٤٨ — آياتها ٢٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ
وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢
وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ
الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ
سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥ وَيُعَذِّبَ
الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ
بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝٦ وَلِلَّهِ جُنُودُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ
شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩

٥١١

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝٦﴾.

(٤) يخبر تعالى عن منته على المؤمنين بإنزال السكينة في قلوبهم، وهي السكون والطمأنينة والثبات عند نزول المحن المقلقة والأمور الصعبة التي تشوش القلوب وتزعج الألباب وتضعف النفوس؛ فمن نعمة الله على عبده في هذه الحال أن يثبته ويربط على قلبه، وينزل عليه السكينة، ليتلقى هذه المشقات بقلب ثابت ونفس مطمئنة، فيستعد بذلك لإقامة أمر الله في هذه الحال، فيزداد بذلك إيمانه، ويتم

إيقانه. فالصحابة رضي الله عنهم لما جرى ما جرى بين رسول الله ﷺ والمشركين من تلك الشروط التي ظاهرها أنها غضاضة عليهم وحط من أقدارهم، وتلك لا تكاد تصبر عليها النفوس، فلما صبروا عليها ووطنوا أنفسهم لها؛ ازدادوا بذلك إيمانًا مع إيمانهم. وقوله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: جميعها في ملكه وتحت تدبيره وقهره؛ فلا يظن المشركون أن الله لا ينصر دينه ونبيه، ولكنه تعالى عليم حكيم، فتقتضي حكمته المداولة بين الناس في الأيام وتأخير نصر المؤمنين إلى وقت آخر.

﴿٥﴾ ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾: فهذا أعظم ما يحصل للمؤمنين؛ أي: يحصل لهم المرغوب المطلوب بدخول الجنات، ويزيل عنهم المحذور بتكفير السيئات، ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾: الجزاء المذكور للمؤمنين، ﴿عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾: فهذا ما يفعل بالمؤمنين في ذلك الفتح المبين.

﴿٦﴾ وأما المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات؛ فإن الله يعذبهم بذلك ويريهم ما يسوءهم؛ حيث كان مقصودهم خذلان المؤمنين، وظنوا بالله ظن السوء أنه لا ينصر دينه ولا يعلي كلمته، وأن أهل الباطل ستكون لهم الدائرة على أهل الحق، فأدار الله عليهم ظنهم، وكانت دائرة السوء عليهم في الدنيا، ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾: بما اقترفوه من المحادة لله ولرسوله، ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾؛ أي: أبعدهم وأقصاهم عن رحمته، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾.

﴿٧﴾ كرر الإخبار بأن له ملك السماوات والأرض وما فيهما من الجنود؛ ليعلم العباد أنه تعالى هو المعز المذل، وأنه سينصر جنوده المنسوبة إليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧٣]، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾؛ أي: قويًّا غالبًا قاهرًا لكل شيء، ومع عزته وقوته؛ فهو حكيم في خلقه. وتدبيره يجري على ما تقتضيه حكمته وإتقانه.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾.

﴿٨﴾ أي: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾: أيها الرسول الكريم، ﴿شَاهِدًا﴾: لأمتك بما فعلوه من خير وشر، وشاهدًا على المقالات والمسائل حقها وباطلها، وشاهدًا لله تعالى بالوحدانية والانفراد بالكمال من كل وجه، ﴿وَمُبَشِّرًا﴾: من أطاعك وأطاع الله بالثواب الدنيوي والديني والأخروي، ﴿وَنَذِيرًا ﴿٨﴾﴾ من عصى الله بالعقاب العاجل والآجل، ومن تمام البشارة والنذارة بيان الأعمال والأخلاق التي يبشر بها وينذر؛ فهو المبين للخير والشر والسعادة والشقاوة والحق من الباطل.

﴿٩﴾ ولهذا رتب على ذلك قوله: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾؛ أي: بسبب دعوة الرسول لكم وتعليمه لكم ما ينفعكم أرسلناه؛ لتقوموا بالإيمان بالله ورسوله، المستلزم ذلك لطاعتهما في جميع الأمور، ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾؛ أي: تعزروا الرسول ﷺ ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾؛ أي: تعظموه، وتجلوه، وتقوموا بحقوقه، كما كانت له المنة العظيمة في رقابكم، ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾؛ أي: تسبحوا الله ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾: أول النهار وآخره.

فذكر الله في هذه الآية الحق المشترك بين الله وبين رسوله، وهو الإيمان بهما، والمختص بالرسول، وهو التعزير والتوقير، والمختص بالله، وهو التسبيح له والتقديس بصلاة أو غيرها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

﴿١٠﴾ هذه المبايعة التي أشار الله إليها هي بيعة الرضوان، التي بايع الصحابة رضي الله عنهم فيها رسول الله ﷺ على ألَّا يفروا عنه؛ فهي عقد خاص، من لوازمه ألَّا يفروا، ولو لم يبق منهم إلا القليل، ولو كانوا في حال يجوز الفرار فيها. فأخبر تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾: حقيقة الأمر أنهم ﴿يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾: ويعقدون العقد معه، حتى إنه من شدة تأكده أنه قال: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: كأنهم بايعوا الله وصافحوه بتلك المبايعة، وكل هذا لزيادة التأكيد والتقوية، وحملهم على الوفاء بها، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ نَكَثَ﴾: فلم يف بما عاهد الله عليه، ﴿فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾؛ لأن وبال ذلك راجع إليه وعقوبته واصلة له، ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ﴾؛ أي: أتى به كاملًا موفرًا، ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾: لا يعلم عظمه وقدره إلا الذي آتاه إياه.

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا (١١) بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا (١٢) وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا (١٣) ﴾.

(١١) - (١٣) يذم تعالى المتخلفين عن رسول الله في الجهاد في سبيله من الأعراب، الذين ضعف إيمانهم وكان في قلوبهم مرض وسوء ظن بالله تعالى، وأنهم سيعتذرون بأن أموالهم وأهليهم شغلتهم عن الخروج في سبيله، وأنهم طلبوا من رسول الله ﷺ أن يستغفر لهم؛ قال الله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾: فإن طلبهم الاستغفار من رسول الله ﷺ يدل على ندمهم وإقرارهم على أنفسهم بالذنب، وأنهم تخلفوا تخلفًا يحتاج إلى توبة واستغفار؛ فلولا[١] هذا الذي في قلوبهم؛ لكان استغفار الرسول نافعًا لهم؛ لأنهم قد تابوا وأنابوا، ولكن الذي في قلوبهم أنهم إنما تخلفوا لأنهم ظنوا بالله ظن السوء، فظنوا ﴿ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾؛ أي: أنهم سيقتلون ويستأصلون، ولم يزل هذا الظن يزين في قلوبهم، ويطمئنون إليه حتى استحكم، وسبب ذلك أمران: أحدهما: أنهم كانوا ﴿ قَوْمًۢا بُورًا (١٢) ﴾؛ أي: هلكى لا خير فيهم؛ فلو كان فيهم خير؛ لم يكن هذا في قلوبهم. الثاني: ضعف إيمانهم ويقينهم بوعد الله ونصر دينه وإعلاء كلمته، ولهذا قال: ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾؛ أي: فإنه كافر مستحق للعقاب، ﴿ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا (١٣) ﴾.

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٤) ﴾.

(١٤) أي: هو تعالى المنفرد بملك السماوات والأرض، يتصرف فيهما بما يشاء من الأحكام القدرية والأحكام الشرعية والأحكام الجزائية، ولهذا ذكر حكم الجزاء المرتب على الأحكام الشرعية، فقال: ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ﴾: وهو من قام بما أمره الله به، ﴿ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾: ممن تهاون بأمر الله، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٤) ﴾؛ أي: وصفه اللازم الذي لا ينفك عنه المغفرة والرحمة، فلا يزال في جميع الأوقات يغفر للمذنبين، ويتجاوز عن الخطائين، ويتقبل توبة التائبين، وينزل خيره المدرار آناء الليل والنهار.

﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥) ﴾.

(١٥) لما ذكر تعالى المخلفين وذمهم؛ ذكر أن من عقوبتهم الدنيوية أن الرسول ﷺ وأصحابه إذا انطلقوا إلى غنائم لا قتال فيها ليأخذوها؛ طلبوا منهم الصحبة والمشاركة، ويقولون: ﴿ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ ﴾: بذلك ﴿ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾؛ حيث حكم بعقوبتهم واختصاص الصحابة المؤمنين بتلك الغنائم شرعًا وقدرًا، ﴿ قُل ﴾: لهم: ﴿ لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ﴾: إنكم محرومون منها بما جنيتم على أنفسكم وبما تركتم القتال أول مرة؛ ﴿ فَسَيَقُولُونَ ﴾: مجيبين لهذا الكلام الذي مُنعوا به عن

(١) ع، ط: «فلو كان».

قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ
تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ
وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ
عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ
وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ
وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ
ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ
فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ
كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ
مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ
ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا
مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ
ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

الخروج: ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾: على الغنائم! هذا منتهى علمهم في هذا الموضع، ولو فهموا رشدهم؛ لعلموا أن حرمانهم بسبب عصيانهم، وأن المعاصي لها عقوبات دنيوية ودينية، ولهذا قال: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿١٦﴾ لما ذكر تعالى أن المخلفين من الأعراب يتخلفون عن الجهاد في سبيله، ويعتذرون بغير عذر، وأنهم يطلبون الخروج معهم إذا لم يكن شوكة ولا قتال، بل لمجرد الغنيمة؛ قال تعالى ممتحنًا لهم: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾؛ أي: سيدعوكم الرسول ومن ناب منابه من الخلفاء الراشدين والأئمة، وهؤلاء القوم هم فارس والروم ومن نحا نحوهم وأشبههم، ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾؛ أي: إما هذا وإما هذا، وهذا هو الأمر الواقع؛ فإنهم في حال قتالهم ومقاتلتهم لأولئك الأقوام إذا كانت شدتهم وبأسهم معهم؛ فإنهم في تلك الحال لا يقبلون أن يبذلوا الجزية، بل إما أن يدخلوا في الإسلام، وإما أن يقاتلوا على ما هم عليه، فلما أثخنهم المسلمون وضعفوا وذلوا؛ ذهب بأسهم، فصاروا إما أن يسلموا وإما أن يبذلوا الجزية، ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟﴾: الداعي لكم إلى قتال هؤلاء، ﴿يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾: وهو الأجر الذي رتبه الله ورسوله على الجهاد في سبيل الله، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾: عن قتال من دعاكم الرسول إلى قتاله، ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. ودلت هذه الآية على فضيلة الخلفاء الراشدين الداعين لجهاد أهل البأس من الناس، وأنه تجب طاعتهم في ذلك.

﴿١٧﴾ ثم ذكر الأعذار التي يعذر بها العبد عن الخروج إلى الجهاد، فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾؛ أي: في التخلف عن الجهاد لعذرهم المانع، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾: في امتثال أمرهما واجتناب نهيهما، ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾: عن طاعة الله ورسوله، ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾: فالسعادة كلها في طاعة الله، والشقاوة في معصيته ومخالفته.

﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿١٨﴾، ﴿١٩﴾ يخبر تعالى بفضله ورحمته برضاه عن المؤمنين إذ يبايعون الرسول ﷺ تلك المبايعة التي بيضت وجوههم واكتسبوا بها سعادة الدنيا والآخرة. وكان سبب هذه البيعة - التي يقال لها: بيعة الرضوان؛ لرضا الله عن المؤمنين فيها. ويقال لها: بيعة أهل الشجرة - أن رسول الله ﷺ

لما دار الكلام بينه وبين المشركين يوم الحديبية في شأن مجيئه، وأنه لم يجئ لقتال أحد، وإنما جاء زائرًا هذا البيت معظمًا له، فبعث رسول الله ﷺ عثمان بن عفان لمكة في ذلك، فجاء خبر غير صادق أن عثمان قتله المشركون، فجمع رسول الله ﷺ من معه من المؤمنين، وكانوا نحوًا من ألف وخمسمائة، فبايعوه تحت شجرة على قتال المشركين وألَّا يفروا حتى يموتوا، فأخبر تعالى أنه رضي عن المؤمنين في تلك الحال التي هي من أكبر الطاعات وأجل القربات. ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾: من الإيمان، ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾: شكرًا لهم على ما في قلوبهم، زادهم هدى، وعلم ما في قلوبهم من الجزع من تلك الشروط التي شرطها المشركون على رسوله، فأنزل عليهم السكينة تثبتهم، وتطمئن بها قلوبهم، ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾: وهو فتح خيبر، لم يحضره سوى أهل الحديبية، فاختصوا بخيبر وغنائمها جزاء لهم وشكرًا على ما فعلوه من طاعة الله تعالى والقيام بمرضاته، ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾؛ أي: له العزة والقدرة، التي قهر بها الأشياء؛ فلو شاء؛ لانتصر من الكفار في كل وقعة تكون بينهم وبين المؤمنين، ولكنه حكيم يبتلي بعضهم ببعض ويمتحن المؤمن بالكافر.

﴿٢٠﴾ ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾: وهذا يشمل كل غنيمة غنَّمها المسلمين إلى يوم القيامة، ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ﴾؛ أي: غنيمة خيبر؛ أي: فلا تحسبوها وحدها، بل ثم شيء كثير من الغنائم سيتبعها، واحمدوا الله إذ كف ﴿أَيْدِيَ النَّاسِ﴾: القادرين على قتالكم الحريصين عليه ﴿عَنكُمْ﴾: فهي نعمة وتخفيف عنكم، ﴿وَلِتَكُونَ﴾: هذه الغنيمة ﴿آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: يستدلون بها على خبر الله الصادق ووعده الحق وثوابه للمؤمنين، وأن الذي قدرها سيقدر غيرها، ﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾: بما يقيض لكم من الأسباب ﴿صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾: من العلم والإيمان والعمل.

﴿٢١﴾ ﴿وَأُخْرَىٰ﴾؛ أي: وعدكم أيضًا غنيمة أخرى، ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾: وقت هذا الخطاب، ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾؛ أي: هو قادر عليها وتحت تدبيره وملكه، وقد وعدكموها؛ فلا بد من وقوع ما وعد به؛ لكمال اقتدار الله تعالى، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿٢٢﴾ هذه بشارة من الله لعباده المؤمنين بنصرهم على أعدائهم الكافرين، وأنهم لو قابلوهم وقاتلوهم؛ ﴿لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾: يتولى أمرهم، ﴿وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾﴾: ينصرهم ويعينهم على قتالكم، بل هم مخذولون مغلوبون.

﴿٢٣﴾ وهذه سنة الله في الأمم السابقة أن جند الله هم الغالبون، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾.

﴿٢٤﴾ يقول تعالى ممتنًا على عباده بالعافية من شر الكفار ومن قتالهم، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ﴾؛ أي: أهل مكة ﴿عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: من بعد ما قدرتم عليهم وصاروا تحت ولايتكم بلا عقد ولا عهد، وهم نحو ثمانين رجلًا، انحدروا على المسلمين ليصيبوا منهم غِرَّةً، فوجدوا المسلمين منتبهين، فأمسكوهم، فتركوهم ولم يقتلوهم؛ رحمة من الله بالمؤمنين إذ لم يقتلوهم، ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾: فيجازي كل عامل بعمله، ويدبركم أيها المؤمنون بتدبيره الحسن.

﴿٢٥﴾ ثم ذكر تعالى الأمور المهيجة على قتال المشركين، وهي كفرهم بالله ورسوله، وصدهم رسول الله ومن معه من المؤمنين أن يأتوا للبيت الحرام زائرين معظمين له بالحج والعمرة، وهم الذين أيضًا صدوا الهدي ﴿مَعْكُوفًا﴾؛ أي: محبوسًا، ﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾: وهو محل ذبحه في مكة، حيث تذبح هدايا العمرة، فمنعوه من الوصول إليه ظلمًا وعدوانًا. وكل هذه أمور موجبة وداعية إلى قتالهم، ولكن ثَمَّ مانع، وهو وجود رجال ونساء من أهل الإيمان بين

وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ
بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ
مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ
لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ
لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ
عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ
وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٢٦﴾
لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ
ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ
لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ
فَتۡحٗا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ
ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٢٨﴾

أظهر المشركين، وليسوا بمتميزين بمحلة أو مكان يمكن ألَّا ينالهم أذى؛ فلولا هؤلاء الرجال المؤمنون والنساء المؤمنات الذين لا يعلمهم المسلمون ﴿أَن تَطَـُٔوهُمۡ﴾؛ أي: خشية أن تطئوهم، ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾: والمعرة ما يدخل تحت قتالهم من نيلهم بالأذى والمكروه، وفائدة أخروية، وهو أنه ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾: فَيَمُنَّ عليهم بالإيمان بعد الكفر، وبالهدى بعد الضلال، فيمنعكم من قتالهم لهذا السبب، ﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ﴾؛ أي: لو زالوا من بين أظهرهم، ﴿لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾: بأن نبيح لكم قتالهم، ونأذن فيه، وننصركم عليهم.

﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٢٦﴾﴾.

﴿٢٦﴾ يقول تعالى: ﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾: حيث أنفوا من كتابة «بسم الله الرحمن الرحيم»، وأنفوا من دخول رسول الله ﷺ والمؤمنين إليهم في تلك السنة؛ لئلا يقول الناس: دخلوا مكة قاهرين لقريش! وهذه الأمور ونحوها من أمور الجاهلية لم تزل في قلوبهم حتى أوجبت لهم ما أوجبت من كثير من المعاصي، ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: فلم يحملهم الغضب على مقابلة المشركين بما قابلوهم به، بل صبروا لحكم الله والتزموا الشروط التي فيها تعظيم حرمات الله، ولو كانت ما كانت، ولم يبالوا بقول القائلين ولا بلوم اللائمين، ﴿وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾، وهي لا إله إلا الله وحقوقها، ألزمهم القيام بها، فالتزموها وقاموا بها، ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا﴾: من غيرهم، وكانوا أهلها الذين استأهلوها؛ لما يعلم الله عندهم وفي قلوبهم من الخير، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٢٦﴾﴾.

﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿٢٧﴾ يقول تعالى: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّ﴾: وذلك أن رسول الله ﷺ رأى في المدينة رؤيا أخبر بها أصحابه؛ أنهم سيدخلون مكة ويطوفون بالبيت، فلما جرى يوم الحديبية ما جرى ورجعوا من غير دخول لمكة؛ كثر في ذلك الكلام منهم، حتى إنهم قالوا ذلك لرسول الله ﷺ: ألم تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟! فقال: «**أخبرتكم أنه العام؟!**»، قالوا: لا، قال: «**فإنكم ستأتونه وتطوفون به**»[1]. قال الله تعالى هنا: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: لا بد من وقوعها وصدقها، ولا يقدح في ذلك تأخر تأويلها، ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ﴾؛ أي: في هذه الحال المقتضية لتعظيم هذا البيت الحرام وأدائكم للنسك وتكميله بالحلق والتقصير وعدم الخوف. ﴿فَعَلِمَ﴾: من المصلحة والمنافع ﴿مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾: الدخول بتلك الصفة ﴿فَتۡحٗا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾.

(١) البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

(٢٨) ولما كانت هذه الواقعة مما تشوشت بها قلوب بعض المؤمنين، وخفيت عليهم حكمتها، فبين تعالى حكمتها ومنفعتها، وهكذا سائر أحكامه الشرعية؛ فإنها كلها هدى ورحمة، أخبر بحكم عام، فقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ ﴾: الذي هو العلم النافع، الذي يهدي من الضلالة، ويبين طرق الخير والشر، ﴿ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾؛ أي: الدين الموصوف بالحق، وهو العدل والإحسان والرحمة، وهو كل عمل صالح مزكٍّ للقلوب مطهر للنفوس مربٍّ للأخلاق مُعْلٍ للأقدار، ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ ﴾: بما بعثه الله به ﴿ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾: بالحجة والبرهان، ويكون داعيًا لإخضاعهم بالسيف والسنان.

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا (٢٩) ﴾.

(٢٩) يخبر تعالى عن نبيه ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ ﷺ ﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ أصحابه المهاجرين والأنصار؛ أنهم بأكمل الصفات وأجل الأحوال، وأنهم ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ ﴾؛ أي: جادون ومجتهدون في عداوتهم[1]، وساعون في ذلك بغاية جهدهم، فلم يروا منهم إلا الغلظة والشدة؛ فلذلك ذل أعداؤهم لهم وانكسروا وقهرهم المسلمون، ﴿ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾؛ أي: متحابون متراحمون متعاطفون كالجسد الواحد، يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، هذه معاملتهم مع الخلق، وأما معاملتهم مع الخالق؛ فإنك ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾؛ أي: وصفهم كثرة الصلاة التي أجل أركانها الركوع والسجود، ﴿ يَبْتَغُونَ ﴾: بتلك العبادة ﴿ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾؛ أي: هذا مقصودهم، بلوغ رضا ربهم والوصول إلى ثوابه ﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾؛ أي: قد أثرت العبادة من كثرتها وحسنها في وجوههم حتى استنارت، لمَّا استنارت بالصلاة بواطنهم؛ استنارت بالجلال ظواهرهم. ﴿ ذَٰلِكَ ﴾: المذكور ﴿ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾؛ أي: هذا وصفهم الذي وصفهم الله به مذكور بالتوراة هكذا.

(١) الأصل: «نصرتهم».

مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا (٢٩)

سُورَةُ الحُجُرَاتِ — آياتها ١٨ — ترتيبها ٤٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤)

وأما مثلهم ﴿ فِى ٱلْإِنجِيلِ ﴾؛ [2]بوصف آخر، وأنهم في كمالهم وتعاونهم ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ ﴾؛ أي: أخرج فراخه فوازرته فراخه في الشباب والاستواء، ﴿ فَٱسْتَغْلَظَ ﴾: ذلك الزرع؛ أي: قوي وغلظ، ﴿ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ﴾: جمع ساق، ﴿ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ﴾: من كماله واستوائه وحسنه واعتداله، كذلك الصحابة رضي الله عنهم هم كالزرع في نفعهم للخلق واحتياج الناس إليهم، فقوة إيمانهم وأعمالهم بمنزلة قوة عروق الزرع وسوقه، وكون الصغير والمتأخر إسلامه قد لحق الكبير السابق، ووازره وعاونه على ما هو عليه من إقامة دين الله والدعوة إليه، كالزرع الذي أخرج شطأه فآزره فاستغلظ، ولهذا قال: ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾: حين يرون اجتماعهم وشدتهم على دينهم، وحين يتصادمون معهم في معارك النزال ومعامع القتال، ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا (٢٩) ﴾: فالصحابة رضي الله عنهم، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، قد جمع

(٢) زاد في ع، ط: «فإنهم موصوفون».

الله لهم بين المغفرة التي من لوازمها وقاية شرور الدنيا والآخرة والأجر العظيم في الدنيا والآخرة.

ولنسق قصة الحديبية بطولها كما ساقها الإمام شمس الدين ابن القيم في **الهدي النبوي**؛ فإن فيها إعانة على فهم هذه السورة، وقد تكلم على معانيها وأسرارها. قال رحمه الله تعالى:

فصل في قصة الحديبية

قال نافع: كانت سنة ست في ذي القعدة. وهذا هو الصحيح، وهو قول الزهري وقتادة وموسى بن عقبة ومحمد بن إسحاق وغيرهم. وقال هشام بن عروة عن أبيه: خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية في رمضان، وكانت في شوال. وهذا وهم، وإنما كانت غزاة الفتح في رمضان. قال أبو الأسود عن عروة: إنها كانت في ذي القعدة على الصواب. وفي **الصحيحين**(١) عن أنس أن النبي ﷺ اعتمر أربع عمر، كلهن في ذي القعدة. فذكر منهن عمرة الحديبية.

وكان معه ألف وخمسمائة. هكذا في **الصحيحين**(٢) عن جابر. وعنه فيهما(٣): كانوا ألفًا وأربعمائة. وفيهما(٤) عن عبد الله بن أبي أوفى: كنا ألفًا وثلاثمائة. قال قتادة: قلت لسعيد بن المسيب: كم كان الجماعة الذين شهدوا بيعة الرضوان؟ قال خمس عشرة مائة. قال: قلت: فإن جابر بن عبد الله قال: كانوا أربع عشرة مائة، قال: يرحمه الله وهم، هو حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مائة. قلت: صح عن جابر القولان، وصح عنه أنهم نحروا عام الحديبية سبعين بدنة، البدنة عن سبعة، فقيل له: كم كنتم؟ قال: ألفًا وأربعمائة بخيلنا ورجلنا؛ يعني: فارسهم وراجلهم. والقلب إلى هذا أميل، وهو قول البراء بن عازب ومعقل بن يسار وسلمة بن الأكوع في أصح الروايتين وقول المسيب بن حزن. قال شعبة عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن أبيه: كنا مع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ألفًا وأربعمائة، وغلط غلطًا بينًا من قال: كانوا سبعمائة! وعذره أنهم نحروا يومئذ سبعين بدنة، والبدنة قد جاء إجزاؤها عن سبعة وعن عشرة! وهذا لا يدل على ما قاله هذا القائل؛ فإنه قد صرح بأن البدنة كانت في هذه الغزوة عن سبعة؛ فلو كانت السبعون عن جميعهم؛ لكانوا أربعمائة وتسعين رجلًا، وقد قال بتمام الحديث بعينه: إنهم كانوا ألفًا وأربعمائة.

فصل

فلما كانوا بذي الحليفة؛ قلَّد رسول الله ﷺ الهدي وأشعره وأحرم بالعمرة وبعث عينًا له بين يديه من خزاعة يخبره عن قريش، حتى إذا كانوا قريبًا من عسفان؛ أتاه عينه، فقال: إني قد تركت كعب بن لؤي قد جمعوا لك الأحابيش، وجمعوا لك جموعًا، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت. واستشار رسول الله ﷺ أصحابه(٥): «**أن نميل إلى ذراري هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبهم؟ فإن قعدوا قعدوا موتورين محزونين، وإن نجوا؛ تكن عنقًا قطعها الله، أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه؟**» قال أبو بكر: الله ورسوله أعلم، إنما جئنا معتمرين، ولم نجئ لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت؛ قاتلناه. فقال النبي ﷺ: «**فروحوا إذًا**»! فراحوا، حتى إذا كانوا ببعض الطريق؛ قال النبي ﷺ: «**إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش؛ فخذوا ذات اليمين**». فوالله ما شعر بهم خالد، حتى إذا هو بقترة(٦) الجيش، فانطلق يركض نذيرًا لقريش.

وسار النبي ﷺ، حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها؛ بركت راحلته، فقال الناس: حل حل! فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، خلأت القصواء. فقال النبي ﷺ: «**ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل**». ثم قال: «**والذي نفسي بيده؛ لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله؛ إلا أعطيتهموها**». ثم زجرها، فوثبت به، فعدل، حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء، إنما يتبرضه الناس تبرضًا، فلم يلبث الناس أن نزحوه، فشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهمًا من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه(٧) فيه. قال: فوالله؛ ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنها.

وفزعت قريش لنزوله عليهم، فأحب رسول الله ﷺ أن يبعث إليهم رجلًا من أصحابه، فدعا عمر بن الخطاب ليبعثه إليهم، فقال: يا رسول الله! ليس بمكة من بني كعب أحد يغضب لي إن أوذيت؛ فأرسل عثمان بن عفان؛ فإن عشيرته بها، وإنه مبلغ ما أردت. فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن

(١) البخاري (٤١٤٨)، مسلم (١٢٥٣).
(٢) البخاري (٤١٥٣)، مسلم (١٨٥٦/ ٧٢، ٧٣).
(٣) البخاري (٤١٥٤)، مسلم (١٨٥٦).
(٤) البخاري (٤١٥٥)، مسلم (١٨٥٧).
(٥) البخاري (٢٧٣٢)، أحمد (١٨٩٢٨).
(٦) ع: «هو بغبرة»، ط: «هم بغبرة». وقترة الجيش: الغبار الأسود الذي تثيره حوافر الدواب.
(٧) الأصل، ع: «يجعلوها».

عفان، فأرسله إلى قريش، وقال: «**أخبرهم أنا لم نأت لقتال، إنما جئنا عمارًا، وادعهم إلى الإسلام**». وأمره أن يأتي رجالًا بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات، فيدخل عليهم، ويبشرهم بالفتح، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة حتى لا يستخفى فيها بالإيمان.

فانطلق عثمان، فمر على قريش ببلدح، فقالوا: أين تريد؟ فقال: بعثني رسول الله ﷺ أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، ويخبركم أنا لم نأت لقتال، وإنما جئنا عمارًا. قالوا: قد سمعنا ما تقول؛ فانفذ لحاجتك. وقام إليه أبان بن سعيد، فرحب به، وأسرج فرسه، فحمل عثمان على الفرس، فأجاره، وأردفه أبان حتى جاء مكة. وقال المسلمون قبل أن يرجع عثمان: خلص عثمان قبلنا إلى البيت وطاف به. فقال رسول الله ﷺ: «**ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون**». فقالوا: وما يمنعه يا رسول الله وقد خلص؟ قال: «**ذاك ظني به ألَّا يطوف بالكعبة حتى نطوف معه**».

واختلط المسلمون بالمشركين في أمر الصلح، فرمى رجل من أحد الفريقين رجلًا من الفريق الآخر، وكانت معركة، وتراموا بالنبل والحجارة، وصاح الفريقان كلاهما، وارتهن كل واحد من الفريقين بمن فيهم، وبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل، فدعا إلى البيعة، فثار المسلمون إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة فبايعوه على ألا يفروا فأخذ رسول الله ﷺ بيد نفسه، وقال: «**هذه عن عثمان**».

ولما تمت البيعة؛ رجع عثمان، فقال له المسلمون: اشتفيت يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت؟ فقال: بئسما ظننتم بي، والذي نفسي بيده؛ لو مكثت بها سنة ورسول الله ﷺ مقيم بالحديبية ما طفت بها حتى يطوف بها رسول الله ﷺ، ولقد دعتني قريش إلى الطواف بالبيت فأبيت. فقال المسلمون: رسول الله ﷺ كان أعلمنا بالله وأحسننا ظنًّا.

وكان عمر أخذ بيد رسول الله ﷺ للبيعة تحت الشجرة، فبايعه المسلمون كلهم إلا الجد بن قيس، وكان معقل بن يسار أخذ بغصنها يرفعه عن رسول الله ﷺ، وكان أول من بايعه أبو سنان الأسدي، وبايعه سلمة بن الأكوع ثلاث مرات في أول الناس وأوسطهم وآخرهم.

فبينما هم كذلك؛ إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة، وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية، معهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت. قال رسول الله ﷺ: «**إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشًا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم؛ فإن شاءوا مددتهم**[1] **ويخلوا بيني وبين الناس، وإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس؛ فعلوا، وإلا؛ فقد جموا، وإن أبوا إلا القتال؛ فوالذي نفسي بيده؛ لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي أو لينفذن الله أمره**». قال بديل: سأبلغهم ما تقول. فانطلق حتى أتى قريشًا، فقال: إني قد جئتكم من عند هذا الرجل، وسمعته يقول قولًا؛ فإن شئتم عرضته عليكم. فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تحدثنا عنه بشيء. وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته! قال: سمعته يقول كذا وكذا. فقال عروة بن مسعود الثقفي: إن هذا قد عرض عليكم خطة رشد؛ فاقبلوها ودعوني آته. فقالوا: ائته! فأتاه، فجعل يكلمه، فقال النبي ﷺ نحوًا من قوله لبديل، فقال له عروة عند ذلك: أي محمد، أرأيت لو استأصلت قومك؛ هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى؛ فوالله؛ إني لأرى وجوهًا وأرى أوباشًا من الناس خليقًا أن يفروا ويدعوك. فقال له أبو بكر: امصص بظر اللات! أنحن نفر عنه وندعه؟! قال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذي نفسي بيده؛ لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك. وجعل يكلم النبي ﷺ، وكلما كلمه؛ أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة على رأس النبي ﷺ، ومعه السيف، وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة إلى لحية النبي ﷺ؛ ضرب يده بنعل السيف، وقال: أخِّر يدك عن لحية رسول الله ﷺ! فرفع عروة رأسه، وقال: من ذا؟ قال: المغيرة بن شعبة. فقال: أي غُدَرُ، أولست أسعى في غدرتك؟! وكان المغيرة صحب قومًا في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: «**أما الإسلام؛ فأقبل، وأما المال؛ فلست منه في شيء**». ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب رسول الله ﷺ؛ فوالله؛ ما تنخَّم النبي ﷺ نخامة؛ إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها جلده ووجهه، وإذا أمرهم؛ ابتدروا إلى أمره، وإذا توضأ؛ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم؛ خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيمًا له. فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك؛ على كسرى، وقيصر والنجاشي. والله ما رأيت ملكًا يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدًا. والله؛ ما تنخَّم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم؛ ابتدروا أمره،

(١) ع، ط: «أماددهم».

وإذا توضأ؛ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم؛ خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيمًا له، وقد عرض عليكم خطة رشد؛ فاقبلوها.

فقال رجل من بني كنانة: دعوني آته! فقالوا: ائته! فلما أشرف على النبي ﷺ؛ قال رسول الله ﷺ: **«هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن، فابعثوها له»**. فبعثوها، فاستقبله القوم يلبون، فلما رأى ذلك؛ قال: سبحان الله! لا ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت. فرجع إلى أصحابه، فقال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، وما أرى أن يصدوا عن البيت.

فقام مكرز بن حفص، وقال: دعوني آته! فقالوا: ائته! فلما أشرف عليهم؛ قال النبي ﷺ: **«هذا مكرز بن حفص، وهو رجل فاجر»**. فجعل يكلم رسول الله ﷺ، فبينما هو يكلمه؛ إذ جاء سهيل بن عمرو، فقال النبي ﷺ: **«قد سهل لكم من أمركم»**. فقال: هات اكتب بيننا وبينك كتابًا. فدعا الكاتب، فقال: **«اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»**. فقال سهيل: أما الرحمن؛ فوالله ما ندري ما هو؟ ولكن اكتب: باسمك اللهم. كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم. فقال النبي ﷺ: **«اكتب باسمك اللهم»**. ثم قال: **«اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله»**. فقال سهيل: فوالله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله. فقال النبي ﷺ: **«إني رسول الله وإن كذبتموني، اكتب: محمد بن عبد الله»**. فقال النبي ﷺ: **«على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به»**. فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أُخِذنا ضغطة. ولكن لك من العام المقبل. فكتب. فقال سهيل: على ألَّا يأتيك منا رجل، وإن كان على دينك؛ إلا رددته علينا. فقال المسلمون: سبحان الله! كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلمًا؟ فبينما هم كذلك؛ إذ جاء أبو جندل بن سهيل يرسف في قيوده، قد خرج من أسفل مكة، حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما قاضيتك عليه أن ترده. فقال النبي ﷺ: **«إنا لم نقض الكتاب بعد»**. فقال: فوالله إذًا لا أصالحك على شيء أبدًا. فقال النبي ﷺ: **«فأجزه لي»**. فقال: ما أنا بمجيزه لك. فقال: **«بلى فافعل»**. قال: ما أنا بفاعل. قال مكرز: قد أجزناه. فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين! أرد إلى المشركين وقد جئت مسلمًا؟! ألا ترون ما لقيت؟! وكان قد عذب في الله عذابًا شديدًا.

قال عمر بن الخطاب: والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ، فأتيت النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله، ألست نبي الله؟ قال: **«بلى»**. قال: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: **«بلى»**. فقلت: علام نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبين أعدائنا؟ فقال: **«إني رسول الله، وهو ناصري، ولست أعصيه»**. قلت: أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: **«بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه العام؟»**. قلت: لا. قال: **«فإنك آتيه ومطوف به»**. قال: فأتيت أبا بكر، فقلت له كما قلت لرسول الله ﷺ، ورد عليه أبو بكر كما رد عليه رسول الله سواء، وزاد: «فاستمسك بغرزه حتى تموت، فوالله؛ إنه لعلى الحق». قال عمر: فعملت لذلك أعمالًا.

فلما فرغ من قضية الكتاب؛ قال رسول الله ﷺ: **«قوموا وانحروا ثم احلقوا»**. فوالله ما قام منهم رجل، حتى قال ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد؛ قام فدخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا رسول الله، أتحب ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلم أحدًا كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلق لك. فقام، فخرج، فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك؛ نحر بُدنه ودعا حالقه فحلقه. فلما رأى الناس ذلك؛ قاموا، فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا. ثم جاءت نسوة مؤمنات، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ﴾ حتى بلغ ﴿بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾، فطلَّق عمر يومئذ امرأتين كانتا عنده في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية والأخرى صفوان بن أمية، ثم رجع إلى المدينة. وفي مرجعه أنزل الله عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ إلى آخرها، فقال عمر: أفتح هو يا رسول الله؟ فقال: **«نعم»**. فقال الصحابة: هنيئًا لك يا رسول الله؛ فما لنا؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية. انتهى.

وهذا آخر تفسير سورة الفتح. ولله الحمد.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.



تفسير سورة الحجرات

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

هذا متضمن للأدب مع الله تعالى ومع رسول الله ﷺ والتعظيم والاحترام له وإكرامه، فأمر الله عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان بالله ورسوله من امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، وأن يكونوا ماشين خلف أوامر الله، متبعين لسنة رسول الله ﷺ؛ في جميع أمورهم، وألَّا يتقدموا بين يدي الله ورسوله؛ فلا يقولوا حتى يقول، ولا يأمروا حتى يأمر، فإن هذا حقيقة الأدب الواجب مع الله ورسوله، وهو عنوان سعادة العبد وفلاحه، وبفواته تفوته السعادة الأبدية والنعيم السرمدي. وفي هذا النهي الشديد عن تقديم قول غير الرسول ﷺ على قوله؛ فإنه متى استبانت سنة رسول الله ﷺ؛ وجب اتباعها وتقديمها على غيرها كائنًا من كان.

﴿١﴾ ثم أمر الله بتقواه عمومًا، وهي كما قال طلق بن حبيب: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخشى عقاب الله. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾؛ أي: لجميع الأصوات، في جميع الأوقات، في خفي المواضع والجهات، ﴿عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾: بالظواهر والبواطن، والسوابق واللواحق، والواجبات والمستحيلات والجائزات[1]. وفي ذكر الاسمين الكريمين بعد النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله والأمر بتقواه حث على امتثال تلك الأوامر الحسنة والآداب المستحسنة وترهيب عن ضده[2].

﴿٢﴾ ثم قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾: وهذا أدب مع الرسول ﷺ في خطابه؛ أي: لا يرفع المخاطب له صوته معه فوق صوته، ولا يجهر له بالقول، بل يغض الصوت ويخاطبه بأدب ولين وتعظيم وتكريم وإجلال وإعظام، ولا يكون الرسول كأحدهم، بل يميزونه في خطابهم كما تميز عن غيره في وجوب حقه على الأمة، ووجوب الإيمان به، والحب الذي لا يتم الإيمان إلا به؛ فإن في عدم القيام بذلك محذورًا وخشية أن يحبط عمل العبد وهو لا يشعر؛ كما أن الأدب معه من أسباب حصول الثواب وقبول الأعمال.

﴿٣﴾ ثم مدح من غض صوته عند رسول الله ﷺ بأن الله امتحن قلوبهم للتقوى؛ أي: ابتلاها واختبرها، فظهرت نتيجة ذلك بأن صلحت قلوبهم للتقوى. ثم وعدهم المغفرة لذنوبهم، المتضمنة لزوال الشر والمكروه، وحصول الأجر العظيم، الذي لا يعلم وصفه إلا الله تعالى، وفيه حصول كل محبوب. وفي هذا دليل على أن الله يمتحن القلوب بالأمر والنهي والمحن؛ فمَنْ لازم أمر الله واتبع رضاه وسارع إلى ذلك وقدمه على هواه؛ تمحض وتمحص للتقوى، وصار قلبه صالحًا لها، ومن لم يكن كذلك؛ علم أنه لا يصلح للتقوى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

﴿٤﴾ نزلت هذه الآيات الكريمة في ناس من الأعراب، الذين وصفهم الله بالجفاء، وأنهم أجدر ألَّا يعلموا حدود ما أنزل على رسوله؛ قدموا وافدين على رسول الله ﷺ، فوجدوه في بيته وحجرات نسائه، فلم يصبروا ويتأدبوا حتى يخرج، بل نادوه: يا محمد، يا محمد؛ أي: اخرج إلينا. فذمهم الله بعدم العقل؛ حيث لم يعقلوا عن الله الأدب مع رسوله واحترامه؛ كما أن من العقل استعمال الأدب؛ فأدب العبد عنوان عقله، وأن الله مريد به الخير.

﴿٥﴾ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾؛ أي: غفور لما صدر عن عباده من الذنوب والإخلال بالآداب، رحيم بهم حيث لم يعاجلهم بذنوبهم بالعقوبات والمثلات.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾.

﴿٦﴾ وهذا أيضًا من الآداب التي على أولي الألباب التأدب بها واستعمالها، وهو أنه إذا أخبرهم فاسق بنبأ؛ أي: خبر: أن يتثبتوا في خبره، ولا يأخذوه مجردًا؛ فإن في ذلك

(١) ط: «والممكنات».
(٢) ط: «عدم الامتثال».

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟
أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾
وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ
وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ
ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾
فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَآئِفَتَانِ
مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا
عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ
فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ
﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ
عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا
مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ
ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾

خطرًا كبيرًا ووقوعًا في الإثم؛ فإن خبره إذا جعل بمنزلة خبر الصادق العدل؛ حكم بموجب ذلك ومقتضاه، فحصل من تلف النفوس والأموال بغير حق بسبب ذلك الخبر ما يكون سببًا للندامة، بل الواجب عند سماع(1) خبر الفاسق التثبت والتبين؛ فإن دلت الدلائل والقرائن على صدقه؛ عُمل به وصُدِّق، وإن دلت على كذبه؛ كذب ولم يعمل به؛ ففيه دليل على أن خبر الصادق مقبول، وخبر الكاذب مردود، وخبر الفاسق متوقف فيه، ولهذا كان السلف يقبلون روايات كثير من الخوارج المعروفين بالصدق، ولو كانوا فساقًا.

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ ﴾.

(٧) أي: وليكن لديكم معلومًا أن ﴿ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ ﷺ بين أظهركم، وهو الرسول الكريم البار الراشد، الذي يريد بكم الخير، وينصح لكم، وتريدون لأنفسكم من الشر والمضرة ما لا يوافقكم الرسول عليه، و﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ﴾ لشق عليكم وأعنتكم، ولكن الرسول يرشدكم، والله تعالى يحبب ﴿ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ ﴾ ويزينه ﴿ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ بما أودع في قلوبكم من محبة الحق وإيثاره، وبما نصب على الحق من الشواهد والأدلة الدالة على صحته وقبول القلوب والفطر له، وبما يفعله تعالى بكم من توفيقه للإنابة إليه، ويكره ﴿ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ ﴾؛ أي: الذنوب الكبار. ﴿ وَٱلْعِصْيَانَ ﴾؛ أي: الذنوب الصغار؛ بما أودع في قلوبكم من كراهة الشر وعدم إرادة فعله، وبما نصبه من الأدلة والشواهد على فساده ومضرته وعدم قبول الفطر له، وبما يجعل الله في القلوب من الكراهة له.

﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ﴾؛ أي: الذين زين الله الإيمان في قلوبهم وحببه إليهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ﴿ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ ﴾؛ أي: الذين صلحت علومهم وأعمالهم، واستقاموا على الدين القويم والصراط المستقيم، وضدهم الغاوون الذين حبب إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وكره إليهم الإيمان، والذنب ذنبهم؛ فإنهم لما فسقوا؛ طبع الله على قلوبهم، ولما زاغوا؛ أزاغ الله قلوبهم، ولما لم يؤمنوا بالحق لما جاءهم أول مرة؛ قلب الله أفئدتهم.

(٨) وقوله: ﴿ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾؛ أي: ذلك الخير الذي حصل لهم هو بفضل الله عليهم وإحسانه، لا بحولهم وقوتهم. ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ ﴾؛ أي: عليم بمن يشكر النعمة فيوفقه لها ممن لا يشكرها ولا تليق به، فيضع فضله حيث تقتضيه حكمته.

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

(٩) هذا متضمن لنهي المؤمنين عن أن يبغي بعضهم على بعض ويقتل بعضهم بعضًا، وأنه إذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين؛ فإن على غيرهم من المؤمنين أن يتلافوا هذا الشر الكبير بالإصلاح بينهم والتوسط على أكمل وجه يقع به الصلح ويسلكوا الطرق الموصلة إلى ذلك؛ فإن صلحتا؛ فبها ونعمت. ﴿ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: ترجع إلى ما حد الله ورسوله

(١) ساقط من المطبوع.

من فعل الخير وترك الشـر الذي من أعظمه الاقتتال. وقوله: ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾: هذا أمر بالصلح وبالعدل في الصلح؛ فإن الصلح قد يوجد، ولكن لا يكون بالعدل، بل بالظلم والحيف على أحد الخصمين؛ فهذا ليس هو الصلح المأمور به، فيجب ألَّا يراعى أحدهما لقرابة أو وطن أو غير ذلك من المقاصد والأغراض، التي توجب العدول عن العدل. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾؛ أي: العادلين في حكمهم بين الناس، وفي جميع الولايات التي تولوها، حتى إنه قد يدخل في ذلك عدل الرجل في أهله وعياله في أداء حقوقهم، وفي الحديث الصحيح: **«المقسطون عند الله على منابر من نور؛ الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»**[(١)].

۝١٠ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾: هـذا عقـد عقـده اللـه بيـن المؤمنين؛ أنه إذا وجد من أي شخص كان في مشرق الأرض ومغربها الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر؛ فإنه أخ للمؤمنين أخوَّة توجب أن يحب له المؤمنون ما يحبون لأنفسهم، ويكرهوا لـه مـا يكرهون لأنفسهم، ولهـذا قال النبي ﷺ آمرًا بالأخوة الإيمانية: **«لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا. المسلم أخو المسلم؛ لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه»**. متفق عليه[(٢)]. وفيهما عن النبي ﷺ: **«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»**، وشبك ﷺ بين أصابعه[(٣)].

ولقد أمر الله ورسوله بالقيام بحقوق المؤمنين بعضهم لبعض وبما يحصل به التآلف والتوادد والتواصل بينهم، كل هذا تأييد لحقوق بعضهم على بعض؛ فمن ذلك إذا وقع الاقتتال بينهم الموجب لتفرق القلوب وتباغضها وتدابرها؛ فليصلح المؤمنون بين إخوانهم، وليسعوا فيما به يزول شنآنهم.

ثم أمر بالتقوى عمومًا، ورتب على القيام بالتقوى وبحقوق المؤمنين الرحمة، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾، وإذا حصلت الرحمة؛ حصل خير الدنيا والآخرة. ودل ذلك على أن عدم القيام بحقوق المؤمنين من أعظم حواجب الرحمة.

وفي هاتين الآيتين من الفوائد غير ما تقدم: أن الاقتتال بين المؤمنين مناف للأخوة الإيمانية، ولهذا كان من أكبر الكبائر. وأن الإيمان والأخوة الإيمانية لا يزولان مع وجود الاقتتال؛ كغيره من الذنوب الكبائر، التي دون الشرك، وعلى ذلك مذهب أهل السنة والجماعة. وعلى وجوب الإصلاح بين المؤمنين بالعدل. وعلى وجوب قتال البغاة حتى يرجعوا إلى أمر الله، وعلى أنهم لو رجعوا لغير أمر الله؛ بأن رجعوا على وجه لا يجوز الإقرار عليه والتزامه؛ أنه لا يجوز ذلك. وأن أموالهم معصومة؛ لأن الله أباح دماءهم وقت استمرارهم على بغيهم خاصة دون أموالهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝١١﴾.

۝١١ وهذا أيضًا من حقوق المؤمنين بعضهم على بعض؛ ألا يسخر قوم من قوم بكل كلام وقول وفعل دال على تحقير الأخ المسلم؛ فإن ذلك حرام لا يجوز، وهو دال على إعجاب الساخر بنفسه، وعسى أن يكون المسخور به خيرًا من الساخر، وهو الغالب والواقع؛ فإن السخرية لا تقع إلا من قلب ممتلئ من مساوئ الأخلاق، متحلٍّ بكل خلق ذميم، متخلٍّ من كل خلق كريم، ولهذا قال النبي ﷺ: **«بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»**[(٤)].

ثم قال: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: لا يعب بعضكم على بعض، واللمز بالقول، والهمز بالفعل، وكلاهما منهي عنه حرام متوعد عليه بالنار؛ كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ [الهمزة: ١] الآية، وسمى الأخ المسلم[(٥)] نفسًا لأخيه؛ لأن المؤمنين ينبغي أن يكون هكذا حالهم؛ كالجسد الواحد، ولأنه إذا همز غيره؛ أوجب للغير أن يهمزه، فيكون هو المتسبب لذلك، ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾؛ أي: لا يعير أحدكم أخاه ويلقبه بلقب يكره أن يقال فيه[(٦)]، وهذا هو التنابز، وأما الألقاب غير المذمومة؛ فلا تدخل في هذا. ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾؛ أي: بئسما تبدلتم عن الإيمان والعمل بشرائعه وما يقتضيه بالإعراض عن أوامره ونواهيه باسم الفسوق والعصيان الذي هو التنابز بالألقاب، ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝١١﴾: وهذا هو الواجب على العبد: أن يتوب إلى الله تعالى، ويخرج من حق أخيه المسلم باستحلاله والاستغفار والمدح له مقابلة على ذمه. ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝١١﴾؛ فالناس قسمان: ظالم لنفسه غير تائب، وتائب مفلح، ولا ثم غيرهما.

---

(١) مسلم (١٨٢٧).
(٢) البخاري (٦٠٦٤)، مسلم (٢٥٥٩).
(٣) البخاري (٦٠٢٦)، مسلم (١٩٩٩).
(٤) مسلم (٢٥٦٤).
(٥) ط: «المؤمن».
(٦) ط: «يطلق عليه».

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ
وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن
يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ
رَّحِيمٞ ١٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ
شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ
عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن
قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤
إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ
وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥ قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ
يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ
١٦ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ
يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧ إِنَّ ٱللَّهَ
يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾.

١٢ نهى تعالى عن كثير من الظن السيئ بالمؤمنين، ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾: وذلك كالظن الخالي من الحقيقة والقرينة، وكظن السوء الذي يقترن به كثير من الأقوال والأفعال المحرمة؛ فإن بقاء ظن السوء بالقلب لا يقتصر صاحبه على مجرد ذلك، بل لا يزال به حتى يقول ما لا ينبغي ويفعل ما لا ينبغي، وفي ذلك أيضًا إساءة الظن بالمسلم وبغضه وعداوته المأمور بخلافها منه، ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾؛ أي: لا تفتشوا عن عورات المسلمين، ولا تتبعوها، ودعوا المسلم على حاله، واستعملوا التغافل عن زلاته، التي إذا فتشت؛ ظهر منها ما لا ينبغي، ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًا﴾: والغيبة كما قال النبي ﷺ: «ذكرك أخاك بما يكره، ولو كان فيه»(١). ثم ذكر مثلًا منفرًا عن الغيبة، فقال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُ﴾: شبه أكل لحمه ميتًا المكروه للنفوس غاية الكراهة باغتيابه؛ فكما أنكم تكرهون أكل لحمه، خصوصًا إذا كان ميتًا فاقد الروح؛ فكذلك فلتكرهوا غيبته وأكل لحمه حيًّا، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾: والتواب: الذي يأذن بتوبة عبده، فيوفقه لها، ثم يتوب عليه بقبول توبته، رحيم بعباده؛ حيث دعاهم إلى ما ينفعهم، وقبل منهم التوبة. وفي هذه الآية دليل على التحذير الشديد من الغيبة، وأنها من الكبائر؛ لأن الله شبهها بأكل لحم الميت، وذلك من الكبائر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾.

١٣ يخبر تعالى أنه خلق بني آدم من أصل واحد وجنس واحد، وكلهم من ذكر وأنثى، ويرجعون جميعهم إلى آدم وحواء، ولكن الله تعالى بث منهما رجالًا كثيرًا ونساء، وفرقهم، وجعلهم ﴿شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ﴾؛ أي: قبائل صغارًا وكبارًا، وذلك لأجل أن يتعارفوا؛ فإنه لو استقل كل واحد منهم بنفسه؛ لم يحصل بذلك التعارف الذي يترتب عليه التناصر والتعاون والتوارث والقيام بحقوق الأقارب، ولكن الله جعلهم شعوبًا وقبائل؛ لأجل أن تحصل هذه الأمور وغيرها مما يتوقف على التعارف ولحوق الأنساب، ولكن الكرم بالتقوى؛ فأكرمهم عند الله أتقاهم، وهو أكثرهم طاعة وانكفافًا عن المعاصي، لا أكثرهم قرابة وقومًا، ولا أشرفهم نسبًا، ولكن الله تعالى ﴿عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾، يعلم منهم من يقوم بتقوى الله ظاهرًا وباطنًا ممن لا يقوم بذلك ظاهرًا ولا باطنًا، فيجازي كلًّا بما يستحق. وفي هذه الآية دليل على أن معرفة الأنساب مطلوبة مشروعة؛ لأن الله جعلهم شعوبًا وقبائل لأجل ذلك.

﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥ قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٦ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن

(١) مسلم (٢٥٨٩).

كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿١٤﴾ يخبر تعالى عن مقالة الأعراب، الذين دخلوا في الإسلام على عهد رسول الله ﷺ دخولًا من غير بصيرة ولا قيام بما يجب ويقتضيه الإيمان؛ أنهم مع هذا ادعوا وقالوا ﴿ ءَامَنَّا ﴾؛ أي: إيمانًا كاملًا مستوفيًا لجميع أموره. هذا موجب هذا الكلام، فأمر الله رسوله أن يرد عليهم، فقال: ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ﴾؛ أي: لا تدَّعوا لأنفسكم مقام الإيمان ظاهرًا وباطنًا كاملًا، ﴿ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا ﴾؛ أي: دخلنا في الإسلام، واقتصروا على ذلك، والسبب في ذلك أنه لما ﴿ يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾: وإنما أسلمتم خوفًا أو رجاء أو نحو ذلك مما هو السبب في إيمانكم؛ فلذلك لم تدخل بشاشة الإيمان في قلوبكم. وفي قوله: ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾؛ أي: وقت هذا الكلام الذي صدر منكم، فكان فيه إشارة إلى أحوالهم بعد ذلك؛ فإن كثيرًا منهم مَنَّ الله عليهم بالإيمان الحقيقي والجهاد في سبيل الله، ﴿ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾: بفعل خير أو ترك شر ﴿ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ﴾؛ أي: لا ينقصكم منها مثقال ذرة، بل يوفيكم إياها أكمل ما تكون، لا تفقدون منها صغيرًا ولا كبيرًا. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾؛ أي: غفور لمن تاب إليه وأناب، رحيم به؛ حيث قبل توبته.

﴿١٥﴾ ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾؛ أي: على الحقيقة، ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: من جمعوا بين الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله؛ فإن من جاهد الكفار؛ دل ذلك على الإيمان التام في قلبه؛ لأن من جاهد غيره على الإسلام والإيمان والقيام بشرائعه؛ فجهاده لنفسه على ذلك من باب أولى وأحرى، ولأن من لم يقو على الجهاد؛ فإن ذلك دليل على ضعف إيمانه. وشرط تعالى في الإيمان عدم الريب؛ أي: الشك؛ لأن الإيمان النافع هو الجزم اليقيني بما أمر الله بالإيمان به، الذي لا يعتريه شك بوجه من الوجوه. وقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾؛ أي: الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الجميلة؛ فإن الصدق دعوى عظيمة في كل شيء يُدَّعى، يحتاج صاحبه إلى حجة وبرهان، وأعظم ذلك دعوى الإيمان، الذي هو مدار السعادة والفوز الأبدي والفلاح السرمدي؛ فمن ادعاه وقام بواجباته ولوازمه؛ فهو الصادق المؤمن حقًا، ومن لم يكن كذلك؛ علم أنه ليس بصادق في دعواه، وليس لدعواه فائدة؛ فإن الإيمان في القلب، لا يطلع عليه إلا الله تعالى؛ فإثباته ونفيه من باب تعليم الله بما في القلب وهو سوء أدب وظن بالله.

﴿١٦﴾ ولهذا قال: ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ ﴾: وهذا شامل للأشياء كلها، التي من جملتها ما في القلوب من الإيمان والكفران والبر والفجور؛ فإنه تعالى يعلم ذلك كله، ويجازي عليه، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

﴿١٧﴾ هذه حالة من أحوال من ادعى لنفسه الإيمان وليس به؛ فإنه إما أن يكون ذلك تعليمًا لله، وقد علم أنه عالم بكل شيء، وإما أن يكون قصدهم بهذا الكلام المنة على رسوله، وأنهم قد بذلوا وتبرعوا بما ليس من مصالحهم بل هو من حظوظه الدنيوية، وهذا تجمل بما لا يجمل، وفخر بما لا ينبغي لهم الفخر به على رسوله؛ فإن المنة لله تعالى عليهم؛ فكما أنه تعالى هو المانُّ عليهم بالخلق والرزق والنعم الظاهرة والباطنة؛ فمنته عليهم بهدايتهم إلى الإسلام ومنته عليهم بالإيمان أفضل من كل شيء، ولهذا قال: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿١٨﴾ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي: الأمور الخفية فيهما، التي تخفى على الخلق؛ كالذي في لجج البحار، ومهامه القفار، وما جنه الليل أو واراه النهار؛ يعلم قطرات الأمطار، وحبات الرمال، ومكنونات الصدور، وخبايا الأمور، ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٩]. ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾: يحصي عليكم أعمالكم ويوفيكم إياها، ويجازيكم عليها بما تقتضيه رحمته الواسعة وحكمته البالغة.

تم تفسير سورة الحجرات بعون الله ومَنِّه وجوده وكرمه.
والحمد لله.



سورة ق ترتيبها ٥٠ آياتها ٤٥

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ
فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ
رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ٣ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ
حَفِيظُۢ ٤ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ
٥ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا
وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ٦ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ
وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ
مُّنِيبٖ ٨ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ
وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ٩ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ١٠
رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ١١ كَذَّبَتۡ
قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ١٢ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ
لُوطٖ ١٣ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ
١٤ أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٥

٥١٨

تفسير سورة ق

وهي مكية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ٣ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ٤﴾.

(١) يقسم تعالى بالقرآن المجيد؛ أي: وسيع المعاني، عظيمها، كثير الوجوه، كثير البركات، جزيل المبرَّات، والمجد سعة الأوصاف وعظمتها، وأحق كلام يوصف بذلك هذا القرآن، الذي قد احتوى على علوم الأولين والآخرين، الذي حوى من الفصاحة أكملها، ومن الألفاظ أجزلها، ومن المعاني أعمها وأحسنها.

(٢) وهذا موجب لكمال اتباعه وسرعة الانقياد له وشكر الله على المنة به، ولكن أكثر الناس لا يقدِّر نعم الله قدرها، ولهذا قال تعالى: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ﴾؛ أي: المكذبون للرسول ﷺ، ﴿أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾؛ أي: ينذرهم ما يضرهم ويأمرهم بما ينفعهم، وهو من جنسهم، يمكنهم التلقي عنه ومعرفة أحواله وصدقه، فتعجبوا من أمر لا ينبغي لهم التعجب منه، بل يتعجب من عقل من تعجب منه، ﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾؛ أي: الذين حملهم كفرهم وتكذيبهم لا نقص بذكائهم وآرائهم: ﴿هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ٢﴾؛ أي: مستغرب.

وهم في هذا الاستغراب بين أمرين: إما صادقون في استغرابهم وتعجبهم؛ فهذا يدل على غاية جهلهم وضعف عقولهم؛ بمنزلة المجنون الذي يستغرب كلام العاقل، وبمنزلة الجبان الذي يتعجب من لقاء الفارس للفرسان، وبمنزلة البخيل الذي يستغرب سخاء أهل السخاء؛ فأي ضرر يلحق من تعجب من هذه حاله؟! وهل تعجبه إلا دليل على زيادة جهله وظلمه؟! وإما أن يكونوا متعجبين على وجه يعلمون خطأهم فيه؛ فهذا من أعظم الظلم وأشنعه.

(٣)، (٤) ثم ذكر وجه تعجبهم، فقال: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ٣﴾: فقاسوا قدرة من هو على كل شيء قدير الكامل من كل وجه، بقدرة العبد الفقير العاجز من جميع الوجوه! وقاسوا الجاهل الذي لا علم له، بمن هو بكل شيء عليم، الذي يعلم ﴿مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ﴾: من أجسادهم مدة مقامهم في البرزخ، وقد أحصى في كتابه الذي هو عنده - محفوظ عن التغيير والتبديل - كل ما يجري عليهم في حياتهم ومماتهم. وهذا استدلال بكمال سعة علمه، التي لا يحيط بها إلا هو على قدرته على إحياء الموتى.

﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ٥﴾.

(٥) أي: ﴿بَلۡ﴾: كلامهم الذي صدر منهم إنما هو عناد وتكذيب للحق الذي هو أعلى أنواع الصدق. ﴿لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ٥﴾؛ أي: مختلط مشتبه، لا يثبتون على شيء، ولا يستقر لهم قرار، فتارة يقولون عنك: إنك ساحر! وتارة: مجنون! وتارة: شاعر! وكذلك جعلوا القرآن

عضين، كل قال فيه ما اقتضاه فيه رأيه الفاسد. وهكذا كل من كذب بالحق؛ فإنه في أمر مختلط، لا يدرى له وجهة ولا قرار، فترى أموره متناقضة مؤتفكة؛ كما أن من اتبع الحق وصدق به قد استقام أمره واعتدل سبيله، وصدق فعله قيله.

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١ ﴾.

(٦) لما ذكر تعالى حالة المكذبين وما ذمهم به؛ دعاهم إلى النظر في آياته الأفقية كي يعتبروا ويستدلوا بها على ما جعلت أدلة عليه، فقال: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ ﴾؛ أي: لا يحتاج ذلك النظر إلى كلفة وشد رحل، بل هو في غاية السهولة، فينظرون ﴿ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا ﴾: قبة مستوية الأرجاء ثابتة البناء مزينة بالنجوم الخنس والجواري الكنس، التي ضربت من الأفق إلى الأفق في غاية الحسن والملاحة، لا ترى فيها عيبًا ولا فروجًا ولا خلالًا ولا إخلالًا، قد جعلها الله سقفًا لأهل الأرض، وأودع فيها من مصالحهم الضرورية ما أودع.

(٧) وإلى الأرض كيف مددناها ووسعناها حتى أمكن كل حيوان السكون فيها والاستقرار والاستعداد لجميع مصالحه، وأرساها بالجبال؛ لتستقر من التزلزل والتموج. ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ ﴾؛ أي: من كل صنف من أصناف النبات التي تسر ناظريها، وتعجب مبصريها، وتقر عين رامقيها لأكل بني آدم وأكل بهائمهم ومنافعهم.

(٨) - (١١) وخص من تلك المنافع الجنات المشتملة على الفواكه اللذيذة من العنب والرمان والأترج والتفاح وغير ذلك من أصناف الفواكه، ومن النخيل الباسقات؛ أي: الطوال، التي يطول نفعها، وترتفع إلى السماء حتى تبلغ مبلغًا لا يبلغه كثير من الأشجار، فتخرج من الطلع النضيد في قنوانها ما هو رزق للعباد قوتًا وأدمًا وفاكهة يأكلون منه ويدخرون هم ومواشيهم. وكذلك ما يخرج الله بالمطر، وما هو أثره من الأنهار التي على وجه الأرض وتحتها من حب ﴿ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ ﴾؛ أي: من الزرع المحصود من بر وشعير وذرة وأرز ودخن وغيره؛ فإن في النظر في هذه الأشياء ﴿ تَبْصِرَةً ﴾: يتبصر بها من عمى الجهل، ﴿ وَذِكْرَىٰ ﴾: يتذكر بها ما ينفع في الدين والدنيا، ويتذكر بها ما أخبر الله به وأخبرت به رسله، وليس ذلك لكل أحد، بل ﴿ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ ﴾ إلى الله؛ أي: مقبل عليه بالحب والخوف والرجاء وإجابة داعيه، وأما المكذب أو المعرض؛ فما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون.

وحاصل هذا أن ما فيها من الخلق الباهر والقوة والشدة دليل على كمال قدرة الله تعالى، وما فيها من الحسن والإتقان وبديع الصنعة وبديع الخلقة دليل على أن الله أحكم الحاكمين، وأنه بكل شيء عليم، وما فيها من المنافع والمصالح للعباد دليل على رحمة الله التي وسعت كل شيء، وجوده الذي عم كل حي، وما فيها من عظمة الخلقة وبديع النظام دليل على أن الله تعالى هو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، ولم يكن له كفوًا أحد، وأنه الذي لا تنبغي العبادة والذل والحب إلا له، وما فيها من إحياء الأرض بعد موتها دليل على إحياء الله الموتى ليجازيهم بأعمالهم، ولهذا قال: ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١ ﴾.

ولما ذكرهم بهذه الآيات السماوية والأرضية؛ خوفهم أخذات الأمم، وألا يستمروا على ما هم عليه من التكذيب، فيصيبهم ما أصاب إخوانهم من المكذبين، فقال:

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ۝١٣ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٥ ﴾.

(١٢) - (١٤) أي: كذب الذين من قبلهم من الأمم رسلهم الكرام وأنبياءهم العظام؛ كنوح كذبه قومه، وثمود كذبوا صالحًا، وعاد كذبوا هودًا، وإخوان لوط كذبوا لوطًا، وأصحاب الأيكة كذبوا شعيبًا، وقوم تبع - وتبع كل ملك ملك اليمن في الزمان السابق قبل الإسلام - فقوم تبع كذبوا

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ
مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ
﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ
ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ
يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ
كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ
﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ
عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا
ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ
وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ
إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾
يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ
ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ
﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا
بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾

الرسول الذي أرسله الله إليهم، ولم يخبرنا الله من هو ذلك الرسول، وأي تبع من التبابعة؛ لأنه - والله أعلم - كان مشهورًا عند العرب العرباء، الذين لا تخفى ماجرياتهم على العرب، خصوصًا مثل هذه الحادثة العظيمة؛ فهؤلاء كلهم كذبوا الرسل الذين أرسلهم الله إليهم، فحق عليهم وعيد الله وعقوبته، ولستم أيها المكذبون لمحمد ﷺ خيرًا منهم، ولا رسلهم أكرم على الله من رسولكم؛ فاحذروا جرمهم؛ لئلا يصيبكم ما أصابهم.

(١٥) ثم استدل تعالى بالخلق الأول - وهو النشأة الأولى - على الخلق الآخر - وهو النشأة الآخرة؛ فكما أنه الذي أوجدهم بعد العدم؛ كذلك يعيدهم بعد موتهم وصيرورتهم إلى الرفات والرمم، فقال: ﴿ أَفَعَيِينَا ﴾؛ أي: أفعجزنا وضعفت قدرتنا ﴿ بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ﴾: ليس الأمر كذلك، فلم نعجز ونعيا عن ذلك، وليسوا في شك من ذلك، ﴿ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾: هذا الذي شكوا فيه والتبس عليهم أمره، مع أنه لا محل للبس فيه؛ لأن الإعادة أهون من الابتداء؛ كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

(١٦) يخبر تعالى أنه المتفرد بخلق جنس الإنسان ذكورهم وإناثهم، وأنه يعلم أحواله وما يسره وتوسوس به نفسه، وأنه ﴿ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾: الذي هو أقرب شيء إلى الإنسان، وهو العظم[1] المكتنف لثغرة النحر. وهذا مما يدعو الإنسان إلى مراقبة خالقه، المطلع على ضميره وباطنه، القريب إليه في جميع أحواله، فيستحيي منه أن يراه حيث نهاه، أو يفقده حيث أمره.

(١٧) وكذلك ينبغي له أن يجعل الملائكة الكرام الكاتبين منه على بال، فيجلهم ويوقرهم ويحذر أن يفعل أو يقول ما يكتب عنه مما لا يرضي رب العالمين، ولهذا قال: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ ﴾؛ أي: يتلقيان عن العبد أعماله كلها، واحد ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴾: يكتب الحسنات، والآخر عن ﴿ ٱلشِّمَالِ ﴾: يكتب السيئات، وكل منهما ﴿ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾ مقيد بذلك، متهيئ لعمله الذي أعد له، ملازم لذلك.

(١٨) ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ ﴾: خير أو شر ﴿ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾؛ أي: مراقب له، حاضر لحاله؛ كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

(١٩) أي: ﴿ وَجَآءَتْ ﴾ هذا الغافل المكذب بآيات الله، ﴿ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ﴾: الذي لا مرد له ولا مناص. ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ﴾؛ أي: تتأخر وتنكص عنه.

---

(١) ط: «العرق».

(٢٠) ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ (٢٠) ﴾؛ أي: اليوم الذي يلحق الظالمين ما أوعدهم الله به من العقاب والمؤمنين ما وعدهم به من الثواب.

(٢١) ﴿ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ ﴾: يسوقها إلى موقف القيامة؛ فلا يمكنها أن تتأخر عنه، ﴿ وَشَهِيدٞ (٢١) ﴾: يشهد عليها بأعمالها؛ خيرها وشرها. وهذا يدل على اعتناء الله بالعباد، وحفظه لأعمالهم، ومجازاته لهم بالعدل.

(٢٢) فهذا الأمر مما يجب أن يجعله العبد منه على بال، ولكن أكثر الناس غافلون، ولهذا قال: ﴿ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا ﴾؛ أي: يقال للمعرض المكذب يوم القيامة هذا الكلام توبيخًا ولومًا وتعنيفًا؛ أي: لقد كنت مكذبًا بهذا تاركًا للعمل له. فالآن كشفنا ﴿ عَنكَ غِطَآءَكَ ﴾: الذي غطى قلبك فكثر نومك واستمر إعراضك، ﴿ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ (٢٢) ﴾: ينظر ما يزعجه ويروعه من أنواع العذاب والنكال، أو هذا خطاب من الله للعبد؛ فإنه في الدنيا في غفلة عما خلق له، ولكنه يوم القيامة ينتبه ويزول عنه وسنه في وقت لا يمكنه أن يتدارك الفارط ولا يستدرك الفائت. وهذا كله تخويف من الله للعباد، وترهيب بذكر ما يكون على المكذبين في ذلك اليوم العظيم.

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ (٢٤) مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ (٢٥) ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ (٢٦) ۞قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٖ (٢٧) قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ (٢٩) ﴾.

(٢٣) يقول تعالى: ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ ﴾؛ أي: قرين هذا المكذب المعرض من الملائكة، الذين وكلهم الله على حفظه وحفظ أعماله، فيحضره يوم القيامة، ويحضر أعماله، ويقول: ﴿ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) ﴾؛ أي: قد أحضرت ما جعلت عليه من حفظه وحفظ عمله.

(٢٤) فيجازى بعمله، ويقال لمن استحق النار: ﴿ أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ (٢٤) ﴾؛ أي: كثير الكفر والعناد لآيات الله، المكثر من المعاصي، المتجرئ على المحارم والمآثم.

(٢٥) ﴿ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ ﴾؛ أي: يمنع الخير الذي قِبَلَهُ، الذي أعظمه الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، مناع لنفع ماله وبدنه، ﴿ مُعۡتَدٖ ﴾: على عباد الله وعلى حدوده[1]، ﴿ مُّرِيبٍ (٢٥) ﴾؛ أي: شاكٌّ في وعد الله ووعيده؛ فلا إيمان ولا إحسان، ولكن وصفه الكفر والعدوان والشك والريب والشح واتخاذ الآلهة من دون الرحمن.

(٢٦) ولهذا قال: ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾؛ أي: عبد معه غيره ممن لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، ﴿ فَأَلۡقِيَاهُ ﴾: أيها الملكان القرينان ﴿ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ (٢٦) ﴾: الذي هو معظمها وأشدها وأشنعها.

(٢٧) ﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ ﴾: الشيطان متبرئًا منه حاملًا عليه إثمه: ﴿ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ ﴾: لأني لم يكن لي عليه سلطان ولا حجة ولا برهان، ﴿ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٖ (٢٧) ﴾: فهو الذي ضل وبعد عن الحق باختياره؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡ ﴾ [إبراهيم: ٢٢] الآية.

(٢٨) قال الله تعالى مجيبًا لاختصامهم: ﴿ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ ﴾؛ أي: لا فائدة في اختصامكم عندي، والحال أني قد ﴿ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ (٢٨) ﴾؛ أي: جاءتكم رسلي بالآيات البينات والحجج الواضحات والبراهين الساطعات، فقامت عليكم حجتي وانقطعت حجتكم، وقدمتم إليَّ بما أسلفتم من الأعمال التي وجب جزاؤها.

(٢٩) ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ ﴾؛ أي: لا يمكن أن يخلف ما قاله الله وأخبر به؛ لأنه لا أصدق من الله قيلًا، ولا أصدق حديثًا. ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ (٢٩) ﴾: بل أجزيهم بما عملوا من خير وشر؛ فلا يزاد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم.

﴿ يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ (٣٠) وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ (٣١) هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ (٣٢) مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ (٣٣) ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ (٣٤) لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ (٣٥) ﴾.

(١) زاد في ط: «أثيم، أي: كثير الإثم».

الجزء السادس والعشرون — سورة ق

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى
ٱلْبِلَـٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ
لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا
ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا
مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ
وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ
﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا
نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ
عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ
وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ (٥١) آياتها ٦٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلذَّٰرِيَـٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَـٰمِلَـٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَـٰرِيَـٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾
فَٱلْمُقَسِّمَـٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾

٥٢٠

(٣٠) يقول تعالى مخوفًا لعباده: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾: وذلك من كثرة ما ألقي فيها، ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾؛ أي: لا تزال تطلب الزيادة من المجرمين العاصين؛ غضبًا لربها، وغيظًا على الكافرين، وقد وعدها الله ملأها؛ كما قال تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود: ١١٩]: حتى يضع رب العزة عليها قدمه الكريمة المنزهة عن التشبيه، فينزوي بعضها على بعض، وتقول: قط، قط؛ قد اكتفيت وامتلأت.

(٣١) ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾؛ أي: قربت. ﴿لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾ بحيث تشاهد وينظر ما فيها من النعيم المقيم والحبرة والسرور، وإنما أزلفت وقربت لأجل المتقين لربهم، التاركين للشرك كبيره وصغيره، الممتثلين لأوامر ربهم، المنقادين له.

(٣٢) ويقال لهم على وجه التهنئة: ﴿هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾؛ أي: هـذه الجنة وما فيها مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين هي التي وعد الله كل أواب؛ أي: رجّاع إلى الله في جميع الأوقات؛ بذكره وحبه والاستعانة به ودعائه وخوفه ورجائه. ﴿حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾؛ أي: محافظ على ما أمر الله به؛ بامتثاله على وجه الإخلاص والإكمال له على أتم الوجوه، حفيظ لحدوده.

(٣٣) ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ﴾؛ أي: خافه على وجه المعرفة بربه والرجاء لرحمته، ولازم على خشية الله في حال غيبه؛ أي: مغيبه عن أعين الناس. وهذه الخشية الحقيقية، وأما خشيته في حال نظر الناس وحضورهم؛ فقد تكون رياء وسمعة؛ فلا تدل على الخشية، وإنما الخشية النافعة خشيته في الغيب والشهادة[1]، ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾؛ أي: وصفه الإنابة إلى مولاه، وانجذاب دواعيه إلى مراضيه.

(٣٤) ويقال لهؤلاء الأتقياء الأبرار: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ﴾؛ أي: دخولًا مقرونًا بالسلامة من الآفات والشرور، مأمونًا فيه جميع مكاره الأمور؛ فلا انقطاع لنعيمهم ولا كدر ولا تنغيص. ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾: الذي لا زوال له ولا موت ولا شيء من المكدرات.

(٣٥) ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾؛ أي: كل ما تعلقت به مشيئتهم؛ فهو حاصل فيها، ﴿وَلَدَيْنَا﴾: فوق ذلك ﴿مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾؛ أي: ثواب يمدهم به الرحمن الرحيم، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وأعظم ذلك وأجله وأفضله النظر إلى وجهه الكريم، والتمتع بسماع كلامه، والتنعم بقربه، فنسأله من فضله.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾.

(٣٦) يقول تعالى مخوفًا للمشركين المكذبين للرسول: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾؛ أي: أممًا كثيرة ﴿هُمْ أَشَدُّ﴾؛ من هؤلاء ﴿بَطْشًا﴾ أي: قوة وآثارًا في الأرض، ولهذا قال: ﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾؛ أي: بنوا الحصون المنيعة والمنازل الرفيعة، وغرسوا الأشجار، وأجروا الأنهار،

(١) زاد في ط: «ويحتمل أن المراد بخشية الله بالغيب، كالمراد بالإيمان بالغيب. وأن هذا مقابل للشهادة حيث يكون الإيمان والخشية ضروريًّا لا اختياريًّا حيث يعاين العذاب، وتأتي آيات الله وهذا هو الظاهر».

وزرعوا، وعمروا، ودمروا، فلما كذبوا رسل الله وجحدوا آياته؛ أخذهم الله بالعقاب الأليم والعذاب الشديد. ﴿ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ ﴾؛ أي: لا مفر لهم من عذاب الله حين نزل بهم ولا منقذ، فلم تغن عنهم قوتهم ولا أموالهم ولا أولادهم.

﴿٣٧﴾ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾؛ أي: قلب عظيم حي ذكي زكي؛ فهذا إذا ورد عليه شيء من آيات الله؛ تذكر بها وانتفع فارتفع، وكذلك من ألقى سمعه إلى آيات الله واستمعها استماعًا يسترشد به، وقلبه ﴿ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾؛ أي: حاضر؛ فهذا أيضًا له ذكرى وموعظة وشفاء وهدى، وأما المعرض الذي لم يصغ سمعه إلى الآيات؛ فهذا لا تفيده شيئًا؛ لأنه لا قبول عنده، ولا تقتضي حكمة الله هداية من هذا نعته.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿٣٨﴾ وهذا إخبار منه تعالى عن قدرته العظيمة ومشيئته النافذة، التي أوجد بها أعظم المخلوقات؛ ﴿ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾: أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة؛ من غير تعب ولا نصب ولا لغوب ولا إعياء؛ فالذي أوجدها على كبرها وعظمها قادر على إحياء الموتى من باب أولى وأحرى.

﴿٣٩﴾، ﴿٤٠﴾ ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾: من الذم لك والتكذيب بما جئت به، واشتغل عنهم والْهَ بطاعة ربك وتسبيحه أول النهار وآخره وفي أوقات الليل وأدبار الصلوات؛ فإن ذكر الله تعالى مسلٍّ للنفس مؤنس لها مهون للصبر.

﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿٤١﴾ أي: ﴿ وَٱسْتَمِعْ ﴾: بقلبك ﴿ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ ﴾، وهو إسرافيل عليه السلام، أي: حين ينفخ في الصور ﴿ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ ﴾: من الأرض[1].

﴿٤٢﴾ ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ ﴾؛ أي: كل الخلائق يسمعون تلك ﴿ ٱلصَّيْحَةَ ﴾: المزعجة المهولة ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾: الذي لا شك فيه ولا امتراء. ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ ﴾: من القبور، الذي انفرد به القادر على كل شيء.

﴿٤٣﴾، ﴿٤٤﴾ ولهذا قال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ ﴾؛ أي: عن الخلائق[2] ﴿ سِرَاعًا ﴾؛ أي: يسرعون لإجابة الداعي لهم إلى موقف القيامة. ﴿ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ ﴾؛ أي: سهل على الله، لا تعب فيه ولا كلفة.

﴿٤٥﴾ ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾: لك مما يحزنك من الأذى، وإذا كنا أعلم بذلك؛ فقد علمت كيف اعتناؤنا بك وتيسيرنا لأمورك ونصرنا لك على أعدائك؛ فليفرح قلبك، ولتطمئن نفسك، ولتعلم أننا أرحم بك وأرأف من نفسك، فلم يبق لك إلا انتظار وعد الله والتأسي بأولي العزم من رسل الله، ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾؛ أي: مسلط عليهم، ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ﴾ [الرعد: ٧]، ولهذا قال: ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾، والتذكير هو تذكير ما تقرر في العقول والفطر من محبة الخير وإيثاره وفعله ومن بغض الشر ومجانبته، وإنما يتذكر بالتذكير من يخاف وعيد الله، وأما من لم يخف الوعيد ولم يؤمن به؛ فهذا فائدة تذكيره إقامة الحجة عليه لئلا يقول: ما جاءنا من بشير ولا نذير.

آخر تفسير سورة ق. والحمد لله أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا



(١) ط: «الخلق».
(٢) ط: «الأموات».

تفسير سورة الذاريات

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿١﴾ - ﴿٦﴾ هذا قسم من الله الصادق في قيله بهذه المخلوقات العظيمة، التي جعل الله فيها من المصالح والمنافع ما جعل، على أن وعده صدق، وأن الدين الذي هو يوم الجزاء والمحاسبة على الأعمال لواقع لا محالة، ما له من دافع. فإذا أخبر به الصادق العظيم، وأقسم عليه، وأقام الأدلة والبراهين عليه؛ فلِمَ يكذب به المكذبون، ويعرض عن العمل له العاملون؟! ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ﴾: هي الرياح التي تذرو في هبوبها ﴿ ذَرْوًا ﴿١﴾ ﴾: بلينها ولطفها وقوتها وإزعاجها، ﴿ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ ﴾: هي السحاب، تحمل الماء الكثير، الذي ينفع الله به العباد والبلاد، ﴿ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ ﴾: النجوم التي تجري على وجه اليسر والسهولة، فتتزين بها السماوات، ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وينتفع بالاعتبار بها، ﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ ﴾: الملائكة التي تقسم الأمر وتدبره بإذن الله؛ فكل منهم قد جعله الله على تدبير أمر من أمور الدنيا والآخرة لا يتعدى ما حد له وقدر ورسم، ولا ينقص منه.

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿٧﴾ ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ ﴾؛ أي: ذات الطرائق الحسنة، التي تشبه حبك الرمال ومياه الغدران حين يحركها النسيم.

﴿٨﴾ ﴿ إِنَّكُمْ ﴾: أيها المكذبون لمحمد ﷺ، ﴿ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ ﴾: منكم من يقول: ساحر! ومنكم من يقول: كاهن! ومنكم من يقول: مجنون! إلى غير ذلك من الأقوال المختلفة الدالة على حيرتهم وشكهم، وأن ما هم عليه باطل.

﴿٩﴾ ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ ﴾؛ أي: يصرف عنه من صرف عن الإيمان وانصرف قلبه عن أدلة الله اليقينية وبراهينه. واختلاف قولهم دليل على فساده وبطلانه؛ كما أن الحق الذي جاء به محمد ﷺ متفق؛ يصدق بعضه بعضًا، لا تناقض فيه ولا اختلاف، وذلك دليل على صحته، وأنه من عند الله؛ فلو كان من عند غير الله؛ لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا.

﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿١٠﴾ يقول تعالى: ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ ﴾؛ أي: قاتل الله الذين كذبوا على الله، وجحدوا آياته، وخاضوا بالباطل ليدحضوا به الحق، الذين يقولون على الله ما لا يعلمون.

﴿١١﴾ ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ ﴾؛ أي: في لجة من الكفر والجهل والضلال، ﴿ سَاهُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿١٢﴾ ﴿ يَسْأَلُونَ ﴾: على وجه الشك والتكذيب: ﴿ أَيَّانَ ﴾: يبعثون؛ أي: متى يبعثون؟! مستبعدين لذلك!

﴿١٣﴾، ﴿١٤﴾ فلا تسأل عن حالهم وسوء مآلهم! ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾؛ أي: يعذبون بسبب ما انطووا عليه من خبث الباطن والظاهر، ويقال لهم: ﴿ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ ﴾؛ أي: العذاب والنار، الذي هو أثر ما افتتنوا به من الابتلاء، الذي صيرهم إلى الكفر والضلال. ﴿ هَٰذَا ﴾: العذاب الذي وصلتم إليه هو ﴿ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾: فالآن تمتعوا بأنواع العقاب والنكال، والسلاسل والأغلال، والسخط والوبال.

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿١٥﴾ يقول تعالى في ذكر ثواب المتقين وأعمالهم التي وصلوا بها إلى ذلك الجزاء: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴾؛ أي: الذين كانت التقوى شعارهم وطاعة الله دثارهم، ﴿ فِي جَنَّاتٍ ﴾: مشتملات على جميع أصناف الأشجار والفواكه، التي يوجد

لها نظير في الدنيا، والتي لا يوجد لها نظير، مما لم تنظر العيون إلى مثله، ولم تسمع الآذان، ولم يخطر على قلب بشر، ﴿وَعُيُونٍ ⁽¹⁵⁾﴾: سارحة تشرب منها تلك البساتين، ويشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرًا.

⁽¹⁶⁾ ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾: يحتمل أن المعنى أن أهل الجنة قد أعطاهم مولاهم جميع مناهم من جميع أصناف النعيم، فأخذوا ذلك راضين به، قد قرت به أعينهم، وفرحت به نفوسهم، ولم يطلبوا منه بدلًا، ولا يبغون عنه حولًا، وكل قد ناله من النعيم ما لا يطلب عليه المزيد. ويحتمل أن هذا وصف المتقين في الدنيا، وأنهم آخذون ما آتاهم الله من الأوامر والنواهي؛ أي: قد تلقوها بالرحب وانشراح الصدر، منقادين لما أمر الله به بالامتثال على أكمل الوجوه، ولما نهى عنه بالانزجار عنه لله على أكمل وجه؛ فإن الذي أعطاهم الله من الأوامر والنواهي هو أفضل العطايا التي حقها أن تتلقى بالشكر لله عليها والانقياد.

والمعنى الأول ألصق بسياق الكلام؛ لأنه ذكر وصفهم في الدنيا وأعمالهم بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾: الوقت الذي وصلوا به إلى النعيم ﴿مُحْسِنِينَ ⁽¹⁶⁾﴾: وهذا شامل لإحسانهم بعبادة ربهم؛ بأن يعبدوه كأنهم يرونه؛ فإن لم يكونوا يرونه؛ فإنه يراهم، وللإحسان إلى عباد الله ببذل النفع والإحسان من مال أو علم أو جاه أو نصيحة أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر، أو غير ذلك من وجوه البر وطرق الخيرات، حتى إنه يدخل في ذلك الإحسان بالقول والكلام اللين والإحسان إلى المماليك والبهائم المملوكة وغير المملوكة.

⁽¹⁷⁾ ومن أفضل أنواع الإحسان في عبادة الخالق صلاة الليل الدالة على الإخلاص وتواطؤ القلب واللسان، ولهذا قال: ﴿كَانُوا۟﴾؛ أي: المحسنون، ﴿قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ⁽¹⁷⁾﴾؛ أي: كان هجوعهم؛ أي: نومهم بالليل قليلًا، وأما أكثر الليل؛ فإنهم قانتون لربهم؛ ما بين صلاة وقراءة وذكر ودعاء وتضرع.

⁽¹⁸⁾ ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ﴾: التي هي قبيل الفجر، ﴿هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ⁽¹⁸⁾﴾: الله تعالى، فمدوا صلاتهم إلى السحر، ثم جلسوا في خاتمة قيامهم بالليل يستغفرون الله تعالى استغفار المذنب لذنبه. وللاستغفار بالأسحار

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ — الجُزْءُ السَّادِسُ وَالعِشْرُونَ

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ
أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾
يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟
فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ
وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ
﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ
﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ
لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ
وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ
تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾
إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ
أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ
﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ
﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ
﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾

٥٢١

فضيلة وخصيصة ليست لغيره؛ كما قال تعالى في وصف أهل الإيمان والطاعة: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ⁽¹⁷⁾﴾ [آل عمران: ١٧].

⁽¹⁹⁾ ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ﴾: واجب ومستحب ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ⁽¹⁹⁾﴾؛ أي: للمحتاجين الذين يطلبون من الناس والذين لا يسألونهم.

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ⁽²⁰⁾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ⁽²¹⁾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ⁽²²⁾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ⁽²³⁾﴾.

⁽²⁰⁾ يقول تعالى داعيًا عباده إلى التفكر والاعتبار: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ⁽²⁰⁾﴾: وذلك شامل لنفس الأرض وما فيها؛ من جبال وبحار وأنهار وأشجار ونبات تدل المتفكر فيها، المتأمل لمعانيها على عظمة خالقها وسعة سلطانه وعميم إحسانه وإحاطة علمه بالظواهر والبواطن.

(٢١) وكذلك في نفس العبد من العبر والحكمة والرحمة ما يدل على أن الله واحد أحد فرد صمد، وأنه لم يخلق الخلق سدى.

(٢٢) وقوله: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ ﴾؛ أي: مادة رزقكم من الأمطار وصنوف الأقدار؛ الرزق الديني والدنيوي، وما توعدونه من الجزاء في الدنيا والآخرة؛ فإنه ينزل من عند الله كسائر الأقدار.

(٢٣) فلما بين الآيات ونبه عليها تنبيهًا ينتبه به الذكي اللبيب؛ أقسم تعالى على أن وعده وجزاءه حق، وشبه ذلك بأظهر الأشياء لنا، وهو النطق، فقال: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ (٢٣) ﴾؛ فكما أنكم لا تشكون في نطقكم؛ فكذلك ينبغي ألَّا يعتريكم الشك في البعث والجزاء.

﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ (٢٤) إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ (٢٦) فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ (٢٧) فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ (٢٨) فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ (٢٩) قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ (٣٠) قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ (٣١) قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ (٣٢) لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ (٣٣) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ (٣٤) فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ (٣٧) ﴾.

(٢٤) يقول تعالى: ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ ﴾؛ أي: أما جاءك؟ ﴿ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ (٢٤) ﴾: ونبؤهم الغريب العجيب، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، وأمرهم بالمرور على إبراهيم، فجاءوه في صورة أضياف.

(٢٥) ﴿ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ ﴾: مجيبًا لهم: ﴿ سَلَٰمٞ ﴾؛ أي: عليكم، ﴿ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ (٢٥) ﴾؛ أي: أنتم قوم منكرون، فأحب أن تعرفوني بأنفسكم، ولم يعرفهم إلا بعد ذلك.

(٢٦) ولهذا ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ ﴾؛ أي: ذهب سريعًا في خفية ليحضر لهم قراهم، ﴿ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ (٢٦) ﴾.

(٢٧) ﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾: وعرض عليهم الأكل، ﴿ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ (٢٧) ﴾؟

(٢٨) ﴿ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ ﴾: حين رأى أيديهم لا تصل إليه، ﴿ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ ﴾: وأخبروه بما جاءوا له، ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ (٢٨) ﴾: وهو إسحاق عليه السلام.

(٢٩) لما سمعت المرأة البشارة؛ أقبلت فرحة مستبشرة ﴿ فِي صَرَّةٖ ﴾؛ أي: صيحة، ﴿ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا ﴾: وهذا من جنس ما يجري للنساء عند السرور ونحوه من الأقوال والأفعال المخالفة للطبيعة والعادة، ﴿ وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ (٢٩) ﴾؛ أي: أنَّى لي الولد وأنا عجوز قد بلغت من السن ما لا تلد معه النساء؟! ومع ذلك؛ فأنا عقيم غير صالح رحمي للولادة أصلًا؛ فثَم مانعان، كل منهما مانع من الولد، وقد ذكرت المانع الثالث في سورة هود في قولها: ﴿ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ (٧٢) ﴾ [هود: ٧٢].

(٣٠) ﴿ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾؛ أي: الله الذي قدر ذلك وأمضاه؛ فلا عجب في قدرة الله، ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ (٣٠) ﴾؛ أي: الذي يضع الأشياء مواضعها، وقد وسع كل شيء علمًا، فسلموا لحكمه، واشكروه على نعمته.

(٣١) ﴿ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ (٣١) ﴾؛ أي: قال لهم إبراهيم عليه السلام: ما شأنكم أيها المرسلون؟! وماذا تريدون؟! لأنه استشعر أنهم رسل أرسلهم الله لبعض الشئون المهمة.

(٣٢) ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ (٣٢) ﴾: وهم قوم لوط، قد أجرموا بإشراكهم بالله وتكذيبهم لرسولهم وإتيانهم الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين.

(٣٣)، (٣٤) ﴿ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ (٣٣) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ (٣٤) ﴾؛ أي: معلمة على كل حجر اسم صاحبه؛ لأنهم أسرفوا وتجاوزوا الحد. فجعل إبراهيم يجادلهم في قوم لوط، لعل الله يدفع عنهم العذاب، فقيل له: ﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ (٧٦) ﴾ [هود: ٧٦].

(٣٥)، (٣٦) ﴿ فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ (٣٦) ﴾: وهم بيت لوط عليه السلام؛ إلا امرأته؛ فإنها من المهلكين.

﴿٣٧﴾ ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴾: يعتبرون بها ويعلمون أن الله شديد العقاب، وأن رسله صادقون مصدوقون.

فصل

في ذكر بعض ما تضمنته هذه القصة من الحكم والأحكام

منها: أن من الحكمة قص الله على عباده نبأ الأخيار والفجار؛ ليعتبروا بهم، وأين وصلت بهم الأحوال.

ومنها: فضيلة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام؛ حيث ابتدأ الله قصته بما يدل على الاهتمام بشأنها والاعتناء بها.

ومنها: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن إبراهيم الخليل، الذي أمر الله محمدًا وأمته أن يتبعوا ملته، وساقها الله في هذا الموضع على وجه المدح له والثناء.

ومنها: أن الضيف يُكْرَمُ بأنواع الإكرام؛ بالقول والفعل؛ لأن الله وصف أضياف إبراهيم بأنهم مكرمون؛ أي: أكرمهم إبراهيم، ووصف الله ما صنع بهم من الضيافة قولًا وفعلًا، ومكرمون أيضًا عند الله تعالى.

ومنها: أن إبراهيم عليه السلام قد كان بيته مأوًى للطارقين والأضياف؛ لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان، وإنما سلكوا طريق الأدب في الابتداء بالسلام، فرد عليهم إبراهيم سلامًا أكمل من سلامهم وأتم؛ لأنه أتى به جملة اسمية دالة على الثبوت والاستقرار.

ومنها: مشروعية تعرف من جاء إلى الإنسان أو صار له فيه نوع اتصال؛ لأن في ذلك فوائد كثيرة.

ومنها: أدب إبراهيم ولطفه في الكلام؛ حيث قال: ﴿ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾، ولم يقل: أنكرتكم، وبين اللفظين من الفرق ما لا يخفى.

ومنها: المبادرة إلى الضيافة والإسراع بها؛ لأن خير البر عاجله، ولهذا بادر إبراهيم بإحضار قرى أضيافه.

ومنها: أن الذبيحة الحاضرة التي قد أعدت لغير الضيف الحاضر إذا جعلت له ليس فيها أقل إهانة، بل ذلك من الإكرام؛ كما فعل إبراهيم عليه السلام، وأخبر الله أن ضيفه مكرمون.

الجزء السابع والعشرون — سورة الذاريات

۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ
مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ
لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا
فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ
الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ
مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ
فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ
الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾
وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ
فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ
وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا
فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ
فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ
لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾
وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥١﴾

٥٢٢

ومنها: ما مَنَّ الله به على خليله إبراهيم من الكرم الكثير، وكون ذلك حاضرًا لديه وفي بيته معدًّا لا يحتاج إلى أن يأتي به من السوق أو الجيران أو غير ذلك.

ومنها: أن إبراهيم هو الذي خدم أضيافه، وهو خليل الرحمن وسيِّد مَنْ ضَيَّفَ الضيفان.

ومنها: أنه قرَّبه إليهم في المكان الذي هم فيه، فلم يجعله في موضع ويقول لهم تفضلوا أو ائتوا عليه؛ لأن هذا أيسر وأحسن.

ومنها: حسن ملاطفة الضيف في الكلام اللين، خصوصًا عند تقديم الطعام إليه؛ فإن إبراهيم عرض عليهم عرضًا لطيفًا، فقال: ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾، ولم يقل: كلوا! ونحوه من الألفاظ التي غيرها أولى منها، بل أتى بأداة العرض، فقال: ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾؛ فينبغي للمقتدي به أن يستعمل من الألفاظ الحسنة ما هو المناسب واللائق بالحال؛ كقوله لأضيافه: ألا تأكلون؟

أو: ألا تتفضلون؟ أو تشرفوننا وتحسنون إلينا... ونحو ذلك.

ومنها: أن من خاف من أحد لسبب من الأسباب؛ فإن عليه أن يزيل عنه الخوف، ويذكر له ما يؤمن روعه ويسكن جأشه؛ كما قالت الملائكة لإبراهيم لما خافهم: ﴿لَا تَخَفْ﴾، وأخبروه بتلك البشارة السارة بعد الخوف منهم.

ومنها: شدة فرح سارة امرأة إبراهيم، حتى جرى منها ما جرى من صك وجهها وصرتها غير المعهودة.

ومنها: ما أكرم الله به إبراهيم وزوجته سارة من البشارة بغلام عليم.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿٣٨﴾ أي: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾: وما أرسله الله به إلى فرعون وملئه بالآيات البينات والمعجزات الظاهرات آية للذين يخافون العذاب الأليم.

﴿٣٩﴾ فلما أتى موسى فرعون بذلك السلطان المبين؛ تولى فرعون ﴿بِرُكْنِهِۦ﴾؛ أي: أعرض بجانبه عن الحق، ولم يلتفت إليه، وقدحوا فيه أعظم القدح، فقالوا: ﴿سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾؛ أي: إن موسى لا يخلو إما أن يكون ما أتى به سحرًا وشعبذة ليس من الحق في شيء، وإما أن يكون مجنونًا لا يؤاخذ بما صدر منه لعدم عقله! هذا وقد علموا - خصوصًا فرعون - أن موسى صادق؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وقال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] الآية.

﴿٤٠﴾ ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾؛ أي: مذنب طاغٍ عاتٍ على الله، فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر.

﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿٤١﴾ أي: وآية لهم في ﴿عَادٍ﴾: القبيلة المعروفة، ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾؛ أي: التي لا خير فيها، حين كذبوا نبيهم هودًا عليه السلام.

﴿٤٢﴾ ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾؛ أي: كالرمم البالية؛ فالذي أهلكهم على قوتهم وبطشهم دليل على كمال قوته واقتداره، الذي لا يعجزه شيء، المنتقم ممن عصاه.

﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿٤٣﴾ أي: ﴿وَفِى ثَمُودَ﴾: آية عظيمة حين أرسل الله إليهم صالحًا عليه السلام، فكذبوه وعاندوه، وبعث الله له الناقة آية مبصرة، فلم يزدهم ذلك إلا عتوًّا ونفورًا، ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿٤٤﴾ ﴿فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾؛ أي: الصيحة العظيمة المهلكة، ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾﴾: إلى عقوبتهم بأعينهم.

﴿٤٥﴾ ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ﴾: ينجون به من العذاب، ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾: لأنفسهم.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿٤٦﴾ أي: وكذلك ما فعل الله بقوم نوح حين كذبوا نوحًا عليه السلام وفسقوا عن أمر الله، فأرسل الله عليهم السماء والأرض بماء منهمر، فأغرقهم عن آخرهم، ولم يُبق من الكافرين ديارًا. وهذه عادة الله وسنته فيمن عصاه.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾.

﴿٤٧﴾ يقول تعالى مبينًا لقدرته العظيمة: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا﴾؛ أي: خلقناها وأتقناها وجعلناها سقفًا للأرض وما عليها، ﴿بِأَيْي۟دٍ﴾؛ أي: بقوة وقدرة عظيمة، ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾: لأرجائها وأنحائها، وإنا لموسعون أيضًا على عبادنا بالرزق

الذي ما ترك دابة في مهامه القفار ولجج البحار وأقطار العالم العلوي والسفلي إلا وأوصل إليها من الرزق ما يكفيها، وساق إليها من الإحسان ما يغنيها. فسبحان من عم بجوده جميع المخلوقات، وتبارك الذي وسعت رحمته جميع البريات.

(٤٨) ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا ﴾؛ أي: جعلناها فراشًا للخلق يتمكنون فيها من كل ما تتعلق به مصالحهم من مساكن وغراس وزرع وحرث وجلوس وسلوك للسبل الموصلة إلى مقاصدهم ومآربهم. ولما كان الفراش قد يكون صالحًا للانتفاع من كل وجه، وقد يكون من وجه دون وجه؛ أخبر تعالى أنه مهدها أحسن مهاد على أكمل الوجوه وأحسنها، وأثنى على نفسه بذلك، فقال: ﴿ فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ (٤٨) ﴾: الذي مهد لعباده ما اقتضته حكمته ورحمته.

(٤٩) ﴿ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ ﴾؛ أي: صنفين ذكر وأنثى من كل نوع من أنواع الحيوانات، ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ (٤٩) ﴾: لنعم الله التي أنعم بها عليكم في تقدير ذلك وحكمته؛ حيث جعل ما هو السبب لبقاء نوع الحيوانات كلها؛ لتقوموا بتنميتها وخدمتها وتربيتها فيحصل من ذلك ما يحصل من المنافع.

(٥٠) فلما دعا العباد إلى النظر إلى آياته الموجبة لخشيته والإنابة إليه؛ أمر بما هو المقصود من ذلك، وهو الفرار إليه؛ أي: الفرار مما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا إلى ما يحبه ظاهرًا وباطنًا، فرار من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الغفلة إلى الذكر؛ فمن استكمل هذه الأمور؛ فقد استكمل الدين كله، وزال عنه المرهوب، وحصل له غاية المراد والمطلوب. وسمى الله الرجوع إليه فرارًا؛ لأن في الرجوع إلى غيره أنواع المخاوف والمكاره، وفي الرجوع إليه أنواع المحاب والأمن والسرور والسعادة والفوز، فيفر العبد من قضائه وقدره إلى قضائه وقدره، وكل من خِفْتَ منه فررت منه إلا الله تعالى؛ فإنه بحسب الخوف منه يكون الفرار إليه، ﴿ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ (٥٠) ﴾؛ أي: منذر لكم من عذاب الله ومخوف بين النذارة.

(٥١) ﴿ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾: هذا من الفرار إلى الله، بل هذا أصل الفرار إليه: أن يفر العبد من اتخاذ آلهة غير الله من الأوثان والأنداد والقبور وغيرها مما عبد من دون الله، ويخلص العبد لربه العبادة والخوف والرجاء والدعاء والإنابة.

﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ (٥٣) ﴾.

(٥٢) يقول الله مسليًا لرسوله ﷺ عن تكذيب المشركين بالله، المكذبين له، القائلين فيه من الأقوال الشنيعة ما هو منزه عنه، وأن هذه الأقوال ما زالت دأبًا وعادة للمجرمين المكذبين للرسل؛ فما أرسل الله من رسول؛ إلا رماه قومه بالسحر أو الجنون.

(٥٣) يقول الله تعالى: هذه الأقوال التي صدرت منهم - الأولين والآخرين - هل هي أقوال تواصوا بها، ولقن بعضهم بعضًا بها؛ فلا يستغرب بسبب ذلك اتفاقهم عليها؟! أم ﴿ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ (٥٣) ﴾؛ تشابهت قلوبهم وأعمالهم بالكفر والطغيان، فتشابهت أقوالهم الناشئة عن طغيانهم؟! وهذا هو الواقع؛ كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ ﴾ [البقرة: ١١٨]، وكذلك المؤمنون لما تشابهت قلوبهم بالإذعان للحق وطلبه والسعي فيه؛ بادروا إلى الإيمان برسلهم وتعظيمهم وتوقيرهم وخطابهم بالخطاب اللائق بهم.

﴿ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ (٥٤) وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (٥٥) ﴾.

(٥٤) يقول تعالى آمرًا رسوله بالإعراض عن المعرضين المكذبين: ﴿ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ ﴾؛ أي: لا تبال بهم، ولا تؤاخذهم، وأقبل على شأنك؛ فليس عليك لوم في ذنبهم، وإنما عليك البلاغ، وقد أديت ما حملت وبلغت ما أرسلت به.

(٥٥) ﴿ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (٥٥) ﴾: والتذكير نوعان: تذكير بما لم يعرف تفصيله مما عرف مجمله بالفطر والعقول؛ فإن الله فطر العقول على محبة الخير وإيثاره وكراهة الشر والزهد فيه، وشرعه موافق لذلك؛ فكل أمر ونهي من الشرع؛ فهو من التذكير، وتمام التذكير أن يذكر ما في المأمور به من الخير والحسن والمصالح، وما في المنهي عنه من المضار. والنوع الثاني من التذكير: تذكير بما هو معلوم للمؤمنين، ولكن انسحبت عليه الغفلة والذهول، فيذكرون بذلك، ويكرر عليهم؛ ليرسخ في أذهانهم، وينتبهوا، ويعملوا بما تذكروه من ذلك، وليحدث لهم نشاطًا وهمة توجب لهم الانتفاع والارتفاع. وأخبر الله أن الذكرى

كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ
﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ
بِمَلُومٖ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا
خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ
وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ
﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ
﴿٥٩﴾ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

سُورَةُ الطُّورِ ٥٢ آياتها ٤٩

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ﴿٢﴾ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ﴿٣﴾ وَٱلۡبَيۡتِ
ٱلۡمَعۡمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ
عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ﴿٨﴾ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ
مَوۡرٗا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ﴿١٠﴾ فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ
﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ
جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾

تنفع المؤمنين؛ لأن ما معهم من الإيمان والخشية والإنابة واتباع رضوان الله يوجب لهم أن تنفع فيهم الذكرى وتقع الموعظة منهم موقعها؛ كما قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ﴿١١﴾ ﴾ [الأعلى: ٩-١١]، وأما من ليس معه إيمان ولا استعداد لقبول التذكير؛ فهذا لا ينفع تذكيره؛ بمنزلة الأرض السبخة التي لا يفيدها المطر شيئًا. وهؤلاء الصنف لو جاءتهم كل آية؛ لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿٥٦﴾ هذه الغاية التي خلق الله الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته المتضمنة لمعرفته ومحبته والإنابة إليه والإقبال عليه والإعراض عما سواه، وذلك متوقف على معرفة الله تعالى؛ فإن تمام العبادة متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة بربه؛ كانت عبادته أكمل؛ فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله؛ فما خلقهم لحاجة منه إليهم.

﴿٥٧﴾ ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ ﴾: تعالى الغني المغني عن الحاجة إلى أحد بوجه من الوجوه، وإنما جميع الخلق فقراء إليه في جميع حوائجهم ومطالبهم الضرورية وغيرها.

﴿٥٨﴾ ولهذا قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ﴾؛ أي: كثير الرزق، الذي ما من دابة في الأرض ولا في السماء إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها، ﴿ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾؛ أي: الذي له القوة والقدرة كلها، الذي أوجد بها الأجرام العظيمة السفلية والعلوية، وبها تصرف في الظواهر والبواطن، ونفذت مشيئته في جميع البريات؛ فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يعجزه هارب، ولا يخرج عن سلطانه أحد، ومن قوته أنه أوصل رزقه إلى جميع العالم، ومن قدرته وقوته أنه يبعث الأموات بعدما مزقهم البلى، وعصفت بهم[1] الرياح، وابتلعتهم الطيور والسباع، وتفرقوا وتمزقوا في مهامه القفار ولجج البحار؛ فلا يفوته منهم أحد، ويعلم ما تنقص الأرض منهم؛ فسبحان القوي المتين.

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿٥٩﴾ أي: ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾: بتكذيبهم محمدًا ﷺ من العذاب والنكال ﴿ ذَنُوبٗا ﴾؛ أي: نصيبًا وقسطًا، مثل ما فعل بأصحابهم من أهل الظلم والتكذيب، ﴿ فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ ﴿٥٩﴾ ﴾: بالعذاب؛ فإن سنة الله في الأمم واحدة؛ فكل مكذب يدوم على تكذيبه من غير توبة وإنابة؛ فإنه لا بد أن يقع عليه العذاب ولو تأخر عنه مدة.

﴿٦٠﴾ ولهذا توعدهم الله بيوم القيامة، فقال: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾: وهو يوم القيامة، الذي قد وعدوا فيه بأنواع العذاب والنكال والسلاسل والأغلال؛ فلا مغيث ولا منقذ لهم من عذاب الله. نعوذ بالله منه.



(١) ط: «بترابهم».

تفسير سورة والطور
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ۝٨ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦﴾

(١) يقسم تعالى بهذه الأمور العظيمة المشتملة على الحكم الجليلة على البعث والجزاء للمتقين وللمكذبين، فأقسم بالطور، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، وأوحى إليه ما أوحى من الأحكام، وفي ذلك من المنة عليه وعلى أمته ما هو من آيات الله العظيمة ونعمه التي لا يقدر العباد لهما على عدٍّ ولا ثمن.

(٢) ﴿وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ۝٢﴾: يحتمل أن المراد به اللوح المحفوظ، الذي كتب الله به كل شيء، ويحتمل أن المراد به القرآن الكريم، الذي هو أفضل الكتب، أنزله الله محتويًا على نبأ الأولين والآخرين وعلوم السابقين واللاحقين.

(٣) وقوله: ﴿فِي رَقٍّ﴾؛ أي: ورق ﴿مَّنشُورٍ ۝٣﴾؛ أي: مكتوب، مسطر، ظاهر غير خفي، لا تخفى حاله على كل عاقل بصير.

(٤) ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤﴾: وهو البيت الذي فوق السماء السابعة، المعمور مدى الأوقات بالملائكة الكرام، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، يتعبدون فيه لربهم، ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة، وقيل: إن البيت المعمور هو بيت الله الحرام المعمور بالطائفين والمصلين والذاكرين كل وقت وبالوفود إليه بالحج والعمرة؛ كما أقسم الله به في قوله: ﴿وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣﴾ [التين: ٣]، وحقيق ببيت هو أفضل بيوت الأرض، الذي يقصده الناس بالحج والعمرة، أحد أركان الإسلام ومبانيه العظام، التي لا يتم إلا بها، وهو الذي بناه إبراهيم وإسماعيل، وجعله الله مثابة للناس وأمنًا؛ أن يقسم الله به، ويبين من عظمته ما هو اللائق به وبحرمته.

(٥) ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥﴾؛ أي: السماء التي جعلها الله سقفًا للمخلوقات وبناء للأرض تستمد منها أنوارها، ويقتدى بعلاماتها ومنارها، وينزل الله منها المطر والرحمة وأنواع الرزق.

(٦) ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝٦﴾: أي: المملوء ماء، قد سجره الله ومنعه من أن يفيض على وجه الأرض، مع أن مقتضى الطبيعة أن يغمر وجه الأرض، ولكن حكمته اقتضت أن يمنعه عن الجريان والفيضان؛ ليعيش مَنْ على وجه الأرض من أنواع الحيوان. وقيل: إن المراد بالمسجور: الموقد، الذي يوقد نارًا يوم القيامة، فيصير نارًا تلظى، ممتلئًا على سعته من أصناف العذاب.

(٧) هذه الأشياء التي أقسم الله بها مما يدل على أنها من آيات الله وأدلة توحيده وبراهين قدرته وبعثه الأموات، ولهذا قال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧﴾؛ أي: لا بد أن يقع، ولا يخلف الله وعده وقيله.

(٨) ﴿مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾: يدفعه، ولا مانع يمنعه، لأن قدرة الله لا يغالبها مغالب ولا يفوتها هارب.

(٩) ثم ذكر وصف ذلك اليوم الذي يقع فيه العذاب، فقال: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝٩﴾؛ أي: تدور السماء وتضطرب وتدوم حركتها بانزعاج وعدم سكون.

(١٠) ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠﴾؛ أي: تزول عن أماكنها، وتسير كسير السحاب، وتتلون كالعهن المنفوش، وتبث بعد ذلك حتى تصير مثل الهباء، وذلك كله لعظم هول يوم القيامة[1]؛ فكيف بالآدمي الضعيف؟!

(١) زاد في ط: «وفظاعة ما فيه من الأمور المزعجة والزلازل المقلقة التي أزعجت هذه الأجرام العظيمة».

أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ
أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾
إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ
وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم
بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا
بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِىٍٕ بِمَا كَسَبَ
رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ
فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ
لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ
﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ
عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ
نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ
رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ
ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾

(١١) ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١١) ﴾: والويل كلمة جامعة لكل عقوبة وحزن وعذاب وخوف.

(١٢) ثم ذكر وصف المكذبين، الذين استحقوا به الويل، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) ﴾؛ أي: خوض بالباطل ولعب به؛ فعلومهم وبحوثهم بالعلوم الضارة المتضمنة للتكذيب بالحق والتصديق بالباطل، وأعمالهم أعمال أهل الجهل والسفه واللعب؛ بخلاف ما عليه أهل التصديق والإيمان من العلوم النافعة والأعمال الصالحة.

(١٣)، (١٤) ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) ﴾؛ أي: يوم يدفعون إليها دفعًا، ويساقون إليها سوقًا عنيفًا، ويجرون على وجوههم، ويقال لهم توبيخًا ولومًا: ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) ﴾: فاليوم ذوقوا عذاب الخلد الذي لا يبلغ قدره ولا يوصف أمره.

(١٥) ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) ﴾: يحتمل أن الإشارة إلى النار والعذاب؛ كما تدل عليه سياق الآيات؛ أي: لما رأوا النار والعذاب؛ قيل لهم من باب التقريع: أهذا سحر لا حقيقة له؛ فقد رأيتموه أم أنتم في الدنيا لا تبصرون؟! أي: لا بصيرة لكم ولا علم عندكم، بل كنتم جاهلين بهذا الأمر، لم تقم عليكم الحجة؟! والجواب انتفاء الأمرين: أما كونه سحرًا؛ فقد ظهر لهم أنه أحق الحق وأصدق الصدق المنافي للسحر من جميع الوجوه. وأما كونهم لا يبصرون؛ فإن الأمر بخلاف ذلك، بل حجة الله قد قامت عليهم، ودعتهم الرسل إلى الإيمان بذلك، وأقامت من الأدلة والبراهين على ذلك ما يجعله من أعظم الأمور المبرهنة الواضحة الجلية.

ويحتمل أن الإشارة بقوله: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) ﴾: إلى ما جاء به محمد ﷺ من الحق المبين والصراط المستقيم؛ أي: أفيتصور مَنْ له عقل أن يقول عنه: إنه سحر. وهو أعظم الحق وأجله، ولكن لعدم بصيرتهم قالوا فيه ما قالوا.

(١٦) ﴿ ٱصْلَوْهَا ﴾؛ أي: ادخلوا النار على وجه تحيط بكم وتشمل أبدانكم وتطلع على أفئدتكم، ﴿ فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ﴾؛ أي: لا يفيدكم الصبر على النار شيئًا، ولا يتأسى بعضكم ببعض، ولا يخفف عنكم العذاب، وليست من الأمور التي إذا صبر العبد عليها هانت مشقتها وزالت شدتها، وإنما فعل بهم ذلك بسبب أعمالهم الخبيثة وكسبهم، ولهذا قال: ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦) ﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ (١٨) كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) ﴾.

(١٧) لما ذكر تعالى عقوبة المكذبين؛ ذكر نعيم المتقين؛ ليجمع بين الترغيب والترهيب، فتكون القلوب بين الخوف والرجاء، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾: لربهم، الذين اتقوا سخطه وعذابه بفعل أسبابه من امتثال الأوامر واجتناب النواهي، ﴿ فِى جَنَّٰتٍ ﴾؛ أي: بساتين، قد اكتست رياضها من الأشجار

الملتفة والأنهار المتدفقة والقصور المحدقة والمنازل المزخرفة، ﴿وَنَعِيمٍ ١٧﴾: وهذا شامل لنعيم القلب والروح والبدن.

١٨ ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾؛ أي: معجبين به، متمتعين على وجه الفرح والسرور بما أعطاهم الله من النعيم الذي لا يمكن وصفه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]. ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ١٨﴾: فرزقهم المحبوب، ونجاهم من المرهوب، لما فعلوا ما أحبه الله وجانبوا ما يسخطه.

١٩ ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾؛ أي: مما تشتهيه أنفسكم من أصناف المآكل والمشارب اللذيذة ﴿هَنِيٓـًٔا﴾؛ أي: متهنئين بذلك على وجه البهجة والفرح والسرور والحبور، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ١٩﴾؛ أي: نلتم ما نلتم بسبب أعمالكم الحسنة وأقوالكم المستحسنة.

٢٠ ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾: الاتكاء هو الجلوس على وجه التمكن والراحة والاستقرار، والسُّرر هي الأرائك المزينة بأنواع الزينة من اللباس الفاخر والفرش الزاهية. ووصف الله السرر بأنها مصفوفة؛ ليدل ذلك على كثرتها وحسن تنظيمها واجتماع أهلها وسرورهم بحسن معاشرتهم وملاطفة بعضهم بعضًا. فلما اجتمع لهم من نعيم القلب والروح والبدن ما لا يخطر بالبال ولا يدور في الخيال من المآكل والمشارب اللذيذة والمجالس الحسنة الأنيقة؛ لم يبق إلا التمتع بالنساء اللاتي لا يتم سرور إلا بهن، فذكر تعالى أن لهم من الأزواج أكمل النساء أوصافًا وخَلقًا وأخلاقًا، ولهذا قال: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ٢٠﴾: وهن النساء اللواتي قد جمعن جمال الصورة الظاهرة وبهاءها ومن الأخلاق الفاضلة ما يوجب أن يحيرن بحسنهن الناظرين، ويسلبن عقول العالمين، وتكاد الأفئدة أن تطير شوقًا إليهن ورغبة في وصالهن، والعين: حسان الأعين مليحاتها، التي صفا بياضها وسوادها.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ
وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ٢١
وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ٢٢ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا
لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ٢٣ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ
مَّكْنُونٌ ٢٤ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ٢٥ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا
قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ
ٱلسَّمُومِ ٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ
ٱلرَّحِيمُ ٢٨﴾.

٢١ وهذا من تمام نعيم الجنة: أن ألحق الله بهم ذريتهم الذين اتبعوهم بإيمان؛ أي: لحقوهم بالإيمان الصادر من آبائهم، فصارت الذرية تبعًا لهم بالإيمان، ومن باب أولى؛ إذا تبعتهم ذريتهم بإيمانهم الصادر منهم أنفسهم؛ فهؤلاء المذكورون يُلحقهم الله بمنازل آبائهم في الجنة، وإن لم يبلغوها؛ جزاء لآبائهم، وزيادة في ثوابهم، ومع ذلك؛ لا ينقص الله الآباء من أعمالهم شيئًا. ولما كان - ربما - توهم متوهم أن أهل النار كذلك يلحق الله بهم ذريتهم؛ أخبر أنه ليس حكم الدارين حكمًا واحدًا؛ فإن النار دار العدل، ومن عدله تعالى ألَّا يعذب أحدًا إلا بذنب، ولهذا قال: ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ٢١﴾؛ أي: مرتهن بعمله؛ فلا تزر وازرة وزر أخرى، ولا يحمل على أحد ذنب أحد، فهذا اعتراض من فوائده إزالة هذا الوهم المذكور.

٢٢ وقوله: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم﴾؛ أي: أمددنا أهل الجنة من فضلنا الواسع ورزقنا العميم، ﴿بِفَٰكِهَةٍ﴾: من العنب والرمان والتفاح وأصناف الفواكه اللذيذة الزائدة على ما به يتقوتون، ﴿وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ٢٢﴾: من كل ما طلبوه واشتهته أنفسهم من لحوم الطير وغيرها.

٢٣ ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾؛ أي: تدور كاسات الرحيق والخمر عليهم، ويتعاطونها فيما بينهم، وتطوف عليهم الولدان المخلدون بأكواب وأباريق. ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ٢٣﴾؛ أي: ليس في الجنة كلام لغو، وهو الذي لا فائدة فيه، ولا تأثيم، وهو الذي فيه إثم ومعصية. وإذا انتفى الأمران؛ ثبت الأمر الثالث، وهو أن كلامهم فيها سلام طيب طاهر مُسَرٌّ للنفوس مفرح للقلوب، يتعاشرون أحسن عشرة، ويتنادمون أطيب المنادمة، ولا يسمعون من ربهم إلا ما يقر أعينهم ويدل على رضاه عنهم ومحبته لهم.

٢٤ ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾؛ أي: خدم شباب، ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ٢٤﴾ من حسنهم وبهائهم، يدورون

عليهم بالخدمة وقضاء أشغالهم[1]، وهذا يدل على كثرة نعيمهم وسعته وكمال راحتهم.

(٢٥) ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥)﴾: عن أمور الدنيا وأحوالها.

(٢٦) ﴿قَالُوا﴾: في ذكر بيان الذي أوصلهم إلى ما هم فيه من الحبرة والسرور: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾؛ أي: في دار الدنيا ﴿فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦)﴾؛ أي: خائفين وجلين، فتركنا من خوفه الذنوب، وأصلحنا لذلك العيوب.

(٢٧) ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾: بالهداية والتوفيق، ﴿وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧)﴾؛ أي: العذاب الحار الشديد حره.

(٢٨) ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾: أن يقينا عذاب السموم، ويوصلنا إلى النعيم، وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة؛ أي: لم نزل نتقرب إليه بأنواع العبادات[2]، وندعوه في سائر الأوقات. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨)﴾: فمن بره بنا ورحمته إيانا أنالنا رضاه والجنة، ووقانا سخطه والنار.

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩)
أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي
مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا ۚ أَمْ هُمْ
قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا
بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤) أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ
أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا
يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧)
أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨)
أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ
مُّثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ
فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ
عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣)﴾.

(٢٩) يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يذكر الناس مسلمهم وكافرهم؛ لتقوم حجة الله على الظالمين، ويهتدي بتذكيره الموفقون، وألَّا يبالي بقول المشركين المكذبين وأذيتهم وأقوالهم التي يصدون بها الناس عن اتباعه، مع علمهم أنه أبعد الناس عنها، ولهذا نفى عنه كل نقص رموه به، فقال: ﴿فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾؛ أي: مَنِّه ولطفه ﴿بِكَاهِنٍ﴾؛ أي: له رَئِيٌّ من الجن يأتيه بخبر بعض الغيوب التي يضم إليها مائة كذبة، ﴿وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩)﴾: فاقد العقل، بل أنت أكمل الناس عقلًا، وأبعدهم عن الشياطين، وأعظمهم صدقًا، وأجلهم، وأكملهم.

(٣٠) وتارة ﴿يَقُولُونَ﴾ فيه: إنه ﴿شَاعِرٌ﴾: يقول الشعر، والذي جاء به شعر، والله يقول: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩]، ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠)﴾؛ أي: ننتظر به الموت، فيبطل أمره ونستريح منه.

(٣١) ﴿قُلْ﴾: لهم جوابًا لهذا الكلام السخيف: ﴿تَرَبَّصُوا﴾؛ أي: انتظروا بي الموت، ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١)﴾: نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده، أو بأيدينا.

(٣٢) ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢)﴾؛ أي: أهذا التكذيب لك والأقوال التي قالوها؛ هل صدرت عن عقولهم وأحلامهم؛ فبئس العقول والأحلام التي هذه نتائجها وهذه ثمراتها؛ فإن عقولًا جعلت أكمل الخلق عقلًا مجنونًا، وجعلت أصدق الصدق وأحق الحق كذبًا وباطلًا؛ لهي العقول التي ينزه المجانين عنها؟ أم الذي حملهم على ذلك ظلمهم وطغيانهم؟ وهو الواقع؛ فالطغيان ليس له حد يقف عليه؛ فلا يستغرب من الطاغي المتجاوز الحد، كل قول وفعل صدر منه.

(٣٣) ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾؛ أي: تقول محمد القرآن وقاله من تلقاء نفسه، ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ (٣٣)﴾؛ فلو آمنوا؛ لم يقولوا ما قالوا.

(٣٤) ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤)﴾: أنه تقوله؛ فإنكم العرب الفصحاء والفحول البلغاء، وقد تحداكم أن تأتوا بمثله؛ فتصدق معارضتكم، أو تقروا بصدقه، وأنكم لو اجتمعتم أنتم والإنس والجن؛ لم تقدروا على معارضته والإتيان بمثله؛ فحينئذ أنتم بين أمرين: إما مؤمنون به مقتدون بهديه، وإما معاندون متبعون لما علمتم من الباطل.

(١) ط: «ما يحتاجون إليه».
(٢) ط: «القربات».

(٣٥) ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾: وهذا استدلال عليهم بأمر لا يمكنهم فيه إلا التسليم للحق، أو الخروج عن موجب العقل والدين. وبيان ذلك أنهم منكرون لتوحيد الله، مكذبون لرسوله، وذلك مستلزم لإنكار أن الله خلقهم، وقد تقرر في العقل مع الشرع أن ذلك لا يخلو من أحد ثلاثة أمور: إما أنهم ﴿ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ ﴾؛ أي: لا خالق خلقهم؛ بل وجدوا من غير إيجاد ولا موجد؛ وهذا عين المحال. ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾: لأنفسهم؛ وهذا أيضًا محال؛ فإنه لا يتصور أن يوجد أحد نفسه. فإذا بطل هذان الأمران وبان استحالتهما؛ تعين القسم الثالث، وهو أن الله هو الذي خلقهم. وإذا تعين ذلك؛ علم أن الله تعالى هو المعبود وحده، الذي لا تنبغي العبادة ولا تصلح إلا له تعالى.

(٣٦) وقوله: ﴿ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾: وهذا استفهام يدل على تقرير النفي؛ أي: ما خلقوا السماوات والأرض، فيكونوا شركاء لله، وهذا أمر واضح جدًّا. ﴿بَل﴾ المكذبون ﴿لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾؛ أي: ليس عندهم[1] يقين يوجب لهم الانتفاع بالأدلة الشرعية والعقلية.

(٣٧) ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾؛ أي: أعند هؤلاء المكذبين خزائن رحمة ربك، فيعطوا من يشاءون ويمنعوا من يشاءون؛ أي: فلذلك حجروا على الله أن يعطي النبوة عبده ورسوله محمدًا ﷺ، وكأنهم الوكلاء المفوضون على خزائن رحمة الله، وهم أحقر وأذل من ذلك؛ فليس في أيديهم لأنفسهم نفع ولا ضر ولا موت ولا حياة ولا نشور؛ ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الزخرف: ٣٢]؟ ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾؛ أي: المتسلِّطون على خلق الله وملكه بالقهر والغلبة؟! ليس الأمر كذلك، بل هم العاجزون الفقراء.

(٣٨) ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾؛ أي: ألهم اطِّلاع على الغيب واستماع له بين الملأ الأعلى، فيخبرون عن أمور لا يعلمها غيرهم، ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم﴾: المدعي لذلك ﴿بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾: وأنى له ذلك والله تعالى عالم الغيب والشهادة؛ فلا يظهر على غيبه أحدًا؛ إلا من ارتضى من رسول يخبره بما أراد من علمه، وإذا كان محمد ﷺ هو أفضل الرسل

(١) زاد في ط: «علم تام و».

سورة الطور

أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَـٰمُهُم بِهَـٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ
بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ
﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟
ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ
رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ
مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَـٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾
أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ
يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾
أَمْ لَهُمْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟
يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا
وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَـٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ
بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾

سُورَةُ النَّجْمِ

٥٢٥

وأعلمهم وإمامهم، وهو المخبر بما أخبر به من توحيد الله ووعده ووعيده وغير ذلك من أخباره الصادقة، والمكذبون هم أهل الجهل والضلال والغي والعناد؛ فأي المخبرين أحق بقبول خبره، خصوصًا والرسول ﷺ قد أقام من الأدلة والبراهين على ما أخبر به ما يوجب أن يكون ذلك[2] عين اليقين وأكمل الصدق، وهم لم يقيموا على ما ادعوه شبهة فضلًا عن إقامة حجة؟!

(٣٩) وقوله: ﴿ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَـٰتُ ﴾: كما زعمتم، ﴿وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾: فتجمعون بين المحذورين: جعلكم له الولد، واختياركم له أنقص الصنفين؛ فهل بعد هذا التنقص لرب العالمين غاية أو دونه نهاية؟!

(٤٠) ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ ﴾: يا أيها الرسول، ﴿أَجْرًا ﴾: على تبليغ الرسالة، ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾: ليس الأمر كذلك، بل أنت الحريص على تعليمهم تبرعًا من غير شيء، بل تبذل

(٢) ط: «خبره».

لهم الأموال الجزيلة على قبول رسالتك والاستجابة لأمرك ودعوتك، وتعطي المؤلفة قلوبهم؛ ليتمكن العلم والإيمان من قلوبهم.

(٤١) ﴿ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ ﴾: ما كانوا يعلمونه من الغيوب، فيكونون قد اطلعوا على ما لم يطلع عليه رسول الله، فعارضوه وعاندوه بما عندهم من علم الغيب، وقد علم أنهم الأمة الأمية الجهال الضالون، ورسول الله ﷺ هو الذي عنده من العلم أعظم من غيره، وأنبأه الله من علم الغيب على ما لم يطلع عليه أحد من الخلق، وهذا كله إلزام لهم بالطرق العقلية والنقلية على فساد قولهم وتصوير بطلانه بأحسن الطرق وأوضحها وأسلمها من الاعتراض.

(٤٢) وقوله: ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ ﴾: بقدحهم فيك وفيما جئت به ﴿ كَيْدًا ﴾: يبطلون به دينك، ويفسدون به أمرك. ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾؛ أي: كيدهم في نحورهم، ومضرته عائدة إليهم، وقد فعل الله ذلك، ولله الحمد، فلم يُبْقِ الكفار من مقدورهم من المكر شيئًا إلا فعلوه، فنصر الله نبيه عليهم، وأظهر دينه، وخذلهم وانتصر منهم.

(٤٣) ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: ألهم إله يدعى ويرجى نفعه ويخاف من ضره غير الله تعالى؟ ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾: فليس له شريك في الملك، ولا شريك في الوحدانية والعبادة، وهذا هو المقصود من الكلام الذي سيق لأجله، وهو بطلان عبادة ما سوى الله، وبيان فسادها بتلك الأدلة القاطعة، وأن ما عليه المشركون هو الباطل، وأن الذي ينبغي أن يعبد ويصلى له ويسجد ويخلص له دعاء العبادة ودعاء المسألة هو الله المألوه المعبود، كامل الأسماء والصفات، كثير النعوت الحسنة والأفعال الجميلة، ذو الجلال والإكرام والعز الذي لا يرام، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الكبير الحميد المجيد.

﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

(٤٤) يقول تعالى في ذكر بيان أن المشركين المكذبين بالحق الواضح قد عتوا عن الحق وعسوا على الباطل، وأنه لو قام على الحق كل دليل؛ لما اتبعوه، ولخالفوه وعاندوه: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا ﴾؛ أي: لو سقط عليهم من السماء من الآيات الباهرة كسف؛ أي: قطع كبار من العذاب، ﴿ يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾؛ أي: هذا سحاب متراكم على العادة؛ أي: فلا يبالون بما رأوا من الآيات، ولا يعتبرون بها!

(٤٥) وهؤلاء لا دواء لهم إلا العذاب والنكال، ولهذا قال: ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾: وهو يوم القيامة، الذي يصيبهم فيه من العذاب ما لا يقادر قدره ولا يوصف أمره.

(٤٦) ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾؛ أي: لا قليلًا ولا كثيرًا، وإن كان في الدنيا قد يوجد منهم كيد يعيشون به زمنًا قليلًا؛ فيوم القيامة يضمحل كيدهم، وتبطل مساعيهم، ولا ينتصرون من عذاب الله، ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾.

(٤٧) لما ذكر الله عذاب الظالمين في الآخرة؛ أخبر أن لهم عذابًا قبل عذاب يوم القيامة، وذلك شامل لعذاب الدنيا بالقتل والسبي والإخراج من الديار، ولعذاب البرزخ والقبر. ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾؛ أي: فلذلك أقاموا على ما يوجب العذاب وشدة العقاب.

(٤٨)، (٤٩) ولما بين تعالى الحجج والبراهين على بطلان أقوال المكذبين؛ أمر رسوله ﷺ ألَّا يعبأ بهم شيئًا، وأن يصبر لحكم ربه القدري والشرعي؛ بلزومه والاستقامة عليه، ووعده الله الكفاية بقوله: ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾؛ أي: بمرأى منا وحفظ واعتناء بأمرك، وأمره أن يستعين على الصبر بالذكر والعبادة، فقال: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ ﴾؛ من الليل؛ ففيه الأمر بقيام الليل، أو حين تقوم إلى الصلوات الخمس؛ بدليل قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾؛ أي: آخر الليل، ويدخل فيه صلاة الفجر. والله أعلم.

تم تفسير سورة والطور. والحمد لله.



تفسير سورة والنجم

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ① مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ② وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ③ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ④ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ⑤ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ⑥ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ⑦ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ⑧ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ⑨ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ⑩ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ⑪ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ⑫ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ⑬ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ⑭ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ⑮ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ⑯ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ⑰ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ⑱﴾.

① يقسم تعالى بالنجم عند هويه؛ أي: سقوطه في الأفق في آخر الليل عند إدبار الليل وإقبال النهار؛ لأن في ذلك من الآيات العظيمة ما أوجب أن أقسم به، والصحيح أن النجم اسم جنس شامل للنجوم كلها. وأقسم بالنجوم على صحة ما جاء به الرسول ﷺ من الوحي الإلهي؛ لأن في ذلك مناسبة عجيبة؛ فإن الله تعالى جعل النجوم زينة للسماء؛ فكذلك الوحي وآثاره زينة للأرض؛ فلولا العلم الموروث عن الأنبياء؛ لكان الناس في ظلمة أشد من ظلمة الليل البهيم.

② والمقسم عليه تنزيه الرسول ﷺ عن الضلال في علمه والغي في قصده، ويلزم من ذلك أن يكون مهتديًا في علمه هاديًا حسن القصد ناصحًا للخلق[1]، بعكس ما عليه أهل الضلال من فساد العلم وسوء القصد، وقال: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾؛ لينبههم على ما يعرفونه منه من الصدق والهداية، وأنه لا يخفى عليهم أمره.

③، ④ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ③﴾؛ أي: ليس نطقه صادرًا عن هوى نفسه. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ④﴾؛ أي: لا يتبع إلا ما أوحي إليه من الهدى والتقوى في نفسه وفي غيره. ودل هذا على أن السنة وحي من الله لرسوله ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣]. وأنه معصوم فيما يخبر به عن الله تعالى وعن شرعه؛ لأن كلامه لا يصدر عن هوى، وإنما يصدر عن وحي يوحى.

⑤ ثم ذكر المعلم للرسول ﷺ، وهو جبريل عليه السلام، أفضل الملائكة الكرام وأقواهم وأكملهم، فقال: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ⑤﴾؛ أي: نزل بالوحي على الرسول ﷺ جبريل عليه السلام، شديد القوى؛ أي: شديد القوة الظاهرة والباطنة، قوي على تنفيذ ما أمره الله بتنفيذه، قوي على إيصال الوحي إلى الرسول ﷺ ومنعه من اختلاس الشياطين له أو إدخالهم فيه ما ليس منه، وهذا من حفظ الله لوحيه؛ أن أرسله مع هذا الرسول القوي الأمين.

⑥ ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾؛ أي: قوة وخلق حسن وجمال ظاهر وباطن، ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾: جبريل عليه السلام.

⑦ ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ⑦﴾؛ أي: أفق السماء الذي هو أعلى من الأرض؛ فهو من الأرواح العلوية، التي لا تنالها الشياطين ولا يتمكنون من الوصول إليها.

⑧ ﴿ثُمَّ دَنَا﴾: جبريل من النبي ﷺ لإيصال الوحي إليه، ﴿فَتَدَلَّىٰ ⑧﴾: عليه من الأفق الأعلى.

⑨ ﴿فَكَانَ﴾: في قربه منه ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾؛ أي: قدر قوسين، والقوس معروف، ﴿أَوْ أَدْنَىٰ ⑨﴾؛ أي: أقرب من القوسين. وهذا يدل على كمال مباشرته للرسول ﷺ بالرسالة، وأنه لا واسطة بينه وبين جبريل عليه السلام.

(١) ط: «للأمة».

(١٠) ﴿فَأَوْحَىٰ﴾ الله بواسطة جبريل عليه السلام ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ (١٠)﴾؛ أي: الذي أوحاه إليه من الشرع العظيم والنبأ المستقيم.

(١١)، (١٢) ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ (١١)﴾؛ أي: اتفق فؤاد الرسول ﷺ ورؤيته على الوحي الذي أوحاه الله إليه، وتواطأ عليه سمعه وبصره وقلبه، وهذا دليل على كمال الوحي الذي أوحاه الله إليه، وأنه تلقاه منه تلقيًا لا شك فيه ولا شبهة ولا ريب، فلم يكذب فؤاده ما رأى بصره، ولم يشك في ذلك.

ويحتمل أن المراد بذلك ما رأى ﷺ ليلة أسري به من آيات الله العظيمة، وأنه تيقنه حقًا بقلبه ورؤيته، هذا هو الصحيح في تأويل الآية الكريمة. وقيل: إن المراد بذلك رؤية الرسول ﷺ لربه ليلة الإسراء وتكليمه إياه. وهذا اختيار كثير من العلماء رحمهم الله، فأثبتوا بهذا رؤية الرسول ﷺ لربه في الدنيا.

ولكن الصحيح القول الأول، وأن المراد به جبريل عليه السلام؛ كما يدل عليه السياق، وأن محمدًا ﷺ رأى جبريل في صورته الأصلية التي هو عليها مرتين[1]: مرة في الأفق الأعلى تحت السماء الدنيا كما تقدم، والمرة الثانية فوق السماء السابعة ليلة أسري برسول الله ﷺ.

(١٣)، (١٤) ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣)﴾؛ أي: رأى محمد جبريل مرة أخرى نازلًا إليه، ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ (١٤)﴾: وهي شجرة عظيمة جدًا فوق السماء السابعة، سميت سدرة المنتهى؛ لأنه ينتهي إليها ما يعرج من الأرض، وينزل إليها ما ينزل من الله من الوحي وغيره، أو لانتهاء علم المخلوقات إليها؛ أي: لكونها فوق السماوات والأرض؛ فهي المنتهى في علوها، أو لغير ذلك. والله أعلم. فرأى محمد ﷺ جبريل في ذلك المكان الذي هو محل الأرواح العلوية الزاكية الجميلة التي لا يقربها شيطان ولا غيره من الأرواح الخبيثة.

(١٥) عند تلك الشجرة، ﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ (١٥)﴾؛ أي: الجنة الجامعة لكل نعيم؛ بحيث كانت محلًا تنتهي إليه الأماني، وترغب فيها الإرادات، وتأوي إليها الرغبات. وهذا دليل على أن الجنة في أعلى الأماكن وفوق السماء السابعة.

(١٦) ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦)﴾؛ أي: يغشاها من أمر الله شيء عظيم لا يعلم وصفه إلا الله عز وجل.

(١٧) ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾؛ أي: ما زاغ يمنة ولا يسرة عن مقصوده ﴿وَمَا طَغَىٰ (١٧)﴾؛ أي: وما تجاوز البصر. وهذا كمال الأدب منه صلوات الله وسلامه عليه؛ أن قام مقامًا أقامه الله فيه، ولم يقصر عنه ولا تجاوزه ولا حاد عنه، وهذا أكمل ما يكون من الأدب العظيم، الذي فاق فيه الأولين والآخرين؛ فإن الإخلال يكون بأحد هذه الأمور: إما ألّا يقوم العبد بما أمر به، أو يقوم به على وجه التفريط، أو على وجه الإفراط، أو على وجه الحيدة يمينًا وشمالًا. وهذه الأمور كلها منتفية عنه ﷺ.

(١٨) ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ (١٨)﴾: من الجنة والنار وغير ذلك من الأمور التي رآها ﷺ ليلة أسري به.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ (٢٠) أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ (٢٢) إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ (٢٣) أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ (٢٤) فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ (٢٥)﴾.

(١٩)، (٢٠) لما ذكر تعالى ما جاء به محمد ﷺ من الهدى ودين الحق والأمر بعبادة الله وتوحيده؛ ذكر بطلان ما عليه المشركون من عبادة من ليس له من أوصاف الكمال شيء ولا تنفع ولا تضر، وإنما هي أسماء فارغة من المعنى سماها المشركون هم وآباؤهم الجهال الضلال، ابتدعوا لها من الأسماء الباطلة التي لا تستحقها، فخدعوا بها أنفسهم وغيرهم من الضلال؛ فالآلهة التي بهذه الحال لا تستحق مثقال ذرة من العبادة، وهذه الأنداد التي سموها بهذه الأسماء زعموا أنها مشتقة من أوصاف هي متصفة بها، فسموا اللات من الإله المستحق للعبادة، والعزى من العزيز، ومناة من المنان؛ إلحادًا في أسماء الله، وتجريًا على الشرك به! وهذه أسماء متجردة من المعاني؛ فكل من له أدنى مسكة من عقل يعلم بطلان هذه الأوصاف فيها.

(٢١) ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ (٢١)﴾؛ أي: أتجعلون لله البنات بزعمكم ولكم البنون.

(٢٢) ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ (٢٢)﴾؛ أي: ظالمة جائرة. وأي ظلم أعظم من قسمة تقتضي تفضيل العبد المخلوق على الخالق؟! تعالى عن قولهم علوًا كبيرًا.

(٢٣) وقوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾؛ أي: من حجة وبرهان على صحة مذهبكم، وكل أمر ما أنزل الله به من سلطان؛ فهو باطل فاسد لا يتخذ دينًا، وهم في أنفسهم ليسوا بمتبعين لبرهان يتيقنون به ما ذهبوا إليه، وإنما دلهم على قولهم الظنُّ الفاسد والجهل الكاسد، وما تهواه أنفسهم من الشرك والبدع الموافقة لأهويتهم، والحال أنه لا موجب لهم يقتضي ذلك

(١) مسلم (١٧٧).

إلا اتباعهم للظن من فقد العلم والهدى، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾﴾؛ أي: الذي يرشدهم في باب التوحيد والنبوة وجميع المطالب التي يحتاج إليها العباد؛ فكلها قد بينها الله أكمل بيان وأوضحه وأدله على المقصود، وأقام عليه من الأدلة والبراهين ما يوجب لهم ولغيرهم اتباعه، فلم يبق لأحد حجة ولا عذر من بعد البيان والبرهان، وإذا كان ما هم عليه غايته اتباع الظن ونهايته الشقاء الأبدي والعذاب السرمدي؛ فالبقاء على هذه الحال من أسفه السفه وأظلم الظلم.

﴿٢٤﴾، ﴿٢٥﴾ ومع ذلك يتمنون الأماني ويغترون بأنفسهم! ولهذا أنكر تعالى على من زعم أنه يحصل له ما تمنى وهو كاذب في ذلك، فقال: ﴿أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾: فيعطي منهما من يشاء ويمنع من يشاء؛ فليس الأمر تابعًا لأمانيهم ولا موافقًا لأهوائهم.

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿٢٦﴾ يقول تعالى منكرًا على من عبد غيره من الملائكة وغيرهم، وزعم أنها تنفعه وتشفع له عند الله يوم القيامة: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ﴾: من الملائكة المقربين وكرام الملائكة، ﴿لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾؛ أي: لا تفيد من دعاها وتعلق بها ورجاها، ﴿إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴿٢٦﴾﴾؛ أي: لا بد من اجتماع الشرطين: إذنه تعالى في الشفاعة، ورضاه عن المشفوع له. ومن المعلوم المتقرر أنه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجه الله، موافقًا فيه صاحبه الشريعة؛ فالمشركون إذًا لا نصيب لهم من شفاعة الشافعين؛ وقد سدوا على أنفسهم رحمة أرحم الراحمين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿٢٧﴾ يعني: أن المشركين بالله، المكذبين لرسله، الذين لا يؤمنون بالآخرة؛ وبسبب عدم إيمانهم بالآخرة؛ تجرءوا على ما تجرءوا عليه من الأقوال والأفعال المحادة لله ولرسوله؛ من قولهم: الملائكة بنات الله! فلم ينزهوا ربهم عن الولادة، ولم يكرموا الملائكة ويجلُّوهم عن تسميتهم إياهم إناثًا، والحال أنه ليس لهم بذلك علم لا عن الله ولا

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾
وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ
الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن
سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا
فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا
بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ
إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ
وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ
بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ
﴿٣٤﴾ أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ
مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ
﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ
يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ
﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾

عن رسوله ولا دلت على ذلك الفطر والعقول، بل العلم كله دالٌّ على نقيض قولهم، وأن الله منزه عن الأولاد والصاحبة؛ لأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، وأن الملائكة كرام مقربون إلى الله قائمون بخدمته، ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم: ٦].

﴿٢٨﴾ والمشركون إنما يتبعون في ذلك القول القبيح، وهو الظن الذي لا يغني من الحق شيئًا؛ فإن الحق لا بد فيه من اليقين المستفاد من الأدلة والبراهين الساطعة.

﴿٢٩﴾ ولما كان هذا دأب هؤلاء المذكورين، أنهم لا غرض لهم في اتباع الحق، وإنما غرضهم ومقصودهم ما تهواه نفوسهم؛ أمر الله رسوله بالإعراض عمَّن تولى عن ذكره، الذي هو الذكر الحكيم والقرآن العظيم، فأعرض عن العلوم النافعة، ولم يرد إلا الحياة الدنيا؛ فهذا منتهى إرادته. ومن المعلوم أن العبد لا يعمل إلا للشيء الذي يريده؛ فسعي هؤلاء مقصور على الدنيا ولذاتها وشهواتها كيف حصلت حصلوها، وبأي طريق سنحت ابتدروها.

(٣٠) ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾؛ أي: هذا منتهى علمهم وغايته، وأما المؤمنون بالآخرة المصدقون بها أولو الألباب والعقول؛ فهمتهم وإرادتهم للدار الآخرة، وعلومهم أفضل العلوم وأجلها، وهو العلم المأخوذ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والله تعالى أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه ممن لا يستحق ذلك فيكله إلى نفسه ويخذله فيضل عن سبيل الله، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ (٣٠) ﴾: فيضع فضله حيث يعلم المحل اللائق به.

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى (٣١) ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ (٣٢) ﴾.

(٣١) يخبر تعالى أنه مالك الملك، المتفرد بملك الدنيا والآخرة، وأن جميع ما فيهما ملك لله، يتصرف فيهم تصرف الملك العظيم في عبيده ومماليكه، ينفذ فيهم قدره، ويجري عليهم شرعه، ويأمرهم وينهاهم، ويجزيهم على ما أمرهم به ونهاهم عنه، فيثيب المطيع ويعاقب العاصي، ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟﴾ العمل من سيئات الكفر فما دونه من المعاصي، وبما عملوه من أعمال الشر بالعقوبة الفظيعة[1]، ﴿وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾: في عبادة الله، وأحسنوا إلى خلق الله بأنواع المنافع ﴿بِٱلْحُسْنَى (٣١)﴾؛ أي: بالحالة الحسنة في الدنيا والآخرة، وأكبر ذلك وأجله رضا ربهم والفوز بالجنة وما فيها من نعيم.

(٣٢) ثم ذكر وصفهم، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ ﴾؛ أي: يفعلون ما أمرهم الله به من الواجبات، التي يكون تركها من كبائر الذنوب، ويتركون المحرمات الكبار من الزنا وشرب الخمر وأكل الربا والقتل ونحو ذلك من الذنوب العظيمة، ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾: وهو الذنوب الصغار التي لا يصر صاحبها عليها، أو التي يلم العبد بها المرة بعد المرة على وجه الندرة والقلة؛ فهذه ليس مجرد الإقدام عليها مخرجًا للعبد من أن يكون من المحسنين؛ فإن هذه مع الإتيان بالواجبات وترك المحرمات تدخل تحت مغفرة الله التي وسعت كل شيء، ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾: فلولا مغفرته؛ لهلكت البلاد والعباد، ولولا عفوه وحلمه؛ لسقطت السماء على الأرض، ولما ترك على ظهرها من دابة، ولهذا قال النبي ﷺ: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان؛ مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر**»[2]. وقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾؛ أي: هو تعالى أعلم بأحوالكم كلها، وما جبلكم عليه من الضعف والخور عن كثير مما أمركم الله به، ومن كثرة الدواعي إلى فعل المحرمات، وكثرة الجواذب إليها، وعدم الموانع القوية، والضعف موجود مشاهد منكم حين أخرجكم[3] الله من الأرض، وإذ كنتم في بطون أمهاتكم، ولم يزل موجودًا فيكم، وإن كان الله تعالى قد أوجد فيكم قوة على ما أمركم به. ولكن الضعف لم يزل؛ فلعلمه تعالى بأحوالكم هذه؛ ناسبت الحكمة الإلهية والجود الرباني أن يتغمدكم برحمته ومغفرته وعفوه، ويغمركم بإحسانه، ويزيل عنكم الجرائم والمآثم، خصوصًا إذا كان العبد مقصوده مرضاة ربه في جميع الأوقات، وسعيه فيما يقرب إليه في أكثر الآنات، وفراره من الذنوب التي يَتَمقَّتُ بها عند مولاه، ثم تقع منه الفلتة بعد الفلتة؛ فإن الله تعالى أكرم الأكرمين وأجود الأجودين[4]، أرحم بعباده من الوالدة بولدها؛ فلا بد لمثل هذا أن يكون من مغفرة ربه قريبًا، وأن يكون الله له في جميع أحواله مجيبًا، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: تخبرون الناس بطهارتها على وجه التمدح عندهم، ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ (٣٢)﴾؛ فإن التقوى محلها القلب، والله هو المطلع عليه، المجازي على ما فيه من بر وتقوى، وأما الناس؛ فلا يغنون عنكم من الله شيئًا.

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ (٣٣) وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ (٣٤) أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ (٤١) وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ (٤٢) وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ (٤٧) ﴾.

(٣٣) - (٣٥) يقول تعالى: أفرأيت قبح حالة مَنْ أُمِرَ بعبادة ربه وتوحيده فتولى عن ذلك وأعرض عنه؟! فإن سمحت نفسه ببعض الشيء القليل؛ فإنه لا يستمر عليه، بل يبخل ويُكدي ويمنع؛ فإن الإحسان ليس سجية له وطبعًا، بل طبعه التولي عن الطاعة وعدم الثبوت على فعل المعروف، ومع

(١) ط: «البليغة».

(٢) مسلم (٢٣٣).
(٣) ط: «أنشأكم».
(٤) ط: «وأرحم الراحمين».

هذا؛ فهو يزكي نفسه وينزلها غير منزلتها التي أنزلها الله بها. ﴿ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ ﴾: الغيب فيخبر به؟! أم هو متقول على الله متجرئ عليه جامع بين المحذورين الإساءة والتزكية؟! كما هو الواقع؛ لأنه قد عُلم أنه ليس عنده علم من الغيب، وأنه لو قدر أنه ادعى ذلك؛ فالإخبارات القاطعة عن علم الغيب التي على يد النبي المعصوم تدل على نقيض قوله، وذلك دليل على بطلانه.

﴿٣٦﴾، ﴿٣٧﴾ ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ ﴾: هذا المدعي ﴿ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾؛ أي: قام بجميع ما ابتلاه الله به، وأمره به من الشرائع وأصول الدين وفروعه.

﴿٣٨﴾ - ﴿٤١﴾ وفي تلك الصحف أحكام كثيرة، من أهمها ما ذكره الله بقوله: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾؛ أي: كل عامل له عمله الحسن والسيئ؛ فليس له من عمل غيره وسعيه شيء، ولا يتحمل أحد عن أحد ذنبًا، ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾: في الآخرة، فيميز حسنه من سيئه، ﴿ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾؛ أي: المستكمل لجميع العمل، الخالص الحسن بالحسنى، والسيئ الخالص بالسُّوأى، والمشوب بحسبه؛ جزاء تقرُّ بعدله وإحسانه الخليقة كلها، وتحمد الله عليه، حتى إن أهل النار ليدخلون النار، وإن قلوبهم مملوءة من حمد ربهم والإقرار له بكمال الحكمة ومقت أنفسهم، وأنهم الذين أوصلوا أنفسهم وأوردوها شر الموارد. وقد استدل بقوله: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾: من يرى أن القرب لا يجوز إهداؤها للأحياء ولا للأموات، قالوا: لأن الله قال: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾؛ فوصول سعي غيره إليه منافٍ لذلك. وفي هذا الاستدلال نظر؛ فإن الآية إنما تدل على أنه ليس للإنسان إلا ما سعى بنفسه، وهذا حق لا خلاف فيه، وليس فيها ما يدل على أنه لا ينتفع بسعي غيره إذا أهداه ذلك الغير إليه؛ كما أنه ليس للإنسان من المال إلا ما هو في ملكه وتحت يده، ولا يلزم من ذلك ألَّا يملك ما وهبه الغير له من ماله الذي يملكه.

﴿٤٢﴾ وقوله: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾؛ أي: إليه تنتهي الأمور، وإليه تصير الأشياء والخلائق بالبعث والنشور، وإلى الله المنتهى في كل حال؛ فإليه ينتهي العلم والحكم والرحمة وسائر الكمالات.

﴿٤٣﴾ ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾؛ أي: هو الذي أوجد أسباب الضحك والبكاء، وهو الخير والشر والفرح والسرور والهم والحزن، وهو سبحانه له الحكمة البالغة في ذلك.

﴿٤٤﴾ ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ ﴾؛ أي: هو المنفرد بالإيجاد والإعدام، والذي أوجد الخلق وأمرهم ونهاهم، سيعيدهم بعد موتهم، ويجازيهم بتلك الأعمال التي عملوها في دار الدنيا.

﴿٤٥﴾، ﴿٤٦﴾ ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ﴾: فسرهما بقوله: ﴿ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾: وهذا اسم جنس شامل لجميع الحيوانات ناطقها وبهيمها؛ فهو المنفرد بخلقها ﴿ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾: وهذا من أعظم الأدلة على كمال قدرته وانفراده بالعزة العظيمة؛ حيث أوجد تلك الحيوانات صغيرها وكبيرها من نطفة ضعيفة من ماء مهين، ثم نماها وكملها حتى بلغت ما بلغت، ثم صار الآدمي منها إما إلى أرفع المقامات في أعلى عليين، وإما إلى أدنى الحالات في أسفل سافلين.

﴿٤٧﴾ ولهذا استدل بالبداءة على الإعادة، فقال: ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ ﴾: فيعيد العباد من الأجداث، ويجمعهم ليوم الميقات، ويجازيهم على الحسنات والسيئات.

﴿٤٨﴾ ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾؛ أي: أغنى العباد بتيسير أمر معاشهم من التجارات وأنواع المكاسب من الحرف وغيرها، ﴿ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾؛ أي: أفاد عباده من الأموال بجميع أنواعها ما يصيرون به مقتنين لها ومالكين لكثير من الأعيان، وهذا من نعمه تعالى؛ أن أخبرهم أن جميع النعم منه، وهذا يوجب للعباد أن يشكروه ويعبدوه وحده لا شريك له.

﴿٤٩﴾ ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾: وهو النجم المعروف بالشعرى العبور، المسماة بالمرزم، وخصها الله بالذكر وإن كان هو رب كل شيء؛ لأن هذا النجم مما عبد في الجاهلية، فأخبر تعالى أن جنس ما يعبد المشركون مربوب مدبر مخلوق؛ فكيف يتخذ مع الله آلهة؟!

﴿٥٠﴾ ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾: وهم قوم هود عليه السلام حين كذبوا هودًا، فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية.

﴿٥١﴾ ﴿ وَثَمُودَا۟ ﴾: قوم صالح عليه السلام؛ أرسله الله إلى ثمود، فكذبوه، فبعث الله إليهم الناقة آية، فعقروها وكذبوه، فأهلكهم الله تعالى، ﴿ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ ﴾: منهم أحدًا، بل أبادهم عن آخرهم.

﴿٥٢﴾ ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ ﴾: من هؤلاء الأمم، فأهلكهم الله وأغرقهم.

﴿٥٣﴾، ﴿٥٤﴾ ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ ﴾: وهم قوم لوط عليه السلام، ﴿ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ ﴾؛ أي: أصابهم الله بعذاب ما عذب به أحدًا من العالمين قلب أسفل ديارهم أعلاها، وأمطر عليهم

وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ
عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ
ٱلشِّعۡرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ﴿٥١﴾
وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ
أَهۡوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾
هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيۡسَ لَهَا مِن
دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضۡحَكُونَ
وَلَا تَبۡكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ وَٱعۡبُدُواْ۩ ﴿٦٢﴾

سُورَةُ القَمَر (٥٤) آياتها ٥٥

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ
وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ
وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ﴿٣﴾ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ
مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ
﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ﴿٦﴾

حجارة من سجيل، ولهذا قال: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾؛ أي: غشيها من العذاب الأليم الوخيم ما غشى؛ أي: شيء عظيم لا يمكن وصفه.

﴿٥٥﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾؛ أي: فبأي نعم الله وفضله تشك أيها الإنسان؛ فإن نعم الله ظاهرة لا تقبل الشك بوجه من الوجوه؛ فما بالعباد من نعمة إلا منه تعالى، ولا يدفع النقم إلا هو.

﴿٥٦﴾ ﴿هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾؛ أي: هذا الرسول القرشي الهاشمي محمد بن عبد الله ليس ببدع من الرسل، بل قد تقدمه من الرسل السابقين، ودعوا إلى ما دعا إليه؛ فلأي شيء تنكر رسالته؟! وبأي حجة تبطل دعوته؟! أليست أخلاقه أعلى أخلاق الرسل الكرام؟! أليس يدعو إلى كل خير وينهى عن كل شر؟! ألم يأت بالقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد؟! ألم يهلك الله من كذب من قبله من الرسل الكرام؟! فما الذي يمنع العذاب عن المكذبين لمحمد سيد المرسلين وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين؟!

﴿٥٧﴾ ﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ﴿٥٧﴾﴾؛ أي: قربت القيامة ودنا وقتها وبانت علاماتها، ﴿لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾؛ أي: إذا أتت القيامة وجاءهم العذاب الموعود به.

﴿٥٨﴾ ثم توعد المنكرين لرسالة الرسول محمد ﷺ، المكذبين لما جاء به من القرآن الكريم، فقال:

﴿٥٩﴾ ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ﴿٥٩﴾﴾؟ أي: أفمن هذا الحديث الذي هو خير الكلام وأفضله وأشرفه تتعجبون، وتجعلونه من الأمور المخالفة للعادة، الخارقة للأمور والحقائق المعروفة؟! هذا من جهلهم وضلالهم وعنادهم، وإلا؛ فهو الحديث الذي إذا حدث صدق، وإذا قال قولًا فهو القول الفصل، ليس بالهزل، وهو القرآن العظيم، الذي لو أنزل على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله، الذي يزيد ذوي الأحلام رأيًا وعقلًا وتسديدًا وثباتًا وإيقانًا وإيمانًا، بل الذي ينبغي العجب من عقل من تعجب منه، وسفهه وضلاله.

﴿٦٠﴾ ﴿وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ ﴿٦٠﴾﴾؛ أي: تستعجلون الضحك والاستهزاء به، مع أن الذي ينبغي أن تتأثر منه النفوس وتلين له القلوب وتبكي له العيون؛ سماعًا لأمره ونهيه، وإصغاء لوعده ووعيده، والتفاتًا لأخباره الصادقة الحسنة.

﴿٦١﴾ ﴿وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾؛ أي: غافلون لاهون عنه وعن تدبره، وهذا من قلة عقولكم وأديانكم؛ فلو عبدتم الله وطلبتم رضاه في جميع الأحوال؛ لما كنتم بهذه المثابة التي يأنف منها أولو الألباب.

﴿٦٢﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ وَٱعۡبُدُواْ۩ ﴿٦٢﴾﴾: الأمر بالسجود لله خصوصًا يدل على فضله، وأنه سر العبادة ولبها؛ فإن روحها الخشوع لله والخضوع له، والسجود هو أعظم حالة يخضع بها العبد؛ فإنه يخضع قلبه وبدنه، ويجعل أشرف أعضائه على الأرض المهينة موضع وطء الأقدام. ثم أمر بالعبادة عمومًا الشاملة لجميع ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

تم تفسير سورة والنجم، والحمد لله[1].



(١) زاد في ط: الذي لا نحصي ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه عباده وصلى الله على محمد وسلم تسليمًا كثيرًا

تفسير سورة اقتربت الساعة
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ① وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ② وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ③ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ④ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ⑤ ﴾.

① يخبر تعالى أن الساعة - وهي القيامة - اقتربت، وآن أوانها، وحان وقت مجيئها، ومع هذا؛ فهؤلاء المكذبون لم يزالوا مكذبين بها غير مستعدين لنزولها، ويريهم الله من الآيات العظيمة الدالة على وقوعها ما يؤمن على مثله البشر؛ فمن أعظم الآيات الدالة على صحة ما جاء به محمد بن عبد الله ﷺ أنه لما طلب منه المكذبون أن يريهم من خوارق العادات ما يدل على صحة ما جاء به وصدقه؛ أشار ﷺ إلى القمر، فانشق بإذن الله فلقتين؛ فلقة على جبل أبي قبيس، وفلقة على جبل قعيقعان، والمشركون وغيرهم يشاهدون هذه الآية الكبرى الكائنة في العالم العلوي، التي لا يقدر الخلق على التمويه بها والتخييل، فشاهدوا أمرًا ما رأوا مثله، بل ولم يسمعوا أنه جرى لأحد من المرسلين قبله نظيره، فانبهروا لذلك، ولم يدخل الإيمان في قلوبهم، ولم يرد الله بهم خيرًا، ففزعوا إلى بَهتهم وطغيانهم، وقالوا: سحرنا محمد! ولكن علامة ذلك أنكم تسألون من ورد عليكم من السفر؛ فإنه وإن قدر على سحركم؛ لا يقدر أن يسحر من ليس مشاهدًا مثلكم! فسألوا كل من قدم، فأخبروهم بوقوع ذلك، فقالوا: ﴿ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ② ﴾! سحرنا محمد وسحر غيرنا!! وهذا من البَهت الذي لا يروج إلا على أسفه الخلق وأضلهم عن الهدى والعقل.

② وهذا ليس إنكارًا منهم لهذه الآية وحدها، بل كل آية تأتيهم؛ فإنهم مستعدون لمقابلتها بالتكذيب والرد لها، ولهذا قال: ﴿ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا ﴾: فلم يعد الضمير على انشقاق القمر[1]، بل قال: ﴿ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا ﴾؛ فليس قصدهم اتباع الحق والهدى، وإنما مقصودهم اتباع الهوى.

③ ولهذا قال: ﴿ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾؛ كقوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [القصص: ٥٠]؛ فإنه لو كان قصدهم اتباع الهدى؛ لآمنوا قطعًا واتبعوا محمدًا ﷺ؛ لأنه أراهم الله على يديه من البينات والبراهين والحجج القواطع ما دل على جميع المطالب الإلهية والمقاصد الشرعية، ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ③ ﴾؛ أي: إلى الآن لم يبلغ الأمر غايته ومنتهاه، وسيصير الأمر إلى آخره؛ فالمصدق يتقلب في جنات النعيم ومغفرة الله ورضوانه، والمكذب يتقلب في سخط الله وعذابه خالدًا مخلدًا أبدًا.

④ وقال تعالى مبينًا أنهم ليس لهم قصد صحيح واتباع للهدى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ ﴾؛ أي: الأخبار السابقة واللاحقة والمعجزات الظاهرة ﴿ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ④ ﴾؛ أي: زاجر يزجرهم عن غيهم وضلالهم.

⑤ وذلك ﴿ حِكْمَةٌ ﴾: منه تعالى ﴿ بَالِغَةٌ ﴾؛ أي: لتقوم حجته على العالمين[2]، ولا يبقى لأحد على الله حجة بعد الرسل، ﴿ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ⑤ ﴾؛ كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ⑨⑦ ﴾ [يونس: ٩٧].

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ⑥ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ⑦ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ⑧ ﴾.

⑥ يقول تعالى لرسوله ﷺ: قد بان أن المكذبين لا حيلة في هداهم، فلم يبق إلا الإعراض عنهم، فقال: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾: وانتظر بهم يومًا عظيمًا وهولًا جسيمًا، وذلك حين ﴿ يَدْعُ الدَّاعِ ﴾؛ وهو إسرافيل عليه السلام ﴿ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ⑥ ﴾؛ أي: إلى أمر فظيع تنكره الخليقة، فلم تر منظرًا أفظع ولا أوجع منه، فينفخ إسرافيل نفخة يخرج بها الأموات من قبورهم لموقف القيامة.

⑦ ﴿ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ ﴾؛ أي: من الهول والفزع الذي وصل إلى قلوبهم، فخضعت وذلت، وخشعت لذلك أبصارهم ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ ﴾: وهي القبور ﴿ كَأَنَّهُمْ ﴾: من كثرتهم وروجانِ بعضهم ببعض ﴿ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ⑦ ﴾؛ أي: مبثوث في الأرض متكاثر جدًّا.

⑧ ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ﴾؛ أي: مسرعين لإجابة نداء الداعي، وهذا يدل على أن الداعي يدعوهم ويأمرهم بالحضور لموقف القيامة، فيلبون دعوته ويسرعون إلى إجابته، ﴿ يَقُولُ الْكَافِرُونَ ﴾: الذين قد حضر عذابهم: ﴿ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ⑧ ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ⑩ ﴾ [المدثر: ١٠]: مفهوم ذلك أنه يسير سهل على المؤمنين.

---

(١) زاد في ط: «فلم يقل: وإن يروها».

(٢) ط: «المخالفين».

خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾
مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ۞ كَذَّبَتْ
قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا
رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ
﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾
وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ
كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ
عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ
﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ
نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا
مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ
مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ
ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿٩﴾ لما ذكر تبارك وتعالى حال المكذبين لرسوله وأن الآيات لا تنفع فيهم ولا تجدي عليهم شيئًا؛ أنذرهم وخوفهم بعقوبات الأمم الماضية المكذبة للرسل، وكيف أهلكهم الله وأحل بهم عقابه، فذكر قوم نوح؛ أول رسول بعثه الله إلى قوم يعبدون الأصنام، فدعاهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فامتنعوا من ترك الشرك، وقالوا: ﴿ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [نوح: ٢٣]، ولم يزل نوح يدعوهم إلى الله ليلًا ونهارًا سرًّا وجهارًا، فلم يزدهم ذلك إلا عنادًا وطغيانًا وقدحًا في نبيهم، ولهذا قال هنا: ﴿ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ ﴾: لزعمهم أن ما هم عليه وآباؤهم من الشرك والضلال هو الذي يدل عليه العقل، وأن ما جاء به نوح عليه السلام جهل وضلال لا يصدر إلا من المجانين، وكذبوا في ذلك، وقلبوا الحقائق الثابتة شرعًا وعقلًا؛ فإن ما جاء به هو الحق الثابت الذي يرشد العقول النيرة المستقيمة إلى الهدى والنور والرشد، وما هم عليه جهل وضلال مبين. وقوله: ﴿ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ ﴾؛ أي: زجره قومه وعنفوه لما دعاهم إلى الله تعالى، فلم يكفهم - قبحهم الله - عدم الإيمان به ولا تكذيبهم إياه، حتى أوصلوا إليه من أذيتهم ما قدروا عليه، وهكذا جميع أعداء الرسل هذه حالهم مع أنبيائهم.

﴿١٠﴾ فعند ذلك دعا نوح ربه، فقال: ﴿ أَنِّى مَغْلُوبٌ ﴾: لا قدرة لي على الانتصار منهم؛ لأنه لم يؤمن من قومه إلا القليل النادر، ولا قدرة لهم على مقاومة قومهم، ﴿ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ ﴾: اللهم لي منهم، وقال في الآية الأخرى: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [نوح: ٢٦] الآيات.

﴿١١﴾ فأجاب الله سؤاله، فانتصر له من قومه؛ قال تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ ﴾؛ أي: كثير جدًّا متتابع.

﴿١٢﴾ ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾: فجعلت السماء ينزل منها من الماء شيء خارق للعادة، وتفجرت الأرض كلها، حتى التنور الذي لم تجر العادة بوجود الماء فيه، فضلًا عن كونه منبعًا للماء؛ لأنه موضع النار، ﴿ فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ ﴾؛ أي: ماء السماء والأرض، ﴿ عَلَىٰٓ أَمْرٍ ﴾: من الله له بذلك، ﴿ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ ﴾؛ أي: قد كتبه الله في الأزل وقضاه عقوبة لهؤلاء الظالمين الطاغين.

﴿١٣﴾ ﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ ﴾؛ أي: ونجينا عبدنا نوحًا على السفينة ذات الألواح والدسر؛ أي: المسامير التي قد سمرت بها ألواحها وشد بها أسرها.

﴿١٤﴾ ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾؛ أي: تجري بنوح ومن آمن معه ومن حمله من أصناف المخلوقات برعاية من الله وحفظ منه لها عن الغرق ونظر وكلاءة منه تعالى، وهو نعم الحافظ الوكيل، ﴿ جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾؛ أي: فعلنا بنوح ما فعلنا من النجاة من الغرق العام جزاء له؛ حيث كذبه قومه وكفروا به، فصبر على دعوتهم، واستمر على أمر الله، فلم يرده عنه رادٌّ ولا صده عن ذلك صادٌّ؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ [هود: ٤٨] الآية. ويحتمل أن المراد أنا أهلكنا قوم نوح وفعلنا بهم ما فعلنا من العذاب والخزي جزاء لهم على كفرهم وعنادهم. وهذا متوجه على قراءة من قرأها بفتح الكاف.

(١٥) ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَـٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ ﴾؛ أي: ولقد تركنا قصة نوح مع قومه آية يتذكر بها المتذكرون على أن من عصى الرسل وعاندهم أهلكه الله بعقاب عام شديد، أو أن الضمير يعود إلى السفينة وجنسها، وأن أصل صنعتها تعليم من الله لرسوله نوح عليه السلام، ثم أبقى الله صنعتها وجنسها بين الناس؛ ليدل ذلك على رحمته بخلقه وعنايته وكمال قدرته وبديع صنعته. ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ ﴾؛ أي: فهل من متذكر للآيات ملقٍ ذهنه وفكرته لما يأتيه منها؛ فإنها في غاية البيان واليسر؟

(١٦) ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ ﴾؛ أي: فكيف رأيت أيها المخاطب عذاب الله الأليم وإنذاره الذي لا يبقى لأحد عليه حجة.

(١٧) ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾؛ أي: ولقد يسرنا وسهلنا هذا القرآن الكريم ألفاظه للحفظ والأداء ومعانيه للفهم والعلم؛ لأنه أحسن الكلام لفظًا، وأصدقه معنى، وأبينه تفسيرًا؛ فكل من أقبل عليه؛ يسر الله عليه مطلوبه غاية التيسير، وسهله عليه، والذكر شامل لكل ما يتذكر به العالمون من الحلال والحرام وأحكام الأمر والنهي وأحكام الجزاء والمواعظ والعبر والعقائد النافعة والأخبار الصادقة، ولهذا كان علم القرآن حفظًا وتفسيرًا أسهل العلوم وأجلها على الإطلاق، وهو العلم النافع الذي إذا طلبه العبد؛ أعين عليه. قال بعض السلف عند هذه الآية: هل من طالب علم فيعان عليه. ولهذا يدعو الله عباده إلى الإقبال عليه والتذكر بقوله: ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾.

(١٨)، (١٩) وعاد هي القبيلة المعروفة باليمن، أرسل الله إليهم هودًا عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته، فكذبوه، فأرسل الله عليهم ﴿ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾؛ أي: شديدة جدًّا. ﴿ فِى يَوْمِ نَحْسٍ ﴾؛ أي: شديد العذاب والشقاء عليهم ﴿ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ ﴾: عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسومًا.

(٢٠) ﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ ﴾: من شدتها فترفعهم إلى جو السماء، ثم تدمغهم بالأرض، فتهلكهم، فيصبحون ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾؛ أي: كأن جثثهم بعد هلاكهم مثل جذوع النخل الخاوي الذي اقتلعته الريح فسقط على الأرض؛ فما أهون الخلق على الله إذا عصوا أمره!

(٢١) ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ ﴾: كان والله العذاب الأليم والنذارة التي ما أبقت لأحد عليه حجة.

(٢٢) ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾: كرر تعالى ذلك رحمة بعباده وعناية بهم؛ حيث دعاهم إلى ما يصلح دنياهم وأخراهم.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.

(٢٣) أي: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ﴾: وهم القبيلة المعروفة المشهورة في أرض الحِجْر - نبيَّهم صالحًا عليه السلام حين دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأنذرهم العقاب إن هم خالفوه.

(٢٤) فكذبوه واستكبروا عليه وقالوا كبرًا وتيهًا: ﴿ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ ﴾؛ أي: كيف نتبع بشرًا لا ملكًا منا، لا من غيرنا ممن هو أكبر عند الناس منا، ومع ذلك؛ فهو شخص واحد. ﴿ إِنَّآ إِذًا ﴾؛ أي: إن اتبعناه وهو في هذه الحالة ﴿ لَّفِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ ﴾؛ أي: إنا لضالون أشقياء. وهذا الكلام من ضلالهم وشقائهم؛ فإنهم أنفوا أن يتبعوا رسولًا من البشر، ولم يأنفوا أن يكونوا عابدين للشجر والحجر والصور.

(٢٥)، (٢٦) ﴿ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾؛ أي: كيف يخصه الله من بيننا وينزل عليه الذكر؛ فأي مزية خصه من بيننا؟! وهذا اعتراض من المكذبين على الله لم يزالوا يدلون به ويصولون ويجولون ويردون به دعوة الرسل، وقد أجاب الله عن هذه الشبهة بقول الرسل لأممهم: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [إبراهيم: ١١]: فالرسل مَنَّ الله عليهم بصفات وأخلاق وكمالات بها صلحوا لرسالات ربهم والاختصاص بوحيه، ومن رحمته وحكمته أن كانوا من البشر؛ فلو كانوا من الملائكة؛ لم يمكن البشر أن يتلقوا عنهم، ولو جعلهم من الملائكة؛ لعاجل المكذبين لهم بالعقاب العاجل. والمقصود من هذا الكلام الصادر من ثمود لنبيهم صالح تكذيبه، ولهذا حكموا عليه بهذا الحكم الجائر، فقالوا: ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ ﴾؛ أي: كثير الكذب والشر! فقبحهم

وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ
فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا
كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا
بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا
عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾
فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ
﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ
أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ
فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ
وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ
﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ
عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾

الله ما أسفه أحلامهم وأظلمهم وأشدهم مقابلة للصادقين الناصحين بالخطاب الشنيع.

﴿٢٧﴾ لا جرم عاقبهم الله حين اشتد طغيانهم، فأرسل الله الناقة التي هي من أكبر النعم عليهم آية من آيات الله ونعمة؛ يحتلبون من دَرِّها[1] ما يكفيهم أجمعين، ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾؛ أي: اختبارًا منه لهم وامتحانًا، ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾﴾؛ أي: اصبر على دعوتك إياهم وارتقب ما يحل بهم، أو ارتقب هل يؤمنون أو يكفرون.

﴿٢٨﴾ ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: وأخبرهم أن الماء؛ أي: موردهم الذي يستعذبونه، قسمة بينهم وبين الناقة، لها شرب يوم ولهم شرب يوم آخر معلوم. ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾؛ أي: يحضره من كان قسمته، ويحظر على من ليس بقسمة له.

﴿٢٩﴾ ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾: الذي باشر عقرها، الذي هو أشقى القبيلة، ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾؛ أي: انقاد لما أمروه به من عقرها، ﴿فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾.

(١) ط: «ضرعها».

﴿٣٠﴾ - ﴿٣٢﴾ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾﴾: كان أشد عذاب، أرسل الله عليهم صيحة ورجفة أهلكتهم عن آخرهم، ونجى الله صالحًا ومن آمن معه، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿٣٣﴾ - ﴿٤٠﴾ أي: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ﴾: لوطًا عليه السلام حين دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونهاهم عن الشرك والفاحشة التي ما سبقهم بها أحد من العالمين، فكذبوه واستمروا على شركهم وقبائحهم، حتى إن الملائكة الذين جاءوه بصورة أضياف، حين سمع بهم قومه؛ جاءوهم مسرعين يريدون إيقاع الفاحشة فيهم لعنهم الله وقبحهم وراودوه عنهم، فأمر الله جبريل عليه السلام، فطمس أعينهم بجناحه، وأنذرهم نبيهم بطشة الله وعقوبته، ﴿فَتَمَارَوْا بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾﴾، ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾﴾: قلب الله عليهم ديارهم، وجعل أسفلها أعلاها، وتتبعهم بحجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك للمسرفين، ونجى الله لوطًا وأهله من الكرب العظيم؛ جزاء لهم على شكرهم لربهم وعبادته وحده لا شريك له.

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿٤١﴾، ﴿٤٢﴾ أي: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: فرعون وقومه، ﴿ٱلنُّذُرُ﴾: فأرسل الله إليهم موسى الكليم، وأيده بالآيات البينات والمعجزات الباهرات، وأشهدهم من العبر ما لم يشهد غيرهم، فكذبوا بآيات الله كلها، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر، فأغرقه وجنوده في اليم.

(٤٣) والمراد من ذكر هذه القصص تحذير الناس والمكذبين لمحمد ﷺ، ولهذا قال: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ ﴾؛ أي: أهؤلاء الذين كذبوا أفضل الرسل خير من أولئك المكذبين الذين ذكر الله هلاكهم وما جرى عليهم؟ فإن كانوا خيرًا منهم؛ أمكن أن ينجُوا من العذاب ولم يصبهم ما أصاب أولئك الأشرار، وليس الأمر كذلك؛ فإنهم إن لم يكونوا شرًّا منهم؛ فليسوا بخير منهم. ﴿ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ (٤٣) ﴾؛ أي: أم أعطاكم الله عهدًا وميثاقًا في الكتب التي أنزلها على الأنبياء، فتعتقدوا حينئذ أنكم الناجون بإخبار الله ووعده؟! وهذا غير واقع، بل غير ممكن عقلًا وشرعًا أن تكتب براءتهم في الكتب الإلهية المتضمنة للعدل والحكمة؛ فليس من الحكمة نجاة أمثال هؤلاء المعاندين المكذبين لأفضل الرسل وأكرمهم على الله.

(٤٤) فلم يبق إلا أن يكون بهم قوة ينتصرون بها، فأخبر تعالى أنهم يقولون: ﴿ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ (٤٤) ﴾.

(٤٥) قال تعالى مبينًا لضعفهم وأنهم مهزومون: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ (٤٥) ﴾: فوقع كما أخبر؛ هزم الله جمعهم الأكبر يوم بدر، وقُتل صناديدهم وكبراؤهم، ما ذلوا به، ونصر الله دينه ونبيه وحزبه المؤمنين.

(٤٦) ومع ذلك؛ فلهم موعد يجمع به أولهم وآخرهم ومن أصيب في الدنيا منهم ومن متع بلذاته، ولهذا قال: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ﴾: الذي يجازون به ويؤخذ منهم الحق بالقسط، ﴿ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ (٤٦) ﴾؛ أي: أعظم وأشق وأكبر من كل ما يتوهم أو يدور في الخيال.

(٤٧) ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾؛ أي: الذين أكثروا من فعل الجرائم، وهي الذنوب العظيمة؛ من الشرك وغيره من المعاصي ﴿ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ (٤٧) ﴾؛ أي: هم ضالون في الدنيا، ضُلَّال عن العلم وضُلَّال عن العمل الذي ينجيهم من العذاب، ويوم القيامة في العذاب الأليم والنار التي تستعر بهم وتشتعل في أجسامهم حتى تبلغ أفئدتهم.

(٤٨) ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾: التي هي أشرف ما بهم من الأعضاء، وألمها أشد من غيرها، فيهانون بذلك ويخزون، ويقال لهم: ﴿ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ (٤٨) ﴾؛ أي: ذوقوا ألم النار وأسفها وغيظها ولهبها.

(٤٩) ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ (٤٩) ﴾: وهذا شامل للمخلوقات والعوالم العلوية والسفلية؛ أن الله تعالى وحده خلقها، لا خالق لها سواه، ولا مشارك له في خلقه، وخلقها بقضاء سبق به علمه وجرى به قلمه بوقتها ومقدارها، وجميع ما اشتملت عليه من الأوصاف.

(٥٠) وذلك على الله يسير؛ فلهذا قال: ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ (٥٠) ﴾: فإذا أراد شيئًا؛ قال له: كن فيكون؛ كما أراد؛ كلمح البصر؛ من غير ممانعة ولا صعوبة.

(٥١) ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ ﴾: من الأمم السابقين، الذين عملوا كما عملتم وكذبوا كما كذبتم، ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٥١) ﴾؛ أي: متذكر يعلم أن سنة الله في الأولين والآخرين واحدة، وأن حكمته كما اقتضت إهلاك أولئك الأشرار فإن هؤلاء مثلهم، ولا فرق بين الفريقين.

(٥٢) ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ (٥٢) ﴾؛ أي: كل ما فعلوه من خير وشر مكتوب عليهم في الكتب القدرية.

(٥٣) ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ (٥٣) ﴾؛ أي: مسطر مكتوب، وهذا حقيقة القضاء والقدر، وأن جميع الأشياء كلها قد علمها الله تعالى وسطرها عنده في اللوح المحفوظ؛ فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن؛ فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

(٥٤)، (٥٥) ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾: لله بفعل أوامره وترك نواهيه، الذين اتقوا الشرك والكبائر والصغائر ﴿ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) ﴾؛ أي: في جنات النعيم، التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؛ من الأشجار اليانعة، والأنهار الجارية، والقصور الرفيعة، والمنازل الأنيقة، والمآكل والمشارب اللذيذة، والحور الحسان، والروضات البهية في الجنان، ورضا الملك الديان والفوز بقربه، ولهذا قال: ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ (٥٥) ﴾؛ فلا تسأل بعد هذا عما يعطيهم ربهم من كرامته وجوده ويمدهم به من إحسانه ومنته! جعلنا الله منهم، ولا حرمنا خير ما عنده بشر ما عندنا.

تم تفسير هذه السورة. والحمد لله.



الجزء السابع والعشرون — سورة القمر

وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ
أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٥١ وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ
فِي ٱلزُّبُرِ ٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ ٥٣ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ
فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ٥٥

سُورَةُ الرَّحۡمَٰنِ ٥٥ — آياتها ٧٨

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣
عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ٥ وَٱلنَّجۡمُ
وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ
٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ
وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ١٠
فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ
وَٱلرَّيۡحَانُ ١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣ خَلَقَ
ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ
مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٦

٥٣١

تفسير سورة الرحمن

وهي مكية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ۝١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾.

(١) هذه السورة الكريمة الجليلة افتتحها باسمه الرحمن، الدال على سعة رحمته وعموم إحسانه وجزيل بره وواسع فضله، ثم ذكر ما يدل على رحمته وأثرها الذي أوصله الله إلى عباده من النعم الدينية والدنيوية والأخروية، وبعد كل جنس ونوع من نعمه ينبه الثقلين لشكره ويقول: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾.

(٢) فذكر أنه: ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢﴾؛ أي: علم عباده ألفاظه ومعانيه ويسرها على عباده، وهذا أعظم منة ورحمة رحم بها العباد، حيث أنزل عليهم قرآنًا عربيًّا بأحسن الألفاظ وأوضح المعاني، مشتمل على كل خير، زاجر عن كل شر.

(٣)، (٤) ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾: في أحسن تقويم، كامل الأعضاء، مستوفى الأجزاء، محكم البناء، قد أتقن البارئ تعالى البديع خلقه أي إتقان، وميزه على سائر الحيوانات بأن ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾؛ أي: التبيين عما في ضميره. وهذا شامل للتعليم النطقي والتعليم الخطي؛ فالبيان الذي ميز الله به الآدمي على غيره من أجل نعمه وأكبرها عليه.

(٥) ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥﴾؛ أي: خلق الله الشمس والقمر وسخرهما يجريان بحساب مقنن وتقدير مقدر رحمة بالعباد وعناية بهم، وليقوم بذلك من مصالحهم ما يقوم، وليعرفوا عدد السنين والحساب.

(٦) ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦﴾؛ أي: نجوم السماء وأشجار الأرض تعرف ربها وتسجد له وتطيع وتخضع وتنقاد لما سخرها له من مصالح عباده ومنافعهم.

(٧)، (٨) ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾: سقفًا للمخلوقات الأرضية، ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧﴾؛ أي: العدل بين العباد في الأقوال والأفعال، وليس المراد به الميزان المعروف وحده، بل هو كما ذكرنا؛ يدخل فيه الميزان المعروف والمكيال الذي تكال به الأشياء والمقادير والمساحات التي تضبط بها المجهولات والحقائق التي يفصل بها بين المخلوقات ويقام بها العدل بينهم، ولهذا قال: ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨﴾؛ أي: أنزل الله الميزان لئلا تتجاوزوا الحد في الحقوق والأمور[1]؛ فإن الأمر لو كان يرجع إلى عقولكم وآرائكم؛ لحصل من الخلل ما الله به عليم، ولفسدت السماوات والأرض ومن فيهن.

(٩) ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾؛ أي: اجعلوه قائمًا بالعدل، الذي تصل إليه مقدرتكم وإمكانكم، ﴿وَلَا تُخۡسِرُواْ

(١) ط: «الميزان».

﴿ٱلۡمِيزَانَ ۝٩﴾؛ أي: لا تنقصوه وتعملوا بضده، وهو الجور والظلم والطغيان.

۝١٠ ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا﴾: الله على ما كانت عليه من الكثافة والاستقرار واختلاف أوصافها وأحوالها ﴿لِلۡأَنَامِ ۝١٠﴾؛ أي: للخلق؛ لكي يستقروا عليها، وتكون لهم مهادًا وفراشًا، يبنون بها ويحرثون ويغرسون ويحفرون، ويسلكون سبلها فجاجًا، وينتفعون بمعادنها، وجميع ما فيها مما تدعو إليه حاجتهم بل ضرورتهم.

ثم ذكر ما فيها من الأقوات الضرورية، فقال:

۝١١ ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٞ﴾: وهي جميع الأشجار التي تثمر الثمرات التي يتفكه بها العباد من العنب والتين والرمان والتفاح وغير ذلك، ﴿وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ۝١١﴾؛ أي: ذات الوعاء الذي ينفلق عن القنوان التي تخرج شيئًا فشيئًا حتى تتم فتكون قوتًا يدخر ويؤكل ويتزود منه المقيم والمسافر وفاكهة لذيذة من أحسن الفواكه.

۝١٢ ﴿وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ﴾؛ أي: ذو الساق الذي يداس فينتفع بتبنه للأنعام وغيرها، ويدخل في ذلك حب البر والشعير والذرة والأرز والدخن وغير ذلك، ﴿وَٱلرَّيۡحَانُ ۝١٢﴾: يحتمل أن المراد به جميع الأرزاق التي يأكلها الآدميون، فيكون هذا من باب عطف العام على الخاص، ويكون الله قد امتن على عباده بالقوت والرزق عمومًا وخصوصًا. ويحتمل أن المراد بالريحان الريحان المعروف، وأن الله امتن على عباده بما يسره في الأرض من أنواع الروائح الطيبة والمشام الفاخرة التي تسر الأرواح وتنشرح لها النفوس.

۝١٣ ولما ذكر جملة كثيرة من نعمه التي تشاهد بالأبصار والبصائر، وكان الخطاب للثقلين الجن والإنس؛ قررهم تعالى بنعمه، فقال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾؛ أي: فبأي نعم الله الدينية والدنيوية تكذبان؟ وما أحسن جواب الجن حين تلا عليهم النبي ﷺ هذه السورة؛ فكلما مر بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾؛ إلا قالوا: ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب؛ فلك الحمد[1]. فهكذا ينبغي للعبد إذا تليت عليه نعم الله وآلاؤه أن يقر بها ويشكر ويحمد الله عليها.

ثم قال تعالى:

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ۝١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٦﴾.

۝١٤ وهذا من نعمه تعالى على عباده؛ حيث أراهم من آثار قدرته وبديع صنعته أن ﴿خَلَقَ﴾ أبا الإنس، وهو آدم عليه السلام، ﴿مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ۝١٤﴾؛ أي: من طين مبلول، قد أحكم بله وأتقن، حتى جف فصار له صلصلة وصوت يشبه صوت الفخار، وهو الطين المشوي.

۝١٥ ﴿وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ﴾؛ أي: أبا الجن، وهو إبليس لعنه الله ﴿مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ۝١٥﴾؛ أي: من لهب النار الصافي، أو الذي قد خالطه الدخان. وهذا يدل على شرف عنصر الآدمي المخلوق من الطين والتراب، الذي هو محل الرزانة والثقل والمنافع؛ بخلاف عنصر الجان، وهو النار، التي هي محل الخفة والطيش والشر والفساد.

۝١٦ ولما بين خلق الثقلين ومادة ذلك، وكان ذلك مِنَّةً منه تعالى عليهم؛ قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٦﴾؟!

﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ۝١٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٨﴾.

۝١٧، ۝١٨ أي: هو تعالى رب كل ما أشرقت عليه الشمس والقمر والكواكب النيرة، وكل ما غربت عليه، وكل ما كانا فيه؛ فالجميع تحت تدبيره وربوبيته، وثناهما هنا باعتبار مشارقها شتاء وصيفًا. والله أعلم.

﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ۝١٩ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ ۝٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢١﴾.

۝١٩ - ۝٢٣ المراد بالبحرين: البحر العذب والبحر المالح؛ فهما يلتقيان، فيصب العذب في البحر المالح ويختلطان ويمتزجان، ولكن الله تعالى جعل بينهما برزخًا من الأرض، حتى لا يبغي أحدهما على الآخر، ويحصل النفع بكل منهما؛ فالعذب منه يشربون وتشرب أشجارهم وزروعهم وحروثهم، والملح به يطيب الهواء ويتولد الحوت والسمك واللؤلؤ والمرجان، ويكون مستقرًا مسخرًا للسفن والمراكب، ولهذا قال:

(١) الترمذي (٣٢٩١).

رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ١٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٨
مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ١٩ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ ٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢١ يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ٢٢ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٣ وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ
٢٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٥ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ٢٦ وَيَبۡقَىٰ
وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٢٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
٢٨ يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ٢٩ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٠ سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ٣١ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٢ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ
أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ
إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ٣٣ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٤ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا
شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ٣٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ٣٦ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ
٣٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٨ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ
إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ٣٩ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٠

﴿ وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿٢٤﴾، ﴿٢٥﴾ أي: وسخر تعالى لعباده السفن الجواري التي تمخر البحر وتشقه بإذن الله، التي ينشئها الآدميون، فتكون من عظمها وكبرها كالأعلام، وهي الجبال العظيمة، فيركبها الناس، ويحملون عليها أمتعتهم وأنواع تجاراتهم وغير ذلك مما تدعو إليه حاجتهم وضرورتهم، وقد حفظها حافظ السماوات والأرض، وهذه من نعم الله الجليلة، ولهذا قال: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ ﴾؟!

﴿ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ﴿٢٦﴾ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿٢٦﴾ - ﴿٢٨﴾ أي: كل من على الأرض من إنس وجن ودواب وسائر المخلوقات يفنى ويبيد، ويبقى الحي الذي لا يموت، ﴿ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾؛ أي: ذو العظمة والكبرياء والمجد، الذي يعظم ويبجل ويجل لأجله، والإكرام الذي هو سعة الفضل والجود، الذي يكرم أولياؤه وخواص خلقه بأنواع الإكرام، الذي يكرمه أولياؤه ويجلونه ويعظمونه ويحبونه وينيبون إليه ويعبدونه. ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ ﴾؟!

﴿ يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿٢٩﴾، ﴿٣٠﴾ أي: هو الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، وهو واسع الجود والكرم، فكل الخلق مفتقرون إليه، يسألونه جميع حوائجهم بحالهم ومقالهم، ولا يستغنون عنه طرفة عين ولا أقل من ذلك، وهو تعالى ﴿ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ﴿٢٩﴾ ﴾: يغني فقيرًا ويجبر كسيرًا ويعطي قومًا، ويمنع آخرين، ويميت، ويحيي، ويخفض، ويرفع، لا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلطه المسائل، ولا يبرمه إلحاح الملحين، ولا طول مسألة السائلين. فسبحان الكريم الوهاب، الذي عمت مواهبه أهل الأرض والسماوات، وعم لطفه جميع الخلق في كل الآنات واللحظات، وتعالى الذي لا يمنعه من الإعطاء معصية العاصين ولا استغناء الفقراء الجاهلين به وبكرمه.

وهذه الشئون التي أخبر أنه ﴿ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ﴿٢٩﴾ ﴾: هي تقاديره وتدابيره التي قدرها في الأزل وقضاها، لا يزال تعالى يمضيها وينفذها في أوقاتها التي اقتضتها حكمته، وهي أحكامه الدينية التي هي الأمر والنهي، والقدرية التي يجريها على عباده مدة مقامهم في هذه الدار، حتى إذا تمت هذه الخليقة، وأفناهم الله تعالى، وأراد أن ينفذ فيهم أحكام الجزاء ويريهم من عدله وفضله وكثرة إحسانه ما به يعرفونه ويوحدونه؛ نقل المكلفين من دار الابتلاء والامتحان إلى دار الحيوان، وفرغ حينئذ لتنفيذ هذه الأحكام التي جاء وقتها، وهو المراد بقوله:

﴿ سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿٣١﴾، ﴿٣٢﴾ أي: سنفرغ لحسابكم ومجازاتكم بأعمالكم التي عملتموها في دار الدنيا.

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ﴾.

(٣٣)، (٣٤) أي: إذا جمعهم الله في موقف القيامة؛ أخبرهم بعجزهم وضعفهم وكمال سلطانه ونفوذ مشيئته وقدرته، فقال معجزًا لهم: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي: تجدون مسلكًا ومنفذًا تخرجون به عن ملك الله وسلطانه، ﴿ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ (٣٣) ﴾؛ أي: لا تخرجون منه إلا بقوة وتسلط منكم وكمال قدرة، وأنى لهم ذلك وهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا؛ ففي ذلك الموقف لا يتكلم أحد إلا بإذنه، ولا تسمع إلا همسًا، وفي ذلك الموقف يستوي الملوك والمماليك والرؤساء والمرءوسون والأغنياء والفقراء.

ثم ذكر ما أعد لهم في ذلك اليوم، فقال:

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾.

(٣٥)، (٣٦) أي: ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا ﴾ لهب صاف من النار ﴿ وَنُحَاسٌ ﴾ وهو اللهب الذي قد خالطه الدخان. والمعنى: أن هذين الأمرين الفظيعين يرسلان عليكما ويحيطان بكما ﴿ فَلَا تَنتَصِرَانِ (٣٥) ﴾؛ لا بناصر من أنفسكم، ولا بأحد ينصركم من دون الله. ولما كان تخويفه لعباده نعمة منه عليهم وسوطًا يسوقهم به إلى أعلى المطالب وأشرف المواهب؛ ذكر منته بذلك فقال: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾؟!

(٣٧)، (٣٨) ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ ﴾؛ أي: يوم القيامة من الأهوال وكثرة البلبال وترادف الأوجال، فانخسفت شمسها وقمرها، وانتثرت نجومها؛ ﴿ فَكَانَتْ ﴾: من شدة الخوف والانزعاج ﴿ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ (٣٧) ﴾؛ أي: كانت كالمهل والرصاص المذاب ونحوه. ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) ﴾؟!

(٣٩)، (٤٠) ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ (٣٩) ﴾؛ أي: سؤال استعلام بما وقع؛ لأنه تعالى عالم الغيب والشهادة والماضي والمستقبل، ويريد أن يجازي العباد بما علمه من أحوالهم، وقد جعل لأهل الخير والشر يوم القيامة علامات

يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ
﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ
تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ
زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ
بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ
وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ
وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ
ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا
عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾

يعرفون بها؛ كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

(٤١)، (٤٢) وقال هنا: ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) ﴾؛ أي: فيؤخذ بنواصي المجرمين وأقدامهم، فيلقون في النار ويسحبون إليها. وإنما يسألهم تعالى سؤال توبيخ وتقرير بما وقع منهم، وهو أعلم به منهم، ولكنه تعالى يريد أن تظهر للخلق حجته البالغة وحكمته الجليلة.

﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ (٤٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥) ﴾.

(٤٣) - (٤٥) أي: يقال للمكذبين بالوعد والوعيد حين تسعر الجحيم: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ (٤٣) ﴾: فليهنهم تكذيبهم بها، وليذوقوا من عذابها ونكالها وسعيرها وأغلالها ما هو جزاء لهم على تكذيبهم، ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا ﴾ أي: بين أطباق الجحيم ولهبها، ﴿ وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ (٤٤) ﴾؛ أي:

فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾
فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٞ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٞ
مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾
لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٧٨﴾

سُورَةُ الوَاقِعَةِ (٥٦) (آياتها ٩٦)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ
﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ﴿٥﴾
فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ﴿٦﴾ وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ ﴿٧﴾ فَأَصۡحَٰبُ
ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ
ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾
فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ
﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾

ماء حار جدًّا قد انتهى حره، وزمهرير قد اشتد برده وقره. ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ ﴾؟!

ولما ذكر ما يفعل بالمجرمين؛ ذكر جزاء المتقين الخائفين، فقال:

﴿ وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۢ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿٤٦﴾، ﴿٤٧﴾ أي: وللذي خاف ربه وقيامه عليه، فترك ما نهى عنه، وفعل ما أمره به؛ له ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ من ذهب آنيتهما وحليتهما وبنيانهما وما فيهما، إحدى الجنتين جزاء على ترك المنهيات، والأخرى على فعل الطاعات.

﴿٤٨﴾، ﴿٤٩﴾ ومن أوصاف تلك الجنتين أنهما ﴿ ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ ﴿٤٨﴾ ﴾؛ أي: فيهما من ألوان النعيم المتنوعة؛ نعيم الظاهر والباطن؛ «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»؛ أي: فيهما الأشجار الكثيرة الزاهرة، ذوات الغصون الناعمة، التي فيها الثمار اليانعة الكثيرة اللذيذة[1].

﴿٥٠﴾، ﴿٥١﴾ وفي تلك الجنتين ﴿ عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ ﴿٥٠﴾ ﴾: يفجرونهما على ما يريدون ويشتهون.

﴿٥٢﴾، ﴿٥٣﴾ ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ ﴾: من جميع أصناف الفواكه ﴿ زَوۡجَانِ ﴿٥٢﴾ ﴾؛ أي: صنفان؛ كل صنف له لذة ولون ليس للنوع الآخر.

﴿٥٤﴾، ﴿٥٥﴾ ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۢ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖ ﴾: هذه صفة فرش أهل الجنة وجلوسهم عليها، وأنهم متكئون عليها؛ أي: جلوسَ تمكن واستقرار وراحة؛ كجلوس الملوك على الأسرة، وتلك الفرش لا يعلم وصفها وحسنها إلا الله تعالى، حتى إن بطائنها التي تلي الأرض منها من إستبرق وهو أحسن الحرير وأفخره؛ فكيف بظواهرها التي يباشرون، ﴿ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ﴿٥٤﴾ ﴾: الجنى هو الثمر المستوي؛ أي: وثمر هاتين الجنتين قريب التناول، يناله القائم والقاعد والمضطجع.

﴿٥٦﴾ - ﴿٥٩﴾ ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ ﴾؛ أي: قد قصرن طرفهن على أزواجهن من حسنهم وجمالهم وكمال محبتهن لهم، وقصرن أيضًا طرف أزواجهن عليهن من حسنهن وجمالهن ولذة وصالهن وشدة محبتهن، ﴿ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ﴿٥٦﴾ ﴾؛ أي: لم ينلهنَّ أحد قبلهم من الإنس والجن، بل هن أبكار عرب متحببات إلى أزواجهن؛ بحسن التبعل والتغنج والملاحة والدلال، ولهذا قال: ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴿٥٨﴾ ﴾، وذلك لصفائهن وجمال منظرهن وبهائهن.

﴿٦٠﴾، ﴿٦١﴾ ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾؛ أي: هل جزاء من أحسن في عبادة الخالق، ونفع عبيده إلا أن يحسن إليه بالثواب الجزيل والفوز الكبير والنعيم المقيم والعيش السليم؟ فهاتان الجنتان العاليتان للمقربين.

---

(١) أو ذواتا أنواع وأصناف من جميع أصناف النعيم وأنواعه جمع فن، أي: صنف

(٦٢) - (٦٩) ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢)﴾: من فضة بنيانهما وحليتهما وآنيتهما وما فيهما لأصحاب اليمين، وتلك الجنتان ﴿مُدْهَآمَّتَانِ (٦٤)﴾؛ أي: سوداوان من شدة الخضرة والري، ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦)﴾؛ أي: فوارتان، ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ﴾: من جميع أصناف الفواكه، وأخصها النخل والرمان، اللذان فيهما من المنافع ما فيهما.

(٧٠) - (٧٥) ﴿فِيهِنَّ﴾؛ أي: في الجنات كلها ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ (٧٠)﴾؛ أي: خيرات الأخلاق حسان الأوجه، فجمعن بين جمال الظاهر والباطن وحسن الخَلق والخُلق. ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ (٧٢)﴾؛ أي: محبوسات في خيام اللؤلؤ، قد تهيأن وأعددن أنفسهن لأزواجهن، ولا ينفي ذلك خروجهن في البساتين ورياض الجنة كما جرت العادة لبنات الملوك المخدرات الخفرات، ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ (٥٦) فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧)﴾؟!

(٧٦)، (٧٧) ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾؛ أي: أصحاب هاتين الجنتين متكؤهم على الرفرف الأخضر، وهي الفرش التي تحت المجالس العالية، التي قد زادت على مجالسهم، فصار لها رفرفة من وراء مجالسهم؛ لزيادة البهاء وحسن المنظر، ﴿وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ (٧٦)﴾: العبقري نسبة لكل منسوج نسجًا حسنًا فاخرًا، ولهذا وصفها بالحسن الشامل لحسن الصفة والمنظر ونعومة الملمس وهاتان الجنتان دون الجنتين الأوليين؛ كما نص الله على ذلك بقوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢)﴾، وكما وصف الأوليين بعدة أوصاف لم يصف به الأخريين، فقال في الأوليين: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠)﴾، وفي الأخريين: ﴿عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦)﴾: ومن المعلوم الفرق بين الجارية والنضاخة، وقال في الأوليين: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ (٤٨)﴾، ولم يقل ذلك في الأخريين، وقال في الأوليين: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢)﴾، وفي الأخريين: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨)﴾، وقد علم ما بين الوصفين من التفاوت. وقال في الأوليين: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤)﴾، ولم يقل ذلك في الأخريين، بل قال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ (٧٦)﴾، وقال في الأوليين في وصف نسائهم وأزواجهم: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ (٥٦)﴾، وفي الأخريين: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ (٧٢)﴾، وقد علم التفاوت بين ذلك، وقال في الأوليين: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ (٦٠)﴾، فدل ذلك أن الأوليين جزاء المحسنين، ولم يقل ذلك في الأخيرتين، ومجرد تقديم الأوليين على الأخريين يدل على فضلهما.

فبهذه الأوجه يعرف فضل الأوليين على الأخريين، وأنهما معدتان للمقربين من الأنبياء والصديقين وخواص عباد الله الصالحين، وأن الأخريين معدتان لعموم المؤمنين. وفي كل من الجنات المذكورات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وفيهن ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وأهلهن في غاية الراحة والرضا والطمأنينة وحسن المأوى، حتى إن كل واحد منهم لا يرى أحدًا أحسن حالًا منه ولا أعلى من نعيمه الذي هو فيه.

(٧٨) ولما ذكر سعة فضله وإحسانه؛ قال: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ (٧٨)﴾؛ أي: تعاظم وكثر خيره الذي له الجلال الباهر والمجد الكامل والإكرام لأوليائه.

تم تفسير سورة الرحمن. ولله الحمد والشكر والثناء الحسن.

تفسير سورة الواقعة

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾.

﴿١﴾ - ﴿٣﴾ يخبر تعالى بحال الواقعة التي لا بد من وقوعها، وهي القيامة، التي ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾﴾؛ أي: لا شك فيها؛ لأنها قد تظاهرت عليها الأدلة العقلية والسمعية، ودلت عليها حكمته تعالى ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾﴾؛ أي: خافضة لأناس في أسفل سافلين، رافعة لأناس في أعلى عليين، أو: خفضت بصوتها فأسمعت القريب، ورفعت فأسمعت البعيد.

﴿٤﴾ - ﴿٦﴾ ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾﴾؛ أي: حركت واضطربت، ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾﴾؛ أي: فتتت، ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾: فأصبحت ليس عليها جبل ولا معلم، ﴿قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٦،١٠٧].

﴿٧﴾ - ﴿٩﴾ ﴿وَكُنتُمْ﴾: أيها الخلق، ﴿أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾﴾؛ أي: انقسمتم ثلاث فرق بحسب أعمالكم الحسنة والسيئة. ثم فصل أحوال الأزواج الثلاثة، فقال: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾﴾: تعظيم لشأنهم وتفخيم لأحوالهم، ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾؛ أي: الشمال، ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾﴾: تهويل لحالهم.

﴿١٠﴾ - ﴿١٤﴾ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾؛ أي: السابقون في الدنيا إلى الخيرات هم السابقون في الآخرة لدخول الجنات، أولئك الذين هذا وصفهم المقربون عند الله ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾: في أعلى عليين، في المنازل العاليات التي لا منزلة فوقها، وهؤلاء المذكورون ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: جماعة كثيرون من المتقدمين من هذه الأمة وغيرهم. ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾: وهذا يدل على فضل صدر هذه الأمة في الجملة على متأخريها؛ لكون المقربين من الأولين أكثر من المتأخرين، والمقربون هم خواص الخلق.

﴿١٥﴾، ﴿١٦﴾ ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾﴾؛ أي: مرمولة بالذهب والفضة واللؤلؤ والجوهر وغير ذلك من الحلي والزينة التي لا يعلمها إلا الله تعالى، ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا﴾؛ أي: على تلك السرر، جلوس تمكن وطمأنينة وراحة واستقرار، ﴿مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾﴾: وجه كل منهم إلى وجه صاحبه؛ من صفاء قلوبهم وتقابلها بالمحبة وحسن أدبهم وتقابل قلوبهم.

﴿١٧﴾ - ﴿١٩﴾ ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾﴾؛ أي: يدور على أهل الجنة لخدمتهم وقضاء حوائجهم ولدان صغار الأسنان في غاية الحسن والبهاء. ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الطور: ٢٤]؛ أي: مستور لا يناله ما يغيره، مخلوقون للبقاء والخلد؛ لا يهرمون ولا يتغيرون ولا يزيدون على أسنانهم، ويدورون عليهم بآنية شرابهم؛ ﴿بِأَكْوَابٍ﴾: وهي التي لا عرى لها، ﴿وَأَبَارِيقَ﴾: الأواني التي لها عرى، ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾؛ أي: من خمر لذيذ المشرب لا آفة فيه، ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾؛ أي: لا تصدِّعهم رءوسهم كما تصدع خمرة الدنيا رأس شاربها، ولا هم عنها ﴿يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾؛ أي: لا تنزف عقولهم ولا تذهب أحلامهم منها كما يكون لخمر الدنيا. والحاصل أن كل ما في الجنة من النعيم الموجود جنسه في الدنيا لا يوجد في الجنة فيه آفة؛ كما قال تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]، وذكر هنا خمر الجنة، ونفى عنه كل آفة توجد في الدنيا.

﴿٢٠﴾ ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾﴾؛ أي: مهما تخيروا وراق في أعينهم واشتهته نفوسهم من أنواع الفواكه الشهية والجنى اللذيذ حصل لهم على أكمل وجه وأحسنه.

﴿٢١﴾ ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾؛ أي: من كل صنف من الطيور يشتهونه، ومن أي جنس من لحمه أرادوا؛ إن شاءوا مشويًّا أو طبيخًا أو غير ذلك.

﴿٢٢﴾، ﴿٢٣﴾ ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: ولهم حور عين، والحوراء: التي في عينها كحل وملاحة وحسن وبهاء، والعين حسان الأعين وضخامها، وحسن عين الأنثى من أعظم الأدلة

يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ
﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ
﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ
ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا
تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ
ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ
﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا
مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ
أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ
ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ
وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ
عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا
وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ
ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾

على حسنها وجمالها. ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾؛ أي: كأنهن اللؤلؤ الرطب الصافي البهي المستور عن الأعين والريح والشمس، الذي يكون لونه من أحسن الألوان، الذي لا عيب فيه بوجه من الوجوه؛ فكذلك الحور العين، لا عيب فيهن بوجه، بل هن كاملات الأوصاف جميلات النعوت؛ فكل ما تأملته منها؛ لم تجد فيه إلا ما يسر القلب[1] ويروق الناظر.

﴿٢٤﴾ وذلك النعيم المعد لهم ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾؛ فكما حسنت منهم الأعمال؛ أحسن الله لهم الجزاء، ووفر لهم الفوز والنعيم.

﴿٢٥﴾، ﴿٢٦﴾ ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾﴾؛ أي: لا يسمعون في جنات النعيم كلامًا يلغي، ولا يكون فيه فائدة ولا كلامًا يؤثم صاحبه ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾؛ أي: إلا كلامًا طيبًا، وذلك لأنها دار الطيبين، ولا يكون فيها إلا كل طيب، وهذا دليل على حسن أدب أهل الجنة في خطابهم فيما بينهم، وأنه أطيب كلام وأسره للقلوب وأسلمه من كل لغو وإثم، نسأل الله من فضله.

﴿٢٧﴾ - ﴿٣٤﴾ ثم ذكر ما أعد لأصحاب اليمين، فقال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾؛ أي: شأنهم عظيم وحالهم جسيم، ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾؛ أي: مقطوع ما فيه من الشوك والأغصان الرديئة المضرة، مجعول مكان ذلك الثمر الطيب. وللسدر من الخواص الظل الظليل وراحة الجسم فيه، ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾﴾: والطلح معروف، وهو شجر كبار يكون بالبادية تنضَّد أغصانه من الثمر اللذيذ الشهي، ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾﴾؛ أي: كثير من العيون والأنهار السارحة والمياه المتدفقة، ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾؛ أي: ليست بمنزلة فاكهة الدنيا؛ تنقطع في وقت من الأوقات وتكون ممتنعة؛ أي: متعسرة على مبتغيها، بل هي على الدوام موجودة، وجناها قريب يتناوله العبد على أي حال يكون، ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾؛ أي: مرفوعة فوق الأسرة ارتفاعًا عظيمًا، وتلك الفرش من الحرير والذهب واللؤلؤ وما لا يعلمه إلا الله.

﴿٣٥﴾ - ﴿٣٨﴾ ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾﴾؛ أي: إنا أنشأنا نساء أهل الجنة نشأة غير النشأة التي كانت في الدنيا، نشأة كاملة، لا تقبل الفناء، ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾﴾: صغارهن وكبارهن، وعموم ذلك يشمل الحور العين ونساء أهل الدنيا، وأن هذا الوصف - وهو البكارة - ملازم لهن في جميع الأحوال؛ كما أن كونهن ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾: ملازم لهن في كل حال، والعروب هي المرأة المتحببة إلى بعلها بحسن لفظها وحسن هيئتها ودلالها وجمالها ومحبتها؛ فهي التي إن تكلمت سبت العقول، وود السامع أن كلامها لا ينقضي، خصوصًا عند غنائهن بتلك الأصوات الرخيمة والنغمات المطربة، وإن نظر إلى أدبها وسمتها ودلها؛ ملأت قلب بعلها فرحًا وسرورًا، وإن انتقلت من محل إلى آخر؛ امتلأ ذلك الموضع منها ريحًا طيبًا ونورًا، ويدخل في ذلك الغنجة عند الجماع، والأتراب: اللاتي على سن واحدة ثلاث وثلاثين سنة، التي هي غاية ما يتمنى وأكمل سن الشباب؛ فنساؤهم عرب أتراب متفقات مؤتلفات راضيات مرضيات لا يَحزنَّ ولا يُحزِنَّ، بل هن أفراح النفوس وقرة العيون وجلاء الأبصار، ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾؛ أي: معدات لهم مهيآت.

﴿٣٩﴾، ﴿٤٠﴾ ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾؛ أي: هذا القسم، وهم أصحاب اليمين، عدد كثير من الأولين وعدد كثير من الآخرين.

(١) ط: «الخاطر».

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾
فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ
شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا
تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ
الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾
عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ
عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ
﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ
حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ
﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ
أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ
﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ
نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ
﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ فَلَا أُقْسِمُ
بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾

﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿٤١﴾ - ﴿٤٤﴾ المراد بأصحاب الشمال هم أصحاب النار والأعمال المشئومة، فذكر الله لهم من العقاب ما هم حقيقون به، فأخبر أنهم ﴿ فِي سَمُومٍ ﴾؛ أي: ريح حارة من حر نار جهنم؛ تأخذ بأنفاسهم، وتقلقهم أشد القلق، ﴿ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ ﴾؛ أي: ماء حار يقطع أمعاءهم، ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ ﴾؛ أي: لهب نار يختلط بدخان، ﴿ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ ﴾؛ أي: لا برد فيه ولا كرم. والمقصود أن هناك الهم والغم والحزن والشر الذي لا خير فيه؛ لأن نفي الضد إثبات لضده.

﴿٤٥﴾ - ﴿٤٨﴾ ثم ذكر أعمالهم التي أوصلتهم إلى هذا الجزاء، فقال: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾؛ أي: قد ألهتهم دنياهم وعملوا لها وتنعموا وتمتعوا بها، فألهاهم الأمل عن إحسان العمل؛ فهذا الترف الذي ذمهم الله عليه، ﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ ﴾؛ أي: وكانوا يفعلون الذنوب الكبار ولا يتوبون منها ولا يندمون عليها، بل يصرون على ما يسخط مولاهم، فقدموا عليه بأوزار كثيرة غير مغفورة، وكانوا ينكرون البعث، فيقولون استبعادًا لوقوعه: ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾؛ أي: كيف نبعث بعد موتنا وقد بلينا فكنا ترابًا وعظامًا! هذا من المحال.

قال تعالى في جوابهم: ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿٤٩﴾، ﴿٥٠﴾ أي: قل: إن متقدم الخلق ومتأخرهم؛ الجميع سيبعثهم الله ويجمعهم لميقات يوم معلوم قدره الله لعباده حين تنقضي الخليقة، ويريد الله جزاءهم على أعمالهم التي عملوها في دار التكليف.

﴿٥١﴾ - ﴿٥٣﴾ ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ ﴾: عن طريق الهدى، التابعون لطريق الردى، ﴿ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ ﴾: بالرسول ﷺ وما جاء به من الحق والوعد والوعيد، ﴿ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ ﴾: وهو أقبح الأشجار وأخسها وأنتنها ريحًا وأبشعها منظرًا، ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾: والذي أوجب لهم أكلها مع ما هي عليه من الشناعة، الجوع المفرط الذي يلتهب في أكبادهم وتكاد تنقطع منه أفئدتهم، هذا الطعام هو الذي يدفعون به الجوع، وهو الذي لا يسمن ولا يغني من جوع.

﴿٥٤﴾ - ﴿٥٦﴾ وأما شرابهم؛ فهو بئس الشراب، وهو أنهم يشربون على هذا الطعام من الماء الحميم الذي يغلي في البطون ﴿ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ ﴾: وهي الإبل العطاش، التي قد اشتد عطشها، أو أن الهيم داء يصيب الإبل لا تروى معه من شرب الماء. ﴿ هَٰذَا ﴾: الطعام والشراب ﴿ نُزُلُهُمْ ﴾؛ أي: ضيافتهم ﴿ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾: وهي الضيافة التي قدموها لأنفسهم وآثروها على ضيافة الله لأوليائه؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الكهف: ١٠٧، ١٠٨].

﴿٥٧﴾ ثم ذكر الدليل العقلي على البعث، فقال: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾؛ أي: نحن الذين أوجدناكم بعد أن لم تكونوا شيئًا مذكورًا من غير عجز ولا تعب، أفليس القادر على ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ بلى إنه على كل شيء قدير، ولهذا وبخهم على عدم تصديقهم بالبعث وهم يشاهدون ما هو أعظم منه وأبلغ.

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢ ﴾.

۝٥٨ - ۝٦٢ أي: ﴿ أَفَرَءَيْتُم ﴾ ابتداء خلقكم من المني الذي ﴿ تُمْنُونَ ۝٥٨ ﴾ فهل أنتم خالقون ذلك المني، وما ينشأ منه أم الله تعالى الخالق؟ الذي خلق فيكم من الشهوة وآلتها في الذكر والأنثى، وهدى كلًّا منهما لما هنالك، وحبب بين الزوجين، وجعل بينهما من المودة والرحمة ما هو سبب التناسل، ولهذا أحالهم الله تعالى بالاستدلال بالنشأة الأولى على النشأة الأخرى، فقال: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢ ﴾: أن القادر على ابتداء خلقكم قادر على إعادتكم.

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝٦٥ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝٦٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٦٧ ﴾.

۝٦٣ - ۝٦٧ وهذا امتنان منه على عباده؛ يدعوهم به إلى توحيده وعبادته والإنابة إليه؛ حيث أنعم عليهم بما يسره لهم من الحرث للزروع والثمار، فيخرج من ذلك من الأقوات والأرزاق والفواكه ما هو من ضروراتهم وحاجاتهم ومصالحهم التي لا يقدرون أن يحصوها، فضلًا عن شكرها وأداء حقها، فقررهم بمنته، فقال: ﴿ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤ ﴾؛ أي: أنتم أخرجتموه نباتًا من الأرض؟ أم أنتم الذين نميتموه؟ أم أنتم الذين أخرجتم سنبله وثمره حتى صار حبًّا حصيدًا وثمرًا نضيجًا؟ أم الله الذي انفرد بذلك وحده وأنعم به عليكم، وأنتم غاية ما تفعلون أن تحرثوا الأرض، وتشقوها، وتلقوا فيها البذر، ثم لا علم عندكم بما يكون بعد ذلك ولا قدرة لكم على أكثر من ذلك؟ ومع ذلك؛ فنبههم على أن ذلك الحرث معرض للأخطار لولا حفظ الله وإبقاؤه بلغة لكم ومتاعًا إلى حين. فقال: ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ ﴾؛ أي: الزرع المحروث وما فيه من الثمار ﴿ حُطَٰمًا ﴾؛ أي: فتاتًا متحطمًا لا نفع فيه ولا رزق، ﴿ فَظَلْتُمْ ﴾؛ أي: فصرتم بسبب جعله حطامًا بعد أن تعبتم فيه، وأنفقتم النفقات الكثيرة، ﴿ تَفَكَّهُونَ ۝٦٥ ﴾؛ أي: تندمون وتحسرون على ما أصابكم، ويزول بذلك فرحكم وسروركم وتفكهكم، فتقولون: ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝٦٦ ﴾؛ أي: إنا قد نقصنا وأصابتنا مصيبة اجتاحتنا. ثم تعرفون بعد ذلك من أين أتيتم، وبأي سبب دهيتم؟ فتقولون: ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٦٧ ﴾! فاحمدوا الله تعالى حيث زرعه لكم، ثم أبقاه وكمله لكم، ولم يرسل عليه من الآفات ما به تحرمون من نفعه وخيره.

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝٦٩ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝٧٠ ﴾.

۝٦٨ - ۝٧٠ لما ذكر تعالى نعمته على عباده بالطعام؛ ذكر نعمته عليهم بالشراب العذب الذي منه يشربون، وأنه لولا أن الله يسره وسهله؛ لما كان لكم إليه سبيل، وأنه الذي أنزله ﴿ مِنَ ٱلْمُزْنِ ﴾: وهو السحاب والمطر الذي ينزله الله تعالى، فيكون منه الأنهار الجارية على وجه الأرض وفي بطنها، ويكون منه الغدران المتدفقة، ومن نعمته تعالى أن جعله عذبًا فراتًا تسيغه النفوس، ولو شاء لجعله ملحًا ﴿ أُجَاجًا ﴾[1] لا ينتفع به، ﴿ فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝٧٠ ﴾: الله تعالى على ما أنعم به عليكم.

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝٧١ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝٧٢ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ۝٧٣ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤ ﴾.

۝٧١ - ۝٧٣ وهذه نعمة تدخل في الضروريات التي لا غنى للخلق عنها؛ فإن الناس محتاجون إليها في كثير من أمورهم وحوائجهم، فقررهم تعالى بالنار التي أوجدها في الأشجار، وأن الخلق لا يقدرون أن ينشئوا شجرها، وإنما الله تعالى قد أنشأها من الشجر الأخضر؛ فإذا هي نار توقد بقدر حاجة العباد؛ فإذا فرغوا من حاجتهم؛ أطفئوها وأخمدوها. ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً ﴾: للعباد بنعمة ربهم، وتذكرة بنار جهنم التي أعدها الله للعاصين، وجعلها سوطًا يسوق به عباده إلى دار النعيم، ﴿ وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ۝٧٣ ﴾؛ أي المنتفعين أو المسافرين، وخص الله المسافرين؛ لأن نفع المسافر بها أعظم من غيره، ولعل السبب في ذلك لأن الدنيا كلها دار سفر، والعبد من حين ولد فهو مسافر إلى ربه؛ فهذه النار جعلها الله متاعًا للمسافرين في هذه الدار وتذكرة لهم بدار القرار.

۝٧٤ فلما بين من نعمه ما يوجب الثناء عليه من عباده وشكره وعبادته؛ أمر بتسبيحه وتعظيمه، فقال: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤ ﴾؛ أي: نزه ربك العظيم كامل الأسماء والصفات، كثير الإحسان والخيرات، واحمده

(١) زاد بعده في ط: «مكروهًا للنفوس».

إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا
ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ
أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ٨١ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ٨٢ فَلَوۡلَآ
إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ٨٣ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ٨٤ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ
إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ٨٥ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ
٨٦ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٨٧ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ
٨٨ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ٨٩ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ
ٱلۡيَمِينِ ٩٠ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٩١ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ
ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ٩٢ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ٩٣ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ
٩٤ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ٩٥ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٩٦

سُورَةُ الحَدِيدِ ٥٧ — آياتها ٢٩

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١ لَهُۥ مُلۡكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢
هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٣

بقلبك ولسانك وجوارحك؛ لأنه أهل لذلك، وهو المستحق لأن يشكر فلا يكفر ويذكر فلا ينسى ويطاع فلا يعصى.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ٨١ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ٨٢ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ٨٣ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ٨٤ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ٨٥ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ٨٦ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٨٧﴾.

(٧٥)، (٧٦) أقسم تعالى بالنجوم ومواقعها، أي: مساقطها في مغاربها وما يحدث الله في تلك الأوقات من الحوادث الدالة على عظمته وكبريائه وتوحيده، ثم عظم هذا المقسم به، فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦﴾، وإنما كان القسم عظيمًا؛ لأن في النجوم وجريانها وسقوطها عند مغاربها آيات وعبرًا لا يمكن حصرها.

(٧٧) وأما المقسم عليه؛ فهو إثبات القرآن، وأنه حق لا ريب فيه ولا شك يعتريه، وأنه ﴿كَرِيمٞ ٧٧﴾؛ أي: كثير الخير غزير العلم، فكل خير وعلم؛ فإنما يستفاد من كتاب الله ويستنبط منه.

(٧٨) ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨﴾؛ أي: مستور عن أعين الخلق، وهذا الكتاب المكنون هو اللوح المحفوظ؛ أي: إن هذا القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ، معظم عند الله وعند ملائكته في الملأ الأعلى.

ويحتمل أن المراد بالكتاب المكنون هو الكتاب الذي بأيدي الملائكة الذين ينزلهم الله لوحيه ورسالته، وأن المراد بذلك أنه مستور عن الشياطين، لا قدرة لهم على تغييره ولا الزيادة والنقص منه واستراقه.

(٧٩) ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩﴾؛ أي: لا يمس القرآن إلا الملائكة الكرام، الذين طهرهم الله تعالى من الآفات والذنوب والعيوب، وإذا كان لا يمسه إلا المطهرون، وأن أهل الخبث والشياطين لا استطاعة لهم ولا يدان إلى مسه؛ دلت الآية بتنبيهها على أنه لا يجوز أن يمس القرآن إلا طاهر[1].

(٨٠) ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠﴾؛ أي: إن هذا القرآن الموصوف بتلك الصفات الجليلة هو تنزيل رب العالمين، الذي يربي عباده بنعمه الدينية والدنيوية، وأجل تربية ربى بها عباده إنزاله هذا القرآن، الذي قد اشتمل على مصالح الدارين، ورحم الله به العباد رحمة لا يقدرون لها شكورًا، ومما يجب عليهم أن يقوموا به، ويعلنوه، ويدعوا إليه، ويصدعوا به.

(٨١) ولهذا قال: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ٨١﴾؛ أي: أفبهذا الكتاب العظيم والذكر الحكيم ﴿أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ٨١﴾؛ أي: تختفون وتدلسون خوفًا من الخلق وعارهم وألسنتهم! هذا لا ينبغي ولا يليق! إنما يليق أن يداهن بالحديث الذي لا يثق صاحبه منه، وأما القرآن الكريم؛ فهو الحق الذي لا يغالب به مغالب إلا غلب، ولا يصول به صائل إلا كان العالي على غيره، وهو الذي لا يداهن به ويختفى، بل يصدع به ويعلن.

(٨٢) وقوله: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ٨٢﴾؛ أي: تجعلون مقابلة منة الله عليكم بالرزق التكذيب والكفر لنعمة

(١) زاد في ط: «كما ورد بذلك الحديث، ولهذا قيل: إن الآية خبر بمعنى النهي؛ أي: لا يمس القرآن إلا طاهر».

الله، فتقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا! وتضيفون النعمة لغير مسديها ومولِيها؛ فهلا شكرتم الله على إحسانه إذ أنزله إليكم ليزيدكم من فضله؛ فإن التكذيب والكفر داع لرفع النعم وحلول النقم.

(٨٣) - (٨٥) ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ (٨٥) ﴾؛ أي: فهلا إذا بلغت الروح الحلقوم، وأنتم تنظرون المحتضر في هذه الحالة، والحال أنا نحن أقرب إليه منكم بعلمنا وملائكتنا، ولكن لا تبصرون.

(٨٦)، (٨٧) ﴿ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) ﴾؛ أي: فهلا إذ كنتم تزعمون أنكم غير مبعوثين ولا محاسبين ومَجْزِيِّين، ﴿ تَرْجِعُونَهَآ ﴾ أي: ترجعون الروح إلى بدنها ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٨٧) ﴾: وأنتم تقرون أنكم عاجزون عن ردها إلى موضعها؛ فحينئذ إما أن تقروا بالحق الذي جاء به محمد ﷺ، وإما أن تعاندوا فتُعلم حالكم وسوء مآلكم.

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ (٩٦) ﴾.

(٨٨)، (٨٩) ذكر الله تعالى أحوال الطوائف الثلاث: المقربين، وأصحاب اليمين، والمكذبين الضالين في أول السورة في دار القرار، ثم ذكر أحوالهم في آخرها عند الاحتضار والموت، فقال: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (٨٨) ﴾؛ أي: إن كان الميت من المقربين إلى الله، المتقربين إليه بأداء الواجبات والمستحبات وترك المحرمات والمكروهات وفضول المباحات، فلهم روح؛ أي: راحة وطمأنينة وسرور وبهجة ونعيم القلب والروح، ﴿وَرَيْحَانٌ ﴾: وهو اسم جامع لكل لذة بدنية من أنواع المآكل والمشارب وغيرها، وقيل: الريحان هو الطيب المعروف، فيكون من باب التعبير بنوع الشيء عن جنسه العام، ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩) ﴾: جامعة للأمرين كليهما، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فيبشَّر المقربون عند الاحتضار بهذه البشارة، التي تكاد تطير منها الأرواح فرحًا وسرورًا؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢) ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢]، وقد فسر قوله تعالى: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [يونس: ٦٤]: أن هذه البشارة المذكورة هي البشرى في الحياة الدنيا.

(٩٠)، (٩١) وقوله: ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (٩٠) ﴾؛ وهم الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات، وإن حصل منهم بعض التقصير في بعض الحقوق التي لا تخل بإيمانهم وتوحيدهم، فيقال لأحدهم: ﴿ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (٩١) ﴾؛ أي: سلام حاصل لك من إخوانك أصحاب اليمين؛ أي: يسلمون عليه، ويحيونه عند وصوله إليهم ولقائهم له، أو يقال له: سلام لك من الآفات والبليات والعذاب؛ لأنك من أصحاب اليمين، الذين سلموا من الموبقات.

(٩٢) - (٩٤) ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ (٩٢) ﴾ أي: الذين كذبوا بالحق وضلوا عن الهدى، ﴿ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) ﴾؛ أي: ضيافتهم يوم قدومهم على ربهم تصلية الجحيم التي تحيط بهم وتصل إلى أفئدتهم، وإذا استغاثوا من شدة العطش والظمأ؛ ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِي ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) ﴾ [الكهف: ٢٩].

(٩٥) ﴿إِنَّ هَٰذَا ﴾: الذي ذكره الله تعالى من جزاء العباد بأعمالهم خيرها وشرها وتفاصيل ذلك ﴿ لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ (٩٥) ﴾؛ أي: الذي لا شك فيه ولا مرية، بل هو الحق الثابت الذي لا بد من وقوعه، وقد أشهد الله عباده الأدلة القواطع على ذلك، حتى صار عند أولي الألباب كأنهم ذائقون له مشاهدون لحقيقته، فحمدوا الله تعالى على ما خصهم من هذه النعمة العظيمة والمنحة الجسيمة.

(٩٦) ولهذا قال تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ (٩٦) ﴾؛ فسبحان ربنا العظيم، وتعالى وتنزه عما يقول الظالمون والجاحدون علوًّا كبيرًا، والحمد لله رب العالمين حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه.

تم تفسير سورة الواقعة.



هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ
عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ
﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ
ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم
مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾
وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ
أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ
ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ
لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ
وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ
وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا
ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾

تفسير سورة الحديد

وهي مدنية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾.

﴿١﴾ يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وسعة سلطانه أن جميع ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الحيوانات الناطقة وغيرها والجوامد تسبح بحمد ربها وتنزهه عما لا يليق بجلاله، وأنها قانتة لربها، منقادة لعزته، قد ظهرت فيها آثار حكمته، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾؛ فهذا فيه بيان عموم افتقار المخلوقات العلوية والسفلية لربها في جميع أحوالها، وعموم عزته وقهره للأشياء كلها، وعموم حكمته في خلقه وأمره.

﴿٢﴾ ثم أخبر عن عموم ملكه، فقال: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾؛ أي: هو الخالق للمخلوقات، الرازق المدبر لها بقدرته، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾﴾.

﴿٣﴾ ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾: الذي ليس قبله شيء. ﴿وَٱلْءَاخِرُ﴾: الذي ليس بعده شيء. ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾: الذي ليس فوقه شيء. ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾: الذي ليس دونه شيء. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾: قد أحاط علمه بالظواهر والبواطن والسرائر والخفايا والأمور المتقدمة والمتأخرة.

﴿٤﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: استواء يليق بجلاله فوق جميع خلقه، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: من حب وحيوان ومطر وغير ذلك، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾: من نبت وشجر وحيوان وغير ذلك، ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: من الملائكة والأقدار والأرزاق، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾: من الملائكة والأرواح والأدعية والأعمال وغير ذلك، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾؛ كقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧]: وهذه المعية معية العلم والاطلاع، ولهذا توعد ووعد بالمجازاة بالأعمال بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾؛ أي: هو تعالى بصير بما يصدر منكم من الأعمال وما صدرت عنه تلك الأعمال من بر وفجور؛ فمجازيكم عليها وحافظها عليكم.

﴿٥﴾ ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: ملكًا وخلقًا وعبيدًا يتصرف فيهم بما شاءه من أوامره القدرية والشرعية الجارية على الحكمة الربانية، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾﴾: من الأعمال والعمال، فيعرض عليه العباد، فيميز الخبيث من الطيب، ويجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

(٦) ﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيۡلِ ﴾؛ أي: يدخل الليل على النهار، فيغشيهم الليل بظلامه، فيسكنون ويهدءون، ثم يدخل النهار على الليل، فيزول ما على الأرض من الظلام، ويضيء الكون، فيتحرك العباد، ويقومون إلى مصالحهم ومعايشهم، ولا يزال الله يكور الليل على النهار والنهار على الليل، ويداول بينهما في الزيادة والنقص والطول والقصر، حتى تقوم بذلك الفصول وتستقيم الأزمنة ويحصل من المصالح بذلك ما يحصل، فتبارك الله رب العالمين، وتعالى الكريم الجواد الذي أنعم على عباده بالنعم الظاهرة والباطنة، ﴿ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ﴾؛ أي: بما يكون في صدور العالمين، فيوفق من يعلم أنه أهل لذلك، ويخذل من يعلم أنه لا يصلح لهدايته.

﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِى مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴿١١﴾ ﴾.

(٧) يأمر تعالى عباده بالإيمان به، وبرسوله وبما جاء به، وبالنفقة في سبيله من الأموال التي جعلها الله في أيديهم واستخلفهم عليها؛ لينظر كيف يعملون. ثم لما أمرهم بذلك؛ رغبهم وحثهم عليه بذكر ما رتب عليه من الثواب، فقال: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿٧﴾ ﴾؛ أي: الذين جمعوا بين الإيمان بالله ورسوله والنفقة في سبيله لهم أجر كبير، أعظمه وأجله رضا ربهم والفوز بدار كرامته وما فيها من النعيم المقيم الذي أعده الله للمؤمنين والمجاهدين.

(٨) ثم ذكر السبب الداعي لهم إلى الإيمان وعدم المانع منه، فقال: ﴿ وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾؛ أي: وما الذي يمنعكم من الإيمان والحال أن الرسول محمدًا ﷺ أفضل الرسل وأكرم داع دعا إلى الله يدعوكم؟! فهذا مما يوجب المبادرة إلى إجابة دعوته والتلبية والإجابة للحق الذي جاء به، وقد أخذ عليكم العهد والميثاق بالإيمان إن كنتم مؤمنين.

(٩) ومع ذلك من لطفه وعنايته بكم أنه لم يكتف بمجرد دعوة الرسول الذي هو أشرف العالم، بل أيده بالمعجزات، ودلكم على صدق ما جاء به بالآيات البينات؛ فلهذا قال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ ﴾؛ أي: ظاهرات تدل أهل العقول على صحة جميع[1] ما جاء به، وأنه الحق اليقين؛ ﴿ لِّيُخۡرِجَكُم ﴾: بإرسال الرسول إليكم وما أنزله الله على يده من الكتاب والحكمة ﴿ مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾؛ أي: من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان. وهذا من رحمته بكم ورأفته؛ حيث كان أرحم بعباده من الوالدة بولدها، ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٩﴾ ﴾.

(١٠) ﴿ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾؛ أي: وما الذي يمنعكم من النفقة في سبيل الله؟ وهي طرق الخير كلها، ويوجب لكم أن تبخلوا، والحال أنه ليس لكم شيء، بل لله ﴿ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾: فجميع الأموال ستنتقل من أيديكم أو تنقلون عنها، ثم يعود الملك إلى مالكه تبارك وتعالى؛ فاغتنموا الإنفاق ما دامت الأموال في أيديكم، وانتهزوا الفرصة. ثم ذكر تعالى تفاضل الأعمال بحسب الأحوال والحكمة الإلهية، فقال: ﴿ لَا يَسۡتَوِى مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْ ﴾: المراد بالفتح هنا هو فتح الحديبية، حين جرى من الصلح بين الرسول وبين قريش، مما هو أعظم الفتوحات التي حصل فيها نشر الإسلام واختلاط المسلمين بالكافرين والدعوة إلى الدين من غير معارض، فدخل الناس من ذلك الوقت في دين الله أفواجًا، واعتز الإسلام عزًّا عظيمًا، وكان المسلمون قبل هذا الفتح لا يقدرون على الدعوة إلى الدين في غير البقعة التي أسلم أهلها كالمدينة وتوابعها، وكان مَنْ أسلم من أهل مكة وغيرها من ديار المشركين يؤذى ويخاف؛ فلذلك كان من أسلم قبل الفتح[2] وقاتل أعظم درجة وأجرًا وثوابًا ممن لم يسلم ويقاتل وينفق إلا بعد ذلك؛ كما هو مقتضى الحكمة، ولهذا كان السابقون وفضلاء

(١) ط: «صدق كل».
(٢) زاد في ط: «وأنفق».

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم
بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ
هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ
آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا
فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ
الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ
أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ
اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا
مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ
﴿١٥﴾ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ
وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ
فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾
اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا
اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾

الصحابة غالبهم أسلم قبل الفتح. ولما كان التفضيل بين الأمور قد يتوهم منه نقص وقدح في المفضول؛ احترز تعالى من هذا بقوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾؛ أي: الذين أسلموا وقاتلوا وأنفقوا من قبل الفتح وبعده كلهم وعده الله الجنة. وهذا يدل على فضل الصحابة كلهم رضي الله عنهم، حيث شهد الله لهم بالإيمان ووعدهم الجنة. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾: فيجازي كلًّا منكم على ما يعلمه من عمله.

﴿١١﴾ ثم حث على النفقة في سبيله؛ لأن الجهاد متوقف على النفقة فيه وبذل الأموال في التجهز له، فقال: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾: وهي النفقة الطيبة التي تكون خالصة لوجه الله موافقة لمرضاة الله من مال حلال طيب طيبة به نفسه، وهذا من كرم الله تعالى؛ حيث سماه قرضًا، والمال ماله، والعبيد عبيده، ووعد بالمضاعفة عليه أضعافًا كثيرة، وهو الكريم الوهاب، وتلك المضاعفة محلها وموضعها يوم القيامة، يوم يتبين كل إنسان فقره، ويحتاج إلى أقل شيء من الجزاء الحسن، ولهذا قال:

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

﴿١٢﴾ يقول تعالى مبينًا لفضل الإيمان واغتباط أهله به يوم القيامة: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾؛ أي: إذا كان يوم القيامة، وكورت الشمس وخسف القمر وصار الناس في الظلمة، ونصب الصراط على متن جهنم؛ فحينئذ ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، فيمشون بأيمانهم ونورهم في ذلك الموقف الهائل الصعب كل على قدر إيمانه، ويبشَّرون عند ذلك بأعظم بشارة، فيقال: ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾: فلله ما أحلى هذه البشارة بقلوبهم وألذها لنفوسهم؛ حيث حصل لهم كل مطلوب محبوب، ونجوا من كل شر ومرهوب.

﴿١٣﴾ فإذا رأى المنافقون المؤمنين يمشون بنورهم، وهم قد طفئ نورهم وبقوا في الظلمات حائرين؛ قالوا للمؤمنين: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾؛ أي: أمهلونا لننال من نوركم ما نمشي به لننجو من العذاب، ﴿قِيلَ﴾ لهم: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾؛ أي: إن كان ذلك ممكنًا، والحال أن ذلك غير ممكن، بل هو من المحالات، ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم﴾ أي: فضرب بين المؤمنين والمنافقين ﴿بِسُورٍ﴾؛ أي: حائط منيع وحصن حصين ﴿لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾: وهو الذي يلي المؤمنين، ﴿وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾: وهو الذي يلي المنافقين.

﴿١٤﴾ فينادي المنافقون المؤمنين، فيقولون تضرعًا وترحمًا: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾: في الدنيا نقول: لا إله إلا الله، ونصلي

ونصوم ونجاهد ونعمل مثل عملكم؟ ﴿ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾: كنتم معنا في الدنيا وعملتم في الظاهر مثل عملنا، ولكن أعمالكم أعمال المنافقين من غير إيمان ولا نية صادقة صالحة، بل ﴿ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ ﴾؛ أي: شككتم في خبر الله الذي لا يقبل شكًّا، ﴿ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ ﴾: الباطلة؛ حيث تمنيتم أن تنالوا منال المؤمنين وأنتم غير موقنين، ﴿ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: حتى جاءكم الموت وأنتم بتلك الحالة الذميمة، ﴿ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ ﴾: وهو الشيطان الذي زين لكم الكفر والريب فاطمأننتم به، ووثقتم بوعده وصدقتم خبره.

﴿١٥﴾ ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾: ولو افتديتم بملء الأرض ذهبًا ومثله معه؛ لما تقبل منكم. ﴿ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ﴾؛ أي: مستقركم، ﴿ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ﴾: التي تتولاكم وتضمكم إليها، ﴿ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾: النار؛ قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾ ﴾ [القارعة: ٨-١١].

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿١٦﴾ لما ذكر حال المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات في الدار الآخرة؛ كان ذلك مما يدعو القلوب إلى الخشوع لربها والاستكانة لعظمته، فعاتب الله المؤمنين على عدم ذلك، فقال: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾؛ أي: ألم يأت الوقت الذي به تلين قلوبهم وتخشع لذكر الله الذي هو القرآن وتنقاد لأوامره وزواجره وما نزل من الحق الذي جاء به محمد ﷺ، وهذا فيه الحث على الاجتهاد على خشوع القلب لله تعالى ولما أنزله من الكتاب والحكمة، وأن يتذكر المؤمنون المواعظ الإلهية والأحكام الشرعية كل وقت ويحاسبوا أنفسهم على ذلك، ﴿ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ ﴾؛ أي: ولا يكونوا كالذين أنزل الله عليهم الكتاب الموجب لخشوع القلب والانقياد التام، ثم لم يدوموا عليه، ولا ثبتوا، بل طال عليهم الزمان، واستمرت بهم الغفلة، فاضمحل إيمانهم وزال إيقانهم؛ ﴿ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾: فالقلوب تحتاج في كل وقت إلى أن تذكر بما أنزل الله وتناطق بالحكمة، ولا ينبغي الغفلة عن ذلك؛ فإنه سبب لقسوة القلب وجمود العين.

﴿١٧﴾ ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾: فإن الآيات تدل العقول على المطالب الإلهية، والذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على أن يحيي الأموات بعد موتهم فيجازيهم بأعمالهم، والذي أحيا الأرض بعد موتها بماء المطر، قادر على أن يحيي القلوب الميتة بما أنزله من الحق على رسوله. وهذه الآية تدل على أنه لا عقل لمن لم يهتد بآيات الله ولم ينقد لشرائع الله.

﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿١٨﴾ ﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ ﴾: بالتشديد؛ أي: الذين أكثروا من الصدقات الشرعية والنفقات المرضية، ﴿ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾: بأن قدموا من أموالهم في طرق الخيرات ما يكون زخرًا لهم عند ربهم، ﴿ يُضَٰعَفُ لَهُمْ ﴾: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ﴿ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾: وهو ما أعده الله لهم في الجنة مما لا تعلمه النفوس.

﴿١٩﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ ﴾: والإيمان عند أهل السنة ما دل عليه الكتاب والسنة، هو قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح، فيشمل ذلك جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة، فالذين جمعوا هذه الأمور ﴿ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾؛ أي: الذين مرتبتهم فوق مرتبة عموم المؤمنين ودون مرتبة الأنبياء. وقوله: ﴿ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾؛ كما ورد في الحديث الصحيح[1]: «**إن في الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله**». وهذا يقتضي شدة علوهم

(١) البخاري (٢٧٦٠).

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ
عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ
بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١٩ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ
ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ
وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ
مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ
مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠
سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ
وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ
ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢١ مَآ أَصَابَ
مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ
مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢ لِّكَيۡلَا
تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ
لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ٢٣ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ
ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٤

ورفعتهم وقربهم من الله تعالى، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١٩﴾: فهذه الآيات جمعت أصناف الخلق المتصدقين والصديقين والشهداء وأصحاب الجحيم، فالمتصدقون الذين جل عملهم الإحسان إلى الخلق وبذل النفع لهم بغاية ما يمكنهم، خصوصًا بالنفع بالمال في سبيل الله، والصديقون هم الذين كملوا مراتب الإيمان والعمل الصالح والعلم النافع واليقين الصادق، والشهداء هم الذين قاتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وبذلوا أنفسهم وأموالهم فقُتلوا، وأصحاب الجحيم هم الكفار الذين كذبوا بآيات الله. وبقي قسم ذكرهم الله في سورة فاطر، وهم المقتصدون الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات؛ إلا أنهم حصل منهم بعض التقصير بحقوق الله وحقوق عباده؛ فهؤلاء مآلهم الجنة، وإن حصل لبعضهم عقوبة ببعض ما فعل.

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢١﴾.

(٢٠) يخبر تعالى عن حقيقة الدنيا وما هي عليه، ويبين غايتها وغاية أهلها؛ بأنها ﴿لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾: تلعب بها الأبدان وتلهو بها القلوب، وهذا مصداقه ما هو موجود وواقع من أبناء الدنيا؛ فإنك تجدهم قد قطعوا أوقات عمرهم بلهو قلوبهم وغفلتهم عن ذكر الله وعما أمامهم من الوعد والوعيد، وتراهم قد اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا؛ بخلاف أهل اليقظة وعمال الآخرة؛ فإن قلوبهم معمورة بذكر الله ومعرفته ومحبته، وقد شغلوا أوقاتهم بالأعمال التي تقربهم إلى الله من النفع القاصر والمتعدي. وقوله: ﴿وَزِينَةٞ﴾؛ أي: تزين في اللباس والطعام والشراب والمراكب والدور والقصور والجاه وغير ذلك، ﴿وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ﴾؛ أي: كل واحد من أهلها يريد مفاخرة الآخر، وأن يكون هو الغالب في أمورها، والذي له الشهرة في أحوالها، ﴿وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾؛ أي: كل يريد أن يكون هو الكاثر لغيره في المال والولد، وهذا مصداقه وقوعه من محبي الدنيا والمطمئنين إليها؛ بخلاف من عرف الدنيا وحقيقتها، فجعلها معبرًا، ولم يجعلها مستقرًّا، فنافس فيما يقربه إلى الله، واتخذ الوسائل التي توصله إلى دار كرامته، وإذا رأى من يكاثره وينافسه في الأموال والأولاد؛ نافسه بالأعمال الصالحة.

ثم ضرب للدنيا مثلًا بغيث نزل على الأرض، فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها، وأعجب نباته الكفار الذين قصروا نظرهم وهممهم على الدنيا؛ جاءها من أمر الله ما أتلفها، فهاجت ويبست وعادت إلى حالها الأولى؛ كأنه لم ينبت فيها خضراء ولا رُئي لها مرأى أنيق، كذلك الدنيا؛ بينما هي زاهية لصاحبها زاهرة؛ مهما أراد من مطالبها حصل، ومهما توجه لأمر من أمورها؛ وجد أبوابه مفتحة؛ إذ أصابها القدر، فأذهبها من يده، وأزال تسلطه عليها، أو ذهب به عنها، فرحل منها صفر اليدين؛ لم يتزود منها سوى الكفن، فتبًّا لمن أضحت هي غاية أمنيته ولها عمله وسعيه.

وأما العمل للآخرة؛ فهو الذي ينفع ويدخر لصاحبه ويصحب العبد على الأبد، ولهذا قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾؛ أي: حال الآخرة ما يخلو من هذين الأمرين: إما العذاب الشديد في نار جهنم وأغلالها وسلاسلها وأهوالها لمن كانت الدنيا هي غايته ومنتهى مطلبه، فتجرأ على معاصي الله، وكذب بآيات الله، وكفر بأنعم الله، وإما مغفرة من الله للسيئات، وإزالة العقوبات، ورضوان من الله يحل من أحله عليه دار الرضوان لمن عرف الدنيا وسعى للآخرة سعيها؛ فهذا كله مما يدعو إلى الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ۝٢٠﴾؛ أي: إلا متاع يتمتع به وينتفع به ويستدفع به الحاجات؛ لا يغتر به ويطمئن إليه إلا أهل العقول الضعيفة، الذين يغرهم بالله الغرور.

﴿٢١﴾ ثم أمر بالمسابقة إلى مغفرة الله ورضوانه وجنته، وذلك يكون بالسعي بأسباب المغفرة من التوبة النصوح، والاستغفار النافع، والبعد عن الذنوب ومظانها، والمسابقة إلى رضوان الله بالعمل الصالح، والحرص على ما يرضي الله على الدوام من الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى الخلق بجميع وجوه النفع، ولهذا ذكر الله الأعمال الموجبة لذلك، فقال: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾، والإيمان بالله ورسله يدخل فيه أصول الدين وفروعها. ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾؛ أي: هذا الذي بيناه لكم وذكرنا لكم فيه الطرق الموصلة إلى الجنة والطرق الموصلة إلى النار، وأن ثواب الله بالأجر الجزيل والثواب الجميل من أعظم منته على عباده وفضله، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢١﴾: الذي لا يحصى ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه أحد من خلقه.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٢٢ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝٢٣ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٢٤﴾.

﴿٢٢﴾ يقول تعالى مخبرًا عن عموم قضائه وقدره: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾: وهذا شامل لعموم المصائب التي تصيب الخلق من خير وشر؛ فكلها قد كتبت في اللوح المحفوظ صغيرها وكبيرها، وهذا أمر عظيم لا تحيط به العقول، بل تذهل عنده أفئدة أولي الألباب، ولكنه على الله يسير.

﴿٢٣﴾ وأخبر الله عباده بذلك لأجل أن تتقرر هذه القاعدة عندهم، ويبنوا عليها ما أصابهم من الخير والشر؛ فلا يأسوا، ويحزنوا على ما فاتهم، مما طمحت له أنفسهم وتشوفوا إليه؛ لعلمهم أن ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ، لا بد من نفوذه ووقوعه؛ فلا سبيل إلى دفعه، ولا يفرحوا بما آتاهم الله فرح بطر وأشر؛ لعلمهم أنهم ما أدركوه بحولهم وقوتهم، وإنما أدركوه بفضل الله ومنه، فيشتغلوا بشكر من أولى النعم ودفع النقم، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝٢٣﴾؛ أي: متكبر فظ غليظ معجب بنفسه فخور بنعم الله ينسبها إلى نفسه وتطغيه وتلهيه؛ كما قال تعالى: ﴿إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ [الزمر: ٤٩].

﴿٢٤﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾؛ أي: يجمعون بين الأمرين الذميمين اللذين كل منهما كافٍ في الشر: البخل، وهو منع الحقوق الواجبة، ويأمرون الناس بذلك، فلم يكفهم بخلهم، حتى أمروا الناس بذلك، وحثوهم على هذا الخُلُق الذميم بقولهم وفعلهم، وهذا من إعراضهم عن طاعة ربهم وتوليهم عنها، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾: عن طاعة الله؛ فلا يضر إلا نفسه، ولن يضر الله شيئًا، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٢٤﴾: الذي غناه من لوازم ذاته، الذي له ملك السماوات والأرض، وهو الذي أغنى عباده وأقناهم، الحميد الذي له كل اسم حسن ووصف كامل وفعل جميل يستحق أن يحمد عليه ويثنى ويعظم.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٢٥ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ۝٢٦ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ۝٢٧﴾.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ
وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ
بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ
بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ
وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ
وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم
بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ
وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً
ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا
رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ
وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ
نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ
أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ
الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

﴿٢٥﴾ يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾: وهي الأدلة والشواهد والعلامات الدالة على صدق ما جاءوا به وحقيته، ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾: وهو اسم جنس يشمل سائر الكتب التي أنزلها الله لهداية الخلق وإرشادهم ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، ﴿وَالْمِيزَانَ﴾: وهو العدل في الأقوال والأفعال، والدين الذي جاءت به الرسل كله عدل وقسط في الأوامر والنواهي وفي معاملات الخلق وفي الجنايات والقصاص والحدود والمواريث وغير ذلك، وذلك ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾: قيامًا بدين الله، وتحصيلًا لمصالحهم التي لا يمكن حصرها وعدها، وهذا دليل على أن الرسل متفقون في قاعدة الشرع، وهو القيام بالقسط، وإن اختلفت صور العدل بحسب الأزمنة والأحوال، ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾: من آلات الحرب؛ كالسلاح والدروع وغير ذلك، ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾: وهو ما يشاهد من نفعه في أنواع الصناعات والحرف والأواني وآلات الحرث، حتى إنه قل أن يوجد شيء إلا وهو يحتاج إلى الحديد، ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾؛ أي: ليقيم تعالى سوق الامتحان بما أنزله من الكتاب والحديد، فيتبين من ينصره وينصر رسله في حالة الغيب، التي ينفع فيها الإيمان قبل الشهادة، التي لا فائدة بوجود الإيمان فيها؛ لأنه حينئذ يكون ضروريًا. ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾؛ أي: لا يعجزه شيء ولا يفوته هارب، ومن قوته وعزته أن أنزل الحديد الذي منه الآلات القوية، ومن قوته وعزته أنه قادر على الانتصار من أعدائه، ولكنه يبتلي أولياءه بأعدائه؛ ليعلم من ينصره بالغيب.

وقرن تعالى بهذا الموضع بين الكتاب والحديد؛ لأن بهذين الأمرين ينصر الله دينه ويعلي كلمته: بالكتاب الذي فيه الحجة والبرهان، والسيف الناصر بإذن الله، وكلاهما قيامه بالعدل والقسط، الذي يستدل به على حكمة الباري وكماله وكمال شريعته التي شرعها على ألسنة رسله.

﴿٢٦﴾ ولما ذكر نبوة الأنبياء عمومًا؛ ذكر من خواصهم النبيَّيْنِ الكريمَيْنِ نوحًا وإبراهيم، اللذين جعل الله النبوة والكتاب في ذريتهما، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾؛ أي: الأنبياء المتقدمين والمتأخرين، كلهم من ذرية نوح وإبراهيم عليهما السلام، وكذلك الكتب كلها نزلت على ذرية هذين النبيين الكريمين. ﴿فَمِنْهُم﴾؛ أي: ممن أرسلنا إليهم الرسل ﴿مُّهْتَدٍ﴾: بدعوتهم، منقاد لأمرهم، مسترشد بهداهم، ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾؛ أي: خارجون عن طاعة الله وطاعة رسله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣].

﴿٢٧﴾ ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا﴾؛ أي: أتبعنا ﴿عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾: خص الله عيسى عليه السلام؛ لأن السياق مع النصارى، الذين يزعمون اتباع عيسى، ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ﴾: الذي هو من كتب الله الفاضلة، ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾؛ كما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

[المائدة: ٨٢] الآيات، ولهذا كان النصارى ألين من غيرهم قلوبًا حين كانوا على شريعة عيسى عليه السلام، ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾: والرهبانية العبادة؛ فهم ابتدعوا من عند أنفسهم عبادة، ووظفوها على أنفسهم، والتزموا لوازم ما كتبها الله عليهم ولا فرضها، بل هم الذين التزموا بها من تلقاء أنفسهم؛ قصدهم بذلك رضا الله، ومع ذلك؛ ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾؛ أي: ما قاموا بها، ولا أدوا حقوقها، فقصروا من وجهين: من جهة ابتداعهم، ومن جهة عدم قيامهم بما فرضوه على أنفسهم. فهذه الحال هي الغالب من أحوالهم، ومنهم من هو مستقيم على أمر الله، ولهذا قال: ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾؛ أي: الذين آمنوا بمحمد ﷺ مع إيمانهم بعيسى؛ كل أعطاه الله على حسب إيمانه، ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿٢٨﴾ وهذا الخطاب يحتمل أنه خطاب لأهل الكتاب، الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام؛ يأمرهم أن يعملوا بمقتضى إيمانهم؛ بأن يتقوا الله فيتركوا معاصيه ويؤمنوا برسوله محمد ﷺ، وأنهم إن فعلوا ذلك؛ أعطاهم ﴿كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾؛ أي: نصيبين من الأجر؛ نصيب على إيمانهم بالأنبياء الأقدمين، ونصيب على إيمانهم بمحمد ﷺ. ويحتمل أن يكون الأمر عامًّا؛ يدخل فيه أهل الكتاب وغيرهم، وهذا الظاهر، وأن الله أمرهم بالإيمان والتقوى، الذي يدخل فيه جميع الدين ظاهره وباطنه أصوله وفروعه، وأنهم إن امتثلوا هذا الأمر العظيم؛ أعطاهم الله ﴿كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾؛ لا يعلم قدرهما ولا وصفهما إلا الله تعالى: أجر على الإيمان وأجر على التقوى، أو أجر على امتثال الأوامر وأجر على اجتناب النواهي، أو أن التثنية المراد بها تكرار الإيتاء مرة بعد أخرى. ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾؛ أي: يعطيكم علمًا وهدًى ونورًا تمشون به في ظلمات الجهل، ويغفر لكم السيئات، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾: فلا يستغرب كثرة هذا الثواب على فضل ذي الفضل العظيم، الذي عم فضله أهل السماوات والأرض؛ فلا يخلو مخلوق من فضله طرفة عين ولا أقل من ذلك.

﴿٢٩﴾ وقوله: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بينا لكم فضلنا وإحساننا لمن آمن إيمانًا عامًّا واتقى الله وآمن برسوله؛ لأجل أن يكون عند أهل الكتاب علم بأنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله؛ أي: لا يحجرون على الله بحسب أهوائهم وعقولهم الفاسدة، فيقولون: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾، ويتمنون على الله الأماني الفاسدة، فأخبر الله تعالى المؤمنين برسوله محمد ﷺ، المتقين لله أن لهم كفلين من رحمته ونورًا ومغفرة؛ رغمًا على أنوف أهل الكتاب، وليعلموا أن ﴿ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾: ممن اقتضت حكمته تعالى أن يؤتيه من فضله، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾: الذي لا يقادر قدره.

تم تفسير سورة الحديد. ولله الحمد والمنة.



سُورَةُ المُجَادِلَةِ ٥٨ آياتها ٢٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ
وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ
مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي
وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ
اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ
لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ
بِهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ
مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ
مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۗ
وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا
كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ
عَذَابٌ مُّهِينٌ (٥) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا
عَمِلُوا ۚ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦)

تفسير سورة قد سمع الله

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤)﴾.

(١) نزلت هذه الآيات الكريمات في رجل من الأنصار اشتكته زوجته إلى الله وجادلته إلى رسول الله ﷺ لما حرمها على نفسه بعد الصحبة الطويلة والأولاد، وكان هو رجلًا شيخًا كبيرًا، فشكت حالها وحاله إلى الله وإلى رسول الله ﷺ، وكررت ذلك، وأبدت فيه وأعادت، فقال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾؛ أي: تخاطبكما فيما بينكما. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾: لجميع الأصوات في جميع الأوقات على تفنن الحاجات. ﴿بَصِيرٌ (١)﴾: يبصر دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء.

وهذا إخبار عن كمال سمعه وبصره، وإحاطتهما بالأمور الدقيقة والجليلة، وفي ضمن ذلك الإشارة بأن الله سيزيل شكواها ويرفع بلواها، ولهذا ذكر حكمها وحكم غيرها على وجه العموم، فقال:

(٢) ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾: المظاهرة من الزوجة أن يقول الرجل لزوجته: أنت علي كظهر أمي. أو غيرها من محارمه، أو أنت علي حرام. وكان المعتاد عندهم في هذا لفظ الظهر، ولهذا سماه الله ظهارًا، فقال: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾؛ أي: كيف يتكلمون بهذا الكلام الذي يعلمون أنه لا حقيقة له، فيشبهون أزواجهم بأمهاتهم اللائي ولدنهم؟! ولهذا عظم الله أمره وقبحه، فقال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾؛ أي: قولًا شنيعًا وكذبًا، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢)﴾: عمن صدر منه بعض المخالفات فتداركها بالتوبة النصوح.

(٣) ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾: اختلف العلماء في معنى العود، فقيل معناه العزم على جماع من ظاهر منها، وأنه بمجرد عزمه؛ تجب عليه الكفارة المذكورة، ويدل على هذا أن الله تعالى ذكر في الكفارة أنها تكون قبل المسيس، وذلك إنما يكون بمجرد العزم، وقيل: معناه حقيقة الوطء. ويدل على ذلك أن الله قال: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾، والذي قالوا إنما هو الوطء، وعلى كل من القولين؛ فإذا وجد العود؛ صار كفارة هذا التحريم تحرير ﴿رَقَبَةٍ﴾ مؤمنة؛ كما قُيدت في آية القتل؛ ذكر أو أنثى؛ بشرط أن تكون سالمة من العيوب الضارة بالعمل ﴿مِّن

﴿قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾؛ أي: يلزم الزوج أن يترك وطء زوجته التي ظاهر منها حتى يكفر برقبة. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾: الحكم الذي ذكرناه لكم ﴿تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾؛ أي: يبين لكم حكمه مع الترهيب المقرون به؛ لأن معنى الوعظ ذكر الحكم مع الترغيب والترهيب فالذي يريد أن يظاهر؛ إذا ذكر أن عليه عتق رقبة؛ كف نفسه عنه. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣﴾: فيجازي كل عامل بعمله.

۝٤ ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾: رقبة يعتقها؛ بأن لم يجدها أو لم يجد ثمنها، فعليه صيام ﴿شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾: الصيام، ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾: إما أن يطعمهم من قوت بلده ما يكفيهم؛ كما هو قول كثير من المفسرين، وإما أن يطعم كل مسكين مد بر أو نصف صاع من غيره مما يجزي في الفطرة؛ كما هو قول طائفة أخرى. ﴿ذَٰلِكَ﴾: الحكم الذي بيناه لكم ووضحناه، ﴿لِتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: وذلك بالتزام هذا الحكم وغيره من الأحكام والعمل به؛ فإن التزام أحكام الله والعمل بها من الإيمان، بل هي المقصودة، ويزداد بها الإيمان ويكمل وينمو. ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾: التي تمنع من الوقوع فيها، فيجب ألّا تُتعدى ولا يقصَّر عنها. ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾.

وفي هذه الآيات عدة أحكام:

منها: لطف الله بعباده واعتناؤه بهم؛ حيث ذكر شكوى هذه المرأة المصابة، وأزالها، ورفع عنها البلوى، بل رفع البلوى بحكمه العام لكل من ابتلي بمثل هذه القضية.

ومنها: أن الظهار مختص بتحريم الزوجة؛ لأن الله قال: ﴿مِّن نِّسَآئِهِمْ﴾؛ فلو حرم أمته؛ لم يكن ذلك ظهارًا، بل هو من جنس تحريم الطيبات كالطعام والشراب؛ تجب فيه كفارة اليمين فقط.

ومنها: أنه لا يصح الظهار من امرأة قبل أن يتزوجها؛ لأنها لا تدخل في نسائه وقت الظهار؛ كما لا يصح طلاقها؛ سواء نجز ذلك أو علقه.

ومنها: أن الظهار محرم؛ لأن الله سماه ﴿مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾.

ومنها: تنبيه الله على الحكم وحكمته؛ لأن الله قال: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾.

ومنها: أنه يكره للرجل أن ينادي زوجته ويدعوها باسم محارمه؛ كقوله: يا أمي يا أختي ونحو ذلك؛ لأن ذلك يشبه المحرم.

ومنها: أن الكفارة إنما تجب بالعود؛ لما قال المظاهر على اختلاف القولين السابقين، لا بمجرد الظهار.

ومنها: أنه يجزئ في كفارة الرقبة الصغير والكبير والذكر والأنثى؛ لإطلاق الآية في ذلك.

ومنها: أنه يجب إخراجها إذا كانت عتقًا أو صيامًا قبل المسيس؛ كما قيده الله؛ بخلاف كفارة الإطعام؛ فإنه يجوز المسيس والوطء في أثنائها.

ومنها: أنه لعل الحكمة في وجوب الكفارة قبل المسيس أن ذلك أدعى لإخراجها؛ فإنه إذا اشتاق إلى الجماع، وعلم أنه لا يُمكَّن من ذلك إلا بعد الكفارة؛ بادر بإخراجها.

ومنها: أنه لا بد من إطعام ستين مسكينًا؛ فلو جمع طعام ستين مسكينًا، ودفعه لواحد أو أكثر من ذلك دون الستين؛ لم يجز ذلك؛ لأن الله قال: ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥﴾.

۝٥ محادة الله ورسوله مخالفتهما ومعصيتهما، خصوصًا في الأمور الفظيعة؛ كمحادة الله ورسوله بالكفر ومعاداة أولياء الله. وقوله: ﴿كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: أذلوا وأهينوا كما فعل بمن قبلهم جزاء وفاقًا، وليس لهم حجة على الله؛ فإن الله قد قامت حجته البالغة على الخلق، وقد أنزل من الآيات البينات والبراهين ما يبين الحقائق ويوضح المقاصد؛ فمن اتبعها وعمل عليها، فهو من المهتدين الفائزين. ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾: بها ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥﴾؛ أي: يهينهم ويذلهم؛ فكما تكبروا عن آيات الله؛ أهانهم وأذلهم.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٦ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ
مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ
وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم
بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ
نُهُوا عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ
وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ
بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ
جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا
تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا
بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ
مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا
إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا يَفْسَحِ
ٱللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا فَٱنشُزُوا يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا
مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾.

(٦) يقول الله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ أي: يوم يبعث الله الخلق جميعًا فيقومون من أجداثهم سريعًا فينبئهم بما عملوا من خير وشر؛ لأنه علم ذلك؛ ﴿ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾ أي: كتبه في اللوح المحفوظ، وأمر الملائكة الكرام الحفظة بكتابته، هذا والعاملون قد ﴿ نَسُوهُ ﴾ أي: نسوا ما عملوه والله أحصى ذلك. ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾: على الظواهر والسرائر والخبايا والخفايا.

(٧) ولهذا أخبر عن سعة علمه وإحاطته بما في السماوات والأرض من دقيق وجليل، وأنه ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾: والمراد بهذه المعية معية العلم والإحاطة بما تناجوا به وأسروه فيما بينهم، ولهذا قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾.

ثم قال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

(٨)، (٩) النجوى هي التناجي بين اثنين فأكثر، وقد تكون في الخير وتكون في الشر، فأمر الله المؤمنين أن يتناجوا بالبر، وهو اسم جامع لكل خير وطاعة وقيام بحق الله وحق عباده، والتقوى، وهي هنا اسم جامع لترك جميع المحارم والمآثم؛ فالمؤمن يمتثل هذا الأمر الإلهي؛ فلا تجده مناجيًا ومتحدثًا إلا بما يقربه إلى الله ويباعده من سخطه، والفاجر يتهاون بأمر الله ويناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول؛ كالمنافقين الذين هذا دأبهم وحالهم مع الرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ ﴾؛ أي: يسيئون الأدب في تحيتهم لك، ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ ﴾؛ أي: يسرون فيها ما ذكره عالم الغيب والشهادة عنهم، وهو قولهم: ﴿ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾: ومعنى ذلك أنهم يتهاونون بذلك، ويستدلون بعدم تعجيل العقوبة عليهم أن ما يقولونه غير محذور، قال تعالى في بيان أنه يمهل ولا يهمل: ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ ﴾؛ أي: تكفيهم جهنم التي جمعت كل عذاب وشقاء عليهم، تحيط بهم ويعذبون بها؛ فبئس المصير. وهؤلاء المذكورون إما أناس من المنافقين، يظهرون الإيمان ويخاطبون الرسول ﷺ بهذا الخطاب الذي يوهمون أنهم أرادوا به خيرًا، وهم كذبة في ذلك، وإما أناس من أهل الكتاب الذين إذا سلموا على رسول الله ﷺ؛ قالوا: السام عليك يا محمد. يعنون: الموت.

﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

(١٠) يقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ ﴾؛ أي: تناجي أعداء المؤمنين بالمؤمنين بالمكر والخديعة وطلب السوء من

الشيطان الذي كيده ضعيف(١)، ﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: هذا غاية هذا المكر ومقصوده، ﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: فإن الله وعد المؤمنين بالكفاية والنصر على الأعداء، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]: فأعداء الله ورسوله والمؤمنين مهما تناجوا ومكروا؛ فإن ضرر ذلك عائد إلى أنفسهم، ولا يضر المؤمنين إلا شيء قدره الله وقضاه. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾؛ أي: ليعتمدوا عليه ويثقوا بوعده؛ فإن من توكل على الله؛ كفاه(٢) أمر دينه ودنياه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

(١١) هذا أدب من الله لعباده إذا اجتمعوا في مجلس من مجالس مجتمعاتهم، واحتاج بعضهم أو بعض القادمين للتفسح له في المجلس؛ فإن من الأدب أن يفسحوا له؛ تحصيلًا لهذا المقصود، وليس ذلك بضار للفاسح شيئًا، فيحصل مقصود أخيه من غير ضرر يلحقه، والجزاء من جنس العمل؛ فإن من فسح لأخيه فسح الله له، ومن وسع لأخيه؛ وسع الله عليه، ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟﴾؛ أي: ارتفعوا وتنحوا عن مجالسكم لحاجة تعرض، ﴿فَٱنشُزُوا۟﴾؛ أي: فبادروا للقيام لتحصيل تلك المصلحة؛ فإن القيام بمثل هذه الأمور من العلم والإيمان، والله تعالى يرفع أهل العلم والإيمان درجات بحسب ما خصهم به من العلم والإيمان. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾: فيجازي كل عامل بعمله؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر. وفي هذه الآية فضيلة العلم، وأن زينته وثمرته التأدب بآدابه والعمل بمقتضاه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

(١) بعده في ط: «ومكره غير مفيد».
(٢) الأصل: «كفاه وكفاه»، ط: «كفاه وتولى».

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ
صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟
وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا
غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ
عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ
شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ
ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ
إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ
ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ
﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾
كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾

(١٢) يأمر تعالى المؤمنين بالصدقة أمام مناجاة رسوله محمد ﷺ تأديبًا لهم وتعليمًا وتعظيمًا للرسول ﷺ؛ فإن هذا التعظيم خير للمؤمنين وأطهر؛ أي: بذلك يكثر خيركم وأجركم، وتحصل لكم الطهارة من الأدناس، التي من جملتها ترك احترام الرسول ﷺ والأدب معه بكثرة المناجاة التي لا ثمرة تحتها؛ فإنه إذا أمر بالصدقة بين يدي مناجاته؛ صار هذا ميزانًا لمن كان حريصًا على العلم والخير؛ فلا يبالي بالصدقة، ومن لم يكن له حرص ولا رغبة في الخير، وإنما مقصوده مجرد كثرة الكلام، فينكف بذلك عن الذي يشق على الرسول، هذا في الواجد للصدقة، وأما الذي لا يجد الصدقة؛ فإن الله لم يضيق عليه الأمر، بل عفا عنه وسامحه وأباح له المناجاة بدون تقديم صدقة لا يقدر عليها.

(١٣) ثم لما رأى تعالى شفقة المؤمنين ومشقة الصدقات عليهم عند كل مناجاة؛ سهل الأمر عليهم، ولم يؤاخذهم بترك الصدقة بين يدي المناجاة، وبقي التعظيم للرسول

والاحترام بحاله لم ينسخ؛ لأن هذا[1] من باب المشروع لغيره، ليس مقصودًا لنفسه، وإنما المقصود هو الأدب مع الرسول والإكرام له، وأمرهم تعالى أن يقوموا بالمأمورات الكبار المقصودة بنفسها، فقال: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾؛ أي: لم يَهُنْ عليكم تقديم الصدقة، ولا يكفي هذا؛ فإنه ليس من شرط الأمر أن يكون هينًا على العبد، ولهذا قيده بقوله: ﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: عفا لكم عن ذلك، ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾: بأركانها وشروطها وجميع حدودها ولوازمها، ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾: المفروضة في أموالكم إلى مستحقيها.

وهاتان العبادتان هما أم العبادات البدنية والمالية؛ فمن قام بهما على الوجه الشرعي؛ فقد قام بحقوق الله وحقوق عباده، ولهذا قال بعده: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: وهذا أشمل ما يكون من الأوامر، فيدخل في ذلك طاعة الله وطاعة رسوله بامتثال أوامرهما واجتناب نواهيهما وتصديق ما أخبرا به والوقوف عند حدود الشرع، والعبرة في ذلك على الإخلاص والإحسان؛ فلهذا قال: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾: فيعلم تعالى أعمالهم، وعلى أي وجه صدرت، فيجازيهم على حسب علمه بما في صدورهم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا
مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا
شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً
فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ
أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ
لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ
عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ
حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿١٤﴾، ﴿١٥﴾ يخبر تعالى عن شناعة حال المنافقين، الذين يتولون الكافرين من اليهود والنصارى وغيرهم ممن غضب الله عليهم ونالوا من لعنة الله أوفى نصيب، وأنهم ليسوا من المؤمنين ولا من الكافرين: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ [النساء: ١٤٣]: فليسوا مؤمنين ظاهرًا وباطنًا؛ لأن باطنهم مع الكفار، ولا مع الكفار ظاهرًا وباطنًا؛ لأن ظاهرهم مع المؤمنين، وهذا وصفهم الذي نعتهم الله به، والحال أنهم يحلفون على ضده الذي هو الكذب، فيحلفون أنهم مؤمنون، والحال أنهم ليسوا مؤمنين، فجزاء هؤلاء الخونة الفجرة الكذبة أن الله أعد لهم عذابًا شديدًا لا يقادر قدره ولا يعلم وصفه؛ ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾: حيث عملوا بما يسخط الله ويوجب عليهم العقوبة واللعنة.

﴿١٦﴾ ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾؛ أي: ترسًا ووقاية يتقون بها من لوم الله ورسوله والمؤمنين، فبسبب ذلك صدوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله، وهو الصراط الذي من سلكه؛ أفضى به إلى جنات النعيم، ومن صد عنه؛ فليس إلا الصراط الموصل إلى الجحيم، ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾﴾: حيث استكبروا عن الإيمان بالله والانقياد لآياته؛ أهانهم بالعذاب السرمدي الذي لا يُفَتَّرُ عنهم ساعة ولا هم ينظرون.

﴿١٧﴾ ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾؛ أي: لا تدفع عنهم شيئًا من العذاب، ولا تحصِّل لهم قسطًا من الثواب، ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾: الملازمون لها، الذين لا يخرجون عنها، ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿١٨﴾ ومن عاش على شيء؛ مات عليه؛ فكما أن المنافقين في الدنيا يموِّهون على المؤمنين ويحلفون لهم أنهم مؤمنون، فإذا كان يوم القيامة وبعثهم الله جميعًا؛ حلفوا لله كما حلفوا للمؤمنين، ويحسبون في حلفهم هذا ﴿أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾: لأن كفرهم ونفاقهم وعقائدهم الباطلة لم تزل ترسخ في أذهانهم شيئًا فشيئًا، حتى غرتهم وظنوا أنهم على شيء يعتد به ويعلق عليه الثواب، وهم كاذبون في ذلك، ومن المعلوم أن الكذب لا يروج على عالم الغيب والشهادة.

﴿١٩﴾ وهذا الذي جرى عليهم من استحواذ الشيطان الذي استولى عليهم وزين لهم أعمالهم وأنساهم ذكر الله، وهو العدو المبين الذي لا يريد بهم إلا الشر، ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: ٦]، ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾: الذين خسروا دينهم ودنياهم وأنفسهم وأهليهم.

(١) ط: «هذا الحكم».

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾
كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾.

(٢٠)، (٢١) هذا وعد ووعيد، وعيد لمن حاد الله ورسوله بالكفر والمعاصي أنه مخذول مذلول لا عاقبة له حميدة، ولا راية له منصورة، ووعد لمن آمن به وبرسله واتبع ما جاء به المرسلون فصار من حزب الله المفلحين أن لهم الفتح والنصر والغلبة في الدنيا والآخرة، وهذا وعد لا يخلف ولا يغير؛ فإنه من الصادق القوي العزيز الذي لا يعجزه شيء يريده.

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ
مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ
أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ
ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ
أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

(٢٢) يقول تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾؛ أي: لا يجتمع هذا وهذا، فلا يكون العبد مؤمنًا بالله واليوم الآخر حقيقة إلا كان عاملًا على مقتضى إيمانه ولوازمه من محبة من قام بالإيمان وموالاته وبغض من لم يقم به ومعاداته، ولو كان أقرب الناس إليه، وهذا هو الإيمان على الحقيقة، الذي وجدت ثمرته والمقصود منه، وأهل هذا الوصف هم الذين ﴿ كَتَبَ ﴾ الله ﴿ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ ﴾؛ أي: رسمه وثبته وغرسه غرسًا لا يتزلزل ولا تؤثر فيه الشبه والشكوك، وهم الذين قواهم الله ﴿ بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾؛ أي: بوحيه ومعونته ومدده الإلهي وإحسانه الرباني وهم الذين لهم الحياة الطيبة في هذه الدار، ولهم جنات النعيم في دار القرار، التي فيها كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وتختار، ولهم أفضل النعيم وأكبره، وهو أن الله يحل عليهم رضوانه؛ فلا يسخط عليهم أبدًا، ويرضون عن ربهم بما يعطيهم من أنواع الكرامات ووافر المثوبات وجزيل الهبات ورفيع الدرجات؛ بحيث لا يرون فوق ما أعطاهم مولاهم غاية ولا وراءه نهاية، وأما من يزعم أنه يؤمن بالله واليوم الآخر، وهو مع ذلك مواد لأعداء الله محب لمن

لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ
حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ
أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ
ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي
مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ
عَنْهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

سُورَةُ الحَشْر ٥٩ آياتها ٢٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ
﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ
لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ
حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ
فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ
فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ
ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾

نبذ الإيمان وراء ظهره؛ فإن هذا إيمان زعمي لا حقيقة له؛ فإن كل أمر لا بد له من برهان يصدقه؛ فمجرد الدعوى لا تفيد شيئًا ولا يصدق صاحبها.

تم تفسير (المجادلة) والحمد لله.

تفسير سورة الحشر

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ۝٢ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٤ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ۝٥﴾.

هذه السورة تسمى سورة بني النضير، وهم طائفة كبيرة من اليهود في جانب المدينة وقت بعثة النبي ﷺ، فلما بعث النبي ﷺ وهاجر إلى المدينة؛ كفروا به في جملة من كفر من اليهود، فهادن النبي ﷺ طوائف اليهود الذين هم جيرانه في المدينة، فلما كان بعد وقعة بدر بستة أشهر أو نحوها؛ خرج إليهم النبي ﷺ، وكلمهم أن يعينوه في دية الكلابيين الذين قتلهم عمرو بن أمية الضمري، فقالوا: نفعل يا أبا القاسم! اجلس ههنا حتى نقضي حاجتك! فخلا بعضهم ببعض، وسول لهم الشيطان الشقاء الذي كتب عليهم، فتآمروا بقتله ﷺ، فقالوا: أيكم يأخذ هذه الرحى فيصعد فيلقيها على رأسه يشدخه بها؟ فقال أشقاهم عمرو بن جحاش: أنا. فقال لهم سلام بن مشكم: لا تفعلوا؛ فوالله؛ ليخبرن بما هممتم به، وإنه لنقض للعهد الذي بيننا وبينه.

وجاء الوحي على الفور إليه من ربه بما هموا به، فنهض مسرعًا، فتوجه إلى المدينة، ولحقه أصحابه، فقالوا: نهضت ولم نشعر بك! فأخبرهم بما همت يهود به، وبعث إليهم رسول الله ﷺ أن اخرجوا من المدينة ولا تساكنوني بها، وقد أجَّلْتُكُمْ عشرًا؛ فمن وجدت بعد ذلك؛ ضربت عنقه. فأقاموا أيامًا يتجهزون، وأرسل إليهم المنافق عبد الله بن أبي ابن سلول ألَّا تخرجوا من دياركم؛ فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم فيموتون دونكم، وتنصركم قريظة وحلفاؤكم من غطفان. وطمع رئيسهم حيي بن أخطب فيما قال له، وبعث إلى رسول الله ﷺ يقول: إنا لا نخرج من ديارنا؛ فاصنع ما بدا لك! فكبر رسول الله ﷺ وأصحابه، ونهضوا إليهم، وعلي بن أبي طالب يحمل اللواء، وأقاموا على حصونهم يرمون بالنَّبْلِ والحجارة، واعتزلتهم قريظة، وخانهم ابن أبي وحلفاؤهم من غطفان، فحاصرهم رسول الله ﷺ، وقطع نخلهم وحرق، فأرسلوا إليه: نحن نخرج من المدينة، فأنزلهم على أن يخرجوا منها بنفوسهم وذراريهم وأن لهم ما حملت إبلهم إلا السلاح. وقبض رسول الله ﷺ الأموال والسلاح.

وكانت بنو النضير خالصة لرسول الله ﷺ لنوائبه ومصالح المسلمين، ولم يخمسها؛ لأن الله أفاءها عليه ولم يوجف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب، وأجلاهم إلى خيبر، وفيهم حيي بن أخطب كبيرهم، واستولى على أرضهم وديارهم، وقبض السلاح، فوجد من السلاح خمسين درعًا وخمسين بيضة وثلاثمائة وأربعين سيفًا، هذا حاصل قصتهم كما ذكرها أهل السير.

﴿١﴾ فافتتح تعالى هذه السورة بالإخبار أن جميع من في السماوات والأرض تسبح بحمد ربها وتنزهه عما لا يليق بجلاله وتعبده وتخضع لعظمته؛ لأنه العزيز الذي قد قهر كل شيء؛ فلا يمتنع عليه شيء، ولا يستعصي عليه عسير[1]، الحكيم في خلقه وأمره؛ فلا يخلق شيئًا عبثًا، ولا يشرع ما لا مصلحة فيه، ولا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته.

﴿٢﴾ ومن ذلك نصر الله لرسوله ﷺ على الذين كفروا من أهل الكتاب من بني النضير حين غدروا برسوله فأخرجهم من ديارهم وأوطانهم التي ألفوها وأحبوها، وكان إخراجهم منها أول حشر وجلاء كتبه الله عليهم على يد رسوله محمد ﷺ، فجلوا إلى خيبر. ودلت الآية الكريمة أن لهم حشرًا وجلاء غير هذا؛ فقد وقع حين أجلاهم النبي ﷺ من خيبر، ثم عمر رضي الله عنه أخرج بقيتهم منها. ﴿مَا ظَنَنتُمْ﴾: أيها المسلمون ﴿أَن يَخْرُجُوا﴾: من ديارهم؛ لحصانتها ومنعتها وعزهم فيها، ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾: فأعجبوا بها، وغرتهم، وحسبوا أنهم لا يُنالون بها، ولا يقدر عليها أحد، وقَدَرُ الله وراء ذلك كله، لا تغني عنه الحصون والقلاع ولا

(١) ط: «مستعص».

تجدي فيه القوة والدفاع، ولهذا قال: ﴿ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾؛ أي: من الأمر والباب الذي لم يخطر ببالهم أن يؤتوا منه، وهو أنه تعالى قذف في قلوبهم الرعب: وهو الخوف الشديد، الذي هو جند الله الأكبر، الذي لا ينفع معه عَدد ولا عُدة ولا قوة ولا شدة؛ فالأمر الذي يحتسبونه، ويظنون أن الخلل يدخل عليهم منه إن دخل، هو الحصون التي تحصنوا بها واطمأنت نفوسهم إليها، ومن وثق بغير الله؛ فهو مخذول، ومن ركن إلى غير الله؛ كان وبالًا عليه، فأتاهم أمر سماوي نزل على قلوبهم، التي هي محل الثبات والصبر أو الخور والضعف، فأزال قوتها وشدتها، وأورثها ضعفًا وخورًا وجبنًا لا حيلة لهم في دفعه، فصار ذلك عونًا عليهم، ولهذا قال: ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، وذلك أنهم صالحوا النبي ﷺ على أن لهم ما حملت الإبل، فنقضوا لذلك كثيرًا من سقوفهم التي استحسنوها، وسلطوا المؤمنين بسبب بغيهم على إخراب ديارهم وهدم حصونهم، فهم الذين جنوا على أنفسهم وصاروا أكبر عون عليها. ﴿ فَٱعْتَبِرُوا يَـٰٓأُولِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ۝٢ ﴾؛ أي: البصائر النافذة والعقول الكاملة؛ فإن في هذا معتبرًا يعرف به صنع الله في المعاندين للحق، المتبعين لأهوائهم، الذين لم تنفعهم عزتهم ولا منعتهم قوتهم ولا حصنتهم حصونهم، حين جاءهم أمر الله؛ وصل إليهم النكال بذنوبهم، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ فإن هذه الآية تدل على الأمر بالاعتبار، وهو اعتبار النظير بنظيره، وقياس الشيء على ما يشابهه، والتفكر فيما تضمنته الأحكام من المعاني والحكم التي هي محل العقل والفكرة، وبذلك يكمل العقل، وتتنور البصيرة، ويزداد الإيمان، ويحصل الفهم الحقيقي.

(٣) ثم أخبر تعالى أن هؤلاء اليهود لم يصبهم جميع ما يستحقون من العقوبة، وأن الله خفف عنهم، ﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ ﴾ الذي أصابهم وقضاه عليهم وقدره بقدره الذي لا يبدل ولا يغير؛ لكان لهم شأن آخر من عذاب الدنيا ونكالها، ولكنهم وإن فاتهم العذاب الشديد الدنيوي؛ فإن لهم في الآخرة عذاب النار الذي لا يمكن أن يعلم شدته إلا الله؛ فلا يخطر ببالهم أن عقوبتهم انقضت وفرغت ولم يبق لهم منها بقية؛ فما أعد الله لهم من العذاب في الآخرة أعظم وأطم.

(٤) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾: وعادوهما وحاربوهما وسعوا في معصيتهما، وهذه سنته وعادته فيمن شاقه. ﴿ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤ ﴾.

سُورَةُ الحَشْرِ — الجُزْءُ الثَّامِنُ وَالعِشْرُونَ

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ
ٱلْعِقَابِ ۝٤ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً
عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝٥ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ
عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ
وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ ۝٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ
وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ
دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا
نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا ۚ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧
لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ
يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُولَـٰٓئِكَ
هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ
يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً
مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ
وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩

٥٤٦

(٥) ولما لام بنو النضير رسول الله ﷺ والمسلمين في قطع النخيل والأشجار، وزعموا أن ذلك من الفساد وتوصلوا بذلك إلى الطعن بالمسلمين، أخبر تعالى أن قطع النخيل إن قطعوه أو إبقاءهم إياه إن أبقوه؛ ﴿ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ وأمره، ﴿ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝٥ ﴾: حيث سلطكم على قطع نخلهم وتحريقها؛ ليكون ذلك نكالًا لهم وخزيًا في الدنيا وذلًّا يعرف به عجزهم التام الذي ما قدروا على استنقاذ نخلهم الذي هو مادة قوتهم. واللينة تشمل سائر النخيل على أصح الاحتمالات وأولاها؛ فهذه حال بني النضير وكيف عاقبهم الله في الدنيا.

(٦) ثم ذكر من انتقلت إليه أموالهم وأمتعتهم، فقال: ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ ﴾؛ أي: من أهل هذه القرية، وهم بنو النضير، فإنكم يا معشر المسلمين ما ﴿ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾؛ أي: ما أجلبتم ولا حشدتم؛ أي: لم تتعبوا بتحصيلها لا بأنفسكم ولا بمواشيكم، بل قذف الله في قلوبهم الرعب، فأتتكم صفوًا عفوًا، ولهذا قال: ﴿ وَلَـٰكِنَّ

ﵟاللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦ﵞ: ومن تمام قدرته أنه لا يمتنع عليه ممتنع ولا يتعزز من دونه قوي.

٧ وتعريف الفيء باصطلاح الفقهاء: هو ما أخذ من مال الكفار بحق من غير قتال؛ كهذا المال الذي فروا وتركوه خوفًا من المسلمين، وسمي فيئًا؛ لأنه رجع من الكفار الذين هم غير مستحقين له إلى المسلمين الذين لهم الحق الأوفر فيه. وحكمه العام كما ذكره الله بقوله: ﵟمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰﵞ: عمومًا، سواء كان في وقت الرسول أو بعده على من تولى من بعده من أمته، ﵟفَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِﵞ: وهذه الآية نظير الآية التي في سورة الأنفال، وهي قوله: ﵟوَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِﵞ [الأنفال: ٤١]؛ فهذا الفيء يقسم خمسة أقسام: خمس لله ولرسوله يصرف في مصالح المسلمين العامة. وخمس لذوي القربى، وهم بنو هاشم وبنو المطلب؛ حيث كانوا، يسوى فيه بين ذكورهم وإناثهم، وإنما دخل بنو المطلب في خمس الخمس مع بني هاشم ولم يدخل بقية بني عبد مناف؛ لأنهم شاركوا بني هاشم في دخولهم الشعب حين تعاقدت قريش على هجرهم وعداوتهم، فنصروا رسول الله ﷺ؛ بخلاف غيرهم، ولهذا قال النبي ﷺ في بني عبد المطلب: «**إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام**». وخمس لفقراء اليتامى، وهم من لا أب له ولم يبلغ. وخمس للمساكين. وخمس لأبناء السبيل، وهم الغرباء المنقطع بهم في غير أوطانهم.

وإنما قدَّر الله هذا التقدير وحصر الفيء في هؤلاء المعينين؛ ﵟكَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢﵞ؛ أي: مداولة واختصاصًا ﵟبَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡﵞ: فإنه لو لم يقدره؛ لتداولته الأغنياء الأقوياء، ولما حصل لغيرهم من العاجزين منه شيء، وفي ذلك من الفساد ما لا يعلمه إلا الله؛ كما أن في اتباع أمر الله وشرعه من المصالح ما لا يدخل تحت الحصر، ولذلك أمر الله بالقاعدة الكلية والأصل العام، فقال: ﵟوَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْﵞ: وهذا شامل لأصول الدين وفروعه ظاهره وباطنه، وأن ما جاء به الرسول يتعين على العباد الأخذ به واتباعه، ولا تحل مخالفته، وأن نص الرسول على حكم الشيء كنص الله تعالى؛ لا رخصة لأحد ولا عذر له في تركه، ولا يجوز تقديم قول أحد على قوله. ثم أمر بتقواه التي بها عمارة القلوب والأرواح والدنيا والآخرة، وبها السعادة الدائمة والفوز العظيم، وبإضاعتها الشقاء الأبدي والعذاب السرمدي، فقال: ﵟوَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٧ﵞ: على من ترك التقوى وآثر اتباع الهوى.

٨، ٩ ثم ذكر تعالى الحكمة والسبب الموجب لجعله تعالى أموال الفيء لمن قدرها له، وأنهم حقيقون بالإعانة، مستحقون لأن تجعل لهم، وأنهم ما بين مهاجرين؛ قد هجروا المحبوبات والمألوفات من الديار والأوطان والأحباب والخلان والأموال رغبة في الله ونصرة لدين الله ومحبة لرسول الله؛ فهؤلاء هم الصادقون؛ الذين عملوا بمقتضى إيمانهم، وصدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة والعبادات الشاقة؛ بخلاف من ادعى الإيمان وهو لم يصدقه بالجهاد والهجرة وغيرهما من العبادات، وبين أنصار، وهم الأوس والخزرج، الذين آمنوا بالله ورسوله طوعًا ومحبة واختيارًا، وآووا رسول الله ﷺ، ومنعوه من الأحمر والأسود، وتبوءوا دار الهجرة والإيمان، حتى صارت موئلًا ومرجعًا يرجع إليه المؤمنون، ويلجأ إليه المهاجرون، ويسكن بحماه المسلمون؛ إذ كانت البلدان كلها بلدان حرب وشرك وشر، فلم يزل أنصار الدين يأوون إلى الأنصار، حتى انتشر الإسلام وقوي وجعل يزداد شيئًا فشيئًا، وينمو قليلًا قليلًا حتى فتحوا القلوب بالعلم والإيمان والقرآن، والبلدان بالسيف والسنان، الذين من جملة أوصافهم الجميلة أنهم ﵟيُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡﵞ، وهذا لمحبتهم لله ورسوله، أحبوا أحبابه، وأحبوا من نصر دينه. ﵟوَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْﵞ؛ أي: لا يحسدون المهاجرين على ما آتاهم الله من فضله وخصهم به من الفضائل والمناقب الذين هم أهلها.

وهذا يدل على سلامة صدورهم وانتفاء الغل والحقد والحسد عنها، ويدل ذلك على أن المهاجرين أفضل من الأنصار؛ لأن الله قدمهم بالذكر، وأخبر أن الأنصار لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، فدل على أن الله تعالى آتاهم ما لم يؤت الأنصار ولا غيرهم، ولأنهم جمعوا بين النصرة والهجرة، وقوله: ﵟوَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞﵞ؛ أي: ومن أوصاف الأنصار - التي فاقوا بها غيرهم وتميزوا بها عمن سواهم - الإيثارُ، وهو أكمل أنواع الجود، وهو الإيثار بمحاب النفس من الأموال وغيرها،

وبذلها للغير، مع الحاجة إليها، بل مع الضرورة والخصاصة، وهذا لا يكون إلا من خلق زكي ومحبة لله تعالى مقدمة على محبة شهوات النفس ولذاتها. ومن ذلك قصة الأنصاري الذي نزلت الآية بسببه حين آثر ضيفه بطعامه وطعام أهله وأولاده وباتوا جياعًا.

والإيثار عكس الأثرة؛ فالإيثار محمود، والأثرة مذمومة؛ لأنها من خصال البخل والشح، ومن رزق الإيثار؛ فقد وقي شح نفسه، ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾: ووقاية شح النفس يشمل وقايتها الشح في جميع ما أمر به؛ فإنه إذا وقي العبد شح نفسه؛ سمحت نفسه بأوامر الله ورسوله، ففعلها طائعًا منقادًا منشرحًا بها صدره، وسمحت نفسه بترك ما نهى الله عنه، وإن كان محبوبًا للنفس؛ تدعو إليه وتطلع إليه، وسمحت نفسه ببذل الأموال في سبيل الله وابتغاء مرضاته، وبذلك يحصل الفلاح والفوز؛ بخلاف من لم يوق شح نفسه، بل ابتلي بالشح بالخير الذي هو أصل الشر ومادته.

(١٠) فهذان الصنفان الفاضلان الزكيان هم الصحابة الكرام والأئمة الأعلام، الذين حازوا من السوابق والفضائل والمناقب ما سبقوا به من بعدهم وأدركوا به من قبلهم، فصاروا أعيان المؤمنين وسادات المسلمين وقادات المتقين، وحسْب من بعدهم من الفضل أن يسير خلفهم ويأتم بهداهم، ولهذا ذكر الله من اللاحقين من هو مؤتم بهم وسائر خلفهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾؛ أي: من بعد المهاجرين والأنصار، ﴿يَقُولُونَ﴾: على وجه النصح لأنفسهم ولسائر المؤمنين: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾: وهذا دعاء شامل لجميع المؤمنين من السابقين من الصحابة ومن قبلهم ومن بعدهم، وهذا من فضائل الإيمان؛ أن المؤمنين ينتفع بعضهم ببعض ويدعو بعضهم لبعض؛ بسبب المشاركة في الإيمان، المقتضي لعقد الأخوة بين المؤمنين، التي من فروعها أن يدعو بعضهم لبعض، وأن يحب بعضهم بعضًا، ولهذا ذكر الله في هذا الدعاء نفي الغل عن القلب، الشامل لقليله وكثيره، الذي إذا انتفى؛ ثبت ضده، وهو المحبة بين المؤمنين والموالاة والنصح ونحو ذلك مما هو من حقوق المؤمنين، فوصف الله من بعد الصحابة بالإيمان؛ لأن قولهم: ﴿سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾: دليل على المشاركة فيه، وأنهم تابعون للصحابة في عقائد الإيمان وأصوله، وهم أهل السنة والجماعة، الذين لا يصدق

سورة الحشر — الجزء الثامن والعشرون

وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾

٥٤٧

هذا الوصف التام إلا عليهم، ووصفهم بالإقرار بالذنوب والاستغفار منها واستغفار بعضهم لبعض واجتهادهم في إزالة الغل والحقد[1] لإخوانهم المؤمنين؛ لأن دعاءهم بذلك مستلزم لما ذكرنا ومتضمن لمحبة بعضهم بعضًا، وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، وأن ينصح له حاضرًا وغائبًا حيًّا وميتًا.

ودلت الآية الكريمة على أن هذا من جملة حقوق المؤمنين بعضهم لبعض. ثم ختموا دعاءهم باسمَيْنِ كريمَيْنِ دالَّيْنِ على كمال رحمة الله وشدة رأفته وإحسانه بهم، الذي من جملته: بل[2] أجلُّه توفيقهم للقيام بحقوقه وحقوق عباده.

فهؤلاء الأصناف الثلاثة هم أصناف هذه الأمة، وهم المستحقون للفيء، الذي مصرفه راجع إلى مصالح الإسلام، وهؤلاء أهله الذين هم أهله، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

(١) زاد في ط: «عن قلوبهم».
(٢) ط: «بل من».

﴿١١﴾ ثم تعجب تعالى من حال المنافقين، الذين طمعوا إخوانهم من أهل الكتاب في نصرتهم وموالاتهم على المؤمنين، وأنهم يقولون لهم: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾؛ أي: لا نطيع في عدم نصرتكم أحدًا يعذلنا أو يخوفنا، ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾﴾: في هذا الوعد الذي غروا به إخوانهم، ولا يستكثر هذا عليهم؛ فإن الكذب وصفهم، والغرور والخداع مقارنهم، والنفاق والجبن يصحبهم.

﴿١٢﴾ ولهذا كذبهم الله بقوله الذي وُجد مخبره كما أخبر به ووقع طبق ما قال، فقال: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا﴾؛ أي: من ديارهم جلاء ونفيًا ﴿لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾: لمحبتهم للأوطان، وعدم صبرهم على القتال، وعدم وفائهم بالوعد، ﴿وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾: بل يستولي عليهم الجبن ويملكهم الفشل ويخذلون إخوانهم أحوج ما كانوا إليهم، ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾: على الفرض والتقدير، ﴿لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾؛ أي: سيحصل منهم الإدبار عن القتال والنصرة، ولا يحصل لهم نصر من الله.

﴿١٣﴾ والسبب الذي حملهم على ذلك أنكم أيها المؤمنون ﴿أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾: فخافوا منكم أعظم مما يخافون الله، وقدموا مخافة المخلوق الذي لا يملك لنفسه[1] نفعًا ولا ضرًّا على مخافة الخالق الذي بيده الضر والنفع والعطاء والمنع. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾: مراتب الأمور، ولا يعرفون حقائق الأشياء، ولا يتصورون العواقب، وإنما الفقه كل الفقه أن يكون خوف الخالق ورجاؤه ومحبته مقدمة على غيرها، وغيرها تبعًا لها.

﴿١٤﴾ ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا﴾؛ أي: في حال الاجتماع ﴿إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ﴾؛ أي: لا يثبتون على قتالكم ولا يعزمون عليه إلا إذا كانوا متحصنين في القرى أو من وراء الجدر والأسوار؛ فإنهم إذ ذاك ربما يحصل منهم امتناع اعتمادًا على حصونهم وجدرهم لا شجاعة بأنفسهم، وهذا من أعظم الذم. ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾؛ أي: بأسهم فيما بينهم شديد، لا آفة في أبدانهم ولا في قوَّتهم، وإنما الآفة في ضعف إيمانهم وعدم اجتماع كلمتهم، ولهذا قال: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾: حين تراهم مجتمعين ومتظاهرين، ولكن قلوبهم ﴿شَتَّىٰ﴾؛ أي: متباغضة متفرقة متشتتة. ﴿ذَٰلِكَ﴾: الذي أوجب لهم اتصافهم بما ذكر ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾؛ أي: لا عقل عندهم ولا لب؛ فإنهم لو كانت لهم عقول؛ لآثروا الفاضل على المفضول، ولما رضوا لأنفسهم بأبخس الخطتين، ولكانت كلمتهم مجتمعة وقلوبهم مؤتلفة؛ فبذلك يتناصرون ويتعاضدون ويتعاونون على مصالحهم ومنافعهم الدينية والدنيوية؛ مثل هؤلاء المخذولين من أهل الكتاب، الذين انتصر الله لرسوله منهم، وأذاقهم الخزي في الحياة الدنيا، وعدم نصر من وعدهم بالمعاونة.

﴿١٥﴾ ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾: وهم كفار قريش، الذين ﴿زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ [الأنفال: ٤٨]! فغرتهم أنفسهم، وغرهم من غرهم، الذين لم ينفعوهم ولم يدفعوا عنهم العذاب، حتى أتوا بدرًا بفخرهم وخيلائهم، ظانين أنهم مدركون برسول الله والمؤمنين أمانيهم، فنصر الله رسوله والمؤمنين عليهم، فقتلوا كبارهم وصناديدهم، وأسروا من أسروا منهم، وفر من فر، وذاقوا بذلك وبال أمرهم وعاقبة شركهم وبغيهم. هذا في الدنيا، ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة عذاب النار.

﴿١٦﴾ ومثل هؤلاء المنافقين الذين غروا إخوانهم من أهل الكتاب، ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ﴾؛ أي: زين له الكفر وحسنه ودعاه إليه، فلما اغتر به وكفر وحصل له الشقاء لم ينفعه الشيطان الذي تولاه ودعاه إلى ما دعاه إليه بل تبرأ منه، و﴿قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾؛ أي: ليس لي قدرة على دفع العذاب عنك، ولست بمغن عنك مثقال ذرة من الخير.

﴿١٧﴾ ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا﴾؛ أي: الداعي الذي هو الشيطان والمدعو الذي هو الإنسان حين أطاعه، ﴿أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا﴾؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: ٦]. ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾﴾: الذين اشتركوا في

(١) زاد في ط: «ولا لغيره».

فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ
ٱلظَّٰلِمِينَ (١٧) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ
نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ
(١٨) وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ (١٩) لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ
ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ (٢٠) لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا
ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ
ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ
(٢١) هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ
هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ
ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ
(٢٣) هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ
يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (٢٤)

سُورَةُ المُمۡتَحنَة

الظلم والكفر، وإن اختلفوا في شدة العذاب وقوته. وهذا دأب الشيطان مع كل أوليائه؛ فإنه يدعوهم ويدليهم بغرور إلى ما يضرهم، حتى إذا وقعوا في الشباك، وحاق بهم أسباب الهلاك؛ تبرأ منهم وتخلى عنهم، واللوم كل اللوم على من أطاعه؛ فإن الله قد حذر منه وأنذر، وأخبر بمقاصده وغايته ونهايته، فالمقدم على طاعته عاصٍ على بصيرة لا عذر له.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ
لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُواْ
كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ (١٩)
لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ
ٱلۡفَآئِزُونَ (٢٠) لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا
مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ
لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾.

(١٨) يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يوجبه الإيمان ويقتضيه من لزوم تقواه سرًّا وعلانية في جميع الأحوال، وأن يراعوا ما أمرهم الله به من أوامره وشرائعه وحدوده، وينظروا ما لهم وما عليهم، وماذا حصلوا عليه من الأعمال التي تنفعهم أو تضرهم في يوم القيامة؛ فإنهم إذا جعلوا الآخرة نصب أعينهم وقبلة قلوبهم، واهتموا للمقام بها؛ اجتهدوا في كثرة الأعمال الموصلة إليها وتصفيتها من القواطع والعوائق، التي توقفهم عن السير أو تعوقهم أو تصرفهم، وإذا علموا أيضًا أن الله خبير بما يعملون، لا تخفى عليه أعمالهم، ولا تضيع لديه، ولا يهملها؛ أوجب لهم الجد والاجتهاد.

وهذه الآية الكريمة أصل في محاسبة العبد نفسه، وأنه ينبغي له أن يتفقدها؛ فإن رأى زللًا؛ تداركه بالإقلاع عنه والتوبة النصوح والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصرًا في أمر من أوامر الله؛ بذل جهده واستعان بربه في تتميمه وتكميله وإتقانه، ويقايس بين منن الله عليه وإحسانه وبين تقصيره؛ فإن ذلك يوجب له الحياء لا محالة.

(١٩) والحرمان كل الحرمان أن يغفل العبد عن هذا الأمر، ويشابه قومًا نسوا الله، وغفلوا عن ذكره والقيام بحقه وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها فلم ينجحوا ولم يحصلوا على طائل، بل أنساهم الله مصالح أنفسهم، وأغفلهم عن منافعها وفوائدها، فصار أمرهم فرطًا، فرجعوا بخسارة الدارين، وغبنوا غبنًا لا يمكن تداركه ولا يجبر كسره؛ لأنهم ﴿هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ (١٩)﴾ الذين خرجوا عن طاعة ربهم، وأوضعوا في معاصيه.

(٢٠) فهل يستوي من حافظ على تقوى الله، ونظر لما قدم لغده فاستحق جنات النعيم والعيش السليم مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ومن غفل عن ذكره ونسي حقوقه فشقي في الدنيا، واستحق العذاب في الآخرة؛ فالأولون هم الفائزون، والآخرون هم الخاسرون.

(٢١) ولما بين تعالى لعباده ما بين، وأمر عباده ونهاهم في كتابه العزيز؛ كان هذا موجبًا لأن يبادروا إلى ما دعاهم إليه وحثهم عليه، ولو كانوا في القسوة وصلابة القلوب كالجبال الرواسي؛ فإن هذا القرآن لو أنزله ﴿عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾؛ أي: لكمال تأثيره في القلوب؛

فإن مواعظ القرآن أعظم المواعظ على الإطلاق، وأوامره ونواهيه محتوية على الحكم والمصالح المقرونة بها وهي من أسهل شيء على النفوس وأيسرها على الأبدان، خالية من التكلف، لا تناقض فيها ولا اختلاف ولا صعوبة فيها ولا اعتساف، تصلح لكل زمان ومكان، وتليق لكل أحد. ثم أخبر تعالى أنه يضرب للناس الأمثال، ويوضح لعباده الحلال والحرام؛ لأجل أن يتفكروا في آياته ويتدبروها؛ فإن التفكر فيها يفتح للعبد خزائن العلم، ويبين له طرق الخير والشر، ويحثه على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، ويزجره عن مساوئ الأخلاق؛ فلا أنفع للعبد من التفكر في القرآن والتدبر لمعانيه.

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾

﴿٢٢﴾ هذه الآيات الكريمات قد اشتملت على كثير من أسماء الله الحسنى وأوصافه العلى؛ عظيمة الشأن، وبديعة البرهان. فأخبر أنه ﴿ٱللَّهُ﴾: المألوه المعبود الذي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: وذلك لكماله العظيم وإحسانه الشامل وتدبيره العام، وكل إله غيره؛ فإنه باطل لا يستحق من العبادة مثقال ذرة؛ لأنه فقير عاجز ناقص لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئًا. ثم وصف نفسه بعموم العلم، الشامل لما غاب عن الخلق وما يشاهدونه. وبعموم رحمته، التي وسعت كل شيء، ووصلت إلى كل حي.

﴿٢٣﴾ ثم كرر ذكر عموم إلهيته وانفراده بها، وأنه المالك لجميع الممالك؛ فالعالم العلوي والسفلي وأهله، الجميع مماليك لله فقراء مدبرون. ﴿ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾؛ أي: المقدس السالم من كل عيب ونقص المعظم الممجد؛ لأن القدوس يدل على التنزيه من كل نقص والتعظيم لله في أوصافه وجلاله. ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾؛ أي: المصدق لرسله وأنبيائه بما جاءوا به بالآيات البينات والبراهين القاطعات والحجج الواضحات. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: الذي لا يغالب ولا يمانع، بل قد قهر كل شيء، وخضع له كل شيء. ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾: الذي قهر جميع العباد، وأذعن له سائر الخلق، الذي يجبر الكسير ويغني الفقير. ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾: الذي له الكبرياء والعظمة، المتنزه عن جميع العيوب والظلم والجور. ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾: وهذا تنزيه عام عن كل ما وصفه به من أشرك به وعانده.

﴿٢٤﴾ ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ﴾: لجميع المخلوقات. ﴿ٱلْبَارِئُ﴾: للمبروءات. ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾: للمصورات. وهذه الأسماء متعلقة بالخلق والتدبير والتقدير، وأن ذلك كله قد انفرد الله به لم يشاركه فيه مشارك. ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: له الأسماء الكثيرة جدًّا، التي لا يحصيها ولا يعلمها أحد إلا هو، ومع ذلك؛ فكلها حسنى؛ أي: صفات كمال، بل تدل على أكمل الصفات وأعظمها، لا نقص في شيء منها بوجه من الوجوه، ومن حسنها أن الله يحبها ويحب من يحبها ويحب من عباده أن يدعوه ويسألوه بها. ومن كماله وأن له الأسماء الحسنى والصفات العليا أن جميع من في السماوات والأرض مفتقرون إليه على الدوام؛ يسبحون بحمده، ويسألونه حوائجهم، فيعطيهم من فضله وكرمه ما تقتضيه رحمته وحكمته. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾: الذي لا يريد شيئًا إلا ويكون، ولا يكوِّن شيئًا إلا لحكمة ومصلحة.

تم تفسير سورة الحشر والحمد لله وحده.



تفسير سورة الممتحنة
وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ ۚ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦) عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧) لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩)﴾.

ذكر كثير من المفسرين رحمهم الله أن سبب نزول هذه الآيات الكريمات في قصة حاطب بن أبي بلتعة؛ حين غزا النبي ﷺ غزاة الفتح[1]، فكتب حاطب إلى المشركين من أهل مكة يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ

(١) البخاري (٤٨٩٠)، مسلم (٢٤٩٤).

الجزء الثامن والعشرون — سورة الممتحنة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ١ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ٢ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ ۚ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٣ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ٤ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٥

٥٤٩

إليهم؛ ليتخذ بذلك يدًا عندهم، لا شكًّا ونفاقًا، وأرسله مع امرأة، فأُخبر النبي ﷺ بشأنه، فأرسل إلى المرأة قبل وصولها، وأخذ منها الكتاب، وعاتب حاطبًا، فاعتذر بعذر قبله النبي ﷺ.

وهذه الآيات فيها النهي الشديد عن موالاة الكفار من المشركين وغيرهم وإلقاء المودة إليهم، وأن ذلك منافٍ للإيمان ومخالف لملة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، ومناقض للعقل الذي يوجب الحذر كل الحذر من العدو الذي لا يبقي من مجهوده في العداوة شيئًا وينتهز الفرصة في إيصال الضرر إلى عدوه.

(١) فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ أي: اعملوا بمقتضى إيمانكم من ولاية من قام بالإيمان ومعاداة من عاداه؛ فإنه عدو لله وعدو للمؤمنين، فـ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾ عدو الله ﴿وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾؛ أي: تسارعون في مودتهم والسعي في أسبابها؛ فإن المودة إذا حصلت؛ تبعتها النصرة والموالاة، فخرج العبد من

الإيمـان، وصار من جملـة أهل الكفـران[1]. وهذا المتخذ للكافر وليًّا عادم المروءة أيضًا؛ فإنه كيف يوالي أعدى أعدائه، الذي لا يريد له إلا الشر، ويخالف ربه ووليه الذي يريد به الخير، ويأمره به ويحثه عليه. ومما يدعو المؤمن أيضًا إلى معاداة الكفار أنهم قد كفروا بما جاء المؤمنين من الحق، ولا أعظم من هذه المخالفة والمشاقة؛ فإنهم قد كفروا بأصل دينكم، وزعموا أنكم ضلال على غير هدى، والحال أنهم كفروا بالحق الذي لا شك فيه ولا مرية، ومن رد الحق؛ فمحال أن يوجد له دليل أو حجة تدل على صحة قوله. بل مجرد العلم بالحق يدل على بطلان قول من رده وفساده.

ومن عداوتهم البليغة أنهم ﴿ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ﴾: أيها المؤمنون من دياركم ويشردونكم من أوطانكم ولا ذنب لكم في ذلك عندهم إلا أنكم تؤمنون ﴿ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾: الذي يتعين على الخلق كلهم القيام بعبوديته؛ لأنه رباهم، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة، فلما أعرضوا عن هذا الأمر الذي هو أوجب الواجبات وقمتم به؛ عادوكم وأخرجوكم من أجله من دياركم، فأي دين وأي مروءة وعقل يبقى مع العبد إذا والى الكفار الذين هذا وصفهم في كل زمان أو مكان، ولا يمنعهم منه إلا خوف أو مانع قوي. ﴿ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ﴾؛ أي: إن كان خروجكم مقصودكم به الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله وابتغاء رضاه؛ فاعملوا بمقتضى هذا من موالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه؛ فإن هذا من أعظم الجهاد في سبيله، ومن أعظم ما يتقرب به المتقربون إلى الله ويبتغون به رضاه.

﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ﴾؛ أي: كيف تسرون المودة للكافرين وتخفونها مع علمكم أن الله عالم بما تخفون وما تعلنون؛ فهو وإن خفي على المؤمنين؛ فلا يخفى على الله تعالى، وسيجازي العباد بما يعلمه منهم من الخير والشر. ﴿ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ ﴾؛ أي: موالاة الكافرين بعدما حذركم الله منها، ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ ﴾: لأنه سلك مسلكًا مخالفًا للشرع وللعقل والمروءة الإنسانية.

(١) زاد في ط: «وانفصل عن أهل الإيمان».

﴿٢﴾ ثم بين تعالى شدة عداوتهم تهييجًا للمؤمنين على عداوتهم: ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ ﴾؛ أي: يجدوكم وتسنح لهم الفرصة في أذاكم، ﴿ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً ﴾: ظاهرين، ﴿ وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾: بالقتل والضرب ونحو ذلك، ﴿ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ ﴾؛ أي: بالقول الذي يسوء من شتم وغيره، ﴿ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾: فإن هذا غاية ما يريدون منكم.

﴿٣﴾ فإن احتججتم وقلتم: نوالي الكفار لأجل القرابة والأموال؛ ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ ﴾ فلذلك حذركم من موالاة الكافرين الذين تضركم موالاتهم.

﴿٤﴾ ﴿ قَدْ ﴾ كان ﴿ لَكُمْ ﴾: يا معشر المؤمنين، ﴿ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾؛ أي: قدوة صالحة وائتمام ينفعكم ﴿ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ﴾: من المؤمنين؛ لأنكم قد أمرتم أن تتبعوا ملة إبراهيم حنيفًا، ﴿ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: إذ تبرأ إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين من قومهم المشركين ومما يعبدون من دون الله، ثم صرحوا بعداوتهم غاية التصريح، فقالوا: ﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا ﴾؛ أي: ظهر وبان ﴿ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ ﴾؛ أي: البغض بالقلوب وزوال مودتها والعداوة بالأبدان. وليس لتلك العداوة والبغضاء وقت ولا حد، بل ذلك ﴿ أَبَدًا ﴾ ما دمتم مستمرين على كفركم، ﴿ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾؛ أي: فإذا آمنتم بالله وحده؛ زالت العداوة والبغضاء وانقلبت مودة وولاية؛ فلكم أيها المؤمنون أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه في القيام بالإيمان والتوحيد ولوازم ذلك ومقتضياته وفي كل شيء تعبدوا به لله وحده، ﴿ إِلَّا ﴾: في خصلة واحدة، وهي: ﴿ قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ ﴾: آزر المشرك الكافر المعاند حين دعاه إلى الإيمان والتوحيد، فامتنع، فقال إبراهيم له: ﴿ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ ﴾: الحال أني لا ﴿ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾: ولكني أدعو ربي ﴿ عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ ﴾ [مريم: ٤٨]، فليس لكم أن تقتدوا بإبراهيم في هذه الحالة التي دعا بها للمشرك، فليس لكم أن تدعوا للمشركين وتقولوا: إنا في ذلك متبعون لملة إبراهيم؛ فإن الله ذكر عذر إبراهيم في ذلك بقوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ [التوبة: ١١٤] الآية، ولكم أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه حين دعوا الله وتوكلوا عليه وأنابوا إليه واعترفوا بالعجز والتقصير، فقالوا:

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ
وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿٧﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم
مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ
﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم
مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ
مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ
فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم
مَّآ أَنفَقُوا۟ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ
وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟
ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ
شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ
أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾؛ أي: اعتمدنا عليك في جلب ما ينفعنا ودفع ما يضرنا ووثقنا بك يا ربنا في ذلك، ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾؛ أي: رجعنا إلى طاعتك ومرضاتك وجميع ما يقرب إليك؛ فنحن في ذلك ساعون، وبفعل الخيرات مجتهدون، ونعلم أنا إليك نصير، فنستعد للقدوم عليك، ونعمل ما يزلفنا إليك.

﴿٥﴾ ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: لا تسلطهم علينا بذنوبنا، فيفتنونا، ويمنعونا مما يقدرون عليه من أمور الإيمان، ويفتتنون أيضًا بأنفسهم؛ فإنهم إذا رأوا لهم الغلبة؛ ظنوا أنهم على الحق وأنا على الباطل، فازدادوا كفرًا وطغيانًا، ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾: ما اقترفنا من الذنوب والسيئات وما قصرنا به من المأمورات. ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾: القاهر لكل شيء. ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾: الذي يضع الأشياء مواضعها؛ فبعزتك وحكمتك انصرنا على أعدائنا، واغفر لنا ذنوبنا، وأصلح عيوبنا.

﴿٦﴾ ثم كرر الحث لهم على الاقتداء بهم وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾. وليس كل أحد تسهل عليه هذه الأسوة، وإنما تسهل لمن ﴿كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾: فإن الإيمان واحتساب الأجر والثواب يسهل على العبد كل عسير، ويقلل لديه كل كثير، ويوجب له[1] الاقتداء بعباد الله الصالحين والأنبياء والمرسلين؛ فإنه يرى نفسه مفتقرًا ومضطرًّا إلى ذلك غاية الاضطرار، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾: عن طاعة الله والتأسي برسل الله؛ فلن يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئًا، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾: الذي له الغنى التام المطلق من جميع الوجوه؛ فلا يحتاج إلى أحد من خلقه بوجه. ﴿ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾: في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله؛ فإنه محمود على ذلك كله.

﴿٧﴾ ثم أخبر تعالى أن هذه العداوة التي أمر بها المؤمنين للمشركين ووصفهم بالقيام بها؛ أنهم ما داموا على شركهم وكفرهم، وأنهم إن انتقلوا إلى الإيمان؛ فإن الحكم يدور مع علته، والمودة الإيمانية ترجع؛ فلا تيأسوا أيها المؤمنون من رجوعهم إلى الإيمان؛ فـ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾: سببها رجوعهم إلى الإيمان. ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾: على كل شيء، ومن ذلك هداية القلوب وتقليبها من حال إلى حال. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾: لا يتعاظمه ذنب أن يغفره ولا عيب أن يستره، ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣]. وفي هذه الآية إشارة وبشارة بإسلام بعض المشركين، الذين كانوا إذ ذاك أعداء للمؤمنين، وقد وقع ذلك، ولله الحمد والمنة.

﴿٨﴾ ولما نزلت هذه الآيات الكريمات المهيجة على عداوة الكافرين؛ وقعت من المؤمنين كل موقع، وقاموا بها أتم القيام، وتأثموا من صلة بعض أقاربهم المشركين، وظنوا أن ذلك داخل فيما نهى الله عنه، فأخبرهم الله أن ذلك لا يدخل في المحرم، فقال: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾؛ أي: لا ينهاكم الله عن البر والصلة والمكافأة بالمعروف والقسط للمشركين من أقاربكم وغيرهم؛ حيث كانوا بحال لم ينتصبوا لقتالكم في الدين والإخراج من دياركم؛ فليس عليكم جناح أن تصلوهم؛ فإن صلتهم في هذه الحالة لا محذور فيها

(١) زاد في ط: «الإكثار من».

ولا تبعة[1]؛ كما قال تعالى في الأبوين الكافرين إذا كان ولدهما مسلمًا: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان: ١٥].

(٩) وقوله: ﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾؛ أي: لأجل دينكم؛ عداوة لدين الله ولمن قام به، ﴿ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ ﴾؛ أي: عاونوا غيرهم ﴿ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ ﴾: نهاكم الله ﴿ أَن تَوَلَّوْهُمْ ﴾: بالنصرة والمودة بالقول والفعل، وأما بركم وإحسانكم الذي ليس بتولٍّ للمشركين؛ فلم ينهكم الله عنه، بل ذلك داخل في عموم الأمر بالإحسان إلى الأقارب وغيرهم من الآدميين وغيرهم، ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ ﴾ منكم ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٩) ﴾: وذلك الظلم يكون بحسب التولي؛ فإن كان توليًا تامًا؛ كان ذلك كفرًا مخرجًا عن دائرة الإسلام وتحت ذلك من المراتب ما هو غليظ وما هو دونه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ (١١) ﴾.

(١٠) لما كان صلح الحديبية؛ صالح النبي ﷺ المشركين على أن من جاء منهم إلى المسلمين مسلمًا؛ أنه يرد إلى المشركين، وكان هذا لفظًا عامًا مطلقًا يدخل في عمومه النساء والرجال، فأما الرجال؛ فإن الله لم ينه رسوله عن ردهم إلى الكفار وفاء بالشرط وتتميمًا للصلح الذي هو من أكبر المصالح، وأما النساء؛ فلما كان ردهن فيه مفاسد كثيرة؛ أمر المؤمنين إذا جاءهم ﴿ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ ﴾: وشكوا في صدق إيمانهن أن يمتحنوهن ويختبروهن بما يظهر به من صدقهن من أيمان مغلظة وغيرها؛ فإنه يحتمل أن يكون إيمانها غير صادق، بل رغبة في زوج أو بلد أو غير ذلك من المقاصد الدنيوية؛ فإن كن بهذا الوصف؛ تعين ردهن وفاء بالشرط من غير حصول مفسدة؛ وإن امتحنوهن فَوُجِدْنَ صادقات، أو علموا ذلك منهن من غير امتحان؛ فلا يرجعوهن إلى الكفار. ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾: فهذه مفسدة كبيرة راعاها الشارع وراعى أيضًا الوفاء بالشرط؛ بأن يعطوا الكفار أزواجهن ما أنفقوا عليهن من المهر وتوابعه عوضًا عنهن، ولا جناح حينئذ على المسلمين أن ينكحوهن، ولو كان لهن أزواج في دار الشرك، ولكن بشرط أن يؤتوهن أجورهن من المهر والنفقة، وكما أن المسلمة لا تحل للكافر؛ فكذلك الكافرة لا تحل للمسلم ما دامت على كفرها؛ غير أهل الكتاب، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ﴾. وإذا نهي عن الإمساك بعصمتها؛ فالنهي عن ابتداء تزويجها أولى، ﴿ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ ﴾: أيها المؤمنون حين ترجع زوجاتكم مرتدات إلى الكفار؛ فإذا كان الكفار يأخذون من المسلمين نفقة من أسلمت من نسائهم؛ استحق المسلمون أن يأخذوا مقابلة ما ذهب من زوجاتهم إلى الكفار.

وفي هذا دليل على أن خروج البضع من الزوج متقوم؛ فإذا أفسد مفسدٌ نكاح امرأة رجل برضاع أو غيره؛ كان عليه ضمان المهر.

وقوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: ذلكم الحكم الذي ذكره الله هو حكم الله بيّنه لكم ووضحه، ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) ﴾: فيعلم تعالى ما يصلح لكم من الأحكام، فيشرعه بحسب حكمته ورحمته.

(١١) وقوله: ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ﴾: بأن ذهبن مرتدات، ﴿ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ﴾: كما تقدم أن الكفار إذا كانوا يأخذون بدل ما يفوت من أزواجهم إلى المسلمين؛ فمن ذهبت زوجته من المسلمين إلى الكفار، وفاتت عليه؛ فعلى المسلمين أن يعطوه من الغنيمة بدل ما أنفق. ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ (١١) ﴾: فإيمانكم بالله يقتضي منكم أن تكونوا ملازمين للتقوى على الدوام.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) ﴾.

(١) ط: «مفسدة».

﴿١٢﴾ هذه الشروط المذكورة في هذه الآية تسمى مبايعة النساء، اللاتي كن يبايعن على إقامة الواجبات المشتركة التي تجب على الذكور والنساء في جميع الأوقات، وأما الرجال؛ فيتفاوت ما يلزمهم بحسب أحوالهم ومراتبهم وما يتعين عليهم، فكان النبي ﷺ يمتثل ما أمره الله به، فكان إذا جاءته النساء يبايعنه والتزمن بهذه الشروط؛ بايعهن وجبر قلوبهن، واستغفر لهن الله فيما يحصل منهن من التقصير وأدخلهن في جملة المؤمنين، ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾: بل[1] يفردن الله وحده بالعبادة، ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ﴾: كما يجري لنساء الجاهلية الجهلاء، ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾: كما كان ذلك موجودًا كثيرًا في البغايا وذوات الأخدان، ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾: والبهتان الافتراء على الغير؛ أي: لا يفترين بكل حالة، سواء تعلقت بهن مع أزواجهن أو تعلق ذلك بغيرهم، ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾؛ أي: لا يعصينك في كل أمر تأمرهن به؛ لأن أمرك لا يكون إلا بمعروف، ومن ذلك طاعتهن لك في النهي عن النياحة وشق الجيوب وخمش الوجوه والدعاء بدعوى الجاهلية، ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾: إذا التزمن بجميع ما ذكر، ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾: عن تقصيرهن وتطييبًا لخواطرهن. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾؛ أي: كثير المغفرة للعاصين والإحسان إلى المذنبين التائبين. ﴿رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾: وسعت رحمته كل شيء وعم إحسانه البرايا.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾.

﴿١٣﴾ أي: يا أيها المؤمنون إن كنتم مؤمنين بربكم، ومتبعين لرضاه، ومجانبين لسخطه، ﴿لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾: وإنما غضب عليهم لكفرهم، وهذا شامل لجميع أصناف الكفار، ﴿قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾؛ أي: قد حرموا من خير الآخرة، فليس لهم منها نصيب؛ فاحذروا أن تولوهم فتوافقوهم على شرهم وشركهم، فتحرموا خير الآخرة كما حرموا. وقوله: ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾: حين أفضوا إلى الدار الآخرة، وشاهدوا حقيقة الأمر، وعلموا علم اليقين أنهم لا نصيب لهم منها.

(١) ط: «بأن».

الجزء الثامن والعشرون — سورة الصف

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ
بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ
بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ
فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿١٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ
قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾

سُورَةُ الصَّفِّ — آياتها ١٤ — ترتيبها ٦١

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ
﴿١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾
كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ
ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم
بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ لِمَ
تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا
زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٥﴾

٥٥١

ويحتمل أن المعنى: قد يئسوا من الآخرة؛ أي: قد أنكروها وكفروا بها؛ فلا يستغرب حينئذ منهم الإقدام على مساخط الله وموجبات عذابه، وإياسهم من الآخرة كما يئس الكفار المنكرون للبعث في الدنيا من رجوع أصحاب القبور إلى الله تعالى.

تم تفسير سورة الممتحنة، والله أعلم.

تفسير سورة الصف

وهي مدنية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾.

(١) وهـذا بيان لعظمتـه تعالى وقهره وذل جميع الأشياء لـه تبارك وتعالى وأن جميـع من فـي السماوات والأرض يسبحون بحمد ربهم ويعبدونه ويسـألونه حوائجهم. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: الذي قهر الأشياء بعزته وسلطانه. ﴿ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾: في خلقه وأمره.

(٢)، (٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢﴾؛ أي: لـم تقولون الخير وتحثون عليه، وربما تمدحتم به وأنتم لا تفعلونه، وتنهون عن الشـر، وربما نزهتم أنفسكم عنه وأنتم متلوثون متصفون به؛ فهل تليق بالمؤمنين هـذه الحالة الذميمـة؟! أم من أكبر المقت عنـد الله أن يقول العبـد مـا لا يفعل؟! ولهذا ينبغي للآمـر بالخير أن يكون أول النـاس إليـه مبادرة، والناهي عن الشـر أن يكـون أبعد الناس عنه؛ قال تعالـى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٤٤﴾ [البقرة: ٤٤]، وقـال شـعيب عليه السلام: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾.

(٤) هـذا حـث من اللـه لعباده علـى الجهاد في سـبيله، وتعليـم لهـم كيـف يصنعون، وأنهـم ينبغي لهـم أن يصفوا فـي الجهـاد صفًّـا متراصًّا متسـاويًا مـن غير خلـل يحصل فـي الصفـوف، وتكـون صفوفهـم علـى نظـام وترتيـب به تحصـل المسـاواة بيـن المجاهديـن والتعاضـد وإرهـاب العـدو وتنشـيط بعضهـم بعضًـا، ولهـذا كان النبـي ﷺ إذا حضـر القتال؛ صف أصحابـه ورتبهم فـي مواقفهم بحيث لا يحصـل اتـكال بعضهم على بعض، بـل تكون كل طائفة منهـم مهتمة بمركزها وقائمة بوظيفتهـا، وبهذه الطريقة تتم الأعمال ويحصل الكمال.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾.

(٥) أي: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾: موبخًـا لهـم علـى صنيعهـم، ومقرعًا لهم علـى أذيته، وهـم يعلمون أنه رسـول الله: ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾: بالأقـوال والأفعال، ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾: والرسـول من حقه الإكرام والإعظـام والقيام بأوامره والابتـدار لحكمه، وأما أذيـة الرسـول الذي إحسـانه إلـى الخلق فوق كل إحسـان بعد إحسـان الله؛ ففي غايـة الوقاحة والجـراءة والزيغ عن الصراط المسـتقيم، الذي قـد علموه وتركـوه، ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟﴾؛ أي: انصرفـوا عن الحق بقصدهم، ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾: عقوبـة لهـم علـى زيغهـم الـذي اختـاروه لأنفسـهم ورضوه لها، ولـم يوفقهم الله للهـدى؛ لأنهم لا يليـق بهـم الخيـر ولا يصلحون إلا للشـر. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾؛ أي: الذيـن لـم يـزل الفسـق وصفًـا لهـم، ليس لهـم قصد في الهدى. وهذه الآيـة الكريمة تفيد أن إضـلال اللـه لعبيده ليس ظلمًا منه ولا حجة لهم عليه، وإنما ذلك بسـبب منهم؛ فإنهم الذين أغلقوا على أنفسـهم بـاب الهدى بعدمـا عرفوه، فيجازيهم بعـد ذلك بالإضلال والزيغ وتقليب القلوب عقوبة لهم وعدلًا منه بهم؛ كما قال تعالـى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١١٠﴾ [الأنعام: ١١٠].

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾.

﴿٦﴾ يقول تعالى مخبرًا عن عناد بني إسرائيل المتقدمين الذين دعاهم عيسى ابن مريم وقال لهم: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم ﴾؛ أي: أرسلني الله لأدعوكم إلى الخير وأنهاكم عن الشر، وأيدني بالبراهين الظاهرة، ومما يدل على صدقي كوني ﴿ مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ ﴾؛ أي: جئت بما جاء به موسى من التوراة والشرائع السماوية، ولو كنت مدعيا للنبوة؛ لجئت بغير ما جاء به المرسلون، و﴿ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ ﴾: أيضًا أنها أخبرت بي وبشرت، فجئت وبُعثت مصدقًا لها، ﴿ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ ﴾: وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب النبي الهاشمي؛ فعيسى عليه الصلاة والسلام كسائر الأنبياء؛ يصدق بالنبي السابق، ويبشر بالنبي اللاحق؛ بخلاف الكذابين؛ فإنهم يناقضون الأنبياء أشد مناقضة، ويخالفونهم في الأوصاف والأخلاق والأمر والنهي، ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم ﴾: محمد ﷺ الذي بشر به عيسى ﴿ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾؛ أي: الأدلة الواضحة الدالة على أنه هو، وأنه رسول الله حقًّا، ﴿ قَالُواْ ﴾: معاندين للحق مكذبين له: ﴿ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٦﴾ ﴾: وهذا من أعجب العجائب، الرسول الذي قد وضحت رسالته وصارت أبين من شمس النهار؛ يُجعل ساحرًا بينًا سحره؛ فهل في الخذلان أعظم من هذا؟! وهل في الافتراء أبلغ من هذا الافتراء الذي نفى عنه ما كان معلومًا من رسالته وأثبت له ما كان أبعد الناس عنه؟!

﴿٧﴾ ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ ﴾: بهذا أو غيره، والحال أنه لا عذر له وقد انقطعت حجته لأنه ﴿ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِ ﴾: ويبين له ببراهينه وبيناته، ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ ﴾: الذين لا يزالون على ظلمهم مستقيمين، لا تردهم عنه موعظة ولا يزجرهم بيان ولا برهان، خصوصًا هؤلاء الظلمة القائمين بمقابلة الحق ليردوه، ولينصروا الباطل.

﴿٨﴾ ولهذا قال عنهم: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾؛ أي: بما يصدر منهم من المقالات الفاسدة التي يردون بها الحق، وهي لا حقيقة لها، بل تزيد البصير معرفة بما هم عليه من الباطل، ﴿ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾؛ أي: قد تكفل الله بنصر دينه وإتمام الحق الذي أرسل به رسله وإظهار نوره في سائر الأقطار،

سُورَةُ الصَّفِّ — الجزء الثامن والعشرون

وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا
لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا
جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٦﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ
عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ
ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ
عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ
عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ
فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾
يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ
طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ
مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ
أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ
قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ
وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾

٥٥٢

ولو كره الكافرون، وبذلوا بسبب كراهته كل ما قدروا عليه مما يتوصلون به إلى إطفاء نور الله؛ فإنهم مغلوبون، ومثلهم كمثل من ينفخ عين الشمس بفيه ليطفئها؛ فلا على مرادهم حصلوا، ولا سلمت عقولهم من النقص والقدح فيها.

﴿٩﴾ ثم ذكر سبب الظهور والانتصار للدين الإسلامي الحسي والمعنوي، فقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ ﴾: أي: بالعلم النافع والعمل الصالح، بالعلم الذي يهدي إلى الله وإلى دار كرامته، ويهدي لأحسن الأعمال والأخلاق، ويهدي إلى مصالح الدنيا والآخرة، ﴿ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ ﴾؛ أي: الدين الذي يدان به ويتعبد لرب العالمين، الذي هو حق وصدق لا نقص فيه ولا خلل يعتريه، بل أوامره غذاء القلوب والأرواح وراحة الأبدان، وترك نواهيه سلامة من الشر والفساد، فما بُعث به النبي ﷺ من الهدى ودين الحق أكبر دليل وبرهان على صدقه، وهو برهان باقٍ ما بقي الدهر، كلما ازداد به العاقل تفكرًا؛ ازداد

بـه فرحًا وتبصرًا. ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾؛ أي: ليعليه على سائر الأديان بالحجة والبرهان، ويظهر أهله القائمين به بالسيف والسنان.

فأما نفس الدين؛ فهذا الوصف ملازم له في كل وقت، فلا يمكن أن يغالبه مغالب أو يخاصمه مخاصم إلا فلجه وبلسه، وصار له الظهور والقهر، وأما المنتسبون إليه؛ فإنهم إذا قاموا به واستناروا بنوره واهتدوا بهديه في مصالح دينهم ودنياهم؛ فكذلك لا يقوم لهم أحد، ولا بد أن يظهروا على أهل الأديان، وإذا ضيعوا واكتفوا منه بمجرد الانتساب إليه؛ لم ينفعهم ذلك، وصار إهمالهم له سبب تسليط الأعداء عليهم، ويعرف هذا من استقرأ الأحوال والنظر في أول المسلمين وآخرهم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾
تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ
خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى
مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾
وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ
أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ
بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ
ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿١٠﴾ هذه وصية ودلالة وإرشاد من أرحم الراحمين لعباده المؤمنين لأعظم تجارة وأجل مطلوب وأعلى مرغوب يحصل بها النجاة من العذاب الأليم والفوز بالنعيم المقيم، وأتى بأداة العرض الدالة على أن هذا أمر يَرْغَبُ فيه كل متبصر[1] ويسمو إليه كل لبيب.

﴿١١﴾ فكأنه قيل: ما هذه التجارة التي هذا قدرها؟ فقال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: ومن المعلوم أن الإيمان التام هو التصديق الجازم بما أمر الله بالتصديق به، المستلزم لأعمال الجوارح، التي من أجلها الجهاد في سبيله؛ فلهذا قال: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾: بأن تبذلوا نفوسكم ومهجكم لمصادمة أعداء الإسلام، والقصد نصر دين الله وإعلاء كلمته، وتنفقون ما تيسر من أموالكم في ذلك المطلوب؛ فإن ذلك وإن كان كريهًا للنفوس شاقًا عليها؛ فإنه ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾: فإن فيه الخير الدنيوي من النصر على الأعداء والعز المنافي للذل والرزق الواسع وسعة الصدر وانشراحه، والخير الأخروي بالفوز بثواب الله والنجاة من عقابه.

﴿١٢﴾ ولهذا ذكر الجزاء في الآخرة فقال: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾: وهو شامل للصغائر والكبائر؛ فإن الإيمان بالله والجهاد في سبيله مكفر للذنوب، ولو كانت كبائر، ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؛ أي: من تحت مساكنها وقصورها وغرفها وأشجارها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات، ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾؛ أي: جمعت كل طيب من علوٍّ وارتفاع وحسن بناء وزخرفة، حتى إن أهل الغرف من أهل عليين يتراءاهم أهل الجنة كما يُتراءى الكوكب الدري في الأفق الشرقي أو الغربي، وحتى إن بناء الجنة بعضه من لبن ذهب وبعضه من لبن فضة، وخيامها من اللؤلؤ والمرجان، وبعض المنازل من الزمرد والجواهر الملونة بأحسن الألوان، حتى إنها من صفائها يُرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، وفيها من الطيب والحسن ما لا يأتي عليه وصف الواصفين ولا خطر على قلب أحد من العالمين، لا يمكن أن يدركوه حتى يروه ويتمتعوا بحسنه، وتقر به أعينهم.

ففي تلك الحالة لولا أن الله خلق أهل الجنة وأنشأهم نشأة كاملة لا تقبل العدم؛ لأوشك أن يموتوا من الفرح؛ فسبحان من لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه أحد من خلقه، وتبارك الجليل الجميل، الذي أنشأ دار النعيم، وجعل فيها من الجلال والجمال ما يبهر عقول الخلق ويأخذ بأفئدتهم، وتعالى من له الحكمة التامة، الذي من جملتها أنه لو أرى العباد الجنة[2] ونظروا إلى ما فيها من النعيم؛ لما تخلف عنها أحد، ولما هناهم العيش في هذه الدار المنغصة المشوب نعيمها بألمها وفرحها بترحها. وسميت جنة

(١) ط: «متصبر».

(٢) زاد في ط: «حين خلقها».

عـدن؛ لأن أهلهـا مقيمـون فيهـا، لا يخرجون منهـا أبدًا، ولا يبغـون عنهـا حـولًا. ذلـك الثـواب الجزيـل والأجر الجميـل هو الفوز العظيم الـذي لا فوز مثله؛ فهذا الثواب الأخروي.

(١٣) وأمـا الثواب الدنيـوي لهذه التجـارة؛ فذكره بقوله: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾؛ أي: ويحصـل لكـم خصلـة أخرى تحبونهـا، وهـي: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: لكـم علـى الأعـداء، يحصـل به العـز والفـرح، ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾: تتسـع بـه دائرة الإسـلام، ويحصل به الرزق الواسـع؛ فهذا جزاء المؤمنين المجاهديـن، وأما المؤمنـون مـن غيـر أهـل الجهـاد إذا قـام غيرهـم بالجهـاد؛ فلم يؤيسـهم اللـه تعالى مـن فضله وإحسـانه، بل قـال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٣)﴾؛ أي: بالثواب العاجـل والآجـل؛ كل علـى حسـب إيمانـه، وإن كانـوا لا يبلغون مبلغ المجاهدين في سـبيل الله؛ كما قال النبي ﷺ: «**مـن رضي باللـه ربًّا، وبالإسـلام دينـًا، وبمحمد رسـولًا؛ وجبت لـه الجنة**». فعجب لها أبو سـعيد الخـدري راوي الحديـث، فقال: أعِدْهَا عليّ يا رسـول الله! فأعادها عليه، ثم قال: «**وأخرى يُرفع بها العبد مائة درجة في الجنة، ما بين كل درجتيـن كما بين السـماء والأرض**». فقـال: وما هي يا رسـول الله؟ قال: «**الجهاد في سـبيل الله، الجهاد في سبيل الله**». رواه مسلم[١].

(١٤) ثـم قـال تعالـى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بالأقـوال والأفعال، وذلـك بالقيام بدين الله، والحرص على تنفيذه علـى الغير وجهاد من عانده ونابذه بالأبدان والأموال، ومن نصر الباطل بما يزعمه من العلم، ورد الحـق بدحض حجتـه وإقامة الحجة عليـه والتحذير منـه، ومـن نصر ديـن اللـه تعلم كتاب الله وسـنة رسـوله [وتعليمـه] والحث على ذلك والأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثـم هيج الله المؤمنين بالاقتداء بمن قبلهم من الصالحين بقوله: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: قـال لهم مُنَبِّهًا[٢]: من يعاونني ويقوم معي في نصر دين اللـه ويدخل مدخلي ويخرج مخرجـي؟ فابتدر الحواريون فقالوا: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾: فمضى عليه السـلام على نصر ديـن الله هو ومـن معه من الحواريـين، ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: بسـبب دعوة عيسـى والحواريين، ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾: منهـم، فلـم ينقـادوا لدعوتهم، فجاهـد المؤمنون الكافريـن، ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾؛ أي: قويناهـم ونصرناهـم عليهـم، ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ (١٤)﴾: عليهـم، وقاهريـن لهم. فأنتم يا أمة محمد! كونـوا أنصار الله ودعاة دينـه؛ ينصركـم الله كمـا نصر مـن قبلكـم، ويظهركم على عدوكم.

تم تفسير سورة الصف. والحمد لله رب العالمين.



(١) مسلم (١٨٨٤).
(٢) ط: «عارضًا ومنهضًا».

سُورَةُ الجُمُعَةِ ٦٢ — ١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ
ٱلْحَكِيمِ ١ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ
عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ
مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ
وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ
ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ٤ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ
يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ
ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥
قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن
دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ
أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٧ قُلْ إِنَّ
ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ
إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٨

٥٥٣

تفسير سورة الجمعة

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤ ﴾.

(١) ﴿ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ ﴾؛ أي: يسبح لله وينقاد لأمره ويتألهه ويعبده جميع ما في السماوات والأرض؛ لأنه الكامل الملك، الذي له ملك العالم العلوي والسفلي؛ فالجميع مماليكه وتحت تدبيره. القدوس المعظم المنزه عن كل آفة ونقص. العزيز القاهر للأشياء كلها. الحكيم في خلقه وأمره؛ فهذه الأوصاف العظيمة تدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

(٢) ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا ﴾: المراد بالأميين الذين لا كتاب عندهم ولا أثر رسالة من العرب وغيرهم ممن ليسوا من أهل الكتاب، فامتن الله تعالى عليهم منة عظيمة أعظم من منته على غيرهم؛ لأنهم عادمون للعلم والخير، وكانوا في ﴿ ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ ﴾؛ يتعبدون للأصنام والأشجار والأحجار، ويتخلقون بأخلاق السباع الضارية، يأكل قويهم ضعيفهم، وقد كانوا في غاية الجهل بعلوم الأنبياء، فبعث الله فيهم رسولًا منهم يعرفون نسبه وأوصافه الجميلة وصدقه، وأنزل عليه كتابه، ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾: القاطعة الموجبة للإيمان واليقين، ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾: بأن يفصل لهم الأخلاق الفاضلة ويحثهم عليها ويزجرهم عن الأخلاق الرذيلة، ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾؛ أي: علم الكتاب والسنة، المشتمل على علوم الأولين والآخرين، فكانوا بعد هذا التعليم والتزكية من أعلم الخلق، بل كانوا أئمة أهل العلم والدين وأكمل الخلق أخلاقًا وأحسنهم هديًا وسمتًا، اهتدوا بأنفسهم، وهدوا غيرهم، فصاروا أئمة المهتدين وقادة المتقين، فلله تعالى عليهم ببعثة هذا الرسول أكمل نعمة وأجل منحة.

(٣) وقوله: ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ﴾؛ أي: وامتن على آخرين من غيرهم، أي: من غير الأميين ممن يأتي بعدهم ومن أهل الكتاب ﴿ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ﴾؛ أي: فيمن باشر دعوة الرسول؛ يحتمل أنهم لما يلحقوا بهم في الفضل، ويحتمل أن يكونوا لما يلحقوا بهم في الزمان، وعلى كلٍّ؛ فكلا المعنيين صحيح؛ فإن الذين بعث اللهُ فيهم رسوله وشاهدوه وباشروا دعوته حصل لهم من الخصائص والفضائل ما لا يمكن أحدًا أن يلحقهم فيها.

(٤) وهذا من عزته وحكمته؛ حيث لم يترك عباده هملًا ولا سدًى، بل ابتعث فيهم الرسل وأمرهم ونهاهم، وذلك من فضل الله العظيم الذي يؤتيه من يشاء من عباده، وهو أفضل من نعمته عليهم بعافية البدن وسعة الرزق وغير ذلك من النعم الدنيوية؛ فلا أعظم من نعمة الدين التي هي مادة الفوز والسعادة الأبدية.

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

(٥) لما ذكر تعالى منَّته على هذه الأمة الذين بعث فيهم النبي الأمي وما خصهم الله به من المزايا والمناقب التي لا يلحقهم فيها أحد، وهم الأمة الأمية، الذين فاقوا الأولين والآخرين، حتى أهل الكتاب الذين يزعمون أنهم العلماء الربانيون والأحبار المتقدمون؛ ذكر أن الذين حملهم الله التوراة من اليهود وكذا النصارى وأمرهم أن يتعلموها ويعملوا بها[1] وأنهم لم يحملوها ولم يقوموا بما حملوا به؛ أنهم لا فضيلة لهم، وأن مثلهم كمثل الحمار الذي يحمل فوق ظهره أسفارًا من كتب العلم؛ فهل يستفيد ذلك الحمار من تلك الكتب التي فوق ظهره؟! وهل تلحقه فضيلة بسبب ذلك؟! أم حظه منها حملها فقط؟ فهذا مثل علماء أهل الكتاب[2]، الذين لم يعملوا بما في التوراة الذي من أجله وأعظمه الأمر باتباع محمد ﷺ والبشارة به والإيمان بما جاء به من القرآن؛ فهل استفاد من هذا وصفه من التوراة إلا الخيبة والخسران وإقامة الحجة عليه؛ فهذا المثل مطابق لأحوالهم. ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ الدالة على صدق رسولنا وصحة ما جاء به ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾؛ أي: لا يرشدهم إلى مصالحهم ما دام الظلم لهم وصفًا والعناد لهم نعتًا.

(٦) ومن ظلم اليهود وعنادهم أنهم يعلمون أنهم على باطل ويزعمون أنهم على حق، وأنهم أولياء لله من دون الناس! ولهذا أمر الله رسوله أن يقول لهم: إن كنتم صادقين في زعمكم أنكم على الحق وأولياء الله؛ ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ ﴾: وهذا أمر خفيف؛ فإنهم لو علموا أنهم على حق؛ لما توقفوا عن هذا التحدي الذي جعله الله دليلًا على صدقهم إن تمنوه وكذبهم إن لم يتمنوه.

(١) ط: «بما فيها».
(٢) ط: «اليهود».

(٧) ولما لم يقع منهم مع الإعلان لهم بذلك؛ علم أنهم عالمون ببطلان ما هم عليه وفساده، ولهذا قال: ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾؛ أي: من الذنوب والمعاصي التي يستوحشون من الموت من أجلها، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾ ﴾: فلا يمكن أن يخفى عليه من ظلمهم شيء.

(٨) هذا؛ وإن كانوا لا يتمنون الموت بما قدمت أيديهم، بل يفرون منه غاية الفرار؛ فإن ذلك لا ينجيهم، بل لا بد أن يلاقيهم الموت الذي قد حتمه الله على العباد[3]، ثم بعد الموت واستكمال الآجال يرد الخلق كلهم يوم القيامة إلى عالم الغيب والشهادة، فينبئهم بما كانوا يعملون من خير وشر قليل وكثير.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾.

(٩) يأمر تعالى عباده المؤمنين بالحضور لصلاة الجمعة والمبادرة إليها من حين ينادى لها والسعي إليها، والمراد بالسعي هنا المبادرة والاهتمام لها وجعلها أهم الأشغال، لا العدو الذي قد نهي عنه عند المضي إلى الصلاة. وقوله: ﴿وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ﴾؛ أي: اتركوا البيع إذا نودي للصلاة وامضوا إليها؛ فإن ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾: من اشتغالكم بالبيع، أو تفويتكم الصلاة الفريضة التي هي من آكد الفروض ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾: أن ما عند الله خير وأبقى، وأن من آثر الدنيا على الدين؛ فقد خسر الخسارة الحقيقية؛ من حيث يظن أنه يربح.

(١٠) وهذا الأمر بترك البيع مؤقت مدة[4] الصلاة؛ ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾: لطلب المكاسب والتجارات، ولما كان الاشتغال بالتجارة مظنة الغفلة عن ذكر الله؛ أمر الله بالإكثار من ذكره؛ لينجبر بهذا، فقال:

(٣) زاد في ط: «وكتبه عليهم».
(٤) ساقط من الأصل.

الجزء الثامن والعشرون — سورة المنافقون

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ
فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ
وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ
﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ
مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾

سُورَةُ المُنَافِقُونَ — آياتها ١١ — ٦٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ
إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾
ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ
يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ
فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ
وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ
صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾

٥٥٤

﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾؛ أي: في حال قيامكم وقعودكم وعلى جنوبكم، ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾: فإن الإكثار من ذكر الله أكبر أسباب الفلاح.

﴿١١﴾ ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾؛ أي: خرجوا من المسجد حرصًا على ذلك اللهو وتلك التجارة وتركوا الخير، ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾: تخطب الناس، وذلك في يوم الجمعة، بينما النبي ﷺ يخطب الناس؛ إذ قدم المدينة عير تحمل تجارة، فلما سمع الناس بها وهم في المسجد؛ انفضوا من المسجد، وتركوا النبي ﷺ يخطب استعجالًا لما لا ينبغي أن يستعجل له وترك أدبٍ، ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾: من الأجر والثواب لمن لازم الخير وصبَّر نفسه على عبادة الله، ﴿خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾: التي وإن حصل منها بعض المقاصد؛ فإن ذلك قليل مُنْقَضٍ، مفوت لخير الآخرة، وليس الصبر على طاعة الله مفوتًا للرزق؛ ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾؛ فمن اتقى الله؛ رزقه من حيث لا يحتسب.

وفي هذه الآيات فوائد عديدة:

منها: أن الجمعة فريضة على المؤمنين يجب عليهم السعي إليها والمبادرة والاهتمام بشأنها.

ومنها: أن الخطبتين يوم الجمعة فريضة يجب حضورهما؛ لأنه فسر الذكر هنا بالخطبتين، فأمر الله بالمضي إليه والسعي له.

ومنها: مشروعية النداء للجمعة والأمر به.

ومنها: النهي عن البيع والشراء بعد نداء الجمعة وتحريم ذلك، وما ذاك إلا لأنه يفوت الواجب ويشغل عنه، فدل ذلك على أن كل أمر وإن كان مباحًا في الأصل، إذا كان ينشأ عنه تفويت واجب؛ فإنه لا يجوز في تلك الحال.

ومنها: الأمر بحضور الخطبتين يوم الجمعة، وذم من لم يحضرهما، ومن لازم ذلك الإنصات لهما.

ومنها: أنه ينبغي للعبد المقبل على عبادة الله وقت دواعي النفس لحضور اللهو والتجارات والشهوات، أن يُذَكِّرَهَا بما عند الله من الخيرات وما لمؤثر رضاه على هواه.

تم تفسير سورة الجمعة بمن الله وعونه.

والحمد لله رب العالمين.



تفسير سورة المنافقون

وهي مدنية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ وَرَأَيۡتَهُمۡ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾﴾.

﴿١﴾ لما قدم النبي ﷺ المدينة، وكثر الإسلام فيها وعزّ؛ صار أناس من أهلها من الأوس والخزرج يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر؛ ليبقى جاههم وتحقن دماؤهم وتسلم أموالهم، فذكر الله من أوصافهم ما به يعرفون؛ لكي يحذر العباد منهم ويكونوا منهم على بصيرة، فقال: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ﴾: على وجه الكذب: ﴿نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾: وهذه الشهادة من المنافقين على وجه الكذب والنفاق، مع أنه لا حاجة لشهادتهم في تأييد رسوله، فإن الله ﴿يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾: في قولهم ودعواهم، وأن ذلك ليس بحقيقة منهم.

﴿٢﴾ ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾؛ أي: ترسًا يتترسون بها من نسبتهم إلى النفاق، ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وصدوا غيرهم ممن يخفى عليه حالهم. ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢﴾﴾: حيث أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر وأقسموا على ذلك وأوهموا صدقهم.

﴿٣﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾: الذي زين لهم النفاق، بسبب أنهم لا يثبتون على الإيمان، بل ﴿ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾: بحيث لا يدخلها الخير أبدًا. ﴿فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٣﴾﴾: ما ينفعهم ولا يعون ما يعود بمصالحهم.

﴿٤﴾ ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡ﴾: من روائها ونضارتها، ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡ﴾؛ أي: من حسن منطقهم تستلذ لاستماعه؛ فأجسامهم وأقوالهم معجبة، ولكن ليس وراء ذلك من الأخلاق الفاضلة والهدي الصالح شيء، ولهذا قال: ﴿كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞ﴾: لا منفعة فيها ولا يُنال منها إلا الضرر المحض. ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡ﴾: وذلك لجبنهم وفزعهم وضعف قلوبهم وريبها؛ يخافون أن يطلع عليها؛ فهؤلاء ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ﴾ على الحقيقة؛ لأن العدو البارز المتميز أهون من العدو الذي لا يشعر به، وهو مخادع ماكر، يزعم أنه ولي، وهو العدو المبين. ﴿فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٤﴾﴾؛ أي: كيف يصرفون عن الدين الإسلامي بعدما تبينت أدلته واتضحت معالمه إلى الكفر الذي لا يفيدهم إلا الخسار والشقاء.

﴿٥﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾: لهؤلاء المنافقين: ﴿تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾: عما صدر منكم؛ لتحسن أحوالكم، وتقبل أعمالكم؛ امتنعوا من ذلك أشد الامتناع، و﴿لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ﴾: امتناعًا من طلب الدعاء من الرسول، ﴿وَرَأَيۡتَهُمۡ يَصُدُّونَ﴾: عن الحق بغضًا له، ﴿وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٥﴾﴾: عن اتباعه بغيًا وعنادًا. فهذه حالهم عندما يدعون إلى طلب الدعاء من الرسول.

﴿٦﴾ وهذا من لطف الله وكرامته لرسوله؛ حيث لم يأتوا إليه فيستغفر لهم، فإنه ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ أستغفر لهم أم لم يستغفر لهم فـ﴿لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾؟ وذلك لأنهم قوم فاسقون خارجون عن طاعة الله مؤثرون للكفر على الإيمان؛ فلذلك لا ينفع فيهم استغفار الرسول لو استغفر لهم؛ كما قال تعالى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾ [التوبة: ٨٠]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾﴾.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ
وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ
أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ
ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ
لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ وَلِلَّهِ
خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ
﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ
مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ
ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ
أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ
ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم
مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ
إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن
يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

سُورَةُ التَّغَابُنِ ٦٤ - آياتها ١٨

لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿٧﴾ وهذا من شدة عداوتهم للنبي ﷺ والمسلمين، لما رأوا اجتماع أصحابه وائتلافهم ومسارعتهم في مرضاة الرسول ﷺ؛ قالوا بزعمهم الفاسد: ﴿ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ﴾: فإنهم على زعمهم لولا أموال المنافقين ونفقاتهم عليهم؛ لما اجتمعوا في نصرة دين الله! وهذا من أعجب العجب أن يدعي هؤلاء المنافقون الذين هم أحرص الناس على خذلان الدين وأذية المسلمين مثل هذه الدعوى التي لا تروج إلا على من لا علم له بالحقائق(1)، ولهذا قال تعالى ردًّا لقولهم: ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾: فيؤتي الرزق من يشاء، ويمنعه من يشاء، وييسر الأسباب لمن يشاء، ويعسرها على من يشاء. ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ ﴾ فلذلك قالوا تلك المقالة التي مضمونها أن خزائن الرزق في أيديهم وتحت مشيئتهم.

﴿٨﴾ ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾: وذلك في غزوة المريسيع، حين صار بين بعض المهاجرين والأنصار بعض كلام كدر الخواطر؛ ظهر حينئذ نفاق المنافقين، وتبين ما في قلوبهم، وقال كبيرهم عبد الله بن أبي ابن سلول: ما مثلنا ومثل هؤلاء - يعني: المهاجرين - إلا كما قال القائل: سمن كلبك يأكلك. وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل؛ بزعمه أنه هو وإخوانه من المنافقين الأعزون، وأن رسول الله ومن اتبعه هم الأذلون، والأمر بعكس ما قال هذا المنافق، فلهذا قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾: فهم الأعزاء، والمنافقون وإخوانهم من الكفار هم الأذلاء. ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾: ذلك؛ فلذلك زعموا أنهم الأعزاء اغترارًا بما هم عليه من الباطل.

ثم قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿٩﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإكثار من ذكره؛ فإن في ذلك الربح والفلاح والخيرات الكثيرة، وينهاهم أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن ذكره؛ فإن محبة المال والأولاد مجبولة عليها أكثر النفوس، فتقدمها على محبة الله، وفي ذلك الخسارة العظيمة، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ﴾؛ أي: يلهه ماله وولده عن ذكر الله، ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾: للسعادة الأبدية والنعيم المقيم؛ لأنهم آثروا ما يفنى على ما يبقى؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [التغابن: ١٥].

(١) ط: «بحقائق الأمور».

(١٠) وقوله: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾: يدخل في هذا النفقات الواجبة من الزكاة والكفارات، ونفقة الزوجات والمماليك، ونحو ذلك، والنفقات المستحبة؛ كبذل المال في جميع المصالح، وقال: ﴿مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾: ليدل ذلك على أنه تعالى لم يكلف العباد من النفقة ما يعنتهم ويشق عليهم، بل أمرهم بإخراج جزء مما رزقهم ويسره ويسر أسبابه، فليشكروا الذي أعطاهم بمواساة إخوانهم المحتاجين، وليبادروا بذلك، الموت الذي إذا جاء؛ لم يمكن العبد أن يأتي بمثقال ذرة من الخير، ولهذا قال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ﴾: متحسرًا على ما فرط في وقت الإمكان، سائلًا الرجعة التي هي محال: ﴿رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾؛ أي: لأتدارك ما فرطت فيه، ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾: من مالي ما به أنجو من العذاب، وأستحق به جزيل الثواب، ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٠)﴾: بأداء المأمورات كلها واجتناب المنهيات، ويدخل في هذا الحج وغيره.

(١١) وهذا السؤال والتمني قد فات وقته، ولا يمكن تداركه، ولهذا قال: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾: المحتوم لها. ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١)﴾: من خير وشر، فيجازيكم على ما عَلِمَهُ منكم من النيات والأعمال.

تم تفسير سورة المنافقون. ولله الحمد.

الجزء الثامن والعشرون — سورة التغابن

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ
وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ
وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ٣
يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ
عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٤ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ
فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ
رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّٱسْتَغْنَى
ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ٦ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي
لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ٧ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلْنَا وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ٨ يَوْمَ
يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ
صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ٩

٥٥٦

تفسير سورة التغابن

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٤)﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٤)﴾.

(١) هذه الآيات الكريمات مشتملات على جملة كثيرة واسعة من أوصاف الباري العظيمة، فذكر كمال ألوهيته سبحانه [وتعالى]، وسعة غناه، وافتقار جميع الخلائق

إليه، وتسبيح من في السماوات والأرض بحمد ربها، وأن الملك كله لله؛ فلا يخرج عن ملكه مخلوق، والحمد كله له؛ حمد على ما له من صفات الكمال، وحمد على ما أوجده من الأشياء، وحمد على ما شرعه من الأحكام وأسداه من النعم، وقدرته شاملة لا يخرج عنها موجود؛ فلا يعجزه شيء يريده.

(٢) وذكر أنه خلق العباد، وجعل منهم المؤمن والكافر؛ فإيمانهم وكفرهم كله بقضاء الله وقدره، وهو الذي شاء ذلك منهم؛ بأن جعل لهم قدرة وإرادة بها يتمكنون من كل ما يريدون من الأمر والنهي. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾﴾.

(٣) فلما ذكر خلق الإنسان المأمور المنهي؛ ذكر خلق باقي المخلوقات، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: أجرامهما وجميع ما فيهما فأحسن خلقهما ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالحكمة والغاية المقصودة له تعالى، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤]: فالإنسان أحسن المخلوقات صورة، وأبهاها منظرًا. ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾؛ أي: المرجع يوم القيامة، فيجازيكم على إيمانكم وكفركم، ويسألكم عن النعم والنعيم الذي أولاكم[1]؛ هل قمتم بشكره أم لم تقوموا به؟

(٤) ثم ذكر عموم علمه، فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: من السرائر والظواهر والغيب والشهادة، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾؛ أي: بما فيها من الأسرار الطيبة والخبايا الخبيثة والنيات الصالحة والمقاصد الفاسدة؛ فإذا كان عليمًا بذات الصدور؛ تعين على العاقل البصير أن يحرص ويجتهد في حفظ باطنه من الأخلاق الرذيلة واتصافه بالأخلاق الجميلة.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾.

(٥) لما ذكر تعالى من أوصافه الكاملة العظيمة ما به يعرف، ويعبد، ويبذل الجهد في مرضاته، وتجتنب مساخطه؛ أخبر بما فعل بالأمم السابقين والقرون الماضين، الذين لم تزل أنباؤهم يتحدث بها المتأخرون، ويخبر بها الصادقون، وأنهم حين جاءتهم رسلهم بالحق؛ كذبوهم، وعاندوهم فأذاقهم الله وبال أمرهم في الدنيا، وأخزاهم الله فيها. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾: في الدار الآخرة.

(٦) ولهذا ذكر السبب في هذه العقوبة، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾: النكال والوبال الذي أحللناه بهم ﴿بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: بالآيات الواضحات الدالة على الحق والباطل، فاشمأزوا واستكبروا على رسلهم، ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾؛ أي: ليس لهم فضل علينا؛ ولأي شيء خصهم الله دوننا؟! كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١١]: فهم حجروا فضل الله ومنته على أنبيائه أن يكونوا رسلًا للخلق، واستكبروا عن الانقياد لهم، فابتلوا بعبادة الأشجار والأحجار ونحوها، ﴿فَكَفَرُوا۟﴾ بالله، ﴿وَتَوَلَّوا۟﴾ عن طاعته، ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ عنهم؛ فلا يبالي بهم ولا يضره ضلالهم شيئًا. ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾؛ أي: هو الغني الذي له الغنى التام المطلق من جميع الوجوه، الحميد في أقواله وأفعاله وأوصافه.

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾.

(٧) يخبر تعالى عن عناد الكافرين وزعمهم الباطل وتكذيبهم بالبعث بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، فأمر أشرف خلقه أن يقسم بربه على بعثهم وجزائهم بأعمالهم الخبيثة وتكذيبهم بالحق. ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾: فإنه وإن كان عسيرًا، بل متعذرًا بالنسبة إلى الخلق؛ فإن قواهم كلهم لو اجتمعت على إحياء ميت واحد؛ ما قدروا على ذلك، وأما الله تعالى، فإنه إذا أراد شيئًا؛ قال له: كن فيكون؛ قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨].

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾﴾.

(٨) لما ذكر تعالى إنكار من أنكر البعث، وأن ذلك منهم موجب كفرهم بالله وآياته؛ أمر بما يعصم من الهلكة

(١) ط: «أولاكموه».

والشقاء، وهو الإيمان به وبرسوله وبكتابه، وسماه الله نورًا؛ لأن النور ضد الظلمة؛ فما في الكتاب الذي أنزله الله من الأحكام والشرائع والأخبار أنوار يهتدى بها في ظلمات الجهل المدلهمة، ويمشى بها في حندس الليل البهيم، وما سوى الاهتداء بكتاب الله؛ فهي علوم ضررها أكثر من نفعها، وشرها أكثر من خيرها، بل لا خير فيها ولا نفع؛ إلا ما وافق ما جاءت به الرسل، والإيمان بالله ورسوله وكتابه يقتضي الجزم التام واليقين الصادق بها والعمل بمقتضى ذلك التصديق من امتثال الأوامر واجتناب النواهي. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝٨﴾: فيجازيكم بأعمالكم الصالحة والسيئة.

﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝١٠﴾.

(٩) يعني: اذكروا يوم الجمع الذي يجمع الله به الأولين والآخرين، ويقفهم موقفًا هائلًا عظيمًا، وينبئهم بما عملوا؛ فحينئذ يظهر الفرق والتغابن بين الخلائق، ويُرفَعُ أقوام إلى أعلى[1] عليين في الغرف العاليات والمنازل المرتفعات المشتملة على جميع اللذات والشهوات، ويُخفَضُ أقوام إلى أسفل سافلين محل الهم والغم والحزن والعذاب الشديد، وذلك نتيجة ما قدموه لأنفسهم وأسلفوه أيام حياتهم، ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾؛ أي: يظهر فيه التغابن والتفاوت بين الخلائق، ويغبن المؤمنون الفاسقين، ويعرف المجرمون أنهم على غير شيء، وأنهم هم الخاسرون. فكأنه قيل: بأي شيء يحصل الفلاح والشقاء والنعيم والعذاب؟ فذكر أسباب ذلك بقوله: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ أي: إيمانًا تامًّا شاملًا لجميع ما أمر الله بالإيمان به، ﴿وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا﴾: من الفرائض والنوافل؛ من أداء حقوق الله وحقوق عباده، ﴿يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾: فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وتختاره الأرواح، وتحن إليه القلوب، ويكون نهاية كل مرغوب. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٩﴾.

(١) ساقط من المطبوع.

سُورَةُ التَّغَابُنِ — الجُزْءُ الثَّامِنُ وَالعِشْرُونَ

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝١٠ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ۝١١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ۝١٢ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ۝١٤ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ۝١٥ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝١٦ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ۝١٧ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١٨

سُورَةُ الطَّلَاقِ ٦٥ — آياتها ١٢

٥٥٧

(١٠) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾؛ أي: كفروا بها من غير مستند شرعي ولا عقلي، بل جاءتهم الأدلة والبينات، فكذبوا بها وعاندوا ما دلت عليه، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝١٠﴾: لأنها جمعت كل بؤس وشدة وشقاء وعذاب.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ۝١١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ۝١٢ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١٣﴾.

(١١) يقول تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾: وهذا عام لجميع المصائب في النفس والمال والولد والأحباب ونحوهم؛ فجميع ما أصاب العباد بقضاء الله وقدره؛ قد سبق بذلك علم الله وجرى به قلمه ونفذت به مشيئته واقتضته حكمته، ولكن الشأن كل الشأن: هل

يقوم العبد بالوظيفة التي عليه في هذا المقام أم لا يقوم بها؟ فإن قام بها؛ فله الثواب الجزيل والأجر الجميل في الدنيا والآخرة؛ فإذا آمن أنها من عند الله، فرضي بذلك وسلم لأمره؛ هدى الله قلبه، فاطمأن ولم ينزعج عند المصائب؛ كما يجري ممن لم يهد الله قلبه، بل يرزقه الله الثبات عند ورودها والقيام بموجب الصبر، فيحصل له بذلك ثواب عاجل مع ما يدخر الله له يوم الجزاء من الأجر العظيم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠].

وعُلِمَ من ذلك أن من لم يؤمن بالله عند ورود المصائب؛ بأن لم يلحظ قضاء الله وقدره بل وقف مع مجرد الأسباب؛ أنه يخذل ويكله الله إلى نفسه، وإذا وكل العبد إلى نفسه؛ فالنفس ليس عندها إلا الهلع والجزع الذي هو عقوبة عاجلة على العبد قبل عقوبة الآخرة على ما فرط في واجب الصبر، هذا ما يتعلق بقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ في مقام المصائب الخاص، وأما ما يتعلق بها من حيث العموم اللفظي؛ فإن الله أخبر أن كل من آمن؛ أي: الإيمان المأمور به، وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وصدق إيمانه بما يقتضيه الإيمان من لوازمه وواجباته؛ أن هذا السبب الذي قام به العبد أكبر سبب لهداية الله له في أقواله وأفعاله وجميع أحواله وفي علمه وعمله، وهذا أفضل جزاء يعطيه الله لأهل الإيمان؛ كما قال تعالى مخبرًا أنه يثبت المؤمنين في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأصل الثبات ثبات القلب وصبره ويقينه عند ورود كل فتنة، فقال: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]؛ فأهل الإيمان أهدى الناس قلوبًا وأثبتهم عند المزعجات والمقلقات، وذلك لما معهم من الإيمان.

﴿١٢﴾ وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾؛ أي: في امتثال أمرهما واجتناب نهيهما؛ فإن طاعة الله وطاعة رسوله مدار السعادة وعنوان الفلاح، ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾؛ أي: عن طاعة الله وطاعة رسوله، ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾﴾؛ أي: يبلغكم ما أرسل به إليكم بلاغًا بينًا واضحًا، فتقوم عليكم به الحجة، وليس بيده من هدايتكم ولا من حسابكم شيء، وإنما يحاسبكم على القيام بطاعة الله وطاعة رسوله أو عدم ذلك، عالم الغيب والشهادة.

﴿١٣﴾ ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: هو المستحق للعبادة والألوهية؛ فكل معبود سواه فباطل. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: فليعتمدوا عليه في كل أمر نابهم وفيما يريدون القيام به؛ فإنه لا يتيسر أمر من الأمور إلا بالله ولا سبيل إلى ذلك إلا بالاعتماد على الله، ولا يتم الاعتماد على الله حتى يحسن العبد ظنه بربه ويثق به في كفايته الأمر الذي يعتمد عليه به، وبحسب إيمان العبد يكون توكله قوة وضعفًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

﴿١٤﴾، ﴿١٥﴾ هذا تحذير من الله للمؤمنين عن الاغترار بالأزواج والأولاد؛ فإن بعضهم عدو لكم، والعدو هو الذي يريد لك الشر، فوظيفتك الحذر ممن هذه صفته[1]، والنفس مجبولة على محبة الأزواج والأولاد، فنصح تعالى عباده أن توجب لهم هذه المحبة الانقياد لمطالب الأزواج والأولاد، التي فيها محذور شرعي، ورغبهم في امتثال أوامره وتقديم مرضاته بما عنده من الأجر العظيم، المشتمل على المطالب العالية والمحاب الغالية، وأن يؤثروا الآخرة على الدنيا الفانية المنقضية. ولما كان النهي عن طاعة الأزواج والأولاد فيما هو ضرر على العبد والتحذير من ذلك قد يوهم الغلظة عليهم وعقابهم؛ أمر تعالى بالحذر منهم والصفح عنهم والعفو؛ فإن في ذلك من المصالح ما لا يمكن حصره، فقال: ﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾؛ لأن الجزاء من جنس العمل؛ فمن عفا؛ عفا الله عنه، ومن صفح؛ صفح عنه، ومن عامل الله فيما يحب، وعامل عباده بما يحبون وينفعهم؛ نال محبة الله ومحبة عباده واستوسق له أمره.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾.

(١) ط: «هذا وصفه».

(١٦) يأمر تعالى بتقواه التي هي امتثال أوامره واجتناب نواهيه، وقيد ذلك بالاستطاعة والقدرة. فهذه الآية تدل على أن كل واجب عجز عنه العبد يسقط عنه، وأنه إذا قدر على بعض المأمور وعجز عن بعضه؛ فإنه يأتي بما يقدر عليه ويسقط عنه ما يعجز عنه؛ كما قال النبي ﷺ: «**إذا أمرتكم بأمر؛ فأتوا منه ما استطعتم**»[١]. ويدخل تحت هذه القاعدة الشرعية من الفروع ما لا يدخل تحت الحصر. وقوله: ﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾؛ أي: اسمعوا ما يعظكم الله به وما يشرعه لكم من الأحكام واعلموا ذلك وانقادوا له، ﴿وَأَطِيعُواْ﴾: الله ورسوله في جميع أموركم، ﴿وَأَنفِقُواْ﴾: من النفقات[٢] الواجبة والمستحبة؛ يكن ذلك الفعل منكم ﴿خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡ﴾ في الدنيا والآخرة؛ فإن الخير كله في امتثال أوامر الله تعالى وقبول نصائحه والانقياد لشرعه، والشر كله في مخالفة ذلك، ولكن ثم آفة تمنع كثيرًا من الناس من النفقة المأمور بها، وهو الشح المجبولة عليه أكثر النفوس؛ فإنها تشح بالمال وتحب وجوده وتكره خروجه من اليد غاية الكراهة، ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ﴾: بأن تسمح نفسه بالإنفاق النافع لها، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦﴾: لأنهم أدركوا المطلوب ونجوا من المرهوب، بل لعل ذلك شامل لكل ما أمر به العبد ونهي عنه؛ فإنه إن كانت نفسه شحيحة لا تنقاد لما أمرت به ولا تخرج ما قبلها؛ لم يفلح، بل خسر الدنيا والآخرة، وإن كانت نفسه نفسًا سمحة مطمئنة منشرحة لشرع الله طالبة لمرضاته؛ فإنها ليس بينها وبين فعل ما كلفت به إلا العلم به ووصول معرفته إليها والبصيرة بأنه مُرْضٍ لله تعالى، وبذلك تفلح وتنجح وتفوز كل الفوز.

(١٧) ثم رغَّب تعالى في النفقة، فقال: ﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾: وهو كل نفقة كانت من الحلال إذا قصد بها العبد وجه الله تعالى ووضعها موضعها، ﴿يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ﴾: النفقة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومع المضاعفة أيضًا يغفر لكم بسبب الإنفاق والصدقة ذنوبكم؛ فإن الذنوب يكفرها الله بالصدقات والحسنات؛ ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]. ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧﴾: لا يعاجل من عصاه، بل يمهله ولا يهمله، ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [فاطر: ٤٥]، والله تعالى شكور، يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه الكثير من الأجر، ويشكر تعالى لمن تحمل من أجله المشاق والأثقال وأنواع التكاليف[٣] الثقال، ومن ترك شيئًا لله؛ عوضه الله خيرًا منه.

(١٨) ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ أي: ما غاب عن العباد من الجنود التي لا يعلمها إلا هو وما يشاهدونه من المخلوقات. ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾: الذي لا يغالب ولا يمانع، الذي قهر جميع الأشياء. ﴿ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾: في خلقه وأمره، الذي يضع الأشياء مواضعها.

تم تفسير سورة التغابن. ولله الحمد.



(١) البخاري (٧٢٧٧)، مسلم (١٣٣٧).
(٢) ط: «النفقات الشرعية».
(٣) ط: «وناء بالتكاليف».

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ
ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ
وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ
ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ
ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ
بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ
وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ
بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ
مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ
بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ
مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ
وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ
وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ٤ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ
إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ٥

تفسير سورة الطلاق

وهي مدنية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ
وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ
بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ
وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا
تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ
فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ
عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ
يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢
وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ
إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣﴾.

(١) يقول تعالى مخاطبًا لنبيه ﷺ وللمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾؛ أي: أردتم طلاقهن، فالتمسوا لطلاقهن الأمر المشروع، ولا تبادروا بالطلاق من حين يوجد سببه من غير مراعاة لأمر الله، بل طلقوهن ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾؛ أي: لأجل عدتهن؛ بأن يطلقها زوجها وهي طاهر في طهر لم يجامعها فيه؛ فهذا الطلاق هو الذي تكون العدة فيه واضحة بينة؛ بخلاف ما لو طلقها وهي حائض؛ فإنها لا تحتسب تلك الحيضة التي وقع فيها الطلاق، وتطول عليها العدة بسبب ذلك، وكذلك لو طلقها في طهر وطئ فيه؛ فإنه لا يؤمن حملها، فلا يتبين ولا يتضح بأي عدة تعتد، ﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾ وإحصاء العدة، أي: ضبطها بالحيض إن كانت تحيض، أو بالأشهر إن لم تكن تحيض وليست حاملًا؛ فإن في إحصائها أداء لحق الله، وحق الزوج المطلق، وحق من سيتزوجها بعد، وحقها في النفقة ونحوها؛ فإذا ضبطت عدتها؛ علمت حالها على بصيرة، وعلم ما يترتب عليها من الحقوق وما لها منها، وهذا الأمر بإحصاء العدة يتوجه للزوج وللمرأة إن كانت مكلفة، وإلا؛ فلوليها. وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ﴾؛ أي: في جميع أموركم، وخافوه في حق الزوجات المطلقات.

﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾: مدة العدة، بل تلزم بيتها الذي طلقها زوجها وهي فيه. ﴿وَلَا يَخۡرُجۡنَ﴾؛ أي: لا يجوز لهن الخروج منها، أما النهي عن إخراجها؛ فلأن المسكن يجب على الزوج للزوجة لتستكمل فيه عدتها التي هي حق من حقوقه، وأما النهي عن خروجها؛ فلما في خروجها من إضاعة حق الزوج وعدم صونه، ويستمر هذا النهي عن الخروج من البيوت والإخراج إلى تمام العدة. ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾؛ أي: بأمر قبيح واضح موجب لإخراجها؛ بحيث يدخل على أهل البيت الضرر من عدم إخراجها؛ كالأذى بالأقوال والأفعال الفاحشة؛ ففي هذه الحال يجوز لهم إخراجها؛ لأنها هي التي تسببت لإخراج نفسها، والإسكان فيه جبر لخاطرها ورفق بها؛ فهي التي أدخلت الضرر على نفسها. وهذا في المعتدة الرجعية، وأما البائن؛ فليس لها سكنى واجبة؛ لأن السكنى تبع للنفقة، والنفقة تجب للرجعية دون البائن.

﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: التي حدها لعباده وشرعها لهم وأمرهم بلزومها والوقوف معها، ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾: بأن لم يقف معها، بل تجاوزها أو قصر عنها، ﴿ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾؛ أي: بخسها حقها، وأضاع نصيبه من اتباع حدود الله التي هي الصلاح في الدنيا والآخرة. ﴿ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ۝ ﴾؛ أي: شرع الله العدة، وحدد الطلاق بها لحِكَمٍ عظيمة:

فمنها: أنه لعل الله يحدث في قلب المطلق الرحمة والمودة، فيراجع من طلقها، ويستأنف عشرتها، فيتمكن من ذلك مدة العدة، أو لعله يطلقها لسبب منها، فيزول ذلك السبب في مدة العدة، فيراجعها؛ لانتفاء سبب الطلاق.

ومن الحكم أنها مدة التربص يعلم براءة رحمها من زوجها.

(٢) وقوله: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾؛ أي: قاربن انقضاء العدة؛ لأنهن لو خرجن من العدة؛ لم يكن الزوج مخيرًا بين الإمساك والفراق، ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾؛ أي: على وجه المعاشرة الحسنة والصحبة الجميلة، لا على وجه الضرار وإرادة الشر والحبس؛ فإن إمساكها على هذا الوجه لا يجوز، ﴿ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾؛ أي: فراقًا لا محذور فيه، من غير تشاتم ولا تخاصم ولا قهر لها على أخذ شيء من مالها، ﴿ وَأَشْهِدُواْ ﴾: على طلاقها ورجعتها، ﴿ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾؛ أي: رجلين مسلمين عدلين؛ لأن في الإشهاد المذكور سدًّا لباب المخاصمة وكتمان كل منهما ما يلزم بيانه، ﴿ وَأَقِيمُواْ ﴾: أيها الشهداء ﴿ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ﴾؛ أي: ائتوا بها على وجهها من غير زيادة ولا نقص، واقصدوا بإقامتها وجه الله تعالى، ولا تراعوا بها قريبًا لقرابته ولا صاحبًا لمحبته. ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾: الذي ذكرنا لكم من الأحكام والحدود، ﴿ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾: فإن الإيمان بالله واليوم الآخر يوجب لصاحبه أن يتعظ بمواعظ الله وأن يقدم لآخرته من الأعمال الصالحة ما يتمكن منها؛ بخلاف من ترحل الإيمان من قلبه؛ فإنه لا يبالي بما أقدم عليه من الشر، ولا يُعَظِّم مواعظ الله؛ لعدم الموجب لذلك. ولما كان الطلاق قد يوقع في الضيق والكرب والغم؛ أمر تعالى بتقواه، ووعد من اتقاه في الطلاق وغيره بأن يجعل له فرجًا ومخرجًا. فإذا أراد العبد الطلاق، ففعله على الوجه الشرعي، بأن أوقعه طلقة واحدة في غير حيض ولا طهر أصابها فيه؛ فإنه لا يضيق عليه الأمر، بل جعل الله له فرجًا وسعة يتمكن بها من الرجوع إلى النكاح إذا ندم على الطلاق.

والآية وإن كانت في سياق الطلاق والرجعة؛ فإن العبرة بعموم اللفظ فكل من اتقى الله ولازم مرضاته في جميع أحواله؛ فإن الله يثيبه في الدنيا والآخرة، ومن جملة ثوابه أن يجعل له فرجًا ومخرجًا من كل شدة ومشقة، وكما أن من اتقى الله؛ جعل له فرجًا ومخرجًا؛ فمن لم يتق الله؛ يقع في الآصار والأغلال التي لا يقدر على التخلص منها والخروج من تبعتها، واعتبر ذلك في الطلاق؛ فإن العبد إذا لم يتق الله فيه، بل أوقعه على الوجه المحرم؛ كالثلاث ونحوها؛ فإنه لا بد أن يندم ندامة لا يتمكن من استدراكها والخروج منها.

(٣) وقوله: ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾؛ أي: يسوق الله الرزق للمتقي من وجه لا يحتسبه ولا يشعر به، ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾: في أمر دينه ودنياه؛ بأن يعتمد على الله في جلب ما ينفعه ودفع ما يضره ويثق به في تسهيل ذلك ﴿ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾؛ أي: كافيه الأمر الذي توكل عليه فيه، وإذا كان الأمر في كفالة الغني القوي العزيز الرحيم؛ فهو أقرب إلى العبد من كل شيء، ولكن ربما أن الحكمة الإلهية اقتضت تأخيره إلى الوقت المناسب له؛ فلهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ﴾؛ أي: لا بد من نفوذ قضائه وقدره، ولكنه قد جعل ﴿ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝ ﴾؛ أي: وقتًا ومقدارًا لا يتعداه ولا يقصر عنه.

﴿ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ۝ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ۝ ﴾.

(٤) لما ذكر تعالى أن الطلاق المأمور به يكون لعدة النساء؛ ذكر العدة، فقال: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ ﴾: بأن كن يحضن ثم ارتفع حيضهن لكبر أو غيره ولم يرج رجوعه؛ ﴿ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ ﴾، جعل لكل شهر مقابلة حيضة. ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ﴾؛ أي: الصغار

الجزء الثامن والعشرون — سورة الطلاق

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا
عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ
فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن
تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۖ
وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا
إِلَّا مَا آتَاهَا ۚ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ
عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا
عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾
أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ
قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ
لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ
وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ
سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ
اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾

٥٥٩

اللائي لم يأتهن الحيض بعد أو البالغات اللاتي لم يأتهن حيض بالكلية؛ فإنهن كالآيسات، عدتهن ثلاثة أشهر، وأما اللائي يحضن؛ فذكر الله عدتهن في قوله: ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. وقوله: ﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ ﴾؛ أي: عدتهن ﴿ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾؛ أي: جميع ما في بطونهن من واحد ومتعدد، ولا عبرة حينئذ بالأشهر ولا غيرها. ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ﴾؛ أي: من اتقى الله يسر له الأمور، وسهل عليه كل عسير.

﴿٥﴾ ﴿ ذَٰلِكَ ﴾؛ أي: الحكم الذي بينه الله لكم ﴿ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ ﴾: لتمشوا عليه وتأتموا به وتعظموه. ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾ ﴾؛ أي: يندفع عنه المحذور ويحصل له المطلوب.

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ۚ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ ﴾.

﴿٦﴾ تقدم أن الله نهى عن إخراج المطلقات عن البيوت، وهنا أمر بإسكانهن وقدر إسكانهن بالمعروف، وهو البيت الذي يسكنه مثله ومثلها؛ بحسب وُجد الزوج وعسره، ﴿ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾؛ أي: لا تضاروهن عند سكناهن بالقول أو الفعل؛ لأجل أن يمللن فيخرجن من البيوت قبل تمام العدة، فتكونوا أنتم المخرجين لهن. وحاصل هذا أنه نهى عن إخراجهن ونهاهن عن الخروج، وأمر بسكناهن على وجه لا يحصل عليهن ضرر ولا مشقة، وذلك راجع إلى العرف. ﴿ وَإِن كُنَّ ﴾؛ أي: المطلقات ﴿ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾: وذلك لأجل الحمل الذي في بطنها إن كانت بائنًا، ولها ولحملها إن كانت رجعية، ومنتهى النفقة إلى وضع الحمل؛ فإذا وضعن حملهن؛ فإما أن يرضعن أولادهن أو لا، ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾: المسماة لهن إن كان مسمى، وإلا؛ فأجر المثل، ﴿ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ﴾؛ أي: ليأمر كل واحد من الزوجين ومن غيرهما الآخر بالمعروف، وهو كل ما فيه منفعة ومصلحة في الدنيا والآخرة؛ فإن الغفلة عن الائتمار بالمعروف يحصل فيها من الضرر والشر ما لا يعلمه إلا الله، وفي الائتمار تعاون على البر والتقوى. ومما يناسب هذا المقام أن الزوجين عند الفراق وقت العدة، خصوصًا إذا ولد بينهما ولد، في الغالب يحصل من التنازع والتشاجر لأجل النفقة عليها وعلى الولد مع الفراق الذي لا يحصل في الغالب إلا مقرونًا بالبغض، فيتأثر من ذلك شيء كثير، فكل منهما يؤمر بالمعروف والمعاشرة الحسنة وعدم المشاقة والمنازعة وينصح على ذلك، ﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ ﴾: بأن لم يتفق الزوجان على إرضاعها لولدها، ﴿ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ ﴾: غيرها، ولا ﴿ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وهذا حيث كان الولد يقبل ثدي غير أمه؛ فإن لم يقبل إلا ثدي أمه؛ تعينت لإرضاعه، ووجب عليها، وأجبرت إن امتنعت، وكان لها أجرة المثل إن لم يتفقا على مسمى. وهذا مأخوذ من الآية الكريمة من حيث المعنى؛ فإن الولد لما كان في بطن أمه مدة الحمل لا خروج له منه؛ عين تعالى على وليه النفقة، فلما ولد وكان

يتمكن أن يتقوت من أمه ومن غيرها؛ أباح تعالى الأمرين؛ فإذا كان بحالة لا يمكن أن يتقوت إلا من أمه؛ كان بمنزلة الحمل، وتعينت أمه طريقًا لقوته.

(٧) ثم قدر تعالى النفقة بحسب حال الزوج، فقال: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾؛ أي: لينفق الغني من غناه؛ فلا ينفق نفقة الفقراء، ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾؛ أي: ضيق عليه، ﴿فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾: من الرزق. ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾: وهذا مناسب للحكمة والرحمة الإلهية؛ حيث جعل كلًّا بحسبه، وخفف عن المعسر، وأنه لا يكلفه إلا ما آتاه؛ فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها في باب النفقة وغيرها، ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧)﴾: وهذه بشارة للمعسرين أن الله تعالى سيزيل عنهم الشدة ويرفع عنهم المشقة؛ ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا (٦)﴾ [الشرح: ٥، ٦].

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا (١١) ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا (١٢)﴾.

(٨) - (١٠) يخبر تعالى عن إهلاكه الأمم العاتية والقرون المكذبة للرسل، وأن كثرتهم وقوتهم لم تغن عنهم شيئًا حين جاءهم الحساب الشديد والعذاب الأليم، وأن الله أذاقهم من العذاب ما هو موجب أعمالهم السيئة، ومع عذاب الدنيا؛ فإن الله أعد لهم في الآخرة عذابًا شديدًا، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: يا ذوي العقول التي تفهم عن الله آياته وعبره، وأن الذي أهلك القرون الماضية بتكذيبهم؛ أن من بعدهم مثلهم، لا فرق بين الطائفتين.

(١١) ثم ذكر عباده المؤمنين بما أنزل عليهم من كتابه الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ؛ ليخرج الخلق من ظلمات الجهل والكفر والمعصية إلى نور العلم والإيمان والطاعة؛ فمن الناس من آمن به، ومنهم من لم يؤمن به، ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾: من الواجبات والمستحبات، ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: فيها من النعيم المقيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا (١١)﴾؛ أي: ومن لم يؤمن بالله ورسوله؛ فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

(١٢) ثم أخبر تعالى أنه خلق السماوات والأرض ومن فيهن والأرضين السبع ومن فيهن وما بينهن، وأنزل الأمر، وهو الشرائع والأحكام الدينية، التي أوحاها إلى رسله لتذكير العباد ووعظهم، وكذلك الأوامر الكونية والقدرية التي يدبر بها الخلق؛ كل ذلك لأجل أن يعرفه العباد ويعلموا إحاطة قدرته بالأشياء كلها وإحاطة علمه بجميع الأشياء؛ فإذا عرفوه بأسمائه الحسنى وأوصافه المقدسة؛ عبدوه وأحبوه وقاموا بحقه؛ فهذه الغاية المقصودة من الخلق والأمر؛ معرفة الله وعبادته، فقام بذلك الموفقون من عباد الله الصالحين، وأعرض عن ذلك الظالمون المعرضون.

تم تفسير سورة الطلاق. والحمد لله.



سُورَةُ التَّحْرِيمِ مدنية ٦٦ آياتها ١٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ٢ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٧

تفسير سورة التحريم

وهي مدنية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾.

﴿١﴾ هذا عتاب من الله لنبيه محمد ﷺ حين حرم على نفسه سُرِّيَّتَهُ مارية أو شرب العسل مراعاة لخاطر بعض زوجاته في قصة معروفة، فأنزل اللـه هذه الآيات. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾؛ أي: يـا أيها الذي أنعم اللـه عليه بالنبوة والرسـالة والوحي، ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾: مـن الطيبـات التي أنعـم الله بها عليك وعلى أمتك، ﴿تَبْتَغِي﴾: بذلك التحريم ﴿مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾﴾: هذا تصريح بأن الله قد غفر لرسـوله ورفع عنه اللوم ورحمه.

﴿٢﴾ وصـار ذلـك التحريم الصادر منه سـببًا لشـرع حكم عـام لجميـع الأمـة، فقـال تعالـى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾: وهـذا عـام فـي جميع أيمـان المؤمنيـن؛ أي: قد شـرع لكـم وقـدر ما بـه تنحـل أيمانكم قبـل الحنث وما به تتكفر[1] بعـد الحنث، وذلـك كما في قولـه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ إلـى أن قـال: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ [المائدة: ٨٧-٨٩]: فكل من حرم حلالًا عليه من طعام أو شـراب أو سُـرِّيَّة أو حلف يمينًا بالله على فعل أو ترك ثم حنث أو أراد الحنث؛ فعليه هذه الكفارة المذكـورة. وقولـه: ﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾؛ أي: متولـي أموركـم ومربيكـم أحسـن تربية في أمـر دينكم ودنياكم ومـا به يندفع عنكم الشـر؛ فلذلك فرض لكم تحلـة أيمانكم لتبرأ ذممكم. ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾: الـذي أحـاط علمـه بظواهركـم وبواطنكـم، وهـو الحكيـم فـي جميـع مـا خلقه وحكـم به؛ فلذلك شرع لكم من الأحكام ما يعلم أنه موافق لمصالحكم ومناسب لأحوالكم.

﴿٣﴾ وقولـه: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾: قـال كثير من المفسـرين: هي حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها، أسـر لها النبـي ﷺ حديثًا، وأمـر ألَّا تخبر به أحـدًا، فحدثت بـه عائشـة رضي الله عنهمـا، وأخبره الله بذلـك الخبر الذي أذاعتـه، فعرفها ﷺ ببعض مـا قالت وأعرض عن بعضه كرمًا منـه ﷺ وحلمًـا، ﴿قَالَتْ﴾ لـه: ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾: الخبـر الذي لـم يخرج منـا، ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾: الذي لا تخفى عليه خافية، يعلم السر وأخفى.

(١) ط: «الكفارة».

(٤) وقوله: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾: الخطاب للزوجتين الكريمتين حفصة وعائشة رضي الله عنهما حين كانتا سببًا لتحريم النبي ﷺ على نفسه ما يحبه، فعرض الله عليهما التوبة، وعاتبهما على ذلك، وأخبرهما أن قلوبهما قد صغت؛ أي: مالت وانحرفت عما ينبغي لهن من الورع والأدب مع الرسول ﷺ واحترامه، وألَّا يشققن عليه، ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾؛ أي: تعاونا على ما يشق عليه ويستمر هذا الأمر منكن، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ (٤)﴾؛ أي: الجميع أعوان للرسول مظاهرون له. ومن كان هؤلاء أنصاره[1]؛ فهو المنصور، وغيره إن[2] يناوئه؛ فهو مخذول، وفي هذا أكبر فضيلة وشرف لسيد المرسلين؛ حيث جعل الباري نفسه الكريمة وخواص خلقه أعوانًا لهذا الرسول الكريم. وفيه من التحذير للزوجتين الكريمتين ما لا يخفى.

(٥) ثم خوفهما أيضًا بحالة تشق على النساء غاية المشقة، وهو الطلاق، الذي هو أكبر شيء عليهن، فقال: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾؛ أي: فلا تترفعن عليه؛ فإنه لو طلقكن لم يضق عليه الأمر، ولم يكن مضطرًّا إليكن؛ فإنه سيجد ويبدله الله أزواجًا خيرًا منكن دينًا وجمالًا، وهذا من باب التعليق الذي لم يوجد ولا يلزم وجوده؛ فإنه ما طلقهن، ولو طلقهن؛ لكان ما ذكره الله من هذه الأزواج الفاضلات، ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ جامعات بين الإسلام وهو القيام بالشرائع الظاهرة، والإيمان وهو القيام بالشرائع الباطنة من العقائد وأعمال القلوب ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾، والقنوت وهو دوام الطاعة واستمرارها. ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾: عما يكرهه الله، فوصفهن بالقيام بما يحبه الله والتوبة عما يكرهه الله. ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا (٥)﴾؛ أي: بعضهن ثيب وبعضهن أبكار؛ ليتنوع ﷺ فيما يحب. فلما سمعن رضي الله عنهن هذا التخويف والتأديب؛ بادرن إلى رضا رسول الله ﷺ، فكان هذا الوصف منطبقًا عليهن، فصرن أفضل نساء المؤمنين[3].

(١) ط: «أعوانه».
(٢) ط: «ممن».
(٣) زاد في ط: «وفي هذا دليل على أن الله تعالى لا يختار لرسوله ﷺ إلا أكمل الأحوال وأعلى الأمور، فلما اختار الله لرسوله بقاء نسائه المذكورات معه دل على أنهن خير النساء وأكملهن.».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾.

(٦) أي: يا من منَّ الله عليهم بالإيمان! قوموا بلوازمه وشروطه، فـ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ موصوفة بهذه الأوصاف الفظيعة، ووقاية الأنفس بإلزامها أمر الله امتثالًا ونهيه اجتنابًا والتوبة عما يسخط الله ويوجب العذاب، ووقاية الأهل والأولاد بتأديبهم وتعليمهم وإجبارهم على أمر الله؛ فلا يسلم العبد إلا إذا قام بما أمر الله به في نفسه وفيمن تحت ولايته من الزوجات والأولاد وغيرهم ممن هم تحت ولايته وتصرفه، ووصف الله النار بهذه الأوصاف؛ ليزجر عباده عن التهاون بأمره، فقال: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ (٩٨)﴾ [الأنبياء: ٩٨]، ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾؛ أي: غليظة أخلاقهم، شديد انتهارهم يفزعون بأصواتهم ويزعجون[4] بمرآهم ويهينون أصحاب النار بقوتهم، وينفذون[5] فيهم أمر الله الذي حكم عليهم بالعذاب[6]، وأوجب عليهم شدة العقاب، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾: وهذا فيه أيضًا مدح للملائكة الكرام، وانقيادهم لأمر الله، وطاعتهم له في كل ما أمرهم به.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧)﴾.

(٧) أي: يوبخ أهل النار يوم القيامة بهذا التوبيخ، فيقال لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: فإنه ذهب وقت الاعتذار وزال نفعه، فلم يبق الآن إلا الجزاء على الأعمال، وأنتم لم تقدموا إلا الكفر بالله والتكذيب بآياته ومحاربة رسله وأوليائه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

(٤) ط: «ويخيفون».
(٥) ط: «ويمتثلون».
(٦) ط: «حتم عليهم العذاب».

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ
أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى
مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ
أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ
وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا
لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ
عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا
مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾
وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ
قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ
وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ
عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا
وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾.

(٨) قد أمر الله بالتوبة النصوح في هذه الآية، ووعد عليها بتكفير السيئات ودخول الجنات والفوز والفلاح، حين يسعى المؤمنون يوم القيامة بنور إيمانهم، ويمشون بضيائه، ويتمتعون بروحه وراحته، ويشفقون إذا طفئت الأنوار التي تعطى المنافقين، ويسألون الله أن يتم لهم نورهم، فيستجيب الله دعوتهم، ويوصلهم بما معهم من النور واليقين إلى جنات النعيم وجوار الرب الكريم، وكل هذا من آثار التوبة النصوح، والمراد بها التوبة العامة الشاملة لجميع الذنوب، التي عقدها العبد لله، لا يريد بها إلا وجه الله والقرب منه، ويستمر عليها في جميع أحواله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ﴾.

(٩) يأمر الله تعالى نبيه ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والإغلاظ عليهم في ذلك، وهذا شامل لجهادهم بإقامة الحجة عليهم ودعوتهم بالموعظة الحسنة وإبطال ما هم عليه من أنواع الضلال، وجهادهم بالسلاح والقتال لمن أبى أن يجيب دعوة الله وينقاد لحكمه؛ فإن هذا يجاهد ويغلظ عليه، وأما المرتبة الأولى؛ فتكون بالتي هي أحسن؛ فالكفار والمنافقون لهم عذاب في الدنيا بتسليط الله لرسوله وحزبه عليهم وعلى جهادهم، وعذاب النار في الآخرة ﴿ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ﴾: الذي يصير إليه كل شقي خاسر.

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

هذان المثلان اللذان ضربهما الله للمؤمنين والكافرين؛ ليبين لهم أن اتصال الكافر بالمؤمن وقربه منه لا يفيده شيئًا، وأن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئًا مع قيامه بالواجب عليه، فكأن في ذلك إشارة وتحذيرًا لزوجات النبي ﷺ عن المعصية، وأن اتصالهن به ﷺ لا ينفعهن شيئًا مع الإساءة، فقال:

(١٠) ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا ﴾؛ أي: المرأتان ﴿ تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ ﴾: وهما نوح ولوط عليهما السلام، ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾: في الدين؛ بأن كانتا على غير دين زوجيهما، وهذا المراد بالخيانة، لا خيانة النسب والفراش؛ فإنه ما بغت امرأة نبي قط، وما كان الله ليجعل امرأة أحد من أنبيائه بغيًّا، ﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا ﴾؛ أي: نوح ولوط ﴿ عَنْهُمَا ﴾؛ أي: عن امرأتيهما، ﴿ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ﴾ لهما: ﴿ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾.

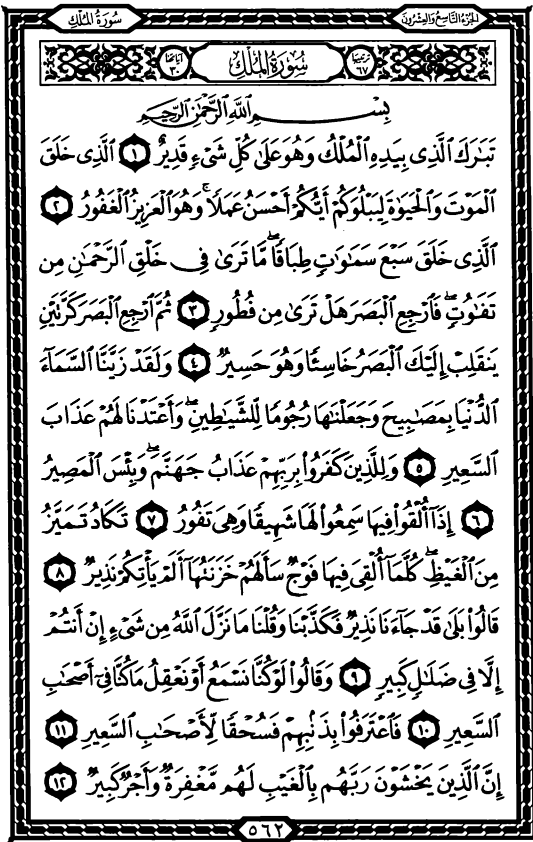
(١١) ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴾: وهي آسية بنت مزاحم رضي الله عنها، ﴿ إِذْ

﴿قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١﴾: فوصفها الله بالإيمان والتضرع لربها وسؤالها أجل المطالب، وهو دخول الجنة ومجاورة الرب الكريم، وسؤالها أن ينجيها من فتنة فرعون وأعماله الخبيثة ومن فتنة كل ظالم، فاستجاب الله لها، فعاشت في إيمان كامل وثبات تام ونجاة من الفتن، ولهذا قال النبي ﷺ: «**كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد. وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**»[١].

١٢ وقوله: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾؛ أي: حفظته وصانته عن الفاحشة؛ لكمال ديانتها وعفتها ونزاهتها، ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾: بأن نفخ جبريل عليه السلام في جيب درعها، فوصلت نفخته إلى مريم، فجاء منها عيسى عليه السلام الرسول الكريم والسيد العظيم، ﴿وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾: وهذا وصف لها بالعلم والمعرفة؛ فإن التصديق بكلمات الله يشمل كلماته الدينية والقدرية، والتصديق بكتبه يقتضي معرفة ما به يحصل التصديق، ولا يكون ذلك إلا بالعلم والعمل، ولهذا قال: ﴿وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ١٢﴾؛ أي: المداومين على طاعة الله بخشية وخشوع. وهذا وصف لها بكمال العمل؛ فإنها رضي الله عنها صديقة. والصديقية هي كمال العلم والعمل.

تم تفسير سورة التحريم بعون الله وتيسيره.

(١) البخاري (٣٧٦٩)، مسلم (٢٤٣١).



تفسير سورة الملك

وهي مكية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ٢ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ٤﴾.

١ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾؛ أي: تعاظم وتعالى وكثر خيره وعم إحسانه، من عظمته أن بيده ملك العالم العلوي والسفلي، فهو الذي خلقه ويتصرف فيه بما شاء من الأحكام القدرية والأحكام الدينية التابعة لحكمته. ومن عظمته كمال قدرته التي يقدر بها على كل شيء وبها

أوجد ما أوجد من المخلوقات العظيمة؛ كالسماوات والأرض.

(٢) ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾؛ أي: قدر لعباده أن يحييهم ثم يميتهم؛ ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾؛ أي: أخلصه وأصوبه، وذلك أن الله خلق عباده وأخرجهم لهذه الدار، وأخبرهم أنهم سينقلون منها، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالشهوات المعارضة لأمره؛ فمن انقاد لأمر الله وأحسن العمل؛ أحسن الله له الجزاء في الدارين، ومن مال مع شهوات النفس ونبذ أمر الله؛ فله شر الجزاء. ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾: الذي له العزة كلها، التي قهر بها جميع الأشياء وانقادت له المخلوقات. ﴿ ٱلْغَفُورُ ﴾: عن المسيئين والمقصرين والمذنبين، خصوصًا إذا تابوا وأنابوا؛ فإنه يغفر ذنوبهم، ولو بلغت عنان السماء، ويستر عيوبهم، ولو كانت ملء الدنيا.

(٣) ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾؛ أي: كل واحدة فوق الأخرى، ولسن طبقة واحدة، وخلقها في غاية الحسن والإتقان، ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾؛ أي: خلل ونقص، وإذا انتفى النقص من كل وجه؛ صارت حسنة كاملة متناسبة من كل وجه في لونها وهيئتها وارتفاعها وما فيها من الشمس والكواكب النيرات الثوابت منهن والسيارات، ولما كان كمالها معلومًا؛ أمر تعالى بتكرار النظر إليها والتأمل في أرجائها؛ قال: ﴿ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ ﴾؛ أي: أعده إليها ناظرًا معتبرًا، ﴿ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ﴾؟ أي: نقص واختلال.

(٤) ﴿ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾: والمراد بذلك كثرة التكرار، ﴿ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) ﴾؛ أي: عاجزًا عن أن يرى خللًا أو فطورًا، ولو حرص غاية الحرص.

ثم صرح بذكر حسنها، فقال:

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ
وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ (٥) وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ
وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (٦) إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ (٧)
تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ
نَذِيرٌ (٨) قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ
إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا
كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ (١٠) فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ
ٱلسَّعِيرِ (١١) ﴾.

(٥) أي: ولقد جملنا ﴿ ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا ﴾: التي ترونها وتليكم، ﴿ بِمَصَٰبِيحَ ﴾: وهي النجوم على اختلافها في النور والضياء؛ فإنه لولا ما فيها من النجوم؛ لكانت سقفًا مظلمًا لا حسن فيه ولا جمال، ولكن جعل الله هذه النجوم زينة للسماء، وجمالًا ونورًا وهداية يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ولا ينافي إخباره أنه زين السماء الدنيا بمصابيح أن يكون كثير من النجوم فوق السماوات السبع؛ فإن السماوات شفافة، وبذلك تحصل الزينة للسماء الدنيا وإن لم تكن الكواكب فيها، ﴿ وَجَعَلْنَٰهَا ﴾؛ أي: المصابيح ﴿ رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾: الذين يريدون استراق خبر السماء، فجعل الله هذه النجوم حراسة للسماء عن تلقف الشياطين أخبارها إلى الأرض؛ فهذه الشهب التي ترمى من النجوم أعدها الله في الدنيا للشياطين، ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ ﴾: في الآخرة ﴿ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ (٥) ﴾: لأنهم تمردوا على الله، وأضلوا عباده.

(٦) ولهذا كان أتباعهم من الكفار مثلهم قد أعد الله لهم عذاب السعير؛ فلهذا قال: ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (٦) ﴾: [الذي يهان فيها أهلها غاية الهوان][(1)].

(٧) ﴿ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا ﴾: على وجه الإهانة والذل، ﴿ سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا ﴾؛ أي: صوتًا عاليًا فظيعًا.

(٨) ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾؛ أي: تكاد على اجتماعها أن يفارق بعضها بعضًا وتتقطع من شدة غيظها على الكفار؛ فما ظنك ما تفعل بهم إذا حُصِّلوا فيها؟! ثم ذكر توبيخ الخزنة لأهلها، فقال: ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) ﴾؛ أي: حالكم هذه واستحقاقكم النار كأنكم لم تخبروا عنها ولم تحذركم النذر منها.

(٩) ﴿ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ (٩) ﴾: فجمعوا بين تكذيبهم الخاص والتكذيب العام بكل ما أنزل الله، ولم يكفهم ذلك، حتى أعلنوا بضلال الرسل المنذرين، وهم الهداة المهتدون، ولم يكتفوا بمجرد الضلال، بل جعلوا ضلالهم ضلالًا كبيرًا؛ فأي عناد وتكبر وظلم يشبه هذا؟!

(١٠) ﴿ وَقَالُوا۟ ﴾: معترفين بعدم أهليتهم للهدى والرشاد: ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ (١٠) ﴾: فنفوا عن أنفسهم طرق الهدى، وهي السمع لما أنزل الله وجاءت

(١) ط: «التي يهان بها أهلها».

بـه الرسـل، والعقل الذي ينفـع صاحبـه ويوقفه على حقائق الأشـياء وإيثار الخير والانزجار عن كل ما عاقبته ذميمة، فلا سمع لهم ولا عقل. وهذا بخلاف أهل اليقين والعرفان وأرباب الصدق والإيمان؛ فإنهم أيدوا إيمانهم بالأدلة السـمعية، فسـمعوا ما جاء من عند الله وجاء به رسول الله علمًا ومعرفة وعملًا، والأدلة العقلية المعرفة للهدى من الضلال، والحسـن من القبيـح، والخير من الشر، وهم في الإيمان بحسـب ما من الله عليهم به من الاقتداء بالمعقول والمنقول؛ فسبحان من يختص بفضله من يشـاء، ويمن على من يشاء من عباده، ويخذل من لا يصلح للخير.

(١١) قـال تعالى عن هـؤلاء الداخلين للنـار المعترفين بظلمهـم وعنادهـم: ﴿ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ (١١) ﴾؛ أي: بعدًا لهم وخسارة وشـقاء؛ فما أشقاهم وأرداهم؛ حيث فاتهم ثواب الله، وكانوا ملازمين للسـعير التي تستعر في أبدانهم، وتطلع على أفئدتهم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢) ﴾.

(١٢) لما ذكر حالة الأشـقياء الفجار؛ ذكر وصف الأبرار السـعداء، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ ﴾؛ أي: في جميع أحوالهم، حتى في الحالة التي لا يطلع عليهم فيها إلا الله؛ فلا يقدمون على معاصيه، ولا يقصرون عما أمرهم به. ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾: لذنوبهـم، وإذا غفر اللـه ذنوبهم؛ وقاهم شـرها ووقاهم عذاب الجحيـم. ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢) ﴾: وهو ما أعده الله لهم في الجنـة من النعيم المقيم والملك الكبير واللذات المتواصلات والقصور والمنازل العاليات والحور الحسـان والخدم والولدان، وأعظم مـن ذلك وأكبر، رضا الرحمن الذي يحله على ساكني الجنان.

﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ (١٤) ﴾.

(١٣) هذا إخبار من الله بسـعة علمه وشمول لطفه، فقال: ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ ﴾؛ أي: كلاهما[(١)] سـواء لديه لا يخفى عليه منها خافية، فـ ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (١٣) ﴾؛ أي: بما فيها من النيات والإرادات؛ فكيف بالأقوال والأفعال التي تسمع وترى؟!

(١) ط: «كلها».

سُورَةُ المُلْكِ — الجُزْءُ التَّاسِعُ وَالعِشْرُونَ

وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣ أَلَا
يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ١٤ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ
ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ
١٥ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ
تَمُورُ ١٦ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًاۖ
فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ١٧ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ
كَانَ نَكِيرِ ١٨ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَۚ مَا
يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ١٩ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى
هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ
٢٠ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ
وَنُفُورٍ ٢١ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا
عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٢٢ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ
وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ٢٣ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ
فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ٢٤ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ٢٥ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٢٦

٥٦٣

(١٤) ثم قال مستدلًا بدليل عقلي على علمه: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾؛ فمن خلق الخلق وأتقنه وأحسـنه؛ كيف لا يعلمه؟! ﴿ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ (١٤) ﴾: الـذي لطف علمه وخبره، حتى أدرك السـرائر والضمائر والخبايا والخفايا والغيوب، وهو الذي يعلم السر وأخفى، ومن معاني اللطيف أنه الذي يلطف بعبده ووليه، فيسوق إليه البر والإحسان من حيث لا يشعر، ويعصمه من الشـر من حيث لا يحتسـب، ويُرَقِّيه إلى أعلى المراتب بأسباب لا تكون من العبد على بال، حتى إنه يذيقه المكاره ليوصله بها إلى المحاب الجليلة والمطالب النبيلة.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ (١٥) ﴾.

(١٥) أي: هو الذي سخر لكم الأرض وذللها؛ لتدركوا منها كل مـا تعلقت به حاجتكم من غـرس وبناء وحرث وطرق يتوصل بها إلى الأقطار النائية والبلدان الشاسـعة، ﴿ فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا ﴾؛ أي: لطلب الرزق والمكاسب، ﴿ وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ (١٥) ﴾؛ أي: بعـد أن تنتقلوا مـن هذه الدار التي

جعلها الله امتحانًا وبلغة يتبلغ بها إلى الدار الآخرة؛ تبعثون بعد موتكم وتحشرون إلى الله؛ ليجازيكم بأعمالكم الحسنة والسيئة.

﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ١٧ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ١٨ ﴾.

(١٦) هذا تهديد ووعيد لمن استمر في طغيانه وتعديه وعصيانه الموجب للنكال وحلول العقوبة، فقال: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾: وهو الله تعالى العالي على خلقه، ﴿أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦ ﴾: بكم وتضطرب حتى تهلكوا وتتلفوا.

(١٧)، (١٨) ﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ﴾؛ أي: عذابًا من السماء يحصبكم وينتقم الله منكم، ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ١٧ ﴾؛ أي: كيف يأتيكم ما أنذرتكم به الرسل والكتب؛ فلا تحسبوا أن أمنكم من الله أن يعاقبكم بعقاب من الأرض ومن السماء ينفعكم، فستجدون عاقبة أمركم سواء طال عليكم الأمد أو قصر؛ فإن من قبلكم كذبوا كما كذبتم، فأهلكهم الله تعالى؛ فانظروا كيف إنكار الله عليهم؛ عاجلهم بالعقوبة الدنيوية قبل عقوبة الآخرة؛ فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ١٩ ﴾.

(١٩) وهذا عتاب وحث على النظر إلى حالة الطير التي سخرها الله وسخر لها الجو والهواء؛ تصف فيه أجنحتها للطيران وتقبضها للوقوع، فتظل سابحة في الجو مترددة فيه بحسب إرادتها وحاجتها، ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ ﴾: فإنه الذي سخر لهن الجو وجعل أجسادها وخلقتها[1] في حالة مستعدة للطيران؛ فمن نظر في حالة الطير واعتبر فيها؛ دلته على قدرة الباري وعنايته الربانية، وأنه الواحد الأحد الذي لا تنبغي العبادة إلا له. ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ١٩ ﴾: فهو المدبر لعباده بما يليق بهم وتقتضيه حكمته.

﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ٢٠ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ٢١ ﴾.

(٢٠) يقول تعالى للعتاة النافرين عن أمره، المعرضين عن الحق: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾؛ أي: ينصركم إذا أراد الرحمن بكم سوءًا فيدفعه عنكم؛ أي: من الذي ينصركم على أعدائكم غير الرحمن؛ فإنه تعالى هو الناصر المعز المذل، وغيره من الخلق لو اجتمعوا على نصر عبد لم ينفعوه بمثقال ذرة على أي عدو كان؛ فاستمرار الكافرين على كفرهم بعد أن علموا أنه لا ينصرهم أحد من دون الرحمن غرور وسفه.

(٢١) ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥ ﴾؛ أي: الرزق كله من الله؛ فلو أمسك عنكم الرزق؛ فمن الذي يرسله لكم؟ فإن الخلق لا يقدرون على رزق أنفسهم؛ فكيف بغيرهم؟! فالرازق المنعم الذي لا يصيب العباد نعمة إلا منه هو الذي يستحق أن يفرد بالعبادة، ولكن الكافرون ﴿لَّجُّواْ ﴾؛ أي: استمروا ﴿فِي عُتُوّٖ ﴾؛ أي: قسوة وعدم لين للحق، ﴿وَنُفُورٍ ٢١ ﴾؛ أي: شرود عن الحق.

﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٢ ﴾.

(٢٢) أي: أيُّ الرجلين أهدى؛ من كان تائهًا في الضلال غارقًا في الكفر قد انتكس قلبه فصار الحق عنده باطلًا والباطل حقًّا، أو من كان عالمًا بالحق، مؤثرًا له، عاملًا به، يمشي على الصراط المستقيم في أقواله وأعماله وجميع أحواله؟! فبمجرد النظر إلى حال الرجلين؛ يعلم الفرق بينهما والمهتدي من الضال منهما. والأحوال أكبر شاهد من الأقوال.

﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۖ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٢٣ قُلۡ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٥ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٢٦ ﴾.

(٢٣) يقول تعالى مبينًا أنه المعبود وحده وداعيًا عباده إلى شكره وإفراده بالعبادة: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ ﴾؛ أي: أوجدكم من العدم؛ من غير معاون له ولا مظاهر، ولما أنشأكم؛ كمل لكم الوجود إذ ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ ﴾، وهذه

(١) ط: «أجسادهن وخلقتهن».

الثلاثة هي أفضل أعضاء البدن وأكمل القوى الجسمانية، ولكنكم مع هذا الإنعام ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ الله، قليل منكم الشاكر، وقليل منكم الشكر.

﴿٢٤﴾ ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: بثكم في أقطارها، وأسكنكم في أرجائها، وأمركم ونهاكم، وأسدى إليكم من النعم ما به تنتفعون، ثم بعد ذلك يحشركم ليوم القيامة، ولكن هذا الوعد بالجزاء ينكره هؤلاء المعاندون.

﴿٢٥﴾ ﴿وَيَقُولُونَ﴾: تكذيبًا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾؟ جعلوا علامة صدقهم أن يخبروهم بوقت مجيئه، وهذا ظلم وعناد.

﴿٢٦﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ﴾: لا عند أحد من الخلق، ولا ملازمة بين هذا الخبر وبين الإخبار بوقته؛ فإن الصدق يعرف بأدلته، وقد أقام الله من الأدلة والبراهين على صحته ما لا يبقى معه أدنى شك لمن ألقى السمع وهو شهيد.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿٢٧﴾ يعني أن محل تكذيب الكفار وغرورهم به حين كانوا في الدنيا؛ فإذا كان يوم الجزاء، ورأوا العذاب منهم ﴿زُلْفَةً﴾؛ أي: قريبًا؛ ساءهم ذلك وأفظعهم وأقلقهم، فتغيرت لذلك وجوههم، ووبخوا على تكذيبهم، ﴿وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾: فاليوم رأيتموه عيانًا، وانجلى لكم الأمر، وتقطعت بكم الأسباب، ولم يبق إلا مباشرة العذاب.

﴿٢٨﴾ ولما كان المكذبون للرسول ﷺ الذين يردون دعوته ينتظرون هلاكه ويتربصون به ريب المنون؛ أمره الله أن يقول لهم: إنكم وإن حصلت لكم أمنيتكم و﴿أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ﴾: فليس ذلك بنافع لكم شيئًا؛ لأنكم كفرتم بآيات الله، واستحققتم العذاب؛ فمن يجيركم ﴿مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾: قد تحتم وقوعه بكم؛ فإذًا تعبكم وحرصكم على هلاكي غير مفيد ولا مجدٍ لكم شيئًا.

﴿٢٩﴾ ومن قولهم: إنهم على هدى والرسول على ضلال؛ أعادوا في ذلك وأبدوا، وجادلوا عليه وقاتلوا، فأمر الله نبيه أن يخبر عن حاله وحال أتباعه ما به يتبين لكل أحد هداهم

سورة القلم — الجزء التاسع والعشرون

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾

سُورَةُ القَلَمِ — ٦٨ — آياتها ٥٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾

٥٦٤

وتقواهم، وهو أن يقولوا: ﴿هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾: والإيمان يشمل التصديق الباطن والأعمال الباطنة والظاهرة، ولما كانت الأعمال وجودها وكمالها متوقفان على التوكل؛ خص الله التوكل من بين سائر الأعمال، وإلا؛ فهو داخل في الإيمان، ومن جملة لوازمه؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: ٢٣]؛ فإذا كانت هذه حال الرسول وحال من اتبعه، وهي الحال التي تتعين للفلاح وتتوقف عليها السعادة، وحالة أعدائه بضدها؛ فلا إيمان لهم ولا توكل؛ عُلِمَ بذلك من هو على هدًى ومن هو في ضلال مبين.

﴿٣٠﴾ ثم أخبر عن انفراده بالنعم، خصوصًا الماء الذي جعل الله منه كل شيء حي، فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾؛ أي: غائرًا، ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾: تشربون منه وتسقون أنعامكم وأشجاركم وزروعكم؟ وهذا استفهام بمعنى النفي؛ أي: لا يقدر أحد على ذلك غير الله تعالى.

تم تفسير سورة الملك والحمد لله.



تفسير سورة ن

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧ ﴾

(١)، (٢) يقسم تعالى بالقلم، وهو اسم جنس شامل للأقلام التي تكتب بها أنواع العلوم، ويسطر بها المنثور والمنظوم، وذلك أن القلم وما يسطر به من أنواع الكلام من آياته العظيمة، التي تستحق أن يقسم بها على براءة نبيه محمد ﷺ مما نسبه إليه أعداؤه من الجنون؛ فنفى عنه ذلك بنعمة ربه عليه وإحسانه؛ حيث مَنَّ عليه بالعقل الكامل والرأي الجزل والكلام الفصل، الذي هو أحسن ما جرت به الأقلام وسطره الأنام، وهذا هو السعادة في الدنيا.

(٣) ثم ذكر سعادته في الآخرة، فقال: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣﴾؛ أي: لأجرًا عظيمًا كما يفيده التنكير، غير مقطوع، بل هو دائم مستمر، وذلك لما أسلفه ﷺ من الأعمال الصالحة والأخلاق الكاملة والهداية إلى كل خير.

(٤) ولهذا قال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾؛ أي: عليٌّ به، مستعلٍ بخلُقك الذي مَنَّ الله عليك به. وحاصل خلقه العظيم ما فسرته به أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لمن سألها عنه، فقالت: كان خلقه القرآن[(١)]. وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] الآية، ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ [التوبة: ١٢٨] الآية، وما أشبه ذلك من الآيات الدالات على اتصافه ﷺ بمكارم الأخلاق، والآيات الحاثات على كل خلق عظيم، فكان له منها أكملها وأجلها، وهو في كل خصلة منها في الذروة العليا، فكان سهلًا لينًا قريبًا من الناس، مجيبًا لدعوة من دعاه، قاضيًا لحاجة من استقضاه، جابرًا القلب من سأله لا يحرمه ولا يرده خائبًا. وإذا أراد أصحابه منه أمرًا؛ وافقهم عليه وتابعهم فيه إذا لم يكن فيه محذور، وإن عزم على أمر؛ لم يستبد به دونهم، بل يشاورهم ويؤامرهم، وكان يقبل من محسنهم، ويعفو عن مسيئهم، ولم يكن يعاشر جليسًا إلا أتم عشرة وأحسنها، فكان لا يعبس في وجهه، ولا يغلظ عليه في مقاله، ولا يطوي عنه بِشْرَه، ولا يمسك عليه فلتات لسانه، ولا يؤاخذه بما يصدر منه من جفوة، بل يحسن إليه غاية الإحسان، ويحتمله غاية الاحتمال ﷺ.

(٥)، (٦) فلما أنزله الله في أعلى المنازل[(٢)]، وكان أعداؤه ينسبون إليه أنه مجنون مفتون؛ قال: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ ﴾: وقد تبين أنه أهدى الناس وأكملهم لنفسه ولغيره، وأن أعداءه أضل الناس وشر الناس للناس، وأنهم هم الذين فتنوا عباد الله وأضلوهم عن سبيله، وكفى بعلم الله بذلك؛ فإنه هو المحاسب المجازي.

(٧) ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧ ﴾: وهذا فيه تهديد للضالين، ووعد للمهتدين، وبيان لحكمة الله؛ حيث كان يهدي من يصلح للهداية دون غيره.

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦ ﴾.

(٨) يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ ﴾: الذين كذبوك وعاندوا الحق؛ فإنهم ليسوا أهلًا لأن يطاعوا؛ لأنهم لا يأمرون إلا بما يوافق أهواءهم، وهم لا يريدون إلا الباطل؛ فالمطيع لهم مُقْدِم على ما يضره، وهذا عام في كل مكذب وفي كل طاعة ناشئة عن التكذيب، وإن كان السياق في شيء خاص، وهو أن المشركين طلبوا من النبي ﷺ أن يسكت عن عيب آلهتهم ودينهم ويسكتوا عنه.

(٩) ولهذا قال: ﴿وَدُّواْ﴾؛ أي: المشركون، ﴿لَوْ تُدْهِنُ﴾؛ أي: توافقهم على بعض ما هم عليه: إما بالقول، أو بالفعل، أو بالسكوت عما يتعين الكلام فيه ﴿ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ ﴾،

(١) مسلم (٧٤٦).

(٢) زاد في ط: «من جميع الوجوه».

ولكن اصدع بأمر الله، وأظهر دين الإسلام؛ فإن تمام إظهاره نقض ما يضاده وعيب ما يناقضه.

(١٠) ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ ﴾؛ أي: كثير الحلف؛ فإنه لا يكون كذلك إلا وهو كذاب، ولا يكون كذابًا إلا وهو ﴿مَّهِينٍ (١٠) ﴾؛ أي: خسيس النفس، ناقص الهمة، ليس له رغبة في الخير، بل إرادته في شهوات نفسه الخسيسة.

(١١) ﴿ هَمَّازٍ ﴾؛ أي: كثير العيب للناس والطعن فيهم بالغيبة والاستهزاء وغير ذلك، ﴿مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ (١١) ﴾؛ أي: يمشي بين الناس بالنميمة، وهو نقل كلام بعض الناس لبعض لقصد الإفساد بينهم وإيقاع العداوة والبغضاء.

(١٢) ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾: الذي يلزمه القيام به من النفقات الواجبة والكفارات والزكوات وغير ذلك. ﴿مُعْتَدٍ﴾: على الخلق؛ يظلمهم في دمائهم وأموالهم وأعراضهم. ﴿أَثِيمٍ (١٢) ﴾؛ أي: كثير الإثم والذنوب المتعلقة في حق الله.

(١٣) ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾؛ أي: غليظ شرس الخلق، قاس، غير منقاد للحق. ﴿زَنِيمٍ (١٣) ﴾؛ أي: دعي ليس له أصل ولا مادة ينتج منها الخير، بل أخلاقه أقبح الأخلاق، ولا يرجى منه فلاح. له زِنْمَة؛ أي: علامة في الشر يعرف بها.

(١٤) وحاصل هذا أن الله تعالى نهى عن طاعة كل حلاف كذاب خسيس النفس سيئ الأخلاق، خصوصًا الأخلاق المتضمنة للإعجاب بالنفس، والتكبر على الحق وعلى الخلق، والاحتقار للناس بالغيبة والنميمة، والطعن فيهم، وكثرة المعاصي.

(١٥) وهذه الآيات وإن كانت نزلت في بعض المشركين؛ كالوليد بن المغيرة أو غيره؛ لقوله عنه: ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٥) ﴾؛ أي: لأجل كثرة ماله وولده طغى واستكبر عن الحق ودفعه حين جاءه وجعله من جملة أساطير الأولين التي يمكن صدقها وكذبها؛ فإنها عامة في كل من اتصف بهذا الوصف؛ لأن القرآن نزل لهداية الخلق كلهم، ويدخل فيه أول الأمة وآخرهم، وربما نزل بعض الآيات في سبب أو شخص من الأشخاص، لتتضح به القاعدة العامة، ويعرف به أمثال الجزئيات الداخلة في القضايا العامة.

الجزء التاسع والعشرون — سورة القلم

سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ (١٦) إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟
لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ
وَهُمْ نَآئِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ
ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ (٢٢) فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ (٢٣)
أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا
رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل
لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ
بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ (٣٠) قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ (٣١) عَسَىٰ
رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ
ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ (٣٣) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ
(٣٤) أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ
لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ
عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلْهُمْ أَيُّهُم
بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ (٤١)
يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢)

٥٦٥

(١٦) ثم توعد تعالى من جرى منه ما وصف الله بأن الله سيسمه ﴿عَلَى ٱلْخُرْطُومِ (١٦) ﴾: في العذاب، وليعذبه عذابًا ظاهرًا يكون عليه سمة وعلامة في أشق الأشياء عليه وهو وجهه.

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ (٢٢) فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ (٢٣) أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ (٣٠) قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ (٣١) عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ (٣٣) ﴾.

(١٧)، (١٨) يقول تعالى: إنا بلونا هؤلاء المكذبين بالخير، وأمهلناهم، وأمددناهم بما شئنا من مال وولد

وطول عمر ونحو ذلك مما يوافق أهواءهم، لا لكرامتهم علينا، بل ربما يكون استدراجًا لهم من حيث لا يعلمون، فاغترارهم بذلك نظير اغترار أصحاب الجنة الذين هم فيها شركاء، حين أينعت أشجارها، وزهت ثمارها، وآن وقت صرامها وجزموا أنها في أيديهم وطوع أمرهم، وأنه ليس ثم مانع يمنعهم منها، ولهذا أقسموا وحلفوا من غير استثناء أنهم سيصرمونها؛ أي: يجذونها مصبحين، ولم يدروا أن الله بالمرصاد، وأن العذاب سيخلفهم عليها ويبادرهم إليها.

﴿١٩﴾، ﴿٢٠﴾ ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾؛ أي: عذاب نزل عليها ليلًا، ﴿ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾: فأبادها، وأتلفها، ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ ﴾؛ أي: كالليل المظلم، وذهبت الأشجار والثمار.

﴿٢١﴾، ﴿٢٢﴾ هذا وهم لا يشعرون بهذا الواقع الملم، ولهذا تنادوا فيما بينهم لما أصبحوا؛ يقول بعضهم لبعض: ﴿ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿٢٣﴾، ﴿٢٤﴾ ﴿ فَٱنطَلَقُواْ ﴾: قاصدين لها، ﴿ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾: فيما بينهم بمنع حق الله تعالى، ويقولون: ﴿ لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ ﴾؛ أي: بكروا قبل انتشار الناس، وتواصوا مع ذلك بمنع الفقراء والمساكين. ومن شدة حرصهم وبخلهم أنهم يتخافتون بهذا الكلام مخافتة خوفًا أن يسمعهم أحد فيخبر الفقراء.

﴿٢٥﴾ ﴿ وَغَدَوْاْ ﴾: في هذه الحالة الشنيعة والقسوة وعدم الرحمة ﴿ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾؛ أي: على إمساك ومنع لحق الله جازمين بقدرتهم عليها.

﴿٢٦﴾، ﴿٢٧﴾ ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا ﴾: على الوصف الذي ذكر الله كالصريم، ﴿ قَالُوٓاْ ﴾: من الحيرة والانزعاج، ﴿ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ ﴾؛ أي: تائهون عنها، لعلها غيرها، فلما تحققوها ورجعت إليهم عقولهم؛ قالوا: ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾: منها، فعرفوا حينئذ أنه عقوبة.

﴿٢٨﴾ ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾؛ أي: أعدلهم وأحسنهم طريقة: ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾؛ أي: تنزهون الله عما لا يليق به، ومن ذلك ظنكم أن قدرتكم مستقلة، فلولا استثنيتم وقلتم: إن شاء الله، وجعلتم مشيئتكم تابعة لمشيئته؛ لما جرى عليكم ما جرى.

﴿٢٩﴾ ﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾؛ أي: استدركوا بعد ذلك، ولكن بعدما وقع على جنتهم العذاب، الذي لا يرفع، ولكن لعل تسبيحهم هذا وإقرارهم على أنفسهم بالظلم ينفعهم في تخفيف الإثم ويكون توبة.

﴿٣٠﴾ - ﴿٣٢﴾ ولهذا ندموا ندامة عظيمة، ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾: فيما أجروه وفعلوه، ﴿ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ ﴾؛ أي: متجاوزين للحد في حق الله وحق عباده، ﴿ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾: فهم رجوا الله أن يبدلهم خيرًا منها، ووعدوا أن سيرغبون[1] إلى الله ويلحون عليه في الدنيا؛ فإن كانوا كما قالوا؛ فالظاهر أن الله أبدلهم في الدنيا خيرًا منها؛ لأن من دعا الله صادقًا ورغب إليه ورجاه؛ أعطاه سؤاله.

﴿٣٣﴾ قال تعالى معظمًا ما وقع: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ﴾؛ أي: الدنيوي لمن أتى بأسباب العذاب أن يسلبه الله الشيء الذي طغى به وبغى وآثر الحياة الدنيا وأن يزيله عنه أحوج ما يكون إليه، ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾: من عذاب الدنيا، ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾: فإن من علم ذلك؛ أوجب له الانزجار عن كل سبب يوجب العقاب ويحرم الثواب.

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿٣٤﴾ - ﴿٤١﴾ يخبر تعالى بما أعده للمتقين للكفر والمعاصي، من أنواع النعيم والعيش السليم في جوار أكرم الأكرمين، وأن حكمته تعالى لا تقتضي أن يجعل المتقين[2] القانتين لربهم، المنقادين لأوامره، المتبعين مراضيه، كالمجرمين الذين أوضعوا في معاصيه والكفر بآياته ومعاندة رسله ومحاربة أوليائه، وأن من ظن أنه يسويهم في الثواب؛ فإنه قد أساء الحكم، وأن حكمه باطل ورأيه فاسد، وأن المجرمين إذا ادعوا ذلك؛ فليس لهم مستند، لا كتاب فيه يدرسون ويتلون أنهم من أهل الجنة، وأن لهم ما طلبوا وتخيروا، وليس لهم عند الله عهد ويمين بالغة إلى يوم القيامة أن لهم ما يحكمون،

(١) كذا في الأصل.
(٢) ط: «المسلمين».

وليس لهم شركاء وأعوان على إدراك ما طلبوا؛ فإن كان لهم شركاء وأعوان؛ فليأتوا بهم إن كانوا صادقين. ومن المعلوم أن جميع ذلك منتفٍ؛ فليس لهم كتاب ولا لهم عهد عند الله في النجاة ولا لهم شركاء يعينونهم، فعلم أن دعواهم باطلة فاسدة. وقوله: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾؛ أي: أيهم الكفيل بهذه الدعوى التي تبين بطلانها؛ فإنه لا يمكن أحدًا أن يتصدر بها ولا يكون زعيمًا فيها.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿٤٢﴾، ﴿٤٣﴾ أي: إذا كان يوم القيامة، وانكشف فيه من القلاقل والزلازل والأهوال مما لا يدخل تحت الوهم، وأتى الباري لفصل القضاء بين عباده ومجازاتهم، فكشف عن ساقه الكريمة التي لا يشبهها شيء، ورأى الخلائق من جلال الله وعظمته ما لا يمكن التعبير عنه؛ فحينئذ ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾: لله، فيسجد المؤمنون الذين كانوا يسجدون لله طوعًا واختيارًا، ويذهب الفجار المنافقون ليسجدوا؛ فلا يقدرون على السجود، وتكون ظهورهم كصياصي البقر؛ لا يستطيعون الانحناء، وهذا الجزاء من جنس عملهم؛ فإنهم كانوا يدعون في الدنيا إلى السجود لله وتوحيده وعبادته وهم سالمون لا علة فيهم؛ فيستكبرون عن ذلك، ويأبون؛ فلا تسأل يومئذ عن حالهم وسوء مآلهم؛ فإن الله قد سخط عليهم، وحقت عليهم كلمة العذاب، وتقطعت أسبابهم، ولم تنفعهم الندامة والاعتذار يوم القيامة؛ ففي هذا ما يزعج القلوب عن المقام على المعاصي ويوجب التدارك مدة الإمكان.

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

سورة القلم — الجزء التاسع والعشرون

خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ
﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم
مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ
لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ
أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ
فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ
لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

سورة الحاقة (٦٩) آياتها ٥٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ
وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا
عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ
سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ
كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾

٥٦٦

﴿٤٤﴾، ﴿٤٥﴾ أي: دعني والمكذبين بالقرآن العظيم؛ فإن عليَّ جزاءهم، ولا تستعجل لهم؛ ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾: فنمدهم بالأموال والأولاد، ونمدهم في الأرزاق والأعمار[1]؛ ليغتروا ويستمروا على ما يضرهم، وهذا من كيد الله لهم. وكيد الله لأعدائه متين قوي، يبلغ من ضررهم وعقوبتهم كل مبلغ.

﴿٤٦﴾ ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾؛ أي: ليس لنفورهم عنك وعدم تصديقهم لك سبب يوجب لهم ذلك؛ فإنك تعلمهم وتدعوهم إلى الله لمحض مصلحتهم من غير أن تطلبهم من أموالهم مغرمًا يثقل عليهم.

﴿٤٧﴾ ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾: ما كان عندهم من الغيوب، وقد وجدوا أنهم على حق، وأن لهم الثواب عند الله؛ فهذا أمر ما كان، وإنما كانت حالهم حال معاند ظالم.

﴿٤٨﴾ - ﴿٥٠﴾ فلم يبق إلا الصبر لأذاهم والتحمل لما يصدر منهم والاستمرار على دعوتهم، ولهذا قال: ﴿فَٱصْبِرْ

(1) ط: «والأعمال».

﴿لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾؛ أي: لما حكم به شرعًا وقدرًا؛ فالحكم القدري يصبر على المؤذي منه ولا يُتلقى بالسخط والجزع، والحكم الشرعي يقابل بالقبول والتسليم والانقياد[١] لأمره. وقوله: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾: وهو يونس بن متى عليه الصلاة والسلام؛ أي: ولا تشابهه في الحال التي أوصلته وأوجبت له الانحباس في بطن الحوت، وهو عدم صبره على قومه الصبر المطلوب منه وذهابه مغاضبًا لربه، حتى ركب البحر، فاقترع أهل السفينة حين ثقلت بأهلها أيهم يلقون؛ لكي تخف بهم، فوقعت القرعة عليه، فالتقمه الحوت وهو مليم. وقوله: ﴿إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ۝٤٨﴾؛ أي: وهو في بطنها قد كظمت عليه، أو: نادى وهو مغتم مهتم، فقال: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فاستجاب الله له، وقذفته الحوت من بطنها بالعراء وهو سقيم، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين، ولهذا قال هنا: ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ﴾؛ أي: لطرح في العراء، وهي الأرض الخالية، ﴿وَهُوَ مَذۡمُومٞ ۝٤٩﴾: ولكن الله تغمده برحمته، فنبذ وهو ممدوح، وصارت حاله أحسن من حاله الأولى، ولهذا قال: ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾؛ أي: اختاره واصطفاه ونقاه من كل كدر، ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠﴾؛ أي: الذين صلحت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم وأحوالهم.

﴿٥١﴾، ﴿٥٢﴾ فامتثل نبينا محمد ﷺ أمر الله، فصبر لحكم ربه صبرًا لا يدركه أحد من العالمين، فجعل الله له العاقبة، والعاقبة للمتقين، ولم يبلغ أعداؤه فيه إلا ما يسوءهم، حتى إنهم حرصوا على أن يزلقوه ﴿بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾؛ أي: يصيبوه بأعينهم من حسدهم وحنقهم وغيظهم. هذا منتهى ما قدروا عليه من الأذى الفعلي، والله حافظه وناصره. وأما الأذى القولي؛ فيقولون فيه أقوالًا بحسب ما توحي إليهم قلوبهم، فيقولون تارة: مجنون! وتارة: شاعر! وتارة: ساحر! قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٥٢﴾؛ أي: وما هذا القرآن العظيم والذكر الحكيم إلا ذكر للعالمين، يتذكرون به مصالح دينهم ودنياهم. والحمد لله.



(١) زاد في ط: «التام».

تفسير سورة الحاقة

وهي مكية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ۝٧ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ۝٨﴾.

﴿١﴾ - ﴿٣﴾ ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١﴾: من أسماء يوم القيامة؛ لأنها تحق وتنزل بالخلق وتظهر فيها حقائق الأمور ومخبآت الصدور؛ فعظم تعالى شأنها وفخمه بما كرره من قوله: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٣﴾؛ فإن لها شأنًا عظيمًا وهولًا جسيمًا[١].

﴿٤﴾ ثم ذكر نموذجًا من أحوالها الموجودة في الدنيا المشاهدة فيها، وهو ما أحله من العقوبات البليغة بالأمم العاتية، فقال: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ﴾: وهم القبيلة المشهورة سكان الحجر الذين أرسل الله إليهم رسوله صالحًا عليه السلام؛ ينهاهم عما هم عليه من الشرك ويأمرهم بالتوحيد، فردوا دعوته، وكذبوه، وكذبوا ما أخبر به من يوم القيامة، وهي القارعة التي تقرع الخلق بأهوالها، وكذلك عاد الأولى سكان حضرموت حين بعث الله إليهم رسوله هودًا عليه الصلاة والسلام، يدعوهم إلى عبادة الله وحده، فكذبوه، وأنكروا ما أخبر به من البعث، فأهلك الله الطائفتين بالهلاك العاجل.

﴿٥﴾ ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥﴾: وهي الصيحة العظيمة الفظيعة، التي قطعت قلوبهم وزهقت لها أرواحهم، فأصبحوا موتى لا يرى إلا مساكنهم وجثثهم.

﴿٦﴾ ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ﴾؛ أي: قوية شديدة الهبوب لها صوت أبلغ من صوت الرعد القاصف.

(١) زاد في ط: «ومن عظمتها أن الله أهلك الأمم المكذبة بها بالعذاب العاجل».

﴿ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ ﴾؛ أي: عتت على خزانها على قول كثير من المفسرين، أو عتت على عاد، وزادت على الحد كما هو الصحيح.

﴿٧﴾ ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾؛ أي: نحسًا وشرًّا فظيعًا عليهم فدمرتهم وأهلكتهم؛ ﴿ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ ﴾؛ أي: هلكى موتى، ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾؛ أي: كأنهم جذوع النخل التي قد قطعت رءوسها الخاوية الساقط بعضها على بعض.

﴿٨﴾ ﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ ﴾؟: وهذا استفهام بمعنى النفي المتقرر.

﴿ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿٩﴾، ﴿١٠﴾ أي: وكذلك غير هاتين الأمتين الطاغيتين عاد وثمود جاء غيرهم من الطغاة العتاة؛ كفرعون مصر الذي أرسل الله إليه عبده ورسوله موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، وأراهم من الآيات البينات ما تيقنوا بها الحق، ولكن جحدوا وكفروا ظلمًا وعلوًّا، وجاء من قبله من المكذبين ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ ﴾؛ أي: قرى قوم لوط؛ الجميع جاءوا ﴿ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ ﴾؛ أي: بالفعلة الطاغية، وهي الكفر والتكذيب والظلم والمعاندة وما انضم إلى ذلك من أنواع المعاصي(١) والفسوق، ﴿ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ ﴾: وهذا اسم جنس؛ أي: كل من هؤلاء كذبوا الرسول الذي أرسله الله إليهم؛ ﴿ فَأَخَذَهُمْ ﴾ الله جميعًا ﴿ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ ﴾؛ أي: زائدة على الحد والمقدار الذي يحصل به هلاكهم.

﴿١١﴾، ﴿١٢﴾ ومن جملة هؤلاء قوم نوح؛ أغرقهم الله في اليم ﴿ لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ ﴾ على وجه الأرض وعلا على مواضعها الرفيعة، وامتن الله على الخلق الموجودين بعدهم أن حملهم ﴿ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ ﴾، وهي السفينة؛ في أصلاب آبائهم وأمهاتهم، الذين نجاهم الله؛ فاحمدوا الله واشكروا الذي نجاكم حين أهلك الطاغين، واعتبروا بآياته الدالة على توحيده، ولهذا قال: ﴿ لِنَجْعَلَهَا ﴾؛ أي: الجارية، والمراد جنسها ﴿ تَذْكِرَةً ﴾: تذكركم أول سفينة صنعت وما قصتها، وكيف نجى الله عليها من آمن به واتبع رسوله

(١) ط: «الفواحش».

وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ
رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ
﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ
نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾
فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ
﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ
﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ
كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ
حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾
قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ
ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ
﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ
عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ
صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ
كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾

وأهلك أهل الأرض كلهم؛ فإن جنس الشيء مذكر بأصله. وقوله: ﴿ وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾؛ أي: يعقلها أولو الألباب، ويعرفون المقصود منها ووجه الآية بها. وهذا بخلاف أهل الإعراض والغفلة وأهل البلادة وعدم الفطنة؛ فإنهم ليس لهم انتفاع بآيات الله؛ لعدم وعيهم عن الله وتفكرهم بآياته.

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿١٣﴾ - ﴿١٨﴾ لما ذكر تعالى ما فعله بالمكذبين لرسله، وكيف جازاهم وعجل لهم العقوبة في الدنيا، وأن الله نجى الرسل وأتباعهم؛ كان هذا مقدمة للجزاء الأخروي وتوفية الأعمال كاملة يوم القيامة، فذكر الأمور الهائلة التي تقع أمام يوم القيامة، وأن أول ذلك أنه ينفخ إسرافيل ﴿ فِى ٱلصُّورِ ﴾ - إذا تكاملت الأجساد نابتة - ﴿ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ ﴾؛ فتخرج

الأرواح، فتدخل كل روح في جسدها؛ فإذا الناس قيام لرب العالمين، ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ ﴾؛ أي: فتتت الجبال، واضمحلت وخُلطت بالأرض، ونسفت عليها، فكان الجميع قاعًا صفصفًا، لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا. هذا ما يصنع بالأرض وما عليها، وأما ما يصنع بالسماء؛ فإنها تضطرب وتمور وتشقق ويتغير لونها، وتهي بعد تلك الصلابة والقوة العظيمة، وما ذاك إلا لأمر عظيم أزعجها وكَرْبٍ جسيم هائل أوهاها وأضعفها، ﴿ وَٱلْمَلَكُ ﴾؛ أي: الملائكة الكرام ﴿ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ﴾؛ أي: على جوانب السماء وأركانها، خاضعين لربهم، مستكينين لعظمته، ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ ﴾: أملاك في غاية القوة، إذا أتى للفصل بين العباد والقضاء بينهم بعدله وقسطه وفضله، ولهذا قال: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ ﴾: على الله، ﴿ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾: لا من أجسادكم وذواتكم، ولا من أعمالكم وصفاتكم؛ فإن الله تعالى عالم الغيب والشهادة، ويحشر العباد حفاة عراة غرلًا في أرض مستوية يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، فحينئذ يجازيهم بما عملوا، ولهذا ذكر كيفية الجزاء، فقال:

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿١٩﴾، ﴿٢٠﴾ وهؤلاء هم أهل السعادة؛ يعطون كتبهم التي فيها أعمالهم الصالحة بأيمانهم تمييزًا لهم وتنويهًا بشأنهم ورفعًا لمقدارهم، ويقول أحدهم عند ذلك من الفرح والسرور ومحبة أن يطلع الخلق على ما مَنَّ الله عليه به من الكرامة: ﴿ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ ﴾؛ أي: دونكم كتابي فاقرءوه؛ فإنه يبشر بالجنات وأنواع الكرامات ومغفرة الذنوب وستر العيوب، والذي أوصلني إلى هذه الحال ما مَنَّ الله به عليَّ من الإيمان بالبعث والحساب والاستعداد له بالممكن من العمل، ولهذا قال: ﴿ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ ﴾؛ أي: أيقنت؛ فالظن هنا بمعنى اليقين.

﴿٢١﴾ - ﴿٢٤﴾ ﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ ﴾؛ أي: جامعة لما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وقد رضوها ولم يختاروا عليها غيرها، ﴿ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ ﴾: المنازل والقصور عالية المحل، ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾؛ أي: ثمرها وجناها من أنواع الفواكه قريبة سهلة التناول على أهلها، ينالها أهلها قيامًا وقعودًا ومتكئين، ويقال لهم إكرامًا: ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ ﴾؛ أي: من كل طعام لذيذ وشراب شهي، ﴿ هَنِيٓـًٔۢا ﴾؛ أي: تامًّا كاملًا من غير مكدر ولا منغص. وذلك الجزاء حصل لكم ﴿ بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾: من الأعمال الصالحة من صلاة وصيام وصدقة وحج وإحسان إلى الخلق وذكر لله وإنابة إليه، وترك الأعمال السيئة؛ فالأعمال جعلها الله سببًا لدخول الجنة ومادة لنعيمها وأصلًا لسعادتها.

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿٢٥﴾ - ﴿٢٩﴾ هؤلاء هم أهل الشقاء؛ يعطون كتبهم المشتملة على أعمالهم السيئة بشمالهم؛ تمييزًا لهم وخزيًا وعارًا وفضيحة، فيقول أحدهم من الهم والغم والحزن[1]: ﴿ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ ﴾؛ لأنه يبشر بدخول النار والخسارة الأبدية، ﴿ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ ﴾؛ أي: ليتني كنت نسيًا منسيًّا ولم أبعث وأحاسب، ولهذا قال: ﴿ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ ﴾؛ أي: يا ليت موتتي هي الموتة التي لا بعث بعدها.

ثم التفت إلى ماله وسلطانه؛ فإذا هو وبال عليه لم يقدم منه لآخرته ولا ينفعه لو افتدى به من العذاب شيئًا، فيقول: ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ ﴾؛ أي: ما نفعني لا في الدنيا؛ لأني لم أقدم منه شيئًا - ولا في الآخرة؛ قد ذهب وقت نفعه، ﴿ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ ﴾؛ أي: ذهب واضمحل، فلم تنفع الجنود ولا الكثرة ولا العَدد ولا العُدد ولا الجاه العريض، بل ذهب ذلك كله أدراج الرياح، وفاتت بسببه المتاجر والأرباح، وحضرت بدله الهموم والغموم والأتراح.

﴿٣٠﴾ - ﴿٣٧﴾ فحينئذ يؤمر بعذابه، فيقال للزبانية الغلاظ الشداد: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ﴾؛ أي: اجعلوا في عنقه غلًّا يخنقه، ﴿ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ﴾؛ أي: قلبوه على جمرها ولهبها، ﴿ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا ﴾: من سلاسل الجحيم في غاية

(١) ط: «والخزي».

الحـرارة، ﴿ فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ ﴾؛ أي: انظموه فيها بأن تدخل في دبره وتخرج من فمه ويعلق فيها فلا يزال يعذب هذا العذاب الفظيع؛ فبئس العذاب والعقاب، وواحسرة له من(1) التوبيخ والعتاب؛ فإن السبب الذي أوصله إلى هذا المحل ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ ﴾: بأن كان كافرًا بربه معاندًا لرسله رادًّا ما جاءوا بـه من الحـق، ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ ﴾؛ أي: ليـس فـي قلبـه رحمـة يرحم بهـا الفقـراء والمسـاكين؛ فلا يطعمهم مـن ماله ولا يحض غيره علـى إطعامهم؛ لعدم الـوازع فـي قلبه، وذلـك لأن مدار السـعادة ومادتهـا أمران: الإخـلاص لله الـذي أصلـه الإيمـان بالله، والإحسـان إلى الخلق بجميع وجوه الإحسان، التي من أعظمها دفع ضرورة المحتاجيـن بإطعامهـم مـا يتقوتون به، وهـؤلاء لا إخلاص ولا إحسـان؛ فلذلك اسـتحقوا مـا اسـتحقوا. ﴿ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا ﴾؛ أي: يـوم القيامة ﴿ حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾؛ أي: قريب أو صديق يشـفع لـه لينجو مـن عذاب اللـه أو يفـوز بثوابـه. ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ [سبأ: ٢٣]، ﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ ﴾ [غافر: ١٨]. ﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾: وهـو صديـد أهـل النار، الذي هـو في غاية الحـرارة والمـرارة ونتـن الريـح وقبـح الطعم، لا يـأكل هذا الطعـام الذميـم ﴿ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ ﴾، الذين أخطأوا الصراط المستقيم، وسـلكوا سـبل كل طريق يوصلهم إلى الجحيم؛ فلذلك استحقوا العذاب الأليم.

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿٣٨﴾ - ﴿٤٣﴾ أقسم تعالى بما يبصر الخلق من جميع الأشياء ومـا لا يبصرونـه، فدخل في ذلـك كل الخلق، بـل دخل في ذلك نفسـه المقدسة، على صدق الرسول بما جاء به من هذا القرآن الكريم، وأن الرسول الكريم بلغه عن الله تعالى، ونزه الله رسـوله عما رماه به أعداؤه من أنه شـاعر أو سـاحر، وأن

(1) ط: «من له».

سُورَةُ الحَاقَّةِ — الجُزْءُ التَّاسِعُ وَالعِشْرُونَ

فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ
إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾
إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾
وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ
تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا
مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

سُورَةُ المَعَارِجِ
ترتيبها ٧٠ — آياتها ٤٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ
ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى
يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾
إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ
﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾

٥٦٨

الـذي حملهم على ذلك عدم إيمانهـم وتذكرهم؛ فلو آمنوا وتذكروا ما ينفعهم ويضرهم، ومن ذلك أن ينظروا في حال محمد ﷺ ويرمقوا أوصافه وأخلاقه ليروا أمرًا مثل الشمس يدلهم على أنه رسـول الله حقًّـا وأن ما جاء به ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾، لا يليق أن يكون قولًا للبشـر، بل هو كلام دال على عظمة من تكلم به وجلالة أوصافه وكمال تربيته للخلق وعلوه فوق عباده. وأيضًا؛ فإن هذا ظن منهم بما لا يليق بالله وحكمته.

﴿٤٤﴾ - ﴿٤٧﴾ ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا ﴾ وافترى ﴿ بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ ﴾: الكاذبـة، ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾: وهو عـرق متصل بالقلـب إذا انقطع هلك منه الإنسـان؛ فلو قـدر أن الرسـول - حاشـا وكلًّا - تقـول علـى اللـه؛ لعاجله بالعقوبـة وأخذه أخذ عزيز مقتـدر؛ لأنه حكيم قدير على كل شيء؛ فحكمته تقتضي ألَّا يمهل الكاذب عليه الذي يزعم أن اللـه أباح له دماء مـن خالفه وأموالهم، وأنه هـو وأتباعه لهم النجـاة، ومن خالفه؛ فله الهلاك. فإذا كان الله قد أيد رسـوله

بالمعجزات، وبرهن على صدق ما جاء به بالآيات البينات، ونصره على أعدائه، ومكنه من نواصيهم؛ فهو أكبر شهادة منه على رسالته. وقوله: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ۝٤٧﴾؛ أي: لو أهلكه؛ ما امتنع هو بنفسه ولا قدر أحد أن يمنعه من عذاب الله.

(٤٨) ﴿وَإِنَّهُ﴾؛ أي: القرآن الكريم، ﴿لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨﴾: يتذكرون به مصالح دينهم ودنياهم، فيعرفونها ويعملون عليها، يذكرهم العقائد الدينية والأخلاق المرضية والأحكام الشرعية، فيكونون من العلماء الربانيين، والعباد العارفين، والأئمة المهديين.

(٤٩) ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ۝٤٩﴾: به، وهذا فيه تهديد ووعيد للمكذبين، وأنه سيعاقبهم على تكذيبهم بالعقوبة البليغة.

(٥٠) ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝٥٠﴾: فإنهم لما كفروا به ورأوا ما وعدهم به؛ تحسروا إذ لم يهتدوا به ولم ينقادوا لأمره، ففاتهم الثواب، وحصلوا على أشد العذاب، وتقطعت بهم الأسباب.

(٥١) ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ۝٥١﴾؛ أي: أعلى مراتب العلم؛ فإن أعلى مراتب العلم اليقين، وهو العلم الثابت الذي لا يتزلزل ولا يزول. واليقين مراتبه ثلاثة، كل واحدة أعلى مما قبلها: أولها علم اليقين، وهو العلم المستفاد من الخبر. ثم عين اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة البصر. ثم حق اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة الذوق والمباشرة. وهذا القرآن بهذا الوصف؛ فإن ما فيه من العلوم المؤيدة بالبراهين القطعية وما فيه من الحقائق والمعارف الإيمانية يحصل به لمن ذاقه حق اليقين.

(٥٢) ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ۝٥٢﴾؛ أي: نزهه عما لا يليق بجلاله، وقدسه بذكر أوصاف جلاله وجماله وكماله.

تم تفسير سورة الحاقة. والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة سأل سائل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ۝٧﴾

(١) - (٤) يقول تعالى مبينًا لجهل المعاندين واستعجالهم لعذاب الله استهزاء وتعنتًا وتعجيزًا: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ أي: دعا داع واستفتح مستفتح، ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَافِرِينَ﴾: لاستحقاقهم له بكفرهم وعنادهم. ﴿لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ اللَّهِ﴾؛ أي: ليس لهذا العذاب الذي استعجل به من استعجل من متمردي المشركين أحد يدفعه قبل نزوله أو يرفعه بعد نزوله، وهذا حين دعا النضر بن الحارث القرشي أو غيره من المشركين، فقال: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٢﴾ [الأنفال: ٣٢]؛ فالعذاب لا بد أن يقع عليهم من الله؛ فإما أن يعجل لهم في الدنيا، وإما أن يدخر لهم في الآخرة؛ فلو عرفوا الله وعرفوا عظمته وسعة سلطانه وكمال أسمائه وصفاته؛ لما استعجلوا، ولاستسلموا وتأدبوا، ولهذا ذكر تعالى من عظمته ما يضاد أقوالهم القبيحة، فقال: ﴿ذِي الْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾؛ أي: ذي العلو والجلال والعظمة والتدبير لسائر الخلق، الذي تعرج إليه الملائكة بما جعلها على تدبيره، وتعرج إليه الروح، وهذا اسم جنس يشمل الأرواح كلها؛ برها وفاجرها، وهذا عند الوفاة، فأما الأبرار؛ فتعرج أرواحهم إلى الله، فيؤذن لها من سماء إلى سماء، حتى تنتهي إلى السماء التي فيها الله عز وجل، فتحيي ربها وتسلم عليه وتحظى بقربه، وتبتهج بالدنو منه، ويحصل لها منه الثناء والإكرام والبر والإعظام، وأما أرواح الفجار؛ فتعرج، فإذا وصلت إلى السماء؛ استأذنت، فلا يؤذن لها، وأعيدت إلى الأرض.

ثم ذكر المسافة التي تعرج فيها الملائكة والروح إلى الله، وأنها تعرج في يوم بما يسر لها من الأسباب وأعانها

يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾
وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَظَى ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِلشَّوَى ﴿١٦﴾ تَدْعُو
مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا
﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا
الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي
أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ
بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ
رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَى
أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ
ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ
﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ
﴿٣٤﴾ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ
﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ
أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

عليه من اللطافة والخفة وسرعة السير، مع أن تلك المسافة على السير المعتاد مقدار خمسين ألف سنة، من ابتداء العروج إلى وصولها ما حد لها، وما تنتهي إليه من الملأ الأعلى؛ فهذا الملك العظيم والعالم الكبير علويه وسفليه جميعه قد تولى خلقه وتدبيره العلي الأعلى، فعلم أحوالهم الظاهرة والباطنة، ومستقرهم ومستودعهم، وأوصلهم من رحمته وبره وإحسانه ما عمهم وشملهم، وأجرى عليهم حكمه القدري وحكمه الشرعي وحكمه الجزائي؛ فبؤسًا لأقوام جهلوا عظمته ولم يقدروه حق قدره، فاستعجلوا بالعذاب على وجه التعجيز والامتحان. وسبحان الحليم الذي أمهلهم وما أهملهم، وآذوه فصبر عليهم وعافاهم ورزقهم!

هذا أحد الاحتمالات في تفسير هذه الآية الكريمة، فيكون هذا العروج والصعود في الدنيا؛ لأن السياق الأول يدل عليه. ويحتمل أن هذا في يوم القيامة، وأن الله يظهر لعباده في يوم القيامة من عظمته وجلاله وكبريائه، ما هو أكبر دليل على معرفته مما يشاهدونه من عروج الأملاك والأرواح، صاعدة ونازلة بالتدابير الإلهية والشئون الربانية في الخليقة ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ من طوله وشدته، لكن الله تعالى يخففه على المؤمن.

﴿٥﴾ - ﴿٧﴾ وقوله: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾﴾؛ أي: اصبر على دعوتك لقومك صبرًا جميلًا، لا تضجر فيه ولا ملل، بل استمر على أمر الله، وادع عباده إلى توحيده، ولا يمنعك عنهم ما ترى من عدم انقيادهم وعدم رغبتهم؛ فإن في الصبر على ذلك خيرًا كثيرًا. ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾: الضمير يعود إلى البعث الذي فيه عذاب السائلين بالعذاب؛ أي: إن حالهم حال المنكر له، والذي غلبت عليه الشقوة والسكرة، حتى تباعد جميع ما أمامه من البعث والنشور، والله يراه قريبًا؛ لأنه رفيق حليم لا يعجل، ويعلم أنه لا بد أن يكون، وكل ما هو آت فهو قريب.

ثم ذكر أهوال ذلك اليوم وما يكون فيه، فقال:

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَظَى ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِلشَّوَى ﴿١٦﴾ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴿١٨﴾﴾.

﴿٨﴾، ﴿٩﴾ أي: ﴿يَوْمَ﴾ القيامة الذي تقع فيه هذه الأمور العظيمة فـ ﴿تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾﴾: وهو الرصاص المذاب من تشققها وبلوغ الهول منها كل مبلغ، ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾﴾: وهو الصوف المنفوش، ثم تكون بعد ذلك هباء منثورًا فتضمحل.

﴿١٠﴾ - ﴿١٤﴾ فإذا كان هذا الانزعاج والقلق لهذه الأجرام الكبيرة الشديدة؛ فما ظنك بالعبد الضعيف الذي قد أثقل ظهره بالذنوب والأوزار؟! أليس حقيقًا أن ينخلع قلبه ولبه ويذهل عن كل أحد؟! ولهذا قال: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾؛ أي: يشاهد الحميم - وهو القريب - حميمه؛ فلا يبقى في قلبه متسع لسؤاله عن حاله ولا فيما يتعلق بعشرتهم ومحبتهم ولا يهمه إلا نفسه. ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ﴾: الذي حق عليه العذاب ﴿لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ﴾؛ أي: زوجته، ﴿وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾

﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾؛ أي: قرابته، ﴿الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: التي جرت عادتها في الدنيا أن تتناصر ويعين بعضها بعضًا؛ ففي القيامة لا ينفع أحد أحدًا، ولا يشفع أحد إلا بإذن الله، بل لو يفتدي المجرم المستحق للعذاب بكل من يعرفه ﴿وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾؛ لم ينفعه.

﴿١٥﴾ - ﴿١٨﴾ ﴿كَلَّا﴾؛ أي: لا حيلة ولا مناص لهم، قد حقت عليهم كلمة ربك[1]، وذهب نفع الأقارب والأصدقاء، ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾﴾؛ أي: النار التي تتلظى تنزع من شدتها الأعضاء الظاهرة والباطنة، ﴿تَدْعُو﴾: إلى نفسها ﴿مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾﴾؛ أي: أدبر عن اتباع الحق، وأعرض عنه؛ فلا غرض له فيه، وجمع الأموال بعضها فوق بعض، وأوعاها فلم ينفق منها ما ينفعه ويدفع عنه النار؛ فالنار تدعو هؤلاء إلى نفسها، وتستعد للالتهاب بهم.

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿١٩﴾ - ﴿٢١﴾ وهذا الوصف للإنسان من حيث هو وصف طبيعته أنه هلوع، وفسر الهلوع بقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾﴾: فيجزع إن أصابه فقر أو مرض أو ذهاب محبوب له من مال أو أهل أو ولد، ولا يستعمل في ذلك الصبر والرضا بما قضى الله، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾: فلا ينفق مما آتاه الله، ولا يشكر الله على نعمه وبره فيجزع في الضراء ويمنع في السراء.

﴿٢٢﴾، ﴿٢٣﴾ ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾: الموصوفين بتلك الأوصاف؛ فإنهم إذا مسهم الخير؛ شكروا الله وأنفقوا مما خولهم، وإذا مسهم الشر؛ صبروا واحتسبوا. وقوله في وصفهم: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾؛ أي: مداومون عليها في أوقاتها بشروطها ومكملاتها، وليسوا كمن لا يفعلها، أو يفعلها وقتًا دون وقت، أو يفعلها على وجه ناقص.

﴿٢٤﴾، ﴿٢٥﴾ ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾﴾: من زكاة وصدقة، ﴿لِّلسَّائِلِ﴾: الذي يتعرض للسؤال، ﴿وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾: وهو المسكين الذي لا يسأل الناس فيعطوه ولا يفطن له فيتصدق عليه.

﴿٢٦﴾ ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾﴾؛ أي: يؤمنون بما أخبر به الله وأخبرت به الرسل من الجزاء والبعث، ويتيقنون ذلك، فيستعدون للآخرة، ويسعون لها سعيها. والتصديق بيوم الدين يلزم منه التصديق بالرسل وبما جاءوا به من الكتب.

﴿٢٧﴾، ﴿٢٨﴾ ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾؛ أي: خائفون وجلون، فيتركون لذلك كل ما يقربهم من عذاب الله. ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾؛ أي: هو العذاب الذي يخشى ويحذر.

﴿٢٩﴾ - ﴿٣١﴾ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾﴾: فلا يطئون بها وطئًا محرمًا من زنا أو لواط أو وطء في دبر أو حيض ونحو ذلك، ويحفظونها أيضًا من النظر إليها ومسها ممن لا يجوز له ذلك، ويتركون أيضًا وسائل المحرمات الداعية لفعل الفاحشة، ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾؛ أي: سرياتهم، ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾﴾: في وطئهن في المحل الذي هو محل الحرث. ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: غير الزوجة وملك اليمين، ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾﴾؛ أي: المتجاوزون ما أحل الله إلى ما حرم الله. ودلت هذه الآية على تحريم نكاح المتعة؛ لكونها غير زوجة مقصودة ولا ملك يمين.

﴿٣٢﴾ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾﴾؛ أي: مراعون لها حافظون مجتهدون على أدائها والوفاء بها، وهذا شامل لجميع الأمانات التي بين العبد وبين ربه؛ كالتكاليف السرية التي لا يطلع عليها إلا الله، والأمانات التي بين العبد وبين الخلق في الأموال والأسرار، وكذلك العهد شامل للعهد الذي عاهد عليه الله، والعهد الذي عاهد الخلق عليه؛ فإن

(١) زاد في ط: «على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون».

العهد يسأل عنه العبد؛ هل قام به ووفاه أم رفضه وخانه فلم يقم به.

(٣٣) ﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣)﴾؛ أي: لا يشهدون إلا بما يعلمونه من غير زيادة ولا نقص ولا كتمان، ولا يحابي فيها قريبًا ولا صديقًا ونحوه، ويكون القصد بإقامتها وجه الله؛ قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

(٣٤) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤)﴾: بالمداومة عليها على أكمل الوجوه.

(٣٥) ﴿أُولَٰئِكَ﴾؛ أي: الموصوفون بتلك الصفات، ﴿فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ (٣٥)﴾؛ أي: قد أوصل الله لهم من الكرامة والنعيم المقيم، ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون.

وحاصل هذا أن الله وصف أهل السعادة والخير بهذه الأوصاف الكاملة والأخلاق المرضية الفاضلة من العبادات البدنية؛ كالصلاة والمداومة عليها، والأعمال القلبية؛ كخشية الله الداعية لكل خير، والعبادات المالية، والعقائد النافعة، والأخلاق الفاضلة؛ ومعاملة الله ومعاملة خلقه أحسن معاملة؛ من إنصافهم وحفظ حقوقهم وأماناتهم[1] والعفة التامة بحفظ الفروج عما يكرهه الله تعالى.

﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ (٣٧) أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) كَلَّا ۖ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩)﴾.

(٣٦) - (٣٩) يقول تعالى مبينًا اغترار الكافرين: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦)﴾؛ أي: مسرعين، ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ (٣٧)﴾؛ أي: قطعًا متفرقة وجماعات متنوعة، كل منهم بما لديه فرح. ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨)﴾؛ أي سبب أطمعهم وهم لم يقدموا سوى الكفر والجحود لرب العالمين؟! ولهذا قال: ﴿كَلَّا﴾: أي: ليس الأمر بأمانيهم ولا إدراك ما يشتهون بقوتهم، ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩)﴾؛ أي: من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب؛ فهم ضعفاء

(١) ط: «عهودهم وأسرارهم».

الجزء التاسع والعشرون — سورة نوح

فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ
وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي
يُوعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ
(٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤)

سورة نوح (٧١) آياتها ٢٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا
اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ
إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ
(٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا
فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ
فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا
(٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ
لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠)

٥٧٠

لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤)﴾.

(٤٠)، (٤١) هذا إقسام منه تعالى بالمشارق والمغارب للشمس والقمر والكواكب؛ لما فيها من الآيات الباهرات على البعث وقدرته على تبديل أمثالهم وهم بأعيانهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١)﴾ [الواقعة: ٦١]. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١)﴾؛ أي: ما أحد يسبقنا ويفوتنا ويعجزنا إذا أردنا أن نعيده.

(٤٢) فإذا تقرر البعث والجزاء، واستمروا على تكذيبهم وعدم انقيادهم لآيات الله؛ ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾؛ أي:

يخوضوا بالأقوال الباطلة والعقائد الفاسدة، ويلعبوا بدينهم، ويأكلوا ويشربوا ويتمتعوا، ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾﴾: فإن الله قد أعد لهم فيه من النكال والوبال ما هو عاقبة خوضهم ولعبهم.

﴿٤٣﴾، ﴿٤٤﴾ ثم ذكر حال الخلق حين يلاقون اليوم الذي يوعدون، فقال: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾؛ أي: القبور ﴿سِرَاعًا﴾: مجيبين لدعوة الداعي مهطعين إليها، ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾؛ أي: كأنهم إلى عَلَم يؤمون ويقصدون[1]؛ فلا يتمكنون من الاستعصاء على الداعي ولا الالتواء عن نداء المنادي، بل يأتون أذلاء مقهورين للقيام بين يدي رب العالمين، ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾: وذلك أن الذلة والقلق قد ملك قلوبهم، واستولى على أفئدتهم، فخشعت منهم الأبصار، وسكنت الحركات، وانقطعت الأصوات. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الحال والمآل هو ﴿ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾: ولا بد من الوفاء بوعد الله.

تم تفسير سورة المعارج. والحمد لله.



(١) ط: «ويسرعون».

تفسير سورة نوح عليه السلام

وهي مكية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾.

لم يذكر الله في هذه السورة إلا قصة نوح وحدها؛ لطول لبثه في قومه وتكرار دعوته إلى التوحيد ونهيه عن الشرك:

﴿١﴾ فأخبر تعالى أنه أرسل نوحًا إلى قومه رحمة بهم وإنذارًا من عذاب أليم؛ خوفًا من استمرارهم على كفرهم، فيهلكهم الله هلاكًا أبديًا، ويعذبهم عذابًا سرمديًا.

﴿٢﴾ - ﴿٤﴾ فامتثل نوح عليه السلام لذلك، وابتدر لأمر الله، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾؛ أي: واضح النذارة بينها، وذلك لتوضيحه ما أنذر به وما أنذر عنه، وبأي شيء تحصل النجاة؛ بين ذلك بيانًا شافيًا، فأخبرهم وأمرهم بأصل ذلك[1]، فقال: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾: وذلك بإفراده تعالى بالعبادة والتوحيد والبعد عن الشرك وطرقه ووسائله؛ فإنهم إذا اتقوا الله؛ غفر ذنوبهم؛ وإذا غفر ذنوبهم، حصل لهم النجاة من العذاب والفوز بالثواب، ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: يمتعكم في هذه الدار ويدفع عنكم الهلاك إلى أجل مسمى؛ أي: مقدر البقاء في الدنيا بقضاء الله وقدره إلى وقت محدود، وليس المتاع أبدًا؛ فإن الموت لا بد منه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾: كما كفرتم بالله وعاندتم الحق.

﴿٥﴾ - ﴿٧﴾ فلم يجيبوا لدعوته، ولا انقادوا لأمره، فقال شاكيًا لربه: ﴿رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾﴾؛ أي: نفورًا عن الحق وإعراضًا، فلم يبق لذلك فائدة؛ لأن فائدة الدعوة أن يحصل جميع المقصود أو بعضه،

(١) ط: «بزبدة ما يأمرهم».

﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ ﴾؛ أي: لأجل أن يستجيبوا؛ فإذا استجابوا؛ غفرت لهم، وهذا محض مصلحتهم، ولكن أبوا إلا تماديًا على باطلهم ونفورًا عن الحق، ﴿ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾؛ حذر سماع ما يقول لهم نبيهم نوح عليه السلام، ﴿ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ ﴾؛ أي: تغطوا بها غطاء يغشاهم بعدًا عن الحق وبغضًا له، ﴿ وَأَصَرُّوا۟ ﴾: على كفرهم وشرهم، ﴿ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾: على الحق ﴿ ٱسْتِكْبَارًا ﴾: فشرهم ازداد وخيرهم بعد.

﴿٨﴾، ﴿٩﴾ ﴿ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ﴾؛ أي: بمسمع منهم كلهم، ﴿ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ ﴾: كل هذا حرص ونصح، وإتيانهم بكل طريق يظن به حصول المقصود.

﴿١٠﴾ - ﴿١٢﴾ ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾؛ أي: اتركوا ما أنتم عليه من الذنوب واستغفروا الله منها؛ ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ ﴾: كثير المغفرة لمن تاب واستغفر، فرغبهم بمغفرة الذنوب وما يترتب عليها من الثواب واندفاع العقاب، ورغبهم أيضًا بخير الدنيا العاجل، فقال: ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾؛ أي: مطرًا متتابعًا يروي الشعاب والوهاد، ويحيي البلاد والعباد، ﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ ﴾؛ أي: يكثر أموالكم التي تدركون بها ما تطلبون من الدنيا وأولادكم، ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾: وهذا من أبلغ ما يكون من لذات الدنيا ومطالبها.

﴿١٣﴾، ﴿١٤﴾ ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ ﴾؛ أي: لا تخافون لله عظمة وليس لله عندكم قدر، ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾؛ أي: خلقًا من بعد خلق في بطن الأم ثم في الرضاع ثم في سن الطفولية ثم التمييز ثم الشباب ثم إلى آخر ما يصل إليه الخلق؛ فالذي انفرد بالخلق والتدبير البديع متعين أن يفرد بالعبادة والتوحيد، وفي ذكر ابتداء خلقهم تنبيه لهم على المعاد، وأن الذي أنشأهم من العدم قادر على أن يعيدهم بعد موتهم.

﴿١٥﴾، ﴿١٦﴾ واستدل أيضًا بخلق السماوات التي هي أكبر من خلق الناس، فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ ﴾؛ أي: كل سماء فوق الأخرى، ﴿ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ﴾: لأهل الأرض، ﴿ وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ ﴾: ففيه تنبيه على عظم خلق هذه الأشياء، وكثرة المنافع في الشمس والقمر، الدالة على رحمة الله وسعة إحسانه؛ فالعظيم الرحيم يستحق أن يعظم ويحب ويخاف ويرجى.

الجزء التاسع والعشرون — سورة نوح

يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل
لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾
وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ
طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾
وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ
إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا
سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ
مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟
لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ
وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾
مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ
ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ
دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا
كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ
مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾

٥٧١

﴿١٧﴾، ﴿١٨﴾ ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ﴾: حين خلق أباكم آدم وأنتم في صلبه، ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا ﴾: عند الموت، ﴿ وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾: للبعث والنشور؛ فهو الذي يملك الحياة والموت والنشور.

﴿١٩﴾، ﴿٢٠﴾ ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ ﴾؛ أي: مبسوطة مهيئة للانتفاع بها، ﴿ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾: فلولا أنه بسطها؛ لما أمكن ذلك، بل ولا أمكنهم حرثها وغرسها وزرعها والبناء والسكون على ظهرها.

﴿٢١﴾ - ﴿٢٤﴾ ﴿ قَالَ نُوحٌ ﴾: شاكيًا لربه: إن هذا الكلام والوعظ والتذكير ما نجع فيهم ولا أفاد: ﴿ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى ﴾: فيما أمرتهم به، ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ ﴾؛ أي: عصوا الرسول الناصح الدال على الخير، واتبعوا الملأ والأشراف الذين لم تزدهم أموالهم ولا أولادهم إلا خسارًا؛ أي: هلاكًا وتفويتًا للأرباح؛ فكيف بمن انقاد لهم وأطاعهم؟! ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ ﴾؛ أي: مكرًا كبيرًا بليغًا في معاندة الحق. قالوا لهم داعين إلى الشرك مزينين له: ﴿ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ ﴾:

سُورَةُ الجِنِّ — آياتها ٢٨ — ترتيبها ٧٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا
عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾
وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ
يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ
وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ
مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ
اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا
شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن
يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ
بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ
وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ
اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ
آمَنَّا بِهِ ۖ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾

٥٧٢

فدعوهم إلى التعصب على ما هم عليه من الشرك، وألَّا يدعوا ما عليه آباؤهم الأقدمون، ثم عينوا آلهتهم، فقالوا: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾: وهذه أسماء رجال صالحين؛ لما ماتوا؛ زين الشيطان لقومهم أن يصوروا صورهم؛ لينشطوا بزعمهم على الطاعة إذا رأوها، ثم طال الأمد، وجاء غير أولئك، فقال لهم الشيطان: إن أسلافكم يعبدونهم ويتوسلون بهم، وبهم يسقون المطر فعبدوهم، ولهذا أوصى رؤساؤهم للتابعين لهم ألَّا يدعوا عبادة هذه الأصنام[1]، ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾؛ أي: أضل الكبار والرؤساء بدعوتهم كثيرًا من الخلق. ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾﴾؛ أي: لو كان ضلالهم عند دعوتي إياهم للحق؛ لكان مصلحة، ولكن لا يزيدون بدعوة الرؤساء إلا ضلالًا؛ أي: فلم يبق محل لنجاحهم وصلاحهم.

﴿٢٥﴾ ولهذا ذكر الله عذابهم وعقوبتهم الدنيوية والأخروية، فقال: ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا﴾: في اليم الذي أحاط بهم، ﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾: فذهبت أجسادهم في الغرق وأرواحهم للنار والحرق. وهذا كله بسبب خطيئاتهم التي أتاهم نبيهم ينذرهم عنها ويخبرهم بشؤمها ومغبتها، فرفضوا ما قال، حتى حل بهم النكال، ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾: ينصرونهم حين نزل بهم الأمْرُ الأمَرُّ، ولا أحد يقدر يعارض القضاء والقدر.

﴿٢٦﴾، ﴿٢٧﴾ ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾: يدور على وجه الأرض. وذكر السبب في ذلك، فقال: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾؛ أي: بقاؤهم مفسدة محضة لهم ولغيرهم، وإنما قال نوح ذلك؛ لأنه مع كثرة مخالطته إياهم ومزاولته لأخلاقهم؛ علم بذلك نتيجة أعمالهم؛ فلهذا استجاب الله له دعوته فأغرقهم أجمعين، ونجى نوحًا ومن معه من المؤمنين.

﴿٢٨﴾ ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾: خص المذكورين لتأكد حقهم وتقديم برهم، ثم عمم الدعاء، فقال: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾؛ أي: خسارًا ودمارًا وهلاكًا.

تم تفسير سورة نوح. والحمد لله.

تفسير سورة قل أوحي إلي
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾﴾

﴿١﴾ أي: ﴿قُلْ﴾: يا أيها الرسول للناس، ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾: صرفهم الله إلى رسوله لسماع آياته؛ لتقوم عليهم الحجة وتتم عليهم النعمة ويكونوا منذرين لقومهم، وأمر رسوله أن يقص نبأهم على الناس، وذلك أنهم لما حضروه؛ قالوا: أنصتوا، فلما أنصتوا؛ فهموا معانيه ووصلت حقائقه إلى قلوبهم. ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾﴾؛ أي: من العجائب الغالية والمطالب العالية.

(١) ط: «الآلهة».

(٢) ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾: والرشد: اسم جامع لكل ما يرشد الناس إلى مصالح دينهم ودنياهم، ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا (٢)﴾: فجمعوا بين الإيمان الذي يدخل فيه جميع أعمال الخير، وبين التقوى المتضمنة لترك الشر، وجعلوا السبب الداعي لهم إلى الإيمان وتوابعه ما علموه من إرشادات القرآن، وما اشتمل عليه من المصالح والفوائد واجتناب المضار؛ فإن ذلك آية عظيمة وحجة قاطعة لمن استنار به واهتدى بهديه، وهذا الإيمان النافع المثمر لكل خير، المبني على هداية القرآن؛ بخلاف إيمان العوائد والمَرْبَى والإلف ونحو ذلك؛ فإنه إيمان تقليد تحت خطر الشبهات والعوارض الكثيرة.

(٣) ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾؛ أي: تعالت عظمته وتقدست أسماؤه، ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣)﴾: فعلموا من جد الله وعظمته ما دلهم على بطلان من يزعم أن له صاحبة أو ولدًا؛ لأن له العظمة والجلال[1] في كل صفة كمال، واتخاذ الصاحبة والولد ينافي ذلك؛ لأنه يضاد كمال الغنى.

(٤) ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا (٤)﴾؛ أي: قولًا جائرًا عن الصواب متعديًا للحد، وما حمله على ذلك إلا سفهه وضعف عقله، وإلا؛ فلو كان رزينًا مطمئنًّا؛ لعرف كيف يقول.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا (٥)﴾.

(٥) أي: كنا مغترين قبل ذلك، غرَّتنا السادة[2] والرؤساء من الجن والإنس، فأحسنا بهم الظن، وحسبناهم لا يتجرءون على الكذب على الله؛ فلذلك كنا قبل ذلك على طريقهم؛ فاليوم إذ بان لنا الحق؛ سلكنا طريقه[3]، وانقدنا له، ولم نبال بقول أحد من الخلق يعارض الهدى.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦)﴾.

(٦) أي: كان الإنس يعوذون بالجن عند المخاوف والأفزاع ويعبدونهم، فزاد الإنس الجن رهقًا؛ أي: طغيانًا وتكبرًا، لما رأوا الإنس يعبدونهم ويستعيذون بهم، ويحتمل أن الضمير وهي الواو ترجع إلى الجن؛ أي: زاد الجن الإنس ذعرًا وتخويفًا لما رأوهم يستعيذون بهم ليلجئوهم إلى الاستعاذة بهم والتمسك بما هم عليه، فكان الإنسي إذا نزل بواد مخوف؛ قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه.

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا (٧)﴾.

(٧) أي: فلما أنكروا البعث؛ أقدموا على الشرك والطغيان.

(٨)، (٩) ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾؛ أي: أتيناها واختبرناها، ﴿فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا﴾: عن الوصول إلى أرجائها والدنو منها، ﴿وَشُهُبًا (٨)﴾: يُرمى بها من استرق السمع، وهذا مخالف لعادتنا الأولى؛ فإنا كنا نتمكن من الوصول إلى خبر السماء ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾: فنتلقف من أخبار السماء ما شاء الله، ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا (٩)﴾؛ أي: مرصدًا له معدًّا لإتلافه وإحراقه؛ أي: وهذا له شأن عظيم ونبأ جسيم، وجزموا أن الله تعالى أراد أن يحدث في الأرض حادثًا كبيرًا من خير أو شر؛ فلهذا قالوا:

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠)﴾.

(١٠) أي: لا بد من هذا أو هذا؛ لأنهم رأوا الأمر تغير عليهم تغيرًا أنكروه، فعرفوا بفطنتهم أن هذا الأمر يريده الله ويحدثه في الأرض، وفي هذا بيان لأدبهم إذ أضافوا الخير إلى الله تعالى، والشر حذفوا فاعله تأدبًا مع الله.

(١١) ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: فساق وفجار وكفار، ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا (١١)﴾؛ أي: فرقًا متنوعة وأهواء متفرقة؛ كل حزب بما لديهم فرحون.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا (١٢)﴾.

(١٢) أي: وأنا في وقتنا الآن تبين لنا كمال قدرة الله وكمال عجزنا، وأن نواصينا بيد الله؛ فلن نعجزه في الأرض ولن نعجزه إن هربنا وسعينا بأسباب الفرار والخروج عن قدرته، لا ملجأ منه إلا إليه.

---
(١) ط: «والكمال».
(٢) ط: «غرنا القادة».
(٣) ط: «رجعنا إليه».

وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ
تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾
وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ
فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ
ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ
يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ
بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى
لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَـٰغًا
مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَـٰلَـٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ
خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ
مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ
مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا
يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ
يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟
رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾

﴿١٣﴾ ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ﴾: وهو القرآن الكريم الهادي إلى الصراط المستقيم، وعرفنا هدايته وإرشاده؛ أثر في قلوبنا، فـ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾، ثم ذكروا ما يرغب المؤمن، فقالوا: ﴿ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ ﴾؛ أي: من آمن به إيمانًا صادقًا فلا عليه نقص ولا أذى يلحقه، وإذا سلم من الشر؛ حصل له الخير؛ فالإيمان سبب داع إلى كل خير وانتفاء كل شر.

﴿١٤﴾ ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ﴾؛ أي: الجائرون العادلون عن الصراط المستقيم، ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ ﴾؛ أي: أصابوا طريق الرشد الموصل لهم إلى الجنة ونعيمها.

﴿ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿١٥﴾ - ﴿١٧﴾ ﴿ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾: وذلك جزاء على أعمالهم، لا ظلم من الله لهم، ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ ﴾: المثلى، ﴿ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ ﴾؛ أي: هنيئًا مريئًا، ولم يمنعهم من ذلك إلا ظلمهم وعدوانهم، ﴿ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾؛ أي: لنختبرهم ونمتحنهم ليظهر الصادق من الكاذب، ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ ﴾؛ أي: من أعرض عن ذكر الله الذي هو كتابه، فلم يتبعه وينقد له، بل لها عنه وغفل؛ يسلكه عذابًا صعدًا؛ أي: بليغًا شديدًا.

﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿١٨﴾ ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾؛ أي: لا دعاء عبادة ولا دعاء مسألة؛ فإن المساجد التي هي أعظم محال العبادة مبنية على الإخلاص لله والخضوع لعظمته والاستكانة لعزته.

﴿١٩﴾ ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾؛ أي: يسأله ويتعبد له ويقرأ القرآن ﴿ كَادُوا۟ ﴾؛ أي: الجن من تكاثرهم عليه، ﴿ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ ﴾؛ أي: متلبدين متراكمين حرصًا على ما جاء به من الهدى.

﴿٢٠﴾ ﴿ قُلْ ﴾: لهم يا أيها الرسول، مبينًا حقيقة ما تدعو إليه: ﴿ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾؛ أي: أوحده وحده لا شريك له، وأخلع ما دونه من الأنداد والأوثان، وكل ما يتخذه المشركون من دونه.

﴿٢١﴾، ﴿٢٢﴾ ﴿ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ ﴾: فإني عبد ليس لي من الأمر والتصرف شيء، ﴿ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ ﴾؛ أي: لا أحد أستجير به ينقذني من عذاب الله، وإذا كان الرسول الذي هو أكمل الخلق لا يملك ضرًّا ولا رشدًا ولا يمنع نفسه من الله شيئًا إن أراده بسوء؛ فغيره من الخلق من باب أولى وأحرى، ﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾؛ أي: ملجأ ومنتصرًا.

﴿٢٣﴾ ﴿ إِلَّا بَلَـٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَـٰلَـٰتِهِۦ ﴾؛ أي: ليس لي مزية على الناس إلا أن الله خصني بإبلاغ رسالاته ودعوة خلقه إليه، وبذلك تقوم الحجة على الناس، ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ ﴾: وهذا المراد به المعصية الكفرية كما قيدتها النصوص الأخر المحكمة، وأما مجرد المعصية؛ فإنه لا يوجب الخلود في النار؛ كما دلت على ذلك آيات القرآن والأحاديث عن النبي ﷺ، وأجمع عليه سلف الأمة وأئمة هذه الأمة.

﴿٢٤﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ﴾؛ أي: شاهدوه عيانًا وجزموا أنه واقع بهم، ﴿فَسَيَعۡلَمُونَ﴾: في ذلك الوقت حقيقة المعرفة، ﴿مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدٗا ٢٤﴾: حين لا ينصرهم غيرهم، ولا أنفسهم ينتصرون، وإذ يحشرون فرادى كما خلقوا أول مرة.

﴿٢٥﴾، ﴿٢٦﴾ ﴿قُلۡ﴾ لهم إن سألوك فقالوا: متى هذا الوعد؟: ﴿إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ٢٥﴾؛ أي: غاية طويلة؛ فعلم ذلك عند الله ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦﴾: من الخلق، بل انفرد بعلم الضمائر والأسرار والغيوب.

﴿٢٧﴾ ﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾؛ أي: فإنه يخبره بما اقتضت حكمته أن يخبره به، وذلك لأن الرسل ليسوا كغيرهم؛ فإن الله أيدهم بتأييد ما أيده أحدًا من الخلق، وحفظ ما أوحاه إليهم حتى يبلغوه على حقيقته؛ من غير أن تقربه الشياطين فيزيدوا فيه أو ينقصوا، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧﴾؛ أي: يحفظونه بأمر الله.

﴿٢٨﴾ ﴿لِّيَعۡلَمَ﴾ بذلك ﴿أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾: بما جعله لهم من الأسباب، ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾؛ أي: بما عندهم وما أسروه وما أعلنوه، ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ٢٨﴾.

وفي هذه السورة فوائد عديدة:

منها: وجود الجن، وأنهم مأمورون منهيون ومجازون بأعمالهم؛ كما هو صريح في هذه السورة وغيرها.

ومنها: أن رسول الله ﷺ مبعوث إلى الجن كما هو مبعوث إلى الإنس؛ فإن الله صرف نفر الجن ليستمعوا ما يوحى إليه ويبلغوا قومهم.

ومنها: ذكاء الجن ومعرفتهم بالحق، وأن الذي ساقهم إلى الإيمان هو ما تحققوه من هداية القرآن وحسن أدبهم في خطابهم.

ومنها: اعتناء الله برسوله وحفظه لما جاء به؛ فحين ابتدأت بشائر نبوته والسماء محروسة بالنجوم، والشياطين قد هربت من أماكنها، وأزعجت عن مراصدها، وأن الله رحم به أهل الأرض رحمة ما يقدر لها قدر، وأراد بهم ربهم رشدًا، فأراد أن يظهر من دينه وشرعه ومعرفته في الأرض ما تبتهج به القلوب، وتفرح به أولو الألباب، وتظهر به شعائر الإسلام، وينقمع به أهل الأوثان والأصنام.

ومنها: شدة حرص الجن على استماعهم للرسول ﷺ وتراكمهم عليه.

ومنها: أن هذه السورة قد اشتملت على الأمر بالتوحيد، والنهي عن الشرك، وبينت حالة الخلق، وأن كل أحد منهم لا يستحق من العبادة مثقال ذرة؛ لأن الرسول محمدًا ﷺ إذا كان لا يملك لأحد نفعًا ولا ضرًّا، بل ولا يملك لنفسه؛ علم أن الخلق كلهم كذلك؛ فمن الخطأ والظلم اتخاذ من هذا وصفه إلهًا آخر.

ومنها: أن علوم الغيوب قد انفرد الله بعلمها؛ فلا يعلمها أحد من الخلق؛ إلا من ارتضاه الله واختصه بعلم شيء منها.

تم تفسير سورة الجن. والحمد لله رب العالمين.



الجزء التاسع والعشرون — سورة المزمل

سورة المزمل — ترتيبها ٧٣ — آياتها ٢٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا
﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا
ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى
ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾
رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ
عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ
أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾
وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ
وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا
عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ
فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ
ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾
إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾

٥٧٤

تفسير سورة المزمل

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾.

﴿١﴾ - ﴿٥﴾ المزمل: المتغطي بثيابه كالمدثر، وهذا الوصف حصل من رسول الله ﷺ حين أكرمه الله برسالته، وابتدأه بإنزال وحيه بإرسال جبريل إليه، فرأى أمرًا لم ير مثله ولا يقدر على الثبات عليه إلا المرسلون، فاعتراه عند[1] ذلك انزعاج، حين رأى جبريل عليه السلام، فأتى إلى أهله، فقال: «زملوني زملوني». وهو ترعد فرائصه، ثم جاءه جبريل، فقال: اقرأ. فقال: «ما أنا بقارئ»[2]. فغطه حتى بلغ منه الجهد، وهو يعالجه على القراءة، فقرأ ﷺ.

ثم ألقى الله عليه الثبات، وتابع عليه الوحي، حتى بلغ مبلغًا ما بلغه أحد من المرسلين؛ فسبحان الله ما أعظم التفاوت بين ابتداء نبوته ونهايتها! ولهذا خاطبه الله بهذا الوصف الذي وجد منه في أول أمره، فأمره هنا بالعبادات المتعلقة به، ثم أمره بالصبر على أذية قومه، ثم أمر بالصدع بأمره وإعلان دعوتهم إلى الله، فأمره هنا بأشرف العبادات، وهي الصلاة، وبآكد الأوقات وأفضلها، وهو قيام الليل. ومن رحمته تعالى أنه لم يأمره بقيام الليل كله، بل قال: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾﴾. ثم قدر ذلك فقال: ﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ﴾؛ أي: من النصف ﴿قَلِيلًا ﴿٣﴾﴾: بأن يكون الثلث ونحوه، ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾؛ أي: على النصف، فيكون نحو الثلثين، ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾؛ فإن ترتيل القرآن به يحصل التدبر والتفكر وتحريك القلوب به والتعبد بآياته والتهيؤ والاستعداد التام له؛ فإنه قال: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾﴾؛ أي: نوحي إليك هذا القرآن الثقيل؛ أي: العظيمة معانيه، الجليلة أوصافه، وما كان بهذا الوصف حقيق أن يتهيأ له ويرتل ويتفكر فيما يشتمل عليه.

﴿٦﴾ ثم ذكر الحكمة في أمره بقيام الليل، فقال: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾؛ أي: الصلاة فيه بعد النوم، ﴿هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾﴾؛ أي: أقرب إلى حصول مقصود القرآن؛ يتواطأ عليه القلب واللسان، وتقل الشواغل، ويفهم ما يقول، ويستقيم له أمره.

﴿٧﴾ وهذا بخلاف النهار؛ فإنه لا تحصل به هذه المقاصد، ولهذا قال: ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾﴾؛ أي: ترددًا في حوائجك ومعاشك يوجب اشتغال القلب وعدم تفرغه التفرغ التام.

﴿٨﴾ ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾: شامل لأنواع الذكر كلها، ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾﴾؛ أي: انقطع إليه؛ فإن الانقطاع إلى الله والإنابة إليه هو: الانفصال بالقلب عن الخلائق، والاتصاف بمحبة الله وما يقرب إليه ويدني من رضاه.

﴿٩﴾ ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾: وهذا اسم جنس؛ يشمل المشارق والمغارب كلها؛ فهو تعالى رب المشارق والمغارب،

(١) ط: «في ابتداء».

(٢) البخاري (٣)، مسلم (١٦٠).

وما يكون فيها من الأنوار، وما هي مصلحة له من العالم العلوي والسفلي؛ فهو رب كل شيء وخالقه ومدبره. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا معبود إلا وجهه الأعلى، الذي يستحق أن يخص بالمحبة والتعظيم والإجلال والتكريم، ولهذا قال: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩﴾؛ أي: حافظًا ومدبرًا لأمورك كلها.

١٠ فلما أمره الله بالصلاة خصوصًا وبالذكر عمومًا، وبذلك تحصل للعبد ملكة قوية في تحمل الأثقال وفعل الشاق من الأعمال؛ أمره بالصبر على ما يقوله المعاندون له ويسبونه ويسبون ما جاء به، وأن يمضي على أمر الله؛ لا يصده عنه صاد ولا يرده راد، وأن يهجرهم هجرًا جميلًا، وهو الهجر حيث اقتضت المصلحة الهجر، الذي لا أذية فيه، بل يعاملهم بالهجر والإعراض عن أقوالهم التي تؤذيه، وأمره بجدالهم بالتي هي أحسن.

١١ ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾؛ أي: اتركني وإياهم، فسأنتقم منهم، وإن أمهلتهم؛ فلا أهملهم. وقوله: ﴿أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾؛ أي: أصحاب النعمة والغنى، الذين طغوا حين وسع الله عليهم من رزقه وأمدهم من فضله؛ كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧﴾ [العلق: ٦، ٧].

ثم توعدهم بما عنده من العقاب فقال:

﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ١٢ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا ١٣ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ١٤﴾.

١٢، ١٣ أي: إن عندنا ﴿أَنكَالٗا﴾؛ أي: عذابًا شديدًا جعلناه تنكيلًا للذي لا يزال مستمرًّا على ما يغضب الله، ﴿وَجَحِيمٗا ١٢﴾؛ أي: نارًا حامية، ﴿وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ﴾ وذلك لمرارته وبشاعته وكراهة طعمه وريحه الخبيث المنتن، ﴿وَعَذَابًا أَلِيمٗا ١٣﴾؛ أي: موجعًا مفظعًا.

١٤ وذلك ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ﴾: من الهول العظيم، فكانت ﴿ٱلۡجِبَالُ﴾: الراسيات الصم الصلاب ﴿كَثِيبٗا مَّهِيلًا ١٤﴾؛ أي: بمنزلة الرمل المنهال المنتثر، ثم إنها تُبس بعد ذلك فتكون كالهباء المنثور.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ١٦﴾.

١٥، ١٦ يقول تعالى: احمدوا ربكم على إرسال هذا النبي الأمي العربي البشير النذير الشاهد على الأمة بأعمالهم، واشكروه، وقوموا بهذه النعمة الجليلة، وإياكم أن تكفروا، فتعصوا رسولكم، فتكونوا كفرعون حين أرسل الله إليه موسى ابن عمران، فدعاه إلى الله، وأمره بالتوحيد، فلم يصدقه، بل عصاه، فأخذه الله ﴿أَخۡذٗا وَبِيلٗا ١٦﴾؛ أي: شديدًا بليغًا.

﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ١٧ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ١٨﴾.

١٧، ١٨ أي: فكيف يحصل لكم الفكاك والنجاة يوم القيامة، اليوم المهيل أمره، العظيم خطره، الذي يُشيب الولدان وتذوب له الجمادات العظام؛ فتنفطر السماء وتنتثر نجومها. ﴿كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ١٨﴾؛ أي: لا بد من وقوعه ولا حائل دونه.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ١٩﴾.

١٩ أي: إن هذه الموعظة التي نبأ الله بها من أحوال يوم القيامة وأهوالها تذكرة يتذكر بها المتقون وينزجر بها المؤمنون. ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ١٩﴾؛ أي: طريقًا موصلًا إليه، وذلك باتباع شرعه؛ فإنه قد أبانه كل البيان وأوضحه غاية الإيضاح، وفي هذا دليل على أن الله تعالى أقدر العباد على أفعالهم ومكنهم منها، لا كما يقوله الجبرية: إن أفعالهم تقع بغير مشيئتهم؛ فإن هذا خلاف النقل والعقل.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ٢٠﴾.

٢٠ ذكر الله في أول هذه السورة أنه أمر رسوله بقيام نصف الليل أو ثلثيه أو ثلثه، والأصل أن أمته أسوة له في الأحكام، وذكر في هذا الموضع أنه امتثل ذلك هو وطائفة معه من المؤمنين. ولما كان تحرير الوقت المأمور به مشقة على الناس؛ أخبر أنه سهل عليهم في ذلك غاية التسهيل؛

الجزء التاسع والعشرون — سورة المزمل

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ
مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ
عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ
وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ
يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟
ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ
عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

سُورَةُ ٱلْمُدَّثِّرِ (٧٤) آياتها (٥٦)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾
وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾
فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ
غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا
مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ
أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾

٥٧٥

فقال: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾؛ أي: يعلم مقاديرهما وما يمضي ويبقى منهما، ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾؛ أي: لن تعرفوا مقداره من غير زيادة ولا نقص؛ لكون ذلك يستدعي انتباهًا وعناء زائدًا ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: فخفف عنكم وأمركم بما تيسر عليكم سواء زاد على المقدَّر أو نقص، ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾؛ أي: مما تعرفون ولا يشق عليكم، ولهذا كان المصلي بالليل مأمورًا بالصلاة ما دام نشيطًا؛ فإذا فتر أو كسل أو نعس؛ فليسترح ليأتي الصلاة بطمأنينة وراحة.

ثم ذكر بعض الأسباب المناسبة للتخفيف، فقال: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾: يشق عليهم صلاة نصف الليل أو ثلثيه أو ثلثه، فليصل المريض ما يسهل عليه، ولا يكون أيضًا مأمورًا بالصلاة قائمًا عند مشقة ذلك، بل لو شقت عليه الصلاة النافلة؛ فله تركها، وله أجر ما كان يعمل صحيحًا. ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: وعلم أن منكم مسافرين يسافرون للتجارة؛ ليستغنوا عن الخلق، ويتكففوا عنهم؛ أي: فالمسافر حاله تناسب التخفيف، ولهذا خفف عنه في صلاة الفرض، فأبيح له جمع الصلاتين في وقت واحد وقصر الصلاة الرباعية. ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾: فذكر تعالى تخفيفين؛ تخفيفًا للصحيح المقيم يراعي فيه نشاطه من غير أن يكلف عليه تحرير الوقت، بل يتحرى الصلاة الفاضلة، وهي ثلث الليل بعد نصفه الأول، وتخفيفًا للمريض أو المسافر، سواء كان سفره للتجارة أو لعبادة من جهاد أو حج أو غيره؛ فإنه أيضًا يراعي ما لا يكلفه؛ فلله الحمد والثناء؛ حيث لم يجعل علينا في الدين من حرج، بل سهل شرعه، وراعى أحوال عباده ومصالح دينهم وأبدانهم ودنياهم.

ثم أمر العباد بعبادتين هما أم العبادات وعمادها: إقامة الصلاة التي لا يستقيم الدين إلا بها، وإيتاء الزكاة التي هي برهان الإيمان وبها تحصل المواساة للفقراء والمساكين، فقال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: بأركانها وحدودها وشروطها وجميع مكملاتها، ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾؛ أي: خالصًا لوجه الله بنية صادقة وتثبيت من النفس ومال طيب، ويدخل في هذا الصدقة الواجبة والمستحبة.

ثم حث على عموم الخير وأفعاله، فقال: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. وليعلم أن مثقال ذرة في هذه الدار من الخير يقابله أضعاف أضعاف الدنيا وما عليها في دار النعيم المقيم من اللذات والشهوات، وأن الخير والبر في هذه الدنيا مادة الخير والبر في دار القرار وبذره وأصله وأساسه. فوا أسفاه على أوقات مضت في الغفلات! ووا حسرتاه على أزمان تقضت في غير الأعمال الصالحات! وواغوثاه من قلوب لم يؤثر فيها وعظ بارئها ولم ينجع فيها تشويق من هو أرحم بها من نفسها! فلك اللهم الحمد وإليك المشتكى وبك المستغاث ولا حول ولا قوة إلا بك.

﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾: وفي الأمر بالاستغفار بعد الحث على أفعال الطاعة والخير فائدة كبيرة، وذلك أن العبد لا يخلو من التقصير فيما أمر به: إما ألَّا يفعله أصلًا، أو يفعله على وجه ناقص، فأُمر بترقيع ذلك بالاستغفار؛ فإن العبد يذنب آناء الليل والنهار؛ فمتى لم يتغمده الله برحمته ومغفرته؛ فإنه هالك.

تم تفسير سورة المزمل، والحمد لله.



تفسير سورة المدثر

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾

۝١، ۝٢ تقدم أن المزمل والمدثر بمعنى واحد، وأن الله أمر رسوله ﷺ بالاجتهاد في عبادات الله القاصرة والمتعدية، فتقدم هناك الأمر له بالعبادات الفاضلة القاصرة، والصبر على أذى قومه، وأمره هنا بالإعلان بالدعوة والصدع بالإنذار، فقال: ﴿قُمْ﴾؛ أي: بجد ونشاط ﴿فَأَنذِرْ ۝٢﴾: الناس بالأقوال والأفعال التي يحصل بها المقصود وبيان حال المنذَر عنه ليكون ذلك أدعى لتركه.

۝٣ ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾؛ أي: عظمه بالتوحيد، واجعل قصدك في إنذارك وجه الله وأن يعظمه العباد، ويقوموا بعبادته.

۝٤ ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾: يحتمل أن المراد بالثياب أعماله كلها. وبتطهيرها: تخليصها، والنصح بها، وإيقاعها على أكمل الوجوه، وتنقيتها عن المبطلات والمفسدات والمنقصات من شرك ورياء ونفاق وعجب وتكبر وغفلة وغير ذلك مما يؤمر العبد باجتنابه في عباداته، ويدخل في ذلك تطهير الثياب من النجاسة؛ فإن ذلك من تمام التطهير للأعمال، خصوصًا في الصلاة، التي قال كثير من العلماء: إن إزالة النجاسة عنها شرط من شروطها.

ويحتمل أن المراد بثيابه الثياب المعروفة؛ وأنه مأمور بتطهيرها عن جميع النجاسات في جميع الأوقات، خصوصًا عند الدخول في الصلوات.

۝٥ وإذا كان مأمورًا بطهارة الظاهر؛ فإن طهارة الظاهر من تمام طهارة الباطن: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾: يحتمل أن المراد بالرجز الأصنام والأوثان التي عبدت مع الله، فأمره بتركها والبراءة منها ومما نسب إليها من قول أو عمل، ويحتمل أن المراد بالرجز أعمال الشر كلها وأقواله، فيكون أمرًا له بترك الذنوب صغارها وكبارها ظاهرها وباطنها، فيدخل في هذا الشرك فما دونه.

۝٦ ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾؛ أي: لا تمنن على الناس بما أسديت إليهم من النعم الدينية والدنيوية، فتستكثر بتلك المنة، وترى لك الفضل عليهم، بل أحسن إلى الناس مهما أمكنك، وانس عندهم إحسانك، واطلب أجرك من الله تعالى، واجعل من أحسنت إليه وغيره على حد سواء.

وقد قيل: إن معنى هذا ألا تعطي أحدًا شيئًا وأنت تريد أن يكافئك عليه بأكثر منه، فيكون هذا خاصًّا بالنبي ﷺ.

۝٧ ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾؛ أي: احتسب بصبرك واقصد به وجه الله تعالى.

فامتثل رسول الله ﷺ لأمر ربه، وبادر فيه، فأنذر الناس وأوضح لهم بالآيات البينات جميع المطالب الإلهية، وعظم الله تعالى، ودعا الخلق إلى تعظيمه، وطهر أعماله الظاهرة والباطنة من كل سوء، وهجر كل ما يعبد من دون الله وما يعبد منه[1] من الأصنام وأهلها والشر وأهله، وله المنة على الناس بعد منة الله، من غير أن يطلب منهم على ذلك جزاء ولا شكورًا، وصبر لربه أكمل صبر: فصبر على طاعة الله، وعن معاصيه، وصبر على أقداره المؤلمة، حتى فاق أولي العزم من المرسلين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾.

۝٨-۝١٠ أي: فإذا نفخ في الصور للقيام من القبور، وجمع الخلائق للبعث والنشور، ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩﴾: لكثرة أهواله وشدائده، ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾؛ لأنهم قد أيسوا من كل خير وأيقنوا بالهلاك والبوار. ومفهوم ذلك أنه على المؤمنين يسير؛ كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾ [القمر: ٨].

﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ

(١) ط: «يعبد معه».

إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ
﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ
يُؤۡثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ
مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ
﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ
لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗاۙ
وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ
وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي
مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا
وَٱلۡقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحۡدَى
ٱلۡكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ
نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ
﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ
ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ
ٱلۡخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ﴿٤٧﴾

٥٧٦

قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗاۙ وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿١١﴾ - ﴿٣٠﴾ هـذه الآيـات نزلت فـي الوليد بـن المغيرة[1]، المعانـد للحق، المبارز لله ولرسـوله بالمحاربة والمشـاقة، فذمـه الله ذمًّا لم يذم به غيـره، وهذا جزاء كل من عاند الحق ونابـذه؛ أن لـه الخزي فـي الدنيـا، ولعذاب الآخـرة أخزى، فقال:

﴿ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ﴿١١﴾ ﴾؛ أي: خلقتـه منفـردًا بلا مال ولا أهل ولا غيره، فلم أزل أربيه وأعطيه، ﴿ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ﴿١٢﴾ ﴾؛ أي: كثيرًا، ﴿ وَ ﴾ جعلت له ﴿ بَنِينَ ﴾؛ أي: ذكورًا، ﴿ شُهُودٗا ﴿١٣﴾ ﴾؛ أي: حاضرين عنده على الدوام، يتمتع بهم ويقضي بهم حوائجه ويستنصر بهم، ﴿ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ﴿١٤﴾ ﴾؛ أي: مكنتـه مـن الدنيا وأسبابها حتى انقادت لـه مطالبـه وحصـل له مـا يشـتهي ويريـد. ﴿ ثُمَّ ﴾: مع هذه النعم والإمـدادات ﴿ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ ﴾؛ أي: يطمع أن ينال نعيـم الآخرة كما نـال نعيم الدنيـا، ﴿ كَلَّآۖ ﴾؛ أي: ليس الأمر كمـا طمع، بل هو بخـلاف مقصوده ومطلوبـه، وذلك ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ﴿١٦﴾ ﴾: عرفهـا ثـم أنكرهـا، ودعتـه إلى الحق فلـم ينقـد لها، ولـم يكفه أنه أعـرض عنها وتولـى، بل جعل يحاربهـا ويسـعى في إبطالهـا، ولهذا قال عنه: ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ ﴾؛ أي: في نفسـه. ﴿ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ ﴾: ما فكر فيـه؛ ليقول قولًا يبطل بـه القرآن، ﴿ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ﴾؛ لأنه قدر أمرًا ليس في طوره، وتسور على ما لا يناله هـو ولا أمثاله، ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ﴾: مـا يقـول، ﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ﴾: فـي وجهه وظاهـره نفـرة عن الحق وبغضًـا لـه، ﴿ ثُمَّ أَدۡبَرَ ﴾؛ أي: تولى، ﴿ وَٱسۡتَكۡبَرَ ﴾: نتيجـة سـعيه الفكـري والعملـي والقولـي، ﴿ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾؛ أي: مـا هـذا كلام الله، بـل كلام البشـر، وليس أيضًا كلام البشـر الأخيـار، بـل كلام الأشـرار منهـم والفجار مـن كل كاذب سـحار، فتبًّا لـه! ما أبعـده من الصـواب! وأحراه بالخسـارة والتباب! كيف يدور في الأذهان أو يتصوره ضمير أي إنسان أن يكـون أعلى الـكلام وأعظمه كلام الـرب الكريم الماجد العظيـم يشبه كلام المخلوقين الفقـراء الناقصين؟! أم كيف يتجرأ هـذا الكاذب العنيـد على وصفه بهـذا الوصف بكلام اللـه تعالـى؛ فمـا حقـه إلا العذاب الشـديد والنـكال، ولهذا قـال تعالـى: ﴿ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ ﴾؛ أي: لا تبقـي مـن الشـدة ولا على المعذب شـيئًا إلا وبلغتـه. ﴿ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ﴿٢٩﴾ ﴾؛ أي: تلوحهـم وتصليهـم في عذابها وتقلقهم بشدة حرها وقرها. ﴿ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾: من الملائكة، خزنة لها، غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

﴿٣١﴾ ﴿ وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ ﴾: وذلـك لشـدتهم وقوتهـم، ﴿ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾: يحتمـل أن المـراد؛ إلا لعذابهـم وعقابهـم في الآخـرة ولزيـادة نكالهم

(١) الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥٠٦).

فيها، والعذاب يسمى فتنة؛ كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الذاريات: ١٣].

ويحتمل أن المراد أنا ما أخبرناكم بعدتهم إلا لنعلم من يصدق ممن يكذب. ويدل على هذا ما ذكره بعده في قوله: ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا ﴾: فإن أهل الكتاب إذا وافق ما عندهم وطابقه؛ ازداد يقينهم بالحق، والمؤمنون كلما أنزل الله آية، فآمنوا بها وصدقوا؛ ازداد إيمانهم، ﴿ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾؛ أي: ليزول عنهم الريب والشك، وهذه مقاصد جليلة يعتني بها أولو الألباب، وهي السعي في اليقين وزيادة الإيمان في كل وقت وكل مسألة من مسائل الدين، ودفع الشكوك والأوهام التي تعرض في مقابلة الحق، فجعل ما أنزله على رسوله محصلًا لهذه المقاصد الجليلة، ومميزًا للصادقين من الكاذبين، ولهذا قال: ﴿ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾؛ أي: شك وشبهة ونفاق، ﴿ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ﴾: وهذا على وجه الحيرة والشك منهم والكفر بآيات الله، وهذا وذاك من هداية الله لمن يهديه وإضلاله لمن يضله، ولهذا قال: ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾: فمن هداه الله؛ جعل ما أنزل على رسوله رحمة في حقه وزيادة في إيمانه ودينه، ومن أضله؛ جعل ما أنزله على رسوله زيادة شقاء عليه وحيرة وظلمة في حقه، والواجب أن يُتلقَّى ما أخبر الله به ورسوله بالتسليم، ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ ﴾ من الملائكة وغيرهم ﴿ إِلَّا هُوَ ﴾: فإذا كنتم جاهلين بجنوده، وأخبركم بها العليم الخبير؛ فعليكم أن تصدقوا خبره من غير شك ولا ارتياب، ﴿ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ ﴾؛ أي: وما هذه الموعظة والتذكار مقصودًا به العبث واللعب، وإنما المقصود به أن يتذكر به البشر ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه.

﴿ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾
إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ
يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى
جَنَّـٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾
قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾
وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾
حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ
عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن
قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾
كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن
شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ
وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿٣٢﴾ - ﴿٣٤﴾ ﴿ كَلَّا ﴾: هنا بمعنى حقًّا، أو بمعنى ألا الاستفتاحية، فأقسم تعالى بالقمر، وبالليل وقت إدباره، والنهار وقت إسفاره؛ لاشتمال المذكورات على آيات الله العظيمة الدالة على كمال قدرة الله وحكمته وسعة سلطانه وعموم رحمته وإحاطة علمه.

﴿٣٥﴾ - ﴿٣٧﴾ والمقسم عليه قوله: ﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ ﴾؛ أي: إن النار لإحدى العظائم الطامة والأمور الهامة؛ فإذا أعلمناكم بها وكنتم على بصيرة من أمرها؛ فمن شاء منكم أن يتقدم فيعمل بما يقربه إلى الله ويدنيه من رضاه ويزلفه من دار كرامته، أو يتأخر عما خلق له وعما يحبه الله ويرضاه، فيعمل بالمعاصي، ويتقرب إلى جهنم؛ كما قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩] الآية.

﴿٣٨﴾ - ﴿٤٨﴾ ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾: من أفعال الشر وأعمال السوء ﴿ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾: بها موثقة بسعيها، قد أُلزم عنقها وغُلَّ في رقبتها واستوجبت به العذاب، ﴿ إِلَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ ﴾: فإنهم لم يرتهنوا، بل أطلقوا وفرحوا ﴿ فِى جَنَّـٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾؛ أي: في جنات قد حصل لهم فيها جميع مطلوباتهم وتمت لهم الراحة والطمأنينة، حتى أقبلوا يتساءلون، فأفضت بهم المحادثة أن سألوا عن المجرمين؛ أي حال وصلوا إليها؟ وهل وجدوا ما وعدهم الله؟ فقال بعضهم لبعض هل أنتم مطلعون عليهم، فاطلعوا عليهم في وسط الجحيم يعذبون، فقالوا لهم: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ ﴾؛ أي: أي شيء أدخلكم فيها؟ وبأي ذنب استحققتموها؟ ﴿ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾: فلا إخلاص للمعبود ولا إحسان ولا نفع للخلق المحتاجين، ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾؛ أي: نخوض بالباطل ونجادل به الحق، ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ ﴾: هذه آثار الخوض بالباطل، وهو التكذيب بالحق، ومن أحق الحق يومُ الدين، الذي هو محل الجزاء على الأعمال وظهور ملك الله وحكمه العدل لسائر الخلق، فاستمر عملنا على هذا المذهب الباطل ﴿ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ ﴾؛ أي: الموت، فلما

فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ (٤٨) فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ
(٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ (٥١) بَلْ يُرِيدُ
كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً (٥٢) كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ
ٱلْءَاخِرَةَ (٥٣) كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ (٥٥)
وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ (٥٦)

سُورَةُ ٱلْقِيَٰمَةِ

مكية ٧٥ — آياتها ٤٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ (١) وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ
ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ (٣) بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ (٤) بَلْ
يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ (٥) يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ (٦) فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ
(٧) وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ (٩) يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ
أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ
يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ
مَعَاذِيرَهُۥ (١٥) لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ
وَقُرْءَانَهُۥ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ (١٩)

ماتوا على الكفر؛ تعذرت حينئذ عليهم الحيل، وانسد في وجوههم باب الأمل. ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ (٤٨)﴾؛ لأنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى، وهؤلاء لا يرضى الله أعمالهم.

(٤٩) - (٥٣) فلما بين الله مآل المخالفين وبين ما[1] يفعل بهم؛ عطف على الموجودين بالعتاب واللوم، فقال: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩)﴾؛ أي: صادين غافلين عنها، ﴿كَأَنَّهُمْ﴾: في نفرتهم الشديدة منها ﴿حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠)﴾؛ أي: حمر وحش نفرت؛ فنفَّر بعضها بعضًا فزاد عَدْوُهَا، ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ (٥١)﴾؛ أي: من صائد ورامٍ يريدها أو من أسد ونحوه، وهذا من أعظم ما يكون من النفور عن الحق، ومع هذا النفور والإعراض يدعون الدعاوى الكبار؛ فـ﴿يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً (٥٢)﴾: نازلة عليه من السماء؛ يزعم أنه لا ينقاد للحق؛ إلا بذلك، وقد كذبوا؛ فإنهم لو جاءتهم كل آية؛ لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم؛ لأنهم جاءتهم الآيات البينات، التي تبين الحق وتوضحه؛ فلو كان فيهم خير؛ لآمنوا، ولهذا قال: ﴿كَلَّا﴾؛ أي: لا نعطيهم ما طلبوا، وهم ما قصدوا بذلك إلا التعجيز، ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ (٥٣)﴾: فلو كانوا يخافونها؛ لما جرى منهم ما جرى.

(٥٤) - (٥٦) ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ (٥٤)﴾: الضمير إما أن يعود على هذه السورة أو على ما اشتملت عليه من هذه الموعظة، ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ (٥٥)﴾: لأنه قد بين له السبيل ووضح له الدليل. ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾: فإن مشيئة الله نافذة عامة، لا يخرج عنها حادث قليل ولا كثير؛ ففيها رد على القدرية، الذين لا يدخلون أفعال العباد تحت مشيئة الله، والجبرية، الذين يزعمون أنه ليس للعبد مشيئة ولا فعل حقيقة، وإنما هو مجبور على أفعاله، فأثبت تعالى للعباد مشيئة حقيقة وفعلًا، وجعل ذلك تابعًا لمشيئته، و﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ (٥٦)﴾؛ أي: هو أهل أن يتقى ويعبد؛ لأنه الإله الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وأهل أن يغفر لمن اتقاه واتبع رضاه.

تم تفسير سورة المدثر، ولله الحمد والمنة.



(١) ط: «ورهب مما».

تفسير سورة القيامة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾﴾.

﴿١﴾ ليست (لا) ههنا نافية ولا زائدة، وإنما أتي بها للاستفتاح والاهتمام بما بعدها، ولكثرة الإتيان بها مع اليمين لا يستغرب الاستفتاح بها، وإن لم تكن في الأصل موضوعة للاستفتاح؛ فالمقسم به في هذا الموضع هو المقسم عليه، وهو البعث بعد الموت، وقيام الناس من قبورهم، ثم وقوفهم ينتظرون ما يحكم به الرب عليهم.

﴿٢﴾ ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾: وهي جميع النفوس الخيرة والفاجرة، سميت لوامة لكثرة تلونها وترددها وعدم ثبوتها على حالة من أحوالها، ولأنها عند الموت تلوم صاحبها على ما فعلت، بل نفس المؤمن تلوم صاحبها في الدنيا على ما حصل منه من تفريط أو تقصير في حق من الحقوق أو غفلة، فجمع بين الإقسام بالجزاء وعلى الجزاء وبين مستحق الجزاء.

﴿٣﴾، ﴿٤﴾ ثم أخبر مع هذا أن بعض المعاندين يكذبون بيوم القيامة، فقال: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾﴾: بعد الموت؛ كما قال: ﴿قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ﴿٧٨﴾﴾ [يس: ٧٨]، فاستبعد من جهله وعدوانه قدرة الله على خلق عظامه التي هي عماد البدن، فرد عليه بقوله: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾؛ أي: أطراف أصابعه وعظامه، وذلك مستلزم لخلق جميع أجزاء البدن؛ لأنها إذا وجدت الأنامل والبنان؛ فقد تمت خلقة الجسد.

﴿٥﴾، ﴿٦﴾ وليس إنكاره لقدرة الله تعالى قصورًا بالدليل الدال على ذلك، وإنما وقع ذلك منه لأن إرادته وقصده التكذيب بما أمامه من البعث. والفجور: الكذب مع التعمد.

ثم ذكر أحوال القيامة فقال:

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ﴿١٤﴾ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾.

﴿٧﴾ - ﴿١٠﴾ أي: ﴿فَإِذَا﴾ كانت القيامة؛ ﴿بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ﴿٧﴾﴾ برقت الأبصار من الهول العظيم وشخص فلا يطرف؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم: ٤٢، ٤٣]، ﴿وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ﴿٨﴾﴾؛ أي: ذهب نوره وسلطانه، ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ﴿٩﴾﴾: وهما لم يجتمعا منذ خلقهما الله تعالى، فيجمع الله بينهما يوم القيامة، ويخسف القمر، وتكور الشمس، ثم يقذفان في النار؛ ليرى العباد أنهما عبدان مسخران، وليرى من عبدهما أنهم كانوا كاذبين، ﴿يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ﴾ أي: حين يرى تلك القلاقل المزعجات: ﴿أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾؛ أي: أين الخلاص والفكاك مما طرقنا وألم بنا؟

﴿١١﴾ - ﴿١٣﴾ ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾﴾؛ أي: لا ملجأ لأحد دون الله، ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾: لسائر العباد، فليس في إمكان أحد أن يستتر أو يهرب عن ذلك الموضع، بل لا بد من إيقافه؛ ليجزى بعمله، ولهذا قال: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: بجميع عمله الحسن والسيئ، في أول وقته وآخره، وينبأ بخبر لا ينكره.

﴿١٤﴾، ﴿١٥﴾ ﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ﴿١٤﴾﴾؛ أي: شاهد ومحاسب، ﴿وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾: فإنها معاذير لا تقبل، بل يقرر بعمله، فيقر به؛ كما قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٤]: فالعبد وإن أنكر أو اعتذر عما عمله؛ فإنكاره واعتذاره لا يفيدانه شيئًا؛ لأنه يشهد عليه سمعه وبصره وجميع جوارحه بما كان يعمل، ولأن استعتابه قد ذهب وقته وزال نفعه، ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الروم: ٥٧].

﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾
إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾
كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالْتَفَّتِ
السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ
﴿٣١﴾ وَلَٰكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ
فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾
أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ
الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

سُورَةُ الْإِنْسَانِ ٧٦ — ٣١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ﴿١﴾
إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا
بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾
إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ
الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾

﴿١٦﴾ - ﴿١٩﴾ كان النبي ﷺ إذا جاءه جبريل بالوحي وشرع في تلاوته؛ بادره النبي ﷺ من الحرص قبل أن يفرغ، وتلاه مع تلاوة جبريل إياه، فنهاه الله عن ذلك، وقال: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: ١١٤]. وقال هنا: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾﴾.

ثم ضمن له تعالى أنه لا بد أن يحفظه ويقرأه ويجمعه الله في صدره، فقال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾﴾؛ فالحرص الذي في خاطرك إنما الداعي له حذر الفوات والنسيان؛ فإذا ضمنه الله لك؛ فلا موجب لذلك، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾﴾؛ أي: إذا أكمل جبريل قراءة ما يوحى إليك؛ فحينئذ اتبع ما قرأه فاقرأه، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾﴾؛ أي: بيان معانيه. فوعده بحفظ لفظه وحفظ معانيه، وهذا أعلى ما يكون، فامتثل ﷺ لأدب ربه، فكان إذا تلا عليه جبريل القرآن بعد هذا؛ أنصت له؛ فإذا فرغ؛ قرأه.

وفي هذه الآية أدب لأخذ العلم: ألَّا يبادر المتعلم للعلم قبل أن يفرغ المعلم من المسألة التي شرع فيها؛ فإذا فرغ منها؛ سأله عما أشكل عليه. وكذلك إذا كان في أول الكلام ما يوجب الرد أو الاستحسان ألَّا يبادر برده أو قبوله قبل الفراغ من ذلك الكلام؛ ليتبين ما فيه من حق أو باطل، وليفهمه فهمًا يتمكن فيه من الكلام فيه على وجه الصواب. وفيها أن النبي ﷺ كما بين للأمة ألفاظ الوحي؛ فإنه قد بين لهم معانيه.

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾

﴿٢٠﴾، ﴿٢١﴾ أي: هذا الذي أوجب لكم الغفلة والإعراض عن وعظ الله وتذكيره أنكم ﴿تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾﴾، وتسعون فيما يحصلها وفي لذاتها وشهواتها، وتؤثرونها على الآخرة، فتذرون العمل لها؛ لأن الدنيا نعيمها ولذاتها عاجلة، والإنسان مولع بحب العاجل، والآخرة متأخر ما فيها من النعيم المقيم؛ فلذلك غفلتم عنها وتركتموها كأنكم لم تخلقوا لها وكأن هذه الدار هي دار القرار التي تبذل فيها نفائس الأعمار ويسعى لها آناء الليل والنهار، وبهذا انقلبت عليكم الحقيقة، وحصل من الخسار ما حصل؛ فلو آثرتم الآخرة على الدنيا ونظرتم العواقب نظر البصير العاقل؛ لأنجحتم وربحتم ربحًا لا خسار معه، وفزتم فوزًا لا شقاء يصحبه.

﴿٢٢﴾، ﴿٢٣﴾ ثم ذكر ما يدعو إلى إيثار الآخرة ببيان حال أهلها وتفاوتهم فيها، فقال في جزاء المؤثرين للآخرة على الدنيا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: حسنة بهية لها رونق ونور مما هم فيه من نعيم القلوب وبهجة النفوس ولذة الأرواح، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾؛ أي: ينظرون إلى ربهم على حسب مراتبهم؛ منهم من ينظره كل يوم بكرة وعشيًّا، ومنهم من ينظره كل جمعة مرة واحدة، فيتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم وجماله الباهر الذي ليس كمثله شيء؛ فإذا رأوه؛ نسوا ما هم فيه من النعيم، وحصل لهم من اللذة والسرور ما لا يمكن التعبير عنه، ونضرت وجوههم، فازدادوا جمالًا إلى جمالهم، فنسأل الله الكريم أن يجعلنا معهم.

﴿٢٤﴾، ﴿٢٥﴾ وقال في المؤثرين العاجلة على الآجلة: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾﴾؛ أي: معبسة كدرة خاشعة ذليلة،

﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥)﴾؛ أي: عقوبة شديدة وعذاب أليم؛ فلذلك تغيرت وجوههم وعبست.

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ (٢٨) وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ (٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ (٣١) وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ (٣٣) أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ (٣٥) أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ (٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ (٤٠)﴾.

(٢٦) - (٣٠) يعظ تعالى عباده بذكر المحتضر حال السياق، وأنه إذا بلغت روحه ﴿ٱلتَّرَاقِيَ (٢٦)﴾: وهي العظام المكتنفة لثغرة النحر؛ فحينئذ يشتد الكرب، ويطلب كل وسيلة وسبب يظن أن يحصل به الشفاء والراحة، ولهذا قال: ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ (٢٧)﴾؛ أي: من يرقيه، من الرقية؛ لأنهم انقطعت آمالهم من الأسباب العادية، فتعلقوا بالأسباب الإلهية، ولكن القضاء والقدر إذا حتم وجاء؛ فلا مرد له، ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ (٢٨)﴾: للدنيا، ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ (٢٩)﴾؛ أي: اجتمعت الشدائد والتفت، وعظم الأمر، وصعب الكرب، وأريد أن تخرج الروح من البدن الذي ألفته ولم تزل معه، فتساق إلى الله تعالى ليجازيها بأعمالها ويقررها بفعالها؛ فهذا الزجر الذي ذكره الله يسوق القلوب إلى ما فيه نجاتها ويزجرها عما فيه هلاكها.

(٣١) - (٣٣) ولكن المعاند الذي لا تنفع فيه الآيات لا يزال مستمرًّا على غيه وكفره وعناده، ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾؛ أي لا آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، ﴿وَلَا صَلَّىٰ (٣١) وَلَٰكِن كَذَّبَ﴾: بالحق في مقابلة التصديق، ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾: عن الأمر والنهي، هذا وهو مطمئن قلبه غير خائف من ربه، ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ (٣٣)﴾؛ أي: ليس على باله شيء.

(٣٤)، (٣٥) ثم توعده بقوله: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ (٣٥)﴾: وهذه كلمات وعيد؛ كررها لتكرير وعيده.

(٣٦) - (٤٠) ثم ذكر الإنسان بخلقه الأول، فقال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦)﴾؛ أي: مهملًا لا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب؟ هذا حسبان باطل وظن بالله غير ما يليق بحكمته. ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ﴾: بعد المني ﴿عَلَقَةً﴾؛ أي: دمًا، ﴿فَخَلَقَ﴾: الله منها الحيوان، وسواه؛ أي: أتقنه وأحكمه، ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ (٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: الذي خلق الإنسان وطوره إلى هذه الأطوار المختلفة ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ (٤٠)﴾: بلى إنه على كل شيء قدير.

تم تفسير سورة القيامة. والحمد لله رب العالمين.
وصلى الله على محمد وسلم.



تفسير سورة الإنسان

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾.

۝١ ذكر الله في هذه السورة أول حال الإنسان ومنتهاها ومتوسطها: فذكر أنه مر عليه ﴿حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ طويل، وهو الذي قبل وجوده، وهو معدوم، ﴿لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١﴾.

۝٢ ثم لما أراد خلقه؛ خلق أباه آدم من طين، ثم جعل نسله متسلسلًا ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾؛ أي: ماء مهين مستقذر، ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾: بذلك؛ لنعلم هل يرى حاله الأولى ويتفطن لها أم ينساها وتغره نفسه؟ فأنشأه الله وخلق له القوى الظاهرة والباطنة؛ كالسمع والبصر وسائر الأعضاء، فأتمها له وجعلها سالمة يتمكن بها من تحصيل مقاصده.

۝٣ ثم أرسل إليه الرسل، وأنزل عليه الكتب، وهداه الطريق الموصلة إليه، وبينها، ورغبه فيها، وأخبره بما له عند الوصول إليه، ثم أخبره بالطريق الموصلة إلى الهلاك، ورهبه عنها، وأخبره بما له إذا سلكها، وابتلاه بذلك، فانقسم الناس إلى شاكر لنعمة الله عليه، قائم بما حمله الله من حقوقه. وإلى كفور للنعم أنعم الله عليه بالنعم الدينية والدنيوية، فردها وكفر بربه، وسلك الطريق الموصلة إلى الهلاك. ثم ذكر تعالى الفريقين عند الجزاء، فقال:

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ۝٤ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾.

۝٤ أي: إنا هيأنا وأرصدنا لمن كفر بالله وكذب رسله وتجرأ على معاصيه، ﴿سَلَاسِلَا﴾: في نار جهنم؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۝٣٢﴾ [الحاقة: ٣٢]، ﴿وَأَغْلَالًا﴾: تغل بها أيديهم إلى أعناقهم ويوثقون بها، ﴿وَسَعِيرًا ۝٤﴾؛ أي: نارًا تستعر بها أجسامهم وتحرق بها أبدانهم، ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]، وهذا العذاب الدائم مؤبد لهم، مخلدون فيه سرمدًا.

۝٥ وأما الأبرار، وهم الذين برت قلوبهم بما فيها من معرفة الله ومحبته والأخلاق الجميلة؛ فبرت أعمالهم[1]، واستعملوها بأعمال البر، فأخبر أنهم ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾؛ أي: شراب لذيذ من خمر قد مزج بكافور؛ أي: خلط به ليبرده ويكسر حدته، وهذا الكافور في غاية اللذة، قد سلم من كل مكدر ومنغص موجود في كافور الدنيا؛ فإن الآفة الموجودة في الدنيا تُعدم من الأسماء التي ذكرها الله في الجنة؛ كما قال تعالى: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩﴾ [الواقعة: ٢٨، ٢٩]، ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [آل عمران: ١٥]، ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢٧]، ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١].

۝٦ ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾؛ أي: ذلك الكأس اللذيذ الذي يشربونه لا يخافون نفاده، بل له مادة لا تنقطع، وهي عين دائمة الفيضان والجريان، يفجرها عباد الله تفجيرًا أنى شاءوا وكيف أرادوا؛ فإن شاءوا؛ صرفوها إلى البساتين الزاهرات أو إلى الرياض النضرات، أو بين جوانب القصور والمساكن المزخرفات، أو إلى أي جهة يرونها من الجهات المونقات.

۝٧ ثم ذكر جملة من أعمالهم، فقال: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾؛ أي: بما ألزموا به أنفسهم لله من النذور والمعاهدات، وإذا كانوا يوفون بالنذر الذي هو غير واجب في الأصل عليهم إلا بإيجابهم على أنفسهم؛ كان فعلهم وقيامهم بالفروض الأصلية من باب أولى وأحرى، ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾؛ أي: فاشيًا منتشرًا، فخافوا أن ينالهم شره، فتركوا كل سبب موجب لذلك.

۝٨ - ۝١٠ ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾؛ أي: وهم في حال يحبون فيها المال والطعام، لكنهم قدموا محبة الله على محبة نفوسهم، ويتحرون في إطعامهم أولى الناس

---

(١) ط: «جوارحهم».

وأحوجهم، ﴿ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾: ويقصدون بإنفاقهم وإطعامهم وجه الله تعالى، ويقولون بلسان الحال: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾؛ أي: لا جزاء ماليًّا ولا ثناء قوليًّا، ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا ﴾؛ أي: شديد الجهمة والشر، ﴿ قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾؛ أي: ضنكًا ضيقًا.

﴿١١﴾ ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ ﴾: فلا يحزنهم الفزع الأكبر، وتتلقاهم الملائكة هـذا يومكم الذي كنتم توعدون، ﴿ وَلَقَّىٰهُمْ ﴾؛ أي: أكرمهم وأعطاهم ﴿ نَضْرَةً ﴾: في وجوههم، ﴿ وَسُرُورًا ﴿١١﴾ ﴾: في قلوبهم، فجمع لهم بين نعيم الظاهر والباطن.

﴿١٢﴾ ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾: على طاعته فعملوا ما أمكنهم منها، وعن معاصيه فتركوها، وعلى أقداره المؤلمة فلم يتسخطوها ﴿ جَنَّةً ﴾: جامعة لكل نعيم سالمة من كل مكدر ومنغص، ﴿ وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحج: ٢٣]: ولعل الله إنما خص الحرير لأنه لباسهم الظاهر الدال على حال صاحبه.

﴿١٣﴾ ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ﴾: الاتكاء: التمكن من الجلوس في حال الطمأنينة والراحة والرفاهية، والأرائك هي السرر التي عليها اللباس المزين، ﴿ لَا يَرَوْنَ فِيهَا ﴾؛ أي: في الجنة ﴿ شَمْسًا ﴾: يضرهم حرها، ﴿ وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾؛ أي: بردًا شديدًا، بل جميع أوقاتهم في ظل ظليل، لا حر ولا برد؛ بحيث تلتذ به الأجساد ولا تتألم من حر ولا برد.

﴿١٤﴾ ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾؛ أي: قربت ثمراتها من مريدها تقريبًا، ينالها وهو قائم أو قاعد أو مضطجع.

﴿١٥﴾، ﴿١٦﴾ ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم ﴾؛ أي: يدور الولدان والخدم على أهل الجنة، ﴿ بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ ﴾؛ أي: مادتها من فضة، وهي على صفاء القوارير، وهذا من أعجب الأشياء؛ أن تكون الفضة الكثيفة من صفاء جوهرها وطيب معدنها على صفاء القوارير، ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾؛ أي: قدروا الأواني المذكورة على قدر لريهم؛ لا تزيد ولا تنقص؛ لأنها لو زادت؛ نقصت لذتها، ولو نقصت لم تكفهم لريهم[1]. ويحتمل أن المراد: قدرها أهل الجنة بمقدار يوافق لذتهم، فأتتهم على ما قدروا في خواطرهم.

(١) ط: «لم تف بريهم».

سُورَةُ الإِنسَانِ — الجُزْءُ التَّاسِعُ وَالعِشْرُونَ

عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ
يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا
وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا
﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ
ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا
﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾
وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ
مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾
وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا
﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا
﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ
خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا
طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا
نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ
مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾

٥٧٩

﴿١٧﴾، ﴿١٨﴾ ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا ﴾؛ أي: الجنة ﴿ كَأْسًا ﴾: وهو الإناء من خمر ورحيق. ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا ﴾؛ أي: خلطها ﴿ زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ ﴾: ليطيب طعمه وريحه. ﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾: سميت بذلك لسلاستها ولذتها وحسنها.

﴿١٩﴾ ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: على أهل الجنة في طعامهم وشرابهم وخدمتهم، ﴿ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾؛ أي: خلقوا من الجنة للبقاء؛ لا يتغيرون ولا يكبرون، وهم في غاية الحسن، ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ ﴾: منتشرين في خدمتهم، ﴿ حَسِبْتَهُمْ ﴾: من حسنهم ﴿ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ ﴾: وهذا من تمام لذة أهل الجنة؛ أن يكون خدامهم الولدان المخلدون، الذين تسر رؤيتهم، ويدخلون في مساكنهم آمنين من تبعتهم، ويأتونهم بما يدعون وتطلبه نفوسهم.

﴿٢٠﴾ ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ ﴾؛ أي: رمقت ما أهل الجنة عليه من النعيم الكامل، ﴿ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾: فتجد الواحد منهم عنده من المساكن والغرف المزينة المزخرفة ما لا يدركه الوصف، ولديه من البساتين الزاهرة والثمار الدانية والفواكه

وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلًا طَوِيلًا ٢٦ إِنَّ
هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمًا ثَقِيلًا ٢٧ نَّحۡنُ
خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا
٢٨ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ٢٩
وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ٣٠
يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ٣١

سُورَةُ المُرۡسَلَاتِ (٧٧) آياتها ٥٠

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ١ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ٣
فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ٤ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ٥ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ٦ إِنَّمَا
تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ٧ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ
٩ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ١١ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ
١٢ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ١٣ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ١٤ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ
لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٥ أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٦ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ
١٧ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٨ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٩

اللذيذة والأنهار الجارية والرياض المعجبة والطيور المطربة المشجية، ما يأخذ بالقلوب ويفرح النفوس، وعنده من الزوجات اللاتي هن في غاية الحسن والإحسان الجامعات لجمال الظاهر والباطن الخيرات الحسان، ما يملأ القلب سرورًا ولذة وحبورًا، وحوله من الولدان المخلدين والخدم المؤبدين ما به تحصل الراحة والطمأنينة، وتتم لذة العيش وتكمل الغبطة، ثم علاوة ذلك ومعظمه الفوز برضى[1] الرب الرحيم وسماع خطابه ولذة قربه والابتهاج برضاه والخلود الدائم، وتزايد ما هم فيه من النعيم كل وقت وحين؛ فسبحان مالك الملك الحق المبين، الذي لا تنفد خزائنه ولا يقل خيره؛ كما لا نهاية لأوصافه؛ فلا نهاية لبره وإحسانه.

(٢١) ﴿ عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ ﴾؛ أي: قد جللتهم ثياب السندس والإستبرق الأخضران اللذان هما أجل أنواع الحرير، فالسندس ما غلظ من الحرير[2]، والإستبرق ما رق منه[3]، ﴿ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ ﴾؛ أي: حلوا في أيديهم أساور الفضة؛ ذكورهم وإناثهم. وهذا وعد وعدهم الله، وكان وعده مفعولًا؛ لأنه لا أصدق منه قيلًا ولا حديثًا. وقوله: ﴿ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ٢١ ﴾؛ أي: لا كدر فيه بوجه من الوجوه، مطهرًا لما في بطونهم من كل أذى وقذى.

(٢٢) ﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾: الجزاء الجزيل والعطاء الجميل ﴿ كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ ﴾: على ما أسلفتموه من الأعمال، ﴿ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا ٢٢ ﴾؛ أي: القليل منه يجعل الله لكم به من النعيم المقيم ما لا يمكن حصره.

(٢٣) وقوله تعالى لما ذكر نعيم الجنة: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا ٢٣ ﴾: فيه الوعد والوعيد وبيان كل ما يحتاجه العباد، وفيه الأمر بالقيام بأوامره وشرائعه أتم القيام والسعي في تنفيذها والصبر على ذلك.

(٢٤) ولهذا قال: ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا ٢٤ ﴾؛ أي: اصبر لحكمه القدري؛ فلا تسخطه، ولحكمه الديني؛ فامض عليه، ولا يعوقنك عنه عائق، ﴿ وَلَا تُطِعۡ ﴾: من المعاندين الذين يريدون أن يصدوك ﴿ ءَاثِمًا ﴾؛ أي: فاعلًا إثمًا ومعصية، ﴿ أَوۡ كَفُورٗا ٢٤ ﴾: فإن طاعة الكفار والفجار والفساق لا بد أن تكون معصية لله؛ فإنهم لا يأمرون إلا بما تهواه أنفسهم.

(٢٥) ولما كان الصبر يستمد من القيام بطاعة الله والإكثار من ذكره؛ أمر الله بذلك، فقال: ﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٢٥ ﴾؛ أي: أول النهار وآخره، فدخل في ذلك الصلوات المكتوبات، وما يتبعها من النوافل والذكر والتسبيح والتهليل والتكبير في هذه الأوقات.

(٢٦) ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ ﴾؛ أي: أكثر له من السجود، وذلك متضمن لكثرة الصلاة، ﴿ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ٢٦ ﴾: وقد تقدم تقييد هذا المطلق بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ ﴾ [المزمل: ١-٤].

(٢٧) وقوله: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾؛ أي: المكذبين لك أيها الرسول بعدما بينت لهم الآيات ورغبوا ورهبوا، ومع ذلك لم يفد فيهم ذلك شيئًا، بل لا يزالون يحبون ﴿ ٱلۡعَاجِلَةَ ﴾: ويطمئنون إليها، ﴿ وَيَذَرُونَ ﴾؛ أي: يتركون العمل ويهملون

(١) ط: «برؤية».
(٢) ط: «الديباج».
(٣) جاء في اللسان (سندس): السندس: رقيق الديباج ورفيعه، والإستبرق: غليظ الديباج.

﴿ وَرَآءَهُمْ ﴾؛ أي: أمامهم ﴿يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾: وهو يوم القيامة، الذي مقداره خمسون ألف سنة مما تعدون، وقال تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [القمر: ٨]؛ فكأنهم ما خلقوا إلا للدنيا والإقامة فيها.

﴿٢٨﴾ ثم استدل عليهم وعلى بعثهم بدليل عقلي، وهو دليل الابتداء، فقال: ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ ﴾؛ أي: أوجدناهم من العدم، ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ﴾؛ أي: أحكمنا خلقتهم بالأعصاب والعروق والأوتار والقوى الظاهرة والباطنة، حتى تم الجسم واستكمل وتمكن من كل ما يريده؛ فالذي أوجدهم على هذه الحالة قادر على أن يعيدهم بعد موتهم لجزائهم، والذي نقلهم في هذه الدار إلى هذه الأطوار لا يليق به أن يتركهم سدى، لا يؤمرون، ولا ينهون، ولا يثابون، ولا يعاقبون، ولهذا قال: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾؛ أي: أنشأناهم للبعث نشأة أخرى، وأعدناهم بأعيانهم، وهم بأنفسهم أمثالهم.

﴿٢٩﴾ ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ﴾؛ أي: يتذكر بها المؤمن، فينتفع بما فيها من التخويف والترغيب، ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ ﴾؛ أي: طريقًا موصلًا إليه؛ فالله يبين الحق والهدى، ثم يخير الناس بين الاهتداء بها أو النفور عنها؛ إقامة للحجة؛ ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ [الأنفال: ٤٢].

﴿٣٠﴾ ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾: فإن مشيئة الله نافذة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ ﴾: فله الحكمة في هداية المهتدي وإضلال الضال.

﴿٣١﴾ ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ﴾: فيختصه بعنايته، ويوفقه لأسباب السعادة، ويهديه لطرقها، ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ ﴾: الذين اختاروا الشقاء على الهدى، ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾: بظلمهم وعدوانهم.

تم تفسير سورة الإنسان. ولله الحمد.



تفسير سورة المرسلات

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ
نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾
إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ
فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ
أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ
يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿١﴾ - ﴿٦﴾ أقسم تعالى على البعث والجزاء على الأعمال بالمرسلات عرفًا: وهي الملائكة التي يرسلها الله تعالى بشئونه القدرية وتدبير العالم، وبشئونه الشرعية ووحيه إلى رسله، و﴿عُرْفًا ﴿١﴾ ﴾: حال من المرسلات؛ أي: أرسلت بالعرف والحكمة والمصلحة، لا بالنكر والعبث. ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ ﴾: وهي أيضًا الملائكة التي يرسلها الله تعالى، وصفها بالمبادرة لأمره وسرعة تنفيذ أوامره كالريح العاصف أو أن العاصفات الرياح الشديدة التي يسرع هبوبها، ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ ﴾: يحتمل أن المراد بها الملائكة؛ تنشر ما دبرت على نشره، أو أنها السحاب التي يُنشِر الله بها الأرض فيحييها بعد موتها. ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ ﴾: هي الملائكة تلقي أشرف الأوامر، وهو الذكر الذي يرحم الله به عباده، ويذكرهم فيه منافعهم ومصالحهم؛ تلقيه إلى الرسل ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ ﴾؛ أي: إعذارًا أو إنذارًا للناس؛ تنذر الناس ما أمامهم من المخاوف وتقطع أعذارهم؛ فلا يكون لهم حجة على الله.

﴿٧﴾ ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ ﴾: من البعث والجزاء على الأعمال ﴿لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ ﴾؛ أي: متحتم وقوعه من غير شك ولا ارتياب.

﴿٨﴾ - ﴿١٤﴾ فإذا وقع؛ حصل من التغير للعالم والأهوال الشديدة ما يزعج القلوب وتشتد له الكروب فتنطمس النجوم؛ أي: تتناثر وتزول عن أماكنها، وتنسف الجبال، فتكون كالهباء المنثور، وتكون هي والأرض قاعًا صفصفًا، لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا، وذلك اليوم هو اليوم الذي

أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ
مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾
أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ
شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾
ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ
شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ
كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾
هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ
لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى
ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا
بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ
يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

﴿أُقِّتَتْ ﴿١١﴾﴾ فيه الرسل، وأجلت للحكم بينها وبين أممها، ولهذا قال: ﴿لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾﴾: استفهام للتعظيم والتفخيم والتهويل، ثم أجاب بقوله: ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: بين الخلائق بعضهم لبعض، وحساب كل منهم منفردًا.

﴿١٥﴾ ثم توعد المكذب بهذا اليوم، فقال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾؛ أي: يا حسرتهم وشدة عذابهم وسوء منقلبهم، أخبرهم الله وأقسم لهم فلم يصدقوه؛ فلذلك استحقوا العقوبة البليغة.

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿١٦﴾ - ﴿١٩﴾ أي: أما أهلكنا المكذبين السابقين، ثم نتبعهم بإهلاك من كذب من الآخرين، وهذه سنته السابقة واللاحقة في كل مجرم، لا بد من عقابه، فلم لا تعتبرون بما ترون وتسمعون؟! ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾: بعدما شاهدوا من الآيات البينات والعقوبات والمثلات.

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿٢٠﴾ - ﴿٢٤﴾ أي: أما خلقناكم أيها الآدميون ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾؛ أي: في غاية الحقارة، خرج من بين الصلب والترائب، حتى جعله الله ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾﴾: وهو الرحم به يستقر وينمو، ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾: ووقت مقدر. ﴿فَقَدَرْنَا﴾؛ أي: قدرنا ودبرنا ذلك الجنين في تلك الظلمات، ونقلناه من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى أن جعله الله جسدًا و نفخ فيه الروح، ومنهم من يموت قبل ذلك. ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾؛ يعني بذلك نفسه المقدسة؛ لأن قدره تابع لحكمته موافق للحمد. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾(١).

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿٢٥﴾ - ﴿٢٨﴾ أي: أما مننّا عليكم وأنعمنا بتسخير الأرض لمصالحكم فجعلناها ﴿كِفَاتًا ﴿٢٥﴾﴾: لكم، ﴿أَحْيَآءً﴾: في الدور، ﴿وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾: في القبور؛ فكما أن الدور والقصور من نعم الله على عباده ومنته؛ فكذلك القبور رحمة في حقهم وستر لهم عن كون أجسادهم بادية للسباع وغيرها. ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾؛ أي: جبالًا ترسي الأرض لئلا تميد بأهلها، فثبتها الله بالجبال الراسيات الشامخات؛ أي: الطوال العراض. ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾؛ أي: عذبًا زلالًا؛ قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة: ٧٠]. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾: مع ما أراهم الله من النعم التي انفرد بها، واختصهم بها فقابلوها بالتكذيب.

﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿٢٩﴾ - ﴿٣٤﴾ هذا من الويل الذي أعد للمجرمين المكذبين أن يقال لهم يوم القيامة: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾﴾: ثم فسر ذلك بقوله: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾﴾؛

(١) زاد في ط: «بعدما بين الله لهم الآيات وأراهم العبر والبينات».

أي: إلى ظل نار جهنم التي تتمايز في خلاله ثلاث شعب؛ أي: قطع من النار تتعاوره وتتناوبه وتجتمع به. ﴿ لَّا ظَلِيلٍ ﴾: ذلك الظل؛ أي: لا راحة فيه ولا طمأنينة، ﴿ وَلَا يُغْنِي ﴾: من مكث فيه ﴿ مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ ﴾: بل اللهب قد أحاط به يمنة ويسرة ومن كل جانب؛ كما قال تعالى: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر: ١٦]، ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الأعراف: ٤١].

ثم ذكر عظم شرر النار الدال على عظمها وفظاعتها وسوء منظرها، فقال: ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾: وهي السود التي تضرب إلى لون فيه صفرة، وهذا يدل على أن النار مظلمة لهبها وجمرها وشررها، وأنها سوداء كريهة المنظر شديدة الحرارة؛ نسأل الله العافية منها، ومن الأعمال المقربة منها. ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿٣٥﴾ - ﴿٣٧﴾ أي: هذا اليوم العظيم الشديد على المكذبين، لا ينطقون فيه من الخوف والوجل الشديد، ﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾؛ أي: لا تقبل معذرتهم ولو اعتذروا. ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الروم: ٥٧].

﴿٣٨﴾ - ﴿٤٠﴾ ﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾: لنفصل بينكم ونحكم بين الخلائق. ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ ﴾: تقدرون على الخروج عن ملكي وتنجون به من عذابي، ﴿ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ ﴾؛ أي: ليس لكم قدرة ولا سلطان؛ كما قال تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الرحمن: ٣٣]؛ ففي ذلك اليوم تبطل حيل الظالمين، ويضمحل مكرهم وكيدهم ويستسلمون لعذاب الله، ويبين لهم كذبهم في تكذيبهم. ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿٤١﴾ - ﴿٤٥﴾ لما ذكر عقوبة المكذبين؛ ذكر مثوبة المحسنين، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾؛ أي: للتكذيب، المتصفين بالتصديق في أقوالهم وأفعالهم وأعمالهم، ولا يكونون كذلك إلا بأدائهم الواجبات وتركهم المحرمات، ﴿ فِي ظِلَٰلٍ ﴾: من كثرة الأشجار المتنوعة الزاهرة البهية، ﴿ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ ﴾: جارية من السلسبيل والرحيق وغيرهما، ﴿ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾؛ أي: من خيار الفواكه وأطيبها، ويقال لهم: ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ ﴾: من المآكل الشهية والأشربة اللذيذة، ﴿ هَنِيٓـًٔۢا ﴾؛ أي: من غير منغص ولا مكدر، ولا يتم هناؤه حتى يسلم الطعام والشراب من كل آفة ونقص، وحتى يجزموا أنه غير منقطع ولا زائل؛ ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾: فأعمالكم هي السبب الموصل لكم إلى جنات النعيم المقيم، وهكذا كل من أحسن في عبادة الله وأحسن إلى عباد الله، ولهذا قال: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾: ولو لم يكن من هذا الويل إلا فوات هذا النعيم؛ لكفى به حزنًا وحرمانًا.

﴿ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿٤٦﴾ - ﴿٥٠﴾ هذا تهديد ووعيد للمكذبين أنهم وإن أكلوا في الدنيا وشربوا وتمتعوا باللذات وغفلوا عن القربات؛ فإنهم مجرمون يستحقون ما يستحقه المجرمون، فتنقطع عنهم اللذات، وتبقى عليهم التبعات. ومن إجرامهم أنهم إذا أمروا بالصلاة التي هي أشرف العبادات، و﴿ قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ ﴾: امتنعوا من ذلك؛ فأي إجرام فوق هذا؟ وأي تكذيب يزيد على هذا؟ ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾: ومن الويل عليهم أنهم تنسد عنهم أبواب التوفيق ويحرمون كل خير؛ فإنهم إذا كذبوا هذا القرآن الذي هو أعلى مراتب الصدق واليقين على الإطلاق؛ ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾: أبالباطل الذي هو كاسمه لا يقوم عليه شبهة فضلًا عن الدليل؟ أم بكلام مشرك كذاب أفاك مبين؟ فليس بعد النور المبين إلا دياجي الظلمات، ولا بعد الصدق الذي قامت عليه الأدلة والبراهين إلا الإفك الصراح والكذب المبين الذي لا يليق إلا بمن يناسبه؛ فتبًّا لهم ما أعماهم! وويحًا لهم ما أخسرهم وأشقاهم! نسأل الله العفو والعافية؛ إنه جواد كريم.

تم تفسير سورة المرسلات، ولله الحمد.



سُورَةُ النَّبَإِ (٧٨) آياتها ٤٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣)
كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦)
وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا
(٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا
فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنزَلْنَا
مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ
أَلْفَافًا (١٦) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧) يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ
فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ
الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِّلطَّاغِينَ
مَآبًا (٢٢) لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا
(٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً وِفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا
لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا (٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ
أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠)

تفسير سورة عم
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥)﴾.

(١) - (٥) أي: عن أي شيء يتساءل المكذبون بآيات الله؟ ثم بين ما يتساءلون عنه فقال: ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣)﴾؛ أي: عن الخبر العظيم الذي طال فيه نزاعهم وانتشر فيه خلافهم على وجه التكذيب والاستبعاد، وهو النبأ الذي لا يقبل الشك ولا يدخله الريب، ولكن المكذبون بلقاء ربهم لا يؤمنون، ولو جاءتهم كل آية، حتى يروا العذاب الأليم، ولهذا قال: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥)﴾؛ أي: سيعلمون إذا نزل بهم العذاب ما كانوا به يكذبون حين ﴿يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣)﴾. ويقال لهم: ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤)﴾ [الطور: ١٣، ١٤].

ثم ذكر تعالى النعم والأدلة الدالة على ما جاءت به الرسل فقال:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦)﴾.

(٦) - (١٦)؛ أي: أما أنعمنا عليكم بنعم جليلة، فجعلنا لكم ﴿الْأَرْضَ مِهَادًا (٦)﴾؛ أي: ممهدة مذللة لكم ولمصالحكم من الحروث والمساكن والسبل، ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧)﴾: تمسك الأرض لئلا تضطرب بكم وتميد، ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨)﴾؛ أي: ذكورًا وإناثًا من جنس واحد؛ ليسكن كل منهما إلى الآخر، فتتكون المودة والرحمة، وتنشأ عنهما الذرية. وفي ضمن هذا الامتنان بلذة المنكح. ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩)﴾؛ أي: راحة لكم وقطعًا لأشغالكم التي متى تمادت بكم؛ أضرت بأبدانكم، فجعل الله الليل والنوم يُغشي الناس لتسكن حركاتهم الضارة وتحصل راحتهم النافعة، ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢)﴾؛ أي: سبع سماوات في غاية القوة والصلابة والشدة، وقد أمسكها الله بقدرته، وجعلها سقفًا للأرض، فيها عدة منافع لهم، ولهذا ذكر من منافعها الشمس، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣)﴾: نبه بالسراج على النعمة بنورها الذي صار ضرورة للخلق، وبالوهاج - وهي حرارتها - على ما فيها من الإنضاج والمنافع، ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾؛ أي: السحاب ﴿مَاءً ثَجَّاجًا (١٤)﴾؛ أي: كثيرًا جدًّا؛ ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا﴾: من بر وشعير وذرة وأرز وغير ذلك مما يأكله الآدميون، ﴿وَنَبَاتًا (١٥)﴾: يشمل سائر النبات الذي جعله الله قوتًا لمواشيهم، ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦)﴾؛ أي: بساتين ملتفة فيها من جميع أصناف الفواكه اللذيذة؛ فالذي أنعم بهذه النعم الجليلة التي لا يقدر قدرها ولا يحصى عدها؛ كيف تكفرون به وتكذبون ما أخبركم به من البعث والنشور؟! أم كيف تستعينون بنعمه على معاصيه وتجحدونها؟!

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧) يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ
أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ
فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِّلطَّاغِينَ مَآبًا (٢٢)
لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا
حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً وِفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ
حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا (٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ
كِتَابًا (٢٩) فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠)﴾.

(١٧) - (٢٥) ذكر الله تعالى ما يكون في يوم القيامة الذي يتساءل عنه المكذبون ويجحده المعاندون؛ أنه يوم عظيم، وأن الله جعله ﴿مِيقَاتًا (١٧)﴾ للخلق، ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨)﴾: ويجري فيه من الزعازع والقلاقل ما يشيب له المولود وتنزعج له القلوب، فتسير الجبال حتى تكون كالهباء المبثوث، وتنشق السماء حتى تكون أبوابًا، ويفصل الله بين الخلائق بحكمه الذي لا يجور، وتوقد نار جهنم التي أرصدها الله وأعدها للطاغين وجعلها مثوى لهم ومآبًا، وأنهم يلبثون فيها أحقابًا كثيرة، والحقب على ما قاله كثير من المفسرين ثمانون سنة؛ فإذا وردوها؛ ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤)﴾؛ أي: لا ما يبرد جلودهم ولا ما يدفع ظمأهم؛ ﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾؛ أي: ماء حارًّا يشوي وجوههم ويقطع أمعاءهم ﴿وَغَسَّاقًا (٢٥)﴾: وهو صديد أهل النار: الذي هو في غاية النتن وكراهة المذاق.

(٢٦) - (٣٠) وإنما استحقوا هذه العقوبات الفظيعة جزاء لهم وفاقًا على ما عملوا من الأعمال الموصلة إليها، لم يظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم، ولهذا ذكر أعمالهم التي استحقوا بها هذا الجزاء، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧)﴾؛ أي: لا يؤمنون بالبعث، ولا أن الله يجازي الخلق بالخير والشر؛ فلذلك أهملوا العمل للآخرة، ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا (٢٨)﴾؛ أي: كذبوا بها تكذيبًا واضحًا صريحًا، وجاءتهم البينات فعاندوها، ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾: من قليل وكثير وخير وشر، ﴿أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩)﴾؛ أي: أثبتناه في اللوح المحفوظ؛ فلا يحسب المجرمون أنا عذبناهم بذنوب لم يعملوها، ولا يحسبوا أنه يضيع من أعمالهم شيء أو ينسى منها مثقال ذرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩)﴾

الجزء الثلاثون — سورة النبإ

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا
دِهَاقًا (٣٤) لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا (٣٥) جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً
حِسَابًا (٣٦) رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ
مِنْهُ خِطَابًا (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ
إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن
شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا (٣٩) إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ
يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا (٤٠)

سُورَةُ النَّازِعَاتِ (٧٩) (٤٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا
(٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ
(٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا
خَاشِعَةٌ (٩) يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَإِذَا كُنَّا
عِظَامًا نَّخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ
وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ (١٤) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (١٥)

٥٨٣

[الكهف: ٤٩]. ﴿فَذُوقُوا﴾: أيها المكذبون هذا العذاب الأليم والخزي الدائم، ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠)﴾: فكل وقت وحين يزداد عذابهم. وهذه الآية أشد الآيات في شدة عذاب أهل النار، أجارنا الله منها.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣)
وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا (٣٥) جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ
عَطَاءً حِسَابًا (٣٦)﴾.

(٣١) - (٣٦) لما ذكر حال المجرمين؛ ذكر مآل المتقين، فقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١)﴾؛ أي: الذين اتقوا سخط ربهم بالتمسك بطاعته والانكفاف عن معصيته؛ فلهم مفاز ومنجى وبعد عن النار، وفي ذلك المفاز لهم ﴿حَدَائِقَ﴾: وهي البساتين الجامعة لأصناف الأشجار الزاهية بالثمار ﴿وَأَعْنَابًا (٣٢)﴾ تتفجر خلالها الأنهار، وخص العنب لشرفه وكثرته في تلك الحدائق. ولهم فيها زوجات على مطالب النفوس ﴿وَكَوَاعِبَ﴾: وهي النواهد اللاتي لم يتكسر ثديهن من شبابهن وقوتهن ونضارتهن.

﴿ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ ﴾ على سن واحد متقارب، ومن عادة الأتراب أن يكن متآلفات متعاشرات، وذلك السن الذي هن فيه ثلاث وثلاثون سنة أعدل ما يكون من الشباب، ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ ﴾؛ أي: مملوءة من رحيق لذة للشاربين، ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا ﴾؛ أي: كلامًا لا فائدة فيه، ﴿ وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ ﴾؛ أي: إثمًا؛ كما قال تعالى: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]، وإنما أعطاهم الله هذا الثواب الجزيل من فضله وإحسانه ﴿ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ ﴾؛ أي: بسبب أعمالهم التي وفقهم الله لها، وجعلها سببًا للوصول إلى كرامته[1].

﴿ رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿٣٧﴾ - ﴿٣٩﴾ أي: الذي أعطاهم هذه العطايا هو ربهم، ﴿ رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾: الذي خلقها ودبرها. ﴿ الرَّحْمَٰنِ ﴾: الذي رحمته وسعت كل شيء، فرباهم ورحمهم ولطف بهم حتى أدركوا ما أدركوا. ثم ذكر عظمته وملكه العظيم يوم القيامة، وأن جميع الخلق كلهم ساكتون ذلك اليوم لا يتكلمون و﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ ﴾؛ هذه الآية لاحقة للتي تليها[2] ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ﴾: فلا يتكلم أحد إلا بهذين الشرطين: أن يأذن الله له في الكلام، وأن يكون ما تكلم به صوابًا؛ لأن ﴿ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ﴾: الذي لا يروج فيه الباطل ولا ينفع فيه الكذب. وفي ذلك ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ ﴾: وهو جبريل عليه السلام، الذي هو أفضل الملائكة، ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾: أيضًا يقوم الجميع ﴿ صَفًّا ﴾: خاضعين لله، ﴿ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ﴾ لا يتكلمون إلا بإذنه. فلما رغَّب ورهَّب وبشَّر وأنذر ﴿ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ﴾؛ قال: ﴿ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴿٣٩﴾ ﴾؛ أي: عملًا وقدم صدق يرجع إليه يوم القيامة.

(١) ط: «ثمنًا لجنته ونعيمها».
(٢) عبارة: «هذه الآية لاحقة للتي تليها» ساقطة من المطبوع.

﴿٤٠﴾ ﴿ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾: لأنه قد أزف مقبلًا، وكل ما هو آت قريب. ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾؛ أي: هذا الذي يهمه ويفزع إليه، فلينظر في هذه الدار ما قدم لدار القرار، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحشر: ١٨] الآيات؛ فإن وجد خيرًا؛ فليحمد الله، وإن وجد غير ذلك؛ فلا يلومن إلا نفسه. ولهذا كان الكفار يتمنون الموت من شدة الحسرة والندم ﴿ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾ ﴾. نسأل الله أن يعافينا من الكفر والشر كله إنه جواد كريم.

تم تفسير النبأ، ولله الحمد.



تفسير سورة النازعات

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿١﴾ - ﴿٥﴾ هذه الإقسامات بالملائكة الكرام وأفعالهم الدالة على كمال انقيادهم لأمر الله وإسراعهم في تنفيذه؛ يحتمل أن المقسم عليه الجزاء والبعث؛ بدليل الإتيان بأحوال القيامة بعد ذلك، ويحتمل أن المقسم عليه والمقسم به متحدان، وأنه أقسم على الملائكة؛ لأن الإيمان بهم أحد أركان الإيمان الستة، ولأن في ذكر أفعالهم هنا ما يتضمن الجزاء الذي تتولاه الملائكة عند الموت وقبله وبعده، فقال: ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ ﴾: وهم الملائكة التي تنزع الأرواح بقوة، وتغرق في نزعها حتى تخرج الروح فتجازى بعملها. ﴿ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ ﴾: وهي الملائكة أيضًا تجتذب الأرواح بقوة ونشاط، أو أن النشط يكون لأرواح المؤمنين والنزع لأرواح الكفار. ﴿ وَالسَّابِحَاتِ ﴾؛ أي: المترددات في الهواء صعودًا ونزولًا، ﴿ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ ﴾: لغيرها

﴿ سَبْقًا ۝٤ ﴾: فتبادر لأمر الله وتسبق الشياطين في إيصال الوحي إلى رسل الله؛ لئلا تسترقه، ﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥ ﴾: الملائكة الذين جعلهم الله يدبرون كثيرًا من أمور العالم العلوي والسفلي من الأمطار والنبات والرياح والبحار والأجنة والحيوانات والجنة والنار وغير ذلك.

(٦) - (٩) ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ ﴾: وهي قيام الساعة، ﴿ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ ﴾؛ أي: الرجفة الأخرى التي تردفها وتأتي تلوها. ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ ﴾؛ أي: منزعجة من شدة ما ترى وتسمع، ﴿ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ۝٩ ﴾؛ أي: ذليلة حقيرة قد ملك قلوبهم الخوف وأذهل أفئدتهم الفزع وغلب عليهم التأسف، واستولت عليهم الحسرة.

(١٠) - (١٤) ﴿ يَقُولُونَ ﴾؛ أي: الكفار في الدنيا على وجه التكذيب: ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝١١ ﴾؛ أي: بالية فتاتًا، ﴿ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢ ﴾؛ أي: استبعدوا أن يبعثهم الله ويعيدهم بعدما كانوا عظامًا نخرة جهلًا منهم بقدرة الله وتجرؤًا عليه! قال الله في بيان سهولة هذا الأمر عليه: ﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾: ينفخ في الصور؛ ﴿ فَإِذَا هُم ﴾ أي: الخلائق كلهم ﴿ بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤ ﴾؛ أي: على وجه الأرض قيام ينظرون، فيجمعهم الله، ويقضي بينهم بحكمه العدل، ويجازيهم.

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۝٢٥ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ۝٢٦ ﴾.

(١٥) - (٢٥) يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ ﴾: وهذا الاستفهام عن أمر عظيم متحقق وقوعه؛ أي: هل أتاك حديثه. ﴿ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦ ﴾: وهو المحل الذي كلمه الله فيه، وامتن عليه بالرسالة، وابتعثه بالوحي، واجتباه، فقال له: ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ ﴾؛ أي: فانهه عن طغيانه وشركه وعصيانه بقول لين وخطاب لطيف لعله يتذكر أو يخشى، ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ ﴾؛ أي: هل لك في خصلة حميدة ومحمدة جميلة يتنافس فيها أولو الألباب؟ وهي أن تزكي نفسك وتطهرها

إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ١٦ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ١٧
فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ١٩ فَأَرَىٰهُ
ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ٢١ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ٢٢ فَحَشَرَ
فَنَادَىٰ ٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ٢٤ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ
٢٥ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ٢٦ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا
٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ٢٩
وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ٣١
وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ٣٢ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ٣٣ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ
ٱلْكُبْرَىٰ ٣٤ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ٣٥ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ
لِمَن يَرَىٰ ٣٦ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ
هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ
٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ٤١ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا
٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ٤٤ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ
مَن يَخْشَىٰهَا ٤٥ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ٤٦

ترتيبها ٨٠ سُورَةُ عَبَسَ آياتها ٤٢

من دنس الكفر والطغيان إلى الإيمان والعمل الصالح. ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾؛ أي: أدلك عليه، وأبين لك مواقع رضاه من مواقع سخطه، ﴿ فَتَخْشَىٰ ۝١٩ ﴾: الله إذا علمت الصراط المستقيم. فامتنع فرعون مما دعاه إليه موسى، ﴿ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠ ﴾؛ أي: جنس الآية الكبرى؛ فلا ينافي تعددها، ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝١٠٧ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٠٨ ﴾ [الأعراف: ١٠٧، ١٠٨]. ﴿ فَكَذَّبَ ﴾: بالحق، ﴿ وَعَصَىٰ ۝٢١ ﴾: الأمر، ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝٢٢ ﴾؛ أي: يجتهد في مبارزة الحق ومحاربته. ﴿ فَحَشَرَ ﴾: جنوده؛ أي: جمعهم، ﴿ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ ﴾: لهم: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤ ﴾: فأذعنوا له وأقروا بباطله حين استخفهم. ﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۝٢٥ ﴾؛ أي: جعل الله عقوبته دليلًا وزاجرًا ومبينة لعقوبة الدنيا والآخرة.

(٢٦) ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ۝٢٦ ﴾: فإن من يخشى الله هو الذي ينتفع بالآيات والعبر؛ فإذا رأى عقوبة فرعون؛ عرف أن من تكبر وعصى وبارز الملك الأعلى؛ يعاقبه في

الدنيا والآخرة، وأما من ترحلت خشية الله من قلبه؛ فلو جاءته كل آية؛ لم يؤمن بها.

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿٢٧﴾ - ﴿٣٣﴾ يقول تعالى مبينًا دليلًا واضحًا لمنكري البعث ومستبعدي إعادة الله للأجساد: ﴿ ءَأَنتُمْ ﴾: أيها البشر، ﴿أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ﴾: ذات الجرم العظيم والخلق القوي والارتفاع الباهر، ﴿بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ ﴾: الله، ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا ﴾؛ أي: جرمها وصورتها. ﴿فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ ﴾: بإحكام وإتقان يحير العقول ويذهل الألباب، ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا ﴾؛ أي: أظلمه، فعمت الظلمة جميع أرجاء السماء، فأظلم وجه الأرض، ﴿ وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ ﴾؛ أي: أظهر فيه النور العظيم حين أتى بالشمس، فانتشر الناس في مصالح دينهم ودنياهم، ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾؛ أي: بعد خلق السماء ﴿ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ ﴾؛ أي: أودع فيها منافعها، وفسر ذلك بقوله: ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ ﴾؛ أي: ثبتها بالأرض، فَدَحْيُ الأرض بعد خلق السماء؛ كما هو نص هذه الآيات الكريمة، وأما خلق نفس الأرض؛ فمتقدم على خلق السماء؛ كما قال تعالى: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ ﴾ إلى أن قال: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ ﴾ [فصلت: ٩-١١]: فالذي خلق السماوات العظام وما فيها من الأنوار والأجرام والأرض الغبراء الكثيفة، وما فيها من ضروريات الخلق ومنافعهم لا بد أن يبعث الخلق المكلفين فيجازيهم بأعمالهم؛ فمن أحسن؛ فله الحسنى، ومن أساء؛ فلا يلومن إلا نفسه.

ولهذا ذكر بعد هذا قيام الساعة ثم الجزاء، فقال:

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿٣٤﴾ - ﴿٣٦﴾ أي: إذا جاءت القيامة الكبرى والشدة العظمى، التي يهون عندها كل شدة؛ فحينئذ يذهل الوالد عن ولده، والصاحب عن صاحبه، وكل محب عن حبيبه، و﴿ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ ﴾: في الدنيا من خير وشر، فيتمنى زيادة مثقال ذرة في حسناته، ويغمه ويحزن لزيادة مثقال ذرة في سيئاته، ويعلم إذ ذاك أن مادة ربحه وخسرانه ما سعاه في الدنيا، وينقطع كل سبب ووصلة كانت له في الدنيا سوى الأعمال، ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾؛ أي: جعلت في البراز ظاهرة لكل أحد؛ قد هيئت لأهلها، واستعدت لأخذهم منتظرة لأمر ربها.

﴿٣٧﴾ - ﴿٣٩﴾ ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ ﴾؛ أي: جاوز الحد بأن تجرأ على المعاصي الكبار ولم يقتصر على ما حده الله، ﴿ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ ﴾: على الآخرة، فصار سعيه لها ووقته مستغرقًا في حظوظها وشهواتها، ونسي الآخرة والعمل لها؛ ﴿ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾: له؛ أي: المقر والمسكن لمن هذه حاله.

﴿٤٠﴾، ﴿٤١﴾ ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ ﴾؛ أي: خاف القيام عليه ومجازاته بالعدل؛ فأثر هذا الخوف في قلبه، ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ﴾: هواها الذي يصدها عن طاعة الله، وصار هواه تبعًا لما جاء به الرسول، وجاهد الهوى والشهوة الصادين عن الخير؛ ﴿ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ ﴾: المشتملة على كل خير وسرور ونعيم، ﴿ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾: لمن هذا وصفه.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿٤٢﴾ - ﴿٤٤﴾ أي: يسألك المتعنتون المكذبون بالبعث ﴿ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ﴾: متى وقوعها؟ و﴿ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾؟! فأجابهم الله بقوله: ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ ﴾؛ أي: ما الفائدة لك ولهم في ذكرها ومعرفة وقت مجيئها؛ فليس تحت ذلك نتيجة، ولهذا لما كان علم العباد للساعة ليس لهم فيه مصلحة دينية ولا دنيوية، بل المصلحة في إخفائه عليهم، طوى علم ذلك عن جميع الخلق واستأثر بعلمه فقال: ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ ﴾؛ أي: إليه ينتهي علمها؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

(٤٥)، (٤٦) ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَـٰهَا (٤٥) ﴾؛ أي: إنما نذارتك نفعها لمن يخشى مجيء الساعة ويخاف الوقوف بين يدي الله؛ فهم الذين لا يهمهم إلا الاستعداد لها والعمل لأجلها، وأما من لم يؤمن بها؛ فلا يبالى به ولا بتعنته؛ لأنه تعنت مبني على التكذيب والعناد، وإذا وصل إلى هذه الحال؛ كان الإجابة عنه عبثًا، ينزه أحكم الحاكمين عنه.

تم تفسير سورة النازعات. والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة عبس
وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ (١) أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ (٤) أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠) ﴾.

سبب نزول هذه الآيات الكريمات أنه جاء رجل من المؤمنين أعمى يسأل النبي ﷺ ويتعلم منه، وجاءه رجل من الأغنياء، وكان ﷺ حريصًا على هداية الخلق، فمال ﷺ وأصغى إلى الغني وصد عن الأعمى الفقير؛ رجاء لهداية ذلك الغني وطمعًا في تزكيته، فعاتبه الله بهذا العتاب اللطيف فقال:

(١) - (١٠) ﴿ عَبَسَ ﴾؛ أي: في وجهه، ﴿ وَتَوَلَّىٰٓ (١) ﴾: في بدنه لأجل مجيء الأعمى له. ثم ذكر الفائدة في الإقبال عليه، فقال: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ ﴾؛ أي: الأعمى، ﴿ يَزَّكَّىٰٓ (٣) ﴾؛ أي: يتطهر عن الأخلاق الرذيلة ويتصف بالأخلاق الجميلة، ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ (٤) ﴾؛ أي: يتذكر ما ينفعه فينتفع[1] بتلك الذكرى، وهذه فائدة كبيرة، هي المقصودة من بعثة الرسل ووعظ الوعاظ وتذكير المذكرين؛ فإقبالك على من جاء بنفسه مفتقرًا لذلك مقبلًا هو الأليق الواجب، وأما تصديك وتعرضك للغني المستغني الذي لا يسأل ولا يستفتي لعدم رغبته في الخير مع تركك من هو[2] أهم

(١) ط: «فيعمل».
(٢) ساقط من المطبوع.

سُورَةُ عَبَسَ — الجُزْءُ الثَّلَاثُونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ (١) أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ (٣) أَوْ
يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ (٤) أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ (٦)
وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ
عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ (١٢) فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ
(١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ (١٤) بِأَيْدِى سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ (١٦) قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ
مَآ أَكْفَرَهُۥ (١٧) مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ (١٩) ثُمَّ
ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ (٢٢) كَلَّا لَمَّا
يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ (٢٣) فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا
(٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨)
وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَآئِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَـٰعًا لَّكُمْ
وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ (٣٢) فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤)
وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ
يُغْنِيهِ (٣٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ
يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ (٤٢)

٥٨٥

منه؛ فإنه لا ينبغي لك؛ فإنه ليس عليك ألَّا يزكى؛ فلو لم يتزك؛ فلست بمحاسب على ما عمله من الشر، فدل هذا على القاعدة المشهورة؛ أنه لا يُترك أمر معلوم لأمر موهوم، ولا مصلحة متحققة لمصلحة متوهمة، وأنه ينبغي الإقبال على طالب العلم المفتقر إليه الحريص عليه أزيد من غيره.

﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ (١٢) فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ (١٤) بِأَيْدِى سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ (١٦) قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ (١٧) مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ (١٩) ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ (٢٣) فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَآئِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ (٣٢) ﴾.

(١١) - (١٦) يقول تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) ﴾: أي: حقًّا إن هذه الموعظة تذكرة من الله يذكر بها عباده ويبين

لهم في كتابه ما يحتاجون إليه ويبين الرشد من الغي؛ فإذا تبين ذلك؛ ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ ﴾؛ أي: عمل به؛ كقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ ﴾ [الكهف: ٢٩]. ثم ذكر محل هذه التذكرة وعظمها ورفع قدرها، فقال: ﴿ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ﴿١٣﴾ مَّرۡفُوعَةٖ ﴾: القدر والرتبة، ﴿ مُّطَهَّرَةِۭ ﴿١٤﴾ ﴾: من الآفات وعن أن تنالها أيدي الشياطين أو يسترقوها، بل هي ﴿ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ﴿١٥﴾ ﴾: وهم الملائكة الذين هم سفراء بين الله وبين عباده، ﴿ كِرَامِۭ ﴾؛ أي: كثيري الخير والبركة، ﴿ بَرَرَةٖ ﴿١٦﴾ ﴾: قلوبهم وأعمالهم. وذلك كله حفظ من الله لكتابه؛ أن جعل السفراء فيه إلى الرسل الملائكة الكرام الأقوياء الأتقياء، ولم يجعل للشياطين عليه سبيلًا، وهذا مما يوجب الإيمان به وتلقيه بالقبول.

﴿١٧﴾ - ﴿٢٣﴾ ولكن مع هذا أبى الإنسان إلا كفورًا، ولهذا قال تعالى: ﴿ قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾: لنعمة الله، وما أشد معاندته للحق بعدما تبين، وهو ما هو؟ هو من أضعف الأشياء، خلقه الله من ماء مهين، ثم قدر خلقه وسواه بشرًا سويًّا، وأتقن قواه الظاهرة والباطنة، ﴿ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ﴾؛ أي: يسر له الأسباب الدينية والدنيوية، وهداه السبيل، وبينه، وامتحنه بالأمر والنهي، ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ﴾؛ أي: أكرمه بالدفن، ولم يجعله كسائر الحيوانات التي تكون جيفها على وجه الأرض، ﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ ﴾؛ أي: بعثه بعد موته للجزاء؛ فالله هو المنفرد بتدبير الإنسان وتصريفه بهذه التصاريف، لم يشاركه فيه مشارك، وهو مع هذا لا يقوم بما أمره الله، ولم يقض ما فرضه عليه، بل لا يزال مقصرًا تحت الطلب!

﴿٢٤﴾ - ﴿٣٢﴾ ثم أرشده الله إلى النظر والتفكر في طعامه، وكيف وصل إليه بعدما تكررت عليه طبقات عديدة ويسره [الله] له؛ فقال: ﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ﴿٢٥﴾ ﴾؛ أي: أنزلنا المطر على الأرض بكثرة ﴿ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ ﴾ للنبات ﴿ شَقّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا ﴾: أصنافًا مصنفة من أنواع الأطعمة اللذيذة والأقوات الشهية، ﴿ حَبّٗا ﴿٢٧﴾ ﴾: وهذا شامل لسائر الحبوب على اختلاف أصنافها، ﴿ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ ﴾: وهو القت، ﴿ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ ﴾: وخص هذه الأربعة لكثرة فوائدها ومنافعها، ﴿ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ ﴾؛ أي: بساتين فيها الأشجار الكثيرة الملتفة، ﴿ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾ ﴾: الفاكهة ما يتفكه فيه الإنسان من تين وعنب وخوخ ورمان وغير ذلك. والأبّ ما تأكله البهائم والأنعام، ولهذا قال: ﴿ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٢﴾ ﴾: التي خلقها الله وسخرها لكم. فمن نظر في هذه النعم؛ أوجب له ذلك شكر ربه وبذل الجهد في الإنابة إليه والإقبال على طاعته والتصديق لأخباره.

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ﴿٤٠﴾ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿٣٣﴾ - ﴿٤٢﴾ أي: إذا جاءت صيحة القيامة التي تصخ لهولها الأسماع وتنزعج لها الأفئدة يومئذ؛ مما يرى الناس من الأهوال وشدة الحاجة لسالف الأعمال؛ يفر المرء من أعز الناس إليه وأشفقهم عليه؛ من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته؛ أي: زوجته وبنيه، وذلك لأنه ﴿ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾؛ أي: قد أشغلته نفسه، واهتم لفكاكها، ولم يكن له التفات إلى غيرها. فحينئذ ينقسم الخلق إلى فريقين: سعداء وأشقياء: فأما السعداء؛ فوجوههم ﴿ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ﴿٣٨﴾ ﴾؛ أي: قد ظهر فيها السرور والبهجة مما عرفوا من نجاتهم وفوزهم بالنعيم، ﴿ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٞ ﴾: الأشقياء ﴿ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ﴿٤٠﴾ تَرۡهَقُهَا ﴾؛ أي: تغشاها ﴿ قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ ﴾: فهي سوداء مظلمة مدلهمة، قد أيست من كل خير، وعرفت شقاءها وهلاكها. ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾: الذين بهذا الوصف، ﴿ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾؛ أي: الذين كفروا بنعمة الله، وكذبوا بآياته، وتجرءوا على محارمه. نسأل الله العفو والعافية؛ إنه جواد كريم.

تم تفسير سورة عبس. والحمد لله رب العالمين.



تفسير سورة التكوير

وهي مكية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ

نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ ﴾.

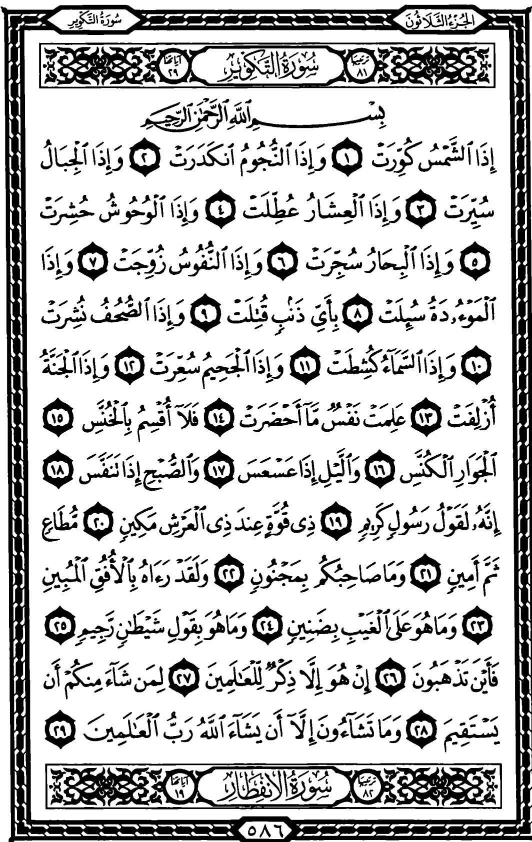
(١) - (١٤) أي: إذا حصلت هذه الأمور الهائلة؛ تميز الخلق، وعلم كل ما قدمه لآخرته وما أحضره فيها من خير وشر، وذلك أنه إذا كان يوم القيامة؛ تكور الشمس؛ أي: تجمع وتلف ويخسف القمر ويلقيان في النار، ﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ (٢) ﴾؛ أي: تغيرت وتناثرت من أفلاكها، ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) ﴾؛ أي: صارت كثيبًا مهيلًا، ثم صارت كالعهن المنفوش، ثم تغيرت وصارت هباء منبثًا وأزيلت عن أماكنها، ﴿ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) ﴾؛ أي: عطل الناس يومئذ نفائس أموالهم التي كانوا يهتمون لها، ويراعونها في جميع الأوقات، فجاءهم ما يذهلهم عنها، فنبه بالعشار - وهي النوق التي تتبعها أولادها، وهي أنفس أموال العرب إذ ذاك عندهم - على ما هو في معناها من كل نفيس.

﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) ﴾؛ أي: جمعت ليوم القيامة؛ ليقتص الله من بعضها لبعض، ويري العباد كمال عدله، حتى إنه يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء ثم يقال لها: كوني ترابًا[1]، ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) ﴾؛ أي: أوقدت فصارت على عظمها نارًا تتوقد، ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) ﴾؛ أي: قرن كل صاحب عمل مع نظيره، فجمع الأبرار مع الأبرار والفجار مع الفجار، وزوج المؤمنون بالحور العين والكافرون بالشياطين، وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ﴾، ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ [الزمر: ٧٢، ٧٣]، ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ [الصافات: ٢٢].

﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ (٨) ﴾: وهي التي كانت الجاهلية الجهلاء تفعله من دفن البنات وهن أحياء من غير سبب إلا خشية الفقر، فتسأل: ﴿ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ (٩) ﴾، ومن المعلوم أنها ليس لها ذنب، ولكن هذا فيه توبيخ وتقريع لقاتليها، ﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ ﴾: المشتملة على ما عمله العاملون من خير وشر، ﴿ نُشِرَتْ (١٠) ﴾: وفرقت على أهلها؛ فآخذ كتابه بيمينه وآخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره.

﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ (١١) ﴾؛ أي: أزيلت؛ كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ ﴾ [الفرقان: ٢٥]، ﴿ يَوْمَ نَطْوِى

(١) ابن جرير في «تفسيره» (٢٤/ ١٨٠).


الجُزْءُ الثَّلَاثُونَ — سُورَةُ التَّكْوِيرِ

سُورَةُ التَّكْوِيرِ ٨١ — آيَاتُهَا ٢٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ (٩) وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ (١٤) فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ (١٥) ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ (١٦) وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ (٢٧) لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢٩)

سُورَةُ الانفِطَارِ ٨٢ — آيَاتُهَا ١٩

٥٨٦

ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، ﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [الزمر: ٦٧]، ﴿ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) ﴾؛ أي: أوقد عليها فاستعرت والتهبت التهابًا لم يكن لها قبل ذلك، ﴿ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) ﴾؛ أي: قربت للمتقين، ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ﴾؛ أي: كل نفس لإتيانها في سياق الشرط، ﴿ مَّآ أَحْضَرَتْ (١٤) ﴾؛ أي: ما حضر لديها من الأعمال التي قدمتها؛ كما قال تعالى: ﴿ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

وهذه الأوصاف التي وصف بها يوم القيامة من الأوصاف التي تنزعج لها القلوب، وتشتد من أجلها الكروب، وترتعد الفرائص، وتعم المخاوف، وتحث أولي الألباب للاستعداد لذلك اليوم، وتزجرهم عن كل ما يوجب اللوم، ولهذا قال بعض السلف: من أراد أن ينظر ليوم القيامة كأنه رأي عين؛ فليتدبر سورة ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) ﴾.

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ (١٥) ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ (١٦) وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِى

﴿قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿١٥﴾، ﴿١٦﴾ أقسم تعالى ﴿بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾﴾: وهي الكواكب التي تخنس؛ أي: تتأخر عن سير الكواكب المعتاد إلى جهة المشرق، وهي النجوم السبعة السيارة؛ الشمس والقمر والزهرة والمشتري والمريخ وزحل وعطارد؛ فهذه السبعة لها سيران: سير إلى جهة المغرب مع سائر الكواكب والفلك[1]. وسير معاكس لهذا من جهة المشرق تختص به هذه السبعة دون غيرها، فأقسم الله بها في حال خنوسها؛ أي: تأخرها، وفي حال جريانها، وفي حال كنوسها؛ أي: استتارها بالنهار. ويحتمل أن المراد بها جميع الكواكب السيارة وغيرها.

﴿١٧﴾، ﴿١٨﴾ ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾﴾؛ أي: أقبل، وقيل أدبر، والنهار ﴿إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾؛ أي: بدت علائم الصبح، وانشق النور شيئًا فشيئًا حتى يستكمل وتطلع الشمس.

﴿١٩﴾ وهذه آيات عظام أقسم الله عليها لقوة سند القرآن[2] وجلالته وحفظه من كل شيطان رجيم، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾﴾: وهو جبريل عليه السلام، نزل به من الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٤]. ووصفه الله بالكريم لكرم أخلاقه وكثرة خصاله الحميدة؛ فإنه أفضل الملائكة وأعظمهم رتبة عند ربه.

﴿٢٠﴾ ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾: على ما أمره الله به، ومن قوته أنه قلب ديار قوم لوط بهم فأهلكهم، ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾؛ أي: جبريل مقرب عند الله، له منزلة رفيعة وخصيصة من الله اختصه بها، ﴿مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾؛ أي: له مكانة ومنزلة فوق منازل الملائكة كلهم.

﴿٢١﴾ ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾؛ أي: جبريل مطاع في الملأ الأعلى؛ لأنه[3] من الملائكة المقربين، نافذ فيهم أمره، مطاع رأيه، ﴿أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾؛ أي: ذو أمانة وقيام بما أمر به، لا يزيد ولا ينقص ولا يتعدى ما حد له، وهذا كله يدل على شرف القرآن عند الله تعالى؛ فإنه بعث به هذا الملك الكريم الموصوف بتلك الصفات الكاملة، والعادة أن الملوك لا ترسل الكريم عليها إلا في أهم المهمات وأشرف الرسائل.

﴿٢٢﴾ ولما ذكر فضل الرسول الملكي الذي جاء بالقرآن؛ ذكر فضل الرسول البشري الذي نزل عليه القرآن، ودعا إليه الناس، فقال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾: وهو محمد ﷺ ﴿بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾؛ كما يقوله أعداؤه المكذبون برسالته، المتقولون عليه الأقوال التي يريدون أن يطفئوا بها ما جاء به، بل هو أكمل الناس عقلًا، وأجزلهم رأيًا، وأصدقهم لهجة.

﴿٢٣﴾ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾؛ أي: رأى محمد ﷺ جبريل عليه السلام بالأفق البين الذي هو أعلى ما يلوح للبصر.

﴿٢٤﴾ ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾؛ أي: وما هو على ما أوحاه الله إليه بشحيح[4] أو يكتم بعضه، بل هو ﷺ أمين أهل السماء وأهل الأرض، الذي بلغ رسالات ربه البلاغ المبين، فلم يشح بشيء منه عن غني ولا فقير ولا رئيس ولا مرءوس ولا ذكر ولا أنثى ولا حضري ولا بدوي، ولذلك بعثه الله في أمة أمية جاهلة جهلاء، فلم يمت ﷺ حتى كانوا علماء ربانيين وأحبارًا متفرسين، إليهم الغاية في العلوم، وإليهم المنتهى في استخراج الدقائق والمفهوم، وهم الأساتذة، وغيرهم قصاراه أن يكون من تلاميذهم.

﴿٢٥﴾ ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾: لما ذكر جلالة كتابه وفضله بذكر الرسولين الكريمين اللذين وصل إلى الناس على أيديهما، وأثنى الله عليهما بما أثنى؛ دفع عنه كل آفة ونقص مما يقدح في صدقه، فقال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾؛ أي: في غاية البعد عن الله وعن قربه.

﴿٢٦﴾ ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾؛ أي: كيف يخطر هذا ببالكم؟! وأين عزبت عنكم أذهانكم حتى جعلتم الحق الذي هو في أعلى درجات الصدق بمنزلة الكذب الذي هو أنزل ما يكون وأرذل وأسفل الباطل؟! هل هذا إلا من انقلاب الحقائق؟!

(١) ط: «والأفلاك».
(٢) ط: «أقسم الله بها على علو سند القرآن».
(٣) ط: «لديه».
(٤) ط: «بمتهم يزيد فيه أو ينقص».

(٢٧) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٢٧)﴾: يتذكرون به ربهم وما له من صفات الكمال وما ينزه عنه من النقائص والرذائل والأمثال، ويتذكرون به الأوامر والنواهي وحكمها؛ ويتذكرون به الأحكام القدرية والشرعية والجزائية، وبالجملة يتذكرون به مصالح الدارين، وينالون بالعمل به السعادتين.

(٢٨) ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨)﴾: بعدما تبين الرشد من الغي والهدى من الضلال.

(٢٩) ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)﴾؛ أي: فمشيئته نافذة لا يمكن أن تعارض أو تمانع. وفي هذه الآية وأمثالها رد على فرقتي القدرية النفاة والقدرية المجبرة؛ كما تقدم مثالها. والله أعلم والحمد لله.

تفسير سورة الانفطار

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥)﴾.

(١) - (٥) أي: إذا انشقت السماء، وانفطرت، وتناثرت نجومها، وزال جمالها، وفجِّرت البحار، فصارت بحرًا واحدًا، وبعثرت القبور بأن أُخرج ما فيها من الأموات وحُشروا للموقف بين يدي الله للجزاء على الأعمال؛ فحينئذ ينكشف الغطاء، ويزول ما كان خفيًّا، وتعلم كل نفس ما معها من الأرباح والخسران. هنالك يعض الظالم على يديه إذا رأى ما قدمت يداه[1]، وأيقن بالشقاء الأبدي والعذاب السرمدي، وهنالك يفوز المتقون المقدمون لصالح الأعمال بالفوز العظيم والنعيم المقيم والسلامة من عذاب الجحيم.

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) كَلَّا

(١) عبارة «ما قدمت يداه» وردت ط: «أعماله باطلة، وميزانه قد خف، والمظالم قد تداعت إليه، والسيئات قد حضرت لديه».

الجزء الثلاثون — سورة الانفطار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ (١٩)

سُورَةُ المُطَفِّفِين — آياتها ٣٦ — ٨٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦)

٥٨٧

بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢)﴾.

(٦) - (٨) يقول تعالى معاتبًا للإنسان المقصر في حقه المتجرئ على معاصيه: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦)﴾: أتهاونًا منك في حقوقه؟ أم احتقارًا منك لعذابه؟! أم عدم إيمان منك بجزائه؟! أليس هو ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ﴾: في أحسن تقويم، ﴿فَعَدَلَكَ (٧)﴾: وركبك تركيبًا قويمًا معتدلًا في أحسن الأشكال وأجمل الهيئات؟! فهل يليق بك أن تكفر نعمة المنعم أو تجحد إحسان المحسن؟! إن هذا إلا من جهلك وظلمك وعنادك وغشمك؛ فاحمد الله إذ لم يجعل صورتك صورة كلب أو حمار أو نحوهما من الحيوانات، ولهذا قال تعالى: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨)﴾.

(٩) - (١٢) وقوله: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (٩)﴾؛ أي: مع هذا الوعظ والتذكير لا تزالون مستمرين على التكذيب

بالجزاء، وأنتم لا بد أن تحاسبوا على ما عملتم، وقد أقام الله عليكم ملائكة كرامًا، يكتبون أقوالكم وأفعالكم ويعلمونها، فدخل في هذا أفعال القلوب وأفعال الجوارح؛ فاللائق بكم أن تكرموهم وتجلوهم.

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿١٣﴾ - ﴿١٩﴾ المراد بالأبرار هم: القائمون بحقوق الله وحقوق عباده، الملازمون للبر في أعمال القلوب وأعمال الجوارح؛ فهؤلاء جزاؤهم النعيم في القلب والروح والبدن في دار الدنيا وفي دار البرزخ وفي دار القرار، ﴿ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ ﴾: الذين قصروا في حقوق الله وحقوق عباده، الذين فَجَرَت قلوبهم ففجرت أعمالهم، ﴿ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾؛ أي: عذاب أليم في دار الدنيا ودار البرزخ وفي دار القرار، ﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾: ويعذبون بها أشد العذاب ﴿ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ ﴾؛ أي: يوم الجزاء على الأعمال، ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ ﴾؛ أي: بل هم ملازمون لها لا يخرجون منها، ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ ﴾: في هذا تهويل لذلك اليوم الشديد، الذي يحير الأذهان، ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ﴾: ولو كانت قريبة أو حبيبة مصافية؛ فكلٌّ مشتغل بنفسه لا يطلب الفكاك لغيرها. ﴿ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾: فهو الذي يفصل بين العباد، ويأخذ للمظلوم حقه من ظالمه. والله أعلم.

تفسير سورة المطففين

وهي مدنية[1]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿١﴾ - ﴿٦﴾ ﴿ وَيْلٌ ﴾: كلمة عذاب ووعيد، ﴿ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ﴾: وفسر الله المطففين بأنهم ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾؛ أي: أخذوا منهم وفاء لهم عما قبلهم، يستوفونه كاملًا من غير نقص، ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ ﴾؛ أي: إذا أعطوا الناس حقهم الذي لهم عليهم بكيل أو وزن، ﴿ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ ﴾؛ أي: ينقصونهم ذلك إما بمكيال وميزان ناقصين، أو بعدم ملء المكيال والميزان، أو بغير ذلك؛ فهذا سرقة لأموال الناس وعدم إنصاف لهم منهم. وإذا كان هذا وعيدًا على الذين يبخسون الناس بالمكيال والميزان؛ فالذي يأخذ أموالهم قهرًا وسرقة أولى بهذا الوعيد من المطففين.

ودلت الآية الكريمة على أن الإنسان كما يأخذ من الناس الذي له يجب عليه أن يعطيهم كل ما لهم من الأموال والمعاملات، بل يدخل في عموم هذا الحجج والمقالات؛ فإنه كما أن المتناظرين قد جرت العادة أن كل واحد منهما يحرص على ما له من الحجة؛ فيجب عليه أيضًا أن يبين ما لخصمه من الحجج التي لا يعلمها، وأن ينظر في أدلة خصمه كما ينظر في أدلته هو، وفي هذا الموضع يعرف إنصاف الإنسان من تعصبه واعتسافه وتواضعه من كبره وعقله من سفهه، نسأل الله التوفيق لكل خير.

ثم توعد تعالى المطففين، وتعجب من حالهم وإقامتهم على ما هم عليه، فقال: ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾: فالذي جرأهم على التطفيف عدم إيمانهم باليوم الآخر؛ وإلا؛ فلو آمنوا به وعرفوا أنهم سيقومون بين يدي الله فيحاسبهم على القليل والكثير؛ لأقلعوا عن ذلك وتابوا منه.

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

(١) ط: «مكية»، والسورة مكية في قول جماعة وفي قول آخر: مدنية. راجع تفسير القرطبي ١٩/ ٢٥٠.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝١٧ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢١ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ۝٣١ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝٣٢ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ۝٣٣ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝٣٤﴾

(٧) - (٩) يقول تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾: وهذا شامل لكل فاجر من أنواع الكفرة والمنافقين والفاسقين، ﴿لَفِى سِجِّينٍ ۝٧﴾. ثم فسر ذلك بقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩﴾؛ أي: كتاب مذكور فيه أعمالهم الخبيثة. والسجين: المحل الضيق الضنك، وسجين ضد عليين، الذي هو محل كتاب الأبرار كما سيأتي. وقد قيل: إن سجين هو أسفل الأرض السابعة مأوى الفجار ومستقرهم في معادهم.

(١٠) - (١٣) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠﴾. ثم بينهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١﴾؛ أي: يوم الجزاء، يوم يدين الله الناس فيه بأعمالهم. ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾: على محارم الله متعد من الحلال إلى الحرام. ﴿أَثِيمٍ ۝١٢﴾؛ أي: كثير الإثم؛ فهذا يحمله عدوانه على التكذيب، ويوجب له كبره رد الحق، ولهذا قال: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾ الدالة على الحق وعلى صدق ما جاءت به الرسل؛ كذبها وعاندها وقال: هذه ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾؛ أي: من ترهات المتقدمين وأخبار الأمم الغابرين، ليست من عند الله؛ تكبرًا وعنادًا.

(١٤) - (١٧) وأما من أنصف وكان مقصوده الحق المبين؛ فإنه لا يكذب بيوم الدين؛ لأن الله قد أقام عليه من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة ما يجعله حق اليقين، وصار لبصائرهم بمنزلة الشمس للأبصار؛ بخلاف من ران على قلبه كسبه وغطته معاصيه؛ فإنه محجوب عن الحق، ولهذا جوزي على ذلك بأن حجب عن الله كما حجب قلبه[1] عن آيات الله. ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ﴾: مع هذه العقوبة البليغة، ﴿لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ﴾: لهم توبيخًا وتقريعًا: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝١٧﴾: فذكر لهم ثلاثة أنواع من العذاب: عذاب الجحيم، وعذاب التوبيخ واللوم، وعذاب الحجاب عن رب العالمين، المتضمن لسخطه وغضبه عليهم، وهو أعظم عليهم من عذاب النار.

ودل مفهوم الآية على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة، وفي الجنة، ويتلذذون بالنظر إليه أعظم من سائر اللذات ويبتهجون بخطابه ويفرحون بقربه؛ كما ذكر الله ذلك في عدة آيات من القرآن، وتواتر فيه النقل عن رسول الله.

وفي هذه الآيات التحذير من الذنوب؛ فإنها ترين على القلب وتغطيه شيئًا فشيئًا، حتى ينطمس نوره وتموت بصيرته، فتنقلب عليه الحقائق، فيرى الباطل حقًّا والحق باطلًا. وهذا من أعظم عقوبات الذنوب.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢١ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢٨﴾.

(١٨) - (٢١) لما ذكر أن كتاب الفجار في أسفل الأمكنة وأضيقها؛ ذكر أن كتاب الأبرار في أعلاها وأوسعها وأفسحها، وأن كتابهم المرقوم ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢١﴾: من الملائكة الكرام وأرواح الأنبياء والصديقين والشهداء وينوه الله بذكرهم في الملأ الأعلى. وعليون: اسم لأعلى الجنة.

(١) زاد ط: «في الدنيا».

عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾

سُورَةُ الانشِقَاقِ (٨٤) آياتها ٢٥

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴿١﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ
﴿٣﴾ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ
كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ
إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوۡفَ
يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ﴿١١﴾ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ﴿١٣﴾
إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقۡسِمُ
بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾
لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ
عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَۤ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ
﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾
إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ﴿٢٥﴾

(٢٢) - (٢٨) فلما ذكر كتابهم؛ ذكر أنهم في نعيم، وهو اسم جامع لنعيم القلب والروح والبدن. ﴿ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ ﴾؛ أي: على السرر المزينة بالفرش الحسان، ﴿ يَنظُرُونَ (٢٣) ﴾: إلى ما أعد الله لهم من النعيم، وينظرون إلى وجه ربهم الكريم، ﴿ تَعۡرِفُ ﴾: أيها الناظر، ﴿ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ (٢٤) ﴾؛ أي: بهاءه ونضارته ورونقه؛ فإن توالي اللذات والمسرات والأفراح يكسب الوجه نورًا وحسنًا وبهجة، ﴿ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ ﴾: وهو من أطيب ما يكون من الأشربة وألذها، ﴿ مَّخۡتُومٍ (٢٥) ﴾ ذلك الشراب ﴿ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞ ﴾: يحتمل أن المراد مختوم عن أن يداخله شيء ينقص لذته أو يفسد طعمه، وذلك الختام الذي ختم به مسك، ويحتمل أن المراد أنه الذي يكون في آخر الإناء الذي يشربون منه الرحيق حثالة، وهي المسك الأذفر؛ فهذا الكدر منه الذي جرت العادة في الدنيا أنه يراق يكون في الجنة بهذه المثابة. ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ ﴾: النعيم المقيم الذي لا يعلم حسنه ومقداره إلا الله، ﴿ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ (٢٦) ﴾؛ أي: فليتسابقوا في المبادرة إليه والأعمال الموصلة إليه؛ فهذا أولى ما بذلت فيه نفائس الأنفاس، وأحرى ما تزاحمت للوصول إليه فحول الرجال. وهذا الشراب مزاجه ﴿ مِن تَسۡنِيمٍ (٢٧) ﴾: وهي عين ﴿ يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ (٢٨) ﴾: صرفًا، وهي أعلى أشربة الجنة على الإطلاق؛ فلذلك كانت خالصة للمقربين، الذين هم أعلى الخلق منزلة، وممزوجة لأصحاب اليمين؛ أي: مخلوطة بالرحيق وغيره من الأشربة اللذيذة.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ (٣٢) وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ (٣٣) فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ (٣٤) عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ (٣٦) ﴾.

(٢٩) - (٣٣) لما ذكر تعالى جزاء المجرمين وجزاء المحسنين(١)، وذكر ما بينهما من التفاوت العظيم؛ أخبر أن المجرمين كانوا في الدنيا يسخرون بالمؤمنين ويستهزئون بهم و﴿ يَضۡحَكُونَ (٢٩) ﴾: منهم، فيتغامزون: بهم عند مرورهم عليهم احتقارًا لهم وازدراء، ومع هذا تراهم مطمئنين لا يخطر الخوف على بالهم، ﴿ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ﴾: صباحًا أو مساء، ﴿ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ (٣١) ﴾؛ أي: مسرورين مغتبطين، وهذا أشد ما يكون من الاغترار؛ أنهم جمعوا بين غاية الإساءة مع الأمن في الدنيا، حتى كأنهم قد جاءهم كتاب وعهد من الله أنهم من أهل السعادة، وقد حكموا لأنفسهم أنهم أهل الهدى، وأن المؤمنين ضالون؛ افتراء على الله، وتجرؤا على القول عليه بلا علم. قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ (٣٣) ﴾؛ أي: وما أرسلوا وكلاء على المؤمنين، ملزمين بحفظ أعمالهم، حتى يحرصوا على رميهم بالضلال، وما هذا منهم إلا تعنت وعناد وتلاعب ليس له مستند ولا برهان.

(٣٤) - (٣٦) ولهذا كان جزاؤهم في الآخرة من جنس عملهم؛ قال تعالى: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ ﴾؛ أي: يوم القيامة، ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ (٣٤) ﴾: حين يرونهم في غمرات العذاب يتقلبون وقد ذهب عنهم ما كانوا يفترون، والمؤمنون في غاية الراحة والطمأنينة ﴿ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ ﴾: وهي السرر

---

(١) ط: «المؤمنين».

المزينـة، ﴿ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾: إلـى ما أعـد الله لهم مـن النعيم، وينظـرون إلى وجـه ربهـم الكريـم. ﴿ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾؛ أي: هـل جُـوزُوا مـن جنس عملهـم؟ فكمـا ضحكـوا في الدنيا من المؤمنيـن ورموهـم بالضلال؛ ضحك المؤمنون منهم في الآخرة، حين رأوهـم في العذاب والنكال الـذي هو عقوبة الغي والضلال. نعـم؛ ثوبوا ما كانوا يفعلون عدلًا من الله وحكمة. والله عليم حكيم.

تفسير سورة الانشقاق

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿١﴾، ﴿٢﴾ يقـول تعالـى مبينًا لما يكون فـي يوم القيامة من تغير الأجرام العظام: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ ﴾؛ أي: انفطرت وتمايز بعضها من بعض، وانتثرت نجومها، وخسف شمسها وقمرها، ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾؛ أي: استمعت لأمره وألقت سمعها وأصاخـت لخطابه ﴿ وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ ﴾، أي: حق لها ذلك؛ فإنها مسـخرة مدبرة تحت مسـخر ملك عظيـم لا يعصى أمره ولا يخالف حكمه.

﴿٣﴾ - ﴿٥﴾ ﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ ﴾؛ أي: رجفـت وارتجت ونسـفت عليها جبالهـا ودك ما عليها من بناء ومعلم فسـويت، ومدهـا الله مد الأديـم، حتى صارت واسـعة جدًّا، تسع أهل الموقف على كثرتهم، فتصير قاعًا صفصفًا، لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا، ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا ﴾: من الأموات والكنوز، ﴿ وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ ﴾: منهم؛ فإنه ينفخ في الصور، فتخرج الأموات مـن الأجداث إلـى وجـه الأرض، وتخـرج الأرض كنوزها، حتى تكون كالأسـطوان العظيم، يشـاهده الخلق ويتحسرون على ما هم فيه يتنافسون، ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ ﴾.

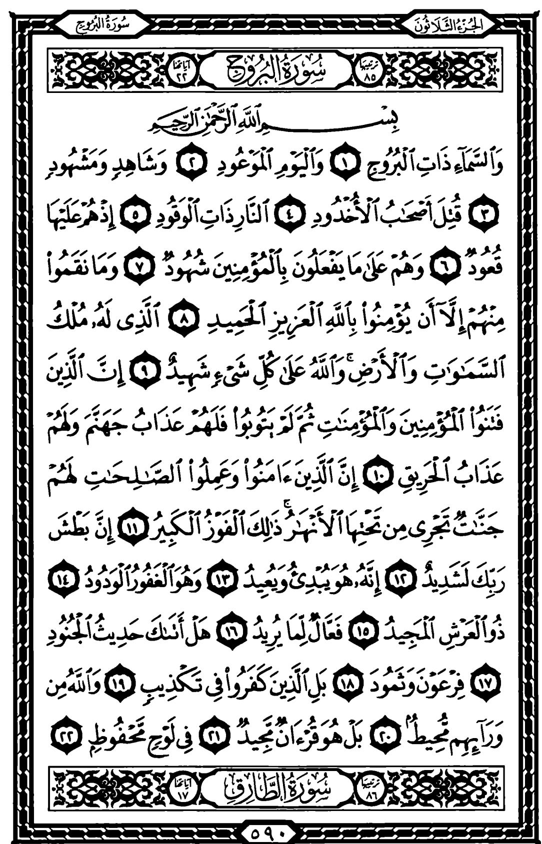
﴿٦﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ ﴾؛ أي: إنك سـاع إلى الله وعامل بأوامـره ونواهيه ومتقرب إليه إما بالخير وإما بالشر، ثم تلاقي الله يوم القيامة؛ فلا تعدم منه جزاء بالفضل أو العدل؛ بالفضل إن كنت سعيدًا، أو بالعقوبة العادلة إن كنت شقيًّا.

﴿٧﴾ - ﴿٩﴾ ولهـذا ذكـر تفصيـل الجزاء، فقـال: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴾: وهـم أهـل السـعادة، ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾: وهو العرض اليسير على الله، فيقرره الله بذنوبـه، حتى إذا ظن العبد أنه قد هلـك؛ قال الله تعالى: إني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أسترها لك اليوم، ﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ ﴾: فـي الجنة ﴿ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ ﴾: لأنه قـد نجا من العذاب وفاز بالثواب.

﴿١٠﴾ - ﴿١٥﴾ ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ ﴾؛ أي: بشماله من وراء ظهره، ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ ﴾: من الخزي والفضيحـة، ومـا يجد في كتابه من الأعمـال التي قدمها ولم يتـب منهـا، ﴿ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾؛ أي: تحيط به السـعير من كل جانـب، ويقلـب على عذابهـا، وذلك لأنـه ﴿ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ ﴾: لا يخطـر البعـث علـى بالـه، وقد أسـاء، ولم يظـن أنه راجـع إلى ربه وموقوف بين يديـه. ﴿ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾: فلا يحسـن أن يتركه سدًى لا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب.

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿١٦﴾ - ﴿١٩﴾ أقسـم فـي هـذا الموضع بآيات الليل، فأقسـم بالشـفق؛ الذي هو بقية نور الشـمس الذي هـو مفتتح الليل، ﴿ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ ﴾؛ أي: احتـوى عليـه مـن حيوانات وغيرهـا، ﴿ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ ﴾؛ أي: امتـلأ نورًا بإبداره، وذلك أحسـن ما يكـون وأكثر منافع. والمقسـم عليـه قوله: ﴿ لَتَرْكَبُنَّ ﴾؛ أي: أيهـا النـاس ﴿ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ ﴾؛ أي:


الجزء الثلاثون — سورة البروج

سورة البروج ٨٥ — آياتها ٢٢

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾

سورة الطارق ٨٦ — آياتها ١٧

٥٩٠

أطوارًا متعددة وأحوالًا متباينة من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى نفخ الروح، ثم يكون وليدًا وطفلًا ومميزًا، ثم يجري عليه قلم التكليف والأمر والنهي، ثم يموت بعد ذلك، ثم يبعث ويجازى بأعماله؛ فهذه الطبقات المختلفة الجارية على العبد دالة على أن الله وحده هو المعبود الموحد المدبر لعباده بحكمته ورحمته، وأن العبد فقير عاجز تحت تدبير العزيز الرحيم.

﴿٢٠﴾-﴿٢٤﴾ ومع هذا؛ فكثير من الناس لا يؤمنون، ﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ ﴾؛ أي: لا يخضعون للقرآن ولا ينقادون لأوامره ونواهيه، ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾؛ أي: يعاندون الحق بعدما تبين؛ فلا يستغرب عدم إيمانهم وانقيادهم للقرآن؛ فإن المكذب بالحق عنادًا لا حيلة فيه، ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾؛ أي: بما يعملونه وينوونه سرًّا؛ فالله يعلم سرهم وجهرهم، وسيجازيهم بأعمالهم، ولهذا قال: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ ﴾: وسميت البشارة بشارة؛ لأنها تؤثر في البشرة سرورًا أو غمًّا.

﴿٢٥﴾ فهذه حال أكثر الناس؛ التكذيب بالقرآن، وعدم الإيمان به. ومن الناس فريق هداهم الله فآمنوا بالله وقبلوا ما جاءتهم به الرسل، فـ﴿ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾: فهؤلاء ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾ ﴾؛ أي: غير مقطوع، بل هو أجر دائم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

والحمد لله.

تفسير سورة البروج
وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿١﴾-﴿٣﴾ ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ ﴾؛ أي: ذات المنازل المشتملة على منازل الشمس والقمر والكواكب المنتظمة في سيرها على أكمل ترتيب ونظام دال على كمال قدرة الله ورحمته وسعة علمه وحكمته. ﴿ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ ﴾: وهو يوم القيامة، الذي وعد الله الخلق أن يجمعهم فيه ويضم فيه أولهم وآخرهم وقاصيهم ودانيهم، الذي لا يمكن أن يتغير ولا يخلف الله الميعاد. ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ ﴾: وشمل هذا كل من اتصف بهذا الوصف؛ أي: مبصِر ومبصَر وحاضر ومحضور وراءٍ ومرئيٍّ. والمقسم عليه ما تضمنه هذا القسم من آيات الله الباهرة وحكمه الظاهرة ورحمته الواسعة. وقيل: إن المقسم عليه قوله:

(٤) - (٩) ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ (٤)﴾: وهذا دعاء عليهم بالهلاك، والأخدود الحُفَر التي تحفر في الأرض، وكان أصحاب الأخدود[1] هؤلاء قومًا كافرين، ولديهم قوم مؤمنون، فراودوهم على الدخول في دينهم، فامتنع المؤمنون من ذلك، فشق الكافرون أخدودًا في الأرض، وقذفوا فيها النار، وقعدوا حولها، وفتنوا المؤمنين، وعرضوهم عليها؛ فمن استجاب لهم أطلقوه، ومن استمر على الإيمان قذفوه في النار، وهذا غاية المحاربة لله ولحزبه المؤمنين، ولهذا لعنهم الله وأهلكهم وتوعدهم، فقال: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ (٤)﴾، ثم فسر الأخدود بقوله: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧)﴾: وهذا من أعظم ما يكون من التجبر وقساوة القلب؛ لأنهم جمعوا بين الكفر بآيات الله ومعاندتها ومحاربة أهلها وتعذيبهم بهذا العذاب الذي تنفطر منه القلوب وحضورهم إياهم عند إلقائهم فيها. والحال أنهم ما نقموا من المؤمنين إلا حالة[2] يمدحون عليها وبها سعادتهم، وهي أنهم كانوا يؤمنون ﴿بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ (٨)﴾؛ أي: الذي له العزة، التي قهر بها كل شيء، وهو حميد في أقواله وأفعاله وأوصافه. ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: خلقًا وعبيدًا يتصرف فيهم بما يشاء. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (٩)﴾: علمًا وسمعًا وبصرًا؛ أفلا خاف هؤلاء المتمردون عليه أن يأخذهم العزيز المقتدر، أو ما علموا كلهم أنهم مماليك لله، ليس لأحد على أحد سلطة من دون إذن المالك؟! أو خفي عليهم أن الله محيط بأعمالهم مجازيهم عليها؟! كلا إن الكافر في غرور، والجاهل في عمى وضلال عن سواء السبيل.

(١٠) ثم أوعدهم ووعدهم وعرض عليهم التوبة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ (١٠)﴾؛ أي: العذاب الشديد المحرق. قال الحسن رحمه الله: انظروا إلى هذا الكرم والجود؛ قتلوا أولياءه وأهل طاعته، وهو يدعوهم إلى التوبة.

(١١) ولما ذكر عقوبة الظالمين؛ ذكر ثواب المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: بقلوبهم، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: بجوارحهم، ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ (١١)﴾: الذي حصل لهم[3]؛ الفوز برضا الله ودار كرامته.

(١٢) ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢)﴾؛ أي: إن عقوبته لأهل الجرائم والذنوب العظام لقوية شديدة، وهو للظالمين بالمرصاد؛ قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢)﴾ [هود: ١٠٢].

(١٣) ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣)﴾؛ أي: هو المنفرد بإبداء الخلق وإعادته؛ فلا يشاركه في ذلك مشارك.

(١٤) ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾: الذي يغفر الذنوب جميعها لمن تاب، ويعفو عن السيئات لمن استغفره وأناب. ﴿ٱلْوَدُودُ (١٤)﴾: الذي يحبه أحبابه محبة لا يشبهها شيء؛ فكما أنه لا يشابهه شيء في صفات الجلال والجمال والمعاني والأفعال؛ فمحبته في قلوب خواص خلقه التابعة لذلك لا يشبهها شيء من أنواع المحاب، ولهذا كانت محبته أصل العبودية، وهي المحبة التي تتقدم جميع المحاب وتغلبها، وإن لم تكن غيرها تبعًا لها؛ كانت عذابًا على أهلها، وهو تعالى الودود الواد لأحبابه؛ كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]: والمودة هي المحبة الصافية.

وفي هذا سر لطيف؛ حيث قرن الودود بالغفور؛ ليدل ذلك على أن أهل الذنوب إذا تابوا إلى الله، وأنابوا غفر لهم ذنوبهم، وأحبهم فلا يقال تغفر ذنوبهم، ولا يرجع إليهم الود كما قاله بعض الغالطين، بل الله أفرح بتوبة عبده حين يتوب من رجل على راحلته عليها طعامه وشرابه وما يصلحه، فأضلها في أرض فلاة مهلكة، فأيس منها، فاضطجع في ظل شجرة ينتظر الموت، فبينما هو على تلك الحال؛ إذا راحلته على رأسه، فأخذ بخطامها. فالله أعظم فرحًا بتوبة العبد من هذا براحلته، وهذا أعظم فرح يقدر؛ فلله الحمد والثناء وصفو الوداد ما أعظم بره وأكثر خيره وأغزر إحسانه وأوسع امتنانه!

(١٥) ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ (١٥)﴾؛ أي: صاحب العرش العظيم، الذي من عظمته أنه وسع السماوات والأرض والكرسي؛ فهي بالنسبة إلى العرش كحلقة ملقاة في فلاة بالنسبة لسائر الأرض، وخص الله العرش بالذكر لعظمته،

(١) مسلم (٣٠٠٥).
(٢) ط: «خصلة».
(٣) ط: «به».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ
نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ
دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾
يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾
وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ
يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾

سُورَةُ الْأَعْلَى (٨٧) آياتها ١٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ
﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ
فَلَا تَنسَىٰ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ
لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾
وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ
فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾

٥٩١

ولأنه أخص المخلوقات بالقرب منه. وهذا على قراءة الجر يكون المجيد نعتًا للعرش، وأما على قراءة الرفع؛ فإنه يكون نعتًا لله، والمجد سعة الأوصاف وعظمتها.

(١٦) ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾؛ أي: مهما أراد شيئًا؛ فعله، إذا أراد شيئًا؛ قال له: كن. فيكون، وليس أحد فعالًا لما يريد إلا الله؛ فإن المخلوقات ولو أرادت شيئًا؛ فإنه لا بد لإرادتها من معاون وممانع، والله لا معاون لإرادته ولا ممانع له مما أراد.

(١٧)، (١٨) ثم ذكر من أفعاله الدالة على صدق ما جاءت به رسله، فقال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾: وكيف كذبوا المرسلين فجعلهم الله من المهلكين.

(١٩) ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾﴾؛ أي: لا يزالون مستمرين على التكذيب والعناد، لا تنفع فيهم الآيات، ولا تجدي لديهم العظات.

(٢٠) ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴿٢٠﴾﴾: قد أحاط بهم علمًا وقدرة؛ كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ١٤]؛ ففيه الوعيد الشديد للكافرين من عقوبة من هم في قبضته وتحت تدبيره.

(٢١)، (٢٢) ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾﴾؛ أي: وسيع المعاني عظيمها كثير الخير والعلم. ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾: من التغيير والزيادة والنقص، ومحفوظ من الشياطين، وهو اللوح المحفوظ، الذي قد أثبت الله فيه كل شيء، وهذا يدل على جلالة القرآن وجزالته ورفعة قدره عند الله تعالى. والله أعلم.

تفسير سورة الطارق
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾.

(١) - (٤) يقول الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾﴾: ثم فسر الطارق بقوله: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾﴾؛ أي: المضيء الذي يثقب نوره فيخرق السماوات فينفذ حتى يُرى في الأرض. والصحيح أنه اسم جنس يشمل سائر النجوم الثواقب. وقد قيل: إنه زحل، الذي يخرق السماوات السبع وينفذها[1] فيرى منها، وسمي طارقًا لأنه يطرق ليلًا. والمقسم عليه قوله: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾: يحفظ عليها أعمالها الصالحة والسيئة، وستجازى بعملها المحفوظ عليها.

(٥) - (٧) ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾﴾؛ أي: فليتدبر خلقته ومبدأه؛ فإنه خلق ﴿مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾﴾: وهو المني، الذي ﴿يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾﴾: يحتمل أنه من بين صلب الرجل وترائب المرأة، وهي ثدياها، ويحتمل أن المراد المني الدافق، وهو مني الرجل، وأن محله الذي يخرج منه ما بين صلبه وترائبه، ولعل هذا أولى؛ فإنه إنما وصف به

(١) ط: «وينفذ فيها».

الماء الدافق الذي يحس به ويشاهد دفقه، وهو مني الرجل، وكذلك لفظ الترائب؛ فإنها تستعمل للرجل؛ فإن الترائب للرجل بمنزلة الثديين للأنثى؛ فلو أريدت الأنثى؛ لقيل من الصلب والثديين ونحو ذلك. والله أعلم.

﴿٨﴾ - ﴿١٠﴾ فالذي أوجد الإنسان من ماء دافق يخرج من هذا الموضع الصعب قادر على رجعه في الآخرة وإعادته للبعث والنشور والجزاء. وقد قيل: إن معناه أن الله على رجع الماء المدفوق في الصلب لقادر، وهذا المعنى وإن كان صحيحًا؛ فليس هو المراد من الآية، ولهذا قال بعده: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾؛ أي: تختبر سرائر الصدور ويظهر ما كان في القلوب من خير وشر على صفحات الوجوه؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]؛ ففي الدنيا ينكتم كثير من الأشياء ولا يظهر عيانًا للناس، وأما يوم القيامة؛ فيظهر بر الأبرار وفجور الفجار، وتصير الأمور علانية. وقوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ﴾ أي: من نفسه يدفع بها، ﴿وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾: من خارج ينتصر به، فهذا القَسَم على العاملين وقت عملهم وعند جزائهم.

﴿١١﴾ - ﴿١٤﴾ ثم أقسم قسمًا ثانيًا على صحة القرآن، فقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾؛ أي: ترجع السماء بالمطر كل عام، وتنصدع الأرض للنبات، فيعيش بذلك الآدميون والبهائم، وترجع السماء أيضًا بالأقدار والشئون الإلهية كل وقت، وتنصدع الأرض عن الأموات، ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: القرآن، ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: حق وصدق بيِّن واضح، ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾؛ أي: جد ليس بالهزل، وهو القول الذي يفصل بين الطوائف والمقالات، وتنفصل به الخصومات.

﴿١٥﴾ - ﴿١٧﴾ ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: المكذبين للرسول ﷺ وللقرآن، ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾﴾: ليدفعوا بكيدهم الحق ويؤيدوا الباطل، ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾: لإظهار الحق، ولو كره الكافرون، ولدفع ما جاءوا به من الباطل، ويعلم بهذا من الغالب؛ فإن الآدمي أضعف وأحقر من أن يغالب القوي العليم في كيده. ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾؛ أي: قليلًا، فسيعلمون عاقبة أمرهم حين ينزل بهم العقاب.

تم تفسير سورة الطارق. والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الأعلى

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

﴿١﴾ - ﴿٣﴾ يأمر تعالى بتسبيحه المتضمن لذكره وعبادته والخضوع لجلاله والاستكانة لعظمته، وأن يكون تسبيحًا يليق بعظمة الله تعالى؛ بأن تذكر أسماؤه الحسنى العالية على كل اسم بمعناها العظيم الجليل، وتذكر أفعاله التي منها أنه خلق المخلوقات فسواها؛ أي: أتقن وأحسن خلقها، ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ﴾: تقديرًا تتبعه جميع المقدَّرات، ﴿فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾: إلى ذلك جميع المخلوقات، وهذه الهداية العامة التي مضمونها أنه هدى كل مخلوق لمصلحته.

﴿٤﴾، ﴿٥﴾ وتذكر فيها نعمه الدنيوية، ولهذا قال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾﴾؛ أي: أنزل من السماء ماء، فأنبت به أصناف النبات والعشب الكثير، فرتع فيه الناس والبهائم وجميع الحيوانات. ثم بعد أن استكمل ما قدر له من الشباب؛ ألوى نباته وصوَّح عشبه، ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾﴾؛ أي: أسود؛ أي: جعله هشيمًا رميمًا.

﴿٦﴾، ﴿٧﴾ ويذكر فيها نعمه الدينية، ولهذا امتن الله بأصلها ومادتها، وهو القرآن، فقال: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾؛ أي: سنحفظ ما أوحيناه إليك من الكتاب ونُوعيه قلبك؛ ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾ منه شيئًا، وهذه بشارة من الله كبيرة لعبده ورسوله محمد ﷺ؛ أن الله سيعلمه علمًا لا ينساه، ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾: مما اقتضت حكمته أن ينسيكه لمصلحة وحكمة بالغة. ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾﴾: ومن ذلك أنه يعلم ما يصلح عباده؛ أي: فلذلك يشرع ما أراد ويحكم بما يريد.

الجزء الثلاثون — سورة الغاشية

بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ
هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

سُورَةُ الغَاشِيَةِ (٨٨) آياتها ٢٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾
عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾
لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾
وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾
لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾
وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾
أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ
رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ
سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم
بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ
ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

٥٩٢

(٨) ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾﴾: وهذه أيضًا بشارة أخرى[1]؛ أن الله ييسر رسوله ﷺ لليسرى في جميع أموره، ويجعل شرعه ودينه يسيرًا.

(٩) - (١٣) ﴿فَذَكِّرْ﴾: بشرع الله وآياته، ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾﴾؛ أي: ما دامت الذكرى مقبولة والموعظة مسموعة، سواء حصل من الذكرى جميع المقصود أو بعضه. ومفهوم الآية أنه إن لم تنفع الذكرى؛ بأن كان التذكير يزيد في الشر أو ينقص من الخير؛ لم تكن الذكرى مأمورًا بها، بل هي منهي عنها؛ فالذكرى ينقسم الناس فيها قسمين: منتفعون، وغير منتفعين. فأما المنتفعون فقد ذكرهم بقوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾: الله؛ فإن خشية الله تعالى والعلم بمجازاته على الأعمال توجب للعبد الانكفاف عما يكرهه الله والسعي في الخيرات، وأما غير المنتفعين؛ فذكرهم بقوله: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾﴾: وهي النار الموقدة، التي تطلع على الأفئدة، ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: يعذب عذابًا أليمًا من غير راحة ولا استراحة، حتى إنهم يتمنون الموت؛ فلا يحصل لهم؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦].

(١٤)، (١٥) ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾؛ أي: قد فاز وربح مَنْ طَهَّرَ نفسه ونقاها من الشرك والظلم ومساوئ الأخلاق، ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾؛ أي: اتصف بذكر الله، وانصبغ به قلبه، فأوجب له ذلك العمل بما يرضي الله، خصوصًا الصلاة، التي هي ميزان الإيمان. هذا معنى الآية، وأما من فسر قوله: ﴿تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾؛ يعني: أخرج زكاة الفطر، ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾؛ أنه صلاة العيد؛ فإنه وإن كان داخلًا في اللفظ وبعض جزئياته؛ فليس هو المعنى وحده.

(١٦)، (١٧) ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾؛ أي: تقدمونها على الآخرة، وتختارون نعيمها المنغص المكدر الزائل على الآخرة، ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾: خير من الدنيا في كل وصف مطلوب، ﴿وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾؛ لكونها دار خلد وبقاء[2] والدنيا دار فناء. فالمؤمن العاقل لا يختار الأردأ على الأجود، ولا يبيع لذة ساعة بترحة الأبد، فحب الدنيا وإيثارها على الآخرة رأس كل خطيئة.

(١٨)، (١٩) ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾: المذكور لكم في هذه السورة المباركة من الأوامر الحسنة والأخبار المستحسنة، ﴿لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾: اللذين هما أشرف المرسلين بعد محمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين. فهذه أوامر في كل شريعة؛ لكونها عائدة إلى مصالح الدارين، وهي مصالح في كل زمان ومكان.

تمت. ولله الحمد.



تفسير سورة الغاشية

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾

(١) ط: «كبيرة».

(٢) ط: «وبقاء وصفاء».

﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧
وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠
لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣
وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾.

﴿١﴾ يذكر تعالى أحوال يوم القيامة وما فيها من الأهوال الطامة، وأنها تغشى الخلائق بشدائدها، فيجازون بأعمالهم، ويتميزون إلى فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير. فأخبر عن وصف كلا الفريقين:

﴿٢﴾ - ﴿٧﴾ فقال في وصف أهل النار: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم القيامة، ﴿خَاشِعَةٌ ۝٢﴾: من الذل والفضيحة والخزي، ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾؛ أي: تاعبة في العذاب، تجر على وجوهها، ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ۝٥٠﴾ [إبراهيم: ٥٠]؛ ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾: في الدنيا لكونهم في الدنيا أهل عبادات وعمل، ولكنه لما عدم شرطه، وهو الإيمان؛ صار يوم القيامة هباء منثورًا.

وهذا الاحتمال وإن كان صحيحًا من حيث المعنى؛ فلا يدل عليه سياق الكلام، بل الصواب المقطوع به هو الاحتمال الأول؛ لأنه قيده بالظرف، وهو يوم القيامة، ولأن المقصود هنا بيان ذكر أهل النار عمومًا، وذلك الاحتمال جزء قليل بالنسبة إلى أهل النار، ولأن الكلام في بيان حال الناس عند غشيان الغاشية؛ فليس فيه تعرض لأحوالهم في الدنيا.

وقوله: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾؛ أي: شديدًا حرها تحيط بهم من كل مكان، ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۝٥﴾؛ أي: شديدة الحرارة، ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩]؛ فهذا شرابهم، وأما طعامهم؛ فإنهم ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾: وذلك لأن المقصود من الطعام أحد أمرين: إما أن يسد جوع صاحبه ويزيل عنه ألمه، وإما أن يسمن بدنه من الهزال، وهذا الطعام ليس فيه شيء من هذين الأمرين، بل هو طعام في غاية المرارة والنتن والخسة، نسأل الله العافية.

﴿٨﴾ - ﴿١٦﴾ وأما أهل الخير؛ فوجوههم يوم القيامة ﴿نَّاعِمَةٌ ۝٨﴾؛ أي: قد جرت عليهم نضرة النعيم فنضرت أبدانهم واستنارت وجوههم وسروا غاية السرور، ﴿لِّسَعْيِهَا﴾: الذي قدمته في الدنيا من الأعمال الصالحة والإحسان إلى عباد الله، ﴿رَاضِيَةٌ ۝٩﴾: إذ وجدت ثوابه مدخرًا مضاعفًا، فحمدت عقباه، وحصل لها كل ما تتمناه. وذلك أنها ﴿فِي جَنَّةٍ﴾: جامعة لأنواع النعيم كلها، ﴿عَالِيَةٍ ۝١٠﴾: في محلها ومنازلها؛ فمحلها في أعلى عليين، ومنازلها مساكن عالية، لها غرف، ومن فوق الغرف غرف مبنية يشرفون منها على ما أعد الله لهم من الكرامة. ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣﴾[1] [الحاقة: ٢٣]؛ أي: كثيرة الفواكه اللذيذة المثمرة بالثمار الحسنة السهلة التناول؛ بحيث ينالونها على أي حال كانوا، لا يحتاجون أن يصعدوا شجرة أو يستعصي عليهم منها ثمرة. ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا﴾؛ أي: الجنة ﴿لَاغِيَةً ۝١١﴾؛ أي: كلمة لغو وباطل فضلًا عن الكلام المحرم، بل كلامهم كلام حسن نافع، مشتمل على ذكر الله وذكر نعمه المتواترة عليهم وعلى الآداب الحسنة[2] بين المتعاشرين الذي يسر القلوب ويشرح الصدور. ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢﴾: وهذا اسم جنس؛ أي: فيها العيون الجارية التي يفجرونها ويصرفونها كيف شاءوا وأنى أرادوا. ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣﴾: والسرر جمع سرير، وهي المجالس المرتفعة في ذاتها وبما عليها من الفرش اللينة الوطيئة. ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤﴾؛ أي: أوانٍ ممتلئة من أنواع الأشربة اللذيذة، قد وضعت بين أيديهم، وأعدت لهم، وصارت تحت طلبهم واختيارهم، يطوف بها عليهم الولدان المخلدون. ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥﴾؛ أي: وسائد من الحرير والإستبرق وغيرهما مما لا يعلمه إلا الله، قد صُفَّتْ للجلوس والاتكاء عليها، وقد أريحوا عن أن يضعوها أو يصفوها بأنفسهم. ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾: والزرابي هي البسط الحسان، مبثوثة؛ أي: مملوءة بها مجالسهم من كل جانب.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى السَّمَاءِ
كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى الْأَرْضِ
كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ
عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣ فَيُعَذِّبُهُ
اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ۝٢٤ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا
حِسَابَهُم ۝٢٦﴾.

(١) كذا، وهذه الآية من سورة الحاقة.
(٢) ط: «المستحسنة».

سورة الفجر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ
﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ
﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾
وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾
الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ
عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا
الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ
﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾
كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ
الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾
وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا
دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ
بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾

٥٩٣

﴿١٧﴾ - ﴿٢٠﴾ يقول تعالى حثًّا للذين لا يصدقون الرسول ﷺ ولغيرهم من الناس أن يتفكروا في مخلوقات الله الدالة على توحيده. ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾؛ أي: ألا ينظرون إلى خلقها البديع وكيف سخرها الله للعباد وذللها لمنافعهم الكثيرة التي يضطرون إليها؟ ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾﴾: بهيئة باهرة حصل بها الاستقرار للأرض وثباتها من الاضطراب وأودع الله فيها من المنافع الجليلة ما أودع، ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾؛ أي: مدت مدًّا واسعًا، وسهلت غاية التسهيل؛ ليستقر العباد على ظهرها ويتمكنوا من حرثها وغراسها والبنيان فيها وسلوك طرقها.

واعلم أن تسطيحها لا ينافي أنها كرة مستديرة قد أحاطت الأفلاك فيها من جميع جوانبها كما دل على ذلك النقل والعقل والحس والمشاهدة؛ كما هو مذكور معروف عند كثير من الناس، خصوصًا في هذه الأزمنة، التي وقف الناس على أكثر أرجائها بما أعطاهم الله من الأسباب المقربة للبعيد؛ فإن التسطيح إنما ينافي كروية الجسم الصغير جدًّا، الذي لو سطح؛ لم يبق له استدارة تذكر، وأما جسم الأرض الذي هو كبير جدًّا وواسع، فيكون كرويًّا مسطحًا، ولا يتنافى الأمران كما يعرف ذلك أرباب الخبرة.

﴿٢١﴾، ﴿٢٢﴾ ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾؛ أي: ذكر الناس وعظهم وأنذرهم وبشرهم؛ فإنك مبعوث لدعوة الخلق إلى الله وتذكيرهم، ولم تبعث عليهم مسلطًا ولا موكلًا بأعمالهم؛ فإذا قمت بما عليك؛ فلا عليك بعد ذلك لوم؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق: ٤٥].

﴿٢٣﴾، ﴿٢٤﴾ وقوله: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾﴾؛ أي: لكن من تولى عن الطاعة وكفر بالله، ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾؛ أي: الشديد الدائم.

﴿٢٥﴾، ﴿٢٦﴾ ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾؛ أي: رجوع الخلائق وجمعهم في يوم القيامة. ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾: على ما عملوا من خير وشر.

تم تفسير سورة الغاشية والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الفجر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾﴾.

﴿١﴾ - ﴿٥﴾ الظاهر أن المقسم عليه هو المقسم به، وذلك جائز مستعمل إذا كان أمرًا ظاهرًا مهمًّا، وهو كذلك في هذا الموضع. فأقسم تعالى بالفجر، الذي هو آخر الليل ومقدمة النهار؛ لما في إدبار الليل وإقبال النهار من الآيات الدالة على كمال قدرة الله تعالى، وأنه تعالى هو المدبر لجميع الأمور، الذي لا تنبغي العبادة إلا له. ويقع في الفجر صلاة فاضلة معظمة يحسن أن يقسم الله بها، ولهذا أقسم بعده بالليالي العشر، وهي على الصحيح ليالي عشر رمضان أو عشر ذي الحجة؛ فإنها ليال مشتملة على أيام فاضلة، ويقع فيها من العبادات والقربات ما لا يقع بغيرها. وفي ليالي عشر رمضان ليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر، وفي نهارها صيام

آخر رمضان، الذي هو أحد أركان الإسلام العظام. وفي أيام عشر ذي الحجة الوقوف بعرفة، الذي يغفر الله فيه لعباده مغفرة يحزن لها الشيطان؛ فإنه ما رئي الشيطان أحقر ولا أدحر منه في يوم عرفة[1]؛ لما يرى من تنزل الأملاك والرحمة من الله على عباده، ويقع فيها كثير من أفعال الحج والعمرة، وهذه أشياء معظمة مستحقة أن يقسم الله بها، ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤ ﴾؛ أي: وقت سريانه وإرخائه ظلامه على العباد، فيسكنون ويستريحون ويطمئنون رحمة منه تعالى وحكمة. ﴿ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ ﴾: المذكور، ﴿ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ۝٥ ﴾؛ أي: لذي عقل؟ نعم بعض ذلك يكفي ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ۝٣٧ ﴾ [ق: ٣٧].

﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ۝٩ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ۝١٤ ﴾.

۝٦ - ۝١٤ يقول تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ ﴾: بقلبك وبصيرتك، ﴿ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ ﴾: بهذه الأمة الطاغية، عاد وهي ﴿ إِرَمَ ﴾: القبيلة المعروفة في اليمن، ﴿ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ﴾؛ أي: القوة الشديدة والعتو والتجبر، ﴿ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٨ ﴾؛ أي: في جميع البلدان في القوة والشدة؛ كما قال لهم نبيهم هود عليه السلام: ﴿ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٦٩ ﴾ [الأعراف: ٦٩]. ﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ۝٩ ﴾؛ أي: وادي القرى؛ نحتوا بقوتهم الصخور فاتخذوها مساكن، ﴿ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ۝١٠ ﴾؛ أي: ذي الجنود الذين ثبتوا ملكه كما تثبت الأوتاد ما يراد إمساكه بها، ﴿ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝١١ ﴾: هذا الوصف عائد إلى عاد وثمود وفرعون ومن تبعهم؛ فإنهم طغوا في بلاد الله، وآذوا عباد الله في دينهم ودنياهم. ولهذا قال: ﴿ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ۝١٢ ﴾: وهو العمل بالكفر وشعبه من جميع أجناس المعاصي، وسعوا في محاربة الرسل وصد الناس عن سبيل الله، فلما بلغوا من العتو ما هو موجب لهلاكهم؛ أرسل الله عليهم من عذابه ذنوبًا وسوط عذاب، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ۝١٤ ﴾: لمن يعصيه؛ يمهله قليلًا ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

﴿ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ۝١٨ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ۝٢٠ ﴾.

۝١٥ - ۝٢٠ يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وأنه جاهل ظالم لا علم له بالعواقب، يظن الحالة التي تقع فيه تستمر ولا تزول، ويظن أن إكرام الله في الدنيا وإنعامه عليه يدل على كرامته وقربه منه، وأنه إذا قدر ﴿ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ ﴾؛ أي: ضيقه، فصار بقدر قوته لا يفضل عنه؛ أن هذا إهانة من الله له، فرد الله عليه هذا الحسبان، فقال: ﴿ كَلَّا ﴾؛ أي: ليس كل مَنْ نَعَّمْتُهُ في الدنيا فهو كريم علي، ولا كل من قدرت عليه رزقه فهو مهان لدي، وإنما الغنى والفقر والسعة والضيق ابتلاء من الله وامتحان يمتحن به العباد؛ ليرى من يقوم له بالشكر والصبر، فيثيبه على ذلك الثواب الجزيل، ممن ليس كذلك، فينقله إلى العذاب الوبيل. وأيضًا؛ فإن وقوف همة العبد عند مراد نفسه فقط من ضعف الهمة، ولهذا لامهم الله على عدم اهتمامهم بأحوال الخلق المحتاجين، فقال: ﴿ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ۝١٧ ﴾: الذي فقد أباه وكاسبه واحتاج إلى جبر خاطره والإحسان إليه؛ فأنتم لا تكرمونه بل تهينونه، وهذا يدل على عدم الرحمة في قلوبكم وعدم الرغبة في الخير، ﴿ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ۝١٨ ﴾؛ أي: لا يحض بعضكم بعضًا على إطعام المحاويج من الفقراء والمساكين، وذلك لأجل الشح على الدنيا ومحبتها الشديدة المتمكنة من القلوب. ولهذا قال: ﴿ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ ﴾؛ أي: المال المخلف، ﴿ أَكۡلٗا لَّمّٗا ۝١٩ ﴾؛ أي: ذريعًا، لا تبقون على شيء منه، ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ۝٢٠ ﴾؛ أي: كثيرًا شديدًا، وهذا كقوله تعالى: ﴿ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ۝١٧ ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]، ﴿ كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ۝٢١ ﴾ [القيامة: ٢٠، ٢١].

﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ۝٢١ ﴾ إلى آخرها.

۝٢١ - ۝٢٤ ﴿ كَلَّآ ﴾؛ أي: ليس كل ما أحببتم من الأموال وتنافستم فيه من اللذات بباقٍ لكم، بل أمامكم يوم عظيم

(١) مالك في (الموطأ) (١٢٦٩)، البيهقي في شعب الإيمان (٣٧٧٥).

الجزء الثلاثون — سورة البلد

يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ (٢٥)
وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ (٢٦) يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ (٢٧) ٱرۡجِعِيٓ
إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ (٢٨) فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي (٢٩) وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي (٣٠)

سورة البلد — مكية ٩٠ — آياتها ٢٠

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ (١) وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ (٢) وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ
(٣) لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ
أَحَدٞ (٥) يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا (٦) أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ
(٧) أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ (٨) وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ (٩) وَهَدَيۡنَٰهُ
ٱلنَّجۡدَيۡنِ (١٠) فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ (١١) وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ (١٢)
فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ (١٤) يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ
(١٥) أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ
بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ (١٧) أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ (١٨) وَٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ (١٩) عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ (٢٠)

سورة الشمس — مكية ٩١ — آياتها ١٥

٥٩٤

وهول جسيم تدك فيه الأرض والجبال وما عليها حتى تجعل قاعًا صفصفًا لا عوج فيه ولا أمتًا، ويجيء الله لفصل القضاء بين عباده في ظلل من الغمام، ويجيء الملائكة الكرام أهل السماوات كلهم ﴿ صَفّٗا صَفّٗا (٢٢) ﴾؛ أي: صفًا بعد صف، كل سماء يجيء ملائكتها صفًا، يحيطون بمن دونهم من الخلق، وهذه الصفوف صفوف خضوع وذل للملك الجبار، ﴿ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ ﴾: تقودها الملائكة بالسلاسل؛ فإذا وقعت هذه الأمور؛ فـ ﴿ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ ﴾: ما قدمه من خير وشر، ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ (٢٣) ﴾: فقد فات أوانها وذهب زمانها، ﴿ يَقُولُ ﴾: متحسرًا على ما فرط في جنب الله: ﴿ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي (٢٤) ﴾: الباقية الدائمة عملًا صالحًا؛ كما قال تعالى: ﴿ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا (٢٧) يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا (٢٨) ﴾ [الفرقان: ٢٧، ٢٨]، وفي هذا دليل على أن الحياة التي ينبغي السعي في كمالها وتحصيلها وكمالها وفي تتميم لذاتها هي الحياة في دار القرار؛ فإنها دار الخلد والبقاء.

(٢٥)، (٢٦) ﴿ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ (٢٥) ﴾: لمن أهمل ذلك اليوم ونسي العمل له، ﴿ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ (٢٦) ﴾؛ فإنهم يقرنون بسلاسل من نار، ويسحبون على وجوههم في الحميم، ثم في النار يسجرون؛ فهذا جزاء المجرمين.

(٢٧) - (٣٠) وأما من آمن بالله واطمأن به وصدق رسله؛ فيقال له: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ (٢٧) ﴾: إلى ذكر الله، الساكنة إلى حبه، التي قرت عينها بالله، ﴿ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾: الذي رباك بنعمته، وأسدى عليك من إحسانه ما صرت به من أوليائه وأحبابه ﴿ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ (٢٨) ﴾؛ أي: راضية عن الله وعما أكرمها به من الثواب، والله قد رضي عنها، ﴿ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي (٢٩) وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي (٣٠) ﴾: وهذا تخاطب به الروح يوم القيامة، وتخاطب به وقت السياق والموت.

والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة لا أقسم بهذا البلد
وهي مكية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ (١) وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ (٢) وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ (٥) يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا (٦) أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ (٧) أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ (٨) وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ (٩) وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ (١٠) فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ (١١) وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ (١٤) يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ (١٥) أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ (١٧) أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ (١٨) وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ (١٩) عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ (٢٠) ﴾.

(١) - (٣) يقسم تعالى ﴿ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ (١) ﴾ الأمين، وهو مكة المكرمة، أفضل البلدان على الإطلاق، خصوصًا وقت حلول الرسول ﷺ فيها، ﴿ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ (٣) ﴾؛ أي: آدم وذريته.

(٤) - (٧) والمقسم عليه قوله: ﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ (٤) ﴾: يحتمل أن المراد بذلك ما يكابده الإنسان

ويقاسيه من الشدائد في الدنيا وفي البرزخ ويوم يقوم الأشهاد، وأنه ينبغي له أن يسعى في عمل يريحه من هذه الشدائد ويوجب له الفرح والسرور الدائم، وإن لم يفعل؛ فإنه لا يزال يكابد العذاب الشديد أبد الآباد، ويحتمل أن المعنى لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم وأقوم خلقة يقدر على التصرف والأعمال الشديدة ومع ذلك فإنه لم يشكر الله على هذه النعمة العظيمة، بل بطر بالعافية، وتجبر على خالقه، فحسب بجهله وظلمه أن هذه الحال ستدوم له، وأن سلطان تصرفه لا ينعزل، ولهذا قال: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥)﴾: ويطغى ويفتخر بما أنفق من الأموال على شهوات نفسه؛ حيث ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا (٦)﴾؛ أي: كثيرًا بعضه فوق بعض. وسمى الله الإنفاق في الشهوات والمعاصي إهلاكًا؛ لأنه لا ينتفع المنفق بما أنفق، ولا يعود إليه من إنفاقه إلا الندم والخسار والتعب والقلة، لا كمن أنفق في مرضاة الله في سبيل الخير؛ فإن هذا قد تاجر مع الله وربح أضعاف أضعاف ما أنفق، قال الله متوعدًا هذا الذي افتخر بما أنفق في الشهوات: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ (٧)﴾؛ أي: أيظن في فعله هذا أن الله لا يراه ويحاسبه على الصغير والكبير؟! بل قد رآه الله وحفظ عليه أعماله ووكل به الكرام الكاتبين لكل ما عمله من خير وشر.

(٨) - (١٠) ثم قرره بنعمه، فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩)﴾: للجمال والبصر والنطق وغير ذلك من المنافع الضرورية فيها؛ فهذه نعم الدنيا. ثم قال في نعم الدين: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ (١٠)﴾؛ أي: طريقي الخير والشر؛ بينا له الهدى من الضلال، والرشد من الغي. فهذه المنن الجزيلة تقتضي من العبد أن يقوم بحقوق الله ويشكره على نعمه، وألّا يستعين بها على معاصي الله.

(١١) ولكن هذا الإنسان لم يفعل ذلك؛ ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ (١١)﴾؛ أي: لم يقتحمها ويعبر عليها؛ لأنه متبع لهواه، وهذه العقبة شديدة عليه.

(١٢) - (١٦) ثم فسر هذه العقبة بقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣)﴾؛ أي: فكها من الرق بعتقها أو مساعدتها على أداء كتابتها، ومن باب أولى فكاك الأسير المسلم عند الكفار، ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ (١٤)﴾؛ أي: مجاعة شديدة؛ بأن يطعم وقت الحاجة أشد الناس حاجة، ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥)﴾؛ أي: جامعًا بين كونه يتيمًا وفقيرًا ذا قرابة، ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦)﴾؛ أي: قد لزق بالتراب من الحاجة والضرورة.

(١٧) ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟[1]﴾؛ أي: آمنوا بقلوبهم بما يجب الإيمان به، وعملوا الصالحات بجوارحهم، فدخل في هذا كل قول وفعل واجب أو مستحب، ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾: على طاعة الله وعن معصيته وعلى أقداره المؤلمة؛ بأن يحث بعضهم بعضًا على الانقياد لذلك والإتيان به كاملًا منشرحًا به الصدر مطمئنة به النفس، ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ (١٧)﴾: للخلق؛ من إعطاء محتاجهم، وتعليم جاهلهم، والقيام بما يحتاجون إليه من جميع الوجوه، ومساعدتهم على المصالح الدينية والدنيوية، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه.

(١٨) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: الذين قاموا بهذه الأوصاف، الذين وفقهم الله لاقتحام العقبة، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ (١٨)﴾: لأنهم أدوا ما أمر الله به من حقوقه وحقوق عباده، وتركوا ما نهوا عنه، وهذا عنوان السعادة وعلامتها.

(١٩)، (٢٠) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: بأن نبذوا هذه الأمور وراء ظهورهم فلم يصدقوا بالله ولا آمنوا به ولا عملوا صالحًا ولا رحموا عباد الله. أولئك ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ (٢٠)﴾؛ أي: مغلقة، في عَمَد ممددة، قد مدت من ورائها؛ لئلا تنفتح أبوابها، حتى يكونوا في ضيق وهم وشدة.

تم تفسير سورة البلد. والحمد لله.



تفسير سورة والشمس وضحاها
وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا (١) وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا (٢) وَٱلنَّهَارِ إِذَا
جَلَّىٰهَا (٣) وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا (٤) وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا (٥) وَٱلْأَرْضِ
وَمَا طَحَىٰهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا (٨)
قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا (١٠) كَذَّبَتْ
ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ (١١) إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ
رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا

(١) بعده في الأصل: «وعملوا الصالحات».

الجزء الثلاثون — سورة الشمس — سورة الليل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾
وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا
﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ
أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ
بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ
نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ
عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾

سُورَةُ اللَّيْلِ ٩٢ ٢١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾
إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾
فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ
﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا
لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾

٥٩٥

فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾ ﴾.

(١) - (٦) أقسم تعالى بهذه الآيات العظيمة على النفس المفلحة وغيرها من النفوس الفاجرة، فقال: ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ ﴾؛ أي: نورها ونفعها الصادر منها، ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ ﴾؛ أي: تبعها في المنازل والنور، ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ ﴾؛ أي: جلَّى ما على وجه الأرض وأوضحه، ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ ﴾؛ أي: يغشى وجه الأرض، فيكون ما عليها مظلمًا؛ فتَعاقُب الظلمة والضياء والشمس والقمر على هذا العالم بانتظام وإتقان وقيام لمصالح العباد أكبر دليل على أن الله بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير، وأنه المعبود وحده، الذي كل معبود سواه باطل، ﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ ﴾: يحتمل أن (ما) موصولة، فيكون الإقسام بالسماء وبانيها، وهو الله تعالى، ويحتمل أنها مصدرية، فيكون الإقسام بالسماء وبنيانها الذي هو غاية ما يقدر من الإحكام والإتقان والإحسان. ونحو هذا قوله: ﴿ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ ﴾؛ أي: مدها ووسعها، فتمكن الخلق حينئذ من الانتفاع بها بجميع أوجه الانتفاع.

(٧)، (٨) ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ ﴾: يحتمل أن المراد: ونفس سائر المخلوقات الحيوانية؛ كما يؤيد هذا العموم، ويحتمل أن الإقسام بنفس الإنسان المكلف؛ بدليل ما يأتي بعده. وعلى كل؛ فالنفس آية كبيرة من آياته التي يحق الإقسام بها؛ فإنها في غاية اللطف والخفة، سريعة التنقل والحركة والتغير والتأثر والانفعالات النفسية من الهم والإرادة والقصد والحب والبغض، وهي التي لولاها؛ لكان البدن مجرد تمثال لا فائدة فيه، وتسويتها على ما هي عليه آية من آيات الله العظيمة.

(٩)، (١٠) وقوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ ﴾؛ أي: طهر نفسه من الذنوب، ونقاها من العيوب، ورقاها بطاعة الله، وعلاها بالعلم النافع والعمل الصالح، ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ ﴾؛ أي: أخفى نفسه الكريمة التي ليست حقيقة بقمعها وإخفائها بالتدنس بالرذائل والدنو من العيوب والذنوب، وترك ما يكملها وينميها، واستعمال ما يشينها ويدسِّيها.

(١١) - (١٥) ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ ﴾؛ أي: بسبب طغيانها وترفعها عن الحق وعتوها على رسولهم، ﴿ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ ﴾؛ أي: أشقى القبيلة، وهو قُدار بن سالف؛ لعقرها؛ حين اتفقوا على ذلك وأمروه فائتمر لهم، ﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﴾: صالح عليه السلام محذرًا: ﴿ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ ﴾؛ أي: احذروا عقر ناقة الله التي جعلها لكم آية عظيمة، ولا تقابلوا نعمة الله عليكم بسقي لبنها أن تعقروها، فكذبوا نبيهم صالحًا، ﴿ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ ﴾؛ أي: دمر عليهم، وعمهم بعقابه، وأرسل عليهم الصيحة من فوقهم والرجفة من تحتهم، فأصبحوا جاثمين على ركبهم، لا تجد منهم داعيًا ولا مجيبًا، ﴿ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ ﴾: عليهم؛ أي: سوى بينهم في العقوبة، ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾ ﴾؛ أي: تبعتها. وكيف يخاف من هو قاهر لا يخرج عن قهره وتصرفه مخلوق. الحكيم في كل ما قضاه وشرعه.

تمت ولله الحمد.



تفسير سورة والليل
وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ
وَٱلْأُنثَىٰٓ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ
بِٱلْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ
بِٱلْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ (١١) إِنَّ
عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ (١٣) فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤) لَا
يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى (١٥) ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا
ٱلْأَتْقَى (١٧) ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ
تُجْزَىٰٓ (١٩) إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (٢١)﴾.

(١)، (٢) هذا قسم من الله بالزمان الذي تقع فيه أفعال العباد على تفاوت أحوالهم، فقال: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١)﴾؛ أي: يعم الخلق بظلامه، فيسكن كل إلى مأواه ومسكنه، ويستريح العباد من الكد والتعب، ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢)﴾: للخلق، فاستضاءوا بنوره، وانتشروا في مصالحهم.

(٣) ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ (٣)﴾: إن كانت (ما) موصولة؛ كان إقسامًا بنفسه الكريمة الموصوفة بكونه خالق الذكور والإناث، وإن كانت مصدرية؛ كان قسمًا بخلقه للذكر والأنثى، وكمال حكمته في ذلك؛ أن خلق من كل صنف من الحيوانات التي يريد إبقاءها ذكرًا وأنثى؛ ليبقى النوع ولا يضمحل، وقاد كلًّا منهما إلى الآخر بسلسلة الشهوة، وجعل كلًّا منهما مناسبًا للآخر؛ فتبارك الله أحسن الخالقين.

(٤) وقوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤)﴾: هذا هو المقسم عليه؛ أي: إن سعيكم أيها المكلفون لمتفاوت تفاوتًا كثيرًا، وذلك بحسب تفاوت نفس الأعمال ومقدارها والنشاط فيها، وبحسب الغاية المقصودة بتلك الأعمال؛ هل هو وجه الله الأعلى الباقي، فيبقى العمل[1] له ببقائه، وينتفع به صاحبه؟ أم هي غاية مضمحلة فانية؛ فيبطل السعي ببطلانها ويضمحل باضمحلالها؟ وهذا كل عمل يقصد به غير وجه الله بهذا الوصف.

(١) ط: «السعي».

(٥) - (٧) ولهذا فضَّل[2] الله العاملين ووصف أعمالهم، فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾؛ أي: ما أمر به من العبادات المالية كالزكوات والنفقات والكفارات والصدقات والإنفاق في وجوه الخير، والعبادات البدنية كالصلاة والصوم وغيرهما، والمركبة من ذلك كالحج والعمرة ونحوهما، ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾: ما نهي عنه من المحرمات والمعاصي على اختلاف أجناسها، ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ (٦)﴾؛ أي: صدق بلا إله إلا الله، وما دلت عليه من العقائد الدينية وما ترتب عليها من الجزاء الأخروي، ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ (٧)﴾؛ أي: نيسر له أمره ونجعله مسهلًا عليه كل خير، ميسرًا له ترك كل شر؛ لأنه أتى بأسباب التيسير، فيسر الله له ذلك.

(٨) - (١٠) ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾: بما أمر به، فترك الإنفاق الواجب والمستحب، ولم تسمح نفسه بأداء ما وجب لله، ﴿وَٱسْتَغْنَىٰ (٨)﴾: عن الله، فترك عبوديته جانبًا، ولم ير نفسه مفتقرة غاية الافتقار إلى ربها، الذي لا نجاة لها ولا فوز ولا فلاح إلا بأن يكون هو محبوبها ومعبودها الذي تقصده وتتوجه إليه، ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ (٩)﴾؛ أي: بما أوجب الله على العباد التصديق به من العقائد الحسنة، ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ (١٠)﴾؛ أي: للحالة العسرة والخصال الذميمة؛ بأن يكون ميسرًا للشر أينما كان ومقيضًا له أفعال المعاصي. نسأل الله العافية.

(١١) ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ﴾: الذي أطغاه واستغنى به وبخل به إذا ﴿تَرَدَّىٰٓ (١١)﴾ أي: هلك ومات؛ فإنه لا يصحب الإنسان إلا عمله الصالح. وأما ماله الذي لم يخرج منه الواجب؛ فإنه يكون وبالًا عليه؛ إذ لم يقدم منه لآخرته شيئًا.

(١٢) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ (١٢)﴾؛ أي: إن الهدى المستقيم طريقه يوصل إلى الله ويدني من رضاه، وأما الضلال؛ فطرقه مسدودة عن الله، لا توصل صاحبها إلا للعذاب الشديد.

(١٣) ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ (١٣)﴾: ملكًا وتصرفًا، ليس له فيهما مشارك، فليرغب الراغبون إليه في الطلب، ولينقطع رجاؤهم عن المخلوقين.

(١٤) - (١٦) ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤)﴾؛ أي: تستعر وتتوقد، ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى (١٥) ٱلَّذِى كَذَّبَ﴾: بالخبر، ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾: عن الأمر.

(٢) ط: «فصل».

لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا
ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن
نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

سُورَةُ الضُّحَىٰ - مكية - آياتها ١١ - ترتيبها ٩٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾
وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ
فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا
فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ
﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

سُورَةُ الشَّرْحِ - مكية - آياتها ٨ - ترتيبها ٩٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ
أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ
مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾

٥٩٦

﴿١٧﴾ - ﴿٢١﴾ ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾: بأن يكون قصده به تزكية نفسه وتطهيرها من الذنوب والأدناس، قاصدًا به وجه الله تعالى. فدل هذا على أنه إذا تضمن الإنفاق المستحب تَرْكَ واجب كدين ونفقة ونحوهما؛ فإنه غير مشروع، بل تكون عطيته مردودة عند كثير من العلماء؛ لأنه لا يتزكى بفعل مستحب يفوت عليه الواجب، ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾﴾؛ أي: ليس لأحد من الخلق على هذا الأتقى نعمة تجزى؛ إلا وقد كافأه عليها، وربما بقي له الفضل والمنة على الناس، فتمحض عبدًا لله؛ لأنه رقيق إحسانه وحده، وأما من بقيت عليه نعمة للناس فلم يجزها ويكافئها؛ فإنه لا بد أن يترك للناس ويفعل لهم ما ينقص إخلاصه.

وهذه الآية وإن كانت متناولة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، بل قد قيل: إنها نزلت بسببه؛ فإنه رضي الله عنه ما لأحد عنده من نعمة تجزى، حتى ولا رسول الله ﷺ؛ إلا نعمة الرسول، التي لا يمكن جزاؤها، وهي نعمة الدعوة إلى دين الإسلام وتعليم الهدى ودين الحق؛ فإن لله ورسوله المنة على كل أحد، منة لا يمكن لها جزاء ولا مقابلة؛ فإنها متناولة لكل من اتصف بهذا الوصف الفاضل، فلم يبق لأحد عليه من الخلق نعمة تجزى، فبقيت أعماله خالصة لوجه الله تعالى، ولهذا قال: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾: هذا الأتقى بما يعطيه الله من أنواع الكرامات والمثوبات.

والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة والضحى

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾.

﴿١﴾ - ﴿٣﴾ أقسم تعالى بالنهار إذا انتشر ضياؤه؛ بالضحى، وبالليل ﴿إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾﴾ وادلهمت ظلمته؛ على اعتناء الله برسوله ﷺ، فقال: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾؛ أي: ما تركك منذ اعتنى بك، ولا أهملك منذ رباك ورعاك، بل لم يزل يربيك أكمل تربية ويعليك درجة بعد درجة، ﴿وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ كَ الله؛ أي: ما أبغضك منذ أحبك؛ فإن نفي الضد دليل على ثبوت ضده، والنفي المحض لا يكون مدحًا إلا إذا تضمن ثبوت كمال. فهذه حال الرسول ﷺ الماضية والحاضرة، أكمل حال وأتمها، محبة الله له واستمرارها وترقيته في درجات الكمال ودوام اعتناء الله به.

﴿٤﴾ وأما حاله المستقبلة؛ فقال: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾؛ أي: كل حالة متأخرة من أحوالك؛ فإن لها الفضل على الحالة السابقة، فلم يزل ﷺ يصعد في درج المعالي، ويمكن الله له دينه، وينصره على أعدائه، ويسدده في أحواله، حتى مات وقد وصل إلى حال ما وصل إليها الأولون والآخرون؛ من الفضائل والنعم وقرة العين وسرور القلب.

﴿٥﴾ ثم بعد هذا لا تسأل عن حاله في الآخرة من تفاصيل الإكرام وأنواع الإنعام، ولهذا قال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ

فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾: وهـذا أمر لا يمكن التعبير عنه إلا بهذه العبارة الجامعة الشاملة.

۝٦ - ۝٨ ثـم امتـن عليه بما يعلمه مـن أحواله الخاصة، فقـال: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾؛ أي: وجـدك لا أم لـك ولا أب، بـل قد مات أبوه وأمه وهو لا يدبر نفسـه، فآواه اللـه، وكفّلـه جده عبد المطلب، ثم لما مـات جده؛ كفله الله عمه أبا طالب، حتى أيده الله بنصره وبالمؤمنين، ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧﴾؛ أي: وجـدك لا تـدري ما الكتـاب ولا الإيمـان، فعلمـك مـا لـم تكن تعلـم، ووفقك لأحسـن الأعمـال والأخـلاق. ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا﴾؛ أي: فقيرًا فأغناك اللـه بمـا فتـح عليك مـن البلـدان، التي جبيت لـك أموالها وخراجهـا، فالذي أزال عنك هذه النقائص سـيزيل عنك كل نقص، والـذي أوصلك إلـى الغنى وآواك ونصـرك وهداك، قابل نعمته بالشكران.

۝٩ - ۝١١ ولهـذا قـال: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩﴾؛ أي: لا تسـئ معاملة اليتيـم، ولا يضق صدرك عليـه، ولا تنهره، بل أكرمـه، وأعطه ما تيسـر، واصنع به كما تحب أن يصنع بولدك مـن بعـدك، ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠﴾؛ أي: لا يصدر منك كلام للسـائل يقتضـي رده عن مطلوبه بنهر وشراسـة خلق، بل أعطه ما تيسر عندك، أو رده بمعروف وإحسان. ويدخل في هذا السائل للمال والسائل للعلم، ولهذا كان المعلم مأمورًا بحسن الخلـق مع المتعلم ومباشـرته بالإكرام والتحنـن عليه؛ فإن في ذلـك معونة لـه على مقصـده وإكرامًا لمن كان يسـعى في نفع العبـاد والبـلاد، ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾: وهذا يشـمل النعم الدينيـة والدنيوية؛ أي: أثن على الله بها، وخصها بالذكر إن كان هنـاك مصلحة، وإلا؛ فحدث بنعـم الله على الإطلاق؛ فإن التحدث بنعمة الله داعٍ لشكرها وموجب لتحبيب القلوب إلى من أنعم بها؛ فإن القلوب مجبولة على محبة المحسن.



تفسير سورة ألم نشرح لك صدرك
وهي مكية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝١ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ۝٣ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ۝٦ فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ۝٨﴾.

۝١ - ۝٤ يقول تعالى ممتنًا على رسـوله: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝١﴾؛ أي: نوسـعه لشـرائع الدين والدعوة إلى الله والاتصاف بمكارم الأخلاق والإقبال على الآخرة وتسـهيل الخيـرات، فلم يكن ضيقًا حرجًا حتى لا يكاد ينقاد لخير ولا تـكاد تجـده منبسـطًا، ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢﴾؛ أي: ذنبـك، ﴿ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ﴾؛ أي: أثقـل ﴿ظَهۡرَكَ ۝٣﴾؛ كما قال تعالـى: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ۝٤﴾؛ أي: أعلينـا قـدرك، وجعلنـا لك الثنـاء الحسـن العالـي، الذي لم يصـل إليه أحد مـن الخلق؛ فـلا يذكـر الله؛ إلا ذكر معه رسـوله ﷺ؛ كما في الدخول في الإسـلام، وفي الأذان، والإقامة، والخطب... وغير ذلك من الأمـور التـي أعلـى الله بها ذكر رسـوله محمـد ﷺ، وله في قلـوب أمته مـن المحبة والإجـلال والتعظيم مـا ليس لأحد غيـره بعد الله تعالى؛ فجزاه الله عـن أمته أفضل ما جزى نبيًّا عن أمته.

۝٥، ۝٦ وقولـه: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ۝٦﴾ [الشرح: ٥، ٦]: بشـارة عظيمة أنه كلما وُجد عسـر وصعوبـة؛ فإن اليسـر يقارنه ويصاحبه، حتى لو دخل العسـر جحـر ضـب؛ لدخل عليه اليسـر فأخرجـه؛ كما قـال تعالـى: ﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ۝٧﴾، وكمـا قـال النبـي ﷺ: «**وإن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسرًا**»[(١)].

وتعريف العسـر فـي الآيتين يـدل على أنه واحـد، وتنكير اليسر يدل على تكراره؛ فلن يغلب عسر يسرين.

وفي تعريفه بالألف واللام الدال على الاستغراق والعموم يـدل على أن كل عسـر وإن بلغ من الصعوبة مـا بلغ؛ فإنه في آخره التيسير ملازم له.

۝٧، ۝٨ ثـم أمـر رسـوله أصـلًا والمؤمنين تبعًا بشـكره والقيـام بواجب نعمه، فقـال: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝٧﴾؛ أي: إذا تفرغت من أشغالك، ولم يبق في قلبك ما يعوقه؛ فاجتهد فـي العبـادة والدعـاء، ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ﴾: وحده ﴿فَٱرۡغَب ۝٨﴾؛ أي: أعظم الرغبـة فـي إجابـة دعائـك وقبـول دعواتـك[(٢)]،

(١) أحمد (٢٨٠٣)، الترمذي (٢٥١٦).
(٢) ط: «عباداتك».

الجزء الثلاثون — سورة التين — سورة العلق

سورة التين — آياتها ٨ — ترتيبها ٩٥

بسم الله الرحمن الرحيم

والتين والزيتون ١ وطور سينين ٢ وهذا البلد الأمين ٣
لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ٤ ثم رددناه أسفل سافلين
٥ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ٦
فما يكذبك بعد بالدين ٧ أليس الله بأحكم الحاكمين ٨

سورة العلق — آياتها ١٩ — ترتيبها ٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

اقرأ باسم ربك الذي خلق ١ خلق الإنسان من علق ٢ اقرأ وربك
الأكرم ٣ الذي علم بالقلم ٤ علم الإنسان ما لم يعلم ٥ كلا إن
الإنسان ليطغى ٦ أن رآه استغنى ٧ إن إلى ربك الرجعى ٨ أرأيت
الذي ينهى ٩ عبدا إذا صلى ١٠ أرأيت إن كان على الهدى ١١ أو أمر
بالتقوى ١٢ أرأيت إن كذب وتولى ١٣ ألم يعلم بأن الله يرى ١٤ كلا لئن
لم ينته لنسفعا بالناصية ١٥ ناصية كاذبة خاطئة ١٦ فليدع ناديه
١٧ سندع الزبانية ١٨ كلا لا تطعه واسجد واقترب ۩ ١٩

٥٩٧

ولا تكن ممن إذا فرغوا؛ لعبوا وأعرضوا عن ربهم وعن ذكره، فتكون من الخاسرين.

وقد قيل: إن معنى هذا: فإذا فرغت من الصلاة وأكملتها؛ فانصب في الدعاء، وإلى ربك فارغب في سؤال مطالبك.

واستدل من قال هذا القول على مشروعية الدعاء والذكر عقب الصلوات المكتوبات. والله أعلم.

تمت. والحمد لله.

تفسير سورة والتين
وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ والتين والزيتون (١) وطور سينين (٢) وهذا البلد الأمين (٣) لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم (٤) ثم رددناه أسفل سافلين (٥) إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون (٦) فما يكذبك بعد بالدين (٧) أليس الله بأحكم الحاكمين (٨) ﴾.

(١) - (٣) ﴿ والتين ﴾: هو التين المعروف، وكذلك (الزيتون)؛ أقسم بهاتين الشجرتين؛ لكثرة منافع شجرهما وثمرهما، ولأن سلطانهما في أرض الشام محل نبوة عيسى ابن مريم عليه السلام، ﴿ وطور سينين (٢) ﴾؛ أي: طور سيناء محل نبوة موسى عليه السلام، ﴿ وهذا البلد الأمين (٣) ﴾: وهو مكة المكرمة محل نبوة محمد ﷺ. فأقسم تعالى بهذه المواضع المقدسة التي اختارها وابتعث منها أفضل الأنبياء وأشرفهم.

(٤) والمقسم عليه قوله: ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم (٤) ﴾؛ أي: تام الخلق، متناسب الأعضاء، منتصب القامة، لم يفقد مما يحتاج إليه ظاهرًا وباطنًا شيئًا.

(٥)، (٦) ومع هذه النعم العظيمة، التي ينبغي منه القيام بشكرها؛ فأكثر الخلق منحرفون عن شكر المنعم، مشتغلون باللهو واللعب، قد رضوا لأنفسهم بأسافل الأمور وسفساف الأخلاق، فردهم الله في ﴿ أسفل سافلين (٥) ﴾؛ أي: أسفل النار موضع العصاة المتمردين على ربهم؛ إلا مَنْ مَنَّ الله عليه بالإيمان والعمل الصالح والأخلاق الفاضلة العالية، ﴿ فلهم ﴾: بذلك المنازل العالية، و﴿ أجر غير ممنون (٦) ﴾؛ أي: غير مقطوع، بل لذات متوافرة وأفراح متواترة ونعم متكاثرة؛ في أبد لا يزول، ونعيم لا يحول، أكلها دائم وظلها.

(٧)، (٨) ﴿ فما يكذبك بعد بالدين (٧) ﴾؛ أي: أي شيء يكذبك أيها الإنسان بيوم الجزاء على الأعمال؟ وقد رأيت من آيات الله الكثيرة ما يحصل لك به اليقين، ومن نعمه ما يوجب عليك ألَّا تكفر بشيء منها. ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين (٨) ﴾: فهل تقتضي حكمته أن يترك الخلق سدًى لا يؤمرون ولا ينهون ولا يثابون ولا يعاقبون؟ أم الذي خلق الإنسان أطوارًا بعد أطوار، وأوصل إليهم من النعم والخير والبر ما لا يحصونه، ورباهم التربية الحسنة؛ لا بد أن يعيدهم إلى دار هي مستقرهم وغايتهم التي إليها يقصدون ونحوها يؤمون.

تم تفسير سورة التين. والحمد لله.

تفسير سورة اقرأ
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿١﴾ هـذه السورة أول السور القرآنية نزولًا على رسول الله ﷺ؛ فإنها نزلت عليه في مبادئ النبوة؛ إذ كان لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان، فجاءه جبريل عليه السلام بالرسالة، وأمره أن يقرأ، فاعتذر[1] وقال: ما أنا بقارئ! فلم يزل به حتى قرأ؛ فأنزل الله: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ ﴾: عموم الخلق.

﴿٢﴾ ثم خص الإنسان، وذكر ابتداء خلقه ﴿ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ﴾؛ فالذي خلق الإنسان واعتنى بتدبيره لا بد أن يدبره بالأمر والنهي، وذلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب، ولهذا أتى[2] بعد الأمر بالقراءة بخلقه للإنسان.

﴿٣﴾ - ﴿٥﴾ ثم قال: ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ﴾؛ أي: كثير الصفات، واسعها، كثير الكرم والإحسان، واسع الجود، الذي من كرمه أن علم أنواع العلوم، و﴿ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾: فإنه تعالى أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئًا، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، ويسر له أسباب العلم؛ فعلمه القرآن، وعلمه الحكمة، وعلمه بالقلم، الذي تحفظ به العلوم وتضبط الحقوق، وتكون رسلًا للناس تنوب مناب خطابهم؛ فلله الحمد والمنة الذي أنعم على عباده بهذه النعم، التي لا يقدرون لها على جزاء ولا شكور، ثم من عليهم بالغنى وسعة الرزق.

﴿٦﴾ - ﴿٨﴾ ولكن الإنسان لجهله وظلمه؛ إذا رأى نفسه غنيًّا؛ طغى، وبغى، وتجبر عن الهدى، ونسي أن لربه ﴿ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾ ﴾: ولم يخف الجزاء، بل ربما وصلت به الحال أنه يترك الهدى بنفسه ويدعو غيره إلى تركه، فينهى عن الصلاة التي هي أفضل أعمال الإيمان.

﴿٩﴾ - ﴿١٤﴾ يقول الله لهذا المتمرد العاتي: ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾: أيها الناهي للعبد إذا صلى، ﴿ إِن كَانَ ﴾: العبد المصلي ﴿ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ ﴾: العلم بالحق والعمل به، ﴿ أَوْ أَمَرَ ﴾: غيره ﴿ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾: فهل يحسن أن ينهى من هذا وصفه؟! أليس نهيه من أعظم المحادة لله والمحاربة للحق؟! فإن النهي لا يتوجه إلا لمن هو في نفسه على غير الهدى، أو كان يأمر غيره بخلاف التقوى، ﴿ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ ﴾: الناهي بالحق، ﴿ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ ﴾: عن الأمر؟ أما يخاف الله ويخشى عقابه؟! ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾: ما يعمل ويفعل.

﴿١٥﴾، ﴿١٦﴾ ثم توعده إن استمر على حاله، فقال: ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ﴾: عما يقول ويفعل، ﴿ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ ﴾؛ أي؛ لنأخذن بناصيته أخذًا عنيفًا، وهي حقيقة بذلك؛ فإنها ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾؛ أي: كاذبة في قولها، خاطئة في فعلها.

﴿١٧﴾، ﴿١٨﴾ ﴿ فَلْيَدْعُ ﴾: هذا الذي حق عليه العذاب ﴿ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ ﴾؛ أي: أهل مجلسه وأصحابه ومن حوله ليعينوه على ما نزل به، ﴿ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ ﴾؛ أي: خزنة جهنم لأخذه وعقوبته. فلينظر أي الفريقين أقوى وأقدر. فهذه حالة الناهي وما توعد به من العقوبة.

﴿١٩﴾ وأما حالة المنهي؛ فأمره الله ألَّا يصغي إلى هذا الناهي، ولا ينقاد لنهيه، فقال: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ ﴾؛ أي: فإنه لا يأمر إلا بما فيه الخسار، ﴿ وَاسْجُدْ ﴾: لربك، ﴿ وَاقْتَرِب ﴿١٩﴾ ﴾: منه في السجود وغيره من أنواع الطاعات والقربات؛ فإنها كلها تدني من رضاه وتقرب منه. وهذا عام لكل ناه عن الخير ولكل منهي عنه، وإن كانت نازلة في شأن أبي جهل حين نهى رسول الله ﷺ عن الصلاة وعبث به وآذاه.

تم تفسير سورة العلق. والحمد لله رب العالمين.

(١) ط: «فامتنع».
(٢) ط: «ذكر».

الجزء الثلاثون سورة القدر سورة البينة

سورة القدر ٩٧ آياتها ٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾
لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ
فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾

سورة البينة ٩٨ آياتها ٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ
حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾
فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن
بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ
لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ
الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ
فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾

٥٩٨

تفسير سورة القدر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿١﴾ يقول تعالى مبينًا لفضل القرآن وعلو قدره: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ ﴾(١): وذلك أن الله تعالى ابتدأ بإنزال القرآن في رمضان في ليلة القدر، ورحم الله بها العباد رحمة عامة لا يقدر العباد لها شكرًا، وسميت ليلة القدر لعظم قدرها وفضلها عند الله، ولأنه يقدر فيها ما يكون في العام من الآجال والأرزاق والمقادير القدرية.

(١) زاد بعده ط: «كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾».

﴿٢﴾ ثم فخم شأنها وعظم مقدارها، فقال: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ ﴾؛ أي: فإن شأنها جليل، وخطرها عظيم.

﴿٣﴾ ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ ﴾؛ أي: تعادل من فضلها ألف شهر، فالعمل الذي يقع فيها خير من العمل في ألف شهر خالية منها، وهذا مما تتحير فيه الألباب، وتندهش له العقول؛ حيث مَنَّ تبارك وتعالى على هذه الأمة الضعيفة، القوة والقوى بليلة يكون العمل فيها يقابل ويزيد على ألف شهر، عمر رجل معمر عمرًا طويلًا نيفًا وثمانين سنة.

﴿٤﴾ ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا ﴾؛ أي: يكثر نزولهم فيها، ﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿٥﴾ ﴿ سَلَامٌ هِيَ ﴾؛ أي: سالمة من كل آفة وشر، وذلك لكثرة خيرها، ﴿ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾ ﴾؛ أي: مبتداها من غروب الشمس ومنتهاها طلوع الفجر. وقد تواترت الأحاديث في فضلها، وأنها في رمضان، وفي العشر الأواخر منه، خصوصًا في أوتاره، وهي باقية في كل سنة إلى قيام الساعة، ولهذا كان النبي ﷺ يعتكف ويكثر من التعبد في العشر الأواخر من رمضان رجاء ليلة القدر. والله أعلم.



تفسير سورة البينة

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾ ﴾.

(١) يقول تعالى: ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾؛ أي: مـن اليهود والنصارى، ﴿ وَٱلْمُشْرِكِينَ ﴾: من سـائر أصنـاف الأمم، ﴿ مُنفَكِّينَ ﴾: عن كفرهم وضلالهم الذي هم عليـه؛ أي: لا يزالون فـي غيهم وضلالهـم، لا يزيدهم مرور الأوقـات[1] إلا كفـرًا، ﴿ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ (١) ﴾: الواضحـة والبرهان الساطع.

(٢)، (٣) ثم فسـر تلـك البينة، فقـال: ﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: أرسله الله يدعو الناس إلى الحق، وأنزل عليه كتابًا يتلوه ليعلِّـم الناس الحكمة ويزكيهـم ويخرجهم من الظلمات إلى النـور، ولهذا قال: ﴿ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً (٢) ﴾؛ أي: محفوظة مـن قربان الشـياطين، لا يمسـها إلا المطهـرون؛ لأنها أعلى ما يكون من الكلام، ولهذا قال عنها: ﴿ فِيهَا ﴾؛ أي: في تلك الصحـف ﴿ كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) ﴾؛ أي: أخبـار صادقـة وأوامـر عادلـة تهـدي إلى الحـق وإلى طريق مستقيم؛ فـإذا جاءتهم هـذه البينة؛ فحينئذ يتبين طالب الحق ممن ليس له مقصد في طلبه، فيهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة.

(٤) وإذا لـم يؤمـن أهـل الكتاب بهـذا الرسـول وينقادوا لـه؛ فليس ذلـك ببـدع مـن ضلالهـم وعنادهـم؛ فإنهـم ما تفرقـوا واختلفـوا وصـاروا أحزابًـا ﴿ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ (٤) ﴾: التـي توجـب لأهلهـا الاجتمـاع والاتفـاق، ولكنهم لرداءتهـم ونذالتهم لم يزدهم الهدى إلا ضلالًا ولا البصيرة إلا عمى.

(٥) مـع أن الكتب كلها جـاءت بأصل واحد ودين واحد؛ ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ ﴾ في سائر الشرائع، إلا أن يعبدوا ﴿ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾؛ أي: قاصديـن بجميع عباداتهـم الظاهرة والباطنة وجـه الله وطلـب الزلفـى لديـه، ﴿ حُنَفَآءَ ﴾؛ أي: معرضين مائليـن عـن سـائر الأديان المخالفـة لديـن التوحيد، وخص الصـلاة والزكاة بالذكر مـع أنهما داخلان في قوله: ﴿ لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾؛ لفضلهما وشـرفهما وكونهما العبادتين اللتين من قام بهما قام بجميع شـرائع الدين. ﴿ وَذَٰلِكَ ﴾؛ أي: التوحيد والإخلاص في الدين هو ﴿ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ (٥) ﴾؛ أي: الديـن المسـتقيم الموصل إلى جنات النعيم، وما سـواه فطرق موصلة إلى الجحيم.

(٦) ثم ذكر جزاء الكافرين بعدما جاءتهم البينة، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾: قد أحاط بهم عذابها، واشتد عليهم عقابها، ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ﴾: لا يُفتَّر عنهم العـذاب، وهم فيهـا مبلسـون. ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ (٦) ﴾: لأنهم عرفوا الحق، وتركوه، وخسروا الدنيا والآخرة.

(٧) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ (٧) ﴾: لأنهم عبدوا الله وعرفـوه، وفازوا بنعيم الدنيا والآخرة.

(٨) ﴿ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾؛ أي: جنـات إقامـة لا ظعـن فيهـا ولا رحيل ولا طلـب لغاية فوقها، ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾: فرضـي عنهـم بمـا قاموا به من مراضيه، ورضوا عنـه بما أعد لهم من أنـواع الكرامـات. ﴿ ذَٰلِكَ ﴾: الجزاء الحسـن ﴿ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ (٨) ﴾؛ أي: لمـن خـاف الله فأحجم عـن معاصيه، وقام بما أوجب عليه.

تم تفسير سورة البينة بفضل الله.

جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ
فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ — آياتها ٨ — ترتيبها ٩٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا
﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾
بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا
لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا
يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾

سُورَةُ العَادِيَاتِ — آياتها ١١ — ترتيبها ١٠٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا
﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ
لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ
ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾

---

(١) ط: «السنين».

تفسير سورة الزلزلة

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾.

(١)، (٢) يخبر تعالى عما يكون يوم القيامة، وأن الأرض تتزلزل وترجف وترتج حتى يسقط ما عليها من بناء ومعلم، فتندك جبالها، وتسوى تلالها، وتكون قاعًا صفصفًا لا عوج فيه ولا أمتًا، ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢)﴾؛ أي: ما في بطنها من الأموات والكنوز.

(٣) ﴿وَقَالَ الْإِنسَانُ﴾: إذا رأى ما عراها من الأمر العظيم[1]: ﴿مَا لَهَا﴾؛ أي: أي شيء عرض لها؟!

(٤)، (٥) ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ﴾: الأرض ﴿أَخْبَارَهَا (٤)﴾؛ أي: تشهد على العاملين بما عملوا على ظهرها من خير وشر؛ فإن الأرض من جملة الشهود الذين يشهدون على العباد بأعمالهم. ذلك ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥)﴾؛ أي: أمرها أن تخبر بما عمل عليها؛ فلا تعصي لأمره.

(٦) ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ﴾: من موقف القيامة[2] ﴿أَشْتَاتًا﴾؛ أي: فرقًا متفاوتين، ﴿لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦)﴾؛ أي: ليريهم الله ما عملوا من السيئات والحسنات، ويريهم جزاءه موفرًا.

(٧)، (٨) ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾: وهذا شامل عام للخير والشر كله؛ لأنه إذا رأى مثقال الذرة التي هي أحقر الأشياء، وجوزي عليها؛ فما فوق ذلك من باب أولى وأحرى؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وهذا فيه الترغيب في فعل الخير، ولو قليلًا، والترهيب من فعل الشر، ولو حقيرًا.



تفسير سورة العاديات

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (٥) إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ (١١)﴾.

(١) أقسم تعالى بالخيل؛ لما فيها من آياته الباهرة ونعمه الظاهرة ما هو معلوم للخلق، وأقسم تعالى بها في الحال التي لا يشاركها فيه غيرها من أنواع الحيوانات، فقال: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١)﴾؛ أي: العاديات عدوًا بليغًا قويًا يصدر عنه الضبح، وهو صوت نفسها في صدرها عند اشتداد عدوها.

(٢) ﴿فَالْمُورِيَاتِ﴾: بحوافرهن ما يطأن عليه من الأحجار، ﴿قَدْحًا (٢)﴾؛ أي: تنقدح النار من صلابة حوافرهن وقوتهن إذا عدون.

(٣) ﴿فَالْمُغِيرَاتِ﴾: على الأعداء، ﴿صُبْحًا (٣)﴾: وهذا أمر أغلبي أن الغارة تكون صباحًا.

(٤)، (٥) ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ﴾؛ أي: بعدوهن وغارتهن، ﴿نَقْعًا (٤)﴾؛ أي: غبارًا، ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ﴾؛ أي: براكبهن ﴿جَمْعًا (٥)﴾؛ أي: توسطن به جموع الأعداء الذين أغار عليهم.

(٦) والمقسم عليه قوله: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦)﴾؛ أي: منوع للخير الذي لله عليه؛ فطبيعة الإنسان وجبلته أن نفسه لا تسمح بما عليه من الحقوق فتؤديها كاملة موفرة، بل طبيعتها الكسل والمنع لما عليها من الحقوق المالية والبدنية؛ إلا من هداه الله وخرج عن هذا الوصف إلى وصف السماح بأداء الحقوق.

---

(١) زاد في ط: «مستعظمًا لذلك».
(٢) زاد في ط: «حين يقضي الله بينهم».

(٧) ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) ﴾؛ أي: إن الإنسان على ما يعرف من نفسه من المنع والكند لشاهد بذلك لا يجحده ولا ينكره؛ لأن ذلك بيِّن واضح، ويحتمل أن الضمير عائد إلى الله؛ أي: إن العبد لربه لكنود، والله شهيد على ذلك؛ ففيه الوعيد والتهديد الشديد لمن هو لربه كنود بأن الله عليه شهيد.

(٨) ﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾؛ أي: الإنسان ﴿ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ ﴾؛ أي: المال، ﴿ لَشَدِيدٌ (٨) ﴾؛ أي: كثير الحب للمال، وحبه لذلك هو الذي أوجب له ترك الحقوق الواجبة عليه؛ قدم شهوة نفسه على رضا[1] ربه، وكل هذا لأنه قصر نظره على هذه الدار، وغفل عن الآخرة.

(٩)، (١٠) ولهذا قال حاثًّا له على خوف يوم الوعيد: ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ ﴾؛ أي: هلا يعلم هذا المغتر، ﴿ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ (٩) ﴾؛ أي: أخرج الله الأموات من قبورهم لحشرهم ونشورهم، ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ (١٠) ﴾؛ أي: ظهر وبان ما فيها وما استتر في الصدور من كمائن الخير والشر، فصار السر علانية والباطن ظاهرًا، وبان على وجوه الخلق نتيجة أعمالهم.

(١١) ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ (١١) ﴾؛ أي: مطلع على أعمالهم الظاهرة والباطنة، الخفية والجلية، ومجازيهم عليها، وخص خبرهم[2] بذلك اليوم مع أنه خبير بهم في كل وقت؛ لأن المراد بهذا الجزاء على الأعمال الناشئ عن علم الله واطلاعه.



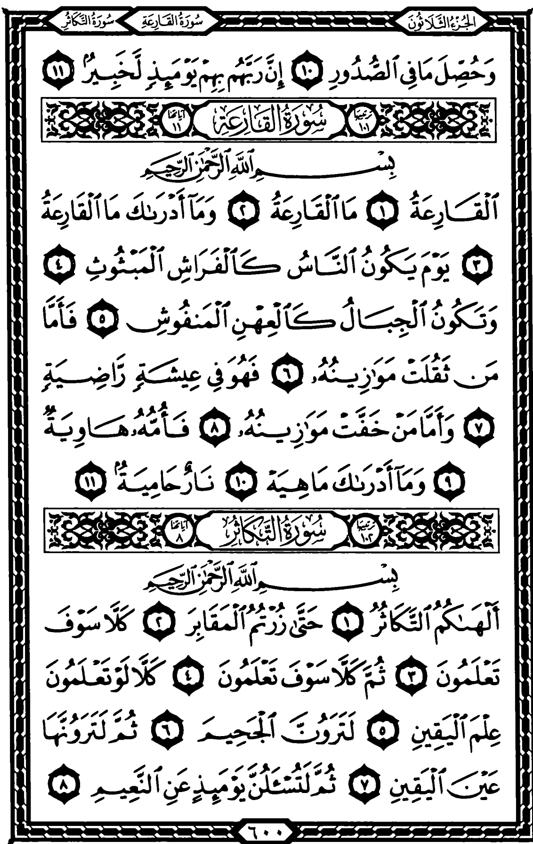
تفسير سورة القارعة

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْقَارِعَةُ (١) مَا ٱلْقَارِعَةُ (٢) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ (٥) فَأَمَّا مَن

(١) ط: «حق».
(٢) ط: «خبره».


الجزء الثلاثون — سورة القارعة — سورة التكاثر

وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ١١

سورة القارعة — آياتها ١١

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْقَارِعَةُ ١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ١١

سورة التكاثر — آياتها ٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ٨

٦٠٠

ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ (٦) فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ (٨) فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌۢ (١١) ﴾.

(١) - (٣) ﴿ ٱلْقَارِعَةُ (١) ﴾: من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لأنها تقرع الناس وتزعجهم بأهوالها، ولهذا عظم أمرها وفخمه بقوله: ﴿ ٱلْقَارِعَةُ (١) مَا ٱلْقَارِعَةُ (٢) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ (٣) ﴾.

(٤) ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ ﴾: من شدة الفزع والهول، ﴿ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ (٤) ﴾؛ أي: كالجراد المنتشر الذي يموج بعضه في بعض، والفراش هي الحيوانات التي تكون في الليل يموج بعضها ببعض، لا تدري أين توجه؛ فإذا أوقد لها نار؛ تهافتت إليها لضعف إدراكها، فهذه حال الناس أهل العقول.

(٥) وأما الجبال الصم الصلاب؛ فتكون ﴿ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ (٥) ﴾؛ أي: كالصوف المنفوش الذي بقي

ضعيفًا جدًّا تطير بـه أدنى ريح؛ قـال تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ [النمل: ٨٨]، ثـم بعد ذلك تكون هباء منثورًا، فتضمحل ولا يبقى منها شـيء يشـاهد. فحينئذ تنصب الموازين، وينقسـم الناس قسـمين: سـعداء وأشقياء.

﴿٦﴾، ﴿٧﴾ ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ ﴾؛ أي: رجحت حسناته على سيئاته، ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴿٧﴾ ﴾: في جنات النعيم.

﴿٨﴾ - ﴿١١﴾ ﴿ وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ ﴾: بـأن لم تكن له حسـنات تقاوم سيئاته، ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ﴿٩﴾ ﴾؛ أي: مأواه ومسـكنه النار التي من أسمائها الهاوية، تكون له بمنزلة الأم الملازمـة؛ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الفرقـان: ٦٥]. وقيل: إن معنى ذلك: فأم دماغه هاوية في النار؛ أي: يلقى في النار على رأسه، ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ﴿١٠﴾ ﴾: وهذا تعظيم لأمرها. ثم فسرها بقوله: ﴿ نَارٌ حَامِيَةُۢ ﴿١١﴾ ﴾؛ أي: شديدة الحرارة، قد زادت حرارتها على حرارة نار الدنيا بسبعين ضعفًا. نستجير بالله منها.

تفسير سورة التكاثر

وهي مكية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿١﴾ يقول تعالى موبخًا عباده عن اشتغالهم عما خلقوا له من عبادته وحده لا شريك له ومعرفته والإنابة إليه وتقديم محبته على كل شيء: ﴿ أَلۡهَىٰكُمُ ﴾: عن ذلك المذكور، ﴿ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ ﴾: ولم يذكر المتكاثَر به؛ ليشمل ذلك كل ما يتكاثر به المتكاثرون ويفتخر به المفتخرون؛ من الأموال والأولاد والأنصار والجنود والخـدم والجاه وغير ذلـك مما يقصد منـه مكاثرة كل واحد للآخر، وليس المقصود منه وجه الله.

﴿٢﴾ فاسـتمرت غفلتكم ولهوتكم وتشـاغلكم ﴿ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ﴿٢﴾ ﴾: فانكشـف حينئذ لكم الغطاء، ولكن بعدمـا تعذر عليكـم اسـتئنافه. ودل قولـه: ﴿ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ﴿٢﴾ ﴾: أن البرزخ دارٌ، المقصـود منها النفوذ إلى الدار الآخرة؛ لأن الله سماهم زائرين، ولم يسمهم مقيمين، فدل ذلك على البعث والجزاء علـى الأعمال في دار باقية غير فانية.

﴿٣﴾ - ﴿٦﴾ ولهـذا توعدهـم: ﴿ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥﴾ ﴾؛ أي: لـو تعلمون ما أمامكـم علمًا يصل إلـى القلوب؛ لما ألهاكـم التكاثـر، ولبادرتم إلى الأعمـال الصالحة، ولكن عدم العلـم الحقيقـي صيركم إلى ما تـرون، ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ﴿٦﴾ ﴾؛ أي: لتردن القيامـة، فلترون الجحيم التي أعدها الله للكافرين.

﴿٧﴾ ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ﴿٧﴾ ﴾؛ أي: رؤية بصرية؛ كما قال تعالى: ﴿ وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الكهف: ٥٣].

﴿٨﴾ ﴿ ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾: الذي تنعمتم به في دار الدنيا؛ هل قمتم بشـكره، وأديتم حق الله فيه، ولم تستعينوا به على معاصيه؛ فينعمكم نعيمًا أعلى منه وأفضل؟ أم اغتررتم به، ولم تقوموا بشـكره، بل ربما استعنتم به على المعاصي؛ فيعاقبكم على ذلك؟ قال تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ ﴾ [الأحقاف: ٢٠] الآية.

تفسير سورة والعصر

وهي مكية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿١﴾ - ﴿٣﴾ أقسم تعالى بالعصر، الذي هو الليل والنهار، محل أفعال العباد وأعمالهم؛ أن كل إنسان خاسر، والخاسر ضـد الرابح، والخسـار مراتب متعددة متفاوتـة: قد يكون

خسارًا مطلقًا؛ كحال من خسر الدنيا والآخرة، وفاته النعيم، واستحق الجحيم.

وقد يكون خاسرًا من بعض الوجوه دون بعض، ولهذا عمم الله الخسار لكل إنسان؛ إلا من اتصف بأربع صفات:

الإيمان بما أمر الله بالإيمان به، ولا يكون الإيمان بدون العلم؛ فهو فرع عنه لا يتم إلا به.

والعمل الصالح، وهذا شامل لأفعال الخير كلها، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحقوق الله وحقوق عباده، الواجبة والمستحبة.

والتواصي بالحق الذي هو الإيمان والعمل الصالح؛ أي: يوصي بعضهم بعضًا بذلك، ويحثه عليه، ويرغبه فيه.

والتواصي بالصبر على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله المؤلمة. فبالأمرين الأولين يكمل العبد[1] نفسه، وبالأمرين الأخيرين يكمل غيره، وبتكميل الأمور الأربعة يكون العبد قد سلم من الخسار وفاز بالربح العظيم.

تفسير سورة الهمزة
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾.

(١) ﴿وَيْلٌ﴾؛ أي: وعيد ووبال وشدة عذاب، ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾؛ أي: الذي يهمز الناس بفعله ويلمزهم بقوله؛ فالهماز: الذي يعيب الناس ويطعن عليهم بالإشارة والفعل، واللماز: الذي يعيبهم بقوله.

[1] ط: «الإنسان».

سُورَةُ العَصْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣

سُورَةُ الهُمَزَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩

سُورَةُ الفِيلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥

٦٠١

(٢) ومن صفة هذا الهماز اللماز أنه لا هم له سوى جمع المال وتعديده والغبطة به، وليس له رغبة في إنفاقه في طرق الخيرات وصلة الأرحام ونحو ذلك.

(٣) ﴿يَحْسَبُ﴾: بجهله ﴿أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾: في الدنيا، فلذلك كان كده وسعيه كله في تنمية ماله، الذي يظن أنه ينمي عمره، ولم يدر أن البخل يقصف الأعمار ويخرب الديار، وأن البر يزيد في العمر.

(٤) - (٧) ﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ﴾؛ أي: ليطرحن ﴿فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥﴾: تعظيم لها وتهويل لشأنها. ثم فسرها بقوله: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦﴾: التي وقودها الناس والحجارة، ﴿ٱلَّتِى﴾: من شدتها ﴿تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾؛ أي: تنفذ من الأجسام إلى القلوب.

(٨)، (٩) ومع هذه الحرارة البليغة، هم محبوسون فيها، قد أيسوا من الخروج منها، ولهذا قال: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم

الجزء الثلاثون — سورة قريش — سورة الماعون — سورة الكوثر

سُورَةُ قُرَيْشٍ — ١٠٦ — آياتها ٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ
۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم
مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤

سُورَةُ المَاعُونِ — ١٠٧ — آياتها ٧

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى
يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣
فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ
۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧

سُورَةُ الكَوْثَرِ — ١٠٨ — آياتها ٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢
إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣

٦٠٢

مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ ﴾؛ أي: مغلقة، ﴿ فِى عَمَدٍ ﴾: من خلف الأبواب، ﴿ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩ ﴾: لئلا يخرجوا منها؛ ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا ﴾ [السجدة: ٢٠]، نعوذ بالله من ذلك، ونسأله العفو والعافية.



تفسير سورة الفيل

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥﴾.

۝١ - ۝٥ أي: أما رأيت من قدرة الله وعظيم شأنه ورحمته بعباده وأدلة توحيده وصدق رسوله ﷺ ما فعله الله بأصحاب الفيل، الذين كادوا بيته الحرام، وأرادوا إخرابه؛ فتجهزوا لأجل ذلك، واستصحبوا معهم الفيلة لهدمه، وجاءوا بجمع لا قبل للعرب به من الحبشة واليمن، فلما انتهوا إلى قرب مكة - ولم يكن بالعرب مدافعة، وخرج أهل مكة من مكة خوفًا[1] منهم - أرسل الله عليهم طيرًا أبابيل؛ أي: متفرقة، تحمل أحجارًا مُحمَّاة من سجيل، فرمتهم بها، وتتبعت قاصيهم ودانيهم، فخمدوا وهمدوا، وصاروا كعصف مأكول، وكفى الله شرهم، ورد كيدهم في نحورهم، وقصتهم معروفة مشهورة، وكانت تلك السنة التي ولد فيها رسول الله ﷺ، فصارت من جملة إرهاصات دعوته وأدلة[2] رسالته. فلله الحمد والشكر.



تفسير سورة قريش

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾.

۝١ - ۝٤ قال كثير من المفسرين: إن الجار والمجرور متعلق بالسورة التي قبلها؛ أي: فعلنا ما فعلنا بأصحاب الفيل؛ لأجل قريش وأمنهم واستقامة مصالحهم وانتظام رحلتهم في الشتاء لليمن وفي الصيف للشام لأجل التجارة والمكاسب. فأهلك الله من أرادهم بسوء، وعظم أمر الحرم وأهله في قلوب العرب، حتى احترموهم، ولم يعترضوا لهم في أي سفر أرادوا، ولهذا أمرهم الله بالشكر، فقال: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ﴾؛ أي: ليوحدوه ويخلصوا له العبادة، ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤ ﴾: فرغد الرزق والأمن من الخوف من أكبر النعم الدنيوية الموجبة لشكر الله تعالى. فلك اللهم الحمد والشكر على نعمك الظاهرة والباطنة. وخص الله بالربوبية البيت لفضله وشرفه، وإلا؛ فهو رب كل شيء.



(١) زاد في ط: «على أنفسهم».
(٢) ط: «ومقدمات».

تفسير سورة الماعون

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾.

(١) يقول تعالى ذامًّا لمن ترك حقوقه وحقوق عباده: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾؛ أي: بالبعث والجزاء؛ فلا يؤمن بما جاءت به الرسل.

(٢) ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢﴾؛ أي: يدفعه بعنف وشدة، ولا يرحمه؛ لقساوة قلبه، ولأنه لا يرجو ثوابًا ولا يخاف عقابًا.

(٣) ﴿وَلَا يَحُضُّ﴾: غيره ﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾: ومن باب أولى أنه بنفسه لا يطعم المسكين.

(٤)، (٥) ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤﴾؛ أي: الملتزمين لإقامة الصلاة، ولكنهم ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾؛ أي: مضيعون لها، تاركون لوقتها، مُخلُّون بأركانها، وهذا لعدم اهتمامهم بأمر الله؛ حيث ضيعوا الصلاة التي هي أهم الطاعات، والسهو عن الصلاة هو الذي يستحق صاحبه الذم واللوم، وأما السهو في الصلاة؛ فهذا يقع من كل أحد، حتى من النبي ﷺ.

(٦)، (٧) ولهذا وصف الله هؤلاء بالرياء والقسوة وعدم الرحمة، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦﴾؛ أي: يعملون الأعمال لأجل رئاء الناس، ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾؛ أي: يمنعون إعطاء الشيء الذي لا يضر إعطاؤه على وجه العارية أو الهبة؛ كالإناء والدلو والفأس ونحو ذلك مما جرت العادة ببذله والسماح به، فهؤلاء لشدة حرصهم يمنعون الماعون؛ فكيف بما هو أكثر منه؟!

وفي هذه السورة الحث على إطعام اليتيم والمساكين، والتحضيض على ذلك، ومراعاة الصلاة، والمحافظة عليها، وعلى الإخلاص فيها، وفي سائر الأعمال، والحث على فعل المعروف، وبذل الأمور الخفيفة كعارية الإناء والدلو والكتاب ونحو ذلك؛ لأن الله ذم من لم يفعل ذلك. والله سبحانه أعلم.



تفسير سورة الكوثر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

(١) يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾؛ أي: الخير الكثير والفضل الغزير، الذي من جملته ما يعطيه الله لنبيه ﷺ من النهر الذي يقال له: الكوثر، ومن الحوض؛ طوله شهر وعرضه شهر، ماؤه أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، آنيته عدد نجوم السماء في كثرتها واستنارتها، من شرب منه شربة؛ لم يظمأ بعدها أبدًا.

(٢) ولما ذكر منته عليه؛ أمره بشكرها، فقال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾: خص هاتين العبادتين بالذكر؛ لأنهما أفضل العبادات وأجل القربات، ولأن الصلاة تتضمن الخضوع في القلب والجوارح لله، وتنقله في أنواع العبودية، وفي النحر تقرب إلى الله بأفضل ما عند العبد من الأضاحي[1]، وإخراج للمال الذي جبلت النفوس على محبته والشح به.

(٣) ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾؛ أي: مبغضك وذامك ومتنقصك، ﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾؛ أي: المقطوع من كل خير؛ مقطوع العمل، مقطوع الذكر، وأما محمد ﷺ؛ فهو الكامل حقًّا، الذي له الكمال الممكن للمخلوق من رفع الذكر وكثرة الأنصار والأتباع ﷺ.



(١) ط: «النحائر».

سُورَةُ الكَافِرُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ① لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ②
وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ③ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④
وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ⑤ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ⑥

سُورَةُ النَّصْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ① وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ
يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ② فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ③

سُورَةُ المَسَدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا
كَسَبَ ② سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ③ وَٱمْرَأَتُهُۥ
حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ④ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ⑤

تفسير سورة الكافرون

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ① لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ③ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ⑤ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ⑥﴾.

(١) - (٦) أي: قل للكافرين معلنًا ومصرحًا: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ②﴾؛ أي: تبرأ مما كانوا يعبدون من دون الله ظاهرًا وباطنًا. ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ③﴾: لعدم إخلاصكم في عبادتكم لله؛ فعبادتكم له المقترنة بالشرك لا تسمى عبادة. وكرر ذلك ليدل الأول على عدم وجود الفعل، والثاني على أن ذلك قد صار وصفًا لازمًا، ولهذا ميز بين الفريقين، وفصل بين الطائفتين، فقال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ⑥﴾؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤]؛ ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ㊶﴾ [يونس: ٤١].

تفسير سورة النصر

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ① وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ② فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ③﴾.

(١) - (٣) في هذه السورة الكريمة: بشارة، وأمر لرسوله عند حصولها، وإشارة، وتنبيه على ما يترتب على ذلك:

فالبشارة هي البشارة بنصر الله لرسوله، وفتحه مكة، ودخول الناس ﴿فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ②﴾ بحيث يكون كثير منهم من أهله وأنصاره بعد أن كانوا من أعدائه، وقد وقع هذا المبشر به.

وأما الأمر بعد حصول النصر والفتح؛ فأمر رسوله أن يشكره على ذلك، ويسبح بحمده، ويستغفره.

وأما الإشارة؛ فإن في ذلك إشارتين: إشارة أن النصر يستمر للدين ويزداد عند حصول التسبيح بحمد الله واستغفاره من رسوله؛ فإن هذا من الشكر، والله يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]: وقد وجد ذلك في زمن الخلفاء الراشدين وبعدهم في هذه الأمة، لم يزل نصر الله مستمرًّا حتى وصل الإسلام إلى ما لم يصل إليه دين من الأديان، ودخل فيه من لم يدخل في غيره، حتى حدث من الأمة من مخالفة أمر الله ما حدث، فابتلوا بتفرق الكلمة وتشتت الأمر، فحصل ما حصل، ومع هذا؛ فلهذه الأمة وهذا الدين من رحمة الله ولطفه ما لا يخطر بالبال أو يدور في الخيال.

وأما الإشارة الثانية؛ فهي الإشارة إلى أن أجل رسول الله ﷺ قد قرب ودنا، ووجه ذلك أن عمره عمر فاضل، أقسم الله به، وقد عهد أن الأمور الفاضلة تختم بالاستغفار؛ كالصلاة والحج وغير ذلك، فأمر الله لرسوله بالحمد والاستغفار في هذه الحال إشارة إلى أن أجله قد انتهى؛ فليستعد ويتهيأ للقاء ربه ويختم عمره بأفضل ما يجده صلوات الله وسلامه عليه، فكان يتأول القرآن ويقول ذلك في صلاته؛ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي**».

تفسير سورة تبت

وهي مكية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ٥﴾.

أبو لهب هو عم النبي ﷺ، وكان شديد العداوة والأذية؛ فلا فيه دين له، ولا حمية للقرابة، قبحه الله، فذمه الله بهذا الذم العظيم، الذي هو خزي عليه إلى يوم القيامة، فقال:

(١) ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾؛ أي: خسرت يداه وشقي، ﴿وَتَبَّ ١﴾: فلم يربح.

(٢) ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ﴾: الذي كان عنده؛ فأطغاه، ﴿وَمَا كَسَبَ ٢﴾ ولا ما كسبه فلم يرد عنه شيئًا من عذاب الله إذ نزل به.

(٣) - (٥) ﴿سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ٣﴾؛ أي: ستحيط به النار من كل جانب، هو ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ٤﴾: وكانت أيضًا شديدة الأذية لرسول الله ﷺ؛ تتعاون هي وزوجها على الإثم والعدوان، وتلقي الشر، وتسعى غاية ما تقدر عليه في أذية الرسول ﷺ، وتجمع على ظهرها الأوزار؛ بمنزلة من يجمع حطبًا، قد أعد له في عنقه حبلًا ﴿مِّن مَّسَدِۭ ٥﴾؛ أي: من ليف، أو أنها تحمل في النار الحطب على زوجها متقلدة في عنقها حبلًا من مسد.

وعلى كل؛ ففي هذه السورة آية باهرة من آيات الله؛ فإن الله أنزل هذه السورة وأبو لهب وامرأته لم يهلكا، وأخبر أنهما سيعذبان في النار ولا بد، ومن لازم ذلك أنهما لا يسلمان، فوقع كما أخبر عالم الغيب والشهادة.

تفسير سورة الإخلاص

وهي مكية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤﴾.

الجُزْءُ الثَّلَاثُونَ — سُورَةُ الإِخْلَاصِ — سُورَةُ الفَلَقِ — سُورَةُ النَّاسِ

سُورَةُ الإِخْلَاصِ — ١١٢ — آيَاتُهَا ٤

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤

سُورَةُ الفَلَقِ — ١١٣ — آيَاتُهَا ٥

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ٥

سُورَةُ النَّاسِ — ١١٤ — آيَاتُهَا ٦

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ٦

٦٠٤

(١) أي: ﴿قُلۡ﴾: قولًا جازمًا به، معتقدًا له، عارفًا بمعناه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾؛ أي: قد انحصرت فيه الأحدية؛ فهو الأحد المنفرد بالكمال، الذي له الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العليا والأفعال المقدسة، الذي لا نظير له ولا مثيل.

(٢) ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢﴾؛ أي: المقصود في جميع الحوائج؛ فأهل العالم العلوي والسفلي مفتقرون إليه غاية الافتقار، يسألونه حوائجهم، ويرغبون إليه في مهماتهم؛ لأنه الكامل في أوصافه، العليم الذي قد كمل في علمه، الحليم الذي كمل في حلمه، الرحيم الذي كمل في رحمته، الذي وسعت رحمته كل شيء... وهكذا سائر أوصافه.

(٣) ومن كماله أنه ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣﴾؛ لكمال غناه.

(٤) ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤﴾: لا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله؛ تبارك وتعالى.

فهذه السورة مشتملة على توحيد الأسماء والصفات.

تفسير سورة الفلق

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾.

﴿١﴾ أي: ﴿قُلْ﴾: متعوذًا: ﴿أَعُوذُ﴾؛ أي: ألجأ وألوذ وأعتصم، ﴿بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾﴾؛ أي: فالق الحب والنوى، وفالق الإصباح.

﴿٢﴾ ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾﴾: وهذا يشمل جميع ما خلق الله من إنس وجن وحيوانات؛ فيستعاذ بخالقها من الشر الذي فيها.

﴿٣﴾ ثم خص بعدما عم، فقال: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾﴾؛ أي: من شر ما يكون في الليل حين يغشى الناس، وتنتشر فيه كثير من الأرواح الشريرة والحيوانات المؤذية.

﴿٤﴾ ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾﴾؛ أي: ومن شر السواحر اللاتي يستعنَّ على سحرهن بالنفث في العقد التي يعقدنها على السحر.

﴿٥﴾ ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾: والحاسد هو الذي يحب زوال النعمة عن المحسود؛ فيسعى في زوالها بما يقدر عليه من الأسباب، فاحتيج إلى الاستعاذة بالله من شره وإبطال كيده. ويدخل في الحاسد العاين؛ لأنه لا تصدر العين إلا من حاسد شرير الطبع خبيث النفس.

فهذه السورة تضمنت الاستعاذة من جميع أنواع الشرور عمومًا وخصوصًا، ودلت على أن السحر له حقيقة؛ يخشى من ضرره، ويستعاذ بالله منه ومن أهله.

تفسير سورة الناس

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾.

﴿١﴾ - ﴿٦﴾ وهذه السورة مشتملة على الاستعاذة برب الناس ومالكهم وإلههم من الشيطان، الذي هو أصل الشرور كلها ومادتها، الذي من فتنته وشره أنه يوسوس في صدور الناس؛ فيحسِّن لهم الشر، ويريهم إياه في صورة حسنة، وينشط إراداتهم لفعله، ويثبطهم عن الخير، ويريهم إياه في صورة غير صورته، وهو دائمًا بهذه الحال، يوسوس ثم يخنس؛ أي: يتأخر عن الوسوسة إذا ذكر العبد ربه واستعان به على دفعه؛ فينبغي له أن يستعين ويستعيذ ويعتصم بربوبية الله للناس كلهم، وأن الخلق كلهم داخلون تحت الربوبية والملك، فكل دابة هو آخذ بناصيتها، وبألوهيته التي خلقهم لأجلها؛ فلا تتم لهم إلا بدفع شر عدوهم الذي يريد أن يقتطعهم عنها ويحول بينهم وبينها، ويريد أن يجعلهم من حزبه؛ ليكونوا من أصحاب السعير، والوسواس كما يكون من الجن يكون من الإنس، ولهذا قال: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾.

والحمد لله رب العالمين أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، ونسأله تعالى أن يتم نعمته، وأن يعفو عنا ذنوبنا التي حالت بيننا وبين كثير من بركاته، وخطايا وشهوات ذهبت بقلوبنا عن تدبر آياته، ونرجوه ونأمل منه ألَّا يحرمنا خير ما عنده بشر ما عندنا؛ فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، ولا يقنط من رحمته إلا الضالون، وصلى الله وسلم على رسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، صلاة وسلامًا دائمين متواصلين أبد الأوقات، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

تم تفسير كتاب الله بعونه وحسن توفيقه على يد جامعه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله المعروف بابن سعدي.

وقع النقل في ٧ شعبان سنة (١٣٤٥).

ربنا تقبل منا واعف عنا إنك أنت الغفور الرحيم.

فهرس الموضوعات

الموضوع | **رقم الصفحة**

الموضوع	رقم الصفحة
تفسير سورة الإسراء	٦٣٩
تفسير سورة الكهف	٦٦١
تفسير سورة مريم	٦٨٧
تفسير سورة طه	٧٠٤
تفسير سورة الأنبياء	٧٢٥
تفسير سورة الحج	٧٤٦
تفسير سورة المؤمنون	٧٦٦
تفسير سورة النور	٧٨٤
تفسير سورة الفرقان	٨٠٥
تفسير سورة الشعراء	٨٢١
تفسير سورة النمل	٨٣٧
تفسير سورة القصص	٨٥٢
تفسير سورة العنكبوت	٨٧١
تفسير سورة الروم	٨٨٥
تفسير سورة لقمان	٨٩٧
تفسير سورة السجدة	٩٠٦
تفسير سورة الأحزاب	٩١٢
تفسير سورة سبأ	٩٣٣
تفسير سورة فاطر	٩٤٦
تفسير سورة يس	٩٥٧
تفسير سورة الصافات	٩٦٨
تفسير سورة ص	٩٨١
تفسير سورة الزمر	٩٩٣
تفسير سورة غافر	١٠١١
تفسير سورة فصلت	١٠٢٩
تفسير سورة الشورى	١٠٤١
تفسير سورة الزخرف	١٠٥٤
تفسير سورة الدخان	١٠٦٧
تفسير سورة الجاثية	١٠٧٢
تفسير سورة الأحقاف	١٠٧٧
تفسير سورة محمد	١٠٨٥
تفسير سورة الفتح	١٠٩٣
تفسير سورة الحجرات	١١٠٣
تفسير سورة ق	١١٠٨

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع | رقم الصفحة